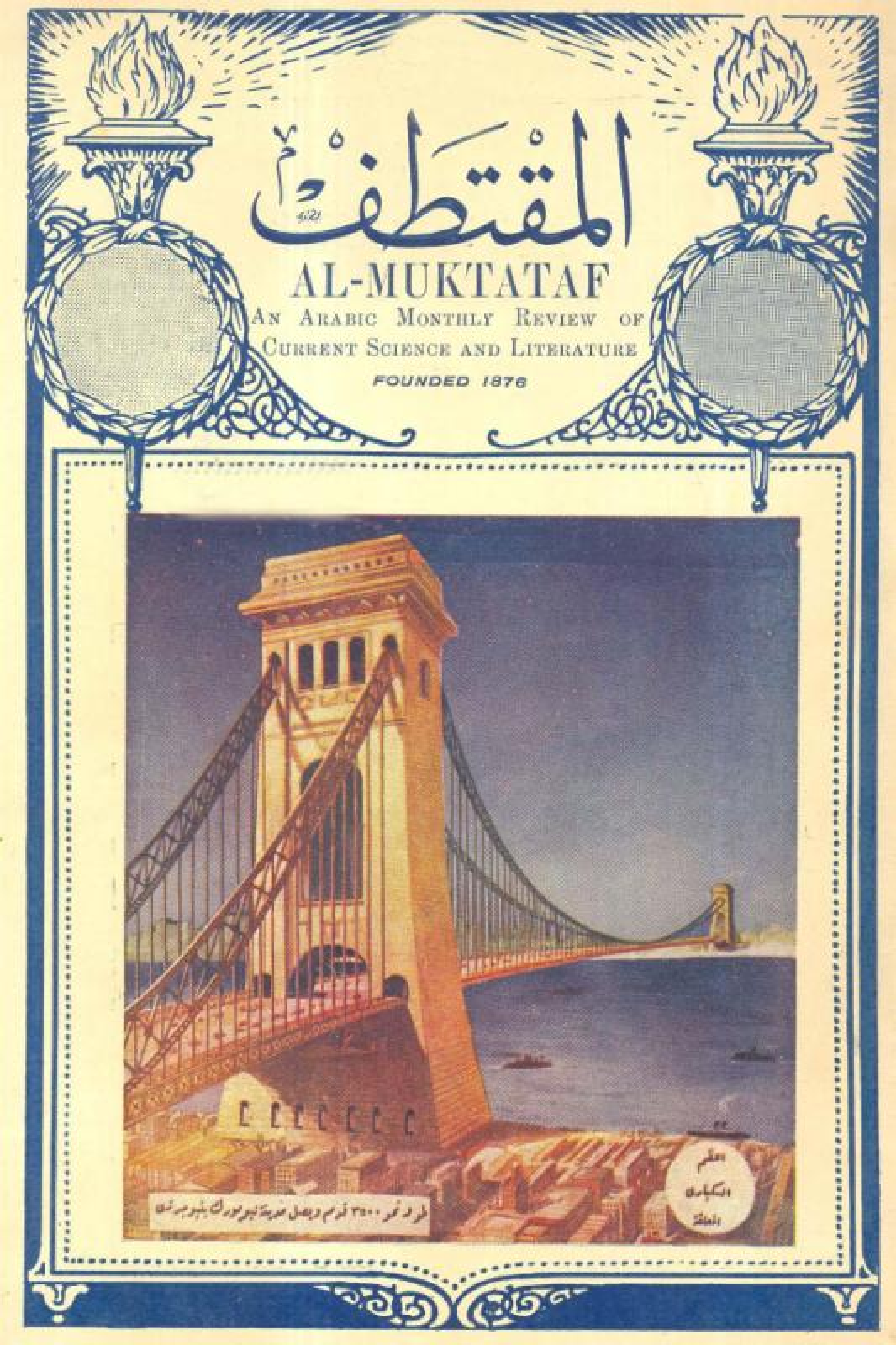

المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد الثاني والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٣ — ٤ رمضان سنة ١٣٥١

رواية الاشعة الكونية

كيف كشف عنها — كيف تقاس قوتها — الاختلاف في اصلها علاقتها ببداية الكون ونهايته

ما هي الاشعة الكونية ؟ من اين تأتي ؟ هل في طيات امواجها اسرار الخلق ؟ هذه هي المسائل التي يحاول علماء الطبيعة الاجابة عنها بالتجربة والامتحان آناً وبالجمع بين التجربة والنظر الفلسفي آناً آخر . ومن رأي الدكتور جنسن الاستاذ بمعهد بارتُل الاميركي للبحث العلمي، انهُ لا يعرف في تاريخ العلم مسألة ، اختلف العلماء في الاجابة عنها اختلافهم في الاشعة الكونية

***

من عهد قريب صعد العلماء الالمان هورلن Hoerlen وكنزل Kinzl وبورشرز Borchers الى قمة جبل «هوالاكان» في سلسلة جبال الاندس وعلوها ٢٠ الف قدم فوق سطح البحر، وقضوا هناك ثمانية ايام كأنهم عقبان على صخرة شاهقة ، يقيسون قوة هذه الاشعة . وفي هذا السبيل نفسهِ قتل العالمان الاميركيان كارب Carpe وكوفن Koven في محاولتهما الصعود الى قمة جبل ماكنلي في الاسكا . أما الاستاذ كمطن الاميركي، رئيس بعثتهما فقد رحل مسافة ٥٠ الف ميل بين خط العرض الجنوبي ٥٦ وخط العرض الشمالي ٦٨ مخترقاً في رحلتهِ خمس قارات ومجتازاً خط الاستواء اربع مرات ، حاملاً معهُ الآلة الخاصة التي بناها لدرس هذه الاشعة . وها هو الاستاذ هس الالماني يصعد الى قمم جبال الألب وزميله الاستاذ كولهرستر يبتني معملهُ في الجد على جبل اليونغفرو بسويسرا، بغية النفوذ الى اسرار هذه الاشعة . وملكن

الاميركي يبعث آناً بلونات مجهزة بآلات مدوّنة الى مرتفعات عظيمة في الهواء ، ويصعّد آونة اخرى في جبال بوليڤيا او كاليفورنيا او يرتاد الاصقاع القطبية لهذا الغرض. ويجاريه الاستاذ رجنر الالماني فيرسل في الجوّ بلونات آلية التدوين او يغرق آلة قياس الاشعة في مياه بحيرة كونستانس لمعرفة أثر الماء في حجبها . بل هذا هو الاستاذ پيكار يرتفع ببلونه مرتين الى علوّ ٥١٫٧٥٨ قدماً فالى ٥٣٫٦٧٢ قدماً فيضرب الرقم القياسي العالمي في التحليق الى اعلى ما بلغهُ الانسان، ولكن هذا الفوز ليس الغرض الذي يرمي اليهِ في هذه المغامرة الجريئة بل غرضهُ قياس قوة الأشعة في الطبقة الطخرورية من الهواء Stratosphere

مضى هؤلاء العلماء وعشرات غيرهم في طريقهم نحو هدفهم ، غير عابئين بالقيظ ولا بالزمهرير ، بالسغب ولا باللغب ، بالحشرات ولا بالوحوش ، لان في نفوسهم روح الروّاد العظام. والعلم اذا دفع ابناءَهُ في سبيل البحث عن اسرار الطبيعة نفث فيهم لهفة الباحث في قصر خرب عن كنزٍ مدفونٍ

***

وتاريخ الأشعة الكونية يرتدُّ الى اوائل هذا القرن. كانت عناصر الاورانيوم والثوريوم والراديوم والبولونيوم وغيرها من العناصر المشعة في ذلك العهد عجائب استرعت عناية الباحثين بما ينطلق منها من اشعة الفا وبيتا وغمَّا ، وبمقدرتها العجيبة على جعل الغازات قادرة على ايصال الكهربائية . وبعد بحث قليل ثبت ان في صخور الارض مقادير كبيرة من العناصر المشعة ، وأن مياه بعض الينابيع مشعٌّ كذلك . ومن الصخور كانت تنطلق اشعة تمزق بعض ذرات الغازات التي يتركب منها الهواء فتجعلهُ موصلاً للكهربائية لان غازات الهواء في حالتها الطبيعية موصل كهربائيّ رديء . واذاً كان من الطبيعي ان يعمد الباحثون الى قياس أثر هذه الاشعة في «تمزيق» ذرّات الهواء . فأخذ ثيودور ولف (Wulff) الاب اليسوعي ادواته ، وصعد الى قمة برج ايفل بباريس ، فظهر لهُ ان هذا الفعل اضعف عند القمة منهُ على سطح الارض . وكان ذلك منتظراً لانهُ كلما بعدنا عن الصخور التي تطلق الاشعة ، يضعف فعلها على ان الاستاذ ولف كان عالماً دقيق الحس قوي الملاحظة ، فاسترعى نظرهُ ، ان ضعف هذا الفعل في الهواء كان اقلّ مما يجب ان يكون. وقرأ العالم الطبيعي السويسري الاستاذ غوكل Gockel ما اسفر عنهُ بحث الأب اليسوعي فخطر لهُ ان يحلّق ببلونٍ لقياس فعل الاشعة المنطلقة من الصخور في الهواء على مرتفعات تفوق قمة برج ايفل . فصعد في سنتي ١٩١٠ و ١٩١١ الى علو ١٣ الف قدم ، ونزل اشدّ حيرة مما صعد . ذلك ان فعل الاشعاع من الصخور ضعف اولاً ، ولكنهُ اخذ يزداد بازدياد ارتفاعهِ

وعمد هس Hess العالم الالماني الى الحساب الدقيق فتبين له ان اشعة غمَّا وهي اقوى الاشعة المنطلقة من العناصر المشعة لا يمكن ان يظهر أثرها فوق بضع مائة متر فوق سطح

البحر لأن الهواء يمتصها . فاما ان تكون النتائج التي اسفرت عنها مباحث غوكل خاطئة ، او ان في الأمر سرًّا ، فاعادة تجربته للتثبت من صحة نتائجها امر ذو بال لا ندحة عنهُ . لذلك عمد هس الى البلونات التي تحمل ادوات آلية التدوين وأطلقها في الجوّ فارتفعت الى ١٦ الف قدم فوق سطح البحر ، فلما هبطت قرأ ما دوَّنتهُ الآلات فاذا هي تؤيّد نتائج غوكل كل التأييد. ولم يكتفِ بذلك بل حلّق بنفسه ، ثم اشترك مع زميلهِ الاستاذ كولهرستر ، فحلّقا الى علو ستة اميال فوق سطح البحر ، فكانت نتائج التجارب المختلفة مؤيدة بعضها بعضاً . واذاً فلا مندوحة عن القول بان هناك اشعة قادمة من خارج الارض تمزّق ذرات الهواء . وهذه الأشعة عظيمة الطاقة قوية النفوذ ، تفوق اشعة اكس نفسها واشعة غمّا المنطلقة من الراديوم

***

وفي سنة ١٩٢٥ طلع الاستاذ ملكن الاميركي على الناس بنظرية جديدة وجّهت انظار الخاصة والعامة الى الاشعة الكونية ، فصار الكلام على كل جديد فيها يجد لهُ متسعاً في الصحف جنباً الى جنب مع انباء السياسة والرياضة والاجرام

ذلك ان الاستاذ ملكن ، كان قبل ذلك استاذاً في جامعة شيكاغو وهناك كان يجتمع بالاستاذ مكملن (W. D.) فكانا يتحدثان في النظرية السائدة حينئذٍ في نهاية الكون ، وملخصها ان الطاقة التي في الكون آخذة في التحول من طاقة قصيرة الامواج قوية الفعل ، الى طاقة طويلة الامواج ضعيفة الفعل . وانهُ متى تم هذا التحول ، اصبحت الامواج الطويلة عاجزة عن ان تكون الباعث على ظاهرات الكون والحياة (راجع مقتطف مايو ١٩٣٢ ص ٥١٩ — ٥٢٣) وكان مكملن مقتنعاً بان الذرات تبنى من الالكترونات والبروتونات في الفضاء الذي بين النجوم (interstellar space) فاذا صح ذلك فالكون ليس مصيرهُ الى الفناء بتحول اشعاعهِ ، لان بناء الذرات يجهزنا ، بحسب الآراء الحديثة ، بقدر عظيم من الطاقة قصيرة الامواج قوية الفعل . ولعل الاشعة التي تحيّر هس وكولهرستر ، تؤيد ما يذهب اليهِ مكملن

وقضى ملكن بعد ذلك سنتين يبحث خلالها في هذه الاشعة ويقيس قوتها ونفوذها للمواد ، فهو آناً يجرّب ذلك بالواح الرصاص ، وآناً بمياه البحيرات ، تارة في الجبال الصخرية في غرب اميركا الشمالية وتارةً اخرى على جبال الاندس ، واخرى على مقربة من القطب المغناطيسي الشمالي . فخرج من ذلك كلهِ بما يؤيد — في نظره — مذهب مكملن ، ولما اجل مباحثهُ امام اكادمية العلوم الاميركية قال : ان هذه الاشعة انباء تدل على تكون المادة في رحاب الفضاء . وفيها رأى ملكن دليلاً على ان « الخالق ما زال ماضياً في عمل الخلق »

***

المشهور ان الغازات في حالتها الطبيعية لا توصل الكهربائية كما توصلها الاسلاك المعدنية اي انهُ لا يسهل على الكهربائية اجتياز مقدار من الغاز كما يسهل عليها اجتياز قطعة من النحاس او الرصاص

ولكن اذا صوّبت بعض الاشعة الى الغاز الذي لا يوصل الكهربائية اصبح موصلاً كهربائيًا ضعيفاً . ومن هذه الاشعة الاشعة التي وراء البنفسجي ، والاشعة السينية (اشعة اكس او اشعة رنتجن) والاشعة السالبة (الالكترونات) والاشعة المنطلقة من العناصر المشعة . ويعلّل ذلك بان هذه الاشعة تفصل من ذرات الغاز بعض كهاربها (الكتروناتها) فيصبح الجزء الباقي من الذرّة وشحنتهُ الكهربائية شحنةً موجبة (كانت الشحنة الكهربائية الموجبة معادلةً للشحنة الكهربائية السالبة في الذرة فلما نقص كهرب من الذرة اصبحت شحنة الجزء الباقي من الذرّة موجبة) وهو يعرف بالأَيُن او الأَيُون Ion (قد يحسن صياغة فعل عربيّ أيَّن للمتعدي وتأيّن للازم في الدلالة على هذا المعنى الخاص) اما الكهارب المنفصلة فتصطدم بذرات كاملة متعادلة الشحنة الكهربائية وتلتصق ببعضها فتصبح الذرة التي التصق بها كهرب شارد ذات شحنة سالبة (لزيادة الكهرب ذي الشحنة السالبة) فهي «أيون» كذلك وهذا يجعل الغاز موصلاً للكهربائية لشدة حركة الدقائق المكهربة التي فيهِ فهي لا تكاد تستقرُّ على حالٍ

ولدى البحث ثبت انهُ اذا ازيل من المنطقة التي تحيط بغاز من الغازات كلُّ مصدرٍ من مصادر الاشعة التي « تؤيّنهُ » ظل الغاز موصلاً ضعيفاً للكهربائية ، فيتولّد فيهِ في السنتمتر المكعّب «ايون» واحد او « ايونان » في الثانية . ولكن اذا نزل الوعاء المحتوي على هذا الغاز الى عمق مائة متر في بحيرة من الماء النقي من الشوائب (وهي التجارب التي قام بها هس في المانيا ومِلِكن واعوانهُ في اميركا) اصبح الغاز لا يوصل الكهربائية على الاطلاق ، اي انقطع تولّد الايونات فيهِ . وعلى الضدّ من ذلك اذا رفع الوعاء المحتوي على الغاز الى علو تسعة آلاف قدم او عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر زادت قوتهُ على ايصال الكهربائية اي زاد تولّد « الايونات » فيهِ

على اساس هذه الحقائق العلمية بُنيت الآلات الدقيقة التي تقاس بها قوة الاشعة الكونية اي انها تحصي عدد الايونات التي تتولد في سنتمتر مكعب من غاز معيّن كلَّ ثانية . ثم يقابل ذلك بعدد الايونات التي تولّدها أشعة معروفةٌ قوتها مثل اشعة اكس واشعة غمّا

***

قلنا ان العلماء حلقوا في الجوّ وتوقلوا قمم الجبال ودلُّوا آلاتهم في قيعان البحيرات العالية لادراك غرضهم . والسبب في ذلك كما قدمنا ان الراديوم وغيره من العناصر المشعة يطلق اشعة تؤيّن الغاز الذي في آلاتهم وهم يريدون ان يعرفوا أثر الاشعة الكونية من دون ان يختلط بهِ أثر اية اشعة اخرى

فاشعة الراديوم يحجبها لوح من الرصاص ثخانتهُ سنتمتران أو نحو ذلك . لذلك نقل مِلِكن معهُ ماوزنهُ ثلاثمائة رطل من الواح الرصاص وتوقّل جبل بِيْك بكاليفورنيا لكي يحجب أثر الراديوم أولاً فاحاط آلتهُ بالواح ثخانتها ثلاثة سنتمترات حاسباً ان الاشعة الكونية وهي

اقوى من اشعة الراديوم لا بدّ ان تخترق هذه الالواح فدلّت التجارب انها تفعل ذلك . ثم أخذ يزيد ثخانة الرصاص الذي حول آلته ليعرف أي طبقة من الرصاص تحجب الاشعة الكونية

وقلنا ان كولهرستر ابتنى معمله في الجد على جبل اليونغفرو بسويسرا وسبب ذلك ان الجد لم يختلط بمادة على سطح الارض فهو خلوٌ من الراديوم . ثم ان ملكن دلّى آلاته في بحيرة ميور ليعرف اية طبقة من الماء تحجب هذه الاشعة الغريبة . فلماذا اختار بحيرة ميور في اميركا الشمالية وبحيرة مغويلا في اميركا الجنوبية والطريق الى كلٍّ منهما وعر صعب المرتقى ؟ ذلك ان هذه البحيرات عالية جداً ، لا تصبُّ فيها مياهُ أنهارٍ جرت مسافات طويلة فوق سطح البحر فذابت فيها موادّ قد تحتوي على مركبات من العناصر المشعة ، وانما مصدر مائها هو الثلج النقي بعد ذوبانه . وأما هس الذي أغرق آلتهُ في بحيرة كونستانس فحسب حساباً في نتائجه لاثر العناصر المشعة . ونتائج هذه المباحث عجيبة . فالآلات التي دُلّيت في بحيرة كونستانس بسويسرا ظلت غازاتها تتأين تأيناً يسيراً لما كانت على ٧٧٥ قدماً تحت سطح الماء . أي أن فعل الاشعة الكونيـة يستطيع ان يخترق ما كثافتهُ ٧٧٥ قدماً من الماء . وهذا يعدلُ ٦٥ر٦ القدم من الرصاص مع ان نور الشمس تحجبهُ ورقة رقيقة واشعة اكس يحجبها لوح رصاص ثخنهُ سنتمتران او ثلاثة سنتمترات . ففي الطبيعة مصدر يطلق اشعة أقوى وافعل من أشعة الراديوم اضعافاً كثيرة . فما هو ؟ هنا مصدر العناية التي توجّهُ الى هذه الاشعة ومعرفة أسرارها وهذا مصدر الخلاف بين اكبر العلماء على طبيعتها واصلها

* * *

لخّص الاستاذ بيكار نتائج الارصاد التي قام بها في أثناء رحلتهِ الاخيرة إلى الطبقة الطخرورية فقال أنهُ حاول درس الاشعة الكونية من ناحيتين : — الاولى تحقيق الاختلاف في قوة الاشعة باختلاف الارتفاع . والثانية تحقيق الاختلاف في قوتها باختلاف الاتجاه . فثبت لهُ في الناحية الاولى أن قوتها تزداد بالارتفاع ثم تقلُّ رويداً رويداً إلى أن تصبح ثابتة فوق ارتفاع معيّن . أما البحث في الناحية الثانية فاسفر عن أن الاشعة الكونية لا تكثر في جهة معيّنة دون أخرى لذلك ذهب إلى أن هذه الاشعة مصدرها الطبقة الطخرورية ذاتها

اما ملكن فيذهب الى ان الاشعة الكونية هي من قبيل اشعة اكس واشعة غما انما هي اقصر امواجاً وأقوى فعلاً . وقد ثبت لهُ ان قوتها في المنطقة المتجمدة الشمالية لا تقل عن قوتها في المناطق الاستوائية ، وهو ما ينتظر اذا كانت هذه الاشعة من قبيل الضوء الذي لا يرى .
ولكن كولهرستر الالماني وغيره يرون ان الاشعة الكونية ليست ضوءًا على الاطلاق بل هي كهارب سريعة الانطلاق . واذا كانت كهارب فيجب ان تنحرف هذه الكهارب بفعل المغنطيس . اما ملكن فيقول انهُ حاول قياسها قرب القطب المغنطيسي الشمالي فلم يجد ما يدل على انها اكثر انحرافاً نحو القطب المغنطيسي — ولو كانت الكترونات لوجب ذلك — وقام كولهرستر نفسهُ

بمباحث من هذا القبيل فلم يسفر بحثهُ عما يثبت جذب المغنطيس لها . ولعلها — اذا كانت الكترونات — اسرع من ان يحرفها مغنطيس ارضي حتى الارض نفسها

***

نظر الاستاذ كمطن — استاذ الطبيعة في جامعة شيكاغو واحد نائلي جائزة نوبل الطبيعية — الى الاقوال المختلفة في طبيعة الاشعة الكونية فعزم ان يقوم ببحث واسع النطاق في انحاء الارض المختلفة بغية الوصول الى القول الفصل فيها . فاتفق مع معهد كارنجي الاميركي وجامعة شيكاغو على الاشتراك في الانفاق على هذه المباحث ونظم بعثة علمية اشترك فيها اثنا عشر عالماً من علماء الطبيعة في كل البلدان وصنعت سبع آلات دقيقة لقياس قوة الاشعة — كل منها كرة من الصلب تحتوي على غاز الارجون مضغوطاً ضغطاً عالياً لكي يزيد متوسط عدد الايونات في السنتمتر المكعب ، اذ لا يخفى انهُ إذا ضغط الغاز اقتربت ذراتهُ بعضها من بعض فيكثر ما تصيبهُ الاشعة منها في أثناء اختراقها للغاز — وعُيّرت الآلات السبع تعييراً واحداً حتى لا تختلف قراءتها تدوّنهُ من المقاييس ، لان كمطن يرى ان جانباً كبيراً من الاختلاف في النتائج سببهُ القياس بآلات مختلفة

اما النتائج التي أسفرت عنها مباحث كمطن فتلقي ظلاً من الريب على آراء الاستاذ ملكن . فقد وجد الاستاذ كمطن ان الاشعة أقوى في المناطق الشمالية منها في المناطق الاستوائية . وهذه هي النتيجة المنتظرة إذا كانت الاشعة الكونية الكترونات يحرفها أو يجذبها قطبا الارض المغناطيسيان . وأثبت رجنر Regener وبيكار ان الاشعة لا تزداد بالارتفاع قوة كما ينتظر إذا كانت آتية من خارج جو الارض . وكان ملكن قد عرف إن الاشعة لا تزداد قوة بالارتفاع ، ولكنه علل ذلك تعليلاً معقولاً . قال اننا لا نستطيع ان نتبين هذه الاشعة الا إذا مزقت ذرات العناصر التي في الهواء . ولما كان الهواء في طبقاته العليا لطيفاً كل اللطف ، فذرات عناصره أقل ولا بد ان يكون فعل الاشعة البادي لنا أقلّ كذلك

والامر المتفق عليه في هذه الفوضى العلمية هو أن الاشعة تأتي من كل الجهات . هنا يدخل دعاة النظرية النسبية معمعة الجدال فيقولون إذا كانت هذه الاشعة لا تنشأ في الطبقة الطخرورية فلا بد أن تكون مالئةً للكون . ففي هذه الايام اصبح الكون في نظر العلماء النسبيين كالكرة . وشعاعة من الضوء تنطلق في احدى نواحيه لا تستطيع أن تخرج منه ، وإذا كانت هذه الاشعة آتية من ناحية في رحابه فهي ماضية في طريقها إلى مصدرها . ولما كانت الاشعة الكونية تأتي من كل الجهات فلا بد أن يكون الكون حافلاً بها . ولكن الكون آخذ في التمدد . كذلك يقول لمتر وابنشتين وثلة علماء الطبيعة . وقد تضاعف نصف قطره منذ بدأ يتمدّد . لذلك يرى ادنغتن « ان اشعة الضوء في هذا الكون الآخذ في التمدّد كالعدَّاء الذي يرى الطريق امامهُ تمتدّ اسرع من عدوهِ فالقصَب يبعد عنهُ بدلاً من ان يقترب منهُ » وهكذا يظلُّ النور ماضياً في سبيله لا يستطيع العودة الى مصدره — لسرعة تمدُّد الكون — وفي انطلاقهِ يضعف وتطول امواجهُ

حتى يصبح امواجاً تحت امواج الاحمر فنعود لا نراها

ولكن الاشعة الكونية اشدُّ نفوذاً من اشعة الضوء . وكلّ ما تلقاه في رحاب الفضاء مما يعيق مضيَّها في سبيلها لا تبلغ ثخانتهُ اكثر من طبقة من الماء سمكها قدم . وهذا جزء يسير جداً مما تستطيع هذه الاشعة ان تخترقها . لذلك يرى ادنغتن « ان الاشعة الكونية الاولى لا تزال ماضية في سيرها في رحاب الكون » والاشعة التي تدخل آلاتنا الآن هي مزيج من اشعاع كل العصور . فهذه طاقة اقدم من الارض . ولسنا نعلم كيف كان الكون قبلما بدأ يتمدّد . ولكن ادنغتن يقول ان هذه الاشعة قد تحمل في طيّات امواجها ذكريات تلك الحقب القديمة وقد تبيح لنا هذه الذكريات يوماً ما !!

ولكن كيف تنشأ هذه الاشعة ? يشير جينز بيده الى النجوم ويقول هناك تتمزق المادة وتنفصل الالكترونات عن البروتونات وتتلاشى متحولة الى طاقة . وهذه الاشعة أثر من آثار الطاقة المنطلقة على أثر الملاشاة . ويعترض على قوله بان للنجوم اجواء . فالاشعة المنطلقة من قلب الشمس على أثر تلاشي كمية من الالكترونات والبروتونات ، تطول امواجها في سيرها من قلب الشمس الى سطحها فاذا اخترقت جوها ضعفت كذلك وزاد طول امواجها ، فيتعذر عليها — في نظر طائفة كبيرة من علماء الطبيعة — ان تبقى شديدة النفوذ كالاشعة الكونية بعد مرورها في خلال ذلك كله . ويرى الاب لميتر انهُ لا يحتمل وجود مصدر آخر لهذه الاشعة غير النجوم ولكن النجوم كما كانت والكون في طفولتهِ لا كما هي الآن . وقد خطب في مجمع تقدم العلوم البريطاني سنة ١٩٣١ فقال ان النجوم ولدت من دون جوٍّ يحيط بها . اما جوّها فقد نشأ بعد انطلاق الاشعة الكونية منها . وقد وقع هذا من نحو ١٠ آلاف مليون سنة . فانطلاق الاشعة الكونية من ابرز ما يحدثُ لدى تكوّن نجمٍ

***

على ان الاستاذ ملكن يرى ان الاشعة ليست دليلاً على تلاشي المادة في داخل النجوم بل هي دليلٌ على ان العناصر الثقيلة تتكوّن في رحاب الفضاء من الايدروجين والهليوم . فقد قال في خطبة لهُ ما ملخصهُ : ان عمل التكوين جارٍ الآن في رحاب الفضاء ولا أريد بالتكوين تكوين العوالم ولا تولد الاحياء التي تقطنها بل أريد تكوين الذرات atoms التي تبنى منها المواد سواء كانت جامدة أو تحركها نسمة الحياة . فان درسي للاشعة الكونية اثبت لي ان وراء النجوم اماكن تتكوّن فيها اربعة عناصر من جواهر الايدروجين والهليوم وان هذه العناصر هي الاكسجين والمغنيزيوم والسلكون والحديد . واذا كان هذا الفعل جارياً في مكان ما من رحاب الكون فالاشعاع الناتج عن تحول الايدروجين الى هليوم يجب ان يفوق اقوى اشعة غمَّا عشرة اضعاف . اما الاشعاع الناتج من تكوّن الاكسجين والسلكون والحديد فيجب ان يكون اقوى من اشعة الهليوم اربعة اضعاف وسبعة اضعاف واربعة عشر ضعفاً على الترتيب . اما

الاشعاع الناتج من اتحاد الالكترون بالبروتون وفنائهما فيفوق اقوى اشعة غمَّا خمسين ضعفاً . فلما كشفت الاشعة الكونية قيست قوتها فاذا هي تفوق اقوى اشعة غمَّا عشرة اضعاف اي ان الاشعة الكونية تشبه الاشعاع الناتج من تحوُّل الايدروجين الى هليوم . ولم يعثر في الاشعة الكونية على طائفة من الاشعة تماثل قوتها القوة الناجمة من فناء الالكترون والبروتون باندماجهما. وهذا يدلُّ على ان نحو ٩٥ في المائة من الاشعة الكونية ناشيء من فعل اقل عنفاً من فناء الالكترون والبروتون . وقد اثبت الحلّ الطيفي ان الايدروجين واسع الانتشار في الفضاء بين النجوم . هذا رأي مليكن [راجع تفصيله في مقتطف مايو ١٩٣٢ ص ٥٢٣—٥٢٦ ومقالة النيوترون في العدد نفسه صفحة ٥٠٣و٥٠٤]

***

على ان الاستاذ اسكندر دو فيليه Dauvillier الفرنسي لا يذهب الى ابعد من الشمس في تعليل الاشعة الكونية . ورأيهُ هذا من احدث ما قيل فيها . قال : —

ان كهارب سريعة تنطلق من الشمس بسرعة تقارب سرعة الضوء تقريباً فتحدث لدى اصطدامها بذرات الهواء الاشعة التي نحسبها قادمة الينا من رحاب الكون . ومصدر هذه الكهارب البقع اللامعة على سطح الشمس lacunae حيث الحرارة تبلغ نحو سبعة آلاف درجة بميزان سنتغراد . فتنطلق الكهارب بسرعة غير عظيمة أولاً ثم تزداد سرعتها زيادة عظيمة إذ تمرُّ في جوّ الشمس الموجب . وجو الشمس المؤلف من عنصري الايدروجين والكلسيوم في الغالب موجبٌ لأن الاشعة التي فوق البنفسجية المنطلقة من قلب الشمس تصدم ذرات هذين العنصرين فتطرد بعض كهاربها. والذرة اذا فقدت أحد كهاربها أصبحت شحنتها موجبة . ثم اذا اقتربت الكهارب من الارض انجذبت بفعلها المغناطيسي وتجمعت اقواساً . ثم إذا دخلت طبقات الجو العليا أطارت من ذرات غازاته بعض كهاربها وهذه مصدر الضوء القطبي . فاذا قيست أقواس الاضواء القطبية امكن الوصول بعماية رياضية الى سرعة الكهارب الاولى المنطلقة من الشمس والتي جذبتها مغناطيسية الارض . والظاهر ان سرعتها لا تقلُّ الاّ ٣٠ سنتمتراً عن سرعة الضوء في الثانية . وإذاً فهي تصل الارض في بضع دقائق (يصل النور من الشمس إلى الارض في ثماني دقائق وثلاث ثوانٍ) وآثار هذه الكهارب تحيط بالارض من كل النواحي فيبدو للباحث انها تأتينا من نواحي الفضاء على السواء . وقد حسب دوفيليه طاقة هذه الكهارب فوجدها قريبة جدا من طاقة الاشعة الكونية ويرى انهُ من العبث البحث عن تعليل آخر لهذه الاشعة. فهو اذاً يتفق الى حدٍّ ما مع رأي بيكار القائل بتولّد هذه الاشعة في طبقات الهواء العليا وانما يفوقهُ في تعليل تولّدها تعليلاً طبيعياً رياضياً



الطبائع والامزجة[1]

للامير مصطفى الشهابي
مدير املاك الدولة بدمشق وعضو المجمع العلمي العربي

ما الانسان في هذه الحياة ؟ جيش من الخلايا لا تعد جنوده ولا تحصى ؟ وفي كل خلية جبلة اولى (بروتوبلاسم) دائمة الحركة لا تقف ولا تستريح ولا تكل ولا تمل . وما الحياة نفسها ؟ هدم وبناء وأخذ وعطاء وصعود وهبوط في صلب هذه الخلايا ، والانسان بهذا الجيش اللجب كعمود ماء فوق حوض تخاله ثابتاً ونقاطه في تجدد مستمر . ذلك ان الجسم الانساني لا يكف طيلة الحياة عن امتصاص العناصر الغذائية وتمثيلها وصنع مواد تندمج في خلاياه ثم هو يفرز ما لا فائدة منه ويطرحه خارجاً . ولا تقف هذه الحركة المستديمة الا بوقوف الحياة وانطفاء شعلتها

واذا فحصنا الخلايا بمجهر العالم الذي يتحرى الحقيقة ويستقصيها الفيناها لا تتجدد في كل فرد على طريقة واحدة ولا بمقادير واحدة . وهذا الاختلاف هو ما يدعو الى حصول الطبائع المختلفة في بني الانسان على رأي كثير من العلماء . وليس بامكان المرء تغيير طبيعته لانه ليس له يد على خلايا جسمه، انى شاء ، تمثيلاً وافرازاً

وللناس طبيعتان اساسيتان وهما طبيعة الانسان الحساس وطبيعة الانسان الفعال . ففي حس الامور وادراكها يكون التمثيل في الخلايا زائداً على الافراز ، اما في الحركة كاستعمال الارادة او الحركة العضلية فالافراز يسود . ومتى رجحت كفة الطبيعة الاولى شالت كفة الثانية في الاعم ، فالحساس قلما يكون مقداماً والعكس بالعكس . والآلة التي تضبط التمثيل والافراز في الجسم كما تضبط الحس والعمل هو الدماغ فهو كناظم الساعة الضابط لحركتها لكنه هو نفسه غير متزن في كل الاشخاص فيكون قوياً لدى بعضهم وضعيفاً لدى بعض وسريع الحركة في ناس وبطيئها في آخرين . وهنا يتجه الى جهة وهناك الى جهة معاكسة للاولى تبعاً لشكل حركة خلاياه في التمثيل والافراز .وهذا ما يجعل للاعصاب سيرة خاصة فتكون حساسة او فعالة

---

(١) بحث فلسفي لخصته على اثر تلاوة بعض كتب اهمها كتاب بهذا العنوان للفيلسوف الفرنسي الفريد فويه.والغاية منه بيان خصائص الرجل وخصائص المرأة بياناً علمياً وفلسفياً والدعوة الى تعليم المرأة الشرقية ما يناسبها . والطبائع ترجمة Caracières اما الامزجة فترجمة Temperaments

وكان الاقدمون يقولون بأربع طبائع يسمونها اخلاطاً وهي الدم والبلغم والصفراء والسوداء وينعتونها بقولهم طبيعة حارة وباردة ويابسة ورطبة. وهي كلها تقسيمات ونعوت لا يعوَّل عليها اليوم

ويكون الحس سريعاً أو بطيئاً ، حادًّا أو ضعيفاً ولذلك يكون الحساس على طبيعتين : حسّاس سريع الحس ولكن ضعيفهُ وحساس بطيء الحس ولكن عظيمهُ

﴿طبيعة الحساس السريع الحس﴾ . يسمونه ايضاً الحساس الدموي. وتكون كريات الدم لديه عديدة ارجوانية اللون على عكسها في الصفراوي النعال حيث هي قليلة قاتمة . ويكون لون بشرة الدموي ورديًّا زاهياً وشعره اشقر وعيناه الى زرقة (كل ذلك في المتوسط من الحالات) وعنقه قصيرة عريضة ورأسه مستديراً أو مربعاً وانفه عريضاً . وتلوح على جسمهِ علامات الجسم الملآن غذاء ، اي الذي يزيد فيهِ المدخر على المستهلك . ويكون صاحب هذه الطبيعة سريع الانفعال لكن انفعاله سطحي يزول بسرعة . وهو كثير الكلام كثير الاشارات قليل العمل سريع النسيان لا جلَد له على العمل الممل المستمر ولا على اجهاد العقل . ولا يلبث الحادث الجديد الذي يحسه ان يطرد الذي سبقه . والخلاصة يوجد في كل دموي خالص شيء من خصال الطفولة والفتوة . ألا ترى ان الطفل الذي يزيد في جسمهِ الادخار على الاستهلاك ورديُّ الخد ابيض الجلد سريع الحس لكن الحس فيهِ سطحي لا يدوم كثيراً فالطفل هو المثال العادي لهذه الطبيعة . ويكون صاحبه ابن يومه ينسى الماضي ولا يفكر الاّ في حاضره كالصبي والشاب . وليس للآلام العميقة سلطان عليهِ . وهو متفائل واقرب إلى الخير منه الى الشر . لكنه لا يتعدى بذلك حد الكلام والعاطفة ولا يتجاوزهما الى العمل . ويمكن لهذه الطبيعة ان تعتدل بتقدم العقل وتأثير الارادة

﴿طبيعة الحساس العميق الحس﴾ هي طبيعة العصبي الذي اذا صدمته المؤثرات عملت عملها فيهِ فلا يعود الى سابق حاله الاّ بعد لأي . دمهُ اقل من دم صاحب الطبيعة السالفة الذكر وجهازه العصبي اقوى وعضله اضعف . ويكون شاحب اللون لفقر دمه حاد النظر كثير الحركة قلقاً في نومهِ طويل العنق دقيق الانف في الغالب خفيف الجسم رشيق القوام غير بدين . وكثيراً ما تعرض جبهته وتستدق ذقنه فيكون وجهه على شكل الرقم ٧ . وهو شديد التأثر بكل ما يفرح ويغم وربما أدى بهِ ذلك الى السويداء لان شعوره يكون عميقاً داخليًّا متأصلاً

ويكون العصبي مرحاً في طبيعتهِ أو حزيناً لكن عوامل الحزن تتغلب عليهِ في الغالب فتراه حذراً قلقاً ليس فيهِ آمال الدموي المتجددة في كل حين فهو اذن متشائم . غير ان صاحب هذه الطبيعة اذا اعتدل وناله حظ من الذكاء كان آية في العبقرية ولا سيما اذا كان وسطاً بين العصبي والدموي . ولقد زعم ارسطو ان كل العباقرة في الفلسفة والسياسة والشعر والفنون

هم من اصحاب السويداء . ولا يشير بذلك الى الذين يرافقهم الهم والحزن بل الى ذوي الحس العميق والانفعال المتأصل الذين لهم ذكاء وقاد يدركون به نواحي الحياة الجدية حتى القاتمة منها

﴿ طبيعة الفعّال ﴾ الفعّال ايضاً على قسمين فعال سريع العمل عظيمه وفعّال بطيء العمل قليله . ذلك ان الفعال يحتاج في حياته الى صرف قوة كبيرة عصبية وعضلية . ولما كان تفسير ذلك الصرف انحلال الجبلة الاولى في خلايا جسمه الى عناصر ابسط كان مزاج الفعال هو الذي يزيد فيه الاستهلاك على الادخار اي الافراز على التمثيل . ويكون الاستهلاك في الفعّال إما قوياً وسريعاً أو على العكس معتدلاً وبطيئاً ولهذا يكون الفعّال طبيعتان كما ذكرنا ويمكن في العمل قرن السرعة الى القوة اما في الحساسية فكثيراً ما تفترقان

﴿ الفعّال السريع العمل العظيمهُ ﴾ الفعّال الذي يعمل بسرعة وقوة كان يسمى صفراوياً لدى الاقدمين . والحقيقة انه ليس للصفراء تأثير في طبيعته . ويكون الدم فيه افقر منه في الدموي بالكريات الحمر . يقولون ان الصفراوي ذو دم حار وهذا صحيح ولا سيما في الدماغ . وكان كارليل يقول حرارتي بدلاً من طبيعتي . ويكون وجهه شاحباً لخلو دمه من الاوكسجين بسبب كثرة الاستهلاك . وهذا السبب هو الذي يجعل لون شعره وعينيه اسود لامعاً في الجملة ويكون قوي الجسم نحيفه سريع الهضم والتنفس شديد الحاجة الى النوم العميق حاد العينين قوي العضل لا يسمن الا نادراً . واذا تأثر بحادث اصفر وجهه في الغالب بدلاً من ان يحمر وربما اثر ذلك في كبده وهذا ما استرعى نظر الاقدمين فسموه صفراوياً . وتزيد الشمس في خصائص هذه الطبيعة فيكثر اصحابها في البلاد المعتدلة والحارة . وهي فاشية في القبائل البدوية

وشدة نشاط صاحب هذه الطبيعة تجعله جباراً اذا عاكسهُ احد وتجعله سريع الغضب ايضاً . وقد شبهه احدهم بجسم مكهرب من يمسه يقتدح شرارة كهربائية . واذا لم يجد في عضلاته منفذاً للعمل ولصرف القوة اثّر ذلك في جسمه تأثيراً داخلياً ولاسيما في دماغه فتراه اذا احب عشق واذا بغض كتم بغضاءه سنين حتى ينتقم . وهو شجاع مقدام في الغالب . واذا حكم استبدّ في اكثر الاحيان دون ان يعبأ باستمالة قلوب الناس او عقولهم اليه ككثير من رؤساء القبائل المعروفين او كنابليون مثلاً فهو في مقابلة الناس حيوان يخاطب حيواناً دونه . واعتقاده ببلوغ مراده يجعله قوي الامل كبير الثقة بنفسه ولهذا يغلب فيه التفاؤل

﴿ الفعّال البطيء العمل القليلهُ ﴾ هو صاحب الدم البارد او صاحب البلغم الذي له ارادة تحفزهُ على العمل ولكن بعد إعمال الفكر وموازنة الامور . ويعرف بعنق قصيرة وانف عريض ولون شاحب غالباً وشعر اشقر او اسمر باهت غير كثيف وعينين شهباوين او خضراوين غير متقدتين وجسم ممتلىء ودماغ مفكر . هو يملك نفسه فلا تثيره الحادثات كالذي سبق ذكره . وبحث عنهُ « كانت » فقال انهُ يحمى ببطء لكن حرارتهُ تدوم طويلاً وربما سموهُ عاقلاً لان

برودة الدم اذا ما قرنت بالنشاط على العمل تغلبت على كثير من الصعاب . اما اذا فقد صاحب هذه الطبيعة نشاطه اثَّر ذلك في حساسيتهِ وفي حيويته فيضعف دوران الدم فيهِ ويزداد دوران الصفراء فترخو نسجه وتبطؤ الحركة في اعضائهِ ويضعف الدم في دماغه فيتبلد ويبتعد عن الحيوان ويقرب من النبات

﴿ الخلاصة في الطبائع ﴾ نلخص طبائع الناس بقولنا انهُ يوجد فيهم : اولاً الدموي (الحسَّاس السريع الحس الطائش) وهو سريع الانفعال لكن انفعاله لا يدوم كثيراً . ثانياً العصبي (الحساس العميق الحس) وهو بطيء الانفعال لكن انفعاله يكون شديداً ومتأصلاً . ثالثاً الصفراوي (الفعَّال الحاد العمل) وهو الذي يكون عمله سريعاً قويًّا . رابعاً البلغمي (الفعَّال البارد) وهو الذي يكون عمله راسخاً متزناً . ويزيد الادخار على الاستهلاك في جسم اصحاب الطبيعتين الاولين . والامر معكوس في اصحاب الطبيعتين الثالثة والرابعة

واذا صدمت النوائب الدمويَّ صدمة عنيفة اثَّرت في دماغه وفي جهازي الدم والتنفس . اما العصبي ففي جهاز العصب والدماغ واما الصفراوي ففي الكبد. والبلغمي لا يتأثر بها عضو من اعضائهِ بل تبدو عليهِ علائم الحزن والكآبة فحسب

***

وذكر (كانت) ان كل انسان له طبيعة واحدة من الطبائع الاربع المذكورة ليس غير . وانهُ لا يوجد طبائع مركبة . اما الفريد فويه فيرى عكس ذلك ويقول انهُ لا يوجد صاحب مزاج بسيط البتة لانهُ لا يمكن تصور وجود حس بلا ارادة او وجود ارادة بلا حس ولا عقل كما ان الجسم لا يمكن ان يدخر بدون ان يستهلك . ولا يوجد في الكون شدة مطلقة ولا سرعة مطلقة في الادخار والاستهلاك بل كل شيء نسبي. ولهذا نرى بين الناس الدموي العصبي والعصبي الصفراوي ، والعصبي التنفاوي (البلغمي) الخ اي اناساً يجمعون طبيعتين . وربَّ رجل يجمع ثلاث طبائع كأن يكون دمويًّا وعصبيًّا ولنفاويًّا وهو ما يكثر في المانيا وانكلترا وربما حصل الاختلاط في خلق الوجه وسائر الجسم كالجمع بين شعر اسود وعينين زرقاوين وكأن يكون لك جسم وردي وقامة هيفاء . وكل ذلك نتيجة وراثات مختلفة اوجبت اختلاط الطبائع

ولا يستطيع الانسان تبديل طبيعتهِ لكن هذه تتبدل بتقدم السن . فالولد يحتاج خصوصاً الى الاحتفاظ بنفسهِ والى النمو ولذا تراه شديد الحس والانفعال يتطلب النفع العاجل ويدرأ الضرر القريب ويسير عن بصر للاشياء لا عن بصيرة . اما البالغ فعلى العكس لان قواه العقلية تزداد مع الزمن وكذا محاكمته للامور فيضبط بها عوامل الغريزة الحيوانية . واما الشيخ فكل شيء فيهِ يبطؤ اي ان طبيعتهُ تعتدل مهما كان متطرفاً ويكثر البلغم فيهِ حتى يبلغ بهِ حد

الكسل . وتتردد ارادتهُ كناظم الساعة (الرقاص) وتبدو عليهِ علائم الاضمحلال والفناء

﴿ فائدة علم الطبائع في الحياة ﴾ لا شك ان لعلم الطبائع فائدة كبيرة من حيث الاخلاق وتربية الاولاد . فكما ان الطبيب يحتاج في وصف الدواء الى معرفة خلق المريض كذلك المؤدب يحتاج في تأديب الصبيان الى معرفة طبائعهم الخُلقية المختلفة . ومن البساطة بمكان الظنُّ أنَّ الجميع يمكن سوقهم بعصا واحدة . وربما نفعت الشدة في احدهم ولم ينفع في آخر غير التسامح . وربَّ تلميذ يفعل فيهِ اللين والتحبب وآخر لا يؤثر فيهِ غير الخوف . ومن الثابت ان المربين يجهلون كثيراً فسيولوجية الطباع جهلهم للقواعد الصحية التي يجب رعايتها تجاه الاعمال العقلية

***

وللطبيعة تأثير في سعادة الانسان وفي اخلاقه طيلة الحياة . ويجب ان نفتش في كثير من الاحايين في نفسنا عن سرّ حزننا او طربنا فهنالك نجد ساعات من البؤس وساعات من السرور وهنالك نرى الاشياء بألوان مختلفة بمقتضى طبائعنا . ولقد بالغ احد العلماء فقال ان ينبوع الخير والشر هو فينا في الغالب . ذلك ان كل عضو من اعضائنا له عمله في سير شعلة الحياة فينا فالجوع والعطش وسوء الهضم وخفقان القلب والتعب والاجهاد والقلق والحزن الخ كل ذلك له تأثير اي تأثير في تكوين سعادة الانسان وكله له اشد ارتباط بالطباع . ومتى كان الانسان مرحاً في طبيعته فسيان لديه واتاه الحظ ام لازمهُ النحس . اما المتبرم بالحياة فهو يظل مكمداً مهما خدمتهُ الايام . وبوجهٍ خاص ان بعض اسباب السعادة هي في طبيعتنا . ولا يجب ان يستنتج من ذلك ان البيئة والحوادث وبخاصة العقل والارادة ليس لها تأثير في سعادة الانسان وهي التي يتألف منها مزاجه او طابعهُ الذي يتطبع بهِ كما ذكرناه بعدُ

اما تأثير الطبائع في الاخلاق فهو ايضاً امر لا ينكر ولا يعبأ بقول احدى الاديبات « لا اصدق ان الفضيلة مرتبطة بهضم الاغذية » . فلكم قادت الطبيعة المرء الى اعمال شتى من الخير والشر والامثلة على ذلك كثيرة

***

﴿ الامزجة ﴾ يقول الفرد فويه ان طبيعة الانسان تخلق معهُ لكن المزاج يكتسب بالتطبع والمران . والمؤثر في المزاج العقل الانساني . وربَّ رجل تسود السويداء في طبيعته فيطردها بالعقل والارادة فيكون مرحاً في مزاجهِ . واذا كانت الطبيعة مرتبطة بتركيب الجهاز العصبي وسيره خاصة فالمزاج مرتبط بتركيب الدماغ وسيره في الاخص وهو عضو العقل

والناس على ثلاثة امزجة : الحساس والمفكر والمقدام (او النفاذ وهو القويّ الارادة) . وتتبدل امزجتنا بتبدل شدة هذه القوى الثلاث . والمزاج الامثل هو الذي يتوازن فيهِ الحس والفكر والارادة

﴿ الحسَّاس ﴾ اذا كان الحساس قليل الذكاء قليل الارادة كان كالطفل سريع الانفعال ضعيف الذاكرة . اما اذا كان قليل الذكاء قوي الارادة كان خطراً لانهُ يجمع قوتي الحس والارادة بلا تفكير . وكثير من المجرمين لهم هذا المزاج . واما اذا كان الحساس ذكيًّا كان من الرجال المتزني الامزجة حتى في حالة خلوهم من ارادة قوية

﴿ المفكر ﴾ هو الذي ينمو عقلهُ على كرّ الايام فيصير التفكير طابعاً له . وهو مزاج كثير من العلماء والفلاسفة ، واذا كان المفكر حساساً اشبه بمزاجه بعض الشعراء كفكتور هوجو وأمثاله. ولا شك ان نمو العقل يسكن فرط الحس على طول الزمن . وربما اضرَّ التفكير بالارادة ايضاً فينشأ عن ذلك اشخاص يتمثلون العالم في دماغهم فيصورنهُ صوراً لا تحصى ويعيشون غارقين في تأملاتهم غير المتناهية . وهم ينفقون كثيراً من القوى داخليًّا فيقلُّ ما يجب ان ينفقوه في الخارج . وقد يعدم التفكيرُ الارادة احياناً . لأن المفكر يعيد النظر للامور اما المقدام فلا يرى غير ناحية واحدة منها ولذا ترى المفكر كثير الاحجام عن العمل بعد ان يتمثل في ذهنه كل دواعي الاقدام وكل دواعي الاحجام . والشك طارد للفعالية كما لا يخفى. اما اليقين فباعث على الاقدام . واذا كان اليقين منبعثاً عن عقيدة شعورية كعقيدة الدين مثلاً حمل صاحبه على الموت احياناً . ولا يظننَّ ان شدة التفكير تدعو الى التردد في كل الامور فالمفكر لا يعبأ بالصغائر التي تسر لها العامة والدهماء لكنهُ كثير الاهتمام بجلائل الاعمال . واذا كان القليل من العلم داعياً الى التردد فالكثير منهُ يدعو الى العمل . ولكل معضلة مفتاح فاذا لم تعثر عليه انت فاحجمت لقيهُ من هو اشد ذكاء وتفكيراً منك فأقدم

﴿ المقدام ﴾ الارادة اذا لم يصحبها العقل اضرَّت بصاحبها. والدماغ البسيط الذي لم تصقله التجارب او العلوم هو نموذج للارادة الحمقاء التي تحمل صاحبها يقدم على اعمال غير معقولة ويصر على اخطائه . وهو دماغ الجهلاء الذين يصعب تبديل معتقداتهم لانهم جهلاء لا يمكنهم استخراج القواعد المطلقة من الامور التي يحسونها . لكنه اذا كان صاحب الارادة مفكراً فالمثابرة على الاقدام لا يسمى لديه عناداً بل ثباتاً . ويتضح من ذلك ان العقل والتفكير هما عاملان مهمان في سير الارادة

والمقدام على ثلاثة اشكال اولاً المقدام القليل الحس والتفكير وهو العنيد في حمقه وضلاله. ثانياً المقدام الكبير الحس القليل التفكير وهو الطموح المتهوّر . ثالثاً المقدام القليل الحس الواسع الفكر وهو الذي يحكم الامور ببرودة ثم يمضي فلا يثنيه شيء

[تتمة البحث تتناول الطبائع والامزجة لدى الرجل والمرأة]

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

من جمهورية افلاطون إلى شيوعية روسيا

«علم السياسة» هو البحث في اشكال الحكومات التي نشأت على سطح الارض سواء منها الماضية والحاضرة ، و «حكمة السياسة» هي البحث في اصل المجتمع البشري والعوامل التي افضت الى تأليفه وجعلت الانسان مدنيًّا بالطبع . وهذا التفريق بين هاتين الناحيتين من موضوع السياسة العام هو تفريق حديث لم يصل اليهِ الكتّاب الاّ في الاعصر المتأخرة. على ان معظم الذين عالجوا الموضوعات السياسية لا يزالون يمزجون الواحد منهما بالآخر مزجاً ملتحماً في حين يتطلب التنقيح العلمي مراعاة هذا التفريق . وعندنا ان خير ما ينير الموقف السياسي الحاضر ويزوّد القارىء بالمعلومات التي تساعده على فهم التدرج الحاصل في الآراء السياسية وتطبيقها ان نستعرض امامه طائفة من الأئمة الذين غادروا وراءهم رنة في العالم السياسي ونتناول بالتحليل ماذهبوا اليه سواء من وجهة «علم السياسة» ام من وجهة «الحكمة السياسية»

﴿ افلاطون ﴾ ان افلاطون هو أسبق من وصلتنا مدوّناتهم عن الشؤون السياسية والاجتماعية فقد عاش من سنة ٤٢٧ الى سنة ٣٤٧ ق.م . وجاء في كتابه (الجمهورية) الذي سد ثغرة كبيرة بنقله الى العربيـة حديثاً الاستاذ حنا خباز الشيء الكثير عن المعيشة الاولى البسيطة الحرّة وكان يرى ان تفتح ابواب الارتقاء على مصاريعها للناس جميعاً بالتثقيف والتهذيب الاّ العبيد فعليهم ان يحملوا على اكتافهم اهل التفرغ ويقوموا بخدمتهم . وعنده ان يمنح رجال التعليم اسمى المقامات في الحكومة وان الطبقات المهذبة الخاصة — وهي الطبقة الارستقراطية في عرفنا الحاضر — يجب ان تقوم بسندها الطبقات العامة الاعتيادية ، ومن الغريب مع كل هذه الارستقراطية ان يكون افلاطون شيوعيًّا حتى في المرأة

ولما كانت معظم النظريات التي وضعت لتعليل السياسة او اسبابها هي نظريات عن طبيعة الانسان الاصلية فلا عجب ان نرى افلاطون من الذين نهجوا هذا المنهج ، فقد ذهب في جملة ما ذهب اليهِ الى ان في النفس الانسانية اجزاء ثلاثة الاول الجزء العالم وهو الحكيم . الثاني الجزء الشجاع المتحمس وهو الروحي . والثالث الجزء الشهواني وهو النهم او الحيواني . يقابل ذلك اجزاء ثلاثة في بناء الجمعية البشرية متى كانت صحيحة التركيب وهذه الاجزاء هي (اولاً) الملك الفيلسوف كما تصوره افلاطون وقد دلَّ به على ضرورة تغلب العلم في المجتمع السياسي على الروح والشهوة — يعني يجب ان يحكم حجّاب هذا الملك في « الجمهورية الكاملة » باعتبارهم المظهر الذي يتجلى فيه مبدأ تفوق العلم . (ثانياً) الجيش الشجاع المتحمس ويكون اداة اولئك الحجاب ينفذ مقتضيات علمهم ويسير تحت لوائهم (ثالثاً) الدهماء او عامة الناس وهم اهل الشهوة الخاضعون الخانعون والمسوقون الى الاعمال المنتجة في المجتمع . وبديهي كما قال الاستاذ (كول) ان مثل هذه النظرية السياسية هي نظرة ارستوقراطية عظامية ينبذ صاحبها الفكرة الديموقراطية العصامية وراء ظهره ويمر على كلمة التساوي في الحقوق مر الكرام إذ يقول الواجب ان يقبض على زمام الحكم في الجمهور الجزء الاصلح لخدمته كما يجب ان يتسلط في الفرد عقله على سائر ملكاته . ويقوم المرء بعمله الاجتماعي وهو وظيفته التي خلق لها بحسب الاجزاء الثلاثة التي تتألف نفسه منها ونسبة تفوق هذه الاجزاء بعضها على بعض . فالحكيم وهو ذو الملكة العقلية المدركة المتفوّقة خلق لان يكون حاكماً ، ذلك لانه اعرف الناس بالمصلحة واما الآخرون فلا حق لهم في هذا الامر ولا شأن لانهم جاهلون

ولعمري ان هذا الموقف الذي وقفه افلاطون في القرن الرابع قبل المسيح لا تزال تقفه عصبة المحافظين الارستوقراطيين في القرن العشرين مدعين بأن مواهبها العقلية وعنعناتها المتوارثة تجعلها وحدها اهلاً للاضطلاع بالحكم ، وهذا باب في النظرية السياسية لما يقفل ، وقد ملأ الكتّاب اكوام المؤلفات والرسائل في علاجهِ ولما ينتهوا . وكأني بافلاطون يقول للاجيال اللاحقة هذا رأيي فانا ارستوقراطي صرف احرّم ممارسة الحكم على الذين لم يخلقوا له فما هو رأيكم ؟ بل ما هي السلطة السياسية ؟ اهي شيء من حق الانسان كما تساءل الاستاذ (كول) لا يتنازل عنه وقد اكتسبه بمجرد كونه انساناً يمشي على اثنتين ام هي شيء يتعلق بالعلم والمعرفة ؟ وهل على الخبير الفني المتخصص ان يعمل باوامر يتلقاها أم هو نفسه مصدر هذه الاوامر ؟ وهل الاطباء يديرون شؤون المرضى في المستشفى أم المرضى يديرون شؤون الاطباء ؟ وهل السياسة ميدان للاخصائيين المتسلحين بسلاح الفن أم هي للنساء والرجال العاديين ؟ وهل الديموقراطية تعني هذيان اصوات متنافرة بعيدة عن الانسجام أم هنالك شيء من الحق في القول المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » ؟ ووراء ذلك كله سؤال اجدر بالاهتمام خلاصته

ما هو الانسان ؟ وما هي طبيعته ؟ . فعلينا ان نعرف هذه الامور أو نصرف جهد الطاقة للاحاطة بكنهها قبل ان نصدر حكمنا كيف يجب ان يحكم الانسان أو ان يحكم عليه [1]

﴿ ارسطو المعلم الاول ﴾ هو تلميذ افلاطون واول من لاحظ تدرج الحكومة ونشوء النظام الاجتماعي وقد عالج الشؤون السياسية معالجة دقيقة حتى ان بعض آرائه لا يزال يعمل به الى اليوم . ومن ادق ملاحظاته قوله عن الحكم انه يأخذ شكلاً دوريًّا متعاقباً فالحكم الملكي في نظره هو الشكل الاساسي للحكومة ثم يعقبهُ الشكل العظامي الارستوقراطي وهو حكم النخبة المنتخبة وهذا يؤول الى الاوليغاركية وهي حكومة فاسدة قائمة على اقلية متآمرة متضامنة ثم تأتي حكومة الاكثرية وهي الديموقراطية وتختلف عن الديموقراطيات الحاضرة بانها مؤلفة من طبقات ، ويخلف هذه الحكومة الصالحة حكومة مؤلفة من الغوغاء اطلق عليها اسم (اوكلوكراسي) فيختلط الحابل بالنابل ويصير الامر والنهي بيد الحمق والطائشين . وعندما تبلغ الفوضى هذا الحد تهب « الدكتاتورية » من مرقدها وهي حكومة القاهر الحازم فيعاد النظام الاجتماعي الى سالف عهده . وعندنا ان هذه الملاحظة من خير ما خلفهُ المتقدمون في علم السياسة لانطباقها على الواقع كثيراً فمحمود شوكت باشا القائد العثماني الكبير مثلاً كان هذه اليد الحازمة التي انقذت الدولة العثمانية في سنة ١٩٠٩ من غوغاء جمعية رجعية اسسها سخيف اسمهُ (درويش وحدتي) واطلق عليها اسم (الجمعية المحمدية)

ومن الامثال الصالحة على ملاحظة ارسطو هذه السنيور موسوليني وظهوره بعد الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها في ايطاليا ، والغازي مصطفى كمال باشا ونهوضه بالترك من بعد تمزقهم والتصدع الذي كان يهدد بنيانهم بالانهيار من الاساس عقيب انكسارهم في الحرب العالمية

وكانت الطريقة الخاصة التي سار عليها الاغريق المتقدمون في نظامهم السياسي ان المدينة الواحدة من مدنهم كانت تؤلف دولة قائمة بذاتها وكان جميع الافراد يشتركون في اتخاذ القرارات مباشرة من غير ان ينيبوا عنهم احداً لان الطريقة النيابية الحاضرة كانت مجهولة لديهم . وكانت الاكثرية في الاجتماع تعين في بعض الاحيان بشدة التصفيق من المجتمعين وفي غير ذلك بالاقتراع والانتخاب . وكانت زعامتهم ومقاليد امورهم بيد من يتملك شخصية متفوقة عليهم ومعرفة بشؤون القيادة . ولم ير ارسطو في جميع ذلك شيئاً غير طبيعي يحتاج الى التعليل بل قال عن الانسان انهُ حيوان مدني بالطبع فيكون المجتمع والحالة هذه ظاهرة طبيعية نشأت من فطرة الانسان وان الدولة البلدية (City-State) هي في نظره وليدة الاسرة ودرجة لاحقة في النشوء من بعدها

(1) Outline of Modern Knowledge, p. 705.

الخلافة الاسلامية

وتتجلى المذاهب السياسية المتنوعة والآراء التي اشار اليها افلاطون خير التجلي في تاريخ الاسلام عامة والعرب منهم خاصة . وليس من المتعذر على الباحث مثلاً ان يرى المبادىء السياسية مخلوطة في الجيل الواحد والعمل الواحد خلطاً متماسكاً متشابكاً . فانتخاب اول خليفة ليتولى زمام المسلمين في دينهم ودنياهم هو عمل ديمقراطي في مبدئه ولكنه يختلف عن الاساليب الديمقراطية الحاضرة بحصره الانتخاب في اهل الحل والعقد بصورة مبهمة ليس فيها قاعدة يركن اليها ومعنى اهل الحل والعقد هو النخبة المنتخبة وهي الطبقة الارستقراطية طبعاً فهذا الحصر هو اقرب اذن الى الارستقراطية منهُ الى الديموقراطية والعامة كانوا بعيدين عن التدخل في شأنهِ وليس لهم صوت نافذ في اقراره او في رفضه لأن القواعد التي طبقت منذ اليوم الأول لم تعين لهؤلاء العامة مقاماً في الاقتراع أو في الانتخاب بل اعتبرتهم كما اعتبرهم افلاطون اداة تساق من غير ارادة ولا اختيار . وكان الخليفة والحق يقال رئيس جمهورية إلاّ انهُ تمتع بحقوق لا يحلم بها (هوفر) في الولايات المتحدة . وقد تجلت هذه الحقوق واشتدت عندما صارت الخلافة ملكاً متوارثاً وصار اصحابها يدعون الوكالة عن الله في كل شيء ، يدلك على ذلك خطبة المنصور بمكة جاء فيها «ايها الناس انا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، اعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه ، فقد جعلني عليه قفلاً ان شاء فتحني لاعطائكم وقسم أرزاقكم وانشاء ان يقفل عليّ أقفلني» ، ولم يعدم الخلفاء من الفقهاء من جوّز لهم مثل هذه الحقوق كما فعل صاحب « مطالع الانوار » بقوله عن الخليفة ان له حقّ التصرف « في رقاب الناس وأموالهم وابضاعهم » . على انهُ مع كل النفوذ الذي كان للخليفة لا يجوز ان يدعي «مطلقاً» ابداً ، لأن السلطة ليست له وانما هي للدستور — للشريعة التي كان حامياً لها ومسؤولاً عن تطبيقها ، وكانت الحيدة عنها اعوجاجاً لا يأبى المسلمون — ولو نظريًّا — ان يقوّموه بسيوفهم . فاذا كان الاستبداد هو ان يعمل صاحب الامر بمشيئته ويقتضي هواه ويدعي انه هو الدولة كما كان حال الملوك المستبدين في بلاد الغرب فالخليفة بهذا المعنى لم يكن مستبداً وانما اعطى لنفسه من الحق في فهم الدستور وتأويله وتطبيقه ما يخوله قوة صارمة . ولو اردنا أن نجمل الحالة التي كان عليها المسلمون في الصدر الاول بكلام مألوف في عصرنا لقلنا انهم انتخبوا رئيس جمهورية الى أجل غير مسمى بطريقة انتخاب محدودة تولتها الطبقة الارستقراطية وهم أهل الحل والعقد وخوّلوه في القضاء والتنفيذ سلطة لا حد لها وجعلوه مسؤولاً عن الدستور بطريقة عنيفة تكون حياته فيها عرضة للخطر، ولما

كانت الطريقة البارلمانية مجهولةً في تلك الاعصر فمحاولة تعيين هذه التبعة او المسؤولية كثيراً ما أدت الى الفتن والاضطرابات وسفك الدماء بين المسلمين لانهم لم يكونوا عارفين بحلٍّ سلمي يرضاه الجميع أو الاكثرية المطلقة في معالجتها . وعلى القارىء أن يتذكر ان الخليفة مهما كان قادراً وعظيماً لايستطيع من الوجهة النظرية أن يغير شيئاً في الشريعة لانسلطتها مطلقةلاحد لها تصغر أمامها كل سلطة بل دائرته ودائرةقضاته وعماله محصورة في تأويلها وتطبيقها . ويجد علماء السياسة لذة كبيرة أن يروا بعض الكتاب المسلمين المتقدمين يذهبون الى أن الامة هي مصدر السلطة التي يتمتع بها الخليفة كما فعل أبو بكر الكاساني المتوفي سنة ٥٨٧ والمدفون بظاهر حلب. فقد ذهب في كتابه «البدائع» إلى أن الخليفةبمنزلةمندوب أو رسول عن المسلمين لذلك اذا عُزل او خُلع لسبب من الاسباب لم ينعزل قضاته بل هم على أعمالهم قائمون وذلك لان «القاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي حقهِ بل بولاية المسلمين وحقوقهم ، وانما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ،لهذا لم تلحقهُ العهدة كالرسول في سائر العقود ، والوكيل في النكاح ، واذا كان رسو لاً كان فعله بمنزلة فصل عامة المسلمين »[1]

ولئن كانت الخلافة في بدء الاسلام نظاماً جهوريًّا ارستوقراطيًّا فقد تحولت في زمن بني امية الى مُلك واصبحت دمشق الشام على ايدي الخلفاء او الملوك الامويين حصن العروبة الحصين وكانت الرابطة في الشرق كما كانت في الغرب رابطة دينية والاسلام كما هومعروف دين اممي ارسل الى جميع البشر على السواء الاّ أن كثرة الداخلين فيهِ من الاقوام الاخرى جعلت مركز العرب وحماته حرجاً خصوصاً لانهمكانوا بعد في دور التأسيس والفتح،ولولا هذهالنعرة العربية التي تجلت في بني امية لكان الخطر على الدولة الحديثة خطراً حقيقيًّا ولكان من المتعذر التنبؤ بما عسى ان يحدث يومئذٍ من التحولات في النشوء الديني في الشرق الادنى

ومما يسترعي الانتباه في امر الخلافة ويشير الى معنى من المعاني السياسية الحديثة المهمة عهد الطاعة للخليفة فقد اطلق المسلمون على هذا العهد اسم البيعة وكانوا « اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأ كيداً للعهد فاشبهذلك فعل البائع والمشتري »او اشبه « المقاولة الاجتماعية » المبنية على فكرة التراضي والتي شرحها (جان جاك روسو) وجعلها الاساس المشروع للحكومات فكانت سبباً للثورة الفرنسوية . ولا يضير هذه المبايعة الحرة ما أصابها من الاكراه في بعض الاحوال والانتقال من المصافحة بالايدي الى تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل او غير ذلك من علامات الخنوع على الطريقة الغريبة عن العرب والتي دعاها ابن خلدون « كسروية »[2]لان الاصل هو التعاقد الحر كما هو ظاهر اولاً من اللفظ الدال على البيع والشراء وثانياً من العمل الذي يدلّ على التراضي بالمصافحة يداً بيد

(١) الاسلام واصول الحكم ص١٠ (٢) « المقدمة » ص ١١٧١

« ابن خلدون » ويكون بحث السياسة في الاسلام ناقصاً اذا لم يذكر ابن خلدون بشيء من الايضاح لان اسمهُ سيبقى مقروناً دائماً بالطريقة العقلية المنطقية في معالجة التاريخ الاسلامي، ولا تقل قيمة كتابته بهذا المعنى عن اعمق مخلفات المتقدمين السياسية من اغريق ورومان وهو الاقنوم الاخير في الثالوث الاجتماعي الذي يدخل فيه افلاطون وارسطاطاليس، وقد ذكر في « المقدمة » ان الخلافة الخالصة كانت في الصدر الاول الى آخر عهد علي ومن ثمَّ تحولت الى ملك ولكن بقي هذا الملك محافظاً على معنى الخلافة بحيث لم يتغير فيها الا الوازع فقد كان دينيًّا ثم انقلب عصبية وسيفاً ولكن معنى الخلافة ايضاً زال من بعد هرون الرشيد وولده وزوال عصبية العرب فلم يبق منها الا الاسم وبلغ التحول في زمن ابن خلدون ان اصبح الامر ملكاً بحتاً « فكان الناس يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع القابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منهُ شيء »

ومن الطف ما عمله ابن خلدون انهُ فرق بين الخلافة والملك والسياسة فجعل الملك حمل الناس على ما يقتضيه الغرض والشهوة، والسياسة حملهم على ما يقتضيه النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية وهو ما يعادل كلمة Politics عند الاغريق، والخلافة حملهم على ما يقتضيه الشرع، وعنده ان السلطتين القضائية والتنفيذية هما في يد رأس الحكومة الاسلامية، وقد أيد ذلك بقوله لما كان الجهاد مشروعاً في الملة الاسلامية لعموم الدعوة وحمل الناس على دين الاسلام اتحدت فيها الخلافة والملك « لتوجه الشوكة من القائمين بها اليها معاً ، واما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة (هذا خطأ) ولا الجهاد عندهم مشروعاً الا في المدافعة فقط (وهذا من الوجهة العملية خطأ) فصار القائم بامر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك (وهذا من الوجهة التاريخية خطأ) لانهم غير مكلفين بالتغلب على الامم الاخرى وانما هم مطالبون باقامة دينهم في خاصة انفسهم » (1)

واستجدت في عصرنا هذا مساعٍ اصلاحية غايتها فصل الشؤون الدينية عن الشؤون السياسية تحريراً للاسلام من سلطة اوربا الاستعمارية فكأن المجددين على هذا النمط يرون ان التفريق بين حالة المسلمين المدنية المقيدة بالسلاسل والاغلال وحالتهم الدينية المبنية على عقائدهم الوجدانية يجب ان يفسح للدين مجالاً حرًّا تظهر مزاياه العملية ومقاييسه الاخلاقية بثوبها القشيب مما يؤول بالمسلمين في آخر الامر الى ترقيتهم المادية والمعنوية ويسمح لهم بتنظيم شؤونهم بما لا يعرضهم للاحتكاك بالسلطة السياسية المتغلبة

بل ان بعض الكتّاب المفكرين ذهب الى أبعد من ذلك فجعل الاوضاع السياسية حتى في الصدر الاول ومنها الخلافة طبعاً ليست من الدين في شيء فالمسلمون اليوم أحرار في نظرهِ غير

(1) المقدمة ص ١٦١

مقيدين في انتخاب المنهاج السياسي الذي يلائم احوالهم ، ومن هؤلاء الكتّاب السيد علي عبد الرازق فقد ذهب في رسالتهِ « الاسلام وأصول الحكم » إلى ان الخلافة وضع سياسي حدث في زمن ابي بكر وان لقب خليفة رسول الله « كان سبباً من أسباب الخطإ الذي تسرَّب إلى عامة المسلمين فخيل اليهم ان الخلافة مركز ديني وان من ولي امر المسلمين فقد حل منهم في المقام الذي كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١)

« وكان من مصلحة السلاطين ان يروجوا ذلك الخطأ بين الناس حتى يتخذوا من الدين دروعاً تحمي عروشهم ، وتذود الخارجين عليهم .... حتى افهموا الناس إن طاعة الأئمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله .... وحرموا عليهم النظر في العلوم السياسية وباسم الدين خدعوهم وضيقوا عليهم ... ثم حرموا عليهم كل ابواب العلم التي تمس حظائر الخلافة وكل ذلك انتهى بموت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين .... والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية .... ولا شيء في الدين يمنع المسلمين ان يسابقوا الامم الاخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا له واستكانوا اليهِ »

وغني عن البيان ان الغاية التي وضعها السيد علي عبد الرازق نصب عينيه هي تحرير العالم الاسلامي من الجمود المستحوذ عليهِ وفك مخالب القرون الوسطى الناشبة في عقليتهِ » فعمله هو عمل اصلاحي اجتماعي جريء ، لكن لئن ساغ هذا الكلام من الوجهة الغائية فهو لا يسوغ من الوجهة التاريخية العلمية لان الاسلام لم يبق على معظم ما كان عليهِ قبل الهجرة من الاقتصار على التوحيد والتنزيه وهو فضيلته الكبرى وغايته العظمى والدرس البليغ الذي تلقاه كما يقول (اتش . جي . ولز) مما حدث في النصرانية من النظريات اللاهوتية(٢) بل ان خوضه المعارك للدفاع عن حوزته بقوة السلاح حتى افتتح مكة عنوة واخضع العرب المشركين بالقوة أدى بالضرورة إلى تلك القواعد السياسية الدنيوية التي سارت وقواعده الدينية الاخروية كتفاً لكتف ، خصوصاً لان الاسلام دين عملي عالج اموراً واقعة اكثر مما عالج شؤوناً نظرية فليس من المعقول ان يفتتح المدن وتتكلل هامته باكاليل الظفر الباهر من غير ان تكون له قواعد سياسية تتمشى البلاد بموجبها ، ويتعامل الغالب مع المغلوب بمقتضاها ، ولكن هذا الكلام لا يمنع رجال الاصلاح ابداً ان يدرسوا الدين درساً تاريخيًّا نفسيًّا اجتماعيًّا يؤدي إلى احاطتهم بروح التشريع الاسلامي ومعرفتهم ما هو الجوهر وما هو العرض في جميع ما عمل باسم الدين وتحت تأثيره ، فيروا موقفهم السياسي الخاص والقضايا الاجتماعية المتعلقة بهم على ضوء هذا الدرس التحليلي المستند إلى المكتشفات الحديثة ، وحينئذ لاأخالهم يصطدمون بشيء من العقبات فيما ينشدون من الاصلاح لان الدين متى كان عمليًّا في روحهِ جعل للمصلحة العامة اعتباراً فوق سائر الاعتبارات

---

(١) الاسلام واصول الحكم ص ١٠١ وما بعد

(٢) Outline of History, p 329

سبيلا العظمة

الاول — اتبع القوم سر معهم وسايرهم ولكن اسرع الخطى فتقترب من مقدمتهم . ادفع الناس بالمناكب دس على الاقدام وان اعترضوك فكشر لهم وخاصمهم وسبهم فيوسعوا لك حتى تصير امام الجميع

التفت حينئذ الى الذين سبقتهم مزدرياً عاداتهم ممتهناً تقاليدهم وافعل ما تختار ولكن لا تتجاوز حد العقل . هذا سبيل العظمة سبيل الاستخفاف بالرفاق بعد سبقهم لانك اذا بقيت في صفوفهم وجاريتهم في رغائبهم احاطوا بك ودلوا عليك واستخفوا بك ونسوك فارباً بنفسك وترفع عنهم فاما ان يعلو شأنك بينهم فيختاروك زعيماً لهم او ينقموا عليك وينتقدوا منك فيقتلوك فتحسب شهيداً وتعبد

الثاني — تعلمْ تهذَّب قوِّ جسمك وعقلك انكر نفسك انهض الساقط ساعد المسكين ارشد الضال اقتفِ خطوات سقراط . سر في سبيل المسيح قد تقتل او تصلب ولكنك تلاقي حتفك مسروراً وتخلد اسمك . فأيهما تختار

[عن مقتطف نوفبر ١٩٢٥]

سر النبوغ في الادب

لمصطفى صادق الرافعي

لو ترجمنا الخاطرة التي تمرّ في ذهن الحيوان الذكي حين ينقاد في يد رجل ضعيف أبله يُصرِّفُهُ ويُديرُهُ على أغراضه فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا وأديناها بمعنى مما بين الانسان والحيوان لكانت في العبارة هكذا : ما أنت أيها الابله فيما بيني وبين الحقيقة المدبرة للكون الا نبيٌّ مرسل صلى الله عليك وسلم ... ذلك ان التركيب الذي يَبينُ به الانسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دمغ به على خصائصه فأفرغه الله في جلده ووضع في رأسه ذلك القفل الالهي الذي حبسه في باب الاضطرار من غرائزه البهيمية واقفل به على الدنيا العقلية المتسعة بينه وبين الانسان فالكون عنده لغوٌ كلُّهُ ليس فيه الا حقائق يسيرة ثم لا تفسير لهذه الحقائق الا من طبيعته هو، فجلده أدق تفسير فلكي... للشمس والنور والهواء وما يجيء منها وجوفهُ اصح تعبير جغرافي ... للكرة الارضية وما تحمل وجوعهُ وشبعهُ هما كل فلسفة الشر والخير في العالم

فأساس الذكاء عالياً ونازلا هو التركيب الطبيعي لا غيره، لو زادت في الدماغ ذرة أو نقصت لزادت للدنيا صورة أو نقصت فبالضرورة تكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين حدَّة الذكاء في أفراد كل نوع من الحيوان وما نشهد من ذلك في أحوال الناس من الفطنة الى الذكاء[1] إلى الالمعية إلى الجهبذة إلى النبوغ الى العبقرية وهي طبقات من ألفاظ اللغة لاحوال قائمة من هذه المعاني ترجع إلى درجات ثابتة في تركيب الدماغ

ومما يسجد له العقل الانساني سجدة طويلة . اذا هو تأمل في حكمة الله ومرَّ يتصفح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ — ان هذا الوجود الذي يحمل اسرار الالوهية هو كرة متقاذفة في الفضاء الابدي وان الارض التي تحمل أسرار الانسانية هي كرة طائرة فيما مُدَّ لها من الوجود وان كل حي فيها يحمل أسرار حياته في كرة خاصة به هي رأسه. وان الوجود من كل حي هو بعد ذلك ليس شيئاً في النظر ولا في الحس ولا في الفهم الا كما يُرى ويحس ويفهم في هذا الرأس بعينه على طريقته وتركيبه ، فيصعد التدريج الى الكبير الى الاكبر وينزل إلى الصغير الى الاصغر ثم لا معنى لما صعد الا مما نزل ،وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى تنفذ العلماء الى السر الحقيقي ان العقل الانساني فهم كل شيء ولم يفهم شيئاً . . . .

---

(١) عندنا ان الفطنة في اللغة دون الذكاء تقابل ما عند الحيوان من التنبه . والذكاء التوقد والذبان

والناس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيه من هذا التدرج . فأما واحد فيكون دماغه باعتباره من سائر الناس في الذكاء والعقل كالوجود المحيط وأما آخر فكالشمس ثم غيرها كالارض ثم الرابع كالانسان ثم يكون منهم كالحيوان ومنهم كالحشرة ، ولا علة لكل هذا الأ ما هيأت الاقدار « بأسبابها الكثيرة » لكل انسان في تركيب دماغه في نوع المادة السنجابية من المخ ، وأحوال التركيب في الملايين من الخلايا العصبية ، وما لا يعد من فروع هذه الخلايا وشعبها ، ثم ما يكون من قبل العلاقات بين هذه الفروع التي هي لكل رأس كرمل الكرة الارضية ، ثم اختلاف مقادير المواد الكيماوية التي تتخلق في غدد الجسم وتنفثها الغدد في الدم

فقد يكون العمل النابغ المتمرد على العقول آتياً من قطرة في هذه الغدد كما ينبعث العملاق المارد بعظامه الممتدة والواحه المشبوحة من غدته النخامية لا غيرها

فالذكي من ذكي مثله انما هو كالجيش من جيش بإزائه يقع الاختلاف بينهما فيما اشتملا عليه من كثرة الجند وصفاتهم من القوة والضعف واحوالهم من النظام والاختلال وقوة آلاتهم ومقدارها ونوع الاختراع فيها ثم طبيعة موضعهم وحسن توجيههم وقيادتهم وما اكتنفهم من صعب أو سهل وما تظاهر عليهم من الحوادث والاقدار ثم التوفيق الذي لا حيلة فيه ان وقع في حصة احدهما واستقر أو وقع هوناً وطار للآخر . وبنحوٍ من هذا كله تكون المفاضلة اذا وازنت بين اثنين من النوابغ في حقيقة نبوغهما

فالنابغة خَلقٌ من خالقه يصنع كما ترى بأقدار الله اذ هو قَدر على قومه وعلى عصره وهو من الناس كالورقة الرابحة من ورق السحب (اليانصيب) ، سلة يدرجعلتها مالاً وتركت الباقيات ورقاً وأحدثت بينهما الفرق الذهبي ، وبهذا لا يستطيع العالم ان يزيد الدنيا نابغة الأ اذا استطاع ان يزيد في الكواكب نجماً فيصنعهُ . وهبهُ صنعهُ من الكهرباء فيبقى ان يحمله واذا حمله بقي ان يرفعهُ الى السموات وهبهُ قد رفعهُ فيبقى كل شيء . . . يبقى عليه ان يقحمهُ في النجوم ويرسله فيها يدور ويتفلك

وكما يخلق النابغة بتركيبه تخلق لهُ الاحوال الملائمة لعمله الذي خص به في أسرار التقدير عاملاً نافعاً وان كانت لا تلائمه هو منتفعاً فانه هو غير مقصود الا من حيث انه وسيلة أو آلة تكابد ما تحتمل في أعمالها ويؤتى لها لتأخذ على طريقة وتعطي على طريقة ، وبذلك يرجع التقدير الى ان يكون العقل النابغة دليلاً للناس من الناس انفسهم على الخالق الذي هو وحده أمره الامر

واذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء النوابغ والخيال يظهر في تعبيرهم والحكمة تهبط الى الدنيا في تفكيرهم والمثل الاعلى هم الداعون اليه والاشراق النفسية هم موقظوها والعواطف هم المصورون لها وسرور الحياة هم الذين حولوه إلى الفن . إذا كان هذا كله فهذا كله انما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الازلية المدبرة وأنهم أدواتها في هذه المعاني فما هي أعمالهم اكثر مما هي أعمالها وقد يظن الناس ان النابغة يلتمس القوى المحيطة به ، ليبدع منها والحقيقة انها هي تلتمسه لتبدع به

وبعدُ فالنابغة كأنه انسان من الفلك فهو يختزن الاشعة العقلية ويُريقها وفي يده الانوار والظلال والالوان يعمل بها عمل الفجر كلما أطلت على الناس معاني الحياة ، ولا تزال الحكمة تلقي اليهِ الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها وتوحي اليهِ معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق . والطبيعة خلقها الله وحده ولكنها ليست معقولة الا بالعلم وليست جميلة الا بالشعر وليست محبوبة الا بالفن ، فالنوابغ في هذا كله هم شروح وتفاسير حول كلمات الله ، وكلهم يشعر بالوجود فناً كاملاً ويشعر بنفسه شرحاً لاشياء من هذا الفن ويرى معاني الطبيعة كأنما تأتيهِ تلتمس في كتابتهِ وشعره حياة اكبر وأوسع مما هي فيه من حقائقها المحدودة ، وتتعرض له أحزان الانسانية تسأله ان يصحح الرأي فيها باستخراج معناها الخيالي الجميل فانها وان كانت آلاماً وأحزاناً الا ان معناها الخيالي هو سرور تحمله للناس اذ كان من طبيعة النفس البشرية ان تسكن إلى وصف آلامها وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرها حاملة أثرها الالهي كأن المؤلم ليس هو الألم وانما هو جهل سره

وبالجملة فالكون يختار في كل شيء مفسره العبقري ليكشف من غموضهِ ويزيد فيهِ أيضاً . . . . ثم ليؤتي الناسَ المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الاعلى من الفكر . ولهذا تصيب الكلام الذي يكتبه النابغة الملهَم في أوقات التجلي عليه كأنه كلام صوَّر نفسهُ وصاغها او كأنه قطعة من الحس قد تجسدتْ في أسطر ، ولابد ان تشعرك الجملة أنها قذفت وحياً إذ لا تجدها الاَّ وكأن في كلماتها روحاً يرتعش . ولقد يخطر لي وانا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من الاذهان الملهَمة كشكسبير والمتنبي وغيرهما حين أتأمل اختراع المعنى وأبداع سياقه وضُحى البيان عليه واشراقهُ فيه وما أُتيح له من جلال ظاهر في شكل حي يلمع بسرو في النفس — يخيل اليَّ من ذلك ان سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن انساني ليخلق تعبيراً عن جلالهِ في مثل جلاله

وأنت لو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الالهام وأجريتهُ في كتابة كاتب أو شعر شاعر من الذين ليس لهم الاَّ أذهانهم يكدونها وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً . . . . لرأيت الفرق بين شيء وشيء في أحسن ما انت واجده لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الانسان بالابرة والخيط وزهرة أخرى قد انبثقت عطرة ناضرة في غصنها الاخضر من عمل الحياة بالسماء والارض

والعبقري هو أبداً وراء ما لاينتهي من جمالٍ أولهُ في نفسهِ وآخره في الجمال الأقدس الذي مسح على هذه النفس الجميلة السامية . فما دام فيه سر العبقرية فهو دائب يعمل ممزقاً حياته في سبحات النور تمزيقاً يجتمع منه أدبهُ وما أدبه الاَّ صورة حياته ، وهو كلما أبدع شيئاً طلب الذي هو أبدعُ منه فلا يزال متألماً إن عمل لان طبيعته لا تقف عند غاية من عملهِ ومتألماً إن لم يعمل لان تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ الا في عمل . وهي طبيعة متمردة بذلك الجمال

الاقدس تمرد العشق في حامله إذ هما صورتان لامر واحد كما سنشير اليه . فكلُّ ما تجده في نفس العاشق المتدله مما يترامى به الى جنونهِ وهلاكه تجد شبهاً منه في نفس العبقري فكلاهما قانونهُ من طبيعته وحدها إذ قد اتخذت حياتهُ شكلها الفني من ذوقه هو وحده فليس يتبع طريقة أحد بل هو طريقة نفسه [1] ، وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع اليهِ ويستمدُّ منهُ . وكلاهما لا يجد المعنى الجميل في الطبيعة معنىً بل رسولاً من الجمال أُرسل اليهِ وحده ولا يزال يشعر في كل وقت أن لهُ رسائل ورُسُلاً هو يمدُّ في انتظارها . وكلاهما متى ظفر بشيءٍ من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه الى الظن انهُ ربح من الكون ربحاً لم يكن لهُ من قبل . وكلاهما متهالك بين قيود الحياة التي في الحياة والواقع وبين حريتها التي في خياله وأمله كأن عليهِ في سبيل هذه الحرية أن يقطّع الليل والنهار لا قيداً من قيود الاجتماع او العيش . وكلاهما متصلٌ بقوة غيبية وراء ما يرى وما يحسُّ تجعل نظرته في الاشياء خاضعة لقانون النظرة العاشقة في العينين الساحرتين المعشوقتين ، فاذا مدَّ عينيهِ في شيءٍ جميل فهناك سؤالٌ وجوابهُ ووحيٌ وترجمةٌ ومرور من يقظة الى حلم وانتقال من حقيقة الى خيال

غير أن طبيعة العبقري تزيد على كل ذلك ألماً تنفرد بهِ لا تستقرُّ معهُ على رضا ولا تبتهج يُسلّط الاعنات عليها ويستغرقها بالهموم السامية وذلك ألم الكمال الفني الذي لا يدرك العبقري غايته عند نفسه وان كان عند الناس قد أدرك غايات وغايات . فطبيعة كل عبقري تجهد جهدها في العمل لتُخرج بهِ مما يستطيعهُ الناس فاذا تأتّى صاحبها لذلك وكابد فيهِ وأدرك منهُ وبلغ وأعجز اندفعت طبيعتهُ الى الخروج مما يستطيع هو .... كأنهُ خارجٌ عن الطبيعة وداخل في الطبيعة في وقت معاً وكأنهُ نفسُهُ وفوق نفسه في حال ، وهذا سرُّ حريتهِ وسموه كما انهُ سرُّ ألمهِ وحيرته

ومن أثر ذلك ما تحسُّهُ أنت اذا قرأت للاديب البليغ التامّ صاحب الفكر والاسلوب والذهن الملهَم فانك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك ويتمدّد فيها ويهتزُّ بها طرباً

---

(١) لا وجه عندنا لما استعمله بعض الكتاب في الادب من قولهم مدرسة امرىء القيس ومدرسة النابغة ونحو ذلك ترجمة حرفية لقول الاوربيين مدرسة فلان ومدرسة فلان فان الادب ان كان تقليداً فهو ادب منحط لا يجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها وان كان ابداعاً فليس الابداع مدرسة تكون بالتعليم والتلقين ويتخرج بها الواحد والمائة والالف على طراز لا يختلف . انما تطلق هذه الكلمة على المذاهب المستقرة في الفنون التعليمية وفي هذا لا تطلق في الادب العربي الا على نقتين فقط هما البصريون والكوفيون على ان كلمة مذهب هي المستعملة في هذا وهي اسد منها اذ يدل المذهب على منحى اختاره الرأي وذهب اليه فكأنه من تحقيق صاحبه وتابعيه . اما تسمية مجموعة الالهامات التي مرت في ذهن نابغة من النوابغ بالمدرسة فتسمية مضحكة باردة اذ الالهام بصيرة محضة وما هو مما يقلد وقلما تتشابه ذهنان على الارض في عناصر التكوين التي يأتي منها النبوغ . وقد قال علماؤنا طريقة فلان وطريقة فلان فالطريقة هي الكلمة الصحيحة لان عليها ظاهر العمل واسلوبه يتوجه بها من يتوجه ويقلد فيها من يقلد اما سر العمل فهو سر العامل ايضاً وهو شيء في الروح والبصيرة . وهو في العبقري امر لا يستطيعه انسان وشذ في انسان بخصوصه

واعجاباً فتقول لا أحسنَ من هذا ثم تؤمل مع ذلك ان تجد منهُ هو أحسن من هذا . . . كأنهُ وإن تناهى الى الغاية لا يزال عندك فوق الغاية . وهذا غريبٌ ولكن لا دليل على العبقرية الاَّ الغرابة دائماً فهي نظامٌ لا نظامَ فيهِ لانها طريقةٌ لا طريقة لها . وبهذه الغرابة جاءت العبقرية كلها أمثلةً وليس فيها قواعد يُحتذى عليها ولا هدايةَ فيها الاَّ من الروح واذا كان الفنُّ قدرةً متصرفةً في الجمال فالعبقرية قدرة متصرفةٌ في الفن ، والنابغة كالمتكيّس [1] الذي معهُ قوى العقل ويريد أن يزداد على قدومِ منها ولكنَّ العبقريَّ كالملهَم الذي معهُ قوى الروح ويريد ان يزيد الناس على قدرهم بها ، وذلك مرجعهُ الفكر الدقيق الباحث وهذا مناطه البصيرة الشفَّافة النافذة وهي اغرب الغرائب في الانسان إذ هي الجهةُ المطلقة في هذا المخلوق المقيَّد وبها تتسع النفس لادراك المطلق الظاهر من خلال الموجودات وفيها تتحول الاشياء من نظام الحاسَّة الى نظام الروح فيُسمعُ المرئيُّ ويبصر المسموعُ وتخلع الاجسام انغاماً وتلبس الاصواتُ اشكالاً ويبدو عندها كل مخلوق وكأن فيهِ بقية زائدة على خلقه تُركت ليعمل فيها الكاتب او الشاعر المحدَّث [2] عمل فنه الزائد على الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه وهي التي نسميها الإلهام

وهذه الحاسة هي كذلك من بعض الغرابة تكون في صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه في الطيور التي تقطعُ في جو السماء الى غاياتها البعيدة من قطب الارض الى قطبها الآخر بغير دليل تحمله ولا رسم تنظر فيهِ ولا علم ترجع اليهِ ، وكما تكون حاسة التمييز في النحل الذي يبني عسالتهُ على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة ، وحاسةُ التدبير في النمل الذي يدبّر مملكتهُ بغير علوم الممالك وسياستها . وكثيراً ما يجيء الاديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه وأسرار الطبائع واوصافها بما يغطي على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ومثل هذا العبقري هو عندي فوق العلم لا أقول بدرجة ولكن بحاسة

وبالالهام يكون لكل عبقري ذهنهُ الذي معهُ وذهنهُ الذي ليس معهُ اذ كانت له من وراء خياله قوة غير منظورة ليست فيهِ ومع ذلك تعمل كما تعمل الاعضاء في جسمه هينةً منقادةً كأنها تتصرف على اطّراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تتجلّى عليهِ

وليست تتصل هذه القوة الاَّ بتركيب عصبي تكون فيهِ الخصائص التي تصلح أن تتلقى عنها وهي في العبقريين خصائص مَرَضية في الاعم الاغلب بل لعلها كذلك دائماً ليتيسر بها

---

(١) من التكيس وهو العقل فيكون عاقلا ويريد ان يزداد على مقداره (٢) هذه هي الكلمة القديمة التي تقابل ما نسميه العبقري بلغة عصرنا كأن الاشياء تحدثه باسرارها او تحدثه بها قوة أعلى من القوى الانسانية واذا كان محدثاً فمن ذلك انه ينطق عن سمع من الغيب . ومن ذلك ما زعم العرب من ان لكل شاعر شيطاناً ينفث على لسانه وهو وصف دقيق للعبقرية الا انه بلغة الجاهلية وقد صححه النبي صلى الله عليه وسلم فقال لشاعره حسان : قل وروح القدس معك . وفي كلمة « روح القدس » تنطوي فلسفة العبقرية كلها

العبقريُّ لحالة خفيفة من الموت . . . . يحمل بها كدَّه وتعبه وما يعانيه من مضض الفكر وثقلته ، ثم لتكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيه وبين عالم الغيب منهُ . فالتركيب العصبي في دماغ العبقري انسان على حياله مع انسان آخر ، أحدهما لما في الطبيعة والثاني لما وراء الطبيعة ، ومن ثمَّ كان الرجل من هذه النشأة كالمصباح يتقد وينطفئ لانهُ آلة نور تعرض لها العلل فتذهب بقدرتها عليهِ ، وتنضب مادة النور منها فكذلك لا تقدر عليهِ ، وتكون مضيئة فتنطفئ بسبب ليس منها ولا من نورها وهي على كل هذه الاحوال لا تملك منها حالة .

فبينما العبقري القدي يملأ الدنيا من آثاره النابغة تراه في حالة من أحواله يدأب لا يأتلي فيجدّ في العمل ويبذل الوسع فيهِ ويصبر على مطاولة التعب في إحكامه ويفيض بهِ فيضاً وكأن في طبيعتهِ الربيع المتفتح طول ايامه بالجمال اذا هو في حالة اخرى يتلكأ ويتربص لا يسمّل شيئاً كأنما دخل في قريحته الشتاء ، وفي ثالثة يتباطأ ويتلبث فلا يعنُّ له جديد كأنما حبس عنهُ فكره أو نبا طبعهُ أو هو في قيظ طبيعتهِ وخمولها وضجرها ثم لا تمضي على ذلك الاّ تورَّة وساعة فاذا على صيفهِ هو الانوفمبر وديسمبر . . . واذا هو منبعث ملء القوة والنشاط . وربما يأخذ في غرض من الكتابة قد رسم له المعنى وهيأ له المادة فلا يكاد يمضي لنحوٍ منهُ حتى تتناسخ في ذهنه المعاني فاذا هو يكتب ما لا يشبه ما كان ابتدأ بهِ ويأتيه غير ما كان قد أراده كأنما يُلقى عليهِ فهو يستملي .

وقد يبتدئ معنى ثم يُقطع عنهُ بطارئة من عمل او حديث ثم يُعاوده فاذا معنى آخر واذا جهةٌ من الفكر هي جهة الابداع والاختراع في موضوعهِ واذا هو انما كان يُجمُّ بذلك الصارف عن معناه الاول جزءاً ليدعهُ الى الاكمل والاصح ، وأيقن انهُ لو كان استوفى على ما بدأ لأسفَّ وضعف وجاء بما غيره أقدرُ عليهِ كأن هذه القوة الخفية التي تلهمهُ تتقحم لهُ ايضاً بأساليبها الغريبة . وقد يكون آخذاً في عمله ماضياً على طبعه مسترسلاً الى ما ينكشف له من أسرار المعاني ثقِفاً من هنا لَقِفاً من هناك[1] ثم ينظر فاذا هو قد مُسِح لوح خياله ويطلب المعنى فلا يتاح له ويتمادى فلا يزيد الاكدّاً وعسراً كأنما ذهب إلهامه في غمْرٍ من غمور الابدية[2] وكل من ارتاض بصناعة الفكر واستحكمت له عادتها ومرَّ في درجاتها حتى بلغ المكانة التي يستشرف منها للإلهام ويتعرض فيها بروحه وبصيرته لتنبيهات الوحي واشراقات الغيب يعلم ان كل معنى بديع يأتي بهِ في صناعته انما يقع له إلهاماً من ذلك المعنى الحي المتمدد في

---

(١) يقال هو ثقف لقف اي سريع الفهم لما يلقى اليه ولكنا استعملناه كما ترى بجاء أشد تمكناً من اصله

(٢) قالوا كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول : تمر علي الساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون علي من عمل بيت من الشعر . وذكروا انه كان من عمله اذا استصعب الشعر عليه أن يركب ناقته ويطوف وحده خالياً منفرداً في شعاب الجبال وبطون الاودية فينقاد له الكلام . وأخبارهم كثيرة في الطرق التي يستعان بها على الشعر ويجتلب بها نافره ، والحقيقة انها علل من النفس تعارض حالة الالهام الى أن تزول وتصفو النفس منها أو أسباب تتفق ولا تلهم شيئاً الى أن تتغير بأسباب ملهمة

الكائنات كلها ظاهراً في شيء منها بالضوء وفي أشياء بالالوان وفي بعضها بالحركة وفي بعضها بالانسجام وفي بعضها بالروعة والفخامة وفي غيرها بنِصْبَة الهيئة وظاهراً في حالات كثيرة بانه غير ظاهر ، ويعرف كذلك أن هذا المعنى الشامل الذي لا يحد هو الذي ينقل الوجود كله الى نفوس النوابغ [1] متى نبض في هذه النفوس الرقيقة وأشعرها سرَّه. واذا همَّ النابغة أن يتوضحه لا يرى شيئاً واذا اراد حجة عليه لم يستطع الجلاء عن بيانه بكلمة واذا التمس التعريف به لم يجد الا ما يشهد له إحساسه وقلبه . وهذا الذي يتقدح في أذهان النوابغ أفكاراً حين يفيض لكل منهم بسبب من قراءة او مشاهدة او حالة او مراس ، هو هو بعينه الذي يتقدح عشقاً في قلوب المحبين حين يتراءى لكل منهم في معنى على وجه جميل ، ومن ثم كان النابغة في الادب لا يتم تمامه الا اذا أحب وعشق وكان الادب نفسه في تحصيل حقيقته الفلسفية ليس شيئاً سوى صناعة جمال الفكر

وهذا العمل في ذلك الجهاز العصبي الخاص به في بعض الادمغة هو الذي كان يسميه علماء الادب العربي بالتوليد وقد عرفوا أثره ولكنهم لم يتنبهوا الى حقيقته ولا ادركوا من سره شيئاً واحسن ما قرأناه فيه قول ابن رشيق في كتاب العمدة : انما سمي الشاعر شاعراً لانه يشعر بما لا يشعر به غيره فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، او استطراف لفظ وابتداعه ، او زيادة فيما اجحف فيه غيره من المعاني او نقص مما اطاله سواه من الالفاظ او صرف معنى الى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ولم يكن له الا فضل الوزن. هذا كلام ابن رشيق وليس لهم احسن منه وهو مع ذلك تخليط لا قيمة له وليس فيه من موضوعنا الا لفظ التوليد

ومما لا نقضي منه عجباً في تتبع فلسفة هذه اللغة العربية العجيبة اننا نرى اكثر الفاظها كالتامة لا ينقصها شيء من دقائق المعنى في اصل وضعها على حين لا يفهم علماؤها من هذه الالفاظ الا بعض ما تدل عليه كانها منزلة تنزيلاً ممن يعلم السر وقد نبهنا الى هذا في كتابنا (تاريخ آداب العرب) وافضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته . وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التي تفوت العقل حتى ان اكثر الفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفض العلوم والفلسفة خواتمها في عصور آتية لا ريب فيها [2] . وكلمة التوليد التي لم يفهم منها العلماء الا اخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الاخذ التي اشاروا اليها في كتب الادب — هي الكلمة التي لا يخرج عنها شيء من اسرار النبوغ ولا تجد ما يسد في ذلك مسدها او يحيط احاطتها ولا نظن في لغة من اللغات ما يشبهها في هذه الدلالة واستيعابها كل اسرار المعنى اذ هي بلفظها نص على حياة الكون في الذهن الانساني وانهُ يتخذه وسيلة لابداع معانيه كما يتخذ سر الحياة بطن

(١) هناك فرق علمي بين ما يسمى نبوغاً وما يسمى عبقرية ولكنا في هذا الفصل اطلقنا الكلام وقيدنا في مواضع بخصوصها ، ويكاد الفرق بين النابغة والعبقري في جماع امره أن يكون كالفرق بين التلغراف الذي طريقه مادة السلك وبين الآخر الذي طريقه روح الجو . فكلاهما هو الآخر ولكن احدهما لا بد له من طريق مسلوك والآخر طريقه كل الطرق أي فوق أن يقيد بطريقة

(٢) على هذا المعنى وكشف اسراره في آيات القرآن سيبنى كتابنا الجديد «اسرار الاعجاز»

الأم وسيلة لابداع موجوداته ، وان المعاني تتلاقح فيلد بعضها بعضاً في اسلوب من الحياة وان هذه هي وحدها الطريقة لتطور الفكر واخراج سُلالات من المعاني بعضها اجمل من بعض كما يكون مثل ذلك في النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ، وان النبوغ ليس شيئاً الا التركيب العصبي الخاص في الذهن ثم نمو هذا التركيب مع الحياة في طريقة سواء هي وطريقة الولادة الحيية التي مرجعها كذلك الى تركيب خاص في احشاء الانثى ينمو ثم يدرك ثم يعمل عمله المعجز . واذا كان من كل شيء في الطبيعة زوجان فالكلمة نص على ان اذهان النوابغ اذهان مؤنثة في طباعها التي بنيت عليها ، وهذا صحيح اذ هي اقوى الاذهان على الارض في الحس بالآلام والمسرات ، ومعاني الدموع والابتسام اسرع اليها من غيرها بل هي طبيعة فيها . وهي وحدها المبدعة للجمال والمنشئة للذوق وعملها في ذلك هو قانون وجودها ، ثم هي قائمة على الاحتمال والاعطاء والرضا بالحرمان في سبيل ذلك وادمان الصبر على التعب والدقة والاهتمام بالتفاصيل وأساسها الحب ،وكل ذلك من طباع الانثى وهي النابغة فيه بل هي النابغة به

فسر النبوغ في الادب وفي غيره هو التوليد وسر التوليد في نتج الذهن المهيأ بأدواته العصبية المتجه الى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكي الى السماء واجرامها . وبذلك العنصر الذهني يزيد النابغة على غيره كما يزيد الماس على الزجاج والجوهر على الحجر والفولاذ على الحديد والذهب على النحاس ،فهذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد في سر تركيبها ويتفاوت النوابغ انفسهم في قوة هذه الملكة فبعضهم فيها اكمل من بعض وتمدُّ لهم في الخلاف احوال ازمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها ، وبهذه المباينة تجتمع لكل منهم شخصية وتتسق له طريقة وبذلك تتنوع الاساليب ويعاد الكلام غيرما كان في نفسه وتتجدد الدنيا بمعانيها في ذهن كل اديب يفهم الدنيا وتتخذ الاشياء الجارية في العادة غرابة ليست في المادة ويرجع الحقيقي اكثر من حقيقته

وقد سئل مصور مبدع بماذا يمزج الوانه فتأتي ولها اشراقها وجمالها ونبوغ معانيها وزهو الحياة بها في الصورة فقال : انما امزجها بمخي . وهذا هذا فان الالوان عند الناس جميعاً ولكن مخه عنده وحده وله تركيبه الخاص به وحده وسر الصناعة في توليد هذا الدماغ فكان الوانه في صناعته جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كل ما يتناولهُ العبقري فانك لتجد الشعر في وزن خاص به يدل عليه ويتمم الغرض منهُ ويضيف الى معانيه أنقاً من الجمال وحسنه والى صوته نغماً من الموسيقى وطربها . فما اشبه الجهاز العصبي في دماغ كل نابغة ان يكون وزناً شعريًّا لهذا النابغة بخاصته . الا ترى انك لا تقرأ الاديب الحق الا وجدت كل ما يكتبهُ يجيء في وزن خاص به حتى لا يخرج عنهُ مرة او تزيد انت فيه وتنقص الا ظهر لك انهُ مكسور ....؟

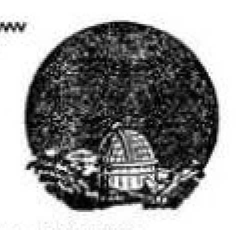
والذهن العبقري لا يتخذ المعاني موضوع بحث ونظر وتعقب يستخرج منها او يتملق عليها فهذا عمل الذهن الذكي وحده وهو غاية الغايات فيه ببحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا

ويأخذ من ثمَّ ويعترض ويصحح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شيء وما فيها الاّ اشباؤه هو وأمثاله . اما الذهن العبقري فليس له من المعاني الاّ مادة عمل فلا تكاد تلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتنوَّع وتتساقط له اشكالاً وصوراً في مثل خطرات البرق، وربما غمر بالمعنى الواحد في جماله وسموه وقوة تأثيره مقالاتٍ عدة لاولئك الاذكياء فنسخها نسخاً وجعلها منهُ كالشموع الموقدة بإزاء الشمس . فاذا ذهبت توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات في الروعة والجلال ورأيت عربدة المقالة وغرورها لم تستطع الاّ ان تقول لها : يا حصاة الميزان في احدى كفتيه ألا يكفيك الجبل في الكفة الاخرى ....؟

وقد عرف الادباء جميعاً ان كاتب فرنسا العظيم اناتول فرانس كان يكتب الجملة ثم ينقحها ثم يهذبها ثم يعيدها ثم يرجع فيها وهكذا خمس مرات الى ثمان ويقدّم ويؤخر من موضع الى موضع ويحتسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً وما هو منها في شيء ولا احسب الاوربيين انفسهم تنبهوا الى سر هذه الطريقة وانما سرها من جهاز التوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم فاذا قرأ كتابة حوَّلها فكره وابدع له منها من غير ان يعمل في ذلك او يتكلف له الاّ ما يتكلف من يهز اليه بجذع الشجرة لتساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جنيّاً. فكلما قرأ ولّد ذهنه فيثبت ما يأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجيء المعنى في النهاية وانهُ لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدي الى طريقته وسياق الفكر فيهِ اذ كان لم يأتِ الاّ محولاً عن وجههِ مرات لا مرة واحدة

لجهاز التوليد متى استمر واستحكم في انسان اصبح له بمقام ملَك الوحي من النبي وهو عندنا دليل من اقوى الادلة على صحة النبوة وحدوث الوحي وامكانهُ اذ لا تتصرف بهِ الاّ قوة غيبية لا عمل للانسان فيها بل هي تبدع ابداعها وتلقي عليهِ القاءه . وليس كل من تعرض لها ادرك منها ولا كل من ادرك منها بلغ بها بل لا بدّ لها من الجهاز العصبي المحكم كجهاز اللاسلكي الدقيق المصنوع لتلقي ابعد الامواج الكهربائية واقواها . وهذه القوة ان ارادت معاني الجمال اخرجت الشاعر وان ارادت كشف السر عن الاشياء اخرجت الاديب وان ارادت حقائق الوجود اخرجت الحكيم . فان كان الامر اكبر من هذا كله وكان امر تغيير الحياة وصبّ الزمان جديدة للانسانية والوثوب بهذه الدنيا درجة او درجات في الرقي فهنا تكون الوسيلة اكبر من البصيرة فليس لها من قوة الغيب الاّ الوحي ويكون الغرض اكبر من الشاعر والاديب والحكيم فلا يختار الاّ النبي ثم لا يوحى اليهِ الاّ وهو في حسٍّ لساعة الوحي وحدها وهي ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقى عن روح الخلد ، وقريب من ذلك خلوة النابغة بنفسه في ساعة التوليد . فسر النبوغ من سرّ الوحي لا ريب في ذلك، وما اسهل سرّ الوحي وأيسر أمرهُ ولكن في الانبياء وحدهم وهنا كل الصعوبة...

« ان تكون او لا تكون هذه هي المسألة »



كان الكون ذرة وانفجرت

نظرية الاب لميتر في اصل الكون

— ١ —

كل الشموس والسيارات والاقمار نشأت من ذرة ضخمة على اثر انفجارها وتمزقها

بهذا تلخَّص نظرية الاب لميتر Lemaitre في أصل الكون . وهي من اغرب النظريات العلمية الحديثة وابعثها على الدهشة . وقد عني بها علماء الفلك والرياضة في انحاء العالم ، لانها على غرابتها ، تفسر كثيراً من الحقائق المشاهدة التي حار العلماء في تعليلها

ويرى الاب لميتر ان مادة الكون كلها كانت محشوكة في ذرة ضخمة ظلت ساكنة مستقرة الى قبل عشرة آلاف مليون سنة . ثم انفجرت فجأة كما ينطلق صاروخ من الصواريخ النارية في حفلة وفاء النيل . فانتثرت منهُ الشموس التي يتألف منها الكون

اما كيف تنفجر بعض الذرات فيستجلى في التجربة الآتية : — خذ ساعة ارقام مينائها مصنوعة من مادة فصفورية ، واذهب الى غرفة مظلمة ، وانظر الى الارقام الفصفورية بعدسة مكبرة تر الشرر الناري منطلقاً منها . واذ انت تشاهد هذا الشرر المتطاير تذكر ان كل شرارة تنطلق من ذرة منفجرة . وفي كل ذرة منفجرة ترى صورة مصغرة لنظرية الاب لميتر

والمسلَّم بهِ ان ذرة الراديوم تبقى نحو ١٧٣٠ سنة ساكنة هاجعة ثم تنفجر فتنطلق منها الدقائق كما انفجرت ذرة الكون الاصلية وانطلقت منها الشموس

وهذه النظرية تعلل لنا ظاهرة من اغرب الظاهرات العلمية وهي ظاهرة الكون الآخذ في الاتساع أو التمدد Expanding Universe . فالتلسكوبات الكبيرة تبين ان في رحاب الكون ملايين من السدم العدسية الشكل خارج المجرة . والذي عليهِ العلماء الآن ان المجرة نفسها سديم من هذا القبيل وان شمسنا واحدة من الوف الوف الشمس التي تتألف المجرة من مجموعها . واحد هذه السدم — سديم Canes Ventici — يبعد عن المجرة بعداً عظيماً فلا يصل ضوءه الينا الاَّ بعد مسير مليون سنة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ! واغرب من ذلك ان الارصاد تدل على ان هذا السديم يزداد بعداً عنا ثانية فثانية وان سرعة ابتعاده عنا تبلغ ١٧٠ ميلاً في الثانية

وثمة عدا السُّدُم الكبيرة اللامعة سُدُم تبدو لنا صغيرة ضئيلة النور لبُعدها تحصى بالوف الالوف . وعلماء الفلك يجوبون رحاب الفضاء بنظاراتهم والواحهم الفوتغرافية الى بعد

مائة مليون سنة ضوئية لكي يحصوها على قدر الطاقة. والشيء العجيب الذي استرعى انتباههم ليسَ عدد السُدُم الذي يبلغ الملايين بل ان السُدُم البعيدة اسرع ابتعاداً عنا من السدم القريبة . وقد قيست سرعة احدها فاذا هي نحو ١٢ الف ميل في الثانية

فسأل الفلكيون « ما السرُّ في ان سرعة السدم البعيدة اعظم من سرعة السُدُم القريبة ولماذا يبدو لنا ان هذه السُدُم تبتعد عنا نحن ،واذا كان هذا الابتعاد ناجماً عن اتساع الكون وتمدّدهِ فلماذا يبدو لنا اننا في المركز وان كلَّ ما حولنا يبتعد عنا ؟ »

—٢—

ان دعاة نظرية النسبية يميلون الآن الى الأخذ بان الكون آخذٌ في التمدّد . ولكنهم يعتقدون ان ما يبدو لنا من ان الارض في مركز الكون المتمدّد ليس الاَّ وهماً بصريًّا

ويضربون لذلك المثلَ الآتي :— لنفترض ان كرة الارض تمدّدت في ذات ليلة حتى اصبحت ضعف ما هي قطراً ومحيطاً وابعاداً بين الاجسام التي على سطحها .في حين ان احجام الاجسام التي على سطحها ظلت هي هي . فاذا استيقظتَ في الصباح وجدت جارك الذي كان يقطن على خمسين متراً منك اصبح يقطن على مائة متر . وصديقك الذي كان يقطن في قرية تبعد ميلاً عنك اصبح يبعد ميلين . وهكذا تجد ان نسبة الاتساع تزداد بازدياد البعد عنك. وكل احد غيرك يرى ما ترى انت ويحسب نفسهُ المركز الذي بعدت عنهُ الاجسام التي على سطح الارض

يقولون : وتمدُّد الكون من هذا القبيل الاَّ انهُ يقع في عالم ذي ثلاثة ابعاد فلا يمكن تصوّرهُ . ولكن ظاهرات التمدّد في الحالين متقابلة . فالسُدُم لا تفرُّ منَّا . وانما ابتعادها سببهُ تمدُّد الكون . وقد يبدو للقارىء ان هذا التمييز لا يعدو ان يكون جدلاً يدور حول الالفاظ فقط . ولكن الفرق لازم لفهم المسألة .فاصحاب النظرية النسبية يرون فرقاً بين ابتعاد السدُم نفسها وبين اتساع الفضاء الذي هي منثورة في رحابهِ

ولكن هذا الفرض يقوم عليهِ اعتراض . فان سرعة التمدُّد عظيمة جداً . فاذا رجعنا بالكون من حالتهِ الراهنة الى ما كان عليهِ من عشرة آلاف مليون سنة ، وجدناهُ والنجوم مزدحمة فيهِ ازدحام ساحة من الساحات العامة بالسيّارات في ايام الاعياد . وقد يبدو ان مدى عشرة آلاف مليون سنة مدى طويل جداً. ولكن الجولوجيين يقولون ان عمر الارض لا يقلُّ عن الف مليون سنة. واذاً فالزمن المنقضي بين الكون في حالة ازدحامهِ بالنجوم وزمن نشوء الارض والكون الى ما هما عليهِ الآن لا يكفي لحدوث كلّ التطورات الكونية التي افضت الى نشوء الارض . وهذا منشأ الاعتراض الذي يوجَّه الى هذا الفرض

وقراء المقتطف يعلمون ان العالم الفرنسي لابلاس علل نشوء النظام الشمسي بما دعي

« النظرية السديمية » فتصور قطعة سديمية آخذة في الدوران وانها في اثناء دورانها تتسطح عند قطبيها ثم تأخذ في التقلص وتقلصها يزيد سرعة دورانها ، واذ تبلغ سرعة دورانها حدًّا معيناً ، يتعذر التماسك بين اجزائها ، فتنطلق منها حلقات من مادتها وهذه الحلقات تتقلص فتنشأ منها السيارات

ومضى زمن كان هذا الرأي سائداً في دوائر الفلكيين ثم بدت اعتراضات عليهِ فتخلى عنهُ العلماء وهم يعتمدون الآن على نظرية اشتغل في استخراجها تشمبرلين ومولتن وجينز وجفريز وغيرهم

على ان النظرية السديمية ظلَّت معتمَد الفلكيين في تعليل نشوء النجوم من السدم. وهذا النشوء يقتضي زمناً طويلاً تؤيده الارصاد والحسابات الرياضية . فاذا كان القول بتمدد الكون صحيحاً فالزمن المنقضي منذ ما كان الكون خواءً الى ان نشأت الارض لا يكفي قط لنشوء النجوم وهو فعل بطيء كل البطء . واذاً فلا بد من تنقيح آرائنا في طريقة تكوُّن النجوم من غبار الكون ، واقتراح طريقة اخرى يكون التكوُّن فيها اسرع مما هو في سابقتها حتى يلتئم ذلك مع سرعة نشوء الكون

—٣—

والظاهر ان في نظرية الاب لمتر مخرجاً من هذا المأزق

فهو يقول ان كل مادة الكون كانت محشوكة في ذرة ضخمة مستقرة . فاذا سئل ماذا كان يحدث في تلك الذرة قال « لا شيء » اذ لا سبيل لحدوث شيء في جسم لا مكان فيهِ . وليس للوقت أو الزمن معنى في عالم مستقر كل الاستقرار . ثم انفجرت هذه الذرة ، وعمر الكون يجب ان يحسب من تاريخ انفجارها الذي تمَّ من نحو عشرة آلاف مليون سنة . ومنذ ما انفجرت الذرة اخذ الكون وما زال آخذاً في الاتساع

على ان نظرية لمتر لا تبين لنا كيف تكوَّنت الارض ، وهل السيارات نشأت وقت الانفجار او تكونت بعده بطريقة اخرى

وماذا يقال في المستقبل . ان اينشتين وده ستر يريان انهُ قد يقع في المستقبل تقلص كوني يعيد النجوم ومادة الكون المتفرقة الى حالتها الاولى قبل الانفجار فتحشك في مدى قليل بالنسبة الى سعة الكون — اما لمتر فيرى ان هذا التقلص لا يمكن ان يقع بل يؤثر الاعتقاد بان الكون نشأ من ذلك الانفجار وسوف يبقى ماضياً في تمدُّده حتى تتحوَّل النجوم الى رماد !

الفكرة

لاسماعيل مظهر

«خرج الناس يجوبون بحر الوجود بآلافٍ من الشباك»

بهذا وصف الناس طاغور . فكل يوم يخرجون منتشرين في فجاج الارض ، يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشباك . ولكن كيف يكون منقلبهم ؟ ذلك ما لم يرد طاغور ان يتكلم فيه . بل انهُ ترك جميع الناس يخرجون صبيحة كل يوم من مآويهم يجوبون ذلك البحر اللجيّ ، بحر الوجود ، بآلاف من الشباك ، يتسقط كل منهم حظه ونصيبه من الدنيا

اما انهم يعودون الى مآويهم بهذه الشباك مرة اخرى ، فذلك امر محتوم . اما الشباك فحمل على اكتافهم ، سواء اخرجت بالصيد الطيب ، ام بالرمل والحصى . فلا بد اذن للناس من شباك ولا بد لهم من نصيب تخرجه هذه الشباك . ولا بد لهم ايضاً من ان يحملوا هذه الشباك ويجوبون بها بحر الوجود . والوجود

« دنيا تعجّ بسكانها   فهذا يغني وذاك ينوح   وذلك مستسلم للقدر »

وكان « يوحنا » من المستسلمين للاقدار . يحمل شبكته كل يوم ويخرج يجوب بحر الوجود مع الذين يجوبونهُ ، ويعود راضياً بما وقع في شبكته . يمضي الى مأواه ساكناً ، ويلقي بصيده جانباً ، ثم يمضي يتأمل في بحر هذا الوجود . يعيش مع احدى بنات حواء ، وحوله عشرة من الاولاد . اما هو فكان قد حطم الاربعين . وأما الشبكة التي كان يخرج بها الى بحر الوجود ، فلم تكن من الشباك التي يزوّدها ذلك البحر إلا بالمجاجة من زاده . ولكن القدر اخرج « يوحنا » الى الوجود سليل رجل كان بحر الوجود يزوده بالكثير من صيده ، وترك له من الدنيا نصيباً يكفيه النصب والكدح في سبيل العيش ، بل كان في يسار . وبحر الوجود بعد ان زوّد التاجر بالصيد الكثير ، ضنّ على الابن المفكر بصيد ولو كان قليلاً ، مما يرد السغب ويشبع بطناً عضّه الجوع

وهكذا خرج « يوحنا » الى الدنيا بمال ابيه ، ولكن برأس جديد . رأس يضن عليه بحر الوجود بخيره ، بل هو يبتلع اذا استطاع مابين يدي صاحبه من صيد جاد به على غيره من اسلافه الاولين

وكان « يوحنا » يحمل رأس فيلسوف مستهتر ، ابيقوريّ من الطراز الاول الذي عاش قبل ان يكون ابيقور ، ذلك الطراز الذي عاش في الاسكندرية ابان ازدهارها بالعلم والفلسفة ، من طراز الفلاسفة الذين عشقوا « لايس » خليعة اثينا ، او الذين لعبت بهم « تاييس » في

المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمه وزير مالية العراق سابقاً

لم يرو لنا المؤرخون العرب شيئاً عن اشتراك المنذر بن ماء السماء في الحرب الشعواء التي اثارها على الروم سنة ٥٤٠م اذ عبر الفرات قرب قرقيسيا وهبط على انطاكية وغزاها ودمّرها ونقل سكانها الى العراق الاّ ان كلاً من الطبري وابن الاثير (١) ينقل الينا خبراً نظن له علاقة بهذه الحرب وبملوك الحيرة اللخميين وان احتاج الى تمحيص ونقد من وجوه عديدة واليك خلاصته : كان بين كسرى انو شروان وغطيانوس Justinian ملك الروم هدنة فوقعت فتنة بين رجل من العرب كان غطيانوس ملّكه على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة وبين رجل من لخم كان ملّكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة والطائف وسائر الحجاز يقال له المنذر ابن النعمان. فأغار خالد على المنذر ابن النعمان فقتل من اصحابه مقتلة عظيمة وغنم امواله فكتب كسرى الى غطيانوس يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالد وطلب ان ينصف المنذر ويأمر خالداً ان يعيد اليه ما نهبه منهُ فلم يحفل به (٢). فغزا كسرى بلاد الروم في تسعين الفاً وكان طريقه على الجزيرة فأخذ مدينة دارا والرها وعبر الى الشام فملك منبج وحلب وانطاكية وفامية وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدن وسبي اهل انطاكية ونقلهم الى ارض السواد وأمر فبنيت لهم مدينة الى جانب مدينة طيسفون واقتدى غطيانوس المدن الرومية من كسرى . ويقول الطبري ان رومية المدائن كانت تشبه كل الشبه انطاكية حتى ان الاسرى الانطاكيين دخلوا روميه المدائن ووجد كل واحد بيته بدون صعوبة كأنهم في انطاكية ولم يخرجوا منها

ان هذه الرواية توافق الاحوال التاريخية كلها الاّ ان امراً واحداً يتطلب الحل . لا غريب في امر تولية المناذرة الحكم في عمان والبحرين واليمامة والطائف بعد زوال ملك كندة من آل آكل المرار. قال المستشرق السر تشارلس ليل (٣) : ولما انقضى امر كندة وسع ملوك الحيرة نطاق مملكتهم فشملت النصف الشمالي من جزيرة العرب والجانب الشرقي منها مما يلي خليج

(١) الطبري ٢ : ١٢١ والكامل ٢: ١٢١ (٢) وجاء ذكر هذه الوقعة في الشاهنامه للفردوسي في الترجمة العربية ٢: ١٢٦—١٢٩ (٣) في خطبة القاها في مؤتمر الدروس التاريخية بعنوان تاريخ العرب من شعرهم القديم ونشرها المقتطف في عدد فبراير ١٩١٤ ص ١٦٣ — ١٦٩

وتخبط في ذلك الليل البهيم من الجهل والحمق والتقيد باغلال التقاليد والاساطير «ويوحنا» ينبض له عرق ، او يدق له قلب ؟ يا للكارثة . ويا للشقاء

أتضلُّ الانسانية ويخرج اهلها كل يوم يجوبون بحر الوجود بشباك لا تخرج الاَّ بالمادة مما يشبع البطون والشهوات ،دون ان يكون فيها شيء مما يشبع العقول والقلوب؟ ايترك «يوحنا» الناس فريسة للمهاويس من زعماء الانسانية في غرارتها الاولى ، يمنونهم ويرهبونهم بالاوهام ويملؤون قلوبهم بالمخاوف والآلام ، ويخدعونهم بالاساطير والاكاذيب ، والناس مسوقون كانهم انعام سائمة ،لا يهمها الاَّ الشباك وما في بحر الوجود من صيد حلال اوحرام؟ اذن يا للهول

اتترك الانسانية ارسطو وأفلاطون في وحدتهما الاليمة ، وتعكف على سفاسف الحياة ، على حقارتها ، وتمضي راضية بان تلغي العقل ، وتهوي مع التسليم والايمان الاعمى الى احط دركات العبودية ، ويوحنا ينظر الى هذا ولا ينقذ ذلك المعبود العظيم ، من تلك الهوة السحيقة ؟

اذن فليساعد شيطان فوست . ويمضي يجمع الكتب ويملأ جوانب البيت بها ويكب على الدرس وعلى البحث وعلى الكتابة والنشر ، ويستعمق وينقب عن نفائس الفكر الذي خلفته القرون الاولى ، ثم يرمي بشبكته في بحر الوجود فلا تخرج الاَّ اصدافاً لها بريق خداع ، ولكن بلا قيمة في الحياة . فانها لا تشبع بطناً تجوع ولا تكسو جسداً لفحته الاعاصير

ويطغو بحر الحياة على يوحنا فيسلبه في ساعة واحدة ما أخرجت شباك آبائه طوال السنين . ويلقي يوحنا بشبكته فلا تخرج الاَّ عواطف وافكاراً ، والاَّ حقائق ونظريات . يا للهول

ويأخذه اليأس ليعاوده الامل . ويرى المرأة فتنبعث بحرارة الحياة في روحه وقلبه . ويرى الانسانية تحمل الشباك ، فما يشك في استعدادها للارتقاء ، وحاجتها إلى المصلحين وإلى التربية والى حرية الفكر قبل كل شيء . ولكن الم ير يوحنا ان افراد هذه « الانسانية » ينفضون شباكهم كل يوم ، ليلقوا بما اخرجت الشباك من عواطف وأفكار على الشاطيء المهجور ، ليعودوا بما فيها من حطام وزاد فحسب ؟ ولكنه طمع في ان يرى الانسانية تلتقط يوماً مع الزاد والحطام أفكاراً وعواطف ، وان تزود العقل بقليل مما يلقى على الشاطيء المهجور ، وان تلتهم النفوس قليلاً من ثمار العقول الكبيرة التي تركت تئن في وحدتها الاليمة

وتدور الايام بيوحنا دورتها ، فيصحو ليجد أنه فقد الشبكة التي يجوب بها بحر الوجود مع غيره من الناس ، وفقد المأوى الذي يرجع اليه بذلك الصيد المرير — العواطف والافكار —

ثم تدور العجلة دورة أخرى ، فيجد نفسه في عالم جديد . عالم النزاع على الحطام الذي ما فكر فيه يوحنا .. عالم الدفاع عن النفس والولد . في عالم يرغمه ارغاماً على ان يزود أولاده بشباك تخرج حطاماً لا افكاراً ولا عواطف . وتتركه العفوة في مكتب محام يهزأ بفلسفته التي افقدته شبكته التي يجوب بها بحر الوجود

— ولكنك امضيت العقد باحضرة الفيلسوف

— نعم أمضيته بيدي هذه . ولكن من غير ان اعرف نتائجه

— ان المحاكم لا تفهم هذا . ان منطق المحاكم غير منطق الفلسفة

— ولكن للمحاكم قضاة ولهم عقول تدرك الفلسفة ، وتدرك ان من كان مثلي لايحاسب على شيء الا اذا ادرك تماماً ما يترتب عليه من النتائج . وانا خُدِعتُ

— انك أمام قضية « افلاس » . واعترفت في العقد بانك تاجر وان من حق مدينك ان يفلسك

— وماذا يهم . انا مفلس فعلاً ، فماذا يضرني ان اصبح مفلساً قانوناً

— أهذه فلسفتك ؟ ان معنى الافلاس ان تسقط عنك اكثر حقوقك السياسية وان توضع تحت المراقبة كالمفسدين وقطاع الطرق والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، ولا تتعامل ولا تعامل ، ويعين عليك قيّم كالمعتوهين والسفهاء ، يتولى عنك بيع حطامك

— أ كل هذا لأني اردت ان أحرر الانسانية من أوهامها ؟

— كلاّ . بل لانك لم تدفع ما عليك من دين

— وماذا يحل بالعالم اذا لم ادفع ؟ — لا يحل بالعالم شيء ، بل يحل بك انت

— ولكن خبر في ماذا يحل بكتبي وقواميسي . انها أدوات مهنتي ولا يصح التصرف فيها قانوناً

— قانوناً ! ان القانون لا يعترف بمهنة يقال لها الفلسفة . ولا بصناعة يقال لها التفكير

— او يعترف القانون بصناعة يقال لها الدعارة وبيع العرض تلقاء المال ، ويعترف بمهنة يقال لها الاتجار بالخمور بل يعترف بما هو احط من هذا وذاك ، ولا يعترف للمفكرين بأنهم ذوو مهنة لها قيمة ولو مثل قيمة هذه الاشياء ؟

— نعم فبتسح عينك كتبك وقواميسك وافكارك وفلسفتك لا قيمة لها ابداً لا في نظر القانون ولا في نظر الناس . فاما ان تعرف كيف تدافع عن نفسك دفاعاً يقبله القانون ، واما ان تحل بك كل هذه الكوارث

— وتباع كتب ارسطو ، ومؤلفات اناتول فرانس ، والانسيكلوبيديا ، ومؤلفات داروين ، وشارلس دكنز ، وهوميروس ودانتي ... وتعليقاتي وشروحي وافكاري وانتقاداتي ونظرياتي ...

— وبالمزاد العلني افهم ما اقول !

— فهمت يا سيدي الاستاذ المحامي . فهمت ان الحكومات تعترف بالبغاء كمهنة ، ولكنها لا تعترف بأن للمفكر حق الوجود والتفكير . ولا تعترف بأن رأسه في الكتاب ، وان قلبه في القاموس . هي تحمي المومس اذا اعتدى احد الفاسقين على اجرها الدنيء ، ولكنها لا تحمي المفكر اذا سلب فكره ، وسرق نياط قلبه . لا تحمي الفيلسوف لانهُ ابله احمق . وهل احمق ممن يظن انهُ يشبع بطنهُ بالافكار ، وان يسد رمق اولاده بالفلسفة ، وان يكسو الابدان العارية بالنظريات ، او ان يزود فلذات كبده بشباك يجوبون بها بحر الوجود بحيث تكون

خيوطها محوكة من مبادىء في حرية الفكر او الضمير ؟ نعم فهمت ان المفلس ولو كان فيلسوفاً، سلب حقهُ السياسي في ان يشترك في الرأي مع المكارية وماسحي الاحذية والبغايا . فهمت انهُ يصبح في نظر القانون معتوهاً يحتاج الى الولاية والى من يبيع كل شيء يملكه حتى رأسه اذا فرض وكان للافكار قيمة مادية . فهمت ان المفكر لايغني عنهُ الفكر ولا العلم ولا الفلسفة، اذا نشبت فيهِ اظفار القانون ، وتمكنت من اذلاله المطامع الدنيوية . فهمت انهُ يصبح خارجاً عن الهيأة الاجتماعية فيراقب كقطاع الطرق والقتلة والسفاحين . فهمت انهُ يسلب الحرية ، لانهُ دعا الى الحرية . فهمت كل هذا . بل فهمت ان الانسانية تنبذ من يخرج على تقاليدها . هي تريد الخيال والوهم لا الفكر . تريد الاسطورة لا الحقيقة . تأخذ بيد من يمكر بها ويخدعها فتنخدع عنهُ . اما الفكرة واما النظرية واما الحقيقة واما حرية الفكر ، فجزاؤها من الانسانية الحرمان . وقبلاً عُذب غليليو وحُرق برونو وحُرم سبينوزا . اذن نحمدك اللهم على منزلة احط من الباغيات ، وأرفع قليلاً من اللصوص والقتلة

وكان « يوحنا » قد اخذ يهذي بهذه الكلمات وهو خارج من مكتب محاميه، ويضرب في طرقات المدينة وقد علا ضجيجها واشتدَّ صخبها ، وحمل كل من الناس شبكته بعد ان جاب بحر الوجود طوال يومه ، وارتدَّ بغنمه . اما هو فما زال يضرب في الارض على قدميه حتى مال ميزان النهار واكتهل اليوم ، واخذ الليل يرخي سدوله السوداء على بحر الوجود

ولكن فكرة « جديدة » ! ها قد ارتدَّ الامل الى قلب «يوحنا». القوة القاهرة !!!

— نعم كنت واقعاً تحت سلطان قوة قاهرة ! يا للفرج ، يا للسعادة

وارتدَّ « يوحنا » يهرول الى مكتب المحامي . وأخذ يدق الباب دقاً عنيفاً . ولكن لم يكن هنالك انسان . اذن فالى الصباح . اما في الصباح فَقَدَ فَقَدَ « يوحنا » الذاكرة . فَقَدَ « القوة القاهرة » وعجز عن ان يتذكر شيئاً . فقد الذاكرة عشرين عاماً . فكان هذا اقصى ما تستطيع الدنيا ان تنزل بالفيلسوف من مراحمها

واليوم نجد « يوحنا » على فراش الموت يحتضر ويهذي تأخذه السكرة بعد السكرة والخيالات تمر امامهُ متعاجلة تترى ، فيخيل اليهِ فيما يتخيل انهُ على باب المحامي يدق الباب دقاً عنيفاً . ثم تشع في عقله الفكرة والظرفُ الذي اوقعهُ تحت سلطان «القوة القاهرة» . فينادي بولده — أي الي ! اسرع يا بنيَّ العزيز الى مكتب المحامي . قل له ان ابي قد امضى العقد وهو واقع تحت سلطان قوة قاهرة . اسمعت — Force Majeu — قل له هذا اسرع . اسرع . «قوة قاهرة»

وعاودته السكرة ، وما هي الا اغفاءة ، ثم ابتسامة ، ثم يعلو الصدر ويهبط ، ليظل هابطاً الى الابد . نعم قوة قاهرة . ابرزته الى هذا الوجود وزودته باحلامه وآماله وأفقدته شبكته التي يجوب بها بحر الوجود وقوة قاهرة هي التي اخرجتهُ من هذه الدنيا صفر اليدين

قيثارتي

لعلي محمود طه المهندس

بَدَّدْتِ يا قيثارتي أنغامي ... ونَسِيتِ لحنَ صَبابتي وغرامي

مرَّتْ ليالٍ كُنتِ مُؤنِسَتي بها ... وعَزاءَ نفسٍ جَمَّةِ الآلام

ترْوِينَ من طَرَبِ الصِّبا وحنينهِ ... وتُذَهِّبينَ حواشيَ الأحلام

كالبلبلِ الشاكي رَوَيْتِ صَبابتي ... لحناً تمشَّى في دمي وعظامي

أنشُودةُ الوادي ولحنُ شَبابِهِ ... ذابتْ على صَدْرِ الغديرِ الطامي

شاقَ الطبيعةَ من قديمِ مَلاحِني ... أصداؤكِ الحيرى على الآكام

وشجا البحيرةَ واستخفَّ ضِفافها ... لحنٌ كفارَ مَوْجِها المترامي

يا ربَّةَ الألحانِ غنّي وابعثي ... من كلِّ ماضٍ عاثرِ الأيام

خلَتِ الشجونُ فلا رسيسَ صَبابةٍ ... تذكيها أو لوعةَ استغرام

وجفا الذي ملأَ العوالمَ بهجةً ... وجلا الحياةَ بثغرهِ البسّام

هل من نشيدكِ ما يُجدِّدُ لي الصِّبا ... ويعيدُ كرَّةَ هذه الأعوام

ويصوِّرُ الأحلامَ فتنةَ شاعرٍ ... توحي الخيالَ لريشةِ الرسّام ؟

وادي الهوى !! ولّتْ بشاشةُ دهرهِ ... وخلَتْ مغانيهِ من الآرام

طارتْ صوادحُهُ وجفَّ غديرُهُ ... وذوى بشطّيهِ النضيرُ النّامي

واعتاضَ من همسِ النسيمِ بعاصفٍ ... داوٍ يشقُّ جَوانبَ الإظلام

وهو الصدى الحاكي لضائعِ صرختي ... وصداكِ بين الغَوْرِ والآجام

قد كُنَّ ألافي ونُزْهةَ خاطري ... وسماءَ وحيِ الشعرِ والإلهام

مالي بهنَّ سَكَتْنَ عن آلامي ... أنسينَ عهدَ مودتي وذمامي ؟

يا ربّةَ الألحانِ هل من رَجْعةٍ ... لقديمِ لحنكِ أو قديمِ هيامي

فاروي أغانيَّ القُدامى وانفثي ... في الليل من نفثاتِ قلبي الدامي

علَّ الذي غنَّيتُ عرشَ جمالهِ ... وطفقتُ أرقبُ أفقَهُ المتسامي

تشجيهِ ألحاني فيسعدُني بهِ ... طيفٌ يضِنُّ عليَّ بالإلمام

مالي أراكِ جمدتِ بَيْنَ أناملي ... وعصيتِ أنّاتي ودمعي الهامي

خرساءَ لا تتلو النشيدَ ولا تعي ... سرَّ الغناءِ ولا تعيدُ كلامي

يُغري الكآبةَ بي ويكسفُ خاطري ... أني أراكِ حبيسةَ الأنغام

اثر الآلات في الحضارة

آراء الكاتب الاميركي ستيوارت تشايس

كان موضوع الآلات وتأثيرها في الافراد والمجتمع، في بضع السنوات الاخيرة، موضوعاً شائقاً يتخذ البعض منهُ مادة للمناقشة والجدل، فأصبح الآن بعد الازمة المالية الجائحة، موضوعاً حيويّاً

ولقد وضع الاقتصادي الاميركي ستيوارت تشايس كتاباً في هذا الموضوع سمّاه «الانسان والآلات» قرر فيهِ ان الآلات قد اصبحت لا تنشر السعادة على الجنس البشري بل ان الناس — وبوجه خاص العمال المشتغلين والعاطلين — هم الذين يضحى بهم في سبيلها . ومن الواضح ان الكاتب الاميركي ليس يقصد مجرد تقرير حالة واقعة بل هو يرمي الى تنبيهِ العالم ليعمل على اجتناب كارثة اقتصادية في المستقبل . وهو اذا كان ينقد ما انحدرت اليهِ الحضارة في بلاده بفضل الآلات فعلينا ان لا ننسى ان اوربا صائرة غداً الى ما صارت اليهِ اميركا اليوم ، واننا سائرون في اثرها ، فعلينا ان نتبين الطريق الذي حتم علينا ان نسلكه وان نعرف ما فيهِ من عوج ووعورة فنتجنبهما ونظل في السبيل السوي على قدر الطاقة

ولقد وجدت ان مجرد تلخيص فكرة المؤلف لا تغني عن قراءة الكتاب ولا تجلو للقارىء مقدار ما فيهِ من عمق واستقصاء ، فعمدت الى نقل ثلاثة فصول مختلفة يتناول كل منها الموضوع من ناحية خاصة ولكنها تجتمع في الفكرة النهائية ، وهي ان (١) هنالك فوضى قد نشأت عن استعمال الآلات (٢) ولكن الآلات لا تحمل تبعة ذلك بل انها مفيدة بطبيعتها (٣) فينبغي ان نغير طريقة استغلالنا لهذه الآلات واسلوبنا في توزيع منتجاتها

هل نحن عبيد الآلات

ان اول ما يطنُّ صوته في اذني في كل صباح هو (آلة) المنبه ، فهو يناديني فألبي النداء خاضعاً مطيعاً ، ثم اقضي كل ما احتاج اليهِ فاذا الآلات دائماً في طريقي ، واخرج الى الطريق فلا يفارقني ضجيجها . نعم ، ان الكثرة الساحقة من ابناء هذا الشعب لا يتصلون بالآلات مثل هذا الاتصال الوثيق ، ولكن هنالك قلة تتصل بها اتصالاً يفوق اتصالي بها

ولقد ازدادت قوانا بفضل الآلات الى حد عجيب ، ولو اننا اخذنا صبيًّا ريفيًّا من

ابناء البراري الروسية الذين لم تقع اعينهم على سيارة بعد ، وارسلناه الى نيويورك ، فقد يصبح عالماً في العلوم الطبيعية ، ويستطيع بالميكروفون ، اذا شاء ، ان يسمع صوته لنصف الكرة الارضية ويستطيع بالآلة التي اخترعها اساتذة معهد ماساتشوستس ان يحل اية معادلة جبرية في لحظات قليلة ، ويستطيع بالـ « ونش » ان ينقل مئات الاطنان من موضع الى آخر

ولقد وضع صموئيل بطلر في عام ١٨٦٢ كتاباً يتخيَّل فيه ان اهل مكان ما ، كانوا منعزلين عن باقي العالم وانهم ساروا في اختراع الآلات وصنعها شوطاً كبيراً حتى اصبحت الآلات هي السيدة الناهية واصبحت لا تقتصر على انتاج الآلات بل تنتج العائلات وتطعمها ، فتخوّف القوم وقامت بينهم منازعات حزبية انتهت بانتصار الحزب المعادي للآلات ثم تحطيم جميع الآلات ما عدا الآلات اليدوية اللازمة للزراعة

وليس يهمنا باقي القصة ، ولكن دعنا نفترض كما افترض ا. م. فوستر في كتابهِ « الآلة تقف » ان حزب انصار الآلات هو الذي انتصر . وتصور انك في غرفة سداسية الاركان كخلية النحل الملآنة بالازرار تضغط على زر الحمّام فتنشق الارض عن حوض من المرمر ، او تضغط على زر المطالعة فاذا بمنضدة رُصَّت عليها الكتب الخ ، ولكن وقتاً يجيء بعد ازمان فتأخذ فيهِ هذه الآلات في التدهور ثم العطل ، فتنقطع الحياة من اجسام اولئك الناس . ولكن هذا التنبأ مبالغ فيه ، فيحسن ان نلجأ الى عالم من علماء الاجتماع مثل اوستين فريمان الذي يقول في كتابه « الاضمحلال الاجتماعي واعادة اصلاحه » ان الناس قبل اختراع الآلات الميكانيكية كانوا يشبعون حاجتهم المتزايدة الى الملبس والمأكل والاثاث وغيرها فلما اتى جيمس وط بالآلات ، اخذت هذه الآلات في النمو وفق قوانين خاصة بها وأخذت في الانتاج الزائد عن حاجة الناس فقلبت قانون العرض والطلب ، وبعد ان كان الناس ايام الصناعات اليدوية يعملون لامداد المستهلك باسباب الراحة اذا بهم الآن يعملون لابداع وسائل تمكنهم من بيع ما يصنعون . والمرء متى أهمل العمل (اليدوي) ، فقد ثقته بنفسه وانحط خلقه ، ولقد دمرت الآلات كثيراً من القوى الطبيعية وشوّهت جمال الطبيعة دون ان تعنى البتة بالانسان . وازداد تجسُّم المعلومات الصناعية من دون أن يصحبه ازدياد في الفطنة والذكاء . اما في الحرب ، فالآلات وسيلة لازهاق ارواح الجماعات الكبيرة من الناس

ولقد أسهب فريمان في بيان التفصيلات الدقيقة ، ولكنهُ كان قليل الشأن إزاء العلامة الدكتور شبنجلر وتنبئه بحلول وقت يعمد فيهِ الانسان الى « ملاشاة الآلة من ذاكرته وابعادها من أجواره ، ليخلق لنفسهِ عالماً آخر لا وجود فيهِ لهذه الصناعات الشيطانية »

وهناك طائفة لا تؤمن بالتحسن في المستقبل يعلن احد زعمائها المبرزين فيها هنري ب . فروست انهُ « في عصر الآلات هذا ، الذي نعيش فيهِ ، يظل شبح الوحش

الآليّ بتهديد هائل — على طريق الرقي الانساني . ولقد صرنا جميعاً مقسمين الى طوائف ومرتبين ومنظمين بشكل خاص ، وأضحت شخصيتنا كأناس ، تختنق وتتضاءل الى حد عظيم » .
ويهيب البروفسور صُدي محذراً « اذا كانت مثل البشر العليا لا تسرع الى ملاءمة العلم إبان نموه وازدياده ، فلست آمن على المصير » ، ويتساءل البروفسور هالداين في شيءٍ من الحذر « فهل أطلق البشر من حجر المادة طامة للشعوب متهيئة لاسير نحوها والقذف بها في اية لحظة الى حضيض العدم ؟ » اما الفيلسوف رسل فهو في جملته يحكم لصالح العلم ولكنهُ لا يثق بسدنة بنائه الآليّ إذ يرى « أن أهم المقاصد التي يكنونها مقاصد منحرفة » . اما فيليب جيبس فهو يطالعنا بالاختيار الصعب بين قتل جميع رجال العلم او قلب آداب الناس ، وطريقة تفكيرهم من اساسها .

ولو اننا بالغنا في الانصات الى هذا النذير لكان من العبث ان نستمر في تجاربنا العلمية . على أن فورد يهيب بنا أن « افسحوا الطريق حرّاً لكل مجتهد » فالاجتهاد في العمل هو السبيل الى الحرية والمساواة . أما الآلة فسألة عرضية وليس الغرض منها الاّ تحرير الانسان من العمل اليدوي الخشن كي يتفرغ لتنمية قواه العقلية والروحية ، وعدا ذلك فان الآلة تسير بنا الى الغرض الذي اخفقنا في الوصول اليهِ بالخطب والدعاية ، أعني بهِ ايجاد ولايات العالم المتحدة

ويرى بيرد المؤرخ الاميركي ان حالة العلوم الصناعية والادبية والمعمارية وغيرها ، ليست مما يسوغ لنا ان نتوقع اضمحلال الحضارة الغربية ، ثم إن المعارف الصناعية قد عمت وانتشرت بحيث لو بادت اوربا واميركا لكان لدى اليابان وحدها من الاسس العلمية ما يكفي لاعادة بناء الحركة الآلية

أما البرت بارسون ساكس فيرى انهُ « يجب أن نبحث في الآلة عن الشعر والجمال والابدية والخلود ... فمن لم يشأ أن يدرك ذلك فهو اعمى بل إنهُ ميت ، ولا يمت الى عصرنا بصلة »

ولكن هناك عدا هذين الفريقين فريقاً ثالثاً يقف موقف المتشكك المتسائل ويكتفي بالملاحظة

يقول ديوي الفيلسوف الاميركي « إن مدنيتنا لقوية الشبه بعربة فورد ... تنطلق مسرعة في كل الطرقات بلا غرض تقصده ، غير أنها مملوءة نشاطاً وحيوية » ويسأل و . ف أوجبورن هل كان البشر في العصر الجليدي الاخير اوفر سعادة لانهم كانوا اقرب الى الطبيعة ؟ هل صنع كل ما نعيش فيهِ يقتضي أن تكون اقل سعادة ؟ ولكن الضيق والارغام كانا يسودان ذلك العصر وكان هناك كثير مما يخافهُ الانسان . نحن نعرف ان الانسان حيوان عظيم المقدرة على ملاءمة الوسط ، فلماذا لا يستبدل المحراث اليدوي واضرابه بالمحراث الآليّ وامثاله ؟

ولكل من هذه الفرق الثلاثة أنصار كثيرون . وعلينا قبل الانضمام الى احدها أن نزيد معلوماتنا عن النقط الاساسية في الموضوع

***

فما هي الآلة (الماكينة) بالتحديد وفيم تختلف عن العدة اليدوية ، وما هو القانون الذي تسير عليه ؟ وما هي انواع الآلات وما مقدار احتياجنا اليها واصطدامنا بها بشكل مباشر او غير مباشر ؟ وكيف ابتدأ عصر الآلات ؟ وما هو الانتاج بالجملة وهل هو خاضع للمراقبة أم يسبح في فلكه الخاص ؟ وهل تأثيرها التدميري في حالة الحرب مخرّب الى حد فظيع ؟ وهل تجعل من العامل المصنعي عبداً حديثاً ؟ فاذا كان الجواب بالايجاب فهل حالته شر من حالة العبيد عند اليونان ؟ وما عدد العبيد الذين تفرض عليهم السخرة في عصر الآلات

واذا كانت الآلات تزيد متوسط العمر فهل هي تفعل ذلك لترفع النسبة المئوية من العجزة ومرضى الاعصاب ؟ وهل ادت الى انحطاط القيمة الروحية للمجتمع ؟ وهل المساواة الاجتماعية أمر واقع فاذا كان الامر كذلك فهل ذلك شر من الحالة الاخرى الموجودة عند الشعوب الطبيعية وهل شر ان يكون المرء كشخصية « بابيت [1] » من ان يكون عضواً في احدى الطوائف الهندوسية ؟

ليس الميسور على اجابة جامعة على مثل هذه الاسئلة بالامر السهل ، فلا تزال بعض العوامل التي لها شأن في الموضوع معقدة او غامضة . وانما نستطيع توسيع دائرة معارفنا عن الآلة اذا ابتدأنا بالكلام عما تبذل من جهد وما تؤديه من عمل

الاقتصاد في العمل

عند ما بحث زومبارت (الاقتصادي الالماني) حالة الزراعة في غرب اوروبا ابان القرن الرابع عشر ، وجد المئات من جماعات اشتراكية تُحيي في السنة ١٦٠ إلى ١٨٠ عيداً تتعطل فيها الاعمال . وعند ما بحثوا حالة المدن الاميركية سنة ١٩٢٥ وجدوا شعباً من العمال تتناوب حالتهم بين العمل المضني والعطلة المهلكة . ولقد كان القرن الرابع عشر يستعمل نفس الآلات التي كان الرومان والمصريون القدماء يستعملونها . اما المدن المتوسطة الاتساع « ميدلتون » فتستعمل شتى الآلات المقتصدة للعمل ، ومع ذلك فقد انقلبت الآية فأصبحت زيادة الآلات تؤدي إلى تقليل أيام الراحة . ولنا ان نعيد السؤال الذي كان يلقيه على نفسه جون ستيوارت مل منذ ٥٠ عاماً : « ما مقدار العمل الذي تقتصده حقاً تلك الآلات المقتصدة للعمل ؟ » أنها تسبب طرد عدد كبير من العمال ، فما هو الحد الذي يمكننا عنده ان نعتبر العطل مقياساً للرقي الاجتماعي ؟ ان الاقتصاد الحقيقي في العمل لا يصح ان يعبر عنه (أي ان تظهر آثاره) في شكل مأساة وضيق ، بل يجب ان يكون سبباً لزيادة الراحة والسلام والطمأنينة وفرصة للتنفس الحر ومنشأ لفترة راحة ابان تدور طاحون الحياة . ولكن المدينة « ميدلتون » لا تعرف فترة للراحة بل ينشد أهلها الراحة عبثاً منذ القرن الرابع عشر

---

(١) بطل رواية للروائي الاميركي سنكلر لويس يمثل الاكباب على العمل لجمع المال من دون ان يقيم للمثل الروحية وزناً ما

هنالك بضعة أسباب يمكن ايرادها في الرد على ستيوارت ميل ، منها ان مطالب الاهلين قد بزّت اختراعاتهم — وذلك بغض النظر عن النفر المترف المولع بجمع منتجات العمل — ولذلك عجزت الآلات عن ان تكفيهم مؤونتهم . ولنضرب السيارة مثلاً ، فهي في حد نفسها آلة مقتصدة للعمل ، أعني إذا استعملت في ذلك الغرض ، ولكن ثلثا مستهلكي السيارات يستعملونها في أمور لم يكونوا ليعملوها لو لم تكن عندهم السيارة ، فهم يسافرون ويتنزهون ويتبادلون الزيارات ويقطنون في الجهات الخلوية . نعم ان في استعمال السيارات لهذه الاغراض راحة للمتملين ولكن ليس فيه اقتصاد للعمل ، بل ان هذا الحيوان المنزلي الجديد يحتاج من العلف (البنزين) والتخزين (في الجراج) والعناية والترميم والتسيير وغيرها ، الشيء الكثير

فقد وصل عدد المستخدمين المباشرين وغير المباشرين في صناعة السيارات وما يتبعها (بيع واصلاح وتأمين وانشاء طرقات الخ) في سنة ١٩٢٨ في الولايات المتحدة الى ٣ر٧٣٢ر٠٠٠ نفس ، ومعنى ذلك ان الشعب يشتغل في السنة مليار يوم من أيام العمل بسبب السيارات ، وفي ذلك غالباً زيادة للعمل بدلاً من الاقتصاد فيه

وما قلناه عن السيارات نقولهُ عن الراديو والسينما والفونوغراف وصمغ المضغ (اللبان وهو كثير الشيوع في امريكا) والسجاير وادوات التجمل ، بل اني ليخيل اليَّ أحياناً اني قد استطيع ان اقول ذلك عن التليفون ايضاً

على ان الاقتصاد قد حدث بشكل محسوس فيما يتعلق بالضروريات كالمأكل والمسكن والملبس ، وذلك ما سمح لنا بالوقت اللازم لزيادة الكماليات ، أو — اذا شئت — الضروريات الجديدة . خير لنا ان نقول أننا نمتلك الآلات لأغراض جمة من ان نزعم اننا نمتلكها لمجرد الاقتصاد في العمل . ولكن ، هل هذه الاغراض تساوي ما يضحى به من أجلها ؟ الا تكون المدينة «ميدلتون» أسعد وأهنأ لو اقتصر يوم العمل على خمس ساعات وقلّت في مقابل ذلك أدوات التجمل وأفلام السينما والمقاعد الوثيرة وخزانات التبريد الكهربائية ؟

***

وهناك ضريبة ثانية وهي ان التخصيص في ادارة الآلات في الوقت الحاضر يقتضي تشييد أبنية ضخمة للمصانع ومكاتب ادارتها في حين أن الصناع كانوا فيما مضى يعملون في منازلهم او حقولهم ولا يحتاجون الى اكثر من سقف يظللهم . ولا يفوتنا أن التحسين المستمر في الآلات يجعل هذه الابنية قديمة فنضطر الى تجديد بنائها كل عشر سنوات مثلاً

والامر الثالث يتعلق بتنظيم المدن الكبيرة ، فان تقدم الآلات وارتقاء الطب قد جعلا تخطيط المدن الكبيرة ممكناً ولكنهُ من وجهة العمل الانساني عمل من اعمال الترف ويكفي لمعرفة ذلك أن نلقي نظرة على ما بباطن الارض من انابيب المياه والغاز والمجاري واسلاك التليفون

والتلغراف ، وما تقتضيه من وضع وصيانة وتقوية ، ثم اذكر ما يضيع من الجهد في هدم المباني واعادة بنائها كلما ارتفعت قيمة الارض . ثمَّ هناك المبالغة في المضاربة بالاراضي ، وقد شاهدت ذلك على اقصاه في فلوريدا ، حيث استقدم اليها سنة ١٩٢٥ جيش من المهندسين والعمال ، أخذوا يحفرون ويشيدون ، ثم تذهب الآن الى تلك الانحاء فلا تجد الا قفراً وخراباً وترى هنالك آلة بخارية لدك الارض ، قد علاها الصدأ فظلت هناك رافعة ذراعها كأنها شاهد القبر

والجرك الخامس هو المصنع نفسه فهناك كثير من البضائع لا ندري مقدار ما اقتصد في صنعها من العمل وقد كتب رالف بورسودي الخبير في الاقتصاد السياسي انهُ يصنع في منزله حاجيات كثيرة (كالخضارات والفواكه المحفوظة) بنفقات ضئيلة جداً لا تتناسب (حتى بعد اضافة اجر العمل) مع الاثمان التي يشتري بها مثيلتها من الحوانيت . ويمكننا ان نلاحظ صحة ذلك فيما يختص بكثير من الاطعمة والمواد الكيميائية البسيطة كالشمع والزيوت والاسمدة والمواد الخاصة بالعناية بالجسم ، فان الآلة بتركيز منتجاتها في المصنع وما يتطلبه ذلك من نفقات البيع والارسال قد بذرت اكثر مما اقتصدت

* * *

ولنفكر بعد ذلك في الابعاد الهائلة التي تجلب منها المواد الخام والتي ترسل اليها المصنوعات التامة . فاذا افترضنا ان طائفة من شركات الصابون تريد تموين البلاد من مركز معين (كالعاصمة مثلاً) مع قيام كل منها بالاعلان عن نفسها بوسائل جمة ، ومع احتفاظ كل منها بتنظيم وسائل خاصة بالبيع نجد ان ذلك كله يلتهم كل المتوفرات التي اقتصدها المصنع حتى ليصبح المصنع الصغير الذي يمون صاحبه وحده او مع جيرانه ومجاوريه ، يصبح وحدة اكثر اقتصاداً من المعمل الكبير . ومن المفهوم ان الآلة لا تحمل تبعة ذلك وانما سوء ادارتنا لها ، وليس من الصعب ان نبني المصانع الاقتصادية على مقربة من منابع المواد الخام حيث نحصل على التيار الكهربائي بابخس الاثمان ، فنمون الجهات المجاورة ببضائع لها من رخص الاثمان ما لا يستطيع الذين ينتجون لانفسهم ان يجاروه . وليس شك في ان العمل الآلي يفوق العمل اليدوي ولكن هذا التفوق لا يكون دائماً عظيماً

على اننا يجب ان « نراعي جميع الحقائق » عند النظر في الاحصائيات ، فقد زعم فورد ان ١٠ جرارات من سيارات الحرث قد استغرقت ١١ يوماً لحرث الف فدان في ارمينيا وهو عمل كان يقوم به ٥٠٠ رجل والف ثور في نفس المدة ، فاذا تركنا الثيران جانباً واعتبرنا ان السيارة تحتاج الى سائق واحد ، تصور البعض ان الاقتصاد يبلغ ١ : ٥٠ . ولكننا ننسى العمل اللازم لاحضار المواد الخام ، فصنع السيارات فبيعها فاصلاحها وما يتخلل ذلك من العمليات المختلفة وهي حلقات مختلفة من نفس السلسلة ينساها المتفائلون او يتغاضون عنها فيحصلون على نتائج زائفة

وقد اورد جسه سبراج مثلاً بديعاً، فقد كان احد اصحاب المصانع الصغيرة ينتج مقابض الابواب من النحاس الاصفر وكان ينتج كل يوم ٢٠ مقبضاً بنفقة ريال للمقبض الواحد ويبيعها بريالين فاشترت احدى شركات المضاربة المصنع وجمات المقابض من الهب فنقصت نفقات انتاجها الى نصف ريال، ونمت الادارة ومحال البيع وغير ذلك مما ادى الى ارتفاع ثمن المقبض الى ٤ ريالات فاعرض الجمهور عنها وساء مصيرها، واذن فقد كان الانتاج الآلي هنا « اذا راعينا جميع الحقائق » مضاعفاً للثمن

***

وقد كتب احد اصحاب المصانع في مجلة « اتلانتيك الشهرية » انهُ وجد انهُ كان في سنة ١٩٢٦ ينتج وحدة بضائعه (وقد حاذر ان يقول لنا ما هي) في ٤٠ دقيقة، فأصبح بعد تحسين العمل في سنة ١٩٢٨ ينتجها في ٢٠ دقيقة فقط ولكن التحسين الذي اجراه منافسوه في بضائعهم اضطره الى الاسراف في نفقات البيع والاعلان حتى تضاعف الثمن. وقد علق الرجل على ذلك بقوله إن الوقت أزف ليعمل المرء في منزله معظم ما يحتاج اليه. ولست أوافقه على ذلك بالطبع، ولكني أذرف دمعة على كل رجل من رجال الاعمال ترهقه نفقات الادارة التي تقتضيها المنافسة، فتقضي عليه

فالسيارة التي تباع بـ ٥٠٠ جنيه لا تكلف من النفقات المباشرة سوى ٥٠ جنيهاً بينما ينفق على الشئون الخاصة ببيعها ٢٠٠ جنيه، وهنالك جزء معين من اجزاء السيارات يحوي من العمل المباشر ما قيمته ٧½ قروش يشتريها صاحب الحانوت بجنيه واحد ويدفع فيه المستهلك خمسة جنيهات، وهكذا يطرد ازدياد اثمان الآلات كلما تحركت في سبيل البيع كما يطرد ازدياد سرعتها بجهد بسيط اثناء العمل

ومجمل القول ان الصناعة الحديثة لا تقتصد في العمل الا من ناحية واحدة، وهي اقل النواحي شأناً، ثم تأخذ ما تقتصد في هذا القسم من اقسامها اتلقيه من النافذة

حرب الساعتين القادمة

هاجم « جيش الشمال » لندن في ١٣ اغسطس ١٩٢٨، فانقضت ٧٥ طائرة على المدينة، تحمل كل منها ٥٠٠ رطل من القنابل. وقد تصدت لها طائرات الدفاع، وهب عدد عديد من المناطيد تكوِّن منطقة حماية حول المدينة، وأصلت بطيارات مدافع الطيران، طائرات العدو ناراً حامية، وذبت القوات المختلفة عن المدينة بكل الطرق الممكنة، فلم يغن كل ذلك عنها شيئاً وأصابت القنابل أهدافها من المباني الحربية والمصانع المهمة التي تزوّد المدينة بالماء والنور وغيرها، ثم عادت الطائرات المهاجمة إلى أوكارها في الشمال بدون خسائر

القيت هذه القنابل من ارتفاع ٥٠٠٠ متر ، فأصابت الاهداف المقصودة ، بكل إحكام. فلو انها كانت محشوة بثاني فينيل كلور الزرنيخ لأبادت نصف سكان المدينة ولو ضوعف عدد الطائرات لتضاعف الأثر . نعم ، ان الامر كله لم يكن الاَّ مناورة ، ولكنها اقنعت الخبراء الحربيين ان وسائل الدفاع كلها عديمة الجدوى في مثل هذه الحالة ، فما بالك لو بلغ عدد الطائرات المهاجمة ٥٠٠ وكان قائدوها طيارين حربيين محنكين

***

ان فرنسا تستطيع الآن بأمر تذيعه بالراديو ، ان تحرك للقتال ٤٠٠٠ طائرة ، وفي استطاعة سرب واحد منها ان يلقي على أهداف العدو ١٢٠ طناً من القنابل في هجمة واحدة ، بينما كان الحد الاقصى لألقاء القنابل إبان الحرب العظمى لا يزيد عن ١٢ طناً في الشهر . مع العلم ان خمساً من طائرات ما قبل الحرب كانت كافية لبعثرة الجيش التركي الزاحف على فلسطين . وقد أجرت المانيا تجاربها بطائرات لا تسمعها اذن ولا تراها عين . وتستطيع طائرات ريبون البريطانية ان تزيد سرعتها الى ٢٥٠ كيلومتراً في الساعة ، وان ترتفع عمودياً . وان قذيفة واحدة مما تلقيه الطائرات لتذهب بأكبر المراكب الحربية إلى قاع البحار . وقد تحدث المستر كنورثي عضو مجلس العموم الانجليزي عن قنبلة وزنها ٤٣٠٠ رطل ، تذرو عند القائها على الارض ١٠٠٠ متر مكعب من الرمال ، فلو القيت على بيكاديللي بلندن لنسفت الشارع بأكمله ، وقد تنبأ النائب المذكور باختراع طائرات تطير بسرعة ٥٠٠ كيلومتر في الساعة ، وأخرى تطير وحدها بأوامر تتلقاها بالراديو من الارض وتلقي قنابلها حين تسلط عليها اشارة لاسلكية خاصة

وهنالك على الاقل نوعان من الغازات السامة لا يفيد أي نوع من الكمامات في الوقاية منهما ، وهناك غاز مهيج يرغم جنود العدو على القاء أقنعتهم فتمتلىء خياشيمهم بالغازات السامة التي تطلق عليهم في نفس الوقت . ومن السهل تعبئة قذائف المدافع بجراثيم الأمراض وارسالها على بلاد العدو تحصد اهلها حصداً

ولئن قامت الحرب فالكلمة الاخيرة لمن يتكلم اولاً . ففي مكنته ان يرسل الف طائرة على ٣٠٠ كيلومتر مربع فتشعلها سعيراً في ساعة واحدة أو اثنتين ، تمحو ابانها مدناً شتى من خريطة البلاد المعمورة . وليس هناك من العادات المرعية أو الضمانات واشباهها ما يمنع شعباً قوياً من استخدام أمضى سلاح معروض عليه للتغلب في الكفاح . على ان أمضى الاسلحة التي تمتلك الدول العظمى منها مقادير كبيرة ، هي آلة تسير بسرعة هائلة حاملة خليطاً من الازوت والاوكسجين فتعصف بما أمامها من السفن الحربية والحصون والمدافع والدبابات وغيرها ، الاَّ الغواصات اذا غاصت إلى اكثر من ٣٠ متراً تحت سطح الماء . ولكن الغواصات وسيلة كثيرة النفقات

فالغواصة الصالحة للاستعمال ثمنها عشرات الالوف من الجنيهات ، وتحتاج في ادارتها الى ٣٠ رجلاً ولا تزيد سرعتها تحت سطح الماء عن ٢٠ ميلاً بحريًا في الساعة . أما الطائرة الجيدة فثمنها الف جنيه وفي استطاعة رجل واحد ان يديرها وان يقطع بها ٣٠٠ كيلومتر في الساعة وان يصيب الهدف بقنابله تماماً . ولو انني وزير حربية وليس عندي أسهم من شركات صناعة الفولاذ لوفرت على شعبي الضرائب الكثيرة وعمدت إلى تدمير سفن العدو الحربية من الجو بدلاً من تدميرها من اعماق المياه . ومع ذلك ففي استطاعة الغواصات ان تحرّم على سفن العدو مبارحة الساحل ، وفي استطاعة الغواصات الكبيرة الحجم ان تطلق على المدن الساحلية انواعاً مختارة من قنابل الغازات السامة ، على الاقل لمدة بضع دقائق حتى تشرع طائرات العدو في مهاجمتها

ويجمل القول ان السلاح الاساسي في الحرب القادمة هي الطائرات ، وانما يرجع تفوقها الى انها ذات ثلاثة ابعاد في حين ان وسائل الحرب الاخرى ليس لها الاّ بعدان . ولما كان الهجوم على سطح الارض يحصل في مكان محدود فمن الممكن ايجاد الوسائل لدرئه ، وكلما كبرت قذائف المدافع سمكت الالواح المدرعة (للحصون أو السفن) . أما السلاح ذو الابعاد الثلاثة فهو الذي لا عاصم منه (وقد اقترح أحد العباقرة ان تشدّ حول المدن اوتار أشبه باوتار البيانو تتدلى من المناطيد فتقع فيها طائرات العدو . وهي فكرة يستحق قائلها جائزة في مسابقات النكات) ومن الممكن من الناحية النظرية ان تحمى المدن بملء مساحات هائلة محيطة بها ، بعدد خيالي من المدافع المقاومة للطائرات ، تطلق قذائفها فيرتد منها على شوارع المدينة سيل من المظلات المدرعة

***

وخير وسيلة للدفاع ، هي الهجوم . فحينما تفارق ١٠٠٠ طائرة مدنها لمهاجمة المدن الانجليزية يجب ان تقوم من لندن ١٥٠٠ طائرة لمهاجمة مدن الدولة المعادية ، وبذلك تتدمر مدينتان لا مدينة واحدة

والولايات المتحدة وروسيا من اتساع مساحتهما ما يجعل القضاء عليهما لا يتم بالسرعة التي ينتهي بها القضاء على غيرهما من الدول العظمى (انجلترا واليابان بجزائرهما المكتظة بالاهلين هما اصلح الاهداف للابادة) ولكن سرباً من الطائرات يبارح تورنتو يستطيع ان يدمر بوسطون وفيلادلفيا وبلتيمور ووشنجطن وشيكاغو وغيرها ، ولا سيما نيويورك فمن السهل تحطيم جسرها وتفقها ونسف ابنيتها ذات الابراج (ناطحات السحاب) فتنهار كأنها بيوت من ورق ولست اعرف للمسألة حلاً ، فقد أصبحت وسائل الحرب عظيمة الخطر في شكلها الحالي ، فضلاً عن تطورها في الغد

القاهرة عصام الدين حفني ناصف

الحرب الكيمياوية

لحبيب اسكندر
ناظر القسم الثانوي بجامعة القاهرة الاميركية

—١—

الكيمياء من اهم العلوم التي يستخدمها الانسان في حياته العملية المتعددة النواحي . فهي تؤدي خدمات حيوية للتجارة والصناعة والزراعة والطب وكافة اعمال الانسان . وفي اوقات الحرب هي السيد المتسلط على جميع وسائل الحروب من سيوف ورماح وبنادق ومدافع وبارود ومفرقعات وغازات سامة وكل ما يتبعها من ذخائر ووسائل نقل — كل هذه جميعاً كيمياوية من اول صنعها حتى وقت نفادها . وسنجعل كلامنا في هذا المقال مقتصراً على استخدام الكيمياء في ناحية واحدة من نواحي الحرب هي الحرب الكيمياوية ويطلقون عليها خطأ اسم حرب الغازات

ان الاسم « حرب الغازات » لا يؤدي المعنى المقصود لأن معظم الغازات او ما يسمونهُ الغازات السامة التي استخدمت في الحرب العظمى ليست بغازات بل جلها سوائل واجسام صلبة في الاحوال المعتادة . فغاز الخردل الذي يسمونهُ ملك الغازات السامة سائل يغلي عند الدرجة ٢١٦°م . وحتى الغازات الصميمة التي استخدمت في الحرب لم ترسل الى ميادين القتال في حالتها الغازية بل كانت ترسل في صورة سوائل مضغوطة

والمقصود بكلمة «غاز» في الحرب الكيمياوية كل ما يرسل من المواد (الصلبة او السائلة او الغازية) الى العدو في الهواء بعد خروجه من الاسطوانات او القنابل المشتملة عليه

﴿ لمحة تاريخية ﴾ : مما لا شك فيه ان استخدام الالمان للغازات السامة لاول مرة في ابريل سنة ١٩١٥ يُعدُّ فاتحة عصر جديد في الحروب الحديثة . ويعتقد الرأي العام في العالم ان هذا العهد او النوع من الحرب من مخترعات الالمان العصرية . والحقيقة غير ذلك . لان استخدام الغازات في القتال قديم العهد . يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد . فالتاريخ يحدثنا ان الغازات الخانقة قد استخدمت في الحروب القديمة بين اهل اثينا واسبارطه . فقد كان الاسبارطيون في حصارهم بعض البلاد يحرقون عند اسوارها خشباً مشبعاً بالنفط والكبريت بغية خنق المدافعين عنها وبذلك يسهل عليهم فتحها والاستيلاء عليها . كذلك استخدمت الغازات السامة في بعض الحروب في القرون الوسطى ويروى عن رجل يدعى Prester John وهو ملك اسيوي خرافي في القرن الحادي عشر انهُ صنع تماثيل مجوَّفة من النحاس وحشاها بالمفرقعات والمواد القابلة للالتهاب وأضرم فيها النيران فكانت تنبعث من افواه التماثيل وانوفها

ابخرة وغازات خانقة احدثت في الاعداء رعباً وألحقت بهم ضرراً لا يستهان بهِ

وعلى كل فإن معظم دول اوربا كانت تتوقع استخدام الغازات السامة في الحرب قبل نشوب الحرب العظمى بزمن طويل والدليل على ذلك ان مؤتمر لاهاي الذي عقد سنة ١٨٩٩ لحضره مندوبون من قبل دول اوربا وآسيا قرر الامتناع عن استخدام مقذوفات الغاية منها انبعاث غازات سامة . وقد وقّعت المانيا على هذا العهد في ٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠

﴿ الحملة الغازية الاولى ﴾ واول حملة غازية في الحرب العالمية وقعت في ٢٢ ابريل سنة ١٩١٥ . قام بها الالمان ضد الحلفاء مستخدمين فيها غاز الكلور . وقد وصلت اخبار تدبير هذه الحملة الكيمياوية الى الجيش الانجليزي من بعض الالمان الهاربين الذين رووا لهم أن الجيش الالماني قد دبّر خطة لتسميم العدو بسُحُب من الغاز السام وان الاسطوانات التي تحتوي على المواد السامة قد نصبت في الخنادق . ولكن الانجليز تلقوا هذا الخبر بالسخرية ولم يعيروه اهتماماً لظنهم ان هذه الفكرة صعبةُ التنفيذ في ميادين القتال . ثم لاعتقادهم ان الالمان كائناً ما كان بطشهم وحبهم للنصر لاينقضون عهد لاهاي ولايخالفون سنن الحرب الانسانية التي وقعوا عليها. ولكن خاب ظنهم فالحرب لا تعرف عهداً وانما هي خدعة . وفي عصر ٢٢ ابريل سنة ١٩١٥ فاجأ الالمان الحلفاء باول حملة غازية . اختاروا لها المنطقة الشمالية من الايبرس عند ملتقى الصفوف الانجليزية بالصفوف الفرنسية . ولايستطيع احد من الناس ان يصور لنا ما احدثتهُ هذه المفاجأة من الرعب والاثر . لان الرجال الذين يعلمون ذلك جيداً وفي استطاعتهم وصف الحقيقة كما حدثت قد ماتوا جميعاً

في ذلك اليوم صعدت من الارض فجأة سحب من غاز اصفرضارب الى الخضرة ساقتها الريح نحو الحلفاء . فانتشرت في طريقها متخللة كل حفرة وخندق . فلما رآها جنود الحلفاء استولى عليهم العجب ولما دنت منهم استحال العجب خوفاً . ولما غمرتهم تحوّل الخوف الماً فالقوا سلاحهم وولوا الادبار طلباً للتنفس . ولكن عبثاً حاولوا الافلات من تلك السحب التي تعقبتهم ولم يمض نصف ساعة حتى سقط ٨٠ ./. منهم . فتقدم الالمان واحتلوا الصفوف الامامية ووجدوها ملأى بالموتى . وقد صبغت وجوههم والتوت اجسامهم وامتلأت افواههم بالدم والرغو اللذين سالا من رئاتهم المتفجرة مما ينبئ بهول الميتة التي لقيها هؤلاء القوم

﴿ الشروط التي يجب توافرها في الغاز الحربي ﴾ وقد وقع اختيار الالمان على الكلور في الحملة الاولى لان فيه تتوافر جميع الشروط اللازمة للغاز الحربي السام. واهم هذه الشروط هي:—

اولاً — يجب ان يكون الغاز او المادة سامة جداً اذا وجدت في الهواء بمقادير قليلة

ثانياً — ان تكون رخيصة يمكن صنع مقادير كبيرة منها بعمليات سهلة

ثالثاً — ان تكون سهلة الانضغاط والتحول الى سائل واذا خفف الضغط عنها تحولت الى بخار او غاز

رابعاً — ان تكون ثابتة لا تتأثر برطوبة الهواء او بالمواد الكيمياوية الاخرى حتى يصعب تغييرها وافساد فعلها

خامساً — ان تكون اثقل من الهواء حتى لا تتبدد بسهولة في طبقات الهواء العليا

ومعظم هذه الخواص تتوافر في غاز الكلور الذي وقع عليه الخيار اولاً . فهو غاز سام جداً. فاذا عرض حيوان (كلب) للهواء الذي يحتوي اللتر منهُ على ٢٫٥ ملليجرام من الكلور مات بعد ٣٠ دقيقة . ثم ان مقادير وافرة منهُ تحضَّر بعمليات سهلة وذلك بحلّ محلول ملح الطعام بالكهربائية وقدكان يباع قبل الحرب لاغراض صناعية في اسطوانات حديدية بسعر قرش واحد للرطل. ثم انهُ سهل الاسالة يكفي لاسالتهِ ضغط يساوي ١٦٫٥ جو عند الدرجة ٩٨م واذا برّد اسيل بضغط اقل . واذا خفف عنهُ الضغط تبخر واستحال غازاً اكثف من الهواء مرتين ونصف مرة. ولذا في استطاعته ان يسير مسافات بعيدة قبل ان يتبدَّد بانتشاره في الجو . وقد استعمله الالمان بأن ملأوا اسطوانات بالسائل المضغوط وجعلوا بين الاسطوانة والاخرى ذراعاً ووصلوها بأنابيب مرتفعة ومتجهة نحو العدو . فلما هبت الريح فتحوها فخرج منها الغاز بشدة. ولاعيب فيه غير انهُ عنصر نشط يتحد مع كثير من المواد ويمكن اتقاء فعله بطرق اولية بسيطة كما فعل الانجليز والفرنسيون في الايام التي تلت الحملة الاولى. فهو يتفاعل مع الهيبو مكوّناً كلورور الصوديوم . وفي استطاعة الهيبو تحويل مقادير كبيرة من الكلور . لذلك كان استعمالهُ ناجحاً في عمل الكمامات البسيطة الاولى وهي عبارة عن قطعة من القماش مشربة بمحلول الهيبو تربط على الانف والفم

ولا يخفى ان اتجاه الغاز يتغير باتجاه الريح لذلك عدل الالمان عن استعمال الكلور الصرف وادخلوهُ في مركبات كيمياوية سائلة او فعلوا ما هو اسهل من ذلك فأسالوهُ وافرغوا هذه السوائل في قنابل يطلقونها على صفوف الاعداء حيث تنفجر فتخرج منها المواد السامة غازاً او دقائق صغيرة تملأ الفضاء . وقد وُجد ان ٩٥ ٪ من الغازات التي استعملت في الحرب يدخل في صناعتها مباشرة او غير مباشرة غاز الكلور الذي استخدم صرفاً في الحملة الاولى

﴿ غاز الفوسجين ﴾ الغاز الثاني الجديد استعمل في ديسمبر ١٩١٥ ويسمى الفوسجين وهو مركب كيمياوي كان معروفاً قبل الحرب لانهُ كان يستخدم في الصناعة لتجهيز بعض الاصباغ. والفوسجين سائل يغلي عند الدرجة ٨ م. وهو اشد سمّاً من الكلور. فبينما يموت الكلب في الهواء الذي يحتوي اللتر منهُ على ٢٫٥ ملليجرام من الكلور بعد تعرضه له ٣٠ دقيقة اذا به يموت في الهواء الذي يحتوي اللتر منهُ على ٠٫٣ ملليجرام بعد تعرضه له نفس الزمن اي انهُ اثقل من الكلور ثماني مرات

ويجهز الفوسجين من غازين سامّين يعرفهما الطلبة جيداً وهما الكلور واول اكسيد الكربون اذا عرض مخلوطهما لضوء الشمس. وكلمة فوسجين مركبة من كلمتين معناها ناتج عن الضوء.

وفي الصناعة لا يستخدمون الضوء في تركيب هذا الغاز بل يمرّون مخلوط الغازين في صناديق مشحونة بالفحم البلدي الذي يساعد على اتحادهما . وليس للفوسجين رائحة كريهة بل تشبه رائحته رائحة الحنطة الخضراء . ولا يشعر الانسان به حتى يستنشق منهُ قدراً مميتاً . واستنشاق القليل منهُ يضعف القلب ويؤثر فيهِ تأثيراً يدوم اياماً طويلة واذا اجهد المرء نفسه عقب ذلك فانهُ يموت

والفوسجين قليل النشاط الكيمياوي . لذلك تصعب الوقاية منهُ . غير انهُ يتحلل بمادة تدعى Urotrodine كانت تستخدم في عمل الكمامات الاولى التي تتركب من قطعة من القماش مشربة بمخلوط منهُ ومن الهيبو وكربونات الصوديوم والجلسرين

﴿ الكلوروبكرين ﴾ في ربيع سنة ١٩١٧ استعمل الالمان غازاً جديداً غير سام كثيراً لكنهُ يسبب دواراً وقيئاً ويثير في العيون دموعاً فيضطر الجندي الى رفع كمامة الغاز وعندئذٍ يعرض نفسه لفعل غاز آخر كالفوسجين يطلقهُ العدو في نفس الوقت . وهذا الغاز الجديد يصعب حجزه كلية بكمامات الغاز السام . واسمهُ كلوروبكرين Chloropicrin وهو مركب كان معروفاً قبل الحرب مثل الكلور والفوسجين واول من حضّرهُ كيمياوي انجليزي يدعى Stenhouse سنة ١٨٤٨ من تفاعل الحامض البكريك ومسحوق ازالة الالوان

ويحضر الكلوروبكرين في الصناعة بامرار البخار في مخلوط من الحامض البكريك ومسحوق ازالة الالوان فيتكوَّن الكلوروبكرين ويخرج مع البخار . وهو سائل عديم اللون كالزيت لا يذوب في الماء . يغلي عند الدرجة ١١٢°م . وهو مركب ثابت لا يتحلل بالماء أو الحوامض أو القلويات المخففة . ومن حسن الحظ قد وجد ان الفحم المستعمل في كمامات الغاز السام يمتص هذا الغاز

والعين حساسة جداً تدرك وجود هذا الغاز في الهواء بسرعة فائقة مهما كان مقداره قليلاً . فالهواء الذي يحتوي على ٥ر٢ جزء من الغاز في كل مليون جزء من الهواء يجعل العين تغمض مضطرة بعد ١٨ ثانية والذي يحتوي على ٢٠ جزءًا من المليون يجعلها تغمض بعد ٤ ثوان فقط

﴿ غاز الخردل ﴾ ننتقل الآن إلى سيّد الغازات السامة وهو مادة جديدة لها اسماء كثيرة . يسميها الانجليز غاز الخردل أو الغاز المحرق لشدة تأثيره في الجلد . ويسميها الفرنسيون الايبريت لانها استعملت أولاً في منطقة الايبر . ويسميها الالمان الصليب الاصفر لانهم كانوا يفرغونها في قنابل عليها علامة الصليب الاصفر تمييزاً لها عن القنابل الاخرى ويسميها الكيميائيون dichlorethyl sulphide اكتشف هذا المركب كيمياوي انجليزي سنة ١٨٦٠ ثم كيمياوي الماني يدعى فكتور ماير سنة ١٨٨٦ ولكنه وجد ان دراسته لا تخلو من خطر فاهمله ومن ذلك الوقت اهمل هذا المركب في قواميس الكيمياء وظل في زوايا الاهمال حتى استخدمه الالمان في الحرب العظمى . وفي يوليه سنة ١٩١٧ امطروه على الانجليز ففتك بهم فتكاً ذريعاً . ومن ثمَّ جعل الالمان يعتمدون عليه في الحرب وحذا الحلفاء حذوهم ويقال

ان في هجمة واحدة دامت عشرة ايام اطلق الالمان مليون قنبلة تحتوي على ٢٥٠٠ طن من هذه المادة

وغاز الخردل ليس بغاز ثم انهُ لا يصنع من الخردل بل هو مركب كيمياوي يجهز من الكحول والكلور والكبريت. وهو سائل يغلي عند الدرجة ٢١٦° م ويتبخر ببطء ويبقى في الخنادق ويختفي في التراب والملابس اياماً طويلة . وكمامات الغاز الخانق لا تقي المرء منهُ وقاية كافية . لأن الجندي لا بد له ان يخلع الكمامة وقتاً من الاوقات فيهاجمه الغاز الذي لا يزال منتظراً . وفي بعض الحالات تضطر الجنود الى لبس الكمامات ١٢ يوماً متتالية ليل نهار . وقد يظهر المكان خالياً من هذا الغاز ولكن عند ما تطلع الشمس وتسخن الارض يتبخر منها هذا السائل ويعلق بملابس الجنود وكماماتهم . وهو سام جداً كغيره من الغازات السابقة . ويمتاز عنها بأنهُ يلسع الجلد كالبخار . ويحرق الجسم من الداخل والخارج فيحدث حروقاً مؤلمة اذا اهملت تحولت الى جروح خبيثة تسمم الجسم وتحدث الوفاة فضلاً عن انهُ يؤثر في الاجزاء الطرية كالعين والانف والحنجرة والرئتين

واهم مميزاته انهُ يبقى طويلاً وانهُ لا يحدث ضرراً في الحال بل يحدث ضرره فيما بعد . فقد يتأخر فعله يومان اوثلاثة ايام في الطقس الدافيء . وفي الطقس البارد لا يبدو خطرهُ الا بعد مرور اسبوع او عشرة ايام وقد يتأخر شهراً او اكثر حتى يدفأ الجو ويتبخر السائل . ويصعب جداً ازالته من الارض والامكنة التي يسقط فيها . فيبقى خطره مدة اسابيع او اشهر وفي بعض الحالات سنة او اكثر

وقد استعمل الالمان مقادير هائلة منهُ كما اسلفنا لايقاع الرعب في نفوس الحلفاء واضعاف الروح المعنوية . ثم لاخلاء المواقع الحربية وتأجيل الهجوم . ويقال ان الالمان في ابريل سنة ١٩١٨ قذفوا بهذا الغاز بلدة فرنسية تدعى Armentieres حتى سال السائل في الشوارع ولم يرغم الانكليز على اخلاء المدينة والهروب فحسب ، بل ان الالمان انفسهم لم يستطيعوا دخول هذه المدينة والاستيلاء عليها قبل اسبوعين من اخلائها

ولما كان هذا الغاز يلبث مدة طويلة في الارض يعدونهُ غاز دفاع . فاذا استعملت منهُ مقادير كافية في منطقة من المناطق عجز العدو عن احتلالها او عبورها . ثم انهُ يرغم العدو على اخلاء المواقع الحصينة التي لا يمكن اخذها بالمدافع والقنابل المتفجرة وكذلك يبطل عمل المدفعية القوية التي تمطر العدو بشدة وابلاً من الرصاص والقنابل

﴿ غازات اخرى ﴾ علاوة على الغازات الاربعة السابقة اي الكلور والكلوروبكرين والفوسجين وغاز الخردل ، استعملت مواد اخرى كثيرة في الحرب يبلغ عددها ثلاثين غازاً مختلفاً . منها مركبات البروم والزرنيخ والسيانوجين وفيها ما هو اشد فتكاً من الغازات التي وصفناها . منها مسيلات الدموع ومهيجات العطاس فهنالك غاز تسمى Phenylcarbylamin Chlorid

يجعل اشجع شجاع في ميدان القتال يبكي ويذرف الدموع مدراراً . وغاز آخر يسمى diphenylchloroarsine يجعله يعطس عطساً مستمراً . فالغرض من قذف هذه الغازات حمل الجنود على رفع الكمامات وعندئذٍ تقع فريسة الغازات السامة الاخرى التي تقذف معها

﴿ تقسيم الغازات الحربية ﴾ لقد قسم الالمان جميع الغازات السامة التي استعملت في القتال الى ثلاثة اقسام سموها

(١) الصليب الاخضر : — ويشتمل على اشد الغازات سمًّا واقلها بقاءً في الجو او في الارض مثل الكلور والفوسجين

(٢) الصليب الاصفر : — الغازات التي تثبت طويلاً في الامكنة او الاشياء التي تسقط عليها مثل الكلوروبكرين

(٣) الصليب الازرق : — ويشتمل على غازات الدموع والعطاس مثل diphenylchloroarsine ولكل منها غاية حربية قد شرحناها عند الكلام على هذه الغازات . والاخير يرسل عادة مع الاثنين الاولين لحمل الجنود على رفع كمامات الغاز السام حتى تقع فريسة لهما

﴿ كمامات الغاز السام ﴾ نجد في تاريخ الحروب ان آلات الدفاع تسير جنباً لجنب مع آلات الهجوم فكلما جدَّت آلة للهلاك ظهرت آلة للوقاية . ولم يجبن الانسان يوماً امام خطر جديد يهدده . فلما بدأت حرب الغازات استعمل للوقاية منها كمامات اولية عبارة عن قطع من القماش مبللة بمحلولات بعض المواد الكيمياوية مثل الهيبو وكربونات الصوديوم والبروتربين والجاسرين وكانت تربط هذه القطع على الفم والانف . ثم اخذت هذه الكمامات تتطور وتتحسن . واصبح لكل امة نوع خاص من الكمامات فللالمان كمامات خاصة وللفرنسيين كمامات خاصة وللانجليز والامريكان كذلك وجميعها لا تختلف في الجوهر كثيراً وان اختلفت في الشكل . وكمامة الغاز اجمالاً تتركب من قطعة تربط على الوجه وتتصل بانبوبة في صندوق صغير مملوء بفحم الخشب المصنوع من جوز الهند مختلطاً بمواد كيمياوية كالصودا والجير وبرمنجنات البوتاسيوم واملاح النيكل لامتصاص الغاز السام وافساد فعله . وعند استعمالها تربط هذه الكمامة على الوجه ربطاً جيداً بالصمغ المارن ثم يعقل الانف بمشبك ويؤخذ التنفس من الفم فيمرُّ الهواء أولاً في الصندوق حيث يفقد مابه من الغاز السام ثم يمر الى الفم . وعلى بعد خمسة اميال من ميادين القتال يعلق الجنود الكمامات على صدورهم ليكونوا على استعداد تام لاستعمالها عند سماع ناقوس الغاز السام المؤذن بالخطر

وتستعمل الكمامات لوقاية العين والانف والجهاز التنفسي . اما وقاية الجلد من بعض الغازات كغاز الخردل فتستعمل لها ملابس وقفازات واحذية خاصة تصنع من بعض المشمعات ثم تعالج ببعض المواد الكيمياوية وقد يوزع احياناً على الجنود بعض المراهم لدهن الجلد . هذا وهنالك كمامات وملابس خاصة لوقاية الخيل والكلاب التي تستخدم في الحرب [للبحث تتمة]

غداة الحرب القادمة

نص البرقية التي ارسلها مكاتب المقطم
من فلادلفيا في ١٣ اغسطس سنة ١٩٤٠

زهقت أمس نفوس ستة ملايين من سكان مدينة نيورك وضواحيها ، اذ اقبلت على المدينة العظيمة سمائة طيارة من طيارات « دول الاتفاق » فألقت فوقها ستاراً كثيفاً من غازي « الدايفنل كلوروارسين » و« الكاكوديل ايسوسيانيد » فقتلت كل رجل وسيدة وطفل وحيوان ونبات . ومات مليونان آخران من الناس في الضواحي البعيدة لما هبت الرياح حملت الغازات الخانقة اليها . وفي الانباء العالمية ان ٣٦ مليوناً قتلوا في بلدان العالم المختلفة بهذه الطريقة في العشر الساعات الاخيرة

ان نيويورك ولندن وباريس وكاليه وبروكسل وبرلين وفينا اصبحت اليوم مدناً خاوية لا أثر فيها للحياة لأن هجوم الطيارات واطلاق قنابل الغاز عليها امس امات كل سكانها . ذلك ان الحرب اعلنت بين «دول الاتفاق» و«دول الحلفاء» في الساعة السادسة والنصف من صباح امس بعد خمسة ايام من المفاوضة المستمرة حاولت في خلالها حكومات الدول ان تفصل في الخلاف الناشىء عن مسألة «هاربر سايج» وظلت الولايات المتحدة الاميركية محتفظة بحيادها حتى فجر الامس مع ان دول الارض كانت قد انقسمت الى فريقين فأحدها يعرف بدول الاتفاق والآخر بدول الحلفاء . وكان مجلس التحكيم الدولي في لاهاي قد عهد اليه بالفصل في الامر فأعلنته دول الاتفاق في الساعة الرابعة من صباح الامس انها لا تسلّم بحكمه ، فقرّر مجلس الأمة الاميركي ان يؤيد حكم المجلس الدولي فشهر الحرب على دول الاتفاق فكانت النتيجة ما رويت . وقد مات كل اولئك على أثر تنفسهم الغازات الخانقة فتمزقت رئاتهم وسقطوا في الشوارع او انكفأوا على مكاتبهم امواتاً

***

وقد صحبتُ الطيّار كارسُن في طيارته فلبس كلٌّ مناقناعاً واقياً من الغاز وحملنا من الاكسجين في زجاجات من الصلب ما يكفينا تسع ساعات وهبطنا مدينة نيوروك في الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين من هذا الصباح وجسنا خلال شوارع المدينة ومبانيها مدة سبع ساعات فلم نرَ اثراً للحياة فيها . ولا يزال الهواء مثقلاً بالغاز ولسنا نشكُّ في ان ستة الملايين من السكان الذين كانوا يمشون ويضحكون ويعملون ويتنزهون اول امس قد اصبحوا اجساماً هامدة . والجثث على اكتافها في شارع التجارة والمال (وول ستريت) حيث تجدها اكواماً

متراكمة عند مداخل البنايات الشاهقة ولعل الجثث في مكاتب المدينة المالية وامامها في الشوارع لا تقل عن مليون ونصف مليون

والظاهر ان كل هذا وقع فجأة فلم يرد نبأ يشير الى احتمال وقوعه حتى في بورصة نيويورك المتصلة بانحاء العالم بكل وسائل المخاطبات . فالجثث تسدُّ المدخل الى البورصة وهي متراكمة في باحتها الداخلية ، ولكننا ازحنا بعضها من طريقنا ومشينا فوق جثث اناس لم يعلموا ما هو واقع حتى تسرَّب الغاز الى الباحة من النوافذ والابواب . والظاهر ان احدهم جنَّ جنونهُ اذ شعر بالغاز يشدّ الخناق عليهِ فرفع ذراعيهِ مستجيراً فتحطم زجاج ساعته فاذا هي واقفة على الساعة ٢٫٥٩ ولما كان سرب الطيارات المهاجمة قد اطلق قنابله الغازية في الساعة ٢٫٥٠ فالمرجح ان كل سكان الطبقات الارضية من حي منهتَن قضوا في خلال ١٢ دقيقة بعد اطلاق الغاز

ونستطيع ان نقول على وجهٍ من التدقيق ، من دون مبالغة في التقدير ، ان النظام المالي في الولايات المتحدة ، قد اصبح الآن في خبر كان . فكل عمال البورصات المختلفة والبنوك ومكاتب السماسرة من المديرين الى السعاة قد قضوا نحبهم

ان كل الزعماء بين رجال المال والاعمال قد ماتوا

اننا وجدنا جثة رئيس بورصة نيويورك ملقاة امام مكتبه وقد وضع على انفه منديلاً كأنهُ يحاول ان يمنع الغاز من التطرق الى خياشيمه ورئتيهِ . ومات قابضاً على المنديل في محاولته اليائسة . اما ردهة بنك « الفدرال رزرف » فخاوية كالقبور . والغرف المتسعة المفروشة بالطنافس ، التي كان يجلس فيها بالامس رجال يسيطرون على حركة الذهب العالمية ، مظلمة قاتمة كأنها اطلال حضارة بائدة . وامام كل مكتبٍ رجل وقد انكفأ عليه ميتاً . وفي اقبية البنك ملايين من الريالات الذهب والورق وليس ثمة من يحرسها فقد ذهب حرَّاسها في سبيل كلّ حي في نيويورك

***

اما في الحيّ الشرقي فالنار تلتهم الاخضر واليابس . ذلك انهُ لما سقط الغاز كالغمام الخانق في المصانع ومات العمال تفجرت المراجل وانابيب الغاز المضيء فسرَتْ النار في المباني الخشبية القديمة سريانها في الهشيم فالتهمتها غير مبقية الا على السمنت المسلَّح والصلب . ولا تزال اللهب الحمراء تغزو ما امامها وبين الفينة والفينة نسمع صوت انفجار جديد . ولا بدَّ من ازالة نحو اربعة ملايين جثة من الشوارع والمباني قبلما تصلح نيويورك للسكن ثانية . ولولا ان النار التهمت جثث مليونين من الموتى في الحيّ الشرقي للزم نقل ستة ملايين جثة على الاقل

هذه صورة نيويورك الآن — خواء وموات !

***

اما قسم التحرير في بناية جريدة « نيويورك تيمس » ، فيبدو لنا مما شاهدناهُ ان رجالهُ

ظلّوا في عملهم الى النهاية . ذلك انهم عرفوا قبيل غيرهم بالهجوم فاقفلوا النوافذ ، ولكن الغاز مالبث ان تسرّب الى غرف التحرير فقضوا في كراسيهم . وقد عثرنا على برقيتين امام احد المحررين تحتويان على الانباء الاولى عن سرب الطيارات الهاجمة وهذا نصُّ اولاها

« عثر القسم الشمالي من الاسطول الاميركي في المحيط الاتلنتيكي على بحارة ثلاث سفن من حاملات الطيارات التابعة لاسطول دول الاتفاق . وكانت طيارات الاسطول الاميركي قد شهدتها من علو ١١ الف قدم فلما اقتربت منها رأت البحارة ينزلون من السفن ولم تلبث هذه السفن ان غرقت في اليمّ . فلما سئل البحّارة في ذلك فهم ان الاوامر صدرت لهذه السفن بالاقتراب من نيويورك قدر المستطاع ثم اطلاق طياراتها الستمائة المجهزة بقنابل الغاز الخانق

«ويعتقد ضباط البحرية الاميركية ان اغراق السفن الحاملة للطيارات غرضهُ الحيلولةدون اسرها. والنسافات الاميركية تبحث الآن عن الاسطول الذي رافق هذه السفن الى حيث وصلت

« والظاهر ان امر قائد جيوش الاتفاق صدر الى الطيارات بمهاجمة نيويورك ثم بالطيران الى الفلوات الواسعة غربها حيث يحرق الطيّارون طياراتهم ويسلمون انفسهم للاسر »

اما البرقية الثانية فبلاغ رسميٌّ من قيادة الجيوش الاميركية يبين ان وزارة الحربية مستعدة لهجوم طيارات الاتفاق وان نيويورك محصنة اشدّ التحصين ضدّها ، وتشيد خاصة بذكر مدفع خاص لمقاومة الطيارات المهاجمة . ويؤخذ من انباء الحالة الجوية التي عثرنا عليها في مكتب هذه الجريدة ان ضباباً كثيفاً كان يغطي وجه المدينة في الساعة التي حدث فيها الهجوم وهذا الضباب حال دون فعل المدافع الخاصة التي صنعت لمقاومة الطيارات

والظاهر ان طيارات الاعداء لم تحفل بالضباب بل اعتمدت على آلاتها فلما دلّتها الآلات على انها اصبحت فوق نيويورك رمت قنابلها ومضت في سبيلها

***

ولما بدأ الهجوم تقاطر الناس الى الكنائس للضراعة فوجدنا نحو الف وخمسمائة من الاموات في كنيسة ترنتي و٢٠٠٠ في كاتدرائية القديس بارك و١٤٠٠ في كنيس عمانوئيل و٨٠٠ في كنيسة رقرسيند . والموتى الذين وجدناهم في الكنائس كانوا من سلالات وشعوب مختلفة ومعظمهم كان راكعاً يصلي . ودخلنا مستشفى القديس لوقا فوجدنا الجرّاح ميتاً امام مائدة العمليات والعليل عليها ميتاً بفعل الغاز الخانق وكان لا يزال تحت فعل المخدّر — الايثر — وفي جناح آخر من المستشفى عثرنا على احد « التمرجية » ينظف اذني مريض وطبيباً جالساً وامامهُ كتاب يقرأ فيه فصلاً في الادرينالين واستعماله في الاطفال بعيد الوضع

وانتقلنا الى جامعة كولومبيا فرأينا رئيسها ملقى صريعاً عند مدخل دار الكتب فيها حيث مكتبهُ . والظاهر انهُ أحسَّ بجماهير الطلاّب خارجة من مباني الجامعة فخرج ليرى سبب ذلك .

الفكرة

لاسماعيل مظهر

«خرج الناس يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشباك»

بهذا وصف الناس طاغور . فكل يوم يخرجون منتشرين في فجاج الارض ، يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشباك . ولكن كيف يكون منقلبهم ؟ ذلك ما لم يرد طاغور ان يتكلم فيه . بل انهُ ترك جميع الناس يخرجون صبيحة كل يوم من مأويهم يجوبون ذلك البحر اللجيّ ، بحر الوجود ، بآلاف من الشباك ، يتسقط كل منهم حظه ونصيبه من الدنيا

اما انهم يعودون الى مأويهم بهذه الشباك مرة اخرى ، فذلك امر محتوم . اما الشباك فحمل على اكتافهم ، سواء اخرجت بالصيد الطيب ، ام بالرمل والحصى . فلا بد اذن للناس من شباك ولا بد لهم من نصيب تخرجه هذه الشباك . ولا بد لهم ايضاً من ان يحملوا هذه الشباك ويجوبون بها بحر الوجود . والوجود

« دنيا تعجّ بسكانها فهذا يغني وذاك ينوح وذلك مستسلم للقَدَر»

وكان « يوحنا » من المستسلمين للاقدار . يحمل شبكته كل يوم ويخرج يجوب بحر الوجود مع الذين يجوبونهُ ، ويعود راضياً بما وقع في شبكته . يمضي الى مأواه ساكناً ، ويلقي بصيده جانباً ، ثم يمضي يتأمل في بحر هذا الوجود . يعيش مع احدى بنات حواء ، وحوله عشرة من الاولاد . اما هو فكان قد حطم الاربعين . وأما الشبكة التي كان يخرج بها الى بحر الوجود ، فلم تكن من الشباك التي يزوّدها ذلك البحر إلا بالحاجة من زاده . ولكن القدر اخرج « يوحنا » الى الوجود سليل رجل كان بحر الوجود يزوده بالكثير من صيده ، وترك له من الدنيا نصيباً يكفيه النصب والكدح في سبيل العيش ، بل كان في يسار . وبحر الوجود بعد ان زوّد التاجر بالصيد الكثير ، ضنّ على الابن المفكر بصيد ولو كان قليلاً ، مما يرد السغب ويشبع بطناً عضّه الجوع

وهكذا خرج « يوحنا » الى الدنيا بمال ابيه ، ولكن برأس جديد . رأس يضن عليه بحر الوجود بخيره ، بل هو يبتلع اذا استطاع ما بين يدي صاحبه من صيد جاد به على غيره من اسلافه الاولين

وكان « يوحنا » يحمل رأس فيلسوف مستهتر ، ابيقوريّ من الطراز الاول الذي عاش قبل ان يكون ابيقور ، ذلك الطراز الذي عاش في الاسكندرية ابان ازدهارها بالعلم والفلسفة ، من طراز الفلاسفة الذين عشقوا « لايس » خليعة اثينا ، او الذين لعبت بهم « تاييس » في

المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمه وزير مالية العراق سابقاً

لم يرو لنا المؤرخون العرب شيئاً عن اشتراك المنذر بن ماء السماء في الحرب الشعواء التي اثارها على الروم سنة ٥٤٠م اذ عبر الفرات قرب قرقيسيا وهبط على انطاكية وغزاها ودمّرها ونقل سكانها الى العراق الا ان كلاً من الطبري وابن الاثير[١] ينقل الينا خبراً نظن له علاقة بهذه الحرب وبملوك الحيرة اللخميين وان احتاج الى تمحيص ونقد من وجوه عديدة واليك خلاصته : كان بين كسرى انو شروان وغطيانوس Justinian ملك الروم هدنة فوقعت فتنة بين رجل من العرب كان غطيانوس ملّكه على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة وبين رجل من لخم كان ملّكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة والطائف وسائر الحجاز يقال له المنذر ابن النعمان. فأغار خالد على المنذر ابن النعمان فقتل من اصحابه مقتلة عظيمة وغنم امواله فكتب كسرى الى غطيانوس يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالد وطلب ان ينصف المنذر ويأمر خالداً ان يعيد اليه ما نهبه منهُ فلم يحفل به[٢]. فغزا كسرى بلاد الروم في سبعين الفاً وكان طريقه على الجزيرة فأخذ مدينة دارا والرها وعبر الى الشام فملك منبج وحلب وانطاكية وفامية وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدن وسبى اهل انطاكية ونقلهم الى ارض السواد وأمر فبنيت لهم مدينة الى جانب مدينة طيسفون وافتدى غطيانوس المدن الرومية من كسرى . ويقول الطبري ان رومية المدائن كانت تشبه كل الشبه انطاكية حتى ان الاسرى الانطاكيين دخلوا رومية المدائن ووجد كل واحد بيته بدون صعوبة كأنهم في انطاكية ولم يخرجوا منها

ان هذه الرواية توافق الاحوال التاريخية كلها الا ان امراً واحداً يتطلب الحل. لا غريب في امر تولية المناذرة الحكم في عمان والبحرين واليمامة والطائف بعد زوال ملك كندة من آل آكل المرار. قال المستشرق السر تشارلس ليل[٣] : ولما انقضى امر كندة وسع ملوك الحيرة نطاق مملكتهم فشملت النصف الشمالي من جزيرة العرب والجانب الشرقي منها مما يلي خليج

(١) الطبري ٢ : ١٢١ والكامل ٢ : ١٢١ (٢) وجاء ذكر هذه الوقعة في الشاهنامه للفردوسي في الترجمة العربية ٢ : ١٢٦—١٢٩ (٣) في خطبة القاها في مؤتمر الدروس التاريخية بعنوان تاريخ العرب من شعرهم القديم ونشرها المقتطف في عدد فبراير ١٩١٤ ص ١٦٣—١٦٩

فارس ويكثر ذكر المنذر الثالث وابنه عمرو بن هند في اشعار ذلك العصر » . ونعلم ايضاً ان المنافسة بين الغساسنة والمناذرة على عرب الشمال كانت متأصلة في النفوس منذحكم الكنديين وكان كل من الغسانيين والمناذرة ينازعون الكنديين هذا الحكم [1] . ولكن المشكل الوحيد الذي يقوم امامنا في رواية الطبري وابن الاثير قولهما المنذر بن النعمان ونحن نعلم ان ملك الحيرة كان المنذر بن امرىء القيس الثالث وهو المعروف بالمنذر بن ماء السماء وليس المنذر ابن النعمان . فيحل هذا المشكل رأيان اولهما ان المؤرخين الطبري وابن الاثير ذكرا سهواً المنذر بن النعمان بدل المنذر بن امرىء القيس وقد اشار الى هذا السهو كليمان هوارت اذ قال يسميه بعضهم غلطاً ابن امرىء القيس البدء وبعضهم ابن النعمان [2] والرأي الثاني ان عميل كسرى في عمان والبحرين واليمامة والطائف كان احد اللخميين المسمى المنذر بن النعمان على ما رواه المؤرخون العرب

ومن حوادث المنذر بن ماء السماء المشهورة عند العرب انهُ كان له نديمان من بني اسد وهما خالد بن فضلة وقيل ابن المضلل وعمرو بن مسعود فثملا فراجعا الملك ليلة في بعض كلامه فأمر وهو سكران فحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة ودفنهما حيين فلما اصبح استدعاهما فاخبر بالذي امضاه فيهما فغمهُ ذلك وقصد حفرتيهما وامر ببناء طربالين عليهما وهما صومعتان وقال ما انا بملك ان خالف الناس امري [3] وسنَّ الا يمرَّ بهما احدٌ الاَّ سجد لهما وكان اذا سنَّ الملك منهم سنة توارثوها وأحيوا ذكرها وجعلوها عليهم حكماً [4] وجعل لهما في السنة يوم بؤس ويوم نعيم يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويغري بدمه الطربالين ولبث بذلك برهةً من دهره وسمى احد اليومين يوم البؤس وهو اليوم الذي يقتل فيهِ ما ظهر له من انسان وغيره وسمّى الآخر يوم النعيم يحسن فيهِ الى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم فخرج يوماً من ايام بؤسهِ فطلع عليهِ عبيد بن الابرص الشاعر الاسدي وقد جاء ممتدحاً فلما نظر اليهِ قال هلاَّ كان الذبح لغيرك يا عبيد فقال عبيد اتتك بحائن رجلاه [5] وبعد كلام طويل بين المنذر وعبيد نسب العرب اليه منشأ امثال كثيرة في لغة الضاد . وبعد ان انشد عبيد بعض الاشعار قال له المنذر يا عبيد لا بدَّ من الموت وقد علمت ان النعمان [6] ابي لو عرض لي يوم بؤسي لم اجد بُدًّا من ان اذبحه فاما ان كانت لك وكنت لها فاختر احدى ثلاث خلال ان شئت فصدتك من الاكحل وان شئت من الابجل وان شئت من الوريد فقال عبيد ابيت اللعن [7] ثلاث خلال كساحيات واردها شر وارد وحاديها شر حاد ومعاديها شر معاد فلا خير فيها لمرتاد

---

(١) زيدان: العرب قبل الاسلام ١ : ٢٠٧ (٢) Huart : His. des Arabes I : 67 . ويدعوه الطبري ٢ : ٨٦ المنذر بن النعمان الاكبر وأمه ماء السماء وفي ٢ : ٩٤ قال نقلا عن ابن هشام وملك بعد ابي يعفر بن علقمة المنذر بن امرىء القيس البدء وهو ذو القرنين وامه ماء السماء (٣) معجم البلدان مادة « غري »
(٤) المسعودي مروج الذهب ٦ : ٢٥٢ تدل هذه الرواية على ان اوامر الملوك عندهم شرائع واجبة الطاعة
(٥) راجع مجمع الامثال للميداني ١ : ١٠٧ (٦) ان صح هذا القول كان للمنذر بن ماء السماء ابن اسمه النعمان
(٧) تحية الملوك ومعناها لا تأت بعمل يستوجب اللوم واللعن

ان كنت لامحالة قاتلي فاسقني الخمر حتى اذا ماتت لها مفاصلي وذهلت منها دواهلي فشأنك وما تريد من مقاتلي فاستدعى له المنذر الخمر فشرب فلما اخذت منهُ وطابت نفسه وقدمه المنذر انشأ يقول:

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه خلالاً ارى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة سحائب ما فيها لذي خيرة انق
وسحائب ريح لم توكل ببلدة فتتركها الا كما ليلة الطلق

ثم امر بهِ المنذر ففصد حتى نزف دمه فلما مات غرّى بدمهِ الغريّين

وبقي المنذر[١] على تلك السنة حتى مرّ بهِ في بعض ايام البؤس حنظلة بن ابي عفر فاستمهله في قتله سنة بكفالة شريك بن عمرو فامهله المنذر . ورجع حنظلة بعد سنة في آخر نهار الاجل المضروب لينقذ كفيله شريكاً من القتل فراع المنذر هذا الوفاء وسأل حنظلة عن سببه فاجابهُ حنظلة ابرّ بوعده لانهُ كان على دين النصرانية الذي يأمر بالوفاء فأثر هذا الكلام في المنذر واكبر هذه الخلة الشريفة فتنصّر هو واهل الحيرة وابطل هذه السنّة العاتية

وعلى ذكر تنصّر المنذر نقول ان امه كانت على النصرانية وهي مارية الملقبة ماء السماء على اشهر الاقوال[٢] الا انهُ تقلب في اعتقاده بين وثنية عرب الجاهلية والمجوسية وقد ذهب بعضهم الى انهُ دان بالمزدكية[٣] وكانت زوجته هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي مسيحية وتسمى هند الكبرى وهي صاحبة الدير الذي باسمها وكانت قد كتبت عليهِ[٤]

« بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك وام الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده في ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مار افريم الاسقف . فالإله الذي بنت لهُ هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها ويقوّمها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر »

وتزوّج المنذر بن ماء السماء بأخت زوجتهِ هند ايضاً واسمها امامة . وولدت لهُ كل منهما اولاداً . وكان له من هند ولد اسمه عمرو بن هند خلفه في الملك ومن امامة ولد عرف بعمرو ابن امامة[٥]

ومن حروب المنذر بن ماء السماء حرب « يوم عين اباغ »[٦] وكان سببها ان المنذر سار من الحيرة في معد كلها وحدث ان نزل بعين اباغ بذات الخيار وأرسل الى الحرث الاعرج بن جبلة ابن ثعلبة بن جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر الغسّاني ملك العرب بالشام[٧] اما ان تعطيني الفدية فانصرف

---

(١) يسند بعض المؤرخين هذه الرواية الى النعمان الاول ويرويه غيرهم عن النعمان ابي قابوس ولكن الراي المرجح انه المنذر بن ماء السماء (٢) النصرانية وآدابها ٨٨ (٣) كذلك . ولكن هذا القول يخالف ما ذكره بعض المؤرخين من ان سبب نكبته كان امتناعه عن قبول المزدكية (٤) معجم البلدان مادة دير هند الكبرى (٥) معجم البلدان في المادتين (قضيب) و « صريح » (٦) الكامل لابن الاثير ١ : ٢٢٢ وعين اباغ ليست بعين ماء وانما هو واد وراء الانبار على الفرات الى الشام . قال ياقوت في معجمه وكان عندها في الجاهلية يوم مهم بين غسان ملوك الشام وملوك لخم ملوك الحيرة قتل فيها المنذر بن المنذر ابن امرىء القيس اللخمي . قلنا والمشهور ان القتيل فيها المنذر ابن امرىء القيس (٧) وقيل ابو شمر عمرو ابن جبلة بن النعمان ابن الحرث الايهم ابن مارية الغساني وقيل هو ازدي تغلب على غسان

عنك بجنودي واما ان تأذن بمحرب فارسل اليهِ الحرث انتظرنا ننظر في امرنا فجمع عسا كره وسار نحو المنذر وأرسل اليهِ يقول له انا شيخان فلا تهلك جنودي وجنودك ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر واذا فني اولادنا خرجت انا اليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك فتعاهدا على ذلك فعمد المنذر الى رجل من شجعان اصحابه فأمره ان يخرج فيقف بين الصفين ويظهر انهُ ابن المنذر. فلما خرج اخرج اليهِ الحرث ابنه ابا كرب فلما رآه رجع الى ابيه وقال ان هذا ليس بابن المنذر انما هو عبده او بعض شجعان اصحابه فقال يا بني اجزعت من الموت ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليهِ وقاتله فقتله الفارس والقى رأسه بين يدي المنذر وعاد فأمر الحرث ابناً له آخر بقتاله والطلب بثأر اخيه فخرج اليه فلما واقفهُ رجع الى ابيه وقال يا ابتِ هذا عبد المنذر فقال يا بنيَّ ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليهِ فشدَّ عليهِ فقتله فلما رأى ذلك شمر بن عمرو الحنفي وكانت امه غسانية وهو مع المنذر قال ايها الملك ان الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام وقد غدرت بابن عمك دفعتين فغضب المنذر وامر باخراجه فلحق بعسكر الحرث فأخبره فقال سل حاجتك فقال له حلتك وخلتك فلما كان الغد عبر الحرث اصحابه وحرضهم وكان في اربعين الفاً واصطفوا للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل المنذر وهزمت جيوشه

وفي رواية ان شمر بن عمرو الحنفي احد بني سحيم قتل المنذر غيلة وذلك ان الحرث ابن جبلة الغساني بعث الى المنذر بمئة غلام تحت لواء شمر هذا يسأله الامان على ان يخرج له من ملكه ويكون من قبله فركن المنذر الى ذلك وأقام الغلمان معهُ فاغتاله شمر بن عمرو فقتله [١]

وجاء ان غساناً اسرت امرىء القيس بن المنذر يوم قتلت اباه فأغارت بكر بن وائل على بعض بوادي الشام فقتلوا ملكاً من ملوك غسان واستنقذوا امرىء القيس بن المنذر واخذ عمرو ابن هند بنتاً لذلك الملك يقال لها ميسون [٢]

وقال ابن الاثير [٣] بعد قتل المنذر امر الحرث بابنيه القتيلين فحملا على بعير بمنزلة العدلين وجعل المنذر فوقهما فرداً وقال «يالعلاوة دون العدلين» فذهبت مثلاً وسار الى الحيرة فانهبها واحرقها ودفن ابنيهِ بها وبنى الغريين عليهما في قول بعضهم الا ان بعض المؤرخين يستبعدون ذهاب الحارث الغساني الى الحيرة ويستبعدون اكثر منه دفن ابنيهِ وبناءه الغريين عليهما

وفي يوم اباغ يقول ابن الرعلاء :

كم تركنا بالعين عين اباغ — من ملوك وسوقة اكفاء
امطرتهم سحائب الموت تترى — ان في الموت راحة الاشقياء
ليس من مات فاستراح بميت — انما الميت ميت الاحياء

ويظهر من مقارنة الحوادث ان موقعة يوم اباغ كانت سنة ٥٦٣ ميلادية

ومما يذكر عن المنذر بن ماء السماء انه اوفد وفداً على ابرهة بعد ان فتح الاحباش بلاد

(١) الاغاني ٩ : ١٧٢ (٢) كذلك ص ٧٣ (٣) الكامل ١ : ٢٢٣

اليمن[١] وينسب الى المنذر هذا بناء قصر الزوراء في رواية [٢]. ويقال انه كان يجير جاره شديد الشهامة عليه ومن ذلك ان ابا دواد الشاعر كان جاره . فنازع ابو دواد رجلاً بالحيرة من بهراء[٣] يقال له رقبة بن عامر فاخرج ابو دواد بنين له ثلاثة في تجارة إلى الشام فبعث رقبة الى قومه فقتلوهم فحبس المنذر ابا دواد وبعث كتيبتيه الدوسر والشهباء لمعاقبة المجرمين[٤]

ومن حديث الادباء ان الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء بن امرىء القيس فاخرج المنذر بردين يوماً يبلو الوفود وقال ليقم اعز العرب قبيلة فليأخذهما فقام عامر بن احيمر بن بهدلة فاخذهما واتزر باحدهما وارتدى بالآخر فقال له المنذر أأنت اعز العرب قبيلة قال العز والعدد في معد[٥] ثم في نزار[٦] ثم في مضر[٧] ثم في خندف[٨] ثم في تميم[٩] ثم في سعد[١٠] ثم في كعب[١١] ثم في عوف[١٢] ثم في بهدلة[١٣] فمن انكر هذا فلينافرني فسكت الناس[١٤] ومما يذكر عن المنذر انهُ كانت له ابنة اسمها فاطمة كان يهواها المرقش الاصغر الشاعر وقال فيها الغزل[١٥]

وقد نسب العرب بعض الاقوال المأثورة الى المنذر بن ماء السماء ومنها : العز تحت ظلال السيوف . وحصون العرب الخيل والسلاح . والحرب سجال عثراتها لا تقال[١٦] ونسب اليه الميداني[١٧] المثل القائل « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » وذلك في حكاية طويلة يلخصها ان بني ضمرة بن جابر وقعوا في يد لقيط بن زرارة فاساء ولايتهم واهانهم فوسط بنو نهشل المنذر بن ماء السماء لاسترجاعهم من لقيط فاسترجعهم ودعاهم امامه وكان يعجبه ما يسمعه عن خلال شقة بن ضمرة ولم يكن منظره يرضيه فقال له « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » . فاجابه شقة أبيت اللعن واسعدك الملك ان القوم ليسوا بجزر يعني الشاه « يعيش الرجل بأصغريه لسانه وقلبه»[١٨] . وجاء ذكر المنذر في كثير من اشعار عرب الجاهلية الذين عاصروه[١٩] وقصارى القول ان المنذر بن ماء السماء من اشهر ملوك الحيرة[٢٠]

---

(١) زيدان العرب قبل الاسلام ١ : ١٥٩ و ٢٠٧ (٢) كذلك ص ١٥٩ (٣) بهراء بطن من قضاعة من القحطانية وهم بنو بهراء بن عمرو بن الحافي بن قضاعة (٤) الميداني مجمع الامثال ١ : ٣١ في تفسير المثل (انا النذير العريان) (٥) معد بطن من عدنان وقيل هو بطن متسع ومنهم تناسل جميع بني عدنان (٦) بنو نزار بطن من عدنان وهم بنو نزار بن معد بن عدنان

(٧) مضر قبيلة من العدنانية وهم بنو مضر بن معد بن عدنان (٨) بنو خندف بطن من مضر من العدنانية وهم بنو الياس من مضر . وخندف اسم امرأة الياس عرف بنوها بها (٩) بنو تميم من طابخة وهو من عدنان وهم بنو تميم بن مر بن اد بن طابخة وكانت منازلهم بارض نجد . ونزلوا من هنالك على البصرة واليمامة وامتدت الى القرى من ارض الكوفة ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر (١٠) بنو سعد بطن من تميم (١١) كعب بطن من تميم من العدنانية وهم بنو سعد بن زيد مناة (١٢) عوف بطن من تميم من العدنانية وهم بنو عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة كان له من الولد عطارد وبهدلة وغيرهما (١٣) بطن من تميم وهم بنو بهدلة بن عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم (١٤) شعراء النصرانية ١٣٣ (١٥) الاغاني ٥ : ١٧٩ (١٦) الامام ابو منصور الثعالبي النيسابوري : الايجاز والاعجاز ص ١٥ (١٧) مجمع الامثال ١ : ٨٧ (١٨) كذلك ٢ : ٢٥٣ (١٩) تشارلس ليل : المقتطف فبروري ١٩١٤ (٢٠) استللنا هذا المقال من كتابنا المخطوط « الحيرة : المدينة والمملكة العربية » . راجع مقتطف اكتوبر ونوفمبر ودسمبر ١٩٣٢

انا الميت الحي

لتوفيق مفرج

صاحب كتاب « آلام وأحلام »

الوداع ايها الشعر والحب
الوداع ايها الشباب والقلب
انتم الحياة ، فالوداع ايتها الحياة
الوداع ايتها العاطفة التي لا تزال مضطرمة متأججة في صدري
الوداع ايها الفن — ايتها الموسيقى — ايها الغناء
الوداع ايها الخيال — الوداع ايها الالهام
انا سائر في سبيلي
انا اعدو وراء اشغالي واعمالي
انا منصرف عن ادبي الى تجارتي ، وعن جمع الحكمة والافكار ، الى جمع المال والدينار
فالوداع ياقلبي !

* * *

منذ عشر سنوات القيت بنفسي في بحر هذا العالم الواسع
قلت للناس — انا اديب احب الادب وعالم احب العلم و مفكر احب التأمل والتفكير
وقفت في زوايا الشوارع اعرض بضاعتي واقدم اثمار افكاري
وكانت الجماهير العمياء تمر وتنظر نحوي بازدراء واحتقار ، وفي نظراتها شفقة اشد من ذلك الازدراء ، ورحمة أذلُّ من ذلك الاحتقار
وكانت تموجات الاثير تحمل اليَّ كلمات عابري السبيل يقولون :
شاعرٌ تاعس وكاتب فقير !

***

وكنت انادي بصوت عال
عندي اشعار وعندي علوم !
عندي فلسفة وعندي آداب !
فلم يكن ثمة من يسمع

ولم يكن ثمة من يجيب
ولم يكن ثمة من يشتري
كسدت افكاري ، وبارت بضاعتي ، وضاعت آمالي
فاضطررت ان انصرف عن الشعر والعلم ، الى التجارة والمال

***

وبعد سنين جئت الى اولئك الذين احتقروني شاعراً وازدروني كاتباً وقلت
عندي اشياء جديدة
عندي اموال
عندي سيارات
عندي منازل وعزب واطيان
واذا باعداء الامس يتحوّلون الى أصدقاء
والذين يقولون شاعر تاعس فقير ، هم هم يقولون
تاجر عظيم ومتموّل كبير
راجت بضاعتي المادية لان الناس ماديون يفهمونها ويطلبونها . وكسدت بضاعتي الادبية لان الناس لاهون عن الادب ، عن الشعر ، عن الفلسفة ، عن الخيال والفن

***

اما انا —
فأنا التاجر الخاسر رغم ارباحي
انا الكاتب الغني الذي يشعر بفقره
بعت روحي لاشتري جسدي
اضعت حياتي لاجد لذتي
هبطتُ من الحياة الى الموت، ومن النور الى الظلمة، ومن سماء الخيال الى حضيض الارض
بعتُ القصورة الجميلة في الهواء ، لاشتري داراً حقيرة على الارض
أنا الشاعر الذي قدّم دفاتره إلى محكمة الادب العليا فاعلنت افلاسه
أنا الشاعر التاجر الذي مات شاعراً ليحيي تاجراً

***

وهاأنا الآن استعرض امام نفسي ما جمعت من مال فاجده لا يوازي كلمةً واحدة من شعري

لان شعري وليد روحي وغذاؤها وحياتها
هو رفيقها بعد الموت الى ما وراء الابدية
هو سلواها في أفراحها وأحزانها لانهُ خالد مثلها
هو جزءٌ مني لا يتجزأ عني إن عشت ، ويبقى معي بعد أن أموت
أما مالي فلُعبة ألهو بها أياماً ثم أتركها لسواي

***

فيا أيها العالم الجميل البديع الذي عرفتهُ في تعاشر اهل الدنيا — قل لي كيف وأنا صحيح عقلاً وجسداً ، اهجر قلبي وانبذ شعري لاعود إلى تجارتي ومالي
كيف أرضى أن أحيي يوماً لاموت أبداً
أيها الذين يعرفونني — انظروا إليَّ وأشفقوا عليَّ
أنا الميت الحي !
انظروا كفني
هو أوراق مالية مكتوب عليها تدفع ذهباً ولا تدفع إلاَّ ورقاً
انظروا إلى نعشي
سندات وقراطيس
انظروا إلى قبري
هو قطعة من الفضة موشاة بالذهب
ايها الناس !
لقد ربحت العالم وخسرت نفسي
ايتها السماء
خذي مالي وجميع ما ملكت يداي وارجعي اليَّ شعري

***

لبست ثوب الشاعر فمات جسدي جوعاً وبرداً
ولبست ثوب التاجر فتنعم ذلك الجسد بالدمقس والحرير
اما الروح التي تنعمت في جسد الشاعر لفقره وبؤسه
فهي الروح التي تتألم في جسد التاجر لثروته وماله

عصر الانسانية المقبل

الانتقال من الفردية المطلقة الى التنظيم الاجتماعي
والبناء على مثال النمل والنحل

من بحث لاندره موروى الكاتب الفرنسي الشهور

هل ثمة اساس لما يقال من ان تاريخ الانسانية تتداوله عصور يتلو جديدُها قديمَها ؟ أليس تتابع الحوادث في التاريخ مستمراً ؟ فاذا عمد المؤرخ لدرس الماضي اخذ الشريط الذي دوّنت عليه الحوادث ، وقطعهُ قطعاً تسهيلاً لتناوله فيدعو قطعة منهُ «العصور الوسطى» واخرى «العصر الحديث» وهكذا . ثم أليس من المتعذّر اقامة الدليل على ان ابناء عهد ما كانوا يشعرون بأنهم منتقلون من عصر الى عصر . فالحوادث التي تحسب الآن اعلاماً في طريق التاريخ لم يحسبها كذلك الذين عاصروها . فبنطيس بيلاطس لم يتخيل قط ما سوف يكون مقامهُ في التاريخ . فلما انقضت نحو ستمائة سنة على ميلاد المسيح قرر احد الرهبان ان يجعل سنة ميلاده مبدءاً للتقويم المسيحي . ولما هجم الفرنسيون على حصون البستيل يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ تريّث لويس السادس عشر ليدون في يوميته وصف حفلة صيد وقنص حضرها ! ان الثورات الحقيقية هي بمثابة قنابل تنفجر بعد ما ترتدُّ اسبابها الى آفاق الماضي الذاهبة

وتيار التاريخ يكون آناً رهواً وآناً صاخباً متدفقاً . وهو تارة بطيء فاذا استطلع المؤرخ ضفافهُ الفاها على وتيرة واحدة ثم يسقط فجأة من مرتفع فيحدث دويّاً وصخباً

ولو ان رجلاً من معاصري الامبراطور ديوقلطيانوس رأى رومانيّاً من عصر الامبراطور اغسطس لعرفهُ رغم القرون الفاصلة بين عهدي الامبراطورين . او لو ان فرنسيّاً نام في باريس سنة ١٦٦٦ واستيقظ سنة ١٧٨٨ لعرف الملك وبلاطه . واذا ألمَّ بآراء الفلاسفة استغربها ولكنها لم تذهلهُ . ولكنه لو نام ثانية سنة ١٧٨٨ واستيقظ سنة ١٧٩٨ لوجد نفسه في عالم لا يفهمهُ على الاطلاق . ولو ان اميركيّاً من العقد السابع في القرن الماضي ظهر في نيويورك سنة ١٩٣٠ لحسب متوحشاً جاهلاً لا يعرف ابسط حقائق الحياة

فاذن نستطيع ان نحسب كل فترة قصيرة من الزمان حدث في خلالها انقلاب اساسيّ في حياة الناس وافكارهم ، بواسطة عقيدة جديدة او سلسلة من المستنبطات او ارادة عبقري متفوق ، مفتَتح عصر جديد . فهل نحن في مفتتح عصر جديد ؟ واذا كنا في مفتتحهِ فما أسباب الانقلاب وما ينتظر ان يتصف بهِ العصر المقبل . وقد قلنا ان اسباب الانقلاب تفعل فعل القنابل ، فهل تحت اركان المجالس النيابية الآن ، مراجل تغلي وشيكة الانفجار ؟

في القرن السادس عشر غرس المصلحون البروتستانت ، وبوجهٍ خاص المصلح كلفن ، فكراً جديداً في اذهان الناس . قالوا اننا لا نحتاج الى وسيط بيننا وبين الله ، بين الكتب المقدسة وعامة القراء . فدعوا بذلك الى الحرية في ميدان العقيدة الدينية ، ومهدوا الطريق للدعوة الى الحرية في ميدان التفكير السياسي . فالرجل الذي يستطيع ان يفسر التوراة يستطيع كذلك ان يحكم في شؤون الدولة . والرجال الذي يتساوون امام الله ، يجب ان يكونوا متساوين امام القانون . فالفلسفة الفردية كانت مطوية في تضاعيف الاصلاح الديني

ومن الغريب ان الفلسفة المقابلة للفلسفة الفردية اي فلسفة الاشتراك في العمل _Collectivism_ كانت مطوية فيها كذلك . « فمبادىء البروتستانت عزلتهم عن غيرهم ولكن حماستهم في سبيلها وحَّدتهم بجملتهم قوماً واحداً » هكذا قال لوثيروس . فان افكارهم دفعتهم الى طلب الحرية ، ولكن النزاع الشديد اقتضى التنظيم الدقيق والخضوع للنظام . فوحدتهم الاجتماعية لم تكن وحدة جماعة دينية وانما كانت وحدة جيشٍ محارب . وعلى ذلك ايد لوثيروس بعض الامراء ، وكانت حكومة كلفن نفسه بمثابة دكتاتورية . وقد سلَّم الناس بهذه المفارقات حينئذٍ لان الحمية الدينية جعلت الاستبداد مقبولاً

ولكن لم يطل المطال حتى ظهرت بلاد لا تسلّم بالاستبداد ، فآتت العقيدة البروتستانتية فيها اشهى ثمارها . تلك البلاد كانت « نيوانجلند » (الولايات الشمالية الشرقية في الولايات المتحدة الاميركية التي نزل فيها المهاجرون اولاً) فقد كان معظم المهاجرين الغلاة « البيورتان » من طبقة اجتماعية واحدة . ولما كانت افكارهم قد وحدت بينهم في منفاهم لم يتعيّن عليهم ان يقاوموا اي اضطهاد في بيئتهم الجديدة . ففي نيوانجلند سارت الفردية البروتستانتية سيرها الطبيعي متجهة الى الديمقراطية الصحيحة

ومن البلدان البروتستانتية العظيمة — من انكلترا عن طريق فولتير ومنتسكيو ، ومن اميركا عن طريق لافاييت وفرنكلن ، ومن جنيف عن طريق روسو — استمدت الثورة الفرنسية فلسفتها في « حقوق الانسان » . وكان روسو تلميذاً لكلفن فبذر بزور مذهبي الفرد والجماعة ودعا الى دولةٍ يكون السيّد فيها كليَّ السلطان لان السيّد هو الشعب . وفي كلامهِ كثير مما يذكّرك بروسيي العقد الثالث من القرن العشرين

اما القرن الذي تلا الثورة الفرنسية فكانت السيطرة فيهِ للناحية الفردية من هذه الفلسفة . فطالبت الشعوب بحقوقها — وفوقها كلها حق التصويت لانهُ كان رمزاً للمساواة وضماناً للحرية . وكان التصويت اولاً ميزة تمتاز بها بعض الطبقات (فكان مبنيًّا على مقدار الضرائب في انجلترا وفرنسا وحبس عن بعض السلالات الملونة — الزنوج — في اميركا) ولكن لم يشرف القرن التاسع عشر على ختامه حتى كان حق التصويت قد اصبح عاماً في طائفة من اكبر

البلدان ، على اثر ثورات واصلاحات اخذ بعضها برقاب بعض . ولو انهُ طُلِب من عاقل ان يبدي رأيهُ في اتجاه الاجتماع سنة ١٩٠٠ لقال ان العالم في مفتتح عصر الحرية . وفازت دول الاحرار في الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وعلى اساس الدعوة الى الحرية فاقبلت سائر الامم على تقليدها في نظامها الحكومي والاجتماعي

ولكن قوى خفية جديدة كانت تقوض دعائم الديمقراطية والفردية . فالتصويت العام جعل السلطة في ايدي الجماهير . فلم تحجم الاحزاب عن اي عمل للفوز بالاصوات . فاصبح المحافظون من اتباع الدجل السياسي وحاول الاغنياء التأثير في الرأي العام باساليب مبتدعة من الدعاية . وهكذا بدأت الديمقراطية تنحو نحو الدماجوجية (الدجل السياسي) والبلوتوقراطية (حكومة الاغنياء)

ولولا الحرب العالمية والازمة الاقتصادية الخانقة التي تلتها ، لامكن ترقيع النظام القديم بالاصلاح والتعديل والاحتفاظ بهِ الى مدًى . على ان الديمقراطية تحتاج ، لتبقى راسخة البنيان الى تعليم الشعوب في فترات السلام والرخاء . فاذا هبَّت الزعازع فضَّل الناس السلامة على الحرية . ولا تطاق الحكومة المستبدَّة في هذه الحال ، الاَّ اذا بدا في نظامها شيءٌ جديد . كذلك استبدل كالفن حكومة الاقلية الارستقراطية في جنيف باستبداد ديني . وكذلك قضى الروس على استبداد القيصر واحلّوا محلّهُ دكتاتورية العمال

اما الدماجوجية وسيطرة الاغنياء في بعض البلدان التي اخذت بمذاهب الاحرار ، فاورثت شروراً ومساوي طغت على مآثر الافراد . أما في ايطاليا وروسيا فالرأي الآن انهُ يجب ان يخلى السبيل للدولة . واما المانيا فيظهر انها تبحث عن قوة جبارة يستطيع ان يجد فيها شبابها المتصوف قبلة للاجلال . ان نصف الامم المتمدنة اخذت تشيح بوجهها عن الديمقراطية . والصحف في اميركا لا تفتأ تعرب عن مخاوفها من النزعات الحرة ورغبتها في الحكومة القوية

ان في روسيا جيلاً جديداً غير ملمّ بمذاهب الاحرار في غرب اوربا واميركا ، بل هو يحتقرها ويزدريها ، اذ بسطها احد لهُ . ففي روسيا لا يبحثون قط في حقوق الانسان ، بل في واجبات الانسان . والفرد يرى شيئاً من النشوة الدينية اذ نسي ذاته ليشترك في ذات الدولة . ان وكر النمل وقفير النحل اصبحا النموذج الذي تبنى عليهِ الجماعات الانسانية . وهذا مناقض كل المناقضة للمثُل التي كانت سائدة في القرن الماضي . فهل نستنتج ان التطرف الذي بدا في البلدان «الفردية» النزعة قضى على هذه المثُل ؟ وهل يكون العصر الجديد عصر النمل والنحل ؟

اما القنبلة الثانية التي أُشعِلت مراراً في العالم الحديث ، فطفئت ثم اشعلت ثانية وثالثة فهي قنبلة العلم التجريبي . اشعلها اولاً بعض الشعوب القديمة كاليونان . وتلاهم العرب فزادوها لهيباً . ثم تعهدتها اوربا بعيد عصر النهضة أو الاحياء . ولكن الانفجار العظيم الذي نشهد آثاره جاء في مطلع القرن التاسع عشر . فقد خلق العلم التجريبي الآلة ، وهي اداة وضعت قوى الكون في متناول يد الانسان

وزيادة طاقة الانسان زيادة لا تُحدُّ عمل مفيد اذ يستطيع بها ان يزيد ما يصنعهُ من العروض ثم هي تمهد السبيل امامهُ لابتداع عروض جديدة ، وتمكنهُ من ملاءٍ كانت لغلائها وندرتها فوق طاقته . واذ حلت الآلة محل العامل ، عمد العلم الى الحقل فزاد غلالهُ وجوَّد صنفها . وكل هذا لا تنكر فائدتهُ . ولو ان مراقباً حاول ان يحكم على حالة العمران في مطلع القرن العشرين لقال هذا مفتتح عصر الرخاء . اما الآن وقد انقضى نحو قرن ونصف قرن على استنباط الآلة البخارية فاننا نرى نتائج لم تخطر ببال احد من ثلاثين سنة على الاكثر

فتوسيع نطاق الانتاج يفضي الى صنع عروض لا يحتاج الناس اليها كلها. والبضائع المصنوعة في طبقة عالية من الجودة والمتانة ولكن الناس لا يبتاعونها . وها هي المصيبة نزلت ببني الانسان . واية مصيبة هي — مصيبة كثرة البضائع والعروض التي كانت تحسب سبيلهم الى الرخاء . والآلة التي كان ينتظر ان تغني الانسان وتخفف اعباءهُ جلبت في اثرها العطل عن العمل والبؤس — وليس هذا لأنَّ الآلة شرٌّ بحد ذاتها ، بل لضعف الذكاء الانساني

وكان من أثر الاساليب العلمية التخصص في الصناعة والزراعة . فكانت كل جماعة قبلاً تصنع ما تحتاج اليهِ فكان لهذا أثره السيء لانهُ اذا امحلت الحقول سنةً حلت المجاعة بالجماعة التي تعتمد عليها للحصول على الغذاء . اما وقد خلق العلم وسائل للمواصلات السريعة فقد اصبح من الميسور نقل الغلال من مكان الى آخر نقلاً سريعاً فبدا للمفكرين ان كثرة الغلال وسرعة المواصلات ازالتا شبح المجاعة من العالم

ولكن الاعتماد على المواصلات السريعة حمل الناس على تركيز الصناعة والزراعة في مواقع خاصة ممتازة . وهذا عمل مفيد لولا انهم اهملوا العناية بتوفير اسباب التبادل . وقد ابانت الازمة العالمية التي ما زلنا نعانيها ، ان شبح المجاعة ما زال يهدّد العالم . فغارس اشجار المطّاط قد يموت جوعاً والى جانبهِ اكوامٌ من غلتهِ التي لا تباع. وزارع الحنطة قد يهرأ برداً وحواليهِ اكداس الحنطة . ففكرة الوحدة الاقتصادية العالمية قد منيت بالخيبة — الآن على الاقل

ثم ان الشك العلمي ، قد قتل في نظر البعض صدق الايمان . وبعض الناس يحيون من دون الايمان الصادق واما البعض الآخر فلا يستطيع ذلك . فالدين مكن البائسين من الصبر على آلامهم املاً في الجنة حيثما لا اوصاب ولا آلام . ولكن المادية العلمية دفعت الذين لا يرغبون في الملذات العقلية الى البحث عن اكفاء الشهوات العارضة. على ان الانغماس في الشهوة التي لا ضابط لها مناقض للطبيعة البشرية . فهو يهدم الجماعات التي تنصرف اليهِ ولا يلبث ان يصبح نقيض اللذة وهو الالم

ثم ان الانسان لا يستطيع ان يعيش من دون مثل اعلى يرنو اليه . وفي عصرنا هذا أُسبغ على القومية ثوب ايمان جديد . ولكن القومية العنيفة المحاربة لا تستطيع ان تعيش في جماعة اساس نظامها الاقتصادي التبادل الدولي، او في عالم اشترك فيه العلم والتجنيد الاجباري لجعل

الحرب بمثابة انتحار للبشرية. فليس امامنا في ميدان السياسة الأ عقيدتا الفاشيّة والبلشفية . ففي رومية وموسكو اصبحت الدولة مصدر الآداب ومعلمة الفضائل . اما ونحن في عالم تعوزهُ العقيدة والحكمة ، فقد لا نرى سبيلاً آخر للخلاص

والظاهر ان العصر الذي اشتركت فيهِ مذاهب الاحرار والعلم، لتحقيق السعادة الانسانية قد بلغ غايتهُ. قد نستطيع ان نخلص الحرية السياسية من البوار ولكن يجب ان نضحي في سبيلها بالحرية الاقتصادية. ونحن الآن في مفتتح عصر كلمة السر فيهِ «التنظيم» وهذا التنظيم يحاول ان يتخذ في اميركا مثلاً شكل حكومة مؤلفة من خبراء ، وفي بلدان اخرى شكل جماعات من الماليين Cartels تسيطر على الحكومة من وراء ستار . فهل يكون البناء في العصر الجديد على مثال ما تفعله النمل ؟

قد تفوز النزعة الاشتراكية . واذا نجحت التجربة الروسية تكون قد ابدعت مثالاً جديداً من النظام الاجتماعي . ولا يلزم ان تذيع طريقتها في تنظيم الحياة الاقتصادية بالفتح والثورة بل يمكن ان تذيع بالعدوى والتقليد . فالثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ لم تحدث انقلاباً عنيفاً في انكلترا ولكن مبادىء سنة ١٧٨٩ هي اهم البواعث على الاصلاح الانتخابي الذي تمَّ في انكلترا سنة ١٨٣٢ بل نستطيع ان نقول ان سقوط الباستيل كان اهم حادث في تاريخ انكلترا . ولعلَّ سقوط القيصرية الروسية يحسب في المستقبل اهم حادث في تاريخ الولايات المتحدة

ولكن عصر التنظيم الاجتماعي والاقتصادي قد ينتهي بالخيبة . ولم يثبت حتى الآن ان الذكاء الانساني يستطيع ان يسيطر على مستقبلنا الاقتصادي وتنظيم حاجات الناس واعمالهم. فهل من السهل ان نلائم بين عالمي الزراعة والصناعة ؟ هنا لبّ المسألة وليس غير التجربة كفيلاً بالجواب . فاذا انتهى هذا العصر بالخيبة فقد نشهد انحطاطاً عالميًّا . فتحمل الروح القومية كلَّ امة على الاكتفاء بذاتها . ويقلُّ التداول الدولي حتى يكاد يُمحى . وتصبح آية العصر الجديد شبيهة بآيات الحضارة الزراعية الغابرة

ومع ان هذه الخيبة ليست مستحيلة الأ انها في نظرنا غير محتملة . واعتقد ان العصر المقبل سوف يتصف باتساع الثروة . على انني لست ادري أي الطرق يُعمَد اليها في توزيع الثروة توزيعاً منصفاً ، وانما احسُّ ان لا بدَّ من وجود حلّ ما بعد كثير من العناء والألم . ثم ان مقدار البضائع التي تستهلك آخذ في الازدياد مع ان عدد السكان يميل الى النقص . واذن فالانسان المتوسط سوف يكون اعظم ثروة مما هو الآن . ويكاد يكون في حكم اليقين ان ساعات العمل تكون اقل مما هي الآن . وسواء كان النظام الاقتصادي في العصر الجديد رأسماليًّا أو اشتراكيًّا فالمرجَّح عندي ان الثروة فيهِ سوف تكون أعظم وساعات الفراغ أطول والمساواة اتمّ مما هي الآن . وقد يبقى هذا النظام مستقراً تعلوه مسحة السعادة الى مدى ثم يحدث انفجار يضيع التوازن فيبدأ الانسان بحثهُ من جديد

الوراثة والمحيط

للدكتور شريف عسيران

ضلّ الناس قديماً ضلالاً بيناً فجعلوا للمحيط الشأن الاكبر في حياة الفرد لا بل خبطوا خبط عشواء في تحديد تأثير الوراثة وتأثير المحيط وفرّقوا بينهما تفريقاً ظاهراً وجعلوا لكل منهما تأثيراً مستقلاً عن الآخر. كان الرأي القديم ان المحيط هو كل شيء وذهب هذا المذهب ثلة من اساطين العلماء بل نجد في نص اعلان استقلال الولايات المتحدة صورة واضحة لعقيدة ذلك العصر فقد نص اعلان الاستقلال ان كل الناس خلقوا متساوين وعلى هذه الفكرة الاساسية فكرة ان المحيط هو العامل الاكبر في حياة الفرد نشأت اكثر الاوضاع الاجتماعية وما فيها من انظمة وقوانين الى غير ذلك من محسنات المحيط فالشطر الاكبر من المدنية في عرفهم هو المحيط الحسن وتقدم المدنية معناه تحسين المحيط

وعكس ذلك النظرية الحديثة التي تجعل للوراثة الشأن الاكبر في نشوء الفرد وما ينتج عنهُ من المظاهر الاجتماعية التي هي وليدة عمل الناس ونتيجة كفاءتهم الوراثية. ولا نتوغل الآن في تحليل نظريات الوراثة والمحيط والتفضيل بين الرأيين لاننا سنفصل ذلك في سياق البحث وندلي باحدث الآراء المعززة بالادلة والبراهين العلمية. وقد قسمت البحث الى قسمين فأتناول في الاول الوراثة والمحيط واعقبه ببحث في توريث الصفات المكتسبة

﴿ تأثير المحيط في تعيين الصفات ﴾ بيّنا ان صفات الفرد تتوقف على عوامل خلاياه وعلى السيتبلازم والمفرزات الداخلية ورأينا كيف نتمكن من تحويل الانثى الى ذكر والابله الى نبيه بواسطة المفرزات الداخلية فهل من الممكن تجهيز عوامل خارجية لها نفس التأثير فيهِ. والجواب نعم لانهم كما بيّنا تمكنوا من استخلاص خلاصة الغدة الدرقية وهو الثيرودين الذي يعطونه للبله فيصيرون اصحاء. وقد استخلصوا خلاصة اكثر الغدد الصماء فتقدم هذا العلم تقدماً بيّناً في العشرين سنة المتأخرة وزاد في الخمس سنوات الاخيرة فما يدرينا ما يحدث بعد مائة سنة او الف. لابدّ ان يكون التقدم في هذا الناحية وغيرها من نواحي الحياة عظيماً

فهل للمحيط الخارجي التأثير الذي للمحيط الداخلي فتختلف الصفات باختلافه. اننا نعرف ان افراز الغدد الصماء تحت تأثير الجهاز العصبي. فالخوف والغضب يزيدان افراز الادرنالين وزيادة افراز هذه المادة أو نقصها يؤثران في سلوك المرء. وقد رأينا فيما مضى كيف ان الحرذون المائي المعروف بال Axolotl يتحوّل من حيوان مائي الى حيوان برّي باطعامهِ خلاصة الغدة الدرقية فتتلاشى خواشيمه وذنبه وتتغير كل صفاته. ووجدوا ان نفس التأثير يحصل في هذا

الحيوان باجباره على ترك الماء وتعويده الحياة البرية وتعريضه لدرجة خاصة من الحرارة فيتبدّل من حيوان مائي الى بري كما لو اطعمناه خلاصة الغدة الدرقية . وعلى الارجح ان هذا التبدل ناشيء عن تأثير العوامل الخارجية في الغدة الدرقية فيجعلها تزيد افرازها في الدم فيحصل التبدُّل. ان العوامل الخارجية تفعل فعلها بالتأثير في المفرزات الداخلية التي هي مصدر التغيير والتبديل

ليس الجسم وحده يولد المواد الكيماوية كالمفرزات الداخلية التي تؤثر تأثيراً كبيراً في الصفات الوراثية بل هناك مواد أخرى طبيعية خارج الجسم لها فعل يشبه فعل المفرزات الداخلية . فقد دلت الابحاث الحديثة في الغذاء ان الجسم لا يكتفي في نموّه بالمواد الاساسية النيتروجينية والدهنية والنشوية والمعادن بل هناك مواد تحققوا فعلها ولم يهتدوا الى تحديدها وتسمى الفيتامين فاذا كان الطعام خلواً منها فان الجسم يضعف ويتأخر ويصاب بامراض مختلفة وقد اكتشفوا حتى الآن خمسة انواع من الفيتامين نذكرها باختصار وهي :

(١) فيتامين A . وهو يكثر في الحليب والزبدة والدهن وصفار البيض وزيت كبد الحوت وفي الخضر كالسبانخ والخس والقرنبيط والطماطم وما أشبه وفقدان الغذاء له يعيق النمو ويولد استعداداً لعدوى الامراض ويسبب في الاولاد خاصة مرض يسمى الرمد الجاف (Xerophthalmia) فتجف سوائل العين وتتقرح اغشيتها وتهرأ فيفضي ذلك الى فقد النظر احياناً او ضعفه ويعزى العشو (عدم النظر ليلا) الى فقدان هذه المادة من الغذاء

الفيتامين B وهو غزير في صفار البيض والحليب واوراق الخضر كالخس والجزر والقرنبيط وما أشبه وفي الاعضاء كالقلب والكبد والكلية الخ

ان فقدان الغذاء له يؤخر نمو الجسم ويعرضه لاخطر الامراض وهو المرض المعروف بالبري بري ومعناه «لا أقدر» اي ان المصاب لا يستطيع عمل شيء لشدة مرضه ومن اهم علاماته ضمور العضلات وشلل الاعضاء وخفقان القلب واسهال وانحطاط عام في الجسم يرافقه استسقاء وهو كثير خاصة في اليابان والصين وما جاورها وينشأ من أكل الارز المقشور لان الفيتامين موجود في القشر

الفيتامين C يكثر في عصير الليمون الحامض والبرتقال وفي الطماطم والفول والخس والتفاح واللبن (الحليب) والبيض وفقدانه يسبب مرض الاسقربوط واهم اعراضه انحطاط في الجسم واضطراب القوى العقلية والجسدية وألم وورم في المفاصل ونزف دموي تحت الجلد وفي غشاء الفم المخاطي واللثة بوجه خاص وتساقط الاسنان ويشتد الصداع وغيره من الآلام العصبية ، ونقصه من اسباب نخر الاسنان في الاطفال

الفيتامين D غزير في زيت كبد الحوت وغيره من انواع زيوت الاسماك ومنه مقدار يسير في الزبدة وزيت جوز الهند . اما نقصه فيسبب مرضاً من اشدّ الامراض وهو منتشر انتشاراً هائلاً بين الاطفال من سن الستة اشهر الى السنتين ولا نبالغ ان ٩٠ بالمائة من الاطفال حتى بين الشعوب المتمدنة يصابون به ويظهر ان له علاقة وثيقة بنموّ العظام ونور

الشمس أو بالحري الاشعة فوق البنفسجية لها نفس التأثير الذي لهذا الفيتامين . وهذا المرض هو المرض المعروف بالكساح الذي يسبب تشوهات في العظام كاعوجاج القدم وانحنائها وبروز عظام الصدر وارتخاء عضلات الجسم وتأخر نموه واضطراب الامعاء وفقدان شهية الطعام وبروز البطن والصدر بصورة غير طبيعية وضحاياه في الاطفال اكثر من ان تحصى فاعطاء الطفل قليلاً من زيت كبد الحوت أو عصير البرتقال أو تعريضه لاشعة الشمس أو الاشعة فوق البنفسجية تزيل هذا المرض وتعيد المصاب الى حالته الطبيعية

الفيتامين E يؤثر في التناسل وهو موجود في ورق الخس وفي القطاني واللحم الجديد وصفار البيض فاذا خلا منه طعام الام مات الجنين في اليوم ١٢ — ٢٠ من تكونه فنقصه سبب من أسباب العقم

وقد اكتشف رولف حديثاً نوعاً سادساً سماه فيتامين G وهو موجود في البيض والحليب والخميرة ونقصه يسبب مرض البلاغرا Pellagra وهو من الامراض المنتشرة في ايطاليا واسبانيا وغيرهما من الامصار الاوربية والولايات المتحدة وبقي سببه غامضاً حتى أعلن حديثاً هوكلاند مدير دائرة الكيمياء الحيوية في واشنطن اكتشاف الفيتامين واهم علامات هذا المرض عوارض جلدية وعقلية ومعوية فيظهر طفح جلدي وتقرح في الفم يرافقها اسهال واضطرابات عصبية . فهذه المواد عوامل خارجية تؤثر في صفات الفرد فتجعل الأبله سليماً والعقيم نتوجاً وتبرىء المصابين بالعاهات الناشئة عن فقدان تلك المواد وهي دليل على تأثير المحيط الخارجي . وهنا يظهر تناقض في اقوالنا فقد بينا فيما سلف ان الكروموسوم والسيتبلازم هما العامل في نشوء الصفات ونعترف الآن ان الصفات تتغيّر بفعل العوامل الخارجية ايضاً اي المحيط وسنورد بعض الامثلة التي توضح الحقيقة وتكشف الستار عنها وتبين العلاقة بين الوراثة والمحيط

وجد R. A. Emerson ان مختلف الالوان في الاذرى وراثي وحينما تنمو هذه النباتات في الحقول المعرضة للشمس يصير بعضها احمر (بكل ما فيه من ورق وزهر الخ) ويبقى البعض اخضر . واذا زرع كل من هذين النباتين الملونين على حدة خرج كلٌّ بلونهِ . واذا ناسلنا الاحمر بالاخضر تبعا في نظام وراثتهما قانون مندل اي ٣ غالب الى ١ كامن . ولكن اللون يتوقف على المحيط فالانواع التي تنبت الاحمر لا تنبته الا اذا زرعت في الشمس اما اذا زرعت في الفيء فينشأ النبت اخضر فاذا كان عندنا نوعان احمر واخضر فالاحمر لا ينمو احمر الا اذا زرع معرضاً لنور الشمس وأما الاخضر فينمو اخضر سواء ازرع في الشمس او الفيء . واذا كان عندنا نوعان احمران وزرعنا احدهما في الشمس والآخر في الضوء فالاول ينشأ احمر والثاني اخضر . فهذه الامثلة توضح لنا علاقة العوامل الوراثية بالمحيط فالعوامل لا تخرج اللون المطلوب الا اذا كانت في محيط خاص والمحيط لا يولـد اللون المطلوب الا اذا كانت هناك عوامل خاصة فالعوامل تتوقف على المحيط والمحيط يتوقف عليها . فلا نستطيع ان نقول هذه الصفة وراثية وتلك محيطية فلاخراج صفة من الصفات ينبغي ان تتوافر لدينا عوامل خاصة ومحيط خاص . فالعوامل لا تخرج

الصفة المطلوبة اذا كانت في المحيط الخاص والمحيط لا يخرجها الا اذا توافرت العوامل الخاصة

وقد وجدوا ان عوامل اخرى تؤثر في اللون منها فقر الغذاء فالارض الفقيرة بالمواد الغذائية تنبت اللون الاحمر في بعض النباتات. وخزن المواد النشوية في الانسجة يولد اللون الاحمر ايضاً

ذكرنا بعض الامثلة من مملكة النبات ونذكر الآن غيرها من مملكة الحيوان . يربي العلماء ذباب الفواكه في زجاجات خاصة فيها موز نهري فيصير هواءها رطباً فالذباب الذي ينمو بهذه الصورة يظهر عيب في بطن بعض افراده . فالاجزاء التي تتركب منها البطن لا تكون واضحة ومن المحقق ان هذا العيب وراثي يتوقف على نوع العامل ولكنهُ لا يظهر الا اذا نشأ الذباب في محيط خاص والمحيط الخاص لا يؤثر فيهِ ما لم يكن ذلك العامل موجوداً . ويوجد عيب آخر في هذا الذباب اذ تكون له أرجل أو عقد مكررة وهذا العيب يورث بالطريقة الجنسية وهو ناشيء عن خلل بالعامل اكس (X) ولكنه لا يظهر اذا نشأ الحيوان في محيط دافيء فالمحيط البارد يسبب تكرر الساق والرجل في الذباب الموجود فيهِ عوامل هذا العيب . اما الذي يكون خلواً من العيب فينشأ صحيحاً ولو كان في محيط بارد. ويوجد نوع ضخم من هذا الذباب حجمه ضعف الحجم العادي وهذه الضخامة وراثية تظهر اذا تغذى الحيوان تغذية جيدة وهو في الدور الدودي ولا تظهر ان لم يتغذَّ الحيوان الغذاء الخاص في ذلك الدور وتتلخص العوامل المحيطية المارة الذكر بما يلي: (١) نور الشمس (٢) الغذاء (٣) الرطوبة والجفاف (٤) البرد والحر

﴿ علاقة الوراثة بالمحيط ﴾ ان المرء يرث عوامل مختلفة تكوّن فرداً ذا صفات معينة فنفس العوامل تنشيء صفات مختلفة تحت تأثير المحيط ولا تناقض بين العوامل والمحيط فاختلاف بعض العوامل لا ينشيء الصفات المختلفة الا في محيط خاص فبعض الصفات تتوقف على العوامل وحدها فتدعى وراثية ونفس تلك الصفات تتغير بتغير المحيط فتدعى محيطية فالعوامل تظهر نوعاً من الصفات والمحيط نوعاً آخر

فاذا اخذنا نوعين من الاذرى احمر واخضر عاملهما واحد فالفرق بين لونيهما يعود الى المحيط واذا قابلنا نوعاً احمر مع غيره اخضر نمى في نفس المحيط فالفرق بينهما وراثي

﴿ شأن الوراثة والمحيط ﴾ ايهما اهم في صفات الفرد الوراثة او المحيط او بكلمة اخرى ايهما أهم في بناء البيت المواد التي يبنى منها أو طريقة بنيانه . ان لكل منهما ميزة خاصة فبعضها ناشيء عن اختلاف العوامل وغيرها عن اختلاف المحيط فيؤثر المحيط في بعض الانواع في الصفات الاساسية كالجنس ولا تأثير له في غيرها. ففي ذباب الفواكه الذي درسوه حق الدراسة من هذه الوجهة لا تأثير للمحيط في الصفات البارزة فالحجم والشكل واللون والبنية والجنس تتوقف على العوامل الوراثية كما ورد في الامثلة التي ذكرناها من تسطيح العيون وعيب البطون ومضاعفة السيقان وغيرها. وفي كثير من النباتات وبعض الحيوانات السفلى تتوقف اكثر الصفات على المحيط . والخلاصة ان الصفات البارزة في اغلب الحيوانات كالمواشي والارانب وكل ذوات الثدي لا تتوقف على المحيط فاختلاف

اللون والشكل والبنية والجنس ناشىء عن اختلاف العوامل الوراثية واثر المحيط فيها ضعيف جداً

﴿ موقف الانسان ﴾ ان بعض الصفات الجسدية كلون العين مثلاً تتوقف على العوامل وكذلك لون الشعر ولكن ليس هذا القول قاطعاً لان لون الشعر يتغير في الشيخوخة. ومن الممكن ان يكون اختلاف لون الجلد ناشئاً عن العوامل او المحيط ويتوقف معظم طول القامة وقصرها على اختلاف العوامل . والبدانة والنحافة تتوقفان غالباً على العوامل وبعض الاحيان على كيفية المعيشة . ويتوقف شذوذ تركيب الجسم كزيادة الابهام والاصابع وايدي وارجل ذات نسيج او اصابع ذات عقدتين وما اشبه على العوامل. وهناك عيوب في التركيب كاعوجاج الساقين وانفراج القدمين وغيرها من العيوب العظامية التي تظهر في داء الكساح تنشىء عادة من المحيط اما اختلاف الجنس فهو محض اختلاف في العوامل

﴿ الخصائص الفسيولوجية ﴾ ان اختلاف بعض الخصائص الفسيولوجية ناشىء في البشر عن اختلاف العوامل الوراثية ولا اثر فيه للمحيط . فالاستعداد الى نزف الدم (الهيموفيليا) ناشىء عن عيب في الكروموسوم X ويورث بالطريقة الجنسية كما بينا. وكذلك اصناف الدم التي قسموها الى اربعة فئات Blood groups ولدينا ادلة كثيرة تبين ان افراز الغدد الصماء ناشىء عن اختلاف العوامل ولم يتوصلوا بعد الى درس الخصائص الفسيولوجية في البشر الدرس الكافي من هذه الوجهة ولا نزال حديثي العهد بها ومن الممكن ان نكشف كثيراً من مخبآتها

﴿ الامراض ﴾ ان كثيراً من صفات البشر تعزى الى عوامل خاصة تحت تأثير محيط خاص ومنها الامراض المختلفة وقد نشأ من هذه العلاقة (علاقة العوامل بالمحيط) عقيدة فاسدة وهي ان الصفات اما وراثية بحتة لا تأثير للمحيط فيها واما محيطية لا تتأثر بالوراثة ولكن الحقيقة غير ذلك فان للوراثة والمحيط تأثيرها . ولنأخذ التدرن الرئوي (السل) مثلاً فان عدوى هذا المرض تتوقف على باشلس السل ففي بعض الاشخاص استعداد خاص للعدوى او بالتعبير الوراثي عوامل خاصة فيها استعداد لقبول المرض فالشخص الموجودة فيه هذه العوامل يكون معرضاً للمرض اكثر من غيره ممن لا توجد فيهم ومما لا شك فيه انهُ يوجد عنصر وراثي لقبول العدوى ولكن الشخص الذي فيه هذا الاستعداد لا يصاب اذا لم يتعرض لجراثيم المرض ويصاب اذا لم يستعمل طرق الوقاية ويُبعدُ نفسه عن المحيط الذي فيه الجراثيم . والناس درجات من هذه الوجهة فبعضهم سريع التأثر بالجراثيم وغيرهم اقل منهم تأثراً وهكذا تتفاوت الدرجات حتى نجد فئة ذات حصانة طبيعية . فيتضح مما ذكرنا ان للعوامل شأناً كبيراً في حصول العدوى ولكن نجد في الوقت نفسه ان المحيط ربما كان اكبر شأناً وما قلناه عن السل ينطبق على كثير من الامراض كالجدري والطاعون والتيفوئيد وذات الرئة وغيرها . فان الناس يرثون استعداداً خاصاً اي تنشأ فيهم عوامل خاصة تعرضهم لفتكاتها ولا تنشأ هذه العوامل في غيرهم فتى عرض القسم الاول نفسه لجراثيم المرض فانه يصاب به واذا استعمل الوقاية بعدم

تعرضه لها أو باستعمال التلقيح ضدها فانه لا يصاب ايضاً . ويعتقد الناس ان العلة أو العيب الوراثيين لا بد من حصولها مهما احتاط المرء ولكن الحقيقة غير ذلك فان المرء يرث مزاجاً خاصًّا لقبول العلة وتصيبه في احوال خاصة ولا تصيبه في احوال اخرى كما بينا . ولا تقتصر الوقاية على تأثر المرء الحاضر بالمحيط بل ان للمحيط الماضي اثراً لا ينكر فمن أصيب بالجدري أو تلقح ضدها في الماضي لا يصاب بها في الحاضر في الغالب ومن تعرض لاقصى درجات الحر والبرد لا يعود شديد التأثر بهما فلو اخذنا ثلاثة اشخاص لم يصابوا بمرض ما حين انتشار وباء ذلك المرض كالطاعون مثلاً فاحدهم لم يصب بسبب مناعته الوراثية وآخر لانه اصيب بالمرض قبلاً أو تلقح ضده والثالث توقاه فابتعد عن المحيط الموبوء وهذه الامثلة تبسط لنا تأثير الوراثة والمحيط في آن واحد

﴿ علاقة الصفات العقلية بالوراثة والمحيط ﴾ ان الصفات العقلية والاخلاقية شأناً كبيراً في المجتمع فما علاقة العوامل والمحيط بها وما تأثيرها في الاخلاق والسلوك او حياة الانسان الفنية والعلمية والادبية ؟ بعضهم ينسب كل شيء للمحيط . يقول وطسن اننا لا نرث صفاتنا واخلاقنا ومواهبنا الخاصة بل يجبرنا آباؤنا على اكتسابها . ويدعي البيولوجيون عكس ذلك فينسبون كل شيء الى الوراثة فايهما اصدق . ويجدر بنا توصلاً للحقيقة ان نبحث في هل علم الوراثة الحديث الذي رأيناه ينطبق على النبات والحيوان ينطبق على الانسان ايضاً

ثبت من الابحاث التي ذكرناها سابقاً ان صفات الفرد تتوقف على العوامل الوراثية فبتغيرها تتغير الصفات ولكننا لم ننف انها تتغير بطرق أخرى وقد بينا العلاقة بين الوراثة والمحيط وتعلق الواحد بالآخر فلا حاجة للاعادة . وبيت القصيد من بحثنا الآن ان نعرف هل الصفات العقلية تختلف باختلاف العوامل الوراثية . ان التجارب التناسلية والوراثية تؤيد هذه الحقيقة فالنظام الوراثي بيّن لنا كيف تنتقل الصفات من الآباء الى الابناء بقانون مندل والاتصال الجنسي الخ وهذا دليل كاف على ان الصفات العقلية تنتقل بالوراثة . فان النظام التناسلي ينطبق على الانسان كما ينطبق على الحيوان ففي الانسان ٤٨ كروموسوماً تنشطر ٢٤ زوجاً في الابوين وتنتقل الى الابناء وتورث . ومن قوانين الوراثة ان البنية وطول القامة وقصرها والصفات الفسيولوجية والاخلاقية والسلوكية والعقلية تتوقف على العوامل الوراثية ولا يوجد صفة من الصفات لا تتأثر بها . فهل هناك صفة لا تتأثر بها وهل بعضها يتأثر بالمحيط

نلجأ الآن الى التجارب العلميـة ونستنبها فنطبقها على الحيوان اولاً ثم نرى اذا كانت تنطبق على الانسان . ان الصفات السلوكية في ذباب الفواكه تتغير بتغير العوامل . والعامل الدافع لهذا الذباب لكي يتجه نحو النور موجود في الاكس كرموسوم ومركزه في النقطة ٢٧٫٥ من مصوّر الكروموسومات الخاص بالذباب المذكور . فوجود هذا العامل بحالة خاصة يجعل الذباب يطير للجهة التي يأتي منها النور Positive Phototaxisis ومعناه الانجذاب الايجابي نحو النور . ووجود ذلك العامل بحالة أخرى لا يجعل الذباب يطير نحو النور . فهاتان الصفتان

المختلفتان تنتقلان بالارث الجنسي فلو زاوجنا الآباء التي تطير نحو النور بالامهات التي لا تطير نحوه فان صفة الطيران نحو النور لا تظهر في الابناء بل في البنات

وثمة عدة صفات اخرى حسّية في الحيوانات تنتقل بهذه الطريقة . ان الالفة والوحشية تتوقفان في الحيوانات على العوامل الوراثية فبعضها تكون اليفة وغيرها وحشية . وتتوقف في الانسان بعض صفات الحس عليها فعمى اللون وهو من الصفات الوراثية ينتقل بواسطة الكروموسوم X بالاتصال الجنسي وكذلك قوة النظر والسمع وضعفهما يورثان بطريقة مندل وقوة العقل وضعفه يتوقفان على العوامل الوراثية ويورثان بحسب قانون مندل . ومما يدل على ان هذه الصفات وراثية تكرر ظهور صفات متشابهة في العائلة الواحدة او فيمن يمتّون بعضهم الى بعض بقرابة شديدة حينما لا يكون اختلاف في محيطهم . وعليه نرى استعداداً لبعض انواع الجنون يسري في أعضاء العائلة الواحدة . ولا يعني هذا ان الافراد الذين فيهم هذه العوامل يصيرون مجانين حقّا بل معناه انهم يجنّون في احوال لا تؤثر في غيرهم اذا لم تكن فيهم تلك العوامل (اي عوامل الاستعداد للجنون) . إننا نعلم ان البلادة والبطء وغيرها من الخصال تتوقف على مقدار أفراز الغدد الصماء ونوعه ويتوقف هذان بدورهما على العوامل الوراثية فالاشخاص الذين لا تفرز غددهم الدرقية الافراز الكافي لا تنمو مواهبهم العقلية النمو المطلوب فيصيرون قوماً « بُلهاً » ومتى أعطيناهم خلاصة هذه الغدة تزول منهم هذه العاهة . ولدينا عدة شواهد من هذا القبيل اتينا على ذكرها لما بحثنا في الغدد الصماء . ويظهر لنا ان توقف الصفات العقلية على العوامل الوراثية لا يكون رأساً بل بواسطة الغدد الصماء التي بدورها تتوقف على العوامل والصفات العقلية تتوقف على هذه الغدد فأي خطر يطرأ على العوامل يؤثر بالغدد وهذه تؤثر بالصفات العقلية

ان سلوك الفرد يتوقف على تأثره بالمؤثرات او هو ملاءمته للاحوال (الماضية والحاضرة والمستقبلة) التي تصادفه . والمؤثر الداخلي هو العقل ولا يتجاسر احد ان يقول ان لا علاقة لسلوك الانسان باحوال الحياة فسلوكه حين وجود الطعام يختلف عن عدمه فما أثر العوامل في هذا السلوك . من البديهي ان العوامل لا تؤثر في الغدد تأثيراً مجرداً عن الظروف التي تحيط به بل تجعل التأثير تحت الظروف الواحدة مختلفاً باختلاف الافراد . فان بعض الافراد يتأثر بجزء من المحيط وبعضهم يتأثرون به كله وآخرين لا يتأثرون بتاتاً ويكون بعضهم سريع التأثر وغيرهم بطيئه فهل العوامل هي المسيطرة على هذا الاختلاف . وهنا تزداد المسألة تعقداً . فان اختبارات الافراد الماضية والاحوال التي تمر بهم اثناء نشأتهم تغيرهم وتغير مبلغ تأثرهم بالظروف فسلوك الشبعان يختلف عن الجائع والتعبان عن المرتاح والشخص الذي يعلم شيئاً عمن يجهله وهكذا نرى الشواهد عديدة على اختلاف السلوك باختلاف الظروف ومن البديهي ان للعوامل الوراثية والمحيط تأثير في سلوك المرء وقد ضربنا امثلة كثيرة تبين علاقة الوراثة بالمحيط فما

هي الصفات العقلية التي تنشأ من اختلاف العوامل . بينا ان اختلاف العوامل يولّد فروقاً في العقل فهي التي تجعل الفرد عاقلاً او مجنوناً فدماً او فهيماً وهي سبب اختلاف قوة الحواس وضعفها واختلاف الذكر والانثى والصفات الجسدية والفسيولوجية فهل للعوامل الوراثية تأثير في غير الاختلافات التي ذكرناها عقلية وسلوكية من الصفات المعنوية في الشخص الصحيح ؟ هل لها تأثير في الذكاء وعكسه في حب النفس والتضحية والميل الى الفنون الجميلة كالموسيقى والشعر وقابلية المرء للطب والهندسة والرياضيات وغيرها . من الصعب الجزم في امور كهذه لان ذلك يحتاج الى تجارب دقيقة في توارث هذه الصفات والبشر يعيشون في احوال متباينة ويتعذر ضبط نسلهم بالتدقيق واجراء التجارب عليهم كما نجريها على الحيوانات ولهذا نطبق عليهم النتائج التي نستخلصها من التجارب على الحيوانات . فان درسنا العوامل يريها انها تحدث فروقاً كبيرة في الصفات الوراثية ولكل فرق كبير فروق عديدة صغيرة ولا نرى ما يمنع تطبيق هذه الحقيقة على صفات الانسان العقلية ان هذه العوامل تحدث خمسين لوناً من الوان العين في ذباب الفواكه فاذا كان هذا اثرها في تركيب الذباب البسيط فماذا نقول في دماغ المرء وتعقداته التي تحيّر الفكر هل ننتظر فيه تنوعاً اكثر . فما لا شك فيه ان تنوع الصفات العقلية والسلوكية ينشأ عن اختلاف العوامل الوراثية وبعض هذه العوامل مقيدة بالمحيط والمحيط مقيد بها كما بينا ولا يوجد عامل خاص لكل موهبة من المواهب البارزة بل في المرء عوامل مختلفة فاتحادها بمختلف الاشكال يولد اختلاف الصفات فلو فرضنا ان البشر يعيشون جميعاً في محيط واحد فلا بد من اختلاف صفاتهم نظراً لاختلاف عواملهم الوراثية . ولننظر في مدى تأثير المحيط ونعني بالمحيط كل ما مرّ بالفرد منذ كان خلية واحدة حتى صار شخصاً كاملاً فمحيطه الداخلي والخارجي داخلان ضمن هذا التحديد

ان كل العلماء متفقون على ان جانباً كبيراً من تصرف المرء يتوقف على محيطه الماضي ومعنى ذلك ان سلوك شخصين فيهما نفس العوامل الوراثية (كالتوأمين) يختلف باختلاف ما مرّ عليهما فالفرق بين الجوع والشبع والتعب والراحة والعلم والجهل يولد فروقاً في تصرف الفرد فما تأثير المحيط في العقل والاخلاق والمواهب وغيرها من الصفات وما مقدار بقاء ذلك التأثير . من الصعب ان نذكر تجارب تكون القول الفصل في هذا الموضوع . فالفردان الموجودان في محيط واحد تختلف عواملهما الشخصية فلا يمكن ان نتخذهما حكماً في الامر وأحسن حل لهذه المعضلة التوأمان المنشقان من خلية واحدة فان في كل منهما نفس العوامل التي في الآخر فلا يمكن ان نعزو اختلاف صفاتهما الى العوامل الوراثية لانها واحدة في الاثنين . ووضعهما في محيط مختلف يحل المشكلة ويهدينا سواء السبيل . ومن الاسف ان حوادث كهذه نادرة وتأثير المحيط فيها قليل جداً لدرجة لانستطيع ان نحكم حكماً جازماً في القضية وقبل ان نتبسط في تأثير المحيط نذكر شيئاً عن نشوء التوائم وانواعها لنزيد البحث ايضاحاً وفهماً

البسمات الساخرة

برغمكَ مثلي أيها الزهر تغتدي ... الى الكون من أكمامك النضرات ؟
وتوفي على الدنيا وفيك ابتسامةٌ ... تعبّر عما عبّرتْ بسماتي ؟
وما بسمتي إلاّ مقالةُ ساخرٍ ... خلتْ من صرير النطق والهمسات
وليس يجازى الدهرُ في حال غدره ... سوى بابتسام ساخرٍ وثبات
أتبسمُ مثلي هازئاً مترفعاً ... ترى ؟ أم حياة الزهر غير حياتي ؟
خلصتَ من الآلام ؟ الا بل تعددتْ ... عليكَ ، ولا تدري الذي هو آتِ
نجوتَ من القيد المذلّ ولم تعدْ ... تحجّبكَ الأكمامُ منطبقاتِ
فطِرْ عن حماكَ الآن ... لستَ بنائلٍ ... خلاصاً ، وما الأغصانُ غير حِبَالةٍ
الى أنْ يمرَّ القاطفون فتنتهي ... الى عالمٍ مُستَبهِم الظلمات
نعم ! أنتَ مثلي أيها الزهر مُرغَم ... وما هذه الألوان غير شِيات
وما العطر إلاّ أنةٌ وتوجّعٌ ... كأصداء أنغامي ورجع شكاتي
يغني شجيُّ القلب والناسُ حولهُ ... طروبين بالإنشادِ والنغماتِ

***

تردّدَ في أفق الرياض صدى الذي ... أقولُ ، وشاعَ الحزنُ في كلماتي
ومالَ جميعُ الزهر في خطراته ... وذرّفَ من دمع الندى قطراتِ

حسن كامل الصيرفي

آثار جرش الفخمة

﴿ جغرافيتها ﴾ جرش بلدة قديمة تقع على هضاب جلعاد Gilead بعيدة عن طريق السياح على ٤٥ كيلو متراً من مدينة عمان (عاصمة إمارة شرقي الاردن) من الجهة الشمالية ويسكنها الآن نفر من الجرش استوطنوها في سنة ١٨٧٨ م في عهد السلطان عبد الحميد وتحيط بها الجنائن من جميع جهاتها ولذلك فهي تعد من أجمل مدن شرق الاردن

﴿ نبذة من تاريخها ﴾ ما يعرف عن تاريخ هذه المدينة نزرٌ يسير . فلا يعرف تماماً متى بنيت ومن بناها ولم يصلنا شيء من تاريخها إلاّ ما نجده من القطع الصغيرة في كتب بعض المؤرخين الاقدمين . فيوسيفوس[1] Josephus يقول أن الاسكندر الكبير كان قد فتح المدينة سنة ٨٣ ق.م ويؤيد هذا[2] Jamblichus بقوله أن فريقاً من اتباع الاسكندر كانوا قد سكنوها وخرّبوها وبقيت من ذلك الوقت خراباً إلى أن فتح الرومان هذه البلاد واستعمروها وكان من نتيجة هذا أن بناها المستعمرون في سنة ٦٥ ب . م . وأخذت من هذا التاريخ تنمو وتتقدم حتى أصبحت في أيام الامبراطور انطونينوس (١٣٠ — ١٨٠) ب.م ثاني مدينة بين المدن العشر[3] Decapolis ومن اهم المدن العظيمة التي كان لها شأن خطير في تاريخ الامبراطورية الرومانية

ولقد ذكرها كثيرون من مؤرخي الرومان والاغريق امثال بطلميوس Ptolemy واسترابون Strabo وبلينيوس Pliny وذكرها ايضاً ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان فقال عنها أنها كانت مدينة عظيمة وأنهُ شاهد فيها آباراً خربة وكان في وسطها نهر جار (وهو لا يزال إلى يومنا الحاضر) يدير عدة رحى عامرة

وذكر المدينة ايضاً فريق من السياح الاجانب الذين زاروا هذه البلاد منهم السائح J. S. Buckingham في كتابهِ «رحلة بين قبائل العرب » Travels Among the Arab Tribes في سنة ١٨٢٥ م وهو يصف قبور المدينة وآثارها وصفاً اجمالياً . وقد ذكرها ايضاً السائحان الانكليزيان فرنجل واربي James Frengles & Charles Leonard Irby في كتابهما « رحلة الى مصر ونوبيا » Travels in Egypt and Nubia فوصفا اعمدة المدينة والشوارع وصفاً وافياً

---

(١) مؤرخ يهودي عاش سنة ٣٧ — ٩٥ ميلادية (٢) عاش حوالي سنة ٣٣٠ م . وهو اكبر ممثل للفلسفة الافلاطونية الجديدة السورية Syrian Neoplatonism سوري المولد

(٣) وهو اسم يطلق على اهم المدن العشر في الامبراطورية الرومانية في الشرق الادنى راجع The Historical Geography of the & Holy Land By George Adam Smith pp. 596

آثار جرش

مقدمة : — إن آثار هذه المدينة هي من أروع ما هو باقٍ في هذه البلاد من آثار العمران القديم . فالاعمدة الكبيرة القائمة في وسطها والمعابد الكثيرة المنتشرة في أرجائها تترك في النفس أثراً لا يزول مع مضي الايام ولا غرو في ذلك إذ أن ثمرة استعمار الرومان لهذه البلاد كان من دون شك هذه المدينة وهي تقع في مربع غير هندسي طول ضلعهِ الواحد ما يقارب الميل ويحيط بها سورٌ سمكه ٨ أقدام ولهذا السور ستة ابواب[1] . واليك الآن أهم ما فيها من الآثار

(ا) قوس النصر : (The Arch of Triumph)

عندما نصل إلى المدينة من الجهة الجنوبية يقع نظرنا اولاً على قوس النصر القائم على ثلاثة أقواس ، منتصفها مزيّنٌ بأربعة أعمدة عليها طائفة من النقوش الجميلة . واذا ما دخلنا هذا القوس وجدنا على يسارنا ، وذلك بعد السير مسافة قصيرة، ملعباً كبيراً Stadium كان الرومان يقيمون فيهِ العابهم ويظهر من البناء انهُ كان يستعمل أيضاً للالعاب المائية ويقال أنهُ كان يستعمل للعبة الكرة والصولجان Polo[2]

ومساحة هذا الملعب تقرب من ٦٠٠ ياردة مربعة وعلى بعد ٣٠٠ ياردة شمالاً من قوس النصر بوّابة المدينة كانت تدعى بوّابة فيلادلفيا وهذا الاسم هو الاسم القديم لمدينة عمان الحالية

(ب) معبد زفس Zeus أو المعبد الجنوبي The South Temple

وبعد المرور من هذه البوّابة إلى داخل المدينة نجد على يسارنا معبداً قائماً على مرتفع يحفُّ بهِ صفان من الاعمدة في كل صف منها ثمانية أعمدة . ولم يبق من هذه الاعمدة في محلها سوى عامود واحد وكانت مساحة المعبد الداخلية تساوي ٥٠ ./· ٧٠ قدماً مربعاً

(ج) الملهى العمومي Theater : الى الجهة الغربية من هذا المعبد ملعب كبير يرتفع من باحتهِ مدرَّج مؤلف من ٢٨ حلقة من المقاعد وهو على حال حسنة من العمران ومقاعده مقسمة وهي لا تختلف كثيراً عن تقسيم مقاعد بعض انديتنا في هذا الوقت وكان الرومان يمثلون فيهِ رواياتهم المسرحية

(د) : الميدان(The Forum)

وهو بيضوي الشكل تحيط به الاعمدة الايونية Ionic . ويبلغ محيطه ٣٠٨[3] أقدام . اما الغاية منهُ فيقول الدكتور[4] C. S. Fisher أنه كان محلاً للاجتماعات السياسية والاجتماعية وارضهُ مرصوفة بحجارة جميلة في دوائر متوازية ذات مركز واحد ويقال أنه كان يستعمل ايضاً باحةً للاسواق ويوجد حوله الآن ٥٧ عاموداً قائماً ولا يمكن أن يكون هنالك اكثر من ١٠٠

---

(١) راجع ما هو مكتوب عن جرش في دائرة المعارف الانكليزية Encyclop. Brittannica

(٢) وهي لعبة اصلها فارسية انتقلت الى الهند ولقد نقلها الانكليز عن الهنود الى بلادهم في سنة ١٨٦٩م

(٣) راجع Murray's Hard Book of Palestine & Syria (٤) استاذ كبير في علم الآثار قضى سنين عديدة في مصر وسوريا وفلسطين منقباً عن بعض الآثار ولقد كان رئيساً لبعثة جامعة Yale في جرش سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١

عامود وهذا يظهر من الآثار الباقية الى الآن ويتباين طول العامود الواحد من ١٦ — ٢٠ قدماً

(هـ) الشارع العمومي (The Main Street)

وهو يمتد من الميدان إلى نهاية المدينة من الجهة الشمالية ، وعلى جانبيه أعمدة كورنثية . ويقطع هذا الشارع شارع آخر في زاوية قائمة وفي نقطة التقاطع تقوم أربعة أحجار كبيرة طول الواحد منها ٧ أقدام وعرضه ١٢ قدماً وسمكه ١٢ قدماً ايضاً . ويوجد على جانبي هذا الشارع أعمدة كورنثية كالشارع الاول وهو يمتد إلى القرية الحالية وذلك بعد ان يقطع النهر الجاري في وسطها بجسر كبير مبني من الحجارة الكبيرة

وهذه الحجارة الاربعة « Pedestals » هي مركز المدينة لأنها تقع على مفرق بعض الطرق ويقع في شمالي الشارع العمومي بوابة الشام ولقد نقب عنها حديثاً الماجور هورسفيلد Horsfield [١] وهي تشابه في هندسة بنائها بناء بوابة فيلادلفيا Philadelphia الواقعة جنوب الشارع المذكور

(و) : معبد أرتميس Artemis [٢]

يحسب هذا المعبد من أعظم آثار جرش واروعها يقع على رابية تشرف على البلد من جميع نواحيه وهو على حالة لا بأس بها من العمران ويرجع هذا إلى عدم تأثر بنائه بحوادث الزمان كالزلازل والحروب . ويحيط بهِ حائط أساسهُ لا يزال موجوداً . وجدران هذا المعبد استعملت في العصر المسيحي كحجر لكثير من الناس . وتدل الحفريات الاخيرة ان العرب استعملت هذا المعبد حصناً ولقد تخرب هذا الحصن على أيام بلدوين الثاني Baldwin II في سنة ١١٢١ م وأعمدته الباقية في الجهة الشرقية منهُ لا تزال قائمة على ما كانت عليه والدهليز الذي تقع عليهِ هذه الاعمدة الفاخرة ظهر بعد ان نقبوا عنهُ سنة ١٩٣٠ . وكان يتعبد في هذا المعبد كثيرون من عبدة الاصنام ولكن لما جاءت النصرانية قلَّ عددهم وضعف شأنهم ولم يكن منهم الا ان يتركوا معبدهم للمسيحيين الذين استعملوا كثيراً من فسيفساء المعبد وحجارته فيما بعد في بناء كنائسهم

جرش والبعثات الاثرية

كانت جرش ولا تزال قبلة لكثير من السياح وكان بعضهم يأتيها على سبيل درس آثارها ومعابدها ومن أهم من قام بهذا العمل العالم الالماني Gothlbieb Schumacher [٣] شوميكر الذي تعد اعماله أساساً لمن جاء من بعده . وكذلك العالم Puchstein [٤] فانه قام ببعض الحفريات للبحث عن بعض النقوش الخطية

---

(١) وهو من كبار الموظفين الانكليز في حكومة شرق الاردن

(٢) راجع A Preliminary Report of Jerash Campaign 1931 By Dr Fisher & Dr McCown

(٣) مهندس الماني كان يعيش في حيفا وكان يشتغل لحساب Palestine Exploration Fund

(٤) عالم الماني جمع وقرأ النقوش الخطيــة التي وجدت على سطح الارض في جرش . ولكن بعد التنقيب الحديث تمكنت البعثات الحديثة من العثور على ما يزيد عن ٢٠٠ نقش خطي وهي مكتوبة على حجارة صغيرة وكبيرة في الحجم واكثرها مكتوب باللغة اليونانية وقليل باللغة اللاتينية وأيضاً باللغة العربية

وعند ما احتلّ الانكليز هذه البلاد اشتركت حكومة شرقي الاردن وحكومة فلسطين وارسلتا بعثةً تحت رئاسة الاستاذ جارستانغ Prof. Garstang (أحد رؤساء دائرة الآثار في فلسطين سابقاً وأستاذ علم الآثار في جامعة ليفربول في الوقت الحاضر) لترميم عمارات المدينة ثم قام بالحفر بعد هذه البعثة الاستاذ كروفوت Crowfoot (وهو أحد رؤساء دائرة المعارف في السودان سابقاً) فرسم كثيراً من خرائط الكنائس والمعابد. أما البعثة التي قامت بعملية الحفر في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ فكان يرأسها الدكتور فيشر ممثلاً لمدرسة الآثار الاميركية في القدس بالاشتراك مع جامعة يايل Yale

وأهم ما قامت بهِ بعثة سنة ١٩٣٠ كان ما يلي (١)

(١) التنقيب حول معبد أرتميس Artemis والعثور على دهليزه

(٢) الحفر حول بعض الاماكن التابعة لهذا المعبد

(٣) الحفر حول بعض الاماكن التي تلقي نوراً على تاريخ المدينة بوجهٍ إجماليّ

أما نتائج الحفر فكانت

(١) العثور على كثير من آثار العرب والبيزنطيين والرومان في هذه المدينة

(٢) العثور على فسيفساء جميلة ذات ألوان زاهية

(٣) العثور على بعض من القبور البيزنطية

(٤) العثور على معبد صغير على مقربة من معبد Artemis

اما نتائج ما قامت بهِ بعثة سنة ١٩٣١ فكانت (٢)

(١) الحفر في «الميدان» forum والعثور على بيوت حجرية عربية يرجع تاريخها إلى سنة ١١٠٠م

(٢) العثور على كثير من النقوش الخطية

(٣) إثبات أن الجهة الجنوبية من المدينة كانت اقدم محل فيها

(٤) التنقيب حول بوّابة فيلادلفيا وكذلك حول قوس النصر

(٥) العثور على ختم مكتوب عليهِ بالعربية «علي ابن ابي طالب» أما الخط فليس بكوفي وهو الخط الذي كان يستعمل في عهد الخليفة المذكور وعليهِ فلا يعرف تماماً ان كان هـذا الختم هو الختم الحقيقي للخليفة الرابع أو انهُ كان لاحد عماله أو هو ختم مقلّد فقط . وهذه مسألة أتركها للمختصين بتاريخ العرب

داود . ت فيشر

---

(١) راجع المقال المكتوب عن جرش في Bulletin of the American School of Oriental Research No 43 Oct. 1931 by Dr. C. C. McCown.

(٢) راجع المقال المكتوب عن جرش في المجلة نفسها عدد ٤٥ في شهر فبراير سنة ١٩٣٢ . وايضاً راجع The Campaign at Jerash in Sep. & Oct. by Dr. C. S. Fisher

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

علاقة فينيقية بمصر

اثباتها بالآثار الناطقة

آثار جبيل

اجمع المؤرخون وعلماء الآثار على ان علاقة فينيقية بمصر انما هي علاقة تاريخية قديمة العهد قائمة على اساس راسخ من المصالح المتبادلة بدليل ما وجد في غير مكان اثري من ساحل لبنان ولا سيما في جبيل المدينة الفينيقية الشهيرة من التحف الاثرية المهداة الى ملوك المدينة من فراعنة مصر وفي جملتها الآنية الخزفية التي استخرجت من مدفن اكتشف فيها سنة ١٩٢٢ وقد نقش عليها اسم امنمحقت الثالث وخليفته (١٧٩٢ — ١٨٠٠) امنمحت الرابع . ومنها تحف اخرى وجدت في برين من القبور الخمسة التي اكتشفت هناك لامراء جبيل الذين عاصروا الفراعنة في تلك الحقبة وعلى هذه التحف كتابات هيروغليفية متقنة. ومما قاله المسيو مونته استاذ علم الآثار المصرية في جامعة ستراسبورج واحد اعضاء المجمع العلمي الفرنسوي في مصر وهو الذي عهد اليه معهد الآداب العلمي في باريس في التنقيب عن الآثار في جبيل : ان الآثار التي عثر عليها هناك تدل على ان لتاريخ جبيل علاقة وثيقة بتاريخ مصر ولا سيما من الوجهة الاقتصادية فان الفراعنة كانوا يعولون على جبيل في استيراد ما لا تنتجه ارض مصر من الاخشاب الصلبة والمواد الاولية الضرورية. والكتابات التي وجدت تدل على انهم جردوا الحملات منذ اربعة آلاف سنة في طلب هذه المواد ولا سيما خشب الصنوبر والارز والجوز والسنديان والخرنوب لانهم كانوا يصنعون منه الزوارق المقدسة وتوابيت الكهنة والاسوار الخشبية التي كانوا يقيمونها امام الهياكل . ويستوردون من جبيل السفن القوية التي امتاز الجبيليون بصنعها كما جاء في التوراة. ويستجلبون منها القطران لحفظ المومياءات والقار لتحنيط الاجسام لاعتقادهم ان القار يجعل الاجسام الالهية غير قابلة للفساد. ومن اجل ذلك كانوا يطلون به تماثيل الملوك انفسهم كما يرى في تمثالي توت عنخ آمون وتمثال اوزيريس . والآثار المستكشفة تشير الى ما كانت مصر تعلقه من الاهمية على علاقاتها

الحسنة مع فينيقية ولا سيما مع جبيل . ويستدل من كتابة نقشت على مسلة موجودة في متحف تورينو بايطاليا ان سنفرو من السلالة الرابعة قصد الى جبيل وأخذ منها سفينتين مصنوعتين من خشب الصنوبر طول الواحدة مائة ذراع. وقد وجد في المكان الذي اقيم عليه هيكل ربّة جبيل عدة اوانٍ بينها تحف مهداة الى ملوك جبيل من بابي الاول وبابي الثاني وميكارينوس وهو الذي شاد احد الاهرام الكبيرة اي ان تاريخ هذه التحف يرتقي الى عهد السلالات المصرية الثلاث الاولى

ولم تقتصر علاقات مصر وجبيل على الوجهة الاقتصادية بل تناولت المسائل الدينية ايضاً بدليل ان المصريين اقاموا هيكلاً لآلهة جبيل في المدينة نفسها كما يتضح من الآثار التي استكشفت . ويستدل من التماثيل والنقوش في هذا الهيكل على ان بناءه يرتقي الى عهد السلالة المصرية الرابعة والى ما قبلها . وفي ذلك دليل ايضاً على ان الفراعنة لم يكرهوا الفينيقيين على انتحال ديانتهم . وقد وجدت كتابة منقوشة على آنية مقدمة الى الهيكل المشار اليه هذا تعريبها : « من اوناس المحبوب من الاله الشمسي الموجود على بحيرة فرعون » ومعنى ذلك انهُ محبوب من الاله المحلي اله جبيل. واوناس يزعم انهُ محبوب من هذا الاله كما هو محبوب من الشمس الاهة مصر الكبرى التي يمثلها هو . وفي ذلك دليل على ان مقدم هذه الآنية كان سائداً في جبيل كما كان سلطاناً على مصر . واما بابي الاول فانهُ رفع نفسه الى مقام اله جبيل عملاً بما كان متبعاً في العصور الخالية من اتخاذ الملوك بمنزلة آلهة متجسدة تحمي المدينة وبمنزلة الامثلة الحية للاله امون. ولذلك كانت تماثيلهم تزان برسوم ترمز الى سلطتهم السامية. والآثار التي وجدت في هيكل عشتروت المجاور لهذا الهيكل وذكره لوقيان تدل على مقدار السيادة التي كانت لفراعنة مصر على تلك المدينة ، وهذه الآثار وجدت تحت بلاط الهيكل . وهي تدل على انهُ شيد ما بين القرن الخامس والعشرين والقرن التاسع عشر قبل المسيح اي بين عهدي السلالة السادسة والسلالة الثانية عشرة . وقد تهدم مراراً وكان الرومان آخر من جدّد بناءهُ. على ان عهد بابي الاول في جبيل لم يكن زاهراً ولذلك اعرض الجبيليون عنهُ دلالة على زوال هيبة الفراعنة في تلك الحقبة من ارض الفينيقيين

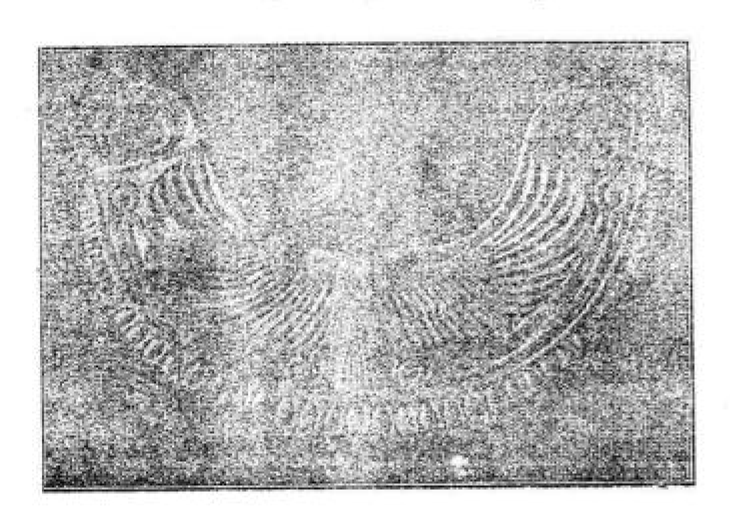
واظهر ما يستوقف الانظار من الكتابات التي عثر عليها المسيو مونته ذكر ادونيس المتواتر في تاريخ جبيل مقروناً بذكر عشتروت. وقد وجد بين الآثار التي عثر عليها ملفاً عليه حروف هيروغليفية يستدل منها على انهُ لاحد ملوك جبيل وقد ورد فيهِ اسماء آلهة نيغا وهي الآلهة التي تشير اليها الكتابات المنقوشة على الاهرام . وعثر في جبيل على رسم محفور يمثل اله البلاد والاهتها يعبدهما فرعون. وفي ذلك دليل على ان الفينيقيين كانوا يعبدون الهاً والاهة اي ذكراً

وانثى يظهر ان لهما علاقة بادونيس وعشتروت وقصتهما مماثلة لقصة اوزيريس وايزيس الواردة في الكتابات الهيروغليفية بمصر كما قال فلوطرخس فان بطل الرواية في « قصة الاخوين » يشبه ادونيس ويسكن وادي نهر ابرهيم يموت فيبعثهُ اخوهُ ثم يحول الى شجرة مثل اوزيريس وينقل الى مصر

وقد القى المسيو مونته في المعهد العلمي الفرنسوي في القاهرة في ٩ يناير سنة ١٩٢٣ خطبة قال فيها انه كان في جبيل اله الشمس والاهان آخران يحرسان المدينة وان فرعون مصر اعترف جهراً بانهُ صديق وابن هذه الآلهة كما انهُ ابن الاله « رع » . ومغزى ذلك ان هذا الملك ما كان يستطيع ان يطأ ارض فينيقية من غير ان يعترف بالاله . والخلاصة ان مصر اضطرت بحكم الحاجة الى انشاء علاقات ودية مع فينيقية لتتمكن من الحصول على ما كانت تفتقر اليهِ من محصولاتها ولاسيما الارز والصنوبر والسنديان والقار والقطران . وبسبب هذه العلاقات عرف المصريون ديانات الفينيقيين فنقلوا بعضها الى بلادهم وانتحلوها

وقد نشرت التيمس الانجليزية رسالة للمسيو مونته أتى فيها على خلاصة اعماله الاثرية في جبيل ومما جاء في هذه الرسالة ان ذكر جبيل ورد في ما كتب عن آلهتها التي كان المصريون يعبدونها او في ما كتب عن المحصولات والبضائع التي كانت مصر تستوردها من فينيقية نظير خشب الصنوبر والعرعر والارز والخرنوب والقلفونة والقار . واخذ المصريون عن الجبيليين صناعة بناء السفن لانهم كانوا في حاجة اليها لجلب البخور من بلاد العرب . ووجدت صورة بارزة تمثل احد الفراعنة ساجداً لاله جبيل والاهتها. وعثر على معبدين احدهما مصري والآخر فينيقي وكان امام الاول اربعة تماثيل كبيرة وفي داخله تمثال للآلهة يكاد يكون سليماً . أما المعبد الفينيقي فلم يكن باقياً منه سوى البلاط المرصوفة به أرضه وقد وجدوا فيهِ كثيراً من التماثيل والحلي والكؤوس والاسطوانات واكثر الكؤوس كان مصريًّا وعلى بعضها اسماء بعض الفراعنة نظير ميقارينوس واوناس وبابي الاول وبابي الثاني . وعثر على غرفة تحت الارض فيها ناووس حجري ضخم يحوي تحفاً بينها كأس من السبج مطوَّقة بالذهب وقد نقش عليها اسم امنمحت الثالث الذي ملك على مصر من ١٨٥٠ الى ١٨٠٠ ق.م. وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٢٣ عثروا على دهليز صاعد من هذه الغرفة وجدت فيهِ كتابة هيروغليفية جاء فيها: «ان زو أحد امراء جبيل لم يرد ان ينشيء لنفسه مدفناً يدفن فيهِ وحده بل اراد ان يدفن مع والده ليرى احدهما الآخر كل يوم في العالم الثاني » . وعثروا في غرفة أخرى تحت الارض على كثير من الآنية الخزفية المطلية بينها كأس مصرية مصنوعة من حجر رمادي اللون وهي بديعة الصنعة وعلى غطائها كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : «من الاله الكامل الحي ابن امنمحت الشمس الى خدمهِ دائماً» والمقصود بالخدم أهل جبيل . وحقة جواهر من السبج على قواعد من المذهب وغطاؤها من الذهب

والسبج وحوله أطار ذهبي منقوش على الاسلوب المصري وفي وسط الغطاء كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها: «الآله الحي الكامل سيد البلادين ملك مصر العليا والسفلى معخر ورع المحبوب من تم اله هليوبوليس المعطاة له حياة ابدية كالشمس» . ومعخر ورع أحد الاسماء التي كان يعرف بها امنمحت الرابع الذي ملك على مصر من ١٨٠٠ الى ١٧٩٢ ق.م. وهو الذي ارسل هذه الهدية الى ابن ملك جبيل الذي انشأ الدهليز بين مدفن أبيه ومدفنه وقد ورد اسمه في كتابة هيروغليفية على صل منتفخ الاوداج يلتف حول مخصرة من البرونز وهذه ترجمتها: «صنع للامير ابي سخيمو المتوفي — امير جبيل ابي سخيمو ابي المعاد الى الحياة» .وفي ذلك ما يدل على ان الفينيقيين كانوا يستعملون الكتابة الهيروغليفية قبل ان استعملوا الكتابة المسمارية في مراسلاتهم السياسية بثلاثة قرون ولكن القلم الذي كانوا يكتبون فيه وقتئذٍ اقرب الى الهيروغليف الحثي منه الى الهيروغليف المصري



طوق من الذهب وجد في جبيل سنة ١٩٢٤

وعثروا في مدفن ثالث على تابوت خشبي مزخرف بالقيشاني والذهب وعلى آنية من الخزف بينها مخصرة من البرونز وطوق من الذهب بديع الشكل يماثل الطوق المصري المؤلف من عقود لؤلؤ معلقة بين رأسي باشقين من الذهب مع هذا الفرق بين الطوقين وهو ان العقود أبدلت بصقر باسط جناحيه ويحمل في كل من رجليه خاتماً ذهبياً يرمز الى تجدد الحياة وخلودها . وهناك مدفن رابع عثر فيه على آنية خزفية مزخرفة مع قطعة من اناء البستر نقش عليه بالهيروغليفية ما ترجمته . «الى نفس الامير الشريف شيخ الشيوخ أمير جبيل المعاد الى الحياة»

وهناك كثير من التحف الاثرية الثمينة في جلتها آنية من الفخار وشارات ملكية واسلحة عليها كتابات هيروغليفية مهداة من الفراعنة الى ملوك جبيل وجرار ودلاء وصحون واطباق من الخزف والبرونز وآنية من الرخام عليها كتابات هيروغليفية وقطعة ذهبية تمثل مرتين الملك جالساً امام الصقر وهو شعار فراعنة مصر ومدالية ذهبية وحجارة كريمة وخاتم من الذهب وخنفسة من الحبشة وعقود من اللؤلؤ والبلور وسواران ذهبيان وصولجان من خشب وذهب عليه شعار من الفضة يمثل الشمس وسلاح من البرونز بقبضة ذهبية وخنجر ذهبي وعصا من ذهب وخشب وصولجان من البرونز وكأسان احداهما من ذهب والاخرى من حجر وطاسة من الفضة واناء من العظم فيه مسامير من الذهب ورصائع ذهبية وقبضات اسلحة

وعثر بالقرب من جبيل على مدفن يرتقي تاريخه الى عهد رعمسيس الثاني في القرن الثامن ق.م. وجد في أحد غرفه ناووس عليه كتابة فينيقية هي اقدم ما وجد من نوعها حتى سنة ١٩٢٥. وقد اكبر علماء الآثار قيمتها لما يتوقعون ان يكون لها من الشأن في تاريخ الاقلام الفينيقية التي لم يستطيعوا الى اليوم ابداء رأي فاصل فيها وهذا علاوة على ما ينتظر ان يستخرجوا من الكتابات التي وجدت في هذا المدفن من الحقائق التاريخية الهامة التي تصلح اساساً لتعيين العلاقات القديمة بين مصر وفينيقية تعييناً جلياً واضحاً

وقد عثر احدهم في جوار جبيل على تمثال ذهبي صغير طوله ٨ سنتيمترات يمثل امرأتين مصريتين واقفتين وعاريتين من الملابس ويدا كل منهما منبسطتان على ركبتيها وقد برزت اثداؤها وفي موضع الحلمة من كل ثدي حجر كريم وهو مرتكز على قاعدة تدلت من اسفلها حلقة مربوط بها حجر من السيلان . وهذا الحجر معروض الآن في المتحف اللبناني

وفي شهر مايو سنة ١٩٣٢ نشر مدير المعارف في لبنان بياناً بآخر ما عثر عليه في جبيل من آثار الاقدمين والتحف الاثرية النادرة فقال ما يؤخذ منهُ ان اعمال الحفر وصلت الى الهيكل الفينيقي الذي يرجع عهد انشائه الى القرن الثامن عشر قبل المسيح وقد عثروا فيه على آثار ثمينة هي انفس ما اكتشف من نوعها حتى الآن . ومن هذه التحف فأس من الفضة وثلاثة فؤوس من الذهب الخالص مثلت على احداها صورة كلب وكبش في غاية الدقة لم يعرف لها مثيل في تاريخ فينيقية ونصال وقبضات من الذهب يتركب منها ثلاثة خناجر واحدى هذه النصال مزدانة برسم رجل فينيقي يركب حماراً بينما اناس امامه يسوقون سعادين وأسداً وماعز. وقبضة ذهبية كسر جفت دقيقة الصنع . وعدة اسطوانات ذهبية وفضية صغيرة دقيقة الصنع . واربعة تماثيل من البرونز المطلي بالذهب محفوظة حفظاً جيداً واكبرها يبلغ طوله ٣٥ سنتيمتراً ويمثل شخصاً واقفاً وعلى رأسه قبعة كالبادة . وشخص يمثل ابي الهول — السفنكس — طوله ١٢ سنتيمتراً من الشبه (البرونز) المطلي بالذهب »

آثار صور وصيداء

وهناك تحف أثرية اخرى بالغة منتهى الجمال والدقة في الصنعة وجدت في السنوات الاخيرة سواء كان في جبيل او في سواها من المدن الفينيقية اللبنانية ولا سيما في صور وصيداء حيث وجدوا عدة نواويس حجرية ورصاصية عليها نقوش جميلة وصور حيوانات وحشرات ممثلة بأشكال متنوعة . وهناك تحف أثرية اخرى بينها آنية من ذهب عليها كتابة هيروغليفية وثلاثة تماثيل وجدت بين صور وصيداء احدها محطم والثاني بشكل جذع او مذبح للتضحية والثالث بشكل سمكة وبالقرب منها تابوت من الرصاص موضوع في ناووس من الرخام منقوش عليه رسم ابي الهول . ووجدوا في قرية صانوي بجوار صيداء اربعة نواويس من المعدن وناووساً من الرخام وجرتين من الخزف عليها كتابات هيروغليفية وزهرية خزف وقطعتين من الذهب تمثلان صولجاناً وعدة قطع ذهبية اخرى . وعثروا في قرية كفر جرة التابعة لصيداء على مدفن قديم فيه كثير من التحف الأثرية الثمينة بينها آثار مصرية ترجع في تاريخها الى القرن السادس ق. م. وهناك تحف اخرى وجدت في مدافن فينيقية في تلك البقعة يرتقي عهدها مع آثار كفر جره الى عصر القضاة او الكهنة اي الى الحقبة الفاصلة بين عهدي الاسرتين المصريتين الثانية عشرة والثامنة عشرة وتتناول خمسة قرون تبتدىء في القرن الثامن عشر وتنتهي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وبين الآثار التي وجدوها هناك تحف نفيسة مماثلة للتحف التي عثروا عليها في مدافن الاسرائيليين في فلسطين وبينها كثير من الجعران من حجر الجمشت والحجر الكلسي . ووجدوا هناك مدفنين آخرين يرتقي تاريخهما الى عهد الكهنة وعثروا فيهما على رياش فاخر في جملته آنية خزفية وآنية من البرونز وخناجر وفؤوس ونصال وجعران وطابع بشكل عمود وغير ذلك

ومما لا ريب فيه ان الآثار القديمة التي لا تزال مدفونة في هذه المنطقة الساحلية تضارع في عظم شأنها آثار جبيل ولو ان هذه المدينة ذات مكانة خاصة للصبغة الدينية التي كانت لها في ما سلف من الدهر . ونحن في غنى عن القول ان ما استكشف الى اليوم من آثار الاقدمين ولا سيما آثار الفينيقيين في تلك البقعة الساحلية الممتدة من صور الى اللاذقية انما هو عشر معشار ما هو مدفون في ارضها من الكنوز الأثرية التي لو عني باستخراجها وادخارها كلها في المتحف الوطني اللبناني الذي انشىء خصيصاً لها لكانت ثروة عظيمة للبنان وأثراً تاريخياً جليلاً يحدث العالم بحضارته القديمة الممتازة التي كان المسيو مونته آخر من قال فيها : «انها تضارع حضارة مصر وكلدية»

تعلم اللغات الاجنبية

طريقة جديدة بديعة

« كل لسان انسان » . كذلك جرى المثل العربي القديم. اما وأنحاء العالم المتمدن اصبحت مرتبطة اوثق ارتباط بوسائل المواصلات والمخاطبات السريعة وبصلات التجارة المتبادلة، فهذا المثل العربي القديم اصبح ضرورة يقتضيها العصر الحديث.

فالمسافر الذي يرحل الى بلادٍ لا يعرف لغة اهلها تمرّ امامهُ مشاهد الحياة والعمران كما تمرّ امام عينيهِ على ستار الصور المتحركة من دون ان ينفذ الى كنهها ، ولكنهُ اذا كان يعرف لغة القوم تمكن من التغلغل في نفسيتهم فيتحدث معهم بها فيتكشف لهُ الحديث عما يساورهم من آمالٍ وآلام ، ويستطيع أن يقرأ ادبهم فيتسع افق نظرهِ الى الحياة بل يصبح قادراً ان ينظر الى الحياة والعمران بعيونهم فكأنهُ يضيف بذلك حياة جديدة الى حياتهِ فيصدق عليه المثل العربي « كل لسان انسان » . ثم اذا كان من رجال المال والاعمال سهل عليهِ ان يتصل بعملائهِ في البلدان المختلفة ، من غير ترجمان او وسيط ، فيتحدث معهم بلغتهم ، ويبلغ في حديث ساعة من هذا القبيل ، ما لا يبلغهُ في مراسلات يتبادلها معهم بالبريد في خلال اسابيع او شهور ؟

يضاف الى ذلك ان معرفة الانسان بلغة قوم غير قومهِ ، واطلاعهُ على أدبهم وفلسفتهم يمهدان لهُ سبيل فهمهم على ما هم حقيقة ، فلا تذهب بهِ الاوهام والتصوُّرات في تعليل ما يقولون ويفعلون ، كلَّ مذهب . وهذا الفهم دعامة الوئام الدولي ، الذي ينشدهُ العالم في المؤتمرات العالمية من اقتصادية وسياسية وحربية . ونذكر ان بريان داعية السلام في القرن العشرين قال على أثر اتفاق لوكارنو : « لقد تكلمنا لغة اوربية وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها » اشارة منهُ الى انهُ تفاهم مع شترزمان الالماني

فتعلُّم اللغات الحيَّة واجبٌ على ابناء هذا العصر سواءٌ نظرنا اليهِ من ناحية الثقافة الشخصية او من ناحية المنفعة العملية او من ناحية التفاهم الدولي

***

والطريقة المثلى لتعلُّم اية لغة اجنبية يجب ان تتصف بالصفات الآتية : —

يجب ان تكون مما يمكن استعمالهُ على حدةٍ من دون ارشاد معلم خاص ، كما يجب ان تكون مما يصلح للاستعمال في فرق التدريس ، جارية على احدث ما عرف في علم التربية من وسائل درس اللغات

ويجب ان تمكن المتعلم من التحدُّث بها في موضوعات الحياة اليومية مع معرفة ما تجب معرفتهُ من قواعدها بوجهٍ عام ليكون الكلام بها سليماً من الخطإِ المزري

ثم يجب ان تمكن المتعلم من التفكير باللغة نفسها مباشرة لانهُ اذا فكر بلغتهِ الاصلية وجب عليهِ ، لدى المحادثة ان يترجم الكلام لفظاً لفظاً وعبارة عبارة ، فلا يسلم حينئذٍ من العجمة علاوة على التردد والتعثر في اثناء الكلام

يضاف الى كل ذلك ان طريقة التعليم يجب ان تمكن المتعلم من النطق باللغة كابنائها وبلهجتهم فاذا خاطبهم بها لم يحسب بينهم غريباً

***

قرأنا منذ بضع سنوات كتاباً للكاتب الانكليزي المشهور المستر ولز (H. G. Wells) عنوانهُ « خلاص الحضارة » عرض فيهِ ، في فصل مسهب لمشكلة التعليم والطرق التي يجب ان تتبع لكي يخرج المتعلم كامل التعليم متقفاً مهذَّباً يصلح ان يعيش في عالم يقتضي الترابطُ بين اجزائهِ التفاهمَ التام بين طوائفهِ وشعوبهِ . وفي الصفحة (١٦٠ — ١٦١) قال ما يأتي في تعليم اللغات : —

« ان المدرسة الحديثة يجب ان تحتوي على عدد كبير من الجراموفونات . ولكنها لا تستعمل في تعليم الموسيقى والتمرينات الرياضية فقط بل في تعليم اللغات كذلك . فبدلاً من ان يضطرَّ معلم اللغة الى التظاهر بانهُ يجيد اللغة الاجنبية التي يدرّسها لتلاميذهِ ، وهو لا يعرف الاَّ مبادئها ، يصبح عوناً لاداة التعليم الكاملة — وهي الجراموفون ..... وفي السنة الاولى من تعلم اية لغة اجنبية يساير المعلم اقراص الجراموفون فيتعلم التلميذ منها اللهجة السليمة والنطق الصحيح . وتدرَّس كلُّ لغة في مختلف اقطار العالم بلهجة واحدة ومقدار واحد من المصطلحات — وهو عمل مرغوب فيه »

كانت امنيَّة المستر ولز مقدمة لاستنباط الطريقة الجديدة في تعلُّم اللغات التي جعلناها موضوع هذا المقال . فان المستر رُسْتُنْ تدبَّر امنية المستر ولز بعد ما عالج تعليم اللغات خمساً وعشرين سنة وخبر نقائصهُ ومقتضياتهِ نخطر لهُ ان يحقق هذه الامنيَّة فانشأ طريقة اللنجوافون

وأساس هذه الطريقة ان من رغب في تعلم لغةٍ اجنبية يجب عليهِ ان يتعلمها كما يتعلَّم الطفل الكلام . فان الطفل يصغي اولاً الى من يتكلم حولهُ فتختزن ذاكرتهُ الاصوات ومعانيها، فاذا نضجت اعضاء النطق فيهِ نطق بالالفاظ كما سمعها من والديهِ واخوتهِ وغيرهم ممن يحيط بهِ .

فجاء المستر رستن بأستاذ انكليزي فوضعا ثلاثين درساً انكليزيًّا تتناول موضوعات الحياة اليومية ووضعا لكل درس صورة تحتوي على الاشياء المذكورة في الدرس . ثم جعل الاستاذ ينطق

بالجمل التي في الدرس ، بما هو مشهور عنهُ من سلامة اللهجة وفصاحتها ودوّن ذلك على قرص من اقراص الجراموفون . وطبعت الجمل في صفحة من كتابٍ امام الصورة . وفعلا ذلك في بقية الدروس . وهذه الدروس مفسرة بلغة كل طالبٍ الخاصة . فهي مفسرة بالالمانية للالماني وبالفرنسية للفرنسي

فاذا شاء رجل ان يتعلم الانكليزية أخذ هذه الاقراص التي دوّنت عليها الدروس المختلفة، ووضع القرص الاول على الجراموفون وأداره وجلس يصغي اليهِ . وهو ينظر الى الصورة . فيتعذّر عليهِ اولاً ان يتبين الالفاظ ومقاطعها . ولكنهُ يعيد الكرة على القرص نفسهِ ثانية وثالثة ورابعة حتى ترسخ الالفاظ في ذهنه . وهو في اثناء ذلك ينظر الى الصورة فيربط بين الاسماء ومسمياتها . فيتعلم اللغة الاجنبية كما يتعلم الطفل لغة والديهِ

ثم ينتقل الى الدرس الثاني فالى ما يليهِ وهو في خلال ذلك يزداد تبيناً للالفاظ ومقاطعها، وفهماً لمعانيها ، فاذا حاول بعد بضعة دروس ان يقول جملة باللغة الجديدة التي يتعلمها قالها بداهةً بلهجة ابنائها من دون ان يعمد الى ما يريد ان يقولهُ ثم الى اختيار اللفظ الموافق لهُ ثم الى التفكير في بناء الجملة بحسب القواعد المرعية

هذه هي الفكرة التعليمية التي تقوم عليها الطريقة الجديدة . وقد جرّبت فوفت بالغرض المقصود ايما وفاء . وهي تستعمل الآن فيما يربي على ٨٠٠٠ مدرسة في انكلترا والمانيا والسويد والنروج وفرنسا وغيرها . وشهد لها كبار الادباء والمعلمين بالفائدة التي تجنى من استعمالها . وقد قرأنا عن فتى كان يتعلم في المدرسة بلندن اللغة الاسبانية وكان يستعين على تعلمها بطريقة اللنجوافون في دارهِ ، فلما جاء الممتحن الاسبانيُّ الى لندن ليمتحن الطلاّب ، عجب للهجة هذا الفتى الاسبانية وسألهُ في اية مدرسة من مدارس اسبانيا درس اللغة الاسبانية

***

ولما وثق المستر رستن من وفاء هذه الطريقة بالغرض التي انشئت لهُ استعان باكبر اساتذة اللغات في البلدان المختلفة لوضع دروس في اللغات المختلفة فثمة دروس انكليزية لابناء الالمان والفرنسيين وغيرهم وثمة دروس فرنسية لابناء الانكليز والالمان والايطاليين وغيرهم ودروس المانية لابناء الفرنسيين والانكليز ودروس ايطالية واسبانية الخ والمعهد معنيٌّ الآن بوضع الكتب والدروس اللازمة للناطقين بالعربية

واذا كان ثمة من يعرف لغة من اللغات واراد ان يتوسع في ادبها وجد اقراصاً في بعض اللغات وقد دوّنت عليها قطع ادبية مختارة كما يتلوها افصح الفصحاء ، والى جانبها كتب في تفسّر ما غمض منها . فالطريقة مستكملة للشروط التي يجب ان تتوافر في تعليم لغة اجنبية وعندنا انها من افضل ما ينفق فيهِ المثقفون جانباً من اوقات فراغهم

الفيلسوف سبينوزا

على ذكر الاحتفال بانقضاء ٣٠٠ عام على ولادته

من كتاب « الفلسفة في كل العصور »

انتهيت من تأليف هذا الكتاب معتمداً بضعة عشر مؤرخاً للفلسفة من اشهر رجالها ، في اوربا واميركا ، كاردمن ، وتلي ، ولوس ، وترز ، ومارفن ، وجانيه وسيال وغيرها

وبعد انجاز التأليف اسعدني الحظ برعاية طائفة من اساتذة الفلسفة ومساعدتهم فجاء سفراً قيماً مضبوطاً ، سهل المأخذ ، وافياً بالمرام ، في تاريخ الفلسفة وزعمائها ، ومذاهبها ، وتطورها ، وعصورها

وتلبية لرغبة المقتطف قدمت له المقالة التالية في « سبينوزا » ، سادس خمسة هم اساطين الفلسفة في كل ادوارها وهم : افلاطون . ارسطوطاليس . ديكارت . ليبنتز . كنت : والسادس « سبينوزا » والكلام فيه مقسم الى ثلاثة اقسام ، هي ترجمته ، وفلسفته ، ورأيه في الخلاص

(١) ترجمة

ولد « باروخ سبينوزا » بامستردام هولاندا ١٦٣٢ . وهو من اصل يهودي برتوغالي . هذَّبهُ الربّاني « موسى اوتيريا » ، وهو مفكّر يذكرنا بأتباع « ابن ميمون » المدرسيين ويرمي الى التوفيق بين الفلسفة والديانة اليهودية

رفض « سبينوزا » شرح التوراة بحسب فلسفة « ارسطوطاليس » . واثقاً « بابن عزرا » وقد قرأ الادب الجرماني على الطبيب « فرنزفان دن اند » وهو زنديق شهير ، والطبيعيات على الطبيب « لودويغ ماير » . وحرّمهُ المجمع الاسرائيلي سنة ١٦٥٦ ، فلم يكلمهُ احد حتى ولا شقيقته ، لانهم حسبوه كافراً . فلاذ برجل يدعى « بريفسبرجر » . وبرح امستردام الى الهاي . وعاش مع « فندبريسبيك » [اردمن]

ولم يؤلف شيعة ، على ان كل فلسفة بعده ممتزجة كثيراً او قليلاً بافكاره . وكان الجيل الذي تلاه ينبذه نبذ الحذاء المرقّع . لكن « لسنغ » ردّه الى شهرته . فدهش « جاكوبي » من كون « لسنغ » سبينوزيًّا ، ولا فلسفة عنده الاّ فلسفة « سبينوزا »

ثم وجّه « هردر » الانظار الى كتاب : الاخلاق : اشهر مؤلفات سبينوزا ، ولقّبهُ « شليرميخر » : بالقديس المحروم ، ودعاه احد الشعراء : الانسان النشوان بالله ، ثم لفت « جاكوبي » اليهِ نظر شاعر المانيا العظيم « جيته » . فقرأ هذا كتاب « الاخلاق » فوجد فيهِ الفلسفة التي تصبو اليها نفسه . فارتقى باعتناقها من الغرام الهمجي ، الذي ساد اشعاره ، الى ذرى الشعر الفلسفي . و بلغ « فخت » « وشلنغ » و « هيغل » مذاهبهم المنوّعة في « اتومية الكون » بمقارنتهم فلسفته بابستمولوجيا (فلسفة المعرفة) كنت

وقد تولّدت : ذاتية : فلسفة « لسنغ » من عبارة « سبينوزا » الشهيرة : حفظ الكيان : وكذلك شعار فلسفة كلٍّ من المفكرين « شوبنهور » و « نيتشه » وبرغسن . فشعار الاول : الارادة .

والثاني : القوة . والثالث النشاط . وعلا قدر «سبينوزا» في انكلترا مع انتشار الثورة . وترجم «شلي» رسائله في : الدين والسياسة . و «جورج اليوت» كتابهُ في الاخلاق. ومات سنة ١٦٧٧ . وفي القرن الثاني بعد وفاته اقاموا له في هولاندا نصباً عديم المثال «دورانت»

(٢) فلسفته

«سبينوزا» تلميذ «ديكارت» من حيث المنطق والمنهج . الا انهُ سار بمذهب «ديكارت» الثنائي الى تأليه الكون : معتمداً على اسناد «ديكارت» التصورات الى الله . ويتناول تفكير «سبينوزا» ثلاثة موضوعات : الله والطبيعة والانسان ، او الجوهر وصفاته وصيغته [جانيه وسيال]

﴿الله﴾ : الله اول الفلسفة وآخرها

قسم «سبينوزا» الكون الى قسمين متبايزين مجموعهما الله . وكانت فلسفته جانحة الى مذهب «ديكارت» بحذف الله من الكون ، كأنهُ لا صلة له تعالى بهِ . واساس ذلك عنده ماهية الكون ، التي بها تتلاشى الاشياء . ونقطة تفكيره هي : ان الاشياء المحدودة وهمية

غرض الفلسفة عند «سبينوزا» الهرب من عالم الظاهرات ، التي لا تهب سعادة حقيقية ، واحراز النعمة التي يهواها العقل والقلب ، ولا يدانيها تغيُّر وهي وحدها الجديرة بمحبتنا ، لانها وحدة الكون السرمدية ، التي تضمُّ في ذاتها الاشياء الفانية ، وتهب لها اليقينية . وبلغة دينية هي — الله — فعوض استبداله تعالى من الاشياء ، اذا هو هي . فقادنا نقصها الى كماله . فان الفلسفة تتناول الواحد اليقين ، لا الاشياء الفانية

(المؤلف : لكي نفهم فلسفة «سبينوزا» نرجع الى الميتافيزيقا التي يعتمدها واليك بيانها)

الجوهر والصفات والصيغ : تندرج كل حقيقة تحت ثلاثة رؤوس : الجوهر ، والصفة ، والصيغة

الجوهر : وهو ما وجد بذاته (دون استناد الى آخر) ، وفهم بذاته (دون افتقار الى ما سواه)

الصفة : هي ما صاغها الفهم كلباب الجوهر ، او خلاصته

الصيغة : او تطور الجوهر : هي ما قام بغيره ، وفهم به

فالجوهر واحد ابداً . لان المادة والعقل (وهما صيغتان) يقومان بالله ، لا بذاتهما . والماهية واحدة ، ازلية ، غير محدودة ، هي مناط الاشياء كافة . اما الصفات فلباب تلك الماهية ، والاشياء تغيرات الصفات او تطوراتها ، وهي فانية . وان علاقة الله بالكون طبيعية ، لا منطقية

﴿الصفات﴾ : صفات الله لا تحصى عدداً ، لكننا نعرف منها اثنتين فقط ، هما : الفكر والامتداد . فالفكر يحرك المادة ، والمادة تثير الفكر ، فهما متفاعلان . وبينهما تمام المطابقة . فكل صيغة فكر ، هي صيغة امتداد . ولما كان لا تداخُل بين الفكر والامتداد فالفكر يتوضح بمنهج فكري ، والامتداد بصيغة مادية ، فلا لبس بينهما . وسواء نظرنا الى الطبيعة بالفكر او بالامتداد فالنظام ، او ترابط العلل ، واحد

الله علة تصورنا الدائرة في العقل (هذا هو الفكر) وهو ايضاً علة وجود الدائرة في الطبيعة (هذا هو الامتداد) . فقد انشأ تعالى الصورة في فكرنا بصفته الفكرية، وأوجدها في الطبيعة بصفته الامتدادية (المؤلف: يعني «سبينوزا» ان الفكر والامتداد صفتا الجوهر)

الله العلة الاولى لكل الاشياء وهو تعالى كنهها، ولباب وجودها . فالذين نسبوا القصد الى الحوادث الجزئية برهنوا على جهل مطبق . فاذا سقط حجر من علٍ، فاصاب احداً فقتله قالوا ان الحادث فعل غائي، اراد به الله ان يقتل ذاك الانسان . على انه ليس من غاية في الطبيعة . واعتقادنا القصد فيها مبني على تأنيسنا الله . فنعزو كل حادث اليه تعالى عزواً مباشراً . ونبحث في قلوبنا عن قالب نسبك الله فيه، ناسبين اليه تعالى امثال نقصنا . لذا نرى آلهة الناس تدبر الطبيعة خدمة للانسان . فيختار كل واحد طريقاً خاصاً لعبادة الله، الذي ميزه عمن سواه، ووفّق مصالحه . فيصير التميز خرافة سائدة متأصلة في النفوس . على هذا الاساس يجدّ الناس في استجلاء الغاية النهائية . فلا يرون في الحرب والزلازل والاوبئة ضرراً . وبالرغم من تكذيب حوادث كل يوم اوهامهم، مبينة ان الخيرات والشرور تصيب الاخيار والاشرار سواسية، نرى الناس لا يقلعون عن وهمهم

على ان شهادة الطبيعة صريحة ضد وهمهم . فان حرارة الشمس تكون خيراً في حال وشراً في حال آخر . وكذلك بلة المطر . وقد تكون هذه وتلك لا خيراً ولا شراً، كالموسيقى فهي خير للمسرور، وشر للحزين، وليست هذا ولا ذاك للاصم . فالذين لا يفهمون الطبيعة فهماً صحيحاً يحكمون، وهماً، بانتظام الاشياء، فالمستحب عندهم منتظم، وغيره فوضى . ويؤثر المرء نسبة النظام الى الطبيعة، قائلاً : عمل الله كل شيء حسناً

(على ان النظام في عقولنا لا في الطبيعة) وكذلك الجمال محصور فينا، في اختبارنا وفي حكمنا . فلا يجوز ان ننسب لله قوىً كالتي في الانسان . فاذا كان لله عقل وارادة فهما خلاف ما للانسان . فبماذا نصفه تعالى ؟ وهو اكثر من جوهر مجرد ! ... (روجرس)

(٣) الخلاص

﴿ الاستعباد الانساني ﴾ : نحن في ثورة عواطف، لنقص محبتنا وتقلبها، لاعتمادنا الاشياء الناقصة المستقبلة، دون الثابتة . فنحب ونبغض، ونفرح ونحزن، ولا ندرك السلام . فنحن عبيد العاطفة والجهل اللذين يقيدان الناس . فاذا لم يكن للانسان يقينية في نفسه فكل جهوده عبث

حين يتوقف حفظ الذات علينا قلنا «فعل» . وحين يتوقف على خارج عنا قلنا «شوق» . فما هو اساس الفرق بين الافعال والاشواق ؟ يرجع الجواب عن ذلك الى الصفات والصيغ . فانا اذا اعتبرنا ظاهرات معرفتنا العالم، في احوال رضينا، قلنا « صيغ » . . ففيما نظن انا قد تحسسنا العالم الخارجي لم نتحسس الا شعوراً، نتج عن التفاعل بين الموضوع وبين حواسنا

باعتبار كونهِ ناتجاً عن فاعلين فهو (اي الشعور) يمثل احدهما (التحسس لا الاشياء). وهذا هو تعليم نسبية الحس ومرجع هذا التعليم « بروتاغوراس ». فمعرفتنا الحسية ناقصة وغير مطابقة

وهنالك طريقة اخرى لاعتبار العقل الانساني . فانهُ عدا كونهِ فانياً ، هو قسم من طبيعة الله . بناءً على كون كل موجود كائناً في الله . فتصوراتنا ، في جوهرها وابعد حدودها ، ازلية ، فهي مطابقة . فيرجع الفرق بين الافعال والاشواق الى الفرق بين الافكار المطابقة والافكار غير المطابقة . فالاولى كائنة في الله ، والثانية فينا . الاولى أفعال ، والثانية اشواق

والعواطف تصوُّرات ملتبسة او شهوة . والشوق الذي في النفس الى درجة عالية من الكمال هو « لذة » وبالاشارة الى اللذة والالم يجب تحديد العواطف على الصورة الآتية

المحبة لذة يصحبها تصوُّر خارجي : البغض ألم يصحبهُ تصوُّر نجس

الرجاء لذة غير حاصلة ، ونشأت عن تصوُّر شيء مستقبل وهكذا

فلامتلاك الحرية جانبان (١) الهرب من العواطف (٢) الهرب من التصورات غير المطابقة. والفعلان واحد. فالنعمة الحقيقية هي المعرفة الصحيحة (سقراط) واعظم خدمة للحياة هي تكميل الفهم والذهن بشبع النفس الناشيء عن معرفة الله وصفاتهِ واعمالهِ . فالخير ما قاد الى المعرفة . والشرُّ ما طمس معالمها. فقوتنا فهمنا . وضعفنا جهلنا . وليس البغض وحده رذيلة ، بل ايضاً الجبن ، والخجل والذل ، وجهلنا قدر انفسنا . فمن عاش بحسب الذهن يترفع عن الرأفة والخنوع ، ويقابل الحياة بصدر رحيب ، ولا يطيع سوى وجدانه . فالحرية ثمرة الفلسفة

يزعم الناس انهم يفعلون احراراً ، لانهم عن وعي يفعلون ، كالطفل اذا جاع فانهُ يأكل ، وكالجندي في الجبهة ، فانهُ يجاهد . وقد فاتهم ان الحافز هو وراء الافعال . وان كل الافعال ثمرة الضرورة الالهية (المتحكمة في الوجود ، فالانسان مسيَّر يتوهَّم انهُ مخيَّر) فعلى المرء ان يفهم تلك الضرورة ، لا أن يحاربها

متى رأينا الاشياء في الله ، مرة واحدة ، زالت المعاكسات فينا . فمصدر الالم حبّنا ما لا سبيل لنا الى الحصول عليهِ . فلا يشتاقنَّ المرء الاَّ لما هو في متناول يده. فالقوَّة تطهر المعرفة وتميّزها. ومعرفة الله تتغلب على العواطف . وبذلك تستولي على العقل محبة ازلية . ذهننا حر من الحواجز ، لانهُ قسم من الاله غير المحدود. «حقائق الاختبار كحقائق البديهة — كلها — مستمدة من الحقيقة الواحدة — الله . عن هذه المعرفة ينشأ شبع النفس . وكلما زدنا معرفة زدنا خيراً وبركةً وحبّاً لله . وهذا الحب هو حب الله ذاته فينا

يتلخص تعليم الحرية في القواعد الآتية : — ١ : العمل بحسب ناموس الله ، والاشتراك في طبيعتهِ . ٢ : صرف النظر عما ليس في الحول ٣ : عدم البغض او احتقار الآخرين او حسدهم الخ . ٤ : معرفة الامة كيف تحكم وتحكَم ، كاحرار لا كعبيد (روجرس)

يمثل سبينوزا ارق صورة للاخلاق واقسام مذهبه هي : —

١ً الله ٢ً اصل العقل ٣ً اصل العواطف وطبيعتها ٤ً قوة العقل او الحرية الانسانية

﴿الله﴾ : اذا كان الجوهر مستقلاً فهو غير محدود. فلا يكون في الوجود الاّ جوهر واحد. ولا يوصف الجوهر باوصاف الشخصية أو الفردية ،لان تلك الاوصاف مختصة بالمحدود

الله والطبيعة واحد . هو المبدأ الفياض في الكون — الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة وعبارته اللاتينية هي هذه Notura naturan et natra naturata

﴿الصيغ﴾ : هي اشواق الجوهر وتطوراته . فلا تدرك الاّ فيه

الانواع سرمدية ، والافراد بائدة (افلاطون) يتجلّى الجوهر الازلي بطرق لا تحصى في نظام التطورات ، وفي نظام الاجسام . فمجموع التطوُّرات هو العقل المطلق ، غير المحدود. ونظام الصيغ هو حركة وسكون . والاتفاق معاً مجلى الكون. وهذا المجلى سرمدي ، الاّ ان تنفأ منه تتغير . فالطبيعة جسم عضوي (كبير جداً) تتغير صوره وتظل ذاتيته . فاذا رمنا ان نصور الله بصورته الازلية فهو : صفاته غير المحدودة . واذا رمنا ان نتصوره في الزمان فهو الكون . فالله هو الكون [تلي]

منهج «سبينوزا» الرياضي دليل تأثير «ديكارت» فيه . فاليقين الرياضي والفلسفي واحد. لأن الادلة الرياضية جلية بطبيعتها ، فلا يسلم سبينوزا بالغاية في الكون ، اذ لا غاية في الرياضة . وعنده عوض الغايات تعليلات . فان الفضاء علة الاشكال الهندسية ، بل هو شرط وجودها الضروري . فهي غير ممكنة من دونه . وواضح ان ليس هنالك غاية

فنقطة شروع «سبينوزا» مضمون الكون المنطقي ، لا علة الاشياء او خالقها . والله عند «سبينوزا» الطبيعة . فمن اراد ان يفهم فلسفته فليبدل كلمة (الله) حيث وجدها (بالطبيعة) فهو مراده. وتصوُّر انعدام الصيغة ممكن، لانها بالجوهر تقوم. أما تصوُّر انعدام الجوهر فمستحيل، لانهُ بذاته يقوم (فهو واجب الوجود) وبه تقوم الصيغ . فالازلية مختصة بالجوهر . وهو الوحدة الشاملة . والصيغ جزئية هو مجموعها ، يؤلفها ولا تؤلفه . كالامواج بازاء البحر، وكالمربعات الصغيرة في المربع الكبير. فقد كان قبلها ويبقى بعدها . الاّ ان الامواج لا توجد دون البحر ، ولا المربعات الصغيرة دون السطح الذي هي عليه

الانسان مؤلف من سنتين ـ الفكر والامتداد ـ فلا يفهم في الله غيرهما ـ لان المثل يفهم المثل

ليس الانسان جسداً ، فقط ، ولا ارادة كذلك . لان الاول امتداد ، والثاني فكر . فهو مجموع الاثنين . وقد تكون كلمة «طبيعة» اكثر انطباقاً على الامتداد غير المحدود . فالله والطبيعة ، لفظان يعربان عن الفكر والامتداد ، وهما نعت الكائن . الجوهر شرط ، وكل موجود شرطي. فامتداد الجوهر شرط الهيولى، وفكره شرط الفكر. الاول اساس الدائرة في الطبيعة والثاني اساس تصورها في العقل. الجسم مؤلف من ذرات ، والعقل من تصورات [اردمن]

حنا خباز

باب الزراعة والاقتصاد

نظرات في الحالة الزراعية

للمستر جاردين وزير اميركا المفوض في مصر

المستر وليم جاردين وزير الولايات المتحدة المفوض في المملكة المصرية من اعلام الاميركيين الذين جمعوا الى الاشتغال بالسياسة العلم الغزير والخبرة الطويلة في ميدان الزراعة. وُلد سنة ١٨٧٩ في ولاية ايداهو في منجم للمعدن ذهباً وترعرع بين الخيل والماشية حتى ليستطيع ان يفاخر بأن قول المتنبي

فكأنها نشأت قياماً تحتهم   وكأنهم ولدوا على صهواتها

ينطبق عليه . ولما كان في الحادية والعشرين من العمر انتظم في كلية ولاية يوتا الزراعية وتخرج فيها سنة ١٩٠٤ ثم درّس فيها سنة ثم تولى ادارة شركة زراعية كبيرة فكان في طليعة الذين استعملوا المحاريث البخارية في الزراعة. ثم عاد الى الكلية التي تخرج منها استاذاً للزراعة. ورأت وزارة الزراعة الاميركية ان تستفيد من خبرته فعينته خبيراً في الحبوب في فرعها الخاص بالولايات الغربية فقضى في هذا المنصب اربع سنوات انشأ في خلالها ستة محطات للتجارب الزراعية في الولايات المتحدة الغربية للبحث في الوسائل التي تمكن الفلاحين من زيادة محصولاتهم رغم قلة المطر . فطار صيته واستدعته كلية كنساس الزراعية للانضمام اليها ففعل وبعد سنتين عين مديراً للاعمال الزراعية وعميداً فيها ثم انتخب رئيساً لها . ولما كان في هذا المنصب دعاه المستر كولدج لتقلد منصب وزير الزراعة . والى القراء آراء من آثار تفكيره

***

تجتاز الزراعة في جميع انحاء المعمورة أزمة من أشد الازمات التي عرفها تاريخ العصر الحديث . غير أن هذه الازمة الخطيرة لا تقتصر على المشتغلين بالزراعة وحدهم بل تتناول جميع رجال الاعمال كبارهم وصغارهم ، ولكنّ مصر تختلف عن معظم البلدان بأن تربتها أهم موارد الثروة فيها ، وانها تستمد معظم هذه الثروة من محصول واحد وهو القطن . ولهذا السبب تستطيع مصر اكثر من اي بلد آخر أن ترجع اسباب ازمتها المالية الى مصادرها بشيء من الدقة . فثمن القطن هو «البارومتر» الذي به تقرأ ثروة الشعب المصري صعوداً وهبوطاً . وقد اصاب القطن كما اصاب غيره من الحاصلات الزراعية في كل مكان هبوط في الاثمان غاية في الخطورة لنا في امريكا فيحسن تقدير الاسباب الحقيقية لهذه الضائقة المالية التي حلت بها ، لان

الزراعة هناك ليست العامل الوحيد الذي يتخذ مقياساً للثروة فيها . فهناك صناعات عدة لا تقل قيمة عن الزراعة ، كصناعة الفولاذ والفحم والنحاس والمنسوجات والسيارات وآلات الزراعة التي بلغ الكساد فيها النهاية القصوى . يضاف الى ذلك أن الانتاج الزراعي في امريكا يشمل عدة حاصلات تتساوى جميعها في القيمة تقريباً كالقمح والذرة والماشية وصناعة الالبان والقطن والفاكهة والخضر . وقد لحق بهذه كلها تقريباً خسائر مالية فادحة . فاذا افترضنا رجوع حالة القطن إلى نصابها السابق فان ذلك لا يؤدي الى انتعاش السوق هناك الا بدرجة لا يعتد بها ، بخلاف الحالة في مصر فان ارتفاع اثمان القطن ينعش الحالة المالية في جميع أرجاء البلاد المصرية فالضائقة في مصر أقل تعقداً بكثير منها في ولايات اميركا المتحدة

وفي خلال السنوات الأخيرة ظهرت عوامل كثيرة كان من شأنها ايجاد ازمة زراعية نخص بالذكر من هذه العوامل ما يأتي :

(١) مضاعفة الانتاج الزراعي في خلال الحرب العظمى سداً لحاجات الجيوش من طعام وحاجيات على اختلاف انواعها . فنشأ عن ذلك تراكم الحاصلات بعد أن وضعت الحرب اوزارها وتضخمت المنتجات الزراعية التي تركتها الجيوش وراءها بعد تسريحها . وقد زاد الطين بلة تسابق الزراع في الانتاج رغم التخمة التي اصابت العالم ورغم زوال الاسباب التي أدت الى هذا التضخم

(٢) أن معظم أمم العالم وطدت العزم على تموين نفسها بقدر المستطاع من حاصلاتها الزراعية وموادها الخام

(٣) تغير العادات فيما يختص بالطعام واللباس واستبدال بعض الاطعمة والانسجة التي كانت هي وحدها شائعة الاستعمال ، بغيرها من المواد . مثال ذلك أن مقادير وافرة من الفاكهة والخضر ومستخرجات الالبان والدجاج وغيرها من المواد الغذائية قد حلت محل اللحم والخبز . كذلك في الملابس أخذت البضائع الحريرية تنافس السلع القطنية . وفضلاً عن ذلك فان النساء في كثير من الممالك أخذن يقتصدن في ملابسهن عاماً بعد عام لا فيما يختص ببعض الثياب فحسب بل بالكميات اللازمة لهذا العدد ايضاً ونتج من ذلك نقص المقطوعية ونقص الكميات المستهلكة وهبوط الاثمان

(٤) استخدام الآلات الزراعية التي ساعدت على تخفيض ثمن الانتاج وزراعة ملايين من الفدادين في اراضٍ جديدة كانت قبل ذلك مهملة — بدلاً من الخيول والبغال في بعض البلدان خصوصاً في ولايات امريكا المتحدة ، وقد أدت هذه الحالة ايضاً الى زرع ملايين من الافدنة التي كانت تخصص لتموين تلك الخيول والبغال ودواب العمل الزراعي بحاصلات اخرى كالقطن والقمح وغيرها من الحاصلات التي يستهلكها السكان . ففي ولايات اميركا المتحدة وحدها كان هناك نحو ٨٠ مليون فدان من الاطيان التي كانت تزرع خصيصاً لتموين الدواب الزراعية بالحنطة والعلف

وقد استحالت كلها الآن الى اطيان من نوع آخر تنافس بقية الاراضي في انتاج القطن والقمح وغيرها . يضاف الى هذه العوامل كلها زيادة الانتاج بسبب تحسين الاساليب الزراعية وما أدت اليهِ من التخمة في الاسواق

(٥) وفرة الضرائب التي اضطرَّت الحكومات أن تفرضها على الأهالي تسديداً للديون التي تراكمت على عواتقها من جراء الحرب العظمى وقد سبَّب هذا بالطبع نقصاً فاحشاً في قوة الشراء

(٦) تنقل وسائل التجارة الدولية من أماكنها المعتادة ، وتقلقل الحالة المالية عقب الحرب العظمى وتعرُّض قيمة النقود الورقيـة للصعود والهبوط ، وتغير الحوائل التجارية وما تلا ذلك من عدم الثبات التجاري بعد ظهور روسـيا السوفيتية كعامل في تدهور الحالة المالية وميل الميزان التجاري

لقد أبنتُ الآن بصفة عامة بعض الأسباب التي أدَّت الى مرض هذا الجسم الزراعي . والمسألة العظمى الآن هي القضاء على اسباب الداء ، ووصف الدواء ، ولابد من اختلاف وجهات النظر في العوامل التي أدَّت الى الكساد الزراعي ، غير ان الكل يتفقون على أن جهود العاملين ينبغي أن توجه الى رفع مستوى الحيـاة بين الزارعين او بعبارة اخرى زيادة الدخل بينهم في كل أسرة . وكيف يمكن الوصول الى هذه النتيجة ؟ لديَّ وسيلتان : احداهما زيادة ثمن الحاصلات الزراعية وتخفيض ثمن الانتاج ونفقات البيع والشراء

وفي الواقع أن أكثر الصناعات نجاحاً هي التي خفضت فيها أثمان الانتاج ونفقات البيع والشراء ، ولمَ لا تكون الزراعة على قدم المساواة مع الصناعات ؟ يمكن بلوغ هذه الامنيَّة اذا طبقنا على الزراعة المبادىء التي نطبقها على الصناعات الناجحة مع مراعاة الفروق بين الزراعة والصناعة . وقد كان لهبوط الأثمان في الماضي وفي هذه السنوات النصيب الأول من العناية واهتمام الجمهور بالمناقشات العامة ، ولم يفكر الناس في العناصر الأخرى التي تجعل ثمن كل وحدة من وحدات الانتاج اقل مما هي عليه الآن

وقد فكرت الحكومات والمصالح المستقلة عنها في العهد الأخير أن تحدّد سعر عدد من الحاجيات كالمطاط والبن والقمح والقطن والنحاس ، وقد نجحت هذه الطريقة في بعض الاحيان في فترات قصيرة ولكن كانت نتيجتها الفشل في النهاية ، لأنها اوقعت ارباب الانتاج في مشاكل مالية عسيرة إذ أخلت بالتوازن بين العرض والطلب

وتقليل الانتاج في الزراعة بأنقاص مقدار الأطيان المزروعة لغرض تحسين الثمن يختلف في هذه الحالة عنه في حالة الصناعة ، وذلك لأن صاحب المصنع يستطيع أن يضع هذا العبء — عبء نقص الانتاج — على العامل الذي يترك عاطلاً يتسكع في الطرقات في الوقت الذي يقفل فيهِ المصنع أو يفتح لانتاج مقادير محدودة . أما في الزراعة فان العمال الذين يفصلون من

أعمالهم لغرض نقص الانتاج لا يؤثرون الاّ قليلاً فيه . وهذا هو السبب الذي يجعل الزارع الحكيم يعلم حق العلم أن نقص الانتاج لا يؤدي الى النتيجة المطلوبة لأنه يزيد النفقات بعد توزيعها على كل وحدة من وحدات هذا الانتاج . وفضلاً عن ذلك فان الزارع يخاف أنهُ اذا نقص الانتاج يستمرّ غيره من المزارعين على حالهم ولا ينقصون الانتاج—ما لم يجبرهم القانون على ذلك — وبذلك يبقى هو وحده متحملاً نفقات الانتاج بغير ان ينتفع بزيادة الثمن المنشودة ولذلك لا يجد في مسألة تقليل الانتاج فائدة تذكر

غير أن هناك فرقاً بين نقص مقدار الاطيان المزروعة نقصاً مطلقاً بغير تحديد وبين نقص المزروع من محصول خاص في أطيان خاصة في جهة خاصة والاقتصار على زرع بعض الأطيان بحاصلات ومقادير تختلف باختلاف الحاجة اليها وأثمانها حسبما تقضي به الظروف المحلية أو الاهلية أو العالمية . ومن المهم جداً أن يكون هناك توازن بين الانتاج، والحاجة ، وانخفاض الأثمان لأن ذلك يعود على المنتج والمستهلك كليهما بالنفع ، كما أن كثرة الانتاج تؤدي الى تخمة الأسواق وهبوط الثمن وهذا لا يفيد الاّ المضاربين . وقد فطن الزرّاع الناجحون في أعمالهم إلى الخطأ الناتج عن وضع الأثمان فوق كل الاعتبارات الأخرى واهمال غيرها من العوامل ، وأيقنوا ان نقص الانتاج لازم لتحسين الحالة المالية ، وأخذوا يتلقنون دروساً من رجال الصناعة وذلك باستعمال طرق فنية حديثة وآلات زراعية جديدة حتى ينتفعوا في اراضيهم ومعداتهم وأعمالهم أحسن انتفاع . وفي خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية زاد انتاج فلاحي أمريكا ٢٥ في المائة عما كان عليهِ سابقاً في معظم انواع المحاصيل ، غير أنه مما يؤسف لهُ أن هذه الزيادة لم تعد عليهم إلاّ بفائدة قليلة ، لأن هذا الانتاج مضافاً اليهِ محصول الأراضي الجديدة المزروعة زاد في مقدار العرض وفرّق مسافة الخلف بين العرض والطلب ونقص الثمن حتى بلغ أقل من ثمن الانتاج

ولنأخذ القطن مثالاً لذلك، وهو المحصول الذي توجه مصر وغيرها من الممالك الاجنبية بما فيها من ولايات امريكا المتحدة عنايتها اليه . فمن سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٢٩ بلغت الزيادة في سكان العالم ١٠٠ الف نسمة في حين أن زيادة ما يستهلكه الفرد الواحد من سكان العالم من القطن لم تبلغ الاّ ٩ في المائة أو نصف رطل ، أي أن زيادة الاستهلاك بلغت ٣ ملايين «بالة» بحساب ٥٠٠ رطل للبالة الواحدة أو ١٥ مليون قنطار. وفي هذه الفترة عينها ١٩١٣ـ ١٩٢٩ زاد الانتاج العالمي في القطن من ٢٠ مليون و ٢٢٠ الف بالة بحساب البالة ٥٠٠ رطل الى ٢٥ مليون و ٦١١ الف أو ٧ ملايين بالة في حين ان الزيادة في الاستهلاك هي ٣ ملايين بالة او بعبارة اخرى ان مقدار القطن الزائد عن المقدار المستهلك بلغ ٤ ملايين بالة وليست هناك لغة افصح من لغة الارقام تعبيراً عن الاسباب التي اليها يعزى هبوط أثمان القطن

ورغم وجود عوامل اخرى واعتبارات ذات قيمة فانهُ لا يمكن أن ننسى أن العالم ينتج مقادير من القطن تزيد عن المستهلك زيادة توجب هبوط الأثمان وتفاقم الحالة الاقتصادية . وتعزى زيادة المقدار المستهلك من القطن التي اشرت اليها الى الاشياء الكثيرة التي أستخدم القطن في صناعتها في السنوات الاخيرة ، ولولا هذا الاستعمال لما بلغت أثمان القطن ما بلغتهُ في السنوات الاخيرة ولا يمكن التكهن بالمدى الذي يمكن بلوغه باستعمال القطن في اشياء لم يدخل في صناعتها حتى الآن ، غير ان المجال فسيح للبحث عن هذه الاشياء وبذل جهد المستطاع في ايجادها . واذا استمر الزارعون في زيادة انتاج القطن فلا بد لهم ان يبحثوا عن الوسائل التي يستخدم في استعمالها

ومما هو جدير بالذكر انهُ بينما نجد زيادة الاستهلاك في مقدار القطن لكل فرد من سكان العالم لم تبلغ ٩ في المائة في اثناء الخمس عشرة السنة الماضية ، قد بلغت هذه الزيادة في الصوف ٤١٦ في المائة وفي الحرير ١٢٠ في المائة ، وفي الحرير الصناعي ١٥٠٠ في المائة وهذه جميعها تنافس القطن اشد منافسة ومن السهل اذاً أن نرى قيمة توجيه الانظار الى سياسة مستقبلة عالمية فيما يختص بزراع القطن ويجب ان نعلم ان الزارعين الذين ينتجون اكبر مقدار من اجود الاقطان باقل نفقات هم الزارعون الذين سيكون لهم النصيب الاوفر في الاسواق العالمية ، أيما كانت البلاد التي هم فيها

ومن اهم الوسائل التي يستطيع بها الزارعون أن يزيدوا أرباحهم ويفيدوا المستهلك في الوقت عينه ، هي تجنب طرق التوزيع التي تكلف نفقات باهظة والتي يلجأ اليها في عصرنا الحاضر . وقد تسبَّب عن نمو الصناعة السريع في خلال ربع القرن الماضي تركيز السكان في مراكز صناعية بعيد معظمها عن مراكز الانتاج التي تمون السكان بالطعام ومواد خام اخرى ، وهذا مما يجعل نفقات التوزيع بالغة حداً غير معقول . وقد كانت طريقة التوزيع هذه وافية بالغرض المقصود عند ما كانت الصناعة منتشرة في البلاد ومقسمة الى وحدات صغيرة وعند ما كان الفلاحون يكفون أنفسهم مما ينتجون في مزارعهم . واما اليوم فقد اتسعت المدن الكبرى وتضاعف سكانها ، أصبحت مسألة التوزيع معقدة كثيرة النفقات ولا بد من درسها درساً جيداً حتى نستطيع أن نقوم بسد حاجاتنا على الوجه المرغوب فيه من الوجهة الاقتصادية، وكلما قلبنا انظارنا في انحاء المعمورة في كل بلد من بلدانها نرى من السكان من يعوزهم الطعام واللباس وقد يستطيعون ان يستهلكوا ضعف ما يستهلكونهُ الآن فيما لو بلغت اثمان حاجاتهِ الضرورية ثمناً يكون في المتناول . وفي اعتقادي ان من اهم الفرص السانحة للفلاحين اليوم هي تحسين حالة التوزيع لانهُ بذلك يزداد الطلب وتكثر الارباح . وقد اصبح المزارعون في خلال الخمس عشرة سنة الماضية ذوي كفاية عظيمة ومقدرة واسعة في جميع انواع الانتاج

وقد كانت الجهود موجهة في خلال السنوات الماضية الى تحسين حالة الفلاح من وجهة الانتاج . فجاءت نتيجة هذه الجهود بالثمر الجيد ، وقد حانت الفرصة الآن لتوجيه العناية بكل ما اوتينا من قوة وذكاء الى مسألة توزيع المحصول في الاسواق تلك المسألة التي طال اهمالها . وفي الصناعات الاخرى يهتمون بمسألة البيع كما يهتمون بمسألة الانتاج ونشأ عن ذلك انهم بلغوا نتيجة يحسدون عليها في تخفيض النفقات التي يطلبها ايصال السلع الى مستهلكيها اينما وجدوا، وقد بلغوا هذه النتيجة بواسطة الانتاج بكثرة ، والتوزيع بكثرة مع قلة النفقات ، ويعزى بلوغ هذه النتيجة الى الآلات التي وفرت عليهم العمال ، والى الاعلان المنظم ، وتركيز رؤوس الاموال الضخمة والمسؤولية في يد رجال ذوي نفوذ قادرين على تصريف مصنوعاتهم في اسواق العالم

وعلى هذا المنوال ينبغي للفلاحين ان ينسجوا . ويختلف تنظيم هذا العمل باختلاف المكان وحاجة السكان . غير ان تنظيم الانتاج والبيع من اهم وسائل النجاح لان اسواق العالم تشتري عادة الحاصلات التي يبلغ ثمنها حداً معقولاً

***

وتتعاون حكومة ولايات اميركا المتحدة بواسطة مجلس الزراعة الاتحادي الجديد تعاوناً تاماً مع الهيئات الزراعية وذلك بامدادها بالمال والنصيحة حتى تؤسس شركات تقوم بالتوزيع لاننا اصبحنا نعتقد ان هذه الشركات انسب لنا من اي طريقة اخرى. وقد اصبح لدينا الآن عدد من شركات التعاون الناجحة كشركة زراع الفاكهة في كاليفونيا التي يوزع المنتجون بواسطتها ٨٠ في المائة من حاصلاتهم وبهذه الطريقة توزع في الاسواق بكيفية معتادة تمنع التخمة في الاسواق وهبوط الثمن وتنفع المنتج والمستهلك كليهما فاذا احصينا ملايين الوحدات الزراعية الصغيرة التي تنتج وتوزع محصولاتها ، مستقلة عن الاخرى ؛ وجدنا ان الواحدة تستفيد ماليًا لو اتحدت لبيع حاصلاتها بعد حزمها جيداً وتسجيل علاماتها والاعلان عنها ، وقد يكون نوع التنظيم في هذه الحالة مختلفاً باختلاف الجهات كما اسلفت . غير ان الفكرة الاساسية تنحصر في وضع هذا النظام في ايدي رجال مدربين محنكين حتى تأتي مجهوداتهم بالغرض المقصود

ان الحالة الاقتصادية كما هي الآن تتطلب استثمار اكبر العقول وأظهر الزعماء لانعاشها . ويعتقد الكثيرون اليوم ان الانعاش لا يتم الا بملاحظة العوامل الدولية لانهُ مهما عظم مقدار المحصول الذي تنتجه امة من الامم فان اثمان محصولها تتأثر كما تتأثر اثمان السوق العالمية ، والحالة الاقتصادية العالمية تتأثر بما تنتجه الامم الاخرى ، والتعاون من جانب ارباب الانتاج في كل مملكة قد يعمل على تحسين الحالة في تلك المملكة غير ان المسألة تدعو الى همة اكبر ونشاط اعظم من جانب قادة الاعمال وزعمائها في جميع انحاء العالم

باب شؤون المرأة وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الوقاية

آراء وأحاديث صحية للدكتور شخاشيري

حديث المائدة

قبل أن أحدثك عن انواع المآكل التي نعيش عليها وقيمة ما فيها من غذاء ومتوسط ما يتطلبه الجسم منها اريد أن أوجّه نظرك الى شأن النظام في الأكل فان أثره في الصحة أقوى من تأثير الطعام ذاته فيها وهو للجسم كالأساس للبناء سواء بسواء فكما نرى اهتمام المهندس بالأساس ان يكون قويًا في مواده محكماً في وضعهِ قبل شروعهِ في البناء لكي يطمأن الى مصيره من العلو والاتساع كذلك يجب ان يكون اهتمامك بضبط مواعيد الاكل والحرص عليها وعدم التفريط بها لا يقل عن اهتمام المهندس بالأساس لانهُ يضارعهُ في الشأن والخطورة . وما طهي الطعام والتفنن في اعداده وبذل العناية في اختيار الوانهِ الا بمثابة اجراآت لتحضير بقية المواد التي نستعين بها لاقامة البناء فاذا كان الاهتمام بها عظيماً دون الاهتمام بالأساس جاء البناء فاسداً من أساسهِ متداعياً للسقوط عندما تعصف بجوانبهِ العواصف والأعاصير او بعبارة أوضح اذا كان اهتمامك بالنظام ومواعيد الأكل دون اهتمامك بطهي الطعام والتفنن في تحضيره جاء بناء الصحة ضعيفاً في أساسهِ لا يصمد لغارات الجراثيم المرضية بل يكون مرتعاً خصيباً لها تنمو فيهِ وتتكاثر من غير كبير عناء . وأنت من هذا ترى ان الاهتمام بالنظام او الأساس اولى بمن يبغي صحة نضيرة وحياة نشيطة وبدونهِ لا يستمتع بطيبات المآكل لحظة الاّ يشعر بنقيضها لحظات وكم من اكلة طاب مذاقها كانت منشأ العلل ومبعث الاسقام لا لسبب سوى ان آكلها لم يراع نظاماً في التهامها فاما ان يكون قد ازدردها من غير أن يجيد مضغها أو أن يكون قد أدخلها على طعام لا تزال المعدة قائمة بهضمهِ او أنهُ تناول منها مقداراً كبيراً لا يجيزه

نطاق المعدة بحال . وهذه عوامل كلها او بعضها فيها اساءة كبيرة وسوء تصرف غير محمود العاقبة وأهم هذه العوامل ادخال طعام على طعام أو الأكل بلا نظام . ولكي تقدر خطورة هذا الاسراف في الأكل بمواعيد مضطربة وما ينشأ عنهُ من اضرار ظاهرة نحس بها في الحال «كالألم والمغص والقيء والاسهال وأحياناً ارتفاع بالحرارة» واضرار خفية لا نحس بها الا بعد زمن طويل أو قصير «كالالتهابات المعوية والكلوية واحتقان الكبد وتصلب الشرايين وغير ذلك»

اعرض امامك حالة عامل يشتغل بالأمانة ويحرص على انجاز عمله في حدود طاقتهِ من غير تقديم ولا تأخير وانهُ كلف عملاً فوق طاقتهِ او قبل ان ينجز العمل القائم بهِ احتج وحاول الهروب منهُ ولكن بصمت ومع هذا الاحتجاج والمحاولة لا يكف عن العمل ولا يتوقف ثانية عن الدأب في انجاز ما بين يديهِ . والعمل الدائم هو في ذاتهِ من اظهر الدلائل على حيويتهِ . والشاهد على اضطراب هذا العامل الامين الذي هو المعدة ما يبدو عليك من الانزعاج عند ما تأكل بنهم طعاماً غنيًّا بمواده الغذائية بما يزيد على مطالب الجسم عشرة اضعاف او اكثر. وكثرة الأغذية كما تعلم تولد في الجسم فضلات تنقلب الى سموم اذا لم يتخلص منها في مدى قصير وتحدث في الغالب اضطرابات معوية لا تزول الا بالصوم والامتناع عن الاكل بضعة ايام فضلاً عن الأدوية والمسهلات. واكبر عامل على اثارة هذه العلل والاضطرابات هو الفوضى في مواعيد الأكل فلو كنت على معيشة منظمة وبصيرة متقفة في اختيار ما يصلح من المآكل وما لا يصلح ومقدار ما يتطلبهُ الجسم من الغذاء لكنت في منجاة من هذه الطوارىء المفتعلة والعثرات المغتصبة التي تفاجئك في طريق الحياة أو لو كنت متبدياً في معيشتك تأكل لوناً واحداً من الطعام ولا تأكل في اليوم اكثر من وجبة واحدة كما يفعل سكان البادية لقطعت على كثير من النزلات المعوية سبيل الوصول اليك ولا يكون الفضل في ذلك الى التقشف في الغذاء وحده وانما يعود الفضل فيهِ الى النظام الذي تتبعهُ في معيشتك . وأثر هذا النظام لا يقف عند تحسين الصحة وتنمية الجسم وصيانتهِ من عوادي الامراض فحسب بل يتجاوز هذه الحدود الطبيعية وتظهر بوادره في تفكيرك واحاديثك واعمالك . وان ما تصيبهُ من نجاح في ايام المدرسة وتحصيل في العلوم او كل ما يبدو منك بعد تلك الايام كبيراً كان او صغيراً سواء في البيت مع اهلك او خارج البيت مع معارفك وذويك يرجع الى هذا النظام الذي ادعوك الى المعيشة في ظله والاستمتاع بفوائده

التغذية الحديثة

يختلف الطعام الذي يصفه الطبيب المعالج اليوم للمرضى بالتهابات كلوية عن الطعام الذي كان يصفه في الماضي لتلك الحالات والذي لا يزال معظم الاطباء يعتقدون ملاءمتهُ لها الى الآن . والسبب في هذا التناقض هو ان الطبيب في الماضي كان يقصد بالمعالجة ان يداوي العضو المتأثر

بالمرض مباشرة اما اليوم فانهُ اصبح يداوي المريض نفسه لا عضواً من اعضاء جسمه والاَّ ما كان يقف في الامس من تلك الالتهابات الكلوية فيمنع المصابين بها ان يتغذوا بالمواد البروتينية التي من اهم خصائصها ان تجدد ما يموت من الخلايا والاغشية في الجسم واصلاح ما يقع في اعضائه من اضطراب وتلف . وهذه النظرية لاتخول له ان يمنع اولئك المصابين بأمراض الكلى من اكل اللحوم بل توجب عليه ان يشجعهم على الاكثار منها لعظيم فوائدها ولان العلم اثبت ضرورتها للجسم وهو في حالة المرض اكثر من لزومها وهو سليم . وهذا التباين في ميزات المواد البروتينية وتأثيرها في الجسم يرجع الى ما اثبتته الابحاث العلمية الحديثة من ان عملها الخاص هو لبناء ما يندثر في الجسم من خلايا واغشية وانه كما يعول عليها في حالة الصحة واطراد النمو يجب ان يعول عليها ايضاً في حالة المرض سواء بسواء . واقرب شاهد على صحة هذا القول تجده في احوال الالتهابات الكلوية الحادة منها او المزمنة ولا سيما التي تكون نشأت عن الحمى القرمزية او التهاب اللوزتين فان من شأنها اتلاف المواد البروتينية في الجسم وهدم ما هو قائم منها لحفظ كيانه وترى آثار التلف والتدمير ظاهرة في بول المريض وتزداد شدة في الظهور الى ان تدبَّ عوامل الهدم في بروتين الدم وعندئذ تختل ميزانية الماء في الجسم وتبدو عليه اعراض الربالة وظهور الورم في اطراف الجسم والوجه من اكبر علامات مرض الكلى وله علاقة وثيقة بمقدار البروتين في الدم . وموازنة الماء بين انسجة الجسم وبين الاوعية الشعرية تتوقف على عاملين فالاول الضغط على مصل البروتين او الزلال والثاني الضغط على السوائل في الاوعية الشعرية وفي حال انخفاض الاول بسبب ارتشاح البروتين من الخلية يضطرب السائل ويندفع من الشعريات الى الاغشية ويتجمع في غضونها ويظهر الورم او الربالة كما تقدم ذكره في الجسم وليس هذا الاضطراب في الضغط الباعث الوحيد على اظهار الورم في الاغشية وانما ارتشاح او نقص البروتين من الخلية هو السبب الاكبر في احداث ذلك البلاء . وقد ثبت للاستاذ سليك ان المريض بالالتهاب السكري الحاد يقاوم المرض ويبرأ منه بسهولة اذا احتفظ جسمه بالمواد البروتينية والزلالية وحتى المصاب بالنوع النزفي فان شفاءهُ منه يتوقف على صيانة بروتين الجسم من الانتقاص والمريض الذي يفقد جسمه هذه المواد ويتعذر عليه استرجاعها يصبح المرض فيه مزمناً واذ ذاك يعلق امل شفائه بحبال الهواء ومما تقدم من الدلائل ان الشفاء من انواع الالتهابات الكلوية الحادة النزفية وغيرها يتوقف على الاحتفاظ ببروتينات الجسم وزلالياته وعدم التفريط بها وهذا لا يكون الا باضافة هذه المواد الى طعام المرضى بالمقادير المقررة للجسم السليم وبرهنت التجارب على ان تمثيل هذه المواد وانحلالها في الجسم لا يؤثر في الكلى لا في قليل ولا كثير وانها في حالة المرض كما في حالة الصحة لا تحيد عن مزيتها في بناء ما اندثر من الخلايا وتعويض الجسم ما احدثه المرض فيه من تدمير واذا جاز للرجل السليم

ان يمتنع عن ادخالها الى طعامه بضعة ايام فلا يجوز منع المريض من تناولها يوماً واحداً. وذكر الاستاذ سليك وغيره حالات عديدة تأصل الداء فيها وقطع الامل من شفائها ولكن لما اضيف البروتين ابتدأت علامات التحسن تظهر عليها وظل تقدمها الى الشفاء في اطراد الى ان تعادل البروتين في الدم وازدادت مقدرتهُ على انسياب الحمض الكربونيك وتوازن المنصرف من اليوريا وتحرر البول من الدم والخلايا والاسطوانات وحاجة اولئك المصابين بالالتهابات الكلوية من البروتين تتراوح بين ٤٠ و٥٠ غراماً في اليوم. وثبت انهُ لاخوف قط من استعمال ثلاثة اضعاف هذا المقدار والى جانب هذه المقادير من البروتين يجب ان تتوافر مواد الغذاء الاخرى كالدهن والنشويات الضرورية لتوليد حرارة الجسم وبعث النشاط فيهِ والاَّ اضطر الى الاستعانة بالمواد البروتينية وهي كما علمت ميزتها للبناء وتجديد ما مات من الخلايا وليست لتوليد الحرارة فضلاً عن ذلك ان الجسم بحاجة الى الانتفاع من ميزتها تلك الى اقصى حدّ لا الى الحرارة التي تتولد من احتراقها فيهِ والتي لا يستطيع من دونها ان ينهض باعباء المرض ويجب ان يعادل ما يحصل عليهِ من النشويات ٥٠ في المئة من مجموع الحرارة التي تتولد من غيرها من مواد الغذاء . والمواد البروتينية التي تدخل في طعام المريض هي اللحم والبيض واللبن بمقادير نصف رطل من اللحم وبيضتان ورطلان لبن في اليوم . والى ساعة كتابة هذه الكلمات لم اتمكن من اقناع مريض بالالتهاب الكلوي ان يتغذى بمثل هذا الطعام وسوف يمضي زمن ليس بقصير قبل ان تشاع هذه الطريقة الجديدة في التغذية ويعم استعمالها كاداة لتقوية الاجسام المنهوكة. وانواع الطعام على اختلافها مفيدة في نوعي الالتهابات الكلوية الحادة والمزمنة. وهناك نوع ثالث لا يصرح للمريض بهِ وهو ان لا يتغذى بالمواد البروتينية الاَّ بمقدار ما يتلف منها فيهِ وهو يختلف عن النوعين السابقين في ان تأثيره واقع على الاوعية لا على انسجة الكلى . واعراضه — الاَّ في الحالات الخبيثة — تتوقف شدتها على ضعف الدورة الدموية لا على اضطراب في بناء الكلى . ومقدار بروتين الدم فيهِ لا يقل عن المعتاد لذلك لا حاجة ماسة الى احتواء طعام المصابين بهِ على مقادير من البروتين كما هي الحال في الالتهاب النزفي الحاد والالتهاب المزمن المتلاف. ولكن هذا لا يعني ان تمنع إدخال البروتين الى طعامهم الاَّ عند ما يضطرب نظام اليوريا في الجسم وما عدا ذلك فلا يجب المنع . والخلاصة ان هذا الانقلاب العظيم في تغذية حالات الالتهاب الكلوي الحاد النزفي والمزمن احدث رجة عنيفة ليس في المرضى فقط بل في الاطباء الذين لا يتتبعون سير العلوم ولا العلماء في ابحاثهم المتواصلة اما لكثرة اشغالهم واما لتفهمهم بان علمهم بلغ الحد الاعلى من الكمال . ولكن لا كمال في العلم وان العالم الكبير يشعر دائماً بتوقهِ الى الاستزادة من المعارف والاطلاع على الآراء الحديثة في مختلف العلوم والفنون

٢—مقام الطبيب من صحة الجمهور

نظام التأمين واثر الطبيب فيه

لم يكن التأمين في اول نشأته منظم الادارة كما تراه الآن ولا كان للطبيب الاثر البارز في اعماله كما لهُ اليوم وعلاقتهُ بهِ لم تكن تخلو من عراقيل وصعوبات ذهبت بكثير منها الاصطلاحات التي ادخلت على نظامهِ في خلال السنين التي مرت على تأسيسهِ . وليس من الانصاف ان نوازن بين ما كانت عليهِ تلك الرابطة من عشر سنوات وما وصلت اليهِ في الوقت الحاضر او تكون عليهِ في المستقبل . كما لا يمكن ان نقارن نظام التأمين ذاتهُ اليوم بالنظام السابق لكثرة ما كان فيهِ من عيوب . ولا ريب ان النظام الحاضر سيتطور الى احسن ولاسيما عند ما يشمل آل المؤمَّن عليهم وذويهم وقد ظهرت بوادر هذا التحسين في قرار الجمعية الطبية البريطانية سنة ١٩٣٠ التي وافقت على التوسع في نطاق العناية الطبية وشمول ذوي المؤمَّن عليهم بشرط ان يضمن حقوق الاطباء مع عدم ارهاقهم . واذا علمت ان هذا القرار يشمل ٨٠ ٪ من الشعب البريطاني أكبرت هذه الجهود العظيمة وعجبت من هذا التفاني في الدفاع عن صحة الجمهور . ومع ان الاطباء في بعض المدن الاوربية غير مرتاحين الى نتيجة ما وصل اليهِ هذا النظام فان ابطالهُ يؤدي الى اسوأ عاقبة عليهم من بقائهِ والعمل بمقتضيات مبادئهِ . وطريقة تنفيذه تختلف باختلاف الشعوب والممالك ففي بريطانيا يشترط للالتحاق بهِ موافقة وزارة الصحة على قبول طالب الانضمام اليهِ واما في سواها فالمفاوضة تكون مع جمعيات التأمين نفسها او لجانها المؤلفة من الاطباء وغير الاطباء من اعضاء مجالس ادارتها مباشرة . وفي المانيا يدفع للطبيب اجر كل عيادة او اصابة او عن كل مؤمَّن او لمدة معينة وما عدا ذلك يكون الطبيب حرًّا في عمله الخاص. اما في بريطانيا فينال الطبيب مكافأة عن كل مؤمَّن ولكل طبيب مصرح لهُ بممارسة صناعتهِ ان يلتحق بهذا النظام اذا شاء . وفي بلجيكا يدفع للطبيب اجر عن كل استشارة فنية او عن كل وقت يصرفهُ في العيادات العمومية كما هو متبع في بولندا وتشكوسلوفاكيا والمجر ولا يزال الخلاف قائماً بين الاطباء وجمعيات التأمين على الطريقة المتبعة في اختيار الطبيب وقبول معاونتهِ فهم يريدون ان لا يكون للحكومة اي تدخل في ذلك على نحو ما هو جار في بريطانيا وسويسرا وبلجيكا ودانمرك والمانيا والنمسا . ولعل ارتياح اطباء الدانمرك الى هذا النظام يفوق ارتياح زملائهم في سائر البلاد فاولئك لا يشكون الا من عدم قبول انضمام بعض الطبقات الى صفوف المؤمنين لكي يزداد ايرادهم ويضاعف اجرهم على العناية بهم ولذلك تراهم يعشون على ضرورة قبول جميع الطبقات والانضمام الى احدى جمعيات التأمين ونشاهد بعض الاطباء في هولندا يقومون بادارة الجمعيات . وقد لاقى نظام التأمين في فرنسا معارضة عنيفة من

الاطباء في اول عهده . ولكن بعد ادخال تعديل في كثير من مواده ضعف صوت المعارضة. ولا يتسع المقام لاظهار ما بين الطبيب وجمعيات التأمين من روابط وما طرأ عليها من مشاكل وما يعزى الى نظام التأمين من مساوىء . ومن اراد الالمام بهذا الموضوع فعليهِ ان يطالع كتاب « الطب » تأليف السر ارثر نيوزهلم وهو كتاب جليل الفائدة غزير المادة دقيق في ابحاثهِ وتعليل وجوه الموضوع تعليلاً نزيهاً او يطلع على تقارير مجلس العمل الدولي فيجدها تحتوي على حقائق جديرة بالمطالعة والاهتمام . ومع هذا فلا مناص من ذكر بعض فوائد هذا النظام الذي هيأ لطبقات من الناس التداوي من الامراض ودفع اجور الاطباء والتي لولاه لما كانت تقدر على ذلك ولا على جزء منه . فضلاً عن هذا انهُ اوجد لعدد كبير من الاطباء الاعمال التي كافأتهم عليها وساعدتهم كثيراً على الظهور بمواهبهم وما تكنهُ صدورهم من الرحمة والبر بالفقراء وجعل لهم ايراداً ثابتاً ومستقبلاً باسماً في اشد الايام عبوساً . وحسبهُ انهُ قضى على الدجالين وأبطل فساد دعاويهم . وتتجلى هذه الفوائد عند ما تعلم انهُ لولاه ما كان لجماعات عديدة ان تقوم بنفقات العناية الطبية كما يجب ولا ان تتداوى كما تفعل الآن . واكبر دليل على فائدة وجوده انتشار مبادئهِ ورسوخ اصولهِ وكثرة الاقبال على تأييده والانضمام اليهِ . وفي الامكان تلخيص سير تقدمهِ وكيف كان في اول نشأتهِ جمعية صغيرة الحول مكونة من اعضاء قليل عددهم وانهُ ما كان ينتشر خبر تأليفها والغرض الذي ترمي اليهِ الا واقبل على مناصرتها الافراد والجماعات والحكومات واخذت عوامل النمو تظهر في الفروع والاصول حتى بلغت بعد تطور طويل ما بلغتهُ الآن . والغريب ان بعض الاطباء يعترض على الاجر او المكافأة الضئيلة التي يكافأون بها مقابل اتعابهم ومجهوداتهم والبعض يعترض على بعض القيود في توزيع الادوية على ذوي المؤمّنين . ولكن الحال في ارلندا على النقيض مما تقدم لان اكثر من نصف الشعب يحق لهُ ان يحصل على الادوية التي يدفع ثمنها صندوق الاموال العامة والمؤمنون نفسهم لا يحصلون على هذه الادوية بصفتهم مؤمنين وانما بصفتهم العامة اي افراد الامة والامة تدفع عنهم النفقات من تطبيب وادوية من المال المجتمع للصرف في سبيل الدفاع عن الصحة العامة

التأمين على صحة العامل

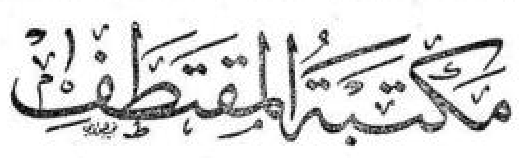
ودليل آخر على ان الشعب الاوربي يقدر خطورة العناية الطبية قدرها في تحسين الصحة العامة هو عنايتهُ بالحامل وفي دور الولادة وبعد ذلك الدور كايجاد مولدات واطباء مولدين يعتنون بكل حامل عناية تامة على احدث الطرق وافضلها . والنفقات تجمع من الشعب عامة وممن يستطيع الدفع من السيدات الحوامل بحسب نظام التأمين . وهكذا ترى ان هذه الطريقة آخذة

في التعميم وقوامها القابلات التي تعتني الحكومة بتعليمهن ومساعدتهن على المعيشة خلال اثناء الدراسة وبعدها . وقد اصبحن او كدن يحتكرن عملية التوليد في انكلترا وهولندا . فقد بلغ معدل ما يولد على ايديهن ٦٠ في المئة . وفي الدانمرك تعين الحكومة لكل مقاطعة عدداً منهن يكفي لاجابة كل نداء . وفي اسوج يزيد عدد القابلات على الاطباء ويعملن باجر غير كبير ويجرين معظم عمليات التوليد وفي نروج اجرين سنة ١٩٢٧ نحو ٩٠ في المئة من ٥٠٠٠٠ الف ولادة وغير مصرح لهن استعمال الجفوتة والملاقط في التوليد . والاطباء على اتم استعداد لمعاونتهن عند ما تدعو الحاجة اليهم . ومعدل الوفيات من حمى النفاس هبط الى ٣ في الالف . وفي بروسيا يقمن بتسعين ولادة من كل مئة ولا ريب ان نتيجة المعالجة الطبية في اوربا تتأثر كثيراً بهذه المعاونة التي نوه بقيمتها السر ارثر نيومن حيث قال ان عناية المولدات بالمواليد وتعويلهن على معونة الطبيب عند الحاجة يضمن للاطفال العناية التامة بهم في وقت الولادة

الدعاية ضد السرطان

ورد في تقرير مصلحة الصحة العمومية في فينا عن الزيادة المروعة في عدد وفيات داء السرطان في السنين الاخيرة ومما جاء فيه ان وفيات ذلك المرض في سنة ١٩٢٠ بلغت ٢٤٠٠ وفي سنة ١٩٢٩ وصل العدد الى ٣٧٠٠ واما في سنة ١٩٣١ فصعد الى ٤٩٠٠ وانت ترى ان عدد اصاباته تضاعف في مدى عشر سنوات . وقد لا يعدو السبب في ذلك زيادة انتشار الداء كما يتخيل البعض وانما يعود في الارجح الى اتقان التشخيص . وأهم الاجراءات التي اتخذتها بلدية فينا لمكافحة السرطان هي شراؤها خمسة غرامات راديوم وانشاء مصحة لمداواة المرضى فيها

وفضلاً عن هذه المعالجة الحديثة انشأت في المصحة قسماً للجراحة على احدث الطرق وانشأت في المدينة عيادات للكشف على المرضى مجاناً . وحثت المرضى على الشخوص الى تلك العيادات عند ما يشعرون بألم خفيف أو تغير بسيط وطلبت من الاطباء أن لا يتوانوا عن اظهار ما يخامرهم من شك في أسباب المرض وان لا يكتموا حقيقة ما يشكون منهُ وقد دلت التجارب على أن داء السرطان اذا صار تشخيصه في بدائته سهل على الطبيب مداواته والتغلب عليه كما يسهل عليهِ مداواة داء الدرن . وغير الدرن من الامراض العضالة التي تستعصي على الطبيب وعلى الدواء ولا سيما اذا توغلت اصولها في الجسم وانتشرت سمومها في مختلف اعضائه اما في بداءة نشأتها فيهون خطرها ويسهل امرها والتنكيل بها من غير كبير عناء



نظر في معجم الحيوان

بحث علمي طريف للعلامة الاب انستاس الكرملي

حضرة رئيس تحرير المقتطف حفظهُ الله

لما نشرتم معجم الحيوان في المقتطف في سنة ١٩٠٨ وما يليها جاءني من الاب انستاس رسالة عنوانها «نظر في معجم الحيوان» نشرت تباعاً في المجلد ٣٩ من المقتطف اي في سنة ١٩١١ والآن قد بعث اليَّ برسالة جديدة وأظهر رغبته في نشرها في المقتطف فأرجو اذا وافقتم ان تسمحوا بنشرها ولكم الفضل . هذا وقد علقت عليها بما تراءى لي وجعلت ما علقت به بين حاصرتين امين معلوف

سيدي الصديق العزيز

تصفحت معجمك في هذه الساعة فرأيتك تذكرني مراراً عديدة وفي الفاظ كنت تستطيع ان تجعلها باسمك اذ لا مسيطر عليك ولا محاسب . لكن ذاتك الطيبة ابت ان تنسب اليها ما ليس لها . فهذه خلة تجعلك في اعز موطن من مكارم الاخلاق واباء النفس ،

فاهنئك بذلك وهو اعلى مقاماً من العلم الذي بلغته باحياء الليالي فجاء كتابك من انفس ما كتب في هذا الموضوع

وأراك نسيت ان تنسب خنزير الارض الى اول من عرَّبها وهو صاحب دائرة المعارف (٧ : ٤٨٢) وسماه ايضاً « أردفرك » (٣ : ٣٣) والاحسن ان تجري في هذا على خلقك الكريم المعهود فيك

وذكرت في ص ٣ العقصي ولم تتمكن من معرفة صحتها والصواب العَفصي بالفاء لأن لونه لون العفص وكل لغة سواه خطأ صريح . وقد ذكره دوزي في ١ : ٣ قال : الباشق واليؤيؤ والعفصي » . قلت وهو غير « ابن آصى » الذي صار الى « اليوَصَّى » (راجع اصي في التاج وغيره) . فالعفصي ورد العقصي في حياة الحيوان المطبوع في مصر . وذكره جايا كار صديقك العزيز بصورة العَقصى وزان اقصَى

> **المراسلة والمناظرة**
>
> جاءنا من الاستاذ مصطفى صادق الرافعي رد على نقد الاستاذ العقاد الذي نشر في مقتطف دسمبر ١٩٣٢ ، ومن الدكتور ابرهيم صليبي رد وتعليق على نقد الاستاذ نقولا الحداد لكتابه في مقتطف دسمبر ١٩٣٢ . ومن الاديب كمال ابرهيم المدرس ببغداد نقداً على مقال الرافعي في شوقي (مقتطف نوفمبر ١٩٣٢) فأخرنا نشرها لضيق النطاق في هذا الجزء . فنرجو المعذرة

والذي عندي في حياة الحيوان المخطوط خطاً بديعاً وقديماً في الحاشية : والعقصيُّ بعين مهملة مفتوحة وقاف ساكنة يليها صاد مهملة مكسورة وفي الآخر ياء مشددة نسبة الى العفص للونه . والعفصي ذكره فريتغ ومحيط المحيط والبستان والفضل لفريتغ . وورد خطأ في صبح الاعشى بصورة العقيمي (٢ : ٥٧) وهو باز قضيف قليل الصيد ذاهل النفس . ثم قال في الحاشية (في حياة الحيوان العفصي ولم نجدها في القاموس) . قلت وهو المسمى Merlin بالانكليزية وبلسان العلم Falco aesalon انتهى كلام الاب انستاس

(اقول لاشبهة فهي صحة هذه اللفظة اي العفصي بالفاء لابالقاف كما حققها الأب انستاس وانما ليس هو المسمى Merlin بالانكليزية فهذا على ما حققه سافيني (وصف مصر مجلد ٢٣ ص ٢٧٩ و ٢٨٠) هو اليؤيؤ بالعربية على ما ورد في الدميري والجراديّة عند عامة اهل القاهرة وصقر الجراد في المنزلة والمطرية وفارسكور . وهو من الصقور كما جاء في الدميري وصبح الاعشى لا من البزاة . اما العفصي فمن البزاة وهو باز قضيف ذاهل النفس (صبح الاعشى) اشد الجوارح ذعراً وربما هرب من العصفور (الدميري) بخلاف الطائر الذي ذكره الاب المحترم فهذا مشهور بشجاعته كما جاء في كتب العرب والافرنج . والمسألة تحتاج الى شرح طويل للتفريق بين البزاة والصقور عند العرب والافرنج ولون عيونها ولا يخفى ان سافيني من العلماء الثقات جاء الى مصر ووصف هذه الطيور وذكر اسماءها كما جاءت في ارسطو وابن سينا والدميري وغيرهم ولا شبهة ان الذي سماه سافيني يؤيؤاً كما تقدم هو الطائر الذي سماه Falco aesalon وهذا لا يمكن ان يكون العفصي)

الى ان قال الاب انستاس وابن آوى[١] هو في الارمية « وصا وواصا » وكثيراً ماتجيء الواو الارمية همزة عربية . ومن الغريب ان هذه الكلمة واردة في الاشورية للدلالة على حيوان وعلى المعنى العربي اي المتظاهر او المتراكب الشحم وقد ذكر الكلمة صَوْبَين في معجمه ص ٢٨ وقال « آصو » اسم حيوان لعله الفارة والمتظاهر الشحم » . قلت وهذا المعنى يتعلق بابن آوى فانهُ متراكب الشحم

ولابن آوى اسم آخر اشهر من هذا هو اليَوْصَى او اليَوْصَي . ولعل الاصل هو الارمي « واصا » فتلاعبت به السن الناطقين بالضاد كما يقع مثل ذلك كثيراً في الالفاظ العامية والاصطلاحية . على اني اظن ان الكلمة منسوبة الى وَصَّ يَوُصّ بمعنى وَصْوَصَ يُوصْوِصُ وكلا الفعلين عراقي كما تعرف بمعنى صَوَّتَ صوتاً خفيفاً يقال ذلك للطيور ولاسيما للصوائد منها

(١) وجاءت روايات انطه مختلفة وأصوبها ابن آوى لانه لوكان ابن آوي لقيل ابن آو ليساوي وزن رام وداع . وبقية اللغات لا وجه لما نيها في العربية الا ابن آوى فانه مشتق من اوى يأوي اوى اي ركب شحمه بعضه بعضاً وتظاهر . ويجوز ان يقال ابن آوى وزان هاجر وخاتم وهو بمعنى المكسور الصاد . فيكون كمعنى أوى

فانها اذا قبضت على فريستها اسمعت صوتاً خفيفاً . والنسبة الى الفعل معروفة في لغتنا كما قالوا الكُنتيّ نسبة الى كُنتُ واليلمعي نسبة الى يلمع والبرفئي نسبة الى يرفأ الى غيرها . اما انهُ قيل فيه ايضاً اليَوصَى بالقصر فهذا حادث من عدم تنقيط الياء في الآخر فقد افسد هذا العمل الفاظاً لا تُعدّ ولو كان الجميع اعجموها دائماً لما وقع مثل هذا الوهم الذي زاد اللغة الفاظاً على غير طائل

واما ان ابن آصَى هو اليَوصَيّ فظاهر من قول صاحب التاج في مادة أص ي: « وابن آصَى طائر شبه الباشق الاّ انه اطول جناحاً وهو الحداء [1] يسميه اهل العراق ابن آصَى كما في التهذيب » اه كذا والصواب « اليَوصَي » كما في التهذيب والدليل انهُ قال في مادة وص ي: ويَوصَّى [2] بفتحات مع تشديد الصاد وقيل بكسر الصاد المشدَّدة [3] وقيل هو بالتاء الفوقية [4] طائر قيل هو الباشق وقيل هو الحرّ عراقية ليست من ابنية العرب ... » . وقال في يوص: اليَوصَيّ [5] اهمله الجوهري وصاحب اللسان وهو بفتح الياء والواو وكسر الصاد وبالياء المشددتين ووزنهُ الليث بفَعَلّيّ وقال هو طائر بالعراق شبه الباشق الاّ انهُ اطول جناحاً من الباشق واخبث صيداً او هو الحرّ ونص الليث وهو الحرّ . وقال ابو حاتم في كتاب الطير : قال الطائفي او غيره : الحرّ من الصقور شبه البازي يضرب الى الخضرة اصفر الرجلين والمنقار صائد . وقال آخرون: بل الحرّ الصقر كذا في العباب...» اه واليَوصَيّ هو المسمى عند العلماء Falco babylonicus على ما حققتهُ . فليحفظ ومن الغريب انك لم تتعرض لذكر هذا الطائر في ما ذكرتهُ من الالفاظ العربية ولا من الالفاظ العلمية ولا جرم ان ذلك نسيان منك او سهو. انتهى كلام الاب انستاس

(اقول ان اغفال اليَوصَّى في ما نشرتهُ هذه المرة كان سهواً مني وقد حققتُ هذا الطائر في سنة ١٩٠٩ وقلت في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٥ ما نصه اليوصّى Falco babylonicus طائر من الجوارح في حجم الحرّ وشبيه به . قال ابن سيده « اليوصّى طائر كالباشق الاّ انه اطول جناحاً واخبث صيداً » وقال الدميري « اليوصى طائر بالعراق اطول جناحاً من الباشق واخبث صيداً وهو الحرّ » . فعدم ذكري له في ما نشرته هذه المرة كان سهواً مني وحقه ان يضاف في الصفحة ١٠٤ من معجم الحيوان والسطر الثاني قبل شاهين العراق)

وفي ص ٤ ذكرت الصُّعتر بمعنى الحبباري وانا لم اجد هذه الكلمة الاولى في ما لدي

---

(١) كذا . وهذا غلط ظاهر لان الحدأة لا تتعرض لصيد كبار الطير بل لصغارها وربما لم تتعرض لها بل للجرذان والفئران والى اشباهها والصواب هنا ان يقال وهو الحر (٢) كذا بلا اداة التعريف وكذا في المخصص (٣) اي يوصي وهذا غير صحيح لانه لو كان كذلك لقيل يوص اللهم الا ان يكون ممنوعاً من الصرف بالعلمية والاعجمية وهو غير صحيح! (٤) اي توصي او توصى وهو غير وارد في دواوين الاثبات (٥) كذا بالتعريف بخلاف ما قال في وصي

من الكتب . وذكرت لك سابقاً في ما يتعلق بالحفش والزجر. وقد وجدت عندي في مقيداتي استور بهذا المعنى ايضاً اي Sturgeon . ولا جرم انهُ معرب الافرنجية المذكورة ، وقرأت اللفظة في احد الكتب العربية ونسيت ذكر محل ورودها . انتهى كلام الاب انستاس

(اقول ان الصُّعْتُر خطأ مطبعي وصوابهُ الصُّعْقُر بالقاف لا بالتاء. اما الحفش فكتب اليَّ انهُ سمك غير هذا اسمهُ بالانكليزية Wrasse واما الزجر فذكر لي الاب العلامة ان اللفظة سريانية الاصل)

الى ان قال الاب العلامة : والآن آتي لاهنئك اعظم تهنئة لوقوفك اتم الوقوف على معنى القُنْفع بمعنى الفأر الشائك فاني كنت عالجت معرفة هذه الكلمة وصرفت ساعات بل اياماً لتحقيق معناها وفي الآخر توفقت لهُ وذلك ان القُنْفُع تنظر الى اليونانية Knapho او Gnaphos ومعناها العكوب او شوك الجمال ومُشط النداف او النجاد . فاذا حذفنا os (وهي علامة الاعراب عندهم) من آخر الكلمة بقي لنا «قنف» بل «قنفع» لأن العين لا وجود لها في كلامهم وتحذف عندهم اذا نقلت لفظة من الساميات الى لغتهم . ولي رأي آخر هو ان القنفع ربما تكون منحوتة من قَفٌ (شعرهُ اذا قام فزعاً ويقوم الشوك في هذه الفأرة وفي القنفذ او نحوها مقام الشعر)ومن فَصْعاء (اي فأرة) فقالوا في اول امر نحته قَفْقَع ثم ابدلوا الفاء الاولى المدغمة نوناً فصارت القنفع اي الفأرة الشائكة . وابدال احد المدغمين نوناً شائع عندهم وكثير الشواهد من ذلك : الرُّنز والإنجاص والإنجار والإنجانة والخرنابة والقنبرة والخرنوب والحنظ في الرُّز والإجاص والإجّانة والاجّار والخرّابة والقُبّرة والخرّوب والحَظّ الى ما يحصى ذكرهُ . اذن القُنْفع هي الفأرة الشائكة وانهُ يجوز ان تجيء بمعنى القنفذ . لكن المعنى الاول احسن لما ذكرناه من الاسباب اللغوية .انتهى كلام الاب انستاس . (اقول الحمد لله فقد نجوت منهُ هذه المرة)

الى ان قال : وذكرت هازجة وهوازج في ص ٥ نقلا عن الدكتور بوست وهذا لايجوز لغويّاً . لان الهازجة اسم فاعلة واسم الفاعل والفاعلة يدل على ذي فعل يكون بعد قليل على ذي فعل مضى . فقولك « هذا رجل قاتل » يدل على احد امرين . اما انهُ قد قتل في الماضي واما انهُ يقتل عن قريب . وكذلك قولك : الشارف . فالشارف من الناس الذي سيصير شريفاً عن قريب . اما اذا كان ذا شرف اليوم وبعده فيقال «شريف» اي يفرغ صوغهُ في قالب المبالغة . وفعيل من صيغ المبالغة ولهذا لم يجز ان يقال : هازجة بل هزّاجة والجمع هزّاجات .الم ترَ انهم لم يسمّوا طائراً باسم فاعل الا طائرين واسماها مشكوك في اصلهما والا فاغلبها موزون اوزان مبالغة كفَعَل وفعّال وفَعّال وفعّل وفعّلة وفعيل الى اشباهها

وذكرت مراراً «القانون» وستّرام واظن ان صحيح التعبير « القانوني» ثم ان الانكليز

رمن اسمائها عند علماء الحيوان Echidna كما جاء في ص ٩٤ فلا خلاف هنا بيننا

«اما الحرذون فلا شبهة انه ما ذكرتُ أي انه نوع من العضرفوط ولو تعددت اسماؤه العلمية وقد سماه جفروى Stellio vulgaris واندرسن Agama stellio وأحدث اسمائه Stellio stellio فهذا الحيوان واحد ولو تعددت اسماؤه وما ذكرته هو الصواب في الصفحة ٧ والصفحة ٢٣٥ وصورته في آخر الكتاب هي الصواب وهو شبيه جداً بقاضي الجبل وصورته الحقيقية في مطول وبستر»

ولم تذكر الدويبة المعروفة باسم «ابو بُريص» وهو Agama colonorum (راجع دوزي) والذي اعرفهُ ان ابا بريص مشهور بهذا الاسم في بغداد وهو المسمى Gecok كما جاء في معجمك ص١١٣ فدوزي ناقل غير محقق بنفسهِ والناس لا تعتمد الآن الأعلى التثبُّت في الامور والامعان في التدقيق

(واما ابو بريص فلا شبهة انه كما ذكر الاب انستاس وما ذكرتُ في الصفحة ١١٣ من المعجم اما ما جاء في دوزي فخطأ)

لم يذكر أحد حقيقة الجحلان قبلي وكان بعضهم صحَّف الكلمة مفردَها وجمعَها وانا أثبتُّ امرها والدليل اني لم ارَ من تكلم عليها كلاماً علميًّا قبلي

(أما الجحلان فقد نسبتها الى الأب المحترم في الصفحتين ٨٧ و ١٥١ في الكلام على Libellulidae و Dragon-fly

وفي الصفحة ٣ : ذكرت الكواسر ومنها كواسر الليل وكواسر النهار اوبالعكس وفي ص٤ قلت : لا يقال كاسر الأ للطير سمي بذلك لانه يكسر جناحيه » اه . قلت اذن كل طائر من جارح وبغاث يسمى كاسراً لان جميع الطير حتى العصافير تكسر اجنحتها عند النزول واذن لا يستعمل الكاسر بمعنى الجارح فقط . والذي رأيتهُ بمعنى الجارح الصائد وتجمع على صوائد والكلمة وردت في المخصص وصبح الاعشى وفي غيرها . اما الكاسر فلم ترد الأ في قولهم كاسر العظام للطائر الذي ذكرتهُ في ص ١٧٧ من معجمك وكنتُ قد تكلمت عليهِ طويلاً وقبلك في المشرق . واظن انك طالعت في الضياء (١١ : ٣٢) قول الشيخ ابراهيم اليازجي : ووحش كاسر اي ضار او مفترس عامية وانما الكاسر في مثل هذا من صفات جوارح الطير »

قلنا وقد يكون الكاسر اناساً وطيراً وحيواناً. ومنهُ في التاج «وهو كاسر من قوم كسَّر كرُكَّع وهي كاسرة من نسوة كواسر والكواسر الابل التي تكسر العود » اه . افلا تنعت بعد هذا سباع الحيوان بالكواسر اذا كانت تكسر عظام صيدها؟ فتقييد اللغة بمثل تلك القيود يمنعها دون التحليق مع سائر اللغى . واما الكاسر للطيور فقد قالوا عقاب كاسر وباز كاسر الى غير هذين الجارحين ككاسر العظام . انتهى كلام الاب انستاس

(قلت اريد لفظة تقوم مقام هذه اللفظة أي لفظة تشمل سباع الطير من الجوارح كالعقبان ومن غير الجوارح كالنسور . والرخم وقد اقترح احد الادباء القواطم واظنها موافقة أما الجوارح فليست موافقة فالنسر والرخمة ليسا من الطيور الصائدة أي ليست من جوارح الطير لكنهما من هذه الرتبة)

كتاب جامع المفردات

تأليف الغافقي (توفي نحو ٥٦٠ هـ) — انتخاب ابن العبري (توفي سنة ٦٨٤ هـ)
نشرهُ وعلق عليه الدكتور ماكس ماير هوف والدكتور جورجي صبحي

لم نرَ كتاباً هذه السنة اجتمعت فيهِ شروط البحث الدقيق والموازنة والاسناد كما اجتمعت في هذا الكتاب

فعلماء العرب اشتهروا بتعمقهم في علم المادة الطبية ، على أثر ترجمة كتاب ديوسقوريدس من اليونانية ، اكثر من اشتهارهم باي علمٍ آخر . والمظنون ان ترجمة كتاب ديوسقوريدس كانت بالسريانية وتمت في عصر العباسيين ثم نقل الكتاب من السريانية الى العربية واصحُّ ترجمة هي الترجمة التي وضعها حنين ابن اسحق في القرن الثالث الهجري . فجاء كتاب ديوسقوريدس مثالاً احتذاهُ العرب في علم الادوية واشهر اصحابها الرازي وابن سينا وابن جزلة وابن الوافد وابن سمجون والشريف الادريسي والغافقي وابو العباس وابن البيطار. الاَّ ان معظم مؤلفاتهم قد استبدَّت بهِ ايدي الضياع ولم يبق الاَّ كتاب ابن البيطار وقد احتوى على كل ما جاء في كتب الاوائل ، وهو في طبعة لكلير اصح وصفاً واصلح نصًّا منهُ في طبعة بولاق

اما كتاب الغافقي فليس منهُ الاَّ نسختان احداهما مملوطة ومحفوظة ببلدة غوتا بالمانيا والثانية في مكتبة المغفور لهُ احمد تيمور باشا وهي صحيحة مضبوطة وقد تكرَّم قبل وفاتهِ — رحمة الله عليهِ — فسمح للناشرين العالمين تصوير صفحاتها بالفوتوغراف

ولدى الموازنة بين كتاب ابن البيطار وكتاب الغافقي وجدا ان مؤلف ابن البيطار ليس الاَّ نسخة كاملة لكتاب الغافقي زيد عليها بعض ملاحظات من المؤلفين الذين خلفوا الغافقي . ويندر ان تجد في كتاب ابن البيطار ملاحظة خاصة بهِ . ثم ان كتاب ابن الغافقي — في رأيهما — ليس الاَّ شرحاً للترجمة العربية لمؤلف ديوسقوريدس وقد اضيفت اليهِ اسماء النباتات والادوية التي عرفت بعد ما اتسع نطاق معرفة الاطباء العرب في فن العلاج . وقد شرح الغافقي هذه الادوية الجديدة شرحاً مطولاً ينمُّ على مقدرة تبعث على الدهشة وذكاء متوقد واضاف اليها كثيراً من الادوية التي في شمال افريقيا وبلاد الاندلس

ولم يكتف الناشران باخراج طبعة عربية سليمة لكتاب الغافقي مع شدة ما عانياهُ في قراءة النسخة التيمورية والمقابلة بينها وبين نسخة غوثا والعودة احياناً الى كتاب ديوسقوريدس نفسهِ لفك المغلق ، بل انهما اخرجا ترجمة انكليزية حرفية جهدَ الطاقة

وقد سارا في الطبعة العربية على الخطة التي يجري عليها المستشرقون في طبع الكتب القديمة . فانهما استخرجا نصاً هو في رأيهما اقرب ما يكون الى الصواب ووضعا امام كل لفظة لها اكثر من قراءة واحدة لا تقبل الريب ، رقماً وفي الحاشية اوردا ما جاء في النسخة الخطية الاخرى اذا اعتمدا نسخة دون الثانية او ما ورد في النسختين الخطيتين اذا كانا قد اعتمدا قراءة خاصة وصلا اليها بعد البحث والاستقصاء

وقد فعلا ذلك كذلك في الترجمة الانكليزية وكتبا اسم كلّ دواء بلفظهِ العربي او المعرّب بحروف افرنجية وعربية واضافا الى ذلك اسمهُ الاجنبي الشائع واسمهُ العلمي

خذ اشنة صفحة ١٤ من الاصل العربي فقد ورد في الترجمة الانكليزية ما يأتي :

Ushna اشنة Fragrant (tree) moss. Odorant lichen. Alectoria usneoides (Lecl. no 85)

ثم انهما علقا على بعض الادوية شروحاً غاية في خطورة الشأن

فعمل العالمين الفاضلين ليس نشراً وترجمة فقط ، بل هو عمل ينطوي على تحقيق وتعمق في الطب واللغة واسماء النباتات العلمية فهما جديران من جمهور المتعلمين في الشرق بالشكر والثناء

***

وقد رفعا الكتابين الى من « احيا حضارة الفراعنة والعرب بعد موتيهما ، الى الآخذ بيد العلوم والفنون ورافع لوائها ، الى باعث النهضة الحديثة في مصر ، الى مليكنا المفدّى مولانا صاحب الجلالة احمد فؤاد الاول »

امير الشعراء

اثنا عشر عاماً في صحبته

وضع الاديب احمد عبد الوهاب ابو العز سكرتير احمد شوقي بك رحمهُ الله ، كتاباً يشتمل على ما عرفهُ عن شوقي في خلال اثني عشر عاماً لازمهُ فيها . ومن ابدع فصول هذا الكتاب الفصل الذي يصف فيهِ المؤلف كيف كان شوقي ينظم الشعر . قال في مقدمة الكتاب : « في هذا الكتاب يعرف القراء كيف كان شوقي بك ينظم لآلئ شعره وعلى اي صورة كان ذلك وفي اي الاوقات كان يحبَّب اليهِ النظم . وفي هذا الكتاب ايضاً يعرف القراء كيف كان يتريّض وكيف كان يعمل وكيف كان يجدّ وكيف كان يلهو وكيف كان يحب وكيف كان يكره وفي الجملة يعرف القراء كيف كان يخالط الحياة ويمتزج بها » . وهو في ١٩٢ صفحة من القطع الصغيرة ومزدان بصور كثيرة وثمنهُ ٥ قروش صاغ

مطبوعات جديدة

﴿ قصيدة ﴾ ترجم حبيب بك غزالة قصيدة شوقي في النيل التي مطلعها

من اي عهدٍ في القرى تتدفق
وبأيّ كفٍّ في المدائن تغدق

باللغة الفرنسية ترجمة حوت لبّ معاني القصيدة . وهو عمل يشكر عليه لأنهُ لا بدّ لنا من ترجمة روائع شعرائنا الى اللغات الاوربية اذا شئنا ان تنصف اذا عنّ لنقادها الحكم على أدبنا وشعرنا

﴿ موازين النقد الادبي ﴾ التى الاديب كامل كيلاني سكرتير رابطة الادب الجديد محاضرة في نادي هذه الرابطة موضوعها «موازين النقد الادبي» عرض فيها بالاسهاب الى عيوب النقد عندنا فذكر الهجو والعربدة والببغاوية والاسراف ، وهي من المساويء التي يجب ان يترفع عنها الناقد لكي يستطيع ان يؤدي مهمة التثقيف والتقويم على اوفى وجهٍ . ولما سئل المحاضر لماذا حصر قوله في عيوب النقد مع ان موضوع المحاضرة « موازين النقد » قال ان الكلام في العيوب ليس الاَّ بمثابة مقدمة للكلام في الموازين في محاضرات تالية . ونحن نسجل هذا القول على انهُ وعد

﴿ غرازيلا ﴾ احدى بدائع لامارتين الشاعر الفرنسي الكبير . فيها يمتزج الشعر بالنقد بالفلسفة بالاجتماع في قصة ساذجة ينظم دررها حب صافٍ كالماءِ المترقرق . فانت تبدأُ القصة فتحسبها مذكرات رحلة رحلها لامارتين الى ايطاليا فاذا وصف الرحلة جانب واحد من قصة تستهويك فلا تتركها حتى تتمها . وقد عني بترجمتها اسكندر كرباج احد ادباء لبنان في البرازيل واهدتها مجلة الشرق العربية البرازيلية الى مشتركيها . والترجمة لابأس بها من حيث الدقة ولكنها تحتاج الى قليل من التنقيح لتسلم من هفوات قليلة تشوّه بعض محاسنها

﴿ الطاغية ﴾ وهي درامة تاريخية تأليف شلر الشاعر الالماني الكبير معاصر جوته ونِدِّهُ نقلها الى العربية الاديب فائق رياض وطبعت في دار المجلة الجديدة وتطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع المدابغ بمصر

﴿ سوريا في فجر التاريخ ﴾ فصول وضعها محمد النبهان السخيطه مدرس التاريخ والجغرافية في مدرسة التجهيز بحلب وفقاً لبرنامج الصف الخامس التجهيزي . واخرجها عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية بحلب على نفقتهِ

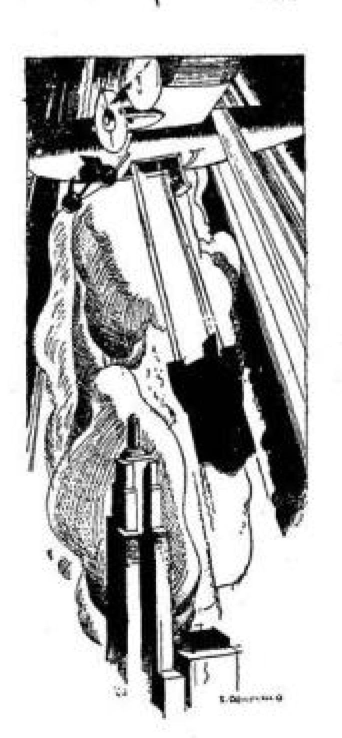
والكتاب مدرسي يجمع في فصولهِ اهم ما عرف عن الحثيين والاموريين والكنعانيين والفينيقيين وغيرهم من الشعوب القديمة التي قطنت سورية وما خلفته من آثار عمرانها وما كان يربطها بالمصريين وغيرهم من الروابط

العلم

والحرب المقبلة



العلم لا ينظر الى الحرب ولا الى السلم . فهو يعطينا بيد الاسمدة وبيد اخرى المفرقعات . والمفرقعات تستعمل للهدم والقتل في الحرب ولكنها تستعمل في حفر الانفاق وفتح المحاجر وشق الترع في زمان السلم . والفولاذ لا يحصر

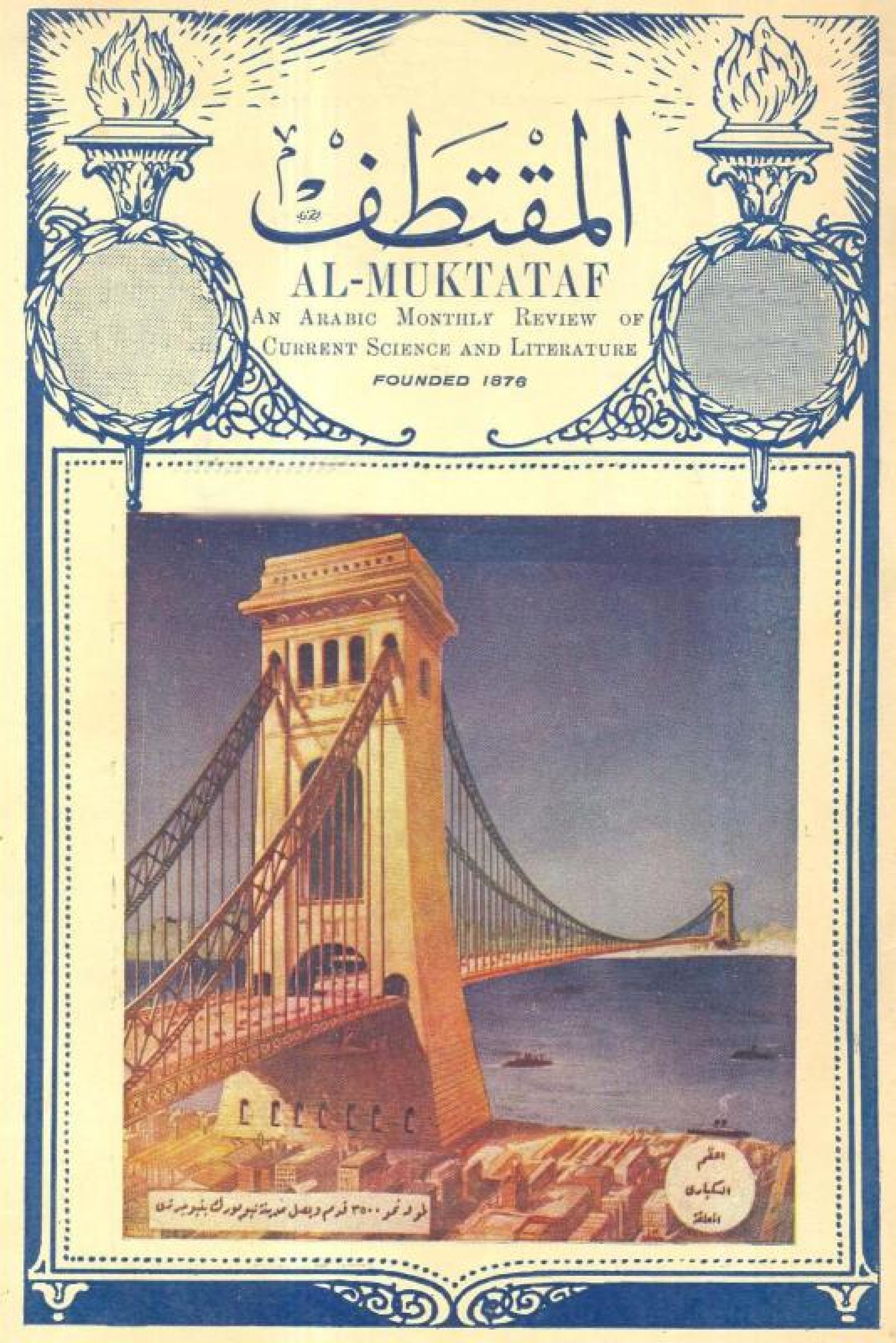


استعماله في صنع الاسلحة والرماح بل هو يستعمل في صنع المحاريث والسكك الحديدية والسيارات والحصادات . فالعلم يجد نفسه لا يخدم اله الحرب دون اله السلم ، وانما يعود الفرق الى نفوسنا وشهواتها وتثقيفها ومثلها الادبية

لذلك عنينا في هذا الجزء من المقتطف — على ذكر مؤتمر نزع السلاح او نقضهِ — ببيان ناحية من الصلة بين العلم وأدوات الحرب في ثلاث مقالات نفيسة ثالثتها تبين مبلغ أثر الطيارات في الحرب وهي مبنية على خيال تؤيدهُ الحقائق

الجزء الاول من المجلد الثاني والثمانين

صفحة



المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876
طوله نحو ٣٥٠٠ قدم ويصل مدينة نيويورك بنيوجرسي

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد الثاني والثمانين

١ فبراير سنة ١٩٣٣ — ٦ شوال سنة ١٣٥١

اساطين العلم الحديث

ارفنغ لنغميور
IRVING LANGMUIR
الفائز بجائزة نوبل الكيمائية سنة ١٩٣٢

حداثته واستعداده

لما ولد موزلي (١) كان في احدى ضواحي نيويورك فتى في السادسة من العمر . ولكنهُ على الضدّ من موزلي لم ينجب من اسرة اشتهرت بالعلم بل كان والدهُ قسًّا هجر اسكتلندا الى كندا ثم هبط منها الى الولايات المتحدة الاميركية . اما اسرة والدتهِ فلن تجد فيها لدى البحث ما يحملك على توقع النبوغ العلمي في اخلافها

وكان لنغميور في حداثتهِ يكثر من توجيهِ الاسئلة الى والديهِ واخوتهِ عما يحيط بهِ من الحوادث والاشياء ، ولا يقنع الاَّ بالجواب الشافي الذي يصيب لبَّ المسألة . « لماذا يغلي الماء في الابريق » ؟ و« لماذا يسقط المطر » . وكان اخوهُ آرثر يدرس الكيمياء فكان الفتى ارفنغ ينهال عليهِ بالاسئلة فيجيب عن بعضها ويعجز عن الباقي . فلما كان ارفنغ في التاسعة من عمره صنع معملاً صغيراً في دور بيتهم الارضي . وكذلك انشأ الفتى يخزن في عقلهِ ، من ايام طفولتهِ وحداثتهِ ، ما يصيبهُ من الحقائق عن القوى الطبيعية التي يتبينها في بيئتهِ . وكان شديد الولع ببناء

(١) Moseley راجع مقتطف يونيو ويوليو ١٩٣١ وهو عالم بريطاني شاب قتل في غليبولي في اثناء الحرب

لاشياء وتفكيكها ثم باعادة بنائها. فلما ارسل الى مدرسة عامة في بروكلن نفر من غرفة الدرس لانهُ كان يفضل ان يعبث في معمله، او يقلق اخاهُ باسئلتهِ الحسابية على الانتظام في فرقة مدرسية

وكان اخوهُ الاكبر — آرثر — قد تخرَّج في جامعة كولومبيا. وقرَّر ان يسافر الى اوربا وينتظم في جامعة هيدلبرج الالمانية للتوسع في دروسهِ العلمية. فعزم الوالدان ان يصحبا ابنهما الاكبر الى اوربا. كذلك اتيح لارفنغ، وهو في الحادية عشر السفر الى باريس حيث لبث اخوه في مدرسة داخلية يدرس الكيمياء قبل الانتظام في جامعة هيدلبرج. وكان الفتى يترقب زيارات اخيهِ بفارغ صبر ليستمع الى قصص البحث العلمي التي تقع لهُ، فكانت هذه القصص تفتن لبَّهُ، فيجلس في خلال سردها مشدوهاً كأنما بسحر ساحر. فلما كان في الثانية عشرة طلب ان يُعَدَّ له معمل للبحث العلمي، فساعدهُ اخوهُ في تلبية طلبهِ، فكان يقضي فيهِ ساعات متوالية يجرب التجارب المذكورة في كتاب علمي ابتاعهُ

وكان الشقيقان صديقين. وفي ذات شتاء اصطحبهُ شقيقهُ الى سويسرا فتوقلا احدى قمم جبالها. فاعجب ارفنغ بهذا الضرب من الرياضة، وودَّ لو يسمح لهُ ان يتوقل كلَّ القمم التي على مقربة من الفندق. فعارض في ذلك والداهُ اولاً، ثم اذنا لهُ، لما وعد ان يسير في سبيل مطروق لا يحيد عنهُ وان يرسم خرائط ورسوماً لكل ما يشاهد. كذلك صعَّد هذا الفتى، وهو في الثالثة عشرة من عمرهِ، في جبال سويسرا. وكان التصعيد في قمة واحدة، يقتضي احياناً جهداً كبيراً في خلال يومين او ثلاثة ايام فأصاب في ذلك مرانة جسدية وخلقية

وعادت اسرتهُ الى اميركا، بعد ما قضت ثلاثة اعوام في اوربا — اتمَّ شقيقهُ في خلالها دروسهُ في جامعة هيدلبرج — وشهد ارفنغ في ختامها مأتم باستور في باريس — فكأن ذلك المشهد طبع في ذهنهِ بخطوط من نور ونار. وانتظم بعد عودتهِ في كليةٍ بفيلادلفيا، فاثبت لرؤسائهِ انهُ يعرف كلَّ ما يعرف من الكيمياء. ولما عثر على كتاب في «حساب التمام والتفاضل» في اثناء ذلك، فتحهُ وطالع فيهِ فقال لشقيقهِ «انهُ كتاب سهل». وفي السنة التالية حضر المدرسة التي كان شقيقهُ يدرّس فيها الكيمياء ثم تخرج في مدرسة المناجم بجامعة كولومبيا وسافر الى المانيا ليدرس على الاستاذ نرنست Nernst في جامعة غوتنجن التي اشتهرت بافعال وهلر Woehler في الكيمياء الحيوية. وبعدما قضى ثلاث سنوات في المانيا، عاد حاملاً لقب دكتور في الفلسفة، وجعل يدرّس الكيمياء في معهد هوبوكن على مقربة من نيويورك. وفي صيف سنة ١٩٠٩ ذهب الى مدينة شكنكتدي حيث انشأت الشركة الكهربائية العامة «داراً للبحث العلمي» فعزم ان يقضي عطلة الصيف في هذه الدار

الفرصة الاولى

وكان يدير هذه الدار رجل يدعى الدكتور ولِس وتني Whitney وهو رئيس سابق

للجمعية الاميركية الكيمائية ، ومن روّاد البحث العلمي في الشركات الصناعية . كان الدكتور ﻭﺗﻨﻲ زعيماً غريب المذاهب. ذلك انهُ لما اقبل لنغميور عليهِ، لم يعيّن لهُ بحثاً معيناً يكبُّ عليه في الحال ، بل اقترح عليهِ ان يقضي بضعة اسابيع ، يطوف ارجاء الدار ، ويراقب الباحثين فيها. ففتن لنغميور اذ فعل ذلك . فُتِنَ لأَنَّ عيناً بشرية لم تقع على مشاهد اغرب من المشاهد التي وقعت عليها عيناه . فهنا رجال يحاولون النفوذ الى اسرار العلم والصناعة ويرشدهم رجل خبير باخلاق الرجال عالم باحوال المادة

وفي اثناء تجواله استرعى انتباههُ امرٌ معيّن ، كان يحيّر الباحثين ، فمال الى البحث فيهِ . ذلك ان الباحثين حينئذٍ ،كانوا يحاولون ان يصنعوا من عنصر التنغستن،السريع التكسُّر ، سلكاً ليّناً لا ينكسر، يسهل مدُّهُ، لكي يستعمل في المصابيح الكهربائية . وكانوا قد اعدّوا مئات النماذج من سلك التنغستن وكانت كلها الاّ ثلاثة منها سريعة التكسّر لا تصلح لهذا الغرض المعيّن

فذهب الى الدكتور وتني وطلب اليهِ ان يعيّن لهُ البحث في موضوع هذا السلك. فقد كان غرضهُ البحث في تصرّف الاسلاك متى أُحميت الى درجة البياض في مصابيح مفرغة من الهواء . ما السبب في تكسر كل هذه الاسلاك بعد تجربتها وبقاء ثلاثة منها من دون تكسُّر ؟ وكأنَّ لنغميور رأى بعين الساحر السرّ في كل ذلك قبل الشروع في البحث ، فلما شرع في البحث لم يضع الوقت في التنقيب على غير هدى ، بل سار توّاً الى محجة الصواب . ذلك انهُ حسب ان بعض الغازات التي تمتصها الفلزات هو منشأ ضعفها .فقبل وتني اقتراح لنغميور وجعل في متناول يدهِ كلَّ وسائل الدار العلمية والصناعية . لانهُ ادرك بنظرهِ الثاقبة ان هذا المعلّم رجلٌ من جبلة غير عادية

واقبل لنغميور على البحث ، وقد استخفّهُ الفرح بتحقيق الاحلام . ما اعظم الفرق بين معملهِ هنا ومعملهِ الصغير الذي انشأه في حداثتهِ بمساعدة شقيقهِ !بل ما اعظم الفرق بين هذه المعامل الحديثة والمعامل التي في جامعة غوتنجن ! ان هذه الدار معقل — بل هي حرم للعلم !

كان لنغميور ينتظر ان يرى — بحسب نظريتهِ في ان الغازات هي مصدر ضعف التنغستن — مقداراً يسيراً من الغاز يخرج من الاسلاك المحمية في المصابيح الزجاجية . ولكن الذي بعثهُ على الدهشة العظيمة ان مقادير كبيرة جدّاً من الغاز خرجت من الاسلاك التنغستن لدى احمائها في مصابيح مفرغة . وكان كثير المطالعة يماشي العلم في سيره الحثيث ، فتذكر ما قرأه لطمسن — مكتشف الالكترون — عن مقدرة بعض الفلزات على امتصاص الغازات واطلاقها متى أُحميت . وهذا سلك التنغستن يخرج لدى احمائه غازاً يزيد مقداره سبعة آلاف ضعف على حجم السلك الذي خرج منهُ

وانقضت عطلة الصيف. ان عملهُ في المدرسة يوجب عليهِ الخروج من هذا الفردوس العلمي والعودة الى فرقة التدريس مع ان بحثهُ لم يطل زمناً كافياً لاثبات صحة ما ذهب اليهِ. ولكنهُ كان على الطريق

وكان الدكتور وتني يزور لنغميور لماماً ، ويراقبهُ في خلال البحث ، فعجب لما يبدو في بحثهِ من توقد ذهن وسرعة خاطر ومرونة اصابع . ورأى فيهِ مقدرة ، كأنها الوحي، تسير بهِ توّاً الى صميم الموضوع . كانت براعتهُ في التصوُّر والتخيُّل المبنيين على الحقائق المشاهدة من وراء العقل البشري العادي . بل انهُ كان يستطيع ان يتصور نتائج البحث ، قبل ان يتناول الادوات المعدة للتجربة !

فقال وتني في نفسهِ : « من الخسارة ان تتخلى عن رجل يستطيع ان يبدع النظريات من دون ان يفقد تقديره للحقائق المثبتة » . فلما آن وقت الرحيل ، عرض عليهِ ان ينتظم في سلك الباحثين في تلك الدار . لأنَّ مكانهُ في المدرسة يملؤه معلم آخر . فتردد لنغميور اولاً رغبة في ان يكون منصفاً لرئيس المدرسة قبل ان يقبل عملاً يحقق مُنَى شبابهِ ! وتردد كذلك لانهُ لم يدر هل من الانصاف ان ينفق مال شركة كبيرة في بحث علمي قد لا يفضي الى شيء عمليّ ؟ وكاشف وتني بذلك فردَّ عليهِ : « ان بقاءك لا يقتضي ان يفضي بحثك الى نتيجة عملية » . فعزم لنغميور في الحال ان يقبل ما عرض اليهِ ولبث في شكنكتدي

النجاح الاول

كان الدكتور وتني يعتقد ما يعتقده المهندسون الاميركيون المشتغلون بصناعة المصابيح الكهربائية ان صنع المصباح الامثل يتم بالحصول على اكمل فراغ ممكن داخل المصباح . ولكن لنغميور لم يسلم بذلك . بل على الضد منهُ ، جعل يملأ مصابيح التجارب بغازات مختلفة ليدرس فعلها في السلك ، لعلهُ يهتدي الى الباعث على قصر حياة المصابيح الكهربائية بوجهٍ عام . واستخلص من ذلك مبدأً عاماً في البحث جرى عليهِ : قال :— « اذا ظننتَ انهُ يمكن الحصول على نتيجة طيبة باجتناب بعض عوامل مفسدة ، وكان اجتناب هذه العوامل متعذراً أو صعباً كلَّ الصعوبة ، فيحسن ان تقوّي فعل هذه العوامل حتى تزيد علماً بها وبفعلها »

فاخرج لنغميور كل الغازات التي كان سلك التنغستن قد امتصَّها . ولكنهُ بدلاً من ان يفرغ المصباح من أي غاز فيهِ حتى لا يكون فيهِ اكسجين يحرق السلك ، ملأهُ بغازات غير فعالة . واختار النتروجين والارغون لذلك ، لانهما لا يتحدان بعنصر التنغستن ولو بلغت الحرارة درجة البياض . كذلك قضى لنغميور سنوات يجرب التجارب في مصابيحهِ ، وفي تناول يده ما يشاء من مال واعوان . لان مدير الدار كان يعتقد ان كل تطبيقات العلم نشأت من الرغبة في الاطلاع على ما هو خفي . وتاريخ العلم في نظرهِ دليل مسلسل الحوادث يثبت ذلك . ومن اشهر حوادثهِ ، اشتغال مكسول بالضوء من الناحية الرياضية الفلسفية وكيف افضى الى التطبيقات اللاسلكية في هذا العصر

وانقضت ثلاث سنوات ، ولم يخرج لنغميور باي تطبيق عملي ، يذهب بهِ الى رئيسهِ

ويقول « ان هذا الاستنباط يوفي الشركة الاموال التي انفقتها في تجاربي » ولكن وتني لم يسأله في ذلك ولا الشركة طالبت وتني به. ففي لنغميور في بحثه حتى اتقن المصباح الكهربائي اللامع الحديث ، الذي سلكهُ من فلز التنغستن وبُلبوسهُ مملوء بغازي النتروجين والارجون. فوفّر بذلك نحو مليون ريال كل ليلة على الامة الاميركية مما تنفقهُ على الاضاءة فقط ! فلما وصف مباحثهُ لارباب العلم التطبيقي قال : ان استنباط المصباح المملوء بالغاز كان نتيجة مباشرة للتجارب التي جربتها في درسي للايدروجين في حالتهِ الذرية . فانني اذ احميت اسلاك التنغستن في غازات على ضغط عادي لم يكن لي اي غرض غير هذا البحث النظري »

ومع ذلك فان درسهُ للايدروجين في حالتهِ الذرية في خلال ١٥ سنة مكّنهُ في سنة ١٩٢٧ من استنباط « شعلة الايدروجين الذري » للحم الفلزّات التي لا تصهر الاّ على درجات عالية جدّاً من الحرارة

مباحثهُ النظرية

بدأ لنغميور مباحثه العلمية في دار تابعة لشركة صناعية — ولا يزال فيها حتى الآن — وكان الغرض الاول ايجاد طريقة تمنع تكسّر سلك التنغستن . على ان النتيجة العملية التي وصل اليها لم تكن الاّ فرعاً للمباحث النظرية التي كانت تسترعي كلّ عنايتهِ . ففي خلال المباحث النظرية في الغازات كان لنغميور مهتمّاً كل الاهتمام بما يقال عن بناء الذرة . وكان يماشي التقدم في هذه الناحية من علم الطبيعة بدقة وعناية . بل انهُ يحسب ان تاج مباحثهِ هو نظريتهُ في شكل بناء الذرة ، التي نسجها من خيوط معارفهِ الكيمائية والطبيعية الواسعة

كانت طبيعة تركيب الذرّة مجهولةً في ذلك العهد ، وكانت قد حاولت طائفة من العلماء انتزاع هذا السر من صدر الطبيعة فباءت بالفشل . كان لورد كلفن — بعد اكتشاف الالكترون — قد تصوَّر الذرة عدداً من الالكترونات المتحركة في كرة من الفضاء المكهرب كهربة موجبة . وجرى طمسن على الفكرة نفسها فحسبها تدور في دوائر متمركزة حول النواة. ولكن الصورة التي وضعها لم تفِ بالغرض لأن العلماء لم يتمكنوا من ان يعللوا بها بعض الظاهرات المتناقضة . ثم تلا ذلك رأي رذرفورد في ان الذرة كالنظام الشمسي فالنواة في المركز كالشمس والالكترونات تدور حولها كالسيارات في افلاك اهليلجية . فلم يلبث العلماء حتى صدفوا عنها لنقصها وجودها

ان في تاريخ الارتقاء الانساني ازمنة تقود فيها الطبيعة العقل البشري الى الاعتقاد بأنها قد اسفرت لهُ عن محياها وباحت له بأسرارها، ثم تراها وقد هزأت منه واختفت وراء نقاب، كثيراً ما يكون شفّافاً ، فكأنها تتحدّاهُ حتى ينضي اليها الركائب ويرهف قواه للتنسيق بين اسرارها المتنافرة

بين الذين سمعوا الصوت الذي يعنته الطبيعة ، لما اخفق كلفن وطمسن ورذرفورد في

استنباط صورة للذرة تفي بما تتطلبهُ الحقائق النظرية والمشاهدة : فتى دنماركي اسمهُ نيلز بور Bohr كان ابوهُ عالماً وشقيقهُ رياضيًّا . فجاء من الدنمارك الى كمبردج ودرس على طمسن ثم انتقل الى منشستر ودرس على رذرفورد وفي سنة ١٩١٣ نشر مقالة في المجلة الفلسفية عنوانها «بناء الذرات والجزيئات» خرج فيها على النظام العلمي القديم وسلم بمذهب بلانك بأن الطاقة ذرّية البناء كالمادة Quantum theory ، ورسم للذرة صورة تجمع بين صورة رذرفورد ومبدإ بلانك . قال ان ذرة الايدروجين مثلاً هي الكترون واحد يدور حول نواة في فلك اهليلجي . فاذا أُقلق هذا الالكترون في اثناء دورانهِ ، بفعل قوة خارجية — كأشعة المهبط او الاشعة السينية او حرارة عالية — قفز من فلك الى فلكٍ اقرب الى النواة . وفي اثناءِ قفزه تشعُّ الذرة قدراً يسيراً من الطاقة . فكل ذرة في حالة استقرار لا يبدو منها ما يبين وجودها فاذا زالت حالة الاستقرار قفزت الالكترونات من افلاكها فتشعُّ»

وقد شبه الدكتور فري هذه الصورة بما يأتي : قال لنفترض اننا خارج ملعب رياضي . وان منطقة العدو حول الملعب مقسمة الى اربعة مسالك وان بين المسلك والآخر حول الملعب حاجزاً خشبيًّا عالياً . ثم لنفرض اننا وضعنا جواداً في المسلك الخارجي وأطلقنا لهُ العنان فجعل يعدو ولكننا لا نراه لانهُ يعدو بين حاجزين عاليين . ثم نراه فجأة وقد قفز فوق الحاجز الى المسلك الثالث وعدا فيه . ثم قفز الى المسلك الثاني وعدا فيهِ . ثم قفز الى المسلك الاول وعدا فيهِ . فنحن لا نراه الا قافزاً فوق الحاجز الخشبي . وكل قفزة تمثل في الذرة قفزَ الكترونٍ من فلك الى فلك وكل قفزة تمثل اشعاع قدرٍ يسير من الطاقة

بهذه الصورة لذرّة الايدروجين علل بور الظاهرات الغريبة التي كانت مستترةً عن افهام العلماء وأيَّدهُ في ذلك الباحثون فنال جزاءً على بحثهِ جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٢٢

وكان في اميركا عالم متوقد الذهن واسع الاطلاع يدعى لوس — جلبرت نيوتن لوس — ولد في ماستشوستس ودرس في جامعات نبراسكا وهارفرد وليبزغ وغوتنجن . في سنة ١٩٠٢ — اي قبل ان يخرج طمسن صورة الذرة التي رسم فيها الالكترونات في حلقات متمركزة حول النواة — تصور لوس للذرة شكلاً مكعباً . وكان لوس من العلماء الذين يميلون الى التلاعب بالآراء والصور الخيالية ، فوضع ، في سنة ١٩١٦ قبل سفرهِ الى فرنسا رئيساً لقسم الحرب الكيمائية في الجيش الاميركي ، رسالة تحسب الآن اساساً لبناء الذرة المستقرّ الذي توسع فيهِ لنغميور وعدّلهُ من بعد . قال لوس : في كل ذرة نواة لا تتغير . وحول هذه النواة مكعَّبات تحتوي على عدد متباين من الالكترونات ، في اماكن معيَّنة . وكل ذرَّة تميل الى ان يكون لها الكترون واحد على كل زاوية من مكعَّبها . والذي حمل لوس على اقتراح هذه الصورة لبناء الذرَّة معارفهُ الواسعة في الالفة الكيمائية والبناء البلوري

كانت معرفتنا ببناء الذرَّة ، على ما تقدَّم ، لما اقبل لنغميور غازياً لهذا العالم الصغير . فقد

كان ثمة تناقض عظيم بين الصورة التي رسمها بور للذرّة والصورة التي رسمها لوس . فعلماء الكيمياء لم يروا في صورة بور ما يكفي لتعليل الظاهرات التي يعالجونها هم . لانهم يطلبون ذرة تمكنهم من تفسير الظاهرات الكيمائية كالالفة والكفاءة Valence وغيرها . فلما انقضت الحرب وضع لنغميور نظرية جديدة ، وفق فيها بين الرأيين

تعليل الالفة الكيمائية

حاول لافوازيه ، الكيماوي الفرنسي الشهير ، من مائة وخمسين سنة ان ينفذ الى السبب في اختلاف تصرُّف العناصر . لماذا نرى عنصر الكلور شديد الفعل في حين ان النتروجين والذهب لا فعل لهما او ان فعلهما ضئيل جداً حتى على درجات عالية من الحرارة . ولكن لافوازيه خاب في تحقيق ما يصبو اليهِ . ثم عمد الى ذلك برزيليوس وغيره وظلت المسألة سراً مغلقاً الى العصر الحديث

على ان لنغميور ، المهندس وصاحب الرؤى العلمية ، رأى في الصورة التي رسمها لوس مخرجاً من هذا المأزق وتعليلاً لمسألة الالفة الكيمائية . فوجد في الغازات التي تناولها في بحثهِ لدى معالجة مسألة التنغستن والمصباح الكهربائي خير معوان لهُ على حل العقدة . كان عنصر الهليوم — عدده الذري ٢ — والنيون — عدده الذري ١٠ — عنصرين مستقرين استقراراً كيمائياً اي لا فعل كيمائي يذكر لهما. واذن فالالكترونات خارج النوى في ذرات هذين العنصرين يجب ان تكون مركبة تركيباً مستقراً يجعل فعل العنصرين الكيمائي ضعيفاً او معدوماً . فتصوَّر لنغميور ذرة الهليوم مركبة من نواة (بروتونات والكترونات في كتلة واحدة) وحولها الكترونان يدوران في كرة مفرغة حول النواة . والمسافة بين الكرات المفرغة المختلفة في الذرات المعقدة جعلها مساوية للمساوات بين الافلاك في ذرة بور

فذهب لنغميور الى ان ذرة لها الكترونان يدوران حول نواتها في كرة مفرغة هي ذرة مستقرة . اما الايدروجين فليس لهُ الاَّ الكترون واحد في ذرتهِ ، فهي اذاً تميل الى ان تكمل بناءها حتى يصبح مستقراً فتجتذب الكتروناً من ذرة أخرى . وهذا سرُّ فعل الايدروجين الكيمائي . كذلك النيون. ان ذرته مركبة من كرتين مفرغتين (الكرة المفرغة في صورة الذرة تخيلية انما تستعمل لتبين ان الالكترونات التي تدور في داخل الكرة المفرغة تدور في مستوى واحد حول الذرّة) ففي الكرة الداخلية الكترونان — وهو بناء مستقر — واما الكرة الخارجية ففيها ثمانية الكترونات وهو بناء مستقرٌّ كذلك . فذرة النيون مستقرة ليس لها ألفة كيمائية أو فعل كيمائي . اما العناصر التي ارقامها الذرية بين اثنين وعشرة فهي عناصر غير مستقرة ، وهي لذلك عناصر فعالة وشدة فعلها تختلف باختلاف عدد الالكترونات في كرتها الثانية. فعنصر الليثيوم مثلاً رقمهُ الذري ٣ اي لهُ ثلاثة الكترونات خارج نواتهِ ،

اثنان منهما في الكرة الاولى وواحد فقط في الكرة الثانية . فذرة الليثيوم تميل إلى ان يكون بناؤها الخارجي مستقراً ، فتتخلى عن الكترون واحد لذرة أخرى تتحد بها وتبقى هي وحول نواتها الكترونان — وهو بناء مستقر . وميل الليثيوم الى فقد الكترونهِ الخارجي يجعلهُ من العناصر الكيمائية الفعّالة ؛ كذلك الفلور — ورقمهُ الذري ٩ اي ان لهُ تسعة الكترونات خارج نواتهِ — لهُ الكترونان في كرتهِ الداخلية وسبعة في كرتهِ الخارجية ، فهو اذاً يميل الى استكمال كرتهِ الخارجية باخذ الكترون من أي عنصر آخر وهذا يجعلهُ شديد الفعل الكيمائي

قلنا ان الهليوم هو العنصر المستقرّ الاول وبيّنا طريقة بنائه بحسب مذهب لنغميور . وان النيون هو العنصر المستقرّ الثاني وبيّنا طريقة بنائه كذلك. والعنصر المستقرّ الثالث في قائمة العناصر بحسب موزلي، هو عنصر الارجون ورقمهُ الذرّي ١٨. قال لنغميور : لذرة هذا العنصر ثلاث كرات ، في الداخلية منها — اي اقربها الى النواة — الكترونان ، وفي الثانية ثمانية الكترونات وفي الثالثة ثمانية الكترونات كذلك — وكل من هذه الكرات بناء مستقرّ لا يميل الى الاخذ ولا الى العطاء . واذاً فالمنصر نفسه غير فعّال من الناحية الكيمائية

فالالفة الكيمائية في نظر لنغميور ، ترتبط بحالة الكرة الخارجية التي تحيط بنواة ذرة ما وعدد الالكترونات التي فيها . والعدد الكامل في اية كرة خارجية — عدا الكرة الاولى — يجب ان يكون ثمانية . فاذا كان عدد الالكترونات في الكرة الخارجية قليلاً فالذرة تتخلى عنها في طلب الاستقرار . واذا كانت اكثر فانها تتطلب ما يكملها حتى تصبح ثمانية . فهي في الاولى تعير غيرها الكتروناتها وفي الثانية تستعير الالكترونات من غيرها . وفي الحالتين تكون من العناصر الفعّالة

اما الفلزات فن الطائفة الاولى واما غير الفلزات فن الطائفة الثانية . لذلك يتحد عنصر فلزي بعنصر غير فلزّي ، فيتولد من اتحادها مركّب كيمائي مستقرّ

تفسير الكفاءة والتظائر

وكأنّ لنغميور اصاب عدة عصافير بحجر واحد . فالصورة التي رسمها للذرّة لم تفسّر الالفة الكيمائية فقط تفسيراً مقبولاً بل فسّرت كذلك الكفاءة الكيمائية وهي لفظة استعملها اولا الكيماوي الانكليزي فرنكلند في منتصف القرن الماضي للدلالة على مقدرة العناصر المختلفة على الاتحاد بغيرها. فكأنهُ تصوّر ذرة العنصر الفعال لها اذرعٌ كأذرع الاخطبوط تمسك بها بذرات العناصر التي تتحد بها ، وان لذرة العنصر الواحد ذراعاً واحدة ولذرة العنصر الآخر ذراعان ولذرة عنصر ثالث ثلاث اذرع . وقد ظلّ علماء الكيمياء محيّرين في تعليل هذه الظاهرة الى ان علّلها لنغميور اذ قال ان مقدرة كل ذرة على الاتحاد بغيرها (اي كفاءتها الكيمائية)

متوقفة على عدد الالكترونات في كرتها الخارجية . فالكلور — وفي كرته الخارجية سبعة الالكترونات يحتاج الى الكترون واحد لا كمال كرته — فكفاءته الكيمائية واحد وهو الواقع . والايدروجين كفاءته الكيمائية واحد كذلك . وعليه فمن اسهل ما يكون ان تتحد ذرة ايدروجين بذرة كلور ومن اتحادهما يتولد الحامض الايدروكلوريك

ثم ان صورة لنغميور لتركيب الذرة القت ضوءاً كشافاً على معنى النظائر Isotopes وهي العناصر التي تتشابه في صفاتها ومكانها من الجدول الدوري ولكنها تختلف في وزنها الذري . فثمة عنصر الرصاص رقمهُ الذري ٨٢ ووزنهُ الذري ٢٠٧٫٢ وثمة رصاص ينشأ من الراديوم بعد ما يتم اشعاعه ورقمهُ الذري ٨٢ ولكن وزنهُ الذري ٢٠٨ فهذان النوعان من الرصاص متشابهان في خواصهما ومكانهما من الجدول الدوري وانما هما مختلفان في وزنهما الذري . وقد ثبت في السنوات الاخيرة ان لكثير من العناصر نظائر . فلعنصر الكلور نظيران وللاكسجين ثلاثة وهلم جرا . فلما نظر لنغميور في الموضوع عرف ان النظائر يجب ان تتشابه في عدد الالكترونات التي خارج النواة . واذاً فيجب ان تختلف في عدد البروتونات والالكترونات التي تتركب منها النواة . فلعنصر الكلور نظيران لكلٍّ منهما ١٧ الكتروناً خارج النواة . اما النواة في احدهما فتتركب من ٣٥ بروتوناً و١٨ الكتروناً وفي الآخر من ٣٧ بروتوناً و٢٠ الكتروناً . وهذا يعلل الفرق في وزنهما الذري

* * *

ولنغميور الآن مساعد لمدير معامل البحث التي تجلى نبوغهُ فيها . وقد تخلى رئيسه عن منصبهِ فرفض تولي منصب اداري لئلا يلهو بتبعاته عن بحثهِ العلمي . انهُ يؤمن بقول هكسلي اذ قال : «لو استطعت لمهدت امام العالم سبيل الاستعداد التام لعمله وانني لا زن كلماتي اذ اقول انهُ اذا اتيح للامة ان تشتري فتى قد يصبح مثل وط او دايفي او فاراداي ، بمائة الف جنيه لكان رخيصاً كل الرخص» . وهذا لنغميور نفسه يوفر ببحث واحد من مباحثه ٢٠٠ الف جنيه على الامة الاميركية كل ليلة . ولقد اعرب الرئيس هوفر عن مثل هذه الفكرة اذ قال : « ان علماءنا اغلى مقتنياتنا القومية التي نملكها . كل مبلغ من المال ضئيل ازاء عمل هؤلاء الرجال . اننا لا نستطيع ان نقيس ما عملوه لترقية العمران بكل ارباح البنوك في كل انحاء المعمورة ... »

ان لنغميور وغيره في معاهد البحث في الجامعات والشركات الصناعية ، ينشئون الآن طائفة من العلماء ، سوف يكونون اوسع نظراً واقوى ايماناً بأثر العلم الصحيح ، فيسيرون بما يجهزون بهِ من اسباب البحث ، بالعلم الى ما وراء الآفاق القصية . لن يعدم العمران امثال هؤلاء الرجال . وقد يطلع النور على عقول امضى من عقول الجبابرة التي درست . فلك العلم دائم لا يزول . . . !

غرفة الشاعر

لعلي محمود طه المهندس

ايها الشاعر الكئيب مضى اللي ل وما زلتَ غارقاً في شجونك
مسلماً رأسك الحزين الى الفك ر . وللسهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع وأخرى في ارتعاش تمرُّ فوق جبينك
وفمٌ ناضب به حَرُّ أنفا سك يطغى على ضعيف أنينك

لست تصغي لقاصف الرعد في اللي ل ولا يزدهيك في الابراق
قد تمشَّى خلال غرفتك الصم ت ودبَّ السكون في الأعماق
غير هذا السراج في ضوئه الشاحب يهفو عليك من اشفاق
وبقايا النيران في الموقد الذ ابل تبكي الحياة في الأرماق

انت أذبلت بالاسى قلبك الغض وحطمت من رقيق كيانك
آه يا شاعري لقد نصل اللي ل وما زلت سادراً في مكانك
ليس يحنو الدجى عليك ولا يأ سى لتلك الدموع في اجفانك
ما وراء السهاد في ليلك الداجي وهلاّ فرغت من احزانك

فقم الآن من مكانك واغنم في الكرى غطة الخليّ الطروب
والتمس في الفراش دفئاً ينسّيك نهار الأسى وليل الخطوب
لست تجزى من الحياة بما حملت فيها من الضنى والشحوب
انها للمجون والختل والزيف وليست للشاعر الموهوب !

كلمات في اللغة

صدر المرسوم الملكي بإنشاء (مجمع اللغة العربية الملكي) في ١٤ شعبان سنة ١٣٥١ وجُمعت اغراضه في اربع — ١ — المحافظة على سلامة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ملاءمة لحاجات الحياة في الفاظها وتراكيبها — ٢ — وضع معجم تاريخي للعربية وتدرُّج الفاظها مع معانيها — ٣ — دراسة اللهجات العربية في اقطارها — ٤ — النظر فيما شأنه ان ينهض بالعربية من كبوتها في ألسنة ابنائها

والمقتطف من اوَّل عهده قد عرض لمثل هذه الاغراض وعني بها ونشر من مباحث كبار علماء العربية كلمات قد كانت هدْياً لكثير من الكتّاب والشعراء والمترجمين، ووضع الفاظاً عربية قد قامت — شيئاً — بمطالب بعض الفنون والعلوم، فدرج عليها اهل الفنون والعلوم فيما كتبوه من مباحثهم وما نشروه من كتبهم

والآن بعد ان صدرَ المرسوم الملكي الكريم نراه واجباً حتماً على المقتطف ان يفسح للمباحث اللغوية وغيرها مما يتصل الى العربية وآدابها بسبب، ميداناً يعرض فيه علماء العربية وأدباؤها ومؤرخوها ما تجود به اقلامهم من المباحث الجليلة لتكون عوناً للباحثين وسبباً في اتصال الرأي واشتراك الفكر والتنبيه الى ما يفوتُ بعض الباحثين من النظر في شتات ما تحتاجُ اليهِ العربية من الوضع والتجديد والحذف والتجريد إحياءً لها ومحافظة على عربية الكتابة وتباعداً عن العجمة الملتوية وإصلاحاً للسان والقلم. ولنا في أدباء العربية وعلمائها ومؤرخيها املاً ممتدّاً إلى غاية الكمال والوفاء في لغتنا الكريمة ونرجو ان يكون المقتطف الذي غذّى الحياة العلمية في بلاد العربية بأطيب الغذاء موفقاً في العمل لتزويد اللغة بأسباب الحياة

معجم عربي جديد

للشيخ عبد القادر المغربي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

لقد كثر في هذه الأزمنة المتأخرة اقتراح فضلاء العرب وتمنيهم قولاً وكتابةً ان يؤلف في اللغة العربية معجم يفي بحاجة ابناء هذا العصر لاسيا طلاب المدارس وكتاب الجرائد وموظفي الدواوين ويشبه ان يكون لهج أهل زماننا بهذا الاقتراح كلهج اهل القرن الثامن في مثله حتى ألف لهم العلامة زين الدين محمد بن ابي بكر الرازي معجمهُ الصغير الذي سماه (مختار الصحاح) وقد قال في مقدمته انهُ اقتصر فيهِ على ما لا بدَّ من معرفته لكل عالم او فقيه او حافظ او محدث او اديب لكثرة استعماله وجريانه على الالسن بما هو الاهم فالاهم الخ

وقد ألف الرازي كتابه هذا سنة (٧٦٠) للهجرة اي منذ ستة قرون لكن بعد مرور هذه المدة الطويلة لم يبق معجمه وافياً بغرض المتأدبين . وذلك لتغيّر الاحوال المعاشية . وتبدل الاوضاع الاجتماعية والفكرية والثقافية . فكم كلمة من كلمات لغتنا العربية كانت في زمن مؤلف (مختار الصحاح) مما يصح استعماله ويكثر تداوله . وقد امست اليوم ميتة لا يصح الركون اليها . ولا التعويل عليها . وكم من كلمة كانت مهجورة في ذلك العهد تجددت الدواعي اليوم الى استعمالها. والانتفاع بها في المطالب والمعاني التي حدثت بحدوث هذا العمران العجيب . ومن ثمَّ وجب علينا معشر العرب اليوم ان يكون لنا معجم لغوي يفي بحاجتنا كما وفى مختار الصحاح بحاجة اهل عصرهِ . والفضلاء الذين يقترحون وضع هذا المعجم اللغوي يوجهون الخطاب في اقتراحهم الى مجمعنا العلمي غالباً . ولا يخفى ان وضع معجم في اللغة العربية امر سهل جدًّا على المجمع العلمي بل هو في طاقة كل من مارس هذه اللغة ووقف على اسرارها . واخذ بحظ من فهم اشعارها . واقوال بلغائها

ولكن وضع معجم لغوي شيء — وكونهُ وافياً بالحاجة المنشودة شيء آخر . وها كم أيها السادة نموذجاً مما يقوله فضلاء العرب في صفة هذا المعجم المقترح

قال السيد امين الريحاني في مقال نشره في الهلال بعنوان (روح اللغة) : نحن معشر العرب في حاجة الى معجم لغوي يُدخل الى لغتنا بعض الالفاظ الفنية والعلمية الحديثة ويجيز

بعض الاصطلاحات العامة . وهذا من ضروريات الحياة (لكل لغة) ثم عدد أمانيه في خدمة اللغة فعد منها ان يطبع المجمع العلمي او احدى شركات طبع الكتب قاموساً عصريا مجرداًمن الالفاظ الوحشية . والمترادفات البدوية ، والامثال التي لا تنطبق على حياتنا اليوم — قاموساً مجرداً بالاخص من المواد البذائية كلها. وعار علينا ان تظل قواميسنا حافلة بالوحشيات والبذاءات الى ان قال : ان أمنيتي الكبرى ان أرى قبل ان أموت قاموساً عربيًّا عصريًّا نظيفاً اه

وقالت الآنسة (مي) في كتابها (بين الجزر والمد)

اما ما يستطيع ان يفعلهُ المجمع اللغوي فأمور منها (اولا) ان يؤلف لجنة تستخرج من كتب العرب الالفاظ والمسميات والمفردات الرشيقة البليغة التي نجهلها ويمكن الانتفاع بها. (ثانياً) ان تؤلف لجنة أخرى توجد لجميع المسميات والمعاني والادوات الجديدة اسماء وتعبيرات سهلة ان لم تكن في لغة العرب فمن طريق النحت والاشتقاق والتعريب لتقرير مايتفاهم بهِ جميع أهل الاقطار فلا يكون كلٌّ من كتابهم قاموساً لذاتهِ ومجمعاً منفرداً بنفسهِ . (ثالثاً) ان تؤلف لجنة ثالثة ترجع الى عمال السكة الحديدية وباعة الاقمشة والاثاث والماعون وأدوات الزينة والاستصباح والطب والهندسة والصناعة والزراعة وسائر شؤون الحياة ومرافق المعيشة التي انسعت دائرتها بيننا فتتعرف مصطلحات كل جماعة ومهنة وتأخذ عنها الاسماء التي عربوها وتواطأوا على استعمالها فتتناولها وتهذب منها ما هو خليق بالتهذيب وتدوّنهُ في القاموس الذي يتحتم تأليفهُ . هذا أهم ما يقوم بهِ مجمع لغوي عربي على ان لا ينفرد مجمع قطر واحد بتقرير الالفاظ وتدوينها لان اللغة ليست له وحده بل عليه ان يعرض خلاصة أبحاثه على علماء الاقطار الاخرى ومجامعها فيبحثونها ويكون التقرير في آخر الامر بالاجماع قدر المستطاع اه . هذا مثال مما يذكره الفضلاء في صفة المعجم وشرائط تأليفه وهي ترجع الى ثلاثة أمور : (١) حسن اختيار الكلمات فنختار لهُ من الكلمات ما نحن في حاجة اليهِ ونهمل ما لا حاجة لنا اليهِ

(٢) ان يضاف اليهِ كلمات جديدة دخيلة ومولدة ومنحوتة ومشتقة مما تستدعيهِ حاجة الفنون العصرية والاختراعات الحديثة

(٣) ان لا يشتغل واضعو المعجم بالعمل منفردين بل عليهم ان يستعينوا برأي علماء اللغة أو مجامعها في الاقطار العربية الاخرى توحيداً لكلمات اللغة وطرق استعمالها

وبديهي ان ما اقترحهُ الفضلاء لا يكون وافياً بالحاجة ما لم يكن القائمون بوضع المعجم متعددين من اقطار متعددة ايضاً لاختلاف الكلمات المولدة باختلاف الاقطار . وان يكون بينهم اساتذة فن وصناعة وادارة . وان يرصد لهذا العمل نفقات تساعد على طبعه طبعاً متقناً وتحضير ادوات واصطناع (كليشهات) الرسوم والصور التي ينبغي ان يتزين بها المعجم على طراز معجم (لاروس) الشهير . وان يضرب لتأليفه مهلة لا تقل عن عشرين سنة او اكثر

فاذا توفر كل هذا صح لنا الشروع في وضع المعجم والاَّ فاسناد امر تأليفه الى شخص او شخصين وتكليفهما ان يضعا معجماً وافياً بالحاجة مطابقاً لبرنامج المقترحين المختلفي الاقطار والامصار امر فوق الطاقة فيما اظن . واكرر القول بان وضع المعجم كيفما اتفق امر سهل . اما وضعهُ كما يجب فامر صعب اذ هو يحتاج كما قلنا الى كثرة في الرجال والنفقة والوقت

وقد ادرك صعوبة هذا الامر المستشرقون الذين توفرت لديهم كل الاسباب فكيف بنا نحن وقد حرمناها كلها . قال دوزي الهولاندي في مقدمة معجمهِ (الملحق بالمعاجم العربية) Supplément aux dictionnaires arabes : (لا بد من وضع معجم للالفاظ العربية المولدة لكن لغة الضاد غنية أيَّ غنى . حتى انه لا بد من مضي اربع سنوات بل ربما عدة قرون قبل ان يشرع بهذا التأليف) وقال العلامة (لين) صاحب المعجم العربي الانكليزي المشهور:

«ان وضع معجم يضم بين دفتيه المولدات العربية ويصدق عليه اسم معجم لا يمكن ان يؤلفه الاَّ جمهور عديد من العلماء ساكنين في مدن من ديار اوربا وبين ايديهم خزائن كتب عربية خطية ويعاونهم علماء عديدون مقيمون في ربوع شتى من ديار آسيا وافريقية فيكون منهم من يغترف من مناهل الاسفار ومنهم من ينتفع من الافادات التي لا يعرفها الاَّ بنو العلوم الاسلامية » اهـ

وظاهر من قول هذين المستشرقين الفاضلين انهما انما يصفان صعوبة وضع المعجم اذا اقتصر فيه على الكلمات العربية المولدة التي تختلف باختلاف الاقطار العربية فما بالكم بصعوبة الامر اذا كان المعجم مما يراد إيداعه جميع الالفاظ العربية على اختلاف انواعها واجناسها فصيحةً ومعربة ومولدة وفنية وصناعية وادارية وهو امر لا بدَّ منه في وضع معجمنا الجديد كي يكون مفيداً ومطابقاً للخطة المرسومة . ونضرب لحضراتكم مثلاً معجم اللغة الافرنسية الذي يؤلفه اليوم المجمع اللغوي الافرنسي (الاكاديمي) ومنه تعلمون مبلغ صعوبة وضع المعاجم اللغوية العصرية التي يراد ان تكون دستوراً للعمل بين ابناء الامة كلهم

***

جاء في جريدة (السياسة) المصرية في عددها الصادر في ٢٦ آب (اغسطس) ١٩٢٤ ما يلي :

« أكملت الاكاديمي الافرنسية المجلد الاول من قاموس اللغة الافرنسية من حرف (A) الى حرف (H) لكنها لم تطبعه بعد وقد بدأت العمل بهذه النسخة الجديدة من القاموس منذ سنة (١٨٧٨) اي انها قضت فيهِ (٤٦) سنة وعلى هذا المعدل يكمل القاموس كله بعد ٩٨ سنة أي سنة ٢٠٢٢ وهي تشتغل الآن في تنقيح المجلد قبل طبعه . وهذا التنقيح اقتضته التغيرات الكثيرة التي طرأت على اللغة منذ (١٨٧٨) وينتظر ظهوره في اوائل السنة القادمة اما فكرة اصدار قاموس للغة الافرنسية فقد ظهرت سنة (١٦٣٤) وهي سنة تأسيس الاكاديمي

في عهد الوزير (ريشيليو) ولكن القاموس نفسه (اي نسخته القديمة) لم تظهر للوجود الا في سنة ١٦٩٤ اي بعد تأسيس الاكاديمي بنحو ستين سنة ثم ظهرت نسخ تالية معدلة في سنين مختلفة) اهـ

***

فمن كل ما تقدم يتضح ان مجمعنا العلمي اذا باشر وضع معجم لغوي من دون مراعاة الشروط المذكورة ومن دون ان تتوافر لديه الادوات والوسائل الآنفة الذكر كان معجمه كسائر المعاجم العربية التي أُلفت قديماً وحديثاً بل ربما اشتدت عليه الهجمات وتوجهت اليه الاعتراضات باشد مما لو ألفه عالم لغوي ليست له صفة رسمية كصفة مجمعنا العلمي . فاذا هوجم المعجم هذه المهاجمة وكانت لم تراعَ فيه الشروط السابقة سقط اعتباره ثم لا يرجى الانتفاع به

وعندي ان اكبر صعوبة في وضع معجم يرضي جمهور المتأدبين هو في اختيار كلمات واهمال كلمات ، إذ لا ريب ان واضع المعجم أو واضعيه انما يتكلون في (الاختيار) و(الاهمال) المذكورين على ذوقهم الخاص فهم يختارون من الكلمات ما يقتنعون بفصاحته ورشاقته وفائدته . ويهملون كثيراً مما يحسبونه وحشياً أو لا يحتاج اليه الناس في الاستعمال . ويكون الامر على العكس بالنسبة الى ذوق الآخرين من أهل الفضل والادب فتقوم قيامة هؤلاء على واضعي القاموس فيجهّلونهم ويسفهون رأيهم ويسقطون قاموسهم حتى يتمنى واضعوه لو عافاهم الله من هذه المحنة

واذكر لكم على سبيل المثال كلمة (استنتل) ومعناها ان يكون امرؤٌ في جماعة فيخرج من بينهم ويتقدمهم فهي كلمة واحدة تدل على معنى كثير وقد قبلتها انا وتمنيت لو تحيي بيننا وتتداولها الالسنة . لكن بعض رصفائي من اعضاء المجمع عابها وعدّها من الحوشي الغريب فاذا تصدى مجمعنا لوضع المعجم المقترح والمجمع بحالتهِ الحاضرة من حيث القلة في الرجال والنقص في الوسائل يوشك ان يقع في تلك المحنة او التجربة القاسية

***

اما اذا اجتهدتم ياسادتي الاعضاء في تكثير سواد الرجال القائمين بوضع المعجم وتوفير الوسائل والادوات اللازمة له فأرجو ان تنجو من المحنة : محنة الاعتراض : اذ يقال للمعترض اذ ذاك إنهُ لا يمكن ان يكون رأيه في (الاهمال) و (الاختيار) امثل من رأي واضعي المعجم وهم كثار . ويد الله معهم كما ورد في بعض الآثار . وقد رأيتم ايها السادة انني لم ارد في تقريري هذا ان اقول انهُ لا حاجة بنا الى معجم لغوي عصري . ولا ان مجمعنا العلمي ليس من وظيفتهِ القيام بهِ . بل اردت ان استعين بكم على السعي في توفير الوسائل التي يتوقف عليها وضع المعجم حتى اذا توافرت باشرنا العمل وسألنا الله العصمة من الزلل

تنقيط الياء في آخر الكلم

للأب انستاس ماري الكرملي

من العادة الشائعة بين بعض الكتّاب، اهمال تنقيط الياء في آخر الكلم، فهم يرسمون يرضى ويرضي، ويمنى ويمني، وحبلى وحبلي، الى امثالها، من غير تنقيط الياء في المواطن التي يحسن ان تنقط دفعاً للّبس ولاعمال الفكرة في كيفية قراءتها. فالذي يرى «يرضى» يقرأها بفتح الاول والثالث. والذي يرى «يرضي» يقرأها بضم الاول وكسر الضاد. ويقول «يمنى» (خلاف اليسرى) اذا اهملت نقطتا الياء الاخيرة، ويقول يمني (بمعنى يماني)، اي بتحريك الاولين اذا نقطت الياء ويؤكد ان «حبلى» هي المرأة الحامل، ويؤكد ان «حبلي» منسوبة الى الحبلى، اذا كانت منقطة الآخر، فأنت ترى أنّ إعجام الحرف الاخير من حروف المباني حسَن، بل ضروري لازالة الاشتباه او للحرص على الوقت والتردد في القراءة

نعم ان الاقدمين لم يعبأوا بهذا الامر، فمنهم من كانوا يعجمون ومنهم من كانوا يهملون، ومنهم كانوا يعجمون مرة ويهملون اخرى في نفس الكلمة الواحدة اذا تكررت في السطر الواحد وفي الصفحة الواحدة، لانهم يتركون مسألة التنقيط الى فهم القارىء والى ذكائه. لكن اذا كان الامر بهذه الصورة، فلِمَ لا يهملون تنقيط جميع الحروف في جميع الكلم ؟ او لماذا يهملون تنقيط الياء نفسها اذا كانت في قلب الكلمة ؟ لا جرم انهم يزيدون القراءة مشاكل وصعوبات نحن في غنى عنها، لان الوقت ثمين، ويجب ان لا نضيعهُ لا لانفسنا ولا لغيرنا، ولا نتردد في القراءة

٢ — نحن واحمد باشا تيمور

كان المرحوم احمد باشا تيمور رحمهُ الله — يهمل تنقيط الياء التي يجري الكلام عليها. وجرى بيني وبينهُ مباحثة طالت ساعات، لانهُ كان اذا كتب اليَّ، اهمل تنقيط الياء بتاتاً. ولما أقنعتهُ عَدَل عن عادتهِ المألوفة، ولما عدتُ الى بغداد، نسي ما وعدني بهِ، ورجع الى ما ألفه من امر الاهمال، فذكرته بالوعد، فكتب اليَّ يشكرني على تذكيري اياه. ومنذ ذاك الحين، اخذ يعجم جميع الياءات المتطرفة. ورسائله محفوظة عندي الى يومنا هذا. فالرسائل التي سبقت

تلك المباحثة ، مهملة الياءات والتي حرّرت[1] بعدها ، منقطة كلها . وكنتُ اودّ ان ابعث الى ادارة المقتطف بالرسالة التي يذكرني فيها انهُ يستحسن تنقيط الياءات المتطرفة ، لكني لم اقع عليها الى الآن ، فان وفقت للظفر بها لا أتلكأ في الارسال بها الى ادارة سيدة المجلات العربية لتصوَّر وتطبع فيها

٣ المساوىء التي تنشأ من اهمال التنقيط

مساوىء اهمال تنقيط الياء المتطرفة كثيرة . اولها ما ذكرناه من التوقف والتردد في قراءة الكلمة غير المنقوطة ؛ واعادة قراءتها مع غيرها ليظفر القارئ بمعناها وتقويم لفظها وتحقيقهِ على الوجه الاتمّ

ثانياً . اضاعة الوقت للتثبُّت في الكلمة الطافية في عالم الوهم

ثالثاً . زيادة لفظة لا حاجة لنا اليها اذ نندفع إلى اقرار لفظتين في اللغة في حين أن ليس ثمَّ إلاَّ حرف واحد في الاصل ، وما سببهُ الاّ تردّدنا في معرفة الحرف الصحيح الاصلي . جاء مثلاً في القاموس في مادة رب ب : « وممدود بن عبد الله الواسطي الربابيّ ، يضرب بهِ المثل في معرفة الموسيقي بالرباب » فعلق نصر الهوريني اللغوي المصري المشهور، والاديب المعروف عند جميع المشتغلين بالآداب الضادية ، ما هذا اعادة نصهِ : « هكذا في النسخ بكسر القاف [في الموسيقي] وهو اشتباه ، سببهُ رسم الكلمة بالياء . وصوابهُ فتح القاف كما هو في اللغة الرومية ... » اه المراد من ايرادهِ

قلنا : هذا تصريح بيّن بما انتج إهمال تنقيط الياء المتطرفة. ومع ذلك فالهوريني غير مصيب في ما قال . نعم ان الموسيقى في الرومية (اي اللاتينية) Musica اي بالف مقصورة في الآخر لكن الكلمة أخذها السلف من اليونانيين لا من الروم (أي الرومان او اللاتين) فقد قال الخوارزمي ، في كتابهِ مفاتيح العلوم ، (ص ٢٣٦ من طبعة ج ڤان ڤلوتن) : « الموسيقى ، معناه تأليف الالحان واللفظة يونانية » اه قلنا « ويونانيتها Mousice والحرف الاخير الف ممال فيها ويلفظها اليونانيون اليوم ياءً صريحة . فانظر الى ما فعلهُ اهمال تنقيط الياء

وقال في تاج العروس في مادة س ق ع ط ر : السقعطرى كقبعثرى ، أهمله الجوهري . وقال الصاغاني : هو اطول ما يكون من الرجال والإبل وهو النهاية في الطول وقال ابن سيده: لا يكون اطول منهُ كالسقعطريّ بتشديد الياء التحتية عن ابن الاعرابي اه فانظر كيف نشأ

---

(١) انكر بعضهم صحة استعمال « حرر » بمعنى « كتب » لكن جاء في كتاب مبادىء اللغة للاسكافي في الفصل الاول (وهو لم يطبع في طبعة مصر) حرر الكتاب : كتبه اه . وفي معجم الادباء (٥ : ٣٢٩) « ثم حرر مدرجة » في بعض الدواوين اه وهناك غير هذه النصوص

عندنا لفظان في حين ان ليس لنا في الاصل إلاّ لفظ واحد . وانظر الى هذين الاحتياطين اللذين احتاطهما اللغويون لانفسهم دفعاً لكل وهم . فمرة قال السيد مرتضى : كقبعثرى في الاول ومرة قال : بتشديد الياء في الثاني فلو كان الكتّاب اعتادوا اهمال الياء في الاول وتنقيط الياء في الثاني لعلم الكل ان ما يهمل يقرأ الفاً وما يعجم يقرأ ياء صريحة . لكن ترك اللفظ على عواهنه أنشأ لنا هذه الاوهام التي نحن في مندوحة عنها . وهكذا صار لنا حرفان (اي لفظان) بدل حرف واحد

***

ولو كانت «الموسيقي» أو الموسيقى (الاولى تبعاً لليونانية والثانية تبعاً للاتينية) والسقمطري أو السقمطرى هي كل ما عندنا من الكلم الواردة في معاجمنا لهان الامر ، لكن هناك الفاظ لا تحصى ، ومطالمات لا تعد أراق العلماء واللغويون مداداً كثيراً تثبيتاً لمدعياتهم . ولا بأس من متابعة هذا البحث ، فتلاً إياه خُبراً :

قال في لسان العرب في مادة ه ر ن : «ابن سيدة : الهرنوى: نبت . قال : لا اعرف هذه الكلمة ، ولم أرها في النبات . وانكرها جماعة من اهل اللغة . قال : ولست أدري أالهرنوى مقصور ، ام الهرنوى على لفظ النسب » اهـ

فأنت ترى من هذا الاعتراف ان ابن سيدة يجهل صحة هذا اللفظ . وما ذلك إلاّ لاهمال تنقيط الياء ، فلو كانوا اعتادوا تنقيطها لعرفوا انها بياء النسبة وان لم تكن الياء ياء النسبة ، لكن اهملوا التنقيط في كلتا الحالتين ، فلم يهتدوا سواء السبيل . وكم من الالفاظ التي تعود الى هذا النهج ، وكم من الذين يخطئون في القراءة ويلحنون في الكلم — لا سيما الكلم غير المألوفة في الاستعمال ولا في النطق بها — لهذه العلة نفسها

لقد حان الوقت إذن ان نتمسك بكل ما يأتينا حسناً من السلف ، وننبذ كل سيء أتانا أو يأتينا منهم ، لان البقاء للاصلح لا لغيره

فصاحب اللسان بعد ان اورد كلام ابن سيده ، لم ينطق بنص يؤيد القصر أو التشديد في الهرنوى . — فانظر بعد هذا الى قول من يدّعي أننا في غنىً عن تنقيط الياء اعتماداً على ذكاء القارىء أو علمه أو اطلاعه على غريب الكلام ! فليفتنا هذا القارىء عن ياء هرنوى : اهي منقوطة أم مهملة . وليذكر لنا شاهداً واحداً ، أو سبباً واحداً لترجيح احد الامرين على صاحبه لنتابعهُ في رأيهِ

اما نحن ، فاننا نرى رأي صاحب التاج أي الهرنَوَى (بفتح النون) المقصورة كالهرنُوة المختومة التاء والمضمومة النون . وكثيراً ما تتعاقب الالف والهاء في الآخر أمثلة ذلك : العرضَنَى والعرَضْنة — والرُخامى والرُخامة — والرُعامى والرُعامة — والقُصَيْرى

والقُصَيْرة الى غيرها وهي كثيرة — فاذا ثبت هذا علمنا ان الهرنوة نقلت الى القرنوة [١] وهذا الابدال كثير أيضاً في لغتنا ، نحو وهف النصراني ووقف — والهرطمان والقرطمان — ورأس هنادل وقنادل — وانهار انهياراً وانقار انقياراً — وهرهر الرجل وقرقر الى غيرها

على انهُ يجوز ان يقال هرنوي بالياء المشددة تبعاً للاصل . والاصل عندنا يوناني وهو Harneion الذي هو مجرور Harneion وهو النبات المعروف ايضاً بلسان الحمل . وقد عربهُ السلف عن ديسقوريدس في كتابه ٢ : ١٥٢

٤ً — ملاحظة في كتب اللغة الحديثة

ولنا مطالعة هنا نبديها بخصوص الهرنوة . فنقول : ان معاجمنا الحديثة كثيراً ما تضبط الالفاظ بغير رويّة . فان محيط المحيط ضبط الهرْنَوى والهرْنَوة والهرْنَوِيّ بفتح النون في الالفاظ الثلاثة كما ترى ، وتابعهُ صاحب أقرب الموارد بلا زيادة ولا نقصان . اما صاحب البستان فتابع اللغويين المذكورين وزاد الهرنوة (المضمومة النون عن جميع اللغويين المدققين) غلطاً ثانياً اي كسر هاءها . فقال الهِرنوة [٢] وكل من هؤلاء الثلاثة مخطىء والصواب الهرْنَوَى والهرْنَوِي بفتح النون ان ختمت الكلمة بالقصر أو بالياء المشددة . والهَرْنُوَة بفتح الهاء وضم النون ان ختمتها بالواو والهاء . فانظر بعد هذا كيف اننا في حاجة الى انعام النظر في ما نطالعهُ من دواوين اللغة الحديثة التأليف ، وكيف يجب علينا ان نحترز من كل ما يكتب وكل ما نقرأ

ثم ان كان المطالع يتوق هذا التوقي في ما يبحث عن ضالتهِ في المعاجم اللغوية فخير لهُ ان لا يقتنيها لكي لا يسقط السقطات الهائلة ، ومن الجهة الاخرى ان كتب اللغة القديمة صعبة المورد وصعبة المقتنى في الوقت نفسهِ . ولهذا فقد حان الوقت ان توضع في الايدي دواوين لغة محررة الالفاظ ، والمباني ، والمعاني ، وسهلة المنال . أما أن تكون رخيصة المقتنى ، فتلك المزية لا تكون الاّ للمعاجم المختصرة التي تكون لباب المعاجم الكبرى الحسنة التبويب وبذلك نكون قد خدمنا الوطن واللغة ، وحببنا لاولادنا المطالعة والتحقيق . وبهذا القدر اليوم كفاية لان الموضوع ذو فنون وشجون الاب انستاس ماري الكرملي

---

(١) الذي حققناه بانفسنا ان الهرنوة غير القرنوة وان تشابهت اللفظتان والادلة كثيرة وليس هنا محل ايرادها . وانما تابعنا هنا من يذهب الى ان الهرنوة هي القرنوة

(٢) لا ندري كيف جاز على صاحب البستان ان يقول الهرنوة ، بكسر الهاء وفتح النون لان لا وجود لهذا الوزن في لغتنا . نعم عندنا فعلوة (والبعض تقول تفعله) مثل ترقوه وقرنوة وهرنوة (وكلها بفتح الاول وضم الثالث) وفعلوة بضم الاول والثالث مثل عنصوة . اما الفعلوة بكسر الاول وفتح الثالث فلم نعثر على مثال لموزونه . ولعل هناك الفاظا نجهلها . ولذا لم نجد مسوغاً لما ذكره صاحب البستان



تعريب الاسماء الاعجمية

للفريق امين باشا المعلوف [1]

ليس غرضي من كتابة هذه السطور البحث في جواز التعريب او عدم جوازه فقد بحث في ذلك كثيرون قبلي ووفّوا الموضوع حقهُ انما غايتي ذكر بعض الاصول التي يجب مراعاتها في نقل الاسماء اليونانية واللاتينية ولا سيما الاعلام والاسماء العلمية فان اكثر المعرّبين في ايامنا ينقلون عن الانكليزية او الفرنسية فيكتبون هذه الاسماء كما تلفظ في احدى هاتين اللغتين غير ملتفتين الى اصلها فيقولون مثلاً بلين Pline او بلني Pliny عوضاً عن بلنيوس Plinius كما هو في الاصل . ويقول بعضهم جوليان وطراجان وجوستنيان وجوليوس او جول بالجيم وصوابها بالياء كما هي في الاصل وكما كتبها العرب فيقال يوليانس وطرايانس ويوسطنيانس ويوليوس فهؤلاء القياصرة لم يكونوا من الانكليز ولا من الفرنسيين بل من الرومان . ويقول البعض اشيل Achille وارشيلوك Archiloque وشلسس Chalcis وبارنشيما Parenchyma وتريشين Trichine وتاشيكاردي Tachycardie وصوابها اخيل او اخلس او كلس وارخيلوخس او اركيلوكس وخلكيس او خلقيس وبارنخيما او بارنكيما وتريخينا وتاخيكارديا اما بالخاء او بالكاف والخاء اقرب الى الاصل . ويقولون جرام وجراموفون وسينماتوجراف بالجيم وصوابها بالغين . ويقولون برنيس Bérénice والسيبياد Alcibiade وسيرل Cyrille وسيرين Cyrène بالسين نقلاً عن الفرنسية وصوابها بالقاف او بالكاف فيقال برنيقة والقيبياذس وكيرلُس وقورينا او القيروان كما ورد في المؤلفات العربية القديمة [2] ويقولون انازاركا Anasarca بالزاي وصوابها اناساركا بالسين لان اللفظة ليست فرنسية حتى يتحول الحرف s فيها z في اللفظ ومثلها فيزيولوجيا وصوابها فيسيولوجيا واوروزيوس Orose وصوابها اوروسيوس كما في المؤلفات القديمة . ويقولون انوري Anurie وبوليوري

---

(١) نشرت هذه المقالة في مقتطف يونيو ويوليو ١٩١١ وقد اعدنا نشرها هنا لتجدد العناية بالموضوع

(٢) مدينة القيروان في تونس مصرها العرب واسمها مأخوذ في الاصل من قورينا أو القيروان التي في برقة والتي لا تزال اطلالها ماثلة

وانيمي Anémie نقلاً عن الفرنسية وصوابها انوريا وبوليوريا وانيميا والاصلح Polyurie ابدال الالف في اواخر الامثلة المتقدمة بالتاء اي الاصلح ان يقال بارنخيمة وتريخينة وتاخيكاردية وفسيولوجية وانورية وبوليورية وانيمية الخ

والكلمات التي ذكرتُ انها تكتب خطأً والتي سأذكرها منقولة عن مؤلفات حديثة. وسأذكر في ما يلي بعض القواعد التي جرى عليها العرب في نقل هذه الكلمات وامثالها واذكر الكلمات اليونانية بحروف لاتينية او بصيغتها اللاتينية او الفرنسية او الانكليزية واذكر الكلمات اللاتينية اما بصيغتها اللاتينية او كما يكتبها الانكليز والفرنسيون لكي يسهل على جمهور القراء قراءتها

﴿ القاعدة الاولى ﴾ حرف غمّا اليوناني يقابله حرف g في اللاتينية واكثر اللغات الاوربية ومخرجهُ في اليونانية بين الغين العربية والجيمين اي الجيم المصرية والجيم السورية كما ذكر البستاني في مقدمة الالياذة فمتى ورد في لفظة يونانية او يونانية الاصل يعبَّر عنهُ بالغين ما لم يكن بعده حرف i او حرف e. مثال الاول لغة Logos غراماطيق Grammatica غلوكوس Glucose فلغموني Phlegmone بلغم Phlegma فيثاغورس اغامنون غريغوريوس غراموفون الخ. ومثال الثاني اسفنج Spongia ديوجنيس او ذيوجانس Diogenes فرجية Phrygia جرجس Georgios سرجيس او سرجيوس Sergius هدروجين اكسجين فيلولوجية جولوجية Geologia هستولوجية. وقد اجتمع المثالان في جيوغرافيا او جاوغرافيا Geographia كما في المؤلفات القديمة او جغرافية كما نكتبها الآن

وقد جرى العرب على هذه الطريقة في نقل الاسماء اليونانية وجرى عليها اكثر الكتاب في عصرنا على ان بعضهم يعبر عن هذا الحرف اليوناني بالجيم ولا بأس بذلك لو كان اكثر المتكلمين بالعربية يلفظون الجيم حلقية كما يلفظها سكان القاهرة وبعض مدن الوجه البحري وبعض قبائل العرب وهم لا يزيدون على اربعة ملايين او خمسة والناطقون بالعربية يبلغون الخمسين مليوناً او اكثر وهم يلفظونها اما شجرية كأهل الصعيد وأكثر عرب البادية او مخففة كبعض العامة من اهل الشام. وليس بحثي الآن في صحة لفظ الجيم ولا كيف كان يلفظها عرب الجاهلية او بعض قبائل العرب بل بحثي في صحة نقل هذا الحرف اليوناني وكيف كان العرب ينقلونهُ الى لغتهم. والمصري الذي يلفظ الجيم حلقية لا ينفر من هذه الالفاظ اذا كتبت بالغين اما الذي يلفظ الجيم شجرية او مخففة فيجد هذه الالفاظ غريبة جداً في سمعهِ متى كتبت بالجيم

واذا كان الحرف اليوناني غمّا مزدوجاً او مشدداً ابدل الاول منهما بالنون مثل الاسفنج

والانجيل وهما في الاصل اليوناني بهذا الحرف اي غمًّا مشدداً وقس على ذلك انكيلوسس وانكيلوستومة اي المحجنة الفم وغيرها وهي قاعدة عند الذين نقلوا الالفاظ اليونانية الى اللاتينية

ولم يكن ما تقدم مطرداً عند النقلة من العرب فقد كتبوا جالينوس Galenus وبرج Pyrgos وجبسين وجص Gypsum وسلجم Salgama[1] بالجيم لا بالغين وكتبوا الغرنوق Geranos بالغين لا بالجيم . ولعل الذين عربوا جالينوس وجبسين وسلجم وامثالها لولاً من نقلة السريان فكتبوها بالجيم لان الجيم تلفظ بالسريانية كالجيم المصرية

بقيت الاسماء الاعجمية التي ليست من اصل يوناني والتي يلفظ فيها هذا الحرف كما تلفظ الجيم المصرية فبعض النقلة يعبرون عنهُ بالجيم وعليهِ اكثر المصريين فيقولون جلادستون وجرانت وجردنر وجوردون وبعضهم يعبر عنها بالغين فيقولون غلادستون وغرانت وغردنر وغردون وافضل التعبير الثاني للسبب الذي ذكر آنفاً . ولا بد من مراعاة الذوق والمألوف في هذا التعبير فقد الف النظر كتابة اسم ونجت بالجيم وغردون بالغين

ولا يخفى ان هذا الحرف يلفظ احياناً عند الافرنج كالجيم الشجرية او كالجيم المخففة عند بعض السوريين فسردار الجيش المصري مثلاً اسمهُ السر رجنالد ونجت[2] بلفظ الجيم الاولى شجرية والثانية حلقية فيفضل كتابة اسمهِ هكذا « السر رجنالد ونغت » للتمييز بين اللفظين . ثم عند الافرنج ايضاً حرف j فلو عبرنا عن حرف g بالجيم فماذا نعبر عن حرف j كقولنا جونسن وجان وجاك وما اشبه

وأما معظم الالفاظ الواردة في التوراة والتي يكتبها الافرنج بهذا الحرف اي « G » فانها تكتب بالجيم لان هذا الحرف يلفظ بالعبرانية والسريانية كالجيم المصرية مثال ذلك جبرائيل وجبريل وجلجثة وجهنم والجليل وجيحون وغيرها وهي كثيرة جداً

اما الكاف الفارسية وتلفظ كالجيم المصرية فكان العرب يعبرون عنها بالجيم فقالوا جلنار في « كلنار » وجاموس في « كاوميش » وجوز في « كوز » وجنديدستر في « كنديدستر » الخ . وعبروا عنها احياناً بالكاف فقالوا كزمازك او جزمازك وهو عفص الطرفاء معرب كزمازو ولا يخفى ان في العربية الفاظاً كثيرة تكتب احياناً بالقاف وأحياناً بالجيم منها القت والجت والجرجس والقرقس

---

(١) ويقال شلجم بالشين المعجمة ويقال عند عامة البغادذة شلغم وقد تكون اللفظة معربة كما قال الاب انستاس او انها فارسية (انظر الالفاظ الفارسية المعربة مادة شلجم)

(٢) يوم كتابة هذه المقالة اي سنة ١٩١١

﴿ القاعدة الثانية ﴾ حرف ذلتا اليوناني يقابله d في اللاتينية وغيرها ويلفظه اليونان كما تلفظ الذال المعجمة فتى ورد في اسم يوناني او يوناني الاصل يعبر عنهُ بالذال المعجمة او بالدال المهملة والاول اشهر واصح . مثال الاول اوذيما œdema اي الورم الرخو او الانتفاخ وابيذيمية Epidemia اي الوباء وارستيذس والقيبياذس وذيوجنيس . ومثال الثاني الدوسنطارية والاسكندر والدلفين

***

اما كتابة اوزيما بالزاي كما في كثير من المؤلفات الطبية الحديثة فلا مسوغ له مطلقاً ومثله كتابة غلغموني بدل فلغموني بالفاء ولا ادري مصدر هذا الخطأ ولعله طبعة ابن سينا في رومية . واقبح منهُ قولهم الفتق الاوربي والحمض الكبريتيك وصوابها الفتق الأُربي نسبة الى الأُربية اي اصل الفخذ والحامض الكبريتيك . فالحمض بهذا المعنى لا هو عربي ولا اعجمي وكأنهم قاسوه على الملح

﴿القاعدة الثالثة ﴾ حرف ثيتا اليوناني يقابله الحرفان th في اللاتينية واخواتها ويلفظه اليونان كالثاء العربية ويجب ان يعبر عنه بها مثال ذلك : ثيوفيلوس او ثاوفيلس وفيثاغورس وثوموس او ثيمس Thymus وهو الصعتر . على ان العرب كانوا يعبرون عن هذا الحرف بالتاء احياناً فقالوا تاوفيلوس عوضاً عن ثاوفيلوس وذكر ابن البيطار الثيموس بالثاء وبالتاء ولعل امثال هذه الالفاظ كانت بالثاء في الاصل فجعلت الثاء تاء بتلاعب النساخ

﴿ القاعدة الرابعة ﴾ حرف «كپا» اليوناني يقابلهُ حرف C في اللاتينية واخواتها فكان الرومان يعبرون عنهُ بهذا الحرف ويلفظونهُ كالكاف العربية اينما ورد وسواءٌ جاء بعدهُ حرف ساكن مثل هرقل Heracles أو حرف علة مثل كبدوكية Cappadocia ومقدونية Macedonia فيجب ان يعبر عنهُ بالكاف او بالقاف في الالفاظ اليونانية أو الالفاظ التي من أصل يوناني سواءٌ لفظهُ اللاتين المحدثون كالكاف أو كالشين المعجمة أو لفظهُ الانكليز والفرنسيون كالكاف او كالسين المهملة . مثال ذلك القيفال وهو عرق في الذراع من Kephale باليونانية أي الرأس لان القدماء كانوا يفصدونهُ لعلل الرأس ومنهُ Cephalus باللاتينية والالفاظ الفرنسية والانكليزية المشتقة منها . ومثلهُ القنطاريون Centaurium وهو نبت مشهور والقراصية والكرز Cerasia وهما صنفان من الثمر أو الشجر والقيروطي Cerote وهو صنف من المرهم والقيلة Cele كقولنا قيلة مائية Hydrocele لداءٍ معروف وقيطس Cetus وهو الحوت اسم لصورة من صور السماء ومقدونية أو مكدونية Mecedonia وخلكيس Chalcis أو خلقيس وهي المدينة التي توفي فيها ارسطو وكيرلس Cyrillus وهو اسم مشهور وبرنيقة أو برنيق

Berenice وهو اسم لعدة مدن في مصر وافريقية . وقبرس Cyprus وكيليكية Cilicia وهي بلاد في الاناضول الخ . فلا يقال شلسس مثلاً بل خلكيس أو خلقيس كما جاء في المؤلفات العربية وكذلك لا يقال القديس سيريل كما ورد في اكثر الجرائد يوم اهدى ملك البلغار نشان القديس كيرلس الى جلالة السلطان بل يقال القديس كيرلس ولا عذر في جهل هذا الاسم على شهرته في الشرق . ولا يقال البرنيس كما في احدى الجرائد الحديثة بل برنيقة أو برنيق كما في معجم ياقوت ولا يقال للدروب التي في بلاد الروم ابواب سيليسيا بل أبواب كيليكية

***

اما الاسماء العلمية الحديثة التي عُبّر فيها عن هذا الحرف بالسين فلا سبيل الى اصلاحها لان السمع قد الفها ولان الافرنج يلفظونها كذلك مثل سيروز الكبد اي تشمعهُ وصوابها كيروسس وسيماتوغراف وصوابها كيماتوغراف كما يكتبها الافرنج احياناً

﴿ القاعدة الخامسة ﴾ كان الرومان كما تقدم يلفظون حرف c كالكاف أو القاف اينما ورد سواء جاء بعده حرف ساكن او معتل كحرف i أو e أو æ أو y بدليل قول العرب قيصر Cæsar لاسيزر أو تشيزر ولو قالوا احياناً شيزر كما قال امرؤ القيس في ذكره مدينة شيزر أو حصن شيزر وفسقية Piscina وقول اليونان كيكرون Kikeron لا سيسرون وقول الالمان Kaiser . ثم تغير لفظ هذا الحرف في القرن السابع المسيحي فصار مثل لفظ ch بالانكليزية في قولنا China وذلك في الاحوال التي يلفظ فيها كالسين في الانكليزية أو الفرنسية اي قبل i و e و æ و y فكانوا يقولون تشيتشرون مثلاً عوضاً عن كيكرون فيجب ان يعبر عن هذا الحرف في الاعلام اللاتينية بالكاف أو بالقاف دائماً فيقال قيصر Cæsar وكيكرون Cicero واسيقيبيون Scipio ولا بأس بقولنا شيشرون وشيبيون لكن كتابة هذين الاسمين بالسين لا مسوّغ لها مطلقاً . اما سبب اضافة حرف النون بالعربية فسيأتي ذكره

ويظهر ان اللاتين كانوا يلفظون هذا الحرف في زمن ابن البيطار كالشين أو كالجيم الشجرية متى جاء بعده احد الاحرف التي مرّ ذكرها فانهُ سمى زيز الحصاد جيقال Cigale وقال ان اهل صقلية يسمون القراصية جراصيا

﴿ القاعدة السادسة ﴾ حرف j ليس من الحروف اللاتينية وهو حديث في اللغات الاوربية ادخل اليها في القرن الرابع عشر ولم يتم استعمالهُ فيها قبل اواسط القرن السابع عشر ولم يكن فرق بينهُ وبين حرف i في بادىء الامر ثم تحوَّل لفظهُ في الفرنسية والانكليزية الى ما نعهدهُ فيهما الآن وبقي بعض الكتّاب يرسمونهُ في الالفاظ اللاتينية عوضاً عن حرف i في بعض مواضعهِ اي متى كان لفظهُ كالياء العربية مثل يوليوس Julius ويسوع Jesus ويوبتر

على ان اكثر المؤلفين في ايامنا يكتبون امثال هذه الكلمات بحرف J كما كان يكتبها Jupiter الرومان فيقولون Iulius و Iupiter و Iesus فيجب ان يعبَّر عن حرف i متى ورد في الالفاظ اللاتينية بالياء مطلقاً لانهُ في الحقيقة i لا j فرنسية او انكليزية فيقال يوليوس لا جوليوس وبهِ سمي شهر يوليه ونكتبهُ بالياء ويونون Juno لا جونو وبها سمي شهر يونيو وطرايانس Trajanus لا طراجان ويوسطنيانس او يوستنيانس لا جوستيان ويوليانس لا جوليان ويوبتر لا جوبتر وامثال ذلك كثيرة

ولا يزال بعض الاوربيين يعبرون عن الياء في كثير من الاسماء الشرقية بهذا الحرف مثال ذلك يوسف Joseph يهوه Jehovah ياسمين Jasmine بيازيد Bajazet يافا Jaffa اليابان Japan الخ . ويلفظهُ الالمان والطليان ومعظم الاوربيين كالياء العربية فيكتب الالمان اسم ياقوت Jakut ويكتبهُ الانكليز Yacut ولا يزال الانكليز يلفظون كلمة Hallelujah كما نلفظها بالعربية اي بصوت الياء لا بصوت الجيم . كذلك سرايفو فيجب كتابتها بالياء لا سراجيفو واسمها عند الترك بوسنه سراي ومثلها يوغوسلافية لا جوجوسلافية او جوغوسلافية

﴿ القاعدة السابعة ﴾ ليس في الحروف الهجائية اليونانية ما يقابل الهاء العربية الا علامة كانوا يضعونها قبل حرف العلة الثقيل ويعبَّر عنها الافرنج بحرف h وكان كتَّاب العرب يعبرون عنها بالهاء غالباً مثل هوميروس Homerus وهرقل Heracles وهيرودوتس Herodotus فيجب ان تضاف الهاء في تعريب هذه الاسماء كما يفعل الافرنج وكما كان شائعاً عند اكثر كتَّاب العرب فيقال هوميروس لا اوميروس او اومير وهدروجين لا ايدروجين وهدروكلوريك لا ايدروكلوريك سواءٌ لفظ الفرنسيون هذا الحرف او لم يلفظوهُ . على ان كتَّاب العرب لم يجروا على ذلك دائماً فقالوا اوميروس وهوميروس وابقراط Hippocrates وابرخس Hipparchus وادرة Hydra وهو داء معروف وايرونيموس Hieronymus وهو اسم قديس مشهور يكتبهُ الانكليز Jerome والفرنسيون Jérôme ويعربهُ اكثر الكتَّاب خطأً جروم وصوابهُ ايرونيموس اوهيرونيموس

﴿ القاعدة الثامنة ﴾ حرف أبسلون اليوناني يعبَّر عنهُ في اللاتينية وغيرها من اللغات الاوربية بحرف y وكان اكثر كتَّاب العرب يعبّرون عنهُ امَّا بالواو او بالضمة فقالوا قُبْرس Cyprus وادرة Hydra ودوسنطاريا Dysenteria وغلوقوريزا Glycyrrhiza اي عرق السوس وبولوغالن Polygala وبولوبوديون Polypodium وثومس Thymus وفارونوخيا Paronychia وكلها انواع من النبات وبوريطس Pyrites وهو ضرب من المعادن واللورة Lyra وهي من صور السماء. وعبروا عنهُ احياناً بالياء فقالوا كيموس Chymus وفريجية وكيرلس وفيثاغورس وقال بعضهم فوثاغورس . والغالب في تعريب هذا الحرف اليوناني ان يكتب

بالواو او بالضمة وقد عبّر عنهُ في الالياذة العربية بالياء او بالكسرة في اكثر المواضع واظنهُ اخف على السمع

﴿ القاعدة التاسعة ﴾ تعرَّب الاسماء اليونانية واللاتينية كما هي في حالة الرفع لا كما يكتبها الفرنسيون او الانكليز في بعض الاحيان فيقال مثلاً فيثاغورس لا فيثاغور وهيرودوتس لا هيرودوت واقليدس لا اقليد وهوميروس لا اوميير وبلنيوس لا بلين عن الفرنسية اوبلني عن الانكليزية. ولا بأس ببتر بعضها كما كان يفعل العرب احياناً فيقال هرقل وثيوفيل وارسطو وسقراط وابقراط عوضاً عن هرقلس وثيوفيلوس وارسطوطاليس وسقراطس وابوقراطس . ولا ارى ذلك مستحسناً الاَّ في الالفاظ التي كتبها العرب كذلك

ولا بد من ملاحظة الاسماء التي تنتهي بالحرفين on في اليونانية وبحرف o في اللاتينية فالاسماء اليونانية التي تنتهي كذلك كان الرومان يحذفون حرف n في حالة الرفع فيكتبون Platon مثلاً Plato وكان اليونان يضيفون حرف n. على الاسماء اللاتينية التي تنتهي بحرف o في حالة الرفع فيكتبون لفظة Cicero اللاتينية Kikeron لان هذا الحرف اصلي في اللاتينية يظهر في حالة الجرّ مثل قولنا Ciceronis. فيجب ان نلحق هذه الاسماء كلها بحرف النون كما كان يفعل العرب واليونان وكما يفعل الفرنسيون فيقال نيرون Neron في Nero وافلاطون Platon في Plato وابلُّون او افلُّون Apollon في Apollo ولاون Leon في Leo وشيشرون Ciceron في Cicero ويونون واسترابون لا نيرو وبلاتو وابلُّو وليو وسيسرو وجونو واسترابو كما يكتبها الانكليز

﴿ القاعدة العاشرة ﴾ حرف خي اليوناني يقابلهُ ch في اللاتينية وهو قريب في اللفظ من الخاء العربية فيجب ان يعبر عنهُ بها كما كان يفعل كتّاب العرب . مثال ذلك ملنخوليا Melancholia وارخيلوخس Archilochus لا ارشيلوك وفلوطرخس لا بلوتارك وارخميدس لا ارشميد واخلّس او اخيل لا اشيل وخلكيس او خلقيس (Chalcis) لا شلسس وتريخينا (Trichina) لا تريشين وتاخيكارديا (Tachycardia) لا تاشيكاردي

***

على ان هذه القاعدة لم تكن مطردة عند كتّاب العرب فقد عبروا عن هذا الحرف اليوناني بالكاف في بعض الاحيان فقالوا انطاكية بالكاف وانطيوخس بالخاء والبطريرك بالكاف وقالوا ونركلس والكيموس بالكاف وربما عبروا عنه بالقاف فقالوا القرن (Chronos)والقرطاس (Chartes) ثم عادوا وقالوا الخريطة وقال المحدثون الخارطة وهما والقرطاس من اصل واحد . ورأيت اسم ارخميدس في تاريخ الحكماء لابن القفطي مكتوباً ارشميدس . وكل ذلك نادرٌ

ولا اريد انهُ يجب التعبير عن هذا الحرف اليوناني بالخاء دائماً فلا بأس بكتابتهِ بالكاف لا سيما في الالفاظ التي الفها السمع والتي تلفظ كذلك عند الافرنج مثل كرونومتر ولكن كتابة اخيل وارخيلوخس وخلكيس بالشين قبيحة جدًّا بعد ما كتبت هذه الاسماء وامثالها بالخاء مئات السنين

﴿القاعدة الحادية عشرة﴾ الاسماء اليونانية واللاتينية تلفظ كما تكتب تماماً ولا يتغير لفظ حروفها فيجب نقلها الى العربية كما هي بصرف النظر عن اللفظ الانكليزي او الفرنسي كما في كثير من الامثلة التي مرَّ ذكرها . وقد بقيت امثلة اخرى قلَّما ينتبه لها فالانكليز مثلاً يقولون هباشيا (Hypatia) ويقول الفرنسيون إباتي (Hypatie) لكن يجب ان يكتب هذا الاسم كما هو تماماً اي هباتيا بالتاء كذلك دلماتية او دلماطية ومثل ذلك فسيولوجية وبلاسمة واناساركة واوروسيوس وامبروسيوس يجب ان تكتب كلها بالسين لا بالزاي اي كما هي في الاصل وكما كتب العرب امثالها فقالوا فيلسوف لا فيلوزوف

***

هذا ما رأيت ذكره في هذا الباب وقد بقيت اصول غير هذه يجب ملاحظتها في التعريب اضربت عن ذكرها لشهرتها منها التعبير عن حرف p بالفاء في اكثر الاحيان كقولنا افلاطون وفيثاغورس وبعض الكتّاب في ايامنا يستعيضون عن الفاء بالباء الفارسية . ومنها التعبير عن حرف v بالواو كقولنا والنتينوس وبعضهم يعبر عنه بالفاء المثلثة . ومنها عدم الابتداء بالساكن بالعربية فامَّا ان يحرك الساكن او تضاف همزة قبلهُ ولذلك قالوا الاسقنقور والسقنقور

ولا اريد في ما تقدم انهُ يجب رد الاعلام الحديثة الى اصلها اللاتيني او اليوناني متى نقلت الى العربية فاسم السر جون سَيْمون مثلاً يجب ان يكتب كما يلفظهُ الانكليز لا ان نردهُ الى اصلهِ ونقول السر يوحنا سمعان ومثله مارك وانطوان وانطوني وماركو بولو واشيل متى كانت اسماء اشخاص من المحدثين فيجب ان تكتب كما تلفظ في لغات اصحابها لا كما كان يلفظها اليونان او الرومان . اما اذا كانت اسماء اشخاص من اليونان او الرومان فيجب ان تكتب كما كان اليونان او الرومان يلفظونها ولا سيما متى كانت مكتوبة كذلك في المؤلفات العربية القديمة

الجسد والروح

والانانية وتحقيق الذات

لعلي أدهم

يعزو بعض الاخلاقيين قصور الانسان عن بلوغ الكمال واستجابته لداعي الهوى وقابليته للسقوط الى تغلب الجانب الحسي من الانسان على الجانب الروحي . وذلك لان الشهوات تعتاق تقدم الروح وترصد له الموانع والعقبات . ولو تخلص الانسان من اسار الجسد لاتسعت حدود حياته الروحية ورحبت آفاقها ولولا الجسد لما تكدرت الطبيعة الروحية وظلت صافية لا يميل بها ميل ولا تستذلها شهوة

وتاريخ كل انسان حرب لا سلام فيها ولا مهادنة لمقاومة طائش الرغبات وهوج العواطف بل هي حرب بين قوتين غير متعادلتين . احداهما كاملة الاهبة بصيرة بمواضع الهجوم ونواحي الضعف والاخرى ضعيفة الحول قليلة الحيلة . لان اجابة مطالب الجسد سريعة مباشرة وتلبية مطالب الروح عسيرة بعيدة المنال . وتقدير الخير والاحساس بجمال الحياة الروحية يحتاج الى رياضة شاقة وشحذ للذكاء وعزيمة مصممة وجأش ربيط . والحياة تسير في باديء الامر سيرها الطبيعي فاذا سمت وتهذبت بدأت سيرتها الروحية . فحياة الطفل او حياة القبيلة شبيهة بحياة الحيوان حيث تستبد الميول الجسدية قبل ان يعلن العقل سيطرته ويتم تهذيب الروح . وما دام الامر كذلك فمن السهل ان يذهب بنا التفكير الى ان الانسان اذا اراد ان يسمو بالروح وينشد الكمال فلا مفر له من قمع الشهوة وتعذيب الجسد استنقاذاً للروح واحتفاظاً بحرية العقل . ومن هنا نشأت فكرة الزهد ونمت وترعرعت وازدهرت وبسطت ظلالها الكثيفة وسلطانها الضخم . واشتد الميل الى الانصراف عن مناعم الحياة ومفاتن الوجود واعتبارها رجساً من عمل الشيطان ينبغي لكل من اراد ان يفتدي روحه وينجو بنفسه الفرار من غوايته واتقاء شباكه . واكبر انتصار يحرزه الانسان في هذه الحياة الفانية هو التغلب على الجسد ونبذ مسراته واخماد حيويته

وانك لتلتقي بصور شتى وضروب مختلفة من هذا المظهر في متفرق الازمنة ومنثور الامكنة . وتصادفه قاعدة للحياة وقانوناً مطرداً في الهند بين البوذيين وعند بعض الطوائف المسيحية . وتاريخ الثقافة الغربية من القرن الرابع الى اواخر العصور الوسطى يريك العجب العجاب من تأثير فكرة الثورة على الجسد ويكشف لك عن مظهر مروع من مظاهر تلك الحرب

الشعواء التي اعلنت على الاهواء والشهوات . ويريك كيف استشرى هذا الداء الوبيل وذاعت عدواه من مكان الى مكان دون ان يصده حاجز وكيف اذبل كل نضارة وعصف بكل جمال وشوه كل متعة وكاد يقضي على الحضارة ويغير النفوس لولا نهوض احرار المفكرين وثورتهم على سننه وشرائعه

وعند ما نكرّ الطرف في نواحي الماضي ونتأمل هذه الحالة المفجعة يخالجنا الاسف ويحتوينا العجب . الاسف لهذه الضحايا البشرية التي ذهبت فريسة فكرة خاطئة . والعجب لان ذلك مخالف لكل المبادئ الاساسية التي تقوم عليها الحضارة لان الحضارة قائمة على الرغبة في اطالة الحياة والعناية بها وتعميقها وتخفيف ويلاتها وجعلها جميلة محبوبة . والكفاح المستمر بين الفرد والفرد والامة والامة سببه الحقيقي هو رغبة كل فرد في ان يزيد ثروته وينمي ممتلكاته المادية والروحية حتى يحصل على اوفى نصيب من الحياة بتقليل الآلام وتوفير اللذة . وكل مخلوق يحاول ان يعب من المسرات وينعم باللذات ويتملى من جمال الحياة ويحظى بالسعادة على حين ترى هؤلاء الصادفين عن الحياة يزيدون حياتهم ظلاماً وضيقاً ويفرون من اللهو البريء والسرور الطبيعي فرارهم من الوباء ويأبون الا ان يزيدوا هذه الحياة الحافلة بالمتاعب والهموم بلاءً على بلاء وكداً على كد

تلقاء هذه الحالة النفسية المخالفة لمقتضيات الحضارة ومطالب العقل يجب ان نتريث قليلاً لنرى علة نشوئها وهل هي جنون لجاني وهوسة عارضة ؟ وكيف وقع تحت تأثيرها رجال لا نشك في نبل نفوسهم وعظمة اخلاقهم وجلال تضحيتهم

منذ بدأ الانسان يأخذ باسباب الحضارة ويتدرج في الرقي وتشتد به الرغبة في المعرفة ، معرفة نفسه ومعرفة ما حوله نشأ فيه عاملان . عامل الرغبة في طلب « السبب » او « العلة » وعامل الرغبة في فهم « الغاية » . فالانسان كلما صادفته صعوبة او عرض له مشكل محير جعل يسأل نفسه ما السبب الذي جعل الاشياء هكذا وما الغاية من وجودها ويتردد بين « من أين » و « الى أين » . وهناك فارق كبير بين هاتين المسألتين . لان المسألة الاولى مسألة منطقية وطلب حلها مسألة تلتقي فيها الآراء ويتفق عليها . أما مسألة الغاية فهي مسألة ادبية اخلاقية متوقفة على درجة الانسان من الرقي ونصيبه من الادراك . وقوانين المعرفة المسيطرة على العقل تتطلب أن يكون لكل شيء سببه ولا يمكن ان نتصور شيئاً ليس لهُ سابق سبب . ويمكن ان نتصور الدنيا حلقة متصلة من الاسباب دون ان يكون لها غاية ولكن هذا لا يرضي في نفوسنا الحاسة الاخلاقية لان الحياة بلا غاية في نظرنا باطل الاباطيل وقبض الريح وافتراض غاية للحياة لازم من النظر الفردي لان حياة الفرد مرة قاسية ومعرفة الاسباب لا تقنع القلب ولا تشفي الغلة ولا مفر لنا من ان نتساءل دائماً ما هي الغاية ؟

والبعض عند ما يعجزون عن ادراك هذه الغاية يستولي عليهم اليأس ويعتقدون ان الانسان

كالحيوان يأكل ويشرب ويلهو وغداً يطويه الموت ويفرقه العدم. فمن كان نصيبه من الحياة حسناً فليهنأ به ومن ساء منها نصيبه فليألم في صمت لانه لا حق ولا عدالة ولا غاية في حكومة الدنيا وما هي الا سلسلة أبدية من الاسباب

ولكن هذه الفلسفة اليائسة الحزينة التي تجرد الحياة من البهاء وتنفي عنها أسباب العزاء لا ترضي الكثيرين اذ لا يجدون فيها بلسماً لآلامهم ولا مرهماً لجراحاتهم لانها تترك الانسان على عجزه ووهنه وقصر حيلته منفرداً مع الفناء يواجهه من ناحية الابد القصي ومن ناحية الازل السرمدي. وهنا يفرّ الانسان من هذا الموقف الذي يصعب احتماله ويصور لنفسه وجود عالم غير هذه الدنيا وينقل محور اهتمامه من الجسد الى الروح. وهذا الجسد المقضي عليه بالعدم هو لباس الروح الخارجي الوقتي والروح لا تموت مع الجسد لانها ليست فانية مثله. وهذه النفس الخالدة هي الجديرة بالرعاية والخليقة بالتمجيد ولها مستقبل زاهر في عالم اصفى من هذا العالم وفي حياة اسعد من هذه الحياة وادي الدموع ومراح الاباطيل والخيالات. والآن وقد قسم الانسان نفسه الى جسم وروح يسترسل مع منطق هذه الفكرة حتى يرسخ في نفسه الاعتقاد بان الجسد هو عدو الروح الابدي وخصمها اللدود وانه هو الذي يقطع عليها سبيل الكمال المنشود بمطالبه الحقيرة وغاياته المسفة فعلى الروح اذن قهره واذلاله

وغير خاف ان المقصود بهذه الفلسفة هو العزاء والسلوى ولذلك لما تفاقمت بلايا الحياة وعظمت ويلاتها وضاقت سبل الفرج اشتدت الحاجة الى هذا العزاء وقويت الرغبة في اماتة الشهوة واجتثاث اصولها ويبدو ذلك واضحاً في العصور السوداء المظلمة عندما يغمر الانسانية الشقاء وتطغى عليها البأساء والنوائب دون ان تجد مخلصاً

ونرى من خلال ذلك موقفين اقتضتهما متاعب الحياة وضروراتها. وهما موقفان متناقضان. الموقف المادي الذي يجعل الجسم كل شيء ولا يرى غاية للحياة سوى ارواء شهواته والاستمتاع باللذة حتى يحين الموت ويضع حداً لهذه اللعبة السخيفة. والموقف الروحي الذي يعمد الى قهر البدن لتتخلص الروح وتقرب من الغاية الابدية

والمشكل الآن هو هل قضي على هذين العنصرين المكونين للانسان — العنصر المادي والعنصر الروحي – أن يظلا متضادّين متعاكسين لا يطلب لاحدهما الحياة الا بسحق الآخر؟ اني أعتقد بامكان التوفيق بينهما وارجح ان الملاءمة بينهما ليست من قبيل المساومة الحقيرة او المحالفة الموقوتة بين الخصمين وانما هي وحدة داخلية لازمة لان العامل الروحي يستطيع ان يرسل اشعته في نواحي الحياة المادية ليطهرها ويسمو بها. وهذا التحالف لا يدنس الروح وانما يسمو بالجسد وعندما يكمل كل منهما الآخر يدنوان من الكمال. واذا لم اكن قد اسأت الفهم فان مثل هذا التوفيق بين مطالب الروح ومطالب البدن هو ما يرمي اليه شاعر الهند تاجور في كتابه القيم « سعد هانة »

ومما يدعو الى التشكيك في الرأي القائل ان مصدر سقوط الانسان هو الجسد كون كثير من العيوب والنقائص الاخلاقية لا صلة لها بطبيعة الانسان الحسية مثل الكبرياء والطمع والبخل والانانية والحسد والانتقام . بل بعض اللذات الحسية تستهوي الانسان لبواعث غير حيوانية . فالانسان قد يتعاطى المسكرات لينسى همومه أو ليستحثّ خواطره . وبعض العيوب الاخلاقية تقاوم الميول الجسدية وتفوقها فان البخيل قد يسبق الزاهد المستعبد في الحرمان وانكار النفس . ومن ثم تبدو لنا جلية ناصعة هذه الحقيقة التي كلف جهلها الانسانية الكثير من الآلام والعذاب والمسخ والتشويه وهي ان اخماد الرغبات الطبيعية لا يجيء بالغاية المنشودة . بل ربما جاء بنقيضها . وللرغبات الانسانية شأن كبير في الحياة الادبية والروحية . والجسد الذي نحاول قهره يمكن ان يصير اكبر نصير للروح في بلوغ مطالبها . واستغلال الميول والشهوات وتسخيرها في خدمة الغايات السامية قد يأتي باعظم النتائج في الحياة الادبية والحياة الروحية . وطبيعة الانسان الحسية وتركيبهُ العصبي وحواسه ومشاعره وشهواته ومراغبه وعلاقته بالوسط المادي ليست في نفسها شراً ولا خيراً وانما ملاك الامر على الانتفاع منها وكيفية التصرف بها . فاذا اعتبرت وسيلة من وسائل الروح فانها تجتلب المواد التي يمكن ان يحولها العقل افكاراً نبيلة ومشاعر سامية ورغبات انسانية . ونحن نعلم كل ما نعلم عن الطبيعة من طريق حواسنا فكل ما يسحرنا جماله ويبهرنا جلاله انما هو مواد زودت الحواس بها العقل ليصوغها . ولا يغرب عن البال ان الحياة الادبية الروحية اساسها الحياة الطبيعية المادية . فالحياة العائلية مثلاً التي يحيا فيها الفرد في حياة غيره اساسها الخارجي قائم على لبانات عضوية محضة . ولكنه كما يحيل الفنان الاحجار طرفاً فنية رائعة وكما تخرج قوة النباتات الحيوية من الثرى الوضيع الزهرة والفاكهة فكذلك حياة الزواج تحيل اللبانات والشهوات اهواء نقية وعواطف رقيقة يقوم عليها الشعور القومي والعواطف الانسانية التي تتكون منها لحمة حياتنا الاجتماعية وسداتها

وليست الحياة الروحية الحقة هي الحياة العاطلة من الميول والاهواء فان انبل الطبائع الانسانية وابطال التاريخ ورجال الوطنية واحباب الانسانية كانوا جميعاً من ذوي الاحساسات الحادة المرهفة . بل ان جانباً كبيراً من عظمتهم كان مصدره شدة نبض العاطفة الانسانية في نفوسهم ووفرة احساسهم . وليست الاهواء العارمة والميول العنيفة هي سر عظمتهم وانما سرها هو ان المبدأ الادبي وقوة الارادة والنزعة الروحية مكنتهم من السيطرة على هذه الاهواء المحتدمة وتحويلها الى قوة في خدمة الغايات العليا . وسر القوة على تحقيق المثل الأعلى للطبيعة الانسانية كامن في الارادة لا في سحق البدن والاسراف في تعذيبه . والارادة الخيرة ترى سعادتها في العمل على ادراك هذه الغاية السامية كما ان الارادة الشريرة هي التي تجد لذتها في الغايات الشخصية المحصورة والمآرب الوضيعة . والصلاح

الحق هو التحقيق الصادق للنفس . والفساد العضال والسقوط المزري هو التأكيد الزائف لها واعتبار تحقيق الذات اسمى غاية في الحياة ليس معناه ارجاع الخير الى البواعث الانانية ومخالفة فكرة نزاهة الخير ونقاوة الفضيلة ونقض الرأي القائل بأن انكار الذات هو اسمى ضروب الفضيلة وان تضحية الشهيد ونكران القديس لذاته وتسامي البطل لمصلحته هي اسمى افعال الانسان . ولا مفرّ لازالة اللبس من التفريق بين الانانية وتأكيد الذات لانهما مختلفان كل الاختلاف ومتناقضان اشد التناقض . وقد اهمل بعض الاخلاقيين هذا التفريق وقالوا بنظرية الانانية العامة وهي التي تركز كل اعمال الانسان دقيقها وجليلها وشريفها ووضيعها على اساس الانانية وتردها الى بواعث المصلحة ودوافع اللذة . فكل عمل يعمله الانسان انما يبتغي به المصلحة ويلتمس من ورائه اللذة . وفعلنا السيء معناه انا نستريح لآرائه ونستعذب القيام باعبائه . ونفس الاعمال الشاقة المؤلمة انما نباشرها لأننا نستهين فيها بالآلام ولذة الامتناع ترجح حرقة الألم . وقد نتناول الجرعة المرة من الدواء لأن لذة الاستمتاع بالصحة اعظم من تجرع المرارة . وقد تطيب نفوسنا لتحمل المتاعب في سبيل من نحب . فالوطني الذي يشقى لاجل مبدأ او الشجاع الذي يقدم على التضحية والشهيد الذي يجود بحياته بسبب عقيدته يستشعر كل منهم لذة تفوق الألم الدامي الذي يقاسيه وما دام السرور يدخل في كل باعث انساني وما دامت التضحية نفسها دثاراً لامتاع النفس فالانانية اذن ثابتة وطيدة . ولكن كل هذا ناشيء من الخلط بين الانانية وتحقيق الذات . وقد يستخفنا السرور لتحقيق رغبة ولكن يلزم ان تكون هناك غاية مطلوبة قبل ان نستشعر اللذة في ادراكها وليس مما يقلل من قيمة الخير ارتياحنا لعمله كما ان الولوع بالاساءة والغرام بالشر من اتم الدلائل على ضعة النفس

ولكن اذا كانت كل اعمال الانسان هي تحقيق للذات من بعض الوجوه فكيف يكون تحقيق الذات مقصوراً على الاعمال الخيرة ؟ والجواب على ذلك ان ما ينبغي تحقيقه هو النفس الفردية . وليس معنى ذلك ان كل عمل يتجه الى مصلحة الفرد يسمى انانية لانه اذا كان المقصود بهذا العمل ان ينمي الفرد استعداده ويكمل من ثقافته ليكون اقدر على النهوض بالغايات الكبيرة والاعمال الباهرة فان هذا يعد من اشرف الاعمال . وأقل الناس نصيباً من الفهم وأضألهم عملاً يمكن ان يسمو في ضوء الواجب وعلى هدى الحب ولكن لا خلاف في ان السياسي المدرب والشاعر العبقري والفنان الموهوب والخطيب المصقع يمكن ان يقوم كل منهم بقسط اوفر وان يقدم تضحيات اغلى قيمة وأبعد اثراً . وكلما عمل الانسان على النهوض بعقله وجسده وتوفير معلوماته وتوسيع ثقافته وبذل الجهد في خلق فردية جميلة منسجمة فانه سيقوم بأجل خدمة لحياة الفكر والروح ويتصل بحياة المجتمع وحياة الشعب عامة وحياة الانسانية جمعاء والتوفيق بين نوازع الروح ومطالب البدن هو الاساس الذي تقوم عليه هذه الحياة الانسانية العالية

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

— ٢ —

﴿السياسة والدين في القرون الوسطى﴾ من أثمن ما خلفته القرون الوسطى من النظريات السياسية اصرارها على ان تكون الاخلاق عنصراً قويًّا في سياسة الدولة فلا تتجرد اعمال السياسيين من تلك السلطة الوجدانية التي يؤدي فقدها الى ما نعانيه اليوم من السياسة المادية التي لا روح فيها او كما يقال ان السياسة عموماً ولا سيما سياسة البسطة والتوسع لا دين لها . ولكن الناس في تلك الايام افرطوا جد الافراط في ادخال الدين في كل ناحية من نواحي حياتهم فكانوا يأكلون في الدين ويشربون وينامون في الدين فلا جرم ان تكون السياسة ايضاً باباً من ابواب الدين وان تعالج شؤون البشر الدنيوية في فصل من فصوله كما تعالج شؤونهم الاخروية . قال الاستاذ (كول) «وكان الرجل المفكر من اهل القرون الوسطى — وقد بنى مذهبه السياسي على ما تدعيه الكنيسة العالمية من حقها في تسيير الناس على السنّة القويمة — يعالج كل قضية من القضايا السياسية والاقتصادية كأنها قضية اخلاق لاهوتية . ويتجلى هذا الامر في الشؤون الاقتصادية في تلك القوانين المنمقة التي تحرم الربا الفاحش وتعين الاحوال التي يحصل فيها الرجل المسيحي على الربح العادل ، وفي الشؤون السياسية في السعي لاستمداد جميع السلطة التي تتمتع بها الدولة وجميع القواعد التي تقوم عليها الطاعة في الرعية من مشيئة الله كما هي متجلية في التوراة والانجيل وفي الملهمات التي هبطت على قلب الكنيسة فنطقت بها ، وقد تسربل الادراك السياسي الناهض عند اهل القرون الوسطى بسربال الدين الموحى به والتى هذا الادراك على الآراء المقتبسة من ارسطو ومن الشريعة الرومانية اجازة الكنيسة وتصديقها»

﴿نيكولو مكيافللي﴾ : ومن الرجال الذين نشأوا في اواخر القرون الوسطى وكتبوا في السياسة على طريقة مبتكرة رجل يدعى (نيكولو مكيافللي) — (١٥٢٧ — ١٤٦٩) وهو صاحب كتاب الامير الذي نقله الى العربية الاستاذ محمد لطفي جمعة — وقد عالج فيه القضايا السياسية بنظريات جديدة لا دخل للدين فيها خلاصتها شرح الطرائق الشيطانية التي تمكن الرجل الطموح من التربع على العروش والقبض على الصوالج فنصح بعض الامراء في ايطاليا بان يسيروا

في سياستهم على منهج دنيوي صرف من حيل ودسائس وفتن لم يسبق لها مثيل حتى ان سلطاناً قاهراً عاش في القرن العشرين مثل السلطان عبد الحميد لما ترجم له هذا الكتاب استغواه كثيراً فكان يسترشد به في المدلهمات . وفي عقيدتي ان كتاب «الامير» هذا هو الانجيل السياسي الذي تسير عليه الدول المستعمرة في الشرق ، فما من تفريق بين الاهلين وتسليط طبقة منهم على طبقة اخرى واستنزاف دمائهم جميعاً واخضاعهم للسلطة المحتلة وصرف اذهانهم عن غرضهم الاسمى الا صفحات من هذا الكتاب الغريب كتبت في اوائل القرن السادس عشر (١٦١٣) ونشرت في القرن العشرين . فمكيافللي هو بهذا المعنى رسول المستعمرين الامين وقد علمهم كيف يحفرون هوة سحيقة بين السياسة والاخلاق وكيف يسوغون غاياتهم بجميع الوسائط مهما كان نوعها وان يشيدوا سلطانهم القاهر — كما يفعل الامير الطموح المجرد من العواطف الانسانية — بالقوة والخداع والقسوة والمراآة والتظاهر بالغيرة الكاذبة

والظاهر ان استفحال المطامع البابوية وحرصها على الاستئثار بالسلطة الدنيوية استئثارها بالسلطة الاخروية وعرضة ايطاليا في تلك الايام للتنازع الداخلي بين صغار الامراء وضعاف الجمهوريات والغزو من الخارج كل ذلك خلق في نفس (مكيافللي) شعوراً بالحاجة الى اسس سياسية جديدة تسير عليها ايطاليا فيتجدد شبابها ويستقيم امرها وتتحقق وحدتها وتتم سيادتها

ولكن سياسة (مكيافللي) البعيدة عن الدين لم تؤثر في الخطط التي اختطها زعماء الحركة الاصلاحية الدينية في القرن السادس عشر اقل تأثير ، ولئن كان هذا الاصلاح ثورة على البابوية وسلطانها المزدوج فهو مع ذلك لم يخرج قيد انملة عن سلطة الدين لان اتباع (لوثر) و (كالفن) الزعيمين المصلحين الكبيرين اختاروا الميدان الديني لمبارزة البابوية وصراعها ، لا جرم ان احتاج (لوثر) في مقاومته طموح البابا الزمني الى مناصرة الامراء والملوك وسائر اصحاب المصالح الدنيوية والاستمساك بالدول السياسية الناشئة والاعتماد على امرائها وقد عطف هؤلاء عليه وحدبوا على طريقته المستحدثة لتكون سلطتهم مطلقة في وجه كل من ينازعهم فكان الحرية الدينية التي الحّ (لوثر) في ان يتمتع بها كل فرد بحسب وجدانه آلت الى تأييد السلطة الاستبدادية في الملوك . اما (كالفن) في سويسرا فقد نحا نحواً آخر اذ جمع في طريقته بين السلطتين الدينية والدنيوية ورأى من الواجب المحتم ان يقيم دولة سياسية تؤيد الدولة الروحانية فكان في البروتستانية اشبه شيء بالبابا في الكثلكة وكانت دولته ارستقراطية خاضعة لطبقة القديسين خضوع الدول الحاضرة للرأسماليين ، على انها في التحليل النهائي كانت قائمة على تأييد الشعب فهي بهذا المعنى ديمقراطية . وقد تركت اثراً ظاهراً في تلك الايام بما شجعت من حكم ذاتي واستقلال محلي في الانحاء التي لم تتمكن فيها من انشاء حكومة على الاسس التي ترتضيها وبهذه الواسطة روجت فكرة الاستقلال الذاتي وساعدت على الخلاص من حكم البابا في احداث دولة عالمية شاملة تخضع للكثلكة ولخليفة بطرس في رومية . ولكن (كالفن) كان يحلم

بثورة اخلاقية تقوم بها الدولة والكنيسة متحدتين ويكون قسط الكنيسة فيها متفوقاً له القدح المعلّى . وقد ردّ على هذه الآراء « القروسطية » (نسبةً الى القرون الوسطى) الكاتب الانكليزي (ريتشارد هوكر) المتوفى سنة ١٦٠٠ بما يستحق ان يكون درساً عميقاً وعظةً بالغة لبعض الدول العربية في ايامنا. وانهُ لمن المؤسف ان نشعر ونحن في القرن العشرين بحاجة الى دروس في السياسة نتلقاها من كتاب القرن السادس عشر . فما ذهب اليهِ (هوكر) ان هنالك فرقاً جليًّا بين السنة الطبيعية — وهي الناموس الطبيعي — وبين السنة الايجابية. فتلك ازلية ثابتة لا تتغير وهذه تتبدل بحسب الحاجة الخارجة والمصلحة الطارئة وكل الحكومات في نظره قائمة على السنة الايجابية وتابعة لاحكامها فهي اذن قابلة للتبدل بحسب الاحوال المستجدة . اما كيف تطبق السنة الايجابية وكيف تتعين فهذا يحتاج الى العقل مستنيراً ومستقوياً بكل نوع من انواع العلم والاختبار والتمرين . وقال ان الاحوال تتطلب نظاماً دينيًّا سمحاً يتسع الناس ويضم تحت جناحيهِ جميع الانكليز الصالحين . وعنده ان اتباع (كالفن) اخطأُوا في محاولتهم ان يستخرجوا من الكتاب المقدس الاوامر والنواهي التي تسيطر على سيرة الافراد في جميع الاحوال دينية كانت ام دنيوية . فالدنيا اشكال والوان واوضاعها فنون . وفيها مجال متسع يجول فيهِ الانسان بحريته من غير قيد سماوي ليعين الخطة التي يسير عليها بموجب المقتضيات الزمانية والمكانية تحت سلطان الناموس الطبيعي والعقل الدائم

﴿توماس هوبس﴾ ومن اشهر الكتاب الاوربيين الذين كتبوا في السياسة (توماس هوبس) الحكيم الانكليزي المتوفى سنة ١٦٧٩ فقد ذهب الى أن الدولة مؤسسة قد عملها الناس بمحض قوائم العقلية . فهي من صنع ايديهم ونتيجة اختباراتهم لأن اول حاجة ماسة احتاج اليها المجتمع هي النظام او القوة ذات السلطة المطلقة لتطبيق هذا النظام ، والسبب الداعي الى هذه الحاجة الاضطرارية هو الحالة التي وجد عليها الناس في الطبيعة منذ تألف مجتمعهم . وخلاصتها انهم في حرب معلنة من الجميع على الجميع ولا سبيل الى النجاة من هذا الشر المستطير الاّ بالاتجاه الى حفظ النظام وتطبيق مفاصل العدل ، اذن فالدولة هي سلطان قائم على اساس « المقاولة الاجتماعية » التي نجد لها مثيلاً يقربها من الاذهان بالمقاولات التي تعقد في الاسواق التجارية والصناعية بين المتعاملين لمصلحتهم جميعاً

ان السلطة القوية المطلقة هي الاداة التي تنفذ هذه « المقاولة الاجتماعية » او هذا « العقد » وعليها تتوقف وحدة المجتمع صحيحة غير متفرقة. ومع ان هذه النظرية لا تستند الى الاستقراء ولا يوجد في تاريخ الانسان الخالي ما يؤيدها او يدل على ان الروابط السياسية في الدولة حبكتها ايدي المفكرين بمحض قوائم العقلية فقد أثرت في الشؤون السياسية اثراً بليغاً خصوصاً في صوغ الدساتير ولا تزال تفعل ذلك الى يومنا هذا . ومن اظهر آثارها ما ذهب اليهِ بعض أئمة المشترعين امثال (اوستن) واتباعه من الوجهة الشرعية من جعل سلطان الدولة سلطاناً

مطلقاً لاحد له غير قابل للتجزئة. قال الاستاذ (كول) : ثم ان سقوط النظرية المشهورة القائلة بحق الملوك الالهي غادرت « السلطة المطلقة » التي دعا اليها (هوبس) من غير اساس نظري ترتكز عليه . ولكن هذه السلطة والحق يقال ليست وقفاً بالضرورة على حاكم واحد مفرد بل هي ملك الحكومة مهما كان شكلها . وقد فضل (هوبس) الحكومة الملكية باعتبارها اقدر على حفظ النظام غالباً الاَّ انهُ لاحظ ان مذهبه ينطبق ايضاً على السلطة المطلقة للحكومة الارستوقراطية او للحكومة الديموقراطية كما يجوز ان ينطبق على الحكومة الملكية. وجوهر هذا المذهب ان للحكومة كائناً شكلها ما كان السلطة المطلقة على جميع الرعايا

﴿جون لوك﴾ ثم حدثت الثورة الانكليزية المشهورة في سنة ١٦٨٨ وكان حكيمها البارز وكاتبها البليغ (جون لوك) المتوفى سنة ١٧٠٤ وصاحب كتاب « الفهم البشري » فقد بدأ رأيه بتحديد سلطة الحكومة وحصرها في حماية الارواح والاموال والدفاع عن الحرية ، وعنده ان المجتمع وضع طبيعي بالنسبة الى الانسان ، وان قواعد السياسة تستخرج من الشريعتين الالهية والطبيعية لا كما فعل استاذه (هوبس) الذي جعلها وليدة الادراك الانساني فقط وهذا يباعد بين الانسان والطبيعة المحيطة بهِ . وقد تناول (لوك) من استاذه فكرة (المقاولة الاجتماعية) وعلى نظرياته بنى شكلها . وكلاهما يقول ان المجتمع البشري قائم على مقاولة معقودة بين افراده وهذه المقاولة نافذة ما قبلوها . غير ان (هوبس) يرى ان الشعب بتنصيبه سلطاناً على نفسهِ قد تنازل له ولخلفائه من بعده عن حقوقهِ تنازلاً ابديًّا فكأن المقاولة هي تنصيب الحكومة ليس الاَّ . اما (لوك) فقد نحا نحواً آخر اذ قال ان الشعب لن يتنازل عن حقوقهِ الى الابد بمجرد استصناعه حكومة بل يبقى في المرجع النهائي صاحب الكلمة العليا والسلطان النافذ مع صلاحية ثابتة تخوله في كل حين ان يسترجع الحكومة التي اسسها وان يلغيها اذا هي خانت الامانة التي وضعها في عنقها . وهكذا يتجلى الفرق بين السلطة المطلقة التي قال بها (هوبس) وبين السلطة الدستورية المحدودة التي قال بها تلميذه (لوك) فكانت تفسيراً نظريًّا للاعمال التي انجزتها الثورة الانكليزية في سنة ١٦٨٨ ولا حاجة بنا الى تذكير القارىء ان مثل هذه الافكار السياسية هي التي حفزت العثمانيين الى انقلابهم في سنة ١٩٠٨ كما حفزت الايرانيين جيرانهم ولا تزال تحفز أمماً شرقية شتى في خصوماتهم الداخلية والخارجية

﴿جان جاك روسو﴾ انتقلت نظرية « المقاولة الاجتماعية » من انكلترة الى القارة وممن قال بها واتخذها تعليلاً صالحاً للمجتمع (جان جاك روسو) الحكيم الفرنسي المتوفى سنة ١٧٧٨ فقد نقلها عن (هوبس) و (لوك) واخذ معها من الاول قوله ان السلطان غير محدود ولا يقبل التجزئة وانه ينشأ في المجتمع حالما تعقد « المقاولة الاجتماعية » ومن الثاني تفريقه بين السلطان والحكومة وهذا التفريق يترك القوة العليا بيد الشعب باعتباره سلطاناً ويجعل الحكومة مشتقة منه وهي ابداً خاضعة لارادته . بيد ان (روسو) يختلف عن (لوك) بجعله هذا السلطان الشعبي — وهو سلطة

الجمهور — عاملاً ايجابيًا نشيطاً لهقسطه العظيم في القيام باعمال المجتمع لا واقفاً موقفاً متفرجاً سلبيًا كله اذعان لمشيئة الحكومة . وهكذا نرى نظرية « العقد الاجتماعي » قد اصبحت على يد (جان جاك روسو) نظرية ديموقراطية من الاساس واصبح الحق للشعب ان يحكم حقيقة كما يحكم اسماً . وذهب في تصوير هذه النظرية الى ما يشبه الحالة ايام « الدولة البلدية » التي عرضنا لها على عهد الاغريق يعني ان تكون المدينة الواحدة دولة مستقلة بذاتها وتكون شؤونها بيد جميع أهلها مباشرة لا ذكر للنواب في ذلك بل الافراد جميعهم يقضون ويمضون باشخاصهم ، فليس في مذهب هذا الحكيم ما يسوّغ بناء الامبراطوريات المتسعة الضخمة على اساس مشروع كما هو الحال في عصرنا لان ذلك يقتضي تأليف المجالس النيابية في حين ان السلطان الشعبي في نظره لا ينتقل لا بالانتداب ولا بالتنازل بل يبقى وقفاً على الشعب أو ملكاً ملازماً له . ولئن لم يؤثر هذا المذهب تأثيراً كليًا في اضعاف الامبراطوريات التي اخذت تنمو في القرن الثامن عشر فقد احدث انقلاباً خطيراً في تفهيم الناس ان ارادة الشعب هي التي تحلّ وتعقد وانها الاساس الذي تبنى عليه الدولة ، اذن « فالارادة العامة » التي يجمعها القول المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » هي الثمرة الناضجة لمذهب « العقد الاجتماعي » كما تحوّل على ايدي (جان جاك روسو) . ويتجلى هذا التأثير خير التجلي في الثورة الاميركية لان القواعد الاولى التي بنيت عليها هي قواعد مستخرجة من هذا المذهب

ثم حدثت الثورة الفرنسية الكبرى فكان بيانها عن حقوق الانسان مستقىً من (مونتسكيو) وكتابه (روح الشرائع) ومن (لوك) وفكرته في وجائب الدولة ومن (روسو) واصراره على ان يكون السلطان الشعبي سلطاناً نشيطاً عاملاً لا شأن للسلبية فيه ، والظاهر ان روحه المتحمسة الوثابة كانت تنفعل من خمول الناس حوالها ومن وقوفهم وقفة المتفرج على الطوارىء المستحدثة تدفعهُ الى هذه الحملة المنكرة على الجمود كما تدفع كل مصلح اليوم في كثير من انحاء العالم العربي حيث معظم الناس يقنعون من محاربة الكوارث النازلة على رؤوس امتهم مثلاً باساءتهم فهم ما ورد « اللهم حوالينا ولا علينا » كأن المرء بحسب هذا التفسير المغلوط اذا رأى الشر في جيرانه وليس في بيته يسلم في النهاية من الشر او ان السنة النيران اذا اندلعت لا تتجاوز بيوت الظالمين الى الصالحين . فاين « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » من مثل هذا الموقف البارد ؟ وانني لاعجب كثيراً من الذين اتخذوا الدفاع عن الاخلاق صناعة لهم كيف يعدون مذنباً من يقف متفرجاً على مسلوب ولا ينتصر له ولا يعدون مذنباً من يرى أمة باسرها تذبح كالشاة على قارعة الطريق في رابعة النهار ولا يحرك لسانه ببنت شفة في الدفاع عنها

وما اجمل تلك العظة البالغة التي كان يكررها رئيسنا المرحوم (هوورد بلس) : « اللهم أغفر لنا ذنوبنا السلبية وذنوبنا الايجابية » وادفع عنا شر خطيئة ارتكبناها باقدامنا على فعلها أو لم نرتكبها بوقوفنا متفرجين على فاعليها من المجرمين الظالمين

الثروة في البحر

الراديوم والذهب والبروم والبترول واليود

«في الامواج ذهب» كذلك يقول احد المولعين بالبحث عن الكنوز. فلا يستغرب العلماء قوله بل يؤيدونهُ فيهِ. فيقولون ان في البحار كل ما يحتاج اليهِ الانسان. بل ان ثروة اليابسة لا تعدل جزءاً يسيراً من ثروة البحار. وقد خطب الاستاذ تيلور في معهد فرنكلن بفلادلفيا فقال: «سوف تتحقق الاجيال القادمة من ثروة البحر التي لا تنفد. ففيهِ اصناف منوعة من المواد الكيمائية وثلاثة ارباع الاحياء التي على سطح الكرة الارضية، وقد يوجد فيهِ قوة للتحريك والتبريد. كل هذا يتحدّى الكيماويين لابداع طرق تمكنهم من استغلال كنوز الماء»

﴿الراديوم﴾ ومن عهد قريب قدَّم الدكتور بجُت Piggot تقريراً الى الجمعية الجيوفزيكية الاميركية عن رواسب الراديوم في المحيط الهادىء فذكر ان هذه الرواسب تحتوي من الراديوم على مقدار يزيد نحو اثني عشر ضعفاً عن القدر الذي تحتويه الصخور عادةً من الراديوم على اليابسة. بل يبدو ان هذه الرواسب تحتوي على اكبر نسبة عرفت من هذا العنصر الثمين. فاذا قدرنا وجود مثل هذه الرواسب في قيعان كل البحار بلغ مقدار الراديوم في الاغوار التي يغمرها الماء الف مليون طن! ولا يخفى ان العلماء في خلال الثلاثين سنة او تزيد التي انقضت على اكتشاف الراديوم لم يتمكنوا من جمع اكثر من ٦٠٠ جرام منهُ استخرجوها من الوف الوف الاطنان من الصخور. وثمن كل غرام منها قد يبلغ ١٥ الف جنيه او اكثر. فثمنها جميعها نحو تسعة ملايين جنيه. ولكن في قعر البحر ما قيمتهُ مئات الملايين من الجنيهات من الراديوم

على ان كل راديوم البحر ليس رواسب في قعره. بل ثمة مقادير منهُ محلولة في مياههِ. فقد اسفر تحليل ماء خليج المكسيك عن وجود آثار للراديوم فيهِ ولكنها يسيرة جداً لم يتبينها الباحثون الاّ بأدق الكواشف الكهربائية. بيد ان ذلك الاثر اليسير في مقدار معيَّن من الماء يبلغ نحو ١٦٠٠ طن من الراديوم في جميع مياه البحار والمحيطات. فاذا احجم الباحث عن الحفر في قاع المحيط الهادىء لاستخراج الراديوم فعليهِ بالراديوم، المحلول في الماء يستخرجهُ من اقرب الشواطىء اليهِ. ولكن استخراج اوقية من الراديوم يقتضي انتزاعها من تسعة اميال مكعبة من الماء. ولم نسمع حتى الآن ان مهندساً او كيماوياً عني بوضع خطة للقيام بهذا العمل الضخم والدقيق في آنٍ واحد

﴿الذهب﴾ والذهب ارخص من الراديوم، ولكنه اوفر منهُ مقداراً في مياه البحر. فالاوقية ثمنها نحو ١٩ ريالاً فقط. وفي الاوقية ٧٣٧٢ قمحة. ويرى الدكتور آرثر لتل —

وهو كيماوي مشهور — ان « كل ذراع مكعبة من ماء البحر تحتوي على ١/١٠٠ من القمحة من الذهب » وهو مقدار يسير. ولكنهُ يعني ان كل ميل مكعب من ماء البحر يحتوي على قدر من الذهب قيمتهُ نحو ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه . فانت اذا وقفتَ في نافذة من فندق ونذرْ بالاسكندرية واشرفتَ على البحر الابيض وقعت عيناك على قدر من الذهب يفوق كل الذهب الذي استخرج من بطن الارض حتى الساعة ولكنهُ محلول في الماء

ونذكر في هذا الصدد ان شركة تألفت في أواخر القرن الماضي لاستخراج الذهب من ماء البحر بطريقة استنبطها مؤلف الشركة القس يارنجان (Yarnegan) فبنيت المصانع على شواطىء ولاية ماين باميركا ، وبدأت أوساق الذهب تنقل منها الى نيويورك في مقادير متوسط قيمتها ٤ آلاف جنيه كلَّ اسبوع . فارتفعت أسعار الاسهم في السوق المالية . ثم توقف ارسال الذهب فجأة لما بني مصنع جديد . ولدى البحث تبين ان القس الورع مساعداً كان يزجُّ برادة الذهب في المصنع الاول فيعاد استخراجه لدى تقطير الماء وتصفيته ...!

وقد عني الاستاذ فرتز هابر ، الكيماوي الالماني المشهور ومستنبط طريقة صنع الامونيا من نتروجين الهواء ، والفائز بجائزة نوبل الكيمائية سنة ١٩٣١ ، بموضوع استخراج الذهب من مياه البحار فبنى معملاً للبحث في سفينةٍ وارتاد بها مياه المحيط الاطلنطي من شواطىء لابرادور الى ما تحت خط الاستواء . واتفق مع ضباط السفن التجارية التي تمخر البحار على ان يرسلوا اليهِ نماذج من الماء في نواحٍ مختلفة من البحار التي يمخرونها . وقد حلّل حتى كتابة هذه السطور ما يزيد على ٥٠٠٠ نموذج من ماء البحر ، فوجد اختلافاً بيّناً في محتوياتها الذهبية . والظاهر ان التقدير القائل بوجود عشر قمحة من الذهب في كل طن من الماء يصدق على المياه التي تجاور جزيرة نيوفنلند . اما المياه حيث يلتقي تيار لابرادور البارد بتيار الخليج الدافىء فقد وجد فيها نحو قمحة ونصف قمحة من الذهب في كل طن من الماء . اما المتوسط في سائر الانحاء فأقل مما تقدم . فمياهُ المحيط الهادىء امام مدينة سان فرنسسكو لم يخرج منها الاّ ٠٠٠٢٤ر من القمحة من كل طن ماء . اما بعض مياه المحيط الاطلنطي جنوب خط الاستواء فكان الذهب فيها اقل من ذلك . وقد خرج الاستاذ هابر من مباحثهِ بالنتيجة الآتية : لا « يرجّح ان يصبح ترسيب الذهب من مياه البحار عملاً تجاريًّا رابحاً»

لكنَّ البحار واسعة وعميقة وتحتوي على نحو ٣١٨ مليون ميل مكعَّب من الماء ، مباحة لقاصدها . وبراعة الكيماويين لا تقف عند حد . فاذا اعتمدنا اقل متوسط من الذهب وجده الاستاذ هابر في مياه البحار ، ثبت لنا ان ثمة ثروة تقدر بملايين الجنيهات للرجل الذي يعرف ان يستخرجها ، كما عرف هابر ان يستعمل النتروجين الذي في الهواء ، وقد كان على كثرتهِ — لان اربعة اخماس الهواء نتروجين — مباحاً للناس فلم يعرف ان يستغله احد من قبله

﴿ البروم والبترول والبوتاس ﴾ البروم عنصر سائل محضرٌ لا مندوحة عنهُ في صناعة بعض

اصناف البنزين وينابيعهُ نادرة. ففي الولايات المتحدة منطقتان ضيقتان في ولايتي اوهايو ومشيغن يستخرج منهما هذا العنصر الثمين. لذلك عنيت بعض الشركات الصناعية التي لا تستغني عنهُ باستنباط طريقة تمكنها من الحصول عليهِ اذ نفدت ينابيعهُ . والمعروف ان ماء البحر يحتوي على ٠٠٠٦ر من واحد في المائة من البروم. فعمد أصحاب هذه الشركات الصناعية الى البحث عن طريقة تمكنهم من استخراج البروم من ماء البحر استخراجاً اقتصاديًّا . فبني مصنع صغير للتجربة في بلدة «اوشن ستي» على شاطىء ولاية ماين. ثم نقل هذا المصنع الى سفينة تتجول بهِ امام شواطىء ولاية كارولينا الشمالية . فاسفرت التجربة عن نجاح باهر. وتمكن المعمل من ان يستخلص بطريقة كيمائية بارعة البروم من سبعة آلاف جالون من الماء كل دقيقة فاستخرج من هذا العنصر الثمين ما قيمتهُ ١٠٠ الف جنيه في شهر واحد . وغني عن البيان ان ما في مياه البحر منهُ لن ينفد

ثم ان في الرواسب التي في قيعان البحار بترولاً وما يماثلهُ من الادهان. وقد وجَّه معهد البترول الاميركي عنايتهُ الى هذا البحث. فاوفد باحثين الى نواح مختلفة من المحيطين الاطلنطي والهادي فاستخرجوا من رواسب قعرها نماذج كثيرة حللت بعد استخراجها ليعرف ما فيها من المواد العضوية والبترول . فثبت ان بعض الرواسب التي على مقربة من الجزائر الواقعة الى غرب لوس انجلوس — بغرب اميركا — استخرج منها ٢ر٧ الجالون من البترول من كل طن من الرواسب . واسفر البحث عن مثل هذه النتيجة في الرواسب التي استخرجت من قعر البحر امام شواطىء كارولينا الشمالية . اما الرواسب التي استخرجت من القاع امام ولاية نيويورك فلم يخرج منها الا جالون ونصف جالون من البترول من كل طن. ولا يخفى ان طائفة كبيرة من العلماء تذهب الى ان البترول يتكون في قيعان البحار بتفاعل كيمائي بين المواد العضوية، وان كل مناطق البترول كانت قبلاً قيعان بحار. ومن اغراض هذا البحث معرفة طريقة الطبيعة في توليد البترول

ثم ان في الولايات المتحدة الاميركية صناعات انشئت على شاطئها الغربي لتستخرج من حشائش البحر البوتاسا والبوتاسيوم واليود، وهذه يمكن استخراجها مباشرة من ماء البحر وانما استخراجها من الحشائش البحرية اسهل لان هذه الحشائش افعل من انابيق الكيماويين في استخراج اليود والبوتاسيوم من ماء البحر وخزنها في سوقها واوراقها. فمن لنا بساحر نباتي كالمستر «بربنك» يستطيع ان ينشىء لنا اصنافاً من الحشائش البحرية تستخرج الذهب من ماء البحر كما تستخرج هذه الحشائش اليود والبوتاسيوم. ثم ان الملح وبعض مركبات المغنيزيوم تؤخذ من البحر بتبخير مياههِ

ومن الآمال التي يرنو علماء التطبيق العلمي الى تحقيقها أمل استخدام قوة البحر — كما تبدو في الامواج وقوة المد والجزر والتيارات القوية والاختلاف في حرارة طبقات الماء — لادارة الآلات . وقد استنبطت لذلك وسائل مختلفة لم تصب من النجاح العملي ما كان مقدَّراً لها على صفحات الاوراق . ولا بدَّ ان يسفر البحث يوماً عن استنباط وسيلة كفيلة بسيطرة الانسان على ما في البحر من قوى محرّكة عظيمة

الطبائع والامزجة

بين الرجل والمرأة

للامير مصطفى الشهابي
مدير املاك الدولة بدمشق وعضو المجمع العلمي العربي

﴿ الطبائع والامزجة لدى الرجل والمرأة ﴾ يقولون ان النفس ليس فيها ذكر وانثى. وهذا صحيح لو كانت هذه النفس طليقة في غير جسد . فاما وحياتنا الجسدية هي من اكبر الدعائم التي تبنى عليها محا كات الطبائع والامزجة فلا بد من وجود فوارق بين الجنسين في طبيعة كل منهما ومزاجه . واذا درسنا هذا الموضوع وجب التجرد عن العواطف التي تجعل بعضنا يميل الى المرأة وبعضنا يصدف عنها . فالمرأة ليست كما ينظر اليها بعض اصحاب الدين المتعصبين المتورعين اي مخلوقاً دنيئاً هو سبب الخطيئة الابدية وهو باب جهنم وزبانيا العُقربان وطريق الرذيلة ودودة القلب البشري الخ . كما انها ليست كما ينعتها بعضهم بمثل مرآة العدل وباب السماء ومعقل الحكمة والاناء المصطفى وغير ذلك من النعوت . ولا يجوز ان نجزم مع بعض علماء الانسان ان القوة العضلية ووزن الدماغ لهما التأثير الاكبر في تفريق امزجة الجنسين بل هنالك عوامل اخرى كثيرة يجب عدم اهمالها . فوزن الجثة وقياس الجمجمة وتقدير القوة العضلية لا تكفي وحدها للتفريق بين مزاجي الرجل والمرأة وقواهما الخلقية والعقلية لأن الروح لا توزن بالرطل والكيلو غرام . والدليل على ذلك ان من اصغر الجماجم المعروفة جمجمة فولتير الشهير

ما برح الرجل يحكم لنفسه بالرجحان على المرأة . وهذا لا يستغرب عند ما كانت القوة المادية هي القوة العليا . ولطالما قال العلماء والفلاسفة الاقدمون ان المرأة ليست سوى رجل لم يتم نموه ولم يكمل . وظل هذا الرأي سائداً الى يومنا هذا فقد قال داروين في نظرية الانتخاب الجنسي ان في الذكر رجحاناً . وزعم سبنسر ان نمو المرأة وقف باكراً بسبب الحاجة الى الحمل والولادة والرضاع . فالرجل لدى داروين امرأة تمَّ نموها . والمرأة لدى سبنسر رجل كف عن النمو . وقال عالم ثالث اسمهُ ولبو Velpeau ان الانثى انحطت عن ذكر قديم

وكل هذه الآراء تُعدُّ اليوم خطأً لا صحة له . وقد ثبت ان في النطفة الذكرية والانثوية مقادير قيمتها واحدة وان الجنين فيهِ كميات متساوية من مادتي الاب والأم

واول فرق حقيقي بين الذكر والانثى يكون في فجر الحياة الحيوانية والنباتية . فهنالك نرى خلية صغيرة فعالة هزيلة غير كاملة لا يمكنها النمو وحدها وهي الخلية الذكرية . ونرى خلية

اخرى غضاء ممتلئة غذاء قليلة الحركة ناقصة كالاولى وهي الخلية الانثوية . ومن المعلوم ان الجنين يحصل من اتحادهما . فالفرق بين الجنسين كما نرى هو في الاساس اي في خلايا يزيد فيها التمثيل على الافراز او الادخار على الاستهلاك وهي الخلايا الانثوية واخرى على العكس من ذلك وهي الخلايا الذكرية والغذاء هو من اكبر الاسباب التي تدعو الى تكوّن الذكر او الانثى. والانثى ليست اذن جنيناً وقف نموه بل هي بالعكس جنين تغذى غذاء كبيراً وذلك في كثير من الاحيان . والادلة على ذلك كثيرة منها تجارب (يونغ) في الضفدعيات اذ توصل بالغذاء الجيد ان يزيد عدد إناثها حتى بلغت ٩٢في المائة بدلاً من ٥٦ في المائة .وقد جُربت تجارب عديدة كهذه في الضأن والنحل وحشرات شتى فاسفرت كلها عن نتيجة واحدة وهي ازدياد الاناث بتجويد اغذية الصغار قبل انفرادها في الجنس والعكس بالعكس. وخلية الانثى تكون بطبيعتها ميالة الى السكون والالفة وعدم التجزئة على عكس الخلية الذكرية ففي طبيعتها ميل الى الحركة والتفتيش والبحث . فطبع الخلية الانثوية كطبع الانثى نفسها اذ تتطلب الحياة الساكنة في مكان هادىء جعلتهُ الطبيعة بيئة لنمو الاولاد وعشاً لحياة الصغار

واذا ما انتقلنا من الخلايا او النُطف الى الحيوانات النامية نجد الشيء نفسه اي نجد ان الذكور اكثر فعالية من الاناث وان حرارتهم اشد وانهم اسرع الى الاضمحلال.وفي مختلف اجناس الحيوان امثلة كثيرة على ذلك . ونجد في الحيوانات العليا وخصوصاً في الانسان فروقاً عظيمة بين الجنسين . فالمرأة في استدارة نسجها وقلة الفعالية في خلاياها ونمو صدرها وحقويها مثال للكائن الذي زاد فيه التمثيل على الافراز والذي أُعد لتغذية الجنين والتناسل. ونجد نمواً في اجزاء الجهاز العصبي المتسلطة على حاسة المرأة اما في الرجل فنجد ان اجزاء الجهاز المتسلطة على الاعمال العضلية والعقلية هي الاكبر نمواً

﴿ الحس لدى الرجل ولدى المرأة ﴾ تختلف الامزجة في الذكر والانثى على رأي «الفرد فوييه» بحسب اختلاف تركيبهما الفسيولوجي لا بحسب الصدفة المنبعثة عن الانتخاب الطبيعي أو الجنسي. اما عمل هذا الانتخاب فهو انه يزيد الفوارق بينهما مع الزمن فيكون سبباً منضماً الى الاسباب الفسيولوجية المذكورة

فالفعالية الخارجية المنبعثة عن قوة جسدية تستلزم في الرجال وجود الشجاعة الروحية ويفسر داروين وسبنسر شجاعة الذكور بأنهم ما برحوا يقاتلون للقوت والحب لذا تغلب الشجعان وخلدوا الشجاعة في جنسهم . لكن الفرد فوييه يتساءل لماذا يقاتل الذكور دون الاناث ولماذا أختص كل بوظيفته ولا سيما في شئون الحب . وهذا يضيف ان السبب هو في تكوين الذكر وتكوين الانثى . فالذكر له شجاعة تتمثل في الخارج اي في الاعتداء اما الانثى فلها شجاعة على تحمُّل آلام الحمل وعلى الاحتفاظ بصغارها تفوق شجاعة الرجل . وشجاعتها ثابتة

فهي صبور ساكنة تسير نحو هدفها بتؤدة وبلا انقطاع . اما الرجل فصخّاب قليل الصبر . وكل ذلك في دمهِ وفي دمها على رأي «الفرد فويه» لا بتأثير الانتخاب الطبيعي

والمرأة اثبت في عواطفها وحبها من الرجل والسبب واحد اي ما ذكر . وهي ابعد عن عاطفة الانانية منه لان الذكر في تركيبهِ ميّال الى الانفراد على عكس الانثى فهي ميالة في تركيبها الى التضامن . ولما كان الذكر اكثر حركة واشد مضاء واعم تجارب واقرب من الآراء المتضاربة والافكار المختلفة من الانثى وكان كل ذلك يتطلب انفاق قوة دماغية وقوة عضلية كبيرتين لذلك صار دماغ الذكور اكبر من دماغ الاناث . لكن هذه تفوق الذكور بدقة المحاكمة وبالنظرات الصائبة وباساليب الحيل . ولما كانت وظيفتها الانتظار والملاحظة والتنبؤ دقّ دماغها داخليًا . وترى هذه الطباع متجلية في الحيوانات العليا اي في الرجل والمرأة . فالمرأة طابعها الحس ولها مزاج الحسّاس . اما الرجل فطابعه الحركة وله مزاج المقدام . ويكثر في الرجال الحساسون السريعو الحس وهم الدمويون . اما في النساء فتكثر الحساسات العميقات الحس وهنّ العصبيات . ويكثر لديهم الفعالون السريعو العمل وهم الصفراويون كما يكثر لديهن الفعالات البطيئات العمل وهنّ صاحبات الدم البارد أو صاحبات البلغم . والمرأة أقوى عاطفة واشد تأثراً وحسًا من الرجل . وهي اعرف منه بشدة الالم وانواعه . لكنّ ألمها لا ينفجر كألمه ولا يحملها على اتيان اعمال اليأس المريعة بل يظل هذا الألم كامناً في اعماق نفسها . ويتجلى فرط حسها في الحب . فالحب لدى الرجل سرور الحياة اما لديها فالحب هو الحياة . وعلاقات الحب بينها وبين الرجل تكون لديها اهدأ واسمى واثبت وأقل شهوة منها لدى الرجل . وهذا ناتج عن تركيبها ومزاجها . وهو يكون في الأعم من الحالات . لكنه من البديهي ان يكون لكل قاعدة شواذ تستلزم اتهام المرأة بالتقلب والخفة على حد قول المتنبي

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد

ومع هذا لا شك ان خفتها تتسبب عن اعمال الرجل في كثير من الاحيان فيكون اللوم عليهِ . ويتناول حب المرأة للرجل اثبت ما فيهِ من صفات اساسية جسمانية كانت أم روحانية . وهي اجمالاً اقل تطلباً لجماله منها لقوته الجسدية والعقلية وبخاصة لمزاياه الخلقية . ويظن الفريد فويه ان الشعور بلزوم اداة نافعة وثابتة للأسرة وللنوع هو ما يفسر احترام المرأة الجاهلة لقوة الرجل الجسدية واحترام المرأة المتعلمة لقوته العقلية والخلقية . وميلها الى الحياة الداخلية الهادئة يجعلها تخضع لقوة الرجل الممد للتنازع خارجيًا ، كما ان غريزة الامومة فيها تجعلها تدرك الفائدة التي يستفيد منها الاولاد اذا كان لهم ابوان قويّان جسماً وعقلاً

وهي ميالة الى ارضاء الرجل ولها ذوق دقيق في التجمل لهذا الغرض بل هي آية عند ما تُصنّع نفسها وتُبرّقها . ولا شك ان قانون الانتخاب يجعل اعلمهنّ بهذه الامور اقدرهنّ على

العيش لكن هذه الغريزة في المرأة منبعثة عن انها ضعيفة الجسم لا تتطلب الرجل بل هو يطلبها ولذلك لا بدَّ لها من ارضائهِ . ثم من البديهي ان يكون في كل حي غريزة الاحتفاظ بمزاياه الطبيعية وتنميتها . فالمرأة تعرف ان من اكبر مزاياها الجمال والتجمل فكيف لا تتشبث بهما مع علمها بأنهما مدعاة الى حب الرجل لها . فيستنتج من ذلك ان من مزايا المرأة الاساسية حب الجمال الشخصي اي عبادة الجمال في شخصها وهي مزية وراثية ثمينة يجب الاحتفاظ بها للنوع الانساني . وفي حياء المرأة وخفرها جمال وجلال ، لان شعورها باحترام نفسها ماديًّا وتعلقها بالخيال السامي وبالمثل الاعلى تجاه الحقائق المادية الدنيئة كل ذلك يجعل حبها شريفاً سامياً ويحدو بالرجل الى مشاركتها بالترفع عن الحب المادي أو بعدم الاقتصار على هذا النوع من الحب على الاقل

أما تعلق الامهات باولادهنَّ فأسبابه على رأي سبنسر حبهنَّ للضعيف . وهذا ما لا يقرُّه الفرد فويه فهو يرى ان حب الآباء والامهات للاولاد هو اولاً حب ذاك الذي سيكون امتداداً لشخصيتهم وخلفاً لها ثانياً حب ذاك الذي يمثل النوع ثالثاً حب الذي سيكون عن قريب رجلاً . ويكون حب الام للولد اعمق من حب الاب لانها حملته وغذته من دمها ثم من لبنها فهي اشد رؤية لنفسها فيه . أما شوبنهور فيرى ان عناية النساء بالاطفال سببها كونهنَّ وضيعات العنصر محدودات العقل يلبثنَ كل حياتهنَّ اولاداً كباراً . وهذا ما يهزأ به الفرد فويه اذ يقول ان الأم اذا تعهدت طفلها وكانت احسن من يتعهده فلأنها امٌّ تحب وتضحي لا لأنها ولد . وتدل الاحصاءات على كثرة الاولاد الذين يموتون بسبب تعهدهم من قبل غير امهاتهم . ذلك ان الامهات وحدهنَّ هنَّ اللواتي يعرفنَ نسيان شخصيتهنَّ فالاخلاص لديهنَّ ليس طبيعة ثانية بل الطبيعة الاولى . والأم لا تتعهد الطفل تعهداً ماديًّا فحسب بل هي الوحيدة الصالحة لتربيته عقليًّا وأخلاقيًّا . فكلامها وعملها هما اصلح درس له في سنه التي تسود فيها غريزة التقليد . وكان (كانت) يردد في شيخوخته ان امه هي التي اوجدت في نفسه ما ربما كان فيها من ميل الى الخير . اما تشبيه المرأة بالولد (وهو شيء يردده الكتاب كثيراً) فهو غلط لا يقره علم الحياة ولا علم النفس . ولا شك ان هنالك صفات مشتركة بين المرأة والولد وهي زيادة التخيل وفرط الحس في كليهما لكن هذه الصفات تبدو فيهما على اشكال مختلفة . ففرط التخيل لدى الولد يُستخدم في نموه المادي والعقلي ولذا تراه يحب الأثرة والأنانية . اما المرأة فعلى العكس من ذلك فان عواطفها تميل إلى الغير وهي تستخدم قوى التخيل لفائدة الأسرة والنوع . ثم اذا كان الحس في المرأة يفوق العمل كما في الولد . فالفرق بينهما بيّن ايضاً . فشاعر الولد الضعيفة البسيطة تجعل حسه سطحيًّا وتجعله هو سريع الانفعال . اما المرأة فشاعرها مستقيمة مختلفة . وقلب المرأة قد نما وتكامل اما قلب الولد ففي حالة جنين

وقد طعن بعض العلماء المرأة في اهم صفاتها كحب الولد وحب الزوج فقال الدكتور غوستاف لوبون ان حب الولد لدى بعض الحيوانات اعظم من حبها لولدها . فهنالك حيوانات اذا فقدت اولادها ماتت على اثرها وهنالك طيور اذا فقدت أنثاها اليفها قتلها الحزن عليه. ويستنتج بعض العلماء من ذلك ان المرأة تمثل في ذلك احط شكل من تطور البشر. قال الفرد فويه ان الامر على العكس مما ذكر اي ان حب النسل لدى الحيوانات يمثل شكلاً سامياً من التطور . فاذا وجد هذا الحب منذ ما وجدت الامهات فهل يجب أن يدعو ذلك الى تجاهل قيمته وجماله . ولنقارن ذلك بما لدى الرجل من صفات يفوق المرأة بها كالقوة المادية مثلاً فهلاً نرى انها ترجع هي ايضاً الى طبقات التطور الدنيا . أفلا ترجع شجاعة الرجل الى حقبة ما قبل الطوفان ثم اليس الوحشي اشجع منا وكذا الاسد فهل يجب لذلك السبب ان نطعن بالشجاعة وبالقوة الجسدية. وقال هل النهار يمثل الشفق (النور الضئيل) أم الشفق يدل على النهار

﴿التفكير لدى الرجل والمرأة﴾ — اذا فاقت المرأة الرجل بالشعور والحس فهو يفوقها بالتفكير أو ببعض نواحيه لأن قوى المرأة منصرفة الى حياة النوع ولهذا قلّ فيها نمو ما يلزم للحياة الفردية من قوى عضلية أو دماغية . فترى اعضاءها الصالحة للاعمال الخارجية وأوعيتها الصدرية كلها اصغر من مثلها لدى الرجل . وكما صغرت هذه الاعضاء الصالحة للحركة فقد صغر ايضاً الدماغ الذي يحركها . فجمجمة الرجل اكثر شبهاً بجمجمة القرد والوحشي والهرم اما جمجمة المرأة فكجمجمة الولد . لكن حجم الجمجمة ووزنها ليسا كل شيء فهما اولاً متناسبان مع حجم الجسم ووزنه . وهما ثانياً يدلان على صفات هذا الجهد . وهذه الصفات تابعة لتلافيف الدماغ ولامور كيماوية وكهربائية لم ندركها بعد ، ولا شك ان دماغ المرأة في يومنا هذا (على رأي كثير من العلماء) اقل مقدرة على الجهود العقلية العظيمة المتمادية من دماغ الرجل لكن ذلك لا يضير المرأة ما دامت وظيفتها في الاسرة تتطلب نمو الحياة القلبية والقوى الخلقية بدلاً من نمو الحياة العقلية والقوى الدماغية. واذا اسهبنا في ذلك قليلاً نقول ان مقدار المجهود العقلي ومدة دوامه هما لدى الرجل اكبر منهما لدى المرأة اجمالاً اي انه يفوقها بمقدار التفكير. اما من حيث صفات الجهود العقلية فان كل شيء يتطلب الحذاقة والدقة والذوق اي كل شيء يلزمه حسٌّ مفاجيء فالمرأة فيه ارجح من الرجل . اما ما يتطلب التجديد في التفكير والاختراع والجرأة والاقدام والمثابرة فالرجل فيه صاحب الرجحان على المرأة . وهنالك جهود عقلية تحتاج الى إجهاد الدماغ والى حصول حركة قوية في ذراته كالمقابلة في العلم والتعميم واستخراج القواعد المطلقة والاستنتاج الفكري فهي كلها مما يوافق الرجل خاصةً بحسب طبيعته . والمرأة اقدر على تصور الافكار الخاصة منها على التعميم والاطلاق . وهي انفذ بصراً منه لكنه اكثر استنتاجاً منها . والمرأة الحاذقة الصناع

تعرف ان تريك كيف تصنع لكنها قليلاً ما تتمكن من وصف عملها أو إثباته . وهي اجمالاً قادرة على التحليل العلمي كالرجل لكن هذه الصنعة ليست مما ترتاح له طبيعياً . والافكار والصور في حافظتها اثبت منها في حافظة الرجل لان قابلية الانفعال والتمثيل فيها تجعل ذاكرتها اشد حفظاً للوقائع ولا سيما التي تسر بترديدها على الناس . وهي (لاسباب أخرى مماثلة) أطوع من الرجل في تلقي المعارف وابسط منه في تصديق الذين تثق بهم . ولها تصورات محتدمة ونابة لانه بقدر ما تقل الجهود الخارجية في الانسان تكثر الصور الداخلية في مخيلته . ولما كانت المرأة صاحبة حس وتصورات رأيتها كثيراً ما تنقاد للعواطف بدلاً من الافكار العامة المطلقة . لان دلائل القلب لديها اقوى من دلائل العقل

والعبقرية تستلزم بذل قوى كبيرة ويجب ان يكون في العبقري ارادة متينة وجسارة خارقة ربما ادّت به الى اسوأ الحالات احياناً . ولهذا كان معظم العباقرة من الرجال . ومهما اجهدت المرأة دماغها ومهما كانت قوتها على التفكير عظيمة فان في طبيعتها تردداً وحشمةً وجبناً تثنيها عن الاقدام على عظائم الامور

وفي باب العلوم ايضاً لا تكون الاختراعات العظيمة (وهي ثمرة الجهود الجبارة) من الامور التي تميل اليها النساء طبيعياً . والمرأة قليلة الجلد على تحمل بطء التحليلات العلمية وما تستلزمه من التجويد في استخراج النتائج ووضع القواعد العلمية المطلقة . وكثيراً ما تغلط في استنتاجاتها العلمية بسبب الافراط في تصوراتها وبسبب بساطة افكارها . وقد يحتاج تقدم العلوم إلى تركيب انظار (نظريات) واسعة تعقب التحليلات العلمية وتكون تتمة لها . فهذا التركيب الذي يتناول آفاقاً عديدة هو مما يختص به الرجل اكثر من المرأة . ويجب ان لا يستنتج من ذلك كله انه ليس لدى النساء عبقريات أو انه ليس بوسعهنّ تعلم العلوم المختلفة . فالذي نشير اليه هو ان النابغات في هذا الصدد أقل من النبغاء دائماً . وكما انه يمكن ايجاد نساء ملاكمات كذلك يمكن ايجاد رجال يعطفون على اولادهم في القحط حتى تدر ثندواتهم اللبن . لكن هذه أمور استثنائية غير طبيعية . فالمجهود العقلي الطبيعي لدى النساء هو الذي يجوز ان يوجد في اوساطهنّ ولا يضر بولادة العدد المرغوب فيه من الأولاد الاصحاء وإرضاعهم وتربيتهم. أما إذا صرف نساء طبقة ما من طبقات الشعب جهوداً عقلية عظيمة حتى أدى ذلك إلى ضياع هذه الطبقة فتكون هذه الجهود ضربة تصيب وظائف المرأة الطبيعية في صميمها . ومما لا ريب فيه إن العباقرة من الرجال هم أيضاً قليلو العدد وهم يعدون شواذ إذا قيسوا بالمجموع لكن وظيفة الرجل وأعماله في الحياة الاجتماعية ان لم تتطلب منه ان يكون عبقرياً فهي تستلزم ان يكون لديه قوة على التفكير وجلدٌ على العلوم مما ليس ضرورياً للمرأة بل ربما كان مضراً بوظائفها الاساسية احياناً . فالمرأة لم تخلق لان تكون عنترة العبسي في قوته العضلية ولا ابن خلدون

في تفكيره العقلي ولهذا ترى النابغات منهن ينبغن في الفنون الدقيقة وفي علم النفس مثلاً ولكن قلما نرى بينهن صاحبة اختراع او تجديد او مذهب في العلوم والفنون . ومهما يكن فرجحان المرأة على الرجل يكون بالاخلاق الفاضلة فهي نابغة بالحب والعطف والاخلاص وهذه خير ما تباهي به اذا ما اعتز الرجل بتفوقه العلمي

﴿ الارادة والصفات الخلقية في الرجل والمرأة ﴾ ارادة الرجل اقوى من ارادة المرأة في الجملة . والمرأة في غريزتها ميالة الى هبة نفسها للغير والاخلاص لهم . وذكر سبنسر ان هذا الميل فيها يتناول الافراد فقط مع انهُ كثيراً ما يتعداه للقضايا العامة . ولذا نرى بينهن اللواتي جدن بانفسهن في سبيل القضايا الوطنية او الانقلابات الاجتماعية والدينية الكبرى كاللواتي استقبلن الموت برزانة في الثورة الفرنسية وفي محاكم التفتيش الرهيبة . ولا شك ان المرأة ترجح الرحمة على العدل في كثير من الاحيان وذلك لفرط احساسها ولانها لا تميل الى صرف ذكائها في التحليلات الفردية الجافة بل تتناول الناس كافة بعطفها وهو توسع غريزة الامومة فيها . ثم بعد هذا نحن لاندري هل العدل المطلق هو أعلى شيء ام الخير اعدل من العدل

والمرأة أشد تديناً من الرجل إجمالاً . وليس السبب في ذلك خضوعها للقوة دائماً كما يفكر سبنسر بل هو عدم ميلها للشك بمقتضى قلة الارادة فيها . فهي لا تريد الشك بكل ما هو مسلم بهِ دينيًا وعلميًا وسياسيًا . وهي تحب الدين لا خوفاً من قوة الله في الغالب بل حبًا بخيره وإحسانهِ . ولما كان الحس سائداً في المرأة وكان الميل فيها للعلوم اقل منهُ لدى الرجل بسائق الطبيعة والتربية وكانت الاخلاق الفاضلة ولاسيما الاحسان والرأفة من اهم ما تتحلى بهِ أصبح من الطبيعي ان تفتش فوق هذا العالم عن عدالة حية وحب شامل . ولا بد لنفس كهذه ان تكون متدينة

لكنها ربما افرطت في الاعتقادات الدينية حتى راحت تتبع الخرافات التي ينبو العقل والدين عنها . وهي في هذا تتساوى مع الرجل او تفوقهُ . فكما اننا نجد حساناً يصمن في النهار وينصرفن الى غرامهن في الليل وذوات أزواج يستسهلن الفسق ولكنهم لا يسمحن للعشاق برؤية شعورهن اعتقاداً بأن ذلك وحده يفسخ عقد الزواج ، كذلك قرأتُ عن لصوص من الرجال يذهبون الى الكنيسة متضرعين إلى الله أن يوفقهم في سرقة البيت الفلاني ولو ادى ذلك إلى قتل صاحبه . وأعرف سيداً يلعب « البوكر » في النادي الكبير بدمشق حتى إذا أذن المؤذن قام فصلى بجانب اللاعبين ثم عاد الى اللعب . فقلت له مرة ماذا تبتغي من الجمع بين الميسر والصلاة في مكان واحد فاجاب أتضرع إلى الله في صلاتي ان يوفقني في لعبي او ليس الله اقدر على ذلك من الحظ الأعمى الذي تتضرعون اليهِ وتستجيرون بهِ . فقلت لكن الله ينهى عن الميسر فكيف تعصاه ثم تطلب منهُ التوفيق في المعصية . فقال هذه امور لا يفهمها امثالكم

ومن البديهي أن خرافات كهذه لا ظل لها في الاسلام ولا في النصرانية وكلاهما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والامة مدرسة طبيعية للحنان والتجرد عن الشخصية فالتي ترضى بأن تكون أمًّا تكون قد رضيت بأنواع العذاب. ولا يمكن تصور اجتماع الجريمة والامومة في شخصٍ واحد ولذلك تقل الجرائم لدى النساء . وأ كثر ما يقدمنَ عليهِ منها الاجهاض وقتل الطفل والتسميم وفي هذه الحالات ربما كان الرجل هو الدافع الى هذه الجرائم. أو ربما ساقها اليها شعور الشرف او الحياء .ولكن عجز المرأة اخلاقيًّا وعقليًّا هو الذي يقعدها عن الاجرام كما يدعيه بعض المؤلفين بل السبب صفاتها الطبيعية كالحس والرأفة وحب السلام أضف اليها قلة تعرضها للرذائل في حياتها الخاصة وميلها إلى الجمال وما يستلزمهُ من صفات خلقية تستميل الرجل بها

***

﴿ الخلاصة ﴾ الرجل مساوٍ للمرأة وكلاهما يتمم الثاني . فهو اقوى منها ماديًّا وعقليًّا وهي ارجح منهُ بالأخلاق الفاضلة . ويقولون هو اثمن منها بالكم وهي اثمن منهُ بالكيف . فاحتقار المرأة شيءٌ حقير بذاتهِ . وهل يزدري اللونُ الأحمرُ اللونَ الأخضرَ عند ما يتحدان في الشعاع الأبيض . أو هل يأنف الأوكسيجين من الامتزاج بالهيدروجين في توليد الماء القراح. فاذا كفَّت النساء عن الاخلاص والتفاني في سبيل البيت والأسرة والأولاد سرعان ما نرى مخلوقات بلا اخلاق ونرى الحب قد أصبح شهوانيًّا محضاً والفسق قد عمَّ وانتشرت توابعهُ من إجهاض وقتل أطفال والقائهم في الطرقات والملاجيء . والمرأة ما برحت ربة الأسرة . وهي ستظل درتها اللامعة ما دامت راضية بان تكون أمًّا . وعليها بان تتعلم العلوم التي لا تنافي امزجتها وحرمة نوعها كما يجب ان تؤهلها تلك العلوم لاتقان الحياة المنزلية خاصةً لانها هنالك زوجة وام ومربية . فعلم الاخلاق والتربية وحفظ الصحة وآداب اللغة والتاريخ والجغرافيا والحقوق المتعارفة والرسم والموسيقى وخلاصة العلوم العملية هي مما يُعد اكثر ملاءمة من غيرها لطبيعة المرأة ولوظائفها السامية في الحياة البشرية . وعلى رجالنا في الشرق العربي ان لا يقيدوا المرأة بقيود ثقيلة الوطأة وان لا يحرموها من نور العلوم اللازمة لقيامها بواجبها الجنسي ، كما ان على المرأة ان لا تتجاهل واجبها وان لا تظن ان العمل بغريزة التجمل والتبرج فيها هو كل ما نطلبهُ منها . فربَّ حسناء كالبدر ما حادثتها فترة حتى اطلقتَ ساقك للريح من فرط جهلها . وربَّ اخت لها تكاد تعد دميمة لكنها تسحرك بعلمها وبحسن قيامها على وظائفها .وريحانة النساء هي التي تحلت باهم سجاياهن أي بالحس والشعور والأخلاق الفاضلة يدعمها جمال وتجمل وعلم باهم شئون هذه الحياة

الهيام بالذات

بحث نفسي

في الاساطير اليونانية ان نرجساً Narcissus كان فتىً غرانقاً هيأت له الطبيعة من وسامة الوجه وقسامة الملامح ما لم تهيئهُ لغيره، فكان فتنة العين وبهجة الخاطر. ولكن صروف الدهر أبَتْ ان تهيء له ليجتلي هذا الجمال الا ذات يوم اذ رأى عن كثب غديراً صافياً فيممه ليبترد وشاهد هناك على صفحته الصقيلة صورتَهُ معكوسة. فرأى — اذ شاهدها — ما بهره وأفعم نفسه حسرة على هذا الجمال الضائع. وانثنى شارد اللب مبلبل المشاعر، ووقع من نفسه في نفسه ما ضيَّق افق نظره والهاه عن الحياة وصرفه عن التفكير الا بهذا الجمال الذاهب سدًى. وتولاهُ ما يتولّى العاشق الولهان عادة من سهوم ووجوم، وتضاعفت حسرته على هذا الجمال القريب البعيد، وانتهى اخيراً الى ما ينتهي اليه اكثر العشاق المدلهين من ضعف وهزال أودى بحياته فراح ضحية محاسنه

وهكذا انتهت حياة هذا العاشق الغريب، ولكن اسمه اضحى علماً لكل اعجاب بالنفس مسرف. وقام علم النفس الحديث يستبطن بجرأة غوامض الميول النفسية ويسبر اغوارها ويتحسس نوازعها فلحظ هذا الميل ووهبه من عنايته ما صيّره موضوعاً تتجه اليه نظرات الاستغراب والتفحُّص. وقد وجَّه فرويد وتلامذته عنايتهم الى دراسة هذا الميل، فانتهوا — كعادتهم — الى نظرية تردُّه الى الشذوذ الجنسي، وهي الناحية التي يبالغون عادة في صبغ الوانها وحشد كل ما يتسنى لهم حشده من مظاهر النفس فيها. واضحى اسم هذا العاشق وما يُشتقُّ منه في لغة فرويد مرادفاً لناحية غريبة من نواحي الشذوذ الجنسي

***

ولو كانَ هذا الميل بمعناه العام، وهو الهيام بمحاسن النفس مقصوراً فقط على ما يمتُّ الى الجنس لحقَّ لنا ان نحسبهُ ميلاً شاذًّا لا يصيب جميع الناس على السواء، ولكن الواقع الذي لا ينكره الاختبار ان الهيام بالمحاسن الذاتية ايًّا كان نوعها والانقطاع الى التفكير فيها والاهمال النسبي او المطلق لكل ما عداها، هو ميل عام في صميم الحياة البشرية — تختلف

انصبة الناس فيه باختلاف امزجتهم واستعدادهم والبيئات التي تلابسهم ، ولكن شخصاً واحداً لا يعدمُ نصيباً من هذا الميل قلَّ ام وفُر هذا النصيب. واذا ظهر هذا الميل في بعض الناس بمظهر المبالغة في النمو فذلك انه قد يكون من احوال المحيط او من احوالهم الشخصية ما هو السبب في هذه المبالغة في النموّ . فالثابت ان المرض يقوّي هذا الميل في الناحية التى يكون فيها الهيام بالنفس في جزءٍ من اجزاء الجسم . فالمريض في زمن المرض او بعد الابلال لا يكاد يعنيه من امور الحياة الاَّ ان يرى وجهه تعود اليه نضارته وبهجته اللتان كانتا له قبل المرض ، وتصبح المرآة اداة ملازمة لهُ في من حياته الى ان تعود اليه صحته وتلهيهُ مهام الحياة عن التوجه بانتباهه الى هذه الناحية في جسمه . وعلى كل ليس المرض هو الحافز الوحيد لاثارة الاشفاق على الجسم . ويكفي ان يتناول مؤثرٌ من المؤثرات شخصية امرىء بالتبديل حتى تثور ثائرته، فلا يستقرُّ له قرار الى ان تعود اليه معالم شخصيته . وقد جاء في كتاب الف ليلة وليلة ان حسن الاسكاف بُدِّل بطريقة سحرية شخصاً آخر هو الخليفة عينه . فأضحى نافذ الكلمة يأمر وينهي ويتمتع بكل ما يتمتع به الخليفة . ولكن خطر له ، وهو في ابَّان نشوته ، انه اصبح شخصاً آخر ولم يعد حسن الاسكاف ، فثارت ثائرته عند هذا الخاطر وأخذ يتلمس نفسه مهتاجاً الى ان ايقن انهُ لم يزل هو هو لم يتغير . عندها طاب له ان يمضي في متعه ولذاذته . وهذا الذي احسَّه حسن الاسكاف يحسُّه كل شخص حينما تهدَّد شخصيته على ما نعتقد . فهذا الجسم الذي يصحبنا ما يصحبنا ويعاشرنا ما يعاشرنا ويبلو معنا من حلو الحياة ومرّها ما يبلو، يعزُّ علينا ان نبدّله حتى ولو حقق هذا التبديل اقصى خيالاتنا وأبعد احلامنا . فنحن — كما يقول نتشه — لا يطيب لنا العيش ولا نستشعر السعادة الاَّ في حدود شخصيتنا . ليس هذا فقط ، بل نحن كثيراً ما نسعى ونتشوَّف لان نصبغ الاشياء التى تحيط بنا بصبغة منتزعة من شخصيتنا . والفنَّان هو اقدر الناس على ذلك ، لان في يده الوسيلة التى تعينه على ذلك . ويذهب بعض النقَّاد الى اننا إنْ درسنا مخلَّفات الفنانين العظام نجد ان اصحابها يميلون ميلاً ملحوظاً ليظهروا انفسهم في صورهم وتماثيلهم . ويقول مرجفسكي ان لينواردو دافنشي قد اثبت لنا على قماش صورة الجوكندا الشهيرة طرفاً غير يسير من نفسيته ذاتها

***

وقد يصاب المرء بعاهة جسمية ملازمة فيكتنفه من الالم والحسرة ما يجعله يزداد توجهاً الى السالم من جسمه يوليه عبادته وهيامه ، كالمرأة التى تفقد احد ولديها فتزداد عكوفاً على الآخر وتعلقاً به . ولا تستطيع ان تفسر اعجاب لورد بيرون بوجهه ذلك الاعجاب الشديد الاَّ اذا ادركنا أنه كان اعرج يحاول جهده ان يُضفي بجمال وجهه على هذا العرج

وقد لا يوفق المصاب بعاهة جسمية — كما وفق بيرون — الى بديل من العضو المصاب ليُضفي باكماله على ذلك العضو ، فيتجه الى الناحية النفسية او العقلية يوليها هيامه وافتتانه . والتعاظم وهو ما يسمى بالانكليزية Megalomania هو شكل واضح من اشكال الهيام بالمحاسن العقلية او النفسية . وهو — لذلك — اظهر ما يكون في اصحاب العاهات الجسمية . فتراهم بعد ان تخذلهم اجسامهم يتوجهون الى الناحية النفسية او العقلية يتحسسون كل صفة من صفاتها ويقيسون كل ملكة من ملكاتها . فاذا ظهر لهم انهم على شيء من البروز في بعض هذه الصفات او الملكات عمدوا الى الغلو في تقديرها وبالغوا في التفطن اليها واكثروا من التحدث عنها . ولا يُخامرك انهم في هذا يقولون خلاف ما يعتقدون او يقدرون لأنفسهم فهم مخلصون في ذلك كل الاخلاص ولا يهمهم اكتسبوا عطف الجمهور وتقديره ام خسروه كما في كثير من حالات الدفاع عن النفس الذي يتجه غالباً الى ارضاء النفس عن طريق ارضاء الغير عنها . ولهذا السبب عينه لا نشعر بهذا الميل في سلوك الناس واضحاً . فهو غالباً لا يتخذ صفة الاندفاع والبروز كالدفاع عن النفس الذي يتحدى غالباً مشاعر الناس ويثير انتباههم

***

على اننا نود ان نشير الى ان غير المصابين بعاهات جسمية لهم نصيبهم من التعاظم ايضاً . فالممثل الذي يبدع في تمثيل احدى الشخصيات التاريخية البارزة يجد من نفسه ميلاً الى صاحب تلك الشخصية ويستشعر كثيراً من الارتياح في اعادة مظاهرها في سلوكه . وهو اذا اعادها لا يعيدها شاعراً بانهُ ممثل مقلد ليس غير ، بل هو يعيدها وكأنها جزءٌ متمكن من سلوكه، فهذا نابليون في مظهره وذاك هنري الثامن في مسلكه وثالث لويس الرابع عشر في احاديثه وهكذا

وقد تقترن نزعة الدفاع عن النفس بالهيام بالذات . ولكن من السهل التفريق بينهما فالدفاع عن النفس يتجه الى ارضاء الناس واكتساب تقديرهم والهيام بالذات يتجه الى النفس في جميع اشكاله . وهذا يفسر لنا اجمالاً لماذا لا نرتاح الى النظر الى انفسنا في صورة زرية او وضع شاذ رغماً عن ان عيناً واحدة لا تراها . وقليلون حقاً هم الذين يستمرئون الوقوف امام مرآة محدبة او مقعرة تعكس صورهم شوهاء مقلوبة رغم اقتناعهم بان هذه الحالات من التشويه هي حالات زائلة غير ملازمة . وقد ينفرد احدنا بنفسه في محل قفر فيجد من نفسه ميلاً الى اطلاق هذه النفس على سجيتها ويحب ان يتخلص ولو قليلاً من اسر العادات والتقاليد ، فيشرع يأتي من الاصوات بكل نابٍ كريه ومن الحركات بكل شاذ غريب . ولكن لا يلبث ان يثوب الى رشده بعد ان كان اقرب الى الخيال والجنون منهُ الى العقل ، ويستولي عليهِ شعور عميق بالخجل يعيده حالاً الى الاتزان والسكينة او الحركة في حدود الاعتدال . ونعتقد تمام الاعتقاد ان

الذين صوروا لنا اناساً انقطعوا عن العالم وبانقطاعهم عنهُ اهملوا نفوسهم لم يصوروا لنا الطبيعة البشرية تصويراً صادقاً. ويقيننا انهُ لو اتيح لروبنصن كروزو موسى للحلاقة ومرآة يرى على صفحتها سحنته وتوفر له قدر معقول من الاطمئنان الجسمي والعقلي لما سمح لحيته ان تنمو ذلك النمو الحر الذي يصفه لنا دي فو Defoe. فسلطة هذا الميل علينا ليست بالضئيلة او المحدودة غير انهُ مما يلطف من هذا الميل ويفثأ من حدته ان لاكثرنا من شواغل الحياة ومهامها ما يصرفنا عن التفكير في نفوسنا والانعكاف عليها. فنحن انسى ما نكون لمحاسننا او مساوئنا حينما نندفع في تيار الحياة الشديد غير ملوين على شيء. ونحن افطن ما نكون لهذه المساوئ او المحاسن حينما نكون في عزلة او شبه عزلة عن تيار الحياة الجارف. ومن هنا ان المرأة ارسخ قدماً من الرجل في هذا الميل. فافق نظرها الضيق وقلة مشاغلها العامة قد نصبا من نفسها لنفسها معبوداً. ومن هنا مقام المرآة في حياة المرأة. ولم تبتعد المرأة عن انوثتها المستعذبة الا حينما انساقت مع تيار الحياة الجارف. ولذلك عادت لا يهمها كثيراً الثناء على جمالها وعاد الانتقاد لعضو من اعضائها لا يستدر دموعها. وبالاجمال اضحى لا يرضيها ان تقف من الرجل موقفها القديم — موقف الصبي المدلل

ومتى تزوجت المرأة وانجبت البنين ازدادت بعداً عن العكوف على نفسها وتحول اعجابها بنفسها الى الاعجاب بزوجها وبنيها. واذا انتقدت طفلاً بحضرة امهِ فلا تأس انك بهذا تنال من امه قبل ان تنال منهُ. لهذا كان خير ما تكتسب بهِ عطف الام ان تثني على بنيها ولا نغالي اذا قلنا ان جزءًا غير يسير من عاطفة الامومة مردُّه هذا الميل

***

ومما يدلُّ على التحول الذي طرأ على خلق المرأة ايضاً انها أصبحت ارحب صدراً للنقد واقبل للفكاهة من ذي قبل. والفكاهة هي من اوكد الوسائل لتقليل حدة هذا الميل. فالماجن الفكه يتجه بمجونهِ وفكاهتهِ الى التقليل من قيمة الحياة والزراية عليها بحيث يهون على الناس مقدار ما يملكون منها ومقدار ما يخسرون. والفاتح والساخر — كما يقول احد الكتاب — سواءٌ: ذاك يأخذهُ بحد الحسام وهذا يأخذه بحد اللسان، الا ان الواحد يأخذهُ ليستولي عليهِ والآخر ليحتقره ويزري عليهِ. ومما يحبب صاحب الفكاهة الى الناس انهُ لا يسخر من الحياة والناس الذين يستميتون في سبيلها فقط، بل هو يسخر من الحياة ومن الناس ومن نفسهِ على السواء. وهذا ما يجعل الفكاهة مستحبة مقبولة عند اكثر الناس وان كانوا هم مقصودين بها

شرق الاردن اديب عباسي

الربع الخالي

فصل من كتاب تحت الطبع عن احوال نجد والحجاز

بقلم السيد فؤاد حمزه وكيل خارجية الحكومة العربية السعودية

« الربع الخالي » اسم حديث لمنطقة شاسعة من الرمال كانت تعرف فيما مضى باسم رملة يبرين . قال ياقوت [١] : « يبرين رمل لا تدرك اطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة . وفي كتاب نصر : يبرين من اصقاع البحرين به منبران ؛ وهناك الرمل الموصوف بالكثرة بينه وبين الفلج [٢] ثلاث مراحل وبينه وبين الاحساء وهجر مرحلتان وهو فيما بينهما وبين مطلع سهيل

وقال الهمداني [٣] : وعن يمين البحرين ودونها يبرين والخن موضع فيه نخل كثير لبني ودعة ويبرين نخل وحصون وعيون جارية وغير جارية وسباخ . وقال ايضاً [٤] : يبرين في شرق اليمامة وهي على محجة عمان إلى مكة وكأنها ادخل في محاذاة اليمامة الى الجنوب شيئاً وبينهما وبين حضرموت العجم بلد واسع لا يقطع ومنظرها من اليمامة بين المشرق والجنوب ، وما بين يبرين وبين البحر الرمال ولها طريق الى اليمامة وإلى البحرين ، وهي ارض منقطعة بين الرمال وهي ذات نخل كثير من الصفري والبرني وذات زرع قليل وبها بثق كبار على هيئة بعض البهرة وساكنها من لحوم العرب أي بطون العرب ويقال طخوم مثل لحوم ، ثم استخرجتها من أيديهم قشير ، ثم اخرجت القرامطة بني قشير عنها

وأما ابعاد هذه المنطقة فهي غير محددة على وجه الصحة والمعروف بين العرب انها تبدأ من جنوبي واحة يبرين العائدة لآل مرة على مسيرة ثلاثة ايام منها نحو الجنوب وتمتد الى الهضاب الموازية لساحة البحر الهندي في الجنوب ، والى الجهة الغربية والغربية الجنوبية من هذه المقاطعة توجد مساحات شاسعة من الرمال الرقيقة المعروفة بالاحقاف ، وهذه يروى عنها انها مغراق تبتلع الاجسام الثقيلة التي تطؤها

وظل جهل الناس بهذه المنطقة المترامية الاطراف كبيراً بالرغم عن وجود كثيرين من البدو ممن اخترقوها في سيرهم من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب وعاشوا فيها وذلك لعدم تدوين شيء عن احوالها أو نشره . وقد سمعتُ جلالة الملك عبد العزيز يذكرانهُ في بعض

---

(١) م ٨ ص ٤٩٤ (٢) المظنون انها الافلاج اليوم (٣) ص ١٣٧ طبعة اوربا (٤) ص ١٦٥

سني ضيقه في ايامه الاولى كان يعتصم بأطراف الربع الخالي وانه اقام فيه مدة متوالية تقرب من اربعين يوماً ، وقد بُذلت جهود عديدة للوقوف على احوال هذه المنطقة وما حوتهُ من اناس وحيوان ونبات وما فيها من جبال ووديان ومياه وغدران الى ان وفق في السنتين الاخيرتين رجلان من مجازفي الانكليز الى اختراقها أحدهما وهو المستر برترام توماس من الجنوب الى الشمال الشرقي مجتازاً اطراف الرمال الكثيفة الشرقية وثانيهما المستر سنت جون فلبي من الشمال الى الجنوب الى نقطة متوسطة ، كان وصلها المستر توماس واتجه منها غرباً الى منتهى وادي الدواسر

ولسنا هنا في معرض الدخول في تفاصيل الرحلتين الآنفتي الذكر ، ولا كيفية القيام بهما ، وانما نكتفي بذكر أن المستر برترام توماس حاول اختراق منطقة الرمال الكثيفة عدة مرات ولم يتح له الوصول الى غرضه إلاَّ في شتاء عام ١٩٣٠ — ١٩٣١ ففي ذلك الوقت أكمل معداته للسفر من ظفار على شاطئ المحيط الهندي ماراً بسلسلة جبال القارة المشرفة على المحيط الهندي ومؤخرها يتصل بأقليم المهرة المعروف في تلك الجهات بنجد . وفي ١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠ كان بقرب شيصور [١] التي تبدأ منها المنحدرات الشمالية للبلاد النجدية هذه حيث المنتهى الجنوبي لمنطقة الرمال . وقد استغرق اختراقه الرمال من شيصور الى قرب شبه جزيرة قطر ما يقرب من شهر . وكانت طريقه على محاذاة الحافة الشرقية للربع الخالي الصحيح حيث تكثر المياه والآبار والخيران

وأما المستر فلبي فانهُ اتبع طريقاً آخر للسير . فسار من الهفوف (الحسا) في اواخر شهر يناير سنة ١٩٣٢ الى واحة جبرين ومنها اتجه جنوباً الى حيث يكون الربع الخالي في متوسط نقاطه من كل الجهات عند بئر نيفا [٢] وانطلق من هناك في اتجاه غربي مطرد الى مسافة ٢٥٠ ميلاً فوصل الى بلدة سليل في منتهى وادي الدواسر . ومن اجل التدقيق في العمل وربط النتائج التي حصل عليها هو بالنتائج التي حصل عليها المستر توماس في الشتاء السابق فقد وصل فلبي الى آبار شنة الواقعة على خط العرض ١٨ درجة و٥٩ دقيقة

وكان من نتائج الرحلتين الآنفتي الذكر أنهُ أمكن معرفة كثير من الحقائق الجغرافية والجيولوجية والاجتماعية لمنطقة الربع الخالي الشاسعة التي يجوز لنا أن نحددها بانها واقعة بين خطي العرض ١٨ و٢٤ من العرض الشمالي والخطين ٤٦ و٥٤ من الطول الشرقي

نعم ان الرحالتين توماس وفيلبي لم يتمكنا من زيارة كافة أصقاع الربع الخالي ، وبقيت امام طلاب الارتياد مساحات اخرى يجب تعرف احوالها ، إلاَّ أنهما وفقا بصورة جازمة الى إيضاح

---

(١) تقع على نقطة تقاطع خطي الطول الشرقي ٣٠َ ٣°٥ والعرض الشمالي ٥ ١ °١٨

(٢) تقع هذه الآبار عند نقطة تقاطع خطي الطول الشرقي ٣٥َ ٤٩° والعرض الشمالي ٥٠َ ١٩°

المهم من طبيعة هذه البلاد وتكوينها وما فيها من تضاريس طبيعية واحوال عمرانية واجتماعية[١] مما نصفهُ بإيجاز فيما يلي :

قال توماس [٢] يتألف الربع الخالي من أراض صحراوية يكاد يكون قسماها الشرقي والجنوبي الى حد يقرب من ثلث مساحتها كلها عبارة عن اراضي الهضبات والقسم الباقي عبارة عن أوقيانوس من الرمال المنتشرة نحو الشمال والغرب وتسمى الهضاب الجنوبية نجداً والشرقية سيحا في قسمها الشمالي وجادة الحراسيس في قسمها الجنوبي حالة كون المناطق الرملية معروفة باسم الرمل أو الرمال

وقد وجد المستر توماس أن حافة الرمال الجنوبية تمتد على محاذاة الساحل الجنوبي للبلاد العربية من رملة مغشن [٣] إلى شمال حضرموت في مسافة تتراوح بين ٢٠٠ — ٢٥٠ ميلاً ، وان انحدار هذه الحافة هو من الجنوب الى الشمال ومن الغرب إلى الشرق مما يدل دلالة صريحة واضحة على كيفية نشوء هذه الرمال في الازمنة الجيولوجية واتصالها بالقارة العربية الافريقية التي كان البحر الكريتاسي يحدها من الشرق . وذكر أيضاً أن حافة الرمال من جهة المشرق تتجه إلى الشمال والشمال الشرقي اعتباراً من رملة مغشن السالفة الذكر على مسيرة أربعة أيام للجمال حتى قرن السحامة ومنها ترتفع شمالاً إلى قرب خليج فارس

وفي أواسط منطقة الرمال ترتفع سلسلة عروق الضحية الكلسية على شكل نعل فرس ترتكز قاعدته على هضبات المنطقة النجدية المتاخمة للمحيط الهندي ويمتد ساعده الغربي على محاذاة

---

(١) كان المستر برترام توماس وزيراً للمالية في حكومة سلطان مسقط ، فاتيحت له الفرصة للوقوف على أحوال القسم الجنوبي من بلاد العرب وزيارة بعض الاماكن البعيدة عن العمران ودراسة احوال تلك البلاد وما فيها . وقد اخترق الربع الخالي في أطرافه الشرقية عام ١٩٣٠ — ١٩٣١ وكان قبل ذلك بضع سنوات يواصل البحث والارتياد عن أحواله وأحوال سكانه ومعايشهم ، وقد وضع عن رحلاته العديدة هذه محاضرات ورسائل وكتباً عديدة أهمها كتابه عن اختراق الربع الخالي وقد سماه (العربية السعيدة) ونشر بمعرفة يوناثان كاب بلندن

وأما المستر سنت جون فلبي فان معرفته بالبلاد العربية مشهورة منذ ان كان موظفاً في الحملة العراقية أيام الحرب العمومية وقد وضع عن رحلاته في البلاد العربية ثلاثة مجلدات سمى الاثنين الاولين منها باسم « قلب البلاد العربية » والثالث باسم « بلاد الوهابيين » ومنذ بضع سنوات ترك خدمة حكومته وأقام في جدة متعاطياً التجارة وجل قصده من ذلك حسب كلامه أن يفوز ببغيته العظمى يوماً ما وهو اجتياز الربع الخالي وارتياد مجاهله . وقد وفق في النهاية الى الوصول الى غرضه وتم له الفوز الاكبر بالقيام برحلته الجريئة في مطلع العام الحالي ١٩٣٢ . وقد وضع عن رحلته الاخيرة هذه كتاباً يصف فيه مشاهداته كما انه قدم تقريراً مفصلاً حوى ملخص ما يهم الوقوف عليه فيما يتعلق بالربع الخالي . وقد كتبت هذه الاسطر قبل أن ينشر كتابه

(٢) العربية السعيدة ص ١٨٠

(٣) تقع رملة مغشن بين درجتي الطول الشرقي ٥٤ و ٥٥ ودرجتي العرض الشمالي ١٩ و ٢٠

خط الطول الشرقي ٤٩° إلى قرب خط العرض الشمالي ٢٠° وأما ساعده الشرقي فيسير على محاذاة خط الطول الشرقي ٥٣° إلى قرب خط العرض الشمالي ٢٢°٣٠َ . وهذه المنطقة هي بحق منطقة الرمال الكثيفة في الربع الخالي ولا يسكن فيها من القبائل إلا الموغل في الهمجية والوحشية والمتحمل لشظف العيش ومتاعب الحياة . وأهم هذه القبائل أربعة . قبيلة آل مرة بأفخاذها ، وقبيلة آل كثير بفخذيها المعلومين : آل راشد وبيت أماني ، وقبيلتا العوامر والمناصير والاولى تسكن في الشمال والغرب والثانية في الجنوب والاثنتان الاخيرتان في الشرق والشمال الشرقي من الربع الخالي

ويمكن القول أن الربع الخالي يقسم البلاد العربية من الوجهة الجيولوجية ، ويؤلف بين أقسامها حدًّا فاصلاً بارز الصفات والتكوين . فقد أوضحنا في البحث العائد لطبقات الارض كيف أن الابحر التي كانت في الاعصر الجيولوجية ممتدة من سواحل البحر الابيض المتوسط إلى الحماد فالنفود الكبير فالمنحدرات الشرقية لسلسلة جبال السراة كانت تلاطم في أطراف الربع الخالي مناطق أرضية تختلف من حيث التركيب الجيولوجي عن جاراتها . فما كان واقعاً من البلاد العربية إلى الغرب والشمال الغربي والجنوب من الربع الخالي هو في الحقيقة قسم من المنطقة الافريقية جيولوجيًّا حالة كون ما كان منها واقعاً الى الشرق والشمال الشرقي منه هو من حيث التكوين الجيولوجي جزء من بلاد إيران ، وقد وضح ذلك من تركيب الصخور والطبقات الارضية في هذه المناطق من البلاد العربية . وأما تكوين الربع الخالي نفسه فمن غير الممكن تعيين صلته بأي القسمين إلا أنه مما أمكن جمعه من نماذج الرمال والصخور المأخوذة من جهات مختلفة فيه يمكن القول بأنه مكوّن من سطح كاسي الاصل تكسو الطبقات العليا منه رمال يشوبها كثير من حبيبات الكلس والجير ، وقد وجد توماس وفلبي بقايا متحجرات بحرية ومائية في جهات عديدة لا يدع وجودها مجالاً للشك في أن البحر كان في الأعصر الجيولوجية غامراً هذه المنطقة بمياهه المالحة في العصرين الجيولوجيين المعروفين باسم العصر الايوسيني والكريتاسي

وأما ارتفاع الربع الخالي عن سطح البحر فيختلف كثيراً بالنسبة إلى المواقع فهو في الجنوب أعظم ارتفاعاً منه في الشرق والشمال إذ بينما يكون ارتفاع الهضبات الجنوبية عند جبال القارة ٢٠٠٠ قدم فان ارتفاع المنطقة الواقعة على حافة الرمال لا يزيد على ١١٠٠ قدم وقوة الانحدار لا تزيد على ٩٠٠ قدم في مسافة لا تبلغ مائة ميل ، ومن حافة الرمال الجنوبية إلى حافتها الشمالية عند بنيان [1] يبلغ مجموع الانحدار ٩٠٠ قدم في مسافة تقرب من ٣٠٠ ميل . ومن المفيد

(١) بنيان واقعة على نقطة تقاطع خط الطول الشرقي ٥٠°١١ً بخط العرض الشمالي ٢٣°١١َ٤٠ً

هنا أن نذكر وصف المنطقة التي اخترقها المستر توماس من حيث الارتفاع وعرض كل قسم على حدة ننقله عن كتابه الآنف الذكر مبتدئين فيه من الجنوب الى الشمال :

المسافة بالاميال	نوع الارض
٢٠	١ أرض مرتفعة ذات لون احمر تكثر فيها الاكثبة
٤٠	٢ أرض مرتفعة أقل تضريساً ذات رمل احمر وفيها تلال تشبه نعل الفرس
١٠٠	٣ سلاسل بيضاء متوازية تعترضها أودية ذات رمل احمر
٧٠	٤ رمال متماوجة ذات لون ابيض
٥٠	٥ رمال متماوجة ذات لون ابيض فيها تلال ذات لون احمر
١٠٠	٦ هضاب وسبخات وتلال حمراء على التوالي

ولم يمكن التحقيق عن الرمال التي دعيت بالبحر السافي ، وهي الرمال الرقيقة التي تبتلع الاثقال التي تطأها ، وانما قد تكرر ذكرها في جهات الاحقاف الى الغرب الجنوبي من الربع الخالي حيث ذكر الالماني فون فردي كثيراً عنها ، وأما توماس فانه ذكر ارضاً اخرى تدعى أم الصميم تبلغ مساحتها يومين على سير الجمل في كافة الاطراف فانها مغراق لا يمكن اجتيازها ، والغالب انها من نوع السبخات التي تصادف في سائر انحاء البلاد العربية ، فاذا كان الجو رطباً كان العبور منها مستحيلاً لرخاوة طينتها وقلة مقاومتها للاثقال

وأما المياه في الربع الخالي فانها قليلة بل معدومة في جهاته الغربية وكلما اتجه الى الشرق ازدادت مقدار المياه وقل عمقها داخل الارض . وقد كانت طريق المستر توماس في منطقة يمكن ان ندعوها بحق كأنها حافة الربع الخالي الحقيقي الشرقية . فهذه المنطقة مملوءة بالآبار والخبران إلاّ أن أكثر مائها مرّ لا يستساغ مطلقاً ويبلغ عمق البئر في بعض الاماكن ٣٠ باعاً أو اكثر . ويقل هذا العمق في الجهات الشرقية إلى أن يصبح محضاحاً قليل العمق بالمرة . ويمكن قسمة المياه إلى ثلاثة أقسام : ١ الغدران والخباري التي يجتمع في باطنها ماء المطر ٢ الآبار العظيمة العمق ذات الماء الذي يمكن شربه ٣ الآبار المتوسطة أو القليلة العمق وهي ذات ماء ملح أجاج لا يشرب . فالمنطقة التي اجتازها المستر توماس غنية بالآبار من النوعين بينما ان المنطقة التي اخترقها فلبي من نيفا إلى سليل وتبلغ أكثر من ٢٥٠ ميلاً معدومة من الماء من جميع أنواعه

ونظراً لانعدام الماء (ما عدا أيام الامطار) في المنطقة الواقعة الى الغرب من الطريق التى سلكها توماس وهي المنطقة التى يصح أن يطلق عليها اسم الربع الخالي فان الحياة الحيوانية

والنباتية تكاد تكون معدومة فيها . وقد ذكر المستر فلبي انه بعد خروجه من واحة جبرين لم يشاهد على طول الطريق الممتد الى اواسط الربع الخالي ثم من نيفا الى سليل أي انسان كان، مع ان المدة كانت ٥٣ يوماً على سير الابل . والذي يتراءى لنا انقلة ارتياد البدو لهذه المنطقة انما هو ناشيء في الغالب عن قلة المياه والمراعي اكثر مما هو ناشيء عن المفاوز والمخاطر . فالمرور من جهات مسقط وعُمان وظفار وحضرموت إلى شمال الجزيرة وغربها أمر لاصعوبة فيه إلاّ من جهة قلة المياه والمراعي ، وكانت محجة عمان إلى مكة تمر وسط الربع الخالي إلى يبرين ومنها إلى الافلاج ، وهنالك طريق اخرى ما بين نجد والمحيط الهندي عن طريق أواسط الربع الخالي ايضاً . وهذه الطريق هي التي ورد ذكرها في الاساطير القديمة أن المر واللبان من ظفار ، كانت القوافل تجلبه منها . وقد انعدمت الطرق التي كانت تخترقها القوافل ، وضاعت آثارها ، أولاً لهجرها بعد اكتشاف الطرق البحرية ، وثانياً لأن الرياح الشديدة الهبوب تسفي الرمال بشدة فتغير معالم الأرض وطبيعتها وتنقل الاكثبة الرملية من مكان الى آخر

وقد ذكر لنا بعض من قابلنا من البدو الذين زاروا تلك الانحاء أن عشب الربع الخالي وماءه يجعلان دم الحيوان أسود فاحماً ، ولم يتسنَّ لنا تعليل هذه الظاهرة الفسيولوجية إلاّ بملوحة العشب والماء

وأما من حيث العمران فقد كان الشائع عند البدو ان في الربع الخالي آثار عمران عديدة خلفها الاقدمون من حضارات بائدة ،وكانوا يتناقلون أقوالاً متناقضة عن وجود خرابات في وبار القريبة من بئر مغينمة التي زارها المستر فلبي ووجدها بئراً غزيرة الماء ، وكان المقول ان وبار [1] هذه تقع على بعد مرحلتين

ثلاث من واحة جبرين وعلى طريق القوافل التجارية من ظفار وأنها كانت تظهر وتختفي بفعل الرياح الموسمية التي تقشع الرمل عنها فتظهر آثار خرائب وقلاع وقصور عديدة حتى دعيت باسم قصور أم الحديد والحديدة . وقد حقق المستر فلبي بنفسه عن هذه الاشاعات وزار المكانين المشار اليهما وهما يقعان ما بين درجتي الطول الشرقي ٥٠° و ٥١° والعرض الشمالي ٣٠َ و ٢١° و ٢٢° فوجد أن ما كان يسميه البدو آثار عمدان وخرائب قصور دامرة إن هو إلاّ بقايا مخروط بركاني عظيم خمد منذ أزمنة متطاولة وبقيت من آثار اندفاعه متحجرات بركانية محروقة ثقيلة الوزن وبلون الحديد فكان البدو يظنونها آثار قلاع وخرائب. وقد جلب المستر فلبي معه بعض حجارة هذه المنطقة وجلب أيضاً حبوب الدخان البركاني المتبلور الذي يسميه البدو باللؤلؤ الاسود ، وشاهد كاتب الاسطر هذه الحبوب فاذا بها أصغر من حجم الحمص بقليل خفيفة الوزن سوداء اللون براقة المظهر

---

(١) قال ياقوت م ٨ ص ٣٩٢ ان وبار كانت من محال عاد بين رمال يبرين وحضرموت ونجران واقليم مهرة

وسيكون من آثار رحلتي توماس وفلبي اللتين لخصنا ما كان من نتائجهما العلمية أن البياض الذي اعتاد الناس تركه على خرائط البلاد العربية باسم « الربع الخالي » سيملأ باسماء الاماكن والآبار والهضاب والرمال المختلفة وستنقص الحماسة التي كان يشعر بها جميع من يعنى بالبلاد العربية لمعرفة حقيقة هذا القسم ، وتصبح اسماء مغينمة وشنة ونيفا وأبو بحر وهدبة ودكاكة وبني زينان والمويرق وغيرها من الاسماء المعتادة كالدهناء والصمان وخف وغيرها

خامساً — منطقة الدهناء . قال ياقوت في معجمه [١] وهي سبعة أجبل من الرمل في عرضها بين كل جبلين شقيقة وطولها من حزن ينسوعة الى رمل يبرين . وهي من اكثر بلاد الله كلأ مع قلة مطر ومياه ، واذا أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعاً لسعتها وكثرة شجرها ، وقد جعلوا رمال الدهناء بمنزلة بعير وجعلوا أقناعها التي شخصت من مجمتها نحو الينسوعة ثفناً كثفن البعير وهي خمسة أجبل على عدد الثفنات فالجبل الاعلى منها الأدنى الى حفر بني سعد واسمه خشاخش ، والجبل الثاني يسمى حُماطان ، والثالث جبل الرمث ، والرابع معبر ، والخامس جبل حُزوى

***

وقال الويس موزيل [٢] : الدهناء فرع من النفود لا يتجاوز عرضها الثلاثين كيلومتراً لكنها تمتد الى مسافة مئات الكيلومترات ، وتبدأ في الشمال من نقطة واقعة على بعد خمسين كيلومتراً عن درب الحج من جهة العراق عند طريق المربط الفاصل بينها وبين النفود وليست رمال الدهناء شاهقة ولا يتكوَّن فيها قعور وطعوز وافلاق كالنفود ولكن فيها النوازي وهي سهول رملية رملها ضحضاح يستر طبقة صخرية منها أرض لبيد وفيها ايضاً الدحول [٣]

ومياه الدهناء حالياً قليلة ولكن فيها آثار آبار حفرها الاقدمون في اراضيها وطمرتها الرمال الآن

وقال فلبي [٤] : ان الدهناء عبارة عن سلاسل رملية وآكام وكثبان متقطعة متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ١٢٠٠ — ١٥٠٠ قدم ، وتخترق الطريق الموصلة بين الحسا والرياض عند جسرا من جهة المشرق وبعد مسيرة نحو ثمانية أميال يصل المار الى سلسلتي بني بدالي وبعد هذه تشتد كثافة رمل الدهناء ويصبح السير فيها اكثر صعوبة من الاول حتى يصل الى مزعلات التي يبلغ عرضها نحو ستة أميال وبعدها من المنطقة الاولى نحو عشرة أميال وأما القادم من الكويت

---

(١) مجلد ٤ ص ١١٥
(٢) شمال نجد ص ١٦٠
(٣) الدحل شق في باطن الطبقة الصخرية بين الصمان والدهناء يجتمع فيه ماء المطر ويظل فيها مدة
(٤) قلب جزيرة العرب مجلد أول ص ٤٩ و ٢٧٣

والعراق بطريق الدبدبة فانهُ يصل الى عريق الدحول الذي هو مبتدأ الدهناء من هذه الجهة ولكنهُ ليس منها بل لا بد للمسافر من السير مقدار ستة أميال أو سبعة لكي يصل الى الدهناء الحقيقية ويحتاج قطع الدهناء من عريق الدحول الى قطر ما يقرب من مسيرة يوم وبُعد أحد الموقعين عن الآخر يبلغ خمسة وعشرين ميلاً منها ١٥ ميلاً ذات رمل كثيف صعب المرور. وقد ذكر فلبي طريقين من هذه الجهة وعدَّ من أقسام الدهناء مريط ومخيط وأرض عقل يفصل بينها خبوب أهمها خب النوم وخب الرضم

***

ونقول ان لفظ الدهناء يطلق على أسياف رملية منفصلة عن النفود الشمالي وواصلة بينهُ الآن في مسافة قصيرة بين النفود الجنوبي الكبير المسمى بالربع الخالي وتنتشر الدهناء بشكل حبال وخيوط وألسنة رملية بينها فجوات صلبة والدهناء بمجموعها تفصل بين مرتفعات العارض والقصيم والسدير وبين سواحل الحسا والكويت ويرى بعضهم وجوب اطلاق اسم الدهناء على القسم المتوسط من جبل السلسلة الشرقية من هذه المنطقة. وجبال الرمال الدهناوية عائق من أهم العوائق التي تمنع المسير إذ أنها مؤلفة من سلسلة من الاكثبة قد تكون متصلة وقد تكون موزعة بشكل غير منتظم ولا متسلسل غير ان الذي يجعل اختراق هذه الاصقاع ممكناً هو كون هذه الاسياف قليلة العرض وبين الواحد والآخر خبٌ صلب القاع وكون عرض الدهناء كلها ليس عظيماً جداً تبدأ الدهناء من جوار آبار لينة في الباطن وتمتد الى الشرق الجنوبي والجنوب مسافة لا تقل عن ٦٠٠ ميل قبل أن تبتلعها لجة رمال الربع الخالي، ولا يبلغ عرضها في مبدإها الشمالي أكثر من ١١ ميلاً ولكنها على بعد ٤٠ ميلاً من الجنوب عن لينة تستعرض وتصبح ١٥ ميلاً ويبلغ ارتفاع بعض كثبانها ٥٠ قدماً وتسير من هذه الجهة في وجهة جنوبية شرقية الى مسافة ١٠٠ ميل حيث يكون عرضها ١٥ ميلاً ايضاً وهنا تتقاطع مع وادي الرمّا (وادي الرمّا بخلاف من يقرأه بالرمة) وتظل على ذلك الشكل الى مسافة خمسين ميلاً اخرى ثم تبتدىء بالانقسام الى الحبال التي هي الظاهرة المميزة لها وتصبح هذه الحبال بعد مسافة قصيرة اربعة ويختلف عرض كل حبل من نصف ميل الى اربعة اميال بينما يكون عرض السهل الخب الفاصل بين الحبال ما يقرب من نصف ميل الى خمسة اميال ايضاً

ثم يزيد عرض الدهناء كلما اتجهت للجنوب الى ان تبلغ معظمها حينما تنقسم الى سبعة حبال. وتسير الدهناء مسافة اخرى في اتجاه جنوبي الى مسافة ١٢٠ ميلاً أخرى حيث تقطعها طريق الحسا — الرياض وهنا يكون عرضها ١٨ ميلاً فقط

ويحد الدهناء من شرقيها مقاطعة سهلة مرتفعة تعرف بالصمان سنأتي على وصفها فيما يلي والطرق المطروقة التي تخترق الدهناء من الشرق الى الغرب اهمها ثلاث: احداها وأقصاها

نحو الشمال الطريق التى تصل بين العراق والكويت من جهة الدبدبة وهي ممتدة من عريق الدحول الى بطرا ، والثانية من الكويت بطريق الصافة ووادي الرمة الى الزلفي والقصيم ، والثالثة من الحسا الى الرياض عن جسرا و بني بدالى ومزعلات الى ابي جفان فالرياض . وقد عد الشيخ يوسف ياسين هذه العروض فوجدها من حفر بني سعد الى الصمان

(١) — عريق عنق الجمل

(٢) — عريق ابي شمام

(٣) — عريق الحمراني

(٤) — السراوى الاول

(٥) — السراوى الثاني

(٦) — جهام

(٧) — الدحول او حجلان[1]

سادساً — منطقة الصمان : هذه هي المنطقة الجغرافية السادسة في المملكة اعتباراً من ساحل البحر الاحمر ، وهي واقعة بين الدهناء غرباً والمنطقة السهلية الساحلية شرقاً، ويختلف عرضها من ٥٠ إلى ٩٠ ميلاً ، وهي في الشمال أعرض منها في الوسط والجنوب ، ويبلغ متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ١٢٥٠ قدماً

أما ارض هذه المنطقة فمن الممكن حسبانها كامتداد لمنطقة سهول الحجرا وتتكوّن من الحجر الرملي على شكل تلال متقاربة في بعض أنحائها أحجار كلسية . ومع أن الصمان هضاب كما ذكرنا فان فيها مساحات شاسعة مؤلفة من سهول تنحدر تدريجاً في هبوطها الى جهة الساحل. ويوجد بقرب هذه المنطقة مجمع ثلاث آبار مهمة : الحفر والصافة والوبرا ، ولكن الصمان يغلب عليه الجفاف ولا يوجد فيه ماء يذكر إلاّ ما تجمع بعد الامطار

سابعاً : المنطقة الساحلية الشرقية يبلغ عرضها خمسين ميلاً وهي أرض رملية تشبه في تكوينها أرض التهائم في جهة الساحل الغربي وهي قليلة الانبات إلاّ في الواحات الواقعة في أطرافها وهي القطيف والحسا . والمياه في هذه الواحات كثيرة جداً وقد أطلق اسم الحسا على هذه المنطقة من كثرة الاحساء (واحدها حسو) وهو الينبوع الذي يمكن حفره على مسافة قريبة من سطح الارض

---

(١) اجتاز كاتب هذه الاسطر الدهناء في طريقه من الكويت الى الرياض بالسيارة يوم ١٨ يوليو ١٩٣٢ وكانت طريقة السير كما يأتي : الكويت — قرية العليا — منيصفة — الحبر — أم العصافير المهيريات — ضلع كارة الدرج — دحل أبا الجرذان — خبارى التماليل — دحل الهنامي — عريق الدحول المرباخ وهو اول الدهناء — عرق جهام — خبة الجندلية — عرق السرو وخبته — عرق الرويكب وخبته عرق عمر وخبته — عرق الحراوي وخبته — الصهام ومنها الى رماح ومنها الى الرياض

معنى الجاذبيـــة

نظرية معروضة للتمحيص

حتمية فراغ كل مركز . فراغ مركز الشمس . وفراغ مركز المجرة . وفراغ مركز الكون الاعظم

نقولا الحداد

في هذا الجدول ترى في الحقل الاول ابعاد السيارات عن الشمس بمقياس بُعْد الارض عنها ، باعتبار ان بعد الارض واحد . فبُعْد المريخ كبعـد الارض مرة ونصف مرة تقريباً . وبُعْد المشتري خمس مرات وخُمْس وهلمَّ جراً . وفي الحقل الثاني سرعـة كل سيّار في الثـانية . وفي الحقل الثالث مدّة دورة كاملة لـكل سيار بحسـاب الوقت على الارض

جدول ابعـاد السيارات

وسرعاتها ومدات دورانها

اسم السيار	بعده عن الشمس بالنسبة لبعد الارض	سرعته بالاميال بالثانية	مدة دورانه بالنسبة لمدة الارض اي سنة ارضية
عطارد	٠٫٣٩	٢٩٫٧	٠٫٢٤
الزهرة	٠٫٧٢	٢١٫٧	٠٫٦٢
الارض	١٫	١٨٫٥	١٫
المريخ	١٫٥٢	١٥٫٠	١٫٨٨
المشترى	٥٫٢٠	٨٫١	١١٫٨٦
زحل	٩٫٥٤	٦٫٠	٢٩٫٤٦
اورانوس	١٩٫١٩	٤٫٢	٨٤٫٠١
نبتون	٣٠٫٠٧	٣٫٤	١٦٤٫٧٨
بلوتو	٣٩٫٨	٢٫٩	٢٤٨٫

حاشية : الارض تبعد عن الشمس ٩٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل فاذا ضربت الابعاد في الحقل الاول بهذا العدد حصلت على الابعاد بالاميال

اذا القى القـارىء نظرة سطحية على هذا الجدول فقد يظن ان لا تناسب بين السيارات من حيث ابعادها وسرعاتها ومـدات دورانهـا .

ولكن اذا درسها درساً رياضياً اتضح له : اولاً ان بين البعد والسرعة والمدة لكل سيار تناسباً رياضيـاً تامـاً . وثانياً ان بين السيارات انفسها تنـاسباً رياضياً ايضاً له قاعدة عامـة تتمشى كلها عليها ، واساس هذه القاعدة ناموس الجاذبية . وبمراعاة هذه القاعدة يمكن التوصل الى حقائق علمية ذات شأن

ان ذلك التناسب المشار اليه يرينا ان سرعة السيار وبعدهُ مرتبطان احدهما بالآخر كل الارتباط بحيث يتضح لنا ان سرعة ايّ سيّار تقرّر بعدهُ عن الشمس ، او بالعـكس ان بعده يقرّر سرعتـه . وكلا البعد والسرعة يقرران مدة دورته . فهو معلوم ان البعد يمثل نصف قطر (شـعاع) الدائرة التي يدورهـا السيار حول الشمس ، وان بين الشعاع والدائرة نسبة ثابتة وهي ان مقسوم الدائرة على الشعاع يساوي ٣٫١٤١٦ فاذا ضربت كل بُعد من ابعاد السيارات بهذا العدد حصل طول المسافة المستديرة التي يسيرها السيار

ناموس النسبة بين البعد والسرعة

ان ناموس الجاذبية الذي اكتشفهُ نيوتن ينصُّ على ان قوتي التجاذب بين جرمين تناسبان مربعي بعدَيْهما بالقلب، اي ان نسبة قوة الجذب في الواحد الى قوة الجذب في الثاني كنسبة مربع بعد الثاني الى مربع بعد الاول عن المركز الذي ينجذب اليهِ الجرمان هكذا : —

$$\frac{\text{و}}{\text{وو}} = \frac{\text{شش}^{2}}{\text{ش}^{2}}$$

بحيث ان و ترمز عن قوة جذب الجرم الاول نحو المركز

وو ترمز عن قوة جذب الجرم الثاني نحو المركز

ش ترمز عن بعد الجرم الاول عن مركز التجاذب

شش ترمز عن بعد الجرم الثاني عن مركز التجاذب

وقد اخترنا الحرف ش لانهُ اول حرف من «شعاع» أي نصف قطر الدائرة ، وهو يمثل البعد عن المركز

ثم ان ناموس فعل القوة المركزية على الجسم المتسارع يعبّر عنهُ بهذه المعادلة المقررة في كتب الطبيعيات

$\text{و} = \frac{\text{س}^{2}}{\text{ش}}$ باعتبار ان س ترمز عن السرعة أي ان القوة تساوي مربع السرعة مقسوماً على البُعد . فمن هاتين المعادلتين استخرجتُ المعادلة التالية : —

$\frac{\text{ش}}{\text{شش}} = \frac{\text{سس}^{2}}{\text{س}^{2}}$ أي ان نسبة بعد الجرم الاول عن الشمس الى بعد الجرم الثاني عنها كنسبة مربع سرعة الثاني الى مربع سرعة الاول بالثانية . وبالنسبة هكذا :—

$\text{ش} : \text{شش} : \text{سس}^{2} : \text{س}^{2}$

باعتبار ان س = سرعة السيار الاول

سس = سرعة السيار الثاني

وقد ارجأت البرهان على هذه المعادلة الى آخر هذا المقال لمن يود ان يتحقّقهُ

بحسب هذه المعادلة نستطيع ان نستخرج بعد السيار عن الشمس اذا عرفنا معدّل سرعته في الثانية . او بالعكس نستطيع ان نستخرج السرعة اذا عرفنا البعد . مثال ذلك ان بعد المريخ عن الشمس يساوي تقريباً بعد الارض عنها مرة ونصف (١،٥٢) فما هو معدل سرعته ؟

بابدال الارقام بالاحرف لنا : —

$$\frac{\text{١ (بعد الارض)}}{\text{١،٥٢ (بعد المريخ)}} = \frac{\text{ك}^{2}\ \text{(معدل سرعة المريخ)}}{\text{(١٨،٥)}^{2}\ \text{معدل سرعة الارض}}\ \text{(بالثانية)}$$

بعملية جبرية بسيطة لنا : $١ \times (١٨،٥)^{٢} = ١،٥٢ ك^{٢}$

او $ك^{٢} = \frac{(١٨،٥)^{٢}}{١،٥٢}$ $ك = ١٥$ وهي سرعة المريخ

ولنفرض اننا نعرف سرعة المريخ ونود ان نعرف بعده فتكون المعادلة هكذا :

$$\frac{١}{ك} = \frac{(١٥^{٢})}{(١٨،٥^{٢})} \qquad ك = \frac{(١٨،٥)^{٢}}{(١٥)^{٢}} = ١،٥٢$$ وهو بعد المريخ

* * *

يمكن القارىء ان يمتحن هذه المعادلة في جميع السيارات المذكورة في الجدول على هذا النحو فيجدها صحيحة [١]

والآن لنفرض ان سياراً او جسماً يسير على بُعْد نصف من مئة (من بعد الارض) عن مركز الشمس (وحينئذٍ يكون على بعد بعض الوف الاميال عن سطح الشمس[٢]). فكم يجب ان تكون سرعته لكيلا يسقط على سطح الشمس او يشرد عنها ؟

بحسب معادلتنا التي نحن بصددها لنا : —

$$\frac{١}{٠،٠٠٥} = \frac{ك^{٢}}{(١٨،٥^{٢})} \quad \text{بالجبر} \quad ك^{٢} = \frac{٣٤٢،٢٥}{٠،٠٠٥}$$

ك = ٢٦٣ ميلاً تقريباً سرعة الجرم المفروض بالثانية

اذا ضربنا مضاعف بعده عن مركز الشمس[٢] بالعدد ٣،١٤ (الذي هو نسبة المحيط الى القطر) حصلنا على طول المدار الذي يدور فيهِ الجرم . ثم اذا قسمنا الحاصل على ٢٦٣ (معدل سرعته الذي استخرجناه) عرفنا في كم ثانية يتم دورته ؟ هكذا : —

$$\frac{٣،١٤ \times ٤٦٥٠٠٠ \times ٢}{٢٦٣} = ١١١٠٤$$ ثانية تساوي ٣ ساعات ٦ دقائق تقريباً مدة دورته حول الشمس على ذلك البعد عنها

والآن

لنفرض ان جسماً في قلب الشمس يدور حول مركزها بسرعة النور او سرعة الامواج الكهربائية المغنطيسية التي هي كسرعة النور (لان النور نفسه من صنف هذه الامواج) — فكم يجب ان يكون بعده عن مركز الشمس ؟

---

(١) وقد امتحنتها في اقمار المشتري بالنسبة الى بعدها عن مركزها فوجدتها صحيحة

(٢) نصف قطر الشمس يساوي ٤٣٣٢٥٠ ميلا . ونصف من مائة من بعد الارض عن مركز الشمس يساوي $\frac{٠،٥}{٩٣٠٠٠٠٠٠}$ = ٤٦٥٠٠٠ فالفرق بينهما ٣١٧٥٠ ميلا وهو بعد الجرم المفروض عن سطح الشمس

(سرعة النور ١٨٦٠٠٠ ميل بالثانية)

$$\frac{١}{ك} = \frac{(١٨٦٠٠٠)^٢}{(١٨،٥)^٢} \text{ بالجبر } ك = \frac{١}{١٠١٠٨٢،٩١٦} \text{ من بعد الارض عن الشمس}$$

ولكن بعد الارض عن الشمس الذي عبرنا عنهُ بوحدة ١ هو ٩٣ مليون ميل ، اذاً

$$ك = \frac{٩٣٠٠٠٠٠٠}{١٠١٠٨٢٩١٦} \text{ ميل اي } \frac{٩٣}{١٠١} \text{ تقريباً. او قل « ميل » بالتقريب}$$

فراغ المركز

بناءً على عبارة لورنتز التي شرحناها في مقال سابق وهي : —

$$\sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}$$

لا يمكن ان توجد في الوجود سرعة تضاهي سرعة النور او سرعة الامواج الكهربائية المغنطيسية ، لان الجسم الذي يسير بسرعة النور يتقلص الى ان يفنى بتاتاً — بالبرهان ، افرض ان سرعة الجسم تساوي سرعة النور فتكون ن = س وتكون :

$$\frac{س^٢}{ن^٢} = ١ \quad \text{اذن} \quad \sqrt{١ - ١} = ٠ \text{ صفراً اي عدماً}$$

واذا فرضنا ان سرعة الجسم اكثر من سرعة النور فتصبح عبارة لورنتز بلا معنى . ففيما تقدم كفاية للبرهان على أنه يستحيل ان توجد سرعة اكثر من سرعة النور ومن سرعة الامواج الكهربائية المغنطيسية — وبالتالي يستحيل ان توجد حول مركز الشمس مادة على بعد عنه اقل من الميل . لانها اذا كانت اقرب من هذه المسافة يجب ان تكون اسرع من النور ، وهو امر مستحيل . اذن حول مركز الشمس على بعد نحو ميل فراغ مطلق بل ظلام دامس ، لان اشعة النور لا تتجاوز ذلك الميل نحو المركز بتاتاً ، ولا يمكن ان يوجد في تلك النقطة المركزية اية مادة ، لانه لا بد ان تصدر منها امواج كهربائية مغنطيسية . وهذه لا تستطيع ان تعجل بسرعة اكثر من سرعة النور . ووجودها اقرب من ميل الى المركز يحتم عليها ان تكون اسرع من النور ، فاذن يحتم عليها الفناء هناك

نتائج هذه القضية

هذا البرهان الرياضي الذي توصلنا اليه بالحساب المتقدم بسطهُ يطابق بعض نظريات علماء العصر ومنها اولاً ، ان اعماق بطن الشمس لا تشتمل على ذريرات Atoms لان الذريرات لا تحتمل تلك

السرعة الفائقة بل تنحل قبل ان تصل اليها، وانما هناك كهارب (الكترونات) دائرة بسرعة فائقة تصدر امواجاً كهربائية مغنطيسية على بعد نحو ميل عن مركز الشمس . ولا يحتمل ان تكون هناك بروتونات لان تكوُّن البروتون يستلزم ان تكون الذريرة تامة ، وهو امر مستحيل لما تقدم شرحه . والراجح ان الكهارب انفسها هناك قليلة لانها وهي كلها سلبية تتدافع فتتباعد عن مركز الشمس مضطرة ، وانما هناك على الاكثر امواج كهربائية مغنطيسية

ينتج ايضاً ان الامواج النورية والامواج الكهربائية المغنطيسية تتم $\frac{١٨٦٠٠٠}{٢ \times ٣٦١٤}$ = نحو ٣٠ الف دورة حول الشمس في ثانية واحدة

ثانياً ، ان اي مركز تدور حوله مادة لا بد ان يكون فارغاً فراغاً مطلقاً . فمركز الارض ومركز كل جرم لا بد ان يكون هكذا فارغاً . كذلك مركز المجرة لا يمكن ان يكون فيه اجرام بتاتاً . واذا عرفت سرعة الاجرام التي حول ذلك المركز فربما عرف بُعدُها عنه

ثالثاً ، ان هذه النتيجة التي توصلنا اليها تطابق نظرية اينشتين بان الحيز الذي تشغله الاكوان المادية يجب ان يكون جوفه فارغاً ، ومركزه فراغ مطلق أو عدم

رابعاً ، ان هذه النتيجة تطابق نظرية الجاذبية الجديدة وهي ان القوة التي تجذب الاجرام الى المركز ليست قوة جاذبة واردة من المركز الى المحيط بل هي قوة واردة من محيط غير متناه الى المركز — هي قوة في الجو الجاذبي الذي تنشره في المواد والاجرام انفسها فتدفعها نحو مركز مشترك بينها . وليست القوة للمركز نفسه . فحيثما وجدت مجموعة من المواد أو الاجرام توازنت حول مركز مشترك بينها وهو الذي يسمونهُ مركز الثقل . لهذا السبب لا يكون مركز الشمس مركزاً للنظام الشمسي الاَّ نادراً بل يغلب ان يكون بعيداً عنه قليلاً أو كثيراً حسب وضع السيارات حول الشمس كما هو مقرر عند الفلكيين

ملاحظة جوهرية

بقيت ملاحظة جوهرية لا بد من ذكرها تفادياً لتوهم القارىء شيئاً مناقضاً للحقيقة ، وهي : — نعم ان هذه القاعدة التي هي محور بحثنا تتمشى عليها جميع مجموعات الاجرام ومجموعة المجرة ، ومجموعة الكون الاعظم . ولكن النسبة العددية التي رأيناها في النظام الشمسي ليست بالضرورة مطردة في جميع مجموعات الاجرام . فاذا كانت السرعة في النظام الشمسي على بعد ٩٣ مليون ميل هي ١٨٫٥ ميل في الثانية (سرعة الارض) فقد لا تكون كذلك في أي مجموعة أخرى غير مجموعة النظام الشمسي ، بل قد تكون اكثر أو اقل . وانما مهما كانت اكثر أو اقل فنسبة السرعة بين اجزاء المجموعة الى ابعادها تبقى ثابتة ومطابقة للمعادلة التي شرحناها آنفاً . فالاختلاف بين مجموعات الاجرام هو في النسبة العددية فقط بين البعد والسرعة . واما النسبة العددية بين جرم وجرم فعامة لجميع الاجرام . والامر الذي يقرر هذه النسبة العددية لكل مجموعة هو

مقدار مواد تلك المجموعة . لان الجاذبية لا تتوقف على البعد فقط بل على كمية المادة في الاجرام المتجاذبة ايضاً ، لذلك لا يكون الفراغ متساوياً في مراكز جميع المجموعات بل يختلف باختلاف قدر موادها. فالفراغ في قلب المجرة اوسع جداً منه في مركز النظام الشمسي، وتكون سرعات الاجرام في المجرة بنسبة بعضها الى بعض اقل . وعلى هذا الاعتبار نفسه يكون الفراغ في قلب الكون الاعظم اعظم جداً . اعرض هذه النظريات للقراء بكل تحفظ . فاذا لاح لاحد منهم اعتراض، او اذا كان قد عثر على بحث كهذا من قبل فامتنّ جداً له اذا كان يتكرم بنشره

البرهان على صحة المعادلة

في الطبيعيات : القوة المركزية التي تفعل في جسم متسارع تساوي مربع السرعة مقسوماً على البُعد . هكذا :

و $=\frac{س^{2}}{ش}$ (معادلة اولى) وو $=\frac{سس^{2}}{شش}$ (معادلة ثانية)

باعتبار ان س ، سس رمز سرعة الجرم الاول ، والجرم الثاني

ش ، شش رمز بعد الجرم الاول ، وبعد الجرم الثاني عن المركز

وبحسب ناموس جاذبية نيوتن و : وو : شش^{2} : ش^{2} (اي نسبة قوة جذب الاول الى قوة جذب الثاني كنسبة مربع بعد الثاني الى مربع بعد الاول)

ابدل في قاعدة نيوتن هذه قيمتي كل من و ، وو الاتين في المعادلتين السابقتين . هكذا :

$\frac{س^{2}}{ش}$: $\frac{سس^{2}}{شش}$: : شش^{2} : ش^{2} وبالجبر لنا

$\frac{س^{2}ش^{2}}{ش}=\frac{شش^{2}سس^{2}}{شش}$ او س^{2}ش $=$ شش سس^{2}

اقسم جانبي المعادلة على سس^{2} ش فلك $\frac{س^{2}}{سس^{2}}=\frac{شش}{ش}$ وهي معادلتنا التي نحن بصددها.

لكبلر الذي سبق عصر نيوتن هذا الناموس

ق^{2} : قق^{2} : : ش^{3} : شش^{3} باعتبار ان ق $=$ مدة دوران السيار الواحد

قق $=$ مدة دوران السيار الآخر

وتمكن برهنة معادلتنا بمعادلة كبلر هذه ايضاً لو يسمح المقام. كذلك معادلة كبلر تمكن برهنتها من معادلة نيوتن ايضاً

شبرا — مصر

الدمعة الخرساء

لايليا ابو ماضي

سَمِعَتْ عويلَ النائحاتِ عشيةً | في الحيّ ، يبعثُ الأسى ويثيرُ
يبكين في جنح الظلام صبيةً ، | ان البكاء على الشباب مريرُ
فتجهمت وتلفتت مرتاعةً | كالظبي ايقن انه مأسورُ
وتحيرت في مقلتيها دمعةٌ | خرساء ، لا تهمي وليس تغورُ
فكأنها بطلٌ تكنّفه العدى | بسيوفهم ، وحسامه مكسورُ
وجمت فأمسى كلُّ شيء واجماً | النور والاظلال والديجورُ
الكون اجمع ذاهلٌ لذهولها | حتى كأنَّ الارض ليس تدورُ
لا شيء مما حولنا وأمامنا | حسنٌ لديها ، والجمال كثيرُ
سكت الغديرُ كأنما التحف الثرى | وسها النسيم كأنه مذعورُ
وكأنما الفلك المنوّر بلقعٌ | والأنجم الزهراء فيه قبورُ
كانت تمازحني وتضحك فانتهى | دور المزاح ، فضحكها تفكيرُ
قالت وقد سلخ ابتسامتها الاسى ، | صدق الذي قال — الحياة غرورُ
اكذا نموت وتنقضي احلامنا | في لحظة والى التراب نصيرُ ؟
وتموج ديدان الثرى في اكبدٍ | كانت تموج بها المنى وتمورُ
خيرٌ اذن منا الأُلى لم يولدوا | ومن الانام جلامدٌ وصخورُ
ومن العيون مكاحل ومراودٌ | ومن الشفاه مساحق وذرورُ
ومن القلوب الخافقات صبابة | قصبٌ ، لوقع الريح فيه صفيرُ

* * *

وتوقفتْ ، فشعرتُ بعد حديثها | ان الوجود مشوَّشٌ مبتورُ
الصيف ينفث حرَّهُ من حولنا | وانا احسُّ كأنني مقرورُ

ساقت الى قلبي الشكوك فنغّصت ليلي، وليس مع الشكوك سرورُ
وخشيت ان يغدو مع الريب الهوى كالرسم. لا عطرٌ وفيه زهورُ
وكدمية المثّال حسنٌ رائعٌ ملء العيون وليس ثمّ شعورُ
فاجبتها : لتكن لديدان الثرى اجسامنا ، ان الجسوم قشورُ
لا تجزعي فالموت ليس يضيرنا فلنا اياب بعده ونشورُ
انّا سنبقى بعد ان يمضي الورى ويزول هذا العالم المنظورُ
فالحب نور خالدٌ متجدد لا ينطوي الاّ ليسطع نورُ
وبنو الهوى احلامهم ورؤاهم لا اعين ومراشف ونحورُ
فاذا طوتنا الارضُ عن ازهارها وخلا الدجى منا وفيه بدورُ
فسترجعين خميلة معطارة انا في ذراها بلبلٌ مسحورُ
يشدو لها ويطير في جنباتها فتهش اذ يشدو، وحين يطيرُ

***

او جدولاً مترقرقاً مترنماً انا فيه موج ضاحك وخريرُ

***

او ترجعين فراشةً خطّارة انا في جناحيها الضحى الموشورُ

***

او نسمة ، انا همسها وحفيفها ، ابداً تطوّف في الربى وتدورُ
تغشى الخمائل في الصباح بليلةً وتؤوب حين تؤوب وهي عبيرُ

***

او تلتقي عند الكئيب،على رضىً وقناعةٍ ، صفصافة وغديرُ
تمتد فيه وفي ثراه عروقها ويسيل تحت فروعها ويسيرُ
ويغوص فيه خيالها فيلفه ويشف فهو المنطوي المنشورُ
يأوي اذا اشتدّ الهجير اليهما الناسكان : الظبي والعصفورُ

لهما سكينتها ووارف ظلها والماء ان عطشا لديه وفيرُ
اعجوبتان — زبرجد متهدلٌ نامٍ ، تدفق تحته البلورُ
لا الصبح بينهما يحول ولا الدجى فكلاهما بكليهما مغمورُ
تتعاقب الايام وهي نضيرة مخضرة الاوراق ، وهو نميرُ
فالدهر اجمعه لديها غبطة والدهر اجمعه لديه حبورُ

* * *

فتبسمت،وبدا الرضى في وجهها اذ راقها التمثيل والتصويرُ
عالجتها بالوهم فهي قريرةٌ ولكم افاد الموجع التخديرُ
ثم افترقنا ضاحكين الى غدٍ والشهب تهمس فوقنا وتشيرُ
هي كالمسافر آب بعد مشقةٍ وأنا كأني قائد منصورُ

* * *

لكنني لما اويتُ لمضجعي خشُن الفراش عليَّ وهو وثيرُ
واذا سراجي قد وهت وتلجلجت انفاسه فكأنهُ المصدورُ
وأجلتُ طرفي في الكتاب فلاح لي كالرسم مطموساً وفيه سطورُ
وشربت بنت الكرم احسب راحتي فيها فطاش الظنُّ والتقديرُ
فكأنني فلك وهت امراسها والبحر يطغى حولها ويثورُ
سلب الفؤاد رؤاه والجفن الكرى، همٌ عرا ، فكلاهما موتورُ
حامت على روحي الشكوك كأنها وكأنهن فريسة وصقورُ
ولقد لجأت الى الرجاء فعقني اما الخيال فخائب مدحورُ
يا ليل اين النور ؟ اني تائهٌ مُرْ ينبثق.ام ليس عندك نورُ؟
« اكذا نموت وتنقضي احلامنا في لحظةٍ والى التراب نصيرُ »
« خير اذن منا الأُلى لم يولدوا ومن الانام جنادل وصخورُ »

[عن مجلة السمير]

السياسة البريطانية الفارسية

نظرة تاريخية (*)

ليوسف رزق الله غنيمة وزير مالية العراق سابقاً

انبأتنا البرقيات بقرار الحكومة الفارسية التي اتخذته في الغاء امتياز دارسي لاستخراج النفط . وكان لهذا القرار دوي في أربعة اقطار المسكونة رددته الاندية السياسية بشيء كثير من الاهتمام . لما له من الخطورة السياسية نظراً إلى موقف بريطانية العظمى في الشرق في المستقبل ولما لهذا الحادث الكبير من النتائج البعيدة المرامي في نهضة الدول الشرقية . فالسياسيون والاقتصاديون والماليون وعلماء الحق والاجتماع يرقبون هذا الامر بعيون ساهرة ويدرسون تطور هذه القضية ملياً . وتعلق صحف العالم عليه الملاحظات والحواشي كل بحسب نزعتها واميالها السياسية لاستغلال الموقف. واملنا ان تحل هذه الازمة على اسس التفاهم بين الدولتين ذات الشأن بروح الوداد والتفاهم قبل صدور هذا المقال الذي كتبناه لمعالجة السياسة البريطانية الفارسية من الوجهة التاريخية ليس الا وهو بعيد عن المؤثرات السياسية الحاضرة . ونعطف بنظرة على مشروع دارسي واعمال شركة النفط الفارسية التي شاهدناها في زيارة تلك الانحاء قبل بضع سنوات وعليه نقول :

إذا بحثنا في الصلات السياسية بين الدولتين رأيناها ترتقي الى بضعة قرون غبرت . ففي سنة ١٥٥٨ — ١٥٦٣ كان قد بعث القيصر الروسي ايفان الهائل انطوني جنكنز الانكليزي سفيراً عن دولته الى بخارى وبلاد فارس . فرجع هذا الرجل الى بلاده بريطانيا في سنة ١٥٦٥ ونشر فكرة جديدة بين مواطنيه ترمي الى الشروع بالتجارة مع بلاد فارس عن طريق روسية ولم تكن يومئذ فكرة التجارة عن طريق خليج فارس ومضيق هرمز قد خالجت احداً من الانكليز ولهذا نرى تلك الفكرة قد تأخر نضوجها بعد هذا بنصف قرن

تعاطت احدى الشركات الانكليزية التجارة مع ايران ونالت بعض بوادر النجاح الا ان

(*) اعتمدت في هذا المقال على المصادر الآتية : (١) Persian Gulf : Published by The Foriegn Office. No. 78 (٢) Sykes : A. History of Persia (٣) Lord Curzon : Persia and the Persian Question (٤) A. V. W. Jackson : Persia Past & Present (٥) Sir J. Malcolm : History of Persia (٦) L. Herteslet : Complete Collection of Treaties etc. (٧) Sir H. C. Rawlinson : England and Russia in the East (٨) E. G. Browne : Persian Revolution (٩) مقال لي في جريدتي « السياسة » البغدادية ١٦ ايار ١٩٢٥ (١٠) جرائد ومجلات في لغات مختلفة

الفوضى التي ضربت اطنابها في الاقطار الفارسية يومذاك والعواصف التي ثارت فضلاً عن هجمات القرصان، اضطرتها الى الكف عن الاعمال بعد ان مُنيت بخسائر فادحة وذلك سنة ١٥٨١. وكان طريق هذه الشركة بحر قزوين

لم يكن هذا الاخفاق في التجارة البريطانية في بلاد فارس الا وقتياً . لان الانكليز وجّهوا انظارهم الى تجارة فارس عن طريق الخليج بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية في عهد الملكة اليصابات سنة ١٥٩٩ . تلك الشركة التي كان لها شأن خطير في التجارة والسياسة البريطانيتين

بعثت هذه الشركة سنة ١٦١٤ رجلاً تاجراً من سورات اسمه ستيل ذا خبرة باسواق العجم اكتسبها من سفر قام به من حلب الى الهند عن طريق البر ماراً ببلاد فارس . وارسلت الشركة معه المستر كروثر . فوصلا اصفهان وهي عاصمة البلاد يومئذ وقدما رسائل التوصية التي كانا يحملانها الى السر روبرت شيرلي فنالا بوساطته ثلاثة مراسيم (فرامانات) من الشاه عباس يأمر بها حكام المرافىء بمدّ ايدي المساعدة للسفن الانكليزية

لم يكن الطريق ممهداً لنجاح الانكليز في خليج فارس لان البرتغاليين كانوا قد استولوا منذ اوائل القرن السادس عشر على مضيق هرمز ونالوا الكلمة الراجحة في النفوذ السياسي في الخليج وعلم الانكليز منزلة البرتغاليين هناك وقدروا الموقف حق قدره وظهرت لهم المزاحمة البرتغالية باتمّ مظاهرها فرأوا ان لا مندوحة لهم عن محاربة البرتغاليين ان ارادوا نجاحاً في تلك الديار فخاضوا معامع القتال من سنة ١٦١٦ الى سنة ١٦٢٥ وحدثت وقائع في اثناء ذلك انتهت بانخذال البرتغاليين ومغادرتهم مضيق هرمز مغادرة لا عودة بعدها . واحتلّ الانكليز المضيق برضاء الفرس يسندهم في ذلك والي فارس الامام قولي خان بن الله وردي من اعز انصارهم ومواليهم فعقد حلفاً معهم جاء في شروطه : قسمة الغنائم مناصفة بين الانكليز والعجم . قسمة مكوس هرمز مناصفة بين الطرفين المتعاقدين . استثناء الانكليز من الضرائب . اطلاق الاسرى المسلمين وتسليمهم الايرانيين واطلاق الاسرى المسيحيين وتسليمهم الانكليز . اشتراك العجم في نفقات الاسطول ودفع نصفها

وفي سنة ١٦٢٥ اعاد البرتغاليين الكرة على الانكليز في الخليج فهجم القائد البرتغالي الجديد على الجيش الانكليزي وحرق السفينة الانكليزية التي عملت لبندر عباس ووقعت طائفتها بايدي البرتغاليين فاجهزوا عليهم وقتلوهم شرّ قتلة ولم يخلص منهم الا رجل واحد . وفي سنة ١٦٣٠ حاول البرتغاليون ان يسترجعوا مضيق هرمز ولكنهم اخفقوا

وكان استيلاء الانكليز على هرمز ذا شأن كبير في تثبيت نفوذهم في الهند وبلاد فارس . وكان الفرس يميلون آنئذ الى الانكليز لانقاذ بلادهم من سيطرة البرتغاليين . ويروى عن الشاه عباس انه قال لولا مساعدة الانكليز لما تمكنا من استرجاع هرمز

وفي سنة ١٦٢٧ كانت بعثة السر دومر كوتن والسر روبرت وهربرت شرلي . ذهبوا الى اصفهان واذ لم يكن الشاه هناك سافروا الى اشرف في مقاطعة مزندران فاحتفى بهم الشاه عباس كل الحفاوة واكرم مثواهم وشرب نخب ملك الانكليز ووعدهم بابتياع بضاعات انكليزية يسدّ ثمنها بتصدير عشرة آلاف بالة حرير فارسي في شهر كانون الثاني (يناير) من كل سنة . وقامت الشركة الهندية الشرقية الانكليزية باعمال تجارية عظيمة في خليج فارس ونالت امتيازات واسعة النطاق من ملوك فارس فكان لها بيت في بندر عباس اغلق سنة ١٧٦١ واسست غيره في بوشهر سنة ١٧٦٣ ونالت مرسوماً في ٢ تموز (يوليو) من تلك السنة من الشاه كريم خان يخولها امتيازات كثيرة ومنها :

(١) اجاز لها ابتياع اراض في بوشهر وفي مواضع اخرى من الخليج قدر ما تتطلبهُ اعمالها وسمح لها ان تعزز ابنيتها بالمدافع (٢) استثنى البضاعات الواردة الى بوشهر والصادرة منهُ من المكس (٣) منع الشعوب الاوربية الاخرى من استيراد بضاعات الصوف (٤) حتم دفع الديون الى التجار البريطانيين وغيرهم (٥) اعترف بحق الانكليز في شراء البضاعات وبيعها (٦) منع التجارات السرية (٧) منح حرية الدين (٨) وحق اعادة الفارّين (٩) استثنى سماسرة الشركة وخدّامها وغيرهم من المنتسبين اليها من دفع الضرائب والرسوم (١٠) واعترف بحق الانكليز ان يمتلكوا الاراضي المملوكة باسعار معقولة والاراضي الاميرية مجاناً للدور والجنان

ولما احتلّ شاه كريم خان البصرة سنة ١٧٧٥ — ١٧٧٦ جامل كل المجاملة القنصلية البريطانية هناك

نرى في هذه المطاوي النفوذ البريطاني يعظم في الخليج الفارسي فالبرتغاليون تركوه في سنة ١٧٢٠ وعقبهم الهولنديون سنة ١٧٦٦ فبقيت بريطانية الدولة الاوربية الوحيدة المستأثرة بالنفوذ هناك . ولذلك نرى فرنسة تحاول ان تعرقل هذا الموقف الممتاز فارسلت بضع بعثات سياسية بين سنة ١٧٩٦ و ١٨٠٩ الى الدولة الفارسية لعقد معاهدة تحالف هجومية ودفاعية ضد بريطانية العظمى وروسية . وتوصلت في سنة ١٨٠٧ الى عقد محالفة تنازلت فيها الدولة الفارسية عن جزيرة خارك لفرنسا ولكن يُظنّ ان هذه المعاهدة لم يقرّها الشاه

قد حان لنا ان نتكلم عن السفير الانكليزي ملكم وبعثته الاولى الى بلاد العجم سنة ١٨٠٠ . كان هذا الرجل شجاعاً فأحبّه الايرانيون ورحبوا به وكانت شهرته قد سبقته الى طهران قبل ان يصلها وكانت يومئذ جموع امير الافغان تهجم على الهند فتمكن « ملكم » من عقد معاهدة مع فتح علي شاه تنصّ على تعهّده بأن لا يعقد معاهدة مع امير الافغان ما لم يكفّ هذا عن الطمع في ممتلكات بريطانيا الهندية وتتعهد بريطانيا مقابل ذلك ان تقدم للدولة الفارسية العتاد ان هجم الافغان والفرنسيون على بلادها ، على ان يعفي الشاه البريطانيين

والهنود من دفع الضرائب في المرافىء . وتمرُّ البضائع الانكليزية كالحديد والفولاذ بالبلاد الفارسية معفاة من المكس

وفي سنة ١٨٠٢ بعث فتح علي شاه وفداً الى الهند برآسة الحاج خليل خان الاّ ان خادمه قتله . وبعد خمس سنوات بعث وفداً ثانياً برآسة اغا نبي خان

كانت تجارة الرقيق واسعة النطاق في خليج فارس في بدء القرن التاسع عشر ولم يكن هناك قانون يوقف تمادي النخّاس عند حد معلوم فيما يسببه من الاذى والالم للابوين والاقارب الذين يسرق اولادهم وفلذات اكبادهم . فأتت الحكومة البريطانية تريد القضاء على هذه التجارة بالبشر معتمدة على ما لها من الولاء والوداد في قلوب جميع سكان الخليج. فعقدت معاهدة عامة سنة ١٨٢٠ وعقبتها معاهدات واتفاقات خاصة مع امارات الخليج ومع تركيا وفارس، غايتها تضييق نطاق هذه التجارة . وأخذت حكومة الهند على عهدتها كل الوسائل الواجبة لتنفيذ احكام المعاهدات والاتفاق. فكلفها هذا الواجب الشاق الشيء الكثير من النفوذ والمال

واخذت على عهدتها ايضاً مطاردة القرصان واقرار الامن في خليج فارس ومشارفته وتنويره ووضع العوّامات فيه تسهيلاً للملاحة فيهِ . فكانت هذه كلها عوامل رسوخ السياسة البريطانية في الخليج وامتداد نفوذها في الامارات القائمة على ساحليهِ . وتوصلت هذه الدولة بدهاء ساستها الى عقد معاهدات مع الدولة الفارسية في السنوات ١٨٠١ و ١٨٠٩ و ١٨١٢ و ١٨١٤ . وفي هذه المعاهدة الاخيرة تعهدت بريطانية بان لا تتدخل في اي اختلاف يحدث في داخل بلاد العجم وان تحترم ملكية الدولة الفارسية وسلامتها وتعهدت ايضاً بمساعدة الشاه في خليج فارس بالسفن الحربية والجيوش ان كان ذلك مناسباً وقابلاً للتنفيذ

ولما انفذت بريطانية بعثتها سنة ١٨٠٩ على الكواظم رأت من مصلحتها ان توسّع نطاق اعمالها على الساحل الفارسي حيث التجأ بعض القرصان الذين لهم شركاء في اعمالهم. فساعدت الحكومة الفارسية البريطانيين في مهمتهم هذه فدمّر الانكليز ميناء لنجه وزار اسطولهم بعض المواضع في الساحل

وفي سنة ١٨٢٠ أُنزلت حامية بريطانية في جزيرة كشم باجازة من سلطان مسقط فاحتجّ الشاه على هذا الاحتلال . وفي سنة ١٨٢٨ طلب شيخ بوشهر سرّاً الحماية البريطانية واعرب عن استعداده للقيام باي تعهد يراهُ الممثل البريطاني موافقاً . الاّ ان حكومة بمبي رفضت هذا الطلب الذي عدّته لا يتفق والمعاهدات البريطانية الفارسية

وقام خلاف بين الدولة العثمانية وفارس في قضية الحدود بين المملكتين فتألفت لجنة مختلطة من الانكليز والروس في سنة ١٨٢٣ لحلِّ هذه المعضلة المعقدة نظراً الى تكوين الاراضي ووجود الهضاب والآكام فيها والى انّ سكانها من القبائل الرحّل . فافضت اعمال هذه اللجنة

الى معاهدة أرض روم التي وقعت سنة ١٨٤٧ . جاء في نصها : على الطرفين المتعاقدين ان يتركا شقة من الارض المنازع فيها تبتّ في حدودها لجنة تؤلف لهذه الغاية . فاجتمعت اللجنة الجديدة في ١٨٥٠ و١٨٥١ في بغداد والمحمّرة ولكنها لم تتوصل الى نتيجة باتة فاقترح اللورد بامرستون سنة ١٨٥١ ان يعهد الى ممثلي تركية وفارس تخطيط الحدود العامة في الاستانة يساعدهم في مهمتهم اعضاء اللجنة فقبل اقتراحه ودامت اعمال البحث والمساحة حتى سنة ١٨٦٥ فاقرّوا الحدود وشرط الاتفاق ان كل خلاف يحدث في الحدود يرجع في حله الى تحكيم انكلترا وروسيا. وبناء على احكام هذا الاتفاق نظر في الخلاف الذي حدث سنة ١٩٠٧ بين تركية وفارس فتألفت لجنة مختلطة سنة ١٩١٤ قبيل الحرب العامة قوامها اعضاء من الانكليز والروس والعثمانيين والفرس فبتت في هذه القضية وفي تعديل الحدود فاعيدت الى العثمانيين شقة من الارض في جوار خانقين تعرف « بالاراضي المحوّلة » . وعلى أثر الحرب العامة وانفصال العراق صارت هذه الاراضي من املاك الحكومة العراقية وفيها ينابيع النفط الذي منح امتيازها الى شركة خانقين وهي فرع من شركة النفط البريطانية الفارسية

قامت الحكومة الفارسية بحركات عسكرية وجهتها هراة وذلك سنة ١٨٣٧ — ١٨٣٨ فارسلت الحكومة البريطانية بعثة الى خليج فارس واقامت قوة في جزيرة خارك حتى نزلت الحكومة الفارسية على رغبة الحكومة البريطانية . فلنقف قليلاً هنا لخطورة هذا الحادث فماذا نرى ؟ نرى ان حرباً سجالاً قامت بين مملكة فارس والافغان . وكانت روسيا تعضد ايران ليتسنى لها بسط نفوذها على الافغان وتقاوم من هناك بريطانيا في الهند . ومما لا ريب فيه ان هذا الموقف كان يؤثر في السياسة البريطانية فتضاربت المنافع الروسية البريطانية في آسية الوسطى وانتبهت كل من الدولتين الى تنشيط سياستها في تلك البلاد ونشأت المزاحمة واشتدّ النضال السياسي بينهما وكانت كلٌّ منهما تحاول ان تنتصر على الاخرى . فكانت روسيا تحمل المملكة الفارسية على الاستيلاء على هراة من بلاد الافغان اما بريطانيا فكانت تقنع الفرس ان يسترجعوا بلادهم من الروس تلك البلاد التي خسروها في حرب سبقت ويغضّوا النظر عن حرب الافغان . وفي سنة ١٨٣٢ كانت قد عظمت المنافع البريطانية في فارس فارسلت الهند عتاداً وسلاحاً الى الشاه ثم بعثت بعثة عسكرية في سنة ١٨٣٤ ورافق تلك البعثة بعض الضباط الشهيرين ومنهم رولنصن وستورت وشيل ودارسي تود. الاّ ان هذه البعثة لم تفلح كثيراً في مهمتها ولم تأتلف والضباط الفرس . فتركت بلاد فارس سنة ١٨٣٦ وحدث بعد ذلك بسنتين بعض اختلاف بين الدولتين حتى اضطرّ السفير السر جون ماك نيل ان يغادر بلاد فارس وقطعت الصلات بين المملكتين

وكان محمد شاه علة توتر الصلات لانهُ كان ميالاً الى الروس واقعاً تحت نفوذهم خلافاً لسلفهِ

فتح علي شاه الميّال الى الانكليز وصديقهم الحميم

بقيت الرقابة شديدة بين البريطانيين والروس في قضية الحرب بين الفرس والافغان وكان السياسيون البريطانيون يحاولون اقناع الشاه في رفع الحصار عن هراة اما الروسيون فكانوا يبذلون مساعيهم لتثبيت الحصار وتشديده وتنشيط العداء بين الدولتين الشرقيتين الافغان وفارس . واضطرَّ اخيراً الشاه ان يرفع الحصار عن هراة ويوافق سياسة السفير الانكليزي السرجون ماك نيل

علينا ان نذكر هنا ان محمد شاه كان قد بعث الى لندن مندوباً عنهُ اسمهُ حسين خان ليرفع الشكوى من السفير البريطاني الى الحكومة المركزية . وكان يومئذٍ اللورد بامرستون وزيراً للخارجية الاّ ان اللورد بامرستون عضد السفير البريطاني فاضطر مندوب الشاه ان يوقع كل الشروط التي طلبها وزير الخارجية البريطاني لرجوع صلات الدولتين

وقد جاء في المادة السادسة من معاهدة باريس عبارة تدل دلالة صريحة على نفوذ بريطانيا ونجاحها في قضية هراة واليكها : « في حال حدوث اختلاف بين حكومة فارس وبلاد هراة والافغان تتعهد حكومة فارس بان تحيل القضية الى الحكومة البريطانية لتحلّها بالتوسط الودي . ولا تأخذ بيدها سلاحاً الاّ اذا اخفقت نتائج هذا التوسط الودّي »

وحدث في سنة ١٨٥٤ خلاف بين بريطانيا العظمى والمملكة الفارسية لم يُعتدَّ ببوادره الاّ ان الامر استفحل بعد ذلك . وكان منشأ هذا الخلاف ان السفارة البريطانية عيَّنت مرزا هاشم خان سكرتيراً للغة الفارسية فيها وكان هذا من موظفي الحكومة الفارسية وقد ترك وظيفته قبل بضع سنوات فلم يرق ذلك حكومته . فاشتد الخلاف حتى افضى الامر في سنة ١٨٥٥ الى ان يترك السفير البريطاني المستر مري طهران ويقطع الصلات السياسية بعد مفاوضات عقيمة بينهُ وبين الصدر الاعظم . فظن الصدر الاعظم ان الوقت حان للاستيلاء على هراة

على أثر ذلك عقد الانكليز اتفاقاً مع الافغان وعقبهُ اتفاق ثان في سنة ١٨٥٦ لان الفرس استولوا على هراة واراد الافغانيون اخراجهم وفي سنة ١٨٥٦ — ١٨٥٧ حاربت بريطانيا الفرس وقصدها من ذلك اخلاء هراة ليس الاّ .فبعثت حملة يرأسها السر ج . اوترم الى الخليج الفارسي واستولت على بوشهر في سنة ١٨٥٦ وعلى المحمرة سنة ١٨٥٧ واحتلت القوات البريطانية جزيرة خارك من سنة ١٨٥٦ الى ١٨٥٨

وقبل حملة كارون والاستيلاء على المحمرة كان قد تمَّ الاتفاق بين الدولتين وعقدت معاهدة الصلح في باريس وهي المعاهدة التي ذكرنا احد بنودها قبيل هذا. وبموجب هذه المعاهدة نال البريطانيون امانيهم وأخلى الفرس هراة كانهم نالوا سائر الشروط التي طلبوها ولم يصل خبر هذه المعاهدة الى السر اوترم رئيس حملة الخليج إلاّ متأخراً لقلة وسائل المخابرة ولفقدان التلغراف

يومئذٍ واشترط في هذه المعاهدة ان يعامل البريطانيون في فارس معاملة أكثر الشعوب حظوى . وبعد تصديقها سحب البريطانيون قواتهم من بلاد فارس . وكانت هذه المعاهدة الثانية بين بريطانيا وحكومة الشاه وأول معاهدة عقدت بين الطرفين كانت سنة ١٧٥١ لتضييق نطاق النخاسة كما جاء قبيل هذا

ان النفوذ الذي ناله الانكليز في بلاد الشاه من هذه الحملة زاد بعد ذلك لما مدّ الانكليز خطوط البرق في تلك الديار بين السنوات ١٨٦٨ و ١٨٧٠ .واول مدير تولى شؤون الخطوط البرقية السر فردريك غولدسمث فابلى البلاء الحسن في مهمته وتغلب بهمته على عقبات خطيرة لانهُ لم يكن في غربي كوادر سلطة حكومية يرجع اليها وبمساعيه ومعاونة الميجر لوفت تحددت التخوم بين بلوجستان وفارس فأقرَّها الشاه بعد ذلك

ان قضية سجستان كانت المعضلة الاولى التي قامت بعد عقد معاهدة باريس . فكانت هذه الكورة من املاك الحكومة الفارسية ثم انتقلت الى الافغان فقندهار فهراة ثم عادت فاعترفت بسيادة الحكومة الفارسية عليها وفي سنة ١٨٦١ — ١٨٦٣ طلبت هذه الدولة من بريطانيا العظمى ان تتوسط في المحافظة على سجستان من اعتداء الافغان عليها .فأجابت الحكومة البريطانية انها لا تعترف بسيادة الشاه في سجستان ولهذا لا تتمكن من التوسط . فافضى الامر الى نشوب الحرب بين مملكة فارس والافغان فاقترحت آنئذ بريطانية العظمى الرجوع الى التحكيم عملاً بالمادة السادسة من معاهدة باريس . فتألفت لجنة في سنة ١٨٧٢ يرأسها السر فردريك غولد سميث وسافرت من بندر عباس والتحق بها في سجستان القائد بولك ممثل اللورد مايوحاكم الهند العام والدكتور بللو المستشرق الشهير

وكان حكم هذه اللجنة انها قسمت سجستان قسمين سجستان الحقيقية وسجستان الخارجية فأقرّت الاولى لفارس والثانية للافغان وهي شقة من الارض واقعة في ضفة نهر هلمند الجنى فاخذ هذا النهر منذ سنة ١٨٩١ بتغيير مجراه ولهذا تألفت لجنة ثانية في ١٩٠٣ — ١٩٠٥ للبت في هذه القضية برآسة الكولونيل (السر) هنري مكهون

وفي سنة ١٨٧١ عين الشاه المرزا حسين خان رئيساً للوزارة وكان هذا سفيراً في الاستانة قبل ان يتولى الوزارة. وكان من خططه السياسية التي رسمها لوزارته ان يحترم معاهدات فارس وروسيا ويعهد بشؤون نهضة البلاد الى بريطانيا العظمى .وتنفيذاً لهذا المنهج اراد ان يوجد احتكاراً عظيماً وان يبني بوارد الخطوط الحديدية ويستثمر المعادن ويؤسس مصرفاً وطنياً فعهد بهذا الامتياز الى البارون جوليس دى رُويتر الذي كان من رعايا الدولة البريطانية .الاَّ ان هذا الامتياز العظيم أُلغي بعد ان زار نصر الدين شاه اوربا وكلم الاختصاصيين به فسمع من الاستياء ما لم يدر في خلده قبلاً . ولاسيما استياء الاندية العليا في عاصمة الروس وحتى

في لندن نفسها . وفي سنة ١٨٨٩ عقدت روسية معاهدة مع الشاه تعهد فيها الشاه ان لا يمدّ خطوطاً حديدية في فارس في اثناء عشر سنوات ثم مدت هذه المدة الى سنة ١٩١٠

لم يأخذ رويتر تعويضاً عن الغاء هذا الامتياز من الحكومة الفارسية الاَّ ان الشاه منحه سنة ١٨٨٩ امتياز البنك الشاهاني الايراني. واشتدَّت في هذه الحقبة المزاحمة بين البريطانيين والروس في بلاد فارس واخذت تعظم خطورتها سنة بعد سنة اذ كل منهما نشطت لترويج منافعها هناك . وبذلت بريطانيا العظمى جهودها لتفتح نهر كارون للملاحة والتجارة الاجنبيتين وتوصلت في هذه السنة الى غايتها بالرغم من مقاومة الحكومة الفارسيّة فمخرت بواخر لنج نهر كارون

ويروى ان في عهد الشيخ مزعل (١٨٨١ — ١٨٩٧) كانت مرافق المحمرة باشراف بريطانية بغاية توسيع نطاق التجارة ولمقاصد أُخرى وبعد اغتياله سنة ١٨٩٧ تولّى المشيخة على المحمرة أخوه الشيخ خزعل ولم يكن هذا على وئام مع الحكومة الفارسية المركزية ولهذا نراه في سنة ١٨٩٨ يطلب حماية الدولة البريطانية فرفض طلبه ولكن الحكومة البريطانية وعدته بأن سفيرها في طهران يعضده عضداً مستمراً . وفي سنة ١٩٠٢ استأنف طلب الحماية البريطانية ونظراً الى مطامع روسية وامانيها السياسية في المحمرة فوّضت بريطانيا العظمى سفيرها في طهران ان يتعهد للشيخ بالتأييد البريطاني لهُ وفي سنة ١٩٠٣ جدد هذا العهد . وجاء في رسالة السر هردنك السفير البريطاني الى الشيخ خزعل المؤرخة ٧ ديسمبر ١٩٠٢ ما يأتي: نحمي المحمرة من كل هجوم بحري تقوم بهِ دولة اجنبية مهما كانت حجة التدخل التي تدّعى. وما زلتم مخلصين للشاه وتعملون بمشورتنا فنحن ايضاً نستمر على معاونتكم ومعاضدتكم

وبقي الصراع السياسي مستمراً بين بريطانيا العظمى وروسيا فقامت روسيا بمظاهرات بحرية في خليج فارس وارسلت بعثة الطاعون الى جنوبي فارس وأسست في سنة ١٩٠٠ شركة الملاحة البخارية والتجارة الروسية وسيرت البواخر بين اوديسة والبصرة وانشأت البيوت التجارية في الخليج وكانت حكومة روسيا تعاون هذه الشركة معاونة مالية

وكانت روسيا تحاول الفوز بقاعدة بحرية في خليج فارس مما دعى اللورد لنسدون الى بيان السياسة البريطانية ذلك البيان الذي اكده السر ا : كري في مطاوي مفاوضات الاتفاق الانكليزي الروسي سنة ١٩٠٧ . وكانت هناك اسباب اخرى مهّدت الطريق لتثبيت النفوذ الروسي مما لا يسعنا الخوض فيها لضيق المقام ومنها القرضان اللذان اقرضتهما روسيا الفرس

ونظن ان سفر اللورد كرزن في خليج فارس يومئذ كان لمقاومة الصدمات التي انتابت النفوذ البريطاني الادبي والمادي في خليج فارس . وكان كذلك نتائج مرضية لسفر نائب ملك الهند في خليج فارس سنة ١٩٠٣ اذ كان يخفره اسطول الهند الشرقية . وجاء هذا السفر

مؤيداً لبيان اللورد لنسدون وزير الخارجية البريطاني في مجلس اللوردات. جاء في ذلك البيان:

«اقول ولا اتردد انهُ يجب علينا ان نعد بناء قاعدة بحرية او مرفأ محصن في خليج فارس تهديداً خطيراً للمنافع البريطانية مهما كانت الدولة التي تقوم به ويجب علينا حقاً ان نقاومه بكل ما لدينا من الوسائل » . فنشط هذا البيان الموظفين البريطانيين في بلاد العجم وقوّى عزائمهم . ولا نغفل هنا عن ذكر التأثير العظيم الذي احدثه تولّي اللورد كرزن منصب نائب الملك في الهند ، ففي عهده فتحت قنصليات جديدة وبعث بعثات تجارية الى جنوب شرقي فارس ونشطت التجارة البريطانية هناك

ولما اتخذت هذه الوسائل الفعّالة علا تدريجاً نفوذ بريطانيا في فارس وجاءت الحرب الروسية اليابانية ونتائجها المؤلمة لروسية مروّجة للسياسة البريطانية في مملكة الشاه فأضطرت روسيا آنئذ الى تغيير سياستها مع بريطانيا في خليج فارس

اشرنا آنفاً الى ان القرضين اللذين اعطتهما روسيا العجم سهلا طريق سياستها وزادا في نفوذها . وكان الفرس بادىء بدء يفاوضون الانكليز في عقد القرض الاول الاّ انهم لم يوفقوا بسبب الاختلاف الناشيء آنئذ بين القومين في قضيتي شركة حصر التبغ والبنك الايراني لاستغلال المعادن

اخذت روسيا كمارك ايران (ما خلا كمارك الخليج الفارسي) ضمانة عن القرض الاول وطلبت في القرض الثاني تعديل المعاهدة الروسية الفارسية ووضع تعريف (تعريفة) جديد للكمارك . وبعد مفاوضة في هذا الموضوع توصل الطرفان الى اتفاق تجاري في نوفمبر ١٩٠١ وأقرّا هذا الاتفاق في ديسمبر ١٩٠٢ وتبادلا الوثائق الرسمية وبقي سره مكتوماً حتى فبراير ١٩٠٣ فباغتا باعلانه الجمهور

قابل الروسيون التعريف الكمركي الجديد بكل ارتياح وقابله التجار الانكليز ممتعضين لانه كان يمس منافعهم بالاذى وعلى كل كان هذا التعريف انتصاراً باهراً لسياسة الدولة الشمالية

وكان موقف بريطانيا العظمى ازاء هذه القضية صعباً كل الصعوبة ولم يكن لها الاّ احدى طريقين اما ان تحتجّ على هذا الامر وتنتهز الفرص لحمل الدولة الفارسية على ملافاته او تفاوض حكومة الشاه في عقد معاهدة جديدة حالاً لغلّ ايدي الروسيين في مناهضة السياسة البريطانية في فارس فرجحت الامر الثاني

بلغ بنا البحث الى امتياز دارسي . ففي سنة ١٩٠١ نال المستر دارسي امتيازاً من الحكومة الفارسية لاستغلال النفط في عربستان وتحول هذا الامتياز في سنة ١٩٠٩ الى شركة النفط الانكليزية الفارسية A. P. O. C وعقدت هذه الشركة اتفاقاً مع شيخ المحمرة ومدت الانابيب واقامت المصافي في جزيرة عبادان . وفي مايو من سنة ١٩١٤ ابتاعت الحكومة البريطانية

حصة كبيرة في شركة النفط الانكليزية الفارسية . والاختلاف القائم اليوم بين الحكومة الفارسية وبين الحكومة البريطانية على هذا الامتياز وسنفرد مقالاً في تاريخ هذه الشركة واعمالها ومشاهداتنا في ميدانها في عدد قادم

وفي سنة ١٩٠٢ زار الشاه مظفر الدين انكلترا وكان يتوقع ان ينال من الحكومة البريطانية وسام ربطة الساق الذي كان يحمله والده الا ان الحكومة البريطانية قدمت اليه صورة الملك ادورد مرصعة بالماس فرفضها وغادر انكلترا مستاء . ويقول احد كتبة الانكليز ان رجال القصر الفارسي عدوا هذا الامر استخفافاً بجلالة الشاه وانتقاصاً من منزلته فلافاة لما كان بعثت حكومة لندن في السنة التالية وفداً حمل الى الشاه الوسام المرغوب فيه

رأينا النضال السياسي في بلاد فارس بين بريطانيا والدول الاخرى كالبرتغال وهولنده وروسيا وفرنسا وتزاحمها على بسط نفوذها على خليج فارس . ولاسيما روسيا فانها رقيبة بريطانية اللدودة في هذه الحلبة . وقد كانت هذه الرقابة بين دولتين اوربيتين عظيمتين مصدر متاعب لحكومة فارس ومنشأ ازمات سياسية ولكنها كانت ايضاً في تنع مملكة العجم في ابان ضعفها وتشتت اوصال الحكم والادارة فيها لانها كانت تحافظ على كيانها باحكام التوازن السياسي بين البريطانيين والروس فتميل بسياستها الى جانب احدها اذ ترى استفحال نفوذ الجانب الآخر ولا تزال دائبة في سياستها هذه حتى اليوم لا بل عمدت الى اسلوب جديد وهو اشراك بعض الدول في توظيف الاخصائيين الذين تحتاج اليهم في نهضتها فبينهم الالماني والبلجيكي والاميركي

ظهر في ميدان السياسة الفارسية الاوربية في اوائل القرن العشرين شعب جديد حسبت له بريطانيا العظمى الف حساب . ألا وهو الشعب الالماني فان نفوذ الالمان اخذ يتسع في الشرق الاوسط بامتياز خط حديد بغداد . فنص اتفاق سنة ١٩٠٣ مع تركيا على ان يمتد هذا الخط الى نقطة في خليج فارس . وكانت الامبراطورية الالمانية تعد الاسباب قبل ذلك لبسط نفوذها السياسي في الخليج بمختلف الوسائل السياسية والتجارية . فبدأ اسطولها بزيارة الخليج سنة ١٨٩٩ وأسس البيت التجاري ونكهوس ادارات له في مدن مختلفة في الخليج الفارسي . وفي سنة ١٩٠٦ بعثت شركة همبورك اميركا لاين بواخرها التجارية للنقل والملاحة بين اوربا والبصرة وعهدت بوكالتها الى ونكهوس . واخذ هذا البيت احتكار شراء اوكسيد الحديد من ابي موسى . ولم تخف صحافتها خطورة السياسة الالمانية . ونشطت المانيا في سنتي ١٩١٣ و ١٩١٤ لادخال الاسلحة والعتاد في الخليج

وفي سنة ١٩٠٦ ثار الشعب الفارسي على نظام الحكم الاستبدادي واراد الحكم الديمقراطي الدستوري فاضطهدت الحكومة القائمين بهذه الحركة حركة الاصلاح . فلجأ هؤلاء الى السفارة البريطانية وكان عددهم ١٢٠٠٠ نسمة ونيف فلم تنلهم ايدي الحكومة لتقبض عليهم ولم

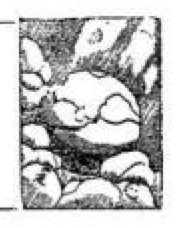
يغادروا حماهم الا بعد ان نالوا رغبتهم في عزل عين الدولة ورجوع المجتهدين الذين تفاهم هذا الرجل الى قم ونشر القانون الاساسي

لننتقل حالاً في بحثنا الى الحرب العامة . فان المملكة الفارسية بقيت محايدة ولم تشترك في الحرب العالمية الكبرى وفسحت مجالاً للدول المتحالفة والمؤتلفة تُنزل الجيوش في اراضيها فاحتلت الجيوش البريطانية ثغر بوشهر في ٨ اغسطس سنة ١٩١٥ وعينت له بريطانيا مندوباً سامياً موقتاً ووضعت السلطة يدها على البريد واستعملت الطوابع الفارسية باضافة العبارة الانجليزية «Bushire under British Occupation بوشهر تحت الاحتلال البريطاني» . ولمجموعة هذه الطوابع مقام في اعين هواة الطوابع يغالون باغلانها لقلتها وندرتها . وبعثت قوةً لمحافظة ينابيع النفط في ميدان نفطون وتقدمت القوات الروسية التي كانت محالفة لبريطانيا العظمى من الشمال حتى بلغت حدود العراق لابل دخلت خانقين . وكان الشيخ خزعل شيخ المحمرة موالياً للانكليز يسهل لهم السبل . ثم تسنى للالمان والترك المؤتلفين التوغل في البلاد الفارسية بطريق كرمانشاه فهمذان بعد زوال الحكم القيصري من روسيا . وبعد الاحتلال البريطاني لبغداد تقدمت الجيوش الانكليزية في بلادفارس من طريق كرمانشاه وتوغلت فيها .واقامت لها مصيفاً في كرند لا بل اتخذت هذه المدينة مقراً للاسر البريطانية سيدات واطفالاً

وبعد ان حطت الحرب العامة اوزارها توصل البريطانيون الى عقد معاهدة مع الفرس بمساعي السر برسي كوكس سنة ١٩٢٠ يوم كان البرنس فيروز بن فرمان فرما وزير الخارجية الفارسية : الا ان البرلمان الفارسي لم يقرّ تلك المعاهدة . وتوصّل البلاشفة الى عقد معاهدة مع الفرس سنة ١٩٢١ فيها الشيء الكثير من التساهل وبهذه المعاهدة قضي على المعاهدة البريطانية الفارسية

بعد ان تولّى جلالة الشاه بهلوي عرش الاكاسرة وجّه انظاره الى الاصلاح السياسي والاداري والمالي فقضى على الامارات الاقطاعية في فارس لتثبيت الوحدة السياسية والادارية في مملكتهِ ومن بين الامراء الذين أخرجهم من اماراتهم الشيخ خزعل خان شيخ المحمرة صديق البريطانيين الحميم وأسس البنك الملي وحصر حق اصدار البنكنوت بهِ بعد ان ارضى البنك الشاهاني الايراني (المؤسس من رؤوس اموال انكليزية) بتعويض مالي ليتنازل عن حق اصدار البنكنوت . وكان آخر ما قامت بهِ حكومة جلالة البهلوي الغاء امتياز دارسي وقد اودع حلّ القضية عصبة الامم ولا يزال امرها على بساط البحث . وسنكتب في تاريخ هذا الامتياز فصلاً كما وعدنا قبيل هذا وكل آت قريب

بغداد



العلم والاحوال الجوية

نظرية جديدة

تقلب الاحوال الجوية

يقيم علماء الجولوجية ادلّة مقنعة على ان الاحوال الجوية التي تحيط بالكرة الارضية لم تكن في الماضي ما هي عليهِ الآن ويثبتون انهُ اتى عليها ازمان قرس فيها البرد آناً وامتدَّ بساطا الجليد حول القطبين الى المناطق المعتدلة ، ودفىء الجوّ آناً آخر كما في بدء حقبة الحياة الحديثة (الكاينوزوية) لماكانت درجة الدفء والرطوبة على سطح الارض اعلى مما هي عليهِ الآن وكان متوسط درجة الحرارة في اوربا يتباين من ٧٥° مئوية الى ٨٠° مئوية فكانت الاشجار الخاصة ببلدان البحر المتوسط الآن تغطي لبلندا في شمال اوربا وجزيرة سبتسبرجن التي يتخذها قصّاد القطب الشمالي مقرّاً لبعوثهم ، وكلا البلدين — اي لبلندا وسبتسبرجن — من البلدان المشهورة بشدة بردها في هذا العصر

ولكن اذا طلبنا اليهم ان يبيّنوا لنا الاسباب الباعثة على عصور طويلة امتدَّ فيها رواق الدفء على سطح الارض، او على عصور اقصر منها قرس البرد وغشي الجليد الكرة من القطبين الى منتصف المسافة بينهما وبين خطّ الاستواء، حاروا في ذلك وتناقضت اقوالهم

فنهم من يذهب الى ان سبب ذلك مرور الارض، في اثناء سيرها في الفضاء خلال سديم كثيف، حجب غبارهُ جانباً من نور الشمس وحرارتها ، فبرد سطح الارض فحدث ما يعرف بالعصر الجليدي . وان مرورها في اكثر من سديم واحد على هذا المنوال سبب حدوث العصور الجليدية المختلفة في ما هو معروف من تاريخ الارض الجولوجي . ويعترض على هذا المذهب بان الغبار الكونيّ الذي بيننا وبين الشمس الآن يسير جداً لا يمكن ان يكون لهُ بعض الاثر المذكور ، وان مرورنا في خلال سديم قد يفسر الانتقال من عصر بارد بعض البرد الى عصر بارد شديد البرد ، ولكنهُ لا يعلّل لنا حدوث عصور الدفء ، الاّ اذا امكننا ان نبيّن ان الارض آخذة في الدفء التدريجي ، وان المرور في خلال سديم يوقف هذا الفعل الى مدًى وهذا ما لم يثبتهُ العلماء حتى الآن . وثمة طائفة اخرى من العلماء تسند التقلب في متوسط الحرارة على سطح الارض وفي جوّها ، الى التقلّب في ما تطلقهُ الشمس من طاقة اشعاعها . وهو تعليل سهل ولكن هل هو تعليل صحيح ؟ اذ ليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بان الشمس تغيّر مقدار ما تطلقهُ من اشعتها زيادة و نقصاً في ادوار تبلغ مئات الالوف او الوف من السنين

ظاهرة تسترعي النظر

والعلماء لا يعرفون ، ولا سبيل لهم لمعرفة المدى الذي استغرقهُ كلّ انقلاب من هذه الانقلابات في حالة جوّ الارض ، ولكنهم يستخرجون من الادلة الجيولوجية ما يقنعهم بانهُ لما كانت البقاع اليابسة واسعة النطاق وسلاسل الجبال شامخة الذرى والفعل البركانيُ شديداً بوجهٍ عام ،كان الاقليم بارداً الى درجة الجليد.وانهُ على الضدّ من ذلك كان دافئاً جافّاً في العصور التي كانت فيها القارات صغيرة ، والجبال منخفضة وقليلة .فالعلاقة بين اتساع القارات وارتفاع الجبال وشدّة الفعل البركاني من جهةٍ ، ونوع الاقليم من جهةٍ اخرى ، دليل على ان امتداد الغطاء الجليدي او ارتدادهُ في العصور الماضية ، لم ينجما عن مرور الارض في خلال سديم، ولا عن تقلّب في مقدار ما تطلقهُ الشمس من طاقة ضوئها وحرارتها او اي سبب فلكيّ آخر

والراجح ان سبب التقلّب في حالة جوّ الارض بين الدفء والبرد، سببهُ في الارض نفسها. فتغيُّر الاقليم لم يكن سبباً في امتداد القارات او انكماشها ، وانما كان تحوّل القارات بين امتداد وانكماش ، والجبال بين ارتفاع وانخفاض وما يصحب ذلك من تغيُّر في الرياح السائدة او تيارات البحار ، سبباً في تقلب احوال الجوّ المذكورة

حالة الارض الآن

فلننظر الآن في حالة الارض من حيث توزيع الارض اليابسة والمياه على سطحها لعلّنا نستطيع ان نتبيّن شيئاً من مستقبل الاحوال الجوية اذا حدث على سطحها حوادث جولوجية معيّنة

يظهر ان مساحة اليابسة على سطح الارض تبلغ الآن ماكانت عليهِ في بدء العصور الجولوجية السابقة التي تحسب عصوراً جولوجية . والراجح ان علوّ بعض الجبال يبلغ اعلى ما كانت عليهِ الجبال حينئذٍ . فاذا صحّ هذان الاستنتاجان فنحن في مفتتح عصر جليدي ، قد يكفي حدوث حادث جولوجي يسير ، لبدئهِ . فما عساهُ ان يكون ؟

الواقع ان ثمة اكثر من حادث جولوجي واحد من شأنهِ ان يفعل هذا الفعل ، ولذلك يصبح ابتداء عصر جليدي جديد اكثر احتمالاً

فاذا افترضنا ان ترعة بناما شقّت شقّاً يجعل الاتصال بين المحيطين الهادىء والاطلنطي اتصالاً مباشراً بدلاً من اتصالهما بواسطة احواض تتدرج ارتفاعاً وهبوطاً، وجعل عرضها بضع مائة من الاميال ، لتحوّلت المياه الدافئة التي تسير في تيار الخليج من خليج المكسيك فتدفئ شمال اوربا — الجزائر البريطانية واسلندة وسبتسبرجن — الى المحيط الهادىء لان مستوى المحيط الاطلنطي اعلى من مستوى المحيط الهادىء، ولقرس البرد في البلدان المذكورة

التي تدفئها هذه المياه ، ولتغطّى بعضها بالجليد على مدار السنة

او خذ النجد البحري الذي يصل جزيرة جرينلندة باسكتلندة عن طريق جزيرة اسلندة وجزائر فاروز — وهو نجد تغمرهُ مياه ضحضاحة — فانهُ اذا ارتفع هذا النجد فوق مستوى سطح البحر — كما كان على ما يظن في الماضي القريب — انقطعت كل صلة لمياه المحيط الاطلنطي الدافئة بالمحيط المتجمد الشمالي فيغطي الجليد صيفاً وشتاء كل المناطق التي الى شمال ذلك النجد ومنها البحر الذي يغسل شواطىء بلاد النرويج ، فيصاب اقليم البلدان المجاورة لهذا المناطق بانقلابٍ خطير ، فيقرس فيها البرد ويتكاثف الجليد سنة بعد سنة

وليس القول بحصول هذه النتائج اذا حدثت المقدمات الباعثة عليها من قبيل التكّهن بل في امكان الباحثين أن يعرفوا مقدار الانقلاب وأن يعيّنوا مدى التغيُّر في الحرارة تعييناً لا يحتمل الخطأ اكثر من بضع درجات زيادة او نقصاً. وعمل حسابٍ من هذا القبيل معقد كل التعقيد لانهُ يقتضي النظر في عدة عوامل مختلفة في آنٍ واحد . ومن هذه العوامل اثر بقعة من الارض يغطيها الجمد في اقليم المنطقة التي تحيط بها

***

اذا أخذنا قطعة من الارض مساحتها متراً مربعاً وفرضنا انها مغطاة بالجمد ، في وسط منطقة دافئة ، وجدنا ان جمدها لا يؤثر اثراً ذا بال في هواء المنطقة الدافئة على بعد مائة متر . فهي تعكس اشعة الشمس المنصبة عليها ، بدلاً من ان تمتصها فيكون الهواء الملاصق لها ابرد من الهواء الملاصق للارض التي تحيط بها . ولكن مقدار الهواء الذي يبرد بفعل الجمد يسيرٌ جداً اذا قيس بمقدار الهواء المجاور، فكأنك تضيف قطرة من الماء البارد الى ابريق من الماء الغالي. اي اننا لا نكاد نتبين اثر هذا المقدار اليسير من الهواء البارد في المقدار الكبير من الهواء الدافيء

ولكن اذا كانت قطعة الارض التي يغطيها الجمد دائرةً قطرها ميل، فاننا نستطيع ان نتبين اثرها في تبريد الهواء الذي فوق الارض المحيطة بها على مائة قدم او اكثر من محيطها ، في الناحية التي يتجهُ اليها هواؤها البارد . فاذا كان قطرها الف ميل أو الف وخمسمائة ميل بلغ اثرها في تبريد الهواء اقصى مداه

يضاف الى ذلك ان الهواء الذي يهبُّ فوق بقعة صغيرة يغطيها الجمد لا تهبط درجة حرارتهِ الاَّ هبوطاً يسيراً ، ولكن اذا كانت مساحة البقعة كبيرة ، هبطت حرارة الهواء الذي يهبُّ فوقها هبوطاً كبيراً . فاذا كان قطر البقعة الف وخمسمائة ميل بلغ اثر الجمد في تبريد الهواء اقصى مداهُ ، فلا يزيد هذا الاثر بعد ذلك بزيادة مساحة المنطقة التي يغطيها الجمد

فاذا جمعنا بين هذه الحقائق وغيرها مما حققهُ العلماء بالبحث الدقيق — بالاستنتاج النظري المؤيد بالمشاهدة والتجربة — وجدنا ان اثر منطقة يغطيها الجمد في تبريد الهواء فوق البلاد المجاورة

لها يختلف باختلاف مساحتها حتى تصبح مساحة هذه المنطقة مليون ميل مربع فيبلغ أثرها حينئذٍ اقصى مداهُ أو تقل زيادة أثرها بزيادة مساحتها حتى لاتكاد تذكر . وعلى هذا الاساس ذهب الباحثان كرنر Kerner وبروكس C. E. P. Brookes الى انهُ لو كانت كل البحار والمحيطات خالية من الجليد ، ثم هبطت الحرارة حول القطب الشمالي درجة واحدة بميزان فارنهيت تحت درجة تجمد مياه البحر لافضى ذلك الى تكوُّن غطاء جليدي قطره نحو اربعة آلاف ميل . وعندئذ يصبح للرياح التي تهب فوق هذه المنطقة المتجمدة أثر كبير في تبريد هواء المناطق المجاورة لها

الفعل البركاني وبرد الارض

يتضح مما تقدم انهُ لو كان للارض ما يمكنها من تخفيض حرارتها تخفيضاً ذاتياً درجة أو درجتين أو ثلاث درجات على الاكثر ، لامكنها ان تنشىء الغطاء الجليدي من تلقاء نفسها ومن دون اي فعل خارجي كفعل الغبار السديمي أو التقلب في ما تطلقهُ الشمس من الحرارة والضوء . والظاهر ان لها هذا ، حتى من دون ان يزيد اتساع القارات أو ارتفاع الجبال — وهي العوامل التي اجتمعت في العصور الجولوجية السابقة لما امتدَّ الجليد وقرس البرد—

ذلك انهُ متى ثارت البراكين قذفت في الجو مقادير كبيرة جدًّا من الغبار الدقيق لا يلبث ان ينتشر ويمتدُّ فيضرب فوق سطح الارض سرادقاً لطيفاً ولكنهُ في الوقت نفسه فعَّالاً في حجب جانب غير يسير من حرارة الشمس وضوئها ، فينشأ عن ذلك خفض حرارة الارض وجوها

ولهذا الرأي ما يؤيده من المشاهدة والتاريخ . ففي سنة ١٧٨٣ ثار بركان «سكابتاريوكل» في جزيرة اسلندة وبركان «اساما» في بلاد اليابان ثوراناً عنيفاً فخفل الجو بالغبار الدقيق الناشىء عن ثورانهما ولاحظ بنيامين فرنكلن — وكان في باريس حينئذٍ — ان اشعة الشمس اذا جُمعت بعدسة محدَّبة لا تكاد تحرق ورقة سمراء . وكانت السنوات التي تلت هذا الثوران المزدوج قارسة البرد . وتعرف سنة ١٨١٦ بالسنة التي لا صيف لها لشدة بردها وقد تلت ثوران بركان تمبورا في جزيرة سومباوى على مقربة من جزيرة جاوى . وفي ٢٧ اغسطس سنة ١٨٨٣ قذف بركان كراكاتوى في مضيق سُندَة مقادير كبيرة من الغبارة الدقيق الى ما فوق الغيوم فظلَّ هذا الغبار سنتين أو ثلاث سنوات ذا أثر في تغيير ألوان الشفق في كل البلدان وخفض متوسط الحرارة. وفي ٦ يونية سنة ١٩١٢ ثار بركان «كاتماي» بالاسكا فملأ غبارهُ الجو فوق النصف الشمالي من الكرة الارضية فضعف ضوء الشمس وخفضت حرارتها

فلنفترض الآن — وليس في هذا الافتراض ما هو غير معقول — ان ثوران بركاني اساما وكراكاتوى اصبح اكثر حدوثاً اي نحو مرتين أو ثلاث مرات في السنة مدى مائة سنة — والمائة سنة كطرفة عين في امتداد الزمن الجولوجيّ — أو مدى خمسين سنة أو عشرين . فما

ينشأ عن ذلك من تحول في الاحوال الجوية الاقليمية زائلاً كان هذا التحوُّل أو باقياً

ان النتيجة السريعة التي لا مندوحة عن حصولها هي انخفاض بيّن في متوسط الحرارة في كل فصل من فصول السنة . وهذا الانخفاض يفضي الى امتداد الغطاء الجليدي في كل الفصول كذلك . وامتداد الغطاء الجليدي ينشأ عنه ضياع جانب من حرارة الشمس لان الجليد يعكس أشعتها ولا يمتصها . ثم انهُ بفعل الرياح التي تهب من فوقهِ الى البلدان المجاورة لهُ يخفض متوسط حرارتها كذلك كما بيّنا في ما تقدّم . ثم ان مقدار البخار المائي في الهواء — وهو بمثابة دثار للارض يقيها من اشعاع الحرارة التي تمتصّها — يقل لان مقدار البخار الذي يمكن ان يحتويهُ مقدار من الهواء يقل بانخفاض حرارة الهواء . فينشأ عن كل ذلك تحولات ثانوية في الغيوم والرياح والعواصف وكل الظواهر الجوية بوجهٍ عام

عودة الدفء . . . ؟

على ان سائلاً قد يسأل : اذا افترضنا ان هذه البراكين اطلقت كل ما في جوفها وخمدت بعد ثوران متواصل مدة عشر سنوات أو عشرين سنة أو خمسين سنة . افلا تعود الارض حينئذٍ الى سابق عهدها من الدفء والجو المعتدل ؟ والجواب : قد تعود وقد لا تعود . كل ذلك رهن بمدى انحرافها عن متوسط حرارتها المعتاد . فنحن نعلم اننا اذا أملنا جسماً عن قاعدته ميلاً خفيفاً وتركناه عاد الى وضعهِ السابق . ولكن اذا كان الميل كبيراً فَقدَ توازنه وهوى

وهذا المبدأ ينطبق على امتداد الجليد والثلج على سطح الارض في عصر هبطت فيه حرارة جوها وسطحها . فاذا كان هبوط الحرارة يسيراً قصير المدى وامتداد الجليد والثلج قليلاً ، تكفي ازالة السبب الباعث عليهما لعودة الحالة الجوية الى اعتدالها السابق . اما اذا كان هبوط الحرارة طويل المدى وامتداد الجليد والثلج عظيماً ، فازالة سبب البرد لا يكفي لزوال نتائجه . بل قد يزداد أثر البرد بعد زوال سببهِ لأنَّ المناطق المغطاة بالجليد تمضي في زيادة برودة الهواء في المناطق المجاورة لها بما تعكسهُ من حرارة الشمس بدلاً من ان تمتصه

***

وليس الغرض مما تقدم القول باننا في مفتتح عصر جليدي ، وانما الغرض ان نقول ان الارض ليست بمأمن منهُ من الناحية العلمية ، وان نبين كيف يتم اذا تهيأت لهُ الظروف

وقد لخصنا هذا الفصل عن بحث للمستر همفريز استاذ الظواهر الجوية في كلية جورج وشنطن ومدير مكتبة الظواهر الجوية بوشنطن سابقاً

بيت الراعي

عن الفرنسية للشاعر ألفريد دي فيني
نقلها ميشيل جورجي المهندس

اذا كان قلبك، وهو يتلوى تحت اعباء الحياة كالنسر المجروح — يجالد بجناحه المسترق اجواء عالم جائر بارد — وهو ينتزى دماً من جرحه القاتل وقد غابت عنه نجمة الحب الهادية التي كانت تنير له السبيل

واذا عافت روحك الحبيسة مذاق تلك الحياة المريرة . كزاد ذلك الشقي السجين — الذي يقدم له وهو يغالب بمجذافه امواج البحر بنفس مكتئبة ووجه شاحب — بينما يبحث من خلال دموعه عن مهرب مجهول بين الامواج . فترده رؤية ميسم العار مطبوعاً على كتفه بحروف من نار

واذا سئم جسمك المهتز بالعواطف الدفينة جوارح النظرات . فراح يبحث له عن مخابىء قصية يحمي فيها جماله من المهانة . واذا انفت شفتاك من سم الكلام الكاذب ، واذا تورد خداك حياء مما ترينه وتسمعينه في عالم ملوث فاجر

اهربي بشجاعة عبر الفلاة واتركي العمران : لا تدنسي قدميك بغبار الطريق ، وانظري من شواهق افكارك الى المدن المستعبدة ، والى الغابات والغياض — منطلقة في حرية البحر حول الجزر — ولتكن هناك زهرة في يدك

هناك تجدين الطبيعة تنتظرك في عبوس واكتئاب ، حيث يرفع العشب الى قدميك برد المساء ، وتنهدة الشمس المودعة ترنح الزنابق المتأرجحة كالمجامر ، وقد بدأت صورة الجبل بلاشيها الخفاء ، وفروع الصفصاف تتدلى في تراخ ...

والغسق الحاني جاثم بالوادي على العشب المتماوج في الوان الزبرجد والذهب ، والسعدان النامي على ضفاف الغدير ، وفي الغابة الحالمة التي ترتعش ذوائبها في الهواء ، هناك ينسل من مخبأه بين الاشواك ، مسبلاً طيلسانه القاتم على الضفاف ... فاحتضن الليل ...

وعلى الجبل تجدين كلأ لم تطأه قدم الصياد بعد ، يشرف من علٍ على الراعي والغريب العابر . فتعالي بنا نخفي حبنا ونخبيء خطايانا الملهمة . واذا لم تطمئني الى علو الكلأ واستقراره ، فاني ادحرج لك بيت الراعي ...

هذه العربة — أو البيت — تمشي على عجلتها في هدوء ، وسقفها مائل قليل الارتفاع ، احمر في لون المرجان الذي هو لون خديك ، وعتبتها معطرة ، داخلها نسيم وأريج : هناك بين الازهار نجد في الظلمة راحة وفراشاً وثيراً

الادب التركي [1]

آثار توفيق فكرت وحسين جاهد

ان اخلاق الناس ، وقوة نفوسهم وأعصابهم وأذهانهم ، وأساليب العيش الذي يعيشونهُ وروح الفن الذي يحملونهُ في كل وجوه العمل ومطالب الحضارة ، لا يمكن ان تتجلى بجملتها في صورة واحدة ، الا في الآداب التي تخرج من الناحية السامية فيهم ، وهي كتابهم وشعراؤهم واهل التفكير منهم . فانت تستطيع ان تدرك طرفاً من شعور الفرنسي ونظام بيتهِ واخلاقهِ ، وقوة الروح الفنية عنده من قراءتك كتب فيكتور هوغو وحدها ؛ وان لم تنعم برؤية فرنسا آخر حياتك ، ولم تتقلب في بلادها ، وتدخل مغانيها وبيوتها ، وتظفر بصداقة مع طائفة من افرادها . وكذلك تستطيع ان تفهم من الادب التركي اي نفوس كانت تحمل الترك ، واي اعصاب كانت لهم ، واي اخلاق كانت تتخلق ، بل انك قادر ان تتبين من طرازهم في العمارة وهذه التعاريج والتثنيات التي كانوا يزينون بها شرفات قصورهم ومظلاتها وقبابها ، روح نامق كمال بك في معرجاته واستفاضاته . ومن ادبهم الذي لم يكن يحتوي غير حكايات قصار ، ونوادر موجزة ، وابيات افذاذ وكلمات مقتضبة ، تستطيع كذلك ان تعلم انهُ قد كانت لهم نفوس قلقة ؛ وقلوب وثابة ، واعصاب حارة ملتهبة ، فلم يكونوا يطيقون الصبر على البحث الادبي المستفيض ، والكتابة التفكيرية الممتدة ، اللهم الا في حدود الفقه والحديث وعلوم الفارسية واشباه ذلك ، وهذه كانت لا يطيقها الا شيوخ منهم يحسون فتور العلم ، ويحملون في اعصابهم العلمية برودة القطب

واذا تقرر ذلك فان الادب التركي كان الى عهد قريب يحمل مفاسد الجيل وطبائعه واخلاقه ، وعوارض الانحطاط الذي كان يسود كل ناحية من نواحي الحياة المريضة التي عاشتها تركيا . ونحن واجدون في كل ما يخرج من افواه شعرائهم ، وتقذفهُ المطابع من اقلام كتّابهم وشعرائهم صوراً شتى من غرائب الطبائع التي نشهد آثارها في حياتهم ، اذ كان كل ما كتبهُ هؤلاء وانشأوه يجري مع مطالب الجمهور ، وينزل على حكم السواد الاعظم ويدخل على قلوب العامة

---

(١) من محاضرة الاديب نقولا شكري القاها بدار نقابة موظفي الحكومة المصرية بالاسكندرية بدعوة من جماعة الادب المصري

واشباههم من ناحية ما يحبون ، ويطالعهم من ناحية ما يفكرون ويعتقدون . ومن ثمّ كان الجمهور العادي في تركيا هو الذي يقود الفكر ، ويسيطر على الذهن ، ويستبد بكل منتجات القرائح وثمرات العقول ، وما كان الكتاب الذين تأبى عليهم مطالب الربح والذكر والشهرة الاّ ان يتابعوا هذا الجمهور الذي لا يزال في طفولة الحياة ، ولا يزال يعيش بروح الماضي

***

على ان الادب التركي ما لبث ان انتعش في القرن الاخير ، وخرج من حدود الطفولة الى ادوار الحياة القوية المكتملة اذ جاء عديدون من كبار الادباء يدخلون على هذا الادب الضعيف روحاً جديدة من التهذيب ، وسبلاً عدة من التفكير العميق ، وهم لا يخلون من دلائل النضوج ، وسمو الذهن ، وبواكر العبقرية ، وهؤلاء الذين رفعوا لواء الادب التركي الجديد هم الذين سيتناولهم البحث دون غيرهم من الادباء الاقدمين

ونحن غير آخذيهم بالدور ، ولا متناوليهم بالترتيب والتعقيب ، وانما تاركون انفسنا على سجيتها وعنان خواطرها ، فقد نجيء بآخر كاتب قبل اول اديب ، ونبدأ من الذيل ونترك الرأس ، فنتناول الاديب من عرض جماعته ، وصفوف طبقته وندع صدورهم ، ونترك وجوههم

***

وبعد ، فقد اخترنا ان نتحدث عن توفيق فكرت بك شاعر تركيا وأديبها الكبير المتوفى منذ بضع سنوات

في الصف الاول من صفوف الكتّاب العصريين ينهض هذا الرجل الخصيب الذهن ، القوي الاثر ، وقد أحدث في الآداب التركية تغييراً خطير الشأن ، وارسل في أرواح الشباب والمنحدرين الى المستقبل تطوراً شديد السلطان ، اذ كان في الحياة العامة قائداً يمشي في اثره كثيرون من المتطلعين الى التهذيب ، النازعين الى مناهضة المبادىء القديمة التي لا يزال يعض عليها بنواجذه سواد طبقات الشعب التركي. ولعله كان محدثاً اكثر مما احدث لو انه غالب الحب الذي يتغلغل في نفوس اكثر الناس لروعة المنصب الحكومي وفخامة مقاعد الادارة ، أو لو انه اذ جلس مجلسه ، وتولى منصبه ، لم ينس الناس ، ولم ينصرف عن الجمهور ، ويرضى بعمل هين ليس فيه من متعبة الاّ كثرة الامضاءات والتوقيعات ، ومراجعة القوائم والكشوفات

على ان الحكومة لم تأخذه اليها الاّ يوم نشبت الحرب ، وطارت شرارة المجزرة ، وخمد صوت الفكر متبدداً في تضاعيف صوت القنبلة ، وانكمش المفكرون متضائلين امام اهل السيف فلم يكن ثمة سبيل الى هذا الرجل المفكر ان يرسل قلمه في تفاسير السياسة ، وينطلق في شرح اعاصير الدول ، ويخوض في نبوآت الحرب . وكان الرجل لا يزال مهيب الفكر عند الحكومة ، محترم الذهن عند كبارها ، فلم يسع انور باشا الاّ ان يذهب اليه فيهمس في اذنه: «ايها الرجل

المفكر ، ليس لك الآن محل في الحرب . ان زملاءك اليوم في الامم المحاربة قد سكتوا ، اذن فتعال عش في دار الآثار ، تعال أخرج لنا من هذه المطمورات تمثالاً للفكر منسيًّا »

حتى اذا استرسلت الحرب في عزيفها ونكرها وصريخها ، لم يلبث ان ملّها الناس ، واعتادوها،ورضوا بالآلام التي تجيئهم من ناحيتها ،وراحوا يتلمسون عنها العزاء .ويتفقدون السلوى وليسوا بحاجة الى شيء مثل القراءة ،ولا أذهب لاحزانهم من الكتب ، لانها تضمد جراحات النفوس ، وتسكن آلام الاذهان ، اذكانت مواد التسعيرات جعلت مطالب المعد تسود على مطالب العقول، وقد تعب الناس من كثرةالتفكير في الا كل ، اذ علموا انالحرب ستأ كل الجزء الانساني فيهم، وتدعهم نوعاً جديداً من الحيوانات المتكلمة ، اذا لم يحتفظوا بقلوبهم واذهانهم . وكان هذا الرجل المفكر يستطيع في ذلك الزمن الاحمر القاني من دماء الابرياء ان يكون بلسماً ، وكان فكره الخصيب خليقاً بان يكون معزياً ومواسياً ، ولكنه ترك الناس لآلامهم، وجعل نفوس القراء المتلهفين على قراءة البديع من الفكر في سكون اشبه بسكون الموت ، ولم يخرج للجمهور الا نادراً ، وقد كان ذلك يوم هجوم الحلفاء على الدردنيل فقد نظم قصيدة طويلة هي صرخة قوية يستنهض بها الهمم ويستثير الحماسة قال في مطلعها : —

« لقد دق ناقوس الحرب في الدردنيل وصيحات المتطوعين الباسلين تدوي في فضاء السموات الحلوة الجميلة ، هذا انور باشا ينادي الى الجهاد ، وهو الذي ظهر في الارض التي حول طرابلس بطلاً صنديداً ووقف لا خوفاً ولا رهباً ، وثبت وهو قليل حيال الاعداء، وهم كثيرون

« وهؤلاء المقاتلون الشجعان سيطهرون البلاد من القسوة والشناعة بشجاعتهم وبسالتهم

« ان لي ايماناً شديداً بأننا الظافرون بالنصر ، ولكن ابتهاجي يوم الخلاص ، سيسدل عليه الحداد حزناً على الضحايا الغالية »

ومما روى عنهُ بعد ذلك انهُ ادخل نجله « خلوق » في « كلية روبرت » الاميركية بالاستانة فوقع تحت يده دفتر من دفاتر الفروض المدرسية وقد رسم في اعلاه العلم الاميركي وكتبت تحته بالانجليزية هذه العبارة : « نعيش لنعيش » فرسم الفتى صورة العلم التركي الى جانب العلم الاميركي وكتب تحته بالانجليزية العبارة الآتية : «نموت لنعيش » فاثار بذلك شاعرية ابيه فنظم قصيدة عنوانها «الى ولدي » وهذه القصيدة تعد من عيون قصائده وسأتلو على حضراتكم بعض ابياتها بالتركية ثم اتبع ذلك بترجمتها العربية . قال الشاعر : —

« بني ... لو اني جئتك بجأة ، واسلمتك لهذا الخضم المصطخب ، وخلفتك طعمة لهذه الاعماق

« انت ولو انك لم تعهد الخوف ، هل تدري ماذا يكون المآل ؟

« ان هذه الصفحة الرجراجة طالما تبتلعك بمحل بك الفزع،فتصيح وتجاهد تلمساً للخلاص،ولكنك لن تستطيعه لان هذا اليم يحيف عليك بكلكله ويجذبك بقوة حديدية الى الاعماق

«هذي يا بني هي الحياة . آليت الا تجرع مثلي هذه الكأس المريرة . رويدك . ان البشر سوف يرجون ان يخطو العالم خطوة جديدة في سبيل الخلاص

« اما انا فلا ادري كيف تكون الوسيلة الى هذه الغاية . ترى هل يتاح للانسانية المعذبة المفلوجة بلوغ الذروة خطوة خطوة ؟

«صدقني يا بني ، انه شقاء ابدي ، وانه غش وخداع . . ! »

وبعد ، فلعل من اشهر مميزات توفيق فكرت بك انهُ يخص قومه بالوجهة اللامعة من آثاره ، حيث يجري في احساسهِ عامل نفسي طبيعي يصرخ ابداً فيهِ ، وهو عامل الحيوية القومية الخفية في الفرد ، هو شعور محتجب غريب يربط الانسان بالحياة الاجتماعية التي يعيش فيها ، وكذلك كل كاتب يعيش في امة حية ،فاذا كتب فانما يعطي الانسانية آداب امته ،وينحني امام هذا العامل النفسي القوي فيعد هذه الآداب اكبر مقياس لآداب الانسانية كلها ، ومن هنا نشأ الزهو الاجتماعي السائد في الامم الحية الشاعرة بذاتيتها المحسة حيويتها

ولعل ابدع ما كتبهُ هذا الشاعر قطعة خالدة دعا فيها الى الوحدة الروحية بمحو التعصب للجنس والتعصب للون ننقل شيئاً منها فيما يلي . قال : —

« لقد اسرفت الامم في الاثرة والانانية . وفي العصبية الجنسية التي تمسك بها فريق من اهل الامم المتحضرة

« ولا شك عندي في انه يجب ان تزول الاثرة وان يزول التعصب للجنس والتعصب للون ، ويجب ان يشعر العالم ان هناك وحدة روحية تربط اممه المختلفة ، والوسيلة الوحدة لقهر الانانية ولزوال التعصب الجنسي ليست هي الحديد والنار وانما هي انتشار الافكار السلمية بين الشعوب وسعيها لادراك الحقيقة وفي هذا يتم السلام على الارض . لان السلام لن يترتب على عمل صناعي مطلقاً كالاتفاقات الدولية وما اليها انما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هي الوحدة الروحية »

* * *

ننتقل بعد ذلك الى الكلام عن اديب كبير من الاحياء حكم له ادباء الترك بالتفوق وشرفتهُ الحكومة بالالقاب وهو حسين جاهد بك الذي مارس صناعة القلم زمناً غير يسير اذ كان يرأس تحرير جريدة « طنين » الشبيهة بالرسمية

وقد آثر جاهد بك ان يضع افكاره وفلسفته وآراءهُ في اساليب حلوة من الرواية ، وموضوعات سهلة من القصص حرصاً عليها ان تروح مستثقلة على اذهان الجمهور . مستغلقة الفهم ، باردة الروح ، مستكرهة الطعم . وهو لذلك يعد في طلائع الروائيين ومن اكابر المفكرين ، مذ كان في الرواية اسمى فروع الادب الصحيح المتحضر المنتعش ، وهو في الغرب قد اصبح جماع علومه وآدابه وفلسفاته ومبادئه

ولقد يكون جاهد بك اصدق كاتب تركي في نقل صور الحياة التركية ، هو مصور متفنن يتعمد ألاَّ يغير من الواقع ، ولا يزخرف ولا يلطف من خشونة الصور اوقبحها ، وكلٌّ ما في الحياة التركية مما رآهُ او استكشفهُ ضمن قصصهِ

وقد تعمد جاهد بك ان يبني وقائعه على الحقيقة ، ومن الممكن ان يكون أشد الروائيين غلوًّا في مذهب الحقيقة « رياليست » هذا الى آرائهِ النظرية التي يخلط بها حوادث الرواية . وهو ذوق ظاهر في فنه يتوخاه دائماً ولكن دون ان يكون له اي تأثير في القصة . وأميز ما

يمتاز بهِ جاهد بك ان يشعرنا بالحياة في القصة ، الحياة المنقولة بامانة وصدق كما هي في الواقع ، وانا لنحسب ونحن نقرأ رواياتهِ اننا نرى الاشخاص ونسمعهم بل ونلمسهم . ومهما يكن من جهل قارئهِ بتركيا واجتماعها فانهُ لا يعتوره اي شك في صحة الصورة التي يقدمها اليهِ في احدى رواياته ، وصفوة القول أن غاية جاهد بك تنحصر في ان يقرب للفرد التركي ما استطاع ، صورته الحقيقية في المجتمع . وقد نجح

ومن اشهر قصصهِ قصة اشتراكية عنوانها « وكانت الذئاب تعوي » ونحن ناقلون فيما يلي فصلاً من هذه القصة الطريفة . قال : —

«جرى ذلك في الغابة عند الهزيع الاخير من احدى ليالي الخريف اذ كانت الذئاب تعوي»

«وكانت الاوراق الذابلة تنفصل عن الاشجار بتؤدة كما تتبدد احلام المرء اذا صحا من نشوته

«وتسقط على رؤوسنا بحفيف يشبه الزفرات القصيرة . فما اتعس نهاية احلامنا ! وكان ذلك الخريف حزيناً يبكي وينتحب في الظلام خلال الاغصان مع الحشرات الاخيرة التي كانت تأوي الى بعض الشقوق والجحور فتموت هناك او تقضي تحت قشرة جافة تأتأت من جذع الشجرة قليلا

«وكانت الذئاب تعوي

«اما عواؤها فكان طوراً تهديداً كانه دوي عاصفة قوية ، وتارة شكوى الغضوب العاجز فينتشر فوق الاشجار الساجية هنيهة ، ثم تعود تلك الظلمات الى سكونها ، وينقطع دبيب الحشرات ويملك الليل نسماته فيتنفس بهدوء تنفس الخائف الحذر

الى ان قال : —

عوت الذئاب من جديد عواء شديداً محزناً حتى لقد اعتقدنا ان ضوء نارنا يزعجها فتهيم حولنا مضطربة مضيقة حلقاتها

قال رفيقي : ما أقبح هذه الوحوش

فأجبته : لقد خافت النار

قال : كلا . ولكن العالم ضيق حتى على الحيوانات فليكن ملعوناً . فشعرت كان ألماً عميقاً يجيش في صدره ، وكان وجهه مصفراً تقع عليه اضواء النار فيصبح كانه شبح من الاشباح

وعاد صديقي الى الكلام قال : اني تعب . اود ان انام نوماً طويلا عميقاً

قلت له : نم وانا اقوم على الحراسة . فتمتم قائلا بلهجة التوبيخ : ايها الخبيث انك لم تفهم مرامي اريد ان اقول لك نوماً طويلا بدون يقظة . نوماً ابدياً

ماذا اصابك ؟ اني تعب . تعب جداً من الحياة . بعد السجن وفي الحرية . اف لهذه الحرية انها اضيق من السجن . اصغ الي . [وبعد ان اتى على تفصيلات فراره من السجن وقتله الجندي الذي كان يقوم على حراسته] قال :

هذه الارض ضيقة . لقد انقذتني الظلمات في الليل حيث حجبت عن عيني جثة حارسي . واستمر النهر جائشاً مزبداً منحدراً في المهواة ملاطماً الصخور ليكتسب شيئاً من الفسحة وشيئاً من الحرية التي لا يستطيع نيلها الا بتدمير ضفتيه وطغيانه على الارض يحمل الدمار والموت . وكنت حيثما التفت اجد مشهداً واحداً من الطبيعة . لا بد من التدمير والقتل لاحراز الحرية . وقد سدرت في الظلمات وضللت في الغابة . الغابة والليل كلاهما أسود كالحياة ، مملوء بالجنايات كالحياة

«خشخش العشب الجاف . ومر امامنا ارنب فهزم أمام وحش ضار فقلت : المشهد ذاته . كل خليقة في العالم تنازع وتفترس خليقة اخرى . وعوت الذئاب من جديد

فالتفت الرجل وقال : هل سمعتها ؟ هذه الوحوش الضارية تقوم بجنازة حريتي وشكواها لا تتغير أبداً . والعالم ضيق . ضيق . ضيق »

[في فصل تال يتناول الكاتب أدب خالدة اديب خانم]

الحرب الكيمائية

لحبيب اسكندر
ناظر القسم الثانوي بجامعة القاهرة الاميركية

— ٢ —

﴿ الدخان ﴾ عدا الغازات السامة يوجد نوع آخر من المواد يستخدم في الحرب لتوليد دخان فقط . اعني دخاناً غير سام والغرض منه احداث حواجز لاخفاء مواقع الجند ومواضع المدافع والسفن والطيارات عن نظر العدو . ثم لتمكين الجيوش من الانتقال ونقل الذخائر وعمل الاستعدادات الحربية في وضح النهار من دون ان يتمكن العدو من كشفها والوقوف عليها . وقد كانت هذه الاعمال تعمل تحت ستار الليل الحالك . فكان في ذلك مشقة وتعب وعدم اتقان . ويشترط في الدخان الصالح لعمل الحواجز ان يكون صالحاً لحجب ما خلفه عن الانظار وان يكون ثابتاً لا يستقر سريعاً بل يبقى معلقاً في الهواء زمناً كافياً

وقد اهتدى الكيماويون الى كثير من المواد التي تصلح لتوليد مقادير وافرة من الدخان تملأ الفضاء سحباً تحجب ما خلفها او ما تحتها عن الانظار . واشهر المواد التي استعملت لهذه الغاية الفصفور وثالث اكسيد الكبريت وحامض كلورور الكبريت ورابع كلورور القصدير ورابع كلورور السلكون ورابع كلورور التيتانيوم ومعظمها يتحد بالهواء او ببخار الماء الموجود في الهواء فيكون دخاناً كثيفاً . واشهر المواد المولدة للدخان مخلوط يسمى مخلوط Berger يتركب من خارصين ورابع كلورور الكربون وكلورات الصوديوم وكربونات المغنسيوم .فعند ما تضرم فيه النار تتولد ادخنة كثيفة من كلورور الخارصين والكربون. وتوضع المواد المولدة للدخان في صناديق او اسطوانات خاصة وتضرم فيها النيران او تعرض للهواء واحياناً تفرغ في قنابل تقذف . والغرض من حواجز الدخان : —

(١) اخفاء المدافع والجيوش المهاجمة ثم اخفاء الطرق والمراكز الحربية الهامة وحجب الضوء الذي تحدثهُ المدافع عند اطلاقها فلا يراها العدو . والحيلولة دون الاستكشاف الهوائي

(٢) ايهام العدو أن في الهواء غازاً ساماً .لان الغاز السام يخلط عادة بالدخان فيعتقد العدو انهُ من الخطر البقاء في سحابة دخان دون ان يلبس كمامة الغاز السام

(٣) تضليل العدو وتوجيه نظره الى جهات لا هجوم فيها فيضطر الى ابقاء جيوش وذخائر في هذا المكان دون ان تدعوَ اليها الحاجة

هذا وهناك نوع من الدخان الملون منهُ الاحمر والازرق والاصفر والاخضر والارجواني يستعملونهُ في الحرب لاعطاء الاشارات ونقل المخاطبات . ودخان المخاطبات هذا يتكوَّن باضافة مواد ملونة الى المواد او المخلوطات المحدثة للدخان العادي او بتفاعلات كيماوية خاصة

كانت المخاطبات تتمُّ فيما مضى بالرايات ثم استبدلت بها التلغرافات والتلفونات الكهربائية . ولكن استخدام الغازات السامة والمفرقعات الشديدة والادخنة الكثيفة اضطر الجند الى الاعتصام بالخنادق والحفر وجعل رؤية الاشارات في ميدان القتال متعذرة بل مستحيلة . فليس اسهل على الجندي والحالة هذه من ان يقرأ دخاناً ملوناً بالنهار او لهباً ملوناً بالليل ليرشده الى ما يجب عمله

المواد المحدثة للحرائق : —

تكلمنا على الغازات السامة وانواعها المختلفة ثم على حواجز الدخان والاغراض التي تستعمل لها . وامامنا طائفة اخرى من المواد الكيمائية الحربية الغرض منها احداث حرائق في المباني والاستحكامات الحربية التي تقذف عليها

من المعلوم أن الفصفور يشتعل من تلقاء ذاته اذا عرض للهواء لذلك فكر البعض في استخدامهِ كمادة محدثة للحرائق . ولكن التجربة دلت على ان استخدامه لا يحقق الغاية كلها وانهُ لا يصلح الأ ضد المواد السهلة الالتهاب مثل اشعال غاز الايدروجين في البلونات واشعال مستودعات البنزين في الطيارات . او حرق الاعشاب الجافة . وأما أثره في الخشب والمواد الاخرى فضعيف وذلك لان درجة احتراقهِ منخفضة ثم لان ناتج حرقهِ وهو خامس اكسيد الفصفور مادة واقية من الحريق

ولكنَّ الباحثين وجدوا في «الترميت» ضالتهم المنشودة . والترمت مخلوط من مسحوق الالومنيوم واكسيد الحديد . فاذا اشعل هذا المخلوط تولـدت حرارة عالية بسرعة فائقة . ثم ان المواد المنصهرة الناتجة من التفاعل اذا سقطت على مواد قابلة للالتهاب احدثت فيها حريقاً هائلاً . ولا يستخدم الترمت منفصلاً بل يضيفون اليهِ مادة سريعة الالتهاب مثل الزيت الصلب، تشتعل أولاً بالترمت ثم يمتد الاشتعال منها الى المواد التي يراد حرقها . وبهذا المخلوط يمكن احداث لهب ارتفاعه ١٥ قدماً فيمكن استخدامه في حرق الجدران والسقوف وغيرها

وقد اخترعوا مواد تحترق من تلقاء ذاتها اذا قذفت على الاعداء واساس هذه المواد الفصفور وزيت الوقود وبتغيير المقادير يمكن الحصول على مخلوطات او زيوت منوعة تحترق بمجرد تعرضها للجو في مدد تختلف من ٣٠ ثانية الى دقيقتين . واذا اضيف اليها فلز الصوديوم نتج مخلوط يحترق اذا نشر على سطح الماء . وهذه المخلوطات توضع في قنابل او قذائف خاصة وقد توضع احياناً في اجهزة تسمى قاذفات اللهب . وعند فتح الصنبور تندفع هذه السوائل بقوة حتى لقد يبلغ مداها من ١٤ الى ١٧ متراً . والى القارىء بياناً بما انتجتهُ اميركا من الغازات الحربية

الغاز	رطل انكليزي	الغاز	رطل انكليزي
الكلور	٧،٦٥٤،٠٠٠	رابع كلورور القصدير	٢،٠١٢،٠٠٠
الكلوروبكرين	٥،٥٥٢،٠٠٠	برومو نزل سيانيد	١٠،٠٠٠
الفوسجين	٣،٢٣٣،٠٧٠	كمامة غازسام	٦،٦٩٢،٠٠٠
غاز الخردل	١،٤٢٢،٠٠٠	كمامة للخيل	٥٧٧،٨٨١
الفصفور الابيض	٢،٠١٢،٠٠٠	.. .. ..	.. .. ..

﴿ الغازات في زمن السلم ﴾ كثير من الناس يتهمون العلوم الطبيعية بأنها السبب في زيادة وسائل التخريب وانها قد جعلت الحروب افظع مما كانت عليه ولكن الذين يصمون العلوم بهذه الوصمة قد نسوا ان لكل اختراع علمي فوائد ومنافع سلمية اضعاف مضاره الحربية . فالمفرقعات والاسمدة مواد ذات اساس واحد . حتى المفرقعات نفسها تستخدم في عشرات من الاغراض السلمية مقابل كل غرض حربي واحد. كذلك الحديد مادة تصنع منها الحراب والمحاريث والسكك الحديدية والسيارات وآلات الخياطة وآلاف العدد والادوات اللازمة لسعادة الانسان ورفاهيته. وعلى هذا القياس يصح ان تنظر الى غازات الحرب على انها نتيجة طبيعية لمباحث الكيمياء الصناعية في اوقات السلم التي غرضها استنباط اسمدة واصباغ وعطور وأدوية رخيصة

بعد استخدام الكلور في الحملة الغازية الاولى شمر الباحثون في الدول المتحاربة عن ساعد البحث والاستنباط . وفي مدى ثلاث سنوات ونصف كشفوا عدداً كبيراً من المواد السامة التي استخدموها في الحرب . وبعد ان القت الحرب اوزارها وجَّهوا بحوثهم الى استخدام هذه المواد المتراكمة في اغراض سلمية . فوجدوا ان كثيراً منها يصلح لغايات كثيرة فالكلور يستعمل مطهراً ومنقياً لمياه الشرب لانه يقتل جراثيم الحميّات . ثم انه يستخدم في صناعة قصر المنسوجات ويستعمل في المعامل لاغراض عدة . كذلك وجدوا ان الكلوروبكرين وكلورور السيانوجين وبروموره يمكن الاستفادة منها في قتل الحشرات التي تفتك بالحبوب . والحامض الايدروسيانيك من اشهر المبيدات للحشرات التي تفتك بالبرتقال والليمون . وغاز الفوسجين يدخل في صناعة كثير من الاصباغ الخضراء والزرقاء والبنفسجية والحمراء. ولما كان رخيصاً وصنعهُ سهلاً يمكن الاستفادة منه في ابادة الفيران والجرذان واشباهها. وغاز الخردل يستخدم علاجاً لكثير من الامراض كالسرطان

من الغازات المبكية او المسيلة للدموع مركب صلب يدعى Chloracetophenone اذا سخن تصعَّد سحاباً مائلاً الى الزرقة وهذا السحاب او الدخان يلفح العين . واذا اعترضه شخص اصابه عمى وقتي . والقليل منه يحدث في العين ألماً عظيماً ويستنزل تياراً من الدموع يتدفق مدة دقيقتين او خمس دقائق واذا زاد مقداره دام فعله مدة اطول . ومع كل هذا لا يترك ضرراً مستديماً . مثل هذه المادة التي

تؤثر في الحال والتي لا تحدث ضرراً مستديماً يحتاج اليها الشرطي والعمدة والسجان في تفريق شمل المظاهرات والمشاجرات والتجمهر. فاذا اطلقت من قنابل يدوية على جمهور المشاغبين والمتظاهرين جعلتهم جميعاً يبكون ولا يبصرون شيئاً . واظنهم بعد ذلك لا يقدمون على عملهم مرة ثانية

وهناك مركب يدعى Diphenylamine Chlororsine وهو ليس غازاً ساماً ولكنهُ يحدث التهاباً في الجهاز التنفسي واحياناً يحدث قيئاً . وهذا يمكن استخدامه في حماية خزانات المال في البنوك . وامثال هذه المواد التي تحدث ألماً شديداً ولا تترك ضرراً مستديماً كثيرة وهي التي يمكن استخدامها في اوقات السلم لتحقيق غايات واغراض شريفة كالتي ذكرناها

ويستخدمون الغازات السامة أيضاً في بعض الاحيان في صيد الحيوانات البرية ومطاردة الجراد وابادة ديدان القطن وغير ذلك . كذلك كمامات الغاز السام تستعمل الآن بكثرة في المانيا في المصانع وفرق المطافىء فكل رجل من رجال المطافىء عنده كمامة غاز سام

﴿ مستقبل الغازات السامة ﴾ : — إن حرب الغازات لا تزال في المهد. وكل ما استخدم منها والوسائل التي استخدمت بها وطرق الوقاية كلها جميعاً قابلة من نواح عدة للاصلاح والتنقيح والتغيير والتبديل . فالكلور استخدم اولاً في اسطوانات من الحديد ثقيلة جعلت استخدامهُ شاقاً ومضيعةً للوقت . ولم تمض شهور قليلة حتى ظهرت مكانهُ غازات مختلفة في حالة سوائل تصب في قنابل سهلة النقل والاستعمال. وبالقرب من نهاية الحرب ظهرت غازات سامة في صورة اجسام صلبة يمكن نقلها بغاية السهولة واستعمالها في جميع الاحوال من غير خطر ما . ولا يزال البحث سائراً سيره نحو التقدم والتطور وسوف تظهر من غير شك غازات جديدة وتبتكر طرق جديدة لاطلاقها ومباغتة العدو بها

في الحرب الماضية لم تستخدم الطيارات في قذف مقذوفات غازية ولا نعلم سبباً لذلك . ولكن حدوث ذلك في المستقبل بعد تقدم الطيران امر مؤكد . وسيكون ذلك بغازات اشد فتكاً في المدن وميادين القتال. ولقد قرأت انهم بعد الحرب اكتشفوا غازات جديدة اشد فعلاً من اقوى الغازات التي استعملت ١٠٠٠ مرة منها غاز اذا استنشقهُ كائن حي مات في الحال . ويقال انهم قد جربوه في هرّ فسقط ميتاً ولم يبد حراكاً . فتصور طيارة طارت في جنح الليل او في النهار فوق مدينة مطمئنة آهلة بالسكان وقذفتها بمقادير عظيمة من هذا الغاز . اني اترك لك تصور تلك النكبة ومبلغ تأثيرها . هذا بعض ما يحدث في الحروب القادمة

ان انتصار الجيش او الاسطول المائي او الهوائي بل ان انتصار الامة في الحروب القادمة متوقف على استعدادها الغازي وعلى ما تبتكره من هذه المواد . فالواجب على كل امة تريد ان تحتل لها مكاناً تحت الشمس ان تعنى بصناعة المواد الكيماوية وان تدرب رجالها على استعمالها وطرق الوقاية منها . فالحرب الكيمائية لها جنود خاصة بها وضباط وقوّاد فنيون . والنصر في المستقبل للامة المتنبهة اليقظة المتفوقة في الفنون الكيمائية



الرأي العام

إن الرأي العام مظهر من مظاهر شعور الجماعة واللفظة اسم لمدلول غامض غير واضح يصعب جلاؤه على الرغم من وقوعه في الاذن ومتناول اليد وهو شبيه ببعض اصنام يعبدها العبّاد ويشيدون لها الهيا كل ولا يدرون من امرها شيئاً ...

ان تفسير كلمة « الرأي العام » سهل جداً فالرأي العام هو رأيك ورأيي ورأي الآخر أو هو لا رأيك ولا رأيي ولا رأيهُ وانما هو رأي الجماعة كلها غير مجزأة ...

يتأثر الفردُ برأي الجماعة فيكوّن في نفسهِ عقيـدةً ما يظنها وليدة تفكيره وينسى انها نفذت اليه من الخارج . وقد قال (لوبون) ان الذين نجوا من اثر الرأي العام في رأيهم الخاص لأقلاءُ جداً والانسانية مدينة لهم على قلتهم بالعمران والتقدم. وقد يستحيل حتى على العباقرة والنوابغ ان يتحرّروا من تأثير الوسط وفعل البيئة الروحية حيث ولدوا وترعرعوا وشبّوا

وقد حاول الفيلسوف (ديكارت) ان يخرج على الافكار المقررة من قبل وان لا يقبل منها الاّ ما انتفى منه الشك ولكن ازهقت روحه ولم يظفر مبدؤه اذ أنهُ لم يقوَ او لم يجرؤ على اعلان تعاليمهِ الفلسفية المناقضة لآراء العصر الذي عاش فيه

***

ان معظم آرائنا تلقين وايحاء لا استنباط وتأليف . وهب رأيك رأياً مبتدعاً فانك لتبقى ضعيف الايمان بصوابهِ حتى ترى انقياد الجماعة له او نفورها منهُ وتجد في هذا النفور تثبيطاً اي عدولاً عن الرأي وفي ذاك الانقياد تشجيعاً اي رسوخاً به

والرأي العام قسمان : قسم انتهى الينا بالوراثة عن الماضي ذلك انهُ نشأ مع نشوئنا طائفة من الافكار والآراء والعقائد لم يكن لنا في بحثها ووضعها يد وانما قبلناها على علاتها فاستولت على عقولنا وتفكيرنا . وقد نصح (جان جاك روسو) النشء ان يعالج الامور وهو معتزل للناس سابح في فضـاء من الحرية فسيح

والقسم الثاني هو تيار آراء البيئة التي تحوطنا فما يتركب هذا التيار ؟؟

انهُ يتألف من عوامل ثلاثة : المعرفة والمبادلة والعدوى الذهنيـــة . فالمعرفة تجعل للرأي العام وزناً والمبادلة تذيعهُ والعدوى كذلك

ولقد كان في صوت الرأي العام قديماً بُحَّة اما اليوم فقد انطلق هذا الصوت والصحافة لسانهُ وهو لسان ذو حدين ينشر الحقائق ويذيع الاخطاء . وكما ان الورق مادة قابلة لالتقاط جراثيم العلل كذلك سطورها تنقل العــدوى الذهنية والمبادلة الفكرية بين الناس ان هدًى وان ضلالاً !!

وفي الناس من يزدري الرأي العام ولا يعبأ بهِ ولا يهاب سلطانهُ وهؤلاء هم الاقوياء المستقلون فكراً ورأياً . ومنهم من يرزح تحت هوله ويخشى بأسهُ ورعوده وهؤلاء هم ضعاف النفوس . على أن (ماكس نورداو) يقول « انهُ لشجاع عظيم ذاك الذي يجاهر برأي شخصي مخالف للرأي العام وانهُ لمن الحماقة دوام المجاهرة برأي ثبت لصاحبهِ ان سعير الحرب بين هذا الرأي ورأي الجماعة لا ينفك مرتفعاً وان الخلاف قد يصير ابديًّا ... »

ولا يخفى ان للمرأة شأناً عظيماً في ميدان الآراء فاذا كان بعض الافذاذ من الرجال يستطيع معاندة الرأي العام فان النساء لضعيفات كل الضعف في الوقوف في وجه تياره ومقاومة عواصفهِ وارياحهِ وهذا الضعف البشري يتجلى في تأثير انتشار الازياء والخضوع خضوعاً تامًّا لسلطانها الموهوم

***

ان الشرائع من وحي الضمير وهي خير رادع للشر ولكن شوهد ان الرأي العام ينوب مناب الشرائع في البلدان الهمجية حيث لا شرائع موضوعة تردع الجاني وكثيراً ما يكون الخجل والحياء سبباً من اسباب نصر الفضيلة على الرذيلة

ويختلف الرأي العام باختلاف الاماكن والازمنة وباختلاف الهيئات الاجتماعية والدينية والاقليمية . اذ ان لكل طائفة من الناس عادات وعقائد متنوعة

ثم انهُ كثيراً ما عاب الغربيون على الشرقيين انقيادهم لآراء الجماعة واستضعافهم امام قوة الرأي العام . فهل جهل الغربي ان ما من شعب تملّص من كابوس الرأي العام مهما عرق في العلم والحضارة وان قادة الرأي العام في كل مكان وكل زمان هم الذين فكروا وحدهم تفكيراً حرًّا وارتأوا رأياً مستقلاً وان سائر الناس يسيرون خلفهم ويتبعون خطواتهم ليس الاَّ ؟؟!!

باريس توفيق وهبه

باب الزراعة والاقتصاد

الحشرات ومكانتها الاقتصادية في العالم

الحشرات والانسان — بدء دراسة الحشرات من الوجهة الاقتصادية — الخسائر التي تنجم عنها — للحاصلات الزراعية — للحيوانات الاليفة — للاشياء المنزلية — نقلها للامراض — الحشرات المفيدة — دودة الحرير — نحل العسل — الحشرات المفترسة — الحشرات وتلقيح الازهار —

لا شك في ان الحشرات هي اكثر الكائنات الحية اتصالاً بالانسان والحرب بينهما قديمة ترجع الى ملايين السنين لما ادرك الانسان أن هذه الكائنات الصغيرة تضرُّ بهِ اضراراً جسيمة وتصيبهُ في نفسهِ وفي زراعاتهِ واشجاره وحيواناته وطيوره وبالجملة ان كل ما يمتلكه من الاشياء لا ينجو من الاضرار التي تسببها الحشرات . ولا توجد على ظهر البسيطة جماعة من الناس في قديم العصور او حديثها لم تقاسي قليلاً او كثيراً من الحشرات . وقد تأتي تلك الاضرار بطريقة مباشرة او بالواسطة ولكنها على كل حال موجودةٌ يشعر بها كل فرد . وان كان بعض الناس لا ينتبهون لها فاننا نبغي في هذا الفصل الموجز ان نبين تلك الاضرار العظيمة ونوضحها حتى يقف على حقيقتها كل انسان

ولا تخلو من الحشرات منطقة واحدة على وجه الارض فمن المناطق الشمالية المتجمدة حيث يقاسي الاسكيمو من لدغات البعوض الى المناطق الاستوائية الحارة حيث يتعرض سكانها لمرض النوم الذي تنقله اليهم ذبابة تسي تسي Tsetse وما بين هاتين المنطقتين من بقاع ووهاد وجبال وسهول وحراج وغابات نجد ان الحشرات لها المكان الاول في اجتلاب الاضرار والمفاسد. وفي قديم الازمان عند ما كان الناس يصابون ببعض الاوبئة الحشرية كانوا يظنون ان هذا جزاء لهم على ما اقترفوه من آثام ولذلك كانوا يبتهلون الى الله ان يمنع عنهم هذا البلاء . ولكن الانسان الذي ميزه الله عن سائر المخلوقات بالعقل والبيان قد بدأ بعد ذلك يفكر في مثل هذه الاشياء وبدأ يجرد سلاحهُ لمكافحة تلك الكائنات الصغيرة لينجو من شرها فكان يتعثر في خطواتهِ الأولى مرة يفلح ومرة يخيب الى ان بدأت دراسة الحشرات من الوجهة العلمية فكان من نتائجها اننا أصبحنا الآن أقدر كثيراً من الانسان الاول على مجابهة تلك

الاوبئة . وما عهدنا بغارة الجراد الاخيرة وما بذلهُ رجال وزارة الزراعة في مقاومته وابادته ببعيد . وقد أصبح الفلاح الآن يستدعي عالِم الحشرات ليستفتيَهُ في انقاذ حاصلاتهِ من الاوبئة الحشرية كما يستدعي الطبيب لمعالجة ابنهِ او الطبيب البيطري لينقذ حصانهُ من مخالب المرض

ولم تبدأ الدراسة العلمية للحشرات الا في القرن السابع عشر حينما اخذ بعض العلماء امثال سوامردام Swammerdam في هولندا وملپيجي Malpighi في ايطاليا في تشريح نحلة العسل ودودة القز لمعرفة هل هذه الحشرات لها معدة وامعاء وجهاز عصبي ومخ الى آخر ذلك من اعضاء الحيوانات الكبيرة الحجم . وفي القرن التالي بدأت دراسة الحشرات من الوجهة التصنيفية واخذ بعض العلماء امثال لينيوس Linnaeus في السويد وفابريسيوس Fabricius في الدنمارك بتقسيمها الى مجاميع خاصة لتسهل دراستها على الباحث الذي يميل الى مثل هذه الدراسة . واستمرت دراسة الحشرات من الوجهة التصنيفية والتشريحية الى ان كان النصف الاخير من القرن التاسع عشر لما بدأ العلماء يشعرون بالهجمات العنيفة والاضرار الجسيمة التي تسببها الحشرات وبوجهٍ خاص أوبئة الجراد في حوض نهر المسيسبي حيث نبهت اذهان حكومة الولايات المتحدة ورجال محطات الابحاث فيها الى وجوب العناية بتوجيه الحملات العلمية على الحشرات ومقاومتها بقدر المستطاع حتى تنجو الحاصلات الزراعية من التلف . ومنذ ذلك الوقت بدأ نوع جديد من الدراسة وهو دراسة مقاومة الحشرات Insect control وبدأ العلماء المحترفون يظهرون في الميدان . واخذ هذا العلم يتقدم بسرعة عظيمة جداً نظراً الى حاجة الانسان اليه . ففي انجلترا في اوائل القرن العشرين كان علماء الحشرات لا يصلون الى المائة فاصبحوا في نهاية سنة ١٩٢٥ يُرْبون على الالف . ولكن دراسة علم الحشرات الاقتصادي خطت خطوات أسرع من ذلك في الولايات المتحدة وهي آخذة الآن في النمو في كل الممالك الاخرى التي تقوم زراعتها على اساس علمي ثابت يساعدها على زيادة المحاصيل وتوفير اسباب الرخاء بمقاومة تلك الحشرات الضارة

هذا ما استطيع ان اقوله عن علاقة الحشرات بالانسان وكيف بدأ يشعر بضرورة مقاومتها والخطوات العلمية التي اتخذها في سبيل تلك المقاومة . أما عن الخسائر التي تسببها الحشرات في العالم فسأتكلم عنها الآن بالتفصيل حتى يشعر القارىء بخطر هذه الكائنات من الوجهة الاقتصادية . وقد دلت الاحصاءات الدقيقة التي تقوم بها محطات الابحاث أنهُ في وقتنا هذا تقضي الحشرات على ١٠ ./. من جميع الحاصلات الزراعية في كل عام . هذا في الاحوال العادية أي أن الناتج يكون تسعة أعشار المحصول الاصلي . ولكن احصاءات تلك المحطات في الاحوال غير العادية تدل على انهُ لم يسلم من المحصول الاصلي من هجوم الحشرات واتلافها الا ٢٠ ./. أو ٣٠ ./. فقط . ويشتمل هذا التقدير على حاصلات الحقول أو المنتجات الزراعية وحاصلات الغابات والاخشاب والحيوانات الاليفة ومنتجاتها والاشياء المخزونة وأشجار الظلال والشجيرات

ونباتات الزينة والاطعمة وغيرها . أما في حالة الفواكه فان الخسائر في الحالة العادية تزيد عن عشر المحصول . وفي بعض الاحوال الخاصة حيث يكون هجوم الحشرات عنيفاً فانها قد تقضي على المحصول كله . اما في الولايات المتحدة فقد تقدر الخسائر التي تنجم عن الحشرات في كل عام بمئات الملايين من الجنيهات

وعندما تصاب الحاصلات الزراعية بأوبئة حشرية يقل المحصول وترتفع الاسعار لقلة العرض وكثرة الطلب . فاذا كان بعض الزرّاع في ذلك الوقت يقون حاصلاتهم بالطرق العلمية فانهم يجنون من وراء ذلك فوائد كثيرة لانهم اولاً يحفظون منتجاتهم من التلف وثانياً يتاح لهم بيعها بأثمان باهظة لقلة المعروض في الاسواق .وقد يقول البعض انما ينفقه الزارع على حفظ منتجاته وابعاد الحشرات عنها قد يوازي الفرق الذي يحصل عليه من ارتفاع الاسعار ولكن هذه النفقات في الواقع تعد جزءًا يسيراً جدًّا من الارباح التي يحصل عليها بارتفاع الاسعار اذا احكم طرق الوقاية وانتقى منها أحسنها وأوفاها بالغرض المقصود . لذلك كان من الواجب على الزرّاع انفسهم ان ينتبهوا لهذه المسألة حتى في الاحوال العادية وحين لا تتفشى الاوبئة لان الحشرات كما ذكرنا سابقاً تتلف عادةً عشر الحاصلات الزراعية فاذا كان الزرّاع ينفقون بعض تلك الاموال لوقاية حاصلاتهم فلا شك أنهم يأخذونها أضعافاً مضاعفة عند ما يبدأون في الحصاد ويجدون ان متوسط انتاج الفدان الواحد قد زاد كثيراً عن متوسطه إذا لم يتبعوا اي طرق لوقاية حاصلاتهم

واذا كانت الاضرار التي تنجم عن الحشرات في المحاصيل الزراعية تقدر بما تقدم فان أضرارها في المنازل لا تقلّ عن اضرارها في الحدائق والحقول والغابات.ففي المنزل نرى العثة التي تأكل الملابس والسجاجيد وغيرها والسوس الذي يأكل الدقيق والحبوب والنمل الذي لا يضل في بحثه عن السكر والمواد الحلوة هذا عدا الذبابة والبعوضة اللتين تحملان كثيراً من الامراض المعدية وبعض الحشرات التي تتلف الكتب والصور

اما الحشرات الزراعية فمنها ما يأكل اوراق النباتات وبذلك يفقد النبات العامل الرئيسي في حياته لان الاوراق هي التي تقوم بصنع الغذاء للنبات فينمو ويكبر ويعطي للازهار التي تتلوها الثمار فاذا اكلت تلك الاوراق فان النبات يكون مصيره الى الموت . ومن امثلة تلك الحشرات دودة القطن فهي تأكل الاوراق وبذلك تتلف عدداً كبيراً من شجيرات القطن وبعضها يأكل اللوز بعد تكونه على النبات وقبل نضوجه وهنا خسارة لاتقدر تصيب القطن أيضاً من الحشرة المسماة بدودة اللوز . وبعض الحشرات تثقب ساق النبات وتأكل ما بداخله وبذلك يسقط النبات اذا هبت الرياح اذ لا يستطيع ان يصمد في وجهها . ومن الحشرات ما يتطفل على الحيوانات التي تساعد الفلاح في زراعته فتنقل اليها الامراض وبذلك تقل قدرتها

على العمل وتقل منتجاتها كاللبن والزبدة وغيرها وبعضها يثقب جلد هذه الحيوانات فاذا ذبحت وبيعت جلودها كانت غير صالحة للدباغة لما تحتويه من الثقوب

وتقع الاضرار التي تسببها الحشرات تحت قسمين القسم الاول الذي تسببه الحشرات الدورية أي التي تظهر فقط كل مدة معينة كالجراد مثلاً فان هجماته لا تكون طول العام ولكنه يظهر كل مدة خاصة كخمسة اعوام مثلاً ثم يختفي وبعد خمسة اعوام اخرى يشن غارة جديدة وهكذا . والقسم الثاني الذي تكون هجماته مستمرة وثابتة وتكون الخسائر التي تنجم عنها غير كبيرة في الظاهر ولكنها بطيئة ومستمرة فتفوق في مجموعها غارات الحشرات الاخرى التي تنتمي الى القسم الاول

وللحشرات اضرار اخرى جسيمة لانها تنقل بعض الامراض من المريض الى السليم فتنشر كثيراً من الامراض كالملاريا والحمى التيفودية والتيفوس والحمى الصفراء والطاعون والرمد وغيرها من الامراض الخطيرة التي تجعل المصابين بها غير قادرين على العمل فقط ولكنها تحتاج الى نفقات كبيرة للعلاج والادوية وقد تنتهي بالموت فتصبح الخسارة التي تتكبدها المملكة لا تقدر . وكثيراً ما تكون هذه الامراض وامثالها مما تنقله الحشرات سبباً في ضعف بعض الدول وفقرها اذا لم تقاوم مقاومة شديدة وتفرض عليها الرقابة الخاصة وتحارب الحشرات التي تنقلها . وتتكبد الولايات المتحدة سنوياً من الخسائر ما قيمته ١٠٠ مليون جنيه بسبب الملاريا وحدها و ٣٥٠ مليون جنيه بسبب الامراض الاخرى التي تحملها الحشرات

ومن المشاهد ان الخسائر التي تنتجها الحشرات تزداد عاماً بعد عام واذا بحثنا عن السبب في ذلك مع وجود طرق الوقاية الكثيرة اجابنا احد الثقات في هذا الموضوع وهو الدكتور هوارد Howard أحد علماء الحشرات الاميركيين ورئيس معهد لعلم الحشرات بالولايات المتحدة بأن هذه الزيادة في الخسائر تنتج دائماً من تقدم المدنية لانه يقول ان الاراضي القاحلة والغابات التي يحولها الانسان الى أراض زراعية يقضى فيها على عشرات الانواع من النباتات الوحشية التي تغطي تلك الاراضي ثم يأخذ بزراعة مساحات كبيرة منها بنوع واحد من الحاصلات كالقمح او البطاطس او الذرة او غيرها . فالحشرات التي كانت تعيش على النباتات القديمة الصلبة تجد امامها أنواعاً جديدة ولينة تستطيع اقتحامها بسهولة فتعيش عليها وتنتشر معها وعند ما تنقل البزور من هذه الاراضي الجديدة تنقل معها جراثيم الى اراض زراعية اخرى وبذلك توجد انواع جديدة من الحشرات لم تكن تعرف من قبل

وبانتشار المدنية ايضاً تصدر انواع كثيرة من الحاصلات الزراعية والحيوانات ومنتجاتها من بعض ممالك العالم المختلفة الى البعض الآخر وكلما ارتقت المدنية وسهلت طرق المواصلات زادت المقادير المصدرة من تلك الحاصلات الزراعية وتنوعت . وعند ما تنقل تلك الاشياء

من مملكة الى الاخرى فانها تنقل معها الحشرات التي تعيش عليها وقد تجد بعض الحشرات في الممالك الجديدة المصدرة اليها بيئة أصلح لنموها من حيث الجو ودرجة الحرارة والرطوبة والجفاف وغيرها من العوامل التي تؤثر في انتشارها فينجم عنها اضرار جسيمة في الممالك الجديدة التي تنتقل اليها . لذلك بدأت الممالك المختلفة تشعر بهذا الخطر وفرضت الرقابة الجمركية الشديدة على الواردات التي قد تحمل معها شيئاً من الحشرات . وبعضها أنشأ مكاتب خاصة للتفتيش عليها ولا يسمح لها بالدخول الى المملكة الا بتصريح خاص من تلك المكاتب. وكثير من الحاصلات تردّ الى البلاد التي صدّرتها حتى لا تكون مصدر بلاء او عاملاً من عوامل انتشار الحشرات في تلك المملكة وهذه طريقة مجدية يجب على الحكومات ان تعمل بها حتى توقف انتشار الحشرات نوعاً ما

***

هذا قليل من كثير مما يجب ان نذكره عن الاضرار التي تسببها الحشرات للمجتمع حتى تتنبه اذهان القراء الى خطر تلك الكائنات الصغيرة. ولكن الى جانب الحشرات الضارة انواع كثيرة تؤدي خدمات جليلة للانسان وتوفر له سبل الرخاء . ومن هذه الحشرات المفيدة دودة الحرير وهي على جانب عظيم من المكانة الاقتصادية لانها الاساس لصناعة الحرير وهي التي تكوّن الخامات الاولى التي تتوقف عليها هذه الصناعة الهامة . واذا تصورنا طائفة من معامل الحرير في مختلف الممالك والاقاليم وملايين العمال الذين يشتغلون في تلك المعامل ادركنا ما تؤديه هذه الحشرة الصغيرة من خدمة للمجتمع وما تدرّه على القائمين بامر تربيتها من الاموال الطائلة ذلك لان صناعة الحرير في وقتنا هذا تعتبر من اهم الصناعات الحية واكثرها انتشاراً

والحرير هو عبارة عن مادة سائلة تتكون في جسم الدودة داخل غدد خاصة تعرف بالغدد الحريرية وعند ما يكمل نمو الحشرة تبدأ في افراز تلك المادة السائلة التي تجمد مباشرة عند ملامستها للهواء وتكوّن خيطاً رفيعاً من الحرير تأخذ الدودة في لفه حول نفسها حتى تختفي تماماً داخل تلك الخيوط الحريرية التي تكوّن في ذلك الوقت ما يعرف بالشرنقة. وكل ما تستلزمهُ صناعة الحرير هو اخذ هذه الشرانق وحلّ الخيوط الحريرية التي تتكوّن منها ثم نسج هذه الخيوط اثواباً جميلة نراها تعرض في الاسواق بأغلى الاثمان

وتعتبر بعض الامم كالصين واليابان وفرنسا صناعة الحرير المورد الاساسي لثروتها ويقوم في هذه الممالك وفي كثير غيرها من التي تهتم بصناعة الحرير كثير من المعامل بعضها لتربية الدود وزرع اشجار التوت في مساحات واسعة من الارض وبعضها لنسج الحرير وبعضها لطباعته. كل هذه المعامل وكل هذا الاهتمام الذي تبديه الحكومات والامم يقوم على مجهود نوع واحد من الحشرات ولذلك كانت لدودة الحرير مقام ممتاز في عالم الحشرات ولها معاهد خاصة

لدراستها واجراء الابحاث عليها لانها مصدر مهم من مصادر الثروة ولها شأن اقتصادي كبير وفي تلك الممالك يعتنون عناية كبيرة بتربية هذه الحشرة والاهتمام بأمرها

الى جانب دودة الحرير نجد حشرة اخرى مهمة من الوجهة الصناعية وهي نحلة العسل ويوجد ايضاً عدد عظيم جداً من العمال في جميع انحاء العالم يقومون بتربيتها واستخراج العسل والشمع وتصديرها الى مختلف الاسواق للبيع . الى جانب هؤلاء نرى المعامل المختلفة التي تقوم بصنع الاشياء والادوات التي تلزم لتربية النحل كالخلايا الخشبية والاقراص المعدنية وغيرها مما تحتاج اليه تلك الصناعة. ونرى ايضاً الحدائق الفسيحة التي تزرع بمختلف الازهار والاشجار ليتكون منها المناحل التي تمرح تلك الحشرة في ربوعها وتجتني من ازهارها ذلك الرحيق الذي يأكلهُ الناس بعد ذلك ويستطيبونهُ .هذا الى جانب المعاهد التي تقوم بدراستها والكتابة عنها والكتب والمجلات التي تطبع ويكون أساسها تاريخ حياة تلك الحشرة وتطورها وطرق تربيتها وغير ذلك من الاشياء التي تتعلق بحياتها

وتوجد ايضاً أنواع من الحشرات المفترسة التي تتغذى بالحشرات الاخرى وهذه الانواع المفترسة على جانب كبير من خطورة الشأن لانها تأكل الحشرات الضارة بالزراعة أو بالاشجار أو بالحيوانات الاليفة وبذلك تبيد منها عدداً كبيراً وتقي الانسان من شرها . وقد أخذ العلماء من مدة قريبة يفكرون في هذه النقطة الهامة ويتخذون من الحشرات المفترسة اسلحة يجردونها على الانواع الضارة فكان منهم أن بدأوا يدرسون حياة تلك الانواع وأخذوا في تربيتها ونشرها في البقاع الموبوءة بالحشرات الضارة حتى تبيدها. ولقد لقيت معظم تلك التجارب نجاحاً عظيماً وأصبحت بعض البقاع في مأمن من اعتداء الحشرات عليها بهذه الوسيلة ولذلك اتجهت الافكار أخيراً الى الاكثار من الحشرات المفترسة ونشرها بقدر الامكان في اماكن مختلفة لتقضي على الانواع الضارة وبذلك تتوفر الاموال الطائلة التي تنفق سنوياً على مقاومة الحشرات . وتؤدي بعض الحشرات خدمة عظيمة للمجتمع الانساني وذلك بأنها تكون العامل الاساسي في تلقيح الازهار لانها عند زيارتها لتلك الازهار لأكل المواد الحلوة التي تفرزها فانها تأخذ حبوب اللقاح التي تلتصق على أجسامها وتنقلها من زهرة الى الاخرى فتذهب تلك الحبوب من أعضاء التذكير الى أعضاء التأنيث وبذلك تتلقح الازهار وتبدأ في تكوين الثمار وهذه الاخيرة لا يمكن ان تتكوَّن ما لم تلقح الازهار التي تكوّنها . الى هنا بعد أن شرحت الفوائد والمضار التي تنجم عن الحشرات أعنى أن اكون قد وفقت الى اظهار ما لهذه الكائنات الصغيرة من الاهمية الاقتصادية في هذا الوجود

محمد رشاد الطوبي
بكالوريوس علوم درجة الشرف الاولى
من الجامعة المصرية

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

نقد ورده

حضرة محرر المقتطف

سرني ما قرأتُ في مقتطف شهر نوفبر (١٩٣٢) للفاضل عباس محمود العقاد من دفاعه عن شوقي رحمه الله وتخطئتي في مسئلتين استخرجهما من مقالي . وزادني سروراً ان اكون الذي جعل العقاد ينحاز الى شوقي .....

المسئلة الاولى

اشرت في مقالي الى غلطة شوقي في قوله

ان رأتني تميلُ عني كأن لم تكُ بيني وبينها أشياء

وقلت ان صوابها تملْ لانها جواب إن الشرطية . فقال العقاد : «والذين يعرفون النحو!!! يعلمون ان الخطأ انما هو في تصحيح (كذا) الرافعي لان رفع جواب الشرط المسبوق (كذا) بفعل ماض صحيح مستحسن كجزم الجواب على السواء (كذا) لم يخطئه احد قط من علماء اللغة والنحاة . نقول ولكن اذا كان الرفع والجزم سواء وكان تصحيحنا بالجزم فكيف يكون الخطأ «انما هو في التصحيح» ...؟ كما انهم لم يقولوا ان الجواب الذي يرفع هو «المسبوق بفعل ماض» بل هو الذي يكون فيه الشرط فعلاً ماضياً وشتان بين كلام وكلام

يشير الكاتب الى القاعدة المذكورة في كل كتب النحو من ان الجواب يرفع او يجزم اذا كان الشرط ماضياً لفظاً او معنى والجزم هو المختار عند قوم والرفع جائز ، وعند قوم العكس ، وعند آخرين يجب الرفع . ولم يقل احد من النحويين انهما «على السواء»

ولكن مع ورود هذه القاعدة في كل كتب النحو لا يزال بيت شوقي عندنا غلطاً لاننا لسنا من «الذين يعرفون النحو» معرفة النقل من الكتب والتقيد بالرأي خطأً وصواباً

ولا هذا مذهبنا في الادب ولا في اللغة ولا نقلد احداً ولا نتابع احداً بل لا بد ان يمرَّ ما في الكتب من هذا الرأس بَدِيًّا فيجيء مجيئه الاول من ناحية اهله ثم مجيئه الثاني من ناحيتنا اذ لم تكن صناعتنا الترجمة ولا التلخيص فتجعل طبيعتنا النقل والاغارة على اقوال الناس وخلط شيء بشيء وادعاء الخليط كما يفعل اكثر المترجمين الذين يأبون الاّ ان يكونوا كتّاباً وادباء لامن ناحية انهم ادباء وكتّابٌ بل من ناحية انهم تراجمة .... وسنعرض هنا كل اقوال النحاة في رفع جواب الشرط على نسق من القضايا ونعترضها بالنقد ثم نترك الجواب عنها لنحويينا الجديد لعلنا نفيد منه علماً لم نجده عند سيبويه ولا الخليل ولا المبرد ولا غيرهم

(١) لا يمكن ان يجعل رفع الشرط في تلك الصورة قاعدة يُقتاس بها الاّ اذا سمع في الكلام المنثور دون المنظوم اذ النظم محل الضرورة في اشياء كثيرة معروفة اما النثر فهو على السعة ولا يجوز فيه الاّ الجائز . فما هي الامثلة التي نقلها النحاة عن العرب لتلك القاعدة وعن اي القبائل سمعت وهل هو السماع الذي يعضده القياس ام السماع الضعيف ؟

(٢) لم يزيدوا في كتبهم على ان قالوا ان ذلك مسموع ولم يزد سيبويه في كتابه على هذه العبارة : «وقد تقول (تأمل) إن أتيتني آتيك اي آتيك ان أتيتني قال زهير

وان اتاه خليلٌ يوم مسألة يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ

فأنت ترى ان سيبويه يضع مثالاً ويأتي بالشاهد عليه من الشعر والشعر محل الضرائر يجوز فيه ما لا يجوز في الكلام ولا اضطرار في بيت شوقي اذ يستطيع ان يقول : إن رأتني تصدَّ عني . فلا شاهد في كلام سيبويه على رفع الجواب

(٣) ان اداة الشرط تجزم فعلين فاذا كان الجواب مرفوعاً قيل في اعرابه انه فعل مضارع مرفوع في محل جزم ، فاذا لم تكن ثمَّ ضرورة من الوزن فما الذي يمنع الجزم ان يظهر على الجواب في كلام هو من لغة النهار والليل وما علة تقدير الجزم ولماذا يقدَّر في مثل ان زرتني اكرمُك وانت تستطيع ان تقول اكرمْك ؟

(٤) من اجل هذه العلة يقول سيبويه ومن تبعه ان « اكرمُك » في مثل هذه الصورة ليست هي الجواب بل الكلام على نية التقديم اي الاصل «اكرمُك ان زرتني» فالجواب محذوف. وفي هذا الرأي (وهو أقوى الآراء وأسدُّها) لا يقال ان جواب الشرط مرفوع . ثم ان فرقاً في البلاغة بين قولك اكرمُك ان زرتني وقولك ان زرتني اكرمك فلماذا يقلب سيبويه احدى العبارتين الى الاخرى على حين قائلها لم يرد الاّ وجهاً بعينه . وما هي ضرورة التقديم مادام الكلام على السَّعة ؟

(٥) ومن اجل هذه العلة ايضاً يقول الكوفيون والمبرِّد من البصريين ان (اكرمُك) ليست هي الجواب والكلمة على تقدير الفاء فالاصل ان زرتني فأكرمُك وبهذا يكون الجواب

جملة اسمية . ولكن ما هي ضرورة حذف الفاء وتقديرها في وقت معاً والكلام ليس موزوناً يختلُّ معهُ الوزن ان ذكرت الفاء وقائلها لو ارادها لذكرها لان الجملة من الكلام المبتذل الذي لا يراد منه شاهد في البلاغة ؟ وهم قاسوا ذلك على مثل قوله تعالى: ومن كفر فأُمتِّعُهُ قليلاً . ومن عاد فينتقمُ الله منه . ومن يؤمن بربه فلا يخاف بَخْساً ولا رَهَقا . ولكنهم غفلوا عن سر هذه الفاء فقاسوا عليها ذلك امثال المبتذل ولعل نحويّنا يبين للناس هذا السر

(٦) ويقول بعض من ذهبوا الى ان سبب رفع الجواب تقدير الفاء ان هذه الفاء تقوم في افادة الربط مقام الجواب .... فيصح رفعه وتركُ جزمه استغناء عنه بالفاء .... وهذا كما ترى من الخلط

(٧) قال قوم من النحاة ان الكلام ليس على نية التقديم ولا على تقدير الفاء ولكن لما لم يظهر لاداة الشرط تأثير في فعل الشرط لكونه ماضياً ضعف عن العمل في الجواب . وهذا على مذهب ان فعل الشرط هو الذي يجزم الجواب وهو غير الرأي الذي عليه التحقيق اذ يلزم ان لا يكون الجواب معمولاً لاداة الشرط لفظاً ولا تقديراً . والجزم ليس قوة ميكانيكية . . . . يبطل تأثيرها اذا انتهى الى فاصل لا يتأثر بها فلا تتعدّى الى ما وراء هذا الفاصل . ثم ان فعل الشرط اذا كان مضارعاً مبنيًّا كان كالماضي في عدم ظهور الجزم فيه ومع ذلك لا يرفع الجواب بعده . فبطل هذا الرأي كله

(٨) ان القرآن الكريم وهو افصح الكلام لم يأتِ فيه رفع الجوابِ مطلقاً بل جاء بالعكس في قوله تعالى: من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نُوَفِّ اليهم اعمالهم فيها . وقولهُ تعالى : من كان يريد حرثَ الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتِهِ منها

فيخلص من كل ذلك ان اقوال النحاة ساقطة كلها وان الاساس الذي بنيت عليهِ من السماع مجهول لم يأت بهِ أحد وانهُ لم يُفَرِّقْ لاحد منهم عن علة مقنعة في زعمهم رفع الجواب بل عارض بعضهم بعضاً ومتى تعارضت الاقوال تساقطت ، وان الاصل الصحيح الذي بين ايدينا وهو القرآن الكريم ينكر هذه القاعدة فلم يأت بها ولا مرة واحدة وأتى بخلافها مراراً فكيف يكون التأويل بعد هذا وما هو الوجه الصحيح وكيف يُدفع السماعُ الذي نصّوا عليهِ وكيف يكون الدفاع عن هؤلاء النحاة وهم قد عجزوا عن البرهان القاطع ؟

المسئلة الثانية

قلنا ان من التركية في شوقي اضافات وهمية . . لا محل لها في ذوق البلاغة كقوله

عيسى الشعور اذا مشى رد الشعوب الى الحياة

فقال العقاد : « وظن ان الشعور هنا زائدة . . . . والصواب ان « عيسى الشعور » في البيت السابق من تشبيه الاضافة المعروف في البلاغة وليس ثمة حشو ولا إقحام في تركيب

الكلمات فالبيت معناهُ ان الشعور اذا مضى (كذا) في الشعوب ردها الى الحياة كما كان عيسى يحيي الموتى . ومثل هذا أن يقال « خمر الريق » في تشبيه الريق بالخمر على الاضافة او يقال « موت الغباء » — حفظك الله — في تشبيه الغباء بالموت على هذا المعنى »

قلنا وبهذه الاسطر القليلة كدنا ننسى ان العقاد « من الذين يعرفون النحو » اذ هو لا يميز في معاني الاضافة النحوية بين خمر الريق وموت الغباء وبين عيسى الشعور ، ولا يعرف ان الاول اضافة نكرة الى معرفة تتعرف بها وان « عيسى الشعور » اضافة معرفة الى معرفة وذلك ممتنع الاَّ اذا جاز تنكير العَلَم واعتباره كواحد من جملة من سمي باسم عيسى وهذا محال لانهُ ليس في الدهر كله الا عيسى واحد خُصَّ بتلك المعجزة

وقال بعضهم بل تجوز اضافة العَلَم مع بقاء تعريفه اذ لا منع من اجتماع تعريفين اذا اختلفا وذلك متى اضيف العَلَم الى ما هو متصف به معنىً نحو زيدُ الصدق . قال يجوز ذلك وان لم يكن في الدنيا الاَّ زيد واحد . تقول : ولكن عيسى عليهِ السلام لم يتصف في المعنى « بالشعور » حتى تجوز اضافتهِ اليهِ بل اتصف باحياء الموتى « والشعور » من صفة كل حي لا من خصائص عيسى وحده . وعلى فرض أن يقال أن « الشعور » في لغة العقاد هو احياء الموتى فيبقى أن عيسى لم يحيِ آلافاً ولا مئات ولا عشرات من الاموات فالاحياء ليس وصفاً ملازماً لهُ ملازمة الصدق لمن عرف بهِ على انهُ طبيعة فيهِ فتجوز الاضافة في « زيد الصدق » ولا تجوز في « عيسى الشعور » . وانما المثل الصحيح في هذا الباب قولهم « زيد الخيل » لملازمته اياها وانهُ فارسها في الغارات « وعمرو الصَّمصامة » لانهُ لا يضرب الاَّ بها فكأنها إحدى يديهِ

ونحن لم نقل ان « الشعور » زائدة كما توهم العقاد ولا تعرضنا لكونها اضافة على تشبيه او على النحوية ولم نزد على ان قلنا انها وهمية لا محل لها في ذوق البلاغة فلننظر فيها الآن من هذه الناحية . إن ساغ في ذوق البيان ان تقول ريقٌ مثل الخمر وغباء مثل الموت فهل يُسيغ ذوقك أن تقول شعور مثل عيسى ؟ واذا كان هذا التشبيه بارداً ركيكاً في اصله فكيف يجوز ان تحيله الى التشبيه البليغ فتحذف منهُ أداة التشبيه وتضيف المشبَّه بهِ الى المشبَّه فتقول « عيسى الشعور » اذا فعل وفعل .....؟ والفرق بين قولك «ريق كالخمر »وقولك «خمر الريق» ان هذه الصورة الثانية تجعل الفرع في المبالغة كأنهُ الاصل لا الفرع فيصبح الريق ألذ واقوى وأعظم نشوة من الخمر وكأنها عُرفت بهِ ولم يعرف هو بها.فهل يجوز على هذا ان يجعل الشعور أقوى واعظم في المعجزة من عيسى. . . . . ؟

وهنا يجب أن اصرحَ اني لم أقرأ قصيدة شوقي التي منها« عيسى الشعور »الاَّ في كتاب الديوان الذي اصدرهُ العقاد في سنة ١٩٢١ حين توهَّم انهُ يستطيع أن يهدم شوقي بمقالة في

مثل السهولة الذي تستطيع ان تحمل بها الجبل ملفوفاً في نسخة من جريدة . . . .

وكنت أهملت كتاب الديوان هذا فلم اقرأهُ مع اني منتقَد في الجزء الثاني منهُ باللغة التي ينقد بها العقاد من أقاموهُ وأقعدوهُ من غير ان يقعدوهُ أو يقيموهُ . . . . وانما قرأت ما كتب عني في نسخة كانت في يد أحد محرري الاخبار ثم تركتها ، فلما أردت أن اكتب عن شوقي رأيت واجباً أن اطلع على ما كانوا يرمونهُ بهِ فطلبت الكتاب من الصديق محرر المقتطف لاشير اليهِ ان كان فيهِ رأي او سداد او طريقة ، وجاءني الجزء الاول فرٌّ في احدى يدي محمولاً وفي الاخرى ملقىً بهِ الارض إذ ليس فيهِ الا التعسف الذي لا يميز والخبط الذي لا يُهتدى معهُ الى حقيقة . وكتب العقاد اربعين صفحة لم يعرف فيها من مآخذ شوقي الا بيتاً واحداً هو قوله في الهلال

تطلع الشمس حين تطلع صبحاً وتنحّى لمنجلٍ حصّاد

وظن انهُ اخذه من قول ابن المعتز :

انظر الى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كمنجلٍ قد صيغ من فضةٍ يحصد من زهر الدجا نرجسا

قال العقاد : وجاء شوقي فقال انهُ (اي الهلال) منجل يحصد الاعمار . وكلام العقاد هذا هو الذي نبهنا الى نقد الاضافة في « عيسى الشعور » لان شوقي لم يأخذ من ابن المعتز بل أخذ من شاعر العراق المشهور عبد الباقي العمري الذي كان في القرن الماضي من أبيات يقال انها من مبتكراته وهي :

علينا أهلّةُ هذي الشهور غدت تحصد العمر في مِنْجَلِ
وداست بَيادرُ أيامهِ نبات لياليهِ بالارجل الخ الخ

وفي هذه الابيات يقول العمري ان هذا الحصاد طُحن وعُجن

وقد خبزته « سُليمى الهموم » بمسجور تنّورها المصطلي

فن ههنا تنبهنا الى « عيسى الشعور » وما كان العمري الا مقلداً الفرس والترك . وديوانه قد طبع في مصر من ثلاثين سنة وأهداه طابعه إلى شوقي وكان صديقه وصديقنا وهو الشيخ عثمان الموصلي . والغريب ان العقاد الذي فسر لنا « عيسى الشعور » . . . . هو نفسه الذي قال في (الديوان) : « ولكن شاعر العامة يعكس الآية فيقول ان الشعور رد الحياة وكلنا يعلم ان الحياة هي التي تنشيء الشعور »

لقد قلت في مقالي عن شوقي وأشرت الى من حاولوا اسقاطه مراراً إنه « اراهم غباره ومضى متقدماً ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه ويرى ... » ، وتفسير العقاد الآن دليل بين على انهُ غسل عينيه ...

مصطفى صادق الرافعي



عصر اسماعيل

بقلم عبد الرحمن الرافعي بك — مجلدان صفحاتهما ٧١٤ — ثمن كل مجلد ١٥ غرشاً

عهدنا في دراسة هذا الكتاب النفيس الى كاتب كبير فلم يفرغ من ذلك حتى متول هذا الباب للطبع فاكتفينا بايراد موجز عن مباحثه، تاركين الحكم على قيمة الكتاب من الوجهة التاريخية للكاتب المذكور

اخرج الاستاذ الرافعي قبل الآن ثلاثة اجزاء من تاريخ الحركة القومية في مصر بسط في اولها منشأ الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث وكشف عن الدور الاول من ادوارها وهو عصر المقاومة الاهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر . واشتمل الثاني على تتمة البحث في المقاومة الشعبية ووقائعها الى انتهاء الحملة الفرنسية . وتطور الحياة القومية من بعد ذلك الى ارتقاء محمد علي اريكة مصر بارادة الشعب . ثم افرد الجزء الثالث لعصر محمد علي ، وفصّل الكلام فيه على ظهور الدولة المصرية الحديثة وتحقيق استقلالها وتأليف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه الى حظيرة الوطن ، وما تمَّ في ذلك العصر من جلائل الاعمال

وبهذا الكتاب — عصر اسماعيل — يدخل المؤلف غمار العصر الحديث من تاريخ الحركة القومية . فهو يتضمن الحديث عن خلفاء محمد علي و « عصر اسماعيل » بوجهٍ خاص اذ كان عهد الخديوي اسماعيل اكثر العهود صلة بعصرنا الحاضر واقربها منا اثراً

* * *

انقضى عصر محمد علي وابراهيم بعد ان توطدت دعائم الدولة المصرية المستقلة ، وتأسس الجيش المصري والاسطول المصري والثقافة المصرية ، ووضعت قواعد النهضة العلمية والاقتصادية في البلاد . ثم جاء عهد عباس الاول ويصحُّ اعتباره عهد الرجعية والنكسة لان فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التي ظهرت في عهد محمد علي

ثم كان عصر سعيد ، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديدة بان تعدُّ من ادوار الحركة القومية ، ترجع الى نزعة سعيد الوطنية وميله الى خير المصريين ورفاهيتهم والعمل على تحريرهم من نير المظالم ، وبث الروح القومية في نفوسهم ، والنهوض بهم للمناصب العالية في الجيش والادارة . ولكن الى جانب هذه المحامد بدأت على عهده ثغرات التدخل الاجنبي في شؤون مصر ، باقراره انشاء قناة السويس على يد شركة اوربية مخالفاً في ذلك تعاليم ابيه العظيم ،

وبافتتاحه عهد القروض الاجنبية التي جرّت الكوارث على البلاد ، وكانت سلاسلها واغلالها
ثم جاء عهد اسماعيل ، وهو عصر طويل يتمثل فيه تاريخ مصر القومي والسياسي في ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويعدُّ عصراً هامًّا ، لهُ أثره النافع ، كما لهُ أثره الضار ، في تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة ورقي وعمران — ما نالهُ من تركيا من الحقوق والمزايا واكمال فتح السودان ومد حدود الدولة المصرية وتنظيم الجيش وترقية التعليم الحربي وانهاض البحرية المصرية واقامة العمران وبعث النهضة العلمية والفكرية — ثم ما تخللهُ واقترن به من اخطاء وارزاء أفضت الى التدخل الاجنبي. واذا كانت مصر تشعر الى اليوم بنتائج النهضة التي قامت في ذلك العهد ، وتجني ثمارها ، وتلمس آثارها بيديها ، فانها ايضاً تعاني عواقب الاغلاط التي وقعت فيها ، وتدفع ثمنها غالياً من مالها وحقوقها ومرافقها . هذا الى ان معظم القيود والنظم التي تقرَّرت في ذلك العصر ، لا تزل قائمة الى اليوم. فالتشريع المختلط ، وتغلغل الاجانب في مرافق مصر ، والديون التي كبَّلت البلاد حكومة وشعباً ، والتدخل الاجنبيّ في شؤون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع الى عهد اسماعيل

حقًّا ان كل مشتغل بشؤون مصر العامة ، لا يستطيع ان يستغني عن مطالعة هذا الكتاب وحفظهِ مرجعاً في خزانتهِ

اسباب الحرب العالمية

تأليف سدني برنارد فاي — أستاذ التاريخ الاوربي الحديث — في جامعة هارفرد الاميركية في مجلدين صفحاتهما ٦٨٧ — نقلها محمود ابراهيم دسوقي — ونشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر

طغى بعد الحرب الكبرى سيل متدفق من كتب المذكرات . فكل سياسي وكل قائد وكل صحافي وكل متصل بأحد هؤلاء وضع كتاباً قال انهُ يشتمل على مذكراته عن الحرب الكبرى وأسبابها وسيرها والتبعة في اضلاء نارها . وبعض هذه المذكرات لا قيمة له من الوجهة التاريخية . أما المذكرات التي كتبها رجال كانوا يدبرون شؤون الامم ويوجهون الحوادث باحكامهم اليومية — امثال بوانكاره وكليمنصو وفوش وجوفر وبرشتنغ وغراي وسكوت وتشرتشل وهوس وهندنبرج وفون بولوف — فلا مندوحة عنها لكتّاب التاريخ في المستقبل. لانها مع الوثائق الرسمية التي نشرتها حكومات روسيا والنمسا والمانيا وانكلترا والوثائق التي ما تزال مطوية في دور السجلات الرسمية هي اعظم المصادر التي يرجع اليها المؤرخون لاستقصاء الحقائق

والقارىء اذا حاول ان يصل الى رأي متزن سليم من الاضطراب والتناقض في هذا الموضوع الوعر تعذر عليهِ الامر او شقّ لاختلاف الآراء وتعارض وجوه النظر . فالتبعة

في تمحيص الحقائق ومعارضة الآراء بعضها ببعض والموازنة بينها ، لترجيح رأي على رأي وايثار حكم على حكم ، واقعة على اساتذة التاريخ الحديث ، لاننا ننتظر منهم سعة في الاطلاع ، وبعداً عن الهوى لدى تقليب النظر، وتجرداً في الموازنة ، ونزاهة وانصافاً في الحكم . ولعلَّ احداً من المؤرخين لم ينجح في هذا العمل الشاق نجاح الاستاذ برنارد فاي في كتابهِ الذي نقل حديثاً الى اللغة العربية

في مقدمة معاهدة فرساي وصف للحرب قيل فيها انها « نشأت من اعلان النمسا والمجر الحرب على الصرب في ٢٨ يوليو سنة ١٩١٤ ومن اعلان المانيا الحرب على روسيا في اول اغسطس سنة ١٩١٤ وعلى فرنسا في ٣ اغسطس سنة ١٩١٤ ومن هجومها على البلجيك »

فالمانيا من الناحية القانونية الحرفية هي الدولة البادئة بالحرب لانهُ لم تكن دول اوربا في حالة حرب صحيحة حتى شهرتها المانيا على روسيا وفرنسا . ومهما يبالغ الالمان في القول بان الضرورة الحربية حملتهم على ذلك ازاء تعبئة الجيش الروسي ، لا يمكن الاغضاء عن هذه الحقيقة المثبتة . فحبل المفاوضات السياسية في اول اغسطس سنة ١٩١٤ لم ينقطع رغماً عن تلبُّد الجوّ السياسي واكفهراره . وعمل المانيا في اعلان الحرب قطع ذلك الحبل وقضى على كل امل في الوصول الى حلّ سلميّ واجتناب الكارثة

على ان مسألة التبعة الادبية والسياسية في إثارة هذه الحرب امرٌ آخر، وتوزيعها على الدول التي خاضت غمار الحرب يقتضي بحثاً مسهباً في الاسباب التي جعلت وقوع الحرب امراً لامفرَّ منهُ . وهذا البحث يتناول نظام المحالفات الذي كان سائداً اوربا — محالفة المانيا مع النمسا سنة ١٨٧٩ وانضمام ايطاليا اليهما سنة ١٨٨٢ والمحالفة الروسية الفرنسية سنة ١٨٩١ — ١٨٩٤ والتفاهم مع بريطانيا المعروف « بالاتفاق الوديّ » — وحالة التسليح والتجنيد الاجباري في الدول المذكورة وتعزيز الاساطيل البحرية في انكلترا والمانيا . فاوربا كانت من الناحية الحربية والسياسية في مطلع سنة ١٩١٤ في حالة توازن ولكنهُ كان غير مستقرٍ وغير كافٍ للاحتفاظ بسلم اوربا

ثم وقعت مأساة سراييفو التي راح الغراندوق فردينان جوزف وزوجتهُ ضحيتيها فكانت الشرارة التي شبت النيران بين المللين . وتحقيق المقدّمات التي افضت الى هذه المأساة ، والحوادث التي تلتها من ادقّ الامور وآخذها للب

وقد كان الاستاذ فاي في كل ذلك المؤرخ الجامع بين سعة الاطلاع وبراعة التحليل والتجرد عن الهوى . لذلك رحّب المؤرخون في اوربا واميركا بكتابهِ أعظم ترحيب . فترجمتهُ للغة العربية عمل جليل الفائدة . واسلوب الترجمة من السهل الممتنع . فنشكر للاستاذ دسوقي عنايتهُ باخراج هذا السفر النفيس

وحي الاربعين

قصائد ومقطوعات — نظم عباس محمود العقاد — مطبعة مصر صفحاته ١٧٤

من النادر في تاريخ تطوُّر الادب وتحول اساليبهِ ومراميه، ان تجد رجلاً دعا الى انقلاب معين ومارس اصوله في كتابتهِ ونظمه، وخاض معركة النضال بين دعاة الانقلاب ومقاوميهِ ؛ ثم مدَّ الله في اجلهِ حتى شهد الفوز لرأيهِ وفريقهِ . لان التحوُّل الادبيّ ، بطيء في الغالب ، لشدة ارتباطهِ بالآراء والتقاليد الاجتماعية الموروثة ، في التفكير والشعور والتعبير . وهذه تغلب عليها صفة الاستقرار حتى يصدمها ما يزعزع استقرارها . هكذا انتقل الادب الاوربي من الاسلوب الرومانطيقي في القرن الماضي الى الاسلوب الواقعي في العصر الحديث

وقد كان الاستاذ العقاد في طليعة الداعين الى احداث تحوُّلٍ في الادب العربي. ولكن دعوتهُ لم تكن قائمة على ان كل قديم مرذول يجب اطراحهُ . وان كلَّ جديد مرغوب فيه يجب تأييدهُ والاقبال عليهِ . ولكنهُ كان في مقدمة الداعين الى تحرير الفكر والشعور والاسلوب، من اغلال الانقياد الى احكام وأساليب ترهق الاديب لانها تستبدُّ باخلاصهِ وصدقهِ ، مع انها كانت في حياة من تقدمنا من ادباء العربية وأعلامها وسيلتهم البليغة الى الصدق والاخلاص في وصف خلجات النفس أو الاعراب عن احكام العقل . وقد أيَّد هذه الدعوة وفصَّلها في كثير من كتبهِ ، نخص بالذكر منها « ساعات بين الكتب » و «الفصول» و « مراجعات في الادب والحياة » و «ديوانهُ» المطبوع

ونحن لا نقول ان معركة النضال قد انجلت وان الحكماء من دعاة التجديد قد ظفروا بالغار، وانما الدلائل تدلُّ على اننا صائرون الى هذا . وانك لتستطيع ان تتبين سرعة الانتقال من ان العقاد وهو من دعاتهِ الاصليين ، اصدر الآن مجموعة من شعره عنوانها «وحي الاربعين»

في هذه المجموعة طائفة من الشعر النفسي والفلسفي النفيس . وعندنا ان قصيدة « كعبة الاصنام بعد الزلزال » هي فريدتها . ففيها من التهكم على الانصاب التي يرفعها الناس لمعاني الحق والنخوة والاخاء والمحبة والمجد ويعبدونها من « شفاههم » — كما يقول الانكليز — ما ينطبق على بعض نواحي الطبيعة البشرية في كل زمان ومكانٍ مما يجعل القصيدة ذات شأن اذا نقلت الى اللغات الاخرى. ثم ان التمثيل على هذه الاصنام ووصفها قبل سقوطها وبعدهُ ضرب جديدٌ في الشعر العربي

كانت النخوة فيها صنماً ... صاغيَ السمع كما شئت نزيها
يخلب الطرف بحسنٍ واضحٍ ... وسمات تزدهي من يجتليها
فارتمت اذناهُ في الارض لقًى ... ومضت كفٌّ بلا كفٍ تليها

يطلب الغوث ولا غوث لهُ   هل ترى داعيهُ الاَّ سفيها

***

هكذا اقوَتْ زوايا كعبتي   وثوت خاوية من ساكنيها
غير اني طائف من حولها   لم اشأ اهجرها او ابتنيها الخ

وقصيدة « عيد ميلاد في الجحيم » تحتوي على وصف حالة نفسية تملك على الانسان في بعض ساعات الضعف او اليأس مساري الامل ونوافذ النور ، فيحسُّ ان كلَّ ما قدَّسهُ من معاني النبل والرفعة والاخاء والنجدة وغيرها من السجايا قد اصبح موطىء القدم في عالم لا يعرف — في بعض نواحيه وهي النواحي الطاغية — الاَّ الخسَّة والصغار والتنابذ والتخاذل فيؤثر الجحيم . وقولهُ في هذه القصيدة عن سكان الارض

لا يعرفون الحق ان سمعوا بهِ   الاَّ ليلقوا في الحقوق عذابا
اهون بصاب في الجحيم اذوقهُ   قد كان ثمة كلّ شيء صابا

ليس الاَّ صرخة صادرة من الاعماق وتفسُ الشاعر في مثل الحالة التي ذكرنا

اما قصيدة « اكاروس » فقد بناها على اسطورة « ديدالوس واكاروس » وهما على مايقال اول من طار من البشر . ولهما قصة ممتعة روى الشاعر ملخّصها نثراً . وفي هذا الموضوع مجال « لاستعراض عبر الشهوة والغيرة والطماح » .قال في وصف فرار ديدالوس واكاروس لما سدَّت عليهما منافذ جزيرة كريت

فلما تنادى الجند وارتجَّت القرى   وخيف الاذى من حاضرين وغيَّب
وقالوا : امنْ ربُّ الجزيرة حربهُ   يوقّيهِ عرض البحر اوطول سبسب
اهاب الصنّاع العبقريُّ بفنهِ   فلبّاهُ فاستعلى بهِ متن اشهب
تسربل من ريش وسربل نجلهُ   خوافق لوّى بينها الف لولب
فحلّق مزهوًّا وفرَّ مظفّراً   واغرى لسان السخر بالمتعقّب

وحبذا الحال لو لقي هذا الضرب من الشعر الذي يجمع بين « العبرة والمتعة الخيالية » من عناية شعرائنا نصيباً اوفر مما لقي حتى الآن ، على ان يجتنبوا فيهِ كما فعل العقّاد، مجرَّد السرد القصصيّ فهو من مزالقهِ

وفي ابواب المجموعة مقطّعات فلسفية كثيرة ، لانجد لها تعليلاً وافياً، الاَّ اضطراب حياة الشاعر في اثناء نظمها ، لخوضه بحر السياسة اللجي ، فلم يسعهُ افراغ الجهد في موضوع واحد مدةً طويلة . ونحن اذا نظرنا الى هذه الناحية من «وحي الاربعين» وجدنا معظمهُ من نوع المقطّمات التي تصف حالة نفسية طارئة او خاطراً استوحاه مما يطرق حسهُ المرهف كلَّ يوم فيما يراهُ او يقرأهُ او ينتهي اليهِ . وحبذا الحال لو اتيح للشاعر ان ينظم عقد هذه الخواطر في قصيدة تقتضي

استفاضة في اعمال القريحة واستيحاء الخيال وتنبيه الشعور خلال المدة التي تكتب فيها القصيدة للاحتفاظ بوحدة معانيها وشعورها واسلوبها . ولسنا نقول هذا لاننا نرى في القصيدة الطويلة شعراً يفضل شعر القصيدة الغنائية lyric وانما نتمناه لانهُ نادر في الشعر العربي او قليل والشعر الغنائي كثير بل هو مجلى نبوغ العرب الشعري . واننا نتوقع من ائمة التجديد ان يجربوا التجارب في الشعر الذي يقتضي الاستفاضة وطول الجهد . وقد حاول الاستاذ العقاد من قبل محاولة موفقة فيهِ وهي قصيدة ترجمة شيطان . ومن قبلها الجنين الشهيد ونيرون لخليل مطران وعلى بساط الريح للشاعر المأسوف عليهِ فوزي المعلوف. فالاولى فلسفية اجتماعية والثانية اجتماعية خلقية والثالثة تاريخية والرابعة وجدانية فلسفية

وبعد فاننا نتمنى ، وقد وقفت « الجهاد » صحيفة منها على البحث الادبي ان يعنى الاستاذ العقاد بشعر الشعراء المعاصرين فيحللهُ وينقدهُ اذاعةً لاجادةٍ او بياناً لفضل او تقويماً لطريقة

شوقي

بقلم انطون الجميل بك — رسالة صفحاتها ٩٥ قطع وسط — طبعت بمطبعة المعارف

لانطون الجميّل بك فضل على كاتب هذه السطور لن ينساهُ ، اذ بواسطتهِ تعرَّف الى شعر خليل مطران . ذلك ان الحرب العالمية كانت مشبوبة النيران ، وكان كاتب هذه السطور يتلقى العلم في بيروت ويغادرها خلال العطلة الصيفية ليقضي ايامها في لبنان . وكان زمن بؤس وشقاء فلم يجد مفرًّا من آلامهِ الاَّ في المطالعة. فوقع في يده ذات يوم كتاب من كتب المختارات القديمة والحديثة فاذا في آخره بحث «لانطون الجميل» في شعر خليل مطران، فاقبل عليهِ ، يرتشف نميره على ظمإٍ ، فاعجب بطريقة تقسيم البحث وتحليل الشعر ، وايراد الابيات او الاشطر التي تضرب مثلاً على المعنى الذي يريد الكاتب ان يجلوه . وأعاد الكرة على هذا المقال حتى كاد يستظهره ، وهو يتوق الى مطالعة ديوان الخليل ولا سبيل اليهِ حينئذٍ . فلما انقشعت غمامة الحرب ، كان اوَّل كتاب طلبهُ من مصر «ديوان الخليل» فأكبَّ عليهِ يقرأه في خلوتهِ ومع اصحابهِ ، ويكتب التعليقات على هوامشهِ حتى اصبح في نظرهِ كالحلية طال عليها الزمن فأضاف الى روعة جمالها جلال القدم . والنسخة لا تزال عنده لا يتخلى عنها

فلما اتحفنا الجميّل بك بكتابهِ « شوقي » الذي ضمَّ مقالته في شعر شوقي من ناحية السياسة (نشرت في عدد السياسة الخاص الذي طبع في مهرجانهِ) ومقالتهُ التي صدَّر بها الاهرام (يوم نعيهِ ١٤ اكتوبر ١٩٣٢) ورسالتهُ في شاعرية شوقي (التي تلا ملخصها في حفلة تأبينهِ في دار الاوبرا ٤ دسمبر ١٩٣٢) اعدنا قراءتها كلها بمثل اللهفة التي قرأناها بها اولاً ، فدرجت

بنا الذاكرة الى مخابئها ناشرة ذكرى مقالة الجميّل في مطران ، فقلنا — وخبرتنا تؤيد ما نقول — هذا كتاب (ونخص بالذكر الرسالة الاخيرة) يصح ان يكون مدخلاً لدرس شعر شوقي .

فقد اجتمع فيهِ للكاتب المجيد صفاء ذهن مكنهُ من مراجعة كل ما نظمهُ شوقي — او معظمهُ على الاقل — وتبويب اهم نواحي الشعر التي عالجها — كالدين والوطن والشباب والفلسفة الاجتماعية والوصف الحسي والمعنوي وغيرها — واختيار المقاطع او الابيات او الاشطر التي تبرز فيها المعاني التي يريد الكاتب ان يمثّل عليها . ثم انهُ ساق ذلك في كلام رصاف كالبلور ترى محاولة الانصاف تتجلى في كل فقرة من فقراتهِ . فاذا رأى الكاتب في شاعره ما يخرج بهِ عن الطريق القويم قال ذلك ولكن بعد ان يطرق كل الابواب التي قد يرى فيها تعليلاً لما يراه . ويلخص حكمهُ العام في شعر شوقي بقوله صفحة ٣١ « لم يشُدّ (شوقي) الى قيثارة الشعر وتراً جديداً . ولكنهُ عرف ان ينطق الاوتار القديمة بنغمات جديدة مستعذبة » و«كثيراً ما اصبح القديم جديداً بفضل ما اكسبهُ من جمال اللفظ والتركيب» ص ٥٨ وقد اجاد الشاعر محمد الاسمر في وصف كتاب الجميّل بك اذ قال في كلمات الكتاب

هي في الصمت هاتفات شوادٍ في حروفٍ من الطباعة خرس

ابو نواس

تأليف الاستاذ « عمر فروخ » استاذ الادب العربي في كلية المقاصد الاسلامية ببيروت

رأت « مكتبة الكشاف » وصاحبها الاخ «مصطفى فتح الله» ببيروت ان تصدر سلسلة متتابعة من كتب في الادب العربي ، وبدأ لها الاستاذ الاديب «عمر فروخ» بالقول في « ابي نواس : الحسن بن هانيء » شاعر الخمر والمجون . ويقول المؤلف : « هذه دراسة شبه مفصلة في شعر ابي نواس ، تتناول ترجمته ، ثم البيئة التي نشأ فيها ، والعناصر التي ساعدت على توجيه شعره الى مستقره ، ثم نقد لابواب شعره . . . . . »

ونقول : قد تعجل المؤلف الاديب في دراستهِ شعر ابي نواس ، وكان يجدر بهِ ان يقف طويلاً قبل ان يتقدم ، ليأخذ عدته وأداته وما يصلح من أمره . أو ما تراه كتب عن موت ابي نواس والمرض الذي مات به اكثر من صفحة وكتب عن (فلسفة ابي نواس ومذهبه في الحياة) أربعة اسطر لم يزد فيها على ان جعل فلسفة الرجل فلسفة حيوان مستكلب قطيم تتسعر شهوته . ولقد طوى المؤلف القول في ترجمة هذا الشاعر العظيم ليظهر لنا نواحي شاعريته وما في هذه الشاعرية، وآفاق نبوغهِ ومطلع هذا النبوغ ، فكان حقيقاً — ولم يفعل — بأن يكشف لنا عن العصر الذي كان فيهِ أبو نواس ، ذلك العصر الذهبي في تاريخ العرب حين كان

الرشيد « هرون » يقول للسحابة المخلفة « أمطري حيث شئت » ، وحين كان الرجل من الناس يتنقل من مجلس الوقار يدرس فيهِ الكتاب الكريم ، الى مجلس الادب والظرف ينشد فيهِ الشعر ، ومن مجلس الحكمة والطب تدرس فيهِ الفلسفة بأنواعها ، الى مجلس ابي العبر وامثاله يؤتى فيهِ بالكلام الملفق من رطانة العجم وحماقات المغفلين ، ومن دار الجد والجدل في علوم الاوائل والاخذ والرد في مذاهب القوم من المعتزلة وأهل الرأي وأهل السنة وغيرهم ، الى دار الخلاعة والمجون وشرب الخمر وانواع الشرور الانسانية . وحين كانت بغداد تموج بالقادمين اليها من كل فج ، فيهم الفارسي والهندي والشامي والمصري والاندلسي والترك والديلم والقيان الجميلات ، والإماء المستطرفات الابقات ، والمغنيات والاديبات ، وحين كانت الفتنة والوقار والهدى والضلال ، وبغداد تغلي كغلي المرجل ، وابو نواس الشاعر الماجن اللسن الخبيث في مثل هذا الموج يروح ويغدو

هذا هو محك كل مؤلف يكتب عن أهل ذلك العصر على الطريقة المستحدثة في الادب العربي . وفي هذا يتبين القارىء كيف درس الاديب وكيف فهم وكيف تأثر بشعر الشاعر واهتز له واقبل عليهِ وأعجب به واستوضح نبوغه فشهد له وفضله واستخرج محاسن شعره ثم كتب عنه . وبغير هذا يكون كل كتاب قد استوعب ترجمة الرجل منهم على طريقة التأليف الاولى أجدى وأقوم

على ان الاستاذ الاديب «عمر» قد ألم بحياة ابي نواس الماماً لا بأس به فيهِ الفائدة للناشئة ينبه كل غافل منهم الى الادب العربي وما فيهِ من درر القول وكرائم الشعر ويدعوهم الى وصل ماضيهم بالحاضر الذي يعملون على تشبيده وبنائهِ . وقد رد الاستاذ القول الذي لج فيهِ بعض المحدثين بأن امثال ابي نواس من الشعراء أهل المجون والخلاعة والتهتك يمثلون العصر العباسي عصر الرشيد الذي كان يموج بأئمة الدين كأبي يوسف صاحب ابي حنيفة وكبار الفقراء من أعلام الصوفية اصحاب النسك والورع

اما لغة الكتاب وأسلوب المؤلف ففيهما ضعف نرجو ان تبرأ منهُ بقية مؤلفاته ان شاء الله ، وفي الكتاب سهو كثير ونخص بالذكر والتنبيه قوله «ان ابا الفرج صاحب الاغاني افتتح الجزء السادس عشر من كتابه « بأخبار ابي نواس وجنان خاصته » والصواب انهُ الجزء الثامن عشر . وايضاً ، فقد ذهب المؤلف الى القول بضياع ترجمة ابي نواس من كتاب الاغاني كما ذهب الى ذلك ابن منظور الانصاري صاحب «لسان العرب» في كتابه «أخبار ابي نواس» . وارجح الرأي عندنا أن قول أبي الفرج في مفتتح الجزء الثامن عشر من الاغاني « اخبار ابي نواس وجنان خاصته ، اذ كانت أخباره قد أفردت خاصته» إنما عنى به «جمع ديوان ابي نواس» الذي ذكروه في مؤلفات ابي الفرج

محمود محمد شاكر

ديوان فرحات

نظم الياس حبيب فرحات ، في ٢٨٧ صحيفة من القطع الكبير ، طبع بمطبعة مجلة الشرق في سان باولو

قبل تسعة قرون كانت تهبُّ نسمات رقيقة على العالم العربي في الشرق من فردوسهِ المفقود في الغرب ، وكانت تحمل تلك النسمات أصداء الخلود في طياتها فخلقت تلك الاصداء روحاً جديدة وعالماً يفيض بما يملأ النفس ويهزُّ الروح . وبعد هذه القرون التسعة تعود تلك النسمات فتهبُّ معطرة بشذى العصر الحديث حاملة في اطوائها أصداءً جديدة تعيد الى العالم العربي ذكرى أندلسهِ فيروح يتطلع الى العالم الصاخب برنين المال وجلجلة المصانع يتسمع الالحان المنبعثة من قلوب ابناء العربية الذين طوحت بهم الحياة في أحضان الغربة في الامريكتين، هؤلاء الذين نزحوا من ديارهم يحملون بين جنوبهم قلوباً حساسة ، لم تلههم أعباء الحياة وضجيجها ، ومادية البيئة وغرابتها ، وعجمة اللسان وبعد المزار عن أن يرسلوا ما يفخر بهِ الادب العربي الآن من إبداع

والياس حبيب فرحات أحد هؤلاء الاوتار الحساسة التي تردد اليوم ما سيظل صداه في الغد يتردد بين الاسماع والقلوب . عرفتهُ أول مرة من قصيدتهِ «الراهبة» التي نشرها المقتطف من أشهر فلمست فيهِ روح الشاعر التي اتوق الى معرفتها ، وتنشقت من عبيره ذلك الشذى الذي انشده دائماً . وهو واحد من القليلين الذين رحلوا من موطنهم وهم يحملون ثروة من لغتهم ساعدتهم على صد هجمات العجمة فخرجت ديباجتهم مصقولة قويه بالرغم من هذا البون الشاسع بينهم وبين مواطن اللغة التي يكتبون بها

وأنت اذ تقرأ ديوان فرحات تحسُّ أن روح هذا الشاعر تعيش دائمة في ربيع دائم فهو يتعشق الرياض والمراعي ، وتسمعهُ يصف لك جمالها إذ يقول في قصيدتهِ « ثغاء الشاة » :

جمال الليل في هذه المراعي حقائقهُ ، وفي المدن الرسومُ

وهو يعجب ممن تلهيهِ الحياة عن التمتع بما يحيط بهِ في الكون من جمال فيهتف بهِ قائلاً :

واعجب كيف يعيش امرؤٌ خلياً وزُهْرُ الدجى عاشقاتْ !
ألستَ تراها تلظّى جوى وترنو الى صحبها غامزات ؟
أيروي الجمالُ الثرى والسما وما بين جنبيك أرضٌ موات . . !؟

ويرى في هذا الجمال ما يدعو الى التسامح ونبذ الفروق وهو يردّد ذلك في كثير من قصائدهِ فيقول :

وأوى الطير عشهُ بعد أن صلّى صلاة المساء للرحمنِ
وانا مُذ عقلتُ يفضل عندي معبدُ الطيرِ معبدَ الإنسان
فلهذا ركعتُ فوق نديّ العشب في هيكلٍ رحيب الجنان
قائم بين اربع من جهات الأفق لا مثلها من الجدران

يسعُ المسلمَ الحنيفَ ويبقى غير ضنكٍ بالمشرك النصراني

ويرى في الأهلّة الغرّ حسناً مثل حسنٍ يراهُ في الصلبان

ولهذا يرى أن الأخلاق تفضل العقائد فربَّ ملحدٍ أفضل اخلاقاً من مدّعٍ الدين لا تعرف الاخلاق طريقها الى قلبه ... فيقول في جرأة :

زوّجوا الحرَّةَ الكريمةَ للحرّ ولو كان عابدَ الأوثانِ

كافرٌ يعشق المكارم خيرٌ من لئيمٍ يغوص في الإيمان

ولفرحات ريشة تنقل ما يراه وما يحسّهُ في دقة وامانة فاستمع اليهِ يصف عربة تحملهُ وبضائعهُ في قصيدتهِ « حياة مشقات »

ومركبة للنقل راحت يجرُّها حصانان مجرٌّ هزيل وأشهبُ

بها خيمة تدعو الى الهزء شدها غرابيل ادعى للوقار وأنسب

جلست الى حوذيها وورانا صناديق فيها ما يسرٌّ ويعجب

حوَتْ سلعاً من كل نوع يبيعها فتى ما استحلَّ البيع لولا التغرُّب

وراحت كأن البرَّ بحرٌ نجاده وأغواره امواجه وهي مركب

تبين وتخفى في الربا وحيالها فيحسبها الراؤون تطفو وترسب

وتدخل قلب الغاب والصبح مسفر فتحسب ان الليل ليل معقب

تمرُّ على صُمّ الصفا عجلاتها فتسمع قلب الصخر يشكو ويصخب

وترقص فوق الناتئات من الحصى فنوشك من تلك الخلاعة نقلب

وانظر الى تلك الصورة التي رسمها لك خياله في اناة وتدبر فتظل أمامها امداً متأملاً ترى من خلال الوانها ضعف الام مجسماً في قوله :

وربَّت أمةٍ بالحق حُبلى لفرط الضعف أسقطت الجنينا

ومن قصائده البديعة تلك القصيدة التي طالما انتحلها لانفسهم كثير من لصوص الادب وقرأتها كثيراً باسماء شتى وهي قصيدة « خصلة الشعر » وقصائد « مناغاة ليلى » و « يا نجمة الليل » و « وداع العزوبة » و « المدينة في الليل » و « السكرة الخالدة » الى غير ذلك مما تتكون منه تلك الباقة الجميلة التي لا ينقصها الاّ بعض التدقيق في قليل من الالفاظ والتي سها على شاعرنا ان يضع لها فهرساً يهتدي بهِ القارىء الى موضع كل قصيدة اذا اراد الرجوع الى قراءتها

وإنا لنرجو ان تكون تلك النسمات التي تهبُّ الآن على العالم العربي خالدة النفس وان يشرب ابناء هؤلاء الادباء واحفادهم حب لغة الاجداد حتى نظلَّ نسمع تلك الالحان العذبة خالية من العجمة والاخطاء فلا تحرم الاجيال القادمة من ان تنهل من كؤوسها خمراً صافية معصورة من قلوب ابنائها لا من قلوب الماضين ...

حسن كامل الصيرفي

علم الاقتصاد

صدر في دمشق الجزء الاول من كتاب علم الاقتصاد للاستاذ عبد القادر العظم رئيس معهد الحقوق العربي بدمشق ومدرّس علم الاقتصاد فيه . فهو كتاب جامع قسّمهُ واضعهُ الى ثلاثة ابواب

والباب الاول منهُ يبحث في موضوع علم الاقتصاد واقسامه والحاجات والارزاق ثم الانتاج وصلتهُ بالتداول والتوزيع والاستهلاك وهذا الباب في الواقع شرح لاوليات الاقتصاد لاغنى عنه للراغب في دراسة هذا العلم . والباب الثاني يبحث في تعريف علم الاقتصاد والغرض منه وعلاقته بالعلوم الاخرى كعلم النفس والاخلاق والتاريخ والجغرافيا والاحصاء والحقوق . ثم تاريخ العلم نفسه في القرون الاولى والوسطى والقرون الاخيرة ثم يشرح آراء رجاله في القرن الثاني عشر مثل آدم سميث وجون ستيوارت مِل وغيرهم . اما الباب الثالث فيتعلق بالقوانين والمذاهب الاقتصادية فيشرح فيه منشأ المذهبين الحر والاجتماعي ومبادىء كل منهما وانتقادات خصومهما ثم الطوائف الاجتماعية فيبدأ بالشيوعية فالفوضوية ثم الاشتراكية والماركسية والماركسية الجديدة والمذهب الاجتماعي في العهد الحاضر ثم المذاهب المختلطة بين الفردية والاجتماعية باقسامها . وآخر فصول هذا الباب عن البولشفية والفاشستية

وقد بذل الاستاذ واضع الكتاب جهده في اخراجه مختصراً مفيداً وفي رأينا انهُ كتاب مدرسي مفيد لمن يطالبون بدرس هذا العلم . وكل ما نأخذه على الكاتب الفاضل انهُ في تعريبه كان اميل للغة الفرنسية حتى انهُ استعمل الفاظاً بعضها فرنسي مع ان اللغة العربية ولله الحمد تتسع لهذه المباحث العلمية سعة كبيرة وللمرحوم حافظ ابراهيم وخليل مطران تعريب مطول لكتاب بول لروى في علم الاقتصاد استعملت فيه الالفاظ العربية المنتقاة للتعبير عن الكلمات الاجنبية الخاصة بهذا العلم

على انهُ يعجبني ان اشير هنا الى روح التواضع التي املت على المؤلف ان يقول عن نفسهِ انهُ « جامع الكتاب » وهذه حسنة نسجلها لهُ في هذا الوقت الذي انتشر بين الناس غرور شديد في نسبة التأليف الى انفسهم في كتب لا يحق لهم ان يدعوا فيها حق الجمع مع ان المؤلف لم يكن في كتابهِ هذا «جامعاً» كما يقول بل كان صاحب الفضل في وضع مؤلف مختصر مفيد يستحق عليهِ الثناء

جلال حسين

يشتمل هذا الباب في مقتطف مارس المقبل على دراسات ومراجعات في الكتب الآتية : —

المراحل : لميخائيل نعيمه — في الصيف : للدكتور طه حسين — تاريخ مصر السياسي الحديث : لمحمد رفعت — شرح بشارة يوحنا : للقس ابرهيم سعيد — علم استخلاص المعادن — محركات الاحتراق الداخلي — في علم النفس — نباتات فلسطين — كتاب علم الطبيعة : الضوء — وغيرها من الكتب الحديثة

باب الأخبار العلمية

وفيات الاعلام في سنة ١٩٣٢

لِن بويد بنتُن Benton مستنبط الآلة الكاتبة في ١٦ يوليو وعمره ٨٧

ارستيد بريان Briand السياسي الفرنسي في ٧ مارس وعمره ٦٩ سنة

فردينان بويسون Bouisson آخر الاحياء من مؤسسي الجمهورية الفرنسية الثالثة في ١٦ فبراير وعمره ٩١ سنة

الكونت تشرنين Czernin وزير خارجية النمسا في ٤ ابريل وعمره ٦٠ سنة

پول دومر Doumer رئيس الجمهورية الفرنسية . قتل غيلةً في ٧ مايو وعمره ٧٥ سنة

جورج ايستمن Eastman مستنبط آلة التصوير (كوداك) . مات منتحراً في ١٤ مارس وسنهُ ٧١ سنة

الاستاذ فسندن Fessenden عالم طبيعي ومهندس لاسلكي في ٢٢ يوليو وعمره ٦٥ سنة

السر پاترك جدس Gedde بيولوجي انكليزي ١٧ ابريل وعمره ٧٨ سنة

كنغ جيلت Gillette مستنبط الموسى المعروف باسمهِ في ١٠ يوليو وعمره ٧٨ سنة

وليم غرايهم Graham وزير التجارة في وزارة العمال الثانية بانكلترا في ٨ يناير وعمره ٤٤ سنة

لورد انشكايپ Inchcape من كبار رجال المال والاعمال الانكليز في ٢٣ مايو وعمرهُ ٧٩

تسيوشي انيوكاي Inuka رئيس وزارة اليابان . قتل غيلة في ١٥ مايو وعمره ٧٧ سنة

ايڤار كروجر Kreuger ملك الكبريت الاسوجي . مات منتحراً في ١٢ مارس وعمره ٥٢ سنة

السر دونلد مكلين Maclean وزير المعارف البريطانية سابقاً في ١٥ يونيو وعمره ٦٨ سنة

الملك مانويل Manoel ملك البرتوغال سابقاً في ٢ يوليو وعمرهُ ٤٢ سنة

وليم اوستولد Ostwald عالم طبيعي الماني حائز جائزة نوبل الكيمائية سنة ١٩٠٩ في ٤ ابريل وعمره ٧٨ سنة

الفيلد مرشال پلومر Plumer قائد بريطاني ومندوب سامٍ في فلسطين بعد السر هربرت صموئيل في ١٦ يوليو وعمرهُ ٧٥ سنة

السر رونلد رُس Ross بكتريولوجي بريطاني مكتشف دورة طفيلي الملاريا في ١٦ سبتمبر وعمرهُ ٧٥ سنة

لتن ستراتشي Strachey كاتب انكليزي مبتدع الطريقة الجديدة في كتابة السِيَر في ٢١ يناير وعمرهُ ٥١ سنة

أهم الحوادث العلمية في سنة ١٩٣٢

١٥ مايو (تقريباً) : كشف يوري Urey وبركْودْ Brickwedde عن نظير الايدروجين بالتعاون مع علماء جامعة كولومبيا ومكتب الموازين والمقاييس بوشنطن

١٢ يونيو: (تقريباً) كشف الاستاذ شدوك Chadwick بجامعة كمبردج عن النيوترون Neutron وهو الكترون واحد وبروتون واحد محشوكيْن حتى يكاد لا يكون ثمة حيّز بينهما

١٣ اغسطس: استعمل ماركوني امواجاً لاسلكية قصيرة طولها (٥٧ سنتيمتراً) للمخاطبة اللاسلكية بين يختهِ التْرا Elettra ورأس فيغاري بجزيرة سردينية والمسافة بينهما ١٦٧ ميلاً

١٨ اغسطس: حلق الاستاذ اوغسط بيكار ببلونهِ الى علوّ ٥٣٦٧٢ قدماً لدرس الاشعة الكونية وهو اعلى ما بلغهُ انسان

٣١ اغسطس: كسفت الشمس كسوفاً كليًّا وكشف عن نجيمة جديدة

٢٢ سبتمبر : غاص العالم بيب Beebe الاميركي الى ٢٢٠٠ قدم تحت سطح البحر

١٠ ديسمبر : وزعت جوائز نوبل كما يلي جائزة الطب مناصفة بين السر تشارلز سكُتْ شرنغتن الاستاذ بجامعة اكسفرد (انكليزي) والاستاذ ادريان Adrian الاستاذ بجامعة كمبردج (انكليزي) وجائزة الآداب للروائي جون جازورذي (انكليزي) وجائزة الكيمياء للمستر ارفنغ لنغميور (اميركي)

ولم نقرأ ان جائزة الطبيعة وجائزة السلام منحتا لاحدٍ هذه السنة

أهم أنباء الطيران سنة ١٩٣٢

٢١ مايو : طارت المسز اماليا ارهارت پتنم (اميركية) وحدها من هاربر غرايس بجزيرة نيوفنلند الى ارلندة في ١٤ ساعة و٥٦ دقيقة . وهي اول امرأة تجتاز المحيط الاطلنطي وحدها طيراناً

وطار الكابتن موليسُن الانكليزي في اواخر الصيف وحده من انكلترا الى اميركا وهو اول رجل يجتاز المحيط الاطلنطي وحده طيراناً من الشرق الى الغرب

٣ سبتمبر : بلغت سرعة الماجر دولتل الاميركي ٢٩٤٫٩٨ الميل في الساعة بطيارة برية

١٥ : ديسمبر طارت المسز موليسون (ايمي جنصن) وحدها من لندن الى مدينة الكاب في جنوب افريقية وعادت الى لندن في ٧ ايام و٧ ساعات و٥ دقائق

أعياد سنة ١٩٣٣ واحتفالاتها التذكارية

﴿المواليد والوفيات﴾ يحتفل في خلال سنة ١٩٣٣ بانقضاء ٤٠٠ سنة على ولادة (الملكة اليصابات) Elizabeth الانكليزية التي ازدهر في عصرها الادب الانكليزي . وبانقضاء ٤٥٠ سنة على ولادة المصلح (مارتن لوثر) وبانقضاء ٣٠٠ سنة على محاكمة (غليليو) في ديوان التفتيش على أثر قوله بدوران الارض في سنة ١٦١٦ ومنعهِ من المجاهرة بهِ . وبانقضاء ٢٥٠ سنة على ولادة (رومر) Reaumur صاحب مقياس الحرارة المعروف باسمه واول من حاول قياس سرعة النور برصد

خسوف اقمار المشتري . وبانقضاء مائتي سنة على ولادة (جوزف پريستلي) مكتشف الاكسجين. وبانقضاء مائة سنة على ولادة (الفردنوبل) المهندس السويدي مستنبط الديناميت وصاحب الجوائز العالمية في الطبيعة والكيمياء والطب والادب والسلام. وبانقضاء مائة سنة على وفاة (لجاندر) العالم الرياضي الفرنسي ، وبانقضاء خمسين سنة على وفاة (كارل ماركس) صاحب كتاب «رأس المال» انجيل الشيوعيين. وعلى وفاة الموسيقي (وجنر) ووفاة (فتزجرالد) الذي نقل عمر الخيام الى الانكليزية. وبانقضاء ستين سنة على وفاة الفيلسوف (جون ستيوَرت مِل) الذي درس اللغة اليونانية وهو في الثالثة من عمره ومُدَّ في اجله حتى اصبح احد مؤسسي مذهب الاحرار الحديث . وبانقضاء سبعين سنة على وفاة الروائي الانكليزي (ثَكري) والمصور الفرنسي (ده لاكروى)

نفاد الفلزات يهدد العصر الصناعي

القى الاستاذ رُس ايكن غورتنر Gortner استاذ الكيمياء الحيوية بجامعة منسوتا الاميركية خطبة في مجمع تقدم العلوم الاميركي بيَّن فيها ان الحضارة الصناعية مهدَّدة بنفاد المصادر الطبيعية التي تؤخذ منها الفلزات ومواد الوقود . قال ان العلم التطبيقي في المائة السنة الماضية زاد المستهلك من هذه المواد الف ضعف او تزيد وان في مصادر بعضها تبدو علامات النفاد. وعندهُ ان مناجم النحاس والانتيمون والقصدير والرصاص والزنك والكروم والمنغنيس والنيكل والحديد قد تنفد قبل الف سنة ومثلها مناجم الفحم وينابيع البترول. والف سنة تعدل طرفة عين في تاريخ البشر . ونبَّه الى تبديد القصدير في صنع « الاوراق الفضية » التي تلَفّ بها الشوكولاته والحلويات ولفائف التبغ. ويؤخذ من الاحصاء الدقيق الذي اجراهُ ان الحديد سوف ينفد من مناجم المانيا وانكلترا قبل اربعين سنة او خمسين ومن البلدان السكندناوية والولايات المتحدة الاميركية قبل مائة سنة ومن روسيا قبل ١٥٠ سنة ومن كل مناجم الارض قبل ٢٥٠ سنة اذ ظلَّ مايستخرج منهُ قريباً من متوسط المستهلك منهُ الآن . ويظن ان مناجم النحاس والزنك والرصاص والقصدير سوف تنفد قبل نفاد مناجم الحديد وان مناجم الكبريت في الولايات المتحدة الاميركية قد لا تكفي اكثر من ١٥ سنة . وان الطاقة المستخرجة من الماء والخضراوات والكحول وضوء الشمس لا تكفي للقيام مقام طاقة الفحم والنفط. فهل تنظر الحضارات المقبلة الى حضارتنا الصناعية فتحكم عليها بانها لم تكن حضارة ارتقاء وتقدم بل حضارة تبديد للثروة الطبيعية. وهل يدور دولاب الزمان فترتدُّ الحضارة ، بعد نفاد المناجم وينابيع البترول ، الى استخدام الفرس والزورق الخشبي اسباباً للمواصلات ؟

فيتامين A واصابات الاذن

قرّر الدكتور كاود كودي الاستاذ بجامعة تكساس امام الجمعية الطبية الاميركية ان الدلائل تدلُّ على ان فيتامين (A) ذو فائدة في منع التهابات الاذن المتوسطة ومعالجتها

فقد ثبت للدكتور كودي ان اضافة زيت كبد القد (زيت السمك) الى غذاء الاطفال في السنوات الماضية صحبهُ نقص ظاهر في اصابات الاذن المتوسطة بخرّاجات . وهو لا يستطيع ان يحصر سبب هذه القلة في استعمال زيت السمك وانما الادلة تكفي للاشارة بدوام استعمالهِ . اما في معالجة التهاب الاذن الوسطى فيجب اولاً نزح الخرّاج ثم تدبير غذاء يحتوي على مقادير كبيرة من فيتامين A . وان هذا الغذاء قصّر مدة خروج الصديد من الاذن وقلّل المضاعفات في عظم الاذن الوسطى واسرع عودة السمع

اشعاع الشمس ونمو النباتات

ثبت للمستر ترثنغام Tothingham احد اساتذة جامعة وسكنسن ان اشعة الشمس التي لا ترى كالاشعة التي فوق البنفسجي والاشعة التي تحت الاحمر تزيد نمو النباتات فانهُ زرع نبات الطماطم ضمن زجاج لا تخترقهُ الاَّ الاشعة التي فوق البنفسجي والاشعة التي تحت الاحمر فاثبت التحليل الكيمائي ان زيادة الليبيدات Lipides في اوراقهِ اكثر من زيادتها في اوراق الطماطم الذي يحيط بهِ زجاج عادي . ثم ان النبات الاول لما زرع في الحديقة فاق الثاني في تبكير ثمارهِ وكبر حجمها . ولا يعلم هل ذلك اثر من آثار الاشعة التي فوق البنفسجي او الاشعة التي تحت الاحمر او كلتيهما ولذلك ينتظر الاستاذ ترثنغام ان يدرس اثر كلٍّ من الاشعة على حدة

غنائم الاسكندر

كتب المستر لوتز Lutz احد اساتذة جامعة كلفورنيا رسالة قدر فيها الاسلاب والغنائم التي فاز بها الاسكندر ذو القرنين في معاركه ففي معركة إسوس ٣٣١ ق.م فاز بما قيمتهُ مليون جنيه وفي معركة برسبو ليس بثمانية وعشرين مليون جنيه وفي معركة اكبتانا باثنين واربعين مليوناً من الجنيهات

اصناف الفحم

حلّل علماء مصلحة المعادن الاميركية ١١٥ الفاً من اصناف الفحم من مناجم مختلفة لكي يعينوا مقدار ما يولده كلٌّ منها من الحرارة والرماد

تأييد وجود « النيوترون »

اعاد الدكتور راستّي Rasetti الاستاذ بمعهد القيصر غليوم الكيمائي ببرلين التجارب التي اجريت في انكلترا والمانيا وفرنسا حديثاً واستنتج منها وجود « النيوترون » وهو ذرة من المادة وزنها واحد وكهربائيتها معادلة (راجع المقالة الاولى في مقتطف مايو ١٩٣٢) فاسفرت تجاربهُ عن تأييد وجود النيوترون

فيتامين (A) وحصوات الكلى

لاحظت طائفة من المشتغلين بالبحث في اثر الفيتامين في الجسم الحي ان هناك علاقة بين نقص A فيتامين من الجسم وتكوُّن حصوات الكلى فقد ذكر الدكتوران الفهيَّم Elvehjem ونو Neu من اساتذة جامعة وسكنصن الاميركية انهُ اذا منع فيتامين A عن الطيور حدث في كلاها تطوُّر جليٌّ ضارٌّ . وكان الدكتور روبرت مكريسن McCarrison الانكليزي قد لاحظ ان الاصابة بحصوات الكلى داء واسع الانتشار في الشرق الاقصى فغذى طائفة من الحيوانات بالاغذية الشائعة في الهند فتكونت حصوات في كلى خمس الطيور التي جربت بها التجربة المذكورة فلما اضيف فيتامين A الى الغذاء لم تتكون في كلاها حصوات ما

ذكاء الجرذان والانتخاب الصناعي

تمكن الدكتور ترين أحد اساتذة جامعة كلفورنيا من توليد سلالة ذكية من الجرذان واخرى بليدة مستعملاً طريقة الانتخاب الصناعي . وقد ثبت لهُ في اثناء تجاربهِ ان توريث العوامل الطبيعية كاللون والجنس والوزن وخصب التناسل لاعلاقة لهُ البتة بتوريث الذكاء

سبب نوع من السرطان

يصاب العمال الذين ينظفون مداخن البيوت والمعامل والمشتغلون بصناعات قطران الفحم الحجري بنوع من السرطان سببهُ ما يحدثهُ قطران الفحم الحجري من الحكة والالتهاب . وقد ثبت ان الفئران التي تمسح جلودها بقطران الفحم الحجري تصاب بهِ كذلك . فعمد العلماء الى البحث عن المادة التي في قطران الفحم المسببة لهذا الداء ففاز الدكتور كوك واثنان من مساعديهِ في مستشفى السرطان التابع لمعهد البحث في لندن بعزل هذه المادة فاذا هي مركَّبة من الايدروجين والكربون تدعى بنزيبرين benzpyrene . وقد ركَّبوا هذه المادة تركيباً كيمائيًّا في المعمل فاذا لها نفس الاثر الذي للمادة المستخلصة من قطران الفحم في احداث السرطان في الفئران

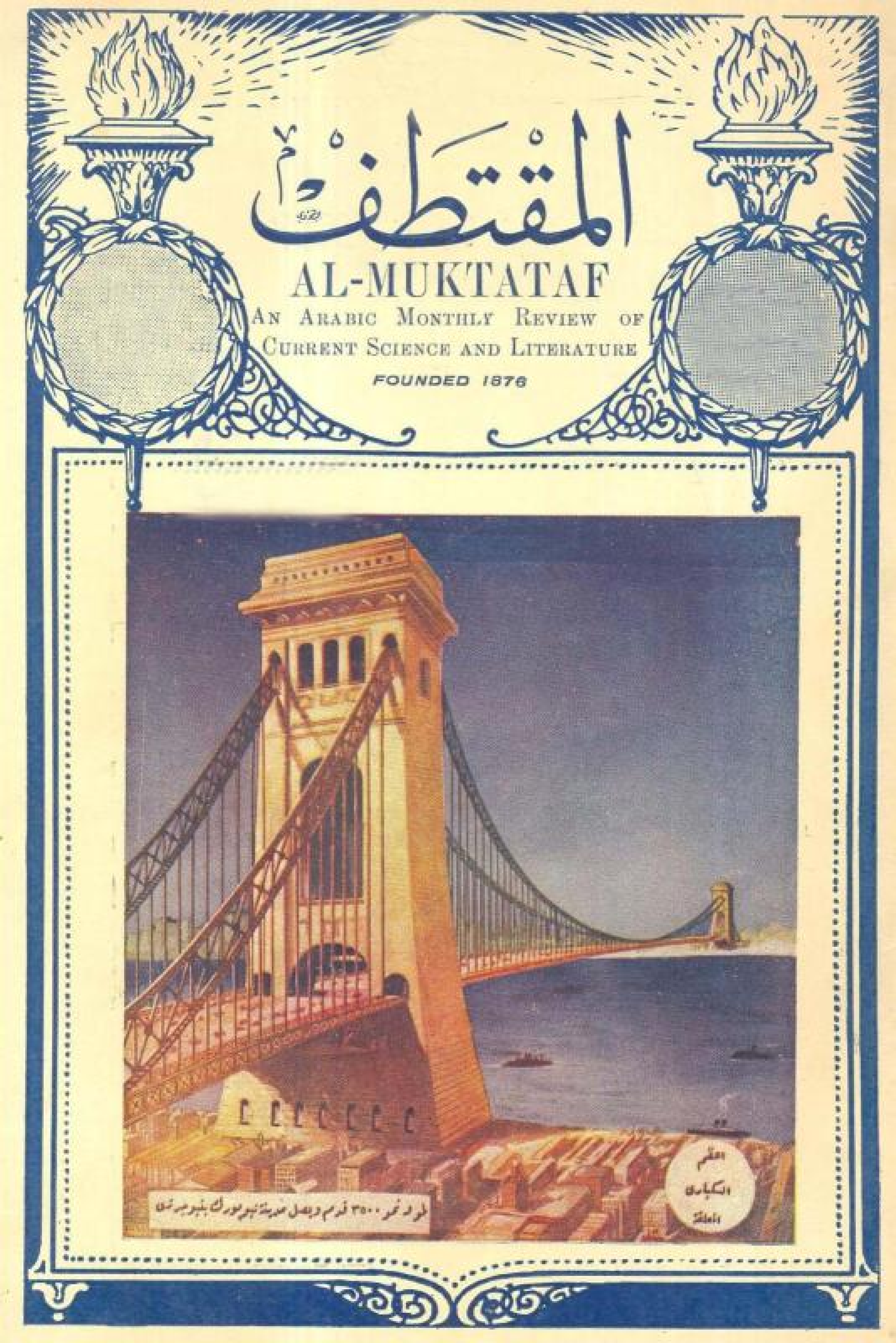
ادنى درجات الحرارة

عند الدرجة ٢٧٣ تحت الصفر بميزان سنتغراد تبطل الحرارة وتعرف هذه الدرجة بدرجة الصفر المطلق . وقد كان همُّ العلماء ولا يزال الوصول إلى هذه الدرجة بتسييل الغازات وتجميدها تحت ضغط شديد . وعلماء هولندا اشهر علماء الارض في هذا الميدان . فالاستاذ اونس Onnes تمكن من بلوغ درجة ٢٧٢ر١٨ تحت الصفر بميزان سنتغراد وذلك في جامعة ليدن . وقد قرأنا الآن أن الاستاذ كيسُم احد علماء الجامعة نفسها تمكن من بلوغ درجة ٢٧٢ر٣ تحت الصفر بميزان سنتغراد

تجزئة قطرة زيت

تمكن احد العلماء في معمل البحث العلمي في الشركة الكهربائية العامة بالولايات المتحدة الاميركية من تجزئة قطرة من زيت النفط لا تزيد على رأس عود ثقاب الى مائة مليون قطيرة ثم اشعلت هذه القطيرات فتولد لهيب شديد الحرارة وينتظر ان تستعمل هذه الطريقة في توليد درجات عالية من الحرارة في أتاتين المصانع

الجزء الثاني من المجلد الثاني والثمانين


المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876
طوله نحو ٣٥٠٠ قدم ويصل مدينة نيويورك بنيوجرسي

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثالث من المجلد الثاني والثمانين

١ مارس سنة ١٩٣٣ — ٥ ذي القعدة سنة ١٣٥١

الازمة الاقتصادية العالمية [١]

واشتباك المصالح الدولية

مقدمة

بلغت بلدان العالم في سنتي ١٩٢٨ و١٩٢٩ اعلى مستوًى بلغتهُ من النشاط الاقتصادي. فزاد الانتاج الصناعي والزراعي وارتفع مستوى المعيشة . ولكن مع ذلك ظلَّ جانبٌ لا بأس بهِ من قوى الانتاج معتقلاً . ففي مختلف البلدان ملايين من العمال العاطلين وكثير من المعامل التي وقف فيها دولاب العمل ومخترعات كثيرة لم تطبق في المصانع. فلم يكن ثمة ما يمنع ان يدوم الرواج ويتسع نطاقهُ ويقلُّ العمال العاطلون ويرتفع مستوى المعيشة . وكان الشعور السائد في كل الدوائر الصناعية والاقتصادية شعورَ تفاؤلٍ وثقةٍ بالمستقبل ، اذ ظنَّ الناس انهم واقفون عند حدٍّ فاصلٍ بين عهدين — عهدٍ سادت فيهِ المشكلات الاقتصادية الناشئة عن الحرب الكبرى وعهد جديد وقفوا على عتبتهِ وهو عصر رخاء شامل ويسر عام

ولكن الحالة انقلبت ايَّ منقلبٍ في خلال سنة ١٩٢٩ و١٩٣٠ . فالانهيار المالي الذي وقع في وول ستريت بمدينة نيويورك في خريف سنة ١٩٢٩ كان الانذار الاول بانقضاء عهد اليسر القصير . ومن الولايات المتحدة الاميركية امتدَّت الازمة من بلاد الى بلاد ، وهي تزداد استحكاماً كلما اتسع نطاقها . واذا شبهنا هذه الازمة بموجةٍ طاغية ، فالارجح اننا ما زلنا في حضيضها او ما بعيد الحضيض . بل اننا قد تعودناها الآن ، فزال أثر الصدمة التي

(١) من محاضرة القاها رئيس تحرير هذه المجلة في جمعية الشبان المسلمين في القاهرة

شعرنا بها في بدء الازمة لما رأينا كل آمالنا القائمة على الثقة باليسر العام والرواج الشامل ، قد اصبحت موطىء القدم . ولكننا وقد انقضت ثلاث سنوات على تلك الصدمة الاولى نستطيع الآن ، ان نقف من المسألة كلها موقفاً يمكننا من تبين اسبابها والبواعث عليها

***

كلنا نعلم ان الازمة عالمية . ولكن الصعوبة كلّ الصعوبة ان يجري اولو الحلّ والربط على ان علاجها يجب ان يكون عالميًّا . لان الامور التي اضطرب حبلها ، امور لا تستطيع بلاد ان تصلح شأنها من دون ان تتعاون مع الامم الاخرى . انظروا في مظاهرها الاساسية . من المتعذر ان تجدوا مظهراً واحداً من المظاهر التي يمكن حصرها في بلاد دون اخرى . فهبوط اسعار العروض عالمي . ومشكلتا العيار الذهبي وسقوط اسعار الفضة . لا تختصّان بانكلترا والهند دون غيرها . ثم هنالك مسائل التعويضات وديون الحرب ، ان اكبر الامم مقاماً في العالم اليوم مشتبكة في شؤونها المعقّدة . ثم هنالك من وراء كل هذا النظامُ المالي الدقيق الاحساس الذي يربط بلدان العالم ربطاً محكماً ، وينزل منها منزل الجهاز العصبي في الجسم الانساني . ثم ان رفع الجمارك على الواردات لحصرها ، وترقية الصناعات في الشرق الاقصى لمزاحمة الصناعات الاوربية في تلك البلاد ، والديون التي للبلدان الصناعية الغنية في البلدان الاخرى — كل هذه المسائل وجوهٌ من المشكلة الاساسية ، وكلها دوليٌّ في معناهُ واثرهِ وهي مرتبطة بالمعاهدات الدولية التي بموجبها ختمت حروب وعيّنت حدود وقسمت بلدان . بل هي مرتبطة ارتباطاً واسعاً بآثار الحرب الكبرى ومخلّفاتها ، بالشيوعية في روسيا ، وزيادة الريب في صلاح النظام الدمقراطي ونشوء الدكتاتوريّات في ايطاليا واسبانيا وغيرها ، ونموّ الشعور القومي في شعوب الشرق ، وزوال الثقة من النفوس ، لان الناس يحسّون انهم دائماً مهدّدون بالحرب

ثم ان اقتصارنا على مجرَّد ذكر الحوادث الكبرى في الازمة العالمية ، كافٍ لبيان صفتها الدولية . انها تفتتح باقبال عام في السوق المالية بالولايات المتحدة الاميركية يتبعهُ هبوط ذريع فيمتدُّ هذا الهبوط الى البلدان الزراعية الكبيرة في شمال اميركا وجنوبها . ثم يتصل هذا الذعر بالمانيا واوربا المتوسطة اذ يستردُّ المثمرّ الاميركي مالهُ منها فينتهي الى افلاس بنك الانستالت في النمسا وبنك الدانات في المانيا . ثم تحدث ازمة ثقة في النفوس ، فتضطرُّ انكلترا وطائفة من البلدان التي تجري مجراها ان تخرج عن قاعدة الذهب في معاملاتها ، بعد ما تضطرُّ اميركا الى اعلان مورانوريوم في الديون الدولية ، وتعمد انكلترا من جهة اخرى الى التخلّي عن سياستها التقليدية سياسة حرية التجارة ، وحينئذٍ لا تتورَّع امة من الامم عن تقييد حركة البضائع وحركة المال باي قيدٍ تراهُ ، فكانت النتيجة هذا الشلل البادي في كل نواحي العمل ، وهذا البؤس الباسط رواقهُ فوق كل البلدان

الازمة في اميركا

كان الرخاء في اميركا في خلال سنتي ١٩٢٨ و١٩٢٩ رخاء مزيفاً . فارتفاع الاسعار كان محصوراً في أثمان الاسهم والسندات والاراضي والمباني . ولكن اجور العمال لم تصب نصيباً من هذا الارتفاع ولا زاد عدد العمال ولا اتسع نطاق مطالب المستهلكين . لم يُعِر الاميركيون ادنى التفات هذه الهوة بين ارتفاع اسعار الاسهم والاطيان والمباني في جهة وبقاء حالة العمال ومطالب المستهلكين على حالها من جهة اخرى . وظلوا حتى اليوم الذي وقع فيه الانهيار العظيم في شارع المال متفائلين واثقين من دوام الاقبال واتساع نطاقه . كان كل اصحاب الصناعات تقريباً يجنون ارباحاً كبيرة ، لذلك كثر المال المطروح في السوق المالية للتثمير في هذه الصناعات . ولذلك عمد اصحاب هذه الصناعات الى هدم المباني القديمة وتشييد المباني الجديدة وتوسيع نطاقها . وعمدت الشركات الى بناء المباني الضخمة للايجار بيوتاً ومكاتب ، ولما كان الناس كلهم يتوقعون دوام الاقبال واتساعه ، اصبحت الاراضي التي تصلح للاستغلال تنتقل من يد الى يد انتقالاً سريعاً يبعث على الدهشة وباسعار متدرجة صعوداً ، اذا ذكرت الآن نكاد لا نصدقها . وعلى ذلك حلقت اسعار الاسهم الصناعية تحليقاً لا يتسق والارباح التي تجنى منها . فاصحاب الاموال كانوا يثمرون اموالهم مقامرين على المستقبل لثقتهم بما سوف يسفر عنه الغد . اما المضاربون المحترفون المضاربة ، فاغتنموا الفرصة السانحة . فرصة اقبال الجمهور على الشراء من غير تدبر ، فصاروا يرفعون الاسعار ويجنون الارباح . وهكذا انهال المال من جميع طبقات الاميركيين ، بل ومن غير الاميركيين كذلك ، للتثمير في الاسهم والسندات الاميركية ، رغبة في جني الارباح العظيمة . واتسع نطاق الكريديه (فتح الاعتمادات) لثقة اصحاب البنوك بالربح ولكنهم عجزوا عن صد اصحابها (اموال الكريديه) عن المضاربة بها

وفي ذلك الاثناء بدأ تيار الذهب يتجه الى اميركا من جميع البلدان

ففي خلال خمس سنوات من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٢٩ ، ارتفع متوسط سعر الاسهم الصناعية في اميركا نحو ٢٠٠ في المائة مع ان الارتفاع في سعر الاسهم الصناعية في انكلترا لم يزد اكثر من ٢٥ في المائة في خلال المدة نفسها

هذا التضخم في اسعار الاسهم لم يكن له ما يؤيده من اعمال الشركات — صاحبات الاسهم — وارباحها . ولكنها كانت مضاربة ، لا بدَّ ان تسفر عاجلاً او آجلاً ، عن خسارة طائفة من طوائف الناس الذين انساقوا في دُرْدُورها . والمضارب الذي دخل المعركة لجني الربح ، كان يستطيع ، ما زال التضخم في الاسعار قائماً ان يغامر ويربح ويصفي اعماله ويخرج بالربح الذي حققه . ولكن كان محتوماً ان يجيء يوم يصحو فيه الناس من غفلتهم فيتحققون ان اسعار الاسهم تفوق قيمتها الحقيقية . واذا جاء ذلك اليوم ، لا بدَّ ان يكون ثمة اناس يملكون الاسهم وقد

ابتاعوها باسعار عالية املاً في ارتفاع الاسعار، فاذاهي في ايديهم تتدحرج ومعها كل مايملكون. ومع ذلك ظلّت سنة ١٩٢٩ سنةَ ارتفاع متواصل في اسعار الاسهم ، وطغى الجنون على صوت العقل فلم يصغِ اليهِ احد. فمضت البنوك تمنح زبائنها الاعتمادات الواسعة بضمانة أسهم قدّرت اسعارها باسعار السوق الجارية — وهي اسعار مزيّفة كما بينّا . ومضى المضاربون يضاربون بدلاً من ان يصفّوا اعمالهم ويخرجوا بالارباح التي جنوها . وعلى ذلك مضت الاسعار في تحليقها رغماً عن دلائل الانهيار التي كانت ظاهرة لو كان ثمة من لهُ عينان للبصر فيبصر

ذلك ان اميركا بلاد زراعية كبيرة كما هي بلاد صناعية كبيرة . والاقبال الذي كان بادياً في الصناعات المختلفة وحركة السوق المالية ، لم يرَ لهُ اي اثر في حياة الفلاح .فنفقات المعيشة في اميركا لم تكن في سنة ١٩٢٩ اقلّ مما كانت في سنة ١٩٢٧ مع ان نفقات المعيشة في غير اميركا من البلدان الصناعية كانت آخذة في النزول تدريجاً . ومع ذلك فان اسعار الحاصلات الزراعية الاميركية كانت آخذة في النزول وفقاً لاسعار السوق العالمية . فنشأت من ذلك هوّة بين ما يربحهُ الفلاح وبين ما يتحتم عليهِ انفاقهُ ليعيش، وافضى ذلك الى حركة ، هي من قبيل الهجرة ، الهجرة من الريف الى المدن والمراكز الصناعية . هجرة الشاب الفلاّح من المزرعة التي لا تقوم باودهِ الى المراكز الصناعية حيث يظهر النشاط وتبدو دلائل الاقبال . فكثر بذلك عدد العاطلين من العمال ، لان ارباب الصناعة ، رغماً عن الاقبال في الاعمال الصناعية كانوا قد عمدوا الى كل الاسباب الحديثة -- كالاستغناء بالآلات عن العمال ، والاندماج— لتوفير النفقات ، فبدت في الحياة الاقتصادية الاميركية ظاهرة من اغرب الظاهرات وهي ان زيادة العاطلين من العمال صحبت اعظم نشاطٍ صناعي شُهد في اميركا

يضاف الى ذلك ان العمال الذين ظلّوا يعملون في المصانع لم يجنوا ايّ ربح من هذا الرخاء المزيّف ، لان الارباح كانت من نصيب المقامرين والمضاربين الذين عندهم مالٌ للتثمير . ويؤخذ من الاحصاءات الدقيقة ان اجور الفلاح لم تكن في سنة ١٩٢٩ اكثر مما كانت في سنة ١٩٢٦ وهذا الاختلاف افضى الى اضطراب في حياة اميركا الاقتصادية . ذلك ان استغلال مصادر الثروة الطبيعية والصناعية لا يمكن ان يزداد ، الاّ اذا اتسع نطاق الطلب اتساعاً يتفق مع زيادة العروض . وكان الاميركيون قد اخترعوا طريقة البيع بالتقسيط ، فكثر الطلب في البدء ، كثرة ظاهرة اكثر منها حقيقية ، فظنَّ اصحاب المصانع ان الطلب على عروضهم قد زاد حقيقة وانهُ سيمضي في هذه الزيادة

ولكن ... ولكن الشعب الاميركيّ بوجهٍ عام ، فضّل كما ذكرنا ، ان ينفق معظم مالهِ في المضاربة بدلاً من ان ينفق جانباً وافياً منهُ على حاجات المستهلكين ليمكنهم من شراء العروض التي يقدمونها لهُ. فلما مضى زمن كافٍ على هذا التضارب ، افضى التضارب الى الانهيار

الازمة في اوربا

اما وقد بيَّنا نشأة الازمة في اميركا فلنحاول ان نتتبع آثارها في اوربا .

لما اخذت اسعار الاسهم الصناعيــة في اميركا في الارتفاع ، امسك الاميركيون اموالهم الفائضة عن تثميرها في اوربا . بل اخذ تيَّار المال الاوربي يتجهُ الى اميركا لتثميرهِ فيهـا ، لجني الارباح العظيمة التي تجنى من ابتياع الاسهم المذكورة . ولكن الاوربيين كانوا مدينين لاميركا بمبالغ كبيرة من المال استدانوا بعضها في اثناء الحرب ، وبعضها بعد الحرب فافضى ذلك الى رفع سعر القطع في البنوك الاوربية ، وتضييق نطاق الكرديه على التجار . اي ان النقود زادت قيمتها ، فهبطت اسعار العروض وكان من نتيجة ذلك زيادة العمَّال العاطلين . ثم ان الذهب الذي كان قد ارسـل من اميركا قبل ذلك لتثميره في اوربا وغيرها من البلدان بدأ يتسرب من جديد عائداً الى اميركا فاصبحت بذلك اوربا المتوسطة ومقدار الذهب في خزائنها قليل لا يكفي لتغطية اوراق النقد والاعتمادات الكثيرة . وادهى من ذلك انهُ رغم سقوط ثمن العروض في اوربا ارتفعت نفقات الانتاج لقلة المقادير التي تصنع ، ولارتفاع الفائدة على المال هذا بوجهٍ عام . فلنلق الآن نظرة على المانيا

كانت المانيا بعد اعادة تنظيم ماليتها — على أثر سقوطها ذلك السقوط القريع — ووضع برنامج يونغ لتسوية مال التعويض ، قد عنيت باقامة صناعتها على اساس آلي حديث ، وهذا اقتضى انفاق رؤوس اموال طائلة . ولما كانت المانيا قد خسرت معظم رأس المال الذي تملكهُ في دور التضخم النقديّ ، لم يكن في استطاعتها أن تنفق على بناء صناعتها بناءً جديداً وعلى تسديد اموال التعويض لمدينيها ، الاَّ بقروض تعقدها في الخارج . وفي خـلال اربع سنوات بين ١٩٢٤ و١٩٢٨ اقترضت المانيا في الخارج — ومعظم ما اقترضتهُ كان من اميركا — مبالغ كبيرة تفوق المال الذي دفعتهُ تسديداً للمطلوب منها من مال التعويض . فقد بلغ ما اقترضتهُ المانيا في خلال هـذه المدة نحو ٧٥٠ مليون جنيه ذهب . وهو ضعف ما دفعتهُ من مال التعويض في خلال المدة نفسـها . ويقدَّر ما اقترضتهُ من اميركا بنحو ٤٠٠ مليون جنيه ذهب . ولولا هذه القروض لما استطاعت المانيا أن تسدّد ما عليها من مال التعويض ولا أن ترم صناعاتها وتبنيها بناءً جديداً

كان هذا قبل سنة ١٩٢٩ . فلما بلغت حركة الاقبال في الاسواق المالية الاميركية اعلى ذراها في سنة ١٩٢٩ امسك الاميركيون ايديهم عن اقراض المانيا ، فواجهت المانيا الخراب الاقتصادي ، الاَّ اذا امكنها ان تجد مصدراً آخر تستدين منهُ المال . وكان معظم المال الذي اقترضهُ الالمان من الاميركيين ديوناً طويلة الآجال انفق اكثرهُ في بناء الصناعات وغيرها من المرافق العامة . فلما امسك الاميركيون ايديهم تعذَّر على الالمان ان يعقدوا قروضاً طويلة الآجال ،

فاضطروا ان يعقدوا قروضاً قصيرة الآجال بواسطة البنوك الالمانية . فأقبل اصحاب البنوك في انكلترا وهولندا وسويسرا وغيرها على تقديم هذه القروض القصيرة الآجال للالمان بفائدة عالية، ليمكنوهم من اجتناب الانهيار الذي كان يهددهم

على ان الالمان اضطروا كذلك الى اتخاذ ما يلزم اتخاذه من الوسائل لكي يقللوا وارداتهم تخفيفاً لديونهم التجارية — وزيادة صادراتهم ليسددوا بالفرق بين الصادرات والواردات جانباً من هذه الديون — فأفضى كل ذلك الى زيادة العاطلين في المانيا وخفض مستوى المعيشة. ولكن الضربة القاتلة كانت ان حياة المانيا الاقتصادية في تلك الفترة كانت متوقفة على اموال اقترضت لآجال قصيرة ، وهي عرضة لعدم التجديد ، مع انهم كانوا يستعملونها في اغراض لا تؤتي ربحاً الاً بعد زمن طويل

فلما انقضت فترة الرخاء في اميركا وانهارت الاسعار ، اصبحت الحال في المانيا على شفا الجرف . فأحجم الاميركيون عن ادانة المال في الخارج لشدة الصدمة التي اصيبوا بها، ولعدم ثقتهم في تطور الحالة في الغد . زد على ذلك ، ان طائفة من البنوك الاميركية نفسها كانت في موقف حرج جداً ، لانها كانت قد ادانت عملاءها اموالاً بضمانة اسهم ذات اسعار متضخمة. وهذه البنوك كانت ميالة الى استرجاع ما لها من الاموال في الخارج في اول فرصة ممكنة

هذا الموقف الذي وقفتهُ اميركا بعد الانهيار المالي ، أثَّر في المانيا مباشرة لانها اصبحت لا تستطيع ان تعقد قروضاً في اميركا بل لا تستطيع ان تحتفظ بكل ما كانت استدانتهُ منها من قبل . وأثر كذلك في المانيا اثراً غير مباشر . ذلك ان الاميركيين لما شرعوا يستردون اموالهم شرعوا يستردونها من كل البلدان على السواء ، فأصبحت هذه البلدان لا تستطيع ان تعقد لالمانيا قروضاً ما ، لتتخطى بها الازمة

كذلك نرى ان الحالة الاقتصادية في المانيا، كانت تزداد حرجاً في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ رغم ما اتخذته الحكومة من الوسائل الشديدة لانقاص الواردات وزيادة الصادرات على حساب خفض مستوى المعيشة . ولكي يزيد الصانع الالماني صادراته خفض اسعاره تخفيضاً كبيراً — فأغضب هذا الدول المزاحمة لالمانيا — ثم حاول ان يسترد ما يخسره في هذا التخفيض، بزيادة اسعاره في كل ما يبيعهُ في المانيا نفسها ، فارتفعت بذلك نفقات المعيشة في المانيا وهبط مستواها . وكان الالمان قد اعادوا بناء صناعاتهم لاعتقادهم بأن السوق العالمية آخذة في الاتساع ، والربح لا يجنى في الصناعات الجديدة التي تقتضي نفقات طائلة ، الاَّ اذا كان مقدار ما تصنعه من البضائع كبيراً ، فلما وقعت الواقعة في السوق المالية الاميركية ، انكمشت السوق العالمية ، وأصبحت الصناعات الالمانية المنظمة ابدع تنظيم ، لا تدرُّ من الربح الاَّ اليسير ، اذا درَّت ربحاً على الاطلاق

فلما زادت البطالة في المانيا زيادة كبيرة في بدء سنة ۱۹۳۱ للاسباب التي تقدم ذكرها ، زادت نفقات الحكومة الالمانية على العمال العاطلين قياماً بأودهم الضروري ، ففقدت الميزانية توازنها ، وبدأت الاموال تتسرب من المانيا ، فهددت بالافلاس . ولولا موراتوريوم هوفر ، الذي اتفق بموجبه على وقف دفع التعويضات وديون الحرب سنة كاملة ، ولولا الاتفاق الذي تلاه ، وبموجبه اتفق اصحاب البنوك على امهال المانيا ستة اشهر تتجدد ، في دفع ديونها التجارية القصيرة الآجال لافلست المانيا وانهار نظامها الاقتصادي

ولكن موراتوريوم هوفر ، والاتفاق الخاص بالديون التجارية كانا وسيلتين مؤقتتين لعلاج الحالة ، مع ان الاسباب التي افضت الى هذه الحالة الحرجة كانت تمتد الى اصول عميقة في النظام الاقتصادي الذي تلا الحرب العامة ، ولا يمكن ان تزال بعلاج مؤقت على الاطلاق . اضف الى ذلك ان القلق ظل يخامر النفوس ، لأن احداً لم يكن يدري ما تستقر عليه الحال بعد انقضاء أمد هذين الاتفاقين . ثم ان موراتوريوم هوفر ضاع جانب من اثره بالعراقيل التي وضعت في طريقه . وعلى ذلك ظلت الحالة في المانيا حرجة كل الحرج ، فاتخذت الحكومة اشد ما يمكن اتخاذه من الوسائل للاحتفاظ بموازنة الميزانية ، فأقلق كل هذا نفوس الشعوب الالمانية ، ونشأ عن هذا القلق امتداد نفوذ الحركتين الشيوعية والهتلرية في المانيا

الازمة في بريطانيا

في خلال المدة التي وقفت فيها المانيا على شفا الافلاس ولم تنج منه الا باعلان موراتوريوم هوفر والاتفاق الخاص بالديون القصيرة الآجال ، امتدت الازمة الى انكلترا واخذتها بالخناق

وكان النظام الاقتصادي الانكليزي معرضاً للخطر ، لان لندن كانت ذات مقام ممتاز في عالم المعاملات المالية . كانت بنوك انكلترا قد ادانت الاموال في كل انحاء الارض ، وكانت المانيا في مقدمة البلدان التي استدانت من انكلترا ، رغم ما بدا في افق الحياة الاقتصادية الالمانية من نذر الانهيار . ولكن الماليين البريطانيين لم يسلفوا هذه المبالغ الطائلة من مالهم الخاص ، لان تقلص التجارة البريطانية ونقص الارباح التي يجنيها المتمولون البريطانيون من اموالهم المثمرة في اربعة اقطار المعمورة ، تركاهم من دون اموال كافية يدينونها لالمانيا وغيرهم . لذلك عمد بنك انكلترا الى جذب الاموال الى انكلترا ، برفع سعر القطع ، فكان معظم المال الذي ورد على لندن بهذه الطريق ودائع قصيرة الآجال ، ومن هذه الودائع اخذت بنوك انكلترا تسلف المانيا . ولكن هذه الودائع القصيرة الآجال ، كانت عرضة للاسترداد ، بعد انذار قصير الاجل وهنا موطن الخطر

ذلك انهُ لما اخذت الازمة العالمية تستفحل ، ترددت اصداء استفحالها في سوق لندن المالية . ففي الناحية الواحدة كان متعذراً على البريطانيين ان يستردوا ديونهم القصيرة الآجال

من المانيا ، كما أنهُ كان يصعب عليهم أن يستردُّوا ديونهم القصيرة الآجال من استراليا وجمهوريات اميركا الجنوبية ، لضيق نطاق التجارة وهبوط أسعار العروض . وفي الناحية الأخرى هرع الذين كانوا قد أودعوا أموالهم في لندن ودائع قصيرة الآجال الى استردادها وفقاً لحاجتهم اليها . كذلك سحب الاميركيون جانباً كبيراً من ودائعهم في لندن ، على أثر الانهيار المالي في بلادهم ، واقتفى أثرهم الفرنسيون ، فانهم شرعوا يستردُّون أموالاً كانوا قد أودعوها في لندن قبل تثبيت سعر الفرنك

صُدم الانكليز بهذا السحب المتوالي ، لانهم لم يستطيعوا أن يقابلوهُ بسحب أموالهم في البلدان الأخرى ، لسد الثغرة في مقام لندن المالي . وما لبثت الحال أن خلقت في أذهان المفكرين في كل انحاء العالم شكوكاً في سلامة النظام المالي البريطاني ، وريباً في امكان بريطانيا البقاء على قاعدة الذهب التي عادت اليها سنة ١٩٢٥

ازاء هذه الحالة الباعثة على القلق عيَّن البرلمان لجنة ماي فاخرجت تقريرها وعزت فيهِ العجز في الميزانية البريطانية ، الى هبوط دخل الحكومة لهبوط دخل الشعب البريطاني ، والى زيادة الانفاق على العمال العاطلين، وكلاهما من آثار الازمة العالمية . والظاهر أن الغرض من هذا التقرير كان حمل حكومة العمال الثانية — وكانت في دست الحكم حينئذٍ — على اتخاذ التدبيرات اللازمة للاقتصاد . فرأى فيهِ المراقبون لبريطانيا من الخارج ما يبعث على القلق ، فنجم عن ذلك التمادي في سحب المال من لندن

فلما واجه بنك انكلترا ، هذه الحالة المفاجئة . أدرك مديروهُ أنهُ اذا مضى أصحاب الودائع في سحب ودائعهم من انكلترا ، لم يكفِ كل ما في خزائنهِ من الذهب لذلك، فعمد الى عقد قروض في بنك فرنسا وبنك الفدرال رزرف في نيويورك . فاستدان في يوليو سنة ١٩٣١ خمسين مليوناً من الجنيهات — تدفع ذهباً — ولكن لم يلبث أن أنفق هذا المبلغ العظيم في بضعة أسابيع . هنا أنبأ القائمون على ادارة بنك انكلترا حكومة العمال بموقف البنك الحرج وقالوا لها أمامنا طريقان ، اما الخروج عن قاعدة الذهب أو المضيّ في الاستدانة ، لتسديد ما يطلب سحبهُ من المال من لندن . وان الاستدانة لا تتمّ الاَّ اذا ضمنت الحكومة البريطانية المبالغ التي يستدينها البنك

ونحن نرى الآن أن الحال كانت تقتضي — من وجهة النظر البريطانية — أن تخرج انكلترا عن قاعدة الذهب لما بدأ أصحاب الودائع يسحبون ودائعهم لتصدّ سحب الأموال من لندن، عما يتعرَّض لهُ الساحبون من الخسارة ، وهي الفرق بين الذهب وبين ما ينخفض اليهِ سعر الجنيه الاسترليني . ولكن وزير المالية في حكومة العمَّال ، المستر سنودن — وهو الآن الفيكونت سنودن — كان من المتمسكين بقاعدة الذهب ، تمسكاً يكاد يكون أعمى . وبما

لهُ من النفوذ ، قرّرت حكومة العمال ، بعد ما اطلعت على حالة بنك انكلترا ، أن تمضي في استدانة الاموال في باريس ولندن ، وكانت محاولة يائس

ولكن أصحاب البنوك في فرنسا ونيويورك صرّحوا للحكومة البريطانية ، أنهُ رغماً عن ضمانها للاموال التي تستدان ، لا يسلّمون بتقديم المبالغ المطلوبة الاّ اذا اتخذت الحكومة ما يلزم لموازنة الميزانية ، وعينوا في شرطهم نقص المال الذي تنفقهُ الحكومة على العاطلين من العمال. وقد أنكر بعضهم بعد ذلك أن هذا الشرط كان من الشروط التي ذكرت . ولكن الواضح على ما يقولهُ المستر كول في كتابهِ[1] ... ان الشرط صحيح ، لأن المستر مكدونلد أقرّ بذلك في الاجابة عن سؤال طرح عليهِ في مجلس النواب البريطاني .

ومحاولة وضع هذا الشرط على الحكومة ، كان سبباً لانقسام حكومة العمال ، لأن معظم أعضائها رفضوا أن يعمد الى توفير المال من هذه الناحية ، لموازنة الميزانية ، مع أنهم كانوا مستعدين لمحاولة موازنتها بطرق أخرى . والغريب ، أن حكومة العمال لم تنظر قط ، في المسلك الآخر الذي كان يمكنها أن تسلكهُ وهو الخروج عن قاعدة الذهب ولعلّ ذلك عائد الى مكانة المستر سنودن وآرائهِ من نفوس زملائهِ

فلما وجد المستر مكدونلد أنهُ على خلاف مع معظم زملائهِ في الوزارة ، قرّر أن يتخلص منهم فقدّم استقالة الحكومة الى الملك جورج ، فطلب اليهِ الملك أن يؤلف وزارة ائتلاف أو وزارة قومية فاشترك فيها المحافظون وبعض الاحرار ومشايعو المستر مكدونلد من العمال

أما الوزارة القومية فلم تعمد في الحال الى الخروج عن قاعدة الذهب ، بل بدأت تفاوض البنوك في باريس ونيويورك لاقتراض مبلغ ٨٠ مليوناً من الجنيهات ، تدفع ذهباً عند الاستحقاق

ولكن تتابع الحوادث كان قد ألقى الذعر في النفوس ، فزاد المسحوب من الودائع المالية في لندن ، وصحب ذلك أن بعض الانكليز نفسهم بدأوا يخرجون من بلادهم جانباً من أموالهم الخاصة . ولذلك ما كادت الحكومة القومية ، تتسلم زمام الأمور ، حتى وجدت نفسها مرغمة على الخروج عن قاعدة الذهب وهي خطوة كان يجب أن تتخذ — من وجهة النظر الانكليزية — قبل ذلك ببضعة شهور

وكان لخروج بريطانيا عن قاعدة الذهب ، أثر كبير في جميع بلدان العالم . ذلك أن بلداناً كثيرة تبعتها وخرجت عن قاعدة الذهب فلم يبق في العالم في آخر سنة ١٩٣١ الاّ الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا وبلجيكا والمانيا وايطاليا وهولانده وسويسرا جارية عليها . وكان من أثر خروج هذه البلدان عن قاعدة الذهب ، أن رخصت أسعار صادراتها في البلدان التي ما زالت محتفظة بها . فكتابٌ يطبع في انكلترا وثمنهُ أربع شلنات كان يباع في أميركا

(١) An Intelligent Man's Guide to World Chaos وقد كان جل معتمدنا عليه في اعداد هذا الفصل

قبل خروج انكلترا عن قاعدة الذهب بما يقابل الاربع شلنات وهو ريال . أما بعد خروجها فصار ثمن الكتاب في اميركا بالريالات أقلّ مما كان . أضف الى ذلك أن البلدان التي خرجت عن قاعدة الذهب أصبحت تفضل أن تشتري من البلدان المماثلة لها ، لان الشراء من البلدان المحتفظة بقاعدة الذهب ، أغلى بنسبة سقوط الجنيه الاسترليني عن الجنيه الذهب . فكتاب ثمنهُ في انكلترا ٤ شلنات ندفع ثمنهُ هنا ٢٠ قرشاً صاغاً مثلاً . ولكن كتاباً ثمنهُ في اميركا ريال ، وهو معادل اسماً لاربعة شلنات ، لا نستطيع أن نبتاعهُ الآن باقل من ثلاثين غرشاً

وكانت نتيجة ذلك أن زادت الازمة استحكاماً في اميركا ، لتعذر مزاحمتها للبلدان الخارجة عن قاعدة الذهب في ميدان تجارة الصادرات

وكانت انكلترا تؤمل أن تفوز بمركز ممتاز في تجارة الصادرات بعد خروجها عن قاعدة الذهب وفعلاً انتعشت هذه التجارة بعض الانتعاش ولكن لما كثر خروج البلدان التجارية مثلها عنه لم يبلغ الانتعاش المبلغ الذي كان منتظراً لهُ

وكان من إثر خروج انكلترا عن قاعدة الذهب ، ان الحالة في المانيا ازدادت حرجاً . ذلك ان المانيا كانت مقيدة بدفع مال التعويض ومال الديون التجارية ، ذهباً ، فلذلك كان لا بدَّ لها من بقائها على قاعدة الذهب . ولكن هذا البقاء قيَّد تجارة صادراتها بقيود ثقيلة . ومع ذلك فليس لالمانيا طريقة لتسديد ديونها الاّ بالفرق بين صادراتها ووارداتها. ولكنها لم تستطع ان تفعل ذلك ، الاّ برمي بضائعها في اسواق العالم الضعيفة بأسعار رخيصة ، ولتعويض هذا الرخص رُفعت الاسعار في السوق الالمانية ، فزادت نفقات المعيشة زيادة فاحشة ، واقتصد الناس جهدهم ، فقلَّ ما تنتجهُ المصانع ، ونتج عن ذلك زيادة العمال العاطلين

وما حدث في المانيا ، حدث في اوستراليا والارجنتين والبرازيل وبلاد شيلي ، مع ان هذه البلدان لم يكن عليها اموال تعويض تدفعها . ولكنها كانت مدينة بمبالغ كبيرة من المال فوائد على ديون وأرباحاً على اسهم . ولما كانت هذه البلدان تعتمد على اصدار المواد الخام والمواد الغذائية ، ولما كانت اسعار هذه المواد قد هبطت هبوطاً اكثر من هبوط اسعار البضائع المصنوعة ، وجدت هذه البلدان ان ديونها قد زادت زيادة فاحشة لما حاولت ان تسددها بالحاصلات التي تصدرها . ولكي تسدّد ديونها ، عمدت الى تحديد وارداتها باقامة الحواجز الجركية ، وبعضها عمد الى منع استيراد اصناف معيّنة من البضائع ، او منع خروج المال من بلادها كما فعلت البرازيل . وهكذا اقيمت في وجه التجارة بين البلدان المختلفة حواجز منيعة ، زادت الازمة تفاقماً واستحكاماً

يضاف الى كل هذه الويلات ويل سقوط ثمن الفضة ، فنزلت مقدرة الصين الشرائية الى النصف . ثم ان الحرب الاهلية في الصين والمقاطعة في الصين والهند لبضائع البلدان الصناعية

كانت عاملاً آخر في انقاص مقدرة العالم على الشراء ؛ ومن اكبر البلدان التي اصيبت بهذا العامل الاخير بريطانيا واليابان

ديون الحرب ومال التعويض

كان المتوقع ان نجد في خلال هذه المدة التي امتدت فيها الازمة فوق كل بلدان العالم وبسطت فوقهُ رواق العطل عن العمل والفقر والجوع، ان نجد سعياً جدياً حكيماً لحل مشكلتي الديون والتعويضات حلاً معقولاً . فمن البلدان الخمسة التي لها في هاتين المشكلتين اكبر نصيب — اي انكلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا والولايات المتحدة — رأينا ان المانيا اشرفت على الافلاس لم تنج منهُ الاّ بعلاج مؤقت ، وباتخاذ اشد الوسائل للاحتفاظ بموازنة ميزانيتها ، وانها دائماً تحت رحمة دائنيها ، فلم يكن في وسعها ان تخطو خطوة ما نحو الحل المنشود . والواقع انهُ لم يكن في وسع المانيا الاّ انكار كل ديونها والتزاماتها الخارجية ، ولكن هذا العمل من شأنهِ ان يفضي الى ازمة عالمية فينهار النظام الاقتصادي الالماني وقد يصحبهُ في الراجح ثورة في المانيا

اما بريطانيا ، التي صرحت انها موافقة على الغاء الديون والتعويضات بجرة قلم واحدة ، فلم تستطع ان تجازف بذلك من جديد ، فراراً من غضب فرنسا واجتناباً لازمة مالية جديدة

اما فرنسا فظلت في مطلع الازمة غير متأثرة بها ، والواقع انها لم تشعر بفعلها الاّ في بدء سنة ١٩٣٢ ، ولذلك رأيناها معرضة عن اجابة مطالب الالمان ، بل انها لم تقبل تخفيض التعويضات ، الاّ اذا رضيت الولايات المتحدة الاميركية ان تتنازل عما لها من ديون الحرب

على ان الازمة في اميركا كانت لا تزال آخذة بخناق الامة ، فكان الرأي العام الاميركي غير راضٍ عن اية محاولة الغرض منها الغاء ديون الحكومات الاوربية او نقصها . ومع ان الحكومة الفدرالية في وشنطن كانت واقفة على حرج الموقف العالمي لم تجرؤ على القيام باي عمل من هذه الناحية خوفاً من الفشل الذريع في انتخابات الرآسة التي تمت في ٨ نوفمبر الماضي

فلما اعلن موراتوريوم هوفر وعقد الاتفاق الخاص بديون المانيا التجارية القصيرة الآجال تنفس الناس الصعداء قليلاً لاجتناب الانهيار الاقتصادي الذي بدت نذرهُ في الافق . ولكن الحكومات القائمة لم تغتنم هذه الفرصة للسعي الى حل مشكلة التعويضات الالمانية حلاً موفقاً مع انهُ كان يتعذر ان تجد حينئذٍ من يعتقد ان في امكان المانيا ان تستأنف دفع مال التعويض بعد انقضاء موراتوريوم هوفر في سنة ١٩٣٢ ، وانهُ اذا لم تستأنف المانيا دفع مال التعويض فالراجح ان تعجز دول الحلفاء عن تسديد اقساط دينها المستحقة للولايات المتحدة الاميركية

ومع رسوخ هذا الاقتناع العام ، ظلت المسألة معلقة ، يؤجل النظر فيها شهراً بعد شهر ، حتى طلبت المانيا في آخر سنة ١٩٣١ ، بموجب مشروع يونغ ، الى الحلفاء ان يعيدوا النظر في

قدرتها على الدفع فعينت لجنة من خبراء الحلفاء للبحث في الموضوع ، فأيدت اللجنة دعوى المانيا بأنها عاجزة عن الدفع الا بعد اعادة النظر في المشكلة بحذافيرها . وعلى اثر هذا التقرير جدد الاتفاق الخاص بالديون التجارية القصيرة الآجال ، وهو اتفاق بين البنوك . ولكن حكومات الحلفاء عجزت عن الوصول الى اتفاق في الموضوع . وعلى ذلك تأجل مؤتمر لوزان الذي ، دعي لمعالجة المسألة

***

وكان موقف الانكليز اولاً الدعوة الى الغاء عام يتناول التعويضات والديون. ولكن الفرنسيين — ونصيبهم من التعويضات اكبر من الاقساط التي عليهم ان يسددوها لانكلترا واميركا — لم يسلموا بطلب الانكليز . واشتد الضغط الداخلي على الحكومة الالمانية فاعلن فون بابن باسمها انها لن تستطيع ان تستأنف دفع التعويضات في سنة ١٩٣٢ ولا في اي وقت بعدها

وكان الاميركيون من عهد الرئيس ولسن ، يثبتون ويؤكدون ان لا علاقة بين مال التعويض وديون الحرب . ولكن موراتوريوم هوفر جعل هذه العلاقة موجودة وجوداً عملياً وان انكرها الاميركيون من الناحية النظرية. ثم ان الرئيس هوفر اشار في حديثهِ مع رئيس وزراء فرنسا — المسيو لافال — الى انهُ اذا اتفقت دول اوربا على حل مشكلة التعويضات، فعندئذٍ يتخذ الكنغرس الاميركي ما يجب للاشتراك في حل مشكلة التعويضات والديون في سبيل عودة الرخاء الاقتصادي . ففهم ذلك في اوربا على انهُ اذا حلت مشكلة التعويضات كانت اميركا مستعدة لنقص المطلوب لها من ديون الحرب ، وعلى ذلك اجتمع مؤتمر لوزان في اوائل الصيف الماضي (يونيو) ووصل بعد اخذ وردّ طويلين الى الغاء التعويضات وجعل المطلوب من المانيا مبلغاً معيّناً قدره ٢٠٠ مليون جنيه ولكنهُ جعل ابرام هذا الاتفاق متعلقاً بنتيجة المفاوضات مع اميركا في مسألة ديون الحرب. فالمسألة في آخر ١٩٣٢ كانت كما يلي:

ليس ثمة اي امل في ان تستأنف المانيا دفع مال التعويض اذا لم يبرم اتفاق لوزان

وليس ثمة امل ، في ان تلغي اميركا المطلوب لها من الديون بجرة قلم واحدة[1]

وليس ثمة امل في ان تلغي الدول الاوربية التعويضات في حين ان ديونها لاميركا لا تزال هي هي . وقد رأينا كيف امتنعت فرنسا في دسمبر الماضي وسقطت وزارة هريو

ولعلّ المؤتمر الاقتصادي العالمي المنتظر عقده قريباً يعالج هذه المسائل الخطيرة

(١) بعد كتابة هذه المقالة وردت الانباء من اميركا تفيد ان المستر روزفلت الرئيس المنتخب طلب الى المستر ستمسون وزير خارجية الرئيس هوفر ان يدعو حكومة بريطانيا الى ايفاد مندوبين للمباحثة معه في مسألة الدين البريطاني الاميركي بعيد تقلده زمام الرآسة في ٤ مارس سنة ١٩٣٣

من خلال نظارته تضارب العواطف الشخصية في المجتمع . ولكنهُ لا يرى تصادم الانظمة المجرّدة . فانت اذ تقرأ كتبهُ تحسُّ انهُ قد يميل الى تحليل نفسية كارل ماركس ، ولكنك لا تستطيع ان تقنعهُ بدرس المذهب الماركسي

كان زهرة من ازهار المذهب الحرّ الذي تدين بهِ الطبقة المتوسطة الانكليزية . كان مستعداً لبذل مايستطيع بذلهُ لاصلاح نظام السجون . متحفزاً للاحتجاج على الالعاب الرياضية الدموية وما يتخللها من قسوة ووحشية . ولم يرضَ في حياتهِ ان يرمي الخاطىء بحجر لانهُ كان يفهم مأساة الخطيئة ووقعها الاليم في النفس . وقدكان في مؤلفاتهِ قادراً على حمل قرائهِ على الشعور بما يشعر بهِ في هذه الاحوال ، ولكنهُ كان عاجزاً عن حملهم على التفكير في علل تصرفهم وآثارهِ ، لانهُ كان لا ينظر الى الناس هذه النظرة ، فقد كانت حياته سلسلة من اللمحات ، دوّن اكثرها بما عرف عنهُ من حس فنيّ مرهف

وفي كتابتهِ شعرٌ اكثرهُ الى الغنائي دون الفلسفي . وكان يفضل ان يرسم حالة نفسية طارئة على ان يعلن مبدءاً فلسفياً او عقيدة راسخة . وهذا اجلى ما يكون في رواياتهِ التمثيلية . فمعظم هذه الروايات يدور على موقف خاص ينطوي على اصطدام بين شخصٍ وتقليد اجتماعي معيّن . فانت ترى في رواية غالزورذي قسوة هذا الاصطدام وآثارهُ الأليمة وتحسّ ان هذا الاصطدام يجب الاّ يكون . ولكنك قلّما تجد لذلك علاجاً ، في كتابة المؤلف او في خلال سطورهِ

والفضيلة في رأيهِ هي احترام شعور الغير . وكأنهُ يقول هاتوا لنا من هذه الفضائل فبها يخلص العالم . لاريب اننا في حاجة الى هذه الفضائل . ولاشك في اننا لا نبالغ مهما تمادى في ترديد هذه الدعوة . ولكننا نشك في اننا نستطيع ان نعيد بناء الاجتماع البناء الامثل بتربية آداب السلوك التي يمتاز بها الاوستقراطيون الانكليز . ولعلَّ المستر غالزورذي كان اشدَّ الكتاب المعاصرين نفوراً من آلام الحرب ومقتاً لويلاتها . ولكنهُ في الراجح لم يرَ ببصيرتهِ ما تنطوي عليهِ من جنونٍ مطبق . وكان شديد الثورة على مساوىء الحياة في النظام الاقتصادي القائم على الرأسمالية . ولكن ذلك لم يحملهُ قط على البحث في وجوب الابقاء على هذا النظام او محقهِ . فقدكان دقيق الحس بنتائج الانظمة والافعال ولكن كانت تعوزهُ مقدرة البحث في اسبابها

فنبل الخلق ودقة الشعور ورقة الطبع كانت صفاتهُ البارزة في حياتهِ وكتاباتهِ . فقد كان كريماً في حق كل انسان . وثمة كثير من الجمعيات التي ترمي الى تحقيق اغراض اجتماعية وانسانية شريفة — كحفظ الريف من تدنيس الصناعة وانماء الشعور الدولي بين رجال القلم من بلدان مختلفة واصلاح نظام السجون وحظر التأديب بالفلق — كل هذه الجمعيات الانسانية

اشترك فيها غازوردزي وايّدها بمقامهِ ومالهِ ونفوذهِ وهو قد فعل ذلك لان كل هذه المعاني لها مكانة خاصة في نفسهِ . على انهُ قلّما وفِق اذ حاول ان يعالج الحركات الاجتماعية القائمة على اساس عقلي . ففي روايتهِ التمثيلية التي عنوانها «كوميديا حديثة» يرسم صورة للاضراب العام الذي وقع في انكلترا سنة ١٩٢٦ انما لا يرى في هذا الاضراب الا انفعال اشخاص الرواية بهِ وكيف هبُّوا الى العمل مكان المضربين. فالاضراب العام في نظرهم حدث اجتماعي يهدّد سلامتهم الاقتصادية وكأن المستر غازوردزي نفسهُ لا ينظر الى الاضراب العام نظرة اوسع من نظرة اشخاصه . بيد انهُ اذا كانت العلاقة التي يراد رسمها علاقة شخصية فدقة شعورهِ بها لن تخيب

وقد كان غازوردزي في حياتهِ اليومية ما تتبينهُ منهُ في كتبهِ . كان يلاقي الحياة بسكينة ومشكلاتها بفهم وعطف . كان رجلاً كريماً يهمهُ ان يفعل ما يراه حقاً وصلاحاً وان يجتنب ما يؤلم الغير ، شديد الاحترام لشعور الناس ، يبدو عليه شيء من الترفّع . وكانت الحياة لا تستثيرهُ كما تستثير المستر ولز . ولا كان مندفعاً بشهوة عنيفة الى تعرف اصولها واركانها كالمستر برنارد شو. لم ينزل الى ميدان الطبقات الفقيرة فلم ينفذ الى دخيلة نفوسها بل كان ينظر الى العالم من مرتفع منزوٍ عن الناس ، فلا يندفع للاختلاط بتيارها كالمستر ولز « ولا يقيم حمّامهُ على قارعة الطريق كالمستر شو »

ولد في كومب سنة ١٨٦٧ وتلقى علومه في جامعة اكسفورد ثم درس الحقوق وانتظم في سلك المحاماة ولكنهُ مال الى الكتابة والتأليف فظهرت روايتهُ الاولى «جوسلين» سنة ١٨٩٨ فلما اصدر روايتهُ الثالثة «مالك العقار» سنة ١٩٠٦ استرعى انتباه النقاد. وكانت هذه الرواية الاولى من سلسلة تعرف بـ «فورسيث ساغا» وصف فيها حالة الطبقة الوسطى ولاسيما العالية منها في عهد الملكة فكتوريا والملك ادورد ومطلع عهد الملك جورج الخامس . فلما دكّت الحرب العظمى معالم المجتمع القديم وقف غازوردزي حائراً ، ثم انشأ ثلاث روايات حاول ان يصف فيها المجتمع الانكليزي الذي تلا الحرب الكبرى على ما فعل في « فورسيث ساغا » في المجتمع السابق لها . فاصدر « القرد الابيض » و« الملعقة الفضية » و« نشيد الاوزة » ولكنك تتبين في خلالها ان غازوردزي كان مأخوذاً بتغير المشاهد ، فلم يعد فيها وصف التحوّل وصفاً خالياً من تأمله الصادق في اصول الحياة البشرية . وله قصص قصيرة[1] ورسائل في موضوعات انسانية عامة وروايات تمثيلية نحا فيها نحواً جديداً في جعل الحوار بين اشخاص الرواية طبيعياً خالياً من كل المحسنات البلاغية . فتحتاج هذه الروايات الى ان يمثلها ممثلون مجيدون لكي تبدو حسناتها فاذا اكتفى القارىء بقراءتها وجدها خالية من الرواء والبلاغة التي يعثر عليها في كل صفحة من برنارد شو

(١) سوف ننشر ترجمة احداها في العدد التالي وتطلب كل مؤلفاته من المكتبة المصرية الانكليزية بشارع قصر النيل بمصر

ملتوية . فقد تنطوي عقيدة الخلقة على شيء كثير من الحقيقة ولو ان الصورة التي رسمها ملتون قد لا يأخذها العالم الطبيعي بنظر الاعتبار ولكن ما زالت فكرة الخلقة تعبر عن عقيدة دينية كهذه فليس للعلم ان يقول كلمته فيها لان العلم لا شأن لهُ بالتفسيرات الدينية وانما هو يبحث فقط في الاوصاف التي تقع تحت الحسّ والمشاهدة

ولكن اذا استمرَّ الذين يعتقدون ان في كلام انجيل يوحنا (في البدء كانت الكلمة والكلمة كانت عند الله . . . الخ) حقيقة بانة لا تقبل النقض والتبديل ، اجل اذا قالوا « ان الكائنات الحية انبثقت من الارض على الشكل الذي تراه الآن» اجاب العالم الطبيعي مؤكدا « ان هذا لا ينطبق في شيء على الحقائق التي اوضحتها لنا سجلات الصخور (المتحجرات) » او اذا قال المتدين «انا مقتنع بان الكائنات الحية نشأت بطريقة خاصة لا تقبل التحليل العلمي » اجبناه : «لقد اسرعت في الحكم ياهذا ، فان السبيل الذي سلكته الكائنات العضوية آخذ في الوضوح شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم . وليس للانسان ان يتحلل من واجبه في البحث العلمي»

﴿ تتابع الخلقة ﴾ في مبدأ نشوب الجدال بين فكرتي التطور والخلقة قامت فئة لم تستطع تفهم دقائق النظرية الدارونية ، واعلنت فكرة جديدة دعيت نظرية « تتابع الخلقات» (Successive Creations) القائلة بان كل عصر جيولوجي كان مسرحاً لخلقة خاصة فيظن ان البرمائيات الاولى خلقت في العصر الرملي الاحمر القديم (Old Red Sandstone Period) والزحافات الاولى في العصر البرمي (Permian) والطيور الاولى في العصر اليورامي (Jurassic) وهكذا . على انه اذا لم يكن في الجائز ان نسلم بنشوء الاصل بطريقة الخلقة التي لا تأتلف والمقتضيات العلمية فكيف يجوز لنا قبول فكرة توزع خلقة الكائنات الحية خلال العصور المتتابعة ؟ وفضلاً عن ذلك ان تدرُّج الانواع في الرقي هو اكثر انطباقاً على الحقائق العلمية ، بينما « الخلقة »هي فكرة دينية لا تلتئم والاساليب العلمية . اما مزج الفكرتين فمشوّش للعقل . وعند ما يدعي المؤمن بالخلقة ان قوة الآله الحي تتجلى وراء جميع الاشياء يكون بعيداً عن نطاق العلم وخارجاً عن اسلوبه النقدي، ولكنهُ عند ما يتقدم الى البحث المادي وينكر او يجيز فكرة معينة يكون كالمتطفل المتعدي حدود اختصاصه

﴿ عالما « الفرد رسل ولس ﴾ كان العالم الطبيعي « الفرد رسل ولس Alfred Russell Wallace (١٨٢٢ — ١٩١٣) » اكبر شخصية ظهرت بين اصحاب التطوّر ، فقد شارك داروين في فضل ابداء فكرة الانتخاب الطبيعي واشتهر بالسياحات الواسعة النطاق التي قام بها تحقيقاً لبعض الآراء العلمية عن الحياة الحيوانية ، وكان من المتوفرين على درس التوزع الجغرافي ، ومن المشتغلين بالمشكلات البيولوجية العامة ، اضف الى ذلك فكره الوقاد ونبوغه الذي جعله في مصاف المصلحين الاجتماعيين والعلماء الطبيعيين . وكان ولس ، على شيء كثير من

دماثة الاخلاق وسمو المكارم ، فانهُ لم يكتف بالاعتراف بسبق داروين لهُ في نشر فكرة الانتخاب الطبيعي التي اشتركا في درسها فحسب ، بل الّف كتاباً في هذا الموضوع سماهُ « الداروينية » او المذهب الداروني Darwinism

﴿ الفكرة الروحية في التطور ﴾ لقد كان « الفرد ولس » تطوريًّا بالمعنى الصحيح ، وكانت جميع مباحثهِ في ارتقاء الانسان والكائنات الحية الاخرى مطبوعة بطابع التطور . وهو الذي وقف بجانب داروين في معركة التطور ومهّد لنا معرفة العوامل في نشوء المخلوقات الحية . ولكنهُ عند ما فكَّر في نشوء الكائنات العضوية من الكائنات اللاعضوية ، وفي نشوء الكائنات ذات الشعور والوجدان وابرز الصفات الانسانية الاخرى ، استنتج ان خطوات الارتقاء هذه مدينة الى تأثير عالم غير منظور هو « عالم الروح الذي لا يدانيه عالم المادة في شيء »

سلّم « ولس » بجميع العوامل التطبيقية في نشوء الانواع بعضها من بعض ولكنهُ قال بوجود قوة خفية تعمل وراءها ولا سيما في نشوء الانسان والكائنات الشاعرة الاخرى اذ قال في كتابه « عالم الحياة » الذي نشره عام ١٩١٠ « ان التعقيد الكائن في الاجسام الحية يستلزم وجود قوة خالقة وعقل مدبر وغاية خلقت لاجلها الاحياء »

﴿ هل كان « ولس » مصيباً ﴾ ان فكرة ولس تظهر معقولة جدًّا عند كثيرين فكل ما ذهب اليه هو : ان نظرية التطور لا تكون تامة ما لم تدلنا على العوامل التي تعاونت على احداث عملية النشوء العظيمة . على ان العالم التطوري لا يستطيع ان يوضح العوامل التي ادت الى نشوء العضويات الحية والكائنات الشاعرة ، فان تلك كانت خطوات واسعة فهل نستطيع تعليلها ؟ يجيب العالم التطوري بصراحة ان العلم لا يستطيع في الوقت الحاضر ان يلقي ضوءًا كافياً على هذه الخطوات الكبيرة ، لذلك كان امام « ولس » ان يفترض وجود قوة روحية كان لها اثر في إحداث عملية التطور الطبيعية . وهكذا أُدخل « ولس » عاملاً جديداً يساعد المادة والحياة على مقاومة ما يعترضهما من الصعاب »

﴿ لماذا لا نستطيع قبول الفكرة الروحية ﴾ ان قبول نظرية « ولس » على علاتها يفضي بنا الى مشاكل ومصاعب خطيرة وذلك (١) لانها تسرعت في الحكم بقصور العلم عن تفسير خطوات التطور الكبيرة كظهور العضويات والاحياء الشاعرة والكائنات البشرية و (٢) لان نظرية ولس تقتضي حتماً القول بان الخليقة الاصلية لم تكن تامة : وكان من الضروري لها ان تستعين بقوة خفية خاصة لتكوين العالم المتطور و (٣) لانها تستدعي الايمان بوجود الكائنات منذ الازل (٤) واخيراً ان ولس انحرف قليلاً عن الفكرة العلمية الصحيحة بوضعه امام العوامل التي يمكن التحقق منها علميًّا — وهي المادة والطاقة والبروتوبلازم والعقل — عوامل روحية لا تأتلف والعلم الوضعي . ولكن رغماً عن كل ذلك ، فقد كان ولس يصرُّ على ضرورة التسلسل

والاستمرار في التطورات الطبيعية التي تسيطر على جميع الكائنات

﴿ الصورة التي رسمها « تشارلز كنغزلي » ﴾ من السخف ان نظن ان مجرد لفظ كلمة «تطور» يوصلنا الى فهم نشوء أصل الكائنات الحية اذ لا يستطيع احدنا ان يعكس تتابع المشاهد الكونية ليرى كيف ظهرت الطيور الاولى من صلب زحافات « الدينوسور» Dinosaurs المنقرضة ، فاننا رغم عجزنا عن اثبات هذه التحولات اثباتاً جازماً ، لا نستطيع الا ان نسلم بصحتها كما نسلم بصحة الحوادث التي جرت قبل التاريخ . فاننا عند ما نقول: «ان الطيور نشأت من الزحافات » لا نعني بذلك اننا علمنا كيف حصل ذلك النشوء ، وليس ذلك بغريب ، فاننا لا نستطيع مثلاً ان نوضح كيف نشأت الدجاجة الفضية من الدجاجة الوحشية قاطنة الهند في مدة قصيرة . فكيف نستطيع تعليل الخطوات الكبيرة كنشوء الطيور الاولى. على اننا في جميع هذه الحالات يجب ان نتذرع بالصبر ونمضي في سبر غور العوامل التي عملت ولا تزال تعمل في احداث التغيرات التطورية . فعوضاً عن ان نقول « ان نشوء الطيور او الانسان امر عجيب ينطوي على قوة روحية لا يستطيع العلم معرفة كنه حقيقتها » يجب ان نقول « ان هذه المشكلة تستدعي التفكير والاحاطة بها احاطة تامة تبعدنا عن التسرع في الحكم فيها » اذن ففكرة « ولس » تظهر كمن يحاول ان يمنح العمليات الطبيعية هبات روحية

وفي كتاب « تشارلز كنغزلي » الخالد المسمى «اطفال الماء » وردت عبارة جميلة لا بأس من درجها هنا . يقول المؤلف : عند ما اتى الطفل اخيراً الى احضان امه الطبيعة ، مؤملاً ان يجدها منصرفة الى اعمالها الكثيرة ، رآها ساكنة مكتوفة الايدي، فاستغرب حالتها هذه . عندئذ اجابته بحكمة قائلاً « انظر يا بني ! انني اجعل الموجودات ان تكوّن نفسها بنفسها » . ومن هنا نستطيع ان نقف على ما ذهب اليه « كنغزلي » في هذه الصورة الخيالية لتفسير اعمال التطور

﴿ بين لابلاس ونابليون ﴾ كانت النظرية السديمية للرياضي الفرنسي لابلاس Laplace مقدمة للنظرية الحديثة في تولد نظامنا الشمسي . فقد اظهر لابلاس عام ١٧٩٦ ان الادلة متوافرة على ان الشمس والسيارات ترجع الى اصل واحد مؤلف من كرة غازية مشتعلة تدور حول مركزها وتدعى بالسديم، وهذا هو الراي الشائع الذي اذاعهُ الفيلسوف « كانت » Kant عام ١٧٥٥ . والرأي العام متفق في الوقت الحاضر على الاصل السديمي لنظامنا الشمسي وغيره من الانظمة الكونية المشابهة . على ان الذي يهمنا الآن هو ليس النظرية السديمية ، بل مقابلة لابلاس لنابوليون . وملخص الحكاية ان الامبراطور سأل العالم الفلكي عن الغرفة او المكان الذي يسكنهُ الله في «ميكانيكيته السماوية» فاجابهُ لابلاس ان لا قيمة لمثل هذا الفرض ، الا ان هذا الجواب اسيء فهمهُ كثيراً ، وذلك لاننا اولاً لا نستطيع ان نتصور ان لابلاس لم يكن رزيناً في موقف لا تجوز فيه الثرثرة وبوجه خاص امام شخص كنابوليون ، وثانياً يمكننا ان نتأكد ان لابلاس لم يحاول ان يظهر بمظهر الملحد، وكل ما قصدهُ العالم هو انهُ لا يمكن ان نتكلم عن الله

وعن الجاذبية في وقت واحد . فاذا سلمنا بنشوء النظام الشمسي من الاصل السديمي بصورة طبيعية ، عندئذٍ لا يبقى شأن لفرض شيء آخر غير ذلك . وكان يرمي لابلاس من هذا القول الى ان فكرة الآلة الجليلة القدر هي غريبة في نطاق الكون بالنسبة للعالم الفلكي، وان المشكلات الصعبة في العلم لا يمكن انارتها باي ضوء ديني

ومع ذلك اذا اعتبر الفلكي بصفتهِ فلكيًّا ان نظام النجوم مستقل وقائم بذاتهِ، لا يكون قد طعن بالله بل بالعكس دلّل على حكمتهِ وقدرتهِ في تحويل الاجرام السماوية ذلك النظام البديع المحكم . اذن فليس ثمة من تناقض في قبول الفلكي النظرية السديمية من جهة وفي مشاركتهِ المتدين في تمجيد الله من جهة اخرى . والمهم في الامر ان لابلاس اراد ان يقول ، انهُ ليس من حرج على العالم التطوري الحديث الذي يرفض مزج الافكار اللاهوتية بالافكار المقتبسة من الاختبار والتجربة في ان يكون متديناً ومتحمساً لدينه كالاستاذ «لويد مورغن» Prof. Lloyd Morgan

﴿العلم والفلسفة﴾ يدور البحث العلمي على المشاهدات الدقيقة التي تتكرر مراراً ، وعلى التبصر والتفكير للوصول الى النتائج المنطقية المترتبة على المشاهدات فهو لا يعنى بالفلسفات الاخرى التي لا تقوم على اساس محسوس قابل للقياس ، والفرق بينه وبين الفلسفة هو ان نظرة العلم الى الاشياء تبدأ من التجارب المادية بينما نظرة الفلسفة عامة شاملة . ويمكننا ان نقول ان الفلسفة هي التفكير الاستنتاجي لمجموع المبادىء التي تقررها تجاربنا واختباراتنا ومن واجب الفلسفة الحديثة ان تعنى بكل النتائج التي تصل اليها التحقيقات العلمية واذن فيجب ان تتقبل كل طريقة تفسيرية وافية كالنتائج العلمية لنظرية التطور او الوراثة ، وعلى هذا يبدأ عمل الفلسفة في الواقع حين تقف التجارب والملاحظات العلمية

﴿ما هي الحقيقة﴾ اذا قلنا ان العلم ينقل الينا ما هو مضبوط ومدقق ويؤدي بنا الى اكتشاف الحقيقة نكون قد اقتربنا من الهدف الاصلي . ويمكننا ان نشبه البحث العلمي بالصيد بشبكة نظمت عيونها بحيث لا تستبقي الأ صفوفاً معينة من الحقائق ، وللعلم اساليب في البحث خاصة فهو لا يكون تامًّا ما لم يحافظ على السير ضمن نطاقها ، ومع ذلك اذا ما ذهب الفسيولوجي يبحث في حياة الحيوانات في غابة ما ثم عاد ينبئنا بعدم عثوره على أثر من العقل في بحثهِ ، عندئذ يجدر بنا ان نتذكر ان العقل لا يمكن اكتشافه بالوسائل الفسيولوجية . فالعقل هو نوع من السمك الذي لا تستطيع شبكة الفسيولوجي القبض عليهِ

﴿هل هناك تأثير متبادل بين العلم والدين ؟﴾ ان الموقف الذي وقفناه والذي لا نزال ندافع عنهُ هو انهُ اذا كان كل من العلم والدين مخلصاً لغايته الخاصة فلا يترتب على ذلك وجود اي تناقض بينهما في نظرهما الى الاسس الجوهرية ، لان العلم يحاول ان يصف ما حدث وما قد يحدث بتعبير « الدال المشترك الادنى » Lowest Common Denominator كالالكترونات

والبروتونات والاشعة والبروتوبلازم والعقل في حين ان الدين يحاول ان يكتشف ويفسر الطبيعة ومركز الانسان فيها بتعبير «المقياس المشترك الاعظم» Greatest Common Measure وهو الله

ولكن اذا اردنا ان نعطي للعلم ما هو علمي ، وللدين ما هو ديني — المشاهدات للاول والتفسيرات اللاهوتية للثاني — فهل ثمة اي تأثير لاحدهما في الآخر ؟. لهذا السؤال اربعة اجوبة :

(١) ان النتائج العلمية يجب ان تدخل في تضاعيف الدين لتزيده رونقاً وفعلاً في النفس
(٢) يجب ان لا يتجاهل العلم الحقائق التي يتوصل اليها الدين بالاختبار
(٣) يجب ان يتجنب الدين التعرض للحقائق العلمية المستقراة من المشاهدة والاختبار
(٤) يجب تمحيص الاستنتاجات العلمية وتطهيرها من العناصر التي لا تمت الى العلم بصلة

﴿الفكرة العامة للتطور العضوي﴾ ان الفكرة العامة للتطور العضوي معناها ان الحاضر وليد الماضي وابو المستقبل . فنظام الطبيعة الحية يظهر لنا كسلسلة متتابعة من التحولات تقدمت فيها الحياة وارتقت وظهر على اثرها ضروب جديدة في عالمي الحيوان والنبات

فسّر هذه الفكرة العلامة « اراسموس داروين » عام ١٧٩٦ ، ففي كلامه عن « هيوم » Hume يقول : « استنتج (اي هيوم) ان العالم تولدا كثر من ان يكون قد خلق ، وانهُ قد نشأ بالتدريج من عناصر اولية صغيرة جدًا فيها نشاط ذاتي كامن ، اما انهُ (اي العالم) قد « تطور » فجأة بقوة الارادة الالهية فأمر لا نستطيع الوثوق منه او الركون اليه » . ان كلمة «تطور» الواردة في القسم الاخير من هذه العبارة قصد بها « الخلقة » وليس « التطور » اذ انها استعملت عوضاً عن كلمة «تطور» بمعناها العلمي المعروف . ويفهم من الجملة عامة ان جد داروين كان يرمي الى تشبيه النشوء العضوي للفرد من جرثومة (كالفرخ من البيضة) بنشوء العالم وما عليه من كائنات ابتدائية صغيرة جدًا . فالفراشة تنشأ من دودة وهذه من بيضة . والضفدعة تنشأ من الدعموص وهذا من بيضة ايضاً . ان كل هذه العمليات تشبه التطورات السلالية Racial evolution في استمرارها وتحولها التدريجي. هذا من جهة، ومن جهة اخرى لا تشبه التطورات السلالية من حيث ان الجرثومة ليست بداية بسيطة جدًا ولكنها نتيجة الاحقاب وغنية بميزات ورثتها عن العصور السحيقة في القدم

﴿ تعريف التطور العضوي﴾ التطور هو عملية تكوُّن تدريجي وهي فكرة واسعة يصعب تحديدها . وقد نرى في المستقبل ان في استطاعتنا تمييز ثلاثة انواع من التطور : لا عضوي وعضوي واجتماعي . ونحن يهمنا في الوقت الحاضر البحث في نشوء وارتقاء وظهور واختفاء النباتات والحيوانات والانسان بصفته جسم حي . ويمكننا ان نعرف التطور العضوي بانه انتقال سلالي في جهة معينة تنشأ في خلاله انواع جديدة تشق لنفسها طريق الحياة ، وقد تحل محل الانواع التي نشأت منها او تسير جنباً لجنب معها. وكل ذلك يحصل بتحولات مستمرة اثبتها البحث العلمي

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

— ٣ —

﴿العظامية الانكليزية في القرن الثامن عشر﴾ : كتبنا هذا الفصل عن العظامية الانكليزية لانهُ يفسر الى مدى بعيد العظامية في الامم الاخرى — ومنها الامة العربية — في اكثر الاعصر التاريخية . والنظام العظامي الاريستوقراطي هو نظام متأصل في الانكليز وقد مثل دوراً من اهم ادوار حياتهم السياسية والاجتماعية . ولا يتلكأ العظاميون منهم ان ينسبوا كل المحامد التي تتغنى بها امتهم الى هذه الشكيمة العريقة في دمائهم والى ما بني عليها من نظام محافظ . وتتجلى القواعد التي قامت عليها هذه العظامية في ردّ الفعل الذي حدث في انكلترة من جراء الثورة الفرنسية الكبرى التي حدثت في سنة ١٧٨٩ فالاريستوقراطيون الانكليز استخدموا انواع الشدة في ابان تلك الثورة وعقيبها لاجتثاث كل حركة حرة من اصولها واستعصروا ادمغتهم لكي يؤلفوا فلسفة ترتكز عليها دعاويهم الطويلة العريضة في حق الحكم، ومعلوم ان قواعد الثورة الفرنسية قامت على استصراخ الادراك الانساني من اعماقه والاستناد الى مقتضيات الفهم السليم . بيد ان الاريستوقراطية الانكليزية لم تتنزل الى مقارعة الثورة على هذا الاساس ولا الى مجادلتها في هذه القواعد بل قالت بلسان (ادمند برك) خطيبها وكاتبها السياسي انها تأبى على الادراك الانساني ان يكون الاساس الصحيح للسياسة وعلى المنطق ان يكون المركز الذي ترتكز عليه فلسفتها ، واظهرت بكل ما اوتيت من عارضة وبلاغة شأن الوضع السياسي التقليدي المعنعن الذي تمثل في الاختبارات والتجارب المجموعة في قبضة طبقة من الحكام الوراثيين هم الطبقة الاريستوقراطية او هم «اهل الحل والعقد» كما في تاريخ الاسلام. فهذه الفلسفة التي قال بها (ادمند برك) يومئذٍ هي سرّ الحكمة الاساسية التي يبني عليها العظاميون المحافظون حججهم في انكلترة الى يوم الناس هذا بل هي التي اشار اليها افلاطون في « الجمهورية » في القرن الرابع قبل المسيح

ولا مراء ان هنالك فرقاً واضحاً بين عظامية الانكليز اللينة هذه وبين عظامية الفرنسيين

القاسية التي كانت سبباً مباشراً للثورة . فالقارىء يذكر ان شكل الحكم في فرنسا يومئذ كان ملكياً من دونه طبقة اريستوقراطية تمتعت بالشيء الكثير من الامتيازات والمنافع من غير ان يكون لها سلطة سياسية ، وكانت ابواب هذه العظامية موصدة في وجه جميع الطامحين المستجدين ولو جمعوا ثروة طائلة في التجارة او الصرافة ، وكانت الاسلاب التي خولتهم امتيازاتهم ان يسلبوها من الناس ويتمتعوا بها عبئاً ثقيلاً اناخ على صدور الفلاحين بكلكله واثقل كاهلهم ، وكانت الضرائب فادحة تبذل بسخاء على الجيش لتأييد السلطة الوطنية والدفاع عن نفوذها ، وادى اعفاء الطبقة العظامية من الضرائب الى اثقال عاتق الصناعة والتجارة وزاد في اعباء الدهماء من الشعب . لذلك لم يندمج الرجال النابهون في الطبقة الحاكمة بل بقوا خارجها ليشتركوا في الثورة مع الفلاحين الجائعين المنهكين ومع العمال البائسين المستائين

اما في انكلترا فكان للعظامية سلطة سياسية نافذة عدا الامتيازات التي تمتعت بها ، ولكنها اظهرت من الحكمة والكياسة انها لم تعف نفسها من الضرائب بتاتاً ولا اوصدت ابوابها دون الطامحين المستجدين من الرجال الصالحين سواء من صاهر منهم العظاميين فاتصل بهم او من نال حق الانتقال الى العظامية برخصة رسمية حصل عليها لمال جم جمعهُ في التجارة او الصناعة او الصرافة ، فهذا الموقف اعترف بشيء من الحق يكتسبه العامة بالثروة او المصاهرة او الجاه فيصبحون من اهل الحسب . وفوق ذلك فالعظامية الانكليزية لم تقف في البلاد وقفة سلبية انانية بل اشتركت في ترقيتها الاقتصادية بهمة ونشاط . وهذا جميعه مما حال دون اجتماع العناصر العدائية عليها كما حدث لفرنسا يومئذ فأدى الى ثورتها في حين احتفظت العظامية في انكلترا ببنيانها وخرجت من جميع تلك العواصف الاوربية المزعزعة سليمة بمجرد اصلاح برلماني يسمى اصلاح سنة ١٨٣٢ ثم انتقلت الحكومة بالتدريج من سلطة نيابية عظامية كانت انكلترا اسبق الدول الى استنانها الى سلطة عصامية ديموقراطية اصبحت شكل الحكم المطلوب في الدول الناشئة في القرن الثامن عشر . اما هذا الاصلاح البرلماني الذي حدث في سنة ١٨٣٢ فقد وسع حق الانتخاب حتى شمل الطبقات المتوسطة فقط فكان على طبقة العمال ان تنتظر حقها في الانتخاب الى ان قرَّره البرلمان في سنتي ١٨٦٧ و١٨٨٤ ولكن انكلترا ام الوضع النيابي لم تصر ديموقراطية حقاً تتمتع جميع طبقاتها بالانتخاب الا اليوم نال النساء هذا الحق بقرار برلماني في سنة ١٩١٨ بيد ان الاسعاف جاء متأخراً جداً فما وصل « الترياق من العراق » الا والطريقة الديمقراطية النيابية معبودة الرئيس ودرو ولسن وحجة الدول الغالبة على المغلوبة في الحرب العالمية — قد اقتحمتها طرائق اخرى ادعت الافضلية عليها وبارزتها في الميدان براز الند للند ، وزاد في الطين بلة ان اشراك النساء في الشؤون السياسية لم يحقق حلم الذين عقدوا عليه الآمال الكبار

وغني عن البيان ان اللين الذي اظهرته الادارة الانكليزية على ذاك العهد حال دون وقوع الكارثة ، ويذهب بعض الاجتماعيين الى ان هذا التكيف في الانكليز او القابلية التي تنحني من غير ان تنكسر هي الخلة القومية التي حالت دون الثورات العظيمة في بلادهم في حين ان من طبيعة الفرنسيين التصلب التام وان يحاولوا التمسك بكل شيء الى ان يرغموا على ترك كل شيء ، هذا شأنهم في حربهم وسلمهم واحتلالهم وجلائهم وكل شأن من شؤون ادارتهم ، وقد تجلى في ايامنا هذه في مواقفهم العنيدة في المطالبة بالديون التي لهم كاملة وابتلاعهم الديون التي عليهم كاملة ، والاصرار على ان يبقوا مكتسين بالسلاح الى قمة الرأس وان يعروا خصومهم منهُ الى اخمص القدم ، بل ان هذه الخلة فيهم ظهرت بثوبها القشيب في عصبة الامم في جلستها الاخيرة عند ما قدّم مندوب فرنسا تقريره عن سورية فأتيح لاعضاء العصبة ان يقابلوه بالتقارير التي قدّمت عن العراق وانتهت في اكتوبر الماضي بانتظامه عضواً فيها ، وان يتبينوا الاسباب التي ادّت الى تراجع سورية تحت ارشاد الفرنسيين . وان كانت هي السابقة على العهد العثماني . فما اعجب هذا الارشاد الذي يحاول عبثاً ان يسوق شعباً راقياً الى الضلال والاضمحلال

وعلى كل حالٍ فالعبرة البليغة المستخلصة من الثورة الفرنسية ومن تلك الطبقة الفرنسية العظامية التي حاولت ان تمتص دماء الناس من غير عوض وعلى رأسها البلاط ومشروعاته الباهظة واستبداده اللامتناهي وعدم مبالاته بمطالب الامة هي مثل العبرة التي خلفتها لنا القيصرية الروسية الظالمة وعهد آل رومانوف في القرن الحاضر : دماء مهراقة وخراب شامل وثورة عاصفة لم تبق ولم تذر ، ومن العجب العجاب ان يرى المتتبع تباشير الشيوعية فجّة في الثورة الفرنسية كما يراها ناضجة في الثورة الروسية ، فقد قام في فرنسا في تلك الايام رجل ثوري اسمه (فرانسوى اميل بابوف) فنشر مذهبه السياسي فاذا هو لا يختلف في شيء عما حمله في صدره (لينين) و (تروتسكي) و (ستالين) وهذا التشابه والحق يقال درس تاريخي يجب ان يتلى كل يوم على رأس الحكومات العنيدة المتصلبة التي ليس في منهاجها شيء يسمى مصلحة الشعب المحكوم ، والثورة اذا حدثت تكون مثل القنبلة اذا خرجت من فوهة المدفع — لا سلطة لاحد عليها . قال (بابوف) في صحيفتهِ يومئذٍ [1] . «لماذا يتكلم الناس عن الشرائع وعن الاملاك ؟ فالاملاك هي حصّة المغتصبين والشرائع هي من عمل الاقوياء اما الشمس فتشرق على الجميع واما الارض فليست ملكاً لاحد . اذهبوا اذن يا اخواني وانشروا الفوضى في هذا المجتمع الذي لا يلائمكم واقلبوه رأساً على عقب ودكوه دكاً وخذوا منه كل شيء يعجبكم ، لان الفضلة هي من حق المعدم . وهذا ليس كل شيء ايها الاخوان والاصدقاء . بل

* The Revolt Against Civilization, Stoddard, P. 137

اذا وجدتم الموانع الدستورية عقبة في سبيل مساعيكم الكريمة فاسحقوا هذه الموانع وهذه الدساتير من غير تردد واذبحوا العتاة والنبلاء والمموهين بالذهب من اصحاب الملايين وسائر هؤلاء الاشرار الذين يقاومون سعادتكم المشتركة . انتم الشعب الحقيقي الوحيد القمين بان يتمتع بخيرات هذا العالم ، وعدل الشعب عظيم وجليل مثل الشعب نفسه فكل مايعمله مشروع وكل ما يأمر به مقدس »

وتعرف خطط (بابوف) من الجمل الآتية المستخلصة من بيانه الذي وضعهُ ليلة الثورة التي اعدها وسماه (بيان المتساوين) فقد جاء فيه من العبارات الجنونية الملتهبة قولهُ « ايها الشعب الفرنسي لقد عشت خمسة عشر قرناً ترسف في العبودية ومانشأ عنها من شقاء ، ومضى عليك ست سنوات (وهي سنوات الثورة) لم تكد في غضونها تتنفس وانت تنتظر الاستقلال والسعادة والمساواة — المساواة التي هي اول غاية في الطبيعة واول حاجة في الانسان وهي العروة الوثقى لكل اجتماع بشري مشروع

« نعم اننا نريد من الآن فصاعداً ان نعيش ونموت على قدم المساواة كما ولدنا ونحن ننشد التساوي الحقيقي او الموت — هذا مايجب ان نحصل عليه وسننال هذه المساواة حتماً بالغة مابلغت قيمتها . والويل ثم الويل لكل من يقيم نفسه حائلاً بيننا وبينها

« اما الثورة الفرنسية فليست الا مقدمة فقط لثورة اخرى اعظم منها واكثر هيبة وستكون الاخيرة . واننا سنرضى بكل شيء في سبيل المساواة ونمسح كل شيء لنتمسك بها وحدها . واذا اقتضى الحال فلتضمحل جميع الفنون على شرط ان تبقى لنا المساواة الصحيحة

« واخيراً لتختف الفوارق المثيرة للاحقاد بين الاغنياء والفقراء ، والكبراء والصغراء ، والاسياد والمسودين والحكام والمحكومين ولايبق فرق في البشر عدا الفرق المبني على العمر وعلى الجنس . ولما كانت حاجات الناس وملكاتهم واحدة فلتكن لهم تربية واحدة وطعام واحد وهم جميعهم يقنعون بشمس واحدة وهواء واحد فلِمَ يا ترى لا يكتفي كل واحد منهم من الطعام بنفس الحصة وبنفس النوع ؟

« ايها الفرنسيون افتحوا عيونكم وقلوبكم لفيض السعادة الدرار واعترفوا معنا بجمهورية المتساوين واعلنوها في الخافقين »

لقد اطلنا فيما نقلنا من بيان (بابوف) عن ثورة التساوي هذه وعذرنا في ذلك اننا اردنا ان نبين ما تجنيه الحكومات الظالمة على المجتمع من الجنايات التي لايعرف احد عواقبها ، وغير نكير ان ثورة (بابوف) هذه خنقت في المهد ولكن الآراء التي انطوت عليها بقيت مشتعلة تحت الرماد الى ان سنحت لها الفرصة فاندلعت السنتها تحرق الاخضر واليابس وتهدد النظام الاجتماعي من اساسه

شذوذ الاعضاء في الانسان

يصادف الاطباء احياناً في ممارسة صناعتهم اشخاصاً اعضاؤهم الداخلية تشغل مكاناً مخالفاً كل المخالفة للمكان الذي يجب ان تشغلهُ في الحالة السوية وحيث يجدونها عادةً : كوجود القلب والطحال مثلاً في الجهة اليمنى ، والكبد والزائدة المعوية في الجهة اليسرى الخ . . فما اسباب هذا الشذوذ يا ترى ، وهل وضع الاعضاء المذكورة هذا الوضع ملائم للحياة من دون تعرُّض اصحابهِ للخطر ؟ واذا ما تصفحنا التآليف العلمية وجدنا ان اول اكتشاف من هذا القبيل يرجع الى القرن السادس عشر أي لما شرعوا في ممارسة تشريح الجثث . وفي ايامنا هذه اكتشف كثير من حوادث الشذوذ بفضل اشعة اكس واستعمالها في فحص الاحياء . فتبين أن الشذوذ المذكور ليس لهُ اي أثر في اختلال وظائف الاعضاء بل ان علاقات هذه الاعضاء بعضها ببعض تبقى كما هي، وفي غالب الاحيان ، ان لم نقل تقريباً دائماً ، يجهل اولئك الاشخاص المصابون بالشذوذ انهم مصابون بهِ . اما من جهة أصل هذا التركيب المقلوب في الاعضاء الداخلية فيكفي على ما يظهر ان يكون واحد منها شاذاً (كوجود القلب مثلاً في الجهة اليمنى) حتى تتبعهُ الاعضاء الاخرى وتحذو حذوهُ

ولنلق الآن نظرة عاجلة على الشذوذ الذي يمكن ان يطرأ على مختلف الاعضاء . فمن جهة العيون يجب ان نذكر الشذوذ الناتج في غالب الاحيان عن توقف النمو . فقد ذكر الباحثون حالات كانت فيها العيون ناقصة وقت الولادة . وهذا النقص يصحب عادةً وجود ما يسمونهُ « منقار الارنبة » وهو اسم يطلق على الشفة المشقوقة (Bec-de-Lièvre) مع فقد جانب من الاصابع . كذلك الجفون تكون ناقصة التركيب في بعض الاحيان : كوجود شقوق تبتدىء مثلاً في الطرف الذي تنبت فيه الاهداب وتتجه الى فوق . او أن تكون الجفون ضيقة جداً حتى لا تكفي عند اغماضها لتغطية العين . وما تقدم ذكرهُ عن العيون والجفون يقال ايضاً عن الآذان التي كثيراً ما تصاب ببعض النقص : كفقدان الصيوان والصماخ مثلاً ، وفي بعض الحالات قد تصاب بفقدان غشاء الطبل او الأذن الوسطى

﴿ شذوذ الدماغ ﴾ يندر جداً ان يكون المصاب بها ذا صحة جيدة وذكاء تام لما لهذا العضو من المكانة في الجسم . ومع ذلك فقد ذكرت حوادث غريبة تناقض تلك العقيدة الراسخة في الاذهان حتى اليوم . فقد تبين عند بعضهم فقدان جانب من المادة الدماغية، ورغماً عن ذلك عاش المصابون بهِ اعواماً طويلة من دون ان يطرأ عليهم ضعف عقلي او جسماني . ففسروا ذلك بان الاقسام السليمة في الدماغ تنابت في فعلها عن الاقسام الناقصة

ومن الشواذ الاخرى في الدماغ التحام الكرات بعضها مع بعض التحاماً جزئياً او كلياً، وظهور فتق عند الاطفال وقت الولادة يعرف بالقيلة الدماغية (Encéphalocèle) وهو فتق ناتج عن وقوف النمو ليس في الدماغ نفسه بل في عظام الجمجمة ويصحبهُ عادةً تمدد الأنسجة. فالمصاب بالفتق المذكور يندر أن يعيش والحالة هذه زمناً طويلاً

﴿ شذوذ جهاز الدوران ﴾ — القلب: ان مكانة هذا العضو خطيرة في الجسم حتى ليكفي ان يكون الشذوذ الذي قد يحصل فيه سبباً في اصابة اصحابه بأعراض خطرة ان لم نقل بتعذر الحياة عليهم. نعم انهُ يمكن للمرء ان يعيش اذا كان قلبهُ في الناحية اليمنى من صدره انما لا يمكن ان تكون الحالة كذلك عند ما توجد فتحة توصل بين اجواف القلب اليمنى واليسرى. وفي الحالة السويّة لا بدّ من وجود فاصل بين دم العروق والدم الشرياني. فامتزاج الدمين على هذه الشاكلة بسبب وجود الفتحة المذكورة يؤول اذ ذاك الى زرقة لون الجلد مع ضيق تنفس شديد ودائم. والاولاد المصابون بهذه الاعراض يموتون عادةً بعد ولادتهم ببضع ساعات، وآخرون منهم يعيشون سنة او سنتين ونادراً يبلغون سنّ الرشد

﴿ شذوذ الجهاز التنفسي ﴾ يندر الشذوذ بوجه عام في المسالك التنفسية. ومع ذلك فقد لوحظ عند بعضهم نقص احدى الرئتين. وذو الرئة الواحدة لا يكون معرّضاً والحالة هذه الاّ لضيق تنفس معتدل وغير دائم

﴿ شذوذ الجهاز الهضمي ﴾ الشفتان وسقف الحلق: الجهاز الهضمي اكثر الاجهزة تعرضاً للشذوذ في جسم الانسان كالعلَم او الشقّ في الشفة العليا عند الاولاد وقت الولادة — وهو شق يتجه نحو المنخرين فيبلغهما في بعض الأحيان. وهذه الحالة يطلق عليها في بعض الاصطلاح الجراحي «منقار الارنبة» على ما ذكرنا اعلاه. وهي تشويه وراثي في كثير من الاحيان وحدوثهُ عند الصبيان ضعف حدوثه عند البنات، وفي الشفة العليا اكثر منهُ الشفة السفلى. ويشغل الجهة اليسرى من الشفة العليا في الغالب (وهي الجهة الاكثر تعرضاً لذلك) او جهتي الشفة نفسها فيقسمها اذ ذاك الى ثلاثة اقسام (القسم الاوسط منها ارقّ من القسمين الجانبيين) او يكون الشق المذكور متوسطاً ومركزهُ تحت الأنف

ولحسن الحظ يمكن اصلاح هذا التشويه بعملية جراحية تعمل للطفل من الشهر السادس الى سنة بعد الولادة ما زال التشويه محصوراً في الشفة. امّا اذا تعدّاها الى عظم الفك الاعلى فيجب اذ ذاك الانتظار لاجراء العملية لدى بلوغ الولد السنة الثالثة من العمر على الاقل ولكن يشترط ان يكون سليماً قوياً. كذلك سقف الحلق الذي يمكن ان يُقسم الى قسمين بشق وسطي فيحدث حينئذٍ ما يسمونهُ في الاصطلاح الجراحي «حلق الذئب» (gueule-de-loup)

الأسنان: وهذه ايضاً لا تخلو من الشذوذ سواء في زيادتها عن العدد الطبيعي المعروف وفي هذه الحالة يصعب وجود مكان لها في الفم، او انها تنبت خارجة عن اماكنها المعروفة،

او يكون جذرها واصلاً الى محجر العين ، او قد يلتحم سنّان او اكثر . وعلى ذكر الاسنان يُروى أن بِرّوس (Pyrrhus) ملك مقدونية الشهير الذي مات في سنة ٢٧٢ ق . م . كانت اسنان فكهِ ملتحمة بعضها مع بعض وتؤلف بتركيبها قطعة واحدة

ولا يسلم اللسان من الشذوذ . فاما ان يكون مربوطاً الى اسفل الفم بعَصَبة قصيرة جداً وهذه حالة نادرة ، او ان يكون مشقوقاً كلسان الافعى

المعدة والمعى والحجاب الحاجز : أهم الشذوذ التي يمكن ان تحصل في العضوين الأولين هي زحولهما عن مكانهما . اما الحجاب الحاجز وهو الفاصل بين الجوف الصدري والجوف البطني فقد لوحظ فيهِ عند بعضهم وجود فتحات غير طبيعية مما يؤول الى دخول بعض الاعضاء البطنية في الجوف الصدري . ويجب ان نذكر ايضاً هنا فتق السرّة عند الولد وقت الولادة . وهو فتق صغير الحجم يسهل اصلاحهُ بواسطة العصاب ، لكنهُ قد يكون كبيراً في بعض الاحيان حتى ليحتوي على الجانب الاكبر من اعضاء الجوف البطني — والكبد احياناً . فتسوء اذ ذاك حالة الولد وتتعذر ملافاتها بالطرق الجراحية وغالباً تكون العاقبة وخيمة

وثمة شذوذ آخر في الجهاز الهضمي على جانب عظيم من خطورة الشأن هو انسداد فتحة الشرج وقت الولادة . فلكي تتاح الحياة للطفل لا مندوحة طبعاً عن اجراء فتحة صناعية بواسطة الجرّاح . انما توجد حالات لا يمكن اجراء هذه العمليات فيها وبذلك يقضي الطفل نحبهُ

الكبد : لا غنى لحياة الانسان عنها والتصانيف الطبية لم تذكر في وقت من الاوقات عدم وجودها عند احد من الناس . بل بالعكس اكتشفوا انها كانت احياناً مزدوجة بكبدٍ أخرى تابعة لها

﴿ شذوذ جهاز البول ﴾ — الكلى : هي من أهمّ الاعضاء في جسم الانسان ولا يمكن ايضاً الاستغناء عنها كالكبد لكن احدى كليتي الانسان يمكن ان تكون ناقصة وقت الولادة وكثيراً ما نرى اناساً يعيشون بكلية واحدة بعد استئصال الاخرى منهم بعملية جراحية والمولود بكلية واحدة تكون كليته عادة اضخم منها في الحالة السوية لقيامها بوظيفة الاثنتين . واغرب ما شوهد من هذه الوجهة اتحاد الكليتين معاً فتتكوّن منهما كلية واحدة كائنة امام العامود الشوكي بشكل هلال او حدوة

الحالبان : يصلان الكلية بالمثانة كل واحد من جهة كما هو معلوم . لكن يحدث ان يكون كلاهما في جهة واحدة . وتوجد حالات تتصل فيها واحدة من هاتين القناتين او كلتاهما بالمعى المستقيم او الاعضاء الاخرى المجاورة بدلاً من أن تتصلا بالمثانة ، مما يؤول الى درّة البول بصورة مزعجة وغير محتملة . اما المثانة فلا تخلو من شذوذ يطرأ عليها ويكون ذلك بسبب توقف نموها ، فتنفتح اذ ذاك الى الخارج لعدم وجود قسم الجلد الذي يغطي البطن فتكون النتيجة درّة البول والالتهابات الحادة بتعرض غشاء المثانة المخاطي الى الخارج وهي حالة من شأنها تكدير عيش المريض واقلاق راحته . فلتلافي هذهِ العلة المزعجة لا مندوحة عن طلب مساعدة الجراح ليقوم بعمل العملية اللازمة

العراق — الدكتور عبده رزق

على ذكر المجمع اللغوى الملكى

حاجتنا اللغوية الى مجمع يوثق به

للسيد محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح »

الحاجة الى مجمع لغوي

قاعدةٌ مطّردة يجب علينا ان نراعيها في جميع ما نحن عازمون على القيام بهِ من ضروب الاصلاح والتجديد ، وقد جرّب العملَ بها ثلاث امم عظمى في ادوار التاريخ الثلاثة فكانت سبب عظمتهنَّ وسر تفوقهنّ على امم الارض : الرومانيون في الازمنة القديمة ، والعرب في الازمنة المتوسطة ، والانكليز في الازمنة الحاضرة . هذه القاعدة هي ان لا تهمل الامة من تقاليدها الاّ ما تبين ضرره ، وان لا تأخذ من تقاليد غيرها وأوضاعهم الاّ ما اوجبت الضرورة اخذه . فالمهارة في اخذ ما يجب اخذه وترك ما يجب تركه هي سرّ عظمة هذه الامم الثلاث واستفحال سلطانها

واللغة احد الاوضاع الجليلة الخطر في كل امة ، وهي كائنٌ حيٌّ : يجب أن تبقى له خصائصهُ وسجاياه المميزة له عن غيره ، ويجب ان يتغذى دائماً بما يكفل له البقاء والنماء ، ويجعله صالحاً لأداء وظيفتهِ في الحياة . وأيّما امة تخطىء مناهج الصواب في تغذية لغتها ترتكب بذلك جريمة لا نجاء لها منها . والعبث في مصير اللغات أعظم خطراً من اللعب بمصير الاوطان ، والخيانة في ذاك شرٌّ من الخيانة في هذا . ومن الخيانة ما يتمّ على ايدي اناس وهم في غفلة عن نتائج ما يعملون ، وفي مثل هؤلاء هبط الوحيُ على قلب سيد المرسلين ، من كلام رب العالمين بأنهم « اذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا : انما نحن مصلحون : ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »

ان سلطان العربية في سجاياها الخالدة التي ما برحت مرآة كل عصر وكل جماعة وكل بيئة ، رغم خلودها وثباتها ورسوخ أصولها

أرأيت لو اني عثرت على قصيدة من قصائد بشّار المفقودة ، وعرضتُها على انظار قرائي الى جانب قصيدة للرُّبَيع بن ضَبُع — دون ان اسميَ ناظميها — هل يشكُّ القراء في ان القصيدتين من عصرين مختلفين ؟ انهم لا يشكّون في ذلك قط لأن شعر الرُّبيع مرآة صادقة

لعصره وبيئته ، كما ان شعر بشار مرآة صادقة لعصره وبيئته ، حتى فيما حاول بشار ان ينحو فيه نحو الأعراب من شعره . مع ان سجايا اللغة في شعر الربيع وبشار ما برحت محتفظة بسلطانها مستقرة في مكانها . وكذلك الحال في شعر المتنبي ومحمود سامي البارودي وكل عبقري كانت هذه اللغة ترجمان الدقيق من خواطره والسامي من الهاماته ، فهي قد اتسعت لاغراضهم دقة وسموا — بعد ان وسعت كتاب الله لفظاً وغاية — فلم يخرجوا على قوانينها ولم يتمردوا على سجاياها

قلت ان اللغة يجب ان تتغذى دائماً بما يكفل لها البقاء والنماء ، ويجعلها صالحة لأداء وظيفتها في الحياة . وهذا حق لا يرتاب فيه عاقل ، وعليه مضى الذين سبقونا في هذه الصناعة في الدول العربية المتقدمة فضربوا في ذلك بسهم على قدر حاجتهم ، مراعين قوانين التغذية التي لا طغيان فيها على سجايا اللغة وخصائصها ، ولا خروج فيها على انظمتها وقوانينها . وان الامة التي تريد ان تجاري الامم الراقية في اقصى ما وصلت اليه من معارف البشر لا بدّ لها من ان تغذي لغتها بالالفاظ والاصطلاحات الدالة على تلك المعارف فتأخذ من ذلك على قدر الحاجة وتستعمله في مكان الحاجة ، فيكون من ذلك لغة للعلم غير لغة الادب ، واساليب للبيان يليق كل منها بما استعمل له

ان الدولة العربية في العهد العباسي لما رأت طغيان التغذية في اللغة أصبح مجلبة شرور لا يجوز الاغضاء عليها بما يرتكبهُ المترجمون من شحن العربية بالفاظ اعجمية قد يكون في العربية ما يغني عنها ، فضلاً عن سوء ترجمتهم للاصطلاحات العلمية ، وتبذلهم في الاساليب الكتابية بادر رجالها في الحال الى الاخذ على ايدي ضعاف المترجمين فعهدوا بمهمة تغذية اللغة من الجانب العلمي الى علماء بلغاء ينظرون فيما يترجمهُ المترجمون فيصلحون لغتهُ ، ويهذبون مصطلحاته ويقومون اساليبه ، احتفاظاً بخصائص العربية وسجاياها ، ولولا ذلك وغيره من مظاهر عناية الدولة والعلماء ، بل لولا كتاب الله تتلى آياته في كل بقعة من بقاع العالم الاسلامي ، لكانت العربية اليوم كاللغة المالطية انحطاطاً وفقراً وابتذالاً

وبعد فان اللفظة الاجنبية في الكلام العربي ، كالجندي الاجنبي في الوطن العربي . واذا كان في الاوطان العربية نفر يعرفهم الناس لا يسوءهم وجود الجندي الاجنبي يمشي بسلاحه فوق تربة الوطن المقدس فان جمهور الامة يحتقر من يرضى بذلك ويسمي عمله بالاسم اللائق به . واذا كان في حملة الاقلام من المنتسبين الى الآداب العربية نفر يعرفهم الناس لا يسوءهم العدوان على سجايا العربية ولا احتلال الالفاظ الاعجمية سطور كتاباتنا فان حكم الجمهور على هؤلاء لا يقل عن حكمه على اولئك ، لأن الامرين يرجعان الى معنى واحد

نحن نحتاج الى الفاظ جديدة تدلُّ على المعاني الجديدة ، ولكننا نريدها عربية يأنس بها كلامنا ، ونريدها ملائمة لخصائص لغتنا وسجاياها ، وغير متمردة على قوانينها وأنظمتها ،

سواء كان هذا التمرد منبعثاً عن نكاية او عن غفلة. لهذا الغرض ، وبدافع من هذه الحاجة ، فكّر المفكرون في تأليف مجامعنا اللغوية وحاولوا غير مرة تحقيقها

تاريخ فكرة المجمع العلمي (١)

كان السيد عبد الله نديم اول من دعا — بطريق النشر — الى فكرة انشاء المجمع اللغوي (فاقترح ذلك في صحيفته (التنكيت والتبكيت) التي كان يصدرها في الاسكندرية سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م) ، فاخذت الفكرة في الاختمار من ذلك العهد . وحوالي سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨م) تناقلت الافواه خبر سعي جماعة من الفضلاء في تأليف مجمع لغوي برئاسة عبد الله فكري باشا

ثم سعى السيد توفيق البكري رحمهُ الله — نقيب الاشراف يومئذ — في تأليف مجمع سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢ م) فتمَّ له تأليفهُ برئاستهِ (ويرى توفيق افندي حبيب في المقتطف ٧٢ : ٥٨) ان ذلك كان على أثر دعاية ويلكسكس الى الكتابة باللغة العامية) . وكان من اعضاء هذا المجمع الشنقيطيُّ الكبير والشيخ حسن الطويل والشيخ حمزه فتح الله واسماعيل صبري باشا ومحمد المويلحي بك وغيرهم من اساطين اللغة والادب . وكان عمر هذا المجمع قصيراً ، فانهُ عقد سبع جلسات اولها يوم ٢١ شوال سنة ١٣٠٩ هـ (١٨ مايو ١٨٩٢م) وآخرها يوم آخر رجب سنة ١٣١٠ هـ (١٧ فبراير سنة ١٨٩٣م). وفي المذكرة التي اعتمدت عليها في كتابة هذه النبذة أن من اعضاء هذا المجمع من انتظم فيه مكرهاً فلم يشهد الاّ الاجتماع الاول منه ثم انقطع عن حضور الجلسات . والالفاظ التي وضعها هذا المجمع واقرها عشرون لفظة :

عشر منها من وضع رئيسهِ السيد توفيق البكري وهي (مَرْحَى) لكلمة (برْافو) Bravo ، (بِرْحَى) لكلمة في Fi ، و(مِدْرَه) لكلمة افوكاتو Avocat ، و (المِسَرَّة) لكلمة تِلِفون Téléphone ، (وعِمْ صباحاً) لكلمة بُونجور Bonjour ، و (عم مساء) لكلمة بون سْوار Bonsoir ، (والبهْو) لكلمة صالون Salon ، والقفّاز لكلمة جوانتي ،و(النُّمْرة) لكلمة نومرو Numéro ، و (الوشاح) لكلمة كرْدون Cordon

وعشر من وضع السيد محمد بك المويلحي وهي (الطنف) لكلمة بلْكون Balcon ، و (الحرّاقة) لسفينة التوربيد port Torpille ، و (الجديلة) لكلمة مُودة Mode ، و (بطاقة الزيارة) لكلمة كارت فيزيت Carte de Visite ، و (المَرْبَ) لكلمة كُلُوب Club ، و(الحذاقة) لشهادة الدراسة كالبكلوريا ، و(العاطف) و (المِعْطف) للبالطو او الباردسُّو Pardessus ، و (حصب الطريق بالحصباء) لجملة وضع المكدام في الطريق ، و (الشرطي) و (الجلواز) و (التؤتور) لرجل البوليس ، و (المِشْجَب) للشماعة Portemanteau

وقد انتقد السيد عبد الله نديم هذه الكلمات في مجلتهِ (الاستاذ) فاختار (بَخٍ) لبرافو ،

(١) تلقيت اكثر ما ورد في هذه النبذة عن مذكرة كتبها أعلم رجالنا في هذا الموضوع

إبرحي بهوه الكئيب فما فيـ ـه لعينيك بهجة تتجلى
قد نزلت العشيّ فيه على قفـ ـر جفته الحياة ماء وظلا !

كان هذا المكان روضاً نضيراً جرّ فيه الربيع بالامس ذيلا
كان فيه زهر فعاد هشيماً كان فيه طير ولكن تولى !

فاسلمي من شقائه ودعيه وحده يصحب السكون المملا
واطرقي غير بابه إن روحي أحكمت دونه رتاجاً وقفلا !

أوقوفاً الى الصباح ببابي !؟ شد ما جئتيه غباء وجهلا !
ابعدي من وراء نافذتي الآ ن ! ورفقاً إذا انثنيت ومهلا !

إن من تحتها هزاراً صريعاً سامه البرد في العشية قتلا
وأزاهير حولها ذابلات مزقتها الرياح في الليل شملا

كان لي في حياتها خير سلوى فدعيني بموتها اتسلى
فهي بقيا صبابة ودموع جنيا عندها شعاعاً وطلا !

ان عيني بها أحق من المو ت وقلبي بها من القبر أولى
جن قلبي فاستضحكته المنايا حيث أبكتني الحقيقة عقلا

لا تطيلي الوقوف ايتها الاشـــباح فامضي فما رأيتك قبلا
أو لم تسمعي ؟ جهلتك من انـــت ! افعودي ! فما كذبتك قولا !!

من هذه الالفاظ واعلنوا انهُ اذا مضى على نشرها شهر كامل ولم ترد اليهم ملاحظات اعتبرت رأياً عامًّا لجميع الاعضاء ، وكان عليهم ان يصقلوها بالسنتهم واقلامهم حتى تكون لعامة من يشتغلون باللغة العربية . ثم بدا لهم جمع ما تشتت من تلك الالفاظ في اعداد السنة الثانية فجمعوها ونشروها بعد تعديل فيها في العدد الثاني من السنة الثالثة مرتبة على حروف المعجم، ثم تعطلت المجلة والنادي

وفي سنة ١٩١٧ اقام اسماعيل بك عاصم مأدبة في داره لصاحبي المقتطف حضرها بعض الفضلاء ، فاقترح بعضهم السعي في تأليف مجمع لغوي ، فتم تأليفه برئاسة شيخ الجامع الازهر ، وكان من كبار اعضائه احمد تيمور باشا وحفني بك ناصف والشيخ احمد الاسكندري والشيخ احمد ابراهيم واحمد كمال باشا واحمد زكي باشا والشيخ مصطفى العناني والدكتور يعقوب صروف . وكان يوالي اجتماعاته في دار الكتب المصرية ، والف منهُ لجاناً تشتغل كل لجنة منها بفرع من فروع العلوم والفنون فتضع لمصطلحاته الكلمات اللائقة بها . وحال بينه وبين الاستمرار اشتغال مصر بحركتها الوطنية بعد انتهاء الحرب العظمى . فلما جُعل عبد الحميد بك ابو هيف مديراً لدار الكتب رأى ان يسعى في استئناف المجمع اعماله فدعا اعضاءه الباقين الى الاجتماع بدار الكتب مساء يوم الثلاثاء ١٣ جمادي الثاني سنة ١٣٤٤ (٢٩ ديسمبر ١٩٢٥م) فاجتمعوا برئاسة وكيل المجمع الشيخ محمد بخيت وألفوا منهم لجنة للسعي لدى الحكومة في الاعتراف بهِ . ثم انتقل عبد الحميد بك ابو هيف الى رحمة الله تعالى ورضوانه فلم يجتمع المجمع بعد ذلك

وفي ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٤٠ اجتمع بعض اعضاء المجمع الذي تقدم الكلام عليهِ ، وضموا اليهم خليطاً غير متجانس من الادباء ، واعلنوا تأسيس مجمع لغوي لتأليف معجم عصري يجمع بين مادة المعجم العربي القديم وبين ما استعمله الادباء المحدثون وما يضعه المجمع نفسه من الاوضاع والمصطلحات . قلت : ان هذه الجمعية تألفت من خليط غير متجانس لان فيمن انتسب اليهم — ولو بالاسم — رجالاً يعدون من كبار اهل الادب ، كما ان فيهم من لا علم له بالقواعد الاولى من علم الصرف، بل فيهم من لا يحسن مراجعة لفظة في القاموس المحيط ، وكانوا يحاولون ان يحصلوا من الحكومة على اعتراف رسمي يخولهم الحرية في العمل ، ويفتح لهم باب المساعدة على ما هم فيه ، فلم يظفروا ببغيتهم ، فكان ذلك قاضياً على مجمعهم

صفات عضو المجمع اللغوي

ان الصفة الاولى التي يجب ان تلاحظ في عضو المجمع اللغوي العلمُ بقوانين لغة العرب وتاريخ تطورها ، والشعور بروح العصر وما يتطلبه في اللغة من احوال . وهذه الصفة في عضو المجمع اللغوي ترجع الى القاعدة التي قلت في صدر هذا المقال ان من الواجب علينا ان نراعيها في جميع ما نحن عازمون على القيام به من ضروب الاصلاح . وفي الحقيقة ان تلك القاعدة ميزان التوازن في التجديد فاذا طغى احد جانبيها على الثاني كان في ذلك فقدُ التوازن ،

وكان في ذلك السقوط . فمعرفة قوانين اللغة اذا لم تكن مقرونة بمعرفة روح العصر وما يتطلبه في اللغة من احوال ، كانت حينئذ معرفة جافة وهي ما نسميه الجمود ، وقد رأينا ولا نزال نرى جناية الجمود على نهضتنا . والشعور بروح العصر وما يتطلبه في اللغة من احوال اذا لم يكن مقروناً بمعرفة قوانين اللغة ، نتج عن ذلك تمردٌ على تلك القوانين ، وعبثٌ باللغة ، وكانت عاقبته الفوضى والهدم والشتات

ان الفشل الذي كان من نصيب جمعية السيد توفيق البكري ونادي دار العلوم ومجمع دار الكتب وغيرها ناشيء عن شيء واحد وهو ضياع صوت الاقلية القائلة بالتوازن بين قوانين العربية والحاجة العصرية ، لطغيان جلبة الجمود وتهويش الفوضى وظهورهما على صوت الاصلاح

وماذا تنتظر من مجامع اكثر من فيها اما من هؤلاء المجددين الذين لا يأنسون بما في معجم لسان العرب من مادة اللغة لانهم لم يتعلموا كيفية المراجعة فيه فيكتفون بالمنجد ، وهم يسمون الفوضى حرية والاباحة تجديداً والتهديم اصلاحاً . وإما من الجامدين على ما في الكتب المؤلفة في العصور المتأخرة ، فلا هم رجعوا الى ينابيع علومنا اللغوية الاولى التي دوّنها ابن جني ومعاصروه ومشيختهم والتابعون لهم باحسان وكان علمهم عيناً ثرّة ستكون لنا مدداً سخياً يوم نباشر الاصلاح الحقيقي ، ولا هم عرفوا ما يقتضيه روح العصر فسدوا حاجة الناس فيه وساعدوهم على نيل مبتغاهم بما يحفظ للغة سجاياها الازلية الخالدة . فالصفة التي ينبغي ان تنشد في عضو المجمع اللغوي قبل غيرها هي المقدرة على حفظ هذا التوازن بين قوانين اللغة ومقتضى الزمان

المجمع اللغوي بين القديم والجديد

انا من القائلين بالتجديد الى اقصى حد تقتضيه حاجتنا ونهضتنا ، وما طرأ على عقيدتي هذه وهنٌ قط في يوم من الايام . اذ لا يعقل ان تكون صفحات الحياة البشرية في تغير ، وحاجاتها في تفاوت واختلاف ، ثم يأبى عاقل ان يأخذ بمقتضيات هذا التغير في صفحات الحياة ويصرّ على تجاهل ذلك التفاوت والاختلاف في حاجاتها . ولكن لفظ «التجديد» كلفظ «الاستقلال» ولفظ «حق الامم في تقرير المصير» صار يطلق على معانٍ تكاد تكون متناقضة ، فمن الواجب على المهتمين بامر التجديد ان يحددوا معناه ليتفاهموا في مدلوله ويكونوا من امرهم فيه على بينة فلا يُدني الواحدُ منهم الحنظلة من فمه وهو يحسبها فاكهة حلوة ، ولا يتناول السمّ مخدوعاً باسم آخر اطلق عليه

للتجديد في حركتنا الادبية والاصلاحية معنيان :

المعنى الذي يفهمه الانكليزي والالماني وافهمه انا معهما ، وهو ان اوضاع الامة ممثلة لكيانها الادبي ، وبقاء هذا الكيان متوقف على ان تحتفظ منه بكل ما ليس مضرّاً ، وان لا تضيف اليه من اوضاع الاغيار الا ما كان ضرورياً . فان لاوضاع الانكليز طابعاً خاصاً بهم كما ان لاوضاع الالمان طابعاً خاصاً بهم ، وترى كلاً منهما متجلياً في جميع ما يصدر عن

هؤلاء واولئك من صناعات واعمال وحركات . وانك اذا كنت من قرّاء كتبهم تكاد تلمس الاوصاف الخاصة بطابع كل منهم بادية في ذوق الطباعة وفي نوع الورق وفي شكل التجليد ، مع ان الحضارتين ترجعان الى اصل واحد . واذكر انني قرأت مرة فصلاً كتبه الاديب التركي الكبير سزائي بك ابن سامي باشا بعد اقامته الطويلة في بلاد الانكليز يذكر فيه تمسك الانكليز بما ليس مضرًا من اوضاعهم واذواقهم ، واقتناعهم بأن ما عندهم من ذلك لا يعلو عليه شيء من امثاله في الامم الاخرى ، حتى انهم اقنعوا فتياتهم بأن للجمال الانكليزي معاني من الرقة واللطف لا توجد في امة من امم الارض . وهم مع شدة تمسكهم بما يمتاز به كيانهم الادبي لا يفتأون يراقبون بكل وسائل المراقبة ما يحدث عند غيرهم من تقدم في الصناعة ووسائل القوة ، فلا يكاد غيرهم يخطو في ذلك خطوة حتى يأخذوا هم ايضاً بها ويحاولوا ان يزيدوا عليها . فالتجديد عندي ان نأخذ بالضروري من اسباب القوة والتقدم على هذا النحو ، مع الاحتفاظ بما ليس مضرًا من اوضاعنا وتقاليدنا ، لتبقى لنا الشخصية القومية التي نمتاز بها وتعصمنا عن أن نذوب فيمن هو أقوى منا . أما فكرة الجامعة الانسانية فليس لها محل في كتاب الايمان العصري الذي تدين به الامم القوية وستبقى كذلك من الآن الى الف سنة اخرى فيجب على الامم الضعيفة ان تبتعد عن هذا المرض القاتل جهد طاقتها

والمعنى الثاني من معاني التجديد هو الذي يريد أصحابه أن يقنعونا بأن المدنية الاوربية كلٌّ لا يجوز أن نأخذ ببعض عناصره دون بعض . وهؤلاء اذا قالوا « رجعية » فانما يريدون الاسلام ، واذا قالوا « القديم البالي » فيعنون الاوضاع العربية التي يتكوّن منها كياننا الأدبي . وبعض هؤلاء صريح الى حد أن يقول « كما يجب على المصري أن يضحي بنفسه في سبيل مصر يجب على مصر أن تضحي بنفسها في سبيل العالم » والبعض الآخر منهم أكثر خبثاً وأشدُّ تحفظاً فلا يسمح لنفسه أن ينطلق الى هذا الحد ولكنه يحاول أن يهدم من صدورنا وقلوبنا حرمة كياننا الأدبي ، وأن يصوّر ماضينا لاحداثنا بصورة كاذبة يسهل معها على الجيل الآتي أن يكفر بالشرق ويؤمن بالغرب وأن يجعل مصر وغير مصر من أوطاننا قرباناً يذبحه بين أيدي جبابرة القوّة والتسلّط في القارة الاوربية

وهناك فريق ثالث يعيش في زماننا ولكنه لا يجهد فكره في معرفة هذه الامور ، ولا يميز بين تجديد وتجديد ، فينصب نفسه لعداوة المعنيين جميعاً . ومادام هذا الفريق صادًا عن التجديد النافع المعقول فان نتيجة ذلك أن نبقى ضعافاً فتتمّ التضحية من سبيل آخر . ثم ان هذا الفريق بانكاره للتجديد المعقول النافع ينفّر الشباب عن كيانهم القومي ويقذف بهم الى الناحية الاخرى التي نسمع منها دعوة السوء ونداء التطرف والتفريط وسوف يكون حكمنا على هذا المجمع الذي انشىء حديثاً وموقفه منّا ومن حركتنا الاصلاحية ، بحسب العناصر التي يتكوّن منها والرجال الذين يكون المجمع تحت تأثيرهم ومسيّراً بأيديهم

الاستاذ سايس

ترجمتهُ ورأيهُ في قِدَم الانسان المتمدن

Prof. A. H. Sayce

ذاع اسمهُ في اوربا سنة ١٨٧١ اذ كان عمره ٢٥ سنة وذلك بمقالة عن اللغة الشمرية (او الشنعارية) وظل من ذلك الوقت الى الآن وهو ينشر المقالات والكتب عن اللغات القديمة وتواريخ الساميين والمصريين واديانهم فلم تمضِ سنة من هذه السنين الستين لم ينشر فيها كتاب او مقالة ممتعة من قلمهِ

ولد سنة ١٨٤٦ ودرس في كلية الثالوث بجامعة كمبردج وكان رئيسها حينئذٍ بردفورد جبسن الرياضي فمال سايس الى العلوم الرياضية ومنها علم الفلك ولعلَّ ذلك ساعده على حل الكتابات البابلية . ثم انتقل الى جامعة اكسفرد وعكف على الدروس القديمة (كلاسيك) وانضمَّ الى الاستاذ بتيسن لتعضيد البحث العلمي في تلك الجامعة فنبغ منها على اثر ذلك كثيرون من العلماء العاملين . وكان علماء الآثار قد اخذوا يحلون الكتابات القديمة التي وجدت في غرب آسيا بواسطة كتابة قديمة وجدت في ثلاث لغات الاولى فارسية قديمة ثبت لهم انها شبيهة بالسنسكريت والثالثة سامية اي بابلية اما الثانية فكان امرها لا يزال غامضاً فاثبت سايس سنة ١٨٨٥ انها مكتوبة بلغة عيلام بلاد الملك قورش

واهم هذه اللغات الثلاث السامية البابلية لأن منها عُرف تاريخ البابليين والاشوريين وغيرهم من شعوب غرب آسيا الذين كانوا يكتبون بهذه اللغة . ولكن ثبت ان البابليين الذين كانوا يستعملون هذه اللغة اقتبسوا اسلوب كتابتهم وعمرانهم واكثر دياناتهم من شعب بائد اقدم منهم كانت لغتهُ لا تزال مجهولة . ووجدت الواح كثيرة في نينوى مكتوبة بلغتين وأُتي بها الى المتحف البريطاني فاتضح انها قواميس وكتب قراءة كان البابليون الساميون يتعلمون بها تلك اللغة القديمة التي كانت محسوبة لديهم لغة مقدسة. وكان اوبرت وهنكس قد وجدا انها ليست سامية فكان حلها اول ما وجه سايس همةُ اليهِ فنشر في مجلة علم اللغات (فيلولوجي) مقالة سنة ١٨٧١ في حل كتابة يذكر فيها الملك دنجي ملك اور الذي نشأ بين سنة ٢٤٥٦ و٢٣٩٩ قبل المسيح . وأخطأ سايس حينئذٍ بمتابعة هنكس في حسبانهِ الكتابة اكادية ثم ثبت لهُ انها شمرية كما قال اوبرت . ودرس تلك اللغة درساً مدققاً وعرف لفظها وقواعدها. وقد ساعدتهُ معرفتهُ اللغة الشمرية على تأليف كتابهِ في قواعد اللغة الاشورية سنة ١٨٧٥ . ثم جعل يترجم ما يقع له من الكتابات الاشورية التاريخية والدينية والفلكية . وقد نشرت ترجماتهُ هذه في سبعة مجلدات من كتاب اخبار الماضي Records of the Past ومما حققهُ فيها ان السنة البابلية (او الشمرية) كانت تبتدىء في الاعتدال الربيعي . وترجم فصلاً يقال فيهِ

ان الشمس كانت تنزل حينئذ برج الثور بحسب ان ذلك كان في القرن السادس والعشرين قبل المسيح ثم ثبت انهُ كان في القرن التاسع عشر قبل المسيح . لان برج الثور كبير جداً نزلت الشمس اوله في القرن الخامس والاربعين قبل المسيح ودامت تنزله الفي سنة اي من سنة ٤٥٠٠ قبل المسيح الى ٢٥٠٠ قبل المسيح . وكان ليرد Layard قد وجد كتابات سفينية كثيرة فاكتشف سايس انها مكتوبة باللغة الثانية من لغات كتابات داريوس وانها عيلامية ثم وجدت كتابات اخرى من هذا النوع ثبت منها ان اللغة العيلامية كانت لغة واسعة لامة ذات عمران كبير

وقرأ اللغة السنسكريتية على مكس ملر واحسن اليونانية واللاتينية وتعلم كل اللغات الاوربية فاتسعت معارفهُ اللغوية جداً . وله القول المأثور وهو ان قوام اللغة المميز لها انما هو قواعدها وتصاريفها وتراكيبها اي صرفها ونحوها لا الفاظها . وله كتب ممتعة في هذه المواضيع مثل مقدمته في علم اللغات ومبادىء علم المقابلة بين اللغات

ومن سنة ١٨٨٥ اتجه اكثر اهتمامهِ الى تاريخ الاديان ولا سيما اديان مصر وبابل والديانة الموسوية . وله في هذا الموضوع كتب كثيرة مثل «ديانة البابليين القدماء» و « نور جديد من الآثار» و «حياة اشعيا وعصره» و «الانتقاد الاعلى وحكم الآثار» و« تاريخ العبرانيين القديم» و« الحقائق الاثرية وتخيلات الانتقاد الاعلى» و «علم الآثار والكتابات السفينية» . وله خطب كثيرة دينية وعلمية في مثل هذه المواضيع . ومقالات شتى في المجلات العلمية ولاسيا اعمال الجمعية الملكية الاسيوية . وكان من اكثر العلماء بحثاً في اللغة الحثية وتاريخ الشعب وله في ذلك كتاب مشهور موضوعهُ « الحثيون وتاريخ مملكة منسية » طبع اولاً سنة ١٨٨٨

قدم الانسان المتمدن

من أكبر بواعث الحيرة التي كان المؤرخ يعانيها -- وقد ظلَّ يعانيها الى عهد قريب— سيادة الاعتقاد بحداثة نشوء الحضارة وقصر عهدها والقول بانحطاط العمران وتقهقر الثقافة بدلاً من ارتقائهما . وكلا الاعتقادين مستمدٌ من حالة اوربا في القرون الوسطى . فالاعتقاد بانقضاء « عصر الحضارة الذهبي » نشأ بعد سقوط الامبراطورية الرومانية وسيادة العصور المظلمة . فكان المفكرون يقولون ان عهد الانسان المتمدن كان قصيراً والوثائق التاريخية التي ترتدُّ بالحضارة الى ازمان متوغلة في القدم غير جديرة بالعناية والتصديق واصبح ابطال الممالك القديمة وكأنهم حديث خرافة وجرَّدت الامبراطورية الشرقية العريقة من روعة القدَم

ولكنَّ فجر عصرٍ جديدٍ في تاريخ العمران انبلج حديثاً . فالاسلوب العلمي بمعاونة المعول والرفش فتح امامنا عالماً جديداً فيهِ تتخذ الحقائق المشاهَدة فيهِ مقام النظريات . فنجم عن ذلك ان علماء الآثار اخذوا يكتبون من جديد قصة قِدم الانسان التي شرع الجولوجيون يجمعون نثارها من مدوَّنات الصخور . فعهد الانسان المتمدن يجب أن يرتدَّ الى الوراء

طاوياً القرون نتيجة للبحث الاركيولوجي ، كما ارتدّ عهد الانسان المتوحش متغلغلاً في جوف الماضي نتيجة لمباحث الجولوجيين والانثربولوجيين . فالبحث الأثري في القرن الأخير كشف لنا عن عالم جديد هو عالم الماضي المتمدن المتوغل في القِدم

وفي مصر التاريخية نجد ابلغ الأمثلة على ذلك . فاذ نحن نرى المؤرخين الأدباء يتسابقون للتقليل من قِدَم الحضارة المصرية نرى المنقبين بمعاولهم ورفوشهم يكشفون لنا عن حقائق تقلب نظرنا الى قِدَم هذه الحضارة رأساً على عقب . ففي سقارة كشف المستر فرث عن مبانٍ لانعرف لها مثيلاً في تلك البلاد . فاذا قصرنا نظرنا على حقبة الملك زوسر — الدولة الثالثة — المحسوب الى عهد قريب ملكاً خرافيًّا ، وتأملنا ما في هذه المباني من الفن المعماري الدقيق قلنا ان مصر بلغت في ذلك العهد اوج الرقي . فالبناء والفن واللبن المطليّ تشير كلها الى قرون طويلة من النمو والارتقاء سبقت درجة الكمال البادية في آثار سقارة . ثم اذا نحن تأملنا الكتابة الهيروغليفية على جدران هذه المباني وجدنا انها كانت قد بلغت من الكمال والاحكام في عهد زوسر ما كانت عليه في عصر رعمسيس وداريوس بعد ذلك بعشرة قرون او اكثر فلا ريب في ان قروناً طوالاً مرّت عليها قبل ذلك . وهناك دلائل على ان الخط الهيراطي كان مستعملاً حينئذٍ . اما ادوات المعيشة اليومية كأثاث البيت والحلى والملابس وغيرها من ادوات الزينة فتدل مكتشفات الدكتور ريسنر الاميركي في مدفن الملكة هتب هرس — ام الملك خوفو باني هرم الجيزة الاكبر — ان مصر وحضارتها كانتا في مطلع عهد الدولة الرابعة في اسمى مراتب الرقي

ثم اذا التفتنا الى بابل وجدنا كذلك ان المكتشفات الحديثة ترتدُّ بنا الى فن من اسمى الفنون التاريخية التي عرفناها في عصر قديم . فقد كانت بابل القديمة ، في نظر المؤرخين الى عهد قريب مقصّرة في ميدان الفنون ، سواءٌ في ذلك بابل الشمرية وبابل الساميّة . فسكانها كانوا في الغالب رجال تجارة وعمل . هم الذين شرعوا اساليب البنوك وطرائق التجارة الدولية ولكن حسّهم الفني كان دون براعتهم التجارية . على ان ما كشف في المدافن الملكية باور الكلدانيين على يد المستر وولي واعوانهِ يفسد حكمنا هذا افساداً تامًّا . فالتحف المصوغة من ذهب وفضة ، والاصداف المنزلة باشكال تخلب اللب ، تشهد بانهم بلغوا في فنهم اعلى المراتب. ومع ذلك فان هذه المدافن وما تحتوي عليها ترجع الى العهد السابق للتاريخ المدوّن في بابل. يؤيد ذلك ان الكتابات القليلة التي وجدت مع هذه التحف النفيسة كانت بلغة مسمارية لم تبلغ كمال النمو . فلما انشأ سرغون الامبراطورية البابلية الاولى سنة ٢٧٠٠ ق . م كان قد مضى على الكتابة المسمارية عهد طويل من النمو التاريخي . وجنباً الى جنب مع التحف الفنية عثر المنقبون على الاساليب التي جرى عليها هذا الشعب القديم في تقديم الضحايا — بالعشرات — وهو عمل يذكرنا بداهومي لا بالشرق الادنى . فالضحايا البشرية لم تكن معروفة في بابل التاريخية ، ومجرّد وجودها في تاريخ البلاد السابق كان مجهولاً كل الجهل . مع ذلك نرى ان مدافن اور

لا تمتدُّ الى اقدم عهد في التاريخ البابلي . فالستر وولي زعيم المنقبين هنا يقول ان تحت الطبقة التي وجدت فيها هذه المدافن خمس طبقات هي ولا بدَّ اقدَم منها . والنقب فيها يرجع بنا الى العهد الجولوجي القديم لما كانت مستنقعات بابل في طور التكوُّن على رأس الخليج الفارسي

وقد تكون هذه المدافن ، الحديثة العهد اذا قيست بما قبلها خاصة بشعب سابق للشعب الشمريّ . فالشمريون يدعون نفوسهم «الشعب ذو الرؤوس السوداء» وهذا القول ينطوي على ان شعباً اشقر كان يقطن تلك البلاد . يؤيد ذلك ان الفن الشمري يمثل الشمريين اناساً ذوي رؤوس مسفطة مع أن أكثر الجماجم القديمة التي كشفت « في اور مصفحة (أي مستطيلة) » بشهادة السر ارثر كيث الذي فحصها . ولا يخفى ان الأموريين مرسومون في النقوش المصرية على أنهم شعب اشقر . اشقر الشعر ازرق العيون . والراجح ان الميتانيين العراقيين تحدَّروا منهم وهم اسلاف الشمريين في تلك البلاد . وقد كشف الدكتور سبيزر في تيب جوْرا عن طبقتين تحتويان على آثار عمرانية تحت الطبقة الخاصة بعصر البرونز الذي ظهر فيهِ الشمريون . والآثار التي وجدت في هذه الطبقة الأخيرة تشبه الآثار التي وجدت في اور والأبيِّض ويرجع تاريخها الى دولة اور الاولى (حوالي ٣١٠٠ ق. م.) اما الطبقات السابقة لها فترتدُّ بنا الى العصر الحجري الجديد وعصر الخزف المدهون

وعثر المنقبون في مدافن اور على آثار تجارة دولية واسعة النطاق وصناعة تعدين راقية . فقد وجدت حلي وأدوات مصنوعة من الذهب والفضة والنحاس وبعضها منزَّل باللازورد . والراجح ان الذهب جاء من خليج فارس واما الفضة فمن مناجم جبال طوروس . وهذه الحقيقة متسقة مع ما كشف حديثاً في الصين وشمال الهند الغربي . فقد عثر السر جون مارشال في موهنجو دارو وهاربا (الهند) على آثار مدينة تدلُّ كل الدلائل على شدة اتصالها بعيلام وبابل الشمرية . وفي الصين وجد الاستاذ اندرسن خزفاً مصقولاً ومدهوناً من العصر الحجري الجديد وهو يمت بصلة الى الخزف الذي وجد في سوسا من ذلك العصر وقد وجد خزف شبيه بالاثنين في بابل وفي بلدة سكشي غزو الى الشمال من خليج انطاكية . ثم ان مباحث الاستاذ لي آت مِنْ الصيني في هونان اثبتت ان دولة شانغ (١٧٦٦ — ١١٥٤) ق.م. ليست خرافية قط وعليهِ فلا بدَّ ان تكون كتابتها وعمارتها قد مرَّت في دور طويل من النمو قبلما بلغت ما بلغتهُ من الاتقان والرقي . كذلك يستدلُّ من الالواح المسمارية الكبدوكية التي كشفت في كرا ايوك على اتساع تجارة البابليين ورقيها . اما ونحن نعرف تاريخ هذه الألواح فالاشارة فيها انما هي الى تجارة البابليين في عهد الدولة الاورية الثالثة (٢٤٠٠ — ٢٣٠٠) ق.م. وغني عن البيان ان الزمن السابق لنشوء تجارة بلغت مرتبة سامية من الرقي، بما فيها من وسائل النقل واساليب الكتابة والحساب والمعاملة طويل جداً . فالانسان المتمدن اقدم جداً مما كنا نظن

مهاتما غاندي

— ٥ —

العودة الى الهند

حان الوقت الذي اغادر فيه انجلترا ، وحصلت على اجازة بالسفر على الباخرة « آسام » في شهر يونيه . وكانت الرياح « الموسمية » Monsoon قد اخذت تهب عند ما بلغنا بحر العرب وظل الجو عاصفاً طوال سياحتنا الى بومباي ، بعد ان غادرنا ميناء عدن . واصيب كل من كان على الباخرة بدوار البحر ، غير أني ظللت مُعَافى ، وشعرت بكثير من السرور والمرح اذ كنت اقف على ظهر السفينة ارقب هياج العاصفة وتلاطم الامواج الثائرة . وكان اكثر المسافرين مصابين بالدوار ، فلم يكن يحضر الى غرفة الطعام للافطار سوى اثنين او ثلاثة أنا واحد منهم ، فتقدم لنا عصيدة القرطم في اطباق نتشبث بها في احضاننا لئلا تفلت منها العصيدة وتلوثنا

كانت العاصفة التي ترسل باهازيجها في الخارج ، رمزاً الى العاصفة الثائرة في نفسي . على أن عاصفة الطبيعة لم تستطع ان تهزني او تزعجني . وعن هذا عجزت ايضاً العاصفة التي كانت تثور في نفسي . وكنت اتوقع ان اواجه عاصفة اخرى يثيرها اهل طائفتي . اضف الى ذلك ما كنت اشعر به من عجز عن ان ابدأ حياتي كمحام . ولما كنت بطبعي مصلحاً ، اخذت أكدّ نفسي في التفكير بأية ناحية من نواحي الاصلاح أبدأ . ولكن القدر كان يخبأ لي اكثر مما جال في خاطري

حضر أخي الاكبر من « كاتياوار » ليتلقاني على المرفأ . وكان قد تعرف بالدكتور « مهتا » واخيه . ونزلنا ضيفين في بيت اخي الدكتور « مهتا » بعد ان الح على اخي الحاحاً . وبذلك تحولت المعرفة التي بدأت في انجلترا الى صداقة دائمة بين الاسرتين وظللت طوال رحلتي الى وطني انطلع الى لقاء أمي . وكنت اجهل انها لم تعد بعد بين الاحياء لتتلقاني بذراعيها وتضمني الى صدرها . ولقد القى اليَّ اخي بهذا الخبر المحزن ، بعد ان اخفاهُ عني في خلال اقامتي في انجلترا ، واراد بذلك ان يكفيني مؤونة الصدمة وأنا في بلاد اجنبية . والحق أن هذا الخبر كان صدمة عنيفة لي ، ولكن لم انطوح مع الحزن والاسى . وكان حزني على فقد امي اعظم من حزني على فقد أبي . غير اني اذكر تماماً اني لم اتمادَ في التعبير عن حزني الى الحد الذي يخرجني عن الوقار ، حتى لقد استطعت ان احبس دموعي ، وان امضي في اعمالي كما لو كنت في حالتي العادية ، وكأن لم يكن في قلبي حزن عميق

قدمني الدكتور « مهتا » الى كثير من الاصدقاء ، كان أحدهم أخاه واسمهُ « ريفاشنكر جاجفان » وكان تعارفنا مقدمة لصداقة طويلة ظلت طول عمرنا على احسن حال . ولكني أريد ان اشير على وجه خاص الى « تقدمة » قدمني بها الدكتور « مهتا » للشاعر رَيْشَانْد Raychand وهو يمت بقرابة الى أخ كبير من اخوة الدكتور « مهتا »، واحد المساهمين في اتحاد الصاغة . ولم يكن هذا الشاعر قد تجاوز الخامسة بعد العشرين من عمره . غير ان اول لقاء بهِ اقنعني انهُ رجل قويم الاخلاق واسع المعرفة .وكان يُلَقَّبُ « بالمَعْلَمة »[1] Shatavadhani وحرضني الدكتور « مهتا » أن امتحن قوة ذاكرته ، فاخذت أعيد كلمات مما اعرف من مختلف اللغات الاوربية ، وسألتهُ ان يعيدها ، فاعادها على نفس الترتيب الذي نطقتها بهِ .ولقد شعرت باني احسده على كفايته هذه ، غير اني لم أوخذ بها . اما ما أثار اعجابي بهِ بحق فسعة معرفته بالكتب المقدسة واخلاقهُ العالية ، وتحرقهُ واشتهاؤهُ ان يحقق ذاته ويصبح بها مستقلاً في افق جديد . وكان هذا غرضهُ الذي من اجله يعيش . وكثيراً ما كان يردد « ابياتاً » من شعر « مكتاناد » Muktanad كنت اشعر بانها محفورة على صفحات قلبه :—

« أشعر باني في نعيم عندما « اراه » (الله) في كل عمل من أعمال يومي . والحق انهُ الخيط الذي يصل حياة مُكْتَاناد »

كانت تجارة « ريشاند—باي »[2] تقوّم بمئات الالوف من الروبيات. وكان خبيراً باللآلئ والماس . ولم تكن تعترضهُ مشكلة من مشاكل العمل الا وتصبح بين يديه سهلة هينة .ولكن كل هذه الاشياء لم تكن المحور الذي تدور من حوله عَجَلَة حياتهِ . اما حياته فكانت تدور عجلتها حول الشهوة في ان يرى الله وجهاً لوجه . فكنت ترى بين الاشياء الكثيرة المتناثرة على مكتب عمله كتاباً دينيًا ويومياته . فكان لدى انتهائهِ من عمله يتناول الكتاب الديني او اليوميات . واكثر ما نشر من مؤلفات ، لم تخرج عن انها منتخبات من يومياته . والرجل الذي يستطيع أن يعكف توًّا ، وبمجرد ان يخلص من اعماله التجارية ، على الكتابة في الاشياء الخفية العميقة في اغوار النفس ، ليس برجل تاجر على اطلاق القول، بل رجل يبحث عن الحق بكل معناه . ولقد شهدته مأخوذاً بابحاثه الروحية وهو مغمور في لجة عمله التجاري مرات لامرة واحدة . ولم الاحظ انهُ فقد توازنه العقلي في اي ظرف من الظروف . ولم يكن بيننا اية علاقة دنيوية تربطنا ،ومع هذا فكنت اتبعهُ متابعة الظل. كنت في الاكثر محامياً مغموراً. ومع هذا فكنت لا أراهُ الا ويجرني الى الكلام في مسائل ذات صبغة دينية وعلى الرغم من

---

(١) الكلمة الهندية Shata-vadhani معناها الشخص الذي يستطيع ان يتذكر او يعي مائة شيء في آن واحد ، ويخيل الي ان كلمة معلمة اقرب كلمة عربية يمكن بها التعبير عن هذا المعنى (المترجم)

(٢) العادة المتبعة في مقاطعة جوجرات وبعض مقاطعات غيرها في الهند تقضي بان يضاف مقطع «باي » أو بهاي bhai (ومعناها اخ) الي اسم الصديق تكريماً واظهاراً للود

اني كنت حتى ذلك الحين ما ازال ألتمس طريقي تلمساً ولم يكن لي أية لذة في المناقشات الدينية، كنت أجد في حديثه هزة لا اعرف مبعثها . ولقد كان هذا سبباً في ان ازور الكثيرين من حكماء الدين ، وحاولت ان اقابل الكثيرين من رؤساء الطوائف الدينية . ولكن من غير ان يترك واحد منهم في نفسي من الأثر ما ترك « ريشاند—باي » فان كلماته كانت تنفذ رأساً الى اعماق نفسي، وحازت قوة عقله عندي من الاحترام ما لا يقل عن احترامي لجدّه الادبي، وثقتي التي لا يمكن ان يكتنفها شك في أنهُ سوف لايغشني او يغويني ،وانهُ سوف يطلعني دائماً ويفضي بذات نفسهِ . ولذا لم اكن اجد غيره من ملجإ ، كلما ساورتني الازمات الروحية العنيفة

ومع هذا ، وعلى الرغم من عظيم احترامي له ، فاني لم استطع أن ازله من قلبي منزلة « الغورو »(1) — Guru — من نفسي . فانهذه المكانة ظلت خالية ، وما ازال ابحث عمن يشغلها حتى الآن . على اني اعتقد بصحة النظرية الهندية في « الغورو » وقيمته في تحقيق السمو الروحاني . ويخيّل اليّ ان هناك قسطاً عظيماً من الحق في الحكمة القائلة بانّ المعرفة الحقيقية غير مستطاعة من غير « غورو» . فان معلماً غير كامل العدة في المسائل الدنيوية امر قد يحتمل وقد يتسامح فيه الانسان ، اما في المسائل الروحانية فالامر على خلاف ذلك . وان معلماً كاملاً في المسائل الروحانية ، بكل ماتحتمل صفة الكمال من المعاني ، هو دون غيره الذي يصح للانسان أن يتوّجه ملكاً على عرش القلب والوجدان . وعلى هذا يجب ان يستمر الانسان يكافح طوال حياته في سبيل بلوغ ذروة الكمال. لان كل انسان انما يصل الى « الغورو» الذي يستحقه . وكفاحنا في سبيل الكمال هو حق الانسان الطبيعي . والكمال يحمل في ثناياه ماينتظر الانسان في الدنيا من ثواب . اما الباقي بعد ذلك فبين يدي الله . وعلى الرغم من انني مااستطعت أن اضع « ريشاند—باي » في موضع « الغورو » من قلبي ، فانه كان في كثير من الحالات مساعدي ومرشدي . ان ثلاثة من المحدثين استطاعوا أن يتركوا فيّ اثرهم الثابت ويختلبوني اختلاباً . ريشاند—باي بعلاقته الشخصية، وتولوستوي بكتابه «ملكوت الله في نفسك» (2) ورسكن بكتابه «حتى هذه النهاية» (3)

عقد اخي عليّ آمالاً كباراً . وكانت تحتكم فيه رغبة المال وبعد الصيت وذيوع الاسم وكان كبير القلب متجاوزاً عن الاخطاء ، وفوق ذلك سليم الفطرة ساذجها ، فالتفّ حوله كثير من الاصدقاء الاوفياء ومن طريقهم حاول ان يزوّدني بالقضايا والمنازعات القضائية . وتخيّل اني عما قريب سوف احصل على قدر كافٍ من المرانة والتقدم في العمل ، وعلى هذا التقدير اسرف في نفقات البيت والمعيشة. ومضى يعمل بكل جد ليمهد لي سبيل العمل كمحام أمام المحاكم

كانت العاصفة التي اثارها زعماء طائفتي قبل سفري الى انجلترا لا تزال ثائرة ، حتى لقد

---

(1) حكيم روحاني . وهو ليس اسم شخص ، بل اسم يطلق على من يتصف بالحكمة الروحانية ويوجه غيره الى الرشد (2) The Kingdom of God is Whitin You (3) Unto This Last

انقسمت الطائفة قسمين ، حكمت احداهما توًّا لدى رجوعي الى الهند بدخولي مرة اخرى الى حظيرتها ، ومضت الاخرى مستمسكة بقرار فصلي الذي صدر قبل سفري . فمن اجل ان يرضي اخي الطائفة الاولى، اخذني قبل سفري لراجكوت الى «ناسك» وغسلني في النهر المقدس ، ولما وصل الى راجكوت اعدّ وليمة طائفية لتكون بمثابة كفّارة عن ذنبي . ولقد كرهت كل هذا وزهدت فيه . ولكن حب اخي لي كان عظيماً ؛ ولم يكن تعلقي به يقلُّ عن حبه لي . لهذا رضيت بأن اعمل كآلة تتحرك كما يريد ، معتبراً ان ارادته قانون عليّ الطاعة له . على أن هذا قد فضّ اشكال رجوعي الى الطائفة من طريق عملي عرف اخي كيف يسلك السبيل اليه

لم احاول مطلقاً أن أرجع الى الفريق الذي رفض ان اعود الى الطائفة . وكذلك لم اشعر بأي شعور من الحقد ازاء رؤسائها الذين كانوا سبباً في اخراجي من حظيرة الطائفة وحالوا دون رجوعي اليها . وفوق هذا ظللت احترم قرار الطائفة الذي صدر بفصلي وحرماني . فقد كان محرماً عليّ أن اتناول الطعام في بيت اقرب اقاربي حتى اختي وزوجها ، او ان اتناول شربة ماء في بيت واحد منهم . وكثيراً ما حاولوا ان يعدوا العدة ليخالفوا ذلك الامر سرًّا وعلى غفلة من رجال الطائفة . غير أني كنت ارفض دائماً ان اعمل في السر عملاً ، اخجل من ان آتيه جهراً

وكان سلوكي واستقامتي سببين في أن لا يحاول رجال الطائفة ازعاجي بصورة من الصور . بل على الضد من ذلك لم اشهد من كل أفراد الطائفة الا كل كرم وسخاء . وعلى الاخص من الفريق الذي ظل على رأيه في حرماني وطردي . وزادوا على ذلك انهم ساعدوني في عملي من غير أن يتوقعوا مني أية مساعدة أقوم بها من جانبي لصالح الطائفة : ولو انني حاولت ان اعود الى حظيرة الطائفة واخذت أدعو الى قبولي مرة اخرى ، او لو انني سعيت الى شق الطائفة الى شيع وفرق وان ازيد صدعها اتساعاً ، أوهاجت رؤوس الطائفة وتحديتهم ، فما لا شك فيه انهم كانوا يثأرون مني ويقابلون عملي بمثله . ولو أنني لم اعمل على تهدئة العاصفة ، لوجدت نفسي ، لدى وصولي الى الهند ، في لجة من التهييج الطائفي ، كانت بلا ريب تضطرني ان اتصنع ما ليس في نفسي ، وأن اانافق وان اتخذ الرياء قناعاً

امّا علاقتي بزوجي فكانت ماتزال الى ذلك الحين على غير ما أرغب ان تكون . فان اقامتي في انجلترا لم تشفني من مرض الغيرة الآكلة . وظللت أبدي شكي في كل شيء مهما كان تافهاً . وبذلك ظلت كل شهواتي العزيزة عليّ غير مكتفية . وصممت على ان تتعلم زوجي القراءة والكتابة وان اساعدها في التعليم ، ولكن شهوتي وقفت في الطريق وكان عليها أن تحتمل على غير ارادة منها مسؤولية تقصيري وكسلي . وحدث مرة أني تطوحت في النزق الى حد أني ارسلتها الى بيت أبيها ، ولم اقبل ان تعود الى بيتي الا بعد ان اذقتها التعاسة كيف يكون مذاقها ومرارتها . ولقد اقتنعت بعد ذلك بقليل ان هذا كله لم يكن مني الا حمقاً واسرافاً

اخذت افكر في اصلاح تعليم الاولاد . فقد كان لاخوتي أولاد ، وكان ابني الذي تركته قبل سفري الى انجلترا طفلاً قد شب وشارف على الرابعة من عمره . واتجهت رغبتي الى ان أعوّد هؤلاء الاولاد العكوف على الرياضة الجسمية ليصبحوا اقوياء الابدان مشدودي الاصلاب قادرين على الاحتمال والصبر ، وان اتخذ من تجاربي الشخصية إماماً في تنشئتهم. ولقد شجعني على ذلك أخي ، ورجح نجاحي في هذا الشأن فشلي . على ان عشرة الاولاد كانت من مباهجي التي امرُّ بها ، وما ازال حتى اليوم اعكف على عادة اللعب مع الأولاد والتفكه بهم ، ومنذ ذلك الحين بدأت أفكر في اني ربما اصلح لان اكون معلماً صالحاً للاولاد

وظهر لي ان الضرورة تدعو الى اصلاح طرق «التغذية» . وكان الشاي والقهوة كلاهما قد وجدا مكاناً في نظام المنزل . وعمل اخي على أن يكون جواً انجليزيًّا صرفاً في البيت استعداداً لقدومي . ولذا اخذت الآنية الخزفية تدخل في حيز الاستعمال بعد ان كانت تظل محفوظة للمناسبات . واكملت « اصلاحاتي » ما كان ينقص طريقة استعمال هذه الاشياء من نظام . واستبدلت الشاي والقهوة ، بعصيدة القرطم والكاكاو . ولكنهما في الحقيقة اصبحا اضافيين على الشاي والقهوة . وكنا نعرف من قبل الاحذية والنعال ، واكملت انا « التفرنج » باستعمال الأردية الاوروبية

بدأت النفقات تزيد . وكنا نضيف كل يوم شيئاً جديداً . ولاجرم اننا نجحنا في زيادة النفقات اوكما يقول اهل الهند نجحنا في ان نربط فيلاً أيضاً على بابنا ، ولكن كيف يمكن ان نسد نفقاته ؟ وكان البدء بالعمل في المحاماة براجكوت معناه سخرية محققة النتيجة . ذلك لاني كنت فاقد الخبرة بكل مايحتاج اليه «الوكيل»[1] من المعلومات والاجراءات ، وكنت اطلب عشرة اضعاف الأجر الذي يطلبه «الوكلاء» في الهند . فلم اسقط على صاحب قضية بلغ به النزق ذلك المبلغ الذي يغويه على ان يوكلني في دعوى . وحتى لو فرض ووجد ذلك «الانسان» فهل يصح ان اضيف الى جهلي ما يحتمل ان ينتج طغيان النصب والاحتيال من نتائج تضاعف مقدار ديني ومسؤولياتي لهذه الدنيا ؟

ونصحني بعض الاصدقاء ان اهبط «بومباي» عسى ان احصل على بعض المرانة العملية امام المحكمة العليا ، ولأدرس القانون الهندي ولأحصل على ما يمكن ان احصل عليه من الدعاوى القضائية . فقبلت النصح وذهبت الى «بومباي» . وفيها استأجرت منزلاً ، وطباخاً لا يقلُّ جهله بالطهي عن جهلي به . وكان « برهماني » اسمهُ « رافيشنكر » . ولم اكن اعامله معاملة الخادم ، بل كأنهُ احد افراد المنزل . وكان يصب الماء على جسمهِ صبًّا ، ولكنهُ لا يستحم ابداً . وكانت ملابسهُ قذرة على الدوام ، كما كان على جهل مطبق بكل كتب الهند المقدسة . ولكن كيف يتسنى لي ان احصل على طاهٍ اليق منهُ ؟ . كنت اسأله — يمكن ان تكون جاهلاً

(١) Vakil — اي المحامي الذي يخرج من مدارس احقوق في الهند

بالطهي ، ولكن الا يمكن ان تعرف شيئاً من عبادتك اليومية ؟ — « اعبادتي اليومية تذكر ياسيدي ! ان المحراث هو عبادتنا والفأس هي مراسمنا الدينية . انني انما اعيش اعتماداً على مراحك . فاذا فقدت الامل فيها فان الزراعة تكون ملجئي وظهيري »

هنا بدأت اكون معلماً ألقّن « رافيشنكر » ما يحتاج اليهِ من المعلومات الاولية . وبدأ الوقت يمر بي في بطء مسئم ، فأخذت اطهي نصف طعامي . وأجري الطهي على الطريقة النباتية الانكليزية . فبنيت موقداً وبدأت اقوم بخدمة المطبخ مع « رافيشنكر » . وكنت لا اشعر بحاجة الى غذاء بين الوجبات ، وعلى هذا جرى خادمي . ولم يبق لي من شكوى اوجهها اليهِ الاّ ادمانه القذارة ، حتى انهُ لم يكن يحفظ الطعام نظيفاً نظافة كافية

غير انني لم استطع المقام في « بومباي » اكثر من اربعة اشهر او خمسة لانهُ لم يكن لديّ من الدخل ما يسد النفقات . وبعد ان يئست من ان احصل على عمل في « بومباي » غادرتها الى راجكوت ، وعدت الى مكتبي الاول . وهناك بدأت اعمل عملاً معتدل القيمة ، وبلغ متوسط دخلي ثلاثمائة روبية كل شهر . ولكن هذا لم يكن راجعاً الى مهارتي بل الى تأثير اخي . فان شريكه كان ذا خبرة بالاعمال ، فكان يعهد اليّ بالبسائط ، ويعهد بالمشكلات الى كبار المحامين

وأرى انهُ من الواجب عليّ ان اعترف انني بدأت في ذلك الوقت افكر في ضرورة اعادة النظر في مبدئي الذي جريت عليهِ من الامتناع عن دفع عمولة (سمسرة) . فقد أنبئتُ ان الحالة هنا على الضد مما اعهد . والعمولة تدفع في « بومباي » للسماسرة ، ولكنها في راجكوت تدفع الى الوكلاء الذين يمونون المحامي بالقضايا . أما القاعدة هنا فكما هي في بومباي ان يدفع كل المحامين ومن غير استثناء ، نصيباً مئوياً من اتعابهم سمسرة . اما كلام اخي في هذا الموضوع فكان مقنعاً . قال لي : « ترى انني شريك مع وكيل آخر . واني اميل دائماً ان نعهد اليك بكل القضايا التي نعرف انهُ في مقدورك مباشرتها ، فاذا رفضت ان تدفع عمولة لشريكي ، فمن المحقق انك تضعني في مركز حرج . ولما كنا نشترك معاً في معيشة واحدة فان اتعابك تعد دخلاً مشتركاً لكلينا ، وينالني من ذلك نصيب . ولكن ما يكون امر شريكنا ؟ افرض مثلاً انهُ عهد بقضية بين يديهِ الى محامٍ آخر ، فانهُ ينال منهُ عمولة » ولقد اقتنعت بهذا الكلام ، وشعرت بأنني اذا اردت ان اعمل كمحام ، وجب عليّ ان اضحي بمبدئي في دفع العمولة ، وفي مثل الحالات التي ذكرها اخي على الاقل . هذا ما ساورني وتردد في نفسي ، او بكلام اوضح ، بهذا خدعت نفسي وغششتها . ولا مندوحة لي عن ان اضيف الى هذا انني لا اذكر اني دفعت عمولة ما في حالة غير هذه الحالات التي جرى عليها كلام اخي . وعلى الرغم من انني جاهدت في سبيل ان اوفق بين المتقاضين ارضاء لسر مهنتي ، فقد صدمت في ذلك الحين اول صدمة عنيفة في حياتي . ولقد سمعت كثيراً من قبل ما يعنى الهنود بضابط انكليزي ،

ولكني لم اكن قد وقفت امام ضابط انكليزي وجهاً لوجه حتى ذلك الحين

كان اخي سكرتيراً ومستشاراً للمرحوم «رانا بورباندر» وقد عُلّقت في عنقه من بعد ذلك تهمة انهُ اشار بنصيحة فاسدة لما كان يشغل ذلك المنصب. ووضعت المسألة بين يدي القومسير السياسي ، وكان في صدره من اخي حفيظة . وكنت اعرف ذلك الضابط لما كنت في انكلترا ، ومما يمكن ان اصرح بهِ انهُ كان على صداقة معي . وظن اخي انهُ من المستحسن ان الجأ الى هذه الصداقة ، فألقي بكلمة طيبة عند الضابط تشفع لاخي بعض الشيء . وظن اخي انهُ في استطاعتي ان اوضح حقيقة الامر للضابط لعلّ ذلك يخفف من حفيظته نحوه . غير اني لم اوافق مطلقاً على هذه الفكرة ، لأني لم ارد ان اجعل لصداقة شبت مصادفة في انكلترا مدخلاً في مثل هذه الامور . فاذا كان اخي حقيقة قد اخطأ ، ، فأي شيء يفيد تدخلي او توصيتي ؟ واذا كان بريئاً ، فما عليهِ الاّ ان يكتب عريضة يشرح فيها حقيقة الامر وينتظر النتيجة . غير ان اخي لم ترقه هذه النصيحة . وقال لي « انك لا تعرف « كاثيا وار » وعليك فوق ذلك ان تعرف الدنيا . فليس لشيءٍ قيمة هنا الاّ الوسائط . ولا يخلق بك وانت اخي ان تمتنع عن القيام بالواجب ، وانت قادر على ان تنوه بكلمة طيبة عني لضابط انت على صلة به »

ولقد اصبح من المستحيل عليّ بعد ذلك ان ارفض رأيه ، فذهبت الى الضابط على غير ارادتي وعلى كره مني . وكنت عارفاً انهُ لا يحق لي ان الاقيه ، ومتحققاً فوق ذلك اني كنت على وشك تعريض احترامي الشخصي للامتهان. ولكني على الرغم من هذا ضربت موعداً وذهبت. وما كدت اذكره بصلتنا في انكلترا ، حتى ابان لي سريعاً ان « كاثياوار » غير انكلترا ، وان ضابطاً بريطانيًّا في اجازته ، غيره وهو قائم بمهام منصبه. ولقد ذكرت الضابط بتلك الصلة التي كانت بيننا ، غير ان تذكيره بها قد جاوز بهِ الى الخشونة . اما خشونته هذه فكان معناها «انك لم تأت الى هنا اليوم الاّ لتنتهك هذه الصلة باستغلالها » غير اني رغم ما ادركت من الموقف ، شرحت شكاتي . وهنا عيل صبره ، وقال محتدًا — « ان اخاك دساس ، واني لا اريد ان اسمع منك شيئاً فوق ما سمعت . ليس عندي وقت . واذا كان عند اخيك مايقوله فما عليه الاّ ان يلجأ الى المراجع المختصة» . وربما كنت استحق هذا الجواب الحاد . غير ان حب الذات اعمى ، فعدت بعد كل هذا الى روايتي اتمها . وهنا وقف الصاحب وقال لي «يجب ان تذهب الآن» . « ولكن ارجوك ان تسمع مني» . فلم يزده كلامي هذا الاّ غضباً . فنادى خادمه وامره ان يدلني على طريق الباب . وكنت لا ازال متردداً عندما اقبل الخادم ، ووضع يديه فوق كتفيَّ ودفعني خارج الباب

وما كدت استقرُّ في مكاني حتى كتبت مذكرة معناها « انك اهنتني ، وتهجمت عليَّ من طريق خادمك . فاذا لم تقم بما يصلح هذا الامر ، اضطررت أن ارفع امري الى القضاء »

ولكن سرعان ما تلقيت منه الجواب على يد حاجبه وقد جاء فيه

« لقد كنت بذيئاً معي . فقد امرتك بالذهاب وانت امتنعت . فلم يكن لي من بد ازاء امتناعك من ان آمر خادمي بان يريك طريق الباب . ولما سألك ان تترك مكتبي لم ترد ان تفعل ذلك . فما كان لديه من وسيلة اخرى الا ان يستعمل معك من القوة قدراً يكفي لاخراجك . وانك حر في أن ترفع الأمر الى اية جهة أردت»

عدت الى المنزل ، وفي جيبي هذا الرد ، ذليلاً خافض الرأس ، وقصصت على أخي كل ما حصل ، فحزن . ولكنهُ لم يكن يدري طريقاً يسليني به عما حدث . وكثيراً ماتحدث عن هذا الأمر الى اصدقائهِ من الوكلاء ، لاني لم اكن اعرف الطريق الرسمي لمقاضاة الصاحب ، وحدث ان السر «فيروزشاه مهتا» كان في «راجكوت» في ذلك الوقت، وقد قدم من بومباي لمباشرة قضية ما . ولكن كيف السبيل لمحام صغير حديث العهد بالمهنة ان يقابله ويحظى بلقياه؟ ولكني ارسلت اليه اوراق قضيتي من طريق الوكيل الذي دعاه الى راجكوت وسألته الرأي في الموضوع . فقال للوكيل « أفهم غاندي ان مثل هذه الأشياء امر عادي هنا . أنهُ هبط من انجلترا قريباً ولا يزال دمه حامياً . وانه لايعرف الضباط الانجليز . فاذا كان يربح من مهنته شيئاً هنا ، واذا كان الزمان يؤاتيه بالحاجات ، فقل له ان الاولى به ان يمزق مذكرته وأن يبلع الاهانة . فانهُ لن يربح شيئاً من مقاضاة الصاحب ، بل على الضد من ذلك تماماً يرجح كثيراً ان يكون في ذلك هدم مستقبله . وعليك ان تعرفه عني ان عليه ان يعرف من الدنيا أكثر مما عرف حتى الآن »

كان لهذه النصيحة مرارة السم في فمي ، ولكن لم يكن لي مندوحة عن أن أبتلعها ، كما ابتلعت الاهانة، ولكني على كل حال انتفعت بها إذ عاهدت نفسي على « ان لا أضعها في مثل هذا الموضع الدقيق مرة اخرى ، وان لا احاول ان استغل الصداقة هذا الاستغلال ثانية » . ومنذ ذلك الوقت لم ارتكب جريمة الحنث بعهدي والرجوع عن تصميمي هذا . غير انّ هذه الصدمة الاليمة غيرت مجرى حياتي تغيراً كليًا . ولا شبهة مطلقاً في اني كنت مخطئاً اذ اقدمت على الذهاب الى القومسير السياسي . غير أنّ حنقه وقلة صبره وغضبه ، جمّاعها كانت لا تتناسب مع خطئي. ولم يكن في الأمر مايوجب طردي . لاني كنت سوف لا استغرق من وقته اكثر من خمس دقائق . ولكن الواقع انهُ لم يستطع ان يحتمل ان يسمع مني كلاماً في الموضوع . وكان في مستطاعه ان يطلب مني في أدب ان اذهب . ولكن القوة الغاشمة اسكرته الى درجة غير كفيلة بالاتزان . ولقد علمت فيما بعد ان الصبر أبعد الاشياء عن فضائله

اما اذا عزمت على ان ازاول مهنتي في ذلك المكان فما لاشك فيه ان اكثر قضاياي سوف تنظر امام محاكمه . وكان مما يخرج عن طوقي أن اتوصل الى ترضيته والتفاهم معهُ ، كما اني

لم اكن على استعداد لأن ازلف اليهِ . ولما كنت قد هددت بان اقاضيَهُ ، صعب عليَّ ان اظل ساكتاً . غير اني سرعان ما بدأت افهم شيئاً من سياسة هذه المقاطعة . فان « كاثياوار » ليست الاَّ كتلة مكوَّنة من ولايات صغيرة . وكانت الدسائس بين الولايات ، والمؤامرات بين الضباط ليرقي كل منهم درجات القوة والسلطان الواسع ، القاعدة العامة في النظام الحكومي . وكان الأمراء تحت رحمة غيرهم . ولم يكن في وسعهم الاَّ ان يلقوا بسمعهم الى المتزلفين . ولقد شعرت بان هذا الجوَّ مشبع بالسموم، وكيف أبقى بعيداً عن التأثر بهِ ؟ كانت هذه مشكلة بذاتها. وما لبثت غير قليل حتى شعرت بانني مكتئبٌ خائر النفس ولحظ اخي فيَّ هذا الامر . وشعر كلانا بانني اذا استطعت ان اجد عملاً بعيداً عن هذا المكان ،استطعت ان افلت من جو الدسائس والوشايات. ومن غير ان الجأ الى وسائل غير شريفة، لم يكن في وسعي ان اشغل منصباً اداريًا او قضائيًا . ناهيك بمشكلتي مع القومسير السياسي

كانت « بوربانْدر » اذ ذاك تحت الادارة الحكومية ، وكنت هبطتها لاسعى في ان انال للامير حقوقاً اوسع من الحقوق التي يتمتع بها . وكذلك كنت ارغب في أن أرى المدير لاناقشهُ في مسألة اجور الاراضي وارتفاع القيمة التي تجبى من المستأجرين غير اني وجدت ان هذا الضابط المدير ، ولو انهُ هندي ، اشنع من الصاحب اخلاقاً وأشد نزقاً. ولقد فشلت في هذا الامر فشلاً عظيماً ، حتى لقد خيّل اليَّ ان العـدل يمنع عن زبائني عمداً وبذلك اعجز عن ان اصل اليهِ . وكل ما كان في مستطاعي ان اعملهُ لا يتعدى ان اعرض امري امام القومسير السياسي او الحاكم الذي لم يكن من شأنهِ الاَّ أن يرفض النظر في شكواي قائلاً — « ليس من شأننا ان نتدخل في الامر » . اما اذا كان هنالك قانون أو نظام يحدد مثل هذه القرارات، فلا شك في ان يكون لنا شأن. ولكن ماذا يكون العمل ما دامت ارادة الصاحب هي القانون ؟ غير أني شعرت في النهاية انني ساخط مغيظ ورغبت كل الرغبة في ان ابعد عن جو الدسائس جهد ما استطيع

في هذا الموقف كتبت احدى المؤسسات التجارية في « بوربانْدر » الى أخي تعرض عليهِ الآتي:

« لنا اعمال في جنوب افريقية . ومؤسسة من اكبر المؤسسات . وقد اشتبكنا في قضية امام المحكمة تبلغ قيمتها اربعين الفاً من الجنيهات الانجليزية . ومضى على الدعوى زمن طويل وما تزال منظورة ، واستخدمنا فيها امهر الوكلاء واشهر المحامين . فاذا سمحت بان ترسل اخاك الى جنوب افريقية فانه سوف يفيدنا ويفيد نفسه . ولسوف يستطيع ، على ما نرى ، ان يزودنا بنصائح ثمينة ، فضلاً عن انه سيرى بلاداً جديدة وينشىء علاقات مع اشخاص لم يكن يعرفهم ».

وبعد مناقشة قبلت العرض من غير اية مساومة واخذت استعد للذهاب الى جنوب افريقية

اسماعيل مظهر

غرائب المقاييس الطبيعية

التفاوت بين المتناهي في الكبر والمتناهي في الصغر

في الطول والوزن والزمن والسرعة والحرارة

اخذ رجال العلم ينفذون من ناحية الى اقصى رحاب الكون ومن ناحية اخرى الى اسرار الكون الصغير الكائن في قلب الذرّة . وهم في خلال ذلك يقيسون الكمّيات والمقادير ، لان القياس الدقيق اساس العلم . وفي هذه الكمّيات تفاوت كبير . فالمسافات تقاس من جهة بسني الضوء ومن جهة اخرى بالانغستروم Angstrom وهو جزء من عشرة ملايين جزء من الملمتر. والسرعة تقاس من صوب بثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية وهي سرعة الضوء ومن الصوب الآخر بجزء من الملمتر في اليوم وهو سرعة انتشار ذرات الذهب في لوح من الرصاص. كذلك يقاس الوزن بالطن والجما (الجما جزء من مائة مليون جزء من الغرام) والزمن بالسنة والسغما (السغما جزء من مائة جزء من الثانية) وهكذا

مقاييس الطول

من الغرائب التي تسترعي النظر ان الانسان متوسط بين اضخم الاجسام واصغرها. فهو جزء من ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من المجرّة وهو ١٠٠٠٠٠٠٠،٠٠٠٠٠٠٠،٠٠٠٠٠٠ ضعف البروتون الذي في نواة الذرّة . ولكن ليس من الثابت ان المجرّة اضخم الاجسام في الطبيعة ولا ان البروتون اصغرها . والباحثون في الناحيتين ماضون في بحثهم رغماً عن الحوائل والصعاب التي تقوم في سبيلهم

واذا فرضنا ان المسافة بين القاهرة ولندن تبلغ ٤٢٠٠ كيلو متر في خط مستقيم فقطر الارض يبلغ ثلاثة اضعافها ، ومحيطها يبلغ تسعة اضعافها . ثم اننا اذا طرنا ٨٧ مرة بين القاهرة ولندن قطعنا مسافة تقرب من المسافة التي تفصل القمر عن الارض . اما قطر القمر فيبلغ ٣٥٧٠ كيلو متراً وهي المسافة بين القاهرة ومرسيليا في خط مستقيم . على ان قطر الشمس اعظم من ذلك كثيراً . فهو ١٣٨٤ ٠٠٠ كيلومتر. ومتى حاولنا ان نقيس بعد الشمس عن الارض او بعد ابعد السيّارات عنها ، احتجنا الى ملايين الكيلومترات ، واصبح التمثيل بالمسافات على سطح الارض لا يجدي . فنبتون يبعد عن الشمس اربعة آلاف واربعمائة مليون (٤٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) كيلو متر والارض تبعد عنها ١٤٩،٠٠٠،٠٠٠ كيلو متر . ويقدّر طول قطر المجموعة الشمسية بعشرة آلاف مليون كيلومتر (١٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠) . فاذا خرجنا

من المجموعة الشمسية الى رحاب المجرّة اصبحت ملايين الكيلو مترات لا تفي بحاجة القياس . لذلك استنبط الفلكيون ما يدعى بالسنة الضوئية وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة سائراً بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل (او ٣٠٠ الف كيلو متر) في الثانية الواحدة . على هذا القياس تبعد الشعرى Sirius — وهي اقرب النجوم اللامعة الى شمسنا — عن الشمس نحو تسع سنوات ضوئية ويبعد سديم المرأة المسلسلة Andromeda وهو من السدم اللولبية الخارجية — وتعرف بالعوالم الجزرية — عن مجرتنا ٩٠٠٠٠٠ سنة ضوئية ويقدّر بعد ابعد السدم اللولبية بمائة واربعين مليون سنة ضوئية . ويقدّر محيط كون اينشتين بالفي مليون سنة ضوئية

فاذا التفتنا الى الناحية المقابلة وجدنا الدقائق المكرسكوبية والخلايا ونوى الخلايا وكروموسوماتها وهي في الغالب مما يرى بالمكرسكوبات القوية . وعند المنطقة الفاصلة بين ما يرى وبين ما لا يرى نجد الدقائق الغروية وهي مجاميع من الجزيئات ومن ورائها الذرّات والكهارب والبروتونات

جدول مقاييس الطول

محيط كون اينشتين	٢٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠	سنة ضوئية
ابعد سديم لولبي	١٤٠،٠٠٠،٠٠٠	» »
متوسط بعد مجرة عن اخرى	١،٨٠٠،٠٠٠	» »
بعد سديم المرأة المسلسلة عن المجرة	٩٠٠،٠٠٠	» »
قطر المجرة	٥٠،٠٠٠	» »
بعد الشعرى عن الارض	٨،٩	» »
السنة الضوئية تبلغ	٩،٤٦٢،٧٠٠،٠٠٠،٠٠٠	كيلومتر
قطر المجموعة الشمسية	١٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠	»
بعد نبتون عن الشمس	٤٤٠٠،٠٠٠،٠٠٠	»
بعد الارض عن الشمس	١٤٩،٠٠٠،٠٠٠	»
قطر الشمس	١،٣٨٤،٠٠٠	»
بعد القمر عن الارض	٣٨٤،٠٠٠	»
قطر المشترى	١٤٤٠٠٠	»
محيط الارض	٤٠٠٧٠	كيلومتراً
قطر الارض	١٢٧٥٤	»
قطر القمر	٣٤٨٠	»
طول الباخرة اوربا	٢٨٥	متراً
اطول امواج الصوت	١٦	متراً
متوسط طول الانسان	١٧٢	سنتمتراً

اقصر امواج الصوت	١٧	ملمتراً
الملمتر يعدل	الف	ميكرون
اصغر الدقائق التي ترى	٥٠	ميكروناً
خلايا ذباب الدروسوفيلا	٧—٢٥	»
نواة خلية الدروسوفيلا	٥—١٥	»
كروموسومات الدروسوفيلا	٢،—٣	ميكرونات
بكتيريا عنقودية	ميكرونان	
الميكرون يعدل الف ملميكرون Millimicron		
خلية الدم الحمراء	٨٠٠	ملميكرون
موجة النور الاحمر	٧٧٠	ملميكروناً
اصغر الدقائق المكرسكوبية	٣٠٠	ملميكرون
دقيقة غروية كبيرة	١٠٠	»
اقصر امواج اشعة وراء البنفسجي	١٣	ملميكروناً
الجزيئات Molecules	٢،—٥	ملميكرونات
الملميكرون يعدل الف ميكروميكرون		
المسافة بين ذرات الكبريت	٩٠٠	ميكروميكرون
الذرات	١٠٠—٦٠٠	»
المسافة بين ذرات الفضة	٤٠٠	»
موجة اشعة اكس اللطيفة	١٣٦	ميكروميكروناً
مدار الالكترون في ذرة الايدروجين	٥٣	»
موجة اشعة اكس القاسية (النافذة لشدة قصرها)	١٩	»
اقصر اشعة غما	ميكروميكرونان	
اطول الاشعة الكونية	،٦	الميكروميكرون
اقصر الاشعة الكونية	،٠٤	»
قطر الالكترون	،٠٣٨	»
نواة ذرة الذهب	،٠٠٠٤	»
نواة ذرة الايدروجين (وهي بروتون واحد)	،٠٠٠٠٢	»

وقد اطلق الانغستروم على مسافة طولها ١٠٠ ميكروميكرون وعليه يقال ان حجم الذرات يتراوح بين انغستروم واحد وستة انغسترومات

مقاييس الوزن

لعلَّ اكبر رقم في عالم المقاييس هو الرقم الدالّ على كتلة الكون بحسب مذهب اينشتين فهو رقم ٨ يتبعهُ ثمانية وسبعون صفراً . فكتلة النجوم والاجرام والسدم والغبار الكوني المنثور في المجرّة — التي منها مجموعتنا الشمسية — تكاد تكون شيئاً يسيراً ازاء كتلة كون اينشتين لانها لا تزيد على رقم ٢٫٣ يتبعهُ خمسة وخمسون صفراً فقط ! فاذا مثَّلنا على المجرّة بتفاحة وجب ان نجعل الكون على النسبة نفسها كرة بقدر الارض . ومن الغريب ان نجوم المجرة، تتماثل كتلةً (وزناً) مع انها تختلف حجماً . وكتلتها تتباين بين رقم ١ وراءه ٣٢ صفراً ورقم ١ وراءهُ ٣٦ صفراً . اما الشمس — وكتلتها تفوق كتلة الارض نحو ٣٣٢ الف مرّة — فمن النجوم الصغيرة . واكبر السيارات في المجموعة الشمسية هو المشتري وكتلتهُ تفوق كتلة الارض ٣١٧ مرّة . اما القمر — قمر الارض لان لاكثر السيارات الاخرى اقماراً — فلا تزيد كتلتهُ على جزء من ٨١ جزءا من كتلة الارض فاذا هبطنا من الفلك الى الارض وجدنا ان وزن غلاف الارض المائي — اي الهيدرُسفير وهو يشمل مياه المحيطات والبحار والبحيرات والانهر والثلج والجمد — يبلغ ١٣٣٣٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ مليون طن فهو ١/٤٥٠٠ من كتلة الارض و ٥٠٠ ضعف وزن الغلاف الهوائي . ولا تحتقرنَّ وزن الغلاف الهوائي فهو ٥١٣٣٦٠٠٠٠٠٠ مليون طن ووزنهُ يفوق وزن اكبر النجيمات خمسة اضعاف . ومقدار ما يسقط على الارض من الرجم كلّ سنة يبلغ وزنه وزن الباخرة برمن تقريباً . اي نحو ٥١ الف طن . اما بين وزن السفينة برمن ووزن الانسان فنستطيع ان نعدَّ القائمة ما شئنا ان نعدَّها

واذا تحوَّلنا الى المقادير الدقيقة وجدنا ان الجرعة الفعالة من ڤيتامين (A) تبلغ ثلاثة اجزاء من الف مليون جزء من الغرام . وهذا المقدار من المغنيزيوم هو اقل مقدار منهُ يمكن كشفهُ بالوسائل الكيمائية . ولكن مقداراً من الصوديوم اقل من ذلك يمكن تبينهُ بكاشف اللهيب flame test ثم هنالك السبكترسكوب وهوادق الآلات في الكشف عن مقادير ضئيلة جداً من المواد والعناصر . ويقال ان الطريقة الجديدة المعروفة بالمغناطيسية البصرية Magneto-optic التي استنبطها أليسُن Allison الاميركي وكشف بها عن آخر العناصر تفوق حتى السبكترسكوب من هذا القبيل . ويلي ذلك الجزيئات والدقائق الغروية . فجزيئات البروتينات هي اكبر الجزيئات . اما جزيئات السكر فصغيرة اذا قيست بجزيئات البروتينات والادهان . ومع ذلك فهي اثقل كثيراً من ذرات الاورانيوم وهو اثقل العناصر . اما ذرة الايدروجين فهي اخف الذرات ووزنها مجموع وزن بروتون والكترون . والبروتون يفوق الالكترون وزناً نحو ١٨٠٠ مرة . فالالكترون هو اخف ما عرفهُ العلم حتى الآن

جدول مقاييس الوزن

كون اينشتين	٨	ويليه	٧٨ صفراً	غرام
المجرّة	٢،٣	ويليهِ	٥٥ صفراً	»
النجوم الكبيرة	١	ويليهِ	٣٦ صفراً	»
الشمس	١،٩٩	ويليهِ	٣٣ صفراً (وكتلتها تعدل ٣٣١٩٥٠ مرة كتلة الارض)	
نجم صغير	١	ويليهِ	٣٢ صفراً	غرام

المشتري (تعدل كتلتهُ ٣١٧ مرة كتلة الارض)

الارض	٥،٩٩	ويليهِ	٢٦ صفراً	غرام
عطارد	١/٢٥	من كتلة الارض		
القمر	١/٨١،٥٦	من كتلة الارض		

الغلاف المائي ١،٣٣٥،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ مليون طن = ١،٣ يليهِ ٢٤ صفراً بالغرامات

الغلاف الهوائي ٥،٦٣٣،٠٠٠،٠٠٠ مليون طن = ٥،٦ يليهِ ٢١ صفراً بالغرامات

متوسط كتلة النجيمة ١٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ مليون طن = ١ يليهِ ٢١ صفراً بالغرامات

وزن السفينة برمن ٥١،٦٥٦ طناً = ٥،٢ يليهِ عشرة اصفار بالغرامات

الرجم التي تسقط سنوياً ٤٠،٠٠٠ طن = ٤ يليهِ عشرة اصفار بالغرامات

متوسط وزن الانسان ٧٦ كيلو غراماً

الكيلو غرام = ١٠٠٠ غرام

الغرام = ١٠٠٠ ملغرام

الملغرام = ١٠٠٠ ميكروغرام

الميكروغرام = ١٠٠٠ جمّا

الجما = $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من الغرام

الجرعة الفعالة من فيتامين (A) ٣ جمّات اي $\frac{٣}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من الغرام

اقل ما يمكن كشفه من المغنيزيوم بكاشف كيماوي جمّتان

اقل ما يمكن كشفه من الصوديوم بكاشف اللهب ٠،٧ من الجمّا

جزيء بروتين يعدل ١٠٠،٠٠٠ ذرة الايدروجين

جزيء سكر القصب ٣٤٢ »

ذرّة الاورانيوم ٢٣٨ »

جزيء الماء ١٨ »

ذرة الايدروجين ١ الالكترون ١٨٤٥/٧ من ذرة الايدروجين

[في العدد المقبل يتناول البحث مقاييس الزمن والسرعة والحرارة وجداولها]

الشاعر والسلطان الجائر

لايليا أبو ماضي — عن مجلته « السمير »

امر السلطان بالشاعر يوماً فأتاهُ   في كساءٍ حائلِ الصبغة واهٍ جانباهُ
وحذاءٍ اوشكت تفلت منه اخمصاهُ

قال: صف جاهي، ففي وصفك لي للشعر جاه   ان لي القصر الذي لا تبلغ الطير ذراه
ولي الروض الذي يعبق بالمسك ثراه   ولي الجيش الذي ترشح بالموت ظباه
ولي الغابات ، والشم الرواسي ، والمياه   ولي الناس ، وبؤس الناس مني والرفاه
ان هذا الكون ملكي ، انا في الكون آله ! !

***

ضحك الشاعر مما سمعته اذناه   وتمنى ان يداجي فعصته شفتاه
قال — اني لا ارى الامر كما انت تراه   ان ملكي قد طوى ملكك عني ومحاه

***

القصر .. ينبيء عن مهارة شاعر   لبقٍ ، ويخبر بعده عنكا
هو للألى يدرون كنه جماله   فاذا مضوا فكأنهُ دكا
ستزول انت ولا يزول جلاله   كالفلك تبقى — ان خلت — فلكا
انا من حواهُ بعينهِ وبلبهِ   ولئن حواك وحزته صكا !

***

والروض؟ ان الروض صنعة شاعرٍ   سمح طروب رائق جزلِ
وشى حواشيهُ وزين ارضهُ   بروائع الالوان والظل
لفراشةٍ تحيا له ، ولنحلةٍ   تحيا بهِ ، ولشاعر مثلي
ولبلبل غرد يساجل بلبلاً   غرداً ، وللنسمات والطل
ولديمة تذري عليه دموعها   كيما تقيه غوائل المحل
فاذا مضى زمن الربيع اضعتهُ   وأقام في قلبي وفي عقلي

***

والجيش معقود لواؤك فوقهُ   ما دمت تكسوه وتطعمهُ
للخبز طاعتهُ وحسن ولائهِ   هو «لاته الكبرى» و «برهمهُ»
فاذا يجوع بظل عرشك ليلةً   فهو الذي بيديه يحطمهُ
لك منه أسيفهُ ولكن في غدٍ   لسواك اسيفه واسهمهُ

اتراه سار الى الوغى متهللاً لولا الذي الشعراء تنظمه
واذا ترنم هل بغير قصيدةٍ من شاعر مثلي ترنمه

***

والبحر.. قد ظفرت يداك بدره وحصاه. لكن هل ملكت هديره؟
امرجتَ انت مياهه؟ اصبغت انت رماله؟ اجبلت انت صخوره؟
هو للدجى يلقي عليه خشوعه والصبح يسكب وهو يضحك نوره
هو للرياح تهزه وتثيره والشهب تسمع في الظلام زئيره
للطير هائمة به مفتونة لا للذين يروعون طيوره
للشاعر المفتون يخلق لاهياً من موجه حوراً ، ويعشق حوره
ولمن يشاهد فيه رمز كيانه ولمن يجيد لغيره تصويره
يا من يصيد الدر من اعماقه اخذت يداك من الجليل حقيره
لا تدّعيه فليس يملك ، انه كالروض جهدك ان تشم عبيره

***

ومررتُ بالجبل الاشم — فما زوى عني محاسنه ، ولست اميرا
ومررتَ انت فما رأيت صخوره ضحكت ولا رقصت لديك حبورا
ولقد نقلت لنملةٍ ما تدّعي فتعجبت مما حكيت كثيرا
قالت: صديقك مايكون؟ اقشعماً ام ارقماً؟ ام ضيغماً هيصورا؟
ايحوك مثل العنكبوت بيوته — حوكاً؟ — ويبني كالنسور وكورا؟
هل يملأ الاغوار تبراً كالضحى؟ ويردُّ كالغيث الموات نضيرا؟
ايلفُّ كالليل الاباطح ، والربى والمنزل المعمور ، والمهجورا؟
فأجبتها كلاً ، فقالت سمّهِ في غير خوف «كائناً مغرورا»

***

فاحتدم السلطان اي احتدامْ ولاح حب البطش في مقلتيهْ
وصاح بالجلاّد : هات الحسام فاسرع الجلاد يسعى اليه
فقال: دحرج رأس هذا الغلام فرأسه عبءٌ على منكبيه
قد طبع السيف لحز الرقاب وهـذه رقبـة ثرثار
اقتله .. واطرح جسمه للكلاب ولتذهب الروح الى النار!

***

ـ سمعاً وطوعاً سيدي ـ وانثنى غضباً يموج الموج في شفرتيه
ولم يكن الا كبرق اضا حتى اطار الرأس عن منكبيه

فسقط الشاعر معرورضا يخدش الارض بكلتا يديه
كأنما يبحث عن رأسهِ فاستضحك السلطان من سجدته
ثم استوى يهمس في نفسه « ذو جنة » امسى بلا جنته

***

اجل . هكذا هلك الشاعر كما يهلك الآثم المذنبُ
فما غصّ في روضة طائر ولم ينطفىء في السماء كوكب
ولا جزع الشجر الناضر ولا اكتأب الجدول المطرب
وكوفىء عن قتله القاتل بمال جزيل وخدٍ اسيل
فقال له خلفه السافل — ألا ليت لي كل يوم قتيل

***

في ليلةٍ طامسةِ الانجم تسلل الموت الى القصرِ
بين حراب الجند والاسهم والاسيف الهندية الحمر
الى سرير الملك الاعظم الى امير البر والبحر !!
ففارق الدنيا ولما تزل فيها خمور واغاريد
فلم يمد حزناً عليهِ الجبل ولا ذوى في الروض املود

***

في حومة الموت وظل البلى قد التقى السلطان والشاعر
هذا بلا مجد ، وهذا بلا ذلٍ ، فلا باغ ولا ثائر
عانقت الاسمال تلك الحلى واصطحب المقهور والقاهر
لا يجزع الشاعر ان يُقتلا ليس وراء القبر سيفٌ ورمح
ولا يبالي ذاك ان يُعذلا سيان عند الميت ذم ومدح

***

وتوالت الاجيال تطرد جيل يغيب وآخر يفد
اخنت على القصر المنيف فلا الجدران قائمة ولا العُمُد
ومشت على الجيش الكثيف فلا خيل مسوَّمة ولا زرد
ذهبت بمن صلحوا ومن فسدوا ومضت بمن تعسوا ومن سعدوا
وبمن اذاب الحبُّ مهجته وبمن تأكّل قلبه الحسد
وطوت ملوكاً ما لهم عدد فكأنهم في الارض ما وجدوا
والشاعر المقتول باقيةٌ اقواله ، فكأنها الابد
الشيخ يلمس في جوانبها صور الهوى ، والحكمةَ الولد

الادب وأطواره

الآراء القديمة والحديثة في اشتقاقه

لا تزال لفظة «الادب» مَبعَثَةً على الجدال ومدعاة الى متباين الاقوال ، فهي من الالفاظ التي لم يسكت عنها « فقه اللغة » ولا أمكنها من موضعها فقهاء العربية فضلا عن إثباتهم لتاريخها العسير استقصاؤه ، فناس يقولون إنها من مادة «أدب» وآخرون ينكرون أن تكون هذه المادة ناتجة لمثل هـذا المعنى البعيد عنها ، وناس يقولون : إن اللفظة جاهلية وآخرون ينفون وجودها في عهد الجاهلية بهذا المعنى ولا شك في أن «المجمع اللغوي الملكي» المبارك سيتداول رجاله تحرّي هـذه الأمور الخاصة بهذه اللفظة ، ونحن قد وددنا أن نبسط رأينا في هذه الكلمة وأطوارها ، فالتعاون على التحقيق معجل بالتوفيق ، قال الدكتور طه حسين عن استقصاء المستشرق « نالينو » السلفية [1] لفظ « الادب » ما صورته « فانهُ لم يجد هذه المادة في غير اللغة العربية من اللغات السامية ، ولم يجد لها عند العرب مصدر اشتقاق معقول ، فقد قالوا : أدب القوم يأدبهم أدباً إذا دعاهم الى الطعام والفرق بين المعنيين واضح فظن الاستاذ أن لفظ الأدب انما جاء من لفظ « الدأب » بمعنى العادة ، ذلك أنهم جمعوا «الدأب» فقالوا « أدآب » ثم قدموا العين على الفاء فقالوا « آداب » كما فعلوا في « آرام وآبار جمع رئم وبئر » فلما كثر استعمال هذا الجمع غفلوا عما فيه من القلب المكاني وظنوا أن ترتيبهُ هذا أصلي وأن لهُ مفرداً على نسقهِ وهو الادب ثم اشتقوا منهُ وصرفوه تصريف غيره من الاوزان» [2]

واننا لنرى هذا الرأي بعيداً عن الحقيقة جداً جداً ونعتمد في استبعادنا إياه على أمور:

(١) أولها : أن المستشرق لم يذكر شبيهاً لهذا الاشتقاق من العربية وذلك بوجوده «اسم معنى قدمت عينهُ على فائه في الجمع ثم اشتق منه فعل جديد » أما أن يجد فعلاً مبدلة فاؤه بحرف من الحروف فممكن مثل « أخذ وتخذ » و« خدش وكدش » و«شمخ ولمخ » و« نبزه ولبزه » و« ندّد بهِ ولدّد » و« جاد وكاد » و«نحت ولحت » و« ركزه وعكزه » و« اعتكم وارتكم » و« طفا وغفا » و « غمص ورمص »و« امتار واغتار »و«بحث ولحس» و« نخم وضخم » و« فدغ وشدغ » وما لا يحصى من كثرتهِ ، وانما ذكرنا هذه الافعال لانهُ كان قد احتج بـ « وقي وتقي » هناك ولكنّ الاحتجاج بمثله مدحض مردود لأنّ اعظم

(١) السلفية حالة السالف كالانسانية والزوجية من حيث الاشتقاق المطرد في العربية وقد اشتققناها لتدل على معنى « الفيلولوجيا » (٢) ذكرى أبي العلاء المعري ص ١٢٠ واذكر أنه بسط هذا الرأي أيضاً في كتابه الشعر الجاهلي

ثروة العربية من الابدال و«دأب وأدب» ليسا من هذا النوع

(٢) لم يذكر لنا المستشرق مصدر جمع «الدأب» بالتحريك او «الدأب» بتسكين العين على «أدآب» حتى يتحول الى الجمع «آداب» فان كتب اللغة قد جاء فيها «بئر أبآر وآبار، ورئم أرآم وآرام» وانما هو قد اتبع القياس والقياس انما يفزع اليه في مثل هذا عند ضرورة الاستعمال دع ان البئر والرئم اسما ذات وأن الدأب اسم معنى

(٣) لم يأت «الدأب» في العربية بمعنى الادب، فالاول يطلق على العادة والشأن كائنين ما كانا من الحسن والقبح مع ان الثاني من الاخلاق الكريمة في اول معانيه، والسلفية تراعي كل المراعاة في هذا المقام وسبيل فعليهما في الاختلاف كسبيلها، ففي سورة غافر من القرآن الكريم «وقال الذي آمن ياقومي اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم» فترى ان الدأب لم يظهر القصد به الا بعد ذكر الدائبين مما يدل على عموم لا على خصوص، وفي سورة آل عمران «إن الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً واولئك هم وقود النار» كدأب آل فرعون والذين من قبلهم» فمعناه في الآيتين «شأن وحال...» وورد بمعنى الاستمرار في سورة يوسف ونص الآية «قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله...»

وورد «الدائب» في سورة ابراهيم بمعنى «المستمر» قال «وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار» وقال المبرد «وقوله — جل ثناؤه — : كدأب آل فرعون يقول كعادتهم وسنتهم ومثله الدين والديدن» وقال ايضاً في قول النمر بن تولب العكلي

وذي ابل يسعى ويحسبها له أخي نصب في رعيها ودؤوب

ما نصهُ «وقوله : ودؤوب، يقول: وإلحاح عليه، تقول: دأبت على الشيء، قال الشاعر[١]

دأبت الى ان يقصر الظل بعد ما تقاصر حتى كاد في الآل يمصح[٢]

قلنا : وقال البعيث بن حريث :

خيال لام السلسبيل ودونها مسيرة شهر للبريد المذبب

قال البغدادي «المذبب من دأب يدأب بالهمز إذا جدّ وتعب»[٣] وأرى انهُ قد شعّب معنى «الدأب» باضافته «تعب» إلى التفسير فأفاد هذا الفعل عكس مراد الشاعر، لانهُ ذكر ان المسافة بينهُ وبينها مسيرة شهر للبريد المستمرّ فان كان البريد تعباً كانت المسيرة اطول والمسافة هي هي ويبطل ذكر «المذبب» الدال على السرعة مع طول المسافة، فلقائل ان يقول حينئذ «ان المسيرة بينهما تطول شهراً لتعب بغال البريد فلو كانت نشيطة الى السير لقطعت الطريق بسبعة ايام فالمسافة اذن قصيرة» وهذا التناقض في التفسير لم يخطر على بال البغدادي

(١) أدخل الرواة في الكامل «هو الراعي» بعد قوله «الشاعر» (٢) الكامل «١ : ٢٦٥ — ٧ — ٨»
(٣) خزانة الادب «٢ : ٩٢»

فزاد ما زاد نقلاً عن الصحاح او غيره . فالمعنى الاصيل للدأب انما هو « الاستمرار » وليس بعيداً ان اصله من « ذهب يذهب » فكثير ما تبدل الدال في العربية من الذال ويحدث العكس وطالما تبدل الهمزة من الهاء ويكون العكس فالاول مثل « هذب الشيء اي قطعهُ وهدبهُ » و « جذّه وجدّه » و « دجّ وذجّ » . وقال المخبل السعدي في الزبرقان بن بدر

لعمرك ان الزبرقان لدائب على الناس يعدو نوكه ومجاهله[1]

٤ — ان العرب لو كان عندها الادب بمعنى الدأب ومشتقاً من المفرد الموهوم لرجعت الى اصل الفعل عند التعدية ولم يكن بها حاجة الى اشتقاق فعل هي في غنىً عنهُ لمخالفته الاقيسة الطبيعية في لغتها ، ولقالت « ادأبهُ في الامر وأدأبهُ عليه » بمعنى أدّبهُ تأديباً ، فالفعل « أدأب » مشهور ولكنهُ لا يؤد معنى « أدّب » قال الامام علي في وصف النبي محمد (ص) « ووالى فيك الابعدين وعاند فيك الاقربين وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك واتعبها في الدعاء الى ملتك »[2] وقال في اساس البلاغة « وأدأب نفسه واجيره ودابته وفعل ذلك دائباً »[3] ومراده : جعل نفسه واجيره ودابته في استمرار على العمل ، ومهما يكن الامر فان الادآب لم يرد بمعنى التأديب فلو كان رأي المستشرق صحيحاً لجاء بمعنىً واحد او جاء احدهما قريباً من الآخر ولكنهُ لم يكن

٥ — ان مرادهم بالدأب « السنة والشأن والعمل والحال » انما هو من المجاز لا من الحقيقة ، لان اصله الاستمرار كما قدمنا فهم لم يشتقوا منهُ « أدأب » ولا « دأب تدئيباً وتدئبة » بمعنى « عوّد شأناً وحالاً وسنة » حتى يحتج بشبهة ان « التأديب » هو كالادآب ، قلنا هذا ردّاً على الدكتور طه حسين في تعلقه برأي الاستاذ نالينو تأييداً لنصه هذا « يؤيد هذا أن العرب قد استعملوا لفظ الأدب في ما يستعملون فيه لفظ الدأب من معنى العادة المتبعة والسنة الموروثة[4] » قال الزمخشري في الاساس « ومن المجاز : هذا دأبك أي شأنك وعملك كدأب آل فرعون[5] » وقال مجد الدين المبارك بن الاثير « الدأب : العادة والشأن وقد يحرّك ، واصله من دأب في العمل إذا جدّ وتعب الاّ ان العرب حوّلت معناه الى العادة والشأن » ثم قال « ومنهُ حديث البعير ... فقال اي الرسول لصاحبه : إنهُ يشكو اليّ انك تجيعهُ وتدئبهُ ، أي تكدّه وتتعبهُ ، دأب يدأب دأباً ودؤوباً ، وأدأبتهُ أنا ،[6] » فالادآب بقي على حقيقته ، كان أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد نقيب البصرة وممن أدرك القرن السابع للهجرة : « وهذا مدئب نفسه في الصلاة والعبادة وهذا مثله » يصف النبي ـ ص ـ والامام علياً ، ومن المؤكد أن الحقيقة سابقة للمجاز في نُشوء لغات العالم

٦ ـ ان ذكر المحتج « أدبه يأدبه بمعنى أقام له مأدبة » يدل على أن أصل « الأدب » هو الدعوة

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٤١ (٢) شرح ابن ابي الحديد لنهج البلاغة (ج ٢ ص ٦٧)
(٣) الاساس « ٢ : ٢٦٠ » (٤) حاشية ص١٢٠ من ذكرى أبي العلاء المعري (٥) الاساس « ١ : ٢٦٠ » ايضاً (٦) النهاية في غريب الحديث « ٢ : ٩ و ١٠ »

الى الطعام والتحقيق انه اعمّ من ذاك وهو في الأصل «الجمع» مطلقاً ، ففي الأساس «وأدبهم على الأمر : جمعهم عليه ، يأدبهم ، يقال : إيدب جيرانك لتشاورهم قال :

وكيف قتالي معشراً يأدبونكم على الحق ان لا تأشبوه بباطل

وتقول : أدبهم عليهِ وندبهم اليهِ [1] » وذكر صديقي العلامة الأب انستاس ماري الكرملي ان « الأدب صفة الأديب الوارد في اللغة اليونانية بنفس اللفظ والمعنى ، فن معاني الأديب عندهم : الحسن الغناء اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة المثير لهوى جلسائه بانغامه الشاجية وحديثه الريق » وهو رأي له وجاهة وللنفوس فيه هوى لتداخل اللغتين العربية واليونانية في كثير من الكلم وانا على اطرائي لهذا الرأي الحكيم وددت ان ابدي رأيي

في سلفية الادب

إني لأرتئي ان اصل الأدب هو «الهذب» بفتح الذال ومعناه الصفاء والخلوص من العيوب ايةً كانت ، واصل الهذب « بفتح العين ، يقال «هذب الشجر : قطع منه ونقاه واصلحه ، ومثله « هذب الشيء قطعه » وقد قدمنا كيف انقلبت الذال دالاً اوجرى العكس وانك لتجد في العربية «المهذب والمؤدب بمعنى واحد» فالأصل من تهذيب الشجر ، وذكر المرحوم احمد فارس الشدياق في كلامه على ان اكثر افعال العربية تفيد القطع مانصه «ويجيء للتهذيب نحو هذّب وشذّب ، على تقدير انهُ قطع عن الشيء كل مايشينه [2] » امّا رجع هذه الكلمة إلى المحسوسات دون المعنويات فقد قال هو عنهُ ماهذه صورته «إن اهل اللغة جميعاً قد اجمعوا على ان المهذب للرجل الكامل مأخوذ من تهذيب الشجرة ، بناءً على ان الأمور المعنوية او العقلية مأخوذة من الأشياء الحسيّة وذلك موجود في جميع اللغات ، ضرورة ان الحواس الظاهرة هي التي تبعث الحواس الباطنة على التفكير والتخيل فانَّ من لم يرَ الأسد مثلاً قط ولم يسمع به ، لم يخطر على باله ان يشبه به رجلاً شجاعاً ، وهذا كما يحكى عن ابن المعتز – رح – من انه كان ينظر الى آنية بيته ويشبه بها ، وتقرير ذلك ان العقل مأخوذ من عقلت البعير ومثله لفظة الحجر اشتقاقاً ومعنىً » وهذا من الحقائق والمؤكدات ، ومثل «هذب» هدم وهذم وحذم وجذم وجرم وجزم وصرم وقرم وهجم وقضم وهضم وكظم وقطم وخطم وكزم وكثم وكشم وقثم وحطم وهشم وهصم (كلها بمعنى هذب ومن اصلها) وصنوه المهموز نحو «هذأه وجزأه وهرأه» وأصلها بحسب نشوء اللغة « المضعّف » مثل «هذّه وهدّه وحته وجدّه وجذّه وقدّه وقطّه وحدّه وخدّه وخطّه وهتّه وهسّه وهشّه وهضّه وحكّه وهكّه» وانما سردنا هذه الأمثال لتظهر سعة الابدال في العربيّة فيكون المستبعد معروفاً والمستغرب مألوفاً أمّا قلب «الهاء» في «هذب» همزة فن الطرائق المتعاملة المتعارفة في العربيّة ، قال عثمان

(١) الاساس «١ : ٧» (٢) سر الليال في القلب والابدال ص ١١ قلت ومثلهما «الحجى» من حجا أي منع «والنهى» من «نهاه»

كيف نفهم التطور

للاستاذ السر ارثر طمسن[1]

يصعب ان نحدد كلمة « تطور » الواسعة المعنى تحديداً ينطبق على مفهومها العلمي تمام الانطباق فانها قد تعني عملية «تحول» او «صيرورة» (Becoming) ولكننا اذا اطلقناها اجمالاً على ما نسميه بالتطور العضوي عنينا بها ان جميع مايحيط بنا من نباتات وحيوانات قد نشأت بفعل تحوُّل طبيعي مستمر من اسلاف ابسط في التركيب واعم في الصفات . وعلى هذا الاساس فهي تعني ان الحاضر هو طفل الماضي وابو المستقبل ، وقد كان لهذه الكلمة شأن كبير في وصفها الطريق الذي سارت عليه جميع الكائنات الحية في نشوئها حتى اصبحت كما هي في حالتها الحاضرة . وقد اتفق علماء البيولوجيا ان يطلقوا كلمة «نشوء» (Development) على ماسماه العلامة هارفي (Harvey) «تكون الفرخ من البيضة» ، وكلمة «تطور» (Evolution) على عملية تسلسل نسل الطيور من سلف يمتُّ الى الزحافات المنقرضة لايعرف عنه الا القليل او على تسلسل الخيول الحديثة ذوات الحافر الواحد في كل من قوائمها من جد اصلي ذي ثلاثة و اربعة حوافر نابتة في كل قائمة ، كان يطأ بها الارض

على ان فكرة التطور وحدها لا تصل الى اي نظرية خاصة تفسر لنا العوامل التي تعاونت على تحقيق ذلك التحول التدريجي من شكل الى آخر . حتى ان المؤمنين بنظرية التطور انفسهم لايميلون الى قبول النظريات على علاتها كنظريتي «لا مارك» (Lamarck) و «داروين» في تفسير حدوث التحولات الطبيعة . قد يسأل شخص في اثناء المحادثات الاعتيادية هذا السؤال ، « هل تسلّم بالنظرية الداروينية ؟ » ويكون القصد من ذلك السؤال « هل انت من المؤمنين بالتطور ؟ » لاشك انه سيجيب «نعم !» لان جميع بيولوجيي العصر الحاضر يؤمنون بالتطور كحقيقة ثابتة. ولكن اذا وجه السؤال نفسه الى طائفة من علماء البيولوجيا فيقصد منه عندئذ «هل انت مقتنع بكفاية نظرية داروين لتفسير جميع التنوعات التي كونتها الطبيعة ؟» وهنا تختلف الاجوبة فيجيب البعض «نعم» والبعض الآخر «لا» وغيرهم « الى حد ما »

﴿الصورة التي رسمها لوقريطس﴾ لايوجد في الوقت الحاضر سوى صورة علمية واحدة تبين طريقة نشوء الكائنات الحية وبلوغها الحالة التي هي عليها الآن — وهي الصورة التطورية

---

(١) وردت الانباء البرقية بوفاة الاستاذ السر جون ارثر طمسن العالم البيولوجي الانكليزي فرأينا نشر هذه المقالة من آثار قلمه البارع وقد نقلها الى العربية بشير الياس اللوسي احد ادباء الموصل بالعراق

للقياس، فانّ تعدية السلب بالتضعيف وهمز الأوّل متعارفة في كلام العرب كما قدمنا

ثم قالوا «هذّب الشجرة» بمعنى هذبها ثم استعاروه للانسان فقالوا «هذّب فلاناً» بمعنى قطع من طباعهِ وأخلاقه كل شائن له، وفي مثل هذا قال النابغة

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه على شعث أي الرجال المهذّب؟

ثم بنوا له فعلاً من أفعال الغرائز والتغيّر إما على وزن «فعِل يفعَل» كفرح يفرح فرحاً وامّا على «فعُل يفعُل» كشرف يشرف شرفاً، ولم ينقل لنا اللغويّون إلاّ مصدره «الهَذَب» بالتحريك، فهو مثل اشتقاقهم من «بلغ» أي وصل «بلُغَ بلاغة» صار بليغاً ومن «أفصح اللبن: ذهبت رغوته» فصُح فلان صار فصيحاً ومن شرف المكان بكسر الراء «شرُف فلان» أي علا شأنه ومن «مجدت الابل» بفتح الجيم «مَجُدَ فلان فهو مجيد» ويجوز أنهم كانوا يستعملون لـ «هذب» الباب الرابع والخامس من الثلاثي المجرّد كقولهم «حمِق وحمُق» و«ذئِب وذؤب» و«كدِر وكدُر» و«أنِس وأنُس» و«بخِل وبخُل» و«حرِمت الصلاة وحرُمت» و«سري وسرو» وسخي وسخو» و«عجِف وعجُف» و«سمِر وسمُر» للأسمر و«خرِق وخرُق» و«سفِه وسفُه» ومن ثم قالوا «أدُب فلان فهو أديب» بدلاً من «هذُب»

أجاهلي لفظ الادب؟

قال الدكتور طه حسين في ص ١٩ من كتاب الأدب الجاهلي «ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو أننا لانعرف نصّا عربيًّا جاهليًّا صحيحاً ورد فيه لفظ الأدب، والشيء الذي لاشك فيه أيضاً أننا لانعرف أن لفظ الأدب قد ورد في القرآن، وكل مانعرفه هو أن هذه المادة قد وردت في حديث مهما يكن رأي المحدثين فيه فليس هو بالحجة القاطعة على أن النبي قد استعمل هذه المادة، وهذا الحديث هو قوله — ص —: أدبني ربيّ فأحسن تأديبي، هذا الحديث لايثبت حكماً لغويًّا إلاّ إذا ثبت ثبوتاً لايقبل الشك او كان من الراجح على اقل تقديرِ أنهُ صح بلفظه عن النبي، ولكننا بعيدون عن هذا كله، فنستطيع اذن أن نقول من غير تردّد أن ليس لدينا نص صحيح قاطع يثبت أن لفظ الادب وما يتصرف منهُ من الافعال والاسماء قد كان معروفاً او مستعملاً قبل الاسلام او إبان ظهوره» اه

والدكتور محق في أن حديث الرسول — ص — لا يبنى عليهِ أساس لغوي ولا استشهاد وقد نقل البغدادي في اول خزانة الأدب اقوال العلماء في هذا الامر ومعظمهم يذهبون ذلك المذهب فيهِ، وذكر مثلاً لذلك روايتهم عنهُ — ص — قوله: ملكتكها بما معك من القرآن زوجتكها بما معك... خذها بما معك...، وقال ابو سليمان الخطابي وجماعته: ان لفظ الحديث تناقلته أيدي العجم حتى فشا فيهِ اللحن وتلعبت بهِ الالسن حتى حرّفوا بعضهُ عن مواضعهِ، وما هذه سبيله فلا يحتج بالفاظه المخالفة لان المحدثين لم ينقلوا الحديث لضبط

الفاظه حتى يحتج بها بل لمعانيه ولهذا أجازوا نقل الحديث بالمعنى ،ولهذا تختلف الفاظ الحديث الواحد اختلافاً كثيراً »[1] . وقال صديقنا الاستاذ الزيات « عرف الجاهليون ولا ريب هذه الكلمة واستعملوها على التعاقب في معان ثلاثة » ثم قال « ولا عبرة بقول من نفى ذلك مستدلاً بعدم ورودها في الشعر القديم والقرآن الكريم فان ورودها على لسان الرسول (ص) في حديثه للامام علي (ك) وورودها على ألسنة الصحابة والتابعين دليل على وجودها في الجاهلية لان الرسول لم يرتجلها ارتجالاً وانما استعملها استعمالاً بدليل فهم الامام لها دون سؤال ولا مراجعة » قلنا : اما القول الاول فممكن ولكنهُ لم يؤيده بالرواية اللفظية الصحيحة ، واما القول الثاني فلا أرتضيه له صيانة مني لتحريه وتحقيقه وتثبته في قضايا الادب العربي ،وهو بعد صديق كريم

قلنا آنفاً ان الادب صنو المذب وهو في الاصل الخلوص والصفاء ، ولقد ورد الادب في الكلام الجاهلي بخلاف ما زعم الدكتور طه حسين وورد في كلام الامام علي بن ابي طالب — ع — اما من ورد في كلامه من الجاهليين فهو اكثم بن صيفي خطيب بني تميم الشهير قال ابو هلال العسكري في الكلام على المثل « ويل للشجي من الخلي » ما نصه « المثل لاكثم بن صيفي ، وذلك انهُ ذكر له رسول الله — ص — فكتب اليه « باسمك اللهم فأدبني بآدابه ، من العبد الى العبد ، اما بعد فبلغنا ما بلغك الله خبر خير ما اوصله ، إن كنت رأيت فأرنا وان كنت علمت فعلمنا وأشركنا في خيرك » وكان الكتاب مع رجل اسمه « جيش » قالوا أبو هلال « فتبعه مائة من عمرو وحنظلة وخرج الى النبي — ص — فلما كان في بعض الطريق عمد جيش الى رواحلهم فنحرها وشق ما كان معهم من قربة وهرب ، فأجهد اكثم العطش فمات وأوصى من معه باتباع النبي — ص — وأشهدهم أنه اسلم فأنزل الله فيه : ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »[2] » فقوله « فأدبني بآدابه » لايحتمل الشك ولا التأويل لورود الأدب جمعاً مع فعل التأديب ، وقال الامام علي — ع — كما في نهج البلاغة « قد دارستكم الكتاب وفاتحتكم الحجاج وعرفتكم ما انكرتم وسوغتكم ما مججتم لو كان الأعمى يلحظ أو النائم يستيقظ وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة »[3] » عنى بابن النابغة عمراً بن العاص ، وقال يصف رجلاً « قد لبس للحكمة جنتها وأخذها بجميع أدبها »[4] » وكتب عبد الله بن عامر إلى معاوية « ولنعم مؤدب العشيرة أنت وإنّا لنرجوك بعد عثمان »[5] » وقال علي أيضاً « وادبتكم بسوطي فلم تستقيموا وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا »[6] » وقال حجر بن عدي الشهيد لعلي « يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ونتأدب بأدبك »[7] فالأدب وأفعاله مستفيضة في كلامهم ، أمّا أطوار الأدب فليس لنا من الوقت مايسهل الكلام عليها ولكن سنفي بالوعد بغداد — مصطفى جواد

(١) المصباح المنير بمادة « وسط » (٢) جمهرة الامثال ص ٢٠٣ طبعة بمبي (٣) شرح ابن أبي الحديد « ٢: ٥٢٦ » (٤) الشرح « ٢: ٥٣٠ » (٥) الشرح « ٢: ٥٧٣ » (٦) « ٢: ٥٣٦ » (٧) الشرح « ١: ٢١١ »

بيسان وآثارها

﴿ جغرافيتها ﴾ — بيسان مدينة واقعة في منخفضات سهل إزدراليون أو مرج ابن عامر Esdraelon يسكنها ١٥ الف نسمة معظمهم إسلام وهي قصبة قضاء يعرف باسمها الآن ، قائمة عند الكيلو التاسع والخمسين من خط حيفا — درعا ، في الجنوب الشرقي من المرج المذكور وسطحها منخفض ١٣٠ متراً عن سطح البحر . ولا يزورها احد منا الآن إلا ويحمل معهُ عند رجوعه منها ذكرى الحر الشديد فيها والبعوض المنتشر فوق مستنقعاتها وهذا رغماً عن الاعمال الجليلة التي قامت بها الحكومة الحالية لتخفيف وطأة الملاريا فيها . غير انهُ لا بدَّ لهُ وخصوصاً إذا ما رجع إلى تاريخها الحافل بالحوادث التاريخية الاَّ ان يقف متحيراً عند ما يعرف انهُ كان لها شأن خطير في تاريخ فلسطين من قديم الزمان . وبالرغم من هذا كله لم تجرؤ الجمعيات العلمية على طلب رخصة للتنقيب عن آثارها إلاَّ بعد أن إحتلَّ الانكليز هذه البلاد لانها كانت ملكاً خاصًّا للسلطان عبد الحميد

﴿ الحفريات وبيسان ﴾ وكان اول من نال امتياز التنقيب بعثة متحف جامعة بنسلفانيا بفلادلفيا سنة ١٩٢١ وكان من العبث ان تقوم البعثة المذكورة بالحفر والتنقيب عن كل آثار العصرين الروماني والبيزنطي في المدينة لانهُ عمل شاق جدًّا وانما حفرت التل المسمى بتل الحصن Tel El Husn وهو تل يرتفع عن سطح الارض[1] ٢٥٠ قدماً تقريباً وكذلك المقبرة التي تمتدّ على الشاطىء الشمالي من نهر جالود Jalud . والاراضي التي تقع حول بيسان خصبة جدًّا حتى أنها كانت تنتج كتاناً اشهر في العالم القديم

دلّت الحفريات الحديثة أن المدينة كانت قائمة من قبل القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وقد أسفر البحث عن وجود كنيستين واربعة معابد اثنان منها يرجعان الى العهد القديم . أولها (١) بيت عشتاروت[2] The House of Ashtarth وثانيها (٢) معبد دجون[3] The Temple of Dagon وعثرت البعثة كذلك على أحجار نقشت عليها كتابات تختص ببعض ملوك مصر الاقدمين سوف أشير اليهم فيما يأتي

﴿ أسماء بيسان ﴾ واسم المدينة في العبرانية القديمة « بث شان » Bethshan ومعناها « بيت

---

(١) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في دائرة المعارف الانكليزية . الجزء الثالث وجه ٣٣٣

(٢) راجع صموئيل الاول الاصحاح ٣١ العدد ١٠ (٣) راجع الاخبار ١ الاصحاح ١٠ العدد ١٠

السلام او الهدوء » ولكن لما احتلها اليونان غيّروا اسمها هذا إلى Scythopolis اي « بيت السيكيثيين »[١] Scythians ولكنها لا تزال تعرف باسمها القديم ولا ندري ما الباعث على ذلك. ويقال انها كانت تدعى مرةً ما باسم Mysa[٢] وهو الموضع الذي وضع فيه الاله باخوس Bacchus وارضع من عرائس البحر Nymphs ولقد ظهر هذا الاسم على بعض النقود التي وجدت في المدينة

﴿ نبذة عن تاريخها ﴾ ذُكر اسمها بين اسماء المدن التي احتلها تحتمس الثالث[٣] عند ما احتلَّ سهل ابن عامر سنة ١٤٧٩ ق.م وكانت ايضاً في قبضة المصريين على ايام ستي الاول سنة ١٣١٤ ق.م . وبقيت على هذه الحالة الى أيام رعمسيس الثالث سنة ١١٩٨ ق.م . وقد وُجد اسمها ايضاً مذكوراً على احد دروج البردي Papyrus Asastasi على أيام رعمسيس الثاني . واستولى الاسرائيليون على المدينة في أيام الملك داود حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م . وكان من نتيجة موقعة جلبوع[٤] Gilboa المشهورة في التوراة أن علقت جثتا الملك شاول Saul وولده بعد هزيمتهما وقتلهما على سور المدينة. ثم احتلها بعد ذلك المصريون على ايام الملك Shesluok سنة ٩٢٦ ق.م وبقيت من ذلك الوقت في ايدي المصريين إلى أن افتتحها الاشوريون في القرن السابع قبل الميلاد

وفي المدة الواقعة فيما بين سنة ٣٠١ ق . م — سنة ١٩٨ ق.م دخلت المدينة في حكم البطالسة ولما جاء الرومان الى فلسطين احتلوا المدينة سنة ٩٥ ق .م على أيام بومبي Pompey ومن ثمَّ اصبحت اشهر مدينة بين المدن العشرة الرومانية في الشرق الادنى المعروفة بـ Decapolis وأخذت تنمو وتتقدم فكثرت فيها العمارات والبنايات الكبيرة كالملاعب والملاهي واصبحت تفوق مدينة القدس تجارة ونفوذاً وسعةً وسكاناً . ولما جاء المسلمون فلسطين فتحوها سنة ٦٣٦ ق.م. وفتحها صلاح الدين ايضاً سنة ١١٨٧ ميلادية مع عفربال Afrabalo او Fourbelet واغتصبها من ايدي الصليبيين. ويقال انهُ لما خسر البيزنطيون موقعة اليرموك المشهورة تراجعوا الى ما وراء نهر الاردن وذلك بعد ان حصنوا بيسان حتى انهُ لما تبعهم العرب[٥] وجّهوا عليهم ماء العيون التي في المدينة ولكن العرب لم يعبأوا بذلك فهجموا عليهم وكان من نتيجة ذلك أن انهزم البيزنطيون شرَّ هزيمة وتعرف هذه الموقعة بموقعة الفحل[٦] Fahl وهو الاسم العربي لمدينة Pella القديمة وأصبح يُعرف هذا اليوم فيما

---

(١) وهم قوم نزحوا من الشمال الي فلسطين حوالي سنة ٦٠٠ ق.م (٢) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في كتاب The Historical Geography of the Holy Land by. G. A. Smith وجه ٣٥٧—٣٦٣ (٣) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في دائرة المعارف الانكليزية
(٤) راجع صموئيل الاول الأصحاح ٣١ العدد ١٢
(٥) راجع المقال المكتوب عن بيسان في مجلة The Museum Journal Dec. 1923 الصادرة في فيلادلفيا باميركا (٦) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في The Hist. Geog. Holy Land. ايضا

بعد في التاريخ الاسلامي « بيوم بيسان »

﴿بيسان ومكانتها الأثرية﴾ دلَّت الحفريات الحديثة أن تاريخ التل المذكور أي تل الحصن يرجع إلى ما قبل ٣٠٠٠ سنة ق.م. وقد توصل علماء الآثار إلى معرفة هذا من الحفر في بئر بجانب التل والعثور على طبقات بناء مختلفة يرجع تاريخ كل واحدة منها إلى عصر معروف ، ويقع ضمنه معبد المدينة القديم والمدينة الكنعانية القديمة « The Canaanite City » والقلعة المصرية وهي قلعة مبنية من الآجر فيها غرف صغيرة وممرات طويلة . أما حجم اللبنات المبنية منها فتبلغ[1] ٢١ × ١٤ × ٦ بوصات . ووجد في هذه القلعة لوحات من الحجارة خطت عليها نقوش تختص بكل من سيتي الأول ورعمسيس الثاني وتمثال لرعمسيس الثالث وكل هذه الاحجار[2] مقطوعة من نوع من الرخام . أمَّا النقش الحجري فللملك سيتي الأول

١ — اللوحة الاولى : دوِّنت عليها أسماء القبائل المتعددة التي خضعت لهُ في غزواته عند دخوله فلسطين والكتابة على هذا الحجر صعبة القراءة جدًّا وتاريخها غير معيَّن وهي تختلف كثيراً عن بقية النقوش الخطيَّة التي أقامها هذا الملك ولا يمكننا بواسطتها أن نعيّن السنة التي غزا فيها مدينة بيسان ومتى أقام الحجر المذكور فيها وعلى الإجمال فهذا النقش يُعطينا شرحاً لابأس بهِ عن غزو سيتي لبعض من الشعوب الأسيوية كشعب Rtnw « رتنيو » وهذا هو الاسم المصري للشعب الذي كان يسكن فلسطين في ذلك الوقت

أما في ما يرتبط بالعساكر التي استخدمها هذا الملك في غزوة فلسطين فالحجر يبيّن أنها كانت « مستأجرة معظمها من الجزائر الإيجيّة « Aegean Islands » ومن غرب الأناضول »

٢ — وهنالك نقشٌ خطيٌّ آخر (Stele No 2) وجدته البعثة الآنف ذكرها وعليهِ منقوش صورة Seti I أيضاً عند ما كان شابًّا متحلياً بالشارة الملكية المصرية « وهي رأس الحيَّة » يُقدّم قرباناً إلى الإله هورس « Horus » وعلى هذا الحجر مكتوب قصة تشير الى ان أهالي بيسان وكذلك أهالي رحوب Rehob قد طلبوا النجدة من الملك المُشار اليه لاعانتهم ضد أهالي[3] Hanmath الحمّة (وهي قرية واقعة على نهر اليرموك فيها ينابيع حارّة . (راجع الخريطة) وأهالي قرية Pella (وهي قرية أيضاً تقع شرقي بيسان من الجهة الثانية للأردن) ، وكيف أنهُ عند ما وصل مجدّو[4] Megiddo كان قد أوفد نجدة للمستنجدين

(١) راجع مقال الدكتور Fisher عن بيسان في «مجلة متحف جامعة بنسلفانيا » عدد ديسمبر ١٩٢٣

(٢) ان الشرح المعطى لهذه الاحجار في هذا المقال مأخوذ بعضه من مقال خصوصي عنها للدكتور Albright أحد اساتذة جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins

(٣) قرية خربة فيها بعض من الآثار الرومانية واقعة على خط حيفا — درعا وفيها كنيس يهودي قام بالحفر حوله في الصيف الماضي بعثة ارسلت من قبل الجامعة العبرية بالقدس . ويزورها الآن كثيرون من الذين يطلبون الاستشفاء للاستحمام في حماماتها الساخنة (٤) بلدة قديمة واقعة في سهل مرج ابن عامر كانت ذات شأن كبير في تاريخ فلسطين ويقوم بالحفر فيها الآن بعثة مرسلة من قبل جامعة شيكاغو Chicago

في كتيبتين من كتائب جيشه أحداهما Ra وهذه ذهبت لاحتلال بيسان والثانية Amen وهذه ذهبت لإخضاع أهالي الحمة Hammath وبعد ذكر وقائع أخرى تنتهي الكتابة المنقوشة بذكر انتصار ستي الاول (Seti I)

وهذا الحجر هو أهم الاحجار التي وُجدت في بيسان من الجهة التاريخية لأنهُ يشرح لنا بعض الحوادث المدوّنة على جدران معبد الكرنك في مصر . ومعرفتنا لتاريخ فلسطين في المدة التي تقع فيما بين عصر تل العمارنة وعصر دخول الإسرائيليين إليها يتوقف بعضاً ما على ما هو مكتوب على هذا الحجر . وأول شيء يبهر الإنسان في قراءة هذه المخطوطة الحجرية هو تاريخها المضبوط «السنة الأولى ، الشهر الثالث من الفصل الثالث، اليوم العاشر» وهذا يعني أن سيتي الأول كان قد غزا فلسطين في هذا التاريخ ابتداءً من تولّيه عرش الفراعنة

وهذا الحجر يدلنا على أن الحجر الأول للملك نفسه لم ينصب عند ما غزا فلسطين أوّل مرّة بل كان قد نُصب عند دخوله إليها في المرّة الثانية

أما اسم بيسان فنجده مذكوراً مرتين عليهِ وتهجئة اسمها باللغة الهيروغليفيّة تدلّ أنها نفس المدينة المذكورة في رسائل تل العمارنة « Tel El Amarna letters »

٣ — اللوحة الثالثة (Stele No 3): أما حجر رعمسيس الثاني فيقع بجانب الحجرين الأولين لسيتي الأول وكتابتهُ تُقرأ بسهولة وتتألف من ٢٤ سطراً كلها تنطق بعظمة الملك الموصوف «كالأسد بين النعاج» و «كالنسر بين الطيور» و «كالملك الذي يهرب من أمامه الأعداء كتطاير الريش في الريح الشديدة» . وهذا الحجر هو أكبر الثلاثة حجماً وتاريخه « السنة التاسعة ، الشهر الرابع من الفصل الثاني ، اليوم الأول» . وقصة ذلك أنه في السنة الثامنة من حكم رعمسيس الثاني كانت قد ثارت عليه بعض القبائل الشمالية وأغلبها من الحثيين فجاء وأخضعها بجيوشه وفتح بيسان وأقام في قلعتها المصرية هذا الأثر التاريخي بعد سنة تقريباً

ومكانة هذا النقش الخطيّ من ناحية التاريخ تقع في السطر التاسع منه حيث يقول أن شعباً آسيويًّا[١] كان قد استخدمهُ الملك في بناء مدينة Ramses في دلتا النيل Delta وهذه هي البلدة المذكورة في العهد القديم من التوراة في سفر الخروج الأصحاح الأول العدد ١١ . ومن هنا يمكننا أن نرى أن اليهود هم الذين كانوا قد استخدمهم رعمسيس الثاني في بناء بلده

ويذكر أيضاً على الحجر أن الملك المذكور كان قد أعدّ مقبرة جميلة لجنوده في بيسان ولقد دلّت نتائج الحفر في هذه المقبرة على أن الأشياء التي وُجدت فيها يرجع تاريخها الى ٢٠٠٠ سنة ق . م . وأنها مصرية الصبغة بكل مظاهرها كوجود زهرة اللوتس Lotus والحيّة الملكية المصرية ويرجح ان العساكر التي دفنت في هذه المقبرة كانت مستأجرة في الجيش المصري

---

(١) وهذا دليل قاطع يدلنا على ان الاسر الاسرائيلية في مصر كانت على أيام هذا الملك يشير الى ذلك ماهو مكتوب في الاصحاح الاول من سفر الخروج العدد ١١ بقوله «فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس»

وبجانب هذا الحجر وجد تمثال رعمسيس نفسه مكسوراً ويظهر على كتفيه شعار ملكيّ مصري آخر وهو الخرطوش الفرعوني Cartouche

ويقول الدكتور Albright [١] ان هذه الاحجار الثلاثة هي اهم ما وُجد من الآثار القديمة في فلسطين وسوريا لانها تدلنا على تاريخ هذه البلاد بوجهة اجمالية

وتدل البيوت المنتشرة حول القلعة المختصة بالسيكيثيين Scythians الآنف ذكرهم انهم لم يكونوا على شيء عظيم من الحضارة لان هذه الآثار تنطق بذلك . ولقد بقيت بيسان من ايام هؤلاء القوم على حالة مضعضعة الى ان احتلها اليونان فتغيرت من مدينة حرب الى مدينة تجارة وسلام واصبحت تفوق بتاريخها من هذا الوقت مجدها القديم وجبروتها العظيم ودخلت بذلك عهد نهضة جديدة . واول اثر يدل على هذه النهضة في المدينة هو وجود معبد جميل في اعلى نقطة فيها عثر بجانبه على قطعتين من الرخام مكتوب عليها نقوش خطية مع ذكر اسم دميتريوس Demetrius وبعض من النقود الفضية مكتوب عليهما Ptolemy Soter I الملقب بـ Polyorcetes ملك مكدونيا من سنة ٢٩٤ — سنة ٢٨٧ ق . م . ولسبب ما لا نعرفه بقي بناء هذا المعبد ناقصاً الى ايام الرومان الذين اكملوه وقاموا بترميمه فيما بعد واعمدته ذات قواعد اتيكية Attic ورؤوس كورنثية وتدل النقوش واكاليل الزهر المنقوشة على جدرانه انهُ كان قد كرّس الى الاله باخوس[٢] Bacchus ولما كان موقع بيسان الجغرافي ممتازاً جعلها الرومان قاعدة مدنهم العشرة Decapolis وأصبحت مركزاً تجارياً كبيراً تمر بها القوافل والتجار في طريقهم الى شرقي الاردن

وكان يعيش بجانب العنصرين الروماني واليوناني في المدينة فريق من اليهود كان لهم شأن خطير في تاريخها ففي سنة ٦٥ ق . م . انحازوا الى جانب اخوانهم الوثنيين من سكان المدينة ضد بعض الثوار الذين قاموا في وجه الحكم الروماني في ذلك العصر ولكن هذا الجميل لم ينفعهم لان الوثنيين غافلوهم بعد هذه الحادثة بقليل وذبحوا منهم ما يقارب (١٣٠٠٠) نفس . ولما ظهرت النصرانية اصبحت بيسان مركزاً مسيحيًّا كبيراً وصار يسكنها مطران يترأس عدة كنائس فيها واول كنيسة بنيت فيها كانت في القرن الرابع للميلاد وكان موقعها على رابية وفي جوار هذه الكنيسة من الجهة الشمالية وُجد قبر سانت باتروفيلس St. Patrophulus اول اسقف مسيحي للمدينة . وفي ايام الاضطرابات التي قامت ضد المسيحيين سنة ٣٦١ ميلادية نُهبت الكنيسة المذكورة وحُرقت ولكن لما استتبّ الامر للمسيحيين ثانيةً بنوها بعد ان غيروا في هندستها الشيء الكثير . ولما دخل المسلمون فلسطين سنة

(١) ويؤيد قول الدكتور Albright كثير من علماء الآثار منهم الدكتور C. S. Fisher وهو الذي وجدها في بيسان سنة ١٩٢١ (٢) وهو اله الخمرة عند اليونان

٦٣٧ ب. م. حولوها الى جامع فأضافوا اليها بعضاً من النقوش الخطية الكوفية ولكنهم لم يغيروا شيئاً من اصل البناء . وتدل النقوش الكوفية التي وجدت في اماكن مختلفة ان هذا الجامع كان قد سقط وخرّب بواسطة الزلازل إما في سنة ٦٥٨ ب.م. او في سنة ٧١٣ب.م. ولم تقم له قائمة فيما بعد لأن بعضاً من البيوت العربية للسكن امتدت اليهِ وتعرف هذا من كتابة كوفية منقوشة على عامود وجد حديثاً والذي كتبها رجل عربي زار المدينة في سنة ٧٨٤ ب.م. والراجح ان بيسان كانت معروفة للسيد المسيح[١] لان على مقربة منها كانت تقع بيت عبرة وهو الموضع الذي تعمَّد فيهِ وكان لابدَّ له ولتلاميذه ايضاً من اجتيازها عند ما كانوا يبشرون بدينهم الجديد في منطقة الجليل

ولم تتوطد دعائم النصرانية في هذه المدينة الاّ في اواخر القرن الثاني للميلاد فاضطهد مسيحيوها على ايام الامبراطور ديو قليطيانوس (٢٤٥ — ٣١٣ ب. م.) وتضعضعت احوالهم ولكن عددهم اخذ يزداد بعد هذا وصار لهم كلمة مسموعة في شؤون الكنيسة وكان لهم ممثل في المجمع الكنائسي الذي عقد في نيقية Nicaea[٢] سنة ٣٢٥ م. ولقد اصبحت فيما بعد مركزاً عظيماً للرهبنة المسيحية اخرجت رجالاً كانوا اصحاب سطوة في تاريخ الكنيسة الشرقية مثل القديس باسيليوس St. Basil والقديس كيرلُّوس St. Cyril

﴿ سبب انحطاط بيسان الآن ﴾ : — قلنا آنفاً انهُ في اثناء حصار العرب للمدينة سنة ٦٣٧ ميلادية كان قد اطلق الرومانيون عليهم اقنية الماء التي كانت تقع في غرب المدينة فأحدث ذلك مستنقعات حول المدينة ولما دخلها العرب لم يوجهوا عنايةً ما الى تجفيف هذه المستنقعات ومن ثمَّ أصبحت المدينة في خطر هو أشد وأعظم فتكاً من الجيوش الجرارة وذلك الخطر هو البعوض ناقل طفيلي الملاريا

وعند ما احتلَّ الصليبيون هذه المدينة ، عرفوا ما لها من الشأن الخطير فبنوا فيها ثكنات عسكرية وكان في هذه الثكنات فرن غير أنه كان من نتيجة الملاريا الملعونة أن ترك هؤلاء المحل وذهبوا الى محل آخر على بضعة أميال من بيسان شمالاً سموهُ فيما بعد Belvoir ولكنهم بالرغم من هذا كانوا قد تركوا شرذمة من عساكرهم في المدينة لم تقوَ فيما بعد على صدّ هجمات صلاح الدين سنة ١١٨٧ ميلادية

ومن ذلك الوقت اختفت بيسان بتاريخها العظيم من مرسح التاريخ العام لولا ظهورها بين آونةٍ واخرى كشبح فقط في تمثيل بعض الادوار الصغيرة في تاريخ فلسطين على هذا المرسح

داود . ت . فيشر

---

(١) راجع مقال آخر مكتوب في مجلة متحف جامعة بنسلفانيا عن بيسان The Museum Journal XV—XVI (٢) راجع المقال نفسه في The Museum Journal XV— XVI عن بيسان

اللحن الضائع

لحسن كامل الصيرفي

يا أغاني الربيع ما أنا إلاّ مقطعٌ من قصيدةٍ ضاعَ لحنهْ

لم تلدْ لي الأيامُ منْ يتولّى بعثَ لحني ، وكيف يبزغ شأنُـهْ ؟!

أوَ بين الصخور يكتمل الصو ت ؟! محالٌ هذا وكنتُ اظنُّـهْ . . .

ادركتْ ذلك الطبيعةُ في الكو ن ، فأغضتْ عنهُ ، فأجّل حينْنهْ

وتناستـهُ ، والذي تتناسى في شروق الحياةِ يوشك بَيْنُـهْ

من ذبول الآمالِ ، من غُمرِ اليأ سِ ، وطيفِ الآلامِ يشردُ ذهنهْ

من ظلام الطريق ، من شبح الوهـ ـمِ ، وفقدِ الوجدان يُطبق جفنهْ

يا اغاني الربيع . . . عندكِ وزنٌ للنشيد الذي تُنُوسيَ وزنُهْ ؟

كان يصبو الى سماعكِ بالأمـ ـسِ ليصحو من رَقدةِ الموت فنُّـهْ

فإذا العودُ لا يردّدُ صوتاً وإذا القلب ليس يُسمِع أنَّهْ

والربيعُ الجميلُ في وحشة الاطـــلال ، ذاوٍ ، فليس يجملُ لونُهْ

مُوحشٌ في الصباح ، في وَضح الـــشمسِ ، وليل الآلام حين يجنُّهْ

قصة مصرية

الاوركستر

كانت الحانة ضئيلة الانوار وقد رقت فيها انفاس الليل حتى لكأن الذين اجتمعوا حول موائد الشرب كلما طال ليلهم ازداد استمتاعهم . الليل والخمر ولذة السهر بعثت في جو الحانة حياة ونشاطاً فاشبهت في لجة الحلكة والسكون ضحكة واضحة اشرق بها ثغر حسناء من بنات الهوى

حانة صغيرة ولكن انيقة كأنها لحسن ترتيبها وجدتها صورة في لوحة . لا تكاد تبلغها ضوضاء الطريق لانعزالها في حي هادىء من احياء الافرنج

في تلك الليلة اجتمع حول احدى الموائد في ركن الحانة ثلاثة اشخاص لا يكاد يتبينهم الناظر حتى يحكم بانهم اغرقوا الشباب الغض في لجة الحياة الدنيا غرق الزهر في الآنية . واعربت سحناتهم عن حقبة من العمر يظل فيها المرء اسير اهوائه

وقد وفقت بينهم حياة السهر الى حد ان غاب تباين ملامحهم الطبيعي تحت ظلال من التناسب العجيب بين صورهم . وغالباً ما تستوي الصور والطباع في الناس فلا يكاد يفترق السكير عن السكير الا في القليل . وكان الاصدقاء الثلاثة يستوون في اشياء كثيرة : في طباعهم وحديثهم وازيائهم ، وغير هذه الاعجوبة في شأنهم ان كلاً منهم كان يأخذ بسبيل من الحياة البوهيمية يزيد في اتحاده برفيقيه كانوار الثريا

ولقد تذكر لفظة « البوهيمية » اقتساراً في هذا الحديث فلا يكون المراد منها ذلك الشذوذ المحتمل الذي يعتري حياة رجل غلبت مواهبه طباعه . فانحرف عن سبيل الناس وحاد عن المألوف في الكثير من معاملاته واساليبه . انما الغرض من البوهيمية في معنى الحياة المصرية تلك الصفات الملحوظة في بعض الوطنيين الذين وفقوا لمزاولة ما نسميه بالفنون الجميلة . فلا تراهم في اليقظة اقل استغراقاً وفتوراً منهم في حالة العكوف على اداء الفن . وحتى يلوح ان ذلك الاستغراق سحب مخيمة قد شفت عنها الفنون نفسها واتخذت من اصواتهم واحاديثهم صورة خاصة ونغمة مؤثرة توحي بان بؤس الحرفة قد اقترن بوجدهم بها

وكان علوي افندي — اكبر الثلاثة سناً — قد اجاد الضرب على العود وقدر له ان يكون حليف سهرات وملام يحفظ المعهود والمستجد من الاغاني ويشدو بها ويوقعها وقد

افنى الليلُ الشطرَ اللين من عمره فامسى كالشبح الناحل. وكأن صوته الجميل نفس متأرج يتصاعد ببطء من عود جاف . كانت براعتهُ في فنهِ مثلاً لما تبلغهُ الايام من اختبار الحظ السيء الذي لا يبيح السرور ساعة الا لكي يقضي بالنكد ساعات . وكأن تلك البراعة ضرب من الحيف على حظ الانسان في حياته

وكان من تمادي الايام في سخريتها ان الصناعة نفسها التي كانت ترفع صاحبها الى مكان الملك قد اختلف حظها في زماننا حتى ازوت في اركان الحانات واتخذت من آذان العامة والسكارى ميزاناً للتقدير والاعجاب. فقُضي ان ينزوي ذلك المغني البارع في ركن حانة صغيرة لايزال يرسل في جوها اغانيهُ كأنها ابتهالات الى السماء ، ان تعينهُ على الحرفة والا تجعل نصيب الفن الجميل الصبر الجميل

وكانت الخطيئة الكبرى في حياة هذا الفنان — خطيئة الحظ — انهُ لما بلغ الغاية في صناعتهِ كان ما سلف من ايامه كصفحة وجه الزنجي لا تنبئ ببارقة نور

ولم يكن في مادة هذه الحياة عزاء كالذي يتمثله الناس عند ما تصافح وجوههم بهرة الضحى وتموج الاشعة على المياه والغصون وعند ما تستحيل الوان الطبيعة وانفاسها الى احلام تبشر بمستقبل هنيء

كل ما اصاب علوي افندي من الحرفة اتفق لصديقه وزميله المعلم شعبان القانونجي . وكان على شاكلتهِ يستعير لنفسهِ بعض العزاء من اخلاصه لفنهِ

وكانت خلسة انتهزها المعلم شعبان حاول فيها الضرب على « القانون » وهو بعد يزاول حرفة النجارة الدقيقة . وما زال يلاين ما عسر من طرائق الفن حتى اجاده وبرع فيهِ

وبلغ الكمال ولما ينسَ عهده في مصنع النجارة ولا غاب عن ذكره تلك الاصايل التي كان يجلس فيها على قوالب الخشب المنجور في جوف المصنع لكي يحفظ الضرب على الآلة معتمداً على طبعهِ وذوقهِ . وكان من ثمرة احسانه لفنه مع رقة حاله انهُ صار زميل « علوي افندي » في « الاوركستر » المتواضع الذي كان يطرب زبائن حانة « الاهرام »

اما كيف تجاوز المعلم شعبان مسافة ما بين حرفة النجارة الدقيقة وفن الضرب على القانون فانها صفحة بجنح الدجى اوضح الوانها كالسراب ينفذ اليهِ الساري من خلال غيم ثقيل

فان ذلك الفنان لما بلغ الغاية من فنه صار لا يستطيع ان يتمثل الدنيا الا بعين خياله . عشي بصره لا من طول اختباره لطرائق الصناعة وفنونها ولكن من طول ما افنى في سبيل النجاح من راحتهِ وهناءتهِ فكان ابداعهُ في الضرب على الآلة من الخوارق

ولم يكن من الممكن ان يمضي هذان الفنانان العمر دون ان يصيبهما رشاش من ذلك الخضم المصطخب الذي يعنيهِ الناس بالحياة الدنيا . وهما وان كانت الايام قد فرغت من غدرها بهما

لكنها تخلت لها عما يشبه الثمالة من ذلك الاتصال العجيب بين العواطف والانغام . وكأن الايام من بعد ان حجبت النور عن احدهما وانكرت لين الحياة عن الثاني حكمت بان فرحة النجاح في الصناعة بالنسبة لجامد لا يرى وذاهل عن الدنيا لا يعي ، لا تختلف في طبيعة الاحساس عن غفوة يترك فيها ذلك الاتصال بين النغم والعاطفة اثراً يُسر به قلبا هذين الفنانين

واصغر الاشياء اذا لامس منبعةً من العظمة عاد شيئاً عظيماً

أمن بعد ان يستحيل الفرع الغضي الى قتاد تسري فيه الحياة ويعود الى ريعانه ؟

في الطبيعة بعث مستمر ، فلقد يؤتى بالفرع الجاف يطعم به جذع شجرة مخضلة او يغرس في تربة مناسبة فلا يلبث ان ينبت ويصير غصناً غضيضاً

كذلك اتفق لعلوي افندي وزميله عند ما اخذ كل منهما مجلسه الى جانب السيدة « ليلى » المغنية وصاحبة حانة « الاهرام »

غير ان الهوى حين امتحن قلب «العوّاد » سلم بان الطبيعة الانسانية عرضة لان تمسي كالشجرة التي قلّمت ولما يمُد اليها اخضلالها . كأن الهوى فرصة تأجلت حتى تجاوزت في عمر الفنان اوان انتهازها . واضاف الحب حين مس فؤاد القانونجي الاعشى الى قصة الالم الانساني صفحة اخرى كأنها صفحة العمر في مرآة تصوره

يالله : كيف يهتدي الحب الى سبيله من تلك القلوب التي اختارت ان تكون الدنيا بحظوظها وملاذها في مستوى اللحظات المجيدة التي تحسُّ فيها كأنها تنهل من ينبوع الخلد كما تفجر ذكاؤها

كان علوي افندي منذ تخلى عن عمله في ادارة البريد — كان من السعاة — قد آلى على نفسه ان يبذل من حياته حتى يلين له ما عسر من طرائق الصناعة . وخلص من ولعه بالضرب على العود بادىء الامر الى الايمان بالاكذوبة الكبرى المتفق عليها ان مجد الفن محسوب على سعادة الفنان

ولكنه آثر ان تكون لذاذات الشباب فدية لآلهة الفن . وقد روي في الاساطير ان «ابولو» قتل خليله «نارسيس» وهو يداعبه

فلما تأرجت فيه نفحة الفن وصار استاذاً في الصناعة لم يكن نصيبه من لذة الحياة النصيب الاوفى . وخلفت الايام في طبعه وعواطفه ذلك الاثر الراسخ العميق الذي يدع الانسان امام أجمل الاشياء بلا إعجاب ولا امتاع . سلبَ حبُّ المجد الفنانَ فضيلةَ السرور

وكانت عاقبة ليالي السهر والارق الطويلة — حقبة التجارب الاولى للفن — ان درست العاطفة في الفنان لطول اعتزاله وانفراده . كان بلا اسرة . نشأ في إحدى قرى الريف . وكان أبوه اعرابيًّا من البدو . وامه فلاحة من المنصورة واجتمع في طباعه خشونة الاعرابي وصلفه الى رقة تلك الفلاحة المصرية ودعتها وخلقها الطلق

نشأ وفي فطرته الميل الى الغناء . وكان في صباه يأبى ان تفوته فرص الاستماع في حفلات الغناء فخلفت في نفسه ذلك الاثر البسيكولوجي الذي يغذي الآمال ويصقل الملكات

فكان لايترك الشدو او الاستماع الا لكي يحلم بانه المغني البارع او العواد الماهر . وان صيته قد جاوز حدود وطنه . ويظل يمتحن صوته في مقطوعات واغان كأن الذي وهبه الصوت الحسن لم يخف عنه انه سيكون رب الفن في مستقبل ايامه

وتحققت امنية الفنان من بعد ان رزىء بوفاة ابيه . غير ان الارتزاق من الحرفة اذ ذاك كان كاستطلاع النور من سم الخياط . فلم يطق البقاء في القرية لما سامته التجربة الامرّين

وما كان من الممكن ان يعد الفنُّ بالنجاح في جو ذلك الريف الذي لا تطيق خشونته وشظفه الا ان يحسب الفن من ضروب العبث والفراغ

واشد مايتعوذ منهُ القروي ان يكفيه الله شر الفراغ

وكان من دأب «علوي» افندي اذا اجتمع بصديقيه في الحانة ان يظل معهما في حديث طويل قبل ان تأخذ السيدة «ليلى» في الغناء

يقول عن سالف ايامه في الريف روايات كالذي يؤثر عن حياة ارباب الفنون البوهيميين. يرويها بلهجة كأنها طابع صادق لآلام لم تفارقه . وغالباً ما تكون فاتحة تاريخ الفنان لوحة تقيد فيها خطوط المستقبل بخطوط الماضي . وكان يردد في حديثه دائماً ذكر المرحلة الشاقة التي كانت تفصل بين شابٍ ريفي من سعاة البريد بلا سند في الحياة والمغنّي المحترف المتفوق

ويدعي علوي افندي في اثناء حديثه انه متغلب على طبعه الذي استحوذ عليه السأم والذهول . ويحاول جهده ان يحاكي الذين افرغت الخمر نشاطهم في قوالب من الحديث الفكه الممتع .وكان يتحدث عن معلمه الشيخ الذي نقل عنهُ صناعة الضرب على العود . وعن ليالي اللهو التي كانا يقيمانها في الاسواق والمواسم . ويعلل النفس ويتلذذ بالنجح ولما تكتمل اداة الفن . وكان يتحدث عن الفن كمن جنى على نفسه

ولا يحاول القانونجي الاعشى ان يبثّ شكايتهُ الى احد كأنهُ قد رضي ان يحتسي همومه وهموم غيره في صمت. وهو اذا تصفح ما مضى من زمانه ذكر تمسه وهو فتى في نواحي القرى وسبيتهُ تحت الاشجار شريداً بلا مأوى . واذ وفق الى حرفة النجارة الدقيقة فزاولها حيناً وأجادها وتفنن فيها وكان ربما عهداليه المغنّون بأعوادهم يصلحها ويجبر كسرها. فلما اراد ان يستبدل النجارة بالضرب على «القانون» كان جزاء احسانه ان منحتهُ الطبيعة الظل بدل النور

عشى بصره ولكنهُ بقي يضرب على الآلة وكأن التواقيع اشعة تسطع في صدره

واغمض الليل اهدابهُ على الحانة التي تضاحكت فيها الاضواء والكؤوس والانغام . وكانت الاصوات في داخلها كالفرحة يحتبسها القلب الضنين. وجعلت المغنية تشدو بالدور القديم :

يا ليل طل اولا تطل لا بدَّ لي من سهرك

وكانت نبرات صوتها سيالاً عبقريًّا مستمدًّا من دقات القلوب . وكأن الانغام لجة تتبدد وتجتمع تحت انامل القانونجي . وحنَّ صدر العود حتى امتزج فيه الصوت والعزف كما يكون الاتصال في الطبيعة بين الاغاريد والاشعة

وبقي «علوي» افندي كمن غيبتهُ امواج الموسيقى . اما القانونجي الاعشى فكانت عيناه المضمومتان في اتجاه الى الامام كمن يحاول ان يتبين شيئاً لا يراه. وتوسطتهما المغنية الفرعاء. قطعة من الحسن الباهر غضيضة العود كالزهرة في نيسان

وكانت تنظر الى المعجبين بها مبتسمة في زهو كانما تلوح لها صورتها في مرآة

والحانة الانيقة بحيطانها المدهونة واضوائها الملونة وبابها الزجاجي كمعبد لربة اللذة

ويظل القلب بلا استعداد للحب الى ان يبلغ الخيال بهذه العاطفة درجة التبلور . فتكون اشبه بالتموجات الصوتية التي تحدثها الموسيقى . وللآلة الموسيقية مثل اوتار القلب ودقاته ومقاصده ولكنها بلا حياة ولا ارادة

ولم تكون الجوقة كياناً على حدة مستقلاً عن الحانة. فان اهواء الانسان من دأبها ان تستخلص السرور من مادة مشتركة كما يستخلص النحل رحيقهُ من النسيم ومصيصه اليانع . فهي تأبى الا ان يكون الغناء مع الخمر والزهر معاً

ولقد يمتنع على الانسان ادراك الكلام او الكتابة في بعض الحالات المرضية وهو مع ذلك يرى ويستمع ولكن ما يدركه يظل كالنغمة او كالاثر الابيض على الديباجة السوداء

وكان يخيل للقانونجي الاعشى انهُ مغمور في لجة من النسيان كلما انشأت المغنية بصوتها الرخيم في مخيلته مثالاً معبوداً . وكانت هذه الصورة تصادف في ذهنه استعداداً نفسيًّا كالاستعداد الذي تخلقهُ المشاهدة. او كالقابلية التي تحدثها رائحة اللبن في صغار الحيوانات والرضع

وغالباً ما يقنع الانسان بالارج عن رؤية الزهرة نفسها . تلك كانت حال القانونجي الاعشى نحو المغنية الحسناء . كان يحبها ولكنهُ لا يبصرها . والحب للعين التي لا تبصر صفحة من كتاب لا اول له . والقلب يصطنع الحب ما لم يستعن بالنظر . وكان القانونجي يركن في تذوق هذه العاطفة الخاسرة[1] الى نظر زميله العواد . رجل ذاهل عن الدنيا كأنهُ يبصر في سبيل سحري غير سبيل النظر المألوف . والذاهل لا يفكر في شيء . اذن فهو لا يبصر شيئاً

ما كان يدري احد اين مكان النور من ذلك المخلوق. كان مجيداً لم يخطئهُ حكمةُ يوماً في فنه. لكنهُ بقي بجموده متخلفاً عن الدنيا . وعجيب ان يكون هذا الطبع في انسان غارق في مواطن اللهو . ولو استطاع القانونجي ان يتجسس حال زميله العواد لادرك انهُ عند حد من الاستغراق

---

(١) الخاسرة اي الناقصة من قوله الذين يخسرون الخ

لا يقبل الاستعانة بنظره في الحكم . وحتى الحواس نفسها لا تكاد تعطينا تفسيراً حقيقياً للاشياء . والاثر الذي خلفتهُ الايام في نظر القانونجي لا يكاد يختلف عن الاثر الذي طمس حسهُ وكتم وعيه . وربما تخيل البصير في الظلمة شيئاً لا يبعد ان يطرأ على ذهن الاعشى في النور . فقد كان بصر القانونجي بالمغنية اشبه باحساس مستمد من زميله العواد

ولو كان من الممكن تجريد الحب من احلامه وخيالاته لاسميناً تلك العاطفةالتي استأثرت بالقانونجي حبًّا . ولم تكن المغنية على بينة من ذلك الحب . غير ان الغصن حين يميس يخلف دائماً على الثرى بعضاً منه او من رائحته . ومقدار ما كانت عاطفة الحب تتأجج في قلب القانونجي لم تكن تجاوبها بغير العطف المجرد

كانت المغنية كأنها قد اظلت بحمايتها هذين الفنانين . ولم تكن تجهل حالتهما من قبل

وفي سبيل الحب لا يأبى الانسان احياناً ان يكذبه ادراكه . كانت المغنية لحسنها الباهر كالماسة تأتلق في دجى . او كالزهر النضرة تهتز في آنية من الفضة . ولقد يتألف من بعض التفاوت في الخلقة جمالٌ خاصٌّ يعجب النظر لكن القانونجي كان مجرداً حتى من هذه الصفة. هذا الى رقة حاله . ولم يكن للحب منفذ ميسور الى قلب المغنية . فان القدر الذي ابى ان يتساهل في احسان القانونجي لصناعته حتى سلبه بصره شاء ان يقترن حسن المغنية بتلك التجارب القاسية التي يتكوّن من خلاصتها سلوك المرأة وخطتها في الحياة

فلم تكن مظاهر حبهِ الساذج تستطيع ان تقاوم حتى مداعباتها الجدية . كانت عواطفه تخذله وقلبه يزداد خفقاناً عند سماع حديثها .ويبقى وجومه كأنه عبادة مكتومة لحسنها الممتنع

وكلما امعنت المغنية في كلامها ونكاتها حاول انكسار القانونجي ان يستند الى استغراق العواد كما يستند الركن المنهار الى ماهو اوهى منه

وكان وقف الموسيقي يزيد في دقات قلب القانونجي . اذ يتوقع ان يصافح جمال المغنية رغبة منه لا تبصر

وتظل هذه الدمية كأنها تشرف من علٍ على هذين الحريفين

والحظوظ تأتلف ائتلاف الطيور الجميلة اما لو كان القانونجي موفقاً لاستغنت به عن اختيار جليس من بين زبائن الحانة . كان رغم حبه كزميله المستغرق لا يستصعب ان يرى المغنية تضاحك هذا وتداعب ذاك من اصحابها ، وكانت اذا خطرت في الحانة اشبهت ضمة من الزهر يترك النسيم من خلفها عطراً

ولا يلقى الحظ الاوفى من مجالسة المغنية واقبالها سوى رجل متظرف قد ناهز الستين . ذو لحية مهذبة وخطها الشيب . واسمرار لطيف اقترن بملامح بارزة

كان يختار مجلسه جانب العواد وزميله حتى اذا ابتدأ الغناء فارقاهُ . لايني ذلك الرجل يراقب

المغنية عن كثب وهي تخالسهُ النظر الرقيق . وكان لايترك النظر اليها الا لكي يمعن في احتساء اقداح الوسكي ولا يزال يشرب حتى يسكر ويزداد بريق عينيه . اذ ذاك كانت المغنية تهبط اليه وتأخذ في حديث طويل معه

كانت بوادر هذا الحديث تنذر في البدء بنية السيدة «ليلى» في اغلاق الحانة واختيار حياة عائلية هادئة بالاشتراك مع رجل عظيم الخلق مثل ماجد بك وعلى أثر هذه الاشاعة انقطع ماجد بك فجأة عن المجيء الى الحانة

كان القانونجي لايفارق «البار» في الهزيع الاخير من الليل الا لكي يجتمع بشرذمة من محترفي الغناء والتمثيل في مقهى وطني قائم على منحدر كالكأس المرفوعة بيد الساقية

ويبقى بين هؤلاء ساكناً مستغرقاً كأن مهنته ان يسمع . وفي الحقيقة كان حديثهم يحوي نخبة من نوادر ارباب الفنون وحوادث حياتهم البوهيمية العجيبة . وكانت حياة القانونجي نفسه كأنها عنصر اشتراك في ذلك الحديث

عاد المعلم شعبان ذات ليلة الى المقهى الصغير يحمل «القانون» فلم يكد يقع عليه نظر صاحب المقهى حتى بدا عليه الاستغراب اولاً لانه رآه يحمل الآلة الموسيقية . ولم يأت بها من قبل . ثانياً أنه جاء قبل ميعاده . وعادته ان يأتي المقهى بعد منتصف الليل . وغلب الفضول صاحب المقهى فسأله — الظاهر انك « مفودس » الليلة يا معلم شعبان !

اجاب القانونجي — انا والله « مانفودس » ابداً لو واصلت الليل بالنهار في الشغل. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

— ماذا حدث ؟

قال القانونجي بلهجة يغلب عليها التأثر — لقد اغلقت الحانة

واضاف الى ذلك : ولعلك لا ترى بأساً من اقامة حفلة انس في المقهى هذه الليلة

فابتسم صاحب المقهى وقال : يسرني على الاقل ان اسمعك

قيل ان بعض الطيور البحرية اذا فقد الغذاء شق بطنه بمخلبه واستخرج امعاءه والقى بها لفراخه . ويقترن المه بوداعه في آهة أليمة يصدرها في الجو

وقد كانت توقيعات القانونجي الاعشى في تلك الليلة من قبيل تلك الآهات الاليمة. يقترن فيها الوداع بالالم . ولم يترك دوراً ضربهُ في الحانة الا ردَّده . واحتبس الالم في فؤاده حتى بدا لفرط تجلده في مظهر زميله المراد . ولما تناهى الليل وخلا المكان سمع صاحب المقهى صوت وقوع الآلة الموسيقية على الارض . فحسب ان النعاس قد استولى على القانونجي . غير انهُ حين اقترب منهُ ليوقظهُ هوى الفنان الميت بين ذراعيه

عبد الحميد سالم

صورة قلمية

احمد صديق بك

مدير بلدية الاسكندرية

> اعجبت كل الاعجاب بالاسكندرية وبما شاهدته فيها من دلائل الرقي والعمران ووسائل الصحة والتنظيم ولا شك عندي في انها اجمل مدينة على البحر الابيض المتوسط وانه ليسرني ان اعلم ان الفضل في ذلك [illegible] الى صديق بك ال[illegible] ما فتئ يعمل على تنظيمها وتجميلها ولن يمضي وقت طويل حتى تصبح ذات شهرة عالية وتستعيد مجدها القديم
>
> محافظ لانكشير

لما بهر الاوروبيون المعاصرون بعظمة المدنية الحديثة ، اهتدوا الى شيء وهو ان هذه المدنية قد ميزتهم على القدماء بملكة النقد والتقدير . فالذين يلاحظون التطور الباهر الذي اكسب الاسكندرية كل هذا الجمال لايستطيعون تقدير الجهود الخارقة التي حققت هذه المعجزة . وحتى اذا استطعنا تقديرها فاننا لاندري الى من ننسبها فانها تؤلف جهاداً عمرانياً حقيقياً في سبيل ترقي المدينة التي كانت ثانية عواصم الدنيا بعد روما

ولقد يكون التقدير ثمرة الذوق المهذب . فان محافظ لانكشير حين زار الاسكندرية اخيراً كانت نتيجة اعجابه الجم بما شاهده من دلائل الرقي والعمران ووسائل الصحة والتنظيم وآيات التجميل انه لم يملك غير الاعتراف بفضل هذه الجهود الى صاحب العزة احمد صديق بك مدير البلدية العام

ولقد كان من حظ الاسكندرية ان ما بذله مديرو البلدية السابقون من الجهود في سبيل رقيها وعمرانها قد أثمر ثماره الباهرة في عهد صديق بك كما اجتمعت ابهة الدولة الرومانية وعظمتها وقوتها في عهد اوغسطس قيصر . غير ان المزايا العظيمة التي عرفت بها شخصية صديق بك وقوة رأيه في الاوقات التي تعرض فيها مسألة تنظيم المدينة واصلاحها وتجميلها لا يجعل مجالاً للشك في نسبة هذا التقدم الباهر الى ذكاء المدير ومساعيه التي جعلت الاسكندرية أجمل مدينة على البحر الابيض المتوسط

ولقد نذكر الآن في كثير من الدهشة والاستغراب ماتردد على الألسن عند توليه ادارة

البلدية التي كانت قد رسبت في لجج عميقة من الفوضى والارتباك لم ينظر وقتئذ الى مزايا صديق بك وقوة شخصيته وذكائه ومواهبه وذوقه المثقف وحسن ارادته نحو تحقيق الاصطلاحات التي تحتاج اليها المدينة ، انما قيل لأول وهلة انه يعد شاب لايملك القوة الكافية للتغلب على الاختلافات ووجوه التناقض التي لابدَّ من حدوثها في دائرة دولية لم يكن قد تسرب اليها شيء من التوفيق ولا التفاهم الحسن . وكانت ثقة صديق بك الشاب بنفسه واعتداده بمواهبه وانه كفء للمهمة الشاقة التي اختير لها كأنهما حكم فاصل في مسألة من هـذا القبيل

وفي الحقيقة انه لم يلبث ان ترك لمرؤوسيه في غير ضجة ولا اعلان امثلة عليا في النشاط والمثابرة على العمل والذكاء . وتجلى ذكاؤه على الاخص في الاحوال الدقيقة التي كان لابدَّ فيها من تأييد مذهب التوفيق بين النزعات المختلفة والمتناقضة التي تصدر عادة من هيئة دولية

***

وثم ميزة اخرى أجلّ من كل ماتقدم وهي المدة القصيرة التي استطاع فيها مدير البلدية الشاب ان يكتسب مع ثقة الاهلين اعجاب اولئك الذين ارادوا ان يعترضوا سبيله الى الادارة بزعم انه شاب . وقتئذ تبين ان شباب صديق بك مفخرة ومجد لشخصيته وللجميع الذين رأوا فيه الرجل الصالح لادارة البلدية . وكذلك دلّت اعمال صديق بك على انه من اولئك الافذاذ الذين لم تفسدهم حدة الشباب في هذا الوسط الخداع المرتطم في كل انواع اللهو والحماقات . وانه من الذين تنمو فيهم العقول قبل ان تكتمل اجسامهم، وتشيب ارواحهم وهم لايزالون في انضر مراحل العمر ، فانت لا تراه الاّ مسترسلاً في عمله ، متوفراً على شؤونه ، يعمل بدأب وثبات مستعيناً بمبادىء النظام والترتيب والارادة الحسنة . وهذه المزايا العملية تتطلب اعصاباً ساكنة ثابتة لا تستفزّ ، وقلوباً هادئة لا تستطار، والنظام من الصفات التي لاتنضج الاّ في الشيوخ والمكتملين في العمر ، لانهم جازوا حدود الشباب ، وهو في الغالب دور التقلب والقلق والاضطراب ، لان الاعصاب لا تستطيع اذ ذاك ان تسكن الى الهدوء الذي يطلبهُ النظام ، ولا تحتمل الجمود على طريقة خاصة لا تغير فيها ولا تحويل . ولكن الطبيعة — لغرض من اغراضها — لا تخلق قانوناً الاّ فتحت له باباً لمحاجتها فيه ومحاورتها ، فهي تضع لكل سنّة من سننها شذوذاً ، ولكل ناموس صلب من نواميسها عجائب وفروقاً ، لان مبدأ الطبيعة ان تعمل على التحيير والادهاش والاغراب ، لكي يبقى سرُّ الكون ابد الدهر مكتوماً ، ولذلك كان غريباً حقـاً ان يكون صديق بك وهو في السن الباكرة الناضرة يجري في عمله بقوة الرجل الذي قطع المراحل الكبيرة من العمر حنكة وتجربة ودرساً لاخلاق الحياة واسرارها ، ولكن

القوة الالهية بعد تسير في الخليقة على مبدأ التعويض ، ففي وسط المئات من الشبان الطائشين الخفاف الاحلام الممعنين في سبل اللهو وطرائقه ،تأبى الا ان تضع قلائل من الشبان الصالحين الكبار النفوس المحترمين واجب الحياة ، ومن هنا كان صديق بك وامثاله هم هؤلاء القلائل الذين تريد القوة الالهية ان تعوض بهم عن فساد غيرهم

ويظهر ان اقتران منصب صديق بك بمسائل الاصلاح والصحة والتجميل وهي مسائل انسانية قد وافقت مزاج المدير الشاب فاتضحت مواهبهُ ودلَّ على قوة رأيهِ لاسيما عندما يحتدم الجدل في القومسيون فيشترك برأيهِ للتوفيق او للفصل ، وهو اذ يتكلم لا يندفع في القول بادىء ذي بدء ولا يرفع صوتهُ ، فالكلام بطيء والعبارات مفصلة ، ولكن لا يلبث حتى يعلو ويتدفق ثم ينفجر ويتعاظم ، لا يردده سوى ثباته ، ولا تحركه سوى الارادة التي يعبر عنها، وهو صوت لا سحر في نبراته ، بل يكاد يكون أجش قليلاً ، ولكنهُ لا يتصنع ولا يترفق ، ولا يداعب الالفاظ ، بل يتجه الى القلوب توًّا فيغزوها ، وينفذ الى سويدائها ، وكلما علت المناقشات ، وارتفعت الجلبة سحقها هو ببيانه . وهكذا تظل كلمته هي العليا

***

وصديق بك رجل هادىء جذاب . تستطيع ان تتبين مواهبهُ وطباعه من ملامحه ،وهو دائماً الرجل الذي يعرف حدود مسؤوليته،وتنمُّ حدة نظره على ذكائه وبصيرتهِ وهو اذا حدثك بالفرنسية لا تستطيع ان تفرقهُ عن ابناء هذه اللغة ، ويجيد الى الفرنسية الانجليزية والالمانية عدا العربية التي تستطيع ان تؤيد انهُ متين الديباجة فيها حتى انهُ يفوز باعجابك ويحملك على الدهشة كلما تولى تصحيح خطأ المترجمين في الجلسات ويسرك ان تستمع منهُ التعبير العربي ترجمة لصيغة فرنسية فنية ، وهو بعد المدير الذي يحق له ان يعوّل على مرؤوسيه ولكنهُ استطاع بمواهبهِ ان يكون في كل موقف عنوان الكفاية فلا تفوته كبيرة ولا صغيرة

ولم يكن من المستغرب ان تكون روح الارادة والنظام في شخصية صديق بك توازي الفطرة القانونية ، فهو قانوني واداري من الطراز الاول،لا يعول في شيء من الاعمال الا على رأيه ، وهو بذلك يضرب المثل لكثير من مرؤوسيه الذين تعددت اعمالهم دون ان يتعمدوا التفرد في آرائها او بحثها . من اجل ذلك كان المدير الذي اكتسب اجلال مرؤوسيه بالمثل والقدوة لا بمهابة المركز

***

وبعد فان كل هذا قليل اذا قورن بالروح السامي الذي اتصف بهِ صديق بك في دائرة التوفيق بين الوطنيين والاجانب من اعضاء القومسيون فقد كان هذا التطور الذي احدثهُ سعادة مدير البلدية في زمن قصير وبمهارة لا نظير لها فوزاً مبيناً لمبدأ عمراني وانساني معاً ، هو

مبدأ الترقي . وما كان من الممكن السير بأعمال البلدية وتحقيق الاصلاحات اللازمة للمدينة والنهوض بها دون تحقيق هذا التطور

ولقد ادّى صديق بك هذه المهمة الشاقة المجيدة لخير المدينة والاهلين من كل الاجناس . ولما سادت الصبغة الوطنية ادارة البلدية عُدَّ ذلك بحق نجاحاً للمبدأ الذي يسترشد به المدير الشاب في اعماله ، مبدأ التوفيق والقضاء على المناقضات واسباب الارتباك . ولما لوحظ صلاحية هذه البزور في تربة البلدية لمهدها الجديد ، وانها تنبت نبتاً حسناً شرع في اصلاح الاحياء الوطنية وكان حظها من عناية صديق بك عظيماً. وحسبنا ان نراقب ما تحقق من هذه الاصلاحات كتعميم المجاري والعيادات الصحية ومستشفيات الولادة والحميات ومساكن العمال وحمامات الفقراء ومطاعمهم . وكأن صديق بك حين تولى ادارة البلدية كان يحمل برنامجاً معيناً او خطة للاصلاح قد وضعها من قبل على ان الذين يعرفون مدير البلدية وانه الرجل الذي لا يكاد يخطىء اذا ارتجل رأيه لا يسلمون بوجود ذلك البرنامج وان صديق بك انما كان منقاداً في كل ما وافق عليه من الاصلاحات الى ارادته الحسنة ورغبته الصادقة في اداء عمل انساني خالد . ولم يكن في كل ما حققه ميالاً الى الضجة او الاعلان بل كان عطفه على الفقراء ، وحبه الجم للعمل الانساني، يوازي تواضعه وانهُ انما عمل لكي يرضي ضميره ويؤدي عناصر المهمة الثقيلة الملقاة على عاتقه . فهو مثل الرجال الذين يشمرون بتبعاتهم

اما آيات التجميل التي تنسب الى عهد صديق بك والتي تحوّل بها شكل المدينة القديمة وازداد رونقها وبهاؤها فانما تنسب الى ذوق مدير البلدية المثقف المهذب الذي يحمل في ذهنه صوراً شتى من صور العمران ، وما خلقته المدنية الحديثة من البدائع في تجميل المدن وتهذيب رسومها ونظمها ، وقد وضع بذلك القاعدة لتجميل عاصمة القطر الثانية . وقد شهد محافظ لانكشير بأنها ستكون ذات شهرة عالمية وتوشك ان تسترد مجدها القديم

وكذلك لم يترك ذكاء صديق بك شيئاً في الادارة التي صبغها بالصبغة الوطنية او المدينة التي جعلها آية في الابداع دون ان يترك مثلاً للتجديد

***

اما تمثيله البلدية اخيراً في مؤتمر البلديات فقد اضاف مجداً آخر الى شخصيته الممتازة فقد اعلن عن مصر التي تسير في سبيل الترقي بخطوات الجبابرة ، وكان في صوته لدى ذلك المؤتمر تلك النغمة الحبيبة الى قلوب العمرانيين ، والتي تعرب عن الاشتراك والتضامن لبلوغ المثل الأعلى

نقولا شكري

باب شؤون المرأة

وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة أوسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الغاية من الزواج

للفيلسوف الاجتماعي الانكليزي هفلوك إليس [1]

ما الغاية الشرعية من الزواج ؟ نحن نعلم ان بعض الرجال يرغبون في الزواج لمجرد الحصول على مسكن رخيص وخدمة طيبة منتظمة وان بعض النساء يقبلن على الزواج حتى يجدن من يحميهن في الوقت الذي لا يستطعن فيهِ حماية انفسهن .. هاتان الغايتان — اتفقتا مع قوانين الاخلاق أو تعارضتا — لا نستطيع ان نقول انهما الغرضان الاساسيان من الزواج

وإذا قلنا « الغاية من الزواج » فانما نقصد ما يرمي اليهِ الرجال والنساء الذين يعيشون عيشة متحضرة ، واذا كتبنا في هذا الموضوع فذلك لاننا نحاول مخلصين ترقية تلك المعيشة المتحضرة

والشائع هو ان الغرض الاول من الزواج الحصول على النسل وتربيته الى ان يستطيع رعاية نفسه بنفسهِ ، وعلى هذا الاساس يشترك الانسان مع الثدييات جميعاً بل ومع معظم الطيور ، فاذا ما تغاضينا عن الغايات الثانوية وجدنا ان هذه الغاية — وهي الحصول على النسل وتربيته — ليست الاولى فقط بل والغاية الوحيدة لجميع الصلات الجنسية في قبيل الثدييات

ولما كانت وظيفة الغريزة هي المحافظة على نفسها وإشباع رغبتها فان الاشباع حيلة من حيل الطبيعة وليس غاية في ذاته ، والاَّ فما هي الوظيفة المفيدة التي تؤديها الغريزة في الاوقات التي لا يستطاع الحمل فيها ؟ ودليلنا على ذلك ان الانثى في بعض الحيوانات تمارس الرغبة الجنسية في فصل الاخصاب فقط وان هذه الرغبة تنقطع عند حدوث الاخصاب بينما الامر على الضدّ عند الذكر الذي لا تخمد رغبته الجنسية في تلك المدة القصيرة التي ابتكرتها الطبيعة للانثى حتى

---

(١) ملخصة عن كتاب Essays in Love and Virtue

تتيح لها فرصة الحصول على الذكر المناسب في الوقت المناسب ، وعلى هذا فرغبة الذكر في الحصول على الانثى التي لا تزال باقية عند بعض الانواع الانسانية ليست نتيجة الشهوة او الاسراف الشخصي ، وليست نتيجة « الفجور في اشباع الرغبات الجسدية او الشهوات البدنية كما في الوحوش » بل هي عمل من اعمال الطبيعة غرسته لفائدة الانثى حتى تحصل على الغرض الاساسي من الزواج وهو التناسل

وهذه الغاية الاولى نستطيع ان نسميها الغاية الحيوانية ، وهي كما قلنا ليست الغاية الاولى عند بعض البدائيين فحسب بل والغاية الوحيدة ايضاً . وانت تعرف ان فكرة الحب باعمق معانيها لم تنشأ الا في بطء شديد . ومع ان بعض الهمج يستعملون كلمة او كلمات تدل على متعة الحب من الناحية النفسية الخالصة فان بعض السلائل الاوربية لم تفهم هذا المعنى الا مؤخراً ، فشعراء الاغريق القدماء لم يدركوا قيمة الحب في الزواج حتى ان « تيوجنيس Theognes » قابل بين الزواج وتناسل الماشية ، وجاراهم في ذلك الرومان أيام الجمهورية ، وقد اعتبر اولئك وهؤلاء التناسل غاية الزواج وان كل ما عداه شهوة حقيرة يجب الا تمارس بحال ، واذا كان لا بد من ممارستها فان ذلك يكون خارج حدود الزواج ، وأتى بعد ذلك قرنان من الزمان احتفظ الناس فيهما بكثير من الآراء البدائية وقدسوا فكرة الاغريق والرومان ، ثم جاءت المسيحية وحاولت ان تتوسع في تطبيق هذه الفكرة فخيّرت الناس بين العزوبة من جهة والزواج بغية الحصول على النسل فقط من جهة اخرى

ومع هذا فقد نشأت من زمن سحيق في تاريخ الانسان وظيفة جديدة للصلة الجنسية وما زالت تنمو حتى اصبحت احدى الغايات الكبرى للزواج ، وإذا كانت القوة الجنسية الدافعة عند ما تستيقظ في الحيوان — والانسان أحياناً — تأخذ في وصولها الى المخ طريقاً قصيراً وسريعاً فاننا نعلم أن المخ الانساني بملكاته جميعاً قد تطور من جراء الصعاب الكثيرة التي ألقيت في سبيل الحياة الجنسية حتى أن القوة الدافعة الى الحياة الجنسية أصبحت تسير في طريق طويل وعر قبل أن تصل الى غايتها ، ومعنى هذا أن الجنس Sex أخذ يختلط بالعواطف الراقية والمجهودات النبيلة والخاطرات السامية في كل مناحي الحياة بل وأخذ يشترك مع الفن والدين حتى اصبحت الغريزة الحيوانية البدائية التي كانت لا تمنى بغير التناسل عامل الالهام في جميع هذه المجهودات النفسية التي تفخر الحضارة بها

وهذه الغاية كما رأينا محصول جانبي ، وكما ان المحصول الجانبي قد يأتي عليه حين من الدهر يصبح فيه اهم من المحصول الاساسي فكذلك اصبحت هذه الغاية الثانوية اسمى من الغاية الاساسية . ومثل الغريزة الجنسية في ذلك كمثل الكف التي تطورت من الذراع ولم تكن لها من وظيفة سوى الحصول على الحاجيات المادية ولكن الانسان استطاع ان يجعل لها وظائف ثانوية

كالتوقيع على البيانو او الكمان الى غير ذلك من الاعمال التي يعدها البعض اسمى من الوظيفة الاساسية . ولكننا مع هذا لا نستطيع ان نغفل ان المحصول الجاني يصاحب المحصول الاساسي في معظم الاحوال ، ولا نستطيع ان نغفل ان هذه الغاية الجديدة للزواج تسمو على اختها وتضيف اليها عنصراً انسانيًّا مقدساً مما يجعلنا نطلق عليها «الغاية الروحية للزواج»

ولسنا نعني بكلمة «روحية» صفات غامضة فيما وراء الطبيعة، ولكننا نقصد جميع التفاعلات الذهنية والشعورية التي اخذت تظهر وتقوى في التطور الانساني ، ولسنا في حاجة لان نسرد لك عناصر هذه الغاية الروحية للصلات الجنسية لان المفروض ان وراء هذه الغاية كل ما يجعل الحب الجنسي فنًّا جميلاً فيه من السرور ما فيه. وعليك ان تتناسى تقاليد الجمال التي ورثناها عن القدماء والتي تعمينا عن المعنى الحقيقي للسرور ، والتي لم تكن تبصر غير ما فيه من شر، واذكر ما قاله رومان رولان «السرور مقدس كالالم» بل واذكر ما قاله جيمس هنتون James Hinton «السرور ابن الله ...انهُ منبع كثير من القوى...» وهذا حق لان الطاقة الجنسية يمكن حبسها وتحويلها الى النواحي الفكرية والمعنوية ، ولان السرور ، والسرور الجنسي بنوع خاص اذا أُحسن استعماله اصبح المحرك والدافع الى كثير من المجهودات السامية

هذه الغاية الجديدة تحل مشكلة العفة وتأخذ بالحجة اولئك الذين يقولون ان العفة هي الامساك عن الرغبات الجنسية لما بينها وبين الشهوات الحيوانية من صلة ناسين ان الاتحاد الجنسي الذي يقوم على حاجة النفس والجسم معاً يعمل على المحافظة على صحة الكائن الحي وتوازنه، ناسين ان الاتحاد الذي يقوم على حاجة النفس والجسم معاً يمحو الانانية من الفرد ويجعله يدرك ان لذته وسروره في لذة رفيقه وسروره ، ويجعله يدرك المعنى الروحي الذي يقرب بين الاجسام بل وبين الارواح ايضاً ... واليك ما تقوله احدى السيدات في هذا الصدد [١] «انني اضع جميع تعاليمي الجنسية للاطفال والشبان على اساس ما في الجنس من جمال وقداسة . . الاتحاد الجنسي هو اقدس ما في الحياة»

وانا لنشفق على أولئك الذين لايستطيعون تقدير الغاية الروحية للزواج والذين يبرهنون على دعواهم بما عند الحيوانات الدنيا كأن علينا أن نقلد هذه الحيوانات وأن ننسى أن الطبيعة قد أنفقت ملايين السنين حتى خرجت بالانسان من دائرة الحيوان الضيقة ، ولسنا نشك أن هؤلاء الناس لايزالون يعيشون في العصر الحيواني وأن عليهم أن يدرسوا اوليات الحب، وقد رأينا نموذجاً منهم في شخص « مس سذرك » الذي مثل أمام اللجنة القومية التي عقدت منذ أعوام قلائل والتي نيط بها دراسة مسألة نسبة المواليد ومايتفرع عنها فقد صرح هذا الرجل بأن التناسل هو غاية الزواج التي لاغاية وراءها وان كل ماعداها ماهو الا اشباع

(١) من رسالة شخصية لـ Olive Schreiner

الرغبات الشخصية الحقيرة ، ولعل أبلغ ردّ هو عدم وجود فرد واحد من أعضاء هذه اللجنة يشاركه فيما ذهب إليه . . .

ولسنا في حاجة لأن نبين لك مقدار الصلة الوثيقة بين هذه الغاية الجديدة للزواج وبين التحكم في النسل اذ من دونه لا يكون لها وجود ، وقد سمعنا من يعارض في هذا التحكم ومن يعتبر الأدوات التي تستعمل في سبيله قبيحة بعيدة عن طبيعة الجمال البعد كله ، على أننا نذكر هؤلاء بأننا لن نستطيع الدخول الى العالم الروحي الا عن طريق العالم المادي ، وقد شبه «فوريل Forel » تلك الأدوات بالنظارات ، فهذه النظارات ليست من الجمال في شيء ولكنها تجعل من يضعها على عينيه قادراً على التغلب على النقص الطبيعي بل وتجعله أقدر على رؤية الأشياء وأكثر شعوراً بما فيها من روعة وجمال وتأخذ بيده الى العالم الروحي لانه من غيرها يجد الحياة كتاباً مغلقاً

وفي الحق أن التحكم في النسل اثر في كثير من مناحي حياتنا الاجتماعية لانه يحد من عدد أفراد الأسرة ويخفف الضغط عليهم ويفيدهم وخصوصاً الأم ، ثم هو يعطي الآباء فرصة التدبر في أمورهم واختيار الوقت المناسب والظرف الملائم لانجاب الذرية ، أضف الى ذلك أنه مفتاح التقدم اليوجني الذي يسعى الى تحسين النوع البشري ؟ عبد الحميد يونس

العفن غذاء ودواء (١)

اذا قدّم لك امرؤ لقمةً من خبز غشيهُ العفن الاخضر لتأكلها ، فلا شكَّ ان نفسك تتقزز . بيد انك ربما لا تلبث هنيهة حتى تستمرىء قطعة جبن « روكفور » من صنع العفن عينه . أفليس ذلك من المستغربات ؟

وقد اماط العلماء من عهد قريب اللثام عن حقائق عدة بشأن العفن ، وهو النامية النباتية الغريبة التي تظهر للرائي بمظاهر شتى تعد بالالوف . وما ايقنوا من تلك الحقائق الباهرة حتى جعلوا يستخدمون العفن في توليد مواد نفيسة وذلك بنفقات زهيدة . وهي المواد نفسها التي كانت تصنع بالوسائل الكيماوية وكانت تقتضي نفقة ومشقة

ومن الحقائق التي كشف غوامضها اولئك العلماء الاعلام : ان العفن على تباين انواعه غير سامٍ ولو ان مظهره على الدوام ينمُّ على اضراره الجسيمة . اذ استدلوا من مباحثهم على ان العفن اذا أُحكم تذليله امكن استخدامه بمثابة عنصر حيوي لتحسين صحة الجنس البشري او زيادة رخائه

---

(١) عن مجلة العلم العام

والعفن يتخلل كل شيء ، فلامناص من اكلهِ واستنشاقه !! اي انك اذا يممتَ شطر احد مصانع مياه الصودا (كازوزة) لتروي غُلَّتك بقدح منها فانك انما تشرب بعضاً من نقيع محتوٍ على حامض ليمونيك وهو من منتجات العفن العامة

وقد تحتوي خميرة العجين على نامية نباتية تشبه العفن الذي يعرو الخبز العيشم . وان كنت ممن يستطيبون اكل صنفي الجبن الفرنسي الروكفور والكامنبير فانك كلما اكلت شيئاً منها تناولت انواعاً من العفن عن طيب خاطر . ولقد ثبت طبيًّا ان العفن حليفٌ غير منتظر في علاج المصابين بنقص مقدار الجير في دمائهم ، وهو داء يشبهُ فقر الدم (انيميا)

ولما كان من الضروريات عند نسج بعض الاقمشة الرقيقة تشبيع خيوطها بالنشا ونحوه من المواد الكيماوية قصد تقويتها تسهيلاً لعملية النسج والحبك، تعين على ارباب المصانع استخدام عدة انواع من العفن لتوليد الانزيمات (خمائر ذائبة تتولد في جسم كائن حي وهي مادة غروية تفرزها الخلايا وتحدث تغيرات كيماوية) لتلتهم تلك المواد الغروية وتهضمها حتى تنقى الاقمشة وتتركها قشيبة لكيلا تتأثر مما يجري عليها بعدئذ من عمليات الغسل الشديدة بالآلات

والمعروف ان الانتفاع بالعفن في الاعمال الصناعية والطبية والزراعية هو من المكتشفات التي تمت بطريق المصادفة . وقد كان لعلماء الزراعة في الولايات المتحدة القِدح المعلّى في وقف التلف الذي كان يطرأ على النباتات والاغذية من العفن فصانت بتلك الوسائل ملايين الجنيهات التي كانت تنفق جزافاً كل سنة لمكافحة العفن . وكان من عهد حديث كيماويان من موظفي وزارة الزراعة وهما المستر هوراس هريك وأرفيل ماي يمارسان أعمالهما في واشنطون في تحضير الحامض الطرطريك من انواع العفن ، فوفقا لمعلومات خطيرة لم تكن في الحسبان اذ قاما بعمل ١٥٠ تجربة في انواع شتى من العفن فاخفقا في ١٤٩ تجربة منها ونجحا في التجربة الاخيرة فقط إذ اتيح لهما تحضير الحامض الجلوكونيك الذي ساعد الاطباء في علاج جلالة ملك الانكليز لما مرض من نحو ثلاث سنوات. وقد كان هذا العقّار قبل ذلك نادر الوجود غالي الثمن . ويتسنى لنا ان ندرك مبلغ خطورة هذا الاكتشاف اذا علمنا ان نفقات تحضير ذلك الملح النفيس بطريقتهما من زريعة العفن ، قد خفضت نفقات صنعه من ١٥٠ ريالاً للرطل في الطريقة القديمة الى نصف ريال فقط للرطل الواحد بالطريقة الجديدة. وتعتبر جلوكونات الجير التي تحضر من الحامض الجلوكونيك الذي ينتج من العفن بحسب طريقة وزارة الزراعة الامريكية ملح الجير الفذ الذي يمكن حقنهُ في عضلات المرضى المصابين بفقر الجير في دمائهم من غير ان يحدث فيهم دمامل وقد يتيسر حقنهُ ايضاً في مجاري الدم او تناوله بطريق الفم

وقد نشرت وزارة الزراعة في هذا الموضوع تصريحاً فحواه أن أملاح الجير التي تحضر من العفن لاطعم لها حقيقة . فهي من هذا القبيل تناقض جميع انواع تلك العقاقير

ومن مزايا العفن كثرة انواعه حتى ان الخبراء الذين قضوا أغلب أيام حياتهم يبحثون ويجربون الانتفاع بهِ ، لا يستطيعون حصر اشكاله . والعفن من النباتات الغامضة الدقيقة جداً فلا يسع المرء رؤيتها بالعين المجردة . ويظهر العفن بمظاهر شتى وفي اماكن عدة يعجز الباحث المحقق عن ادراك كنهها

وألوان العفن عديدة كألوان قوس قزح ودرجاتها كثيرة . فالعفن الاخضر الذي يفسد خبزك اذا خزنته زمناً طويلاً هو نفسه الذي يستخدمه صانعو الجبن المسمى روكفور

اذن يعتبر العفن من الاشياء الغامضة التي ظاهرها يناقض حقيقتها لان صناع الاطعمة ينفقون ألوف الريالات كل سنة في سبيل دفع جوائح العفن التي تعتري مصنوعاتهم الغذائية التي ترسل بالسفن الى الاقطار النائية

ومنهم فريق ينفق ما هو اكثر من ذلك كل سنة في تغذية العفن لكي يولد لهم عاجلاً (بطفيف النفقات) المواد التي يحتاجون اليها مما كانوا يحصلون عليهِ قبلاً على مدى ازمن بلا مساعدة العفن . ومن الغريب ان العفن مع قبح منظره ليس ساماً فقد قرَّر الدكتور تشارلس توم الموظف في وزارة الزراعة في واشنطون ، وقد قضى سبعاً وعشرين سنة في دراسة العفن ، انهُ هو وغيره من الباحثين قاطبة لم يعثروا على نوع سام من انواع العفن

وتأييداً لذلك ذكر حادثة شاهدها بنفسه وهي إن بعض الجياد علفت بزمير دبَّ فيه الفساد فكانت تستطيبه ولم يؤثر في صحتها مطلقاً

ومن العفن ضرب يأكل اللحوم . وقد يلجأ الكيماويون حين يرغبون في تربية زريعات العفن الى تغذيتها بالعصيدة النباتية (مادة غروية تحضر من أعشاب بحرية اسيوية تستعمل في تحضير الزراعات للأعمال البكتيريولوجية) والنشا وغيرها من العناصر الغذائية المألوفة . وقد تتغذى بعض أنواع العفن بغيرها من الاصناف فتأكلها بارتياح فتسمن . وتسمى تلك الأنواع بالعفن المفترس

وطالما كانت الوسائل التي يتوسل بها الى وقاية الاطعمة عند نقلها من قطر الى آخر أو خزنها ، مثاراً دائماً لمكافحة العفن اذ لم يكن مصدّرو الاطعمة الثمينة المحفوظة في العلب منذ بضع سنين يعرفون الا القليل من طرق وقايتها من الفساد حتى تصل الى الاسواق في الجهات المزمع نقلها اليها بالبواخر ثم بيعها فيها ، فرأت وزارة الزراعة الامريكية من عهد قريب أن على عاتقها ارشاد صنّاع الاطعمة التي يتطرق اليها الفساد الى الوسائط التي تقلل دبيب العفن فيها الى اقل ما يمكن . وتقوم الوقاية بوسائل شتى فقد ظهر في إحدى الحوادث أن صنفاً طريفاً من العفن دبَّ في وسق من البيض عند نقله من باخرة الى اخرى فأصبح مذراً فتكبَّد منتجه خسائر باهظة من فساده . ثم اخذ الباحثون يبحثون عن اسباب ذلك فتبين لهم أن

ذلك البيض نقل في اقفاص مصنوعة من خشب لم يجفف جيداً فعدل المنتج عن استعمالها واستبدل بها اقفاصاً مصنوعة من أجف أنواع الخشب

وحدث في ابان الحرب العالمية أن مليوناً ونصف مليون من أفخاذ الخنازير المملحة كانت مخزونة في ثغر بلطيمور فتعفنت فأمرت الحكومة بتجفيفها عاجلاً فجففت فلم يقوَ العفن بعدئذٍ على اتلافها

ويرى علماء وزارة الزراعة في امريكا ممن درسوا أطوار العفن عدة سنين أن الثلاجات المنزلية ليست وسائط مانعة من العفن منعاً حاسماً لأن تلك الطفيليات تتكوّن بسهولة عند درجة ٥٠ بمقياس فارنهيت (نحو ١٠° سنتغراد). ومما لاشكَّ فيه أنه قد اتضح في احدى الحوادث أن شحنة من اللحم البقري نقلت في باخرة فسرت فيها تلك الطفيليات وهي في مكان درجة حرارته ٢٢ فارنهيت أي تحت نقطة التجمد بعشر درجات

اذن التبريد بالثلاجات انما يؤخر تكوّن العفن . ومع ذلك فقد ظهر أن زريعات من العفن عاشت مدة خمس وعشرين سنة بالتبريد تحت اشراف وزارة الزراعة الامريكية . وهذا مما يثبت جليًّا أن العفن من الاشياء التي ظاهرها يناقض حقيقتها

وكل منا يعرف أن المواد الغذائية التي تدخر في الدار ردحاً من الدهر تتعفن ومع ذلك فكل من شاهد الهلام في أثناء تحضيره ووضعه في احقاق (مرتبانات) زجاجية محكمة الاغلاق لابدَّ أن يعجب من سريان العفن فيه وظهوره على قمة الحقّ وهو محكم الاغلاق . فيجيب العلماء عن ذلك بقولهم «ان طفيليات العفن موجودة في كل مكان فهي في الهواء والغبراء وفي كل شيء يمكن ان يلامسه الغذاء فان شئت منع الفساد من التسرب في الهلام او غيره فعليك ان تعقم المرتبان جيداً وتسده سدًّا محكماً »

ومن الادلة على وجود طفيليات العفن في الهواء على الدوام انهُ قد حدثت في الولايات المتحدة حادثتان بمرض الربو ظهر بالفحص انهما نشأتا من التأثُّر بتلك الطفيليات التي تعيش في الجو . وقد وقف على احدث تينك الحادثتين الدكتور هاري برنطون الاستاذ في كلية جورجتون الطبية فأعلنها الى الجمعية الطبية الاميركية . وكان المصاب في تلك الحادثة شابة اقامت ست سنوات في دار رطبة عفنة، فقرر الدكتور برنطون ان الغشاء المخاطي في كل من انف المريضة المشار اليها وحلقها قد تأثر بنوع خاص من طفيليات العفن تأثُّراً شديداً نجم عنهُ ذلك الداء . ومع ان حوادث الربو التي منشؤها طفيليات العفن لم تزد على اثنتين في اميركا فقد حدث في اوربا اصابات كثيرة من هذا القبيل . ولكن اطباء اميركا قد فطنوا لذلك المصدر المرضي فخصوه بفائق عنايتهم عند علاج المصابين بالربو . وقد درس الدكتور برنطون ما لا يقل عن ستة عشر نوعاً من طفيليات العفن في اثناء المباحث التي قام بها في المرضى المصابين بالربو

ابتغاء حسر النقاب عن مصادر اصاباتهم

ومما يؤيد ايضاً وجود طفيليات العفن في الهواء دائماً كون المصانع التي تصنع الجبن الكامنبير تضع الجبن الطري في حجر التجفيف حيث يجتمع على سطحها العدد اللازم لذلك التجفيف من طفيليات العفن . ومن جهة اخرى فان التناقض الذي يحدث من طفيليات العفن يتبين جلياً من طريقة تحضير الروكفور وذلك لان هذا الصنف يجب حقنه بطفيليات العفن قبيل تجفيفه . وسبب ذلك الاختلاف في التفاعل الكيماوي الذي يحدث من طفيليات العفن أن الروكفور لابدَّ ان يتخلله العفن من كل جانب بينما الكامنبير لا يحتاج الاَّ الى تعفن سطحهِ ، وان طفيليات العفن التي تستخدم في تينك الحالتين تختلف أجناسها بعضها عن بعض . ولذا يختلف مفعولها اختلافاً بيّناً

غير أن طريقة تمييز أنواع طفيليات العفن بعضها من بعض التي يتبعها الباحث (اذا تعيَّن عليه فصل كل طائفة عن غيرها) لابدَّ أن يخترعها بنفسهِ . أما في وقتنا هذا فان التمييز يكاد يكون مقصوراً على المقابلة بين الطريقة التي تتبعها كل فصيلة على حدتها في نموها وتوالدها مخالفة بذلك غيرها وكل صنف من اصناف العفن تتولد منه أنواع ممتازة عن غيرها ، والخلايا النباتية كالعفن تنمو نمواً مشابهاً من كل الوجوه لنمو النباتات الكاملة النمو

اما وجود طفيليات العفن في الارض فقد اعترف بهِ العلماء المخصصون وهم يقولون ان كل غرام من التربة يحتوي على عدد يتراوح بين ٥٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ ذرة من العفن . وقد تكون تلك الذرات بمثابة خلايا مفردة دقيقة جداً بحيث لا ترى بالعين المجردة ، او تكون على شاكلة مستعمرات كبيرة تبلغ حجم أنملة إبهام الكف . اذن يكاد يكون من المستحيل على الباحث تقدير عدد خلايا العفن التي قد توجد في ذرة واحدة من ذرات التربة

ولذا كانت معضلة العفن من اعوص المسائل العلمية لانهُ بينما يعتبر من اشد اعداء الانسان فانهُ يعدُّ من وجهة اخرى من أخلص أصدقائهِ التي تنفعهُ نفعاً لا يقدَّر . ومع كون العفن من الاجسام الدقيقة جداً التي لا ترى بالعين المجردة الاَّ ان بعض الطوائف التي تنتمي اليهِ لذيذة الطعم ومن مظاهرها التعفن الذي يعتري الاقمشة فيتلفها ولكنها (الطفيليات) إذا استخدمت لهضم المواد الغروية الكيماوية التي تنشَّى بها المنسوجات صانت القماش من التلف وعلى حين كون العفن سبباً لمرض من أشد الامراض ونعني به الربو (الذي يعيق حركة التنفس) نراه مصدراً لعقار ضروري لمقاومة امراض اخرى

ومتى حددت اصناف العفن التي تعدُّ بالالوف تحديداً نهائياً اصبح من الميسور ليس مكافحة العفن نفسه فحسب بل تحويله الى منافع ينتفع بها العالم في وجوه جمة لا يحلم بها اكبر الباحثين في هذا الزمان

عوض جندي

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب فتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف. ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

اغلاط كتاب الزهرة

صديقي محرّر المقتطف الاغر

أخذت عن استاذي المفضال المسيو وليم مرسيه W. Marçais الغرام بتصحيح الكتب الادبية ،فكان لي من ذلك مُتعة عقلية ،تشحذ الذهن ،وترهف الذوق ،ولا ازال—وسأظل كذلك ما حييت — طالب علم ، وما امتدّ بي الزمن الا وشعرت بالرغبة القوية في الدرس ، وأرتني الايام اني عرفت من الأدب شيئاً وغابت عني اشياء

وموضوع هذه الدراسة هو تصحيح كتاب الزهرة لابن داود الاصفهاني الذي نشره الدكتور لويس نيكل ، نقلاً عن النسخة الوحيدة المخطوطة في دار الكتب المصرية . ويسرني في بداية هذا البحث أن اشكر ذلك المستشرق الفاضل مرة ثانية بعد اذ نوهت بفضله في جريدة « البلاغ » يوم ظهر الكتاب

ولنذكر في هذا التمهيد أننا سنعرض لجميع ما يظهر لنا من الاغلاط ، لأن هذه هي السنة التي جرى عليها المستشرقون في التصحيح ، ولأن من القراء من يحتاج الى التنبيه على الغلط وان كان يسيراً ، وسنثبت ما لم نهتد الى كشفه لتمكّن القراء من معاونتنا على تصحيح ما لم نهتد الى تصحيحه ، فليس المجال مجال تعالم ومباهاة ، وانما هو درس نتزهُ عما يعرض لطلبة العلم أحياناً من الزهو والخيلاء . والله سبحانهُ وليّ التوفيق . فارجو ان تفسحوا لهذا البحث مجالاً في المقتطف ولكم الشكر

***

١ — قال ابن داود في ص ٢ « وقد وقفت على ما وصفته من تصاريف الازمان ،وخيانة

الاخوان » وضع الناشر ضمة على التاء في (وصفته) والصواب الفتح : لان المؤلف يتهم محبوبه بالتجني ، بدليل قوله عقب ذلك . « واعلم — ايدك الله ! — ان من عجيب ما تحضره الايام ظالم يتظلم ، وغابن يتندم ، ومطاع يستظهر ،وغالب يستنصر ،ما الذي تنكر — أدام الله عزك ،وبسط بالخيرات يدك ! — من تغير الزمان وانت من مغيريه ، ومن جفاء الاخوان وانت المقدم فيه » الخ

٢ — وفي صفحة ٣ قال ابن داود « واعلم — ادام الله تأييدك — أن المرتضين من الاخوان معدومون في هذا الزمان ، وانما بقي قوم ينتصفون ولا يُنصفون ، ان بسطتهم لم يهابوك ، وان احشمتهم اغتابوك »

ضبط الناشر كلمة « المرتضين » بكسر الضاد على انها اسم فاعل ، والصواب الفتح : لانها اسم مفعول

٣ — وفي الصفحة نفسها قال : « لا يزهى عليك عند حاجتك اليه ، ولا يرغب عنك عند رغبتك عنهُ وحيفك عليه »

ضبط الناشر (يزهى) بالبناء للفاعل ، وهي لغة قليلة ، والارجح بناؤها للمفعول

٤ — وفي ص ٥ قال ابن داود : ثم ختمتها بذكر الوفاء بعد الوفاة ،وبعد ان اتيت على ذكر الوفاء في الحياة » . وارى ان تحذف الواو من كلمة (وبعد)

٥ — وفي ص ٧ قال بعض الظرفاء من أبيات

ليس أمر الهوى يدبّره الرأي ولا بالقياس والتفكير

وعبارة (يدبّره الرأي) محرفة ، والصواب : « يدبّر بالرأي »

٦ — وفي ص ٨ وقعت هذه العبارة : « خرجت حاجًّا فلما مررت بقباء تداعى الناس ألمَاً وقالوا : أقبلت الصقيل ، فنظرت فاذا جارية كأن وجهها سيف صقيل .» الخ

وكلمة «أَلمَاً» من (تداعى الناس ألمَاً) محرفة ، والصواب (لُمَماً) جمع لمة . بمعنى جماعة ، وهي كلمة لاتزال مستعملة في لغة التخاطب ، ويراها المطالع كثيراً في مؤلفات أهل الأندلس وخاصة في الذخيرة وطوق الحمامة ، واهل مصر ينطقونها بالفتح . والفيروزابادي يضمها ويفسرها بالصاحب أو الاصحاب في السفر ، والمعنى ان الناس تنادوا أفواجاً لرؤية تلك المرأة الصقيل

٧ — وفي الصفحة عينها قال الشاعر

والعين ملهًى في التلاد ولم يقد هوى النفس شيئاً كاقتياد الطرائف

أثبت الناشر (شيئاً) بالنصب . وأوثر أن أقرأ (شيء) بالرفع ، وقد وردت مرفوعة في رواية صاحب الحماسة

٨ — وفي ص ٩ قال العديل

يأخذن زينتهن أحسن ما ترى … فاذا عطلن فهنّ غير عواطل

واذا ختلن خدودهن ارينا … حدَق المها وأخذن نبل القاتل

وكلمة (ختلن) في البيت الثاني لها وجه ، فقد تكون الختل بالكسر وهو الكنّ ، ورواية الحصري في (زهر الآداب) . واذا خبأن خدودهن ... وهي أوضح

٩ — وفي ص ١٠ قال « عمرو بن الأبهم » أثبت الناشر (الأبهم) بالباء الموحدة . والصواب ان يكون بالياء المثناة من تحت ، وقد ورد صواباً في فهرس الاعلام

١٠ — وفي صفحة ١١ قال الشاعر

اذا هنّ ساقطن الاحاديث للفتى … سقوط حصى المرجان من كف ناظم

رمين فأتقذن القلوب ولا ترى … دماً ما ترى الا جوًى في الحيازم

الشاهد في البيت الثاني . وأحب أن أقرأ : (فلا ترى) في مكان (ولا ترى) ورواية المبرد (فلم تجد) وقوله (دماً ماترى) محرفة . والصواب : (دماً مائراً) من مار الدم يمور موراً سال

١١ — وفي هذه الابيات

أصد وما الصد الذي تعلمينه … عن ابنا الا اتباع العلاقم

والشطر الثاني محرّف . والصواب ... عزاء لنا الا ابتلاع العلاقم

ورواية المبرد (شفاء) في مكان (عزاء) وقد آثرنا رواية الحصري لأن (عن ابنا) تحرّف عن (عزاء لنا) لا سيما اذا لاحظنا ان نسخ زهر الآداب حفظتها (عزاء بنا)

١٢ — وفي صفحة ١١ قال عمر بن ابي ربيعة

فلما تواقفنا وسلمت اقبلت … وجوه نهاها الحسن ان تتقنعا

وكلمة (نهاها) لها وجه ، ورواية القالي : (زهاها) وهي اجود

١٣ — وفي صفحة ١٢ قال كثيّر

اصابك نَبل الحاجبية انها … اذا مارمت لا يستبلّ كليمها

لقد غادرت في القلب مني امانة … وللعين عبرات سريع سجومها

اثبت الناشر كلمة (امانة) وذلك تحريف ،والصواب(زمانة)ومن معاني الزمانة الوجدُ الدخيل

١٤ — وفي ص ١٣ قالت ام حماده الهمدانية :

اني لأعجب من قلب يكلفكم … وما يرى منكمُ برًّا ولا لَطَفا

وضع الناشر كسرة تحت اللام من (يكلفكم) والصواب الفتح على البناء للمفعول

١٥ — وفي ص ١٤ «اخبرنا ابو بكر محمد بن اسحاق الصاغاني»

اثبت الناشر (الصاعاني) بالعين المهملة ، والصواب ان تكون بالغين المعجمة ، نسبة الى

(صغانيان) كما نصّ ياقوت في الجزء الخامس من معجم البلدان

١٦ — وفي ص ١٥ قال ابن داود (فانه اذا كان كذلك كانا صاحبا المولدين مطبوعين على مودة كل واحد منهما لصاحبه). وعبارة (كانا صاحبا المولدين مطبوعين) تمر في لغة ضعيفة والارجح إفراد الفعل

١٧ — وفي صفحة ١٧ قال ابن داود : «ومع فساد الفكر تكون العدامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون». وكلمة «العدامة» بالعين المهملة لها وجه، وربما كان الافضل ان تقرأ «الفدامة» بالفاء

١٨ — وفي ص ٢٠ قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة

تغلغل حب عتمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير

اثبت الناشر (عتمة) بالتاء المثناة من فوق ، والصواب (عثمة) بالثاء المثلثة . وقد وردت كذلك في ديوان الحماسة

١٩ — وفي صفحة ٢١ قال ابن داود :

سأعرض نفسي يمنة وشآمة على كل ثاو في البلاد شاخص

ينبغي ان تقرأ «وشاخص» ليستقيم المعنى والوزن

٢٠ — وفي الابيات نفسها قال :

امثلي يخون العهد عن غير حادث وما بي اذاً زَبَى بحتف معافص

وعبارة « ما بي اذاً زَبَى » طمست طمساً شنيعاً . . والصواب « رماني اذاً ربّي »

٢١ — وفي ص ٢٢ قال يزيد بن الطثرية :

أعيب الذي أهوى وأطري جواريا يرين لها فضلاً عليهنّ بيّنا

وكلمة (الذي) محرفة ، والصواب (التي) وهذا واضح

٢٢ — وفي ص ٢٣ قال عمارة بن عقيل

ورمى الهوى منا القلوب بأسهم رمي الكماة مقاتل الأعداء

ومن العجائب قتله لكرامنا وشدادنا بمكائد الضعفاء

أثبت الناشر « مكائد » مهموزة ، والصواب « مكايد » لأن الياء في «مكيدة» أصلية لازائدة ، ومثلها معيشة ومعايش

٢٣ — وفي ص ٢٤ قال الحسين بن مطر

اذا ماصرفت القلب في غير حبها اذاً حبّها من دونه يتعرض

وكلمة «اذاً» محرّفة والصواب : «اتى»

٢٤ — وفي ص ٢٥ قال ابن داود : وان كان لم يدخل في الهوى مختاراً وانما وقع به اضطراراً فقط اخطأ اذ سمى ما هو موجود في طبعه مفارق لنفسه باسم البلوى التي تعرض له وتنصرف عنه ». وكلمة «مفارق» محرفة ، والصواب «مقارن»

٢٥ — وقال في الصفحة عينها تعليقاً على قول ابن مطير

لحبك بلوى غير ان لا يسرني ... وان كان بلوى انني لك مبغض

«واما اخباره بانه لا يُسَرّ بأن يكون مبغضاً لها فكلام لوسكت عنه كان أولى . أو أن يكفه أنه مبتلى عند نفسه بهواها حتى يريد مع ذلك أن يكون مبغضاً مائلاً الى سواها »

وعبارة : «او أن يكفه» محرفة ، وصوابها : « أوَ ما يكفيه»

٢٦ — وفي ص ٢٦ قال احد الشعراء

ان الذي بعذابي ظل مفتخراً ... هل كنت الا مليكا جار اذ قدرا

لولا الهوى لتحاربنا على قدر ... وان افق لك يوماً ما فسوف ترى

وعبارة : « ان الذي » محرفة . والصواب : « ياذا الذي » وقد شدّد الناشر الدال من (قدر) وهي غلطة مطبعية

٢٧ — وفي ص ٢٨ أنشد المجنون

عجبت لذاك عروة كيف أضحى ... أحاديثا لقوم بعد قوم

وعبارة:«عجبت لذاك عروة» فيها تحريف، والصواب:«عجبت لذكر عروة »وفي تزيين الأسواق

عجبت لعروة العذريّ أمسى ... أحاديثاً لقوم بعد قوم

وعروة مات موتاً مستريحاً ... وها أناذا أموّت كلّ يوم

٢٨ — وفي ص ٢٩ قال ابن داود : « فاذا كان النظر الصاحي الى الصورة التي يستحسنها طرفه مؤكداً للمنظور اليهِ المحبة في قلبهِ كان نظر المحب بعد تمكن المحبة له أحرى ان يغلبهُ على لبه ، ويزيده كرباً على كربه » . وكلمة « النظر الصاحي » محرفة ، وصوابها : « نظر الصاحي » ليقابل قوله بعد ذلك : « نظر المحب »

٢٩ — وفي ص ٣٠ قال الحسين بن الضحاك

واتاني مفحم بغرته ... قلت له اذ خلوت محتشما

تحب بالله من يخصك بالحب ... فا قال لا ولا نعما

وارجّح ان كلمة : « وأتاني » أصلها : « وا بأبي » وكانت في المخطوط « وبابي » فلم يفطن الناشر الى الحرف المحذوف

٣٠ — وفي ص ٣١ قال علي بن الجهم :

ولما بدت بين الوشاة كأنها ... عناق وداع يشتهي وهو يقتل

أيست من الدنيا فقلت لصاحبي ... لئن عجلت للموت أوحى وأعجل

جعل الناشر اللام حرف جر في كلمة « للموت »فوضع تحتها كسرة والصواب نطقها بالفتح

٣١ — وفي ص ٣٢ قال مسلم بن الوليد :

أراها فاطوي للنصيح عداوة وأحمد عقبي ما جنى النظر الشزر
فلا سيما المذال فيها ملامهم ألستُ اذا لاموا أبيت ولي عذر

وكلمة « فلا سيما » ممسوخة ، والصواب : « فلا يسيء »

٣٢ — وفي ص ٣٢ قال ابن داود :

متى يا شفاء السقم سقمي منقضي اذا ما دواء كان للداء ممرضي
فهيهات ما هذا على ذا يقلع أجل «لا» ، ولكن مدة العمر تنقضي

ترك الناشر كلمة « يقلع » من غير شكل : لانهُ ارتاب فيها ، ولو تأمل لرأى الصواب : « بمقلِعٍ » اسم فاعل من اقلعت عنهُ الحمّى تركتهُ

٣٣ — وفي ص ٣٤ قال الشاعر

تسليت عن ذكر الحبيب بغيره وملت اليه بالمودة والذكر
فما زادني الاّ اشتياقاً وحرقة اليه ولم املك سلوّي ولا صبري
وما الحب الاّ فرحة ان نكلتها باخرى قرنت الضر منك الى الضر

وكلمة « فرحة » بالفاء صوابها « قرحة » بالقاف. وكلمة « نكلتها » باللام صوابها «نكأتها» بالهمزة ، من نكأ القرحة قشرها قبل ان تبرأ

٣٤ — وفي صفحة ٣٥ قال الراعي :

بني ولوسي قد سئمنا جواركم وما جمعتنا نية قبلها معا

وكلمة «ولوسي» ممسوخة ، والصواب «وابش» واصل البيت في رواية الاغاني (ص ١٧١ ج ٢٠ طبع ساسي)

بني وابش انا هوينا جواركم وما جمعتنا نية قبلها معا

٣٥ — وفي الصفحة عينها قال ابو صخر الهذَلي :

واني لآتيها وفي النفس هجرها بياتا لاخرى الدهر ما طلع الفجر

و(بياتا) بالياء لها وجه ، ورواية القالي «بتاتا» بالتاء ، وهي اجود

٣٦ — وفي ص ٣٧ قال ابن داود : « قد تمنع المحب هيبة المحبوب من النيل الذي هو اللطف من الشكوى محلاً في القلوب»...و «اللطف» صوابه «الطف»

٣٧— وقال في ص ٣٨ : « اذ لوكان الهوى قد استوفى منه حقه ، وتناهى به الى غاية بعدهَ ، لما كان اللقاء يزيده شيئاً ولا ينقصه»وعبارة : (الى غاية بعده) صوابها : (الى ما لا غاية بعده)

٣٨ — وفي الصفحة نفسها قال : «وقد مدح الله تبارك وتعالى قوماً فقال (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً) فلم يعبهم تعالى بأن كان ذكره بحضرتهم مظهراً عليهم ما لم يكن قبل موجوداً منهم»

وكلمة «لم يمكن» صوابها : «لم يكن» و «منهم» قد تكون محرفة عن «فيهم»

٣٩ — وفي ص ٤٠ قال الحسين بن الضحاك :

ايامن طرفه ، سحر ويا من ريقه خمر تجاسرت فكاشفتك لما غُلب الصبر

وما احسن في مثلك ان ينهتك الستر فان عنفني الناس ففي وجهك لي عذر

وقد اخبرني الدكتور نيكل انه استعان في تصحيح الكتاب بالشاعر ابراهيم طوقان ليساعده على ضبط الشعر خاصة، اذ كان الناشر ليس من المتفوقين في علم العروض، فليت ابراهيم طوقان عرف ان هذا الشعر لا يقرأ الا هكذا :

ايا مَن طرفهُ سحرٌ ويا مَن ريقهُ خمرُ

تجاسرت فكاشفتك لما غلب الصبر

وما احسن في مثلك ان ينهتك الستر

فان عنفني الناس ففي وجهك لي عذر

٤٠ — وفي ص ٤١ قال ابو صخر الهذلي

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم

ما في الحياة اذا هيبت لنا خير ولا للعيش من طعم

ترك الناشر كلمة «هيبت» بلا شكل . وتلك طريقته فيما يرتاب فيه من الكلمات ، ومن المحتمل أن يكون الأصل «ضننت» من الضنّ وهو البخل

٤١ — وفي ص ٤٢ قال ابن الدمينة يخاطب أمامة

وأنت التي أحفظت قومي فكلهم بعيد الرضا داني الصدود كتوم

و «كتوم» لها وجه ، ورواية ابي تمام «كظيم»

٤٢ — وفي ص ٤٨ قال اعرابي

وليس خليلي بالمرجّى ولا الذي اذا غبت عنه كان عونا على الدهر

ولكن خليلي من يصون مودتي ويحفظني ان كان من دون البحر

كلمة « المرجى » بالراء وردت في الموشى «بالمزجي» بالزاي المعجمة ، وصديقنا الاديب محمود شاكر يقترح ان نقرأ «بالمدجّي» وكلمة دون في البيت الثاني وردت في الموشى «دوني» بفتحة على الياء وبها يستقيم الوزن

٤٣ — وفي ص ٤٥ قال العباس بن الأحنف

واذا بدا سرُّ اللبيب فانه لم يبد الا وهو مغلوب

وعبارة : «وهو» ينكسر بها البيت ، والذي أحفظه «والفتى مغلوب»

٤٤ — وفي ص ٥٦ قال احمد بن أبي طاهر

مالي أقرب منك نفسي جاهدا وأراك مني جاهدا تتباعد
قدمت دون اخيك من هو دونه وعَنِيدْتَ عنه وهو منك يعاند

وكلمة «منك» تبدو لي محرفةً عن «فيك»

٤٥ — وفي ص ٥٧ قال ابن داود : «هؤلاء كلهم ومن جرى مجراهم انما يتضاجرون على خلانهم لتقلهم ايام عن عادتهم» . وكلمة «لتقلهم» بالثاء المثلثة صوابها : «لنقلهم» بالنون

٤٦ — وفي ص ٥٨ قال بعض الأعراب

هجرتك اياما بذى العُمر انني على هجر أيامي بذى العمر نادم
واني وذاك الهجر لو تعلمينه كماذية عن طفلها وهي رائم

و «العمر» بالعين المهملة صوابه «الغمر» بالغين المعجمة ، و «ماذية» صوابها «عاذبة» وقد ورد البيتان صحيحين في ديوان الحماسة

٤٧ — وفي ص ٦٠ قال ابن داود : «فهؤلاء الذين قدساءهم الدهر بصحابهم فاستطابوا المقام على حالهم » . وكلمة «الذين» من زيادة الناسخ فليحذفها القارىء

٤٨ — وفي ص ٦١ قال ابو تمام

وفاتن الألحاظ والخد معتدل القامة والقد
صيّرني عبداً له حسنهُ والطرف قدصيّره عبدي

و «الطرف» بالطاء المهملة وصوابه «الظرف» بالظاء ، يريد الشاعر ان يقول ان خفة روحه جذبت محبوبه اليه

٤٩ — وفي ص ٦٣ قال احد الشعراء

وقصيرة الأيام ود جليسها لو نال مجلسها بفقد حميم
صفراء من بقر الجواء كأنما حفن الحياة بها وداء سقيم

والبيت الثاني عجزه محرّف . وصوابه كما في الحماسة

صفراء من بقر الجواء كأنما ترك الحياة بها رداع سقيم

٥٠ — وفي ص ٦٤ قال العرجى

لقيت به سرْ ينظرن موعدي وقدماً وفت مني لهن المواعد

وعبارة «سرّ ينظرن» محرفة ، ولعل الصواب . «سرباً تنظرن»

٥١ — وفي الصحفة ذاتها قال أحد الشعراء

ومجلس لذة لم نقو فيه على شكوى ولا عذر الذنوب

و «عذر» صوابه : «عدّ»

زكي مبارك
رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الاميركية

مكتبة المقتطف

ضحى الاسلام

تأليف « احمد امين » الاستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية — اخرجته لجنة الترجمة والتأليف والنشر بمصر

من اجلّ الكتب العربية التي أخرجت للناس في هذا العام كتاب « ضحى الاسلام » ، وصل بهِ صاحبه الاستاذ « أحمد امين » ما كان بدأ في كتابه « فجر الاسلام » ، وبه تنقع المؤلف غُلّة شقيَ بها أدباء هذا العصر زمناً طويلاً . ويخيَّلُ اليَّ أن الاستاذ «أحمد أمين» رجل قد أوتي من الصبر والجَلَد والمثابرة وقوة العزم ونشاط الفكرة نصيباً وافياً سابقَ به المجتهدينَ من اهل عصره حتى سبقهم وأربى عليهم . وعامة الناس لا يعرفون ماذا يلقى الباحث في التاريخ العربي والادب العربيّ من عناءٍ وعنتٍ يبلغان منهُ الجُهْد . فالباحث إن لم يؤتَ مثل ما أوتي هذا الرجل انقلب الى نفسه بأخسّ النصيبين وأوكس الحاجتين . ذلك بأن التاريخ العربيّ خاصة قد انفرد دونما دوّن من تواريخ الامم الخالية بالنقص في ناحيتين : اولاهما ، اندثار آثار جاهلية الجزيرة العربية في اليمن والعراق والحجاز والشام وخُفُوتُ أخبارها وقلّة ما دون منها على تشتتهِ في كتب الادب وكتب التاريخ ، والاخرى ، اعتماد المؤرخ العربي على الرواية فلم يعنَ بالتعليق عليها وتوضيح ما غمض من اسرارها . ونعتقد انهم كانوا يستطيعون ذلك لو تعمدوه ، وقد تبيّن هذا لنا مما نراه لهم من القول في ترجيح رواية على رواية اذا التبس الامر . وثالثة لا ذنب للتاريخ ولا للمؤرخ فيها ، تلك هي ضياع اكثر الكتب العربية التي أُلفت في عصر الرشيد والمأمون او عصر تدوين العلم . وابتلينا نحن من بعد ذلك ببليتين : اولاهما أن لم ينتدبْ احد من اهل هذه اللغة الى التنقيب عن آثار هذه الامة العربية التي طويت في ارضها بين يمنها وشامها وحجازها وعراقها ومصرها ومغربها وما سوى ذلك ، والاخرى ، أن لم يخفَّ أحدٌ إلى دراسة كتب العرب ولمّ شتاتها واستخراج ما خفي من اساليب العرب واحوالها وعاداتها في الاجتماع والادب واللغة حتى جاء في هذا العصر أصحاب الالسنة الاعجمية من دول اوربا بأقوالهم في تاريخنا وأدبنا وديننا بالكلام الجيد تارة ، والفهم الملتوي والتعليل الفاسد تارة اخرى

فأنت حين ترى « احمد امين » يبتدر صادقاً الى هذا التاريخ فيتقلّب فيما بقي من دارسات

طوله فيما وصلنا من كتبه ما شاء الله ان يتقلّب ثم يخرج فيقصّ عليك من اخباره وقد نَفَضَ عنها غبار القرون وأحداثها ، وما إن ترى من اهل هذه اللغة الاّ نائماً او متيقظاً كنائم او صاحب مكيدة مخدوعاً عن رأيه وقلبه ، والاّ اعجمي اللسان والقلب يلتوي فهمه ولا يستقيم غرضهُ يتعرّض لتاريخ هذه الامة فيصيب ويخطىءُ ، ويظهر فضلاً ويدس مكيدة...
أنت حين ترى هذا وترى ما في دراسة التاريخ العربي والادب من عناءٍ وعنتٍ لا يتأتى لك بعدُ إلاّ ان تحمدَهُ وتشكر له ما أسدى الى امته من جميل . هذا وقد وضع المؤلف كتابهُ في أربعة ابواب في كل باب فصول ، وفي الجزء الذي بين ايدينا الباب الاول منهُ : في الحياة الاجتماعية في العصر العباسيّ من (سنة ١٣٢ — ٢٣٢ هـ) واجتزأ منها بما له اثر قويٌّ في العلم والفنّ . والباب الثاني : في الثقافات المختلفة دينية وغير دينية . وأرصد باب « الحركات العلمية » وباب « المذاهب الدينية » ليجعلهما من نصيب الجزء الثاني الذي وعد بتقديمه الى القراء قبل ان يفرغوا من قراءة هذا الجزء . فوفاءً بحقّ هذا الكتاب الجيد نبذل جهدنا في الكلام عنهُ والتعرُّض لما فيهِ موجزين ان شاء الله وبالله التوفيق

تحرير القول في الاحوال الاجتماعية والعلم والفنّ وأثر احدها في الآخر من أعسر ما يتعرض له الكتّاب فان الجليل من أحدها له من التأثير مثل الذي لحقيره ، وان من صغير احوال المجتمع لما يزيد في العلم والفن او ينقص منهما ، وان من حقير العلم والفن لما يزيد في احوال المجتمع او ينقص منها اذ تترافد هذه الثلاثة . حتى اذا ما اردت ان تعرف ايها الذي أثر تأثيراً قويًّا أو ضعيفاً وايها الذي تأثر التوى عليك المسلك ووقعت في الحيرة واضطربت اضطراب من ضلّ بهِ دليلهُ . فمن اجل ذلك ما ينكصُ كثير من المؤلفين عن تناول هذا الاّ في الندرة . وغاية ما يمكن المؤلف فيعمل ليتلافى هذا النقص وخاصة في التاريخ العربيّ أن يتسقّط اخبار الحياة الاجتماعية من قصيدة لشاعر او كلمة لخطيب او وصف او قصة فيؤلف بينها ثم يمنحها من خياله وفكره ما يتمم بهِ النقص الذي وقع فيها ويضع عليها من زينتها ما يظنُّ انها كانت تتجمل بهِ ثم يعرضها لك بعد عرضاً خلاّباً رائعاً حتى لتحسُّ وانت تقرأ ما كتب انك قد انتقلت من عصرك الذي انت فيهِ الى عصر مثل هذا العصر العباسيّ الذي تناوله « ضحى الاسلام » ، وانك تعيش في جوّ من الحياة العباسية فيها سحرها وجمالها ولها روعتها وجلالها ويترقى اليك المؤلف خلال ذلك بما يحقق من علاقة هذا الاجتماع بالعلم والفن وأين أثر كلٍّ في صاحبه غير تاركك فتنسى انك تعيش في ديار الدولة العباسية . فاذا أراد أن يحقق القول في موضوع بعينه كالرقيق مثلاً افرد له خاصة ما يخرج فيهِ رأيه بأدلته وبراهينه وحججه وما ينتهي اليهِ من اخباره زيّفها وصحيحها

ونحن نعتقد ان المؤلف قد قصّر في هذا الباب على جلالة ما كتب فيهِ .وان القيد الذي

وضعهُ من الاجتزاء بما لهُ أثر قويّ . . . في العلم والفن من الحياة الاجتماعية قد أضاع بهجة هذا الباب . وقد كان يستطيع ان يحتفظ بشرطهِ هذا مع شيءٍ من التوسع في صفة بعض بلاد الدولة العباسية وأهمها بغداد حتى يحس القارئ وكأنهُ ارتحل فوافى بغداد يرى من اطرافها الاسوار والقباب العالية على ابوابها بينها الابراج عليها حراسها وحجابها في ازيائهم وملابسهم . والتماثيل على رؤوسها تلوح وتلمع ، حتى اذا دخل بغداد رأى القصور بين البساتين والانهار فاذا دخلها رأى الدهاليز والممرات والمخترقات والصحون فيها الصور الفاتنة على اعمدة الرخام ، والمجالس فيها الفرش الجميلة والابسطة المطرزة بالالوان الغريبة ، والشعْرَ المنقوش على اطرافها واوساطها . ورأى صور الفيلة والخيل والجمال والسباع والطير على ستور الديباج المذهبة . ورأى الخليفة في ابهته وجلاله ومن يحيط بهِ من حاشيته من اجناس الامم في اللباس العجيب . ورأى العلماء والشعراء والحجاب تروح وتغدو ، ورأى زيّ القضاء وزي الشرطة وزيّ الكتاب وزيّ الوزراء وزي الاعراب من الشعراء وهم ينشدون مديحه في صوت البدويّ الجافي مع حلاوة المخرج وحسن الاداء . ورأى شعراء الحضر يمدحون بالشعر فيه الغزل وفيه الحكمة وفيه السياسة والتحريض والدعوة الى التوفيق او التنبيه الى الدسيسة . ورأى الجدَلَ في مجلس الخلافة بين العلماء من فقهاء ونحويين ولغويين ورأى اولياء العهد في ملاعبهم ومجالس علمهم . والندماء في لباس الشراب والمغنين في الاقبية الخراسانية بأيديهم المزاهر والاعواد ومن كل آلات الطرب بينهم القيان الجميلات والاماء الاديبات والشراب يدور بهِ الولدان والفتيات بزينتهنّ وحسنهنّ فاذا خرج الى البساتين رأى الافراس المطهمة عليها الذهب والفضة في ايدي الشاكريين (السوّاس) عليهم البزّة الجميلة ثم رأى حيرَ الوحش (حديقة الحيوانات) تخرج الوحوش منها تقرب الناس وتأكل من ايديهم ، والفيلة المزينة بالديباج والوشي مع اصحابها من فيالة السند ، والسباع بأيدي السباعين في رؤوسها واعناقها السلاسل والاغلال ، ورأى البرك من الماء فيها مجالس للخليفة بألوانها وصورها وجمالها واخرى من الرّصاص القلعيّ تتوهج في شعاع الشمس كالفضة المجلوة والنخيل من حولها ملبّساً بالشبه المذهب وأشجار الاترج عليها الزينة تنفح عطرها وشذاها . والاشجار المصنوعة من الذهب عليها عصافير الفضة تحركها الريح فيخيل اليك من حسنها انها اشجار حية . وتخرج الى اسواق بغداد يفوح طيبها ومسكها ومندلها وبخورها وصندلها ويتلألأ الذهب والفضة في نواحيها وأرجائها والنساء والقيان والمغنيات والشباب والشيوخ والفقر والغنى وأهل التصوف ومن كل امة وجنس من رومها وعربها وفرسها وسودانها وحبشها وظرف اهل بغداد واحاديث مجانها وخلعائها وتنادر ظرفائها والاعرابيّ في صوفهِ والحضري في خزّهِ وحريرهِ والنعال السبتية بأصواتها وألوانها ويسمع من وراء الجدران الحان الجواري وهنَّ يتغنينَ في بيوتهنَّ ويضربنَ بالدف والعود والمزهر والناي ، وليل بغداد والسمر والغناء والموسيقى

والمساجد والأذان وأصوات التكبير ودويّ قرّاء القرآن في جوانبها ومواعظ الوعاظ وبكاء الناس من هول يوم القيامة وأهل الحديث والمعتزلة والفقهاء والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ..... الى غير ذلك مما يطول ذكره ولا يفرغ منهُ . والذي ذكرنا هو من احوال الاجتماع في بلاد الدولة العباسية وقد اثرت في العلم والفن وأرقيها العلم والفنُّ فلو ان المؤلف عرضهُ عرضاً خلاباً فاتناً لما ترك من بعده مقالاً لقائل.

ومثل هذا العرض لا بدَّ فيه من تضافر امرين . الاول : كثرة المادة التي يريد ان يبني عليها المؤلف كتابه ، وتهيئتها قبل البدء ، ومعرفة المواضع التي يجب ان يكون فيها التحقيق العلمي وما هو بسبيله من اثبات أثر الاجتماع في العلم والفن او أثرها فيه بحيث لا يفسد جفاف التحقيق جمال الوضع وحسن الوصف . والثاني : قلمٌ سيالٌ عنيفٌ متزن يمده خيال واسع محيط وفكر متوقد لا يخبو كالشعلة من النار كلما احتطب لها ازدادت توهجاً واشتعالاً حتى ترسل الكلمات في تيار جارف من القوة والرهبة ليحطم بذلك ما بين القارىء وبين العصر الذي يدرسه من اسوار وحوائل . وقد تهيأ الامر الاول للاستاذ « احمد امين » كما دلنا على ذلك كتابه ، اما الآخر فكأني به شيخ محنك قد حطمتهُ السن يضع الكلمة بعدها الكلمة في هدوء ووقار . لانهُ لا يخرجها الاَّ بعد ان يزنها في الميزان المهيأ من تجاربه وما لقي من احداث دهره فمن اجل ذلك ما تجده كثير الاستعانة بما ليس للقارىء بهِ حاجة كقوله في المواضع الكثيرة «في عصرنا الذي نؤرخه» فكأنهُ يخشى ان يكون قارئه قد نسي انهُ يقول ما يقول عن العصر العباسيّ

وبعدُ فهذا اهم ما نقوله عن الكتاب من جهة وضعه وعرضه وبقيت اشياء قد عرضت لنا حين القراءة على ضيق الوقت والتباسنا بالعجلة وهذا حين نحقق ما عرض لنا من ذلك

١ — نقل المؤلف من رسائل الجاحظ في ص ١١ قوله « من ذلك : أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبناتُ الهندياتِ ، والاغوارُ . واليمنَ أشهى النساء عندهم الحبشياتُ وبناتُ الحبشياتِ» ووضع نقطة الفصل بعد «الأغوار» ممَّا يدلُّ على أنها معطوفة على « الهندياتُ وبنات الهندياتِ » وعلقَ على الاغوار بقوله «الغُورَة بالضم : بلدةٌ عند باب هراة ، وبلا هاء ، ناحية بالعجم «والصواب» والأغوارَ واليمنَ أشهى النساء عندهم... الخ» يعني أهلَ تهامةَ والحجاز واليمن « قال الازهري : الغورُ : تهامة وما يلي اليمن . وقال الباهليّ : كل ما انحدرَ سَيْلُه مُغرباً عن تهامَة فهو غورٌ » وأهلُ الأغوار واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيّاتُ لكثرة ورودهنَّ عليهم لقرب الحبشة منهم . وقد ورد في الخَبرَ عن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أو أحد أصحابه في تفضيلهنَّ على غيرهنَّ أنَّ « هُنَّ أنق أرحاماً » أو كما قيل

٢ — ذكر المؤلف في معرض الكلام عن خطأ الأعراب وكذبهم في اللغة ص ٣٠٠ «أكاذيب الأعراب» وعنى بها مايختلقونهُ في اللغة وذكر أن أبا العباس المبرّد عقد باباً في كتابه الكامل سمّاهُ «أكاذيب الأعراب» والصوابُ أن الباب الذي عقدهُ أبو العباس في الكامل هو «تكاذيبُ الأعراب» ج ١ ص ٣٥٦ وعنى به مايتزيّدُون فيه من الكلام ومايختلقونهُ من الاوهام كالذي قال ابو عبيدة في قول الراجز

«أهدِموا بيتك لا أبا لكا وأنا أمشي الدَّألى حوالكا»

هذا يقوله الضب للحِسْل (وهو ولد الضبّ حين يخرج من بيضته) أيامَ كانت الأشياء تتكلم..! وكالذي نقله صاحب «ضحى الاسلام» في ص ٣٠٧ عن كتاب الكامل نفسه من قوله «تكاذبَ أعرابيان .... الخ»

٣ — قال المؤلف في ص ٣٠١ «وألف ابن خالويه كتاباً سمّاهُ «ليس في كلام العرب» بين فيه ألفاظاً تستعمل ولم يصحّ سماعُها من العرب» وليس الأمر كذلك فالكتابُ بين أيدينا وقد طبع سنة ١٣٢٧ هـ بمطبعة السعادة . ذكر فيه ابن خالويه ما شذّ عن القاعدة من كلام العرب وابتدأ كل فقرةٍ بقوله «ليس في كلام العرب» وبها سُمّي الكتاب . وذلك كقوله مثلاً في ص ٥ «ليس في كلام العرب ، أفعَل فهو فاعل إلاّ اعشبت الأرض فهي عاشب ، وأورس الرمثُ فهو وارس ، وأيفع الغلام فهو يافع ، وأبقلت الارض فهي باقل ، وأغضى الرجل فهو غاضٍ ، وأمحل البلدُ فهو ماحل» . ولدار الكتب في فهرستها خطأ أكبر من هذا فقد وصفوا هذا الكتاب بقولهم «هو كتابٌ في الكلماتِ التي دخلت على العربية من الفارسية وغيرها وليست منها» . . . . !! وليس في الكتاب كلمة فارسية ولا (ملطية)

٤ — في ص ٣٩٥ تحريف في آيةٍ من كتاب الله وقعت هكذا : ألم تر إلى الابل كيف خلقت . والآية من سورة الغاشية «أفلا يَنْظُرُونَ إِلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ»

٥ — قال المؤلف في ص ٨٣ «وقد كانت المملكة البيزنطية تحرّمُ على من ليس نصرانيًّا أن يتملك رقيقاً نصرانيًّا ، ولكن المسلمين أباحوا ... !! لليهود والنصارى أن يتملكوا الارقاء ولو كانوا مسلمين» . ولاندري كيف كان ذلك وكيف يكون ؟ وأي دليل وقع للمؤلف على هذا القول ؟ والله تعالى يقول في سورة المائدة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصارَى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فإنَّهُ مِنْهُمْ انّ الله لا يَهْدي القَوْمَ الظّالمين» وكيف يبيحَ المسلمون ذلك ، ومن الذي أباحَهُ ؟ ؟

٦ — من أهمّ ماترك المؤلف مما له أكبر الأثر في العلم والفن والاجتماع أيضاً كَثْرةُ الورق في بغدادِ حين اتوا به من الصين وغيرها وكانت له تجارة واسعة جدًّا في العصر العباسي ،

فقد انتشر الورّاقون في بغداد وكثرت عندهم الكتب وكثر النُسّاخ والكتّاب وسهل على الناس ان يقرأوا الكتب بالكراء من دكاكين الوراقين . ولقد احدث ذلك من النهضة في العلوم والفنون اكثر مما احدث الرقيق وغيرهم في بلاد الدولة العباسية . ولعلّ المؤلف أخره الى حين القول في الحركات العلمية « فهو به اشبه » او كما يقول . هذا ، والكتاب لا يزال بموضع العناية فان اتسع الوقت لنا في تحقيق ما رأينا فيه عدنا اليه والله المستعان م؟

محمود محمد شاكر

المراحل

سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها

بقلم ميخائيل نعيمه — ١٤٤ صفحة من قطع المقتطف — طبع بمطبعة صادر ببيروت — ويطلب من المؤلف رأساً في بسكنتا (لبنان) ومن المكاتب المعروفة ، وسعره ٧٥ غرشاً سورياً

تخرج المطابع العربية عشرات الكتب يومياً ، ومن هذه العشرات ما قد يكون لكاتب واحد ، ثم تكرّ الايام فيتناسى القراء تلك الكتب ويتجاهلون مؤلفيها فينسج النسيان عليهم حجاباً كثيفاً

غير اني لا اعجب الاّ من مؤلف يخرج كتاباً واحداً فلا يذكر اسم الكتاب حتى يكون اسم المؤلف مقدمته ، او يذكر اسم المؤلف فلا يكون عنوان الكتاب الاّ لقبه

ذلك هو ميخائيل نعيمه مؤلف الغربال ، ما اذكره الاّ واذكر الرأي السديد ، والفكر الجليّ ، والمعنى الحيّ ، والأسلوب القوي ، والقلب النابض بالحياة ، والنظرة المتطلعة الى الحقيقة المجردة من وراء الحجب الكثيفة . وهو في كتابه الثاني «المراحل» ابعد مرمى ، وأنفذ بصيرة ، فهو يتغلغل فيه الى لباب الحياة فيستخلص الحكمة منها كما هو في مقالات : «ثلاثة وجوه» و«الى الجندي المجهول» و«حبتان من القمح» و«المزابل» و«موعظة الغراب» وغيرها . وفي مقاله «الفوضى الادبية» ردّ قوي على الجامدين بإزاء نظام الحياة الذين يرون الفوضى في ان يكتب الناس بأساليب غير ما ألفوا ، وأن يعبروا عن عواطفهم في قوالب غير قوالبهم « ولو فكروا لفقهوا ان ما يدعونه « فوضى » ليس الاّ نتيجة لازمة لعلل كثيرة سبقتها وانهُ مظهر من مظاهر النظام السرمدي الشامل . وانهُ ، وان يكن خروجاً على انظمتهم ليس خروجاً على ذلك النظام الذي لا متمرد عليه ولا عاص »

ولميخائيل نعيمة نزعة الى الروحانيات يبدو اثرها قوياً في مخاطبته الوجوه الثلاثة : وجه بوذا ، ووجه لاوتسو ، ووجه يسوع . فأسمع صداها في نفسي وهو يناجي الوجه الاول قائلاً :

«غوتاما بوذا ! ياساكن النرفانا ! الا بيّنت لي انا المسمّر بالارض ، والحامل من همومها ثقل بحورها وجبالها ألا بينت لي كيف اقف على العتبة الفاصلة بين الوهم والحقيقة كما وقفت

انت على عتبة مخدع زوجك وأم بكرك وقد نامت تحت لحاف من الازهار ، وبكرك وبكرها ملتصق بصدرها ، ومن دون ان تدنو منها قلت : هوذا رباط جديد قوي يجب ان انفكَّ منهُ كذلك . وأدرتَ وجهك الى الليل ورحت هائماً في الآجام تطلب الطريق الى النرڤانا»

وعطشهُ الى «الذات العالمية» في مناجاتهِ هذه هو شوقهُ الى طريق لاوتسو، الى «الطاو» إذ يناجيه : «إيه لاوتسو ! يا نقيض الناس ومعلم الناس ، ألا ازرع في نفسي الطاعة الطاحة، الحاقدة الناقمة ، المستهزئة المستنكفة ، العاتية المستعبدة ، الصاعدة الهابطة في زبد امواج الرغائب والمنى ، ألا ازرع فيها حبة من بذار قناعتك ، وحبة من بذار محبتك ، وحبة من بذار حريتك، وحبة من بذار وداعتك ، وحبة من بذار تساهلك ، وحبة من بذار سلامك وحبة من بذار طمأنينتك !!»

ويرى الاستاذ نعيمه انهُ اذا كان في العالم فساد «فالفساد ليس الاَّ في اعتقاد الناس أنهم فاسدون وأن في الكون ما هو معوجٌ وفي قدرتهم تقويمه»

واسمعه في اعماق نفسي ينشد «الآب» وهو يناجي وجه يسوع هاتفاً : « ايها القائل : « ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فانهم يحبون ان يصلوا قائمين في الجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس ... » علمني كيفما تخفت في اذنيَّ اصوات هؤلاء المرائين ، وأسمع صوتك قائلاً : « حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً » فأفهم اني إن شئت العودة الى « الآب » فعليَّ أن أضع الآب في قلبي أو قلبي في الآب »

وهذه النزعة العلوية التي تنزعها روح أديبنا هي التي تجعلهُ يرى الفرق بين الشرق والغرب « منحصراً في نقطة واحدة جوهرية وهي ان الشرق يستسلم لقوة أكبر منه فلا يحاربها ، والغرب يعتدُّ بقوَّتهِ ويحارب بها كل قوة » « وان الشرق اقرب من الحقيقة بإيمانهِ من الغرب بفكره وعلمهِ وبرهانه ... » وفي نظره «أن القائل من كل قلبه : «ولا غالب الا الله» لأحكم وأكثر طمأنينة روحية من القائل : « ولا غالب إلا أنا » ويرى ان الغرب أحوج الى مدرسة الشرق من الشرق الى مدرسة الغرب

لهذه النزعة ولهذه الروح الوثابة الى نشدان الذات العالمية مع بوذه ، والطاو مع لاوتسو والآب مع يسوع نرى ميخائيل نعيمة حاملاً قلبهُ متطلعاً الى النور البهي الذي نرى روحه آفاق إشعاعهِ ليعود مسرعاً من نيويورك ذلك « التنين المتمدد بين نهرين ، الفاغر فاهُ ليشرب البحر ويبتلع البر دون أن يرتوي يوماً أو يشبع » يعود مسرعاً الى صنين ليستلقي «في الأصيل على صخرة دهرية بيضاء فيها نوائ مسننة كالحراب تتخللها منبسطات ملسة ككف العذراء ، من (ورائهِ) صخور تتعالى الى السماء وتطرح (عليهِ) ستراً من الظل ناعماً كالمحبة مؤنساً كالرجاء عابقاً بالسلام والطمأنينة كالإيمان .»

وكأني اناجيه وهو مُوَلٍّ وجهه عن نيويورك الى بسكنتنا (لبنان) بما ناجى به لاوتسو: «أحب وجهك الكالح — وجهَ المعلم لايفهمهُ تلاميذه ، وأحب وجهك الشاحب — وجهَ العاشق لا وصول له الى معشوقهِ ، وأحب وجهك الحائر — وجه من وجد الطريق تخامره شك بمقدرتهِ على قطعه . غير اني أحب أكثر من ذاك بما لا يقاس وجهك الذي أدرتهُ عن الجندي على حدود ولاية «تشو» وصوبته نحو الأفق البعيد فكأني بولاية «تشو» عالم الحس والشهوات . وكأني بك حين تخطيت حدودها تخطيت حدود هذا العالم تاركاً خلفك ربوات من الديدان البشرية تدأب النهار والليل في حفر الأرض كأنها تتحصن في حُفَرِها من الموت والفناء ، وما حُفَرها إلا قبور لها ، وكأني بالأفق الذي أدرت اليهِ وجهك ملكوت الطاو . وكأني بوجهك إذ ذاك شعلة من نور الطاو فلا أثر لحرقة فيه أو للوعة . أو لحزن او لفرح . أو لأمنية أو لشهوة . أو لخير أو لشر . وكأني بروحك القدوسة تسير حتى الساعة في سبيلها النيّر القويم الذي لاحدَّ لطوله ، ولاقياس لعرضه وفي سيرها محجتها فهنيئاً لك ! »

حسن كامل الصيرفي

من الارز الى الزوفا[1]

بحث في اساطير النبات في فلسطين
بقلم المسز كروفوت والمس بلدنسبرجر

هو كتاب بالانكليزية بقلم السيدتين الفاضلتين المسز كروفوت والمس بلدنسبرجر فيهِ مباحث جليلة في نباتات فلسطين وما جاء فيها من اساطير العامة من اهل البلاد وما قال فيها القدماء . والكتاب مبوّب احسن تبويب ففيهِ فصل في السنة الزراعية وآخر في الحبوب والعنب والزيتون وآخر في الاطعمة البرية منها البقول اي الخضراوات واحرار البقول اي ما يؤكل منها نيئاً والجذور والقطاني كالحمص والفول والجلبان والبيقيَة والعدس والبازلا

فن البقول البرية الخُبّازي والسِّلْق البري ولسان الثور واللوف والعكّوب . ومن احرار البقول اي ما يؤكل منها نيئاً الحُرفَيش وخرفيش الحمير والحُورة والقطَف والحُمّاض والحصيص والخرشوف البرّي والطرخشقون اي سلطة الرهبان والهندباء والخس البري والقرصعنة . ومن الجذور النُمَير والبلبوس وثوم العرب

وفيهِ فصل في الوقود منها البَلّان والرَّتم والصوفان . وفصل في النباتات التي اسماؤها غريبة او واردة في امثالهم منها عين البس والخَطْمي وسراج الغول والخِلّة وشعر العجايز وهو الكشوث وابرة العجوز وقرنبيط الدجاج والصبّير والخروع والحدق والعُشَر والحنظل

(١) From Cedar to Hyssop. A Study in the Folklore of Plants in Palestine by Grace M. Crowfoot and Louise Baldensberger London: The Sheldon Press.

ثم الازهار الطيبة الريح كالخندقوق والورد والحناء والنباتات الشائعة في عمل الاصباغ كالنيلة والفوة وفي عمل الصابون كعرق الحلاوة والقلي

وفصل في النباتات الطبية ورد منها الزوفا اي الزعتر والمريمية اي القصين والزعتر الفارسي والجعدة والشيبة والحمحم والزقوم والقرطم والكزبرة والكمون والشمر والشاهترج وعرق السوس والطيون وهو الطباق والبابونج والحرمل والمصطكى والصنوبر والقضاب والرجلة وهي البقلة الحمقاء والخامشة والشذاب اي الفيجن والسماق والمثنان والقراص والرشاد وغيرها . وفصل في الاشجار المقدسة منها الارز والبلوط والميس والرمان والسدر والطرفاء والخروب والنباتات السحرية منها اللفاح او بيض الجن وكف العذراء وزهرة البراءة

ويتخلل كل ذلك اشعار عامية وحكايات وامثال . مع وصف النباتات وصفاً دقيقاً . والكتاب مزين بصور النباتات بقلم المسز كروفوت والصور كلها حسنة جداً . ولما كان هذا الكتاب النفيس يتعذر وصفه ونقده باسطر قليلة رأينا ان نفرد له فصلاً خاصاً في الجزء القادم من المقتطف بقلم العلامة الفريق امين باشا المعلوف

محمد — حياته ومعتقده

Tor Andrae, Mohammed. Sein Leben und sein Glaube. Göttingen, Vandenhoeck u. Ruprecht, 1932, 160 S. 8o.

اكثر المشتغلين بدرس السيرة النبوية في الغرب كانوا — ولا يزالون — من اللاهوتيين وهو أمر يقتضيه التخصص واقسام التعليم ودرجاته عندهم . اذ أنَّ الموضوع بطبيعته اقرب الى قسم اللاهوت منه الى سائر الاقسام. وقد تطور هذا الموضوع بتطوُّر علم اللاهوت. صار اليوم علم النفس وعلم مقابلة الاديان من المواد الضرورية في قسم اللاهوت بالجامعات الكبرى وظهر اثر ذلك في درس السيرة النبوية. والكتاب الذي نحن بصدده خير مثال لذلك . صاحبه استاذ بجامعة أبصالا بالسويد ومستشرق معروف يعد من الاختصاصيين في «حياة محمد» ظهر له سنة ١٩١٧ كتاب بعنوان «محمد كما ترى أمتُه وتعتقد» وآخر سنة ١٩٢٥ بعنوان «منشأ الأسلام والمسيحية» وكلاهما باللغة الالمانية وله غير ذلك رسائل ومقالات تتصل بالموضوع نشرت في مجلات علمية مختلفة

وهذا كتابه الاخير ظهر منذ بضعة اشهر وهو يحتوى على مقدمة وسبعة فصول هي:—

(١) بلاد العرب عند ظهور الإسلام (٢) من الطفولة الى نزول الوحي (٣) رسالة محمد الدينية (٤) في الوحي (٥) الخصومة مع القرشيين (٦) حاكم المدينة (٧) شخصية محمد

وللكتاب ميزات كثيرة منها :—

(١) شدة الاحتياط في قبول النتائج المبنية على الابحاث اللغوية (ص ٢٠ و ٣٤) وهي

ميزة يُقدّرها كل من له المام باساليب قدماء المستشرقين (٢) اعتبار القرآن المصدرَ الرئيسي للسيرة النبوية ويظهر ذلك في كل فصول الكتاب (٣) ان الكاتب يعتبر الاسلام « قوة روحية وبَذْرَةً حية لا مجموعة تعاليم ونظام من الشعائر الدينية فحسب » (ص ٨) وان تلك القوة الروحية هي ايمان محمد الشخصي (ص ٨) فهو لايخوض في مسألة « الابتكار » وحظ الاسلام منه الخ والفضل في ذلك لعلم مقابلة الاديان

في الفصل الثالث تظهر مقدرة الاستاذ كلاهوتي عصري ومستشرق ممتاز خصوصاً عند بحثه في مسألة القضاء والقدر واثباته انها — كعقيدة دينية — ليست بضعف وعبودية بل قوة وحرية . والفصل الرابع والسابع يعدان آية في دقة البحث وتحري الانصاف والبراعة في تطبيق نظريات علم النفس الحديث ط . خميري

بجامعة همبورج — المانيا

رسالة تاريخية

عن مستشفى الاسكندرية الاميري — وضعها الدكتور عبد الرحمن عمر مديره سابقاً
طبعت بمطبعة التعاون بمصر

« تاقت نفسي بعد ان اسندت اليَّ ادارة مستشفى الاسكندرية الاميري الى ان اعرف شيئاً من تاريخه وحفزني لذلك ما وجدت في انحائهِ من مظاهر اثرية قديمة كاعمدة كاملة وغير كاملة من الجرانيت او الرخام ومن مبانٍ في جوف الارض ، ثم ما وجدت فيهِ من مظاهر حربية تدل على ان المنطقة التي هو فيها كانت على ما يظهر جزءا من منطقة دفاعية ، يدل على ذلك بقايا مدفع وبعض من القذائف الحديدية القمعية الشكل في بعض جهات المستشفى ثم بناؤه فوق هضبة عالية بها ما يشبهُ الطوابي »

بهذا العبارات المشوّقة صدَّر الدكتور عبدالرحمن عمر بك هذه الرسالة التاريخية النفيسة . ولا ريب في ان التصدي لهذا البحث التاريخي عمل شاق لطبيب يمارس صناعتهُ ويتولى ادارة مستشفى وفي كفهِ ارواح معلقة في الميزان بين الحياة والموت . ولكن المؤلف اجاد البحث التاريخي اجادتهُ للعمل الانساني الذي توفر عليهِ وانقطع لهُ

ويؤخذ من بحثهِ ان المستشفى أسس سنة ١٢٤٦ هـ — ١٨٣٠ م واغلب ظنهِ ان اللوحة التي دوّن عليها هذا التاريخ منقولة عن لوحة سابقة فقدت . ولجأ الى دار المحفوظات المصرية بالقلعة فعثر على وثيقة تشتمل على الامر الصادر من محمد علي الى بلال اغا في مارس سنة ١٨٢٧ م ببناء المستشفى . ثم جشّم المؤلف نفسهُ مؤونة البحث عن حيّ « بين السواقي باسكندرية القديمة » المذكور في الوثيقة المشار اليها فلجأ الى قسم المساحة المحلي بالاسكندرية وبحث مع رجالهِ في الخرائط ، ثم الى المعمرين من الرجال فاخبرهُ احدهم وقد كان مكارياً في سنة ١٨٨٢ وعمرهُ الآن

تسعون سنة ، « ان المستشفى الاميري كان مبنيًّا بجوار جامع المنير في منطقة بين السواقي بالقرب من جامع الناضوري وكان يعرف بمستشفى المحمودية» . ثم حقق ذلك مع مدير مصلحة المساحة فراجعا خريطة الفلكي الموضوعة سنة ١٨٦٦ فعثرا فيها على شارع باب الاسبتالية بجوار جامع المنير — الذي ذكرهُ المكاري — ووجدا بناءً مربعاً لم يشكّا في انهُ بناء المستشفى وهو مشغول الآن بمدرسة الفرنسيسكان والدير المتصل بها

على هذا النمط من التحقيق اتى المؤلف الفاضل على ذكر تقدم المستشفى في خلال مائة سنة من الخدمة العامة. وذكر مديريهِ ونشر التقارير التي وضعوها وما اشتملت عليهِ من البيانات الوافية عن المرضى الذين عولجوا فيهِ وامراضهم وعملياتهم

علم الطبيعة

الجزء الثالث في الضوء — تأليف محمد هاشم النصيح — استاذ علمي الطبيعة والكيمياء في مدرستي التجهيز ودار المعلمين بدمشق

كتاب مدرسيٌّ حافل بتفصيل شؤون الضوء بالتجارب والحسابات الرياضية . فهو لا يصلح للقارىء العام الذي يريد ان يلمَّ بخواص هذه الظاهرة العجيبة — الضوء — وبالآراء في طبيعتها من نيوتن الى پلانك وكمطن وبما لها من صلة بفلسفة الكون الطبيعية والمذاهب الحديثة كنظريتي النسبية و « الكم » او « المقدار » Quantum

والظاهر ان المؤلف عني فقط بتفصيل احكام الضوء المشهورة كالانعكاس والانكسار ، وصنع المرايا وتكوّن الاشباح عليها وبناء المجاهر (المكرسكوبات) والنظارات الفلكية (التلسكوبات) ولكن لم يوجه التفاته الى التطور الحديث في نظر العلم الى الضوء . فليس ثمة كلام في فصول الكتاب يتناول تشتت الضوء او تفرقهُ (scattering) ولا الحل الطيفي (spectrum analysis) واستعمال ما يشهد في الطيف من حيود الخطوط المظلمة لمعرفة عناصر النجوم او اتجاهها وسرعتهِ ، ولا النظرية الحديثة في ان النور ليست دقائق فقط كالدقائق التي قال بها نيوتن ولا امواجاً كالامواج التي ذهب اليها هوجينس وغيره ، بل هو ينطلق في مقادير دقيقة Quanta تسير سيراً موجيًّا . ثم اننا لم نجد فيهِ ذكراً للطريقة التي قيست بها سرعة الضوء وعلاقة ذلك بعملية ميكلصن مورلي التي بنيت على نتائجها نظرية النسبية . وكلُّ هذه مباحث لا يمكن ان يكون كتاب حديث في الضوء كاملاً من دونها

ثم ان المؤلف استعمل الفاظاً كنا نفضل انهُ يجاري فيها الشائع بين كتاب العلم . فقد استعمل الابتلاع absorption بدلاً من الامتصاص وشبه الظل بدلاً من الظليل والطولاني والعرضاني بدلاً من الطولي والعرضي ونوتون بدلاً من نيوتن وهو نطق اسمهُ كما يتلفظ بهِ اهل بلادهِ والجسم الزجاجي في العين بدلاً من الرطوبة الزجاجية والخلط (ولهُ وجه) المائي بدلاً من الرطوبة المائية وغاليله بدلاً من غاليليو

في الصيف

عند ما رأيت الغلاف المتواضع الذي اصطنعه الدكتور طه حسين لكتابه « في الصيف » لم اقدر لهذا الكتاب خطراً اكبر من انه احد المباذل التي قد يتفضل بها المشهورون من الكتاب ولا يتحرجون الظهور بها على الناس اعتماداً على ما لهم من شهرة واسعة وصوت بعيد . وعلى هذا التقدير وان شئت قل على هذا الظن كبتُّ الشهوة الحادة التي كانت تحفزني للاطلاع عليه

وكانت احدى زياراتي للاستاذ محرر المقتطف فنظرت فاذا بي اجد هذا الكتاب على مكتبه ولست ادري كيف تناولته ولا كيف فتحته ولا في اي صفحاته نظرت وقتئذ واذكر اني فعلت هذا كله في رغبة وشوق ولذة لا اعرف لها مأتى

لا احب ان اقول اني لمحت في هذا الكتاب قوة سحرية جبارة لان القدر الذي قرأته حينئذٍ كان يسيراً لا يسوّغ لي هذا الحكم . ولكن الى اية جاذبية خارجية اعزو هذه الجرأة التي اخرجتني على عادتي فطلبت بنفسي من الاستاذ محرر المقتطف ان يسمح لي بقراءة هذا الكتاب ثم بالكتابة عنه اذا سمحت الظروف ؟ آه لقد اهتديت

سمعت او قرأت لا اذكر تماماً ان لكل انسان ملكاً يرد غيبته ويظهر ان الملك الموكل بردّ غيبة الدكتور خبيث جداً او انهُ يقظ الاحساس جداً فهو لم يرضه من انسان كائناً من كان ان يحتقر اي شيء لصاحبه ولو كان غلاف كتاب

فلم يكن من الخبيث الا ان احتال حتى وضع الكتاب في يدي والاّ ان زيَّن لي قراءة صفحة من وسطه خيل اليَّ فيها كل ما يتخيله المسحور واذا بي ارتدُّ بكل تواضع الى قراءة هذا الكتاب من اوله واذا بي أكاد اقف عند كل جملة مستحسناً او موبخاً نفسي على التقدير الظالم الذي اسلفته لهذا الكتاب اول يوم وقعت عيني عليه

الحق ان كتاب « في الصيف » لا عيب فيه الا تواضع مظهره فقد كان جديراً بمثله ان يظهر في ورق أغلى مما ظهر به وان يقمش في جلدة ارستقراطية لائقة بمثله ولكن هذا شيء مستدرك ولعلنا نراهُ في طبعته الثانية المرجوة قريباً ان شاء الله . اما اسلوبه واتجاهاته الفنية فناهيك باسلوب فني يقول الاستاذ العقاد في نقده انهُ يشبه او يقارن بالرسائل القرآنية . اما انا فقد ارى ولكن بكل تواضع انهُ اقرب شبهاً الى اسلوب اناتول فرانس في رواية جريمة «سلفستر بونار» وسواء اصح رأي العقاد ام صح الرأي الثاني ام صح الرأيان واكبر الظن انهما الاثنان صحيحان فان اللغة العربية جديرة ان تهنأ بهذا النوع من الادب الحي وان الدكتور طه جدير ان يباهي بأسلوبه الذي يلتقي فيه جمال اسلوبي شاعر الالمان وكاتب فرنسا العظيم . وبعد ذلك فهو باقٍ خالد بطابعه المستقل المعروف بانهُ اسلوب طه حسين

***

تاريخ مصر السياسي الحديث

تأليف محمد رفعت — جزآن — الثمن ١٥ غرش — المطبعة الرحمانية

عند ما عهد صاحب الجلالة الملك فؤاد الى المؤرخ الكبير «غبريال هانوتو» بوضع تاريخ مصر سأل المؤرخون المصريون هل المؤرخون الغربيون واقفون الوقوف الوافي على دخائل قضايا الشرق ودقائقها ، واذا كانوا مطلعين أيعدلون في الحكم على شعوبه وينصفون التاريخ ، وبعضهم في احكامهم يأخذ باعتبارات يفتعلها تأييداً « لغرض لم يبق على احد خفيًّا »

على انه مهما يكن من شيء فان في مؤرخي الغرب أمناء لا يدمجون العلم بالسياسة . وعلى كل فان مؤرخي الغرب ابرع في نبش مكنونات التاريخ وتصفح مطويات الوثائق لوفرتها في خزائن الحكومات الاوروبية في حين ان خزائن الحكومات الشرقية خالية من معظمها وهو اهمال يعود الى اسباب جمة منها فوضى الادارة في الحكومات الشرقية على عهد الفتوحات . ومنها عدم اصدار كتب رسمية في الحوادث الكبيرة على ما جرت بهِ العادة عند الغربيين . يدلك على وجاهة هذا القول ان المصادر التي استقى منها المؤلف تكاد تكون كلها اجنبية (فرنسية وانجليزية) وقلما اعتمد على مرجع مصري او عربي محض . ومن دواعي اغتباطنا ان بعض كتّاب مصر تنبه الى لزوم العناية بتدوين تاريخ بلاده ولا يضيرهم ان يعمد بعضهم الى الترجمة والنقل فالتاريخ واحد لا يتجزأ الا من حيث تفهم الكاتب له ووجهة نظره فيه

وقد رأى حضرة الاستاذ محمد رفعت ان يدلي دلوه في الدلاء فيعرض عن الملإِ تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة فكان موفقاً في الواسطة وفي الغاية توفيقاً يعود الى تنزهه عن الهوى والى تأثره بالحقائق دون العواطف واخيراً الى كونه — على ما يبدو لي — غير متلون بلون سياسي — الوطنية شيء والسياسة شيء آخر — يستهويه عن الحق الى الباطل وعن الامانة الى التغرض . يأخذ العلماء على المؤرخين العرب في قديم الزمان خلو مؤلفاتهم من الطريقة العلمية اما الاستاذ محمد رفعت فقد جمع الى الطريقة العلمية الاسلوب التدريسي — وكتابه وضع للتدريس — فجاء خالياً من المطولات والتفاصيل ولكنهُ يحتوي اسماء المصادر التي استقى منها الكاتب للرجوع اليها عند الحاجة

يشرح المؤلف في الفصل الاول من كتابه الحالة السياسية والاقتصادية والصناعية في مصر قبل الحملة الفرنسية ثم يصف هذه الحملة واسبابها ونتائجها ثم نهضة محمد علي واصلاحاته الداخلية ثم يعرض للمسألة الشرقية التي ما زال المؤرخون مختلفين فيها لانهم مختلفون في تفسير الشرق وحدوده

ثم ينتقل الى تحليل اتفاق الدول ضد محمد علي والى التحدث عن الازمة السياسية في سنة ١٨٤٠ اذ نشبت الثورة في الشام واذ اتفق الجميع على ضرب محمد علي ضربة مؤلمة واذ دخلت المسألة المصرية في دورها الحافل بالحوادث العنيفة. وفي هذا الدور وصلت الدول

بعد بحث وتبادل آراء دام سنة الى انهُ يجب الاستعداد لخوض غمار الحرب لاجل استتباب السلم في انحاء الدولة العلية . وفي الجزء الثاني يصف المؤرخ مصر كما وجدها اسماعيل ومصر التي اوجدها اسماعيل ويتناول قناة السويس وامتداد دولة مصر ومنشأ الديون وتحكم اصحابها مما هو جدير بالمطالعة في هذا الوقت الذي تقف الدول فيه موقفاً صارماً وتقاضي مصر امام المحاكم المختلطة وأخيراً يصل المؤلف الى الثورة العرابية ونتائجها ثم ينتهي الى تدخل انكلترا وحرب الاحتلال

وفي الكتاب ملاحق تاريخية ذات شأن كالملحق المختص بمحمد علي والخلافة وقد نشر المؤلف مضمونه في المقتطف (راجع عدد نوفبر ١٩٢٣) ويذكر المؤلف ان جامعة الامم فكرة اختمرت في عقول ممثلي الدول في سنة ١٨٤٠ ولكنها لم تخرج الى الوجود لخلافات قامت بينهم فاقتضى لتأليفها قيام حرب طاحنة قلبت وجه العالم رأساً على عقب

والذي يلاحظه القارىء ان المؤلف عمد في الانشاء الى اسلوب السهل الممتنع لانه يكتب موضوعاً علميًّا وكتاباً تدريسيًّا على انه لا ركاكة في لغته وان كانت تخلو من البيان الفني . وانك لتلمس في بعض فصول الكتاب تثاقلاً في التعبير فتدرك ان قلمه العربي لم يستظهر على الصيغة الفرنجية التي ترجمها الكاتب وقد تكون منقولة — ولا حرج في ذلك — عن الوثائق الاصلية وكثيراً ما تصاغ فصول هذه الوثائق بعبارات متقلقلة مبهمة وبانشاء مرتجف مترجرج

وخلاصة القول ان المؤلف لم يقتصر على ايراد الحوادث والوقائع بل تخطاها الى ذكر الاسباب والمسببات فاعان ذهن الطالب على تفهم كنه المسائل والنفوذ الى داخلها ومن دونها تبقى دراسة التاريخ فارغة من اللباب والمادة

توفيق وهبه

القلائد الجوهرية

ديوان من الشعر الجزل نظمتهُ السيدة انيسة حصاب في مناقب جلالة الملك فؤاد ورفعتهُ الى السدة الملكية مخطوطاً ابدع خطٍّ ومجلداً انفس تجليد . وقد صنعت من صفحاتهِ المخطوطة كليشيهات طبعت على ورق صقيل ويحيط بكل صفحة اطار مذهب وصدرت بصورة صاحب الجلالة الملك تليها صورة صاحب السمو الامير فاروق فصورة سموه مع صاحبات السمو شقيقاتهِ فصورة سموه مطلاً من عربة القطار الملكي فصورة صاحب الجلالة مع سمو ولي العهد فصورة ساكن الجنان المغفور له الخديوي اسماعيل فصورة المغفور له ابراهيم باشا فصورة محمد علي باشا مؤسس الاسرة المالكة . وقد طبع الكتاب اتقن طبع بمطبعة شندلر بمصر

المحاسن الخطية

او سفر الفن والحكمة : وهي مجموعة نفيسة من صور وخواطر فنية حكمية صوفية مخطوطة خطًّا بديعاً — ثلث ورقعة وفارسي — بقلم الخطاط المعروف محمد مرتضى . فنثني على همة حضرته ونوجه اليها الانظار راجين لمجموعته الفنية الرواج والانتشار عند محبي الفن والحكمة

باب الاخبار العلمية

آثار الرجم في الارض

صرّح الاستاذان ملتن Melton وشريفر Schriever امام مجمع تقدم العلوم الاميركي انهما كشفا في الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة الاميركية منخفضات تدل على انها نشأت من اصطدام بعض الرجم بالارض. ويذكر قراء المقتطف ان في ولاية اريزونا الاميركية غوراً يعرف بغور الشيطان نشأ من سقوط رجمة كبيرة غارت في الارض فأحدثت منخفضاً مستديراً قطره ٣٢٢٠ قدماً وعمقهُ ٥٧٠ قدماً. وقد ظهر بالبحث ان عمقهُ الاصلي قبلما غطت الاتربة السافية قعره كان ١١٥٠ قدماً. اما الجرم السماوي الذي وقع هناك ومزّق ما وقع عليهِ من الطبقات الصخرية وأحدث هذا الغور الواسع العميق فبلغ الارض بسرعة تزيد على سرعة رصاص البنادق خمسين ضعفاً فكسر الصخور الصلبة وسحق المهشة فانتشرت الكسر والسحيق حول الغور في ارض مساحتها ٧٥ ميلاً مربعاً. ولم يكتف بذلك بل زحزح طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة اخرى. والجسم الذي غار في الارض اشد صلابة من الفولاذ فكيف يستخرج وكيف يكسر والقنابل لا تفعل بهِ بل ترتدُّ عنهُ ارتداد الحمص عن الصخر ويقدر قطره بثلاثمائة قدم وثقله بمليون طن

وفي سنة ١٩٢١ اكتشف غور مماثل لغور الشيطان على مقربة من مدينة اورل بولاية تكساس الاميركية. فاذا قطره ٥٠٠ قدم وفيهِ كتلة من الحديد النيزكي. ثم ان طائفة من هذه الاغوار وجدت في جزيرة اوزل Oesel ببحر البلطيق قطر اكبرها ٧٠٠ قدم. وفي سنة ١٩٣١ كشف عالمان من علماء جامعة ادلايد باستراليا في منخفض باستراليا الوسطى يدعى «كأس الشيطان» ١٣ غوراً في منطقة لا تزيد مساحتها على نصف ميل مربَّع تتباين اقطارها من ١٠ اقدام الى ٢٢٠ قدماً ويظن انها نشأت من اصطدام الرجم بالارض، وعلى مقربة منها قطع من الحديد النيزكي منثورة على سطح الارض. وقد عثر المستر فلبي في خلال رحلتهِ الاخيرة في جنوب بلاد العرب على غورين يظن انهما نشأ بفعل الرجم والاحاديث البدوية المتناقلة تقول ان في مكان هذين الغورين كانت مدينة دمّرت بنار من السماء. وفي افغانستان بآسيا وشيلي باميركا الجنوبية اغوار من هذا القبيل

كهرب موجب ؟ !

تلا الدكتور بلاكت Dr. P. S. M. Blackett احد معاوني اللورد رذرفورد رسالة على جماعة من اكبر علماء الانكليز في الجمعية الملكية البريطانية بسط فيها أدلتهُ على وجود كهرب موجب Positive Electron وقد كان العلماء حتى الآن يقولون أنْ ليس ثمة شيء من هذا القبيل . فوقع هذا النبأ على العلماء المجتمعين موقع الاستغراب والدهشة

ويقول اللورد رذرفورد انهُ هذا الاكتشاف من اخطر المكتشفات التي كشفت في هذا القرن الحافل بالعجائب العلمية . والظاهر انهُ كان قد اتفق مع الدكتور بلاكت على انباء الجمعية الملكية بهِ بصفتهِ مديراً لعمل كافندش الطبيعي ، فتعذر عليهِ الحضور ، فاعلن الدكتور بلاكت نتائجهُ بنفسهِ . وختم رسالتهُ بقولهِ ، « اذا قلبت هذه الحقائق الجديدة نظريات العلماء فعلى العلماء ان يحوّلوا انظارهم او ينقحوها . لقد قمنا بما عنينا من البحث عن هذه الدقائق ووجدناها . فعليهم الباقي »

ننقل هذا عن احدى الجرائد الاسبوعية ونحن ننتظر ورود المجلات العلمية لنزيد علماً بهذا الاكتشاف العظيم ، اذا صحَّ بتأييد العلماء لهُ ، وما قد يكون لهُ من اثر في العلم النظري والعملي

سكان العالم بعد ثلاثة قرون

يقدَّر عدد سكان الارض الآن بـ ١٨٢٠٠٠٠٠٠٠ نسمة وذلك بحسب تقدير الدكتور ولتر ولككس استاذ الاقتصاد والاحصاء بجامعة كورنل الاميركية . ونصف سكان الارض يقطنون آسيا ففيها نحو ٩٥٤٠٠٠٠٠٠ نسمة وتليها اوربا وعدد سكانها ٤٧٨٠٠٠٠٠٠ نسمة مع ان مساحتها ٣٨٠٠٠٠٠ ميل مربع في حين ان مساحة آسيا ١٦٧٠٠٠٠٠ ميل مربع ويلي ذلك اميركا الشمالية فسكانها ١٦٢ مليوناً فافريقيا وسكانها ١٤٠ مليوناً فاميركا الجنوبية وسكانها ٧٧ مليوناً فاستراليا والجزائر حولها وسكانها تسعة ملايين

ويؤخذ من تقدير الدكتور ولككس انهُ يتعذر الحصول على احصاءات يعتمد عليها قبل القرن السابع عشر . لذلك بدأ مباحثهُ من سنة ١٦٥٠ وحينئذٍ كان الكتَّاب مختلفين في تقدير سكان الارض فطائفة قالت انهم يبلغون ٣٢٠ مليون نسمة واخرى انهم يبلغون ١٠٠٠ مليون . اما الدكتور ولككس فيقدّرهم بـ ٤٦٥ مليوناً . فلما كان منتصف القرن الثامن عشر بلغ سكان الكرة الارضية ٦٦٠ مليوناً وفي مستهلّ القرن التاسع عشر ٨٣٦ مليوناً وفي منتصفهِ ١٠٩٨ مليوناً وفي مستهلّ القرن العشرين ١٥٥١ مليوناً . ومن العثرات في سبيل الباحث تقدير سكان الصين . فالدكتور ولككس يقدرهم بنحو ٣٤٢ مليوناً وجمعية الامم (سنة ١٩٢٩) قدرتهم بـ ٤٥٨ مليوناً وبينهما فرق كبير

وقد كان متوسط زيادة السكان قبل مستهلّ القرن العشرين كبيراً جدًّا ، كما يتبين من مقابلة الارقام المتقدمة ثم قلَّ بعدهُ . ويرى هذا الباحث انهُ اذا ظلَّ متوسط الزيادة ما هو عليه الآن بلغ عدد سكان الارض بعد ثلاثة قرون اربعة اضعاف ما هو الآن اي نحو سبعة آلاف مليون نسمة

الزجاج في جسم الانسان

مات رجل في الثلاثين من عمره في احد مستشفيات بروكلن بنيويورك فشرحت جثتهُ بعد وفاتهِ فوجد في صدرهِ شظيتان من الزجاج طول احداها اربع بوصات ونصف بوصة وعرضها بوصة وسماكتها نسف بوصة والاخرى طولها بوصة ونصف بوصة وعرضها بوصة وسماكتها نصف بوصة . ولدى البحث ثبت انهُ لما كان في الثامنة عشرة من عمرهِ حصلت لهُ حادثة قذف في اثنائها من نافذة زجاجية فاخترقت هاتان الشظيتان صدرهُ ولبثتا فيهِ فعاش اثنتي عشرة سنة. وهو من الغرائب

زيت السلمون وزيت كبد الحوت

لما عرف ان زيت كبد الحوت (زيت السمك) مفيد في تغذية الجسم لاحتوائهِ على فيتامين (د) جعل العلماء يبحثون عن زيت سمك آخر يكون اطيب مذاقاً من زيت كبد الحوت. وكان معروفاً ان زيت السلمون Salmon يحتوي على الفيتامين المذكور ولكن فعلهُ في منع الكساح اضعف من فعل زيت كبد الحوت. ولكن جماعة من الباحثين الاميركيين وعلى رأسهم الدكتور تول ... اثبتت انهُ اذا حضر زيت السلمون كما يجب جاء فعالاً كزيت كبد الحوت من ناحية محتوياتهِ الفيتامينية، يضاف الى ذلك انهُ يمكن تحضيرهُ من بقايا صناعة حفظ سمك السلمون (وضعهُ في علب) وانهُ طيب المذاق في افواه الصغار فلا ينفرون منهُ نفورهم من سابقهِ

عين كهربائية لفرز البيض

في البيوتات التجارية الكبيرة التي تتناول تصدير الحاصلات الزراعية يشتغل خبيرون مهمتهم فرز البيض الجيد من البيض الفاسد وهم لطول خبرتهم وصدق فراستهم يستطيعون القيام بعملهم بمجرد النظر الى البيضة او روزها في ايديهم . ولكن احد المستنبطين صنع آلة جديدة آيتها عين كهربائية (او بطرية كهرنورية Photo-electric) تفرز البيض فرزاً اسرع وأدق من فرز الخبراء. ومما يروى عنها ان احد الخبراء كان قد حكم على طائفة من البيض بانها فاسدة فلما مرت في الآلة المذكورة فرزتها على انها جيدة فكسرت وثبت ان الآلة كانت على صواب

عالم يحضر عيده المئوي

من اندر الحوادث في تاريخ العلم ان يحضر عالم عيده المئوي . ولكن اكادمية الطب الفرنسية احتفلت في اواخر السنة الماضية ببلوغ الدكتور الكسندر جانيو Guenio الجراح وطبيب امراض النساء ورئيس الاكادمية السابق سن المائة. جلس الدكتور جانيو يصغي الى الخطب التي اعدت لهذا الاحتفال، والبسمة لا تفارق ثغره ، فلما جاء دورهُ وقف منتصب القامة وتكلم عفو الخاطر . ثم جلس وقرأ رسالة علمية كان قد اعدها ، تخللتها نكات وملح طرب لها الحاضرون . ومن اغرب ما يروى انهُ لما ولد سنة ١٨٣٢ كتب والده الى صديق كتاباً ختمهُ بقولهِ : ان ابني، مثل

كلّ المعاصرين لن يبلغ عتيًّا من العمر . اننا لا نعلم ما يخبئهُ له الزمن في ثناياه ، ولكننا نستطيع ان نقول واثقين بأنهُ لن يعمر حتى المائة

اثر النحاس في شفاء الانيميا

اثبت الدكتور الفهيم Elvehjem والدكتور شرمان Sherman من اساتذة جامعة وسكنصن ان للنحاس اثراً في علاج الانيميا . فمن نحو اربع سنوات اشتركا مع الاستاذ هارت في اثبات انهُ لابدَّ من قدرٍ يسير من النحاس والحديد للاحتفاظ بمقدارٍ سويّ ، من الهيموغلوبين في الدم وهو المادة الحمراء في الدم التي تحتوي على حديد وتمكّنهُ من نقل الاوكسجين من الرئتين الى اعضاء الجسم . حتى الحديد غير العضوي اذا اضيف اليهِ قليل من النحاس يصبح ذا أثر في زيادة الهيموغلوبين

اما كيف يفعل النحاس هذا الفعل فقد كشفا عنه الآن

اذا اخذت طائفة من الجرذان وقد قلّ الهيموغلوبين في دمها واضيف قليل من الحديد الى غذائها خزن الحديد في الكبد والطحال ولم تظهر اية زيادة في مقدار الهيموغلوبين . ولكن اذا اضيف الى الغذاء قليل من النحاس خرج بعض الحديد المخزون في الكبد والطحال وتحوّل الى هيموغلوبين . فاذا أضيف الحديد والنحاس معاً تكوّن الهيموغلوبين اولاً وما يفيض من الحديد يخزن في الكبد . وعليهِ فالنحاس ضروري لتحويل الحديد الى هيموغلوبين ، فالحديد العضوي والحديد غير العضوي يحتاجان الى النحاس في ذلك

اما الانيميا التي تعالج باضافة الحديد والنحاس ليست الانيميا الخبيثة التي تعالج الآن بالكبد النيئة او خلاصتها بل هي انيميا سببها فقد الدم او سوء التغذية . وقد استخرج الاستاذ رخصة بتحضير عقار يشتمل على الحديد والنحاس بالنسبة المطلوبة

عناصر الشمس

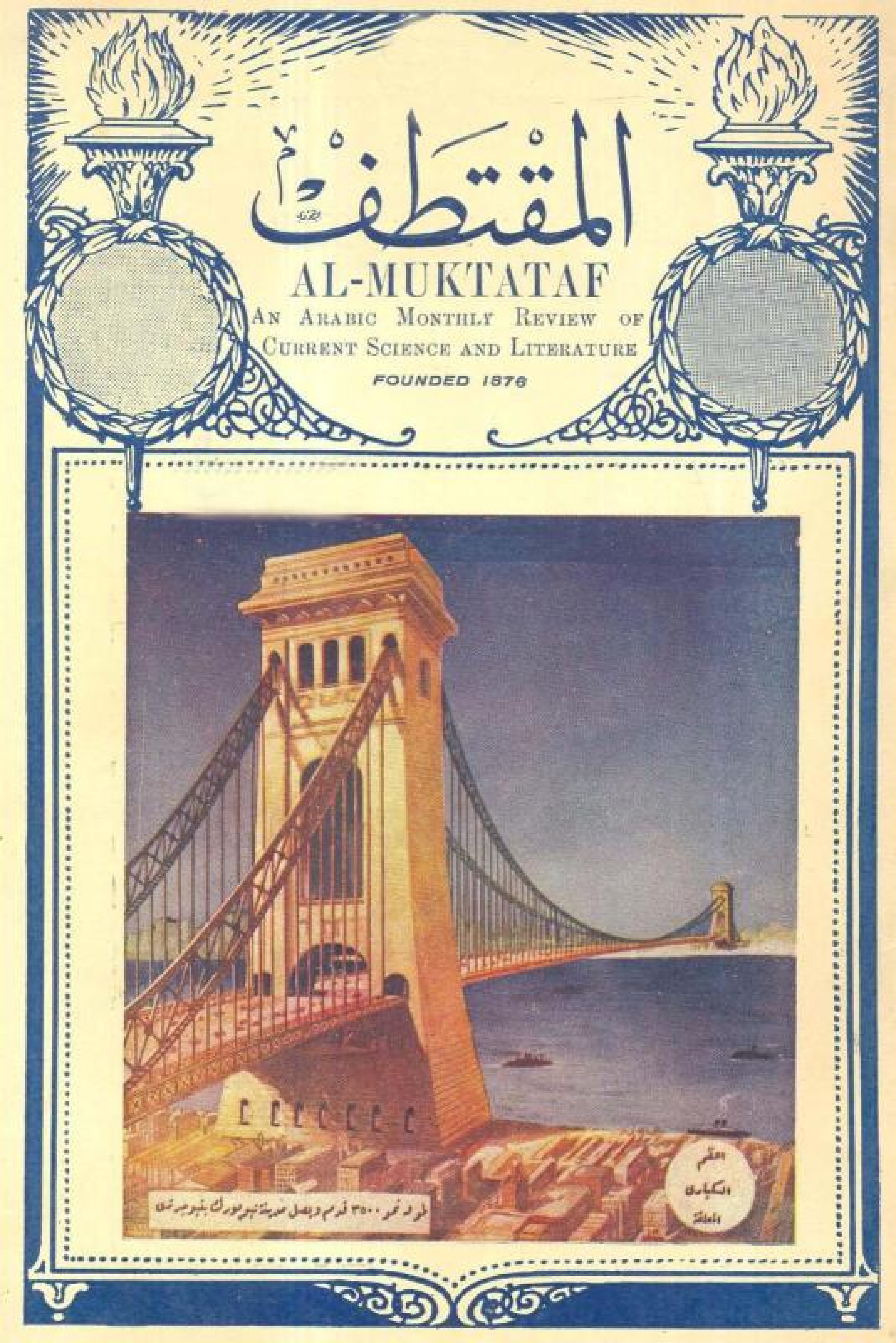
ألقى الاستاذ هنري نورس رسل استاذ الفلك في جامعة برنستن خطبة في المعهد السمثصوني قال فيهِ ان علماء الفلك الطبيعي مدينون كثيراً لآلة الحل الطيفي (السبكترسكوب) ففي منتصف القرن الماضي ابدى الفيلسوف اوغست كونت ريبتهُ الشديدة في امكان الكشف عن العناصر التي تتألف منها الشمس ولكن البحث السبكترسكوبي الحديث اثبت ان ستة من العناصر الارضية وهي الصوديوم والمغنيزيوم والسليكون والبوتاسيوم والكلسيوم والحديد — تكوّن ٩٥ في المائة من الابخرة الفلزية في الشمس وان ستة عناصر اخرى تكوّن تسعة اعشار الباقي . والظاهر ان نسبة الفلزات في الشمس الى كتلتها هو كنسبة الفلزات في الارض الى كتلتها . ومما قالهُ ان في « الفوتوسفير » وهو طبقة الشمس الخارجية او جوّها المتأجج نحو ٥٠٠ مليون طن من البلاتين



احمد صديق بك مدير بلدية الاسكندرية

مقتطف مارس ١٩٣٣ امام صفحة ٣٤٣

الجزء الثالث من المجلد الثاني والثمانين


المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876
طوله نحو ٣٥٠٠ قدم ويصل مدينة نيويورك بنيوجرسي

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الثاني والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٣ ٦ ذي الحجة سنة ١٣٥١

التكنوقراطية والازمة

نقدها للنظام الصناعي والاقتصادي ومقترحاتها

يراد بالديموقراطية حكومة الشعب. وبالارستقراطية حكومة الخاصة. اما التكنوقراطية Technocracy فهي حكومة رجال الفن اذا انسحبت لفظة الفن على الصناعة والهندسة والعلم والاعمال الميكانيكية واساليبها بوجه عام Technology. والظاهر ان اول رجل استعمل لفظة التكنوقراطية كان المستر وليم سمث Smyth احد مهندسي ولاية كاليفورنيا الاميركية. فاطلقها سنة ١٩١٩ على نظام جديد من الحكم والفلسفة التي من وراء هذا النظام. ثم طويت اللفظة. على ان جماعة من المهندسين والاقتصاديين وعلى رأسهم مهندس يدعى هورد سكُت Scott (ومنهم شتينمتز المستنبط الكهربائي وثورستين فبلن الاقتصادي الثائر — وقد توفيا — ومهندسان معماريان من مهندسي نيويورك)، اتصلت بقسم الهندسة الصناعية في جامعة كولومبيا من بضع سنوات فاتفق الفريقان على اجراء بحث عام في احوال الصناعة في قارة اميركا الشمالية، غرضهُ معرفة مقدار الطاقة التي زاد استعمالها في الصناعات المختلفة في خلال مائة سنة واثر ذلك في مقدار الانتاج وعدد العمال العاملين والعاطلين. ومضيا في بحثهما على الطريقة العلمية المعهودة في هذه المباحث، الى ان كان شهر اغسطس من السنة الماضية فتسربت بعض الاقوال عن الحقائق التي قبل ان الفريقين كشفا عنها، الى بعض الصحف فنشرها الكتّاب مهوّلين بها، فاصابت اوتار النفوس الحسّاسة. واذا لفظة التكنوقراطية، بين ليلة وضحاها، كأنما هي موجة من السحر، قد اكتسحت الولايات المتحدة الاميركية من اقصاها الى اقصاها،

واذا الصحف والمجلاّت تبحث عمن يحبّر لها المقالات في هذا الموضوع ، واذا المطابع تخرج الكتاب تلو الكتاب ، في ابجدية التكنوقراطية ومقدماتها ومعانيها ومراميها وغير ذلك . واذا الناس يرون بفعل السحر في دعاوي التكنوقراطيين خروجاً من مآزق المجتمع الحديث القائم على الصناعة وفنونها . وكان لا بدَّ ان يقع الخطأ في بعض ما كتب في الموضوع على عجل ، وخصوصاً ما كتبهُ صحافيون متصلون باصحاب المذهب الجديد ، معتمدين على ما التقطوه من اقوالهم او خيّل اليهم انهم فهموهُ من مبادئهم . فكثر النقاد وتألفت الصفوف للطعن والردّ . ورأى فريق جامعة كولومبيا ان المسألة خرجت من دائرة البحث العلمي الى ميدان النضال السياسي والصحافي ، فاعلن انفصاله عن فريق سكُت وعزمهُ على المضي منفرداً في البحث حتى تمامه

والناس في كل العصور يميلون الى تصديق مُتَنَبِّئة الشؤم . فاذا بدا لهم خطأ او انحراف في اقوالهم انقلبوا عليهم شرَّ منقلَب . وسكت لم يشذَّ عن هذه القاعدة العامة . فالازمة في اميركا آخذة بخناق الناس من كل الطبقات الاجتماعية ، واللوم في نظر التكنوقراطيين واقع على الآلة والصناعة الآلية ، والنظام القائم عليهما لن يدوم في رأيهم عقداً آخر من السنين ، وانهُ ما دام هذا النظام قائماً فلا مندوحة عن زيادة العمال العاطلين ، وانهُ اذا القيت مقاليد الاجتماع الاميركي الى المهندسين والعلماء ، خرجوا بالناس من المأزق وقلبوا نظام الاسعار والعملة والمعاملة ووضعوها على اساس جديد . فتعلق الغرق بحبال الامل . فلما كشف النقاد عن بعض الاخطاء في ما عزي الى التكنوقراطيين ، انقلب الناس على سكُت وتنكّروا لهُ ، حتى تلاميذهُ في كولومبيا اعلنوا انفصالهم عنهُ

على ان التكنوقراطية تجمل لنا لباب المشكلة التي تعانيها الحضارة الغربية الآن . واهمال العناية بهذه المشكلة نهايتهُ الخراب الذي تبدو نذرهُ على الافق . ومن هنا اهتمامنا بتوضيح المبادىء الاساسية التي ينطوي عليها هذا المذهب الحديث

تبدَّت مساوىء الصناعة الحديثة للمفكرين في مطلع هذا القرن . فلم يحيروا معها عملاً او منفذاً للخلاص : لان رجال الصناعة ومن ورائهم رجال المال كانوا اصحاب السيطرة الفعلية في الاجتماع الحديث . فتجاهلها الشعراء . وتسامى عنها الفلاسفة . حتى زعماء الشيوعية ، الذين يؤمنون بالآلة في تخفيف العناء البشري ، لم يجدوا في الصناعة كما تمارس ، مسوغاً ايجابياً واحداً للاحتفاظ بها ، فعمدوا الى التنديد بمساوئها ، وجلُّ بضاعتهم التنبؤ بنهاية الرأسمالية واستبداد المموّلين بالعمال . فلما كان العقد الثالث من هذا القرن اتجهت الصناعة اتجاهاً جديداً ، فبدا للمفكرين الذين يراقبون سيرها ، ان الصناعة سائرة بالاجتماع الى حالة تحلُّ فيها الآلات محلَّ العمال ، وان النتيجة اللازمة التي يفضي اليها هذا السير تحتمل احد امرين : اما حضارة يقلُّ فيها نصيب الناس من العمل ويزيد قسطهم من التمتع ، او اجتماع يعجز فيه ربع

القادرين على العمل عن وجود مرتزق فيعيشون عالة على الحكومة والامة او على احسان المحسنين وتأييد هذه النظرة الاجتماعية بالارقام والاحصاءات هو لباب التكنوقراطية

العمال والآلات

يعرّف التكنوقراطيون «التحول الاجتماعي» بكل تحوُّل يحدث اذا اختلف نصيب الفرد من الطاقة المستعملة في الانتاج والاستهلاك . فهم لذلك يحذفون من تاريخ الانسان السبعة آلاف السنة السابقة للقرن التاسع عشر . فمقدار الطاقة التي كانت تستعمل في العصور القديمة —طاقة عضلات الرجال والحيوانات— لم يصبهُ الاَّ تغير يسير حتى استنبطت الآلة فزادت الطاقة زيادة عظيمة . ففي الولايات المتحدة الآن آلات تولّد ما قدره ألف مليون حصان من الطاقة الميكانيكية كلَّ يوم وهي تفوق الطاقة العضلية التي يولّدها كل سكان الارض خمسة اضعاف

ثم انهم يشيرون الى ان سكان الارض زادوا في المائة والخمسين السنة الاخيرة من ٨٥٠ مليوناً الى ١٨٠٠ مليون في حين ان الطاقة الميكانيكية اللازمة لانتاج ما يحتاجون اليهِ زادت زيادة عظيمة. والآلة التي تولد الطاقة الميكانيكية تحلُّ محلَّ الرجل الذي كان يولّدها باستعمال عضلاتهِ بل هي تحلُّ في كثير من الاحيان محل العامل البارع دع عنك العامل القويَّ

فالحقيقة التي تستخرج من احصاءات التكنوقراطيين وجداولهم ، ان التوسع العظيم في الانتاج يصحبهُ نقص عظيم في استخدام العمال ، وان هذا النقص آخذ في الازدياد ، حتى لقد يبلغ قريباً الصفر ، اذ تصبح الآلات التي تكاد تكون عاقلةً في كفايتها —في مصنع ما— لا تحتاج الاَّ الى بضعة رجال للاشراف على الازرار التي تديرها . وعليهِ فالازمة الحالية ، ليست موجة وتمرُّ ، بل هي ازمة لا مندوحة عن استمرارها في ظلّ النظام الحالي

كان في الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٣٢ نحو من ١٤ مليوناً من العمال العاطلين . والتكنوقراطيون يقولون بان العاطلين سوف يبلغون سنة ١٩٣٤ نحو من ٢٥ مليوناً. وان ما يتفتح امام العاطلين من ابواب العمل في الصناعات المستحدثة لا يكفي ، لان هذه الصناعات نفسها خاضعة لتقدم اساليب الصناعات فيها ، والاتجاه في هذه الاساليب ، هو نحو جعل الآلة « اوتوماتيكية» أي ان تقوم من تلقاء نفسها بما هو مطلوب منها . وان صفوف العمال العاطلين سوف تتضخم اذ تنبذ المعامل آلاتها القديمة وتستبدل بها آلات على احدث طراز

والى القارىء بعض الاحصاءات المفصلة عن صناعات اميركية زاد فيها الانتاج في خلال مدة معينة زيادة كبيرة ، ولكن نقص عدد العمال فيها في خلال المدة نفسها ، لأن الآلة أغنت عن خدماتهم. والمدة هي سنة ١٩٢٣—١٩٢٧

الصناعة	زيادة الانتاج او نقصه	نقص العمال او زيادتهم
النفط (البترول)	٨٤ في المائة زيادة	٥ في المائة نقصاً
التبغ	٥٣ « «	١٣ « «
صناعة اللحوم وحفظها	٢٠ « «	١٩ « «
السكك الحديدية	٣٠ « «	١ « «
البناء (ولاية اوهايو)	١١ « «	١٥ « «
السيارات	٦٩ « «	٤٨ « زيادة
الكهربائية	٧٠ « «	٥٢ « «
الورق	لا زيادة ولا نقص	٧ « نقصاً
الاحذية	٧ في المائة نقصاً	١٢ « «
مغازل القطن	٣ « زيادة	١٣ « «
الفحم	٤ « «	١٥ « «
الاحتطاب	٦ « «	٢١ « «

العمال والمستنبطات

ولكي يؤيد التكنوقراطيون دعواهم بان المستنبطات الحديثة تحلُّ محلَّ القديمة في المعامل والمصانع ، وان الصناعة بوجهٍ عام، تميل الى الاخذ بالآلة الاوتوماتيكية يشيرون الى احصاءات مصلحة تسجيل المخترعات الاميركية . ففي المدة الواقعة بين سنة ١٨٥١ — ١٨٥٥ منحت هذه المصلحة ٦٠٠٠ امتياز . اما في المدة الواقعة بين سنة ١٩٢٦ — ١٩٣٠ فمنحت ٢١٩ الف امتياز . واذا اخذنا بالاساليب الزراعية السائدة في الولايات المتحدة سنة ١٨٣٠ تبين لنا ان محصول الحنطة الاميركية في سنة ١٩٢٩ كان يقتضي عمل ٦٠٠٠٠٠٠ عامل. اما اليوم فأربعة آلاف عامل فقط يكفون لذلك اذا استعملت المحاريث والحصادات وغيرها من الآلات الحديثة. وقد بلغ من عناية اصحاب المصانع باستخدام الآلات المغنية عن العمال، لتخفيض نفقات الانتاج، مبلغاً عظيماً حتى اذا عادت كل المعامل الاميركية الى العمل لما تمكنت من استخدام اكثر من سبعة ملايين عامل —وهو نصف عدد العاطلين في اميركا الآن— لتنتج ما انتجتهُ سنة ١٩٢٩

وقد احصى التكنوقراطيون هذا الاتجاه في صناعات مختلفة نكتفي بذكر بعضها للتمثيل دون الحصر. ففي سنة ١٨٩٢ كان في البلاد الاميركية ٩٠٠٠ مطحنة دقيق اخرجت ٤٧١ مليون جريب[1] (بشل) وعدد عمالها كانوا ٣٢ الفاً. اما في سنة ١٩٢٩ فكان عدد المطاحن ٢٩٠٠ اخرجت ٥٤٦ مليون جريب في حين ان عدد العمال لم يزد على ٢٦٤٠٠ عامل . وفي سنة ١٩٠٠ كان

(١) مكيال من مكاييل العرب وضعناه لكلمة بشل Bushel

يقتضي اخراج طن من الصلب عمل سبعين عاملاً اما في سنة ١٩٢٩ فكان اخراج الطن لايقتضي الاّ عمل ١٣ عاملاً . وفي صناعة السيارات كان صنع سيارة واحدة سنة ١٩١٩ يقتضي ٥١٣ ساعة من عمل العمّال اما في سنة ١٩٢٩ فكان صنع السيّارة لايقتضي اكثر من ٩٢ ساعة من عمل العمّال والباقي احيل على الآلات

ثم ان التكنوقراطيين يشيرون الى انهُ في امكان اصحاب الصناعات ، ان يبنوا مصانع منها مايصنع ١٠٠٠٠ جسم من اجسام السيّارات ولا يستخدم في صنعها الاّ ٢٠٨ من العمال وان واحداً من هؤلاء العمال فقط يستطيع ان يشحن اجسام السيّارات كلها على مركبات النقل . ومنها مصنع كامل للحرير الصناعي لا يحتاج الى اي عامل . وانهُ اذا اشتغل رجلٌ الآن مستعيناً بكل الوسائل والمستنبطات الميكانيكية الحديثة اخرج من المصابيح الكهربائية في ساعة من العمل ماكان يقتضي سنة ١٩١٤ نحو ٥٥٠ ساعة عمل ، ومن الصلب ما كان يقتضي ٦٥٠ ساعة عمل في انكلترا سنة ١٨٨٥ . ثم ان معامل لفائف التبغ (السجاير) تمكن العامل الواحد ان يصنع الآن ٣٠٠٠ سيجارة في الدقيقة مع انهُ كان لايستطيع من سنة واحدة ان يصنع في الدقيقة اكثر من ٦٠٠ سيجارة . وكلٌ ما تحتاج اليهِ اميركا من الطوب يمكن ان يصنعه مائة رجل يشتغلون شغلاً متواصلاً مستعينين بالآلات . وفي بعض مصانع الصوف يوضع الصوف الخام في ناحية من آلة ويخرج من الناحية الاخرى كُبَباً من غزل الصوف الملوّن والملفوف المعدّ للبيع في السوق . واحدث الآلات المستعملة في رصف الطرق تستطيع بادارة رجلين فقط ان تقتلع سطح طريق قديمة وترصف طريقاً جديدة طولها ٨ اميال وعرضها ٦٠ قدماً في يومٍ واحد . وليس ثمة نهاية لما يعدّدونهُ من هذا القبيل

ثم ان هنالك ما هو ادهى مما تقدّم . ففي امكان صناع شَفَرات المواسي ان يصنعوا شفرات نفقة صنعها ٢٠ في المائة اكثر من نفقة شفرات جيليت ولكنها تكفي مستعملها مدى حياتهِ من دون ان يضطرّ الى سنّها . وفي الامكان صنع سيّارات تدوم ٦٥ سنة وتقطع ٣٠٠ الف ميل من دون ان تحتاج الى ترميم . ثم ان هنالك نباتاً جديداً يدعى « remie » لهُ فتلة كفتلة الكتان او من قبيلها ينتج الفدان منهُ في ثلاث غلالٍ سنوية ١٥٠٠ رطل انكليزي وطول فتلتهِ ٢٢ بوصة ، يمكن ان يقطع ويحزم بآلة ، فاذا نسج كان امتن من الصوف سبعة اضعاف وهو ارخص وامتن من رُبّ النبات لصنع الورق ولهُ لمعة كلمعة الحرير او الكتان . فاين تذهب مصانع النسج اذا استعمل هذا النبات ؟ ثم ان مصانع الاحذية اذا استبدلت بآلاتها القديمة آلات جديدة تمكنت من ان تصنع في ثمانية اشهر احذية تكفي سكان اميركا مدة عشر سنين

علل النظام الصناعي

على هذه الاحصاءات بنى التكنوقراطيون ثلاثة مبادىء هي اركان مذهبهم :—(اولاً) ان

الثروة نتيجة للطاقة انسانيةً كانت او ميكانيكية . فالثروة يجب ان تقاس بوحدات الطاقة لا بالجنيه والريال . (ثانياً) ان نصيب الانسان في انتاج البضائع أخذ في عصر الآلة هذا ، ينقص نقصاً سريعاً بزيادة الآلات التي تستغني عن العمال ، ونقص نصيب العمال في الانتاج انقص نصيبهم في استهلاك منتجات الصناعة . (ثالثاً) ان نظام الاسعار السائد الآن ، قد جعل عبء الديون العمومية عبئاً فادحاً يكاد يقصم ظهر المجتمع الحديث ويعيق الصناعة عن بلوغ مداها الطبيعي ويمنع جمهور الناس من استهلاك ما كانوا يستهلكونهُ عادة لو الغيت الديون وبدِّلت الثروة العادية ووحدتها الجنيه والريال وغيرها بثروة اساسها وحدات الطاقة

قدمنا بنا ما يكفي لتأييد المبدإ الاول . فالانسان في فجر حياتهِ الاجتماعية كان يعتمد على قوة عضلاتهِ في القيام بما يشاؤه من العمل ، ثم استنبط العجلة والعتلة والشراع ودولاب الهواء . ولكن ذلك كلهُ لم يزد قوتهُ العضلية شيئاً أزاء الزيادة التي اصابها بعد ما استنبطت الآلة البخارية وما تلاها من المحركات الكهربائية وآلة الاحتراق الداخلي . فصانع الاحذية في رومية القديمة كان يقضي ما متوسطهُ خمسة ايام ونصف يوم في صنع حذاء . ولكن صانع الاحذية في المصنع الحديث يصنع — بمساعدة الآلات — ما متوسطهُ ٦٧٠٨ الحذاء في المدة نفسها . وكان الطحّان في رومية واثينا يصنع جوالاً الى جوال ونصف من الدقيق في اليوم بطحن الحنطة بحجري رحىً . اما الطحّان في مطحنة حديثة في مدينة منيابوليس او بفلو فيخرج — بمساعدة الآلات — ما متوسطهُ ٣٠ الف جوال في اليوم من دقيق يفضل الدقيق الرومانيّ او الاثيني في جودة طحنهِ .. الخ

وعليهِ فالطاقة التي تولدها الآلات وتستعمل في انتاج البضائع هي العامل المسيطر على حياة العالم الاقتصادية . اما طاقة الانسان في هذه الحياة فآخذة في النقص السريع

والتقدم في استعمال الطاقة قد هدم النظامَ القائم على قياس الثروة بالعملة المبنية على الذهب او الفضة او الاعتمادات المالية ، فلا امل في ترميمه . ذلك ان هذا النظام يجعل نصيب العامل من الاستهلاك متوقفاً على العمل الذي يؤديه . في حين ان نظام الصناعة نفسهُ اصبح لا يحتاج الى عملهِ . ومعظم العمل الذي يعمل في انتاج البضائع تقوم به آلات صُمٌّ بطاقة مولدة من الفحم او الماء او غير ذلك من مصادر الطاقة . واجرة هذا العمل يستولي عليها اصحاب المصانع ومديروها ويحرم منها العامل لانَّ المصنع الحديث اصبح في غنىً عن طاقتهِ

ولكن اصحاب المصانع ومديريها اقلية يسيرة في كل البلدان ، تتجمع في ايديهم ، في ظل نظام الاسعار القائم ، مقدرة عظيمة على الاستهلاك ولكنهم لا يستعملونها ، في حين ان الجماهير التي تستطيع ان تستهلك لا تملك وسائل الاستهلاك وهي العملة . وبدلاً من ان يستعمل اصحاب المصانع ومديروها اموالهم في الاستهلاك يعيدون تثميرها في بناء مصانع جديدة ، وكذلك تزيد مقدرتهم على الاستهلاك من دون ان يكون لهم سبيل الى انفاقها . والنتيجة الحتمية

هذا النظام اتساع المصانع وكثرتها وزيادة ماتنتجهُ على ما يمكن ان يستهلك . ومن هنا تنشأ الأزمات الطاحنة التي تدور كحجر الرحى من كثرة في الانتاج او قلة في الاستهلاك الى هبوط في الاسعار الى عطل عن العمل الى ركود في النشاط الاقتصادي الى تراكم في الديون الى انهيار ودمار

﴿علاج التكنوقراطيين﴾ اما وقد مني « نظام الاسعار » القائم ، بالخيبة ، فيرى التكنوقراطيون ان تحلّ « وحدة العمل » في قياس الثروة محل «وحدة العملة» — الجنيه او الدولار او الفرنك — . فيقدَّر عمل الانسان في يومٍ طولهُ ثماني ساعات بمليون وخمسمائة الف « رطل قدم »[1] مثلاً . وكذلك تقاس كلُّ ثروة بمقياس واحد . وهذا المقياس لا يتقلب كما تتقلب اسعار العملة . ويرون لتطبيق هذا الاقتراح ان تلقى مقاليد الامور لرجال الفن — لا للعمال على ما هي الحال في روسيا — فيوزعون هذه الثروة على السكان توزيعاً متساوياً . فكل بالغ سليم الجسم عمره بين ٢٥ و ٤٥ سنة يرتبط مع الحكومة بعقدٍ على ان يتمَّ عملاً معيناً مشتغلاً ٤ ساعات في اليوم او ٦٦٠ ساعة في السنة . ويمنح لقاء ذلك الحق بتناول البضائع او الاشياء التي يريدها او يحتاج اليها — وكل منها مسعَّر بوحدات الطاقة — ويدفع ثمنها من نصيبهِ في وحدات الطاقة التي يأخذها لقاء العمل الذي يعمله . ثم انهم يقترحون للموازنة بين الانتاج والاستهلاك ان يمنح كل انسان قدراً متساوياً من «عملة الطاقة» من غير نظر الى العمل الذي يعمله فيشتري حذاءً لهُ بمائة «وط»[2] مثلاً ، وثوباً لزوجتهِ « بألف وط » وهلمَّ جرّا . ويقدرون ان دخل الفرد بحسب هذا النظام يعدل ما كانت قيمتهُ ٢٠ الف ريال في سنة ١٩٢٩ وعليهِ فمستوى المعيشة الذي ينشأ في ظل هذا النظام يمكن الاحتفاظ بهِ مدى ثلاثة آلاف سنة ، تقلُّ في خلالها ساعات العمل رويداً بتقدم الاساليب الصناعية ، من دون ان يقلَّ الدخل ، وتتسع ساعات الفراغ للتمتع بمطالب الحياة العليا من ثقافة وفن وعلم ونزهة ورياضة وغيرها . ولا يسمح لاحد بالتوفير او تثمير المال الموفر ، لان الثروة بحسب هذا النظام قائمة في الاستهلاك لا في المِلْك

نقد التكنوقراطية

يقوم نقد التكنوقراطية على ثلاثة اركان . اما الاول فنقد الاحصاءات التي بنيت عليها مبادئهم . وقد ثبت الآن ان بعض ما عزي اليهم من هذه الاحصاءات فيهِ خطأ يسير او كبير . وان طائفة كبيرة من آرائهم ظهرت قبلاً في كتاب «فبلن» (المهندسون ونظام الاسعار) وكتاب صُدي (الثروة والثروة الحقيقية والدَّيْن) . فقد قيل اولاً ان ما ينتجهُ الرجل الواحد من الصلب في سنة ١٩٢٩ يفوق ٣و٩ ما كان ينتجهُ العامل سنة ١٧٨٧ وصحة ذلك ان هذه النسبة تبين ما كان ينتجهُ العامل في ساعة واحدة من العمل — لا ما ينتجهُ الرجل الواحد — في

(١) وحدة عمل (٢) وحدة طاقة

السنتين المذكورتين . وقيل ان العامل في صناعة الحديد الزهر ينتج الآن في ساعة ما كان يستغرق ٦٥٠ ساعة من خمسين سنة وصحته ان النسبة ٤٧ : ١ وقيل ان صانع المصابيح الآن يصنع ٩٠٠٠ مصباح الآن ازاء كل مصباح كان يصنع سنة ١٩١٤ والصواب ان النسبة ٥٥٠ : ١

اما الثاني فنقد النتائج التي خلصوا اليها من هذه الاحصاءات . فهم يقولون ان ملايين من العمال قد اصبحوا عاطلين لان التقدم الصناعي والآلي جعل المصانع في غنية عن طائفة كبيرة من العمال . ولكن الدكتور وستر (Wooster) استاذ الاقتصاد في كلية اوبرلين الاميركية نشر احصاءات رسمية للعمال العاملين في سنة ١٩٢٠ و ١٩٣٠ فاذا مجموعهم في الاولى ٤١٫٦١٤٢٤٨ واذا مجموعهم في الثانية ٤٨٫٨٢٩٫٩٢٠ فكأن العمال العاملين قد زادوا في سنة ١٩٣٠ عن ١٩٢٠ رغماً عن تقدم الصناعة وارتقاء اساليبها . وانما جلُّ ما حدث ان توزيعهم على الصناعات المختلفة في ١٩٣٠ غير ما كان عليه سنة ١٩٢٠ فهم اقلُّ الآن ، في الزراعة والتحريج والتعدين وصيد السمك واكثر في الصناعات الباقية

واما الثالث فنقد فهمهم للمبادىء الاقتصادية الاساسية . فهم يقولون ان الديون العامة الخاصة تثقل كاهل الصناعة وتعيق عن الانتاج وتغلُّ يد المستهلك الصغير . ولكن نظام الانتاج يقتضي نظام الدين . فاذا صنع المنتج بضاعتهُ قبل شرائها حتى تكون جاهزة لدى طلبها كان المستهلك مديناً لهُ حتى يشتريها منهُ . واذا دفع المستهلك ثمن البضاعة قبل صنعها كان المنتج مديناً للمستهلك حتى يعدَّ لهُ ماطلب . وقد يدخل اصحاب البنوك بين الفريقين لحمل دين هذا أو دين ذاك بفائدة يسيرة او كبيرة، ولكن الدين لا بدَّ منهُ سواء كان بالريالات الذهبية او بوحدات الطاقة والعمل . اما تسديد الديون فلا يتمُّ في الغالب بدفع النقود بل بتبادل البضاعة والخدمات ، وشطب القيَم المقابلة في الدفاتر . وما نشهدهُ من الخلل الآن في تسديد الديون يعود الى اسباب نفسية في الغالب ، نشأت عنها الحواجز الجمركية فسدَّت مساري التجارة الطبيعية

ويلخص نقد التكنوقراطية في قول الاستاذ وستر : — « ان حقائقها غير تامة في مواطن كثيرة ، ومبالغ فيها في مواطن اخرى وموسومة كلها بسمة الشك في صحتها . ومنطقها فاسد . واصحابها يتشوفون الى عالم اصلح من عالمنا ، هازئين بالاشتراكيين الذي نقلوا عنهم معظم افكارهم وهم لا يعلمون » . وفي قول المستر سترونسكي في جريدة التيمس النيويوركية : — « ان الرجال الذين اجروا البحث في استعمال الطاقة في الولايات المتحدة الاميركية ، مهندسون بارعون اذا نظرنا اليهم يقومون باعمالهم التي توفروا على درسها . ولكنهم في اذاعة آرائهم الاجتماعية خرجوا من صفوف العلماء ورجال الفنّ ، فاصبحوا ، مثلنا اذ نضع غرضاً معيناً نصب عيوننا ، سياسيين ومروّجين » . وغني عن البيان ان الحكم على مصير التكنوقراطية متعذر الآن . ولكننا لا نرتاب قط في ان رجالها نبهوا في النفوس ، وجوب العناية بالاخطار العظيمة التي تستهدف لها الحضارة الصناعية

فؤاد صرّوف



القس العالم

بريستلي مكتشف الاكسجين
انقضاء مائتا سنة على ولادته



شفاء الاحرار

في اوربا في العقد الاخير من القرن الثامن عشر ثورة مجتاحة تثلّ العروش وتقلب الاوضاع الاجتماعية. وفي عقول الباحثين سورة تدفعهم للبحث والاستكشاف . فهم في معاملهم مكبّون على ادواتهم القاصرة في سبيل الكشف عن اسرار الطبيعة . ولكن العقول الذكية يحفزها الشوق الى الحقيقة ، لا تحفل بالادوات . وأصحابها يلاقون ويلات السياسة وشدائد الاضطهاد بثغور باسمة وقلوب مطمئنة

لقد قرب موعد الاحتفال باكتساح الفرنسيين لمعقل الباستيل . وفي مدينة برمنغهام الانكليزية حفنة من احرار المفكرين يعدّون المعدّات للاحتفال بعيد الحرية العظيم . فيجتمعون في هدوء ودعة ومن دون طبول او مشاعيل ، في دار معينة من دور المدينة . بين هؤلاء الاحرار ، قسٌّ يدعى جون بريستلي ، انضمَّ الى اخوانه ليحيي معهم ذكرى يوم خلّده التاريخ علماً على تحرير امة ، تربطهُ بها رابطة الجوار والانسانية

هوذا يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٩١ وخارج الدار فارسان ومن ورائهما جمهور قلق صاخب. هوذا احد الفارسين يقرأ وثيقة اعدّها احد مندوبي الملك : — « ان فريق البرسبتيريان (شيعة من البروتستانت) ينوي ان يثور . فهم يدبرون الوسائل لحرق الكنيسة . ونسف البرلمان . انقصدهم ان يشعلوا في البلاد نيران ثورة كثورة فرنسا . سوف يقطعون رأس الملك ويعلقونهُ امامكم . لعنهم الله . فغرضهم التنكيل بنا . فلنسحقهم قبل فوات الاوان » . وما ترددت في الجمهور الصاخب اصداء الملك والكنيسة حتى شبَّ عن الطوق . واذ الفارسان يرقبان في جذل مبلغ نجاحهما في استثارة الجمهور ، اندلعت ألسنة اللهب من دار جون بريستلي

كان بريستلي جريئاً في تأييده لكل قضية اقتنع بصحتها. وكانت الجمهورية الفرنسية الفتية قد انعمت عليهِ بلباب مجدها لما منحتهُ رعويتها الفخرية ، على اثر الردّ اللاذع الذي وجههُ الى برك الكاتب والخطيب السياسي الانكليزي لما تهجم هذا على الجمهورية الفرنسية وتنقّصها . هجم الجمهور الثائر على دار بريستلي وسدّد خطواتهِ الى مكتبتهِ فزق كتبهُ وحرق مخطوطاتهِ

ودمر كل ادواته العلمية تدميراً . ثم انقلب الى دار الدكتور Withering وذرنغ وغيره من اصحاب پريستلي حتى اضطر فريق منهم ان يكتب على عتبات دورهم «لسنا فلاسفة» لينجوا من ويلات الشعب . ولكن ذلك كلهُ لم يكف الشعب الهائج . فانكفأ يطلب رأس پريستلي ودمهُ. على ان القس كان قد فرَّ الى لندن. ولكن الشعب في برمنغهام دام ثلاثة ايام بلياليها، يثير نيرانهُ طائفة من رجال الملك جورج الثالث اذ ظنوا ان هذا هو السبيل السوي لارهاب اصدقاء الحرية

كان پريستلي في برمنغهام ، قبل فراره الى لندن ، عضواً في جماعة علمية فلسفية تدعى « الجمعية القمرية » لانها جرت على تناول العشاء مرة كل شهر اذ يكون القمر بدراً ، لكي يسهل على اعضائها العودة الى دورهم في ظلام الليل . وكان من اعضائها اراسموس داروين جدُّ داروين العظيم ووط المهندس الاسكتلندي وصانع اول آلة بخارية متقنة . وكانت مباحث الاعضاء تدور حول موضوعات العلم والادب والسياسة . فلما جاء لندن شعر بألم الوحدة ، لان معظم اعضاء الجمعية الملكية كانوا يتجنبونهُ لاسباب دينية او سياسية . فاستقال من الجمعية ، وفي نفسهِ مضض وحرقة . وقد كانت مقاطعتهُ فيها اشبهُ شيء بما فعلتهُ الجمعيات الكيماوية الالمانية في الحرب الكبرى اذ شطبت من قوائم اعضائها الاجانب اسماء اعظم الكيماويين البريطانيين . الى هذا الحد يبلغ جنون الناس ، حتى العلماء منهم في ازمنة الشدائد

واذ كانت مقاطعة الاورن الفرنسية تكرم پريستلي ، ابن الصوّاف الانكليزي ، بانتخابهِ عضواً عنها في الجمعية التأسيسية ، اقام هو قضية على مدينة برمنغهام، طالب فيها بتعويض قدرهُ اربعة آلاف من الجنيهات . فكتب الملك جورج الثالث الى احد وزرائهِ: « سرَّني ان پريستلي عوقب عن المبادىء والتعاليم التي يذيعها. ولكنني لا اسلّم بالوسائل التي استعملها الجمهور للاعراب عن احتقارهِ لهُ» وعرضت القضية على المحلّفين ففاز فيها پريستلي، وتفرَّغ بعد ذلك للبحث العلمي

القس يصبح عالماً

ولد پريستلي في ١٣ مارس سنة ١٧٣٣ في فيلدهد على مقربة من مدينة ليدز بانكلترا . وكان والداهُ من اتباع كلفن فاعدَّا ولدهما ليكون قسيساً . فلما تقدَّم للرسامة رفض للآراء التي اعلنها في موضوع الخطيئة الاولى والعقاب الأبدي . ولكن لما كان بلغ الثانية والعشرين عين قسيساً لكنيسة صغيرة في صفوك « Sufolk » وجعل مرتبهُ ثلاثين جنيهاً في السنة . وكان يمقت التعليم . ولكن راتبهُ الضئيل حتم عليهِ ان يعلّم . فكان يدرس في مدرسة بين الساعة السابعة صباحاً والساعة الرابعة بعد الظهر . وكان يعطي دروساً خاصة بين الساعة الرابعة مساءً والساعة السابعة. ثم في اوقات فراغهِ كان يعنى بوضع كتاب في قواعد اللغة الانكليزية . وكان ملمًّا بلغات عديدة منها — عدا لغة بلادهِ — الفرنسية والايطالية والالمانية والعربية والسريانية —

فلما عهد اليهِ بعيد ذلك في تدريس اللغات في اكادمية انشأها بعض المنشقين من احرار الدين حضر خطباً في مبادىء الكيمياء ودرس التشريح زمناً وحاول ان يلقي فيهِ سلسلة من المحاضرات

فلما كان في الرابعة والثلاثين من عمرهِ عين قسيساً لكنيسة مِلْ هِلْ في مدينة ليدز . هذا الرجل الفقير ، المكافح في سبيل العيش المنبوذ من المجتمع لآرائه الدينية ، المصاب بعاهة في النطق شبيهة بعاهة ديموستينيس ، كان يجد وقتاً بين الاكباب على عمله الديني والتأمل في ما وراء الطبيعة ، للنظر في شؤون الدنيا . وفي احدى زياراتهِ لمدينة لندن اجتمع ببنيامين فرنكلن ، فحرَّك فيهِ هذا الاجتماع شوقاً للبحث في موضوع الكهربائية فعوَّل على وضع كتاب في تاريخ الموضوع . فكان ذلك بدء سيرتهِ كعالِم . قال : «وبدا لي في خلال كتابة هذا التاريخ ان احاول تحقيق بعض الاقوال المختلف فيها وهذا قادني رويداً رويداً الى ميدان رحيب من التجارب المبتكرة فلم امسك عن انفاق كل ما استطيعهُ في سبيلها»

مكتشفاته الاولى

يرتدُّ جانب كبير من شهرة بريستلي الى مصنع الجعة الذي كانت على مقربة من دارهِ في ليدز . كان يقضي وقت فراغهِ في هذا المصنع يبحث في فقاقيع الغاز الذي يتولد في اثناء صنع الجعة . فكان يشعل كسراً من الخشب ثم يقربها من فقاقيع هذا الغاز الذي لا لون لهُ، اذ تنفجر فوق براميل الجعة . كان ذلك العمل غريباً في حدّ ذاتهِ . فكيف بهِ اذا صدر من قسٍّ ورع لذلك كان عمال المصنع يهزّون رؤوسهم استغراباً وسخرية اذ يرونهُ مكبًّا فوق البراميل في حرّ الصيف الخانق . ولكنهُ لم يحفل بهم . كانت معرفتهُ الكيماوية نزرة . ولكنهُ كان شديد الملاحظة . فلاحظ ان هذا الغاز يطفىء الكسر الخشبية المشتعلة . فظنَّ انهُ «الهواء الثابت» Fixed air الذي حضَّرهُ تاجر الخمور الاسكتلندي جوزف بلاك ، قبل ذلك بخمس عشرة سنة ، باحماء حجر الجير في خلال بحثهِ عن دواءٍ ناجع في اصداف القواقع ، وهي الاصداف التي شفت رئيس وزراء انكلترا ، ولبول Walpole من داء النقرس . فهل هذا الغاز الصاعد من براميل الجعة هو الغاز الذي يخرج من اصداف القواقع ويشفي من النقرس ، ولما كان من المتعذّر عليهِ ان يحصل على قدرٍ كافٍ من هذا الغاز في مصنع الجعة حاول ان يحضّره في دارهِ . ثم حاول ان يحلّهُ في الماء . فوجد ان حلّهُ في الماء ليس بالامر السهل . ولكن قليلاً منهُ يتحد بالماء ، فيجعلهُ فوّاراً يصعب التفريق بينهُ وبين ماء سلتزر او ماء برمبه . وتقدم الى الجمعية الملكية فانبأ اعضاءها باكتشاف ما يعرف الآن «بماء الصودا» الذي يشرب مع الوسكي ويحلّ فيهِ قليل من السكر وحامض الليمون فيصبح «كازوزه» . فاعجبت الجمعية بقولهِ، وطلبت اليهِ ان يعيد تجاربهُ امام «كلية الاطباء» فسرَّ بهذه الفرصة التي اتيحت لهُ فاغتنمها ، فلما امرَّ

الغاز في الماء طلب الى بعض الحاضرين ان يذوقوا المحلول ، فدهشوا ، واقترحوا على امراء البحرية البريطانية استعمالهُ لمعالجة الاسقربوط . ومنح بريستلي المدالية الذهبية جزاء لهُ على هذا الاكتشاف

وانكفأ بريستلي الى داره يجرّب تجارب كيماوية اخرى . فحاول ان يحمي ملح الطعام مع زيت الزاج او الحامض الكبريتيك ، فحضّر مركباً كيماويًّا عجز عن تحضيره من سبقهُ في هذه المحاولة . ذلك انهُ جمع الغاز الخارج من هذين المركّبين تحت ناقوس من الزجاج اسفلهُ مغموسٌ في الزئبق . ثم حاول ان يحلّ هذا الغاز في الماء ، فوجد الماء شديد الاتحاد بهِ لذلك عجز عن تحضيرهِ سابقوه . فانهم حاولوا ان يحضروه تحت ناقوس اسفلهُ مغمور بالماء فكان الماء يمتصهُ . ولما حلّهُ بريستلي في الماء اكتشف الحامض الايدروكلوريك المستعمل الآن في صناعة الفراء والجلاتين وفي تنظيف الاواني المعدنية

كذلك تمَّ لاحد هواة العلم ان ينفح العالم بمركبين كيماويين من اشهر مركباته المعروفة !

وكانت رعية القس بريستلي تحيّرها عناية راعيها بالانابيب والانابيق . فكأنهُ كان يعبد الهين على مذبحين مختلفين . فارتفعت همسات الاستفهام حتى اصبحت كزمجرة التذمر . ولكن بريستلي كان مشغولاً عن ذلك بمباحثهِ الفتّانة فلم يسمع ما يقال . فانهُ بعد احماء ملح الطعام وزيت الزاج ، تحوَّل الى ماء الامونيا يحميهِ ، فخرج منهُ غاز ثالث لا لون لهُ ، فجمعهُ كسابقه تحت ناقوس من الزجاج اسفلهُ مغمورٌ بالزئبق . وكان لهذا الغاز رائحة خاصة حرّيفة . وملأت ابخرة الغاز غرفتهُ وهو مكبٌّ فوق الموقد يذكي النار . فكان في تجاربهِ تلك يستخرج للناس المعارف الدقيقة الاولى عن صفات غاز الامونيا النقي — الذي استعمل في العصر الحديث في صناعة التبريد والتثليج Refrigeration . كانت الابخرة قد احاطت بهِ من كل جهة فاحسَّ بحرقة بعينيهِ ، وبدموعهِ منهمرة ، وشمَّ سكان الدار رائحتها الحريفة ، فغادروا المنزل الى الخلاء . ولكن ذلك لم يزعجهُ . ثم جمع بين غاز الامونيا وغاز كلوريد الايدروجين فدهش لما رأى غيمة رمادية قد تكونت من التقاء الغازين ثم جعلت ترسب مسحوقاً ناعماً ابيض اللون . هنا تفاعل كيماوي عنيف . فالغازان الحريفان قد اتحدا فولدا مسحوقاً ابيض هو كلوريد الامونيا المستعمل في البطاريات الكهربائية الجافة

كذلك اتيح للقس بريستلي ، ان ينفح العلم ، في خلال بضع سنوات بطائفة من المكتشفات الخطيرة . وهذا شجعهُ على انفاق كلّ ما يستطيع انفاقهُ من الوقت في معمله المرتجل . فآيات الكيمياء ملكت لبّهُ واذ مضى في التبشير بكلمة الله ، اخذت دوائر العلم تتسقط انباء القس الكيماوي . وما لبث حتى دعي الى مرافقة الرائد كوك المشهور في رحلتهِ الى البحار الجنوبية فأغرتهُ الدعوة وكان على وشك القبول ، اذ اعترض على ضمهِ الى البعثة قسٌّ آخر ، لاختلافهما في الآراء الدينية ، فتخلف بريستلي واتمَّ التجربة العظيمة التي اسبغت على اسمهِ ذكراً خالداً

التجربة الكبرى

كان بريستلي في خلال تجاربهِ المختلفة بالغازات قد اصبح بارعاً في تحضيرها وجمعها . فقد كان الباحثون قبلهُ يحاولون جمع الغازات بعد تحضيرها في اكياس شبيهة بكيس البلون . وكانت هذه الطريقة صعبة التناول عقيمة لان مادة الكيس كانت غير شفافة فلا يستطيع الباحث ان يرى بعينهِ ما يحدث داخل الكيس . أما بريستلي فاستنبط الطرق المستعملة الآن . اخذ زجاجة ذات فتحة واسعة وملأها زئبقاً ثم قلبها غامساً فتحتها في حوض من الزئبق . ثم وصل بين مولد الغاز والزجاجة بانبوب حتى اذا تولّد الغاز انتقل في الانبوب ودخل منهُ في فتحة الزجاجة وتجمّع فيها فوق مستوى الزئبق . فاذا كان الغاز لا ينحلُّ في الماء ، استبدل بالزئبق ماء . ففي هذه الناحية من البحث ابدع بريستلي اسلوباً جديداً

وكان بريستلي قد أحمى طائفة منوعةً من الجوامد في لهب اتونهِ . فحاول بعد ما تقدّم أن يحميها بجمع اشعة الشمس عليها بواسطة عدسة محدّبة . وكان قد جرّب هذه الطريقة فتمكن من حرق الخشب بها . فابتاع عدسة محدبة قطرها قدم وأخذ يستعملها في صبّ اشعة الشمس بواسطتها على جوامد مختلفة . فكان يضع الجسم الذي يريد توجيه الشمس اليهِ في ناقوس من الزجاج والعدسة خارجه لجمع اشعة الشمس عليهِ . ثم وصل بين الناقوس الذي يتضمن الجسم وزجاجة مصنوعة على طريقتهِ لجمع الغاز ، كما تقدم ، بانبوب ، حتى اذا خرج من الجسم الصلب غاز ما تمكن من جمعهِ ودرس خواصهِ

بهذه الطريقة المبتدعة حاول في يوم اول اغسطس (كان يوم احد) سنة ١٧٧٤ أن يستخرج الهواء من مركب يعرف بـ Mercurus Calcinatus Per se وهو مسحوق أحمر كان معروفاً لجابر بن حيان ، باحمائهِ في الهواء فلم يلبث حتى وجد ان الهواء يخرج منهُ بسهولة

ولكن ذلك لم يكن أمراً عجيباً . فالباحثون كانوا قد سبقوهُ الى استخراج الغازات من الجوامد — إك في سلزباخ بالمانيا قبل ٣٠٠ سنة واسطفان هالز الهولندي وروبرت بويل الانكليزي وشيل السويدي — وكلهم كانوا قد سبقوهُ الى استخراج الغازات من الجوامد باحمائها . ولكن بريستلي في عملهِ هذا كان يختلف عن اولئك الروّاد !

كان على مقربة من بريستلي في معمله شمعة مضاءة . فلما تجمع لديهِ قليل من الغاز سأل نفسهُ : « ترى اي اثر لهذا الغاز في لهيب الشمعة ؟ » وللاجابة عنهُ اخذ الشمعة ووضعها داخل الناقوس الزجاجي الذي يحتوي على الغاز . فلم تنطفىء الشمعة . بل على الضد من ذلك تألقت ولمعت . فسرّ بما رأى ولكنهُ تحيّر في تعليلهِ . وأخذ جمرةً من الفحم ووضعها في الناقوس فرآها تتطاير شرراً . وبعد قليل رأى الجمرة قد تلاشت ، فدهش . ثم اخذ سلكاً

من الحديد وأحماه حتى درجة الحمرة وأدخله في الناقوس فتألق السلك كأن بهِ روحاً تنفخ فيهِ. فكاد لدهشته لا يدري انائم هو او مستيقظ

ان ادخال تلك الشمعة المضاءة في ناقوس الغاز ، كان ايذاناً بانقلاب عظيم في علم الكيمياء . ولكن بريستلي حينئذٍ ماكان يدري طبيعة « الهواء » الذي اخرج من ملح الذئبق . وكان من اتباع مذهب « الفلوجستن » فحسب ان ذلك « الهواء » ليس الا مركباً من الفلوجستن والتراب والحامض النتريك — ولكن ذلك « الهواء » كان غاز عنصر الاكسجين، الذي لا مندوحة عنهُ لكل حيّ على سطح الارض

كان الهواء الذي نتنفسهُ ، في رأي علماء ذلك العصر ، مادة بسيطة ، او عنصراً من العناصر ، كالذهب والذئبق . وكان بريستلي قد تخيّل ان البراكين قد ولّدت الهواء بنفثها غازات كانت قابلة للالتهاب في البدء ثمَّ فقدت قابليتها للالتهاب بفعل الماء ثم تنقت وتصفت بفعل النباتات . وخلص من ذلك الى القول بأن عالم النبات هو وسيلة الطبيعة لتنقية الهواء . ذلك انهُ اذا وضعت نباتاً في غرفة مقفلة فسد جوّها بتنفس الحيوان والانسان او باضاءة شموع فيها ولا يلبث هواء الغرفة حتى يصبح صالحاً للتنفس . وعلّل هذه المشاهدة الصائبة بقوله ان الفلوجستن اذا اضيف الى الهواء باضاءة الشمعة او بتنفس الحيوان امتصتهُ النباتات فتنقى الهواء . على ان الطبيب دانيال رذرفورد ، الذي كان يشغل منصب استاذ النبات في جامعة ادنبره ، في ذلك العصر ، اكتشف مادتين من مواد الهواء وتمكن من ان يستخرج من الهواء مقداراً من الحامض الكربونيك ، بجعل ماء الجير ان يمتصهُ فتحول من ماءٍ صاف الى سائل لبني — والتعليل الكيمائي لذلك ان اكسيد الكربون الثاني يتحد بالجير فيولد كربونات الجير وهي راسب ابيض ناعم يجعل السائل لبنياً — ثم وضع حيواناً في غرفة محكمة القفل وجعله يتنفس فيها بعد استخراج اكسيد الكربون الثاني منهُ ، فوجد ان ما يبقى من الهواء نحو اربعة اخماسهِ وهو غاز لا فعل كيمائي له . هذا الغاز اطلق عليهِ شابتال Chaptal اسم نتروجين لوجوده في النترات . وكان بريستلي قد قرأ عن هذه التجارب فاحمى قطعة من الرصاص في الهواء وجلس يراقبها وهي تحمرُّ رويداً رويداً فتحوّلت الى مسحوق احمر فعالجهُ كما عالج ملح الزئبق من قبل . فقفز فرحاً اذ بدت له النتيجة . ذلك ان الغاز الذي خرج من ملح الزئبق خرج كذلك من ملح الرصاص . فتأكد الظن الذي كان يخالجهُ وهو ان هذا الغاز — الاكسجين كما دعي بعدئذٍ — الذي خرج من الملحين انما جاء اولاً من الهواء

الاكسجين والحياة

وفي ٨ مارس سنة ١٧٧٥ بدأ هذا القسُّ الحرُّ المفتون بالبحث العلمي تجربة غريبة في قصر لورد شلبرن Shelburne في بوود Bowood . كان في الليلة السابقة قد نصب للفئران افخاخاً

يستطيع ان يستخرجها منها حية . ولكن اي شأن لمعلم العقول ومهذب النفوس بالفئران ! انهُ يرى فيها جلاء السر الغامض الذي يحيّر لبّهُ . ثم اخذ وعائين زجاجيين متماثلين ووضع في احدهما الغاز الخارج من الزئبق والرصاص — الاكسجين — وفي الاخرى الهواء العادي ثم وضعهما في اناءين من الماء بحيث يغمر الماءُ حافتيهما السفليين. وفي اليوم التالي امسك باحد الفئران من عنقهِ وادخلهُ في الوعاء المحتوي على الهواء ووضعهُ على منصةٍ مرتفعة فوق الماء حتى لا يغرق . واخذ فأراً آخر ووضعهُ بالطريقة نفسها في الوعاء المحتوي على الاكسجين

وجلس بريستلي على كرسي امام الوعائين ، يعزف بالمزمار وهو يراقب الفأرين في داخل الوعائين من دون ان يعلم الى متى يدوم انتظاره . ولكنهُ وقف عن العزف فجأة اذ رأى الفأر الذي في الوعاء المحتوي على الهواء قد بدا عليهِ الضعف والاعياء. فرمى المزمار جانباً واخذ ساعتهُ بيدهِ فلم يمضِ ربع ساعة حتى سكن الفأر بعد ما فقد الشعور . فاسرع بريستلي واخرجهُ من الوعاء ولكن الامر كان قد قضي وانطفأت شعلة الحياة في الفأر . فالتفت حينئذٍ الى الفأر الآخر في الوعاء المحتوي على الاكسجين . فاذا هو لا يزال يتحرك تحركاً طبيعياً وليس يبدو عليهِ اي امارة من امارات الاعياء . ومضت عشر دقائق وبريستلي يلازمهُ بنظرهِ . لقد بدت علامات الضعف عليهِ ، فهو خامل بطيء الحركة . فيسرع اليهِ بريستلي ويخرجهُ منه وهو يحسبهُ ميتاً . ولكن قلبهُ لا يزال ينبض نبضاً ضعيفاً . فيقربهُ من النار ليدفء جسمه البارد فلا تنقضي بضع دقائق حتى تعود الحياه تدبُّ في عروقهُ . فيطير بريستلي فرحاً ودهشة . فالفأر الثاني قضى في الوعاء نصف ساعةٍ قبلما بدت عليهِ اعراض الاعياء في حين ان الاول مات في نحو ربع ساعة

ما تعليل ذلك ، فهل الاكسجين انقى من الهواء العاديّ ، او هل يحتوي الهواء العاديُّ على مادة قاتلة للحياة . او لعلَّ ما حدث اتفاق لا يجوز الحكم عليهِ ؟ لم يغمض لبريستلي في تلك الليلة جفنٌ ، وهو يفكر في مسألة الفأرين والاكسجين . وخلص الى وجوب اعادة التجارب ليتثبت من صحة ما رأى وانهُ عام شامل للفئران جميعاً . وهذه التجارب أقنعتهُ بنقاء الاكسجين وفائدتهِ . ولو شاء لوقف في تجاربهِ عند هذا الحدّ . ولكنهُ كان عالماً مطبوعاً فعزم ان يجري التجربة نفسها عليهِ . فاستنشق قليلاً من الاكسجين فاحسَّ ان تنفسهُ خفيف . قال : شعرت ان تنفسي ظلَّ خفيفاً برهة بعد التجربة . ومن يدري ان هذا الهواء النقيّ لا يصبح في المستقبل من المواد الكمالية المطلوبة فلم يجرّبهُ حتى الآن احد غيري وغير الفئران» . كذلك رأى بريستلي حينئذٍ بعين الخيـال استعمال هذا « الهواء النقيّ » قال : « وقد يثبت ان الرئتين تحتاجان اليهِ في بعض الامراض » ونحن نعلم الآن ان الاكسجين يستعمل في اصابات النزلة الصدرية اذ يحتقن جانب من الرئتين ويصبح ما بقيَ منها سليماً، غير

كاف لحاجة التنفس . ثم ان رجال مكافحة الحريق حيث تكثر الغازات الخانقة وطوائف رجال الانقاذ الذين يدخلون المناجم ، والطيارين الذين يحلقون الى مرتفعات قصية ، يحملون اسطوانات تحتوي على غاز الاكسجين لاستعماله لدى الحاجة اليه

رأى بريستلي هذا قبل قرن ونصف قرن . ولكنهُ رأى كذلك ان استعمال الاكسجين بدلاً من الهواء ، من دون ضابط قد يفضي الى الخطر قال ، ما معناهُ : كما تحترق الشمعة في الاكسجين اسرع مما تحترق في الهواء كذلك اذا تنشقنا الاكسجين بدلاً من الهواء فقد تنقضي حياتنا اسرع مما تنقضي لو تنشقنا الهواء وحدهُ

ومضى المكتشف في امتحان نقاوة الغاز الذي اكتشفهُ .فخطر لهُ في اثناء ذلك خاطر عمليٌّ اذ رأى في استعمال الاكسجين وسيلة لزيادة قوة النار بجعل الوقود تشتعل بالاكسجين بدلاً من ان تشتعل بالهواء .وجرّب هذه التجربة بمشهد من صديقه مجلان سليل الرائد المشهور . اذ اخذ كيساً من الرقّ وملأهُ اكسجيناً ثم جعل يضغط على الكيس فيخرج الاكسجين من فتحته ويهبُّ فوق قطعة مشتعلة من الخشب . فيتحول لهيبها الضئيل الى لهيب متأجج . في هذه التجربة جرثومة الاستنباط الحديث الذي يستعمل في لحام الفلزات . وفي هذا السبيل فقط يستعمل الف مليون قدم مكعبة من الاكسجين كلَّ سنة

***

كان لورد شلبورن قد منح بريستلي معاشاً سنويًّا قدره ٢٥٠ جنيهاً وبيتاً صيفيًّا في كالن وآخر شتويًّا في لندن على ان يبقى ملازماً لهُ مديراً لمكتبه ورفيقاً اديبًّا لهُ . ودامت هذه الصلة ثماني سنوات اتمَّ بريستلي في خلالها اهم تجاربه . فلما سافر لورد شلبورن لزيارة بلدان اوربا صحبه بريستلي وفي باريس عرَّفهُ مجلان بلافوازيه اشهر كيماويي فرنسا . وفي معمل لافوازيه بسط بريستلي امام جماعة من الفلاسفة الطبيعيين اشهر النتائج التي وصل اليها . واذ كان يتناول طعام العشاء مع لافوازيه لم يخفِ شيئاً عنهُ وهو لا يدري حينئذٍ الى اي انقلاب في الكيمياء سوف تفضي هذه الحقائق على يد مضيفهِ . فاصغى لافوازيه الى كل كلمة قالها ولما خرج الانكليزي اسرع الفرنسي الى معملهِ ، واشعل ناره واعاد تجارب القسيس العالم

كان الصينيون قد ذكروا شيئاً في الهواء يدعى « ين » يتحد بالكبريت وبعض الفلزات وكان ليوناردو ده فنشي ذلك العبقري الايطالي المتعدد النواحي قد كتب في القرن الخامس عشر ان الهواء مركب من مادتين . ولكن بريستلي استخرج بسحر كيميائهِ الاكسجين الذي لا يرى من الهواء ، وبذلك كان اول من حلَّ مشكلة تركيب الهواء حلاً علميًّا ، واثبت وجود اكثر العناصر وجوداً في الارض وما عليها . ان مشكلة تركيب الهواء ، حالت دون تقدمُ الكيمياء قروناً حلّها هذا الرجل الذي يتمثل فيهِ النشاط العقلي في عصرهِ . في نظر

هذا الثائر على الكنيسة المؤيد للاحرار . كانت الكيمياء عندهُ تسلية لتمضية اوقات الفراغ. فقادتهُ هذه التسلية الى حل مشكلة من اعقد مشكلات الكيمياء والكيمياء الحديثة في مهدها

كان اكتشاف بريستلي للاكسجين حداً من الحدود الفاصلة في تاريخ الكيمياء

في اول اغسطس سنة ١٨٧٤ احتفل بمدينة برمنغهام بانقضاء مائة سنة على هذا الاكتشاف العظيم فازيح الستار عن تمثال بريستلي . وعلى نحو ثلاثة آلاف ميل من برمنغهام اجتمعت طائفة من الكيماويين الاميركيين في مقبرة ببلدة نورثمبرلند بولاية بنسلفانيا وارسلت برقية من هناك الى المحتفلين ببرمنغهام . ذلك ان بريستلي مات ودفن في اميركا !

هجر بلادهُ لانهُ عاد في آخر حياتهِ لا يطيق المعيشة فيها . فالصحافة كانت تكيل لهُ الطعن وبرك الخطيب والكاتب السياسي تهجّم عليهِ في مجلس العموم لانهُ أيّد قضية الجمهورية الفرنسية ثم جعل اصدقاؤهُ في العلم يتجنبونهُ . ففضل وهو في الستين من العمر الهجرة الى اميركا . فدخل نيويورك دخول فاتح عظيم . واستقبلهُ في مرفأها حاكم الولاية ومندوب جامعة كولومبيا . وارسلت اليهِ جمعية تاماني السياسية بعثة قال خطيبها في ترحيبهِ « ان اسلافنا الاكارم هجروا كما هجرتَ فراراً من اضطهاد التعصّب والاستبداد . لقد فررت من ذراع العنف الغاشمة ، من لهب التعصب ، وسوف تجد ملجأ في صدر الحرية والسلام والاميركيين » . وقد اكرمتهُ اميركا امة وافراداً فدعاهُ فرنكلن للاقامة في فيلادلفيا وطلبت اليهِ جامعة بنسلفانيا ان يتولى منصب استاذ الكيمياء فيها . ولكنهُ فضل حياة السكينة في بلدة نورثمبرلند ولم يغادرها الا ليقرأ بعض رسائله العلمية في الجمعية الاميركية الفلسفية بفيلادلفيا ويتناول الشاي مع جورج وشنطون . وفي آخر سنة ١٧٩٧ تمَّ بناء معمله الخاص بالتجارب الكيميائية وفيهِ اكتشف غاز اكسيد الكربون الاول

* * *

في الساعة الثامنة من يوم الاثنين في ٦ فبراير سنة ١٨٠٤ كان القس الشيخ في سريرهِ وهو يعلم ان حتفهُ قد دنا . فطلب ثلاث رسائل كان قد اشتغل باعدادها ، فاعاد النظر فيها واملى على كاتبهِ ما يريدهُ من التعديل فيها . ثم طلب اليهِ ان يعيد ما طلبهُ منهُ ففعل فتجهّم وجههُ قليلاً وقال: « لقد كتبتَ ما امليتهُ عليك باسلوبك . وانا اريدهُ باسلوبي » ثم اعاد تعليماتهِ كلمة كلمة فلما قرئت عليهِ ثانية اكتفى وقال « انتهيت الآن » وبعد نصف ساعة اسلم الروح

ولقد احتفل كيماويو اميركا منذ بضع سنوات بجعل دارهِ في نورثمبرلند تذكاراً دائماً لهذا الرجل العظيم . واقاموا الى جانبهِ متحفاً جمعوا فيهِ كل الادوات التي استعملها في تجاربهِ . وبينها احد الاوعية الزجاجية التي استعملها في تجربة الفئران ، حلَّ بذلك مشكلة تركيب الهواء وكتب اسمهُ بين الخالدين من رجال الكيمياء

الصحراء

لاحمد محمد حسنين بك

افتتح المجمع المصري للثقافة العلمية مؤتمره السنوي الرابع في ١٢ مارس برآسة احمد محمد حسنين بك الرحالة المصري المشهور والامين الاول لحضرة صاحب الجلالة الملك فالقى محاضرة نفيسة في الصحراء آثرنا نشرها في ما يلي :

سادتي : طلب اليَّ ان اتكلم في بحث علمي . والبحث العلمي الوحيد الذي اظنني استطيع أن أتكلم فيهِ هو الصحراء . لكن الجانب العلمي والفني في الصحراء ضمنتهُ كتابي ، فلا محل لاعادته .. ولما كان في قوانين هذا المجمع الموقر ان عضوه يجب ان يلقي كل سنتين محاضرة ما والاَّ فامامهُ الباب مفتوح ، ولما كنت احرص غاية الحرص على بقاء عضويتي فيهِ ، لذلك لم يسعني الاَّ ان اتحدث اليكم في جانب غير علمي من جوانب الصحراء : وشيء اهون من شيء على اي حال

فكرت اذن في ان اتحدث اليكم عن الناحية النفسية لرحالة اعتزم القيام برحلة صحراوية طويلة من اجل الكشف . فبينما هو يقوم برحلتهِ العلمية اذا بهِ يقوم — في وقت واحد برحلة نفسية . ولرحلة النفس كما لرحلة العلم مراحل ، وتلك هي التي احاول ان احدثكم عنها

سادتي : ان شق الصحراء شيء صعب . وكشف مجاهلها شيء اصعب . يعلم الرحالة هذا كله فلنر اذن ما هو صانع . ها هوذا في شغل شاغل يفكر ويكتب ويعمل . يفكر في النواحي الكثيرة التي تستلزمها احتياجاته العديدة ، في رحلة تستغرق بضعة شهور ينقطع فيها عن هذا العالم المدني الذي نعيش فيهِ . ويدوّن كل ما ينتهي اليهِ من المعارف عن جانب مجهول من جوانب الصحراء . ثم يأخذ في جمع ما يعوزهُ من زاد وشراب ومتاع . وهو حاضر الذهن . يقدر لكل شيء سببهُ . فهو يحرص على ان تكون عدته جميعاً في نحو بسيط ، كثير النفع ، هين الحمل . يجمع طعامه ، الضروري منهُ والكمالي ، لا يفوتهُ ان يختزن حتى بضعة صناديق من الحلوى . فتلك الكماليات الشهية لا يستطيع ان يجدها في الصحراء . فاذا توفرت له كانت سبباً من اسباب رغده . يجمع عناصر فنه : ادوات الهندسة والمقاييس والرصد والحساب . تلكم العناصر العلمية التي يعتمد في نجاحه على متانة بنائها ، ودقة ادائها لوظائفها . يعد الماء الكثير . ينتقي الابل الشداد . يختار الرجال البواسل ، ولاسيما الدليل ، فهو مصباح القافلة . يمتحن الخيام

المريحة . ما اشده زهواً بخيمتهِ الظريفة.هي بيت العلم والقوة والفن . بهيّ ادوات الدفاع عن النفس ، وصد غارة المغيرين . فهذه بنادق صائبة المرمى . ومسدسات دقيقة الصنع . وهذا رصاص يأكل الاحشاء . وهذه سيوف قاطعة لوامع وخناجر تخرق الصخر . يضيف الى ذلك كله ما يعوزه من الادوية الناجعة ، التي يسهل استعمالها ويصدق اثرها ، ولا سيما ما يختص منها بامراض المناطق الحارة ، وما يشكو منهُ اهل الصحراء

ترون الآن ان رحالتنا اعدَّ عدَّتهُ جميعاً . وها نحن اولاء نراه يتخيل ويختال . يستعرض في ذهنهِ صوراً حساناً . فساعة يرى صورة تلك القافلة الزاخرة ، وهي تشقّ سبيلها الرملي ، فتانة المظهر ، متزنة الخطى ، يعابث نسيم الصحراء الراقص ما يزينها من رحال دقت جلودها ونسيج رق حريره . وساعة يرى صورة «معسكره» وقد استقرَّ بهِ النوى .فضربت خيامه، ومرح رجاله ،وهو تحت سماء خيمته البديعة يكتب مذكراته ، او يفكر في غده ، او ينعم مما حمل مما لذ وطاب ، او يتحكم في الزمن بين ساعاته العديدة التي بين يديه. يا لهُ من حلم سحري. انهُ ينفق غاية ما يستطيع من جهد ليستكمل عظمة هذا الخيال الذهبي . لتكون قافلته مثلاً اعلى لغيرها من القوافل . وليكون هو مثلاً اعلى لسواه من المستكشفين . ولم لا يصح ذلك وقد تزود من المادة بخير زاد واصلحه . لقد استقرَّ سلاحه المادي في يمينهِ ، فليأتين النجاح اذن عن شماله . أليس هذا منطقاً . كل شيء قد كمل وحسن . اما الطعام، فقد تزوَّد منهُ بقدر كثير . اما الماء فقد ملأ بهِ قرباً متينة عدة ، لن تنزّ منها قطرة ماء . اما الدليل ، فقد وفق الى رائد بدوي امين ، يقظ كالصقر ، خبير بالبيد كالحمامة ، لا تخطىء الى صاحبها السبيل . اما الابل فصفها الطويل منتظم ، تتسمع اذن المسير فتسير . اما الرجال ، فطائعون ، دماؤهم ملك لسيدهم وفداء . اما خيامه فرحبة ، مزودة باسباب الراحة . اذا نصبت في الصحراء ، فهي راسخة كالجبل لا ينال منها عصف الرياح . اما آلاته التي يعرف بها اسرار السماء والارض فهي خير نتاج الذهن البشري في القرن العشرين . لم يعد يعوزهُ اذن شيء . لقد حرص رحالتنا على ان يحمل معهُ حتى لباس بدوي انيق . كم اتعبهُ التأنق فيهِ . لقد صنعهُ من الحرير الاخاذ .طرزه ابدع تطريز . وشاه باجمل وشي اختار لهُ خنجراً فضياً . يفتن بني الصحراء . كان يتزين بهذا اللباس اذا اختلى بنفسه وكان يغدو فيهِ امام المرآة ويروح.هذا هو المظهر الذي يطالع به رؤساء القبائل.ولسوف يأتونهُ ساجدين.فهو كيّس، يجيد فن السياسة.ولقد حمل معهُ عدة كتب توصية الى مشايخ القبائل ورؤساء العشائر،فهو من هذه الناحية يستطيع ان يجذبهم اليهِ ويغريهم بمبايعته سيداً مطاعاً على اهل الصحراء اجمعين . فاذا لم تجدِ السياسة ، ولا حسن القول ولا كتب التوصية فما اهون عليهِ ان يستعبدهم قسراً ، فهو يلقي في قلوبهم الرعب بما جمع من سلاح . او ليس يحمل من السلاح ما يجهلون . وما لا يستطيعون ان يأتوا بمثله اليس

معه جنده وهم اشداء . او ليس هو ايضاً شجاعاً مقداماً . لقد امن واطمأن . اذا أصابهُ ضر عرف كيف يدفعهُ، او مسهُ شر استطاع ان ينجو منهُ . والضر والشر لن يعرفا اليه سبيلاً ، فهو يقظ حريص يقدّر لرجله قبل الخطو موضعهـا . لم يعد اذن في الصحراء ما يخشاهُ .

تلاحظون في رحالتكم الآن ثلاثة جوانب نفسية غلبتهُ وتمكنت منهُ

اولاً — إيمانه المطلق بقوة المادة

ثانياً — حرصه على ان يستعين بهذه القوة قدر ما يستطيع

ثالثاً — ضمانه النجاح العظيم من هذه الطريق

وهكذا ترون ان صاحبكم يحاول ان يفنى في سلطان المادة ، او ان يفني سلطان المادة فيه. فالمادة شغله وهمه . مازج اثرها تفكيره . هفا لها قلبه . انتعشت بها نفسه . تأثر بالمادة كل شيء فيه . تأثرت حتى مشاعره وحواسه . تأثرت حتى هواجسه وخواطره . تأثر حتى ذوقه ومزاجه . فبدا مظهر هذا الاثر جليًّا في كل خطوة من خطواته ، وشارة من شاراته ، وكلمة من كلماته . هيمنت المادة على ذاته المعنوية جميعاً . ما الصحراء سوى شيء مادي . فلن يكون غزوها بغير سلاح مادي . ولقد اختار لهذا الغزو سلاحاً ماضياً ، يغري شكله بالوثوب ، ومقبضهُ بالطعن ، وحدّه بوجوب النصر المبين. ما اروع ان يكون اذن فوق بسيط الرمل. تمّ كل شيء. لقد أصبح رب البيد ، وسيد الصحراء

ما اشد رحالتكم زهواً بنفسه . لقد تجمع رجاله حوله خاشعين . وها هو ذا يأخذ بالقلم ، وينعم النظر في خريطة صامتة بيضاء . تترجم في صمتها وبياضها عن تلك الناحية المجهولة التي لم تطأها قدم انسان بعد . على هذه الخريطة يرسم الرحالة خط سيره، بيد مطمئنة ثابتة . ماذا في نفس الرحالة . انه يهزأ بما اصاب زملاءه السابقين من فشل . اما هو فناجح من غير شك. انستطيع الصحراء بعد اعداد هذه العدة كلها ان تعترض سبيله . او تجرؤ البيد ان تناهض المادة من جانب ، والعزم والعلم من جانب آخر ؟ الا ليت الصحراء تعقل ؟ اذن لعلمت ان هذا الرائد الجبار قد اعتزم واحدة من اثنتين . اما ان يذلها ويدرك غايته ، وأما ان يجود لها بنفسه، فيخولها بذلك نعمة اتساعها لعظامه، ونفر قبولها اياه هدية خالدة. وفي ذلك شرف للصحراء عظيم

في هذه المظاهرة النفسية المتصلفة ، ، وعن هذه العوامل الباطنية الوثابة ، يرسم الرحالة خط طوافه ، وهو مأخوذ بنشوة نصر لا ريب فيه

سادتي: رحالتكم الآن في بداية الطريق، ما اروع المنظر وابهجه . انه يرى بين يديه شيئاً عجيباً. يرى تلك القافلة التي كانت منذ أسابيع حلماً ذهبيًّا، اصبحت اليوم امراً واقعيًّا. قافلة زاخرة ، تسعى الى غاية ، وتمشي على هدى. كل شيء وفق المنهج الذي رسمه . السير هين . والرمل لين. والصحراء مهاد . والابل تخبُّ آمنة . وأحمالها في حرز مكين . ورجاله يطيعونه طاعة المولى

لسيده . اليس له اذن ان يشمخ بانفه ، كأنه خرق الارض او بلغ الجبال طولاً

الا ما اجمل الصحراء . وأنعم ملمسها . ما أيسر مسحها . ما ألذ اللعب عليها . ذات الغلائل اللانهائية الصفراء

انها صبية طيّعة . ظبية الوف . فرعها من ورد . جيدها من ذهب . جبينها من نور . النظرة اليها تسبي العينين . المشي عليها يأخذ بالألباب . حياتها موسيقى وشعر . سماؤها اغان وأحلام . الاقامة فيها كالاقامة في روضة غناء . راضية قنوع . لا تردُّ قاصداً . لا تخيب ظناً . ان صددت اقبلت . وان أقبلت لانت . ضعيفة ذات خفر . في صوتها حنان . في رقتها لذة . في ملاحتها فتنة . في اغرائها خمرة تسكر العاشقين

هذه اذن هي الصحراء . فلئن لم يجبه النجاح يسعى فلينتزعنّهُ من مخبئه انتزاعاً

وهكذا يقوى اعتزاز رحالتكم بالمادة ، ويشتد شعوره بنفسه ، وينمو يقينه في الصحراء. انه ليسير كل يوم بضع ساعات في جو مرح . ولذلك فهو مستبشر طروب

أتمّ رحالتنا مرحلته الاولى . وقد بدأ الآن يغشى « السريرة » . والسريرة هي ذلك الشيء المجهول ذو السر الدفين . انه اصطلاح البدو على كل مدى منبسط بين بئر وبئر . وقدره غالباً من خمسة وستة ايام الى اثنى عشر يوماً او تزيد . فمذ يأخذ الرحالة في رود هذه المنطقة الموحشة يأخذ في اجتياز مرحلته الثانية . يقضي صاحبنا اول يوم من أيام هذه المرحلة . هو يوم مشهود . يوم حافل سعيد . بلغ فيه الزهو بنفسه غايته . هو في ضحى هذا اليوم اشد خيلاء بنفسه من قبل . اذ انقطعت صلته بالعالم الخارجي . واستهلّ الشوط الهام من رحلته . ذلك الشوط المجهول الذي لم يسبقه اليه احد . القافلة تسير هائمة . ورحالتنا منشرح الصدر . لقد آمن بيسر الصحراء . فهو يتكبر ويتغنى . فبين يديه مادة قوية غلابة . وتحت قدميه مركب مهين ذلول . أترون الآن اليه وهو يسخر . هذي هي البيد التي وصفوها بانها طاغية . هذي هي الرمال التي زعموا انها آبار الموت . هذي هي الصحراء التي قالوا انها شائكة السبل . ما افكه طوافها . انها مغان ، ومراقص ، ورياض انس ولهو وجمال

فاذا انتهى صاحبنا من سخره بالصحراء بدأ يفكر في شأن رواد الصحراء . فكرة تهتف بفكرة . وخاطر ينادي خاطراً . امتلأ رأسه بالخواطر ، ونضّ بالافكار . هو مشغول بأمر زملائه الفاشلين . يلذُّ له كثيراً ان يذكرهم ، ويستعرض سيرهم ، ويحاول ان يقضي فيهم قضاء الحق . انهم من قبل ومن بعد ، عجزة ضعاف . انهم ، اولاً وآخراً ، ضحايا العجز والضعف . فاذا انتهى بهم الى هذا الحظ التعس . وقضى فيهم ذلك القضاء الاليم ، شعر بشيء من راحة النفس ، ونمت عيناه بشيء من العجب . صحيح انه يرثي لهم . لكنه في شعوره بذلك يملكه شعور آخر اشدُّ منه عنفاً ، ذلك هو شعور الدلّ والتجني . ولعل هذا الشعور الآن هو

مبعث تلك الابتسامة الراقصة على شفتيه . هي ابتسامة سخر ، فيها تيه ، وفيها اعتداد كبير بالنفس . غير انه لزام عليه — على اي حال — ان يستخلص من هذه النواحي جميعاً نتيجة، يرتب لها اثرها بنفسه ومنطقه ، كما مهد لها اسبابها بنفسه ومنطقه . وها هو ذا يذهب، كأنه متشرع الى ان يقرر ان طريق الفشل وأثره ، انما سرهما في ضعف المادة، او في عدم استكمال عدتها كما يجب ان تستكمل لرحلة الصحراء. فلئن ضلّ في الصحراء جوّاب، او فشل مستكشف، فذلك فقط لقلة خبرته بزاد طوافها المادي. ولئن كان اولئك الجوّابون الضالّون، والمستكشفون الفاشلون ، قد تزودوا بمثل زاده، لما ضلّ ممن ضلّ احد ، او فشل ممن فشل احد

قضى صاحبكم ست ساعات وهو يسير . ما زال يجد نفسه حتى لكأنّ هذا الفضاء على رحبه يكاد لا يسعه ، وكأن الارض لا تحمل سواه . وقد اعتزم ان يسير اليوم كله على قدميه، ليلقي بذلك على رجاله درساً مجيداً في الصبر والجلد ، وما الى ذلك من صفات البطولة . غير ان مفاجأة لم يكن ليحسب لها حساباً قد حولته من طريق الى طريق . فعبثاً حاول ان يمضي في السير على قدميه . فقد اوجعهما النعل البدوي . ذلك النعل الخشن الذي لم يألفه من قبل. تسرّب الى نفسه شيء من الضيق . فقد ادمى النعل قدميه . او اصابتهما منه ثغور . ليمتطِ اذن جمله . بدأ يتأفف . لايلبث بعد حين ان يملّ ظهر الجمل . ما اقبح المطيّ . احبُّ اليه ان يسير على قدميه الداميتين من ان يظل فوق جمل بطيء يمشي بسرعة اربعة كيلو مترات في الساعة . يجيء وقت الغداء . فيكون غداؤه البلح الجاف ، كالحشف البالي . لا طهي اذن ولا شواء اذ لا سبيل الى ذلك والركب يسير . ثم انهُ من تقاليد القافلة ان ناسها جميعاً يأكلون صنفاً واحداً ، لا فرق فيهم بين سيد ومسود او كبير وصغير . البلح الجاف اذن ، هو طعامه السائغ الشهي . يندُّ جمل فيختلُّ نظام القافلة ، وتصعب اعادتها الى سيرتها الاولى . تندُّ جمال أخر فتقذف ما عليها ويسوء الامر . فمن صناديق تهشم ، الى زاد يتلف ، الى جهد كبير ينفق في سبيل لم الشعث من جديد . يتخابط جملان، فتصطك القرب بعضها ببعض. تتمزق جلودها. ويضيع من الماء شيء كثير . وهو اعزُّ ما يحرص عليه من زاد. يمر غمام ويحجب نور الشمس، فيسقط في يد الدليل. نرى رحالتنا لا يأنس لهذه المظاهر . قلّ ابتسامه ، وساد الركب سكون، لكن هذا كله شيء لا يصح ان يحتمل . هو مناوشة من الصحراء بسيطة فليتفلسف الرحالة ، وليحاول ان يتقبل هذه المناوشة بقبول حسن

تفجأه عاصفة . مناوشة اخرى . ولكن ماذا تستطيع العاصفة ان تفعل . انها تفكك وحدة الركب ، وتعوق السير ، وتعطل ادوات فنه ، وتتعب رجاله ، وتنال من ابله : هذا كل ما تستطيع العاصفة ان تفعل . وهذا كله يمكن ان يعالج . صحيح انهُ امر سيء ، غير انهُ ميسور على اي حال في سبيل المجد اليست تكاليف العلا شاقة متعبة

الم تر ان المجد تلقاك دونهُ   شدائد من امثالها وجب الرعب

ولئن جابهتهُ الصحراء بتلك المشقات الشداد فهو اهل لمقاومتها ، والاستظهار عليها

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقدام قتال

وأنى لهذه الصعاب ان تنال من نفسه وقد هيأها لانتزاع المجد وان استعصى سبيله وعز مهره

ذريني انل ما لا ينال من العلا   فسهل العلا في السهل والصعب في الصعب

نرى رحالتنا يكثر من الفلسفة . هو في نزاع بين قلبه وعقله . وهو من أثر هذا النزاع غير مستقر . فساعة يحس قلبهُ شراً ، وساعة يقدر عقله خيراً . ولذلك فهو حيناً قلق ، وحيناً مطمئن

يلقي الرحالة عصاه . فتزأر بهِ عاصفة من جديد . عاصفة تملأ الفضاء ، زاحفة كانما تريد ان تنسف الارض ومن عليها . صوتها يشيب الولدان كانهُ صوت الفناء . ماذا تفعل العاصفة في هذه المرة . . تقوض خيامه ، تهشم بعض ادواته العزيزة التي يعرف بها اسرار السماء . اما ابله ، فقد نفق اقواها ، وهو لا يدري لهذا سبباً . اما ماؤه فقد ذهب اكثره ، لامور لم تكن في الحسبان . أما دليله وليد البيد ، ابن الصحراء ، العليم بأسرارها ، الخبير بمسالكها ، مصباح القافلة ، ذراع الرحالة الايمن ، أما دليلهُ هذا : فقد جحظت عيناه . ملأه الهلع . ليس امامه سوى الفسيح الموحش الرملي . ليس امامه علم يهديه ، ولا صوى يسترشد بها في طريقه . اذا قيل له اين نحن . . هز كتفيه ، وقال بصوت محتبس ، « الله اعلم » . واذا قيل له الى اين اشاح بوجههِ ، وقال في لهجة حيرى « الله اعلم » . فكاهة في الحق غير مناسبة

رب عاصفة يقل عمرها عن ثلث ساعة ، تسقط على رأسهِ خيمته الظريفة ، فتحطمها وتكاد ان تحطمه . رب ميل قليل عن خط سيره ينتهي به الى فاجعة اللجة . قد يخونه رجاله فيتمردون عليهِ ، او يأعرون به ، فيسوء المصير

قد لا تتألب عليه هذه النوائب جميعاً في يوم واحد . ولكنهُ على اي حال هدف شرها بين يوم ويوم ، او اسبوع واسبوع . والآن فاين رحالتنا . واين عدده . اما هو فتعبث به اكفُّ الصحراء . واما هي فقد ذابت بين يديه . كل شيء نذير شؤم . في عواء الريح وعيد بسوء المآب . في صفير العاصفة صور متباينة للردى . فهو كيفما ادار لحاظه لا يجد امامه الا الموت او الفشل وليس له معدى عن مجابهة احدهما . اما الموت فباسط يده ، يريد ان يختطفه ، او فاغر فاه ، يريد ان يبتلعه . واما الفشل فصخرة عبوس ، تحطمت عليها مطامعه ، مسخ ساخر يمثل له عودته مطرق الرأس ، يحاول ان يتجنب الناس او يتجنبه الناس . مسخ ساخر يمثل له الشماتة به ، او الضحك منه ، او العطف عليه ... شياطين الموت ترقص حوله . اشباح الفشل تسعى اليه . الموت او الفشل ... ليختر اذن منهما ما يشاء . وهما أمران احلاهما مرٌّ . وطريقان اهونهما جر . وقد يكون الموت احلى الامرين مذاقاً . وقد يكون الجر ابهج الطريقين سبيلا

مع هذا فما موقفه من ذلك الموت الذي يطالعه الآن . لقد صح منه العزم حين حاول شقّ الصحراء على ان يهب لها حياته اذا عز النصر عليه . كان ينتابه في احلامه الذهبية بين حين وحين حلمٌ بعيد — هو حلم الموت . وهو حلم وان ساءت طلعته ومرّ طعمه ، فهو في الواقع عذب مستساغ . لانه اولاً وآخراً في سبيل المجد والعلا . اما الآن فلم يعد ذلك الجوّاد الذي يهب نفسه عن طيب خاطر ، ولكنه اصبح ذلك الذليل الذي تنتزع منه حياته عنوة وقسراً

ومهما يكن من شأن موقفه هذا ، فانهُ ليس سوى موقف المستضعف الجزع ، يتحايل على الموت ، ويضنُّ بحياته على الصحراء . وشتان بين موقفه هذا وموقفه بالامس القريب — حين كان يستهين باخطار الصحراء وحياته جميعاً

لكن شيئاً واحداً هو الذي يشغله الآن . كيف صحّ ذلك كله . اليس اولئك رجاله . اليس هذا دليله . اليست هذه عدده . اليست هذه ابله . اليس هذا علمه . اليس هذا سلاحه . اليس هو هو . اليست هذه جميعاً أسباب جهاده . ما الذي كان ينقصه . اليس قد استكمل عدد الجهاد كلها . كذب ظنه . خاب تقديره . فكأنما كل عدة من عدده قد انقلبت سلاحاً صوّب الى صدره . وكأن كل مادة من مواده قد اصبحت ثعباناً يتلوّى حوله

هنا يجلس رحالتكم « المقدام الباسل » الغني بمدته وزاده ، القوي بمادته وبأسه ، المستعين بعلمه وفنه ، يجلس رحالتكم الآن وقد تمزقت ثيابه ، واغبرّ لونه ، وساء امره ، وذهب الاسى بنفسه كل مذهب . ادركته هذه المحن جميعاً فاوقعته في فخ الصحراء . كادت له الصحراء ، وبيتت له الغدر كأنها غدت ذئباً . وكأنه غدا حملاً . وقد اخذ الذئب يداعب لعبته اول الامر

أهذه هي الصحراء . . أتلك هي الغانية التي كان يتشهاها . أتلك هي الغادة التي شغف بها حبًّا . أتلك هي الظبية القنوع التي كان يغنيها على قيثارة مطامعه ، فترقص له في غلائلها الصفراء رقصة الخشوع والطاعة . . ما بالها غضبت عليه واستبدّت به

اليست هذه هي الصحراء التي كان يتشبب بها بالامس ، كما يتشبب ذو المال بغانية تلتمس نعيمها في رضاه . ما بالها اليوم تصدّ عنهُ ، كأنها غانية السوق . تلتمس نعيمها في المال والغنى ، وكأنهُ العاشق المضنى اجهده الفقر

أليست هذه هي الرمال الذهبية التي كانت تسقيه بالامس خمر الآمال . ما بالها اليوم اصبحت في صفرتها كصفرة الحنظل ، واصبح سقياها مريراً كماء الموت

أليس هذا هو المنبسط الفسيح الذي كان يطلق فيهِ آماله ترتع وتلعب ، فتعود اليهِ حاملة آمالاً جديدة حلوة كالشهد . ما بال هذا المنبسط الفسيح صغر بهِ اليوم وضاق ، ودقّ في صغره وضيقه حتى غدا طوقاً حديديًّا يغل رقبته ويضني حلقه الجاف

أين النجاح الذي كان يؤمن بانهُ سيجيئه يسعى ، والاَّ انتزعه من مخبئه انتزاعاً

أترون اليوم كيف يستجديه ، في ذلة وضعف ،كما يستجدي المغرم المضنى اجهده الفقر، نظرة ، أو ابتسامة ، او كلمة ، من غانية السوق ، تلك الفاتنة اللعوب التي لا تلتمس نعيمها الاّ في المال والغنى . أين الفوز والنصر اللذان كان يؤمن بأنهما في قبضة يده والاّ اغتصبهما من يد الصحراء اينما وكيفما يشاء. أترون اليوم كيف يسألها الصحراء، يسألها يداً قاسية باطشة ، تحطم من آماله وكبريائه اينما وكيفما تشاء

أين ورد المطامع. أين أقواس النصر أين سحب المجد. أين العود المظفر. أين هتاف المجامع العلمية ان ذلك الحلم الشعري قد انحدر من فوق كتفي رحالتنا وتجلى لهُ اليوم فقط انهُ قبضة من الهشيم

***

سادتي : ترون كيف انعكست آية المادة . انظروا الى صاحبكم . لقد هوى من سمائهِ الى مستوى عبيده مرغماً مضطرًا ، مكرهاً لا بطلاً . لم يعد يثق حتى بحقهِ في اصدار الاوامر فان كانوا ما يزالون يسيغون سيادته فلربما كان ذلك فقط لجلد طبعه ، وقدرته على الاحتمال ، وما الى ذلك من صفات يضعها اهل الصحراء في المنزلة العليا من فضائل الرجال. ما اكثر خدع المدنية . قد فني بين جنبي رحالتكم ذلك الشعور الذي كان يسمعه انغام المجد كلما نظر الى ما أعد من ادوات ،واعتز بما وسع من علم ، وسحرته لذة النصر التي كان يتخيلها في سلطان المادة

ضاقت نفسه بالصحراء. ولم يضق صدر الصحراء به. انه مهموم . وفم الصحراء ضحوك . ها انصوتاً قويًا يقرع سمعه . انه سخرية الصحراء . شعور عنيف يهزه هزًا. انه أر سلطان الصحراء

يتغير الآن شعور رحالتنا فتلمس في هذا التغير فارقاً كبيراً ، ذلك الفارق العجيب الذي يفصل بينه اليوم وهو فريسة هذا الموقف المشئوم، وبينه بالامس وهو يخطو في الصحراء خطواته الاولى . فقد اخذ يحقد على الصحراء ، ويلعن اليوم الذي وطأتها فيه قدماه . ولكن ماذا يجدي الحقد واللعنة . اليس خيراً له ان يفكر في طريق من طرق الخلاص. فليفكر اذن وليكثر من التفكير . فماذا تكون النتيجة . انه كالطير في القفص . هو سجين الرمل والرمل حارسه. وقد بدأ الليل يسدل استاره الحريرية السوداء ، وينثر في السماء نجومه الصغيرة الراقصة ، ويقطع اشواطه في هذا الفضاء اللانهائي وئيداً بطيئاً كسير القافلة . ليفكر اذن في صمت هذا الليل الرهيب فيعود بعد جهده ليسأل نفسه : ترى لو انه اتخذ عدداً اقوى مما اتخذ ، وسلك سبلاً الين مما سلك ، اما كان يمكن ان يتجنب ذلك المصير المشئوم الذي صار اليه . ولكن اكان يستطيع ان يصنع غير ما صنع . لقد استعان بأحدث اسباب العلم، وتزود بأنضج الثمرات الذهنية . ما كان يستطيع في الحق ان يصنع غير ما صنع ، وهو بعد كائن بشري ، لا تعرف المعجزة سبيلها اليه ، ولا يعرف هو سبيله اليها

على انهُ مع هذا كله يحس بعاملين عنيفين يتناوبانه . عامل العناد يأبى عليه ان يشهد

بعجزه . وعامل الجهاد يزين له المضي في المقاومة . يظل رحالتنا نهب هذين العاملين ، فما يكاد يستوحي وحيهما ويتأثر بأثرهما حتى يسمع صوتاً خفياً، ضحكة ماكرة من صوت الصحراء

ساء سبيلاً . كل شيء تلف او تحطم او ضاع . صناديقه كأنها ركام . عدده اصبحت لا تغني شيئاً . سلاحه لا فائدة منه . ابله برح بها الاعياء والضنى . رجاله اصبحوا كالاشباح من فرط ما نالهم من مشقة الجوع والعطش والنصب واليأس . دليله ضجر متبرم . كادت لرحالتنا الصحراء ومكرت به. عبثت حتى بكراسة مذكراته . سلبته حتى غليون دخانه. ضنت عليه حتى بلذة الشبع . ما اشبهه بالقائد الذي خسر المعركة. فهو آوٍ الى انقاضه لا يدري ماذا يصنع. يهوله مشهد الضحايا. يروعه مشهد الخراب. يجزع لمقدم الغد . في ذمته تبعة هذا جميعه. أما هو، فرهينه ينتظر. فاما الاسر ، وهو ذل. واما الفرار ، وهو خبل. واما قتل النفس وهو عار وخور

***

سادتي : ان غير المنظور هو الذي غالباً يقع

والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه حيناً ويحرمه من حيث يطمعه

الا ترون كيف اصبح امر نجاحه اليوم سراباً كما كان امر الفشل عنده بالامس . كان الفشل ابعد ما يذهب اليه . كان لوناً من ألوان المستحيل. كان آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه. فكأن الشمس طلعت اليوم من المغرب. لقد خاب الظن. اصبح النجاح ابعد مايذهب اليه. اصبح لوناً من ألوان المستحيل. اصبح آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه . . . صد العاصفة بالكفين اهون منه

اكتنفهُ الظلام . خيم على نفسه ، خيم على رأسه ، خيم على عينيه ، ظلام اليأس والحيرة والفشل . أين هو اليوم الذي استهل فيه رحلة الصحراء ، وهو يحيي مودعيه في شيء من التواضع . فلولا عدم اللياقة لصرح لهم بما تجيش بهِ نفسه ، من نصر محقق ، ونجاح مؤكد ، وعود مظفر . لقد اصبح اليوم لا يطيق ان يذكر شيئاً من ذلك . كان اذ ذاك يغمره النور ، نور في نفسه ، نور في رأسهِ ، نور في عينيهِ ، اما اليوم فله من شأنهِ ما يغنيه عن ذكر ذلك . ففي ذكره ألم ، وحسبه ما يعاني من ألم . وفي ذكره احساس بخيبة التقدير ، وحسبهُ ما يتجرع من غصص الهزيمة

هذا زاده المادي. كان يؤمن من قبل بانهُ مفتاح النجاح. وقد ذاب اليوم هذا الزاد، فتحطم ذلك المفتاح المسحور. لئن كان صادقاً في تقديره، فما الذي اذاب الزاد، وضيع الامل، وحطم المفتاح وان كان غير صادق في حسبانهِ ، فاين اذن يوجد هذا المفتاح المفقود ، واين اذاً السبيل اليهِ

جمد ذهن صاحبنا . تعطل تفكيره . كاد يحترق مخه ، وتتمزق عروقه . كاد يهذي حتى انهُ ليتخيل الصحراء امتلأت بالذئاب العاوية . وعواصفها اصبحت نواقيس الموت . ها هو ذا يغمض عينيهِ . ويعتمد رأسه بين يديه. كأن صراعاً ألمَّ بهِ فكأنهُ في غشية ما لها صحو

سادتي : الى هنا يصح ان نعتبر رحالتنا قد اجتاز مرحلته الثانية . والى هنا ترون كيف ذاق من الالم امره . ومن الذل اوجعهُ ، ومن الهوان غايته حتى كاد ينتهي آخر الامر الى غشية النفس .غير ان الصحراء ايها السادة تأثيراً خارقاً في جسم من جابها وفي عقله وفي روحه. فهي تصقل جسمه وتجلو عقله ، وترتفع بروحه يوماً بعد يوم ، الى مراتب ماكانت لتدركها لو ان صاحبها لم يحاول ان يتخذ له سبيلاً في جوف الصحراء . ولئن يتقبل جوّاب الصحراء ما تمتحنه بهِ من عسر وشدة وألم بقبول حسن ،فما ذاك الاّ لانهُ ادرك آخر الامر ان قسوة الصحراء ليست سوى شيء من قسوة الام الحنون ، تنال بها ابناً عاقـاً تحبهُ وتكلف بهِ، في سبيل تربيتهِ وتهذيبهِ وشد ما ادّبت الصحراء رحالتنا ، وأحسنت تأديبهُ .فبدأت تنظفه من دنس المجتمع ، وتطهره من ادران الحياة ، وتنزع من صدره وسوسة الشيطان . بدأت تغسل عنهُ قذارة الجسم ،ودنس الروح ،بدأت تلهم نفسهُ فلسفةصوفية وتفيض عليها بهذه الفلسفة العالية . ففيم يفكر اذن . . ولعلنا نذكر فيما كان يفكر بالامس

اولاً — قبل ان يعدعدتهُ. ثانياً — وهو يعدعدته. ثالثاً — وهوفي مرحلتهِ الصحراوية الاولى لم يكن اذ ذاك ليفكر في غير المادة . وقد تأثر بها ، كما سقنا ، كل شيء فيه حتى اخلاقه وحتى منطقهُ واساريرِ وجههِ . كان يرى انها الاداة الفعالة لما يريد .اما الآن فانهُ يفكر في شيء آخر : ذلك ادب الصحراء ، وبهِ يستهل مرحلتهُ الثالثة

أخذ هذا التفكير الجديد يحتويه ويؤثر فيهِ . أخذ يؤثر في روحه ونفسه . يؤثر في كل شيء حتى اخلاقه . وحتى منطقه وقسمات وجهه . وهنا فقط يدرك ان اداة المادة ، تلك الاداة المغرية التي كان يؤمن بأنها الفعالة لما يريد ، انما هي حقـاً تلك الاداة التي لم تغنه شيئاً حين تورط في غير ما يريد

وكذلك رويداً رويداً تسمو الصحراء بمشاعره واحساساته الى العالم العلوي . وكذلك رويداً رويداً تفنى المادة ، ويفنى الجسم . ولاتبقى الا قوة الروح تستيقظ فوق هذا الفسيح اللانهائي الرملي . وثم تبدو له الصحراء في صورة صبية وديعة ، في سذاجتها رحمة ، في انوثتها طهر ، في ظرفها نسك يلذ العابدين . وهنا تداعبه الصحراء كما تداعب هذه الصبية الصغيرة الطاهرة ناسكاً صالحاً ، مداعبة نقية كمداعبة الابرار الخيرين . فيرق لها ، ويحنو عليها . يعفو عن هفواتها ويغفر لها اخطاءها وما اجدر بالمغفرة اخطاء الصبايا الطاهرات

ها نحن اولاء نراه يشعر بشيء جديد . تشعر روحه بالصفاء يسري اليها شيئاً فشيئاً . وتشعر نفسه بالسكينة تنساب اليها قليلاً قليلاً . فاذا انتهى الى هذا الحظ ، بعد تلك الساعة التي عافت فيها نفسه كل شيء ويئست من كل شيء والتي تركناه فيها مغشيًا عليه . هنالك — ولا غرو — تنبسط له يد الرحمن ، وتتداركه عناية الله . فيؤمن بان القوة التي تقهر

الصحراء ، انما تسكن السماء . ثم يأنس بعد وحشة ، ويستبشر بعد قنوط ، ويهتدي بعد حيرة ، ويحيي بعد موت. ثم يشعر بشيء من لوم الضمير : أ كان على حق حين اعتمد اولاً وآخراً على غير الله. أ كان يجوز له ان يستعين بعدده وآلاته كل الاستعانة ، قبل ان يستعين بقدرة الله كل الاستعانة ، «وهو جل وتعالى خالق العالمين» ، وباعث الحياة والموت فيهم من بدو وحضر

عناية الله اذن تحرسه ، ويد الله اذن تهديه . فماذا يقول اليوم .وكيف تبدو له الصحراء. حقاً ان الصحراء هائلة ، ولكن عظمة الله اشد هولاً . وحقاً انها قاهرة ، ولكن بأس الله اقهر . وحقاً انها رائعة ، ولكن جلال الله اروع . غمر الايمان قلب رحالتكم . والايمان نور وقوة وتوفيق. نور يبدد ذلك الظلام الحالك الذي غشى بصيرته واكتنف نفسه ، وخيم على ذاته المعنوية كلها ، نور الهدى والرشاد والحق . وقوة هي قوة الروح المعنوية المستمدة من فضيلة الانس بقدرة الخالق ، وادراك جانب يسير غاية في اليسر من عظمتها القدسية ومشيئتها الكبرى . ومن ذلك النور الذي ملأه ، وتلك القوة التي اصبحت هي وحدها عدته وزاده ، نشأ التوفيق ، التوفيق باطمئنانه الى القضاء والقدر ، وباقتناعه الصلب القوي ، وارتياحه الشديد الفياض الى ان الله مصيره وغايته ، ولله وحده الامر جميعاً. ولذلك فصاحبكم اليوم مطمئن النفس. ازداد حبه للصحراء ، وشغفه بدرس مناكبها. فكأنما خلق اليوم خلقاً جديداً. ولا غرو ، فقد اعاد الايمان الى نفسه ذلك العزم الثابت الذي اوهنته المشاق والمتاعب ، وتلك الارادة الصلبة التي ألانها كلُّ ما استهدفت لهُ من عوادي الصحراء . كأنما خلق اليوم خلقاً جديداً . ولا غرو فقد بعث الايمان في نفسه سائر تلك العوامل الباطنية الوثابة التي استحثته من قبل على رود الصحراء ، وكشف مجاهلها ، وبلوغ غايته منها . بعث الايمان في نفسه سائر تلك القوى المعنوية في نمو اصلب طبعاً ، واشد حالاً مما كانت عليه بالامس ، حين شرع يستهل رحلة الصحراء . سلب الايمان من جوف الصحراء ، كلما تعتدُّ به من وعيد سيء ونذير مشئوم ، فلم يعد في ظلام الصحراء ، ولم يعد في ظلام الحياة ما يمكن ان يشفق على نفسه منه ، اذ قد آمن اليوم شديد الايمان ، وعلم علم اليقين بأن ما تكنه الصحراء من اهوال واخطار ، ويغمره الغيب من شر وسوء ، وتستهدف له مصائر الناس من خير ومكروه ، انما هذا كله رهن مشيئة الله ... وها هو ذا يصدر في عمله عن طبيعة هذا الايمان الراسخ الشديد . فهو ينفق اقصى ما يملك من جهد ، ويبذل غاية ما يستطيع من حيلة في سبيل المطلب الذي اخذ نفسه به . اما النجاح وغير النجاح فلم يعد امرهما في يده ، ولكن امرهما جميعاً في يد الخالق وحده . سرت فيه تلك الروح القوية ، واوحي اليه بوحيها الصادق ، فأخذ من جديد يجمع شتات قوته المعنوية ، ويلم شعث عدته المادية ، وانطلق يستحث قافلته على المضي، ويملأ نفوس رجاله بأمر القضاء والقدر ، وفي ذلك لذة لا يشوبها الدنو من الموت ولا الموت نفسه ايضاً

انطلق اذن يمضي في قافلته يسوقه روح معنوي شجاع رشيد ، وانطلقت القافلة تسعى من جديد في مثل النشاط الذي بدأت رحلتها به بعد ان كادت تجهز عليها عوادي الصحراء اجهازاً. انطلقت القافلة يحدوها البشر والتفاؤل . واطمأن الرحالة من جديد الى الصحراء والى عيشه بينها : اولئك البدو البواسل الشجعان الذين ما يزالون بني الفطرة ! لم تستطع ادران المدنية ان تزحف اليهم . ولم يفكروا بعد في ان يزحفوا اليها . فلنقف معهُ لحظة لنرى حظ رجاله عنده بعد ذلك التطور الروحي الجديد الذي احتواه . لم يكن رجاله اولئك من قبل سوى عنصر من العناصر العدة التي هيأها لينال بها مطلبهُ في الصحراء . لم يكن رجاله هؤلاء سوى اداة من الادوات الكثيرة التي اعدها للبطش برجال الصحراء . اما الآن فقد شعر بانهُ منهم وانهم منهُ . شعر بانهم جميعاً أسرة واحدة . فهو يحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم . ولا يهنأ بعيش الا اذا كانوا هانئين . وقد ثبت له الآن ان فلسفتهم في الحياة اجدى وأعمق من فلسفته . وان في بساطة عيشهم توفيقاً لم يدركه بعد . وهنا يروقه ان يقبس من اخلاقهم ، ويتزود من طباعهم . فقد رآهم أهل ايمان وفضيلة ورجولة . فالبدوي ، في الحق ، مثل من الامثلة الحسنى للرجل

ارأيتم الآن الى رحالتنا وهو يتفلسف . انهُ يتفلسف في شهوة الدنيا ، ومطامع الناس بعد ان سمت به حال نفسية . فصغر في عينه عراك الحياة . صغرت الصعاب التي لاقته ، والصعاب التي تنتظره . هانت عنده مطامعه — حتى مطمع الثمرة العلمية المحرمة ، التي قام برحلته في سبيل قطفها . هان عنده حتى الموت في ابشع صورة من صوره . . ذلك كله صغر عنده شأناً واخذ يفنى ، شيئاً فشيئاً ، في روعة الصحراء وجلال الله

صاحبكم يشعر بقوة معنوية . فقد انتهى ، أيها السادة ، من هذه الرياضة النفسية الى نتيجة لم تكن منتظرة ، ولا سيما بعد ان ذاق من مرّ الصحراء ما ذاق . لم يعد رحالتنا يخاف الصحراء . لم يعد يخاف فيها ان يجوع ، او ان يظمأ ، او ان يضل ، او حتى ان تبيعه بحياته قبراً من قبورها المبثوثة في كل مكان . فاذا انتهى الى هذه النتيجة بدأ يشعر بأزها . بدأ يشعر بسلطانه ينبسط على الصحراء . ولكن ما ابعد الفارق بين هذا السلطان الذي يشعر به وذلك الذي شعر به في بداية رحلته . فشعوره بالسلطان الاول انما هو شعور بسلطان المادة ، والمادة قد خذلته . اما شعوره اليوم بهذا السلطان الاخير ، فهو شعور بسلطان الروح ، والروح قد صدقته

ما أعجب اسرار الصحراء . انها تحطم في رائدها معقل مطامعه ، ذلك العش المرع يسع الدنيا وما فيها . ذلك الفم الجائع كلما اعطي من شيء ، ازداد جوعاً فقال « هل من مزيد » . ما اسرع ان تكسر الصحراء شكيمة جوابها ، وتذل عنقه وترغم انفه . ما اسرع ان تلقنه درس

الحكمة . اذ تبين لهُ القياس الصادق لمرء واعماله ، والقيمة الحقة للرجل واخلاقه ، والميزان العادل للانسان وكتاب حياته . تسلب الصحراء رائدها كل احلامه الدنيوية ، تلتهم كل ثمرات مطامعه الانسانية . غير انها على ذلك منصفة عادلة . لا تدع رائدها من غير عوض . فهي تجزيه الجزاء الحسن . تهب له سكينة في الصدر . وطمأنينة في النفس . وايماناً في القلب. تهب له هذه الخيرات هدية طاهرة وخالدة لا تفنى ، جديدة لا تبلى ، مصونة لاتنال منها حياة المدنية حين يعود اليها اي منال . تلك الحياة التي عبثت بحقائقها شهوات النفس الجامحة ، ومسخت معه فضائلها مطامع الانسان الكاذبة

أيها السادة : اتمَّ رحالتنا رحلته . وقد يكون توفيقه العلمي اقصى مما كانت تذهب اليه احلامه وهانحن اولاء نعود معهُ الى بلده . فنرى حفاوة كبرى . تنشط في درس اكتشافه المجامع العلمية.ولكن ماذا في نفس رحالتنا .. انهُ بعيد عن هذا كله . يكاد لا يشعر بحفاوة المحتفين به . يحس بانه غير أهل — من هذه الناحية — لهذا المديح جميعاً

فلقد استهلَّ الرحلة ،وكانت هذه الناحية العلمية غاية المنى ،كان يؤمن بان ما جمع من اسباب المادة هو مفتاح النجاح ، فلم يكد ينحدر الى جوف الصحراء حتى آمن بشيء آخر ، آمن بان عدته المادية لن تقدم من امره ولن تؤخر ، وان ما وصل اليه ليس نجاحاً ولكنهُ توفيقاً ، وانهُ ليس ثمرة جهاده الشخصي ، ولكنهُ اثر من عناية الله

وما كان لنجاحه العلمي هذا ان يزيد في ايمانه وقد قدر له التوفيق ، كلاَّ ولن يكون لفشله العلمي ان ينقص من هذا الايمان اذا كُتب له ان يفشل ، فابتغاء وجه الله وحده هو الذي يصبح وجهة وطلبة كل من كُتب له ان يرود الصحراء ولاسيما في سبيل العلم

والآن وقد صغر في عين رحالتنا نجاحه العلمي ، وآمن بانه لم يكن شيئاً ذا خطر ، تحقق ايمانه بانه لا يستحق ما أُغدق عليه من مديح ، وان قيمة هذه الثمرة العلمية لا تزيد عن قيمة تحفة من التحف التي اتفق له ان يعثر عليها ، واستطاع ان يعود الينا بها

انه مأخوذ اذاً بلذة روحية هي خاتمة مطاف روحه . تلك الخاتمة التي وفق اليها في مجاهل الصحراء . فحين ضلَّ عقله اهتدت روحه. اهتدت الى سبيل علوي،تبتدىء في نهايتها طريق الله

ثم ها هو ذا صاحبكم يفكر في الصحراء من جديد . ولقد انتهى به تفكيره الى مفارقة عجيبة ما اتفه رحلة الصحراء بالقياس الى رحلة الروح. كم يود لو ان رحلته الروحية كانت نتيجتها دانية القطوف كرحلته في سبيل العلم

ولعلَّ هذا هو السر في ان كل من راد الصحراء مرة لا يستطيع ان يصبر عنها ، ولا يملك الاَّ ان يعود اليها ، عله يوفق من طريق رحلة العلم ، الى اقصى ما يستطيع ان يدرك من رحلة الروح ، وهو الدنو من فاتحة الطريق الى الله

موت البلبل

ما أتعسَ الفنَّ في حياتِهْ ! وأتعسَ الفنَّ في مماتِهْ !
قد واتتْ الآسنَ الأماني والجاريَ الماء لم تُواتِهْ
والخاليَ الذهنِ مستريحٌ في الوكرِ، في القصرِ، في فلاتِهْ
والساهرُ الليلَ قد طواهُ وشوَّهَ الموتُ ذكرياتِهْ

***

في هدأةِ الليلِ، في دُجاهُ في معبدِ الكونِ في صلاتِهْ
يسامرُ الصائدُ المنايا والحيُّ لاهٍ بمُلهياتِهْ
ونيَّةُ الشرِّ إنْ تراءتْ هدَّتْ على الخيرِ أمنياتِهْ
والبلبلُ الصادحُ المغنّي الساهرُ الليلَ في شكاتِهْ
حيرانُ مايهتدي لغصنٍ حتى يُصبّي الى لِداتِهْ
قد اخرجَ الليلَ من دُواهُ فراحَ يُصغي لمطرباتِهْ
والنسمةُ العذبةُ استراحتْ مأخوذةً مثل سامعاتِهْ
يمرُّ بالروضِ ما يُغنّي يهزُّ في الروضِ مورقاتِهْ
ما اجملَ الكونَ حين يُصغي لهاتفٍ صاغَ مُبدعاتِهْ !

***

وبينما البلبلُ المُغنّي يعيدُ لحناً على هواتِهْ
دوّى بجوفِ الدُّجى دويٌّ فروّعَ الكونُ في صلاتِهْ
وهلّلَ الصائدُ انتصاراً وردّدَ الليلُ قهقهاتِهْ
وضاعَ في الأُفقِ كلُّ لحنٍ وليس يلوي على شتاتِهْ
وفي ازيز الرصاص ينسى مُستملحَ الصوتِ اغنياتِهْ

***

وصدّعَ الفجرُ جانبيْهِ وايقظَ الصُّبحَ من سُباتِهْ
فهبَّ يمشي على ضحايا وراحَ يُصغي لهاتفاتِهْ
والبلبلُ الخافتُ المسجّى الزَّهرُ يحنو على رُفاتِهْ

حسن كامل الصيرفي

الرحلة والرحالون[1]

في القرون الوسطى

بين سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس واكتشاف امريكا في القرن الخامس عشر تمتد الف ونيف من السنوات تعرف عند المؤرخين بالقرون الوسطى ، ومع ان حوادث جسيمة قد تمت فيها فقد كانت الرقعة التي تشغلها بالنسبة الى العالم المعروف الآن صغيرة جدا لا تتجاوز حوض البحر الابيض المتوسط واواسط اوربا . وكان هذا الجزء المعروف تحيطهُ — في نظر الاوربيين على الخصوص — حجب الظلام الكثيفة ، فشواطئه الغربية تنتهي بالبحر الذي لا تمخر السفن عبابه — بحر الظلمات — وفي شماله تقع مناطق الذعر والجليد والظلام ، وشرقه قفر آخره مساكن الاقوام المغولية المتوحشة . وجنوبيَّهُ ينتهي بالمنطقة الحارة التي لا تستطيع البشر ان تسكنها، والتي فيها بحر تغلي المياه فيهِ باستمرار لشدة الحر ، حتى ان الاسماك لا تعيش فيهِ ، وكل هذه المناطق فيها من عجائب الخلق والهول ما يمنع الناس من الاقتراب منها بله الدخول فيها

وفي هذه المنطقة الضيقة وفي هذه القرون العشرة تمت الحوادث التي خلقت العالم الحديث بما فيهِ من نشاط ومدنية وعلم . ففيها سقطت الامبراطورية الرومانية التي كانت تتحكم في شؤون اكبر جانب من العالم المعروف عندئذٍ، فانهار معها اكبر صرح سياسي اقتصادي عرف، وامحى القانون الروماني ، وصحبت ذلك هجرة القبائل الجرمانية وغيرها من مساكنها الاصلية واستيطانها في اوربا ، وتأسيسها امارات وممالك مضطربة ضعيفة على النظام الاقطاعي ، فانتشرت الفوضى وعمَّ النهب والسلب وتغلبت القوة البدنية على الشرع والعرف والتقليد وحل السيف مكان القانون . وفيها خرجت امة كانت منتشرة في بادية العرب لا تجمعها رابطة دينية ولا تمسكها صلة سياسية حتى قام فيها محمد بن عبد الله فأوجد من تفرقها وحدة ، وخلق من تنازعها اتفاقاً وجعل من الوحدة والاتفاق الممزوجين بالايمان قوة سارت مع خلفائهِ وقوادهِ حتى احتلوا في مائة سنة البلاد الواقعة بين الصين وبحر الظلمات ونشروا الاسلام في اكثر هذه البقاع . ثم عمدوا الى العلم والادب والاجتماع فاحاطوها بعنايتهم واخرجوا منها للعالم خير الثمار واينعها واشهاها

وفيها توطدت النصرانية في الغرب واعتنقتها القبائل الجرمانية التي مرَّ بنا ذكرها وقويت البابوية وسيطرت على الحياة الدينية والعقلية في القسم الاكبر من اوروبا النصرانية ، حتى

---

(١) محاضرة تاريخية شائقة القاها نقولا افندي زياده في نادي الشبيبة البيتلحمية بيت لحم (فلسطين)

كان لها الامر وعلى غيرها الطاعة، وحدث في هذه المدة اكبر اصطدام بين الشرق والغرب فقد بقيت جيوش الصليبيين طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر تتدفق على الشرق محاولة تملكه والاستيلاء على موارده الفنية واماكن العبادة والتقديس فيهِ . ومع ان هذه الحروب قد انتهت بخيبة الاوربيين وبقاء هذه البلاد بيد الشرقيين فقد كانت بعيدة الأثر في خلق اوربا الحديثة وفي جميع مناحي الحياة في ذلك الوقت وبعد ذلك الوقت

وحياة البشر في كل عصر ومكان تتأثر بما يعتورها من جسيم الحوادث وعظيم الامور ولما كانت الرحلات والاسفار مظهراً من مظاهر الحياة والنشاط فلقد كانت خاضعة في حكمها لهذه القاعدة واذن فقد تأثرت بما ذكرنا ، وهذا ما سنتحدث عنهُ الآن

يهم المسافرون على اختلاف نزعاتهم بان يكون الامن مستتبا في البلاد التي يرحلون اليها وان تشرف على البلاد حكومة قوية ليأمنوا على ارواحهم واموالهم ومتاجرهم ولتعنى بالطرق والبريد لتنظيم الرحلة والسفر والاتجار. وقد كان هذا متوافراً في عهد الامبراطورية الرومانية فلما سقطت سقط معها كل ذلك فقلّ تنقل الناس في القسم الاول من القرون الوسطى . فلما قام العرب وانشأوا دولهم المتسعة في مشارق الارض ومغاربها وقاموا على تنظيمها وسهروا على مصلحة الشعوب التي حكموها عادت التجارة الى ما كانت عليهِ سابقاً بل اتسع نطاقها كثيراً وعاد الجوابون يخترقون الآفاق وقد ساعدهم على ذلك انتشار الاسلام في كثير من هذه الاقطار فكانوا موضع احترام القوم اينما حلوا وليس ادلّ على مدى اتساع الرحلة في عهد الدولة العربية من حديث ابن بطوطة وهو سائح عربي من اهل القرن الرابع عشر للميلاد من مدينة طنجه فقد روى انهُ لما كان بالصين بلغهُ ان احد علماء المسلمين قدم المدينة فاتصل بهِ فعرف انهُ احد مواطنيه وفطن الى ان التقى به في دلهي بالهند . ولما ارتحل ابن بطوطه عن ذلك المكان وهبط اواسط افريقيا لقي فيها مواطناً آخر هو اخ للاول . وهكذا كان يلتقي رحالو العرب في اقصى البلدان وانأى الامكنة

على ان قيام الدول العربية في الشرق الادنى وقضاءها على البيزنطيين فيه اوجد في نفوس الاوروبيين شيئاً من الخوف فقلت زيارتهم حتى للاراضي المقدسة الى ان عرفوا خطأهم بعد وقت قصير

وقد سيطرت الكنيسة على الافكار والعقول سيطرة اخضعت كل رأي وقول لسلطانها وصار همّ كل باحث ان يوفق بين ما كان عند اليونان والرومان القدماء من علم وبين ما في الانجيل من ايمان فاذا تعارض الاثنان وجد الدارس في الثاني حصناً من الكفر والزيغان وملجأً من رجس الشيطان فاختلطت على الناس الآراء الجغرافية الصحيحة بالاساطير والمختلقات . وشاب الحقائق العلمية خرافات لايقبلها عقل ولا يرضى بها منطق فصار العالم المعروف منطقته تحيط بها كل انواع الاخطار من كل جانب فلا سبيل اذن للخروج من مسكن الانسان لاكتشاف

مساكن الشيطان او الاهتداء الى منازل الرحمن . وغصبت اقوال قوزمس وازيدور الناس الدرس والتنقيب . فاعتقد الناس ان النجوم مصابيح يخرجها الله كل ليلة لينير الناس لان الشمس والقمر ضعف نورها بسبب خطيئة الانسان . وان الارض يابس يحيط بها ماء ينتهي بالفضاء فاذا وصل امرؤ الى ذلك المكان هوى الى ابليس او الى جهنم — الى مثل هذه الاعتقادات . وان قوماً مثل هؤلاء ينتشر بينهم هذا النوع من التفكير السقيم لاينتظر منهم ان يخاطروا بانفسهم فيخرجوا ليستكشفوا هذه الاصقاع النائية

اضيفوا الى كل هذه الصعوبات الاخرى التي كانت تعترض المسافر طول المدة ، فان اركولف احتاج الى سبع سنوات لزيارة الاراضي المقدسة في القرن الثامن الميلادي . وقد استغرقت رحلة بنيامين التورلي ثلاث عشرة سنة

على ان بعض اقوياء العزيمة من اهل ذلك الزمان ، وبعض المفكرين منهم ، لم يحل دونهم في الرحلة حائل . واكثر ماجاءهم قوة العزيمة من الايمان والتدين فان زيارة الاماكن المقدسة والتبرك بلمس تراب البلاد التي عاش فيها (المخلص) دفعت الكثيرين الى الاستهانة بكل هذه الصعوبات لينالوا هذه القداسة أو ليحصلوا على الشهادة في البلاد نفسها . وفي هذا تتفق النصرانية والاسلام بل ان الاسلام يحتم ذلك .اذ يعتبر الحج احد اركان الاسلام الخمسة ، على من استطاع اليه سبيلا . ومن ثمَّ عني الحجَّاج — المسيحيون والمسلمون على السواء — بتدوين اخبارهم وما وقعت عليه أبصارهم، وما طرق آذانهم ليساعدوا غيرهم في سيرهم وتنقلهم. وقد كان بين الحجاج عدد كبير من اليهود فان هذه الجماعة التي حرمت منذ هدريانوس — في القرن الثاني — الاقتراب من بيت المقدس والتي سمح لها قسطنطين في القرن الرابع بزيارة انقاض الهيكل في التاسع من شهر آب (اغسطس) من كل عام ، كانت تتوافد الى القدس في ذلك العصر من اسبانيا والشرق للقيام بفريضة الحج الدينية. وعندنا من هؤلاء الحجاج الحاج موسى ليونيداس ويهوذا هيلفي وبنيامين التورلي

وقد شاعت آراء واعتقادات كانت ذات صبغة دينية ، كان من شأنها ان تحفز الكثيرين من المسيحيين الاوروبيين الى الرحلات والاسفار وأهم من هذه ان بين الجزر الواقعة في البحر الغربي ، او قرب منابع النيل ، تقع (جنة الفردوس) وهذا الاعتقاد حمل الكثيرين على السفر من اجل الوصول الى هذا الفردوس . وهذه الفكرة نجدها مردَّدةً في كتابات كل الكتَّاب المسيحيين الاول من القرن الرابع الى القرن الثاني عشر

وعني بعض الآباء الروحيين الاوروبيين بزيارة فلسطين للحصول على الآثار المقدسة — وهي ما صاحب المسيح او رسله في حياتهم — اذ كانوا يتكسبون بعرضها على الناس ، وباستخدامها في شفاء الامراض وغير ذلك من الامور ، كما انه كان على بعض هؤلاء

ان يقوموا باسفار تبشيرية في اواسط آسيا وافريقيا لنشر النصرانية بين سكانها

ومما يعتبر باعثاً على زيارة الارض المقدسة خاصة — العقاب . فان بعض المجرمين كان يحكم عليهم بزيارة مولد المسيح وقبره ليخلصوا من جرائمهم ففي سنة ٥٨٨ حكم على خرومون ان يزور فلسطين، عقاباً على جريمة فقيّد بسلسلة وأُلبس رداءً خشناً، وعفر رأسه بالرماد ، وسار حافياً . ولكنهُ عاد بعد اربع سنوات ، فلم يعف البابا عنه فقام بالزيارة ثانية ، حتى نال رضى قداسته

ولعلَّ التجارة اكبر ماحمل الناس على الاسفار رغبة في نقل المتاجر ، والتعرف على الطرق واختيار افضل وسائل الكسب . ومن هؤلاء التجار من دوّن اخباره ووصف الاقليم وصفاً دقيقاً فيه الصحة كل الصحة ، والاسلام الذي شجع التجارة بالقدوة ، اذ كان النبي واصحابه تجاراً ، خدم العلم خدمات جلى من هذه الناحية

يمكننا مما مرَّ بنا ان نقسم الرحالين الى حجاج ومبشرين وتجار وعلماء . والحجاج المسيحيون الذين زاروا الاراضي المقدسة قبل القرن الثامن الميلادي خلفوا عن رحلاتهم آثاراً كثيرة ، بعضها فيه روح التحقيق ، واكثرها مجموعات من الاساطير والخرافات . وقد ازداد مجيء هؤلاء الحجاج في القرن العاشر تلبية لنداء البابا من جهة واعتقاداً بان مجيء المسيح الثاني قد قرب ومن ثمَّ فمن المهم ان يكونو فيها لينالوا البركات . وحجاج هذه الفترة كانوا على درجة كبيرة من الجهل فلم يتركوا آثاراً قيمة والذي ابقوه على كل حال يميل الى هذه العقلية السخيفة التي كانت تمتاز بها الجماعة الاوروبية في ذلك الزمن . اما المبشرون فاتخذوا اواسط آسيا مركزاً لاعمالهم، اذ كانت همة البابا متجهة نحو تنصير القبائل المغولية التي اخذت تهاجم الشرق، وترعب اوروبا بقوتها وسطوتها . وقد اشتدت هذه الحركة بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر . وبعض ما كتبهُ هؤلاء المبشرون عن تلك البلاد من خير ما يمكن الرجوع اليهِ في درسها

والتجار الذين تركوا اخبار الاقطار التي زاروها ، وبحثوا في حالتها الاقتصادية والاجتماعية، كثيرون . وقد كان العرب اصحاب السبق في هذا المضمار . ومما وثق الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، وحل عن العقول بعض القيود ، فالحروب الصليبية

والرحالون الذين كان رائدهم في الرحلة الرغبة في الدرس والبحث بلوا عدداً كبيراً ، ولكنهم جاءوا في القسم المتأخر من القرون المتوسطة . ومن العرب ابن جبير وابن بطوطة ومن الافرنج ماركوبولو . وهذا الاخير كان من التجار ايضاً . وهؤلاء الثلاثة اعلام الرحلة العلمية في تلك القرون . « فسياحات ماركوبولو » يعتبرها الكاتب الانكليزي المستر ولز بين الكتب التي اثرت في تطور العقل البشري . وكتابات ابن بطوطة يشهد لها في دقتها ان كلية غوردون في الخرطوم تدرس فصل « ابن بطوطة في السودان » لدقته . اما ابن جبير فمن يقرأ كتابه يقرأ كتابة سائح حديث مزود بطريقة التفكير الصحيحة

« لها تتمة »

التوائم والمحيط

للدكتور شريف عسيران

التوائم نوعان ، مختلفة ومتشابهة . فالتئمان المختلفان هما المتولدان من بيضتين مختلفتين تلقحتا في آن واحد . والمتشابهان يتولدان من بيضة واحدة . ان اكثر الحيوانات الثديية كالهررة والكلاب تلد عدة اولاد دفعة واحدة تتولّد من عدة بويضات ناضجة تلقحت في آن واحد وقد يحدث ذلك في البشر فيولد تئمان او اكثر من تلقيح بويضات مختلفة . ويختلف تولّد التوائم باختلاف الحيوان . ففي المدرّع (Armadillo)[1] تنقسم البويضة الملقحة الواحدة في بدء تكونها الى اربعة اجزاء ينمو كل منها نمواً تاماً مستقلاً ويصير فرداً كاملا . ويتولد التئمان في البشر بطريقتين الاولى انقسام البويضة الواحدة الى عدة خلايا يصير كل منها جنيناً كاملاً والثانية تولد التئمين من بويضتين مختلفتين او اكثر . والنوع الانساني هو الوحيد الذي تحدث فيه الطريقتان . ولا يحدث في غيره من الانواع الحيوانية الاّ احداها

فالتئمان المختلفان لا يتشابهان في صفاتهما الوراثية لانهما منشقان من بويضتين مختلفتين واما التئمان المتشابهان فيتشابهان في صفاتهما الوراثية لان عواملهما واحدة . وقد اجروا احصاء في اكثر البلاد المتمدنة للتوائم فكانت النتيجة كما يلي : يحصل في المائة ولادة ولادة واحدة ذات تئمين . وفي كل عشرة آلاف ولادة ، ولادة واحدة ذات ثلاثة أتآم . وفي المليون ولادة ولادة واحدة ذات اربعة أتآم . ونظراً لاختلاف ولادة التوائم باختلاف الامصار وبسبب موتها قبل الولادة وقصر حياتها وتعسر ضبط تسجيلها لا يمكن جمع احصاء اممي عنها

وتزداد وفيات التوائم بزيادة عدد أجنتها فكلما ازداد العدد كانت اكثر تعرضاً للموت فالتوأم الثنائي أقل تعرضاً للموت من التوأم الثلاثي وهذا أقل تعرّضاً من التوأم الرباعي وهلمّ جرّاً

وقد تبين من احصاءات الحكومة الانكليزية انهُ يعيش من كل توأم ثلاثي نصف

---

(١) حيوان ليلي عديم الاسنان وهو موجود في اميركا الجنوبية جسده ورأسه موضوعان ضمن درع من عظم وجاء في معجم الحيوان : حيوان اميركي ادرع يأكل النمل ، اللفظة ترجمة الهلال

البنات و ٣/٨ الصبيان وسجلوا رسميًا توأمًا سداسيًا ولدت أجنته في آن واحد

بيّنا أن التثمين المماثلين او المتشابهين ينشقان من خلية واحدة ويكون هذا الانقسام او الانشطار احيانًا غير كامل فيبقيان متصلين بعض الاتصال ويسميان التثميْن المتصلين Siamese twins فالتمان المنشطران من خلية واحدة يكونان دائمًا من جنس واحد إما ذكرين او انثيين وهما متشابهان كل الشبه فالواحد نسخة طبق الاصل للآخر . وفي الواحد منهما نفس العوامل الوراثية التي في الآخر عددًا ونوعًا . ولا يمكن ان يتشابه التمان المنشقان من بيضتين مختلفتين ولا افراد العائلة الواحدة تشابُهَ التثمين المماثلين . فاذا قابلنا التثمين المتشابهين بغير المتشابهين وغيرهما من افراد عائلة واحدة استطعنا ان نعلم منشأ اختلاف الصفات . فالاختلاف الذي نشاهده في التثمين المتشابهين لا بدَّ ان يكون سببه غير العوامل الوراثية لانها واحدة في الاثنتين

وقد درس هذا الموضوع حق الدراسة فوجد ان منشأ الاختلاف بين التثمين المتشابهين غير العوامل وغير المحيط . فاننا نجد غالبًا ان أحد فردي التثمين ايمن والآخر ايسر فلا يمكننا نسبة هذا الاختلاف الى العوامل الوراثية ولا الى المحيط لان الوراثة والمحيط واحد في الحالين . وقد حاولوا تعليل هذا الاختلاف بنسبته الى وضع احد التثمين قبل الانشطار فيكون احدهما في وضع خاصٍ منذ تكوّن الخلية فيحافظ عليهِ حين الانشطار اي يكون موضع يده يمينًا او يسارًا فيستمر على الحالة التي كانت فيها . اما الثاني فيتغير موضع يده اثناء الانشطار . فالتمان المتشابهان اللذان فيهما نفس العوامل الوراثية يكون احدهما ايمن والآخر ايسر بسبب الظروف التي تصادفهما في بدء نشأتهما ويكون احد التثمين في كثير من الاحيان اقوى وانشط من الآخر وسبب ذلك ظروف خاصة في اثناء التكون . ويظنُّ ان التم الذي يحافظ على الوضع الاصلي قبل الانشقاق يكون عادة اقوى وانشط . اما في ما عدا هذه الفروق فان التثمين المنشقين من خلية واحدة يتشابهان تمام المشابهة في الجنس ولون العينين والجلد والشعر وفي حجم الجسم وترتيب الاسنان وتقاطيع الوجه والآذان والايدي وفي الامراض التي تنتابهما وشواذ خلقتهما ولهجة صوتهما واشاراتهما ويوجد مشابهة مجهرية في أسرَّة الكفّ (خطوط الكف) وأخمص القدم وبصمات الاصابع وتسترعي نظرنا ظاهرة غريبة وهي ان اسرّة كف احد التثمين اليمنى مثلاً تشبه صنوها اكثر من مشابهة اليسرى لصنوها وهذا الفرق ناشيء عن ظروف خاصة اثناء الانقسام وينكر بعض العلماء هذه الفروق

***

بيّنا ان في التثمين المتشابهين شخصيتان لكل منهما نفس العوامل الوراثيـة التي

للاخرى فلا يمكن ان تنشأ فروقهما العقلية عن اختلاف تلك العوامل ولا بدَّ ان يكون منشأ هذا الاختلاف اختلاف محيطهما ونشأتهما . وقد درسوا اربعة توائم ثنائية درساً دقيقاً معززاً بالتجارب العلمية بعد ان فصلوهم بعضاً عن بعض في اوائل حياتهم فدرس تثميْن منهم الاستاذ مُلر Muller الاخصائي بعلم الانسال والتوائم الثلاثة الباقية درسها الاستاذ نيومان Newman الاخصائي بعلم الأجنة وبيولوجيا التوائم واليك نتيجة ابحاثهما :

اختار ملر اختين تثميْن فصلتا في اول اسبوع من حياتهما ولم ترَ احداهما الاخرى الاَّ في سن الثامنة عشر وبقيتا مفترقتين من ذلك الحين الى سن الثلاثين اي اكثر من تسعة اعشار عمرهما فعاشتا في اقليم شمالي غربي خصب وفي ارض غزيرة المعادن وفي احوال اجتماعية متشابهة فكانتا متشابهتين جسديًّا كل التشابه وصفاتهما هي نفس الصفات التي يتفق فيها التثمان المتشابهان. فكانت كلتاهما نشيطة همامة قديرة محبوبة واشتهرتا في الاعمال التي تقتضي التعاون كالجمعيات وما اشبه وأصيبت كل منهما بالتدرن الرئوي مرتين او ثلاثاً في نفس الوقت . واصيبت احداهن بخور في اعضائها وهي في العقد الثاني من العمر وكانت الاخرى على وشك ان تصاب بهِ كذلك . ونتيجة امتحان الذكاء متشابهة في الاثنتين مما يدل على ان المشابهة ناشئة عن العوامل الوراثية . وقد اختلفت نتائج التجارب الاخرى غير العقلية اختلافاً بيناً كفترة رد الفعل الحركيّ Motor reaction time وسرعة ربط الامور بعضها ببعض Association time والارادة والعواطف والاتجاه الاجتماعي وكان اختلافهما من هذه النواحي اكثر من اختلاف شخصين آخرين اختيرا صدفة واجريت عليهما نفس التجارب

ويتبين من درس هاتين التثمين المتشابهين ان لمحيط المرء ونشأتهِ اثراً كبيراً في طباعه وعواطفه ومظاهره الاجتماعية فهذه الصفات تختلف اختلافاً بيناً في نفس الاشخاص الذين فيهم عين العوامل الوراثية في حين ان نتائج امتحان الذكاء تتأثر تأثراً يسيراً بالمحيط وكانت متشابهة في الغالب

ودرس نيومان توأميْن ثنائيين احدهما اختان والآخر اخوان وكان كل منهما تثميْن متشابهين فصل احدهما عن الآخر قبل ان يبلغا السنة الثانية من العمر وبقيا منفصلين حتى سن العشرين . ولد توأم الاختين في لندن ثم فصلتا في سن ١٨ شهراً فسكنت احداهنَّ انتاريو بكندا والاخرى لندن واجتمعتا بعد ١٧ سنة في انتاريو وبقيتا معاً سنة كاملة اجريت في خلالها التجارب عليهما . وكان محيطهما مختلفاً كل الاختلاف في خلال انفصالهما . ومن الغريب ان نتائج تجربة نيومان كانت مختلفة حيث تشابهت نتائج تجربة ملر والعكس بالعكس . فاختلفت الاختان التثمان كل الاختلاف في مواهبهما العقلية . ويقول نيومان ان الاختلاف بينهما كان ثلاثة اضعاف الاختلاف بين ٥٠ من التوائم الثنائية المتشابهة التي نشأت معاً . وعلى الضد من ذلك

تشابهت ارادتهما وعواطفهما . وفي هذه الحادثة دليل قوي على ان اختلاف تجارب الحياة يؤثر في القوى العقلية ونتائج امتحان الذكاء

اما توأم الاختين الثاني فهذب تهذيباً مختلفاً فبقيت احداهما في المدرسة سبع سنوات اكثر من اختها. واليك خلاصة تقرير نيومان عنهما :

ان هاتين التئمين اللتين كانتا متشابهتين في سن ال ١٨ شهراً بقيتا تسع عشرة سنة تجهل احداهما الاخرى فتكيفتا تكيفاً كبيراً بسبب اختلاف طرق تهذيبهما . فان تفوق احداهنَّ العقلي على الاخرى كان ظاهراً كل الظهور سواءٌ من الوجهة الفطرية (الطبيعية) او غيرها . فالتئم التي تهذبت اكثر من اختها كانت اشدَّ تفوقاً من الناحية العقلية

ومن البديهي ان التمرين العقلي ينمّي مقـدرة الفرد ويسهل عليهِ جواز اي نوع من امتحانات الفهم حتى الامتحانات الامية التي لا يستعملون بها لغة ويقتصرون فيها على فحص ذكاء الشخص وقوَّة نباهتهِ وكانت عواطفهما وانفعالاتهما النفسية متشابهة تشابهاً بيناً على الضدّ من مواهبهما العقلية

***

اما الزوج الثالث فكان اخوين تئمين احدهما زيد سكن المدينة والآخر عمرو سكن القرية وقد امتحنا ولهما ٢٣ سنة من العمر فكانت مواهبهما الطبيعية متساوية تقريباً . وظهر فرق بين في شخصيتهما العامة فكان زيد اكثر انفة وتحفظاً واحتراماً لنفسهِ واشجع واكثر اختباراً واقل مصادقة من عمرو يبتسم دائماً وسيماء المهابة في جبهتهِ وعينيه اكثر من عمرو ويقف منتصباً اكثر منهُ وذقنه مرتدة الى الوراء وحجاجاهُ متدليان تقريباً على عينيه . ويختلف عمرو عنهُ فهو نموذج لمن يسكنون القرى يضحك حالاً ولا يحافظ على وقاره قط . ويؤكد نيومان ان شخصيتي الاثنين كانتا مختلفتيْن كل الاختلاف

***

ان درس افراد التوائم الاربعة الذين نشأوا منفصلين يؤيد ما يذهب اليهِ البعض من ان للمحيط والنشأة تأثيراً عظيماً في الصفات العقلية والنفسية حتى في الاشخاص الذين تكون عواملهم الوراثية متشابهة . ويؤيد ايضاً ان للعوامل المذكورة تأثيراً بيناً فالتوائم كانوا متشابهين في كثير من صفاتهم العقلية تارةً وطوراً في امزجتهم مما يبين ان للعوامل والمحيط أثراً في العقل والنفس

[المقتطف] جاء في المحيط صفحة ١٥٥ ج ١ مادة تأم : أتأمت الام اتآماً ولدت اثنين فصاعداً في بطن واحد فهي متئم . وتاءم اتئاماً متاءمة ولد معه فهو تئمه وتؤمه وتئيمه . ويقال هذا توأم للذكر وهذه توأمة للانثى فاذا اجتمعا فهما توأمان وتوأم كما يقال لهما زوجان وزوج

مكانك يا عشق

ظننتك وليت يا عشق فيما   اراك تعاود جني السقيما
وبالأمس كنا حلفنا ليقطعن كلانا أخاه الحميما
لعل القطيعة شقت عليك   فجئت تجد الوصال القديما

*

مكانك يا عشق، ان جئتني   لتشجي فاني ملئت الهموما
ألا قد بلوتك حتى تبينت خلف رُوائك وجهاً شتيما
كأنك خمر تريح الفؤاد   وتنشر في الجسم داء مقيما
كأنك ادركت كيف تطيب فيك الحياة فتجري نعيما
فأرسلت تلك الهموم اقتضاء   ولم ار اعسر منك غريما

مصر الجديدة   بشر فارس



جان جاك روسو

تحليل دقيق لمبادئه وآرائه الفلسفيه

﴿ تمهيد عن روسو ﴾ يكاد يكون روسو الوحيد بين الفلاسفة الذي انشأ نفسه بنفسه لانه لم يدخل مدرسة ولم يتعلم ويتثقف الا بين احضان الطبيعة ، فشب حراً من كل قيد ، طليقاً من كل ما يرسف فيه غيره من اغلال العادات والتقاليد ، نفوراً من الناس لا يميل الى معاشرتهم ولا يأنس بصحبتهم ، لانهُ رافق البؤس منذ نعومة اظفاره وذاق من مرارة العيش وعلقم الحياة ما جعلهُ حقوداً على بني البشر ، نزوعاً الى لوم مساوئهم ، ميالاً الى عدم الثقة بعدالتهم وبصلاحهم . وقد كان في شبابه وسيم المحيا جذاب الملامح وأكسبه تجواله في الجبال والاودية متانةالعود ورشاقة القد فأصبح جميلاً فتاناً ولذلك صادف نجاحاً عند كل الذين تعرّف بهم ولاسيما لدى الجنس اللطيف ، وكان ذلك مدعاة لانضاج آرائه الفلسفية ومذاهبه الاجتماعية التي بثها في كتبه فعجلت في اشعال نيران الثورة الفرنسية وكان لها اكبر تأثير في مذهب الادب التجديدي المسمى رومانتيك

وقد خالف سائر الفلاسفة في آرائه وتخطاهم بمراحل عديدة ، واهم فارق يبعده عنهم هو كونه حاسياً . اي انه لا يهيم في اودية الخيال ليعبر عما يتصوره بادراكه وعقله بل كان يرسم بقلمه ما يشعر به بحواسه . فبينما سائر الفلاسفة يقضون اوقاتهم في التفكير كان روسو يقضي وقته بالتمتع والتألم ، وبينهما وصل غيره بالبحث والتحليل الى فكرة الرأي وتكوين العقيدة وصل هو بحسه وطبيعته الى حقيقة الادراك وصحة الاعتقاد ، فاولئك يبحثون ويحللون وهو يعيش ويشعر ، وكل ما خطته انامله مستق من شعوره واحساسه ولذلك بدت آراؤه كانها مستخلصة من مسبباتها ، شعرية ، حقيقية ، ثابتة ، مشيدة لا مخربة هدامة ، على نقيض آراء غيره من الفلاسفة التي تبدو على الخصوص تحليلية ، نقادة ، سلبية ، انكارية ، نافية ومدمرة . فلدى هؤلاء الفلاسفة حقد أتم ، وتهكم أعم ، واستهتار وازدراء عظيمان ، حيث لايوجد لدى جان جاك روسو سوى حماسة وحبور وافتتان وسرور

﴿ حياة روسو ﴾ ولدجان جاك روسو في مدينة جنيف بسويسرا في اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو سنة ١٧١٢ من اب فقير يشتغل باصلاح الساعات ، وماتت امه وهو طفل فكفلته عمتاه ولكن لم ينل منهما اعتناء كبير بينما ابوه الارعن الاخرق كان يحشو عقله وتصوراته بالروايات العشقية ، فكان يقضي واياه الليالي ساهرين يقرآنها بشغف وهيام حتى مطلع الفجر ،

ثم نبذ روسو الروايات والقصص وعكف على قراءة فلوطرخس المؤرخ اليوناني والاخلاقي الكبير الذي وضع كتابه الشهير المسمى «تاريخ الرجال العظام عند اليونان والرومان» فملأ الفتى رأسه باخبار الاقدام والشجاعة . وفي سنة ١٧٢٢ غادر والده مدينة جنيف لسبب غير مشرف وعهد بابنه الى خاله برنار والى زوجته فادخلت هذه الاخيرة روسو في معهد عند احد الرعاة الانجليكانيين الكائن في بوسي بالقرب من جنيف ، فتفتحت ميول الفتى للطبيعة لكنه عاد الى جنيف ووُظف عند احد النساخ لكنه لم يحسن القيام بما طلب منه فأدخل عند حفار غليظ الكبد صخري القلب كان يشبعه ضرباً فيسرق له روسو فواكه حديقته وكل ما تصل اليه يده

وكان قرب حانوت الحفار مكتبة فشرع الفتى يقرأ كل كتاب يجده على متناول يده لكن الحفار كان يحرق له الكتب ويضربه ضرباً موجعاً اليماً . فعوّل روسو على ان يجد له مخرجاً مما هو فيه ، وبينما هو ذات يوم يهيم في ضواحي جنيف متمتعاً بما يتجلى امامه من مناظر الطبيعة الخلابة اقبل الليل من دون ان يدري ، ولما قفل راجعاً وجد ابواب المدينة مغلقة فحمد الله على هذه الفرصة وعزم على هجر جنيف والضرب في هضاب الارض وشعابها وكان عمره وقتئذ ست عشرة سنة ، فسار في مقاطعة السافوى فالتقى به قسيس كاثوليكي فأرسله الى قصر سيدة تسمى مدام دي وارانس اخذت على نفسها رد البروتستانت الى الكثلكة ، فراقها حسن منظره فبعثت بهِ الى دير في مدينة تورين حيث اعتنق المذهب الكاثوليكي بسهولة ، وبعد ذلك غادر الدير وفي جيبه عشرات الفرنكات ولما نفدت التحق بخدمة المنازل ليعيش

وبعد ما تنقل في مدن عديدة وبلدان شتى عاد الى قصر مدام دي وارانس فادخلته في دير قريب ليصبح قسيساً لكن نزعته الآفاقية ما لبثت ان عاودتهُ فشرد في البلاد وزار لوزان ونيوشاتيل وليون وباريس وحط رحاله في مقاطعة الشارميت الجميلة حيث مكث ثلاث سنوات من سنة ١٧٣٨ الى سنة ١٧٤٠ ، فعكف على الدرس والمطالعة واتمام ثقافته فدرس الكتب الفلسفية والتاريخية واللاهوتية والشعرية وغيرها

وبعد ما طوّحت به الاقدار في بلدان اخرى عاد الى باريس وتعرّف بالعلماء والفلاسفة ، فكلفهُ الفيلسوف ديدرو ان يدبج المقالات الموسيقية اللازمة لدائرة المعارف ، وفي سنة ١٧٤٩ وضعت ندوة العلوم في مدينة ديجون جائزة مالية لمن يحسن الاجابة عن هذا السؤال «هل تقدم العلوم والفنون ساعد على افساد الاخلاق او على تطهيرها ؟ »

ففاز روسو بالجائزة لان جوابه كان مضادًّا للرأي العام القائل بان العلوم والفنون هذّبت من طباع البشر ورفعت من اخلاقهم . فظهر دفعة واحدة وذاع صيته وانتشر اسمه ولما اظهر كتابه المسمى « رسائل في عدم المساواة» احدث الكتاب ضجة عظيمة ودويًّا كبيراً في اندية الادب وفتحت الصالونات والقصور في وجه المؤلف الشاب لكنهُ كان جافًّا في طباعه نفوراً

من الناس لا يحسن المعاشرة ولا يميل اليها ، فنبذ كل هذا وهجر المال الوفير الذي كان يتدفق عليه وعاد الى تجواله رغم تمسك رجال الادب والفلسفة بهِ

وفي سنة ١٧٥٤ رجع الى احضان البروتستانتية ، وبعد ما جاس الديار في فرنسا وسويسرا وانجلترا وعشق كثيراً وتبدَّل اكثر عاد الى باريس وسكن في منزل حقير وشرع ينسخ القطع الموسيقية ليجد ما يقتات بهِ بعد ما صودرت كتبه في كل البلدان تقريباً

وعندئذٍ تولاه شبه جنون كان يصور له الناس كلهم اعداء له يعملون على النكاية بهِ فأغلق بابه دون قصاده وزواره الذين كان معظمهم من علية القوم وذوي المكانة الادبية والعلمية وكان يطردهم بغلظة وفظاظة ، ومات في سنة ١٧٧٨ فقيراً معدماً ويقول التاريخ من المحتمل ان يكون قد انتحر مدفوعاً الى ذلك بالخلل الذي طرأ على عقله

﴿ مؤلفات روسو ﴾ لبث هذا الفيلسوف الكبير والكاتب العبقري حتى السابعة والثلاثين من دون ان يخط شيئاً او يبرز رأياً الى ان جرت مباراة اكاديمية العلوم في ديجون في هل ساعد تقدم العلوم والفنون على رقي الاخلاق او عمل على افسادها، فكتب رسالته الشهيرة وفاز بها على سائر المتسابقين وكان ذلك في سنة ١٧٤٩ ، ومنذ ذلك الزمن حتى سنة ١٧٦٢ اي في اثنتي عشرة سنة وضع كل مؤلفاته التي رفعته الى اعلى طبقة بين رجال الفلسفة والادب وهي « نارسيس » و « هيلويز الجديدة » و « رسالة في المناظر » و « العقد الاجتماعي » و « اميل » و « رسائل في عدم المساواة »

واما « اعترافاته » ومتمماتها « التأملات » فقد الفها في الست عشرة سنة الاخيرة ، وهي ليست بذات قيمة من الوجهتين الفلسفية والادبية، لانها ليست سوى تخيلات شيخ طاعن في السن يحيا بتذكاراته الماضية معيداً في مخيلته باشتياق عظيم ولذة كبيرة حياته السالفة المشوَّشة غير المنتظمة

﴿ آراء روسو الفلسفية الاجمالية ﴾ الانسان صالح في حالته الطبيعية ، وكيف يمكنه ان يكون غير ذلك والشرائع غير موجودة وعلم الاخلاق الاصلاحي لا اثر له ؟ فهو لا يخطىء ضد القواعد اذ ليس ثمت قواعد ، وهو اناني لكنه لا يتبع في ذلك غير الغريزة التي تملي عليه المحافظة على بقائه ، فهو اذن بريء كالحيوان ، لا يسعى الاَّ لاشباع حاجته فلا يمد يده باذى الى احد ، ولا يتطلب شيئاً غير ذلك اذا ما نال تلك الحاجة . وهو ذو احساسات لطيفة او متعبة توقظ نشاطه وتنبّه غريزته ، ولا يتطرق اليه الفساد الاَّ في اليوم الذي يعلو فيه تفكيره على احساسه ويسمو فيه عقله على غريزته ، فمنذئذٍ تخليّ انانيته الشرعية الجميلة المكان للمنفعة الظالمة الكريهة، فالتنازع والشقاء يتولدان من تعدد الاحتياجات ومن الابتكارات المصطنعة للذَّات الآراء ، ومن الاحتياطات للمنافع المقبلة المخالفة للطبيعة، فالاجتماع قد افسده بايجاده فيه التفكير والعقل والمنفعة، وباماتته في عاطفته حاسة الشفقة ، وبتنبيهه فيه شهوات النفس الى ما وراء حاجته ، وبتخطيه في ذلك حدود الحاضر وتطلعه بلهف الى المستقبل القريب والبعيد

﴿ رأيه في «رسالته في عدم المساواة» ﴾ يظهر لمن يدرس مؤلفات هذا الفيلسوف ان آراءه متضاربة متناقضة ومبادئه لا تسير على وتيرة واحدة بل هي متعارضة متباينة قد ينقض بعضها بعضاً ، وهذا ماعابه عليه كثير من النقاد ، ولكن من يتعمق في درس كتب روسو ويستوعبها بكل دقائقها يجد ان آراءه وان بدت في الظاهر غير ذات صلة فهي في الباطن متضامنة متناسقة متسلسلة ترمي الى غرض واحد وهو ان الانسان خلق حرًّا فاستعبد وولد سعيداً فأرهق بالمظالم والمغارم ، وان الانسان الطبيعي اشرف نفساً وارفع مبدأً من الانسان الاجتماعي فيجب اذن الرجوع الى الطبيعة ولكن في عدم تقهقر الانسان عما وصل اليه في الاجتماع ، لان الطبيعة لا تتقهقر — وهنا سر المآخذ التي يأخذها النُقّاد على روسو — فهو يعترف في بعض كتبه مُجلياً هذه النقطة من ان الانسان الاجتماعي افضل من الانسان الاصلي أي من الانسان القديم الذي كان يعيش في احضان الطبيعة كالحيوان الاعجم ، ولكن يجب ان ينقّى الاجتماع من الشوائب التي تسللت اليه لكي يتسنى للانسان الاجتماعي ان يعيش في بيئته الجديدة حرًّا طليقاً من كل قيد ، سعيداً لا يرهقه عَسْف ولا ينزل به ظلم او جور ، بعيداً عن المؤثرات الاجتماعية التي تفسد ميوله الفطرية السامية وتدهور اخلاقه وتنزل من سمو نزعاته ومراميه . واما رأيه الذي ابداه في عدم المساواة فينحصر بقوله : ان رذيلة الاجتماع الاساسية هي عدم المساواة بين افراد البشر ، وتوجد في الطبيعة ايضاً نقيصة مثل هذه لكنها لا تمنع احداً من ارضاء شهوة نفسه ، ولا تُعفي احداً من العمل على ارضائها ، فهي تترك كل واحد حرًّا وتوجده صالحاً وسعيداً ، واما عدم المساواة الاجتماعية فهي تخلق امتيازات بين افراد بني الانسان فتقول لبعضهم خذوا كل شيء ولا تعملوا شيئاً بينما تقول لسواد الناس : كدُّوا واتعبوا ولكن ليس لانفسكم بل لغيركم . فتُوجِد بذلك ظُلاّماً وعبيداً واشراراً واشقياء

واصل الداء الاجتماعي المِلْك ، فهو ركن الهيئة الاجتماعية ودعامتها المتينة ، فالقوة والجاه والعظمة والشرف كل هذه الصفات المجحفة تعود الى عدم المساواة في توزيع الاموال أي تعود الى المِلْك ، وبمراعاة هذه الحالة يمكننا ان نعبر عن الشر الاجتماعي بانه تعارض بين الغنى والفقر

﴿ جوابه عن سؤال اكاديمية العلوم في ديجون ﴾ لما كان الاجتماع شريراً في جوهره ، ولما كان كل تقدمه ينحصر في كونه يسير من سيء الى أسوإ ، فَسِمَةُ الحالة الاجتماعية البارزة هي دليل على فساد اشد واقوى ، أي كلما امعن الاجتماع في رقيه كان شره أعم وضره أتم ، لان تقدم الهيئة الاجتماعية يقاس بدرجة إيناع الآداب والفنون التي هي ابتكارات الانسانية الذكية ، غير انها تدل دلالة واضحة على عَسْف هذه الانسانية وظلمها ، لان هذه الابتكارات متولدة من الشر ، وهي في الوقت نفسه تُذْكي هذا الشر وتزيد في ضرامه ، لاننا نرى في كل مكان الآداب والفنون على صلة وثيقة بالترف ، وما التَرَف الأغنى البعض بشقاء الكل

﴿ مذهب روسو في العقد الاجتماعي ﴾ الرجوع الى الطبيعة . . ولكن لما كانت الشقة قد بعدت بين الحالة الفطرية والحالة الاجتماعية لا يتسنى للانسان ان يتخلص من هذه ليعود الى تلك . واذا أمكنه ذلك اصبح اشقى مما كان ، لان الانسان المتوحش والانسان المتمدن يختلفان اختلافاً عظيماً بنزعاتهما وعواطفهما واميالهما وخوالج فؤاديهما حتى ان ما يسبب سعادة الواحد يعود بالتعس على الآخر ، لان الانسان المدني افضل من الانسان الفطري من عدة وجوه ، ولو انهُ في حالته الجديدة يتجرد من مزايا عديدة كانت تمنحها له الطبيعة، ولكنه يربح في مقابل ذلك مزايا اخرى عظيمة، فخواصه تتمرن وتتبسط ، وقواه العقلية تتمرس بشؤون الحياة ، وافكاره تتسع ، وعواطفه تسمو وتشرف ، ونفسه كلها ترتفع وتعلو حتى انه لولا التطرف في تقمصه الحديث الذي ينزل به في اكثر الاحيان الى دركة احط من التي ارتفع منها لوجب عليه ان يبارك الزمن السعيد الذي انتشله الى الابد من تلك الهوة العميقة ، والذي جعل منه مخلوقاً ذكياً بل صيره انساناً بكل معنى الكلمة

ان روسو لا يود ان يعود الانسان القهقرى الوف السنين ليفوز بالمزايا الفطرية التي كان يتحلى بها بل يريد ان يحتفظ هذا الانسان بما وصل اليه من رقي عقلي وتثقيف ذهني وتقدم علمي دون ان تسف الاخلاق الاجتماعية بهذه الصفات السامية الى الدرك الاسفل

ويتطلب هذا الفيلسوف من الهيئة الاجتماعية ان تمنح هذا الكائن النازع الى الكمال الحرية والسعادة والطيبة والصلاح وهي المزايا الطبيعية التي كان الانسان الاول يتحلى بها قبل ان يجرده منها الاجتماع ومساوئه ، ويعقب على ذلك بقوله ان الطبيعة اوجدت الانسان صالحاً لكن الاجتماع أفسده ، ولا يمكن للانسان ان يعود الى صلاحه الفطري الا بالله الذي خلقه صالحاً لكنه زاغ وحاد عن الطريق السوي ، فالله القائم في نفسه يعيده الى ما كان عليه ، لانه ينبوع العزيمة الاخلاقية وسند الارادة وخير كفيل للتعهدات النفسية واعظم شهيد على خوالج القلب ونزعات الفؤاد، وبدون الله ينهار كل شيء ويضمحل بل يزول ويعفو اثره

ورأي روسو في العقد الاجتماعي ان لا يقتصر الاصلاح على الفرد بل يتناول المجموع ، فكما ان الفرد في حاجة الى تقويم مبادئه برجوعه الى فطرته الاولى كذلك الاجتماع محتاج الى الاصلاح في أسسه وتشريعه ، ويتسنى للهيئة الاجتماعية تنقية شوائبها برجوعها الى مبدئها أي الى السبب الذي كونت من أجله

﴿ فلسفة روسو في كتابه « إميل او التربية » ﴾ التجديد المطلوب للفرد يبدأ بالتربية ، فالطبيعة صالحة والهيئة الاجتماعية شريرة ، فيجب اذن ترك الحرية للطبيعة لتعمل عملها الصالح وابعاد الاجتماع عن التعرض لامر الطفل الذي يجب ان يكون بمعزل عن كل تأثير اجتماعي . فالطبيعة اوجدت الانسان المتوحش ، فلنجعل طفلنا متوحشاً ، ولنقوِ جسمهُ ولننمّ

حواسه وننبّه غريزته ونساعد فكره على التخلص من احساساته ولنصبر حتى يبدو عقله بدون ان نستعجل نضوجه بالوسائل ، فالانسانية تعلمت بالاحتياج والاختبار ، فلنهيء للتلميذ الاحتياج ولنجهز له التجارب والاختبارات ، فالشكل البارز للفساد الاجتماعي هو في وقتنا هذا « علم الادب » فيجب اقصاء الكتب عن التلميذ الذي لا يجب ان يبدأ بالقراءة الاّ في السن التي يتسنى لعقله فيها نبذ الرذيلة وتفهّم الجمال ، فالطبيعة لا تعرف غير الله ، واما القواعد الدينية فمن مبتكرات الهيئة الاجتماعية

فعلينا اذن ان لا نظهر للتلميذ غير الله ، وان لا نظهره لهُ الاّ عند ما يتمكن هو من رؤيتهِ في الطهارة وفي لا نهاية جوهره ، فاذا نهجنا هذا المنهج شبّ طفلنا قويًّا نبيهاً صالحاً ذكيًّا عاقلاً تقيًّا سعيداً لأن الانسان الفطري الذي أُغْنِيَ في الطفل دون ان يفسده مبدأ اجتماعي قد مكّنهُ من الفوز بكل مزايا الطبيعة دون ان يتسلل الى هذه المزايا نقائص الانسان المدني ورذائله

﴿ من اين استوحى روسو آراءه وافكاره ﴾ تدور كل مؤلفات روسو على محور الفردية ، فعقيدتهُ باجمعها مستقاة مما ألمَّ بشخصهِ ، لانهُ عبَّر في كتبهِ عن ذاتهِ وعن صلتها بالهيئة الاجتماعية . ولكن لا يجب ان يتبادر الى الذهن ان روسو انما اتى بآراء وافكار لم يسبقهُ اليها احد قبله ، فقد كان شأنهُ في ذلك شأن غيره من الفلاسفة والكتّاب ، فالمتأخر يأخذ عن المتقدم نظريات يعود الفضل فيها اليهِ لتوسعه في شرحها وتبيانها والباسها ثوباً قشيباً لم يكن لها من قبل حتى تبدو كأنها جديدة لروائها وبهائها

فقد اخذ روسو عن الفيلسوف ديدرو رأيه في مناصبة الاجتماع العداء وفي العودة الى الطبيعة ، وتناول من كونديّاك مذهبه الخاص على الاخذ بالامور الحسية والانتقال من المشخّص الى المجرَّد ومساعدة الطفل على ان يكتشف بنفسه كل الافكار والآراء عوضاً عن ان نلقنهُ اياها (وهذا ما بنى روسو عليهِ كتابه المسمى اميل او التربية)

واخذ عن بوفون الآراء المدعمة والمقوّمة لحدْسه عن الانسان الفطري وعن مذهب التحوّل القاضي بتطور العالم وما فيهِ من الكائنات ، وتناول من مونتسكييه فكرة الشخص المتوحش المجبول البريء وفكرة عدم المساواة وظلم الجماعات للفرد ، واخذ ايضاً عن هذا الكاتب الاقتصادي والاجتماعي وعن بوسييه وعن هبز المذهب القائل ان كل الحقوق تتخذ اصولها ودعائمها من الهيئة الاجتماعية وان الانسان يستمدّ هذه الحقوق كلها من الاجتماع نفسه ، وتناول عن بسكال فكرة الحكم على المِلْك الذي كان ذلك الفيلسوف يعده اغتصاباً بيّناً

وصفوة القول ان كل هذه الآراء كانت شائعة في زمن روسو فجمعها هذا وصاغها في قالب يستهوي القلوب ووسمها بميسمهِ الفصيح الشائق مستمدًّا من حالتهِ النفسية ومعيشتهِ ونشأته ما جعلها فتّانة خلاّبة

﴿ مقابلة في المُعتَقَد بين روسو وفولتير ﴾ يعجب البعض كيف ان جان جاك روسو ظلَّ مؤمناً وهو الذي شنَّ الغارة على كل سلطة مع ان فولتير لم يتطرَّف تطرُّفه لكنهُ كان ملحداً كافراً لا يؤمن بالله بل لا يعتقد بوجوده . فروسو كان بروتستانتيًّا والتابع لهذا المذهب المسيحي لا يسعهُ مهما شطَّت بهِ الآراء ان ينقلب على دينهِ ويناصبهُ العداء لان المذهب نفسه يبيح لهُ حرية الرأي والتفكير والاخذ بما يرتئيهِ وان كان رأيه هذا مخالفاً لآراء اخوانه في المذهب والمعتقد ، بينما الدين الكاثوليكي لا يسمح باقل شذوذ او خروج عن المعتقد المحدود وسلطته العليا التي يجب الرضوخ لها تحتم على كل من لا يعتقد بجزئياتهِ وكلياتهِ ان يخرج من احضانه

ولما كان فولتير كاثوليكيًّا شاذاً في الاعتقاد متطرفاً في الرأي يأبى ان يخضع لسلطة مذهبهِ فقد أُبعد عن الكنيسة الكاثوليكية ولذلك ناصب الدين العداء طيلة حياته حتى ان الشطط بلغ بهِ الى ان يتصور الله سبحانهُ وتعالى فكراً — ليس الاَّ — انتجتهُ الاقيسة الفلسفية ووسوسة اظهرتها المنافع العمومية . فالفرق اذن بعيد بين فلسفة روسو القائمة على نبذ كل شيء في الدين ما عدا الله الذي كان جان جاك يعتقد بهِ اعتقاداً راسخاً وبين فلسفة فولتير المشيَّدة على الكفر والالحاد وعلى نبذ كل شيء حتى الله جلَّ جلاله

ولكن لا يسع كل انسان مهما تحجر قلبهُ وصلدت عواطفهُ ومهما إدَّعى الكفر والالحاد وملأ المسامع شقشقة لسان وحشا الكتب بالمروق والزندقة الاَّ ان يعترف في قرارة نفسه بانهُ يوجد إله قوي يسيطر على العالم ويهيمن على العباد ، ولذلك لما رأى فولتير الذي ملأ الدنيا بكفره والحاده نفسه على فراش الموت وتطلع فيما حوله فلم يجد صديقاً ولا حميماً حقيقيين ورفع رأسهُ الى علٍ فازورَّت عنهُ رحمة الله لانهُ لم يتطلبها . لما رأى نفسه في هذه التعسة اقرَّ رغم انفه بوجود الله الذي انكره وصاح من فؤاد مكلوم : اني اموت منبوذاً من الله والناس

﴿ مذهب روسو في بوتقة النقد ﴾ ان مذهب روسو وان كان خلاَّباً في مظهره الخارجي لكن باطنهُ يرتكز على دعائم تكاد تكون سفسطية اي قياسية ليس الاَّ ، لاسيما فيما يتعلق بتسلسله وبنتائجهِ السلبية ، اذ لا يمكننا ان نوافق هذا الفيلسوف على زعمه من ان الانسان الفطري كان صالحاً للدرجة التي صوَّره بها، اللهم الاَّ اذا كان صلاحهُ مماثلاً كما يقول روسو لصلاح القرد المسمى « الاوران أوتان » الذي لا يفكّر بامر غده ولا يجمع المال ولا يدَّخره ولا يسخّر غيره من القردة ولا يستعبدها ولا يجيعها ولا يسجنها ولا يمعن فيها فتكاً وقتلاً

ثم الشر الموجود في الدنيا الذي ينسبهُ جان جاك الى الهيئة الاجتماعية ، فهذا في حد ذاته قابل للنقد والتفنيد لان الاجتماع عمل طبيعي فيكون اذن صالحاً اذا كانت الطبيعة صالحة وشريراً اذا كانت شريرة . ولا يمكن والحالة هذه نسبة الشر اليهِ ونفيه عن الطبيعة طالما ان الاثنين مرتبطان والواحد منهما مشتق من الآخر، هذا فضلاً عن ان الاجتماع انما وُجد ليعالج

الشر ويداويهِ ويستأصله اذا تسنى لهُ ذلك. يقول روسو في كتابهِ «العقد الاجتماعي» ان الفرد قد باع نفسه بكليتها الى الهيئة الاجتماعية ، وهو قول مردود بطبيعتهِ لان الانسان لا يمنح الاجتماع من حريتهِ الا النزر اليسير الذي يكفي هذا الاجتماع ليقوم بالمهمة المطلوبة منهُ

واما مبدأ جان جاك فيما يختص بالمِلْك الذي ينعتهُ بحجر الزاوية القائم عليهِ الاجتماع ويعده اصل شرور العالم ومنبع جرثومتها فلا يقوم على قاعدة ثابتة لا يأتيها الباطل لان هذا المبدأ مشكوك في صحته مثل حقائق الاشتراكية والشيوعية النظرية وتأثيراتهما العملية

وكتاب روسو المسمى «اميل او التربية» يكاد يكون عقيماً لانهُ لما كانت الطهارة الفطرية التي ينشدها ليست حقيقة راهنة فالتربية السلبية تصبح اذن جنوناً مطبقاً ، لان نبذ السلطة الابوية وابعاد الكتب عن التلميذ وتركه يتخبط في دياجير الجهل حتى الثانية عشرة من عمره من أضرّ الامور بهِ لان الذكاء لا يتقوّى ويظهر الا بالتمرين والممارسة ، واذا لم يمتلىء العقل بالحقائق امتلأ بالاكاذيب والترهات ، فكأن روسو اراد ان يمنع عن الطفل شرًّا فجلب عليهِ شروراً عديدة . فطريقته اذن في التربية منقوضة لانها لا تعدُّ التلميذ للحياة التي تتلخص في كلمتين اثنتين لا ثالثة لهما وهما «سعي وملل» فالانسان خلق ليكد لا ليتمتع ، وليكد ويتعب ليس في الوقت الذي يطيب له الكد والتعب فيه بل في الوقت الذي يحلو لغيره او للحظ ان يطلب منهُ الكد فيهِ والتعب، فالتربية يجب ان تعلمنا اذن ان نعمل ما نسأم منهُ في الوقت الذي نسأم من العمل فيهِ اكثر من غيره. هذا هو مجمل مذهب جان جاك روسو ، وهو لعمري نظريٌّ اكثر منهُ عملي، ولا نغالي اذا قلنا ان تطبيقهُ يكاد يكون مستحيلاً لانهُ لم يعمل بهِ قط واكبر ظننا انهُ لن يعمل بهِ في السنين المقبلة بل في العصور الآتية مهما دار الزمن وتطورت طبائع البشر

﴿ الفضائل في مذهب روسو ﴾ ليس نقدنا لآراء هذا الكاتب الاجتماعي والفيلسوف الكبير دليلاً على ان مذهبهُ الفلسفي لا يؤْبهُ لهُ فقد ابدينا ما يؤاخذ عليهِ ليتسنى لنا اظهار حسناته الجمة بل فضائله التي وان كانت البشرية لا تقدر على العمل بموجبها للانانية المتسلطة على عقول بنيها ولما اختطته لنفسها من طريق لا يمكنها الحيدة عنها ولا النكوص ولكن هذا لا يمنع هذه الفضائل من ان تكون مثلاً اعلى للاجتماع لا يتسنى لهذا ادراكه لاسباب جمة لا يسعنا حصرها هنا

لقد بزَّ روسو فولتير بآرائه الفلسفية التي تأثر بها عصره تأثراً عظيماً حتى كانت السبب المباشر لشبوب الثورة الفرنسوية . فقد اوضح في كتاب «العقد الاجتماعي» ان الهيئة الاجتماعية شركة غايتها المحافظة على كيان الاعضاء المؤلفة منهم والدفاع عنهم ، وان الحكومة لا تكون شرعية الا اذا جعلت غايتها الوحيدة المصلحة العامة، فاذا راعت ذلك انتفت المظالم وزالت المغارم

ويغلب على الظن — خلافاً لما توهمه البعض — ان روسو لم يسع لاسقاط شكل من اشكال الحكومة بل عمل ما في وسعهِ لملاشاة مبادىء الحكومات وغاطها التي عدَّها مجحفة بحقوق الافراد ، فاذا راعينا ذلك تبدَّى لنا ان مذهب سيادة الامة هي الحقيقة الراهنة التي لا نزاع

فيها لأنها تنفي استغلال الشعب بواسطة الجماعات او بواسطة فرد واحد

ويمتاز روسو بكونه اول من حمل على المشكلة الاجتماعية الخطيرة التي تنحصر في الترف من جهة والحرمان من جهة اخرى وفي الغنى والفقر والانانية والكد للغير ، فكل هذه المظالم التي تحيق بالافراد اساسها الامتلاك فاذا زال هذا السبب زالت نتائجه واضمحلت مسبباته الوخيمة

وقد اصاب بقوله في «عدم المساواة» ان عدم المساواة السياسية والاجتماعية تكاد لا تظهر ولا يبدو لها أثر اذ كان هناك تساوٍ في الاخلاق والعقول والمدارك ، بحيث يعيش الاشراف والنبلاء والمسيطرون نفس المعيشة التي يعيشها عامة الشعب ويكون لاولئك نفس الافكار والآراء التي لهؤلاء تنتفي عدم المساواة فلا يعود ثمت غرم ولا ظلم . ورأي روسو الذي ابداه في رواية « هيلويز الجديدة » من الآراء الاجتماعية السديدة ، فقد اظهر فيه تجدد الانسان الخلقي الكامل وكيف يحصل ويتم ، وشن على الكذب الاجتماعي والنفاق الانساني غارة شعواء ، لان هيئتنا الاجتماعية العتيقة قد شاخت ونال منها الكبر وهي تعيش معيشة صناعية لا طبيعية ، فدأبها في حياتها الرضوخ للعواطف والملاذ وجنوحها للسلوك والآداب الخلقية الخارجة عن دائرة الحقيقة ، فالاعتبارات عندها تسمح بازدراء الفضائل عوضاً عن ازدراء التقاليد المرعية واللياقات الوضعية ، ومما يؤسف له انها بعد ما تطلب من الانسان التضحية بضميره وبعفته ونزاهته واستقامته في سبيل انالته الهناءة التي يصبو اليها لا تنجز الوعد بل تنقض عهدها معه دون مبالاة كأنها لا تأتي امراً إدّا

ومن اجمل ما في كتاب «اميل او التربية» الفكرة الاساسية القائلة : اذا كان نشوء الفرد يردد على وجه الاختصار تطور النوع وارتقاءه فتعليم الطفل يجب ان يظهر بشكل صافٍ حركة الانسانية العامة ، لان سن الاحساس يسبق سن التفكير، والتربية الجسدية تسبق التربية العقلية ، فيجب اذن في بادىء الامر تقوية الجسم وتحديد الحواس ، ولا يمرّن العقل الا ليخدم الحواس والجسم ، فالطفل ينشأ والحالة هذه متوحشاً قوياً حذقاً لبقاً مراوغاً محتالاً ، وأما الذكاء فيأتي بعد ذلك اي عند ما تهيأ له كل الاعضاء الصالحة التي يتسنى لها تقديم ما هو في حاجة اليه من التأثيرات والمشاعر ، وتتمكن من تأدية كل ما يطلبه منها من الفعال والاعمال

هذا هو الفيلسوف الكبير جان جاك روسو الذي قام في القرن الثامن عشر في وجه الهيئة الاجتماعية متهماً اياها بازاغة الانسان عن محجة الصواب وطالباً منها تركه ليعود الى احضان الطبيعة التي يجد فيها الطيبة والصلاح ، فقد قامت فلسفته كلها على الرجوع الى الحالة الفطرية التي يعدها اكبر مهذب للاخلاق واعظم مثقف للمدارك

وقد كان لمذهبه هذا في ذلك العصر الذي عم فيه الفساد وتدهورت فيه الاخلاق حتى بلغت الدرك الاسفل صدى دوى في ارجاء المعمورة فرفع بصاحبه الى السماك الاعزل

القاهرة جورج نيقولاوس

ما هو العلم

ليعقوب فام

كنت اتحدث مع طالب في احدى المدارس العالية ، وقادنا الحديث الى العلم ومعنى العلم وغايته ، فاخبرني الطالب ان استاذاً من اساتذة الجامعة يعرّف العلم بالكلام الآتي او بما هو في معناه : «العلم هو الحقائق التي اذا وضعت امام عقل بشري في احوال معينة يفهمها كما يفهمها اي عقل بشري آخر في الاحوال نفسها ، وهذه الحقائق لا تتغير بمرور الزمن» . فلنأخذ هذا التعريف ولنجعله اساساً للبحث عساها تخرج منهُ بشيء

ونستطيع ان نزعم لاول وهلة ان هذا التعريف لا ينطبق على الواقع وذلك لان العلم ليس هو الحقائق اولاً ولان العقل البشري لا يعرفها حتماً في كل الاحوال ثانياً ، ولان الاحوال لا تتشابه ثالثاً

لست افهم في الواقع كيف ان وجود نفس بشرية في احوال مشابهة لاحوال نفس اخرى يقدم او يؤخر في معنى العلم . هل ولادة الانسان في بلاد باردة او حارة ، وخضوعه لمؤثرات بيئة معينة من تعليم وتربية وحياة اجتماعية ، هل تؤثر هذه جميعاً في معنى العلم . ثم ما هي هذه الاحوال التي يجب ان تتشابه ؟ هل هي احوال البيئة ام احوال نفسية سيكلوجية ؟ هل مرض العالم او الفرد ، وهل احساساته النفسية من غضب ورضى وحزن وفرح ، يغير من معنى العلم ؟ ام يقصد بالتشابه في الاحوال درجة معينة من الثقافة تمكن الانسان من فهم الحقائق كما يفهمها غيره ، وما هي الدرجة وكيف نقيسها ونعرفها على التحقيق ؟ كيف نعرف ان فلاناً وعلاناً في درجة واحدة من الثقافة . الحق اني اشعر ان التشابه في الاحوال كلام مبهم مرسل لا يمكن التثبت منهُ ، واعرف ايضاً من الدراسات النفسية ان هذا التشابه في الاحوال غير مستطاع ، واعلم ان لكل انسان في الدنيا شخصية مستقلة قائمة بذاتها لا يمكن ان تشبه شخصية اخرى من جميع الوجوه . الحق انهُ من الخطأ الكبير ان يبني الاستاذ تعريفه للعلم على شيء لا يمكن ان يتحقق ، لانهُ ظاهر من كلامه انهُ اذا لم يتوافر هذا الشرط انهار التعريف

وضع ارسطو مبدأً في الفلسفة الطبيعية Physics وهو هذا « لو قذفت بثقلين مختلفين من معدن واحد من مكان مرتفع ، يصل اكبرهما الى الارض قبل الآخر » فكأنك لو قذفت قطعتين من الحديد احداهما تزن رطلاً والاخرى رطلين الى الارض من مكان مرتفع ، فلا بد ان تصل القطعة التي وزنها رطلان قبل الاخرى ، او بعبارة اخرى ان جذب الارض لهذه اسرع من جذبها لتلك . استنبط ارسطو هذه القاعدة وفهمها في ظرف معين ، وفهمها الوف

من الناس ومئات من العلماء واخذوا بها في ظرف معين ايضاً فهل هذه حقيقة اولاً وهل هذا علم ثانياً . اظنهُ من المحتم ان نقبلها على انها حقيقة علمية اولاً وعلى انها علم ثانياً اذا اخذنا بالتعريف السابق

ثم جاء جاليليو بعد ذلك بقرون واجرى هذه التجربة من قمة برج بيزا المائل فوصلت القطعتان الى الارض في وقت واحد ، وشهد هذه الظاهرة اساتذة الجامعة زملاء جاليليو، ولم يفهموها وزعموا انجاليليو مخطيء وارسطو مصيب.نعم اخطأ جاليليو لان المعلم الاول لايمكن ان يخطيء ،ثم اخطأ جاليليو ايضاً لانهُ اجرى التجربة أصلاً ، وكان يجب ان لايجربها اويفكر في هذا بعد ان قال ارسطو بضده . تشيع الاساتذة لارسطو وتشيع الجمهور للاساتذة وفهمهم كل عقل بشري في تلك الاحوال او في ذلك العصر . فماذا ينتج من هذا ، ينتج منهُ بالطبع، اذا أخذنا برأي استاذنا ، ان هذه الظاهرة ليست من العلم ولا تمتُّ اليهِ بسبب ، ولكنها علم ايضاً وفي نفس الوقت لأن الدنيا بأسرها تؤمن بهذه الحقيقة في الوقت الحاضر ، والعقول البشرية في مختلف الاحوال — لا بل برغم اختلاف الاحوال — تفهمها وتؤمن بها

اذن لا يجدر بنا ان نقبل هذا التعريف لهذين السببين

ولكن هنالك ما هو ادهى من ذلك وامرّ ، وهو هذا التطابق بين العلم وحقائقهِ،ففرق كبير بين العلم في ذاته والحقائق العلمية ، فرق بين ان يكون دوران الارض مثلاً حقيقة علمية وبين ان يكوندورانها هو العلم نفسه.ألا يرى الاستاذ رأيي في ان العلم شيء والحقائق شيء آخر؟ لا بد ان يرى ذلك لانهُ ان لم يفعل ارتطم في مشاكل لاحصر لها . ومثل واحد او مثلان بسيطان يكفيان لاثبات ما نذهب اليهِ . اليك مثلاً بسيطاً : الاستاذ يقطن شارع كذا من الحي الفلاني بمدينة القاهرة . هذهحقيقة ويفهمها كل عقل بشري في نفس الاحوال . أليس كذلك؟ ولكن هل هذا علم؟ هل العلم وسكن الانسان في مكان معين شيء واحد ؟ وهل يقول بهذا القول انسان عاقل . ومثل آخر: القاهرة لها حكومة — هذه حقيقة — ولكن هل هذا هو العلم ؟ اظن لا يحسن بنا ان نسترسل في هذه الامثال لأن الخطأ فيها ظاهر واضح ولا تجوز الاطالة فيما هو ظاهر واضح

وملخص القول ان هذا التعريف خطأ وانهُ لم ينل حظهُ من التفكير المنظم بل ارسل ارسالاً من غير تمحيص ، وكان يجب ان يمحَّص ويدرس قبل ان يعطى للناس على انهُ شيء يحتمل النقد ويصمد له

نخرج من هذا كله بأن تعريف العلم على هذا النحو — سواء أ كان الاستاذ قد قال بهذا ام لم يقل بهِ — خطأ صريح ، واذن فلنبحث عن تعريف آخر يستطيع ان يثبت على النقد والتجريح ، ويصلح للتداول بين الناس ويكون مطابقاً للحقيقة والواقع

ولكي نصل الى المعنى الحقيقي للعلم يحسن بنا ان نتناوله من ناحية وظيفته ، فهذه هي الطريقة المثلى في تفهم امثال هذه المباحث ، فلو اردت ان تفهم معنى الفلسفة او علم الاجتماع او علم النفس او الطبيعة والكيمياء والفلك وامثال هذه الضروب من العلم ، يكون من المفيد المجدي ان تنظر فيما تفعل هذه العلوم ، ماذا تتناول من مظاهر الكون وماذا تفعل بهذه المظاهر عند ما تتناولها والوسائل التي تستخدمها هذه العلوم عند ما تتناولها . كل هذه وأشباهها امور لا يمكن الاستغناء عنها عند بحث اختصاص كل فرع من العلوم على حدة ، وكل الفروع مجتمعة ، وفي معنى العلم عامة . لست ارى طريقة اخرى لبحث العلم باي شكل من الاشكال

والشيء الذي نلاحظه هو ان العلم يتناول مظاهر الطبيعة هذه بالبحث والتقليب كي يستطيع أن يميز بين السبب والمسبب ، العلة والمعلول ، كيف أتت هذه الظاهرة المعينة هنا ، وماذا أتى بها ، وما هو الاثر الذي تخلفه ، او ماذا تصنع بعد ان أخذت مكانها من نظام الدنيا . فلماذا ظاهرة من الظواهر ، ولكن كيف تكوّن ، وماذا كوّنه ، وما هي مقادير أجزائه ، وهل هذه الاجزاء وحدات صماء ام هي الاخرى مركب من اجزاء اصغر وادق وما خصائص هذه الاجزاء على حدة ، وكيف تقيسها هل نعدها واحدة واحدة أم نكيلها بمكيال ، ام نزنها ام نقيسها بالذراع . كذلك يسير بنا العلم على هذا النمط الى ان نصل الى حيث يستطيع العلم أن يقودنا

قلنا ان العلم يتناول الظواهر الطبيعية ، ونقصد هذا على اطلاقه ، وبمعنى آخر نقصد بعض العلوم التي يكون موضوعها من صنع العقل البشري ، أي ان المواد التي تتناولها بالفحص والتقليب ليس لها وجود موضوعي بين المظاهر المادية ، ومن بين هذه المواضيع علم المنطق والرياضيات ، فليس لهذه الانواع من العلم مظاهر موضوعية تبحثها وتدرسها ، وانما موضوعها هو في الواقع من خلق العقل البشري ، فليس للميتافيزيقا موضوع مادي تبحث فيه ، وكذلك ليس للارقام او الترتيب المنطقي للتفكير وجود مستقل عن العقل البشري ، ومع ذلك ندمجها جميعاً ونطويها تحت المظاهر الطبيعية لأن الانسان في جملته موجود مادي ، او هو في مجموعه مظهر من مظاهر الطبيعة ، وعلى هذا نعتبر ما يوجده ويخلقه من مظاهر الطبيعة شأنه كشأن كل شيء آخر من الموجودات

اذن فأول شيء نلاحظه عن العلم انه يتناول المظاهر الطبيعية بالتقليب والبحث ، ولكن لماذا يقلبها ويبحثها ، وما الذي يسعى وراءه من هذا التقليب والبحث

فاول ما يصنعه العلم هو ان يشاهد هذه الظواهر لكي يتعرف خواصها والملابسات التي تلازمها ، كأن تكون سائلة أو جامدة او غازية ، وثقيلة او خفيفة ، وتتصرف كذا او كذلك في الاحوال المتباينة ، فالنور مثلاً ينتقل من مكان الى مكان في امواج من

طول معين ، وينحني عند ما عر بجوار الاجرام السماوية بحسب مذهب اينشتين ، وينكسر عند ما عر في الغازات والسوائل والجوامد الشفافة كالماء والزجاج ، ويتحلل الى ألوان عند ما عر في المخروطات البلورية ، وله ضغط يستطاع قياسه ، ولا يظهر الا اذا كان انعكس على الاجسام ، وغير ذلك من هذه الخواص والمميزات التي تلازمه ، فكأن وظيفة العلم الاولى هي ان يصف المظاهر الطبيعية

ووظيفة العلم الثانية هي ان يحلل تلك الظواهر الى عناصرها الاولية التي تتكوّن منها ، والواقع ان كثيرين من الفلاسفة والعلماء يذهبون الى ان وظيفة العلم الاساسية هي ان يحلل الاشياء ويرجعها الى ما تتركب منه من المادة ، وادوات العلم وآلاته مصنوعة لهذا الغرض بعينه قبل ان تكون مصنوعة لأي غرض آخر ، واظن ان هذا هو الواقع . نعم لا تنكر أنه يركّب بعض تلك الظواهر في بعض الاحيان ، كأن يجمع بعض المواد الى بعض ويكوّن منها وحدات جديدة قد يكون لها خصائص ومميزات لم تكن لعناصرها الاولى ، لاننكر ان العلم يستطيع ان يركب الماء من عنصريه ، ويستطيع ان يركب كثيراً من المواد العضوية من عناصرها ، ولكنه لم يفعل ذلك ولم يحاوله بوجه من الوجوه الا بعد ان أخذ الماء كما قدمته الطبيعة وحلله وعرف عناصره ونسب هذه العناصر بعضها الى بعض وخواص كل عنصر على حدة وتصرفه في الظروف المختلفة ثم بعد ان بحث كل هذا وعرفه حق معرفته ، اخذ يكوّن الماء من هذه العناصر ، وهكذا فعل في المواد العضوية . فكأن العلم يحلل الظواهر ليفهمها ثم يركبها على سبيل التمثيل لا على سبيل القيام بوظيفته

وهذا ليس مستغرباً في الواقع لاننا نلاحظ ان الظواهر الطبيعية تهبط علينا مركبة جاهزة، وليست محلولة مفككة ، فالحال كذلك في الماء والهواء والنور والصوت والظواهر الفلكية وحتى الاعمال الانسانية والخوالج والمشاعر النفسية تقفز من النفس الى العالم الخارجي مركبة من عناصر كثيرة متباينة مختلفة ، فيسعى علم النفس مثلاً الى تحليلها الى عناصرها الاولى وبحث كل عنصر على حدة

اذن فالعلم يصف الظواهر ثم يحللها الى عناصرها الاولى ، ثم له بعد ذلك وظيفة ثالثة وهي انه يرتب هذه الظواهر ويبوّبها ويضعها في مكانها من نظام الطبيعة والحياة ، ذلك لانه وجد بالاختبار ان لكل ظاهرة علاقتها بالظواهر الاخرى ، فهي سبب في بعض الاحوال ، وهي نتيجة في بعض الاحوال الاخرى ، لا بل هي سبب لشيء ونتيجة لشيء آخر في معظم الحالات ، والمشاهد في هذا الكون الذي نعيش فيه انه لاتوجد ظاهرة واحدة منفصلة عن باقي ظواهر الكون ، ليس لاية واحدة منها كيان مستقل كل الاستقلال عن نظامنا هذا الذي نعيش فيه ، ليس لكوكب صغير او كبير وليس لجرم من الاجرام السماوية

او لذرة من الذرات في هذا الكون، ليس لكائن من كان ، من الانسان الى الالكترون، وجود منفصل عن باقي مايحيط به من الذرات والموجودات السماوية والارضية ، وحتى الفكر نفسه الذي هو أمر معنوي ليس له وجود مستقل عن الظواهر المادية المحيطة به

فوظيفة العلم الثالثة هي ان يحدد العلاقة بين هذه الاشياء ويدل على حلقة الاتصال بين هذه الظواهر ، ليس هذا فقط ولكنه يبين ايضاً النسب العددية ، ونحن نقصد بالنسب العددية ، مقدار هذه النسب بالقدح والرطل والمتر ، في المسائل المادية الصرفة ، والنسب المنطقية ، او السبب والنتيجة في العلوم الاجتماعية ، ولذلك نرى ان العلم يسير في الارض ومعه الميزان والمكيال والمقياس ، ويستخدم هذه جميعاً في ابحاثه المختلفة وفي تبيان الصلات بين الظواهر الطبيعية المختلفة ، ويجب ان نذكر في هذا المجال ان السببية البينة ان هي في الواقع الا الترتيب الزمني بين الظواهر ، فالسبب يتقدم النتيجة في الزمن ليس غير، والنسبة بينهما في الواقع تقاس بالساعة والدقيقة

واذن فقد توصلنا الى استقصاء وظيفة العلم ، ووجدنا انها تنحصر في وصف الظواهر الطبيعية اولاً ، وتحليلها الى عناصرها الاولى ثانياً ، وتبيان النسب العددية بين عناصرها ثالثاً ، هذه هي وظيفة العلم اولاً واخيراً ، ونستطيع اذن ان نضع تعريفاً منطقياً للعلم ، تعريفاً يستطيع ان يثبت على النقد والتجريح دون ان ينهار من اساسه

ولكن قبل ان نصوغ هذا التعريف يحسن بنا ان ننبه الى نقطة مهمة اخرى وهي هذه: ليس العلم شيئاً له وجود مادي مستقل ، ليس هو كائناً بأي وجه من الوجوه ، وانما هو في الواقع الطريقة التي يستطيع بها العقل البشري ان يفهم الاشياء او الظواهر الطبيعية . لقد خلقت فينا عقولنا هكذا ، وركبت في رؤوسنا بشكل لانستطيع معه ان نفهم ظواهر الكون الا بالمشاهدة والوصف والتحليل والترتيب المنطقي او ترتيب الاشياء بحيث يتبع بعضها بعضاً ، فكأن العلم في الواقع ليس شيئاً سوى الطريقة التي يستطيع العقل بها — دون سواها على ما نعلم — ان يفهم الاشياء . ليس للعقل البشري مندوحة عن هذه الطريقة لانهُ هكذا ركب وهكذا خلق

والآن نستطيع ان نعرف العلم هكذا : العلم هو الوسيلة التي نستطيع بها ان نصف الظواهر الطبيعية ونحللها ونبين الصلات بينها ، او العلم هو الوسيلة التي يستطيع بها العقل البشري ان يفهم الظواهر الطبيعية ، وبمعنى آخر ليس العلم شيئاً سوى طريقة او وسيلة للتقارب بين حياة الانسان العقلية وما يحيط به في هذا الكون

وبعد فاننا نشكر الاستاذ لأنه اتاح لنا ان نبحث هذا الموضوع ، سواء ا كان ما علمناه هو من قوله ام منسوباً اليه خطأ

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

اللغة الفينيقية

اللغة الفينيقية احدى اللغات السامية المشتقة من اللغة الارامية التي انقرضت قبل زمن التاريخ . واشهر هذه اللغات العربية والسريانية والحبشية والفينيقية والاشورية والبابلية . والثلاث الاخيرة انقرضت

يرجع العلماء باللغات التصريفية الى اصلين عامين الاصل السامي او السرياني والاصل السنسكريتي . والاصل السنسكريتي ويعرف مع فروعه باللغات اليافثية نسبةً الى يافث لا يدخل في بحثنا هذا فلا نتصدى له . وأما الاصل السامي فيقسم الى فرعين عامين الفرع الشمالي او السرياني والفرع الجنوبي او الغربي . والفرع الشمالي ثلاث لغات : الآرامية والاشورية والكنعانية . فالآرامية ام لعدة لغات ترجع الى ثلاثة فروع جامعة وهي السرياني الحقيقي وهو افصحها والارامي والكلداني او النبطي . وكذلك الاشورية فقد تفرعت عليها عدة لغات اندرست الآن تماماً . وأما الكنعانية فهي لغة الشعوب الكنعانية ولها فرعان الأول العبرانية وهي لغة اهل الجبال من كنعانيي فلسطين واليوم لغة اليهود الدينية والثاني الفينيقية وهي لغة الكنعانيين الساحليين وعليها مدار الكلام في بحثنا هذا

﴿ تعريف اللغة الفينيقية ﴾ اللغة الفينيقية لغة فريق من ابناء كنعان ولذلك كثيراً ما سميت كنعانية ولا سيما في نبوءة اشعيا . وبينها وبين شقيقتها العبرانية من التشابه والتناسب ما يجعل التمييز بينهما متعذراً وهذا ما جعلهما في نظر علماء اليونان اسمين مترادفين لمعنى واحد . ولئن اختلفت لغة التكلم عند الفريقين من بعض الوجوه لاسباب اهمها ان الفينيقية كانت لغة اهل السواحل والعبرانية لغة اهل الجبال فان لغة الكتابة عند الفريقين واحدة . وليس في الفينيقية الا مميزات قليلة منها كثرة استعمال الضم في حروفها واهمال الخفض في التهجئة الاخيرة من الكلمة . وأما حذف الحركات الطويلة او حروف المدّ في الكتابة فغير مقتصر على هذه اللغة دون سواها بل كان يشمل قديماً اللغات السامية جميعاً . على ان وجوه

الشبه بين هذه اللغات تتناول كثيراً من القواعد والمزايا التي خلت منها اللغات التصريفية الاخرى نظير الحروف الحلقية واقتصار افعالها على زمانين وتشابه مشتقاتها . ومن مميزاتها انها تكتب من اليمين الى اليسار ما عدا الحبشية الحديثة . وهناك تشابه بينها في الحركات التي تستعمل وتلفظ وفي اسماء الحروف وغير ذلك مما لا سبيل الآن الى ذكره

ولا ادل على ما بين اللغتين الفينيقية والعبرانية من التشابه الشديد من ان الاسفار المقدسة لا تفرق قط بينهما وهي تسمى العبرانية لغة كنعان . ومما يستشهدون به على وحدة اللغتين ان جواسيس يشوع عند عودتهم من مصر خاطبوا راحاب الكنعاني بغير صعوبة وكذلك رسل الجبعونيين وسواهم من القبائل الكنعانية تكلموا امام الاسرائيليين من غير مترجم. وهناك شواهد اخرى كثيرة تثبت ان هاتين اللغتين كانتا في العصور القديمة ولا سيما في عصر ابراهيم ابي المؤمنين شديدتي التقارب والتناسب وانه ليس هنالك ما يحول دون القول ان اللغة الفينيقية هي التي اختيرت دون سائر اللغات لنقل اول وحي واول سنَّة منزلة الى اهل الارض قاطبة

﴿ منشأ الحروف الفينيقية ﴾ اما لغة الكتابة عند الفينيقيين فترتقي في نشأتها الى اقدم عصور التاريخ والحروف الفينيقية هي في اعتبار جمهور من العلماء اصل حروف الهجاء لسائر اللغات . ذلك ان فن الكتابة كان في اول امره مقتصراً على صور ورسوم تشير اما الى مادة حقيقية موجودة او الى غرض مجازي لا يشار اليه الا بالرمز او الى صوت يدل على كلمة مقصودة او على بعض حروفها. ثم تطرقوا الى التعبير عن الفكر برسم صور دالة على مسمياتها بحقيقتها او مشيرة الى الغرض المقصود بقرينة ما . وقد وجدوا من هذه الكتابة ستة انواع هيروغليفية وهي الهيروغليف المصري والعلامات الصينية والعلامات المسمارية في بلاد الكلدان والكتابة الحثية في سورية الشمالية وآسيا الصغرى والكتابة المكسيكية والكتابة الكانوتية وكلاهما في اميركا . غير ان هذه الصور لم تكن تنطوي في مدلولها الا على الماديات وما سهل ادراكه من المجازيات وأما التصورات المجردة من المادة كتصور العدل والرحمة والحب والحقيقة والكذب ونحو ذلك فلم يكن من الميسور تمثيلها بالصور فاضطروا لذلك الى التوسع في الاستدلال بنقش الصور على الهجاء الاول من مسمياتها بحيث اصبحت تلك العلامات والصور صوتية بعد ان كانت لا تجاوز حيّز التصور . ولكن هذا النوع من الكتابة ظل قاصراً لا يفي بالحاجة

ذلك كان شأن الكتابة لما انبرى الفينيقيون لاستنباط هجائها . وكان بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية تشابه تام في خمسة عشر حرفاً او علامة (وليس ١٣ حرفاً كما يزعم بعضهم) وهي المعبر عنها عند المصريين بالحروف الصوتية فاخذها الفينيقيون واضافوا اليها سبعة حروف من عندهم تبعد صورها عن العلامات الهيروغليفية فاصطلحوا على تأدية لفظها بالخطوط المصرية بحيث الفوا من مجموعها اثنين وعشرين حرفاً جعلوها هجاء لغتهم

وهذا التقارب بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية يرجع في نشأته الى عصر الرعاة في مصر فقد طالت ولايتهم فيها من القرن الحادي والعشرين الى القرن السادس عشر قبل الميلاد . وباتصال الفينيقيين بالمصريين في ذلك العصر اتصل نفوذ فينيقية الى مصر قبل ان يتصل نفوذ مصر الى فينيقية من حيث الصناعات والدين والآداب على نحو ما ذكرنا في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٤٤ ودخلت اللغة المصرية الفاظ وتعبيرات كثيرة من اللغات السامية .

ومن العلماء من يذهب الى ان الفينيقيين لم يقتبسوا شيئاً من مصطلحات الكتابة المصرية وانهم استندوا في وضع حروف هجائهم الى الكتابة البابلية . غير ان هذا المذهب ضعيف لم يقم عليهِ دليل محسوس الى اليوم ولو ان الفينيقيين كانوا رسل الحضارة البابلية والكلدانية الى العالم

ان العلماء لم يجدوا الى اليوم حروف هجاء قبل الحروف الفينيقية وما وجدوه من الكتابات القديمة انما يرجع بهجائه عن بعد او عن قرب الى اصل الهجاء الفينيقي . فهم يردون الحروف في جميع اللغات الى خمسة اصول وهي الاصل السامي واليوناني الايطالي والايباري والشمالي والهندي الحميري وهذه الحروف او الاقلام كلها على اختلاف اصولها ترجع في اعتبارهم الى ام واحدة هي الحروف الفينيقية او الهجاء الفينيقي الذي نقله الفينيقيون مع متاجرهم الى الامم الاخرى . ولو كان الامر غير ذلك اي ان الفينيقيين ليسوا بمستنبطي هجاء لغتهم بل اقتبسوه من سواهم لوجدنا لهجائهم هذا اصلاً في الآثار المصرية او الاشورية والبابلية مع ان ما وجد من هذه الآثار حتى اليوم لا يؤيد هذا المذهب . وتمويلهم في انشاء هجاء لغتهم على بعض العلامات المصرية لا يصح ان يتخذ دليلاً على انهم ليسوا بمستنبطي الهجاء الاول لسائر اللغات

﴿ تطور الحروف الفينيقية ﴾ وقد طرأ على الحروف الفينيقية بعض التغيير فقلب شكلها شيئاً وكيفها قليلاً بحيث لم تثبت الكتابة على وضعها الاصلي الى النهاية . وينحصر ما دخل على هيئتها من التبديل في ثلاثة ادوار

الدور الاول — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور شائعة عند الشعوب الآرامية باسرها . وكانت تمتاز فيهِ بان من حروفها ما كان في بادىء الامر معوجاً كثير الزوايا ثم صار بعد ذلك مستديراً . ويبدأ هذا الدور على عهد الرعاة في مصر السفلى وينتهي في القرن السادس قبل الميلاد

الدورر الثاني — انقسمت فيهِ الكتابة الفينيقية الى قسمين: الكتابة الصيدونية والكتابة القرطاجنية . فالاولى استعملت من القرن السادس قبل المسيح الى صدر النصرانية . وتمتاز بكون حروفها اكثر استدارة واقل تعرجاً من حروف الكتابة في الدور الاول . وكانت ضخمة من وسطها دقيقة من رأسها . وأما الكتابة القرطاجنية فقريبة من الصيدونية غير ان حروفها غير منسوقة على خط مستقيم بل هي محدبة قليلاً

الدور الثالث — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور تعرف بالبونية وهي الفينيقية الحديثة

وكانت تستعمل على الساحل الغربي من البحر المتوسط من القرن الثاني قبل الميلاد الى ما بعد استيلاء الرومان على سورية . وحروفها تمتاز ببساطتها وتشابكها تشابكاً اشكلت معهُ قراءتها

﴿ فروع اللغة الفينيقية ﴾ ومن العلماء من يرد لهجات اللغة الفينيقية الى ثلاثة فروع اصلية كبيرة وهي : فرع جبيل وهو اقرب هذه الفروع الى اللغة العبرانية . وفرع صيداء وهو الاهم والاكثر انتشاراً والفرع البوني وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا الى قرطاجنة .

﴿ امتزاجها بسواها وانقراضها ﴾ وقد تقربت اللغة الفينيقية من الآرامية او السريانية عقب الفتح الاشوري . ثم دخلتها الفاظ وتعابير يونانية بعد غارة اليونان على فينيقية فاحدثت فيها انقلاباً كبيراً واوشكت ان تندرس تماماً ولاسيما بعد ان أُصبحت اليونانية لغة اهل المدن وكبار القوم في الديار السورية . غير انها بامتزاجها باللغة السريانية ظلت لغة فئة من الشعب الى ان ظهرت اللغة العربية التي تقاربها فقضت عليها وعلى سائر اللغات السامية . واللغة السريانية ثلاثة فروع رئيسية : السرياني الحقيقي وهو افصحها وكان لغة اهل ما بين النهرين والشام الخارجة. والارامي وكان لغة اهل لبنان والشام الداخلة وهو اقل من الاول صراحة. والكلداني او النبطي وهو اقلها احكاماً وكان لغة جبال آسية الداخلية في اشور وبابل وهو ما اثبته ابو الفرج في تاريخه مختصر الدول . اما المحدثون فيعدون السرياني اقل اللغات السامية انسجاماً واحكاماً من حيث نحوه . وقد دخله كثير من الالفاظ اليونانية فسلبته رونقه واجهزت عليه غزوة الاسكندر فقل استعماله في الديار الشامية ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كان اضمحل منها تماماً ولم يبق له من أثر هناك الا في قريتي معلولا ومار الياس من ملحقات دمشق . غير انهُ مع ما انتاب هذه اللغة من الضعف ظلت لغة الطقوس الدينية عند السريان والموارنة الى ايامنا هذه خلافاً للغة الفينيقية التي كانت لغة البلاد الاصلية حتى الفتح الاشوري فانها انقرضت ولم يبق للغة الفصحى من أثر الا الفقرات التي ترجمت الى اليونانية نقلاً عن سنكن يتن المؤلف الفينيقي المشهور

﴿ انتشارها في افريقيا ﴾ أما في قرطاجنة والمستعمرات الفينيقية في افريقية الشمالية فان اللغة البونية وهي الفينيقية الحديثة ظلت لغة اهل البلاد الى القرن الثاني بعد الميلاد وبقيت مستعملة هناك بين بعض طبقات الشعب الى القرنين الرابع والخامس من التاريخ المسيحي

ويؤخذ من اقوال العلماء المستشرقين الذين بحثوا في منشأ اللغات السامية وانتشارها ان اللغة البربرية الشائعة في بلاد فازان وما جاورها من الواحات ونواحي اطلس والصحراء الغربية والاقاليم الواقعة في الشمال الغربي من افريقية ذات لهجات او لغات كثيرة ولها علاقة وثيقة باللغات السامية ولا تخلو من صلة باللغة القبطية . وهي ترتقي في نشأتها الى عهد تأسيس قرطاجنة. وقد عثروا في السنة ١٨٢٢ على أمثلة قديمة من قلمها الاصلي منقوشة على صخور بين مرزوق وغات . وفي السنة ١٨٤٥ عثروا على أمثلة اخرى في واحات طوات . ثم وجدوا كتابات

اخرى منقوشة في واحات بنغازي وغدامس وسواها . ووجد العلماء تشابهاً شديداً بين هذه الكتابات والكتابة اللوبية التي وجدوها منذ نحو قرنين في قبر واقع على نحو ثلاثة أيام من خرائب قرطاجنة وحكموا بأن الحروف الهجائية اللوبية او النوميدية التي يستعملها البربر في كتابة لغة غير سامية هي احدى الاقلام العديدة المشتقة من الكتابة الآرامية القديمة الاصلية وانها تشبهها في بعض أجزائها بل تقاربها اكثر مما تقارب اللغة الفينيقية وانها اشتقت منها في عصر يرتقي الى ماقبل العصر الذي وضعت فيه الحروف الفينيقية التي وصلت الينا . وهذا التشابه بين الكتابة الآرامية والكتابة اللوبية النوميدية مما حمل العلماء المحدثين على الذهاب الى ان الحروف الفينيقية ليست باصلية وان الفينيقيين ليسوا بمستنبطي الهجاء بل لابد ان تكون سبقتهم اليه امة من الامم السامية التي عاصرتهم او تقدمتهم . والمشهور عند العلماء ان اهل ليبيه كانوا يستعملون لغة تقرب من السريانية والعبرانية لانهم متناسلون من الفينيقيين الذين تملكوا هذه البلاد وكذلك بلاد البربر فان نحلة من اهل صور ذهبت اليها في السنة ٨٨٦ ق . م وبنت فيها قرطاجنة ونشرت اللغة الفينيقية فيها ولذلك فان لغتها ظلت الى عهد طويل مقاربة للسريانية والعبرانية . فليس من المعقول اذن وهؤلاء القوم من سلالة الفينيقيين الذين استعمروا هذه الاقاليم ان يتفاهموا بغير اللغة الفينيقية . غير ان التحريف الذي طرأ عليها بحكم الزمن جعل لها صبغة خاصة أدت الى هذه الشبهة في أصلها ونشأتها

وصفوة القول ان الفينيقيين هم أول من وضع هجاء لغتهم وان تكن الحروف المستعملة عندهم مشتركة بينهم وبين القبائل السامية والكنعانية التي امتزجت بهم وتألف من هذا الامتزاج الشعب الفينيقي المعروف وكل ماكان يصدر وينشأ من الاعمال في البلاد السامية والآرامية والفينيقية بعد هذا الامتزاج كان يسمى فينيقياً أو كنعانياً نسبة الى هؤلاء القوم لانهم كانوا أشهر تلك القبائل واكثرها نفوذاً وعلماً وثروة

﴿ أثرها في اللغة اليونانية ﴾ وفي اللغة اليونانية شيء كثير من اللغة الفينيقية. وهذا الامتزاج يرتقي الى زمن هجرة النحل الفينيقية الى اليونان بقيادة قدم او قدموس الفينيقي في السنة ١٥٦٠ قبل الميلاد المسيحي . فان قدموس هذا جاء بقومه الى اليونان وهي غارقة في لجة عميقة من الجهل والغباوة والهمجية . وكانت تسكنها قبائل من البرابرة يعيشون عيشة حيوانية ذليلة في الكهوف وشقوق الارض . ولم تكن الكتابة معروفة عندهم فاقتبسوها منه ومن قومه وهذا هو السبب في مايرى من التشابه والتناسب في معظم حروف الهجاء واشكالها بين اللغة اليونانية واللغة السريانية والعبرانية او الفينيقية

والمعروف ان تاريخ اليونان لايرتقي في نشأته الى ماقبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد وانه لما جاءتها اول قافلة من قوافل المستعمرين المصريين بقياده ايناكوس او ايناكوس قبل

المسيح بنحو ألفي سنة كان سكانها في حالة همجية مشهودة كما يستدل من تاريخ بوصويت وقاموس غايطانوس . وقد انشأ ايناكوس له مملكة في بيلوبونيز وأسس مدينة ارغوس وهو سليل الرعاة الذين اجتاحوا مصر وبعد ان استقروا في ممفيس نحو قرنين طردهم فرعون منها الى ارض الدلتا «اباريس» وضاق هذا الاقليم بهم فخرجت قبائل منهم في طلب الرزق خارج وادي النيل ومنها هذه الفئة التي امت بلاد اليونان بقيادة ايناكوس هذا . ثم لحقت بها قبائل اخرى بقيادة شيكروبوس واستقرت في اتيكيا واستولى زعيمها هذا على العرش في السنة ١٦٥٧ ق . م وهو اول من نقل الى هذا الاقليم عبادة اللاهة منيرفا وكانت من معبودات مدينة سايس التي نشأ فيها هذا الزعيم بمصر السفلى . وهو الذي انشأ مدينة اثينا واطلق عليها هذا الاسم تيمناً باسم منيرفا لان هذا هو اسمها باللغة اليونانية

اما قدموس فهو من الرعاة أيضاً جاء بقومه الفينيقيين الى اليونان بعد طرد الفراعنة لهم من مصر السفلى . وكان يصحبه داناوس وقد انشأ ملكاً له في اقليم بيوتسيا وأقام هناك مدينة تيبايس وجعلها قاعدة ملكه وبث الحضارة الفينيقية في ذلك الاقليم ولقن الاهلين فن الكتابة . وحل داناوس في ارغوس واستحوز على عرشها وبث تمدن قومه بين سكانها وقيل انه رزق خمسين بنتاً ازوجهن من ابناء أخيه اجبتوس

وهجرة الفينيقيين الى بلاد اليونان لم تقف عند هذا الحد بل اتسع نطاقها على توالي الايام ولاسيما بعد ان طردهم يشوع ابن نون من اوطانهم فاموها جماعات حاملين اليها حضارتهم وثقافتهم وديانتهم وعاداتهم وصناعاتهم وفنونهم بدليل ما يرى من آثارهم في اسماء شعوبها ومدنها وابطالها واديانها مما اكثر العلماء من ذكره نظير بوكرت ونطاليس اسكندر وسواهما

﴿ الخلاصة ﴾ ويذهب بعض العلماء الى ان اللغة الكنعانية او الفينيقية والعبرانية لم يعثر لها على أثر الاّ في فلسطين وفينيقية ولبنان وفي المستعمرات الفينيقية ومعنى هذا في اعتبارهم انها نشأت في هذه البقعة لا في مكان آخر وهذا ما يستدل منه على ان الكنعانيين او الفينيقيين هم اول من استوطن الاقليم المعروف باسم فينيقية من الشعوب القديمة وان وجودهم هناك تقدم وجود كل قبيلة اخرى قديمة مختلفة اللغة وانهم اول من حرث ارضها واستغلها واول من بنى المدن وانشأ الممالك فيها . ولم يجيئوا اليها من الخليج الفارسي او من بلاد العربية كما زعم بعض العلماء نقلاً عن هيرودوتس والاّ لكانوا تركوا هناك أثراً من لغتهم يدل على نزولهم تلك البقاع قبل حلولهم في ارض كنعان هذه . والرأي الذي يعول عليه في هذا الشأن انهم قدموا رأساً من شنعار في كلديا ونزلوا على سواحل البحر المتوسط في البقعة التي سميت باسمهم عند تفرق الشعوب لاول مرة في تاريخ البشرية . وفي هذه البقعة الضيقة انشأوا حضارتهم العجيبة التي كان لها ذلك الشأن العظيم في التمدن القديم

هواجس الغرفة السوداء

نورة الشاعر

فارق النورُ في المساء الشعابا والظلام البهيم غشّى الغابا [1]
وتمشى على الظلام انقباض نشر الموت فوقه والخرابا
ووراء السياج ترقص أشبا ح أخافت من الحقول الكلابا

اسمعي البوم وهي تنعب في النخـــل وطيف الدجى يروع الغرابا
ودويّ الرياح تصخب في الليـــل وتزجي على الفقير البابا

اقرئي لي.. من الكتاب.. قليلاً قبل ان يطوي الفناء الكتابا
افتحي صفحة المزامير يا أخـــت.. وغنّي لحناً يعزّي الشبابا

اسمعي الريح كيف تكسر في الغصـــن وتخفي على الطريق الشهابا
لم تزل تضرب النوافذ في الليــــل — بعنف — وتدفع الأبوابا

(هو في فزع) اسمعي! وقع خطوة من بعيد ؟!

(هي) لا ! بل الوهم قد اضلّ الصوابا !

انظر الأفق.. ويلتي ما اراه ؟؟

(هو) انهُ خاطف أضاء السحابا

اسمعي.. دقة على الباب.. ويلي اطفئي النور.. لا تردي جوابا
خبئيني.. خلف الستار.. وقولي انهُ فرّ في الظلام وغابا

(هي) لا تخف....

(هو) اسمعي عواء ابن آوى إنهُ في الدجى يجيب الذئابا
اشعلي النور.. اسبقيني الى البا ب فاني سأدخل المحرابا
اطفئي الشمع.. اشعليه.. تعالي إننا سوف نقلق الأربابا
اضربي الدّف.. حطميهِ.. وضجّي ثم صيحي.. هيّا.. أحلّي العقابا
لا.. تعالي نجثو هناك الى الصـــبح فقد يقبل الإله المتابا

اشعلي النور واقرئي لي قليلاً قبل ان يطويَ الفناء الكتابا
افتحي صفحة المزامير يا اخـــت وغني لحناً يعزّي الشبابا

مصر م.ع. الهمشري

(١) المقصود بالغاب هو الحقول المزروعة اذرة

كتاب الاغاني

لابي الفرج الكاتب الاموي

المعروف بالاصبهاني

المغزى الذي يقصد اليهِ الناقد من تصفح كتاب « الاغاني » ليس فيما تضمنهُ من الاخبار والسير واحاديث المجالس انما يبغي الناقد الفني من النظر في « عمل » جدي يعد من الاصول المنقطعة النظير في التصنيف العربي وبخاصة تاريخ الغناء والاطوار التي اعترت الصناعة وحدود تأثيرها في الطرائق وطبقات المغنين ومذاهبهم وما يدل على سلامة نظر المصنف وصحة حكمه من فكرة او ملاحظة او رأي . ولكن صاحب كتاب « الاغاني » اختار طريقة الرواية . وكانت الطريقة السائدة في عصره . واستعان بسلامة ذوقه وحسن اختياره على تدوين الاغاني باخبارها ورتبها بطريقة « ينتقل القارىء بها من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى اخبار محدثة ومن جد الى هزل حتى يكون انشط لقراءتهِ واشهى لتصفح فنونهِ »

وقد كان للرواية تأثير بين في طريقة كتابة التاريخ . خلقت الطريقة المجردة التي يقتصر فيها المؤرخ على ذكر الحادث وزمنه دون تعليل او ملاحظة او حكم . وهي الطريقة التي لم تسلم منها تصانيف مؤرخين من الفلاسفة مثل « ابن مسكويه » و « ابن خلدون » . واتبعها مؤرخو الفرنجة انفسهم في العصور الوسطى وما بعدها . وتعرف باسم « الكرونولوجي » . ولما كانت الرواية سابقة لهذه الطريقة وكانت قديمة لانها ترجع الى العصر الاغريقي . فقد كان تأثيرها ظاهراً لا في تدوين التاريخ وحده بل في العلم العربي نفسه وعند ما اتصل العرب بثقافات الامم القديمة انقادوا الى السليقة في التصنيف وخف تأثير « الكلاسيسزم » في اذهانهم

وجاءت الرواية عن طريق اللغة . اذ كانت اللغة كل علم العرب . والفضل للرواية في ان العرب دوّنوا . وكان علمهم اوسع بكثير مما دوّنوا . وكان الكلام ديوان بلاغتهم وذوقهم وتظرفهم . وكانت حافظة العربي هي العمدة وتغلبت هذه الملكة على سائر ملكات الذهن العربي . فلما كان اتصال العرب بحضارات الامم القديمة واشتراكهم في علوم الاغريق خلفت هذه الملكة اثرها القوي في اساليبهم ولم يسلم الشعر العربي بطبيعة الحال من ذلك الاثر

وكان الاموي الكاتب صاحب كتاب « الاغاني » من خير رواة عصره . وكان « عالماً بايام الناس والانساب والسير » وكان من كبار الحفّاظ . والتفوق في علوم الاسناد والرواية كان من تقاليد البلد الذي ولد فيهِ ابو الفرج . وهو اصبهاني الاصل . بغدادي المنشأ

ولقدكان انتساب ابي الفرج الى اصبهان وشرف ارومته من حظ العلم والأ فلا بد لنا من الاعتراف بالصفات الذهنية العظيمة التي خص بها اهل ذلك البلد . « وقد خرج من اصبهان من العلماء والائمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة » . ولا ادري من هو ذلك المؤرخ العربي الذي ذكر ان حضارة العرب مدينة في الكثير الى الاجواء المعتدلة التي تأصل فيها الذهن العربي فان اصبهان من انقى بلاد الله هواءً واصفاها مناخاً واعدلها . ولذلك فان اهلها تطول اعمارهم ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث . واذا قيل حديث واسناد قيل لغة . فان الباب الملكي للتأويل عند العرب هو اللغة . و« للمناخ تأثير بين في اللغات[1] . وكانت ميزة الكاتب الاموي صاحب « الاغاني » - وهي ميزة كوّنها المناخ — انهُ كان عالماً في اللغة . وكان علمه في اللغة اداته في الكتابة . اداة بليغة هي زبدة ما يخرجهُ راوية للشعر

وفي الحضارة العلمية الاسلامية كانت الاحاطة باللغة نوعاً من التفوق الشائع الذي يرافق بصفة خاصة سائر فروع العلم . فكان الفقيه العربي يفزع اليهِ في الشرع كما يفزع اليهِ في الطب وهو مع ذلك حجة في اللغة . كأن العلم في اللغة والاحاطة بها مقدمة لازمة لكتاب معارف الفقيه العربي

هذا الى ان « ابن خلكان » الذي نعتمد عليهِ في استخلاص حياة الكاتب الاموي روى « انهُ كان يحفظ دون ذلك من علوم اخر : « الخرافات » . و « السير » . ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً منها علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم الخ ولعلكم تدهشون لذكره الخرافات بعد اللغة . وهو لا يعني بالخرافات الاقاصيص الشعرية المنسوبة الى الاغريق والفرس والهنود انما نعتقد انهُ يعني بها الميثولوجيا . وكانت الميثولوجيا في الالياذة قاموس لغة الاغريق وكان يسرُّ ادباء الاغريق اذ يرجعوا الى الشعر هوميروس لكي ينسبوا اليهِ تصحيح لغتهم واساليبهم[2]

اما اجتماع البيطرة بالنجوم والجوارح في آلة المنادمة فاشبة بتآليف لوحة فذة لمصور أديب مثل « فرومنتان » وانها لتذكرنا بتظرف بيئة رقيقة من ارباب الأدب والشعر والنبل كالتي عاصرت آل ڤالوا في فرنسا . ولقد كان لبعض اللغويين العرب عناية وافرة بالبيطرة . وكانت علاقتها بالاسماء في اللغة من آلة المنادمة في المجالس . وكان الاصبهاني كأديب من أعيان الادباء وافرادهم منقطعاً الى الوزير « المهلبي » بلا شك من الوزراء الذين يجمعون الى التدبير والسياسة حماية أفراد الادباء والمشتغلين بالعلم . وحماية ارباب الفنون من تقاليد الانسانية التي لا تكاد تنقطع

كان العلم الذي يحضُّ عليه مناخ اصبهان هو الحديث والاسناد . وكان من تقاليدها ان يكثر فيها الحفّاظ . ولكن ابا الفرج كأديب وسع اطلاعه كل فروع المعرفة في عصره خص تفوقه في الرواية بالعلم باخبار الناس وايامهم . فكان مؤرخاً بالاصطلاح القديم « الكلاسيك » وكان مؤرخاً راوية اعانهُ ذوقه وصفاء ملكته وقوة روحه على الاحاطة باخبار الغناء في كل

(١) تاريخ الاندلس للضبي . طبع مدريد (٢) ايجر تاريخ النقد

اطواره . واحسانه في هذا الفن لاينسب الى عبقرية راوية من اعلام الرواة فحسب بل ينسب الى خصائص طبيعية اخرى . أو اجداده الخلفاء . ذلك الأثر الذي خلص نشأته ورفع مستوى تهذيبه في بيئته. كان اذا فتش المرء نسب اجل سن فيها لم يكن بد من ان يجد في أصل نسبه حائكاً أو يهودياً !. وكان أبو الفرج الاصبهاني لطيف المذهب نقي الفطرة ظريفاً لا عل

وان مجرد الموازنة بين مواهب الكاتب الأموي وما وسعه ذهنه الكبير من فروع العلم والطريقة التي اختارها في تأليف كتاب « الاغاني » تحملنا على الايمان بمدى ما بلغه انقياده للمذهب القديم في كتابة التاريخ . ولم تغب عنه مع ذلك الطريقة المستحدثة التي تعنى بتمييز اطوار الفن وطبقات اربابه في ازمانهم ومراتبهم . فقال « لعل من يتصفح هذا الكتاب ينكر تركنا تصنيفه ابواباً (١) على طرائق الغناء « Modes » . (٢) وعلى طبقات المغنين في ازمانهم الخ» . ثم اشار الى طريقته فقال « ليس المغزى في الكتاب ترتيب الطبقات وانما المغزى فيه ماضمنه من ذكر الاغاني باخبارها» . وهي الطريقة الاخبارية القديمة المستمدة من علم الاسناد وكان أبو الفرج الاصبهاني من قبل ان يكون مؤرخاً للاغاني من كبار الحفاظ والرواة

هذا الى رأي آخر لابد من ملاحظته . وهو ان العرب لم يكونوا في الاصل مدوّنين . فانهم لما بدأوا بالتدوين ارتجلوا طرائقهم او اقتبسوها مما اطلعوا عليه من طرائق التصنيف عند الامم التي اتصلوا بها فكريًّا . فهل وفق العرب عند نقل كتاب «الموسيقى» مثلاً اوقبل ذلك الى الاطلاع على تواليف اخرى في هذا الموضوع ؟ وجلي ان الكاتب الاموي قد رسم لنفسه الطريقة في تأليف كتاب الاغاني . وقد ذكر ابن خلكان انه «جمعه» في خمسين سنة واتفق الرأي على انه لم يؤلف في بابه مثله»

وقد استطاع أبو الفرج الاصبهاني ان يكون كاتباً موسيقيًّا ومن نقدة الفن دون ان تكون له مع ذلك ملاحظة ظاهرة او فكرة خاصة او استنتاج او تحليل كما يؤثر عادةً عن نقدة الفن وكان عذره عن الطريقة التي اختارها وقادته اليها غريزته التقليدية « ان الاغاني قلما يأتي منها شيء ليس فيه اشتراك بين المغنين في طرائق مختلفة لايمكن معها ترتيبها على الطرائق»

وكان أبو الفرج الاصبهاني قد صنف في البدء كتاباً سماه «مجرد الاغاني» واشار الى ذلك في المقدمة فقال «... اذ كان قد افرد لذلك كتاباً مجرداً من الاخبار ومحتوياً على جميع الغناء المتقدم والمتأخر ...» . والظاهر ان هذا الكتاب كان مرجعه في تأليف « الاغاني » فقد اضاف اليه الاخبار والقصص بترتيب حسن « ليكون القارىء له بانتقاله من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى محدثة ومن جد الى هزل انشط لقراءته واشهى لتصفح فنونه»

فالعلوم التي نبغ فيها الاصبهاني اذا اجتمعت ألفت شبه اوتار مشتركة لهيكل كبير هو الغناء او الموسيقى العربية كلها يمت بصلة الى ذلك الهيكل ويتعلق به : من الحفظ الى اللغة الى السير

فعلم الجوارح . حتى تلك النتف من الطب والنجوم التي كانت تعد يومئذ من آلة المنادمة

ولقد كانت الاغاني العربية نفسها تحتاج الى الحفظ والرواية لان العرب لم تخترع حروفاً « نوتة » لتقييدها. وكان للشعر من حيث كونه صناعة « art » علم هو اللغة وفن هو الغناء: ويجب ان نعلم ان الاغاني العربية تمثل روح اللغة لا الروح العربي الذي انقطع بالعصر الجاهلي : وانها (اي الاغاني) تمثل العاطفة لا الحياة . وانها تتكلم عن الانسان لا عن الجمعية

وكان الاصبهاني كناقد فني وكاتب موسيقي من الطراز الاول يستخرج من مدخر ثمين اشترك فيه أثر اجداده وذوقه ولطف مذهبه فيما اختاره لنفسه من العلوم لكي يجمع في كتابه «ماحضره . . وامكنه جمعه من « الاغاني العربية قديمها وحديثها » وينسب « كل ماذكره منها الى (١) قائل شعره (٢) صانع لحنه (٣) طريقته من ايقاعه (٤) واشتراك ان كان بين المغنين فيه على شرح لذلك (٥) وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غنى عن علمه من علل اعرابه واعاريض شعره التي توصل الى معرفة تجزئته وقسمة الحانه

وكانت مهمة طفيفة اذا وازنتا بها علم الاصبهاني واتساع معارفه في هذا الباب واهتدائه الى مذهب التصنيف في تاريخ الغناء العربي على طرائقه وتمييز طبقات المغنين في ازمانهم ومراتبهم . ومعنى « ترتيب الطبقات » في عرف النقد الفني هو تحليل اطوار الغناء في ازمانه غير ان هذا المثل الاعلى في كتابه تاريخ الغناء بقي كحلم الشاعر في ذهن الاصبهاني الذي كان يعلم ان الناس تجهل اخبار الغناء ومن غنى شعره من الشعراء القدماء وطرائق الايقاع ومذاهب المغنين فكيف يستطيع ان يؤلف بطريقة تحليلية مدارها على الحكم والملاحظة والتفكير والاستنتاج. وانا نعتقد ان الكاتب الاموي اراد ان يتكلم عن الغناء العربي كفيلسوف وان كتابه «الاغاني» كان تجربة ثانية بعد كتاب «مجرد الاغاني» لم يقدر ان يتملص فيها من ضرورة التوفيق بين علمه الواسع وحاجة عصره الى معرفة الاغاني العربية . واراد الاصبهاني ان يتجنب الحشو فلم تمكنهُ طريقته من ذلك و«نقض ما شرطه على نفسه من الغناء الحشو». واراد ان يكون خلقيًّا يراعي من اخبار الغناء « ماتحتاج الاحداث الى دراستها وتجمل بالمتأدبين معرفتها ! » خالفهُ عيب العصر نفسه في رواية الاخبار. وهو عيب وقع فيه كثير من اللغويين . ونذكر ان المستشرق «س. دوساسي» عند ما نقل مقامات الحريري الى اللغة الفرنسية انتقدها «ارنست رنان» من الوجهة الخلقية ولكن عذر المترجم انه اراد ان تدرس اللغة العربية في تآليف كبار اللغويين انفسهم

ولقد كان الاصبهاني ككتابه يحفظ ذكرى ليالي الانس الحافلة بالغناء ووجوه التظرف والسمر والبلاغة وقصص الملوك في مجالسهم وسيرهم ومغازيهم ومجون الندامى واحاديثهم. ولولا الجزء الفني في الكتاب الذي لا يكاد يفهمه الناس لكان في وسع اي ناقد ان يعده من اشهى كتب الاقاصيص في اللغة العربية [البقية في مقال آخر] عبد الحميد سالم

الابعاد الاربعة

معنى (الحيز — الوقت) في النسبية

لنقولا الحداد

هوي الاستاذ نقولا الحداد نظرية النسبية فقضى في دراستها سنتين . درس بضعة عشر مؤلفاً لكبار علمائها، منها اثنان لاينشتين نفسه . ثم بسطها في كتاب بالعربية باسهل اسلوب مستطاع من غير استخدام الحسابات الرياضية الا عند الضرورة القصوى واضاف اليه ملحقاً رياضياً لبرهنة « النسبية الخاصة » لمن يشاء ان يطلع على النظرية من الوجهة الرياضية . ومن هذا المقال السهل التناول يرى القارىء ان الاستاذ حداد جعل نظرية النسبية الغامضة اوضح ما يمكن لافهام الجمهور

ربما كانت قضية الابعاد الاربعة اغرب قضايا النسبية وابعدها عن المألوف في اذهان البشر وادعاها للاستهجان . وقد زادها هُجنة الكتّاب الذين كتبوا عنها من غير ان يدرسوها ويفهموا المقصود منها فهماً صحيحاً . ففسّروا الابعاد بحدود الجسم الثلاثة : الطول والعرض والعمق (او العلو او السماكة) . واضافوا الزمن اليها بعداً او حداً رابعاً باعتبار انه من رتبتها ، من غير ان يفسّروا سرّ هذه الاضافة . فبحسب هذا التفسير لابدع ان تبدو تسمية الوقت او الزمن (رابع الحدود) امراً مستهجناً يستنكره العقل وينبوعهُ التصوُّر . ويمثلون على زعمهم هذا بقولهم : « لهذا الكتاب ، مثلاً ، حدود اربعة : طوله وعرضه وعمقه (او سماكتهُ) والوقت الذي هو فيه» . واذا سألتَهم : مامعنى هذا الكلام وما علاقة الوقت الذي هو فيه بحدوده الثلاثة فلا يستطيعون ان يزيدوك تفسيراً . اجل . لا يستطيعون لان السخافة لاتحتمل تفسيراً

ليس للكتاب ولا لأي مادّةٍ من الموادّ المحسوسة الا طول وعرض وعمق . وكذلك ليس لأي حيّز موهوم في الفضاء الا هذه الحدود او الابعاد الثلاثة فقط ، مهما تقلّب العقل البشري في عالم التخيُّل والتصوُّر . لان هذه الحدود الثلاثة هي طبيعة الحيز الهندسي الاقليدوسي المفروض الثابت او المشغول بمادة محسوسة ساكنة غير متحركة

واما نظرية النسبية فلا شأن لها بالحيز المفروض او الموهوم ولا بالجسم المادي الثابت . ولا تعترف بوجود حيّز معيَّن ثابت ولا بوجود مادة ساكنة غير متحركة ، بل هي تذهب الى ان الحركة سُنَّة اساسية في المادّة بمعنى ان كلَّ ذرّة وكل جسم وكل جرم في الكون متحرك ولولا الحركة لكان عدماً . ولذلك لا معنى للحيز او المكان الا بما يشغله من المادة

او من مفاعيلها كالتشعُّع والجو الكهربائي المغنطيسي والجو الجاذبي . وحيث لامادَّة ولا شيء من مفاعيل المادة فلا شيء يسمى حيِّزاً او مكاناً . وبعبارة اخرى (غير منطقية) اذا خلا الحيز من مادة او من مفاعيلها كان عدماً . قلت «غير منطقية» لانه لاوجود لحيز خال من المادة . هو العدم كما قلنا

يستفاد مما تقدَّم ان النسبية لا تعنى بالاجسام ولا بالحيز الموهوم المفروض ، وانما هي تعنى بالحركات الحادثة (الحوادث) . ولذلك اذا حدَّدت موقع حادثة او اية حركة حدَّدته بالابعاد الاربعة : ثلاثة منها مكانية (حيزية) والرابع زماني . باعتبار ان تحديده لا يتم الاَّ باقتران الزمان بالمكان . ولكي تنجلي هذه القضية النسبية للقارىء وتنقشع من ذهنه تلك الهجنة التي غشَّى بها على الابصار الكتَّاب المتسرّعون بلا تحقيق . نشرح القضية فيما يلي مبتدئين بابسط وجه من وجوهها

***

افرض او تصوَّر انك في غرفة مكعَّبة ، كلٌّ من طولها وعرضها وارتفاعها عشر اذرع ، وان هذه الغرفة هي كلُّ الكون . وتصوَّر ان في جانب منها (منضدة) طاولة ، وعلى الطاولة شمعدان ، وعلى قمة الشمعدان عند ب في الشكل الاول ذبابة او بعوضة : وافرض ان في زاوية الغرفة السفلى عند ع رقيباً يراقب البعوضة . فماذا يفعله الرقيب لتحديد موقع البعوضة ؟

افرض انه يقيس اقرب مسافة من موضع البعوضة الى الارض وهي الخط العمودي السمتي منها الى الارض ، ولنفرض انه وجده ذراعين . فهل يكتفي لتحديد موضع البعوضة بالقول انه يعلو عن الارض ذراعين او يسفل عن السقف ٨ اذرع ؟ كلاَّ ، لماذا ؟ لانك كيفما دفعت الطاولة في ارض الغرفة دفعاً أُفقيًّا تبقى البعوضة عالية ذراعين عن الارض . يلتفت الرقيب الى الجدار الذي عن يمينه ويقيس اقرب مسافة من البعوضة اليه فيجدها ٤ اذرع مثلاً . فيقول ان البعوضة تعلو عن الارض ذراعين وتبعد عن الجدار الذي عن يميني ٤ اذرع ، فهل هذا يكفي لتحديد موضع البعوضة ؟ كلاَّ ، لانهُ يمكنه ان يدفع الطاولة في خط موازٍ للجدار المذكور وتبقى البعوضة على ذراعين فوق الارض و ٤ اذرع عن الجدار . اذن ، يبقى عليه ان يقيس اقرب مسافة بين البعوضة والجدار الذي عن يساره (المعامد للجدار الذي عن يمينه) فيجدها مثلاً ٣ اذرع . وحينئذٍ يصح له القول ان البعوضة ترتفع عن الارض ذراعين (او تسفل عن السقف ٨ اذرع) وتبعد عن الجدار الذي عن يميني ٤ اذرع (او عن الجدار المقابل له ٦ اذرع) وتبعد عن الجدار الذي عن يساري ٣ اذرع (او عن الجدار المقابل له ٧ اذرع)

فهل يتحدَّد موضع البعوضة حينئذٍ ؟ نعم . لانه ليس في تلك الغرفة الاَّ نقطة واحدة لها هذه الابعاد الثلاثة المتعامدة فيها عن جهات الغرفة . وهي موضع البعوضة

اذاً ، لابد لتحديد أي نقطة في أي حيّز من ابعاد ثلاثة (مكانية) متعامدة كل واحد منها عمودي على الآخرين في تلك النقطة . ولا يمكن تحديد موقعها ببعدين فقط . وبالاحرى لا يمكن ببعد واحد ، وهذا ما يسمونه في اصطلاح النسبية نظام المتعامدات الديكاري The Cartisian Co—ordinate System نسبة الى الفيلسوف دي كارت الذي استنبطهُ

هذا هو معنى الابعاد الثلاثة المكانية التي بها يتعين اي موقع في أي حيّز . بقي ان نعلم كيف يأتي البعد الزماني الرابع تتمة لتعيين الحادث . وانما قبل الانتقال هذه الخطوة لابدَّ من شرح مسألة اخرى لا غنى عنها لتمام البحث في موضوع النسبية . وسيرى القارىء خطورتها

قلنا ان المراقب مقيم عند ع . ولابد لهُ من معرفة بُعد البعوضة عنهُ . فكيف يعلمهُ ? يلجأ الى قاعدة فيثاغورس الهندسية وهي :

(١) مربع الوتر في مثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الساقين

(٢) مربع الوتر في مكعب يساوي مجموع مربعات الطول والعرض والعمق فاذاً ، المسافة من ع ← ب = $\sqrt{٢^٢ + ٣^٢ + ٤^٢}$ = ٥،٣ . نتقدم الآن الخطوة الاخرى في البحث

***

لنفرض ان في وسط الغرفة تماماً مصباحاً معلقاً على بعد ٥ اذرع من جميع الجهات، عند ص في الشكل الاول (فيكون بُعدهُ عن ع = $\sqrt{٥^٢ + ٥^٢ + ٥^٢}$ = ٨،٦ تقريباً)

ولنفرض ان البعوضة طارت عن الشمعدان في خط مستقيم الى المصباح ص بمعدل سرعة ذراعين في الثانية . قامت الظهر تماماً ووصلت في الثانية ١،٨٧ بعد الظهر

فهنا حادث انتقال البعوضة عن الشمعدان الى المصباح . لم يتم هذا الحادث في الحال بل اشغل مسافةً واستغرق وقتاً في آن واحد . اي ان المسافة التي سلكتها البعوضة بين ب ← ص يعبر عنها بسرعة البعوضة في الثانية مضروبة بعدد الثواني التي قضتها في اثناء الانتقال

والرقيب ع مضطرٌ ان يُدخل الوقت في الحساب لاستخراج موقع الانتقال هذا بالنسبة اليهِ . اذن . نعود الى الحساب ونحدد موقع قيام البعوضة عن الشمعدان وموقع وصولها الى المصباح بالنسبة الى الرقيب ع هكذا : —

	الموقع المكاني			الموقع الزماني	
	طول	عرض	عمق	الثانية	الساعة
موقع وصول البعوضة الى المصباح	٥ ،	٥ ،	٥	١،٨٧	١٢
موقع قيام البعوضة عن الشمعدان	٤ ،	٣ ،	٢	٠٠	١٢
نطرح لنعرف فرق الابعاد بين القيام والوصول	١	٢	٣	١،٨٧	٠٠

ذراعاً معدل السرعة ثوانٍ

اذن المسافة بين ب ـ ص = $\sqrt{١^٢ + ٢^٢ + ٣^٢}$ = ٣،٧٥ = ٢ × ١،٨٧

هكذا هو حساب الرقيب عند ع . وترى منهُ انهُ التزم لاستخراج موقع حادث الانتقال ان يدخل الوقت في الحساب كبعد رابع

بعد هذا الشرح البسيط صار في امكانك ان تتصوَّر المدَّة (الزمانية) والمسافة (المكانية) في كل حركة (حادثة) مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً كأنهما لفظتان لمعنى واحد . لانك لا تستطيع ان تتصور اي حادث او اية حركة لجسم الاَّ وانت تمثل في ذهنك سرعة ذلك الجسم تستغرق وقتاً لعبور مسافة . فلا يحضر لذهنك انتقال ذلك الجسم اية مسافة الاَّ وتحضر في ذهنك ايضاً المدة التي قضاها ذلك الجسم في عبور هذه المسافة . لان الحركة تشغل المسافة والمدَّة (المكان والزمان) معاً . فهي الوثاق الذي يوثقهما . رأيت ان البعوضة في انتقالها من الشمعدان الى المصباح اشغلت مسافة ومدَّة في آنٍ واحد . فكان مستحيلاً عليها ان تقطع المسافة من غير ان تشغل وقتاً ، كما انهُ لا يحسب لها وقت اذا لم تتحرك حركة تشغل مسافةً . فالحركة اذاً هي صلة زمانية مكانية بين حادثي قيام البعوضة ووصولها . هذه الصلة هي البُعد الرابع . ليس الوقت وحده البعد الرابع الذي نعنيه اذ لا وجود لهُ . واما الوقت الذي تدمجهُ الحركة بالمسافة هو البعد الرابع . ولذلك في كل حركة نعبّر عن المسافة بحاصل ضرب معدل السرعة في الثانية بعدد الثواني (او اي وُحدة من وحدات الوقت) فنقول م (المسافة) = س × ق (السرعة مضروبة بالوقت) . اذاً ، البعد الرابع هو «الحيز—الوقت» معاً كما ستراهُ في المعادلات الرياضية التي يفضي اليها توسعنا في البحث التالي

***

مع ذلك لا يكتفي الرقيب بهذا الحساب لانهُ ناقص نظريًّا كما سترى . هو ناقص لاننا لم نحسب حساب النور الذي ينقل خبر الحادث الى عين الرقيب . اذ لا يخفى عليك ان النور الذي ينقل الخبر يستغرق وقتاً ايضاً (٣٠٠ الف كيلومتر في الثانية) . نعم ان مدة انتقال النور (من موضع قيام البعوضة ومن موضع وصولها) الى عين الرقيب في غرفة، لا تعتبر شيئاً البتة (الاَّ نظريًّا) ولكن في المسافات الفلكية السحيقة تكون المدَّات دقائق وساعات واياماً وسنين فلا بدَّ من ادخالها في الحساب . ونحن نضرب الامثال النظرية بالمسافات القصيرة تسهيلاً لفهم القارىء الحقائق العملية في المسافات العظيمة

ولكي تنجلي حقيقة القضية للقارىء جيداً نضرب مثلاً آخر ونغفل عنهُ حساب الارقام لكيلا نعنت ذهنهُ . ونستعيض عنها برموز الحروف . لقد فهم القارىء ان الموقع المكاني

(الحيّـزي) لا يمكن تحديده الاَّ بتعـامد ثلاثة متعامدات فيهِ بين الجهات الست . الطول من الشرق الى الغرب (مثلاً) ، والعرض من الجنوب الى الشمال ، والعلو من فوق الى تحت — فهم القارىء ذلك فلم يبق لزوم لتكرار الكلام فيهِ ولا للتمثيل بالغرفة او نحوها . يكفي بسط قضية اخرى بالرسم التالي

لنفرض ان النقطة ع محطة سكة حديدية وفيها تتعامد الابعاد الثلاثة م . ه . ي (كما ترى في الشكل الثاني) محدّدة لموضعها . وفيها قطار . قط . تتعامد فيهِ ايضاً الابعاد الثلاثة: مَ . هَ . يَ

نرمز عن الوقت الذي قضاه القطار في رحلتهِ بالحرف ق في نظر ناظر المحطة ع وبالحرف قَ في نظر سائق القطار . وسنرى ان الوقت في نظر الواحد يختلف عنهُ في نظر الآخر . ولنفرض ان القطار يسير بسرعة ١٠٠ متر في الثانية نرمز عنها بالحرف س . وهو يسير على خط الطول م وبنفس اتجاهه . ونفرض ان طول الخط الذي يسير عليهِ القطار يساوي م . والمسافة التي يسيرها القطار تساوي سرعته مضروبة بالوقت اي س × ق او س ق والمسافة التي لم يسرها بعد ، اي الباقية من الخط م ويُنتظر ان يسيرها ، تساوي مَ

فلما كان القطار في المحطة كانت متعامدات القطار وبالاحرى جميع ابعاده مطابقة لابعاد المحطة اي ان م = مَ ه = هَ ى = ىَ ق = قَ

ثم سار القطار دارجاً على الخط م الى ان وصل او عبر على النقطة ط بعد عدد كذا من الثواني رمزنا عنها بالحرف ق في نظر ناظر المحطة وبالحرف ق في نظر السائق كما تقدم القول. وبناءً عليه اصبحت المسافة م = مَ + س قَ في نظر ناظر المحطة

و مَ = م — س ق في نظر سائق القطار

وبقيت ه = هَ

« ي = يَ

« ق = ؟ } سنرى

« قَ = ؟ }

وهنا نوجّه نظر القارىء الى مسألة جوهرية وهي : في نظر ناظر المحطة القطار يبتعد عنهُ . وفي نظر سائق القطار المحطة تبتعد عنه ، كأنَّ القطار ساكن والمحطة راحلة . فكلٌّ من ناظر المحطة وسائق القطار يحق له ان يعتبر نفسه ساكناً والآخر مبتعداً عنهُ . وما دامت المسافة بينهما تتسع وتنفرج فلا عبرة في ايهما السائر وايهما الساكن وانما العبرة في ان المسافة بينهما تتسع وان نظر كلٍّ منهما يختلف عن نظر الآخر كما سنرى

هذه نظرية دقيقة من نظريات النسبية قد لا يطمئن لها تصوُّر القارئ، الاَّ بعد شرح كافٍ . وبالاسف ليس هنا متسع لهذا الشرح الآن . ربما عدت اليه في حين آخر

ترى فيما تقدم ان مسألة الوقت دخلت حتماً في حساب انتقال القطار من المحطة الى نقطة ط كما ترى في المعادلتين الاوليين من المعادلات الست السابقة . ولكن هل هذا الحساب صحيح وتام ؟ او هل هو كل شيء في مسألة البعد الرابع ، الوقت ؟ فلنرَ

ان الملمَّ بنظرية النسبية لايقتنع بهذا الشرح البسيط ، حتى ناظر المحطة ، ومثله سائق القطار، اذا كان قد اطلع على تعليل مسألة تقلص الاجسام في اتجاه خط حركتها (كما شرحناها في مقتطف فبراير ١٩٣٣) واقتنع بان هذا التقلص يتوقف على نسبة خاصة بين سرعة الجسم وسرعة النور كما تدل عليها عبارة لورنتز الرياضية (التي استخرجناها في ذلك المقال) — اذا كان قد فهم جيداً هذه القضية الخطيرة الشأن التي بنيت عليها نظرية النسبية فلا يقتنع بهذا الشرح البسيط

لايقتنع الملم بنظرية النسبية بهذا الشرح البسيط لانه يعلم ان ناظر المحطة لما رأى القطار قد مرَّ على نقطة ط — او لما بلغه بواسطة اشارة برقية او لاسلكية (راديو) ان القطار مرَّ على نقطة ط — كان القطار قد تجاوز هذه النقطة الى نقطة ل (مثلاً) في اثناء انتقال الاشارة اليه لان الاشارة استغرقت وقتاً . ولذلك اصبحت المسافة من ل الى ع تساوي في نظره المسافة من ط الى ع فكأنها تقلصت بقدر المسافة من ل الى ط

***

وقد فهمنا من مقال التقلص المشار اليه آنفاً ان مقدار هذا التقلص يساوي :

$$\text{م} \times \sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}} = \text{مَ} + \text{س قَ} \quad \text{وبالجبر لنا} \quad \text{م} = \frac{\text{مَ} + \text{س قَ}}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}}}$$

هذا في نظر ناظر المحطة ع

وأما في نظر سائق القطار فان $\text{مَ} = \frac{\text{م} - \text{س ق}}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}}}$

ومن هاتين المعادلتين يمكننا (لو يسمح المقام) ان نستخرج قيمة ق وقَ اي قيمة الوقت في نظر كلٍّ من ناظر المحطة وسائق القطار . فهي :

في نظر ناظر المحطة $ق = \dfrac{ق' + \dfrac{م\,س}{ن^2}}{\sqrt{1 - \dfrac{س^2}{ن^2}}}$

وفي نظر السائق $ق' = \dfrac{ق - \dfrac{م\,س}{ن^2}}{\sqrt{1 - \dfrac{س^2}{ن^2}}}$

فنرى في هذه المعادلات كيف ان الوقت يختلف عند الواحد عنه عند الآخر كما ان المسافة تختلف ايضاً (ولها بحث خاص) ونرى ايضاً كيف ان الوقت اندمج مع المسافة فكوّن بُعداً رابعاً جملته سرعة النور وسرعة الجسم المتحرك يختلف في نظر الواحد عنه في نظر الآخر. (يتضح هذا جيداً في البحث في نسبية التواقت)

ماذا نفهم مما تقدم ? لم نفهم مما تقدم ان الزمن بُعدٌ رابع فقط بل علمنا ايضاً امراً آخر عظيم الشأن وهو ان الزمن او الوقت (او المدة) نسبيٌّ يتمدد في نظر المراقب البعيد كما ان المسافة نسبية تتقلص في نظر المراقب البعيد

كان العلماء والفلاسفة قبل عهد «النسبية» يعتبرون الزمن او الوقت شيئاً مستقلاً قائماً بنفسهِ لاعلاقة له بالمكان او الحيز. وهو هو بعينهِ في نظر المراقبين للحوادث مهما تباعدت مواقعهم ومهما ترامت مواقع الحوادث عنهم. فكانوا يعتقدون ان الوقت لحادث في اي مكان بعيد هو نفس الوقت لراصد هذا الحادث اينما كان ومهما اختلفت ابعاد الحادث عنه

ولكن من مجرد التأمل في المعادلات المذكورة آنفاً يتضح لك ان الوقت لا وجود له ولا هو بالشيء المستقل القائم بنفسهِ. ماهو الآ نتيجة فعل الحركة (الحادث) في الحيز. فهو مقياس للحركة فقط. ولما كان نظر الرقباء للحادث يختلف باختلاف ابعادهم عنهُ لان النور (او اي امواج كهربائية مغنطيسية) هو الوسيلة لنقل خبر الحوادث اليهم، صار الوقت (الذي هو مقياس (الحركة)، في نظر الواحد منهم يختلف عنه في نظر الآخر حتماً كما تدل عليه المعادلات المذكورة آنفاً

اذاً الوقت (الذي هو بُعد رابع كما تقدم تبيانه) هو شيء نسبي ايضاً. وتتضح نسبيته جيداً في شرح نظرية «التواقت» اي حدوث حادثين متباعدين في وقت واحد. وهي من أهم قضايا النسبية وافكهها. وربما عدت اليها في مقال آخر



شهيد الخرطوم

او غوردون باشا

اصدر المستر بيير كرابتس القاضي الاميركي في محكمة مصر المختلطة الابتدائية كتاباً نفيساً بعنوان « غوردون : النخاسة والسودان » تتبع فيه حياة غوردون من ناحية عمله في فتح السودان ومحاربة النخاسة وانحصاره في الخرطوم وغير ذلك من الحوادث المتصلة بتاريخ مصر الحديث اوثق اتصال. وقد كتب المؤلف كذلك مقالة في مجلة آسيا الاميركية لخصناها في ما يلي وانما نشير على المعنيين بهذا الموضوع ان يجعلوا المقالة توطئة لقراءة الكتاب . وهو يطلب من مكتبة الانجلو المصرية بشارع قصر النيل

احتفل في ٢٨ يناير سنة ١٩٣٣ بالعيد المئوي لولادة غوردون «الصيني» ولا بدَّ ان يكتب الكتّاب احتفالاً بهذا الحادث بضع تراجم جديدة للضابط الانكليزي الشديد التمسك بالدين والذي قاد الجنود الصينية الى النصر في فتنة تايبنغ سنة ١٨٦٣ و ١٨٦٤ ثم دافع بعد ذلك عن الخرطوم دفاعاً موسوماً بالبسالة ومثيراً للاشجان مما يقلُّ نظيرهُ في مأساة الحرب

وفي مدة حياتهِ تبارى الكتّاب في المبالغة بذمهِ وبمدحهِ . ويقول معاصرونا في تقدير صفاتهِ انهُ بطل عسكري وديني معاً عاش للانسانية لا لنفسهِ

كان لتشارلس جورج غوردون عينان زرقاوان خلابتان تولدان الثقة في الناظر اليهما ويكتسب صاحبهما بهما الاصدقاء . وكان في صوتهِ نعومة ورنة يعرف بهما « الرجل » الانكليزي الكريم وكان اقرب الناس الى القلوب واكثر الجنود تمسكاً بالمسيحية

وقد مرّت الى الآن خمسون سنة منذ اصبح في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ « شهيد الخرطوم» ولكن المناقشة التي قسمت انكلترا حينئذٍ معسكرين وتلاميذ السياسة الخارجية في العالم كله حزبين لم تخمد ويلوح انها سوف تدوم الى الابد

وقد يكون المثل القائل ان الولد ابو الرجل صحيحاً ولكن لم يكن في حداثة غوردون ما يدلُّ على اخلاقهِ وصفاتهِ التي اشتهرت فيما بعد . فقد ولد في ٢٨ يناير سنة ١٨٣٣ وكان الابن الرابع في عائلة مؤلفة من احد عشر ولداً . وكان ابوهُ جنرالاً في الجيش البريطاني وعني بتربيته تربية عسكرية . ولكن مرَّ زمان ظهر فيهِ ان «شقاوتهُ» في المدرسة الحربية قد تضطرهُ الى ترك الخدمة العسكرية لانه كان شديد الايذاء للطلبة الذي هم دونهُ في الصفوف ووبخ مرة على ذلك فانتقل من قسم المدفعية الملكية الى المهندسين الملكيين في المدرسة العسكرية الملكية لهذا السبب

ولما ترك مدرسة وولتش للخدمة ضابطاً في قسم المهندسين امر بالذهاب الى عبروك وعهد اليهِ في وضع رسوم لبناء حصون عند مدخل الميناء . وفيما كان هناك تملكتهُ الافكار الدينية فكان يصلي بغيرة رجل متجدد ويكثر من قراءة الكتب الدينية وتغير نظرهُ الى الحياة تغيراً كاملاً

ثم شبت نار حرب القريم فانتدب للخدمة في خنادق سباستبول فامتاز بالشجاعة وهو ابن ٢٢ سنة . وبلغ من ثقة وزارة الحربية بهِ انهُ لما شهرت بريطانيا الحرب على الصين سنة ١٨٦٠ وجّه اليها ولكن القتال انتهى قبل وصوله الى الشرق الاقصى ومع ذلك بقي في الصين اربع سنوات واشتبك في حربها الاهلية فكان ذلك واسطة للتمرس بشؤونها المحلية تمرساً اكسبهُ احترام حكامها وحبهم لهُ

وقاد جيشاً صينيًّا لقّب « بالجيش الدائم النصر » فانعم عليهِ بالسترة الصفراء وريشة الطاووس ورقي الى رتبة « مندرين » . وعاد الامبراطور فرقاهُ الى رتبة تيتو اي ميجر جنرال في الجيش الصيني حتى عرف في الهيئة الاجتماعية في لندن بلقب غوردون «الصيني». وانعمت عليهِ الملكة فكتوريا بنيشان الحمام ورتبة لفتننت كولونل في المهندسين الملكيين . فلم يبلغ الثلاثين حتى عدّ احد ابطال انكلترا الوطنيين

ولما عاد الى لندن حاولوا حرق البخور لهُ فلم يرقهُ ذلك بل آثر ان يترك وشأنهُ . ورحب بالفرصة التي سنحت لهُ اذ انتدب لاقامة حصون على نهر التايمز فدفن نفسهُ في ذلك العمل مدة خمس سنوات . وقضى ساعات فراغه في الاعمال الخيرية . وكان كثيرون من المرضى اذا حضرتهم الوفاة يدعونهُ اليهم ويفضلونهُ على رجال الدين الرسميين فكان يلبيهم مهما بعدت الشقة . ولكنهُ لم يكن يلبي دعوة الذين يدعونهُ لرياسة الاجتماعات الدينية لانهُ كان يمقت الظهور والتظاهر

وافضى كرههُ للظهور وبذلهُ نفسهُ عن غيرهِ الى تقوّل كبار الضباط وصغارهم الاقاويل فيهِ ففسروا زهدهُ في امور الدنيا بشذوذ طباعهِ وغرابة اطوارهِ واستهدف بسبب ذلك لسخريتهم حتى بلغت سخريتهم وزارة الحربية . واتفق ان خلا منصبٌ كبير في لجنة الدانيوب الاوربية فعين فيهِ حالاً مما دلّ على ان اهل الشأن لم يبالوا مثقال ذرة بما تقول الناس فيهِ

وفيما كان في الاستانة بصفة مهندس ملكي اجتمع بنوبار باشا وزير خارجية مصر في عهد اسماعيل باشا الخديوي . وكان السر صموئيل باكر الحاكم العام للاقاليم الاستوائية ينوي الاستعفاء من منصبهِ وكان لا بدّ من انكليزي يحلّ محلهُ فأعجب نوبار باشا غاية الاعجاب بهِ فطلبت مصر من الحكومة البريطانية ارساله اليها فلبّت طلبها

وكان مرتب السر صموئيل باكر ١٠ آلاف جنيه في السنة فاصرّ غوردون على ان يخفض مرتبهُ هو الى الفي جنيه وقال « ان الفلاح يعطي هذا المال من عرق جبينهِ ومرتبي في لجنة الدانيوب الفا جنيه فليس هناك سبب يحملني على ان أدع مصر تدفع اليَّ اكثر من هذا المرتب »

وسرَّ المهندس الملكي بهذا الميدان الجديد الذي فتح امامهُ اذ رأى فيهِ فرصة لخدمة الانسانية . وكان يعرف ان اواسط افريقية اروج اسواق النخاسة فلذلك فسّر تعيينهُ في منصبهِ الجديد بانهُ وسيلة لمحاربة الرق في منبعهِ

وكتب الى شقيقتهِ سنة ١٨٧٣ وهو في لجنة الدانيوب وقبل قبوله المنصب المصري يقول:

« ان الله اذن في ترك النخاسة وشأنها هذه السنين الطوال . ولما كانت قد خلقت مع القوم فهي في حاجة الى اكثر من حملة لاستئصال شأفتها . لتفتح البلاد اذاً لسقطت من تلقاء نفسها. اني اكره ان تفقد نفس واحدة في هذا السبيل وسأحاول منع كل حادث يحدث اذا ذهبت الى هناك »

وكتب اليها بعد ذلك باسبوع :

« اعتقد اذا استقرت احوال السودان ان الخديوي يمنع الاتجار بالرقيق ولكنهُ لا يرى السبيل الى ذلك واضحاً حتى يتمكن من التجوال في البلاد . ومن رأيي ان نفتحها بجعل البواخر تصل الى البحيرات . وفي اثناء ذلك اهتدي الى النخاسين فاسأل الخديوي ان يقبض عليهم »

وخير ما يوصف بهِ غوردون انهُ كان اغناطيوس لويولا (مؤسس فريق اليسوعيين) في القرن السادس عشر او متصوفاً انجليكانيًّا عيناهُ في السماء وقدماهُ على الارض . او عالماً يفهم نواميس الاقتصاد ويؤمن بالصلاة ويعير تعاليم ادام سمث (الاقتصادي) اذناً صاغية وقلباً واعياً

وقد رأى بعين الحالم الخيالي الذي فيه خميرة من الحقائق ان النخاسة جزء لا يتجزأ من بناء افريقيا الاقتصادي فلذلك عزم ان يناوئها لا بأوامر عالية من الخديوي ولا بالصلاة والصوم بل باسكان الناس في السودان وايصال البواخر الى البحيرات كما قال وبفتح الاقاليم الاستوائية في وجهِ الحضارة

ونال غوردون الحظوة عند اسماعيل باشا في اول اجتماع بهِ فوضع فيهِ كامل ثقتهِ ومنحهُ سلطة لا حدَّ لها في منصبهِ الجديد وعين رئيساً لاركان حربه اميركيًّا اسمهُ الكولونل تشايلي لونغ من مريلند وولى اميركيًّا آخر هو الميجر وليم كمبل منصباً حربيًّا آخر تحت قيادتهِ لمقاومة تجارة الرقيق . ثم سافر غوردون الى قلب افريقية

ولم يكد كمبل يتولى منصبهُ في الخرطوم حتى توفي بالحمى . اما لونغ فانتدب لمهمة في اوغنده فعين اميركي آخر محلهُ هو الميجر پروت وكان ينوب عن غوردون في اثناء غيابهِ

ولم يمض زمان طويل حتى طلب من الخديوي ووزارة الحربية في لندن طلباً اثار مقاومتهما معاً وهو تعيين نخاس عربي اسمهُ ابو سعود في خدمتهِ . وكان السر صموئيل باكر قد قال عن ابو سعود انهُ مجرم لا يصلح وشهَّر بهِ في العالم قائلاً انهُ اعظم نخاسي افريقية . ولكن ذلك كلهُ لم يمنع غوردون من ان يطلب اطلاق سراحه وتعيينه في خدمتهِ حاذياً في ذلك حذو باكر نفسهُ اذ جمع حرساً له من المجرمين ومعتادي الاجرام وهم من الذين سماهم في احد كتبهِ

« اللصوص الاربعين » فحولهم من لصوص الى حفظة للامن منفذين للقانون لم يخونوه مرة واحدة واشتهروا بالبسالة والامانة والاخلاص له . ولما سافر من افريقية عين « وات المك » من كبار النخاسين سابقاً لحفظ النظام والقانون في السودان الى حين وصول غوردون

ولكن باكر خالف غوردون في اختيار ابي سعود لخدمته وكان عنده اسباب حملتهُ على ذلك وكتب في التيمس ينتقد هذا التعيين . ولم يكد غوردون يستخدم ابا سعود حتى رأى انهُ لا ينفعهُ فصرفهُ على عجل

ومن اغرب ما روى عنهُ في اوائل مقاومته للنخاسة ان اول سرب من الرقيق اسره من النخاسين كان مؤلفاً من فتيات سودانيات جيء بهنَّ من بلدان تبعد مئات الاميال. فقال في نفسهِ : ماذا تريد هؤلاء الفتيات حقيقة غير الازواج ? ثم امر بهنَّ فحضرن امامهُ فسألهنَّ هل تتزوجن من جنودي ? فأجبنهُ بصوت واحد « نعم » . والتفت الى جنوده وسألهم السؤال عينه فأجابوا بما اجاب بهِ الفتيات . فقال «يا بنات اخترن ازواجكن» ففعلن فزوج الفتيان بالفتيات . وكتب في مذكراتهِ في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٧ يقول :

« لقيت صباح هذا اليوم قافلة من الرقيق وعددهم ٦٠ او ٨٠ رجلاً وامرأة وولداً وهم موثقون بالحديد . فماذا اصنع لهم ? فاذا اطلقتهم فمن يعنى بهم او من يطعمهم ? ومنازلهم بعيدة فمن يعيدهم اليها ? لذلك قررت ان اكره النخاس الذي معهم على فك قيودهم وابقائهم معهُ . والحق ان النخاس لم يؤذ احداً بشرائهم لأن شراء الرقيق محلل في مصر ولم يأخذهم من منازلهم . ولا علاج لهذه الحالة الاَّ وقف النخاسة على الحدود»

وبقي غوردون يناوىء النخاسة حتى تخلى اسماعيل باشا عن عرش الخديوية سنة ١٨٧٩ وكان الخديو صديقه ومؤيده فلما اكرهت اوربا اسماعيل على الاعتزال رأى غوردون ان الأليق بهِ ان يرحل في اول فرصة . وترك افريقية وعين سكرتيراً خصوصيًّا للورد ريبون حاكم الهند ولكنهُ لم يلبث ان استعفى ثم جاءه تلغراف من السر روبرت هارت المفتش العام للجمارك الصينية يلحّ عليهِ في السفر الى الصين فسافر وساعد على منع الحرب بين الصين وروسيا

وعين بعد ذلك في مناصب مختلفة ثم عاد الى انكلترا فطلب اجازة للسفر الى فلسطين.وفيما كان فيها طلب منهُ ليوبولد الثاني ملك البلجيك ان يتولى ادارة ولاية الكنغو الحرة فقبل بشرط موافقة وزارة الحربية في لندن وعاد الى انكلترا للاستعداد للسفر اليها

ولكن «القسمة» حالت دون انفاذ هذا المشروع . ذلك انهُ لم يكد يصل الى سوثمبتن حتى جاءت الانباء بان جيش هكس باشا أُبيد في الابيض ومات هكس وجميع الضباط الانكليز الذين كانوا معهُ . فروعت انكلترا كلها وضربت الصحف على هذه النغمة وتزعزعت وزارة غلادستون فانفذ غوردون الى القاهرة وهكذا انقذ وزارته. وبقي غوردون على الطريق عشرة أيام استردت

فيها البلاد صوابها وغلادستون رزانتهُ . فطلب غوردون انضمام الزبير (باشا) الى بعثتهِ فاستنكر غلادستون ومن لفَّ لفهُ من كارهي النخاسة هذا الطلب لاشتهار الزبير بها . ووافقهم اللورد كرومر (السر افلن بارنغ حينئذ) على هذا الاستنكار اولاً فلم يسع غوردون الاَّ السكوت ولكنهُ لما سافر جنوباً جعل ينفذ الرسالة اثر الرسالة الى السر افلن ملحّاً في اقناع لندن بالموافقة على طلبهِ والحق يقال ان كرومر اقتنع بعد ذلك برأي غوردون وأيده في طلبهِ. ومما قالهُ غوردون

ان المصريين والانكليز طبعاً — سيتحولون قريباً عن السودان فتمسي هذه البلاد السوداء معرضاً للرجل الاسود . واقدر رجل اسود اعرفهُ هو الزبير . هو السوداني الوحيد الذي يستطيع اقامة حكومة منظمة في تلك الانحاء . فاذا اعتزلنا — ولا بدَّ من اعتزالنا — وجب ان اسلّم مقاليد الامر الى رجل ما . فان لم يتولَّ الزبير امر رحيلي مع الحامية والملكيين الذين يريدون الرحيل فانهُ لا يسعني اذ ذاك الرحيل وان استطعتهُ تلاهُ مذبحة بين الاهالي، فقد يكون الزبير رجلاً شريراً ولكن الضرورة تحوجنا اليه الآن . فباسم كل شيء مقدس ارجو منك ان تدعني استخدم الزبير

انقذ غوردون غلادستون ووزارتهُ من الهزيمة والخذلان ولكن غلادستون ترك غوردون يقاوم التيار ويغرق مفضلاً ذلك على ان يعهد في امر انقاذه الى وسيلة غير مستقيمة لكن معقولة (الزبير) . لذلك طاول غلادستون وسوَّف وانتظر واكثر الكلام . وقبل ارسالهِ الجواب الاخير كان المهدي قد اطبق على الخرطوم

وبعبارة اخرى ان الوزارة البريطانية ارسلت تلغرافاً من القاهرة الى الخرطوم تخبر غوردون فيها بانها لا توافق على استخدام الزبير ولكن يظهر ان هذا التلغراف لم يصل بسبب قطع الاسلاك . فقد قال اللورد كرومر في كتاب « مصر الحديثة » الذي كتبهُ « لا اظن ان هذه الرسالة وصلت الجنرال غوردون »

ويوميات غوردون لا تبقي مجالاً الى الارتياب في هذا الامر . وذهب غوردون الى قبرهِ وهو ينتظر جواب طلبهِ لاستخدام الزبير . وفيما كان غوردون بين الرجاء واليأس وقف غلادستون في البرلمان وقال « ان غوردون غير مكتنف . وموقفهُ موقف سلامة على ما نعلم »

ان غوردون لم يخن ولم يضحِّ بهِ ولم يتخلَّ عنهُ ولم يُسأ فهمهُ . لكن غلادستون الخطيب السياسي اصرَّ على درس عيني غوردون الخيالي وأبى ان يقرأ عقل غوردون صاحب الحقائق فقد كان هذا العقل صافياً شفّافاً . وسجلات وزارة الحربية وسجلات جريدة التيمس والملحق الذي اضيف الى كتاب باكر « الاسماعيلية » وحملات الجمعية المضادة للرقيق على غوردون وكتابهُ عن اواسط افريقيا — وفيهِ ٤٥٦ صفحة — هذه كلها جعلت عدم فهم غلادستون لعقل غوردون امراً مستحيلاً ، ومع ذلك لم يفهمهُ . وقد اعماهُ عظم اغترارهِ بنفسهِ

قيثارتان (١)

دنياك تسقي الكأس في حينها — من خمرة ما عتقت في الدنان
إن غاب ما للارض في ارضه — فلم تزل تلك المعاني الحسان
راحا الى الخلد خلاًّ على — خمائل الطوبى بأسمى مكان
وعلّقت في سدرة المنتهى — بين خدور الحور قيثارتان
اذا شدا الأملاك تسبيحهم — شاركتا جوق الملى تصدحان

ما نومة الشاعر في لحده — بضجعة المهزوم بعد الطعان
لا تندبوه ! ما خبا نوره — فشعره نبراس اهل الزمان
معتصَر من مهجة سمحة — شعورها يملأ سمع الكيان
يأسى مع الآسين في حزنهم — ويبرىء الجرح بلمس الحنان
ويكسب الغبطة في كأسه — خمراً — لحاسيها المنى والامان
الزهو والحكمة في شعره — وعبرة الدهر وشدو القيان
ودائع التاريخ في لحنه — وفي امانيه نجيّ الجنان
مجنّح الفكرة يسمو بها — الى ذرى فوق حدود المكان
يحس شوق الورد في روضه — ونغمة الزنبق والاقحوان
ويقرأ النجوى اذا أومضت — في ازهر ليلا او عيون الحسان
ويحمل الحملة فرداً على — جحافل الظلم ويأبى الهوان
في الكوخ حرٌّ عظمت نفسه — وفي قصور الملك حرّ اللسان
من يعرف الشاعر في ذله — مرفوعة هامته ما استكان
من يعرف الشاعر في مجده — يسحب في ظل المنى الارجوان
احلامه شتى امانيها — عزّت على ذي التاج والصولجان
فلنحترم رقدته بعد ما — فاز فألقى سيفه والسنان

---

(١) من قصيدة للشاعر السوري الاميركي نسيب عريضة القيت في الحفلة التي اقامها ادباء نيويورك وأدبياتها لذكرى حافظ وشوقي

موقف الامويين من الدعوة الاسلامية

واسباب منافستهم لبني هاشم

ما برحت السيرة النبوية ميداناً فسيحاً لاقلام الكتّاب والعلماء شرقيين وغربيين يجولون في نواحيه ومرتعاً خصباً للشعراء والادباء يستمدّون منها الوحي والالهام ، يزيدها البحث والاستقصاء اشراقاً وسناءً ، ويجلوها الدرس والاستقراء ويساعد على استخراج العبر والعظات من ثناياها وعلى استنباط الاحكام والقواعد من تضاعيفها

ويضيق بنا المقام لو حاولنا احصاء ما أُلّف في موضوعها من كتب فان ذلك يطول وحسبنا ان نقول انهُ لم تبق لغة من اللغات الحية وخصوصاً اللغات الاوربية المنتشرة الاّ وضعت فيها عشرات المؤلفات ، ولئن تجاوز بعض المؤلفين والباحثين الغربيين في القرون الوسطى حدود الاعتدال والروية في تدوين حوادثها وسرد اخبارها ، فقد انصف متأخروهم المسلمين ونبيّهم فجاءت كتاباتهم يزينها الانصاف وتتجلى فيها روح التجرد والرزانة

ويعثر دارس السيرة النبوية في كتب العرب والافرنج على معلومات مبعثرة في التنافس بين الهاشميين والامويين تميط اللثام عن عوامله واسبابهِ وتبين البواعث التي بعثت هؤلاء على مقاومة الدعوة الاسلامية وخصوصاً في ابتداء امرها ، وهو التنافس التي حفلت بحوادثهِ واخبارهِ المؤلفات القديمة ، وكان مصدر شقاق ونزاع خلال القرن الاول ونصف القرن الثاني بين المسلمين اي انهُ استمرّ سحابة الحكم الاموي وامتدّ حتى اوائل قيام الدولة العباسية وقد بالغ رجالها في التنكيل بالامويين وانصارهم ، فلجأوا الى المغرب وانشأوا فيهِ دولتهم الكبرى ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك في الشرق . ولئن نسي المسلمون هذا الخلاف بعد زوال الحكم الاموي وانقضاء عهده ، فلا يزالون يذكرون مصرع الشهيد ابي عبد الله الحسين في كربلاء على يد الامويين وما اقترن بهِ من فجائع وفظائع يتلون تفاصيلها بكرةً وعشيّا

لقد كان حبل الودّ والصداقة ممدوداً في الجاهلية وقبل البعثة النبوية بين الهاشميين والامويين تجمعهم جامعة النسب والقربى وتربطهم اوشاج المصاهرة وهم ابناء عم لحاً فرسول الله يجتمع مع ابي سفيان في الجد الخامس فهو ابن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، أما ابو سفيان زعيم الامويين يومئذٍ فهو ابن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف

وكانت الزعامة السياسية والحربية[١] والتجارية لبني عبد شمس في مكة ابان البعثة النبوية وفي الفترة التي سبقتها — لغناهم ولاتساع نطاق تجارتهم فقبضوا على مقاليدها . وكان ابو سفيان يقود القوافل الى الشام والعراق ويضرب اكباد الابل مصعّداً ومصوّباً وطاوياً ارض الجزيرة طيًّا في طلب الثروة والغنى . وكانت الزعامة الدينية في بني هاشم وهم اصحاب سقاية الحجيج ولم تكن حالتهم المادية على ما يرام حيال أبناء اعمامهم من الامويين التجار . ولم يشذّ عن هؤلاء سوى العباس بن عبد المطلب فقد اصاب حظاً من الثروة والغنى . من اشتغاله بالتجارة وكانت حالة ابي طالب رقيقة يدل على ذلك انه قبل اقتراحاً عرض عليه بان يوزع ابناءه بين آله في احدى سني الجدب للتخفيف عنه فتولى الرسول — بعد زواجه بخديجة وقد حسنت بسببه حالته المادية — امر علي . وكفل العباس جعفر واستبقى ابو طالب عقيلاً لنفسه وكان احبّ بنيه اليه

وبين الذين اسرفوا في معاداة النبي ومقاومته في ابتداء امره ، ابو جهل واسمه عمرو وكنيتهُ ابو الحكم وهو ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ، وهو عميد بني مخزوم انداد الامويين في الزعامة والثروة والغنى . وقد امتاز هو وابو سفيان في تدبير المكائد وقيادة الجيوش لمحاربة الاسلام والقضاء عليه ، ولئن هلك الاول مقتولاً بايدي المسلمين يوم بدر فقد اسلم الآخر (ابو سفيان) يوم فتح مكة وشهد « حنيناً » مع النبي وتم لابنه معاوية امر الخلافة وانشأ الدولة الاموية وقد نسبت الى جده الاكبر

ومما يصحّ الاستشهاد به على ما بين الامويين والهواشم من صلة قرابة ونسب ما خرّجهُ البخاري عن ابي سفيان حينما ورد كتاب رسول الله الى قيصر الروم هرقل يدعوهُ الى الاسلام وكان في حمص فقال حين قرأه التمسوا اهنا لي احداً من قومهِ لأسألهم عنهُ . قال ابو سفيان فوجدَنا رسولُ قيصر فانطلق بي وباصحابي من تجار قريش حتى قدمنا ايلياء . فأُدخلنا عليهِ فاذا هو جالس في مجلس ملكه وعليهِ التاج واذا حوله عظماء الروم . فقال لترجمانهِ سلهم ايهم اقرب نسباً الى هذا الرجل الذي يزعم انه نبي . قال ابو سفيان فقلت انا اقربهم اليه نسباً . قال ما قرابة ما بينك وبينه فقلت هو ابن عمي وليس في الركب يومئذ احد من بني عبد مناف غيري الخ[٢]

وعلل ابو جهل اسباب مقاومته لدعوة رسول الله تعليلاً عبر فيه احسن تعبير عما يجدهُ على بني هاشم الذين بعث الله منهم رسولاً فقال ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه وحي السماء فمتى ندرك مثل هذا ، والله لا نؤمن بهِ ابداً ولا نصدقهُ[٣]

(١) يؤيد ذلك ما رواه المؤرخون وهو ان حرب والد ابي سفيان قاد قريش في حرب الفجار وقد وقعت قبل البعثة النبوية وشهدها النبي وهو صغير مع اعمامه وكان يناولهم النبال (٢) البخاري ج ٢ — ص ١٠٥ (٣) ١٩٣ — ج ١ ابن هشام

فهذا «التصريح» يدل على ما كان هنالك من منافسة بل وحسد وعلى ما كان هذا المخزومي يجدهُ على الهواشم وكيف كان يعد قيام واحد منهم بنشر دعوة لدين جديد مجداً شخصياً يضاف لهؤلاء ويحرم هو وقومه منهُ ولذلك اجمعوا امرهم منذ الساعة الاولى على المقاومة وعدم التسامح بوجه من الوجوه ، وقد لا يبعد ان يكون هذا الباعث نفسه ، هو الذي بعث بني هاشم ، ولم يقبل الدعوة منهم في اوائلها سوى عدد قليل جداً ، على تأييد الرسول وشد ازره وتحمل انواع الاذى والاضطهاد في سبيله . ولا يخفى ان اول من اسلم من الهاشميين هو علي بن ابي طالب وقد كان غلاماً يافعاً في كنف محمد . وتلاه اخوه جعفر وكان بين الذين هاجروا الى الحبشة وأسلم حمزة في السنة الثامنة . وأسلم العباس في السنة العاشرة وكان النبي زاحفاً على مكة . وكذلك سفيان بن المغيرة . ومات ابو طالب وابو لهب على دين الجاهلية . وشذ هذا وحده عن آل هاشم فمالأ الامويين على ابن اخيه واهله . ومات عام بدر متأثراً من ضربة ضربتهُ بها زوجة العباس اخيهِ في حادث طويل ليس هنا مكان بسطه

ويلوح لنا ان السبب في اغراق ابي جهل في العداء وتماديه فيه هو ملازمته للنبي في مكة لايكاد يفارقهُ ليلاً ولا نهاراً خلال السنوات العشر الاولى ، على الضدّ من ابي سفيان الذي كان يرحل في تجارتهِ . على انهُ ما لبث ان تفرد بالعمل بعد هلاك ابي جهل فانتهت اليهِ الزعامة العليا في قريش واصبح سيد القوم غير مدافع . والف ابو جهل الوفود وسار على رأسها الى ابي طالب يرجوه باسم قريش بأن يكف لسان ابن اخيه عنهم ويمنعهُ عن الطعن في آلهتهم ومعتقداتهم وهم مستعدون ان ينيلوه جميع ما يرغب او يسلمه اياهم ليقتلوه وقالوا له يا اباطالب ان ابن اخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه احلامنا وضلّل آباءنا فاما ان تكفهُ عنا واما ان تخلّي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليهِ فنكفيكهُ فقال لهم ابو طالب قولاً رقيقاً وردهم ردًّا جميلاً

وكرّر ابو جهل وابو سفيان قيادة الوفود الى ابي طالب يرجونهُ ان يكف عنهم ابن اخيهِ وكان من عصبيتهِ في حرز حريز . ولما ضاقوا ذرعاً وادركوا انهُ لن يتخلى عنهُ ، وان الاعتداء عليهِ قد يؤدي الى اضرام نار حرب اهلية في مكة لاتبقي ولا تذر وان امرهُ في ازدياد ، قرروا ان يقاطعوا بني هاشم كافة ويحاربوهم حرباً اقتصادية اجتماعية ، وربما كانت قريش اول من لجأ الى هذا الضرب (المقاطعة) من ضروب الحروب الاقتصادية في مقاومة خصومها والاقتصاص منهم لاعادتهم الى رأيها ومعنى ذلك ان المقاطعة عرفت منذ اربعة عشر قرناً ونيف

وعقدت الجمعية العمومية لقريش في الكعبة فدرست قضية بني هاشم وبني عبد المطلب من آل عبد مناف وشدهم ازر محمد فاتفقت الكلمة على ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً وكتبوا بذلك صحيفة وقعها الجميع وعلقوها في الكعبة

ورأى بنو هاشم انهم امام حالة جديدة وان مكة اتفقت بجميع هيآتها واحزابها ورجالها

عليهم لحملهم على تسليم رجلهم لجنحوا الى المقاومة وابوا الخضوع وانحازوا الى ابي طالب فلجأ بهم الى شعبه[1] اي شعب ابي طالب واقاموا فيه ثلاث سنوات محصورين لا يتصلون بمكة الا في خلال الاشهر الحرم فاذا انتهت رجعوا الى شعبهم وعاد المكيون الى حصارهم على انهم كانوا يمتارون سراً وقد انضم اليهم في هذه العزلة المسلمون . وفي نهاية السنة الثالثة ظهرت حركة في مكة ترمي الى وضع حد للمقاطعة قادها زهير بن ابي امية وهاشم بن ربيعة وابو البختري بن هشام والمطعم بن عدي فتم لها نقض قرار الحرمان والغاء المقاطعة رغم مقاومة ابي جهل الشديدة

واشتد ساعد المسلمين بعد الغاء المقاطعة وانصرف النبي الى نشر دعوته بين القبائل فاضطربت قريش وعقدت اجتماعاً في دار الندوة فاقترح ابو جهل[2] اقتراحاً فقال : ارى ان نأخذ من كل قبيلة شاباً فتىً جليداً ، نسيباً ، وسيطاً ، فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا اليه (محمد) فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فانهم ان فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو مناف على حرب قومهم جميعاً

واتصل به نبأ هذه المؤامرة فغادر مكة الى المدينة مهاجراً ليكون في مأمن على نفسه ، بعد ان مهد لذلك بمبايعة الاوس والخزرج له وبعد ان امر المسلمين في مكة بالهجرة الى يثرب وهنالك اسس دولتهُ الجديدة فقاتلت قريشاً وغلبتها على امرها وانتزعت منها السيادة والمجد

فقد اصطدم المسلمون بقريش في بدر للمرة الاولى فانتصروا عليهم فسهل لهم هذا النصر التغلب على المصاعب العديدة والاستيلاء على جزيرة العرب . وخلاصة ما وقع ان النبي خرج يوم ١٧ رمضان من السنة الثالثة للهجرة يقود جيشاً يتألف من ٢٤٠ من الانصار و٧٠ من المهاجرين ليسطو على قافلة قريش السنوية الكبرى التي تسافر بين الحجاز والشام فنزل بدراً وهي مكان متوسط تمر به القوافل في غدوها ورواحها وتسقى من آباره فلما علم ابو سفيان وكان يقود قافلة قريش بخروج المسلمين للقائه خاف على قافلته وفيها نحو الف جمل موقرة بالبضائع ويبلغ ثمنها نحو نصف مليون دينار فاستأجر رسولاً ارسل الى مكة لينذر اهلها بالخطر وليدعوهم الى الخروج للدفاع عنها فلبوا النداء وهرعوا للحرب بقيادة ابي جهل وعدتهم الفاً فساروا ونزلوا وراء كثيب العقنقل في العدوة القصوى من بدر . واقاموا هنالك ثلاثة ايام ثم جاءهم رسول من ابي سفيان وقد نجا بقافلته يقول لهم : انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم واموالكم وقد نجاها الله فارجعوا . فقال ابو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجذور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا ابداً فامضوا وانتشرت في جيش قريش فكرة الرجوع وعدم الاشتباك في حرب مع المسلمين يؤيدها

---

(١) لفظ شعب لا يزال حتى الآن شائعاً في مكة فيقال شعب جياد وغيره والمقصود به معنى الحي تقريباً

(٢) ٢٩٨ ج ١ ابن هشام

حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة والاخنس بن شريق وغيره ، وقد عاد هذا فعلاً بقومه من بني زهرة فلم يشهدها احد منهم . وحاول حكيم ابن حزام اقناع ابي جهل بالرجوع فأبى وحرض الناس على القتال فوقعت المعركة ودارت الدائرة على قريش وقتل ابو جهل نفسه قتله شابان من الانصار (معاذ بن عمرو بن الجموح واخوه معوذ) ارشدهما اليه عبد الرحمن بن عوف فضرباه فجرحاه . ودافع عنه ابن عكرمة

ومرّ عبد الله بن مسعود بابي جهل بعد انتهاء المعركة ، يتلمس القتلى ، فوجده بآخر رمق فعرفه فوضع رجله على عنقه ثم قال له هل اخزاك الله فقال اخبرني لمن الدائرة اليوم

— لله ولرسوله — لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يارويعي الغنم

ثم حزّ عبد الله رأسه وجاء به الى النبي والقاهُ بين يديه فقال الله الذي لا اله الاّ هو . وهكذا انتهت حياة هذا الزعيم

***

انتهت الزعامة العليا في الوادي[1] بعد قتل ابي جهل وغيره من كبار الامويين يوم بدر الى ابي سفيان فاخذ يعد العدة للثأر والانتقام فهو الذي دبر حملة احد وقادها كما قاد غزوة الخندق ثم اسلم يوم فتح مكة كما قلنا آنفاً وذلك انه خرج يبحث في اعالي مكة عن خبر النار وقد اوقدها جيش المسلمين حينما وصل ليلاً ، وما كانت قريش تعرف من امره شيئاً ، لان النبي بالغ — حسب عادته — في كتم خبر زحفه على مكة فالتقى ابوسفيان بالعباس عم النبي وقد أسلم هذا قبل ذلك فقال له يا ابا حنظلة هذا رسول الله في الناس واصباح قريش واعه . قال فما الحيلة فداك ابي وامي ؟

— والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فاستأمنهُ لك

وركب ابو سفيان خلف العباس وكانا كلما مرّا بنار من نيران المسلمين قالوا هذه بغلة رسول الله حتى مرّا بنار عمر بن الخطاب فقام عمر حينما رأى ابو سفيان وقال هذا عدو الله ابو سفيان الحمد لله الذي امكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله وركض العباس البغلة فسبقتهُ فدخل عليه ودخل عمر وراءه . فقال يا رسول الله هذا ابو سفيان قد امكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه . فقال العباس اني قد اجرته ثم جلس الى النبي فاخذ برأسه وقال لا يناجيه الليلة دوني رجل . فلما اكثر عمر في شأنه قال العباس : مهلاً ياعمر فوالله انهُ لو كان من رجال عدي بن كعب ما قلت هذا ولكنك قد عرفت انه من بني عبد مناف . واخيراً امر النبي العباس بان يذهب به في رحله ويعود به في الغداة فلما رآه الرسول في الغداة قال ويحك يا أبا سفيان لم يأن لك ان تعلم انهُ لا إله الا الله

— بأبي انت وأمي ما احلمك واكرمك واوصلك والله لقد ظننت انهُ لو كان مع الله آلـه

(١) كانوا يكنون بهذا عن مكة لوقوعها في واد بين جبال شامخات

— ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله غيره لقد اغنى عني شيئاً بعد
— بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك . اما هذه والله فان في النفس حتى الآن شيئاً
فتدخل هنا العباس وقال له : ويحك اسلم قبل ان تضرب عنقك فاسلم . واقترح العباس على النبي ان يجعل لابي سفيان شيئاً يمتاز به عن غيره فاعلن ان من دخل دار أبا سفيان فهو آمن
وانطلق هذا الى قومه فصرخ باعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم في ما لا قبل لكم به فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن. فلما سمعت زوجته هند بنت عتبة صياحه قامت اليه فاخذت بشاربه فقالت اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبح من طليعة قوم . فقال لا تصغوا اليها
وهكذا كانت نهاية ابي سفيان وعلى هذا المنوال دخل في الاسلام فهل كان مخلصاً في اسلامه ؟
ان هنالك حادثتين حدثتا بعد ذلك تلقيان شيئاً من النور على موقف ابي سفيان
فالحادثة الاولى كانت يوم حنين فقد كمن المشركون للمسلمين فلما وقعوا في الكمين اسخنوا فيهم طعناً وضرباً فتراجعوا وكان ابو سفيان في جيش المسلمين فلما رأى ارتدادهم وتراجعهم في اول المعركة قال « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر[١] » فهو بذلك يعرب عن اغتباطه بهزيمة المسلمين ويقول انهم لن يقفوا حتى البحر اي انهم سيجلون عن مكة
واما الحادثة الثانية فكانت يوم وفاة النبي فقد حاول ابو سفيان ان يحدث حدثاً فخطب سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش في مكة فقال «والله اني لأعلم ان هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها . فلا يغرنكم هذا (واشار الى ابي سفيان) من انفسكم فانه يعلم من هذا الامر ما اعلم ولكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم »[٢]
على انه لا بدَّ لنا من الاشارة الى موقف يزيد بن معاوية حينما جيء له برأس الحسين الى دمشق بعد كربلاء — وهو ذو صلة بموضوعنا ويدل على ان دخول الامويين في الاسلام وبلوغهم الذروة العليا من السيادة بفضله لم تنسهم قتلاهم ببدر فقد روى الرواة انه لما وضع رأس الشهيد ابي عبد الله الحسين بين يديه في طشت اخذ ينكته بقضيب في يده وينشد — ليت اشياخي ببدر شهدوا الخ
وهناك امر آخر قد يفيد التنبيه عليه وهو انهُ كان بين الامويين من اسلم في ابتداء الدعوة وأدى خدمات جليلة للاسلام وفي مقدمة هؤلاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان صهر النبي فقد دخل في الاسلام على يد ابي بكر وكان رابع اربعة دخلوه فأولهم خديجة ثم علي ثم ابو بكر ثم عثمان واسلم معه في يوم واحد سعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وبلال
وكذلك فقد دخل في الاسلام حنظلة بن ابي سفيان وهو كبير انجاله واستشهد هذا في صفوف المسلمين يوم احد . وحذيفة بن ربيعة وغيرهم ولعلنا ندرس هذا الموضوع في مقالة اخرى

القاهرة امين سعيد

---

(١) ابن هشام ٢٩٢ — ج ٢ (٢) نور اليقين ١١٥

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

« المصلحة الفردية فوق سائر المصالح » كان الرأي الشائع في القرن التاسع عشر — قبل انتشار الآراء الاشتراكية — عن الحكومة وحق تدخلها في الشؤون العامة رأياً فردياً خلاصته ان كل فرد هو اعرف الناس بمصلحته الخاصة فلو ترك وشأنه في الظروف الملائمة لسعى دائماً للحصول على ما ينفعه ، لذلك لا يجوز للحكومات ان تتدخل في شؤون الناس اكثر مما هو ضروري لدفع الاذى ومنع سوء الاستعمال والاّ فان عملها يعرقل سير الناس في طلب المنافع ويقضي عنهم في المسائل التي يجب ان يقضوا هم فيها بأيديهم . ومن العجيب ان تكون هذه النظرية الفردية — لا نظرية « العقد الاجتماعي » ولا « الحقوق الطبيعية » — هي التي انتقلت بانكلترا من الحكم العظامي الى الحكم العصامي . وان (جرمي بنثم) مؤسس نظرية السعادة الفردية وصاحب كتاب (اصول الشرائع) الذي نقله الى العربية المرحوم فتحي زغلول كان الحكيم الذي طبع بطابعه الخاص اصلاح سنة ١٨٣٢ البرلماني وهي سنة وفاته . وبموجب هذا الاصلاح امتدّت حقوق الانتخاب الى الافراد واتسعت اتساعاً كبيراً وازيحت بعض العقبات المهمة التي كانت تعتورها . ونحا هذا النحو الفردي ايضاً الفيلسوف الاقتصادي الكبير (جون ستورت مِلْ) المتوفي سنة ١٨٧٣ والمستر (هربرت سبنسر) شيخ الاجتماعيين المتوفي سنة ١٩٠١ وفي وسعنا ان نوجز « الحكمة البنثمية » ورأي البنثميين اجمالاً بما يأتي : وهو ان المعيار المضبوط للحقوق السياسية التي يتمتع بها الناس هو المصلحة وان السعادة العظمى للاكثرية العظمى هي غاية المجتمع وان هناة الافراد من النساء والرجال الذين يؤلفون المجتمع — لا المجتمع نفسه — هي التي يقام لها وزن في القسطاس السياسي . وكان اصحاب هذه الديمقراطية الفردية ومن لفّ لفهم من الد اعداء التدخل الحكومي حتى ان المستر (هربرت سبنسر) لما نشر كتابه « الاحصاءات الاجتماعية » في سنة ١٨٥٠ ذهب فيه الى ان وظيفة الحكومة تقتصر على حماية حياة الافراد والدفاع عن حريتهم واموالهم فقط وفيما عدا ذلك يكون عملها تجاوزاً لامسوّغ له ، وعندهُ ان دستور « المساواة في الحرية » هو ان يكون للفرد ملء الحق في ان يتمتع بجميع ملكاته او مواهبه ضمن حدود الحقوق التي لغيره ان يتمتع بها ، وعلى الدولة — بل واجبها

الوحيد — ان تنفذ هذا الدستور فاذا ما تجاوزته الى غيره اصبحت متعدية ولم تعد حامية

وكان هذا الاطلاق للفرد ان يغرف من حلبة السعادة والهناءة بقدر كل ما تتسع له معدته سبباً في ازالة الشيء الكثير من العقبات التي كانت تعتور الافراد في سيرهم مما آل في آخر الامر الى ظهور «الرأسمالية» بثوبها القشيب وتمتعها بحرية مطلقة وسلطان قاهر بحجة الحرية التي يجب ان يتمتع بها اصحاب رؤوس المال في روحاتهم وغدواتهم . واقتضت هذه الحرية في نظر القائلين بها مذهباً معروفاً هو مذهب «ترك الحبل على الغارب» Laissez—Faire يعني عدم تدخل الحكومة في الشؤون على امل ان مصالح الافراد الشخصية وتمتع كل واحد منهم بملكاته ومواهبه في الحدود التي لا تضير غيره تنتهي في آخر الامر الى التسوية العامة بين الجميع . ولو كانت المسألة كما قال (برنارد شو) هي جلوسنا على شاطىء النهر ومرور الماء من تحت ارجلنا يحمل الينا مطالبنا لهان الامر وصح هذا المذهب ولكن المسألة اننا هائمون في مركبة خيلها جامحة لا ندري متى نسقط في الهوة او نصطدم بالصخرة . وكانت الفكرة الاجتماعية السائدة يوم كتب سبنسر « الاحصاءات الاجتماعية » ان الجمعية البشرية كناية عن حيوان كبير ذي وظائف بدنية فسيولوجية متنوعة فالسكك الحديد مثلاً هي اوردته الدموية واسلاك البرق هي الاعصاب وأما الحكومة فهي العضو المدبر للشؤون فلا غرو ان تكون وظيفتها الاولى والكبرى حماية الارواح والدفاع عن الحرية [1]

ومع كل ما في هذا المذهب الاجتماعي الحيوي — البيولوجي — من الحقائق الراهنة وما في الرأي الفردي من الاسس المشجعة فالمجتمع اليوم معتبر وحدة عقلية اجتماعية قائمة على الارتباط الذهني بين الافراد اكثر منهُ وحدة عضوية حيوانية قائمة على الارتباط الفسيولوجي . ولكن من الخطإ الفادح والاستنتاج المغلوط ان يظن احد ان اتصاف المجتمع بهذا الوصف الفكري المعنوي يزيل عن الافراد غرائزهم الحيوانية الاولى فهذه الغرائز البيولوجية هي الاساس والمجتمع الروحي الذهني هو البناء المشمخر القائم عليها ، بل دلتنا الحرب العالمية وما تلاها من فظائع ومجازر ومجاعات وأوصاب والثورات الوطنية التي حضرناها على ان هذا الانسان «الكامل» المربَّى في احضان المدنية والمهذب في مدارسها العالية متى تملكته سورة الغضب او شعر بالحاجات الاولى عاد الى اساسه البيولوجي حالاً فظهر بمظهره الحيواني الصريح

وممن نشأوا على النظرية الفردية الاقتصادية والابتعاد عن التدخل جهد الطاقة الرئيس (هوفر) في ايامنا هذه فكان مذهبه سبباً في عزلة اميركا واطالة الازمة الاقتصادية الآخذة بخناق الناس الى ان خذل في الانتخابات الاخيرة خذلاناً دلَّ على نفرة الناس من سياسته . وارى ان هؤلاء الكتّاب الفرديين قد افرطوا كثيراً عند ذكرهم وجائب الدولة في جعل حماية

(1) Encyclopaedia Britannica, Vol. XI. p. 9.

الارواح والاموال الكل في الكل ، ولئن كنا لا ننكر ان الدنيا تنقلب في يوم واحد رأساً على عقب ويتحول نظامها الى فوضى متى زالت هذه الحماية واصبحت الارواح عرضة للقتل والاموال عرضة للنهب الآ ان مثل هذا الالحاف في ذكرها والاقتصار عليه هو أليق بدولة تتأسس حديثاً في عصر من الاعصر الخالية ، ولعمري ان هذه الحماية هي من البديهيات في نظر الدول الحاضرة والاقتصار على تصنيفها وشرحها هو اغفال لما استجدَّ من الوجائب وما يستجدُّ ، خذ على ذلك مثلاً حركة العمال التي تقيم المجتمع وتقعده في ايامنا . والتي تهدد النظم القديمة من الاساس ، ففي البلدان الصناعية استجد على الدولة واجب خطير يعبر عنه بقولهم «حق العامل ان يعمل» يعني حق العامل النشيط ان يحصل على ما يضمن له العمل اللائق به بحيث يتمكن من المعيشة معيشة شريف . فالمسألة اذاً كما قال[١] (كونردجل) ليست دفع الفاقة والتسول ومنع الموت صبراً عن هؤلاء الناس فقط بل ضمانة حصولهم على مقياس من الحياة يجعل هذه الدنيا محتملة لديهم ويخفف من آلامها عنهم ، فمثل هذا الواجب المستجد على خطورته لا تشعر به البلدان التي تعيش في اجواء القرون الوسطى ، بل ما احوج هذه البلدان الى من يحفر بالازميل والمطرقة في جماجم حكامها آية تذكرهم بقدسية الحرية الفردية وشأن الحياة المنبسطة ، وما يعد من البديهيات المسلم بها في الاقطار الراقية قد يكون مثار الشبهة والجدل في الاقطار المتأخرة

ولا ادلَّ على رفض النظرية الفردية وما تستند اليه من مذهب «ترك الحبل على الغارب» من اجماع الدول الحاضرة — حتى اشدها رأسمالية — على وجوب التدخل في الشؤون حرصاً على المصلحة العامة ومنعاً من سوء الاستعمال . ولعل اغنى تحفة أدبية خلفتها لنا نصوص المشترعين في وجوب التدخل ما جاء في حديث عبد الله بن المبارك « أن قوماً ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له ماتصنع ؟ فقال هو مكاني اصنع فيه ما شئت ، فان اخذوا على يديه نجا ونجوا وان تركوه هلك وهلكوا [٢] » ونظرة واحدة في منهاج دولة من الدول الكبرى الحاضرة فيها المقنع الصادق على صحة هذا الرأي ، وفيما يأتي خلاصة مقتبسة مع التعديل من البرنامج الحكومي الذي اورده الرئيس « ودرو ولسن » في كتابه « الدولة » المطبوع قبيل الحرب العالمية ، والرئيس كما هو معلوم هو وحكومته من ابعد الناس عن الاشتراكية [٣]

(١) حفظ النظام الاجتماعي كما يحفظ الشرطي سير المركبات والسيارات في الشوارع المزدحمة منعاً من الاصطدام ولو كان السواقون من الاخصائيين في مهنتهم والملائكة في اخلاقهم

(٢) وهو ماذكره المستر (هربرت سبنسر) واقتصر عليه — يعني حماية الابدان والاموال

(١) Government and People, p. 229 (٢) البيان والتبيين للجاحظ (٣) The State, p.p. 637-640

من التلف والسرقة ، وربما كانت هذه الوظيفة اهم وظيفة تقوم بها الحكومة لتوقف الحياة الاقتصادية والاجتماعية عليها وارتباطها بها

(٣) الاشراف العام على الاسرة وتعيين العلائق المشروعة بين الزوج والزوجة وبين الآباء والابناء ، لجهل بعض الناس ، والاخطاء التي يرتكبها غيرهم في احكامه ، والشر المستحكم في قلوب الآخرين . والعقائد السخيفة البالية المستحوذة على الجامدين من الافراد خصوصاً من فسّر منهم الاوامر والنواهي بما ينطبق على رغباته وشهواته كل ذلك يقتضي الاّ تتخذ الحياة العائلية ذريعة للاضرار بأي فرد كان والاّ اصيب المجتمع بالكوارث وحلّ به الدمار من جراء الفساد في الاسرة وهي هي الوحدة الاجتماعية القياسية التي تبنى عليها الجمعية البشرية في تدرجها الحاضر

(٤) تنظيم استملاك الاملاك والاموال وتناقلها وتبادلها

(٥) تعيين التبعة الملقاة على العاتق من الديون المستدانة والجنايات المقترفة وهذه الوظيفة نتيجة لاحقة للوظيفة السابقة والاّ جاز للناس ان يستقرضوا الاموال ثم ينكروها وللاشقياء ان يقترفوا الجنايات ثم يفلتوا من تبعتها فيختلّ النظام الاجتماعي من اساسه

(٦) تعيين الحقوق التي تخولها العقود المتفق عليها بين الافراد

(٧) تعريف الجناية وتعيين الجزاء المترتب على اقترافها، ويحسن بنا ان نذكر هنا ان الجرم كان في الاصل مقترفاً بحق الفرد ونازلاً به فكان عليه ان يسويه بنفسه مع المجرم ، ولكن الدولة اصبح من وجائبها اخيراً ان تحمي الفرد ، وليس ذلك فقط ، بل ان تحمي نفسها ايضاً لذلك كان الجرم معدوداً جرماً بحق المجتمع ونازلاً به . وعلى الحكومة ان تعين الجناية وتضع الجزاء على ارتكابها

(٨) احقاق الحق وازهاق الباطل في القضايا المدنية ، وما دامت الدولة هي القوة الوحيدة التي تستطيع العمل بعيدة عن المصلحة الفردية فهي الحكم الطبيعي الذي يقضي بين المتخاصمين بالعدل والقسطاس المستقيم

(٩) تعيين الواجبات السياسية المترتبة على الوطنيين وتعيين العلاقات القائمة بينهم وتعريف الامتيازات التي يتمتعون بها . وينطوي تأليف الدولة على فكرة حاكم ومحكوم وان كان القسط الذي يناله الفرد في الحكم يتوقف على نوع الدستور الذي تألفت بموجبه الحكومة والطريقة التي سلكتها ، فالفرد في الحبشة مثلاً يختلف جداً الاختلاف عن الفرد في لندن وباريز . وتعني كلمة « السلطان » في البلدان المستقلة ان يد الدولة فوق الايدي وان كلمتها هي العليا وانها بقوة ارادتها تمتلك ناصية السلطة وتحتفظ بها ، وتظهر هذه السلطة للعيان اما بواسطة الملك او مجلس النواب او الدستور ، وبديهي ان ارادة الدولة السلطانية هي التي تدير الشؤون التي تتناولها الواجبات السياسية والامتيازات التي اشرنا اليها . ففي الحكومات النيابية حيث يحكم الناس أنفسهم بنواب ينتخبونهم يكون السلطان في الدستور وهو من صنع الشعب ، يعني ان

الشعب يعيّن حقوقهُ السياسية وواجباته والامتيازات التي يتمتع بها بواسطة الدساتير والشرائع التي يسنها وبالسلطة المحترمة التي يمتلك ناصيتها . ثم ان حق الاقتراع والتوظف وواجب تأدية الضرائب وحمل السلاح للدفاع عن الاوطان ورد عادية الطامعين وتعيين وظائف الضباط وحدودهم السياسية كل ذلك يجب تقريره بواسطة الحكومة بحسب قوانين واضحة تصدرها ونظم معينة تجري عليها . فأين هذا الموقف من تلك البلدان التي حرمت استقلالها فبلغت من الضعف والامتهان ان أصبحت جميع مظاهر سيادتها احجار شطرنج تلعب بها الايدي الغاصبة ، حتى ان دستورها وهو قاعدة عملها ألغي الغاءً صريحاً بمجرد مادة اضافية واحدة ادخلتها اليد الاجنبية فجعلتهُ هزءاً وسخرية

(١٠) على الدولة ان تعيش وان تحتفظ بعلاقاتها السياسية بالدول الاجنبية ، فكل دولة هي حيال الدول الاخرى وحدة مستقلة ، وعليها ان تحتفظ بهذه الوحدة وهذا الاستقلال ، وكل اتصال بالدول الاخرى يجب ان تكون الدولة واسطة عقده وطريقة تنفيذه ، ومن اعظم وجائبها ان تدفع عن الاهلين ما يداهمهم من الاخطار الخارجية ، وان تنمي جميع مصالحها المتعلقة بالدول الاجنبية ، وأن ترعى حقوقها والامتيازات التي لها وان يكون رعاياها وما يمتلكون في حرز من حمايتها حريز متى تعلق ذلك كله بالشؤون الدولية

ويلحق بهذه الوظائف الضرورية وظائف اخرى اختيارية منها ادارة التجارة والصناعة وتنظيم العمل والاستيلاء على الطرق والمعابر والجسور والسكك الحديدية والبرق والبريد والاشراف على الشؤون الصحية وتعهد التربية والتعليم والعناية بالفقراء والايتام والعجزة وسن القوانين التي تتناول صنع بعض الاطعمة وبيعها واستهلاكها

ولسنا بحاجة بعد سرد هذه الوظائف الى القول ان هنالك ميلاً مضطرداً في الحكومات الحاضرة الى الاضطلاع بالوظائف المتزايدة واستجماع القوى المشتتة مما حمل الكثيرين من اهل البحث على القول ان هذا الميل سيشتد الى ان تقبض الدولة على الاملاك والصنائع والمرافق والاعمال فتتألف حينئذٍ الدولة الاشتراكية باختيار الامة ونزولاً على ارادة الرأي العام فيها . وهذا (برنارد شو) يذهب فيما يذهب اليهِ الى ان العالم يسير في طريق الاشتراكية رغم انفه ويتجلى هذا السير فيما تمتلكه الدولة في ايامنا من المنافع العامة والمرافق المشتركة ، فالطرقات والشوارع والحدائق البلدية والجسور العمومية كل ذلك يستعمله الافراد على الطريقة الاشتراكية الشيوعية . وقد بقي البريد في انكلترا الى اجل قريب ملك الافراد يستثمرونهُ استثماراً خاصاً الى ان تحوَّل فصار ملك الدولة ، ولا يفكر احد في شيء من الضرر في مثل هذا التحول النافع ، وقد تسير البنوك سيرة البريد ايضاً فتمسي ملك الدولة ويبطل ان تكون حصتها من الربح الذي تأخذه ربا على الاموال اضعاف ما يربحه الافراد المتعاملون ، ولم لا يوزع اللبن يا ترى

على الناس بالطريقة الاشتراكية كما توزع المياه في المدن بالانابيب على البيوت فيتنعم الاطفال باللبن جوهر غذائهم كما يتنعم الناس بالماء اصل حياتهم ؟ لكن التتبع دل على انهُ ليس من الضروري ان يؤدي تنظيم المنافع المشتركة على هذا النحو الى تأليف الحكومة الاشتراكية الشيوعية فقد قطعت المانيا وايطاليا مثلاً شوطاً بعيداً في هذا المضمار من غير ان تبطلا الرأسمالية او ان تنشيعا على الطريقة الروسية

ويظهر من قائمة هذه الوظائف الاختيارية المتنوعة ان ليس ثمة طريقة يعتمد عليها في بيان ما يجب ان يضطلع بهِ الفرد وما يجب ان تضطلع به الحكومة ، ويجوز ان يكون القول الفصل في ذلك للرأي العام متى كان ناضجاً ومنظماً تنظيماً صحيحاً صالحاً للتعبير عن ارادة الشعب وحينئذٍ تعمل الحكومة بارشاده وتحت اشرافهِ ونفوذه كل ما من شأنهِ ان يؤدي الى السعادة والهناءة ولو اقتضى ذلك زيادة تدخلها . وقد افضنا في ذكر وجائب الدولة لنوجّهُ انظار القارىء الى مجال الحكومات الحاضرة المتسع في العالم الغربي ولكننا لم نقصد بوجه من الوجوه ان نسمح لمثل هذا المجال ان يتعدى الى الحرية الفردية المقدسة فهذه الحرية هي الغاية العظمى لكل حكومة صالحة والهدف الاسمى لكل تشريع كريم وتضييقها الى حد بعيد هو العيب الاكبر الملتصق بالحكومات الدكتاتورية الشديدة الوطأة ، ولولا الحرية ما ارتقى البشر الى مستواه ولا حلّقت العقول فيما لها من سماء صافية ولا كانت فنون ولا حكمة ولا دين ، وليس من مصلحة البشر في شيء ان تكم افواه النقّاد وان كانت في مصلحتهم ان يلجم السفهاء . ولا يرتقي المجتمع متى كانت افكار النبغاء عرضة في كل جولة من جولاتها للاصطدام بالقانون ، ولا اهون على الحوت أن يعيش في ساقية من الماء الضحضاح من ان يعيش الرجل الكبير في نظام ضيّق ، فعلى المشترعين عند سنهم الدساتير ان يضعوا نصب عيونهم ان القانون انما جعل لمنع الانحراف المرضي من جهة ولتشجيع السير الصحي من جهة اخرى ، وقد ادّى العالم ثمناً باهظاً جداً على تلك الجرائم التي اجترمها « ديوان التفتيش » في القرون الوسطى في اوربا بقتله الالوف من النوابغ الى أن تغلبت الحرية ففاز اهل المزايا بالبيئة التي تسمح بظهور خصائصهم وعاد الازدهار بعد المحل ، ويجوز لنا ان نقول أن كل امة ضربت على عقول أبنائها نطاقاً ثابتاً يحول دون ظهور مواهبهم هي امة صائرة الى الزوال (قال جون لوك) :

« ليست الشريعة بالمعنى الصحيح التضييق على الرجل الحر العامل بقدر ما هي تدريبه وترويضه للوصول الى مصالحه القانونية ، وهي لا تأمر باكثر مما يعود بالنفع على العائشين بكنفها فلو كان في مقدورهم ان يكونوا بفقدها اكثر سعادة منهم بوجودها لتلاشت حينئذٍ من نفسها باعتبارها فضلة زائدة لا فائدة منها . . . . لذلك مهما اسيء فهم الغاية من الشريعة فهذه الغاية لن تكون لسحق الحرية وخنقها بل للاحتفاظ بها واطلاقها »[1]

(1) John Locke Second Essay on Civil Government.

باب الزراعة والاقتصاد

الجراد

بحث علمي لغوي عملي للدكتور هلال فارحي

الجراد احد اقسام الحيوانات المفصلية الاربع ومن أكلة الخضروات . ومن فصيلة الحشرات المستقيمة الاجنحة الناقصة التطور Ametabola . وينسب الجراد الى قسم الجنادب من الحشرات التي تتألف من ثلاث فصائل (١) الرواكض Cursoria (٢) المشاة Gressoria (٣) الوثابة Saltatoria . ثم الفصيلة الثالثة تنقسم الى ثلاث عائلات والى احداها ينسب الجراد وهي (١) الحرحل وانواعه Locustodae (٢) الصرصار Gryllidae (٣) الجراد وانواعه Acrididae . ويتركب جسم الجراد كبقية الحشرات من ثلاثة اجزاء الرأس . الصدر او الظهر . والبطن . وهذه مؤلفة من ١٦ حلقة . ثلاث في الرأس متصلة بعضها ببعض وثلاث في الصدر والظهر وعشر في البطن

يحيط جسم الجراد طبقة سميكة مكونة من الشيتين وهي مادة صلبة تفرز من الطبقة الاديمية بمثابة القرون والاظافر والاظلاف غير انها لا تذوب في الاحماض والقلويات. وهذا الشيتين يكوّن صفائح وهيكلاً يقيها من الارض وتسمى الصفائح التي في اعلى الجسم الترجا . والمحيطة أسفله الاسترنا وهاتان الصفحتان تتصل احداها بالاخرى بصفيحة رقيقة تسمى البلورا . فجميعها تحفظ وتثبت اعضاءها الباطنية في مواضعها . وكل جسم الجراد مغطى بشعر دقيق جداً ما عدا القرون والاجنحة

يعيش الجراد على الارض ويتنفس بانابيب تسمى بالقصبات الهوائية تمتد طولاً وعرضاً وتحمل الهواء الى جميع فراغ الجسم ذات لون فضي لامع لامتلائها بالهواء مركبة من خيوط شيتية دقيقة حلقية ملتفة على جدارها فتبقى مفتوحة على الدوام . تنفتح هذه الانابيب الى الخارج بواسطة فتحات على الجانبين تسمى بالفوهات التنفسية او الثغور وعددها عشرة ازواج الزوج الاول بين قطعتي الصدر الاولى والثانية . والثاني بين الثانية والثالثة والباقية على اجناب

الحلقات الثمان الاولى للبطن وتوجد على حوافي (جمع حافة) هذه الفوهات شعور دقيقة تمنع دخول الاتربة والاقذار للقصبات الهوائية

من اهم انواع الجراد الرحال له صفة خاصة تجمعهُ في اسراب ومهاجرته من جهة الى اخرى طلباً للغذاء فيفتك بالبلاد التي يمر بها وهو في طور الحوريات قبل البلوغ وبعد ما يبلغ ويكمل نموه يأكل مزروعاتها ويمحطها ويتركها جرداء خالية من النبات وهو من الحيوان الذي ينقاد لرئيسهِ فيجتمع كالعسكر اذا ظعن اوله تتابع جميعهُ ظاعناً . واذا نزل اوله نزل جميعه

(١) الرأس

﴿الرأس﴾ الجزء الامامي من الجسم يشمل المخ مركز الحس وفيه قرنا الاستشعار والعيون وفم قارض تمييزاً عن اللاعق . وهو قصير وصغير بالنسبة للجسم ، صلب مستطيل الشكل . قمته Vertex واسعة مقعرة في الوسط كالسرج مرتفعة قليلاً في الاجناب . وتتصل بقسمه البارز بزاوية مستديرة . في مقدمته قرنان للاستشعار antennae من النوع الحرري الخيطي يتركب كل منهما من اربع عشرة قطعة منفصلة بعضها عن بعض مخروطية الشكل . تستدق مع اتجاهها الى الطرف . طولها اقصر من الجسم . جبهتهُ عمودية فيها قسم كبير Costa frontalis مرتفع وواسع بمساواة على طول الجزء الاعلى من هذا القسم مقعر وفي وسطهِ العين الوسطى احدى العيون البسيطة التي له

﴿العيون﴾ للجراد خمس عيون اثنتان مركبة في كل جنب وراء قرون الاستشعار كلويتا الشكل بارزتان جداً كعيون الجرذون ويمكن تحقيق شبكة صفحاتها Facettes المؤلفة من ستة اضلاع بواسطة عدسة مكبرة عشر مرات وتحتاج الى مكبرة اقوى لتحقيق اضلاع صفحاتها

واما العيون البسيطة Ocelius فثلاث . واحدة في وسط الجزء الاعلى من ارتفاع الجبهة وواحدة في كل جنب امام ذيول العيون المركبة الاصلية الامامية فوق وضع القرون . هذه العيون عبارة عن عدسات بسيطة شكل نقط تبرق كنقطة ماء صغيرة

ينزل من وسط الحافة الامامية للعيون الاصلية الى جانبي قسم الجبهة المرتفع حد Carina lateralis الى ترس الرأس Clypeus يفصل الجبهة عن الاحناك genae . هذا الترس ينفصل عن الجبهة بواسطة حزّ عرضي عميق . كما ان قسم الجبهة الكبير مرتفع في اجنابه قليلاً كحدود فاصلة فهذه مع الحزوز الفاصلة للاحناك تكوّن تجويفاً فيهِ ترقد قرون الجنين وهو داخل البيضة

﴿الفم﴾ فتحة الفم في جنب البطن مفتوحة جداً مغطاة من امام بالشفة العليا محاطة من جانبيها ومن تحت بثلاثة ازواج آلات قارضة للاكل

﴿الزوج الاول﴾ من آلات القرض فوق الزوجين الآخرين سن كالمنشار (المشرشر) معمول من مادة قرنية صلبة كالفولاذ خال من نتوات في الاجناب ويتصل باطراف الفكين مع الفم mandibulae يتحركان احدهما مقابل الآخر تحركاً جانبياً كذراعي كماشة تقاطع جنبهما الخارجي عرضاً سبعة حزوز مجوفة بين ثمانية نتوات منفصلة عن بعض ينتهي كل منها بسن حاد صالح للعض والقضم حتى لكسر مواد صلبة كاللوز ايضاً ومن السن الخامس فما فوق يوجد صف ثاني اسنان ثانٍ موازٍ للاول الخارجي ومتجهاً للداخل وعلى سطح التاج الواسع الممتد بينهما نجد نتوات وارتفاعات تشبه الموجودة في تيجان اسنان الحيوانات المجترة كالبقر وهذه ضرورية للجراد لتسحق غذاءه النباتي بين التيجان . اما اسنان هذا الزوج المنشارية فلا تشبه بعضها بعضاً لونها اسمر كما لو كانت محروقة بالنار

﴿الزوج الثاني﴾ من آلات القرض والأكل هو الفك الاسفل القم Maxilla هذا مؤلف من اربعة اجزاء . المحور الكاردو Cardo عليه يدور الفك من جانب الحلق تحت الزوج الاول وخلفه قليلاً (٢) الساق ام القصبة Stipes يتصل بالمحور بزاوية قائمة . يتحركان جانبياً كالزوج الاول (٣) الفص الداخلي Lobus internus (٤) الفص الخارجي L. Externus فوق الداخلي كالقبعة وينتهي هذا الزوج بثلاثة اسنان غامقة اللون تساعد على القضم ومضغ الغذاء من النباتات وهو المشرشر وتوجد في الجانب الوحشي من كل فك الزائدة الفكية Palpus maxillaris تستعمل كعضو لمس مؤلفة من خمس قطع كل قطعة تزداد في الطول لغاية طرفها الاخير . وبين هذه والمشرشر القلنسوة . مؤلفة من قطعة واحدة موازية للزائدة الفكية واقصر منها

﴿الزوج الثالث﴾ مؤلف من الشفة العليا Labium وهي عبارة عن قطعة صفيحية عريضة صلبة متصلة باسفل الرأس بذيل الترس الامامي وتغطي الفم . والشفة السفلى كالعليا في أسفل الفم تقفل الفم من تحت ومن خلف فتحفظ الطعام من السقوط وتساعد في تناوله مشقوقة في وسط حافتها السفلى وفي جانبيها الزائدة الشفوية Palpum labiales تتألف كل منهما من ثلاث قطع غير متساوية بالطول . وكل من هاتين الشفتين مركبة من قطعتين متشابهتين موضوعتين جنباً لجنب تتحركان تحركاً جانبياً

﴿اللسان﴾ Ligula طوله ١½–٢ ملمترات مخروطي الشكل رأسه مستدير غير حاد واسع شكل الجزء الاعلى من منقار الطير ومجوف من تحت كالملعقة يمتد الى كل تجويف الفم ما عدا السقف لونه اسمر

﴿المريء﴾ Oesophagus طوله ٣ ملمترات طول المعدة ٢٠ ملمتراً لونها اسمر Stomadeun ٢ ملمترات . في باطنه طيات تمتد طولاً وعرضاً وفيها نتوات تساعد في سحق الغذاء . وتوجد عضلات عرضية مستديرة تبعد احداها عن الاخرى ٤ ملمترات . تضغط الطيات (مقابل بعض) لاجل طحن الاكل قبل دخوله الامعاء Proctedaeum طول الامعاء نحو ٤٠ ملمتراً

محل اتصال المعدة بالامعاء محاط بنتو يبرز من ٦ امعاء مسدودة مختلفة في الطول متوسطها ٩ ملمترات والامعاء ملتوية كالثعبان

(٢) الصدر

﴿الصدر﴾ Thorax القسم من الجسم الذي يلي الرأس يتركب من ثلاث قطع Segmenta متوالية (١) الاولى تسمى بالقطعة الصدرية الامامية Prothorax تشمل قسم الظهر الاول Pronotum وقسم الصدر الاول Prosthorax (٢) الثانية المتوسطة mesothorax تشمل قسم الظهر الثاني Mesonotum وقسم الصدر الثاني Mesostenum (٣) الثالثة تشمل قسم الظهر الثالث Metanotum وقسم الصدر الثالث metasternum يختلف حجم هذه القطع تبعاً لنمو الاجنحة وغيرها من اعضاء الحركة . ثلثه الاول مقعر شكل سرج تقاطعه ثلاثة حزوز الى جانبه ثلثاه الخلفيَّان يرتفعان ويبرزان كجنٍ مروَّس ومستدير قليلاً في الاطراف الخلفية فوق جزء الظهر الثاني ،ويغطيان قاعدة زوج الاجنحة الغشائية . ويبرز نتو عمودي على طول جزء الظهر الاول تقاطعه الحزوز العرضية الثلاثة في ثلاثة محال . حافة هذا القسم مرتفعة قليلاً بشكل ثنية

جزء الصدر الاول ضيق جداً ويصغر بين الرأس والجزء الثاني الغليظ والمنتفخ فيه حرقفتا زوج الارجل الامامية Coxae بينهما تبرز زائدة اسطوانية طولها من ٣ — ٥ ملمترات Processus cylindricus وفي وسط جداره توجد أول فوهة للتنفس ذات اطراف قائمة تفتح وتقفل فبواسطتها يمكن الجراد ان يضبط سرعة تنفسه غير انها مغطاة بفصوص قسم الظهر الاول الواسعة ويلزم قطعها لفحص الفوهة المذكورة جيداً

في قسم الظهر الثاني يوجد زوج الاجنحة الغشائية على جانبي سطحها . جزء الصدر الثاني يغطي القسم الاوسط من الجزء الثالث بواسطة فصي اجنابه المربعة وحوافيه المستقيمة وفي جدران اجنابه Pleurae تجد حزين مائلين وفي آخر الثاني منهما بين قسمي الصدر الثاني والثالث فوهة التنفس ويمكن مشاهدة حركة هذه الحوافي اثناء التنفس بالعين المجردة في هذا الجزء يتصل مفصل فخذ زوج الرجلين الثاني

قسم الظهر الثالث داخل بفصيه بين فصي القسم الثاني فيه ثقبان صغيران وعليه وضع زوج الاجنحة الثاني الكبير جدرانه مجعدة ومثنية وخالية من فوهات التنفس يتصل مع هذا القسم زوج الرجلين الثالث للوثب وبين فصيه الجانبيين يدخل فص اول حلقة من البطن وهذه الحلقة تشترك مع ثلاثة اقسام الصدر والظهر لتكوين القفص المتين

(٣) البطن Abdomen

﴿البطن﴾ المنطقة التي تلي الصدر وتتصل به مباشرة وتتألف من تسع حلقات وحلقة العجز الاخير المركب من ثلاثة اقسام الدبر وازرار الجنب Ceroi . الحلقة الاولى

Segmentum medianum مشتبكة بالقفص . صفيحتها العليا أي الترجا شيتية . جانباها ضيقان بسبب قسم الصدر الثالث المفتوح جيداً ، فيهما فوهتان كبيرتان للتنفس مفتوحتان جيداً وبالقرب من حافة كل فوهة امامية توجد الاذن وهي عبارة عن تجويف بسيط شكل قمع في اسفله غشاء براق شبيه بجلد الطبلة بين نتوءين قرنيين بارزين من القسم الداخلي للغشاء . تحت الطبلة يوجد كيس صغير مزخرف جداً يملؤه سائل وهو لصدى الاصوات . يتصل باسفل الطبلة عصب السمع المتفرع من الدرب الثالث الصديدي (عقدة عصبية) ويكون ذرباً جديداً ثم هذا يتفرع وينتهي بخيوط عصبية دقيقة جداً وقيل ان في نوع الجراد ذي القرون الطويلة توجد الاذان على الساق الامامي شكل شق ضيق مستطيل. وتلتصق الصفيحة السفلى الاسترنا بجزء الصدر الثالث وتشترك معه بتكوين القفص (الصدر)

الحلقات الست من الثانية الى السابعة لها شكل واحد وترتيب واحد ويوجد في الحافة الامامية من كل منها نتوء كجناح يعلو فوق الحلقة السابقة كزرد الدروع فيثبتها ويسهل حركة البطن ، وكما سبق تتصل الترجا مع الاسترنا بجلدة رقيقة البلورا هذه مثنية تسهل امتداد البطن والالتواء والحركة

وفي كل جنب من الترجا قرب الحافة السفلى توجد فوهة مدورة للتنفس يمتد منها انبوب الى جهة الرأس مائلا . وهذا الانبوب يتفرع الى انابيب دقيقة صغيرة ايضاً شكل شبكة

الحلقة الثامنة توجد في جنبها ايضاً فوهة التنفس الاخيرة واكبرها . يختلف شكل هذه الحلقة بحسب جنس الجراد . ففي الذكور هي كالحلقات السابقة تماماً وفي الاناث نصفها الاسفل يمتد كسند Lamina Subgenitalis الذي يتصل به الذراعان الاسفليان لقناة المبيض وعند قاعدة هذين الذراعين بيت الرحم Vulva وأما قناة التلقيح لقبول المني Sperm تفتح الى ثقب غير القناة التي تخرج منها البيض (آلة وضع البيض) فان الاول كما سبق عند قاعدة ذراعي قناة المبيض الاسفليين Vagina inferior ويرى عند فتح الذراعين احدهما عن الآخر في الحلقة الثامنة ، والثاني هو الكلابي الشكل الداخلي الاعلى Vagina Superior interna الملازم للحلقة التاسعة والمتصل بين رؤوس ذراعي قناة المبيض الاسفليين . وكل منهما ينفتح امام الفتحة الشرجية

الحلقة التاسعة هي الوحيدة الخالية من فوهة النفس . وفي الذكور تتصل بها قناة رفيعة تسمى بالوعاء الناقل الوعاءان الناقلان يكونان قناة واحدة تسمى بالقاذفة وهذه تنفتح الى الخارج داخل العضو المسمى بالقضيب Lamina Subgenitalis (آلة السفاد)

الحلقة العاشرة الاخيرة وهي الاست وشكلها متساوٍ في الجنسين . فم الخاتم مقفل من ثلاثة اجنابه بزردة الاست Lamina Supra analis من فوق وتشبه وسادتين لينتين في الجنبين

اعضاء الحركة والطيران

﴿ الاجنحة ﴾ للجراد زوجان من الاجنحة المستقيمة شيتية رفيعة عريضة كالورق تتركب من طبقتين بينهما عروق ظاهرة عبارة عن انابيب وقصبات هوائية يحيط بها السائل الدموي

الزوج الاول الامامي مستطيل ضيق يقال له الغشائي عليه بقع غامضة سوداء فيها العروق الآتية: (العرق في الاجنحة اسم عام للاعصاب والاوردة والاضلاع والانابيب) تتخللها ستة اسطحة وهي:

(١) وريد الحافة الامامية Vena mediastina (٢) وريد الحافة الخلفية V. Plecata

(٣) الوريد الثلاثي V. radialis = الامامي V. radialis anter . المتوسط V. radiatis media الخلفي V. radialis posterior (٤) الوريد الثنائي V. ulnaris = الامامي V. uln-anterior الخلفي V. uln-posterior (٥) الوريد المنفرد V. dividens

السطوح بين العروق :

(١) الامامي بين الحافة الامامية وعرقها area mediastina

(٢) بين عرق الحافة الامامية وبين الفرع الامامي من الثلاثي a. scapularis

(٣) بين الفرع الامامي والمتوسط a. externo-media

(٤) بين الفرع الاخير وبين العرق الثنائي a. discoidalis

(٥) بين فرعي الثنائي a. interulnaris

(٦) بين الحافة الخلفية وعرقها a. axillaris

زوج الاجنحة الخلفي اكبر من الاول وهو للطيران ؛ شفاف فيه انعكاسات وردية اوصفراء وفيه الاربعة العروق الرئيسية الموجودة في الزوج الاول غير انها ليست متشعبة كثيراً كما في الاول ثم من مركز اتصال هذا الجناح بالجسم تمتد عروق طويلة مستقيمة متوازية الى اطرافه بدون تشعب

الجناحان الاولان لتغطية الزوج الخلفي ويساعدان على الطيران ايضاً واذا ازيلا لا يمكن ان يطير الجراد سوى جزء من الخمسين من المسافة التي يطيرها بالزوجين معاً

اعضاء الغناء وتوليد الصوت في الجراد ضعيفة جدًّا ولا توجد سوى في الذكور فقط. يحدث الصوت من احتكاك الجزء الاعلى من فخذي الزوج الخلفي كقوس الكمنجة مع الوريد الثلاثي الغليظ من زوج الاجنحة الغشائية كوتر الكمنجة الثابت . ولا يسمع صوته بعيداً كصراصير الغيط . وذكر الجراد ينادي عشيقته ويسحر قلبها ويجذبها للسفاد كالبلبل الذي يغرد على اغصان الاشجار لاجل حبيبته

﴿ الارجل ﴾ للجراد كما سبق ثلاثة ازواج من الارجل المفصلية للمسك والمشي والوثب تتصل بالجسم بواسطة الحرقفة مباشرة . ساق كل من الرجلين الاماميتين والمتوسطة

مسلح في جنبه الخلفي بصفين من اسنان كالمنشار كساقي الزوج الخلفي يشعر بها بمجرد اللمس . وبواسطة عدسة مكبرة يمكن رؤيتها مسطحة مائلة الى الوراء . اما عدد الاسنان فيها فيختلف ولكنه اكثر دائماً في الجنب الداخلي . ويتراوح ما بين ٨ — ١١ في الداخلي و ٩ — ١٠ في الخارجي

عند آخر الساق من الزوج الخلفي توجد ٤ اسنان طويلة مفصلية سهلة الحركة تتصل بكف الرجل اي الرسغ . هذا يتركب من ثلاث قطع اولها مؤلفة من اجتماع ثلاثة مفاصل ايضاً فوق ثلاث وسادات . وتنتهي القطعة الاخيرة من الرسغ بالمخالب وهو عبارة عن ظفرين حادين منحنيين بينهما فص مستدير Arolium pulvillus

يوجد عند الربع الاول من جهة الفخذ الداخلية نتوء صغير جداً في وسطه وسادة لينة داخلها حلمة تساعد الساق للوثب بأكثر قوة وفي جنب الفخذ الاسفل يوجد شكل ميزاب مكشوف لقبول الساق وسطه عند ما الرسغ يدخل ايضاً بين صفي اسنان الساق عند ثنيها وهكذا تتداخل الاجزاء بعضها في بعض في بقية الارجل عند ما يقتضي الامر ذلك

كيفية تناسله

روى اهاروني استاذ علم الحيوان في جامعة القدس مشاهداته العيانية عن كيفية تناسل الجراد عندما حلَّ في مستعمرة رحوبوت محل اقامته (ومنهُ اقتبست بعض معلوماتي) فقال في ثالث يوم من حلوله في الغيطان وبعد اكل المزروعات الخضراء الطرية كالبطاطس والطماطم والساق وما اشبه بشراهة قوية وقحطها ولم يبقِ منها ولا عوداً واحداً . كانت الارض صباحاً مغطاة بازواج من ذكر وانثى بعضها فوق بعض ولم يمكن ان ترى انثى واحدة خالية لم يعلُ عليها ذكر وكانت عشرات من الذكور طائرة ترفرف هنا وهناك تفتش عن انثى خالية عازبة فتعلو عليها وكان يوجد بقرب كل انثى وزوجها فوقها لا اقل من ذكرين او ثلاثة عزاب ينتظرون بفروغ صبر نزول الذكر عن عشيقته وخلوها فيغتنمون الفرصة ليعلو احدهم عليها بدوره ويشفي غليله ولحفظ الجنس وكانوا يظهرون تشوقهم باصوات الغناء التي كانوا يحدثونها ويطربون بها عشيقاتهم بواسطة احتكاك اجنحة الغشاء بافخاذهم الخلفية . وكانت الاصوات واطية وليست بايقاع لكثرة عدد الذكور

وكان الذكر السافد يتمسك بزوجته باظافيره الحادة فلا يمكنها ان تتخلص منهُ وكانت تحمله على ظهرها اينما ذهبت على الاشجار لتبيت وكانت تتقلب وتتدحرج على الارض معاً عند ما يضطهدها العدو حتى ولو امسكت ولا يتخلى عنها الا عند اتمام السفاد لكي ينجو بنفسه اذ يعلو عليها ذكر عازب آخر كان ينتظر بفروغ صبر . ومن شدة شراهتهم للسفاد قد شوهدت الذكور تعلو على اناث مقطوعة الرأس ولم يشاهد في الجراد ذكر يعلو على ذكر كما في الذباب البيتي .

وتموت الذكور بعد السفاد كما في اكثر الحشرات فكأن الزواج يقصر حياة الحشرات ولكن الذكور في الجراد اكثر من الاناث فكثير منهم لا يحظى بالزواج فيعيش العازب اطول من المتزوج

باب شؤون المرأة وتدبير المنزل

الصحة الجنسية والنشء

بقلم الدكتور محمد زكي شافعي
السكرتير الفني لمصلحة الصحة العمومية

يستطلع كثيرون من الوالدين المستنيرين رأي المقتطف في هل تقضي الضرورة بتلقين الابناء في الصغر بعض مبادىء الصحة الجنسية واذا كان الردُّ بالايجاب فالى اي مدى وبأية وسيلة يمكن تفهيم الصغير المسائل الجنسية ومن الذي يقوم بهذا الامر؟ فتفضل حضرة محرر المقتطف الفاضل وأحال عليَّ بحث هذا الموضوع الدقيق وابداء الرأي فيه بما يروي غلة السائلين لا سيما واني طبيب ووالد فنزولاً على ارادته ورغبة قراء المقتطف سأبحث هذا الموضوع من وجهتيه الفنية والاجتماعية في عدة مقالات لما له من المكانة الحيوية في التعليم والتربية

اصبحنا الآن والاطباء ليس جلُّ همهم التفرقة بين الامراض وابراء المرضى فقط. بل غايتهم القصوى اجتثاث اسباب الامراض ووقاية السليم من المريض . ومن هنا نشأ الطب الوقائي الذي لا يقصر مداه على الامراض المعدية والوبائية فحسب بل غايته الوقاية من كل الامراض معدية كانت او غير معدية باطنية او جراحية عقلية او اجتماعية ولذلك تفرع منه طب النساء الوقائي والجراحة الوقائية وطب الاسنان الوقائي وطب العقل الوقائي وهلمَّ جرًّا

فمن هذا يرى ان الطب الوقائي نما نمواً عظيماً واصبح وثيق العلاقة بعلم وظائف الاعضاء التطبيقي لانه اصبح من اهم دعائمه رفع كفاية اجهزة الجسم المختلفة مع مراعاة الاحوال الشخصية من بيئة ووراثة وغيرهما . ولذلك كان وقوف الجمهور والاحداث بصفة خاصة على وظائف اجهزة جسمهم ومبادىء الطب الوقائي هو من اهم الاسلحة التي تقاوم بها الامراض لان الطب وان كان قد قطع شوطاً بعيداً في طريق التقدم والارتقاء لم يتمكن من التغلب على كافة الامراض . فنحن في اشد الحاجة الى التدريب على الحياة الصحية . وموت الناس من الجهل اكثر من موتهم من المرض . ولا ادل على ذلك من انه يولد سنويًّا ثمانون في المائة

من الاطفال اصحاء فلا يصل الى سن الشباب الاّ العدد القليل وهم متمتعون بالصحة الكاملة . ولهذا وجهت في كل البقاع والامصار العناية الى الصحة العامة وأصبحت تدرس في كل المدارس على السواء . غير ان الصحة الجنسية لحداثة العهد بتوجيه النظر اليها لم تعط العناية الكافية . فاذ نرى الوالدين والمعلمين يعنون كل العناية بصحة الاطفال الشخصية نراهم يحجمون عن كل ما له مساس بالجنس ولا يلقنون اولادهم عنه لا الكثير ولا القليل وخصوصاً الفتيات واذا عرف الاحداث شيئاً فمن طريق من هم اجهل منهم . وما يحصلون عليه يكون عادة خاطئاً ومضراً مع ان صحة الجنس ليست الاّ فرعاً من فروع الطب الوقائي . وقد اصبح يدرس الآن في معاهد خاصة في بعض البلدان وأساسهُ العمل على نجاح الزواج ودرء كل اسباب الفشل عنه سواء من الوجهتين النفسية او الطبية الوقائية والتشجيع عليهِ وتحسين النسل . وقد درس باحث من الاطباء باميركا حالة ألف سيدة متزوجة للاغراض المتقدمة واغلبهنّ كنّ من الطبقة المتوسطة وقد جمع هذه المعلومات بواسطة اطبائهن المخصوصيين وكانت نتيجة الابحاث ان نصف هذا العدد قصدن الى الاطباء للعقم والربع لاورام في الحوض والتهابات والباقيات لاسباب اخرى ظن انها ذات علاقة بالحوض . وقد لوحظ ان نصف هؤلاء السيدات يشكون بعض الاضطراب الحيضي وكان الاضطراب عادة خفيفاً كما ان صحة ٥٦ في المائة منهن جيدة او تظهر عليهن مخائل الصحة و٢٧ في المائة صحتهن دون المتوسط ويشكون من اضطرابات عصبية و١٧ في المائة صحتهن متأخرة وفريق منهن مصاب ببعض امراض العقل او الاعصاب . ووجد ان في كل ١٢ سيدة منهنّ واحدة مصابة بمرض زهري وان كانت هذه الاحصاءات لا تنطبق على الحالة في جميع البلدان ولكنها تنطق بخطورة الحالة التي قد تكون سبباً لانهيار صرح هناءة الاسرة وهذا ما يجب ان يتلافى بالتعليم الصحيح

وقد تغيَّر فهمنا الآن للمسائل الجنسية تغيراً كليًّا في العشرين السنة الاخيرة واصبحت النظريات الحديثة تخطىء القول بان الشعور الجنسي لا يبدأ الاّ عند سن البلوغ وقد ارجعها فرويد الى سن الطفولة اذ تكون خامدة او كامنة حتى تنمو فسيولوجيًّا وسيكولوجيًّا في سن البلوغ . وقد صار لهذه النظريات أثر بليغ في الصحة الجنسية وامكن بواسطتها تفهُّم اسباب بعض الامراض العقلية والنفسية بل والشذوذ الجنسي . فلو كان الوالدون والمدرسون والاطباء مقتنعين بضرورة تعليم الابناء صحة الجنس لما وقعوا فريسة هذه الامراض وغيرها ولما تعرض الكثيرون للفشل في حياتهم العملية والزوجية

لكن للعادات الموروثة ما قد يعرقل فكرة تلقين الاولاد صحة الجنس فما هي الوسائل التي تتغلب بها على هذه العوائق ؟ وفي أية سن يعلمون ؟ ومن الذي يتولى امر هذا التعليم ؟ وما هي المواد التي تعلم ؟ هذا ما سأحاول الاجابة عليهِ من المقالة التالية

الادب التركي الحديث [1]

خالدة اديب خانم

ننتقل الآن الى الكلام عن السيدة خالدة اديب خانم الشاعرة التركية الحلوة الاغاريد الرقيقة النغم التي رفعت من شأن المرأة التركية وكانت مثلاً عالياً لتطور المرأة المسلمة واتساع معارفها

ولعلَّ الظاهرة غير العادية التي تستدعي النظر بصفة خاصة في حياة السيدة خالدة اديب خانم انها لم تثقف على الطريقة التي جرى عليها الاتراك في الزمن القديم . فان هذه الطريقة القديمة وان كنا نجلها ونعترف لها بنتائج باهرة لانها اخرجت عالمة تركية كبيرة مثل فاطمة خانم التي اشتهرت بسعة علومها في الفقه والتشريع غير انها ابقت على أسار المرأة التركية من الوجهة الذهنية والخلقية . اما السيدة خالدة أديب فنستطيع ان نقول انها تلقَّت تهذيباً حرًّا وعاشت في بيئة حرة ، او بعبارة ادق لا تدين بغير حرية الفكر وحرية النظام فقد ولدت من والدين متوسطي الحال وكان والدها سكرتيراً في دائرة الخزينة السلطانية الخاصة وكانت منذ حداثتها تظهر ميلاً للتبحر في العلوم والآداب ولم يكن يؤذن للبنات الوطنيات في ذلك العهد بدخول المدارس الاجنبية ولم تكن المدارس الوطنية تفي بالحاجة فتوسل والدها الى السلطان عبد الحميد ان يأذن لابنته بدخول الكلية الاميركية في الاستانة فأذن لها فدخلتها ولم يمض زمن على ذلك حتى برزت على اقرانها وتخرَّجت سنة ١٩٠١ برتبة بكالوريوس علوم وهي اول امرأة مسلمة في تركيا نالت هذه الرتبة . وقد برعت في جميع العلوم الا الهندسة فقد كانت حجر عثرة في سبيل تقدمها فأحضر لها والدها استاذاً خاصًّا من اساتذة الجامعة السلطانية ليلقنها في المنزل ما اشكل عليها فهمه من هذا العلم فلم يلبث ان علق بها فخطبها من والدها ثم اقترن بها وهي لا تعلم ان لزوجها امرأة وأولاداً في باريس على أنها لم تكن لتجد خلاصاً لها من تلك الحالة فاضطرت الى ملازمة خدرها وكانت تقضي أوقاتها في مطالعة ما حوتهُ مكتبة زوجها من التآليف النفيسة ولا سيما الفرنسية منها فكان لمطالعتها أثر شديد في نفسها الكبيرة ولم تلبث أن سنحت لها الفرصة المنشودة إذ طلقت زوجها وأصبحت حرة لتقف حياتها على الجد والعمل وكان ذلك قبل اعلان الدستور في تركيا فلما أعلن وأطلقت الحرية للأفكار والمطبوعات نشرت خالدة أديب قصيدة حماسية تخاطب فيها رجال الفرقة الرابعة التي تم على يدها قلب

(١) تتمة المحاضرة التي القاها حضرة الكاتب الاديب الاستاذ نقولا شكري في دار نقابة موظفي الحكومة المصرية بدعوة من جماعة الادب المصري

الحكومة الاستبدادية بلسان مؤسس الدولة العثمانية فكان لقصيدتها وقع عظيم وطارت شهرتها وذاع صيتها

وفي هذه البيئة السياسية التي كانت تدوي فيها اسماء ابطال الاتراك في الحقبة الاخيرة : انور وطلعت ونيازي وجمال وجاويد . في هذه البيئة نفسها ابتدأت السيدة خالدة اديب تفكر وتكتب على مثال ماترى وتحس وكانت الجمعية التركية وقتئذ تشكو مظالم العهد الحميدي وتتألم من ضروب العسف وضياع سيادة الدولة فابتدأت كسيدة مثقفة ومطلعة تكتب في سبيل الدفاع عن حقوق المرأة فصار الناس يطالعون كتاباتها بلهفة ولكنها لم تقتصر على ذلك بل جعلت تنشر في جريدة « طنين » مقالات اجتماعية وسياسية فاشتهرت بسداد الرأي واعتدال اللهجة وكانت تجتمع برجال تركيا الفتاة ولا سيما انور وطلعت وجمال فتبدي لهم رأيها في شؤون الدولة وهم لا يستنكفون من الاصغاء اليها والعمل بآرائها . ولما قلب عبد الحميد الحكومة الدستورية سنة ١٩٠٩ ورد اسمها في قائمة المحكوم عليهم بالاعدام فاضطرت الى الفرار حرصاً على حياتها فشخصت الى مصر ومكثت فيها الى ان استعاد الاتحاديون سلطتهم

وفي ذلك الوقت كانت قد اثمرت في اذهان الاتراك فكرة العصبية التركية وانبثت في الجمعية التركية فكرة الاندية السياسية التي كانت تحض على انقاذ العنصر التركي . وكان هذا المبدأ المجرد يعمر قلوب الاتراك نساء ورجالاً فلما تردد في جو العاصمة التركية صوت السيدة خالدة اديب في سبيل الدفاع عن حقوق المرأة لم يلبث ان تجاوب مع اصوات كثيرة كان يصدرها وقتئذ بعض الزعماء وقادة الحركة السياسية

والى السيدة خالدة اديب يرجع الفضل في رفع شأن المرأة التركية بانشاء الاندية والجمعيات ولما نشبت الحرب البلقانية انتظمت كثيرات من النساء في سلك جمعية الهلال الاحمر وجعلن يكتبن ويخطبن ويحرضن على الجهاد في سبيل الوطن وقد احتشد عدد منهن يربي على خمسة آلاف في دار الجامعة السلطانية فوقفت تخطب فيهنّ بحماسة متوهجة ولما اتمت خطابها كان العرق يتصبب من جبينها من شدة التأثر والانفعال فنزعت حُليّها الثمينة والقت بها في صندوق امامها اعانة للوطن فاقتدت بها سائر النساء وجعلن الواحدة تلو الاخرى يقدمن حليهنّ لهذه الغاية الشريفة

وابتدأ بعد ذلك انضمامها الى الحركة الوطنية التي كان يعمل رجالها لتحرير تركيا القديمة من ربقة النظم والعادات التي قضت على العنصر التركي بالجمود . واتسع اشتراكها بعد ذلك في تلك الاحزاب السياسية فصارت عضواً في حزب التقدم الجمهوري من بعد أن اشتركت اشتراكاً عمليًّا في الجهاد مع الوطنيين الاتراك وكانت تحضر اجتماعات زعماء الاحزاب الوطنية وتترأسها احياناً ولا يضع اولئك الزعماء خططهم السياسية الا بعد استشارتها . وكانت الى جانب ذلك ترأس

اللجان التي تؤلف لحل المسائل الشرعية المتعلقة بالمرأة وعلى الاخص مسألة تعدد الزوجات وكان يشاركها في ذلك طائفة من السيدات التركيات نخص بالذكر منهن السيدة نزيهه محيي الدين خانم الرئيسة السابقة للاتحاد النسائي بالاستانة وسلمى خانم . اولئك اللواتي عملن بكل ما في وسعهنّ على صيانة حقوق المرأة التركية واصلاح قانون الاسرة وبينما كانت السيدة خالدة اديب تواصل جهودها في سبيل تحرير لدانها كانت الصحف تملأ أعمدتها برسائل في الادب والشعر الرقيق الذي كانت تصنفها في اوقات الفراغ : والى السيدة خالدة أديب يعزى الفضل في توضيح مهمة المرأة التركية في المجتمع وان هذه المهمة أوسع وأجلُّ مما يفهمهُ رجال العصر . ولما تقرر في الاذهان أنها سيدة مثقفة من الطراز الاول وأن جهودها تسع النهوض بالاعمال الجليلة في دوائر السياسة والادب والاجتماع وأنها زعيمة متفوقة تتصف بأجل ما يمكن ان تتصف بهِ المرأة المهذبة من المزايا والخلال الباهرة رأى الزعماء الوطنيون الذين شاركتهم حيناً طويلاً في ميادين العمل السياسي والدفاع عن حرية البلاد أن يكللوا مهمتها الشريفة بمنصب تستطيع أن تترك فيهِ لمواهب المرأة والزعيمة اصدار امثلة أخرى باهرة في حياة المرأة فعهدوا اليها بتولي وزارة المعارف وكان ذلك في موطن تقليدي قديم نوعاً من التجديد لم يسبق له نظير في الشرق. وقد رفع مقام السيدة خالدة اديب في نظر جميع الذين يجحدون نبوغ المرأة وعبقريتها . وكان مثلاً باهراً يوحي بان ثمة مستقبلاً عظيماً للمرأة في الشرق . وقد أعلى مركزها كأديبة واسعة الاطلاع ومجاهدة سياسية اقترن في مهمتها العمل لجنسها بالعمل الجدي للوطن وللجمعية وكانت مثلاً فذًّا للمرأة المسلمة بوجهٍ عام

***

على ان السيدة خالدة اديب لم تبلغ هذه الغاية في المجتمع الذي عملت على تحريره الاَّ بعد أن ضحت بجانبٍ كبير من ايامها وراحتها وهناءتها في الاشتراك مع اولئك الذين كان النظام التركي القديم قد جعلهم موضوع نقمته ومطاردته

وكان لابدَّ ان يقترن بذلك التطور الباهر في حياتها كسيدة تركية تطور آخر في ذهنها وطريقة تفكيرها . وفي الحقيقة ان الجمعية التركية والعادات التركية بوجه خاص كانت وقتئذ مستعدة كل الاستعداد لذلك التطور . وقد ابتدأ اول ما ابتدأ في الغناء والموسيقى ثم في الشعر . ومن الممكن ملاحظة ذلك في الطرائق الجديدة التي يستعملها الاتراك الآن في كتاباتهم واشعارهم . وينسب الى السيدة خالدة اديب في هذا المعنى تعابير وصيغ طريفة تفرغ فيها افكارها فهي ترى ان المرأة التركية لا ينقصها للترقي غير حظ الرجل الحر من التعليم وهي تعني بالرجل الحر ذلك الذي تحرر من القيود الادبية والحوائل التقليدية التي تحول دون

ترقي الجماعة . أما التحرير السياسي وحقوق المرأة بحسب التعبير الشائع فهما عندها في الدرجة الثانية . فتوجه القول الى لداتها « ان السياسة لا تملأ الا جانباً تافهاً من حياتنا وانما هو نير القيود الاجتماعية والادبية الذي يثقل كاهل المرأة »

الى أن تقول : —

« اذا كان يراد بنا نحن النساء ان نكون احراراً في هذه الارض فينبغي ان ننال من التعليم حظ الرجل الحر . ولكن التعليم في المدرسة كان طلاء للحرية مموهاً فان فتياتنا جميعاً لا يزلن في اعماق قلوبهن عبيداً للاكاذيب الاجتماعية المقررة التي خلقها الرجال. وليس الغرض من هذا الا ان يعرف الرجل الى اي حد يمكن التوسع في تهذيب المرأة على شريطة ألا يبلغ بها الى حدود تحريرها من الأسر »

« ان الرجال يحاولون ان يهذبونا من الناحية الذهنية فقط ولكنهم من الوجهة الادبية أو الاجتماعية يأبون الا ان يحكموا علينا الوثائق ويشدوا الاغلال ولكنهم لم ينجحوا فان الوثاق على مر الزمن سيقطع والغل سينفك . لانك اذا ابتدأت اليوم بتعليم النساء فأنت ولا ريب منته غداً بتحريرهن »

وحسبُ هذا الرأي الوضعي البحت أن يصور لنا مذهب السيدة خالدة أديب في تحرير المرأة . وفي الحقيقة ان مهمة المرأة محدودة بمهمة الرجل التي هي اوسع . لذلك كانت قيود الاجتماع والاصطلاح تثقل كاهل المرأة من حيث أنها زعيمة تلك المملكة الصغيرة التي هي الاسرة أو المغنى العائلي . ولقد كان في أساس المهمة الشاقة الجليلة التي قامت بها السيدة خالدة أديب مسألة تحرير الاسرة التركية وكان من أهم القيود التي تغلها مسألة تعدد الزوجات والسيدة خالدة أديب الى كونها زعيمة حركة نسوية من الطراز الاول مفكرة وادبية وخطيبة بليغة لا تكاد تصل عبارتها الى الاسماع حتى تملك القلوب وتجتذب اليها الجماهير . وقد كان لخطبها الرنانة ومحاضراتها أثر قوي في تحقيق عناصر المهمة الواسعة التي أفضت في النهاية الى تحرير المرأة التركية . ونعلم من تاليفها — وهي من الكاتبات اللواتي لا ينقطعن عن الكتابة — مذكراتها عن الحرب بين تركيا واليونان وهي تلك الحرب التي اشتركت فيها بتخفيف آلام الجرحى والمنكوبين ورواية بديعة بعنوان « الاكمة الحمراء » كلها تصوير للحرب وحمية الجنود الاتراك وحماستهم وللسيدة خالدة أديب رسائلها الاسبوعية في الصحف التركية

***

وقد امتازت الى سعة اطلاعها بالدقة في التصوير وقوة الحياة في التعبير ومقدرة على وصف روائع العالم التركي الذي جاهدت من اجله وامتلأت شعاب قلبها حماسة في سبيل الدفاع عنهُ .

ثم هي خصبة الذهن قيّمة الانتاج مستحدثة الاسلوب كسائر الكتاب الاتراك المعاصرين فانك لا تكاد تجد فارقاً كبيراً اليوم بين كاتب تركي من الطبقة الاولى وبين كاتب اوربي معاصر في اخراج الصيغ والتعبيرات . وهذا يرجع الى طبيعة اللغة التركية اكثر مما يرجع الى مواهب الاتراك انفسهم وان كنا نعترف للسيدة خالدة أديب بتلك الموهبة العظيمة التي جعلت منها كاتبة واديبة وشاعرة من الطبقة الاولى ونعني بها خصوبة الذهن المقترنة ببلاغة التأليف

***

ومن بدائع انتاجها قصيدة بعنوان « موت الشاعر »

قالت : —

« ايها الشاعر

« ان الجو الذي عهدته لايزال على عبثه . والانهار التي شهدتها تجري كذوب اللجين ، والنسيم كعهده يهب حاملاً أرج الازهار وعطرها

« وها هي الطيور ما برحت تأوي الى وكناتها صادحة مغردة وها هي الطبيعة والشمس ذات النصال الابريزية تتألق في الافق . والرعاة كما عهدتهم ينشدون متهللين لتحية ملكة النور عند غيابها

« كيف ايها الشاعر ، هل كسرت قيثارتك التي ترددت انغامها ملء الدنيا

« وهل رميت بالقلم الذي كان بيمينك كالطائر الفرد فلا تعود الى التوقيع الشجي المطرب ؟

« هل تقضي نهائياً عليك بالانزواء في هذا المنزل القصي وقد فارقت هواتك ومريديك ؟

فلما سمع الشاعر اجاب : —

« بلى ، تقضي الاسى وكسرت يراعتي، وحطمت قيثارتي . اني ارى كل ما في الطبيعة يستحثني على الانشاد، ولكني اشعر بالعجز امام الموت الذي يفترسني

وفي هذه الدقيقة كان قرص الشمس الذهبي يهوي في اعماق المغرب فراح الشاعر يناجيه :

« ايها الكوكب المنير ، اذا بلغت الله النور فذكره بهذا الشعب المضيم المضنك

« قل له ان تركيا ما برحت تتمزق كل يوم وتئن تحت نير الطغيان فرنت لها الشمس بنظرها وقالت :

« اذن ، هلم ايها الشاعر الى الله المحيط بكل شيء فتبثه مصائب قومك الشاكين المتوجعين

« هلم الى الله تبثه ما يجيش في صدرك

« وغابت الشمس على الاثر وراء البحر بينما كانت الامواج تصطخب في سكون

« وأرخت الظلمات سدولها وساد المدينة صمت عميق لان شمسين غابتا عن تركيا ... »

وبعد ، فاننا لم نتحدث عن السيدة خالدة أديب اشهر كاتبات تركيا الجديدة الا لكي نقدم مثلاً عالياً لسائر سيدات الشرق فان خالدة أديب تستحق أن تكون قدوة للمرأة الشرقية بوجه عام

نقولا شكري

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

الشريف الكتاني

جاءتنا هذه الرسالة البليغة في وصف الشريف الكتاني الذي زار مصر في طريقه الى الحجاز لتأدية فريضة الحج من حيث هو عالم من اكبر علماء الفقه الاسلامي واديب واسع الاطلاع عميق الفهم جمع خزانة من انفس المخطوطات العربية واثمنها في داره بفاس . فنشرناها شاكرين

هما رجلانِ ألانَ اللهُ لهما من صخرِ قلبي أولَ ما رأيتهما : السيد الجليل « محمد نصيف » كبير جُدّة وعماد الحجاز والأملُ الممتدُّ في جزيرة العرب ، وهذا السيّد المباركُ محقّق العلم الاسلاميّ وعمدة التاريخ العربيّ « محمد عبد الحيّ بن عبد الكبير الكتانيّ الادريسيّ » واحد فاس ، وكبير مراكش ، والعلمُ الشامخُ بين أعلامِ الامّة الاسلامية في هذا العصر ما بينَ الصينِ إلى رباط الفتح من المغرب الاقصى

وما عَسايَ أقولُ في رَجُل . . . كلما أمسكتُ القلمَ لأكتبَ عنه تهيّبتُهُ من غير خوفٍ كما يتهيّبُ المؤمنُ قالةَ الحقِّ تحيكُ في قلبه ، خشيةَ ان يجورُ فيها لسانهُ ، أو ان يعدل بها سامعها عن وجهٍ قصد اليه . وأنا حين اكتبُ هذه الكلمة — بعد ان لازمت الرجل ايامهُ ولياليه في القاهرة ، وأخذتُ عنهُ ، وقبست من نوره وعلمهِ وخُلُقِهِ الغضّ ، واستنشيت ريّا شمائله — أجدني كالذي انتقل بروحه من عالمٍ كثيفٍ فيهِ من ثِقَل المادة ما يهيض جناح الطائر ، الى عالم من الرُّوحانية المصفّاة التي القت اوزار المادة الى مثارها ومعدنها من الارض ، وحلقت في جوّ السماء بين نسمات النفحة الالهية وفتنة الجمال العلوي . . . الجمال الذي ينتظم الكون كله بأفلاكه وكواكبه ودقة تدبيره وحكمة امره

رجلٌ منضّر الوجه كالوردة الزاهية فيها سرُّ الجمال الالهيّ الذي لا يذبُل ، مشرق الجبين كنور الفجر الصادق الذي لا يتكذّب ، وضاح الثنايا كالاقحوانة المبتسمة في ربيعها من الطلّ والندى ، صافي العينين كالماء النمير في مجرى من البلور ، كثّ اللحية محفوف الشارب

أهدب الاشفار أبلج الحاجبين في شعرها وطف ، ضخم الهامة سابق الهيبة بادي الحنان في جسمهِ بسطة تذكرك بما تقرأ في صفة علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ . هذا هو السيد الشريف «الكتاني» عالم الشريعة الاسلامية وهذه صفتهُ اول ما تكتحل عيناك بطلعته

هو في الثامنة والاربعين من عمره ، ولكن تطالعك هذه السنوات القلائل من عينيه بالكَبْرة الملطفة بشباب القلب ، المخففة بحياة النفس العزيزة المتألمة المثخنة بالجراح من احداث الدهر وعواديه . ينظر اليك حيناً نظرة العالم المتمكن الامين المتثبت الذي شغله العلم عن الحياة المادية الغليظة ، فتحملك نظرته هذه من مجلس بسيط وديع الى بحر من العلم يفتنك هدوءه كما يروعك اصطخابه إذا ازدحمت فيه أسباب الحركة العلمية . وينظر اليك حيناً وهو يستمع هادئاً نظرة المشفق الحريص الذي يودُّ ان يراك مصيباً لم تخطىء . وأنت لا تزال في مجلسه بين انواع من النظرات لها معانيها ، ولهذه المعاني أسبابها ، ولهذه الاسباب بواعثها ، ولهذه البواعث محركاتها ، وهذه المحركات خفايا من وراء النفس ، منقمعة مكتومة لا تنفذ اليها إلاَّ نظرات أروع وقاد قد ابتلى دقائق النفس الانسانية بالممارسة والذهن المتوقد الذي يرى من آيات الله آيات من البلاغة الالهية التي تمس الروح مسة تيار كهربائي ترعش به اعصاب الانسانية وتنتفض

أنت من مجلسه في مجلس الحافظ لسنة رسول الله صلى الله عليهِ وسلّم ، والفقيه الذي قلب آيات الفقه الاسلامي بالبصر والبصيرة ، والمؤرخ الذي انفتق له السور عن تاريخ العرب والامة الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها ، والالمعي ذي الدهاء الذي ركّبت الاحداث في نفسه آلة احساس دقيقة تحس بالبعيد احساسها بالقريب ولا تكاد تخطىء الاَّ بمقدار ما في النفس الانسانية من اسباب الخطأ الذي لا تنفيه إلاَّ العصمة التي لم يقضِ الله لاحد من الناس ان يبلغها . وهو وراء ذلك أحد المتصوفة الذين عرفوا حقيقة التصوف لا أوهامه التي ملأ بها الدخلاء ساحة التصوف ، وأحد الذين يزنون العلم الحديث وما نشأ عنه من أحوال الاجتماع بميزان يفرق بين الخير والشر والحق والباطل ، فهو يطلع عليهِ اطلاع المتبصر الذي لا يرضى لنفسه ان يكون من الغوغاء اتباع كل نظرية هوجاء لا قرار لها على حال

ولهذا الرجل احساس عليٌّ عجيب ، فهو لا يكاد يُسمعُ بأديب أو فقيه أو عالم أو فيلسوف إلاَّ حنَّ اليهِ وقلقَ إلى رؤيته ، ورغب في التحدث اليه وسبر غوره ، فلا تصرفهُ شواغله وهو في دار الغربة عن أن يقدم أهل العلم — أيّـا كانوا — بالزيارة بل تراهِ يبدؤهم بها . ويرحل من بلد إلى بلد لأن فيهِ عالماً جليلاً قد قرأ آثاره أو سمع بهِ . وأنت فظنْ كيف تقدّرُ رجلا من أقصى المغرب بفاس ، لا يذكر أمامهُ اسم عالم أو غيره في مصر او الشام أو الجزيرة العربية أو العراق أو الهند أو الافغان أو الترك إلاَّ عرفهُ وقصَّ لك من أخباره وعدَّد لك من كتبه . ومن هؤلاء الناشىء والمغمور الذي لا يعرفهُ أهل بلده على حين أنهُ منهم بمنزلة

البنان من راحته . بل . . . . يسمع اسم الرجل يراهُ أمامه فيطمئنُ قليلاً ثم يسأله من أي بلدة هو فما يجيبُ حتى يسأله عن علماء هذه البلدة مَن مات منهم ومن حيّ وعن كتبهم كيف كان مصيرها ، ثم يعدّدُ لهُ بعضَ ما ألّفوا . . . ويذكر له روايته عنهم ان كان رَوَى عنهم شيئاً من حديث رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أو غير ذلك

فمن أجل هذا الاحساسِ العلميّ المركّب فيهِ أتيح له أن يجمع مكتبة في داره بفاس تُعَدُّ من أغنى المكاتب الخاصة وأنفَسِها في العالم العربيّ كلّهِ ، فيها من النفائس والنوادر والغرائب ما لا يوجد في غيرها . وهو لا يكاد يسمع بكتابٍ نادرٍ حتى يسارع الى استنساخهِ أو تصويرهِ بالفوتوغراف . وها هو قد نزل مصر ليجمع من شوارد المخطوطات ونوادرها أشياء كانت بين سمع دور كتبنا وبصرها ثم غفلت عنها . ويجلس هذا الرجل في نُزُله فيأتيهِ الوراقون بالمخطوطات حديثها وعتيقها فما يفتح أحدها حتى يعرف ما الكتابُ ومن صاحبهُ ويفرح بالكتاب النادر فرح الذي ضنّ عليهِ الزمن طويلاً ثم جاد . وبالله أشهد صادقاً لكأني أرى الكتاب بين يديهِ يكاد يحنُّ اليهِ حنين القلب الممزق المفطور الى سبب من أسباب سلوته وراحته ، ولكأني اراهُ يمسك الكتابَ براحته كما يمسك أحدنا الشيء فيهِ من آثار قلبهِ وحبهِ وآماله ورغباتهِ ما فيهِ ، ويلقي عليهِ نظرة عاطفة تكاد تحييهِ من عطفها وحنانها وحدَبها وأشواقها

هذا هو الرجل العالم المتيم بالكتب ، الذي يطّلع جاهداً على آثار الناس وما ينشرون في الكتب والصحف والمجلات ويعي اسماءهم ويسأل عنهم ويرغب في رؤيتهم ويرحل اليهم بادئاً بالزيارة . وفي هذا الرجل رجل آخر قد جعلت من عينيّ جاسوساً مقتدراً نفاذاً يتتبع نظراته وحركاته وما يبدو على وجههِ وجبينهِ من آيات التغيُّر والتبدل حتى عرفتهُ او كدت

حدثتنا عنهُ فقالتا : هذا رجل في عظم هامتهِ واتساع جبينهِ والتماع عينيهِ دليل على قوة مستحكمة شديدة . وهذه القوة — مع ما فيها من شدة — هادئة وادعة مسالمة ، تتريث مفكرةً ، فلا تظهر ولا تستعلن الا ساعة الجد حين تعلم ان قد دنا أوانها ، وأن موضع الفصل قد استبان ، وأنها لن تخطىءِ . وهو رجل في أسالة خدّه ورقّة نظراته شاهد على طيب الخُلُق ، ودماثة الكنف ، وحسن العشرة ، وكمال الحنان والعطف ، وهو رجل في تفاجّ ثناياه وانطباق شفتيهِ وطول صمته — اذا لم يدعَ الى كلام — وعمق نظراته في هذا الصمت برهان على الصبر في كل ملمة ومع كل أحد . قالتا : ثم هو رجل حلوُ النفس صادق مخلص أمين على ما يؤتمن عليه رضيُّ الشمائل في كل حين ... أما تراه يبتسم ابتسامةً رقيقةً لا تكاد تخلص الا عن قلوب الاطفال المبرَّئين أو الكرام الصالحين فاذا ضحك اهتزّ جميعه لان ضحكته تصدر عن قلبه الطيع الكريم الذي يتحكم في كل عضو من أعضائه . وهو بعد رجل كتوم يحمل الآلام بين جنبيه وهي تمزق قلبه وتفتك فيه . ينظرُ النظرة المترامية في مفاوز الماضي البعيد فيرجع

بالذكرى الأليمة ، وعلى نظراته معنى البكاء الذي لا يجد في الدمع ترجماناً او معيناً . وهذه وحدها نظرة لو ألقيت على جبل أصمَّ لا يألم لوجد لها مسّاً كمسّ الرحمة في القلب الرقيق . ويخيل اليك وهو يغضُّ من طرفه ويرخي جفنيه أن الصبر والجلد والرجولة الصادقة أرادت بذلك أن تخفيَ عنك نظرات هي أحاديث أيام ، أشفق على نفسك ان تسمعها أو تلمَّ بها

وتراهُ حين يتكلم حتى في العلم يفيض حناناً ورقة وكرماً ووفاءً ثم يشتدُّ بعد تمهل حتى يأخذ عليك نفسك هيبة ووقاراً من ورعهِ وتقاهُ ، ثم تتعرَّف فيه اذا خالطته ذهناً قد اجتمعت له أسباب الاحاطة بأحوال الناس في كل أمة وجيل ثم يدق حتى يكاد يغمض عليك اذا لم تلق اليه بسمعك وبصرك وقلبك جاهداً متفهماً . وان تعجب فعجب لهذا الرجل الذي اتسع أفقه حتى الّف ما أناف على مائتي كتاب فيها موضوعات عجيبة لم يسبق اليه بمثل تحقيقه ودقته على الاسلوب الذي يفهمه عن اهله ومن عرف مذاهب القوم في كتبهم ومؤلفاتهم

كلمة مقتضبة في رجل بحر كريم الاصل والمنصب سليل جدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوة من هذه الامة العربية التي تدفقت في الارض تدفّق السيل من رؤوس الجبال فأنبتت في كل أرض نباتاً حسناً زكا مغرسهُ وطاب ثمرهُ . كلمةٌ نصلُ بها أرحاماً تقطعت أو كادت في زمن توالت علينا أحداثه واستمرَّت علينا عوادِيه وتركنا لُطاءه

يأشرُ الفارغُ الخليُّ ، وبأسى مُتْرَعُ الصَّدْرِ منْ جوًى ملآنُهْ

محمود محمد شاكر

حقائق جديدة

عن الربع الخالي

حضرة محرر المقتطف الأغر المحترم

ارجوكم ان تفسحوا لي مجالاً على صفحات المقتطف الاغر لاضافة ما يلي الى بحثي الذي تفضلتم بنشره في عدد فبراير عن الربع الخالي

حين كتابة ذلك الفصل وارساله الى المطبعة لم يكن في امكاني ان اضمنه النتائج التي اسفرت عنها رحلة المستر فلبي في شتاء العام الماضي ، اما الآن وقد اتاح لي المستر فلبي فرصة الاطلاع على مسودات الكتاب الذي وضعه عن الرحلة ، وعلى التقارير المختلفة التي وضعها الاخصائيون العديدون في المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي بعد فحصهم الدقيق للنماذج المختلفة التي أتى بها من مواضع مختلفة في الاماكن التي زارها رأيت لزاماً عليَّ ان اضيف الملاحظات الآتية الى ما نشر سابقاً

اولاً : كان المعلوم عن التكوين الجيولوجي للبلاد العربية ان باطنها خلو من آثار الاصداف البحرية الباقية من العصر الجيولوجي المتوسط المعروف باسم « ميوسين Miocene »

فجاءت رحلة المستر فلبي مثبتة وجود مساحات واسعة في المنطقة المعروفة باسم جافورا بين الخليج الفارسي ومنطقة الربع الخالي ، مملوءة بالاصداف الميوسينية التي يتخذها العلماء دليلاً قاطعاً على وجود البترول فيها . واصبح في الامكان تحديد الجغرافية الجيولوجية للبلاد العربية بصورة واضحة في مناطق متوالية اعتباراً من ساحل البحر الاحمر الى الخليج الفارسي :— صخور ابتدائية . فترياسية . فيوراسية . فكريتاسية ، فايوسينية ، فميوسينية

ثانياً : ان المنطقة الجديدة التي اخترقها المستر فلبي في رحلته الاخيرة لاول مرة والتي يمكن تحديدها بانها تبدأ اعتباراً من خط الطول الشرقي ٥٠° الى حدود وادي الدواسر ونجران انما هي بيداء قاحلة ، جافة ، معظمها رمال كثيفة تتخللها مناطق شاسعة من الطمي والحصباء وتعرف باسماء مختلفة مثل ابو بحر وسحمة ورعلة وجليدة وجدة الفرشة الخ . وان الآبار فيها معدومة الاَّ في حافتها الشرقية بقرب منطقة الخيران والرمال التي اخترقها المستر توماس من قبل وان عمق هذه الآبار عظيم جداً فعمق بئر مفينمة ١٧١ قدماً وبئر فاضل ١٢٥ ، وان المنطقة قليلة الانبات والعشب ولذا فان حيوانها قليل جداً

ثالثاً : من أهم آثار رحلة المستر فلبي ايضاً انها جاءت بدليل جديد يستند اليه العلماء الذين يظنون ان البلاد العربية كانت من قبل كثيرة المياه والخيرات ثم طرأ عليها جفاف عظيم أنضب أنهارها وأهلك عشبها وشجرها . فقد اجتاز المستر فلبي اصقاعاً عديدة حوت اصداف المحار الذي لا يعيش الاَّ في المياه العذبة وجلب منها نماذج درسها ، اخصائيو المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي وأكدوا أنها من هذا الصنف. وجمع من هذه المنطقة بعض الادوات الصوانية التي استعملها انسان ما قبل التاريخ في العصر الحجري الحديث Neolithic . والنتيجة الطبيعية لهذين الاكتشافين هي أنهُ في الازمنة القديمة التي تقدمت الاعصر التاريخية كانت منطقة الربع الخالي ذات انهار جارية يعيش فيها المحار ، تنبع من جبال عسير واليمن والحجاز وتصبُّ في البحر الميوسيني الذي يظنُّ انهُ كان غامراً الاراضي الكائنة بين رملة مفشن وآبار شنة والزكرت ونيفا وعين سالا . وقد تمكن المستر فلبي من تمييز مجاري اربعة أنهار عذبة في هذه المنطقة وحاول ان يربطها بالاودية الحالية الآتية : (١) اودية الافلاج (٢) وادي مقرن (٣) وادي الدواسر (٤) وادي نجران

رابعاً : ونتيجة مهمة ايضاً هي القضاء على الاسطورة التي مؤداها ان كثيرين يعتقدون بوجود آثار مدينة او مدن مطمورة وسط رمال الربع الخالي وبالاخص آثار وبار مدينة عاد التي دمرت بنيران السماء . فقد نفي وجود آثار مثل هذه ، وحقق ان الاعصر التي كان في الامكان اعمار هذه البلاد فيها حينما كانت ذات انهار عذبة ، انما هي أعصر سابقة للعصر الذي بلغ فيه الانسان مرتبة انشاء القرى والمدن

خامساً : ومن أعظم نتائج الرحلة ايضاً تحقيق مسألة قصور ام الحديد التي ذكرت عنها في متن الفصل انها آثار بركان خامدة فقد جلب المستر فلبي معهُ قطعة من الحديد المصهور من مخروط هذا البركان وسلمها الى المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي مع كميات من اللؤلؤ الاسود، ولدى فحص الكتلة تبين انها قطعة معدنية من نيزك سماوي ولا صلة بينها وبين المادة البركانية وان اللؤلؤ الاسود ، رمل (سليس) مصهور بحرارة شديدة جداً أحرقتهُ وجعلتهُ يظهر على شكل الدخان البركاني . وقد اثار هذا الاكتشاف اهتمام الاوساط العلميـة لكبر حجم النيزك ولكونهِ احد النيازك القليلة العدد المعروف عنها انها نزلت شديدة الحرارة الى درجة مرتفعة جداً فكان سطحها مصهوراً وباطنها لم تتصل اليهِ الحرارة الآنيَّة فظل على حالتهِ وأما السطح فقد تألف من صهره بالحرارة الآنية اشكال مخروطية تشبه مخروط البراكين واحرق الرمل المجاور لمنطقة المجاورة لهبوطهِ فجعله كمقذوف البراكين مكة فؤاد حمزة

تصحيح كتاب الزهرة

ردٌّ على نقد

تنحصر الاغلاط التي عرض لها الدكتور زكي مبارك مقتطف مارس ١٩٣٣) في اربعة انواع

النوع الاول : ويشتمل على اغلاط أصاب الاستاذ مبارك في تصحيحها اصابة تشهد بسعة اطلاعه وها هي بحسب ارقامها (الارقام التي سار عليها حضرته في التصحيح) : ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١

النوع الثاني : عثرنا في اثناء العمل على كثير من الاغلاط كما اننا احتجنا في مواضع كثيرة الى الملاحظات . لذلك وضعنا جدولاً في آخر الكتاب يبتدىء في ص ٣٨٢ وينتهي في ص ٤٠٦ ويكاد هذا الجدول لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها حتى الاغلاط التي فات الاستاذ ان يلاحظها رغم افتتانه بالتدقيق ، «وغرامه بالتصحيح» . وهناك اصطلاحات نشير منها الى الحرف m = مخطوطة ، Y = ياقوت ، H = حماسة ومنها ايضاً nc = غير واضح ، inc = غير تامّ وغير ذلك مما هو مفصّل في مقدمة الجدول . وكأنّ الاستاذ مبارك لم يشأ ان يعترف بوجود هذا الجدول ، وكأنه لم يكد يعثر على الغلطة الاولى حتى استرسل في التصحيح ، والتصحيح عند الاستاذ غرام والغرام — كما يقولون — أعمى

وها هي الاغـلاط التي انتبه لهـا على حين انّ جدول الملاحظات لم يغفلها بل اشار إلى كلّ غلطة منها اشارة اقلّها يدلّ على الشك والاستفهام : — ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ — وقد اهتدى الاستاذ الى اصلاح بعضها وصحح بعضها على الاحتمال . الا ان النقد العلمي النزيه يحتم على الناقد أن يعطي كلّ ذي حقّ حقّه

ويعرف لذي الجهود جهوده ولمّا كان الجدول ذاك (ويقع في ٢٥ صحيفة) حقًّا لنا ، وجانباً من جهودنا انتظرنا من الاستاذ مبارك الاّ يشيح بوجههِ عنهُ فيغفلهُ كل هذا الاغفال

النوع الثالث : ويشتمل على اغلاط صححها الدكتور مبارك وهي مثبتة بتصحيحها في ذلك الجدول المظلوم الذي لم يستحق نظرة عطف منهُ ! وقد لفت نظرنا اتفاقنا في التصحيح لا اتفاق توارد الخواطر بل وقوع الحافر على الحافر. وفي هذا النوع من الاتفاق عجب حين يقع مرةً واحدة أو مرّتين ، فكيف بهِ وقد وقع في اربعة عشر موضعاً ! ؟ . والى القراء جدولاً بأخطاء صححها في نقده وصححناها نحن كذلك في الجدول المذكور في آخر الكتاب

الغلطة برقمها	تصحيحها في جدول الملاحظات	تصحيح الدكتور مبارك
٤ وبعد	(الواو) لا لزوم لها	(الواو) لا لزوم لها
٩ الأبهم بالباء الموحدة	الأيهم بالياء المثناة	الأيهم بالياء المثناة
١٨ عتمة	عثمة رواية الحماسة	عثمة رواية الحماسة
٢٠ وما بى اذا زنى	رماني اذا ربّي	رماني اذا ربّى
٢٢ مكائد	مكايد	مكايد
٢٦ ان الذي	يا ذا الذى	يا ذا الذي
» قدّر	قدر	قدر
٣٣ فرحة نكأنها	قرحة ؟	قرحة نكأتها
٣٨ لم يمكن	لم يكن	لم يكن
» منهم	فيهم	فيهم
٣٩ ترتيب سيء لابيات	هزج (الوزن الشعري)	رتبها الاستاذ على الهزج
٤١ كتوم	كظيم رواية الحماسة	كظيم رواية ابي تمام . . .
٤٢ دوني	دونيَ بفتح الياء	دونيَ بفتح الياء
٤٥ لتقلهم	لتنقلهم ؟	لتنقلهم

النوع الرابع : ويشتمل على ما بقي من الاغلاط . وقد شاء الاستاذ مبارك ان يسميها اغلاطاً وليست كذلك بل هي في الحقيقة تفضيل رواية بيت على رواية واستبدال كلمة بكلمة . ومعروف بالبديهة ان كلّ كتاب مخطوط أمانة في عنق ناشره يتحتم عليهِ ان يخرجهُ للناس مطبوعاً كما وجدهُ مخطوطاً . فاذا بدت وجوه للملاحظات كاختلاف رواية أو تسمية ونحوها احتفظ الناشر بالاصل ودوّن ملاحظته في الموضع المخصص لها ومثال ذلك جدول ملاحظاتنا المظلوم

نابلس ابراهيم عبد الفتاح طوقان

تنقيط الياء في آخر الكلم

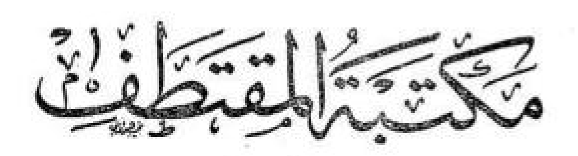
غير كافل بازالة اللبس

حضرة رئيس تحرير المقتطف الغراء

قرأت في مقتطف فبراير ١٩٣٣ مقالاً ممتعاً ، في موضوع لغوي شائق، بعنوان «تنقيط الياء في آخر الكلم» كتبهُ البحاثة الشهير الأب انستاس ماري الكرملي ، محاولاً فيهِ اثبات نظرية زوال اللبس بين الكلمات التي تكتب اواخرها املائيًّا بالياء بمجرد تنقيط الياآت الواقعة في آخرها، وقد اهاب بكتّاب العربية ان يلتزموا التنقيط فيما يقرأ بياء صريحة من هاتيك الكلمات ، نفياً للشبهة وحرصاً على وقت القراء ، ونهضته باللغة من مهاوي التردد ، ثم ضرب الامثال تلو الامثال ، تأييداً لنظريته المشار اليها ، فأجاد وأفاد ، بيد اني ، عملاً بحرية البحث وتمحيصاً للحقيقة العلمية : اقدمت على تقديم ملاحظتي لكم ، على إثما قرره، مؤملاً نشرها وفق ما اخذتم على عاتقكم : —

ان اقتراح الاب انستاس مفيد جدًّا ، وذو شأن خطير ، ومضعف لشوكة الوهم والالتباس ولكنه ليس بالقول الفصل في المسئلة ، ولا بالقاعدة الجامعة المانعة في الامر ، فباب الشبهة وان طُبق (اي الاقتراح) لا يزال مفتوحاً . لنأخذ مثلاً كلمة (الحبلى) التي مثل بها في مستهل بحثه ، وقرر انها اذا لم تنقط ياؤها يؤكد انها هي المرأة الحامل ، اما اذا نقطت فيؤكد انها منسوبة الى الحبلى — لنأخذ هذه الكلمة نفسها، ولنجعلها معيار الحكم على هذه النظرية — انا اذا فعلنا ذلك ، وقمنا بتنقيطها ، ورممناها هكذا: (حبلي) تجلّى لنا ان غيم اللبس لا ينفك مخيماً عليها: فانها تحتمل امرين ، والحالة ما شرح : احدهما : ان تكون منسوبةً لحبلى، وثانيهما : ان تكون من اضافة (حَبْل) الى ياء المتكلم ، وكذلك (يمني) مجرد تنقيط يائها الاخيرة لا يحصرها في النسبة الى قطر اليمن كما يراهُ الاب انستاس بل يجوز معهُ ان تكون من اضافة (اليُمن) الى ياء المتكلم ايضاً . ثم لنلحظ (السامي) المنقطة الياء المتطرفة بماذا نجزم في شأنها ؟ هل هي نسبة الى سام بن نوح ، ام وصف بالسموّ ؟ وكذلك قل في الحالي والراضي والمرتضي والغالي والقالي وخلافها من الكلمات الكثيرة التي لا يفارقها شبح اللبس بمجرد تنقيطنا لياآتها المتطرفة . واذاً فجماع القول (في نظري) ان تضاف هذه الفقرة على ما رآهُ الاب انستاس ألا وهي : التزام وضع علامة (التشديد) فوق ياء المنسوب وما شاكله من ذوات الياءآت المشددة المتطرفة ، علاوة على — التنقيط . فيكتب هذا النوع من الكلمات دائماً هكذا : الساميّ ، يمنيّ ، حبليّ ، الحاليّ ، القاليّ ، أوانيّ ، حواريّ ، وبهذا الصنيع نأمن جانب اللبس مطلقاً، ونحظى بالمرغوب محققاً

المدينة المنورة عبد القدوس الانصاري



مملكة اورشليم اللاتينية

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر [١]

جاءنا هذا الكتاب من نحو نصف سنة فقرأناه ثم عرضناه على المستر جفري مدير الدروس في مدرسة اللغات الشرقية بالجامعة الاميركية، وعصر المملكة اللاتينية من العصور التي توفر على درسها، فكتب المقالة الآتية بالانكليزية فنشرنا ترجمتها هنا

نشر هذا الكتاب على انهُ الحلقة الرابعة من سلسلة الكتب التي تخرجها الاكادمية الاميركية لتاريخ القرون الوسطى. والغرض منهُ توضيح ناحية من نواحي المنشآت الصليبية في فلسطين

ان دروس الممالك التي انشأها الصليبيون في الشرق يهم البحاث المهتمين بثلاث نواحٍ من نواحي المعرفة — (١) فالباحث في الصلات التي تربط بين الشرق والغرب، يجد فيهِ مجالاً للبحث في زمن اتصل فيهِ الغرب بالشرق زمناً طويلاً وانشأ مملكة غربية في محيط شرقي، وترك فيهِ أثراً متزايداً في اوضاعهِ وانظمتهِ (٢) اما الباحث في تاريخ الحروب الصليبية فيجد فيهِ الطريقة التي جرى عليها الصليبيون في تحقيق ما يرمون اليهِ في جماعة مستقرةٍ بعد ما قاموا بما قطعوهُ من العهود على الكفاح في سبيل تحرير الاراضي المقدسة من سيطرة غير المسيحيين. (٣) اما الباحث في تاريخ القرون المتوسطة فيرى فيهِ صورة جلية او مثلاً صافياً لعمارة فَدَنية (اقطاعية) تحاول ان تسير سيرها الطبيعي من دون ما يعيقها او يعيق العمارات الفدنية في اوربا

ومملكة اورشليم اللاتينية، انشأها زعماء الحرب الصليبية الاولى بعد افتتاحهم اورشليم ونصّب جودفري ده بويون اول ملك عليها، مع انهُ رفض — وظلَّ يرفض بعد تنصيبهِ — ان يدعى ملكاً لان اورشليم في نظرهِ بلغت من القداسة ما يجب ان يمنع إنساناً كان ان يدعو نفسهُ ملكاً عليها. وكان زعماء الحرب الصليبية الاولى قد تعوَّدوا النظام الفَدَني في حكم في بلدانهم، فكان لابدَّ لهم ان ينشئوا الممالك التي ينشئونها في الشرق على مثالٍ فَدَني.

(1) Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100--1291 John L. La Monte, Massachusetts 1932, Medeiaval Academy of America-Price 4.50 Dollars

فاعترضتهم صعوبتان — ان سكان البلدان الشرقية التي دخلوها كانوا قد تعوّدوا قانوناً عرفياً يختلف عن قانون اي شعب من شعوب البلدان الفدنية في اوربا . فكان لا بدَّ للنظام الجديد ان لا يغضي عن هذا الفرق . (٢) كان البابا الداعي الى الحرب الصليبية وكان لهُ ممثل بين زعماء الصليبيين ، وكان هذا الممثل يحمل تعليمات خاصة ترمي الى وجوب مراعاة حقوق الكنيسة في كل البلدان التي يفتتحها الصليبيون وكان الزعماء يعرفون هذه الصلة التي تصلهم بالبابا ، ومعرفتهم هذه عدّلت من نواحٍ مختلفة النظام الجديد الذي ابدعوهُ للممالك التي انشأُوها

وقد اضطلع المستر « لامونت » في الكتاب الذي بين ايدينا بدرس تطوُّر الاوضاع في المملكة اللاتينية التي انشأها الصليبيون . وصحيح ان غيرهُ من البحّاث عالج الموضوع من نواحيهِ التاريخية والتجارية واثر الاتصال بين الشرق والغرب في الادب وغيرها . ولكن المستر لامونت اقتصر على ميدان معيَّن من البحث يختلف عما تقدم . وهو نظام الحكومة في المملكة اللاتينية . فتناول في القسم الاول من الكتاب تاريخ التطور الدستوري في تلك المملكة ثم في القسم الثاني عرض لنظام الادارة وفي الثالث عالج الصلات السياسية بين ملوك اورشليم

والذي يهمنا من القسم الاول ما يوضحهُ المؤلف من غوامض الخلافة في ملوك اورشليم . وليس من الامور الخفية كيف تطرّق الضعف الى المملكة رويداً رويداً بسبب الخلاف الدائم بين الاحزاب المتباينة على مسألة « من يقام حاكماً على المدينة » . ولكننا لم نرَ قبل هذا الكتاب كتاباً يحتوي على مثل تفصيلاتهِ الدقيقة المبنية على درس دقيق للوثائق الاصلية — وهو كذلك اول من بيّن الشأن العظيم الذي كان يعلّق بفكرة الخلافة عن طريق النساء في خلال تلك المدة . وان القارىء في العصر الحديث ليقف دهشاً اذ يقرأ القصة التي لا تنقطع حوادثها عن سيدات حسان كنَّ يتزوجن رجلاً ثم آخر ثم آخر . من دون رغبتهنَّ . لان مصلحة الدولة (الاسرة الحاكمة) كانت تقتضي ذلك

اما القسم الثاني . وهو القسم الذي يهمُّ القارىء بوجهٍ عام — فيتناول نظام المملكة الدستوري تناولاً مبنياً على مراجعة واسعة النطاق للاصول التاريخية . فهناك يقرأ عن (المجلس الاعلى) وتأليفهُ ومدى سلطتهِ ، وقد كان اعلى مجلس تشريعي في البلاد . ثم يلي ذلك بحث في المجالس التي دونهُ (كمجلس الطبقة الوسطى) الذي يتناول شؤون الرعية الفرنجية التي تحت طبقة الاشراف فالمجلس الذي يتناول الشؤون التجارية فالمجلس الذي يتناول الشؤون الحربية البحرية والشؤون التجارية البحرية ، والقواعد التي بمقتضاها يحكمَ السكان السوريون بحسب شرائعهم وعاداتهم

وفي هذا القسم يبحث كذلك في حقوق وواجبات كبار الفرسان من موظفي المملكة ، وقد كان النظام الذي يشملهم منقولاً عن النظام الفـدَني في اوربا . وهذا يفضي بهِ الى درس

العلاقة بين هؤلاء الفرسان بالمجلس الاعلى وحقوقهم في الاقطاع وتفصيلات الخدمة العسكرية ونظام الهيئة الحربية في البلاد لانهُ كان لها اكبر مقام في نظام الحكومة اذ كانت البلاد في حالة حرب دائمة مع اعدائها من الامم غير المسيحية التي كانت تحيط بها . وهذا البحث يفضي، بطبعهِ الى البحث في ادارة البلاد من الوجهة المالية

اما القسم الثالث من الكتاب فيتناول علاقة ملك اورشليم بامراء انطاكية وكونتات طرابلس وادسّا من ناحية، وبالبابا والقصّاد الرسوليين من ناحية ثانية، وبطوائف الفرسان Templars وال Hospitallers من ناحية ثالثة ، وبالطوائف التجارية من ناحية رابعة. وكل هذه العلاقات كانت تحدُّ من سلطة ملك اورشليم وحريتهِ

هذا ميدان البحث في الكتاب اما من حيث قيمته فنقول انهُ اول كتاب من هذا القبيل مبنيّ على درس وافٍ وبحث لم يهمل شاردة ولا واردة من الاصول التاريخية . ومع ان المؤلف يتناول في بعض الاحيان مسائل مختلف فيها ، لكنهُ يتناولها بروح من الانصاف والتجرّد ويبسط الادلّة التي يعتمد عليها في ترجيح الرأي الذي يأخذ بهِ ، بسطاً وافياً . فالكتاب مرجع لا يستغني عنهُ المهتم بدرس عهد الصليبيين . ففيهِ من ناحية اهم الحقائق التي تهمّ الطالب في بيان سهل وايجاز غير مخلّ ، ومن ناحية اخرى ذكر لاهم المراجع الاصلية للاخصائي

وقد طبع الكتاب طبعاً متقناً ويحتوي على بيان المراجع وملاحق مختلفة لتسلسل الملوك وقوائم باسماء كبار اصحاب المناصب ونصوص بعض الاذاعات والمعاهدات التي تخصُّ المملكة اللاتينية

اما الباحث الشرقي المعنيُّ بموضوع الحروب الصليبية فيجد في هذا الكتاب امرين جديرين بعنايتهِ . اولاً . اذا كان من السهل الحصول على الاصول الشرقية التي عالجت موضوع الحروب الصليبية ، فمن المتعذر عليهِ الحصول على الاصول الغربية لانها في الغالب غالية الثمن ومكتوبة اما باللغة اللاتينية او باللغة الفرنسية القديمة . ولكننا نجد في هذا المؤلف موجزاً يصحُّ الاعتماد عليهِ ، لاهم الحقائق ، مستقاة من هذه الاصول . ثانياً . اذ حاولنا درس الموضوع في اصولنا الشرقية نظرنا الى المملكة اللاتينية من الخارج ، كما نظر اليها كتّاب هذه الاصول وهم في الغالب من الشعوب التي انشئت المملكة بين ظهرانيهم . ولكننا نجد في هذا الكتاب صورة جلية لنظام المملكة كما رآهُ اناس اشتركوا هم في انشائهِ وادارة شؤونهِ . وهذه الصورة التي رسمها المستر لامونت تمكننا من نقد ما قالهُ الكتّاب الشرقيون ، فنعرف ما بلغوه من الدقة في كتابتهم او تمكننا من فهم ما يقولونهُ وتفسيره التفسير المعقول

واذا لم يكن المستر لامونت قد خدمنا الا هذه الخدمة لحسبهُ

انفاس محترقة

شعر محمود ابو الوفا — طبعه دار الهلال — ثمن النسخة ٥ قروش

عُنيت دار الهلال بطبع ديوان الشاعر محمود ابو الوفا وطلب الشاعر من رئيس تحرير هذه المجلة كتابة المقدمة لديوانهِ فكتب ما يلي : —

اذا طغى الاستبداد على الحرية ، وتغلبت المادة على الروح . وضؤل نور الامل الفياض حتى كاد يخبو ، واستبدت القوة الغاشمة بالحق فوارته الى حين ، عجزنا عن بلوغ الطمأنينة النفسية الأ في خمائل الروح الخالدة . ذلك ان الانسان كائن روحي ، مهما يعارض في ذلك السلوكيون ، نزاع الى ما يمكنه من التغلب على نواحي الحياة المادية واخضاعها لمطالب الروح العليا . فنلتفت عندئذ ، بداهة ، الى الشعراء والفلاسفة الذين نسمع في إنشادهم ألحان النزاع النفسي العنيف ، فأهازيج النصر ، فأنغام الاستقرار في ساح الحرية والمحبة والأمل والحق

والشاعر في نظري ، هو من تأخذ الحياة بتلابيبه وتدفعه الى الانشاد قصراً . ففي طبيعته الدقيقة الحس ، تلتقي الافكار والاخيلة والاحاسيس ، وتختلط وتندمج ، ثم تخرج صوراً جديدة لا أثر فيها لاعنات الفكر ، ولا لكد الخيال ، ولا لتكلف الشعور ، ومن هنا أرى ان سماحة القريحة في الشعر spontaneity . هي في طليعة ما يمتاز به الشعر العالي — وحسبي ان أقول الشعر وكفى

فالشاعر اذ تتملكه صورة ما ، لا يبرح يقلب فيها النظر ، حتى تنبثق من عقله الباطن آراء درسها ومثلها بالتأمل الطويل ، يوشيها بذهب خياله الوهاج ، ويمهرها بنار شعوره ، فتخرج في الكلام الذي يمنحها قواماً خارجيًّا ، صورة لست تجد فيها الفكر الذي نسج آراءها ، ولا الخيال الذي وشى حواشيها ، ولا الشعور الذي نفخ فيها رعشة الحياة . بل تجد شاعرية شاعر ، اجتمع فيها التفكير عميقاً صافياً ، والخيال جريئاً وثاباً ، والشعور متأججاً صادقاً ... في الفاظ كأنها في معانيها ومبانيها وجرسها ومواقعها آيات التنزيل . هذه هي وحدة الاندماج في الشعر العالي بين أقانيمه المتباينة

ونحن اذا رجعنا الى تاريخ الادب في أمة من الامم وجدنا عصور الانحطاط في الانتاج الشعري موسومة بسمة التفكك في هذه الوحدة ، فيتفوق العقل على الاقانيم الاخرى ، ويسمو شأن الصناعة ويضعف شأن «السماحة» أو «الطلاقة» . بذلك اتصف عصر دريدن في الشعر الانكليزي على ما بين المستر درنكوتر في محاضراته . وبالطلاقة وارسال النفس على سجيتها امتازت عصوره الذهبية في ايام تشوسر وشكسبير ووردزورث وكيتس وشلي

***

لم تهبني الطبيعة الملكة التي تمكنني من معالجة الشعر . وانا مغتبط — وأحسب جهود

القراء مغتبطاً كذلك — انني اعرف هذا . فأنا اذ أقرأ الشعر ، وأجد فيه رقيقاً وعنيفاً، منأى للنفس عن متاعب الحياة ، أبحث فيه عن سر أثره في نفسي فأجد صفة «السماحة» او «الطلاقة» التي ذكرت . اذ ذاك تكون القصيدة في نظري كالجدول المنساب في الروض الممرع . تحف به على جانبيه الخمائل المعطارة . تعطره أشذاؤها ، ويطربها خريره ، فترتشف حواسي من القصيدة ، ما ترتشفه من روعة الجدول والروض ، وترتفع نفسي ، في الحالتين ، على ذرى التأمل في أسرار الكون والحياة ، الى عرش السماء . فأنا في تلك اللحظة ، ابن الكون المطلق لا ابن الارض الملتصق بالرغام

ولعل بحثي المبهم عن هذه الصفة في الشعر ، حملني على الاعجاب بشعر «أبي الوفا» اذ قرأت له:

لغة البلابل أين تذ هب بين هدهدة المداهد

فتمثل لي العراك العنيف بين الخير والشر ، بين الضعف والقوة ، منذ فجر الحياة البشرية على الارض الى يوم الناس هذا ، في صورة قليلة الخطوط ، زاهية الالوان . واذ قرأت له

أحب أضحك للدنيا فيمنعني ان عاقبتني على بعض ابتسامات

فأحسست بصدق الشعور وتجلى لي ألم النفس ، فتخيلت أنني الشاعر ، أراجع ما عاقبتني به الدنيا على بسمات ساذجات كبسمات الطفل . فردتني ناقماً ساخراً ، تمنعني نقمتي وسخريتي من ان أحاول الابتسام ثانية . واذ قرأت لهُ :

كأنني فكرة في غير بيئتها بدت فلم تلقَ فيها أيَّ اقبالِ
او أنني جئت هذا الكون عن غلط فضاق بي رحبه المأهول والخالي

واذ قرأت قصائد «ذكرى» و «حيرة» و «الايمان» وغيرها

فقلت في ذات نفسي ، في شعر هذا الشاعر سماحة القريحة التي يمتاز بها الشعر العالي ، فرغبت اليه في ان يشاركني في ذلك رهط الادباء من قراء المقتطف ، ونشرت له فيه ، قصائد «الايمان» و «حيرة» و «أريد» و «ضحية العيد» و «تغريدة» و «من الاعماق» و «ذكرى» و « الى صاحب البؤساء » وغيرها ، الخارجة من اعماق نفسه ، الجامعة لصفوة نظره الى الحياة ، الموشاة بوشي خياله الذهبي ، المطبوعة بطابع شعوره . وأحسب أنها وحدها تكفي لتجعل صاحبها شاعراً . . وحسبه هذا !

ان ديوان « أبي الوفا » صفحة من حياته — وحياة الشاعر حياة الانسانية ، في قلبه أملها وألمها . وفي عقله حيرتها . وفي وجدانه معتركها — فأنت ترى الحياة في هذا الديوان ، قطرة ندى . وشذى وردة . وثورة بركان . وايماناً وبؤساً وأملاً ، وارادة صلبة وأنفاساً محترقة . واني لشديد الغبطة ان أتيح لي تقديمه الى أدباء العربية ، اولاً على صفحات المقتطف وثانياً بين دفتي هذا الديوان . وأنا واثق ان الشاعر لن يخيب ظننا في تحقيق ما نتوقعه منه . والسلام

نابغة بني شيبان

ان العربية لتُزْهي بما تخرجه دار الكتب من المطبوعات كما تزهى الحسناء بجمال وحيدها بعد ان استفتحت الله على عقمها لجاءها بأسباب راحتها وفزعها في وجه معاً . فنحن بنا لدار الكتب مثل الذي بالحسناء لوحيدها من الحب والعطف والرعاية لانها واحدة جادت لنا بها ايام كزَّة بخيلة . وبنا ايضاً مثل الذي بها من الخوف والفزع ان يستفزَّها الحدَبُ الى الغرور، وان يستخفها التغاضي الى الاهمال والتعالي وترك الواجب الذي لا يستحلُّ خلافهُ . وقوة ما استقر في قلوبنا من الحدب عليها والتوجه اليها وما يعتلجُ في صدورنا من الخوف والفزع تدفع بنا الى العناية بما تنشره ، ومؤاخذتها على الكبائر والصغائر تنزيهاً لها وتبرئة . وهذا «ديوان نابغة بني شيبان» — آخر ما طلعت علينا به — نقول فيه كلمة تنفعها ان شاء الله

﴿تحقيق نسب النابغة ودينه﴾ نقلت دار الكتب في تصدير هذا الديوان كلمة ابي الفرج الاصبهاني في اغانيه «ج ٦ ص ١٤٦ مطبوعة الساسي» التي يقول فيها أن النابغة من شعراء الدولة الاموية «وكان فيما ارى نصرانيًّا لاني وجدتهُ في شعره يحلف بالانجيل وبالرهبان وبالايمان التي يحلف بها النصارى» اه . ولم تعلق دار الكتب على هذا بكلمة ، فكأن الديوان لم يطبع فيها ، ولم يهتم بشرحه القائمون بأعمال التصحيح فيها . ذلك ، لأن هذا الديوان الذي بين أيدينا ليس فيهِ قسمٌ واحد بانجيل او رهبان او يمين من الايمان التي يحلف بها النصارى، بل فيهِ ما يدل على ان صاحبه مسلم عريق لم يضرب إلى نصرانية ولا يهودية ، كما سنبين بعد

وتقول دار الكتب في التعليق على نسب النابغة انها نقلته من الاغاني «بعد تصويب الاسماء الخاصة (كذا) بنسبه» ومعنى ذلك انها رجعت الى ترجمة ابيه «مخارق» ثم جده «سليم» الى آخر ذلك فصححت التحريف الذي كان واقعاً في نسبه . وهذا النابغة هو عبد الله ابن مخارق بن سليم ... الشيباني» من بني ذهل بن شيبان ولد ربيعة بن نذار . فلو كانت قد رجعت الى ترجمة ابيه — كما يفهم من كلامها — لعلمت ان «مخارق بن سليم . . . الشيباني» صحابي ترجم له شيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني في كتابه «التهذيب» ج ١٠ ص ٦٧ وفي «الاصابة» ج ٦ ص ٦٨ وابن الاثير في «اسد الغابة» ج ٤ ص ٣٣٥ وافرد له امامنا الجليل احمد بن حنبل مسنداً في كتابه «المسند» ج ٥ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ وروى من حديثه النسائي في سننه ج ٧ ص ١١٣ . قال ابن حجر في التهذيب «مخارق بن سليم الشيباني أبو قابوس ، روى عن النبي صلى الله عليهِ وسلم..... وروى عنهُ ابناهُ قابوس و «عبد الله» . وقد ترجم أصحاب كتب التراجم — التي بين أيدينا — لابن قابوس لان اسمه ورد في بعض الكتب الصحاح الستة ، ولم يترجموا لعبد الله لان اسمه لم يرد في أحدها ولعلهم لم يعنوا بروايته لانصرافه الى قول الشعر ومدح الخلفاء فقلت روايته للحديث وقام بها اخوه قابوس . وما

نظن إلا أن أبا الفرج قد وهم في قوله بنصرانيته — ولأبي الفرج أوهامٌ مثل هذه كثيرة — ولعل الذاكرة طوحت بهِ الى نصرانية نابغة بني الديان الحارثي من ارض نجران . وإلاّ فكيف يكون نصرانيًّا مَن يقول «الديوان ص ١٧»

«ويزجُرُني الإسلامُ والشيبُ والتقى، وفي الشيبِ والإسلامِ للمرءِ زاجرُ»

وهذا نصٌّ لا نحتاج معهُ الى الاستشهاد ، بكثير مما ورد في شعره من خُلُق الاسلام وأيمانه وتجانفه عن الشرك والخبائث كبيرها وصغيرها

﴿ شرح الديوان ﴾ علقت دار الكتب على غريب هذا الديوان ونشكرُ لها عنايتها بذلك ، ولكنْ ماكان أشد أسفنا حين رأينا هذا الشرح محشوًّا بالاغلاط الواضحة التي نودُّ أن ننزّهها عنها فن أمثال ذلك قولهم ص ٣ في شرح الكلمة تَعَرُقُ : « تَعَرُّق : تأكلُ ما على اللحم من عَظْمٍ وتأخذه «كله» ولا ندري كيفَ يكون هذا اللحمُ المكسوّ بالعظامِ وكيف يؤكل . وقالت في شرح قوله

«وما الناسُ في الاعمالِ إلاّ كبالغٍ يُبنّي ومُنْبتٌ النياطِ حسيرُ»
«فمستلبٌ منهُ رياشٌ ومكتسٍ وعارٍ ومنهم مُتْرِبٌ وفقيرُ»

المتربُ : القليل المالِ . فيكون معنى البيت الاخير انالناس منهم مكتسٍ وعارٍ وفقير ، لأن قليل المالِ هو الفقير لاشك . ونصُّ اللغة «ترِبَ ترَباً ومَترَبَةً . خسِر وافتقر فلزق بالتراب ، وأتْرَبَ : استغنى وكثُرَ ماله فصار كالتُّراب — كثرةً — هذا هو الأعرف وقيل — وهذه لفظة التضعيف عندهم — قلَّ ماله . والمُتْرِب الغنيُّ إمّا على السَّلْب وإمّا انّ ماله مثل التُّراب » . فالمعنى (منهم غني وفقير)

وقالت في شرح قوله يصف شعور النساء

« وفروعٍ كالمثاني زانها حسنُ جميرٍ »

الجمير : الطيبُ . ونحن لا نعرف للبيت معنىً بهذا الشرح . وكلمةُ اللغة أن الجمير : هو الشَّعرُ ما جُمّر منهُ وجمرت المرأةُ شعرها جمعتهوعقدته في قفاها ولم ترسله ،والجمائر الضفائر واحدتها جميرة . والجميرُ من الزينة ولا شكَّ عند النساء

ونكتفي بهذه الامثلة من الخطأ وقلة العناية والإهمال والاستهانة بأمر القراء والادباء

الشعر العربي : وقبل أن أفرغَ من كلمتي هذه أُبدي تألمي من احد الكتّاب المشهورين في زرايته على دار الكتب بطبعها الكتب القديمة من مثل « ديوان جران العود » و« نابغة بني شيبان » . ونقول لهذا الكاتب الفاضل أنهُ ما حَمَلَهُ على الزراية بالشعر العربيّ الا تباطؤه عن الجد في فهم اساليب لغته التي يكتب بها ، وانهُ اذا وجد ثقلاً على نفسه الرقيقة في قراءة شعر العرب المتقدمين فليس ذلك من ذنب الشاعر ولكن من ذنبه هو وذنب الذين وضعوا

برنامج — تدريس العربية في مدارسنا المصرية . ونرغب اليهِ اذا كان هذا رأيهُ هو ان يكتمهُ عن الناس لئلاَّ يصدهم عن الاهتمام بآثار أجدادهم التي لا يبنى الادب العربيُّ الحديث الاَّ على آساسها . ونقول ان الذي يفهمُ الشعرَ ويفهم انهُ هو صورة النفس انْ صافيةً فصافٍ وان غليظةً فغليظٌ لا يقول بمثل هذه المقالة ابداً ، فما لا شك فيهِ ان النفوس من آدم الى اليوم هي النفوس البشرية التي لا تتغير أبداً ، وان الادب في كلِ العصور هو صورة هذه النفوس على اختلافها . وليس أدب اليوم هو الادب الذي لا يُرْغَبُ في غيره حتى يكون ما سبق مما نعدهُ ادباً وشعراً كلاماً من مَنطِقٍ لا نفهمهُ ولا نرغبُ فيهِ .ونعدُ بأنْ نظهر في هذه المجلّة روائعَ من الشعر القديم الذي انطلقت ألسنة هؤلاء الكتاب المشهورين بانتقاصه والنيل منهُ والله الموفق

محمود محمد شاكر

حكم الامم

مجموعة من الامثال والحكم والاقوال المأثورة باللغة الفرنسية اختارها ووضع ما يرادفها باللغتين العربية والانكليزية محمد افندي عبد الهادي كبير مترجمي محكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية

في الامثال والاقوال المأثورة تتلخص تجاريب الامم وفلسفتها الحية . والامم تختلف في مواطنها واقاليمها وتجاربها ولغاتها وعاداتها . ولكن لا بدَّ ان تتجلى لها حقائق الحياة الاساسية ، طال زمن التجربة او قصر ، واختلف الاقليم او توافق . ولكن هذه الحقائق قد تتخذ من الالفاظ في امة قالباً يختلف عن القالب الذي تتخذهُ في الامة الاخرى . لذلك قلما تجد مثلاً سائراً او قولاً مأثوراً في امةٍ الاَّ وترى ما يوافقهُ معنىً في امة اخرى وان اختلف عنه مبنىً ولفظاً . فالمثل الآتي متشابه في لغات العرب والانكليز والفرنسيين

الاتحاد قوة — La force fait l'union / Union is strength

والمثل التالي يتفق معنىً ويختلف تعبيراً

المنى مطية العاجزين — L'esperance est le pain du malhereux

فالمعنى في التعبير الفرنسي « خبز » او قوت المسكين والمنى في القول العربي « مطية » والمطية صورة منتزعة من صميم الحياة العربية في البادية

او المثل التالي :

المال يحقق كل شيء — L'argent fait tout

المال يدفع الفرس الى العدو — Money makes the mare go

المال يفتح كل باب موصد

وقد جمع مؤلف هذا الكتاب ٩٣٥ من هذه الحكم والامثال والاقوال المأثورة . فنشكر عنايتهُ وفضلهُ

كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية

طبع بمطبعة المقطم — صفحاته ٢١٥ قطع المقتطف — ثمنه ١٠ غروش عدا اجرة البريد

انتخب المجمع المصري للثقافة العلمية احمد محمد حسنين بك ، الرحالة المشهور ، ليشغل كرسيَّ الرآسة في سنتهِ الرابعة . فهو خير خلف لخير سلف ، في هذا الكرسيّ . وقد سبقهُ فيهِ الدكتور علي باشا ابرهيم وحسين بك سرّي والدكتور محمد شاهين باشا . وعلى ذلك يرى القارئ ان المجمع ماضٍ في القيام بالخدمة التي اخذها على نفسه وهي نشر العلوم الحديثة باللغة العربية ، في محاضرات تتلى وتنشر بحرفها او ملخصة ، وتجمع في كتاب سنوي

وقد عقد المجمع حتى الآن ثلاثة مؤتمرات تليت فيها ما يزيد على ثلاثين محاضرة علمية ، جمعت وطبعت في ثلاثة كتب سنوية هي من خير الكتب التي اخرجتها المطابع العربية في العهد الاخير . وقد عقد المجمع مؤتمرهُ الرابع في الاسبوع الواقع بين ١٢ مارس و٢٠ مارس في دار الجمعية الملكية للحشرات بالقاهرة . وتليت فيهِ ثماني محاضرات علمية نفيسة

وعلى ذكر هذا المؤتمر نقول ان كتابهُ السنوي الثالث قد خرج من المطبعة وهو في ٢١٥ صفحة من قطع المقتطف والهلال يحتوي على احدى عشرة محاضرة في موضوعات علمية منوّعة اولاها محاضرة الرآسة لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا وموضوعها « رسالة رجل الصحة للعالم » واخرى للدكتور علي باشا ابراهيم مدير الجامعة بالنيابة وعميد كلية الطب في « التعليم الطبي بمصر » جاء فيهِ على تاريخ مدرسة قصر العيني وتقدمها . ويلي ذلك محاضرة شائقة للدكتور حسن صادق بك مدير ادارة المناجم والمحاجر وموضوعها « التفسير العلمي للمناظر الطبيعية في مصر » . ثم محاضرة للدكتور مشرّفة موضوعها « الاعداد العلمي ومستقبل النشء » . فمحاضرة في « الالكترون والبروتون ومكتشفيهما » للاستاذ فؤاد صرُّوف رئيس تحرير المقتطف . فمحاضرة في « التأمين على صحة الطفل » للدكتور شخاشيري . فمحاضرة موضوعها « العلاج وتقدمهُ في خلال العصور » للدكتور جورجي صبحي الاستاذ بكلية الطب . ثم بحث بيولوجي لغوي في « النوع وتصنيف الاحياء » للاستاذ اسماعيل مظهر . وآخر في « السدم » وما يعرف عنها للدكتور محمد رضا مدور الفلكي المقيم بمرصد حلوان . ثم فصل في « الصناعات والعلوم » للدكتور احمد زكي استاذ الكيمياء في كلية العلوم فبحثٌ مبتكرٌ في « خبز الذرة والحلبة » للدكتور علي حسن الاستاذ المساعد للفسيولوجيا في كلية الطب

ولا ريب عندنا ان هذا المجمع يؤدي خدمة كبيرة للثقافة العلمية العربية بالقاء امثال هذه المحاضرات ونشرها في كتب سنوية متقنة الطبع سهلة الاقتناء . وبعض هذه المحاضرات سوف يكون في المستقبل ، اذ نراجع تاريخ نهضتنا ، اعلاماً في طريقها . فالمحاضرات الصحية النفيسة التي اعدّها الدكتور شاهين باشا والدكتور علي باشا ابرهيم والدكتور محمد خليل عبد الخالق بك تبين الخطوات التي تخطوها مصر في سبيل ترقية التعليم الطبيّ والاصلاح الصحي .

والمحاضرات الهندسية التي القاها حسين سري بك والدكتور عبد العزيز احمد بك والدكتور حسن زكي تفعل ذلك من الناحية الهندسية . وكلها بوجه الاجمال تضيف الى ثروة اللغة العربية في اللفظ العلمي ولا بدَّ ان تكون في المستقبل مصدراً من مصادر المعجم العلمي العربي

الضحايا

مجموعة اقاصيص — بقلم حبيب جاماتي — مطبعة مصطفى البابي الحلبي صفحاته ٢٩٠ — قطع وسط

اجاد الاستاذ خليل مطران اذ قال في المقدمة: «فاما العرب فقد آثروا بحكم طباعهم سوق كل نبإٍ على التجريد لا يعدون لباب الخبر ، ولا يتناولون من صفة الاشخاص سوى ما يعلق لزاماً بذلك اللباب . فعلوا ذلك باجادة انشائية لا تضارع وايجاز في السرد يكاد يكون غاية في الايجاز ، ولم يقدروا للمطالع حاجة الى الوقوف على غير الجوهر او صبراً على تبسط .... واما الفرنجة فهم يصفون في الاقصوصة بالكلمة العاجلة ما يهيء للقارىء الزمان والمكان ، ويبينون بالعبارات السريعة مقوّمات كل شخص ومميزاته ، ويكدّون الذهن في تصوير النوازع النفسية والخلجات الوجدانية ، ويدخلون الحوار ، وان لم ينفسح الاّ لاقله ، ليقذف في روعك انك بمشهد ومسمع ممن تقرأ سيرتهم . » ويرى ان المؤلف توسط بين منحى العرب ومنحى الفرنجة «فانتقى من الانباء المشهودة او المنقولة عن التاريخ ما فيه مظنة عبرة .. لا يريد بالخبر الذي يحكيه ذلك الخبر بذاته بل بكل ما يحيط به من صور و ذكريات وامور لها خطرها وموقعها المتمم الغرض المقصود

ولا ريب في ان المؤلف موهوب في سرد القصص بارع في ايراد الحوار ، سليم اللغة نقيها في قليل من التبذُّل اللفظي وهو مما لا غنى عنهُ لكاتب يعالج تحبير المقالات للصحف كلَّ يوم . على ان المجال الذي اختارهُ لقصص هذا الكتاب يتنازع صاحبهُ بين الامانة للتاريخ والاخلاص للفن . ومن النادر بين كبار الروائيين من بلغ الغاية في حسن الجمع بين الاثنين. اما « مظنة العبرة » غرض المؤلف او « تغذية العقول بالوان الطرائف » . فنقول ان المؤلف اجاد في تحقيق هذا الغرض. ولكن بعض القصص التي قرأناها شوهتها رغبتهُ في استخلاص العبرة مع ان القصة نفسها يجب ان تكون العبرة المطلوبة . فقصة « خليلة الشاعر » لا تحتاج الى اي تفسير بقوله « هذا ما فعله الشاعر الخ » لانها تبلغ عندما يبلّ الشاعر حلق عدوه الظامىء ذروة لا تحتمل كلمة بعدها

الانشاء التعليمي

وضع هذا الكتاب الاستاذان الفاضلان محمد شفيق معروف ومحمد عبد الغني الاشقر وهما مدرسان بالمدارس الاميرية وجعلاه وفقاً لأحدث منهج اقرَّته وزارة المعارف العمومية للمدارس الاولية والابتدائية وبين يدينا الجزء الثاني منه وهو كتاب مفيد في بابه اقتبس احدث ما وصل اليه التعليم في اللغات الافرنجية وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جيد في المطبعة السلفية بمصر فنوجّه اليه انظار التلاميذ لينتفعوا باسلوبه وموضوعاته وثمنه خمسون مليماً

علم استخلاص المعادن

تأليف المهندسين يوسف العارف وحسن حسني عبد الخالق وعثمان عبدالله صفحاته ٢٧٢ قطع المقتطف
طبع بالمطبعة الحديثة بمصر — ثمنه ١٨ غرشاً

استعمل البشر المعادن اولاً لصنع ادواتهم واسلحتهم ولكنهم لم يكثروا من استعمالها الاَّ بعد الثورة الصناعية التي حدثت في انكلترا وما عقبها من التوسع في استعمال الآلات في المناجم ومعامل الغزل والنسج وبناء السفن والقطارات. ولا ريب في ان نجاح الثورة الصناعية في انكلترا انما يعود في المقام الاول الى وجود المعادن الضرورية فيها كالحديد والفحم جنباً الى جنب. فلما استنبط بسمر طريقة جديدة لصنع الصلب بعث في الصناعة الانكليزية حياة جديدة ثم اقبل الالمان على الاساليب الصناعية المستحدثة واجمع رجال السياسة والصناعة والحرب منهم على تثمير مناجم الالزاس واللورين. ثم استنبطت الاخلاط المعدنية وتعدَّدت وخصوصاً الاخلاط الحديدية وكلٌّ منها يمتاز بصفات تختلف باختلاف المعدن الذي يخلط بالحديد. وكذلك اصبح رجال الصناعة والحرب يحتاجون الى الفناديوم والتنجستن والمولبدنوم والالومنيوم والكروم والكوبالت والنيكل وغيرها بعد ما كان استعمال هذه العناصر محصوراً في المختبرات العلمية. واعتماد الصناعة على الاخلاط الحديدية المختلفة كان فاتحة عصر جديد في الصناعة والحرب.

وكانت حدود البلدان في العصور الغابرة تعيَّن وفق مقتضيات الزراعة ولكنها لم ترتبط بتوزيع الثروة المعدنية. والثروة المعدنية اصبحت في هذا العصر لا مندوحة عنها لنجاح الصناعات في اثناء السلم ولتجهيز الامم بادوات القتال في اثناء الحرب فلا بد من تعديل الحدود واقامتها على هذا الاساس الى حدٍّ ما

هذه كلمة تبين ما للمعادن من المقام في العمران الحديث في حالي السلم والحرب. والكتاب الذي بين ايدينا يبسط من الوجهتين العلمية والعملية الطرق الحديثة في استخلاص المعادن. ففي الفصلين الاول والثاني كلام عام في خصائص المعادن كالصلابة وقابلية الصهر والمدّ (الاستطالة كما ذكرها المؤلفون) والطرق والتطاير وغيرها وتفسير بعض المصطلحات المستعملة في استخلاص المعادن كانواع المعدن (البكر والنغل) وانواع الافران (او الاتاتين) والخبث والهشاشة وغيرها من صفات المعادن. ويلي ذلك تسعة فصول في استخلاص الحديد والصلب على انواعها وقد خصصوا الجزء الاكبر من الكتاب للحديد ومستخرجاته «لما له من الشأن في عالم الصناعة في العصر الحاضر الذي اطلق عليه بحق عصر الحديد». اما الفصول الباقية وعددها احد عشر فصلاً فتتناول النحاس والزنك والقصدير والرصاص والفضة والذهب والنيكل والالومنيوم والكروم والمنغنيز الانتيمون والمغنزيوم والبلاتين. اما ومصر سائرة في سبيل انهاض الصناعات من كبوتها واقامتها على اساس علمي عملي حديث فهذا الكتاب يصبح له شأن خاص في توجيه الانظار الى الاركان الصناعية. ونرى ان المؤلفين مصيبون في قولهم ان مايلتمسهُ البعض من المعاذير لسقوط الصناعة في مصر خطأ ظاهر وان الامر لا يقتضي الاَّ عقولاً مفكرة وعزائم ماضية

أغاني أبي شادي

اخرج الدكتور أبو شادي كتاباً جامعاً فيه من شعره كل مارآه جديراً بالتلحين منسجماً مع موسيقى التنغيم حتى تألفهُ الأذن وترضاه العاطفة فتذهب كل مقطوعاته أو بعضها في عالم الغناء إلى مدى ما يرضاه هو أو يرضاه لها الأدباء وغير الأدباء من عامة المثقفين

والشاعر جريء في هذه الحملة الشعواء التي حمل بها على الأغاني الدارجة التي ألفها الشعب والتي لا يريد أن يألف غيرها قبل نضوج فكري يستغرق منه تهذيباً عميقاً ذلك لأن الطبع المصري من طراز الطبع السامي لا يرتاح إلى التفكير العميق في التماس أسباب المرح والمتعة وإنما يريد أن يستشفها في حياته كما لو كانت من وراء زجاجة وهو في ذلك على نقيض الطبع الآري الذي منه الاوربي والفارسي والهندي

ولعل أول ما يحس ، القارىء الأديب في هذه الأغاني روعة الابهام الرمزي الذي يتغلغل فيها ، وترف ألفاظها التي تحمل أخيلتها إلى القارىء « المتأمل » على أجنحة هفافة لا يكون حظ الفكر منها بأسعد من حظ الخيال نفسه ! والابهام الرمزي في ذاته جمال رائع بل هو في عرف أفذاذ الناقدين« برادباى » و«لي هنت» العنصر الأول في الاسلوب . ونجد امثلة كثيرة في الأغاني يشع منها نور الابهام الرمزي فاقرأ مثلاً «أغنية اللهيب المقدس »وفيها يقول

قد رشفنا مُنى الحياة بثغر وارتوينا من اللهيب المقدس

وهذه الاغنية هي أول ما صادفني من شعر الديوان وقد أحسست بشعور غريب وأنا أقرؤها . . فقد خيل إلي انني في مدينة سحرية من مدن الخيال . . من مدن الشفق اوالفجر أو انني في معبد بوذا ألمح لهيب الآلهة المقدس وقد حجبه الضباب

كان هذا شعوري الخاص وأنا أتلو هذه « الصلاة » وهو شعور الفن المثقف وليس شعور العاطفة الساذجة التي تريد أن (١) تشعر ثم (٢) تغني .. لا أن (١) تفكر (٢) ثم تشعر (٣) ثم تغني ! . فالفلاح لا يعرف شيئاً من مدن الشفق او الفجر .. والفلاح لم يقرأ شيئاً عن معبد بوذا وكل ما رآهُ الفلاح في عالم السحر والخيال هو لهيب « ابو شعلة » وهو الشيطان الذي يخلقه في وهمه ليخيف به صغاره ! ؟ . ولست اكذبك أيها القارىء انني شعرت بلذة لا تعدلها لذة وأنا أقرأ هذه الانشودة وقلت في نفسي أما كان الأحرى بالدكتور أبي شادي أن يطلق على كتابه « أغاني وصلوات » بدلاً من «أغاني» فقط ! !

وهناك امثلة أخرى كثيرة من هذا النوع في الكتاب وحسبك ان تقرأ قبلة البرتقال وفيها يقول

عشقَتْ عصير البرتقال فذهّبت بعصيره الناري من شفتيها
ورشفتُ أخرى بعد أن جادت بها فاستفت حلو غرامها بيديها

حتى إذا لم تبق منها نفحة وظللت كالظمآن عاد اليها
جادت علي بقبلة معسولة جمعت شهي الخمر من حلويها
فغنمت خمر البرتقال بثغرها وغنمت خمر الحب من شفتيها

ولكنني آخذ على الدكتور اشياء كان يجدر به أن يراعيها وهو إهمال التروّي في بعض الصور الشعرية مثال ذلك قوله

رحلت عنك رحيل الطيب عن زهر يودي به البعد لولا حبك الداني

فقد شبه نفسه بالعطر وشبه حبيبتهُ بالزهر وفي هذا التشبيه غرابة لو تروّى فيهِ قليلاً

وقوله: وبخلت حتى بالعناق لعلني أمضي الضحية في سرور الواعي

كأن وراء العناق غاية وهي كما يراها ابن الرومي ونراها نحن غاية الغايات وفي ذلك يقول ابن الرومي

أعانقها والنفس بعد مشوقة اليها .. وهل بعد العناق تدان

والدكتور ابو شادي يجعله في الشطر الاول كأنهُ شيء تافه فيؤنبها لانها بخيلة «حتى بالعناق»

وقوله: تتـلاقى الشفاه وهي ظماء ثم تظما على ارتواء وتنعس

وأنا أظن أنه لو غيرنا بعض ألفاظ البيت بألفاظ أخرى لجاء البيت رائعاً . فيمكننا أن نقول

تتلاقى الارواح وهي ظماء ثم تروى فوق الشفاه وتنعس

وفي الختام نقول إن الدكتور قد اضاف إلى مجهوداته الفنية آية جديدة

م . ع . الهمشري

الظمأ

مجموعة اشعار — الدكتور علي الناصر — مطبعة المعارف حلب

مقطوعات شعرية طيبة ارسلها صاحبها حرة طليقة بكل معنى كلمتي الحرية والانطلاق فهي مرة في صورة ما يسمونه الشعر المنثور ومرات اخر في انماط مستحدثة من الشعر المنظوم ولكنها جميعاً ملتقية في عدم التقيد بأي قيد او اي اعتبار لذلك يحسن بقارئها ان لا يستعجل الحكم على الشاعر وان لا يأخذه الا بالرفق والتأني ، اما التأني فلأن هذا النوع من الشعر لا يزال جديداً على اسماعنا التي الفت القوافي العربية الصقيلة ولم تتعود بعد إلا النغم المطرد المتناسق واما الرفق فهذا نحتاج اليه عند النظر الى الصيغ والعبارات أو الى الالفاظ التي ربما نرى الشاعر فيها قد خرج قليلاً عن المألوف في القواعد التقليدية كقوله (بقوعي) بدلاً عن بقاعي الى غير ذلك من هذه الاشباه . أجل نحتاج الى الرفق بالشاعر في مثل هذه الملاحظات لاننا نعلم مقدار ما يعانيه هذا الشاعر وأمثاله المسرفون في التجديد في سبيل تطويع اللغة العربية تطويعاً يتفق وما يريدونهُ من المعاني والاغراض ثم يتفق مع النغم الذي يختارونه قوالب لهذه

المعاني والاغراض . وأخيراً لاجل ان تنصف هذا الشاعر ولأجل ان تتابعه باطمئنان يحسن بك أن تسمع ما قاله الفيلسوف امين الريحاني في تقديم هذا الديوان: قال وان افق شعره ليحيط بنزعات متعددة متباينة وبأساليب هي عنوان الفتوة متنوعة البذور فيها زاهر وفيها ما لا يزال في البراعم والاكمام. ولعمر الحق ان هذا الادق وصف ينطبق الآن على شعر هذا الشاعر الطبيب

شرح بشارة يوحنا

وهو الجزء الرابع من كتاب « المرشد الامين في شرح الانجيل المبين » تأليف القس ابرهيم سعيد استاذ علم التفسير بمدرسة اللاهوت ، وفيه ٨٦٠ صفحة . وقد استعان المؤلف في كتابته بنحو عشرين كتاباً اكثرها باللغة الانكليزية . ذكرها في صفحة ٨٦١

والمؤلف يستعمل تارة لفظة «شرح» وتارة كلمة «تفسير» كما في ص ٢٥ — عنوان الاصحاح الاول . هنا يستعمل كلمة «تفسير». كذلك في ص ٨٦١ يقول: استعان بها المؤلف في تفسيره

فيظهر انه يعتبر تأليفه شرحاً تفسيريًّا . وللتفسير مذاهب . منها المذهب الحرفي، وهو الذي يفهم بعبارات الكتاب مدلولها الحرفي . فاذا قال الكتاب . ان الله خلق العالم في ستة ايام . فهم بذلك ، ستة ايام عادية ، في كل يوم ٢٤ ساعة . والمذهب الروحي . وهو الذي يعتبر المبدأ الروحي في الكتاب ويطبق العبارات عليه . والمذهب الرمزي وهذا قد تبعه بعض الاباء في الاجيال الوسطى. ومنها المذهب النقدي او الانتقادي . وعليه كثيرون من علماء الالمان . والمذهب اللغوي التاريخي وهو الذي يؤيده الدكتور جيمس انس المعروف في سوريا واميركا . ولكن حضرة المؤلف اجتنب كل ذلك ونهج نهجاً سهلاً متواضعاً جميلاً . فشرح الكتاب شرحاً تفسيريًّا — وبالاحرى وعظيًّا . اورد في كل موضوع الآراء التي يراها فيه بصورة اقسام وعظية . واليك بعض الامثلة

جاء في ص ٢٦ عن ديباجة البشارة . تتضمن هذه الديباجة اربعة افكار رئيسية

١ — الكلمة في جلاله ٢ — الكلمة في ظهوره ٣ — الكلمة المرفوض ٤ — الكلمة المقبول

وانت ترى انها اقسام عظة موضوعية ثم قال في القسم الاول . الكلمة في جلاله

١ — الكلمة في جلاله الذاتي ٢ — الكلمة في جلاله النسبي

وهما قسما عظة ايضاً

وقال في شرح القول : والظلمة لم تدركه . تفيد كلمة (لم تدركه) اربع درجات متتابعة

١ — عدم الاكتراث لوجود النور ٢ — عدم فهم النور وسره ٣ — عدم البلوغ والوصول الى النور لنيله ٤ — عدم الانتصار على النور والعجز عن الظفر به

وجاء في شرحه ص ١٥ : مثل الكرمة : يتضمن هذا الجزء ثلاثة افكار رئيسية

١ — مقام التلاميذ من المسيح ٢ — موقف العالم تجاه التلاميذ ٣ — النصرة على العالم

ويجوز ان تنظر الى هذا الجزء نظرتنا الى جعبة فيها سبعة سهام نورانية

(١) التلاميذ والمسيح (٢) التلاميذ وبعضهم ازاء بعض (٣) التلاميذ والعالم (٤) العالم والمعزّي (٥) المعزّي والتلاميذ (٦) حزن يستحيل الى فرح (٧) نصرة بعد كسرة

وقال في شرح المحبة :ص ١٢—١٧

(١) محبة مضحية بنفسها (٢) محبة رافعة (٣) محبة لها فضل التقدُّم

وأنت ترى ان كل ذلك ترتيب مواعظ . فكأنك تجتاز في حديقة مواعظ كلها طرائف ازهار وعوابق رياحين . ترتاح اليها النفس ويستفيد منها محب المؤلف وهي مطابقة لروح الكتاب وغرضه ، وتدل على اخلاص المؤلف وسعة اطلاعهِ

***

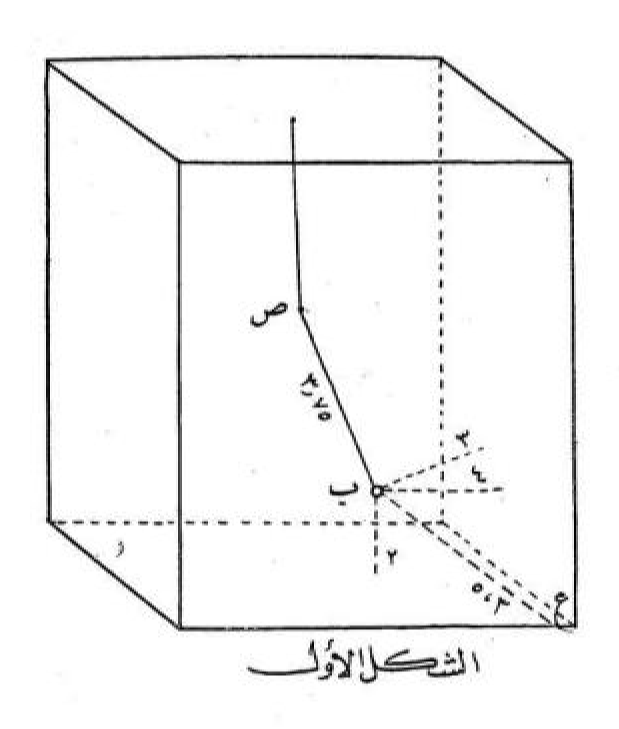
جلفر

تأليف جوناثان سوفت — نقله كامل كيلاني — طبعته ونشرته مكتبة المعارف

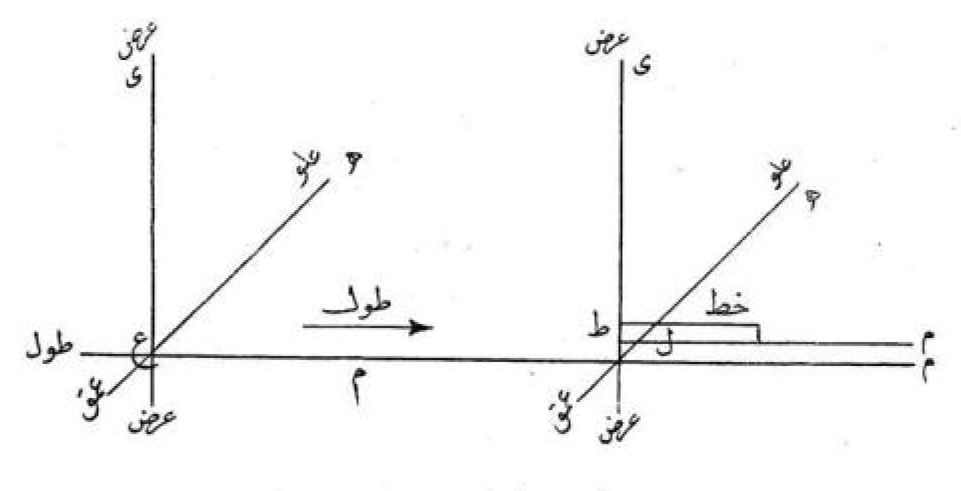
نعرف والداً من سراة القوم شديد العناية بتعليم ابنهِ اللغة العربية من نعومة اظفاره ، ولكنهُ لا ينفكُّ يشكو لنا عجزهُ عن وجود كتب عربية وافية للاحداث يقرأونها فتغريهم بالاقبال والاستزادة لطرافة في موضوعاتها وجودة في طبعها وسلاسة في اسلوبها . فاهدينا اليهِ بعض القصص التي اخرجها ناقل هذا الكتاب فسرَّ بها الولد ولكنهُ كان قد تخطَّاها فظلت مسألة ما يمكن ان يقرأهُ بالعربية مشكلة معقَّدة حتى ظهر كتاب «جلفر» هذا . واتفق انهُ يوم وصولهِ الينا زارنا صديقنا المذكور فقلنا لهُ ها ضالتك المنشودة . فتهللت اساريرهُ اذ رأى الكتاب . وهو مَن قرأ جلفر باللغة الانكليزية ، وعرف مقامهُ في ما يسمونهُ « بادب الاحداث » Childrin's Literature في انكلترا وذهب من ساعتهِ يقتني لابنهُ نسخة منهُ

ولسنا نملك الآن نسخة انكليزية من رحلات جلفر لنتمكن من الموازنة بين الترجمة والاصل وهل الترجمة ادبية دقيقة او هي من قبيل نقل ما فيها من الافكار والآراء والحوادث فقط . ولكن سواءٌ أكانت ترجمة كيلاني ترجمة حرفية او غير حرفية فلا ريب عندنا في ان هذا الكتاب من خير ما يقرأهُ الاحداث . وحبذا الحال لو عني المؤلف باستخراج كتاب على نسق « جلفر » من رحلات الروَّاد المحدثين . فاوهام سوفت ومخترعاته في « جلفر » تحلُّ محلَّها حقائق الريادة الحديثة وغرائبها ، وإقدام الروَّاد وتفانيهم ، في الكتاب الذي نقترحهُ ، فيكون هذا الكتاب الدرجة التي تتلو « جلفر » في سلسلة « أدب الاحداث » . وكل الآباء والمعلمين يشعرون بشديد حاجتنا الى هذه السلسلة المتدرجة مع فهم الاحداث وذوقهم الادبيّ

[المقتطف] سرَّنا ما رأيناه من اقبال القرَّاء على ما ننشر في هذا الباب من المباحث في المطبوعات الحديثة . فتوسعنا فيهِ جهدنا . ولكنهُ مع ذلك ضاق عن ان يتسع لذكر كل المطبوعات التي اهديت الينا . فوعدنا بها الشهر القادم ان شاء الله



الشكل الاول



الشكل الثاني

اصلاح خطأ جوهري

في مقال « الابعاد الاربعة » المنشور في مقتطف ابريل الماضي صفحة ٤٤٤ للاستاذ نقولا الحداد وقع خطأ في رموز الشكل الثاني يجعل فهم شرح القضية متعذراً جداً على من يشاء ان يفهمها بجلاء . ولذلك نرجو من القارىء ان يصحح الرسم بقلمهِ فيضع فتحاتٍ على الحروف الرامزة عن « متعامدات » القطار التي الى اليمين في الرسم الاسفل الثاني هكذا :

يَ . هَ . مَ (ما عدا م السفلى)

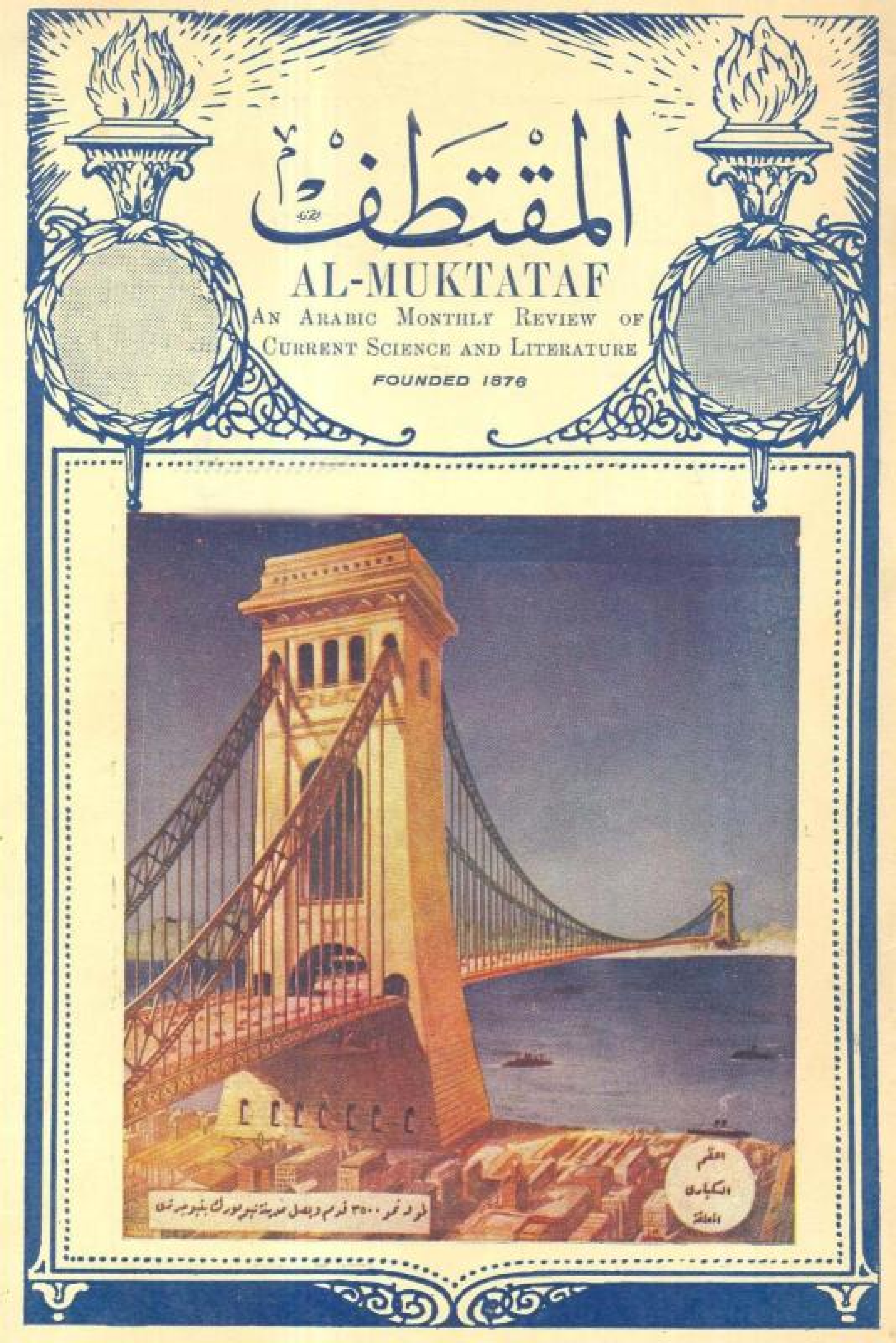
خط . والصواب . قط . (رمز للقطار)

وصواب المعادلة الاخيرة في صفحة ٤٤٨

ق — قَ (الثانية بفتحة)

بعد هذا التصحيح يسهل على القارىء جداً فهم قضية الابعاد الاربعة

الجزء الرابع من المجلد الثاني والثمانين



طوله نحو ٣٥٠٠ قدم ويصل مدينة نيويورك بنيوجرسي

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الثاني والثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٣ — ٦ محرم سنة ١٣٥٢



مندليف

سيبيريا تنجب متنبئاً كيماوياً

من جوف روسيا الاسيوية خرج متنبئ كيماوي . قال : « ثمة عنصر لم يكشف بعد . وقد دعوته « اكا الومنيوم » وسوف يعرف بصفات تشبه صفات الالومنيوم . ابحثوا عنهُ تجدوهُ » .

كان هذا القول نبوءة جريئة . ولكنها لم تكن اخرى نبوءاتهِ . لانهُ لم يلبث طويلاً حتى تنبأ بعنصر آخر يشبه عنصر البورون . بل انهُ تجرَّأ وذكر وزن العنصر الذرّي قبل وجوده . ثم لم يلبث ذلك الصوت العلوي ، حتى تنبأ بعنصر ثالث واتى على بيان صفاتهِ . كانت هذه العناصر الثلاثة مما لم تقع عليهِ عين انسان من قبل ، حتى علا صوت هذا الروسيّ العجيب

كان ذلك سنة ١٨٦٩ وكان عصر العجائب والخوارق قد انقضى . ومع ذلك رأى العالم هذا الكيماوي الذي يشغل منصب استاذ الكيمياء في جامعة مشهورة ، وقد اتخذ لنفسهِ وشاحاً كوشاح الانبياء القدامى . هل جمع انباءه من بلورة الساحر ، او ذهب الى قمة الجبل حيث هبط عليهِ الوحي فعلّمهُ ما لم يعلم ؟ ولكن هذا النبيّ الحديث لم يتشح بوشاح الكهنة ، بل اعلن تنبؤاتهُ من مختبره الكيماوي ، حيث تنعقد ابخرة العناصر غيوماً ، صادرة من فرنهِ المشتعل

لا من العليقة الملتهبة ، وفي هذه الغيوم رأى القاعدة التي بنى عليها اكتشافهُ الكيمائيّ العظيم

كان علم الكيمياء ميداناً للتنبؤ العلمي . ذلك ان العالم لافوازيه رأى اذ احمى قطعة من القصدير في انبوبة مقفلة شاهدها قد تغيرت شكلاً ووزناً ، رأى بعينهِ النافذة حقيقة جديدة، وتنبأ بوجوهٍ اخرى من التغير قياساً عليها. كذلك كان لُكيَر الانكليزي (السر نورمن الذي أسس مجلة نايتشر الانكليزية) قد رأى قبل ذلك السبكترسكوب وهو آلة الحل الطيفي التي صنعها العالمان الالمانيان بنسن وكرشوف . في هذه الآلة رأى لكير خطوطاً خاصة بعنصر جديد وهو كان يحلّ النور الواصل اليهِ من قرص الشمس فدعاه « الهليوم » وتنبأ بوجوده على الارض . فلما انقضت عشرون سنة على نبوءتهِ عثر وليم هلبراند الاميركي على هذا الغاز في المعدن النادر المدعو كليفييت (Cleveite)

ولكن نبوءات المتنبيء الروسي كانت ابعث على الدهشة وادعى للاستغراب . ذلك ان نبوءاتهِ لم تجيء نتيجة لتجارب جربها ، بل كانت كأنها وحي هبط عليهِ من المكان الارفع او كأنها بذرة او جرثومة ظلت تغتذي في عقله الخصب حتى افرخت فلما ازهرت استرعت اعجاب العالم بروعة جمالها

***

جاء السر وليم رمزي احد زعماء الكيمياء الحديثة سنة ١٨٨٤ الى لندن ليحضر احتفالاً أُعِدَّ فيها لتكريم وليم بركن مكتشف الصبغ البنفسجيّ . قال رمزي :— وبكرت الى مكان العشاء وكنت احاول تمضية الوقت بقراءة اسماء المدعوين على بطاقات مخصوصة وضعت في مكان كلّ منهم ، واذا انا برجل غريب الشكل كل شعرة في رأسهِ تتصرف مستقلة عن كل شعرة اخرى ثم اقترب مني وهو ينحني فقلت بالانكليزية «الحاضرون كثر» فقال لا اتكلم الانكليزية فكلمتهُ بالالمانية فاذا هو يتكلمها ولا يجيدها . وتباحثنا في موضوع اختصاصنا . والظاهر انهُ نشأ في شرق سيبيريا ولم يتعلم الروسية قبلما بلغ السابعة عشرة من عمره . ولعلهُ واحد من اولئك العلماء غريبي الاطوار

كان هذا الرجل «الغريب الاطوار» العالم «مندليف» المتنبئ الكيمائيّ الذي اصغى الناس الى صوتهِ . فهبّ البحّاث يبحثون عن العناصر المجهولة التي تنبأ بوجودها ووصفها . بحثوا عنها في جوف الارض ، في غبار المصانع ، في مياه المحيطات، في كل بقعة من بقاع الارض، واختلفت الفصول ، وتعاقبت السنوات ومندليف لا يزال يكرز بصحة ما تنبأ بهِ . الى ان كانت سنة ١٨٧٥ إذ كشف عن العنصر الاول من العناصر المجهولة التي تنبأ بها . ذلك ان « ليكوك ده بوا بوردان » عثر على عنصر «الا كا الومنيوم» في تبرٍ زنكيّ يستخرج من جبال « البرنيه» الواقعة بين اسبانيا وفرنسا . ولما دقق « ده بوابوردان » البحث في صفات العنصر الجديد

وجدها تتفق وما قالهُ عنهُ مندليف . فدعاه بعنصر الغاليوم Gallium نسبة الى بلاده بلاد الغال Galle

ولكن كان ثمة من لم يؤمن . لان تحقيق نبوءة مندليف في نظرهم لم تعدُ كونها حزراً تحقق . وانهُ من السخف ان نعتقد ان العناصر المجهولة يمكن التنبؤ بها بمثل هذه الدقة العجيبة ، فهو اشبهُ شيء بالتنبؤ بولادة نجم جديد في رحاب الفضاء ! الم يقل لافوازيه العظيم ان كل ما يمكن ان يقال في طبيعة العناصر وعددها محصور في مناقشات موسومة بسمة «وراء الطبيعة» ؟ كذلك احتج المعترضون

فلم يلبثوا حتى بهتوا لما وردت الانباء من المانيا ان ونكلر Winkler عثر على عنصر جديد صفاتهُ تشبه صفات عنصر «الاكاسلكون» الذي تنبأ بهِ مندليف. واذا وزنهُ الذري وكثافتهُ وصفاتهُ الطبيعية وصفات اكسيده تطابق ما قاله مندليف . ولم تقم شبهة ما على ان نبوءة مندليف الثانية تحققت كالاولى . واعلن ونكلر اكتشافهُ لهذا العنصر واطلق عليهِ اسم «جرمانيوم» اسم وطنهِ . فصعق المعترضون وقالوا في ذوات نفوسهم لعلَّ هذا الروسيَّ ليس خدّاعاً مشعوذاً كما كنا نظن

فلما انقضى على ذلك سنتان ، زال كل شكّ يشوب اذهان الناس في صدق الرجل . ذلك ان نلسن Nilson في البلاد السكنديناوية فاز باستفراد عنصر « الاكابورون » فاذا هو كما قال مندليف عنهُ . لقد اصبحت الادلة على صدقهِ قاطعةً . وها هم رجال العلم يطرقون الباب على هذا الروسي في بطرسبرج (لننغراد) زرافات ووحداناً

***

تحدر ديمتري ايفانوفتش مندليف Mendeléeff من اسرة من الروّاد المقاديم . كان بطرس الاكبر ، قبل ولادة مندليف بنحو قرنٍ من الزمان قد شرع في ادخال الحضارة الغربية الى روسيا . فأقام في بطيحة من بطائح الشمال الغربي مدينة (بطرسبرج) لتكون منفذ روسيا الى الغرب . ومن الناحية الاخرى كانت روسيا تتطلع الى الشرق . وفي سنة ١٧٨٧ انشأ جدُّ مندليف في مدينة توبولسك بسيبيريا اول مطبعة في تلك البلاد واصدر اول جريدة . في تلك البقعة النائية التي استعمرها القوزاق في منتصف القرن الخامس ولد المترجم له فكان الولد السابع عشر لامهِ وابيهِ

ولكن النوازل نزلت بالاسرة . فكفَّ نظر الوالد — وكان مدير المدرسة العالية في المدينة — ولم يلبث ان مات مسلولاً . وكانت والدتهُ ماريا كورنيلوف من حسان التتر فعجزت عن ان تعول اسرتها الكبيرة بمعاش سنوي قدره مائة جنيه فعادت فتح مصنع للزجاج

كانت اسرتها قد انشأته في سيبيريا. وكانت توبولسك حينئذٍ مركزاً للمشرّدين والمنفيّين السياسيين من روسيا . ومن احد هؤلاء تعلم ديمتري مندليف مبادىء العلوم الطبيعية . فلما دمّرت النار مصنع الزجاج ، حملتهُ امهُ — وكانت في السابعة والخمسين من عمرها — الى موسكو لعلها تمهد له سبيل الانتظام في جامعتها ، فحال دون ذلك حوائل جمة . ولكنها كانت عازمة على تنشئة ابنها تنشئة علمية فسارت بهِ الى بطرسبرج وبعد جهاد عنيف مكّنتهُ من الانتظام في الدائرة العلمية بمعهد التعليم وهو معهد المدرسين. في هذا المعهد توفّر على الرياضة والطبيعة والكيمياء وكان يكره الآداب القديمة . فلما اصبح ذا مقام علمي كبير عيّن عضواً في لجنة اصلاح التعليم فقال « اننا نستطيع ان نعيش الآن من دون افلاطون . ولكننا نحتاج الى كثيرين من امثال نيوتن للكشف عن اسرار الطبيعة، وتمهيد سبيل الاتساق بين الحياة ونواميسها »

وكان مندليف طالباً مجتهداً فتخرج في طليعة فرقتهِ . ولكنهُ كان ضعيف البنية فلما توفيت والدتهُ اصيب باعياء الاعصاب. وكان قد اسرع اليها وهي على سرير الموت فخاطبتهُ قائلة « دع عنك الاوهام . اجعل همك الاعمال لا الاقوال . كن صبوراً في البحث عن الحقائق الالهية والعلمية » . ولم ينس مندليف هذه الكلمات قط في خلال حياتهِ، حتى في الساعات التي كانت تراوده فيها الاحلام والرؤى كان يحسُّ ان قدميهِ مثبتتان في الارض الصلدة

وبلغ اليأس من طبيبهِ ان ظن ان اجله لن يطول اكثر من ستة اشهر . فامره بالذهاب الى الجنوب ، حيث الجو الدافىء يؤاتيهِ . فتمكن من الفوز بمنصب مدرس في بلدة سمفروبول ببلاد القريم . فلما نشبت حرب القريم ذهب الى اودسا ومنها عاد الى بطرسبرج وهو في الثانية والعشرين فعين مدرباً في الجامعة وهو منصب يسمَح لهُ فيهِ بتدريب الطلاب الذين يحضرون محاضرات الجامعة . فلبث فيهِ بضع سنوات ثم استأذن وزير المعارف في السفر الى فرنسا والمانيا للتوسع في العلم والتعمق فيهِ لتعذر ذلك في روسيا، فاذن له. فدرس في فرنسا على الاستاذ هنري رنيو (Regnault) وفي جامعة هيدلبرج الالمانية ، حيث اجتمع ببنصن (Bunsen) وكرشوف (Kirchoff) فتعلم من الاخير استعمال السبكترسكوب (آلة الحل الطيفي) وحضر مؤتمر كارلسروهي (Karlsruhe) الذي دارت فيهِ معركة الجدال على جزيئات افوغاردو (Avogardo) فكان ذلك خاتمة مطافهِ ، اذ عاد بعد ذلك الى روسيا

***

كانت السنوات التالية سنوات جدّ وارهاق . تزوج في خلالها ، ووضع كتاباً مدرسيًّا في الكيمياء العضوية في ستين يوماً مع ان صفحاتهِ تربي على الخمسمائة وفاز برتبة دكتور في الكيمياء برسالة موضوعها « اتحاد الكحول بالماء » فلما تبينت جامعة بطرسبرج مزايا هذا المعلم الموهوب، والفيلسوف الكيماوي ، اختارتهُ استاذاً وهو لم يبلغ الثانية والثلاثين من العمر

ثم جاءت تلك السنة — هي حدٌّ فاصل في تاريخ الكيمياء الحديثة — سنة ١٨٦٩ كان مندليف قد قضى عشرين سنة يقرأ كلّ ما عرف عن العناصر ويجرّب تجاربهُ بها. ويجمع الحقائق عنها من كل مصدر يمكن الوصول اليهِ. وكان قد رتّب هذه الحقائق وبوّبها وأعاد ترتيبها وتبويبها لعلهُ يتوفق الى كشف سر غامض. وكان هذا العمل مضنياً لان طائفة كبيرة من العلماء، متفرقة في مختلف جامعات العالم،كانت قد عنيت بدرس العناصر المعروفة. فجمعُ الحقائق التي كُشِفت كان يقتضي صبراً ومواظبة وشغفاً ،والاّ فهو مقضيٌّ عليه بالخيبة

ثم ان العناصر المعروفة كانت قد زادت بفضل ما كشفهُ العلماء منها. كان الصناع الاقدمون قد صنعوا ادواتهم من الذهب والفضة والنحاس والحديد والزئبق والرصاص والقصدير والكبريت والكربون . ثم اضاف علماء الكيمياء القديمة (Alchemy) ستة عناصر في خلال بحثهم عن سرّ تحويل المعادن الى ذهب . فوصف الطبيب الالماني « باسيل ڤالنتين » عنصر الانتيمون سنة ١٤٩٢ وجورجيوس اغريكولا عنصر البزموت سنة ١٥٣٠ وپاراسلسس عنصر الزنك وبراندت Brandt عنصر الفصفور. ثم اضيف اليها عنصرا الزرنيخ والكوبلت وقبل ان ينصرم القرن الثامن عشر اكتشف البلاتين — سنة ١٧٣٥ — في كولمبيا ثم تلاهُ النيكل فالايدروجين فالنتروجين فالاكسجين فالكلور فالمنغنيس فالتنغستن فالكروم فالمولبدنوم والتيتانيوم فالتلوريوم والزركنيوم والاورانيوم . فلما استهلّ القرن التاسع عشر اكتشف عنصر الكولمبيوم (النيوبيوم) . فما كانت سنة ١٨٦٩ كان المعروف من العناصر ٦٣ عنصراً وقد وصفت في مجلات العلم في انكلترا وفرنسا والمانيا والسويد وغيرها

جمع مندليف كلّ الحقائق المعروفة عن هذه العناصر الثلاثة والستين . لم يفتهُ عنصر واحد منها . بل انهُ اضاف اليها عنصر الفلور مع ان احداً لم يفُزْ قبل ذلك باستفرادهِ . فاذا امامهُ قائمة بعناصر مركبة من ذرّات تتباين اوزانها الذرّية من ١ (وزن الايدروجين) الى ٢٣٨ (وزن الاورانيوم) وكلها مختلفة الصفات بعضها غازي كالاكسجين والايدروجين والكلور والنتروجين . وبعضها سائل في الاحوال العادية كالزئبق والبروم . والباقي جامد كالذهب والفضة والزرنيخ والكربون والفصفور . بعض المعادن صلب قاسٍ كالبلاتين والاريديوم وبعضها لين كالصوديوم والپوتاسيوم . كان الليثيوم معدناً خفيفاً يطفو على الماء مع ان الاسميوم معدن يفوق وزنهُ النوعي وزن الماء النوعي اثنين وعشرين ضعفاً ونصف ضعفٍ . وهذا الزئبق، معدن لكنهُ سائل . ثم انها تختلف لوناً . فالنحاس احمر والذهب اصفر واليود رمادي قاتم والفصفور أبيض والبروم احمر . وبعض الفلزات كالنيكل والكروم يصقل حتى يخطف البصر بلمعانهِ ، وبعضها يمكن صقلهُ ولكنهُ يظل قاتماً لا يلمع . اما الذهب فلا يكمدُ عند تعريضهِ للهواء واما الحديد فيصدأ واما اليود فيتصعّد . وبعض هذه العناصر يتحد بذرة

واحدة من الاوكسجين وبعضها بذرتين وبعضها بثلاث ذرات وبعضها باربع . ومنها طائفة قليلة كالپوتاسيوم والفلور شديدة الفعل يصعب تناولها بالاصابع . تقابلها عناصر لا يطرأ عليها تغيير طال ما طال عليها الزمن

ما هذا التباين المحيّر للعقل ، في صفاتها الطبيعية والكيمائية ؟ هل ثمة نظام بين هذه الذرات المتباينة ؟ هل ثمة اية صلة بينها ؟ أمن الممكن العثور على سلك ينظم نشوءها على مثال ما انظمت الخلائق الحية والبائدة في سلك التطور ؟ فتنت هذه المسائل لبّ مندليف ، فحينئذٍ في النهار شاردة ذاهلة، ومضجعهُ في الليل تقضهُ اشباح الذرات وطيوف العناصر

وكان مندليف من العلماء الذين ينزعون الى الفلسفة ، فهتف بهِ هاتف وجداني ان لا بدّ من وجود المفتاح لنظام هذه الحقائق المتباينة . او لعلّ للطبيعة نظاماً مستسرّاً تطويهِ في ثنايا حقائقها المتباينة . وكان يعتقد ان مجدَ الطبيعة في اخفاء سرها ولكنهُ كان يعتقد كذلك ان من شرف الملوك البحث عن ذلك السرّ !

أخذ العناصر وجعل يرتبها بحسب اوزانها الذرية مبتدئاً بالايدروجين اخفها وزناً ومتدرجاً الى الاورانيوم اثقلها . فلم يجد في ترتيبها على هذا المنوال جدوى . وكان رجل آخر قد سبقهُ الى هذا الترتيب . ذلك ان جون نيولندز كان قبل ذلك بثلاث سنوات قد قرأ امام الجمعية الملكية الكيمائية بلندن رسالة في ترتيب العناصر وكان نيولندز قد لاحظ ان كل عنصر ثامن يشبه العنصر الاول في جدولهِ . فرأى في ذلك غرابة تسترعي النظر . فشبّه جدول العناصر باصابع البيانو الثمانية والثمانين وهي مقسومة الى احدى عشرة مجموعة كل مجموعة منها ثمانية أصابع . فقال ان العلاقة بين كل طائفة من العناصر تشبه العلاقة بين الاصابع في مجموعة واحدة من اصابع البيانو . فهزأ أعضاء الجمعية بهذا القول . ووقف الاستاذ فوستر يسأل في سخرية: « لماذا لم ترتّب العناصر بحسب حروفها الاولى ! ولماذا لا يشبّه ازيز الصاديوم وهو يحترق على سطح الماء بموسيقى الاجرام السماوية ! » فاجمع الكل على سخف القول ونسج على ذكر نيولندز ورأيهِ ستار من النسيان

ولكن مندليف اخذ ٦٣ بطاقة وكتب على كلٍّ منها اسم عنصر من العناصر المعروفة وخواصهُ . وعلق البطاقات على جدار معملهِ . ثم راجع ما يعرف عنها من الحقائق . واختار طوائف العناصر التي تتشابهُ في خواصها ووضعها على حدة . فوجد علاقة جلية بين افراد الطوائف تسترعي العناية . ثم رتّب العناصر في سبع طوائف مبتدئاً بالليثيوم (وزنه الذري ٧) يتبعهُ البريليوم (وزنهُ الذري ٩) فالبورون (وزنهُ الذري ١١) فالكربون (وزنهُ الذري ١٢) فالاكسجين (وزنهُ الذري ١٦) فالفلور (وزنهُ الذري ١٩). وكان العنصر الذي يلي هذه العناصر في وزنهِ الذري عنصر الصوديوم (وزنهُ الذرّي ٢٣) ، وكان الصوديوم يشبه الليثيوم شبهاً

عجيباً في خواصهِ الكيمائية والطبيعية . فوضعهُ تحت الليثيوم في جدولهِ . وبعد ما وضع خمسة عناصر تالية للصوديوم في اماكنها وصل الى الكلور . وهو يشبهُ الفلور في خواصهِ — فوجد انهُ يقع من تلقاء نفسهِ في الخانة التي تحت خانة الفلور — فسرَّهُ هذا التأييد . ومضى في ترتيب العناصر على هذا المنوال . وكل عنصر كان يقع في محلهِ فيتفق في خواصه مع العناصر التي فوقهُ وتحتهُ . ففي العمود الاول من الجدول كان طائفة المعادن الفعالة — الليثيوم وتحتهُ الصوديوم فالپوتاسيوم فالكوبيديوم فالكيزيوم . وهي الطائفة الاولى . اما العناصر الفعالة غير المعدنية فجاءت في طائفة واحدة اعلاها الفلور وتحتهُ الكلور فالبروم فاليود . وهي الطائفة السابعة

كذلك اكتشف مندليف « ان خواص العناصر صفات دورية لاوزانها الذرّية » أي ان الخواص كانت تتردد في كل عنصر ثامن . فالثامن يشبهُ الاول ، والخامس عشر يشبهُ الاول والثامن . والتاسع يشبهُ الثاني ، والسادس عشر يشبهُ التاسع والثاني وهلمَّ جرًّا

ثم نظر في عناصر هذه الطوائف . وما أعجب ما رأى !

ان عناصر الطائفة الاولى تتحد ذرة منها بذرتين من الاكسجين . وعناصر الطائفة الثانية تتحد ذرة واحدة منها بذرة واحدة من الاكسجين . وعناصر الطائفة الثالثة تتحد ذرتان منها بثلاث ذرّات من الاكسجين . وعلى ذلك قس التشابه في عناصر الطوائف المختلفة . هل في الطبيعة ما هو ابسط من ذلك ؟ فاذا شئت ان تعرف خواص عنصر معيَّن وجب ان تعرف الخواص العامة التي تتصف بها تلك الطائفة . ان ذلك يسهل تناول الكيمياء على الطلاَّب

هل يمكن ان يكون هذا التشابه بين خواص العناصر في جدولهِ اتفاقاً مجرَّداً ؟ فليعد النظر اذاً في صفات العناصر حتى اشدها ندرة . ولينقب في كل الرسائل والمؤلفات الكيمائية لعلَّهُ يجد حقائق اغفلها في سورة الحماسة للجدول الذي فتن لبَّهُ ببساطتهِ وشمولهِ . هاهو ذا يكشف عن شيءٍ جديد يتعارض والبناء الذي رفع ! كان المعروف ان وزن اليود الذريّ ١٢٧ ووزن التلوريوم ١٢٨ وكان قد وضعهما في المكان الذي يجب ان يكونا فيهِ من حيث تشابه خواصهما مع العناصر السابقة واللاحقة . ولكن وزن التلوريوم الذريّ يتنافى والمكان الذي تقتضيهِ خواصهُ . ما العمل ؟ هنا وقف مندليف وقفة المتنبيء الجريء وقال ان الوزن الذري المقرَّر لعنصر التلوريوم خطأ ، وانهُ يجب ان يتباين من ١٢٣ الى ١٢٦ فقيل عنهُ انهُ يهرف ولكنهُ اكتفى بوضع التلوريوم في المكان الذي تقتضيهِ خواصهُ مع ان وزنهُ الذرّي المقرَّر حينئذٍ يقتضي ان يكون في مكان آخر — فلما اتقنت وسائل تعيين الاوزان الذرية بعد ذلك بسنوات تبين ان مندليف كان مصيباً ، فعملهُ هذا في الكيمياء كان من قبيل التنبؤ بالسيَّار نبتون ومكانهِ في علم الفلك

بعد ذلك ظن ان الجدول اصبح سليماً من مواطن الضعف . ولكنهُ احبَّ ان يتثبت . فاعاد النظر فيهِ ، فوجد تناقضاً آخر . ذلك ان الوزن الذري المقرَّر للذهب كان ١٩٦٫٢ وهذا يقتضي ان يجعلهُ في الجدول في مكان يجب ان يكون في الواقع لمنصر البلاتين (وزنهُ الذري المقرَّر حينئذٍ ١٩٦٫٧) . والانسان لا يخلو من ضدّ ولو كان في رأس الجبل ، فانطلقت السنة النقاد ، وشرعت اقلامهم ، في تبيان هذا التناقض . فتجرأ مندليف ثانية وقال ان الارقام التي يقرّرها المحللون لوزنيهما الذريين فيها خطأ . وانهُ يكتفي الآن بالانتظار ، وان البحث لا بدَّ ان يؤيدهُ في المستقبل. والواقع ان ميزان الكيماوي اثبت بعد ذلك انهُ كان مصيباً هنا، كما كان مصيباً هناك، وان وزن الذهب الذري اكبر من وزن البلاتين. عجيب والله ! انَّ في جدول هذا الروميّ عيناً ترى الخفايا !

على ان الصدمة الكبرى التي صدم بها علماء العصر جاءت بعد ذلك . ان في هذا الجدول اماكن فارغة ، لم تملأ باسم عنصر ما . هل تبقى فارغة ، او ثمة عناصر ، لم يكتشفها البحاث ؟ ولو ان رجلاً آخر اقل جرأة من مندليف كان محلّهُ ، لأحجم عن الاستنتاج الذي يقتضيهِ ايمانهُ بصحة الاكتشاف الذي وفق اليهِ . ولكن مندليف ، الذي رفض ان يجمّ شعرهُ ، مرضاة للقيصر اسكندر الثالث، لم يرهب سخرية المتنطعين من الكيماويين

ففي الطائفة الثالثة من جدولهِ خانة فارغة بين الكلسيوم والتيتانيوم. ولما كانت الخانة الفارغة واقعة تحت عنصر البورون ، صرّح مندليف بان العنصر المجهول الذي يجب ان يملأ هذه الخانة ، يجب ان يكون مشابهاً لعنصر البورون . فدعاهُ «اكابورون» اي ما « بعد البورون» ثم هناك خانة فارغة في الطائفة نفسها تحت عنصر الالومنيوم . فقال ان العنصر المجهول الذي يجب ان يملأها يجب ان يشبه الالومنيوم ودعاهُ « اكا الومنيوم » . ثم وجد خانة فارغة في الطائفة الرابعة بين الزرنيخ والالومنيوم واقعة تحت السلكون فقال ان العنصر المجهول يجب ان يكون مشابهاً للسلكون ودعاهُ « اكاسلكون » . كذلك تنبأ مندليف بثلاثة عناصر مجهولة وترك البحث عنها لمعاصريهِ

وفي سنة ١٨٦٩ تقدم مندليف الى الجمعية الكيمائية الروسية برسالة عنوانها « في العلاقة بين خواص العناصر واوزانها الذرية » فبسط فيها باسلوبهِ البارع النتائج التي خلص اليها . فدهشت الدوائر العلمية . ولكن بذرة هذا الاكتشاف العظيم كانت قد بُذرت قبيل ذلك اذ لاحظ ده شانكورتوى في فرنسا وسترخر في المانيا ونيولندز في انكلترا وكوك في اميركا بعض وجوه الشبه بين خواص العناصر. ولكن الاغرب من ذلك ان لوثار مير Meyer الالماني وصل الى نفس النتائج التي وصل اليها مندليف في نفس الوقت او بعيدهُ ، فنشر سنة ١٨٧٠ في مجلة « ليبغ انال » جدولاً للعناصر كجدول مندليف تقريباً. ذلك ان العصر كان يقتضي مثل هذا

الحكم العام ، وكان ما كشف من العناصر حتى ذلك الوقت كافياً ليكون اساساً لمثل هذا البحث فلبيَّ الرجلان حاجة العصر باكتشافهما الجدول الدوري . ولو ان مندليف ولد قبل ولادته بجيل واحد ، لتعذر عليهِ اكتشاف الناموس الدوري Periodic Law لان الحقائق المعروفة عن العناصر كانت غير كافية كاساس للبحث

ذكر مندليف في جدولهِ ثلاثة وستين عنصراً ، وتنبأ بثلاثة عناصر مجهولة . ولكن هل تظلُّ العناصر المجهولة الباقية مستترةً عن لمس الانسان وبصرهِ ام يكشف عنها بالسير على الخطة التي سار عليها مندليف نفسهُ فتصبح الكيمياء في دقة تنبؤها بالحوادث كعلم الفلك

والواقع انهُ ما انقضت على اذاعة جدول مندليف خمس وعشرون سنة حتى كشف انكليزيان طائفة كاملة من العناصر دعيت طائفة الصفر لانها تجيء قبل الطائفة الاولى في جدول مندليف وكانت عناصر هذه الطائفة سبعة من اضعف العناصر فعلاً كيمائيًّا . حتى البوتاسيوم والفلور وهما من افعل العناصر المعروفة لم يستطيعا ان يخرجا هذه العناصر من عزلتها . فلا عجب اذاً ان ظلت هذه العناصر مجهولة هذا الزمن الطويل

***

روقب اول هذه العناصر — وكانت كلُّها غازات — في طيف اكليل الشمس في كسوف حدث سنة ١٨٦٨ ولكن لم يعرف عنهُ الا الخط الذي يمثله في الطيف . لذلك لم يذكرهُ مندليف في جدولهِ . على ان هلبراند الاميركي ، وصف بعيد ذلك غازاً يخرج من معدن الكليفيت Cleveite وعرف انهُ يختلف عن النتروجين ولكنهُ لم يتمكن من النفوذ الى سرّ حقيقتهِ . فجاء رمزي (السر وليم رمزي) بنموذج من هذا المعدن واخرج منهُ الغاز المذكور ثم امرَّ فيهِ شرارة كهربائية وصوَّر طيفهُ فاذا هو يحدث في الطيف خطاً كالخط الذي شوهد في طيف الاكليل الشمسي . فعرف ان الغاز الذي يخرج من الكليفيت هو ذلك الغاز الذي في طيف الشمس ومن هنا اسمهُ العلمي « هليوم » اي الشمسي . وفي السنة التالية اثبت كيزر Kayser وجود مقادير يسيرة جدًّا من الهليوم في الهواء (النسبة ١ : ١٨٥٠٠٠) وليس هنا مجال البحث في اكتشاف رمزي وترفرس لبقية الغازات النادرة التابعة لهذه الطائفة — وهي الارغون والكربتون والنيون والزينون والنيتون [١] — وانما يكفي ان نقول انهما استخرجا مقادير يسيرة جدًّا من هذه الغازات من ١٢٠ طناً من الهواء بعد اسالتها واستعمل رمزي في خلال تجاربهِ ميزاناً دقيقاً كل الدقة يتأثر بجزء من ١٤ مليون جزء من الاوقية

(١) راجع مقتطف اكتوبر سنة ١٩١٦ مجلد ٤٩ صفحة ٣١٧ — ٣٢٠

وهذه العناصر على ندرتها وصعوبة استخراجها ، تستعمل الآن في المصابيح الكهربائية والاعلانات الملونة والبلونات . ومضى الباحثون عن العناصر المجهولة على قدم وساق ، تحدوهم الثقة بصحة نظر مندليف وتستثيرهم الحماسة التي يشعر بها من يعثر على مجهول . فلما توفي مندليف سنة ١٩٠٧ كان عدد العناصر المعروفة قد اصبح ٨٦ عنصراً

***

وقد اشترك مندليف في تأييد حركة الاصلاح في بلاد الروس ، وكان ميالاً الى تأييد مذاهب الاحرار ، فلقي عنتاً من اصحاب الحكم ، ولما قدم رسالة الى الحكومة تتضمن المطالبة ببعض وجوه الاصلاح ، قيل لهُ ان لا يتدخل في ما لا يعنيهِ وان يعود الى معمله العلمي . فاحس ان هذا الرد كان صفعة لهُ ، فاستقال من الجامعة

وتأييده للاحرار انشأ لهُ عداوة في دوائر المحافظين اولياء الامر — على مثال ما تم لجوزف بريستلي[1] — فرفضت الاكادمية الروسية سنة ١٨٨٠ ان تنتخبهُ عضواً في قسمها الكيمائي وهو اكبر كيمائي عصره . ولكن جامعة موسكو انتخبتهُ عضو شرف فيها ومنحتهُ الجمعية الملكية بلندن مدالية ديفي بالاشتراك مع لوثار مير لترتيبهما العناصر ذلك الترتيب الدوري . ويقال انهُ في آخر حياته دعتهُ الجمعية الكيمائية البريطانية الى حفلة لتمنحهُ فيها مدالية فراداي — ولعلها اعلى شرف في دوائر العلم الكيمائي ينالهُ الباحث — فلما اعطى مندليف كيساً يحتوي على قدر من المال يعطى عادة في مثل هذه الحالات ، فتح الكيس واخرج منهُ الجنيهات الذهبية وقال « انهُ لن يقبل مالاً من جمعية شرفتهُ بتكريمها لهُ في المكان الذي قام بهِ فراداي بمباحثهِ الخالدة » . ومن ثم بدأت تنهال عليهِ الالقاب العلمية من الجمعيات العلمية في اميركا والمانيا ومن جامعات برنستن وكمبردج واكسفرد وغوتنجن ، فلما عين الوزير وت Witte الروسي وزيراً للمالية في عهد اسكندر الثالث عين مندليف مديراً لمصلحة المقاييس والموازين

***

بعيد وفاتهِ بالنزلة الصدرية في فبراير سنة ١٩٠٧ قال العالم باتيسن ميور « للمستقبل وحده الحكم على بقاء الجدول الدوري او زواله » . ولو ان مندليف عاش بضع سنوات ، لكان رأى قبل وفاتهِ ، كيف اتم موزلي[2] البناء الضخم الذي شيده مندليف ، فاتما معاً تخطيط خريطة العناصر التي تتركب منها اشكال المادة

---

(١) ذكرنا اسمه الاول خطأ في العدد الماضي فقلنا انه جون وصوابه جوزف

(٢) راجع مقتطف يونيو ويوليو سنة ١٩٣١

ماركس ومذهبه

على ذكر انقضاء خمسين سنة على وفاته

تحدَّر كارل ماركس ، واضع الاسس التي شيدت عليها الاشتراكية الحديثة في مختلف الوانها ، من اصل يهودي، وكان ابوه محامياً يدعى «مردخاي» تحوَّل الى المسيحية سنة ١٨٢٤ اي بعد ولادة كارل بست سنوات . وكان المتوقع ان ينتظم الابن في سلك المحاماة بعد تلقي القانون والتاريخ والفلسفة في جامعتي بُن وبرلين وتخرجه سنة ١٨٤١ حائزاً للقب دكتور في الفلسفة . ولكنهُ لم يمل الى المحاماة ، فاقدم وهو في العشرين من العمر على خوض ميدان الصحافة محرّراً لجريدة اشتراكية تدعى « صحيفة الرين » Rhenish Gazette ثم اتصل بجريدة «فورورتس» التي كان لها نصيب كبير في الدعاية الاشتراكية بالمانيا . فلما اصبح في الثلاثين من العمر كان برُّ اوربا قد اصبح حرماً عليهِ ، بعد ما طرد من فرنسا والبلجيك والمانيا، لعنفهِ ، فلاذ بانكلترا وكانت ملجأ حينئذٍ لامثالهِ من مشرّدي السياسة والاجتماع ، فعاش فيها اربعاً وثلاثين سنة حتى وفاتهِ في ١٤ مارس سنة ١٨٨٣ وكان قبيل مجيئهِ الى انكلترا قد نظم في بلاد البلجيك «عصبة شيوعية» واسس «الجمعية الدولية للعمال»

ولا ريب في ان كارل ماركس كان متفوقاً من الناحية الذهنية بين الذين اشتركوا في تأييد الدعاية الاشتراكية والترويج لها ، وكتابهُ رأس المال بمثابة كتاب منزل في نظر الشيوعيين والعمال الاشتراكيين بوجهٍ عام . قال الاستاذ هارولد لاسكي فيه . « في خلال خمسين سنة انقضت على وفاة ماركس اتسع نطاق نفوذه اتساعاً كان من المتعذر توقعهُ . ان مذهباً ، لم يكن من نحو جيل او اكثر قليلاً ، الاّ تصوُّراً كماليّاً يخالطهُ الجنون ، ابدعهُ منفيٌّ ثوريّ ، قد اصبح من المذاهب المنجيبة في العالم الحديث . فهو الآن متشح بوشاح الدولة المسلحة في (روسيا) واسم صاحبهِ يوقظ في صدور الملايين معاني الايمان والاجلال ، على ما لم يعهد من قبل الا في الرسل والانبياء لا في اصحاب المذاهب الفلسفية . ان كلماتهِ تورد تأييداً وادحاضاً في المناقشات التي تدور حول السياسة الاجتماعية ، وفيها القول الفصل الذي كان يعلق باقوال التوراة والاناجيل عند المدرسيين في القرون الوسطى . ولا ريب في انهُ ليس ثمة اشتراكية يصح ان يُسمى بها رجال الدول الاّ اشتراكية ماركس» . ثم بيّن الاستاذ لاسكي في فقرة تالية

ان فلسفة ماركس كانت اولاً عقيدة تدين بها شرذمة قليلة من الجمعيات الثورية التي تعمل في الخفاء فأصبحت ايماناً يواجه الناسُ في سبيله السجنَ والموتَ كما فعلت الديانات الكبرى في العصور الماضية

والى القارىء ملخصاً عن فلسفة ماركس الاقتصادية الاجتماعية نقلناها عن كتاب المستر كول المدعو « مرشد الرجل الذكي في الفوضى العالمية » . وهو من افضل الكتب الحديثة التي تعالج اضطراب العالم الاقتصادي وصاحبهُ من اساتذة الاقتصاد في جامعة كمبردج

العمال والمتمولون

يعتقد الاشتراكيون ان التغلب على النزاع بين العمال والمتمولين ، امر متعذر في نظام رأسمالي . لان هذا النزاع قائم على اساس من عدم التكافؤ في القوتين المتقابلتين والتناقض في اغراضهما . اما الوجهة الاشتراكية في هذا الموضوع فقد بسطها ماركس في كتابهِ المشهور «رأس المال» Das Capital والاشتراكيون على اختلاف نحلهم وألوان تفكيرهم مجمعون على التسليم بأصول المذهب الماركسي

يذهب ماركس الى ان العمل ، يحسب خطأً في مجتمع رأسمالي ، سلعةً تباع وتشترى . فتحسب قوة العامل في عداد النفقات التي تنفق على صناعة المنتجات التي يخرجها المصنع ، بدلاً من ان يكون العامل نفسه ، الهدف الذي لاجله قامت الصناعة وارتقت . «فقوة العمل» تباع وتشترى . والمتموّل يبتاعها لانهُ لا ندحة له عنها كعامل من عوامل الانتاج . وعلى العامل ان يبيع قوتهُ على الانتاج اذ لا سبيل آخر لهُ للارتزاق . ولو كان هذا التبادل حرًّا اصلحت الحال . ولكن ظروف التبادل غير متساوية في اساسها . لان المتمول ، بفضل المال المتجمع في يديه ، يختصُّ نفسه بكل الفوائد التي تجنى من زيادة المقدرة على الانتاج الناشئة عن التوسع في الصناعات وتقسيم الاعمال فيها . فالعامل ينال اجراً على الجهد الفردي الذي يبذله في الانتاج ، وهذا الاجر تعيّنهُ كثرة العمال الذين يطلبون ان يعملوا العمل نفسهُ ، او قلتهم . فاذا برع العمال في ناحية معينة او زادت مقدرتهم لارتقاء الاساليب الميكانيكية ، فزاد الانتاج ، جنى المتمول الجانب الاكبر من فوائد هذه الزيادة ، بدلاً من ان يجنيها العامل . وللعمال ان يتحدوا ، ويطلبوا متحدين ان يزيد نصيبهم من ارباح الصناعة القائمة عليهم ، بل ان اجور العمال ، حيث العمال قليلون ، ترتفع من تلقاء ذاتها ومن دون اتحاد العمال انفسهم . ولكن ماركس واتباعه يرون ، ان في المجتمع الرأسمالي ، ميلاً بديهيًّا ، الى توزيع الارباح التي تجنى من تقدم الصناعة ، على عوامل الصناعة المختلفة — كاجرة الارض والبناء وفائدة المال وأجور المديرين — دون العامل الذي ينال نصيباً يسيراً جدًّا من الربح اذا قيس بنصيبه الكبير

في الانتاج . بل ان ماركس كان يرى ان العامل لم ينل جزاءه على عمله، حتى هذا النصيب اليسير

فالفكرة الاساسية في مذهب ماركس هي ان جمع اسباب الانتاج في ايدي افراد قلائل من المتمولين يفضي ضرورةً الى الجور في استغلال العمال . فالصناعة الحديثة هي في اساسها عمل تعاوني . ولكن انقسام القائمين بها الى فريقين متخاصمين من حيث علاقة كلٍّ منهما بالعمل نفسه ، ينفي عن العمل صفة التعاون . ولا بدَّ من ان يصلح الخلل على مرّ الزمن . فامتلاك الحكومة للصناعات وتوزيع الربح ، هما في نظر ماركس ، النتيجة المنطقية لما بلغته الصناعة الآلية من التطوُّر في العصور الحديثة

***

ويخطىء من يسندُ الى ماركس القول بأنهُ يطلب لكل عامل الاستيلاء على ثمرة عمله كاملةً . بل انهُ وقف كتاباً من كتبه (القيمة والثمن والربح) لردّ هذا القول . لان ماركس يرى — وكان على صواب — ان في الصناعة الحديثة لا يمكنك ان تشير الى بضاعةٍ معيَّنة وتقول هذه ثمرة عمل العامل الفلاني . وليس ثمة الاَّ النتيجة المشتركة للعمل المشترك يقوم به عمال كثيرون . ومن المتعذر ان تدلَّ على نصيب كل عامل من العمال في هذا العمل المعقد الذي يخرج بضاعة تتناولها — هي او احد مقوماتها — يد عامل من العمال في خلال دور من ادوار صنعها . وليس ما تخرجهُ الصناعة نتيجة عمل العمال فقط ، بل هو نتيجة منتجين آخرين سبقوهم . فكل من اضاف بمستنبطاته شيئاً الى النظام الصناعي ، هو بحقٍ احد المنتجين للبضائع التي تخرجها المصانع . وعليهِ يرى ماركس انهُ من المتعذر ، توزيع ارباح الصناعة ، على العناصر المختلفة التي اشتركت في اخراج منتجاتها ، توزيعاً عادلاً . ولما كانت منتجات الصناعة نتيجة عمل مشترك وجب ان تكون ملكاً للمجتمع باسره . وتوزيعها ، لا يكون الغرض منهُ جزاء كلّ عامل على عمله بالقدر الذي يستحقهُ ، بل اقتساماً لما اشتركت في خلقهِ الجمعية البشرية من الثروة . وهذا المتمول لا يمنع توقيع العقاب على الذين يقصّرون في القيام بنصيبهم في هذا الخلق ، او منح الجزاء حيث يكون باعثاً على الجهد المنتج . ولكن كلا هذين العاملين في توزيع الدخل ثانوي . والمبدأ المرشد لجميع الاشتراكيين هو جعل الدخل متساوياً لكل الناس ، ما سمح بذلك الامكان

تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً

والقول بان المتمول في النظام الرأسمالي ، يستغلُّ العامل ، باختصاصهِ نفسَهُ بالجانب الاكبر من ثمرة الانتاج ، عنصر واحد من عناصر المذهب الماركسي . ولفهم هذا المذهب فهماً متزناً يجب ان نتبيَّن ما يعرَف بتفسير التاريخ تفسيراً اقتصاديًّا او ماديًّا . وقد اسيء

من قبل فهم هذه الناحية من مذهب ماركس ، فيجدر بنا ان نكون حذورين في تبيانها

يقول ماركس ان في كلّ حضارةٍ في اي دور من ادوارها « قوّى انتاجية » ، تقوم على مصـادر الثروة المادية ومعرفة الانسان بتثميرها . فالفحم في مناجمهِ لا يحسب « قوة » من قوى الانتاج حتى يكشفهُ الانسان ويستخرجهُ ويعرف انهُ يحترق ويولـد طاقة يمكن استخدامها. وقوى الانتاج هذه تتغير تغيراً دائماً وفقاً لاتساع معارف الانسان . وعليهِ فالاساس الذي تقوم عليهِ الحضارة اساس دائم التغير . وفي كل مرحلة من مراحل الحضارة نجد وسائل هي الوسائل المثلى لتنظيم قوى الانتاج في تلك الحضارة . فالجماعة التي تعيش بالصيد والقنص ، او بالزراعة ، او بالصناعة على اختلاف اساليبها ، عليها ان تتخذ ، في تنظيم حياتها الاقتصادية ، الوسائل التي تتفق والضرورات التي تقتضيها طبيعة قوى الانتاج والاعمال الانتاجية التي تزاولها . فصيد السمك او تعدين الفحم او توليد الكهربائية ، يقتضي نظاماً اقتصادياً خاصاً ، يوضع خاصة لتحقيق الغرض المعين وهذا النظام يقتضي بطبيعتهِ احكاماً للمـلك والملاك وعلاقة الناس بعضهم ببعض . اذ لابدَّ من طرق لتعيين من يسيطر على ادوات الانتاج ومصادر الثروة الطبيعية ، ومن يصدر الاوامر للقيام بالاعمال المختلفة التي يقتضيها الانتاج في مراتبهِ المتباينة . كذلك يقوم على اساس من استغلال مصادر الثروة الطبيعية ، صرحٌ من العلاقات الاقتصادية . على ان ماركس يرى ، ان صرح العلاقات الاقتصادية يسيطر على بناء الجماعة السياسي ويتحكم فيهِ . لان الدولة في عرفهِ ، هي المنظم للعلاقات السياسية ، وان باعث وجودها الاوحد ، هو الاحتفاظ بالاحوال المواتية للانتاج واسباب المعيشة

***

وقد وصف ماركس في بيانهِ الشيوعي « Communist Manifesto » المراحل المتعاقبة في تنظيم اوربا السياسي ووافق بينها وبين المراتب المتعاقبة في تنظيمها الاقتصادي ، وهذه من ناحيتها ، تحوّلت بحسب تحوُّل سيطرة الانسان على مصادر الثروة الطبيعية واسباب الانتاج. فالفـدَنية (الاقطاع Feudalism) ونظام العلاقات الشخصية القائم على علاقة كل فرد او طبقة بالارض ، هي مرتبة في التنظيم السياسي توافق مرتبة في النظام الاقتصادي قائمة على الزراعة في تطوُّر قوى الانتاج . اما « الرأسمالية الحديثة » وما تقوم عليهِ من حرية التعاقد ، والالوف الذين يثمّرون اموالهم في الشركات الكبيرة ، والوف الالوف من العمال ، واوضاعها البرلمانية ، وديمقراطيتها الظـاهرة ، فكأنما هي مرآة تعكس لنا النظـام الاقتصادي الجديد وهو نظام الانتاج الآلي القائم على توزيع العمل وتعاون العمّال وارتقاء الوسائل العلمية الصناعية

ويذهب ماركس الى ان هذه المراتب في نشوء قوى الانتاج واحكام المـلك وصروح الانظمة السياسية تسفر عن نشوء طبقات اقتصادية مميزة للنظام الذي تنشأ فيهِ . وكل نظام

انتاجي في تاريخ الارض فرّق الناس طبقات دفعت الى التنازع والتناحر فيما بينها بمنطق الارتقاء الانتاجي نفسهِ . فالمدنية تنشىء ضرباً معيناً من العلاقة بين الطبقات كطبقة الزرّاع واصحاب الارض من الامراء . اما الرأسمالية فتطلق العامل من عبوديتهِ للارض واصحابها وتمنحهُ حرية التعاقد، ولكنها حرية وهمية ، لان المتمولين يحتكرون السلطة في ظل النظام ، والتعاقد الحرّ معهم ليس في الواقع الاّ تعاقداً مكبّلاً بالاغلال

واذن يرى ماركس، ان نشوء الرأسمالية في العهد الحديث يحمل طبقة المتمولين على تنظيم العمال في طوائف كبيرة ومعامل متسعة وجمعهم في مدن ، رغبةً منهم في جني اعظم ما يمكن جنيهُ من ثمار الصناعة الآلية . ولكنها — أي طبقة المتمولين — لا تستطيع ان تفعل ما تفعل وان تمنع في الوقت نفسهِ تنظيم صفوف العمال فيما بينهم . واتحادات العمال تقوى على مرّ الزمان وتتفاقم حتى تصبح قادرة ان تساوم اصحاب المال على اجور العمّال . ومن ثمَّ يبدأ العمّال يدركون مدى قوتهم المشتركة والصفة الاشتراكية التي يتصف بها العمل الذي يقومون بهِ . وهذا يولد في اذهانهم ونفوسهم روح المقاومة لاستقلالهم وعقيدة راسخة بان الامة يجب ان تملك الصناعة لان الصناعة اشتراكية في طبيعتها واساسها . كذلك يعتنقون المذهب الاشتراكي ويصبحون من اشد مؤيديه تأييداً عمليًّا . وتنظيم صفوفهم اذا بلغ مدىً بعيداً يمكنهم من تسلّم مقاليد الامور وتحويل ادوات الانتاج لفائدة المجتمع ،مستغنين عن الملكية الخاصة ورؤوس الاموال التي يملكها افرادٌ او جماعات من الافراد . وكان ماركس يتوقع ان يتم فوز طبقة العمال اذ تتخذ غلبتهم شكلاً سياسيًّا . اذ ذاك يكون فوزاً عاماً لطبقة العمال لا لفريق منها دون آخر . ذلك انهُ كان يعتقد ان الصفة الاشتراكية التي تتصف بها الصناعة تربط بين طبقة العمال ، وان فوزها على الرأسمالية رهين بأثرها السياسي كحزب منظم يمثل طبقة العمال باسرها

الاشتراكية والدكتاتورية

ولكن فوز طبقة العمال في نظر ماركس يختلف اختلافاً اساسيًّا في طبيعتهِ وأثره عن اي تحول سابق في علاقات الطبقات بعضها ببعض . ذلك انهُ لما اصبحت طبقة المتمولين على جانب كاف من القوة لتتغلب على النظام الفدني وانشاء الدولة البورجوزية الحديثة بانظمتها البرلمانية ، ظل تحتها في البناء الاجتماعي طبقة كبيرة — هي كثرة الامة الساحقة — تستغلها لمآربها الخاصة ، وما لبثت حتى اندمجت في طبقة المتمولين طبقة ملاّك الارض ، واصبحت الاملاك صنفاً من رأس المال لا يختلف في طبيعتهِ والدخل الذي يجنى منهُ عن صنوف الرأسمال الاخرى . فكأن المتمول بدد اولاً سلطة الاقطاعيين ثم جمل مصالحهم مصالحهُ الخاصة

ولكن اذا فازت طبقة العمال على طبقة المتمولين — كما فاز المتمولون على امراء الفـدنية — لا يبقى تحت طبقة العمال طبقة اخرى من الامة تستغَلّ في سبيل الطبقة الجديدة التي فازت بالسلطان . لذلك يكون الاجتماع الذي ينشأ على أثر فوز العمال اجتماعاً لا طبقات فيه، فلا يكون قائماً حينئذ على استغلال طبقة لأخرى ، بل على الاشتراك في نتيجة الجهد الاقتصادي العام

***

على ان هذا الانتقال الى اجتماع لا طبقات فيه ، لا يمكن ان يتمّ فجأة . ذلك ان الانتقال من الفـدنية الى الرأسمالية اقتضى اولاً القضاء التام على ارباب الفدنية ثم تحويل مصالحهم وجعلها مصالح الرأسماليين . كذلك طبقة العمال ، لا تستطيع ان تزيل الفوارق بين الطبقات قبل ان تقضي على الرأسماليين القضاء الاخير . ففي فترة الانتقال هذه تتسلم طبقة العمال مقاليد الامور وتحكم كطبقة ، من دون ان تشرك معها في الحكم ارباب النظام الزائل . هـذه هي الفترة التي تعرف بفترة « دكتاتورية العمال » Dictatorship of the Proletariat وهي مرحلة لا مندحة عنها في الانتقال من الرأسمالية الى النظام الاشتراكي التام

***

ويرى بعض اتباع ماركس ، وبوجه خاص حزب الدمقراطيين الاشتراكيين في المانيا ان فترة الانتقال الموسومة بسمة دكتاتورية العمال ليست من صميم مذهب ماركس . لان فلسفتهم الاجتماعية قائمة على عقيدتهم بان الدولة الاشتراكية تنشأ نشوءاً متدرجاً من النظام الرأسمالي عن طريق التطوُّر البرلماني . ولـكن ليس ثمة ريب على الاطلاق في ان ماركس كان يرى ضرورة فترة الانتقال ودكتاتورية العمال في خلالها

وقد جعل الشيوعيون الروس فكرة الدكتاتورية ركناً من اركان الخطة التي جروا عليها . ففي رأيهم لا يمكن ان تصبح روسيا امة لا طبقات فيها ، قبل ان يزول كل خطر من ثورة رجعية على النظام الشيوعي يقوم به فلول الرأسماليين واتباعهم ، وقبل ان يقضى القضاء الاخير على العناصر غير الاشتراكية في الامة الروسـية . لذلك عمد الروس الى ابعاد افراد الطبقات الرأسمالية والحاكمة وتجريد الباقين منهم من الحقوق السياسية واضطهاد الملاك والسعي سعياً حثيثاً الى تحويل الزراعة في روسيا واقامتها على اساس اشتراكي . ولـكن الروسيين لا يفكرون في جعل الدكتاتورية نظاماً باقياً للحكم في روسيا ، بمعنى تجريد بعض ابناء الامة الروسية من حقوقهم السياسـية . على انهُ لا بد من ابقاء الدكتاتورية حتى يتم الانتقال . عندئذ يفتتح عهد الدولة الاشتراكية في اجتماع لا طبقات فيه

غرائب المناعة

اكتشاف خطير في العلاقة بين المناعة ضد الامراض والافعال العكسية المحولة

تشير المباحث الحديثة التي يقوم بها الدكتور متالنيكوف Metalnikov في معهد باستور الى امكان الحصول على مناعة وقتية ضد مرض من الامراض بمجرد امر الآمر. ولا يبعد ان يصبح في حيز التنفيذ العملي دعوة فرقة من الجنود الى الانتظام ثم ينفخ في البوق امامهم لحن معين فيكتسبون مناعة ضد الحمى التيفودية او الكوليرا !

ان مسألة المناعة من اخطر المسائل في علوم الحياة والطب. ومناعة الجسم ، أي مقاومته لمكروبات الامراض التي تغزوه ، صفة من الصفات الاساسية في الاجسام الحية. فثمة اولاً المناعة الموروثة التي تولد في الجسم ساعة يولد . فالانسان منيع على الطاعون البقري وكوليرا الدجاج اي لا يمكن أن يصاب بهما . والاساريع منيعة على الدفتيريا والكزاز ولو حقنتها بجرعات كبيرة من ميكروباتهما، فان الكريات البيض في دمها لا تلبث بضعة ايام حتى تلتهم هذه الميكروبات كلها

ثم هنالك مناعة مكتسبة . فالاصابة بالحصبة مرة تمنحنا مناعة ضد الحصبة مدى الحياة على الغالب. كذلك الاصابة بالجدري . ومنذ ان قام العلامة باستور بمباحثه الخالدة تعلم الاطباء كيف يمنحون الجسم مناعة مكتسبة ضد امراض معينة . فالحقن بجرعة من مكروبات مرض معين ، بعد معالجتها بالاحماء او غير ذلك من طرق المعالجة لكسر شوكتها ، يهيء الجسم لهجوم الميكروبات القائمة عليه ، فيعرف كيف يتقيها. والحقن بالميكروبات الضعيفة ، ينشيء في الدم مواد كيمائية ، تعرف بالاجسام المضادة ، وهذه اذا جاءت الميكروبات القائمة ، قتلتها او جعلتها طعمة سائغة لكريات الدم البيض

فالمناعة ، موروثة او مكتسبة هي احدى غرائز البقاء او المحافظة على الكيان . ودرس هذه الظاهرة في النباتات والحيوانات يجلو لنا فرقاً من اخطر الفروق بين الاجسام الحية وغير الحية . على ان غرائز البقاء تقتضي جهازاً عصبياً. فالدفاع، سواء كان بالقتال او بالتماوت، يسيطر عليه الجهاز العصبي. وافعال الدفاع، في الغالب افعال عكسية عصبية، لا سيطرة شعورية للدماغ عليها

من هنا بدأ الدكتور متالنيكوف بحثه فسأل نفسه : اليست المناعة ضد المرض ، وهي من اقدم واخطر وسائل الدفاع عن النفس ، تحت سيطرة الدماغ كذلك ؟

جرب الدكتور متالنيكوف تجاربه الاولى بالاساريع Caterpillars . ولهذه الحيوانات ميزتان خاصتان تجعلانها صالحة لمثل هذه التجارب . أولاً يسهل توليد المناعة ضد الامراض فيها.

فاذا حقنت هذه الاساريع بمجرعات كبيرة من مكروبات الكوليرا قضت عليها ، ولكن تتولد فيها مناعة ضد الكوليرا في خلال اربع وعشرين ساعة اذا حقنت حقناً متتالية بمجرعات صغيرة . والميزة الثانية ان دماغها ليس مركزاً في مكان واحد من جسمها كدماغ الانسان . فهو مقسم اقساماً عديدة في كل مقطع منها قسم قريب من الجلد ، فكأن هذه الاقسام عقدٌ من الحبيبات ، تتصل كل حبةٍ بالاعصاب التي تمتدُّ في الجسم . ويسهل على الباحث ان يتلف احد هذه الاقسام بغرزة ابرةٍ من دون ان يميت الحشرة نفسها

فاسفرت التجارب التي جرّبها متالنيكوف عن ان مقدرة الحشرة على توليد المناعة في جسمها لا يتأثر قط اذا اتلفت كل اقسام الدماغ في جسمها ، الا القسم الخامس من الرأس . ذلك انهُ اذا اتلفت خلايا الدماغ في هذا المركز اصبحت الحشرة لا تستطيع ان تولد المناعة في جسمها ضدّ مكروبات الكوليرا . ففي هذا برهان قاطع على ان للجهاز العصبي يداً في دفاع الحيوان عن نفسهِ ضدّ مكروبات المرض

فلما ثبت لهُ هذا في اجسام الاساريع ، اراد ان يعرف موقف الحيوانات الفقرية — ومنها الانسان — من هذه الحقيقة . ولكن التجربة في الحيوانات الفقرية اكثر تعقداً منها في الحشرات . وصحيح ان تجارب كثيرة كانت قد جريت في الكلاب باتلاف بعض مراكز الدماغ ومراقبة النتائج في تصرُّف الكلب فعرفت وظائف مراكز الدماغ المختلفة بوجهٍ عام . ولكن الوصول الى تعيين الخلايا الدماغية التي تسيطر على المناعة بهذه الطريقة ، عملٌ معقد مملٌ . لذلك اختار الدكتور متالنيكوف خطة اخرى للبحث

لقد بينا ان اعمال الدفاع في سبيل البقاء ، في الجسم الحيّ هي في الغالب افعال عصبية عكسية (reflex action) اي انها تتم من دون سيطرة الدماغ الشعورية . فالايل يفرُّ مبادرة اذ يرى شيئاً متحركاً . والرجل الذي يوشك ان يغرق يتعلق باصغر الاجسام الطافية . ومنهُ المثل العربي (الغريق يتعلق بحبال الهواء) . وقد عني الاستاذ بافلوف الروسي في اواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن بدرس هذه الناحية من الافعال العصبية فوسَّع نطاق معرفتنا بها . وقد اثبت بافلوف انهُ اذا كان الباعث على فعل عصبي عكسي يصحبهُ باعث آخر ، امكن بعد ترديد الباعثين مراراً ، الاستغناء عن الباعث الاول والاكتفاء بالباعث الثاني في استثارة الفعل العصبي نفسهِ . فاذا قدّمت لكلب طعاماً كان تقديم الطعام باعثاً على سيل لعابهِ . وسيل اللعاب في الكلب يتم بفعل عصبيّ عكسي . فاذا اقترن تقديم الطعام بقرع جرس ، عدة مرات ، ثم استغني عن تقديم الطعام واكتفي بقرع الجرس ، كان قرعهُ باعثاً على سيل اللعاب ، اي على احداث الفعل العصبي العكسي ، فهو فعل عكسيّ عصبي محوّل . وقد دعي بالانكليزية Conditioned reflex وكتب عالم في مجلة نايتشر ان هذا الاسم غير موفق ، لذلك نرى ان ترجمتهُ الحرفية — اي بالفعل المعكوس الشرطي او المشروط غير موفق

كذلك ، والافضل ترجمة الاصطلاح بمعناه — وهو التحوّل . والتحول هنا هو سيل اللعاب لقرع الجرس بدلاً من سيله لرؤية الطعام

وقد اختار الدكتور متالنيكوف اسلوب « الافعال العصبية المحوّلة » لامتحان فكرة المناعة التي اثبتها في تجاربه بالاساريع ، حتى يعلم هل لدماغ الحيوانات الفقرية أثر في توليد مناعة الجسم او لا

اخذ طائفة من الارانب وخنازير الهند ، وحقنها بمكروبات مرضية اضعف فعلها بالاحماء وفي الوقت نفسه كان يدغدغ الحيوانات المحقونة ويخمش آذانها أو ينفخ ببوق معين على مقربة منها . فتولدت المناعة في اجسامها بالطريقة العادية . ثم لم تلبث هذه المناعة ان زالت كما تزول كل مناعة مكتسبة بعد زمن قصر او طال . وزوال المناعة المكتسبة يعني ان الارانب وخنازير الهند اصبحت غير قادرة على مقاومة مكروبات المرض القائمة اذا دخلت جسمها . ولكن بدلاً من ادخال مكروبات المرض القائمة في جسمها لمعرفة مقدرتها على مقاومة المرض وهل هي لا تزال عندها مناعة او لا ، توجد طرق اثبتها العلم تعرف بها حالة دم الحيوان وهل زالت مناعته المكتسبة او لم تزل. ذلك انهُ اذا اكتسب الدم مناعة حدث فيه تحوّلان: اولاً يزيد عدد كرياته البيض. ثانياً تتكون اجسام مضادة . فالكريات البيض يمكن احصاؤها. والاجسام المضادة يمكن الكشف عنها بكواشف خاصة ، مثل وضع قطرات الدم في انبوب واضافة ميكروبات اليها فاذا فتك بالمكروبات ثبت ان في الدم اجساماً مضادة

واذن بعد انقضاء زمن ، تزول المناعة المكتسبة من دم الارانب وخنازير الهند . وتصبح حالة دمها عادية . فليس فيه اجسام مضادة ، وليس فيه زيادة في كرياته البيض . كذلك الانسان. فانهُ اذا حقن ضد الحمى التيفودية او الكوليرا ، تزول مناعتهُ المكتسبة بعد سنة او سنتين فيجب ان يحقن نفسهُ من جديد اذا شاء ان يبقى منيعاً عليهما

وهنا مكان الاكتشاف الجديد . ذلك ان الدكتور متالنيكوف وجد انهُ بدلاً من ان يعيد حقن خنازير الهند بالمكروبات ليعيد الى دمها المناعة المكتسبة التي زالت بعد زمن ، يمكن من ان يجدد هذه المناعة بمجرد دغدغتها او خمش آذانها او النفخ ببوق على مقربة منها ، اي بتكرار الفعل الذي صحب الحقن من قبل — وهو من قبيل الفعل العصبي المحوّل . وعلى أثر ذلك ظهرت في الدم الاجسام المضادة . ويقول الدكتور منرو فوكس — استاذ الحيوان بجامعة برمنغهام ومحرّر مجلة « الخلاصات البيولوجية » الذي لخصنا عنهُ ما تقدم — ان هذه النتائج ايّدها باحثون آخرون قاموا بتجاربهم على حدة وهي تثبت اولاً ان للجهاز العصبي يداً في المناعة ، وان هذه الحقيقة قد تكون ذات خطر في شؤون الناس الصحية . وليس في ذلك ما يثير العجب . فالاوذيما (انتفاخ في اليدين) والحروق والخرابات شفيت بالاستهواء . والقيء والنوم والتغيّر في ضغط الدم يمكن احداثها بكلمة او بفعل عكسي محول

الله والشاعر

للشاعر علي محمود طه

لا تفزعي يا أرضُ : لا تفرقي   من شبحٍ تحت الدجى عابرِ
ما هوَ إلاّ آدميٌّ شقي   سمُوُّهُ بين الناسِ بالشاعرِ

حنانَكِ الآن فلا تُنكري   سبيلَهُ في ليلِكِ العابسِ
ولا تُغضبيهِ ولا تَنفِري   من ذلكَ المستصرخِ البائسِ

مُدّي لعينيهِ الرِّحابَ الفِساحْ   ورقرقي الأضواءَ في جفنهِ
وأمسكي يا أرضُ عصفَ الرياحْ   والرّاعدَ المنصبَّ في أذنهِ

أتسمعينَ الآنَ في صوتهِ   تَهدُّجَ الأنّاتِ من قلبهِ ؟
وتقرأينَ الآنَ في صمتهِ   تَمرُّدَ الرّوحِ على ربهِ ؟

في وقفةِ الذّاهلِ ألقى عصاهْ   مُوَلّيَ الجبهةِ شطرَ الفضاءْ
كأنما يَرْقى الدجى ناظراهْ   ليستَشفّا ما وراءَ السماءْ

يَسقُطُ ضوءُ البرقِ في دمعِهِ   على جبينٍ باردٍ شاحبِ
ويستثيرُ البردُ في لفحِهِ   ناراً تلظّى من فمٍ ناضبِ

أنتِ لهُ يا أرضُ أمٌّ رؤومْ   فأشهدي الكونَ على شِقوتهْ
ورددي شكواهُ بين النجومْ   فهوَ ابنكِ الانسانُ في حيرتهْ !

ما هوَ الاّ صوتُكِ المرسلُ   وروحكِ المستعبدُ المرهقُ
قد آنَ للدهرِ بما يحملُ   شفاهٌ عن آلامِهِ ينطقُ ؟

طغى الأسى الدّاوي على صوتهِ   يا للصدى من قلبهِ النّاطقِ
مضى يبثُّ الدهرَ في خفقتهِ   شكايةَ الخلقِ إلى الخالقِ

لا تَمتحنّي يا ربِّ في محنتي   ما أنا إلاّ آدميٌّ شقي
طردتَني بالأمسِ من جنتي   فاغفرْ لهذا الغاضبِ المحنقِ ؟

حنانكَ اللهمَّ لا تغضبِ أنتَ الرفيقُ القلبِ جمُّ الحنانْ
ان كنتُ في شكوايَ بالمذنبِ فمنكَ يا ربِّ أخذتُ الأمانْ

ما أنا بازاري ولا الحاقدِ لـكنني الشاكي شقاءَ البشرْ
أفنيتُ عمري في الأسى الخالدِ لجئتُ أستوحيكَ لطفَ القدرْ

تمردتْ روحي على هيكلي وهيكلُ الجسمِ كما تعلمُ
ذاك الضعيفُ الرأيِ لم يفعلِ إلاّ بما يوحي اليهِ الدمُ !

يَعترقُ حدُّ السيفِ من لحمهِ ويحطمُ الصفوانُ بنيانَهُ
وينخرُ الجرثومُ في عظمهِ ومنهُ يُنمي القبرُ ديدانَهُ !

ما هو إلاّ كومةٌ من هباءْ نفحةُ اللمسة من غضبتكْ
فكيف يثني الروحَ عما تشاءْ ؟ وكيف يقوى؟ وهي من قدرتكْ !

روحكَ في روحي تبثُّ الحياةْ نزلتُ دنيايَ على نورها
فإنْ جفاها ذاتَ يومٍ سناهْ لاذتْ بليلِ الموتِ في قبرها !

ومثلما قدَّرتَ صوَّرتَها فروحكَ الصوتُ وروحي الصدى
طبيعةً في الخلقِ ركّبتَها وما أرى لي في بناها يدا !

لـكنما روحكَ من جوهرِ صافٍ وروحي ما صفتْ جوهرا !
أولاً ؟ فما للخيرِ لمْ يُثمرِ فيها ؟ وما للشرِّ قد أثمرا !!

تقولُ روحي إنّها مُلهَمَهْ فهيَ لما قدَّرتَهُ مُتّبِعَهْ
مقودةٌ في سيرها مُرغَمَهْ وإنْ تراءتْ حرّةً طيّعَهْ !

قيدتَها بالجسمِ في عالمِ تضجُّ بالشهوةِ فيهِ الجسومْ
كلاهما في حبسهِ الآثمِ لم يصحُ من سكراهِ وهو الملومْ !

تُبدي بهِ الأجسامُ سحرَ الحياةْ في معرضٍ يجلو غريبَ الفنونْ
نواعسَ الأجفانِ حُوَّ الشفاهْ شديدةَ الإغراءِ شتى الفتونْ !

ولم أكن أولَ مغرًى بما أغرتْ به حواء أو آدما
إرثُ غشى في دمي منهما ميراثهُ ينتظمُ العالما !!

فأنتَ قدرتَ عليَّ الشقاءْ من حيث قدرتَ عليَّ النعيمْ
وما أرى !! هل في غدٍ لي ثواءْ بالخلد ؟ أم مثوايَ نار الجحيمْ ؟

ما اثِمَتْ روحي ولا أجرمتْ ولا طغى جسمي ولا استهترا
عناصرُ الروح بما ألهِمَتْ أوحتْ الى الجسمِ فما قصّرا

كلاهما لم يَعْدُ تَصويرَهُ ما كان إلاّ مِثلما كوّنا
كم حاولا بالأمسِ تغييرَهُ فاستكبرَ الطبعُ وما أذعنا

أمنذري أنت بيوم الحسابْ ؟ ولائمي أنتَ على ما جرى ؟
رُحماك ! ما يُرضيكَ هذا العذاب لطيِّعٍ لم يَعْصِ ما قُدِّرا !!

ما كنتُ إلاّ مثلما كُبِّتتْ غرائزي : ما شئتَ لا ما أشاءْ
فلتجزها اليوم بما قدَّمتْ وإن تكنْ مما جنتْهُ براءْ !

وفيمَ تُجزى وهيَ لم تأثمِ ؟ ألستَ أنت الصائغَ الطابعا ؟
ألم تسِمْها قَبْلُ بالميسمِ ؟ ألم تصُغْ قالبَها الرائعا ؟؟

ألم تصُغْها عنصراً عنصرا من أين ؟ ما علمي ؟ وأنت العليمْ !
جبلْتها يومَ جبلتَ الثرى من عالم الذرِ ودنيا السديمْ

الخيرُ والشرُّ بها توأمانْ والحبُّ والشهوةُ في طبعها
حواءُ والشيطانُ لا يبرحانْ يُساقِطانِ السحرَ في سمعها !

تَشكَّكتْ نفسي بما تنتهي إليهِ دنياها وماذا يكونْ !
مضتْ فما آبتْ بما تشتهي من حيرةِ الفكرِ وهجسِ الظنونْ !

رأتْ أسارى في قيودٍ ثقالْ بين يديْ ذي مِرَّةٍ يبتسمونْ
يسوقهم في فلواتِ الليالْ في بطشِ جبّارينَ لا يرحمونْ

إنْ ضجَّ في الأغلالِ منهم طليحْ أخرسهُ السوطُ الذي يُرهفُ
وإنْ هوى للأرضِ منهمْ جريحْ أنهضهُ في قيدهِ يرسُفُ

يا ويحهم ما عرفوا موئلا من قسوةِ الدهرِ وجورِ القضاءْ
يا أرضُ ما كنتِ لنا منزلا ما أنتِ إلا موبقُ الأبرياءْ !!

أفي سبيلِ العيشِ هذا الصراعْ ؟ أم في سبيلِ الخلدِ والآخرهْ ؟
وهؤلاء البائسونَ الجياعْ تطحنهم تلك الرحى الدائرهْ ؟؟

ما ذنبُ هذا العالمِ الثائرِ ؟ إنْ حاولَ الإفلاتَ من آسرهِ ؟
ما كانَ في ميلادهِ الغابرِ أسعدَ حالاً منهُ في حاضرهِ !!

ما كانَ لوْ لمْ تَنتزْ آلامُهُ بالماجنِ الروحِ ولا الهائمِ
ولو جرتْ بالصفوِ أيامُهُ ما كانَ بالزاري ولا الناقمِ

رأى بعينيهِ المصيرَ الرهيبْ وكيف غالَ الناسَ من قبلِهِ
وكلَّ يومٍ للمنايا عصيبْ يسوقُهمْ للموتِ من حولهِ !

فحقّرَ الدنيا وأزرى بها وقالَ : مالي انكرُ الواقعا ؟
فلتسعدِ النفسُ بأنخابها من قبلِ أن تلقى الغدَ الرائعا !

أيصبحُ الانسانُ هذا الرميمْ ؟ والجيفةَ الملقاةَ نهبَ الترابْ ؟
ايستحيلُ الكونُ هذا الهشيمْ والظلمةَ الجاثمَ فيها الخرابْ ؟

لمنْ إذاً تُبدعُ تلك العقولْ ؟ أفي الردى تدركُ ما فاتها ؟ ؟
أم في غدٍ تثوى بتلك الطلولْ ويسحقُ الدهرُ براقيتها ؟ ؟

وآسفا للعالمِ البائدِ ليس له مما يرى مهربُ
على رنينِ المنجلِ الحاصدِ مضى يُغنّي .. وهو لا يطربُ ..

فدعهُ ينسى بعضَ ما حمّلا من نكدِ الدنيا وضنكِ الحياهْ
وأولهِ العطفَ الذي أمّلا فانهُ أولى بعطفِ الالهْ !

ما هيَ إلاّ لحظاتٌ قصارْ عُمْرُ مِثْلَ الومضِ في عينهِ
فان مضى الليلُ وجاء النهارْ عاودَهُ الخالدُ من حزنهِ !

وما أتى الغيُّ ليعصى الالهْ يوماً ، ولا كانَ بهِ مُغرما
لكنْ لينسى شقوات الحياهْ وسرَّها المستغلقَ المبهما !

يا الشقيِّ القلبِ كم سامهُ توهّمَ النعمةِ ما لا يُطيقْ
يُريدُ أنْ يُقنعَ اوهامهُ بأنّهُ ذاك الخليُّ الطليقْ

هأنذا ارفعُ آلامهُ إلى سماء المنقذِ الاعظمِ
أنا الذي تُرسلُ أنغامهُ قيثارةُ القلبِ وناي الفمِ

من عبراتي صُغْتُ هذا المقالْ ومن لهيب الروح هذا القلمْ
ملأتُ منهُ صفحاتِ الليالْ فضُمِّنَتْ كلَّ معاني الالمْ

انا الذي قدَّستَ احزانَهُ الشّاعرُ الباكي شقاء البشرْ
فجَّرتَ بالرحمةِ الحانَهُ فاملأ بها يا ربِّ قلبَ القدرْ !

ما الشاعرُ الفنّانُ في كونهِ الاّ يدَ الرحمةِ من ربّهِ
مُعزّيَ العالمِ في حزنهِ وحاملَ الآلامِ عن قلبهِ

عزاؤهُ شعرٌ بهِ أهزجُ في نَغَمٍ مستعذبٍ ساحرِ
ما يحزنُ العالم او يبهجُ الاّ على قيثارةِ الشّاعرِ

يا ربِّ ما اشقيتني في الوجودْ الاّ بقلبي : ليتهُ لم يكنْ
في المثلِ الأعلى وحبِّ الخلودْ حمّلتهُ السرّ الذي لم يبنْ

خلقتهُ قلباً رقيقَ الشغافْ يهيمُ بالنورِ ويهوى الجمالْ
حلتْ له النجوى ولذَّ الطوافْ بعالمِ الحسنِ ووادي الخيالْ

بعثتهُ طيراً خفوقَ الجناحْ على جنانٍ ذاتِ ظلٍّ وماءْ
أطلقتهُ فيها قبيلَ الصباحْ وقلتَ : غنِّ الأرضَ لحنَ السماءْ

فهامَ في آفاقها الواسعهْ … النورُ يهفو حولَه والنَّدى
مُصفقاً للصحوةِ الساطعهْ … ومُنشِداً ما شاء أنْ يُنشدا

إنْ جاء صيفٌ أو تجلّى ربيعْ … حيّاهُ منهُ عبقريُّ الغِناءْ
وكم خريفٍ في نشيدٍ بديعْ … تظلُّ ترويه ليالي الشتاءْ

قيثارةٌ تصدرُ في فنها … عن عالم السحر ودنيا الخفاءْ
على الصّدى الحائرِ من لحنها … يستيقظُ الفجرُ ويغفو المساءْ

مشتْ على الأمواجِ أنغامُها … والأرضُ قيدَ النشوةِ المسكرهْ
كأنَّما ترقصُ أحلامُها … في ليلةٍ شرقيةٍ مُقمره!

من قلبهِ أسلستْ أوتارَها … فقلبُهُ يخفقُ في كفّهِ
يشدو فتُملي النفسُ أسرارَها … عليهِ فهيَ اللحنُ من عزفهِ

ذاتَ صباحٍ طار لا يُمهِلُ … والأرضُ سكرى من عبيرِ الزهورْ
على حصاها رنَّمَ الجدولُ … وفي دواليها تُغنّي الطيورْ

ما كان يدري قبلَ ان ينظرا … ما خبّأتهُ النظرةُ العاجله
ما أبدعَ الحلمَ الذي صوّرا … لو لم تَشُبْهُ اليقظةُ القاتله!

مرَّ بنهرٍ دافقٍ سلسبيلْ … تهفو القماري حوله شاديه
في ضفتيهِ باسقاتُ النخيلْ … ترعى الشياهُ تحتها ثاغيه

فهاجتِ النظرةُ مما رأى … في قلبهِ السحر وفي عينهِ
الكونُ يبدو وادعاً هانئاً … كأنهُ الفردوس في أمنهِ

فظلَّ في التفكيرِ مستغرقا … من فتنة الدنيا ومن سحرها
ما كان الا ريثما حدّقا … حتى جلتْ دنياه عن سرِّها

رأى بعينيهِ الذي لم يرَهْ … الذئبَ والشاةَ وحربَ البقاء
ما عرفَ القتلَ ولا ابصرهْ … ولا رأى من قبلُ لونَ الدماء!

ما هي إلاَّ صرخاتُ الفزعْ وصيحةُ المقتولِ والقاتلِ
قد انقضى الامرُ كأنْ لم يقعْ وضاع صوتُ الحقّ في الباطلِ

وبعدَ ساعاتٍ يُولّي النهارْ ويقبلُ الليلُ وما يعلمُ !!
سيلبثُ المرءُ وراءَ الستارْ ويختفي الشلوُ ويُمحى الدمُ !!

فروّعَ الشاعرُ مما رآهُ وهامَ في الارض على وجههِ
أين ترى يا ارض يُلقي عصاهُ ؟ وأيّ وادٍ ضلَّ في تيهه ؟

حتى اذا شارفَ ظلَّ الشجرْ في روضةٍ غناء ريّا الأديمْ
قد ضحِكتْ للنور فيها الزَهَرْ وصفّقت اوراقُها للنسيمْ

إختارَ في الظلِّ له مقعدا في ربوةٍ فاتنةٍ ساحره
أذابَ فيها الشفقُ العسجدا وناسمتها النفحةُ العاطره

بينا يجيلُ العينَ في سحرها إذ أبصر الصِّلَّ بها مُطْرِقا
قد انتحى الاطيارَ في وكرها فسامَها من نابهِ موبقا

هل سمعتْ أذناك قصفَ الرعودْ في صخب الريح ورجف البحار ؟
هل أبصرتْ عيناك ركضَ الجنودْ في فزع الموت وهولِ الفرار ؟

إن كنتَ لم تبصرْ ولم تسمعِ فقِفْ الى ميدانها الاعظمِ
ما بين ميلادكِ والمصرعِ ما بين نابيْ ذلك الأرقمِ !!

جريمةُ الغدرِ وسفكِ الدمِ جريمةٌ لم يخلُ منها مكانْ
يا لجّةً كلٌّ إليها ظمي قد جاز طوفانُك شمَّ القنانْ !

من علّم الوحشَ الأذى والقتال ؟ وبثَّ فيهِ الشرَّ أو ألهمهْ ؟
من علّم الثعبانَ هذا الختال ؟ والحيوانَ الغدرَ من علّمهْ ؟

يا أرضُ هذا الوحيُ من عالمكْ الطينُ والماءُ به يشهدانْ
ظلّمتِ إنسانكِ ما أظلمكْ إذ سمتِهِ بالامسِ هجرَ الجنانْ !

يا ضلّة الشاعر أين النجاه   وأين أين المنزل الآمن
أكلّ وادٍ زلّته خطاه   طالعة منه الرّدى الكامن ؟

حتى اذا ضاقت عليه السُبُل   وعزّ في الارض عليه المقام
أوى الى كهفٍ بسفح الجبل   عساه يقضي ليله في سلام

ما كان إلاّ حلُماً كاذبا   أفاق منه مستطير الجنان
البحرُ يرغي تحته صاخبا   والشهبُ نارٌ والدياجى دخان

الارضُ من أقطارها راجفه   كأنما طاف عليها المنون
تضجّ في أرجائها العاصفه   كأنما الناسُ بها يحشرون !

ثم استقرّ العالمُ الثائرُ   وأقبل النورُ وولّى الظلام
واعجباً مما يرى الشاعرُ   كأنما أمسى بوادي الحِمام !

بدت له الارضُ كقبرٍ عفا   إلاّ بقايا رمّةٍ أو حجر
قد أصبح القاعُ بها صفصفا   فما عليها من حياةٍ أثر

مررتُ بالبلدانِ مستعبرا   أبكي الحضاراتِ وأرثي الفنون
أنقاضُها تملأ وجه الثرى   وكنّ بالامس مثارَ الفتون !

أتى على اليابسِ والاخضرِ   الموجُ والنوءُ وسيلُ الحُمَم
يا رحمةَ اللهِ اهبطي وانظري   ما حصدَ الموتُ ودكّ العدمْ ! !

أيستحقّ الناسُ هذا العقاب ؟   أم حانت الساعةُ من نقمتك ؟
ما احتملوا يارب هذا العذاب   الاّ رجاء الفوز من رحمتك ؟

أما ترى منفرجاتِ الشفاه   عن آخر الصيحات من رعبها ؟
ما زال فيها من معاني الحياه   إيماءةُ الشكوى إلى ربها !

وهذه الأعينُ نهبَ العفاء   في رقدةِ الموت كأنْ لم تنم
محدّقاتٍ في نواحي السماء   تُشهدها على الأسى والألم !

وهذه الايدي تحوط الصدور كأنها في موقفٍ للصلاة
لم تنفس في نزع الحياة الفرور ضراعة ترسمها للالَه !

ما عرفت في صعقات الردى إلاك من غوثٍ ومن منجدِ
ولا سرى في الارض منها صدى إلا ودوّى باسمك الأمجدِ !

أعبرة تذكرها كلَّ حين للعالم الذاكر إمّا نسي ؟
أم ضرباتٍ قاسياتٍ تلين بهنَّ قلب الفظ والأشرسِ ؟

أم موجة الطهر التي تغسل مآثم الكون وتمحو أذاه
يا رب ضقنا بالذي نحمل حسبُنا آلامُنا في الحياة !!

ألم تطهّر ذلك العالما من كل عاصٍ أو غوي جموح ؟
ما غادر الموج به قائما يوم احتوى الاعلام طوفان نوح !

إذاً فما للناس ضلّوا الهدى ؟ وأخطأوا اليوم سبيل الرشاد ؟
لعلّ نوحاً أخطأ المقصدا فأغرق الخير ونجّى الفساد !!

يا ليته لما دعا بابنه وحالت الأمواج أن يسمعا
لجّ عليه القلب في حزنه فلم يرَ الجودي لمّا دعا !!

يا أرض ولّى عهد نوحٍ وزال فمن لك اليوم بطوفانه
مسكينة تطوين بحر الليال قد عزّك المرسى بشطآنه !

إلامَ تطوين عباب السنين شوقاً إلى فردوسك الضائع ؟
غررتنا يا أرض بما تحلمين فاستيقظي من حلمك الخادع !!

وابقي كما أنت على موجه تمزّق الانواء منك الشراع
يقذفك التيار في لجه عشواء لا يهديك فيه شعاع !

سلي القداسات وأربابها ضراعة تصغي اليها السماء
أو فاطرقي بالبث أبوابها لعلها ترفع عنك الشقاء !

يا أيها الغادونَ والرائحونْ ... في شُعَبِ الارضِ وليلِ الهمومْ
تُمسون أشتاتاً كما تصبحونْ ... والشمس حيرى فوقكم والنجوم!

مُدُّوا لها الايدي وولُّوا الجباه ... وأرسلوها صيحةً واحدهْ
قولوا لها : يا من شهدتِ الحياه ... من أينَ تلك النظرةُ الجامدهْ؟

من أين تلك النظرةُ الهادئه؟ ... والقسماتُ المشرقاتُ الجبينْ؟
هل أنتِ من آلامنا هازئه؟ ... أم أنتِ يا أعينُ لا تُبصرينْ؟!

أم هكذا أوحى اليكِ القضاءْ ... فما عرفتِ الحزنَ والأدمعا؟
يا أيُّها الناس اضرعوا للسماءْ ... قد آنَ أن تُصغي وان تَشفَعا!

هاتوا الازاهير وهاتوا الغصون ... وكلَّ ما يحلو وما يجمل
قد آن أن تُفضوا بما تشعرونْ ... فأشعلوا النارَ بها أشعلوا!!

أوْ فاملأوا من زهرها اليانع ... مجامرَ النار وألقوا البخورْ
وردِّدوا في ذلّة الضارعِ ... انفاسكم نشوى بتلك العطورْ

أحببْ بها من أنّةٍ عاطرهْ ... في مسمعِ الأملاك إذ تصعدُ
أصداؤها الرفّافة الحائره ... في وجهها الآفاقُ لا توصدُ!!

يا أرض ناديتُ فلم تسمعي ... أأنكرتِ صوتي وهو من قلبكِ
لا تَفرقي مني ولا تفزعي ... من شاعرٍ شاكٍ الى ربّكِ

أيَّتها المحزونةُ الباكيهْ ... لا تيأسي من رحمةِ المُنقِذِ
لعلَّ من آلامكِ الطاغيهْ ... إذا دعوتِ الله من منقذِ!

فابتهلي لله واستغفري ... وكفّري عنكِ بنار الألمْ
وقدّمي التوبةَ واستمطري ... بين يديهِ عبراتِ الندمْ!!

في اي طريق نساق الحضارة ؟

الازمة الاقتصادية : بواعثها واحتمالاتها الاخيرة

لاسماعيل مظهر

تمهيد

لكل عصر من العصور ، حتى العصور التي ساد فيها الرخاء المالي وتيسرت الارزاق ، ازماته الروحية . غير ان للازمات الروحية ،بتدءاً وخبراً كالجملة الصحيحة في تركيب الكلام. ولقد بدأت الازمات الروحية العنيفة تتكون في بداءة العصر الانتاجي ، وظهرت في صور عديدة أهمها انقسام الجماعات الى شطرين كبيرين ، العمال واصحاب الاموال ،وكادت الآن تصل الى النهاية او بالاحرى كادت يكون لها خبراً — ينذر الاجتماع الانساني بانقلاب خطير في نظمه الاقتصادية والمدنية

وللازمات الاقتصادية ازمات روحية تصحبها . حتى ان من شأن الازمات الاقتصادية ان تحدث ازمة روحية لها مظهر خاص . غير ان العوامل الروحية في الازمة العالمية الحاضرة قد بلغت حداً لن يفلت معهُ النظام الحاضر من انقلاب خطير . وهذا امر ينبغي على كل باحث في الازمة الاقتصادية واحتمالاتها أن لا يخرجهُ من حساب التقدير النظري الذي يقدره للنتائج التي سوف تجر اليها الازمة الحاضرة

سوف ينتهي النظام الرأسمالي من حيث بدأ . بدأ بالانتاج الصناعي وسيحطمه الانتاج الصناعي . بدأ باختراع الآلات وسوف تقضي عليهِ الآلات . بدأ باستجماع رؤوس الاموال وسوف تقتله رؤوس الاموال. بدأ بالقضاء على الوحدات الصناعية الصغيرة التي كانت تنتج على قدر استهلاك الاسواق ان لم يكن اقل ، وهو ينتهي بوحدات صناعية كبيرة ، انقلبت بعد الحرب العالمية من التصنيع الكبير الى اتحاد صناعي تختص به كل امة من الامم . فان معاهدات السلم الحربي وضعت في الحقيقة قواعد الحرب الاقتصادية . فالحواجز الجمركية احدى نتائج تلك المعاهدات . وادمان التسليح نتيجة اخرى . اما كبرى النتائج فتنحصر في ان معاهدات السلم خلقت ممالك جديدة هي عبارة عن وحدات سياسية مستقلة استقلالاً تاماً ، ولكنها لا تكوّن وحدات اقتصادية مستقلة . فبولونيا مثلاً وحدة سياسية كاملة الاستقلال، ولكنها لم تكوّن وحدة اقتصادية بعد . لان نظامها المالي كان متعلقاً بنظام ثلاث دول هي روسيا والمانيا والنمسا . فبدأت تسعى الى نيل هذا الاقتصاد المالي فاخذت تقيم الحواجز الجمركية وتشجع

الصناعات الوطنية الاهلية. فترتب على ذلك نتائج ثلاث. الاولى زيادة الانتاج في بولونيا. الثانية قلة الاستهلاك والصادر، لان غيرها حذى بالضرورة حذوها في الانتاج. الثالثة فقدان متاجر العالم سوقها في بولونيا للحواجز الجمركية التي رفعتها حولها. وكذلك الحال اذا نظرت في كل الممالك الحديثة التي خلقتها معاهدات السلم. وهذا «الاحتكار» لا بد ان يقابل من بقية دولات العالم القديمة باحتكار مثله. وحتى نحن في مصر بدأنا نحتكر اسواقنا تحت ضغط السيل الجارف في اوربا. فكأن العالم كله يناصر الآن عوامل الازمة الاقتصادية، ويقوي في النفوس بواعث الازمات الروحية. وكأن المدنية تعود الى الصورة القديمة التي نشأت منها الحضارة الحديثة. تعود الى نظام الوحدات الانتاجية المستقلة. ولكنها بعد ان كانت في «البيت» اصبحت في المعمل ومن المعمل الى مجموع معامل تشملها مملكة واحدة، مستقلة استقلالاً سياسياً، ولكنها غير مستقلة استقلالاً اقتصادياً. وفضلاً عن هذا فهي تنتج اكثر مما تستهلك وتكدس البضائع والاموال، في حين ان البضائع لم تصنع الا لتستهلك، والاموال لم تكن الا للتعامل

كيف نشأت الحضارة الرأسمالية

جرت عادة الباحثين ان يقسموا تاريخ نشأة النوع البشري الى عصور يمتاز كل عصر منها باستعمال مواد مخصوصة يدل استعمالها على ان الانسان قد بلغ طوراً خاصاً من الرقي والنماء. ولقد ارضى هذا التقسيم كل الباحثين في نشأة الانسان وتكوين الشعوب، لان ذيوع استعمال مادة من المواد قد اتخذ دليلاً على ان الانسان قد بلغ من الرقي مبلغاً يقاس به مقدار تمدنه واتساع أفق معرفته وثقافته. ومع هذا فان انتقال الانسان من عصر استعمال الحجر الخشن الى العصر الظراني القديم ومنهُ الى العصر الظراني الحديث، ومنها الى استعمال النحاس ثم البرونز ثم الحديد، ولو انهُ يدل على ان الانسان استطاع ان يتقدم في اطوار متمايزة محدودة، فان هذا التقدم لا يمكن ان يعتبر تطوراً اساسياً عنيفاً في الحالات التي قامت عليها الحياة البشرية. وظلت الحياة البشرية قائمة على الاسس التي قامت عليها منذ ان درجت جماعات الانسان البدائية فوق هذه الارض وعلى مدى الازمان التي تقلب الانسان خلالها في حجر المدنيات المتعاقبة. ولقد يظهر الامر عجيباً مذهلاً اذا انت عرفت ان الانسان ظلّ يعيش ويعمل على نفس القواعد البدائية التي وضعها اسلافه منذ اقدم العصور التي يرجع اليها تاريخه الطويل حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولم يستكشف خلال تلك الدهور الطويلة من استكشاف استطاع به ان يؤثر في الرابطة التي تربط الانسان ببيئته الطبيعية. فمنذ بداءة العصر الظراني قاوم الانسان الطبيعة بقوة عضلاته، وحاول ان يذللها بمهارته مع الاستعانة عليها بالحيوانات التي استطاع ان يؤلفها حتى ذلك العهد. وظل الانسان على هذه الحال حتى شارف القرن الثامن عشر على الانتهاء

غير ان حادث عظيماً وقع اذ ذاك في حياة الانسان فنكث فتله وقلب آيته وغيّر موقفه من الطبيعة تغييراً كليًّا . فقد استكشف او بالاحرى اخترع « الآلة » التي تدار بالقوة الذاتية « اي الاتوماتيكية » . وان شئت فقل انهُ استطاع ان يبعث من العدم قوات جديدة خارجة عن قوة عضلاته وعن قوة الحيوانات التي كان يستخدمها في العصور الاولى ولم يقف الامر عند هذا . بل انه استطاع ان يبعث من تلك الآلات « قوات » عظيمة لا تعرف حدًّا تقف عنده ولا نهاية تنتهي اليها . وامكنهُ مع هذا أن يخضع هذه القوات لا لقوات عائلها، بل لافراد من نوعه، واذا شاء فلارادة فرد واحد ، وتسنّى له ان يحبس هذه القوات في اقل فراغ ممكن من المادة وسخّرها لارادته المطلقة تسخيراً

وكان الانقلاب عظيماً .فان علاقة الانسان ببيئته الطبيعية قد تغيّر تغيراً كليًّا .فقد تبدّل من الضرورة التي كانت تدعوه الى مغالبة الطبيعة ومجالدتها بقوة عضلاته ،عزلة بعيدة عن الطبيعة فيقف دونها ينظر نظر المتفرج الى آلة مستعبدة قد استخزنها قدراً عظيماً من القوة تتحرك كيفما شاءت ارادته .فبجذب ذراع حديدي او ضغط على زر بسيط تدوي الآلات دويها الدائم وعلى غير انقطاع . وهذا انقلاب لم يشهده الانسان في كل ادوار تاريخه القديم والحديث . ولم يبلغ اي انقلاب انساني من الاثر مبلغ هذا الانقلاب . وحتى اختراع المطبعة واستكشاف المفرقعات . فانها من المخترعات التي غيرت من علاقة الانسان بالانسان ، ولكنها لم تؤثر في علاقة الانسان بالطبيعة اقل تأثير

ولكن كيف استطاع الانسان ان يتخلص من آثار النظام الاقطاعي الذي قمع كل فكر ونكّل بكل حافزة من حوافز الهمة الانسانية ، ليفوز في النهاية بالحرية التي مكنته من ان يعيش لنفسه فيؤسس الصناعات ، ويخترع في النهاية تلك الآلات التي كونت وجهاً جديداً من اوجه المدنية التي لم يعهد لها الانسان مثيلاً من قبل ؟ والواقع ان الانسان بدأ يكوّن النظامات التي أدّت الى تحريره منذ أن أخذت الامبراطورية الرومانية في الانحلال ثم السقوط

استولت الامبراطورية الرومانية على اطراف العالم المعمور او بالاحرى المعروف حتى ذلك العهد . فعمرت نواحي مقفرة في اوربا والشرق وكانت مظاهر العمار والتمدين على اروعها فيما جاور روما من بلاد ايطاليا وفيما جاور ايطاليا من اوربا . فمهدت السبل وانشئت الطرق العسكرية في نواحي الغال وفرنسا ، وامتدت الى جبال الألب حتى سهول ايطاليا الشمالية . وبنيت المدائن العظيمة على ضفاف الرون والسين ، واقيمت السدود المائية العظيمة واقيمت معاهد العلم والمكاتب العامة والهيا كل . ولقد تناول التمدين الروماني كل ناحية من نواحي الشعوب التي استقوت عليها روما حتى ان اهل بلاد الغال وغيرها من البقاع الاوربية التي نشر فيها النفوذ الالماني ، كانوا يفخرون بانهم رومان لحماً وعظماً ودماً

غير انهُ فيماوراء نهر الرين كانت تعيش قبائل من البرابرة المتوحشين كان افرادها كثيراً مايعبرون النهر جماعات كبيرة وينهبون ماتصل اليه ايديهم من مغاني تلك البلاد التي كانت حضارتها ماثلة أمامهم على ضفة النهر الاخرى . غير ان التخوم كانت تحميها سلسلة متصلة من المعسكرات الرومانية . ولكن هؤلاء «الالمان» لم تكن لديهم من عدة السلاح والدروع ما يستطيعون به الاستقواء على الفيالق الرومانية الكاملة العدة التامة الدربة . وعاش اهل الغال كما عاشت بقية الشعوب التي ظلّلها النفوذ الروماني في أمن ودعة ، ففقدوا مع الزمان صفاتهم الحربية ، مكتفين بان يؤدوا الجزية لروما ، ما دامت روما قائمة على حراستهم والدفاع عن تخومهم ان تجتاحها قبائل الالمان المتوحشة

ولكن جاء عصر اخذت يد التبديد تمتد فيه الى الجزية التي كانت تؤديها الشعوب المحكومة لروما . فلم يكن يرتدّ منها شيء الى تلك البلاد لينفق على التعمير والانشاء او الانفاق على الفيالق العسكرية التي كانت تقوم بمهمة الدفاع عن اطراف الامبراطورية . ونضب بعد ذلك معين الذهب الذي كان يسيل الى روما من نواحي الامبراطورية الشاسعة الاطراف

فأخذ الفقر ينوء بقوته ويشرف بهامته البغيضة على حكومة روما ، ومع هذا ظلت حكومة روما على اسرافها وتبذيرها المعروف . فالحرس «البريتوري» كان يجب ان يتناول مرتباته . والعاطلون الذين كانوا يملأُون شوارع روما من الغوغاء واهل اللهو ، كانوا لابدّ من ان يطعموا خبزاً ولحماً شواء ، ويستنيروا باغلى انواع الزيوت ويلهوا في افخم المراقص ويتسلوا بمختلف المشاهد . كما هي الحال الآن تماماً في اكثر ممالك العالم المتمدين . فعمدت حكومة روما الى الضرائب تزيد منها وتستزيد ، واضطرَّ حكام الاقاليم بحكم القوة ان يزوّدوا روما بمبالغ من المال كبيرة تلقاء احتفاظهم بمناصبهم وبقائهم فيها اسواط عذاب على الناس . كما هي الحال تماماً في بعض نواحي العالم الآن . واخذت التهم تلقى جزافاً على الاغنياء لتكون وسيلة الى مصادرة املاكهم . واخذ البوليس الحكومي يجمع الغلال من الغيطان بالقوة سداداً لضرائب الحكومة الفادحة . فخربت المزارع الفاخرة واقفرت الغيطان العامرة ، لان الناس قد عرفوا بالتجربة انهم انما يعملون لغيرهم ، وان ثمار مجهودهم قد يؤخذ منهم في اي وقت من غير سابق انذار ومن غير حق . واخذت مظاهر الخراب تبدو شيئاً بعد شيء . فنبتت الحشائش الطفيلية في مزارع القمح المهجورة ، وخربت المدن وبدأت النباتات تنمو في طرقها ومسالكها ، وفوق جدرانها وهياكلها ، وأخذت الوحدات الرومانية التي كانت تقوم بحراسة بلاد الغال من غزو البرابرة ، تنحلُّ وحدة بعد اخرى ، ثم اخليت من الجنود ، لان الحكومة عجزت عن ان تحتفظ بالفيالق التي كانت تحرس شواطئ نهر الرين من غزو « الالمان » . ولم تكد تخلو المعسكرات من الخوذ الرومانية ، حتى انهمر في اثرها سيل عرم في محاربة البرابرة ، يجتاحون

المدنية التي أقامها قيصر ، ويعبثون بالقوانين المقدسة التي شرعتها روما العظيمة

وكانت الجيوش الغازية مكونة من رجال احرار ، لاهم بالجند المنتظم ، ولاهم بالعبيد . بل كانوا محاربة تتبع ضابطاً مغامراً او رئيس قبيلة، لها في الحرب عاداتها وتقاليدها. وكانت الغنائم التي تستولي عليها كل جماعة منهم ملكاً لها وتقسم بين افرادها على قاعدة مرعية . وكانت حصة الملوك من الغنيمة كبيرة ، ولكنهم ما كانوا يحصلون على اكثر من حصتهم فيها . وكان المحاربون الذين لا يرتدّون بعد الغزو الى بلادهم الاصلية، ويفضلون البقاء في الارض المغزوة ، يقسمون الارض فيما بينهم كما يقسمون الاسلاب الاخرى من مواشٍ وعبيد وذهب وحلي وأوانٍ وأبسطة وأقمشة وغير ذلك. وكان جزء كبير من الارض يبقى من نصيب الملك. واجزاء اخرى تقسم بين القواد والضباط على نسبة عدد الرجال الذين يتبعونهم الى ميدان القتال. وكل جندي ينال من الارض حصته بالتساوي مع غيره من الجنود . غير ان الجيش المحارب ولو انه يكون في هذه الحالة قد انحلّ ، الاّ انه لم يمح من الوجود. فان افراده يبقون خاضعين للقانون العسكري. وكان القواد او «البارونات» يبقون تابعين أو خاضعين لسلطة الملك اذا هو دعاهم الى القتال ، كما كان الجنود يظلون خاضعين لقوادهم وضباطهم . وكثيراً ما كان يحدث ان يعطي الملك او البارون قطعاً من الارض الى المقربين منهم او صنائعهم بشروط تشابه شروط التبعية الحربية التي شرحناها. ثم تغير الحال بعد ذلك فاستبدلت التبعية الحربية بقيمة من المال تدفع سنوياً كبدل حربي تلقاء الانتفاع بالارض وبذلك بدأ نظام «الايجار» يدخل في النظام المدني، ونظام الايجار هو الذي كوّن طبقات البورجوا والبرولتيارية ، كما عرف في المباحث الاشتراكية الحديثة

ولما غزا الالمان نواحي بلاد الغال الفسيحة واستوطنوا اطرافها، اخذوا يحصنون القصور القديمة أو بعض المدن الصغيرة ويتخذون منها معاقل يحتمون بها ويستجمعون فيها ثرواتهم. وليس لنا من شأن هنا بشرح الحياة العائلية التي كانت تحياها البارونات داخل هذه القصور ولا أن نتمادى في شرح حال الفقراء من المزارعين . بل شأننا يرجع الى الكلام في تأسيس نظام «الايجار» وهل له من علاقة بنشوء الصناعات اليدوية والصنّاع . والذي يتبادر الى الذهن ان قيام نظام «الايجار» في أوروبا كان له أثر مباشر في نشوء الصناعات وظهور فكرة الصناع. لان المعقول ان يكون المستأجر لقطعة من الارض اكثر حرية فيها مما لو كان تابعاً تبعية حربية لرئيس حربي . وانهُ في هذا الجو يمكن ان تنشأ الصناعات بازدياد توزع الثروة والاخلاد الى حياة مدنية اكثر استقراراً من الحالة الحربية . ولكن الحقيقة على الضد من هذا . في عصر الجمهورية الرومانية وفي عصر الامبراطورية، انحصرت الصناعات، رفيعة ووضيعة، في يد العبيد . فكانت كل الحاجيات التي يحتاج اليها في القصور تصنع في هذه القصور وبيد صناع من العبيد مرنوا عليها واتقنوها. غير انهُ قبيل الغزو الالماني لنواحي الامبراطورية الرومانية

نشأت طبقة من الصنّاع على جانب عظيم من المهارة وحبّ الاتقان ، يحتمل ان يكونوا من سلالة العبيد الذين تحرروا من يد اسيادهم الرومان في عصر الانحلال . غير ان المؤرخين ، وذوي الرأي منهم على الاخص لا يسلمون بهذا الاحتمال تسليماً مطلقاً ، وان كانوا يرجحونه مع ميل شديد الى القول بأن نشوء الصناعات والصناع صفحة غامضة في تاريخ اوربا . وبنشوء الصناعات اليدوية وظهور الصانع من ناحية ،وتثبيت مبدأ الايجار الزراعي من ناحية اخرى، تكوّنت المدنية الحديثة وظلت على صورتها الوادعة الهنيئة حتى اختراع الآلة الميكانيكية في اواخر القرن الثامن عشر ،

ولا شك مطلقاً في ان كل الانقلابات التي انتابت المدنية الحديثة والتي روينا طرفاً منها ، لا تزن شيئاً بجانب الانقلاب الكبير الذي تناول مسألة «الانتاج» و«العمل» ،ذلك الانقلاب الذي يسمى عند مؤرخي العصر الحديث «بالثورة الصناعية» والسبب في هذا انهُ انقلاب تناول اعماق الحياة البشرية . فان اثره لم يقتصر على حياة العمال وحالات الصناعة واساليب الانتاج ولم يقف عند حد تغيير المنتوجات التي كان يستعملها الانسان ، وطبيعة البيئة واخلاق العامل ،بل تعدّى كل ذلك الى دولاب الجماعات انفسها،اذ احدث نظامات جديدة اصبحت على اعظم جانب من الخطورة للحياة الانسانية ، وقضى على نظامات قديمة سايرت خطى التقدم الانساني منذ فجر التاريخ،فكان هذا الانقلاب بطبيعته اكبر ثورة اجتماعية وقعت للانسان. وبدأت في الافق سلسلة من المؤثرات يتلو بعضها بعضاً على التتالي ، وليس يعلم احد الى أي غاية سوف تؤدي بأبناء آدم وحواء

انحصر الانتاج الصناعي قبل «الثورة الصناعية» في ايدي الافراد . وكان المنتج صانعاً مستقلاً ويعني بهِ صانع يستطيع ان يخرج من مقدار من المادة الخام سلعة من السلع . كما كان توزيع العمل مقصوراً على مقدار ما يحتاج اليهِ كل صانع من مهارة غيره في صنع المادة التي تنحصر فيها صناعته . وكان اكثر المنتجين ، او كان عدد كبير منهم هو الاغلبية المطلقة من الصناع المشتغلين الذين يخرجون من بين ايديهم مصنوعات كاملة يبيعونها مباشرة او بواسطة العملاء. فكانوا يعملون تحت تأثير حالات هم اصحاب الحرية المطلقة في خلقها وتكوينها ، ويحددون بمحض اختيارهم مقدار الربح الذي يظنون انهُ يتكافأ مع جهدهم.وكانوا في حالات اخرى اشبه بالمهاجرين الذين يعملون طوال هجرتهم بأجر معلوم محدود . ولكنهم كانوا دائماً يجدون عملاً ان لم يكن كلٌّ بمفرده ، ففي جماعات صغيرة في حوانيت متوسطة السعة . فاذا كانوا اجراء ، كان صاحب العمل الذي يأجرهم صانعاً مثلهم يقف موقفهم ويعمل عملهم . ولم تكن المؤسسات الكبيرة لتخرج عن حكم ذلك . فان « وجوود » صاحب معامل الخزف المعروفة في انكلترا وجد « شارلز داروين» المعروف، كانا امهر الصنّاع في مؤسستهما الشهيرة (لها تتمة)

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

والآن وقد وصلنا الى معالجة المذاهب السياسية الحديثة التي لها اتصال وثيق بالجيل الذي نعيش فيهِ فقد رأينا اختصاراً للوقت وجمعاً لشمل الموضوع المتشعب وتسهيلاً على القارىء ان نكون اكثر تقيُّداً بالخلاصة البديعة التي نشرها الاستاذ (كول) في «موجز المعارف الحاضرة» الاَّ حيث تلجئنا الضرورة الى ذكر ما لا محيد عن ذكره

《هيجل وماركس》 : بينما كان (جرمي بنثم) يؤيد مذهبه الفردي في بريطانيا ويقول باعطاء اكبر قسط من السعادة لاكثر عدد من الافراد كان (هيجل) الفيلسوف الالماني المتوفى سنة ١٨٣١ ينشر في القارة الاوربية مذهبهُ وهو ينطوي على تمجيد سلطان الدولة وحمل الفرد على أن يحقق وجوده وينشد سعادته ليس في مصلحتهِ الفردية فقط بل فيما يبذلهُ للمصلحة العامة من المساعي في الدولة وهو الاهم . وفي نظر (هيجل) ان الدولة سرّ الاسرار وقدس الاقداس يجد الناس فيها اطايب الحياة ويحققون اسمى الغايات لاغرو انهُ الحّ في القول بوحدتها واطلاق يدها والخضوع لمشيئتها مما يؤيد النظام الاستبدادي الاوتوقراطي ، ولما ذكر اختلاف مواهب الناس فيما لهم من طاقة على خدمة الدولة ايَّد المظامية لانها قائمة كما ذكرنا على ما تدعيهِ من ميزات تميزها عن سائر الخلق وتجعلها اهلاً للتحلي بادارة الدفة السياسية . وعنده ان الحكم على اهلية الدولة يتوقف على مقدار قوتها فهو والحالة هذه ممجد للحرب مؤيد للبسطة السياسية باعتبارها وسيلتين تتوسل بهما الدولة لتحقيق وجودها . ولما كانت الدولة في فلسفته هي اثمن مشروع اخرجهُ الناس الى حيّز العمل فلا بدع ان هزأ بنظرية «تآخي الانسان» وضحك من القول بتأليف «الاسرة البشرية» على سطح الارض . وانى لهُ مثل هذه العاطفة وعندهُ أن الدولة الواحدة مصفوفة في وجه الدولة الاخرى صفَّ الجيوش المتبارزة للقتال

اما مذهبهُ في الارتقاء فيلخّص في قوله ان الاصل في الاشياء هو « الفكرة » وان المادة انما هي صورة منعكسة عنها ويتم الارتقاء بتحقيق هذه « الفكرة » بصورة تدريجية طريقتها ان يحصل تنازع في كل مرحلة بين الفكرة السائدة المتغلبة والفكرة التي تناقضها الى ان

تتولد من هذا الخصام بين الفكرتين مزيج من القديم والحديث — يعني الى ان تتولد فكرة جديدة من ازدواجهما معاً تتفوق عليهما كلتيهما ولكنها محكوم عليها بالانهزام ايضاً امام ما يستجدُّ من الافكار بطريقة هذا التنازع بين الافكار المتناقضة

﴿ كارل ماركس ﴾ استعار كارل ماركس رسول الاشتراكية هذه النظرة النشوئية التدرجية ولكنهُ عكسها رأساً على عقب فهو لم يعتدّ « بالفكرة » ولا حسبها اصل الاشياء كما فعل (هيجل) بل قال ان العامل المؤثر في النشوء الاجتماعي هو (القوى المادية المنتجة) التي تتجهز بها الجمعية البشرية — يعني ان ينابيع الثروة التي يستخدمها الانسان من اراض وآلات واجهزة ... كل ذلك يكسب الناس شكل الحياة الاجتماعية التي يتمتعون بها فتكون الافكار المنتشرة بينهم نتيجة ما هم عليهِ من الطرائق الانتاجية التي توصلوا اليها ، فاذا كانت هذه الطرائق راقية دقيقة التركيب وكثيرة المحصول فالحياة الاجتماعية راقية على نسبتها والعكس بالعكس . فلا عجب ان تكون البلاد الصناعية ارقى من البلاد الزراعية وهذه ارقى من بلاد المراعي . والخلاصة ان (ماركس) يقول ان وسائل الانتاج في المجتمع وما يبنى عليها من العلاقات بين الناس تؤلف النظام الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية وهذا النظام هو العامل الاساسي في تكوين النشوء العقلي في الشعوب . فهيجل كما ترى ابتدأ بالعقل وجعل المادة صورة منعكسة عنهُ . ويدعى مذهب ماركس في الفلسفة « التعليل المادي للتاريخ » وقد أبان فيهِ الاطوار التي مرّ عليها المجتمع منذ ما استولى على شؤونهِ اصحاب الاراضي الواسعة الى ان هبت الثورة الصناعية والتجارية فانتزعت الشيء الكثير من سلطتهم وانتهت الحال باندماجهما معاً في ادارة الحكم ، ثم شبّت الرأسمالية الصناعية وعملت جهدها لاستثمار ينابيع الثروة في الشعب مما حملها على حشر الالوف المؤلفة من العمال في المصانع وتدريبهم على النظام العملي المنتج . لكن عملها هذا اتاح لهم من القوة والفرصة ما ينظمون بهِ انفسهم في وجه اسيادهم الذين استخدموهم ، والخلاصة ان اضطرار الرأسمالية الى اتفاق مجهودها للحصول على اعظم الارباح ادّى الى نهضة العمال وانتشار مذهبهم الاشتراكي وما ينطوي عليهِ من تهديد يقض مضاجع الرأسماليين ودعاويهم الطويلة العريضة . وقد تنبأ ماركس عن العمال بقوله ان هذه الطبقة الخاضعة التي لا يحق لاحد ان يمنعها من تنظيم نفسها او يحول دون صيحاتها العالية بالاحتجاج ستثلُّ عروش الرأسماليين وتقضي على رأس المال باعتباره نظاماً اقتصاديًّا تعيش تحت لوائهِ الشعوب . وستفعل ذلك لانها على قوله اصلح من الرأسماليين في استثمار ينابيع الثروة واستخراج خيراتها، وبتغلب هؤلاء « الصعاليك » او « المساكين » لا تبقى ثمة طبقة مأكلة لغيرها، ومتى تألف المجتمع الخالي من الطبقات يزول الاستثمار وتزول معهُ حكومة الطبقة لتحل محلها الادارة المشتركة العامة التي تدير ينابيع الثروة في الشعب لمصلحة الجميع . وعلى العمال

ليس فقط ان يقبضوا على زمام الحكومة الحاضرة ويستخدموها لغاياتهم بل ان يمحقوها محقاً هي والطبقة الاقتصادية المستولية عليها ويحلوا محلها نظاماً يؤسسونه من جديد. وهنا تبتدئ الاختلافات بين الاشتراكيين فكل حزب منهم يولي وجهه شطراً — يعني ان اتفاق كلهم على ضرورة محق حكومة الطبقات تنفك عراها حالما يبحثون عن النظام الجديد الذي يجب ان يحل محلها وكيف يجب ان يتم التغيير ، فللاشتراكيين الدموقراطيين رأي سلمي تدرجي يتحقق بواسطة الانتخابات النيابية وللشيوعيين رأي انقلابي قائم على الثورة العالمية

ولد (كارل ماركس) في مدينة (ترير) بالمانيا في سنة ١٨١٨ ودرس الفلسفة والحقوق في مدينتي (بون) و(برلين) ونال شهادة الدكتوراه في (يينا) سنة ١٨٤١ وقد اضطهدته بلاده من غير أن تعرف ما سيكون من أمره حتى اضطر الى الهجرة منها فاجتمع في (باريز) بأهم أصدقائه (انجلس) وفي سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي امتازت بظهور كتاب « أصل الانواع » لدارون نشر ماركس كتابه « الذيل لنقد الاقتصاد » وقدر لكل من هذين الكتابين احداث ثورة في دائرته : ذاك في علم الحياة وهذا في علم الثروة العمومية. ويعد «البيان الشيوعي» الذي نشره ماركس بالالمانية في سنة ١٨٤٨ — وهو في خمس وعشرين صفحة — اول نص عالج الاشتراكية بطريقة علمية واضحة واخرجها من صف الفلسفة الخيالية والاحلام الذهبية ، وقد ختمهُ بالوعيد المشهور : فلترتعش فرائص الطبقات الحاكمة عند شبوب الثورة الشيوعية ، اما الصعاليك فليس لديهم ما يخسرون سوى السلاسل والاغلال ولكن امامهم دنيا يربحونها. اتحدوا اليها العمال في الآفاق

﴿ مذهب النشوء والاوضاع السياسية ﴾ عرضنا لدارون وأشرنا الى الثورة التي أحدثها مذهبه في علم الحياة وظن الناس لاول وهلة ان مذهب النشوء سيحلُّ معضلة السياسة ولكن نظرة واحدة في المذاهب المتباينة التي قال بها ائمة هذا المذهب تدل على خطأ أهل هذا الظن فسبنسر غالى في « الفردية » كما غالى (جرمي بنثم) من قبله ، ومعظم النشوئيين السابقين نظروا الى المجتمع وحدة او كتلة عضوية اكثر منه وحدة نفسانية اجتماعية. واهتم سبنسر منهم خاصةً بتنازع البقاء بين الناس فلا عجب ان يتصور الجمعية البشرية ميداناً يتصارع فيه الافراد فلا تكتب السلامة فيه الاَّ للاصلح او الاقوى ولكن زميله (توماس هكسلي) عدَّ المجتمع أداة مستحدثة في التدرج العمري غايتها الحيلولة دون هذا التنازع ومنعه من ان يطأ الافراد بقدميه القاسيتين من غير رحمة ولا شفقة . لذلك كانت وظيفة هذه الاداة الاجتماعية المستحدثة الاشراف والتنظيم والتدخل لتحويل الجمعية البشرية من دغل موحش الى حديقة غناء . اما (البرنس كروبوتكن) الروسي وهو من اعلام النشوئيين المتأخرين فقد خطا في هذا المضمار خطوة اوسع اذ حاول في كتابه « التعاون » ان يستخرج للاشتراكية اساساً مما تقتضيه الضرورة الحيوية البيولوجية من التعاون بين الناس كما بين الحيوانات . وتمسك غيره بالقول

ان المجتمع جسم عضوي ذو دماغ هو الحكومة فالواجب ان تخضع سائر الاعضاء لسلطة هذا الدماغ. وتدل الدلائل على ان هذه الطريقة النشوئية الاشتراكية التي قال بها البرنس كروبوتكن كانت أشد نفوذاً في أثرها من الطريقة الفردية التي تمسك بها سبنسر واخوانه

على ان الاسترسال في التشابه الحيوي بين المجتمع والجسم العضوي واغفال شأن العامل النفساني في جمع البشر وضم بعضهم الى بعض جعل مذهب النشوء قليل الفائدة . ولا مراء ان الطبيعة العلمية في أهل التحقيق تمل الخيالات والاستنباطات المتطرفة خصوصاً ما بني منها على التشابه السطحي . لا جرم ان العلماء طرقوا باباً جديداً لدرس المجتمع اساسه درس الحالة الراهنة وتصنيف الاوضاع البشرية ومقارنتها بعضها ببعض ودرس بناء العقل الانساني وفهم الطريقة التي يسير عليها

﴿السياسة وعلم الانسان والنفس﴾ لقد زوّدنا درس الاوضاع الاجتماعية الماضية والحاضرة منذ الانسان الاول الى اليوم بمعلومات نفيسة ، وكان لعلم الانسان في هذا المضمار النصيب الاوفر فانكشفت لنا عقلية الشعوب الفطرية ذات المدنية الابتدائية وظهرت نظمها الاجتماعية مما أهاب بعلماء السياسة المتأخرين الى الابتعاد عن الطريقة المنطقية والالتزامات العقلية النظرية في معالجة مثل هذه الشؤون وحدا بهم الى الاعتماد على «الحالة الراهنة» التي نجد عليها هذه الاوضاع سواء في الشعوب الراقية أم الشعوب الابتدائية . وان هذا الميل الى الامر الواقع امتزج حالاً بالملاحظات المتوفرة من درس النفس على هذه الطريقة الراهنة أيضاً التي لا شأن للتحكم العقلي فيها . وكان من نتائج هذا الدرس العلمي ان أصبح العلماء في شك (اولاً) من كلّ جواب يزعم أصحابه انه مقنع يفي بالردّ على السؤال: « ما هو الشكل الصحيح العام الذي يتخذه التنظيم الاجتماعي بقطع النظر عن الزمان والمكان ؟ » (ثانياً) من كل محاولة لفهم القضية السياسية على الطريقة العقلية المجردة . ولا يعني هذا الكلام ان علماء النفس والانسان طلّقوا العقل بتاتاً في هذه الدروس بل ان بعضاً منهم كالاستاذ (ولاّس) العالم المشهور هم من أهل المنطق البحت لانهم رأوا في اشراف العقل على الحياة الاجتماعية اوضح علامة على ارتقاء المدنية والامل الاكبر المعوّل عليه في النجاة . ومع كل هذا الاعتماد على العقل في ترتيب العلاج ومقاومة المرض فقد حملتهم المباحث الجديدة التي ذكرناها على النظر الى سير العمل في المجتمع البشري القديم والحديث بعين اقل احتفالاً بالمعقول والمنطق واكثر اعتداداً بالجزء اللاعقلي او الكيفي في البشر باعتباره عنصراً ضرورياً لتدوير دفة العمل في أية جمعية بشرية كانت . وقصارى القول انهم عرفوا أن الجزء الاعظم من اعمال البشر الاجتماعية هو بالضرورة غريزي اكثر منه عقلي ، وان الحكم على اشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي وما فيها من الخطط ليس بطريقة المنطق الاستنتاجي بل بنسبة ما لهذه الاشكال والخطط من الوقع الحسن في الغرائز والشهوات

﴿التوحيد في الدين والشرك في السياسة﴾ الاديان الراقية في العالم موحدة تؤمن بمرجع

أخير واحد ولكن السياسة على العكس تميل الى الشرك في هذا العصر . وقد دلّتنا ابحاث العلماء في مجتمع القرون الوسطى على شأن بعض الاوضاع والجمعيات التي اعربت عن الشعور الشعبي العام في تلك الازمان من غير ان يكون للدولة دخل في احداثها او في تنظيمها مما يفيد ان الدولة عامل واحد فقط من جملة عوامل متعددة في ادارة دفة الاعمال السياسية الاجتماعية وان كانت في الواقع أهم عامل من هذا القبيل ، فلا عجب ان حلّ الشرك السياسي محلّ التوحيد في اذهان الباحثين ولم يعد للدولة تلك الوحدانية المستقلة المتصرفة في شؤون الخلق . بل صار لها شركاء من الجمعيات المتنوعة التي يؤلفها الافراد باختيارهم في داخل الدولة

وتأيدت هذه النظريات الاستقرائية التاريخية في عصرنا بما استجدّ من النقابات الصناعية والمتحدات التجارية وتأثيرها السياسي خصوصاً تلك المؤسسات الرأسمالية الكبرى بحيث رأت اوربا واميركا انها وان كانت قادرة على وضع القوانين المتعلقة بهذه المؤسسات وبادارتها الاّ انها متى بلغت درجة التنفيذ وجدت نفسها عاجزة لا قبل لها بمقاومتها مقاومة صحيحة وانزالها على حكمها . واكتفى المشترعون في العصر الفكتوري في انكلترا بأن ينظروا الى المتحدات التجارية انها نقابات تكرّمت عليها الدولة بالتمتع بحق الوجود وان ليس لها من الحقوق الاّ ما جادت به عليها تفضلاً ، بيد ان هذه المتحدات اخذت تثبت استقلالها مدعية حق العمل باسم اعضائها ولو بالاضراب رغم الاوامر الرسمية

وتبدو للناظر في غضون السنوات الاخيرة التي سبقت الحرب الكبرى موجة من اضطراب للعمال اكتسحت العالم الصناعي وحملت بين طياتها عداء لفكرة الطريقة البرلمانية القديمة . وقد انبعثت هذه الموجة من نظريات ترمي الى بناء الحياة الاجتماعية المستجدة ليس على الاساس البرلماني القديم بل على المتحدات والنقابات وغيرها من الجمعيات الاقتصادية في جوهرها القائمة على فكرة العمل او الوظيفة باعتبارها مصدر الحياة في المجتمع ، فهذه الديمقراطية (الوظفية) بما لها من البناء الاجتماعي المتنوع اخذت تتحدى النظرية الديمقراطية البرلمانية القديمة وما استنته من القول «صوت واحد للفرد الواحد» لان هذا « الصوت » يجب الاّ يعطى للفرد باعتباره فرداً بل للفرد باعتباره عاملاً منتجاً . ولم تمر هذه الموجة من غير ان تترك اثراً ظاهراً في خارج الحلقات الاقتصادية الصناعية ، حتى أن زعماء الدين في ديار الغرب اخذوا يؤيدون استقلال الكنيسة وضرورة خروجها من وصاية الدولة كما تنحو كثير من الجامعات العلمية الكبرى هذا النحو ايضاً ، وينفخون فيها روحاً جديدة باعطاء الدين مقاماً في حياة المجتمع مستقلاً عن حياة الدولة ومعادلاً لها في مستواها ، وكانت هذه السنون حافلة بالخطط العملية والنظرية لبناء حياة المجتمع ليس على قاعدة « صوت واحد للفرد الواحد» بل على اعتبار الجمعية البشرية مركباً متناسباً مؤلفاً من وظائف متنوعة كل منها يحتاج الى تنظيم خاص

(البقية في باب الاخبار العلمية)

اشراف بلاد العرب

اشراف ابو عريش وآل عائض والادارسة(1)

لفؤاد حمزة بك وكيل خارجية الحجاز

— اشراف أبو عريش

إنّ تاريخ شرافة أبو عريش قديم غير ان معلوماتنا عنهُ ناقصة جدًا . ويرجع أساس الشرافة الى الاختلاف الذي كان سائداً بين سكان جبال اليمن وعسير وسكان التهائم . فان الاولين تشيعوا وتبعوا الامام زيد بن علي وظل أهل التهائم شوافع سنيين. فنشأ عن الاختلاف مشيخات قبائلية موضعية في اماكن عديدة أهمها حكومة زبيد التي كانت تشرف على شؤون الشوافع في تهامتي اليمن وعسير وتدفع أئمة صنعاء الزيديين عنهما

بدأت شرافة ابو عريش تظهر منذ احتلال الجيوش العثمانية لجنوبي الحجاز ولعسير واليمن ففي عام ١٠٠٦ هـ (١٥٩٧ م) اتفق مشايخ تهامة وفيهم شريف ابو عريش على القيام ضد الوالي العثماني حسن باشا الذي تولى من ٩٨٨ — ١٠١٣ هـ (2)

وجهز الترك حملة بقيادة احد موظفيهم واشترك فيها بعض اشراف ابو عريش وصبيا للاستيلاء على صعدة ، فالتقى بها جنود الامام الزيدي قبل وصولها وأفنوها وهرب قائدها الى الساحل عام ١٠٢٤ هـ (3) . وفي عام ١٠٤٤ هـ ، ثار امام صنعاء على العثمانيين وتمكن صالح بن احمد المؤيدي من ضبط ابو عريش من ايديهم ومن الاستيلاء على صبيا والحاقها بالامام الزيدي (4)

وبعد ذلك بخمس سنوات ارسل والي مصر قائداً جديداً الى اليمن اسمهُ احمد قانصوه فتمكن من استعادة الترك وصبيا وابو عريش من أيدي أئمة اليمن الى حظيرة الدولة العثمانية (5)

وتنقطع عنا اخبار شرافة ابو عريش الى اوائل القرن الماضي حينما ظهرت الدعوة السلفية في نجد على يد حكومة آل سعود الاولى . فان الدعاة نشروها بين قبائل عسير وجنوبي الحجاز وتبعها اكثر قبائل عسير السراة وعسير تهامة ، وكان سعود بن عبد العزيز يحشد قبائل عسير تحت امرة عبد الوهاب بن عامر المسمى ابو نقطة رئيس أمير عسير ورجال المع ويرسلهم تارة الى

---

(1) هذا هو الفصل الرابع عشر من كتاب الاستاذ فؤاد حمزة بك وكيل الخارجية في حكومة المملكة العربية السعودية عن تاريخ نجد والحجاز رأينا نشره على ذكر ما تحدثت به الصحف عن قاطعة عسير والادارسة . والكتاب يطبع بالمطبعة السلفية بمصر الآن

(2) كتاب ظهور ائمة صنعاء تأليف ا. س. ترشون ص ٧

(3) » » » » » » » » ص ٦٩

(4) » » » » » » » » ص ٨٧

(5) » » » » » » » » ص ١٠٢

الحجاز وطوراً الى اليمن وهذه القبائل هي التي فتحت اللحية والحديدة [١]

ففي عام ١٢٢٤ كان صاحب ابو عريش الشريف حمود ابو مسمار وكان قبل ذلك قد بايع سعوداً وحالفهُ ودفع عشوره اليه واوفد ابنه الى الدرعية لزيارته . ثم حصل بينهُ وبين عبد الوهاب امير عسير السراة نزاع ادى الى رفعه الى سعود للاصلاح بينهما فلم تنجح وساطة سعود في ذلك . فاصدر امره الى الشريف حمود لكي يجهز قوة ويذهب بها الى صنعاء فلم يفعل . فحقد سعود عليهِ وأمر القوات بالمسير لقتاله . والتقت القوات ، قوات آل سعود وفيها قبائل عسير ورجال المع واهل الوديان وأهل بيشة وقحطان وشهران ، وقوات الشريف حمود وفيها دهم وحاشد وبكيل وهمدان ويام ، في وادي بيشة . فقتل عبد الوهاب امير عسير في الوقعة الا ان الغلبة كانت لعساكر آل سعود ، ففرَّ الشريف حمود الى تهامة ولجأ الى حصنهِ ابو عريش واحتلت العساكر بلاده صبيا وجيزان [٢] . وفي العام المقبل جهز عثمان المضايفي قوة من الحجاز وسار بها مع قوات عسير للقضاء على حمود واقتتلوا في محل يسمى رَحْلة فكسر حمود وفرَّ هارباً واحتلَّ طامي بن شعيب امير عسير الجديد ابو عريش وتقدم منها الى اللحية والحديدة [٣]

وتوفي الشريف حمود عام ١٢٣٣ وتولى ابنهُ احمد مكانه . وحصل بين احمد وبين حسن ابن خالد امير صبيا نزاع ثم اتفقا وفي هذه الاثناء جاءت القوات العثمانية والمصرية الى ابو عريش يقودها خليل آغا فالقت القبض على احمد بن حمود وارسلتهُ الى مصر [٤] ولكن احتلال ابو عريش لم يدم طويلاً فاضطرت القوات المصرية الى الانسحاب وتسليمها الى امام صنعاء الزيدي

وعقد محمد علي باشا اتفاقاً مع الشريف حسين ، شريف ابو عريش للعمل معاً ضد امام صنعاء وضد قبائل عسير المنحازة الى آل سعود ، وتقدمت قوات الاثنين الى الجبال فاحتلت ابها عاصمة عسير عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) . ولكنها لم تتمكن من البقاء فيها طويلاً [٥]

وحينما انسحب المصريون من البلاد العربية عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ — ١٨٤٠ م) وجد الشريف حسين نفسه قادراً على بسط نفوذه على سائر تهامة والحاقها بابو عريش فوصلت قوته الى مخا جنوبي الحديدة واستولت عليها باسمه وظلت حكومته فيها وفي سائر تهامة الى ان شرع الترك في استعادة قوتهم في البلاد العربية فجردوا بتحريض الشريف محمد بن عون امير مكة قوة عسكرية عام ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) انزلت في الحديدة ، وتمكنت الترك من فتح تهامة ودخول ابو عريش [٦]

وفي زمن حكم الشريف حسين المشار اليه قدم السيد احمد بن ادريس الى صبيا ونال من عطفه ومساعدته ما جعل له شهرة عظيمة بين القبائل تمكن حفيده من الاستفادة منها حينما قام لتأسيس حكومة الادارسة في مطلع القرن الحالي . وتوفي السيد احمد بن ادريس في صبيا عام ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧م) وظل احفاده فيها . ولا ندري كيف تغلب الادارسة على اشراف ابو

(١) تاريخ ابن بشر ص ١٣٢—١٣٤ (٢) ابن بشر ص ١٤٤—١٤٥ (٣) ابن بشر ص ١٤٩
(٤) ابن بشر ص ٢١١ (٥) تاريخ بلاد العرب لهوغارث ص ١٠٦ (٦) كتاب بلاد العرب وضع وزارة الخارجية البريطانية ص ٢٤ وتاريخ بلاد العرب لهوغارث ص ١٠٦—١١١

عريش ولا كيف كانت آخرة الشريف حسين واولاده وانما نعلم ان حكمهم ظل في تهامة عسير واليمن ضعيفاً الى ان ازيل تماماً على يد السيد محمد علي الادريسي

ذكر الشيخ عبد الواسع اليماني في حوادث عام ١٢٦٤ هـ ان امام صنعاء المتوكل عزم على انتزاع تهامة من يد الشريف حسين فجهز قوة تمكنت من اسر الشريف وحبسه في قلعة القطيع في تهامة فاستثارت ابنته قبائل نجران فخلصته من اسر المتوكل واستولت باسم الشريف على زبيد ونهبتها[1] . وذكر في موضع آخر ان الشريف حسين ذهب الى الاستانة مستنصراً الحكومة العثمانية فامدته بقوة قادها توفيق باشا وكان ذلك بدء استرجاع آل عثمان لعسير واليمن[2]

٢ — آل عائض

ينتسب آل عائض الى عشيرة آل بو سراح من فخذ آل يزيد من بطن مغيد من قبيلة عسير وهم رؤساء قبيلة عسير المنقسمة الى اربعة بطون كبيرة ذكرناها في بحث القبائل العربية ومركزها بلدة ابها[3] . وسط جبال السراة في عسير

امارة آل عائض في عسير، حديثة العهد ترجع الى ايام حكومة آل سعود وفتحهم عسير. وكانت الامارة قبل ذلك في رجال الم ووليها ايام فتح سعود الكبير للحجاز رجل اسمه عبد الوهاب بن عامر المكنى بأبي نقطة صاحب الوقائع المشهورة في الحجاز مع الشريف غالب وفي تهامة مع الشريف حمود ابو مسمار شريف ابو عريش[4] . وبعد موته وليها ابن عمه طامي بن شعيب عام ١٢٢٤ الذي خانه حسن بن خالد امير صبيا وسلمه الى قوات محمد علي باشا فأرسلته الى مصر وصلب فيها. ثم ولي امارة عسير بعد ذلك علي بن مجثل عام ١٢٤٩[5] . ومن بعد علي هذا تبدأ امارة آل عائض في عسير السراة

اما كيفية انتقال الامارة من قبيلة رجال الم الى قبيلة عسير فغير معلومة على وجه الصحة وقد ذكر الريحاني ان عائض مؤسس العائلة كان من الرعاة فاستبسل في القتال ضد الجنود المصرية فقربه ابن مجثل اليه واوصى به عند ابن سعود بعده خليفته في الامارة[6]

بلغت قوة آل عائض اوجها ايام محمد بن عائض الذي ولي الامارة بعد والده ووسع حكمه على سائر عسير السراة وقسم من الحجاز غامد وزهران ، وقسم كبير من تهامتي عسير واليمن. فرأت الدولة العثمانية التي كانت من اقوى الدول ايام السلطان عبد العزيز ان ترك الامر على غاربه مضيع لهيبتها ومخرج لبلاد عسير واليمن من يدها. فجهزت حملة كبيرة بقيادة رديف باشا واحمد مختار باشا وسيرتها على عسير عام ١٢٨٨ هـ[7] . وتوسط الشريف محمد بن عون

---

(١) تاريخ اليمن ص ٧١ (٢) تاريخ اليمن ص ٧٣ وايراد القصة على هذا النحو يخالف ما نقلناه عن كتاب وزارة الخارجية البريطانية عن الكتابين اللذين عن بلاد العرب وعن تاريخ هوغارث

(٣) تعرف ابها باسم مناظر وهي مؤلفة من اربع قرى كبيرة واقعة في منبسط تحيط به جبال مرتفعة عليها ابراج تحمي البلد (٤) انظر النبذة السابقة وابن بشر ص ١٣٢ — ١٣٤ (٥) ابن بشر ، م ٢ ص ٤٦

(٦) تاريخ نجد الحديث ص ٢٦٩ ومما نلاحظه ان ابن مجثل لم يكن اميراً على عسير ايام سعود الكبير فقد كان ولاة عسير الاشخاص الذين ذكرناهم عبد الوهاب وابن عمه (٧) تاريخ اليمن ص ١٠٦

بين الدولة وبين ابن عائض على ان يسلم السيري بلاده وان تحفظ له الدولة امواله وخيوله وحصونه وان تعين له ولعائلته وبعض الرؤساء مرتبات ومشاهرات . فوصل الفرمان بالامان من السلطان عبد العزيز بينما كانت الجيوش العثمانية بقيادة مختار باشا محاصرة ابها ، فاستسلم محمد الى مختار باشا وهذا اوصله الى رديف باشا فلم يعبأ بالفرمان واعدم ابن عائض وصارت عسير منذ ذلك اليوم تابعة الدولة العثمانية . وجعلت متصرفية مركزها ابها . وتبعها ستة اقضية وهي : (١) بني شهر او النماص . (٢) غامد ومركزها رغدان . (٣) رجال المع ومركزها الشعبين ، (٤) محايل ومركزها محائل . (٥) القنفذة . (٦) صبيا وابو عريش

ونقم آل عائض على الدولة وابتعدوا عنها الى ان كانت فتنة السيد محمد علي الادريسي عام ١٣٢٩ فعادوا اليها . وعينت حسن بن علي بن محمد بن عائض معاوناً للمتصرف سليمان شفيق كمالي باشا

وظل حسن على ولائه الدولة طيلة الحرب العمومية وتعاون مع محيي الدين باشا متصرف عسير وقائد فرقتها لدفع عدوان الادريسي . واستقل بعد جلاء الترك عقيب الحرب بالبلاد وشرع في ادارتها على شكل احفظ الناس وجعلهم يوسطون الملك عبد العزيز في امرهم . فرفض حسن الوساطة وكان من الملك عبد العزيز ان جهز عليه قوة بقيادة الامير عبد العزيز بن مساعد عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢١ م) وحصلت بين الفريقين معركة في حجلة بين ابها وخميس مشيط انهزم آل عائض فيها وهربوا الى تهامة فأسر الادريسي حليف ابن سعود بعضهم واستسلم حسن ومحمد ابن عمه لابن مساعد فذهب بهما الى الرياض . ووصلهما الملك عبد العزيز بالجوائز واعاد حسناً ومحمداً الى ابها . ولكنهما عادا الى سابق سيرتهما وحاصرا امير ابن سعود في ابها واحتلاها . فلما رأى الملك عبد العزيز خيانتهما وما كان من غدرهما جهز حملة جديدة من أهل نجد بقيادة نجله الثاني سمو الامير فيصل عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢م) فوصلت الى عسير وحصلت عدة وقائع آخرها واقعة بين السرية التي انفذها الشريف حسين بن علي من مكة لامداد محمد بن عائض فقضي على السرية كما قضي على حصون ابن عائض وقلاعه واتبعت عسير السراة نهائياً بالمملكة النجدية واستيق حسن بن عائض الى الرياض ولا يزال فيها الى الآن

٣ — السيد محمد علي الادريسي

يبدأ تاريخ امارة الادارسة من محمد بن علي بن احمد بن ادريس وكان جده السيد احمد ابن ادريس من أهل العلم والصلاح هاجر من المغرب واقام في مكة المكرمة برهة ثم ذهب الى تهامة اليمن لزيارة بعض تلاميذه ومريديه واستقر به النوى عام ١٢٤٦ (١٨٣٠) في صبيا في جوار الشريف حسين شريف ابو عريش واقام هنالك بطريقته الادريسية الى ان توفي بعد ذلك بنحو سبع سنوات

قامت امارة السيد محمد حفيد السيد احمد على التراث الديني الذي خلفه له جده بين القبائل واعانته الظروف السياسية ، وما كانت عليه الدولة العثمانية من تضعضع واهمال في أواخر ايام

السلطان عبد الحميد فراح يدعو الى نفسه دعوة اصلاح ديني املاً في الوصول الى اغراضه السياسية

ولد السيد محمد عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦م) في صبيا وجاء الى مكة مجاوراً عام ١٣١٣هـ. ثم رحل الى القاهرة ودخل الازهر الشريف ثم ذهب الى واحة الكفرة مركز السنوسية وانصرف منها الى دنقلة حيث اخواله بالسودان. ثم عاد الى صبيا مسقط رأسه في أواخر سني السلطان عبد الحميد فوجد مرتعاً خصيباً لعمله وساعده على ذلك فساد الادارة وانتشار الرشوة وبعد البلاد عن مركز الحكومة والاستبداد الظاهر، فالتفت حوله الناس من كل حدب وصوب. وارادت الحكومة العثمانية تحجيم عوده فارسلت اليه وفداً سار خلفه جيش كبير يقوده القائد سعيد باشا. فافهم الادريسي حالة البلاد للوفد وانه وجدها معطلة فاسدة الادارة معدومة الامن فقام هو باصلاح احوالها عن طريق الاصلاح الديني، وذلك في مصلحة الدولة وانه لا مصلحة له من ذلك فخدع الوفد باقواله ونال الادريسي من قائد الجيش اعلاناً للقبائل يفوضه فيه بقيامه ببعض المهام فكان ذلك سبباً في ازدياد سطوته ونفوذه وعينته الحكومة قائمقاماً لصبيا وابو عريش

وبعد ذلك ببرهة قصيرة ألب على الحكومة العثمانية وأرسل من قبله قواداً لاحتلال البلاد ووجه ابن عمه السيد مصطفى الادريسي الى عسير السراة لاحتلال ابها وكان ذلك في ذي القعدة عام ١٣٢٨. وشدد الادريسي الحصار على ابها وفيها المتصرف سليمان شفيق كمالي باشا الى ان فك الحصار عنها على يد القوة التي قادها الشريف حسين بن علي امير مكة في السنة التالية

وتحصن السيد محمد بعد وصول القوات اليه في جبل فيفاء ولكنه عاد الى تهامة بعد اعلان الحرب بين ايطاليا والحكومة العثمانية واستولى على صبيا وجيزان وابو عريش واتفق مع الحكومة الايطالية التي امدته ببعض المال والذخيرة. غير ان علاقات السيد محمد مع ايطاليا وقفت عند هذا الحد واستبدل بها صداقة جديدة مع الحكومة البريطانية في السنة الاولى من اعلان الحرب العمومية فانه عقد عام ١٩١٥ معاهدة صداقة ثم جددت هذه المعاهدة عام ١٩١٧ واعترفت له بريطانيا بالسيادة على تهامة حتى اللحية في الجنوب والقنفذة في الشمال وتعهدت له بحمايته من اي تعد خارجي كما انه تعهد بعدم تأسيس علاقات سياسية أو تجارية مع اية حكومة اجنبية

واشتد ساعد السيد محمد بعد الحرب العمومية واستولى على الحديدة وتعاقد مع الملك عبد العزيز بن سعود القيام معاً لتأمين مصالح الجانبين وظلت صلاتهما حسنة الى آخر أيام السيد محمد غير ان موقف السيد كان عصيباً نظراً لوقوعه بين عدوين كبيرين الامام يحيي في اليمن والشريف حسين في الحجاز ووقعت بلاده بعد وفاته في شعبان عام ١٣٤١ (١٩٢٣) فريسة في براثن الفتنة فاستولى الامام يحيي على القسم الجنوبي منها وانضمت الاقسام الاخرى الى ممالك ابن سعود

٤ — زوال امارة الادارسة

بعد وفاة السيد محمد الكبير ولي الامارة ولده علي فاغتنم الامام يحيي حميد الدين

الفرصة لاسترجاع تهامة منه فوفق الى ضبط الحديدة والاستيلاء على الساحل حتى مدينة ميدي . فثار اهل البلاد على علي وبايعوا عمه الحسن فلجأ السيد علي الى جلالة الملك عبدالعزيز اثناء فتحه للحجاز وما زال مقيماً في بلاطه حتى الآن

اما السيد الحسن فانه اراد أن يقلد اخاه محمد الكبير ففاوض جهات عديدة ، فاوض الملك عبدالعزيز مذكراً اياه بصداقة العائلتين ، وفاوض الامام يحيي ، وفاوض الايطاليين ، وفاوض كذلك الانكليز بواسطة ابن عمه مصطفى واقرت مفاوضاته مع الانكليز انه اعطى لشركة انكليزية امتيازاً باستخراج الزيت من فرسان بشروط مجحفة بحقوق البلاد والاهلين ، وبينما كان مندوبوه يفاوضون الامام يحيي في صنعاء نجح مندوبه الآخر وابن عمه مرغني في عقد معاهدة مكة بين الملك عبد العزيز والحسن عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦م) ووضعت المقاطعة بموجب المعاهدة تحت حمايته وقطعت جهيزة قول كل خطيب

ولم يباشر الملك عبد العزيز حقوق الحماية اول الامر الأ فيما يتعلق بامتياز شركة الزيت في فرسان فانه رأى فيه اجحافاً وعنتاً عظيمين فوفق الى الغائه . وابقى ادارة البلاد في يد هيئة حاكمة تحت رئاسة السيد واكتفى بارسال مندوب يكون الى جانب الحسن ليعاونه في اعماله وحضر مندوبون من قبل الحسن الى بلاط الملك عبد العزيز في الطائف لوضع القواعد الاساسية لادارة البلاد — فوافق الملك على اقتراحات وفد الحسن وجعل الادارة الداخلية وتأمين الامن واعداد الجند للدفاع في يد الحكومة المحلية واحتفظ بالشؤون الخارجية فقط الاّ ان الادارة المحلية عجزت بعد سنتين عن ادارة الامور وتأمين الاحكام . ولم تكن قادرة على جباية الاموال الاميرية اللازمة لكيانها بالرغم عن مد الملك عبد العزيز يد المساعدة لها

وفي ١٧ جمادى الاولى عام ١٣٤٩ ابرق الحسن الادريسي الى الملك عبد العزيز ما يأتي:

«كتبكم برفقة العبدلي وصلت وتذاكرنا مع وفدكم فتقرر بموافقتنا ورضانا اسناد ادارة بلادنا وماليتنا الى عهدة جلالتكم[1]». وعهد الى مندوبين من الجانبين لوضع التعليمات الاساسية التي تمشي عليها المقاطعة بعد ذلك وأصبحت المقاطعة الادريسية مقاطعة من مقاطعات المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها وجعل للسيد الحسن مقام استثنائي ممتاز محافظة على كرامته وكرامة عائلته[2]

وبعد اعلان توحيد اجزاء المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها ، وجعلها مملكة واحدة باسم المملكة العربية السعودية ، كان من المنتظر اعادة تنقيح التشكيلات الادارية في المقاطعة الاّ ان الحسن اغترّ بمواعيد بعض المفسدين لحاول ان ينقض بالقوة ما تعهد به من قبل برضاه التام ورفع علم الثورة ضد الحكومة فجردت عليه حملة تأديبية قضت على فتنته ووضعت حداً لحكم الاسرة الادريسية في صبيا وجيزان وأبو عريش

(١) مجموعة معاهدات وزارة الخارجية ص ٦٦ (٢) انظر الوثائق الخاصة بذلك في مجموعة المعاهدات ص ٦٥ — ٧٦

فكاهة في نظرية النسبية

نسبية الوقت

هل تعتقد ان الدقيقة تكون في مكان اطول منها في مكان آخر ؟

لنقولا الحداد

من فكاهات نظرية « النسبية » التي ضبط قواعدها اينشتين العلاّمة الالماني المشهور أن الوقت في مكان بعيد يختلف عنهُ في مكان قريب بالنسبة الى كل من المكانين . اعني ان الثانية او الدقيقة في المريخ مثلاً أطول منها عندنا متى كان المريخ يبتعد عنا ، او اقصر اذا كان يقترب الينا . وهكذا يرى المريخي (ساكن المريخ) ان ثانيتنا او دقيقتنا اطول او اقصر حسب الابتعاد او الاقتراب

اظن ان القارىء يستهجن هذا القول ، وربما حسبهُ سخافة وعدّ قائله مخرّفاً ، لانهُ يعتقد ان الدقيقة دقيقة والثانية ثانية اينما كانت . لانهُ اذا فرضنا ان الساعة التي تتكّ تكة كل ثانية بالضبط تتكها هكذا سواء كانت على الارض او في المريخ . يبني اعتقاده هذا على ان الزمن شيء ثابت مقرّر لا يتغير بتغير الامكنة . واذا قلنا له ان الزمن ليس كما يعتقد ، بل هو شيء نسبيّ وقيمتهُ تختلف باختلاف بعده عن الشخص المراقب الحاسب لما قبل عقله هذا القول . فكيف بهِ اذا قلنا لهُ ان الزمن لا وجود حقيقي له ، بل هو تعبير عن خط الحركة فقط ، فلو وقفت حركة الاكوان لانتفى الزمن — كل هذا قد يتراءى خرافة للقارىء الذي لم يضطلع بمبادىء النسبية

وليس ايضاح هذه « القضية النسبية » بحيث تنجلي جيداً للقارىء بالامر السهل لان جميع قضايا النسبية مغايرة للمألوف عند الجمهور الذي تربّى وتعوّد ان يرى كل حقيقة بمفردها شيئاً مقرراً ثابتاً لا يختلف بالنسبة الى حقيقة اخرى . ولكني اجتهد بان اجلوها له ما امكن الجلاء . وعلى الله الاتكال

ان جميع قضايا النسبية نشأت من اكتشاف ناموس النور وسائر الامواج الكهربائية المغنطيسية التي ثبت ان امواج النور من جملتها — ذلك الناموس المخالف لنواميس الحركة . وهو ان النور لا يكتسب سرعة الجسم الذي يصدره كما تكتسب سائر الاجسام المنطلقة عن جسم آخر . ولا متّسع لتفصيل هذا البحث هنا (وقد وفيتهُ حقهُ في مقتطف اكتوبر الفائت سنة ١٩٣٢ في مقالة سر ناموس النور)

النورضربٌ من الامواج الكهربائية المغنطيسية العديدة التي تنطلق كلها بسرعة واحدة مهما اختلفت طولاً . فاقصرها اسرعها نموّاً واطولها ابطؤها — ولهذا تتعادل سرعتها . فسرعة امواج الراديو الذي ينقل الصوت والاشارات البرقية اللاسلكية (وسرعة كل موجة كهربائية مغنطيسية) واحدة ، وهي ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية . اي ان النور (والراديو) يستغرق وقتاً في انتقاله . يقضي النور الصادر من الشمس ٨ دقائق الى ان يصل الينا . وينعكس الينا عن المريخ في اكثر من ٨ دقائق اذا كان المريخ في اقصى بعده عنا او اقل جداً اذا كان في أقرب دنوّه الينا . ويقضي نور النجم قنطورس Proxima Centaurus اقرب النجوم الينا نحو سنتين وثلث سنة تقريباً الى ان يصل الينا

اذن ، نحن لا نرى ومضة نور ولا نسمع رجة صوت الراديو الاّ بعد صدورها بمدة ، حسب بعد مصدر الومضة او الرجة عنا . لذلك لا بدَّ من حساب مسافة البُعْد في كل حركة قادمة الينا على اجنحة الامواج الكهربائية المغنطيسية . فاذا تفهم القارىء هذا التمهيد جيداً واقتنع بهِ سهل عليه ان يفهم كيف ان الوقت يختلف باختلاف بُعد المراقب للحركة عن مصدرها . ولجلاء القضية نضرب المثل التالي : —

نفرض ان شخصاً في المرّيخ عنده جهاز لاسلكي ، راديو ، ينبض كل ثانية بالضبط نبضة. وعندنا جهاز لاسلكي يسجل كل نبضة تصل الينا من المرّيخ — او لنفرض ان في جهازنا ساعة يتحرك عقربها بقوة هذه النبضة الواردة من المريخ . فلو كان المريخ والارض ثابتين لا يتحركان لكان عقرب الثواني في الساعة التي تدور بقوة راديو المريخ متفقاً تمام الاتفاق مع عقرب ساعتنا الاعتيادية اذا كانت هذه مضبوطة تمام الضبط . نعم ان التكة التي تَرِدُ الينا من المريخ لا تصل في الحال بل تستغرق بضع دقائق الى ان تتكها الساعة التي عندنا الدائرة بقوة راديو المريخ . ولكن التكات تَرِد تباعاً ، فتبلغ الينا في مواعيدها بين كل تكة واخرى ثانية مضبوطة

ولكن ليس في الوجود جسم ساكن بل كل جسم ، من الكهرب اصغر الاشياء الى النجم اكبرها ، متحرك بسرعة خاصة بهِ . فالمريخ يسير في فلكه بسرعة ١٥ ميلاً في الثانية والارض تسير بسرعة ١٨ ميلاً ونصف ميل بالثانية (تساوي ٣٠ كيلو متراً) — ولتسهيل الحساب نفرض ان المسافة بين الارض والمريخ تنفرج ٣٠ كيلو متراً في الثانية[1] أي انهُ كل ثانية يزيد ابتعاد المريخ عنا او نحن عنهُ نحو ٣٠ كيلو متراً ، وهذه المسافة تساوي جزءاً من عشرة آلاف جزء من المسافة التي تقطعها تكة الراديو من المريخ الينا . ففيما تنفرج المسافة بيننا وبين المريخ تتأخر تكة راديو المريخ الواردة الينا جزءاً من ١٠ آلاف جزء من الثانية ، وعلى

(١) والحقيقة ان هذا الفرق نحو ½٣ ميل بالثانية تقريباً

المادي نرى ان تكة ساعة الراديو عندنا تتأخر عن تكة ساعتنا الاعتيادية ، حتى انهُ متى زادت المسافة بيننا وبين المريخ عشرة آلاف كيلو متر تكون ساعة الراديو عندنا قد سجلت ٩٩٩٩ ثانية في حين ان ساعتنا الاعتيادية تكون قد سجلت ١٠ آلاف ثانية ، أي ان الفرق ثانية واحدة في كل عشرة آلاف . اذن تكون ثانية المريخ عندنا ، اي بالنسبة الينا اطول من ثانيتنا بقيمة ١ من عشرة آلاف. واذا شئنا ان نتحقق موقع المريخ حين نرصده فلا نكتفي بان نحسب مقدار الوقت الذي يستغرقهُ النور المنعكس عنهُ الينا، بل يجب ان نحسب ايضاً حساب هذا الفرق الذي نحن بصدده ، والذي لم يفطن له الفلكيون قبل ظهور النسبية

ولو كان عند المريخي ساعة يتحرك عقربها بقوة راديو صادرة من عندنا لكان يرى مثل ما نرى نحن ان ثانيتنا عنده اطول من ثانيته

واذا كان المريخ يقترب الينا او نحن نقترب اليهِ، أي ان المسافة بيننا وبينهُ تقل وتقصر، انعكست الآية وكانت ثانيته تصل الينا اقصر من ثانيتنا

هذا هو معنى نسبية الوقت، اي ان الزمن نسبي ، وليس هو قيمة مقرَّرة، من غير اعتبار للمكان والمسافة بين الشخص المراقب وبعد المسافة بينهُ وبين الجسم المراقَب (بفتح القاف). بل لابدَّ من اعتبار هذين الامرين : اولاً مكان المراقب ، وثانياً : المسافة بينهُ وبين الشيء المراقَب . وحينئذٍ يظهر الاختلاف في قيمة الزمن او الوقت

بالطبع لا قيمة لهذا الفرق بين وقت ووقت على كرتنا الارضية التي تسير حولها ومضة نور او ومضة راديو نحو ٧ مرات ونيِّف في ثانية واحدة . ولكن لهذا الفرق قيمة كبيرة في حساب حركات الاجرام السموية وابعادها ، وهي تقاس بسرعة النور لا بالاميال ولا بالكيلومترات . فاذا كان اقربها يبتعد عنا سنتي نور وثلث سنة فما قولك بما يبتعد بالسنين ومئات السنين . وما قولك اذا كان النور يقضي ٨٤٠٠٠ سنة حتى يقطع نطاق المجرة من جنب الى جنب؟

قبل ان تظهر نظرية النسبية لم يكن علماء الفلك الطبيعي يحسبون حساباً لهذا الفرق في الوقت الناجم عن تحرك الاجرام. لو كانت الاجرام ثابتة لا تتحرك لما كان من فرق بين الوقت هنا وهناك وهنالك . واما والاجرام كلها تتحرك بسرعات مختلفة بعضها يتجاوز الالف والآلاف من الكيلومترات في الثانية فلا بدَّ من ادخال حساب الوقت النسبي في حساب ابعاد الاجرام وتباعدها او تقاربها . ومعادلة لورنتز :

$$١ : \sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}$$

كافلة بضبط هذا الحساب مهما اختلفت الابعاد ،

باعتبار ان س رمز لسرعة الجرم ون رمز لسرعة النور

أليست هذه القضية فكاهة علمية ايها القارىء؟

فلسفة تاريخ الفلسفة

لعلي أدهم

المعروف عن الفلسفة في العصور الحديثة انها تتناول بطريقة علمية منظمة بحث المسائل العامة المرتبطة بالكون والحياة البشرية . ولقد عرّف بعض المفكرين الفلسفة بأنها إدامة التفكير في الاشياء ومحاولة استطلاع خفاياها والكشف عن اسرارها . ولكن هذا التعريف لا يحيط بفكرة الفلسفة من جميع اطرافها ولا يحددها تحديداً واضحاً لان الانسان لا ينى يفكر في شؤونه العملية واحواله المعيشية حيث يعد الوسائل لبلوغ الغايات ويرسم الخطط لانجاز المشروعات. والعلوم جميعها من طبيعتها التفكير. فما ميزة التفكير الفلسفي عن التفكير العلمي وغيره من ضروب التفكير العملي ؟ وفي ماذا تختلف الفلسفة عن الطب والفلك والهندسة مثلاً ؟

لا خلاف في ان الفلسفة لا تمتاز عن هذه العلوم بمادتها لان مادتها هي بعينها مادة العلوم التجريبية . فهي تتناول نظام الكون وخطته كما تتناول الانسان من ناحية تكوين الروح وبناء الجسم وتبحث القانون وتدرس السياسة وبينها وبين مختلف العلوم اتصال وثيق وعلاقة مستمرة فالفلسفة اذن لا تختلف عن سائر العلوم من حيث الموضوع ومادة البحث وانما تختلف عنها من حيث الاسلوب وطريقة التناول . فالعلوم على اختلافها تستمد مادتها من التجربة مباشرةً ولكن الفلسفة لا تتناول الموجود كما هو بل تتعمق في البحث لتصل الى اسبابه النهائية

وكل علم من العلوم يحتلُّ منطقة خاصة ويجمع الحقائق والتفاصيل المتصلة بمادته في ضوء فروضه المعينة والعالم يعمل في ميدانه ويصل داخله الى معلومات مقررة ونتائج حاسمة دون ان يلقي باله الى بحث علاقتها بالنتائج التي انتهى اليها العلماء الذين يكدحون في ميادين اخرى . وقد يحدث ان تتعارض هذه النتائج تعارضاً صريحاً واضحاً . فمثلاً بعض نتائج العلوم الطبيعية الحديثة تعارض نتائج علم النفس بحيث ان صدق احدها ينقض حقيقة الآخر . ومن هنا تنشأ الحاجة الماسة الى مصفاة تراجع فيها هذه النتائج وينظر اليها نظرة جامعة كلية حتى نستطيع ان نستخلص فكرة عامة عن العالم الذي نعيش فيه ومصير الانسانية داخله . والذي يعنينا في الفلسفة ليس هو الحقائق في ذاتها وانما تفسير تلك الحقائق . ومتى ابتعدنا عن الحقائق وشرعنا في التفسير يتدخل العامل الشخصي لان موقفنا ازاء الحقائق وتقديرنا لمكانتها يحتمه الى حد بعيد مزاجنا وتجاربنا وآمالنا ومخاوفنا . فكل فلسفة اذن شخصية الى حد كبير

وقد رمى بعض الناس الفلسفة بأنها قائمة على مجرد فروض تجريدية . وغاب عن هؤلاء ان نفس الافكار الكامنة وراء العلوم التجريبية هي في صميمها فروض . فالعلوم الطبيعية مثلاً تفترض وجود الاثير وعلم الحياة يفترض وجود القوة الحيوية والكيمياء تفترض وجود الذرة ويقبل العلم هذه الفروض ما دامت تخدم اغراضه وتلبي مطالبه وتعينه على اداء مهمته ولا يضطر الى رفضها الا عند ما تصبح بادية النقص او تستدعي جملة فروض اخرى لتقيم اودها وتحمي كيانها وهذا يحدث من الحين الى الحين . من قبيل ذلك تغلب نظرية كوبرنيكس وظهور مذهب دارون . ففي كلا الحالين كان على النظرية الجديدة ان تثبت انها ايسر فهماً واقدر على تفسير الحقائق من النظرية القديمة . فرمي الفلسفة بأنها تستند الى الفروض تهمة يصح ان يقذف بها ارسخ العلوم التجريبية كعباً واقدمها تاريخاً . وانما المهم هو الى أي حد تمكننا هذه الفروض من فهم الحقائق الواقعة . والفلسفة تتناول فروض العلوم كلها مثل النظرية الذرية للمادة والتصور الآلي للكون وعليها ان تلائم بين نتائج العلوم المختلفة . والعلم يتقدم من طريق التجربة اما الفلسفة فان تقدمها رهن بعملية التسوية بين مختلف نتائج العلوم . وقد يعترض العالم على ذلك ويزعم ان وقت التسوية لم يحن بعد وانه عند ما يحل ميعاده فان العلم نفسه سيتولى هذا العمل ويشرف عليه ولكن هذا الاعتراض لا يؤبه له ونحن كلنا في حاجة قاسرة الى تصور عام للدنيا في مجموعها وهذا التصور العام قد ينقصهُ التحديد ويعتريه الغموض ولكنه على ما به من نقص من الزم ما يلزم لحياتنا العقلية وكياننا الأدبي

واول ما يرمي اليه العلم هو الوصف الدقيق المستوعب لمظاهر الكون وجمع الحقائق وتنسيقها فصائل وطبقات ثم البحث عن اسم مشترك يجمع اشتاتها ويصفها وصفاً بسيطاً مستوفياً جهد الطاقة ثم تلخيصها واختزالها في صيغة عامة تسمى عادة «قانون الطبيعة» . فالعلم عليه ان يصف وليس من عمله ان يفسر . وفكرة ان العلم قد فسر كل شيء وشرح المشكلات واستفتح المغلقات فكرة خاطئة لأن العلم لا يحاول ان يرد الاشياء الى الحقيقة النهائية وانما هو يفسر الاشياء تفسيراً محدوداً بتوصيفه لظروف حدوثها وارجاعها الى صيغ عامة بسيطة . فاذا ذكرنا ان العلم قد فسر طبيعة الجزر والمد فانما معنى ذلك اننا قد وقفنا على القانون العام المسيطر على الحقائق المتصلة بحدوث المد والجزر وهو تفسير لا يكاد يتعدى حدود الوصف . ويقول البعض ان العلم يستكشف الاسباب وهو قول يتنافر في ظاهره مع تعريف العلم بأنه وصفي وليس من شأنه ان يفسر . والحقيقة ان الاسباب التي يستكشفها العلم هي الاسباب الثانوية او الاسباب المسببة لان العلم لا يثير مسألة الاسباب النهائية . وقوانين العلم كائناً ما كان نفسها لا تخرج عن حيز الفروض وكلما امعن العلم في التقدم اشتدت الحاجة الى تناول هذه الفروض بالنقد والتمحيص فمثلاً النظرية الذرية استساغها الكيماوي لنفعها ولكن هذا غير كافٍ لاعتبارها تصوراً نهائياً للواقع

والفلسفة لا يعنيها ان تثبت او تنقض فائدة تصور من التصورات في أي ميدان خاص من ميادين العلوم لأن هذا عمل علمي محض . وانما هي تختبر هذا التصور لتقرر المكان الصحيح لتطبيقه فالفلسفة تتساءل حيال النظرية الذرية هل هي تصلح نظرية نهائية لتفسير العالم العضوي ؟ وهل العالم المنظوم مكوّن من ذرات صغيرة كل ذرة مستقلة عن الاخرى ؟ واذا كانت هذه الذرات متصلة فالى اي حد تؤثر هذه الروابط والاتصالات في طبيعتها المستمرة ؟

فبين العلم والفلسفة خلاف في الغاية وخلاف في المذهب . فالعلم غرضه الاستيلاء والسيطرة والوقوف على حقيقة الاشياء بحيث يستطيع الانسان ان يتنبأ بما سيحدث لتعديل خطته وفاقاً لذلك . والعلم في مواجهته للمستقبل وفي محاولته اخضاع الطبيعة لحاجة الانسان تجريبي . اما الفلسفة فهي نظرية بعيدة عن مآرب الحياة العملية وهي لا ترمي الى مد سيطرتنا على الطبيعة وانما تحاول ان تسدد خطواتنا وتنير سبيلنا في البحث عن الكمال والتوازن والنظام . والفلسفة لا تبتكر عمل طائرة او قاطرة ولا تخترع اختراعاً نافعاً ولكنها مع ذلك تحدد موقفنا ازاء الطبيعة والله والانسان وتمهد للعقل سبيل العمل في مناطق العلم والسياسة والاجتماع . ويرى البعض انه من الخير نبذ الفلسفة والاكتفاء بالتعويل على العلم لأنه مضمون النتائج جم الفوائد والعوائد ولكن هؤلاء الحصفاء ينسون ان حياتنا الداخلية لها مشكلاتها العسيرة ومطالبها الملحة ونحن ان كنا في حاجة الى الفروض العلمية لفهم تركيب العناصر وتكوّن الكواكب فاننا في حاجة اشد الى فرض نستجلي به غوامض النفس . هذه النفس التي تتدخل في كل شيء وتطالعنا من كل مرقب ولسنا نستطيع ان ننسى شأنها الا اذا تعمدنا اغماض العين وتخدير الفكر . والعلماء انفسهم مقتنعون بأن اشد نتائجهم ثباتاً هي مجرد فروض . وصدق هذه الفروض متوقف على قوانين الفكر التي لا تتناولها غير الفلسفة

وكثير من الناس يتساءلون عن قيمة الفلسفة لعدم تقدمها الظاهر ولأن المسائل التي تشغل بال الفلاسفة والمفكرين اليوم تشبه نفس المسائل التي تناولها مفكرو اليونان . ونفس الحلول العقيمة تتوالى كدأبها في الماضي فلا عجب ان استبق الى فكر المشاهد لهذا الفشل المتكرر والعجز المستمر ان المسائل التي تحوم حولها الفلسفة من وراء امكان الحل . ومما يغري بعض العقول بالشك في الفلسفة تأصل العامل الفردي فيها لأن كل مذهب فلسفي يتسم بتسم صاحبه وليس من الميسور انتزاع العامل الفردي من التفكير الفلسفي فالفلسفة ذاتية الى حد كبير وهي في ذلك نقيض العلم لأنه موضوعي صرف . ونتائج العلم يستطيع الكافة اختبارها وقبولها في حين ان غلبة العامل الشخصي على الفلسفة جعلها تبدو في صورة آراء متناقضة ومذاهب متناكرة . ورغم العلاقة المتبادلة بين العلم والفلسفة وتأثر كل منهما بالآخر فان الفلسفة لا تنمو وتتزايد وتتدرج في الكمال كالعلم لأنها عبارة عن سلسلة متصلة من الفلسفات التاريخية تمثل مراحل تقدم الفكر في جميع نواحيه العلمية والسياسية والاجتماعية وموضوع هذه الفلسفات المتوالية والصلة الداخلية بينها هو مجال تاريخ الفلسفة

ويختلف تاريخ الفلسفة عن تواريخ مختلف العلوم لأن كل علم له مجاله المحدود وتاريخه يمثل التقدم المحسوس في حدود هذا الميدان . وهذا خلاف الحال في الفلسفة لانك عند ما تحاول التدقيق في تحديد موضوعاتها يخذلك الفلاسفة . ونفس تعريف الفلسفة مثار خلاف . وكل فيلسوف يستنُّ له خطة خاصة ويبدأ البناء من جديد واذا اطال الانسان التفكير في الحركات الفلسفية المتتابعة ظهر له ان مشكلات الفلسفة في مجموعها ليست واضحة الحدود بارزة المعالم مثل مشكلات سائر العلوم ولعل اول واجب على الباحثين هو تحديد هذه المشكلات وربما كان هذا وحده هو اكبر عمل للفلسفة

ولقد كان الفيلسوف ديكارت يزدري تاريخ الفلسفة ويرى الاكتفاء بالتفكير الفردي المبتوت الصلة بما تقدم ومن مأثور اقواله « لا اريد ان اعرف اتقدمتني رجال ام لا » وكان ذلك منهُ رد فعل قوي ضد سيطرة القدماء التي غلبت على العصور الوسطى . وقد كان الفيلسوف ليبنتز اقرب منه الى الحق عند ما قال « الحقيقة اكثر انتشاراً وذيوعاً مما تقدر ولكنها في الغالب هزيلة ممزقة الاوصال فاذا تتبعنا آثارها عند القدماء امكننا ان نستخرج التبر من الترب والماس من المنجم والنور من الظلام » . وليست الفلسفة أنْ نكتفي بالتعمق في تفكيرنا الخاص بل هي ايضاً الوقوف على افكار الغير والتغلغل في بحثها

وتاريخ الفلسفة نافع كل النفع في تحقيق اطراف التاريخ العام وتصحيح اجزائه وادراك مغزاه وذلك لان الاسباب النهائية لحوادث التاريخ في اي عصر من العصور مردّها الى الافكار السائدة في ذلك العصر . والافكار التي تسترشد بها الجماعات في الحركات الاجتماعية هي وليدة التصورات الادبية والدينية والعلمية وكيفية فهم هذا العصر لمعنى الواجب والحق والصورة التي يتمثل بها الكون في خطته العامة او في قوانينه الخاصة . ومعرفة تلك الافكار والتصورات تستلزم دراسة العبقريات الفلسفية التي تبوأت مكانها في تلك العصور . فاليونان في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد تتمثل في سقراط وافلاطون . والمؤرخ الذي يدون اعمال الانسانية دون ان يطيل النظر في تفكيراتها الفلسفية لا يستطيع الاهتداء الى الافكار المستترة التي تعمل وراء الحركات الاجتماعية الظاهرة . والفلسفة في الظاهر تبعدنا عن الواقعي وتحملنا الى عالم المثال والفكرة ولكنها في الحقيقة تجلو لنا ما هو اكثر واقعية واوفر نصيباً من الحقيقة وليس من المبالغة ان نقول بان تاريخ الاعمال لا يدرك على حقيقته الا اذا فهمنا تاريخ الافكار

ومما هو جدير بالملاحظة ان تاريخ اي علم من العلوم ليس جزءا من هذا العلم فمثلاً تاريخ الرياضة ليس جزءا منها . وتنفرد الفلسفة من بين العلوم جميعها بان تاريخها جزء منها وذلك لان الفلسفة وتاريخ الفلسفة غايتهما واحدة وهي مشاهدة العقل أثناء اكبابه على التفكير في طبيعته وفي مبدئه وغايته

والفيلسوف هجل هو الذي وضع اساس فلسفة تاريخ الفلسفة لانهُ هو الذي استكشف الفكرة التي تقوم عليها تلك الفلسفة وهي ان تاريخ الفلسفة ليس مجموعة الآراء المختلفة

والمذاهب المتلونة للمفكرين المختلفي النزعات ولا هو مجرد اتساع نواحي الفلسفة واكتمال جوانبها الناقصة وانما هو العملية التي استبانت بها كليات العقل واكدت ظهورها وارتسمت في شكل تصورات واضحة معروفة . وقد اعتبر هجل تاريخ الفلسفة حركة مفردة متصلة معقودة الاوائل بالاواخر

ولكن هذا الرأي النافذ العميق أضرَّ بهِ ضرراً بليغاً اعتقاد هجل ان الترتيب التاريخي الذي ظهرت بهِ الكليات في المذاهب الفلسفية التاريخية يلزم أن يكون متفقاً تمام الاتفاق مع الترتيب المنطقي بحسب ما يراه هجل في منطقه الخاص . فهو يرى اننا اذا صفَّينا المذاهب الفلسفية من الاوشاب العالقة بها تكشفت لنا الفكرة المنطقية في مراتبها المتتابعة وهي الكينونة والصيرورة والوجود الخاص والوجود الفردي والكمية والكيفية الى آخره . ولكننا اذا تأملنا سير التاريخ وجدناه مزيجاً من الضرورة والنظام والحرية والفوضى ورأينا ان رابطة المنطق قد تظهر في امهات الحوادث . اما في التفاصيل المشتبكة فان الصدفة تلعب دورها ولا سبيل الى انكار تأثير الافراد في التاريخ ومهما نسبنا كل تأثير للفرد الى ظروف عصره واحوال قوميته فاننا لا نستطيع ان نسلبهُ حرية ارادته. وقد كان من جراء مغالاة هجل في اعتقاده ان سير المذاهب الفلسفية لا مفرَّ لهُ من ان يرسف في اغلال الضرورة المنطقية ان اساءت فكرته الى الحقائق التاريخية المقررة حتى اضطر التفكير الفلسفي في اواخر القرن التاسع عشر ان يثور عليها لمحاولتها ان تلوي الحقائق التاريخية لتتفق معها

وانما تسرب الخطأ الى فكرة هجل لاعتقاده الخاطىء بان تقدم الفلسفة قائم في جوهره على الضرورة الفكرية التي بموجبها يؤدي ظهور كلي من الكليات الى ظهور كلي آخر بحسب الطريقة المنطقية والواقع ان سير الفلسفة مخالف لذلك من وجوه كثيرة لان سير الفلسفة لا يتوقف على نظم التفكير الانساني وتسلسل كليات المنطق وحدهما بل يتوقف ايضاً على حاجات القلب وومضات الفكر المفاجئة للافراد . فتاريخ الفلسفة باعتباره مجموعة كلية للتصورات الجوهرية لنظرات الانسان للدنيا وحكمهِ على الحياة هو نتيجة حركات فكرية منوَّعة تختلف البواعث عليها باختلاف الازمنة والامكنة وسائر الملابسات الاجتماعية

والعامل المنطقي الذي وجه هجل اليه الانظار هو ولاريب عامل هام . وفي عودة مشكلات الفلسفة للظهور من الحين الى الحين في تاريخ الحركة الفكرية دليل ناهض على وجود تلك الضرورة الكامنة في الذهن التي تستدعي ظهورها . ونفس المشكلات تتطلب تلك الحلول التي لم يوفق فيها أحد التوفيق التام ولعل في هذا دليلاً على أن العقل لا يمكنهُ أن يحيد عن مواجهة مشكلات الفلسفة. وقد لوحظ في بعض العصور أن تقدم الفلسفة كان تقدماً منطقياً محضاً وانما مصدر خطإ هجل هو في أنهُ أراد أن يجعل عاملاً واحداً صاحب الحل والعقد في الموضوع . ونحن نخطىء في دورنا اذا أنكرنا على الاطلاق وجود منطق في توالي المذاهب

الفلسفية ورأينا في تتابعها مجرد أفكار شخصية خاضعة لاحكام الصدف . والأصدق في تاريخ الفلسفة هو ان مشتملات هذا التاريخ في كليتها يمكن تفسيرها بان الضرورة الموجودة في المذاهب الفلسفية تؤكد نفسها وتظهر حقيقتها في تفكير الاشخاص مهما كانت ظروفهم الخاصة والمصادفات المحدقة بهم وعلى هذه الفكرة قامت محاولات بعض المفكرين تنظيم المذاهب الفلسفية صنوفاً خاصة . وفوق هذا الاساس بنى فكتور كوزان نظريته في المذاهب الاربعة وهي « المثالية » و« الحسية » و« الارتيابية » و« الصوفية » وكوّن اوجست كونت رأيه في المراحل الثلاث . مرحلة الدين ومرحلة ما وراء الطبيعة والمرحلة الوضعية

ولكن المنطق في سير الفلسفة كثيراً ما ينقطع خيطه والترتيب التاريخي الذي ظهرت به مسائل فلسفية كثيرة كان ينم على عدم وجود الضرورة المنطقية. والسر في ذلك ان هناك عاملاً قوياً ينبغي ان يحسب حسابه وهذا العامل الهام تخلقه اتجاهات الحضارة وذلك لان الفلسفة تتلقى مشكلاتها وتتأثر في حل هذه المشكلات من حاجات المجتمع ومطالب الوعي العام . فالفتوحات العظيمة والثورات الاجتماعية الخطيرة والتغيرات السياسية البعيدة المدى وتطورات الفكر الديني وبداعات الفن وملهمات الشعر كل هذه العوامل تزوّد الفلسفة بدوافع مستحدثة وتيارات مستجدة وتقضي باهمال بعض المشكلات ونبذها وتعليق الشأن الكبير بمشكلات اخرى والتبحر في دراستها وهكذا الى جانب الاعتماد على العامل المنطقي فان هناك ضرورة ناشئة من الحضارة واتجاه تيار الثقافة تستدعي حق الوجود لنظم فكرية لولا هذه الضرورة لما تماسكت وارتفع بناؤها الفكري

وفضلاً عن ذلك فان الحركة التاريخية في تنوع اشكالها وتجدد اوضاعها مدينة الى حد كبير للافراد الممتازين . وهؤلاء الافراد برغم انغماسهم في احوال عصورهم وخضوعهم للفكرة العامة المنطقية السائدة في عصرهم التاريخي يضيفون على الدوام من طريق فرديتهم البارزة وعظمهم الاوحدي عاملاً جديداً . وهذا العامل الفردي في تاريخ الفلسفة جدير بالرعاية لأن حاملي اللواء في الحركة الفلسفية كانوا من ذوي الشخصيات الرفيعة المستقلة والطبائع القوية المؤثرة

واذا لاحظنا في تاريخ الفلسفة تردد مشكلاتها من الحين الى الحين وعودة نفس الحلول والمحاولات فاننا عسيون بان نجد في ذلك الحجة الدامغة على خطورة المشكلات الفلسفية وعلى ان الفلسفة ليست وهماً من اوهام الخيال ولا هي تزجية فراغ ونوع من اسرف في التفكير وانما هي تتناول مشكلات حقة ومسائل جدية ولعل المذاهب الفلسفية المتعددة على ما بها من اختلاف وتناقض اوجه مختلفة لمذهب فلسفي واحد في نمو متزايد هو المذهب الذي يتضمن حكمة الاجيال المتعاقبة وخلاصة التفكير الانساني . وتاريخ الفلسفة يرينا كيف صاغت الانسانية تصورات هذا المذهب وكيف كوّنت على الحياة احكامها المجتمعة فيه

الحياة

هاج النسيم العندليب في السَّحر　　فهزَّهُ الغرامُ وجداً فصفر
وغازل الوردَ على ضوء القمر　　وردَّد الفضا صداه فاستمر
والماء غنَّى بخريره الشجر
وباتت الشمال ترقص الزهر

يا حبذا الالحان في الاسحارِ　　من بلبلٍ شادٍ وماءٍ جار
ومن نسيم مرَّ بالازهار　　تخالهُ يلعبُ بالاوتار
امسى له في كل دوحةٍ أثر
وكل عودٍ فيه عودٌ ووتر

مرَّ النسيمُ العذبُ والعيش حلا　　والبلبل العاني شدا ورتَّلا
واذَّن الدِّيك بنا حيَّ على ...　　والوقت قد طاب وساغت الطِّلى
فاغتنم الوقت وفز واقض الوطر
واجن من اللذَّة بالعيش الثمر

واختلط الفجرُ بنورِ البدرِ　　اذ الدَّراري انتثرت كالدرّ
في ليلةٍ ما خلتها من عمري　　قتلتها سكراً وأي سكرِ
وكل ما شاهدت فيها قد سكر
من حيوان ونبات وحجر

واستتر النجم اذ الصبح بدا　　ومدت الصبا الى الورد يدا

تمسح عن جبينه قطر الندا تنثر ذاك اللؤلؤ المنضّدا

فالطلُّ أنجم ان النجم استتر

والروض كالسماء زامرٍ بالدرر

والزهر الكؤس والطلُّ طلى بين كرام الشرب باتت تجتلى

حتى اذا الورد بها قد ثملا عربد في الروض النسيم واعتلى

فاصطكت الكؤس والطلُّ انتثر

وانسكب الشراب والجام انكسر

بينا الصبا والروض في وفاق تميل بالاغصان للعناق

تضمها من فرعها للساق تحكي الحبيبين لدى التلاق

اذا بريح صرصرٍ تعمي البصر

اعقبها رعدٌ وبرقٌ ومطر

ما ابتسم الصباح حتى قطّبا اذ جاءت الريح تسوق السُّحُبا

وبعد ما الهزار غنّى طرباً صاح الغراب ناعباً مكتئبا

فأعقب السرورَ حزنٌ وضجر

وبان بعد صفو عيشنا الكدر

كذا الحياة شأنها جزر ومدّ تعاقب السرور فيها والكمدْ

والعين ان قرّت بها تلق الرمد وكل شيء ينتهي الى امد

والمرء لا ينفك يحذر القدر

والموت لا يبقي غداً ولا يذر

طهران عباس الخليلي

صاحب جريدة اقدام الفارسية اليومية

ظاهرة دبلر

في الطبيعيات والفلك

قد اعتدنا نحن ابناء القرن العشرين سماع اصوات مختلفة كأصوات كثير من المخترعات الحديثة التي لم يتسنَّ لاجدادنا ان يروها كالقاطرة والباخرة والترام والسيارة وغيرها من وسائل النقل الحديدة . واظنني غير مبالغ اذا قلت أن كل واحد منا شاهد قاطرة او باخرة وسمع صفيرها المتمالي مخترقاً طبقات الجو . ولكن قلَّ من اعار هذا الصفير عناية واخذ على عاتقه تطبيق احد القوانين الطبيعية المشهورة التي درسها في المدرسة. وهذا ما نريد ان نحاوله في هذه السطور

ربما لاحظ القارىء وهو ينتظر في محطة ما والقاطرة مقبلة نحوه ، يسبقها صفيرها المتمالي ان الصوت يتغير تدريجاً اي يرتفع وربما لاحظ كذلك ان صفيرها يظهر آخذاً في الانخفاض ان كانت القاطرة مدبرة عنهُ . ولا يخفى على سكان الموانيء ان الباخرة القادمة اليهم يرتفع صفيرها تدريجاً على ضدّ تلك التي على اهبة السفر فان صفيرها يظهر منخفضاً تدريجاً وهي تبتعد عن الشاطىء . هذه الظاهرة الطبيعية مدونة في اكثر كتبنا المدرسية شأن غيرها من الحقائق التي كشف عنها جهابذة العلم وتعرف بظاهرة دُبلر Doppler والقانون الذي تسير بموجبه يعرف بقانون «دُبلر» . ويبدو لاول وهلة ان هذا القانون عديم الفائدة او قليلها لا يستحق الالتفات اليهِ وانعام النظر فيهِ ولكنهُ كبقية المكتشفات التي احتقرها الناس لجهلهم اياها له أثر خطير في تاريخ الفكر البشري وبوجه خاص في الطبيعيات والفلك

ولد دُبلر مكتشف القانون المنسوب اليهِ في سلسبورغ من اعمال النمسا وانتظم في جامعة فينا حيث درس الطبيعة ومهر فيها وربما اكتشف قانونه وهو بعد في سلك التعليم وأخذ في تفسيره سنة ١٨٣٣ ففرض كما فرض علماء زمانه يومذاك — وفرضهم اصبح اليوم حقيقة مقررة — أن الصوت ليس سوى اهتزازات دقائق الهواء او امواج تسير فيهِ . فالقطار والعربة والناقوس ترسل امواجاً حين اخراجها للصوت تلتقطها آذاننا فتقرع طبلة الاذن وتنقل الى الدماغ وتختلف هذه الامواج بعضها عن بعض طولاً وقصراً كما ان الاصوات تختلف علواً وانخفاضاً وسعة

والصوت العالي او المرتفع هو ما كانت موجاته قصيرة فتكون سريعة الاهتزاز على الضد من الصوت المنخفض فامواجه طويلة قليلة الاهتزاز بطيئتهُ . وتتبين صحة هذا القول عند ما تنصت لاصوات الآلات الموسيقية المختلفة من بوق وارغن وكنجة وقرنيطة وعود وغيرها

والقطار عند صفيره تنطلق منهُ امواج صوتية تهتز اهتزازات معينة وتسير بسرعة ٣٣٣ متراً في الثانية فاذا كان القطار مقبلاً نحونا اندفعت الامواج الكثيرة الى الامام فتتجمهر امام أذننا كانَّ ثانيها يضغط سابقها ، وكلما اقترب منا قصرت المسافة بيننا وبينهُ ونظراً الى كثرة

الامواج وازدحامها تجبر على الانكسار فتنقسم الطويلة الى اقصر فنقول عند ذلك ان « الصوت يعلو تدريجاً ». ويتبين ذلك لرجل واقف عند شاطىء البحر وامواج البحر تهاجه وتتكسّر عند رجليه فيرى كيف الامواج تصغر — تقصر — كلما دنت منهُ ويتعالى هديرها. هذا عند اقبال القاطرة نحونا اما عند ادبارها اي ابتعادها عنا فيجري عكس ما سبق. فالقطار المدبر يرسل امواجه الصوتية المعهودة والمسافة بيننا وبينه آخذة في الزيادة والنتيجة ان الامواج يصبح لها مدى اوسع فتأخذ في الاستطالة اي تقل ارتجاجاتها فنقول إن الصوت قد اخذ في الانخفاض. هذا ما يعلل بهِ علماء الطبيعة هذه الظاهرة ودعامتهم الكبرى في ذلك ان الصوت امواج او ارتجاجات دقائق الهواء

وربما يسأل القارىء نفسه كما سأل كاتب هذه السطور السؤال التالي: اذا كان صفير القطار وهو مقترب نحونا يرتفع تدريجاً افلا يظهر كذلك اذا كان القطار واقفاً ونحن الذين نقترب اليه؟ والجواب عن هذا السؤال بالايجاب، فان المسافة والسرعة في الكون نسبية كما ابانت نسبية اينشتين الحديثة ومن اراد ان يتحقق ذلك فلينصت الى اجراس الكنيسة وهو مقترب نحوها فيسمع صوتها يعلو تدريجاً ان كان آتياً نحوها وهي تقرع وينخفض كذلك ان كان مبتعداً عنها. وانما الفرق في شعورنا في الحالين يختلف لان سرعة اقبالنا نحن او ادبارنا نحن ابطأ كثيراً من اقبال قطار او ادباره فالاختلاف في ارتفاع صوت الناقوس او القطار لا يبدو جليًّا

بقي القسم الثاني من قانون دبلر اعني أثرهُ في علم الفلك والبحث فيهِ شائق طريف قلما يخلو من اللذة والفائدة. واذا علمنا الفوائد التي جناها علم الفلك بواسطتهِ عن حقيقة النجوم والسيارات والثوابت القريبة من ارضنا وحركة مجموعنا الشمسي والمجرة وسرعتها في الفضاء اللانهائي — اقول ولو عرفنا ان ما دعا اينشتين ودي ستر الهولاندي للبحث في تمدُّد كوننا وتقلصه وفي صدق نظرية النسبية والكم — انما يرجع الى النتائج التي اسفرت عن تطبيق قانون دُبلَر لادركنا ما لهذا القانون من الشأن في صدر علماء الفلك

يعلم اكثر التلامذة وغيرهم من المتعلمين النظرية القائلة بأن الضوء أشبه بالصوت وانهُ ليس الاّ امواجاً اثيرية تنطلق من الجسم المضيء الى شبكية العين حيث تؤثر في الاعصاب فنرى الاشياء وتتحقق وجودها. وهذه المعرفة مع بساطتها والسذاجة التي يظن انه تنطوي تحتها لم يعلمها امير الفلاسفة نيوتن ولا مَنْ سبقه من علماء الطبيعة الذين كشفوا عن نواميسها الازلية. واظن ان القراء يعلمون النظرية الذرية في الضوء Corpuscular Theory التي اثبتها نيوتن في كتابه « المبادىء » Principia وبقيت هذه النظرية الى ان تصدى لها العالم الهولاندي هو جنس سنة ١٦٦٠ وقاومها قائلاً: انها لا تستطيع تعليل خواص النور كلها. وادّعى أن الضوء امواج اثيرية لا ذرات مادية ففقد الضوء عند ذلك صفة المادة واصبح امواجاً يتقاذفها بحر مجهول الكنه والمادة دعوه الاثير. وقد لقيت هذه النظرية، نظرية الامواج Wave Theory رواجاً عظيماً بين الاوساط العلمية اولاً لبساطتها في تعليل جميع مظاهر النور — كما كان

يظن — وثانياً لان لكل جديد طلاوة ظريفة . وظلت هذه النظرية حتى أواخر القرن التاسع عشر النظرية الوحيدة التي يعتدُّ بها العلم لانها ثبتت امامه في بوتقة التجربة والامتحان الطويل. ولكن ما عتم ان أتى القرن العشرون حتى ظهر ان نظرية الامواج امست على وشك الانهيار. وما تجارب الدكتور جوزيف طمسن وابنه وولبرفرس وبلنك الا برهاناً واضحاً على فشل هذه النظرية في بعض نواحيها . وكان البروفسور بلنك من جملة من حمل عليها حملته الشعواء فهاجها بسلاح التجربة والبرهان وقال بأنها امست على فراش الموت ووضع من ثم أسس نظرية جديدة تعرف في علم الطبيعيات بنظرية الكم Quantum . وقد بسطها المقتطف سابقاً بأسلوب رائق سهل التناول وعلق عليها قائلاً : نظرية الكم كأختها نظرية النسبية من ثمار الفكر الالماني زعزعت كثيراً من معتقداتنا القديمة وازلت جلالة « السببية » عن عرشها القديم

وقد يدرك اللبيب ان قانون دبلر لا يصح في علم البصريات الا اذا عُدَّ النور أمواجاً أثيرية وهذا ما وعدنا به هوجنس في نظرية الامواج فلنبسط بحثنا اذاً لنرى اي مكان لقانون دبلر من الاعراب . جاء في كتاب المبادىء لنيوتن ان النور مركب من سبعة ألوان أولها الأحمر وآخرها البنفسجي وقد اثبت ذلك نيوتن وهو طالب حديث السن وجاء هوجنس ففسر لنا هذه الالوان قائلاً . انها امواج مختلفة الطول والقصر فهي مختلفة الارتجاجات كما تختلف اصوات السلم الموسيقي تماماً في الارتفاع والانخفاض نظراً الى اختلاف طولها وقصرها وذكر من ثمَّ ان اقصر الامواج في ألوان الطيف هي للون البنفسجي وأطولها للون الأحمر

ولنفرض ان شعاعة آتية الينا من نجم سحيق في بعده ثابت في مركزه فأمواج نوره تبقى بلا شك على ماهي عليه من لون طيفه اللهمَّ اذا لم يعتر ذلك النجم كارثة عظمى تمحو أثره من الوجود. ولكن لو فرضنا ان النجم مقبلٌ نحونا بسرعة عظيمة فلا بدَّ من ملاحظة تغيير يطرؤ على طيف نوره اعني انه لابدَّ ان يحدث للامواج الآتية الينا منه كما حدث للامواج الصوتية الخارجة من صفير القطار المقبل أي تقصر وتميل نحو اللون البنفسجي وذلك لان الامواج البنفسجية هي اقصر الامواج كما ان الصوت المرتفع اقصر الامواج الصوتية. ولو كان لدينا آلة بصرية دقيقة تستطيع ان تدوّن لنا هذا التغيير — كما هو السبكترسكوب اليوم — لتوصلنا الى معرفة هذا النجم باستعمال قانون دبلر

ولنفرض كذلك ان نجماً آخر يسبح في الفضاء يبتعد عنا بسرعة ١٠٠ ميل في الثانية فلا بدَّ لسرعته العظيمة هذه من ان تؤثر في طيفه وحالته تكون اشبه بحالة القطار المبتعد عنا اي ان امواجه تطول فيقل اهتزازها فتميل او تحيد نحو اللون الاحمر لان امواج الاحمر اطول امواج الطيف المرئية. ولو استطعنا ايضاً حساب هذا الاختلاف لتسنى لنا معرفة سرعة هذا النجم الشاسع.

وبمثل هذه الاستنتاجات أخذ علم الفلك يفحص اختلاف طيوف النجوم المرصعة للقبة الزرقاء تطبيقها بموجب هذا القانون اسفر عن نتائج غريبة جداً وبعيدة عن التصديق والاحتمال . فقد ثبت ومثلاً ان لبعض النجوم سرعة تزيد ١٥٠ ميلاً في الثانية مقتربة من سيارنا وظهر ان اخرى تبتعد عنا

بسرعة تماثلها . وعرف ايضاً ان مجموعنا الشمسي يسير في الفضاء اللامتناهي بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية ويزعم بعض الراصدين في مرصد جبل « ولسُن » ان سرعة الاجرام السماوية تزداد ببعدها عنا وظنوا أن نظرية النسبية تؤيد مزاعمهم فالنجوم التي تبعد عنا ١٠ ملايين سنة نورية لها سرعة تقارب ٩٠٠ ميل في الثانية والتي يحتاج نورها الى ٥٠ مليون سنة للوصول الينا لها سرعة تقارب ٤٥٠٠ ميلاً في الثانية . والعمليات الرياضية في هذه المسائل تستوعب زمناً طويلاً وتفكيراً عميقاً حاداً ولكن النتيجة التي توصلوا اليها بعيدة الاحتمال جداً فضلاً عن انهُ اذا تمادينا في البعد وحساب السرعة وجدنا ان هناك في آخر اركان الكون — ولا اركان للكون — اجرام تدور بسرعة النور، وهو قول تنفيه نظرية النسبية على خط مستقيم. والعجب كل العجب ان العقل الذي ابدع قوانين الرياضيات هو نفسه يعجب للنتائج التي توصل اليها ولا يكاد يصدقها . فلا غرابة اذا قام بعض الباحثين لانتقاد هذه الاعداد الغريبة ولتأكيد عدم دقتها واشهرهم جيمس جينز مؤلف كتاب « الكون المفعم بالاسرار » وزفسكي استاذ الطبيعيات في جامعة كاليفورنيا بأميركا . قال الاول ما خلاصته :

ان النتائج التي حصلنا عليها لسرعة الاجرام السماوية ليست حقة انما فيها كثير من المبالغة وذلك لانها لم تقس رأساً كما قيست ابعاد النجوم بل باستخدام قانون دبلر في فحص طيوف النجوم وقياس زاوية الاختلاف فيها ولكن هناك مسببات اخرى قد يكون لها المقام الاول في جعل الطيف ضارباً الى الحمرة والزرقة فالشمس مثلاً يحمر لونها عند الشفق والغسق فتكسب الغيوم لوناً احمر قانياً وذلك لمجرد مرور اشعتها في جو الارض . وهناك سبب آخر ارتآه الفلكي دي ستر وهو ان البعد ايضاً يجعل لون النور مائلاً نحو الحمرة حتى ان ابعد السُدُم اذا سلمنا بأنها ثابتة تظهر لنا حمراء عند رصدها . بقي علينا تعليل الاستاذ زفسكي لهذه المسألة الخطيرة وهاك رأيه :

ان الاشعة الصادرة من النجوم والسدم تصادف في اثناء سيرها في الفضاء كثيراً من الالكترونات الضالة السابحة فتنحرف بتأثيرها عن سيرها فيحمرّ من ثمّ طيفها الواصل الينا. ولإثبات رأي زفسكي رُصد عدد من السدم المتساوية الابعاد تقريباً واختيرت بحيث يكون البعد بيننا وبينها تارة محتشداً بالمادة وطوراً قليلها فأسفرت النتيجة عن ان طيف الاولى كان اشد احمراراً من طيف الثانية كما ابانت معادلات زفسكي الرياضية . وعلى ذلك لا تكون هذه النجوم السحيقة البعد عظيمة الحركة كما زعم الفلكيون سابقاً . وتفسير ميل طيفها نحو الحمرة لا يتأتى عن سرعتها فحسب ولكن لتعليل زفسكي المقام الاول لهذه المسألة . اذ ثبت ان هناك عوامل خفية هي السبب في جعل طيف النجوم ضارباً الى الحمرة وجهلنا بهذه العوامل هو الذي جعلنا نعتقد ان الحمرة ناجمة عن سرعتها. وقد اخذ العلم يكشف النقاب عن هذه العوامل السرية. فلننتظر ما يتحفنا بهِ في القريب العاجل

القدس حمزه بها

السوپرمان
او « الانسان الكامل »

« السوپرمان » أو « الانسان الكامل » هو تلك الصورة البراقة الرائقة من « الانسانية » الناضجة المستكملة الجوانب التي لا تعتور أسوار متانتها ثغرات من الوهن أو فتحات من المثالب

بل هو « الحلم الذهبي » الذي يداعب آمال « البشرية المعاصرة » ، ويتبدى لخواطرها كما تتبدى الغادة الهيفاء أمام عيون العاشقين فتنة متحركة تستهوي الالباب بسحر جمالها الخلاب

بل هو غاية المطاف من المعارج ترقاها البشرية على مدرجة التطور نحو المثل الاعلى الذي تطمح اليه ، وتوجه جهودها المتواصلة النشيطة نحو بلوغه : ليتمثل في يدها عصا سحرية تبدل آلامها المضنية حالة راضية مرضية من السعادة والرفاهية

بل هو ذلك الندى المبارك الذي تشرئب اليه زهرات الانسانية تستنزله في شوق ولهفة : لتتفتح اكمامها عن شذاها العطري المتأرج الذي يروّح عن النفوس بعد أن استبدت بأنفاسها تلك الرائحة الخانقة التي نشرها روح النضال بين « أفراد النوع » : مدفوعين بعوامل الانانية والأثرة ، التي تملي حب الاستعلاء والسيطرة ، جرياً وراء مطامع أثيمة من التسخير والاستغلال

بل هو تلك المرحلة النهائية التي تبلغها البشرية في تطوّرها : بعد أن تعبر جسراً من المتاعب وتخوض بحراً من المصاعب المجهولة . . . فإذ ذاك — وإذ ذاك فقط — تلعب الانسانية أمجد أدوارها على مسرح الحياة ، بل تقوم بأشرف واجباتها نحو مختلف مظاهرها أفراداً وجماعات ، ونحو باريء الاكوان الذي استخلفها في الارض

خصائص السوپرمان

ولعمري لن يستطيع الانسان أن ينهض بأعباء تكاليفه الجديدة الا وهو مزوّد بأسلحة اخرى من كيانه المتجدد : الذي سيتكيف أنموذجه وفق قالب من تفاعيل التطور والارتقاء ، وسيتكشف هذا التطور في الشخصية الانسانية عن تقوية مقوماتها المادية والعقلية والادبية والوجدانية : كما سيكفل تحقيق التوازن بينها ، وتنظيم روابطها ، بحيث تتساند وتتعاون ، وينتفي عند بعضها الاستعداد للطغيان على حساب البعض الآخر

ولكن ، على أية صورة سيتسق هذا الطراز المرموق للانسان الكامل ؟ والى أي مدى سيتسع مجال النشاط أمام مقومات شخصيته ؟ سننتظر من السوپرمان أن يكون ذا جسم

صحيح قوي متين ، سليم التكوين ، يتمتع بمرونة الاجهزة والاعضاء ،وحرية نشاطها في الاداء

وسننتظر من السوبرمان مواهب عقلية فذة : كريمة الجوهر ، رائعة الاثر ، بمقدار ما ستحرر من شوائب القصور عن التعمق في الادراك ، والعجز عن استكناه الحقائق وطبائع الاشياء . . . . وذلك بفضل ما سيتسع امامها من آفاق جديدة لدقة النظرة وسلامة الارتياء: نظرة شاملة كاملة مستوعبة تستعين بالاخيلة الابداعية والحافظة الواعية والارادة الحديدية على فتح المجاهيل المغلقة امام الذهن ، ليرتادها منقباً عن النواميس المكنونة ، فيضم كل حلقة الى سلسلتها ، ويرد كل فرع الى اصله ، ويرجع كل فرد الى نوعه ، ثم يستخدم الجميع وما يستجد من كل جوهر فرد ، في كشف عوالم فكرية اخرى : يسخرها بدورها مع غيرها في تحقيق اغراضه ومطامحه وما تصبو اليه الجماعة الانسانية كافة من سعادة ورخاء وطمأنينة وسلام

وستطلع من « الحاسة الفنية » في « السوبرمان » بأزهى ما يفيضه طيفها من باهر الالوان : وأشجى ما تترنم بهِ بلابلها من فاتن الانغام في ساحر الالحان : لتأتلف من تلك الالوان وهذه الالحان صورة مناجية : وأنشودة داعية : نحو الكمال في أروع مثال : تحت قبة التآخي والوحدة الوارفة الظلال

وسيتجلى السوبرمان في صفاء « روحانيته» : بعد أن يتخلص تيارها من رواسب القلق والحيرة ، وبعد أن ينجلي عن روائها صدأ الغرائز ونوازع الاثرة ، وبعد ان يسحج ما ترسف فيهِ من أغلال المادية المركوزة المستقرة ، وبعد أن ينجاب ما يظللها من غيم الفردية المنقبضة المتحجرة : فاذا هي روحانية نقية طاهرة ، مجلوة متحررة طليقة طائرة : تسبح في جو جديد فسيح تعطره نسمات الحنين الى التسامح ، ويخفق فيهِ الضمير الانساني بهمسات هاتفة تمجد الاخاء والمساواة وتغري بالاندماج بل التلاشي طي تلافيف الروح الاعظم الذي ينتظم العالم والاكوان جميعاً

نظرية السوبرمان في الميزان

ولقد طالما كانت هذه الصورة الاخاذة التي اسلفنا عرضها عن السوبرمان موضع تشكك طائفة من الباحثين ، ويأس من امكان تحقق نظريتها التي تسمو في تقديرهم عن مستوى المعقول. فراحوا يرصدون عليها اشتاتاً متنافرة متنافرة من جدل سقيم لا ينهض، وتفنيد عقيم لا يدحض

(١) ذلك انهم زعموا ان « عقل » السوبرمان الهائل الجبار سيستنزف مقداراً كبيراً من قوة الانسان . فيضعف جسمه ، وهو الاساس في التغذية والاصل في التموين — لكن ذلك تعسف منهم في تأويل قانون الطبيعة في «المنح والاستعاضة» ، وقياس مع الفارق البعيد على ما نشاهده من حال بعض النوابغ الذين يضطرب ميزان كيانهم . فترجح كفة عبقريتهم نظيرتها الجسدية . والعلة في خطإ هذا الدليل كامنة في اختلاف اساس القياس . اذ ان السوبرمان لن يتطوَّر بأحد شطريه ، متخلفاً بالآخر عن النهوض والملاحقة في نفس الميدان، بل سيستعيض

من جسمه جسداً آخر مختلف الخصائص والوظائف كما سبق البيان وسيكون هذا الكيان المادي كفيلاً بحمل ما قُدّر ان يستقر على عُمُده من قبة العبقرية الذهنية المشخصة

وسيتعهد هذا الكيان الجسدي عوامل مختلفة. من نواحي التربية والفسيولوجيا وغيرها. يميط عنها اللثام ما يعالجه العلم من بذل الجهد والتجارب في هذا السبيل. بل اننا لنلمح من الآن نواة هذا التطور المنتظر : — فأمامنا نظم التربية في دول كثيرة كألمانيا وايطاليا وتركيا تتجه بوجه خاص نحو الاعداد الرياضي لتقوية الابدان وتنميتها وتمرينها بالقيام بوظائفها على اكمل اسلوب يفي بالغرض المرتقب. وأمامنا كذلك تلك الغاية التي يلح وراءها البحث الحثيث لتحسين النسل وتهذيب النوع حتى نظفر بنماذج سليمة قوية لا تشوّهها العلل ولا يمسخها النقص في التركيب

وأمامنا امل فسيح الرحاب في ان يكشف العلم الحديث ما غمض في الجسم من نواحيه الفسيولوجية ، كما كشف اخيراً عن « الغدد الصماء » ذات الاثر الحيوي في نشاط وظائف الاعضاء

ولا يزال في مضمار البحث متسع بعيد المطارح مترامي الآفاق . ولن تزال الهمة مبذولة لاستجلاء ما في هيكلنا الجسدي من استعدادات وخصائص كامنة : هي اما مجهولة الاثر واما راكدة يعوزها التطور لتنضج وتتجاوب مع نشاط واحد او آخر من الاجهزة العاملة . وما يدرينا ان يهتدي علم « الكيمياء العضوية » الى سر ما اغلق حتى الآن من خصائص المناعة وغيرها مما تتطلبه سلامة الجسم من المرض او دقة مكافحته على اهون سبيل وأسرع اجراء؟ ثم ما يدرينا ما تنقلب اليه البحوث الطبيعية من استغلال ما في كياننا الجثماني من ذخائر الكهربائية والمغناطيسية في سبيل فتح بديع جديد يأتي بالخوارق والمعجزات في علم الطب وطرق العلاج والنهوض « بحيويتنا » نهوضاً وثاباً قد لا يأتي تصورنا على الغاية من اثره وخطره؟

(٢) وحسبنا هذا القدر تأييداً لنظرية السوبرمان من الوجهة الجسدية . ولنعمد اذن لتناول ما يسوقه المعترضون من اوجه اخرى . فهم يزعمون ان مسألة التطور ان هي الا فرضية بحتة هيهات ان تتحقق . وهم يدللون على هذا الزعم بتخريجاتهم الجريئة لفلسفة « كانت » عن « الزمن » . فما دام « كانت » قد اثبت ان الزمن ليس له وجود مستقل او حقيقة ذاتية ، فليسقط اذن في تقديرهم كل اعتبار يمكن ان يقوم لنظرية « التطور » . لان التطور يستلزم جسراً من « الزمن » يعبره ويتخطاه الى غايته — لكن هذا الاجتهاد يجيء من مقدمات بناها على غير اساس صحيح ، وايراداً على غير قياس صريح ، ذلك ان فلسفة « كانت » ذات كيان « مطلق » لا يمكن ان ينصب في قالب ما نحن بسبيله من « النسبيات » . اذ القاعدة لدينا موجودة يخضع لحكمها « انسان العصر » و « السوبرمان » على حد سواء . لانهما يساهمان بنصيب متعادل فيما اصطلحت عليه « البشرية » من « اقيسة زمنية » هي وليدة ادمغتها وصنيعة ما جرى عليه تفاهمها وعرفها ، بل ميراث اجيالها وأطوارها على ظهر الارض ، ما بقيت

الارض تعمرها مظاهر الانسانية في مختلف عصورها وشتى صورها. وسيظل «التعامل الذهني» بأقيسة الزمن مستمراً قائماً ما اقام « الانسان » على ظهر الارض « حيًّا » : لان الزمن « كائن تصوري» تمخض عنه «الفكر» تحت تأثير «ظرف مكاني» معين هو الموضع الذي تحتله الكرة الارضية في الكون كوحدة من المجموعة الشمسية

(٣) هذا ولقد أثار المتشائمون غبار اعتراض آخر في وجه نظرية السوبرمان. فلم يفلحوا في غير استثارة كوامن الدهشة لهم والاشفاق عليهم ، رغم ما حاولوا أن يستروا ضعف حجتهم بطلاء خجول من رأي الفيلسوف «شوبنهور» أقحموه على غير مناسبته وفي غير موضعه: فهم يرددون معه أن «العقل لم يخرج من أيدي الطبيعة ليعلم حقائق الاشياء ، بل ليرينا كيف نحصل على القوت ... هذه الوظيفة الحقيرة !! » .... لكن أنا الزعيم لهم أن «شوبنهور» لم يقصد الى ما لالفاظه هذه من دلالة سطحية .. وإنما توخى أن يستنفر بأسلوبه الساخر همم الباحثين وغيرهم من «العقلاء» للتأمل الدقيق المتغلغل الذي ينفذ وراء « القشور» الى أعماق «اللب» حتى يكون « العقل الانساني » قد أدى بذلك غايته العليا ولم يعطل أداء ما خلق لتحقيقه والاضطلاع بأعبائه من أنبل المهام وأشرف المرامي

أما ان العقل أداة رخيصة كما يريدون أن يهبطوا بقدرها ، فذلك ما نستعيذ منه بالانسانية الكاملة التي تتنزه بطبيعتها عن الاسفاف الى هذا الدرك السحيق ، وحاشاها أن تستوي «بعقليتها» مع سائر المخلوقات بل الحشرات الدنيا التي تلهمها «الغريزة» وحدها سبل الحصول على القوت . . . . تلك الوظيفة الحقيرة !! . . . . بلى ! فهذه طبائع الواقع ومنطق الحقائق وخصائص التكوين تتحداهم أن يطلقوا على صروح سلطانها وعول سفسطتهم ذوات القرون الزجاجية الهشة المتهشمة ؟ .. ولسنا بجامدين عند هذا الحد السلبي من المحاجة والمقارعة وان كان فيها كل دليل مقنع : يسمو على أي تطلع : ويدق دونه كل مطمع.... فهاهي باحة « الايجابيات » مفتحة الأبواب فسيحة الرحاب ، فليلجوها يروا من آثار العقل الانساني المعجب العجاب الذي يبهر الألباب ، وليتفقدوا اذن كل ما أبدعه الفكر في نواحي نشاطه المتعددة من علوم وفنون وفلسفة وآداب. . وليتمثلوا كل أولئك ليعلموا بعد ذلك أن مثل هذا الانتاج الانساني يترفع بكرامة عنصره وجوهر مصدره عن أن يحبس كل ذاته على خدمة المآرب الحيوانية الصغرى، واشباع الحاجة الطبيعية الى الغذاء ، فالانسانية تأبى بشرف مقاصدها ونبل جهودها، كما تربأ بها حكمة وجودها ، عن أن تعيش وتحيا وتموت ، لنير وجه البطون وجمع القوت ! !

وبعد ، فما العقل في صميم غايته الا أداة لتأمل الحقائق الماثلة والصعود على أجنحتها الى عالم الاسرار القصية المجهولة : حتى اذا ما كشفها ثم عرفها ، وضعها تحت تصرفه من وجهتين:

فأما الاولى فهي استغلال النواميس الكونية لمصلحة الانسانية وفق حاجاتها المادية والوجدانية وأما الثانية فهي تنظيم أشتات هذه النواميس المتفرقة : بحيث يؤلف من حباتها عقداً : ومن أشلائها جسداً : ومن اجزائها واحداً فرداً ... فتتمثل له دقائق الوجود وحقائق العالم كما تسلكها جميعاً قوانين الطبيعة الخالدة التي شرعتها روح الوحدة الأزلية بحكمة أسرارها السرمدية ... وهو بعد مكتف بأعجاز الأثر ، عن الظفر بما يعز من استكناه الجوهر ، وواجد عزاء الاقتناع وسلوى الاطمئنان في بعض ما هداه اليه بحثه . كالكهرباء التي ولد قواها وانتفع بمظاهرها : وان ابهظت كاهل ادراكه اعباء أسرارها ...

عندئذ تتجرد من جلال هذه التأملات مشكلة وجدانية تغمر جنبات اليقين بأشعة ضوئها : وتهتك حجب الحيرة امام الروح فتطمئن الى بارئها . بل ترقى الى فيض الانوار العلوية : تتزيد مما يتجلى عليها ، وتتزود بما يلهمها سبل الرشاد والتوفيق في حسن القيام بواجباتها نحو خالقها وما ابدع في الاكوان !

(٤) الى هنا وتنتهي المعركة بيننا وبين المعارضين لنظرية السوبرمان

فلننظر نحن في آخر حلقة من النظرية : لتكمل السلسلة وتنتهي المساجلة . ولنتساءل إذن : الى أي مدى يصل التطور بالقوة الأدبية لدى السوبرمان ؟؟ لاشك أنها ستنتعش وتنمو وتزدهر وتؤتي أكلها ثمراً جنيًّا شهيًّا ! ولسنا نسوق القول على عواهنه ، دون تدبر لمعنى ظواهره وبواطنه . بل أن الشواهد على صحته لتنطق بأجلى بيان وأنصع برهان . وها هي الانسانية فلنستعرض اطوارها وعبر سيرها : لنرى كيف انتقلت من حمأة الذلة والسخرة والعبودية : الى مكانتها العزيزة في بحبوحة الحرية والاعتداد بالكرامة الفردية ، ولنرى كذلك كيف تجاوبنا « الروح الادبية » في الانسان مع ما أحاطها من ظروف وملابسات : تفاعلت معها وتخذتها مادة لغذائها ، وصفا جوهرها في بوتقتها ... أجل ! فلقد مونتها العلوم بذخائر المعرفة فتدرعت بسلاح التفهم لحقائق الكون والتقدير لذاتها . ثم أنارت لها الفلسفة السبيل الى تحديد الروابط وتصحيح الاوضاع وتنظيم العلائق : فعرفت لنفسها شرف قدرها في الوجود واستأنست لكرامة منزلتها في الحياة .... ثم أهاب بها هاتف الوجدان اليقظ المتنبه : فانتفضت وتململت ، وذكت جذوتها تحت ضغط التقاليد السائدة : ونفضت قشرتها بحزم لبابها تحت تربة التقاليد البائدة : متطلعة الى مزاولة مهمتها في حياة جديدة : تتنسم فيها عبير « تقرير حقوق الانسان » وتستدفىء فيها بأشعة حارة منعشة من شمس الحرية والديمقراطية . . وشتان إذن بين راهنها الحاضر ، ومستقبلها الزاهر المنتظر على أوج الغاية من التطور : وبين ماضيها الكدر المنحدر : حين كانت في عهود الاقطاع : من سقط المتاع !!

السوبرمان على جناحي الزمن

والآن لمحة سريعة متمعنة متبينة : نجوس خلال حقب الزمان : لنرى هل تضامت دفتا خاليه وحاليه على غير حظ قليل او كثير من أمثلة للسوبرمان : جادت بها الطبيعة على صورة من الصور ؟ ولنرى هل بذلت الطبيعة هذه النماذج في سخاء المسرف المبذر : ام في شح البخيل المقتر ؟؟ .... أما في عصرنا هذا فان الانسانية لم تحرم من مظاهر امثلتها العليا . لكن أغلب الظن أنها امثلة متحيفة الاطراف : وان سمت خصائصها فرق مترامي الاطراف ! وهاكم الناحية العلمية شادهة بادهة في شخص « اديسون » و « ماركوني » و « اينشتين » وغيرهم .. كما يتمثل الجانبان الفني والجسدي في شخص « تاغور » .. ولعل « غاندي » أروع مثال للشخصية العامرة : بقوتها الادبية الجياشة الزاخرة : وجلال روحانيتها الساحرة المسيطرة : تلك الروحانية المتشحة بطيالس الزهد والتصوف والغيرية : التي تستمد الرفد من بعض مناحي القداسة ونبل السمو في شخصيات النبوة ... والانبياء أبدع مثال للانسانية الكاملة التي حبتها العناية بنفحاتها السامية ... فلا غرو ان استووا امام الانسانية صراطاً مستقيماً للحق النير : ولا غرو ان اتسقوا على رأس الانسانية تاجاً من الكمال يتلألأ ويتوهج ! !

على ان العصور القديمة والمتوسطة قد استخلصت هي الاخرى من ربقة الطبيعة فلتات فذة من الابطال الذين امتازت بعض مقومات شخصياتهم بنحو جبار . سواء اكان ذلك من الوجهة الفنية « كرفايل » ، او الجسدية كشجعان اسبرطة ، او الخلقية « كجان دارك » ، او العلمية كبناة الاهرام ، او الفلسفية كأفلاطون وسقراط والغزالي وابن خلدون . فالى مثل مواهبهم الطامية الطاغية يرجع الفضل في ازدهار الحضارة التي تفيأت الانسانية وارف ظلالها . وارتشفت من فرات مناهلها

والآن بعد هذه اللمحة على محيط الزمن ، في جزائر حاضره وساحل ماضيه النائي . لنرجع البصر كرتين ونطلقه مرة اخرى الى شاطيء المستقبل البعيد المترامي . ثم لنهتك حجب الغيب وسجف المجهول بأشعة تصورنا . ليتبدى لنا ما ستثمره تفاعيل التطور في الشخصية البشرية والظواهر الطبيعية والحقائق الكونية : من « عالم سوبرماني » تعمر فيه أجيال متتابعة من الانسانية الكاملة في أتم تكوينها وأبدع مثلها العليا

ترى أي نظام سيسلك الروابط بين الافراد والمجاميع ؟ واي مبادىء ستسود قواعد الحياة في الاصول والتفاريع ؟ ... لا مراء في ان الجواب على هذا السؤال الدقيق تستهدفه المجازفة بين حافتين خانقتين من الرجم بالغيب : وغياهب الغموض والريب . . لكن هذا الجواب مع ذلك هو النتيجة المنطقية لما اسلفنا من مقدمات التصوير لشخصية السوبرمان ، وما تندمج عليه من خصائص تستتبع تشييد الكيان الاجتماعي على اسس صريحة وطيدة من التعاون البريء السخي

السيال وفق ما ترسمهُ مبادىء الاشتراكية في أبدع نمط من التطبيق نستودعهُ الآن ذمة الخيال

على ان الواقع المحسوس يلهمنا الاطمئنان الى تحقيق هذا الخيال : وان بدا ضرباً من المحال . وها هي آذاننا لا تزال تدوي فيها بين الحين والحين صيحات مستصرخة من هنا وهناك: تنشد التعاون بين الامم والتضامن بين الشعوب : نهوضاً بالانسانية من كبوتها : واقالة للمدنية من عثرتها — وانا اعترف بما لهذه الدعوة من جلال : وما لها من أثر قوي فعال . . ولكن في الوقت نفسه اعترف كذلك بما تنطوي عليه هذه المناشدة من دوافع منتكسة وغاية منتكسة . . فالمسيو «بريان» — مثلاً — كان يعرض في سبيل السلام مشروعه الخاص بالتعاون الاقتصادي بين جماعة الدول الاوربية لكنهُ لم يكن يبذل جهده — عن عمد او عن غير قصد — لوجه السلام حبًّا في السلام ! لان هذا النظام الجمركي من شأنهِ ان يوقع الاضطراب في ميزان المبادلات التجارية الدولية كما تقتضيها طبيعة الاقتصاديات في العصر الحاضر ومن ثمَّ يتولد شرر الحقد والبغضاء : فتلتهب النفوس بروح المنافسة الهوجاء : وتتقاطر زمراً الى ميادين الحرب الشعواء !

واخيراً لنستمع قليلاً الى « ولز » وهو ينشر في العالم رسالته ويبشر بالدعوة الى التعاون: منفراً من الحروب في نذير هلوع : وتحذير جزوع . . افلا نلفيهِ يستوحي الخوف والاشفاق من اهوال الحرب وغوائلها وفق ما يحصر جهده في دائرة التصوير لما ستكون عليهِ معداتها من فتك ذريع يعفي على كل أثر : فلا يبقي ولا يذر ؟ ؟ هلاَّ سمعناه يتناجى في دعوته بمعاني حب السلام المجرد كما تلهمهُ روح الحق والاخاء والمساواة ؟؟ كلاَّ ثم كلاَّ !! ولماذا ؟؟ ذلك لان الانسانية لم ينضج بعد استعدادها لقبول هذه المعاني واستساغة مبادئها . . وهيهات لهذه المبادىء السامية ان تثمر الاَّ اذا صادفت تربة خصبة كريمة في نفوس نجية ملبية مغذية . تتوافر فيها عناصر المثل العليا للانسانية الكاملة الشاملة ، كما نؤمل في «العالم السوبرماني» ان يكون : —

فلسوف اذن تمحى اعتبارات المسافة بالتلفزة واستخدام الطاقة الذرّية . ولسوف تتآزر الثقافات وتتفاهم اساليب الاداء الفكري . ولسوف يفيض الانتاج العقلي موارد الارزاق تترى : ولسوف تندك صروح الفروق بين الطبقات والجماعات . بحيث تتآخى الوطنية المحدودة الضيقة ، مع الانسانية الممدودة المطلقة . ولسوف ينظم تجاوبَ النشاط بين افراد النوع رقيبٌ دقيق خبير ، من صفاء الروح ويقظة الضمير وسلامة التدبير . فلكلٍّ من نفسه اذن وازع من الغيرية . ولكلٍّ من نفسه اذن دافع الى الخيرية . ترفرف فوق الجميع اجنحة خفية . لروح ملائكية موحية . تمجد الخير والحق والكمال والاخاء . ثم تهتف عالياً بنداء يشق عنان السماء . « عاش السوبرمان على مدى الزمان . خليفة الله في الارض وآيته في الاكوان »!

ابراهيم مسلم
مدرس بالعباسية الابتدائية الاميرية

شم النسيم

مكانه من تاريخ مصر القديم

قلت في مقالي المعنون «أثر الأساطير في قصة خروج بني اسرائيل» المنشور في مقتطف اكتوبر الماضي ان شم النسيم بقية عيد كان يعيده الأقدمون لهاتور في رأس السنة لذكرى الخلاص . وكان من رأيي ان بني اسرائيل بعد طردهم من مصر عيدوه في الصحراء كشأنهم من قبل وان التمثال الذي صنعوه بهذه المناسبة كان تمثال بقرة لا تمثال عجل لان هاتور صاحبة هذا العيد كان يرمز لها بالبقرة . ووعدت القراء بمقال أثبت فيه هذا الرأي والآن وقد شارفنا شم النسيم بمباهجه ومسراته أنجز لهم ما وعدت

كان أول توت وهو مبدأ السنة المصرية يحسب منذ أقدم العصور من وقت اقتران الشمس بكوكب الشعرى وكانوا يعرفونه باسم «سوذس» لموافقة شروقه لابتداء فصل الفيضان لأن الفصول عندهم كانت ثلاثة : فصل الفيضان وفصل الزراعة وفصل الحصاد. وقد عرف بالرصد ان شروقه في خط عرض عين شمس يوافق ١٩ يوليو وانما اختيرت عين شمس لذلك لانها كانت دار الحكمة ومقر عبادة الشمس ومنها ولا ريب كانت تؤخذ الارصاد لضبط أوائل السنين. الا ان سنتهم كانت تنقص ربع يوم عن السنة الحقيقية فلم تكن تبدأ في موعدها المقرر الا مرة كل ١٤٦٠ سنة وهو حاصل ضرب عدد أيام السنة في أربعة. وكانت المواسم والاعياد تختلف أوقاتها سنة عن أخرى . لكن عند ما كان الخطأ بتعاقب السنين يبلغ مبلغاً جسيماً حتى لتقع الاعياد في غير فصولها المقررة كان الكهنة لحرصهم على ضبط هذه الاوقات يرصدون الكوكب ويردون الامور الى نصابها . وقد وجدت شذرة من رسالة مؤرخة في السنة المائة والعشرين من حكم الاسرة الثانية عشرة وجهها أحد رؤساء الكهنة الى مرؤوسية ينبههم فيها الى ان عيد سوذس سيوافق اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن ويطلب اليهم اعتبار هذا اليوم اول توت . وقد ضبط تاريخ هذه الرسالة بالحساب الفلكي فوجد انه يوافق سنة ١٨٨٠ قبل الميلاد

***

ظل هذا التقويم على ما هو من نقص الى ان ولي الحكم بطليموس الثالث الملقب أفرجيت

الاول وكان محبًا للرعية مخلصاً للدين فاقترح الكهنة عام ٢٣٨ قبل الميلاد ان ينشئوا عيداً باسمه يقام اربعة ايام تباعاً لتكريمه لقاء ما اغدق على الناس والمعابد من الخيرات وقرروا اصلاح التقويم باضافة يوم الى كل سنة رابعة لتقع الاعياد في اوقاتها المقررة

ولما دخلت مصر في حكم الرومان امر اغسطس قيصر في السنة السادسة والعشرين قبل الميلاد بتعديله بحيث تتوافق شهوره دائماً مع شهور التقويم اليولياني فجاء اول توت موافقاً لليوم التاسع والعشرين من شهر اغسطس . وقد أسخط هذا الشعب المصري فقاوم التقويم المعدل زمناً طويلاً لكن طول زمن خضوعه للحكم الاجنبي أفقده العزة القومية وأضعف فيه روح المقاومة فغلب على أمره واستتب الأمر للتقويم الجديد . الا ان الشعب وهو من أشد الشعوب محافظة على التقاليد حرص على مهرجان أول توت وظل يقيمه في موعده القديم . ومع كرور الأعوام تنكرت معارفه للناس وغاب عنهم أصله فسمي شم النسيم لوقوعه دائماً في فصل الربيع

أول ما بدهني هذا الرأي إذ كنت أقرأ أسطورة من أساطير الاولين عن رع اله الشمس ربهم الأعلى وخلاصتها ان الناس تمرّدوا على الاله وخرجوا عن طاعته فوجه اليهم هاتور لتنتقم منهم جزاء لهم بما كفروا . فأثخنت فيهم وأعملت يد الهلاك . ولما أن رأى الاله من السماء ما حلّ بالناس عفا عنهم وبادر الى خلاص البقية الباقية منهم قبل ان تفتك هاتور بهم وذلك بأنه أمر النساء ان يطحنّ الشعير ويصنعنهُ جعة وأنفذ الرسل الى جزيرة الفيلة القريبة من اسوان فحملوا من هناك ثماراً ارجوانية وقرمزية يتخذ منها عصير أحمر مسكر هو النبيذ . ثم أمر رع فمزجت الجعة المتخذة من الشعير بعصير تلك الثمار فكان مزاجهما شراباً أحمر بلون الدم . ثم أريق الشراب حيث وقعت المذبحة . فلما قدمت هاتور في الصباح لاستئناف المذبحة انحنت على الارض وولغت في الشراب وهي تحسب انه دم الخلائق الذي أهدرت فثقل رأسها ونامت فنجا الناس من بطشها وفتكها وتلقاء ما كان لهذا الشراب من فضل في خلاص الناس شرع لهم رع ان يشربوه كلما جاء عيد رأس السنة فريضة للذكرى

***

قرأت هذه الاسطورة فذكرتني الفريضة التي فرضها رع لذكرى الخلاص ما عليه الناس في عيد شم النسيم من عادة شرب الاشربة المتخذة من الشعير كالبوظة وهي ضرب من الجعة ولعلها هي التي تشير اليها الأسطورة والسوبيا ثم مازلت أُجيل النظر في سائر التقاليد المتصلة بهذا العيد وأدمن الفكر في استنباط مراميها حتى اقتنعت انها بقايا تقاليد كانت للأقدمين في العيد الذي تحدثنا عنه الأسطورة

من الأمور التي تسترعي النظر اتصال شم النسيم بعيد القيامة الذي يعيده المسيحيون لذكرى الخلاص على كونه لا يمتّ الى هذا العيد بسبب وليس له نظير في غير مصر . وعندي ان هذه الصلة مؤيدة لمذهبي بانه كان في الاصل يعيَّد لذكرى الخلاص وقد وصل من ثمّ بعيد القيامة لاتفاقه معه في ذلك . ومما يؤكد هذا ان كثيراً من العادات التي تمارس في الاسبوع السابق للعيد وهو المعروف عند المسيحيين بأسبوع الآلام كعادة أكل البقول المسلوقة في ايام الاربعاء والخميس والجمعة وعادة التكحل في يوم السبت لا مدلول لها عند المسيحيين من الآثار الدينية ولا رمز فيها الى الذكرى التي يحتفلون بها . لكن اذا امتحنت هذه العادات على ضوء الاسطورة التي نحن بصددها اتضح لنا انها ترمز الى بعض حوادثها

فاما أكل البقول المسلوقة فيراد به التنويه الى ما تولى الناس من الذعر في الايام الاخيرة قبل ان يستنقذهم رع وكيف انهم خرجوا من ديارهم لا يلوون على شيء حتى لم يكن لديهم متسع من الوقت لطهي الطعام فأكلوا البقول مسلوقة ليقيموا بها اودهم . واما تكحل النساء عقب تلك الايام فاشارة الى ان عيونهن قد رمدت في الليلة السابقة من السهر حيث قضينها وهنّ يطحنّ حتى اذا كان الصباح وقد امتلأت قلوبهنّ سكينة بما وعد الاله الناس من العفو جعلنَ الكحل لتبرأ

***

ومن العادات المستغربة في هذا العيد عادة شم البصل فكل والدة تحرص في شم النسيم ان تبكر بايقاظ ابنائها لتنشقهم رائحتهُ . ومن الاقوال المأثورة في ذلك ان من تطلع عليهِ شمس هذا اليوم وهو في فراشهِ يلازمهُ الخمول طوال السنة

وفي ظني ان هذه العادة ترمز الى ما جاء في الاسطورة من ان الاله استحيا الناس في هذا اليوم وجعله لذلك اول الايام

وسبب اتخاذ البصل لهذه الغاية كون رائحته اول ما يتنشقه الوليد مع انفاسه الاولى . ذلك انهُ بما لهُ من رائحة نفاذة قوية كان ينشق للاطفال عقب ولادتهم لتنبيههم ولا تزال هذه العادة عند القرويين الى هذه الايام

لما رأيت ذلك تحقق الظن عندي بأن شم النسيم يرجع في اصله الى عيد اول توت في الزمن القديم. وايقنت اذاً انا حين نشم النسيم انما نحيي عيداً منسيًّا ونتنسم ريح الماضي البعيد ونبدي من أنفسنا ما لم تقدر العصور على اخفائه من الأواصر التي تربطنا بالجدود

أسيوط ناشد سيفين

ولز الاديب

محاضرة للدكتور ابراهيم ناجي في جمعية الشبان المسيحية

احدثكم الليلة عن ولز الاديب ، اي احدثكم عن عقل جبار ممتاز قليل النظير في تاريخ العقول الانسانية ! احدثكم عن عقل احاط بالماضي والحاضر وتغلغل في اعماق المستقبل. احدثكم عن ذهن عجيب اؤكد لكم اني لو اردت ان الخص بعض ما أنتجهُ لما كفتني عشرات المحاضرات. واني لحائر حقاً الليلة في اي النواحي اتكلم ؟ افي القصة وهو فيها قد اتى بالعجب العجاب؟ ام في التاريخ والطريقة التي ابتدعها في كتابتهِ ، وهو اول من تكلم في العالم كاسرة واحدة... لا كامم منفصلة وطوائف مستقلة ! ام في علم الحياة ، وقد اشترك مع العالم الشهير جوليان هكسلي حفيد هكسلي الكبير ، في اخراج كتاب يعد من المراجع الشاملة الخالدة ؟ ام أتناول آراءهُ في علم الاجتماع وهو ميدانه الذي لا يجاريه فيهِ كاتب ولا عالم

ان ولز الاديب هو الذي يمثل الانسان والانسانية معاً بكل ما في الكلمتين من معنى . يمثل الانسان لان التعريف الكامل للانسان هو انهُ مخلوق يتميز بادمان النظر في الحاضر والماضي والمستقبل ، وهو يمثل الانسانية لانهُ وقف حياته على الدعوة للاخاء العام ، في خلق اسرة واحدة من اسر متنابذة متطاحنة تخيم على آفاقها دائماً اشباح الحروب والويلات

﴿ ميلاده ﴾ ولد ولز في مقاطعة كنت بانجلترا سنة ١٨٦٦ .... فهو اذن قد قارب السبعين ، ولكنهُ عمرٌ حافل بكل ما هو جليل وعظيم. هو الآن في الشيخوخة ولكنهُ لا يزال في عزم الشباب الحار المتوثب . فقد اخرج اخيراً كتاباً ضخماً تناول فيهِ الكلام في سعادة العالم وهنائهِ وثروتهِ ولم يكد يظهر حتى نشر رواية جديدة Bulpington of Blup . . . . حصل ولز على شهادة B. Sc. في العلم في سن باكر. ثم اضطرتهُ احوال الحياة ومطالبها القاسية ان يعمل في محل صانع اقمشة ، ثم صيدلياً ، ثم مدرساً حتى أصيب بنزيف رئوي كاد يقضي على حياته ولكنهُ كان المنحة التي وجهت ولز الى ما خلق له حقاً . فانهُ اضطر محافظة على صحتهِ وحياتهِ ان يشتغل بالتأليف والصحافة. وكثيراً ما كانت محن كهذه من البواعث على ظهور عظمة مستترة وموهبة خبيئة ، وما اكثر الكوارث التي كانت سبباً في ارتفاع الشخصية الكبيرة التي لا تهن ولا تتراجع !

وجد ولز نفسه مضطراً بحكم حالتهِ الصحية ان يشتغل بالأدب . وهو يتميز عن كل

معاصريهِ ويفوقهم — يتميز عن هاردي وكبلنغ وشو ومع انهم من ناحية الفن الادبي البحت يتفوقون عليهِ — فان نظرتهُ الى الحياة أرحب وعقله يمتد الى آفاق مترامية تكاد تصل الى الغيب

هو رجل يغوص في لج الحياة الى اعمق اعماقه ، يغوص حيث يقف الآخرون على الشاطىء ،.. هو ذكاءٌ اكثر منهُ شخصية هو شبه نبي يحمل رسالة للعالم ، يشرّع للناس ويبين لهم اخطاءهم ويشير عليهم كيف يتلافونها ، .... ثم ينزل الى مستواهم ، فيجلس اليهم مسامراً منادماً كاحسن وأصفى ما يكون الندمان والخلان !



﴿ ولز H. G. Wells ﴾

﴿ مميزات ادب ولز ﴾ ما قيمة ولز ؟ ولماذا هو خليق بالدرس وجدير بالتأمل ؟ ان اول ميزة له تضعهُ في القمة وتجعله نسيج وحده هي انهُ متصل اتصالاً وثيقاً بالحياة الحقيقية ومندمج فيها اندماجاً تامًّا ! وما هو الادب ؟ الادب انما هو تصوير للحياة وتسامٍ بها ، وكل ادب يخرج عن هذه الدائرة فهو ادب مصطنع مزيف ،...

والميزة الثانية انهُ الاديب الذي يرمي الى غاية ، ويهتم بموضوعه ويفنى فيهِ... ومع ذلك لا ينسى الوسيلة ، اي لا ينسى ان يكون فناناً يكتب باسلوب الاعجاز ويتخير لغة النجوم ! ولو انك جئت الى فنان كبروست او كبلنغ وطلبت اليهِ ان يكتب فيما يكتب فيهِ ولز ، في العمل والصناعة والتجارة والحواجز الجمركية ،... وان يؤلف قصصاً في مثل هاته النواحي ... والله لتعثر وظهرت فضيحته

فولز هو الاديب الوحيد الذي وسّع دائرة القصص ونوّع الاغراض ، وتنقل في شتى المواضيع ، وطرق ما لم يطرق من قبل ، فلم تعد القصة قاصرة على الحب ، بل تعدّت ذلك الى الموضوعات العلمية يبسّطها بقلمهِ الجميل ويقرّبها بذهنهِ الذكيّ ويبتدع فيها بخياله الوثّاب فيأتي باغرب التخيلات ومنها كثير سبق فيهِ العلم والاستنباط ، كل ذلك في جوّ سحريّ متصل باللانهاية

والواقع انك اذا طرحت من ادب ولز ثلاثة ارباع ما يتميز بهِ من اتصاله الوثيق بالحياة ، وما كتبهُ في العلم والاجتماع .... لبقي الربع الاخير كافياً لان يعود على عدة مؤلفين بالشهرة ويغمرهم غمراً . لقد وصف الحياة والحب والموت ورسم الجمال والزهر بما لم يرسمه احد . خذ مثلاً هذا الوصف البديع لحديقة يسمعك فيها لحن جوقةٍ من الازهار

«لقد كانت الزهرات تتدفق وتتعانق كألحان الموسيقى العذبة . وترفع اليّ عيوناً كعيون الاطفال ، وسرى الى اذني غناء سحري من فم الزهر والاغصان والاوراق وفجأة سمعت من اعماقها اغرودة طائر وخفق جناح مرتاع »

على ان القيمة الكبرى في ادب ولز هي رسالته للعالم . انهُ يريد ان يبلغك امراً ، ويحمل اليك نبأ ويهمه ان تعي ذلك النبأ ، وتدركه وتتبصر فيه . فسوف يقرأ الناس ولز في كل زمان ومكان ناظرين الى المعنى الذي يريده والغرض الذي يرمي اليه ، والصورة التي يرسمها فيبدع في رسمها وبهذا سيخلد ولز ويعيش ادبه على الاجيال بينما يموت ادب بعض الآخرين ويبلى . ادبه هو صورة واضحة جلية بارزة ، وأدب الآخرين اطار بديع الصنع مزركش منمّق اما الصورة فغامضة قلقة مبهمة وسهلٌ جداً على الزمن ان يمحوها

على ان ولز فوق كل ذلك بعيد النظر الى المستقبل . فهو اختصاصي في التنبؤ بما سيكون ومن قرأ كتبه التي كتبها قبل الحرب يعجب جد العجب لانهُ وصف ما سيحدث وصفاً جليّاً دقيقاً وهكذا يصيح كلما صحت نبوءته ألم « اقل لكم » . ولقد بلغ من صدقه ان اقترح بعض الظرفاء على الحكومة ان تعينه متنبيء العرش ! ما دامت تعين شاعر العرش Poet Laureate

على انهُ شخصيّاً يحب ان يذكره الناس كرجل توفر على درس الماضي . انهُ اعطى للتاريخ معنى غير ما كان له فهو الذي تكلم عن العالم كأسرة واحدة ، وهذه الوحدة هي امنيته التي يريد ان تتحقق اليوم ! يريد ان يمحو الفوارق والاجناس ، ويمزق النسبيات ، ويقسم ان هذا هو الطريق الوحيد الى السلام !

على ان صدق حدسه عن المستقبل مبني على الفهم النادر للواقع ، حتى خاطبه احد ادباء فرنسا قائلاً :

«ان الذين يعرفونك يدعونك رجل احلام . ليسوا بمخطئين . فأنت تحلم بسرعة ولكنك تفكر بشكل مخيف : فأنت تفهم كل شيء دفعة واحدة واحاديثك السريعة المطبوعة بطابع العبقرية هي اضواء تخطف الابصار ولكنك تخطف الابصار بالفكر وهذا ما لم يتمّ لاحد

سواك . اي كاتب واديب كنت تغدو لو كنت اقل افكاراً وذكاء وعلماً ! »

لقد صار في زماننا من السهل اطلاق كلمة العبقرية على اي رجل يجيد الكتابة ولا يعنى بملبسه وانتظام حياته. فهذا الرجل الذي يبدع في وصف النساء والحرب والمدن والقسس واهل الصين ورجال المصانع والمعامل والحوانيت، والذي يرى ما في سهول اميركا وحقول اوربا، ويرى ما تتجه اليه الانسانية، وما يتدفق نحوه تيارها — الرجل الذي يكتب في كل هذا ماذا نسميه ؟!

بعد هذه الالمامة التي اقدم بها الاديب ولز اليكم، اجدكم في شوق لان تعرفوا موجزاً عن آرائه وتحيطوا ببعض من قصصه . فابدأ برأيه في حاضر الانسان ومستقبله، ثم في العالم وحاضره ومستقبله، ثم نختتم المحاضرة بموجز لبعض قصصه الرائعة

﴿ اهتمام ولز بالفرد ﴾ ان ولز يهتم بالفرد كما يهتم بالمجموع، ولفرط ما انتقد ومحّص وغربل دعاه بعضهم متشائماً، ولكنه ردّ عليهم ردّاً بليغاً في كتابه « اتجاه العالم » Where the World is Going تناول فيه مستقبل الفرد وبنى ملاحظاته على قواعد علمية ثابتة . وخلص منها الى ان حياة الفرد اليوم — مع الضيق الشامل والازمات المتعاقبة — اسعد منها في اي عصر من العصور الماضية . وبيّن ان الانسان يتطور تطوراً بيولوجياً في السنين الاخيرة غير ملحوظ للذين لا يدققون ولا يبحثون، للذين يعتقدون ان الطبيعة الانسانية ثابتة على ممر العصور ! وندد بالذين يدعون الانسان للرجوع الى الوراء، الى حضن الطبيعة، الى ثدي الام الطبيعي ! اما من جهة التطور البيولوجي في الفرد، فنقرر اولاً ان الاحصائيات الجديدة في العالم المتمدين دلّت على ان طول الحياة الانسانية في ربع القرن الاخير قد زاد نحو اثنى عشر عاماً في المتوسط ولا يهمنا من هذا ان تطول الحياة الى السادسة والخمسين بعد ان كان المتوسط يقف عند ٤٤ وانما يهمنا ان الطفل يمكنه ان يعيش اربعة اعوام مقابل كل ثلاثة كان يعيشها في الماضي، واذن يمكن للطفل في البيئات المتمدنة في المستقبل ان يبلغ المراهقة بسلام، ولنتذكر ان احصائيات المواليد هي خمسون لكل الف، وان ٣٠ من هؤلاء الخمسين يموتون في سن الطفولة او المراهقة . والنقطة الثانية في التطور البيولوجي ان الحياة الانسانية كانت قديماً حياة جنسية تناسلية محضة . لم يكن امام الرجل غير ان ينشىء عائلة وينجب نسلاً . لم يكن امامه غير ان ينشيء العائلة ويشقى لها ويحمل اعباءها، يفرح بالمولود، ويبكي على الميت ويدفنه، ثم يبدأ من جديد . تلك حياة الهرة الخصبة الانتاج . ولكن التناسل اليوم ليس الكل في الكل، بل تسمعون صيحة تدوي في كل ارجاء العالم، تحض على تحديد النسل . وحين يتكلم ولز عن السلام في العالم، فيدعو الى محو الفوارق . والاجناس، وتغيير الحكومات، يعود الى موضوع تحديد النسل، ويؤكد انهُ لا سلام للعالم بغير العناية بهذه المسألة الخطيرة

لم تعد العائلة هي الكل في الكل ، بل اصبحت دوراً خاصًّا في دائرة اوسع ، تتخطاها الحياة الانسانية وتتجاوزها . لقد كان الرجل يبكر في تكوين العائلة ، وينهكه القيام بكل ماتقتضيه ثم يتهدم ويعطب بسرعة . تسقط اسنانه ويكلُّ بصره ويذوي ويمضي الى القبر . تلك كانت القصة كلها . اما اليوم فماذا نرى ؟ نحن في حال جديدة . الرجل لا يبكر الى الزواج كما كان يصنع قبلاً ، وفي حياته امور غير الامور الجنسية والرغبة الجامحة . واذا بلغ المشيب استعان بالطب والاطباء على الضعف والخور

والواقع ان هؤلاء امكنهم بكل يقين ان يعينوه على ان يكون في مشيبه في حالة لا بأس بها من النشاط والصحة ، واذن فالذي هو حادث والذي ينتظر ان يكون في المستقبل انه بدلاً من ان يبدأ الرجل في تكوين العائلة وحمل مسئولياتها والقيام عليها وهو في سن غض ، ثم يذبل في سن مبكر بعد ان تنتهك قواه وتتحطم من دون ان يجد حيلة في الهدم وعجز المشيب ستكون الحال ان يأخذ الرجل — وقد اخذ فعلاً — في تكوين العائلة في سن مناسب ، ولن يحصر قواه التناسلية في الانجاب ، واذا شاخ وجد من اطباء الاسنان والعيون ، والاطباء الذين همهم اعادة النشاط والشباب بواسطة العلاج بالغدد ، سيجد من كل هؤلاء من يصد عنه العطب السريع والذبول المهدد ، .... اذن فنحن سنترك حياةً منهوكة بها شبه حمى الى حياةٍ اكثر استقراراً واوفر نضجاً ، الى عمرٍ اطول واشدَّ حيوية ونشاطاً

هذا فيما يختص بالتطور البيولوجي للفرد ، اما فيما يختص بسعادة الفرد فان وإن أشد تفاؤلاً . نعم ان الفرد اليوم اسعد منهُ في أي وقت آخر ، من بدء حياة الانسان على الارض الى يومنا هذا . هو أسعد رغم كل القوى التي تعترض هناءتهُ وتعوق تطوره ، وهذه القوى موجودة حقًا ، وكثيرة . يقول المتشائمون اننا شذذنا عن حضن الامّ الطبيعة فعوقبنا ولقينا جزاءنا : وهو قول منقوض من اساسه ! الام الطبيعة ، تحلمون بها حينما تتفرجون على الشلال العظيم والجبل المنيف والصخر الأشم ! تفرحون بها وتتخيلونها في الربيع الزاهر والنجم المتألق والقبة الساحرة ، ولكن تعالوا اليها حيث تتجمع المخلوقات ، تعالوا اليها في الغابة ، هي قسوة وفوضى ، هي طراد وشهوة ، هي جوع وخوف . هي كمين وشرك . هي كلمة القتل تهمس في الأ[illegible] العاتية ، وتتردد في الأدغال ! ان اهنأ ما يتمتع به الحيوان هو ضعف الذاكرة وقصر البصر ، واهنأ ما يسيطر عليه الغريزة الجنسية ، وما الغريزة الجنسية غير عذاب وقلق . غير لذة مخيمة يختلط بها خوف ويظللها كغمام قاتم !

هذه هي الحياة في الطبيعة ! عمل مفكك غامض حتى جاء الانسان فوصله وجمعه واحكم نسجه ثم ان اولئك الذين ينادون بالرجوع الى الطبيعة بغية الصحة ، يحسبون ان الحيوان معافى من العلل . ولو أنهم قرأوا التاريخ الطبيعي لعلموا أن الامراض جميعها كانت متفشية تفشيًا مريعًا .

فان صيادي الفيلة يقتفونهم بواسطة الأصوات التي تحدثها امعاؤهم من كثرة الغازات، وحياة البر ليست الا سلسلة من جوع فظيع الى شبع بلا راحة، وهل كان الانسان الأول غير مخلوق شبيه بهؤلاء! مخلوق يتحكم فيه الجوع والخوف والغريزة الغشيمة .... والذين يقرأون عن التطور يعلمون ان اغلب العظام التي تركها الانسان الاول هي عظام مريضة

والواقع انك لا يمكنك ان تضع اصبعك في أي عصر من عصور التاريخ مهما كان زاهياً جليلاً لتقول ان الفرد هنا كان اسعد من الفرد في عصره هذا! حتى الكتاب الى عهد قريب ما كان يعنيهم الفرد وقليلٌ جداً منهم من عني بوصف حياته اليومية .... والذي اهتم بتصوير عيشة الفرد رسمه منغمساً في الجهل والمرض والظلمات

وفي ازهى عصور التاريخ — سواء عهد الرومان او المصريين — كان الفرد مسخراً. وما الاهرام، وما المشيدات الرومانية الفخمة الا بيد الفرد المستعبد المسكين المرهق

على انه في منتصف القرن التاسع عشر فقط، وعلى أثر المخترعات العلمية، وعلى اثر التطور والتقدم الحديث في المعرفة، اخذ يطلع على العالم فجر جديد، فجر يبشر بزوال تسخير الفرد وارهاقه. فأخذ يعرف طعم الراحة، وزال الرق وتحسنت الصحة العامة وقلت الوفيات!!

وعلى رغم العوائق التي تعترض تقدم الانسانية ككتلة العوائق التي سنبينها فيما بعد، على الرغم من كل هذا فان الفرد ارغد حالاً، وسيطرد الرخاء والرغد في المستقبل. ثم يصيح ولز: اذن فاعلموا اني متفائل: أرى الفجر يقترب وارى البشائر في حواشي الافق!

﴿ولز والعالم﴾ علمتم رأي ولز في مستقبل الفرد، وقد تبين لكم عمق بصره وحدة ذكائه اما في ما يختص بآرائه في العالم فهي اعظم شأناً واكثر جدة وطرافة، ومنها تتبينون اموراً لفها المضللون في أثواب من الزور، وطلوها بطلاء كاذب، فاذا اردتم ان تماشوا العصر وتقفوا على دخائله، اذا اردتم ان تعلموا شيئاً عن حكومات العصر، وعيوبه ومن أين نشأت .... وعن النظام المالي، وعن شبح الحروب المهددة للعالم، اذا اردتم ان تعرفوا ذلك بوضوح فعليكم بولز. وقد قال احد كبار ادبائنا انهُ لم يفهم الاشتراكية الا بعد ان قرأ كتاب ولز «عوالم جديدة محل عوالم قديمة» New Worlds for Old. وقد اجتهدت ان اغرف لكم من البحر الزاخر الغني بالدرر فعذراً اذا قصرت فقد اخذت على عاتقي مهمة تنوء بها الهمم

نحن في عصر الديمقراطية. والديمقراطية متأصلة في نفس الانسان من اول نشوئه، ولكنها لم تأخذ في سبيل التحقيق الا في القرن السادس عشر. في ذلك العهد بذرت بزورها، وفي العصور التالية نبتت ونمت، وفي عصرنا ازدهرت، وليست فكرة الديمقراطية فكرة سياسية فقط بل هي تتناول الأدب والفن والموسيقى

ماذا نعني بالديمقراطية؟ الواقع ان اغلب الناس حتى المفكرين منهم يلتبس عليهم ادراك

معناها الحقيقي ، وكيف هبطت الينا ، ومكانتها اليوم . ان الديمقراطية ترمي الى غايتين

(١) كل الناس متساوون تحت عرش الله

(٢) كل الناس متساوون في نظر القانون

ومعنى هذين بكل وضوح انهيار النظم البالية المتحكمة ، وتحدي الاستئثار والسلطة ، ومعنى هذين أيضاً انفصال الفرد عن كتلة المجموع ، وتحرره منها وشعوره بذاتيته ، والاعتزاز بنفسه كشخص حرّ له ان يحب ما يشاء ويصنع ما يشاء

اما في السياسة فتعلمون ان الحكم اصبح دستورياً ، معتمداً على اصوات الافراد الانتخابية

أما في الادب فبعد ان كانت الرواية تعنى بالمجموع ، وتتكلم عن الملوك والامراء والابطال والديانات وما الى ذلك : اصبحت تعنى بخلُق الفرد وحياته وتحلل ميوله واهواءه ومعيشتهُ . ولا شك ان اكثركم قرأ رواية « دون كيشوت » الشهيرة ففيها بوادر السخرية بالارستقراطية والتمرد عليها ، وان في انتصار الطاحونة ، التي هي ملك للعامل البسيط ، على البطل المدرّع ، لرمزاً جديراً بالتبصر . وخذوا مثلاً روايات الادباء جبابرة القرن التاسع عشر كزولا وبلزاك ودكنز وترجنيف تجدونهم يصورون العالم كسوق كبير فيه الرائح والغادي كل يعمل لحاجتهِ ، حراً منفصلاً وهو مع ذلك متصل بالانسانية الكبيرة اتصالاً لا يغمر شخصيته ولا يمحوها

وكذلك في الفنون : فقد كان الفن يعنى بتنسيق عمارة ضخمة ، او النقش في هيكل ديني او خدمة نزعة سياسية ، وكانت الموسيقى مقتصرة على ألحان دينية ، او ألحان تطرب الملوك وتستثير همم ابطالهم وجنودهم في ميادين الحرب والقتال . لقد تغير كل ذلك واصبح كل فنان يعمل كما يهوى ... حراً طليقاً كالطائر الباسط جناحيهِ حيث تستهويه اجواز الفضاء !

إذن ... فان الديمقراطية هي انفصال . هي تجزء ، هي انطلاق ذرات كانت ثابتة في هيكل السياسة والآداب والفنون . . ويجوز لنا اذن ان نسميها الديمقراطية التحليلية . . ومن المتناقضات العجيبة ان يقابلها في نواح اخرى نظام تركيبي ، وبخاصة في العلوم . فلقد كانت الحقائق العلمية منفصلة لا انضامّ بينها فأصبحت هذه الحقائق خاضعة لتجارب تحققها وتنظم عقدها حبة لحبة

قلنا ان الفرد قد انفصل عن كتلة المجموع واصبح معتزاً بنفسهِ ، ثائراً على التقاليد القديمة فماذا جرّ عليه اعتداده بنفسه ؟ جرّ عليه امرين ، الامر الاول نضاله في حدود بلاده ضد ما بقي فيها من آثار التحكم والقوة ، ونضالٌ خارج بلاده معتزاً بما يسميه بالعصبية القومية ، فخوراً بماضيه ، مدافعاً عن وطنه بلا حساب .... ولكن من العجيب انه وهو في هذا الانفصال والتحرر يتطلع الى المشروعات الاقتصادية المركبة الضخمة التي تحتاج الى جهود متجمعة اي ان الديمقراطية التحليلية تؤدي عن غير قصد الى نظام اقتصادي مركب ، . . . . وهنا

يصطدم الفرد من جديد بالرءوس التي تريد ان تتزعم ، وتدير العمل وتتحكم فيه ، ومن هنا نشأت فكرة الاشتراكية فما الاشتراكية مهما تختلف الآراء فيها الا نظاماً يراد به بث الديمقراطية في النظام الاقتصادي ، كما بثت في النظام السياسي ، او بعبارة اخرى ان ينقل الحكم في عالم الاقتصاد من رأس يتحكم فيها ويديرها الى جماعات من نفس العمال، او من قوم ينتخبهم العمال. فالديمقراطية التحليلية امرٌ جميل جليل ولكنه يمتدُّ ويتشعب في غير حدود ولا نظام . على ان شعور الفرد بنفسه وكرامته وقوميته في كل امة جعل شبح الحرب قائماً ينذر ويهدِّد، وان كل فرد في سبيل المغامرة المالية لنفسه جعل النظام المالي مضطرباً قلقاً والاصطدام بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال ، جعل النظام الاقتصادي متداعياً على وشك الانهيار ، وتلك هي المشاكل الثلاثة التي تواجه العالم الآن . وهي كما تبين لكم ايها السادة منشؤها ديمقراطية تحليلية ، تتشعب وتمتد وتطغى بلا حد ولا قوام

بعد هذا التفسير المنطقي المعقول للمشاكل الحاضرة نريد ان نسمع من ولز طريقته في العلاج . ما دام قد شخص الداء ، يقول هذا الطبيب المشخص لعلل العالم اننا لا يمكننا بالطبع بحال من الاحوال الرجوع الى الاساليب القديمة والنظم العتيقة ، ولكننا في حاجة الى اصلاح هذه الديمقراطية التحليلية ، وايجاد ما يسمى بالديمقراطية التركيبية Synthetic Democracy

ان الحكومات الحاضرة في نظر ولز غير صالحة ، ان الزعماء الذين يصلون الى مراتب الحكم معتمدين على صوت الفرد ، جلّ همهم أن يرضوه ، وأن يصلوا ... وهم لا يصنعون شيئاً يبغون به سلام العالم ، انما هم يجتمعون ويتكلمون ويؤدبون المآدب ولا يقومون بعمل جديّ . فولز غاضب على الساسة ، غاضب حتى على أمته، غاضبٌ على الاستعمار ، يود أن يفتح عينه ويغمضها فيرى مقاعد الحكم وقد خلت من هؤلاء، وجلس عليها قومٌ ينظرون بعينهم لا الى امهم فقط بل الى العالم كاسرة، ولا يتعصبون لمواطنيهم وذوي رحمهم بل يتعصبون للاخاء العام ويعملون لمحو الفوارق وهدم الحواجز الكاذبة التي تفصل بين امة واخرى وبين شعب وآخر !

يريد ان يرى في كراسي الحكم قوماً متطوعين ، مستعدين لان يموتوا في سبيل اغراضهم وما اغراضهم هذه غير ان تنتهي الحروب ، وتخلق وحدة اقتصادية كبرى تشمل الدنيا ، ووحدة مالية تحفظ العالم من الخراب والدمار ! هذا ما يقصد ولز بالديمقراطية التركيبية ، في كتابه يوتوبيا الجديدة ، التي يتخيل فيها المدينة الكاملة والحكومة المثالية ... يريد تعاضداً وتسانداً في الحكم والاقتصاد والمال ... ويقول انه ليس يحلم وانه يرى في الافق طلائع مقبلة تميزهم وتؤكد وجودهم وان حجبهم عنا الغبار الذي تثيره مواكبهم

***

هذه بعض آراء ولز وتنبؤاته ألا تجدونهُ جديراً بالاجلال، جديراً بان تقرأوه وتلتفتوا اليه؟

﴿ وار القصصي ﴾ الاديب وار قاصٌّ بارع ، كتب في جميع الاغراض وتناول كل الشؤون ، وجوَّد في القصة القصيرة كما ابدع في القصة الطويلة ، وكل قصصه جيد وممتع ، بحيث يحار الانسان ماذا يلخص وماذا يدع ! وقد اجمع النقاد على ان احسن قصصه القصيرة هي قصة «صانع المعجزات » وقد انتخبها هو بنفسه عند ما دعي لان يختار احسن قصصه ، ولكني وجدت قصة « قلب المس وينشلزيا » أجمل واظرف وسأبدأ بتلخيصها لكم . . .

المس وينشلزيا فتاة جميلة راقية تدرس في احدى الجامعات اصطحبت صديقتين لها في سياحة الى روما. ويفهم من سياق القصة ان الفتاة تفوق صديقتها جمالاً وثقافةً ومالاً وجاهاً. يقطعن الطريق في دعابات وحوار ، فكلما رأين شيئاً ضحكن وسخرن في مرح وجذل . الى ان وقف القطار ساعة في محطة من المحطات فصاح صائح يدعو شخصاً لم يرينهُ باسم غريب ضحكن له واستغرقن في الضحك: هذا الاسم بالانجليزية هو Snooks يقابله عندنا جُعْلص مثلاً فتضاحكن وتخيلت كل واحدة انها حبيبة اوزوجة لشخص يدعى بهذا الاسم وكلما افتكرن في هذا أغرقن في الضحك.

حتى بلغن روما . فصرن يتنقلن بين آثارها وهياكلها العظيمة ، ففي اثناء طوافهن تعرفن الى شاب مثقف جميل وسيم صار يطلعهن على ما لا يعرفن ثم ينصرف في ادب ووقار تام .وصار الحظ يجمعهن بهِ مراراً فتعلقت بهِ وينشلزيا ، ورأت انهُ يبادلها عطفها .... حتى خلت بهِ مرة وأخذا يستعدان لحديث احمق ، ويهمان بان يبوحا باسرار دفينة ، ، فاذا بصاحب له يناديه عن بعد « انت هنا يا جُعْلص » فبهتت الفتاة ... وكانما اسدل بينها وبينهُ حجاب كثيف وتنكرت له من ذلك الوقت ، تنكرت لاسمه الذي لم يعجبها ... ولكنها راحت تفشي سرها لاحدى صديقتيها : وتقول لها اذا عدنا الى وطننا فاتصلي انت بهِ واكتبي اليَّ.... وفي انكلترا تتصل بهِ « فاني » ... و«فاني»هذه فتاة ضخمة لا تصلح لغير الطبخ والكيّ ، اي لا تصلح لفتى مثقف مهذب جميل

المهم انها اتصلت بصاحبنا ... ولكنها لم تكتب الى صديقتها عنهُ غير كلمات قليلة لا تشفي غليلاً ... الى ان ارسلت اليها خطاباً ذات يوم تخبرها فيهِ انها تزوجت «جُعْلص» . . . وعقَّبت انهُ مرضاة لخاطرها قد غيَّر اسمهُ ...فانهارت آمال وينشلزيا اولاً لان صديقتها خانتها، وثانياً لان العقبة التي تخيلتها كبيرة : عقبة الاسم كانت غاية في البساطة ، وثالثاً لان فاني هي الوحيدة التي لا تصلح زوجة لذلك الرجل

على انها تعللت بالمحال ، وتوقعت ان يحصل بينهما خلاف ، فلم يحدث ،فزارتهما في منزلها فرأت ما زادها حسرة وألماً . وجدت الحبيب المثقف الرقيق قد سمن واستكرش ، كلَّمته في الادب فلم يذكر حرفاً ، وفي الفن فلم يفتح فمه ، حادثتهُ في الاكل فاندفع كالسيل ...!

﴿ صانع المعجزات ﴾ كان المستر فوذرنجاي حتى الثلاثين من عمره ممن لا يؤمنون

بالمعجزات . وهو صغير الجسم شديد سواد العينين يشتغل كاتباً في احد مصانع الدراجات
فذات ليلة اجتمع بصاحب له في بار لونج دراجون وما لبثت المناقشة ان دارت بين الصديقين حول امكان حدوث المعجزات او استحالتهِ ، فصاحبنا فوذرنجاي متعنت لا يقبل ان يستمع الى مثل هذه الخرافات ، وصاحبه شديد الايمان بها . وثارت المناقشة حتى صاح فوذرنجاي مشيراً الى المصباح الكهربائي الذي ينير الحانة : أتظنني لو حصرت ارادتي واشرت الى المصباح بقوة الارادة وامرته قائلاً « انقلب ايها المصباح رأساً على عقب على ان تظل مضيئاً » انتحقق مثل هذه المعجزة . فلم يكد ينتهي من قوله حتى انفصل سلك المصباح المعلق من مكانهِ في السقف. وانقلب كما امره . اما هو فوقف باهتاً . واختبأت فتاة الحانة مرعوبة . وفرَّ بعض الزبائن ولم يطل هذا المنظر غير ثوان صاح بعدها فوذرنجاي « النجدة النجدة ! ان قواي لا أستطيع ان توقف المصباح على هذه الحال طويلاً ! اني اشعر بالعجز » . فما لبث المصباح ان وقع محطماً وساد الكلَّ ظلام دامس ! واخذ الجلوس يلومونه لوماً شديداً على جنونه هذا واقترحوا عليه ان يسرع بالانصراف ففعل ! ووصل الى حيث يسكن مفكراً مهموماً لا يصدق ما حدث، فارتمى على فراشهِ بملابسه يفكر. وخطر له من جديد ان يجرب قوته الخارقة في الشمعة المضاءة. فحصر ارادته وقال لها ارتفعي من مكانك وانقلبي وظلي مضيئة . . . .فكان في الحال ما اراد. ثم أمرها بالنزول فسقطت مشتعلة واحرقت الغطاء . . .

فعرف ان الله حباه قوة غير عادية ... واخذ يجرب من جديد . طلب ان يهبط عليه عود ثقاب . فرأى بصيصاً من الضوء وعود ثقاب يقع في قبضة يده . وشعر بالظمأ فأمر بورقة ان تصير كأس ماء ، فكان له ما أراد ، ثم خلق على هذه الطريقة مشطاً ثم فرشة اسنان ...

وأراد ان ينام من دون ان ينفق جهداً ، فأمر ملابسه بترك بدنه ، وبحذائه تخلع ، وامر لنفسه بقميص من الحرير ثم امر نفسه بالنوم العميق والاستيقاظ في ساعة حدَّدها

وذهب الى عمله في اليوم التالي مضطرباً كمن يكتم سرًّا ويحمل أمراً عظيماً ، وانصرف في المساء ، ومشى في شارع قليل الضوء مفكراً يضرب بعصاه الارض فخطر له فجأة ان يصنع معها ما صنع موسى بعصاته .... ان يقلبها حية تسعى . ولكنه خشي العاقبة . فأمرها ان تستحيل « زهرية » فاستحالت ، وان تعود عصا كما كانت فلم ترفض له طلباً ، غير انه ما لبث ان سمع ضجة ورجلاً من المارة يتقدم اليه في الظلام سابًّا شاتماً لان العصا في حركتها اصابت ذقنه فأدمتها .... وجاء على الضجة الكونستابل رونش ولامه كثيراً على اعماله الجنونية وذكَّره بفصل الحانة ليلة امس ، وانه كان حاضراً كل شيء . ومازال يسبُّه حتى ضاق به صاحبنا ذرعاً فصاح به « إذهب الى جهنم » Go to Hell . فلم يعد هناك كونستابلٌ ما . ذهب رونش، راح حقيقة الى جهنم ! فانزعج فوذرنجاي وانبه ضميره على ارسال الكونستابل الى جهنم ، وشاء

مخفيف العقاب عنه فامره بالذهاب الى سان فرنسيسكو

وذهب في اليوم التالي الى الكنيسة ، وخطر له ان يخبر راعي الكنيسة بما وهبه الله ، فانتظر حتى انتهت الصلاة ، وزاره في بيته ، وباح له بكل شيء ، واسرّ اليه ندمه على ما فعله بالكونستابل رونش ، وانه بعد ان نقله من الجحيم الى سان فرنسيسكو لايزال ضميره يؤنبهُ اذ ماذا يصنع الكونستابل المسكين في ذلك البلد النائي السحيق . فطمأنه القسيس واخبره ان الله اختاره والله يختار مايشاء ، وطلب اليه ان يعرض «العابه» . فنظر صاحبنا الى علبة التبغ قائلاً كوني وعاء مملوءاً بزهر البنفسج فكانت ، ثم قال كوني صحن سمك فكانت ، .. وهكذا. فطرب القسيس وآمن ،ودعاه للعشاء معه .. فشكا القسيس اليه كسل الخادمة ، فقال فوردنجاي انك ستري عجباً . وامرها امراً خفياً ان تقلع عن الكسل ، فسمعوا في الحال صوت الاطباق والمعالق وحركة جيئة وذهاب ونشاطاً غير معتاد ، . . . . لقد استيقظت الخادمة من نومها العميق ، وهي تهيىء لهم العشاء في اهتمام لم يره القسيس ولا أحد من قبل

وطاب للقسيس ان يستغل هذه القوة الخارقة في اصلاح الناس ، فكان يدور بصانع المعجزات في الحانات وبؤر الفساد . فاستحالت الخمور ماء ، وامحت الجرائم ،وصلح الاشرار، وكثر الابرار

وذات ليلة سهر فوردنجاي مع القسيس حتى الساعة الثالثة صباحاً، فخطر للقسيس ان يجرب صاحبه من جديد فاشار اليه ان يأمر الزمن بالوقوف والارض بان لاتدور فوقف واستجمع كل عزمه وصاح «أيتها الارض قفي عن الدوران» . فوقفت الارض كلها ووجد الرجل نفسه يطير في الفضاء بسرعة مليونين ميل في الثانية ... فحاول ان يستجمع قواه ويأمرهُ بالعودة فخانته قوته .فشحذ عزمه وامر الكرة الارضية ان تعود الى الدوران وان يعود هو الى الارض سالماً

فدارت الكرة الارضية ، وعاد هو سالماً ، ولكن ماذا وجد ! وجد الزلازل في كل مكان ، والاعاصير تهب والمباني تتطاير والماء يتدفق ... فجمع ارادتهُ وقال « يا الله ! يا ايتها القوة العظيمة ... يا جميع القوى السماوية والعالمية اعيدي الحال الى ما كانت عليه .. وخذي مني قوتي الخارقة مقابل ذلك . اعيديني عاجزاً وانقذي العالم » . فلم تتم صيحتهُ حتى وجد نفسهُ جالساً في الحان ... والكأس العاشرة في يده ... يناقش صاحبهُ في امر المعجزات وينكر وجودها بتاتاً ... ويصيح كلاّ . انها كلام فارغ ... لا يوجد معجزات

﴿ القصة الطويلة ﴾ اشهر قصص ولز الطويلة هي تونو بانجاي وكيبس واستيقاظ النائم وعالم وليم كليسولد ومكيافلي الجديد. ولكنني اختار قصةُ تونو بنجاي لانها شبيهة كل الشبه بما يحدث في مصر ... مصر التي يكثر فيها العنبرول والكالفلويد ، ويثري فيها ثراءً فاحشاً اصحاب هذه العقاقير . بينما يجوع اصحاب الضمائر ، يتمتع الدجالون بالرخاء واليسر ويمرحون في اثواب النعمة

تونو بنجاي Tono Bungay اسم دواء اخترعهُ الصيدلي الحقير السمين بوندريفو . رنّ

في اذنه فجأة ... فهمس به في اذن مساعده وابن خاله جورج ، وصاح الا تجده كصوت القنبلة هذا هو تركيبه يا جورج. انهُ مقوٍ للاعصاب. وهذه صورة الاعلان وسوف ننفق على الاذاعة عنهُ المال الذي يخصك من ابيك. لا تحتج بالضمير يا جورج ودعك من السفاسف ودعني اعمل

وبعد ان كان دواءً مقوياً تفرع منه مسحوق للاسنان ، وآخر مانع لسقوط الشعر ، وقطرة ، وصابون ... وكذلك تدريجاً اختفت العناصر التي تكونهُ ... ومع ذلك سار مسير البرق وانهال المال ... وصار العم يزداد وجاهة وايماناً بذكائهِ وازداد كرشهُ الضخم تطبلاً وتكوراً وصار لفمهِ شكل افواه العظماء ، اذا صحّ قول غازورذي ان اعيننا هي ما نحن اما الفم فهو ما نصير اليه . وتعددت المشاريع وكبرت الشركة ... واتسم المعمل على لا شيء

واخذ العم يبتني قصراً ... واخذ جورج يتحبب الى فتاة غنيـة تدعى بياتريس ، ومن يقرأ قصة الحب بينها وبين حبيبها يؤمن بان ولز عالم نفسي من الطراز الأول : تقول له وقد خرجا الى الغابة والمطر يسقط رذاذاً اني احبك الآن لا لما فيك من مفاتن بل احبك باجمعك ، احب فيك غرورك وحمقك ، احب قطرات المطر على معطفك . ثم يوصلها الى منزلها فتقول لهُ تعال : ادخل اني احبك الآن . ولـكن الابله يجيبها نعم ولـكني مضطرٌ الى الذهاب... فتغلق الباب غاضبة وهي تقول « اذن فاذهب . »

وكل من قرأ علم النفس الخاص بالمرأة يعلم ان المرأة غير مستعدة لان تهب نفسها الا في ساعة واحدة ترتمي فيها بين ذراعي حبيبها وقد فقدت كل وعي . وهذه الساعة يعرفها وينتظرها كل « دون جوان » خبير ، وتمرُّ على الغر الابله دون ان يلحظها

قلنا ان الثروة انهمرت كالسيل ، واستعملت في المشاريع الجديدة ، أي في نصيب جديد الى ان حدث ذات يومٍ ان كان العم متعباً مريضاً وفي عينـيهِ أثر الدموع ، وعلى وجههِ ذلة ومسكنة . فسألهُ جورج عما بهِ ، فاجاب لقد ذهب كل شيء ... ان الخراب والعار يهددانا.. انهم يحققون معي ، ويحللون الادوية ... ويسألونني عن الترخيص ، وليس لدي ترخيص . ثم يبكي كما يبكي الطفل وهما امام القصر الذي يعلو ويتطاول

يهربان في طيارة ويمرض العم وتشتد عليهِ الحال في باريس . وهنا فصلٌ من اقوى الفصول في الادب على الاطلاق ، فبينما انت تعرف ان الرجل نصابٌ فاذا بك تشفق عليهِ وتجد الدمعة تترقرق في عينيك ، وتؤمن بقوة ولز الاديب لانهُ يجعلك تشعر انك لست امام الرجل النصاب يحتضر ، بل امام الانسان بكل ضعفهِ وعيوبهِ وعجزه امام المقادير والموت ، امام الآمال التي تتجمع ثم تنهار ، وامام العظمة التي تكاد تقبض عليها فاذا هي تتوارى كالشبح ، واخيراً امام الماء الذي تمضي اليهِ ظامئين فاذا هو سراب يلمع في الصحراء ثم يختفي

وختاماً اوجّه نظركم من جديد الى الاديب ولز فهو جدير حقاً بأن تنفقوا في درسهِ اوقاتكم

من الارز الى الزوفى

تأليف المسز كروفوت والمس بلدنسبرجر

بحث علمي لغوي بقلم الدكتور معلوف باشا

دفع اليَّ صديقي رئيس تحرير المقتطف هذا الكتاب لأرى رأيي فيه فلما قرأت اسمهُ وما جاء في الصفحات الاولى منهُ لم احفل بهِ كثيراً لاني ظننته كتاباً يبحث في بقول فلسطين وأحاديث القوم فيها ولكنني لم اكد انتهي من قراءة فصل منهُ او فصلين حتى شعرت أني عاجز عن نقده لان عملاً مثل هذا يقتضي بحثاً دقيقاً في ما ورد في الكتاب من أنواع البقول المختلفة وفي اسمائها العلمية والعربية والانكليزية وهو أمر شاق يستوجب معرفة واسعة في علم النبات وعلم اللغة والعلوم الاخرى وهذا مالا قبل لي بهِ الآن. ولكنني قبل الدخول في البحث اقدم القارىء الى المؤلفتين الفاضلتين كما عرفتهما من كتابهما لاني لم احظَ بمعرفتهما بالذات بل من فضلهما على العلم والأدب. فقد علمت من الكتاب ومن مقدمتيه ان المسز كروفوت هي التي كتبتهُ ورسمت الصور التي فيه بقلمها وجمعت ما جاء فيه من فوائد البقول الطبية مما ذكره ديسقوريدس وغيرهُ من القدماء.[1]

واما المس بلدنسبرجر فهي التي قامت بجمع أحاديث القوم عن البقول وفوائدها الطبية والمنزلية واخبار زراعتها ونحو ذلك. ويظهر ان المؤلفتين تجيدان العربية فالمس بلدنسبرجر اقامت العمر في فلسطين وخالطت القوم حتى صارت واحدة منهم. والمسز كروفوت اقامت زمناً في مصر والسودان وفلسطين وجالت في انحاء السودان مع زوجها. واذكر أني رأيت لها كتابين أحدهما اسمه «بعض أزهار الصحراء» والآخر «ماله زهر من النبات في السودان» وهما مزينان برسوم انواع النباتات التي وصفتها وذكرت اسماءها العلمية والعربية والانكليزية وقد استعانت في تحقيق الاسماء العلمية بمعرفتها الواسعة في علم النبات وبالعلماء القائمين بادارة

---

(١) ديسقوريدس عشاب مشهور ذكرت المسز كروفوت ان اصله من عين زربة في كيليكية وانه أخذ كثيراً عن أهل البلاد التي على سواحل بحر الروم او البحر المتوسط. اما عين زربة هذه فواقعة الى الشمال من طرسوس وعلى عشرة اميال الى الغرب من نهر جيحان فتحها هرون الرشيد ثم حصنها سيف الدولة ثم فتحها الدمستق نقفور ابن الفقاس. ثم صارت من اعمال ارمنيه الصغرى وهي الآن قرية صغيرة يسميها الترك نورزة

معشبة الحكومة في الخرطوم ومعشبة كيو في بلاد الانكليز . كذلك في هذا الكتاب فانها لم تأل جهداً في تحقيق الاسماء الصحيحة المذكورة فيه فالاسماء العلمية الواردة في هذه الكتب الثلاثة لاشبهة في صحتها وفي انها آخر ماوصل اليه علم النبات . أما الاسماء العربية فهي الشائعة على ألسنة العامة وبعضها فصيح او وارد في المؤلفات العربية . والمؤلفتان الفاضلتان لم تدّعيا الفصاحة في الاسماء العربية بل ذكر الاسماء كما هي تماماً وهي مكتوبة بحروف لاتينية بعناية تامة وفي غاية الدقة فلا يتعذر اعادتها الى العربية . اما الآن وبعد هذه المقدمة الوجيزة فاني أبدأ في نقد الكتاب

فالنقد على ما جاء في كتب اللغة والأدب مأخوذ من نقد الدراهم يقال نقد الدراهم وغيرها نقداً وتنقاداً ميزها ونظرها ليعرف جيدها من رديئها ومثله تنقّد وانتقد اي ان نقد وتنقّد وانتقد بمعنى واحد فالنقد والتنقاد والتنقّد والانتقاد معناه تمييز الجيد من الرديء لا إظهار العيوب وحدها كما هو شائع عند بعض الكتّاب . فاظهار العيوب سهل جدًّا ولكن نقد المؤلفات كما يفهمه الادباء ليس بالأمر الهيّن لان له أصولاً وقواعد يجب اتباعها وللعالم المحقق قسطاكي بك الحمصي مؤلف نفيس في النقد قرأته في دمشق سقى الله أيامها وأعادها الينا واني أشير على كل أديب ان يقرأه فالنقد ليس اظهار المساوىء وحدها فهذا ذم ولا بيان المحاسن دون المساوىء فهذا مدح بل هو العدل في التمييز بين الجيد والرديء كما تنقد الدراهم

ثم اني قرأت هذا الكتاب اي « من الارز الى الزوفى » من أوله الى آخره فاذا كله جيد لا رديء فيه لذلك يعدّ نقدي له تقريظاً وليس ذلك لان مؤلفتيه الفاضلتين من الشق الحسن بل لانه يستحق التقريظ والثناء فاني لو وجدت فيه عيباً لقلته ولذلك جعلت نقدي له بحثاً علميًّا لغويًّا لعل في ذلك بعض الفائدة للقراء فلخصت فصلين منهُ وذكرت ما ورد فيهما من النبات باسمائه العلمية والانكليزية والعربية كما وردت في الكتاب تماماً وعلقت بعض الحواشي بقلمي

ففي الفصل الاول كلام على السنة الزراعية في فلسطين جاء فيه ان السنة عند الزُرّاع نصفها شتاء والنصف الآخر صيف فالشتاء عندهم يبتدىء في شهر تشرين الثاني أي نوفمبر وهو اول السنة الزراعية اما في سورية الشمالية اي الشام فأوله قبل ذلك اي في تشرين الاول (اكتوبر) وهو يوافق اول السنة العبرانية . ومن اقوال الزراع عندهم آخر السنة آخر الصيف واول السنة اول الشتاء وهم يريدون بالشتاء المطر فاذا جاء عيد لدّ اي عيد مار جرجس وهو يقع في ٣ — ١٦ من الشهر وقع المطر امّا قبله او بعده بايام فاذا وقع في العيد استبشروا بذلك وقالوا اوسمت الدنيا من الوسم (الوسمي) اي أول المطر

قلت وجميع ما تقدم يوافق ما جاء في كتب اللغة (المخصص ٩:٨٧ وما يليه) فأول امطار

السنة الوسمي سمي وسمياً لانهُ يسم الارض بالنبات . اما قولهم في فلسطين ان اول السنة اول الشتاء فهم يريدون بالشتاء المطر كما تقدم . اما الشتاء عند العرب فالنصف الاول من السنة وأوله من حين انتهاء النهار في القصر وابتدائه في الزيادة وذلك لحلول الشمس رأس برج الجدي اي ما يعرف عند الفلكيين بالمنقلب solstice الشتوي ويقع في الحادي والعشرين من كانون الاول(ديسمبر) بُعَيد عيد البربارة وآخره عند انتهاء النهار في الطول وابتدائه في النقصان اي ما يسمى عند الفلكيين بالمنقلب الصيفي وهو يقع في الحادي والعشرين من حزيران (يونيو) فهذه الاشهر الستة هي الشتاء عند العرب وهم يسمونهُ الربيع ويقسمونهُ الى ربيعين الاول منهما ربيع الماء والامطار والثاني ربيع النبات فالربيع الاول ابتداؤه اول الشتاء وآخره الاستواء الربيعي وهذا ما يسمى الشتاء في ايامنا والربيع الثاني من الاستواء الربيعي الى المنقلب الصيفي وهو المسمى ربيعاً في ايامنا لذلك يسمون الموصل ذات الربيعين اي الربيع الاول وهو ربيع المطر والربيع الثاني وهو ربيع النبات . اما الصيف عند العرب فأوله المنقلب الصيفي اي ٢١ حزيران (يونيو) وآخره المنقلب الشتوي اي ٢١ كانون الاول(دسمبر) . والصيف قسمان فالقسم الاول منهُ يسمى الفصل الصيفي والقسم الثاني يسمى الفصل الخريفي اي ان السنة كلها نصفان اي اربعة ارباع فالنصفان الشتاء والصيف والارباع اي الفصول الاربعة ربيع الماء والامطار وهو الشتاء في ايامنا وربيع النبات وهو الربيع عندنا والفصل الصيفي اي الصيف عندنا والفصل الخريفي وهو الخريف عندنا . الى ان جاء في الكتاب :

فاذا ارعدت قال الزرّاع من النصارى هذا فرس مار جرجس يطارد في السماء وقال المسلمون هو الخليل او الخضر . فمار جرجس في فلسطين هو الخضر الاخضر ولهما اي لمار جرجس وللخضر علاقة بمار الياس اي ايليا . ولعل للخضر علاقة باله قديم هو رب الامطار واخضرار الارض بالنبات

قلت لا ادري من هو الخضر وانما انقل هنا بعض ما ورد في كتب اللغة فقد جاء في تاج العروس الخَضِر والخِضْر والخَضْر ابو العباس احمد على الاصح وقيل بليا وقيل الياس ...وقيل خضرون بن مالك...وقيل هو اخو الياس ... وقال جماعة كان في زمن سيدنا ابرهيم عليهِ السلام ... وقال ابن عباس الخضر نبي من انبياء بني اسرائيل ... وقيل عبد صالح من عباد الله ... وقيل نبي معمر محجوب عن الابصار وانهُ باق الى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة وانهُ يؤخر حتى يكذب الدجَّال وانهُ في كل مائة سنة يصير شابًا وانهُ يجتمع مع الياس في موسم كل عام الى آخر ما جاء في هذه المادة وفي محيط المحيط قيل هو صاحب موسى ويكنى بابي العباس وقيل اسمه آلياء وهو نبي والمشهور انهُ مار جرجس

قلت اما مار جرجس فقد قيل انهُ كان فارساً من فرسان الروم تنصّر واستشهد في زمن

ديقلطيانس ودفن في اللدّ سنة ٣٠٣ وقيل غير ذلك وقيل ان جثته نقلت من اللدّ في الحروب الصليبية . فان كان الخضر مار جرجس فان اهل بيروت يزعمون انهُ قتل التنين فيها وله مقام هناك بين نهر بيروت والمدينة القديمة يقال له الخضر وكان له كنيسة في قلب المدينة قيل هي الآن المسجد العمري فبنى الروم كنيسة اخرى لا تبعد عن المسجد اسمها مار جرجس . فاذا كان الخضر مار جرجس فقد لقيتهُ في بيروت ولقيتهُ في اللد لانهُ قتل التنين في يافا على زعم اهل فلسطين لا في بيروت . ثم اني لقيتهُ في حيفا ولعله اجتمع فيها مع مار الياس ومقامه هناك في جبل الكرمل في جوار مار الياس . ثم عدت ولقيتهُ في الموصل مدينة الانبياء والصالحين وقبره هناك وله فيها مسجد يقال له النبي جرجيس يزعم النصارى انهُ كان يدعة لهم باسم مار جرجس

ثم ان مار الياس لهُ معابد كثيرة اشهرها دير مار الياس للآباء الكرمليين في جبل الكرمل حيث يقال انهُ استلّ سيفهُ وقتل انبياء البعل وكانوا اربع مائة ثم اني سمعت اسمهُ في بغداد وهو محلة في جانب الكرخ يقال لها الخضر الياس قرب دار آل السويدي . ثم ان مار جرجس وقتل التنين في زمن الملك صبرا يذكرنا باسطورة فرساوس حامل رأس الغول وهو الآن صورة من الصور النجومية وابنة الملك صبرا التي يزعم اهل بيروت انها ابنة ملكهم العذراء تذكرنا باسطورة المرأة المسلسلة وهي كذلك صورة من صور السماء . وصفوة القول اني ضمت بين الخضر ومار الياس ومار جرجس الرومي وبين النبي جرجيس الموصلي . ولا يخفى ان مارجرجس هو شفيع الانكليز فهل هو يا ترى النبي جرجيس الموصلي او الخضر البيروتي او الخضر الفلسطيني وعلى كل فاذا كان الخضر نبيًّا او من عباد الله الصالحين فانهُ شفيع انكلترا او منتدب عليها بلغة رجال السياسة في هذا العصر . ثم جاء في هذا الفصل من الكتاب ذكر اسماء الشهور الشائعة في ارطاس . وهذه الاسماء لا تختلف كثيراً عن الاسماء الشائعة في سائر فلسطين والشائعة في شمال سورية والعراق وهي سريانية جرت عليها الدول العربية في معاملتها لان شهورها ثابتة لا تتغير وهي عندي اصلح من الاسماء الافرنجية الشائعة في مصر

***

وفي الكتاب فصل في الحَب والخمر والزيت Corn, Wine and Oil فمن الحب القمح ويقال الحنطة ومنهُ الشعير والذرة والارزّ . ثم كلام على الحصاد والدراس اي دق الحب او درسه اما بارجل البقر او بالنورج . ثم تذرية الحنطة وعمل الخبز وهو عند زرّاعهم نوعان خبز الطابون اي الفرن وخبز الصاج . ويصنعون ايضاً خبز الملّة . ثم كلام على الكرْم جاء فيه ان اهل ارطاس لا يعصرون الخمر لانهم مسلمون وانما يدبّسون ويزبّبون . ثم كلام على الزيتون والزيت وعصره

قلت والحَبّ بالعربية ويقال الطعام الحنطة ونحوها وفي انكلترة الحنطة وفي ارلندة واسكتلندة الشوفان وفي اميركة الذرة المعروفة في الشام بالذرة الصفراء وفي مصر بالذرة الشامية فالحَبّ بالانكليزية يقابله الحَبّ او الطعام بالعربية . اما القمح فمن اسمائه بالعربية الحنطة كما تقدم والبُرّ وهي شائعة في اليمن والطعام وقد تقدّمت الاشارة اليهِ فاذا قال السوداني الطعام فهو يريد الذرة اي الذرة البلدية فالذرة بالعربية هي الذرة البلدية او الذرة البيضاء وهي اصلية في الشرق . اما الذرة الشامية او الصفراء فهي اميركية ولم تكن معروفة في الشرق قبلاً فالذرة في كتب اللغة هي الذرة البلدية فقط

أما ارطاس ويظن ان حدائق سليمان كانت فيها فقرية صغيرة قرب بيت لحم تقيم فيها المس بلدنسبرجر احدى مؤلفتي الكتاب

ثم فصل في الاطعمة البرية كالبقول واحرار البقول والجذور والقطاني وطعام البر وما يأتي بعضها كما وردت بأسمائها العربية والانكليزية والعلمية

البقول Greens

البقل واحده بقلة وجمعه بقول كل ما ينبت الربيع مما يأكله الناس وكل نبات اخضرت بهِ الارض ويقال للبقل والبقول الخضرة والخضر والخضراوات فترجمت اللفظة الانكليزية بالبقول كما جاءت في سفر الامثال . قال : اكلة من البقول مع المحبة

خُبَّيزة Common mallow. Malva rotundifolia. L.

يأكلونها مطبوخة مع الارز ويجعلون الارز بين طبقاتها فاذا طبخت كذلك سموها مقلوبة او شختوره وكانت الخبازى معروفة في زمن الرومانيين وكان اكلها شائعاً في العصور المتوسطة

قلت والخبيزة عامية وبعض العامة في سورية اي في الشام ولبنان وفلسطين يقولون الخُبَّيزي على عادتهم في كسر ما قبل تاء التأنيث في اواخر الكلم فيقولون مثلاً ضربي ومصيبي في ضربة ومصيبة بخلاف عامة اهل العراق ومصر فانهم لا يفعلون ذلك بل يقولون ضربة ومصيبة . اما فصيح الخبيزة فالخُبَّازى والخُبازى بالتخفيف والخُبَّاز والخُبَّازة والخُبَّيز ولم اعثر على الخبيزة في كتب اللغة. والخبازى واخواتها اسم جنس لها . وقد يكون واحد الخبيز خُبَّيزة فاستعملها العامة بمعنى الخبازى كما قالوا الخطميّة في الخطميّ . وارى ان تخصص الخبيزة لجنس آخر منها كما فعل الدكتور پوست في كتاب نبات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها فيقال في ترجمة Malvella خُبَّيزة

فالخبازى بقلة من الفصيلة الخبازية التي منها الخطمي والملوخية والبامية والقطن ومن اسمائها الرقّة والقبلة ولعل هذه في الاصل مقلوب بقلة . وليست الخبازى الخطميّ ولا العضرس ولا شحمة المرج ولا الغسل ولا الغسول فهذه جميعها الخطمي لا الخبازى فالخبازى الجنس

المسمى عند علماء النبات Malva فهذا هو الخبازى دون غيره ولو تعددت انواعه اي ان جميعها خبازى ورقة وقبلة وربما كانت الرقة خبازى نيقية لان علماء ثقات سموها بهذا الاسم . ولما كان التبس على بعض الكتاب امر الخبازى والخطمي فلا بأس بايضاح صحة استعمالهما. فالخبازى من الجنس الذي تقدم ذكره اورد منهُ بوست ستة انواع سماها بالعربية ما يأتي : الخبازى المصرية والخبازى الاجية والخبازى النيقية (وهي الرقة) والخبازى المستديرة الورق (وهي الخبازى المعروفة التي تؤكل) والخبازى الصغيرة الزهر والخبازى الحادة الفصوص

أما الخِطمي ويقال خَطْمي الواحدةمنهُ خطميّة اي النبتة الواحدة بالتاء. والعامة تستعمل الخطمية بمعنى الخطمي كما تستعمل الخبيزة بمعنى الخبيز او الخبازى اي ان الخطمي اسم جنس لنبات من الفصيلة الخبازية وهو من جنسين آخرين غير جنس الخبازى هما Alcea & Althea ومن اسماء الخطمي بالعربية الغِسل والغَسُول والغسُّول والعخمرس وورد الزواني واما الخطمي المستعمل في الطب فاسمهُ ما يأتي :

Common or Officinal Marsh mallow. Althea officinials. L.

وارى ان اصلح اسم عربي له الخطمي المعروف او الخطمي المخزني واغفال ورد الزواني وسائر ما جاء من المترادفات فاسم واحد صواب خير من تعدد اسماء قد يكون بعضها خطأ

والخطمي انواع كثيرة ترجع كلها الى الجنسين المتقدمين فنها الارمني والقنبي (وهذا الذي سماه ابن البيطار بالقنب البري) والوردي (ولعله الذي سماه ابن البيطار ورد الزواني) والتيني الورق وغيرها والاصلح ترجمة هذه الاسماء كما فعل الدكتور بوست فقولنا الخطمي الوردي خير من قولنا ورد الزواني وقولنا الخطمي القنبي خير من قولنا القنب البري لانهُ ليس قنباً بل خطمياً اما تسمية الخبازى التي تؤكل بالخطمي والعبضرس وشحمة المرج والغسل والغسول فخطأ

لُفَّيت Hoary brassica. Brassica adpressa. Boiss.

يطبخ ورقه ويصعب التمييز بينه وبين الخردل الاسود . والاسم العربي اي لُفَّيت والعبراني اي لِفْلاف والاسم النوعي معناها واحد اشارة الى التفاف غلاف البزر او لفته الى الساق

لسان الثور Bull's tongue. Salvia hierosolymana. Boiss.

هو نوع من السالمة او المريمية احمر اللون يطبخونهُ محشواً كالكرنب المعروف في الشام بالملفوف

لوف . اذن الفيل Arum of several species

لا يأكله الاّ الفقراء وهو سام فيغسلونه بالماء الحار ويطبخونه محشواً كالملفوف

الرحلة والرحالون

في القرون الوسطى

لنقولا زيادة

وانا مضطر الآن ان اكتفي بعدد قليل من رحالي القرون الوسطى لاحدثكم عن أسفارهم ، لان ذكرهم كلهم يطول بنا ، والذين احب ان اتحدث عنهم هم الحجاج المسيحيون الذين زاروا الارض المقدسة . وهؤلاء قد جاءوا بلادنا قبل العصر الذي حددناه في بدء الحديث اليوم

﴿حجاج القرن الرابع﴾ نجد بين هؤلاء اربعة كان لبعضهم شأن كبير لا في الاخبار والرحلات فقط ، ولكن في تطور المسيحية نفسها ايضاً . وابعد هؤلاء أثراً جيروم الذي هبط بيت لحم في القرن الرابع واتخذها مسكناً لهُ ، واشتغل في اثناء ذلك بنقل الكتاب المقدس الى اللاتينية وقد كان جيروم سبباً في جذب كثيرين الى البلاد المقدسة رجالاً ونساءً[1]

واقدم ما كتب عن الارض المقدسة على ما وصل الينا كتاب (حاج بوردو) ونحن لا نعرف اسم هذا الكاتب وكل ما اتصل بنا انهُ فرنسي من مدينة (بوردو) ، زار البلاد سنة ٣٣٣ م ، وكتب دليلاً لمن يزورها بعده ، معتمداً في وصف الاماكن على ما خبره بنفسه ، وفي الاخبار على ما سمع من غيره . ومن الامور التي ذكرها انه رأى الغار الذي كان سليمان يحبس فيه الجن والشياطين

وبين حجاج هذا القرن ايضاً سيدتان الاولى القديسة (باولا) ، والثانية القديسة (اتريا) او (سلفيا) . اما الاولى فقد لبت دعوة جيروم . وكانت ثرية جداً ، فاقامت في الطريق بين يافا وبيت لحم تكايا ونزلاً للحجاج[2] . وسكنت بعد ذلك بيت لحم حتى الممات . وقد كتب جيروم اخبارها ورسائلها بنفسه[3] . واليك وصف بيت لحم منقولاً عن القديسة باولا[4]

« في قرية المسيح كل شيء ، خلا التسابيح ، هادىء . حيث قلبت وجهك سمعت التهليل . فالحارث القابض على محراثه يصيح هللوليا ، وحارس الكرم يصرخ هللوليا ، والفلاح يرتل مزامير داوود في عمله . هذه اشعار واناشيد السكان في هذه البلاد . وهذه هي اغاني الحب عندهم . لا يهمنا في الواقع ان نفكر فيما نعمل ، ولا كيف نظهر ، بل ان نرى ما تتوق اليه نفوسنا [اي الخلاص] »

واما القديسة سلفيا فقد كانت رحلتها اوسع نطاقاً ، وابعد مدى ، اذ شملت مصر وسيناء وفلسطين وسوريا وبعض آسيا الصغرى ، وكانت دقيقة في كتابتها حتى حملت الاستاذ بيزلي على القول[5] « بان معرفتنا عن الشرق كانت يمكن ان تكون صحيحة لو ان الكل كتب مثلها »

---

(١) Rappoport pp. 264-5 (٢) Rappoport p. 266 (٣) Bliss p. 50 (٤) Bliss. p. 51

(٥) راجع Bliss p. 55

وقال الدكتور بلس [١] « لم يكتب احد بمثل دقتها قبل الحروب الصليبية » . وقد كانت زيارتها في اواخر القرن (٣٨٥ م) واقامت في القدس ثلاث سنوات . والراجح انها فرنسية الاصل ، وقد لوحظ انها كانت تقابل بالحفاوة والتعظيم اينما حلّت مما يدل على نبل اصلها وشرف اهلها . ونحن نجهل هذه الامور لان القسم الاول من المخطوطة مفقود الى الآن . ولم تسلم مع كل عنايتها من ذكر ما يبدو لنا صعباً تصديقهُ . فهي تقول انها رأت شجرة الحق التي غرسها موسى وهارون في صحراء التيه ، والمكان الذي اقام فيهِ بنو اسرائيل العجل الذهبي والعليقه التي كلّم موسى امامها الرب بعد ان رآها تتقد . ومن اجمل ما تركتهُ لنا وصف حفلة تقبيل الصليب يوم الجمعة الحزينة اذ تقول [٢] (جلس المطران في مقعده الخاص ، ووضعت امامه طاولة عليها صندوق فضي يحوي خشب الصليب المقدس . فتح الصندوق ووضع ما فيهِ على الطاولة ، فوضع المطران يديه على الخشبة وتنبه الاساقفة المحيطون بهِ للحراسة . ثم تقدم الناس واحداً واحداً فانحنوا ثم لمسوا الصليب بجباههم اولاً ، ثم بمحاجرهم ، ثم قبلوه ومرّوا . والغاية من وجود الاساقفة هو المحافظة على خشب الصليب اذ كان من عادة البعض انهم اذا اقتربوا لتقبيله عضّوا جزءاً منهُ وهربوا للتبرك)

﴿ حجاج القرن الخامس ﴾ يحدثنا القديس داود الانكليزي اول حجاج هذا القرن ، انهُ اوحي اليهِ والى اثنين آخرين ان يتجهوا الى القدس ، ليقوموا بواجب الزيارة للاراضي المقدسة فلما اجتازوا البحر الانكليزي وهبطوا فرنسا لم يستطيعوا التفاهم مع اهلها ، حلّت نعمة الروح القدس على داود فصار يتكلم بكل لسان ، فلم يبق ثمة صعوبة ولما وصل القدس قابله البطريرك الذي كان قد اوحي اليهِ باقترابهم ، بالتبجيل وسام القديس داود رئيس اساقفة . ثم طلب اليهم ان يدحضوا حجج اليهود الدينية فقاموا بالامر ، حتى اقنعوا الكثيرين الذين اخذوا يدخلون في المسيحية افواجاً . وقد كافأ البطريرك داود على خدماته بهدية مقدسة حوت مذبحاً ، وجرساً كبيراً وهراوة وحلة منسوجة من الذهب . وقد كان لكل من هذه عجائب وكرامات . ولما اعتزم داود العودة الى بلاده جات الملائكة له كل هذه اذ لم يكن في استطاعته ان يفعل ذلك بنفسهِ

وعندنا من رواد القرن الخامس ايضاً ثيودوسيوس وهذا ، على ما يتراءى لنا من المغرمين بمكان اعتماد المسيح . فهو يذكره بشيء من العناية والاطالة ، ويصف العمود الرخامي الذي رآه في نفس مكان العماد ، والصليب الذي يعلوه وكنيسة يوحنا المعمدان . ويقول ان الجبال الكثيرة المحيطة بالاردن قد رقصت يوم اعتماد المسيح في النهر وان الناظر اليها الآن — في زمنه — يخيل اليه انها قافزة من مكانها ومن هذا نرى ان حجاج هذا القرن لا يتسمون بسمة الكتاب الحريصين على الحقائق كثيراً

اما في القرن السادس فقد كثر الاهتمام بالآثار المقدسة فانطونيوس يخبرنا انهُ رأى في

---

(١) Bliss p. 54 (٢) Travel & Travellers p. 47

صفورية (سل العذراء) وفي الناصرة الكتاب الذي تعلم فيه المسيح «الالف باء» وان نساء هذه المدينة جميلات لانهن قريبات العذراء . وهو يقول لنا ان اهل السامرة كانوا يكرهون المسيح حتى انهم كانوا يحرقون آثار اقدام السياح المسيحيين ، ويأبون ان يأخذوا منهم النقود قبل طرحها في الماء لتطهر من رجس ايديهم [١] والطونيوس ينقل لنا ان البحر الميت لا يصلح للسباحة لان الاجسام تطفو في مائه !!...

﴿القرن السابع وما بعده﴾ : منذ القرن السابع تغيرت الاحوال في الشرق الادنى كله . ففي اوله كانت الحروب بين الفرس والبزنطيين واحتلال الاولين للاراضي المقدسة ، وما صحب ذلك من تدمير الكنائس وغيرها من اماكن التعبد والقداسة . ولما استعاد البيزنطيون البلاد رمموا بعض ما تهدم ومن ذلك كنيسة القبر المقدس وفي اواسط هذا القرن كان العرب قد احتلّوا كل سوريا ومصر ووطدوا حكمهم في هذه الديار ، والذي نعرفه ان هذا الاحتلال لم يمنع الحجّاج من المجيء الى الاراضي المقدسة [٢] بل ان العرب شجعوهم على القيام بهذا الفرض الديني . فالحجاج الذين زاروا البلاد في العصر الأموي مثلاً ، لا نجد في كتاباتهم أثراً للشكوى او التذمر . الا اننا نلحظ فيهم انهم اخذوا يفدون الى فلسطين بطريق مصر ، بدل طريق آسيا الصغرى لما كان من العداء بين العرب والروم . وقد وقعت مع ذلك حوادث فردية عدائية نحو بعضهم بسبب وشاية بعض اليهود فقط . ولما انتقل الحكم الى العباسيين ، وقام هرون الرشيد اتسع نطاق الزيارة والتجارة مع العرب في زمنه على شكل لم يعرف قبلاً

وفي آخر القرن العاشر احتل البزنطيون جنوبي فلسطين ، وبذلك تدفق الزائرون اليها ، ثم استردّها منهم الفاطميون في مصر . وهؤلاء أيضاً فتحوا باب الحج والزيارة للغربيين على مصراعيه ، حتى اوائل القرن الحادي عشر ، ايام الحاكم بامر الله . وفي زمنه زار البلاد المقدسة جربرت ، الذي صار فيما بعد بابا رومية ، وكان ممن لقي اضطهاداً في حجه . لذلك لما عاد الى اوروبا واعتلى الكرسي البابوي ، دعا الاوروبيين الى تخليص الاراضي التي عاش فيها (المخلص) وصلب وصعد ، من أيدي المسلمين . ومنذ ذلك الحين صار الحجاج المسيحيون يأتون مدججين بالسلاح [٣] ، فاقلق ذلك بال الحكام ، وحملهم على التضييق عليهم خشية منهم

ارغولف : مطران من بلاد الغال ، زار الاراضي المقدسة ودمشق ، وصور ، والاسكندرية ، والقسطنطينية في اواخر القرن السابع ، وقضى في القدس تسعة شهور وتردد على كل البقاع المحيطة بها . وقد املى أخبار سياحته على راهب انكليزي اسمه ادمنان

على ان الاخير هذا لم يوضح كيف وصل ارغولف اليه ، ويعتبر كتابه دليلاً صحيحاً ولا سيما انه رسم خُطُطاً تقريبية لكنيسة القبر المقدس وغيرها . على أنه لم يستطع ان يتخلص من الروح الدينية العامة التي كانت تسيطر على اذهان الجماعة في تلك العصور ،

(١) Bliss p. 60 (٢) Rappoport pp. 267 & 270 (٣) Rappoport pp. 272—3

والمبنية على ان للآثار المقدسة فعلاً عجيباً في شفاء الامراض وغفران الخطايا ، فهو يعدد الآثار التي رآها ، مثل الكأس المقدسة الفضية ، والاسفنجة ، والحربة التي شهدت صلب المسيح . وقد لمسها وقبّلها أيضاً . ونحن نعرف منه أيضاً ان الصليب الحقيقي موجود في القسطنطينية [١] وقد زار برية الاردن ووصف النهر ومكان العماد ، والجراد والعسل البري الذي استعمله يوحنا في حياته ، اذ يقول [٢] « وفي البرية نوع من الجراد صغير لا يتجاوز واحده حجم الاصبع ، يسهل القبض عليه لانه يقفز ولا يطير ويقلى عندها بالزيت ويستعمل طعاماً وفيها أيضاً شجر له أوراق كبيرة مستديرة ، اذا ضغطت خرجت منها عصارة حلوة . وهذا هو العسل البري » . وذكر أنه توجد على جبل الزيتون (الطور) كنيسة الصعود لاسقف لها ، لان العاصفة التي تهبُّ كل سنة في نفس الوقت الذي صعد فيه المسيح الى السماء تعصف بالسقف وبكل المواد لمثل هذا البناء ، كما شاهده بنفسه

ويقول في مكان آخر « اعتاد الناس ان يفدوا الى القدس جماعات كبيرة في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) من كل سنة للاحتفاء بعيد الصليب المقدس ولتبادل السلع والبضائع حتى انهُ كان من الصعب اختراق طرق المدينة لكثرة الاقذار المسببة عن الحيوانات الكثيرة التي يؤتى بها . ولكن العناية الالهية كانت تبعث على أثر مغادرة الناس للمدينة بامطار غزيرة تنظفها » [٣]

« منديل المسيح » وبين الآثار المقدسة التي رآها ارغولف المنديل الذي غطي به رأس المسيح في القبر . « وقد سرقه يهودي بعد قيامة المسيح وخبأه . ولما حضرته الوفاة جاء بولديه وخيّرهما بين كل ثروته وبين المنديل فكان من جراء ذلك ان شقي الاول وخسر كل ما ورث ، وصعد الثاني وأثرى ببركته ما أخذ وبقي هذا المنديل ارثاً في عائلته جيلاً بعد جيل حتى نشب نزاع بين الذين كانوا يؤمنون بقدسيته والذين كفروا بها من أفراد العائلة . فاحتكموا الى الامير (؟) في ذلك . فاشعل النيران في الساحة العامة ثم وضعه فيها ، لكن النيران لم تمسه قط بل أخذ يرتفع وبعد دقائق هبط على الفريق المؤمن أي المسيحيين الذين كانوا طول الوقت يصلون ويضرعون الى المسيح ان ينيلهم إياه »

اما القرن الثامن فبطل سيّاحه ويلبولد الانكليزي الذي زار البلاد في اوائله (٧٢١ — ٧٢٧م) وقد كان من عادة الكثيرين من جوابي تلك العصور وحجّاجها ان يكتفوا بذكر اسماء البلاد التي مروا بها قبل وصولهم فلسطين ، فاذا وصلوها ذكروا اخبارها بالتفصيل . وأما ويلبولد فانهُ يصف رحلتهُ كلها في اواسط اوربا واجتيازه الالب وروما ، والبراكين التي مرّ بها . ويقول مثلاً ان سكّان المدينة المجاورة لبركان اتنا في صقلية يدفعون عن انفسهم غائلة ثوران هذا البركان برفع وشاح القديسة « اغاثا » المدفونة عندهم فيهدأ ثائر باب جهنم

ولما كان العرب يخشون عندها تجسس الغربيين بسبب ما كان بينهم وبين الروم من حروب ،

(١) Travel & Travellers p. 65 (٢) Early Travels in Palestine pp. 8—9
(٣) Early Travels p. 1

ولما كان عدد رفاق ويلبولد قد بلغ الثمانية فقد القي القبض عليهم وزجوا في السجن الى ان حقق معهم، ومثلوا امام الخليفة يزيد الثاني (٧٢٠—٧٢٤) فلما عرف بلادهم وغايتهم اطلق سراحهم وزوّدهم برسائل تمكنهم من التجول في البلاد، وأعفاهم من ضريبة الحج [١] واتخذوا القدس مركزاً لزياراتهم، وقد مرّوا في احداها بحمص فزوّدهم حاكمها بكتاب لكل اثنين منهم وأمرهم ان يسافروا اثنين اثنين فقط، اذ لم يكن سبيل لهم ان يحصلوا على طعام يكفيهم جميعاً اذا سافروا معاً [٢]

وقد كان نقل البلسم من فلسطين ممنوعاً وكان عقاب من يخرجه الموت ولكن ويلبولد رغب في اخذ شيء منه الى بلاده فملأ انبوبة صغيرة منه، ثم وضعها في انبوبة اخرى اكبر منها وملأ الثانية زيتاً صخرياً لعله النفط او القار، حتى غمرت الاولى. فلما وصل الى صور وفتشوا امتعته، منعهم الزيت ورائحته من ان يعرفوا بوجود البلسم [٣]

برنارد الحكيم: هذا نموذج سيّاح القرن التاسع الميلادي وهو القرن الاخير من عصر التفاهم والتسامح بين الشرق والغرب الذي سبق الحروب الصليبية. وبرنارد جنى بعض ثمار العلاقات الطيبة التي توطدت بين الدولة العباسية في الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب، بسبب صداقة هرون وشارلمان. وهذا سائح لا يبدأ الرحلة قبل ان ينال رضى قداسة البابا وهو يمر بالاراضي الايطالية التي كانت خاضعة للنفوذ الغربي، فيحمله سلطان باري رسائل الى امير الاسكندرية والى امير الفسطاط في مصر. وكذلك كان شأنهُ في كل مدينة مرّ بها ان يعطى الى السلطة الحكومية في المدينة الثانية رسالة لقاء دينار او دينارين، والطريق التي يسير فيها من مصر الى فلسطين الطريق البري مخترقاً سيناء فاذا وصل الرملة سار الى القدس بطريق عمواس، وحل ضيفاً في النزل الذي بناه شارلمان

وبرنارد اول من ذكر «فيض النور» في يوم السبت السابق للفصح المقدس، فقد قال «ويجد الداخل الى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه. فاذا كان صباح يوم السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح حتى اذا تمّ ذلك، انشد الكل بصوت رخيم «كيرياليسون» الى ان ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران حصته من هذا النور المقدس، ثم يسمح للشعب ان ينير كلٌّ قنديله». وعلى ذكر ما اوردهُ برنارد انقل ما كتبهُ ابو الفرج عن فيض النور زمن الحاكم في اضطهاده للنصارى «قيل انهُ وشى بعضهم الى الحاكم ان النصارى يوم فيض النور يدهنون السلاسل التي تعلق بها القناديل بزيت البلسم فاذا جاء الحارس العربي المكلف حراسة القبر في ذلك اليوم خشية التلاعب فيه، وختم بابه اشعلوا البلسم الذي على السلاسل من ثقب خفي فتضاء القناديل وعندها تنهمر دموع الفرح من ماقي الناس ويصيحون «كيرياليسون» حاسبين ان هذا النور قد هبط من السماء وبذلك يقوى ايمانهم»

---

(١) Early Travels p. 15—6 (٢) Early Travels p. 20
(٣) Rappoport p. 271 and Early Travels p. 68

كتاب الاغاني

لابي الفرج الكاتب الاموي المعروف بالاصبهاني

— ٢ —

واختزن ثروة طائلة من « رواية عالية ، وأدب عزيز » وعلم واسع باللغة والاخبار وصناعة خلفها اصحابها ولما نجد من الاخلاف من يحسنها مثلهم

وكان ابو الفرج الاصبهاني من الندماء الخصيصين بابي محمد المهلبي وزير معز الدولة بن بويه الديلمي . واحتل العلم ودراسته وكثرة الحفظ قلب الكاتب الاموي فلم يكن كثير العناية بمظهره . ومثله عدد لايحصى من المشتغلين بالادب والتأليف حتى في عصرنا هذا . وقد روي ذلك عن « اميل فاجيه » الناقد الفرنسي المحدث . ولم تسلم مكانة ابي الفرج وعلو كعبه في العلم من الحساد. وكان لايغتفر ذلك والناس يحذرون لسانه ويتقونه لقوته ومقدرته وكان ربما صدر منهُ شيء من ذلك في حضرة الوزير المهلبي فكان ابو محمد يتكلف احتمالها لورودها من ابي الفرج

وكان العصر منصرفاً الى البذخ والاسراف. وكان ابو محمد المهلبي اشبه بوزير من وزراء لويس الخامس عشر، روى انهُ ابتيع له في ثلاثة ايام بالف دينار ورد لكي يجعلها مفارش في مجلسه!

وزاد العصر على اسرافه انهُ اطرح عنهُ بعض القيود التقليدية التي كانت تغل انتاجه الفكري والمادي . ولم يخل مع ذلك من شيوع الاوهام والاباطيل التي فوّتت عليهِ دراسة الحكمة والعلم العميق . فان تلك الظرائف الملكية التي وقفت عندها صناعة الاندلسيين للدمي واشباهها حين وصلت الى القاهرة استحالت الى تماثيل كاملة للشعراء وغير الشعراء صيغت من الابريز واتسع استعمال الالوان من التزويق الى التصوير حتى لقد استعمل للاعلان وللانذار . وفي ذلك الوقت كان الكاتب الاموي قد فرغ من تأليف كتابيه الغريبين « الخرافات » و« الخمارين والخمارات » . وكان مدخراً لمؤرخ رواية كالمقريزي ان يؤلف عن ذلك العصر كتاباً في « طبقات المصورين والمزوقين »

واذا كان كتاب « الاغاني » قد حوى كل ضروب التظرف والبذخ والابهة التي انغمس فيها العرب لعهد اتساع دولتهم فان عصر الاصبهاني كان قد بلغ الغاية القصوى في التأنق في اللباس والمآكل . فكان من دون الوزير من عمال الدولة يستعمل صحاف الذهب والفضة فكيف بالوزراء والخليفة . وكان استعمال الكماليات مألوفاً شائعاً . وينسب الى ذلك العصر لبس الجوارب الحريرية والنعال المؤلفة من لونين من الجلد والتخفف بانواع من الاثواب الغالية التي

كانت عزيزة نادرة في غير الدولة الاسلامية . وكذلك نلحظ في كتاب « الاغاني » واخباره مرآة صادقة لتظرف العصر نفسه وشغفه بادب السمو والنوادر . وحتى في عهد سؤدد الدولة الاسلامية وسيطرتها بعث الدم العربي في اخلاف الجاهليين حب السمر . بعث فيهم الهوى القديم الى رواية الشعر الغنائي

ولما اهدى ابو الفرج كتابه الذي جمعهُ في خمسين سنة الى سيف الدولة بن حمدان كان نصيبه كنصيب الفردوسي سيد شعراء فارس لما اهدى « الشاهنامه » التي نظمها في ثلاثين سنة الى الامير محمود سبكتكين [1]

فاعطاه سيف الدولة الف دينار . وبلغ ذلك الصاحب بن عباد فقال : لقد قصر سيف الدولة وانهُ يستأهل اضعافها . ووصف الكتاب فاطنب : لقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره ولا راقني منها سواه

وقيل : لم يكن كتاب « الاغاني » يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره . ومن الممكن ان نستخلص من ذلك ذوق العصر وطبيعة ميله الى الاطلاع وتقديره للتآليف

وتأنق الكاتب الاموي في جمع كتابه وتصنيفه ودل على عناية فائقة بشرح مذاهب المغنين في صناعتهم . اما طريقة او « اسلوب » التصنيف الذي اختاره ابو الفرج الاصبهاني فهو مذهب اتبعهُ جيل عظيم من الاخباريين والمؤرخين والرواة . ولما اطلعنا على المقدمة التي صدر بها « ياقوت الرومي » كتابه « معجم الادباء » وجدنا تفاصيل تعين على تمييز ذلك الاسلوب في التصنيف وتأويله

قال ياقوت في نقد ابي بكر بن عبد الملك التاريخي « ... هذا مع ان كتابه — في اخبار الادباء — صغير الحجم ، قليل التراجم ، محشو بالنوادر التي رووها لا يختص « باخبارهم » انفسهم . . . . ثم ألف بعده في هذا « الأسلوب » [2] ... الخ

و « صنف » فيه أبو عبيدالله محمد المرزباني كتاباً حفيلاً كبيراً على عادته في تصانيفه ... الخ

« و « ألف » فيه أبو سعيد السيرافي كتاباً صغيراً في نحاة البصرة نقلنا « فوائده »

« ثم « جمع » في ذلك أبو بكر الاشبيلي كتاباً وهو اكثرها « فوائد » و « تراجم » ...

« وفي « اخبار أهل الأدب » وجدت كتاباً لعلي بن فضال المجاشعي كثير التراجم الاّ انه قليل « الفائدة » لكونه لا يعتني « بالاخبار » ولا يعبأُ بالوفيات والاعمار [3]

وقال ياقوت في تصدير معجمه . و « جمعت » في هذا الكتاب ما وقع اليَّ من « اخبار » النحويين واللغويين ... وكل من « صنف » في الأدب تصنيفاً او « جمع » في فنه تأليفاً ... الخ فاستعمل في معنى « التأليف » : صنف وجمع . وصنف الشيء جعله اصنافاً وميز بعضه

(١) كانت تتألف من ستين الف بيت فاعطاه الامير نصف درهم من الفضة ثمناً لكل بيت !

(٢) اذن هو « اسلوب » في التأليف لا طريقة (٣) يعني بلا شك التواريخ والازمنة « كرونولوجي »

من بعض . ومنه تأليف اللحون وتأليف العناصر . وهي طريقة الاخباريين اتبعوها ليسهل حفظها على الرواة . وجلي ان الأدب شيء والعلم شيء آخر . وقد كان الاغريق واللاتين يذكرون البطل او الخطيب باخباره مرتبة دون اسناد ويخلطونها بكثير من الخرافات «الميثولوجيا» وهم ايضاً اصحاب الطريقة العلمية التي يخاطب فيها المؤلف شخصاً مفروضاً كأنه القارىء نفسه «اعلم وفقك الله ان كذا ... الخ » وقد اتبعها ارسطو والحكيم سنكا وشيشرون من قبل ان يتبعها الغزالي وابن رشد وابن مسكويه

أما الاخبار والشعر فن جملة علوم الادب وقد أشار الاصبهاني الى ان «المغزى في كتابه انما هو ذكر الاغاني باخبارها» . وهذا تأويل لمذهبه في رواية الكتاب . وربما كانت اخبار المغني ادق واصدق شرح لصناعته . ومن مزايا هذا «الاسلوب» في التصنيف : البيان والترتيب ومن تعابير نقدة العرب ان فلاناً العالم او الاديب «حسن الترتيب لما يصنفه» وانه «احسن تصنيفاً من الجاحظ [1]» . والجاحظ هو صاحب «البيان والتبيين» . وكان الاصبهاني حاذقاً في ترتيب اخباره ممتازاً بجمال أسلوبه وبيانه

ومنبع هذا «الاسلوب» في اعتماد الاخبار موضوعاً للتاريخ ماجرى عليه العرب بطبيعة مزاجهم من حب السمر والحديث . والعرب في الاصل تجار . وكان الشعر العربي من قبل القرآن قد استنفد العبقرية العربية . ولما صار العرب تجار اكفاء بسطوا جناح سيطرتهم على العالم وكان للاسماء في اللغة تأثير في طبيعة التفكير والمزاج. فان معنى «تجارة» [1] في اللغة اللاتينية العلاقة الاجتماعية او المعاشرة او التبادل والمحاورة او الترسل ومنها اشتق اسم السمر او الحديث وكانت الصيغة الاخيرة التي اكتسبها هذا الاسم هي بلا شك الرواية او الاخبار . وفي عادات العرب كما هو في كتاب الاغاني روح السمر والحديث وصور العلاقات التي كانت تربط طبقة الادباء والشعراء وارباب الفنون بالاريستوقراطية العربية في الاسلام.

ولقد عاب العلامة الفرنسي «ارنست رنان» على الشعر العربي انه ذاتي « Objective » وان الشاعر يتكلم فيه عن نفسه وعن حالاته الخاصة به . وان الملحمة فيه مفقودة . واصل الرأي للمستشرق « لاسن » [2] وهو لا يعيب العنصر العربي ولا الشعر العربي . لان العرب لم يكونوا شعراء بالفطرة الا لان الشعر الغنائي كان نفساً طبيعياً فيهم

ويرى «برونتيير» ان الشعر الغنائي حين تمَّ تكوينه كانت ذاتية اوربا قد تكونت . اذن وافق ترقي الشعر الغنائي عند العرب اكتمال ذاتية « اندفدوالسم » العنصر العربي

وفي الحقيقة ان كتاب الاصبهاني يمثل وحدة علمية وادبية تستحق ان تكون رمزاً لعبقرية العنصر العربي

عبد الحميد سالم

---

(١) ياقوت الرومي : ارشاد الادب (2) M. Lassen

الراديوم والعلم والصحة

[بتصرف قليل عن مجلة العلم العام]

«التدجيل بمياه الراديوم» جاء في احدث الانباء ان الحرب قائمة على ساق وقدم في امريكا لمكافحة كل الادوية المسجَّلة حتى الراديوم ، وان موقدي جذوة تلك الحرب العوانٖ هم اولاً — لجنة التجارة المتحدة وثانياً — مصلحة الاطعمة والادوية وثالثاً — فروع الادارات الصحية الحكومية والبلدية — ورابعاً — الجماعات الطبية — وغايتهم منع بيع الادوية المجهولة التركيب في الاسواق ولا سيما العقاقير التي تعزى فوائدها الى الراديوم

والراديوم عنصر مقوٍّ ، اذا تولى العلاج بهِ خبيرٌ ، ولكنهُ قتالٌ ، اذا استعملهُ غيرٌ دجال . فيجب ان يكون آخر عقار يُباح بيعه في مخازن الادوية ، لا ان يباع ويشرى اعتباطاً كأنهُ قرص من اقراص تخفيف السعال او جرعة من زيت الخروع . وقد اطلقت الطلقة الاولى في تلك الغارة الشعواء عند ما حجز ضباط حكومة الولايات المتحدة في مدينة بفلو بولاية نيويورك مركباً شاحناً ١٦٧٠ قارورة ملأى راديوماً كنديًّا مقوياً كانت احدى الشركات مزمعة توزيعها في الولايات المتحدة

وكان الحافز لولاة الامور على القيام بتلك الحملة موت المستر ايبن بايرز Eben Byers متسمماً بالراديوم — وهو احد ارباب مصانع الحديد المشهورين في مدينة بتسبرج ، وكان قد اعتاد قبل وفاته بسنتين تناول مقادير كبيرة من احد الادوية الجاهزة المركبة من مياه الراديوم التي كان يعلن عنها « بأنها محاليل املاح الراديوم غير المضرة التي تشفي ١٦٠ مرضاً وتجدِّد الشباب »

ومن نحس الطالع ان ذلك العقار اثَّر في صحة المستر بايرز في بدء الامر كالسحر إذ خيل اليهِ وهو كهل انهُ قد استعاد شبابه حتى زعم انهُ قد اهتدى الى ينبوع الشباب فجعل يهدي الى اصدقائه صناديق من قوارير مياه الراديوم السالفة الذكر — واستمرت حاله على ذلك المنوال بضعة اشهر ثم اعتراه مرض شديد افضى الى موته من عهد قريب مصاباً بداء تنخر العظام (اي بِلى وموت العظام) في الفكين وفقر الدم وخراج في الدماغ . وقال الدكتور فردريك فلن (مدير قسم حفظ الصحة الخاص بالصنّاع في كلية الاطباء والجراحين بجامعة كولومبيا) الخبير في علاج التسمم الراديومي ، وهو الذي استفرغ جهده عبثاً في انقاذ حياة المستر بايرز ، انهُ قد توفي رجل آخر من تناول مياه الراديوم وان كثيرين غيره سوف يلاقون حتفهم من ذلك الينبوع المشؤوم . وقد شرحت جثة بايرز فوجد فيها اكبر مقدار تناوله انسان من املاح الراديوم . وكان ذلك اكثر من ثلاثين ميكروغراماً وهذا يكفي لقتل ثلاثة رجال

ومن اشهر الادلة على فظاعة تأثير الراديوم في جسم الانسان فاجعة فتيات نيوجرزي فقد أصابهن الكساح ثم تسممن بالراديوم وهلكن . وذلك من اعتيادهن دهن موانئ الساعات بالدهان المنير المصنوع من املاح الراديوم . وقال حديثاً الدكتور هاريسون مارتلند الطبيب الشرعي الذي درس تلك الحوادث درساً تاماً ان ١٨ نفساً من مستخدمي مصنع شركة راديوم الولايات المتحدة في مدينة اورانج بولاية نيوجرزي (المغلق الآن) قد ماتوا من تسمم الراديوم ايضاً وان اكثر من ثلاثين غيرهم سيصابون بالكساح واغلبهم كانوا يصابون بالتسمم عن طريق الشفاه من ارهاف الفرش المغموسة بدهان الراديوم ايضاً . وبديهي ان الحملة الآنفة الذكر قد أُلفت لمناهضة الدجالين الذين يخدعون الناس بمزاعمهم ان الراديوم دواء لجميع الامراض ، لا لمقاومة نطس الاطباء الذين يستعملون الراديوم . فقد ثبت نجاح الراديوم نجاحاً باهراً في علاج بعض اصابات السرطان . ويتبين ذلك من تصريح القاه رئيس احد المعاهد الكبرى لعلاج السرطان في الولايات المتحدة اذ قال ان عشرة في المائة من المصابين هناك بالسرطان يعالجون بطريقة الراديوم . ويستعمل الراديوم لكثير غيرهم لتخفيف آلامهم تخفيفاً كبيراً

﴿ اكتشاف الراديوم ﴾ كشف العلامة بير كوري وقرينته عن الراديوم في دسمبر سنة ١٨٩٨ في معملهما الكيماوي الخاص، بضواحي مدينة باريز، فأخذ الناس من ذلك العهد يشيدون بذكر الراديوم قائلين انهُ من اجلّ نعم الله على عباده . وظلوا يعتقدون ذلك الاعتقاد الى اوائل سنة ١٩٢٥ اذ توفي المسيو دمنترو Demenitrou وهو كيماوي كان مساعداً في معمل كوري فاخترمته المنون بعد ما كابد آلاماً مبرحة من تعرضه سنوات عديدة للمواد المشعة التي تنبثق من الراديوم، فشرع الخبيرون وقتئذ يدركون نقم الراديوم . واصبح غير خاف على العلماء ان الراديوم قتّال ، كما هو شاف للناس بسهولة ، ولذلك ترى الاطباء المخصصين للمعالجة به يتخذون اشد الاحتياطات لوقاية انفسهم ومرضاهم من تأثير الراديوم القتّال

والراديوم اقوى واغرب ما كشفه الانسان حتى الآن من عناصر الطبيعة . وهو يكنّ سر تحول العناصر . فقيل انهُ حجر الفلاسفة الجديد الذي قضى علماء الكيميا القدماء يبحثون عنه ازماناً فلم يظفروا به . ولكن تحوّله معكوس لانهُ يصير احط قيمة بكرّ الدهر — والراديوم نتيجة انحلال عدة عناصر تبدأ بالاورانيوم وتنتهي بالرصاص بعد انقضاء ملايين السنين — وهو يفقد نصف قوته ونصف وزنه في ١٧٣٠ سنة ويفقد قوته كلها تقريباً في نحو ١٩٠٠٠ سنة

وقد توسّل به علماء الجيولوجيا (وذلك بمعرفة الزمن الذي يقضيه الاورانيوم مصدر الراديوم حتى يصير رصاصاً) الى تقدير عمر الارض بزمن يتراوح بين بليونين وثلاثة بلايين سنة، وذلك بمعرفة نسبة مقادير الاورانيوم الى نسبة مقادير الرصاص التي وجدت في عدة طبقات من الصخور المختلفة . واطلقوا على الطريقة التي استخدموها في التقدير اسم (ساعة الراديوم)

ويقذف الراديوم في اثناء انحلاله الغامض المستمر ثلاثة انواع من الاشعة وهي ألفا وبيتا وغمّا . فأشعة ألفا بمثابة اجسام هي نوى من ذرات الهليوم مشبعة بكهرباء ايجابية تقطع في الثانية الواحدة ١٨٠٠٠ ميل . واشعة بيتا مكوّنة من كهارب « الكترونات » كهربائية سلبية تشبه الاشعة السلبية التي تتولد في معامل التحليل الكيماوي بانابيب كروكس وهذه تقذف بسرعة تتراوح بين ٦٠٠٠٠ و ١٨٠٠٠٠ ميل في الثانية . واشعة غمّا تختلف عن اشعة ألفا وبيتا (اللتين هما تيارات من ذرات مادية دقيقة) بكونها امواجاً كهربائية سريعة التموج مثل امواج انبوب الاشعة السينية . غير ان الاشعة السينية اطول امواجاً منها وسرعتها كسرعة النور ، وأشعة ألفا ذات قوة ضئيلة في اختراق الاشياء فتقطع $\frac{1}{٣٢}$ من البوصة من مصدرها . أما أشعة بيتا فقد تخترق نحو ٦٠ بوصة . واشعة غمّا اشد من اشعة بيتا في اختراق الاشياء مائة مرة

ثم ان التباين العظيم الذي يحدث من تأثير تلك الاشعة في الانسجة الحية هو سرُّ طبيعة الراديوم الثنائية . فأشعة ألفا هي الاشعة المميتة ولعلها اشد الاشعة القتالة التي عرفها العلم حتى اليوم. واشعة بيتا خطرة جدًّا ايضاً وتحدث حروقاً تسمى « حروق الراديوم » . اما اشعة غمّا فمفيدة وهي اشعة الراديوم الوحدة المستعملة الآن في الطب. ومع ذلك فان هذه الاشعة شافية ولكنها قتّالة ايضاً . فتى استعملت في اصابات السرطان أهلكت خلايا الاورام الخبيثة أو وقفت نموها واذا أُحسن استعمالها لا تعوق نمو خلايا الجسم الطبيعية . وقد قال الدكتور (يوسف ميور) احد اطباء مدينة نيويورك الخبير في العلاج بالراديوم ان اشعة غمّا قد تفتك بخلايا البيض والمنيّ

﴿ اضرار الراديوم ﴾ وتحدث اضرار الراديوم المروّعة، للذين يستعملونهُ بلا خبرة او لمن يتناولونهُ مشروباً محلولاً في الماء او للذين يتعالجون بهِ بأية كيفية، من أشعة ألفا القتّالة لانها تؤلف ٩٢ في المائة من جميع أشعة الراديوم

وليست أشعة ألفا مهلكة فحسب بل غدّارة ايضاً فتى تعاطى المرء الراديوم سرى في جسمه وكمن في عظامه . وكذلك اذا أُخذ الراديوم محلولاً صيّره الدم بطريقة كيماوية غامضة ، مادة مشمة لا تنحل تدخل العظام بهذه الصفة . ولما كانت أشعة ألفا ذات قوة ضئيلة في اختراق الاشياء وكانت المسافة بين المراكز المولدة للدم الواقعة في نخاع العظام قريبة جدًّا فان هاتيك الاشعة تستطيع الوصول الى تلك المراكز حيث تتجلّى طبيعة أشعة ألفا الغدّارة، وذلك انها تقوي اولاً المراكز المولدة للدم فتكثر فيها خلايا الدم الحمر والبيض عما تكون عليهِ طبيعة . ومن ثمَّ يشعر المريض انهُ قد أبلَّ من علتهِ واستعاد شبابهُ

وسرعان ما يحدث رد الفعل — والدليل على ذلك ان فتيات نيوجرزي اللواتي كن يلحسن

ذرات الدهان المشع لم تظهر عليهن علامات المرض الاَّ بعد انقضاء مدة تختلف من سنة الى اربع سنوات في اعمالهن بمصنع الساعات المنيرة لان القذائف التي تقذفها أشعة ألفا باستمرار على مراكز توليد الدم ، تقوضها تقويضاً بطيئاً . وحينئذٍ يقلّ عدد كريات الدم البيض ويفسد تكوين الكريات الحمر فيترتب على ذلك الاصابة بداء فقر الدم

وجرعة الراديوم القتّالة التي تتكون من ١٠ ميكروغرامات تقذف في الثانية الواحدة نحو ٣٧٠٠٠٠ دقيقة بسرعة ١٨٠٠٠ ميل في الثانية ليلاً ونهاراً ، وعقب هذه الصدمات المتوالية القاسية تأخذ العظام ولاسيما الهيكل العظمي المعرض للنقل او الضغط في التداعي ثم في البلى وهذا ما يسمّى بموت العظام اي النخر او التنخر . ولما كان الراديوم يفقد نصف قوته في ١٧٣٠ سنة فان قذائف شعاعة ألفا تظل منطلقة من غير تناقص عدة قرون بعد الوفاة

وقد ظهرت هذه الحقائق ظهوراً عملياً من عهد قريب في تجربة تبعث على الدهشة وهي ان الدكتور الكسندر جتلر الخبير في علاج السموم بمدينة نيويورك فحص الهيكل العظمي لاحد ضحايا الراديوم في نيوجرزي حين أُخرج من قبره بعد الوفاة بخمس سنوات . فأخذ ربع اوقية من عظم ذلك الهيكل ووضعها أمام عدّاد جيجر Geiger counter (وهو جهاز يصير اشعة الراديوم ذبذبات كهربائية) ثم جاء بسماعة لاسلكية مكبرة للصوت ووصّلها بذلك الجهاز فحولت الذبذبات الكهربائية التي اصلها اشعة راديوم الى امواج صوتية مسموعة

واذ كانت السماعة اللاسلكية تحدث اصواتاً متواصلة كان انبوب مملوءاً غازَ نيون يشع نوراً احمر كلما مرّت دقيقة من دقائق اشعة ألفا الكهربائية بحجاب ذلك الجهاز . وكان الدكتور نفسه قد سبق فاخذ ايضاً عظمة من عظام قدم ذلك الهيكل فوضعهُ على لوح فوتوغرافي في حجرة مظلمة فطبعت صورته من تلقاء نفسها

وضحايا التسمم الراديومي تشع من ابدانهم اشعة الراديوم وهم احياء ايضاً . فقد حدث منذ بضع سنوات حادثة فظيعة لا يزال الناس يذكرونها وهي ان احدى عاملات دهن موانئ الساعات المنيرة ، كانت نائمة في غرفتها ذات ليلة فاستيقظت لتتناول دواءها وكانت الغرفة وقتئذ حالكة الظلام فذعرت تلك الشابة اذ رأت شعاعاً منعكساً على المرآة منبعثاً من جسمها نفسه ! ! . فكان ذلك الحادث الرهيب محققاً لمزاعم الاطباء الذين كانوا يعالجون تلك الصبية التعسة وهي أن اصابتها كانت تسمماً راديومياً

وقوارير مياه الراديوم الصناعية التي يزعم باعتها احتواءها على الرادون أي الغاز الثقيل الذي ينبثق من الراديوم بعد قذفه أشعة ألفا ، قد انتشرت في أسواق امريكا من بضع سنوات وكذلك الاجهزة المسماة « منشطات الابدان » او قذّافات الراديوم التي يدعي صانعوها أنها تحول مياه الحنفيات العادية ماءً مشعّاً في الحال . وقد بلغ ما بيع من تلك الاجهزة الصغيرة

١٥٠٠٠٠ في سنة واحدة وذلك في المدن الواقعة على ساحل المحيط الهادي . وكان صانعوها بعد وفاة بايرز يعلنون عنها اعلانات باهرة ولا سيما لما صرّح محافظ مدينة نيويورك انه اعتاد استعمال جهاز منها عدة سنين فاستفاد منه فوائد جمّة . وفي هذا الصدد يقول الدكتور مارتلند إن تلك الأجهزة لا تأتي بفائدة الاّ من قبيل الاستهواء الذاتي . لان كثيراً من الغاز يفلت في الهواء عند تحضيره فلا تتسع معدة الانسان للمقادير الكبيرة من تلك المياه المحتوية على قدر مفيد من ذلك الغاز — وهذا القول عينه ينطبق على مياه الرادون المملوءة بها القوارير

وقد ظهر في السوق أخيراً نوع جديد من مركبات الراديوم ونعني به (شكولاطة الراديوم) التي تصنع في المانيا ويعلن عنها انها من مجددات الشباب وانها علاج ناجع لأكثر امراض الجنس البشري . فاذا ألف الانسان أكلها فلا بدّ من اصابته بما لا تحمد عقباه ، والواقع انهُ «ما من طبيب نطاسي يصف لمريضه الراديوم كمقار ، لان مايستعمله الطب انما هو أشعة الراديوم»

﴿الراديوم في العلاج﴾ ويموت في الولايات المتحدة كل سنة أكثر من ١٠٠٠٠٠ مصاب بالسرطان وليس لدى الاطباء أسلحة معروفة حتى الآن لمكافحة ذلك الداء العياء سوى المبضع وأشعة الراديوم والاشعة السينية «المشابهة لاشعة غمّا» والمعروف للآن ان الراديوم علاج ناجع لبعض أنواع من اصابات السرطان في ادوارها الاولى . اما في أحوال المرض الشديدة فقد ينفع الراديوم في اطالة عمر المصاب واراحته من العذاب. ولذلك طريقتان وهما (اولاً) الراديوم نفسه كملحٍ مصدرٍ للاشعاع و(ثانياً) منبثقات الراديوم اي الرادون الذي يحقق هذا الغرض

والراديوم الفلزي مادة معدنية بيضاء اللون لا يمكن ادخارها دون استهدافها للتغير — اذن الراديوم المستعمل في الطب هو املاح الراديوم اي سلفات الراديوم لاجل طريقة العلاج المباشر . وبروميد الراديوم القابل للذوبان لتوليد الرادون

ومتى كان الراديوم عينهُ مصدراً للاشعاع ، وجب حفظ ملحهِ في أنابيب زجاجية محكمة السد توضع في غُلُفٍ معدنية مصنوعة من النحاس الاصفر فيمتص الزجاج أشعة ألفا ويمتص المعدن أشعة بيتا ويقوم في الوقت نفسه مقام مرشح تخترقه أشعة غمّا الشافية من دون أن تفقد أي شيء من قوتها غالباً. وفي حالة معالجة أي مريض يتناول الطبيب الغلاف المعدني ويدنيه من جلد المريض مسافة معينة على قدر ما يحتاج اليه من درجات اختراق الاشعة الجلد في كل اصابة

ويستعمل ملح الراديوم للعلاج بطريقة اخرى وهي وضعه في أنابيب زجاجية دقيقة تغلف بغلف معدنية تدعى (الابر) تغرز في أنسجة المريض بكبّاسات فولاذية وتترك فيه بحسب ما تمس اليها الحاجة . ومن المعادن التي تمتص الأشعة غير المرغوب فيها وترشح أشعة غمّا — الاليومنيوم والنحاس الاصفر والنحاس الاحمر والفضة والرصاص والذهب والبلاتين ولما كان البلاتين افضلها فان الابر المشار اليها تصنع منه الآن

وليس الرصاص افضل معدن رخيص صالح لتلك الغاية فحسب بل هو يفوق الفضة ولذلك يستعمل لصنع الانابيب الكبيرة التي تستخدم لنقل الراديوم . واذا ما استعملت منبثقات الراديوم مصدراً للاشعاع بمثابة غاز رادون ، وقوته تكاد تشبه قوة الراديوم عينه الاّ انه قصير العمر ، وجب حفظها في أنابيب زجاجية دقيقة محكمة السد تُغشّى بأغشية من الذهب اللين والبلاتين وتسمى (البزور) وهذه تُغرز في الاورام السرطانية بكبّاس كما تغرز ابر املاح الراديوم الكبيرة . وقد شاعت في السنوات العشر الاخيرة طريقة منبثقات الراديوم في عالم الطب وأقبل عليها اطباء معاهد السرطان علاوة على العلاج المباشر لان لها عدة فوائد اذ تستعمل اولاً في شتى الاصابات وثانياً انه في حالة استعمال « بزور » الرادون لا يحتاج الامر الى ملازمة الفراش — ولا الى مراقبة المريض بل يكفي وجود المريض في حجرة المستشفى فيحصل على الضمان التام : وكل ما يجب حينئذ عمله ان يغرز مقدار من الراديوم الثمين نفسه في أي جزء من أجزاء جسم المريض . وفي الحالة الثالثة تترك « البزور » ذات الغشاء الذهبي اللين او البلاتين في أنسجة العليل من غير ضرر — وتكون تلك البزور متصلة بخيط لكي يسهل اخراجها عند الحاجة . ويبلغ متوسط ثمن تلك البزرة الصغيرة ٢٠ ريالاً أمريكياً ، وتستعمل مرة واحدة فقط . ولكن طريقة المنبثقات فيها نقص وهو ان الرادون — وله تأثير الراديوم نفسه — يفقد قوته في ثلاثة أيام و ٢٠ ساعة . ويفقد قوته كلها في شهر واحد . اذن كل جرعة من الرادون تضعف بنفسها ولذلك يجب تجديد البزور دائماً لكي تؤثر التأثير المطلوب . وهذا ما يفسر لنا عرضاً مبلغ ضؤولة الفائدة التي تجنى من شرب مياه الرادون المحفوظة في القوارير . قال الكاتب الامريكي منشىء هذا المقال : — وقد زرت من عهد قريب معملاً من المعامل الكيماوية التي تحضر فيها بزور الرادون للمستشفيات ولعيادات مرضى السرطان وللاطباء الخصوصيين ، فقادني الطبيب المختص الى حجرة مغشاة بالرصاص فلما دخلتها قال لي مرشدي . ألا تدهش اذا شاهدت الآن من الراديوم ما ثمنه ربع مليون دولار ؟ فأجبته بالايجاب ففتح لي خزانة فولاذية صغيرة مبطنة بالرصاص فرأيت فيها قارورة. فقلت دهشاً أين الراديوم ! ! ! فأجابني إنه أمامك في تلك القارورة

والاطباء مع ثقتهم العظيمة بكون الراديوم عاملاً شافياً ، موقنون بخطره على الصحة — والدليل على ذلك الاحتياطات المحكمة التي يتخذونها حين استعماله

والواقع ان الاطباء الذين يستعملون الراديوم يتقون أضراره بالقفافيز المصنوعة من الصمغ المرن فيلبسونها قبيل تناول الانابيب المحتوية على ملح الراديوم وبزيرات الرادون وقاية لأيديهم من الاحتراق بأشعة بيتا . وتراهم لا يلمسون بتاتاً الانابيب أو الابر وانما يلتقطونها بملاقط خشبية — وينقل الراديوم في المستشفيات من غرفة الى اخرى بصناديق ذات مقابض

طويلة — وعند ما يستعمله الطبيب في العلاج يجب ان يضع حائلاً من ألواح الرصاص بينه وبين الراديوم الذي يعطيه للمريض ويشترط الاَّ يقل ثخن ذلك الحاجز عن بوصة واحدة

وفي المستشفيات والعيادات يحفظ الراديوم في تجاويف مجوف في كتل كثيفة من الرصاص تخزن في قبو مبطن بالرصاص يبعد ما امكن عن حجر المرضى والمكاتب ومحال السكنى

ولفدح اسعار الراديوم لا تستطيع المستشفيات اقتناء مقادير كبيرة منه مع ان اثمانه قد نقصت في السنين الاخيرة نحو ٥٠ في المائة. ولكن الراديوم مازال أثمن مادة في العالم اذ يبلغ ثمن الجرام الواحد منه في وقتنا الحاضر ما يتباين من ٥٠ الف الى ٦٠ الف ريال بينما الغرام الواحد من الالماس يساوي ٣٠٠٠ ريال اميركي. وثمن الغرام من الالماس المستعمل في الصناعة ٨٧٥ ريالاً اميركيًّا والغرام من البلاتين ثمنه ٢ ½ ريال اميركي والجرام من الذهب يساوي ٧٠ سنتاً

﴿استخراج الراديوم﴾ وسبب بهظ اسعار الراديوم صعوبة استخلاصه من التبر الذي يحتويه . ومما يذكر في هذا الموضوع ان مدام كوري مكتشفة الراديوم لما زارت الولايات المتحدة منذ بضع سنوات لم تكن تملك من الراديوم حتى ذلك العهد ميكروغراماً واحداً فأهدي اليها حينئذ غرام كامل من الراديوم فتبرعت به الى مستشفى بمدينة وارسو بموطنها بولونيا . والمعروف ان الغرام الواحد من الراديوم يقتضي تشغيل ١٥٠ رجلاً اكثر من شهر في اكثر من ٥٠٠ طن من التبر واستنفاد ١٠٠٠٠ طن من المياه المقطرة و ١٠٠٠ طن من الفحم الحجري و ٥٠٠ طن من المواد الكيماوية

وكان نحو سبعة اثمان محصول العالم من الراديوم يستغلُّ من تبر الكرنوتيت من ولايتي يوتا وكولورادو باميركا . اما اليوم فقد اصبح استخراج الراديوم يكاد ينحصر في بلاد الكنجو البلجيكية في اواسط افريقية حيث عثر المنقبون في السنين الاخيرة على عروق معدنية كبيرة خاصة بالبتشبلند اي اوكسيد الاورانيوم وغيره من انواع التبر المحتوي على الراديوم — وتهيمن على سوق الراديوم الآن شركة احتكار بلجيكية . ولما كان تبر راديوم الكونغو اغزر مادة راديومية من سواه فهو اسهل تمحيصاً من غيره وذلك سبب انخفاض ثمن الراديوم الى نصف اسعاره الاصلية من عهد قريب

واليك ملخص طريقة تمحيص الراديوم : — يستخرج ركاز الراديوم من مناجمه مخلوطاً بكثير من الصخور التي لا قيمة لها فيصنف ويعبأ في الاكياس ثم ينقل الى حيث يطحن ثم ينقل الى معمل التمحيص حيث يعالج بالمواد الكيماوية التي تزيل جميع املاح الباريوم والراديوم ثم يفصل مقدار الراديوم الضئيل عن مقدار الباريوم الجسيم المقترن بهِ — وذلك العمل وحده يحتاج الى ٢٥ عملية كيماوية منفصلة بعضها عن بعض وآخرها عملية التبلور المكررة اي تبخير المحلول . ومع كل ما استجدَّ من التحسينات العلمية في اثناء الاحدى

والثلاثين سنة التي انقضت على اكتشاف الراديوم ما برحت عملية التمحيص الحالية مشابهة من كل الوجوه للعملية القديمة التي اخترعتها مدام كوري سنة ١٩١١

وملح الراديوم النقي يشبه اول وهلة السكر المسحوق المعروف عند التجار باسم «سكر بودرة» — وتنطلق منهُ اشعة فصفورية غريبة ضاربة الى الزرقة فاذا وضع في الانابيب الزجاجية المحكمة السد فقد بعض ذلك اللون واكتسب لوناً مائلاً الى الدكنة. واذا اريد استعمال الراديوم في الصناعات كدهن ارقام موالي ساعات الجيب والحيطان بالدهان المنير يخلط مقدار دقيق من الراديوم بكبريتور الزنك فيتألق بنور اصفر مائل للخضرة

واذا فقدت قطعة منهُ توسلوا الى العثور عليها بالكاشف الكهربائي المسمى الكتروسكوب وهو جهاز بسيط بديع صغير الحجم مركب من شريطين من الورق الذهبي معلقين على سلك معدني فاذا شحن السلك بالكهرباء انفصل الشريط عن الآخر وظلاً منفصلين ما دام الهواء المحيط بهما عازلاً للكهرباء اي غير موصل لها لا يدع الشحنة الكهربائية تفلت من الورقتين. ولما كان الراديوم وغيره من المواد المشعة تجعل الهواء موصلاً للكهرباء فاذا اتفق وضع الالكتروسكوب قريباً من الموضع الذي ضاعت فيه قطعة الراديوم تضامّت الورقتان كاصلها ووجد الكنز الضائع. ومما يروى بشأن ضياع قطع الراديوم أن جمهوراً من المتنزهين في احد متنزهات برلين دهشوا اذ رأوا زمرة من الجنود حراس المتنزه يقودها ملكي «واحد من غير الجنود» تزحف على ايديها وركبها على الارض حول ملعب للتنيس في المتنزه وكانوا يحملون الكتروسكوباً باحثين عن قطعة صغيرة من الراديوم زنتها ٢٠ مليجراماً وثمنها الف ريال امريكي كانت ضائعة من طبيب فقدها عند دخوله مقصورة متصلة بذلك الملعب

ويقدر الراديوم النقي الموجود في العالم الآن بنحو ٣٠٠ جرام اي ⅔ رطل انكليزي ثمنها ١٦٥٠٠٠٠٠ من الريالات الاميركية ونصف ذلك المقدار موجود في الولايات المتحدة (بمستشفى بلفيو بمدينة نيويورك) وهو من المعاهد الخيرية التابعة للمجلس البلدي هناك ويُعَدُّ هذا المقدار اكبر نصيب من راديوم المسكونة اختص به مستشفى واحد. وربما يرخص سعر الراديوم اذا امكن تنقيته بنفقات قليلة من الركاز الذي اكتشف اخيراً في منطقة بحيرة الدب الاكبر بكندا

وقد ألقى حديثاً الدكتور بيجوت Piggott الطبيب في معهد كارنيجي خطبة في الجماعة الجيوفيزيكية الامريكية في مدينة واشنطون ذكر فيها ان البحر يحتوي على راديوم أكثر من البر وقد دلّت التجارب على وجود بليون طن منه في قعر المحيط الهادي! فدهش السامعون كل الدهش (انظر مقال الثروة في البحر المنشور في مقتطف فبراير الماضي) ولئن تحقق ذلك التكهن واستخرج ذلك الكنز النفيس أصبح سعر الراديوم كسعر سائر العقاقير الطبية المعتادة

عوض جندي

الدين والعلم

في الصورة القلمية التي نشرناها في مقتطف دسمبر الماضي بعنوان «ملك الخشب» استشهد الكاتب بفقرات من مقال جليل كان حضرة الباحث الفاضل اسعد باسيلي قد أتحف به مجلة « الجامعة » منذ نيف وثلاثين سنة . وقد طلبت الينا طائفة من القراء الذين تهمهم هذه المباحث ان نعيد نشر المقال برمته ، لما رأوه في الفقرة من احكام الفكر فطلبنا الى الاستاذ نقولا شكري ان يعود الى مجلدات الجامعة(١) وينقل المقال المذكور فلبى الطلب ونحن نشكر له عنايته هذه « المحرر »

بين رجال الدين وبعض رجال العلم تناظر قديم العهد يبدأ تاريخهُ من يوم اكتشف العقل البشري أبسط النواميس الطبيعية فوضع بذلك حدًّا لعبادة الاشياء المحسوسة. والذي يسوء كل معتدل من هذا العداء ما نراه من تطرف كل من الفئتين : الاولى في الاثبات والثانية في الانكار . فمن جهة ترى رجال الدين يبالغون في اثبات مذاهبهم وينزلون جميع عقائدهم وآرائهم — حتى ما كان منها يعارض العقل — منزلة الحقائق اليقينية الراهنة فيقابلهم رجال العلم بالانكار المطلق وقد يتمادون في انكارهم فيجحدون ان هنالك حقيقة قام عليها بنيان الاديان

وعندنا ان العلم مصيب اذ يعمل على دحض ما غشي الدين من الاباطيل والاوهام لانهُ اذا لم يكن من شأن النور ان يضع حدًّا للظلمة فما يكون شأنهُ يا ترى ؟ الا انهُ يخطىء كل الخطأ عند ما ينظر الى العقائد الدينية بعين الازدراء والاحتقار ويحسبها عارية عن كل اساس يحط كثيراً من العقل البشري الذي انما عنه ورثت الانسانية ما لديها من الحقائق

ومن ذا يا ترى يرى رجلاً من نوابغ بني الانسان كافلاطون وأرسطو وسان توما وديكارت ونيوتن وكوزين وغيرهم يشغلون قسماً كبيراً من مؤلفاتهم بالبحث في ما وراء الطبيعة واثبات الاصول الدينية العامة ثم يجرأ بعد ذلك على القول انهم انما كانوا في ما كتبوه من هذا القبيل يحيكون أوهاماً بأوهام ويشيدون على غير اساس . او لا يبعث هذا على الريبة بجميع احكام العقل ومدركاته ؟

ولسنا نكتفي بهذا القول وحده لاثبات الحقيقة الدينية العامة بل نحن موردون على ذلك ادلة اخرى معتمدين فيها على ما كتبه الفيلسوف هربرت سبنسر اشهر فلاسفة الانجليز في هذا الزمان

اذا امعنت النظر في تواريخ الامم الغابرة ثم عدت بنظرك الى عمران الشعوب الحاضرة ترى انهُ ما من امة من الامم قديمة او حديثة خلت من بعض العقائد الدينية ولئن اختلفت تلك العقائد من حيث نوعها ودرجتها في سلم الارتقاء . فهل يسلم عاقل بوقوع مثل هذا بالمصادفة والاتفاق ؟ او ليس من شأنهِ ان يحملنا على ترجيح صحة ما قاله رنان من ان الانسان ديّن اعني انهُ ذو نزوع فطري الى الدين

---

(١) مجلة الجامعة : العدد الثامن من المجلد الثالث

الا انهم يعترضون بوجود بعض قبائل همجية لا نجد عندها ادنى فكرة ابتدائية عن علة الكائنات والخليقة والخلق . وان هذه الافكار لم يبد لها أثر للوجود الا بعد اذ بلغ الانسان درجة ما من الترقي العقلي فنجيب ولو صح هذا فلا يغير شيئاً من النتيجة التي نرمي اليها لانهُ متى سلمنا ان جميع القبائل التي ارتقت مداركها العقلية بعض الارتقاء وجدت عندها افكار دينية ادركنا ان هذه الافكار تنشأ بالضرورة عن رقي العقل

وما نراه من التنوع بين العقائد يساعد على تأييد هذه النتيجة اذ انه يدل على أن عقائد كل أمة نشأت مستقلة عن عقائد الاخرى وان وجود الامم الكثيرة في ظروف وأحوال متناسبة مع اختلاف الازمنة والامكنة أدى الى ايجاد افكار مماثلة ونتائج متشابهة

وزعم آخرون انجميع ما يذكره لنا تاريخ الأديان من العقائد هو مخترعات عرضية وضعها الكهان والزعماء بقصد مخادعة العامة والتمويه عليهم وهذا زعم لا يستطاع اثباته اذ لا يتفق ان يقوم عند جميع الامم القديمة والحديثة المتمدنة وغير المتمدنة افراد من الهيئة يتواطأون على مخادعة الآخرين وتكون الوسائل التي ينالون بها اربهم مماثلة احوالها كل هذا التماثل

وان قيل ان الاختراع الأول للدين وقع قبل ان تفرقت طوائف الجنس البشري في انحاء الارض وان الجراثيم الدينية انتقلت مع كل قبيلة عند جلائها عن الوطن الاول قلنا ان علماء اشتقاق اللغات يفندون هذه المزاعم لانهم يثبتون بالادلة انتفرق الجنس البشرى حصل في زمن لم تكن اللغة ارتقت فيه الى درجة يستطاع عندها التعبير عن الافكار الدينية

ومعهذا فلو أمكن وجود ادلة تثبت كون الاديان مخترعات عرضية فلا يمكن بهذا الافتراض التعليل عن كل حادث في الدين لانه اذا كانت الاديان مخترعات جماعات متفرقة من الكهان فلماذا نرى تحت الفروع الدينية المتنوعة أحوالاً ومباديء مماثلة . واذا كانت جميعها أباطيل واوهاماً فلماذا نرى النقد العلمي الذي استطاع اسقاط العقائد الخاصة لم يتمكن من ضعضعة الفكرة الاساسية التي قامت عليها تلك العقائد . ولماذا نرى العقائد الدينية بعد إذ تسقط سقوطاً عظيماً عند امة كما حدث في أواخر القرن الثامن عشر في فرنسا لا تلبث ان تنهض ثانية ان لم يكن بعظهرها الذي كان لها من قبل فجوهرها القديم يبقى هو نفسه

ثم هنالك من يزعم ان الافكار الدينية هي من نتائج الشعور الديني فهو الذي يجعل العقل يحيك صوراً وهمية لايلبث ان يتخذها شيئاً فشيئاً حقائق راهنة . وهؤلاء يسلمون ضمناً بوجود الشعور الديني اذ لايرون سبيلاً لانكار شعور يحس به السواد الاعظم من بني الانسان وقد كان له اعظم أثر في التمدن في العصور التاريخية . وما برح لعهدنا هذا أساس كثير من النظامات الاجتماعية والباعث على كثير من الاعمال العظيمة المفيدة. الا ان زعمهم هذا لا يحل المسألة وانما يمد قليلاً الصعوبة في حلها . لانه سواء كان الشعور الديني منشأ الفكر الديني

او كان للشعور والفكر مصدر واحد فلا بد لنا ان نسأل من اين جاءنا هذا الشعور ؟

وجواباً على هذا نجد أمامنا احد افتراضين : اما ان يكون هذا الشعور خلق دفعة واحدة بفعل خلق خاص واما انه نشأ تدريجيًّا تبعاً لناموس الارتقاء . فاذا اتبعنا الاول الذي اتبعه الاقدمون وعليه اكثر البشر لعهدنا هذا فالمسألة تكون قد حلّت اذ يكون الانسان قد منح الشعور الديني من مبدع حكيم فهو منطبق اذاً على مقاصد هذا المبدع . وان اتبعنا الافتراض الثاني وسلمنا بما يوحيه مذهب الارتقاء من ان القوى هي نتيجة التطورات العديدة التي طرأت على الانسان بفعل المؤثرات والاحوال الخارجية عليه تعين ان نسلم بوجود احوال خاصة أوجبت نشأة الشعور الديني ومن ثمّ يكون حكمه حكم سائر القوى النفسية واذا صح ايضاً ما يوجبه مذهب الارتقاء من ان الغاية التي تتجه اليها التطورات الارتقائية هي اعداد الحي لاستعمال ما هو من لوازم وجوده امكننا ان نستنتج من هذا ان الشعور الديني من البواعث المؤدية لسعادة البشر . اذن فسواء كان الشعور الديني خلق دفعة واحدة او نشأ تبعاً لناموس الارتقاء فالنتيجة من كلا الافتراضين توجب علينا احترام الشعور الديني

وهنالك ملاحظة اخرى ينبغي ان نضرب عنها صفحاً وهي ان العلم مهما اتسعت دائرة اكتشافاته فهو عاجز كل العجز عن ان يروي ظمأ العقل البشري الى المعرفة . فمهما أمعنا في الاكتشاف العلمي فانهُ يبقى لدينا ولدى من يأتي بعدنا مسألة وهي : ماذا يوجد بعد ذلك ؟ ومهما تقدمنا في التعليل عن اصل الكائنات فلا يمكننا ان نجد مناصاً من السؤال : ما الذي يعلل لنا التعليل نفسه ؟ فاذا كان العلم هو اشبه بدائرة تتسع شيئاً فشيئاً فنموه لا يكون من شأنه الاّ ان يزيد نقط اتصاله بالمجهول الذي يساوره من كل جانب. ويترتب على ذلك ان يوجد على الدوام طريقان ينتهجهما الفكر البشري وهما العلم والدين

اذن فالعقل سيشتغل في الاستقبال كما يشتغل في الحال ليس فقط في البحث عن الحوادث الوضعية وعلائقها بعضها ببعض بل بشيء لا يستطاع اثباته بالادلة الواقعة تحت الحواس ولا بدّ من افتراض وجوده عند النظر الى الحوادث واعتبار علائقها بعضها ببعض . وينتج عن هذا انه ما دام العلم لا يستطيع وحده ان يشغل جميع القوى الانسانية وما دام العقل يوجه انتباهه ابداً الى ما وراء حدود العلم فسيبقى محل للدين على الدوام لان الدين يمتاز بكون موضوعه وراء دائرة العلم والاختبار . والحاصل من جميع ما تقدم ان وجود الافكار الدينية عند جميع الامم ونشأتها مستقلة بعضها عن بعض وحيويتها المستمرة في المجتمع الانساني ووجود الشعور الديني ايًّا كان منشأه واتجاه الفكر الى ما وراء حدود العلم . كل هذا من شأنه ان يثبت ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض ويدل على ان هنالك حقيقة اساسية قام عليها بنيان الاديان

باب الزراعة والاقتصاد

صناعة الالبان في القطر المصري

وهل يمكن ان تصبح مورداً للثروة؟

١ — حاجة مصر الى محصول اقتصادي

تنافس مصر الآن في قطنها منتوجات اخرى كالحرير الصناعي . كما ان اقطاراً اخرى تنافسها في انتاج القطن نفسه . ذلك في حين ان مصر وهي من ارق البلاد الزراعية ، لا تنتفع بالكثير من المنتوجات الزراعية التي تستغلها بلدان زراعية اقل منها شأناً . ولا شك في ان صناعة الالبان ومنتوجاتها في مصر تكاد تكون معدومة ، والاهتمام بها قليل . وفي هذا المقال بحث ضاف في الموضوع نرجو ممن لهم اهتمام بهذه الناحية او غيرها من مثيلاتها ان يقوموا على بحثها واظهار نواحيها المختلفة . وهذا البحث للاستاذ « مكفيتر » من اساتذة كلية اسيوط الاميركية وله خبرة واسعة علمية وعملية في صناعة الالبان وبحث اصولها واساليبها في الولايات المتحدة الاميركية . وما يلي الجانب الاول منه

تآمرت خصوبة تربة مصر وجوها البديع مع نقص مصادر القوى المحركة فيها على القضاء بأن تعتمد البلاد في المستقبل ، كما كانت تعتمد في الماضي، على الزراعة .ومن المتعذر الآن ان تنشيء البلاد دور الصناعات الثقيلة ، بما فيها الآن من مصادر القوى المحركة او بما تؤمل ان تنتفع بهِ في المستقبل . ومع ذلك فان ازدحام السكان ، واستمرار ازديادهم ، مع ارتفاع مستوى المعيشة وضيق ميدان العمل امام جمهور الشبان الذين تخرجهم المدارس سنوياً ، كلٌ من هذه العوامل يتطلب مخرجاً اما عن طريق الصناعات الثقيلة ، او عن طريق توسيع ميدان العمل في الاستغلال الزراعي الكثيف intensive

وقد يفتر ثغر القاريء عن ابتسامة شك عند ما نشير الى زيادة الاستغلال الزراعي في مصر . الم تحسن البلاد الاستفادة من الزراعة في ظرفها الحرج ، اولم تفلح كل شبر من ارضها الصالحة للزراعة المحصورة المساحة او لم تنجح في انتاج معظم قوت الملايين من سكانها وفي نفس الوقت تنتج محصولاً يباع نقداً فتسد بثمنه ثمن حاجياتها الاخرى ؟

ولكن هنا مكان الصعوبة ، فان هذا المحصول النقدي قد انحصر في مادة واحدة لا غير هي القطن . وعدم كفاية الاعتماد الاقتصادي على محصول نقدي واحد يتضح لنا شيئاً فشيئاً على مرور الزمن ، ذلك انهُ ما زالت الاقاليم التي يمكن ان تنتج قطناً مزاحماً للقطن المصري غير مستكملة الاصلاح وما زالت الطلبات على القطن تتدفق لشرائه بأي ثمن واستعماله في صنع المفرقعات وغيرها من لوازم الحرب، يظل القطن محصولاً مربحاً . وفعلاً ارتفعت اثمان الارض ارتفاعاً عظيماً بسبب تضخم اثمان القطن ، وظهرت على كل شخص سيماء السعادة وعلامات

الثراء . ولكن مثل هذه الثروة تصنع لنفسها اجنحة وتطير ، فان الحروب لا يمكن ان تستمر على الدوام . وليس ثمة حاجة الى القطن لاغراض الحرب الآن . والواقع ان كثيرين من صناع القطن هجروه مفضلين عليه العمل في الحرير الصناعي . فلم يهبط ثمن القطن هبوطاً عظيماً فحسب بل مضى متدهوراً من اسعر الى ادنى منه . فمحصولٌ نقديٌّ مفرد معرض للمضاربات لا يصح ان يعتبر اساساً ثابتاً تبنى عليه ثروة البلاد القومية

عندما يوضع كل البيض في سلة واحدة يتحتم الاهتمام الكلي بسلامة تلك السلة. ولكن لاضمان لحالة من هذا القبيل في مصر الآن فانهُ رغم تمكنها من وضع كل ما تملكه من البيض في سلة واحدة يتحتم عليها ان تمهد بسلامة السلة الى الايدي الخشنة في السوق العالمية

ولقد اقترحت علاجات متنوعة لتخفيف ضرر الاستسلام لمحصول واحد ان لم يكن لرفع الضرر بتاتاً . وها نحن نتناول اهمها باختصار ، ملاحظين ان قيمتها لا تقاس بمقتضى التصور الشخصي او النفع المحلي بل بمقتضى النواميس الاقتصادية الثابتة

واكثر هذه المقترحات رواجاً هو ان مصر يجب ان تهتم بزراعة اكثر تنوعاً وان تسعى لان تنتج ما يكفيها من الطعام ولو ادى ذلك الى انقاص محصولها النقدي. وغرض المروجين لهذا الاقتراح مزدوجٌ فمن جهة يزداد انتاج الطعام في البلاد ومن الاخرى يقل المنتج من القطن فيرتفع ثمنهُ . وان سلّمنا بامكان تنفيذ هذا الاقتراح فقد تفوز البلاد بتحقيق الشطر الاول من الغرض اما الشطر الثاني فصيره الخيبة ، لانهُ عند ما تنقص مصر انتاجها القطني يسرع اقليمٍ آخر الى زيادة المزروع قطناً فيهِ . فاتباع سياسة التنقيص المقصود في الانتاج لا يقلل المنتج من القطن ، حتى الطويل الشعرة منه ، ولا يرتفع السعر ارتفاعاً مستمراً

وهل من حكمة اقتصادية في هذا الاقتراح ؟ ان محصول الطعام ، فداناً بفدان ، اقل قيمة نقدية على وجه الاجمال من محصول القطن ولو الصنف الرخيص منهُ . ولولا ذلك لما احتاج الناس الى الحاح في العدول عن زراعة القطن بل لكان يتم ذلك من تلقاء ذاته . ان قيمة القطن ، عادة ، اكثر من قيمة غيره فلمَ لا نزرع القطن ونبيعه ونشتري بثمنه طعاماً ويتبقى القليل من الثمن لشراء الضروريات الاخرى ؟ وهذا امر ضروري فان معظم البضائع المصنوعة ان كانت منسوجات او وقوداً او حتى طلمبات الري وآلات اخرى لازمة للزراعة نفسها — كلها — يتحتم شراؤها من الخارج . وبطريقة من الطرق ، ينبغي دفع اثمانها. ومن الواضح انهُ لا يمكن دفع ثمنها بطعام يستهلك داخل البلاد . فحكمة ابدال محصول بآخر او بالتنويع العام في المحصول بدل جانب من القطن تقوم او تسقط بالنسبة لما تأتي بهِ من القيمة النقدية. وبهذا القياس يظهر ان القطن المصري يحفظ امتيازه عند ما يقارن باي نظام من تنويع المحصولات

وهناك اقتراح ثانٍ يتجه نحو زيادة انتاج المحاصيل النقدية الثانوية الموجودة . لم لا نزرع

ونبيع مقداراً اوفر من تلك المحاصيل التي برهنت على مناسبتها للبلاد وجودة انتاجها. والصعوبة في ذلك انهُ حتى في حالة اثمن هذه المحاصيل الثانوية نجد ان قيمتهُ ضئيلة للغاية . فان محصول البصل يأتي في المرتبة الثانية بعد القطن في الصادرات ولكن قيمة المصدر من البصل ليست سوى جانب يسير من قيمة القطن . فقد كانت سنة ١٩٢٩ جزءاً من اثنين وخمسين جزءاً من الصادر كله، بحسب تقويم الحكومة ، فضلا عن ان مقدار ما يمكن ان يباع من البصل محصور لان اسواق العالم تكتظ سريعاً بهذا الخضار المدرّ للدموع — اذ ان طلبه ليس قابلاً للاتساع

ومحصول ثانوي ثان تصدره مصر هو البيض . فقد كان قيمة ما صدرت مصر من سنة ١٩٢٩ بالمقابلة مع القطن كنسبة ١ — ١٤٠ . ويمكن اعتبار معظم هذا المحصول ، في الوقت الحاضر ، انهُ محصول فضلة . فكون الفلاح ، او بالحري زوجته ، تربي في المنزل بضع دجاجات تطعمها الفتات والفضلات ، ولولا ذلك لرميت بدون نفع — هذا — امر يختلف عن انشاء امكنة للتفريخ التجاري تقتضي نفقات كبيرة للطعام والعمل . وحتى تنجح مشروعات من هذا القبيل يتحتم ضمان الانتاج معظم السنة وهو امر لا يتوفر الا على سواحل البحر الابيض المتوسط. فان حرّ الصيف يقلل الانتاج ويخفض صنف البيض ويضعف حيوية الدجاجة نفسها. ومن المرجح ان مقدار المحصول الحاضر من البيض يمكن زيادته زيادة مكسبة اذا بقي كما هو، شيئاً ثانوياً ويمكن تحسين صنف الدجاج وتنظيم سوق البيض بحيث يرتفع ثمن الصنف الافضل الطازج منهُ . ولكن حتى اذا سلمنا بذلك كله فان انشاء مزارع الدجاج في مصر يكون مشروعاً محفوفاً بالمجازفات فان الثمن الذي يدفع للبيض عادة لن يعادل نفقات تحصيله

وثمة اقتراح ثالث يوجه نظر الفلاح المصري الى انتاج الحبوب انتاجاً كثيفاً intensive . ولكن الحبوب محصول عالمي ، كثيراً ما يزرع في ارض رخيصة ، وبمساحات واسعة ، وبمعاونة آلات دقيقة الصنع وسريعة الاثر . ولما كانت الحبوب لا تعطب بسرعة فانها تنقل بسهولة من مكان الى آخر ولذلك فان حث الفلاح المصري على زيادة مجهوده في زراعة الحبوب معناه حشهُ على وضع ارضهِ المرتفعة الثمن وعمله اليدوي في موقف منافسة لارض رخيصة الثمن تفلحها آلات قوية . واذا زيدت رسوم الجمارك على الحبوب الواردة من الخارج ليتمكن الفلاح المصري من احتكار السوق الداخلية فلا يكون ذلك سوى نقل هذه الخسارة الاقتصادية من على كتف المنتج المصري الى كتف اخيه المستهلك المصري

ويشابه هذا الاقتراح اقتراح آخر يحبذ زيادة اهتمام مصر بتربية الماشية حتى تتمكن من سد كل حاجتها الى اللحوم وربما يصدر بعضها الى الخارج وهذا أيضاً يحملها على منافسة ارض ارخص جداً من ارضها هي ارض المراعي بالارجنتين وكندا واستراليا وغيرها

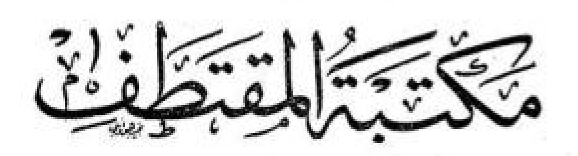
واتجه فكر البعض الى الاهتمام بمحصول الفاكهة والخضراوات وتصديرها الى الاسواق

الاوروبية . ويظهر ان هذا المشروع له أساس اثبت من المشروعات الاخرى فان مصر الآن تنتج مقادير وافرة من الفاكهة والخضروات الجيدة الصنف . على ان وارد مصر الآن من الفاكهة — الطازجة ، والمجففة ، والمحفوظة في العلب — يزيد زيادة محسوسة عمَّا تصوره منها . وهذا ضروري بسبب الرغبة في أنواع من الفاكهة لا تجود محليًّا وايضاً لان مواسم الانتاج — كموسم البرتقال اليافاوي مثلاً — لاتتفق تماماً مع مواسم مصر

ومع كل ما يمكن عمله في تحسين زراعة الفاكهة والخضراوات وتصديرها الى الاسواق الخارجية يجب ان نذكر انه لا طريق سلطاني للنجاح تستطيع مصر ان تسلكه دون ان تجد منافسة ومزاحمة . فان ايطاليا وفرنسا تنتجان فاكهة وخضراوات من أصناف جيدة . وحتى تستطيع مصر ان تدخل هذا الميدان ينبغي الاعتناء التام بتحسين الاصناف والتدقيق في فرز البضاعة وحزمها للتصدير . وقد رأى الكاتب منذ بضعة أشهر شحنة كبيرة من الطماطم مرسلة الى اليونان وهي ثمار ليس لها حجم منتظم فيها تجويفات البزور كبيرة وكانت وقت شحنها ، لم تمتلىء ، سوى امتلاء جزئيًّا ، باللب . وذلك مما يُرثى له إذ أن البلاد تستطيع أن تنبت صنفاً ناعماً جدًّا ابًّا مملوءًا باللب وبه قليل من البذر وخال من التجويفات الفارغة ولا يحتاج الامر الا الى الحصول على بذار نقية من هذا الصنف الراقي

والدول الجنوبية في اوروبا يسهل عليها ، ايضاً ، الوصول الى الاسواق المرغوب فيها . فان حزم مثل هذه المحصولات الضخمة وتبريدها وشحنها تضع العراقيل القوية في طريق المنتج البعيد عن السوق اذ ان الاسواق يسهل ان تكتظ بمثل هذه المحصولات السريعة العطب ولذلك كثيراً ما ينخفض الثمن فجأة . وثمة حالات كان فيها كل المتحصل من الشحنة اقل من نفقات الشحن والنقل . وتجفيف الفاكهة والخضراوات يخفض وزنها الى العشر تقريباً وتجعلها غير قابلة للعطب وبذلك تستطيع مصر أن تنافس الممالك الاخرى بعدل ، على ان هذا ميدان واسع ويستلزم تحرياً دقيقاً

وبين كل هذه ، من المقترحات التي يقصد بها تخفيف الضغط عن الزراعة بمصر لم تذكر صناعة الألبان سوى همساً . ومع ذلك فان الألبان وما يصنع منها هي موضوع اقتراحنا الذي نريد التوصية به كمصدر دخل لمصر مكمل للقطن . ولا نقصد بذلك مجرد وضع رسم جمركي عال يمنع ورود المقدار الذي لا يذكر من منتجات الألبان التي تأتي مصر الآن من الخارج . فانه لو رفعت اسوار مصر بتعريفة عالية تحول دون ورود هذه المنتجات بتاتاً فان ذلك لن ينفع صناعة الألبان بمصر شيئاً ، تقريباً . لان هذه الوسائل السياسية لاتجدي نفعاً والنجاح لا يبنى إلا على أسس اقتصادية ثابتة . فبدلاً من أن ترفض مصر الواردات يجب ان نسعى لان تنتج صادرات . لذلك سوف نحاول ان نبين ان مصر تملك مصادر طبيعية كافية تستخدم كأساس اقتصادي ثابت لانشاء صناعة ألبان تنافس أمثالها في سوق العالم بامتيازات محسوسة



Contribution à une théorie Sociologique de l'Esclavage
par le Docteur Aly Abd Elwahed

هذا من الكتب التي يجدر بنا ان نجعلها تلقاء الكتب التي يؤلفها الافرنج . ذلك لانهُ مبني على الاسلوب الحديث في البحث والتأليف . وموضوعه الرق والغاية منهُ اثبات نظرية جديدة تعلل وجود الرق في العالم قديماً . ومؤلف هذا الكتاب الدكتور علي عبد الواحد مدرس الفلسفة في دار العلوم وفي قسم التخصص في الازهر .وقد قدم الكتاب في السوربون لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب فنالها بتفوق . ولنذكر شيئاً عن ذلك الكتاب مرتقبين ترجته لنسهب في وصفه :

ان بحث الدكتور عبد الواحد ينبسط على عدة امم . فهو يتناول العبرانيين والاغريق والرومان والمسلمين وسكان جزائر الانتيل (الهند الغربية) فيما بين امريكا الشمالية وامريكا الجنوبية

وبحث الدكتور قائم على درس الاوضاع القانونية والنظم الدينية والمؤلفات الادبية والنصوص التاريخية . وقد قسم الدكتور كتابه الى قسمين : فانهُ وقف القسم الاول على وصف الاحوال التي يترتب عليها الرق ووقف الثاني على تعليل تلك الاحوال . ففي القسم الاول بسط كيف ينشأ الرق (١) عن الولادة على شرط ان يمتّ الوليد بسبب الى ارقاء (٢) عن الأسر في الحرب وعن السبي (٣) عن العجز عن دفع الديون (٤) عن الزنا — وقد عزا كلّ حال من تلك الاحوال الى الامة التي اختصت به . واما في القسم الثاني فقد اخذ المؤلف يدفع تعاليل العلماء للرق ثم شرح تعليله فقال ان الارقاء يجلبون من افراد مهددين بالموت بموجب قوانين طبيعية او اجتماعية ، وما الرق الا حال تحل محل الموت . وبعد ما اثبت المؤلف نظريته اخذ يدعمها بالحجج وهنا نظن انهُ اغتصب الوقائع شيئاً الحين بعد الحين لكي تساير نظريته

***

ولهذا الكتاب الجليل ذيل عنوانه « تميز المرأة من الرجل من حيث الرق » . وموضوع ذلك الذيل فريد في بابه

المرافعة والقضاء

المرافعة — للاستاذ حسن الجداوي وكيل النائب العمومي . فن القضاء — للاستاذ حليم سيفين قاض متقاعد ومحام

لا بدَّ للقاضي العظيم من ان يكون رجلاً عظيماً . يجب ان يكون حائزاً ادراكاً كاملاً لنسيج الحياة المتصل ، وفهماً للتقاليد التي لا نستطيع ان ننجو منها . يجب ان يكون قادراً ان يفكّر تفكيراً منطقيًّا مجرّداً ولكن يجب ألاّ يضحي بآمال الناس واماniهم وحاجاتهم على مذبح المنطق المجرّد . يجب ان يكون قادراً على لمح المغزى الازلي في الشأن الحالي ،والمعنى العام في القضية الخاصة . ان ما يفعله القاضي هو تكوين المسارب التي تتصرف فيها الحياة فعليهِ ان يكون فاهماً خطر العمل الذي بين يديهِ . يجب ان يشعر بالقوة التي تحت تصرفهِ وبالدعة في استعمالها . يجب ان يكون خادم العدالة لا سيدها ومنفذاً لضمير المجموع لا لاغراض اصحاب المصالح القوية فيهِ . يجب ان يتخلى عن الطموح الذي يحمل السياسيّ على السعي الى السلطة ويدفع بالمفكر الى وضع نظام عقلي مجرّد قد لا يستطاع تطبيقه . ان القاضي العظيم من اندر الشخصيات لانهُ وهو السامي بتقرير استقلالهِ يجب ان يكون اعظم الناس سموًّا عن الغرض الشخصي . ان في القاضي الذي من هذا الطراز قبساً من روح الاله

والكتابان اللذان بين ايدينا يوضحان ما تقدم احسن توضيح . فالنيابة تشترك مع الدفاع في توضيح اصول القضية التي ينظر فيها القاضي وليس بين النيابة والدفاع خصومة الا خصومة الحق (المرافعة صفحة ٣٩) لذلك يجب ان يكون القضاة مستقلاً عن اصحاب الحكم ، والنيابة مستقلةً عن القضاء في تأدية واجبها . ويلتقي الجميع في نشدان الحقيقة والعدالة

اما الكتاب الاول فلرجل من خيرة الادباء ، خبر المرافعة محامياً وفي مواقف النيابة . فهو يبسط اسرارها واساليبها ، بسطاً اخاذاً ، لوكلاء النيابة واعضائها والمحامين على السواء . فيبين من ناحية ، التبعة الملقاة على عواتقهم في كشف الحقيقة ، واقرار العدل ، ويبسط من ناحية اخرى علاقة النيابة بالدفاع وعلاقتهما بالقضاء وبوزير الحقانية والمصلحة العامة ، وكل ذلك في اسلوب يحمل غير المعنيّ بشؤون القضاء الفنية ، ككاتب هذه السطور ، على مطالعة فصول الكتاب كانهُ يطالع فصلاً من الادب العالي . ولا غروَ فادة المرافعة هي مادة الحياة . فاذا اجتمع في نفس المرافع — كما اجتمع في نفس الاستاذ الجداوي — القانون والادب ، كان النتيجة أمثال هذا الكتاب النفيس

اما الكتاب الثاني فلقاضٍ متقاعد ومحام خبير . يبسط لك الموضوع من ناحية القاضي فيصف لك الصفات التي يجب ان يتميز بها في المعرفة وحسن التفكير وصدق الشعور والتجرد . فيقول في العقل القضائي مثلاً صفحة ٤٦ : « في هذا العصر الذي اتصلت فيهِ جميع مناحي

الحياة بالاختراعات المتوالية — ونشأت فيهِ علوم جديدة ذات علاقة دقيقة بالشؤون القضائية كعلم النفس والاجتماع ، صار لا يصلح لوظيفة القضاء رجل قانوني وحسب ، بل وجب على من يتولى الحكم في شؤون البشر ان يكون ذا نزعة علمية في تفكيرهِ وذا اسلوب علمي في ابحاثهِ وتحقيقاتهِ التي يريد ان يتوصل بها الى الفصل في المنازعات »

فالكتابان يكمل احدهما الآخر ، ويجب ألاَّ تقتصر قراءتهما على اصحاب الفن من القضاء واعضاء النيابة والمحامين

صدَّرنا هذه الكلمة بوصف القاضي الفاضل . ولا ريب في ان أي نظام يخرج قضاة من هذا الطراز يجب أن يقنع أصحابهُ والذين يراقبونهُ بانهُ نظام سليم . وقد اثبتت مصر في ادوارها المتعاقبة ، ان في مصر قضاة واسعي الاطلاع احرار الضمائر اقوياء التفكير . يصحُّ ان يقال فيهم ما قاله لفردريك الكبير ذلك الطحان الذي أمر ببيع مطحنتهِ للامبراطور فرفض وقال : — هل في قدرتك ان تأخذ طاحونتي . كان ذلك ممكناً لو لم يكن لنا في برلين قضاة

مناخ العالم

بقلم محمود حامد محمد — مفتش ادارة المتيورولوجيا — مصلحة الطبيعيات بمصر

نهوض الامم وانحطاطها او بالحري تاريخها ، مرهون بخمسة عوامل أساسية ، في مقدمتها العاملان الجغرافي والبيولوجي . وكتابة التاريخ من وجههِ الاقتصادي لا يقوم في الواقع على الاصول الاصيلة التي شيّد عليها صرح العمران البشري . لان المعيشة الاقتصادية تقوم على اركان بيولوجية . فالاقليم من جهة وتكوين الارض الجيولوجي من جهة أخرى يعيّنان الاماكن التي تكثر فيها المواد اللازمة للصناعة والبلدان التي تترعرع فيها الصناعات وتزدهر . كذلك يعيّن الاقليم المنابع التي تفيض منها القوى الانسانية وتنطلق . ويسيطر على توزيع النبات والحيوان . وتغيّر الاقليم يبعث على الهجرة . والهجرة تسبب الحروب وما يأتي في أثرها من اختلاط وتلاقح بين السلالات والافكار

وهذا الكتاب يبيّن عناصر الاقليم — وقد دعاه المؤلف بالمناخ — واخترنا نحن لفظ الاقليم لانَّ Climate مأخوذة من لفظ يوناني clima معناهُ الاصلي انحرف او مال استعملها اليونان لتدل على ميل محور الارض . فالتغيير في « الكليما » ينشئ تغيُّراً في مركز خطوط العرض بالنسبة الى الشمس وهذا يحدث تغيُّراً في احوال الجوّ وطول النهار وقصرهِ . وراجعنا المعجمات العربية التي بين أيدينا فوجدنا بعضها يقول اقليم يونانية معرَّبة فلفظ « اقليم » يجب ان يدل على المقصود بلفظ Climate وهو متوسط احوال الجوّ في عدد كبير من السنين لكل ساعة ويوم وشهر كما يقول المؤلف في حين ان الطقس Weather هو حالة الجوّ في وقت محدود

وقد بسط المؤلف ظواهر الاقليم كدرجة الحرارة في طبقات الهواء السفلى والعليا والقشرة الارضية والبحار والضغط الجوي والرياح على اختلافها والتبخر والتكاثف والرطوبة والضباب والسحب والعواصف وصفاً علمياً طيباً . ثم تناول بلدان الارض ووصف مناخ او اقليم كلّ منها . وعمد المؤلف في بحثهِ الى الارصاد من جميع ادارات الظواهر الجوية في الممالك المختلفة ، عدا ما يرد على مصلحة الطبيعيات بمصر من النشرات العلمية فجاء كتابهُ وافياً بالموضوع يصحُّ ان يكون مرجعاً وكتاباً مدرسيًّا في آنٍ واحدٍ

كواكب في فلك

توفيق وهبه صاحب هذا الكتاب صحافي بارع يكتب بقلم أديب . وشاعر مقلٌّ ولكنهُ مجيد . فانت تنتقل في كتابهِ هذا من بحث اجتماعي في المبارزة الى آراء حصيفة في السياسة والاجتماع الى قصائد رنّانة في موضوعات تغلب عليه سمة الاجتماع والوطنية . وقد نشرنا لهُ بحثاً موجزاً في مقتطف يناير الماضي في «الرأي العام» يتبين منهُ القارىء اسلوبهُ في تصفية الحقائق الاجتماعية والتعبير عنها

يراسل المقطم والبصير من باريس . وينشىء المقالات في « لسان الحال » و « البرق » و « الصحافي التائه » وهي من امهات الصحف اللبنانية ، ويكتب في صحيفة الليبرتيه الباريسية في موضوعات شرقية ويشترك في ما يبذله طلاب العلم الشرقيون في باريس من نشاط ادبي وفني . فهو حركة ادبية دائمة وصلة متينة بين الشرق والغرب . وكتابهُ هذا صورة من نفسهِ . بل صفحة من حياته . فانت تلمس في سطوره روحاً شرقية صقلتها المعيشة في باريس وطبعتها بطابع الثقافة العالية ، ولكنها ما تزال روحاً شرقية في نزعتها الوطنية وحبها خدمة الشرق . فيجب ان يكون الكتاب وكاتبهُ مثلاً حيًّا لكثير من شباننا الذين لا يرون خيراً بعد زيارتهم اوربا ، الا الاخذ بكل ما فيها ، كأن الزرع يجود في كل تربة على السواء

هرمن ودروثيه

تأليف جوته — نقلها عن الالمانية — الدكتور محمد عوض محمد

كتب الدكتور عوض فصلاً في جوته . على ذكر الاحتفال بانقضاء مائة سنة على وفاته جعلناه ملحقاً لمقتطف ابريل سنة ١٩٣٢ ، فكان له وقع كبير في نفوس القراء . لشموله اهم ما يعرف عن حياة جوته وادبه ، والدكتور عوض لا يكتفي بأن يقرأ سيرة جوته كما يكتبها المؤرخون بل يعمد الى مؤلفاته نفسها يقرأها ويعيد قراءتها ، ليتملى ما فيها من جمال وروعة وحكمة وفلسفة . ولا غرو فترجم فوست لا يستطيع ان يفعل ما هو دون هذا من العناية

بآثار هذا العبقري العالميّ . وها هي ترجمة « هرمن ودروثيه » تثبت لنا ان الدكتور ماضٍ في عنايته بآثار جوته لا يثنيه ما يلقاه قارىء جوته من صعاب وغوامض. بل ان الترجمة الناصعة التي بين ايدينا تبين انهُ تغلب بالعزم والذكاء على الصعاب فتخطاها وعلى الغوامض فاجتلى حقيقتها . وقد وضع الدكتور طه حسين فصلاً ادبياً بليغاً في تقديم هذه الرواية ، حبذا الحال لو ان المقام اتسع لنشره برمته او لاقتباس اهم ما جاء فيه . فنكتفي بجملة قالها في وصف ابطال غوته. قال في صفحة ٣ من المقدمة :

ابطال جوته كأبطال هوميروس . فيهم سذاجة حلوة .وفيهم دعة كلها عذوبة . وفيهم على ذلك شدة فيما لا بدَّ من الشدة فيه . يتحدث بعضهم الى بعض فيمزجون اغراض الحياة اليومية بهذه الحكمة الشعبية الخالدة. ويصورون لك انفسهم في هذا الحديث . وهم اذا تحدثوا احيوا من حولك كل شيء . وأجروا الحركة في كل شيء . واشركوك معهم ومع الاشياء في هذه الحركة وهذه الحياة . وهم لا يحبون ما نألفه نحن من الايجاز في الحديث والاعراض عما لا حاجة اليه ولكنهم يلمون بكل شيء ويفصلون كل شيء ويكشفون لك من اشياء قيمة في هذا التفصيل الذي كنت ترى ان لا حاجة اليهِ »

وبعد فعندنا ان ترجمة الخالد من آثار الادباء النوابغ في الغرب ، ترجمة امينة بليغة — كترجمة الدكتور عوض — خير وسيلة لدرس الادب الغربي وتلقيح الادب العربي بخير ما انتجته القرائح في الغرب. وان الاكتفاء بالتلخيص وترجمة الشذوذ لايحقق هذين الغرضين

الامواج

. نظم احمد الصافي النجفي يقع في نحو ١٤٧ صحيفة من القطع المتوسط

لسنا نتردد « في حسبان هذا الكتاب من البواكير المجيدة التي تدل على رغبة الشعر العراقي في التخلص والانفكاك من اغلال الشعر التقليدي الذي لا يزال غالباً على شعر هذا القطر العربي الاصيل . وكم كنا نود وقد نجا الاستاذ النجفي او كاد ينجو من أسر التقليد العربي ان لايقع تحت تأثير ما . غير اننا مع احساسنا بطبعهِ الحر نشعر ايضاً بالروح الفارسية تطالعنا في جانب كبير من شعره . ولا شك أن هذا الأثر قد جاءه من طريق اتقانهِ الفارسية وولعه بمطالعة الخيام . وقديماً نفذت الروح الفارسية الى اساليب البيان العربي ولاسيما في شعر ابن المعتز ولكننا الآن نجد هذه الروح الفارسية محاكية لشاعر بالذات هو الخيام في الغالب والفردوسي. اما في شعر بن المعتز فهذه الروح الفارسية لا نجدها محاكية لشاعر بعينه وانما نلمحها هناك لمحاً شائعة في ادب عام هو ادب الفرس الرقيق . وليس هنا موضع استقصاء هذا البحث وانما نريد الاشارة اليهِ لاغير. على ان تأثر الصافي بالروح الفارسي لم يقف بهِ عند حد تقليد الفرس

وحسب بل قاده ايضاً الى محاكاة ابن المعتز فهو يقول في قصيدة الشاي (مذاب عقيق صب في كأس جوهر) ونجد ابن المعتز يقول في شيء قريب من هذا ان لم يكن هو

ومنطق يسعى الى الندماء بعقيقة في درة بيضاء

وطبيعي ان محاكاة الصافي لابن المعتز طبيعية ما دام ان الاخير كان هو الشاعر الوحيد الذي غلبت عليه هذه النزعة الفارسية حتى كاد يعد في شعراء المتقدمين صاحب لوائها

اما الروح السائدة في هذا الكتاب فهي الروح الشعبية التي تعم الاقطار العربية الآن وتستطيع أن تلمح ذلك مجسماً في قصيدة الفلاح ولعل ذلك ما حدا بالناظم الى الابتداء بها. كذلك لغة الديوان واكثر اخيلته ومعانيه فقلما يرتفع الناظم في ذلك كله عن الشعب. خذ مثلاً قصيدة اليتيم وانظر كيف تصور لك بؤسه وانا واثق انك لن تجد في هذه القصيدة الطويلة الا وصف البؤس المادي الذي لا يخرج عن حزن اليتيم لاجل لعبة يلعب بها . او ثوب يفرح بهِ . وهذا حسن ولكن الذي ليس بالحسن هو أن يسكت الشاعر عند هذا الحد المادي كأن بؤس اليتيم وشقاء اليتم هو في الفقر الى المال لا غير اما فقد الحنان الابوي في ذاته اما الحزن الممض المبهم الذي يصيب روح اليتيم فيكسو وجههُ صفرة حائلة لا يعرف لها مأتى اما هذا الالم النفسي الذي تحس به روح اليتيم قبل ان يدركه عقله كل هذا فليس له نصيب في هذه القصيدة لا لشيء الا انها الروح الشعبية العامة في بلاد العرب وهي هي هذه الروح الحسية المادية التي يجب على الشعر ان يعالجها في اول ما يطلب من اغراض

على ان الاستاذ الصافي عند ما يمسُّ الموضوع الذي ينظم فيه نفسه واوطاره فانه محلق بك الى سماوة الشعراء المجيدين وناهيك بقصيدة (سراجي) وشرعك بالقصيدة التي جعل عنوانها (ماسم هذا اليوم) فانها والحق يقال جمعت اهم عناصر الشعر المختار فهي في مبناها ومعناها وغايتها تدنو بصاحبها الى غاية الشعر العالي الذي يذهب اليه

ولا يسعنا الا استرعاء القراء استرعاء خاصًّا الى ما جاء في هذا الكتاب تحت عنوان (انغام مشوشة) فلعل تحت هذا العنوان احسن النظم الذي في هذا الكتاب «زهير»

رواية مريض الوهم

هي رواية تمثيلية هزلية أدبية مضحكة اصدرتها مكتبة صادر في بيروت وهي من مؤلفات موليير الروائي الفرنساوي الشهير وتعريب الشاعر الناثر الياس ابو شبكه . ثمنها سبعة فرنكات خالصة اجرة البريد ترسل حوالة بوسطة باسم سليم ابراهيم صادر صاحب مكتبة صادر في بيروت صندوق البريد رقم ١٠

الفكر والعالم

مجموعة دراسات اجتماعية وأدبية مذيلة بدرامة — بقلم ابراهيم المصري — في ٢٩٢ صحيفة قطع متوسط — نشرته مكتبة سابا بمصر

الفكر والعالم قوتان تحاول كل واحدة منهما أن تصرع الاخرى ، وفي صحائف التاريخ صور رائعة لهذا النضال ، فأبطال الفكر يقومون بنشر آرائهم فيجدون في العالم قوة جامدة تحاول أن تصدهم فلا يخضعون لها ويمضون في سيرهم حتى يصطدموا بتلك القوة فتحطمهم . وهنا يغطى الستار الذي يسدل على حياة الضحية وراءه مشاهد أروع فاذا ارتفع الستار بعد حقب وجدت تلك الافكار التي حاولت ضحيتها أن تذيعها قد صرعت العالم وصبغته أو كادت تصبغه بلونها

وكتاب ابراهيم المصري الأخير « هو صور عابرة من ملايين الصور لبعض وجوه هذا الصراع الأبدي » وقد عالج فيه بعض المواضيع التي تشغل العالم الآن فهو في مقاله «معنى الحضارة» يرى أن الحضارة وهي تتلخص في ظاهرتين : رغبة الانسان في حاجات متعددة ، والعمل الذي يقوم به لقضاء هذه الحاجات . يراها لا تستقيم إلا بظاهرة أخرى ولا توجد إلا متى توافرت عناصرها وهذه الظاهرة هي الاحساس بالحق . ولانعدام هذه الظاهرة يرى ان الحضارة الحديثة ناقصة لأنها ماتزال أنانية النزعة لاتقيم للاعتبارات الانسانية كبير وزن ومن هنا تنشأ العطلة ويتفشى الفقر ... وفي مقاله « الحضارة والآلات » يعرض للموضوع الذي يراه بعض الكتاب في اوروبا وأميركا خطراً عظيماً تهدد فيه الآلاتُ مستقبلَ الحضارة ومصير البشرية ، فهو يرى ان الاضطراب الذي نشهده في العالم ليس المسئول عنهُ تلك الآلات وانما الاضطراب فينا فكما اخترع الانسان الآلة بعقله ففي وسع عقله ان ينظم انتاجها بحيث يفضي هذا التنظيم الى اجراء التعادل بين مطالب البدن ومطالب الروح . . . وفي بقية مباحث الكتاب « الفنون والآداب في عصر الآلات » و « اضطراب أوروبا » و« الفن والقوة » وغيرها يبدو ابراهيم المصري المطلع الذي يقرأ ثم يخرج برأي متزن

وقد وازن بين الكاتب الالماني اميل لدوج والكاتب الفرنسي اندريه موروى فيما يكتبان من التراجم ، فالأول له نزعة يغلب عليها الطابع الرومانتيكي فهو يبالغ في رسم العواطف والحوادث مضفياً عليها ثوباً من الخيال الشعري بعد أن يجسمها كما يفعل القصصيون ، أما الثاني فهو ينزع الى البساطة والدقة وتحري الحقائق التاريخية الممكنة والبحث عن مستندات تكشف عن بعض الجوانب الغامضة في حياة المترجم له وهو في ذلك لا يجبرك كأميل لدوج أحياناً على قبول تلك الشخصية كحقيقة مقطوع بها . . . وقد رسم المؤلف صوراً صغيرة ولكنها تبعث في القارىء تأملات طويلة صوَّر فيها الشاعر بودلير والقصصي مارسيل

بروست — أما مقاله «غرام ميكل انجلو» فهو قطعة من الشعر كتبها من روحه ...

وابراهيم المصري أحد الكتّاب الذين يحرقون أنفسهم فيما يكتبون فتحس في كلماتهم نغمات لا تخمد ، ولهذا فهو دائماً يكتب ما يريد لا ما يريد الجمهور ، يحاول ان يرفع القارىء معهُ لا أن ينزل حيث القارىء

ودرامتهُ « نحو النور » التي تملأُ حوالي ١٦٠ صفحة من هذا الكتاب في أربعة فصول هي دون مبالغة احدى روائع الأدب العربي الحديث والتي لو عُني بترجمة عيون أدبنا كانت إحدى هذه العيون . أحسُّ كأن الكاتب يغني وهو يكتبها ، وأشعر كأنه قد كتبها بأعصابه يتمثل فيها صراع الفكر والعالم بأروع مشهد .. . أديب يحاول أن يحرر أفكار اهل وطنه ، يحاول ان يرفع مستواهم ، يحاول غير ذلك من المُثُل العليا وفي هذا السبيل يدوس على كل رغباته الذاتية او يشيح بوجهه عما يحاول صدّهُ من متاع الدنيا ويأبى العالم إلا أن يكون قاسياً فتتكالب عليه جميع عناصر قوته ، ويأبى أتون الألم إلا ان يكون ملتهباً الى النهاية لا يرحم الضحية التي تقدم نفسها طواعية اليه وتدبُّ أفاعي الانسانية ظمأى الى دم الضحية نهمة تشتهي نهش لحمها وتتغلب القوة التي لا تعرف نظاماً أو واجباً فتسدل الستار على فجيعة مؤلمة ، ويخبو الفكر الذي اشتعل ولكن لن تموت مبادئه وانما تسري من وراء الستار في دم العالم حتى يثوب الى رشده فيظهر أثرها

غير أني ما زلت أعثر على تعبيرات أشرت الى مثيلاتها عند ما كتبت في العام الماضي هنا عن كتابه « الأدب الحديث » وقلت ان هذه التعبيرات التي مرت اليه من مطالعاته في الأدب الفرنسي قد لا تتفق وأظنها لن تتفق مع روح الادب العربي ، ولست في هذا بالجامد وانما أنا من المولعين بتلقيح أدبنا بما يمكن وما يصلح من غيره إلا ان أمثال هذه التعبيرات كالنكتة لا تصلح في الطبقة «البلدية» منها ما تصلح في الطبقة الراقية . وقد حاولت أن أجد في مقاله «فن الاسلوب» ردّاً على هذا فلم أجد إلا حجة ضده فهو يؤاخذ من يطالبون الكاتب بأن يصطنع التعبيرات التي مشى عليها الجاحظ والجرجاني وابن المقفع والمبرّد وغيرهم ويرى أن «المطالعة ان هي ربت في الكاتب ملكة اللغة وزوّدته بالمحصول اللفظي الذي هو في حاجة اليه فهي لا تخلق أسلوبه وكذلك السطو على التراكيب العربية لن يموّه على الناس ان الكاتب صاحب شخصية مستقلة وأن له اسلوباً » ويرى انه « يجب ان يقف الكاتب على جميع الاساليب ويتشربها نفسه ويتغذى بها ثم يهضمها ويبدع منها أسلوباً حيّاً طريفاً لا يمت لأحد منها بصلة »

وهنا أسأله أما تمتُّ هذه التعبيرات الى شيء آخر بصلة ما ? يجب ان نجدد وان نبدع تعبيرات مبتكرة أو مأخوذة ولكنها تتلاءم وروحنا الأدبي حسن كامل الصيرفي

مقاليد الكتب

١ — كتاب « حافظ وشوقي »

تأليف الدكتور « طه حسين » مطبعة الاعتماد سنة ١٩٣٣

الدكتور طه حسين رجل غير مجهول حتى نعنّي انفسنا ونعنّي القراء معنا بالقول في آثاره الأدبية الكثيرة والتي استفاضت في هذه المدة الاخيرة أكثر من ذي قبل . وكتابهُ هذا فيهِ آراء لهُ كثيرة مشهورة لانهُ مجموعة مقالات نشرت قديماً وحديثاً أحبَّ الدكتور طه ان يذيعها بين الناس في كتاب يسهل تناولهُ اذ كانت مشتتة في الجرائد والمجلات التي نشرت فيها . وليس هذا الكتاب كما يُفهم من عنوانهِ — كتاباً في حافظ وشوقي ليس فيهِ غيرهما . لا . . . . . بل كما سمّيت مختارات أبي تمام بالحماسة لان الباب الاول من ابوابها الكثيرة هو باب الحماسة فكذلك سمى الدكتور كتابه هذا باسم « حافظ وشوقي » بالمقالات الاخيرة فيهِ عن حافظ وشوقي ، ولأنهُ صدر بعد الحدَثِ الذي اشتغل بهِ العالَم العربيُّ بموت هذين العَلَمين في الادب . ومقالات الدكتور طه التي في هذا الكتاب لا تحتاجُ إلى كلامنا فانما هي مقالاتهُ التي احبهُ كثيرون من اجل آرائه فيها وتحامل عليهِ آخرون من اجل هذه الآراء . فليس من الرأي ان نتناولَ هذا الكتابَ في باب المكتبة لان ما فيهِ من الآراء يحتاجُ في نقده الى إطالة وتوسُّع تضيقُ بهما هذه الصفحات القلائل

٢ — كتاب الرثاء

في شعر ابي تمام ، والبحتري ، والمتنبي — تأليف أديبة فارس — مطبعة الاعتدال بدمشق الشام

هذا الكتاب (رسالة اجتازت بها مؤلفتها امتحان شهادة الآداب العليا بالجامعة السورية سنة ١٩٣٢) وقد اجادت الآنسة الاديبة « أديبة فارس » فهم الشعر الذي تعرضت لهُ . فاختارت من شعر ابي تمام قصيدته في رثاء ولده التي اولها

كان الذي خفت ان يكونا انا الى الله راجعونا

ومن شعر ابي عبادة البحتري قصيدة في رثاء خليله جعفر المتوكل الخليفة العباسي المقتول وأولها

محلٌّ على القاطُولِ أخلَقَ داثِرُهْ وعادت صُروفُ الدهرِ جيشاً تُغاوِرُهْ

ومن شعر ابي الطيب المتنبي رثاءه لجدتهِ الذي اوله

ألا لاَ أُري الاحداثَ مدحاً ولا ذمَّا فما بطشها جهلاً ولا كفُّها حلما

وقد وضعت المؤلفة الموفقة القصائد تامة في اول رسالتها مع ترجمة مختصرة لكل شاعر من هؤلاء الثلاثة ثم اتبعت ذلك بكلامها وفهمها وبحثها في الرثاء ما هو وقد اجادت . ثم اخذت كل قصيدة بمفردها فنظرت فيها وفي بلاغة الرثاء فيها نظراً جيداً وتكلمت على ابيات كلٍّ منها وموضع الاحساس في ابياتها وعارضت بين الشعراء الثلاثة معارضة صادقة . والذي يفرحنا من

هذه الرسالة ان مؤلفتها امرأة ، ثم امرأة متعلمة ، ثم اديبة ، ثم ناقدة . وقلَّ ان تجدَ في النساء الاديبات اللواتي يفرغنَ للادب ولذتهِ وهمّهِ ايضاً . وللآنسة اديبة فارس ، اسوة بجدّتها سُكَينة بنت الحسين رضي الله عنهما التي استخذت لنقدها وبصرها بالادب فحول الشعراء من الاولين كعمر بن ابي ربيعة ونُصَيْب الاسود وجميل العذري وكثير عزة الخزاعي وغيرهم من شياطين الشعر . وللآنسة « اديبة » فكرٌ جيد في فهم الالفاظ العربية ومواقعها من الكلام واين هي من معانيهِ المقصودة التي توافقها . وهذا اول اثر نراه لها فنسألها ان لا يستغرّها ثناؤنا على كتابها هذا ، ان تطلب الاستزادة لتصحيح الرأي وتقويم الفكر واللسان والقلم . فان هذه اللغة الدقيقة العجيبة التي اختارها الله من لغات الناس لكتابهِ المُحكَم صعبةٌ شرود لا يصبر على معارفها ومجاهلها الاّ من أُوتي جَلَداً لا يستضعف ، ورزق من دقة الاحساس نصيباً وافراً لا ينفد. وهذه الكتب العربية التي انقطعت بيننا وبينها الاسباب فاستعجمت على كثير منا تحتاج الى اجتهادٍ وجدٍّ حتى يعرف طالبها اسلوبها وما تنطوي عليهِ من معاني الجمال والفن كما يقولون الآن . ولنا اكبر الامل في هذه الاديبة الناشئة ان تكون من اللواتي يذكرهن تاريخ العربية من النساء بأجمل الذكر

٣ — كتاب الخط الكوفي

تأليف الاستاذ يوسف احمد مدرس الخط الكوفي بمدرسة تحسين الخطوط الملكية بالقاهرة

لقد أتى على الخط الكوفي القديم زمنٌ والناس لا يعرفون منهُ الا اسمهُ ، ويرونهُ في المساجد ولا يحسن احدهم أن يعرف ألفهُ من يائهِ . ومن المخزيات ان لا تعرف الامة آثار آبائها واسلافها ، فانظر اي شيء هو حين لا تعرف الخط الذي بهِ تعرف ما هي آثار آبائها وأسلافها . وكان من فضل بعض الناس علينا أن نشروا آثار اسلافنا ، وكان من فضل الاستاذ يوسف احمد على العربية ثم علينا أن رمى بنفسهِ في ظلمة الآثار البالية حتى استنارت بعلمهِ في معرفة اصول الكتابة الكوفية القديمة وتولى قراءة ما بقي لدينا من آثار آبائنا العرب. وهاهو قد أخرج للناس الكتاب الصغير الجرم العظيم الفائدة جملهُ موجزاً وذكر فيهِ رأي مؤرخي العرب في اصل الكتابة العربية ثم اشتقاقها من الخطوط سابقتها وما حدث من التغير والتبدل والتدرج في الخط الكوفي وما تلاهُ من أنواع الخطوط العربية وأردفهُ ذلك بأمثلة وصور كثيرة للخط الكوفي . ونأمل ان يخرج المؤلف كتاباً مفصلاً في هذا وما ذاك على مثله بعزيز

٤ — صلاح الدين وشوقي

تأليف ، محمد اسعاف النشاشيبي ، مطبعة بيت المقدس بالقدس سنة ١٩٣٢

الكلمة الاولى فيهِ عن شوقي رحمهُ الله وقد قيلت في تأبينهِ ببيت المقدس والاخرى عن صلاح الدين فخر الامارة الاسلامية والحكم الاسلامي ورجل العدل والامانة وقيلت في مدينة

حيفا من فلسطين يوم ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٥١ وذلك في ذكرى موقعة حطّين في الحرب الصليبية . والكلام يتوجه فيهما — كما قال صاحب الكلمة — الى نصارى الغرب الذين يسومون الشرق سوء المعاملة لا الى مواطنينا من اهل الكتاب من نصارى العرب . وفي الكلمتين المذكورتين روح اسعاف النشاشيبي بعروبتها واخلاصها للعرب والشرق ، واللغة العربية الصحيحة التي توفّر على دراستها فأجادها وصار من بلغائها وخطبائها

٥ — كتاب الشخصية

تأليف السيدة « للي ألن » ترجمة الآنسة « دلال صفدي » مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٩٣٢

يعنون بكلمة « الشخصية » ما كانت تعني العرب قديماً بكلمة « السؤدد » و« السيادة » وذلك ان يكون في خلق الرجل من المروءة وبعد الهمة والتواضع والاخلاص والورع عن دنيّات الامور والحلم والتغابي لا عن غباء والصمت لا عن عِيّ ما يسود بهِ في بيتهِ ثم عشيرته الاقربين ثم الذين يلونهم حتى يكون سيداً مطاعاً في امة أو أمم او عقلاً محترماً في جيل او أجيال . وكانوا قديماً يطلبون الاخلاق التي هي طريق السؤدد لانها من المروءة ، وقد ألفوا قديماً كتباً كثيرة في ذلك . واليوم تهتم امم الاعاجم من اوربا واميركا بالبحث عن اصول تكوين الشخصية وكيف يتيسر الرجل من الناس ان يكوّن لنفسهِ شخصية وقد ألفوا في هذا كتباً كثيرة خلتْ من مثلها العربية في هذا العصر . ولم أقف الاَّ على كتابين بالعربية في موضوع الشخصية وثالثهم هذا الكتاب الذي ألفتهُ امرأة وترجمتهُ امرأة . وعلى صغر هذا الكتاب فان لهُ فائدة كبيرة . وقد ترك في نفسي اثراً قويًّا لا اقول لانهُ جيد جدًّا ولكن لانهُ أثار في نفسي الرغبة في الاستزادة من هذا البحث . ولولا ضيق المقام وان ابواب نقد الكتب في مجلاتنا لا تحتمل الاطالة والتوسع لاتّسع لي مجال القول في تفصيل الرأي في معنى الشخصية حديثاً ومعنى السؤدد قديماً والفرق بين الطريقين واي السبيلين اهدى واقوم ولاستطعنا ان نبين الرأي في تأثير المدنية الاوربية الطاغية في العلوم والآداب والاخلاق . . . . . . إلى آخر ما يقال في هذا الشأن

ونقول في هذا الكتاب ان ترجمتهُ لا بأس بعربيتها من آنسة ، ونودُّ ان نرى لها آثاراً قوية خيراً من هذا الاثر وبخاصة في مثل هذا الموضوع « الشخصية » الذي يرجع اكثره الى المرأة فانها هي مربية العالم من المهد الى اللحد وهي المدرسة التي يتخرج عليها عظماء الرجال وقد قيل لأم معاوية بن ابي سفيان حين رزقت بولدها معاوية : « ليسودنَّ قومه » فقالت : « ثكلتهُ ان لم يسدْ الاَّ قومه » فما هدأت فتنة دم عثمان رضي الله عنهُ حتى وضع معاوية يده سيداً مطاعاً على اعظم امة في ذلك العصر . . . وذلك بفضل امهِ وما اخذتهُ بهِ من ادب حتى ضرب بهِ المثل في المروءة والحلم

٦ — كتاب امير الشعراء شوقي

جمع وترتيب « محمد خورشيد » استاذ الادب العربي بمدرسة النجاح بنابلس مطبعة بيت المقدس

كان شوقي وقد (ملأ الدنيا وشغل الناس) كما قالوا في المتنبي ، فلما ذهب بهِ وانطفأ السراج واظلم البيت امتلأت الدنيا بهِ مرة اخرى وقد خلت من شخصهِ وشغل الناس بذكره فاضطربوا وخاضوا بالقول فيهِ ونشر ما قيل فيهِ في جرائد العربية ومجلاتها في انحاء العالم وصارت شتاتاً لا يجمعهُ الحصر قام كثير من الناس يجمع شتات ما قيل في شوقي ، فأول ما وصل الينا من ذلك هذا الكتاب وقد جمع فيهِ جامعه ما اختار مما نشر عن شوقي ونسب ما اختارهُ الى الجرائد والمجلات التي اختاره منها فكانت همة مشكورة لهُ وقدَّمهُ بمقدمة جيدة في شوقي وحياتهِ محمود محمد شاكر

كتاب ٢١ صناعة تغنيك

لقد أحسن الاستاذ حسني يوسف صاحب جريدة « لسان الشعب » بمصر اذ اخرج هذا الكتاب الذي يحتوي على « ٢١ صناعة تغنيك وتعلمك مختلف الصناعات والفنون بأسهل طريقة » فهو دعاية طيبة للصناعات وخطوة اولى في سبيل تركيزها في الاذهان . ومما يزيد في فائدة الكتاب انه سهل الاسلوب وقد عُني به من حيث الترتيب والتبويب، فهو مفيد للعمال والصناع وربات البيوت ويطلب من مؤلفه بالمبيضة رقم ٨ بالجمالية وثمنه ١٥ قرشاً

المطبوعات الجديدة

نقرُّ اننا لم نشهد في خلال السنوات العشر الماضية نشاطاً في تأليف الكتب وطبعها كالنشاط الذي نشهده اليوم رغم الضائقة المالية الآخذة بالخناق . ولكنَّ الفكر الحرّ لا يحفل بالضائقة، بل قد تكون الضائقة حافزاً لهُ على الابداع والانتاج . لذلك نظلُّ مقصرين عن اللحاق بسيل المؤلفات التي تخرجها المطابع . وقد تناولنا في هذا الشهر نحواً من عشرين كتاباً بين اسهاب وايجاز وعلى الرفّ امامنا عشرون اخرى او تزيد نشير بوجهٍ خاصٍ الى ﴿ علم النفس ﴾ في جزئين تأليف الاستاذ حامد عبد القادر والاستاذ محمد عطية الابراشي . وقد اشترك معهما في تأليف الجزء الاول الاستاذ مظهر سعيد . وثمة كتاب آخر في علم النفس النظري والتعليمي للاستاذ مظهر سعيد . وكتاب ﴿ فن الصحة ﴾ للطبيب الجراحي احمد حمدي الخياط . وكتاب ﴿ الامراض المعدية في الاقطار العربية ﴾ للدكتور حبيب صادر . وكتاب ﴿ حضارة مصر الحديثة ﴾ وهو مجموعة فصول لكبار الكتاب واصحاب الرأي في مصر جمعتهُ الجامعة الاميركية في القاهرة واخرجتهُ المطبعة العصرية . وبحثان في ﴿ تطور الصناعات المصرية ﴾ و« واحة سيوه » للدكتور حسين علي الرفاعي المفتش الاقتصادي بمصلحة التجارة والصناعة . كل هذه الكتب وغيرها مما اهدي الينا ستحفل بذكرها مكتبة المقتطف في الجزء القادم ان شاء الله

باب الأخبار العلمية

الالكترون الموجب

أو « البوزيترون »

ذكرنا في مقتطف مارس الماضي ، في باب الانباء العلمية ، ان الدكتور بلاكت حقق هو والدكتور أُكيَلِيني ، في معامل كافندش بكمبردج ، ما كان قد ذهب اليهِ الدكتور كارل اندرسن أحد اساتذة جامعة كاليفورنيا في سبتمبر الماضي، من وجود الكترون موجب

واذن فالبساطة التي صحبت النظرية الالكترونية في بدئها قد زالت ، اذ كنا نحسب الذرَّة كنظام شمسي فيهِ نواة في الوسط والكترونات اوكهارب تدور حواليهِ . وقد اصبحت لبنات الكون الاساسية اربعاً على ما نعرف الآن فثمة « البروتون » وهو نواة ذرة الايدروجين . وثمة الكهرب او الالكترون وهو ذرَّة الكهربائية السالبة . وثمة النيوترون الذي اكتشف في السنة الماضية وهو يحسب الآن بروتون واحد والكترون واحد وقد حُشيكا معاً حتى كادا يتحدان . وثمة الفوتونات وهي ذرات النور او الطاقة . وها هو ذا الالكترون الموجب أو البوزيترون قد اقبل متشحاً بجلالة التصريح العلمي . ومن يدري ما يتبعهُ . ويضيف بعضهم الى ذلك دقائق « الفا » وهي الدقائق التي تنطلق من الراديوم ومنها تتألف نواة ذرة الهليوم . ولكن ما يربط هذه الدقائق معاً حتى تتألف منها نواة الهليوم؟

البروتون والالكترون دقيقتان من كهربائيتين مختلفتين الاولى موجبة والثانية سالبة . ولكن كتلة البروتون تزيد ١٨٤٥ ضعفاً على كتلة الالكترون فكل كتلة الذرة تقريباً هي في البروتون . جرِّد الذرة من الكتروناتها فتبقى كتلتها ما كانت عليهِ قبل تجريدها تقريباً

والبروتون كما قلنا هو نواة ذرة الايدروجين ولكن الالكترون لا يمكن تعريفه بنسبتهِ الى اية ذرة واحدة دون غيرها

ففي امكان الباحث ان يولد تيارات من البروتونات ولكنهُ اذا وزنها وجد وزن كلٍّ منها يقابل وزن ذرَّة من الايدروجين . فيخطر على البال بداهة ، ان الالكترون « كهربائية » مجرَّدة وان البروتون مادة عليها شحنة كهربائية . ولكن فصل الشحنة الكهربائية عن البروتون ظلَّ متعذراً حتى قام اندرسن وبلاكت وأُكيليني بتجاربهم الخطيرة . والشحنة الكهربائية التي

مجرَّد من بروتون واحد هي ما يعرف بالالكترون الموجب أو البوزيترون. فالبروتون ليس صنو الالكترون في تركيب الذرة ولكن البوزيترون هو صنوهُ حقيقة

***

اذا قال الطبيعي ان كتلة البروتون تزيد ١٨٤٥ مرة على كتلة الالكترون واجه مسائل معقدة كثيرة يثيرها هذا القول . لماذا تفوق كتلة الاول كتلة الثاني ١٨٤٥ ضعفاً لا الفي ضعف او ٢٥٠٠ ضعف او ٣٠٠٠ آلاف ضعف او اي عدد آخر ؟ ولا ريب اننا اذ نصطدم برقم كهذا في موضوع اساسي كموضوع بناء ذرة الايدروجين لا بدَّ ان يكون لهذا الرقم معنى خاص . فما هو هذا المعنى الخفيّ ؟ لعلَّ اكتشاف الالكترون الموجب او البوزيترون يمكننا من الاجابة عن هذا السؤال

كان من المتعذر حتى الآن ان يفصل الطبيعيون البروتون عن شحنتهِ الكهربائية الموجبة . لذلك تعودوا ان لا يفرقوا بين البروتون — وهو نواة ذرة الايدروجين — وبين شحنتهِ. اما وقد اثبت اندرسن وبلاكت ان الشحنة الكهربائية على البروتون مستقلة، فقد ارغم العلماء على النظر الى الموضوع نظراً آخر

فالمعروف ان كل عنصر من العناصر تقريباً مزيج . فثمة نوعان من الايدروجين ممتزجان معاً في الغالب . وثمة نوعان من الكلور . كذلك البوتاسيوم نوعان احدهما مشع والآخر غير مشعّ . وهذه الانواع تعرف بالنظائر Isotopes ومعنى لفظة ايسوتوب ان نوعي الايدروجين يحتلان مكاناً واحداً في جدول العناصر . فنوعا الايدروجين يحتلان المكان الاول ونوعا الكلور يحتلان المكان السابع عشر. وفي جدول العناصر بحسب ترتيب موزلي يوجد ٩٢ مكاناً

وكيف يعين مكان العنصر في هذا الجدول ؟ يعين بالشحنة الكهربائية التي على نواته . ولما كان نوعا العنصر الواحد يحتلان مكاناً واحداً في الجدول فيجب ان يكون عدد الشحنات الكهربائية على نواتيهما واحداً . ولما كانا يختلفان وزناً ولا يختلفان في عدد شحناتهما فهذا دليل على ان بناء النواة يمكن ان يتغير ولكنهُ يظل محتفظاً بعدد واحد من الشحنات الكهربائية عليها . وليس ثمة من يعلم كيف تبنى النواة . ولعلَّ في اكتشاف البوزيترون سبيلاً الى جلاء هذا السر

***

ولما كان معنى «الكترون» وحدة الشحنة الكهربائية سواء أكانت موجبة او سالبة اقترح احدهم ان يدل الالكترون الموجب «بوزيترون» Positron ويطلق على الالكترون السالب وهو ما كان معروفاً حتى الآن بالالكترون فقط لفظ «النجاترون» Negatron

كبد السمك

نشر الدكتور دايفدسن الاستاذ بجامعة ابردين رسالة في المجلة الطبية البريطانية شرح فيها ان لاكباد السمك فائدة عظيمة في علاج الانيميا الخبيثة . والاسماك التي جرَّب فعل

اكبادها في علاج الانيميا هي البقلة (Cod معجم لحيوان للاب انستاس الكرملي) والحساس (Haddock معجم شرف) وضرب آخر يدعى whiting واسمهُ العلمي Gadus Vulgaris فيصح ان يترجم بالبقلة المألوفة ، اذا جارينا معلوف باشا والاب انستاس على استعمال بقلة لـ Gadus

قتل الميكروبات بالبرد

يؤخذ من التجارب التي جرّبت حديثاً في جامعة تورنتو بكندا ان البردَ الشديد لا يقتل البكتيريا . فقد أُخذت طائفة منها ووضعت في اناءٍ يحيط بهِ الهليوم السائل — ودرجة برده ٤٥٠ درجة تحت الصفر بميزان فارنهيت وهي نحو ٢٦٨ درجة مئوية تحت الصفر — وظلت هذه الميكروبات بضع أسابيع في الاناء المذكور ثم اخرجت فثبت انها تتوالد والتوالد آية الحياة او احدى آياتها. وهذه التجربة تدلُّ ، على ان البرد الشديد في رحاب الكون لا يميت بعض اشكال الحياة الدنيا في انتقالها خلال هذه الرحاب على مطايا من الغبار الدقيق . ثم انها تدلُّ على ان البرد الشديد يحفظ الاطعمة من الفساد ولكنهُ لا يميت مكروبات الفساد التي فيها

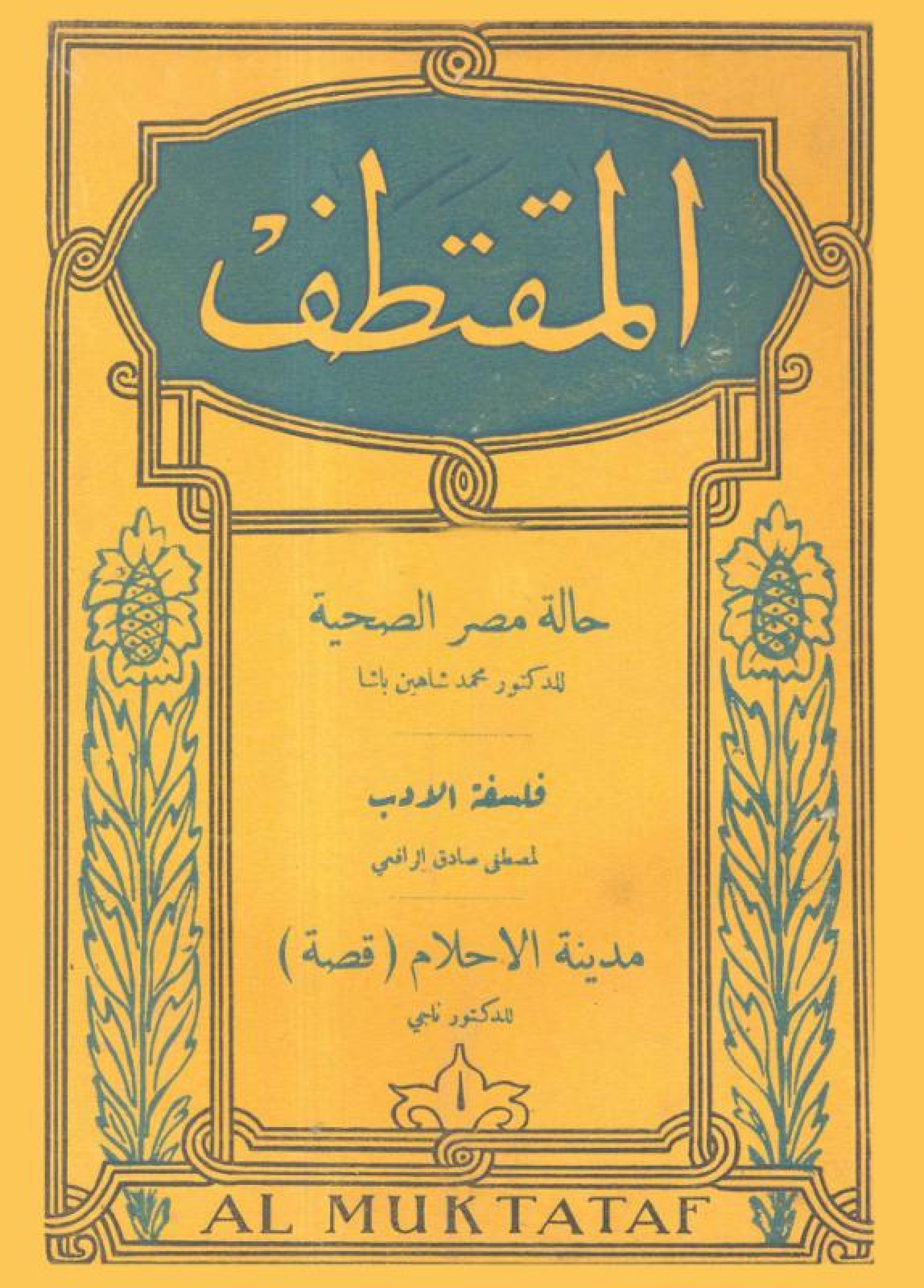
الحرب العالمية والثورات

[تابع مقال القضايا الاجتماعية]

ثم لما نشبت الحرب العالمية اضطرت الدول المتحاربة الى الاستعانة بكثير من المتحدات والنقابات والجمعيات حتى اذا عقد السلم وارادت هذه الدول الرجوع الى ما كانت عليهِ قبل هذه الجزرة الغزيرة وجدت نفسها امام جموع منظمة ذاقت لذة الاشتراك في الحكم وعرفت قيمة الخدمات التي ادتها للدولة لذلك لم يكن من المتيسر الخلاص من سلطتها بل ان الحرب زادت هذه السلطة قوة على قوة

وما جفَّت دماء القتلى في الميادين الا والامة الالمانية في ثورة لا تدري ماذا تصنع ، ذلك لان الامبراطورية الجرمانية التي قامت على تعاليم (هيجل) وانبسطت على مبادىء (فريدريخ نيتشه) العنيفة انهارت ، فلما ارادت ان تتماسك لم تجد امامها مستنداً غير الطريقة البرلمانية لا لانها خير الطرق واجمعها للمذاهب المشتتة بل لانهُ ليس في الميدان غيرها ،وقد غادر انهيار الامبراطورية الهيجلية فراغاً في ذهن الالمانيين لما يمتلىء ، وقد اظهروا في انتخاباتهم المتكررة انهم غير راضين عن الحكم الديمقراطي ، وآخر تجاربهم وأهمها تسليم مقاليد الامور لهتلر زعيم (النازي) وهي الفاشستية الالمانية ، وفي عقيدتي ان هذه التجربة ستجد اقبالاً عندهم وتأييداً عظيماً لانطباقها على ميراثهم الفلسفي الوطني من جهة ولملاءمتها التدرج الحاضر من جهة أخرى ، على ان التكهن بمصير العمال في بلاد صناعية كالمانيا حافلة بهم امر متعذر ولا بدَّ لكل حكومة تؤلف هناك من العناية بشأنهم والالتفات الى مصالحهم ولعل في ذلك ما يحول دون خطرهم على الوضع الحاضر

الجزء الخامس من المجلد الثاني والثمانين


المقتطف
حالة مصر الصحية
للدكتور محمد شاهين باشا
فلسفة الادب
لمصطفى صادق الرافعي
مدينة الاحلام (قصة)
للدكتور ناجي
AL MUKTATAF

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد الثالث والثمانين

١ يونيو سنة ١٩٣٣ ٨ صفر سنة ١٣٥٢

عقل الطير

وكيف يختلف عن عقل الانسان

كان علماء التاريخ الطبيعي ، يسلّمون من نحو قرنٍ ونصف قرن ، انّ الطبيعة سلّم ، ذروتهُ الانسان وان كلّ طراز من الحياة يمثّل — او كان يمثل — درجة في هذا السلّم . واذن كانوا يعتقدون ان الكائنات ، حيّة ومندثرة ، انما هي مراحل قطعتها الحياة في سبيلها الطويل الممضّ من النطفة الاولى الى الانسان

فلما تعمقوا في البحث ، او بالحري لما ظهر مذهب التطوُّر العضوي ، تبين ان صورة الطبيعة كما هي لا تتفق والصورة التي تصوروها — اي صورة السلّم المتدرج ارتفاعاً . فاشكال الحيوانات المختلفة من حشرات واسماكٍ وحيوانات مفصلية الارجل وطيور وغيرها ، لا يمكن ان تكون درجات من سلّم ، بل هي أشبه باغصان شجرةٍ ، شجرة الحياة دائمة النموّ والتفرُّع

وانت اذا نظرت الى الاحياء هذه النظرة ، زادت عنايتك بها . قد تسلّم ، بموجبها ، ان الانسان ذروة الاحياء ، ولكنهُ مع ذلك ليس الاّ ذروة غصن أو فرع من أغصانها وفروعها . وثمة اغصان كثيرة اخرى تختلف في طبائعها ، بعضها عن بعض ، اختلافها عن طبائع الاحياء في الفرع الذي نرى الانسان في ذروتهِ . وفيها كلّها تحقق الحياة أغراضها بطرق تختلف بعضها عن بعض

فاذا نظرنا الى هذه الاغصان ، تمكنّا من ان نرى طبائعنا في حالتها الناقصة ، قبل ان

تبلغ بالتطور ما بلغتهُ الآن . على أننا نرى كذلك ما هو اجدر بعنايتنا . نرى وجوهاً اخرى للحياة في طبائع تختلف عن طبائعنا في « النوع » لا في «الكم» ، ونخرج من هذا النظر بأن الحياة ليست شيئاً جامداً لا يقبل التحوُّل ، بل هي سلسلة من التجارب الفاتنة ، جربتها الطبيعة لتخرج أفضل الاشكال الحية لمعالجة شؤون البيئة. والظاهر ان تجربة الطبيعة في اخراج الانسان لهذا الغرض ، هي التجربة التي اصابت اكبر قسط من النجاح . ولكن ذلك لا يقتضي أن نكون أجل المخلوقات ولا أبرعها

اما التجارب الاخرى فاجدرها بعنايتنا تجربتان : تجربة خلق الحشرات وهي أحياء تقيم اجسامها داخل هياكلها ، وتنحصر عقولها في غرائزها . والثانية تجربة خلق الطيور . وهي موضوع المقال ، بل ان المقال يدور على بعض الفروق بين عقل الطير وعقل الانسان

***

ولكن قبل الخوض في الموضوع ، دعنا نلمّ بتطوّر الطيور ، لكي نفهم بعض الصفات التي تتميز بها عن سائر الاحياء

تفرعت الطيور من أحد الزواحف من نحو مائة مليون سنة ، بعد ما تفرّعت الثدييات من فرع آخر من الزواحف . وقد ركّبت طبيعة الطيور لكي تطير . فتحولت قائمتها الامامية الى جناح. ففقدت ذلك فرصة تحويلها الى يد ، كما تحوّلت في الثدييات التي افضى تطوُّرها الى ظهور الانسان . ولكنها احتفظت بصفة أساسية من صفات الزواحف . وهي البيضة ذات القشرة القاسية . في حين ان الثدييات تحوّلت عنها واختصت بتغذية الجنين في داخلها قبل خروجه الى العالم. وهذا قضى بامتناع ولادة الطيور في مرتبة متقدمة من النمو كما يتم للطفل الانساني

على ان الطيور من ناحية اخرى تفوّقت في تطوّرها على الثدييات . ذلك ان الطيور تشارك الثدييات في انها حيوانات حارة الدم . والاجهزة العصبية والعضلية التي جعلت الثدييات والطيور حيوانات حارة الدم من افعل العوامل في ارتقائها. فالثدييات والطيور تستطيع ان تعيش في بيئات مختلفة الحرارة ، وان تحتفظ في هذه البيئات المختلفة ، بحرارة جسمها على درجة واحدة . على ان الطيور تفوق الثدييات من هذا القبيل ، في ان حرارتها الطبيعية اعلى جداً من حرارة الثدييات الطبيعية . لانها تبلغ ١٠٥ درجات بميزان فارنهيت او ٤٠و٣ بميزان سنتغراد ، في حين ان حرارة الانسان الطبيعية نحو ٣٧ ميزان ودرجة ٤٠ في نظره حمى عالية جداً

***

هذه الدرجة العالية من الحرارة الطبيعية ، وسرعة الحركة وخفتها ، تجعل درس الطيور

درساً حافلاً بالفتنة والغرابة . على أننا نعلم ، من خبرتنا الانسانية ، ان شدّة الحيوية لا تقتضي حدة الذكاء . وفي هذه الناحية كذلك — ناحية العقل — نرى ان الطيور تطوّرت تطوّراً يختلف عن تطوّر عقل الانسان . فالثدييات ، قد انمت قواها العقلية في خلال تطوّرها وارتقائها ، فأصبحت تتعلم بالاختبار ، وهذا افضى الى التفكير الشعوري في اعمالها ، واعتماد الحكمة المتجمعة التي يرثها جيل من جيل فيضيف اليها ثم يورثها الى خلفه . وارتقاء قوة التفكير في الانسان اضعف سلطان الغرائز ، وكان من قبل لا يقهر

اما الطيور فقد احتفظت بالغريزة أساساً للسلوك . انها والحق يقال تشترك مع كل الحيوانات الفقرية ، في نصيب يسير من الذكاء ومقدر الاستفادة بالخبرة ، ولكن هاتين الصفتين لهما مقام ثانوي في حياتها فيستعملان لصقل حواشي الغرائز الموروثة فقط

ولو ان عالماً بالتشريح ، قابل بين دماغ طائر ودماغ حيوان ثديي راقٍ ، لوصل الى النتيجة المتقدمة من دون ان يراقب سلوك الحيوانين . ففي دماغ الحيوان الثديي ، يرى زيادة كبيرة في نصفي المخ ، وبوجهٍ خاص في فصوصهِ الامامية ، وهي مراكز الذكاء والقدرة على التعلم . لكن دماغ الطائر ، اذا قيس اليهِ صغير ، وفصوصهُ الامامية غير مميزة في حجمها عن سائر الفصوص . وليست على سطحها تلافيف . يقابل ذلك ان المراكز الدماغية التي تسيطر على الافعال الانفعالية (emotional) والآلية (automatic) هي في الطائر اكبر بالنسبة الى حجمهِ ، منها في ذوات القوائم الأربع

***

اكتفينا الى هنا بذكر الاحكام العامة . والغرض مما تقدم ، ان نبيّن اننا اذ نقبل على درس عقل الطير وطبائعهِ ، لا ندرس احياء من قبيل الانسان لا تختلف عنه الا انها ادنى منهُ في ارتقاء مميزاتها الحيوية ، بل نقبل على درس فرع من شجرة الحياة ، اختص بلون معين منها ، وان عقلها يختلف عن عقل الانسان والثدييات اختلاف « نوع » لا اختلاف « كم » فقط

فالطيور ذهبت « بالعاطفة » او الانفعال الى ابعد مدى في عالم الحياة ، والثدييات رفعت « الذكاء » الى اعلى ذراهُ

***

ولعلَّ اعظم فارق بين الطير والانسان في سلوكهما ، ان الطيور تستطيع ان تعمل كلَّ ما تقتضيهِ حياتها — وبعض هذه الاعمال معقَّد كلَّ التعقيد — من دون ان تحتاج في ذلك الى من يعلمها . فالطيران ، وهو عمل معقَّد يقتضي التوازن وملاءمة تيارات الهواء ، تعرفهُ فطرةً . وصغار الطيور ، تجرّب تجاربها الاولى في الطيران ، في اثناء غياب والديها عن العش . ولا ريب

في ان المرانة لازمة للاتقان. ولكن الطيور لا تحتاج الى تعلم مبدإِ الطيران، كما نحتاج الى تعلّم مبادىء الجولف او رسم الرسوم المعقدة على صفحات الجليد بقباقيب الإِنزلاج. ثم ان ما يروى في القصص القديمة من ان الطيور تعلّم صغارها الطيران، كلهُ خطأ. فبعض الطيور يحاول ان يغري صغاره، اذ يكتمل نموُّ الصغار بالابتعاد عن العشّ. ولكن هذا الاغراء، تشجيع من ناحية الطيور الكبيرة، لحمل الصغار على القيام بالتجربة الاولى. فالصغير لا يتعلم من الكبير، في خلال ذلك، ولا يقلّده في استعمال الاجنحة

الطيران عمل صعب، لانهُ يقتضي وسائل معدة له من عضلات وعظام واعصاب وعقد عصبية وعيون واعضاء لحفظ التوازن واشتراكها معاً. وقيام الطائر بهِ من دون تعليم امر غريب. الاّ ان مقدرتهُ على بناءِ عشهِ اغرب وابعث على الدهشة. أليس من بواعث الدهشة ان تجد صغار الطيور، بعد زواجها الاول، قادرة على بناءِ عشوش على مثال العشوش التي يختصُّ بها نوعها الخاص. يقول بعضهم ان هذه المقدرة قد تعلّل بان الصغار جمعت المعرفة اللازمة لذلك، من بقائها في العش ايام حداثتها. ونحن اذا سلمنا جدلاً بصحة هذا الرأي — وهو بعيد كلَّ البعد عن الصحة، لان صغار الطيور تكون شديدة البلادة في اول خروجها من البيض، ولانها لا تلبث في العش بعد تفتّح عيونها الاّ بضعة أيام، لا تتلقى في خلالها اي درس في بناءِ العشوش من آبائها وامهاتها — نقول اذا سلمنا جدلاً بهذا، على بعد احتماله، وجدنا الحقائق المشاهدة تناقضهُ كلَّ المناقضة

ففي استراليا صنف من التدرج يبني من الاقذار والاوراق التي دبَّ فيها الانحلال آكاماً ويضع بيضهُ في انفاق في هذه الآكام ويتركهُ هناك لكي يتفقّس بفعل الحرارة الصادرة من النبات الآخذ في الانحلال. فاذا نقفت البيضة خرج الطائر الصغير من النفق. فلا يلقى والديهِ لكي يعلماه كيف تبنى هذه الآكام والانفاق داخلها، لان والديهِ بعد وضع البيض ذهبا كلٌّ في سبيلهِ. ولا هو يلبث قرب الاكمة زمناً كافياً ليعلم كيف بنيت ومما بنيت، بل انهُ لا يجود عليها بنظرة واحدة. ومع ذلك، اذا ازف الوقت للتزاوج يبني الاكمة وداخلها النفق كما فعل اسلافهُ

حتى العصافير التي ولّدت توليداً صناعيًّا في اعشاش غير طبيعية — صناديق من الخشب مبطنة بالقطن — تبني العش الخاص بنوعها اذا جاءَ وقت التزاوج، ولا تحاول على الاطلاق ان تحاكي في بناءِ عشها الصندوق الذي ولدت فيهِ وقضت ايام حداثتها. فالشرشور، اذ يحسُّ بدافع التزاوج، ينسج كأساً من الاغصان الدقيقة ثم يبطنها بمادة ناعمة. والطائر الخيّاط يأخذ الاوراق ويخيطها. والخطّاف يجمع الوحل والصلصال ويبني بهما كأساً على جانب صخر او جدار

كذلك اذ يحسُّ الطائر بدافع التوليد يجثم على البيض فاذا لم يجد بيضاً استعاض منهُ شيئاً آخر.

فقد ذكر بعض العلماء انهم شاهدوا غرباناً تجثم على كرات الجولف اذ لم تجد بيضاً تجثم عليهِ .
وطائر البطريق في الاصقاع المتجمدة الجنوبية يجثم على قطع من الجليد اذا اضاع بيضةُ او فقد صغيره

***

والطيور تنظر الى حقائق الحياة الاساسية نظراً يختلف عن نظر الانسان ، يتبين لك ذلك من علاقتها باولادها. ولا ريب في ان الطيور تعنى بصغارها عناية مبنية على العاطفة، ولكنها عاطفة غريزية ، لا يقويها ولا يصقلها ، العقل والذاكرة والالفة والإعداد للمستقبل ، على ما هي الحال في الانسان

قد يفقد طائران بيضهما الذي يحتضنانهِ ، فتصدم غريزتهما الجنسية فيضطربان ويقلقان. ولكن اذا مات احد الصغار قبل ان يقوى جناحاه — وهو حادث كثير الوقوع — لا يبدي الوالدان حزناً ولا اضطراباً ، بل يكتفيان بقذف الجثة من العش ، كأنها قذى او قذر . ثم ان الطيور تهمل الصغير اذا بدا عليهِ الضعف ، فلا تحوطهُ ، كما يحوط الوالد والوالدة من الناس صغيرهما المريض ، بكل ضروب العناية والرعاية . والظاهر ان الغرائز الوالدية لا تظهر في الطيور الا اذا حدث من قبل الصغار ما يثيرها . فاذا فتح الصغير منقارهُ او صرخ ، اثار هذا العمل او ذاك الغرائز الوالدية فتتحرك الام لزق صغارها او للعناية بها . فاذا لم يبد ما يثير هذه الغرائز ، ظهر للمراقب ، كأنها غير موجودة على الاطلاق

***

ومما يدلّك على عجز الطيور ، عن الشعور بالحياة ، كما يشعر بها النساء والرجال ، انك اذا نزعت الصغار من عش السنونو ووضعت محلها بيضاً ، تدهش السنونو قليلاً في البدء ، ثم تلبي الباعث الجديد التلبية الغريزية ، وهو احتضان البيض ، ولا يبدو عليها بعد ذلك اي أثر من آثار الالم على فقد صغارها الذي تشعر بهِ الوالدة من الناس في حالة مماثلة

ولعل طائر الوقواق Cuckoo ابلغ مثل يضرب على الفرق بين عقل الانسان وعقل الطير

تلقى بيضة الوقواق في عش طائر آخر — (كعصفور السياج وجُشنة المروج pipit) فتنقف البيضة في وقت قصير لان طبائعها مركبة تركيباً خاصاً يتفق وعاداتها الطفيلية ، فاذا خرج الفرخ من البيضة ، جعل ينبذ كل ما في العش من بيض او افراخ . وظهرهُ مقعر قليلاً فيحمل على ظهره البيضة او الفرخ ثم يزحف حتى يبلغ طرف العش فيلقي بما حمل خارجه حتى يبقى هو في العش وحيداً

تقول ، اذا فكرت في الامر من وجهة النظر الانسانية ، ان هذه قساوة في غير محلها وبراعة ليس لها غرض الاّ الضر . وانت في قولك هذا مخطئ . ففرخ الوقواق ليس قاسياً،

ولا هو يدري لماذا يفتك باخوانه في العش بهذه البراعة المخيفة . انهُ يتصرف تصرفاً اعمى لانهُ آلة ركبت كذلك. وليس ظهره مقعّراً فقط. ولكن التقعير في ظهره يستثيره اذا مسّهُ شيءٌ. فاذا استقرَّ في هذا التقعير ، شيء ، اهتاجه ذلك ، حتى لا يطيقهُ فيظل يروح ويجيء في العش حتى يبلغ طرفه فيلقي الشيء الذي يهتاجه . ولو انك وضعت في هذا التقعير جوزة او كرة صغيرة ، بدلاً من البيضة او الفرخ الصغير ، لتصرف التصرّف نفسه

فهو لا يدري ما يفعل . ذلك انهُ يفعل ما تقدم بعيد خروجه من البيضة ، وقبل ان تنفتح عيناه . ولا يمكن ان يكون قد تعلم ذلك من والديه . فانهُ لم يرَ والديه منذ ما القيا بيضه في عش غيرهما . ولا يمكن ان يتعلم ذلك من صاحبي العش الذي حل فيه لانهما من نوعٍ غير نوعهِ ، وعمله ضار بهما. انهُ لا يعدو كونهُ آلة ، معقدة التركيب، اجزاؤها الظهر المقعّر الشديد الحس ، والاعصاب التي تُهتاج اذا لمس هذا التقعيرَ شيءٌ ما ، والعضلات التي تلبي حس الاعصاب فتدفع الطائر ذهاباً واياباً كما تقدم

فعمله هذا غريزي فيهِ ، كالعطاس والسعال في الانسان

***

يتخلص الوقواق من مزاحميه في العش ، وتعود الام التي احتضنتهُ بيضة مع بيضها، فلا يؤلمها انها لا ترى من نسلها إلا واحداً ، ولا هي تعنى بأفراخها اذا رأت احدها منبوذاً خارج العش ، ما زالت ترى في العش فرخاً واحداً يكفي غرائز الامومة فيها . فأفراخها خارج العش ليسوا إلاَّ اجساماً غريبة عنها

وفي امكان الباحث ضرب الامثلة الكثيرة على تصرف الطيور تصرفاً لا ينطوي على تعقل وذكاء كما نفهمهما في حياة الناس .فاذا وضعت بيضة غريبة في عش بين البيض الذي فيهِ تحضنها الام احياناً واحياناً تنبذها وتظلُّ حاضنةً بيضها وفي بعض الاحيان تنبذ البيضة الغريبة وتهجر العش — وهو عمل لا ينطوي على اي منطق معقول بوجهٍ من الوجوه

***

واليك مثلاً آخر . اخذ المستر سانت كنتن دجاجتين وديكاً من الطيهوج الرملي (وهو طائر من رتبة الدجاج ولا يوجد في البلاد العربية اللسان). في هذا الصنف من الطائر تحضن الانثى بيضها في النهار ويحضنها الديك في الليل . وفي احدى السنين باضت الدجاجتان في وقت واحد . فبذل الديك اقصى جهده . فكان يقسم ليله بين بيض هذه وبيض تلك . ولذلك لم يفقس البيض . ولو كان لهذه الطيور عقل ، على ما نفهم بالعقل من امكان تطبيق التصرف على مقتضى الحال ، لامكن الديك والدجاجتان ان يقسما ساعات الليل والنهار بينها تقسيماً يجعل

حضن البيض متواصلاً . ولكن الحضن النهاري في الانثى والحضن الليلي في الذكر ، غريزة ميكانيكية والعقل لا يحولها لكي تطابق المقام في الاحوال الاستثنائية

***

ولكن تسيير الطيور بالغريزة لا يعني انها لا تنفعل انفعالات شديدة ومنوعة . فالطائر يجد لذة شديدة في تلبية باعث الحضن ، وباعث تغذية الصغار ، ولو كان الباعث اعمى . فاذا احدق الخطر بالصغار ، يتألم الكبير ألماً شديداً . والطيور في اغاريدها تعرب عن شعور عميق مع انها لا تفهم هذا الشعور ولا تتأمل فيهِ كما يفعل الشاعر او الموسيقي من بني الانسان. فانها في خلال تغريدها هي هي الشعور العميق مجسماً ، حتى لقد تشتدُّ هذه الحالة الاحساسية في خلال الفصل السابق للتزاوج ، حتى تغفل ما يحدق بها من الاخطار ، فيستطيع الانسان في بعض الاحيان ان يقترب من العش او الغصن الذي تحدث فيهِ المغازلة . وفي اكثر البلدان يكون صيد الطيور وهي في هذه الحالة غاية في السهولة

ثم ان الطيور تحس بعاطفة الغيرة . فالديوك المتزاحمة على انثى قد تتقاتل حتى الموت. قيل ان ديكين ودجاجة كانت في قفص واحد ، وبعد نزاع ، قتل احد الديكين رفيقهُ . وكانت الدجاجة تفضل المقتول فهجمت على الديك القاتل وكادت تفتك بهِ لو لم تفصل عنهُ

***

على ان المظاهر العديدة التي تظهر بها حياة الطيور من ناحية العاطفة والانفعال، تختلف اختلافاً اساسيًّا عن هذه الناحية من حياة الانسان . ذلك ان الطيور لا تملك قوة التفكير والتعقُّل ، فعاطفتها على استغراقها لحياتها وتغلغلها فيها — وهي في ذلك تفوق الانسان — لا ترتبط بالماضي ولا بالمستقبل كعاطفة الانسان . فالخوف في الطيور خوف لا غير . ليس هو خوفاً من الموت ولا خوفاً من ألم قد يصيبها في المستقبل القريب او البعيد . لذلك لا يجد الهمُّ سبيلاً الى حياة الطير . فاذا زالت الحالة الباعثة على الخوف ، زال الخوف . والمثل على الخوف يصحُّ كما بيّنا على غرائزها الوالدية. فالانثى من الطيور لا تعبأ بمصير الفرد من نسلها ، كما تهتم الام من الناس بمصير ولدها ومستقبلهِ . ان هم الانثى من الطير محصور في تلبية غرائزها التناسلية من غير نظر خاص الى صغارها . ومتى كبر الصغار ، وتحوَّل التركيب الفسيولوجي الذي كان يدفعها الى تغذيتهم مثلاً ، لا تملك من العقل ، ما يمكن ان يكون صلة بينها وبينهم كالصلة بين الوالد والاولاد

هذا هو الفرق الاساسي بين عقل الطير وعقل الانسان . حياة الانسان متصلة بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها ووسيلة الاتصال هي قوى العقل والخيال . أما حياة الطير فلا تعدو كونها سلسلة من الحالات ، لا صلة بينها من العقل أو الخيال

الفن والادب

في حضارة مصر اليوم (١)

للآنسة « مي »

توطئة

ختم المرحوم الاستاذ كليمان هيار المستشرق الفرنسي ، كتابه في تاريخ «الادب العربي» (١٩١٢) بقائمة للصحف والمجلات التي صدرت خلال القرن التاسع عشر — وتقول عرضاً ان تلك القائمة لا تخلو من الخطأ في نسبة بعض الصحف الى غير اصحابها وفي التاريخ الذي عينتهُ لصدور صحف غيرها . ثم عقب على كتابه الهام بكلمة مجملة نقد فيها الأدب العربي كما كان قبل ثلاثين عاماً وأشار الى بعض ما ينتظر منهُ في المستقبل . فقال فيما قال :

«عرضنا في الصفحات السابقة صورة لآداب شغل ازدهارها ونضجها وانحطاطها ثلاثة عشر قرناً ، منذ مطلع القرون الوسطى إلى يومنا هذا . ثم أنسنا في الجذع القديم تجدداً بفعل الأفكار الحديثة وبفضل انتشارها ، ووجدنا أن طائفة من فروعه حملت أزهاراً — فضلاً عن ذلك الغصن العارض الذي تطعم به ، أعني الصحافة الدورية . فأي مستقبل يتهيأ لهذه الثقافة المتجددة ؟ أتجيء محض تقليد للعصور المدرسية (كلاسيك) ؟ أم اللغة ، وقد أرغمت على التحوّل والتطوّر لتترجم عن أفكار طريفة ، ستغنم من فتيّ التعبيرات ما يحرّك رواكد المستودع القديم باعثاً فيه نسمة الحياة ؟

« يخيل لأول وهلة ان أوساطاً للنشاط الأدبي كالقاهرة وبيروت ، لهي جديرة باخراج أدباء يتابعون الحركة التي بدأت على يد أسلافهم في القرن التاسع عشر . . . وبأي الأدوار تقوم اللغة ؟ أتتحوّل وتنمو فتصبح اوفر وضوحاً وأقرب الى جماهير أنصاف المتعلمين المتخرجين من المدارس الابتدائية ؟

« الجواب لمن بحث هذا الموضوع لا يستطيع أن يكون إلاّ نفياً ، لأننا لا نلمح في قطر من الاقطار ما يشبه تلك الحركة التي تناولت اللغة التركية إبان الثلاثين عاماً الماضية لجردتها من بيانها العتيق . ما فتئت اللغة العربية غارقة في الاستعارات القديمة وهي لا تستعمل بالتبع سوى جمهرة من التعبيرات التي لا يتأتى فهمها الاّ لاهل الثقافة ... مما يحول دون اتصالها بالعامة

---

(١) كتاب « حضارة مصر اليوم » عني بنشره قسم الخدمة العامة بجامعة القاهرة الاميركية والتزمت طبعه المطبعة العصرية بمصر

لتحدثها في ما يهمها من الشؤون . إن مقالة سياسية « تحترم نفسها » (كذا) لايمكن أن تكتب بغير النثر المسجع . وبلاغتها التافهة العقيمة ، ومرادفاتها الرامية الى محاكاة مقامات الحريري إنما هي للقارىء المثقف أفكوهة ليس إلاّ . . .

« أما ما نود أن تأخذ به اللغة العربية في المستقبل فهو جلاء التعبير وبساطة الأسلوب . فاذا جاء يوم يحقق هذه الأمنية استطعنا التنبؤ بعهد زاهر للآداب العربية . اهـ »

(١) اللغة في دور التطور

نقلت هذه الفقرات لانها تقرير لما كان واقعاً في ذلك الوقت . ولم ينفرد كاتبها بالنقد بل ساهمهُ فيهِ المستعربون من زملائهِ الاجانب وكان الالباء من أدبائنا انفسهم أبعد إمعاناً في تبيان العيوب . وقد تعمدت نقلها لانها تعيّن حقبة من الزمن نذكرها فلا نخجل . ففي ما يوازي الوقت الذي شهد فيهِ الاستاذ هيار للغة التركية بالتقدم ، أي في ثلاثين عاماً لا غير ، تفلتت العربية من كثير من الحشو واللغو والتمطط والغلوّ البديعي والابهام الذي كان يشينها في دور الجمود . وهذا تقدم يذكر في نظر الباحث المنصف ، نظراً للوراثة اللغوية الباهظة التي ترهق أدباء هذه اللغة . في ثلاثين عاماً تطورت عندنا اقلام ، ونضجت أقلام ، ونشأت أقلام فكان همها جميعاً أن تعمل كل بوسائلها وفي بابها لتخلق أدباً جديداً . والاعتزام اول مراتب النجاح . بيد ان النجاح في نواحٍ هامة من البيان جاز مرتبة الاعتزام الى دور الانتاج والتحقيق

ولما كان هذا البحث قاصراً على مصر قلت ان المقابلة ولو السطحية بين طائفة من المقالات نشرت إحداها قبل ثلاثين عاماً وتنشر الاخرى في هذه الايام — تلك المقابلة كافية ليتضح أن أول ما يسترعي الانتباه في النشاط الفكري الجديد هو أسلوب الكتابة . لقد تحررت اللغة في كثير من الكتابات الحديثة ، مما كانت تخفي به افتقارها الى الفكر الحي والعاطفة الحية . والسجع الذي كان أفكوهة للقارىء المثقف ، بات كبواقي الأطلال المنزوية التي يجب أن نجد في البحث عنها لنهتدي اليها . . .

اول بواعث التطوُّر

الثقافة الحديثة كانت أول بواعث هذا التطوُّر . فهي التي نبهت الأدباء الى حالة العالم اليوم ، وعلى ضوئها رأوا ماضيهم المنوّع العظمة ولمحوا مستقبلهم كيف يمكن أن يكون . وهي التي لفتتهم الى ممكناتهم وأفهمتهم أن لا وسيلة لاستغلال تلك الممكنات بغير النشاط والعمل . وهي التي قالت لهم ان الذي يكتفي بما هو فيه قد يكون مومياء نفيسة توحي الى العلماء الرغبة في البحث والاستقصاء ، ولكنهُ لا يستطيع أن يزعم انه العقل المولد والكائن الحي . وبالجملة كانت الثقافة الحديثة المقتبسة عن الغرب اول أدوات التعديل والاصلاح في يد المستيقظين . واذا استيقظ امرؤٌ من سباته ظهر في صوته وفي تعبيره ما ينمُّ على يقظته من

الفكر المنتظم والقول المنسجم والبيان المباشر مع إعراض عن اللغو والتفكك والغموض القمين بالذين يتكلمون في نومهم . . . ان كلمة الحياة تختلف عن كلمة الموت

اللغة والصحافة

تجرد واندثار من الناحية الواحدة ، في حين اللغة من الناحية الأخرى تزيد كل يوم رشاقة ومرونة وتوسعاً بما تضمه اليها من الكلمات والاسماء والتعبيرات المتطابقة وحاجاتها . والصحافة التي كان الاستاذ هيار يتوسم فيها خيراً — قامت بنصيب وافر في إحداث هذا الانقلاب . فقد تعددت الصحف وتعددت صفحاتها ، وتنوعت أبوابها وأغراضها فحفلت أعمدتها بالمباحث والموضوعات والآراء ، وانتظم تلقيها المتتابع لأخبار العالم وحوادثه العمرانية والسياسية والعلمية والفنية وغيرها سواء أبواسطة التلغرافات العمومية والخصوصية أم برسائل مراسليها من الخارج ، أم بما ترى نقله عن صحف الشعوب الأخرى من المفيد والمفكه معاً . فاضطرت الى اقتباس المفردات الجديدة أو تعريبها أو ابتكارها في كل عدد من أعدادها تقريباً . وكان لها بطبيعتها أن تذيع وتكرر ما تبتكر وتعرب وتقتبس وتصوغ فجاءت الفائدة مزدوجة : إذ أن المستحدث من الالفاظ والتعبيرات صار في متناول القارىء كل يوم ، إن هو أخطأه يوماً أو اسبوعاً أو عاماً تغلب عليه حتماً في النهاية فاحتل مكانه من من تفكير القارىء ومن تعبيره . وتيسر كذلك لأهل الثقافة وعلماء اللغة مناقشة تلك الالفاظ والتعبيرات واستبدالها بخير منها في معناها ، إذا استطاعوا . والمجلات الشهرية التي كانت قد مهدت لذلك ساعدت هي والكتب الجديدة في تحقيق هذه الغاية . إلاّ أن القارىء هنا شأنه في سائر البلدان ، لا يتفرغ للكتاب والمجلة الشهرية إلاّ إذا كان من الاختصاصيين أو من هواة الثقافة ، في حين أن جميع الأيدي تتداول الصحيفة الاسبوعية وبخاصة الجريدة اليومية

والى الصحيفة اليومية يعود فضل تركيز اللغة في مستوى من البيان يرضي الخاصة — الخاصة غير المتحذلقة — وبرفع إدراك العامة إلى افق أوسع وأرق . حتى ألف أحاديث الصحف ليس خريجو المدارس الابتدائية فحسب ، بل ألفها حتى الجمهور الذي «يفك الحرف» فيفهم منها شيئاً وتغيب عنه أشياء . ويذهب طبعاً في اللحن والتكسير على هواه ، إلاّ أنهُ على كل حال يحذق أهم ما تبغي الصحيفة إيصاله اليه من الأنباء والموحيات

أثر الحركة القومية في اللغة

وليس لمؤرخ منصف أن يغضي عن أثر الحركة القومية في تقريب اللغة إلى افهام العامة وفي اناة الاسلوب الجديد بساطة وحياة . فالحركة القومية التي تلت الحرب الكبرى هزّت في

مصر جميع النفوس،وحفزت جميع القوى ، وجعلت الأُمي كالمتعلم يتطلع الى مماشاة الحوادث في سيرها ليكون دوماً على أهبة للاشتراك مع بني وطنه في إعلان العاطفة الوطنية وتأييد المطالب القومية . والكتّاب كازعماء الراغبين في جمع القلوب حولهم، كانوا يشعرون بوجوب التمشي على منهج لا يستعصي على أحد فيسبكون أقل ما يمكن من الافكار الجوهرية في أقل ما يمكن من الألفاظ البسيطة والصيغ المؤثرة لتستقر في الضمير العام بلا عناء فيتخذها الصغير والكبير أنشودة للحماسة والاخلاص . ومن ثمّ ، أي منذ الحركة القومية ، نشأت تلك العادة التي ما زالت شائعة في هذه الأيام ، وهي اجتماع نوبيّو الدار الواحدة في حلقة حول بواب الدار وأصحابه والمختلفين اليه ، فيتولى احدهم قراءة الجريدة والآخرون يصغون في اهتمام وانتباه . ولا ينفضُ جمعهم الا بعد تبادل الآراء فيما يسمعون ويقرؤون

وقامت المعارضة السياسية والخلافات الحزبية بدور فعال في تطوُّر اللغة . لان الادباء والكتّاب الذين اشتركوا بطبيعة الحال في النضال السياسي اتخذوا صحف احزابهم منبراً لدعايتهم، وكل يبغي التفوق على مناهضيهِ في المناظرة اليومية التي لا تهادن ولا ترحم . ومضوا يلتمسون أساليب حية سريعة ملتهبة ، سخرت فيها البديهة الحاضرة وسعة الاطلاع وتنوع الحيلة وبراعة التعبير لاصابة المرمى . فتمخض كل ذلك عن بيان ليس هو ابن قرون وأجيال، بل هو وليد يومهِ ومستوحى ساعتهِ . وتلك المشاحنات الالمية — على عديد مساوئها — كانت دافعة إلى تجنب الرواكد القديمة والاستقاء من الينابيع الحية . وفي ذلك دليل آخر على أنهُ في الامكان دائماً استخراج الخير من الشر بوجه من الوجوه

من الجدل السياسي الى البحث الادبي

قد يقال ان مثل هذه المشاحنات لا تمتُّ الى الادب بصلة . صحيح . ولكن الاستعارات الجامدة والمهلهلات القديمة كانت في حاجة الى هذه العاصفة الجبارة التي اكتسحت عجاجتها في اعوام قلائل ما قد كان يقتضي لجرفهِ عمل جيل او جيلين

وبعد ، فمن ذا الذي ينكر أن النفس الفردية أو النفس القومية اذا هي استفزّت من ناحية واحدة فلا تلبث عوامل اليقظة أن تتمشى إلى سائر أنحائها ؟

اولئك الكتاب الذين شغلوا بالنضال السياسي في بادىء الامر، انتبهوا فوراً الى ان موضوعهم الرئيسي يرتبط بشتيت الموضوعات ، حتى السلبية في الظاهر ، ارتباطاً وثيقاً . وبنفس الروح الحية التي كانت تملي مقالات المناقشة الحزبية أخذوا يعالجون الموضوعات الادبية والاجتماعية والفنية والفكرية مما يعلي المدارك ، ويفتق قوى الملاحظة ، ويصقل الفكر ويثقف الشخصية القومية من مختلف نواحيها . وتبدّى لهم وللجمهور الذكي أن الكتابات التي كانت

تعد بالامس « خيالية » و« شعرية» انما هي في الواقع دلائل على يقظة نفسية بعيدة لا بدّ من الوصول اليها . في حين أن ما كان يحسب « بلاغة » و« فصاحة » صار لا يحسن إلاّ للعرض في متحف الآثار ...

وافتقار مصر الى شركات الطبع والنشر بحيث أن الكاتب عند ما يشرع في تأليف كتاب عليه أن يفكر أيضاً في كيفية طبعه على نفقته الخاصة ثم في توزيع نسخه على المكاتب — هذه العقبة أيضاً كان لها أثرها في تنويع موضوعات الصحافة ، لان الأديب والكاتب وجد في الصحيفة أضمن وسيلة لاذاعة فكره وترويجه دون خسارة مالية ودون عناء عقيم . وعليه فان وجهاً من أهم وجوه تطوُّر اللغة وتطور الافكار بعصر نجده مدوَّناً في الصحيفة اليومية والمجلة الشهرية خلال الأعوام الاخيرة . وأجزم بأنه في هذه وتلك أظهر منه في المؤلفات الحديثة — وان كان لهذه شأنها الخطير وكان بعضها مجموعاً من مقالات ذات موضوعات متناسقة نشرت في الصحف

صحيح ، ولكن ...

تقرير تطوُّر اللغة هو تقرير للواقع ، ولكنه لا يعني ان كل من حمل قلماً يكتب بالاسلوب الذي وصفت . بل يعني ان خطوة حاسمة تمت في هذا الباب وان الوقت ضمين باصلاح العيوب الباقية . ان أنصار القديم كثيرون جدًّا وهم على درجات : بعضهم يسيرون في حركة التجديد بحذر ، وغيرهم يجارونها في اعتدال ، ويرى آخرون في هذا التجديد الانحطاط كله ولكانوا يندبون حظ اللغة العربية ويصنفون لها المراثي شعراً ونثراً لولا أنهم ، لحسن الحظ ، موجودون يجددون بلاغتها القديمة ببلاغتهم ويحرصون على اللهيب الدهري منكرين كل وقود حديث لتغذيته ! وأسلوب المجددين ليس كله من طراز واحد ، ومنهم من لا يفوز بالتخلص من الاستعارة القديمة وان ابتكر هو استعارته فهي رجع لاصداء غير جديدة . إنما يتسم المجددون بالسرعة والرشاقة والحماسة والفكر المليء وإحكام التعبير إجمالاً . ويحرص أنصار القديم على هندسة الانشاء ومتانته، وينسقون توازن الجمل وإيقاعها ويدققون في معان وأغراض إضافية لا يتسع لها صبر المجددين ولا وقتهم . والمعارك القلمية التي تنشب الوقت بعد الوقت بين هؤلاء واولئك تأتي بالترتيب بعد المعارك الحزبية في الشدة والعنف . ومن الغرور أن نزعم أن الاسلوب الجديد بلغ منتهى الكمال أو انه خلص من شوائب الجدة نفسها — ولكن نزعة الكتّاب حرية بالاعجاب

وعلام لا نقول ان كلاً من الفريقين على حق في الوجود وعلى حق أيضاً في وجهة نظره ؟ فأنصار القديم — كأشباههم في كل أمة وكل زمن — يخفرون تراث الماضي واثقين من ان

الادب المستحدث لن يأتي بخير منهُ ولا بما يدانيه . وموقفهم لا يخلو من الفائدة للمجددين لانهُ يحملهم على تمحيص نزعتهم وتهذيبها ، وقد يفيد في إرهاف تلك النزعة وفي تعجلها ايضاً . وبخاصة لانهُ لا يندر أن يستوحي المحافظون الافكار الحديثة التي يقاومونها . أما أنصار الجديد فهم الذين يضيفون الى السجل القديم فصولاً جديدة بلهجة جديدة ، وهم الذين يستأنفون تاريخ اللغة التي عبرت من قبل عدة اطوار خلال القرون الغابرة ، وفقاً لما كانت تتأثر بهِ من ثقافة وتتصل بهِ من حضارة . أترى أدب الاندلسيين هو هو أدب الامويين بعينهِ ؟ أوَ لم يختلف أدب هؤلاء نفسهم حقبة بعد حقبة في صفحة تاريخهم ؟

والى جانب أنصار القديم وأنصار الجديد طائفة من الكتّاب والصحافيين والادباء جمعت بين محاسن العهدين وهي في الغالب تفوز بتحبيذ هؤلاء واولئك — الا عند ما يهاجمها فريق من ناحية اللغة وفريق آخر من ناحية الفكر…

(٢) الادب الحديث

ليست هي الالفاظ ولا هو الاسلوب ما يؤبه لهُ في مسألة اللغة الادبية . للاسلوب قيمة في نفسهِ من حيث هو صيغة فنية ، وما الالفاظ الاّ تفاصيل في تلك الصيغة . ولكن الشأن الاعظم في العقلية والنفسية التي تترجم عنها الالفاظ ويصورها الاسلوب . والعقلية والنفسية في مصر الحديثة آخذتان في التغير ، وما الادب الجديد الاّ اعراب عنهما . فهو بجوهره قد شذّ عن تعريف ابن خلدون القائل ان « المقصود منهُ (الادب) عند اهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فنيّ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم . . . » . الاجادة على أساليب العرب ومناحيهم ؟ هذا ما لا يريده الادب الحديث لان مثل هذه الاجادة تخلق الاديب الراوي والاديب المقلد ، لا الاديب المنتج المبدع . وليس هذا الاباء ليعني الطعن في اساليب العرب ومناحيهم . بل بالعكس ترى ان ادباء اليوم يعنون كل العناية بدراسة تاريخ الادب وبتحليل شخصيات قدماء الادباء والشعراء وبحث التأثيرات التي احاطت بهم في بيئتهم فأوحت اليهم . وقد صدرت كتب عدة في هذا الباب ، وعولجت شخصيات الشعراء والناثرين وما زالت تعالج في المحاضرات العامة وفي مقالات الصحف اليومية وفصول المجلات الشهرية ، بدراية وحذق لم نعهدها من قبل

ولكن الادباء يفهمون تلك الآثار على حقيقتها . يرونها حسنة في ذاتها لتوافقها والوقت الذي كتبت فيهِ ، لتصويرها العصر الذي اوحاها ، لكونها قطعة حية من الفكر الذي املاها والشخصية التي رسمت ذاتها فيها . اما اذا قام اليوم فرد يكتب بتلك اللهجة وينتحل تلك العقلية فهو بذلك معلن عجزه عن مجاراة السلف في استعداده للحياة التي هو ابنها ، وفي تلقي التأثيرات

الخاصة المحيطة بهِ لتكوين شخصيته وفقاً لعصره

وقيمة هؤلاء الادباء الجدد في كونهم حقاً ابناء العصر الذي ولدوا فيهِ . واي عصر مدهش هو ، يصطدم فيهِ حولهم الماضي الذي ما زال حيًّا في بيئتهم بالحاضر القائم والمستقبل المهاجم . في كل بلد من بلدان العالم إجفال من هذه المفاجئات العلمية والاجتماعية والفكرية العاملة على تكييف الاقوام تكييفاً لا يعلم احد مداهُ ، مع ان تلك البلدان كان التطور فيها متتابعاً متسقاً جيلاً بعد جيل . اما في مصر فقد بلغ الاجفال اشده لاستيقاظ الجيل الجديد وقد باغتت فكره ثقافة مليئة زاخرة مكتسحة . فهو يدرك كل ما يخسره إن لم يأخذ بأسبابها ، ولكنهُ لا يستطيع بالسرعة التي يبتغيها لانهُ من الناحية الواحدة عليهِ ان يكافح جميع العقبات الداخلية والخارجية القائمة في سبيله ، وهو من الناحية الاخرى لا يريد ان يفقد شخصيتهُ في انتحال الحضارة الغربية بحذافيرها . بل يريد أن يقتبس منها ما يوافق طبيعته وموقفه بين الشعوب ، ويريد ان « يمصر » ما يقتبسه قدر المستطاع . فلئن وجد الجيل الجديد في يقظته شيئاً كثيراً من بهجة الحياة فهو يجد كذلك أن نصيبه من الحيرة والاضطراب والقلق المسؤولية اكبر . يشعر بالاجنحة تصطفق على كتفيه ولكنه يشعر بالقيود مثقلة يديه وقدميه . ومن مجموع هذه الادراكات والاحساسات تتكوَّن شخصيته الأدبية الجديدة . وهي فوق ذلك شخصية ذات عزم وشجاعة واقدام ، غير راضية عما هي فيه ، ساخطة من نتاجها الأدبي تشكو أبداً جمود الحركة الفكرية وترجعها إلى شتى الأسباب . وهذه الشكوى أدل ما تكون على ما يصطخب في النفوس من عديد الرغبات والنزعات

وقد أقلع الأدب عن الموضوعات الكلامية وخاض ميدان الحياة القومية يكتشفها ويحللها وينقدها مشيراً الى وسائل التجديد والاصلاح في الثقافة والتعليم والاجتماع والاقتصاد وتحرير المرأة وتحرير الرجل أيضاً . الأديب يشعر مع قومه ويتكلم عنهم ، يستوحيهم ويملي عليهم ، يأخذ منهم ويعطيهم ، يتلقى منهم صامتاً الفيض والخصب ويمدهم في كتاباته بالخصب والفيض . ينظر في حاجتهم وألمهم وفرحهم وعيبهم وأملهم فيستلهم حبة قلبه ومجموعة مطالعاته واختباراته ليدلهم على وسائل النهوض . إنه لأدب شائق متحمس حار غيور . وعندي ان بينا هذا المجهود يكون شخصية الاديب ويمكنه من استغلال قدرته واغنائها فهو كذلك يقود القارىء إلى استكشاف نفسه ويبعث فيه الشوق إلى استغلال قدرته الشخصية ، ويعينه على تكوين شخصيته الخاصة . وهكذا بفضل الأدب الجديد تتنوع الشخصيات في المجموع ، بدلاً من ان تكون كلها على غرار واحد شأنها في الأمم التي هي في حالة البداوة والفطرة . ويخيل اليَّ أن هذه الخدمة هي من أهم ما يقوم بهِ الأدب الحديث

« ميّ » (يتلى)

كوبري الخديوي اسماعيل

(قصر النيل)

بحث علمي للدكتور وليم سليم حنا الاستاذ بمدرسة الهندسة الملكية

مقدمة عامة

يفتتح صاحب الجلالة الملك في السادس من يونيه الحالي كوبري الخديوي اسماعيل الجديد فيعود بذلك الاتصال المباشر ما بين قلب القاهرة والضفة الغربية من النيل ويوفر بذلك عدد كبير من سكان القاهرة والجيزة كثيراً من الوقت والمال ويتمكن جمهور آخر من الطبقة الفقيرة من العودة الى التمتع بمتنزهات الجزيرة في المساء في اشهر الصيف بعد حرمان دام زهاء سنتين . ولموضوع انشاء الكباري ناحية يود الرجل المثقف ان يعلم شيئاً عنها من دون ان يشمل البحث المسائل الهندسية البحتة التي لا تهم غير المهندس . ونحاول ان نعالج في هذا المقال تلك الناحية الخاصة

لقد تمَّ انشاء كوبري قصر النيل القديم في سنة ١٨٧١ وكان يعد في زمانه من المنشآت الهامة التي تمت في ذلك العهد . وقد كان الجزء المعدني من مادة الصلب الطري Wrought Iron لان مادة الصلب Structural Steel لم تكن قد عرفت بعد . وقامت بتجربة الكوبري في ١٠ و١١ و١٢ فبراير سنة ١٨٧٢ لجنة من قبل الحكومة برآسة الفلكي باشا . وقد جاء وصف التجربة في محاضرة للاستاذ السيد جودت بك مفتش الكباري القاها بجمعية المهندسين الملكية قال: «واجري تجربة في يوم ١٢ بواسطة مرور بطارية طوبجية راكبة مكونة من ستة مدافع وقد مرت اولاً بالخطوة المعتادة ثم مرت دفعة اخرى بخطوة الغار ثم قسمت البطارية الى قسمين مرّا سويًّا من الشاطىء وتقابلا وسط العين المتوسطة ووقفا دفعة واحدة ولوحظ انهُ لم يحصل للقنطرة الا اهتزاز قليل قرر القومسيون انهُ لا يضر بثباتها» و«بلغت تكاليف القنطرة ١١٠٠٠٠ جنيه مصري »

وبديهي ان كوبري قصر النيل لم يصمم لحركة المرور المشهودة في هذا العصر بما في ذلك السيارات الثقيلة . غير انهُ قد كان في الاستطاعة تلافي هذا النقص بعض التلافي كما حصل فعلاً بمنع السيارات الثقيلة من اجتيازه . لكن الكباري المعدنية يدركها نوع من الهرم واثر هذه الظاهرة في الصلب الطري ان تتبلور ذرات المادة فتفقد مرونتها وتصبح عرضة لان تخور بدون انذار . ومن ثم اتجهت الفكرة الى انشاء كوبري جديد لان اهتزاز الكوبري القديم كان بيّناً كلما كثرت

حركة السيارات عليهِ . ولا يستطيع مهندس مسؤول ان يهمل ظاهرة خطرة كهذه لما قد ينجم عنها من كوارث وخسائر مالية . وعلى ذلك تقرر ان يبدأ في انشاء الكبري الجديد في اوائل سنة ١٩٣١ وعرضت المناقصة بين شركات اوربية مختلفة وترك لها اختيار تصميم الكوبري وقامت مصلحة الطرق والكباري بمصر بعمل الشروط الخاصة او ما يسمى فنيًّا «بالمواصفات» وهي مهمة خطيرة يجب ان تدرس بعناية حتى لا تصبح موادها مثاراً للخلاف اذا جاءت ناقصة او مبتورة . ويهم غير المهندس ان يعرف من هذه الشروط انها تنص على ان يكون عرض الكوبري ٢٠ متراً بما في ذلك رصيفان للمارة عرض كل منهما متران ونصف متر . وان يجيء التصميم متسقاً مع جمال المناظر الطبيعية في تلك المنطقة وهي للعابر نحو الضفة الغربية من اجمل مناظر مدينة القاهرة بلا نزاع . والمنشآت المعدنية بوجه عام والكباري بوجه خاص لا تتصل عادة بجمال المنظر اتصالاً كبيراً . ولكن وجّهت العناية في اوربا واميركا منذ زمن غير بعيد الى تقدير الفن Art في مثل هذه المنشآت ، يشهد بذلك بعض كباري نهر السين بباريس وخصوصاً كوبري اسكندر الثالث وما نراه في روعة بعض الكباري ذات الفتحة الواحدة الكبيرة فوق مينا سدني باستراليا وعلى نهر الهدسن باميركا حيث وجهت عناية خاصة الى جعل تصميم هذه الكباري متلائماً مع المناظر الطبيعية الرائعة . وفي هذه الكباري العظيمة تبلغ سعة الفتحة الواحدة فيها مسافة تفوق عرض النهر عند كوبري قصر النيل . وبالرغم من ضخامتها التي لا تؤاتي العناية باظهار جمالها فقد نجح المهندسون في هذه الناحية نجاحاً عظيماً . ومما قد يهم معرفته ان الكباري ذات الفتحات الواحدة الكبيرة عظيمة النفقات فلو ان كوبري الخديوي اسماعيل الحالي صمم فتحةً واحدةً لبلغت نفقاتهُ نحو مليوني جنيه مع ان نفقاته بشكله الحالي المستند الى دعامات تبلغ ثلث مليون . هذا فضلاً عن ان التربة المصرية الرخوة لا تسمح بانشاء الكباري ذات الفتحات العظيمة (المعلّقة)

ويلاحظ القارىء في مروره على كباري القاهرة ان منها ما يعلو طريقه على الكمرات المعدنية الحاملة للكوبري كما نراه في كوبري عباس والملك الصالح ومنها ما تعلو الكمرات المعدنية فيها على الطريق مثل كوبري بولاق وقصر النيل القديم وامبابه . فاذا اشترط ان يتفق انشاء الكوبري وجلاء جمال النهر في تلك البقعة كان لزاماً ان يجيء التصميم من النوع الاول . غير ان ثمة صعوبة خاصة لتنفيذ ذلك في تلك المنطقة لان منسوب الطريق ٥٥و٢٣ متر فوق سطح البحر المتوسط واعلى منسوب لفيضان النيل ٥٥و٢٠ متر ولما كان من الواجب ألاّ تصل مياه الفيضان الى الاجزاء المعدنية فان الفرق بين المنسوبين اي ثلاثة أمتار لا يكفي لارتفاع الكمرات الرئيسية للكوبري وكمرات الطريق إلاّ اذا استعملت فتحات عديدة ضيقة تشوه منظر النهر فضلاً عن استحالة تنفيذ الفكرة من الوجهة الاقتصادية والملاحية . واذا ذكرنا هذه التفصيلات فلكي

يشترك القارىء في فهم سر بعض ما يشاهده عند المرور على الكبري الجديد

وقد كانت نتيجة هذه المسابقة الدولية ان فازت شركة دورمان لونج الانكليزية لجاء عطاؤها اقلها ثمناً وتساوت معها تقريباً شركة أخرى انكليزية غير ان تصميم الشركة الاولى نجح نجاحاً كبيراً في معالجته موضوع تجميل الكوبري ولذلك عهد اليها في انشائه

﴿ وصف الكبري الجديد ﴾ يبلغ طول الكبري الجديد ٣٨٢ متراً فهو أقصر من الكوبري القديم ببضعة أمتار وهو من النوع المعروف فنيًا بالكمرات اللوحية على مثال كوبري الملك الصالح بمصر القديمة تمييزاً له عن النوع الآخر المكوّن من إطارات على شكل مثلثات على مثال كوبري بولاق والزمالك. وكل من النوعين صالح للفتحات الحالية التي بين الدعامات الحاملة الكوبري وتتراوح بين ٤٠ متراً و ٥٠ متراً وقد قوس الجزء الاسفل من هذه الكمرات بهيئة عقد (شكل ١) وان كانت من الناحية الفنية ليست عقداً لاستحالة انشاء العقود الكبيرة على اساسات رخوة كالتي نصادفها في قاع النهر بمصر. والغرض من هذا التقويس الا يجيء منظر الجزء المعدني بعرض النهر على وتيرة واحدة لو جعلت ذات ارتفاع واحد فتمل العين رؤيتها. ويستند الكوبري الى تسع دعامات فتسمى الدعامتان عند نهايتيه بالاكتاف والدعامات المتوسطة بالبغال. وهناك سبعة بغال احداها متوسطة وهي مستديرة كبيرة يبلغ قطرها ١٦ متراً وتحمل الجزء المتحرك من الكوبري. وتستند هذه الدعامات الى اساسات خاصة تسمى « القيسونات » واكبر مسافة بين منتصفي بغلتين (وتسمى الفتحة) ٥٠ متراً. وقد عالج المهندس الصعوبة الخاصة بمنسوب الطريق بان قرر رفع مستوى الطريق متراً وربع متر عن مستواه القديم فاقتضى ذلك ان يرفع منسوب الطرق المؤدية الى الكوبري وقد تيسر تنفيذ الفكرة لعدم وجود مبان قريبة يؤثر فيها ارتفاع الطريق. ثم عمد الى تجميل مدخلي الكوبري فانشأ مسلتين في كل مدخل عند نهايته على النمط الحديث ترتفع المسلة منها عشرة أمتار عن الطريق وفي أعلاها منارة كبيرة كهربائية وعند أسفلها وامام الداخل الى الكوبري اقيمت قاعدتان ترتفعان نحو متر وثلاثة أرباع المتر عن مستوى الطريق لترفع عليها أسود الكوبري القديم البرونزية والى جانبي الكوبري درج من الرخام المصري يؤدي الى منبسط يمتد على جانبي الكوبري وبه عدد من الحوائط الساندة التي تمنع انهيار الطريق عليه. وكل هذه الحوائط والمسلات مصنوعة من الجرانيت المصري (الشكل نمرة ٢) وينار طريق الكوبري بمصابيح كهربائية ذات شكل خاص تتفق مع الروح الفنية السائدة في مبانيه. وقد بنيت بغالهُ كذلك من الجرانيت المصري وملئت في وسطها بالخرسان

﴿ الأساسات ﴾ أساسات الكوبري هي أهم اجزائه وأعظمها خطراً ويستطيع القارىء ان يتصور ان التربة الرخوة التي توجد تحت قاع النهر لا تستطيع ان تتحمل وزن البغال وما تحمله

من وزن الكوبري والاثقال التي يحملها . ولا توجد بمصر في المناطق المأهولة طبقات صلدة قريبة من سطح الارض إلاَّ في جهات معينة كاسوان . اما في غير ذلك فطبقات الارض مكونة من رواسب النيل الرخوة مختلطة بالرمل حتى تصل الى عمق يعادل منسوب البحر المتوسط. فان زاد العمق عن ذلك صادفنا طبقات رملية مختلطة بالطين الى ان نصل الى طبقات رملية متفاوتة الصلابة يستطيع المهندس ان يضع أساساته على احداها متى كانت خشنة وبها قدر من الحصى (الزلط) . وقد بحثت مصلحة الطرق والكباري في هذه المنطقة لمعرفة خصائصها الجولوجية في قاع النهر وتحت موقع الاكتاف عند الضفتين . فاتضح ان هناك طبقة صالحة عند منسوب (—٧) تحت مستوى البحر المتوسط اي على عمق نحو ٣٠ متراً من منسوب الطريق عند ضفة النهر. ولما كان منسوب مياه النيل في هذه المنطقة ١٦ متراً فان معنى ذلك ان اساسات الكوبري يجب ان تخترق المياه وطبقات مشبعة بها مسافة ٢٣ متراً. وللوصول الى تلك الطبقة الصالحة تبنى الاساسات بواسطة القيسونات او العلب

والقيسونات هي في الواقع صناديق عظيمة جوانبها من الواح افقية من الصلب مبرشمة بعضها الى بعض وشكلها على شكل الكتف او البغلة التي تبنى داخلها فاذا كان الكتف مستطيلاً كان القيسون كذلك. ولما كانت بغلة الجزء المتحرك مستديرة كان قيسونها مستديراً (شكل نمرة ٣) وراعى ان تكون ابعاده اكبر قليلاً من ابعاد البناء الذي يقام عليهِ . فمثلاً بغلة الجزء المتحرك قطرها ١٦ متراً فيكون قطر القيسون نحو ١٧ متراً وارتفاع القيسون في كوبري الخديوي اسماعيلِ نحو ٢٦ متراً أي اعلى من بناء فندق سميراميس . ولكن القيسون لا يصنع دفعة واحدة بل لا يزيد ارتفاعه في مبدأ الامر عن ثمانية امتار

وهذا الصندوق الذي نسميهِ القيسون يختلف عن الصناديق العادية في أن قعرهُ يرتفع عن نهايتهِ السفلى بنحو مترين وربع متر ويميل عند طرفيهِ حتى يتصل بنهايتهِ السفلى . وفي الشكل نمرة ٤ ترى ذلك واضحاً في قيسون الكتف وهو مستطيل ولما كانت الالواح الصاج عرضة للانبعاج فيحيط بجوانب الصندوق وبقعرهِ المرتفع إطار قوي من الصلب تراه واضحاً في نهاية الشكل ثم يثبت الى حافة هذا الصندوق السفلى لوح سميك من الصلب ويبرز عن حافتهِ قليلاً ويسمى السكين. ومتى تمَّ تغطية قاع الصندوق الخاص هذا اصبح ما يليهِ الى اسفل فراغاً مقفلاً من اعلاه وجوانبه ومفتوحاً من اسفل أشبه بغرفة لا ارض لها وتسمى غرفة الحفر. وسقف هذه الغرفة هو قعر الصندوق الحديدي وفي وسط الغرفة فتحة مستديرة كبيرة تركب عليها اسطوانة رأسية تسمى اسطوانة الهواء وهي مكوَّنة من عدة اسطوانات من قطاع واحد تتصل بعضها ببعض اتصالاً لا ينفذ منهُ هواء سواء حيث يتصل بعضها ببعض او حيث تتصل بغرفة الحفر. وتقطع الواح القيسون الصلب في انكلترا وتثقب ويجرَّب صلاح وصلاتها ثم ترقم بطريقة خاصة

ليسهل تركيب اجزائها على نحو ما ترى في الشكل (٤) وعند بنائها بمصر تركب قيسونات الأكتاف على اليابسة في موقع الكتف بالضبط ، اما قيسون البغلة فيركب في مكان خاص على اليابسة وبارتفاع ثمانية أمتار ويوضع على قضبان مائلة ثم تسحبها الرفاصات نحو النهر حتى اذا استقرَّ فيهِ ظل طافياً كالباخرة . وترى في الشكل (٣) قيسون بغلة الجزء المتحرك قبل سحبهِ ويمكن ملاحظة السكين واضحاً حول محيط القيسون من اسفل . ووصلات الالواح في كل مكان مانعة للمياه فلا يخشى من تسرب المياه الى داخل القيسون . ويكون محيطهُ الاسفل على مترين تحت سطح المـاء عند ما يطفو وهو في طريقهِ الى مركزهِ في النهر وقبل ان يسحب القيسون تنشأ دمسات خشبية كبيرة حول موقع القيسون ترتكز على خوازيق خشبية تدق في قاع النهر ليوضع على هذه الدمسات مواد البناء والخرسان والروافع وآلات خلط الخرسان الى غير ذلك . والى ذلك ينزل الغطاس ليمهد قاع النهر تحت موقع القيسون فاذا تم ذلك سحب القيسون الى موقعهِ بالتقريب وثُبّت في ذلك المكان بواسطة مخاطيف واسلاك معدنية . وتبدأ آلات خلط الخرسان في العمل ليل نهار وترمي الخرسان الى اسفل القيسون بواسطة انابيب معدنية واسعة فتملأ اولاً الفجوة المثلثة بين جوانب القيسون والجزء المائل من سقف غرفة الحفر ثم تغطي الجزء الافقي من السقف وترتفع فوقهُ تدريجيًّا ويلاحظ ان يبعد الخرسان قليلاً عن اسطوانات الهواء ليسهل فك هذه في نهاية العمل. ومن هذا الوصف يرى القارىء ان غرفة الحفر تظل فارغة لا يصل اليها خرسان وتكون مغمورة بالمياه . فاذا ازداد ثقل الخرسان هبط القيسون تدريجيًّا حتى يلمس السكين قاع النهر . وعند ذلك توضع علامات تحدد محاور القيسون بالضبط على حافتهِ العليا وتضبط محاور الكوبري الجديد على الدمسة الخشبية ويستعمل التيودوليت (السدس) في ذلك ثم يحرك القيسون في كل ناحية حتى تنطبق محاوره على محاور الكوبري فيثبّت في هذا المركز وتلقى فيهِ مقادير اخرى من الخرسان فتبدأ السكين ان تغوص قليلاً في وحل قاع النهر ولا يخشى تحرك القيسون عن موقعه كثيراً بعد ذلك

ويرى المتتبع لهذا الوصف انهُ لو استمرَّ نزول القيسون بعد ذلك لارتطم سقف غرفة الحفر من اسفل بقاع النهر ولاستحال نزول القيسون بعد ذلك . ويلاحظ انهُ ما بين وصول القيسون الى موقعه وبين هبوطه الى ان يلمس قاع النهر ويستقرَّ عليهِ بضعة سنتيمترات، لابدَّ ان تزاد الواح جانبية اخرى الى اعلى القيسون وكذلك وصلات من اسطوانة الهواء لتمنع تدفق المياه الى الداخل من جوانب القيسون العليا . وعند هذه المرحلة يركب على اسطوانة الهواء هويس هوائي هو عبارة عن غرفة مستديرة كبيرة جوانبها من الصلب لا ينفذ منها هواء ولها باب خارجي وفتحتان دائريتان كبيرتان احداهما في سقفها والاخرى في ارضها وهذه

الفتحة الاخيرة ذات قطاع بمساحة وشكل قطاع اسطوانة الهواء وللفتحة العليا في سقف الهويس بابان من الحديد المبطن بالمطاط بينهما اسطوانة ارتفاعها نحو متر وربع ولا يمكن فتح هذين البابين فاذا فتح احدهما أغلق الثاني من تلقاء نفسه . وعند دخول الهويس من الباب الخارجي تجد مساحة ضيقة منه تسمى الغرفة الخارجية مقفلة الجوانب إلاَّ من باب داخلي يؤدي الى الفتحة المتصلة بأعلى اسطوانة الهواء وتسمى بالغرفة الداخلية (انظر شكل ٥) ومتى ركب الهويس الهوائي (ويسمى بالكباية) وسُلط هواء مضغوط على الغرفة الداخلية أقفل بفعل الضغط (اولاً) الباب ما بين غرفتي الهويس ثم الباب الاسفل في الفتحة الموجودة في سقف الهويس ثم يسير الهواء داخل اسطوانة الهواء المملوءة بالمياه (بمنسوب مياه النهر) فيدفع الماء خارجاً من طريق غرفة الحفر التي لا قاع لها ومتى زاد الضغط عن ضغط المياه داخل غرفة الحفر طردت المياه من غرفة الحفر مجتازة مسام الطين وتظهر بشكل فقاقيع على سطح المياه .ويظل الهواء المضغوط ليل نهار باستمرار وإلاَّ طغت المياه على داخل غرفة الحفر في لحظات وكلما هبط القيسون زاد الضغط المائي فيزاد تباعاً ضغط الهواء

فاذا تمَّ تركيب الهويس الهوائي (انظر شكل نمرة ٦) وطردت المياه من غرفة الحفر دخل العمال من الباب الخارجي للهويس الى الغرفة الخارجية ويسلط الهواء المضغوط بالتدريج داخلها فيقفل الباب الخارجي من تلقاء نفسه ومتى وصل الضغط في الغرفة الخارجية الى مثله في الغرفة الداخلية انفتح الباب بينهما من تلقاء نفسه او بدفع بسيط فيدخل العمال الغرفة الثانية ويصبحون على رأس اسطوانة الهواء من أعلى ويوجد في داخل الاسطوانة سلم حديدي يؤدي الى غرفة الحفر وفراغ آخر خاص تجري داخله اسطوانة كبيرة على شكل دلو . ومتى نزل العمَّال في غرفة الحفر بدأوا بحفر قاع النهر داخل القيسون ابتداء من الوسط ومتجهين نحو المحيط . ويكون قاع النهر كثير الوحل ولكن طرد المياه منه لا يجعل السير عليه بأصعب من السير في الطرق الترابية في يوم ممطر .وتنار غرفة الحفر بالكهرباء.فاذا ملىء الدلو بمتخلفات الحفر اعطيت الاشارة للعامل المختص فيبدأ برفع الدلو بواسطة سلك معدني له فتحة خاصة متقوبة في وسط الباب العلوي الذي يغطي سقف الهويس ومربوط بالدلو من ناحية وبآلة رفع من نهايته الاخرى .ومتى وصل الدلو الى الفراغ بين البابين الموجودين في سقف الهويس (تمييزاً لهما من البابين المؤديين الى غرف الهويس الذين يدخل منهما العمال) أقفل الباب الاسفل وفتح الاعلى وتلقى متخلفات الحفر . ثم يعاد الدلو الى اسفل بطريقة عكسية . ولا يخفى انه لو تسرَّب الهواء المضغوط من هذه الابواب لطغت المياه على غرفة الحفر واهلكت العمال غرقاً . وفي اثناء استمرار الحفر ليل نهار يراعى ان يكون وزن الخرسان الذي يملأ القيسون من داخله بحيث يحدث هبوطاً بمقدار الحفر الذي تمَّ داخل القيسون — ويشعر الرجل بشيء من الوخز

في الاذنين متى دخل غرفة فيها هواء مضغوط وبقليل من ضيق التنفس ولذلك يكشف طبيباً على المهندسين والعمال الذين يعملون في غرفة الهواء المضغوط . ولكن هذا الشعور لايلبث ان يزول متى بقي الرجل زمناً قليلاً متأثراً به واكثر الخطر عند الخروج من القيسون الى حيث يكون الضغط عادياً وخصوصاً عند ما يرتفع ضغط الهواء في المراحل الاخيرة فيصاب العامل بمرض « القيسونات » او بما يسميه العمال « ضرب الهواء » وليس هناك خطر كبير من هذا المرض بقدر ألمه الوقتي الشديد الذي يستمر بضع ساعات .ولذلك يبقى العمال عند انتهاء عملهم ثلاثة ارباع الساعة في الغرفة الخارجية في طريقهم الى الخارج حيث الضغط العادي ويخفف الضغط في اثناء ذلك تخفيفاً متدرجاً تدرجاً بطيئاً

***

ويستمر هذا العمل ليل نهار حتى يصل سكين القيسون الى منسوب — ٧ وتكون اسطوانات الهواء وألواح الصاج المكونة لجوانب القيسون قد زيدت مراراً وفقاً لهبوط القيسون وكلما زيدت اطوال اسطوانة الهواء يحتاج الامر الى رفع الهويس الهوائي مؤقتاً ثم اعادته ثانية في اعلى الاسطوانة التي اضيفت جديداً .وفي كل مدة تقفل اسطوانات الهواء من اسفل اقفالاً محكماً ويستمر الهواء المضغوط في داخل غرفة الحفر بواسطة مجرى خاص مستقل. وعند ما يصل قاع القيسون الى منسوب — ٧ يكون ارتفاع جوانب القيسون الصاج نحو ٢٦ متراً ويصمم القيسون على ان يكون منسوب السطح الخرساني داخله على منسوب + ١٠ في ذلك الوقت نفسه — ومتى انتهى من الحفر تملأ غرفة الحفر بالخرسان وتقفل جيداً عند اتصالها باسطوانة الهواء وتفك اسطوانة الهواء وترفع لاستعمالها في قيسون آخر . ثم يبدأ ببناء البغلة داخل القيسون فوق سطح الخرسان حتى اذا ارتفعت المباني فوق سطح مياه النهر نزل الغطاس وفك وصلات الصاج عند منسوب الخرسان وترفع الالواح بواسطة روافع فتظهر مباني البغلة بعد ان كانت تحجبها الواح الصاج التي هي جوانب الصندوق الحديدي الذي نسميه القيسون

﴿ تركيب الجزء المعدني ﴾ يبدأ بتركيب الجزء المعدني عند تمام بناء البغال الجديدة وبعد ازالة مباني البغال القديمة حتى مستوى قاع النهر مستعينين في الجزء الاخير هذا بالغطاس وادوات التفكيك. وتصنع الاجزاء المعدنية في الخارج باطوال تسمح بنقلها في البواخر ثم تركب معاً هناك للتأكد من ضبطها وترقم بطريقة خاصة طبقاً لرسوم موضوعة. وهناك طرق مختلفة لتركيب الاجزاء . وفيما يلي وصف الطريقة التي اتبعت في كوبري الخديوي اسماعيل

قبل تركيب اجزاء الكوبري يبتدىء بدق كتل خشبية طويلة في موضع الكمر المعدني بالضبط وتعرف هذه « بالخوازيق الخشبية » وتغرز في قاع النهر أمتاراً قليلة ولكنها تستطيع

ان تحمل اثقالاً غير يسيرة ثم يبدأ بتركيب اجزاء الكوبري الواقعة فوق الكتف او البغلة فتوضع على مقعد خاص يسمى « الكرسي » وفي كل فتحة كرسي مثبت وآخر متحرك يسمح بتمدد الكوبري تحت تأثير ارتفاع الحرارة. وتستند الاجزاء التالية الى البغلة على هذه الخوازيق الخشبية (انظر شكل نمرة ٧) وتربط معاً بالصواميل مؤقتاً . ويلاحظ ان يكون ارتفاع الخوازيق بحيث متى استند الجزء الواقع عليها الى الذي يليه يجيء شكل الكمرة طبقاً للرسومات الموضوعة حتى اذا استمرَّ العمل الى البغلة التالية رُكبت الاجزاء الباقية على كرسيها. ثم تختبر ميزانية الكمرة كلها للتأكد من انطباقها على حقيقتها مخافة ان يقع خطأ في التركيب او هبوط صغير في الخوازيق. ومتى ثبتت صحتها تبرشم الوصلات بعد فك الصواميل منها . ويلاحظ عند انشاء الاجزاء المعدنية ان تكون المسافة بين منتصفي البغلتين عند درجة حرارة ثابتة فمثلاً اذا كانت الفتحة ٥٠ متر وضعت الاجزاء المعدنية بحيث تكون ابعادها ٥٠ متراً عند درجة ٦٠ فارنهيت فلو ركبت في يوم درجة حرارته ٩٠ فارنهيت نجد ان طول الجزء المعدني وهو ٥٠ متراً يزيد سنتيمتراً واحداً فيراعى ذلك عند الكرسي المتحرك بأن يكون محوره بعيداً عن محور البغلة بمقدار سنتيمتر. ولكن يراعى ايجاد فتحات بين اجزاء الكوبري لذلك ولتمدد الحرارة شأن كبير في تركيب اجزاء الكوبري ويجب حسابه بالتدقيق . ومتى تم تركيب الجزء المعدني لفتحة ما عمل الطريق فوقه بالخرسانة المسلحة ثم يرصف بطوب الاسفلت

***

ومن الصعوبات الهندسية النادرة ان بغلة الجزء المتحرك وقعت في موضع احدى بغال الكوبري القديم فهدمت مباني البغلة القديمة الى منسوب القاع قبل مجيء القيسون وعند ما بدأ القيسون في الهبوط اخذ العمال في كسر مبانيه القديمة وحفر الاتربة من قاع النهر في نفس الوقت وظلَّ العمل سائراً في الحفر وهدم المباني حتى موضع القيسون النهائي ولولا ان مساحة البغلة القديمة صغيرة بالنسبة لبغلة الجزء المتحرك لتعذر تنفيذ ذلك على النحو المتقدم

وتشرف مصلحة الطرق والكباري على اعمال الانشاء نهاراً وليلاً عند ما يستمرُّ العمل فيه لضمان تنفيذ المواصفات المتفق عليها وقد تنشأ احياناً اختلافات فنية كما تنشأ بين الاطباء والمحامين في آرائهم الفنية

ولانشاء الكباري الكبيرة غير فائدتها للمواصلات شأن خاص لمصر في الوقت الحاضر فان المهندسين المصريين يضيفون الى خبرتهم السابقة خبرة جديدة ثمينة في ميدان اقفلت ابوابه في وجوههم الى سنة ١٩٢٣ ومع ذلك استطاع المهندسون المصريون ان يشرفوا بدون اي مساعدة اجنبية على كل الكباري الهامة التي انشئت في السنين الاخيرة مما يدل على ان الاضطلاع بالتبعات الفنية الهامة يخلق نواة قوية يجب ان توجد بمصر في مختلف العلوم الهندسية

القوة والحق

اعلان

للاستاذ احمد محرّم

الحق

أنا الحقُّ فما يُجدي ... ألي القُوَّةِ سُلطانُ
سِلاحي حُجةٌ تُغني ... عن السيفِ وبرهانُ
وروحٌ من لدُنْ رَبٍّ ... لهُ القدرةُ والشانُ
رَمى بجنودهِ قِدْماً ... وملْءُ الأَرضِ طُغيانُ
فلمْ يَغلِبهُ (فِرعونُ) ... ولم يُعجزْهُ (هامانُ)
كذلكَ كلُّ جبارٍ ... لهُ في الظُّلمِ اعوانُ
إذا ما حانَ موعِدُهُ ... تولّى وهو خزيانُ
تولى الناسَ باطلُهُمْ ... فهمْ للظلمِ قُربانُ
تعادوْا في مذاهبهمْ ... وهمْ في الأَرضِ إِخوانُ
امرتُ فلم يُطعْ احدٌ ... ودأبُ القومِ عِصيانُ
أنا المرجعُ فليصدَعْ ... ظلامَ الجهلِ عِرفانُ
بَني الدُّنيا اذكروا عظتي ... فليس يُفيد نسيانُ
رفعتُ الصوتَ فاستمعوا ... وصوتُ الحقِّ رنّانُ

***

القوة

أنا القوةُ يستعلي ... بيَ المُلكُ ويزْدانُ
عليَّ تقومُ سطوتهُ ... ويَعلُو منهُ بنيانُ
وبي تُحمَى حقيقتهُ ... إذا ما خيفَ عُدوانُ
أنا الجحفلُ يحميهِ ... وملءُ البرِّ فُرسانُ
أنا الأُسطول يمنعهُ ... ولجُّ البحرِ نيرانُ
ولولايَ لما استعدَى ... على الاعداءِ إنسانُ

أنا في هذه الدُّنيا لأَهلِ الارضِ ميزانُ
إذا لوَّحتُ للباغي فَتسليمٌ وإذعانُ
وإنْ ذَكرَ المسيءُ في فإجمالٌ وإحسانُ
وما للناسِ من عرضٍ ولا مالٍ إذا هانوا
ولولا الأُسدُ في الغيلِ لعاثتْ فيهِ ذُؤبانُ
وكَمْ مِنْ جامحٍ لولايَ لمْ تملكه أرسانُ
كفى بالضّعفِ مضيعةً وفي الضّعفاءِ تبيانُ
إذا القوّةُ لم ترجحْ فما للحقِّ رُجحانُ

***

الحق

صدقتِ فأنتِ أسُّ الامـــــر للأقوام مذ كانوا
عمرتِ جوانبَ الدُّنيا فأوطانٌ وسكانُ
ولولا فضلكِ الوافي لما استفحلَ عمرانُ
وما لجميلكِ المأثو رِ عندَ اخيكِ نكرانُ
وكيفَ ، وليسَ لي إلاَّ كِ منذ خُلقتُ معوانُ
عليكِ النصرُ إن خصمٌ عناني منهُ خِذلانُ
تلظّى الشرُّ في الدُّنيا فوجهُ الأَرض بركانُ
وعَبَّ عُبابُهُ فيها فأمسى وَهُوَ طوفانُ
وجاءتْ كُتُبُ الله عليها (الحقُّ) عُنوانُ
فلمْ يمنعهُ (إنجيلٌ) ولمْ يَردعهُ (قرآنُ)
ولولا السيفُ لم يُعرفْ على الغبراءِ إيمانُ
يقولُ الناسُ خصمانِ وبعضُ القولِ بُهتانُ
هُمُ الجهّالُ ما عرفوا وأهلُ الجهلِ عميانُ
أمحضُ الحبِّ موجدةٌ وصفوُ الودِّ شنآنُ ؟
أنا انتِ ، وأنتِ أنا وذا للناسِ (اعلانُ)

في أي طريق تساق الحضارة ؟

الازمة الاقتصادية : بواعثها واحتمالاتها الاخيرة

لاسماعيل مظهر

الثورة الصناعية وآثارها

كانت البيئة التي يعمل فيها الصناع مجلبة للهناءة والمسرة . فكان المعمل عبارة عن حجرة متسعة في البيت ، ولها باب يفتح الى الشارع . وعلى الرغم من ان ساعات العمل كانت طويلة الا انها كانت تمر سراعاً لما يتخللها من التسلية والمناظر المتجددة على الدوام . فكان الحذاء او الخياط يتكلم في السياسة ويناقش في الحوادث وهو مكبٌّ على عمله . وكان النجار يستطيع ان يكلم جاره او عميله الذي قد يدخل عليهِ في اثناء عمله يطلب تكليفه عملاً ما . وكان الصانع قبل حدوث الثورة الصناعية واستفحالها فناناً ، يخلق بفنه مميزات صناعية. فكان يضع تصميمها غالباً ، ثم يأخذ في اخراج التصميم الى حيز الوجود ، ويحول ويبدل حتى ينتهي الى صورة تلائم ذوقهُ وميولهُ او ما يكون قد ادرك في ميول الناس . ولا تنسَ ان الصانع اليدوي المستقل كان سيداً حراً يحدد ساعات عمله كما يريد ويبدّل في حالات حياته كيفما يشاء ، كما كان يستولي على كل الربح الذي يمكن ان يخرجه من مصنوعاته من غير شريك فيه

فلما وفدت الآلة على المدنية احدثت تغيراً بل انقلاباً مرعباً في حياة العامل وفي مقامهِ الاجتماعي . فالآلة العظيمة مع ما يتبعها من آلات العمل الصغيرة اقتضت ان يجتمع عدد كبير من الصناع في بناء واحد يسمى المصنع . ولما كان من شأن الآلة ان تكون اقل نفقة كلما كبر حجمها ، بدأ حجم المصانع يزداد في السعة . ولما كانت البقعة التي تلائم قيام معمل تسترعي اليها انظار الذين يريدون انشاء المعامل ، بدأت المعامل يزحم بعضها بعضاً في بقاع بعينها ، وبذلك اخذت المدن الصناعية في الظهور

وكان اول ظاهرة من ظواهر الانقلاب في حياة العمال ، تحوُّل اساسي اخذ يبدو في نظامهم الاجتماعي . فبدلاً من ان يظلَّ العمال مختلطين مع بقية افراد الامة وهم جزء منها يتعايشون ويتعاونون ويتقاسمون المسرات والاحزان كما كانوا قبل بدء الانقلاب الصناعي ، اخذوا بعد حدوث ذلك الانقلاب يتجمعون في بيئات لها مؤثراتها التي كوَّنت من العمال طبقة خاصة لها اوساطها ولها مصالحها ولها ميولها وخصائصها المنفصلة عن بقية المجتمع. وكان لابدَّ من ان يحدث

تجمع العمال في بيئات خاصة حالات اجتماعية على اعظم جانب من الخطورة . فكان للعمال ما يشكون منه وما يتبرمون به في حالات الحياة . ومع مضي الزمن اصبحت حياتهم جحيماً لا يطاق

ومن الانقلابين العظيمين اللذين انتابا المدنية الحديثة ، انقلاب الزارع من تابع حربي الى مستأجر يدفع مالاً تلقاء البدل العسكري في بداءة العصر الاقطاعي ، وانقلاب الصانع الحر الى عامل اجير سلبت ارادته وفنيت في ارادة الآلة ، تكونت الاسس التي قامت عليها المدنية الرأسمالية ، رأس مال المالك الارض وعبيده المزارعون ، ورأس مال صاحب المصنع الآلات وعبيده العمال ، وقامت الحرب سجالاً بين الطبقات

احتمالات الازمة الاقتصادية

الازمة الاقتصادية الحاضرة وليدة امرين لا ثالث لهما . وليدة الامعان في التسليح من ناحية ، ووليدة الامعان في الانتاج من ناحية اخرى . ولا بد للتسليح من اموال تجبى واموال تكتنز . ولا بد للانتاج من اسواق تستهلك فيها المنتوجات وحواجز جمركية تحمي الانتاج القومي . ولقد كانت الحرب العظمى نتيجة لهذه العوامل . ولكنها اظهرت ان هذه العوامل تحمل في تضاعيفها من عناصر الافناء والتحطيم اضعاف ما تحمل من عناصر البناء والتشييد. غير ان الناس لم يظهروا على هذه الحقيقة الا بعد ان عمهم الخراب واخذت عوامل الافناء والتحطيم تعمل في مدنيتهم فتهزها من اساسها وتهددهم بالخراب العاجل . ففي انحاء العالم فقر وجوع وتحفز للثورات والانقلابات الكبيرة ، وفيها بجانب الجوع والفقر محصولات تزيد عن حاجته واموال تكفي لاغنائه . فالعالم الآن يشكو الكثرة ويمرض بالاكتناز . ولكن هل يمكن ان يستقوى الجهد البشري على حالة ارادت الطبيعة ان تكون على غير ما هي كائنة

ان التناقض الظاهر في حالات العالم يدل على ان الجهد البشري سوف يعجز عن محو كل السيئات التي كونها الزمان في خلق هذه المدنية الصناعية القائمة على رأس المال . فكثرة تزيد عن الحاجة بجانبها جوع قاتل . واموال مكتنزة تني بالحاجة بجانبها فقر مدقع . وتحفز للحروب الطاحنة تغلي من تحته الثورات . وضرائب تجبى من الجيوب الخاوية لتعمر بها خزائن الذين غمرتهم الاموال — كل هذه المتناقضات تدل في اول ما تدل عليه ان الجهد البشري سوف يعجز عن معالجة حالة تناصرت على خلقها عوامل تغلغلت في صميم النظام الحاضر واصبحت من دعاماته الاساسية . وهذا في الحقيقة هو عنصر الفساد الذي حملته المدنية الحديثة في تضاعيفها كما أبنا في صدر المقال ، والذي سوف يجرُّ بها الى النهاية التي كانت مصير كل حضارة من الحضارات التي سبقتها

كانت الاعتبارات الاقتصادية اعظم الاعتبارات التي كان من الواجب ان يعنى بها واضعو معاهدة السلم . غير ان هذه الاعتبارات اهملت اهمالاً عجّل في جرّ الخراب على الحضارة . فقد

بولغ في تقدير التعويضات اولاً ثم بولغ في تقدير الغرامة الحربية وبولغ ثالثاً في تعيين الوسائل التي تؤدي الى تسديد ديون الحرب . لم يراعِ الذين وضعوا قواعد السلم الاقتصادية مقدرة الامم على الدفع ولا قدروا ان للشعوب نزعات، يخرج عن طوق الحكومات مهما قويت ان تحتكم فيها . فكانت النتيجة ان كل القواعد التي قامت عليها قواعد السلم الاقتصادية قد انهارت واخذت الامم تعلن افلاسها بتوقفها عن الدفع ، حتى فرنسا التي تجمع خزائنها من الذهب مقادير لا يحصرها الوهم

وبقدر ما اهملت الاعتبارات الاقتصادية في معاهدة السلم روعيت الاعتبارات الاثنولوجية من دون ان يحسب للروابط الاقتصادية التي كانت تربط الامبراطوريات المنحلة اقلُّ حساب. وعمدت معاهدة السلم الى الوحدات الاثنولوجية تكوّن منها وحدات سياسية جديدة تمنحها استقلالاً سياسيًّا تامًّا مقتطعاً من جسم الامبراطوريات المنحلة . ولكن عجزت بالضرورة وكما هو محتوم عن ان تضمن لهذه الوحدات استقلالاً اقتصاديًّا . فكأنها انشأت دولات ذوات صفات سياسية من غير ان يكون لهذه الدولات حقائق اقتصادية . فاضافت بذلك الى اخطائها الاولى في وزن الاعتبارات الاقتصادية خطأً جديداً لم يكن منه بدٌّ ما دامت قد عمدت الى تطبيق عهد عصبة الامم في اوروبا . فأخذت هذه الوحدات او بالاحرى الدولات ذوات الصفات السياسية تعمل على تحقيق استقلالها الاقتصادي فأمعنت في ضرب الضرائب، ثم عمدت الى الحواجز الجركية لتحمي منتوجاتها الصناعية ، فسدّت الاسواق وخنقت سبل التجارة أخذاً وعطاءً . وزاد هذا استحكام الازمة فأحاطت بالحضارة حالات غير طبيعية لا بد من ان تنتهي الى حالة جديدة بغير جدال

على ان هذه الحالات قد صحبتها ظواهر تدل واضح الدلالة على ان معين الحياة في حضارتنا الحاضرة قد نضب وانه لا بد من ان تغذي الحضارة روح جديدة تكوّنها تكويناً آخر وتعيد بناءها على صورة اخرى . فقد رأينا كيف تحول المصنع المستقلّ الى معمل غير مستقلّ وكيف تكونت المعامل فكانت مدناً صناعية اساس حياتها التعاون وكيف احدث تأسيس المدينة الصناعية الحاجة الى الاسواق والتعاون بين المنتج والمستهلك . والآن تعود المدنية الرأسمالية الى الظاهرة الاولى التي قامت عليها. تعود الى الدولة المستقلة استقلالاً اقتصاديا ، فكأنها تحاول ان تبدل المصنع المستقل قبل قيام عهد الآلات بالدولة المستقلة، تعود الى حياة اساسها التنافس لا التعاون والحجر على حرية التجارة لا العمل على التعاون التجاري . وفي هذا دليل على ان صورة المدنية الحاضرة القائمة على رأس المال قد تحجرت وفقدت المرونة الأولى التي قامت على التعاون في فتح الاسواق وتوزيع الثروات توزيعاً يتناسب مع المنتج من المصنوعات ليمكن استهلاكها . ومن وراء ذلك تهدر الشعوب بهدير الثورة بل الثورات التي هي لا بد واقعة

ولكن تنقيح المدنية على وجه جديد يتحقق مع امكان القضاء على سيئات عصر الانتاج الصناعي ، في حين ان نظام المدنية التي سوف تقيمهُ هذه الثورات سيحمل في تضاعيفهِ عناصر الفساد التي تبدأ تعمل على احباط ماسوف تنشىء من مدنيتهِ ، كما كادت تحبط عناصر الفساد التي حملها نظامنا الحاضر ما يقوم حولنا من حضارة . سنة الاجتماع ولن نجد لها تبديلاً

الازمة الروحية

في عصور الانتقال التي تظهر فيها عادة نتائج العوامل التي تكونت على مر الاجيال، تصاب الجماعات بازمات نفسية عميقة الأثر . ففي خلال العصور التي نشأت فيها الاديان الكبرى ظهرت تلك الازمات الروحية باعظم مظاهرها . فقد اصاب العالم الوثني ازمة روحية قبيل ظهور الدين الموسوي ، واصابتهُ اخرى قبيل ظهور الدين المسيحي واحاطت بالعالم النصراني ازمة روحية شديدة قبيل ظهور الدين الاسلامي. وكذلك نجد الحال قبيل ظهور الانقلابات الكبيرة في التاريخ الانساني ، فالحروب الصليبية نتيجة ازمة من تلك الازمات الروحية التي تأخذ بخناق الشعوب ولا تعرف لها من باعث حقيقي اللهمَّ الاَّ البواعث المباشرة التي يزهى المؤرخون بأنهم استطاعوا ان يعللوا بها الحوادث العظمى في التاريخ ، في حين ان بواعثها اعمق غوراً وأبعد عن ان يتناولها البحث الصائب الذي تصح مقدماته فتصح نتائجه ، ويكون لها من الثبات ما للنتائج العلمية . على ان العالم المتمدين الآن مصاب بأزمة من تلك الازمات الروحية التي لن يفلت معها النظام الاجتماعي من انقلاب قد يعظم او يقل خطره على مقتضى الاحوال التي تلابس الانقلاب في اغلب الامر

من مظاهر الازمة الروحية التي اصابت المدنية الحديثة وبالاحرى مدنية الانتاج الصناعي شعور كل طبقة من الطبقات المختلفة شعوراً عميقاً بأن نصيبها من السعادة مهزول لاقيمة له . يتبرم صاحب رأس المال بما ينهكه من المشاغل والمتاعب وتجده في قرارة نفسه يتمنى لو ان الحياة تحبوه قليلاً من رخاء البال وراحة الضمير وأن تقيم بينه وبين متاعب المال حائلاً يحقق له بعض السعادة التي ينشدها . هذا في حالة الفردية . فاذا رجعت الى طبقة اصحاب الاموال باعتبارهم كلاً اجتماعيًا تقع على طبقة مشتركة المصالح تعمل من غير انقطاع على تذليل سبيل الجمع والاكتناز وكأنهم جنود في ميدان حرب من تأخر منهم حطمته الاقدام ومزقته سنابك الخيل ، فيجدُ ويعمل ويصل الليل بالنهار ليستطيع مسايرة القافلة في هجومها على بقية طبقات المجتمع لتستلب منها بمقدار ما يُضمن لها البقاء في سمت خاص من مراتب النظام الاجتماعي ، اتخذت المال سبيلاً الى اعتلائه ، ثم اخذت تعتقد بأن السمت هو نصيبها من الدنيا وحظها من الحياة . بل لايبعد ان يقرب اعتقادها هذا من اعتقاد الملوك في القرون الاولى اذ كانوا يؤمنون بأن سلطنهم مستمدة من الله ، والاَّ لم يخلقوا ملوكاً . وفي هذا من روح التعصب

والجمود ما يكفي لاحداث ازمة نفسية منشؤها اعتقاد الطبقة العليا من المجتمع الرأسمالي أنهم المختارون دون بقية الطبقات

وبجانب هؤلاء طبقة العمال المستعبدين واقعاً، الاحرار قولاً . وهؤلاء يؤمنون بأن الطبقة الاولى هي السد الحائل بينهم وبين السعادة وانهم العقبة التي تمنع عنهم سبل الحياة على ما يجب ان تكون الحياة الانسانية . وهؤلاء بطبيعة مقامهم في نظام الاجتماع هم جيش الهجوم ، كما ان الاولين جيش الدفاع . ثم انهم يعتقدون ان رؤوس الاموال والثمرات العالمية لهم فيها حق كحق الذين منعوا عليهم طرق الاستمتاع بها ، فينظرون الى ما في يد الاغنياء كأنهُ جانب من مالهم وشطر من متاعهم الذي يجب ان يوزع على الجميع ، وان الملكية مبدأ وضعه اصحاب الاملاك ورأس المال ازل منزلة القداسة من القانون لان اصحاب رؤوس الاموال هم الذين يشترعون للجميع، وان مبدأ الملكية ورأس المال مؤامرة غير مشروعة يعتزّ بها الذين ينتفعون به ليسلبوا ممن لا مال لهم كل ما يزيد عما يسد الرمق ويحفظ الارواح في الابدان . ومن الملكية ورأس المال وتثمير الاموال المكتنزة تقوم الدولات العظمى على اسسها الحربية فتستبيح العمال والزراع بأقصى ما يصل جهدهم ليلقموا بثمرات ما اخرجوا بسواعدهم وفنونهم ، بل وبأجسامهم وارواحهم الى الحديد والنار، دفاعاً عن الملكية وعن رؤوس الاموال التي لا يعرفون منها الا الاسم دون المسمى والخبر دون الخبر . وهذه حالة من الفكر تحدث بلا ريب اقسى الازمات الروحية التي تهز اسس المدنية الحديثة

ثم من وراء هذا تقوم مؤامرة متسعة النطاق بين السياسيين وأصحاب الاموال . يسخّر كل فريق منهم الفريق الآخر في سبيل شهواته ، فالسياسيون يسخرون أصحاب الاموال بنفوذهم ، وأصحاب الاموال يسخرون السياسيين بأموالهم في الحكومات وفي السياسة العالمية لان السياسة الحسنة ، كما يقول سياسي فرنسوي ، تستدعي مالية حسنة ، والمال من شأنه ان يحتاج الى قوة تقيه كيدَ من لا مال لهم . فالمؤامرة بين السياسيين وأصحاب الاموال ضرورية بحكم الظرف الاجتماعي. ولكن ضد من تتجه هذه المؤامرات بكل سوآتها ؟ تتجه بالطبع ضد الذين لا مال لهم وضد من لا نفوذ لهم في سياسة العالم وتدبير شؤون الدول فيضحى أصحاب الاموال والسياسيون اليد المحركة ، ويظل بقية الناس الاداة المنفذة ، في معمعان حرب وجلاد لا ناقة لهم فيه ولا جمل . وهذا من شأنه ان يحدث الازمات الروحية الممضة التي يشعر معها الناس ضرورة بأن اساس المدنية ان لم يكن قد فسد بالفعل ، فلا اقل من ان يكون الفساد قد دب فيه الى حد يستدعي عمليات حاسمة من البتر والرتق ومن القطع والوصل ، واي طريق يمهد لهذا غير طريق الثورات الصاخبة والفوضى الآكلة ؟

أضف الى هذا ان الناس اصبحوا ولا ثقة لهم بالمثاليات التي اتخذها السياسيون ذريعة

للتأثير في الدهماء وعامة الشعوب تنفيذاً لاغراض خفية ، ان عمي على الشعوب ان يعرفوا شيئاً من ماهيتها في الماضي القريب ، فان تجاريب نيف وربع من القرن العشرين ، قد كفت لان تجعل الناس يشعرون شعوراً عميقاً ثابتاً بان تلك الخياليات لم تكن الا حبائل نصبت واشراك وضعت لاستغلال عطف الجماهير من طريق التأثير في مشاعرهم واستهوائهم بالالفاظ التي لا تحمل من المعاني الفعلية اكثر مما في قلوب الذين يكثرون من التفوه بها من الايمان بحقيقتها . فالشرف الوطني والمجد العالمي ودولة كذا فوق الجميع ، اصبحت لا تزيد في قيمتها شيئاً عن الكلام الذي ينشره التجار عن سلعهم في صفحات الجرائد. وكأن مثل الناس في ذلك كمثل المؤمن الذي يسجد لصنم الف سنة طويلة عسى ان يحبوه الغفران ، فلما مات وانتقل الى العالم الآخر ، تلقفته الزبانية ، فلم يستفق الا وهو في سعير يصلى لظاها . فكانت الصدمة على قدر الايمان والاستفاقة على قدر الغفوة الطويلة التي اسلم فيها الشعوب قيادها لمهرة الانتهازيين الذين استطاعوا ان يحكموا المؤامرة من كل اطرافها ، ولكن ليصلوا في النهاية بحمقهم وطماعيتهم الى احداث ازمة روحية تغلي في الصدور

ناهيك بان هذه الحالة قد عقبتها حالة اشد شناعة منها. عقبها اضمحلال الفكرة في المثاليات الاخلاقية . حتى لقد اصبح الكذب والنفاق والختل والمواربة والخيانة لكثرة ما روج لها السياسيون في العصر الحديث ، طابع الخلق العالمي . وعلى حذو السياسيين حذت الشعوب والافراد . فالصادق هو الكذاب الأشر في جماعة لا تعرف الا الكذب . والرجل الحر هو العبد الآبق في جماعة لا تعيش الا بالعبودية . والرجل المستقيم الفكر هو المنافق المخاتل ، في جماعة طابعها النفاق والمخاتلة . والرجل الامين هو الخائن في جماعات ما عرفت الا الخيانة وما قدّست الا الضلال

لقد سعدت الجماعات فيما مضى باحلامها اللذيذة. سعدت بأنّ في العالم شيئاً يقال له الشرف وشيئاً يقال لهُ الصدق وشيئاً يقال له الحق . وآخر يدعى الحقيقة . تلك كانت احلاماً. ولكنها نزلت في النفوس منزلة الواقع المسلم بهِ . فكان المعتقد ان هذه الاحلام لها حقائقها ولها آثارها الخارجية . فسيق الناس بها . ولكنهم كانوا على الاقل مؤمنين بها ولو باطلاً. كان الناس يؤمنون مطلق ايمان ولو بشيءٍ باطل . ولكنهم الآن يشكّون ، لا في هذه الاحلام وحدها، ولكن في حقائق الحياة ذاتها . يشكون في الحق ويشكون في الصدق ويشكون في الحرية . وهذا الشك وحده كافٍ لأن يحدث ازمة روحية كفيلة ان هي ارادت ان تتنفس بأن لا تترك في المدنية الحاضرة قائماً ولا صعيداً

تلك هي بعض الآثار التي تترتب على قيام الوجه الاقتصادي في اوجه المدنية ، بكل مقتضياته من مال وملكية وسياسة . ففي اي طريق تساق الحضارة ؟

الاشعة اللاسلكية

في مكافحة آفات الحبوب المخزونة

كان نقولا تسلا المستنبط الصربي الاميركي اول من اشار (سنة ١٨٩١) الى امكان استخدام التيارات الكهربائية سريعة التذبذب في الطب . وفي سنة ١٨٩٣ قام دارسونفال d'Arsonval بتجارب جربها في اجسام الناس والحيوانات ثبت له منها ان الامواج الكهربائية سريعة التذبذب لها أثر فعال في زيادة حيوية النسيج الذي توجّهُ اليهِ . وفي سنة ١٩٠٠ وجد هنجستنبرج Hengstenberg ان استعمال التيارات الكهربائية سريعة التذبذب تعقم موادَّ مختلفة . واثبت عيسو Esau سنة ١٩٢٦ امكان استعمال الامواج المتناهية في القصر في العلاج وتلاهُ شليفيك Schliephake فصرّح امام جمعية برلين الطبية أن الامواج اللاسلكية القصيرة طريقة من الطرق التي يمكن ان تستعمل لتعقيم بؤر المكروبات في الحلق ، وكان تعقيمها قبل ذلك لا يتمُّ الاّ باستعمال أشعة رنتجن . وفي سبتمبر سنة ١٩٢٦ نشر العالم شيرسشفسكي Schereschewsky نتائج التجارب التي قام بها لمعرفة أثر التيارات سريعة التذبذب في الارانب وخنازير الهند . ثم لاحظ دايفس وهو مهندس كهربائي اميركي في دسمبر سنة ١٩٢٧ انهُ اذا اخذ مصباحاً كهربائيًّا من النوع الذي يضيء بالتوهج incandescence كالمصابيح الكهربائية المستعملة في دورنا . ووضعهُ على مقربة من سلك هوائي تخرج منهُ امواج لاسكية قصيرة — طول الموجة منها ستة امتار — توهج السلك والغاز اللذان في المصباح . ثم لاحظ احد الباحثين في الشركة الاميركية الكهربائية العامة ، ان العمال الذين يشتغلون بامتحان آلات الراديو ، ترتفع درجة حرارتهم عن المتوسط السويّ في الجسم البشري . وتلاه هوسنر Hosner فاثبت انهُ يمكن استعمال هذه الطريقة لاحداث اية درجة من الحرارة العالية في اجسام الحيوانات . وبعض المستشفيات الاميركية تستعملها الآن في معالجة بعض الامراض [1]

فلما راجع المستر دايفس نتائج هذه المباحث خطر له استعمال هذه الطريقة للفتك بآفات الحشرات التي تصيب المحصولات الزراعية المخزونة . ذلك ان الطاقة المشعّة تخترق المواد من دون ان تفقد شيئاً من طاقتها وتحدث حرارة عالية مميتة في اجسام الحشرات التي

(١) أثبت فون يورغ النمسوي ان الشلل العام الناشيء عن الاصابة بالزهري يشفى اذا عولج المشلول بالملاريا . فتدخل جراثيم الملاريا في دمه ، فتحدث فيه حمى الملاريا العالية ، فتموت جراثيم الزهري ثم يعالج بالكينا فيشفى من الملاريا . فلما استنبطت الطريقة المذكورة لاحداث الحرارة استعيض في بعض الاحوال عن حرارة الملاريا العالية بالحرارة التي تولدها الامواج اللاسلكية القصيرة اذ تخترق الجسم (المقتطف م ٧٧ ص ٣١١)

تكون داخل الحبوب . والزراعة في حاجة الى مثل هذه الطريقة الفعّالة ، تمكن الانسان من الفتك بالحشرات في كل ادوار نموها من بيض الى يرق الى حشرات تامة التكوين

يقدَّر ما تخسره الولايات المتحدة الاميركية في قيمة محصول الحنطة المخزون ، بفعل الآفات الحشرية التي تصيبها ، بعشرات الملايين من الجنيهات . والطريقة المتبعة لتخفيف وطأة الحشرات ، هو اخذ الحنطة المخزونة ونشرها للتهوية والتبريد ثم يعاد خزنها . فنموُّ البيض واليرق في داخل الحبوب يقف في خلال التبريد والتهوية . ولكنهُ وقوف وقتي فقط . ذلك انهُ متى اعيد خزن الحبوب ارتفعت حرارتها بفعل تنفس الحبوب وغيره من العوامل الفسيولوجية والطبيعية ، فتعود البيض واليرق الى نشاطها الطبيعي ، فينقف البيض وتنمو اليرقات حشرات كاملة التكوين ، وتفسد حبوب الحنطة المصابة وتمتد الآفة من المصاب الى السليم

فاذا وجّه الى الحبوب المصابة بآفة حشرية من هذا القبيل ، تيّارٌ قوي من الاشعة قصيرة الامواج سريعة التذبذب ، فتك الحشرات التي داخل الحبوب ، فاذا منعت اصابتها ثانية بالتخزين المحكم والتهوية ، امكن حفظ مقادير كبيرة من الحنطة زمناً طويلاً من دون ان تتطرق اليها آفة ما

فبعض انواع الديدان ، تحفر انفاقاً في الحبوب التي تلقي فيها بيضها ، والانفاق التي تحفرها تخفيها عن الابصار ، فلا يستطيع الباحث بنظرة عجلى ان يتبين الحبة المصابة من الحبة السليمة . فاذا انقضت ثلاثة اسابيع او اربعة على هذه الحبوب في مخزن دافئ نقف البيض ، فتلتهم اليرقات في خلال نموها باطن الحبوب . وقد قدرت وزارة الزراعة الاميركية ، ان الدودة من ساعة نقفها حتى بلوغها تقتضي اربعة اسابيع ، وان فريقي الذكور والاناث متساويان عدداً ، وان الانثى تبيض مائتي بيضة ، وان كل البيض ينقف وكل يرقة يبلغ ، وعلى ذلك يبلغ نسل ذكر وانثى من هذا الصنف الفي مليون مليون مليون حشرة في خلال ستة اشهر . فلا يعجبنَّ القارئ اذا قيل ان مقادير عظيمة من الحنطة تتلف كلَّ سنة بفعل الحشرات

وقد جرَّب المستر دايفس تجارب دقيقة الغرض منها معرفة فعل الامواج اللاسلكية القصيرة في آفات القمح . فاستعمل تيارين مختلفين ، طول الامواج في احدهما ٣٠ متراً وطول الامواج في الآخر ستة امتار . اما التيار الاول فكان فعّالاً في قتل الحشرات الكاملة النمو في مقادير قليلة من حبوب الحنطة ، بعد تعريض هذه الحبوب تسعين ثانيـة لامواج التيّار . ولكن البيض الذي كان في الحبوب ، نقف في ميعاده لان الامواج الطويلة لم تفعل فيه . فجرَّب الامواج القصيرة المنبعثة من آلة قوتها ٢٠ كيلو وطاً ووجَّهها الى حبوب مصابة مدى ست ثوانٍ فقط ، فقتلت البيض واليرق والحشرات الكاملة النمو . ومعالجة الحبوب بهذه الاشعة لا يضعف مقدرتها على التفريخ اذا زرعت بل يزيدها

المجامع العلمية واللغوية (1)

للامير مصطفى الشهابي

الا كادمية لدى اليونانيين الاقدمين ارض على بعد كيلو مترين من أثنا في شماليها الغربي تنسب الى البطل المسمى أكادموس Akadèmos . وهي ارض مملوكة احاطها صاحبها بجدار واتخذها مدرسة . ثم اتصلت بسيمون ابن ملتيادس فغرس فيها اشجاراً متنوعة تسودها ادواحُ بواسق من الدلب ذاع صيتها في تلك الايام . وكان في الاكادمية هيكل للآلهة أثنه Athènè محاطٌ باثنتي عشرة زيتونة مقدسة ، ومذابح لآلهةٍ آخرين منها واحد لآلهات الشعر شاده الفيلسوف افلاطون الشهير لانهُ كان يحب تلك الحديقة ويتلذذ بالنزهة في ظلال اشجارها الباسقة . وكان يجلس فيها لالقاء دروسهِ على تلامذته ، لذا اطلق الاقدمون لفظة أكادمية على عصبة تلامذة أفلاطون كما اطلقوا لفظ « مدرسة الأكادمية » على المدرسة التي أسسها هذا الفيلسوف . ثم اتسع مدلول تلك اللفظة فصار يدلّ على مجتمعات الآداب والعلوم والفنون مثل اكادمية البطالسة في الاسكندرية والاكادمية العبرية والمدارس التي أسسها بعض الخلفاء وملوك المسلمين في دمشق وبغداد والاندلس واكادمية شارلمان والفريد الكبير وغيرها وكل هذه اقرب الى المدارس منها الى المجامع العلمية المعروفة في ايامنا هذه. والمجامع العلمية واللغوية كما نعرفها اليوم بدأ تأسيسها في عهد اليقظة في اوربا اي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من الميلاد . وكانت ايطاليا السبّاقة في هذا المضمار فقد كاد يجتمع لها مجمع او اكثر في كل مدينة من مدنها . ورب مدينة كبيرة كان فيها عشرون مجمعاً او اكثر لكن معظمها لم يعش طويلاً ولم يقو على صروف الدهر فطاحت بهِ احداثهُ دون ان يأتي اعضاؤه عملاً يذكر

وتبعت فرنسا خطوات ايطاليا في تأسيس المجامع منذ القرن السابع عشر. ولما كانت بلادها موحدة تحت سلطة ملك واحد عاشت فيها تلك المجامع وعمت فوائدها اكثر من اشباهها الايطالية ، وكانت في التاريخ مثالاً احتذتهُ الدول السائرة في ايجاد مجامعها

وكثيراً ما انتقد النقاد المجامع العلمية إما عن عقيدة واما لغرض في نفوسهم . واهم

---

(1) راجعنا في تلخيص هذا البحث الموسوعة الفرنسية والموسوعة الانجليزية ومعجم لاروس الزراعي وتاريخ التمدن الاسلامي ورسائل اخوان الصفاء وبعض اجزاء المقتطف ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . والمجمع ترجمة Academie والمعهد ترجمة Institut والجمعية ترجمة Société ومن المعلوم ان اللفظة الفرنسية الاخيرة تطلق على الشركة ايضاً

الاغراض اخفاقهم في الانتساب الى احد المجامع فهو ما يدعو الذي عثر به جدهُ عن الانتظام في سلك هذا المجمع الى محاربتهِ اشد المحاربة . ويرى بعض الناس ان اعضاء المجامع العلمية واللغوية يكونون قصيري النظر قليلي الاحاطة بشؤون الحياة يؤثرون انفسهم على الغير ويسيرون بمقتضى اهوائهم ولا يسألون عما يفعلون لهذا تراهم يتمادون في غيهم . لكن الحقيقة ان اعضاء المجامع العلمية بشر يخطئون ويصيبون ونفعهم اعم وقد خدموا العلم والفن واللغة خدمات لا ينكرها الا كل جاهل او اعمى. وقديماً قال رينان « يكون صوت العلم ضعيفاً غالباً أمام جسارة المتجاسرين ووقاحة المتواقحين . ومهما ضعف صوت العلم في بعض البيئات فهو حي لا يموت ومتى سكت الغربان ظل هذا الصوت يدوي حتى لا يُسمع غيرهُ ، لذلك يكتب النصر للمجامع العلمية دائماً لانها تحمي الحقيقة ولا يدوم غير الحقيقة مهما قل نصراؤها وتألبت عليها الآراء الدنيئة » انتهى

﴿ مجامع فرنسا ﴾ اذا استقصينا مهد المجامع العلمية واللغوية نجده في الغالب في مجتمعات خاصة لاناس تدانت ثقافتهم واتحدت منازعهم فأخذوا يترددون على بيت احدهم يتداولون في العلم او الفن او اللغة وغايتهم خدمتها بما اجتمع لهم من الوسائل والاسباب. كذلك نشأ مجمع اللغة الفرنسي وكذلك كان في فجر حياته سنة ١٦٢٩ . فلما اتصل نبأ هؤلاء النفر بالكردينال ريشليو هالهُ ان لا يمتوا اليهِ بصلة وان لا يكونوا من اتباعهِ فرغب اليهم في بدء سنة ١٦٣٤ ان يكونوا جمعية تخدم اللغة تحت سلطة الحكومة واشرافها فترددوا بهِ بادىء بدء ثم رأوا ان لا قبل لهم بالكردينال فاذعنوا . وكان عددهم ١٢ شخصاً فجُعلوا ٢٨ شخصاً. ولبثوا نحو سنة يدرسون الاعمال التي يجب ان يأتوها ثم سنوا في اول سنة ١٦٣٥ قانوناً في خمسين مادة تسموا بموجبهِ « الاكادمية الفرنسية » واهم اغراضها ضبط اللغة وتحديد معاني الالفاظ ووضع ألفاظ جديدة حتى تصبح اللغة الفرنسية لغة علم وفن وعمران كاللاتينية واليونانية في عصورها الذهبية القديمة . ويقتضيهم القانون المذكور تأليف معجم ووضع قواعد في اللغة والمنطق والشعر . وقد جعل عدد الاعضاء ٤٠ عضواً . وظلَّ هذا العدد ثابتاً الى اليوم

وكان الكردينال ريشليو حامياً للاكادمية الفرنسية يذود عنها ويغالب غارات الجهال والحساد وارباب المطامع فكان لزاماً بعد وفاته ان يخلفهُ من هو حسن الظن بها فاستقر الرأي على الوزير سيغيه Séguier وفي ايامهِ صار العضو الجديد يدخل الاكادمية في حفلة علنية وصار مطالباً بتلاوة اطروحة او خطاب . ومن هذه الخطب ما هو مشهور كالخطاب الذي القاه برويِر Bruyère سنة ١٦٩٣ والذي القاه بوفون Buffon سنة ١٧٥٣

ورعى لويس الرابع عشر الاكادمية الفرنسية بعنايته وجعلها من دواوين الحكومة الرسمية وخصص لها مكاناً في قصر اللوفر ولم يعارض في امورها ولاسيما في انتخاب اعضائها الا نادراً

واصبح العضو فيها محترماً يشار اليه بالبنان وتمكن العباقرة ان يظهروا في المجتمعات في جانب النبلاء واصحاب الوجاهة ممن لم يسوّدهم سوى المال الذي ورثوه او الأسرة التي ينتمون اليها . ولا شك ان عدداً غير قليل من اكبر ادباء فرنسا ما انتسبوا في حياتهم الى هذا المجمع مثل ديكارت وباسكال وموليير وبوردالو ومالبرانش وغيرهم ومع هذا لا نكران ان المجمع المذكور كان وما برح مثالاً للعبقرية الفرنسية . والادباء والكتّاب يتسابقون عشرات لاخلاف العضو الذي يموت فيهِ . وكل كاتب مهما كبر شأنهُ وذاع صيتهُ قلما يجلهُ الناس ويوقرونهُ كاجلالهم وتوقيرهم لاحد اعضاء الاكادمية الفرنسية

وقد قامت الاكادمية بأهم وظائفها فوضعت معجماً للغة الفرنسية يعدُّ ثقة في بابه حددت فيهِ معاني الالفاظ واضافت الفاظاً ومصطلحات عدة . وطبعت هذا المعجم طبعات كثيرة في مختلف السنين . وهي اليوم مثابرة على عملها تجاه الالفاظ الجديدة . ولها اعمال اخرى منها اشرافها سنويًّا على اكثر من عشرين مباراة ادبية فتفحص اوراق المتسابقين وتحكم فيها وتمنح الناجحين الجوائز المخصصة لهم او الموقوفة عليهم

وفي فرنسا عدا مجمع اللغة المذكور مجامع كثيرة اهمها مجمع الخطوط والآداب ومجمع العلوم ومجمع الفنون الجميلة ومجمع العلوم الاخلاقية والسياسية ومجمع الطب ومجمع الزراعة . فمجمع الخطوط والآداب اسسهُ الوزير كولبر سنة ١٦٦٣ واعضاؤه اربعون . وهم علماء اعلام ينصرفون الى دراسة الآثار والمصانع والمخطوطات واللغات القديمة وتاريخ الآداب . وكان منهم رينان ودارنبورغ وشامبوليون وسيلفستر دوساسي وماسبرو وكلهم اعلام استفاضت شهرتهم . ولهذا المجمع مجلة وألف أعضاؤه تاريخاً للآداب ومجموعات في المخطوطات وفي مؤرخي فرنسا ومؤرخي الحروب الصليبية وغير ذلك وهم يشرفون على عدة مباريات ويمنحون الناجحين جوائز حبّسها عليهم اهل البر من عشاق هذه الفنون

أما مجمع العلوم فتاريخه مجهول قبل سنة ١٦٦٦ . وكان اعضاؤه قبل تلك السنة ألفوا بينهم جمعية علمية واخذوا يجتمعون في بيوت بعض رفاقهم . وكان منهم ديكارت وباسكال الشهيران ولما علم بهم (كولبر) وزير لويس الرابع عشر ألّف منهم مجمعاً للعلوم ينتمي الى الحكومة كمجمع اللغة ومجمع الخطوط والآداب وخصص لهم مكاناً في دار الكتب الملكية يجتمعون فيه ويتداولون احاديث العلوم وسيرها في فجر نهضتها . لكن هذا المجمع لبث حتى سنة ١٦٩٩ بلا انظام داخلي وبلا عمل بارز ولا سيما بعد موت الوزير كولبر . ففي تلك السنة سن له نظام يقضي بزيادة عدد أعضائه وباجراء الرواتب على بعضهم . ولما ضاقت دار الكتب عنهم نقلوا الى قصر اللوفر فازداد نشاطهم . لكن الثورة الفرنسية الغت هذا المجمع كما الغت المجامع السائرة واستبدلت بها معهداً جديداً سمته المعهد الوطني للعلوم والفنون يحوي ستين عضواً على فروع

مختلفة عدا عدد كبير من الأعضاء المراسلين . غير ان هذا المعهد لم يدم طويلاً لانه صدر في سنة ١٨١٦ أمر ملكي باعادة المجامع الملغاة مع استبقاء لفظة «المعهد» تطلق على مجموعها فعاد مجمع العلوم الى سابق حاله وصار أعضاؤه ٧٥ عضواً خدموا العلوم خدمات جليلة على توالي السنين

وأما مجمع الفنون الجميلة (وكان أجدادنا يسمونها الآداب الرفيعة) فانه تأسس سنة ١٧٩٥ عقب الغاء مجمعين وجدا قبله وهما المجمع الملكي للرسم والنقش والمجمع الملكي للبناء . ويعد مجمع الفنون الجميلة من أقسام «المعهد» أي معهد العلوم والفنون في فرنسا . وله خمس شعب للرسم والنقش والبناء والحفر والموسيقى . أعضاؤه اربعون وله أعضاء مراسلون كالمجامع الاخرى . وهو يشرف على مدرسة الفنون الجميلة في باريز وله اوقاف ومباريات ومصنفات في تلك الفنون ومعجم

ومجمع العلوم الاخلاقية والسياسية يعدُّ وليد الثورة الفرنسية لانه ما كان معروفاً قبلها . وكان اعضاؤه ثلاثين على خمس شعب للفلسفة والتشريع والحقوق العامة والاقتصاد السياسي والتاريخ العام والفلسفي . وفي سنة ١٨٥٥ أضيف على هذه الشعب شعبة سادسة اعضاؤها عشرة للسياسة والادارة والمال فاصبح عدد الاعضاء اربعين . وقد وهب الشعب والحكومة هذا المجمع هبات مالية او عقارية حَبَسها على مباريات بين المؤلفين في الموضوعات التي يختارها المجمع

ومن المجامع الفرنسية الحديثة مجمع الطب فانه أسس سنة ١٨٢٠ بمرسوم أصدرهُ لويس الثالث عشر وأهم اغراضه البحث في شئون حفظ الصحة والامراض السارية والطب الشرعي والمياه واستحضار العلاجات وتهيئة المصل ضد الامراض وكل ما يدعو الى تقدم صناعة المداواة والشفاء من الامراض . وكان على ثلاث شعب طب وصيدلة وجراحة . وكان فيه ٨٥ عضواً عاملاً و ٦٠ عضواً فخريًّا وعدد كبير من الاعضاء المراسلين او المؤازرين . وقد تبدل نظامه مراراً وهو اليوم يحوي شعباً كثيرة لمختلف العلوم الطبية

واحدث المجامع في فرنسا مجمع الزراعة فانه أنشئ ايام الحرب الكبرى بمرسوم مؤرخ في ٢٣ شباط (فبراير) سنة ١٩١٥ فقام مقام الجمعية الملكية الزراعية التي كانت أوجدت ايام لويس الخامس عشر سنة ١٧٦١ ثم سميت بعدها باسم الجمعية الوطنية الزراعية بموجب مراسيم مختلفة صدرت في السنين ١٨٧٨ و ١٨٧٩ و ١٨٨٠ . وفي مجمع الزراعة ٧٢ عضواً عاملاً و ١٥ عضواً اجنبيًّا و ٢٠ عضواً غير مقيمين في فرنسا و ١٥٠ مراسلاً في فرنسا والجزائر والمستعمرات الفرنسية و ٥٠ مراسلاً من الأجانب . ووزير الزراعة هو رئيس المجمع الفخري وللمجمع حق مراسلة المجامع العلمية الفرنسية والاجنبية مباشرة او بواسطة رئيسه الفخري وهو على قسمين الاول للعلوم الزراعية . والثاني للعلوم المتعلقة بالزراعة . وفي القسم الاول خمس شعب للزراعة المتسعة والزراعة الخاصة والحراج والحيوانات الدواجن والاقتصاد

الزراعي وما اليه كالاحصاء والتشريع الزراعي . أما القسم الثاني ففيه اربع شعب للعلوم الطبيعية والكيماوية الزراعية وللمواليد الزراعية وللآلات الزراعية وللعلوم السائرة المتعلقة بالزراعة . وللمجمع مجلة شهرية ودروس وتقارير وابحاث مطبوعة . وهو يشرف على مباريات ويمنح الفائزين جوائز ومداليات

﴿ مجامع ايطاليا ﴾ ايطاليا كما ذكرت من اقدم البلاد التي تأسست فيها المجامع العلمية . وكانت كلها بادىء بدء جمعيات تعاقد اعضاؤها على خدمة العلوم والفنون والآداب . ومعظمها تلاشت مع الأيام وأشهرها المجمع الافلاطوني Accademia platonica في فلورنسا لدراسة فلسفة افلاطون . وقد تفرق اعضاؤه في سنة ١٥٢١ فلم يجتمعوا بعدها . واول مجمع علمي في ايطاليا مجمع علم الطبيعة أسس سنة ١٥٦٠ وكان اعضاؤه يتداولون في الطب وفي الفلسفة الطبيعية فاتهم رئيسه بالسحر فطلب البابا بولس الثالث الغاء المجمع فالغي . وعقبه مجمع لنساي في رومة سنة ١٦٠٣ وكان غاليليو الشهير من أعضائه وهذا المجمع لم يعش الآ لسنة ١٦٣٠ لكنهم اطلقوا هذا الاسم على مجمع أسس حديثاً أي في سنة ١٨٧٠ رعتهُ الحكومة الايطالية وسنت له قانوناً في سنة ١٨٧٥ وحبتهُ بالمال الكافي وهو على شعبتين شعبة للعلوم الاخلاقية والسياسية وشعبة للعلوم الطبيعية

ومن المجامع الايطالية القديمة مجمع سيمانتو Cimento للعلوم الطبيعية أسس سنة ١٦٥٧ وكان طوريشلي الشهير من اعضائه وقد نشر ابحاثاً ثمينة وتجارب مفيدة في ضغط الهواء وقابلية ضغط الماء وفي الحرارة والصوت وغيرها . ومن المجامع التي عاشت طويلاً مجمع كروسكا Crusca اللغوي تأسس سنة ١٥٨٢ في فلورنسا فانكب اعضاؤه على وضع معجم للغة الايطالية عُدَّ ثقة في بابه . وقد أعيد تنظيم هذا المجمع سنة ١٨٠٩ وهو لا يزال حياً

وللفنون الجميلة في ايطاليا مجامع عديدة كمجمع ميلان ومجمع تورين وكمجمع الرسم وغيرها

﴿ مجامع انكلترة ﴾ لا يسمون في انكلترة عصبة العلماء والادباء مجمعاً . بل جمعية . ويطلقون لفظة المجمع على جماعة الفنون الجميلة وحدها . فالجمعية الملكية في لندن هي في منزلة مجمع العلوم في باريز او في برلين وهي ليست اقل منهما شأناً . وترجع محاولة تأسيسها الى سنة ١٦١٦ . وفي سنة ١٦٤٥ اخذ تلامذة باكون يجتمعون في اوكسفورد ويتدارسون العلوم المادية حتى اذا صعد كارلوس الثاني على اريكة العرش سنَّ لهم نظاماً في سنة ١٦٦٢ فكان فيه أساس جمعية لندن الوطنية . وسرعان ما تألق نور هذه الجمعية فاليها قدم نيوتن أهم مكشوفاته فنشرتها في مجموعاتها . واليها ينسب معظم علماء انكلترة (بل معظم علماء العالم) امثال نيوتن وهاليّ وسمبسون وفارادي وكافنديش ودافي وطمسن ورذرفورد وغيرهم . وظلت لامعة في عالم العلوم طيلة القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وهي اليوم في مقدمة المجامع العلمية

اما مجمع الفنون الجميلة ومدرستها فقد بدأت كغيرها جمعية خصوصية كثيراً ما تخاصم اعضاؤها وتنازعوا حتى سنة ١٧٦٦ اذ عطف عليها جورج الثالث فسنّ لها نظاماً. وسميت بعد ذلك باسم المجمع الملكي وكان اعضاؤها اربعين عضواً بين رسام ونحات وبنّاء. واليها يرجع الفضل في تقدم الفنون البريطانية الجميلة منذ القرن الثامن عشر الى يومنا هذا وثمة جمعيات ومعاهد اخرى للعلم والهندسة على اختلاف فنونها والاقتصاد لا يتسع المقام لذكرها

﴿مجامع المانيا﴾ اول مجمع علمي تأسس في برلين الجمعية العلمية وذلك في سنة ١٧٠٠ ايام فريدريك الاول. وانتخب لبنتز الشهير رئيساً لها. وغرضها جمع العلوم المختلفة وتنميتها وتزييد الانتفاع بها. ولكن صاحب التاج ما كان عطوفاً على تلك الجمعية ولم يشأ ان ينفق عليها من موازنته فلم تقم لها قائمة الا أيام فريدريك الثاني اذ اتحدت مع الجمعية الأدبية وتسمتا باسم المجمع البروسي للعلوم والآداب وذلك سنة ١٧٤٣. ومنذ ذلك التاريخ اخذ أعضاء المجمع يجتمعون بانتظام مقسمين اربع شعب للعلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والأدبية (ومنها اللغوية). ومن المعروف ان فولتر انتظم في سلك هؤلاء الاعضاء على أثر رفض انتخابه لمجمع العلوم في باريز. واغدق فريدريك الثاني على مجمع برلين مالاً واوقف عليه ارضاً واحله بناء فخماً ورضي ان يكون رئيسه الأعلى. وجعلت اللغة الفرنسية لغة رسمية للمجمع بدلاً من اللاتينية. وظلت كذلك الى ايام فريدريك غليوم الثاني الذي خلف فريدريك الثاني فانه استبدل اللغة الالمانية باللغة الفرنسية. وساهم هذا المجمع في تقدم العلوم الى يوم الناس هذا وهو يعد من اكبر مجامع العالم في دروس اللغات والتاريخ خاصة. وفي سنة ١٧٠٣ تأسس في برلين مجمع للفنون الجميلة كما تأسس في سنة ١٧٥٩ مجمع علمي في مونيخ وكما تأسس آخر في ليبتزج سنة ١٨٤٦

﴿مجامع اميركا﴾ عدد المجامع العلمية في الولايات المتحدة كبير ونفعها عظيم ولاسيما في العلوم المادية العملية. فمجمع العلوم والفنون تأسس سنة ١٧٨٠ في بوسطن واغراضه تشجيع دروس الآثار ودروس المواليد وتطبيق العلوم والفنون على صناعات البلاد ومحصولاتها الطبيعية. ويسمونهُ المجمع الاميركي حسبُ ولهُ خزانة كتب كبيرة ومؤلفات أخذ ينشرها منذ سنة ١٧٨٥ وأهم ما فيها فوائدها العملية. ومن أهم المجامع الاميركية مجمع العلوم الطبيعية في فيلادلفيا. تأسس سنة ١٨١٢ واعترف به سنة ١٨١٧. وقد اوجد متحفاً للمواليد من اغنى متاحف العالم ودار كتب حوت مئات الالوف من الاسفار. ولهُ مجلة وتصانيف في تعريف مجاميع المتحف من نباتات وحشرات وطيور وحيوانات سائرة

ومنها مجمع العلوم الوطني تأسس سنة ١٨٦٣ لفحص المسائل العلمية التي تطرحها الحكومة ودرسها وكتابة تقارير فيها: وكان اعضاؤه خمسين عضواً فأربوا اليوم على مائة وخمسين. وفيهِ شعبتان احداها لعلم الطبيعة والرياضيات والثانية للمواليد الثلاثة. وله مجلة ورسالات ومصنفات

ومنها معهد سمثصُن الشهير تأسس في واشنطون سنة ١٨٤٦ بما اوصى بهِ جس سمثصُن المتوفى سنة ١٨٢٩. وقد بذلت هذه الجمعية جهدها في جمع المجاميع للمتحف الوطني حتى صار من اغنى متاحف العالم ولاسيما فيما يختص بالانسان والحيوان والمعادن. وجمعت عدداً عظيماً من الكتب أضيفت الى دار الكتب الوطنية. وسهلت البحث العلمي وشجعته وخاصةً في ما يشق على مختبرات المدارس والجامعات إما لقلة المال او لقلة الاختصاص. وكانت خير واسطة بين العلماء والمعاهد العلمية. ولها نشرات ومصنفات عديدة

﴿ المجامع السائرة ﴾ تأسس في اسبانيا سنة ١٧١٣ مجمع ملكي للغة الاسبانية على غرار مجمع اللغة الفرنسي ومجمع كروسكا الايطالي فنشر معجماً ظهرت طبعتهُ الاولى من سنة ١٧٢٦ الى سنة ١٧٣٩. وتأسس فيها ايضاً مجمع للفنون الجميلة (سنة ١٧٤٤) وآخر للعلوم (سنة ١٨٤٧) وهو على ثلاث شعب للعلوم الطبيعية والرياضية والمواليد

وفي وينَّا مجمع امبراطوري للعلوم تأسس سنة ١٧٤٦ وآخر للفنون الجميلة اقدم من الاول. وفي روسيا مجمع للعلوم ظهر ايام بطرس الاكبر سنة ١٧٢٤. وكان جميع اعضائهِ اجانب المانيين وسويسريين. وكان يشترط عليهم تعليم الروسيين وتهيئة علماء من ابناء البلاد يخلفونهم في المجمع. وكان الاعضاء المذكورون يؤلفون بالفرنسية والالمانية والروسية. وقد قام هذا المجمع بأعمال لا بأس بها وصار جميع اعضائه او معظمهم من الروسيين منذ اوائل هذا القرن

ولا تخلو دولة من الدول الاوربية والاميركية السائرة من مجمع او اكثر ويطول بنا نفس الكلام اذا ما رحنا نستقصيها في هذه المقالة الموجزة

﴿ مجامع البلاد العربية ﴾ قلت ان الاكادميات القديمة كانت اقرب الى اسواق العرب في الجاهلية وحلقات التدريس في الاسلام منها الى المجامع العلمية واللغوية المعروفة في ايامنا هذه. فسوق عكاظ وامثالها في الجاهلية تعدُّ من أقدم اكادميات العرب وكذا مجتمع اخوان الصفاء في القرن الرابع من الهجرة. ويمكننا ان نضع في عدادها ايضاً بعض المدارس والربُط والمستشفيات القديمة كالمدارس النظامية التي أسسها نظام الملك وكالازهر ومدارس الاندلس والعادلية في دمشق والصلاحية في القدس وعشرات من امثالها

اما الاكادميات كما نعرفها اليوم فأولها على ما نعلم المعهد الفرنسي في مصر ايام نابليون وقد درس رجاله دروساً مهمة وألفوا في مختلف العلوم والفنون مصنفات يعرفها كل من لهُ اطلاع على تاريخ مصر الحديث. ويوجد اليوم في دمشق معهد فرنسي يبحث اعضاؤه في بعض شؤوننا الشرقية كما يوجد في مصر معهد للعلوم وجمعية للجغرافيا وجمعية للحشرات ولها كلها صبغة اجنبية. وفيها لجنة التأليف والترجمة والنشر وهي من أرقى الجمعيات الادبية وانفعها. وفيها ايضاً المجمع المصري للثقافة العلمية واعضاؤه علماء أسسوه منذ بضع سنوات

واشترطوا على كل عضو ان يلقي محاضرة في كل سنتين على الاكثر فاجتمع لديهم مصنف من المحاضرات في ابحاث علمية ثمينة . وفي تونس جمعية تسمى الجمعية الخلدونية لها مدرسة ودار كتب وردهة تلقى فيها محاضرات معظمها مفيد فيه بحث وتحقيق . وظهر في الشام بعض جمعيات لخدمة الادب واللغة (كجمعية النهضة السورية وكالرابطة الادبية في دمشق) لكن السياسة طاحت بها فلم يطل عمرها . وحاول السيد توفيق البكري رحمه الله تأليف مجمع لغوي في القاهرة سنة ١٨٩٢ فتم له ما أراد لكن عمر هذا المجمع كان قصيراً ونفعه لا يذكر . وفي سنة ١٩٠٧ تأسس نادي دار العلوم في القاهرة . وكان رئيسه المأسوف عليه حفني بك ناصف وهذا النادي ايضاً لم يكتب له البقاء كما انه لم يكتب للمجمع اللغوي الذي اوجد سنة ١٩١٧ برئاسه شيخ الجامع الازهر ولا لمجامع بيروت وبغداد وعمان وكلها قامت بعد الحرب الكبرى (١٩١٤—١٩١٨) بمعونة مالية من حكومات لبنان والعراق وشرقي الاردن فلم تعش كثيراً اما لانقطاع المال عنها او لانه كان يعوزها غير المال

والمجمع الوحيد الذي قاوم صروف الدهر واحداثه من ضيق في البيئة وشح بالمال وجهل في سواد الشعب وفي ارباب الوجاهة على السواء ، هو المجمع العلمي العربي بدمشق . تأسس سنة ١٩١٩ وخصصت له الحكومة اعانة ضئيلة فاصلح مدرستي العادلية والظاهرية واتخذهما مقرًّا له . وسار في عمله على خطة ما حاد عنها حتى اليوم وهي اولاً جمع الكتب المطبوعة والمخطوطات القديمة وضمها الى دار الكتب التي اوجدها بجانب الخزانة الظاهرية . ثانياً القاء محاضرات في مختلف العلوم والفنون التي اختص بها اعضاؤه وغيرهم ممن لهم مكانة علمية او أدبية . ثالثاً فتح غرف للمطالعة . رابعاً جمع النصب والتماثيل والنقود القديمة والآثار السائرة حجرية كانت او خزفية او معدنية او قاشانية او زجاجية او خشبية وايجاد متحف (او نواة متحف) في دمشق وآخر في حلب . خامساً اصدار مجلة تبحث في اغراض المجمع وفي منتوجات قرائح اعضائه وغير اعضائه

فاما جمع الكتب فقد صار في خزائن كتب المجمع اكثر من عشرين الف كتاب منها نحو ٤٠٠٠ مخطوط معظمها في دمشق والبقية في فرع حلب . واما المحاضرات ففي كل اسبوع او اسبوعين (عدا اشهر الصيف) تلقى محاضرة في ردهة المجمع . وقد جمع قسم من المحاضرات في كتاب ونشر قسم في مجلة المجمع . وموضوعاتها مختلفة : وفي بعضها ابحاث لم يسبق اليها احد . واما غرف المطالعة فانه يغشاها في كل شهر ١٥٠٠ مطالع وهو الرقم المتوسط . واما جمع الآثار فقد قام المجمع بما اخذ على نفسه القيام به في هذا الصدد فأسس المتحف السوري بدمشق . وهو على صغره يحوي اليوم ٩٠٠٠ قطعة منها مجموعة من القطع الزجاجية القديمة تعد فريدة في نوعها . واما مجلة المجمع فيعرفها كل من له شغف بالابحاث العلمية والادبية

واللغوية . وهي تتناول جميع اغراض مجمع دمشق ولا تقتصر على اللغة . ومع هذا فان لها في هذا الباب ابحاثاً ثمينة فقد اصلحت كثيراً من اغلاط الكتاب وذكر فيها اعضاء المجمع بضع مئات من الالفاظ العربية او المعربة وضعوها لمعان علمية في الزراعة والنبات والحشرات وعلم الطبيعة وغيرها . ولو جمع كل ما نشر في هذا الصدد او كل ما لدى اعضاء المجمع منه في دمشق لتألف من هذه الالفاظ ومن مقابلها بالفرنسية واللاتينية كتاب لا يعرف قيمته الاّ من عانى صعوبة وضع الفاظ عربية للعلوم والمخترعات الحديثة

وينعى بعضهم على المجمع العلمي العربي بدمشق انه لم يوجد حتى اليوم معجماً افرنجيًّا عربيًّا للمصطلحات العلمية ولا معجماً عربيًّا تفسر فيه معاني الألفاظ تفسيراً علميًّا كما في معجم لاروس الفرنسي . وسها عن بال هؤلاء ان عملاً كهذا ولاسيما الاول منه لايجوز بحال ان ينفرد به مجمع دمشق بل لا يجوز ان يأتيه سوى مجمع مشترك يضمُّ علماء من الاقطار العربية كافةً . وهو ما أشارت اليه مجلة مجمع دمشق غير مرة ونبهت الى ان المصطلحات التي يضعها اعضاء المجمع وتنشر في مجلته لا تعبر على وجاهتها الاّ عن رأي واضعي هذه الالفاظ والمجمع لا يسوغ لنفسه حق إقرارها مجمعيًّا للأسباب المذكورة

واعضاء مجمع دمشق اليوم ١١٥ عضواً منهم ١٨ عضواً في دمشق و٣٧ من المستشرقين والباقون في انحاء الشرق وفي المغرب

وآخر نبأ في صدد المجامع العربية المرسوم الذي اصدره جلالة الملك فؤاد الاول في ١٤ شعبان سنة ١٣٥١ (ديسمبر سنة ١٩٣٢) وهو يقضي بتأسيس مجمع ملكي للغة العربية في القاهرة . وتقضي مادته الرابعة بأن لا يتقيد اعضاؤه بالجنسية ولهذا يمكن انتخاب بعضهم من اعلام العرب غير المصريين ومن نبهاء المستشرقين . وقد اصاب واضعو هذه المادة كل الاصابة لان اللغة العربية ليست وقفاً على مصر وحدها ولان مجمع مصر اذا لم يكن مشتركاً لا يأتي بالفائدة المطلوبة بل ربما كان وجوده داعياً الى ازدياد التشويش والى تخبط اعضائهِ بمصطلحات جديدة قد لا يقرها علماء الاقطار العربية السائرة . اقول هذا رداً على بعض المتعصبين من اخواننا المصريين الذين يظنون ان مصر تستطيع وحدها او يجوز لها وحدها ان تقوم بأهم غرض من اغراض مجمع اللغة العربية وهو وضع معجم افرنجي عربي لمصطلحات العلوم والمخترعات الحديثة . وقد مرَّ الى اليوم اربعة اشهر على وضع المرسوم المشار اليهِ ولم يعين اعضاء المجمع . وعلى كلٍّ اذا احسنت الحكومة المصرية انتقاء هؤلاء الاعضاء واقصت عن المجمع الاهواء السياسية ولم تبخل عليهِ بالمال فسيكون جديراً بأن يصبح المجمع المشترك الذي ما برحنا نرقب تأسيسهُ وسيكون خليقاً بأن يخطو بلغتنا العربية الكريمة خطوات تدنيها من مصاف اللغات الاوربية الحية

منحة العلم

تأثير الآلات في حياة المجتمع الانساني

التفاعل بين العقل الفردي والعقل الاجتماعي

لنقولا الحداد

يلقبون هذا العصر بعصر الآلات. وهو جدير بهذا اللقب. لان تأثير المخترعات الحديثة في الحياة الاجتماعية اهم مزية ظاهرة فيهِ. فلنتخذ هذا التأثير نواة بحثنا

قلما كان عامة الناس يفطنون لتأثير الآلات في حياتهم اليومية وفي التطور الاجتماعي لانهم معاصروها. وما انتقلوا انتقالاً مفاجئاً من عصر خالٍ من المخترعات الى عصر حافل بها (وهي فيهِ تشغل كل وسيلة من وسائل المعيشة) لكي يقابلوا بين ذاك وهذا. بل جاءُوا الى الحياة والمخترعات تسبقهم اليها مولداً وتعيش معهم اسرع نموًّا وتبقى بعدهم آجلة

على ان التطور الاجتماعي الحالي المفاجيء والسريع نبّههم الى تأثير المخترعات فيهِ. فعلّل السواد الاعظم منهم الازمة الاقتصادية الحالية بانها نتيجة حلول الآلات محل الايدي العاملة. فكان هذا الحلول علة البطالة، فعلة ضنك العامّة الذين يعتمدون في الاسترزاق على عملهم، فعلة ضعف قوة الشراء، فعلة بطء حركة الرواج، الى غير ذلك من حلقات سلسلة اسباب لا تنتهي. وقد تمادى بعضهم في التعليل الى ان نقم على العلم الحديث لانهُ هو الذي انتج هذه المخترعات

فما اسخف هذه التعليلات! وما اضلّها! العلم قديماً وحديثاً كان ولا يزال القوة العاملة في تقدُّم التمدُّن منذ قبض الانسان على يد المحراث الى ان صار يستضيء بمصباح الكهرباء ويناجي اخاه الانسان بواسطة الراديو الخ. فاذا كان انسان اليوم يتمتع بمحامد المخترعات الوف اضعاف ما تمتع بهِ جدُّهُ الاول فانما يتمتع بها بفضل منحة العلم هذه. ولكن اذا كان المجتمع الانساني قد اساء استعمال هذه المنحة او انهُ لم يدرِ كيف يجب ان يتمتع بها افراده جميعاً على السواء فما هو ذنب العلم؟ وما هو ضلال تلك المخترعات؟ ان العلم قصد خيراً للجنس البشري. ولكن الجنس البشري برهن بسوء تصرُّفهِ على انهُ لا يستحق هذا الخير

اما حدوث الازمة العالمية فله اسباب او سبب رئيسي غير تكاثر الآلات. ولهُ بحث آخر لا يسعهُ هذا المقال ولا هو من فروعهِ

يلاحظ بعض المفكرين ان عصر الآلات هذا يؤثر تأثيراً سيئاً في العقلية الفردية الى ان

يضعفها . فهو في زعمهم خطر على النبوغ الفني . فمن امثلة ذلك قولهم ان الطباعة بالالوان تكاد تقضي على فن التصوير الزيتي والزخرفة ، وكذلك شأن التصوير الشمسي . وبين الفريقين بون في الجمال. وان السنما يكاد يقتل فن التمثيل عن يد المزاحمة مع انهُ مهما اتقن السنما فلا يضارع التمثيل ، واذا كان الناس يقبلون على ذلك دون هذا فليس لشدة اعجابهم بالتمثيل السنمائي بل لدهشتهم من غرابة هذا الاختراع ولارتياحهم الى المناظر التي لا تتيسَّر في مسرح يقاس بالامتار. وان الراديو (والفونوغراف ايضاً) كالسنما يزاحم فن الموسيقى ويكاد يقضي عليهِ او على اندية الغناء والعزف . وان الآلة الكاتبة تقضي على فن الخط ، والآلة الحاسبة التي تجمع وتطرح وتضرب وتقسم وتربع وتكعب وتجذر الخ تقضي على قوة العقل الحسابية او تضعفها بسبب الاستغناء عنها : — بمثل هذه الامثلة يمثلون على إضعاف النبوغ والعبقرية في الفنون جميعاً، بل على ضعف العقل ايضاً بحجة ان الآلات لا تحل محل اليد والعضل فقط بل تحل محلّ المواهب العقلية ايضاً

ولكن فات هؤلاء المتشائمين من تأثير الآلات وخطرها على النبوغ الفني والمواهب العقلية ان النبوغ نفسه والمواهب انفسها تتطوَّر وتتحوَّل من حال الى حال كتطور الحياة الانسانية والحياة العقلية والحياة الاجتماعية على العموم . فقد نبغ العقل الفني يوم لم يكن للفن من اداة الاَّ الانامل والريشة والقلم والعاطفة والهيكل الجسماني في التمثيل ومرونة الاوتار الصوتية في الحنجرة والقوة الحاسبة في العقل الخ . ولكن لما امكن ان تقوم الآلات بكل امانة وبلا خطإ مقام هذه المواهب والاعضاء والعواطف الخ لم يعد للنبوغ القديم وظيفة في هذه المناطق وصار عليهِ ان يبتدع لنفسهِ مناطق اخرى لكي يبرّز فيها . فلما صارت الآلة الحاسبة تقوم مقام العقل في الجمع والطرح الخ بلا خطإ بتاتاً وتريحهُ من عناء هذه العمليات الشاقة تفرَّغ العقل للنبوغ في عمليات اسمى من هذه كنسبية اينشتين وكونتم Quantum بلانك والكهرب والجو الكهربائي المغنطيسي الذي تولَّد منهُ الراديو الخ . وقس على ذلك اموراً كثيرة تفادياً للاسترسال في ضرب الامثلة

مع ذلك لم يُستغنَ عن الفن والمواهب العقلية السابقة . بل استغني عن تعدد النوابغ فيها . لا يزال المجتمع في حاجة الى فن التصوير ليغذي فن الطباعة المصوَّرة ، وفي حاجة الى الموسيقي البارع لكي يموّن الفونوغراف والراديو ، وفي حاجة الى كل نبوغ وموهبة عقلية لتغذية كل اختراع . ثم ان الاختراع نفسه ثمرة النبوغ . أليست هذه الآلات والمخترعات العجيبة بنت نبوغ جديد اعظم شأناً من ضروب النبوغ السابقة . اي نبوغ اعظم من النبوغ الذي انار العالم بالمصابيح الكهربائية والنبوغ الذي ينقل الينا الكلام والاصوات والمخاطبات على ابعاد سحيقة بمثل لمح البرق ، والنبوغ الذي يحملنا على متن الهواء

ان تأثير الآلات في جميع صنوف الحياة الفردية فضلاً عن الحياة الاجتماعية ليس خطراً عليها وليس فيهِ من أذى البتة . بل بالعكس فيهِ من التأثير الحسن ما لم يحلم بهِ انسان الامس. تأثيره الحسن في الحياة الفردية عظيم جداً ، وتأثيرهُ الحسن في الحياة الاجتماعية أعظم . فهو يعجل التطوُّر الاجتماعي الذي تتجه اليهِ الهيئة الاجتماعية تعجيلاً سريعاً جداً

ان التطور الاجتماعي متجه الى توحيد الامم ، أي الى صوغها جميعاً في امة واحدة وتأثير الآلات يخدم هذه الصياغة

توحيد الامم يستلزم ان تتشابه الامم في الاخلاق والآداب والعقلية ، وان تتساوى في المعرفة ، وان تتماثل في التصورات ، وان تتقارب في العادات ، وان تتوازن في الانظمة ، وبالاجمال ان تسبك جميعاً في قالب واحد لكي يستطاع تكوين عقلية اجتماعية واحدة ذات عاطفة واحدة ، ولكي يستطاع تعميم نظام واحد لها . ومخترعات هذا العصر قائمة بهذه الصياغة حتماً . والمخترعات الخاصة بالمواصلات قائمة بالجانب الاكبر من هذا العمل

خذ اشرطة السنما مثلاً . الشريط الواحد ينتشر في جميع أنحاء العمور ويرسم في مخيلات ألوف الملايين من الناس تصوُّراً واحداً لكل حادث وفن ومنظر وعاطفة ومعرفة كأنَّ جميع ناس الكرة الارضية مشرفون على مشهد واحد من مشاهد الحياة .وكل يوم يرون منها مشهداً جديداً . واذن كلهم يتأثرون نفس التأثرات وتنشأ فيهم نفس الميول والعواطف والاخلاق سواءٌ أكانت مدمّنة منتقفة او مفسدة . وتلافي الفساد فيها يكفله الزمن . والميل الانساني الفطري الى الرقي يرشد الانسان الى وسائل الرقي الصالحة بالاختبار والتجربة

وتعميم المعاملات بواسطة المواصلات السريعة على متن الاثير والهواء والكهرباء جعل أفضل الانظمة الاجتماعية متشابهة عند جميع الامم . بل يكاد يكون للامم جميعاً نظام واحد في السياسة والادارات الاقتصادية والحكومية والادبية وسائر الانظمة الاجتماعية.وللطباعة يد طولى في تعميم العلم والمعرفة والآداب والفنون والصناعات عند جميع الامم . وانتشار سلع المصانع والمعامل على طراز واحد في جميع الممالك جعل افراد الامم متشابهين في الازياء والعادات كل التشابه

لا متسع لزيادة التفصيل. فنكتفي بما تقدم من الامثلة لبيان تأثير عصر الآلات في المجتمع الانساني بحيث يُعدُّه لصياغة واحدة في قالب واحد تمهيداً وتسهيلاً لتوحُّد اممهِ متى بدت فضيلة هذا التوحُّد . وفضيلته تنشئ الرغبة فيهِ . فمسألة تآخي الامم وانتظامها في سلك الوحدة مسألة وقت فقط . لا اظن هذا الوقت بعيداً . والفضل في هذه النتيجة الحميدة يعود الى عصر الآلات . والفضل في مزيَّة (لا ميزة) هذا العصر الجميلة يرجع الى العلم . والعلم ينتشر في جميع الامم وجميع طبقاتها بفضل نفسهِ . لانه وهو الذي ابدع الآلات وسهَّل

اسباب المعايش وقرّب وسائل التعلّم لمنال كل فرد وابان فضائله كالنور الساطع ، جعل نفسه منحة مجانية لجميع الناس . قابل هذا العصر بالاعصر التي سبقتهُ وانظر كم كانت الامم متباينة في معارفها واخلاقها وميولها وعاداتها وتقاليدها وازيائها الخ . لانها كانت محرومة وسائل المواصلات السريعة . فكأنه كان بينها حدود تفصلها بعضها عن بعض فكانت تمادى في تباينها ولا سيما تباين لغاتها . اما الآن فالامر بالعكس . تمادى في التشابه والتشبُّه

وإذ كان الناس يسيئون استعمال هذه المنحة واساءتها تجرُّ عليهم بعض الاحيان وبالاً فلأن ادب النفس Ethics لا يزال ضعيفاً في العقل الانساني والعقل الاجتماعي . وما عيب المجتمع في هذا العصر الناشىء رقيًا الاّ هذا الضعف . فقد ارتقى المجتمع والانسان كثيراً اذا قيسا الى سلفيهما القديمين — ارتقيا ماديًا وعقليًا جدًا . ولكنهما لا يزالان قاصرين ادبًا نفسيًا . وهذا هو سرُّ ان الانسان لم يقدر قيمة منح العلم حق قدرها ولا يزال لا يستحقها . ولكن العلم حليم جدًا . لا يعتب على الانسان وعلى مجتمعهِ لكنودهما ولسوء استعمالهما منحة الكريمة بل هو يستمرُّ في عملهِ لتدميث الاخلاق وتهذيب النفوس وتقويم الاخلاق وتنبيه الضمائر . والتجارب والاختبارات كفيلة برد الانسان الى رشدهِ لكي يرقي نفسه ادبيًا

رأيت فيما تقدم ان الآلات وسائر صنوف الاختراعات تلعب ادواراً عظيمة الشأن على مسرح التطور الاجتماعي . حتى انها تغير مجراه في بعض الاحوال ، وتبدي المجتمع في كل حين في شكل جديد وفي ثوب قشيب . بل لا يندر ان تهدم بعض جدرانهِ وتجدِّد بنيانه . ففيما هي من صنعة النبوغ الفردي والمواهب العقلية الممتازة تراها ترد هذا الفضل للمجتمع بأن تصنع موادهُ وادواته وتجدد هيكله وطرازه . والمجتمع في نوبتهِ يصنع عقلية جديدة للفرد ويجدد شكل ذهنيتهِ ويغير وجهة ميولهِ . فكأنَّ التفاعل الذي بين الفرد والمجتمع ، او بين العقل الفردي والعقل الاجتماعي لا يتم مباشرة بينهما بل بواسطة الآلات والادوات المادية . العقل يبتدع الآلات . والآلات تجدد تطور المجتمع . والمجتمع المتجدد نفسه يستخدم الآلات نفسها لتطوير عقلية الافراد . هكذا يحدث التفاعل بين العقلية الفردية والعقل الاجتماعي على نحو تفاعل العقول والنفوس الفردية بواسطة وسائل الاتصال المادية كأمواج النور التي تنقل صور الحوادث والاشارات الى الناظرين ، وكأمواج الراديو التي تتولى هذا النقل على مسافات بعيدة ، وكأمواج الصوت الهوائية التي تنقل الاصوات والكلام الى الآذان . والناس يتناولون افكارهم ويتلقون اختباراتهم عن طريق أبصارهم واسماعهم . حتى ان توارد الافكار Telepathy ان صحَّ انه ظاهرة عقلية حقيقية لابد ان يكون بواسطة امواج اثيرية ان صح وجود الاثير او بواسطة امواج كهربائية مغنطيسية تقوم مقام الاثير

الشاعر والزمان

لحسن كامل الصيرفي

يعانق القيثارَ في حسرةٍ ... قد اسلَست اوتارَها العاصيه

يسامرُ الدهر بألحانهِ ... وخمرهِ ، والدهرُ في ناحيه

يودُّ لو يُصغي الزمان الذي ... تهدُّهُ اغراضُهُ العاتيه

تقوده من منهجٍ واضحٍ ... على رنين المالِ للهاويه

قد عربدَ الدهر فلم يستمعْ ... للعازفِ اللحنِ ولا الشاديه[1]

وقام في ثورةِ احلامهِ ... يطعَنُ في طغيانهِ ساقيه

وأنّة المطعون في قلبهِ ... مطموسةٌ في الصرخة الداويه

ما الشاعرُ الموهوبُ إلا دمٌ ... على نِصال القوةِ الطاغيه

---

(١) الشادية : هي القيثار

السفياني [1]

للاستاذ بندلي جوزي

جامعة باكو بروسيا

اذا غلبت امة — او طبقة من الناس او حزب سياسي او دين — على امرها وعجزت عن مناهضة عدوها ايًا كان واسترجاع حريتها والوصول الى حقها المهضوم بالقوة او بالتحكيم او بطريق آخر سلمي ثم رأت ان امرها آئل ولا بدَّ الى الدمار لم يكن لديها الاَّ احد اثنين اما ان تلجأ الى الحيلة واما الى التمني وتعليل النفس بالآمال او اليهما كليهما . وانما نريد بالحيلة هنا المخاتلة والمخادعة والتظاهر بالاخلاص للغاصب لايقاع الضرر به من حيث لا يدري عند سنوح اول فرصة الى غير ذلك من الوسائل التي يعمد اليها الضعيف المغلوب على امره كالسحر والشعوذة واستنجاد القوى الخارقة والتعويل على المعجزات حتى تقضي الظروف امرها في تلك الامة او الطبقة الخاسرة . فاما ان تهيء لها سبل الخلاص فتنال حريتها وتستريح واما ان تبقى مستعبدة طول الدهر فتصغر نفسها وتذل وتكتسب صفات المستعبدين واخلاقهم كخساسة النفس ومهانتها والكذب والنفاق والرضى بالشيء القليل مما يمنُّ به عليها سيدها وولي نعمتها ثم تفقد رويداً رويداً فضائلها الشخصية واكثر مميزاتها القومية التي تتوقف عليها حياتها الاجتماعية او كلها فتندمج في الامة او الحزب او الديانة الغالبة وتفنى كما فنيت عاد وثمود والوف غيرها من الامم والطبقات السالفة

اما التمني او تعليل النفس بالآمال فهو السلاح الثاني في يد المغلوب المستسلم الذي ماتت عزيمته وضعف امله في الخلاص فلم يعد يعتمد إلاَّ على نفسه وصار ينتظر النجاة ولو في المستقبل البعيد على يد امة اخرى او شخص آخر يبعثه الله من بين امته المقهورة بعد ان ينفخ فيه شيئاً من روحه ويهبه من القوى الادبية والروحية ما يستطيع معها ان ينتصر للمغلوب ويرد اليه ما فقده او ما كان يشكو من حرمانه اياه . وعن هذا الامل نشأ كما يظهر لي اعتقاد الناس « بالمخلص » و « المهدي » و « الامام » وما اشبه ذلك من الالفاظ المختلفة لفظاً والمتفقة معنىً وبأن الله يبعثه على فترة من الزمن او في آخر الازمان ليعيد السلام الى نصابه ويملأ الارض عدلاً بعد ان ملئت ظلماً وجوراً

---

(١) وضعت هذه المقالة الوجيزة ايفاء بوعدي (راجع عدد يونيو من مقتطف سنة ١٩٣١ ص٦٧٧ تنبيه ٦)

يظهر لي من مطالعة تاريخ الامم القديمة الكبيرة كالمصريين والبابليين والفرس واليونان والرومان ان هذا الاعتقاد كان شائعاً بين اكثرهم إلا انهُ لم يظهر لاول مرة بجلاء وببعض التفصيل الاّ في الامة الفارسية في عهد اسرة الهاشمنيين Hachéménides وان اول رجل تاريخي او نصف تاريخي قال بهذا الاعتقاد هو زرادشت مؤسس دين المثنوية فان صحّ هذا الافتراض كان لنا ان نستنتج منه ان اكبر عامل على ظهور الفكر المذكور بين الفرس كان تلك الحركة الاجتماعية التي ظهرت وقتئذ على اثر الحروب الداخلية بين قبائل ايران قبل ان تتوحّد وتتغلب بعضها على بعض[1] وتكون دولة عظيمة وسلطة مركزية قوية[2] اخذت تعمل من يوم ظهرت على مقاومة السلطات المحلية الى غير ذلك من دواعي الشكوى . اما شيوع هذا الاعتقاد بين اليهود فالاصح انهُ عقب شيوعه بين الفرس وان انبياء اليهود اخذوه عن الفرس او على الاقل تأثروا بهِ ثم اخذه عن اليهود المسيحيون في اوائل النصرانية اي في عصور الاضطهادات الدينية وبالاخص اضطهاد نيرون الظالم ثم المسلمون مع بعض التفاوت في اسباب انتشار هذا الفكر بينهم وفي صفات « المخلص » المنتظر والغرض من مجيئهِ ثم في اتساع رسالته او ضيقها وحصرها في أمة واحدة الى غير ذلك مما سنشير اليهِ في ما بعد . على انهُ يجدر بنا الآن ان نوجّه نظر القارئ الى امر هو في نظرنا هامٌ جداً وهو ان رسالة « مخلّص » الفرس — Saochyant — هي عامة تشمل جميع الامم لا الامة الفارسية فقط بمعنى ان العدل الذي سيقيمه متى ظهر سيملأ الارض كلها لا ارض فارس فقط . فان صدق صاحب هذا الرأي الاستاذ الشهير Ed. Meyer[3] كانت رسالة Saochyant اقرب الى رسالة عيسى المسيح كما تكوّنت في آخر ايامه[4] منهُ الى رسالة « مسيح » اليهود الذي تكاد دعوتهُ تنحصر في الامة اليهودية وبالاخص عند الانبياء المتأخرين ويهود الاعصر الاخيرة السابقة لمجيء يسوع المسيح. على انهُ يظهر لي ان Saochyant الفرس لم يكن في باديء الامر الاّ كسائر امثاله واخوانه عند سائر الامم التي شاع بينها هذا الاعتقاد اي ان رسالتهُ لم تكن لتتعدّى الامة الفارسية وانها كانت قومية محضة لا عالمية international كما يحاول الاستاذ المذكور ان يقنع قراءه لكنها اتسعت وتطورت مع الزمن هذا ان احسنّا فهم عبارات مبهمة تُعزى الى زرادشت وما هي

---

(١) وعن ذلك نشأت أيضاً كما يخيل الي الحركة الدينية اي حركة زرادشت التي أريد منها اصلاح الدين القديم الذي لم يعد يلائم العصر وذلك التطور السياسي والاجتماعي الذي حدث في ايام الاسرة المذكورة (راجع تاريخ الفرس الاقدمين F. Justi وتآليف الاستاذ A. Christensen) عن ديانة زرادشت

(٢) دولة الفرس في أيام بني ساسان (وكلاهما في اللغة الفرنساوية)

(٣) توفي سنة ١٩٣٠ راجع كتابه Urschprung und Anfannge des Christeutham ج ٢ ص ٢٥٠ —

(٤) قلنا في اواخر ايامه لان رسالته الى العالم كله لم تظهر بجلاء، تام الا في هذه الايام كما يؤخذ من الآيات الآتية : «دعي البنين (اي اليهود) يشبعون اولاً لانه ليس حسناً ان يؤخذ خبز البنين ويلقى للكلاب (انجيل مرقس ٧ : ٢٧) — قالها يسوع للامرأة اليونانية يوم طلبت اليه ان يشفي ابنتها

على الارجح له بل لبعض المتأخرين من خدمة دينه المعروفين بالموبذان والهربذان

قلت ان العوامل التي بعثت الاعتقاد « بالمخلص » على اختلاف اسمائه ترجع في اغلب الاحيان الى عوامل اجتماعية وسياسية ونادراً جدًّا الى عوامل دينية . والمراد هنا بالعوامل الاجتماعية تغلّب طبقة من طبقات الامة على طبقة او طبقات اخرى وهضمها لحقوقها واستخدامها لمصلحتها . وقد تكون الطبقة الغاصبة من الامة نفسها او من امة اخرى فاتحة وكذلك الطبقة المغلوبة المستعبدة. وهذا العامل اقوى العوامل واقدمها واظهرها اثراً في نشوء فكرة « المخلص » ويأتي بعدها تغلب امة على امة وارهاقها وقد يجتمع العاملان في امة فيقوى اثرهما فتسوء حال الطبقة او الامة المغلوبة ولاسيما حال الفلاحين والفعلة وتصبح حياتهم عذاباً مستمرًّا لايقوى على احتماله إلاّ من فقد مروءته وعزّة نفسه . واما من لم يفقدها فكان يحاول ان يخفف عن نفسه بجميع الوسائل ومما فيها الثورة على الظالمين المغتصبين والانتقام من الطبقة او الامة الغاصبة. وتاريخ الامم القديمة مفعم بهذه الثورات والحروب الداخلية نذكر منها ثورة المزارعين والفعلة المصريين التي حدثت بعد سقوط الاسرة الثانية عشر[1] وثورة الفرس في ايام الملك قباذ الاول وعلى يد مزدك[2] واضع مبدأ الشيوعية في العصر السادس ولكن قد يفشل اصحاب الثورة فتسوء حالهم ويضعف اعتمادهم على انفسهم فلا يبقى لديهم إلاّ الامل بظهور « ملك او حاكم عادل » يرحمهم ويرق لحالهم او « مخلص » تبعثهُ الآلهة او الله ليلقي عنهم نير العبودية ويرد اليهم حقوقهم المهضومة ويساويهم بأهل الطبقات الاخرى

---

(١) انظر عن هذه الثورة البردي الموجود الآن في متحف ليون حيث تجد وصفاً مؤثراً لما عقب هذه الثورة من الانقلاب الاجتماعي الذي يذكرنا بما حدث بعد الثورة الفرنساوية او الثورة الروسية الاخيرة وهذا بعض ما ذكره صاحب هذا البردي المجهول « تعالوا انظروا ! الغني يذهب الى فراشه ولما يرو عطشه وذاك الذي كان يطلب منه صدقة يشرب الجعة الجيدة . . . من لم يكن يملك شيئاً صار يملك كنوزاً والسيد يتملقه ... فقراء القطر اصبحوا أغنياءه ومن كان يملك شيئاً أصبح معدماً ... من لم يكن لديه خبز صار يملك اهراء لان هريه مملوء مما كان يخص غيره . من كان له فراش ينام الآن على الارض واما من كان يتمرغ في الاوساخ فانه ينام على الوسائد . ترى الحلي في اعناق الرقيقات اللواتي صرن يملكن افواههن وقد بلغت وقاحتهن ان اصبحن يقربن القرابين الى الآلهة ... كل مدينة تقول لنطردن الاعزاء من ديارنا » واصعب من كل ذلك ان الاغنياء اصبحوا مضطرين ان يشتغلوا ليعيشوا .. « سكان المدن يديرون حجار الارحية والسيدات صرن كالخادمات . من كان قبلا خادماً يرسله سيده حيث اراد صار يرسل غيره ... ابناء المتوظفين يلبسون رث الثياب ... ونساء الاعيان اصبحن في يد الفقراء لا يجسرون على فتح افواههن أمام الخادمات سابقاً واولادهن سلموا للمهر » ... حجر المتوظفين فتحت وقوائم (الضرائب) سرقت وبعض المتوظفين قتلوا . تقارير المحكمة في المعبر والفقراء يمزقونها في الشوارع .. واوراق جباة المال اعدمت . . . بيت الحكم الكبير مملوء جداً والفقراء تسرح وتمرح في البيوت الكبيرة . لم تبق وظيفة في محلها وكل الناس كالقطيع الجافل الذي لا راعي له . . . الملك في يد الفقراء واهراؤه مفتوحة لمن يريد وقد خانه حتى من كان يحسن الظن فيه ويأمل ان يعتمد عليه ... والنشء الجديد الذي كنا نربيه لا نفسنا صار من « أصحاب القوس » يريد ان يقضي على من كان سبب وجوده » الخ

(٢) طالع عن حركة مزدك كتاب الملل والنحل للشهرستاني وتأليف الاستاذ A. Christensen Le règne du roi Kanade I et le communisme Mozdakite. ١٩٢٥ كوبنهاغن

اما العوامل السياسية فاكثر ما تكون بين حزبين سياسيين او بين حِلْفَين كبيرين من القبائل يتنازعان السلطة ومصادر القوة والغنى وأثر هذا التنازع ظاهر في تاريخ اكثر الامم الكبيرة بل جميعها وعلى الاخص في تاريخ الامة العربية كما سترى بعيد ذلك . وقد يجتمع العاملان المذكوران — الاجتماعي والسياسي — في امة واحدة وفي عصر واحد فيشتدّ ضغطهما عليها حتى تكاد تزهق روحها ويغلب عليها اليأس فلا تعد تفكر الاّ « بالمخلّص » او « الفادي » المنتظر ولا تحلم الاّ به فيستولي عليها شيء من الهوس فتصبح وهي على هذه الحالة سريعة الانقياد سهلة التصديق وبالتالي آلة عمياء في ايدي الطامعين في الرئاسة واصحاب الاغراض الشخصية او الحزبية او غيرها فتتبعهم الى حيث ارادوا فيستخدمونها في قضاء اغراضهم حتى اذا نجحوا القوا اليها بالتبن والقشور وارضوها بالشيء القليل والاّ تركوها وشأنها تعاني بعد الفشل انواع العذاب وتنتظر « مخلصاً » آخر « صادقاً لا كاذباً » يظهره الله على فترة من الزمن او في « آخر الازمان » . وهذا تاريخ اليهود والنصارى وغيرهم من الامم حافل بهذه الآمال التي لم تحقق والاعتقادات الغريبة التي لا يسعنا الآن المقام لتعدادها وبيان ما كان لها من التأثير في مسير تاريخ الامم المذكورة . على انهُ لا بد من الاشارة هنا الى ان الفشل الذي كان يصيب في اغلب الاحيان الطبقات او الاحزاب او الاديان المغلوبة على امرها كان يحملها كل مرة على ارجاء ظهور المخلص الى زمن آخر قد حاول بعضها ان يحدّده فلم يفلح فدحره الى « آخر الازمان » . وفي ذلك بيان كافٍ لما تراه من التردّد في اقوال اليهود والنصارى والمسلمين عن المسيح او المهدي المنتظر هل يكون ظهوره في وقت معين اي عند مسيس الحاجة اليه او بعد مئة او الف سنة او في « آخر الازمان » كما اجمعوا على ذلك بعد ان تبين لهم بانهُ لم يأت في الوقت الذي كانوا ينتظرونهُ فيهِ وهل تكون رسالته اجتماعية محضة او سياسية او اخلاقية . وعن هذا التردد نشأ تطور الفكر الاصلي في الغرض من مجيء « المسيح او المهدي » ومدة اقامته بين اصحابهِ ومن ينتظره وفي كل ذلك وعلى الاخص في ارجاء مجيئهِ الى زمن غير معلوم تنازل من طرف الامة — او الطبقة او الحزب السياسي او الديني — المغلوبة على امرها عن مطالبها اوجبتهُ الحوادث التاريخية التي قضت على اماني الفئة المذكورة ومساعي رؤساء الحركات وتأثيرهم الادبي أو السياسي على الطبقات او الاحزاب المظلومة

هذه على ما أرى هي أهم أسباب[1] ظهور اعتقاد الناس بمجيء المسيح أو المهدي وتطور هذا الاعتقاد . اما الغرض من مجيئهِ فقد أجمع السلف على انهُ اجتماعي وأدبي محض وهو « اقامة العدل » الاّ انهُ يلاحظ ان كلاً من العناصر المذكورة المظلومة فعلاً أو التي كانت تحسب نفسها

(١) الا ان تكون اصحاب الطبقات المستبدة واصحاب السلطة وضعوا هذا الفكر ليصرفوا عنهم غضب الطبقات او الامم المظلومة المستعبدة وعمدوا في آمالها لئلا تيأس فتثور وتقضي عليهم وهذا محتمل في نفسه ولكن التاريخ لم يذكره

مظلومة كان وما زال يفهم من كلمة « عدل » ما كانت تدعو اليه احواله الاجتماعية او السياسية او الدينية وما كان هو في اشد الحاجة اليه فالطبقات الاجتماعية المظلومة كانت تنتظر من « المخلص » ان يساويها بالطبقة المستبدة في الماديات أو على الاقل ان يخفف من وطأة هذه الطبقة عليها ويضمن لها ولو ما تحتاج اليه من الضروريات كالخبز والماء والمأوى . واما الامم المستعبدة فانها كانت تنتظر مجيئهُ لينقذها من الرق ويرد لها عزها السابق ومثلها الديانات المضطهدة والاحزاب السياسية

يخيَّل اليَّ ان فكرة « المخلص » ظهرت في بادىء الامر بين الطبقات الاجتماعية المقهورة اي بين طبقات الفلاحين والفعلة فاذا صح هذا الافتراض كان الباعثُ على ظهورها عاملاً اجتماعيًّا ماديًّا او اقتصاديًّا وهذا لا يكون على ما نعلم الاَّ بعد ان تنتقل الامة من دور البداوة الى دور الحضارة حين تأخذ السلطة المركزية تنمو وتقوى وتتسع التجارة ويشيع بين الناس التعامل بالنقود او ما كان يقوم مقامها وتكثر عوامل الغنى والسيادة او بعبارة اخرى عوامل التفاوت والتفريق بين الامة الواحدة وظهور الطبقات بينها وما يعقب ذلك من نزاعها المستمر . بناء على ذلك يكون شيوع هذا الاعتقاد بين الاحزاب السياسية والديانات المضطهدة تابعاً لظهوره بين الطبقات ومأخوذاً عنه وهذا ما نستطيع ان نؤيده بشواهد عديدة من تاريخ بعض الشعوب القديمة على اننا نقتصر — لاعتبارات مفهومة — على شاهد واحد نأخذه من تاريخ الامة العبرانية وذلك لانها اقرب الامم الينا ثم لانهُ كان لتعاليمها عن المسيح واسباب ظهوره اثر بين في تعاليم المسيحيين والمسلمين عن « المسيح والمهدي او الامام المنتظر » وثالثاً لاَن العوامل التي اوجبت ظهور هذا الفكر وتطوره بينهم اظهر في كتبهم مما هو في كتب غيرهم من الاقدمين واخيراً لاننا لا نعلم ان احداً من كتبة سائر الامم وصف لنا حالة الطبقات المظلومة كما وصفها كتبة اليهود ونخص منهم انبياءهم أشعيا وارميا وعاموس وغيرهم . فليسمح لنا اذن القارىء ان نعرض عليه بعض هذه الصور ليرى بعينه ما كانت عليه هذه الطبقات من الحيف وما بلغته من الفقر والذل في ايام الملوك وليقابلها بحال الطبقات الظالمة فيدرك الاسباب التي أوحت الى الفئة الاولى فكرة المخلص وحنينها الدائم الى ظهوره

قال اشعيا يصف تجبر رؤساء الشعب وشيوخه وامتهانهم للفقير : « ما بالكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائس » ؟ (٣ : ١٥)

« ويل للذين يشترعون شرائع الظلم والذين يكتبون كتابة الجور ليحرّفوا حكم المساكين ويسلبوا حق بائسي شعبي لتكون الارامل مغنماً لهم وينهبوا اليتامى » (١٠ : ١ — ٢)

« باعوا الصديق بالفضة والمسكين بنعلين وهم انما يبتغون ان يغطي تراب الارض رؤوس الفقراء ويأودون طريق البائسين ... ويضجعون على ثياب مرهونة بجانب كل مذبح ويشربون

خمر المغرّمين في بيت إلاههم» (عاموس ٢: ٦—٨)

«ويل للذين يفكرون في الاثم ويخترعون الشر في مضاجعهم ثم في نور الصباح يصنعونه يشتهون حقولاً فيغتصبونها وبيوتاً فيحوزونها ويظلمون الرجل وبيته والانسان وميراثه»

«اسمعوا هذا ايها المتعطشون الى دم المسكين وابادة فقراء الارض القائلون متى ينقضي رأس السنة فنبيع الميرة والسبت فنعرض البرّ مصغرين الايفة (١) ومكبرين المثقال ومستعملين موازين الغش» (عاموس ٨: ٥—٦)

«ويل لمن يبني بيته بغير عدل وغرفه بغير حق ويستخدم قريبه بلا اجرة ولا يوفيه عن عمله ويقول ابني لي بيتاً واسعاً وغرفاً فسيحة فيفتح له كوى وسقفه بالارز ودهنه بالمغرة... اما انت فعيناك وقلبك على السحت وسفك الدم الزكي والظلم والضغط» (ارميا ٢٢: ١٣—١٤ و ١٧)

«ليس من داع بالعدل ولا محاكم بالحق. يتكلون على الخواء وينطقون بالباطل يحبلون بالضرر ويلدون الاثم... ارجلهم تسعى الى الشر وتسارع الى سفك الدم الزكي... لذلك ابتعد الانصاف عنا ولم يدركنا العدل. نترقب النور فاذا بالظلمة والضياء فاذا بنا سالكون في الديجور. نتجسس الحائط كالعمي ونتلمس كمن لاعيني له. نعثر في الظهيرة كما في العتمة ونحن في الاصحاء كأنّا اموات» (اشعيا ٥٩: ٤—١٠)

«كما يخزى السارق حين يوجد كذلك خزي آل اسرائيل هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وانبياؤهم (ارميا ٢: ٢٦)

«من صغيرهم الى كبيرهم يحرصون على السحت وهم جميعاً من النبي الى الكاهن يأتون الزور» (ارميا ٦: ١٣)

«ويل للمترفين في صهيون والمطمئنين في جبل السامرة لعظماء اولى الامم الذين جاءهم آل اسرائيل... انكم تضجعون على اسرّة من عاج وتتبسّطون على حجالكم وتأكلون الحملان من الغنم والعجول من وسط المعلف وتغنون على صوت العود وتشربون الخمر بالجامات وتدّهنون بالادهان النفيسة ولا تكتئبون لانكسار يوسف» (عاموس ٦: ١ — ٦)

«ويل للقائمين من الغداة في طلب المسكر المستمرين الى العتمة والخمر تلهبهم وفي مآدبهم الكنارة والعود والدف والمزمار والخمر» (اشعيا ٥: ١١ — ١٢)

فانت ترى من هذا الوصف الوجيز ان الفرق بين طبقات الشعب العبراني كان عظيماً وان شكوى الضعيف وصراخ الفقير بلغا حدّهما الاقصى وقد كان ينتظر ان يتحوّلا الى هيجان يقضي على الطبقة الظالمة المحتكرة لموارد الثروة والسلطة ويقلب النظام الاجتماعي رأساً على

(١) الكيل

عقب كما حدث في مصر بعد سقوط الاسرة الثانية عشرة كما رأينا . ولقد كان يكون ذلك لو دعا الانبياء وهم قادة الشعب يومئذٍ — الى ذلك او لو وُجد حينئذٍ من يشدّ أزر الطبقة المغلوبة ويتولى رئاستها وينفخ في نارها الاّ ان انبياء اليهود ومن نسج على منوالهم ممن جاء بعدهم وتأثر بسياستهم الادبية لم يكونوا يأملون اصلاح الامة وقتل اسباب النزاع بين طبقاتها عن طريق الثورة واثارة الحسد والبغض بين افرادها ، بل بالنصيحة والارشاد والوعد والوعيد وما أشبه ذلك من الوسائل السلمية التي لا يظهر فعلها الاّ بعد زمن طويل ان قدّر له ان يظهر . ولولا ذلك ولولا ما نعلمهُ من أثر الانبياء الأدبي في الشعب البسيط المظلوم لكان له شأن آخر مع الفئة الظالمة . ولما اضطر بعد ان يئس من نجاح الوسائل السلمية ان يرجىء اصلاح ما فسد من النظام الاجتماعي وما أصابه من الضيم الى ما شاء الله من الزمن وان يعهد بهذا الاصلاح الى «الفادي» الذي سوف يبعثه الله . . . على إني ارجح ان الثورة كانت لابدّ واقعة لو طال امد هذا النزاع وبلغ حدّاً معلوماً يفرغ عنده صبر الصابرين ولو لم تقض دولة الاشوريين على استقلال اليهود وتساوي بينهم في العبودية

كان لهذا الحادث التاريخي نتيجتان هامتان احداها انه ساوى — كما قلنا — بين طبقات الامة المغلوبة في الحقوق والواجبات اذ جعلها كلها في منزلة العبيد وفي التمتع بخيرات هذه اذ جعلها كلها في درجة واحدة من الفقر وبذلك قتل اسباب النزاع بينها ومحا عوامل الحرب الداخلية التي كانت على وشك الانفجار بين الطبقات المذكورة او بالاحرى صرفها الى ناحية اخرى شأن بعض الحروب الخارجية في اوروبا في عصرنا الحاضر . والنتيجة الثانية هي ان «المسيح» الذي كانت تنتظره الطبقات المظلومة لينتقم لها من الطبقات الظالمة ويخلصها صارت تنتظره الآن الامة كلها ليحررها من الاشوريين ويرد اليها ما فقدته من المال وغيره . فانت ترى ان دعوة «المسيح» أصبحت عامة تشمل الامة العبرانية كلها — وهذا ما ردّده الانبياء وبالاخص المتأخرون منهم ألوف مرات — وانها تطوّرت تطوراً ظاهراً بمعنى انها أصبحت سياسية[1] اكثر منها اجتماعية كما كانت في الدور الاول وأهم من ذلك ان قادة الامة والمعبرين عن افكارها وامانيها وهم الانبياء اخذوا يترددون في تعيين زمن مجيء «المسيح» بين ان يكون قريباً وفي حياتهم او بعيداً في آخر الازمان مع ترجيح الامل الاول على الثاني ومصدر هذا التردّد هو ولا شك التقلب بين اليأس والأمل

(١) «يوم يجبر الرب كسر شعبه ويشفي جرح ضربته» (اشع ٣٠:٢٦)
«قوّوا الايدي المسترخية وشددوا الركب الواهنة . قولوا لقزعي القلوب تقووا لا تخافوا هوذا الهكم، النقمة آتية ، جزاء الله حاضر ، هو يأتي ويخلصنا» (اشع ٣٥:٣—٤)
«اني قربت بري فلا يبعد وخلاصي فلا يبطىء» (اشع ٤٦:١٣)
«عما قريب تنحل اغلال المنحني ولا يموت للفساد ولا ينقص خبزه» (اشع ٥١:١٤)
«قولوا لابنة صهيون هوذا مخلصك آت هوذا جزاؤه معه وعمله أمامه» (اشع ٦٣:١١)

الطيارة تقهر افرست

التحليق فوق اعلى قمم حمالايا

لبعض الناس غرام بالتفوق على غيرهم والسبق الى نيل ما تقصر عنه الهمم ولو باقتحام اشد المخاطر لغير نفع مادي. ومن هذا القبيل توخي الوصول الى القطب الشمالي او الى القطب الجنوبي، اوالضرب في قلب افريقية لاكتشاف مجاهلها، او التصعيد في الجبال بغية الوصول الى قنتها

ان جبال حمالايا سلسلة كبيرة من الجبال حاول الروّاد ارتقاءها من عهد طويل . فبين سنة ١٨٥٤ و ١٨٥٨ قصد ادولف شلتجنتويت وأخوه روبرت ، ارتقاء بعضها ، فبلغا ما ارتفاعه ٢٢٢٥٩ قدماً من جبل كامت الذي علو قنته ٢٥٤٤٣ . وبعد ذلك عبر ادولف شعباً فيها وقتل في كشغر . وفي سنة ١٨٩٥ حاول ممري وبعض الرفاق ارتقاء جبل آخر من تلك الجبال ، وبعد ان صعدوا في بعض مساندها افترقوا فرقتين والفرقة التي فيها ممري انقطع خبرها ولا يعلم حتى الآن ما حلَّ بها

وحاولت بعثة اخرى ارتقاء جبل من هذه الجبال ارتفاعه ٢٨١٥٠ قدماً وهو الثالث من حيث الارتفاع فبلغت ما ارتفاعهُ ٢٠٣٤٣ وحينئذ عزم بعضها على الرجوع فخالفهم البعض الآخر وصمموا على استطراد الصعود ، وكان عددهم ثلاثة ، ومعهم ثلاثة من الهنود يسيرون امامهم ، والحبل في ايديهم ، فزلقت رجل واحد من الهنود ، فتدهور وتدهور الباقون فلم ينج من الستة الا اثنان من الاوربيين . أما الذين هلكوا فوجدت جثثهم بعد اربعة ايام والثلج يغطيها الى علو ١٢ قدماً لانهُ وقع من مسند الجبل معهم وعليهم

وجبل افرست اعلى جبال حمالايا علوه بحسب القياسات التي يقتضيها حساب المثلثات ٢٩١٤١ قدماً وقنتهُ مغطاة دائماً بالثلج وجوانبه كثيرة الجروف العالية . وحولهُ قنن كثيرة وكلها يغطيها الثلج على مدار السنة ، وتنقدُّ منهُ ومنها قدد كبيرة تتدحرج الى سفوحها ، فتحدث اصواتاً تصم الآذان، وتجرف في طريقها كل ما تمر بهِ . فالتصعيد فيها محفوف بالمخاطر

لكن المصاعب تشحذ همم الابطال ، فيغامرون بكل شيء ، حتى بالحياة ، وتعيد همهم الوحيد البلوغ الى ما لم يبلغهُ غيرهم ورفع راية وطنهم عليهِ

وقد حاول المصعدون الانكليز ، مراراً بعد الحرب الكبرى ، ان يبلغوا الى قنة جبل افرست ، فخاطبوا حكومة بلاد التبت سنة ١٩٢٠ لكي تأذن لهم في دخول بلادها لان المرتقى من جهة التبت اسهل من المرتقى في جهات اخرى . فأذنت في ذلك وأرسلت البعثة الاولى

سنة ١٩٢١ للاستكشاف وجمع الحقائق ومعرفة السبيل المؤدي الى القنة

ثم تتالت البعثات في سنة ١٩٢٢ و١٩٢٤ و١٩٣١ وكلها عجزت عن بلوغ القنة ، ولكن رجال بعضها بلغوا ارتفاع ٢٨٢٠٠ قدم

***

واخيراً خطر لضابطين متقاعدين من ضباط الجيش البريطاني، تنظيم بعثة يكون غرضها الطيران فوق قنة افرست. ولكنهما لم يملكا من امر هذه البعثة إلاّ فكرتها، والاّ مقدرتهما على جمع الحقائق اللازمة لها. فشرعا في جمع الحقائق . وكان احدهما الكولونل بلاكر قد مارس الطيران قليلاً ، فأدرك الى اي نواحي البحث يتجه . وعرف بمشروعهما لورد كليدسديل وهو طيّار بارع ، فبحث عنهما فاعترفا له بأن المشروع يكاد يكون وهميًّا لانهما لا يملكان من نفقات البعثة بارة واحدة . فذهب لورد كليدسديل الى اللايدي هوستن ، وهي ارملة ثرية ، يهمها ارتقاء الطيران البريطاني ، وهي السيدة التي تبرعت من سنتين بمائة الف جنيه لكي تدخل انكلترا مباراة شنيدر ، بعد ما قررت حكومة مكدونلد ، ان الدولة لا يسعها الانفاق على هذه المباراة . فلما علمت بمشروع الطيران فوق قنة افرست ، رضيت بالانفاق على البعثة ، وعينت من وكلائها لجنة لتنظيم المشروع وشراء كل ما يلزم له. وصنعت الطيارتان اللازمتان ، والآلات الفوتغرافية واسطوانات الاكسجين التي يستعملها الطياروناذ يحلقون في الجو حيث يقل الاكسجين

***

في اواخر مارس سنة ١٩٣٣ كانت البعثة قد وصلت مقرها عند سفح الجبال ، وأعدت عدتها وجرّبت الطيارتين ، فلما جاءها في صباح ٣ ابريل ١٩٣٣ من مكتب الظواهر الجوية ان البلونات التي اطيرت لمعرفة هبوب الرياح وسرعتها تدل على ان سرعة الريح قد هبطت الى ٥٧ ميلاً في الساعة على علو ٣٣ الف قدم ، قامت الطيارتان في الساعة ٨:٢٥ صباحاً من مطار لابالو ، وكانت احداها بقيادة لورد كليدسديل ، والاخرى بقيادة ملازم الطيران مكنتير يصحبهُ المستر بونت Bonett ممثل شركة افلام جومون البريطانية لاخذ الصور الفوتغرافية

وذهبت الطيارتان صُعُداً في الجو فبلغتا بعد نصف ساعة من الطيران ارتفاع ١٩ الف قدماً على بعد ٤٠ ميلاً من المطار . وفي الساعة التاسعة مرتا فوق قنة شاملالنغ على ارتفاع ٣١ الف قدم . فلما اقتربتا من لوتسه Lhotse وهي القنة الجنوبية من القنن التي تحيط بأفرست ، هبطتا نحو ١٥٠٠ قدم بفعل تيار هابط من الهواء سببهُ انحراف الريح على مساند الجبال . وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة كانت الطيارتان فوق قنة افرست على مائة قدم منها . فبدا للطيارين جاله الرائع ، وصوّرت الصور التي نقلنا بعضها مع هذا المقال

تحليل العواطف المركبة

الكره والحسد والاحتقار والانتقام والاعجاب والاحترام والقلق

النفس الانسانية تيه كثير الالتواء متشعب المسالك يلجهُ من يلجهُ فلا يستبين صعوبة السير فيهِ الاَّ اذا اوغل في منعطفاته ومعمَّياته . وقتها يدرك انهُ في سبيل ليست كالسبل المادية ، وانهُ اذا شاء ان تكون نهاية لسيره عليهِ ان يسير مرهف الحس شديد اليقظة. وهذا الوصف لا يصدق صدقه على الناحية العاطفية من نواحي حياتنا العقلية . فنحن اذ نعالج دراسة العواطف درساً مجملاً نجد السبيل معبدة مطروقة والسير فيها ميسَّراً غير عسير ،لان علماء النفس قد انتهوا في دراسة العواطف الانسانية الاساسية الى شيءٍ يشبه الاجماع فاضحت العوامل التي تثير هذه العواطف وتقعدها والمظاهر النفسية والفزيولوجية التي تصحبها واضحة محدَّدة . ولكن الى هنا ينتهي الوضوح ويتبدل اليسر عسراً. فاذا انتهينا الى دراسة العواطف المركبة المشتقة من هذه العواطف الاساسية فهناك الحدس والتخمين وهناك الاختلاف في الرأي وهناك ما لا يكاد يتعدَّى الدراسة الذاتية . والقليلون الذين تصدُّوا لدراسة هذه العواطف مثل شاند ومكدوغل وودورث لا ينكرون مقدار الصعوبة في هذه الدراسة

ووجه الصعوبة هو ان هذه العواطف المشتقة تتألف من العواطف الاساسية على نحو ما يتألف المركب الكيماوي من عناصره الاولية .والصعوبة في رد العاطفة المركبة الى عناصرها الاولية هي كالصعوبة في رد المركب الكيماوي الى عناصره التي يتركب منها

ثم ان الطبيعة لا تعطي الفرد هذه العواطف الاساسية جاهزة ناضجة شأنها في معظم ما تغرسهُ فيهِ من عواطف اساسية . والحقيقة ان نضوج هذه العواطف المركبة يتوقف الى حد كبير على طرائق التلقين المختلفة التي يخضع لها المرء طوعاً او قسراً ، والتي لاشك تساعدهُ في تثبيت هذه العواطف وتمكينها من النفوس . يضاف الى هذا ان العواطف الاساسية الاولية تفقد معظم خواصها متى دخلت في تركيب العاطفة المركبة ، على نحو ما تشاهده في المركبات الكيماوية حينما تتألف عناصرها الاساسية وتتحد . زد على ذلك كلهِ ان العواطف الاساسية كعاطفة الغضب والخوف والحب (بالمعنى الجنسي) والاستعلاء والتصاغر هي عواطف قوية بارزة . وليس كالبروز والقوة في الصفات النفسانية شيئان يسهلان دراستها . على حين ان العواطف المركبة ليس لها مثل ذينك البروز والقوة . واحدنا قد يقرأ قصة الحياة من الفها الى يائها ولايتاح لبعض هذه العواطف فيهِ ان تنهض من رقدتها ، فيحيا ويموت وكأن لم يكن لهذه العواطف أثر في حياتهِ . ذلك ان مثيرات هذه العواطف هي الاخرى معقدة متعددة

الجوانب ، فلا يسهل اجتماعها — والحالة هذه — في وقت واحد لتثير عاطفة بعينها من هذه العواطف المركبة . ثم لا ننسى ان الفرق في الكثرة بين العواطف الاولية والعواطف المركبة هو نسبياً كالفرق بين العناصر الاساسية في الطبيعة ومركباتها ؛ مما يجعل الاحاطة احاطة تامة بهذه العواطف جميعاً من الامور العسيرة

ولكن على الرغم من هذا كله ففي طبيعة العواطف المركبة ذاتها ما يُساعد على تمييزها من العواطف البسيطة ودراستها . فللتمييز بين العواطف الاساسية والعواطف المركبة على الدارس ان يُلاحظ هل العاطفة المراد درسها ظاهرة بوضوح وجلاء في احد الحيوانات العليا غير الانسان فاذا رآها كذلك عندها يُرجح ان هذه العاطفة عاطفة اساسية ، لان الذي عليهِ جمهور الباحثين النفسيين ان الحيوان لا يشارك الانسان في العواطف المركبة . وعليهِ فالعاطفة التي تشاهد في الانسان والحيوان هي عاطفة اساسية . والعاطفة التي يستأثر بها الانسان هي عاطفة مركبة . واذا فحصت احدى هذه العواطف ورأيت انها قد تظهر في بعض الناس بمظهر الشذوذ المستديم فالراجح ان هذه العاطفة عاطفة اساسية غير مركبة . فالعاطفة المركبة هي في الحقيقة كالجرم المثقل يصعب تحريكها عن مركز ثقلها او زحزحتها عن نقطة ارتكازها لتظهر بمظهر الشذوذ والانحراف . فعاطفة الخوف او عاطفة الغضب او عاطفة الاستعلاء او غيرها من العواطف الاساسية قد تظهر بمظهر الشذوذ الشديد في بعض الناس ، ولكن يندر جداً ان تظهر عاطفة الاحترام او الكره او الانتقام من العواطف المركبة بمظهر الشذوذ . نعم ان هذه العواطف قد تظهر بمظهر العنف او المبالغة ، ولكن العنف والمبالغة هما غير الشذوذ

وحينما يتجه الباحث النفسي الى تحليل هذه العواطف المركبة بعد ان يستيقن من انها مركبة غير بسيطة يجب ان يدرس ويلاحظ بدقة جميع التغيرات والمظاهر التي يلحظها في موضوع درسه حينما تستثار احدى هذه العواطف . والحقيقة ان لكل من هذه العواطف المركبة مظاهر خاصة تساعد على تمييزها . وليس ادلُّ على ذلك من ان معظم الممثلين الناجحين يستطيعون ان يُحيُوا على المسرح بحركاتهم وسكناتهم جميع طيوف العواطف المركبة كالحقد والرياء والمكر والكبرياء والاعجاب والقلق وما الى هذه من عواطف مركبة معقدة

كذلك يُساعد على تبيُّن هذه العواطف دراستها في درجة عليا من الاستفزاز . ففي استثارة هذه العواطف والالحاح عليها ما يكاد يحلها الى عناصرها الاولية ، مما يساعد على دراستها وتمييز صفاتها . وبضعة امثلة من هذه العواطف تؤخذ وتحلل تكفي لايضاح الطريق التي يسير عليها من يود الالمام بطبيعة هذه العواطف والكشف عن عناصرها

من العواطف المركبة عاطفة الكره . وهي مكوَّنة من عاطفتين اساسيتين هما عاطفة الغضب وعاطفة الخوف . ولسنا نرى ان عاطفة الاشمئزاز — كما يريد مكدوغل — داخلة في تكوين

هذه العاطفة ايضاً. هذا على تقدير ان عاطفة الاشمئزاز هي عاطفة بسيطة . ولكن الذي نرجحهُ ان عاطفة الاشمئزاز هي عاطفة مركبة . فهي من العواطف الانسانية المحضة. والحيوان في الراجح لا نصيب لهُ منها . والعواطف المركبة هي — كما مرَّ معنا — العواطف التي يستأثر بها الانسان دون الحيوان. وعلى كلٍ ليس ثمة ضرورة لفرض وجود هذه العاطفة وحسبانها عنصراً اساسيًّا من عناصر العاطفة المركبة لان عاطفتي الخوف والغضب وحدهما تكفيان لتفسير هذه العاطفة . خذ موضوعاً تتوافر فيهِ مثيرات هاتين العاطفتين فقط فتجد انهُ دائماً يثير عاطفة الكره. شخصٌ يثير مخاوفك لقدرته على الايذاء ويثير غضبك لتوجهه نحوك بهذا الايذاء يستطيع ان يبعث فيك عاطفة الكره دون أن يكون فيهِ ما يبعث على اشمئزاز . ولا نعتقد ان امثال موسوليني ونابليون ومصطفى كمال يثيرون في خصومهم عواطف الاشمئزاز ، مع ان هؤلاء الخصوم يتظاهرون بهذه العواطف . والرجل العاتي الذي يتسلط على جماعة من البشر يثير كرههم، لانهُ يغضبهم بتوجههِ بالاذى اليهم ولانهُ يخيفهم لمنعته واستحالة الانتصاف منهُ عليهم . فالمكروه اذاً يجب ان تتوافر فيهِ مثيرات هاتين العاطفتين: فالمخيف وحده لا يثير فينا عاطفة الكره . كمنظر الاسد مثلاً. وما يثير عاطفة الغضب وحدها لا يثير فينا عاطفة الكره ايضاً — كالطفل الذي يكسر آنية عزيزة عليك . ولا يثير الطفل فيك عاطفة الخوف لانهُ عاجز عن ايذائك اذا رُمت ان تقتصَّ منهُ

والحسد عاطفة اخرى مركبة . وبينها وبين عاطفة الكره نسب شديد، لان عنصراً من عناصر عاطفة الكره داخل في تركيبها . فهي مكونة من عاطفتين اساسيتين : عاطفة التصاغر وعاطفة الغضب . أما عاطفة التصاغر فهي هذا الشعور الذي يستولي علينا ازاء ما يشعرنا بضعفنا وتخلُّفنا بيد ان ما يثير عاطفة التصاغر لا يكفي ليثير عاطفة الحسد اذا لم يثر عاطفة الغضب . ونحن لا نشعر بشيءٍ من الحسد للجار او الملاكم القوي الاَّ اذا كانت قوته مبعث خطر او مصدر حرمان لنا . وقد لا يتوجه المحسود بالاذى مباشرة الى الحاسدين ، ولكنهُ مع ذلك يظل يثير عاطفة الحسد في الصدور. ومن هنا كان الناجحون في الحياة هدفاً لحسد الحاسدين سواء اكان هؤلاء الحاسدون مزاحمين لهم او غير مزاحمين. ولعل في قرارة كل نفس شعوراً بأن الناجح ايا كان سبيله في النجاح ومهما كان متجهه في الحياة يجور على نصيب غيره ويسلبه فرصة من فرص النجاح ولا تستطيع بغير هذا ان تعلل شيوع التحاسد بين الناس الى هذا الحد

ويقرب من العاطفتين السابقتين في طبيعتهما العدائية عاطفتان اخريان هما عاطفة الاحتقار وعاطفة الانتقام . اما عاطفة الاحتقار فيرجح انها مركبة من عاطفة الاستعلاء الاساسية ومن عاطفة الكره المركبة . فالمحتقر لا يكون محتقراً اذا كان يثير عاطفة الكره ولا يثير عاطفة الاستعلاء وعاطفة الاستعلاء يثيرها شعورك بالتفوق في ناحية من النواحي على من تتعالى عليه . ويجدر ان ننبه هنا الى ان من مظاهر الاحتقار ما هو حقيقي ومنها ما هو متكلف

مصطنع . وهذا النوع المصطنع هو الذي يحفزه — عدا عاطفة الكره — عاطفة التصاغر. وهو في هذا لا يختلف بطبيعته عن الحسد الذي يتكوّن من عاطفتي الكره والتصاغر. ولعلّ عاطفة الكبرياء هي في معظم الاحوال وجه من اوجه الاحتقار المصطنع الذي لا يثيره في الحقيقة احساس صحيح بالتسامي والاستعلاء بل احساس خفي بالتصاغر مضافاً الى عاطفة الكره

اما عاطفة الانتقام فالغضب والاستعلاء عنصراها الأكبران . فالغضب وحده لا يكفي ليثير عاطفة الانتقام . والامور التي تستفز غضبنا ، وهي مع ذلك ابعد ما تكون عن اثارة الانتقام ، لا تعد ولا تحصى . كذلك واضح ان ما يثير عاطفة الاستعلاء وحدها لا يثير عاطفة الانتقام . فانت لا تفكر في اذى زيد لمجرد انك اقوى منه . ولكنك تفكر في اذاه حينما يشتد غضبك من عمل من اعماله. ولكننا نحب ان نشير هنا الى ان المرء قد يصفح ويتجاوز عن الانتقام حينما يثبت للملأ انهُ قادر على ايقاع الاذى فيمن اثار فيه عاطفة الانتقام. والعفو عند المقدرة هو من هذا القبيل . وقد لا يعفو القادر على الانتقام إلا اذا ايقن ان عفوه سوف لا يحمل منه على محمل الضعف والعجز عن اثبات شخصيته وتقريرها

وفي العواطف المركبة ايضاً عاطفة الاعجاب. وهي تختلف عن العواطف السالفة في طبيعتها الموجبة غير المدائية . وهي من اسمى العواطف الانسانية، ولا تنمو وتترعرع إلا في النفوس الرقيقة دقيقة الحس . والناس يتفاضلون تفاضلاً كبيراً في نصيبهم منها لهذا السبب. وتتركب هذه العاطفة من عاطفتين اساسيتين هما عاطفة التصاغر وعاطفة الاستغراب. فعاطفة الاستغراب تظهر بمظهر الانتباه الكثير للشيء المستغرب وادامة التفكير فيه . وهذا عنصر واضح في عاطفة الاعجاب . فكل ما يثير اعجابنا يقسرنا على الاسترسال في النظر اليه والتفكير فيه . ولو خفّ استغراب الناس لنابليون وأضحى عندهم في قدر الرجل العادي لما كان لنا هذا السيل من التراجم الذي لا ينقطع لحياة هذا العبقري . والناس لا ينفكون يعجبون بكل شخصية او حادثة من حوادث التاريخ الى ان تفهم فهماً جيداً. وحينذاك يتلاشى الاعجاب والاستغراب على انه لا يكفي الشيء ان يثير عاطفة الاستغراب وحدها لكي يثير فينا المعجب عاطفة الاعجاب. بل يجب ان يتصف بصفة بارزة مفقودة فينا او نصيبنا منها نصيب ضئيل تقسرنا على الخضوع والتصاغر امامها . وليس من الضروري ان يكون الشيء الذي يثير فينا عاطفة الخضوع انساناً فقد يكون باخرة ضخمة تمخر عباب اليم او طيارة تئز في الفضاء ، او جبلاً اشم او وجهاً وسيماً او صورة بلغت الغاية في الاتقان . وقد يتجه الاعجاب اول الامر الى موجد هذا الشيء الذي اثار حاسة الاعجاب . واذا لم يكن ثمة شخص ظاهر معروف ترجع اليه الاشياء التي نعجب بها فاننا نرجع مصادر اعجابنا الى قوة خفية غير منظورة . وهذا لا ريب عامل كبير في نشوء الاديان القديمة وفي نشوء فكرة خالق عظيم يهيمن على جميع الكائنات. وسوف تظل للدين

سلطته وجبروته ما دام في الكون اسرار والغاز يحار العقل البشري فيها ويعجز عن النفوذ اليها

ويجب ان نذكر ان عامل الخضوع امرٌ ضروري في توليد هذه العاطفة. وهذا يفسر لنا كيف ان المغرورين هم اقل الناس اعجاباً بالاشياء المعجبة . وقد تتصف بعض مثيرات الاعجاب بصفة اخرى تثير عاطفة الخوف. فتظهر عاطفة الاعجاب ملونة بلون يبعث على الخوف والرعشة ولفظة « روعة » هي من هذا القبيل وهي خير ما يقابل كلمة awe التي تدل عليها بالانكليزية

ويلحق بعاطفة الاعجاب عاطفة الاحترام إلاَّ انها اكثر تعقيداً وأمت صلة منها بالانسان ولا يثيرها في انسان إلاَّ انسان آخر . في حين ان عاطفة الاعجاب قد يثيرها حيوان او جماد . والمرء ، لكي يثير فينا عاطفة الاحترام ، يجب ان يتصف بما يثير الخوف والرعشة فينا علاوة على ما يثير الاعجاب . وبعبارة اخرى يجب ان يتصف بما يثير عاطفة التصاغر وعاطفة الاستغراب ثم عاطفة الخوف ، ولكن على شرط ان يستغلَّ القوة التي تبعث الخوف فينا للنفع لا الاضرار . فالقائد الحازم الباسل لا شكَّ يبعث في صدور جنوده عاطفة الاحترام اذا كان يفادي بنفسه في المعركة ويناضل دونهم نضال المستميت مهما كانت يده ثقيلة عليهم ومهما اخذهم بالشدة والعنف . ومثل القائد في ابتعاث عاطفة الاحترام فيمن يحيط به كل رئيس مقتدر يسير مقدرته في سبيل النفع لا الايذاء . وقد يخيل للمرء ان ثمة اشخاصاً يبتعثون فينا عاطفة الاحترام دون ان يكون لديهم ما يبعث على الخوف . ولكننا في الحقيقة لو دققنا في ملخص عواطفنا ازاء مثل هؤلاء الاشخاص لوجدنا انها عواطف اعجاب اكثر منها عواطف احترام

والقلق عاطفة اخرى مركبة يثيرها في الغالب عاملان عامل الحب للشيء او الامل في نيله ثم الخوف عليه والخشية من فقده او استحالة الحصول عليه . وعلى قدر ما تكون النسبة بين هذين العاملين يكون القلق قويًّا او ضعيفاً . فأنت قد تأمل نيل شيء ولكنك كبير الشك في نيله في هذه الحالة يكون القلق والحيرة على اشدها . او انك تنال شيئاً او تتأكد من نيله ، ولكنك لا تستطيع الامتناع عن التفكير في امكان الحرمان منهُ . في هذه الحالة يستولي عليك احساس بالقلق . ولكنه احساس اقرب الى الاستمتاع واستشعار السعادة منهُ الى القلق الممض

وفي ختام هذا البحث لا يسعنا إلاَّ الاشارة الى ان اسلوبنا في دراسة هذه العواطف وتحليلها كان في معظم الاحوال اسلوب الاستبطان والدراسة الذاتية. ولذا فنحن لا نستغرب ان يكون القارىء على خلاف رأينا في تحليل بعض هذه العواطف . لان دور البت بشأن طبيعة هذه العواطف المركبة لم يجيء بعد . وكل ما نأمله هو ان يستثير هذا البحث في نفوس القراء الرغبة في الوقوف من هذه العواطف الانسانية موقف النقد والتحليل . ففي ذلك ، فوق ما فيه من متعة ولذة ، فهم صحيح للطبيعة البشرية وهو ما تحاول جميع العلوم « الانسانية » ان تحققهُ او تدنو منهُ على الاقل

شرق الاردن — اديب عباسي

نوابغ العرب

في العلوم الرياضية

أبو العباس الفضل بن حاتم النيريزي

بينما نجد في كتاب شكل القطاع لنصير الدين الطوسي وكتاب طبقات الامم للقاضي أبي القاسم اسم صاحب الترجمة [التبريزي] اذ بالفهرست لابن النديم وتاريخ الحكماء والمصادر الافرنجية تقول [النيريزي] ، واظن ان هذا الاختلاف ناشىء عن تحريف لاسيما اذا لاحظنا ان تركيب الكلمتين (النيريزي والتبريزي) عند حذف نقطهما يصبح واحداً ، وعلاوة على ذلك فان نيريز التي هي بلد من نواحي شيراز من أعمال فارس تشبه بتبريز [1] ولذلك فقد يكون هذا التشبيه وذاك التحريف هما اللذان اوقعا الخلط بين الاسمين

وأبو العباس من الرياضيين المشهورين الذين ظهروا في أواخر القرن التاسع للميلاد وتوفى حوالي سنة ٩٢٢ — ٩٢٣ م [2] ، وهو ايضاً من الذين اشتغلوا في علم النجوم وله فيه مؤلفات نفيسة ، يقول كتاب تاريخ أخبار العلماء باخبار الحكماء في ص ١٦٨ « . . . . وكان الفضل متقدماً في علم الهندسة وهيئة الافلاك وحركات النجوم وله تآليف مشهورة . . . » وله أبحاث في المثلثات الكروية ودليلنا على ذلك ما ورد في كتاب شكل القطاع في ص ١١٥ « . . . واستعمله (اي استعمل برهاناً آخر لشكل المغنى) ابو الفضل التبريزي في شرح المجسطي وابو جعفر الخازن قبل ان اقامه هؤلاء الفضلاء مقام الشكل القطاع وتقريره على ما أورداه . . . وكذلك فقد اورد بوجه آخر الفرع الاول من فروع المغنى [3] . . . . » . واشتغل أبو العباس بالرصد ويقال ان الارصاد التي اجراها قد راجعها بتدقيق ابن يونس الشهير الذي أتى بعده بقرن واحد وقال بمهارة النيريزي الفائقة في الرصد [4] . ومن أشهر مؤلفاته كتاب الاربعة لبطلميوس ، وكتاب احداث الجو وقد الفه للمعتضد ، وكتاب البراهين

---

(١) القفطي — اخبار العلماء باخبار الحكماء — ص١٦٨ (٢) سمث — تاريخ الرياضيات ج١ ص ١٧٦ (٣) الفرع الاول من فروع المغنى هو : كل مثلث قائم الزاوية من القسي العظام فنسبة جيب تمام احد ضلعي القائمة الى جيب تمام وترها كنسبة جيب القائمة الى جيب تمام الضلع الثالث (٤) صالح زكي آثار باقية — ج١ ص١٦٠

وتهيئة آلات يتبين فيها ابعاد الاشياء ، وكتاب سمت القبلة [١] ، وكتاب شرح فيه المجسطي وآخر في شرح كتاب اقليدس [٢] وهذا الاخير ترجمه جيرارد اوف ريمونا [٣] وكتاب الزيج الكبير والزيج الصغير

ابو محمود خان بن الخضر الخجندي

يقول كتاب آثار باقية ان ابا محمود لم يُعرف الآ من كتاب (المبادي والغايات في علم الميقات) لابي الحسن علي المراكشي من تعريف الآلة المسماة «سدس التحري» التي استعملها صاحب الترجمة . والخجندي من الرياضيين الذين ظهروا في القرن الرابع للهجرة ومن كبار علماء الهيئة وهو أيضاً من الذين ظنوا انهم برهنوا النظرية المنسوبة الى فرما . ويقال ان برهانه لم يُعثر عليه وقد يكون غير صحيح [٤] . واشتغل في المثلثات الكروية ، جاء في كتاب شكل القطاع لنصير الدين الطوسي ما يلي « وقد لقب ابو محمود الخجندي هذا الشكل [٥] بقانون الهيئة . . . » وسبب تسمية هذا الشكل بقانون الهيئة هو كثرة استعماله في علم الهيئة « وقد حسب دائرة البروج ٢١َ ٢٣َ ٣٢ ٢٣ بربع احد اضلاعه مقسوم ثواني [٦]

امير ابو نصر منصور بن علي بن عراق

لم اتمكن من العثور على تاريخ ولادة صاحب الترجمة او تاريخ وفاته رغم التحري الكثير عن ذلك ، ولكنه ولا شك كان من رياضيي القرن الرابع للهجرة وكان حيًّا حوالي سنة ١٠٠٠ م [٧] . عاش اكثر اوقاته في خوارزم حيث كان مقدماً وذا مقام عال عند ملوكها ثم انتقل مع ابي الريحان البيروني في بدء القرن الخامس للهجرة الى غزنة حيث كان فيها السلطان سبكتكين ، وفيها قويت العلاقات بينهما وأصبحت صداقة صميمية حتى ان احدهما (ابا نصر) اهدى اكثر كتبه ورسالاته الى الآخر الذي اعترف بفضل صديقه فكان يلقبه باستاذي [٨]

يقول سمث ان منصوراً كتب عن المجسطي وفي الآلات الفلكية والمثلثات [٩] ، وله فيها (اي في المثلثات) مباحثات جليلة عرفنا ذلك من كتاب شكل القطاع لنصير الدين

(١) ابن النديم — الفهرست — ص٣٨٩ (٢) القفطي — اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ١٦٨
(٣) سمث — تاريخ الرياضيات ج١ ص١٧٦
(٤) كاجوري تاريخ الرياضيات — ص١٠٦ ، (٥) يعني بهذا الشكل ما يلي : نسبة جيوب الاضلاع (في المثلثات الحاد الزوايا والمنفرج الزاوية) بعضها الى بعض كنسبة جيوب الزوايا الموترة بتلك الاضلاع بعضها الى بعض . . » (٦) المقتطف المجلد الاول الجزء الاول ص ١٦ (٧) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ٢٨٥ (٨) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٦٨ (٩) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ٢٨٥

الطوسي الذي يقول عند الكلام عن الشكل المغنى (. . . . وقد ذهبوا في اقامة البرهان عليها (على دعوى شكل المغنى) مذاهب جمعها الاستاذ ابو الريحان البيروني في كتاب له سماه مقاليد علم هيأة ما يحدث في بسيط الكرة وغيره ويوجد في بعض تلك الطرق تفاوت فأخرت منها ما كان اشد مباينة ليكون هذا الكتاب جامعاً مع رعاية شرط الايجاز وابتدأت بطرق الامير ابي نصر بن عراق فان الغالب على ظن ابي الريحان انه السابق الى الظفر باستعمال هذا القانون في جميع المواضع وان كان كل واحد من الفاضلين ابي الوفاء محمد بن محمد البوزجاني وابي محمود حامد بن الخضر الخجندي ادعيا السبق ايضاً فيه . . .) وجاء ايضاً في مقاليد علم ما يحدث في بسيط الكرة « ان السبق في اقامة هذا الشكل مقام الشكل القطاع كان للامير ابي نصر »

***

نستدل مما مرّ انه يوجد اختلاف في اسبقية هذا الاستعمال وانه يرجّح ان يكون ابو نصر اول من استعمل شكل المغنى في جميع المواضع وانه أيضاً استعمله بدل شكل القطاع في حل المثلثات الكروية ، اما نصير الدين فيقول بهذا الخصوص ما يلي « اقول وفيه نظر لان الامير ابا نصر قال في الجملة الثانية من المقالة الاولى من كتابه الموسوم بالمجسطي الشاهي في صدر الباب الثالث على بيان هذا الشكل بهذه العبارة «الباب الثالث فيما يغني عن الشكل القطاع» وذكر في هذا الباب بعد ان ذكر الرسالة التي عملها ثابت بن قرة في اختلاف وقوعات الشكل القطاع فقال «وعمل ايضاً رسالة فيما يغني عن جنسه (يعني عن الشكل القطاع) الاّ انه لا بدّ لمن عمل بذلك من استعمال النسبة المؤلفة » اقول وقد ذكره الامير ابو نصر في شرح مانالاؤس وقد ذكرت هذا في الشكل المغني عن القطاع واما انا فاذكر ههنا ما يغني عن الشكل القطاع والنسبة المؤلفة وهذا يدل ان اللقب ايضاً وضعه الامير ابو نصر واخذه من ثابت ابن قرة والله اعلم»

ولابي نصر مؤلفات قيمة منها كتاب المجسطي الشاهي وقد أهداه الى ابي العباس علي بن مأمون احد ملوك خوارزم و «رسالة في الاسطرلاب السرطاني المجنح لابي نصر منصور بن علي بن عراق في حقيقته بالطريق الصناعي وهو على تسعة ابواب [1] » وكتاب في السموت ورسالة في معرفة القسي الفلكية بطريق غير طريق النسبة المؤلفة ورسالة في حل شبهة عرضت في الثالثة عشر من كتاب الاصول

نابلس — فلسطين قدري حافظ طوقان

(١) كاتب جلبي — كشف الظنون — ج١ ص ٥٤٠

التعليم التجاري ومؤتمراته الدولية

لنجيب يوسف
الاستاذ في مدرسة التجارة العليا ومندوب الحكومة المصرية في مؤتمر التعليم التجاري

لقد اصبح للتعليم التجاري مكانة سامية بين أنواع التعليم الأخرى جعلت الأمم تهتم به وتعقد له المؤتمرات الدولية لتهيىء الفرص للذين يمارسونهُ أو يعنون به لكي يناقشوا على هدى التجارب المكتسبة ، الاسس والمبادىء الجوهرية لهذا التعليم في الناحيتين العملية والنظرية . ونظرة واحدة الى تطور هذا النوع من التعليم في مصر وتقدم معاهده وازدياد عدد الطلبة فيها تظهر لنا خطر نهضتنا الاقتصادية . وقد رأت ذلك حكومتنا فألفت لجنة للنظر في شؤونه وتنقيح مناهجه

وكيف لا يكون التعليم التجاري ضروريًا وفي غاية الخطورة ، وهو المنوط به حلُّ مشكلات الانتاج والاستهلاك وهي ولا ريب عامل كبير في استحكام الأزمة العالمية الحالية. كما ان تقدم التجارة وتطور وتشعب أساليبها والسعي لاكتساب أسواق جديدة لتصريف المنتجات والارتباط الكبير بين مصالح جميع البلدان وأثره في تقصير عمليات المبادلة وانواع المنافسة والاحتكار كل هذه الامور تتطلب حصول رجل الاعمال ومساعديه على ذلك التعليم الفني الذي يؤهلهُ للقيام بمهمتهِ على الوجه الاكمل مثله في ذلك مثل المهندس والطبيب . فان الدور الذي يقوم به التاجر في حياتنا العامة يزداد شأناً يوماً بعد يوم . ألا ترى ان مشاكل العالم الآن هي اقتصادية قبل اي اعتبار آخر وان الامل في الخروج من الازمة العالمية الحالية معقود على القائمين بالشؤون الاقتصادية والمالية . ومن يقوم بهذا الدور سوى رجل متثقف نال قسطاً وافراً من التعليم يمكنه من البعد في النظر والسداد في الحكم ومقابلة الحالات الجديدة بحلول جديدة . ومما لا شك فيه ان ارتفاع مستوى المعيشة في بلد يتوقف على كفاءة الموكول اليهم القيام بسد حاجات أهلها . كما ان معاهد التعليم التجاري اصلح ينبوع للعلوم والمعارف التي تساعد البلد في نشاطها الاقتصادي والصناعي

للتعليم التجاري جمعية دولية مركزها امستردام تبحث في شؤونه وتعمل على النهوض به الى المستوى اللائق بتقدم العالم من الوجهة الاقتصادية. ولهذه الجمعية لجان أهلية فرعية في أكثر الممالك هي حلقة الاتصال بينها وبين المشتغلين بأمور التعليم التجاري. وبمجهودات تلك اللجان وبمساعدة الجمعية الدولية واشرافها تنعقد تلك المؤتمرات الدولية للتعليم التجاري للعمل على

الرقي به بتنقيح برامجه في ضوء ما يستجد من التجارب ووجوه التقدم. ويرجع تاريخ تلك المؤتمرات الى عام ١٨٨٦ لما عقد اول مؤتمر في بوردو بفرنسا وكان الغرض منهُ النظر في شئون التعليم التجاري والصناعي واستمرَّت الحال على ذلك في مؤتمرات عام ١٨٨٩ في باريس وعام ١٨٩٦ في لندرة ثم رؤي بعد ذلك فصل هذين النوعين من التعليم فكان المؤتمر في انفرس عام ١٨٩٩ خاصًّا بالتعليم التجاري وعقبه مؤتمر ميلان عام ١٩٠٦ وفينّا ١٩١٠ وبودابست ١٩١٣ — ولم يُعقد مؤتمر ابان الحرب العالمية. وقد حضرتُ مؤتمر امستردام عام ١٩٢٩ وانتدبتني الحكومة المصرية لتمثيلها في مؤتمر ليبج عام ١٩٣٠ فتقدمت برسالة عن تطور التعليم التجاري في مصر وأثره في نهضتها الاقتصادية . وفي عام ١٩٣٢ تشرفت بوكالة المؤتمر الذي التأم في لندرة

افتتاح المؤتمر

افتتح مؤتمر لندرة في صباح الخامس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٣٢ في الصالة الكبرى لدار جمعية العطارين في لندرة وهي بناء قديم فخم يقع وسط حي الاعمال وكان في منصة الرئاسة محافظ المدينة يصحبهُ وكيل وزارة المعارف ورئيس المؤتمر ورئيس الجمعية الدولية للتعليم التجاري ورئيس اللجنة الاهلية الانكليزية واللورد برنام من كبار رجال التعليم

وقد قرئت رسالة من سمو ولي عهد انكلترا — وكان المؤتمر تحت رعايتهِ ورعاية سفراء الدول ووزير المعارف ووكيلها ورهط كبير من عظماء الانكليز من رجال الاعمال ورجال التعليم — رحَّب فيها بالمندوبين الذين اتوا لحضور المؤتمر من نيف وثلاثين دولة وتمنَّى لهم طيب الاقامة والنجاح في اعمالهم. واعرب عن اهتمامه الكبير بالتعليم التجاري وكل ما يؤدي الى القيام بالتجارة على الوجه الاكمل . ثم رحب المحافظ بالمؤتمرين نيابة عن بلدية لندره

فردَّ عليه المسيو بواز فان الهولندي ورئيس الجمعية الدولية شاكراً ومظهراً اغتباطه بانعقاد هذا المؤتمر في انكلترا البلد العريق في التجارة منوّهاً بشجاعة اللجنة الاهلية الانكليزية وفضلها في قيامها بتنظيم المؤتمر في مثل هذا الوقت العصيب وقال بأن حضور اعضاء المؤتمر بهذا العدد الوافر مع اشتداد الازمة العالمية الطاحنة لما يبرهن على شدة الحاجة الى تبادل الآراء فيما يختص بالغرض من التعليم التجاري وتنظيم معاهده

وقد اشار الى ظاهرة غريبة في انكلترا وهي انهُ مع عدم اهتمامها كثيراً بالتعليم التجاري فقد اخرجت للعالم اساطين في التجارة والصناعة مما يدل على ان الناحية العلمية وحدها لا تكفي لتكوين الرجل بقدر الناحية الاخلاقية والشخصية . والنظام المتبع في المدارس الانكليزية ألا وهو اشتراك الاساتذة مع الطلبة في الالعاب الرياضية قد ادى الى نوع من الالفة يظهر أثرها جليًّا في تكوين اخلاقهم وشخصياتهم بينما يشاهد في بلاد كثيرة ان كلا الفريقين ينظر الى الآخر بعين النفور وتلك حالة لا شك محزنة

ويا حبذا لو اشترك رجال الاعمال في مؤتمرات التعليم التجاري وأبدوا ملاحظاتهم لرجال التعليم ونوهوا بمواضع الضعف في تنظيم التعليم وتشجيع الصالح منها . وقد سرَّهُ ان يرى بين اعضاء اللجنة الاهلية الانكليزية للجمعية الدولية للتعليم التجاري الاساتذة ونظار المدارس ورجال الاعمال وأصحاب المصانع ورؤساء بعض المصالح العامة ومديري الشركات الخاصة والتجار وطلبة العلم . كذلك يُستحبُّ اشتراك رجال التعليم الفني والصناعي

ولقد اظهرت الازمة العالمية ان ازدياد البطالة وشدة احكام الحواجز الجمركية وهبوط الاسعار وزعزع النقد والعقبة في سبيل تداول السلع والخدمات والاشخاص كل هذه ترجع الى المغالاة في فكرة القومية . وعلاج ذلك في تشجيع الروح الدولية . وليس هناك اقرب الى التفكير تفكيراً دوليًّا من تجار الصادر والوارد وأرباب الملاحة والمصارف. وبالاختصار كل من له علاقة بالتجارة فانهم بطبيعة اعمالهم واتقانهم عدة لغات يمكنهم تفهم عقليات الشعوب المختلفة وكيفية معيشتهم وبذلك يسهل تبادل الثروات وما يتبعه من رخاء . ولما كانت تلك هي روح الجمعية الدولية للتعليم التجاري فلا ريب انها تسود اعمال المؤتمر . واختتم خطابه بتوقع الفائدة من وراء مناقشات الاعضاء بل ومن وراء تعارفهم واختلاطهم خارج جلسات المؤتمر

ثم تلاهُ السير فرانس جودانف رئيس اللجنة الاهلية الانكليزية في خطاب نفيس استهلَّهُ بشكر الاعضاء الذين حضروا من جميع اقطار العالم والترحيب بهم ثم امَّل الحصول على اكبر الفوائد من وراء عقد المؤتمر . لقد كان التعليم التجاري يشمل فنون المكتب والمحاسبة والمراسلات وهذه مع كونها موادَّ اساسية الاَّ انها لا تكفي لحسن سير التجارة الذي يستلزم البحث عن الاسواق والعمل على توسيعها والاحتفاظ بها . هو تعليم يعدُّ القائمين بالتجارة في جميع ادوارها المتشعبة من رئيس العمل الى البائع الماهر الى الكاتب الكفء ولذلك فهو يفضل تسميته «بالتعليم للتجارة» وليس التعليم التجاري

وكما ان معضلة ذلك النوع من التعليم ثلاثية : ايجاد الرئيس والبائع والكاتب فإنا نجد ثلاث فئات يتحتم اشراكها في مواجهة تلك المعضلة وهي الآباء والمعلمين وأصحاب الاعمال

جلسات المؤتمر

عقدت جلسات المؤتمر في ردهة الحفلات الكبرى بمدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية

وكان النظام المتبع ان يفتتح الرئيس الجلسة التي يحضرها كل الاعضاء فيمهد للموضوع المنصوص عليهِ في جدول الاعمال بكلمة وجيزة ثم يطلب الى كل من قدم رسالة في الموضوع ان يشرح رسالته على قدر المستطاع خلال بضع دقائق ولكنه لا يسمح له بقراءة الرسالة بعد ان يكون قد سبق ان وزع على الاعضاء موجزاً لها ثم يتعاقب الخطباء ممن له ملاحظة او نقد او تعليق على الرسالة بقدر ما يسمح به الوقت

وقد افتتح الرئيس الجلسة الاولى بخطاب اشار فيه الى سوء الحال التجارية في جميع اقطار العالم الآن وإن هذا لممّا يدعو الى زيادة الاهتمام بالتعليم التجاري وتمنى للمؤتمر التوفيق والسداد في خطواته حتى تسفر اعماله عما يساعد على حل المشكلات القائمة في ميدان الصناعة والتجارة

واشار الى الفائدة التي تجنى من تدريس اللغات الاجنبية في مدارس التجارة إلاّ انهُ يود اعطاء اللغة الاصلية في البلد الاهتمام الجدير بها فإن اللغة الصحيحة السلسة الخالية من الاخطاء والتعنت والالفاظ الجوفاء تعطي الرسالة التجارية القيمة التي تستحقها

إن اول مقتضيات التجارة والقيام بالمشاريع الاقتصادية هو الحصول على رجال ذوي اخلاق قويمة . وان النجاح الوقتي لمن لا خلاق له لا يلبث ان يفضي الى فضائح ومصائب كما شوهد في ميدان الاعمال إبان السنين الاخيرة

وأفضل نوع من التعليم لمن يريد مزاولة التجارة هو تدريب شامل لتقوية ملكة الملاحظة والابتكار والاعتماد على النفس والشرف في المعاملة والقدرة على الاشتراك في العمل بالاخلاص

ثم شرع المؤتمر في مناقشة المواضيع الآتية في الجلسات الباقية

الطلبة والاهتمام بالبلاد الاجنبية ودراسة شعوبها

في انكلترا «جمعية الرحلات المدرسية» تقوم بتنظيم رحلات الى خارج البلاد . ويشرف الاساتذة على الطلبة طول مدة الرحلة التي يوضع برنامجها العلمي بطريقة محكمة : وتتميز هذه الرحلات عن الزيارات العلمية التي يراد منها توسيع معلومات الطالب في ما يتعلق بأقليمه . وعن الاجازات المدرسية التي يقضيها الطلبة في جهة ما بدون غرض علمي وعن رحلات الكشافة التي يقصد منها الاعتماد على النفس وضبطها . وفي النمسا يهتمون بتدريس الجغرافيا الاقتصادية وتاريخ الثقافة في البلدان الاخرى ولا يقصد بتدريس اللغات الحية معرفة اللغة فحسب بل والوقوف على أدبها وثقافة أهلها وعلاقتهم العلمية والاقتصادية بالبلاد الاخرى

وفي فرنسا يعنون بانتقاء الكتب المزودة بالرسومات وكذلك أفلام الثقافة المأخوذة في البلاد الاجنبية والتي تعطي فكرة صحيحة عنها . فمن صورة لمعيشة أهلها العائلية ، إلى الحال في الاسواق والبورصات ، إلى الحوادث الاقتصادية والسياسية والرياضية . ولا ينسى شأن الحاكي (الفونوغراف) و(الراديو) في تعليم اللغات . وهناك الجمع بين زُمَرٍ من طلبة بلدان مختلفة والاشتراك في تمضية العطلة المدرسية معاً . وانشاء الاندية التي تشترك فيها الجاليات الاجنبية مع اهل البلد . وثمة فكرة مجلة جامعية تحرر بلغات عديدة

اعداد اساطين التجارة بطريق التعليم التجاري

يتطلب إعداد من يعهد اليهم في المناصب الرئيسية في ميدان التجارة والصناعة ثقافة عامة عالية يراعى فيها ارتباط الدراسة العملية بالدراسة النظرية ويكون الغرض من الدراسة النظرية

إمكان تطبيقها بحذق ومهارة قصد زيادة الرقي والتقدم

والغرض الاساسي من المدارس التجارية تقوية ملكة الابتكار ثم زيادة المعلومات. فتقوية ملكة الابتكار لها الاعتبار الاول وان كانت اغلب المدارس تجعل المكانة الاولى لزيادة معارف الطلبة وهذا خطأ بيّن . فان الرأس المنظّمة خير من الرأس المحشوة بالحقائق المتفرقة

ويجب تنمية صفات المعرفة والحكمة والبتّ والنشاط . فعلى من تلقى اليهِ مقاليد الاعمال التجارية ان يكوّن فكرة شاملة عن ميدان الاعمال وعليهِ ان يعرف العالم والرجال ولا يكون ذلك الاَّ بدراسة العلوم الطبيعية والفلسفية وعلم النفس واللغات وبقية وسائل التفاهم من قلم الكاتب وريشة الرسام وازميل النحات . ومهما طالت مدة الدراسة فلن تكون كافية للحصول على كافة المعلومات اللازمة واذن فالمهم تدريب الطالب على طرق البحث والتنقيب . وتساعد الحكمة على فحص المعلومات ومقارنتها والخروج منها بنتيجة . وتقوّى هذه الملكة بدراسة الرياضيات والمنطق والتاريخ . ولن تفيد المعارف والحكمة بدون المقدرة على البتّ في الامور واتخاذ القرارات الحاسمة في الوقت المناسب وبعبارة واضحة . ومن ثمّ كان للالمام باللغة الاصلية شأن كبير وللنشاط البدني أثره في توقد الذهن ومن ثمّ كانت الحاجة الى الالعاب الرياضية

ويشترط للانتظام في المدارس التجارية تأدية امتحان قبول ليتسنى الحصول على مجموعة من الطلبة في مستوى علمي واحد بقدر الامكان . ويجب ان يكون ناظر المدرسة التجارية متخصصاً في العلوم التجارية وأن يكون له اتصال وثيق دائم بالحياة العملية . وتزداد الحاجة الى من لهم إلمام بالعلوم التجارية بسبب تدخل الدولة في المشروعات الاقتصادية وتحويل تلك المشروعات بطرق جديدة منها القروض وإصدار السندات التي تتطلب دراية فنية في الامور المالية — وكذلك استعمال الدولة والمجالس البلدية للاساليب التجارية الحديثة في ماليتها وتقييد حساباتها. ثم ان اعمال الجمارك وكل ما يختص بالضرائب والتشريع الاجتماعي تتطلب معرفة كيفية توزيع الدخل ومقدرة المموّل على الدفع

إعداد تاجر القطاعي

تجارة « القطاعي » عبارة عن بيع السلع من ضرورية وكمالية الى المستهلك مباشرةً وهي حلقة هامة من التجارة . وكان يقوم بها في الغالب صغار التجار أما الآن فقد انتشرت المخازن الكبرى وموظفوها ينتخبون من بين خريجي المدارس الابتدائية والثانوية الذين لم يحصلوا على تعليم تجاري ومن ثم كانت الحاجة ماسة الى تعليمهم تعليماً فنيّاً خاصّاً بمهنتهم

ويقوم بهذا النوع من التعليم في انكلترا معاهد خاصة كمعهد العطارين وقد مضى على تأسيسه ٢٥ سنة وتدرس فيهِ اصناف البضائع ومعرفة اماكن انتاجها وطرق اعدادها للسوق ويضاف الى ذلك دروس في الحساب واللغة وإمساك الدفاتر وطرق التجارة وتمنح المحلات الكبرى

الجوائز للمتفوقين في امتحان هذا المعهد وتعطى المنح المدرسية المختلفة . وفيه ٣٥٠٠ طالب . وقد ساعد هذا المعهد على انشاء الاحترام اللازم للمهنة التي يقومون بها وأوجب عندهم الغيرة وحب العمل . ويجب ألا ننسى أن صغار النشء في عالم التجارة اليوم هم كبار تجار المستقبل

وتشتد الحاجة الى هذا النوع من التعليم في عصرنا الحاضر بسبب شدة المنافسة والتقدم العظيم في وسائل المواصلات والتطور الكبير في الصناعة . وقد أدت هذه العوامل الى توزيع السلع وأدخلت عامل « المودة » وأفضت الى توزيع جديد للثروة بين طبقات الهيئة الاجتماعية فتأثرت المقدرة الشرائية في تلك الطبقات وكل هذه وسائل تحتاج الى دراسة تقوم بها تلك المعاهد الفنية ويجب ان يشترك رجال التعليم والتجار في التدريس بتلك المعاهد

اعداد المدرسين

يتحتم علاوة على مواد التدريس المام المدرس بتاريخ التعليم ومذاهبه وأساليبه والحصول على خبرة تجارية وحضور المدارس الصيفية والعمل على توسيع معارف المدرس باستمرار البحث وتسهيل زيارة المعاهد التجارية الاخرى واستماع محاضرات اقتصادية والقيام بسياحات علمية

ويحسن الانتظام في متجر عند التخرج وقبل البدء في التدريس اذ في المتجر تتيسر دراسة طبائع الناس في الطبقات المختلفة . والنفسية كثيراً ما تظهر واضحة عند الشراء

و يا حبذا لو أمكن توحيد مستوى التعليم في مختلف البلدان

وتناولت مناقشات المؤتمر عدة مواضيع اخرى منها مكانة تعليم اللغات الاجنبية في المدارس التجارية . والتدريب على اشغال المكاتب والاستعانة بالسينما والجرامافون والراديو في التعليم التجاري ونصيب المرأة في الأعمال التجارية . والتطور في التعليم التجاري منذ الحرب العالمية

وقد أظهر ولي عهد انكلترا اهتمامه الفائق بأعمال المؤتمر وحضر حفلة الختام وألقى خطاباً نفيساً قال فيه « ان الدروس القاسية التي ألقتها علينا الازمة العالمية تظهر لنا بوضوح أن سعادة كل أمة مرتبطة بسعادة الأمم الاخرى . ولا شك ان الكساد العالمي ناشيء من عدم تساوي التوزيع والاستهلاك بالانتاج وان تعليم القائمين بالتجارة التعليم الصحيح الوافي قد يساعد على حل الكثير من المعضلات العالمية الاقتصادية . ولا بد من اشتراك المربين وأرباب الاعمال وأولياء الامور في النهوض بالتعليم التجاري »

قرارات المؤتمر

(١) العمل على تسهيل تنقل الطلبة بين البلدان المختلفة للتدرب على أساليب التجارة بها واتقان لغاتها ليتسنى لهم النهوض بالمهمة التي ستلقى على عاتقهم وهي التجارة الدولية

(٢) يطلب المؤتمر من أعضائه بث الدعوة في بلدانهم بأن رخاء كل أمة مرتبط برخاء العالم أجمع

(٣) لما كان التعليم التجاري هو الخاص بتفهم العلاقات الدولية فهو من أفضل الوسائل الى الرخاء العام وتجب اذاً زيادة العناية به ورفع مستواه

مقترحاتي

تجمع برامج الدراسة في مدرسة التجارة العليا بمصر بين برامج كليات الاقتصاد وبرامج كليات التجارة في بعض البلدان الاوروبية . ولذلك شدّ ما يصيب الطالب من جهد ونصب في أن يلم الالمام الكافي بكل مواد المنهج . والمسألة ليست مسألة مقدار يحشو الطالب بهِ ذهنه حشواً بل المهم تقوية ملكة الابتكار والاستنباط عنده . ولن يتسنى ذلك في رأيي قبل فصل هذين النوعين من الدراسة : الاقتصاد والتجارة

وطبيعي انه كلما زادت معلومات الطالب كان ذلك في فائدته ولكنه مهما أعطي من المعلومات في مدة الدراسة فلن يعطى القدر الذي يكفيه مدى الحياة . ولذلك كان من المهم تدريب الطالب على التفكير والبحث . واذا كان ناظر مدرسة الهندسة الملكية يقول في خطابه لما زارها جلالة مولانا الملك :— «ان المناهج وحدها لا تكفي لتحقيق الغاية المرجوة من أي نوع من أنواع التعليم فهناك أمر آخر يعد في ذروة الاهمية ألا وهو روح التعليم وأساليبه ولا يمكن الوصول الى هذا الغرض المنشود من التعليم اذا اكتفينا بتلقين الطالب معلومات أيًا كانت درجة أهميتها ورقيها دون أن يتمكن من فهمها جيداً ودون أن يعرف كيف يستخلصها ويستجمعها ويطبقها بنفسه . وأهم أغراض التعليم ايقاظ ملكة التفكير والتعقل في الطالب وتنميتها »

هذا كلام ناظر مدرسة الهندسة . أفليس من الاحرى أن ينطبق ذلك على دراسات كالعلوم الاقتصادية والمالية والتاريخ والقانون

ويشكو الممتحنون عاماً بعد عام انحطاط مستوى إجابة الطلبة وضعف استنتاجهم ولكن فانهم وكلهم من خريجي الجامعات الاوربية ومن المتبحرين في علمهم أنهم ينشدون في اجابة الطلبة المستوى الجامعي في حين أن نظام التدريس بالمدرسة لا يمكن أن يؤدي الى تلك النتيجة المنشودة . فان تلقين الطالب خمسة دروس متتابعة في نصف نهار فقط لا يساعده على تفهمها وتمحيصها جيداً

لذلك يكفي الطالب في اليوم درسان أو ثلاثة دروس موزعة على طول النهار وبذلك تتاح له فرصة الاطلاع بالمكتبة فيتعوَّد البحث والاستقصاء والتفكير ولا بدَّ ان تتوافر في المدرسة المعدات التي ترغّب في البقاء بها طول النهار من حجرات مريحة للمطالعة وأخرى للتحادث والمناقشة ومن صنوف التسلية ومختلف الالعاب الرياضية الشيء الكثير

وفي أغلب البلاد الاوروبية يشترك الطالب مع الاساتذة في المناظرات والالعاب الرياضية فتتولد بينهم الالفة التي أراها مع الاسف تنعدم وتتلاشى بخطى سريعة عندنا

وأرى أن تترك للطالب حرية حضور الدرس على شريطة ألاّ يتقدم للامتحان الاّ اذا أثبت حضوره عدداً معيناً من الدروس (٧٥ ٪ مثلا) فان هذا يرفع مستوى التعليم . ذلك ان الطالب قد يكون باقياً للاعادة فلا يرغب في حضور درس هو ليس في حاجة اليه ولو ترك حرًّا لاستفاد من وقته هذا بالمطالعة في المادة التي رسب فيها أو في علم آخر يرغب الاستزادة منه . وقد يكون الطالب متعباً أو لا رغبة له في حضور الدرس لسبب ما فارغامهُ على حضور الدرس لايجديه نفعاً بل على عكس ذلك تكون النتيجة أنه لايفتأ منشغلاً عن الدرس وينصرف عنه بكل جوارحه ويتحدث مثلاً الى جاره وحينئذ سرعان ما يستميل اليه المتردد في سماع الدرس والذي لو وجد القدوة الحسنة لاتبعها ولكنه في الوقت لا يتأخر عن مجاراة القدوة السيئة وفي هذا تعطيل كبير للدرس يشكو منه كل محاضر في حاجة الى استجماع كل افكاره لاسيما في مثل تدريس العلوم الاقتصادية والمالية التي يقول عنها الاقتصادي الكبير J. M. Keynes انها علوم تفكير ليس لها ضوابط ثابتة الغرض منها الوصول الى نتائج وهي وان كانت دراستها ليست بأصعب من دراسة الرياضيات الاّ ان طرق التعبير فيها ليست لها نفس الدقة التي في الرياضيات ولذلك ما أشق وما أصعب ان ينقلها المدرس الى اذهان الطلبة

ويظهر ان رغبة العبث بالدرس من جانب ذلك النفر من الطلبة الراغب عن تحصيل العلم لا تخلو منها المدارس التي تحتم على طلبتها حضور الدرس . فقد قال ناظر مدرسة التجارة العليا بباريس ان المدرس يدخل غرفة المحاضرة ومعه ضابط لحفظ النظام حتى يتسنى للمدرس ان يتفرغ للدرس وان يحصر كل همه في القائه . أما اذا طلبنا من المدرس ان يكون محاضراً وحافظاً للنظام في آن واحد فاننا في الواقع نحمّله ما يشق عليه حمله بل ماهو فوق طاقته . ولابد ان يتلاشى أحد المجهودين اذ يضعف حينئذ أمام الآخر

وكيف يتسنى للطالب ان يصل في الدراسة والتحصيل الى ذلك المستوى الجامعي الذي ينشده ممتحنو الدبلوم ونظام التدريس وروح التعليم في المدرسة على هذه الصورة التي لاتختلف كثيراً عن النظام المتبع في التعليم الثانوي

***

تلك اقتراحاتي اردت الادلاء بها راجياً ان تثير اهتمام القائمين بشؤون التعليم التجاري حتى ينال على ايديهم وبفضل مجهودهم العناية والاصلاح ، والله ولي العاملين

الظلام [1]

اغربي يا ذكاء فالمساء قد محا سطر الشعاع الذهبي
فاذهبي والضياء في السماء سيواريه حجاب الغيهب

***

خطت الشمس على متن السماء الازرقِ صفحة حمراء من تبر الشعاع
لاح منها لك لوح الشفقِ
خلطتها بعذاب من لجين الافقِ ابيض دبّجهُ منها اليراع
فهو قانٍ ناعم في يققِ
ثم لما جاء زنجي الدجى بالفيلقِ صاح قبل الشمس بالجيش الوداع
ويك يا اسود لِمْ لمْ ترفقِ

***

خطت الشمسُ ألا ان الورى في ضلال وغرور وعمى
هل دروا ان الحياة سوف تفنى وتزول مثلما يمحو الدجى مني السطور لا مرا
ليت شعري هل سوى الشمس ترى كاتباً افنى المصور انما ،
هي سر الكائنات حيرت منا العقول فبها العالم يجري ويدور مجبرا

***

اكتبي فالبهاء والهناء كله عنوان سفر المغرب

(١) نظمتها في الرمينة مركز الثورة ايام كنت منفياً من طهران

وارقبي فالرواء في العشاء يتوارى عنك خلف الحجب
والسلام قد بدا سيدا بعد ان اغمدت الشمس الحسام
والظلام اخمدا ما غدا يلهب العالم ظلماً بالضرام

***

يدك البيضاء اعني البدر عندي اكرم ايها الليل الا يا اسود
انا بالبدر معنىً مغرم
ظالم انت ولكن نهاري اظلم ليت ليلي دام دهراً يا غد
انت قاس ابداً لا ترحم
قد اذعت السر والليل كريم يكتم أترى الشمس بهذا تشهد ؟
كلما يخفق منها العلم

***

يستر الليل شقائي والجوى تحت جنح اسود فالدجى
ذو يدٍ لا تنكر كم تداويت بها من جروح قد اذابت كبدي بالهوى
واذا ما النجم ولّى وهوى وتوارى اغتدي بالشجا
وجوى يستعر يستفزّ الولها في فؤاد ظلّ رهن الموقد فاشتوى

***

هل يلام من شدا منشدا ما حكى من شعره سجع الحمام
وعلام ردّدا بالصدى نغم الحزن وألحان الحمام ؟

طهران — ميرزا عباس خان الخليلي
صاحب جريدة اقدام ومطبعتها

مشاهدات روحانية

ساعة الاحتضار

لمحمد فريد وجدي

تفضلت مجلة المقتطف فأحالت عليّ ابداء رأيي في مسألة روحانية تتعلق بغلام كان سنه اثنتي عشرة سنة ونحو اربعة اشهر، حدثت منهُ ساعة الاحتضار. فقابلني والده الفاضل وافضى اليّ بما حدث وشهده هو ونحو خمسة عشر نفساً من ذوي قرابتهِ منهم طبيبان وهو يتلخص فيما يلي:

مرض ولده المحبوب واشتدت عليهِ العلة حتى اشرف على الاحتضار ثم سكن حتى ظنّ الطبيب انهُ قد فارق هذا العالم، الاّ انهُ ما لبث ان اشرق وجههُ وعادت اليهِ الحياة فابتسم واخذ يصلي قائلاً: «يا رب اشكرك لانك ستأخذني في هذه الساعة ولما انحدر الى هذه الارض القاحلة التي منها اصعد اليك، وهناك اكون مبسوط بوجودي معك آمين» ورسم الصليب. لانهُ مسيحي من اسرة مسيحية. ولما تقدم اليهِ والده قال له الغلام: «يباركك المسيح على يد عبده وليم. تمسك بالدين المسيحي وواظب على الكنيسة، وستتقابل في جنة عدن التي يموت المئات والالوف والملايين ولا يدخلها الاّ خمسة في الالف. اثبت مع المسيح وستكون رئيس هذه العائلة دائماً»

فقال لهُ والده: «انا عايزك تقعد معايا عشان تساعدني». فاجابهُ الفتى بقولهِ: «ما الفائدة ان اعيش واذنب هنا، فاتعذب هنا واتعذب بعدين، الموت احسن»

فقدم له والده عمه قائلاً له بارك عمك، فرفع يده اليمنى ووضعها على رأسهِ قائلاً: «يباركك المسيح على يد عبده وليم (هذا اسم الفتى). تمسك بالدين المسيحي، ولا تنسَ الكنيسة ستتقابل في جنة عدن». ثم قدم له والده شقيقه وخالتهُ وعمتهُ وغيرهم فباركهم بما لا يخرج عما تقدم. فقال له احد الحاضرين: «المسيح عن يمينك» فاجابهُ الغلام: «المسيح امامي (مشيراً باصبعهِ). آمين». ثم قال لسيدة وقد رآها تبكي: «لا تبكي يا عزيزتي عايدة بل كوني مسرورة لاني ذاهب الى المسيح»

ولما سأل عن (استر) اخبره والده بانها مريضة. فباركها عن بعد. ثم جاءت وهي باكية، فوضع يدهُ على رأسها وقال لها: «انا ذاهب ولن اعود ولكن ستتقابل ولا تنسي الكنيسة» ثم اخبرهم بانهُ قد تعب وطلب اليهم الانصراف، وما لبث ان لفظ النفس الاخير

رأينا في هذه الحادثة

اني مع العطف الكبير الذي اشعر بهِ نحو والده الفاضل الذي رأيت منهُ ما اعجبت بهِ من التسليم لقضاء الله والايمان بهِ ، لا استطيع أن احابي في العلم فهو امانة في عنق اهله ، فانا استميحهُ كل الحرية في ابداء رأيي فأقول :

ان الذي عرفهُ جميع الذين تسنى لهم شهود المحتضرين ان كثيراً منهم تعرض عليهم بعد اليأس منهم صحوة توهم الذين حولهم انهم قد عادوا الى ما كانوا عليهِ من الصحة ، فيوصون ذوي قرباهم ،ويعطونهم ، وقد يخبرونهم بانهم يرون من المشاهد الروحانية ما يهون عليهم ترك هذا العالم ويجعلهم مطمئنين الى الموت الذي هو ليس الآ انتقالاً الى عالم الجمال والخلود. والذي حدث لهذا الغلام هو من هذا القبيل لا اقل ولا اكثر

بقي الحكم على قيمة ما ذكره لذويهِ، والذي نراهُ ويراهُ كل ناقد انهُ لايعلو عن ذهن تلميذ تزيد سنه على الثانية عشر قد يكون في السنة الاولى من القسم الثانوي ، وقد ربي على سماع مثله منذ نعومة اظفاره . اما العقيدة الراسخة التي ظهر بها ، فهي عقيدته التي نشأ عليها ، والانسان يموت على ما لقنَ من التعاليم ويبقى زماناً في عالم الارواح على ما هو عليهِ فيثبت فيهِ او يصرف عنهُ بتأثير الارتقاء الذي يتاح له في ذلك العالم . وقد نصَّ على ذلك العلماء الذين اطالوا البحث والتجربة في هذه الامور .فقال العلامة الكبير (سيزار لومبروزو)وهو مؤسس المذهب الفيزيولوجي المشهور بعلاقة الجرائم بشكل الجمجمة في كتابه (الهبنوتزم والاسبرتزم) في صفحة (٢٨٣) منهُ ما يأتي :

« تحتفظ ارواح الموتى في العالم الروحاني بما كانوا عليهِ من درجتهم العقلية والخلقية »

وقد اعترض كثير من الناس على قيمة المعلومات التي تأتيهم بعض الارواح بها ظناً منهم ان من انتهى الى ذلك العالم كشف عنهُ حجاب الحقائق . فاجابهم العلماء بما تقدم وقد اجمعوا كلهم عليهِ . حتى ان الدكتور جوستاف جيلي Dr. G. Geley مدير معهد المباحث الروحية العلمية في باريس ذكر في كتابه (نظرة عامة وشرح تركيبي للاسبرتزم) هذا الاعتراض وحمله بمثل ما قاله الاستاذ لومبروزو ثم قال :

« فنستنتج من ذلك أن جميع الاعتراضات التي وجهت عن خفة الى الاسبرتزم بمناسبة ضعف المحصول العقلي والغموض والمعلومات السطحية والاكاذيب والمتناقضات الخ التي قد تتلقى من بعض الارواح عند الاتصال بها ليست تقوم على اساس صحيح »

واني اريد في هذه الفرصة ان افضي الى قراء المقتطف ببعض ما يناسب هذا المقام مما عني علماء اوربا بجمعهِ من المشاهد الروحانية ساعة الاحتضار فان فيها فائدة علمية عظيمة القيمة ، نقتطفها من كتاب وضعهُ خاصًا بها العلامة البسيكولوجي بجامعات ايطاليا (ارنست

بوزانو) أسماه (الظواهر الروحية في ساعة الاحتضار) قال في مقدمته :

« قد شوهد في جميع الازمان ولدى جميع الشعوب أنهُ عند حدوث الازمة النهائية للاحتضار ان الانسان يتحلى في احوال كثيرة بصفات من الفطنة والكشف تعتبر غاية في الغرابة ويكون عرضة لمدركات غير طبيعية قد يشاطره شهودها الحاضرون معهُ والبعيدون عنهُ . وقد اجتهد ممثلو العلم الرسمي والذين يشتغلون بالمباحث النفسية الجديدة في تسرية الاسلوب التجريبي على هذه الظواهر السابقة للموت . ولئن كانوا قد انجحوا في ادخال جزء منها في دائرة القوانين الطبيعية المقررة في علم الفيزيولوجيا النفسية الا أنه لا يمكن التأكيد بانهم قد انجحوا في حصرها كلها في هذه الدائرة

« هذه الظواهر التي نحن بصددها هي من التركيب في حال لانستطيع تصوره ، ومجالها الفسيح يمتد من اول ابسط حالات قوة الذاكرة والعجز عن التعبير الى حالات الشعور بما هو بعيد عن المحتضر ، ومن اول درجات الكشف البصري الى درجات الافراط في العلم او التقهقر فيه . ويضاف الى كل هذا حوادث هامة لمرئيات مدهشة ومشاهد جلية ، واخرى رمزية واخيراً شهود امور مؤثرة جداً لاشباح الذين ماتوا من قبل

« الحالة الأخيرة اكثر الحالات وقوعاً الى حد أن التجربة العامية قد استخرجت منها قاعدة عامة من قواعدها الكثيرة . فان كل امرأة من الشعب تؤكد لك بأن المريض اذ تكلم مع موتاه فلا يبقى أمل في شفائه . والواقع ان تسعة وتسعين في المئة من الاحوال تؤيد هذه القاعدة

الى ان قال : « اذا كان سبب هذه الظواهر هو تحول فكر المحتضر بشدة الى الاشخاص العزيزين عليه ، كان اولى به بدل ان يتحول نحو الموتى . حتى الذين كان قد نسيهم ، أن يتجه الى رؤية اشباح الاحياء الذين هو مرتبط بهم بأشد روابط المحبة . وهذا لم يحدث قط . فقد شوهد العكس وهو أنه لم توجد حالة واحدة رأى فيها المحتضر اشباحاً للاحياء ، او وجه اليهم كلاماً كما يوجهه الى الموتى . وتعرف جيداً حالات لمحتضرين شاهدوا فيها اشباحاً كان يظن ان أصحابها من الاحياء ، وقد ثبت في كل مرة حدث فيها مثل هذا أن أصحاب هذه الاشباح كانوا قد ماتوا قبل ذلك بقليل ولم يعلم ذلك احد من الحاضرين ، ولا كان يعلمه المحتضر ايضاً . فيجب الاعتراف بان لهذه الاعتبارات قيمة استدلالية عالية في مصلحة التعليل الروحاني لهذه الحوادث . ولو أن التدليل التجريبي على صحة هذا التعليل شاق جداً بسبب طبيعة هذه الحوادث نفسها » انتهى

بعد ما اقتبسنا هذه الملاحظات من مقدمة العلامة (بوزانو) نأتي على عدة حوادث مما اورده في كتابه المذكور آنفاً

﴿ الحادثة الاولى ﴾ عن جريدة (اللانسيت) الانكليزية بتوقيع الدكتور (جروت) فقال:

«كان أحد مرضاي وهو مفتش سابقاً من مفتشي المالية يحتضر متأثراً بسدة في الكبد، وكان أخي من اخلص الناس له وقد دعي بالتلغراف ولازم سريره حتى مات . وكان معه صديق آخر ورجل ثالث من موظفي المالية . فما كان أشد ما دهش هذا الاخير حين رجاه المحتضر ان يوجه اليه سؤالاً عن الطريقة التي يقدر بها مشمول برميل من البيرة ، وأسئلة اخرى غيرها . فانقاد الرجل الى اشارته ووجه اليه اسئلة . فأجابه المحتضر عنها وطلب اليه ان يخبره هل اجوبته صحيحة؟ فأجابه الموظف المالي بالايجاب. فقال له المحتضر ان السبب في طلبي اليك ان توجه الي اسئلة هو لاجل ان اقنعك باني مالك لجميع قواي العقلية وباني لست في حالة هذيان . واذا تقرر لديك هذا فانا اصرح لك بأني ارى في هذه الحجرة الى جانب زوجتي وجانبك أشباحاً روحانية لا اعرف أصحابها ، ولكنهم حضروا هنا مستهدفين مقصداً من المقاصد وانا أجهل مقصدهم هذا . ولكن اريد ان اعرفك بأن العالم الروحاني ليس بمجرد افتراض ولكنهُ حقيقة محسوسة . قال هذا ثم لم يلبث ان اسلم الروح

﴿ الحادثة الثانية ﴾ روى الدكتور (ورتن) عن احد رجال الدين من (فيرمونت) بالولايات المتحدة ما يأتي : « انا واحد من رجال الدين وكنت منذ سنين راعياً لمدينة في احدى ولايات انكلترة الجديدة (باميركا) حيث بقيت اعواماً عديدة . فكان من بين بعثتنا امرأة في نحو الثلاثين ذات ذكاء عال واخلاق كريمة تدعى (أليس) . وكانت ظريفة وفطنة ومحبوبة من الكافة أصيبت بحمى عفنة انتهت بدمل قطني ماتت بسببه بعد أسابيع قضتها في الآلام. استدعتني في الليلة التي سبقت وفاتها في نحو الساعة الثانية صباحاً . وكان لديها ثلاث سيدات يقمنَ بالعناية بها ، فلم يعبأنَ بمجيئي كأنهن كنَّ واقعات في دهش يمنعهن عن الكلام . فجلست بجانب سرير المريضة وسألتها عن صحتها . فاجابت بانها تشكو ضعفاً شديداً . وبعد تبادل هذه العبارات لاح لي ان السيدات الحاضرات قد عدنَ الى رشدهن . فالتفتت الي احداهن وقالت لي بصوت خافت « لقد رأت أليس ملكاً » . فأدركت عندئذٍ ان جمودهن الاول كان عن خوف واحترام . فلقد كنَّ يشعرنَ بأنهن كنَّ على عتبة العالم الروحاني . فلم اجبها للوقت منتظراً ان اتحقق هل يبدو على المريضة علامات الهذيان ؟ فخرجت من صمتي وسألتها قائلاً : « أرأيت يا أليس رسولاً روحانياً ؟ فأجابتني بقولها : « نعم حقيقة » فسألتها متى حدث ذلك ؟ فقالت : « في منتصف الليل » . فسألتها أين وعلى اية صورة رأيته ؟ فاجابت : « أحسست اولاً بأني قد اكتسبت خصائص بصرية جديدة . وفيما أنا أنظر الى مدى بعيد في الافق شاهدت كرة نورانية تتجه الي . فتأملتها فاذا داخلها صورة انسانية روحانية فدخلت الى حجرتي »

فسألتها ماذا كانت تلبس تلك الصورة ؟ فأجابت . « رداء أبيض لا شية فيه » . فسألتها في أي مكان كانت تقف منك ؟ فأجابت : « بين السرير والبيانو » . «هنا قالت السيدات الحاضرات

ان المريضة في أثناء رؤيتها هذه الصورة كانت تتكلم . فسألتها ماذا قالت لك الروح التي زارتك ؟ فأجابتني بقولها : «انها قالت لي أشياء كثيرة منها انها ستأتي لتأخذني بعد اربع وعشرين ساعة» عند ذلك سألتها : « أتستطيعين ان تقولي لي أي يوم من الاسبوع يومنا هذا ؟ . فاجابتني « الجمعة » وكان الامر كما قالت فقد كنا في الساعة الثالثة صباحاً من ذلك اليوم . فسألتها : هل تستطيعين ان تخبريني في أي يوم من الشهر نحن ؟ فاجابتني عنه واضافت الى جوابها قولها: « اوه يا راعيَّ ، لا يجوز لك ان توجه اليَّ هذه الاسئلة فاني مالكة لجميع قواي العقلية وعلى علم تام بما اقوله»

« ثم اخذت قواها تنحط شيئاً فشيئاً وما زلت معها حتى وقعت في غيبوبة ، فتركتها وذهبت الى بيتي ، فلم يأتِ منتصف الليل التالي حتى اسلمت أليس الروح . ولما وضعتها في تابوتها لحظت ان ابتسامة حلوة تضيء جميع تقاطيع وجهها الذي طالما صوَّحت من نضارته الآلام »

﴿ الحادثة الثالثة ﴾ نقل الريفيرند مينو في كتابه (هل التلباتيا تفسر هذا) ؟ ما يأتي :

« في مدينة بقرب (بوسطن) كانت ابنة عمرها تسع سنوات في حالة نزع . فكانت تتحدث الى اقاربها مشيرة عليهم بتوزيع الاشياء التي كانت لها لصويحباتها الصغيرات اللاتي كانت تعنيهم بالاسم . وكان من بين هاته الصويحبات طفلة من اترابها تسمى جيني Gennie وقد خصتها تلك المحتضرة الصغيرة بشيء من لعباتها كذكرى . فما مضى على هذا وقت طويل حتى دقت الساعة المحتومة فابتدأت ترى حولها وجوهاً لناس من محبيها فكانت تسميهم واحداً واحداً ، فذكرت منهم جدها وجدتها . ثم لاح عليها دهش عظيم ووجهت الحديث لوالدها فقالت له : «لماذا يا ابتِ لم تخبرني بأن جيني قد ماتت ها هي جيني قد حضرت مع من حضر لاستقبالي» .

« فما تجب ملاحظته هنا ان البنت المحتضرة كانت تجهل كل الجهل ما حدث لصاحبتها المذكورة ، فان اقاربها تحاشوا ان يذكروا لها عنها شيئاً حتى لا يثيروا فيها انفعالات نفسية قد تكون وبالاً عليها . والواقع ان جيني الصغيرة كانت قد ماتت منذ قليل »

﴿ الحادثة الرابعة ﴾ وجاء في مجموعة الظواهر النفسية لجمعية العلماء الانكليز في مجلدها العاشر عن سيدة كان يعرفها الاستاذ (بودمور) الانكليزي المدرس بجامعة كمبردج قال :

« دعيت اختي الصغرى ، وهي متوفاة الآن ، لتحضر وفاة والدتي فما كادت تصل حتى ادخلت الى الصالة . فوقفت مذعورة وهي تصيح بأنها ترى شبح شبينتها جالسة الى جانب الموقد في المحل الذي كانت تجلس فيه والدتنا . وقد كانت هذه الشبينة قد توفيت في اواخر سنة ١٨٥١ . وقد كانت مربية والدتنا ومرضعتها ايضاً . وعاشت معها طوال حياتها الزوجية ، وكانت شبينة لبنتها الاولى . ولما مات ابونا كانت تقوم مقام والدتنا لتحمل عنها كثيراً من الاعباء وأدت لها هذه الخدم بشرف وأمانة الى يوم وفاتها.» فلما صاحت اختي بأنها قد رأت شبحها بجانب والدتي المحتضرة ، اسرعت اليها اختي الاخرى فشاهدتها هي ايضاً جالسة في المكان

الذي عينته اختي الاولى . ثم انتقلت الى جانب سرير المحتضرة، ثم شوهدت جالسة على حرف السرير . فاتفقت اختاي كلتاهما في رؤيتهما اياها وشاركتهما في رؤيتها خادمتي العجوز ايضاً. وكان ظهورها في صورتها التي كانت عليها،وهي حية تماماً مع هذا الفارق وهي انها كانت مرتدية ثوباً سنجابياً ، وعادتها فيما اذكر انها كانت تلبس ثوباً اسود . وقد رأتها والدتنا المحتضرة اذ ادارت وجهها الى ناحيتها ونادتها قائلة (ماري) وهو اسمها بالضبط »

﴿ الحادثة الخامسة ﴾ كتب السنيور (بيلوري) منظم مكتبة (فيكتور عمانويل الملكية) في جريدة (اولترا) لسنة ١٩٠٩ ما يأتي :

« مات للسنيور ج . نوتاري طفلة عمره اربعة اشهر وكان حول سرير موته الاب والام والجدة وصاحبة البيت واخت المحتضرة ، وهي طفلة سنها ثلاث سنين ، وكانت جالسة على السرير جامدة من الرهبة تنظر الى شقيقتها بعطف وحنان . فحدث انهُ قبل الوفاة بربع ساعة مدت (اينوبا) ، وهي هذه الاخت الصغيرة، يديها نحو زاوية الحجرة وصاحت قائلة :«يا اماه ارين خالتي اولجا ؟ » ثم تحركت لتنزل وتحضنها . فدهش الحاضرون وسألوا تلك الصغيرة قائلين : «اين ترينها ، اين هي ؟ » فأجابتهم البنت : « ها هي ها هي » وحاولت بكل قواها ان تنزل من السرير فنزلت وجرت صوب كرسي خال، ثم وقفت حائرة ، لان شبح خالتها كان قد تركه ووقف في مكان آخر من الحجرة . فتبعتهُ اليه البنت وهي تصيح : « ها هي الخالة اولجا» ثم سكتت ، وماتت اختها الصغرى

« ثم قال السنيور بيلوزي : وانا اضمن صحة هذه الحادثة التي حكيت لي مراراً هذه الليلة في جميع تفاصيلها من اسرة (ناسكا) اصدقائي الحميمين ومن جدة البنت التي شاهدت هذه الظاهرة

﴿ الحادثة السادسة ﴾ — ارسل الدكتور(بورجس) الى الاستاذ (هُدْجسن) المدرس بجامعة كمبردج الحادثة الآتية التي حصلت بحضرة الدكتور (رنز) الاختصاصي في الامراض العصبية وقد نشرت في مجلة جمعية المباحث النفسية بلوندره لسنة (١٩٠٨) وقد كتبها بقلمه المستر ج . وهو الذي حدثت له تلك الحادثة قال :

«ان ما حدث امامي في مدى الخمس الساعات الاخيرة من حياة قرينتي يستحيل في نظري الى المسألة التالية وقد دققت فيها كثيراً ولم اهتد الى وجه حلها ، وهي : هل كنت في اثناء تلك الساعات عرضة لهذيان عقلي ، او كنت على العكس حاصلاً فيها على موهبة الكشف النظري؟

«قبل الافاضة في وصف هذه الحادثة ولمصلحة من يقرأون هذه الصحف، اعلن بأني لم اتعاط المشروبات الكحولية قط ، ولم استعمل الكوكايين ولا المورفين ، وكنت ولا ازال معتدلاً في كل شيء ، ولست بعصبي المزاج ، ولم اكن خيالياً في تصوري ،وقد اعتبرني الناس دائماً رجلاً متزن العقل، هادئاً وحازماً. واضيف الى هذا اني لم اعتقد قط فيما يسمونهُ بالاسبرتزم، ولا ء

يتعلق به من حوادث التجسد الروحاني، ولا بالجسم الاثيري، ولكن كنت عدواً لهذه الآراء كلها

« وقد ماتت قرينتي في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين من يوم الجمعة ٢٣ مايو سنة ١٩٠٢ ، ولم افقد أملي في نجاتها الا حوالي الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم

« اجتمعنا حول سريرها منتظرين الساعة المحتومة، وكنا ثلة من الاصدقاء ومعنا الطبيب وممرضتان ، وكنت الى جانب المحتضرة قابضاً على يدها . وكان اولئك الاصدقاء منبثين في الحجرة بعضهم واقف وبعضهم جالس، جميعنا سكوت نراقب تنفس المحتضرة وكان قد اخذ في الهبوط شيئاً فشيئاً . فمضت ساعتان لم يطرأ فيهما تغير . وحضر الخدم فآذنونا بالغذاء فلم يقبل احد أن يذوق طعاماً . فلما كانت الساعة السادسة والنصف رجوت اصدقائي بالحاح ورجوت الطبيبة والممرضتين ان يذهبوا للعشاء لان انتظارهم قد يطول كثيراً . فلبى الجميع دعوتي الا اثنان منهم

« فلم تمض على ذلك خمس عشرة دقيقة (وقد تحققت من الوقت لوجود ساعة امامي على منضدة)، وكنت قد حولت وجهي نحو الباب ، حتى لمحت بوضوح تام عند العتبة ثلاث سحب معلقة افقيًّا في الهواء بعضها فوق بعض يبلغ طول كل منها نحو اربع اقدام ومحيطها من ست الى ثماني عقد، وكانت سفلاها أعلى من الارض بنحو قدمين ، وكان يفصل بعضها عن بعض نحو ست عقد

« فوقع في روعي لاول وهلة ان اصدقائي (وانا اطلب اليهم العفو على هذا الحكم الجائر مني) اخذوا يدخنون التبغ خارج تلك العتبة ، وان دخان سجائرهم قد دخل الى الغرفة ، فقمت على الفور رجاء ان ابكتهم على فعلتهم هذه ، فلم اصادف منهم احداً لا على عتبة الحجرة ولا في الدهليز ولا في الحجرة المجاورة ، فعدت دهشاً لاتأمل في هذه السحب الصغيرة التي كانت تقترب من السرير ببطء ولكن بثبات حتى احدقت به

« فاخذت انظر من خلال هذه السحب فرأيت صورة امرأة لا تعلو قامتها عن ثلاث اقدام واقفة الى جانب المحتضرة ، وقد لحظت ان جثمانها كان شفاً (اي شفافاً) ولكنهُ كان مشرقاً بنور له انعكاسات ذهبية ، وكان منظرها جليلاً الى حد أن لا توجد كلمات يمكن ان تعبر عنهُ وكانت تلبس رداءً يونانيًّا ذا ردنين طويلين واسعين ومدلاتين ، وعلى رأسها تاج . فلبثت هذه الصورة لا تتحرك كأنها في بهائها وجمالها تمثال . وكانت يداها ممتدتين الى رأس امرأتي كمن يستقبل قادماً وهو باش هادىء . ورأيت في الوقت نفسه صورتين اخريين لابستين ثياباً بيضاء ، وواقفتين على ركبتيهما بجانب السرير تنظران الى امرأتي بعطف وحنان، ورأيت كذلك صوراً تختلف في الوضوح حائمة حول السرير

« وشاهدت صورة بيضاء عارية معلقة فوق امرأتي في وضع افقي ومتصلة بها بخيط خارج من أعلى عينها اليسرى ، وكأنه جثمانها الاثيري . ثم رأيت ان هذه الصورة تنقبض وتصغر حتى تستحيل الى حجم صغير لا يتجاوز طوله ثماني عشرة عقدة ، ولكن مع محافظته على

صورته النسوية الكاملة ، ذات رأس تام التكوين، وجثمان ويدين وساقين تامة كذلك . ولما كان الجثمان الاثيري ينقبض ويصغر حجماً كانت تبدأ معركة عنيفة يتخللها اضطراب وحركات من الاعضاء ترمي الى غرض واحد وهو التخلص والتحرر من الجسم. وكانت هذه المعركة تستمر كثيراً حتى كان يظهر انها تستنفد قواه (اي قوى الجسم الاثيري). ثم يعقب هذا دور هدوء يبدأ فيه الجسم الاثيري في الكبر ولكن لا يدوم ذلك حتى يأخذ ثانية في الصغر ويعود الى دور جديد من المعركة

« ولقد شهدت هذا المنظر المحير طوال الخمس الساعات الاخيرة من حياة قرينتي ، فليحدده غيري بما يروقه فلم توجد وسيلة لازالته من أمام عيني . فاذا كنت قد تلهيت عنه بالتحدث الى أصحابي ، واذا كنت قد اقفلت اجفاني احياناً ، وتحولت بوجهي عنه احياناً اخرى ، فقد كنت متى اعدت النظر الى سرير المحتضرة اراه على ما كان عليه . ولقد كابدت في مدى هذه الساعات الخمس احساساً غريباً بثقل في الرأس والاعضاء ، وبثقل في الاجفان كما يحصل عند ما يعتري الانسان النعاس ، وكنت وانا واقع تحت هذا الشعور المؤلم ، وهذا المنظر المستمر أخشى ان أصاب في عقلي باضطراب ، حتى لقد كنت اوجه الكلام الى الطبيب من حين الى آخر فاقول له يا دكتور لقد اصبت بالجنون

« بعد هذا دقت الساعة المحتومة فتشنجت المحتضرة للمرة الاخيرة وانقطع تنفسها. وعند ذلك رأيت جسمها الاثيري يضاعف من جهوده ليتخلص من جثمانها المادي تخلصاً نهائياً . ولاح لنا ان قرينتي ماتت ولكنها بعد ثوان معدودة عادت الى التنفس ، وتكرر ذلك مرتين او ثلاث مرات، ثم انتهى كل شيء ، فانه بعد أن وقف تنفسها للمرة الاخيرة انقطع الخيط الذي كان يربطها بجثمانها الاثيري . وغاب ذلك الجثمان عن الانظار ، وغابت معها تلك الصور الروحانية، وتلك السحب النورانية التي كانت مخيمة في الحجرة . ومن المستغرب ان أقول أن ذلك الاحساس بالثقل الذي كنت اكابده زال أيضاً مع ذلك المنظر بأعجوبة ، وعادت اليَّ حالتي التي كنت عليها من الهدوء والاتزان والحزم حتى اني شعرت بقدرة على اصدار الأوامر ، وعلى الاشراف على التجهيزات التي لا بدَّ منها في مثل هذه الاحوال» . انتهى

قال العلامة (بوزانو) مؤلف الكتاب الذي ننقل عنه هذه الظواهر : «وقد شهد الدكتور (رز) بصحة هذه الحادثة» وأتى على اسطر من شهادته ، ونحن نقتطف منها ما يلي وهو طبيب اختصاصي في الامراض العصبية : « ان المسترج . اذا كان قد وقع مدة خمس ساعات متوالية في هذيان مرضي كان لا يمكن ان يعود عقله في برهة واحدة الى صفائه الطبيعي ، وقد مضى اليوم على موت قرينته سبعة عشر يوماً ، وعلى المنظر الذي رآه ، وهو على ما كان عليه صحيح الجسم والعقل وعلى حالة طبيعية منهما » . انتهى

نكتفي بهذه الحوادث الست من كتاب العلامة (بوزانو) وفيه عدد كبير غيرها

من الارز الى الزوفى

تأليف المسز كروفوت والمس بلدنسبرجر
بحث علمي لغوي بقلم الدكتور معلوف باشا

— ٢ —

الجرموع والقرموع — Black bryony. Tamus communis. L.

«يغسلونهُ بالماء الحار لانهُ سام . وقد ورد ذكر هذا النبات في كتاب البقول لجرارد قال: «تخلل خراعيبه وتؤكل مع اللحم كما اشار ديسقوريدس . وقال مثيولس انهُ يقدَّم على موائد تسكانية وقال آخر انهُ يؤكل في الاندلس من اعمال غرناطة»

قلت لم اعثر على الجرموع والقرموع في كتب اللغة الواحدة جرموعة وقرموعة وهما وزان فعلول والعامة تفتح الفاء والقياس ضمها كما في عصفور وصندوق وأمثالها ولم يرد ذكر الجرموع او القرموع في ابن البيطار بهذا الاسم على انهُ ذكره باسماء اخرى وايضاحاً لذلك اقول ان اطباء العرب واليونان ذكروا انواعاً عديدة من النبات الذي يعترش وسموه بالكرم وهو انبالُس باليونانية وهذه الانواع من ثلاث فصائل مختلفة الكرمية واليقطينية والديسقورية كما يأتي:

كرم والواحدة كرمة — Vine. Vitis

كرم العنب. كرم بستاني والواحدة — Common grape vine. Vitis viniferse

بالتاء . ورد ذكر الكرم البستاني في المادة ١٩٠٣ من مفردات ابن البيطار نسخة لكلير

كرمة برية — Wild grapevine. Vitis orientalis & other species

ولم يذكرها اطباء العرب وانما ذكرها ابن البيطار في المادة ١٩٠٥ وسماها انبالس اغريا وقال معناه الكرمة البرية وقال في آخر هذه المادة او المادة التي قبلها ان الكرم البري هو الكرمة السوداء . راجع النسخة العربية ونسخة لكلير

فاشرة . كرمة بيضاء — Bryony or White bryony. Bryonia alba, B. dioica & other species

فالفاشرة من اصل سرياني وقد وردت على صور مختلفة منها فاشر وفاشرا وفاشيرا وفاشريّ (انظر مستدرك التاج ومحيط المحيط وفريتغ ودوزي) ولعلَّ افضل كتابة لها بالتاء اي فاشرة لا بالنسبة والتشديد . ولعل صاحب التاج نقل عن نسخة غير منقوطة الياء فكتب اللفظة فاشري ومثله فريتغ . اما اصل الفاشرا فبالالف كما كتبها ابن البيطار وهي لفظة نبطية او سريانية كما تقدم فكتبها بعضهم بالقصر وقرأها آخرون بالنسبة اي بتشديد الياء ولو نقطنا

الياء كما اشار الأب انستاس في مقالة له نشرت في جزء ماض من المقتطف لعرف الفرق بين القصر والنسبة

اما تعريف الفاشرة فهي بقلة معترشة من الفصيلة اليقطينية التي منها الحنظل والبطيخ والقثّاء ذكر منها بوست نوعين في سورية وهما الفاشرة الكثيرة الزهر والفاشرة القليلة الزهر او الفاشرة السورية وحبهما اما اصفر او احمر وكلاهما من ذات المسكنين . وجميع نباتات هذا الجنس اي بروانيا اسمها فاشرة وكرمة بيضاء اي ان الفاشرة اسم للجنس كله كذلك الكرمة البيضاء . واني افضل الاقتصار على الفاشرة فيقال في ترجمة النوعين المتقدم ذكرهما فاشرة بيضاء وفاشرة ذات مسكنين ولو ان معظم انواع الفاشرة من ذات المسكنين . ولا بأس بكتابة الفاشرى بالقصر ولكن يخشى التباسها بياء النسبة

جُرموع وقُرموع — Black bryony. Tamus Communis. L.

والواحدة بالتاء

ذكر ابن البيطار من اسمائها الكرمة السوداء والفاشرشين واسماء اخرى فارسية ويونانية ولاتينية وبربرية وارى الاصلح الاقتصار على الجرموع والقرموع لأن بعض الالفاظ التي اوردها ابن البيطار تطلق ايضاً على الفاشرة البيضاء والفاشرة ذات المسكنين واما الالفاظ التي ذكرها شوينفورث فتصحيف الفاظ اوردها ابن البيطار وغيره والاصلح اهمالها

عَكّوب — GundeliaTournefortii L.

هو من البقول الشائكة ومن اطيبها وربما كان اطيب من الخرشوف وهو كثير في اسواق القدس في آذار (مارس) وفي اسواق عمّان في نيسان

قلت لا شبهة ان هذا النبات هو العكّوب المعروف بهذا الاسم في سورية من شمالها الى جنوبها اي من حلب الى غزّة نعرفهُ بهذا الاسم ونأكلهُ وهو مشهور واسمهُ في الموصل كعّوب وهي مقلوب عكّوب ذكر بوست من اسمائهِ العكّوب والكعّوب والعُكّيب وهذه لم اسمعها وورد ذكر العكّوب في مستدرك التاج قال والعكّوب كتنور بقلة معروفة وهي شوكة الجمال . وفي مفردات ابن البيطار وصف حسن جداً له ولكنهُ قال هو سلوبن في ديسقوريدس وليس معنى ذلك انهُ المسمى سلوبن في ايامنا بل هو سلوبن في ديسقوريدس فلكلير اعقل من ان يقول ذلك ولكنهُ قال في حاشية لهُ يُظن انهُ Silybum Marianum وهذا هو الخرفيش وسيأتي ذكرهُ . وقال دوزي مثل ذلك وزاد عليهِ ان اللفظة ارمية . قلت ونقل لكلير عن بوكارت ان العكّوب اسمهُ عكوبيتا بالعبرانية ثم ان العكّوب ليس هذا النبات الذي ذكرهُ لكلير في حاشية لهُ في آخر مادة عكّوب. ولايخفى ان ديسقوريدس كان عشاباً مشهوراً ومثله ابن البيطار ولكلير كان باحثاً دقيقاً فديسقوريدس وابن البيطار لم يخطئا في وصف

العكوب فالوصف حسن جدًّا ولكلير لم يخطئ في الترجمة فقال هو سلوبن ديسقوريدس وليس معنى ذلك ان سلوبن ديسقوريدس هو سلوبن في ايامنا وصفوة القول ان العكوب على ما ورد في ابن البيطار وفي كتب اللغة هو هذا النبات دون غيره اي كما ورد في هذا الكتاب . اما ضبط اللفظة فكتنور كما جاء في التاج وفي هذا الكتاب وفي نبات سورية لبوست وفي دوزي وليس عُكوب كما ضبطها لكلير او عقُّوب بالقاف او كوب بالواو او كُعَيب او كَعُوب بتخفيف العين بل بتشديدها فتحقيق هذا النبات وصحة اسمهُ العلمي والعربي مما يعود بالشكر على المؤلفتين الفاضلتين

احرار البقول Sallets or Salads

ترجمت ما تقدم باحرار البقول وهي البقول التي تؤكل غير مطبوخة واحدها حرُّ البقل اما اللفظتان الانكليزيتان وما يسميه العامة بالسلطة والسلاطة والزلاطة بازاي فمن اصل لاتيني ومعناه المملّح لانهُ يؤكل مع الملح او مع الملح والخل والزيت . فمن احرار البقول التي وردت في هذا الكتاب باسمائها العربية والانكليزية ما يأتي

خُرفَيش Milk thistle. Silybum Marianum

هو نوع من الشوك يؤكل ورقهُ . والخرفيش انواع منها خرفيش الحمير والخرفيش الاحمر وغيرهما ولكن الخرفيش الحقيقي هو هذا واسمهُ بالانكليزية شوك اللبن للعروق البيض في ورقه فقد جاء في اسطورة قديمة ان قطرة من لبن العذراء سقطت على ورقة منهُ فابيضت العروق في ورقهِ ومن اسمائهِ بالانكليزية شوك السيدة ومنهُ الاسم النوعي باللاتينية اي شوك مريم وهم يريدون بالسيدة والدة المسيح

قلت لا شبهة ان الخرفيش مصغر خَرفش مقلوب خرشف وهو الخرشوف وسيأتي ذكره. وهذا النبات هو الذي ظُنَّ انهُ العَكُّوب كما تقدم في المادة السابقة . وقد اصاب الدكتور احمد بك عيسى بترجمته بخرفيش الجمال وليس هو العكّوب وقد تقدم صحة ترجمة العكّوب

حُوَيْرة Hedge mustard. Sisymbrium irio. L.

هي بقلة صغيرة زهرها اصفر يطيبون بها الشنينة اي مخيض اللبن

قلت لم اعثر على الحويرة في كتب اللغة ولا في ابن البيطار ولعلها التُّودَرَة قال زهرها اصفر وقال انها تعرف في بيت المقدس واعمالهِ بالامتجارة وفي نسخة الاسماره او الاشجاره او او الجاره واقربها الى ما ورد في هذا الكتاب الجارة ولعلها الحارَّة . ثم اني لا ارى فائدة من نقل الفاظ محرفة فالغاية معرفة الاسم العلم والعربي لهذا النبات فالاسم الوارد هنا لا شبهة فيهِ ولكنهُ عامي

الخرشوف Wild artichoke. Cynnara syriaca. Boiss

هو اصل القردون والخرشوف الكروي اما اسم الخرشوف بالانكليزية فاصله من الخرشوف العربية قلت ولا شبهة في صحة القولين فالقردون والخرشوف الكروي اي الخرشوف المعروف كلاهما من هذا الجنس اي قنارة وكلاهما بري وبستاني كما يتضح من مراجعة مادة خرشف في ابن البيطار فذكر الخرشف البري في ابن البيطار وبعده سقولومس ليس معناه ان البري هو القردون وسقولومس هو الخرشوف البستاني . واري ان صحة ترجمة الالفاظ الآتية تكون على ما يأتي

سلطة الرهبان Dandelion. Taraxacum officinale. L.

هندباء Wild chicory. Chicorium intybus. L.

خس برّي Wild lettuce. Lactuca cretica. Desf.

مُرّار . مُرّير Yello wstar thistle. Centaurea. Del.

قُرصَعنَّة Snake root. Eryngium Creticum. Lam.

لا اعرف اسماً عربيًّا لسلطة الرهبان غير ما ذكره ابن البيطار اي الطَرَخْشَقُون وهي يونانية معربة وناب الاسد وهي مترجمة والاصلح ترك الهندباء البرية لما كان بريًّا من الهندباء والبستانية لما كان بستانيًّا منها . فالهندباء برية وبستانية ومثالها الشيكورية اي انها برية وبستانية . ثم ان الطرخشقون قد وردت مصحفة على اشكال مختلفة . وقد أشار الأب انستاس الى ذلك في مقالة لا اذكر تاريخها والاصلح اهمال هذه الاشكال واعتماد الطرخشقون وحده . اما اليعضيد فنبت آخر شبيه بالطرخشقون هو الكُندرِلاّ عند النباتيين ولعلّ العرب اطلقت اليعضيد على الكندرلاّ والطرخشقون والاصلح اهماله بمعنى الطرخشقون

اما الهندباء فالمشهور منها هذه التي ذكرت هنا وهي برية وبستانية واما الشيكوريا فتعريب العامة عن الايطالية وهي نوع آخر اسمه Chicorium endivia وبالانكليزية Endive وهي أيضاً برية وبستانية واما الاسم النوعي للهندباء اي انطوبيا والشكورية اي انديبيا فكلاهما يمتّ الى الهندباء بالعربية

واما المُرّار والمُرّير فبقلةمُرّة فصيحها المُرار مخففة وهي بقلة اذا أكلتها الابل تقلصت مشافرها وبها سمّي جدّ امرء القيس الاكبر فقيل حُجر آكل المرار ، والمرار من الفصيلة المركبة من الجنس المسمى قنطورية اسمهُ في الشام حسب رواية بوست شوك الدردار وهو انواع كثيرة ذكر منها بوست سبعة واربعين نوعاً منها المُرّار والمُرّير واليَمْرور . ثم ان المرار يطلق على عدة انواع من هذا الجنس منها النوع المذكور في هذا الكتاب . ومن هذا

الجنس اي قنطاورية القنطوريون الكبير والبَهْمَنْ . اما القنطوريون الصغير ويقال له القنطاريون في لبنان فمن جنس آخر وفصيلة اخرى هي الجنطيانية

واما القرصعنة فقد ذكرها ابن البيطار ولم يضبطها وضبطها لكلير بفتح اولها واسكان ثانيها واوردها صاحب محيط المحيط بكسرْ اولها اي قِرْصَعْنة ثم عاد وقال القرْصعنّة بالتشديد اي كما تقول عامة أهل الشام ولكن العامة تضم اولها كما هي في هذا الكتاب وكما اوردها الدكتور بوست وهي بقلة مشهورة في شمال سورية وجنوبها ولم اعثر عليها بهذا الاسم في أمهات اللغة . اما فصيحها فالعُرْقُصاء والعُريقصاء والعُرَيقصانة والعرنقصان والعَرْقَصان والعُرْقُص والعُرَقِص وكله كالقرصعنّة معرّب Eyrngus (الاب انستاس في مجلة المشرق ٣ : ٦٦) وقد كتبت اللفظة اليونانية بصيغتها اللاتينية . انظر المادة ١٥٣٧ والمادة ١٧٥٤ من مفردات ابن البيطار وانظر الالفاظ المتقدمة في أمهات اللغة فصاحبتنا القرصعنة ليست سوى هذه البقلة عينها واسماؤها كما تقدّم . ومن الغريب ان الدكتور بوست ذكر نوعاً من القرصعنة ثم سماه القرصة او القرْصَع Qarsah ولعلها مقلوب عرقص المتقدمة الذكر

ثم بحث في الجذور والبَصَل منها التُّميْر والبَلَبُوس والشُّحَيْم وثوم العرب فضربت صفحاً عنها ما عدا البَلبُوس فهو وارد في ابن البيطار في المادة ٣٣٧ من ترجمة لكلير وقد خصصتهُ بالذكر لان الباحثين عجزوا عن تحقيقهِ وهذا وحده يثبت ما لمؤلفتي الكتاب من الفضل . ثم ان البلبوس وارد في محيط المحيط وفي مستدرك التاج . ففي محيط المحيط البُلْبُوس بصل يشبه بصل النرجس لا طاقات لهُ كالبصل بل هو جسم واحد عليهِ قشر منتج أسود ولهُ ورق كورق الكُرَّات وورده يشبه البنفسج ويعرف ببصل الذئب وبصل الزير . وفي مستدرك التاج البَلْبُوس بالفتح هو بصل الزند يشبه ورق السذاب ذكره صاحب المنهاج . وفي مفردات ابن البيطار كلام مضطرب قال لكلير في حاشية لهُ ان الشراح مختلفون في البلبوس ولم يثبت ترجمته . اما اسمه على ما ورد في هذا الكتاب فهو ما يأتي

Carum (Bunium) ferulaefolium, Desf. Belabos, Earth Nut or Pig Nut

اي أنه من الفصيلة الخيمية او الصيوانية التي منها البقدونس والكَرَفس والخِلة والكَرَوياء ومن جنس الكروياء نفسها ذكره بوست في نبات سورية وفلسطين وانما لم يذكر له إسماً عربيًّا ولولا هذا الكتاب لما اهتديت الى البلبوس. ثم ان محيط المحيط على ما يظهر ضبطه كما هو اسمه باليونانية وتاج العروس ضبطه كما يقولون في فلسطين

ثم بحث في القطاني كالعدس والباقلاء والحِمّص ونحو ذلك وفي طعام البادية وهو ما يأتي

Mesembryanthemum Forskalii, Hoschst. Wild bread. Samh. سَمْح

وقد جاء في الكتاب ما يأتي ترجمته ملخصاً . سألنا الفلاحين عمّا يعلمون عن الغريب من

النبات فقيل لنا ان في البادية طعاماً يأكله الاعراب. وهو ليس نوعاً من الحنطة كالخبز الذي نأكله بل من حب بقلة صغيرة تكون في البادية اسمها السَمْح . قال لنا رجل انهُ اكل هذا الخبز اي خبز البدو الاسود في الجوف مع التمر ولبن النوق واستطابه ولكنهُ كان جائعاً. وهذا يشبه ما جاء في رحلة دوطي وفي وصف فورسكال لهذا النبات

قلت لم أعثر على السَمْح في كتب اللغة بهذا المعنى وانما ورد السَمْح والسَميح بمعنى الجوَّاد والمتسامح . وورد السمح في معجم دوزي بمعنى طعام ذكره بلغراف ولا بد انهُ هذا اي ان اللفظة شائعة في البادية بهذا المعنى ولو لم يذكرها اللغويون ولعله سُمّي بالسمح لانه يجود على أهل البادية في جوعهم. واظنه المُلاّح قال صاحب التاج في مادة ملح . وفي حديث ظبيان يأكلون مُلاّحها ويرعون سراحها قال الازهري عن الليث المُلاّح كرُمّان من الحمض وانشد : يخبطن ملاحاً كذاوي القرمل . وقال ابومنصور الملاّح بقول الرياض الواحدة ملاّحة وهي بقلة غضّة فيها ملوحة منابتها القيعان وفي المحكم الملاّحة عشبة من الحموض ذات قضب وورق منبتها القفاف وهي مالحة الطعم ناجعة في المال وحكى ابن الاعرابي عن ابي النجيب الربعيّ في وصفه روضة رأيتها تندى من بُهمي وصوفانة وملاّحة ونبتة ونقل ابن سيده عن ابي حنيفة الملاّح نبت مثل القلاّم فيه حمرة يؤكل مع اللبن وله حبّ يجمع كما يجمع الفثّ ويخبز فيؤكل قال واحسبه سمي ملاّحاً للون لا للطعم . انتهى ما اريد نقله عن التاج . وفي المخصص لابن سيده ١١ : ١٧٥ ما اورده صاحب التاج وفي شوينفورت عن اشرسُن ان نوعاً من الجنس المتقدم اسمه في رشيد الغاسول والملاّح او المليح Mullah . فما نقله صاحب التاج ان ابن سيده جعلني اقول ان الملاّح هو السمح او اي نوع من الانواع الثلاثة المعروفة من هذا الجنس من النبات . اما القلاّم فاظنه الاول منها في السياق الذي سأذكره واما الفث فهو نوع آخر لا أعرفهُ وجميع هذه البقول من فصيلة واحدة سميتها المُلاّحية ولم اسمها الغاسولية لان الملاّح افصح والغاسول وارد ايضاً بمعنى نبت آخر ليس من هذه الفصيلة ومن خواص هذه الفصيلة ان جميع بقولها رَبلة تنبت في القفاف

قُلاّم	Mesembryanthemum Crystalum, L.
مُلاّح . سَمح	M. Forskalii, H.
ملاح . غَسولان	M. nodiflorum L.

ولا يخفى ان جميع هذه البقول من الحمض وجميعها توصف بالربل والرطوبة وأما الذي دعاني الى القول ان القلام هو النوع الاول فما جاء في ابن سيده ١١ : ١٧٢ فقد نقل عن ابي حنيفة القلام اشد الحمض رطوبة وورقه شبيه بورق الحُرْف يأكله الناس. وأما الغسولان فمن معجم اسماء النبات للدكتور احمد عيسى بك ولا اعلم المصدر الذي اخذ عنه ذلك

ألوان النجوم وحرارتها

اذا راقبنا السماء في ليلة ليلاء صافية الاديم لا سحاب فيها ولا ضباب ظهرت نجومها متألقة كالمصابيح الكهربائية ونورا اكثرها ابيض ناصع البياض كالشعرى او ابيض ضارب الى الزرقة كالنسر الواقع او ضارب الى الصفرة كالعيوق او أصفر فاقع كالسماك الرامح او احمر كنكب الجوزاء وقلب العقرب . والظاهر ان لون بعض النجوم غير ثابت فقد قال بطلميوس وغيره من الاقدمين ان لون الشعرى احمر ولكن الصوفي لم يذكرها بين النجوم الحمر كأن حمرتها قد زالت في عهده . ولونها الآن ابيض ناصع او هو مائل الى الزرقة قليلاً

واشد النجوم حمرةً قلب العقرب واسمهُ باللاتينية Antares ويقال انهُ سمي كذلك تشبيهاً لهُ بالمريخ او ظنًّا انهُ هو نفس المريخ لان اسمهُ مركّب من كلمتين Anti ومعناها بدل و Ares ومعناها المريخ . واكثر النجوم الحمر أصغر من ان يرى بالعين لبعدهِ الشاسع . وبعضها من النجوم المتغيرة فاذا زاد اشراقهُ ظهر برتقاليًّا . وبعض النجوم الحمر لا تتضح حمرتهُ الاَّ اذا قوبل بغيرهِ من النجوم البيض . اما النجوم الخضر والزرق فقليلة العدد وهي غالباً من النجوم المزدوجة

نظر الانسان من اقدم الازمان الى النجوم فاسترعى نظرهُ هذا الاختلاف في ألوانها . ولكن العلم لم يعالج تعليل هذا الاختلاف الاَّ في بداءة هذا القرن ، فظنَّ اولاً ان النجوم البيض هي اشدُّ حرارة من النجوم الحمر على مثال ما نراهُ في الحديد الحامي ، فان الحديد الحامي الى درجة البياض اشدُّ حرارة من الحديد الحامي الى درجة الحمرة . وقبل اقامة هذا الظن مقام الحقيقة العلمية المؤيدة بالدليل ، وجب على العلماء تحقيق امرين

اما الامر الاول فاستنباط وسيلةٍ لقياس ألوان النجوم قياساً دقيقاً للتفرقة بين ظلال الالوان . واما الامر الثاني فوضع نظرية يربَط فيها بين لون جسم متوهج وحرارة سطحهِ . وقد عالج العلامة الالماني مكس بلانك هذا الموضوع ، تخرج من بحثهِ بنظرية الكم Quantum المنجبة في الطبيعة الحديثة ، وبقاعدة علمية تمكن الباحث من معرفة الضوء الصادر من جسم مشعّ ولون الضوء اذا عرف حجم الجسم وحرارتهُ . فاذا عكس العمل امكن معرفة حرارة الجسم المشعّ من معرفة لونهِ ، اذا توافرت لدى الباحث الحقائق اللازمة . واستعين على تحقيق الامر الاول باستعمال اللوح الفتوغرافي مدَداً للعين المجرَّدة في تبيّن ظلال الالوان . وقد رتبت النجوم التي درست من هذه الناحية في جدول وبوّبت في أبواب ، مُسهِر كل بابٍ منها

بحرفٍ اصطلحوا عليهِ والحروف هي O, B, A, F, G, K, M. وكل منها يشير الى لون معيّن فالحرف O يدلُّ على اللون الازرق والحرف M يدلُّ على اللون الاحمر والحروف التي بينهما تدلُّ على ظلال الالوان التي بين الازرق والاحمر . فاذا كان نجمٌ ازرق مائلاً الى الخضرة وضع الى جانب الحرف O (وهو الحرف الذي يدل على الازرق) رقم صغير يدلُّ على مقدار الميل الى الاخضر . فاذا قيل ان لون النجم كذا من باب O٢ عرفنا ان ميله الى الاخضر قليل واذا قيل انهُ من باب O٧ عرفنا انهُ اقرب الى الاخضر منهُ الى الازرق . والظاهر ان النجوم الزرق (باب O) قليلة لا تزيد على عشرين نجماً من كل النجوم التي فوق القدر السادس

اذا قلنا ان الحديد بلغ درجة الحمرة او درجة البياض ، عنينا انهُ بلغ درجة من الحرارة يشعُّ عندها ضوءًا احمر او ضوءًا أبيض . فاذا شعَّ الكربون ضوءًا احمر متى بلغت حرارتهُ ثلاثة آلاف درجة مئوية ، شعَّ التنغستن كذلك هذا الضوء متى بلغت حرارتهُ هذه الدرجة. فلكل لون من الالوان — ولكل طول من اطوال الموجات — درجة معيّنة من الحرارة متصلة بهِ . فاذا حلّلت الضوء الصادر من الكربون او التنغستن عند احمائهما الى ٣٠٠٠ درجة مئوية كانت الامواج الغالبة في الطيف امواج اللون الاحمر . فقبيل بلوغ حرارة الجسم الدرجة المعيّنة من الحرارة تبدأ الامواج الخاصة بتلك الدرجة تكثر في الطيف

اذن فلكل لونٍ من الوان الضوء — او لكل ضرب من ضروب الاشعاع من حيث طول الامواج — درجة معينة من الحرارة متصلة بهِ ، فكثر ذلك اللون في الاشعاع الصادر منهُ اذا بلغ الجسم تلك الدرجة من الحرارة ، فالجسم الذي احمي الى درجة الحمرة تتفوق امواج اللون الاحمر في اشعاعهِ على امواج الالوان الاخرى فيبدو احمر اللون للعين

فاذا بدا نجم من النجوم احمر اللون للعين ، صحَّ ان نقول ان حرارة سطحهِ تبلغ درجة الحمرة . فاذا كان لون نجم آخر لون الضوء الكهربائي المنبعث من قوس كربوني صحَّ ان نقول ان حرارة سطحهِ من رتبة حرارة الضوء القوسي . كذلك يقدّر العلماء درجة الحرارة على سطوح النجوم . ولكن الواقع ان بحث الفلكي اشدُّ دقة من المثل الذي ضربناهُ . فهو لا يعتمد فقط على العين المجرّدة في تقدير درجة الحمرة او درجة الصفرة او درجة البياض . وانما يأخذ الضوء الواصل الينا من نجم ما ، ويحلّلهُ بالسبكترسكوب (آلة الحلّ الطيفي) فيعرف نسبة الالوان المختلفة في طيفهِ ، وأيها المتفوق ، ثم يبني تقديرهُ لحرارة سطحهِ على معرفتهِ لنسبة الالوان التي في الضوء المحلول

اشرنا قبلاً الى قاعدة بلانك التي تمكنك من معرفة حرارة الجسم اذ عرفت لونهُ . ذلك ان بلانك اخذ الاشعاع الصادر من جسم على درجات مختلفة من الحرارة هي ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ درجة مئوية ووضع رسماً بيانيا بنسبة الالوان المختلفة في الاشعاعات الاربعة.

واللون في الطبيعة هو طول الموجة . فالاشعاع الصادر من جسم حرارتهُ ٦٠٠٠ درجة مئوية تكثر فيهِ الامواج التي طولها ٤٨٠٠ أنغستْرُمْ Angstrom (الانغسترم هو جزءٌ من ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جزءٍ من السنتمتر) . فاذا حللنا الضوء الصادر من جسم مضيءٍ ووجدنا كثرة امواجهِ طولها ٤٨٠٠ انغسترم حكمنا ان حرارتهُ من رتبة ٦٠٠٠ درجة مئوية. ويؤخذ من درس اشعاع الشمس ان حرارة سطحها من هذه الرتبة

وثمة طريقة اخرى لمعرفة درجة الحرارة في سطح نجم من النجوم . ذلك ان بعض الخطوط التي تظهر في طيف الضوء الصادر من سطح النجم ، سببها ذرات جرّدت من الكترون او اكثر ، من الكترونانها ، بفعل الحرارة في الجوّ الذي يحيط بالنجم. ولما كان العلماء يعرفون درجة الحرارة التي عندها ينفصل الكترون عن ذرتهِ، فحرارة سطح النجم يمكن ان تستنبط حينئذٍ

ويتصل بهذا الموضوع البحث في مقدار الاشعاع الصادر من النجوم، من كل سنتمتر مربَّع من سطحها. وهو متصل في المقام الاول بدرجة الحرارة. فارتفاع درجة الحرارة يقتضي ازدياد مقدار الاشعاع فاذا ضوعفت الحرارة على سطح نجم زاد ما يشعّهُ ١٦ ضعفاً لاضعفين. فالاشعاع من كل سنتمتر مربع يختلف كمربع الحرارة . فنجمٌ حرارة سطحهِ ٣٠٠٠ درجة مئوية — اي نصف حرارة سطح الشمس — لا يشعُّ السنتمتر المربع من سطحهِ الاَّ $\frac{1}{16}$ مما يشعهُ السنتمتر المربع على سطح الشمس . على انَّ اشعاع كل نجم خليط من الحرارة والضوء والاشعة التي وراء البنفسجي ونسبة هذه العناصر بعضها الى بعض تختلف باختلاف حرارة النجوم . فاذا كانت حرارة النجم واطئة كان معظم اشعاعهِ من الاشعة التي تحت الاحمر وهي اشعة حرارة . لذلك ترى ان نجماً حرارة سطحهِ ٣٠٠٠ درجة مئوية ، لا يشعُّ $\frac{1}{32}$ من جزءٍ من ضوء الشمس — لان حرارة الشمس ضعف حرارتهِ — بل يشعُّ اشعة حرارة اكثر منها . وهذا يدلُّ على ان تقدير كل ما يشعُّ من احد النجوم لا يمكن ان يقاس بلمعانهِ الظاهر. فالنجم الذي حرارتهُ ٦٠٠٠ يشعُّ اشعاعاً معظم امواجهِ من امواج الضوء الذي يرى . اما النجم الذي حرارتهُ ٣٠٠٠ درجة فيشعُّ اشعاعاً معظم امواجهِ من امواج الحرارة التي لا ترى. ولو ان اعيننا تحوَّلت بمعجزة الهيئة حتى تصبح قادرة ان ترى كلَّ ضروب الاشعاع التي تخفى علينا الآن — الاشعة التي تحت الاحمر او وراء البنفسجي — لتغيَّر منظر القبة الزرقاء في نظرنا كلَّ التغيُّر ذلك ان منكب الجوزاء وقلب العقرب وهما نجمان في المرتبة الثانية عشر والمرتبة السادسة عشرة من اللمعان ، يصبحان اشدَّ النجوم لمعاناً في الفضاء حتى ليفوقان الشعرى . وفي صورة هرقل نجم صغير يفوقهُ في لمعانهِ ٢٥٠ نجماً فيصبح السادس بين النجوم لمعاناً . ذلك ان هذه النجوم الثلاثة تصدر اشعاعاً من الضرب الذي لا يرى بالعين المجرَّدة الآن. فاذا اتيح للعين رؤية كل انواع الاشعة تبينت عظمة الاشعاع الصادر من هذه النجوم

ديكارت

Desca o

أبو الفلسفة الحديثة[1]

ترجمته

﴿ اردمن ﴾ ولد « رينيه ديكارت » بمدينة لاهاي في ولاية تورين بفرنسا ، في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ . وأتم دروسه في كلية لافلاش La Flèche ، فقاده درس الشعر والفلسفة والرياضة الى الارتياب ، الذي كان فاشياً يومذاك بين طوائف الباحثين . فعرج عن طلب العلم حيناً . وكان من عادته ان يحل قضايا الهندسة بالجبر ، وقضايا الجبر بالهندسة . فتبين ان ضم المنطق اليهما عمل مفيد في كل فروع العرفان ، ودعا ذلك المنهج : استدلالاً : الا أنه غير القياس الجاف الذي لا يضيف الى معارفنا شيئاً

ذرّ فجر الفلسفة الحديثة « بديكارت » في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ بمدينة نوربرغ بالمانيا . بشروعه في تأليف كتاب : العالم : Le monde . وكاد ينجزه سنة ١٦٣٣ . ولكن راعه ان البابا حرم « غليليو » لقوله بدوران الارض . وجانب كبير من كتاب (العالم) يستند الى تلك النظرية ، فرأى اولاً ان يعدم الكتاب دفعاً للبلاء . ومع انه عدل عن هذه الفكرة فانه لم يطبع الكتاب . لكنه اصدر عوضاً عنه ، نشرة دورية سنة ١٦٣٨ . الجزء الاول في الفلسفة . والثاني في الطبيعة والرياضة . وهذا الجزء مأخوذ كله من كتاب : العالم : والثالث في الهندسة . والرابع في الطبيعة . فكان لهذه الكتب أثر كبير في سير العلم . وتلاها كتاب : تأملات فلسفية

عرض هذا الكتاب على كثيرين من العلماء قبل طبعه . وطبع في آخره اعتراضاتهم وردوده عليها . وتلاه كتاب : المبادىء سنة ١٦٤٢ ورسالة في انفعالات النفس بعث بها الى الاميرة اليزابت سنة ١٦٤٦ . ثم دعته « كريستيانا » ملكة اسوج لزيارتها . فلبى الدعوة متردداً ولم يتحمل جسمه برد اسوج القارس . فمات من جراء ذلك سنة ١٦٥٠ في ١١ نوفمبر . وبعد موته صدر كتابان من تأليفه وهما « الانسان » و « تكوين الجنين » وطبعت كل مؤلفاته باللاتينية في تسعة مجلدات

مذهبه

﴿ لوس ﴾ لا مشاحة في ان ديكارت ابو الفلسفة الحديثة . ولا يزال التفكير في اوربا

---

(١) هذا جانب من فصل ممتع في كتاب « الفلسفة في كل العصور » الذي وضعه المؤلف الفاضل حنا خباز وقدمه للطبع وقد جرى في وضعه على خطة طريفة ذلك انه طالع طائفة من أشهر الكتب التي وضعها مؤرخو الفلسفة واختار منها خير ما قيل في مختلف الفلاسفة مما يجلو آراءهم واسند كل قول الى صاحبه على ما ترى في هذا المقال

نسجاً على منواله . وبه تقرّر وجود الفلسفة كأمرٍ لا نزاع فيه . قال في مقدمة كتاب «تأملات فلسفية» الذي قدمه للسوربون : — «لقد فكرت في قضيتين : وجود الله ، وطبيعة النفس . وهما أهمّ ما يجب حله بالفلسفة من القضايا ؛ لانه مع ايماننا بهما لا نقدر ان نقنع اي احد بلزوم الديانة والفضيلة ، مالم نبرهن اولاً على صحة هاتين القضيتين» . وهذا الكلام جديد الصيغة . يدلنا دلالة واضحة على ان الفلسفة حصلت على استقلالها التام عن علم اللاهوت . ولكن ماهو اتجاهها ؟ الجواب . ان اتجاه الفلسفة احد أمرين . اما ان تنهج منهج فلسفة الاقدمين ، او ان تبتكر منهاجاً جديداً . فنهج ديكارت المنهج الثاني . الارتياب فاشٍ ، والنفس البشرية في حاجة الى محك به تميز الحقيقة . ذلك ما شعر بالحاجة اليه الابيقوريون والرواقيون وفلاسفة الاكادميا الافلاطونية . وبعدهم عرج الفلاسفة الاسكندريون الى مملكة الايمان ، هرباً من الحيرة . فمسألة محك الحقيقة هي مسألة الفلسفة الكبرى . لم يجد «ديكارت» حلاً لهذه المسألة في أساطين عصره . فلك الشكُّ مشاعره . وعاد لا يثق بمعارفه ، ولا ببيّنات حواسّهِ . فعزم على نزعها كلها من عقله ، بحيث يصبح عقله : صفحة بيضاء : ثم يشرع في بناء صرح المعرفة فيه من جديد ، بفحص مقدمات كل نتيجة فحصاً مدققاً . فلا يقبل إلاَّ ما تبرهن على صحته برهاناً لا تردُّد فيه

﴿ روجرس ﴾ قال : سررت بالرياضة لان بيناتها راهنة على اني لم اكن قد رأيت لها نفعاً . فظننت ان كل ما فيها من فائدة انما هو استخدامها في فنون الميكانيكا . وعجبت من انه لم يبنَ على اسسها المتين بناء شاهق . كما دهشت لصروح باذخة قد شيدت على الرمال . انني اشدُّ احتراماً للاهوت من أي احد للفوز بدخول السماء . لكنني علمت ان أبوابها مفتوحة للحكيم وللجاهل سواسية . وان قضاياها فوق مستوى العقل الانساني . لذلك لم اجنح الى اخضاع قضايا اللاهوت السامية لفحص العقل . ولو ان ذلك متاح لنا لتعذَّر اتمامه دون العون الالهي . وليس لي ما أقوله في الفلسفة غير ما يلي : لقد ثقفها اكبر العقول في كل العصور . ومع ذلك فليس فيها ما لا نزاع فيه . فهي غير حرة من دواعي الشك . ولم احلم بفوز يفوق ما حصل بمساعي الآخرين . وتفكرت في تضارب الآراء مع وحدة الحقيقة فلت الى الريب في الآراء المتضاربة كافّة . وتراءى لي ان لا علم يقين يُبنى على اسّ واهن ، كقواعد التنجيم او عمليات الكيمياء القديمة ، وادعاءات المخرقين . فرأيت ان أقطع علاقتي باساتذتي . وان لا أختار شيئاً من المعارف ، الاّ ما حصلته بذاتي لذاتي . فقضيت زهرة شبابي في الاسفار ، اتعهد المحاكم ، واشهد الجيوش ، واختلط بالناس في مختلف الاحوال ، اجمع الاختبارات ، محققاً في كل ما أراه ، مفكراً في الحوادث ، لاستخراج ما يمكن استخراجه من الفوائد . لانه ما دام ديدني اقتفاء آثار الغير ؛ وانتهاج مناهجهم ، ندر ان استخرج ما

اذخره في عقلي . ورأيت ان وجوه الاختلاف وافرة هنا كما هي في المذاهب الفلسفية . ورأيت الناس يتهافتون على سخافات كثيرة . وحررت نفسي من خطيئات كثيرة كانت تحجب النور عن بصيرتي ، وتصرفني عن سماع وحي النفس . وبعد ما قضيت سنين في درس العالم ، جاهداً في جمع الاختبارات ، وطنت العزيمة ، ذات يوم ، على درس باطني . وان اقف كل قوى عقلي على اختيار المنهج الذي اتبعه . فصادفت هذه الخطة فوزاً هو اعظم مما لو لم اهجر كتبي وبلدي . وكان ذلك في مدينة نوربرغ ، في خلال الحرب الناشبة يومذاك . وانا عائد من حفلة تتويج الامبراطور الى المعسكر . فدفعني البرد القارس الى بيت منعزل قصد التدفئة . لم يكن في ذلك البيت من اعاشره ، ولا ما يثير الاهواء التي تتنازع تفكيري . فقضيت النهار بطوله في غرفة يدفئها الموقد . وكانت لي فرصة سانحة لمحادثة النفس

واول خاطر خطر لي هو : ان العمل الذي يشترك فيهِ الكثيرون اقلُّ اتقاناً من عمل يتممهُ الفرد الواحد من الناس : والكتب العلمية ثمرة جهود الكثيرين ، وفيها حقائق غير قاطعة ، ونحن اطفال قبل ان نكون رجالاً ، فنستند الى الكتب والمعلمين . فافكارنا غير حرة واحكامنا غير ذاتية . بخلاف ما لو اشتغلنا بالتفكير في نعومة الاظفار . فلم ارَ خيراً من اطراح كل ما عندي من المعلومات ، ونزع كل حكم من عقلي . وان لا ابني عليهِ تفكيراً . فسننت لنفسي قوانين . وهي

﴿ روجرس وترنر ﴾ القانون الاول : ان لا اقبل شيئاً كحقيقة الاّ اذا وضح انهُ كذلك

الثاني : ان اقسم كل معضلة الى اقصى ما يمكن من الاقسام

الثالث : ان ابدأ بالاسهل والاقرب الى الفهم ، واتقدم منهُ الى الاصعب والابعد

الرابع : ان اضبط الاحصاء حذراً من ضياع شيء من الجزئيات التي لديَّ . معارفنا مشوَّشة مبهمة ، لانا نقبل اشياء كثيرة في وقت واحد . والمكثار غير مجيد ولا مستوضح . لان عقله مشوش مضطرب . فلنختر الاوليَّات التي لا تفتقر الى البرهان ، وهي التصورات الغريزية . لانها ليست نتيجة الاختبار ، وهي اساس كل حكم ، وفيها جرثومة الحقيقة التي غرستها الطبيعة في نفوسنا . يضاف اليها الاستدلال ، وهو فعل بهِ نتوصَّل الى نتائج صحيحة . فمن مقدمتين لنا نتيجة صحيحة . فالرياضة اصح العلوم البشرية . وفيها اوليات يبنى عليها

﴿ روجرس ﴾ فشرع « ديكارت » يفكر بذاتهِ لذاتهِ ، وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، بانياً على الرياضة . فجاء منهجهُ بما اراده منهُ من الوضوح والبيان ، مع متانة البناء ، وسديد الحجة . فطبَّق في تفكيره قوانين الرياضة ، فكان عمله منتجاً . ولما كانت كل فروع العلم مستمدة من الفلسفة الاولى رمى الى تطبيق منهجهِ على تلك الفروع

الوجود والفكر

﴿ ترنر ﴾ وانتهى الامر بتأليف كتاب « المنهج » سنة ١٦٣٧ وكتاب « تأملات » سنة

١٦٤١ محاولاً بهما اكتشاف الحقيقة التي لا تدحر ، التي ندركها بالبديهة الجليّة والحقيقة الانسانية التي بنى عليها كل شيء هي «الثقة بالادراك»

﴿روجرس﴾. قال: — اما كل ما تعلمتهُ فمن الحواس وبالحواس. على اني وجدت الحواس خادعة احياناً: ومن الفطنة عدم الثقة بالخادع. على ان الحواس، وان خدعتنا في ما لا يحصره حكمها، فهي الدليل الامين في كثير من الحوادث التي لا يدانيها ريب. مثلاً: انا الآن امام الموقد، لابساً ردائي، واقبض على هذه الورقة بيدي. فكيف يمكنني ان انكر هاتين اليدين؟ اللهمَّ الاَّ اذا كنت كاحد المجانين الذين ليس لاوهامهم وزن. او اني ارى ما اراه حالماً. وان ما انا فيهِ ليس حقيقة بل هو ظل. وان ليست يداي، ولا عيناي ولا رأسي هي في النسبة التي اعرفها. ولكن لا ندحة عن التسليم بان اشياء الحلم ظلال حقائق اليقظة. وان ما نراه في حلمنا هو صورة ما يحدث لنا في يقظتنا. فهذه الاشياء، من عيون وايدٍ ليست تخيلية، بل كائنة حقيقة. على الاقل ان العنصر الذي منهُ تكونت هو حقيقي، هيولى ذو امتداد. فالاجسام ذوات ابعاد وحجوم وعدد. فكيف ارتاب في ان ٢ + ٣ = ٥؟

مرّ بي زمن طويل اومن بوجود الله، وانهُ قادر على كل شيء، وانهُ خلقني. فكيف اتصوّر انهُ لم يخلق السموات والارض، والاجسام ذات الامتداد، والاشكال والصفات! اني اشعر بوجود هذه الاشياء، فكيف اعرف اني لست مخدوعاً في شعوري؟ ان الله لا يخدعني، ولكن قد يكون الخادع شيئاً آخر شرير، فلنفرض (والفرض جائز) ان السماء والارض والهواء والاشكال والالوان والاصوات، وكل الاشياء الخارجية، ليست الاَّ خداعاً وتصورات فارغة، وان ليس لي يدان، ولا رجلان، ولا عينان ولا ولا ولا. واني لا اتمكن من معرفة شيء فالنتيجة اللازمة عن ذلك هي التوقف عن كل حكم. فاقول لذاتي: ان كل ما اراه واسمعهُ واذوقه والمسه واشمّه وهمٌ في وهم. وان لاشيء موجود. وان ذاكرتي مشحونة بالاوهام. وان لا حواسّ لي. وان الجسم والحركة والصوت وكل الظاهرات، هي خيالات ابتدعها عقلي. فماذا بقي مما هو حقيقة؟ لم يبقَ الاَّ الحكم: ان لا شيء موجود

افلست انا شيئاً؟ ولكنني انكرت ان لي جسماً او اعضاء. وان لا سماء ولا ارض ولا هواء الخ. فهل انا غير موجود؟ كلاَّ لان لي فكراً بهِ حكمت ان لا شيء موجود: فالحاكم موجود. واذا زال هو زلت انا. فانا ما يفكر. اي اني عقل فاهم او فكر. فانا موجود، ولكن ما انا؟ قلت اني شيء يفكر، فما بعد ذلك؟ اني استفزُّ خيالي لارى هل انا اكثر من ذلك. لست انا هذه المجموعة من الاعضاء التي ادعوها جسدي. ولست بخاراً ينتشر في جو هذه الغرفة. ولست ريحاً، ولا شيئاً آخر من كل ما اقدر ان اتصورهُ. مع ذلك لا ازال اوقن اني شيء. فما هو ذلك الشيء الذي يفكر؟ هو شيء يرتاب ويفهم ويدرك ويجزم ويشعر.

فليس هو شيئاً زهيداً وفيهِ كل هذه الصفات ؟ ألست انا الذي ارتاب الآن بوجود كل شيء ؟ اولست انا الذي فهم وجزم بوجودهِ ونفى كل ما سواه ؟ انا الذي لا يريد ان ينخدع . انا الذي يتصور اشياء كثيرة ، ويشعر بأشياء كثيرة . افليس يقيناً أني موجود ولو اني في حلم ؟ ثم اني انا الكائن الذي يشعر ، والذي يؤكد وجود بعض الاشياء بواسطة أعضاء جسده . فأرى النور ، وأسمع الصوت ، وأشم الرائحة ، وألمس المادة . ولكني قلت ان هذه الاشياء باطلة ، واني نائم . فلنسلم بذلك . فأقول ، على الاقل ، انهُ يخيَّل اليَّ اني ارى نوراً وأسمع صوتاً وألمس مادة وأشم رائحة ، وأدعو ما فيَّ شعوراً ، روحيًّا . وليس ذلك الاَّ فكراً . من ثمَّ بدأت اعرف ما انا

فأساس فلسفة ديكارت ، التي توفر له اثبات وجود الذات وجوداً لا ريب فيهِ ، هو الشعور . يتجلى ذلك الشعور حتى في فعل الشك . والذات هي التي تشعر . ولكن ما هي؟ قال تعوَّدت ان احسب ذاتي مؤلفة من نفس وجسد . فالجسد هو هذه الكتلة المشكلة بالشكل الخاص . ولكن لا شيء من اوصاف الجسد يصدق على النفس ، التي هي بالضرورة فكرية . فهل من صفة للنفس ؟ نعم ، وهي الفكر . فما دمت افكر فأنا موجود Cogito Ergo Sum

ويلي ذلك كلام ضافٍ في «الله» و «المادة» و «العقل» و «علاقة المادة بالعقل والعواطف» نعرج عنها الى نظرية اردمن في ديكارت . واردمن اهم مؤرخي الفلسفة الذين اعتمدتهم في تأليفي

﴿ اردمن ﴾ : وقعت تعاليم « مونتان » الارتيابية بفرنسا كالبزور . وكانت ثمرتها في النفوس المتدينة صفة ارتياب (كرسين) ، ذات ميل الى الجزم في صحة قضايا اللاهوت . وانتشر الارتياب ، فحمل ذلك «مرسين» على الندب والرثاء . فاذا فرضنا ان «ديكارت» اختبر وطأة ارتياب كهذا ، فحمله ذلك على طلاب المعرفة ، كانت محاولته التخلص من هذا الارتياب امراً معقولاً

ففي كتاب « المنهج » وكتاب « تأملات » وكتاب « المبادىء » سلسلة من التعاليل باللغة المألوفة . كقوله (الحس خادع والعقل كذلك) فلا نقدر ان نستسلم للعقل لانهُ عرضة للخطأ . فانظر كيف يتطرق الشك الى اليقين . قال « سانشيه » . كلما زدت تفكيراً زدت شكًّا . فاجابهُ « ديكارت » . كلما زدت تفكيراً زدت يقيناً بأني موجود . فالادراك هو الذي يشك . فالشك دليل على وجود الشاك (المسند اليه) دلالة الاثر على المؤثر ، دلالة الفعل على الفاعل

ليس في طبيعيات «ديكارت» تصور الغاية . لان ذلك الفكر (الغائي) غريب عن الرياضة وقد اشار « ارسطوطاليس » الى انتفائه من تعليم فيثاغورس (لان تفكير « فيثاغورس » كان رياضيًّا كتفكير « ديكارت ») ولا ينكر « ديكارت » ان الله يعرف غايات العالم الطبيعي . لكنهُ يرى ان رغبتنا في معرفتها وقاحة . فقولنا — الانسان غاية الكون — كبرياء وصلف منا . فكل ما يساور ادراك الامتداد يلزم الاجساد طبعاً . وما كان ضد ذلك ينكر . فليس في العالم

الطبيعي جواهر ولا حدود . فتضم فسحات الوجود المتحرك الى ادراك الامتداد . ولكي تفهم هذه الامكانات يلزم تدخل قوة اخرى، هي الكائن، اساس اقصى امتداد — هي او هو الله

يرد ديكارت كل حوادث المادة الى الحركة . ففلسفة الطبيعة كلها ميكانيكا ، وهي بالنتيجة رياضية . ولما كان الله علة كل حركة فهو لا متحرك (هذه فكرة ارسطوطاليس) فالاثر من طبع العلة . ومجموع نتيجة النواميس هو : —

١ : ان مجموع الحركة واحد بذاته

٢ : يظل كل جسم في الحالة التي هو فيها من حركة او سكون

٣ : يظل كل متحرك سائراً في خط مستقيم ما لم يعترضه عامل خارجي

٤ : اذا صدم جسم متحرك جسماً آخر ساكناً نقل اليه الحركة

تدعى المادة عنصر النار الاول (نظرية هيرقليطس) ومنها تكونت الشمس والنجوم الثوابت . وباقي الهيولى ماء وتراب ، بحسب سهولة حركتها او صعوبتها ، وبينهما الهواء الكروي . ومنه تكونت السماء (ربما اراد به الجو) فالنار ظاهرة تموُّج الذرات . وذاك التموُّج علة تكوّن الكون . اما الحرارة فمعلولة حركة العنصر الاول . ويؤثر تنوُّع الحرارة فتحوّل بعض الذرات عن الخط المستقيم . واذا انسحب جسم (من النار) تواردت الاجسام الاخر الى حيزه . فنتج عن ذلك حركة دورية . بهذا يعلل سقوط الاجسام على سطح الارض ودوران السيارات حول الشمس (يقارب ذلك رأي «اينشتين» في تحدُّب الفضاء)

الدم روح الحيوان ، وفيه الحياة . وقد رحب « ديكارت» باكتشاف «هارفي» للدورة الدموية . لكنهُ خالفهُ في ان القلب علة النبض . ومركز الانفعال الغدة الصنوبرية في الدماغ . وهي منشأ كل حركات الجسم . تماثل فلسفة العقل فلسفة الجسم . الله عقل كبير . والعقل اله صغير . والتفكير من خصائص العقل كالنور في المصباح . كل اعمال العقل تصورات . وهي انواع . فمنها تصورات مطابقة ، ومنها تصورات غير مطابقة ، مخالفة ، ناقصة ، وهكذا

من هنا التصورات الغريزية — البديهية

الله كامل الارادة . فلا يقرر ما كان ، بل يكون ما قرر . ويكون الشيء صالحاً لان الله ارادهُ . ويكون شرراً لان الله لا يريده . «فديكارت» «صكوتي» (اي من رأي « دُنْ صكوت» من كبار المدرسيين) في الله ، توماوي (اي من رأي «القديس توما الاكويني») في الانسان

تقود فلسفة «ديكارت» الى الثنائية (وجود اصلين للكون هما المادة والروح) يستحيل التفاعل بينهما . ولكن تصور وجود الله وضع الحد لهذه الثنائية . فزال الارتياب ، وصار ممكناً ان يعلن العالم الخارجي للعقل . ونقطة فلسفة «ديكارت» : الذات المرتابة والالوهية وبدون الالوهية يتعذر التوفيق بين المادة والعقل

نضال بين نزعتين

محور تفكير العلماء اليوم

يقول هولبروك جاكسون الكاتب الاجتماعي الانكليزي في بحث له يتناول الحياة في العصر الحاضر « ان المجتمع الحديث عبارة عن عقدة من الآراء المتضاربة في الاحساس والتفكير ... واننا قلما نجد في هذا العصر ، مثل ذلك الصفاء أو الصحو او الثقة التي نعرفها عن الحياة الاجتماعية إبان المدنية الاغريقية مثلاً ، إذ أن الافكار — في ذلك الحين — كانت على اختلافها متصلة بالحياة اتصالاً وثيقاً مباشراً ، بينما نرى الآن ، أن معظم النظريات الاجتماعية تكاد تتناقض في تطبيقها — مع الحياة العملية في هذا العصر ... »

وقد تناول هذا الكاتب في بحثه معنى الحرية التي يكافح الناس من أجلها منذ بدء الخليقة إلى اليوم ، فهذه الكلمة التي من أجلها اشتعلت الثورات ودكت عروش وقلبت حكومات وتغيرت معالم دول ، وتفرغ العلماء والكتاب في مختلف العصور ، لوضع أسسها وتثبيت دعائمها ، لا تزال بعيدة عن متناول الانسان بمعناها الأسمى حتى عند اكثر الامم رقيًا

وهذا الكاتب لا ينادي بثورة سياسية او اجتماعية فقد جرب الناس كل انواع الثورات ، ولكن الثورة التي ينادي بها هولبروك جاكسون ، انما هي ثورة داخلية في نفس الانسان ، على مثال المبدإ الذي عناه ابسن في كافة كتاباته تقريباً . فلقد كان ابسن يدعو إلى « ثورة في صميم النفس الانسانية » وهو — أي هولبروك جاكسون — يفسر هذه الثورة بجملة خالدة للكاتب الامريكي مارك توين « لا تتنبأ او تقبل شيئاً الاّ اذا عرفتهُ واقتنعت بهِ »

فنحن على الرغم مما بلغنا من الرقي في الناحية الصناعية والظواهر الاجتماعية لا نزال ارقاء لبعض العادات والتقاليد الموروثة ، بينما طغت المادية على أنبل عواطفنا . فاما العادات والتقاليد — ويجب الاّ نقرن تلك العادات او التقاليد بالدين فان هذا لون من التخبط لا معنى له — فيمتد تأثيرها الى غل التفكير الصريح . فقد يحدث احياناً أن يخفي انسان بعض ما يشكو منهُ لمجرد الوهم او الانتقاد او الخجل ، ومن هذا المثل نستطيع أن نقرب الى الفهم معنى كلمة الحرية التي يدعو اليها العلماء في العصر الحاضر ، فهم لا ينادون بثورات يروح ضحيتها الوف من البشر لصالح طائفة صغيرة من الناس ، فان تلك الثورات على الرغم من بريقها ، وما فيها من اغراء وتحريض ، لا تسعد كل انسان ولا تمتعه بحريته السامية التي يصبو اليها ، ولكنهم يدعون الى تحرير النفس ، وتحقيق الاستقلال والحرية الفردية .

يقول باسكال « ليس من الخير ان ننال الحرية كلها ، او نحصل على كل ما نشتهي » وفي

هذا القول تحديد لمعنى الحرية التي اسبقنا التحدث عنها . فان الحرية الشخصية للانسان اساس النظام الاجتماعي ، والحرية الطائشة هي الفوضى . وليس أدلّ على ذلك من قول تشسترتون في الثورات ، فهو يقول بان الثورة الروسية — بشكلها — جاءت طائشة ، لان اكثر رجالها اغبياء ، ولان تلك الثورة جاءت متأخرة عن عهدها الصحيح اذ كان يجب ان تشب قبل ذلك بمائة عام ، ولو ان الثورة جاءت في عهدها لما حلت كل هذه الاخطاء التي توصم بها اليوم، والتي أفسدت معناها الاجتماعي. وفي الواقع ان رجال الثورة دائماً لا ينفعون اممهم من الناحية الاجتماعية ، وهذا ما رأيناه في فرنسا : إبان ثورتها العظيمة، فان روبسبيير ودانتون ومارا ، وغيرهم من اعلام الثورة ، لم يفيدوا فرنسا فائدة صحيحة ، بل كان عملهم مؤقتاً شاذاً ؛ ولقد توسلوا الى تحقيق معاني الثورة بالتهديد والبطش وسفك الدماء بدون حساب وان كان هناك ما يسوّغ بعض أعمالهم الدموية . الاّ ان عهدهم لم يطل ، وأكل بعضهم بعضاً ، وذلك لانهم تمادوا في فهم معنى الحرية ، حتى بلغت زعامتهم حد الطغيان والغرور والفساد والطيش وهذا ما نراه في روسيا . فان رجال السوفيت اليوم يعملون بكل قواهم للتنكيل بالأديان وتشتيت رجال العهد القديم ، وقلب النظم الاجتماعية كلها رأساً على عقب. ولا تزال روسيا — بتقرير اكثر الكتّاب والعلماء الذين عالجوا حياتها الاجتماعية مثل ولز وشو وبرتراند رسل ودورا رسل وغيرهم، تعاني اضطراباً نفسياً واجتماعياً، هو نتيجة ما يلقيه رجال الثورة الباقون من الرعب والبطش والمداهنة والخطب المشبعة بالالفاظ النارية والجماهير منقادة اليهم ، وفقاً لوعودهم . ولان زعماءهم يلهبونهم بذكريات الماضي ، ويغذون زعامتهم بتلك الذكريات . ولهذا فان الجيل القادم في روسيا ، كما رأينا في فرنسا من قبل ، لا يمكن أن يحكمه متطرفون في الرأي والنزعات السياسية والدينية من طراز ستالين ومجلس ادارة الحزب الشيوعي الحاضر في روسيا ، كما هو الحال اليوم. إذ أن عهد «الانتقام الاكبر» لم ينته بعد، وسيحل بعده رجال يوفقون بين معنى الحرية والنظم الطبيعية — كما نرى في فرنسا في هذا العصر

***

ومن أهم الظواهر التي تبدو في هذا العصر أن اكثر العلماء أهملوا إلى حد ما مباحثهم العلمية الخالصة واتجهوا الى المباحث الاجتماعية، وقد ذكر ذلك البروفسور هالدين فقال ان اكثر المشتغلين بالمسائل العلمية ، يعنون عناية واضحة بالمسائل الاجتماعية . والسبب في ذلك لا يعزى الى الازمة المالية فحسب ولكنه يعزى الى الازمة الاجتماعية . وما نشأ عنها من الظواهر المختلفة عند الطبقات . ولقد عالج الدكتور جون ميلر وهو من كبار العلماء في امريكا هذه الناحية في بحث مستفيض منذ عام، فقال ان الشكوى السائدة في هذا العصر أساسها اننا لم نعن برقينا الصناعي والاقتصادي من ناحيته الاجتماعية. فبينما نرى اننا قد ارتقينا في أحوالنا الصناعية

بصنع السيارات والطيارات واللاسلكي وغيرها ، نجد الى جانب ذلك جيوش العاطلين الذين يتكاثرون يوماً بعد يوم كنتيجة لاخطاء اقتصادية خطيرة ،وسيطرة الآلات،وضعف التعاون بين الطبقات . والسبب في هذا يرجع إلى ان روح الطمع غزت النفوس الفجة . فتأثرت بذلك طبقات العمال في البيئات الصناعية . واذا أردنا ان نعرف فائدة تبادل المنفعة والتعاون الصناعي والاجتماعي ، ذكرنا — مثلاً — كيف يعنى فورد بذلك في مصانعه ، فهذا الرجل المالي الكبير يقرر النظم الاجتماعية والاقتصادية العادلة جنباً الى جنب ، ولذلك فان من النادر أن يجد الانسان في أعمال ذلك الرجل وهي أعمال واسعة جداً شيئاً من الخطإ أو الارتباك ومن ناحية أخرى فان عماله لم يلجأوا الى وسائل سلبية لتحقيق رغباتهم (مع ملاحظة ان الحركة الاخيرة التي قامت في مصانعه كانت نتيجة شبه مؤامرة من بعض مناهضيه ومنافسيه) إذ أن التعاون هو أساس العمل بين الطرفين.ولهذا فاننا نرى ان العامل يستطيع أن ينال حقوقه وأن يرضى بها وأن يستمتع بحريته كاملة دون أن يشعر بضغط أو حيف ودون ان يلجأ الى الاعتصاب او غيره من الوسائل السلبية

ولقد ذكر « صموئيل سشهوزن » في بحث له عنوانه (هذا العصر المريض) أن اكثر الامراض الاجتماعية في العصر الحديث ناشئة عن الاهمال والجشع والتهور وعدم العناية والواقع يؤيد ذلك . فاننا نعالج في كثير من الاحيان المسائل الاقتصادية ببعض المبادىء السياسية ، وهذا خطأ جوهري . وسبب هذا هو الافتقار الى التفاهم ورغبة فريق في الطغيان على فريق آخر . وطمع الفريق الاخير — الى حد الهوس — في الانتقام

لهذا نرى العلماء والكتّاب ،على اختلافهم،نرى برنارد شو(وخاصة في كتابه الاخير المسمى مخاطرات الفتاة الزنجية وقد ملأه بالتهكم من المدنية وغيرها) كما نرى أيضاً ولز وأينشتين والسر آرثر طمسن وغيرهم يعنون عناية صادقة في اصلاح بعض الاخطاء السائدة،وتبسيط النظريات الاجتماعية حتى تتلاءم مع روح العصر ، وحتى تنجو البشرية قليلاً من طغيان المادية وما تهدد به مدنيتنا الحديثة.وهم يرون ان من الضروري ان تتغلب المبادىء الروحية في كثير من الاحيان على المبادىء المادية تخلصاً من الازمات والضيق والفساد الاجتماعي الحاضر

وهذه النزعة الروحية الاخيرة ، اقرب الى التصوّف منها الى المادية ، وهي نزعة اسيوية بلا شك ،او بتعبير ادق نزعة سلافية صميمة والفكر السلافي الصميم يناقض الفكر الاوربي في كثير من نزعاته . ولا يرضى ان تنساق الانسانية في طريق الحيوانية والانانية والطمع والسيطرة المطلقة ، وزعيم هذا المبدأ الروحي في الوقت الحاضر هو الفيلسوف الروسي ليون شستوف وهناك غيره من زعماء هذا المذهب لايقلون عنه منزلة ورأياً في سبيل هذه الدعوة

محمود عزت موسى

بابُ شؤونِ المرأة
وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

دور المراهقة

وتبعة الوالدين فيه

محاضرة للدكتور شخاشيري

يقولون ليس من خلاف في تقدير خطورة دور المراهقة في الانسان، والواقع هو ما يقولون. فقد اجمع العلماء على خطورته واجلال ما يقع فيه من تطورات وانقلابات . فهو في الحياة الانسانية كفصل الربيع في الحياة النباتية سواء بسواء . فالاشجار تورق في الربيع وتزهو فخورة بما تجنيه من اطايب الثمار . والرياض تزدان بألوان مختلفة من الازهار . والطيور تجدد اكنانها وتنتشر في الفضاء مغرّدة طروبة. وكذلك الانسان يزداد في هذا الدور انتاجاً ونشاطاً. ولعل ايامه من اعظم الايام نشوةً وطرباً وأكثرها مرحاً ولهواً واخفها ظلاً وألذّها حلماً . وهو كذلك من اخطر ادوار الانسان واعظمها قدراً . فهو يسبق ميلاده الحادي والعشرين ببضع سنوات فيبتدىء في نحو السنة الحادية عشرة وينتهي في اواخر السادسة او السابعة عشرة . وفي ثناياه يظهر على المراهق ، فتىً كان او فتاة ، تغيرات خلقية وصفات نفسية متحدرة اليه بالوراثة من الجدود والآباء ، او مما يكون قد اكتسبه في عالم الاجنة او في زمن الطفولة من اخلاق وعادات . فضلاً عن عوامل البيئة التي يعيش فيها ويحاط بها — فان تأثيرها في تكوين شخصيته يبلغ اشده في خلاله

ويشعر المراهق بحرارة ميوله الجنسية تسري في عروقه ويتعرّف الفارق الفاصل بين ما كان هو فيه وصار اليه ويسمع انشودة الحب لمرة الاولى تروى في اعماق نفسه فتطرب لدويها جوارحه ويخفق لصداها قلبه

وتراه يخرج على حياده البريء الذي لزمهُ مدة وجوده في نعيم الطفولة الطاهر الى هذا

العالم الزاخر بالحسنات والسيئات . ويرى النور ويرى الجمال يتمشيان امام باصرتيه في اليقظة كان او في المنام . نراه ، وهو العزيز علينا ، نفديه بأرواحنا ومهجنا ، واقفاً على شاطىء هذا البحر الخضم بأمواجه المضطربة وأهوائه العاصفة وزوابعهِ الجارفة واعاصيره القاتلة يهم ان ان يلقي بنفسه المتوثبة في عبابه — وليس له من ذلك مناص ولا له من خوضه بد

فهل ندعه للامواج تتقاذفه والاهواء تعبث بآماله والاعاصير تتحكم في مصيره ؟ هل نقف منهُ موقف المتفرج على الغريق وقد اشرف على الهلاك ولا نحرك يداً لاسعافه وفي استطاعتنا انقاذه ؟ هل نظل حريصين على الصمت متمسكين بالتقاليد البالية فلا نتحدث اليه عن مفاجئات هذا الدور الذي يجتازه — او البحر الذي يخوض عبابه على متن سفينة آماله وأحلامه ؟ ام نأخذ بيده ونظهر له ما قد يصادفه من عثرات وينتظره من عراقيل

ولا ينقضي هذا الدور في حوادثه ومؤثراته عند هذا الحد بل يمتد نفوذه كما تعلمون الى ابناء الغد وبعد الغد

ولم يقع اختياري عليه والتحدث اليكم عنهُ لغرابة حوادثه عن اذهانكم وابتعاد صوره عن مدى ادراككم — فاعتقادي ان ما من والد ولا والدة او بالغ وبالغة الاَّ ويحفظ له ذكريات عميقة وصوراً مؤثرة لا يستطيع محاضركم هذا المساء ان يجلوها امامكم او يأتي بجديد عليها او غريب منها ولو ظلَّ متكلماً فيها الى الصباح

ولذلك سوف اقتصد في وصف التغيرات التي تحدث في الاعضاء الجنسية ووظائفها او ما ينم على تلك الوظائف من شعور ويستدل منها على ميول . فما التبسط فيها الاَّ عبثاً بأوقاتكم اذا لم يكن فيهِ مضايقة او تحرج . ليس لمثل هذا كابدتم مشقة الحضور الى هذا المكان وسماع اقوال انتم في غنى عن سماعها

التغيرات المادية والنفسية

اما تلك التغيرات التي تبدو على الفتى ولا يخطئها النظر العادي كالنمو السريع الذي يظهر على الجسم جملةً وتفصيلاً . فلا اعرض لها بقليل ولا كثير . واي فائدة من تكرار ما هو معلوم ومنظور ، فصوته يخشن مثلاً ، وشعره ينبت في الوجه وفي اماكن اخرى غير الوجه من الجسم . وصدره يتسع وكتفاه ترتفعان وجلده يفقد نعومته وتزداد قوته البدنية الى غير ذلك من الاوصاف — فهل في ذكر هذه المظاهر المحسوسة طرافة فاجعل لها من هذا المقال مقاماً ؟

وكذلك التغيرات النفسية التي يحس بها لها صورة عامة تقاس بها ويستدل عليها منها وكان في الامكان الاعراض عنها ايضاً . كشعوره بغرابة موقفه من الفتاة التي كانت الى الامس تأتي اليه في مرح الصبا وجذالة الطفولة وتخلو بهِ في الحديقة وفي اي مكان يتفق ان يكون فيهِ . وتتحدث اليهِ ويتحدث اليها من غير كلفة ويقضيان الفترات في اللهو والعبث . وقد

يتنافران لسبب تافه ولكن سرعان ما يعودان الى ما كانا عليهِ من الألفة واللعب . فاذا بها اليوم تبدلت بأخرى واذا بهِ يراها نافرة منه بعيدة عنهُ مع شدة رغبته فيها وميله اليها فهو يريدها ويشتد في طلب الاجتماع بها والتحدث اليها — ولكن اذا رآها مقبلة عرته رعشة ومنعه الحياء من النظر اليها وعقد لسانه عن صوغ كلمة يعبر بها عن شعوره نحوها

وتراه وقد تغير بسلوكه وتصرفه مع اخوته ورفاقه واصبح شديد الاهتمام بمظهره كتلميع شعره وتزيين وجهه حريصاً على الاناقة في لبسه وقد كان لا يبالي بمثل هذه المظاهر ولا يعيرها اي اهتمام فما الذي حدث له حتى تخلق بصفاتٍ غير التي عرفناه بها ؟

انهُ ولا ريب قد شعر بعاطفة غريبة نحو تلك الفتاة لم يكن يشعر بها من قبل وبحث عن السبب فلم يهتد اليهِ — وقام في ذهنهِ ميل الى معرفة ما لا يعرفهُ عن هذا الشعور الغريب . واخذ يقلب صفحات ايامه الماضية ويقيسها على ايامه الحاضرة فيجد هوة سحيقة بين العهدين وتناقضاً كبيراً بين الشعورين . فيرتبك ويظهر عليهِ هذا الارتباك في حديثهِ ان تحدث ؟ وفي دراستهِ إن درس ، وفي لعبه ان لعب . ويقع في حيرة مما وصل اليه بتفكيرهِ ولا يدري كيف يفسر هذا الانقلاب في شعوره نحوها وميوله اليها . ومع هذا الغموض تجدهُ يرتاح الى التفكير بها والتنقيب في مخيلته عن آثارها — وقد يرى صورتها ماثلة امامه في كل مشهد يقع نظره عليهِ — سواء اكان في خلواته او في اجتماعاته

ولا مغالاة في وصف ما يعانيه من الآلام ويساوره من هموم واحزانٍ بسببها او ينبعث فيهِ من صفاتٍ وخلالٍ بتأثيرها . فقد يقتحم المهالك بوحيها ويطلب المعالي لاجلها وتصبح شغله الشاغل الذي يهنأ بهِ وسعادته التي ينشدها ويطمع بها . ومنشأ هذا كما لا يخفى الميل الغريزي فيهِ

الميل الغريزي

وهذا الميل الغريزي والشعور النفساني الذي تفتحت مياسمه وتوهجت افاويقه فيهِ . انما هو الحب الذي لولاه لما نشأت العائلة ولما تكونت الجماعة ولما نبض قلب الانسان بالعواطف — ولا كان له شعورٌ بالحياة ولا تقدير لما فيها من مناظر رائعة ومشاهد جميلة فتانة . فهو الجذوة او الشرارة لهذا الكون الواسع — ولولاه ما كان له أي أثر ولما كان للجمال ما له من روعة وسلطان

وسعادة الفرد — والاسرة — والجماعة — والشعوب لا تتوفر الاَّ بمقدار ما يتوثق بينها من روابط الحب . وما الميول الجنسية الاَّ رسائل تعبر عنهُ ودعائم توطد اركانه

وطرق التعبير عن هذه الميول تتفاوت بين الجماعات تفاوتاً كبيراً . فنهم من يتخذ الحب وسيلة للهو وقضاء الشهوة فقط — كما يتخذ الجائع الطعام وسيلة لاشباع جوعه . وآخرون يتخذونه لغرض ابعد من قضاء الشهوة وتغذية الجسم . فهم يجدون فيه وسيلة شريفة لتأسيس

العائلة وتكوين الجماعة وربط اواصر المودة بين الافراد والجماعات . وحفظ كيان الجنس سليماً من الآفات . فالاول حب بهيمي والثاني حب إنساني . ولذلك نشاهد في أنصار الحب الثاني نفوراً بيناً في أحاديثهم عن العلاقات الجنسية وتخوفاً من عاقبة الافاضة فيها الا بمقدار يسير . وسبب تخوفهم ناشىء عن اساءة فهم هذه الميول وطرق التعبير عنها الى حد الابتذال والاسفاف

التغيرات التي نلاحظها في الفتاة

اما التغيرات النفسية التي نلاحظها في الفتاة عند بلوغها هذه السن فهي قريبة الشبه بالتغيرات التي احصيناها على الفتى . فقد نلاحظ عليها ضعفاً في الذاكرة فلو طلبت منها ان تقص عليك حادثة رأتها امس لوجدتها تهرب من ذلك او تذكر شيئاً قليلاً عنها . وينسب البعض هذا الضعف الى اسباب خلقية تبتدىء معها في بداءة هذا الدور وتزول بزواله . ولكن يزداد انتباهها فتنظر الى الاشياء التي حولها بعين الباحث المدقق وتزداد قواها العاقلة فتظهر رغبة صادقة في تعليل المسائل تعليلاً صحيحاً . وتكثر من الاسئلة . ويمتد نطاق خيالها وبعد نظرها الى ابعد من حوادث يومها . اي أنها تبحث عن مصيرها وهي طفلة وقبل ان تتم دراستها وفي أي دور تقيم ومع من تعيش ؟ ويحلو لها ان تتخيل تلك الدار على شيء من الفخامة وانها مفروشة بأثاث وأوانٍ نفيسة ــ وتتصور حجرة الاستقبال انيقة في مظهرها ــ وحجرة المائدة قريبة من المطبخ قليلة الاثاث ليسهل تنظيفها . وانها سوف تضع في وسط المائدة زهرية وتعلق على جدرانها رسوم بعض المناظر الطبيعية . وان يكون المطبخ طلق الهواء والحمام كالمرآة في نظافته . وأما حجرة النوم فتحب ان تكون واسعة الجوانب يدخل اليها نور الشمس في الصباح وبعض الظهر وفرشها قليل ولكنه فخم . وربما يذهب بها الخيال الى ان ترى سريراً صغيراً بالقرب من سريرها تنبعث منهُ ألحان تنعش نفسها . ويخفق لها قلبها . تتخيل الفتاة كل هذا واكثر منه قبل ان تعرف الشخص الذي يكون شريك حياتها في تلك الدار . ولكنها ترى صورته أمام عينيها كأنها مطبوعة على حدقتيها ويمتد بها الخيال الى انه من أحسن الشبان ظرفاً وأخفهم ظلاً وأطربهم حديثاً وأجملهم قواماً واكثرهم اناقة قد تراه في كل مشهد يقع أمامها . وكل حادثة لطيفة تحدث لها مع رفيقاتها ومع اخوتها وفي البيت او في المدرسة . انها تتخيل صورته في كل مكان تذهب اليه . وتكون فيه — وتسمع صوته يرن في اذنها وتحس بهزة في جسمها عند ما تتصور يده بيدها . والغريب انها لا تتخيل ان تكون كاتبة ولا ممثلة ولا طائرة ولا محامية ولا طبيبة . وانما تتصور قبل كل شيء ان تكون زوجة وأماً . ولا عجب من هذا الاختيار . فانها ما وجدت الا لتلك الوظيفة السامية والغرض النبيل «زوجة وأماً» بالفعل والواقع لا بالوهم والخيال

ومما نلاحظه عليها ايضاً . تقديرها للجمال فانها تظهر اهتماماً كبيراً بكل ما هو جميل وتميل الى تقليد ما تراه جميلاً في ملابس رفيقاتها وزينتهنَّ. وكثيراً ما تسرُّ بمناظر الطبيعة وينشرح لها صدرها . وترغب في الاماكن الهادئة المخيم عليها ظل وارف هادىء كالليل في هدوئه . ولا أعذب على سمعها من كلمة جميلة تقال لها وتوصف بها . .

والشيء بالشيء يذكر ؟ فقد هبطت مصر في ١٢ فبراير الماضي كريمان هانم خالص ملكة الجمال وقد احدث وصولها رجة اعجاب وتهافت من الرجال، ورنة غيرة وحسد من السيدات — ولو سألت فتياتنا في مصر — كما سألت بناتي الثلاث — او سألت فتيات العالم اي شيء احب اليك — المال وما يتبع المال من قنية ومتاع ؟ ام الجمال ؟ لما اختارت واحدة منهنَّ غير الجمال حلية ومتاعاً . فهي تريد ان تكون جميلة وتحب أن تسمع الناس يتحدثون عن جمالها اكثر من تحدثهم عن علمها وجاهها وغناها . . وكل شيء في هذا الدور يتغير في نظرها فتقديرها للحياة يختلف اليوم اختلافاً كبيراً عن تقديرها لها في الامس . وتبدأ بحكم طبيعتها وسنها ان تشعر باضطراب وعدم طمأنينة الى تحقيق امانيها . وتزداد شعورها بنفسها ويحل محل ما كانت عليه من غرور وسذاجة في زمن الطفولة . وترغب كثيراً في اظهار شخصيتها مستقلة في كل مناسبة تعرض لها فاذا رأت شقيقها الاكبر أو الاصغر سنًّا منها يذهب الى السينما وحده فتتساءل لمَ لا تفعل مثله وتذهب وحدها الى حيث تريد وأحياناً لا يسمح لها بالذهاب حتى مع أشقيقها وقد لا يكون غرضها من الذهاب الاّ ان تشعر بقوة نفسها منفردة لا لكي تشاهد رواية تمثل او صوراً تتحرك — والاستقلال دائماً مطلب النفوس الكبيرة — وانت تحس بحرج عند ما تسألك ابنتك لماذا لا تصرح لها بالذهاب وحدها كما تفعل مع أخيها — وهل تخاف عليها الانفراد ولماذا لا تخاف على أخيها منه ؟ وبالطبع لا يكون خوفك عليها من نفسها وانما من الآخرين فتقول لها عن سبب هذا الحذر وانه ناشىء من قلة اختبارها في الحياة وانها سوف تنفرد عند ما تتم لها عدة الانفراد والاستقلال التام . .

والى جانب هذا تراها تغدو فريسة لمختلف المنازع والاهواء وتزدحم الافكار في مخيلتها وتتمنى لو تفضي بشيء منها الى غير نفسها من الناس ، ولكن الحياء يمنعها من ذلك . وتظهر ميلاً الى العزلة وتنقلب في طباعها من الدعة الى الخشونة حيناً والى الضد حيناً آخر . أي انك قد تراها ضاحكة في الصباح وعابسة في المساء وقد يكون المساء ادعى الى السرور والاغتباط لها منه في الصباح

***

ولكن هذا التناقض لا يطول عصره او يطول على نسبة ما ينقضي عليها من الوقت لاستقرار الهواجس والاماني التي تدور في ذهنها ولاختيار مثلها الاعلى في الحياة . وقليل

من الفتيات يظهرن ضعفاً في مقاومة هذه الميول ويجازفن في الاستسلام لها ولو تعلمن ضبط النفس وروضن على الطاعة والنظام في المعيشة لسهل عليهن اجتياز هذه المرحلة من غير ان يصبن بشيء من اضرارها الشائعة فيها ولكن في حرز من المعاطب والمزالق الخطرة التي يتعرضن لها في خلال هذا الدور

المزالق الخطرة في هذا الدور

ان ما يتعرض له الطفل من الامراض والطوارىء يكاد لا يذكر خطره على جسامته وشدة هوله بجانب المهالك التي تحف به وهو في دور البلوغ . فالامراض على اختلاف انواعها وتباين نزعاتها تكون في اغلب الاحيان شديدة الوطأة عليه لكنها مع ذلك تعرف عند ظهورها ويبادر في الحال الى مداواته منها ، كمعالجتها بالادوية او بما يكون في الجسم من قوة ومناعة او بالعناية التي يحاط بها . بكل هذا يقلل كثيراً من حدتها وقد يبطل في الغالب مفعولها ويقضي على سمومها فضلاً عن ذلك . فعلم الوقاية وحده كفيل ان يصونهُ من غوائلها ويبعده عن مدى رمايتها والاصابة بها . وكذلك الطوارىء فهي تكاد لا تحصى ولكن تجنبها والحذر منها ليس بالامر العسير . أما ما يتعرض له من صنوف المهالك وقد نضُر عوده وفتُل عضله واشتد ساعده لهو اكبر خطراً من الامراض كلها . فهو كبير الخطر بهذا المقدار ليس لانهُ يضعف الجسم ويذهب بحيويتهِ ونضارتهِ الى البوار .. ولا لانهُ ينهك قواه المدركة فيصاب بالخبل والجنون ويدفعهُ احياناً الى الانتحار . ليس لهذا فقط خطره عظيم بل لان ضرره ينتقل منهُ الى الذرية وتظهر آثاره في الابناء والاحفاد . . ولو كان كالامراض المعروفة في اسبابها واعراضها ونتائجها لهان شأنهُ .. ولكنهُ يختلف عنها في ذلك كله — يختلف في الاسباب والاعراض والنتائج . ومن المعلوم ان الميكروبات على اختلاف انواعها هي التي تولد في الجسم تلك الامراض وتظهر عليهِ اعراضها الخاصة بها ...

اما اسباب مرض فتانا المراهق فعاطفة يحس بها وعشرة سيئة الاخلاق ينجذب اليها وغواية اثيمة ينغمس فيها . وان اعراضه دفينة في صدره وليس انها دفينة فقط بل انهُ يحاول جهده انكارها وطمس معالمها ما استطاع الى ذلك سبيلا .. ويظل مصراً على اخفائها وعدم الاعتراف بها الى ان تظهر عليهِ الدلائل القاطعة على وجودها ويستفحل امرها ويعز دواؤها كهزال جسمه وشحوب لونه وخور عزيمته وذهاب نضارته فضلاً عن القلق والاضطراب والحيرة التي تستولي عليهِ . ولولا اهمالنا نحن الآباء وعدم تقديرنا لهول ما يستهدف له البنون من الوان الغواية لما تفشى فيهم هذا الداء ولا كان يقضي على آمالهم ويحطم عودهم قبل الاوان .. فقليل من العناية يريحهم من هذه المتاعب الاليمة والمعاطب الجسيمة

صورة لحالات مريضة

وتثبيتاً لصحة ما اقول او تفسيراً لما تقدم اعرض امامكم صوراً لحالات كانت قد عرضت على احد الزملاء في السنة الماضية — وهي كما ترون لها مثيلات عديدة في كل بلد ومكان

فالحالة الاولى : غلام عمره اربع عشرة سنة وهو وحيد لابويه . ارسل لعيادة الطبيب ليفحصهُ ويبدي رأيه في اسباب مرضه وقد اظهر الكشف غلاماً شاحب اللون غار العينين خائر القوى هزيل الجسم وبعد التحري والاستقصاء علم الطبيب انهُ بسبب قريب له يزيده في العمر ثلاث سنوات اصيب بالمرض الذي يشكو منهُ وقد اغراه ودفعهُ الى الهوة التي سقط هو فيها من قبل وكانت السبب في رسوبهِ في الامتحان النهائي وخروجه من المدرسة . وبعد مدة قصيرة اصيب هذا الغلام بالتهاب رئوي حاد لم يقوَ جسمه على مغالبة الداء فذهب مبكيًّا عليهِ من ابوين ودَّا ان يفديانه بحياتهما لو يقبل القدر الفداء

الحالة الثانية : غلام عمره ١٥ عاماً . توفيت امه وهـو دون السابعة من العمر ؟ فاعتنت بتربيته سيدة غريبة الاطوار كان همها ان تظهر لوالده مقدرتها على التربية فانخدع الوالد ولم تنكشف له الحقيقة الاَّ بعد فوات الوقت وظهور المرض على ابنه فأرسله الى الطبيب لمعالجته واسترجاع صحته ولكن عند ما كشف عليه الطبيب رأى امامه شابًّا هزيل باهت اللون خامل الذهن بليد الفكر ، خليع القول ، قد رفت من المدرسة للمرة الثالثة ، فما كان من الطبيب الاَّ ان اشار على والده بأن يرسله الى اصلاحية الاحداث ولكن لا رجاء باصلاح ما افسدته المخدرات والعادة الرديئة

الحالة الثالثة : شاب عمره ست عشرة سنة يشكو صداعاً عنيفاً في الرأس وارتعاشاً مؤلماً في اليدين ، واحياناً في الساقين واظهر الكشف ضعفاً عامًّا وخفقاناً في القلب مريعاً وهزالاً مخيفاً وقد اعترف عند ما سأله الطبيب باسباب ما يشكو وبعد محادثة طويلة وعد بالابتعاد عن ذلك المعشر الرديء وابطال ما تعوده منه وأخذه عنهُ . وقد برَّ بوعده وشفي من اوصابه وآلامه . وتقدم في فصله بعد ان كان من المتأخرين الراسبين

الحالة الرابعة : شاب عمره ١٨ سنة . فما كاد يدخل الى حجرة الكشف ويجلس في الكرسي المعد له إلاَّ وابتدر الطبيب بقوله رجائي في الشفاء كبير على يديك . اشفيني من مرضي كما شفيت صديقي الذي ارشدني اليك وكان مصاباً بمثل مرضي . دعني انصرف من عندك وكلي آمال حسنة في الحياة التي كدت اصرم حبلها بيدي امس من شدة ما عانيته من هذا المرض الذي اصبح الموت عندي اهون منه . ولما قام الطبيب وكشف عليه — رأى بثوراً وقروحاً منتشرة على سطح الجلد — ورأى الغدد الاربع متضخمة ومؤلمة . واللوزتين والحنجرة في حالة التهاب والمفاصل ملتهبة وفيها ورم بسيط

وبعد معالجة ستة اسابيع شفي هذا المريض ووعد بأن لا يعود الى معاشرة من كانوا السبب في دائه وما عاناه من اوجاع . ولو انحصر خطر هذا الداء في المصاب وحده لهان امره ولكنه ينتقل منهُ الى من يتصل بهم من معارف . وهؤلاء ينقلونه الى سواهم وهكذا دواليك حتى تسري العدوى في دم الامة ويتفشى الداء في كل فردٍ من ابنائها وقد تولد الاجنة مصابة به متأثرة منه . واحياناً تولد مشوهة الخلق غير تامة النمو وقيل انه يموت نحو ٢٥ ٪ منهم بعد دقائق من ولادتهم كأنهم جاؤا الى هذا العالم ليسجلوا على صفحاته ذنوب الآباء وعيوب هذه الحضارة . ونحو ٢٥ ٪ يعيشون مثقلين بوطأة الداء أياماً أو أسابيع او أشهر . وقد يعيش بعضهم طويلاً ان تداوى ولكنه يظل هدفاً صالحاً لغزو الامراض والاصابة بها

تصوروا ؟ أيها السادة ؟ حال أمة هذا حالها قد تغلغل الداء في شرايينها وامتزج سمه بدمها . كم يكون مستقبلها مظلماً وارتقاؤها كاذباً وعمرانها مهدداً وكيانها متداعياً .. ؟ ؟

وعمران الامم يبلغ أقصى درجات الكمال اذا تحرر ابناؤها من الامراض . وكل عمرانٍ لا يقوم على هذا الاساس فهو عمران كاذب يدركه الفناء ولو بعد حين

هذا قليل من الحالات التي لها أمثال عديدة اكتفيت بها ضنًّا باوقاتكم ولا أزيد عليها سوى حكمة أقولها وأنا على ثقة من موافقتكم على صوابها وهي اذا اردنا وكلنا نريد — ان نقضي على حوادث الانتحار من صفوف الطلبة وغير الطلبة ونمحو كلمة (رسب وسقط وفشل) من نتائج الامتحانات — فما علينا الا ان نرشد الابناء ونزيد العناية في تثقيف عقولهم وتسديد خطواتهم في فجاج الارض ومناحي الحياة . ونتبسط معهم في شرح طبائع الميول الجنسية كما نعرفها على ضوء الحقائق العلمية والاختبار

طبائع الميول الجنسية وأثرها

وهذه الميول والغرائز اصيلة في طبيعة الانسان لا يصح اغفال ما لها من سلطان عليه وتأثير في تكوين شخصيته فهي تسيره في مسالك الحياة على حسب ميولها ونزعاتها . وتقيده بسلاسل رغباتها فلا تترك له وقتاً للاختيار بين ما يريده منها وما لا يريد — وهي انما تريده دائماً حيواناً آليًّا لتنفيذ مآربها وقضاء شهواتها وسيان عندها عاش بعد ذلك او هلك

فالانقياد لهذا السلطان المطلق يجب ان يقيد بما يتفق والحياة الانسانية من مقاصد نبيلة بعيدة كل البعد عن مطاليب الحياة البهيمية . وهذا لا يكون الا بارشاد الاحداث الى نظم ومبادىء عامة تظهر لهم شأن تلك المقاصد وضرورة الاخذ بها والعمل بحسب أصولها وأن يوضح لهم أسباب تلك الميول والعواطف التي يشعرون بها ويندفعون وراءها . وأن يقص عليهم باسهاب وظائف الاعضاء الجنسية من غير مداورة وان نظهر لهم الاضرار التي تنشأ عن العبث بها والاساءة اليها



صناعة الالبان في مصر

— ٢ —

الميزات والحوائل

تجربة خطيرة في توليد البقر الحلوب

للاستاذ مكيترز بكلية اسيوط

اذا نذكر صناعة الالبان كمورد رئيسي للدخل في مصر عرضت لنا استفهامات تختص بمشكلة الطعام ، وبتوافر الايدي العاملة وكفاءتها ، وبالطقس وحدوده ، وبوسائل البيع في الاسواق وتسهيلها ، وبصنف الماشية التي في مصر الآن . بين هذه المشاكل نرى ان مشكلة اطعام الماشية اهمها وفي الواقع يتوقف نجاح كل المشروع في الغالب على طريقة حل هذه المشكلة

ذلك ان الارض في مصر مرتفعة الثمن والافواه البشرية التي يجب اشباعها كثيرة وانتاج طعام الناس مباشرة من المحصولات التي تزرع اسهل منالاً من انتاجه باطعام المحصولات للبهائم اولاً ، فداناً بفدان . اذ تحويل النبات الى منتجات حيوانية مناسبة لا يتم الا بخسارة كبيرة . الا ان ما يعوض عن هذه الخسارة ، بعض الشيء ، ان الطعام الذي تستهلكه الحيوانات يتكون من نفايات لا نفع منها كطعام للبشر ، ولولا اطعامها للحيوانات لذهب معظمها سدًى . فمثلاً تستطيع الماشية ان تنتفع من التبن ومن زعازع الذرة الشامية وفي الوقت الحاضر ثمة فضلة محصول مصري زراعي — هي بقايا بذرة القطن بعد عصر الزيت منها فتشرى وتكبس وتشحن الى مسافات بعيدة حتى يربح من استعمالها صانعو الالبان في البلاد الاخرى

ولكن حتى بعد عمل حساب الانتفاع من كل هذه الفضلات لابدَّ من مساحات واسعة ، تنبت مواد صالحة لاطعام الماشية ، كاساس لصناعة الالبان اذا شئنا التوسع فيها . واذن فالمشكلة ما زالت امامنا . فهل من محصول نباتي في مصر صالح ومنتج يأتي بقيمة مالية في صنع الالبان اكثر منهُ مستهلكاً بطريقة اخرى ؟ نعم يوجد هذا المحصول ألا وهو البرسيم المصري والبرسيم الحجازي (الالفلفا) وان مصر وافرة الحظ لان هذين المحصولين البديعين يوجدان في ارضها . اذ انهُ يمكن الانتفاع بجنيهما اثنتي عشرة مرة او اكثر سنويًا وهذا

يصدق سواء اكانت الارض في اقاليم الري الصيفي او اقاليم الري بالحياض حيث تروى بين الفترتين من الآبار . فحيثما تزرع ارض الحياض على اثر الفيضان بمزيج من بزور البرسيم والحجازي فان الاول يجود في اثناء الشهور الباردة ثم يذوي بعدها . ولما كان الحجازي بطيئاً في ارسال الجذور الى اسفل فانهُ يستمر مخضراً طول فصل الحر

ولو ان صانع الالبان الاميركي يستطيع ان يضمن ولو ثلاث جنيات فقط في السنة من علف كهذا لعدّ نفسه موفقاً حقاً . وما اكثر العراقيل التي تعترض صانع الالبان الدانيماركي او السويسري اذا قابلناه باللبّان المصري عند ما يحاول الاولان تجفيف جنيتي الحشيش الوطني لعملهما دريساً يطعمانه للماشية شتاء. وتظهر غزارة نفع البرسيم المصري والالفلفا من ان فداناً واحداً يكفي غذاءً طول السنة لثلاث بقرات حلوبة. واذا تحسنت انواع البقر في مصر شيئاً ما ، يستخرج من الفدان الواحد نحو ٦٠٠ رطل زبدة سنويًا. اما فيما يتعلق بثمن الزبدة فيكفي ان تعرف انهُ حتى في سني الضيق الاقتصادي هذه يباع الرطل من الزبدة الواردة من الخارج بمبلغ تسعة قروش للرطل بالقطاعي . لذلك يستطيع الفلاح المصري ان يصرف مبلغاً غير يسير في الصناعة والشحن والبيع ومع ذلك يربح ربحاً لا بأس بهِ ، مع العلم ان هذا التقدير لا يحسب شيئاً للفضلات التي تتبقى بعد الزبدة

هذا وان غزارة محصول الربيع ليست سوى جانب من الميزة التي تمتاز بها مصر. فان مصر موفقة غاية التوفيق في ان قيمة هذا العلف الغذائية من اعلى صنف فانه من جهة الاتزان بين البروتين والكربوهدرات او بين محتوياته المعدنية والڤيتمينية ، نجد ان الالفلفا هو تقريباً اكمل غذاء لبني . قارن ذلك بما يضطر صانع الالبان في البلاد الاخرى الى عمله من شراء مواد غنية بالبروتين كبقايا بذرة القطن ، ليزيد القيمة الغذائية في علف بهائمه . ولا يحتاج الحال الى القليل من الحنطة لتغذية البهائم في حالة توافر البرسيم والالفلفا ، اخضر كان او مجففاً ، الاّ في حالة البقر الخاص الغزير الادرار. اما اذا استعمل التبن او زعازع الشامي كتكملة فان مقداراً اكبر من الحنطة يلزم استعماله

ففي حلّ هذه المعضلة الغذائية تمتاز مصر امتيازاً كبيراً . ثم انها من وجهة كثرة الايدي العاملة لا تقلّ امتيازاً وان كانت هذه الايدي تعوزها الكفاءة العلمية الى حدّ ما لان صناعة الالبان لم تتعدّ كونها عملاً منزليًا فرديًا حتى الآن . لذلك وحتى تتحول مثل هذه الحالة الى صناعة يلزم اولاً مقدار كبير من التهذيب والتدريب في طرق انتاج اللبن وصناعته وسنزيد هذا الموضوع بياناً ان شاء الله

اما عن الضرورات الناشئة عن الطقس فيكاد الامر لا يعرقل الانتاج بتاتاً . ويرجح ان المربي المصري للبقر الحلوب لا يستطيع تعدي اي رقم قياسي عالمي لغزارة الانتاج. فانهُ لا يستطيع ،

في اشهر الحر ، ان يغري بقراته الممتازة بأن تلتهم مقادير كثيرة من الغذاء الضروري لانتاج مثل هذه الارقام القياسية بدون الحاق الاذى بها . على ان نجاح صناعة الالبان لا يتوقف على وصول بقرات قليلة الى مثل هذه القياسات العالية بل بالاحرى على الغزارة المتوسطة في انتاج القطيع كله. وليس في الطقس ما يعطل ذلك بل على الضد من ذلك أن طقس معظم السنة يعتبر مما يمكن تحقيق الغرض المتقدم

***

نعم كان طقس البلاد المصرية يعتبر ، سابقاً ، حائلاً كبيراً يحول دون النجاح في صناعة الالبان . فانه حتى عهد قريب كان يقرب من المستحيل ممارسة مثل هذه الصناعة ابان كثير من اشهر الحر . ولكن التقدم الباهر في فن التبريد الميكانيكي والتخزين المثلج بلغ حداً يجعل ممارسة ذلك ممكناً بدون اي صعوبة حتى في أشد الاشهر حرارة

وبالطبع ليست هناك ، للآن ، اية هيئات منظمة او تسهيلات للاتجار بمنتجات الالبان . ولا غرو فانهُ لم يكن هناك ما يتاجر به لذلك فان تسهيلات الاخذ والعطاء ستتدرج مع تقدم هذه الصناعة. وينبغي، من اول الامر وعلى طول الزمن بعد ذلك، ان تعنى الحكومة والقائمون بالعمل ، بتنظيم المعاملات بحيث ينشئون صيتاً حسناً لكل المنتجات التي تصدر للاسواق الاجنبية ويداومون على تعهد ذلك بيقظة

اما عن معرقلات هذه الصناعة في مصر فاحدها قلة ما تدره البقرة المصرية من اللبن . والواقع اننا لا نجد ماشية في مصر يجوز ان يقال عنها انها حلوبة . فانه من سالف الازمان كانت تستخدم الماشية في مصر لغرض مثلث فكان اول ما يطلب منها المقدرة على العمل ثم كثرة اللحم وثالثاً واخيراً اللبن . ولذلك لم يعتنَ بانماء المقدرة على انتاج اللبن خاصةً بل ان جل الاهتمام كان متجهاً الى انتقاء الماشية التي تفوق غيرها في المقدرة على العمل . ولا يخفى ان العمل والادرار لا يتفقان قط . فان كلاً منهما يتطلب حيواناً مختلفاً كثيراً عن الآخر . ولذلك فلا ينتظر بطبيعة الحال الا انخفاض في انتاج اللبن اذا اخترت البقر قصد استعمالها في الحرث . ولما كان العمل المطلوب من الجواميس اقل من العمل المطلوب من البقر نلاحظ ان مقدرة الجاموسة المصرية على الادرار تزيد قليلاً عن مقدرة البقر الا انها اقل مما يجب اذا قوبلت بالابقار الحلوبة . على ان غزارة الزبدة في لبن الجاموس تخفف الفرق شيئاً ما

فاذا قابلنا مصر باقاليم انتاج اللبن الاخرى وجدنا أمام مصر صعوبة كبيرة تعرقل مسيرها في هذا الطريق . فهل يمكن التغلب على هذه الصعوبة ؟ ليس فقط في الامكان الانتصار عليها بل يمكن ذلك بسرعة معقولة . لانه ان كان من المحتم انتظار النتائج البطيئة التي يسفر منها الانتخاب المستمر عن طريق توليد البقرة الحلوبة من البقرة المصرية الحاضرة المثلثة الغرض لا يكون من المجدي التحدث

عن تجارة الباان ، لها أي شأن ، في مصر . نعم يمكن توليد البقر الصالح لهذا الغرض ولكن ذلك يستغرق على الاقل ، نصف قرن . فهل من طريق أخصر من هذا الطريق لتحسين ماشية اللبن في مصر ؟ أتستطيع مصر ان تستفيد حالاً من خلاصة تقدم الماشية الاجنبية عن طريق توريد بهائم مشهود لها بهذا التقدم واستعمالها كأساس لتوليد قطيعها الخاص ؟ أيمكن ان تتعود مثل هذه الحيوانات الاصيلة اقليم مصر وتثمر وتجيد في الاحوال المصرية ؟ وأهم من ذلك ، هل يحتفظ نسلها ، المولود والمربى بمصر ، بمقياسه العالي ؟ وأهم ، حتى من ذلك ، هل تبرهن الماشية المهجّنة ، أي الناتجة من تلقيح افضل البقر المصري من ثيران أصيلة ، انها ذات قيمة خاصة لاغراض صناعة الألبان ؟

لا يمكن الاجابة القاطعة عن هذه الاسئلة الا بالتجارب العملية الدقيقة . وهذا نفس ما تحاول كلية أسيوط اجراءهُ . وللكاتب المام به فانه بفعل الاعتقاد ان الحاجة ماسة في مصر الى تحسين الماشية اللبونة ، ورغبة منهُ في المساهمة في حل المشاكل العملية للحياة اليومية استوردت لجنة ادارة كلية أسيوط في سبتمبر سنة ١٩٢٨ أربع بقرات أصيلة من صنف بقر جرزي ثلاثاً منها عمر كل منها سنتان والرابع عجل عمره ستة أشهر وكلها تواصل التقدم والنجاح . فقد زاد انتاج لبن البقرات الثلاث من سنة لأخرى باقترابها من سن البلوغ الكامل وبلغ معدل ماتنتجه كلٌّ سنويًّا ٧٠٠٠ رطل ومقارنة هذا بما انتجته أحسن بقرة مصرية في قطيع الكلية نجد ان هذه انتجت فقط ٣٥٥٦ رطل

***

ثم ان الجرزية الاصيلة تتقدم باستمرار ويتوقّع انها لن تقل ادراراً عن امها ، وعندنا عجلة قوية نشيطة تمثل الجيل الثاني للجرزي الاصيل وقد ولدت وتربت بمصر وابوها وأمها ولدا وتربيا بمصر أيضاً ولم يظهر عليها وعلى الحيوانات الباقية اي انحطاط

وليس عندنا الآن سوى عجلة واحدة مولّدة (أمها بلدية وأبوها جرزي) وصلت الى سن الادرار . ولحسن الحظ في استطاعتنا ان نعمل مقابلة طريفة فان عندنا أيضاً أختاً لهذه العجلة من أمها البلدية ومن أب بلدي . وفي أسبوع واحد ولدت الاختان عجلين ولاحظنا ان مقدار اللبن الذي تدرّهُ العجلة التي أبوها جرزي يفوق المقدار الذي تدرّهُ أختها البلدية مرة ونصف بانتظام مع أنها أصغر من اختها باربعة عشرة شهراً ومع كون هذه (اي البلدية) في ولادتها الثانية في حين ان اختها لم تلد الا مرة واحدة ، فتى بلغت المولّدة سن البلدية ينتظر ان تدرّ لبناً قدر لبن اختها مرتين . وكل لبّان خبير يعلم ان مضاعفة انتاج اي بقرة يزيد في قيمتها كحيوان لبون اكثر بكثير من الضعف . على ان مما نسلّم بهِ ان مثالاً واحداً لا يكفي ان يكون أساساً لقاعدة عامة ولكن النتيجة التي بلغناها في غاية الخطورة على كل حال



ثورة الأدب

بقلم الدكتور هيكل — طبع بمطبعة السياسة بمصر — صفحاته ٢٥٥ قطع وسط — ثمنه ١٠ قروش

« ليقتحم أدبنا إذن ماضينا . وليقتحم هذا الماضي بادوات البحث الأدبي وبأساليب الكتابة الحاضرة . وليقتحم هذه الميادين حرًا طليقاً غير هياب ولامتردد . وليقتحمها بروح الثورة التي اقتحم بها الأدب الغربيُّ تراثَ اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدها ، وبروح الثورة التي اقتحم بها الأدب العربي تراث فارس ومصر واليونان ، وليقلب ، وليقلب في هذا الماضي ماشاء له التقليب والتنقيب بروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده . الحق في أسمى صوره التي تلتمس الانسانية على الأجيال فتكاد تلمسه أحياناً حين يكشف عنه أنبياء الانسانية وشعراؤها وكتابها ، ثم لا يلبث أن يفلت من يدها لأول ما تغريها المادة وتلهيها عن جادة هذا الحق الصحيح . والحق الصحيح ، الحق الذي تقوم الحضارات على أساسه والذي يدعمه الادب على أسنة أقلام كبار الموهوبين من الكتّاب ، هو الحق في صلة الانسان بالوجود كله ، بهذه الافلاك التي نرى وبهذه السماوات التي تغمرها وبالروح الفياض بالضياء والذي يحيط بذلك كله ويبعث اليه الحياة والنور . هذا الروح الذي لانور ولا حياة ولا وجود من دونه . وصلة الانسان بالوجود وبهذا الروح الذي ينتظم الوجود جميعاً ، هي الحقيقة العليا التي يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب ، وأن تكون رسالة كل أدب يطمع في أن تقوم على أساسه حضارة سليمة تكفل للانسانية المجد والسعادة

« الأدب الذي يسمو بالنفس الى هذه المعاني العليا ، والذي يرتفع بها لتتصل بالوجود كله ، يجعلها تلمس حقيقة الوجود كاملة ، حقيقة هذا الروح العظيم الذي تعنو له الجباه والذي تستمد منه كل حقيقة وجودها . هذا الادب هو الذي يقيم الحضارات السليمة الصحيحة . وأحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه في ماضينا . في هذا الأمس العظيم الذي يفاخر به الشرق القديم تاريخ الانسانية جميعاً . والذي يدعونا لنقيم عليه حضارة الشرق الجديد »

بهذه العبارة الحافلة بالحكمة والثورة يختتم الدكتور هيكل كتاب « ثورة الادب » ، وهي خير ختام لفصول اتسعت لأحكم واصدق ما يمكن ان يقال في بعث الادب العربي ، بل هي في مجملها يصح ان تكون دستور هذا البعث . فهي تنطوي على تحديد روح الادب ومعناه ، وبيان لاساليبه واغراضه العليا

وقد اختار له « ثورة الادب » عنواناً، لان فصوله الاولى تتحدث عن « الثورات المتصلة التي شهدها نصف القرن الاخير في شؤون الكتابة والادب وتصف المجهود المتصل الذي قام به اصحاب المذاهب المختلفة في اقامة الادب العربي الجديد . والواقع ان هذا الادب العربي يضطرب بعوامل الثورة فيه منذ الثورة العرابية ومنذما بدأ هذا الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها الى التوجه نحو النهوض بمجموع الامة الى مثل اعلى »

فالفصول الاولى تحدد العلاقة بين « الطغاة وحرية القلم » تحديداً يلخص في قوله « في عصور الظلمة التي تمرُّ بالامم آناً بعد آنٍ يعمد الباطشون البغاة الى تقييد حرية القول والكتابة وفي سبيل هذا التقييد يصلون ارباب الاقلام حرباً لا رحمة ولا هوادة فيها » وهو يصف قوة القلم بقوله : « هذه القوة التي تنبعث من القلم على صحف الورق تنقلها الى الانسان هي اقوى وابقى ما على الحياة من سلطان . هي قوة الايمان القائم بالنفس القوية متى امتلأت ايماناً فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل » . ثم هو يثبت في الفصل الثاني حاجة الاديب العربي الى الاطلاع على ما يظهر في عالم العلم والفلسفة والادب من جديد وعنده ان هذه الحاجة تزداد بتيسير اسباب المواصلات : « فلئن امكن ان يتوهم الانسان مجرّد توهم امكان استقلال حيٍّ من الاحياء ، سواء اكان هذا الحيُّ امة ام فرداً ، في شؤونه المادية او العقلية او النفسية ، فان مجرّد هذا التوهم مستحيل لكثرة الاتصال بين امم العالم .... وسيرى الادباء يومئذ ان الشاعر او الكاتب الذي يريد ان يخطو بالادب العربي الى مراتب الكمال الفني مضطرٌّ لا بدّ الى الاطلاع على اكثر مما اطلع عليه ادباء جيلنا الحاضر ، اذا هو كان جديراً حقًّا باسم الكاتب او الشاعر حريصاً حقًّا على اداء رسالة الادب السامية »

وفي الكتاب فصلان نفيسان احدهما عنوانه « فن القصص » والثاني « سبب فتور القصص » ففي اولهما يبين ما للقصة والاقصوصة من المكانة في ادب الغرب ، وفي الثاني يفصل الاسباب التي يسند اليها فتور القصص في الادب العربي . وقد صدق كل الصدق في تفنيد الدعوى التي يدعيها بعض المستشرقين بان فتور القصص سببهُ ضعف الخيال الشرقي . ومما نستغرب لهُ اننا لم نرَ في ما اطلعنا عليهِ من مقالات المسترجب في « القصص المصري » وما كتبهُ الدكتور هيكل في هذين الفصلين اي ذكر لروايتين مصريتين وضعهما الدكتور صروف ، احداهما « فتاة مصر » وضعت سنة ١٩٠٥ والثانية « فتاة الفيوم » وضعت سنة ١٩٠٧ ويقيننا انهُ لا بدّ من العناية بهما في كل دراسة وافية للقصص المصري الحديث

وقد وضع الدكتور هيكل فصلين في النثر والشعر . ونحن نرى رأيهُ ان النثر العربي قد خطا خطوات واسعة فتعددت اساليب التعبير ، وتحررت من السجع الممقوت ، وتنوعت المطالب والاغراض ، وطوّعت الالفاظ لتؤدي ظلال المعاني النفسية والاجتماعية والسياسية

والادبية والعلمية في فصول تكتب كلَّ يوم. ولسنا نقول ولا هو يقول اننا بلغنا الغاية. وانما نقول، اننا قد قطعنا شوطاً بعيداً، مذ كانت الرسالة من صديق الى صديق، منمقة الالفاظ رنانة الاسجاع، المثل الاعلى للكتابة البليغة

ولكننا نرى انهُ جار قليلاً على الشعراء — شيوخهم وشبانهم. اننا لا ننكر ان جانباً كبيراً من الشعر الذي ينشر الآن في الصحف اليومية، هو في الغالب من الضرب الذي يدعوه «شعر مناسبات» وان كانت بعض المناسبات، اذا استفزَّ الشعور حقاً ملهماً صادقاً للشعر. ولكن جمال الحياة وأسرارها وألغاز الوجود والموت تستهوي شعراءنا الآن كما كانت تستهوي الشعراء الانكليز في بدء ذلك العصر الذهبي الذي دعاه بعض النقَّاد «بعصر التعجب». ويغلب عندنا ان وقت الدكتور هيكل لم يتسع له في العهد الاخير لمتابعة نهضة الشعر العربي. او انه كتب هذين الفصلين لما كان حافظ وشوقي يملآن النفس بآثار شاعريتهما الفيَّاضة. فلم تتسع لهُ دراسة الاتجاهات والاساليب المخالفة لما درجا عليه. فليس في ديوان الجداول قصيدة رثاء او قصيدة مديح واحدة. وقصيدة الطلاسم في آخره تشفُّ عن تلك الحيرة الفكرية التي تمضُّ عقول الفلاسفة والمفكرين، في جلباب شعري خلاب. وقصيدة «عبقر» لشفيق المعلوف تتناول الاسطورة العربية وتتخذها موضوعاً لقصيدة طويلة منوعة البحور والقوافي فيها هندسة شعرية وفيها شعور قويٌّ وفيها وجهة نظر خاصة. ومن قبل ذلك قصائد الجنين الشهيد ونيرون لمطران وترجمة شيطان للعقاد. وفي قصائد طائفة كبيرة من الشعراء المصريين المعاصرين ادلة دامغة على ان الشعر العربي قد القى عنهُ ثوب «المعارضة» و«المناسبة» و«البيت الفرد» او «الابيات القلائل» منثورة في لجج القصائد انتثار الدر في قاع البحر. وانهُ متجهٌ الى «ابراز فكرة او صورة او احساس او عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس وتصل الى اعماقها»

وفي الكتاب بحث مستفيض في الادب القومي وخمس قصص مصرية ثلاث فرعونية واثنتان عصريتان، لم يتسع المجال لقراءتها ولعلنا نفرد لها فصلاً في جزء مقبل

التربية عند العرب

تأليف الدكتور خليل طوطح — مدير مدرسة الفرندز للصبيان برام الله فلسطين —
طبع بالمطبعة التجارية في القدس صفحاته ١٧٥ وفيه صور

تخرج مؤلف هذا الكتاب من كلية المعلمين بجامعة كولومبيا برتبة دكتور في الفلسفة في التربية والتعليم وجعل موضوع الرسالة او الاطروحة التي قدمها حينئذٍ The Contribrution of Arabs to Education اي فضل العرب على التعليم او أثرهم فيهِ. واهدى الينا حينئذٍ

نسخة من الرسالة باللغة الانكليزية فاطلع عليها الدكتور صروف رحمهُ الله فأعجب بها إعجاباً عظيماً وكتب فيها الكلمة الآتية :—

«لم تقع عيننا على كتاب جمع من مفاخر العرب بل مفاخر المسلمين في العلم والتعليم قدر ما جمع هذا الكتاب . وفيهِ اكثر من مائة صفحة كبيرة حافلة بالاقتباسات من أمهات الكتب العربية والفرنسوية والانكليزية والالمانية لكبار المؤرخين والباحثين وهذه الاقتباسات ناطقة كلها بما كان لملوك العرب من بني امية وبني العباس ولسائر ملوك الطوائف من الفضل على العلم والعلماء ومن البذل في نشر لواء العلم . ومما قالهُ في هذا الصدد انهُ لما كان شارلمان يتعلّم حروف الهجاء في بلادهِ مع اولاد اشرافهِ كان الخليفة المأمون يدرس الفلسفة ويناظر الفلاسفة . ولما لم يكن في اوربا مدارس لاكثر أولاد الاوربيين كان اولاد العرب المعاصرون يتمتعون بكل فوائد التعليم

«وتكلم على مدارس العرب الابتدائية والعالية والجامعة ومكاتبهم وعلمائهم . ولما ذكر الجامعة العلمية المسماة بيت الحكمة التي انشأها الخليفة المأمون قال انهُ كان لها مكتبة واسعة أمينها رياضي وفلكي مشهور وهو الخوارزمي الذي لا يزال كتابهُ في الجبر والمقابلة محفوظاً الى الآن

«وقال ان المدارس كانت قسمين قسماً للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وقسماً للعلوم الدنيوية من حساب وجغرافيا وفلك . وذكر من هذه ٢٢٨ مدرسة قال انهُ عثر على اسمائها واوصافها في مطالعاتهِ وهي ٧٤ في القاهرة و ٧٣ في دمشق و ٤١ في القدس و ٤٠ في بغداد الخ . وان الحكام الذين كانوا ينشئون هذه المدارس كانوا يقفون عليها اوقافاً يقوم ريعها بالنفقات المطلوبة مثال ذلك ان صلاح الدين الأيوبي وقف على المدرسة السيوفية في القاهرة اثنين وثلاثين دكاناً وعلى المدرسة الصلاحية في القدس سوقاً كاملة . وقد قال ابن جبير انهُ رأى في بغداد ثلاثين مدرسة لها اوقاف يكفي ريعها تلامذتها واساتذتها . واقام الادلة على أن بيت الحكمة في بغداد كان اول مدرسة جامعة في البلاد العربية وهو اقدم من كل مدرسة جامعة في اوربا

«وكل ما في هذا الكتاب ناطق بمفاخر الاسلام في تعضيد العلوم والفنون وحبذا لو نقلهُ مؤلفهُ الى العربية فيستفيد منهُ ابناؤها كما يستفيد ابناء الانكليز » اه

ثم ترجمنا فصلاً من فصول الكتاب بعنوان «تعليم المرأة عند العرب» نشرناه في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٢٨ ص ١٦٤ ونحن يسرُّنا ان الدكتور طوطح قد اخرج رسالته في كتاب عربيّ غرضهُ كما قال : — «ليس التغني فقط بمحامد السلف بل الاتعاظ في الاحوال الحاضرة والتيقظ للمستقبل »

علم النفس النظري

لواضعه مظهر سعيد استاذ علم النفس في معهد التربية وكلية أصول الدين ، احدى كليات الجامعة الازهرية . وهو مما جمعه أحد الطلاب من ملخص محاضرات يلقيها المؤلف في ذلك المعهد

تخرج الدكتور مظهر سعيد من القسم العلمي بمدرسة المعلمين العالية وظهر تفوقه في الرياضة والكيمياء والطبيعة ، فاندمج في سلك التعليم في مصر الى ان ارسلته وزارة المعارف العمومية الى انكلترا للتخصص في علم النفس النظري والطرق الخاصة في التربية . فعاد يحمل درجة B. SC في الرياضة ودرجة ماجستير M. SC. في علم النفس

وتمهيداً للكلام في الكتاب يلزم ان اذكر كلمة في ذلك المعهد

ابواب معهد التربية مفتوحة لفئتين من الطلاب . الفئة الاولى افرادها من الحاصلين على شهادة البكالوريا . فيدرسون في المعهد المذكور سنة اعدادية في مواد الثقافة العامة ، لتمكينهم من الآداب ان كانوا من طلاب القسم الادبي ، او من العلوم الرياضية ان كانوا من طلاب القسم العلمي . والفئة الثانية هي التي تخرج طلابها من الجامعة المصرية فحصلوا على درجة علمية فيها . وهؤلاء يقتصرون على درس سنتين مع طلاب الفئة الاولى المذكورة آنفاً . فيدرس الفريقان مدة سنتين علم التربية ، وعلم النفس بفرعيهما النظرية والتجريبية ليتمكنوا من القيام بمهمة اساتذة في تربية النشء على اسس علمية صحيحة . في هذا المعهد القى الاستاذ مظهر محاضرات في علم النفس قسمها الى ثلاثة اقسام . الادراك والوجدان والنزوع . وهذا الجزء الاول تتناول ابحاثه القسم الاول — الادراك والتفكير —

ويظهر من اسلوب مواد الكتاب انها تجمع بين الناحيتين النظرية والعملية . خلافاً للطريقة التي كانت متبعة في كتابة مباحث التربية وعلم النفس دون اشارة الى طريقة تطبيقها عملياً

ومما يمتاز به شرحه طريقة الاستفادة من دراسة علم النفس الجليل بأمثلة قريبة من مدارك الطلاب ، وبرسوم رسمها كلها — عدا اثنين منها — ريشة المؤلف ، ولا يوجد لها نظير في كتاب بهذا الموضوع في اللغة العربية ولا في اللغة الافرنجية على ما نعلم

واهم ما اختص به تبيان العمليات العقلية في اثناء الادراك والتفكير . فيجد القارىء فيه تحليلاً مشفوعاً بالامثلة والاشكال البيانية

وقد تعرض المؤلف لشرح طرائق تدريس بعض العلوم الاساسية وفقاً للقواعد السيكولوجية في الادراك ، مما يدلُّ على قيامه بتجارب واختبارات عملية وافية تثبت اصابة المرمى ، وسهولة التدريس في الفروع التي أتى على بيانها ، بحيث تكون متمشية مع طبيعة النشء ، وانتقاله من طور الى طور ، كاشفاً عن خطإ الطرائق المتبعة في تعليم النشء المرهقة للعقل والجسم لكونها فوق مستواه العقلي ومخالفة مجرى الطبيعة الحكيمة ، التي يجب ان تكون رائدنا في نظم التعليم وفي صورة تطبيقها . ولم يأل المؤلف جهداً في تبيان المنهج الطبيعي الذي درج

عليه الانسان في تفكيره . وفي ذلك من الفائدة العلمية ما لا يخفى . واوجّه نظر القارىء الى صفحة ٧٧ والصفحات التي قبلها ، حيث ابان المؤلف بالايجاز تطور اللغة عند الانسان من تحديد معاني الكلمات اولاً . الى نقل هذه المعاني برسم الحوادث بصورة محسوسة ثانياً . فالرمز اليها برموز تواطأ عليها افراد الانسان ثالثاً . الى الابجدية في النهاية القصوى . وهذا المسلك الطبيعي هو على الضد من الطرق الخاطئة التي اتبعها المربون وفندها المؤلف ، اعني انهم يبدأون حيث ينتهي الطبع ، وينتهون حيث ابتدأ . فيعلمون الابجدية اولاً . . . . الى ان ينتهوا الى تحديد معاني الكلمات . فيرى الاستاذ ان طرائق التعليم يجب ان تجاري هذا التطور الطبيعي ، اي تطور اللغة في العالم ، وعند الفرد الانساني ، على ما اسلفنا . وهذا الكتاب يسدّ فراغاً كبيراً في اللغة العربية . اذ يعطينا ترجمة فنية — لاقاموسية — صحيحة للكلمات السيكولوجية والمصطلحات الفلسفية . وقد علمت انهُ ساعٍ بمعاونة قرينته الفاضلة في وضع قاموس وافرٍ للمصطلحات السيكولوجية والفلسفية ، بهِ يتمكن المترجمون من نقل الفلسفة بفروعها عن لغات اوربا بصورة صحيحة

ومن اظهر ما يمتاز بهِ المؤلف في هذا الكتاب وفي غيره من مؤلفاته ومحاضراته انهُ لا يعتمد على الترجمة من الكتب الاجنبية الاَّ عند تقريره نظرية مؤلف معينة. وهو لا ينتحل شيئاً من مباحث غيره لذاته. ولذا فهو يعنى بوضع المراجع بدقة كما هو واضح لمن يتصفح هذا الكتاب. وقد ختم الكتاب من ص ١٩٨ فما بعدها بخلاصة في الادراك والتفكير واثر مدرسة جشتالت (علم النفس الانموذجي) فيها ، ولا ريب في ان عروج علماء السيكولوجيا والتربية الى هذا المنهج سيقلب طرائق التربية والتعليم ، والآراء السيكولوجية رأساً على عقب ، ويشرع يشيد الحقائق من جديد صرحاً حصيناً يقي العقل شعب الضلال في سيره في سبيل البحث عن اخفى ما طرقه الانسان من الابحاث من عهد ارسطوطاليس الى هذا اليوم

مصر حنا خباز

هوراس

اهدى الينا الدكتور احمد ضيف مدرس الادب العربي بدار العلوم ترجمة هوراس تأليف الشاعر الفرنسي الكبير بيير كورني Corneille وهي احدى الروايات التي اختارتها وزارة المعارف العمومية وعهدت في ترجمتها الى ادباء مشهود لهم بالعلم والفضل امثال خليل مطران ومحمد مسعود والدكتور ضيف واحمد الصاوي محمد . وان عجبنا لشيءٍ فعجبنا ان ترجمة هذه الروايات قد تمت وطبع بعضها او كلها ولم تتكرم وزارة المعارف علينا بنسخ منها لمراجعتها ولا عرضتها على الجمهور في المكاتب ليطالعها وما كنا نظن انها ترجمت وانفق على ترجمتها وطبعها لخزنها

حضارة مصر الحديثة

عني بنشره قسم الخدمة العامة في جامعة القاهرة الاميركية والتزمت طبعه المطبعة العصرية بمصر

يقول فردريك ليبلاي المهندس الفرنسي والاجتماعي الكبير في نظريته المشهورة ان كل شعب من الشعوب هو نتيجة التفاعل بين ثلاثة عوامل — المكان — العمل — السكان . وهذا ما دعا قسم الخدمة العامة الى الاهتمام بوضع كتاب (حضارة مصر الحديثة) الذي يدور حول نقطة واحدة ويبحثها من وجوه مختلفة. فيشمل هذا الكتاب اثني عشر موضوعاً روعي في ترتيبها قاعدة ليبلاي ومع انهُ لا يمكن تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً حرفياً الا أن جميع موضوعاته ترمي الى بيان تأثير هذه العوامل الثلاثة مجتمعة . فان حالة كل جماعة من الجماعات التي يتألف منها الشعب تتوقف الى حد كبير على المكان الذي يعيشون فيهِ أي طبيعة بلادهم وجوها ومواردها . أما طرق استغلال هذه الموارد أي العمل فانها تحدد نوع الاعمال التي تقوم بها الجماعة لكسب الرزق وهذه تؤثر في علاقة الجماعة بغيرها من الجماعات لاسيما اذا كانت التجارة أحد هذه الاعمال . غير ان العامل الاخير هو أهمها لانهُ الجماعة نفسها . أي السكان . فان سبيل ائتلاف الجماعة وطرق استغلال مواردهم ونوع الحضارة التي يعملون على ترقيتها انما تتوقف على مبلغ إدراكهم ونبوغهم

دخلت الحياة المصرية في عصر جديد منذ نشوب الحرب العالمية مما أدى الى اهتمام المصريين المتعلمين بأمر هذه العوامل الثلاثة التي يتوقف عليها تقدم البلاد في المستقبل . فكانت الشؤون الزراعية من زمن بعيد أهم ما يشغل بال المصريين. غير ان الشؤون الصناعية أخذت تنال قسطاً وافراً من العناية في عصرنا الحاضر وكذلك الاحوال التجارية التي يتوقف عليها رواج الزراعة والصناعة .ولم يكن اهتمام المصريين مقصوراً على الامور المادية فان الحالة الاجتماعية والفكرية عني بأمرها سواء ما كان منها متصلاً بحاجات الاهالي الاساسية كالمعيشة والصحة والتعليم ، او خاصًا بالتربية والتهذيب كاستعمالهم لاوقات الفراغ ، او آدابهم وفنونهم ودينهم. هذه الموارد المادية والعقلية تحتم علينا ان نبحث في الطرق التي تضمن نموها وتقدمها، وهذا البحث يثير امامنا عدة مسائل كالاميال العامة وتقدم انظمة الحكومة وعلاقتها بالامم الاخرى

فن الموضوعات الاثني عشر تتناول الثلاثة الاولى موارد البلاد المادية من زراعة (فؤاد بك اباظه) ومعادن (الدكتور هيوم مستشار قسم المساحة الجيولوجية) وتجارة وصناعة (الدكتور عبد الحكيم الرفاعي مدرس الاقتصاد بكلية الحقوق) . ثم يلي ذلك ستة موضوعات تبحث في حالة مصر الاجتماعية وكيفية تقدمها كعمل الفلاح والصانع (سلامه موسى) ، وانتشار الآراء في انحاء البلاد وتقدم المواصلات (اسماعيل محمود القباني المدرس بمعهد التربية) ، وحالة الاهالي الصحية (للدكتور محمد شاهين باشا) ، واستعمال اوقات الفراغ ، والحياة المنزلية (للدكتور

بهمان الطبيب بمستشفى الامراض العقلية) . وبعد ذلك تعالج الحياة الروحية التي تتمثل في أدب وفن مصر (للآنسة مي وقد نشرنا الجانب الاول منهُ في مقتطف هذا الشهر) ، والحياة الدينية (علي عبد الرازق) ، واخيراً تبحث ثلاثة موضوعات في التنظيم الاجتماعي . فيتناول الاول أثر التنظيم الاعتيادي ، العادة والرأي العام (للدكتور محمد حسين هيكل) . ويتناول الثاني التنظيم الرسمي بواسطة الحكومة (لاحمد بك صفوت رئيس محكمة شبين الكوم الاهلية). ويعالج الثالث العلاقات الدولية وأثرها في توجيه الحياة الاهلية (للاستاذ سابا حبشي المحامي)

هذه الموضوعات القيت في اثنتي عشرة محاضرة بدار يورت التذكارية في فبراير ومارس وابريل سنة ١٩٣٢

وكتب كلَّ موضوع منها متخصصٌ لهُ ومعروف بصحة البحث وسعة الاطلاع وطول الاختبار . وعليهِ سيكون كل موضوع مرجعاً وملخصاً لاحدث الحقائق والنظريات ويمتاز هذا الكتاب بانهُ من وضع المصريين الذين لا تشوب آراءهم صبغة أجنبية

وقد عالج كل محاضر موضوعه على طريقته في التفكير والاسلوب الذي ارتضاه ومن الواضح بناء على هذا ان المحاضرين غير متضامنين فيما تضمن هذا الكتاب من مختلف الآراء. وقسم الخدمة العامة يسره أن يعرض هذه الابحاث في حيدة تامة لان مهمته ان يسعى لتنشيط الفكر لا أن يسيطر عليهِ

والامل وطيد بأن يؤدي هذا الكتاب الى زيادة تفاعل العوامل الثلاثة — المكان — العمل — السكان ، وتقدم المرافق الوطنية وازدياد أثرها حتى ينعكس ترتيب النظرية فتصبح — السكان — العمل — المكان . أي أن السكان يصبحون العامل المسيطر في انتاج العمل بحسب ارادتهم وبكيفية تؤدي الى تحسين المكان وجعله جذاباً منعشاً وهو منتهى الفن الذي يتجلى في سلسلة الموضوعات حيث تظهر عبقرية مصر الحديثة وطموحها

ونذل كليلند
مدير قسم الخدمة العامة

علم النفس

لما استقلَّ علم النفس عن الفلسفة واستوى مع سائر العلوم على أساس تجريبي اتصل بشؤون الحياة العملية اتصالاً وثيقاً كالتربية والتعليم والصناعة والصحة والتجارة والآداب. وهو لحداثة عهدهِ كثير النظريات،وبعضها متضارب متناقض في الغالب . فالاستاذ مكدوجل في خطبة الرآسة التي خطبها في قسم علم النفس في مجمع تقدم العلوم البريطاني قال ان «القصد» Purposive striving مبدأ أساسيٌ في علم النفس . والدكتور وطسن الاميركي غالى في مذهب

السلوكيّة . والعلاّمة فرويد أخرج نظرية التحليل النفسي. وكوهلر وانصاره اوجدوا مايعرف بعلم النفس الانموذجي . كل هذه النظريات محاولات لفهم الحياة العقلية على صحتها وتفسير السلوك الانساني تفسيراً معقولاً منسجماً . فالقارىء العربي يرحب بكل كتاب جديد في هذه الناحية من المباحث العصرية ، وبوجهٍ خاص اذا كان من قلم كتّاب عالجوا الموضوع نظراً وعملاً ، درساً وتدريساً

فالكتاب الذي بين أيدينا جزآن . اشترك في وضع الجزء الاول منهُ الدكتور مظهر سعيد والاستاذان حامد عبد القادر ومحمد عطية الابراشي . وقد انفرد الاخيران في وضع الجزء الثاني . والثلاثة من خريجي مدارس انكلترا ومن مدرسي علم النفس في معهد التربية ودار العلوم وقسم التخصص بكلية أصول الدين في مصر

لما تعلمنا علم النفس ، تعلمنا القسم الفسيولوجي اولاً وعلى حدةٍ ، اما مؤلفو هذا الكتاب فقد أحسنوا بجعل الناحية الفسيولوجية من البحث تابعة لكل موضوع من موضوعات الكتاب ، بحيث تجيء في ترتيب طبيعي مع المسائل السيكولوجية المجرّدة التي يشتمل عليها الفصل . خذ مثلاً موضوع « الحواس والاحساس » فبعد بيان مقام الاحساس في الذهن الانساني في ست صفحات او سبع يبسط موضوع الحواس من الناحية الفسيولوجية فتذكر انواع الاعصاب ثم اعضاء الحس الخاصة كالعين والاذن والانف وغيرها . ثم يلي ذلك فصل في الادراك الحسي Perception وما يتفرع عنهُ من خداع الحواس — وتفسير الاسباب التي قد تبعث عليهِ كتوقع الشيء او التسرع في الحكم او الجهل او قصر النظر او ضعف الملاحظة او الاستهواء — والتوهم والخبل . ثم يعالجان نشأة الادراك الحسي ووظيفتهُ — هي معرفة البيئة الحقيقية التي تحيط بالانسان معرفة تامة — وغير ذلك من الموضوعات النظرية والعملية التي ينطوي عليها هذا الموضوع . وفي آخر هذا الفصل تعليمات موجّهة الى المدرّس مبنية على الحقائق التي قرّرت في بحث الادراك الحسي ، ويلي ذلك فصل آخر في انواع المدركات الحسية العليا كالابصار والسمع ، والدنيا كاللمس والذوق والشمّ . فانت ترى ان جانباً كبيراً من الجزء الثاني محصور في بحث الحواس والاحساس والمدركات الحسية . ولا بدع في ذلك فالحواس « أبواب المعرفة » وهي الركن الاول في حياتنا العقلية وسلوكنا

***

ومن فصول الكتاب الاخرى « الاختبارات العقلية » و « الانتباه والتشويق » و « الملاحظة » و « تداعي المعاني » و « التذكر والنسيان » و « التصوّر والتخيل » وهي مرتبة بحسب مستويات عنصر الادراك ـ اي مستوى الادراك الحسي ـ مستوى الادراك الكلي المعنوي ـ والمستوى الفلسفي

الضاحك الباكي

تأليف فكري أباظه — مطبعة الهلال — صفحاته ٢١٣ قطع وسط

هذا الكتاب صفحة من حياة مؤلفه . بل هو صفحة من حياة الشباب المصري في العهد الاخير كيف يهوى ويتألم ويثور ويخوض معركة السياسة ويبحث عن الزوجة الفاضلة بالوسائل القاصرة فلا يهتدي. كتبه الاستاذ أباظه ترجمة لنفسهِ منبهاً في مقدمتهِ الموجزة على ان «كلّ ما في الكتاب قد وقع فاقرأوه على انهُ حقيقة»، وانت اذا شرعت تقرأهُ سواء احسبتهُ من وضع الخيال او من نسج الحقيقة استهواك ما فيهِ من سرد أخّاذ للحوادث ومن جرأة في نقد الشؤون الاجتماعية والسياسية ومن تحليل صائب لحبّ الرجل دون حبّ المرأة على ما نرى . والاستاذ أباظة متصف بما يعرف عند الانكليز Sense of humour اي انهُ رحيب الصدر يقبل النكتة تقال فيه ، بل هو يقولها في نفسهِ ، وهذا أساس خفة الروح . فالكتاب مصريٌّ في إلهامهِ وروحهِ ، مصريٌّ في موضوعهِ وجوّهِ . وهاتان ميزتان لا نغلو اذا قلنا انهما حسبهُ

واحة سيوه

كان المصريون الاقدمون يسمّون هذه الواحة سخت أم اي ارض النخل وهي على ٣٥٠ ميلاً من القاهرة في جهة الغرب بميل الى الجنوب. وعلى عشرة اميال منها في جهة الشمال الشرقي واحة صغيرة اسمها واحة الزيتون وفي الغمقة كلها سلسلة من الواحات الصغيرة. والرسالة التي امامنا وضعها الدكتور حسين علي الرفاعي مدير قسم النشر والترجمة بمصلحة التجارة والصناعة على أثر زيارتهِ الى سيوه في أكتوبر الماضي وقد بسط تاريخها القديم الى عهد محمد علي ثم من عهد محمد علي الى العهد الحاضر . ثم تناولها من نواحي جغرافيتها وحكمها وحالتها الاجتماعية والاقتصادية — فذكر في الفصل الخامس وهو الخاص بحالتها الاقتصادية نظام الريّ فيها وانواع الزراعات كالبلح والزيتون، والحبوب — كالقمح والشعير والاذرة العويجة — والخضر والقطن . ثم تناول نظام الملكية العقارية فيها ومعاصر الزيتون والنجارة والحدادة وصناعة الخوص وصناعة الجبب والصياغة وطحن الغلال . ثم بحث الموضوع من ناحيتهِ التجارية واسباب المواصلات فذكر تجارة البلح وتجارة الزيتون وتجارة الحبوب ثم فصل موجز في وسائل اصلاح الواحة. والبحث كلّهُ يشهد للمؤلف بشدة الملاحظة واصالة الرأي وتنظيم الفكر

تطور الصناعات في مصر

وهذا بحث آخر للدكتور حسين علي الرفاعي نشرهُ مقالات متسلسلة في مجلة الصناعة والتجارة وتناول تطور الصناعة في مصر من ايام الفراعنة الى عهد اليونان والرومان الى عهد العرب والمماليك . ثم زاد البحث تفصيلاً اذ تكلم على الصناعات المصرية في العصر الحديث ، اي من عهد الحملة الفرنسية الى عهد جلالة الملك فؤاد

مطبوعات جديدة

﴿ الكوخ الهندي ﴾ تأليف الكاتب الفرنسي الكبير برناردين ده سن بيير وقد نقلها الى العربية الشاعر الاديب الياس ابو شبكه وطبعتها مكتبة صادر ببيروت . ثمنها خمسة فرنكات خالص اجرة البريد

﴿ بولس وفرجيني ﴾ هذه الرواية من اشهر مؤلفات برناردين ده سن بيير وقد نقلها ابو شبكة واخرجتها مكتبة صادر ببيروت . ثمنها ثمانية فرنكات خالصة اجرة البريد

﴿ العاصفة ﴾ تأليف شكسبير وتلخيص وتبسيط كامل كيلاني . فرغ المؤلف من سلاسل القصص والحكايات التي وضعها للاطفال — وقد اشرنا اليها قبلاً في هذا الباب — فعمد الآن الى اشهر روايات شكسبير التمثيلية يلخصها ويبسطها ويزينها بالصور . فبدأ باختيار العاصفة وفعلاً أجاد في تحقيق الغرض الذي تصدّى لهُ . ومما هو جدير بالذكر ان حسن تقسيمه للرواية وتزيينها بالصور لا بدّ ان يحمل القارىء الكبير — دع عنك الصغير — على الشغف بمطالعتها

﴿ أهم آثار دمشق ﴾ بحث أثري فني وضعهُ الخوري الاسقفي بطرس جواد صفير أحد مدرسي اللغات الشرقية في كليات ايطاليا، ونشرهُ في سلسلة مقالات في مجلة القربان من اكتوبر سنة ١٩٢٩ الى يناير ١٩٣١ . والبحث يشمل أهم الكنائس الاثرية في دمشق والجامع الاموي وقصر العظم وقصر الملك العادل والمتحفين الفرنسي والعربي

﴿ مبادىء الاشتراكية ﴾ كتيب في ٦٤ صفحة من القطع الصغير وضعهُ عصام الدين ناصف وبين فيهِ مبادىء الاشتراكية وعلاقتها بالمذاهب الاجتماعية الاخرى ، وأصول فلسفة ماركس وصلة الاشتراكية بالسلام، وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية والعمرانية التي تنطوي تحت اصلاح الاجتماع من ناحية التعاون وازالة الفروق بين الطبقات

﴿ رحلة اكسبرس ﴾ وهو حديث رحلة رحلها الصحافي العجوز (توفيق حبيب) مع المستر اتول مدير جمعية الشبان المسيحية سابقاً في الاسكندرية ونفر من اعضاء الجمعية الى استانبول فقضوا في الرحلة ذهاباً واقامة واياباً عشرين يوماً . والمؤلف دقيق الملاحظة وخاصة في الشؤون الاجتماعية ، وملاحظاته كلها جديرة بالنظر . وقد أجاد حيث قال انهُ لم يكن يحمل « بيدكر » للارشاد فالخطرات التي دوّنها هي خطرات عابر سبيل ، ولكنها حافلة بفوائد تشعُّ منها خفة الروح

﴿ طريقة منسي ﴾ وهي الطريقة التي ابتدعها احمد ابو الخضر منسي لتعليم اللغة الفرنسية برسم كلماتها بحروف عربية ووضع مفتاح لاجادة لفظ الكلمات المكتوبة بالحروف العربية . وقد اتمت هذه الجريدة السنة الاولى من عمرها . وكل عدد منها يشتمل على مفردات المحادثات ومختارات تهم طلبة الكفاءة والبكالوريا وتطلب من الباعة والمكاتب

باب الأخبار العلمية

المجرات الكبرى

تضاف كلمة «سوبر» في اللغة الانكليزية الى الاسم فتدل على انهُ بلغ منزلة فوق المنزلة التي هو فيها او انهُ بلغ المنزلة العليا. « فالسوبر دردنوط» بارجة تفوق الدردنوط «والسوبرمان» انسان يفوق الانسان الحالي في قربهِ من الكمال. وقد يقصد بهِ الانسان الامثل. وقد تضاف الى الفعل او الى النعت فتضيف اليهما معنى السموّ او التفوّق

خطب الاستاذ شابلي الاميركي وهو من كبار علماء الفلك المعاصرين فقال انهُ لا بدّ من استعمال لفظ جديد في علم الفلك هو «السوبر جلكسي» «والجلكسي» هي المجرّة. ولا يخفى ان الارض جزءٌ من النظام الشمسي. وان النظام الشمسي بشمسهِ وسياراتهِ — وأقمارها — ونجيماتهِ ومذنباتهِ جانب من مجموعة من الانظمة الشمسية والنجوم المزدوجة والكتل النجمية Clusters والسدم على انواعها — الا السدم اللولبية — وان هذه المجموعة تعرف بالمجرّة. وان خارج المجرّة مجرّات اخرى تماثلها بناءً وهي منثورة في رحاب الفضاء، وان اقرب مجرّة الينا سديم المرأة المسلسلة فهو يبعد عنا نحو ٨٥٠ الف سنة ضوئية. وكان الظن ان هذه المجرّات او السدم اللولبية هي اكبر اقسام الكون المادي. ولكن الاستاذ شابلي يرى الآن انهُ كما تزدوج النجوم احياناً، تزدوج المجرّات فالنظام المكوّن من مجرّتين تفصل بينهما مسافة اقل من قطر احداهما يدعى «سوبرجلكسي» ويصحُّ ان يسمّى «المجرّة الكبرى»

خواء الكون

ونحن اذا نظرنا الى الكون في ليلة صافية الاديم ورأيت السماء مزدحمة بالنجوم، تعذر علينا ان نصدق قول من يقول بأن الخواء غالب على الكون. ومع ذلك فكل علماء الفلك والطبيعة يقولون هذا. فالمادة التي في الفضاء اذا قيست الى سعة الفضاء كانت أقل من المادة في اتم فراغ يستطيع ان يحدثهُ الانسان. ومن العبث تصوير خواء الكون بارقام قريبة من التصوُّر

فالمادة التي في الفضاء الكائن بين المجرّات تبلغ ١٠^-٣٠^ من الخواء في السنتمتر المكعب او هي جزءٌ من ......و......و......و...... ٠٠٠٠٠٠و١٠ من الغرام وهذا الخواء يقابل فناء محطة القاهرة حيث تقف قطارات الاسكندرية وبور سعيد وغيرها، وقد افرغ داخلهُ من كل أثر مادي الا ثلاث حبّات من الرمل !

غبار الكون المظلم

وقد تعوَّد العلماء في كل حديث عن المادة التي في رحاب الكون ان يفرقوا بين المادة المضيئة والمادة المظلمة . وما هي هذه المادة المظلمة ؟ هي رماد النجوم التي فقدت طاقتها أو هي المادة التي لم يتح لها ان تتحد فتتكون منها نجوم او هي بقايا المذنبات او نفايا ايّ جسم آخر من الاجسام السماوية

وقد عرف العلماء من أيام هرشل بوجود هذه المادة. اما تقدير مقدارها في رحاب الفضاء فامر معقَّد .ولكن الاستاذ ستبنز Stebbins والدكتور هفر من علماء مرصد وشبرن الاميركي حاولا حلَّها بالسبكترسكوب. فكل ملمّ بمبادئ الطبيعة يعلم ان الغبار لهُ أثر في تحويل لون الضوء الذي يمرُّ في خلاله الى الاحمر لذلك يُرى لون الشفق ورديًّا وقانياً في بعض الاحيان . فاذا فحصنا ضوء النجوم لمعرفة درجة الاحمرار فيها ، وجدنا بحسب قول الدكتور ستبنز حمرة شديدة تحول دون رؤيتنا قلب المجرَّة . والى هذا الغبار الكوني يسند « الحيود نحو الاحمر » red-shift الذي يُرى في طيوف المجرَّات . فنحسبها بمقتضى قانون دبلر ، دليلاً على ابتعاد المجرَّات عنا، وابتعادها بعضها عن بعض ، بسرعات لا يتصورها العقل

ضوء النجوم ووزنها

اثبت ادنغتُن سنة ١٩٢٤ برسالة ان لمعان نجم من النجوم يتوقف على كتلتهِ . وهذا مبدأ يجري عليهِ الفلكيون فيقدرون وزن نجم من النجوم اذا عرفوا لمعانهُ ، تقديراً يكون قريباً من الصحة . فاذا عرفت ان وزن نجم من رتبة وزن الشمس عرفت ان لمعانهُ من رتبة لمعانها . واذا عرفت ان لمعان نجم آخر من رتبة لمعانها خلصت الى القول بحسب هذا المبدإ الى ان وزنه من رتبة وزنها . وقد صرَّح الاستاذ رسل استاذ الفلك بجامعة برنستن والرئيس المنتخب لمجمع تقدم العلوم الاميركي انهُ امتحن ٥٦٠ نجماً مزدوجاً فوجد ان العلاقة بين اللمعان والوزن التي استنبطها ادنغتن تنطبق عليها جميعها

اينشتين في فرنسا

على أثر الاحتجاج الذي نشرهُ اينشتين على معاملة اليهود في المانيا صودرت امواله في احد بنوك برلين واستقال من اكادمية العلوم البروسية فلم تعرب الاكادمية عن اسفها لاستقالتهِ وقيل انهُ سوف يتخلى عن جنسيتهِ الالمانية ويتخذ الجنسية السويسرية . وقد طلب اليهِ ان يتقلَّد منصب استاذ في «كوليج ده فرانس» فقبل ذلك

اقصى سرعة السيارة

بلغت سرعة السر ملكم كمبل بسيارتهِ « العصفور الازرق » ٥٦‚ ٢٧٢ و من الميل في الساعة في شوطٍ طولهُ ميلين وذلك في ٢٣ فبراير الماضي على شاطىء ديتونا بالولايات المتحدة الاميركية

الاثير ايضاً

مضى على العالِم الاميركي دايتُن ملَر الاستاذ بمدرسة كايس للعلم التطبيقي بضع سنوات وهو يحاول ان يبرهن على وجود الاثير — وهو الوسط الذي فرض وجودهُ لنقل امواج الضوء والحرارة والامواج اللاسلكية . وقد كان الاثير في نظر علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر امراً لا مندوحة عنهُ . ولا تزال فئة قليلة من غلاة المحافظين في العلم وعلى رأسهم السر الفرلدج مقتنعة بوجوده وتكافح عنهُ . والاستاذ ملر احد رجالها

فاذا كان للاثير وجود حقيقي وجب ان يعرف ذلك من معرفة حركة المجموعة الشمسية المطلقة في الفضاء . وقد ثبت من تجربة ميكلصن مورلي التي وُصفت في المقتطف ان معرفة هذه الحركة المطلقة متعذِّرة وان النتيجة اللازمة عن ذلك نفي الاثير . وقد بنى اينشتين على هذه النتيجة جانباً من نظرية النسبية ومن اركانها تعليل الظاهرات الكونية من دون فرض الاثير . ولكن الاستاذ ملَر تابع تجاربهُ ودقق فيها وهو يقول انهُ تمكن من معرفة حركة المجموعة الشمسية المطلقة وان سرعتها ١٢٩ ميلاً في الثانية وانها متجهة الى نقطة في صورة دورادو — وتعرف كذلك بصورة سيَّاف البحر Sword-fish وهي من الصور الجنوبية — ومباحثهُ في هذه الناحية اقنعتهُ بوجود الاثير . اما وكثرة العلماء مجمعة على نفي وجود الاثير ، فالغالب ان الاستاذ ملَر سوف يلقى صعوبة في اقناعهم برأيهِ وبوجه خاص لان الفلكي كبتين — المتوفى من عهد قريب — يخالف الاستاذ ملَر في النقطة التي تتجهُ اليها المجموعة الشمسية

الاشعة الكونية

كان زمن وكان الدكتور ملكن يعتقد ان الاشعة الكونية الواصلة الى الارض تبلغ نحو عشر الاشعاع الواصل الى الارض من جميع النجوم . ولكنه يقول الآن انهما متعادلان . ويؤخذ من تجاربهِ الحديثة في قياس قوة الاشعة الكونية بواسطة بلونات حلقت الى علو عشرين ميلاً حاملة ادوات القياس ان الاشعة مزيج من الامواج . وما يحسبهُ العلماء الآخرون الكترونات يفسره ملكن بأن الاشعة الكونية الصحيحة تمزق بعض ذرات الهواء اذ تدخل جوّ الارض فتطير منها الكترونات وبروتونات سريعة ، يحسبها بعض الباحثين انها الاشعة الكونية نفسها . ومن هنا نشأ الخلاف بين ملكن القائل بأن هذه الاشعة امواج وبين القائلين بأنها الكترونات . وهو يرى ان الاشعة الكونية الاصلية الصادرة من اعماق الفضاء هي فوتونات او تموجات كهربائية مغناطيسية بالغة حد القصر

الازمة والعلم

من آثار الازمة الاقتصادية في الولايات المتحدة الاميركية ان الشركات الصناعية الكبيرة التي لها معامل خاصة بالبحث العلمي

تخلّت عن طائفة كبيرة من العلماء الذين كانوا يشتغلون في هذه المعامل . ويدلُّ الاحصاء الذي عمل في ٥٠٠ شركة صناعية انها كانت تستخدم في معامل البحث العلمي التابعة لها ٢٣٧٣٣ عالماً وباحثاً سنة ١٩٣٠ فانقصتهم الى ٩٦٨٢ في آخر سنة ١٩٣٢ اي ان نحو ١٢ الف عالم أصبحوا من العاطلين بسبب الازمة او انهم تحوّلوا من البحث الى فروع اخرى من العمل لا تتفق مع إعدادهم العلمي

البرد الشديد وايصال الكهربائية

اخذ الاستاذ جوتز لفة من سلك الرصاص طولها ثلاثون قدماً وغمسها في هليوم سائل — ودرجة برده قريبة جدًّا من درجة الصفر المطلق — ففقد الرصاص كل مقاومة لسير التيار الكهربائي فيهِ . وظل كذلك نحو ثلث ساعة . هذه الظاهرة الطبيعية الجديدة — وقد اشرنا اليها قبلاً — من الموضوعات التي تهم العلماء ورجال الصناعة سواسية. لان التيار الكهربائي يفقد جانباً كبيراً من طاقتهِ بسبب المقاومة التي يلقاها لدى سيرهِ في الاسلاك المعدنية حتى افضلها ايصالاً للكهربائية. ولعلَّ البحث في هذه الناحية يسفر عن استنباط خليط معدني جديد تكون مقاومتهُ للتيار الكهربائي طفيفة فيسهل سير التيار فيهِ ، فيرخص سعر التيار ويكثر استعمالهُ

مجمع تقدم العلوم البريطاني

يعقد مجمع تقدم العلوم البريطاني اجتماعهُ السنوي في مدينة لستر بانكلترا في الاسبوع الواقع بين ٦ — ١٣ سبتمبر وتعقد الرآسة للسر فردرك جَوْلَند هبكنز رئيس الجمعية الملكية وصاحب المباحث الطريفة في موضوع الفيتامين ، وينتظر ان يدور موضوع خطبتهُ حول « الحياة من ناحيتها الكيمائية »

جامعة زوريخ

احتفل في ٢٨ ابريل الماضي بانقضاء مائة سنة على جامعة زوريخ فحضر الاحتفال مندوبو الجامعات والجمعيات العلمية من أنحاء الارض وقد كانت جامعة زوريخ يوم تأسيسها تشتمل على ٢٣ استاذاً و ٢٣ محاضراً و ١٦١ طالباً. اما اليوم فاساتذتها يبلغون المائة ومحاضروها تسعون وطلاّبها يربون على الالفين . ومن أشهر الذين تعلموا وعلّموا فيها في العصر الحديث العلاّمة اينشتين

اضطهاد العلماء اليهود

ليس موضوع ثورة النازي بزعامة الهر هتلر في ناحيتها السياسية من موضوعات المقتطف ولكن المعاملة التي يلقاها العلماء اليهود في المانيا امر يتمعض لهُ رجال الفكر في كل البلدان . فقد استقال الاستاذ جيمس فرانك الذي اقتسم جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٢٠ مع الاستاذ هرتز ، من منصب أستاذ الطبيعة في جامعة غوتنجن . وتلاهُ الاستاذ هابر مدير معهد القيصر وليم للطبيعة والكيمياء في برلين ومكتشف طريقة تثبيت نتروجين الهواء التي مهدت السبيل لصنع سماد النترات الصناعي. واستقال من المعهد نفسهِ الاستاذ

فرويدلنخ صاحب المؤلفات النفيسة في الكيمياء الغروية والاستاذ بولاني Polanyi المشهور بمباحثه في الكيمياء الطبيعية. وقد جاء في نايتشر ان أثر اليهود في حضارة البلدان الاوربية أثر لا ينكره إلا المعاند في الحق. ولا ريب في ان خسارة المانيا لهؤلاء العلماء على أثر خسارة اينشتين وغيرهم من أرباب العلوم والفنون لا تعوَّض بمال

الوان عيون الاطفال

لقد نقض القول الشائع بان اللون الازرق هو الغالب على عيون الاطفال لدى ولادتهم مع انهُ قد مضى زمن واكبر علماء الوراثة والفسيولوجية يقولون بهذا

ولكنَّ الدكتور بيسلي الاستاذ بجامعة جُنْز هُبْكِنْز الطبية لم يسلم بالقول ولا نقضهُ إلا بعد بحث مستفيض ففحص عيون خمسمائة طفل لدى ولادتهم بنور كشاف قوي فاثبت ان هذا القول لا يقوم على أساس. فقد ثبت لهُ ان اللون الغالب على عيون ٧٧ في المائة من الأطفال البيض و ٣ و ٩٩ في المائة من الاطفال السود كان اللون البنيّ. ولم يجد إلاَّ ٢٨ طفلاً من ٤٥٥ طفلاً عيونهم زرق. ووجد كذلك ظلالاً مختلفة من الالوان في بعض العيون من بنّي مصفرّ الى بنّي محمر الى عيون خضر وعيون بنفسجية وعيون رمادية الى عيون مخططة واخرى مرقشة واخرى مشععة (أي فيها خطوط تخرج من البؤبؤ وتتجه الى محيط الانسان فهي أشبه بالاشعة المنطلقة من جسم مضيء)

الامبراطورية البريطانية والعلم

للاستاذ هلدين: انا ابن الامبراطورية البريطانية، وهي تشتمل على بلدان الدومنيون العظيمة. ان أصدقائي المتعالمين يقولون أن بلدان الدومنيون لم تنتج آثاراً عظيمة في الفن والادب. انها عملت على الاقل عملاً فذًّا. ففي زيلاندا الجديدة ينتظر للطفل لدى ولادته ان يعيش ستين سنة وفي استراليا ٥٧ سنة وفي الدنمارك ٥٦ سنة. اما انكلترا فتأتي في المرتبة الرابعة. ولقد عنيت بلدان اخرى بعد الحرب في مكافحة الامراض وتقوية الصحة العامة وتقليل الوفيات، فزاد فيها متوسط الحياة، ولكن ما زالت زيلاندا الجديدة واستراليا في مقدمة الصفوف. فأنا فخور بأن أكون من امبراطورية احرزت القصب في مكافحة الموت

حقائق متفرقة

يرتدُّ اول استعمال للمفرقعات في التعدين الى سنة ١٦٢٧

تدل المباحث النفسية في جامعة كاليفورنيا على ان المفكر البطيء ليس بالضرورة ضعيف العقل

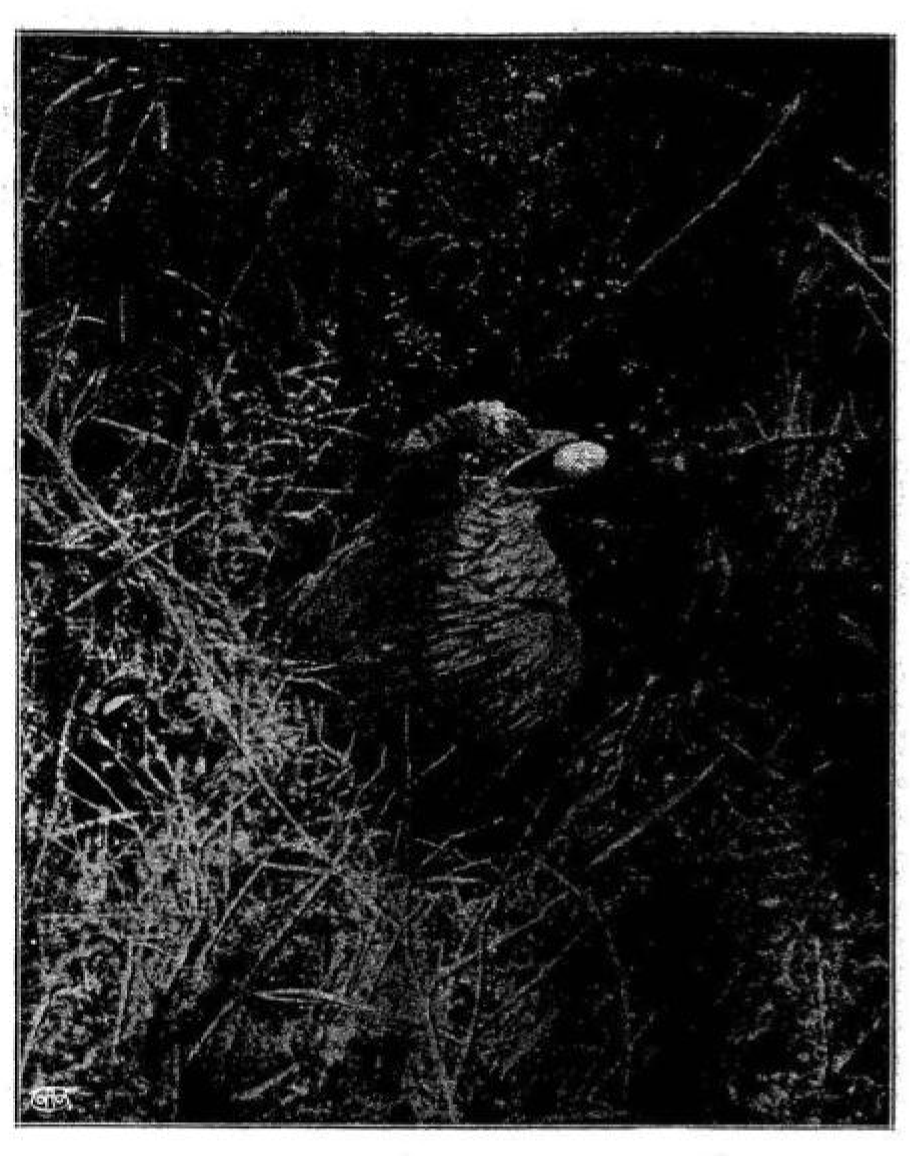
كان المذنب العظيم الذي ظهر سنة ١٨١١ اكبر من الشمس

تدل التجارب ان لون الزبدة المصفرّ يتأثر بما تأكله البقرة اكثر مما يتأثر بسلالتها

يقول أحد العلماء الفرنسيين ان جو مدينة ليون أشدُّ قتاماً الآن مما كان عليهِ من نحو اربعين سنة. وقد وصل الى هذه النتيجة من الموازنة بين مدونات المقاييس الجوية المحفوظة في المدينة



(شكل ٢) جانب من مدخل كوبري الخديوي اسماعيل الجديد
الذي ينتظر افتتاحهُ في ٦ يونيو



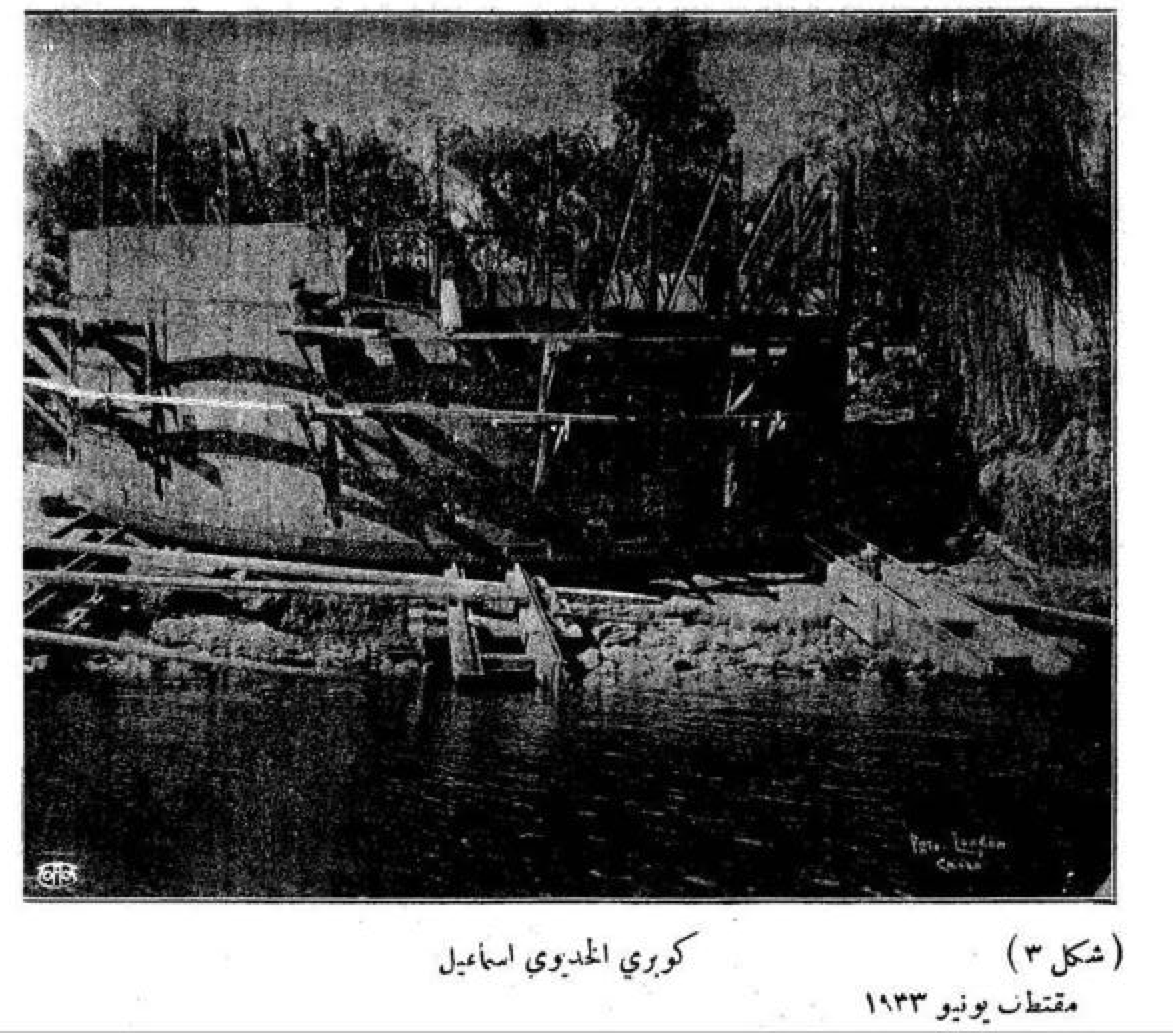
أنثى الوقواق تنزل في عش طائر آخر وترفع منه بيضة
ثم تضع بيضتها فيه وتنصرف



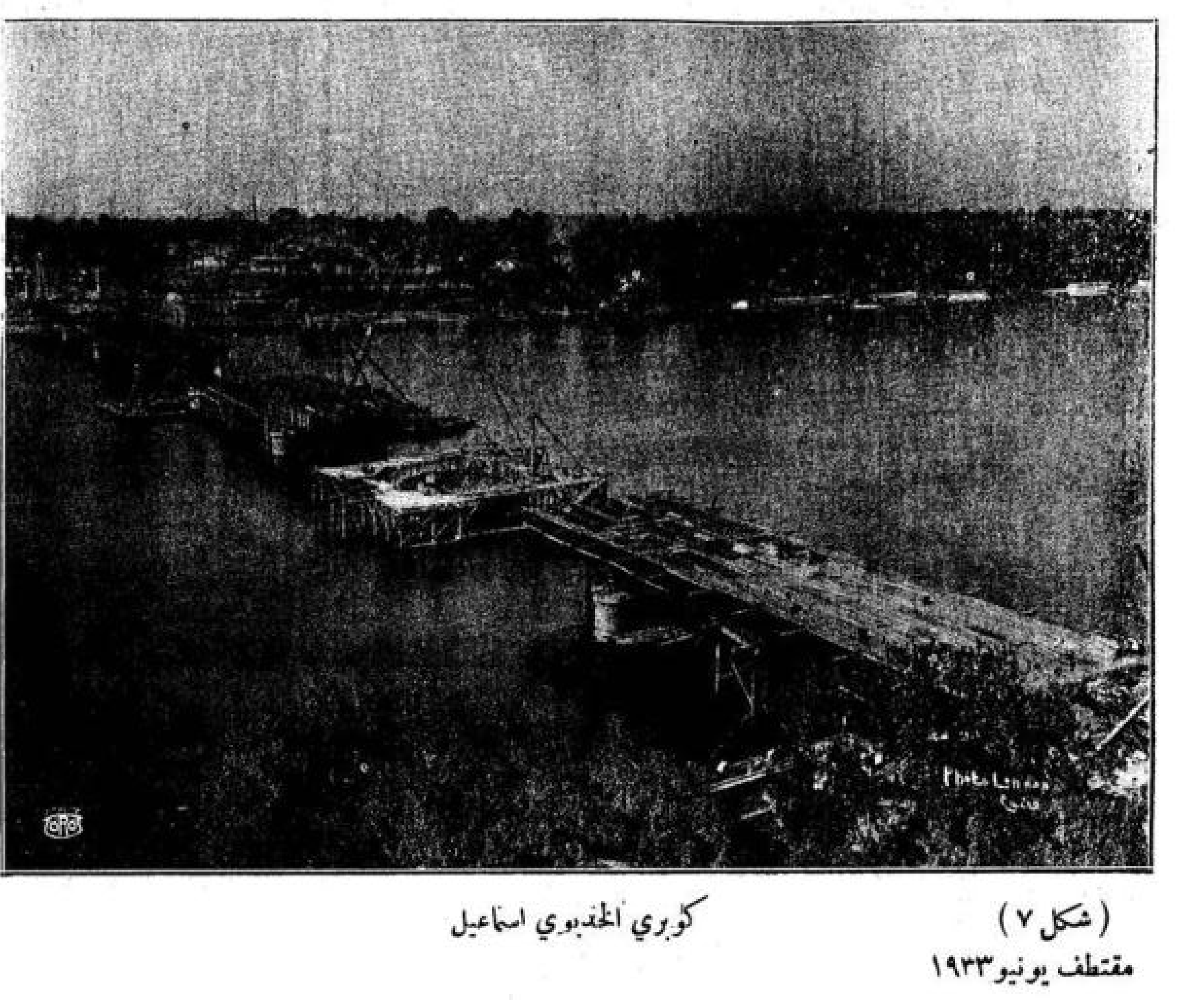
الطائر الكبير هو فرخ الوقواق والذي يزقهُ هو الطائر الذي نشأ في عشهِ

امام صفحة ٥

بمقتطف يونيو ١٩٣٣



(شكل ٣) كوبري الخديوي اسماعيل



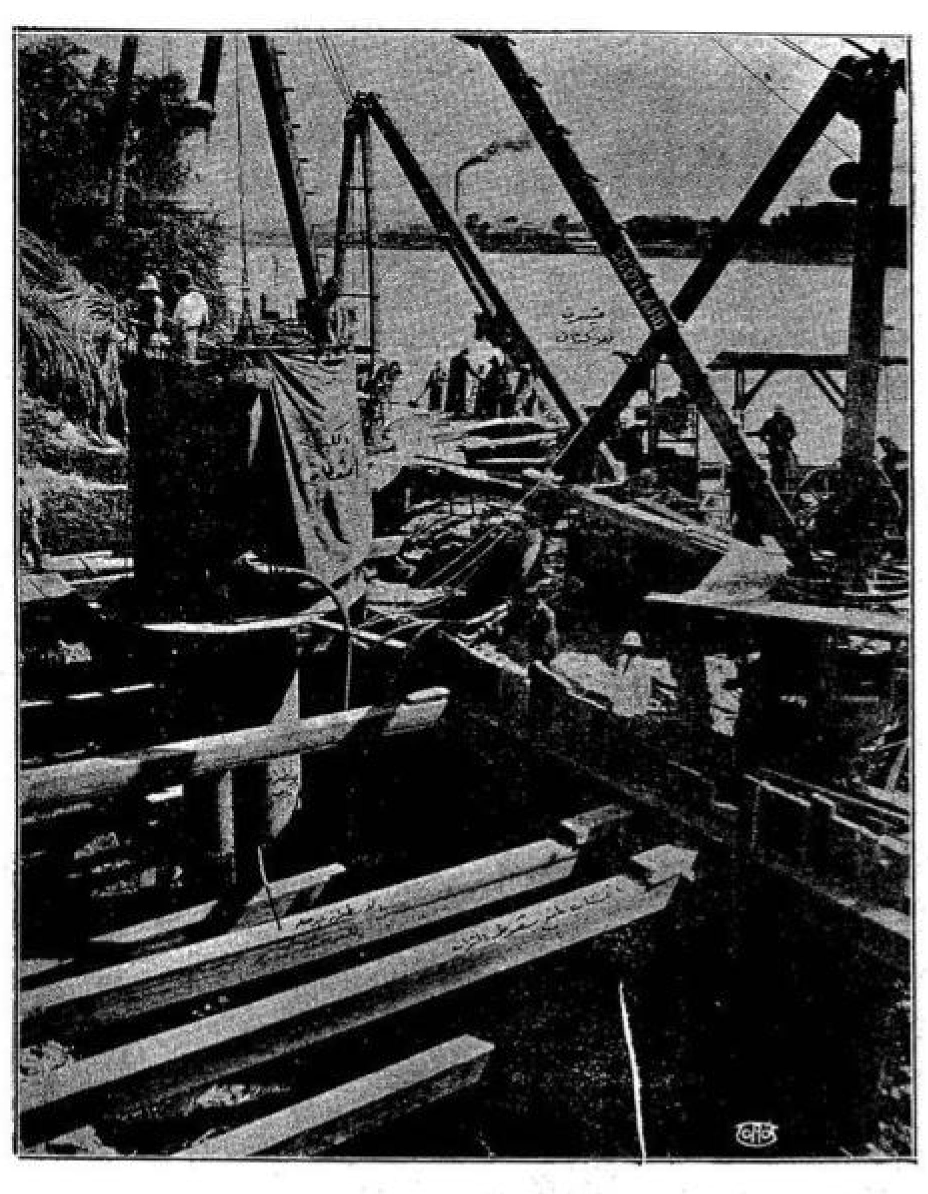
(شكل ٧) كوبري الخديوي اسماعيل

مقتطف يونيو ١٩٣٣



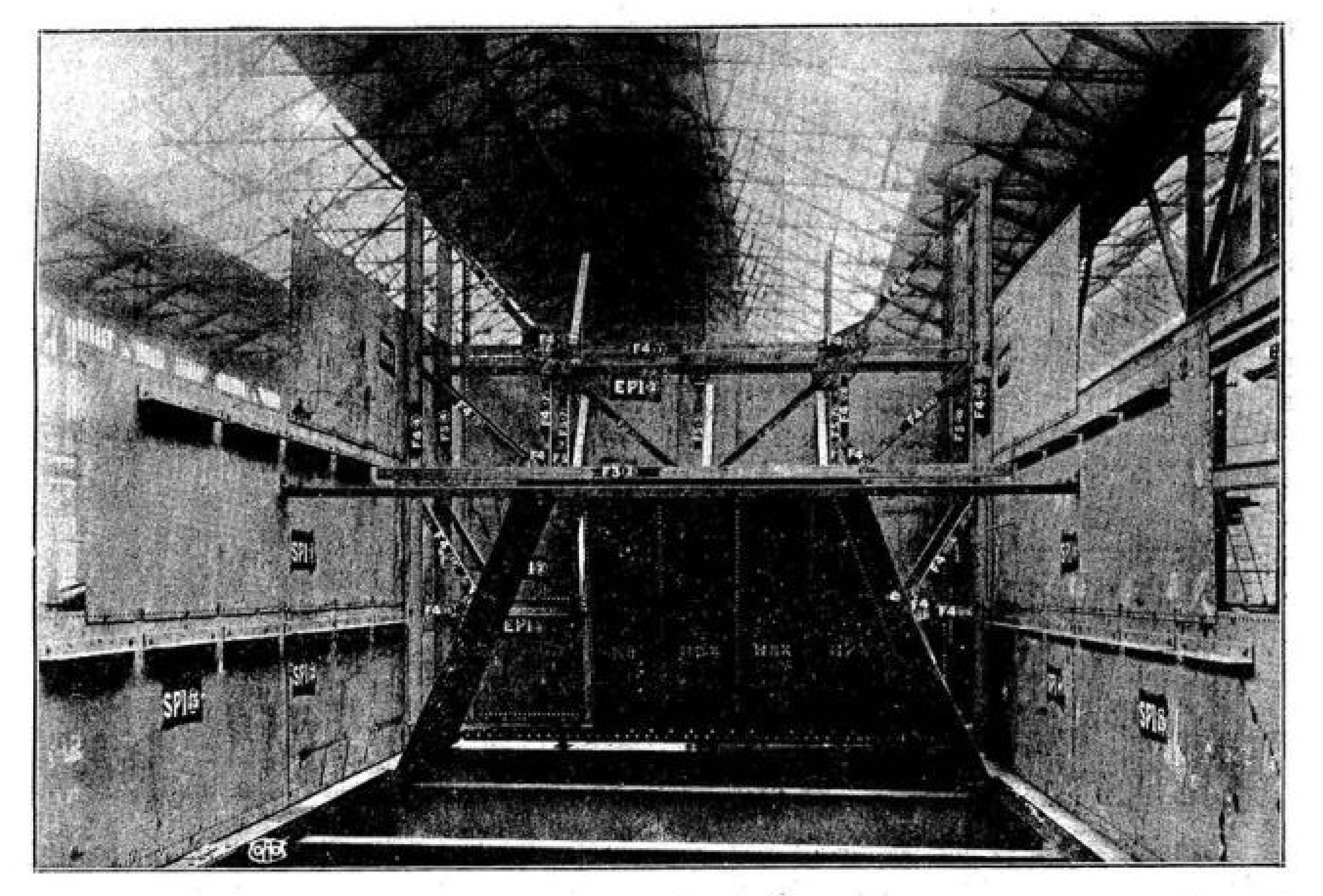
(شكل ١) كوبري الخديوي اسماعيل

مقتطف يونيو ١٩٣٣



(شكل ٦)　　كوبري الخديوي اسماعيل

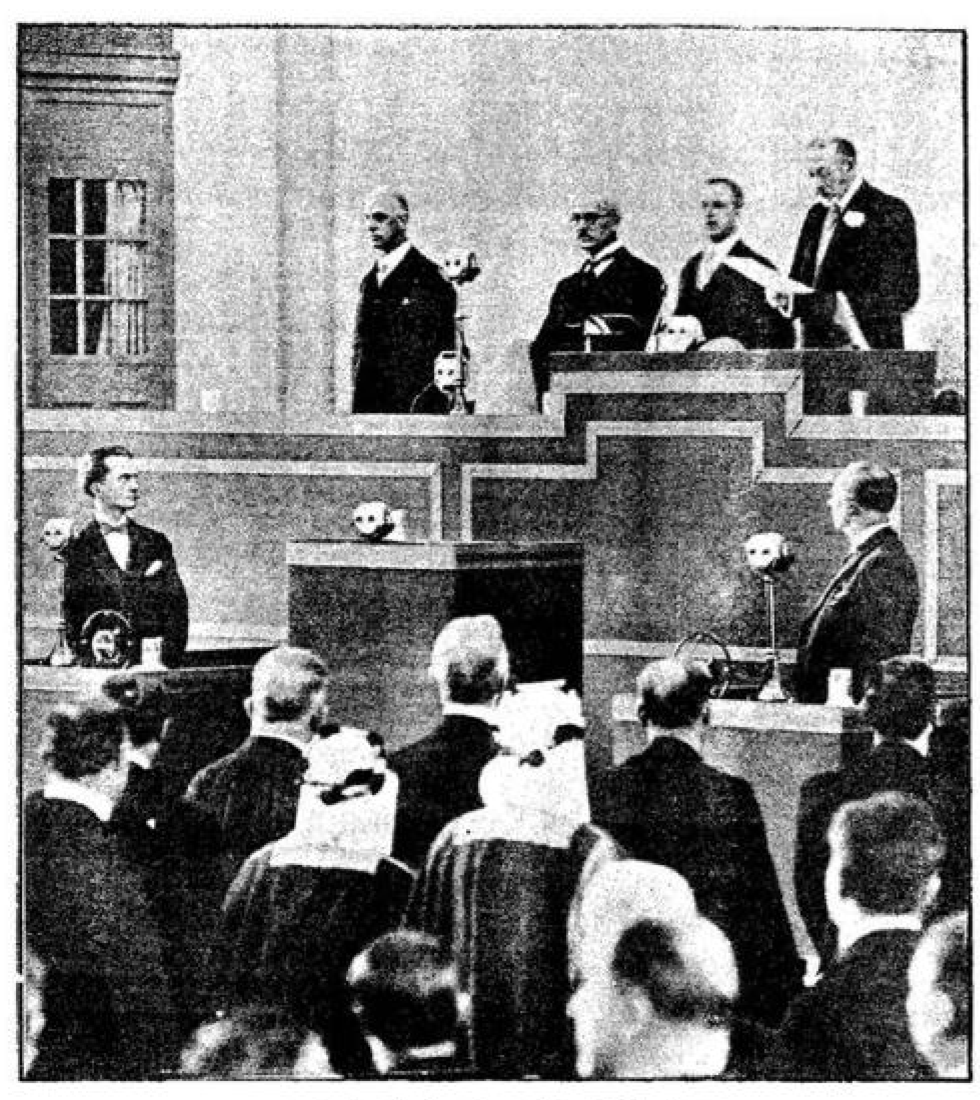
مقتطف يونيو ١٩٣٣



(شكل ٤) كوبري الخديوي اسماعيل

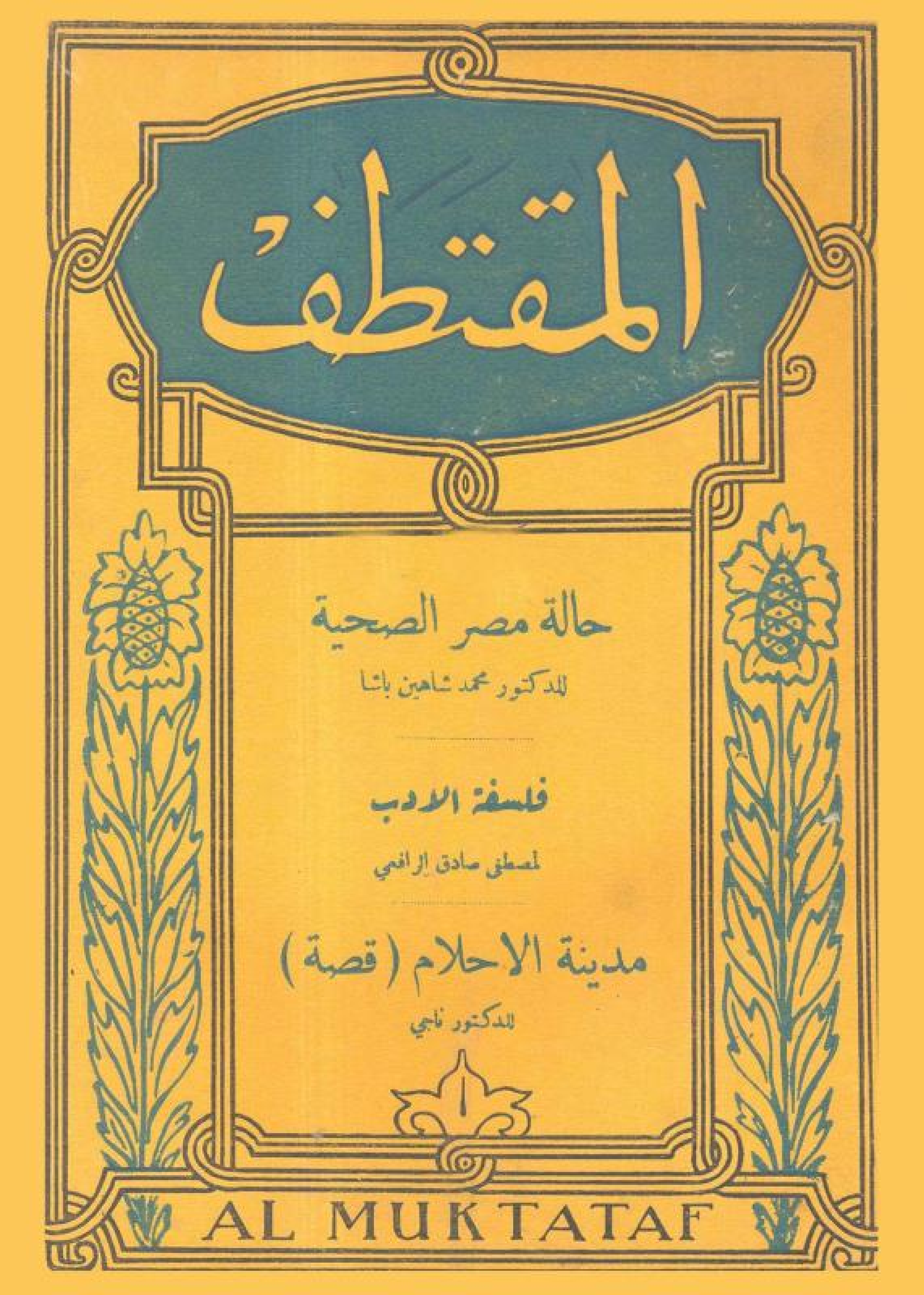


الطيارة فوق جبل اڤرست



افتتاح المؤتمر الاقتصادي العالمي في لندن
جلالة الملك جورج الخامس يلقي خطبة الافتتاح

الجزء الاول من المجلد الثالث والثمانين


المقتطف
حالة مصر الصحية
للدكتور محمد شاهين باشا
فلسفة الادب
لمصطفى صادق الرافعي
مدينة الاحلام (قصة)
للدكتور ناجي
AL MUKTATAF

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد الثالث والثمانين

١ يوليو سنة ١٩٣٣ — ٨ ربيع الاول سنة ١٣٥٢

مصير العالم الاقتصادي

اي السبيلين نختار

اصلاح النظام الرأسمالي او القضاء عليهِ

يقف الناس اليوم ، وهم في غمرات ازمة طاحنة ، مرتابين مترددين لا يدرون اي السبل يسلكون . اما القلائل الذين لا يزالون يظنون انهُ لا بدَّ للعناية من اصلاح الحال ، وان ذلك لا يقتضي من جانب الناس اي سعي يبذل، فيصحُّ ان نمرَّ بآرائهم مرَّ الكرام ، اذ يعرف القراء مما نشرناه في الشؤون الاقتصادية ، ان اسباب الازمة متغلغلة في صميم نظامنا الاقتصادي . فلا يمكن لازالتها القعود مكتوفي الايدي بانتظار العون الالهي ، بل لا يصلح الآن الاَّ السعي الحازم المقرون بالمعرفة والتعاون . والعالم في شديد الحاجة الى خطط عملية توضع بالاتفاق وتنفذ بالاشتراك الدولي ، حتى يستطيع الخروج من كهف الظلمة الى طريق الانتعاش فالرخاء . ولكن ما هذه الخطط ؟ ان المؤتمر الاقتصادي والنقدي العالمي الملتئم في لندن ونحن نكتب هذه السطور ، يحاول ان يقرّر أهمها اذا أُلهم اعضاؤهُ الحكمة والتعاون

وليس امام زعماء الشعوب الاَّ أحد سبيلين . اما ان يحاولوا في عزم وصفاء نيَّة اصلاح النظام الرأسمالي ، بازالة اسباب الاضطراب في شؤون كل دولة وفي صلات الدول بعضها ببعض ، وبتصفية المساوىء الاقتصادية التي نشأت عن الحرب الكبرى ومعاهدات الصلح ، وتنظيم المجتمع من الناحية الاقتصادية والمالية تنظيماً يقيهِ مما يُبلَى بهِ النظام الرأسمالي في الفينة بعد الفينة من عجز قوة الشراء عن مجاراة اتساع قوى الانتاج — او ان يعترفوا اعترافاً صريحاً بان

النظام الرأسمالي، على جلالة فوائده في القرنين المنصرمين ، اصبح لا يصلح للعالم في العصر الحديث ، وان يُقبلوا بسعي منظّم وحزم وعلم ، على انشاء نظام اقتصادي آخر يقوم على مبادىء تختلف عن المبادىء التي يقوم عليها نظامنا الحالي

فأي السبيلين يختارون ؟ ان الاتفاق على الجواب عن هذا السؤال متعذر الآن . ففي الناحية الواحدة نجد الولايات المتحدة الاميركية على السبيل الاول لا ترضى عنهُ بديلاً . وفي الناحية الاخرى يقوم اتحاد الجمهوريات السوفيتية بتجربة اجتماعية اقتصادية واسعة النطاق ويرى زعماؤها ان لا طريق الا طريقهم يفضي الى الخير . وسائر الدول بين الاثنتين ، حائرة مضطربة ، وهي تعاني من آثار حيرتها واضطرابها ما تعاني

تراث الحرب الكبرى

زعزعت الحرب الكبرى اركان التجارة العالمية ، واحدثت اضطراباً في اتزان النظام الاقتصادي، في البلدان المحاربة والمحايدة على السواء. ففيها جميعاً نشطت الصناعات الخاصة بادوات الحرب وذخيرتها نشاطاً عظيماً . واصيبت الصناعات الاخرى المتجهة الى صنع ما تحتاج اليهِ الشعوب التي لا صلة مباشرة لها بالحرب ، بقسط وافرٍ من التراخي والفتور . وحوّلت سمة الانتاج في كل بلادٍ تحويلاً مفتعلاً ، فارغمت البلدان التي كانت تعتمد على تجارة الصادر الى تحويل صناعاتها حتى تصنع ما تستوردهُ داخل حدودها فتكفَّ عن الاستيراد ، وعوّدت الناس في البلدان المحاربة ان يتحدثوا بالملايين ومئات الملايين من المال، وان يحسبوا ان المشكلة الاقتصادية العظمى هي الحصول على السلع التي يطلبونها في مقادير كبيرة وبسرعة فائقة من دون اي نظر الى نفقة انتاجها . ومكّنت قوى الانتاج بتنظيمها والسيطرة عليها من اخراج مقادير من المصنوعات تزيد على متوسط الانتاج قبل الحرب زيادة عظيمة — ثم كانت هذه المصنوعات تدمَّر تدميراً يساوق في سرعتهِ سرعة انتاجها — وضخّمت رؤوس الاموال بتمكين اصحابها من حساب ثروتهم بحسب الاسعار التي ضخّمتها الحرب وكان لا بدَّ ان تتقلص قيمتها بعد الحرب ، اذ تسرّح الدول جيوشها فتنقص الحاجة الى كلّ ما تنفقهُ الجيوش وتبدّدهُ من الذخيرة الحربية والمطعم والمشرب والملبس

كل ذلك يدلُّ على ما تستطيعهُ قوى الانتاج العالمية من التوسُّع لانهُ رغماً عن اشتغال زهرة شباب العالم بتقتيل بعضهم بعضاً وتدمير المنشآت الصناعية والمدنية ، وانشغالهم عن العمل المنتج في المعامل والحقول ، استطاع جانب كبير من سكان العالم ان يعيشوا في مستوىً عالٍ ، وينتجوا إنتاجاً وافراً ، وهذا يثبت ما بلغت اليهِ سيطرة الانسان على الطبيعة والى اي مدىً يمكن ان تتسع قوى الانتاج اذا عرف الانسان كيف ينظمها ويسيطر عليها

ولكن ساءت الحال ، بعد ما وضعت الحرب اوزارها وعقدت معاهدات الصلح ، وشرع الناس يحاولون العودة الى الاحوال السوية التي كانت سائدة قبل نشوب الحرب .على ان هذه العودة كانت امراً متعذراً بسبب الانقلاب الاقتصادي في طبيعة الانتاج وفي تخطيط العالم السياسي . ذلك ان البلدان التي اضطرت في خلال الحرب الى ان تكتفي بما تنتجهُ هي ، وان تنتج ماكانت تستوردهُ ، لم يحتمل ان تستغني عن صناعاتها الوطنية الناشئة .فبدلاً من تحاول الامم وضع الصناعة على اساس جديد يتفق ومقتضيات الاسواق بعد الحرب حاولت كل امة ان تعيد صناعاتها الى الحالة التي كانت فيها قبل نشوب الحرب . فلما كانت فترة الرخاء القصيرة التي تلت الحرب ، اعتقد الناس انهم على الطريق السويّ الى الرخاء الدائم — وكانوا واهمين

ولذلك ترى ان اعمال الترميم الصناعي التي تمت في البلدان الصناعية القديمة وجّهت توجيهاً خاطئاً ، وكثير من الصناعات الجديدة التي انشئت بعد الحرب ، وانفق عليها مال طائل اصبحت لا تجدي نفعاً بعد انقضاء فترة الرخاء القصيرة

ذلك ان معاهدات الصلح خلقت دولاً جديدة على انقاض الامبراطورية النمسوية المجرية وجانب من روسيا. وكل دولة من هذه الدول كانت ترغب في ان تستقلّ استقلالاً اقتصاديا الى جنب استقلالها السياسي . فشرعت تبني حواليها حواجز جمركية عالية مع عجز اسواقها المحلية عن استهلاك ما تنتجه صناعاتها المستحدثة . ثم ان البلدان الصناعية الكبيرة التي كانت تعتمد على تجارة الصادر اصبحت ذات يومٍ واذا الاسواق التي تعتمد عليها قد اقفلت في وجهها . ولكن هذه البلدان كانت في الغالب قد اعادت بناء صناعاتها على احدث الاساليب. والصناعات الحديثة لا تعود بربح على اصحابها الاّ اذا كان انتاجها واسع النطاق ، لكثرة النفقات الاساسية .والانتاج الواسع النطاق يحتاج الى اسواق حرة لبيع المصنوعات.فنشأ عن كل هذا — وبوجه خاص بعد ما اصلحت المانيا صناعاتها ونزلت الى السوق — منافسة شديدة بين البلدان الصناعية ، والفوز في هذه المنافسة لا يتم الا بخفض قيمة النقد او بخفض اجور العمال وحفظ معيشتهم على مستوى واطىء

تمَّ كل هذا والعالم احوج ما يكون الى التعاون بدلاً من القطيعة والمنافسة

الديون والتعويضات

ولو ان التجارة الدولية كانت تبادلاً في العروض فقط لكانت الحال التي نشأت بعد الحرب الكبرى كافية لاقلاق بال العارفين بأصول الاقتصاد المعرضين عن التأثر بالنزعات القومية الجامحة . ولكن مما زاد الطين بلّة ان التبادل بين الامم ازداد تعقّداً بالديون الدولية الكثيرة وفي مقدمتها اموال التعويض التي طلبها الحلفاء من المانيا ، وديون الحرب بين الحلفاء ،

وديونهم لاميركا . ثم يضاف الى اموال التعويض وديون الحرب ديون اخرى عقدت بعد الحرب لانفاقها في ترميم البلدان التي دمّرتها الحرب واصلاح الصناعات وما الى ذلك . ولكن الدول المدينة لم يكن في امكانها ان توفي أقساط دينها — لانها لاتملك زيادة في صادراتها على وارداتها — اذا امسكت الدول الدائنة عن اقراضها المال . ولم يكن للدول المدينة امل ما في زيادة صادراتها على وارداتها الاّ باستدانة المال لاصلاح الصناعات واقامتها على أساس حديث حتى تستطيع ان تنافس بمصنوعاتها مصنوعات غيرها من الدول الصناعية في الاسواق الحرّة . وكذلك ترى ان عبء الديون الدولية على فداحته عند انتهاء الحرب ، ازداد فداحة بعيدها ، واتّضح أنهُ لا بدّ من المضي في اتجاه تيار المال من الدول الدائنة الى المدينة اذا اريد الاحتفاظ باستقرار النظام الاقتصادي القائم . وليس ادلّ على صحة ذلك من انهُ لما حصل الانهيار العظيم في سوق نيويورك المالية وكفّ الاميركيون عن عقد القروض لالمانيا ، كاد النظام الاقتصادي الالماني ينهار ، ولولا موراتوريوم هوفر لانهار فعلاً ، ومنذ اعلن موراتوريوم هوفر سنة ١٩٣١ لم تسدّد المانيا شيئاً من ديونها السياسية او التجارية

ثم ان عبء الديون حمل الدول على السعي كلّ السعي الى زيادة صادراتها ونقص وارداتها ، فراحت تخفض أسعار صادراتها لكي تنافس بها صادرات البلدان الاخرى ، وترفع حواجزها الجمركية لكي تمنع صادرات البلدان الاخرى من منافسة مصنوعاتها في اسواقها الداخلية

وزادت الحال تفاقماً لما أخذت الدول ترجع الى عيار الذهب . لانها برجوعها فازت من ناحية بتثبيت قيمة نقدها بالنسبة الى النقود الاخرى . ولكنها إذ فعلت ذلك نقصت أسعار الجملة بوجهٍ عام . لان الدول برجوعها الى عيار الذهب ؛ كأنها اعترفت بأنها تعتمد على الاحتفاظ في خزائن بنوكها بقدرٍ كافٍ من الذهب . ولكن هذا كان متعذراً لوجوب تسديد أقساط الديون الدولية الكبيرة . وهذه الاقساط كان تسديدها متعذراً الاّ بالذهب . لان تجارة الصادر كانت مقيدة بقيود الحواجز الجمركية العالية . والدولة المدينة ليس أمامها الاّ أحد سبيلين لتسديد دينها ، فاما ان تسدّدهُ ذهباً ، او ان تزيد صادراتها على وارداتها فتسدد بثمن الفرق جانباً من دينها . فنشأ عن ذلك ان معظم الذهب خزن في خزائن أمم قليلة اي ساء توزيعهُ . فاذا قلّ الذهب — أساس النقود — ارتفعت أسعارهُ ونقصت اسعار العروض . والذهب في خزائن بعض الدول كان «متجمداً» لا يستعمل للتجارة . فكأن مقدار الذهب في عالم التجارة نقص . ونقصه يفضي دائماً الى ارتفاع ثمنهِ وهبوط ثمن العروض . واذ نقصت اسعار العروض زادت قيمة الديون . فدين مائة جنيه اذ يكون اردب القمح بمائة قرش ، يتضاعف اذ يصبح اردب القمح بخمسين قرشاً . وكل هذا افضى الى زيادة اتجاه الذهب الى البلدان الغنية بهِ حيث يحفظ في الخزائن لا يصلح لعمل مالي ، فضيّق المجال على التجّار في البلدان التي خرج

منها الذهب،وحدّد «الكرديه» ورفعت الحواجز الجركية في البلدان المدينة والدائنة على السواء

ولم يطل المطال على قادة الامم حتى ادركوا ان الاموال التي كانوا يتوقعون الحصول عليها من المانيا كانت بعيدة المنال. واذا كان رجال السياسة في فرساي قد اخطأوا التقدير، اذحسبوا ان الالمان يستطيعون ايفاء هذه المبالغ الطائلة ذهباً، لا بضاعة، فان بعض المفكرين ما لبثوا أنْ ادركوا هذا الوهم ونبهوا عليه. ولكن الامر الذي لم يدرك على صحته حتى الآن، هو ان ما يصح على مال التعويض يصح كذلك على الديون الدولية. فليس في العالم كله ذهب يكفي لتسديد الديون. ولو كان الذهب الموجود كافياً لذلك، لاحدث انتقاله من بلدان مختلفة الى بلاد واحدة — لان مسير كل الديون واغلب مال التعويض ينتهي مطافهُ الى اميركا — تقلقلاً كبيراً في الاحوال الاقتصادية. واذاً فلا بد من تسديد الديون، كما تسدد الديون الدولية عادة. اي بالفرق بين الصادر والوارد. وهذا ممتنع بسبب الحواجز الجركية العالية التي رفعت بعد الحرب

ومع وضوح هذه المسائل الاساسية عجلت بريطانيا في تسوية دينها لاميركا، اعتداداً بمكانتها المالية. فتعهدت بايفاء الديون التي عقدتها في الحرب كاملة للولايات المتحدة وبفائدة معتدلة. وليس الاتفاق نفسه عبئاً لا تستطيع بريطانيا حمله فقط، بل هناك ما هو اشد ضرراً. ذلك ان هذا الاتفاق جعل بريطانيا في صف الدول التي تقضي باستيفاء مال التعويض الالماني لكي توفي بحصتها منهُ دينها لاميركا

فلما ذهب مندوبو الدول الاخرى الى اميركا ليسوّوا ديون حكوماتهم لها، كان رجال السياسة ووزراء المالية قد اصبحوا ابعد فهماً للمصاعب التي تحول دون تسديد مبالغ طائلة من المال — كأقساط الديون الدولية — اذا لم تسدد بضاعة وعملاً، فخفضت مبالغ ديونها وفوائدها تخفيضاً كبيراً عما تقضي بهِ التسوية البريطانية الاميركية

وفي خلال ذلك كان مبلغ التعويضات الاول المطلوب من المانيا قد خفض بموجب برنامج دوز سنة ١٩٢٤ ولكنهُ ظل مبلغاً كبيراً من المتعذر على المانيا توفيتهُ. بل ان برنامج دوز اسفر عن نتيجة خطرة، ذلك انهُ اقترن في اذهان الناس باستقرار الامور في المانيا، فاقبل اصحاب الاموال على تثميرها في قروض تعقد لالمانيا. وكذلك بدلاً من ان ينقص مجموع الديون الخارجية المطلوبة من المانيا زادت زيادة فاحشة بعقد هذه القروض لها في الخارج. وحاولت الامم في برنامج ينغ ان تنقص المطلوب من المانيا من مال التعويض فزادتهُ فعلاً. ذلك ان برنامج دوز كان يقضي بنقص الاقساط اذ انخفضت الاسعار. ولكن برنامج ينغ لم يحفل بهذا الشرط وعينت الاقساط من دون نظر الى الاسعار، فلما انهارت الاسعار هذا الانهيار العظيم، زادت قيمة الاقساط الفعلية المطلوبة من المانيا زيادة فاحشة

الديون وهبوط الاسعار

وكذلك نرى ، ان رفع الحواجز الجمركية ، وعبء الديون الدولية سدَّا سبل التجارة العالمية . ولكن الغريب ، ان اوربا ظهرت في خلال ١٩٢٤ — ١٩٢٩ بمظهر المقـدرة على الانتعاش ، فزاد ما تنتجهُ مصانعها ، واتسع نطاق تجارتها ، وتمكنت الثقة اذ بدا ان اوربا قادرة على تخطي المشكلات التي نشأت عن الحرب . ولكنَّ حائلين حالا دون تحقيق الاحلام . الاول هبوط عام في مستوى الاسعار زاده تضييق نطاق «الكرديه» الناشيء عن انحصار الذهب وتجمده في خزائن قليلة . وثانياً اعتماد اوربا على مقدرة اميركا على عقد القروض لها . فلما راجت الاعمال في اميركا ذلك الرواج العظيم سنتي ١٩٢٨ و١٩٢٩ كفَّ الاميركيون عن ادانة اموالهم في اوربا لكي يثمّروها في بورصة نيويورك وجني الربح الطائل منها هناك . فكانت النتيجة ان اتجه تيّار الذهب الاوربي الى اميركا . فلما وقع الانهيار في وول ستريت وهبطت الاسعار بدأ الاميركيون يستردّون من اوربا ما يستطيعون استردادهُ من المال المثمَّر فيها . فاكمل الانهيار ما بدأه الرواج . ديون الحرب يجب ان توفى ، ولا يمكن دفعها الاَّ ذهباً . والديون التجارية يجب ان تسدَّد اقساطها وفوائدها ، ولا يمكن ان تسدَّد الاَّ ذهباً . ذلك لان الحواجز الجمركية الاميركية تمنع كثرة الواردات الى اميركا . فلا المانيا ولا بريطانيا ولا غيرها تستطيع ان تسدّد جانباً مما عليها بزيادة صادرها على واردها الى اميركا أو إلى غير اميركا لان رفع الحواجز الجمركية كان عامًّا . وزاد هبوط الاسعار ، فزادت فداحة الديون . لذلك نرى على اثر الانهيار في سوق اميركا المالية سنة ١٩٢٩ ، ميلاً عالميـًا الى الغاء الديون بانكارها ، وهذا الميل كان شاملاً لاوربا واستراليا واميركا الجنوبية والشرق الاقصى حيث زادت مشكلتهُ تعقيداً بهبوط اسعار الفضة وهي اساس نقده فهبوط ثمنها ، زاد قيمة ديونهِ ، ونقص مقدرتهُ على الشراء

كل هذه المصائب نشأت في الغالب عن الحرب . ويصح ان نحسبها من نتائج الحرب الاقتصادية . ففي المقام الاول ، كانت الحرب نفسها ، من ناحية التفكير الاقتصادي ، خطأ كبيراً . لانهُ لا ريب في ان المنتصرين والمهزومين خسروا في الحرب . فالامبراطورية البريطانية ، رغم ما ضمَّ اليها من بلدان واسعة خصبة ، افقر الآن مما كانت قبل نشوب الحرب وقبل ان تضمَّ اليها هذه البلدان باسم الانتداب . وفرنسا رغم الثروة التي جمعتها الآن ، ورغم تفوقها في شؤون اوربا السياسية والحربية ، لم تفز بالسلامة التي كانت ترمي اليها ، ولا تزال مرغمة على الذود عن سلامتها بالمدافع والحراب . وكنا نحسب ان الولايات المتحدة الاميركية هي الدولة الوحيدة التي ربحت من الحرب . ولكن تجمد الذهب في خزائنها لم يغنها شيئاً ، فقد عمدت اخيراً ، وهي اكبر دولة خازنة للذهب الى الخروج عن قاعدة الذهب

وقررت وهي اكبر دولة دائنة ، انها لا تدفع فوائد ديونها الا بالعملة الورق . العمال العاطلون في بلادها يزيدون على ١٢ مليوناً . وفلاحوها في حالة يرثى لها لما بلوا بهِ من هبوط اسعار الحاصلات الزراعية . فاذا كان هذا هو الغنم الاقتصادي من الحرب فأين هو الغرم

ضعف جمعية الامم

واذا كان السماح بنشوب الحرب خطأً فاضحاً من الناحية الاقتصادية ، فالتسليم بوضع معاهدة صلح كالمعاهدة التي وضعت كان خطأً وجهلاً . فتقسيم بلاد النمسا والمجر وانشاء دويلات متعددة في اواسط اوربا كانا مصيبة اقتصادية من الطبقة الاولى ، لانهما زادا الوحدات المتنافسة في العالم ، والعالم في اشد الحاجة الى التعاون والتوحيد . ولا ريب في أن انشاء هذه الدول كان له مسوغ سياسي . ولكن لامفرَّ من الحكم بأن انشاءها عزز روح القومية — والقومية الجامحة في الغالب — في حين ان الروح القومية لم تكن الروح الصالحة لتنظيم العالم من الناحيتين السياسية والاقتصادية بعد الحرب . لان الدولة القائمة على مبدإ القومية تقتضي استقلالاً سياسيًّا وسيادة قومية ، وهذان من شأنهما رفع الحواجز الجمركية لحماية الصناعة الوطنية وتعزيز الاستقلال الاقتصادي ، في حين ان حاجة العالم الاولى انما كانت لحفظ مساري التجارة مفتوحة . وانشاء جمعية الامم لم يكن كافياً لتعديل هذه النزعة القومية المكتسحة . لان عمل الجمعية نفسه كان محدوداً بفكرة السيادة القومية ، فلم تفز حتى الآن بالوصول الى اي توحيد اقتصادي بين الوحدات السياسية المنفصلة . بل ان منبرها في الغالب كان ميداناً للمنافسة بين القوميات المتنافسة والدول الكبرى التي تتنازع السلطان . فلم تقدم الجمعية على استعمال ما يخوِّلهُ اياها دستورها خشية ان تفقد التأييد الذي تمنحها اياهُ احدى الدول الكبرى . وبعض الدول الصغرى — كالدول السكنديناوية — رغب في فهم جمعية الامم على ما هو مقصود منها حقيقة ، فحاول ان يجعلها أداة للتعاون الدولي ، ولكنهُ لم يصب من النجاح الا قسطاً يسيراً . وجلُّ ما قامت بهِ جمعية الامم هو جمعها الحقائق الدولية ونشرها وهذا سبيل لا بأس بهِ الى خلق رأي عام دولي في مختلف البلدان

ان خيبة الرئيس ولسن في ضمِّ اميركا الى الجمعية قضى عليها بأن لا تترفع كثيراً عن المنازعات الاوربية . ثم ان فوز الاشتراكية المتطرفة في روسيا ، حوَّلها أداة تستعملها الامم التي تخاف الاشتراكية المتطرّفة ، للاحتفاظ بالحالة الراهنة . ودول اميركا الجنوبية لا تستعملها الا لتؤكد على خشبة منبرها استقلالها عن الولايات المتحدة الاميركية . وطريقة معالجتها لمسألة منشوريا وشنغهاي جعلت الشرق الاقصى ازال اية ثقة لهُ فيها

وسرُّ ضعفها انها بطبيعة نظامها تدافع عن التسوية التي تمت سنة ١٩١٩ وهي تسوية كما بيّنا تنطوي على اخطاء كثيرة يكفي كل خطإٍ منها ، اذا استفحل ان يفضي الى حرب كبيرة

العقدة الاقتصادية الاوربية

اما وقد وضعت التسوية السياسية والاقتصادية للحالة الناشئة عن الحرب الكبرى ، فمن المتعذر الغاؤها . والحدود الجديدة التي رسمت على خريطة اوربا بالغة ما بلغت من الخطاءِ والضرر على المصلحة الاقتصادية العامة ، لا يمكن تنقيحها الآ بالعودة الى حالة اوربا قبل الحرب . فاذا شئنا انشاء وحدات مستقلة كبيرة في اوربا ، لم يكن ذلك مستطاعاً الآن ، الا باسترضاء الدول الصغيرة ومحاولة التوفيق بينها بوضع خطة شاملة للتعاون . وهذا متعذر ، او هو على الاقل صعب . لان كل ميل الى الاتحاد بين دولتين او اكثر يثير الريب الدولية . ففي سنة ١٩٣٢ حاولت الدول التي حول نهر الدانوب ان توثق عرى الصلات الاقتصادية بينها ، بالوصول الى اتفاق تخفض بموجبهِ الحواجز الجمركية خفضاً متبادلاً . ولكن هذه المحاولة لقيت مقاومة عنيفة . ذلك ان دول الدانوب اكثرها زراعي . وهي سوق لمصنوعات المانيا وايطاليا فهما تخشيان انهُ اذا تمَّ هذا الاتفاق — ولا بدَّ ان تكون تشكوسلوفاكيا أحد اعضائهِ وهي دولة صناعية — اصبح لمصنوعات تشكوسلوفاكيا ميزة ظاهرة على مصنوعات المانيا وايطاليا في اسواق البلدان الزراعية . وهما لذلك تقاومانهِ. وتزداد المسألة تعقداً اذا عرفت رغبة المانيا الملحة في الاتفاق مع النمسا بل الاتحاد بها ، ونزعة المانيا وايطاليا الى النظر في تنقيح المعاهدات وهو عمل تقاومهُ فرنسا وحلفاؤها . فالعقدة الاقتصادية الاوربية مرتبطة بالعقدة السياسية ، ورغم عهدة الدول الاربع وانقشاع بعض الغيوم التي كانت ملبدة في جوّ اوربا في مايو الماضي ، ما تزال الدرب الى الانتعاش الاقتصادي مبهمة على الروّاد

شروط الاصلاح

ان المصاعب التي خلّفتها الحرب الكبرى ، والمصائب التي نشأت بعيدها عن معاهدات الصلح ، تقف حائلاً دون كلّ محاولة غرضها اصلاح النظام الرأسمالي واقامتهِ على اساس راسخ . ومع ذلك فليس بالامر العسير تعيين الخطوات التي يجب ان تخطوها الامم نحو ذلك الغرض . فالخطوة الاولى هي اعادة النظر في مشكلة الديون الدولية — والمقصود هنا بالديون الدولية مال التعويض وديون الحرب والديون التجارية الخاصة والعامة التي عقدت بعد الحرب — وقد زادت فداحة اعبائها بهبوط اسعار العروض زيادة جعلت الدول المدينة عاجزة عن حملها . ولعل افضل طريقة لمعالجة هذه المشكلة هي تقسيمها الى مراحل فينظر اولاً في مال التعويض وقد تمَّ ذلك في مؤتمر لوزان في صيف ١٩٣٢ اذ خفض باقي المطلوب من التعويضات الالمانية الى نحو ١٥٠ مليون جنيه . ثم النظر في ديون الحرب ثم التدرّج الى تسوية كلّ الديون الدولية العامة والخاصة

وكلُّ حلٍّ لمشكلة الديون يقتضي موافقة اميركا عليهِ، لان مطاف الديون من مال التعويض الى ديون الحرب، ينتهي في الغالب اليها. ولكن السواد من الاميركيين ما يزال يجهل مقام الديون الدولية في اقلاق التبادل المالي والتجاري، وهم لا يرون فيها الا ديوناً عقدت لامم بصكوك موقعةٍ، وانها اذا لم توفَّ هذه الديون وقع عبء توفيتها على دافع الضرائب الاميركي. لذلك تعجز كل حكومة اميركية عن ان تتساهل في حلّ مشكلة الديون الا اذا أمكنها الحصول على تعويض يفهمهُ الشعب الاميركي. ولعلَّ الامر الوحيد الذي يستطيع ان يؤثر في نفوس الاميركيين، هو تعهُّد دول اوربا بالوصول الى اتفاق معقول في خفض السلاح، يضمن انها لا تبدّد الاموال التي تتخلى اميركا عنها في اعداد معدّات الحرب. فمشكلة الديون مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمشكلة نزع السلاح. ومؤتمر نزع السلاح ما يزال بطيئاً يتردد بين خفض السلاح وضمان السلامة. ففريق يقدم الاول على الثاني، وفريق يصرُّ على ضمان سلامتهِ بمعاهدات تعقد وتوقَّع قبل ان يسلم بخفض سلاحهِ. فاذا اتيح لمؤتمر نزع السلاح ان يصل الى نتيجة يصحُّ الاعتماد عليها، بعد الموافقة على اقتراح مكدونلد، وتصريح اميركا الذي يخرجها من عزلتها الدهرية، تمهدت الطريق الى قسطٍ من التعاون الاقتصادي. وعندئذ لا تتأخر اميركا عن النظر في خفض الديون او الغائها، لان ما تربحهُ اميركا، اذا تمَّ ما تقدَّم، يفوق اضعاف ما تخسرهُ اذ خفضت الديون التي لها خفضاً كبيراً (١)

على كلٍّ لابدَّ من البحث في هذه المسألة قبل ١٥ دسمبر القادم وهو الميعاد الذي تستحق فيهِ الاقساط التالية. وقبول روزفلت من الدول المدينة التي سدّدت اقساطها السابقة، وتسليمهُ بأن لا توفي من الاقساط المستحقة في ١٥ يونيو الماضي إلاجانباً يسيراً منها علامة على اعترافها بها، يدلُّ على ان الحكومة في وشنطن، اذا لم يخرج زمامها من يد روزفلت، قد تتمكن من اقتراح حلٍّ معقولٍ، او قبول حلٍّ معقول. واميركا بين أحد امرين، فاما ان تخفض حواجزها الجمركية حتى تمكن مدينيها من اصدار بضائعهم الى اسواقها فيوفوا بذلك ديونهم او ان تلغي الديون او ان تسكت عن عدم توفيتها

ولكن المسألة لاتنتهي عند هذا الحدّ. فمعظم المال الذي عقد قروضاً تجارية خاصة بعد الحرب كان مالاً اميركيًّا وبريطانيًّا. وهذه الديون التجارية لابدَّ من الاتفاق على نقصها في سبيل عودة الرخاء لانها تجري مجرى مال التعويض وديون الحرب في اقلاق الحال الاقتصادية العامة. ولعلَّ أفضل طريقة لخفض هذه الديون هو السعي الدولي المشترك لرفع الاسعار. لانهُ اذا ارتفعت الاسعار قلّت الديون، واصبح عبؤها محمولاً

وحلُّ مشكلة الديون يقتضي ان يصحبهُ اتفاق على خفض الحواجز الجمركية وتثبيت اسعار

---

(١) جاءت الانباء ونحن نكتب هذه السطور ان مؤتمر نزع السلاح قد اجل اجتماعه الى ١٥ سبتمبر اذ لا فائدة من اجتماعه قبل الوقوف على نتائج المؤتمر الاقتصادي وهذا يزيد المسألة تعقيداً

النقد . وكلاهما من آثار الاضطراب الذي احدثتهُ الديون في توزيع الذهب

فقد كان الذهب قبل سنة ١٩٢٨ موزّعاً توزيعاً نسبيًّا عادلاً . وكانت القروض التي عقدت في اميركا وانكلترا ، تمكن الدول المدينة من توفية ديونها بالاعتمادات التي تفتح لها بمقتضى هذه القروض . فلم تضطرّ في يوم ما ان تخرج الذهب من خزائنها لتوفي بهِ قسطاً من دين او فرقاً بين صادرها ووارداها . فلما حلّقت الاسعار في بورصة اميركا الى مستوى غير طبيعي وصار جني الربح بالمضاربة امراً مؤكداً ، كفّ الناس عن شراء سندات القروض الاجنبية لكي يثمروا اموالهم في البورصة . فلما انهارت الاسعار ، حاول اصحاب الاموال المثمرة في البلدان الخارجية ان يستردوا ما يمكن استرداده منها . فعجزت الدول المدينة عن الحصول على الاعتمادات التي توفي بها ما عليها . فاضطرت ان تسددهُ بالذهب . فلما رأت المخزون من الذهب عندها يذوب بين يديها عمدت الى تحديد المبالغ التي تخرجها لتسوية الصفقات الدولية . ثم خرجت عن قاعدة الذهب . فسقطت اسعار نقدها . ثم رفعت حواجزها الجمركية لكي تقلل الوارد اليها . واصبحت بعد خروجها عن قاعدة الذهب قادرة ان تنافس بمصنوعاتها مصنوعات البلدان الاخرى الباقية على قاعدة الذهب . فاضطرت هذه البلدان ، وغيرها من البلدان الدائنة ان تثأر لنفسها ، برفع حواجزها الجمركية وتحديد الوارد من أصناف معينة او من بلدان معينة (الكوتا Quota) وكل هذا افضى الى هبوط اسعار العروض فنشأ عن ذلك المنافسة في خفض الاسعار للمزاحمة في الاسواق الدولية وسد المنافذ لعروض البلدان الاخرى برفع الحواجز الجمركية والوسائل الاخرى وهز الثقة العامة لاضطراب اسعار النقود وتقلقلها . فهبط مقدار التجارة الدولية من نحو ١٤ الف مليون جنيه سنة ١٩٢٩ الى ٥ آلاف مليون جنيه سنة ١٩٣٢ وهو ادنى ما بلغتهُ التجارة الدولية بين سنتي ١٩١٠ و١٩٣٢

ولما كانت الامم الزراعية ، والصناعية تتنافس للاستئثار بالاسواق العالمية ولما كانت المقادير التي تخرجها الحقول والمزارع ، والعروض التي تصنعها المصانع ، تفيض عن الحاجة وجب على الامم الوصول الى اتفاق على توزيع الفائض من الانتاج الزراعي والصناعي في كل بلاد . وهذا لا بدَّ منه اذا اريد جعل الاسعار مستقرة بعض الاستقرار . وقد ابدت حكومة اميركا رغبتها في استطلاع رأي الحكومات الاخرى في ما يتعلق بتحديد مساحة الحقول التي تزرع حنطة . وقد عهد الى احدى اللجان الفرعية في المؤتمر الاقتصادي العالمي في درس هذا الموضوع

ولا بدَّ من الاتفاق على تشجيع عقد القروض الدولية ، ضمن حدود معينة . فهذه القروض كانت من عوامل الرخاء قبل سنة ١٩٢٩ لانها مكنت الامم المدينة من تسديد ما عليها من دون اخراج الذهب من بلادها — ومن تثبيت النسبة بين الفضة والذهب لان ذلك يزيد مقدرة الصين والهند الشرقية على الشراء وهما نحو ٨٠٠ مليون من الناس

ان هذه المقترحات يشدُّ بعضها بعضاً ، فالاتفاق على بعضها دون البعض الآخر لا يكفي

لامرتين في ربوع الشرق

هي ترجمة المحاضرة التي القاها ماريوس بك شميل في الحفلة التي احياها النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية في فندق الكونتنتال مساء ٢٢ مايو سنة ١٩٣٣ برآسة شاعر القطرين خليل بك مطران وذلك احتفاء بمرور مائة سنة على زيارة لامرتين للشرق وقد حضر الاحتفال جمهور كبير من نخبة المصريين والسوريين يتقدمهم مندوب المفوضية الفرنسية ومندوب وزارة المعارف المصرية. والترجمة بقلم الاديب عادل الغضبان

قد يكون من الاساءة إليكم ايها السادة ان احاول تعريفكم بلامرتين قبل الوصول بهِ الى الشرق. فحسبي ان أنقل لكم ما ذكره عنهُ جول لومتر في ختام البحث الذي خصَّه بشعره في كتابه « المعاصرين » حيث قال : « ان لامرتين هو أعظم الشعراء ان لم يكن أنبغهم » أضيفوا الى هذا ما كتبهُ عنهُ الناقد المشهور لويس فيو بعد وفاة لامرتين بايام قلائل قال: «ان لامرتين منذ اكثر من عام لم يكن بين احياء هذا العالم فلم يفعل الموت بهِ الاَّ انهُ أقفل نعشه حتى لكأنهُ احتاج الى زمن طويل لكي يستطيع ان ينقل بقايا هيكل كان عظيماً »

وخلاصة ما فاه بهِ هذان الناقدان ان لامرتين كان رجلاً عظيما وشاعراً عظيماً وحديثي الليلة معكم مقصور على سياحته في الشرق ولذلك فاني لن احجم في تصوير الرجل كما كان عن ان أوقفكم على آيات من نثره وشعره بالقدر الذي يسمح لي بهِ وقتكم

كان لامرتين أعظم شاعر حطمت قلبه الاحزان والحسرات ولعل سبب رحلته الى الشرق هو ذلك الحزن الذي كان مستعر اللهب بين ضلوعه لوفاة وحيده في باريس عقب عودته من لندن وكان قد ذهب اليها مستشفياً بصحبة والده . لم تمنع هذه الضربة القاضية لامرتين من ان يفكر في رحلته الى الشرق مصطحباً ابنته جوليا العليلة راجياً لها ان تلقى في بلاد الشمس المشرقة والنسيم العليل ما لم تلقه في بلاد الضباب . اما حبه لابنته جوليا فقد كان حبًّا يقارب العبادة وهذه قصيدته المشهورة في رثائها قطعة من فؤاده نظمها آيات من الشعر في البكاء عليها والتفجع على غصنها الذابل . وقد يكون الدافع الحقيقي الى زيارة الشرق هو كون لامرتين شرقيًّا بطبعه فلبيَّ داعي الحنين الى الشرق واصقاعه على ما ذكرهُ جول لومتر في هذا الصدد قال :—

«ان لامرتين شرقي كاكثر رؤساء الشعوب فهو كباقي افراد اسرته كابراً عن كابر طويل القامة اسود العينين اقنى الانف مرتفع بطن القدم

« وقد نشأت اسرته في بلدة ما كوني وهي لا تزال عربية حتى ايامنا هذه . ولقد جاء في مذكرات كوندي انهُ في سنة ١٥٧٢ عرفت هذه البلدة رجلاً يسمى ألامرتين وهذا الاسم

مركب لا شك من كلمة الله ولامرتين فيستدل من هذا على شرقية هذه الأسرة »

ومهما يكن في كلام جول لومتر من اعمال الفكرة لاثبات شرقية لامرتين فمن منا لا يرضى به ولا يقبل ان يكون لامرتين واحداً منا. اما هو فقبيل إبحاره من مارسيليا ذكر السبب الذي حداه على زيارة الشرق فقال :

«لم اسمع صيحات الشعوب يتجاوب صداها في ارجاء ذلك الارز الخالد لم ار من فوق ذرى لبنان تلك العقبان تصطدم بقبة السماء وهي في اعالي قصور صور الشاهقة لم يتح لي أن أرى تدمر التي ليس لها اليوم الا صدى اسمها كذلك لم ارسل صوتي في جوف مملكة ممنون الخالية الخاوية »

كل هذا اراد الشاعر ان يراه كما كان يحلم دائماً ان ينظم ملحمة يلهمهُ بها الشرق ولم يكن احب على قلب هذا الشاعر من ان ينقش على قلبه هذه الكلمات الثلاث : الله والحب والشاعر

في الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين من يوم ١١ يوليو سنة ١٨٣٢ أقلع المركب السست Alceste بلامرتين وزوجته وابنته جوليا يصحبهم ثلاثة من اصدقائه وهم اميديه دي پارسڤال Amédée de Parseval والمسيو دي كاپماس M. de Capmas والطبيب دي لارواييير Dr. de la Royère. ليس السفر بالمراكب الشراعية مثل السفر بالمراكب البخارية ولذلك اضطرت الرياح المعاكسة مركب هؤلاء المسافرين الى الوقوف وقتاً طويلاً فكأن القضاء قدّر للامرتين ان يحذو حذو اوميرس وورجيل وان يستلم استسلام عولوس وقد ذهب يبحث عن محبوبته ايتاك وما ايتاك لامرتين الا الشرق الذي يسعى اليهِ ليجلو عبقريته ويترك لهذا العالم عالم الظلمات والشك والمآسي ثروة تغذيه وتنفح فيه روح الشباب مدة قرن كامل . ذهب لامرتين الى الشرق طابعاً على غرار نابليون ولكنهُ ذهب لتثبيت مجده ان لم يكن في سبيل الحصول على مجد جديد

بقي المركب الشراعي يتنقل بركابهِ بين جزيرة كالبسو ومالطه وبلاد اليونان واقريطش ورودس حتى حاذى في آخر اغسطس شواطىء كارامانيا وقد بدت لركابه القمم العالية البيض التي ذكرتهم بجبال سويسرا . وفي اثناء مرورهم كانت تبدو لهم وجوه نساء حسان جلسن في ضوء القمر على سطوح المنازل فرأوا في عيونهنَّ عيون نساء ايطاليا ولكنها أكثر عذوبة وحياء وحناناً كما رأوا في قدودهنَّ قدود نساء الاغريق ولكنها اكثر لياناً وفي جباههنَّ العريضة جباه حسان بلاد الشمال . وفي ظهر يوم ٢٧ اغسطس وصلوا الى قبرص وفي ٥ سبتمبر بعد ان قضوا ٥٦ يوماً في عرض البحار بدا لهم لبنان بجبالهِ البيض العالية تتوّجها قمم صنين المرتفعة حوالي ٣٠٠٠ متر فوق سطح الارض فاخذت لامرتين نشوة من السرور لا توصف رجاءها ان تعود الصحة الى ابنتهِ جوليا اذا ما استقرّوا في هذه البلاد الجميلة الساحرة سنة او سنتين . وفي الساعة التاسعة من صباح يوم ٦ سبتمبر رسا المركب في مرفأ بيروت وهي مدينة قائمة على مرتفع من الارض تغسل اقدامها مياه البحر الابيض المتوسط فبدت لهم منازلها

الحمرا المنسقة وقد امتد الى شرقها سهل خصيب واسع ينتهي عند سفوح سلسلة من جبال لبنان . اما الميناء فيكتنفهُ لسان من الارض يمنع عنهُ عصف الرياح وعلى امتداد الشواطىء المجاورة قامت أشجار الخرنوب والتين والبرتقال والرمّان الى مجموعة من الشجيرات التي يجهلها ابناء الغرب وهناك على اول نشز من الارض قامت أشجار الزيتون وعلى بعد فرسخ من المدينة تبتدىء سلسلة جبال لبنان بالنهوض فاغرة افواهها تسكب منها الانهار هذه تذهب الى صور وصيدا وتلك الى طرابلس واللاذقية والقمم اللامعة التي يغطيها السحاب تشبه قمم جبال الألب الدائمة الجليد

كان لامرتين يحمل كتب توصية لقنصل فرنسا ببيروت المسيو جي ولكن اتفق ان كان المسيو جي متغيباً عن بيروت في ذلك الحين فاستضاف لامرتين واصحابه المسيو جوريل مترجم القنصلية . ولقد أثرت في قلب لامرتين تلك المناظر التي شاهدها لاول وهلة بعد سفر طويل عاصف . فانها لساعة ممتعة تلك الساعة التي يصل فيها المرء بعد سفر مضن شاق لا يشبه ابداً أسفارنا التي لا تستغرق في هذه الايام اكثر من ثلاثة أيام او اربعة على تلك القصور العائمة من مثل شامبوليون واوزونيا ، أجل انها ساعة ممتعة عند ما يبلغ المرء بلاداً يجهلها فيأخذ يجيل الطرف حوله مبهوتاً كذلك كان تأثير البلاد التي وصل اليها لامرتين على ذلك المركب الذي ما برحت تتقاذفه الامواج في مرفأ بيروت المضطرب حتى قدر له ان يعود بجثمان ابنته بعد انتهاء الرحلة . وان امرءاً تطأ قدماه الارض بعد قضائه اياماً في عرض البحار لكالعليل الذي يقضي ايام النقاهة بعد مرض عضال قال لامرتين يصف اول يوم من وصولهم : —

« لقد قضينا ليلتنا في صفاء وغبطة ونحن في ضيافة مدام جوريل الحلبية الحسناء التي قد حافظت على اللباس الفاخر لنساء العرب من منديل يعصب رأسها الى صدرية مزركشة عُلّق في وسطها خنجر جميل وكان هذا اللباس الشرقي يزيد في جمالها وبهائها »

غير ان لامرتين لم يكن ليرى الحسن الا في ابنته جوليا فاسمعوه يقول : « لم أجد أجمل من ابنتي جوليا في لباسها الحلبي المؤلف من ثوب ذهبي مخطط تتفرع منه شُرُط مزركشة محلاة باللؤلؤ ضمن سلاسل من الذهب هذا وقد استرسلت ضفائر شعرها على كتفيها واخذت تجيل الطرف بيني وبين امها مبتسمة ولسان حالها يقول ما اجملني »

سألت مدام جوريل لامرتين ان يخلد زيارتهم بتذكار ترسله الى ابيها بحلب فخلا بنفسه قليلاً ونظم القصيدة المشهورة التي عنوانها « عربية تدخن النرجيلة في بستان من بساتين حلب »

كان المنزل الذي اختاره لامرتين لسكنه في الحي الذي تقوم اليوم فيه مدرسة راهبات الناصرة وقد يكون كثيرات منكن ياسيداتي قد تلقين علومهن هنالك وهي تبعد مسير عشر دقائق عن البلدة ويكتنف الطريق المؤدي اليها سلسلة من الأشجار العظيمة الرامية بثمارها على رؤوس المارة . وكان المنزل وهو مؤلف من خمسة بيوت متفرقة تجمع بينها سلالم خشبية او

بعض ثغرات، يشبه مجموعة «فيلا» ايطالية على طراز تلك التي نراها على شواطىء لقورن

وصل لامرتين الى سورية بعد أشهر من افتتاح ابراهيم باشا الكبير لها وكان هذا القائد العظيم يكرم العلم والادب شأن جلالة مليكنا فؤاد الاول فما سمع بقدوم الشاعر العظيم حتى أمر كل القواد المصريين ان يحتفوا به ويكرموه الاكرام اللائق به وكان لامرتين إذ ذاك في ابان مجده فيما نشره من «التأملات» و«الانغام» وهو منذ سنة ١٨٢٩ عضو في المجمع العلمي حلّ محل الكونت دي دارو. وبعد وصوله الى بيروت باربعة أيام زاره الحاكم المصري حاملاً اليه تحية سيده ورعايته طول مدة اقامته وكان لامرتين قد سمع بابراهيم باشا وعظمته وكانت الألسنة إذ ذاك تتناقل عنه الحكاية التالية:

لما دخل ابراهيم باشا بيروت وصار على مسافة قريبة من بابها اعترضت سيره حية عظيمة زحفت على الرمل حتى وصلت الى جواده فاجفل هذا وهرع بعض العبيد الحفاة الى ضرب الحية فاستوقفهم ابراهيم باشا باشارة منه ثم استلّ سيفه وضرب به الافعى فشطرها نصفين وروى لنا لامرتين بعد هذا ان الحشد صاح صيحة اعجاب بشجاعة قائده الذي ابتسم واتم سيره متفائلاً بالنصر الذي ابتدأ بهذه الحادثة

اغتنم الامير الفرنجي (كما كانت العامة تسمي لامرتين) فرصة تمتعه برعاية ابراهيم باشا وذهب يزور اللادي استير ستانهوب في عزلتها في جون

كانت اللادي ستانهوب ابنة اخي وليم بت (الوزير البريطاني). فبعد موت عمها لم تستطع ان تتحمل حياة الالم فهجرت انكلترا الى غير رجوع

جاءت الى الشرق وهي فتاة في ريعان الشباب تتمتع بقسط كبير من الجمال والفن والشجاعة والذكاء فاستقبلت استقبالاً حافلاً حيثما حلت وكانت رحلتها الى تدمر عاصمة الزباء وإقامتها هناك مدة قد اكسبتها لقب ملكة تدمر. وبعد حوادث عدة اظهرت فيها من الشجاعة والاستخفاف بالموت ما لهجت بذكره الالسن انقطعت بما بقي لها من ثروة في دير من اديرة جون كان حاكم عكا قد وهبها اياه. ود لامرتين بنفسه الشاعرة ان يزورها ولو قطع عليها عزلتها اما هي فكانت تأبى كل زورة تعكر عليها صفاء خلوتها غير ان شهرة الشاعر حملتها على ان لا تتأخر في استقبال زائرها. وكان ذلك في الساعة الثالثة في يوم من ايام اكتوبر سنة ١٨٣٢ فاستقبلته في منزل اشبه بوكر النسر تحيط به ظلمات لا يستطاع معها ان يستوضح قسمات ذلك الوجه النبيل. وما كاد لامرتين يصل حتى نهضت من مضجعها وخفت الى استقباله وكانت اذ ذاك في السنة السادسة والخمسين من عمرها الاّ انها ما زالت مشرقة الوجه وضاحة الجبين. ان المشيب يذهب بالنضارة والزهو ولكن الجمال اذا كان ممثلاً في القد الممشوق والقسمات المنتظمة والمعظمة فهو يتغير مع العمر ولكنهُ لا يزول. تجاذب الزائر والمزور الحديث فكان من كلامها له:

كان يجول في خاطري ان كوكبينا صديقان وها اني ارى والبشر يفعم قلبي ان هاجسي لم يخطىء فان قسمات وجهك التي اراها ووقع خطاك الذي سمعته وانت تجتاز الممرّ كل هذا جعلني ألاّ اندم في قبولي زيارتك. ان لي مشاركة في علم الفلك فهل تريد ان انظر في مستقبلك

غير ان لامرتين الحكيم كان يخاف جدًا من الحقيقة وكان يحب الحياة حبًا جمًا ولو انهُ كان يتمثل الموت في كثير من قصائده تخشي ان يتقلص عنه ظل السعادة في استماعه لعرافة ولو انها اللادي استيرستانهوب فقال: —

حاذري يا سيدتي اخشى إن انا استوضحت امر مستقبلي مخلوقاً من الناس ان ادنس هيكل الله الذي يخبيء لي هذا المستقبل. انا لا اعتقد الاّ بالله والحرية والفضيلة وليس غير الله من يملك الحقيقة اما نحن فلا نملك منها الاّ الايمان. ان المسيح الذي اومن به قد جلب للارض الدين القويم السمح الذي لم يعرفه من قبل ذكاء البشر فالدين يعرف بثماره ومبادئه فثمار المسيحية هي غير محدودة كاملة الهية فالدين نفسه اذن هو إلهي

قالت لكن ارى العالم في الاجتماع والسياسة والدين حسن النظام ألا تشعر ان في نفسك حاجة الى المنقذ المنتظر؟ قال:

ليس من يشكو من النظام الاجتماعي والسياسي والديني شكواي منه ولئن انتظرت انت المهدي فاني انتظره مثلك بفارغ الصبر. اني ارى كما ترين في معتقدات الانسان القلقة في ظلام افكاره في خلو قلبه في هيأته الاجتماعية في كل هذه التقلبات السياسية ارى في كل هذا عناصر انقلاب شديد. ولكني اعتقد ان الله يظهر دائماً في كل ما يعجز عنه البشر. اعتقد بمنقذ مقبل ولكني ارى فيه المسيح الذي تنبأ عنه الله فأنا انتظره بشوق يفوق شوقك

قالت اعتقدْ كما تهوى فاني استشرت الكواكب فقالت لي انك شاعر وان لك كواكب عدة هي كلها متحدة على خدمتك واسعادك فستعود انت الى الغرب ولكن لن يطول بك المقام حتى ترجع الى الشرق فهو وطنك. انظر الى قدمك الى بطنها المرتفعة عن الارض ارتفاعاً يمر من تحته الماء فهي قدم العربي قدم الشرقي

وعلى هذا استمر حديثهما اللاذع الغريب بما لا طائل تحته فان اللادي ستانهوب شعرت بعطف شديد على لامرتين فخصته بضيافة شرقية كريمة وطافت به في انحاء حدائقها الجميلة اللابسة من وشي الطبيعة ثوباً سندسيًا وقد انتشرت فيها رائحة الياسمين وازدانت ارجاؤها بالبرك من الرخام تنسكب فيها المياه كسيل من البلور وقامت الاشجار منبراً لكل انواع الطيور. وما زالا يطوفان حتى وصلا الى باب مغلق ففتحته وأرته جوادين من الجياد العربية الاصيلة كانت تقدر لهما وهي العرافة مستقبلاً باهراً ثم لما انقضى الليل ودّعته بقولها: —

تذكر انك تارك صديقة منعزلة في لبنان ثم حيته وحياها بتحية عربية وخرج وزار لامرتين

بعد اللادي ستانهوب الامير بشير الكبير وقد احتفل اخيراً في بيت الدين بتذكار هذه الزيارة

ان الامير بشير هو لا شك بعد الامير فخر الدين اكبر حكام لبنان شأناً ولئن كان حذراً ذا دهاء وحيلة مثل لويس الحادي عشر فلانه اراد ان يجعل من لبنان بلداً كبيراً ولم يكن ذلك سهلاً في بلاد كسورية تتلاعب بها الاهواء الشرقية والمطامع الاوربية المختلفة الاغراض. فهو اول من عبّد تلك الطرق التي كانت دروباً للغنم والبغال فاستطاع الناس في عهده ان يتجولوا في انحاء الجبل بلا خوف. ذلك هو الشرط الاساسي لقطر يريد ان يتقدم. كذلك كان من العدل على اعظم جانب فقد ضرب على ايدي المستبدين من امراء الجبل ولعل احسن ما يسجل له بعداد الفخر ان لبنان على عهده كان ملجأ اميناً لضحايا الدين والسياسة

اهتمَّ الامير بشير مدة نصف قرن بالقيام بمنشآت سلفه ولقد اضطر اربع مرات الى ان يهجر لبنان فكان يرجع في كل مرة قويًّا شديد العزم وافر الهيبة. والامير بشير هو مثال صادق للامير الشرقي الذي يلقي في القلوب الروعة والهيبة والاحترام بدهائه وذكائه وقسوته حيناً وليانه حيناً آخر فاستطاع ان يضمن للبنان حياة رغيدة ولو انهُ اثار حفائظ الاحزاب المختلفة بعضها على الآخر. وكان في الاساطير اللبنانية يلقب بنابليون سورية حتى تنازل عن الامارة بعد مؤتمر اوربا سنة ١٨٤٠ فسمح له ان يعتزل الحكم في جزيرة مالطه التي انتخبها مقرًّا له ثم سار منها الى القسطنطينية فمات فيها سنة ١٨٥٠ وعمره ٨٧ سنة وكانت مدة حكمه ٥٣ سنة وذلك من سنة ١٧٨٧ الى ١٨٤٠ وهي مدة ما قضاها في الحكم حاكم قبله

كان الامير بشير في غضون زيارة لامرتين للشرق في ابان مجده قد اتخذ بيت الدين مقرًّا له وها نحن اولاء نتبع لامرتين في زيارته لهذا الامير العظيم

تقوم على جانبي الطريق سلسلة جبال يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ الى ٤٠٠ قدم كأن بارىء البشر قد فصلهما حديثاً بضربة من مطرقته

بعد مسير ساعة في هبوط وصعود يصل المرء الى ذلك القصر العظيم قصر بيت الدين بالقرب من دير القمر. يرى المشاهد هناك وادياً عميقاً واسعاً يفيض نضرة وخضرة وقد انتشرت على سطوح الجبال بعض القرى ثم اذا اتجه الرائي بنظره نحو الافق شاهد البحر من فوق قمم بعض التلاع

وفي بطن الوادي مرتفع من الارض يقوم عليه القصر العالي كانه أحد الابراج يحيط به صخور قد نبت بين شقوقها العشب الاخضر وقمة القصر تشرف بعظمة على بقاع بيت الدين. وكأني بالامير كان يعنى بالعظمة فحلّى قصره بكل ما يدل على ذلك وجلب له المياه باقنية يبلغ طولها ثلاثة فراسخ اما فخامة اسطبله وعدد الصيد والقنص فيه فحدّث عنها ولا حرج فقد تناقلتها الألسن على انها أساطير لغرابتها

في زوايا القصر وداخله تتحدر عيون المياه وفي الصدر بعد سلسلة من الاعمدة الموصولة

بالحديد والزجاج يشاهد الداخل ببراً هائلاً قد أسند رأسه الى قدميه المشتبكتين ولا شك ان الامير قد استعار نظره الحاد من هذا الببر الجاثم على انه لم يقلق لامرتين

كان الامير جالساً في زاوية البهو على مضجع أحمر وهو شيخ جليل حاد النظر اغبر اللحية زاهي اللون تتدفق منه الحياة وكان مرتدياً ثوباً أبيض ومتمنطقاً بنطاق من الكشمير وقد ظهرت بين طيات ثوبه قرب خصره قبضة خنجر طويل عريض محلى بباقة من الالماس في شكل برتقالة . وكان لامرتين قد قدر في الامير ثقافة ومعرفة بالامور وذكاء في تصريفها قد يندر في ذلك العهد ان تجتمع في امير شرقي . وكان قد عقد له قبيل ذلك على حسناء تبلغ من العمر ١٥ سنة وكان هو إذ ذاك في التاسعة والستين من عمره وعلى زعم لامرتين انه كان في الثانية والسبعين ولكن لامرتين لا يُسأل عن التدقيق وانما يسأل على الوحي والالهام. غير ان هذه الحسناء قد يكون عمرها ٢٠ سنة اذا اتبعنا قاعدة اجدادنا في معرفة السنين من ان سنة المرأة ١٥ شهراً

استقبل الامير بشير لامرتين استقبالاً فخماً فطاف واياه على كنوزه في قصره الملكي حتى خيّل للشاعر الفرنسي انه يطوف في قصر من قصور الف ليلة وليلة وبعد حديث طويل اعجب فيه لامرتين بحكمة الامير ونبله دعاه هذا الى مرافقته الى قاعات الحمام

لن أصف لكم ايها السادة هذه القاعات فانتم تعرفونها فهي ككل حمامات الوجهاء في الشرق. وكأني بالامير اراد ان يغرق في اكرام لامرتين فدعاه الى الاستحمام معه هو ورفقته غير ان لامرتين تنحى بلطف عن هذه الدعوة لانهُ رأى فيها مظهراً من مظاهر الحفاوة التي اراد الامير ان يخصه بها. وانتهى بلامرتين المطاف الى اسطبلات الامير يسمع منها صهيل الجياد العربية الاصيلة ومن لم يزر هذه الاسطبلات او اسطبلات دمشق فلا يعرف شيئاً عن الجواد العربي ومن فاته ذلك فليقف عليه في قصيدة لامرتين التي يصف فيها الجواد «سلطان» وهو الجواد الذي اشتراه لامرتين لابنته جوليا وكان آخر نزهة قامت بها عليه نزهتها في انحاء القديس ديمتري

رجع لامرتين الى بيروت في ٧ نوفبر واستطاع في مأدبة أدبها بعض قناصل بيروت ان يرى ابناء الامير بشير نزلوا الى بيروت بأمر من ابرهيم باشا لخضد شوكة من يحاولون شق عصا الطاعة . قال لامرتين يصفهم :

« ان هؤلاء الامراء ولاسيما البكر هم عنوان على الحضارة الشرقية التي هي في مستوى حضارتنا بل هي أقدم وانقى مورداً واكمل اصلاً فانهُ يبدو لعين الرائي النزيه ان ليس هناك فرق بين ما عندنا وعند الشرقيين من نبل وقسوة حكيمة في التقاليد والعادات فنحن قوم حديثو الحضارة خرجنا من حضارات قاسية ضخمة ناقصة اما هم فتشعر عند رؤيتهم انهم ابناء بيت أصيل وحفدة قوم عرفوا منذ القدم بالحكمة والفضيلة »

علينا نحن الشرقيين ان لانؤخذ بجمال هذا المدح وان لاننتشي برحيقه المسكر فقد يحتاج

الى تحقيق وامعان نظر . اما الاسرة الشرقية والفتاة الشرقية فقد وصفها لامرتين بما يأتي :

« الاسر القاطنة في سفوح الجبال ليس فيها أثر من الوحشية . والقروي منهم أعلم من القروي في اريافنا فضلاً عن انهُ الين عريكة وا كثر مسالمة واقدر على العمل وأصبر . وكثيراً ما رأيت في الحقول وجوه نساء وفتيات ما كان رافائيل ليراها في احلامه الفنيَّة »

لم يخطىء الشاعر الذي يقول في وصف سورية

« ان بلادي هي الارض التي ينبعث السحر من عيون غاداتها اللواتي يشبهنَ العذراء في جمالها الخالد »

سُحر لامرتين بكلّ شيء رآه في ربوع الشام فلا عجب ان تقرأ في « هبوط ملاك » كل الانغام السحرية التي استلهمها لامرتين من لبنان وأهداها اليهِ . وصف لنا لامرتين جمال جبال القديس ديمتري ونهر بيروت يوم كان يتنزه مع ابنته جوليا في تلك الانحاء فلما جابه تلك المحاسن الطبيعية الخلاَّبة لم يستطع الاَّ ان يصيح باعجاب

« اللهم ما اعظمك انفي كل بقعة من هذه البقاع شعاعاً تعكسه تلك المرآة التي تصور فيها نفسك »

طالما رددت الافواه صيحات الاعجاب والدهش امام جمال الطبيعة فما بالك بالمنبع البعيد الغور اللانهائي الذي يفيض بذلك الجمال . شاركت لامرتين ابنتهُ جوليا في اظهار ذلك الاعجاب فلم تتمالك هي ايضاً ان صاحت قائلة « ما اكرم الله الذي قدر لي ان اشاهد هذه المظاهر من الجمال »

والحق لا يظهر صريحاً نبيلاً الاَّ على افواه الاطفال ولكنها كانت النزهة الاخيرة التي قام بها لامرتين مع ابنته جوليا التي يحبها حبًّا يقارب العبادة . ففي ٦ دسمبر سنة ١٨٣٢ في ذلك الوقت الذي كان يخيل فيهِ الى لامرتين ان ابنته جوليا متمتعة بالصحة والعافية لفظت روحها بين يدي والديها في المنزل الذي اختاروه في ضاحية من ضواحي بيروت حيث ظنوا انهم يجدون فيهِ اسباب السعادة والهناءة . وفي شهر مايو من السنة التالية سار المركب ألست Alceste الذي جاء بهم الى بيروت في سبتمبر سنة ١٨٣٢ يحمل الى فرنسا جثمان الفتاة المحبوبة حيث دفن في مدفن العائلة في سان بوان . اما لامرتين وزوجته التاعسان فقد عادا الى فرنسا في الوقت نفسه على المركب لاسوفي La Sophie

كذلك اراد الحزن والاسى ان يظل لامرتين متعلقاً بالشرق وطنه الثاني

قلت لكم ان لامرتين كان يظهر اعجابه حيثما حلّ وانيما اتجه سواء كان ذلك فيما كان يراه من جمال وروعة او فيما يقف عليه من اخلاق الناس . واذا رغبتم ان تطلعوا على رأي لامرتين في الطائفة المارونية التي يرعاها في هذه الآونة شيخ بكركي الجليل فها كم ما قاله في هذا الصدد :

« ان الشعب الماروني يؤلف شعباً منفرداً في كل الشرق رجاله طوال القامة وسام الطلعة لهم نظرات تدل على الصراحة والفخر وابتسامة حلوة فطنة عيونهم زرق وانوفهم قني ولحاهم

شقر وحركتهم نبيلة وصوتهم خطير وعاداتهم تدل على التهذيب والادب فكأنهم جالية اوربية رماها الدهر بين قبائل الصحراء . على ان قسماتهم عربية وان من يمر بقرية من قراهم ويرى الشيخ جالساً امام داره ويسمع صهيل جياده ويشاهد اعيان القرية تحيط به وهم لابسون اغلى ثيابهم وعماماتهم ومتقلدون خناجرهم لا يشك الاّ انهُ امام شعب متحدر من سلالة الملوك

«ان الموارنة هم ابطال شجعان ميالون بطبيعتهم الى الغزو والفتك كباقي سكان الجبل فاذا دافعوا عن جبلهم دافعوا عنهُ دفاع رجل واحد ولا مغالاة اذا قلت ان اللبناني هو شعب بنفسه»

يقال ان لامرتين تغنى شعراً بوادي حمانا وهذا خطأ فان اشهر قصائد لامرتين من مثل «التأملات» و «الانغام» نظمها قبل سفره الى الشرق ولم ينظم بعد عودته الاّ مجموعته المسماة «وحي الاستجمام» اذا استثنينا «جوسلان» و «هبوط ملاك» وليس في هذه المجموعة ما يدل على زورته للشرق الاّ قصيدة «الحسناء تدخن النرجيلة» و «القفر» و «سلطان: الجواد العربي» . اما وادي حمانا فان لامرتين قد وصفه نثراً وصفاً بديعاً سأذكر لكم شيئاً منهُ

لما رجع لامرتين من فلسطين وفجع في ابنته جوليا غادر بيروت في الثامن والعشرين من شهر مارس ميمماً بعلبك ودمشق ماراً ثانية بغابات الصنوبر حيث يلقى في كل خطوة يخطوها تذكارات مؤلمة . ويرجع عهد هذه الغابات غابات فخر الدين الى ما قبل القرن الثالث عشر وهي ذات مساحات واسعة غربي المدينة وعند سفوح الجبال

صعد لامرتين الجبل بحاشيته المؤلفة من ٢٦ جواداً ومن ثمانية عبيد مشاة او عشرة كانوا خدمه وحراسه فمرَّ بطرق صخرية صفر منقطة بلون وردي تبدو للناظر اليها عن بعد انها متشحة بثوب بنفسجي وردي يسحر الالباب وليس ما يسترعي النظر في هذه الرحلة حتى بلغ حمانا. قال يصف هذا الوادي

« ان اروع منظر يستطيع المرء بهِ ان يرى بدائع صنع الله هو وادي حمانا فهو وادٍ يبتدىء بهوة مظلمة عميقة حفرت في قلب صخور مرتفعة تكللت بالثلج وهذا الوادي يمتاز بسيلٍ من الزبد يتحدر من قمم الجبال ويخطُّ في تلك الظلمة اخاديد متحركة ساطعة تعرض قليلاً قليلاً حتى ينسكب سيلها من شلال لآخر ثم يتجه فجأة الى المغرب ويسيل في وادٍ متسع مجتازاً ما يعترضه من بطاح وتلاع

« ما شعرت قط بجمال الجبال قبل رؤيتي لهذه البقعة المتشحة بجمال حزين خطير حلو يختلف عن جمال البحر وجمال السهول فهو جمال يقبض الصدر بدل ان يشرحه كأنهُ صورة للعاطفة الدينية في ايام المحن بدل ان يكون صورة لعاطفة الدين ايام الهناءة»

بعد ان غادر لامرتين حمانا وصل الى سهل البقاع ثم ذهب الى زحلة حتى وصل الى بعلبك في اواخر مارس سنة ١٨٣٣ . نترك الكلام هنيهة عن بعلبك وارز لبنان وننتقل مع الشاعر الى دمشق

حط لامرتين رحاله بدمشق في اول ابريل فتجلت لديه هناك صور الشرق بأجلى مظاهرها. يسوءني ان الوقت لا يتسع لي حتى اقضي معكم ومع الشاعر وقتاً طويلاً في هذه المدينة نستجلي بدائعها من فقرها الذي لا يدرك الطرف آخره وحواجزها الرخامية ما بين صفر وسود الى غابات مآذنها الى نهرها ذي السواقي والجداول التي لا تحصى الى بساتينها المزهرة الزاهرة الى قصورها ومنازلها وقراها . ان العالم كتاب وكل خطوة نخطوها في اسفارنا تقلب لنا صفحة منهُ والذي لم يقرأ منهُ غير صفحة واحدة فهو لا يعرف شيئاً كثيراً ولذلك يجدر بنا ان نقلب باقي صفحات هذا الكتاب السحري

لقي لامرتين في دمشق طبيعة جميلة ونساء أجمل مما رأى حتى وصوله اليها . ان للمرأة في دمشق قامة كاملة كما في التماثيل اليونانية ونظراً تنبعث منهُ الحياة كغادات سكان الجنوب وبساطة في الهيئة كما هي الحال في الشعوب الاولى فاذا اجتمعت هذه الشروط الثلاثة في وجه صبية حسناء منظم القسمات كاد جمالها يكون كاملاً

يشعر المرء ازاء هذا المنظر الجميل بعاطفة من الاغتباط ليست هي عاطفة الحب ولكنها عاطفة حب الذكاء حب الفن حب الابداع المجسم في عمل كامل واتفق للامرتين ان يجلس الى فتاة قد خصها الله بكل هذه المواهب في مجتمع من المجتمعات التي سارعت الى اكرامه والحفاوة به وكان الحفل غاصاً بشعراء البلدة فتنافسوا جميعاً في التغني شعراً بجمال هذه الفتاة الحسناء فنظم لامرتين لهذا الغرض قصيدته المشهورة في حسناء دمشق. وكذلك كان لامرتين يتنقل من عجيب الى أعجب ومن جميل الى أجمل حتى وصل الى الارز فنعته الثلوج المتراكمة من ان يدنو منه

كان لا بد للامرتين وهو في طريقه الى الارز ان يمر بطرابلس الشام في ١٤ ابريل فاستقبلتهُ هناك اسرة كاتسفليس المشهورة وهي أسرة يونانية الاصل يزاول افرادها التجارة فضلاً عن انهم قناصل روسيا في طرابلس ولا يزال الخلف منهم في الشام مثالاً يحتذى في الكرم والنبل والجمال

وصل لامرتين الى الارز الى أشهر ما جادت بهِ الطبيعة وتغنى بجمالهِ الكتاب المقدس والانبياء الذين كانوا يرون في الارز عدا القوة النباتية التي تجعله يعيش أبد الدهر، نفساً على شاكلة الغريزة في الحيوان والذكاء في الرجل فكانوا يعتبرون الارز الهاً اتخذ له شكل الشجر

على ان هذا الشجر يقلُّ قرناً فقرناً ففي الوقت الذي وصل فيه لامرتين اليه لم يبق منه غير سبع شجرات يرجع عهدها الى العصور الاولى

وفي شهر يونيو من كل سنة يصعد سكان بشري واهدن وماحواليهما الى الارز يسمعون القداس في ظلال الشجر . فما أجمل تلك الصلوات التي يرن صداها في تلك الغاب وما أجمل ذلك الهيكل المجاور للسماء. فاحبب بالارز الخالد الذي ظلل ويظلل اجيالاً مختلفة من الناس كلها

تدعو الله وتصلي للعلي بلهجات وعقائد مختلفة على انها كلها تشيد بذكره في أعماله المجيدة وتعبده في مجالي الطبيعة التي تظهر قوته وعظمته

ولما وصل لامرتين الى الارز كان ذلك حوالى ١٤ ابريل والشتاء لم يكد ظله يختفي فكان من الصعب جداً على لامرتين وحاشيته ان يقتربوا منه فظلوا مع الجهد الذي بذلوه على بعد ٥٠٠ او ٦٠٠ خطوة فلم يستطع ان يلمس بيده بقايا الطبيعة والدهور فساءهُ ذلك وآلمه

كنت اودُّ ان اتركم أيها السادة في هذا العلاء الالهي غير اني وعدتكم ان ارجع معكم الى بعلبك فلنرجع اذن الى ٢٩ مارس حيث كان لامرتين يجتاز قمم صنين الى ان انتهى بعد جهد ولأي الى قفر عين شمس

يمتد من ناحية الافق مجموعة خِرَبٍ صفر القت عليها الشمس الغاربة حلتها الذهبية هي بعلبك المحبوبة بجدرانها الضخمة واعمدتها العظيمة

يعجز قلم الكاتب وريشة المصور ان يصف تأثير هذا في نفس مشاهده

في مجرى النهر بين الحقول في جذوع الشجر الباقية على الزمن في كتل الجرانيت الاحمر أو الاغبر في الرخام الابيض في الحجر الاصفر في قطع الاعمدة والتيجان المحلاة بالبارز من النقوش في القبب والعقود والقواعد في التماثيل والاعمدة التي رماها عصف الرياح والزلازل كل هذا يتمثله المشاهد بقايا مملكة عظيمة هي صدى الماضي وعلامة الفناء

جن الليل وضرب بخيله ورجله وبدا القمر في السماء الصافية من ذلك المكان فكان لذلك السكون المخيم اكبر الاثر في نفس لامرتين وهو بين انقاض عالم يخيم عليهِ الموت والفناء بين انقاض هي شهود خرس على ماض مجهول بين انقاض لا تجاريها اي انقاض اخرى في العالم بالقوة والعظمة لقد اوحت هذه الخرب الى لامرتين بقصائد قوية عظيمة توازي عظمتها وقد ختم احداها بقولهِ يتحدث عن نفسه

«لا اسمع وانا جالس على حافة هذه الهوة العميقة الا صفير الرياح ينبعث منها الهزء والسخرية لقد اثقل الاسى كاهلي واحنى رأسي وضاق بهِ صدري فأصبحت وانا لا فكر لي ولا قلب »

ايها السادة : ان هذه الابيات التي ختم بها لامرتين قصيدته ما هي الا نفثات شاعر لان لامرتين كان عليهِ ان يحيا ليذهب من سورية الى القسطنطينية ليذهب من قلبهِ الى فكره ففي سورية خلف قلبه والقسطنطينية خصها بفكره . لقد عاش لامرتين بعد ذلك عمراً طويلاً وكان يحلم دائماً وهو رجل الدولة والخطيب المصقع في تحقيق اماني قلبه وفكره

ولا اخال الا ان لامرتين لو عاش حتى هذه الايام لكان مغتبطاً مسروراً اذ يرى ان ما كان يضمره للبنان من آمال وأمانٍ قد تحقق ، واذ يثبت لهُ ان الشعب اللبناني فيما بذله من صبر وجهد وتضحية قد كوفئ او سيكافأ — على ما تتمناه لهُ — باستقلال مجيد سعيد تام



جرازيلا

للشاعر الفرنسي الفرنسي دي لامرتين



جرازيلا فتاة ايطالية من سكان نابولي كان أهلها صيادي سمك فقطن في منزلهم الفرنسي دي لامرتين في اثناء سياحته في البلاد الايطالية.وكان وقتئذ في الثامنة عشرة من عمره فاحبته الفتاة حباً تملك كل مشاعرها وتسلل الى سويداء قلبها . لكنه سلاها عند ما غادر ايطاليا عائداً الى موطنه تلبية لنداء أمه . فماتت تلك العاشقة حزناً وكمداً بعد شهور من فراقه . حتى اذا كانت سنة ١٨٣٠ اي بعد الحادثة باثنتين وعشرين سنة تذكرها وهو في احدى كنائس باريس يحضر جنازة فتاة تماثلها سناً . فبكى بكاء مراً . وتمثل له غدره وخيانته لتلك التي قتلها صده وبعاده . فيمم صوب ايطاليا وزار نابلي باحثاً عن قبر تلك التي ذهبت ضحية على مذبح انانيته حتى عثر عليه في مكان موحش فجثا على أديمه وبلل ثراه بدموعه مستغفراً عما جناه. ونظم هذه المرثية التي هي بلسم للجرح . وندى للقلب. وعطر الزهور التي تنبت على ارماس المحبين

على شاطئ البحر الخضمّ ، الذي ترتسم على صفحاته مباني سورانت[1] ، حيث الامواج الزرق تنبسط تحت اقدام شجر البرتقال ، قبالة سياج الأجمة العطر ، اقيم نصب صغير ، لا رواء له ولا بهاء ، قد غطته الاعشاب ، ووارته الزهور ، فاختفى تحت اوراقها اسم الراقدة الذي لم يفكر فيه احد ، ولم يردّده صدًى

فاذا ما مرّ عابر سبيل ، واستوقفته عاطفة رأفة وحنان ، فأزاح بيده النباتات،مستطلعاً طلع ساكنة الرمس ، استعبرت عيناه ، وفاضت مدامعه ، فكفكف عبراته ، وعاود سيرهُ آسفاً حزيناً ، وهو يتمتم: ستة عشر ربيعاً ! لم تستتمّها ! لقد ماتت قبل اوانها

اجل ! ستة عشر ربيعاً غير كاملة ، عمرٌ قصير الامد ، لكنه لم يسطع البتة على جبهة اجمل من هذه وابدع ، ولم ينعكس بهاء هذا الشاطئ المحرق ، في عين اشد صبابة ولا اكثر هياماً ، اني اراها وحدي ، كما تركتها الذكرى حية في النفس، حيث يبقى الشيء دون ان تنال منه يد الموت ، اراها حيةً كما كانت في تلك الساعة ، والفلك يسري بنا على متن الامواج ،

---

(١) مدينة في ايطاليا على خليج نابولي

وقد علق نظرها بنظري ، فتكلمت عيناها ، وصمتت شفتاها ، مخافة ان يقطع الكلام لذيذ هنائتنا وشعرها الاسود الفاحم ، مستسلم الى الهواء يحله ويداعبه ، وظل الشراع يتيه على خدها الجوري [1] ، وهي تستنشق عبير النسيم العليل ، فأشارت ببنانها الوردي الى القمر المتلألىء ، ثم الى زبد الماء الفضي ، وصاحت بتدلل : « لماذا كل شيء يسطع في الفضاء وفي نفسي ، فهذا الحقل السماوي ، ذو اللون الازرق السمنجوني ، المزرع شهباً منيرة ، وهذا الرمل الذهبي حيث تتكسر الامواج ، وهذه الجبال التي ترتعد قننها في اقصى الفضاء ، وهذه الخلجان المتوّجة بالغابات الهادئة الساكنة ، وهذه الاضواء على الساحل ، والاغاني على الامواج لم تهيج قط حواسي ، وتملأها لذة مبهمة ، وحبوراً خفيًا ، مثلما فعلته الآن

« لماذا لم يذهب بي التأمل فيما مضى مذهبه الآن ؟ فهل اعترى حياتي حدثٌ رقق من شعوري ، ولطف من احساسي ؟ وهل بزغ في فؤادي كوكب ، مثل ذلك البازغ في السماء ؟ »

***

وكانت عينها صافية نقية ، وشفتها طاهرة عفة ، وجفناها لم يكونا ليحولا بين نظرها المملوء عفافاً وقدساً ، وكانت السماء تغمر نفسها بالضياء ، وروحها اشبه بتلك البحيرة التي لا تجعّد سطحها نسمةٌ ، غير نسمة الشفوف والنقاء ، وجبينها البديع لم يصل اليه الهم ليسمُهُ بميسمه ، فكل شيء فيها بطرٌ مرحٌ ، وهذا الابتسام اليافع ، الذي مات بعدئذ بحزن على فمها ، كان دائماً طافياً على شفتيها المنفرجتين كأنه قوس قزح نقيّ ، في يوم بهيٍّ ذي سناء ، وذلك الوجه الفتان لم يستره ظل ، ولم يحجبه حزن ، لان هذا الشعاع لم ينفذ بعد خلال الغمام

وكان صوتها الذي يحاكي رنين اكواب الفضة ، صدى نقيًا صافياً لنفسها الطفلة ، وموسيقى لتلك الروح ، تنشد على قيثارتها اغاني العواطف ، فتسبي العقول ، وتأسر الافئدة وتبهج حتى الهواء الذي تصعد على جناحيه

لقد كانت صورتي هي الاولى التي حفرت في قلبها ، فتقبّلتها كما تتقبّل العين اول شعاع من ضوء النهار ، فتغدو لا ترى غير ذلك النور الذي فاض عليها ، فملأها من سنائهِ وضيائهِ ، فعند ما احبّت ، اصبح العالم كله لها حبًا وصبابةً ، فامتزجَتْ بي ، وامتزجتُ بها ، فنبذَتِ الماضي ، واشاحت بوجهها عن المستقبل ، ولم تعُد تهتمّ إلاّ بالساعة التي هي فيها ، فتلاقي من تلاقينا الليلي هو كل مُنى نفسها ، بل هو حياتها وروحها وريحانها ، فكانت تستسلم الى الطبيعة الهادئة ، فتبتسم لها هذه ، عند ما تقوم بصلاتها الحارّة الورِعة ، فتقصد صَوْبَ الهيكل المقدس ، حاملة بيدٍ ازاهير التقدمة . وقابضةً بالاخرى على يدي ، فأسير معها طائعاً كطفل ، حتى اقف في أسفل الدرَج ، فتُسِرّ اليّ بصوتها الملائكي : « صلّ معي ، لترتفع

---

(١) نسبة الى الورد الجوري

نفسانا الى السماء ، لاني لا أصبو الى جنة الخلد ، ولا « اتمناها، اذا كانت خلواً منك »

***

غاب شخصي فارتعد كل شيء في اعماق تلك النفس ، وانطفأت تلك الشعلة مصعدة لهيبها المائت الى السماء، وتغلغل فيها دون ان يرجى له عود ،ذهبت تلك الحبيبة ولم تضن فؤادها بالتعلة والأمل،ذهبت ولم تنازع الآلام حياتها ، بل شربت كأس المرارة والاحزان نهلة واحدة ، فاغرقت قلبها في اول دمعة ذرفتها عينها ، فحاكت ذلك الطائر الذي اذا جن ليله ، لوى عنقه تحت جناحه ونام ، فالتحفت باليأس الصامت ونامت هي ايضاً نومها الابدي، ولكن قبل ان يزر غسق حياتها ، وتبدو طلائع ليلها

نامت خمس عشرة سنة في مرقدها الصلصالي ، ولا احد يبلل بدموعه ثرى ملجأها الأخير ، فالنسيان السريع الذي هو كفن الميت الثاني ، قد غطى الممر المؤدي الى تلك الحفرة ، فليس من يزور ذلك الحجر الذي محت نقوشه يد الزمن ، لا احد يفكر بها ويصلي لاجلها ، غير ذهني الذي علقت به كل ذكريات الماضي،فاذا ماصعدت على امواج ايامي السالفة ، وساءلت نفسي عن الذين رحلوا من هذه الفانية ، وطفقت عيناي على آثارهم العزيزة ، وبكيت في سماء حياتي ، على نجوم عدة غارت وخبا ضياؤها ، كانت تلك الحبيبة اول الكواكب التي اندب خسوفها ، مع ان ضوءها الهادىء اللطيف ، لم يزل ينير قلبي بنور التقوى والخشوع

***

نسيها الناس طراً ، لكن الطبيعة لم تنسها ، فقد حلت قبرها بشجيرة شائكة صفراء الورق ، يابسة العروق،امتصت عصارتها رياح البحار ، واوقفت نموها حرارة الشمس فدبت على الصخر دبيباً، دون أن ترفع رأسها ، فأشبهت تلك الحسرة المميتة ، التي تتسلل الى القلب وتتأصل فيه . ولا تزال تتغلغل في صميمه حتى تأتي عليه

فاذا ما اقبل الربيع ، وبسمت الطبيعة . نبتت على ذيَّاك القبر زهرة بيضاء ، كأنها الثلج في نقائها ونصوعها ، فتحاصرها الريح ، وتضيق عليها من كل جانب ، ولا يدور الفلك دورة او دورتين ، حتى تنتثر اوراقها ، قبل ان يعطر أريجها الفضاء

فما اشبه هذه الزهرة بساكنة الرمس ، التي هصر غصنها الغض ، قبل ان تبهج الحياة فؤادها ، وتسرها بنيل المنى وإدراك الأماني . . . . ألا بالله خبريني أيتها الزهرة الذابلة ، هل لا يوجد مكان غير دنيانا ، تزدهر فيه الاشياء ازدهاراً ، لا يصيبه ذبول ، ولا يعتريه أفول ؟؟؟

القاهرة جورج نيقولاوس

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

الاشتراكية والبولشفية

﴿ الاشتراكية ﴾ : اول ما وضعت هذه الكلمة في معاجم اللغات الاوربية حوالي سنة ١٨٣٥ وضعها (روبرت اون) المتوفى سنة ١٨٥٨ وتتجلى البواعث التي ادت الى الاشتراكية بعض التجلي بالاشارة الى حياة هذا الرجل الانكليزي الغريب في اطواره والى الاعمال اللذيذة الثمينة التي قام بها . فقد كان من كبار رجال الاعمال وله محدثات جمة في صناعة غزل القطن تشف عن قدرة وذكاء متوقد ، وجمع ثروة لا بأس بها ، وقد رأى بام العين الشقاء المخيم على العمال في مصنعه في (مانشستر) وضياع شطر عظيم من حياتهم عبثاً فاخذ على عاتقه اصلاح حالهم وتحسين العلائق بينهم وبين مخدوميهم، ومن سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٨٢٠ ادخل من الاصلاحات على من كان في خدمته من العمال في مصنعه في (نيولنارك) وعددهم الفان ما يعد عجباً عجاباً . قال الكاتب اش . جي . ولز[1] عنه انهُ خفض ساعات العمل تخفيضاً محسوساً وابطل تشغيل الاطفال وحسن البناء من الوجهة الصحية وزاد في معارف العمال وتمرينهم العلمي العملي وخصص لهم راتباً يتقاضونهُ في اوقات البطالة وكساد الاسواق وانشأ المدارس الحديثة وذهب الى ان النساء والرجال هم ابناء البيئة التهذيبية التي يعيشون فيها ، ثم بفضل جهوده والدعاية الواسعة النطاق التي بثها اصدر البارلمان الانكليزي في سنة ١٨١٩ القانون المشهور باسم « قانون المصانع » وبموجبهِ لا يجوز لاصحاب المعامل ان يستخدموا الاطفال من سن التاسعة فما دون ولا ان تتجاوز ساعات العمل الاثنتي عشرة في اليوم ، ولكن اهل الجمود من اعداء التجديد والذين لا يحسبون حساباً للفقراء والذين لهم مصانع يخشون عليها من البدع التي ادخلها (اون) — ان هؤلاء جميعاً تربصوا بهِ واعدوا العدة لمحاربتهِ فلم يجدوا خيراً من اخذه بالآراء الحرة التي يدين بها مما يخالف النصرانية وعقائدها فحملوا عليهِ حملة كنسية قروسطية كان لها في تلك الايام السحيقة أثر سيء عليهِ

---

(1) The Outline of History p. 109

ومن الطف انتقاداته للعملة وتقلب اسعارها قوله اننا ما دمنا نؤدي ثمناً على الاعمال بعملة متقلبة فأملنا بالحصول على العدالة الاقتصادية لن يزيد على املنا بالحصول على دنيا نريدها مضبوطة في حين تتقلب ساعاتها تقلب الحرباء

ومن تجاربه انهُ حاول اصدار اوراق مالية تقدر قيمتها بساعات العمل لعقيدته ان العمل هو القيمة الثابتة ، ، فهنالك ورقة مالية بساعة واحدة من العمل وورقة بخمس ساعات وورقة بعشرين ساعة . وقد تولدت من تأثيره المباشر وآرائهِ المبتكرة النقابات التي تملأ الاوساط الاقتصادية في عصرنا هذا وربما بلغ اعضاؤها ثلاثين مليوناً او اربعين مليوناً من الخلق

وهذه الاشتراكية التي وضع اساسها العملي (روبرت اون) هي اشتراكية سامية علقت جميع آمالها على الذوق السليم في الناس بان ينهضوا ويعيدوا تنظيم المجتمع ويصلحوا ما فيهِ من عيوب سياسية واقتصادية واجتماعية . فهذا كما يرى القارئ مخالف لاشتراكية (ماركس) وما فيها من الاعتماد التام على الكره المتغلغل في صدور الصعاليك لاهتضام حقوقهم ولتجردهم من الاموال والاملاك واتخاذ هذا الكره قوة عنيفة دافعة لاحداث الانقلاب الاشتراكي المنشود . فهذه الاشتراكية العنيفة هي اساس الشيوعية التي تهدد النظم الحاضرة . وقد نجح (ماركس) في اذكاء نار الثورة الاجتماعية حتى ان تعاليمه ادّت الى تأليف عصبة من العمال من انحاء الارض وهي العصبة التي تسمى (الدولية الاولى) ويقال بالاجمال ان الصراع العنيف بين الاشتراكيتين — اشتراكية (اون) واشتراكية (ماركس)— انتهى بتغلب هذه على تلك كما هو ظاهر من ميل الاشتراكيين في انحاء الارض الى تنظيم حركة العمال لاتخاذها كما يدّعون سلاحاً ماضياً ينقذون بهِ النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من ايدي محتكريها من اهل التملك الخاص

وتفرّق الاشتراكية الحديثة تفريقاً جليًّا بين التملك الشخصي والتملك الجمهوري ،ومدار حركتها ان تكون الارض وجميع الوسائل الطبيعية للانتاج والنقل والتوزيع بيد الجمهور ، وان يكون للفرد في ضمن هذه الحدود الشيء الكثير من التملك الشخصي والحرية الذاتية الطليقة

ولكن ليت شعري كما قال (ولز) من هو الجمهور الذي يستولي على هذه الثروة المشتركة؟ ايكون مؤلفاً من الملك وحاشيته ام من اهل المدينة ، من اهل المقاطعة ام من اهل المملكة من الامة ام من الانسانية جمعاء ؟ وهنا نجد الاشتراكية صامتة لا تحير جواباً . ثم اذا انكر الاشتراكيون على الفرد ان يدّعي حق التصرف في منجم من المناجم او في قطعة من الارض فكيف يسمحون لامة من الامم ان تحتكر المناجم او طرق المواصلات او الثروة الطبيعية في الارض التي تقيم بها وتمنع منها سائر العالم ؟

اما الشيوعية فهي الغاء التملك بتاتاً اي جعل جميع الاشياء ملك جميع الاشخاص

﴿ البولشفية ﴾ : ابتدأت الثورة الروسية في سنة ١٩١٧ بتفكك الجيش الروسي في الجبهة

الالمانية ورجوع افراده الى القرى والمدن يحرقون وينهبون ويقطعون السابلة الى ان ازل القيصر الضعيف عن عرش آل رومانوف وتبوأت الحكومة المؤقتة مقعدها في الحكم وعلى رأسها (كرنسكي) الرجل الاشتراكي الديموقراطي الوهمي الهستيري ولكن ما عتم ان اكتسحهُ البولشفيك بزعامة (نيقولاي لنين) فقبض هذا على ازمة الامور بيد من حديد ونشر على حكومات العالم منشوراً يعد اعظم تحدٍّ حازم ظهر منذ سنة ١٧٨٩ الى اليوم وفيهِ الدعوة الى فكرة صريحة في الحكم لم تكن معهودة من قبل

والواقع ان البولشفية او الشيوعية هي نظرية (ماركس) مفسرة تفسيراً ينطبق على الافكار والاحوال في القرن العشرين ، ومع ما كان عليه تلاميذ هذا الرجل الثائر من الاتفاق على أساس تعاليمه الاقتصادية فقد اختلفوا جد الاختلاف على مضامين هذه التعاليم العملية والسياسية . فالحزب الاشتراكي الديموقراطي الجرماني الذي يتفكك اليوم أمام الحملات الهتلرية الوطنية ومن حذا حذوه من الفرق ومنهم المنشفيك الروس اشتغلوا بتنظيم الأحزاب الاشتراكية البرلمانية واستخدموها عند سنوح الفرصة لتأييد الاصلاحات الاجتماعية ، على ان تكون الغاية المنشودة الانتصار على الدولة انتصاراً تدريجيًّا وتحويل الرأسمالية على مهل الى الاشتراكية وذلك باتخاذ اجراآت تشريعية تبدل شكل الحياة في المجتمع شيئاً فشيئاً . لكن البولشفيك عرضوا تفسيراً آخر لتعاليم (ماركس) خلاصته ان الدولة الراسمالية لا يمكن انقاذها من القابضين على زمامها واستخدامها في المصالح الاشتراكية فلا بدَّ من سحقها اولاً ثم يتوجب على العمال بعد تتويج هامتهم باكاليل الظفر في هذا الصراع العنيف ان يخلقوا في محلها غداة ثورتهم دولة جديدة مختلفة في نوعها وروحها تكون سلّماً لخدمة الاغراض البعيدة التي ينشدونها

بيد ان هذه الدولة الجديدة لا يمكن ان تكون في حدّ ذاتها اشتراكية او شيوعية بالمعنى التام لان فكرة « دولة اشتراكية » في نظر الرجل الاشتراكي القح هي فكرة يناقض بعضها بعضاً ، فالدولة في نظره اداة تستولي عليها طبقة من الناس كالطبقة الراسمالية لارغام طبقة أخرى كطبقة العمال . ولكن متى توطدت اركان الاشتراكية في العالم فارغام طبقة لاخرى يتلاشى من الوجود لانه لا تبقى ثمة طبقات بالكلية ، بل الذي يستجد هو اداة لتسيير أمور الناس تدعى « الآلة الادارية »

غير ان الانتقال الى الشيوعية من بعد سحق الرأسمالية لا يتم دفعة واحدة بل لا بد من فترة تكون فيها السلطة قاهرة بيد « الصعاليك » فان هؤلاء مضطرون في الدفاع عن حوزتهم الى تنظيم صفوفهم ومحاربة « الرجعى » في بلادهم والقضاء على الرأسماليين قضاء مبرماً لا تقوم لهم قائمة من بعده واستئصال شأفة الطبقة التي كانت حاكمة بعد تجريدها من مالها ثم يأخذون في التمرن على المعيشة في نظام ليس فيه طبقات الى ان يكتسبوا العادات الاجتماعية والاشكال النظامية الضرورية لتسيير المجتمع الخالي من الطبقات . وتعرف هذه الفترة بفترة « استبداد

الصعاليك القاهر » وهذه الجملة هي مما كتبه (ماركس) نفسه وتنبأ به ويقول الشيوعيون ان الروسيا لا تزال تجتاز هذه المحنة منذ سنة ١٩١٧ الى اليوم

وعلى القارىء ألا ينسى ان المثل الاعلى الذي ينشده الشيوعيون من كل الانقلاب الذي يحدثونه هو عند التحليل النهائي لا يختلف في شيء عن الاشتراكيين الا في هذه الفترة الاستبدادية الحاسمة ، فالشيوعيون والاشتراكيون متفقون على ان يكون التدرج هو من الحالة الرأسمالية التي نحن عليها الى الحالة الاشتراكية المنشودة بيد ان اولئك يطلبون ان يكون الانفصال بين الحالتين حاسماً مطلقاً وان يبنى الجديد من أسس جديدة مباشرة في بيئة مستحدثة قد هيأها العاملون للعقول بالعناية التامة وان يكون بناؤها بايدي دولة تتمتع بسلطان قاهر لا حد له وهي تعمل باسم طبقة الصعاليك ثم تزول من الوجود حالما يصبح الاصلاح الاشتراكي وطيد الاركان . وقصارى القول ان الشيوعيين يذهبون الى وجوب هذه الفترة الانتقالية بين سقوط الرأسمالية وقيام الاشتراكية تكون فيها طبقة الصعاليك ذات سلطان قاهر تتوسل الى تحقيق غايتها العظمى بدولة من صنع يدها

على ان الطبقة بمجموع افرادها لا تستطيع ان تملي ارادتها ولا ان تدير شؤون الحكم مباشرة بل لا بدَّ لها من وسيط يقف بينها وبين القوة الاجرائية يعني لا بدَّ لها من رأي عام منظم يمثل طبقة الصعاليك ويعبر عن افكارها ، وهذا والحق يقال هو وظيفة (الحزب الشيوعي) المفتّح الابواب لكل صعلوك يشعر بطبقته ويظهر الاستعداد الكافي للاشتراك في الاعمال والتبعات الملقاة على عاتق الحكومة المستجدة . وما أشبه هذا الحزب الشيوعي بجمعية (الاتحاد والترقي) العثمانية وسيطرة مركزها العام على الدولة وعلى مجلس النواب . ويجري الدستور (السوفيتي) على خلاف القواعد الاساسية في الدموقراطيات النيابية — يعني ان حقوق الانتخاب وان كانت متسعة الاَّ انها حقوق محصورة في الطبقة العاملة ومحرَّمة على سائر الافراد التابعين للطبقات المستثمرة ؛ ويعد من هذه الطبقات المستثمرة اهل التجارات الخاصة والفلاحون الاغنياء بل الاطباء والمحامون . والقاعدة التي يتمشى عليها الانتخاب ان ليس « لكل فرد واحد صوت واحد » بل « لكل عامل واحد صوت واحد » تحاشياً من ان يتمتع الطفيليون والذين هم عبء على المجتمع بمثل هذا الحق الغالي . ولما كان الاقتراع في روسيا السوفيتية يجري علناً او « على المكشوف » فلا مجال كثيراً للرأي الفردي في انتقاء الافراد بل القائمة المسيطرة التي لا ترد هي قائمة الحزب الشيوعي . ويراعى في التمثيل جانب الصناع من أهل المدن دائماً لئلا يغرقهم سواد الفلاحين الذين يملأون السهل والجبل

وفي نظر الروس الحمر ان الاجراآت المتخذة لثل عروش التجار والفلاحين المتخومين ، وان الحملة المنظمة لجعل الزراعة مشتركة ، وان مشروع السنوات الخمس لتقوية الصناعة — وقد تجدد

حديثاً — كل ذلك خطوات ثابتة في الطريق الموصلة الى النظام الاشتراكي، ومتى توطد هذا النظام تصبح حكومة الطبقات عملاً لاغياً لان الاشتراكية تكون قد قضت على وجود الطبقات نفسها

ولا بدّ لنا هنا من تنبيه القارىء الى أن الثورة الروسية في نظر الشيوعيين ليست نهضة وطنية محلية مستقلة غايتها احداث مجتمع اشتراكي في روسيا فقط وانما هي جزء من انقلاب عالمي لا تكون انتصاراتها وطيدة الاركان من غير تحقيقهِ والحصول عليهِ . وستبقى الدولة الطبقية في روسيا — وهي دولة الصعاليك — مادامت الرأسمالية في الخارج تهدد نظام « الاتحاد للجمهوريات الاشتراكية السوفيتية » بخطر الرجعى او ما دام في اية ناحية من انحاء الارض جزء من طبقة الصعاليك ينتظر ساعة الفرج ويوم التحرير . لاجرم ان زوال الدولة في البلاد الروسية تأخر الى اجل غير مسمى . وما العلائق السلمية التي عقدها الاتحاد السوفيتي بالعالم الخارجي الرأسمالي سوى انواع من الهدنة المؤقتة في حرب طبقية ستنتهي فقط في مجتمع تطمئن فيهِ الاشتراكية وتأمن على حياتها من الاخطار

ولا يألو الحزب الشيوعي جهداً منذ الآن في بناء الهيئات المتنوعة كالمتحدات او المؤسسات القائمة على الادارة الاقتصادية حتى اذا حان الزمن اصبحت عاملة من نفسها مكتفية بطريقتها من غير حاجة الى ادارة سياسية تشرف عليها . ومن هذه الهيئات ما يدعى « ترست » اي المتحدات التي تدير صناعات الدولة ومنها « اللجان التصميمية » وهي التي تضع الخطط العملية ومنها « المجالس الادارية » وهي التي تنظم الحياة الاقتصادية ، ومنها المتحدات التجارية والجمعيات التعاونية وهي النقابات ذات المقام المعترف بهِ في ادارة الشؤون ، فهذه الهيئات جميعاً هي ادوات الحكم الاجتماعي والغاية منها ان تحل محل الدولة الطبقية وادارة الصعاليك القاهرة وذلك عند ما تحل الساعة التي تخلف فيها الادارة الاقتصادية الحكومة السياسية

هذه بالاجمال هي الطريقة السوفيتية وما فيها من التقسيم الثنائي المبني على تمثيل الصعاليك تمثيلاً مزدوجاً في الادارة ، الواحد باعتبارهم الطبقة الغالبة في المجالس السوفيتية في المديريات والمقاطعات وفي مؤتمر الدولة العام والثاني باعتبارهم الطبقة الحاكمة في الحزب الشيوعي وهو مؤلف من النخبة المنتخبة من افرادهم ولهُ فروع منتشرة في طول البلاد وعرضها وما اشبه هذه الحالة بالحالة التي كانت عليها الدولة العثمانية عقب ثورة سنة ١٩٠٨ كما قلنا يوم تربع الاتحاديون على دست الحكم فكانت المجالس على انواعها — مجالس الادارة ومجالس الولايات ومجلس المبعوثان — مؤلفة منهم او من اكثريتهم من جهة وكان المركز العام للاتحاد والترقي من جهة اخرى مهيمناً على الحكومة مباشرة وهو يعين لها السياسة التي تسير عليها . ووراء ذلك قوة ثالثة هي قوة التنظيم الاقتصادي من نقابات ومتحدات ومشروعها الاقتصادي المسؤلة عن تنفيذه وهو مشروع السنوات الخمس ثم الايمان الملتهب بالقوة الكامنة في الشعب

وامكان استنهاضها الى العمل الدائم الذي لا ينضب

فهذا السعي لاستمالة الصعاليك واستثارة حماستهم وتوجيه ارادتهم شطر هذا النظام المستحدث وتأييده، ثم هذا الجد في حض الناس على العمل وعلى الصراع لتثبيت المجتمع الجديد وتوثيق عراه واحداث جماعة مؤلفة من وطنيين على اساس التساوي بدلاً من وطنيين ناخبين فقط — هذا كله هو الجوهر في الشيوعية اكثر من ذلك النظام الدستوري الجاف المطبق في الدولة الروسية

اما مشروع السنوات الخمس فقد ابتدأ في منتصف الليل من اول سنة ١٩٢٨ وانتهى في منتصف الليل من اول سنة ١٩٣٣ والغاية منه انعاش الصناعة والتجارة بتسخير ابناء البلاد في بذل الجهود مضاعفة على الانتاج والتوزيع وعمارة المباني العامة وفتح الطرق وما اشبه ذلك من الاعمال العمومية — يعني ان الحكومة السوفيتية ارادت الاسراع في تنظيم البلاد تنظيماً صناعيّاً اقتصاديّاً على حساب المعيشة العامة وانقاص مستواها فتحمل الروس ولا سيما العمال منهم في هذا السبيل ما كادت تنوء به ظهورهم لولا العقيدة المتأصلة في النفوس من ان ايمان الصعاليك يزحزح الجبال الراسيات. وذكرت الصحف ان البلاشفة لم ينجزوا مما وعدوا في هذا المشروع الذي جدّدوه سوى سبعين في المائة وان هم اعلنوا في مشارق الارض ومغاربها ان نجاحهم كان مائة في المائة. وهم لم يعدموا مع ذلك منتقداً مثل المستر (بتريك مرفي) يقول لهم في (الصنداي اكسبرس) مستهزئاً ان روسيا السوفيتية «حوّلت صناعتها من فوضى متفرقة عقيمة الى فوضى مركزية منتجة وحولت حياة سكانها من عبودية يتخبطون فيها كالاعمى الى رق ميكانيكي تحت اشراف، وقد انجزت في تلك السنوات اعمالاً جليلة القدر ولكن تحت الجلد بالسياط. ويعجب المرء بتلك الاعمال اعجابه بالاهرام ولكنه يكره في نفس الوقت ان يسمع الخبر الممض عن طريقة بنائها»

ولا يفوتني في الختام ان اوجّه انظار النخبة المنتخبة في العالم العربي ولا سيما الشبيبة منهم الى القوة الهائلة التي يستطيع التنظيم الدقيق مع الايمان الصادق ان يقوم بها، وهذا التنظيم ظاهر في الفاشستية كما هو ظاهر في النازية ولكنني اعتقد انهُ كان في البولشفية اتم واجرأ واكثر نشاطاً، يدلك على ذلك ان الحزب الشيوعي في روسيا ما ادعى قط ان انصاره يزيدون على مليون، والواقع ان عدد اعضائهِ لم يتجاوز في سنة ١٩٢٥ ربع مليون. «ولما كان هذا الحزب المنظم — على صغره — حازماً ومخلصاً ولم يوجد في جميع تلك البلاد المفككة العرى حزب آخر فيه من الشرف او الحزم او الكفاءة ما يمكنهُ ان يصمد لهُ او ان ينازعهُ فقد تمكن من الاستيلاء على بطرسبرج وموسكو ومعظم المدن الروسية وان يستميل اليه بحارة الاسطول الذين فتكوا بمعظم ضباطهم وان يصبح الآمر الناهي في روسيا جميعاً»[1]

(1) Outline of History p 694

الاعضاء الاثرية

في جسم الحيوان والانسان

ان جسم الانسان مؤلف ، كآلة آلة ، من اجزاء كثيرة تعمل معاً لتحقيق غرض معين . اما في جسم الحيوان فتعرف هذه الاجزاء بالاعضاء . ولكل عضو عمل خاص فالعين واليد والقلب ثلاثة اعضاء في جسم الانسان ، الاول للنظر والثاني للقبض والثالث لدفع الدم في الجسم . والاجزاء في الآلة تتفاضل من حيث خطرها . كذلك الاعضاء في الجسم ، فبعضها اعظم خطراً من غيرها في عمل الجسم الحي

وقد يكون في الآلة «سيور» و«مسامير» و«عجلات» لا عمل لها او ان عملها ثانوي . وجسم الحيوان كذلك ، قد تجد فيه اعضاء لا عمل لها ، ولا هي ضرورية للحياة ، فقد تقطع ذراع رجل او فخذه ، ولكنهُ يظلُّ حيًّا ، ويلعب التنس بذراعٍ واحدة او فخذٍ واحدة على ما رأى كاتب هذه السطور بامّ عينيهِ . وقد تزال احد الكليتين فيتعود الجسم الاكتفاء بواحدة ، فتكبر حجماً وتعمل عمل الكليتين . وما يصدق على الكليتين يصدق بوجهٍ عام على الاعضاء المزدوجة ، كالرئتين والخصيتين والمبيضين ، بل قد تنزع بعض الاعضاء الفردة كالطحال ، او المعدة من دون ان يموت الجسم الذي نزعت منهُ . ذلك ان عملها تقوم بهِ اعضاء اخرى ، وتمضي الحياة في سبيلها من دونها

ولكن ثمة اعضاء لا ندحة للجسم الحيّ عنها ، فاذا فقدها فقد الحياة . فليس بين الحيوانات العليا حيوان يستطيع ان يبقى حيًّا بعد انتزاع قلبهِ من جسمه ، وكلٌّ منها يحتاج على الاقل الى كلية واحدة ورئةٍ واحدة . بل ان الغدة الكظرية (adrenal) وهي فصان صغيران فوق الكليتين ، اذا ازيلت زالت معها الحياة من الجسم . فالاعضاء التي لا يستغني عنها الجسم الحيّ تعرف بالاعضاء الحيوية . وعليهِ ترى ان الاعضاء تتفاوت من حيث صلتها بالحياة ، فبعضها يستغنى عنهُ وبعضها لا يستغنى عنهُ

والاعضاء الاثرية لا فائدة منها ، ولا هي لازمة لاصحابها . وليس بالامر السهل ان تثبت بالبرهان ان عضواً من الاعضاء هو من هذا القبيل . لان هذا البرهان يقتضي امرين . اما الاول فممكنٌ في الغالب وهو ازالة العضو من الجسم من دون ان يتعرَّض الجسم بازالتهِ للموت . اما الثاني وهو اثباتُ ان لا عمل لعضوٍ ما وهو في الجسم ، فينطوي على صعوبة كبيرة ، لان

علمنا لا يشمل كلَّ شيءٍ ، وقد نعتقد ان عضواً ما لا وظيفة لهُ ، ويكون الباعث على اعتقادنا جهلنا. ومع ذلك فقد ثبت للباحثين وجود طائفة من الاعضاء الأثرية في كل طوائف الحيوان

***

اكثر الحشرات قادرة على الطيران،ولها زوج من الاجنحة او اكثر من زوج لهذا الغرض. ولكن بعض الحشرات فيها اجنحة لا تجنى منها فائدة ما . فذكر عث الغجر Gipsy moth لهُ اجنحة ويطير بها كسائر الفراش. اما الانثى فلها جناحان ولكنها لا تطير . فانها لدى خروجها من الشرنقة تزحف مسافة قصيرة وتلقي بيضها ، ولكنها لا تطير . فجناحاها لا عمل لهما . فهما من الاعضاء الأثرية حقًّا . وفي بعض الحشرات نجد ان الاجنحة صغيرة علاوة على انها لا تستعمل . ففي فصيلة الخلقيديدة (فصيلة من الحشرات وتعرف بالذبان النحاسي) حشرات صغيرة جدًّا وتتطفل على غيرها وهي مثلٌ بليغ على ما تقدم. وقد وصف الاستاذ هويلر من عهد قريب نملةً استراليةً جناحا انثاها نصف الجناحين السويين ، ولا عملَ لهما. فهذان الجناحان من الاعضاء الأثرية

ثم ان العيون في بعض حيوانات الكهوف من الاعضاء الأثرية. ففي بعض أسماك الكهوف نجد العيون اجساماً كروية صغيرة مختفية تحت الجلد ، ولا عمل لها على الاطلاق . ومن هذا القبيل عيون بعض اصناف السرطان والحشرات والسمادل

والمشهور ان الحيّات زواحف لا قوائم لها . ولكن الاصَلة (وهي جنس من الثعابين كبير جدًّا وموطنهُ افريقية والهند) لها اثرا قائمتين على جانبي مؤخرها ، وليس هذان الأثران في الجلد الخارجي فقط بل هما عظام متصلة بهيكل الجسم اتصالاً يدلُّ على انهما اثر قائمتين خلفيتين لا ريب فيهما . ثم ان الحيات تمتاز ببناء رئاتها بناءً خاصًّا . فمعظم الحيوانات التي تسكن على سطح الارض او في الهواء لها رئتان واحدة الى يمين الجسم وواحدة الى يساره . ولكن عدداً كبيراً من الافاعي ليس لهُ الا رئة واحدة ، هي الرئة اليمنى ؟ واما الرئة اليسرى فليس منها الا أثر نتوء بسيط

وفي الطيور اعضاءٌ أثرية عجيبة. فالمبيضان والقناتان اللتان تنقلان البيض من المبيضين الى الرحم متسقة النمو في معظم الحيوانات . فمبيض الى اليمين ومبيض الى اليسار . وقناة من كل من المبيضين الى الرحم . ولكن الطيور لا نجد فيها الا المبيض الايسر والقناة اليسرى. اما المبيض الايمن وقناتهُ فلا يعدوان كونهما أثراً مما كانا في الزمن الماضي

حتى الاجنحة ، اعضاءٌ أثرية ، في بعض الطيور . والاجنحة من الاعضاء التي تتميز بها الطيور عن غيرها من الحيوانات . ولكن الاجنحة في بعض الطيور العدّاءة كالنعامة والشَبْنَم (وهو طائر كالنعامة موطنهُ استرالية وجزائر الهند نقلها المعلوف عن بوسط عن

احمد فارس : Cassowary لا تفيدها شيئاً لانها لا تستطيع ان ترتفع بها عن سطح الارض . واذا قابلت بين اجنحة الطيور العدَّاءة واجنحة الطيور الطيَّارة وجدت الريش والعظم والعضل في اجنحة الاولى ضامرة وضعيفة اذا قيست بالريش والعظم والعضل في اجنحة الثانية . بل ان الجناح في طائر الكيوي (وهو من طيور زيلندة الجديدة) ضامر صغير حتى يختفي تحت الريش الذي يغطي جسم الطائر ، فيبدو هذا الطائر وكأنه ليس لهُ اجنحة على الاطلاق . فجناح «الكيوي» لا فائدة تجنى منهُ قط ، وهو مثل بليغ على الاعضاء الأثرية

***

فاذا انتقلنا بالبحث الى الحيوانات الثديية وجدنا امثلة كثيرة على الاعضاء الأثرية . فالحيتان حيوانات ثديية وليست من الاسماك كما يظن عادةً . وهي حيوانات ثديية لاءمت بينها وبين المعيشة في البحر . فهي حيوانات حارة الدم ، وتتقي تقلب الحرارة بطبقة من الدهن . ثم انها تطلع الى سطح الماء بين الفينة والفينة لـكي تتنفس . ودورتها الدموية مركبة تركيباً عجيباً تمكنها من استعمال الاكسجين المخزون في دمها في خلال الغوص . اما انتقالها فيتمُّ بحركة ذيلها العريض المشقوق ، الممتد امتداداً افقيًّا ، بدلاً من امتداده امتداداً قائماً كأذيال الاسماك . اما زعنفتا الحوت — وهما تقابلان الذراعين في الانسان والقائمتين الاماميتين في الحيوانات الثديية — فتستعملان لتوجيه حركة الحوت في الماء ، اي انهما كالدفة في المركب . ولكن اذا نظرت الى جسم الحوت من الخارج لم ترَ اثراً فيهِ لما يقابل القوائم الخلفية في الثدييات . فاذا فحصت هيكله في المكان المقابل للقوائم الخلفية وجدت عظيمات تقابل قحف الفخذ . هذه العظيمات مدفونة في جسم الحوت ، وليس لها عمل ما على ما نعلم فهي امثلة بليغة على الاعضاء الأثرية

واذا فحصنا قوائم الفرس الامامية والخلفية وجدنا فيها كذلك اجزاء أثرية . فاذا اخذنا القائمة الامامية وفحصناها وجدناها مكونة من عدة عظام كذراع الانسان ويده ، ففي اعلى القائمة عظمة تقابل عظمة العضد في ذراع الانسان ويليها عظمتان تقابلان عظمتي الساعد . ثم يلي ذلك في الفرس والانسان عظام صغيرة هي عظام الرسغ — وهي في الفرس في المكان الذي يعرف بركبة الفرس . ثم من ركبة الفرس الى حافره اربع عظام تقابل في يد الانسان عقد الوسطى . فالاولى تقابل العظمة التي تمتد في كف الانسان من الرسغ الى قاعدة الوسطى فاذا فحصت هذه العظمة في قائمة الفرس ثبت ان على جانبيها عظمتين طويلتين رفيعتين مدفونتين في لحم القائمة ولا يستند اليهما الفرس في شيء وهما تقابلان العقدتين الثانية والرابعة من وسطى الكف . فهما بقايا عظام كان لها شأن في تطور الفرس فلم يبق منها الاَّ آثارها

***

وليس الانسان بخارج عن هذه القاعدة العامة — قاعدة وجود الاعضاء الأثرية في تركيب

الحيوانات . فالاذن الخارجية عضوٌ مركب من قطعة من الجلد وقطعة من الغضروف ولها مكان معين على جانبي الرأس . اما من حيث السماع فليس لها شأن كبير . بل اذا نزعت لم يفقد صاحبها مقدرته على السمع . ولكنا اذا اردنا ان نتبين بعض الاصوات الخافتة احطنا الاذن الخارجية بكفنا كأننا نعينها على التقاط الامواج الصوتية

ومع ضآلة شأن الاذن الخارجية كعضوٍ ذي عمل خاص ، لها عضلات مركبة تركيباً عجيباً تمتد من متصل الأذن بالرأس . وهي ثلاث عضلات تكفي حركاتها لحني الاذن الخارجية الى الامام او الى الوراء او الى فوق. ثم هناك ست عضلاتٍ اخرى ممتدة على سطح الاذن نفسها، تغيّر شكلَ الاذن بانقباضها . وكل هذه العضلات بالغة حدًّا بعيداً من النموّ والقوة في الحيوانات كالخيل والكلاب. فالعضلات الثلاث الاولى توجه الاذن في جهة الصوت، والعضلات الاخرى تغيّر شكلها لتلقي الصوت. اما اذن الانسان فعاجزة عن هذه الحركات . والعضلات رغم وجودها ، لا تقوم بالغرض من وجودها اي تحريك الاذن وتغيير شكلها . واذا وجدنا من الناس مَن يستطيع تحريك اذنه ليدلّ على سيطرتهِ على العضلات المحركة لها، وجدنا كذلك ان تحريكهُ لها محصور في مدى ضيّق، لا شأن لهُ في تغيير مقدرة الاذن على السماع . فهذه العضلات في الاذن الخارجية في الانسان من الاعضاء الأثرية حقًّا

وفي عين الانسان عضو أثري كذلك . فانك اذا نظرت الى طرف العين من ناحية الانف وجدت نسيجاً مبيضًا هلاليّ الشكل. وليس لهذا النسيج شأن كبير في عمل العين . ولكن اذا تقصّينا تركيب العيون في الحيوانات التي دون الانسان فهمنا انهُ بقايا عضو كان لهُ شأن في قيام العين بوظيفتها . ذلك اننا اذا فحصنا طرف عين الهر المقابل لطرف عين الانسان حيث نجد هذا النسيج المبيضّ ، رأينا في عين الهرِ جفناً ثالثاً . ولهذا الجفن عضلات تمكّنهُ من الامتداد فوق الحدقة وتحت الجفنين الآخرين بسرعة ، فيغطي الحدقة. وهذا الغشاء معروف في كل الثدييات والغرض منهُ وقاية العين . فما نراه في عين الانسان هو أثر من هذا العضو ، ولكنهُ فقد ما يجعله ذا فائدة في وقاية العين فاصبح عضواً أثريًّا. والقرود تشارك الانسان في ذلك

***

ولا يقتصر وجود الاعضاء الأثرية في جسم الانسان على ظاهر الجسم . بل نجدها كذلك في باطنهِ . ومن أشهرها على الاطلاق الزائدة الدودية . حيث تتصل المعى الدقاق بالمعى الغلاظ ينتأ من المعى الغلاظ نتوءٌ (يعرف بالاعور) في نهايتهِ زائدة أشبه شيءٍ بالدودة، لذلك دعيت بالزائدة الدودية . وقد تلتهب هذه الزائدة احياناً فتؤلم صاحبها ألماً شديداً ، فاذا اجريت عملية استئصالها قبل فوات الاوان ، استغنى عنها الانسان من دون ان يختلّ نظام جسمهِ في

اقل وظائفهِ . بل اصبح من عادة الاطباء ان يستأصلوها في خلال القيام بأية عملية في البطن اذ لا فائدة ترجى منها على ما نعلم ، وقد تكون مصدر ألمٍ وخطرٍ على الحياة اذا التهبت

والزائدة الدودية — في غير الانسان — تظهر باشكال مختلفة . وليس بالسهل في بعض هذه الحيوانات التمييز بين آخر المعى الغلاظ واول الزائدة الدودية . ولكن آخر المعى الغلاظ (اي الاعور) في الارنب عضو كبير شبيه بجانب ورقة من ورق الاشجار وفيهِ في نهايتهِ الزائدة الدودية كأنها جزء منهُ . والظاهر ان للاعور وللزائدة الدودية وظيفة ذات شأن في جهاز الهضم في الارنب . وهما كذلك في كثير من الحيوانات الثديية الاخرى . ولكنهما يضمران في القردة والقردة الشبيهة بالانسان حيث تشبه حالتهما ما هما عليهِ في الانسان . فالزائدة الدودية في الانسان عضو أثري ولكنها ليست كذلك في الارنب

ثم ان النواجذ (اضراس العقل) في الانسان يمكن حسبانها اعضاء أثرية في بعض الاحيان. فمن الامور المعروفة ان اسنان الاطفال المشهورة بالرواضع (اسنان اللبن) تشتمل في كل فك على اربع ثنايا (قواطع) واربع انياب وضرسان (طواحن) . فاذا زالت الرواضع وحلت محلها الاسنان الدائمة كانت كما يأتي: اربع ثنايا وأربع انياب وثمانية اضراس . اي بزيادة ٦ اضراس في كل فك ثلاثة منها في كل جانب من جانبي الفك . واربعة من هذه الاضراس تنبت حوالي الخامسة والعشرين من العمر وتعرف بأضراس العقل (النواجذ) وقد اطلق عليها الاسم الاول لانها تشق اللثة حوالى السن التي يكتمل فيها عقل الشاب . ولكن هذه النواجذ لا تظهر في افواه بعض الناس. فتنقص اسنانهم اربعاً عن العدد السوي اي تكون ٢٨ سناً. والاسنان التي لا تشق اللثة ولا تظهر فوقها لا تصلح للقيام بعملها ، وعمل الاضراس طحن الطعام ومضغه . بل قد تكون الاضراس التي لا تشق اللثة ، مصدر المٍ وخطرٍ ، كالزائدة الدودية، اذا كان تكوينها مشوهاً فتصبح في حاجة الى عملية جراحية

على ان قردة العالم الجديد لها ٣٦ سناً بدلاً من ٣٢ سناً في فم الانسان . واما قردة العالم القديم اي الغورلى والبعام وغيرهما من القردة الشبيهة بالانسان ، فعدد أسنانها شبيه بعدد اسنان الانسان . ولكنها اسنان دائمة وتظهر كلها في الفكين . لا يتلكأ سن منها عن شق اللثة والظهور . والظاهر ان الانسان يخطو الآن خطوة ثانية في نقص اسنانهِ . فنواجذهُ تنبت احياناً ولا تنبت احياناً اخرى . فاذا جاء زمن لم تنبت فيهِ النواجذ في فكي الانسان ، اصبح عدد اسنانهِ الدائمة ٢٨ يقابلها ٣٢ في قردة العالم القديم و ٣٦ في قردة العالم الجديد . فالنواجذ أو اضراس العقل التي لا تشق اللثة وتنبت جنباً الى جنب مع الاضراس الاخرى هي اعضاء أثرية لانها في هذه الحالة لا فائدة تجنى منها



الفن والادب

في حضارة مصر اليوم

بقلم « مي »

(٣) نظرة عجلى في أقسام الأدب

الادب الحديث في جوهره أصح الآن في مصر منه في كثير من البلدان الأخرى حيث شغلوا بمشاحنات لا طائل تحتها حول ما يسمونه المذاهب الادبية . فلا رومنتيكية عندنا ، ولا رمزية ، ولا مستقبلية . ولا غيرها . الخصومات تدور حول الجديد والقديم مما سبق ذكره ، وإن نشطت الخصومات في التطرف تناولت موضوعاً طارئاً أسموه الادب المستور والادب المكشوف . وفي ما عدا ذلك فالنزعة العامة واحدة رغم التفاصيل الثانوية القليلة

الشعر والنثر

الأدب النثري يسبق الأدب الشعري بمراحل . ألصعوبة التجديد في الشعر العربي ؟ لست أدري ولكني أدري ان كثيراً جداً من القصائد التي ننعتها كسلاً أو مجاملة بالعصماء قد كان يمكن أن تنظم في أي عصر من العصور الغابرة ، وما زالت قصائد « المدح » شائعة عندنا . واذا استثنينا فئة صغيرة من الشعراء المطبوعين الذين يستوحون موضوعات جديدة ويطلقونها في نفس جديد ولو في صيغة قديمة في الغالب — فيمكننا ان نقول بأننا لا نلمح في الشعر الحد الحاسم الجلي الذي نراه في النثر . ولئن انضجت الحركة القومية عدة مواهب شعرية فانها لم تخلق شاعراً واحداً تفرد بجبروته الفني فأرسل الصيحة التي تغزو القلوب وتفتح النفوس فتحاً مبيناً

فنحن في هذا والشعوب الاخرى سواء ، لاننا لا نعرف شاعراً واحداً جباراً خلقته الحرب في أية لغة من اللغات ، بل القحط الشعري يبدو في كل مكان . وقد يكون هذا راجعاً الى روح العصر الذي نعيش فيه . وقد يكون النثر الفني صيغة أوفق لاختباراتنا الشعرية في هذه الايام

وانما هناك ملاحظة لها أهميتها الاجتماعية ، وهي ان الشعراء يخاطبون المرأة في قصائدهم بضمير المؤنث ، وقد كانوا من قبل يستعملون في مخاطبتها الضمير المذكر وقد أقلع كبار الشعراء عن الاساليب المألوفة في المدح والمفاخرة ، ولكن قصائد الرثاء تجري أنهاراً كلما غمض امرؤ عينيه ليمضي الى باريه . ولما كان الموت على رقاب العباد . . . !

أما النثر فهو الذي يبدو فيه الخصب والتنوع والثروة والحياة ، وخلاله ترتسم الشخصيات الادبية ، وهو الرسالة الادبية العالية التي تبدع ابداعاً في هذا الطور الحاضر . لا أظن أن

اللغة العربية في أي عصر من العصور السالفة عرفت مثل هذا النوع الذي نشهده اليوم .
فالموضوعات الادبية والسياسية والاجتماعية والقانونية والعلمية والتهذيبية والفنية والتاريخية شيء مألوف يقع تحت أنظارنا كل يوم ، ومنها ما يضاهي أحسن ما يكتب في صحف الغرب دقة وإحكاماً في رشاقة ولباقة . والمقالة تفوز بالجائزة — لو كان هناك مسابقة — بين سائر أقسام الادب . ويجاري فن المقالة فن الخطابة والمحاضرة فهو اليوم في مصر أرقى ما يكون ، بل قد يبدو لك تدرجه عاماً بعد عام من حسن الى أحسن . ومن دواعي السرور ان المرأة أيضا تعتلي المنبر وتخطب في الجماهير الغفيرة فلا تكون أقل تأثيراً من أمهر الخطباء وأشهرهم ، حتى في موضوعات عصبية . والمسلمة والمسيحية في هذا سواء . وهناك الكتب المترجمة والمؤلفات العديدة في كل فن وخبر ، تبحث في الاجتماع والتاريخ والادب والفلسفة والاخلاق والعلوم الفنية. وغيرها وصف جميل للرحلات والاسفار ووصف لعادات الشعوب وخصائصها ووسائل تقدمها . وغيرها ذكريات شجية وترجمات عن حالات نفسية. وغيرها يبتكر أدباً للاطفال يستوحيه المؤلفون من قصص الشرق القديمة وأحاديث رحاليه ، أو يقتبسونه عن آداب الغرب . . . والرواية كذلك تخصحص هنا وهناك ، ولكن فن الرواية يتطلب وقتاً آخر للنضج . لأن الرواية تخلق عالماً تامًّا مستقلاً في ذاته لهُ خصائصه وسيكولوجيته ووجوه نزعاته وفكرته الخاصة ووجوده المتصل بمحيطه المنفصل عنهُ في آن واحد . فهو يتطلب من العزلة والسكون ما لا قبل لأدبائنا بهِ في هذا الوقت لانهماكهم في عدة موضوعات في آن واحد ، وعند ما ننظر الى كثرة ما يذهب وقتهم من المشاغل نعجب كيف استطاعوا أن يؤلفوا هذه الروايات على قلتها ونعجب من وفرة ما ينتجون

أما القصة الصغيرة فقد تقدمت بالعدد أختها الكبيرة . وقد قصر بعض الكتاب نشاطهم عليها فنجحوا خصوصاً في القصة الوصفية ، وستليها حتماً القصة السيكولوجية

ولا مندوحة عن أن يجاهد الأدباء في وضع الرواية العصرية لوصف هذه العادات وتسجيل هذه التقاليد في مجتمع هو سائر بطبيعة الحال نحو العادات الأوروبية . فالحجاب يتناثر شيء منهُ كل يوم ، ووجوده وحي كبير للأديب المستعد لتلقي هذا النوع من الوحي. وهذا الفن الروائي لو هو وجد بمصر يصبح فريداً في بابهِ بين صنوف الروايات العصرية بسبب هذا الحجاب نفسه وبسبب جميع الحوادث السيكولوجية التي تخلقها في النفس صعوبة اللقاء بين المحبين — ما دام الحب هو « الحبكة » التي لا تقوم لرواية قائمة بدونها ، مع ما يستفزه من خفايا الطوية ويعلنهُ من غامض الأسرار

كذلك تفتقر الى النقد وإن كان ما يكتب في النقد غير قليل . ولكن أكثره إما يرمي إلى المجاملة والثناء واما يبغي الطعن والتحقير . ويندر جدًّا البحث النقدي النزيه الدال على تمام

استيعاب الناقد لموضوعه وعلى اكتمال نضج شخصيته من نواح شتى . والغريب ان نفس الكتّاب الذين يجيدون في نقد كاتب غربي وتحليل شخصيته يكونون أقل اجادة وبخاصة أقل اصابة عندما يبحثون شخصية أدبية مصرية حديثة . وعندي ان الناقد البارع روائي على نوع ما، وان الرواية والنقد ان هما تحاذيا اليوم في تخلفهما فسيكونان كذلك متحاذيين في تقدمهما . لان الكثير من خصائص الناقد السيكولوجية هي نفس خصائص مؤلف الرواية

الأدب الشعبي أو أدب العامة

في مصر أدب يجب أن لا يهمل . هو أدب العامة الذي ندر من عني به من الأدباء ، مع أنه قادر على اخراج جنى خصيب طلي لو اهتم كل كاتب بحكايات مديريته واقليمه فدوّن ما يتناشده الشعب الساذج في حفلات الاعراس والمآتم ، وما ترويه الرواة عن أبطال القرون الغابرة . غير أن فرعاً من ذلك الادب في ازدهار ، أعني الزجل ، الشعر العامي الجميل الذي يفصح عن الروح المصرية برشاقة وطلاوة وباللهجة المصرية لهجة التخاطب العادي والمحادثة اليومية . وقد تألفت حديثاً « رابطة الزجالين » قرب عدة جماعات أخرى أدبية وثقافية — أخذ الله بيدهم جميعاً !

ان لكل اقليم بيانه الادبيّ المروي الذي يترجم عن الروح القديم في أساطير وأناشيد باللغات العامية ، وحكايات تضمنت اعتقادات سرية مقبلة عن أعماق الدهور ، وذكريات حب وحنان وتضحية وتفجع ، ونفثات شعرية ذات سحر مستغرب حضان . ألحان الشعب وأساطيره وحكاياته تعبر عن خلقه القيم وصبره واحتماله وتحدث عن عبقريته الفطرية وعن آماله وأحلامه . ومن الخسارة الفادحة أن تهمل تلك الآثار وتلك الألحان لأنها صائرة شيئاً فشيئاً الى النسيان والفناء

(٤) الفن

الادب النثري أرق الفنون جميعاً وأنضجها وان كان بعض الفنون أوسع رواجاً في الجمهور وأقرب الى تذوق العامة . وهاك ترتيب الفنون بموجب رقيها وتقدمها :

(١) — التمثيل . (٢) — النحت والرسم والتصوير . (٣) — الموسيقى

التمثيل

هذا أظهر الفنون في مصر تقدماً . وقد برزت فيه شخصيات موهوبة عرفت أن تكسب الادوار التي تمثلها روعة وتنوعاً واستطاعت ان تبعث فيها نفحة حيوية غنية

والتمثيل يرتبط بالادب وبالتأليف المسرحي وبالحركة الفكرية والاجتماعية وبتطور اللغة . فنطق الممثلين والممثلات فصيح بالاجمال ، وأوضاعهم المسرحية في تقدم محسوس . وقد ترجمت الى العربية روايات من غرر الادب المسرحي في العالم فجاء بعضها متطابقاً والاصل الذي نقلت عنه ، و « مصّر » غيرها تمصيراً ليتفق وذوق الجمهور ، ومسخ غيرها مسخاً . وقد عني جماعة من المؤلفين بوضع روايات باللغة العربية فنجح بعضها نجاحاً عظيماً ، وكان للمرحوم

شوقي بك الفضل في استيحاء موضوعات قديمة من تاريخ مصر وتاريخ العرب وصوغها في روايات مسرحية شعرية ونثرية . ويمكن القول ان التأليف المسرحي الآن في حالة التكون . والنقاد المسرحيون أبرع في ملاحظاتهم وانتقاداتهم من نقاد الكتب الحديثة

وقام في الاعوام الاخيرة التمثيل السينمائي يسابق التمثيل المسرحي وهم الممثلون في المسرح الذين يسابقون أنفسهم على الشاشة الفضية : فما أشق هذه الجهود وما أكبر هذا الاقدام ! وهم يعنون في ادخال آثار مصر الفرعونية أو آثار الاسلام بمصر وغيرها — في كل رواية سينمية تقريباً مع عرض بعض العادات والتقاليد خلال تلك المناظر المتعاقبة . ولكن الى الآن لم نر رواية واحدة مستكملة النضج السيكولوجي والفني . بيد أنه يمكن البت في أن التمثيل السينمي المصرى لن يقف عند هذا الحد

النحت والرسم والتصوير

باستثناء فرائد فنية وموسيقية سبقت التقدم المسرحي من حيث كمال الصنعة ونضج الفكرة — يمكن ترتيب المنتوجات في هذه الفنون الثلاثة بعد الفن المسرحي وقبل الفن الموسيقي . في المعارض السنوية الرسمية كما في المعارض الجزئية العديدة تستطيع أن تهتدي الى شخصيات فنية هي على ثقة من وحيها ومن مقدرتها في اتقان الصنعة معاً ، فترى أنها تتقدم عاماً بعد عام في احكام الصلة بين وحيها وبين افصاحها عنه

وعدد المشتغلين بهذه الفنون كل سنة في تزايد . وليس التقدم ليبدو في الكمية وحدها بل في الكيفية أيضاً . يشهد بذلك الذين زاروا أول معرض أقيم من هذا النوع قبل ١٤ عاماً، فهم يزورون معارض اليوم فيسبحون الله ولا يبطرون ! ولئن كان الفن الى الآن يستوحي الصناعة الاوربية والفكرة الاوربية فالفنانون يميلون الى اخراج موضوعات مصرية . وعلام لا تنطاق يوماً الوراثة القديمة الكامنة في فناني هذه البلاد فيبتكرون فناً حديثاً هو غير فن الغرب ؟

الموسيقى

الموسيقى الوترية أرقى من الموسيقى الصوتية . فمن العازفين من يعزف بفطرته الموسيقية وبسليقته الطروبة . ومنهم من يتبع الاساليب الحديثة التي روجها نادي الموسيقى الشرقي من ضبط الالحان بالنوتة وتوقيعها على أصول الثقافة الموسيقية في الغرب ، وهو تجديد لم يعهد من قبل في تعليم الموسيقى العربية

يتسنى لك أن تسمع من بعض « التخوت » أو جوقات الموسيقى الوترية أو من الافراد العازفين على مختلف الآلات — عزفاً هو في منتهى الجودة والاتقان . لولا أن مجموعة الالحان تستمر غالباً على وتيرة واحدة وليس من الميسور أن تميز الفرق بين القطعة وأختها.

فكلهنّ يتشابهن فيما بينهنّ ، مما يثير الملل عند الملم بالموسيقى الغربية الذي ألف فيها التنوع والتفنن والتلوين الى مدى لا يحد

أما اقرب الفنون الى الجمهور الكبير من مختلف المراتب فهو الموسيقى الصوتية ، والناس على اجتماعات الطرب والانشاد أشد إقبالاً منهم على أية حفلة فنية أخرى،ويرون في الحفلات والسهرات نقصاً وجفافاً إن لم يشجها الغناء ويلقي في جوها عاطفة الشجن الشرقي التي لا توصف. انما ترتكن الموسيقى الغنائية في مصر على صوت المغني اكثر من ارتكانها على فن الغناء. وهنا أصوات جميلة حنونة مؤثرة ، إلاّ ان أحسن ما تنشده في نظري هو الادوار القديمة بألحانها القديمة بما فيها المواويل والقصائد الغزلية . واكثر ما يسمونه « تجديداً » في الغناء خير له أن لا يكون . لان بعضه مقتبس عن الموسيقى الغربية التي لا تعتبر من الفن في شيء بل هي من النوع التافه (musiquette) ، والبعض الآخر تطويل وتباطؤ وإعادة وتكرار. ما زالوا يمدون في الآهات وقتاً طويلاً جدًا ويعيدون « يا ليلي يا عيني » في تبسط وتراخ يستحيل معه الصبر لاعصاب تنظمت للطرب المحكم. بيد أن الجمهور يحب ذلك التطويل المخدر للاعصاب ويستلذه ، والمنشدون يماشون ذوق الجمهور ولكنهم لا يتقفون فيه العاطفة الفنية ولا مقدرة لهم على ازدجار تلك العاطفة وانهاضها من تثاقلها الدهري . وعلى ذلك ما زال العاشق في الاغاني يسهر الليل مناجياً النجوم بموضوع حسرته وجواه ، وما زال قلبهُ يذوب وروحه تكتوى بنار الغرام . والمحبوب — ما أقساه ! — لا يرحم المتيم المسكين ! والعذول — لحاه الله ! — ما زال واقفاً بالمرصاد يريد الايقاع بالعاشقين !

والمغنون يحملون نفوسهم فوق طاقتها لانّ كلاً منهم يأبى الاّ ان يكون منشداً وملحناً في آن واحد ، وهو أمر لا يتفق مع قانون تقسيم العمل ولا مع الموهبة الفنية. فالانشاد شيء والتلحين شيء آخر. وقد يكون الملحن صاحب صوت غير حسن وغير قابل للتوقيع المطرب. ولم يشذ عن هذه القاعدة من كبار الموسيقيين في الغرب الاّ النفر اليسير

ولكن ما لا ينكر هو الجهود العظيمة التي يبذلها أهل الفن . وان لم يبد الى الآن شيء يصح أن يسمى تجديداً بمعنى التقدم في نظر الناقد الخبير فذلك راجع الى صعوبة هذا التجديد في موسيقى لا قائمة لها الاّ بالنغم فقط ولا تقبل طبيعتها التطرق إلى فن اصطحاب الانغام الذي قطعت فيه موسيقى الغرب شأواً بعيداً. مهما ضاعفت الآلات في الاركسترة أو ضاعفت الأصوات في النشيد فأنت لا تكون الاّ مقوياً النغم الواحد ومفخمه . وهذا مشكل كبير لا حلّ لهُ إلاّ بتنويع النغم تنويعاً بارعاً ينزع عنهُ ما يرافقهُ عادةً من التراخي والملل ، على أن يبقى لهُ النكهة الساحرة ذات العوارض الخفية الدقيقة التي تحتفظ للموسيقى الشرقية بطبيعتها الخاصة. ثم يجب الاكثار من الاناشيد الحماسية في موضوعات مشوقة تستولي على قلب الجمهور وتعلمهُ

التجاوز-عن الموضوعات الغرامية الكثيرة إلى ما لا صلة له بالعشق والغرام والدلال والنوح

الخلاصة

الخلاصة ان الحركة الأدبية والفنية في مصر شيء ذو وجود محسوس ، في بعض نواحيه تقدم وفي بعض نواحيه تأخر ، ونواحيه الاخرى بين بين . غير أن النشاط لا يمكن إنكاره

الصورة التي رسمتها هنا مطابقة للواقع في تقديري . وأنا لم اعتبر في الأدب والفن الا كونهما تعبيراً عن الروح الجديدة الناجمة عن اليقظة القومية ، هذا التعبير الفني والادبي الذي هو من أدل الدلائل على ثقافة قوم وحضارتهم وعلى مبلغ ما اكتمل من تكوّن مجتمعهم . والفن والادب يدلان على أن المجتمع الجديد هو فعلاً في حالة التكون . وهذه الحركة سائرة الى الامام بلا ريب بفضل انتشار التعليم وتنوع الشخصيات والاحتكاك المتتابع بالحضارة الغربية والاشتراك اقتصاديًا وفنيًا وأدبيًا وسياسيًا وعلميًا في جميع المشاكل الطارئة على العالم

عندما نقول «قديم» يفهم من هذه الكلمة عهد الفراعنة ثم عهد الاسلام ، وعند ما نقول جديد يفهم الحضارة الغربية بوجه عام . ولكن الموضوع في نظري أبعد مدًى واكثر ارتباكاً . إذ ليس من بلد كمصر هبطته جميع الشعوب وضربت فيه جميع الحضارات وانتشرت فيه جميع الثقافات واختلطت دماؤه بجميع الدماء . فن العناصر الفرعونية الى العناصر المكدونية إلى اللاتينية فالاغريقية ، فالعربية بتنوعها العديد ، فالتركية وما كان ينضم تحت لوائها من العناصر العثمانية الكثيرة ، الى عناصر اوربا الجديدة كلها تقريباً ، الى غير ذلك مما يحصى ولا يحصى — جميع هذه العناصر تتمخض الآن وتصهر في الشخصية المصرية الكبرى . والمصريون الذين زاوجوا خلال تاريخهم الطويل شتى الشعوب ، ما زالوا اليوم يزاوجون الشعوب الغربية، وهذا الامر — على ما يستوجبه من الانتقاد في بعض الوجوه — يصب الدماء الشتيتة في دم هذا البلد القديم . فهنا العالم كله في حالة « التمصر » . وقد عرف دائماً لمصر السحر في تحويل ما يقبل عليها الى جزء منها دون أن تفقد فيه شخصيتها الصميمة . وفي هذه الثروة الزاخرة من الوجهة الادبية والحسية معاً ما يمكن من تكوين شخصية رحيبة الجوانب ، متعددة النواحي ، غنية نبيلة لا نبالغ في القول انها تستطيع أن تنتج نوعاً خاصاً من الثقافة تقف حيال الثقافة العالمية فلا تتضاءل

وترجمان هذه الثقافة المرجوة هو اللغة العربية . ويخطىء الذي يتطلب التجديد في هذه اللغة إن هو أراد منها أن تصبح نسخة من أي اللغات الغربية . إن هذه اللغة تمثل عقلية خاصة في وسعها أن تحاذي العقليات الغربية وتتفاهم واياها وتأخذ منها وتعطيها ، ولكنها ليست هي ولا يمكن أن تكون . لأنها — وفي هذا أهميتها — مظهر آخر من الحضارة العمرانية وناحية أخرى من النفسية الانسانية

« مي »

نوابغ العرب

في العلوم الرياضية

ابو محمود جابر بن الافلح

اذكر اني قرأت في احدى المجلات العربية ان جابراً بن الافلح هو اول من اكتشف الجبر وان كلمة (جبر) مأخوذة من كلمة جابر وقرأت ايضاً في بعض الكتب الانكليزية ان بعضاً من علماء الغرب وقعوا في الغلط نفسهِ . يقول سمث في كتابه تاريخ الرياضيات في الجزء الثاني في ص ٣٩٠ ان بعض الفرنجة المتأخرين نسبوا كلمة (جبر) الى (جابر) وقالوا انهُ واضع علم الجبر . والحقيقة ان جابراً لم يكتشف علم الجبر حتى ولم يكن اول من الّف فيهِ فقد سبقهُ الى ذلك الخوارزمي وغيره ، كما لا يخفى،وجلّ ما في الامر ان جابراً من الذين نقلت مؤلفاتهم الرياضية الى اللاتينية قبل غيرها وهذا جعل نفراً من علماء الغرب يظن ان كلمة (جبر) مأخوذة من (جابر) وبعضهم خلط بينهُ (اي بين جابر) وبين جابر بن حيان الكيماوي الشهير

وقد ولد جابر في اشبيلية في اواخر القرن الحادي عشر للميلاد وتوفي في قرطبة في منتصف القرن الثاني عشر

***

في العصر الذي بدأت فيهِ الدولة العباسية تنحل وتتفكك كانت العلوم في المغرب والاندلس تتقدم وتزدهر وظهر في المثلثات الكروية ولا سيما فيما يتعلق بالفلك رجال ابدعوا فيها واجادوا كصاحب الترجمة فقد كان لمؤلفاتهِ أثر كبير في تقدمها خلال عصر اليقظة في اوربا . لقد الف جابر تسعة كتب في الفلك يبحث اولها في المثلثات الكروية وقد نقل جيرارد هذه المؤلفات الى اللاتينية وطبعت سنة ١٥٣٣ في نورمبرغ(١) وتقول دائرة المعارف البريطانية ان هذه الكتب لها مقام كبير في تاريخ المثلثات . ولجابر فيها (في المثلثات) ابحاث مبتكرة لم يُسبق اليها. ولقد استنبط معادلة (سميت بنظرية جابر) تستعمل في حل المثلثات الكروية القائمة الزاوية ، اي انهُ زاد معادلة على الاربعة المنسوبة الى بطلميوس

ويقول سمث في ص ٦٣٢ من الجزء الثاني من كتابه تاريخ الرياضيات انهُ من المحتمل ان يكون ثابت بن قرة عرف هذه المعادلة المنسوبة الى جابر . وعلى كل فن الصعب الجزم في هذا الموضوع وحتى اليوم لم يستطع علماء تاريخ الرياضيات البت فيه رغم التحريات الدقيقة التي اجريت

---

(١) بول — تاريخ الرياضيات — ص١٦٥

ابو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي القلصادي

هو من اشهر الرياضيين الذين ظهروا في القرن التاسع للهجرة ، وُلد في مدينة بسطة في الاندلس وكان صاحب فضل وعلم اعترف له بذلك علماء عصره المشهورون حتى ان القاضي ابا عبد الله بن الازرق سماه بالفقيه وبالاستاذ العالم المتفنن

درس القلصادي في بادىء الامر في بسطة على اشهر علمائها ثم رحل الى غرناطة حيث درس كثيراً من العلوم على اساتذة اجلاء كان لهم الفضل الاكبر في تثقيفه وفي إعداده لان يكون في مصاف الرياضيين . ويقال انه لم يكتف بذلك بل رحل الى الشرق حيث اجتمع باعلام الرجال واستمع لدروس فحول العلماء فاستفاد كثيراً وأفاد (فيما بعد) كثيراً . وبعد ذلك ذهب الى الحجاز لاداء فريضة الحج ثم عاد الى غرناطة حيث طابت له الاقامة ولكن صروف الدهر ومفاجآت الايام وما حدث بين امراء ذلك العصر في تلك البلاد كل ذلك اجبره على الهجرة الى افريقيا . وفي اثناء وجوده في غرناطة تتلمذ عليه كثيرون ونبغ منهم نفر غير قليل كأحمد داود البلوي والامام السنوسي [1] وتوفي في باجة من اعمال تونس في اواخر القرن التاسع للهجرة سنة ٨٩١ هـ — ١٤٨٦م

اشتغل القلصادي بالحساب وألف فيه تآليف نفيسة وابدع في نظرية الاعداد وله في ذلك ابتكارات [2] وله ابحاث في الجبر جليلة ومؤلفه كتاب كشف الاسرار عن علم الغبار اول كتاب اثبت للاوربيين بأن الاشارات الجبرية كانت مستعملة عند علماء الرياضة المسلمين. وقد استعمل لعلامة الجذر الحرف الاول من كلمة جذر (جـ) وللمجهول الحرف الاول من كلمة شيء (شـ) يعنى س ولمربع المجهول الحرف الاول من كلمة مال (مـ) يعنى $س^{٢}$ ولمكعب المجهول الحرف الاول من كلمة كعب (كـ) يعنى $س^{٣}$

واستعمل لعلامة المساواة حرف ل وللنسبة ثلاث نقط ∴ [3] وقد نقل ووبكه في منتصف القرن التاسع عشر للميلاد الاشارات الجبرية المستعملة عند العرب من نسخة خطية موجودة عند رمنو المستشرق الشهير وترجم ايضاً الى الفرنسية النسخة المذكورة ودرجها في نسخة سنة ١٨٩٥ م من مجموعته [4] وقد اعطى القلصادي قيمة تقريبية للجذر التربيعي للكمية ($س^{٢}+ص$) والقيمة التقريبية هي : $\frac{٤ س^{٣} + ٣ س ص}{٤ س^{٢} + ص}$ [5] ويعتقد جُنْتر Guather ان هذه العملية ابانت طريقة لبيان الجذور الصماء بكسور متسلسلة . وفي ايجاد القيم التقريبية للجذور الصماء استعمل ليوناردو اوف بيزا وتارتا كليا وغيرهما القانون العربي الموجود في كتب ابن

---

(١) صالح ذكي — آثار باقية — ج ٢ ص ٢٨٣ (٢) سمث — تاريخ الرياضيات ج ١ ص ٢١١
(٣) كاجوري — مختصر تاريخ الرياضيات ص ١١٠ — ١١١ (٤) صالح ذكي — آثار باقية ج ٢ ص ٢٨٢ (٥) كاجوري تاريخ الرياضيات ص ١١١

البناء والقلصادي [١] اما آثاره فاهمها :

كتاب كشف الجلباب عن علم الحساب الذي يقول عنهُ كشف الظنون انهُ من اشهر مؤلفات القلصادي واكبرها وهو اربعة اجزاء وخاتمة . وكتاب كشف الاسرار عن علم حروف الغبار وهو مختصر كتاب كشف الجلباب . وفيهِ مقدمة واربعة اجزاء وخاتمة . وقد ارسله الينا العدل الاستاذ محمد داود من اعيان تطوان — المغرب وفهمت من بعض التلامذة المراكشيين ان هذا الكتاب (كشف الاسرار) لا يزال يُستعمل في كثير من مدارس المغرب . اما محتوياته فهي كما يلي : المقدمة تبحث في صفة وضع حروف الغبار وما يتعلق بها . والجزء الاول ثمانية ابواب ويبحث في العدد الصحيح ، الباب الاول في الجمع ، الثاني في الطرح ، الثالث في الضرب ، الرابع في القسمة ، الخامس في حل الاعداد ، السادس في التسمية ، السابع في قسمة المحاصات ، الثامن في الاختبار . والجزء الثاني فيهِ مقدمة وثمانية أبواب ويبحث في الكسور . فالمقدمة تبحث في أسماء الكسور وما يتعلق بذلك ، والباب الاول في جمع الكسور ، الثاني في طرحها ، الثالث في ضربها الرابع في قسمتها ، الخامس في تسميتها ، السادس في جبرها ، السابع في حطها ، الثامن في الصرف . والجزء الثالث يبحث في الجذور وهو مقدمة وثمانية أبواب . فالمقدمة تبحث في معنى كلمة جذر والباب الاول في أخذ جذر العدد الصحيح المجذور ، الثاني في أخذ جذر العدد غير المجذور وبالتقريب ، الثالث في تدقيق التقريب ، الرابع في تجذير الكسور ، الخامس في جمع الجذور ، السادس في ضرب الجذور ، السابع في قسمة الجذور وتسميتها والثامن في ذي الاسمين . والجزء الرابع يبحث في استخراج المجهولات وهو ثمانية أبواب : الاول يبحث في الاعداد المتناسبة ، الثاني في العمل في الكفات ، الثالث في الجبر والمقابلة ، الرابع في الضرب والمركبات ، الخامس في الجمع من علم الجبر والمقابلة ، السادس في الطرح ، السابع في الضرب والثامن في القسمة من علم الجبر والمقابلة — والخاتمة اربعة فصول الاول يتناول هل في المعادلة استثناء . الثاني يبحث في موضوع المسئلة المركبة وهل فيها عدد ، الثالث في الجمع في النسبة والرابع في استخراج العدد التام والناقص [٢]

وللقلصادي كتاب قانون الحساب [٣] وكتاب تبصرة في حساب الغبار [٤] وله أيضاً شرحان لكتاب (تلخيص الحساب لابن البناء) أحدهما كبير والآخر صغير وزاد على شرحه الكبير خاتمة تبحث في صورة تشكيل الاعداد التامة والناقصة والزائدة والمتحابة [٥]

نابلس — فلسطين قدري حافظ طوقان

(١) مختصر تاريخ الرياضيات لكاجوري ص ١٥٠ (٢) كتاب كشف الاسرار عن علم حروف الغبار للقلصادي (٣) كاتب جلبي — كشف الظنون ج ص ٢١٦ (٤) كاتب جلبي — كشف الظنون ج ١ ص ٢٤٥ (٥) صالح ذكي — آثار باقية ج ٢ ص ٢٥٧

الحضارة والحاصلات الزراعية[1]

النباتات الاليفة واصول الحضارات

نمرُّ بالحيوانات والنباتات الداجنة كلَّ يوم ، كراماً او غير كرام ، او تمرُّ بنا ، فلا يخطر في بالنا ان نسأل ، من اين اتت هذه الحيوانات والنباتات ، واين نشأت ، ومن دجنها اولاً ، ومن اتى بها من موطنها الاصلي الى هذه البلاد او الى غيرها من البلدان . ومع ذلك فان هذه النباتات التي مضت عليها عشرات القرون وهي تزرع وتحصد ، وهذه الحيوانات التي ألفها الانسان وألِفها واستخدمها لاغراضه ، هي اساس كل الحضارات العالية

ولا ريب في ان هذه النباتات والحيوانات نشأت من الاشكال البرية التي استعملها الانسان غذاءً في فجر حياته على الارض . وان استعماله للنبات يرتدُّ الى عصور متغلغلة في جوف التاريخ . ولكنهُ بعد مرانة وتجربة لا نعلم مداها ، فرَّق بين ما يؤكل من النبات وما لا يؤكل . ولا ريب في ان التطورات المذكورة تمت الوفاً من السنين قبل نشوء الزراعة

والزراعة سابقة للتاريخ المدوَّن . بل ان كلَّ النباتات التي تزرع الآن ، وكلَّ الحيوانات الداجنة كانت قد لانت لارادة الانسان قبل ان تدوَّن اخبارهُ الاولى نقشاً على الصفا

ويذهب فريق المحافظين من علماء الانثربولوجيا الى ان اصول الحضارة البدائية ترتدُّ الى بداءة العصر الجليدي ، وهذا على المقياس الجولوجي المسلَّم به الآن ، يرجع بمبادىء الحضارة الى قبل مليون سنة . كان الانسان خلال ذلك العهد ، صياداً متنقلاً . والغالب ان وجود الانسان يرجع الى قبل العصر الجليدي . وانما ظل تقدمهُ بطيئاً جداً حتى العصر الحجري الجديد اي من نحو عشرين الف سنة اذ بدأ يخطو الى الامام خطوات حاسمة . فاخترع النار ، وابتنى الاكواخ يأوي اليها ، واستعمل الملابس ، وزين جسمه ، وابتدع اصول الفن والنقش ، واصطنع بعض الطقوس وخصوصاً فيما يتعلق بدفن الاموات

ومن نحو عشرة آلاف سنة حدث انقلاب خطير في حياة الانسان على الارض . ذلك ان الزراعة الدائمة اي تدجين النباتات والحيوانات القيت اليه مقاليدها . ومقدرتهُ على الحصول على قدرٍ معيَّن من الغذاء في مواعيد معيَّنة وفي اماكن معيَّنة ، افضت بالانسان الى الاستقرار في بقعة محدودة من الارض وتقسيم العمل ، فنشأت عن كل ذلك العوامل والاوضاع

---

(١) نقلت بتصرف من بحث للمستر المر مرل مدير حدائق نيويورك النباتية نشر في مجلة التاريخ الطبيعي

التي نطلق على مجموعها كلمة « الحضارة » . وكان الانسان قد اخترع قبيل ذلك صناعة الخزف والنسيج واستعمل النحاس والذهب والحديد النيزكي ، ثم ارتقت معرفتهُ باستعمال المعادن . وصحب ذلك كلّهُ تقدم في الاوضاع الاجتماعية كتنظيم الجماعات ، والخضوع للقانون ، ونشوء فن العمارة ، وتبعهُ استنباط الكتابة

ولا يهمنا هنا ان نقرر هل كان تدجين الحيوانات سابقاً لتدجين النباتات او هل كان تدجين النباتات سابقاً لتدجين الحيوانات . وانما يغلب عندنا ان الانسان في بعض البقاع كان راعياً قبل ان يكون زارعاً . ولكن لا ريب في ان زراعة النباتات التي تؤتي محصولات يحتاج اليها الانسان ، كانت الخطوة الاولى في نشوء الزراعة الثابتة التي شيدت عليها كل الحضارات العليا في العصور القديمة

وهذا الضرب من الزراعة ، الذي بدأ قبل التاريخ المدوَّن ، كان محصوراً في مناطق معينة في نصفي الكرة الارضية ، حيث وجدت النباتات والحيوانات الاصلية التي نشأت منها النباتات والحيوانات الداجنة المعروفة الآن . والجدير بالذكر ، ان في هذه المناطق نشأت الحضارات الاولى كذلك

***

مضت قرون طويلة قبل نشوء الزراعة ، والانسان البدائي يجمع البزور والثمار والجذور من النباتات البرية ويستعملها غذاء ، على نحو ما تفعل السلالات المتوحشة الآن في بعض البقاع . وقد ذهب العلماء مذاهب مختلفة لتعليل ابتداء الزراعة . ولكن بسط تلك المذاهب ليس من مقتضيات هذا البحث . فنكتفي بأن نقول ان بداءة الزراعة تمّت في الغالب صدفة

ان عشرين الف سنة او ثلاثين الف سنة زمن طويل اذا قيس بحياة الانسان ، ولكنها فترة قصيرة اذا قيست بألف الف سنة منذ انشأ الانسان يصعد سلم الارتقاء . وكان تقدمهُ بطيئاً في الـ ٩٨٠ الف السنة الاولى التي تحول في خلالها من صياد متنقل الى زارع مستقرّ . ومرّت عليه ازمان كان تقدمه يصيب في خلالها حوائل تمنعهُ عن السير الى الامام او تحمله على النكوص الى الوراء . ولكن ارتقاءه امر لا شك فيه اذا قابلنا بين ارتقائهِ في القرن الاخير بارتقائه في الالفي السنة الاخيرة . او اذا قابلنا ارتقاءه في العصر الميلادي بارتقائه في العشرة آلاف السنة التي سبقته . وقد يختلف الباحثون في تعيين العوامل التي دفعت بالانسان الى الامام ، ولكن قلما يختلف اثنان في جعل المقام الاول لاكتشاف حقيقة الزراعة . وحقيقة الزراعة هي التي جعلته يدرك ان العناية الزراعية ببعض النباتات البرية التي يستعملها غذاء ، تمكنهُ من الحصول على غذاء يعتمد عليه في وقت معين . فالزراعة يجب أن توضع في رأس المخترعات التي اخترعها الانسان . واختراعها كان مفتتح انقلاب اقتصادي عظيم في حياته على الارض

واذا اتهمت بأني اسند الى الانسان الاولي اكثر مما يستحق أُحب ان ابيّن ان الانسان الحديث — رغم ما اتقنهُ من وسائل الزراعة وزيادة المحصول واستحداث ضروب جديدة وتربية النباتات والحيوانات حتى تستطيع مقاومة الامراض ، وتتمكن من ان تزكو في اقاليم مختلفة — اقول انهُ بالرغم من كل هذا لم يتمكن الانسان الحديث من اضافة نبات جديد او حيوان جديد الى النباتات والحيوانات التي دجّنها اسلافنا الاقدمون . وقد يقال ان ضروباً من العنب والتوت وغيرها استحدثت في العهد الاخير . ولكن الردّ على ذلك ان ليس منها نبات واحد يحسب من نباتات الغذاء الاساسية

***

فنحن اذاً مدينون ديناً عظيماً ، الى اولئك الناس المجهولين ، الذين اختاروا في العصور المتغلغلة في القدم طائفة من النباتات والحيوانات البريّة ، اللازمة لغذاء الانسان ، ولاءموها لما نحتاج اليهِ ، بالزراعة والتدجين . وقد اسدل ستار النسيان على هؤلاء المخترعين العظام ، قبل بداءة عهد التاريخ المدوّن ، لان اصول الزراعة لشدّة قدمها متصلة بالخرافات والاساطير . ففي الحضارات القديمة ، كان الناس يعمدون الى القوى التي من وراء الطبيعة لتعليل حصولهم على محصول ثابت من نبات معيّن ، سواءٌ في ذلك مصر واليونان وروميه والصين وهنود اميركا . فآلهة الذرة كان الهاً ذا مقام كبير بين آلهة الازتك في اميركا الوسطى . وفي مصر القديمة كان الناس يعتقدون ان الحنطة منحة من الاله اوزيريس وفي رومة الوثنية كان الحنطة هبة من الربّة سيريس Ceres ومنها لفظة Cereals في اللغات الفرنجية وهي تطلق على الحبوب بوجهٍ عام

قلنا ان تدجين النباتات والحيوانات ونشوء الحضارات الاولى انحصر في بعض المناطق المختارة . وعلى الضد من ذلك نجد مناطق شاسعة لم يكن لها اي قسط في احدى هاتين الناحيتين . فاميركا الشمالية الى الشمال من بلاد المكسيك ، واوستراليا وجانب كبير من اميركا الجنوبية وافريقية واوربا وآسيا ، كانت سهولاً قاحلة ، في ذلك العهد ، مع انها الآن من اخصب المروج

اما في اميركا فأشهر المناطق التي دجنت فيها النباتات والحيوانات هي البقاع المتوسطة والجنوبية من بلاد المكسيك . وبعض بلدان اميركا الجنوبية وبوجهٍ خاص بيرو واكوادور وبوليفيا وهي من البلدان التابعة لسلسلة جبل الاندس . اما في بر آسيا واوربا فكل البلاد الواقعة حول بحر الروم وآسيا الصغرى وبقاع محدودة في الهند والصين

***

في كل من المناطق المذكورة كان يوجد نباتات عليها العمدة الاولى في الغذاء وبها تمتاز البلاد وتتميز عن غيرها . ففي بلاد المكسيك كانت الذرة الغذاء النباتي الوحيد تقريباً . اما في بوليفيا واكوادور وبيرو فكانت البطاطس . وكان ثمة نباتات ثانوية في كلتا هاتين المنطقتين

مثل نباتات الفول العادي وفول ليما ونباتات واثمار اخرى. اما في برّ آسيا واوربا فكانت نباتات الغذاء الاساسية نباتات الحبوب العادية : القمح والشعير والشوفان oats والجويدار rye في حوض بحر الروم وآسيا الصغرى وجنوب آسيا الغربي. وكان ثمة حيوانات المناطق المعتدلة الآن ونباتاتها واثمارها. اما في الصين واليابان فكان نبات الارز هو النبات الاساسي للغذاء ولكن الحبوب الاخرى اتصلت بهذين البلادين من عهد قديم من آسيا الصغرى. وكان ثمة نباتات ثانوية لا يتسع المقام لتعدادها. وليس يختلف نبات الارز البري الذي ينبت في الهند وجنوب الصين الآن عن اصناف الارز الاليفة. ثم ان الباحثين عثروا على القمح والشعير والجويدار والشوفان والذرة وغيرها من الحبوب تنبت نباتاً بريًّا في بقاعٍ مختلفة من آسيا الصغرى وجنوب آسيا الغربي

وكانت النباتات الغذائية الاليفة قبل اكتشاف كولومبوس لاميركا اي قبل سنة ١٥٠٠ ميلادية غير مشتركَة بين برّ آسيا واوربا من جهة وبرّ اميركا من جهة اخرى. فلم يكن ثمة نبات اليف واحد ولا حيوان داجن واحد — عدا الكلب — موجوداً في نصفي الكرة الارضية. فلما بدأت الدول الاوربية تتوسع توسّعها الاستعماري في القرن السادس عشر وما يليه ، نقل المستعمرون معهم نباتاتهم وحيواناتهم الى مستعمراتهم في اميركا وعادوا من اميركا بنباتاتها وحيواناتها الممتازة بها. ففي العهد الذي تلا طواف مجلان حول الارض (١٥٢٠ ميلادية) كثر تبادل النباتات الاستوائية التي لها شأن اقتصادي بين جزائر الهند الشرقية واميركا عن طريق الملاحة في المحيط الهادىء. وكان للبرتقاليين والهولنديين والبريطانيين اكبر أثر في نشر هذه النباتات

***

واذا اجلتَ بصرك في مواطن الحضارات القديمة رأيت علماء الآثار مكبّين على البحث فيها للكشف عن اسرارها واستخراج كنوز فنونها وصناعاتها المطمورة في الارض. ففي العراق وفلسطين ومصر وسوريا واوربا الوسطى واميركا الوسطى وافريقية تقع عليهم يعانون كل ضروب المشاقّ حبًّا بتوسيع نطاق العلم. ومع ذلك ترى طوائفهم مختلفة شرّ اختلاف في تعليل الحقائق التي كشفوا عنها. ففي العالم الجديد طائفة من العلماء يدّعون ان الحضارات القديمة التي كشف عنها في اميركا الوسطى هي حضارة اميركية مستقلة لم تتأثر بحضارات العالم القديمة في فنونها ولا في علومها فكأنهم يريدون ان يطبّقوا مبدأ مونرو السياسيّ على الحضارات الاميركية. وفي العالم القديم طائفة اخرى لعلّ الاستاذ اليوت سمث — استاذ التشريح سابقاً في مدرسة القصر العيني — والاستاذ السر دانيال هول اكبر زعمائها ، يرون ان العالم القديم هو منشأ الحضارة فالاول يرى في مصر هذا المنشأ والثاني يذهب الى ان الحضارة الشمّرية هي اقدم من الحضارة المصرية

والموضوع المختلف عليه هو هل الحضارة عمل متصل الحلقات محكمها اشتركت فيه كل امم الارض بالتتابع ولو كان نصيب بعضها اكبر من نصيب البعض الآخر . او هل نشأت الحضارة في أمم مختلفة على سطح الارض من غير اتصال بينها فاسفرت عن نتائج متماثلة . واول من ذهب من العلماء هذا المذهب الثاني كان الدكتور وليم روبرتسن مدير جامعة ادنبره الذي كتب « تاريخ اميركا » سنة ١٧٧٨ وتابعهُ في ذلك بعض علماء الالمان وايدهُ الاستاذ تيلُر بعض التأييد فقط لانهُ كان يرى ان بعض الادلة التي عثر عليها تؤيد المذهب المناقض. واقدم آثار الحضارة على ما نشاهدها في الآثار الفنية وجدت في كهوف فرنسا . والشعوب التي رسمت هذه الصور كانت تعرف الفيل والمموث . وقد دلت المباحث الجديدة في العراق وكريت ومصر ان اقدم آثار الحضارة متغلغلة في جوف التاريخ المظلم. والظاهر ان حضارة الهند وفنونها تلت الحضارة المصرية والشمرية في النشوء ومنها اتصلت بالبلدان التي الى شرقها مثل كمبوديا . فاذا قيست حضارة اميركا السابقة لكولمبوس بهذه الحضارات ظهرت حديثة العهد لانها لا تشمل الا القرون العشرة الاولى من التاريخ المسيحي . فالمسئلة الآن هل نشأت حضارة اميركا الوسطى مستقلة او نقلت اليها اصولها من شرق آسيا عبر المحيط الباسفيكي ؟ فعلماء الآثار الاميركيون يقولون انها نشأت مستقلة والاستاذ اليوت سمث يرى ان عناصر الحضارة الاميركية القديمة نقلت اليها من آسيا

فهل في البحث النباتي المتقدم اي دليل لحسم النزاع القائم بين العلماء على اصول الحضارة الاميركية في سنة ١٨٨٢ وضع العالم ده شاندول كتاباً في اصول النباتات الاليفة ختمهُ بقوله :—
« لم اجد في تاريخ النباتات المزروعة اثراً للاتصال بين الامم في العالمين القديم والجديد قبل ان كشف كولمبوس عن اميركا » وقد كان هذا الرأي في نظرهِ بمثابة حقيقة لا تحتاج الى التفصيل والتأييد . والرأيُ في مجملهِ لا يزال مسلَّماً بهِ عند معظم العلماء . وقد عاد الى الموضوع من عهد قريب (١٩٣١) الاستاذ ڤاڤيلوف الروسي فقال : ان الزراعة في اميركا في العهد السابق لكولمبوس نشأت مستقلة عن نشأتها في العالم القديم . فاذا كانت شعوب العالم الجديد جاءَت اصلاً من آسيا كما يذهب معظم الباحثين ، فانها ولا ريب جاءَت من دون النباتات التي أنّستها وزرعتها . فتحويل النباتات البرية الى انيسة وزرعها كان عملاً مستقلاً كل الاستقلال في العالم الجديد

ودرس النباتات الاصيلة في نصف الكرة الغربي ، والنباتات الاصيلة في نصف الكرة الشرقي يسفر عن ان نباتات اميركا لم تظهر في آسيا واوربا، ونباتات اوربا وآسيا لم تظهر في اميركا الا بعد توسع اوربا الاستعماري . وهذا يؤيد قول ده شاندول وڤاڤيلوف واصحاب المذهب القائل بأن حضارة اميركا الاصلية نشأت مستقلة عن المؤثرات الاجنبية

السفياني

للاستاذ بنرلي جونس

جامعة باكو

من يطالع كتب الانبياء بامعان يرى ان اليأس استولى عليهم او كاد في باديء الامر اي على اثر سقوط دولتهم فأظلمت الدنيا في اعينهم وأخذوا يندبون امتهم بعبارات لا مثيل لها في آداب سائر الامم (راجع مراثي ارميا) ولم يعودوا ينتظرون من شدة ما اصابهم مساعدة من احد « لان جميع اخلاء اورشليم غدروا بها وصاروا لها اعداء » (مراثي ارميا ب) ولما لم يبقَ لهم امل في الخلاص القريب اضطروا ان يعلقوه على المستقبل البعيد حين يبعث الله « الفادي » ثم اخذوا يصوّرون هذا المستقبل المتحجب وراء الغيوم بما كانت توحيه اليهم مخيلاتهم المتهيجة المريضة وعواطفهم القومية المهانة ورغبتهم القوية في الانتقام من الصور الساحرة الخلابة التي هي اقرب الى الهذيان وأضغاث الاحلام منها الى الممكنات المعقولة ولكن سرعان ما تحوّلت هذه الاحلام البعيدة الى آمال قوية في قرب « الخلاص » يوم غلب كورش ملك الفرس البابليين وضم بلادهم الى مملكته ثم اخذ يظهر من العطف على بني اسرائيل والرغبة في استمالتهم اليه لاعتبارات سياسية واقتصادية ما جعلهم ينظرون اليه نظرهم الى مسيحهم المنتظر [1] ليحررهم ويردهم الى بلادهم ويقيم العدل بينهم [2] وقد كان ذلك كما هو معلوم ولكن الى حين حتى اذا فقدوا استقلالهم مرة اخرى في ايام ذي القرنين وخلفائه ثم في عهد الرومانيين والبزنطيين عادوا الى احلامهم القديمة وآمالهم التي لم تتحقق وكذلك ظلوا يتقلبون بين اليأس والامل والشدة والفرج وينتظرون مخلصهم القومي [3] حتى قضي امرهم فتشتتوا في طول البلاد وعرضها يحملون في طيات افئدتهم عقيدتهم المعزّية ويبثونها بين الامم التي نزلوا اراضيها . هذه على ما ارى هي العوامل التي اوجبت ظهور الاعتقاد بالمسيح عند اليهود وقد اسهبت في بيانها لاعتقادي بأنها هي نفسها اوجبت انتشار هذا الفكر بين العرب المسلمين ايضاً وبين من اخذ عنهم الدين الحنيف وعلى الاخص بين الفرس

---

(١) «هكذا قال الرب لمسيحه كورش ... » (اشع ٤٥ : ١) «انتم شهودي وعبدي الذي اخترته» (اشع ٤٣ : ١٠) (٢) « انا اقته للعدل وسأقوم جميع طرقه» (اشع ٤٥ : ١٣)

(٣) غلبت الصفة القومية على سائر صفات « المسيح » في كتاب دانيال وذلك في ايام المكابيين في حين ان اشعيا وارميا وعاموس كادوا في بعض الاحيان يجردونه عن هذه الصفة ويصورونه بصورة « مخلص » عام تشمل رسالته الادبية جميع شعوب الارض (international)

لقد اجمع (*) مؤرخو الاسلام [1] ومن كتب في الفرق الدينية [2] على ان القول بالمهدي او الامام المحتجب ظهر في الاسلام بعد وفاة النبي وانتقل الى العرب خاصة والمسلمين عامة عن اليهود . على اني ارجح ان هذا الاعتقاد كان شائعاً في اهم المدن العربية بين بعض الفرق الدينية كالحنفيين والكسائيين والسابئيين قبل الاسلام وان النبي العربي كان يعلم ذلك قبل ان يظهر دعوته وانما اليهود والنصارى المتهودون [3] نقلوا الى العرب بعض تفاصيل هذا الاعتقاد وبعض خرافات واحاديث خلقها جهلهم ومخيلاتهم المصابة بالحمى . وقد ذكر ابن خلدون بعض هذه الاحاديث في مقدمته فليراجعها هناك من اراد التوسع في هذا الموضوع . فممن ذكروا بين الذين ادخلوا على الاسلام هذا التعليم عبد الله بن سبا وعبد الله بن السوداء وغيرهما وكلهم كانوا من اليهود الذين « اظهروا الاسلام ليفسدوا — كما يقول صاحب « الفرق بين الفرق » [4] — على المسلمين دينهم بتأويلاتهم في علي وأولاده » الذي غالوا فيه حتى جعلوه إلاهاً وقالوا انه لم يقتل وانما قتل شيطان في صورة انسان [5] وانه صعد الى السماء كما صعد اليها عيسى بن مريم ثم انه سينزل منها — القول في الرجعة — لينتقم من اعدائه و « يملك الارض بحذافيرها» [6] وهذه الفرقة تزعم ان المهدي هو علي دون غيره . وقد تبعها في ذلك اكثر الروافض كالزيدية والامامية والكسائية والاسماعيلية وسائر الغلاة مع اختلاف بينهم في شخص المهدي واسمه او الامام المنتظر بين ان يكون علياً نفسه او احد ابنائه او احفاده على انهم قد اجمعوا على ان المهدي لا بدّ ان يخرج من بيت علي او من بيت النبي وعترته وقد تسرب هذا الاعتقاد الذي كان في اول الامر محصوراً في شيعة علي الى اهل السنة والجماعة حتى اصبح عقيدة عندهم او كاد فلم يبق محدث الا تناوله وخاض فيه ووضع فيه من الاحاديث [7] ما وافق عصره ودرجة ثقافته وشيعته الدينية او السياسية وصفاته الشخصية الى غير ذلك من المؤثرات الداخلية والخارجية . ونحن انما يهمنا من كل ذلك ان نعلم أن القول في المهدي لم ينتشر بين المسلمين الا بعد ان قتل علي بن ابي طالب وان الذين ادخلوه كانوا من اليهود وان الغرض من مجيء المهدي — وهذا هو الاهم — كان في اول الامر سياسياً محضاً ولم يتحول

(*) قول الاستاذ هنا باجماع مؤرخي الاسلام !! باطل لا يستند الى دليل قوي ، وكلمة رجل او رجلين فيما روى من الاحاديث عن ظهور المهدي (ولا نقول الامام المحتجب) لا تعد اجماعاً من مؤرخي الاسلام على هذا القول ، ونحن لا نقر الاستاذ على ما وصف به ائمة الاسلام في كلامه هذا من اختلاق الاحاديث والجهل والتخيل المحموم [محمود محمد شاكر]

(١) انظر على الاخص الفصلين الذين عقدهما ابن خلدون في مقدمته على « الفاطمي » وما ذهب الناس فيه ثم على الملاحم والجفر وهما من أهم ما كتب في هذا الموضوع على الاطلاق (الفصلان ٥٣ و٥٤ من طبعة المطبعة البهية ص ٢٧١ — ٢٩٩ » (٢) راجع كتاب « الفرق بين الفرق » لابي منصور البغدادي وكتابي ابن حزم والشهرستاني في الملل والنحل وغيرهما (٣) يظهر ان كلة نصارى الواردة في القرآن لم تكن تشمل جميع المسيحيين بل فرقة منهم عرفت قديماً بهذا الاسم (٤) ص ٢٢٥ (٥) وهذا ما ادعته بعض الفرق (Docètes) في عيسى المسيح (سورة ٤ آية ١٥٦) (٦) الفرق بين الفرق ص ٢٢٤ (٧) وقد فند اكثرها ابن خلدون وغيره من رواة الحديث المحققين

الى غرض اجتماعي واخلاقي الأ مع الزمن وبعد ان فشل اصحاب علي مرات عديدة يؤيد ذلك اكثر الاحاديث واقدمها وهي تصرح بأن « المهدي » سيظهر « لينتقم من اعداء علي وبيته ويملك الارض كلها » وانه متى اتم مهمته هذه عاد الى حيث اتى . ولهذا اجمعوا او كادوا يجمعون على ان رسالته هذه سوف لا تستغرق اكثر من « سبع او تسع سنوات » « ويكون في امتي المهدي ان قصر فسبع والا فتسع فتنعم امتي فيه نعمة لم ينعموا بمثلها قط تؤتي الارض اكلها ولا يدخر منه شيء والمال يومئذ كدرس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي اعطني فيقول خذ »[١] . وجاء في حديث آخر عن جابر ان النبي قال « يكون في آخر امتي خليفة يحثى المال حثياً لا يعده عداً »[٢] وعن ابي سعيد الخدري « يخرج في آخر امتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الارض نباتها ويعطي المال صحاحاً وتكثر الماشية وتعظم الامة يعيش سبعاً او ثمانيا (حججاً) »[٣] الى غيره من الاحاديث التي تنسب الى المهدي اغراضاً سياسية مادية وتحصر رسالته في امته فقط . الا انهُ لم تمضِ على ظهور هذا الاعتقاد مائة سنة او نحو ذلك حتى صاروا ينسبون اليهِ اغراضاً اجتماعية واخلاقية كقولهم بان المهدي المنتظر سيملأ متى ظهر « الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[٤] ولعلهم انما ارادوا « بالعدل والقسط » الانتقام من اعداء علي وبيتهِ وردّ الحكم ومصادر الثروة والقوة اليهم فيكون حينئذٍ الغرض من مجيء المهدي سياسيًّا محضاً وهو ما ارجحهُ لاسيما وان اكثر شيعة علي والذين غالوا فيه وفي ابنائهِ كانوا في هذا الوقت من الفرس الذين لم يتشيعوا لعلي وابنائهِ في بادىء الامر الا لغاية سياسية معلومة ألا وهي استرداد ملكهم وما فقدت ايديهم من خيرات هذه الدنيا

على كل حال لا ريب في ان الغرض الاساسي من ظهور القول بالمهدي بين الشيعيين كان في اول الحركة سياسيًّا وعليهِ لا اظنني بعيداً عن الحقيقة اذا صرّحت بان الاحزاب السياسية الاخرى والقبائل العربية التي ظهر بينها القول بالمهدي او بما يرادف هذا الاسم اخذت هذا الاعتقاد عن الشيعيين رأساً لا عن اليهود او عن المسيحيين واكبر دليل على ذلك في نظرنا هو ان هذه الاحزاب او القبائل حصرت الغرض من مجيء « المهدي » او الامام في امر واحد وهو اعادة الحكم واسبابه اليها اذا كانت اضاعته ، او اعطاؤها اياه اذا لم تكن بعد وصلت اليهِ . وكل ذلك ظاهر ان كان في خبر « السفياني » او « مهدي » بعض القبائل العربية الذين لم يقدّر لهم ان يلعبوا دوراً هامًّا في تاريخ العرب « كالقحطاني »[٥] في اليمن و « التميمي »[٦] عند المضرية و « الكلبي »[٧] عند بني كلب في اليمن وغيرهم ممن لم تبلغنا اخبارهم ولهذا نعرض عن ذكرهم مقتصرين على خبر « السفياني » مهدي بني سفيان

(١) و (٢) و (٣) مقدمة ابن خلدون ص ٧٥ ومسند احمد ٣٦:٣ (٤) ابن خلدون ص ٢٧٤
(٥) و (٦) و (٧) راجع عنهم تأليف van Vloten تحت عنوان Recherches sur la domination arabe, le chiitisme et les croyances messianiques sous le Khalifat des Omayyades p. 61 Amsterdam 1894

جاء في كتاب الاغاني (١٦ : ٨٨) ان اول من وضع خبر السفياني وكبّره « هو خالد ابن يزيد بن معاوية وانهُ اراد من ذلك ان يكون للناس فيه طمع حين غلبهُ مروان بن الحكم على الملك وتزوّج امهُ ام هاشم » وهذا الحديث مرفوع الى مصعب عم الزبير الاّ ان صاحب الاغاني او من نقل عنهُ يعد هذا الخبر وهماً من مصعب لان خبر « السفياني قد رواه غير واحدٍ وتتابعت فيهِ رواية الخاصة والعامة وذكر خبر امره ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين وغيره من اهل البيت » على اني ارجح اليوم [1] بان الواهم هو صاحب الاغاني لانهُ خلط على ما يظهر لي بين كلام جعفر المذكور وغيره من اهل البيت في المهدي المنتظر على العموم وبين الكلام عن « السفياني » بطل بني امية او بالاحرى بني سفيان وشتان ما بين هذا وذاك من الفرق فقد رأينا ان دعوة المهدي اصبحت مع الزمن عامّة تشمل جميع المسلمين وان الغرض من مجيئهِ اصبح اجتماعيًا اخلاقيًا اكثر منهُ سياسيًا في حين ان رسالة السفياني كانت دائماً سياسية ومحصورة في بني سفيان ثم في بني امية بعد ان سقطت دولتهم وانتقل الملك الى بني العباس ولم يكن غرضها الاّ اعادة الملك الى بني امية حتى اذا ردّ اليهم انتهت دعوة « السفياني » ولم تعد حاجة اليهِ ولهذا السبب لم يشع خبره والاعتقاد برسالته الاّ بين شيعتهِ وجلهم او كلهم من عرب سوريا وفلسطين وبعض الناقمين على بني العباس من العرب وغيرهم ولهذا ايضاً قالوا ان مدة بقاء السفياني في اصحابه لا تزيد على تسعة اشهر او ما يقرب من ذلك كما يؤخذ من الحديث الآتي : « قال ابو جعفر محمد بن علي كم تعدّون بقاء السفياني فيكم قلت حمل امرأة — تسعة اشهر — قال ما اعلمكم يا اهل الكوفة » [2] وجاء في حديث آخر ان منصور بن الاسود قال : أتيت جابر الجعفي أنا والاسود اخي فقلنا له إنا قوم نضرب في هذه التجارات وقد بلغنا ان الرايات قد قطع بها الفرات فاذا تشير علينا وماذا تأمرنا ؟ قال اذهبوا حيث شئتم من ارض الله تعالى حتى اذا خرج السفياني فاقبلوا عودكم على بدئكم » [3]

ومما يرجح القول بان خالد بن يزيد بن معاوية هو الذي وضع خبر السفياني هو ان خالداً كان يطمع في الملك لانهُ كان اكبر ابناء يزيد فكان يجب ان يرثهُ طبقاً للنظام الذي وضعهُ معاوية جرياً على سنة البزنطيين الذين كان يتأثرهم في ادارة البلاد الاّ ان خالداً لم يرث اباه كما هو معلوم بل ورثهُ مروان بن الحكم واولاده من بعده وبذلك انتقل الملك الى المروانيين وهذا ما لم يكن ليرضى عنهُ بنو سفيان او ينسوه . ومن ذلك ايضاً ان خالداً كان من اشهر علماء عصره بين العرب وكان متفرغاً « لطلب الحديث وقراءة الكتب وعمل الكيمياء » [4] ولهذا لم يكن ليخفى عنهُ امر المهدي وخطورة هذا الفكر وسعي اهل الشيعة في حصره في بيت علي واستغلاله في مصلحتهم فهل يلام خالد او يستغرب منهُ اذا هو اخذ هذا الاعتقاد عن اعدائهِ

---

(١) خلافاً لما قلته في مقالتي « حنين العرب الى بني امية » فليصلح هناك (٢) كتاب الاغاني ١٦ : ٨٨
(٣) الاغاني ١٦ : ٨٨ (٤) الاغاني ١٦ : ٩٠

واستعمله لمصلحته ومصلحة بيته؟ ومهما يكن من الامر فلا ريب في ان القول «بالسفياني» ظهر في الاسلام بعد ان انتشر الاعتقاد بالمهدي على العموم وبعد ان اضاع بنو سفيان الخلافة ولا ريب كذلك في ان سوريا كانت منشأ هذا الاعتقاد وساحة الحروب التي نشأت عنهُ وان كلمة «السفياني» اصبحت شعار عرب سوريا ينادون بهِ كلما ثاروا على اصحاب السلطة الجديدة ويؤلبون تحته غير الراضين عنها وعن نظامها وادارتها. وقد عرف بنو العباس ذلك منهم فكانوا يخشونهم ويكرهون سماع كلمة «السفياني» كما يُستفاد من الحديث الآتي. ذكر الطبري: «ان رجلاً تعرّض للمأمون بالشام مراراً فقال له يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم اهل خراسان فقال (المأمون) اكثرت عليَّ يا اخا اهل الشام. والله ما انزلت قيساً[1] عن ظهور الخيل الا وانا أرى انهُ لم يبق في بيت مالي درهم واحد واما اليمن فوالله ما احببتها ولا احبتني قط واما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجهِ فتكون من اشياعه[2] اعزب فعل الله بك!»

وقد حاول عرب سوريا — الجنوبية والشمالية — مراراً ان يردوا الملك الى بني امية فلم يوفقوا للاسباب التي بيناها في مقالتنا السابقة وكم من مرة شقوا عصا الطاعة على بني العباس باسم السفياني فلم يفلحوا على ان ذلك لم يكن ليقعد بهم عن القيام ضد الدولة المبغوضة عندهم كلما سنحت لهم فرصة

ذكر أصحاب التاريخ ان اول ثورة ضد حكم بني العباس ذكر فيها اسم السفياني كانت ثورة علي بن عبدالله بن يزيد بن معاوية الملقب بابي العميطر في الشام وذلك في ذي الحجة من سنة ١٩٥هـ — ٨١٠م والذي يؤخذ من كلام الطبري[3] وابن الاثير[4] ان ابا العميطر «دعا لنفسه بالخلافة مدعياً انه السفياني المنتظر وقوي على سليمان بن المنصور (بن أبي جعفر) عامل دمشق فاخرجه عنها بعد حصره اياه واعانه على ذلك الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية وكان أكثر أصحابه من كلب» ولولا اختلافه[5] مع محمد بن صالح بن بيهس الكلابي الذي كان دعاه الى طاعته فلم يجبه الى ذلك ولولا انقسام بني أمية الى حزبين سياسيين متزاحمين على الملك لكان للسفياني شأن آخر في سوريا

ثم ظهرت حركة المبرقع الفلسطيني «السفياني» في فلسطين سنة ٢٢٧هـ/٨٤٢م و«السفياني» الموسوس في الشام سنة ٢٩٤هـ — ٩٠٦م و«سفياني» آخر في طرابلس (ابن الاثير ٧: آخر الصفحة) وغيرهم ممن ذكرنا اخبارهم في مقالتنا السابقة فلتراجع هناك. ولم ينته أمر السفياني الا بعد ان سقطت دولة بني العباس في أيدي السلاجقة ثم المغول حين لم يبق داع الى النزاع بين الاحزاب العربية السياسية القديمة وحين عمَّ الاعتقاد بوجوب ظهور مهدي عام «يملأ الارض قسطاً وعدلاً» ويحيي الامة العربية جميعها ويرد اليها عزها السالف ويوحد كلمتها...

فهل يكون ذلك يا ترى ومتى؟ وهل يكون عن يد «السفياني» أم عن يد شخص آخر؟

---

(١) شيعة بني امية وجندهم المجرب (٢) ١٠: ٢٩٦ (٣) ١٠: ١٥٥ (٤) ٦: ٨٩ — ٩٠ من الطبعة المصرية (٥) «ولما مرض ابن بيهس جمع رؤساء بني نمير فقال لهم ترون ما اصابني من علتي هذه فارفقوا ببني مروان وعليكم بمسلمة بن يعقوب.. ابن مسلمة بن عبد الملك فانه ركيك وهو ابن اختكم واعلموه انكم لا تتبعون بني ابي سفيان وبايعوه بالخلافة وكيدوا به «السفياني»»

فكرة اللانهاية[1]

للدكتور علي مصطفى مشرّفة
استاذ الرياضة التطبيقية في كلية العلوم بالجامعة المصرية

اللانهاية كلمة تعبر عن معناها تعبيراً حرفيًا من دون حاجة من جانبي او جانب اي شخص آخر الى تفسير. فـ «لا» النافية. ونهاية حدٌّ او آخر أو طرف. والمعنى إذن ما لا حدَّ له او ما لا آخر او طرف له. فيقال للشيء انهُ لانهائي إذا لم يوجد له حدّ او نهاية. وعكسه الشيء المنتهي أو المحدود

وقد يخطر لاول وهلة أن كل شيء يجب أن يكون محدوداً قبل أن نستطيع الكلام عنهُ كلاماً مضبوطاً وإلاّ فنحن نتكلم عن شيء نجهل حدوده فنهرف بما لا نعرف . ولكن هذا الخاطر سرعان ما يفارقنا إذا نحن بحثنا في الامر بشيء من التدقيق . ولأضرب لكم مثلاً على ذلك. فنحن نستطيع ان نعدد الاعداد الصحيحة الموجبة بترتيب تصاعدي فنقول واحد اثنين ثلاثة الخ . ثم إنهُ من الصعب على العقل البشري أن يتصور وجود حد أعلى لهذه الاعداد إذ كلما ذكر عدد أمكن دائماً ذكر عدد اكبر منهُ . فعدد هذه الاعداد إذن نستطيع ان نقول عنهُ إنهُ لانهائي . ونستطيع أن نزيد على ذلك فنبحث في خواص هذا العدد فنحكم مثلاً باننا اذا قسمنا الواحد الصحيح على هذا العدد فإن خارج القسمة يكون اصغر من أيّ كسر موجب اي يكون الصفر . وكل هذه عبارات مضبوطة لا اعتراض عليها من الناحية المنطقية كما أنها تنطوي على حقائق لها شأنها في المباحث الرياضية البحتة منها والتطبيقية . وربما قيل ان عدد الاعداد الصحيحة الموجبة وإن أمكن الكلام عنهُ الاّ انهُ لايمكن اعتباره شيئاً موجوداً في العالم الخارجي اوحقيقة واقعة كما يمكن اعتبار العدد ٣ مثلاً رمزاً على حقيقة واقعة كثلاث برتقالات وثلاثة رجال الخ. وقبل ان اخوض في هذه الناحية الفلسفية لموضوعي أريد ان اواصل كلامي اولاً عن الكميات اللانهائية باعتبارها اشياء موجودة في ذهن المتكلم له أن يعرّفها ويحدد معانيها وأن يبحث في النتائج المنطقية لهذه التعاريف وفي الارتباط بينها وبين غيرها من المعاني الذهنية

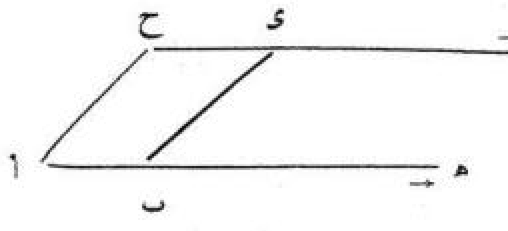
لنفرض اننا رسمنا مستقيمين متوازيين أ حـ ، ب ء من نقطتين ثابتتين أ ، ب ثم وصلنا حـ ء فقطع امتدادها امتداد أ ب في نقطة هـ

(١) من محاضرات المجمع المصري للثقافة العلمية في مؤتمره الرابع

فاذا علم طول كل من أ ب ، أ حـ وعلم الفرق بين طولي أ حـ ، ب ى فان طول أ هـ يتعين بطريقة هندسية بسيطة من العلاقة

$$\text{طول أ هـ} = \frac{\text{طول أ ب} \times \text{طول أ حـ}}{\text{الفرق بين طولي أ حـ ، ب ى}}$$

واذا نحن تأملنا في هذه العلاقة وافترضنا ان أ حـ ، ب ى اقتربا الواحد من الآخر في الطول بحيث صغر الفرق بينهما فان مقام الكسر الذي على اليسار يصغر وبذلك تكبر قيمة الكسر . ثم أريد أن تعتبروا الحالة التي فيها يكون أ حـ ، ب ى متساويين في الطول تماماً . قد يظهر لاول وهلة أن الكسر على اليسار يصبح عديم المعنى لان معناه يقتضي تحديد معنى قسمة عدد محدود على الصفر وهي عملية لا نتعلمها عند ما نتعلم القسمة ولكن انظروا معي الى المسئلة الهندسية الاصلية في هذه الحالة



ان المسئلة الهندسية لا تزال مسئلة معيَّنة وكل ما هناك ان حـ ى يوازي أ ب بدلاً من ان كان مائلاً عليه ومعنى هذا ان طول أ هـ يزداد بدون حد

هذا مثال من خاصية معروفة للكميات اللانهائية في الكبر نعبر عنها بما يأتي :—خارج قسمة أي كمية محدودة على الصفر يساوي كمية لا نهاية لكبرها واذا رمزنا للكمية التي لا نهاية لكبرها بالرمز ∞ فاننا نكتب

$$\frac{\text{كمية محدودة}}{\text{صفر}} = \infty \quad (١)$$

والعلاقة السالفة بين اطوال المستقيمات تمكن كتابتها على الصورة الآتية

$$\text{الفرق بين طولي أ حـ ، ب ى} = \frac{\text{طول أ ب} \times \text{طول أ حـ}}{\text{طول أ هـ}}$$

ومن ذلك نرى بنفس الطريقة السالفة أن

$$\frac{\text{كمية محدودة}}{\infty} = \text{صفر} \quad (٢)$$

ترون مما تقدم أن العلاقتين (١) ، (٢) صحيحتان مهما كان مقدار الكمية المحدودة (ما دامت محدودة) فمثلاً

$$\frac{١}{\text{صفر}} = \infty \text{ ، } \frac{٢}{\text{صفر}} = \infty \text{ ، } \frac{٣}{\text{صفر}} = \infty$$

وكذلك $\frac{١}{\infty} = \text{صفر ، } \frac{٢}{\infty} = \text{صفر ، } \frac{٣}{\infty} = \text{صفر}$

فاللانهاية إذن مرتبطة ارتباطاً متيناً بالصفر وهي في الواقع مقلوب الصفر كما ان الثلث مقلوب الثلاثة والربع مقلوب الاربعة . أريد ان تتذكروا هذه العلاقة البسيطة بين الصفر واللانهاية عند ما يأتي الكلام على الوجود الخارجي للانهاية لان الوجود الخارجي للصفر ليس من الامور الصعب تصورها . فمن الممكن جداً ان يكون ما في جيبي الآن من القروش يساوي الصفر [مع انني لن اطلب منكم ان تستنتجوا من ذلك ان من الممكن أن يكون ما في جيبي من القروش يساوي اللانهاية] ولكن مع ذلك يصعب من الناحية المنطقية تصور الوجود الخارجي لعدد وانكار الوجود الخارجي لمقلوبه . اي تصور وجود ما هو متناهٍ في الصغر وانكار وجود ما هو متناهٍ في الكبر

ولا اريد ان اخوض بكم في العلاقات الرياضية المختلفة بين الاعداد اللانهائية والعلاقات بينها وبين الكميات المحدودة وفي كيفية تطبيق العمليات الجبرية على الاعداد اللانهائية فان ذلك يخرج هذه المحاضرة عن صبغة المحاضرات العامة ويدخلها في صف المحاضرات المدرسية . وانما أكتفي بان اذكر انه من الممكن تعميم العمليات الحسابية والجبرية بحيث يمكن تطبيقها على الكميات اللانهائية بطريقة منطقية مضبوطة . تقولون كل هذه امور قد تهمّ الرياضيين والفلاسفة ولكننا لا نرى بينها وبين حياتنا اليومية ارتباطاً واضحاً ولكن فكروا معي نحن في حياتنا اليومية وفي تفكيرنا العادي ألسنا نقسم زماننا ومسافاتنا الى اقسام ؟ ألسنا نعتبر اننا نعيش في لحظات متتالية

دقات قلب المرء قائلة لهُ ان الحياة دقائق وثواني

ثم اذا نحن انتقلنا او تحركنا ألسنا دائماً نعتبر اننا ننتقل من « نقطة » الى نقطة اخرى. ففكرة اللحظة وفكرة النقطة ، كلاهما أساس في تفكير البشر عامتهم وخاصتهم

ثم اذا سئلنا ما هي اللحظة ؟ ألا يكون جوابنا انها جزء من الزمن متناهٍ في الصغر ! على هذا الاساس ألا تكون أية مدة محدودة في نظرنا عبارة عن عدد لانهائي من اللحظات المتتالية ؟ فاللحظة في التفكير العادي هي جزء من الزمن مدتهُ الصفر وإذن فلا سبيل الى تكوين مدة محدودة من لحظات الا بجمل عددها لا نهائياً في الكبر او بعبارة اخرى لا مندحة عن قسمة المدة المحدودة من الزمن في تفكيرنا الى عدد لا نهائي من الاقسام يسمى كل قسم باللحظة وهذا هو نفس المعنى الذي عبرت عنهُ منذ مدة وجيزة بالعبارة

$$\frac{\text{كمية محدودة}}{\infty} = \text{صفر}$$

وكذلك الحال لدى تفكيرنا في المسافات فهي مجموع عدد لا نهائي من النقط . فالتفكير العلمي والتفكير الرياضي إن هما في الواقع الا متابعة طبيعية للتفكير العادي يتوخّى فيهِ زيادة الضبط والتدقيق في التعبير . افرضوا معي اننا قسمنا مستقيماً ا ب طوله متران إلى نصفين

بواسطة نقطة أ١ ثم قسمنا الجزء أ١ ب إلى نصفين بواسطة نقطة أ٢ ثم قسمنا الجزء أ٢ ب إلى نصفين بواسطة نقطة أ٣ وهكذا

أ ــــــــــــ أ١ ــــــــ أ٢ ــــ أ٣ ــ ب

ثم فكروا في الاقسام

أ أ١ ، أ١ أ٢ ، أ٢ أ٣ ، أ٣ أ٤ ، أ٤ أ٥ ، وهكذا

ان طول أ أ١ = ١ ، أ١ أ٢ = ١/٢ ، أ٢ أ٣ = ١/٤ ، أ٣ أ٤ = ١/٨ وهكذا

ان العقل البشري يستطيع تصور استمرار هذه العملية بدون نهاية بل هو لا يستطيع تصور نهاية للعملية الحادثة في الذهن وإن كان الحدوث في الخارج يقتضي وجود آلات للتقسيم. ولكن العملية « الذهنية » لا نهاية لها فالاقسام أ أ١ ، أ١ أ٢ ، أ٢ أ٣ الخ لانهاية لعددها ولكن فكروا في مجموعها . ان نظرة بسيطة الى الشكل تدلكم على ان نقط التقسيم قد تقرب من النقطة ب ولكن لا يمكن ان تتعداها

ان مجموع اطوال الاقسام أ أ١ + أ١ أ٢ + أ٢ أ٣ + أ٣ أ٤ + ــ ــ ــ لا يمكن أن يزيد على طول المستقيم أ ب أي على مترين . وإذن فـ

١ + ١/٢ + ١/٤ + ١/٨ + ١/١٦ + الخ لا يزيد على ٢

والعقل البشري يستطيع ان يقرر اكثر من ذلك فهو يستطيع ان يقرر انهُ اذا زاد عدد هذه الاقسام بدون حد فان الفرق بين مجموعها وبين العدد ٢ ينقص بدون حد حتى يساوي الصفر أي أن

٢ ــ (١ + ١/٢ + ١/٤ + ١/٨ + ١/١٦ + ــ ــ ــ ← ∞) = صفر

هذا مثال محسوس للحقيقة الآتية وهي أن مجموع كميات عددُها لا نهائي يكون في بعض الاحوال محدوداً . من هذه الحقيقة على وجه الخصوص نشأ خطر دراسة الاعداد اللانهائية من حيث تطبيقها في المسائل العملية وعدم ادراك هذه الحقيقة ينشأ عنهُ اختلاط في التفكير. ومن المغالطات المشهورة المغالطة الآتية وهي ان سلحفاة سابقت ارنباً فتقدمتهُ بمتر عند البدء في حركتها وكانت تتحرك هي بنصف سرعتهِ فلكي يلحق بها الارنب وجب عليهِ أن يقطع المتر الذي بينهما ولكن بينما هو يقطعه تقطع هي نصف متر وبينما هو يقطع هذا النصف المتر تقطع هي ربع متر وبينما هو يقطع الربع المتر تقطع هي ثمن متر وهكذا فاذن لن يلحق بها ابداً . والمغالطة منشؤها افتراض ان مجموع المتر والنصف المتر والربع المتر الخ لانهائي في الكبر مع انهُ كما ترون محدود ويساوي مترين تماماً . واذا عرفت سرعة الارنب وكانت متراً في

الدقيقة مثلاً فاننا نحكم بأنهُ سيلحق بها بعد دقيقتين

والآن انتقل بحضراتكم الى الناحية الفلسفية من الموضوع ومدارها هل الكمية اللانهائية موجودة فعلاً في الخارج . اذا نظرتم الى المثال السابق وجدتم ان مجموع الكميات $١ + \frac{١}{٢} + \frac{١}{٤} + — — \to \infty$ التي عددها لانهائي : حقيقة واقعة في الخارج وتساوي مترين ولكن هل الكميات ذاتها ١ ، $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٤}$ ، $\frac{١}{٨}$ موجودة على المستقيم أ ب اي هل هناك طول مقداره متر وآخر طوله نصف متر وهكذا على المستقيم ؟

اظنكم ستتفقون معي على ان المستقيم أ أ١ موجود في الخارج وكذلك أ١ أ٢ ، وكذلك أ٢ أ٣ وكل ما يستطيع الرياضي ان يقوله للفيلسوف في هذه الحالة :— « اذا كان بين هذه المستقيمات ما ليس في رأيك موجوداً على المستقيم فقل لي ايها ؟ اما اذا عجزت فانني سأستمر اتكلم عنها كما لو كانت كلها حقائق واقعة في الخارج »

ولكني لا أزعم ان المسئلة بسيطة الى هذا الحد . لنفرض اننا بدلاً من جعل الأطوال أ أ١ ، أ١ أ٢ وهكذا مساوية لمتر ونصف متر الخ ، جعلناها كلها متساوية ويساوي كل منها الوحدة ففي هذه الحالة من البديهي ان مجموعها لا يكون محدوداً كما ان عددها ليس بمحدود . سنكون ازاء مستقيم طوله في ازدياد مستمر فهو اطول من اي مستقيم تستطيع تصور مقاسه . والمسئلة اذن مؤداها البحث في خواص الفضاء الذي نعيش فيه . ان الرياضي والفيلسوف يسلمان معاً بأن طول المستقيم لا يمكن تمثيله بأي عدد من الاعداد المحدودة ولكن هل مثل هذا المستقيم شيء موجود ؟ ماذا يحدث عند ما تستمر في مدّ مستقيم ؟ وبعبارة اخرى ما يحدث عند ما نتحرك في الفضاء ؟ هل نستمرُّ نبتعد عن النقطة التي بدأنا منها ونستمرُّ ننظر الى مبدإ رحلتنا كلحظة ماضية ام نعود الى حيث بدأنا ولو بعد حين كما يعود المسافر حول الارض الى النقطة التي بدأ منها . هنا يمتزج التفكير الرياضي بالتفكير الفلسفي . ان خبرتنا في السنين الاخيرة التي نشأت عن دراستنا للعالم الذي نعيش فيه قد أدت بنا الى آراء في خواص الزمان والمكان تختلف اختلافاً بيّناً عمّا كان مألوفاً بيننا من قبل . فلكي نبحث عن الوجود الخارجي لمستقيمنا اللانهائي يجب اولاً ان نتخلص من آرائنا الموروثة عن خواص المكان والزمان والتي نشأت عن افتراضنا تعميم خبرتنا المحدودة بحيث تشمل انحاء الفضاء وتعميم فكرتنا عن الزمان الذي نشعر بمروره بحيث تشمل الماضي والمستقبل جميعاً . ولست أحب ان اخوض بكم الليلة في بحث النظرية النسبية ولكني اكتفي بأن اذكر ان مستقيمنا « اللانهائي » ربما كان بدلاً من توغله في فضاء لا نهائي كما نتصور هو في الواقع ملتوٍ على نفسه كما يلتوي خط الاستواء على نفسه فيعود الى حيث بدأ بحيث ان ابعد مسافة يمكن الوصول اليها هي في الواقع ونفس الامر مسافة محدودة وان كانت كبيرة نسبيًا بحيث تقارن بابعاد السدم اللولبية عنا

نبذة عن البترول

بقلم المستر فرانكن مدير شركة الزيوت الانكليزية المصرية (١)

هل خطر لاحدكم ان يسائل نفسه من أين يأتي الكيروسين المعروف لنا بالجاز والذي به نطهي الطعام وبضوئه يستضيء السواد الاعظم من أهل هذه البلاد وكيف نحصل عليه وما هو مصدره الطبيعي . يجد القراء فيما يلي جواباً عن هذه الاسئلة بقلم المهندس الهولندي البارع المستر فرانكن مدير الشركة الانكليزية المصرية لحقول البترول المقيم بالغردقة صاحب الفضل في اقامة الاعمال الكبرى بحقول البترول في تلك البقعة الصحراوية النائية والموضوع ينقسم الى المسائل الآتية : — (١) تاريخ تطور صناعة البترول (٢) أصل زيت البترول وما يصحبه من غازات (٣) الطرق المتبعة في حفر آبار زيت البترول واستخراجه من باطن الارض

﴿ تاريخ صناعة البترول ﴾ من الامور التي يشوقنا تتبعها معرفة درجات التطور التي مرت بها صناعة البترول من أول بدئها الى وقتنا الحاضر . واذا نحن علمنا ان محصول العالم من هذه المادة عام ١٨٥٩ لم يتجاوز ثمانمائة طن وانه يبلغ الآن نيف ومائتي مليون طن في كل عام فلا شك اننا ندرك ان ذلك التطور كان عظيماً

ولم تكن عمليات حفر الآبار للحصول على البترول في ابتداء عهده مقيدة بنظام خاص او قائمة على أساس تراكيب جيولوجية معينة بل كان لكل من شاء ان يدعي العلم ببواطن البترول وطرق استنباطه . واني لاذكر في ذلك الوقت ان أحد مديري شركة من شركات البترول اراد انتخاب بقعة يحفر فيها بئراً فطوّح بقبعته في الهواء حتى اذا هبطت الى الارض اختار موقع هبوطها لحفر بئره . ومن محاسن الاتفاق ان هذه البئر كانت من اغزر ما عرف من آبار البترول . ويقولون والعهدة على من روى انهم كانوا يعملون في توصيل خط من الانابيب الى نقطة يراد حفر بئر فيها فلما لم تكف الانابيب للوصول الى النقطة المقصودة حفرت البئر عند آخر نقطة وصلت اليها الانابيب وتؤكد الرواية ان هذه البئر كانت سبباً في اكتشاف حقل بترولي عظيم

وكان القائمون بشئون استغلال حقول البترول يهملون رأي الجيولوجيين في انتخاب مواقع الآبار وأحياناً كانوا يتعمدون مخالفتهم وذلك جهلاً بقيمة ذلك العلم واعتقاداً منهم ان أربابه لم يكونوا سوى دجالين

ولا غرابة فقد كان الجيولوجي في ذلك الوقت غير خبير بجيولوجية البترول فكان يقتفي أثر من يقومون بالحفر بدلاً من ان يسبقهم ويرشدهم

---

(١) مترجمة عن الانكليزية بمعرفة الحنفي السيد فهمي افندي مفتش البترول المساعد بمصلحة المناجم والمحاجر

حتى اذا جاء المستر هوايت الجيولوجي الاميركي عام ١٨٨٥ وضع القواعد الجيولوجية على أساس الاختبارات السابقة واثبت إمكان تحديد مواقع البترول استناداً الى الظواهر الجيولوجية السطحية وكانت النتائج الباهرة التي حصل عليها خير مقنع لزملائه بصحة استقباطه

ولقد انقضى الآن العهد الذي كان ينكر فيه فائدة الجيولوجيا في المباحث البترولية واصبح السبق للجيولوجيين في فحص المناطق البترولية واستكشافها ، يدلك على ذلك ازدياد الطلب على استخدامهم ، ففي حقول كنساس واوكلاهوما بالولايات المتحدة الاميركية كان عدد الجيولوجيين عام ١٩١٣ ثلاثة فقط فاصبحوا الآن في نفس هذه الحقول نحو مائتين وخمسين شخصاً

﴿ البترول في العصور القديمة ﴾ مع ان صناعة البترول كما نعرفها الآن لم تبدأ الا منذ سبعين عاماً فإن البترول نفسه كان معروفاً واستعمله الانسان في بعض حاجاته منذ مئات بل آلاف السنين. فقد أثبت علماء التاريخ والآثار ان الاسفلت (وهو من البترول الخام) استعمل في آسيا الصغرى وفي مصر بدل الملاط في البناء وقد ذكر هيرودوتس أنه استعمل في بناء سور بابل

كذلك دلت آثار مدنيات الانكاس ببيرو بأميركا الجنوبية والازتكس بالمكسيك على ان الاسفلت استعمل لمثل هذه الاغراض. وجاء في الكتب المقدسة ما يشير الى استعمال الاسفلت في أسوار بابل وابراجها، وان فلك نوح والسلة التي وضع فيها الطفل موسى عليه السلام والقي في اليم كانت مبطنة بالاسفلت لمنع تسرب المياه الى داخلها

وقد استعمل المصريون القدماء خام البترول ومنتجاته في تحنيط موميائهم وقيل ان لفظة موميا نفسها منقولة عن الفارسية ومعناها الاسفلت

كذلك تدل بعض المسارج القديمة التي وجدت في حفائر المصريين القدماء على ان الانارة بها كانت بواسطة خام البترول الذي ينشع على شواطيء البحر الاحمر عند جبل الزيت وجمسا

وكان الهنود الحمر باميركا يعرفون فوائد البترول الطبية قبل ان يطأ الاوروبيون بلادهم . ثم ان ماركو بولو دوَّن في القرن الثالث عشر بعد الميلاد ما يدل على ان الروس في منطقة باكو كانوا يستعملون البترول كمسكر ودواء . وقد كانوا يحجون الى منابع البترول في باكو وحول بحر القزوين . وأقام عبدة النار في هاتيك الاماكن هياكل يعبدون فيها النار الدائمة الاشتعال التي تغذيها منابع البترول الطبيعية ويرجع تاريخ بعضها الى ستمائة عام قبل الميلاد

﴿ تقدم صناعة البترول ﴾ وأول مجهود جدي بذل لاستخراج البترول كان في عهد بطرس الاكبر الذي منح عام ١٧٢٣ اول امتياز لاستغلال البترول بمنطقة باكو وقد ظل هذا الامتياز قائماً حتى عام ١٨٧٢ على ان الفضل الاكبر في تقدم هذه الصناعة يرجع الى مابذل فيها من الجهود الجبارة بالولايات المتحدة وكان البحث عن ملح الطعام والمياه التي تحتوي عليه هو الذي أدّى الى اكتشاف البترول فيها وهو الذي اكسب الباحثين خبرتهم في حفر الآبار

وقد شهد عام ١٨٠٦ حفر اول بئر للبترول في الولايات المتحدة على ضفة نهر كيناوه بمقاطعة فرجينيا فلما بلغت البئر ثمانين قدماً من العمق بدأت تخرج ثلاثة اطنان من البترول يومياً علاوة على ما كان تخرجهُ من الماء المالح

فما جاء عام ١٨٢٠ حتى كانت صناعة حفر آبار البترول قد تقدمت تقدماً مكّن اصحابها من الوصول الى عمق الف قدم في باطن الارض . وكانت اغلب الآبار قد حفرت على ضفة نهر كيناوه للحصول على الملح وكان البترول الناتج يعتبر من المواد الضارة فيطلق مع ماء النهر الذي سمي لذلك (الزيتي) Old Greasy

وعلى أثر الكشف عن البترول بالولايات المتحدة قامت تجارة لا يستهان بها في البترول كعنصر يشفي كثيراً من الامراض ولتخفيف الآلام وكان أشهر الاصناف زيوت سنكا وزيت كرير الحجري وكان كرير هذا محضراً بمخزن أدوية في بتسبرج بولاية بنسلفانيا وقد أقام مرجلاً لتقطير ما زاد على حاجته من البترول واستخلص منه المواد الخفيفة التي استعملها في الاضاءة

وقد تكونت اول شركة للبترول باسم شركة بنسلفانيا للزيوت الصخرية عام ١٨٥٤ وحفرت اولى آبارها عام ١٨٥٦ ببلدة تيتاسفل حيث نبع زيت البترول من عمق ٥٨ قدماً وتدفق على السطح بقوة ثلاثة اطنان او اربعة في اليوم فكان النجاح الذي اصابتهُ هذه الشركة بشيراً بسرعة تقدم هذه الصناعة حتى بلغت شأواً ناوأت به صناعة استخراج الفحم الحجري في أوج عزها . اما في منطقة باكو على بحر قزوين فقد حفرت البئر الاولى عام ١٨٨٩ ففاق الخارج منها ما كان يتصوره العقل وقتئذٍ وكان ما يذاع عنها يقابل بالشك الكثير

وكان يحول دون تقدم العمل في حقول البترول رداءة وسائل النقل فكان زيت البترول في روسيا والولايات المتحدة ينقل من حقوله الى محطات السكك الحديدية في براميل تحملها عربات تجرها الدواب على انهُ في عام ١٨٧٥ مُدّ اول خط من الانابيب لتوصيل خام البترول في بنسلفانيا من منابعهِ الى مدينة بتسبرج . ثم حذت روسيا حذو اميركا على ان معارضة اصحاب عربات النقل اضطرت الحكومة الى حراسة خطوط الانابيب وقتئذٍ بقوات كبيرة مدة طويلة

كذلك قامت شركة نوبل الروسية عام ١٨٧٩ بانشاء اول باخرة خازنة لنقل البترول بالبحار وبذلك تمت وسائل نقل البترول براً وبحراً

وقامت منافسة شديدة بين روسيا واميركا وحمي وطيسها سنين طويلة وظلت روسيا موطن كل جديد ومبتكر في هذه الصناعة حتى عام ١٩٠٢ وقد انتجت بعض آبارها انتاجاً هائلاً نذكر من بينها بئر دروجيا التي تدفق البترول من فوهتها في نافورة تخترق الفضاء الى ارتفاع ثلثمائة قدم . وقدر انتاجها اذ ذاك بنحو سبعة آلاف طن يومياً . وقد استمر ضياع ذلك الانتاج الهائل نحو اربعة شهور . كذلك كانت الحال في نافورة مادركوف التي كان يتدفق الزيت

منها الى ارتفاع اربعمائة قدم وبلغ انتاجها اليومي نحو اربعة عشر الف طن

مثل هذه النافورات الهائلة جعلت محصول روسيا يبلغ عام ١٩٠١ اكثر من نصف محصول العالم باسره وكان ذلك من مساحة لا تزيد عن عشرة اميال مربعة . ولم تسبق الولايات المتحدة روسيا الاّ عام ١٩٠٣ بفضل ما اكتشف من حقول بترولية غنية في كاليفورنيا علاوة على ما كان معروفاً منها في ولايتي اوكلاهوما وكنساس . ويبلغ انتاج حقول البترول بالولايات المتحدة الآن ما يزيد عن ثلثي انتاج العالم بأسره

﴿ اصل زيت البترول وغازاته ﴾ يوجد البترول الخام في باطن القشرة الارضية التي تتألف من صخور راسبة واخرى نارية واخرى متحولة. ويهمنا من بينها في مبحثنا هذا النوع الاول الذي يرجع الى ما تكوّن من رواسب حملتها الانهار او الرياح او ما خلفتها الكائنات الحية في البحار وفي هذه الفصيلة من الصخور دون غيرها يوجد خام البترول

اما الصخور النارية كالجرانيت مثلاً فكانت في اول نشأتها عجينة مصهورة شديدة الحرارة ثم بردت فصلبت واما الصخور المتحولة فبعضها من اصل راسب والبعض من اصل ناري وقد تأثرت بعوامل مختلفة من حرارة وضغط شديدين فلا أثر للبترول فيها

وتنقسم نظريات العلماء في تفسير نشأة البترول الى طائفتين الاولى تقرر ان اصل البترول مواد غير عضوية والاخرى تقرر ان نشأته من مواد عضوية واليك خلاصة كل من الرأيين :—

﴿ نظريات المواد غير العضوية ﴾ بعض هذه النظريات مجرد استنباط وتخمين لا يقوم على أساس علمي صحيح والبعض بني على نتائج التجارب في المعامل الكيمائية فهو معقول مقبول وقد اقامهُ علماء الروسيين والفرنسيين على اساس من التجربة

ومع ان هناك نظريات عديدة تدخل تحت هذا الباب فنكتفي بايراد اثنتين من بينها :—

الاولى : ان مادة البترول كانت بين الغازات التي احاطت بالكرة الارضية وقت نشأتها الاولى فلما بردت وتكثفت هذه الغازات تحولت هذه المادة الى سائل البترول الذي تسرب الى جوف الارض

هذه هي النظرية الازلية وهي مجرد تخمين لم يقم اي برهان على صحتها

الثانية : وهي نظرية العالم Mendeleef تقول بوجود كربورات بعض المعادن في جوف الارض وهذه تتأثر بما في باطن الارض من مياه فيتولد منها غاز الاستيلين المستعمل في الاضاءة ولحام المعادن . فاذا تعرض هذا الغاز في باطن الارض لضغط شديد وهو على درجة ملائمة من الحرارة تحول الى سائل البترول

واغلب الذين يقولون بهذه النظرية هم من الكيماويين مع ان احد الجيولوجيين المعروفين Eugene Coste الكندي من انصار هذه النظريات ويدلل عليها بالاسباب الآتية :—

(١) وجود المواد الايدروكربونية في بعض النيازك المتساقطة من السماء
(٢) وجود المواد الايدروكربونية في الكواكب والنجوم
(٣) النجاح في عمل مواد ايدروكربونية في المعمل من مواد غير عضوية
(٤) وجود البترول السائل في بعض الصخور النارية والبركانية
(٥) وجود مقادير ضئيلة منهُ في الحديد «الزهر»

وليس وجود البترول في الصخور النارية دليلاً كافياً على صحة هذه النظريات فربما كان قد تسرب اليها من صخور راسبة ملاصقة لها

أن اغلب علماء الجيولوجيا لا يعترضون على امكان الحصول على زيت البترول من مواد غير عضوية الاَّ انهم متفقون على ان هذه الطريقة لا يمكن ان تؤدي الى وجوده بمقادير كبيرة صالحة للاستغلال

﴿ نظريات المواد العضوية ﴾ ذهب العلماء مذاهب عديدة في تفسير نشأة البترول من مواد عضوية ولا تختلف بعضها عن بعض الاَّ في المواد التي تحولت الى بترول وأهمها : —

(١) الفحم الحجري والمواد المتفحمة
(٢) بقايا النباتات المتراكمة
(٣) بقايا الحيوانات المتراكمة
(٤) بقايا الحيوانات او النباتات المجهرية الدنيئة
(٥) بقايا الحيوانات والنباتات مختلطة

واقدم هذه النظريات ما يرجع اصل البترول الى الفحم الحجري لوجود المادتين جنباً الى جنب في بعض حقول الفحم الحجري القديمة علاوة على ما لوحظ من ان الغازات التي تنبعث من طبقات الفحم الحجري تشبه في تركيبها الغازات التي تتصاعد مع البترول في حقوله . كذلك كان يعزز هذه النظرية ان الفحم الحجري اذا عرض لدرجة من الحرارة تحت ضغط معين يمكن تقطير زيوت وغازات من الصعب تمييزها من الزيوت والغازات في بعض الحقول البترولية . كذلك لوحظ وجود البترول متصاعداً من طبقات الفحم في اسكتلندا وبعض مناطق فرنسا وفي جزيرة ترينداد . على ان البرهان قد قام اخيراً على انهُ لا اتصال بين الفحم والبترول في هذه الجهات وان وجودهما في صعيد واحد جاء بطريق الصدفة وعلى ذلك فقدت نظرية الفحم الحجري كمادة اصلية في تكوين البترول أغلب معضديها

اما النظرية القائمة على أساس ان البترول مستمد من بقايا النباتات فقط فلا يمكنها ان تفسر ارتفاع نسبة الكبريت والنتروجين في بعض انواع البترول . كذلك نجد ما يناقض أن بقايا الحيوانات وحدها هي أساس البترول لان نسبة النتروجين في البترول اقل كثيراً مما

يوجد في المادة الحيوانية بوجهٍ عام . ثمَّ ان المواد الحيوانية عادة لا تعدم من بين الحيوانات الحية ما يلتهمها ويبيدها

بقيت النظرية القائلة بأن البترول من اصل عضوي خليط من مواد نباتية وحيوانية وهذه يؤيدها اكثر علماء الجيولوجيا على انهم يقدرون نصيب الحيوان في هذه الحالة باكثر من نصيب النبات . ولا شك في ان ما يتراكم من المواد الحيوانية والنباتية في مواطن الرسوب كاعماق البحار والبحيرات لكاف لأن يفسر المقادير الكبيرة من البترول التي في باطن الارض

وقد قدَّر بعضهم ان ما يصاد من صنف واحد من الاسماك في بحر الشمال في مدة ١٣٠٠ عام يكفي لتكوين ما انتجتهُ منطقة غاليسيا من البترول حتى الآن . فاذا قدرنا ان ما يصاد من هذا الصنف ليس الاَّ جانباً يسيراً جدًّا مما يوجد في البحر وان هذا الصنف هو واحد بين مئات بل آلاف الاصناف فلا يصعب ان نتصور ان ما يلزم من المواد الحيوانية لتكوين ما نعرفه في باطن الارض من مواد بترولية ضئيل جدًّا اذا قيس بالمواد العضوية في الطبيعة

﴿ طرق حفر آبار البترول ﴾ ابتكرت الطرق الحديثة لحفر آبار البترول عام ١٨٥٩ لدى اكتشاف البترول بولاية بنسلفانيا ومع انها تقدمت كثيراً من ذلك العهد الاَّ انها لا تختلف في جوهرها عن احدى طريقتين : الحفر بالدقاق والحفر بالحفار الدائر ولكل من هاتين الطريقتين احوال تلائمها فهي لذلك تستعمل في مختلف الحقول

﴿ طريقة الحفر بالدقاق ﴾ ويعبر عنها بالطريقة الاساسية Standard او الطريقة الاميركية وهي عبارة عن الحفر باستعمال حربة ثقيلة الوزن جدًّا معلقة في نهاية حبل من الليف او السلك الصلب يرفع ويخفض بحركة منتظمة فيفتت لدى اصطدامه بالارض الصخور التي تقابله ويساعده على ذلك الماء الذي يُصَبُّ في الثقب . كذلك تزال المواد المفتتة بالتوالي بأنبوبة نازحة (Bailer)

هذه الطريقة تلائم المناطق المكوَّنة من طبقات صخرية صلبة متماسكة بحيث لا تنهار جوانب الثقب ويمكن حفرهُ الى عمقٍ كبير قبل الاضطرار الى تبطينه بالمواسير لوقاية الطبقات المائية او لعزلها . كذلك تفضل هذه الطريقة في الآبار الاستكشافية او آبار التجارب في المناطق المجهولة اذ بها يتسنى لمن يقوم بالعمل تتبع خواص الطبقات واحدة واحدة فتجتمع له معلومات صحيحة تساعده في تفهم حقيقة تركيب المنطقة . اما بعد حفر البئر الاولى فليس ما يمنع من انتخاب اية طريقة اخرى تلائم طبيعة التركيب الصخري للمنطقة

﴿ طريقة الحربة الدائرة Rotary ﴾ والادوات المستعملة في هذه الطريقة عبارة عن حربة

حادة (سكينة) متصلة باسطوانات دقيقة مجوفة من الصلب الى قرص تديره آلة ميكانيكية او كهربائية. وتقترن حركة دوران القرص والسكين بدخول تيار مستمر من الماء داخل الاسطوانات الى حرف السكين القاطع ثم تعود مع المواد المفتتة الى السطح بين الاسطوانات وجدران الثقب . هذا التيار من الماء يساعد على اكتساح المواد المفتتة كما انه يبرد الآلة القاطعة ويضغط على جوانب الثقب فيحول دون انهيارها . ثم انه يسدُّ مسام الطبقات الحاملة للمياه التي يمرُّ بها الثقب . وهي طريقة تلائم الحفر في المناطق المعروفة التركيب والتي تتكوَّن من طبقات قليلة الصلابة ولكنها لا تصلح في المناطق التي يجري استكشافها نظراً لما قد يفوت الحفار من معلومات تفيده في عمله

﴿ الحفارون Drillers ﴾ وهم فريق الاخصائيين في عملية حفر آبار البترول يحذقون هذه المهنة بالمرانة تحت اشراف حفارين آخرين ومن اهم ميزاتهم ان يكونوا ميكانيكيين مهرة سريعي الخاطر ذوي اقدام لا تعوزهم الحكمة في اجتناب المخاطر وهم صبورون شديدو اليقظة ذوو ملاحظة قوية وهو ما تتطلبهُ طبيعة العمل . فالدقاق يتعمق في باطن الارض الى آلاف الاقدام والحفار الذي يزاول العمل لا يمكنه ان يرى ما يقوم بهِ الدقاق بل يلحظه عن طريق الاستنتاج مما يشعر به من حركة السلك الذي تتدلى منهُ الآلة القاطعة

وقبل البدء في عملية الحفر نفسها يجب اقامة الهيكل (Derrick) الحديدي الذي تعلَّق من ساريته الآلات المختلفة . واذا عرفنا ان بعض هذه الآبار يبلغ عمقها آلاف الاقدام قدَّرنا ما يجب ان يكون عليه هذا الهيكل من المتانة لحمل هذه الآلات الثقيلة من دقاقات ونازحات وانابيب تبطين وما اليها

هذا ولا يخفى ان الماء والبترول هما خصمان لا يتفقان ولذلك يجب عزل احدهما عن الآخر في عملية حفر الآبار وذلك بتبطين البئر بمواسير مختلفة الاقطار متداخلة الواحدة في الاخرى مع عزل الطبقة المائية بالاسمنت

﴿ استنباط زيت البترول من باطن الارض ﴾ عند ما يتمُّ حفر البئر بوصولها الى الطبقة الصخرية الخازنة للبترول إما ان يتدفق السائل منها بحكم الضغط الداخلي الناتج من الغازات المحبوسة فيه بدون حاجة الى عمليات خاصة واما ان لا يكون الضغط الداخلي كافياً لرفعه الى السطح وبذلك تتخذ لرفعه احدى الوسائل الآتية :—

(١) انابيب النزح Bailers

(٢) المضخات الماصة الكابسة

(٣) الهواء او الغازات المضغوطة Air Lift

اما انطلاق البترول من باطن الارض الى فوهة البئر فقد يتخذ شكل نافورات شديدة

وذلك اذا توافر في الطبقة الخازنة للبترول غازات مرتفعة الضغط وتبقى مثل هذه النافورة ناشطة مازال الضغط الغازي عالياً. على انهُ يزول تدريجيًا مع قدم البئر. وقد بلغ انتاج بعض هذه النافورات عشرة الآلاف طن في اليوم الواحد او اكثر. مثل هذه الآبار يتعذر ضبط انتاجها في اول انفجارها فيفقد جانب كبير من بترولها علاوة على ما قد تحدثهُ من الاضرار والتلف. واكبر النافورات حتى الآن نافورة Petrero de Liano المعروفة بالمكسيك وقد انتجت في اول أمرها ما متوسطهُ خمسة وعشرين الف طن في اليوم

مثل هذه النافورات اذا امكن ضبط انتاجها وتوصيل فوهة البئر الى صمامات خاصة فقد يمكن استخراج بترولها تدريجيًا مع بقائها مدة طويلة. على ان انتاجها شأن باقي الآبار يقل تدريجيًا مع قلة ضغط الغازات المحبوسة. وأحياناً يمرُّ البترول الناتج من هذه الآبار المتدفقة في آلات خاصة لفصل الغاز عن السائل قبل تخزين الاخير في خزاناته الخاصة وفي هذه الحالة يستعمل الغاز بمختلف الطرق

اما اذا لم يتدفق البترول تدفقاً طبيعيًا الى السطح فالطريقة الشائعة في رفع البترول هي استعمال المضخات الماصة الكابسة وهذه توضع في باطن البئر وتتصل اسطواناتها بانابيب ثابتة تصل الى السطح يتحرك بداخلها كباس متصل بواسطة سيقان دقيقة من الصلب الى الآلة المحركة

وكثيراً ما يستعمل الغاز او الهواء المضغوط لرفع السائل من باطن الارض الى فوهة البئر وتميز هذه الطريقة النقط الآتية :—

(١) انها عملية اتوماتيكية ومضمونة

(٢) عدم وجود اجزاء قابلة للعطب

(٣) رخص النفقات

(٤) توحيد القوة المحركة وجعلها في نقطة مركزية ومنها تتفرع الأنابيب الموصلة الى مختلف الآبار

بهذه الطريقة يرسل الغاز المضغوط الى باطن الآبار فيؤدي الى صعود السائل الى السطح كما لو كان تحت ضغط غازاته الطبيعية

اما في حالة وجود نسبة كبيرة من الرمال السائبة في الطبقة التي ينبع منها البترول فقد يصبح استعمال المضخات كثير النفقة وفي هذه الحالة تستعمل آلات النزح والآلة منها اسطوانة طويلة ذات صمام بأسفلها يفتح ثم يغلق بحسب اتجاه الضغط الواقع عليهِ. فاذا دلينا هذه الاسطوانة الى باطن البئر فان الصمام ينفتح فيدخل السائل حتى يملأها. عند ذلك يقفل الصمام برفع الآلة الى السطح وهكذا تصل الى السطح مملوءة بالزيت. وعلى كل حال فهذه طريقة كبيرة النفقة وان كان لا بدَّ منها في بعض الاحيان

اسرار السينما الناطقة

تسجيل الاصوات في السينما

طريقة الاسطوانات او الاقراص

﴿ انتقال الصوت ﴾ لا بد لفهم الطريقة المستخدمة لتسجيل الصوت ، على الاسطوانة او على الفلم ذاته ، من البحث في انتقال الصوت

اذا تأملنا طائفة من الاجسام التي تحدث الصوت وجدناها في حالة حركة : فوتر العود يهتز ، بدليل أنهُ اذا وضعت عليهِ ورقة صغيرة على شكل الرقم ٨ قفزت بعيداً عنهُ ، والناقوس في حالة اهتزاز ، والدليل على ذلك انهُ اذا امسك باليد عند حافته ، امتنع صوته فوراً . والشوكة الرنانة اذا طرقت احدثت صوتاً بسبب اهتزازها ، ولاثبات هذا الاهتزاز يقرب طرفها من الاسنان فيشعر الشخص بصدمة عنيفة ناتجة عن اهتزاز الشوكة ، او يغمس طرفها قليلاً في كأس بهِ ماء ، فينتثر الماء رشاشاً دقيقاً ، لا يلبث أن يتلاشى ، وهذا يثبت تحرك الشوكة حركة اهتزازية في اثناء احداثها للصوت

والجسم المحدث للصوت بتحركه يحرك الهواء حركة موجية . ويمكن تشبيه هذه الحركة بحركة الماء اذا القينا فيهِ حجراً . فمن المشاهد أنهُ اذا القي حجر في ماء ساكن ، كماء بحيرة او مستنقع أو حوض كبير ، أحدث الحجر موجات على شكل حلقات مركزها النقطة التي سقط فيها الحجر ، وهذه الحلقات تأخذ في الاتساع والانتشار شيئاً فشيئاً ، وتقل في نفس الوقت شدتها ، حتى تتلاشى تماماً

وهذا عين ما يحدث في انتقال الصوت فالجسم المحدث للصوت يولّد في الهواء موجات تأخذ في الانتشار ، اسوة بالموجات المائية . وهذه الموجات اذا دخلت صيوان الاذن مثلاً حركت طبلة الاذن . ومن ثمَّ تنتقل هذه الحركة في عظيمات وقنوات خاصة حتى تصل الى اعصاب السمع الواصلة الى المخ

﴿ نظرية الفنوغراف ﴾ ومن السهل بعد التمهيد السابق أن تفهم نظرية الفنوغراف . يتألف الفنوغراف من قرص (وهو المسمى اسطوانة) بهِ خطوط متعرجة تجري فيها ابرة من الصلب متصلة بقرص صغير من مادة كالزجاج اسمها الميكا (وقد يصنع القرص من الكربون) وهذا القرص يؤلف غطاء علبة صغيرة اسطوانية الشكل اسمها السماعة متصلة بالبوق

فاذا اديرت الاسطوانة اهتزّت الابرة بسبب اصطدامها بتعاريج خطوطها وترتب على هذا الاهتزاز اهتزاز قرص الميكا . وباهتزاز هذا القرص يهتز الهواء المحصور في السماعة ، وتنقل هذه الاهتزازات أو الموجات عن طريق البوق الذي يكبرها الى الجو فاذن السامع

ولما كانت درجة النغمة (أي حالتها من حيث الحدة والغلظ) تتعلق على عدد ذبذبات (أي اهتزازات) الجسم المحدث لها في الثانية ، فانه اذا أدير الفنوغراف بسرعة ارتفعت النغمة (أو الطبقة في اصطلاح الموسيقيين) . وبالعكس اذا أدير الفنوغراف ببطء كانت النغمة منخفضة (أي الطبقة واطئة) ، وبناء على هذا فمن الممكن أن نجعل صوت عبد الوهاب أعلا طبقة من صوت أم كلثوم بزيادة سرعة الفنوغراف . ولكن هذا لايستحب لان الغناء يكون سريعاً والكلمات تتوالى بشكل غير طبيعي ، ويكون الصوت مصطنعاً . ولسماع صوت المغني على حقيقته يدار الفنوغراف بالسرعة التي اديرت بها آلة الالتقاط ، وهذه السرعة هي ٧٨ دورة في الدقيقة للاسطوانات العادية و ٣٣⅓ دورة في الدقيقة لاسطوانات السينما . وسيأتي شرح السبب في هذا الاختلاف

﴿طريقة عمل الاسطوانات القديمة﴾ كانت الاسطوانات القديمة إسطوانية الشكل (ولذا سميت اسطوانات) والعامة تطلق عليها اسم « الكبايات » وهذه الاسطوانات مصنوعة من مادة شمعية

وفي تعبئتها تستعمل سماعة ذات قرص من الميكا في وسطه إبرة قاطعة من الصلب أو نحوه فتوضع الابرة على أول الاسطوانة ، ويقرب المغني فمه من البوق المتصل بالسماعة ، وتدار الاسطوانة . فاذا غنى المغني اهتز قرص السماعة والابرة ، فحفرت على الاسطوانة خطاً حلزونياً ذا نجوات مختلفة العمق تبعاً لارتفاع الابرة وانخفاضها ، وفي اثناء دوران الاسطوانة تتحرك الابرة من أول الاسطوانة الى آخرها ببطء ، بحيث يؤلف مسير الابرة خطاً حلزونياً يغطي سطح الاسطوانة

ولاستعادة الصوت تستخدم سماعة ذات ابرة غير حادة . فاذا أديرت الاسطوانة اصطدمت الابرة بالحُفر فاهتزت السماعة وتولدت فيها موجات تنتقل في البوق الى الهواء فالاذن . ولما كانت الحُفر مناظرة للموجات الاصلية المحدثة لها ، فان الموجات الجديدة تكون مشابهة لموجات الصوت الاصلي وكذلك يكون صوت المغني وصوت الفنوغراف متشابهين . والاسطوانات القديمة يسهل محوها وتعبئتها في المنازل بالطريقة السالفة

﴿الاسطوانات الحديثة﴾ الاسطوانات الحديثة ، كما هو معلوم ، على هيئة أقراص . وسميت اسطوانات رغماً عن أنها غير اسطوانية الشكل ، اثباتاً للتسمية الاولى . وتمتاز الاسطوانات الحديثة على الاسطوانات القديمة بعدة أمور منها

(١) صغر الفراغ الذي تشغله اذ تشغل العشرون منها فراغاً أقل بكثير مما تشغله عشر من الاسطوانات القديمة

(٢) الاسطوانات الحديثة معبأة من وجهيها . اما القديمة فمعبأة من ظاهرها دون باطنها

(٣) الاسطوانات الحديثة اكثر صلابة وأظهر صوتاً من الاسطوانات القديمة

وتمتاز ابرة الفنوغراف الحديث بانها غير ملتصقة بوسط قرص الميكا مباشرة ، اذ أنها متصلة برافعة طرفها ملتصق بوسط القرص . وهذا القرص مثبت في وضع رأسي ، ونتيجة هذا انهُ اذا اهتز القرص اهتزت الابرة في مستو افقي (أي يميناً ويساراً) . فاذا وضع قرص من الشمع تحت الابرة وادير : أحدثت الابرة عليهِ خطاً منتظماً هو عبارة عن دائرة. أما اذا حركنا الاسطوانة في مستو افقي فان الابرة تحدث فيها خطاً حلزونياً منتظماً

***

هذا اذا كانت الابرة غير مهتزة . فاذا تكلم إنسان أو غنى امام البوق اهتزت الابرة وكان الخط الحلزوني الحادث غير منتظم بل كان متعرجاً تبعاً لاهتزاز الابرة والاسطوانات الشمعية المحضرة بالطريقة السالفة تسمى « امهات » وتنقل عنها الاسطوانات التي تباع للجمهور بواسطة الكهربائية

﴿طبع الاسطوانات بالكهربائية﴾ لما كان الشمع غير موصل للكهربائية ، فان الامهات تطلى بمسحوق الجرافيت . والجرافيت هو المادة التي تصنع منها الاقلام المعروفة خطأً بأقلام «الرصاص» ومن مميزاته انه املس موصل للكهربائية . ثم توضع الامهات بعد طليها بالجرافيت في حوض الطلاء الكهربائي حتى تغطى تماماً بطبقة سميكة من النحاس او الالومنيوم وبذا يحصل على قرص من النحاس يعرف بالقالب يستخدم في صنع الاسطوانات التي تباع للجمهور بواسطة الضغط وفي الغالب تحتفظ المصانع بهذا القالب لعمل قوالب اخرى منه ، لان هذه القوالب تتلف اثناء عملية ضغط الاسطوانات ، وتدعو الحاجة الى عمل قوالب اخرى. فبدلاً من الاحتفاظ بالامهات (وهي سريعة التلف لكونها من الشمع) يحتفظون بالقالب الاول ، ويصنعون منه قوالب اخرى بالطلاء الكهربائي كما سبق . والاسطوانات القديمة تتركب من :

حمض دهنيك (ستياريك)	١٢ رطلاً
صودا كاوية	١ رطل
اكسيد الومنيوم	١ اوقية
شمع البرافين	٢ رطل

وهذا التركيب لايختلف كثيراً عن تركيب الامهات في الاسطوانات الحديثة اما الاسطوانات الحديثة ذاتها فتتركب من الابونيت وهي مادة تتركب من الكوتشوك والكبريت بالنسبة الآتية

كوتشوك	١٠ اجزاء
كبريت	٣ اجزاء
شمع	قليل
زيت بزر الكتان	قليل

والابونيت سمي بهذا الاسم للونه الاسود الذي يشبه لون الابنوس . وهو شديد الصلابة ولا ادل على صلابته من ان الاسطوانة الواحدة المصنوعة منه تبلي مئات من الابر الفولاذية . وقد قدر ان ضغط السماعة على الاسطوانة بواسطة الابرة يعادل طنّين على كل بوصة مربعة وهذا ضغط عظيم يشهد للابونيت بالصلابة والمتانة

ويستعان على عمل الاسطوانات من الابونيت بالتسخين والضغط بمكابس قوية ثبتت بها القوالب النحاسية

وقطر الاسطوانة المعتادة يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ سنتمتراً ، اما الاسطوانات المستعملة في السينما فهي اكبر حجماً ، ومعبأة من وجه واحد فقط لتسهيل ترتيبها واستعمالها

﴿ التعبئة بالكهربائية ﴾ في الطريقة الحديثة للتعبئة لا يكون المغني مضطراً الى الغناء في نفس الحجرة التي بها الآلة اللاقطة،على مقربةمن البوق ، بل تكون هذه الآلة في حجرة خاصة بعيدة عن الضوضاء ، ويكون المغني في حجرة اخرى تتوافر فيها الشروط الصوتية الملائمة للتعبئة ، مثل عدم انعكاس الصوت والرنين . ويتم الاتصال بين المغني وآلة الالتقاط بواسطة الميكرفون

والميكرفون جهاز يستخدم لنقل الصوت بالكهربائية (وبعبارة ادق:لتحويل الموجات الصوتية الى تيارات كهربائية) ومن احد اشكاله الشائعة بوق التلفون الذي يوجّه فيه الكلام

والميكرفون التليفوني بسيط التركيب ، اذ يتألف من حبيبات من الكربون (الفحم) يمر فيها تيار كهربائي من بطارية ، وهذا التيار واصل الى السماعة التي يضعها المخاطب على اذنه فاذا تكلم المتكلم في البوق تضاغطت الحبيبات او تراخت بسبب اهتزاز قرص رقيق ملاصق لها . ونتيجة تضاغطها مرور تيار قوي الى السماعة ، ونتيجة تراخيها عرقلة سير التيار (لجودة الاتصال في الحالة الاولى ورداءته في الحالة الثانية) . ويترتب على تغير شدة التيار تغير القوة المغناطيسية لساق مغناطيسي صغير في السماعة ، وهذا يؤدي الى تذبذب قرص رقيق من الحديدامام المغناطيس، ذبذبات مناظرة لذبذبات قرص الميكروفون، فيحدث صوت يناظر الصوت الاصلي

وتفسير عمل التليفون هذا هو عين تفسير التعبئة الكهربائية : فصوت المغني يحدث تغييراً في شدة التيار الكهربائي، وهذا التيار المتغير يؤثر في سماعة خاصة للفنوغراف اللاقط تشبه في

التركيب سماعة التلفون ولكن قرصها متصل بابرة قاطعة ، بحيث انهُ اذا تذبذب قرص السماعة اهتزت الابرة فأحدثت خطاً متعرجاً على سطح الاسطوانة الدائرة ، ولما كانت الاسطوانة ذاتها تتحرك ، فضلاً عن دورانها، في مستوًى افقي ، جهة اليمين او اليسار مثلاً ، فان الخط الحادث يكون خطاً حلزونياً متعرجاً

﴿ نظام الدوران ﴾ يلاحظ ان الابرة في الاسطوانات المعتادة تبدأ من المحيط الخارجي مقتربة من مركز الاسطوانة شيئاً فشيئاً

وهذا النظام خطأ من الوجهة الفنية، لاسباب سيأتي شرحها، ولكنَّ هناك داعياً يحتمهُ وهو ان الفنوغراف عند ما يشرع في الدوران يكون الزنبلك ملتفاً تمام الالتفاف وقوته كبيرة ، ولكنهُ لا يلبث أن ينبسط شيئاً فشيئاً فتضعف قوتهُ ، ولهذا السبب تبدأ الابرة من الخارج لان تأثير ثقلها على الاسطوانة في هذا الوضع يكون أكبر ما يمكن، ويأخذ تأثير هذا الثقل في الضعف حتى اذا قاربت محور الاسطوانة كان تأثيرها ضعيفاً وفي هذه الحالة لا يعجز الزنبلك المرتخي عن ادارتها .وهذه نظرية ثابتة في الميكانيكا ،ومؤداها ان تأثير القوة يزداد تبعاً لازدياد بعدها عن المحور الذي يتحرك حولهُ الجسم ، فانت مثلاً تستطيع اغلاق باب ثقيل باصبع واحدة ، اذا وضعتها قرب الحافة التي بها القفل . أما اذا حاولت اغلاقه بدفعهِ عند نقطة قريبة من المفصل فانهُ ليعجزك اغلاقه ولو دفعتهُ بكلتا يديك

ونظن انهُ اذا انتشرت الفنوغرافات التي تدار بالكهرباء عملت الاسطوانات بحيث تبدأ الابرة من الداخل الى الخارج

وهذا هو الحال في اسطوانات السينما ، فانها تدور بالشكل السالف،أي ان الابرة تتحرك من الداخل حتى تبلغ محيطها الخارجي . ولما كانت فنوغرافات السينما تدار كلها بالكهرباء ، فلا خوف اذن من ضعف المحرك وبطء السرعة

أما السبب الذي من أجله يفضل ان تبدأ الابرة من الداخل فهو هذا : بالنظر لصلابة الاسطوانة تبلى الابرة شيئاً فشيئاً حتى اذا مرَّت على الوجهين كانت غير صالحة للاستعمال . ولما كان المحيط الخارجي اكبر من المحيط الداخلي ،كانت تعاريجهُ كبيرة متسعة . أما تعاريج الاجزاء الداخلية فهي تكون صغيرة متقاربة دقيقة

ولا يصلح لهذه التعاريج الدقيقة غير سن رفيع جداً ؛ ولهذا يتحتم استعمال الابرة قبل ان يبلى سنها في هذه الاجزاء الداخلية . اما في الطريقة الشائعة وهي البدء في الدوران من الخارج فان الابرة عند ما تبلغ التعاريج الداخلية الدقيقة يكون سنها قد تآكل فلا يندمج في قناة الصوت تماماً . ولهذا السبب يشاهد تلف الاجزاء الاخيرة من الاسطوانات

﴿ سرعة الدوران ﴾ من المشاق التي لا يستهان بها في السينما الناطقة ضبط سير الاسطوانة

مع الفلم لان عدم الدقة في ذلك تؤدي الى نتائج سخيفة أظهرها ان تسمع الصوت بينما يكون فم المتكلم مغلقاً ، وأن يفتح الممثل فمه دون أن تسمع شيئاً . وهذا الخطأ لاحظه كثيرون في الافلام المصرية الناطقة (رغماً عن تسجيل الصوت على الفلم) ولكن هذا الخطأ ناتج عن جهل العامل الذي يدير آلة العرض، كما سنبينه عند الكلام على تسجيل الصوت على الفلم

وتذليلاً لصعوبة ضبط الفلم والاسطوانة تعمل اسطوانة لكل فصل (٣٠٠ متر) بحيث يضبطان معاً في البدء ثم يسيران معاً (اذ يحركهما محرك كهربائي واحد) حتى نهاية الفصل . ويكون الفصل التالي واسطوانته في الآلة الثانية ، حتى اذا انتهى الفصل الاول ، عرض الفصل الثاني بدون توقف

وسرعة الفلم الناطق ٢٤ اطار (أو صورة) في الثانية ، ومعنى هذا أنه في الدقيقة الواحدة يعرض ٢٧ متراً من الفلم . وبمقتضى هذا الحساب يستغرق الفصل الواحد نحو ١١ دقيقة . ولما كان وجه الاسطوانة المعتادة يستغرق نحو دقيقتين ونصف فمن الواضح انهُ يتحتم عمل اسطوانات كبيرة جداً حتى يستغرق عرض الوجه منها ١١ دقيقة . وحيث ان الاسطوانات اذا كانت كبيرة جداً كانت أغلا ثمناً واكثر عرضة للكسر فقد عملت للسينما اسطوانات اكبر قليلاً من الاسطوانات العادية ولكنها تدور ببطء ، إذ ان سرعة الاسطوانة العادية ٧٨ دورة في الدقيقة وسرعة اسطوانة السينما ⅓ ٣٣ دورة في الدقيقة

وفي الافلام ذات الاسطوانات توضع علامة في أول الفصل وعلامة عند مبدأ الاسطوانة (من الداخل طبعاً) وعند العرض توضع العلامة التي بالشريط في فتحة الآلة العارضة أمام العدسة ، وتوضع السماعة فوق علامة الاسطوانة ، ويدار المحرك الكهربائي فيدير آلة العرض والفنوغراف وبعد برهة وجيزة تظهر الصوت ، ويسمع الصوت . ويلاحظ أنه اذا قطع جزء من الفلم وضعت بدله قطعة من شريط أسود مثله في الطول حتى لا يختل توافق الصور والصوت (Synchronization)

﴿ انطاق الافلام الصامتة ﴾ عند ما انتشرت السينما الناطقة رأت بعض الشركات ادخال الصوت على أفلام صامتة سبق اخراجها وانفق في سبيلها آلاف الجنيهات بدلاً من اعادة تمثيلها ناطقة

وطريقة ذلك ان يعرض الفلم الصامت أمام الممثلين (وليس من الضروري أن يكونوا نفس الاشخاص الذين ظهروا في الفلم) في حجرة ظلماء وأمامهم الميكروفون ، فيتكلمون كلاماً محفوظاً يلائم حركات الممثلين على الستار ، خصوصاً حركات الشفاه . وهذا العمل يتطلب بطبيعته تمريناً طويلاً شاقاً . ومن أهم شروط النجاح ضبط سير آلة التقاط الصوت مع سير آلة عرض الصور

وهناك صعوبات كأداء ، يكاد يكون من المستحيل التغلب عليها ، نذكر منها

(١) الفلم الناطق سرعتهُ ٢٤ صورة في الثانية ، والفلم الصامت سرعته ١٦ صورة في الثانية . فاذا أدير الفلم الذي أخذ في المبدأ صامتاً بسرعة ٢٤ كانت حركات الممثلين وشفاههم سريعة بحيث أنه اذا أخذ الصوت مطابقاً للحركات (وهذا أمر جوهري) كانت لهجته سريعة سرعة غير طبيعية . ويمكن تحاشي هذه العقبة اذا كان في الامكان ادارة الآلة العارضة عند اضافة الصوت وعند عرض الفلم على الجمهور بسرعة ١٦ صورة في الثانية (أو إعادة تصوير الفلم صامتاً بسرعة ٢٤ صورة)

(٢) عند أخذ الفلم صامتاً لم يكن من المهم تخاطب الممثلين بالالفاظ المدونة في السناريو (الرواية السينمائية) ، فمن الصعوبة بمكان أن تعرف بعد ذلك الالفاظ التي قيلت أثناء تصوير الفلم صامتاً لاعادتها بنصها عند اضافة الصوت . ويتغلب على هذه العقبة بأن يحتم على الممثلين التخاطب بالالفاظ الواردة في السناريو بنصها (هذا اذا عمل الفلم صامتاً بنية اضافة الصوت اليه فيما بعد ، وهذه الطريقة متبعة أحياناً)

(٣) اذا سلمنا جدلاً ان الالفاظ التي قيلت في أثناء التمثيل عرفت وان الممثل حفظها أجود حفظ ، فمن المحقق أن يتعذر عليه متابعة حركات الشخص الذي يبدو امامه على الستار بحيث يطابق الكلام حركة الشفتين . ومما سبق يتضح ان اغلب الصعوبات السابقة من السهل التغلب عليها اذا راعى المخرج اثناء تصوير الفيلم صامتاً انهُ قد تدعو الضرورة فيما بعد الى اضافة الصوت اليه

***

ويلاحظ ان لدى الشركات السينمائية مجموعات من الاسطوانات والافلام المحتوية على الاصوات التي يحتمل الاحتياج اليها كنباح الكلاب وصفير القطارات وزئير الوحوش وتحطيم الاواني الخ . وهذه الاسطوانات والافلام تنقل الاصوات عنها الى الافلام الموجبة ذات الصور ، التي توزع للعرض في دور السينما . وقد تعمل من الاسطوانات اسطوانات اخرى لتدار في دور السينما . مع الافلام العامة فتحيلها صوتية (سونور)

***

ولا تظن ان نباح الكلب او خرير الماء او حفيف الشجر الذي تسمعه في السينما صادر حقيقة عن الكلب والماء والشجر بل ان هذه الاصوات محدثة بوسائل ميكانيكية وأدوات مبتكرة كطرق لوح من النحاس أو دحرجة كرات من الزجاج أو نفخ تيار من الهواء . بيد ان بعض الشركات الغنية تتكبد عناءً كبيراً وتنفق أموالاً باهظة في سبيل تسجيل الاصوات الطبيعية للوحوش الكاسرة والافاعي القاتلة

الاسكندرية — محمود خليل راشد

نبذة في تاريخ رسم المصاحف

كانت وزارة المعارف قد عهدت الى المغفور له حفني بك ناصف بتصحيح الاغلاط الاملائية التي وقعت في رسم المصحف بتكرار طبعه ، فقام بمراجعة المصحف وابتدع قواعد خاصة بالاملاء الذي كتب به في خلافة عثمان بن عفان . وقد صحح وفقاً لهذه القواعد نحو مائتي غلطة املائية ، وطبع المصحف الجديد فجاء خالياً من الخطإ

وقد وضع حفني بك كتاباً في قواعد رسم المصحف . ولكنه لم يطبع بعد ، وكتب له مقدمة شائقة سرد فيها تاريخ رسم المصاحف فرأينا ان ننشرها

جاء في حديث عائشة وفاطمة رضي الله عنهما ان جبريل عليه السلام كان يعارض النبيّ (يقرأ والآخر يقابل عليه) صلى الله عليه وسلم القرآن في كل سنة في شهر رمضان مرة واحدة ، وفي السنة الاخيرة من حياته عارضه مرتين ، فأحسّ النبي صلى الله عليه وسلم بدنو اجله

وقد كتب القرآن بعد العرضة الاخيرة زيدُ بن ثابت وأُبيُّ بن كعب وأبو الدرداء ومعاذ وغيرهم من اكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ولكن الوحي لم ينقطع حتى قبض عليه الصلاة والسلام ، فألحق الكاتبون ما نزل أخيراً بما عندهم

ولما ولي أبو بكر الخلافة ارتدّ من ارتدّ من العرب ، وادعى مسيلمة النبوةَ في اليمامة وتبعه بنو حنيفة ، فأرسل أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد لقتالهم مع عصابة من المسلمين فاستحرّ القتل في القراء ومات منهم ٧٠٠ رجل ، فخشي عمر رضي الله عنه أن يستحرّ القتال في المواطن كلها ويذهب بالباقين من القراء ، فيذهب بذهابهم قرآن كثير، فأشار على أبي بكر ان يأمر بجمع القرآن كله في صحف لتكون مرجعاً للمسلمين

فأرسل ابو بكر لزيد بن ثابت ، وقال له : إنك رجل شاب عاقل لا نتّهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبّع القرآن لتجمعه . قال زيد : فجعلت اتتبّع القرآن من صدور الرجال ومن الرقاع والاضلاع ومن العسُب (قحوف السعف) حتى جمعته . قال ففقدت آية كنت أسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أجدها عند أحد فوجدتها عند رجل من الانصار : وهي : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » فألحقتها في سورتها ، ثم فقدت آية اخرى فاستعرضت المهاجرين والانصار أسألهم ، فوجدتها عند خزيمة بن ثابت : وهي : «لقد جاءكم رسول» الى آخر السورة ، فألحقتها في آخر السورة ، ثم عرضتهُ على نفسي عرضة ثالثة فلم أجد فيه شيئاً.

ومعنى أنه لم يجد الآية أنه لم يجدها عنده مكتوبة فيما سبق أن كتبه في حياة النبي (ص) مع كونه يحفظها ، « ومعنى وجدها عند الانصاري » أنهُ وجدها مكتوبة لان زيداً كان يهمه أن يطلع على الكتابة لانه كان فيها علائم مخصوصة تدل على أوجه القراءة التي اذن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرأ بها وفود القبائل من العرب من فك وادغام وإمالة وتفخيم وإشمام ومد وقصر وتغليظ وترقيق ، قال عليه الصلاة والسلام : ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه . قيل انها لغات قريش وكنانة وأسد وهذيل وبني تميم وضبة وقيس ، وهم الذين انتهت اليهم الفصاحة وسلمت لغاتهم من الدخل . وبذلك تم جمع القرآن كله في الصحف مشتملاً على الاحرف السبعة . وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر حتى مات ، ثم كانت عند عمر حتى مات ، ثم كانت عند ابنته حفصة زوج النبي

وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قدم عليه حُذيفة بن اليمان فزعاً ، وكان قد سار مع جيش المسلمين للقتال على فرج أرمينية ، وقال : يا أمير المؤمنين إني سمعت الناس اختلفوا في القراءة حتى والله إني لأخشى أن يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف ، فما كنت صانعاً — إذا قيل هذه قراءة فلان وقراءة فلان كما صنع أهل الكتاب — فاصنعه الآن. وكان قد بلغ الخليفة عثمان ان المسلمين في المسجد يختلفون في القراءة ويقول أحدهم قراءتي خير من قراءتك واني رويت قراءتي عن فلان عن النبي (ص) ويتمادون الى حد المقاتلة ولا يسلّم أحدهم بقراءة الآخر ، فجمع عثمان الناس وكانوا يومئذٍ اثنى عشر الفاً وقال لهم : بلغني أن بعضهم يقول قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً . قالوا فما ترى؟ قال ، ارى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا يكون فيه فرقة واختلاف . قالوا فنعم ما رأيت

فأرسل من فوره الى حفصة ان ارسلي الينا بالصحف فننسخها في المصاحف ثم نردّها اليك . فأرسلت اليه الصحف . وأرسل هو الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاصي وعبدالله ابن الزبير وعبد الرحمن بن هشام ، وقال لهم انسخوا هذه الصحف في مصحف واحد ، وقال للنفر القرشيين : إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه على لسان قريش فانما نزل بلسانهم فصدعوا بأمر الخليفة واخرجوا للناس اربعة مصاحف مكتوبة كلها بخط زيد واملاء القرشيين وليس فيها أي علامة من العلامات التي كانت في الصحف قبل ، لتدلّ على الاحرف السبعة ، فأرسل منها مصحفاً الى الكوفة وآخر الى البصرة وآخر الى الشام وأمسك عند نفسه واحداً ، وأمر بتحريق كل الصحف والمصاحف التي كانت من قبل . وقد أقر على ذلك الصحابةُ رضوان الله عليهم ، حتى قال عليٌّ كرم الله وجهه : « لو وليتُ لفعلتُ في المصحف ، الذي فعل عثمان »

وقد امر بعد ذلك بكتابة مصحف لأهل المدينة وآخر لاهل مكة وآخر لاهل البحرين وآخر لاهل اليمن

وقد نقل الجعبري عن أبي علي ، أن عثمان أمر زيد بن ثابت ان يُقرىء بالمدني ، وبعث عبدالله بن السائب مع المكي والمغيرة بن شهاب مع الشامي وأبا عبدالرحمن السلمي مع الكوفي وعامر بن عبد قيس مع البصري ،ولم يعرف من بعث مع اليمني ولا البحراني ، ولهذا انحصر الائمة الخمسة في السبعة الأمصار

قال الجعبري: والاعتماد في نقل القرآن على الحفّاظ. ولهذا انفذهم الى اقطار الاسلام للتعليم، وجعل هذه المصاحف اصولاً ثواني حرصاً على الانقاذ ، ومن ثمّ ارسل الى كل اقليم المصحف الموافق لقراءة قارئه في الاكثر

ويفهم من كلام الجعبري ان بين المصاحف الستة شيئاً من الاختلاف في الرسم وهو صحيح . ولم يكن غرض عثمان رضي الله عنهُ منع الناس من قراءة القراءات المروية بالتواتر وحملهم على الاقتصار على لغة قريش وتضييق ما وسعهُ الله على عباده من الاذن لنبيّهِ بأن يقرئهم على الاحرف السبعة تسهيلاً لهم ورحمة بهم،بل غرضهُ الضرب على أيدي من يتشبث بما وصل اليهِ ويحجر على الناس القراءة بما وصل اليهم ويقول قراءتي صواب وقراءة غيري خطأ ووضع حد ثابت لقبول الروايات ، فكل رواية لا تنطبق على مرسوم المصاحف العثمانية يضرب بها عرض الحائط ولا يجوز القراءة بها ، ولذلك قال ابو محمد مكي : لقد سقط العمل بالقراءات التي تخالف خط المصحف فكأنها منسوخة بالاجماع على خط مصاحف عثمان . اه .

ولو كان عثمان أمر باتباع حرف واحد لما جاز لنا ان نخالفه ، فان عرفنا عينه أخذنا بهِ وان لم نعرفهُ اقتضت قاعدة اجتماع الحظر والاباحة عدم جواز القراءة بأي حرف كان إذ لا حرف الاّ وهو محتمل أن يكون غير مراده ، فهو محتمل للمنع

وما ظهرت هذه المصاحف الاّ وقد تقاطر الناس عليها لنسخها كما هي من غير تغيير في شيء حتى الحروف المخالفة لاصول الرسم القياسي

وكانت الكتابة في ذلك العصر خلواً من نقط الاعجام ومن الشكل بأي طريقة كانت ، فكانت مصاحف عثمان كذلك ، وكان المرجع في القراءة الى المقرئين الذين انفذوا الى الامصار ومن تلقى عنهم

واول من وضع الشكل أبو الاسود الدؤلي بطلب زياد بن سمية عامل معاوية ، فوضعهُ نقطاً حمراً فوق الحروف وتحتها وعلى يمينها

واول من وضع نقط الاعجام نصر بن عاصم الليثي مستعيناً باستاذه يحيى بن يعمر العدواني بطلب الحجاج عامل عبد الملك بن مروان

واول من غير النقط الحمر الى الحروف الصغيرة الخليل بن احمد الفراهيدي بعد انقراض دولة الامويين

ومن هذا تعلم أن مصاحف عثمان كانت صالحة لان تقرأ على أوجه شتى حسب ما يحتمله رسمها ، فكانت الرواية هي المخصصة لبعض هذه الاوجه دون بعض . وبسبب تعدد الروايات تعددت القراءات

وأجمع المسلمون من الصحابة والتابعين وعلماء الامصار على ان كل رواية متواترة صحيحة السند ، يُقرأ بها متى كان لها وجه في العربية وكان رسم اي مصحف من المصاحف العثمانية يحتملها

ومن هذا يعلم ان المحافظة على رسوم المصاحف العثمانية امر واجب لمعرفة القراءة المقبولة والمردودة لان هذه الرسوم صارت اصلاً من اصول القراءة ودعامة من دعائم الدين الاسلامي

وفي هذه المحافظة ايضاً احتياط شديد لبقاء القرآن على اصله لفظاً وكتابة فلا يفتح فيه باب الاستحسان لانهُ اذا فتح الاستحسان في الرسم فقد لايلبث ان يفتح في اللفظ، ويتطرق اليه التغيير والتبديل ، فسدوا هذا الباب بابقاء كل شيء على اصله حتى ما هو مخالف لمألوف الرسم المعتاد . وقد سئل مالك هل يكتب المصحف على ما احدثه الناس من الهجاء فقال لا. إلاَّ على الكِتبة الاولى

وما ذهب اليه مالك ، ذهب اليه جميع الأئمة المجتهدين وانعقد عليه اجماع علماء المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، واصبح من الامور التي فرغ منها وانتهى الامر فيها

ولا نعلم ان احداً من العلماء تحكك في هذا الامر الا ابن خلدون في القرن الثامن وبعض رجال الازهر في القرن الرابع عشر . وليس احد منهما اماماً مجتهداً . والحمد لله

قال الاول ما معناه ان الصحابة لم تكن استحكمت فيهم اجادة صناعة الخط فأخطئوا في مواضع من رسم القرآن وتابعهم على هذا الخطأ مَن بعدهم تبركاً بأصحاب رسول الله وتكلفوا لعملهم هذا تعليلات وحكماً لم تخطر في بال الصحابة

وقال الآخرون : لو كتبنا القرآن بخطنا المستعمل الآن دون تلك المخالفة خرجنا من العهدة وقمنا بالامر احسن القيام كمن كلف شيئاً ففعل خيراً منه، لانك قد علمت ان الخط الحاضر احسن مما كان عليه من الطريقة القديمة التي كانت في زمن الصحابة . اه

وقد غفلوا جميعاً عن السببين الجوهريين اللذين لاجلهما انعقد الاجماع ، وهما ان الرسم القديم واجب المعرفة لقبول ما يقبل من روايات القرآن ورفض ما يرفض منها وسدّ باب الاستحسان مبالغة في التحفظ على القرآن ، فهم قد حفظوا شيئاً وغابت عنهم اشياء

ولا يبعد اذا سلم كلام هؤلاء العلماء ان يذهب غيرهم الى استحسان كتب المصاحف بالحروف اللاتينية وآخرون الى اختصاره وآخرون الى ارجاعه للغة العامية ليعم نفعه الى غير ذلك من الرقاعات والمخرقة . وماذا بعد الحق الاّ الضلال ؟

تجار الحرب

تجارة الاسلحة وموقف الحكومات منها

خطرها على السلام العام

من نحو عشرين سنة شرع في حملة عامة غرضها تقييد صناعة الاسلحة واخضاعها للسيطرة الاجتماعية . وكان من زعماء تلك الحملة المستر فيليب سنودن (اللورد سنودن الآن وزير مالية انكلترا في وزارتي العمال والوزارة القومية الى حين عقد اتفاقات أوتوى الجمركية) فوقف في مجلس النواب البريطاني اربعة اشهر قبل نشوب الحرب الكبرى وأبان الصلة الوثيقة بين صناعة الاسلحة في بريطانيا ورجال الحكومة البريطانية أنفسهم . قال : « يتعذر ان أرمي حجراً على المقاعد المقابلة من دون ان اصيب عضواً من اعضاء المجلس لا يملك اسهماً في احد هذه البيوتات » . ثم ذكر اسماء طائفة من اعضاء المجلس قال ان لهم مصلحة مالية في مصانع الاسلحة واذن فلهم مصلحة خاصة في نشوب الحروب . ثم وضع كاتب يدعي المستر بريس (Perris) كتاباً فصَّل فيهِ بعض نواح من هذه المسألة وجعل عنوانهُ « تجار الحرب » . ونشرت « لجنة اتحاد السيطرة الديمقراطية » ما وصلت اليهِ من النتائج في مجلة عنوانهُ «صناعة الحرب الدولية»، وفي سنة ١٩١٥ اتخذت« عصبة النساء الدولية للسلم والحرية»القرار الآتي:

« ان هذا المؤتمر النسائي الدولي يرى في الارباح التي تجنى من مصانع الاسلحة الكبيرة عائقاً كبيراً يحول دون الغاء الحرب »

فلما كانت سنة ١٩١٩ واجتمع ممثلو الحلفاء في باريس لوضع معاهدة الصلح ، كانت الحركة لمقاومة تجارة الاسلحة الدولية قد بلغت من القوة مرتبة بعيدة فأرغم أعضاء مؤتمر الصلح أن يدخلوا في دستور جمعية الامم بنداً اعربوا فيهِ عن ترقبهم لليوم الذي تصبح تجارة الاسلحة خاضعة لرقابة دولية . ووفقاً لهذا البند تشكلت لجنة في جمعية الامم سنة١٩٢١للبحث في أعمال العصبة التي تتجر بالاسلحة. ويسوءنا ان اللجنة لم تنشر الحقائق التي كشفتها ، وانما يكفي الآن انها نشرت النتائج التي وصلت اليها . وهي :

١ — ان شركات الاسلحة كانت فعالة في خلق اشاعات الحرب والتهويل بها وفي اقناع البلاد التي انشئت فيها باتخاذ خطط حربية لكي تفضي هذه الخطط الى زيادة التسلح . ٢ — ان اصحاب شركات الاسلحة حاولوا ان يرشوا موظفي الحكومات في البلدان التي فيها الشركات وفي البلدان الاخرى . ٣ — ان شركات الاسلحة قد وزعت بيانات خاطئة عن حالة التسلح الحربي والبحري في بلدان مختلفة لكي تحمل الحكومات على التنافس فتغرق في الانفاق على التسلح . ٤ — ان شركات الاسلحة حاولت أن تؤثر في الرأي العام بالسيطرة على الصحف في مختلف البلدان .

٥ — ان شركات الاسلحة في البلدان المختلفة قد اتحدت في شبه عصبة همها استثارة كل امة ضد الاخرى في المسابقة الى التسلح

ما هي الحالة الآن؟

لا تزال شركات الاسلحة تهول باشاعات الحروب ، وتحاول الضغط على الحكومات ، والتأثير في الرأي العام بغية أن تزيد المبيع من بضاعتها في السوق الدولية ، ولا يزال لها ممثلون يحاولون باساليب المداورة والدعوة والاتصال الشخصي منع التقدم في أي سعي لتخفيض التسليح ولا تزال هذه الشركات تبعث بأسلحتها الى البلدان التي تطلبها لا ترهب الحكومات ولا ترجوها. فالذخائر الحربية كانت تتدفق على بوليفيا وبراجواي — في اميركا الجنوبية — زمناً قبل نشوب الحرب بينهما. وبلاد الارجنتين ما زالت تشتري الاسلحة من الولايات المتحدة الاميركية بمال قرضين سريين عقدا في الولايات المتحدة الاميركية بين سنتي (١٩٢٣ — ١٩٢٦). وفي سنة ١٩٣٠ كان ٩٩ ./. من الاسلحة التي تصدرها شركات الاسلحة اليابانية يصدر الى الصين فاستعملت الجيوش الصينية جانباً من هذه الذخائر في قتال اليابانيين أنفسهم

ولم تكن بيوتات صنع الاسلحة الاوربية أقل نشاطاً من بيوتات أميركا واليابان . فبعض معامل فرنسا كان يصدر أسلحة لاعداء فرنسا وأحلافها على السواء . وليس ثمة ما يدل على أن حكومة بعينها تريد أن تحل هذه العصبة الدولية الشريرة . فقد قرأنا في مجلة « الامة » الاميركية — وهي من أصدق المجلات وأشدها حرية — ان السرجون سيمون والمستر نفيل تشمبرلين — وهما وزير خارجية انكلترا ووزير ماليتها — يملكان أسهماً في شركة انكليزية مشهورة تصنع مفرقعات في عداد ما تصنعه من المستحضرات الكيمائية

وقد حاولت الجمعيات المؤيدة للسلام أن تبحث عن الحقائق المستترة في هذه التجارة . فلقيت مصاعب جمة تعترض سبيلها . حتى جمعية الامم نفسها لم تفز الا بنصيب يسير من النجاح في محاولتها معرفة حالة تجارة الاسلحة على صحتها . ومن اربع سنوات انشئت لجنة في جمعية الامم لوضع اتفاق تفرض بموجبه رقابة دولية على صناعة الاسلحة . فتناقشت اللجنة في اول اجتماعها في موضوع « هل يصح أن يطلب من كل حكومة أن تنشر منشوراً دورياً عن صناعة الاسلحة في بلادها » . فاعترض على ذلك مندوب بريطانيا . وقال :

« أولاً : إن حكومته لا تملك هذه الاخبار . ثانياً : ان اصحاب المصانع وحدهم هم الذين يستطيعون أن ينشروا هذه الحقائق وهم ولا شك يرفضون . ثالثاً : لا سلطة لنا لارغامهم على ذلك . رابعاً : ثمة حكومات قليلة جداً تجرؤ على وضع تشريع يرغمهم على ذلك »

ومنذ ثلاث سنوات قامت سيدة سويدية عالية الهمة تبغي أن تجمع لجمعيات السلام النسائية ما خفي من أنباء شركات الاسلحة وتجارتها الدولية . فراجعت الاحصاءات المطبوعة والمحفوظة في جمعية الامم والحكومات المختلفة وخاطبت موظفي الحكومات ودعاة السلم وكل

من يهمهُ الموضوع . ثم وضعت تقريرها ، فاذا هي تقول فيه : إن الحقائق المنطوية على خطر لا تظهر قط في تقرير رسمي ، فكأن هذه الشركات ، عصابات لا تبيح أسرارها لاحد

ثم ان ميزانيات بعض البلدان تذكر في باب الانفاق على التسلح رقماً أقل من الرقم الذي تنفقه حقيقة . وفي بلدان اخرى يجد الباحث في المسألة لفاً ومداورةً في مسألة الصادر والوارد يجعل التحقق من قيمة الاسلحة التي استوردتها البلاد متعذراً

خذ مثلاً على ذلك بلاد السويد . فوثائقها تشير الى انها صدرت الى بلاد النرويج أسلحة قيمتها ٤٩١٠٠٠ كرون . في حين ان بلاد النرويج لم تستورد في السنة نفسها — بحسب وثائقها العمومية — أسلحة من بلاد السويد باكثر من ١٣٩٣٠٠ كرون

أو خذ مثلاً آخر ، يؤخذ من احصاءات اميركا سنة ١٩٢٥ أن ٣٢٫٢ في المائة من كل ما صدر من اميركا من البارود أرسل الى بولونيا ، في حين أنك لا تجد في أية وثيقة رسمية من وثائق بولونيا ما يشير الى أنها ابتاعت باروداً ما من اميركا في تلك السنة . وثمة ما يحمل هذه السيدة السويدية على الاعتقاد بأن جانباً كبيراً من الاسلحة يدخل البلاد التي تستوردها موسوماً بسمة « ألعاب نارية وصواريخ » أو « بيانوات » أو « قطع آلات » أو ما شاكل

ومن أغرب ما اكتشفته هذه السيدة ان معاهدة فرساي في مادتها ١٧٠ تمنع المانيا من تصدير الاسلحة او الذخائر الحربية او مواد الحرب أيا كانت وان بعض دول الحلفاء الذين فرضوا هذه المادة على المانيا « هم نفسهم من زبائنها » فبريطانيا وايطاليا والباجيك وحتى فرنسا نفسها ابتاعت ذخائر من عدوتهم السابقة . والمادة المذكورة في معاهدة فرساي تمنع كذلك المانيا من استيراد الاسلحة من الخارج ولكنها لم تمنع شركة مترو فكرز ارمسترنغ — التي حوكم رجالها حديثاً في روسيا — من الاعلان عن احدث طراز من مدافعها الضخمة في مجلة رسمية بالمانيا

واغرب من ذلك ان البلدان التي تحيط بالمحيط الهادىء قد زادت ما ابتاعته من الاسلحة وفي مقدمتها الصين — وهذا مفهوم للحرب الاهلية فيها وحربها الاخيرة مع اليابان — وكندا واستراليا وجزائر الهند الشرقية التابعة لهولندا . والولايات المتحدة وحدها لم تستورد اسلحة من الخارج ولكن يجب ان نذكر ان الولايات المتحدة تكفي نفسها بنفسها من هذه الناحية

في طليعة البلدان المتجرة بالاسلحة بريطانيا ونصيبها من الاسلحة المصدرة في خلال سنة يبلغ نحو ٣٥ في المائة من المجموع وقد اعلن وزير خارجيتها السير جون سيمون انه في اعطاء الرخص لتصدير الاسلحة لا تنظر الحكومة البريطانية الا الى اثر هذا التصدير في علاقاتها الودية مع الامم التي تصدر الاسلحة اليها . اي ان مصانع الاسلحة البريطانية تستطيع ان تصدر الاسلحة الى اي بلاد ما زال هذا التصدير لا يتعارض والسياسة الخارجية البريطانية

ثم ان جانباً كبيراً من الاسلحة المصدرة يصدر من ثغر همبرج وهو بالنسبة الى تشيكوسلوفاكيا

مرفأ حر ، وفي تشكوسلوفاكيا معامل «سكودا» المشهورة وهي جزء من اتحاد شنيدر كروزو الفرنسي . وهذه المعامل رفضت منذ بضعة اشهر الموافقة على منع تصدير الاسلحة الى اليابان والصين فكان ذلك باعثاً على الغاء القرار الذي اتخذته بريطانيا . ومعظم الاسلحة التي استعملت في حرب اليابان والصين الاخيرة صدر من هذه المصانع . ولكن الاسلحة التي استعملتها اليابان في حربها الاخيرة لم تصدر كلها من معامل «سكودا» فلمعامل بريطانيا نصيب فيها . ومصانع المانيا الكيمائية صدرت اليها مقادير كبيرة من الحوامض لصنع المفرقعات . وثمة مصنع للسيارات في ديجون بفرنسا كان منهمكاً في صنع قنابل طيارات بيعت لليابانيين . ومصانع شنيدر وكروزو كانت مكبة على صنع الدبابات . وكذلك مصانع اميركا لها نصيب لا تعلم حقيقته

ومن اغرب ما حدث في الولايات المتحدة الاميركية ان لجنة مجلس النواب للشؤون الخارجية قبلت ان تعقد جلسة لسماع بيانات عن تجارة الاسلحة ووجوب السيطرة عليها . فلما ازف الميعاد المضروب وحضر الشهود ورجال الصحف الغي الاجتماع بحجة رسمية لا تعوز من يريدون عرقلة هذه المساعي . ولكن الواقع ان عقد هذا الاجتماع بحضور رجال الصحف يجعل الاذاعة عنه امراً يخشاه الرجال الذين لهم مصلحة في هذا الضرب من التجارة . وقد قيل في الحجة الرسمية ان «الذخائر الحربية لا تشحن الآن الى الشرق الاقصى» وهذا في الواقع غير صحيح . والادلة على تصدير الاسلحة الى اليابان ليست نادرة ولا قليلة . ففي ١١ فبراير سنة ١٩٣٢ نشرت جريدة «النيوز» نبأ ملخصه : ان اربع سفن خرجت من مدينة رتشمند من رصيف احدى شركات الذخائر ووجهتها اليابان . ثم نشر احد اعضاء مجلس النواب في جريدة «الصن» ما مؤداه ان ١٥ سفينة يابانية خرجت من الرصيف نفسه حاملة المواد الاساسية لصنع المفرقعات . وكانت كلها الا سفينتين متجهة الى مرافىء يابانية» ثم ان شركات الاسلحة زادت عمالها في الزمن الاخير . وهو دليل على زيادة ما تنتجه من الاسلحة . وبعد اجتماع عقد في مارس سنة ١٩٣٢ بين اصحاب شركة دي بون وهي من شركات الذخائر الحربية الكبيرة في اميركا ومساعد وزير الخارجية ورئيس قسم الشرق الاقصى في وزارة الخارجية الاميركية ، اعلن ان سياسة الحكومة الاميركية في تصدير الاسلحة لن تتغير . ولا يعلم على ما دار البحث حينئذ ولكن سيل الاسلحة الاميركية الى اليابان لم ينقطع بعدها حتى عهد روزفلت

ويجدر بنا ان نذكر هنا ان الدكتور صروف رحمه الله ، كان شديد التوجس من هذه الناحية ، قبل ان تظهر الحقائق التي ذكرناها ، وقد بسط ذلك في روايته «فتاة مصر» التي الفها سنة ١٩٠٥ وبطلاها فتاة مصرية وشاب انكليزي كان مكاتباً للصحف في الحرب الروسية اليابانية التي كانت دائرة حينئذ ، والفصل الذي عقده لرواية ما دار بين رجال المال واصحاب مصانع الاسلحة على الحرب الروسية اليابانية أحاط فيه بأهم المبادىء المتقدمة في قالب روائي جذاب

صانعة الدموع

أنا الرجلُ المشبُوبُ القويُّ الذي لا يَخْضَع ،
أنا الرجلُ المُلْتَهِبُ كأنّ روحَه في بَدَنه إعصارٌ من النّار
أنا الرجُل الصّخرُ الذي تقَعُ الأحداثُ عليهِ لترِنَّ ثمَّ تنحدِر ؟
بَل الرَّجُلُ البركانيُّ الذي لا يغضَبُ ، فإن غَضِبَ تفَجّرَ بالبلاء

***

نَفْسي كأنّها قطعةٌ من القَدَرِ فلا تَسرُّها ولا تَسوءُها الأقدار ،
بل كأنّها سُنّةٌ من الأبَدِ يستوي في مرآتها الليلُ والنهار ،
بل كأنّها بعضُ الفلَكِ الذي تجري فيه الشّموسُ والأقمار ،
بل كأني عالَمٌ مَسْحُور كلُّه ألغازٌ وكلُّه أسْرارٌ

***

أنا ذلك الرجُل ما أزالُ وتلك نَفْسِي ما بَرِحتْ
ولكنْ ما هذا البلاءُ الجديد ؟
ما هذا الماءُ المُنْهَمِرُ على خدّيّ حارًا دافِقاً ؟
لكأنّهُ من رَشاشِ أمواجِ البَحْرِ في مِلْحِه ومَرارتهِ ؟
وكأنهُ من طائراتِ الحَمَمِ الفَوّارةِ في لذعهِ وحرارته ،
ولكنّ البَحْرَ بعيد ، وما في هذه الأرض حَمَم
.... بل كأنّهُ من قطراتِ المطرِ
بَلْ ليس به ، فالمطر عَذْبٌ خَصِر
وإني لأرى السماءَ سافرةً ليس يحجُبُها سحابٌ
ولو قد كان في السماء سحابٌ ، لقلت : عسَى ولعلَّ ....

***

ما هذا السِرُّ الخفيُّ بينَ جنْبيَّ ؟
إنهُ ليهزُّني كما أهزُّ الدَّوحة بساعدي المَفْتُول ،
إنّهُ ليَغزو ضياءَ قلبي بمثل سواد الليل ،
ولقدْ عهدتُني مرحاً طروباً ، فما هذا الفتور ؟ !

... لقدْ سمعتُ الناسَ قديماً يصفون في أنفسهم مثل هذا الطائف
سمعتُ قائلَهُم يقولُ : ..... هو الهَمُّ ،
أَجَل إنّهُ لهمٌّ ... وإنهُ من همٍّ لحَبيب

***

وما هذا ؟ ! جديدٌ ، ما عهدتهُ من قبلُ !
... إنها لتَتَحَسَّنُ بألوانها وتهاويلها ، ...
وانها لتَتَفَتَّقُ من سَرارتها فترْسل من فُتوقها أمثالَ أشعة القمر ،..
لقد أخذ الفتقُ يستديرُ .... وما هذا القمرُ العجيب؟
ويحي ... ما هذا قمراً .... انهُ لملكٌ كريم ،
ويحي ... انهُ وجهُ غانيةٍ ، وإني لأجدُ في نفسي أني أعرفهُ
آهِ ! أأنتِ ؟ أأنتِ تلك الحسناءُ التي رأيتها بالامسِ ؟

***

أَجل ! أنا الحسناءُ ، والبلاءُ الجديدُ ما هو إلاّ دموعُ عينيك
البلاءُ الجديدُ ...؟! دُموع عينيّ ؟! ..... ما أنتِ !
بل كيفَ استرقتِ أحاديثَ قلبي ؟ .....
إنني قريبةٌ منك وإن طارتْ بي النوى أو طوَّحني الفراق ،
إني لأراكَ .. ، وأسمعك .. ، وألجُ قلبَك .. ، وان خِلتَني بعيدةً عنك ،
وأنا ... أنا التي صنعت لكَ هذه الأحلامَ لأبدُوَ في زينتها ،
وزينتَها هذه من بعض معانيَّ

***

إني لأجري منكَ مجرى الدَّم ،
وذاك السرُّ هوَ ما يتطايرُ من دمكَ إذ أسبح أنا فيه ،
وإن ما يتطايرُ منهُ ليقعُ على شجرةِ أفكارك الجرداء ... ؛
فبعدَ قليلٍ ما تنفصدُ أوراقها خَضْراً ثم تتفطرُ ثم تورق ثم تتلفعُ ،
وإذا شجرةُ أفكارك خضراءُ وارفةُ الظِّلال
وظلالُها التي أفيءُ — أنا — إليها تُسمّيها — أنت — الهمّ ..... !
لقد جارَ منكَ لسانُك ... ولكن سوف يرضيني منك شيءٌ واحدٌ :
سوفَ يرضيني منكَ أنك لن تنسَاني بعد اليوم وإن لم تلتقِ ....

وأنَا ... آه ... إنّي لنْ أنساك .... إنّي أُحبُّك

***

ويحَ غيري ! لقد أصبحتُ أفهمُ هذه اللغة وكنتُ لا أفهمُها !
إنَّ لساني لينذَلِقُ بها الآنَ كأنما كان يَرتضعُها من ثدي أمّه !
أجل ! لقد ارتضعتُ — صغيراً — من ثدي امي هذه اللغة ،
ولكني نسيتها لما انفتلتْ قُواي واستمرَّ مريري ،
نسيتُها لما كبرتُ وأصبحتُ رجلاً ...
نسيتُها ... ولعلّي نسيتُها وأنا أصارعُ الحياةَ وكانت تريدُ أن تصرَعني
نسيتُها...ولعلّي نسيتُ اشياء كثيرة في الميدَانِ
وهناك كلمة لعلّها مما نسيتُ في حومةِ الحياةِ....
كلمةٌ مما سمعتُ ، ما فهمتها ، ودعيني — يا جميلتي — أفهمها وحدي
ما هي الدُّموع ....؟

***

ما هي الدُّموع ... ؟
أهي عواطفي ترسلها سحائب شجوني وأحزاني ؟
أم هي أنفاسي الحارةُ التي كانت روح قُبُلاتي... ؟
أنفاسي الحارّة التي انعقدتْ لما دفعتها الحياةُ عالياً في جوِّ السماء ...
أهي نفسي تسيلُ على خدّي حين ربَضتْ عليها الحياةُ بأثقالها فأسالَتْها....؟
أم هي إخلاصي وعفتي ووفائي تقطرُ من قلبي إذ تعتصره الآلام ؟
أهي كلماتُ حبّي الذي لايتكلم ؟
أم لغة آلامي التي لا تفهمها الا لحظَات عينيك ؟...
آه : وما كنت عاجزاً ولقد عجزْتُ . ألا فقولي أنت ... ما هي الدُّموعُ ؟

***

أتضحكين ....؟ انك تهزئين مني ... فلستِ خالصة الحب ...
وبلي ... ! أراك اخضعتني ، وكنت الرجلَ المشبوبَ الذي لا يخضعُ ،
وأطفأتِ ناري ، وكنت الرجل الملتهب كأنَّ روحه في بدنه إعصار من النار ،
وصدَعتِ صخرتي ،وكانت الاحداث ترنُّ عليها ثم تنحدرُ ،
واغضبتني ... فالآن حذارِ ان يتفجّر البركانَ بالبلاء

ولكن .... ما أعجزني ، وما أعجز البركان !!

***

ومالك الآن يا نفسي ؟ ألست كما كنتِ ! لا تسرُّكِ ولا تسوءكِ الاقدارُ ؟
ألستِ كما كنتِ ؟ سنَّةً من الابد يستوي في مرآتكِ الليل والنهار ؟
ألستِ كما كنتِ ؟ بعضَ الفلك الذي تجري فيهِ الشموس والأقمار ؟
ألست كما كنتِ ؟ عالماً كلُّهُ ألغازٌ وكلُّهُ أسرارٌ ؟
أم أشعَّةُ عينيها تجعل من بناني أحجاراً على أحجارٍ ؟

***

أغضبتَ — أيها الحبيب — ؟ أحزنتَ ... ؟ لا! لا تغضب ولا تحزن
إنني ما ضحكت من سخر ولا استهزاء
ضحكتُ إذ صُرفتُ عن الصواب وقد ملكتهُ ..
لا تغضبْ ولا تحزنْ ... ألا تعرفُ ما هي الدُّموعُ .... !
الدُّموعُ البريئةُ التي تذرفها أنت لاما يسكبهُ الناسُ من محاجرهم ...
هي : ... بل لاَ لاَ ... إنها سرُّ صناعتي لنْ أبوحَ بهِ ،...
ويكفيك مِن عِلمها أن تعرفَ أنّي — أنا — التي أصنعُها لك ... ،
أنا التي أصنعُ دموعك وأحلامك ، وشجونك وآلامك ... ،
أنا التي أصنعُ لك كلَّ شيءٍ ، ...
أنا التي تحبُّك .... ، وأنا التي لن تنساك ....

***

ما هذا ؟ أختفيتِ ؟ فاني لا أراك يا حبيبتي ...
ما هذا ؟ أين أنتِ ياصانعة دُموعي وآلامي ؟
أينَ أنتِ ياصانعة آمالي وأحلامي ؟
أين أنت ؟ أينَ أنت ؟ إنك تسمعينني ... لقد قلتِ ذلك
إنكِ تسمعينني فلماذا لا تجيبين ندائي ؟ لماذا ؟
تعالَيْ ، تعالَيْ ! تعالَيْ واصنعي لي آلاماً ودموعاً أُخرى ،
تعالَيْ ، تعالَيْ ! تعالَيْ واصنعي لي آمالاً وأحلاماً جديدة
أُريدُ آلاماً ودموعاً ،
أُريدُ آمالاً وأحلاماً

محمود محمد شاكر

اللون الاحمر واللون الازرق

في الصحة والمرض

من المبادىء الطبيعية المعروفة ان أشعة الشمس متى نفذت موشوراً من الزجاج انحلت الى الالوان الاصلية التي يتألف من مجموعها الضوء الابيض فظهرت في شكل قوس قزح فاذا وضع امامها حجاب وقعت صورتها عليهِ وتعرف هذه الصورة بالطيف الشمسي . وهي مؤلفة من الالوان الآتية الاحمر اولاً ثم البرتقالي ثم الاصفر ثم الاخضر ثم الازرق ثم النيلي ثم البنفسجي . هذا ما يظهر من الطيف للعين لكنهُ يزيد عن ذلك من طرفيهِ . فلو أدنينا منهُ ترمومتراً حسَّاساً مبتدئين بالمنطقة البنفسجية وجدنا الحرارة تزداد كلما اقتربنا من المنطقة الحمراء وتستمر الزيادة الى ما بعدها بقليل ثم تأخذ بالانخفاض تدريجاً مما يدل على ان هناك أشعة غير الاشعة الحمر لا ترى بالعين لكن يشعر بحرارتها فقط . ثم لو عرضنا ورقاً فوتوغرافيًّا حسَّاساً على أشعة الطيف الشمسي وجدنا المنطقة التي بعد اللون البنفسجي تؤثر في املاح الفضة كما تؤثر فيها الالوان التي بين البنفسجي والاخضر اي ان بعد اللون البنفسجي منطقة لا تظهر للعين لكنها تؤثر في الاملاح الفضية

فالطيف الشمسي اطول مما يظهر للعين ولا يرى منهُ الا الجزء المتوسط فقط والوانهُ تختلف في خواصها فما كان منها بين الاخضر والبنفسجي لهُ خواص كيمائية ويؤثر في املاح الفضة وما كان بين الاخضر والاحمر لا تأثير لهُ من هذا القبيل . ويظهر ايضاً ان اشعة الطيف تختلف ايضاً في تأثيرها في الخلايا الحية فقد علم من عهد بعيدٍ ان للنور الاحمر فائدة في معالجة الحميات النفاطية كالجدري فكانوا يلبسون المجدور قميصاً احمر

***

وقد اخذ بعض الاطباء في هذه الايام يهتمون بالمعالجة بالنور فانهم يضعون المجدورين في غرفٍ حمراء يحجبون عنها الاشعة البنفسجية ولاسيما الاشعة التي وراء البنفسجي وينتبهون لذلك أشد الانتباه كما ينتبه المصور لحجب هذه الاشعة عن الالواح الفوتوغرافية . ويقوم ذلك بوضع الستائر الحمر امام النوافذ فلا يدخل الغرفة الا النور الاحمر وتنار الغرفة أيضاً

بمصباح ينير نوراً أحمر كالمصباح الذي يستعمله المصورون فجاء ذلك بنتائج حسنة الى الغاية لا سيما في الجدري والحصبة . ولا يعرف تعليل لهذه الفائدة فقد قال بعضهم انها ناتجة عن حجز الاشعة الكيمائية اي ان الاشعة الحمر لا تأثير لها في شفاء هذه الامراض بل منفعتها سلبية فقط وقيل انها تنبه الجهاز العصبي وتزيد الجسم مقاومة للمرض

***

اما تأثير الاشعة الحمر في الجهاز العصبي فامرٌ لا ريب فيهِ فانها تهيج الأعصاب كثيراً كما يحدث للنور من رؤية الالوان الحمر . وفي أحد المعامل حيث تصنع الالواح الفوتوغرافية أصيب العمال بتهيج عصبي شديد كانت عاقبته وخيمة وذلك لانهم يشتغلون في النور الاحمر فقط وامتنع ذلك بابدال اللون الاحمر بالاخضر فان هذا كاللون الاحمر لا يؤثر في املاح الفضة لكنهُ أقل منهُ تأثيراً في الاعصاب

والمصورون يعرفون الفرق في تأثير هذه الالوان بالشعور فيستعملون الالوان المفرحة أو الحزنة حسبما تقتضيه الاحوال فاللون الاحمر دليل الشجاعة والغضب والاصفر دليل الحزن والازرق دليل الهدوء والسكينة

وبعض الاطباء يستعملون اللون الازرق مخدراً فانهم يضعون نوراً حولهُ زجاجة زرقاء على مسافة ١٥ سنتيمتراً من عيني المريض ويضعون على وجههِ وعلى النور منديلاً من الحرير الازرق يحجبون بهِ سائر الاشعة ويبقى المريض فاتحاً عينيهِ فيؤثر النور الازرق في عصب العين ويسبب تخديراً في الدماغ يمكنهم على ما قيل من اجراء العمليات البسيطة التي لا يستغرق عملها وقتاً طويلاً بغير ألم كخلع الاضراس وما اشبه . وقد نسبوا هذا التخدير الى التنويم المغنطيسي لكن النور الاحمر والنور الاصفر لا يفعلان ذلك ولا بد ان للنور الازرق تأثيراً خاصاً في الاعصاب

ويمكن استعمال النور الازرق في معالجة الامراض العصبية المؤلمة كالنفرالجيا وغيرها ولذلك جهاز خاصٌ مؤلف من مصباح تنعكس اشعتهُ عن سطح شلجمي امامهُ حجاب ازرق وبين الاشعة والحجاب اناء فيهِ ماء جارٍ فلا ينفذ من الاشعة سوى الاشعة الزرق والبنفسجية وما وراءها وكلها مسكنة للاعصاب . ويستعمل بعضهم حماماً لهذه الغاية وهو مؤلف من صندوق يوضع فيهِ المريض ويبقى رأسه خارجاً وينار الصندوق بمصابيح عليها زجاج أزرق

وقد أشاروا على أصحاب الامزجة العصبية المصابين بالنفرالجيا والارق وما أشبه ان يفرشوا غرف النوم بالاثاث الازرق اللون ويضعوا على النوافذ ستائر زرقاً فان ذلك يريحهم كثيراً

باب شؤون المرأة

وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

دور المراهقة

وتبعة الوالدين فيه

محاضرة للدكتور شخاشيري

مواطن الارشاد والآراء

هذا الارشاد يجب أن يُبدأ به في البيت . وان تتولاه الام مع طفلها في فترات منظمة تتحدث اليه فيها عن اعضائه الخاصة وعن وظائفها المختلفة وشأن تلك الوظائف . ولا تتوانى في تحذيره من اللعب بها والاساءة اليها . وما هي الاضرار التي تنزل به ان أساء التصرف بها . والفوائد التي يجنيها ان أحسن ذلك التصرف ويجب ان تشرح له مدى تلك الاضرار والفوائد على حسب استعداده لفهمها كما تشرح له الاضرار التي تلحق به ان لعب بعيدان الثقاب او غير ذلك من الاشياء التي تخاف عليه منها وهي كثيرة جدًّا . وقد لا تعادل اضرارها مجتمعة ذلك الضرر الذي يدهمه بسبب جهله ميزات تلك الاعضاء

وقد يفضل بعضهم عدم اطلاع الطفل على هذه الحقائق لانه — على زعمهم — لا يستطيع ان يفهمها قبل ان يدرك سن الرشد — ولكن هذا الزعم ان صح لا يمنع اطلاعه عليها بحال بل قد يكون ادعى الى استيعاب هذه الحقائق وهو طفل منه وهو شاب

وكما ان تعليم الاحداث وغرس الفضائل فيهم وترويضهم على الطاعة والنظام في المعيشة يكون دائماً أسهل وأجدى فائدة عليهم . كذلك تكون نتيجة معرفتهم أسباب تلك التغيرات التي تطرأ على ميولهم عظيمة جدًّا . لانها تمكنهم من صيانة أبدانهم وعقولهم من العلل والاسقام وتنقذ الاجيال من سيئاتها

وليس اهتمام الاطباء بالاحتياطات الصحية التي يتوسلون بها لدفع الاوبئة عنهم باعظم فائدة منها . فكما نحصن الطفل من مرض الجدري والدفتريا والتيفودية باللواقح المعتادة والامصال . كذلك يجب أن نصونه من هذه المهالك بتعليمه وارشاده كيف يتجنب السقوط فيها

ومن الغريب ان معظم الآباء لا يهتمون بترويض ابنائهم على معرفة تلك الميول أو

يتركون تعليمهم الى ان يعلو زرعهم ويقسو عودهم او الى ان يبلغوا سن الادراك وغاب عنهم ان ما تتعرض له النفس في هذا السن من اضطراب في الاعصاب والافكار وتطور في الميول يحول دون تعليمها التعليم المنظم . وقد يمكن تحويل مجرى النهر من منبعه حيث يكون جدولاً صغيراً لا حول ولا قوة له ولكن ليس من قوة تستطيع ان تغير مجراه عند مصبه حيث يتسع نطاقه ويشتد تياره . كذلك الحال مع الطفل فان تحويله عن عادة سيئة وغرس فضيلة مكانها أسهل عليه منه وهو شاب وقد تأصلت فيه الطباع والعادات . والطفل لا بد وان يتعرف الى هذه الميول ويغلب ان تكون طريقة تعرّفه بها مشوهة او ناقصة مما يبعث فيه حب الاستطلاع ومعرفة ما يجهله منها . ولا يبعد ان يساق الى تكوين فكرة خاطئة عن نبل العلاقة الجنسية . وهذه المعرفة الناقصة مع تردد الاب في محادثتهِ فيها عنها يزيدان رغبته في الامعان وكشف الاستار . ولا يخفى ما يجره عليه هذا الامعان من البلايا — وقد يورطه في رذيلة المعاقرة وادمان المخدرات وغير المخدرات ويذهب بعضهم ان تنظيم المعيشة على التعاليم الخلقية يكفي لارشاد الطفل الى ما يجب ان يعرفه عن العلاقة الجنسية . ولعل هذا يكون صالحاً لتدريبه على حذق المجاملات في الزيارات والمقابلات اكثر منه لفهم تلك الحقائق الغامضة عليهِ كل الغموض . ويعتقد بعضهم ان الضغط على الطفل خير مرشد لتسديد خطواته في الحياة وهذا الاعتقاد على فساده لا يزال وياللاسف سائداً في الشرق بخلاف ما هو عليهِ في الغرب . فحظه فيه من الانتشار غير كبير

والتربية الصحية لا تقوم على الضغط والاكراه — وانما تقوم على المبادىء القويمة التي توجهه الى الغاية الشريفة من الحياة . اما التخويف والتهديد فأثرهما ضئيل غير مجدٍ وليس منهما فائدة تذكر في جانب الاضرار التي تنشأ عنهما

ويزعم بعضهم ان الطفل لا يستطيع فهم هذه المشكلة الا بعد ان يخوض غمارها ويكتوي بنارها وخطأ هذا الزعم واضح لا يحتاج الى تفسير ولا تعليق وقد برهنا على فساده فيما تقدم

ويقول بعضهم بعقد اجتماعات عامة للاطفال والقاء محاضرات في هذا الموضوع وتشجيعهم على المناقشة فيها واي سؤال يوجههُ طفل من المدعوين يجب مراعاته والاجابة عنهُ . والذي لا يهتم منهم بابداء رأيه في موضوع المحاضرة يطلب منهُ ذلك ولو على سبيل الاستفادة منهُ

ويستحسن كثيراً ان يبتدىء الاب بمكاشفة ابنهِ بمعلوماته عن هذه التطورات قبل ان يذهب بهِ الى المدرسة بقليل — ويجب ان لا يكتم شيئاً عنهُ منها نافعاً كان او ضاراً — والمصارحة المطلقة واجبة بل ضرورية لان هذه الغرائز ما وجدت في الانسان الا لفائدتهِ اولاً ولفائدة الجنس ثانياً . وان علاقة الفتى بالفتاة — والرجل بالمرأة — لا عيب فيها ما دامت تتم في حدودها المشروعة وفي نطاق الغرض الذي وجدت لتحقيقهِ . وحب الاوطان ومجد الانسانية

يطالبان الآباء بالتبعة الملقاة على مناكبهم نحو الابناء — بل نحو الاجيال المقبلة

والانسان لا يعلو بقيمته الا بمقدار ما يشعر بهِ من اعباء تلك التبعة ويفعله من الاعمال المجيدة وليس الغرض من الحياة ان نخلق جيلاً جديداً فحسب بل جيلاً صالحاً ليأتي بجيل اصلح منهُ للحياة الشريفة التي تسعى اليها الانسانية الراقية في شعورها وثقافتها . . .

معاونة المدرسة

لقد فرضنا فيما سبق على الام التحدث مع طفلها في الوقت الذي تبدأ تكلمه عن الاشياء المحاطة به والتي تخاف عليه أن يصاب بمكروه منها

كذلك فرضنا على الاب ان يتناول هو الآخر هذا النوع من الحديث مع ابنه قبل ان يذهب بهِ الى المدرسة بقليل . ولا افرض على المدرسة هذه المعاونة وانما القيها عليها كواجب مقدس تضطلع به اضطلاعها بالاعباء القائمة بها في تثقيف العقول وتهذيب المدارك — ولا يخفى ان المراهق يحتاج الى كثير من الارشاد في اثناء الدراسة — وخير من يسدي اليهِ هذا الارشاد هو المربي الفاضل والاستاذ العاقل ومعاونة المدرسة هذه لا تقل شأناً عن تلك العلوم والفنون التي يقضي عشرات السنين في دراستها واستجلاء معانيها — ومن الغريب ان تظل برامج الدراسة في مصر وغير مصر خالية الى الآن من هذا الدور الخطير الذي يجب ان يكون في طليعة العلوم على اختلاف اقدارها في الخطورة لانهُ في الواقع اعظمها شأناً وافضلها علماً واي علم يفاضل علم الصحة ويفضله ؟

واذا كان علم النحو والجغرافيا والتاريخ والهندسة وغير الهندسة من الادوات الضرورية لهذا العصر فمعرفة اسباب التغيرات التي تحدث في الجسم اشد ضرورة واولى بالعناية والدراسة منها جميعاً

مما لا شك فيهِ ان معاونة المدرسة في تعليم الفتى في دور النضوج الطبيعي الذي تظهر بوادره عليهِ في سن الادراك تؤيد ما يكون قد علق في ذهنه من تعاليم البيت وتثبت لهُ فوائدها بالبراهين العلمية والشواهد الناطقة وبالوسائل التي تستعين بها على شرح الاعضاء ووظائفها والميول الغريزية ومبلغ الاضرار التي يصاب بها ان أساء الى تلك الاعضاء. والفوائد التي يجنيها في صحته وأخلاقه ودراسته ان اعتنى بها

آراء العلماء في مداواة المشكلة الجنسية

لقد ذهب فريق من العلماء في مداواة ما ينشأ عن الصلات الجنسية الدنسة من علل واسقام مذاهب مختلفة منها التحكم بالنسل او عدم الانتاج. ولكن ظهر لهم ان لهذه الطريقة عواقب وخيمة في صحة المرأة لا تبرأ منها فيما بعد . وفريق آخر يقول ان في القضاء على المخبولين والمجرمين والمصابين بامراض عضالة أو حرمانهم من الزواج والتوالد هو الدواء الوحيد الذي نستطيع بهِ ان ننشيء جيلاً سليماً من الامراض الاجتماعية والتشوهات الخلقية

وذهب فريق ثالث الى ان للوسط تأثيراً في النشء لا يستهان به فان اردت اصلاحه فما

عليك الا ان تقضي على المؤثرات الرديئة المنبثة فيه كالمظاهر التي تفسد الاخلاق وتفسد الشهوة وان تحارب الامراض التناسلية وتستأصل جراثيمها واسبابها . وان تشجع العوامل على تنظيم المعيشة كتهوية المنازل والعناية بالرياضة الجسدية والعقلية ومراقبة الملاهي ودور السينما واصطفاء المعشر . كل هذه الوسائل تضمن للنشء التربية الخلقية الصحيحة . وانت تعلم ان الوقاية من الرذيلة تعادل في خطورتها الوقاية من الامراض الوبائية

العلاج الواقي

وكما تحتوي تذكرة الطبيب على ادوية مختلفة المزايا في مقرراتها لكنها متحدة القصد متجهة الى معاونة المريض في مجموعها ، كذلك احتوت هذه الكلمة في معالجة الموضوع الذي بحثناه على آراء وطرق مختلفة اشد الاختلاف في نزعاتها ووسائلها ولكنها متحدة الغاية في جملتها على معاونة الابناء في اجتياز دور المراهقة الذي هو اهم ادوار الحياة شأناً . فمن مصارحة الآباء المطلقة للابناء عن الاعضاء الجنسية ووظائفها قبل بلوغهم سن الرشد وذهابهم الى المدرسة الى ضرورة ادخال هذا الدور في برامج الدراسة العامة والعناية بشرح اسباب التغيرات التي تظهر فيه والى محاربة الامراض الاجتماعية والغاء البغاء الرسمي وتنظيم المعيشة والتحكم بالنسل وغير ذلك من الآراء والادوية التي تقدم وصفها وكلها نافعة بمفرداتها ومجموعها . ومع هذا فاني اتقدم اليكم برأي جديد يعلو بفائدته على ما اظن عليها كلها — وهو ان نضع تشريعاً عرفيًّا للزواج الاجباري — به يفرض على الفتى الزواج في سن معينة ومن يبلغ تلك السن ولا يتزوج يغرَّم بدفع مبلغ من المال ويرفت من الوظيفة التي يشغلها . واذا قدم عذراً قبل ميعاد الزواج وقُبل منه يعطى مهلة ستة اشهر او سنة ولا يوظف الاَّ بعد الزواج . واذا مضت السنة ولم يتزوج يغرم بدفع مبلغ من المال ويحرم من الحقوق المدنية التي يتمتع بها ابناء الوطن ولا تعاد له تلك الحقوق الا بعد انقضاء ستة أشهر على زواجه — وان مضى على حرمانه شرف الوطن سنة ولم يبرهن الكشف الطبي على ما يبرر امتناعه عن الزواج تجري له عملية الحرمان الكبرى دفعاً لخطره ووقاية من شره

وهذا التشريع — او الزواج الاجباري هو الدواء الوحيد الذي يقي الابناء من العثرات ويصون المجتمع من الفساد المنتشر في جوانبه وهو يقضي على البغاء الرسمي وغير الرسمي ويمحو أثر الامراض التناسلية ويذهب بالمخدرات والمسكرات وسائر المخازي والمفاسد

فلو عرف ولدي وهو في سن دون العاشرة ما سوف يعرفه وهو في العشرين عن الميول الجنسية والاعضاء الخاصة وانه لا بد ان يتزوج من الفتاة التي يختارها فانه ولا شك يضاعف اجتهاده في الدراسة وتحصيل العلوم لكي ينال القسط الاوفر منها . كما وانه يحسن سلوكه وتطمئن افكاره الى الشخص الذي ينتظره

واني اناشدكم الله ان تسرعوا في وضع هذا التشريع لكي اسرع في تنفيذه في افراد كرام يعيشون بيننا طليقين وهم ينادون باصواتهم العالية المسموعة في الاهرام وغير الاهرام «ازواج فضيلة ورجولة وكمال خلق» — ولكنهم لا يتزوجون، بل يلمزون الناس بالزواج وينسون أنفسهم ويكتبون المقالات الضافية عن حسناته . . أفلا يعقلون؟ واليكم نموذج من اقوال صديقي الاديب الاستاذ الصاوي في اهرام الاثنين الماضي . هذا نصها بالحرف :—

«وهو ما اريد ان اشير به على الشاب المصري المتزوج حديثاً لماذا لا يدعو امرأته يوماً في الاسبوع للعشاء خارج جدران البيت الاربعة، ولماذا لا يستقل القطار مرة في الشهر الى الفيوم مثلاً فيتغدى هناك على شاطىء بركة قارون ويقضي سحابة يومه؟ بل ولماذا لا يقضي ليلة أيضاً في فندق صغير من تلك الفنادق التي تحتها مطعم ومقهى؟ والزوجة؟ لماذا لا تدخر من مصروف البيت اذا لم تكن غنية — وتدعو زوجها هي بدورها ترد له الدعوة الى الشاي او العشاء في مكان ما من حين الى حين خارج البيت؟ ان هذه الدعوات المفاجئة تجدد الهناء. بل هو كالمال يجب ان نجد في تحصيله . . تصوروا سيدة تقول لزوجها «أنا عازماك الليلة ياحبيبي» — بماذا يشعر؟ أليس بسرور المفاجئة اولاً .. وبانه سيغير منظر خادمه المألوف ثانياً وان زوجته هي صاحبة الدعوة ثالثاً؟ أليس في هذا ما يشعره بان زوجته ليست زوجته فقط ولكنها ايضاً صديقته»؟ ويذهب حضرته فيقول :

«اعتقد ان كل بيت في حاجة الى التجديد والا نسج عليه العنكبوت خيوطه، اعتقد ان كل حب بحاجة الى العناية والخدمة باستمرار، واذا ضحك السخفاء والسفهاء من هذه المقترحات فذلك لحسن حظنا والا وجدناهم امامنا في تلك الدعوات الخاصة يسدون علينا منافذ الطرق!». تأملوا ايها السادة بهذه الاقوال التي اقل ما يقال فيها انها حكم وان لم تخل من تهكم واستغفال عقول المتزوجين من رجال وسيدات وقد كانت تكون جديرة بالارشاد لو كانت صادرة من متزوج خبير وليس من غريب يهرف بما لا يعرف

فالزواج الاجباري — فضلاً عن انه المحك او القياس الذي تقيس به مبلغ ايمان اولئك الادباء بصدق ما يقولون ويكتبون فهو الدواء الوحيد — بل القيد الخفيف لكبح الشهوة الجامحة وصد الميول الزائغة ومحو المظاهر الخادعة وقتل الغواية الاثيمة — وحسبه ان يذهب بطائفة العزاب ويبدل حالهم بحال ويضمن للامة والانسانية ذرية راقية في شعورها — ويزيل حجر عثرة كبيراً في طريق عبده — وسبباً قوياً لكساد سوقه وقلة الاقبال عليه

ولا افهم لماذا يبقى ذلك الاديب النابه او الكاتب المجيد او العالم الكبير او الطبيب البارع او المحامي الضليع او المثري المتلاف لماذا يبقى هؤلاء الافراد من غير زواج ألان ليس في البلد فتاة جميلة تلائم ميولهم وتروي ظمأهم، او يريدوننا ان نفهم انهم ملائكة الله على الارض

يعيشون كما يعيش ذلك الراهب في صومعته طاهر الذيل نقي القلب ميت الشعور والعاطفة لا يبغي من الدنيا غير الصلاة واقامة الشعائر الدينية ولكن حتى هذا الراهب اتقدم اليه بهذا السؤال وهو في حصنه المنيع لماذا لا تتزوج ياحضرة الاب المحترم- واي ضرر تراه في الزواج ولا ترى اضعافه في العزوبة . . . أيها السادة ! :

ان ما تكابده الامة من الامراض وتعانيه من المخدرات والمسكرات لهو كثير جداً يكاد يطغى على حسنات هذه الحضارة ويقلبها الى سيئات وخيمة الأثر ولو عنيت الالمام بالمسائل التي عرضت لها في سياق هذا البحث كتحدث الام والاب والمدرسة الى الطفل لخرجت عن الخطة المرسومة لهذا الموضوع ولما كنت وفيتها حقها من البحث في هذا المقال اولو شرحت مبلغ الخسائر التي تتحملها الامة من الامراض والمخدرات بسبب زيوغ الميول الجنسية وانتشار سوق الدعارة لحرمت نفسي هذا العطف المشمول به فكم الآن وحسبي ان اذكر للتدليل على صحة هذا الفرض ما جاء في تقرير رسل باشا عن مفعول المخدرات وتعليق صديقي الكاتب الكبير الاستاذ داود بركات رئيس تحرير الاهرام عليه بقولهِ: يقول لنا رسل باشا حكمدار العاصمة ان المخدرات التي ضبطوها في العام الماضي ٤١١٣ كيلو جرام فكم هي المخدرات التي لم يضبطوها وقد دخلت البلاد ودخلت الاجسام فسممتها بل كم شخصاً هدمت وكم اسرة اهلكت وكم غني افقرت وكم شاب وشابة اضاعت وكم سلالة اضعفت ونهكت وكم من الاحزان احلت ومن الافراح بدلتها اتراحاً ..... ان رسل باشا لا يستطيع ان يقول لنا كم هو عدد اولئك التعساء الاشقياء الجهال الضالين الذين قدموا حياتهم وغبطتهم وسعادتهم ضحية على هيكل الشقاء . واذا نظرنا الى المسألة من الوجهة المالية هالنا الامر جداً . فقد قدر رسل باشا في العام الماضي المال الذي تدفعه مصر ثمناً للمخدرات بنحو خمسة عشر مليوناً من الجنيهات فالمسؤولون عن تربية النشء يعترفون كما ترون بخطورة هذا البحث الذي عرضنا له اليوم واظهرتم كرماً لسماعه وعطفاً عليهِ وانهُ في نظرهم من اكبر المشاكل قيمة وأكثرها تعقيداً وأعزها مقاماً . وهم متفقون على ضرورة الاهتمام بهِ وانقاذ الامة من اخطاره . فالى ان يتم لنا ذلك التشريع العظيم في الزواج الاجباري وتحضير مواده واستقرار اصوله ، اسألكم ان تجمعوا الرأي على مكاشفة الابناء عن وظائف الاعضاء الخاصة وضرورة العناية بها. والمطالبة بادخال دور المراهقة في برامج الدراسة العامة في كافة المدارس ومقاطعة اولئك العزاب حتى يهتدوا او يثوبوا الى محجة الصواب . ونشر الدعاية ضد الدعارة والمغريات لها . وبث روح الفضيلة في النفوس والبيئات . ولا اطيل عليكم في وصف الفوائد التي تظهر من خلق هذا الجو البريء ، جو الفضيلة فانكم ادرى مني بنتائجها الحسنة في ربط اواصر المودة بين الافراد والجماعات . واسمحوا لي ان احييكم واشكركم في الختام

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وإنهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

الرسالة العذراء

للأب انستاس الكرملي

كلمة في طبعتها الثانية

وقع بيدي في هذه الايام «الرسالة العذراء» لابراهيم بن المدبّر ، مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فنّ الانشاء ومذاهب الكتّاب في القرن الثالث بقلم الدكتور زكي مبارك ، فوجدتها رسالة بديعة السبك ، مترجمة لفن الكتابة في المائة الثالثة للهجرة ، وممّا زادها ثمناً وتقديراً ان الدكتور زكي مبارك صحّح ما دسّهُ النسّاخ من الاوهام ، واشار الى بعض ما ذكر منها او مثلها في بعض المؤلفات ، ولا سيما في العقد الفريد . فجاءت حقيقة غادةً عذراء يفتخر بالوقوف على محاسنها كل من يهمّهُ آداب العرب وأساليب كتابتهم وبدائع لغتهم

بعض هفوات في طبعتها هذه

كانت هذه الرسالة طبعت في القاهرة بعناية الاستاذ محمد كرد علي في سنة ١٩١٣ في مجموعة سماها : « رسائل البلغاء » وقعت في ٣٢٠ صفحة بقطع الثمن الصغير ، ووقعت الرسالة العذراء في الصفحة ١٧٦ الى ١٩٣ ولم يُرَ فيها هذا الوشي الذي نراهُ فيها في الطبعة «المباركة»، وفيها تلك الحواشي النفيسة ، والضبط بالشكل الكامل في بعض المواطن التي نحتاج اليهِ ، الى غير ذلك من المحاسن التي جاء بها علماء العصر الذين يعالجون مصنفات الاقدمين ليخرجوها الى المعاصرين المستفيدين منها فائدة طيبة

وقد عثرنا في مطاوي مطالعتنا لهذه الطبعة على هفوات نكاشف بها الدكتور المحقق ، لعله يصلحها في طبعة ثالثة او يصلح وهمنا ان كنا من المخطئين

اننا لانتعرض هنا لبعض هفوات الطبع التي لا تخفى على القارىء مثل هوجرونيه (ص٤)

وهو هرجرونيه او هورجرونيه. وما ثلاث (ص٢٢) وهي ماثلات — وزيادة ضروية (حاشية ص ٣٢) وهي زيادة ضرورية . فهذه وامثالها نتركها على علاتها، ونذكر فقط ما يظن انهُ من غير هذا القبيل

١ً فقد جاء في حاشية ص ٥ : « لا حاجة اليها » . والمعروف في مثل هذا المقام ان يقال : « لا حاجة « لنا » اليها » ، او « لا حاجة « بنا » اليها » (راجع في هذا الموضوع لغة العرب مجلتنا ٨ : ١١١)

٢ً وورد في ص ٨ : « وان شدوت من هذه العلوم ما لا يشغلك محلهُ و ٠٠٠٠و٠٠٠٠ فعلق على هذه العبارات : « لم يذكر الكاتب جواب الشرط » . — ونحن نظن ان « وإنْ » في هذا الكلام ليست للشرط ، بل وردت بمعنى يقارب قولك : « ولو » وبالفرنسية Quoique

٣ً وفسَّر اللهازم في الحاشية ٦ من تلك الصفحة بقولهِ : « جمع لهزمة وهو عظم ينتأ تحت الاذن » — فقوله « ينتأ » يبين ان هناك زمناً لاتكون فيهِ اللهزمة او اللهازم . ولو قال في مكان ذلك : « عظم ناتىء تحت الاذن » لانتفى كل لُبْس.

٤ً وقال المؤلف في ص ٩ : « ولا يكون [الكاتب] مع ذلك فضفاض الجُبَّة »، فقرأها المصحّح « فضفاض الجثة » وهل في يد الكاتب ان يكون جسيماً ام ضعيفاً ؟ وهل من مانع يمنع الكاتب الجسيم ان يكون بارعاً ؟ هذا فضلاً عن ان المعروف عن الفضفاض انهُ من صفات الملبوسات ، لا من صفات الاجسام او الجثث . والذي يثبت ذلك كلام المصحح نفسهِ في حاشية من تلك الصفحة اذ نقل عن الجاحظ : « فأبان انهم كانوا يهتمون بتعريض « الجُبَّة » و « تطويل الذيل »

٥ً وجاء في الحاشية ١ من تلك الصفحة ٩ قول المصحّح : « وقد اعطانا ياقوت بعض التفاصيل . . . والتفاصيل التي أعطاها صاحب العقد ... » ونحن نرى هذا التعبير غير عربي صرف ، وان كان صحيح التركيب . ونفضل عليهِ قول من يقول : « وقد ذكر لنا ياقوت تفاصيل . . . والتفاصيل التي اوردها صاحب العقد . . . » او ما يضاهي هذا الكلام الذي لا يشم منهُ رائحة الاعجمي

٦ً وذكر في ص١١ كلام المؤلف. « ومذاهب يجب عليك ان تراعيها في مراسلتك اليهم في كتبك» ونظن ان صحيح العبارة . . « في مراسلتك إياهم » لانهُ يقال : راسلهُ لا راسل اليهِ

٧ً وجاء في الحاشية ٥ من ص ١٢ : « وروي عن حماد بن زيد أنهُ قال : احدثها الزنادقة وقال الاصمعي . هي من دعاء الزنادقة . وقيل : أصل يبطل هذا ، ويطلق الكاتب بها » فهذه العبارة لا معنى لها . وهي ترى كذلك في الاصل المطبوع من أدب الكُتّاب . ونحن نرى

فيها نقصاً او تصحيفاً او حذفاً . ولعلّ الصواب : «وقال الصولي (اي المؤلف صاحب كتاب أدب (الكتاب) . يبطل هذا ويطلق الكاتب بها »

٨ً وفي ص ١٣ : «لو رأى الكلب ماثلاً في طريق . . . » والذي احفظهُ من هذا البيت « لو رأى الكلب بائلاً في طريق . . . »

٩ً وذكر لي الاستاذ المحقق مصطفى جواد أن قول المؤلف في ص ٢١ : «فما فوقهُ منهنّ غير غرائز» محرّف والصواب « فهنّ »

١٠ً وفي حاشية ٣ من تلك الصفحة : « ما في ذراعيهِ او في احدهما بياض » . ولعلّ الصواب «أو في احداها» لان الذراع أنثى

١١ً وذكر الكرشف بالشين المعجمة في الحاشية ٣ من ص ٢٢ والمعروف في هذا المعنى الكرسف بالسين المهملة

١٢ً وقيل هناك . «ان قولهم: ما لاقت المرأة عند زوجها اى مالصقت بقلبهِ مأخوذة من لاقت الدواة » هو حديث خرافة . وماكان يحسن ان يثبت في هذا الكتاب ، ولا سيما على يد أحد مشاهير الادباء مثل الدكتور زكي مبارك ؟ لان الدواة حديثة بالنسبة الى لصوق المرأة بقلب زوجها

١٣ً وفي نص ص ٢٤ : « ولئن قيل : كأنهُ الرمح الرديني فقد قال الكاتب . . . » والصواب « ... لقد . . . ليكون جواباً للئن . وهذه القولة للاستاذ مصطفى جواد المدقق. وقد ذكر لي ايضاً ان في قول المؤلف في ص ٢٨ . «وكذلك ماء الكثير او النشاستج » خطأ ظاهراً . والصواب « ماء الكثيراء » « والكثيّراء : ضرب من الصمغ مشهور ، ويعرفهُ العراقيون بهذا الاسم الى يومنا . واسمهُ بالفرنسية Gomme adragante (راجع مفردات ابن البيطار كلمة كثيراء) وبمعرفة هذه الكلمة والوقوف على صحتها لا يبقى لهُ حاجة الى قولهِ في الحاشية : «الكثير : طَلْعُ النخل ، وهو في كتب اللغة «الكثر» بالفتح والتحريك»

١٤ً وفي حاشية ٤ من تلك الصفحة:« الضمير عائد على القراطيس »والمشهور في التعبير: « عائد « إلى » القراطيس »

١٥ً وفي حاشية ٨ من تلك الصفحة ايضاً : « الوشق : نوع من العشب » . والمعروف عند اللغويين والعراقيين ان الوشق لغة في الاشق كسكّر وهو صمغ نبات كالقثاء شكلاً يلزق بهِ الذهب على الرق (راجع القاموس واللسان والتاج ومفردات ابن البيطار)

١٦ً وفي حاشية ٢ من الصفحة ٢٩ : « دهن صفار البيض » وهو منقول عن صبح الاعشى . ولو اصلحها « المبارك » وقال : « دهن صفرة البيض ، او دهن المحّ » لكان

اصحّ . — وفي تلك الحاشية : « كلمة عن الكتابة .... كلمة عن وضع الكتابة ...» والمشهور في مثل هذا التعبير : « كلمة على . . . »

١٧ً وفي ص ٣٥ : « فتى خاطبت احداً بغير ما يشاكلهُ : فقد اجريت الكلام غير مجراهُ وكشفتهُ » هكذا وردت هذه الكلمة بالشين المعجمة . والصواب : « وكسفتهُ » بالسين المهملة ، اي حجبتهُ كما يكسف الله الشمس

١٨ً وفي تلك الصفحة : « ابلغ الكلام ما لا يحتاج الى كلام ، واحسنهُ ما لم يكن بالبدويّ المُغرب ، ولا القروي المخدج » وضبطت الكلمة الاخيرة كمسلم . وفسَّرها بالناقص في الحاشية . قلنا : والصواب عندنا : « المجدَّح » كمعظم بصيغة المفعول ، لان كلام القروي — وهو ساكن القرية ، والقرية المدينة الكبرى — مخلوط بكلام آخر من لغات مختلفة . فالمجدَّح : المخلَّط لا غير . وهذا يؤيدهُ سياق الكلام . زد على ذلك ان ضبط المخدج على الفاعلية في هذا الموطن مخالف لما فسرهُ وكان يجب ان يضبط على المفعولية ، اي بصيغة المجهول

١٩ً وما يجلب النظر الدقيق قول المؤلف في ص ٣٦ : « ويزداد [الكلام] حسناً على مرّ السنين بتجلية الرواة ، وتنقية السراة » وضبطت هذه الكلمة بضم السين . والسراة بهذا الضبط جمع سارٍ . ونظن ان الصواب مع من يضبطها هنا بالفتح لتكون جمع سريّ ، وهو الجيد من كل شيء والسيد الشريف

٢٠ً وورد في تلك الصفحة قوله : « لما هطلت شآبيب الكلام ، وتدافقت سيوله » . قلنا : لا وجود لتدافق في كلامهم فضلاً عن ان المعنى يتطلب هنا التدفق ليدل على التصبب المتتابع

٢١ً وجاء في متن ص ٣٧ قوله : « فوجد طائراً يقال له « الشفانين » . والذي نراه ان الصواب هو « الشفنين » ليتسق مع قوله : « طائراً » وهو مفرد . اما الشفانين فجمع ، وهذا لا يمنع قول ذيالك المتبجج انهُ « شفاه من الانين » ، كأنهُ يزعم ان الشفنين منحوت من شفاه الانين . على انهُ لو قال قائل : ان الشفانين اقرب الى « شفاء الانين » فهذا صحيح ، لكن لا توجيه لهُ كالتوجيه الذي يحرّر النحت والنحو معاً في قولك الشفنين

٢٢ً ومما يسترعي الانتباه ما جاء في نص ص ٣٩ فقد قال صاحب الرسالة : « والمعاني كلها ممثلة والكلام مشبعاً ولكن سياستهُ صعبة » . قلنا : ولا معنى في قولهِ : « ولكن سياستهُ صعبة » والذي نراهُ في موضعهِ قولك : « ولكن سياقتهُ » فينجلي المعنى ويتسق مع سابقهِ ولاحقهِ

٢٣ً ومن هذا القبيل ما جاء في تلك الصفحة نفسها اذ يقول ابن المدبّر : « وهي كاللآلئ المنظومة في اصدافها » . والذي نعهده ان اللآلئ « منضودة » في الاصداف ، اي مجعولة بعضها فوق بعض بلا نظام ، او « موضونة » اي مثنيَّة بعضها على بعض ومنضّدة فيها .

ولهذا يكون قوله « المنظومة » من مسخ النسّاخ

٢٤ وعلى الشارح في ص ٤٠ على قول المؤلف : « واما اللسان فهي الآلة » ما هذا صورتهُ : « أنّث الضمير مراعاة للخبر » — قلنا : ولا حاجة في صدرنا الى هذا التأويل . والصواب ان اللسان مذكر ومؤنث فأنث الضمير هنا على رأي من يعتبر الانسان انثى

٢٥ ومما نوجّهُ اليهِ نظر الشارح المبدع ما جاء في ص ٤١ إذ يقول المؤلف . « واللسان وان كان ذلقاً فصيحاً لا يعدو سامعهُ » فجاءت « ذلقاً » هناك « زلقاً » بازاي ، فانقلب المعنى ، لكن اي انقلاب !

٢٦ ومما يستحق ان يدقق النظر فيهِ قول المؤلف : « وفوض ذلك لابن عمهِ » . والمشهور عند الفصحاء في هذا الاستعمال ان يقال : « وفوض الامر الى ابن عمهِ » . ولعل لهُ عذراً من باب التخفيف اي من باب ورود اللام بمعنى « الى »

٢٧ وورد في ص ٤٥ : «ويكون في قواه (اي في قوى البليغ) فضل للتصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الالفاظ كل (التنقيح ، ويصفيها كل التصفية ، ويهذبها غاية التهذيب» . وعندنا ان الصواب هنا حذف «لا» السابقة ليدقق وينقح وحينئذ يتسق المعنى والمبنى مع سابقه ولاحقه

***

واختم نظراتي الطفيفة شاكراً للدكتور زكي مبارك عنايته باخراج هذه الطرفة بأحسن حلية مادية وادبية ، فجاءت تتهادى بين ايدي الادباء كأنها الغادة الحسناء ، بل البكر العذراء . وعسى اننا نرى عن قريب الطبعة الثالثة نقية من كل شائبة وليس ذلك بعسر على من وقف نفسه لخدمة اللغة والناطقين بها

بغداد في ٢٦ /٤/١٩٣٣ الاب انستاس ماري الكرملي

مؤلف مختار الصحاح

وقرنه

الى حضرة الاستاذ الكريم محرّر المقتطف ، قرأت في ص ١٣٦ من سنة ١٩٣٣ لمقتطفكم قول الشيخ عبد القادر المغربي :

« وقد ألّف الرازي كتابه هذا [أي مختار الصحاح] سنة ٧٦٠ للهجرة أي منذ ستة قرون » وأنا أرى هذا القول خطأ وأن الصواب « ٦٦٠ » هـ فالمختار يكون قد مضى على

تأليفه قراب « سبعة أقرن » لا « ستة » أما دليلنا على قولنا هذا فهو ما ورد في كشف الظنون ، فقد قال مؤلفه عن صحاح الجوهري « واختصره الشيخ الامام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي المتوفى بعد سنة (٦٦٠) وسماه مختار الصحاح ... وفي آخره: وافق فراغه عشية يوم الجمعة سنة ٧٦٠ » [١] فهذا التاريخ الاخير ، من زلة قلم المؤلف أو الناسخ على ما نرى ، والاول هو الصحيح بأدلة :

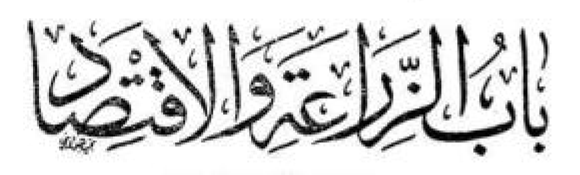
أولها : أن صاحب كشف الظنون ذكر في باب «غريب القرآن» ومن ألف فيه ماصورته «والامام زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي صاحب مختار الصحاح ، أوله : الحمد لله بجميع محامده الخ وفرغ من تأليفه في سنة ٦٦٨ [٢] » فكتابه هذا في الغريب ألفه بعد مختار الصحاح بـ «٨» سنوات

وثانيها : أن الكتب التي نقل عنها الرازي للاستدراك على الجوهري أو لاتمام الفائدة لم يتجاوز تاريخ مؤلفيها سنة «٦٦٠» الهجرية ، فقد ذكر «ديوان الادب» لاسحق بن ابراهيم الفارابي المتوفي سنة ٣٥٠ هـ في مادة «غل» و «كنى» و «شاء» و «خل و «سجن» و «سجل» و «رعد» و «خون» و «حضر» و «جنى» و «جز» و « أرب » وذكر الزمخشري في مادة «حمد» و «قصر» والهروي في «ريض» و «قصر» و «سوى» و «بس» ومصادر البيهقي في «بس» والمطرزي المتوفي سنة « ٦١٠ » هـ على رواية في « دلب » و « غل » و «كور» و « طهر » والمنهاج للاسرائيلي المتوفي سنة «٦٥٨» في مادة « ورد »

وثالثها . أن السيد البحاثة عبد الله مخلص ذكر في كراسته عن صاحب مختار الصحاح أنه كان من معاصري الصدر القونوي المتوفي سنة ٦٧٣ هـ

ورابعها : ان من العلماء المعاصرين لصاحب مختار الصحاح الوارد ذكرهم في آخر ورقة من الجزء التاسع من كتاب جامع الاصول المسموع بمدينة قونية ، رجل اسمه «قلمشاه» كما ذكر عبد الله مخلص ، وأقول انا : لقد ذكر ابن بطوطة في رحلته الى قونية سنة «٧٣٣» ما نصه « نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلمشاه [٣] » فهو ابن قلمشاه المذكور المعاصر للرازي وهذا يثبت ان قرن الرازي هو القرن السابع للهجرة ويستحيل معه بلوغه سنة «٧٦٠» هـ ، كيلا يكون عمره « ١٥٠ » سنة على اقل تقدير ، بله ان الادلة السابقة تحيل هذا اشد الاحالة ، واختلاف الناس في تاريخ هذا العلامة من سوء حظه فهو في ضياع تاريخه مثل « محمد بن ابي زيد القرشي » صاحب جمهرة اشعار العرب الذي كان قد ادرك القرن الخامس للهجرة ، ولما يعرف احد من المعاصرين زمانه غيرنا ، وذلك بعد النصب الشديد　　مصطفى جواد

(١) ج ٤ : ص ٩٤ من طبعة أوربة (٢) ج ٤ ص ٣٣١ من تلك الطبعة (٣) ج ١ ص ١٨٦ من طبعة مصر



صناعة الالبان بمصر

للاستاذ ماكفيترز بكلية اسيوط

٣

امتيازات صناعة الالبان

شرحنا في مقال سابق ، حاجة مصر العظمى الى محصول نقدي مكمل للقطن . وبينا ايضاً ان تفوق محصول البرسيم « البلدي والحجازي » كعلف للمواشي اللبونة يثبت بالبرهان القاطع ان صناعة الالبان هي المشروع الزراعي الذي يحل المشكلة ويسد الحاجة على احسن حال

وفضلاً عما ذكر ، هناك منافع اضافية تصحب صناعة الالبان جديرة بالنظر نذكر منها ، ان هذه الصناعة تفسح ميدان العمل لعدد كبير من الايدي العاطلة وتدر ايراداً منتظماً ؛ ثم انها من الصناعات التي تقل فيها مضاربات الاسواق الى الحد الغدرة ؛ علاوة على انها تمكن الارض من الاحتفاظ بخصوبتها

فتى تنظمت صناعة الالبان كما يجب ان تنظم، تصبح عملاً مجدياً لعدد وافر من المزارعين طول السنة ، ولكن اذا اقتصر المزارع على العناية بمحصول زراعي لم يتعد عمله المجدي اسابيع قليلة او بضع اشهر في السنة . ففي وقت البذر والحصاد يُساق بعنف ، ويكون عليه من الاعمال ما قد لا يستطيع القيام به كما يجب ، ولكن بين هذين الفصلين مدداً طويلة يصرفها في الكسل والتراخي وهذا مما لا تحمد عقباه من الناحية الاخلاقية او من ناحية كفاءته كعامل . ان البناء او النجار الذي لا يجد عملاً خلال نصف سنة قلما يقتني ثروة ، ولا يشعر بطمأنينة من جهة قوته او قوت عائلته . اذ عليه ان ينفق في وقت البطالة وفي وقت العمل ولا يتناول احد اجراً كاملاً اذا كان عمله يشغل نصف وقت العمل فقط . وهذا القانون الاقتصادي صحيح يسري على المزارع والاجير كما يسري على غيرهما من العمال . اما العامل في صناعة الالبان فان عمله موزع على ايام السنة بطولها ولذلك فاجره مستمر ، يستطيع ان ينظم خطة معيشته بمقتضاه فيصرف بحكمة ولا يضطر الى الاستدانة

ثم ان صناعة الالبان اقل الصناعات الزراعية عرضة لمضاربات الاسواق وتقلبات الاثمان

فان منتجاتها اطعمة ضرورية يحتاج اليها الناس وتستعملها كل الطبقات. وحتى في ازمنة الضيق لا يستطيع احد الاستغناء عنها استغناءً تامًّا . ولذا فان اثمان منتجاتها تتراوح تقلباتها بين حدين غير متباعدين زيادةً ونقصاً . وذلك مما يجعل صناعة الالبان وسيلة مثلى لتفريج الازمات الاقتصادية . وحتى تثبت ذلك نوجّه الانظار الى ما جاء في خطاب القاه حديثاً رئيس المجلس الوطني لصناعة الالبان بالولايات المتحدة الامريكية

قال « كان المستخرج من الزبدة في سنة ١٩٣٢ مساوياً لما استخرج في السنين ١٩٣١ و٣٠ و٢٩ ومع ذلك فقد استهلكت كلها ولم يتبقَّ منها الاَّ قدر مساوٍ لمتوسط المتبقي في الخمس السنوات الماضية ولا يزيد الاَّ قليلاً عمَّا تبقى من السنة الماضية سنة ١٩٣١ وقد استهلكت هذه المقادير من الزبدة ، مع اننا نجوز الآن ضيقاً ماليًّا ، وعجزاً في المقدرة الشرائية لم نرَ مثلها في كل تاريخنا » . ثم قال « قد نقص ايراد الزراعة من كل المحاصيل بما يقرب من ٦٠٪ ما بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٢٩ ولكن ايراد اللبن في نفس المدة زاد ٣٤ ٪ واذا بحثنا في سنتي ١٩٣٠ و١٩٣١ ، وهما من اشد السنين الزراعية عسراً عندنا ، وجدنا ان مجموع الدخل من كل المنتجات الزراعية غير اللبن قد نزل من ٩٦١٥ مليوناً من الريالات الى ٥٣٢٩ مليوناً اي بنقص ٤٤٫٦ ٪ عن منتجات سنة ١٩٢٩ . وقد نزل ايراد منتجات الالبان من ٢٣٢٢ مليون ريال الى ١٦١٦ مليون ريال اي بنقص ٣٠٫٤ ٪ ففي سنتي العسر الماضيتين كان النقص في دخل الالبان اقل من النقص في موارد الزراعة الاخرى بمقدار ١٤٫٢ ٪ »

وقال ايضاً « انهُ في سنة ١٩٢٥ كان دخل الالبان ١٤٫٥١ ٪ من مجموع دخل الزراعة وقد زادت هذه النسبة بانتظام من سنة الى اخرى الى آخر السنة الماضية سنة ١٩٣١ حيث بلغت الرقم العالي ٢٣٫٣٦ ٪ وارجو ان تلاحظوا انهُ في اثناء سنتي العسر ٣٠ و٣١ زادت نسبة المتحصل من منتجات الالبان زيادةً اسرع منها في اي سنة اخرى عدا سنة ١٩٢٩ »

ثم استنتج ما يأتي « ان نقص الدخل من منتجات الالبان في اثناء سنتي ٣٠ و٣١ بمقدار ٣٠٫٤ ٪ إذ قوبل بنقص الدخل من كل المحاصيل الزراعية الاخرى وهو ٤٤٫٦ ٪ ظهر ان صناعة الالبان فيها قوة مقاومة واستقلال ذاتي يكافحان ازمات كالتي نحن فيها الآن كفاحاً اجدى من كفاح كل فروع الزراعة الاخرى »

مما تقدم يتضح ان صناعة الالبان اقل عرضةً للتأثر بالازمات من اي الاعمال الزراعية الاخرى . وليس بخافٍ على احد ان زارع القطن معرض اكثر من غيره لتأثير الازمات . فاذا امكن ربط صناعة الالبان بزراعة الاقطان بني عليهما بناء وطني اقتصادي اقوى وابقى

ومع ما للاعتبارات السالفة التي اوجزنا في شرحها من الشأن فان اهم منها جميعها ، على ممر الزمن ، علاقة صناعة الالبان باستمرار خصوبة التربة . لان خصوبة التربة اساس استمرار

الثروة الزراعية . على ان خصوبة تربة ارض مصر قد بقيت قوية منذ العصور الخالية . ففي عهد الفراعنة كانت مصر تزخر بالغلال بينما نواحي العالم الاخرى تئن بالمجاعات . وبعد ذلك بمئات السنين كانت مصر ترسل سفنها المحملة بالغلال الى روما — سيدة العالم — بينما كان الرومان يكافحون فقر تربتهم عبثاً . وبالرغم من اجهاد الاراضي واستعباد الفلاحين والثورات والتقلبات السياسية — بالرغم من كل ذلك — فقد شذّت تربة مصر في انها لم تنِ ولم تضعف اذ دبّر لها رب الطبيعة نهر النيل الذي يكسو سطحها بطبقة خصبة جديدة من التربة كل سنة فتجدد شبابها بدلاً من ان تهرم

الا انهُ في السنوات القليلة الماضية قد غيّرت مصر ذلك النظام الطبيعي الذي سار من تلقاء ذاته الوف السنين ، جرياً وراء استعمال الطرق الحديثة في الزراعة ، ولا زالت هناك تغييرات اخرى منتظرة من هذا القبيل . وبناء على ذلك لم يعد هناك متسع من الوقت للتربة لان تكسوها طبقات الطمي الجديدة ولا ان تتمتع بفرصة الراحة حتى تشع عليها الشمس فتخزن فيها قوى الانماء بل على الضد من ذلك يتجه السعي الآن الى اجهاد الارض لتنتج محصولين او ثلاثة محاصيل في السنة . فلانحن حاولنا التعويض عن خسارة الطمي ولا حسبنا حساب اجهاد التربة . وحيث اننا غيرنا النظام الطبيعي القديم فالحكمة تقضي بان نحترس لئلا نضيّع كنز ثروتنا . فالتربة بنك لا نستطيع ان نسحب منهُ الى الابد بدون ايداع بدل لما يسحب حتى يتوازن الحساب

ولا يكفي في موازنة حساب اجهاد التربة ان نلجأ الى استعمال السمادات الكيماوية . فان المادة العضوية جوهرية كطعام للنباتات بل كطعام لجراثيم التربة — تلك الملايين من الخليات التي تعمل ليل نهار لصنع الازوت النباتي اللازم لاي محصول والذي بدونه تصبح الارض عقيمة بتاتاً

***

كثيراً ما نسمع ان زراعة القطن مضنية للتربة ، والواقع ان القطن من أخف المحاصيل على التربة اذا قسنا مقدار الغذاء النباتي الذي يستهلكه منها فان انتاج مائة رطل قطن وبيعها لا يستنزف اكثر من رطل واحد من الغذاء النباتي المتركب من ازوت وفصفور وبوتاس . وهذه خسارة لا يؤبه لها لا سيما وان بذرة القطن غنية بهذه الجواهر إذ ان كل مائة رطل من بذرة القطن تحوي نحو ثلاثة ارطال من الازوت ورطل وربع رطل من الفصفور وقدر ذلك ايضاً من البوتاس اي ٥ ½ رطل في المجموع . وليس كل هذا الغذاء يحويه زيت البذرة بل ان معظمه في بقايا البذرة بعد عصر الزيت منها . ومما يؤسف له ان هذه البقايا تباع الآن رخيصة للاجانب من صانعي الالبان الذين يربحون من اطعام هذه البقايا «الكسب» للبهائم

ثم يضيفون الى ذلك ربحهم من فضلات البهائم «الروث» التي تحوي كثيراً من هذه الاغذية باستعمالها كسماد يدنون به تربة ارضهم

قررنا ان القطن محصول لايفقر التربة كثيراً الاّ انهُ من المعروف انّ مواصلة انتاج القطن سنة بعد سنة في بقعة واحدة من الارض ينهك قواها ويكاد يقضي على انتاجها مما اكتشفه زراع القطن بالولايات المتحدة بعد فوات الفرصة . وسبب ذلك لا يرجع الى كثرة ما يأخذه القطن بل الى قلة مايتركه من المادة العضوية في التربة لتغذية جراثيمها لان جذور القطن ضعيفة وقليلة ، اضف الى ذلك سرعة تأكسد المخلفات النباتية في ارض الاقاليم الحارة التي يلزمها تجدُّد المادة العضوية لتغذية البكتيريا التي اسلفنا الاشارة الى ضرورتها في الانتاج الزراعي

وهناك نباتات تمد التربة بقسط وافر من المادة العضوية لكثرة ما تخلف من الجذور ، منها البرسيم وخصوصاً « الالفلفا » البرسيم الحجازي الذي تكون جذوره ، عادة ، أكثر تفرعاً واكبر حجماً من النبات الظاهر على سطح الارض . وعند ما تنحلُّ هذه الجذور ترجع كل مادتها العضوية الى التربة . ومع ان نباتات العلف هذه تستهلك من قوة التربة اكثر مما يستهلك القطن الاّ انهُ متى اكلتها الحيوانات فان معظم المادة الغذائية التي تكون في الظاهرة من النبات تعود الى التربة في شكل سماد . فمن كليهما — الجزء الخفي والجزء الظاهر — تستفيد التربة من نباتات العلف هذه

وغير ذلك هناك نفع اكبر يعود على التربة من البرسيم وغيره من الفصيلة البقلية وهو ان مقادير كبيرة من الازوت ، تستخلصها مباشرة من الهواء ، بواسطة عقد صغيرة تكثر في جذور هذه الفصيلة ، ثم تضيفها توّاً للمواد العضوية التي تغذي التربة . فان النباتات لا تجد الازوت خالصاً وان كان الازوت في شكل املاح او نترات من الزم اغذيتها . والنترات هي الجزء الذي ينقص تربة مصر نقصاً عظيماً وهذا النقص يكلف البلاد اكثر من ٣ ملايين جنيه كل سنة لشراء هذا العنصر الجوهري . ومع ذلك فان ⅘ الهواء الذي يحيط بنا هي من الازوت . فلم لا نوفر الفرصة للبكتيريا فنضيف مقداراً اوفر من هذا الازوت المجاني لتربتنا وهي في أشد الحاجة اليه ؟ لِمَ نفرط في أموالنا ونبقى تحت رحمة شيلي والنرويج بينما نحن ابداً ودائماً نسبح في في بحر من الازوت لا شواطىء له ؟ حقّاً ان العقل يقضي بأن النظام الامثل للزراعة في مصر يجب ان يحوي الاكثار من انتاج الفصيلة البقلية في توقيت محاصيلنا

هذا من الجانب النظري ، فماذا يمكن ان يقال عن الجانب العملي ؟؟ هاك تجربة : — لقسم صناعة الالبان بكلية أسيوط ، وقد اسلفنا الاشارة اليه ، خمسة عشرة فداناً من ارض الحياض قسمت الى ثلاثة أقسام تقريباً واتبع في زراعتها مدة الخمس السنوات الماضية نظام دوري ثلاثي وهذا النظام هو : في السنة الاولى فول يعقبهُ اذرة او شامي ، والسنة الثانية ربيع خليط

من البرسيم المسقاوي والحجازي (ويحش اثنتي عشرة مرة او يزيد في الزرعية)، والسنة الثالثة برسيم ترعاه البهائم في الحقل يعقبه قطن

ولقد ألقي على الارض بعض الروث قبيل زراعة الشامي وبعضهُ غُطّي بهِ البرسيم الحجازي بعد حشة من الحشات. وفي هذه الدورة يلاحظ ان محصولاً بقليًا يزرع كل سنة. وفي الوقت الحاضر نستعمل مقداراً من السماد الكيماوي اقل من السابق فقليل منهُ يرمى للفول وقد توقف ذلك عند ما يقدم العهد على التجربة، وقليل ايضاً يرمى للقطن اذ يكون صغيراً والطقس ابرد من ان يهيج البكتيريا للعمل

واذا قسنا النتيجة بالمحصول وجدنا انها تستحق الاعتبار لاسيما وان الدورة حديثة العهد، اذ انه مع قلة استعمال السماد الكيماوي وتوفير ثمنه تبعاً لذلك، فان المحصول يزيد نحو الثلث عما كان قبل الخمس السنوات الفائتة وبعبارة اخرى إن ثلاثة افدنة الآن تنتج فولاً او شامياً أو قطناً قدر ما كانت تنتجهُ اربعة افدنة سابقاً. مع العلم ان هذه الارض لم تكن رديئة منذ البدء ولا كانت منهكة القوى بل من ارض الحياض الجيدة. وبعد استعمال هذه الدورة بضعة سنوات اخرى يزداد مقدار الازوت في التربة ولا يبعد ان يكون محصول عشرة افدنة مساوياً لمحصول الخمسة عشر كلها قبل ذلك. وبعبارة اخرى اذا صرفنا النظر عن الاثنتي عشرة حشة من البرسيم التي هي السند الأكبر لمعمل الالبان، زادت ثروة التربة زيادة كبيرة بهذه الدورة الثلاثية المنتظمة. فنظام كهذا يحتفظ بخصوبة التربة بل يبنيها وينميها باستمرار هو ضمان لاستمرار الثروة الزراعية

٤ — مستلزمات النجاح

قدمنا ان من أهم مزايا صناعة الالبان انها تقدم عملاً متواصلاً وايراداً منتظماً وانها أقل عرضة من غيرها لتقلبات الاسواق وللازمات وانه بها يسهل الاحتفاظ بخصب الارض بل زيادتهُ. وفي هذه الاعتبارات نجد القطن ضعيفاً اذا زرع منفرداً فانه لا يقدم عملاً متواصلاً على مدار السنة ولا ايراداً ثابتاً فضلاً عن انه محصول معرض لتقلبات السوق ويستنفد خصوبة التربة بسرعة. فحيث صناعة اللبن قوية نجد القطن ضعيفاً ولذا فانها أصلح ما يمكن لتكميل زراعة القطن

وسنحاول الآن ان نبين الشروط التي يجب توافرها حتى تنشأ صناعة الالبان قوية ثابتة في مصر. ومن الواضح انه قبلما تدر هذه الصناعة الخير على مصر يجب ان توجد لها أسواق اجنبية ولا يكون ذلك الا بانتاج صنف له جودة كالتي تتطلبها الاسواق الاجنبية. اما المنتجات الحاضرة فلا تسترعي عناية ما في اي من هذه الاسواق. فلابدَّ من انشاء نظام تفتيش

وتصنيف دقيقين ويظل هذا النظام مرعيًا باستمرار . ثم يجب نشر دعاية متسعة النطاق لارشاد الناس في كل شيء من الحلب الى بيع المنتجات اللبنية . وفي كل هذه الخطوات يجب تنفيذ أدق الشروط الصحية والتنبيه على تحسين الصنف . ولا يظن احد ان المستقبل مظلم والرجاء في كل ذلك ضعيف فان هذا ما كان على الصانع الاجنبي ان يراعيهُ منذ ثلاثين سنة . ترك اصطبله المظلم غير الصحي بارضه الطينية او الخشبية وما يرافقه من الروائح الكريهة لانه وجد ان اللبن المنتج في هذا الوسط لا يمكن بيعه . ولولا أنه يخشى زيارات المفتش الكثيرة وغير المتوقعة لما واظب على تنظيف ارض اصطبله المرصوفة بالاسمنت . وما كان ليشتري أفضل انواع الاواني ويغسلها ويطهرها جيداً بعد كل مرة تستعمل فيها لولا انه يؤمل ان يزداد ايراده بسبب قلة البكتيريا التي توجد في اللبن عند الفحص . فتصبح النظافة والمحافظة على الشروط الصحية ضروريتين لتقدم العمل ورواجهِ

وليس المزارع هو الوحيد الذي يجب ان يدرَّب تدريباً كافياً ويشجع على انتاج اللبن النظيف ونقله بل ايضاً العامل في المعمل يجب ان يكون حاذقاً لصناعته ويكافأ ليتشجع فيأتي بأحسن ما عنده . فانه من الواضح ان منتجات الالبان ذات الصنف الجيد لا يمكن صنعها إلاَّ في معامل خاصة وبمقادير وافرة تسوغ توظيف اخصائيين واستعمال أحسن الآلات واحدثها . ويمكن ان تتضافر المعامل المتنوعة معاً في توزيع منتجاتها وبيعها . ويجب وضع كل المنتجات المعدة للتصدير تحت رعاية وتفتيش مفتش اما من قبل جمعية المعامل العمومية او من قبل الحكومة فتكون ماركة الجمعية او المعمل ضمانة لجودة الصنف

ولاعداد هذا العدد من المفتشين ومن الاخصائيين ومديري المعامل يلزم ان ينشأ قسم جديد للتهذيب والتدريب . وقد يمكن توجيه فكرة كثيرين من الشبان النابهين الذين يتمون دراساتهم الثانوية ثم يتزوون في قراهم بسبب قلة أبواب العمل ، الى هذا الجانب الجديد من الحياة الزراعية فيستعدون لهذه الصناعة

ويتوقف النجاح على امر آخر ضروري وذلك ان مصر يجب ان تربي او تجلب نوعاً أفضل من بهائم الألبان — بهائم لها قدرة على درّ لبن أكثر ولها مزاج صالح لذلك فتدر لبنها دون حاجة لاحضار عجولها تحتها كل مرة تحلب فيها . فان ضرورة حفظ العجول معظم السنة لهذا الغرض عقبة كأداء في سبيل تقدم الصناعة . وربما يكون من المتيسر انتقاء جواميس مصرية تمتاز بكثرة الادرار . ولكن ربما يقوم اعتراض في الاسواق الاجنبية على صنف المنتجات من اللبن الجاموسي

واستيراد مواشٍ اصيلة اجنبية معروفة بكثرة الادرار لا يخلو من صعوبات . اذ من الواضح انهُ ليس في المستطاع استيراد عدد كافٍ من الابقار الاصيلة لحلب ما يلزم من اللبن لهذه

الصناعة لما في ذلك من نفقات ومجازفة لا تسوغها التجربة . على انهُ لا بدَّ من استيراد عدد محدود من اضمن وأحسن الاصناف حتى يكون توالدها سبيلاً لاستمرار الصنف الاصيل. إلا انهُ اذا ادخلت فحول اصيلة مستوردة من مزرعة مضمونة يمكن تحسين النسل بها لدرجة فائقة واذا استمرَّ الحال زمناً يمكن تكوين قطعان نقية الاصل وعظيمة الادرار . ولا يخفى ان استيراد اصناف اصيلة او توليدها مع الاصناف البلدية امر لا يمكن ان يتم في يوم وليلة . اذ ان مثل ذلك العمل يستلزم خطة رشيدة محدودة تتبع بعناية ودقة ولذلك يحسن بالجمعية الزراعية الملكية او بالحكومة نفسها ان تبدأ هذه التجارب. وهناك امور كثيرة يجب على الفلاح المصري ان يتعلمها في توليد وتربية المواشي المدرة بل وفي العناية بالمواشي وطريقة اطعامها . فانهُ ، على وجه الاجمال ، لا يحذق العناية بالمواشي كما يحذق العناية بالحاصلات

واول ما يجب ان يعرفه الفلاح هو ان البقرة الكثيرة الادرار حيوان اختصاصي في ذلك ويعمل بكد فيه ولاجله ، وانهُ اذا قسنا ما يلزم من المجهود في هضم الطعام وتحويله الى لبن نجد انهُ يفوق المجهود اللازم لجر المحراث . ولذلك فلا ينتظر منها جر المحراث او القيام بمثله من الاعمال بدون خسارة شيء من الكفاءة في ادرار اللبن

وثانياً على من يبغي النجاح في العناية بمواشي اللبن ان يعرف قيمة انواع الغذاء . فان مجرد ملء معدة الحيوان ليس تغذية بالمعنى المعروف فان العلف لا يكفي ان يكون بحسب الاصول في المقادير التي يمكن هضمها بل ايضاً يجب ان تتوافر فيه النسبة الغذائية الواجبة. فالفلاح الاجنبي ، عادة ، تعترضه صعوبة من هذا القبيل لان العلف الذي يزرعه ينقصه المقدار اللازم من البروتين . وحتى يكمل هذا النقص فان عليه ان يبتاع اطعمة عالية الثمن ولكن مع وفرة البرسيم والالفلفا فان الفلاح المصري يتمتع بامتياز كبير اذ ان نسبة البروتين في هذه المأكولات هي النسبة المطلوبة تماماً. كذلك الفيتامينات والمعادن الضرورية متوافرة فيها . وكلما رغب الفلاح المصري ان يستعمل علفاً آخر كتبن الفول او زعازع الشامي عليه ان يعوض عن نقص هذه في البروتين بالزيادة في مواد الطعام الاخرى

ان بقرة الحليب لا تخلق شيئاً . هي ليست سوى معمل لتحويل المواد الخام الى المادة التامة الصنع . فكل غذاء يظهر في اللبن يجب ان يكون في طعام البقرة بل يجب ان يطعم البقرة اكثر مما يلزم للبن لان جانباً منه تستهلكه في الاحتفاظ بحياتها هي ، وما تحوله لبناً هو الجانب الذي يزيد عن حاجتها في اعالة نفسها . ان الفلاح المصري لا يعلف الطعام بغير حساب بل ان عنده نظريات خاصة من جهة الاقتصاد في اطعام مواشيه. ويغلب على الظن ان اكبر درس يجب عليه تعلمه هو ان نجاحه يتوقف ليس على «ما هو اقل مقدار» بل « على ما هو اكبر مقدار » يمكن اطعامه للحيوانات المدرة بدون الحاق الضرر بها . فلا يكون جل امله

«ان يبقي على حيواناته حية» بل بالحري يعمل على زيادة موادها الغذائية بحيث تبلغ صغارها حد النمو الكامل بسرعة وتواظب كبارها على كثرة الادرار . فكل ربحه هو في زيادة الغذاء الذي يتبقى بعد ان تستهلك البهائم ما تحتاج اليه لحياتها

سبق وقلنا ان البرسيم طعام موزون كاف لحيوانات الادرار . ولكن يجب التنبيه انه اذا كانت البقرة عظيمة الادرار فلا يكفيها البرسيم وحده لانها لا تستطيع ان تلتهم وتهضم مقداراً منه كافياً لبقائها صحيحة والمقدار الوافر من اللبن الذي تدره . لذلك يلزم ان تعطى مقادير اخرى من الحبوب المركزة القوى والتي تحوي عناصر الغذاء بوفرة ، مع البرسيم . وبالجملة يلزم صبر عظيم وخبرة كافية لمن يبغي النجاح في صناعة الالبان اكثر مما يلزم منها لمن يبغي فلاحة الارض

حقا هناك صعوبات في طريق التسليم بفكرة صناعة الالبان ، صعوبات لا يمكن اغفالها او نقص خطورتها ولكنها صعوبات ليس مستحيلاً التغلب عليها بل انها ، في طبيعتها ، سطحية ووقتية . ومن الوجهة الاخرى ان امتيازات صناعة الالبان في مصر وضرورتها الاساسية للنظام الاقتصادي — هذه الامتيازات — في طبيعتها : مهمة ومستديمة

منذ ٦٠ سنة ، وجدت الدانمارك نفسها تعاني صعوبات عظيمة — والدانمارك بلد لا يزيد في المساحة عن الجزء الخصب في مصر . وكمصر هي بلد اهم موارد ثروته الزراعة . فخصوبة ارضها كانت تنحط بسبب تكرر انتاج الحنطة منها وحنطتها انحط ثمنها بسبب اغراق الاسواق بالحنطة الواردة من سهول امريكا وروسيا الواسعة . واستمرت الدانمارك تكافح مكافحة المغلوب على امره الى ان اتيح لها ان تتجه نحو صناعة الالبان وعندئذ استعادت خصوبة ارضها فصار انتاجها ونظام اسواقها موضوع حسد تلك الممالك التي كانت السبب في اخراجها من سوق الحنطة . وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »

وكما ان الجزء الاكبر من صادرات مصر ينحصر في القطن صار الآن الجزء الاكبر من صادرات الدانيمارك منحصراً في مستخرجات الالبان . والمطلع على الكتاب الاقتصادي السنة Statesman's Year book يجد موازنات هامة نذكر منها ان صادرات الدانيمارك في سنة ١٩١٣ او سنة ١٩٢٦ افضل سني الرخاء وفي سنة ١٩٣١ سنة الازمة كانت على التوالي ٤٠ مليون جنيه ثم ½ ٨٣ مليون ثم ٧٣ مليوناً . وكان ما يقابل ذلك في مصر ½ ٣٢ مليون ثم ٤٤ مليوناً ثم ٢٩ مليوناً . فكان نقص مجمل صادرات الدانيمارك في سنة ١٩٣١ عنهُ في سنة الرخاء سنة ١٩٢٦ بنسبة ١٢ ./. لا غير بينما كان في مصر بنسبة ٣٤ ./.

ومع ذلك فالامتيازات الطبيعية المغرية بادخال صناعة الالبان في مصر تفوق تلك في الدانمارك بمراحل . ولا يتبع ادخال هذه الصناعة في مصر ان تُهجر زراعة القطن بل انها

تسيران معاً على اوفق سبل التعاون . فان حاجة العالم الى مستخرجات الالبان ، حتى في سني الازمة ، في ازدياد متواصل. فلا زال هناك متسع في سوقها ولمصر باب مفتوح واسع — باب يزيد رغد الفلاح، ويدبر عملاً رابحاً مستديماً لشبابها الناهض ، ويؤدي الى اتزان في ثروتها القومية ، هو باب لزراعة أسمى وأبقى — افتدخل مصر هذا الباب ؟

تسمين الماشية للذبح

يقول الاستاذ مكفيترز في مقالته صناعة الالبان بمقتطف مايو ان اقتراح «زيادة اهتمام مصر بتربية الماشية حتى تتمكن من سد كل حاجتها الى اللحوم وربما يصدّر بعضها الى الخارج يحملها على منافسة ارض ارخص جدًّا من ارضها هي ارض المراعي بالارجنتين وكذا اوستراليا — الى ان يقول — وبين كل هذه الاقتراحات التي يقصد بها تخفيف الضغط عن الزراعة بمصر لم تذكر صناعة الالبان سوى همساً وعلى ذلك فان الالبان وما يصنع منها هي موضوع اقتراحنا الذي نريد التوصية به كمصدر دخل لمصر مكمل للقطن»

ومعلوم ان صناعة الالبان تقوم بتربية مواشي اللبن وهي كتربية مواشي اللحم تقوم على زراعة زروع العلف وما يجوز على احد المثلين يجوز على الآخر واذاً فترجيح الاستاذ فائدة صناعة الالبان على انتاج اللحوم ترجيح بلا مرجح

المشاهد عمليًّا ان انتاج اللحوم صار الآن بعد رخص اثمان الحاصلات الزراعية اربح من انتاجها هي فقد انحطت اثمانها عما كانت عليه قبل هذا الرخص من ٦٠—٧٠ ٪ حالة ان ثمن اللحوم لم يرخص الا بنسبة ٢٠—٢٥ ٪

في العام الماضي كانت نتيجة تربية العجول عند احد الزراع كما يلي ٢٧٠ قرشاً متوسط ثمن العجل الواحد ١٥٠ قرشاً كلفته في ٦ شهور وكسور من مؤونة وخدمة . نتج منهُ سماد بـ ٢٥ قرشاً وبيع العجل بـ ٥٥٠ قرشاً فالربح ١٥٥ قرشاً او ٥٧٫٥ ٪ من ثمنه

يزيد على هذا الربح (١) تصريفنا جانباً من محصول ارضنا وهو هنا البرسيم والدريس تصريفاً سهلاً رابحاً (٢) تخصيب ارضنا بزراعة البرسيم وبالسماد الناتج من العجول تخصيباً يغنينا او يقلل حاجتنا الى استيراد الاسمدة المعدنية من الخارج

ولا شبهة في انهُ مع الاكثار من تربية العجول يرخص ثمن اللحم فتقل نسبة الربح عما ذكرنا آنفاً ولو قلت الى ٦ ٪ (ستة) لكانت افيد من سائر منتجاتنا الزراعية خصوصاً انها تكون مع تصريف المحصول وتخصيب الارض كما اشرنا قبلاً وايضاً توفير اللحوم للجمهور بثمن رخيص فيكثر من استهلاكها والاستفادة بالتغذية منها

احمد الالفي



العرض عند عرب الجاهلية

L'Honneur chez les Arabes avant L'Isla m
I dition Adrien Maisonneuve Paris.

بحث اجتماعي فلسفي — للدكتور بشر فارس

هذا الكتاب مؤلف فلسفي وبحث عربي معاً . عالج فيه المؤلف عرب الجاهلية فخرج ببحث اجتماعي من الطبقة الاولى . ففي مقدمتهِ بيَّن الطريقة التي اتخذها في تأليف الكتاب وهي طريقة البحث الاجتماعي ولكنه لم يجرِ على طريقة المقابلة اي انهُ لم يتخذ موضوع العرض وقابل بين مظاهرهِ وعناصرهِ في مدنيات مختلفة ، وانما اكتفى بأن يحصر بحثهُ في عرب الجاهلية ، لان لكل مدنية ، او لكل امة ، ميزات خاصة في اوضاعها الاجتماعية ، تتجلى فيها نفسيتها . ثم هو بعد ذلك عيَّن الشعب الذي يعالجهُ ، اي عرب الجاهلية ، في الزمان فبين ما هو عصرهم ، وفي المكان فبسط ماهي البيئة المادية التي كانت تحيط بهم. ثم نحّى عن المصادر التي استقى منها كل ريبة في صحتها ، لانها بعضها لا ينظر اليه المستشرقون نظر ثقة . وناقش الدكتور طه حسين في قوله انهُ لا يمكن الاستناد الى الشعر الجاهلي في معرفة قوام الحياة الجاهلية ، فأثبت انهُ يصح الاعتماد على معظم الشعر الجاهلي ، سواء أصحيحاً كان ام منتحلاً ، لان الذين انتحلوا الشعر وضعوهُ مقلدين الشعراء الجاهليين التقليد التام

اما الفصل الاول فيعرض فيهِ المؤلف لتحديد معنى العرض عند العرب ، مفرّقاً بين العرض وبين الفروسية ، ثمَّ بينهُ وبين المروءة . وبحث بعد ذلك في الصفات الخارجية التي يتصف بها العرض ، مستنداً الى الاصول ، وخرج من بحثهِ بأن صفات العرض الخارجية هي الذم والمدح

وفي الفصل الثاني حلّل عناصر العرض معتمداً على صفتيهِ الخارجيتين اللتين ذكرنا. فكل ما يجلب المدح هو عنصر من عناصر العرض . وكل ما يبعث على الذم هو عنصر من عناصر الفضيحة . وتبدو عناصر العرض في الجماعة اذ تفاخر بعددها وشاعرها وخطيبها ، وفي الاسرة اذ تباهي بابنائها وفي الفرد اذ يتفاخر بالانتساب الى جماعتهِ . وثمة عناصر اخرى كاباء الضيم والشجاعة والحرية والاخذ بالثأر وعفة المرأة والسخاء وغيرها ، وهي من عناصر العرض التي تشترك فيها الجماعة والاسرة والفرد جميعاً او بعضها دون البعض الآخر

وفي الفصل الثالث علل عناصر العرض كما بسطها . ولكي يتمكن من ذلك عني بدرس حياة العرب الاجتماعية ، قبل الاسلام ، والحرب من اظهر مظاهرها فخرج بالنتيجة التالية وهي ان كل مجلى من مجالي الخيبة في الحرب او كل مظهر من مظاهر الاستعباد ، يذل العربي ويفضحه ، فالذل نقيض العزة ، لانهُ يتضمن معنى الضعف . واذن فالذل شريطة الفضيحة ، حالة ان العزة ركن العرض . واذن فكل ما يعتبر باعثاً من بواعث الذل يصبح عنصراً من عناصر الفضيحة . وكل ما يتخذ أساساً للعزة يحسب عنصراً من عناصر العرض . والخلاصة ان عناصر العرض هي اركان العزة — المادية والمعنوية — حالة ان عناصر الفضيحة تفتُّ في العزة وتوهنها . وبعد وصول المؤلف الى هذه النتيجة المدعمة بالأسانيد، بيَّن عناصر العرض المتصلة بالعزة المعنوية من ناحية وبالعزة المادية او القوة كعدد القبيلة وشدة ارتباطها الاجتماعي من ناحية اخرى

وبعد ان حلَّل المؤلف العرض هذا التحليل البديع، وارجعهُ الى أصلهِ ، بيَّن وظيفتهُ الاجتماعية . فهو في رأيهِ كان يحلُّ عند عرب الجاهلية محلَّ الدين اذ يبعث فيهم في فترات متعاقبة ، ذلك الاحساس القويَّ بالحياة المليئة اذ تتسامى العواطف ويشتدُّ الشعور . وهو يثبت قبل ذلك ان الدين عند عرب الجاهلية عجز عن استثارة هذه الناحية من الحياة الاجتماعية . واحصى أسباب ذلك . فالدين في رأيهِ — عند عرب الجاهلية — وبحسب النصوص التي اوردها كان ضئيل المنزلة ولا شأن لهُ بالاجمال ، في حين ان العرض كان مقدساً عنيفاً ولهُ نتائج خطيرة الاثر في الحياة الاجتماعية . وعلى كلٍّ فالعرض لم يحلَّ محلَّ الدين الاَّ في وظيفتهِ الاجتماعية — اي ان العرض كان باعثاً على اجتماع العرب حيناً بعد حين، فيحيون بأتم تلك الحياة الاجتماعية المليئة التي لم تعهد في الاجتماعات الدينية

وقد اثبت المؤلف في خاتمة الكتاب اموراً تحسب جديدة عن المستشرقين . فبين (اولاً) ان العرب ما كانوا يعيشون معيشة الفوضى لانهم كانوا خاضعين في حياتهم لمبدإ معنويّ هو مبدأ العرض . وبين (ثانياً) ان العرب في خضوعهم للمبدإ المتقدم لم يكونوا شعباً ماديًّا . و (ثالثاً) انهم لم يكونوا شعباً فطريًّا ، مع ان حضارتهم لم تتميز بادواتها ومستنبطاتها ، بل تميزت في ناحية الاوضاع الاجتماعية . و (رابعاً) ان العرض ، كمبدإ معنوي ، كانت لهُ آثار عظيمة ، فهو مردُّ الصفات الذهنية والادبية التي اتصف بها العرب ، والاوضاع الاجتماعية مثل « العقود » و « الملك الخاص » و « احترام الحياة الانسانية »

هذا هو موضوع الرسالة التي تقدم بها بشر فارس الى جامعة السوربون ففاز بلقب دكتور في الآداب . وقد عمد في تأليفها الى مراجعة نحو مائتي مجلَّد اكثرها من الاصول العربية نفسها ، في الشعر الجاهلي والمخضرمي والاخبار المتعلقة بالجاهلية وصدر الاسلام والامثال

والقرآن الكريم والحديث والسير وكتب التاريخ والمعاجم ، وبعضها للمستشرقين او لعلماء الاجتماع . واما المستشرقون فقد ذكرهم لكي يبين من منهم يتفق معهُ في الرأي ومن منهم يخالفهُ فيناقشهُ في الرأي وأسانيده

والرسالة حافلة بالاقوال والاحكام المتعلقة بحياة العرب الاجتماعية في الجاهلية . وفي كثير منها مناظرات طريفة . فهو يناقش ، والاسانيد في يدهِ ، آراء بعض المستشرقين الذين يقولون بالنزعة الفردية عند العرب ويقيم ازاءها نزعة التكاتف الاجتماعي . وثمة اكثر من مسألة واحدة لا يتفق فيها المؤلف مع المستشرقين . ولعلَّ مخالفتهُ لآراء الأب لامنس من أشهرها . فهو يناقش أدلتهم الفلسفية ، ودروسهم اللغوية ، وبعض آرائهم في العرب

والخلاصة ان الدكتور بشر فارس قد اخرج مؤلفاً جديد المنحى في المباحث الشرقية لانهُ دخلها من باب علم الاجتماع . ويسرنا ان المؤلف يعنى الآن بنقل كتابهِ الى العربية

فن الصحة

الجزء الاول في الصحة العامة والبدنية تأليف الطبيب الجراثيمي احمد حمدي الخياط
استاذ فن الجراثيم وعلم الصحة — في المعهد الطبي العربي بدمشق

صحة الامة ، في المقام الاول بين مصادر ثروتها الطبيعية والروحية . لان الامة التي تملك المناجم الغنية ، والسهول الخصبة ، والانهار الجارية ، لا تستطيع ان تستغل هذه المواد إلا اذا صح ابناؤها اجساماً وعقولاً . فاذا كانت الامة مصابة بأمراضٍ متوطنةٍ في بلادها ، او اذا اهملت ابسط اسباب العناية بصحة الجسم ، استنزف ذلك من نشاط ابنائها وبلد من عقولهم فلا هم يستطيعون استنباط الوسائل اللازمة لاستغلال ثروة بلادهم ولا هم يستطيعون الصبر على تطبيق الوسائل اذا نقلوها عن غيرهم من الامم

وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان حضارة امة باكملها بادت ، لان جراثيم البرداء (الملاريا) رتعت في دماء ابنائها زماناً طويلاً . ولو انها عرفت ابسط قواعد الصحة العامة لنزحت المستنقعات التي يتولد فيها البعوض الناقل للبرداء ولنجت من الوهن والاضمحلال

لذلك رحبنا بهذا الكتاب النفيس الذي وضعهُ الطبيب احمد حمدي الخياط . وفصل فيهِ قواعد الصحة العامة البدنية ابلغ تفصيل . فابوابهُ منسقة ، وفقراتهُ مبسطة المعاني موضحة الاغراض بالصور الكثيرة التي يشتمل عليها الكتاب . ثم ان اسلوبهُ العربيُّ دقيق المنهج ، بليغ العبارة ، قريب التناول ، عمد فيهِ المؤلف الى المصطلحات الطبية العربية بدلاً من تعريب المصطلحات الغربية . فقد اطلق على « الفيتامينات » لفظ « المحرّضات الحيوية » او «الحيويات» وعلى « البكتيريولوجي » لفظ « الجراثيمي » وعلى «الديسنطاريا» لفظ « الزحار

التحولي » واطلق «المضمون» على « البيتون » . ولكن الالفاظ الفنية التي من هذا القبيل قليلة لا ترهق الرجل — او السيدة — الذي لم يتعمق في أصول الطب في خلال مطالعة الكتاب بل على الضد من ذلك نقول ان القارىء يستمتع في مطالعته بما يجده في فصوله من الارشادات العملية في شؤون حياته اليومية . وهذا الجزء قسمان فالاول للصحة العامة وهو يتناول الارض والهواء والماء والغذاء والمسكن والملبس . والثاني للصحة البدنية ومداره صحة الاجهزة البدنية ، كصحة الجلد والنظافة والاستحمام والملابس ، وصحة اعضاء الحركة وما يرتبط بذلك من الرياضة ، وصحة جهاز التنفس — الأنف والحنجرة والرئة ، وصحة أجهزة الدوران والهضم والدماغ والاعصاب بوجه عام

في التربية والتعليم

تأليف احمد فهمي العمروسي بك — صفحاته ٣١٨ قطع المقتطف — ثمنه ٤٠ قرشاً

الاستاذ احمد فهمي العمروسي بك من اكبر رجال التربية الذين اعدوا هذه النهضة العلمية في مصر وهو من اشهر رجال وزارة المعارف في هذا العصر فقد تخرج من مدرسة المعلمين التوفيقية عام ١٨٩١ ومن ذلك التاريخ وهو يعمل في سلك المربين آناً مدرساً وآناً ناظراً او مديراً ادارياً حتى هذا العام ١٩٣٣ فلا عجب اذا كانت آراؤه في التربية تعد من أسدّ الآراء التي يجدر بكل مرب ان يطالعها وأن يستعين بها . لذلك لا يسعنا الاّ إطراء مجلة « المعرفة » على اهتمامها بجمع محاضرات الاستاذ العمروسي ورسائله واذاعتها في كتاب تقدمه لقرائها هدية سنوية عن عامها الثاني . وقد توج هذا الكتاب بكلمة غالية من كلمات صاحب الجلالة الملك كما حلي برسم جلالته ورسم ولي العهد وصورة وزير المعارف. وقد كتب صاحب المعرفة مقدمة لهذا الكتاب لخص فيها ترجمة حياة المؤلف ونوه فيها بفضله تنويهاً يقرهُ عليه كل مثقف ولا يكاد ينكره احد . وعدا هذه المقدمة المفيدة ففي الكتاب اربعة عشرة محاضرة في اهم الموضوعات والاغراض التي يحتاج اليها المربون وقد زينت اكثر هذه المحاضرات بالرسوم التي توضح اغراضها وتساعد على فهمها مما جعل هذا الكتاب اشبه بالمتحف الجميل

شرح التكميل لخاتمة التسهيل

نظم العلامة الجليل الشيخ محمد بن محمد بن احمد بن عبد الغفار باكثير الحضرمي منظومة في فن الخط العربي ورسم الكلمات وجاء الاستاذ الجليل السيد عبد الله بن محمد بن حامد السقاف العلوي مفتي حضرموت فوضع لها شرحاً وافياً بين به غامضها ، واستدرك ما شذّ فاستوفى بذلك اغراض الناظم وزاد عليها

الفلسفة في كل العصور

وفلاسفة الادهار

تأليف حنا خباز — صفحات الاول ٣٠٠ صفحة — صفحات الثاني ١٠٠ صفحة

نشرنا في مقتطف يونيو فصلاً في ديكارت ، اقتطفنا فقراتهُ من هذين الكتابين . وذكرنا الطريقة التي جرى عليها المؤلف في تأليف الكتاب . ذلك انهُ اختار أشهر الكتب التي وضعت في تاريخ الفلسفة مثل مؤلفات لوز ومارفن وروجرز ودرايبر وتلي واردمن وغيرهم . واختار من هذه المؤلفات الفقرات التي تدور حول موضوع واحدٍ وتجلوهُ . وترجمها او لخصها واسندها الى صاحبها . فكتابهُ ، اذا كان النقل اميناً والاختيار صائباً ، خلاصة طيبة لهذه المؤلفات النفيسة . ونحن لا نملك كلّ هذه المؤلفات ، ولا الوقت لمراجعة ما نقل وكيف نقلهُ . وانما نعلم ان طائفة من ثقات المشتغلين بالفلسفة في مصر راجعوا فصول الكتاب وامدّوا المؤلف بآرائهم ، وهذا جلّ ما يستطيعهُ مؤلف لتأدية الامانة العلمية حقّها

والكتاب جزآن فالاول يشتمل في قسمهِ الاول على تاريخ الفلسفة من بدء ظهورها الى نهاية المدرسة الفلسفية باثينا في سنة ٥٢٩ ب . م . اما القسم الثاني فيتناول الفلسفة في القرون الوسطى . والجزء الثاني افرد لتاريخ الفلسفة في العصور الحديثة

ولهذا الكتاب ميزتان ظاهرتان . الاولى عدم الدعوى . فالمؤلف يعترف في مقدمتهِ بأن ليس لهُ في هذا الكتاب الاّ الاغلاط . وبعضهم يعمد الى هذه الحيلة ليجرّد الناقد من سلاحهِ ولكننا نعلم حقّاً ان المؤلف يعترف بانهُ طالب علم ، فقولهُ المذكور في مقدمتهِ صادر من صميم نفسهِ . والصفة الثانية انهُ مجرّد في تصنيف كتابه عن النعرات القومية والجنسية والسياسية والدينية بل عن النعرات الفلسفية فانهُ لم يرجح رأياً ولم ينتسب الى مدرسة فلسفية بعينها . فالقارىء يطالع اقوال الفلاسفة وآراء اشهر مؤرخي الفلسفة فيها

وليس الكتاب تراجم الفلاسفة بل تاريخ الفِكر الفلسفية . فقد اوجز في سير الفلاسفة واسهب في شرح مذاهبهم وآرائهم ، ولاسيما كبارهم الذي دعاهم فلاسفة الادهار فهم ثمانية ضمّ اليهم فيلسوفين من فلاسفة الاسلام هما ابن سينا وابن رشد ، وجمع ما كتبهُ عنهم في كتاب على حدة في نحو مائة صفحة

فالكتاب محاولة طيبة لوضع تاريخ للفلسفة باللغة العربيـة . وما زلنا لا نجد من المشتغلين بالفلسفة من يتصدّى لتأليف مثل هذا الكتاب وبسط المذاهب الفلسفية وتطورها وتلاقحها فلعلّ خير سبيل الى الفوز بما نريد هو السبيل الذي سلكهُ الاستاذ خباز

فنحن نحث الخاصة من متأدبي العالم العربي على اقتناء هذا الكتاب النفيس . فالفلسفة اساس لكل نهضة فكرية صحيحة و « الامة — قال ڤولتير — متى بدأت تفكر فقد بدأت تحيا »

كتاب الفلاحة لابن العوام

وضع هذا الكتاب الشيخ الفاضل ابن زكريا يحيي بن محمد بن أحمد بن العوام الاشبيلي في القرن الثاني عشر عن مختلف المباحث الزراعية (من زراعة وبساتين وحيوان) ورغم قدمهِ فانهُ ما زال حجة في كثير من الامور وبلغ من تقدير العلماء لهُ أن اهتمت الحكومة الاسبانية بطبعهِ على نفقة المكتبة الملكية بمدريد عام ١٨٥١ باللغة العربية مع ترجمته الاسبانيولية كما ترجم الى اللغة الفرنسية وطبع مع النص العربي سنة ١٨٦٤ ونشر لهُ تلخيص بالالمانية

وقد جاء عن هذا الكتاب في قاموس لاروس الشهير ما ترجمتهُ: « هذا الكتاب شيق عظيم الخطر ويحتوي على احسن المعلومات الزراعية المعروفة عن مختلف الشعوب في العصر القديم والقرون الوسطى وفيهِ اسانيد من أكثر من مائة كاتب يوناني ولاتيني وكلداني وفارسي ومغربي وعربي اسباني »

ويقع الكتاب المذكور في جزئين من الحجم الكبير وتبلغ صفحاته ١٤٥٤ صحيفة بما فيها الفهرست

ولما كان هذا الكتاب في الواقع ذخيرة تاريخية عظيمة القيمة فضلاً عن قيمته من الوجهة العلمية خصوصاً من وجهة المصطلحات الفنية التي يتخبط الكثير في استنباطها مع انها موجودة في مثل هذا الكتاب فان من واجب مصر بصفة كونها بلاداً زراعية وبحكم مركزها في زعامة العالم العربي أن تعمل على اعادة طبع هذا الكتاب القيم النادر الوجود

وقد أخذت جمعية خريجي مدرسة الزراعة بالجيزة على عاتقها هذا العمل وعضدتها الجمعية الزراعية الملكية في مهمتها هذه فتبرعت لهذا الغرض بمبلغ مائة جنيه وان هذه المنحة من الجمعية الزراعية وعلى رأسها سمو الامير الجليل عمر طوسون لدليل قوي على مثابرتها في تعضيد النهضات الزراعية للبلاد ايًّا كانت مناحيها. وان اعانتها في طبع هذا الكتاب تقدير قيم للمباحث النفيسة التي احتواها وللكاتب العربي الذائع الصيت الذي وضعه في عصر كان فيهِ العالم الغربي ما زال مغموراً في جهالتهِ

وتود جمعية خريجي مدرسة الزراعة الوقوف من حضرات الباحثين فيما ترك لنا السلف. هل كان لهذا الكتاب نسخ خطية في مصر وهل ترجم الى لغات اخرى غير الاسبانيولية والى اي اللغات ترجم . ويهم الجمعية ايضاً استيفاء المعلومات الخاصة بمؤلف هذا الكتاب حتى يمكن الاشارة الى هذه الموضوعات في مقدمة الكتاب

وللجمعية كبير الامل في ان يتفضل من كان عنده معلومات في هذا الموضوع بموافاتها بها او نشرها على صفحات الجرائد حتى يمكن الرجوع اليها

الورد الابيض

مجموعة اقاصيص مصرية وصور من الفن القصصي الحديث بقلم محمد امين حسونة
٢٣٥ صفحة من القطع المتوسط

تفضل المستر باكستون الاستاذ بالجامعة المصرية بالتمهيد لهذه المجموعة من الاقاصيص المصرية فاشار في اول مقدمته الى اقصوصة « في الواحة » فكان اول ما اتجه نظري الى هذه القصة فقرأتها بشغف ولذة لانها في الواقع قصة مصرية كاملة تظهرنا على اوجه عديدة من الانقلاب الفكري الحديث في مصر . فبطلها عربي صميم تعلم في انجلترا وفتاتهُ أمريكية نشأت في الدنيا الجديدة . وفي هذا فكرة طريفة في ان الشرق والغرب قد يلتقيان ان لم يكن في عالم العمل ، فعلى الاقل في عالم الانسانية التي تشترك احاسيسها ومراميها النفسية العليا التي لا يمكن ان يفرق بينها اعتبار من الاعتبارات التي اقامها الغربيون بين الشرق والغرب في العصر الاستعماري الحديث خدمة لمآرب التجارة والسياسة الانتاجية

ولقد رأيت في هذه القصة ترابطاً بين حوادثها وتسلسلاً في فكرتها لم اشهده في قصة اخرى من قصص الكتاب . فالقصة الاولى « الورد الابيض » تحتاج الى كثير من حسن التخلص في مواقف كثيرة . فان القارىء يشعر بكثير من التمحل في الانتقال من حادثة الى اخرى ومن موقف الى آخر ، كان من الممكن ان يتلافاه المؤلف بقليل من الاسترسال في الوصف ، او الاستطراد في التعبير عن الحالات النفسية التي تلابس ابطاله

اما الظاهرة الغريبة التي لحظتها في هذه القصص فغرام المؤلف بقتل بطلاته . فترك كوثر في قصة الورد الابيض في قرافة الامام الشافعي . وترك ماري في قصة « الواحة » دفينة بين الرمال لا يعرف لها احد مقرًّا . وترك « فبي » على فراش الموت . وهو ليس اقل غراماً بقتل ابطاله . فقتل منهم عدداً لا يستهان بهِ . وكم شعرت بكثير من الاسف والاسى على قتل ماري في قصة الواحة ، وكم كنت ارغب في ان يعود عدنان من رحلتهِ فيلتقيا ويعيشا عيشة سعيدة تحت النخيل وفي ظلال السرو والحور ، وبين غدران الواحة الخصيبة . ولا اعلم لماذا يقتل الاستاذ حسونة هذه الفتاة الغضة الاهاب من غير ان يكون في حاجة الى قتلها . والحياة فيها كثير من خيبة الامل ، وما كل خيبة امل تفضي الى نبذ الحياة وصرم حبلها والا فأي وزن يقام لمعاني الرجولة والارادة والامل التي يسمو بها فوق سخرية الحياة وجورها

ولو عني المؤلف قليلاً باسلوبه لاضاف الى قصصه روعة جديدة . فقوله مثلاً « واخذت دقات قلبه تثب في عنف وقوة » ص ١٩ ، وقوله « وقد اظلمت في وجهها غياهب الكون كله » ص ٥٠ وقوله « يتبع كل منهم اثنان او اكثر من الخدم النوبيون » ص ٥٦ وغير ذلك ، يدل على افراط في عدم العناية بالدقائق اللغوية والنحوية والبيانية ، كان من الممكن ان يتلافاه المؤلف بقليل من العناية

***

الشعلة

مجموعة قصائد — للدكتور احمد زكي ابي شادي — صفحاته ١٣٦ حجم ابولو — طبع بمطبعة ابولو وثمنه ٥ قروش

ذكر الدكتور ابو شادي في تصدير طريقته في نظم الشعر قال : « ... وكل ما اعرفهُ ان العاطفة تجيش في نفسي ... لأثر او كائن يغالبني فلا البث بعد زمن طويل او قصير ان اردّد صدى وقعهِ في قلبي بنغمة من النغمات ارتجالاً او رويّاً ، بسرعةٍ او ببطءٍ ، حسب فيضهِ وقوة ذلك الفيض . وربما كان الوقت الفاصل بين عامل التأثير وقرض الشعر من أثر ذلك الايحاء مديداً . وربما كان وجيزاً ، وكذلك وقت النظم ذاتهُ . وعندي انهُ لا يعني الفن شيءٌ من ذلك وانما يعنيهِ قيمة الأثر الفنّي وحدهُ الذي يخرجهُ الفنّان . واذا كنت سريع النظم اعتياداً فالحقيقة ان الزمن الذي أصبّ فيهِ هذا الشعر قد يتفق او لا يتفق والزمن الذي يخلق فيهِ الشعر في نفسي ، وليس لي حول في صدّه باية صورة من الصور ، فما تزال العاطفة تلحّ بنفسي ثم تلحّ حتى اعبّر عنها والاّ استولى عليّ الضيق والكمد . فهذه هي انفاسٌ وفلذاتٌ من صميم وجداني لا يجوز ان اسأل عن صورة خلقها ولا عن ظروفهِ ، وانما اقدمها في هيكل الفن قرابين وصلوات »

والواقع ان انطوني ترولوب كان سريع الانتاج في تأليف الروايات ، فأخذ ذلك عليهِ ، ولكننا نذكر ان ارنولد بنت ، وقد كان ناقداً اديبّاً حصيفاً ، الى كونهِ روائيّاً ممتازاً ، ردّ على نقد ترولوب بما هو من قبيل قول أبي شادي « انهُ لا يعني الفنّ شيءٌ من ذلك وانما يعنيه قيمة الأثر الفني وحده » . ثم ان التعليل الذي اضافهُ أبو شادي معقول ، اذ ليس الوقت الذي يقضيهِ الشاعر في نظم قصيدة هو كلُّ الوقت الذي ينفقهُ عليها . فذهن الشاعر يحتضن المعاني والصور احتضاناً لاشعوريّاً (unconscious) فاذا سنحت الفرصة للنظم تسلسلت المعاني وتتابعت الصور كأنها بنت ساعتها . وليس المجال متسعاً لايراد الامثلة من القصائد التي أجاد فيها الدكتور ابو شادي فنكتفي بذكر بعض ما اختاره الدكتور ناجي في ما كتبهُ من نقد وملاحظات على هذا الديوان

قال استمع الى عابد الجمال في هذا الشعر الجميل

وانا العبد الذي ناجى الاله ورأى رؤيا عيانٍ منتهاه
ورأى ألف ذنوب وعذاب ورأى الغفران من بعد الحساب
ورأى المعبد في رقعة ارض ورأى الجنة في لمحة غمض

(على ان كلمة رؤيا تفيد ما يرى في المنام والصواب رؤية ولكن الوزن يختلّ بها فلو قال مرأى عيانٍ لصلح الشطر لفظاً ووزناً)

وقال الدكتور ناجي

وان نفسهُ الصافية لمرآة للكون وصورة للطبيعة لحين يراها غائمة في يوم مطير ينشد هذين البيتين الرائعين

فيا غمام أطلّ سحًّا على زمنٍ الحسن والنور بعض من خواطره
انت الحريُّ بسكب الدمع في شجنٍ فقد صحبتَ قديماً غرس ساحرهِ

وفجأة يترك كل هذا ليطرق باباً آخر ، ليريك لوناً من الفلسفة العالية العميقة

حرام ان تعدَّ الطرس ذخراً وان تعتزَّ من ملك القريض
مقاييس الزمان قد استحالت فما ادنى الحبيب الى البغيض

حقًّا ان كلمة «الشعلة» تجمع حياة ابي شادي في سبعة حروف

عنوان الاريب

عمن نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب

المطبعة التونسية — نهج سوق البلاط — نمرة ٥٧ بتونس

تقاطعت ارحامُ البلادِ العربية زمناً ليس بالقصير حتى استعجمت آثار هذه البلاد ، واتسعت شقة الخلاف في الرأي والمذهب بينها . وقد كان العهد الاول الى اواخر القرن الحادي عشر للهجرة عهدَ اتصالٍ وتوادٍّ بين الامم العربية ، مع ما ألمَّ بها من ظلمات الجهل ، وسكرات الموت ، وانطفاء نور نجوم الهدى من العلماء والادباء والساسة . وكانت الصلة قائمة بالرحلة من بلد الى بلد ، واستنساخ كتب تراجم العلماء ، وتداولها في كلّ بلدٍ من البلاد ، فتعارف القومُ وإن لم يتلاقوا ، وتسامع الناس بأسماء العلماء في بلد بينهم وبينه عرض المشرق فتشوق العلماءُ بعضهم الى بعض وتراسلوا وأجاز بعضهم بعضاً واستحكمت الصلة بين أمم العربية . والتراجم اهم ما يولّد في النفس الحنين الى معرفة آثار العلماء او لقائهم او الاتصال بهم ، وبهذا الاتصال يتسرب في دماء الامم الاحساس بالقرابة العلمية والادبية والدينية الى غير ذلك ، وهناك تكون النصرة حين يستنجد المظلوم والغضبة حين يغضب المتألم ، والعون حين تفرق الاعوان

وتونس بلد عربيٌّ قد ضرب فيهِ الاستعمار مضاربَ ، وقتل فيهِ من ابناء العربية طائفة عزيزة علينا كنا نرجوها لريب الزمان ، واستبد بها استبداد الظالم الغشوم المتقحم الذي لا يلتفت الى الحق ، ولا يبالي بالعاقبة ، ولا يعرف يوماً تتقلب فيهِ النفوس والاقدار . وقد شعَّب الاستعمار علماءه وأدباءه ، وضرب بهم وجهِ الآفاق مطردين لا يجدون ملجأً الا العربية يحتمون بها ، ويستظلون بظلها ، ومن بقي منهم بتونس بقي مغموراً لا يستطيع لنفسهِ صرفاً ولا عدلاً

في هذا الكتاب « عنوان الاريب » الذي اصدره جزءين الاستاذ العلامة الشيخ « محمد النيفر » وجمع فيهِ تراجم أدباء تونس وعلمائها ، نجد رغبةً في انفسنا تتحقق في اتصالنا بأخبار علماء هذا البلد وادبائه وشعرائه من اول عهده الى الآن . ونرجو ان يوفق الاستاذ النيفر الى كتابة تاريخ تونس كتابة مستفيضة تذيع بين امم العربية في وقت قد تداعت فيه الامور الى التضافر والتناصر والتعارف من قريب وبعيد

شاهنامه نوبخت

او بهلوى نامه

طبع بمطبعة المجلس البارلمان بطهران صفحاته ٢١٥ من المعجم الكبير وعدد رسومه ٣٠

اصدر الشاعر « ميرزا حبيب الله خان نوبخت» ديواناً شعريًّا بهذا الاسم يحتوي على تاريخ ايران ابتداء من انقراض اسرة الملوك الساسانيين حتى بزوغ الكوكب النير السلطان رضا شاه بهلوى شاهنشاه ايران وبلغت ابيات هذا الديوان النفيس ثلاثين الف بيت من الشعر الفارسي الحماسي الوطني وزينهُ بثلاثين رسماً خياليًّا

ولا يخفى ان الشاعر الفارسي الكبير الحكيم أبو القاسم حسن الفردوسي الطوسي «نظم» تاريخ ايران القديم — حتى ظهور الاسلام — في ستين ألف بيت من الشعر وذلك على عهد السلطان محمود غزنوى احد ملوك الاسرة الغزنوية المتوفي سنة ٤٢١ هجرية وقد سبق للمقتطف وغيره من الصحف الشرقية والغربية ان نشرت نبذاً من تاريخ الفردوسي مع الاشارة الى ديوانه

ويقول العارفون ان ديوانه الجديد الذي نحن بصدده وهو شاهنامه نوبخت يجاري ديوان الفردوسي في حسن سبكه وقوة تعبيره ومتانة نظمه وهو يقع في ثلاثة مجلدات صدر منها الجزء الاول فاذا تمَّ وضع الجزءين الباقيين بلغت أبيات الاجزاء الثلاثة مائة ألف بيت . وكان اكبر حافز للشاعر ومشجع له في السير في عملهِ الادبي ما رآه من تشجيع حضرة صاحب الجلالة رضا شاه بهلوى للكتَّاب والمؤلفين والمؤرخين وقد زين المؤلف صدر الكتاب بصورة جلالته وبديباجة في مآثره

رحلة الى الثغرين

الشحر والمكلا

تأليف الاستاذ السيد محمد بن هاشم بن عبد الرحمن العلوي الحضرمي

مؤلف هذا الكتاب رجل من رجال العرب الناهضين الذين يبتغون اصلاح شؤون اممهم الذاهلة عن القوة الظالمة التي تريد ان تجتاحهم من سبيلها عدواناً وضغينة ، وقد رحل الى اليمن فمر بالثغرين العظيمين لتجارة بحر الهند وهما «الشحر» و «المكلا» فطُلب اليهِ ان يلقي محاضرة عن رحلته فألقاها وطبعها ، وهي وصف جميل لبلاد من بلاد العربية يجهلها كثير من الناس . وذكر فيها كثيراً من عادات القوم هناك وما يعملون للنهضة على فقرهم وقلة ذات يدهم ، وذكر حالة اجتماعهم ، واسلوب حكمهم وسياستهم ، وعدد بعض رجالهم ، وعرَّف بمجهول ، واوضح مستغلقاً من امر هذه البلاد

الرسالة والثقافة

البلاد العربية الآن حبلى تتمخض ، فهي من آلام الوضع في حالات موسومة بتحاسين الحياة وتهاويل الموت . وأهل العربية مثلها بين شباب الرأي وتورده وجماله ، وبين هرم الفكرة وكلوحها ومحقها ، وبينهما « حيٌّ المخافة ميتٌ غير موؤود » . وستبقى هذه البلاد المسكينة الى أجل مسلوبة الطمأنينة ، محرومة من الاستقرار ، خائفة تتوجس في ميدان من المخافة لا اطمئنان فيهِ ، وأرض من التزلزل والاضطراب لا استقرار عليها ، حتى يحين يومها الذي تضع فيهِ أملها وفلذة كبدها ، وتلقي معهُ بأسباب آلامها وأوجاعها ، ومخافتها وفزعها ، ثم تتعهده بالرعاية حتى يشب ممتلئاً بحياة الشباب وشباب الحياة

واهل هذا العصر من بلاد العربية بمنزلة القوابل يتكفلونها ويمرضونها بالراحة والدواء في حينه ووقتهِ . وكل عمل لا تكون هذه نيتهُ فهو عمل أبتر لا يفيد ان لم يستجلب المضرة وقد كان بمنجاة منها . وصدرت « مجلة الرسالة » في مصر وتلتها « مجلة الثقافة » في دمشق فجعلتا من أمرها القيام على بعض شؤون هذه البلاد العربية في ثقافتها وأدبها . ونحن لا نشك في أمر هاتين المجلتين فان القائمين عليهما رجال من جلة أدباء الامة العربية عرفوا بالفكر الجميل والادب الحر والخلق العظيم وهذه الثلاثة هي الرجولة الجريئة في غير تهور ، السامية في غير تعالٍ ، الناهضة في غير عجل . وتوفر هذه الثلاثة في مجلتي الرسالة والثقافة أسٌّ قويٌّ لا ينهار يبشر بتعالي البناء وقوتهِ على مر الأيام

القراءة الفريدة — جزآن

جمعهُ وشرح غريبهُ شريف النشاشيبي مساعد مفتش المعارف في لواء الجنوب بيافا . وهو مختارات ادبية بين حكاية ونادرة وقطعة شعر ، وتتدرج صعوبةً لتماشي تقدم الطالب في فهم الالفاظ والعبارات . والكتاب تامُّ الشكل . وصفحات الجزئين معاً ٢٢٥ صفحة قطع وسط

بحث طريف في السلّ

للدكتور فيليب كفوري مباحث طريفة في مرض السلّ . وقد عني بالفحص عن اعراضه والتنقيب عن علاجه مدة طويلة يرجع مبدؤها الى عهد بعيد . واتصل بنا انه يلقي محاضرات وينشر تصانيف في هذا الباب . وآخر مصنف له يبحث في كيفية تشخيص مرض السلّ

جريدة جهره نماء

دخلت جريدة جهره نماء الفارسية الغراء في عامها الثلاثين سائرة على الخطة الرشيدة التي رسمتها لنفسها منذ نشأتها وهي توثيق صلات المودة والآخاء بين الفرس والشرقيين وجريدة جهره نماء من ارقى الجرائد الفارسية التي تصدر في ايران وخارجها لما تنشره من المقالات النفيسة في العلم والادب والتاريخ والسياسة المزدانة بالصور ولا غرو فصاحبها العلامة الحاج ميرزا عبد المحمد خان ايراني مؤدب السلطان ، واننا نتمنى لها سعة الانتشار واطراد الرقي



مغامرات العلماء

كنا في صحب من الادباء والعلماء نتحدث في الحماسة التي يندفع بها العالم الحقيقي الى الكشف عن الحقيقة وانهُ لا يضنُّ بحياتهِ يبذلها في هذه السبيل . وكان احدنا طبيباً بكتريولوجيًّا بارعاً هو الدكتور جورج قصيري . فقصَّ علينا الحوادث التالية من تاريخ البحث الطبي ، فرأينا أن نثبتها هنا

بعد ما اكتشف كوخ ضمّات الكوليرا في سنة ١٨٨٣ كثر الجدل حولها بين الباحثين وهل هي حقيقة سبب الكوليرا او هي ميكروب لا صلة لهُ بالمرض . ولبيان الحقيقة شرب بيتنكوفر Pettenkofer وامريك Emmerich ماء ملوثاً بضمات الكوليرا فاصيب كلاهما اصابة حادة كادت تودي بحياة احدهما

وبعد ما اثبت بروس Bruce واعوانهُ ان التريبانوزوم هو سبب مرض النوم الافريقي وان هذه الجراثيم توجد في دماء بعض حيوانات القنص على الاخص في دماء الظباء والثيران والماعز والغنم كان الرأي السائد ان جراثيم هذه الفصيلة توجد كذلك في دماء الكلاب والبغال والخيل . ولكن عارض بعض الباحثين هذا الرأي الاخير ولاثبات صحة معتقدهم حقن توت Taute وزملاؤه أنفسهم و ١٢٩ من الحمالين بدم مأخوذ من الكلاب والبغال وحافل بهذه الجراثيم فلم يصب أحدهم بشيءٍ

وبعد ما اكتشف لافران Laveran سبب الملاريا وأثبت رونالد روس طريقة انتقال عدواها بواسطة البعوض ارادت مدرسة لندن لامراض البلاد الحارة ان تتثبت عمليًّا من هاتين الدعويين فتطوع اثنان من أطبائها وأحد المساعدين بالذهاب الى احدى بقاع ايطاليا (Campagna) الموبوءة جدًّا بهذا المرض . وفعلاً ذهب الثلاثة وبنوا كوخاً في وسط الغيطان حتى لا يدخله البعوض ، وكانوا يأوون الى هذا الكوخ قبل غروب الشمس ويخرجون للتريُّض وللاختلاط مع الاهالي في النهار اذ المعلوم ان بعوض الملاريا لا يلسع الانسان إلا ليلاً . ومع انهم مكثوا اكثر من ثلاثة أشهر فانهم لم يصابوا بالملاريا حالة ان الفلاحين المحيطين بهم كانوا فريسة لها . فلم يكتفوا بذلك بل ارسلوا الى لندن حيث لا توجد الملاريا طائفة من البعوض المأخوذ من هذه المقاطعة وحين وصوله الى لندن تطوع طبيب وهو المرحوم الدكتور مانسون ابن العلامة السر باتريك مانسون Manson رئيس المدرسة وأحد المساعدين لكي يلسعهم هذا البعوض فأصيبا بالملاريا وكاد الطبيب ان يفقد حياته

في سنة ١٩٢١ حضر الى القاهرة إثنان من أطباء معهد لستر في لندن للبحث عن

...ب التيفوس وهذان الباحثان هما المرحوم الدكتور باكت Bacot والدكتور اركريت Arkwright فكانا يجمعان القمل (وهو الوسيلة لانتقال العدوى الى الانسان) ويربيانه ويجربان تجاربهما بواسطته ومن حرص الدكتور باكت على هذا القمل كان يضعه في علبة ويضع هذه العلبة تحت إبطه ليكفل له الحرارة اللازمة . ويظهر انهُ تسرب هذا القمل اليهما فرضا بالتيفوس ومات المرحوم الدكتور باكت شهيد غيرته على العلم .ويقال انه وهو في النزع الاخير كان شديد العناية بمصير مجموعة القمل التي جمعها ، فأوصى من حوله خيراً بها

الامواج القصيرة والراديو

ليست الامواج القصيرة — الكهربائية المغناطيسية — بالشيء الجديد ، في ميدان المواصلات الكهربائية . انها ترتدُّ الى العهد الذي كشفَ فيه عن الامواج الكهربائية ، بواسطة تلك التجربة العلمية العظيمة التي قام بها هرتز الالماني سنة ١٨٨٦ . ثم ان مركوني نفسه استعمل أمواجاً قصيرة جدًّا في تجاربه الاولى ، ولكنه كف عن التجربة بها ، لانه تبين له ان التقدم في استعمال الأمواج الطويلة اسرع جدًّا ، اذا استعملت الآلات التي كانت سائدة في العقد الاخير من القرن التاسع عشر . فلما تقدمت المواصلات اللاسلكية، بالامواج الطويلة التقدم المشهود في سعة انتشار الراديو وآلاته ، عمد مركوني،

وهو شديد الثقة بفائدة الامواج القصيرة ، الى تجربة التجارب بها

والحاجة شديدة الى معرفة كل ما يمكن أن يعرف عن الامواج القصيرة ، اذا أُريد للتلفزة ان ترتقي . فالامواج القصيرة لا تؤثر فيها العوامل الجوية الاَّ قليلاً ولا تصاب بما يضعفها وهي سائرة في الفضاء (fading) ثم ان آلة اطلاقها صغيرة ورخيصة والقوة الكهربائية اللازمة لارسالها في الفضاء قليلة جدًّا

وقد فسر ماركوني استعمال الأمواج اللاسلكية القصيرة فقال : « ان الأمواج اللاسلكية — اي الكهربائية المغنطيسية — التي يقل طولها عن متر ، تعرف عادة بالأمواج نصف الضوئية . ويظن انها لا تصلح للمخاطبة بين اثنين الا اذا كانا على مرمى النظر احدهما من الآخر ، واذن ففائدة هذه الامواج محصورة محدودة

ولكن خبرتي الطويلة قد علمتني ان لا أُصدق دائماً الحدود التي تفرضها المعرفة النظرية — لأن المعرفة النظرية مبنية في الغالب، على معرفة ناقصة لم تستتم كل العوامل التي لها دخل في الموضوع . ولذلك أُجرب دائماً ابتداع طرق جديدة للتجربة ولو قال أصحاب المعرفة النظرية بعدم فائدتها

والواقع أنه لو اصغى ماركوني الى كل الطبيعيين سنة ١٩٠١ الذين اثبتوا أن الامواج اللاسلكية لا تستطيع أن تنحني مع انحناء الارض بل تنطلق الى الفضاء في خط مماس للارض لما أتم تجربته المشهورة التي أثبت فيها إمكان نقل

الحرف S من انكلترا الى اميركا نقلاً لاسلكياً

ولذلك شرع من نحو ١٨ شهراً في البحث المنظم في موضوع الامواج القصيرة ليعرف خواصها وميزاتها ، فاستنبط انابيب جديدة تولد امواجاً طولها اقل من نصف متر، صنع مقياساً جديداً لقياس طول الامواج الى ان يصبح طولها مليمتراً واحداً . وبدأ تجاربه في الاحوال التي لابد منها عند استعمال هذه الامواج ، وجعل مكان هذه التجارب على شواطىء ايطاليا . واستعمل عاكساً يعكس الأمواج اللاسلكية ويوجهها ، كالعاكس الذي يعكس الامواج الضوئية ويوجهها فيتكون « النور الكشاف » المعروف

وكانت التجربة الاولى في سنة ١٩٣١ بين مكانين على مقربة من جنوى المسافة بينهما ١٢ ميلاً . وقد اسفرت التجربة عن نجاح عظيم فقررت السلطات العليا في الفاتيكان استعمال هذه الطريقة بين مدينة الفاتيكان وقصر البابا بيوس الحادي عشر على مقربة من روما . وكان طول الموجة في مخاطبات الفاتيكان متراً واحداً

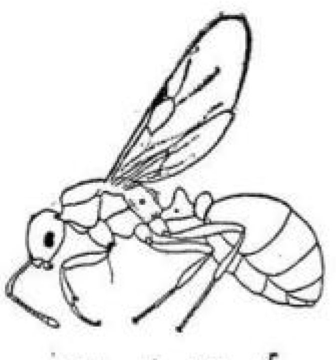
وفي يوليو الماضي خرج مركوني على يخته « الترا » وجعل يبعد عن محطة معينة على الشاطىء رويداً رويداً فلما صار على بعد ٢٩ ميلاً ظلت رسائل المحطة تلتقط ، مع ان مدى النظر بالنسبة الى تحدب الارض لا يزيد على ٢٤ ميلاً . ثم جرب تجربة اخرى كانت المسافة بين المحطتين فيها ١٦٨ ميلاً فالتقطت الاشارات واضحة . والبحث ماضٍ الآن في هذا الميدان اللاسلكي الجديد

التحليق في الجو

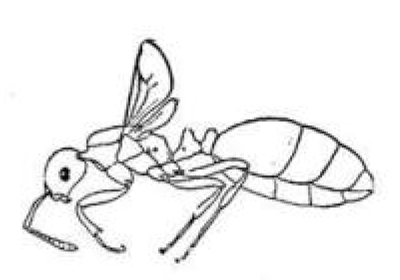
يشتمل برنامج القسم العلمي في معرض شيكاغو على محاولة التحليق في الجو ببالون خاص الى احد عشر ميلاً او اثني عشر ميلاً فوق سطح الارض وينتظر ان تتم هذه المحاولة في يوم رائق في اواخر يونيو او اوائل يوليو

اما الكرة التي يجلس فيها الربان والعالم فقطرها سبع اقدام وهي مدلاة من كيس يحتوي عند انتفاخه على ٦٠٠ الف قدم مكعبة من الغاز . وينتظر ان يعين الكومندر ستل احد طياري البحرية الاميركية في منصب الربان . اما منصب العالم فيرجَّح ان يختار لهُ الاستاذ بيكار نفسهُ . وقد صنع الاستاذ كومتن عدداً دقيقاً ليستعملهُ الاستاذ بيكار، او اي عالم آخر يحل محلهُ، في قياس الاشعة الكونية

والمعدن الذي تصنع منهُ الكرة ، هو خليط خاص يعرف بالدومتل Dowmetal — او معدن دَوْ لان شركة دَوْ الاميركية صنعتهُ — فهو اخف من الالومنيوم نحو ٢٠ في المائة . ولما كان الكيس الذي يحتوي على الغاز اكبر من كيس بلون الاستاذ بيكار ، فالوصول الى علو ١٢ ميلاً فوق سطح البحر مرجح او هو محتمل . وقد تمت المعدات التي تمكن الطيارين من ارسال انبائهم من الجو دقيقة دقيقة الى محطة لاسلكية على سطح الارض ومنها تذاع الى المحطات اللاسلكية الكبرى فتعيد هذه اذاعتها في اقطار المعمورة



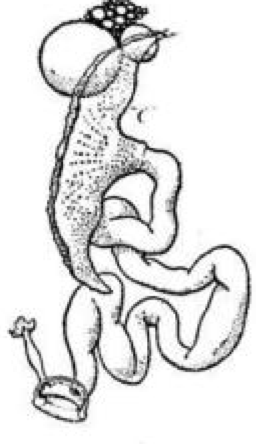
انثى نملة ولها جناحان



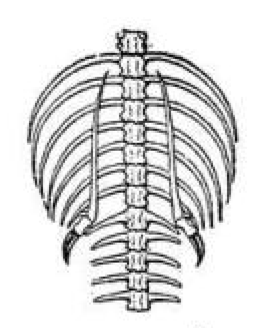
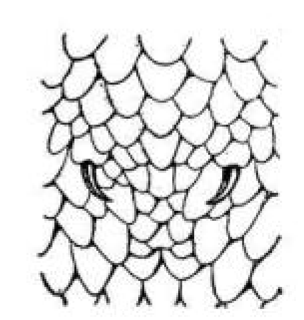
انثى نملة اخرى ولها جناحان أثريان



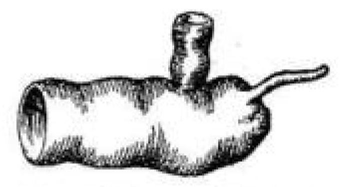
اذن الانسان والخطوط تمثل العضلات الأثرية فيها وحواليها



الى اليمين : المبيض الايمن والقناة في الحمام . والى اليسار: المبيض الايسر والقناة اليسرى وهما ضامران

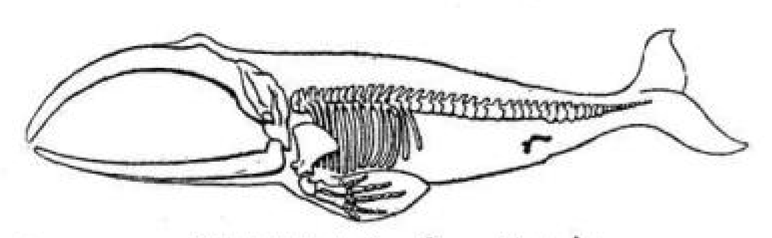
العظمتان على جانبي مؤخر الأصلة وهما بقايا قائمتين خلفيتين



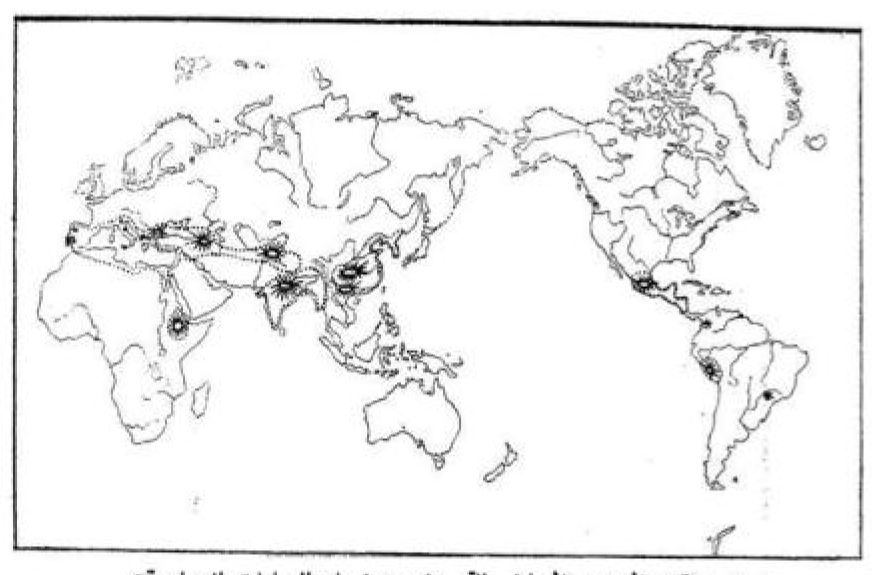
الزائدة الدودية في الانسان



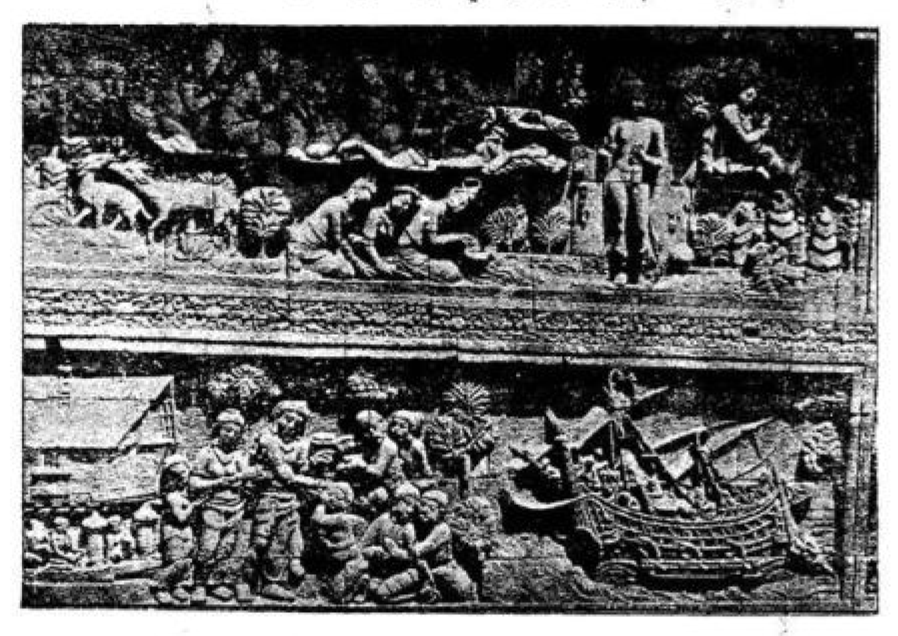
الزائدة الدودية في الارنب



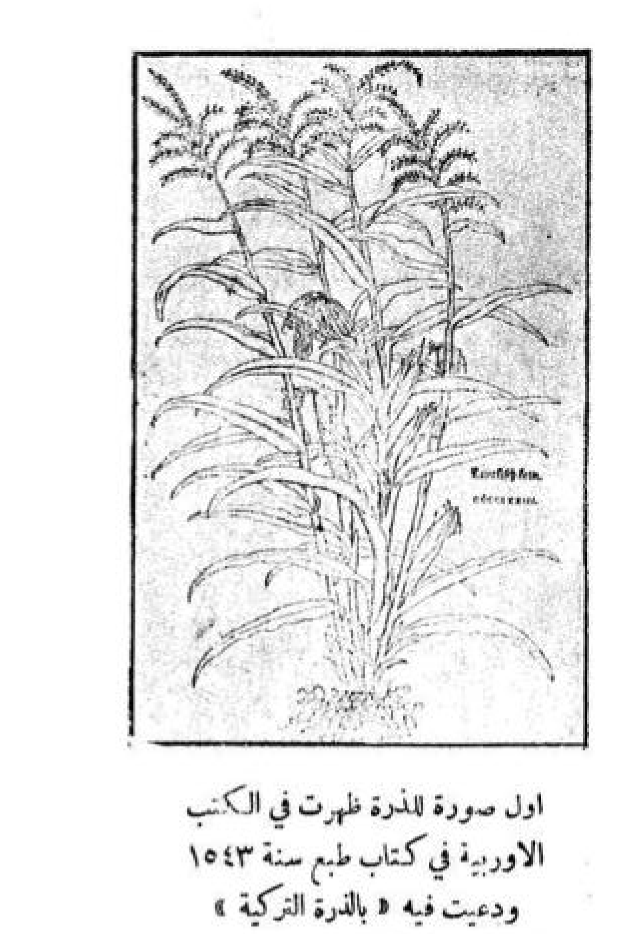
الخط الاسود تحت السلسلة الفقارية في
مؤخر الحوت يمثل بقايا قائمتيه الخلفيتين



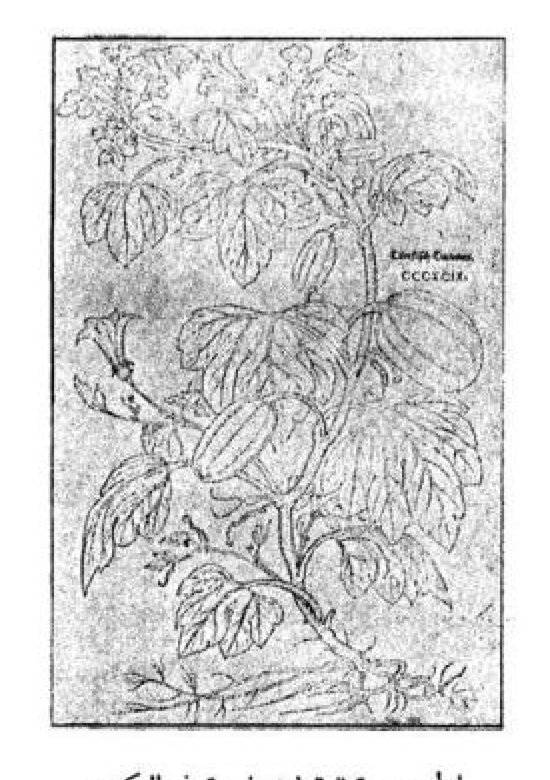
خريطة للعالم تبين المواطن التي ظهرت فيها «النباتات الزراعية»



جانب من نقش بارز على جدران هيكل بورو بودور في جاوى يمثل نباتات مختلفة



اول صورة للذرة ظهرت في الكتب
الاوربية في كتاب طبع سنة ١٥٤٣
ودعيت فيه « بالذرة التركية »
مقتطف يوليو ١٩٣٣



اول صورة لليقطين ظهرت في الكتب
الاوربية في كتاب طبع سنة ١٥٤٣
ودعي فيهِ «الخيار التركي»
امام صفحة ١٧٥



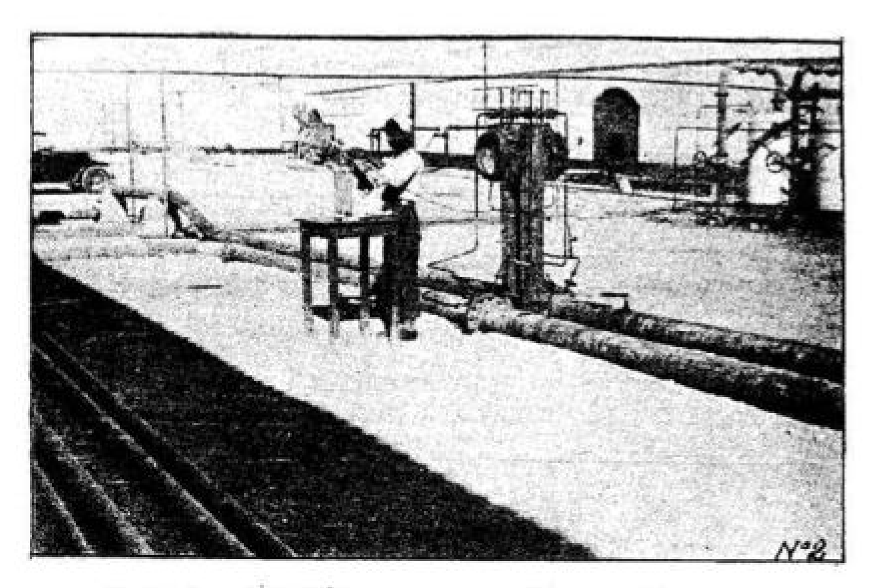
قطعة خزفية تمثل « الدباء »
عند اهل پيرو في اميركا الجنوبية



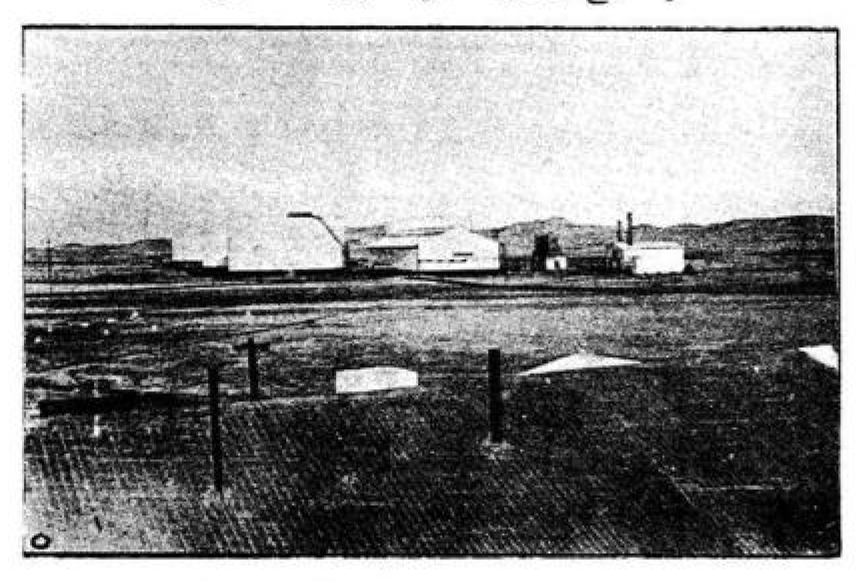
قطعة خزفية تمثل آلـه الذرة
عند اهل پيرو في اميركا الجنوبية

مقتطف يوليو ١٩٣٣

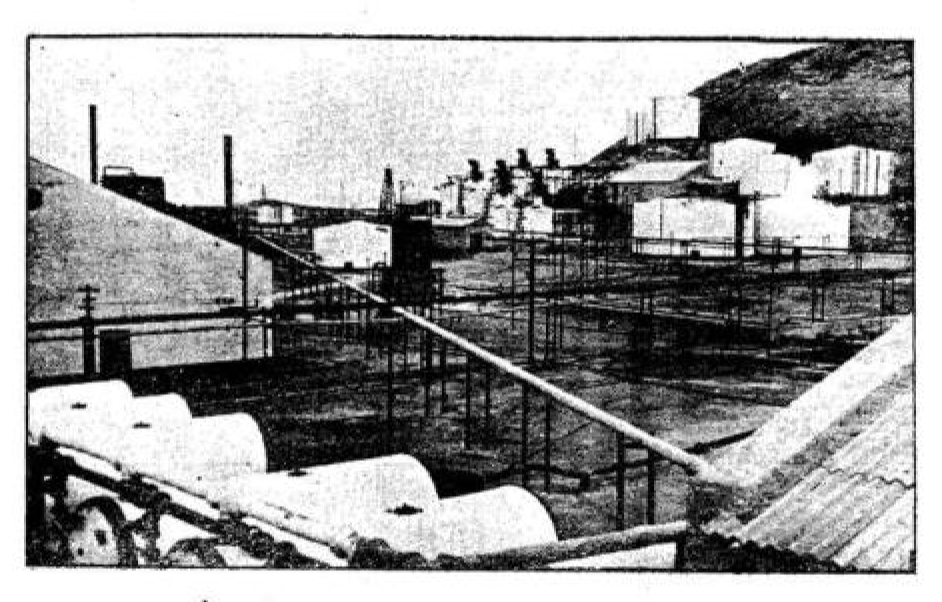
امام صفحة ١٧٧



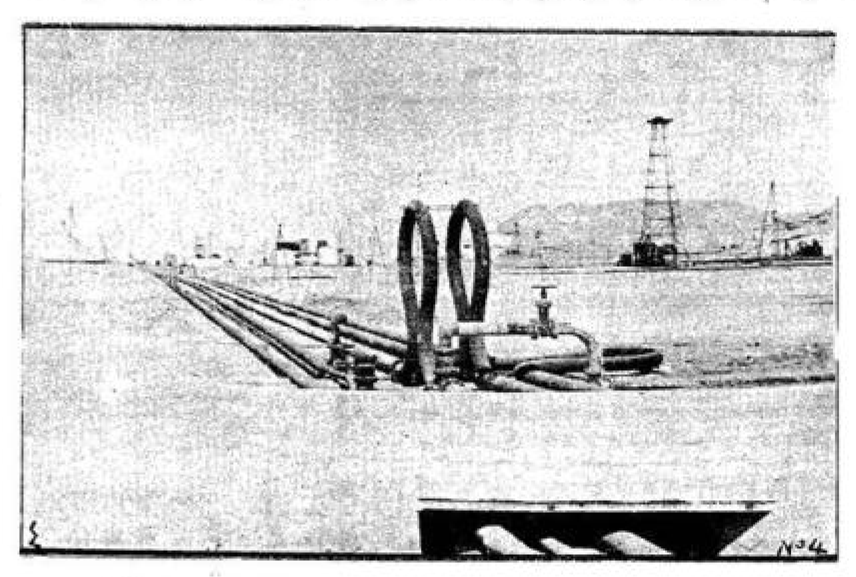
شاب مصري لم يتجاوز الخامسة عشرة يقيس الكثافة النوعية للغاز الذي يستخرج الجازولين منه ويستعمل بعد ذلك وقوداً



المحطة العمومية بميناء الغردقة وفيها الصهاريج الخازنة والمضخات التى تقوم بتفريغ ناقلات البترول وشحنها



منظر عام لاجهزة فصل المياه عن البترول وفيها يستعمل التيار الكهربائي العالي الضغط

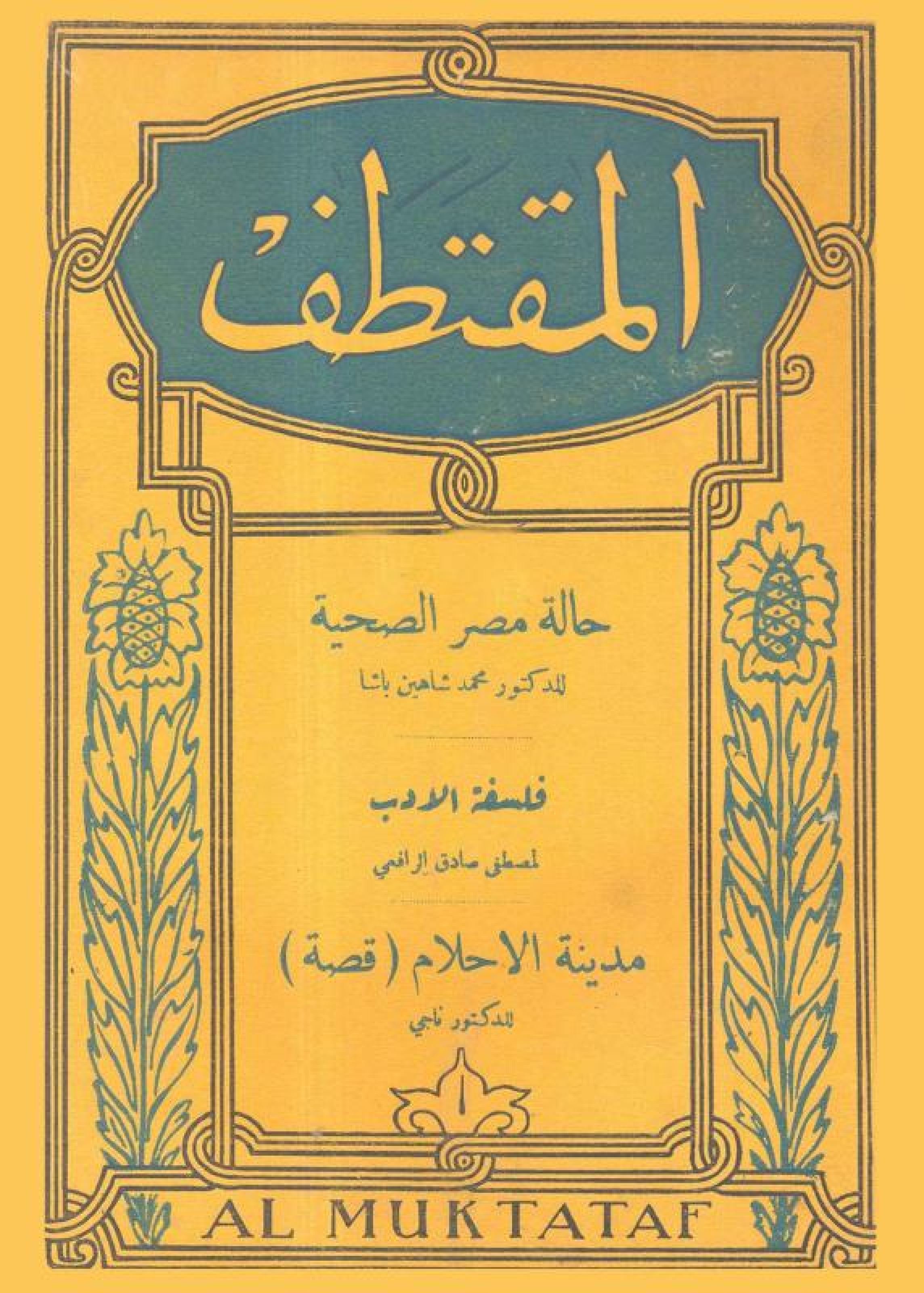


منظر عام في حقل البترول بالغردقة نرى فيه الهياكل الحديدية القائمة فوق آبار البترول وكذلك الانابيب الموصلة بين الحقل وميناء الغردقة وفيها ينقل البترول لشحنه



المغفور له جلالة الملك فيصل

الجزء الثاني من المجلد الثالث والثمانين


المقتطف
حالة مصر الصحية
للدكتور محمد شاهين باشا
فلسفة الادب
لمصطفى صادق الرافعي
مدينة الاحلام (قصة)
للدكتور ناجي
١
AL MUKTATAF

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثالث من المجلد الثالث والثمانين

١ اكتوبر سنة ١٩٣٣ — ١١ جماد الثاني سنة ١٣٥٢

الايدروجين الثقيل

هل يكون سبيل العلماء الى اسرار بناء المادة

منذ نحو سنة ونصف سنة كشف ثلاثة من علماء الاميركيين ضرباً جديداً من الايدروجين فاشتدَّت عناية الدوائر الكيماوية والطبيعية بهِ ، بل انصرفت المعامل العلمية في خمس جامعات اميركية او ستٍّ الى درس خواصّهِ واعدَّت احدى الشركات الصناعية المعدات اللازمة لاستخراجه . ولا يمكن ان نبيّن للقارىء مكانة هذا الصنف الجديد من عنصر الايدروجين في علمي الكيمياء والطبيعة الحديثين ، الاَّ اذا تتبعنا تقدُّم هذين العلمين من الناحية التاريخية

اطلق على الضرب القديم المعهود من الايدروجين اسم ايدروجين، ، وعلى الضرب الجديد اسم ايدروجين، . والرقمان يشيران الى وزن الضربين ، او الى الوزن النسبي لذرتيهما بالمقابلة مع وزن الاكسجين او وزن ذرتهِ . فقرَّاء المقتطف يعلمون ان الايدروجين اخفُّ المواد المعروفة على الاطلاق ، وان ثقلهُ واحد ، اي اذا اتخذنا الاكسجين اساساً للمقابلة ، وجعل وزنهُ الذري ١٦ فوزن الايدروجين الذري على هذا القياس واحد . وهذا الايدروجين هو الضرب الاول المعروف الآن بايدروجين، . اما الايدروجين، فثقلهُ اثنان بالمقابلة مع ثقل الاكسجين . فاذا فرضنا ان ذرة الاكسجين ثقلها ١٦ فذرة الصنف الاول من الايدروجين ثقلها ١ وذرة الصنف الثاني ثقلها ٢ . وقد اقترح المكتشفون اطلاق اسمين يونانيين على هذين الضربين من الايدروجين ، يعنيان ١ و٢ وهما بروتيوم وديوتيريوم

لا يخفى ان المواد التي تحيط بنا ،المنوعة في اشكالها واوزانها والوانها وروائحها وقساوتها ولينها ، انما هي مركَّبة اصلاً من مواد اولية تدعى عناصر وعددها اثنان وتسعون عنصراً. فالعنصر في عرف الكيمياء هو المادة التي لا نستطيع ان نحلّها بما نملكهُ من الوسائل الكيمائية من دون ان تفقد خواصها

وفي سنة ١٨٠٢ قال دلتن الكيماوي الانكليزي ان المادة مركبة من دقائق صغيرة دعاها ذرّات Atoms وكان المفروض في نظريتهِ ان ذرات كل عنصر متشابهة جرماً ووزناً وتصرفاً كيمائيًّا. ثم كشف علماء الكيمياء وسائل تمكنهم من معرفة اوزان هذه الذرّات بالمقابلة بينها. وفي سنة ١٨١٥ بيّن الطبيب پروت Prout الانكليزي ان الاوزان الذرية ليست الاَّ اضعافاً مختلفة لوزن ذرة الايدروجين فوزن الكلسيوم ٤٠ مثلاً وهو ٤٠ ضعف وزن الايدروجين . فاذا سلّمنا بهذا القول وجب ان تكون الاوزان الذرّية كلها اعداداً صحيحة،لان وزن الايدروجين عدد صحيح . واقترح حينئذٍ نظرية عجيبة مؤداها ان ذرات العناصر انما هي مركبة من ذرات ايدروجين محشوكة معاً. ولكن لدى وزن ذرات العناصر بالاساليب المعروفة،تبين ان اوزان كثير منها ليس بالعدد الصحيح واذاً فلا يمكن ان تكون اضعافاً لوزن ذرّة الايدروجين . فصرف النظر عن مذهب پروت في اواخر القرن التاسع عشر . ولكنه بعث من مرقده الآن. والقول بأن ذرات العناصر مبنية من ذرات الايدروجين ، له صلة دقيقة بما للايدروجين الثقيل (الايدروجين ٢) من المكانة عند علماء الكيمياء والطبيعة

***

لنلتفت الآن الى ناحية اخرى من هذا البحث جديرة بالاهتمام . ففي اواخر القرن التاسع عشر ، كشف الباحثون عن ظواهر الاشعاع . فوجدوا ان هناك عناصر تتحول من تلقاء نفسها من عنصر الى آخر . فالراديوم يتحول بعد زمن طويل ينقضي عليه الى رصاص. وكانت النتيجة التي اسفر عنها البحث في تحول العناصر بعضها الى بعض،ان بعض العناصر التي تنتهي اليها العناصر المشعة — كالرصاص مثلاً — تشبه عناصر اخرى في خواصها الكيمائية ولكنها تختلف عنها في وزنها الذري . فالرصاص الطبيعي يشبه الرصاص الناشىء من تحوُّل الراديوم بالاشعاع ولكن احدهما يختلف عن الآخر في وزنهِ الذرّي . كذلك الراديوم والميزوثوريوم ١ لا يمكن ان يفصل احدهما عن الآخر من ناحية الخواص الكيمائية ، ولكن الرايوم يحتاج الى ١٨٠٠ سنة لكي يتحول الى عنصر آخر واما الميزوثوريوم ١ فيحتاج الى سبع سنوات فقط ليتحوَّل التحوُّل نفسه . ثم ان وزن الراديوم الذري ٢٢٦ واما وزن الميزوثوريوم ١ الذري فـ ٢٢٨ والذرات التي تتشابه من حيث خواصها الكيمائية ولكنها تختلف من حيث وزنها تعرف بالنظائر Isotopes وقد عثر بين العناصر المشعة على امثلة عديدة من النظائر

والخطوة التالية في تطوُّر هذا البحث انما تمّت لما ثبت ان العناصر العادية كالنيون والكلور وغيرهما مؤلفة من ذرات متشابهة في صفاتها الكيمائية وانما تختلف في اوزانها . ولعلَّ اشهر الباحثين في هذا الموضوع هو الاستاذ استن Aston الانكليزي الذي اثبت ان اكثر العناصر مؤلفة من نظائر . وقد اقتفى الباحثون الاميركيون خطوات استن فأثبتوا ان للاكسجين والنتروجين والكربون نظائر كذلك . وقد ظهر ان اوزان ذرات النظائر تكاد تكون اعداداً صحيحة مما يعيد الى الذهن نظرية بروت ، وهي ان ذرات العناصر مبنية من ذرات الايدروجين وقد حشكت معاً

واذا كان هذا صحيحاً فيجب ان يعثر الباحثون على ذرة مؤلفة من ذرتي ايدروجين فتكون ابسط الذرات المركبة بحسب نظرية بروت وحلقة بين ذرة الايدروجين وذرات العناصر الاخرى المركبة منها

وعني بدرس هذا الموضوع الاستاذ برج Birge احد اساتذة جامعة كاليفورنيا والدكتور منزل Menzel احد علماء مرصد هارفرد . فأقاما الادلة على ان ايدروجين ٢ يوجد في الايدروجين العادي بنسبة ١ الى ٤٥٠٠ . واذا بلغت ندرة احد النظائر هذه المرتبة (١ : ٤٥٠٠) تعذر الكشف عنهُ الاّ اذا امكن تركيزهُ . لذلك عمد الدكتور بريكود Brickwedde الى تقطير الايدروجين السائل على درجة واطية جدًّا من البرودة — ٤٦٦ بميزان فارنهيت تحت درجة الجمد . وبذلك زادت نسبة ايدروجين ٢ الى ايدروجين ١ حتى بلغت ١ : ١١٠٠ فتمكن الدكتور هارولد يوري Urey احد أساتذة الكيمياء في جامعة كولومبيا ومعاونهُ مرفي من كشفه بواسطة طيفهِ . ثم كشفت طرق اخرى لاستحضاره منها طريقة الحل الكهربائي . والمتوقع ان يكون هذا الضرب من الايدروجين مداراً لمباحث خطيرة في الكيمياء والطبيعة ، لذلك نذكر في ما يلي اشهر ما يعرف عن خواصهِ وما قد يفضي اليهِ درسهُ من النتائج العلمية

***

لقد تبحّر العلماء في درس بناء الذرات في العهد الحديث فوصلوا الى ان الذرة مبنية من جزئين . اولاً من كتلة مركزية مشحونة شحنة كهربائية موجبة . وحولها دقائق من الكهربائية السالبة تعرف بالكهارب او الالكترونات . فاذا تعيَّن لدينا عدد الالكترونات في ذرة من الذرّات ، تعيَّنت كذلك خواصها الكيمائية . فاذا كان في الذرة الكترون واحد فهي ذرة ايدروجين . واذا كان فيها الكترونان فهي ذرة هليوم . واذا كان فيها ثلاثة الكترونات فهي ذرة ليثيوم . او اربعة فهي ذرة بريليوم . او خمسة فهي ذرة بورون . او ستة فهي ذرة كربون . او سبعة فهي ذرة نتروجين . او ثمانية فهي ذرة اكسجين . او اثنان وتسعون فهي

ذرة اورانيوم وهو آخر سلسلة العناصر . والعناصر الباقية متوسطة بين الاكسجين والاورانيوم تزيد ذرة كلٍّ منها الكتروناً واحداً عن ذرة العنصر السابق

ولكن كتلة الذرة مركَّزة في النواة المركزية ، ووزنها يختلف باختلاف عدد الدقائق التي تتركب منها النواة . فنواة ذرة الايدروجين او البروتيوم تحتوي على دقيقة واحدة ، تعرف بالبروتون . اما ذرة الايدروجين او الديوتيريوم فمؤلفة من بروتون ونيوترون — والنيوترون دقيقة وزنها وزن البروتون ومتعادلة الكهربائية — فذرة الايدروجين الذي وزنهُ الذري ٢ هي بعد ذرة الايدروجين أبسط الذرات المعروفة . واذا شاء العلماء ان ينفذوا الى سر تركيب النوى في الذرات وجب عليهم ان يقفوا على تركيب ابسط الذرات وأبسط النوى ثم مايليها فما يلي ذلك . ودرس نواتي البروتيوم والديوتيريوم انما هو خطوة اولى في هذه الناحية

ثم ان الليثيوم الذي وزنهُ الذري ٧ يتفاعل مع البروتيوم لتوليد الهليوم . والليثيوم الذي وزنهُ الذري ٦ يتفاعل مع الديوتيريوم لتوليد الهليوم كذلك . وهذا النوع من التفاعل يفيض طاقة عظيمة تفوق مليون ضعف الطاقة التي تسفر عنها التفاعلات الكيمائية العادية. هذا أهم ما يقال عن البروتيوم والديوتيريوم من حيث مكانتهما في علمي الطبيعة والكيمياء

***

أما من ناحية خواصهما الكيمائية فتوجد فروق بينهما . فعالم الكيمياء يهمه ان يعرف لماذا تتصرف العناصر الكيمائية تصرفها المعروف . كيف يحترق الايدروجين وكيف تحصل التفاعلات الكيمائية في أجسادنا ؟ ونحن نعلم ان الجواب الشافي عن هذه الاسئلة وأشباهها يتناول عوامل كثيرة منوّعة . ولكننا نعلم كذلك ان لوزن الذرات في المواد المتفاعلة شأناً كبيراً . اونحس كأنَّ ذلك يجب أن يكون. والظاهر ان احساسنا هذا صعب التحقيق . فالعلماء يقولون ان وزن الذرات . اذا كان له أثر في التفاعلات الكيمائية فانه أثر لايكاد يكشف بالكواشف المعروفة . ولكن الفرق الكيمائي بين تفاعل ذرة البروتيوم وذرة الديوتيريوم يسهل كشفهُ بنسبته اما وزنيْ الذرتين . فالماء الذي يصنع من الايدروجين يختلف في درجة غليانهِ عن الماء المصنوع من ايدروجين . ثم ان تفاعلاً كيمائياً يدخل فيه أحد الصنفين يختلف سرعة عن نفس التفاعل اذا ابدل فيهِ احد الصنفين بنظيره . وقد يكون هناك فروق بيولوجية ناجمة عنهما . فالفئران التي تحتوي على مواد يكثر فيها ايدورجين في تركيبها قد لا تستطيع الأَّ ان تكون بطيئة او لا تستطيع ان تعيش قط فهو في جسمها بمثابة السم . فهذا الايدروجين الثقيل كأكثر المكتشفات العلمية في استهلالها لا يمكن ان نحكم عليه حتى يتعمق العلماء في درسهِ وكشف أحواله وخواصه

فيصل بن الحسين

آثار مبعثرة تدل المنقبين على القصر الشامخ

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

وزير خارجيته في دمشق

رآني صديق لي في الاسكندرية في مساء الجمعة الواقع في اليوم الثامن من ايلول (سبتمبر) الماضي والجزع آخذ مني مأخذه للنبأ المفاجىء الذي انتشر في الثغر ينعى فيصل بن الحسين فأخذ يعزيني قائلاً هوّن عليك فالراحل سيعرف الناس فضله بعد مماته ، ولكن كلامه هذا وما فيه من الاشارة الى الدعايات الباطلة التي كانت تثار على الراحل العظيم زاد في جزعي وفي ألمي لانني اعتقد انها طعنة في صميم الرجل ألاّ يعرف الناس فضله الاّ بعد مماته، وان الطموح المبني فقط على التقدير بعد الموت هو طموح مقعد وان صاحبه عيٌّ في القول كلٌّ في العمل تنقصه الكياسه والحكمة والشجاعة . ولكن فيصلاً لم يكن من هذا النوع من الرجال فقد شقّ طريقه الى المجد في صخر من العداوات الجنسية والدعايات الوهمية والعقبات الاستعمارية حتى رأى نفسه على قمة قضية سيكون لها في تاريخ العالم الحديث اخطر الآثار ، وما زال يعلو وينبسط حتى اصبح الذين كانوا يملأون الصحف بتسويد صحيفته يحبرون اطول المقالات في التغني ببياض جبينه الناصع

هذا هو فيصل بن الحسين الذي نعاه الناعون بسكتة قلبية في مدينة (برن) من سويسرا في الصباح المبكر من ذلك اليوم المشؤوم، فكان لنبئهم هذا صدًى يتراجع انينه بين شواطىء المحيطين — المحيط الهندي والمحيط الاطلنطي — ذلك لان في تلك الاصقاع المترامية الاطراف اممًا متعبة تنظر اليه والى الافذاذ من امثاله « نظر الغرق الى الساحل » . وليس في قصدي ان اتناول بالبحث حياته الواسعة فأحصرها في بضع صفحات لأنه من الظلم الفاحش الذي تأباه الطباع الحرة ان يحصر المرء الاسدَ المصور في السجن الضيق ، وانما اريد ان اكتب عنه من الشذرات ما يلقي نوراً على دخيلته خصوصاً ما عرفته منها بنفسي . والآثار الصحيحة ولو كانت قليلة ومبعثرة تدل المنقبين على البناء الشامخ الذي ينشدونه بين الانقاض

تفسر لنا البيئة التي نشأ فيها معظم خصاله خير تفسير ، فالبداوة التي قضى في احضانها شطراً من صغره تعلل لنا البساطة التي لازمته من خندق الثورة حتى عرش الملك والتي كانت مثار الاعجاب به ، لان بساطة العظيم ضرب من العظمة لما تتضمنه من احتقار الدنيا ؛ والذين

تتقمصهم العظمة الحقة يطلبونها عادةً في الابهة والدبدبة، فقد ولد المليك الراحل في مكة في سنة ١٨٨٣، وفي نحو السادسة من عمره ارسل الى قرية (رحاب) بالقرب من (الطائف) حيث قضى ست سنوات يتخلق بأخلاق البدو من شظف عيش ومواجهة طبيعة ومقارعة انسان ، وفي الثانية عشرة من عمره سافر الى (الاستانة) مع والده فاتصل هناك بالحلقات العظامية التركية وتلقى العلوم على اساتذة خصوصيين ، وظلَّ فيها الى ان رأى بعينيه الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ والحملة الشعواء المغرضة التي حملها بعض فتيان الترك على الموظفين العرب في العهد الحميدي

ومن اهم ما نعنى به ان نحيط بالروح التي كانت متجلية في البيت الذي ترعرع فيه ، لان الالفاظ التي ينطق بها الآباء في احاديثهم البيتية متى كانت صادرةً عن عقيدة في النفس تركت أثرها في الابناء مهما كانت طباعهم ، وقد اتيح لي في الاشهر التي اعقبت الانقلاب العثماني ان اطلع بصورة خاصة على نزعة رب البيت الهاشمي الشريف حسين بن علي والد الفقيد ، فقد كنت في الهيئة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي في سورية ، وكان ممنا من الاعضاء المرحوم عبد الرحمن باشا اليوسفي امير الحج ، فلما جاءنا الخبر من المركز العام في سلانيك بأن النية متجهة الى نقل الشريف حسين باشا من مجلس الشورى في الاستانة الى مكة ليكون شريفاً على الحجاز حمل الباشا اليوسفي عليه حملة منكرة فذكر طموحه الذي لا حدَّ له، ومما قاله انني لاخشى اذا صار اليه الامر ان ينسلخ الحجاز عن المملكة العثمانية وتصاب خلافة آل عثمان في الصميم .

ودلت الحوادث التي اعقبت هذا الكلام على شيء من هذا الطموح، وقد عثرت مع احد الموظفين السابقين في احدى الدول العربية على وثائق انكليزية سرية تشير الى هذا الامر وتشرح زيارة سمو الامير عبد الله الى القاهرة قبل الحرب والاسباب الداعية الى هذه الزيارة وما جرى فيها من الاحاديث . فهل كان في الامكان يا ترى ظهور هذا الطموح على مسارح السياسة العملية لولا تلك النزعة الطورانية العنيفة التي ظهرت في الترك من بعد الانقلاب في سنة ١٩٠٨ ؟ ولو لم يجد هذا الطموح من اضطهاد الترك للقومية العربية منبهاً وحافزاً لما استطاع ان يجد الانصار الكافين لبروزه الى حيز الوجود ، وقد ذكر الحسين بن علي في المنشور الذي اعلن فيه الثورة العربية في حزيران (يونيه) من سنة ١٩١٦ ان في مقدمة الاسباب التي حملته على الانتقاض المشانق العالية التي نصبها جمال باشا في سورية — فطموح البيت الهاشمي والمظالم الاتحادية تحلل لنا الجوَّ الذي نشأ فيه المليك الراحل

ثم لما اعلنت الحرب العالمية عدَّها الاتحاديون فرصة سانحة لتطبيق منهاجهم السياسي فكشروا عن انيابهم وهاجونا مهاجمة عنيفة في عقر دارنا مهدوا لها السبيل بالدعايات التي تجوز على اهل العقائد الوهمية . حينئذ اتخذ الطموح في البيت الهاشمي وجهة قومية صريحة لا مواربة فيها ، وقد تجلت لي على اتم مظاهرها يوم قابلت المليك الفقيد في بيت المرحوم عطا باشا البكري

في دمشق الشام في صيف سنة ١٩١٥ ، ويجب ان تكون هذه المقابلة قد تمت عقيب اول رسالة دارت بين الحسين بن علي وبين السير هنري مكماهون للاتفاق بين بريطانيا والعرب وتاريخها شهر تموز — يوليو — سنة ١٩١٥ ، ودار الحديث بيننا حول القضية العربية ومظالم الاتحاديين والعلاج الشافي من تلك الاوصاب ، وقد بدت لجميع من اختلوا به من العاملين روح الثورة على وجهه. ولكن الضغط يومئذ كان يتطلب منتهى الحذر في المتكلمين والمستمعين لان اقل بادرة تبدر من المرء تكفي لجره الى المشنقة ، وقد اشار الى هذه الاجتماعات في خطاب القاه في دمشق بعد عودته من مؤتمر الصلح بقوله «قام والدي بهذه الثورة بعد ان اتيت الى سورية وواجهت بعض الرجال وعلمت من مجيئي الى دمشق ان الافكار السورية بأجمعها متجهة نحو الاستقلال». هذه نبذة مختصرة تدلنا كيف نشأت في نفسه الميول الثورية وتدرّجت تدرجاً عملياً، فلنتساءل كيف استطاع ان ينجو بنفسه من طاغية الاتحاديين احمد جمال باشا ويمثل اخطر ادوار الثورة ولا سيما بعد ما جاءت التقارير الرسمية السرية من بصري باشا حاكم (المدينة) وفيها ايقاظ الحكومة من غفلتها وتنبيهها الى الطوارىء الخطيرة المتوقعة من الحجاز

وفي الجواب عن هذا السؤال ما يدل على ناحية اخرى من نواحي الفقيد وهي مقدرته السياسية وحنكته وغزارة حيلته ، فقد اتفق مع والده على ان يجيء الى دمشق بمهمة ظاهرها تقديم جيش من متطوعة الحجاز لمساعدة الجيش العثماني الرابع في هجومه الثاني على مصر وباطنها درس الاحوال في سوريا عن كثب والاطلاع على خطط الحكومة الاتحادية نحو العرب والاتصال بالعاملين من ابناء البلاد . فلما اشتدت المظالم الاتحادية واصبحت لا تطيقها الانفس الابية ابتكر طريقة للنجاة من ايدي الطغاة فاقترح على جمال باشا ان يرسل وفداً لاستقبال الجيش الحجازي وان يكون هو — فيصل — على رأسه فقبل الطاغية اقتراحه ، فلما بلغ الوفد المدينة واتصل فيصل بالجيش الذي اوفده والده اليها اشار على الاعضاء الترك ان يعودوا الى جمال باشا ليتفقوا معهُ على طريقة نقل الجنود الى سورية ، واتخذ هو هذه الفترة فارسل الى دمشق رجالاً من السوريين لينقذوا من بقي فيها من ابناء عمه الحجازيين واصدقائهم من الوطنيين. اما انا فكنت وصديقي المرحوم توفيق الحلبي قد سبقنا الى معرفة الخطر الداهم فنجونا بانفسنا بطريق البادية الى العراق وبقينا حيناً في مصر قبلما اعلنت الثورة العربية في مكة والمدينة

اخذ المليك الراحل على عاتقه قيادة جيش الثورة الشمالي فسار على ساحل البحر الاحمر وغادر (المدينة) محصورة يحيطبها اخواه الملك علي والامير عبد الله، وما زال يسير موفقاً بين القبائل والمدن حتى دخل دمشق الشام في اليوم الاول من شهر اكتوبر — تشرين الاول — سنة ١٩١٨ ، وسيكون تاريخ هذا الجيش بداءة تنظيم النهضة العربية تنظيماً عملياً حديثاً لان نخبة منتخبة ممن مثلوا اخطر الادوار في الاقطار العربية الشمالية فيما بعد تدربوا على الثورة في وحداته

وعملوا تحت لواء قائده. فبهم جعفر باشا العسكري مثلاً فان رواية انضمامه الى الجيش العربي الفاتح يجوز ان تتخذ نموذجاً للبواعث التي كانت تدفع بعض العاملين الى التطوع ، فقد خدم جعفر باشا الدولة العثمانية في طرابلس الغرب وبرقه ابرّ خدمة الى ان وقع اسيراً بيد الانكليز على حدود السلوم فسجن في قلعة (محمد علي) في القاهرة حيث حاول الفرار من النافذة لاجل العودة الى القتال الا انهُ سقط فكسر بعض اطرافه فنقل الى مستشفى الاسرى في (المعادي). هنالك اتيح لي ان اراه فاطلعهُ على جرائم احمد جمال باشا وزبانيته وكيف شنق النخبة المنتخبة من الرجال في اليوم السادس من مايو سنة ١٩١٦ فتحول جعفر باشا لهذه الانباء فجأة واقسم بشرفهِ العسكري ان ينتقم لاخوانهِ الشهداء وفي مقدمتهم سليم بك الجزائري، وقد برَّ بيمينهِ وبعد حين كان بين القواد البارزين في الجيش العربي الشمالي . ففي هذا الخبر الشخصي البسيط ما يكم افواه الذين قالوا ان الجيش العربي مجموعة افراد من المرتزقة

وفي هذا الجيش وما لا بد فيهِ من الاختبارات المتنوعة والحاجات الشديدة الى المزايا العامة تكاملت خصال الراحل الكريم وانجلت نواحيهِ فكان القائد البارز الذي لم يفكر احد في منافستهِ تفكيراً جديًّا ، وان حدثت شبه حادثة من هذا النوع فلا يؤبه لها ، ويرجع الى هذا الجيش الفضل الاكبر في تخفيف المظالم الاتحادية في سورية واخراج طاغية الاتحاديين من تلك الانحاء وتطهيرها من زبانيته وعماله . لا جرم انهُ لما دخل الشام استقبله اهل البلاد استقبال المنقذ وعدوه منحة من السماء جادت بهِ عليهم لتحقيق امانيهم القومية والانتقال بهم من ضيق الترح الى بحبوبة الفرح

ولما عقد مؤتمر السلام في (فرساي) انتدبهُ والدهُ ليمثل الحجاز فيهِ فغادر سورية في اوائل سنة ١٩١٩ والتقى هناك باعاظم الرجال وظهرت لهم مواهبه اذ كان يدافع عن حقوق العرب ويطالب بالعهود التي قطعها الحلفاء لوالده ، وقد سئل يومئذٍ عن رجال السياسة والاثر الذي تركوه في نفسه فقال انهم مثل الصور البراقة المعلقة في الدهاليز يجب ألاَّ ترى الاَّ من بعيد، وكان الدكتور ولسن وعقيلته يكثران من النظر اليه وكثيراً ما قال الدكتور ان طلعته تشبه طلعة المسيح

ولما عاد الى سورية استقبل استقبالاً فخماً لم تعهد الشام مثله منذ زيارة الامبراطور غليوم وكان مما فعله ان نشر بياناً في الصحف قال فيه ان مبدأ الاستقلال قد تقرر وان لجنة دولية لاستفتاء الاهالي في مصيرهم ستؤم البلاد، وفي شهر اكتوبر (تشرين الاول) من تلك السنة تلقى دعوة من الحكومة البريطانية للبحث معهُ في الشؤون السياسية التي استجدت وذلك لان الانكليز والفرنسيين كانوا قد اتفقوا في منتصف شهر سبتمبر — ايلول — السابق على ان تنسحب بريطانيا بجيوشها من المنطقة الشرقية وتبقى الجيوش الفرنسية حيث هي في المنطقة الغربية

وعين الجنرال غورو يومئذٍ مندوباً سامياً على لبنان وسورية والسير هربرت صموئيل على فلسطين . فركب الفقيد نسافة بريطانية اقلته الى اوربا فتأخرت على الطريق لعطل طرأ عليها قيل انهُ مفتعل بقصد التأخير حتى اذا وصل الى لندن يكون كل شيءٍ من التفاهم قد تمَّ بين الحليفتين. وكذلك كان الامر لان الدلائل دلت على ان الفرنسيين والانكليز وجدوا طريقة لاقتسام الاسلاب فلم يبق امامهم الاَّ تبليغ المنهوبين القرارات المتخذة بحقهم ، ويؤيد ذلك ما ذكره لي المستر تشارلس كرين رئيس اللجنة الاميركية التي أمَّت سورية في صيف سنة ١٩١٩ لاستفتاء اهلها في تقرير مصيرهم بقوله (اننا لما خرجنا من اوربا في مهمتنا كنا كلنا آمالاً كباراً فلما عدنا اليها كانت نفوسنا طافحة بالخيبة ، ذلك لاننا رأينا سورية قد بيعت في اثناء غيبتنا بيع السلع ... بيعت بآبار الموصل) ، وهذه الصفقة تمَّت في مؤتمر ايلول (سبتمبر) المذكور الذي قرر ان تكون الموصل في منطقة الانتداب البريطاني ، وقد باعتها حكومة المسيو كلنصو من غير ان تنتبه الى الثروة التي تفيض من احشائها فكان من نتيجة الغبن الذي اصابها تلك الحملة القاسية التي نزلت بالمسيو كلنصو ورجاله

افهم الانكليز فيصلاً بصورة صريحة ان فرنسا اصبحت الآن صاحبة الشأن في سورية فعليهِ ان يتفق معها مباشرة وانهم لا يحجمون ان يكونوا وسطاء خير، فسافر الى باريز حيث اجتمع بالمسيو كلنصو ودخل معهُ في مباحثات بسط له فيها حرص الامة السورية على وحدتها واستقلالها فكان من نتيجة هذه المباحثات وضع اسس الاتفاق (في ٦ يناير سنة ١٩٢٠) الذي اطلق عليهِ اسم « اتفاق كلنصو — فيصل » وخلاصة هذا الاتفاق الوحدة الشاملة للعلويين وجبل الدروز، وجعل بيروت والاسكندرونة مدينتين حرتين ، وسحب الجيوش الفرنسية من سورية الى كليكيا فاذا اقتضى الامر استدعاء هذه الجيوش مرةً ثانية فلا يكون ذلك الاَّ بطلب رئيس الدولة السورية واتفاقه مع المفوض السامي ، اما المستشارون الفنيون فيوضعون تحت تصرف الحكومة السورية ومنها يتسلمون وظائفهم ويستمدّون قوتهم التنفيذية بموجب عقود واذا حدث بينهم وبين الحكومة خلاف فقد اصرَّ الفقيد على ان يحل ذلك في مجلس الوزراء السوري لا في فرنسا كما اصرَّ المسيو كلنصو، وتكون دمشق عاصمة البلاد وحلب مقر المندوب السامي واللغة العربية لغة البلاد الرسمية

***

لقد اوردنا هذه الخلاصة لبيان الاسباب التي حملت الامير فيصلاً على قبول هذا الاتفاق وامضائهِ بالحروف الاولى من اسمه كما امضاه المسيو كلنصو وكيف كان راضياً بهِ لكن دعاية شنيعة بثت عليه عند عودته فتراجع من غير نظام لانه كان لا يزال حديث عهد

بالشؤون السياسية والحملات المدبرة بالرغم من جميع تلك الاختبارات البالغة التي مرّت عليه، ولو أنه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن آرائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين انصاراً يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه . ولا يدري احد ما عسى ان يكون التدرج في ديار الشام لو تم هذا الاتفاق وبقي فيصل السياسي الممتاز مليكاً على سورية.

ومما لا شك فيه مطلقاً انه كان في نفسه راضياً عن هذا الاتفاق ولم يظهر لي ذلك منه في ابان وزارتنا فقط بل في بغداد أيضاً في سنة ١٩٢٦ فقد ذكره لي بشيء من الاسف الصريح وزاد أسفه للحالة المنكرة التي وصلت اليها سورية . ومما قاله المسيو كلمنصو لفيصل عند البحث في هذا الاتفاق « ان هذا الشعر الشائب الذي تراه في شاربيَّ وفوديَّ قد ابيضَّ من معاناة السياسة في هذه البلاد ، وانا لست استعمارياً ولا اعتقد بالاستعمار . وانني اعرض عليك معاهدة لن تجد سياسياً فرنسياً مسؤولاً من بعدي يعرض مثلها ، ففكر في الامر ملياً وانا انتظر جوابك »

وفي عقيدتي ان هذه الحادثة واضرابها من الحوادث التي جرت في سورية فتقت ذهن النابغة الكبير وايقظت مواهبه ودلته على الطريقة التي يستعين بها لتأييد مذهبه ، والنابغة مثل الدليل الحاذق يحتاج الى شيء من التمرين العملي قبل ان يصير رائد القوم

لا جرم ان يقول ابناء سورية عن فيصل بن الحسين انه درس في الاستانة وتمرن في الشام وطبّق في العراق

وفي هذه الاثناء ارتأى بعض الوطنيين ان يواجهوا فرنسا بالامر الواقع فاشاروا عليه ان يعلن استقلال البلاد تحت لوائه وبتأييد صولجانه فوافقهم على ذلك، وفي اليوم السابع من آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ اتخذ المؤتمر السوري قراراً باعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية وتمليك الامير فيصل عليها ، فاحتفلت الامة في اليوم التالي في دار البلدية بدمشق احتفالاً عظيماً باعلان هذا القرار ومبايعة جلالته ، وان انس لا أنس وقفته على الدكة يصافح المبايعين من « أهل الحل والعقد » واحداً واحداً، ولولا كسوة الملك البراقة على جسمه النحيف وهو امام العرش لم تكن هيئته يومئذٍ لتختلف كثيراً عن هيئته لما رآه الكولونل لورانس لاول مرة في (وادي الصفراء) على طريق المدينة فقال عنه متنبئاً:—« وعلى الجانب الابعد من ساحة الدار الداخلية . . . وقف شبح أبيض ينتظرني بلهفة وشوق ، ولما وقعت عيني عليه شعرت بانه الرجل الذي قدمت الجزيرة العربية في طلبه — شعرت بالزعيم الذي يستطيع تتويج الثورة العربية باكليل الظفر ، وظهر لي وهو بكسائه الحريري الابيض وكوفيته المعقودة بعقال ذهبي قرمزي لامع طويلاً جداً كالعمود ونحيفاً للغاية ، وكانت عيناه الذابلتان ولحيته السوداء ووجهه الشاحب اشبه بالقناع مسدولاً على جسمه المنتبه انتباهاً ساكناً عجيباً ، وكان متكتفاً

ويداه على خنجره فسألني : هل احببت مكاننا هنا في وادي الصفراء ؟ فأجبته نعم ، الا انه بعيد عن دمشق الشام ! (١)

وفي اليوم الاول من مايو (إيار) سنة ١٩٢٠ دعيت للاشتراك في الوزارة الاتاسية فقبلت وزارة الخارجية فيها فاتيح لي ان ارى جلالته يعمل في أعصب الاوقات وقد كان على اتصال تام بعلائق الدولة الخارجية الآخذة في النمو ، واذكر هنا حادثة تدل على ما تحلّى به من الموهبة السياسية وكيف كان سبّاقاً الى رؤية الخطر المداهم ومحيطاً بالقواعد الاساسية التي تسير بموجبها الشؤون من غير ان يغرق في التفاصيل ويرتبك بالشؤون العرضية الثانوية مشغولاً بها عن الامور الجوهرية الاولية. فقد كنا ذات يوم في مجلس الوزراء نعالج مشاكلنا مع الفرنسيس كالعادة ونسعى بكل ما اوتينا لدفع كارثتهم عن البلاد ولم يكن في الافق السياسي حدث جديد يدعو الى الاضطراب فدخل علينا الملك وعليه علائم الاضطراب والقلق كأنه يتوقع بلاء ثم قال انني لاخشى ان تسير أمور الدولة من الآن فصاعداً في الوعر وان تتكوّم العقبات أمامنا فقلنا ما الذي حدث فقال ان الفرنسيين عقدوا اليوم أسس اتفاق مع الترك وسيتفرغون لمعالجة القضية السورية لان اتفاقهم مع الترك يعني توفير جيوشهم في الشمال لمحاربتنا في الجنوب . وقد صدق ظنه وجاءت النتائج طبق ماتوقع لان الجنرال غورو حالما حصل على هذه الراحة في الحدود الشمالية تنمر وكشر عن نابه . ولو أوتي المليك الخالد حزماً على قدر فطنته وبعد نظره لتمكن من استغلال ضعف الفرنسيين لمصلحة سورية عند ما كان يعصرهم الترك عصراً يقطع الانفاس في جهات اورفة وماردين وعينتاب

ولما تنفس الفرنسيون الصعداء من بعد هذه الراحة اسرعوا فارسلوا انذارهم المداني المشهور الذي قدموه يوم عيد جمهوريتهم ، ومن البواعث الكبرى التي حملتهم على هذا الطيش السياسي وما جرّ لسمعتهم الادبية من ضرر ، اعتقادهم ان فيصلاً عامل انكليزي وان وجوده في الشرق على رأس حكومة سورية هو اختناق لسياستهم وانتصار للسياسة البريطانية. ولكن الشيء الذي لم يروه ورأيناه بعيوننا ولم يلمسوه ولمسناه بايدينا انه من بعد عودته من اوربا في المرة الثانية وخيبته من حلفائه السابقين كان اقرب الى الكولونل كوس والكولونل طولا ممثلي فرنسا في دمشق منه الى الكولونل ايستن ممثل بريطانيا : وكانت النقمة في نفسه وفي نفس كل واحد منا على انكلترا لانكارها عهودها الصريحة في ساعة الشدة اضعاف ماكانت على فرنسا. والذي فات الفرنسيين ان فيصلاً هو وطني اولاً وسياسي ثانياً وقد اوضح هذا المعنى ايضاحاً ينم على ما في قلبه يوم قال لمحرر جريدة (الانتور ماسيون) بتاريخ ١٢ شباط — فبراير — سنة ١٩١٩ «يجب الاّ تكون الاعانات التي تناولها من انكلترا للمحاربة الى جانبها والى جانبكم

(١) Revolt in the Desert, p. 18.

حجة تتخذ عليَّ لتصويري بصورة داعية انكليزي . . . . يمكنكم ان تصرّحوا على رؤوس الاشهاد بأنني لا أعمل ابداً لا لانكلترا ولا لفرنسا بل للعرب وللعرب فقط »

وكان المليك شديد التأثر بكل ما عليه مسحة من الوطنية او يظن انه من عقيدة الوطنيين الصميمة الى ان حلّت الكوارث آخذة بعضها برقاب بعض فتمرّن على التفريق في الوطنيات بين الاصلي والمقلّد والصحيح والباطل والنافع والضار حتى اذ صار ملكاً على العراق كان ثمرة يانعة . فمن دروس تلك الايام العملية ان الجنرال اللنبي ابلغه برسالة تاريخها ٢٧ نيسان — ابريل — سنة ١٩٢٠ باسم الحلفاء انهم اجتمعوا في (سان ريمو) وقرروا اعطاء الفرنسيين الوصاية على سورية والانكليز الوصاية على العراق باعتبارهما دولتين مستقلتين وطلب فيها الى الراحل الكريم بالحاح المجيء الى اوربا ليتمكن من بسط قضيته وقضية البلاد وخصوصاً حقوق ملكيته لانها لا تتقرر الآ في مؤتمر الصلح وكانت الفوضى بين الحلفاء تفسح مجالاً كبيراً لظهور كياسته ومقدرته السياسية لو لبّى الطلب من غير تردد لكن دعاية عنيفة بثت عليه في المؤتمر السوري حالت دون اقدامه على السفر في الوقت الموافق ومضمون هذه الدعاية ان المليك مسافر لتنفيذ معاهدة سرية بينه وبين فرنسا !

***

وليس في المليك الراحل قابلية الاستبداد الاوتوقراطي بل ميزته البارزة هي الكياسة والسياسة وحسن التخرج، ولولا هذه الميزة ما استطاع العراق ان يسير الى الامام بمثل هذه السهولة ، والواجب الآ يعزب عن بالنا ان البطولة في الرجال هي صفة نسبية تتعلق بالزمان والمكان ، فلو احللنا المليك الراحل محلّ موسوليني او احللنا موسوليني محلّه لكانت النتيجة هلاكاً محتماً ، ففيصل بطل في البيئة التي تتطلب مرونة ولباقة ودهاء وغاندي بطل في البيئة التي تتطلب اندثاراً وروحاً وفداء، ولو كان غاندي في سوريا او في مصر او في العراق واراد ان ينجي هذه البلاد بطريقته الروحانية من صلاة واعتكاف واندثار وعدم المقاومة الايجابية لباء بالاخفاق المريع . والدليل على بعد الفقيد يومئذ عن الاوتوقراطية الموقف اللين الذي وقفهُ أمام هجمات المرحوم يوسف بك العظمة وزير الحربية؛ فقد توترت العلائق بينهما قليلاً في اواخر عهد الحكومة العربية لان يوسف بك كان يتوسل بالشدة والمليك كعادته كان يتوسل بالكياسة خصوصاً بعد ما تلقى من بعض الامراء العسكريين إحصاء بالبنادق والمدافع والعتاد في الجيش العربي دهشنا جميعاً للنقص الذي يدل عليه . فبقينا مدة مشغولين باصلاح ذات البين لنحول دون استقالة وزير الحربية لان استقالته في تلك الايام العصيبة تدل الاعداء على عوراتنا وموضع الضعف منا

وأخيراً قضي الامر ووقعت الحرب — ان صح أن تدعى حرباً — بين فلول جيشنا المسرّح وبين الآلاف المؤلفة من الجنود البيض والسود التي جمعها غورو ممثل أعظم دولة حربية لسحق أحدث دولة سلمية . وبعد ما خرقوا الجبهة حيث استشهد البطل يوسف بك العظمة في الصف الأول طوعاً واختياراً ، وقتل القومندان ارلابوس الاسرى العرب من فرقة مرزوق بك التخيمي في (ميسلون) ، دخلوا دمشق الشام في عصر الاحد الواقع في السادس والعشرين من شهر تموز — يوليو — سنة ١٩٢٠ أما الملك فكان في اليوم السابق قد غادر دمشق على سيارته الى قرية قريبة تدعى الكسوة ونحن تبعناه اليها في القطار ولم يتخلف من الوزراء إلاّ واحد أو إثنان ،وعند ما قاربت الشمس أن تغيب هبّ نسيم عليل يحمل رائحة الشيح والقيسوم فأعاد ذكريات الثورة العربية الكبرى في نفس الملك وكان مستنداً الى الاحجار السود فقام ونزل الى خندق في الارض طبيعي وصار يتمرن على بندقيته كأنه جندي بسيط يستعد للطوارىء . ولما اظلم الليل قمنا الى المركبات التي أقلتنا وكانت واقفة في المحطة فتناولنا عشاءنا من خبز وكعك وتفاح معفن ! — منظر غريب ملك ورجاله وحاشيته يبيتون على الطوى وهم على أميال من عاصمة ملكهم وعاصمة البلدان العربية ! أين تلك المهرجانات أين تلك الاعياد أين تلك الاحتفالات أين رمضان بلياليه والبلاط بمدعويه ، أين تلك الاهازيج والزغاريد للفاتح العظيم منقذ سورية ؟ ومن حسن حظ الملك أنه «ديموقراطي» حتى بين «الديموقراطيين» تستوي في نظره الوسائد والاحجار وقطع اللحم وكسر الخبز والركوب في السيارة والمشي على الاقدام ، وقد تعوّد في الثورة شظف العيش والمبيت على الطوى لادراك آمال وتحقيق أحلام

***

كانت في تلك الايام ثورة في العراق شغلت بال الانكليز ودلتهم على ان ادارتهم العسكرية القاسية في تلك الربوع محفوفة بالأخطار فقرروا ان يستفيدوا من المواهب العظيمة التي يتحلى بها من أخرجته فرنسا من أحن البلاد اليه «بالحديد والنار» فعرضوا عليه تاج العراق ، وكان الفضل الاكبر للمستشرقة «الخاتون» او المس «جرترود بل» في توجيه أنظار الانكليز اليه فسافر الى القطر الشقيق ونزل على الرحب والسعة بين أهله وإخوانه . واذا أردت ان اوجز سلوكه في بلاد الرافدين باعتباره ملكاً عربياً سياسياً نابغاً فاوجزه بالجملة الآتية : (لقد اتخذ فيصل على عاتقه في بغداد ان يخدم القضية الوطنية بمنعه قطع الحبل بين الوطنيين والبريطانيين الى ان يصير العراق قادراً على الدفاع عن نفسه) . وقد نجح في هذه الخطة نجاحاً أثار الاعجاب ، ونظرة واحدة الى العراق وما حوله من الأقطار الشقيقة تكفي لجعل أبعد الناس شكاً أقربهم الى الايمان . ولم يكن فيصل من الملوك الذين يلتفتون الى اكتناز المال او يعنون بجمع الثروة ، فلما زرت العراق في سنة ١٩٢٦ علمت من المصادر الخاصة ان راتبه واطئة يبلغ يومئذ خمسة وسبعين الف ربية

في الشهر يوزع نحو نصفهُ على المحتاجين من اهل وغرباء . ولما ذهب يوسف بك العظمة الى الجبهة للشهادة في سبيل الوطن استودع الملك فيصلاً ابنته الصغيرة فقام بخدمتها والعناية بشؤونها الى ان استقلت في معيشتها . وكان ممتازاً بين الملوك الشرقيين بقابليته للتجدد الصحيح والاخذ بمقتضيات النظريات الثابتة، وقد نشر قبيل وفاته حديثاً عن المرأة طريفاً تناقلتهُ الصحف وكان مثار اعجاب الاخصائيين من النقّاد الاجتماعيين

آخر جلسة بيننا وختام جلساته في الشرق

وفي مساء الجمعة الواقع في اول الشهر المنصرم (سبتمبر) تناولت بطاقة من القنصلية العراقية في الاسكندرية تقول ان صاحب الجلالة الهاشمية قادم في قطار الليل من القاهرة متنكراً وهو في طريقه الى اوربا ويريد مقابلتك . فلما اجتمعنا رأيت وجههُ شاحباً وجسمهُ هازلاً فساورني القلق عليهِ لكن نوري باشا السعيد وزير خارجية العراق اخبرني ان جلالته لم ينم في الليلة السابقة سوى ثلاث ساعات وانهُ جاء على متن الطيارة الى القاهرة من غير راحة فركب القطار الى الاسكندرية وانهُ سيستقل الطيارة ايضاً الى اوربا بعيد الفجر. خفّف هذا الحديث شيئاً من قلقي ورجوت ان يكون فيه التعليل الكافي للتعب البادي على محياه والشحوب الظاهر في لونهِ. وفي الخلاصة الآتية للحديث الذي جرى بيننا وهو وياللاسف آخر احاديثنا مايدل ايضاً على شيء من التدرج الحيوي في الفقيد وعلى قابليته للاخذ بما تمليهِ التجارب وتقتضيه سياسة الدولة

جرى ذكر الفتنة الاشورية الاخيرة وكيف اذكى نارها الذين يسوءهم من المجاورين ان يسير العراق الى الامام وكيف بقيت الدول الاستعمارية حتى السنين الاخيرة تعتمد على الاقليات الدينية والنعرات المذهبية لاثارة الفتن فقال «ان مسألة تدعى المسألة الاشورية لم تعد من مسائل العراق» فقلت اريد ان احصل على جواب اطمئنّ اليهِ عما ذاع عن مظالم الجيش العراقي فطمأنني بما لم يدع شكّاً في نفسي حتى اذا حدث شيء من هذا القبيل يكون قد جرى على رغمه ، وتقاليد العرب في هذا الشأن لا تزال مقدسة مرعية الجانب . اما الذين حملوا السلاح وهددوا سلامة الامة فقال انهم لاقوا جزاءهم ، ثم رأيت من واجبي ان اؤيد الموقف وأظهر شعوري وشعور اخواني بما يدعم جلالته فقلت «ولئن جاز لاهل البسطة السياسية والتوسع الاقتصادي ان يتوسلوا بمثل هذه الوسائل الجنائية — من تحريك الاقليات الدينية — لتحقيق غاياتهم المادية فمن دواعي الحزن والاسى ان ترضى بعض تلك الاقليات ان تكون مطايا المنافع الاستعمارية الحقيرة ، ومن عادة اوربا ان تعترف بالامر الواقع متى كانت هنالك قوة تدعمه ، وان جواب مصطفى كمال باشا للورد كرزن في مؤتمر لوزان عن الاقلية اليونانية في الاناضول معروف لدى جلالتكم . ولنا عبرة بالغة من سيرة الملك امان الله فهو مصلح ومجدد وطافح بالاخلاص

ولكنه بدأ عمله معكوساً فبدلاً من ان يبدأ بالقوة ليباشر الاصلاح باشر الاصلاح من غير قوة فاخفق اخفاقاً مريعاً». هنا استوقفني المليك العظيم قائلاً ويكادكل عضو في وجهه ينطق «كن مطمئناً فسترى جيشنا في العام المقبل مؤلفاً من اربع . . . . (وذكر كلمة لم تبق في بالي) وهو على اتم نظام واحسن عتاد واهل لتحقيق الغاية الكبرى التي وضعناها نصب عيوننا». وقد سرني هذا الجواب منه كثيراً لانه دلني على ان هذه الاختبارات المديدة الاليمة اقنعته ان القوة ولو لم تستعمل هي شرط — في اكثر الأحيان جوهري — لنجاح السياسة والكياسة . ثم ذكر فلسطين فقال انها قلب البلدان العربية وموضع حرمتها واجلالها وذكر سورية بتلهف شديد ثم بدت على وجهه ابتسامة شرحت لي ما في اعماق نفسه وقال «لقد اعطتنا فرنسا بما اقدمت عليه في الفتنة الأشورية فرصة لفتح القضية السورية على مصراعيها وسيسمع العالم في الشهر الحاضر حجة العراق في الدفاع عن مصالحه ومصالحها المشتركة فهما قطران يتمم الواحد منهما الآخر» فقلت بل العراق من غير سورية قصر بلا باب وسوريا من غير العراق باب بلا قصر

ولما انتصف الليل قمنا وتصافحنا وكلنا أمل ، ولم يدر في خلدي ان تلك الجلسة كانت آخر جلساتنا وختام جلساته في الشرق

ومما لاشك فيه مطلقاً ان اطفاء الفتنة الاشورية بهذه السرعة وهذا الحزم زاده مقاماً في أعين اهل العراق وسائر البلدان العربية وقوى الروابط بينه وبين رعيته فلما نزل به القضاء المبرم كان بالغاً ذروة المجد فلا عجب ان تصعق البلاد لنعيه المفاجيء وان يعد فقده كارثة عربية قومية من الطبقة الأولى

ان آخر جملة نطق بها وهو يجود بنفسه على فراش الموت قوله «أنا مرتاح . قمت بواجبي خدمت الامة بكل قواي، ليسر الشعب بعدي بقوة واتحاد» اما نحن فلسنا مرتاحين لأننا دفنا في اللحد الذي توارى فيه حلماً ذهبياً عظيماً عشنا على امل تحقيقه كل هذه السنين الطوال



للشاعر على محمود طه

قلبي !

كالنجم في خفق وفي ومض   متفرداً بعوالم السدم
حيران يتبع حيرة الارض   ومصارع الايام والامم

مستوحشاً في الافق منفردا   وكأنه في سامر الشهب
هذا الزحام حياله احتشدا   هو عنه ناء جد مغترب

مترنحاً كالشارب الثمل   ريان من بهج ومن حزن
نشوان من ألم ومن امل   مستهزئاً بالكون والزمن

تلك السماء على جوانبه   بحرُ الحياة الفائر الزبد
كم راح يلتمس القرار به   هيمان بين شواطىء الابد

تهفو على الامواج صورته   وشعاعه اللماح في الغور
نفذت الى الاعماق نظرته   فاذا الحياة جليةُ السر

ويمر بالاحداث مبتسما   كالشمس حين يلفها الغيم
زادته علماً بالذي علما   دنيا تناهى عندها الوهم

بلغ الروائع من حقائقها   فاذا السعادة توأم الجهل
هتف المحدق في مشارقها   ذهب النهار فريسة الليل

يا قلب : مثل النجم في قلق   والناس حولك لا يحسونا
لولا اختلاف النور والغسق   مروا بأفقك لا يطلونا

فاصفح اذا غمطوك إدراكا   واذكر قصور الآدميينا
اتريدهم يا قلب املاكا؟   كلاً ! وما هم بالنبيينا !

هم عالم في غيه يمضي مستغرقاً في الحماة الدنيا
نزلوا قرارة هذه الارض وسموت انت القمة العليا

عبّاد اوهام وما عبدوا إلاّ حقير منى وغايات
ومناك ليس يحدّها الابدُ دنيا وراء اللانهايات

ولك الحياة دنىً وأكوان عزّت معارجها على الراقي
تحيا بها وتبيد ازمان وشبابها المتجدد الباقي

يا قلب : كم من رائع الحلك القاك في بحر من الرعب
كم عذت منه بقبة الفلك وصرخت وحدك فيه يا قلبي !

ومضيت تضرب في غياهبه وترد عنك المائج الصخبا
تترقب البرق المطيف به وتسائل الانواء والسحبا

وخفقت تحت دجاه من وجل كالطير تحت الخنجر الصلت
وعرفت بين اليأس والامل صحو الحياة وسكرة الموت

يا قلب : عندك اي اسرار ما زلن في نشر وفي طيِّ
يا ثورة مشبوبة النار اقلقت جسم الكائن الحي

حملته العبء الذي فرقت منه الجبال واشفقت رهبا
وأثرت منه الروح فانطلقت تحسو الجحيم وتأكل اللهبا

وملأت سفر المجد من عجب وخلقت ابطالاً من العدم
وعلى حديثك في فم الحقب سمة الخلود ونفحة القدم

كم من عجائب فيكَ للبشر اخذتهمو منها الفجاءات
متنبئاً بالغيب والقدر وعجيبة تلك النبوءات

وعجبت منك ومن اباثك في اسر الجمال وربقة الحب
وتلفت المتكبر الصلف عن ذلة المقهور في الحرب

يا حرُّ : كيف قبلت شرعته وقنعت منه نزاد مأسور
آثرت في الاغلال طلعته وأبيت منه فكاك مهجور

فاذا جفاك الهاجر الناسي وقسا عليك المشفق الحدب
فاضت بدمعك فورة الكاس وهفت بكفك وهي تضطرب

وفزعت للاحلام والذكر تبكي وتنشد رجعة الامس
ووددت لو حكّمت في القدر لتعيد سيرتها من الرمس

ووهمت ناراً ذات ايماض فبسطت كفك نحوها فزعا
مرت بعينك لمحة الماضي فوثبت تمسك بارقاً لمعا

وصحوت من وهم ومن خبل فاذا جراحك كلهن دم
لجّت عليك مرارة الفشل ومشى يحزّ وتينك الالم

والارض ضاق فضاؤها الرحب وخلت ، فلا اهل ولا سكن
حال الهوى ، وتفرق الصحب وبقيت وحدك انت والزمن

وصرخت حين اجنّك الليل متمرداً تجتاحك النار
وبدا صراعك انت والعقل ولأنتما بحر واعصار

ما بين سلمكما وحربكما كونٌ يبين ويختفي كونُ
وبنيتما الدنيا وحسبكما دنيا يقيم بناءها الفنُّ



مصطلحات علم النفس

ومشكلة تعريبها ونقلها الى العربية

للدكتور مظهر سعيد

استاذ علم النفس في معهد التربية وكلية اصول الدين



مقدمة في نشأة علم النفس وتطوره

لو نظر الانسان بعين الانصاف الى كل علم من العلوم الانسانية . من حيث نشأته وتطوره وتقدمه في ميدانه . وما وصل اليه في حاضره وما يرجى له في مستقبله. ثم مبلغ اثره في الحياة وتقدم العالم . وقابل بينهُ وبين سائر العلوم . وحدد لهُ قيمتهُ النسبية ليحلهُ بينها محله اللائق لما وسعهُ الا ان ينظر الى علم النفس الحديث غير نظرته اليها جميعها . فهو على حداثة عهده وصغر سنه من اجلّها شأناً واقدمها تاريخاً واعرقها اصلاً واسرعها سيراً نحو الرقي واعمقها اثراً في حياة الافراد والجماعات واكثرها انتاجاً — الا انهُ على الرغم مما وصل اليه في مادته وموضوعاته ومباحثه من الدقة والنظام فهو من حيث اساليبه وتراكيبه ومصطلحاته لا يزال اقلها دقة ونظاماً وتحديداً للمعنى وربطاً للفظ . واصعبها في النقل ليس من اللغات الاجنبية الى اللغات الشرقية — وخاصة العربية التي لم تعرف شيئاً عن هذا العلم الحديث قبل القرن العشرين — فحسب بل ومن لغة اجنبية حية الى لغة اجنبية اخرى . حتى دعت الحال في اوربا الى عقد مؤتمر عام منذ سنين قلائل للنظر في تحديد مصطلحاته او وضع مصطلحات لاتينية ثابتة تعمم في كل اللغات اسوة بالطب وغيره من العلوم ذات المصطلحات المضبوطة . ذلك لانهُ نشأ في فجر التاريخ مع الانسان الاول بين احضان امه الفلسفة . وقضى طفولته سابحاً في سماء الخيال مخترقاً حجاب المادة . فكان يحدثنا عن الروح والنفس وملكاتها والعقل ودرجاته والالهام والوحي والفطرة . وغير هذه من الامور التي شغلت عقول الفلاسفة وافهام جبابرة المفكرين حيناً من الدهر ثم ثبت بطلانها وعفت آثارها ولم يبق لها شبر واحد في ارض العلم الحديث . وظل في حداثته يتبع اثرها اينما سارت في ميدان الدين والاخلاق والمنطق والجمال والمعرفة تارة . والطبيعة وما وراءها تارة اخرى : وكان طبيعياً أن يستخدم في لغته التي يعبر بها المشتغلون فيه من الاقدمين عن آرائهم بنفس ما لهذه العلوم من أساليب وتراكيب ومصطلحات . وان تبقى لهذه المصطلحات معانيها الفلسفية وصيغها القديمة ما دام قاصراً في كنف الفلسفة .

وما وافى القرن التاسع عشر على تمامهِ حتى كان قد بلغ أشده . وظهرت شخصيته وتحرر من نير امه الفلسفة الكلاسيكية واتخذ لنفسه طريقاً خاصة للبحث . ووسائل للتنقيب والتعليل . وتناول مصطلحاته القديمة بين التهذيب فاحتفظ بمدلولات بعضها ومعانيها وحوَّل البعض الآخر تحويلاً اخرجها عن معناها القديم . وأخذ يتبوأ مكانته من العلوم الاخرى على مهل في اسلوبه الجديد . واذا به يطفر في القرن العشرين طفرة واحدة يزاحم فيها الطبيعة والكيمياء وعلوم الحياة يأخذ منها مبضعها وجهازها وآلتها . ومن الرياضة طرقها وأساليبها واقيستها ومعادلاتها . وامتدت يده الى التجارة والصناعة والفن والعلم والطب والادب والاجتماع والتقدم والاختراع . وحلَّ ضيفاً على موائدها يتخير من ألفاظها ومصطلحاتها وأساليبها ما يوافقه فيضمه الى قاموسه وموسوعته . وكثر الباحثون وتعددت المدارس وتشعبت نواحي البحث وظهرت الى عالم الوجود مظاهر جديدة للعقل لم تكن معروفة من قبل . بادر العلماء الى وضع مصطلحات جديدة لها لم توضع في قواميس اللغة بعد . حتى صار لكل عالم وكل مدرسة مصطلحات جديدة لا يفهمها غير الدارس لمباحث هذه المدارس . المتتبع لتطورات العلم . وكذلك صارت لغة هذا العلم خليطاً غريباً من كل صنف من فلسفي قديم ينوء تحت عظمة مجده وتاريخه القديم . الى دخيل من علوم اخرى لم ترد عاريته بعد . الى حديث لم يجف مداده

وغرضنا في العجالة الآتية ان نعرض نماذج تخيرناها من ألوف مصطلحات هذا العلم في اللغة الانكليزية ومثلها كثير في كل لغة من اللغات الاوربية . يصعب تحديد معناها بكلمة عربية واحدة . ويشق نقلها وتعريبها على المترجم الذي يعتمد على قواميس اللغة ومعاجمها والفاظها المثبتة فيها من غير ان يدرس كل فروع علم النفس دراسة محكمة مستفيضة ويتتبع تطور مصطلحاته . وأنا مدين بالفضل كل الفضل لزوجتي السيدة نظلة الحكيم سعيد في تحضير هذه النماذج ووضع القاموس التي سنتناول بعضاً منها في المقالات المقبلة ان شاء الله

اللغة

١ — كلمات تعطيها قواميس اللغة معاني متعددة . ويستخدمها الكتاب والادباء وكذلك علماء النفس بطريقة مضطربة غير محدودة تجعل فهمها وتحديد معناها عسيراً على الطالب المبتدىء والقارىء العادي والمترجم حتى اضطرَّ الكثير من العلماء المحدثين الى اغفالها بتاتاً في كتابتهم او تحديد معناها تحديداً يجعلهُ واضحاً كلَّ الوضوح اذا اضطرتهم الضرورة لاستعمالها فكلمة Feeling مثلاً تطلق على الاحساس (الحسي وغيره) والشعور الداخلي وما يتوقع حصوله والتأثر والانفعال والاعتقاد . وقد قصرها المحدثون على الوجدان او الشعور الباطن بالانفعال وهم مع هذا التحديد يفضلون عليها كلمة affection

٢ — كلمات لها علاوة على معناها اللغوي العام في علم النفس معنى آخر خاص بمدرسة

من المدارس تفهم بهِ في جميع مباحثها ومؤلفاتها لا غير . فكلمة insight تفيد على وجه العموم وفي معظم مؤلفات علم النفس التعليمي معنى التبصر في عواقب الامور (او كما يقال القراءة بين السطور) والمعرفة عن طريق الالهام والوحي كمرادف لكلمة intuition — وبعد النظر — ولكنها في مدرسة جشتالت الالمانية الحديثة وحدها تفيد ادراك العقل لمعنى الموقف او التشكيلة Pattern التي تواجهِ الانسان من عناصرها التي تتكوَّن منها — وبعبارة اخرى انتزاع المعنى النفسي من العناصر الشيئية حتى اصبحت هذه المدرسة تعرف باسم Insight School او Gestalt

٣ — كلمات معناها اللغوي العام لا يدل على معناها السيكولوجي الخاص بوجه من الوجوه فكلمة Complex معناها العام معقد او مركب اما في علم النفس فتدل على مجموعة الانفعالات المكبوتة او التجارب المؤلمة والحوادث المنسية التي تنحدر الى اللاشعور فتكوّن هناك عقدة نفسية خطيرة تهدد كيان التوازن العصبي

٤ — كلمات بين معناها العام والخاص وجه شبه ولكنهُ ضعيف جداً لا يكفي لتوضيح معناها في علم النفس فكلمة Affection معناها العام مؤثر او فعّال . وتطلق بالمعنى الخاص على الامور الوجدانية (التأثر الوجداني)

٥ — كلمات لها في علم النفس معناها العام اذا ذكرت وحدها اما اذا ارتبطت بكلمة اخرى لها هي الأخرى معنى عام اصبح لهما معنى خاص يدل على شيء معين بالذات فكلمتا Analytic تحليلي و Scale مقياس معناها مجتمعتين Analytic scale مقياس خاص من المقاييس المقننة في علم النفس لتحليل الخط والكتابة فقط

٦ — كلمات تعتبر مترادفات في قواميس اللغة ولكن لكل منها في علم النفس معنىً خاصاً دقيقاً فكلمات Tendency و ,Disposition و ,Aptitude ومعناها كلها نزعة او استعداد . اما في علم النفس فكل منها يدل على استعداد خاص له مميزاته عن باقي الاستعدادات

٢ — الفلسفة

٧ — كلمات انحدرت الى علم النفس من الفلسفة ثم تغير معناها بتغير وجهة نظر علم النفس في الشيء الذي كانت تطلق عليه سابقاً . فكلمة abulia او aboulia تفيد الآن معنى ضعف النفس او تشتت الانتباه وكانت اصلاً في الفلسفة ضعف النفس وقت ان كان علماء النفس لا ينكرون وجود النفس

٨ — كلمات لها في علم النفس معناها الفلسفي واضيف اليها معنى آخر يكمل ما كشفهُ علم النفس من النقص في وجهة النظر الاولى فكلمة aesthetic بعد ان تغيرت وجهة النظر من الناحية الموضوعية او الشيئية في ادراك الأشياء الى الناحية النفسية الفاعلية على اعتبار ان

العقل لا الشيء ذاته هو الاصل في الادراك اصبحت تفيد : التقدير النفساني للجمال . او ما تراه النفس في الشيء من جمال بحسب تقديرها هي . لا جمال الشيء في ذاته بصرف النظر عن الناحية النفسية المتغيرة كما هو الحال في الفلسفة وعلم الجمال

٣ — المنطق

٩ — كلمات أخذت اصلاً من المنطق واحتفظت بمعناها ثم استخدمت في معنى آخر جديد لا صلة له بالمعنى المنطقي Anomalous معناها في المنطق : كل ما هو غير قياسي او خارج على القاعدة او شاذ . ثم من ناحية اخرى تطلق في علم النفس على الاشخاص الذين لا يتأثرون باللونين الأخضر والأحمر بالذات من مجموعة الالوان بنسبة واحدة . وكذلك على نفس الالوان على اعتبار انها عرضة لهذا النوع من الخطإ في التمييز

١٠ — كلمات تشير الى عمليات عقلية لها في العلمين على وجه العموم اعتبار واحد . ثم تعدلت في رأي مدرسة من المدارس السيكولوجية . فكلمة Judgment كانت ولا تزال في معظم مدارس علم النفس تدل على الحكم بمعناه المنطقي (اثبات شيء لشيء او نفيه عنه) ولكنها في تعاليم مدرسة ديوى الحديثة لا تطلق الاَّ على آخر مرحلة في التفكير او التعليل. فلا يكون هناك حكم الاَّ اذا تضاربت الآراء في مسألة وفوضل بينها ثم اختير اصلحها . فجملة (الشمس طالعة) هي حكم في المنطق ولكنها لا تكون كذلك في رأي ديوى الاَّ اذا كان فيها خلاف ثم ثبت طلوعها

٤ — الطبيعة

١١ — كلمات اخذت من الطبيعة والعلوم الفيزيقية . ثم حدّد معناها لمناسبة جديدة او اعتبار لا تراعيه الطبيعة فكلمتا accoumeter , audiometer تدلان في الطبيعة على جهاز قياس حدة الصوت او السمع على حد سواء . ولكن في علم النفس التجريبي يقصر الاول على حدة السمع والثاني على حدة الصوت للتمييز بينهما

٥ — الطب ووظائف الأعضاء

١٢ — كلمات اخذت من الطب وتحولت الى معنى خاص ولا تزال تستخدم في الطب بالمعنى الاصلي الذي لا يحدد ما يقصده علم النفس الحديث . بل قد تتطور فيه من طريق آخر فيصبح لها معنى طبيٌّ جديد يخالف المعنى السيكولوجي . فكلمة acatalepsis او acatalepsia يقصد بها عامة نقصان العقل او عدم الفهم والارتياب -- ومعناها الطبي الخاص التردد في تشخيص المرض . اما معناها السيكولوجي فاساءة الفهم او تشويش الادراك الذي يكون سببه الوظيفي سوء الظن والتشكك وضعف الاستعداد لقبول القضايا على علاتها والتسليم بالبديهيات

١٣ — كلمات تدل على عاهات عقلية او بدنية . اغفل معناها الطبي العنصر العقلي منها ولم يميزه عن العنصر الفزيولوجي او العضوي مع عظم شأنه . ولما كشفت المباحث النفسية الحديثة عن طبيعتها وردَّتها الى الظواهر العقلية او طبيعة الاسباب النفسية (لا الموضوعية) تغير معناها فأصبح مخالفاً للمعنى الطبي . Accousmatognosis يقصد بها الطب عدم تمييز الاصوات ذاتها اي المؤثرات الصوتية الفيزيقية من الناحية الحسية العرفية . من حيث الاصوات ذاتها او مسبباتها . أما معناها الدقيق في علم النفس فهو عدم القدرة على تمييز المدركات الصوتية مع سماعها وتمييزها بعضها عن بعض كمجرد اصوات . اي ان الصوت يسمع ويميز ولكن لا يفهم معناه ان كان جملة او كلمة فهو ضعف ادراك المعنى لا ضعف احساس بصوت

١٤ — اسماء الامراض العصبية التي تسببها احوال البيئة والمدنية المتغيرة ويبقى معناها الطبي كما وضع اول مرة مشيراً الى سبب المرض كما شخصه وعرفه الاطباء قديماً . وكان هذا السبب صحيحاً في ذاته او كان هو السبب الوحيد وقتئذٍ ثم قلَّ اجتهاد الاطباء في درسه وانتقل البحث الى ميدان علم النفس فوجد علماؤه من تطور اسباب هذا المرض ان السبب القديم قد زال وانقرض وحلَّ محله سبب جديد من دواعي المدنية الحاضرة يستدعي تغييراً جوهريًّا في ترجمته او نقله الى العربية . والرجوع فيه الى التفسير الطبي او الكتب التي لم يدرس واضعوها علم النفس لا يفيد . فكلمة — amaxaphobia — معناها الاصلي عند بدء اشتقاقها ونحتها — الخوف من ركوب العربات (ذات الخيل مثلاً) . أما الآن فتفيد الخوف من ركوب وسائل النقل الميكانيكية التي يخشى سائقها ان تفلت قيادة الآلة من يده لسبب ما فيعرض نفسهُ للهلاك . او ادارة الماكنات والآلات التي يكون الانسان تحت رحمتها

١٥ — مأخوذة من علم وظائف الاعضاء وقد يقبل معناها العام كما هو ولكن يستحسن المحدثون ان يقصر معناها في علم النفس على ناحية خاصة . فكلمة aesthesia تطلق على جميع الاحساسات التي يقوم بها سطح الجلد . وتقصر الآن على الاحساس اللمسي الصرف (لا احساس الحرارة والثقل والألم)

٦ — اللغات الاجنبية

١٦ — كلمات من لغة اجنبية (هي في الغالب الالمانية) عمَّ استعمالها في سائر اللغات الاوربية لانها تفيد معنىً دقيقاً يراد الاحتفاظ بهِ . فكلمة anschaung مثلاً استخدمها بستالوتزي للدلالة على الادراك الحسي المباشر او معرفة الانسان للامور بنفسه مباشرة وبنى عليها طريقته في التعليم المباشر ومثلها Aussage تطلق على شهادة الشهود وتقرير الوقائع والتجارب التي تجري فيها

١٧ — كلمة من لغة اجنبية لها مقابلها في لغة اخرى ولكنها تدل على معنى أدق من وجهة النظر السيكولوجية فتستخدم الاجنبية بدلاً من الاصلية فكلمة anxiety الانكليزية تستخدم عند الاشارة الى مجرد القلق النفسي او الحيرة فاذا قصد القلق الشديد المشوب بالخوف او توقع الضرر والاذى استخدمت كلمة angst الالمانية

١٨ — كلمات موجودة بذاتها في اكثر من لغة واحدة ولكنها لا تدل على نفس المعنى المحدود او تكون لها معانٍ مختلفة فكلمة Sentiment معناها بالفرنسية عاطفة وشعور ووجدان وميل واحساس . أما في الانجليزية فمعناها عاطفة لا غير

٧ — علم النفس

١٩ — كلمات كانت اصيلة في علم النفس لها معناها اللغوي العام ولكنها الآن اصبحت في حكم المقتصرة على معنى خاص عرفت بهِ او اصطلح عليهِ او كثر استعمالها فيهِ فتدل عليهِ ولو ذكرت وحدها من دون تمييز. فكلمة achievement تفيد على وجه العموم : التحصيل او القيام بأي عمل تحصل منه نتيجة ويتحقق الغرض الذي قصد منه ولكنها أصبحت منذ زمن قصير وقفاً على التحصيل المدرسي او ما يحصله التلميذ ويتلقاه في المدرسة من العلوم كمرادف لكلمة Scholastic attainment . وكذلك الكثير من مركباتها تفهم منها الأمور المدرسية الخاصة ولو لم تذكر معها كلمة scholastic فعبارة achievement tests يفهم منها اختبارات التحصيل المدرسي — لقياس مقدار ماحصله كل تلميذ في سن خاصة أو فرقة دراسية على أساس المتوسط المقنن المقدر لهذه الفرقة او التلاميذ الذين يكونون في هذا السن — لا مطلق التحصيل . وكذلك كلمة Eduction معناها العام انتزاع شيء من اشياء او استنباط رأي من مقدمات . ولكنها أصبحت الآن اذا ذكرت من غير تمييز تطلق على عملية استنباط العلاقات بين الاشياء والمواقف بناء على قوانين العلامة الانجليزي سبيرمان في الادراك

٢٠ — كلمات تختلف المدارس السيكولوجية في تحديد معناها وماتشير اليه . وقد تختلف كل معانيها السيكولوجية عن المعنى اللغوي العام. فكلمة affection تفيد لغةً الحنو او العطف الذي هو مظهر من مظاهر عاطفة الحب. وعند المدارس القديمة كلها المظهر الوجداني للوجود بكل حالاته من انفعال وعاطفة وتأثر وشعور باطني وتعبير خارجي. والمدارس الحديثة تقصرها على الشعور النفساني الداخلي بالانفعال لا على المظهر الخارجي الذي يبدو على الانسان وهو منفعل

٢١ — كلمات سيكولوجية لها معنيان عام وخاص قد لا يكون بينهما وجه شبه كبير فكلمة Presentation بالمعنى العام تفيد مطلق وجود الأشياء او المؤثرات او ايجادها امام الانسان حتى يتعلق شعوره بها . وبالمعنى الخاص في عبارة Presentation Theory تدل على

نظرية الادراك القائلة بأن حضور المؤثرات امام العقل يدفعه الى ادراكها اي ان الوجود الشيئي هو اساس الادراك — المعارضة لنظرية Descartes النفسية

٢٢ — كلمات سيكولوجية بحتة ولكنها قليلة الاستعمال ولا توجد في قواميس اللغة ولذلك يحار الانسان في فهم معناها ان لم يكن قد تتبعها في البحوث الخاصة بها . فكلمة Perseveration تدل على ظاهرة رجوع العادة القديمة وظهور أثرها فجأة وفي فترات متقطعة غير منتظمة في العادة الجديدة التي يكتسبها الانسان كوسيلة للخروج عن العادة الاولى . لانّ النزعات والعادات القديمة اذا بطل استعمالها تحاول ان تثبت وجودها في قرارة النفس . وهذا المعنى فيه وجه شبه ضعيف بينها وبين الكلمة العادية القريبة منها وهي Perseverance أي المثابرة

٢٣ — كلمات متعددة وضعها علماء مختلفون في عصر واحد للدلالة على شيء واحد ولم يتفقوا بعد على تعميم واحدة منها . فالعلامة فرويد يستخدم كلمة libido وبرجسون كلمة élan vital وماكدوجل كلمة hormé للدلالة على النشاط الغريزي الحيوي الذي يدفع الانسان الى كافة التصرفات الغريزية وان كان فرويد قد بدأ يقصرها على الغرائز الجنسية sexual

٢٤ — كلمات شائعة الاستعمال جدًّا في علم النفس والفلسفة والتربية ولكنها مع هذا ليس لها معنى واحد ثابت يمكن نقله الى العربية في كلمة واحدة لان كل مدرسة من مدارس علم النفس الحديث والقديم على السواء تفسرها تفسيراً خاصًّا قد لا يتفق مع الأصل الذي اشتقت منه الكلمة لو اريد استخدامه عند الترجمة. فكلمة apperception استخدمها ليبنتز بادىء ذي بدء للدلالة على الادراك الحسي الشعوري conscious perception وبعبارة اخرى ادراك الحقائق الاولية والضرورية (كذا) والافكار الواضحة في مجال الشعور — والفيلسوف كانت للدلالة على النشاط الذاتي او النفسي الذي هو في رأيه اكبر محدد للعمليات العقلية وخصوصاً عملية الادراك — وهربارت لتحديد الامور الشعورية الحاضرة عن طريق الشعور ذاته ، والعوامل الكائنة بالفعل التي تحدد ما يدخل الذهن من المواقف الجديدة — وفنط الالماني يجمع بين الرأيين فيعتبرها العملية التي بمقتضاها توضح لنا مدركاتنا القديمة مواقفنا الحاضرة الجديدة — وستاوت الانكليزي يضيف الى ذلك تنظيم معلوماتنا القديمة في مجموعات تسيطر على كل اعمالنا العقلية — والمحدثون وعلى رأسهم ما كدوجل يطلقونها على تثبيت المدركات الجديدة بعد اعطائها معنًى محدوداً بأدماجها عن طريق التمثيل assimiiation فيما يماثلها او يمت اليها بصلة من اجزاء كتلة المدركات القديمة

٢٥ — كلمات لها في علم النفس عدة معان خاصة كل منها يخالف المعاني الاخرى واستعماله

صحيح في كل حالة ويفهم معناهُ مما يشير اليهِ فكلمة induction تطلق في التفكير على الاستقراء، وفي الاحساس البصري على امتصاص مناطق الالوان في العين كلٌّ للون الذي يخصها وطرد الباقي وفي الجهاز العصبي على توصيل المجامع العصبية لبعض الرسائل، وفي المشاركة الوجدانية على انتقال الشعور من فرد لآخر بطريقة غير محسوسة

٨ — كلمات جديدة

٢٦ — كلمات وضعها بعض العلماء حديثاً ولم تثبت في القواميس بعد. ولا يفهم معناها مباشرةً من اصولها اللاتينية او اليونانية التي اشتقت منها. فكلمة abience مثلاً وضعها هولت للدلالة على النزعة الطبيعية لتجنب زيادة التهيج العصبي الى اكثر من الدرجة المحتملة التي اذا تخطاها الانسان اختلَّ نظام اعصابهِ. ولا شأن لها بالكلمتين abeiance او abeyance اللتين تفيدان حالة الانتظار او الايقاف والوقف والعمل الموقوف

٢٧ — كلمات مركبة تدل على معنى خاص لا يفهم من منطوقها العام او من ترجمة اجزائها فكلمة actograph تدل على جهاز قياس النشاط الحيواني (للحيوان فقط وليس للانسان) — ولا تدل على تدوين الفعل او تسجيله كما يفهم من كلمتي acto و graph كل على حدة

٢٨ — كلمات جديدة اشتقت من كلمات قديمة معروفة باضافة مقطع اليها. وتركيبها لا يفهم منهُ معناها الدقيق الذي وضعت الكلمة من أجله. فكلمة abreaction وضعها فرويد للدلالة على عملية انطلاق الطاقة الانفعالية المكبوتة للتنفيس عنها والتخلص من العناصر المصاحبة للتجربة المكبوتة السابقة التي تسبب قلقاً عصبيًّا لا شعوريًّا. ولا يقصدبها التصرف الشعوري الذي يكون الغرض منهُ الابتعاد عن الموقف الحاضر كما يفهم من الكلمة الاصلية reaction والمقطع الذي اضيف اليها ab

٢٩ — كلمات وضعت لتدل على طريقة خاصة او جهاز او تجربة وكان لا يفهم معناها من منطوقها وانما بدراسة موضوعها الخاص. فكلمة Foot-Rule تطلق على معادلة خاصة من معادلات سبيرمان الرياضية لقياس معامل الارتباط بين متغيرين. وكذلك كلمة Affect وضعها العلامة الالماني فنط للدلالة على الانفعالات التي يصحبها تهيج بدني كبير واضطراب في العمليات العقلية

٣٠ — كلمات وضعت حديثاً نسبة الى علماء مخصوصين لتدل على طرق خاصة بهم فلا يفهم معناها الاَّ بدراسة هذه الطرق فكلمة Freudism نسبة الى Freud تدل على طريقة هذا العالم الخاصة في معالجة الاضطرابات العصبية بالتحليل النفساني

أنشودة الفجر

لبشر فارس

أَذَّنَ الديكُ فهُبّي يا حبيبي من رُقادِكْ

واجمعي بالَكِ للكوْ نِ وأُصغي بفؤادِكْ

إنَّ لِلكوْنِ صلاةً لم تَتمّ عند اعتقادِكْ

***

رنّم الجدْوَلُ فامتدَّ م الصدى حتى حجابِكْ

همهمت ريح الصبا ثمَّ توارت خلف بابِكْ

سقسق العصفورُ ما سقسقَ همساً في وسادِكْ

***

بثّت الزهرُ شذاها فاستوى طيَّ إزارِكْ

ذرّت الشمسُ فأغضى قرنها دون ستارِكْ[1]

نوَّر الوادي فجلّى وحشة حول انفرادِكْ

***

أومأ الفجرُ أنِ الحسنُ انتهى عند دلالِكْ

ردّد الكونُ صلاةً سرُّها سرّ جلالِكْ

يا حبيبي كلُّ ما في الكوْنِ من بعض عبادِكْ

---

(١) ذرت الشمس ذروراً : بدا قرنها

رسالة الاشعة الكونية

وهل هي ذرات او امواج

قيل ان درس الاشعة الكونية متفرد في علم الطبيعة الحديث بدقة مشاهداته، وعظمة نتائجه . فعلماء الطبيعة يعتقدون ان هذه الاشعة تنقل اليهم رسالة خطيرة . تكون حاملة في طياتها انباء نشوء العالم او اسرار بناء المادة في نواة الذرة . فهم لذلك معنيون الآن بحل الرموز التي كتبت بها هذه الرسالة الخطيرة

كيف يكشف عن الاشعة الكونية وكيف تقاس ؟ الطريقة الاولى هي قياس مقدرة الهواء على ايصال الكهربائية . ففي التجارب التي يجربها الاستاذ كمطن — وعنه لخصنا هذا المقال — تستعمل كرة من الصلب ، قطرها بضع بوصات يملأها غاز الارغون مضغوطاً ضغطاً عالياً . فالاشعة الكونية اذ تخترق هذا الغاز تجعله قابلاً بعض الشيء لايصال الكهربائية . والتيار الكهربائي الضئيل الذي يخترقه يقاس بالكترومتر electrometer شديد الاحساس . ولكن الاشعة المنطلقة من الراديوم وغيره من العناصر المشعة، تفعل بالغاز فعل الاشعة الكونية لذلك تحاط كرة الصلب ، بغلاف كثيف من الرصاص لانه يحجب اشعة الراديوم واشباهها

فاذا اخذت هذه الكرة ، يحيط بها غلاف رصاصي، الى نفق عميق ، فالغاز الذي فيها لا يوصل الكهربائية قط . ولكن اذا ظلت الكرة على سطح الارض ، لوحظ ان تياراً ضئيلاً يخترقه ، ويمكن قياس هذا التيار . وسبب ذلك الاشعة الكونية . فاذا نقلت الكرة كما هي الى قمة جبل ، او رفعت في الجو بمنطاد ، زاد التيار الذي يخترق الغاز،وهذا يثبت ان الاشعة الكونية التي تفعل بالغاز فتجعله قابلاً لايصال الكهربائية اقوى في الجو منها على سطح الارض

وفي شهر يوليو سنة ١٩٣٢ ذهب الاستاذ كمطن وأعوانه الى بلاد بيرو لان فيها سكة حديدية تخترق الجبال. وعند اعلى نقطة تبلغها السكة الحديدية ، حفر نفق يخترق الجبل ويبلغ ارتفاعه ثلاثة اميال عن سطح البحر . فلما نقلت الكرة المصنوعة خاصة لقياس الاشعة الكونية بالطريقة المتقدمة ، الى داخل النفق كاد أثر الاشعة الكونية في غاز الارغون لايدرك حتى بأدق الآلات وأشدها احساساً . فلما خرجوا بها الى خارج النفق بدا أثر الاشعة الكونية جلياً في التيار الذي يخترق غاز الارغون

***

وثمة طريقة اخرى لكشف الاشعة الكونية تعرف بطريقة «انبوب الاحصاء» . وهذا

الانبوب كرذ زجاجية — وقد تكون مستطيلة — يملأها غاز لا يوصل الكهربائية في حالته السويّة، فاذا فعلت بهِ الاشعة الكونية اصبح موصلاً للتيار الكهربائي . ولكن بدلاً من ان يقاس التيار الذي يخترق الغاز بالالكترومتر ، يقوّى التيار مليون مليون ضعف ثم يمرّ في مكبر للصوت ، فكلما اخترقت الانبوب شعاعةٌ من الاشعة الكونية سمعت نبرة معينة في مكبّر الصوت . والغالب انه اذا جرّبت هذه الطريقة في احد المعامل الطبيعية العادية ، كان عدد النبرات التي تسمع في البوق تتباين من ١٠ نبرات الى ١٥ نبرة في الدقيقة الواحدة . واكثر هذه النبرات سببها الاشعة الكونية ، القادمة الينا من خارج كرة الارض، بل ليس يعلم احد عدد سني الضوء التي قطعتها في اجتيازها رحاب الكون

ومن اهم الصفات التي تتصف بها هذه الاشعة العجيبة قدرتها على نفوذ الأجسام . فنحن نعلم ان الاشعة السينية (اشعة اكس) تستطيع اختراق الاجسام المادية ، فتخترق كف الانسان او جسمهُ ، ولا تخترق عظامه فيبدو الهيكل العظمي في صورة للجسم صوّرت بالاشعة السينية . ولكن طبقة من الماء سمكها بوصة واحدة تحجب نصف شعاعة من اشعة اكس ، فلا تستطيع ان تخترق طبقة من الماء سمكها بوصةٌ مثلاً . ثم ان طبقة من الماء سمكها قدم واحدة تستطيع ان تحجب نصف شعاعة من اشعة غمّا . ولكننا نحتاج الى طبقة من الماء سمكها عشرون قدماً لكي نحجب نصف شعاعة من الاشعة الكونية . وهذه القدرة على نفوذ الاجسام المادية تمكنها من اختراق غلاف الارض الهوائي ، وسقوف المباني وجدرانها ، وتؤثر في الآلات المعدّة لقياسها ، مع ان هذه الآلات مغلفة باغشية كثيفة من الرصاص

***

وقد اتجهت انظار العلماء والعامة ، الى خطورة البحث في هذه الاشعة ، لما اقترح الاستاذ ملكن نظريته الخاصة بتعليل اصلها ، من نحو سبع سنوات . فقد بنى الاستاذ ملكن على ان الاشعة الكونية تنشا او تتولد في رحاب الفضاء بين النجوم اذ تتكون ذرات العناصر الثقيلة من ذرات العناصر الخفيفة . واتى بادلة تشير الى ان هذا التولد انما هو مرحلة واحدة من مراحل التكوّن والفناء في الكون ، سائرين في حلقة مفرغة

فيجدر بنا ان نقف هنيهة عند هذا الرأي ثم نتخطاه الى البحث في الآراء الاخرى التي اقترحت لتعليل نشأة هذه الاشعة

فقد بنى ملكن نظريتهُ على ان الاشعة الكونية هي اشعاعات كهرطيسية ، او فوتونات، من قبيل الاشعة السينية واشعة غمّا ، انما هي اقصر من هؤلاء امواجاً واشدُّ نفوذاً للاجسام. وكان هذا الفرض طبيعياً، لشدة نفوذ الاشعة كما قدمنا. ثم عمد ملكن الى الرياضة والطبيعة معاً

فقال ان اشعةً لها نفس قدرة النفوذ التي في اضعف الاشعة الكونية ، يمكن ان تتولد اذا اجتمعت اربع ذرات من الايدروجين واتحدت فتكوّن من اتحادها ذرة من الهليوم. فالطاقة التي تنطلق من هذا الفعل هي في قوتها ونفوذها من رتبة الاشعة الكونية. لذلك اشار ملكن الى شعاعة من الاشعة الكونية بقولهِ ، انها « صراخ ذرة عند ولادتها » في رحاب الفضاء

وعلى هذا القياس ، قيل ان تولُّد ذرات العناصر التي تفوق الهليوم في وزنها الذري — كالاكسجين والسليكون والحديد — ينشئ أشعة كونية من درجات متفاوتة في قدرتها على اختراق الاجسام المادية وان هذه الذرات ، بفعل قوى الجاذبية ، تتقارب فتتكون منها السدُم ثم النجوم . ثم ان السدم والنجوم تشع مادتها بتحولها الى ضوء وحرارة . وتنطلق الطاقة الشاعّة من السدُم والنجوم في رحاب الفضاء ، فتتحول في خلال رحلتها الطويلة ، الى بروتونات والكترونات ومن هذه الدقائق تتألف ذرات الايدروجين ، اذ لا يخفى ان ذرة الايدروجين بروتون واحد والكترون واحد. وكذلك ترى ان الكون بحسب نظرية مِلكن يبتدىء من حيث ينتهي . فهو ازليٌّ ابديٌّ

***

فلما اخرج الاستاذ مِلكن هذه النظرية ، قال السر جيمز جينز برأي يخالفها . قال ان الاشعة الكونية ، رسائل تنبئ بفناء المادة وتلاشيها ، لا بتولدها . واشار جينز في مباحثهِ الى انهُ اذا كانت الأشعة الكونية مؤلفة من فوتونات كالضوء والاشعة السينية ، وجب ان تكون اشد الاشعة الكونية نفوذاً ، مقابلة للطاقة التي تنطلق من اتحاد الكترون ببروتون لتوليد ذرة ايدروجين . ويذكر القارىء ان حساب ملكن اشار ، الى ان اضعف الأشعة الكونية نفوذاً يوافق الطاقة التي تنطلق من اتحاد اربع ذرات الايدروجين لتوليد ذرة هليوم . وهذا فرق كبير ، حمل جينز على ان يقول ويؤيد قولهُ بالحساب كذلك ، بأن اقوى الاشعة الكونية نفوذاً ، يقابل الطاقة التي تنطلق عند فناء ذرات الايدروجين نفسها . وعلى ذلك اتخذ جينز هذا الرأي دليلاً على ان الكون يتدرج انحطاطاً في مقدار الطاقة التي فيهِ ، الى حيث لا رجعى

ثم ان الطبيعي الفرنسي الشاب دوفيليه Dauvillier اقترح نظرية اخرى لتفسير اصل الاشعة الكونية . ولكن الاساس الذي تقوم عليهِ نظريتهُ ، هو ان الاشعة الكونية ليست مؤلفة من فوتونات ، بل انها الكترونات تنطلق من الشمس نحو الارض . فنظريتهُ قريبة بعض القرب من نظرية ستورمر Stormer الذي يعلل بها الشفق القطبي بالكترونات تدخل جوّ الارض من الفضاء خارجهُ . فدوفيليه يرى ان مناطق شديدة الكهربائية تنشأ على سطح الشمس ضغطها الكهربائي الوف الملايين من الفولتات . وهذه المناطق الشديدة الكهربائية ، تطلق

كهارب في كل النواحي . فيقترب بعضها من جو الارض ، فيؤثر في جو الارض المغناطيسي ويحدث الاضواء القطبية الباهرة ، التي تتركز عادة حول القطبين المغناطيسيين

ولعل أعجب الآراء التي اقترحها العلماء لتعليل نشأة الاشعة الكونية ، هو رأي الأب ليمتر الطبيعي البلجيكي المشهور . فلا يخفى على قراء المقتطف ان الارصاد في مرصد جبل ولسن باميركا اثبتت ان السدم اللولبية البعيدة ، تبتعد عن الأرض ، وتبتعد بعضها عن بعض بسرعات تبعث على الدهشة . فتناول الاب ليمتر هذه الحقيقة المشاهدة — اذا صحّ القول ان الحيود نحو الاحمر في طيوف السدم لا يفسر الاّ هذا التفسير — ونسج منها نظرية لتعليل الكون فقال ان الكون كان من ألوف الملايين من السنين ، مركّزاً في حيز ضيق ، ثم انفجر فجأة ، فانتثرت منهُ السدم ، فأخذت تبعد بعضها عن بعض ، وما زالت تبعد حتى الآن . ثم هو يقول ان الاجزاء التي انتثرت من الكون عند انفجارهِ ، لم تكن سدماً ونجوماً فقط . بل كان منها دقائق صغيرة جدّاً ، ذرات وكهارب وفوتونات وعندهُ ان هذه الدقائق المتناهية في الصغر ، التي ما زالت تجوب رحاب الفضاء من بداية الكون ، هي هي الاشعة الكونية

***

وقبل ان نتمكن من اختيار اصلح هذه النظريات لتعليل أصل الأشعة الكونية يتحتم علينا ان نعلم ، هل الاشعة الكونية فوتونات — من قبيل الاشعة السينية واشعة غمّا — كما يقول ملكن وجينز ، او هي الكترونات كما يقول دوفيليه او هي مزيج من اشعة ودقائق مختلفة كما يقول ليمتر

فمن نحو خمس سنوات جرّب العالمان الطبيعيان الالمانيان بوث Bothe وكولهرستر Kolhorster تجربة بطريقة « انبوب الاحصاء » اقنعتهما نتائجها بأن الأشعة الكونية هي دقائق مكهربة كهربائية سالبة . فاذا كانت هذه النتيجة صحيحة ، وجب ان نجد اختلافاً في قوة الأشعة الكونية في مناطق مختلفة على سطح الارض . لان الارض تفعل فعل مغناطيسٍ كبير ، وهذا المغناطيس الكبير يجب ان يحرف الدقائق المكهربة اذ تنطلق نحو الارض . فالانحراف يجب ان يكون على أقلهِ في المناطق المجاورة للقطبين المغناطيسيين وعلى اكثرهِ في المناطق البعيدة عنهما أي المناطق الاستوائية . وعلى ذلك فقوة الاشعة يجب ان تكون على اقلّها في المناطق الاستوائية لان الدقائق تنحرف نحو القطبين ، وعلى أشدّها قرب القطبين . وقد وضعت لامتحان هذه المسألة تجارب مختلفة فاسفرت عن نتائج لا يصحُّ السكوت عليها . فمعظم الباحثين لم يجد فروقاً حيث يقتضي البحث النظري فروقاً معيّنة . ولكن البحاثة كلاي الهولندي قال انهُ وجد فرقاً في قوة الاشعة بين هولندا وجاوى

وكان من المهمّ ان يعرف هل ثمة اختلاف في قوة الاشعة الكونية في مناطق الأرض المغناطيسية المختلفة . فاذا لم يوجد اختلاف ما ، فالنتيجة التي وصل اليها بوث وكولهرستر

الالمانيان ، نتيجة خاطئة ، ولكن اذا وجد الاختلاف المتوقع ، دلَّ ذلك على ان جانباً كبيراً من الاشعة الكونية على الاقل ، مؤلف من دقائق مكهربة كهربائية سالبة

***

هنا دخل الاستاذ كمطن الميدان . امدَّهُ معهد كارنجي بالمال اللازم، فانشأ هو واعوانهُ تسعة بعوث في خلال السنتين الماضيتين ، رحلت الى مواقع مختلفة على سطح الكرة الارضية لقياس قوة الاشعة الكونية . وكانت هذه البعوث تضمُّ في ادوارها المختلفة نحو ستين عالماً من علماء الطبيعة ، جابوا القارات جميعاً الاَّ القارة المتجمدة الجنوبية ، وينتظر ان يرحلوا اليها في الرحلات المعدَّة لما بقي من هذه السنة — فقد رحلوا الى المناطق الاستوائية والعالمين القديم والجديد وجنوب افريقية وزيلندا الجديدة . وفي رحلاتهم هذه توقلوا قمم الجبال العالية ، جبال الاندس في جنوب اميركا ، وحمالايا في اسيا ، وقمة مكنلي في الاسكا ، حيث قتل الباحثان كارب وكوفن ، ولكنهما قبل مصرعهما كان قد حصلا على الارصاد الخاصة بهذه الاشعة على اعلى جبل بلغهُ الباحثون

فلما جمعت الحقائق التي اسفرت عنها مباحث هذه البعوث ،وبوبت ،وجد انقوة الاشعة الكونية قرب القطبين تزيد ١٥ في المائة عن قوتها في المناطق الاستوائية . ثم ثبت كذلك ان قوتها تختلف باختلاف خطوط العرض كما توقع القائلون بانها دقائق مكهربة .فلما نشرت هذه النتائج ، قال الاستاذ ملكن ان بعض ما فيها يختلف عن نتائج الارصاد التي قام بها هو واعوانهُ ولكنهُ عند اعادة النظر فيهِ ، سلَّم بأن ليس هناك فرق جوهريٌّ بين نتائج الفريقين

فيتضح مما تقدم ، ان جانباً من الاشعة الكونية على الاقل ، مؤلف من دقائق مكهربة . ولكن بعض الأشعة الكونية ، لا يتأثر بفعل الأرض المغناطيسي . ثم ان مقاييس بيكار ورجنر، التي قاما بها بواسطة بلونات حلَّقت الى مرتفعات عالية جدًّا ، ومقاييس بوث وكولهرستر بواسطة « انبوب الاحصاء » ، تحملنا على الاعتقاد بأن جانباً يسيراً جدًّا من الاشعة الكونية مؤلف من فوتونات ، او هو والضوء سواء . ولكن قد يكون جانب منها مؤلف من ذرات ونوى ذرات العناصر الخفيفة

هذه النتيجة التي وصل اليها الباحثون بالمشاهدة والقياس الموضعي، تتفق ونظرية الاب لمتر وهي ان الاشعة مؤلفة من أنواع مختلفة من الدقائق والاشعاعات. ولكن ذلك لا يفرض علينا ان نسلم معه بانه مازالت تجوب رحاب الفضاء من ازل الكون .وقد ذكر العالمان الاميركيان سوان وجني طرقاً تستطيع الشموس ان تولد بها هذه الدقائق الاشعاعات . وعليه فالوقت لم يأْن بعد لكي نبني نتائج فلسفية عامة على مقام هذه الاشعة في الكون ومعنى الرسالة التي تحملها

الوراثة والمحيط

وأثرهما في العقل والخلق

للدكتور شريف عسيران

لنستعرض الآن آراء المفكرين في ما للاختبارات الماضية من الاثر في عقلية المرء وشخصيته. يقول شكسبير « تكاد العادة تغير طابع الطبيعة » ويقول باكون قولاً يشبهه « ان العادة وحدها تغير الطبيعة وتخضعها » اما بعض علماء السلوك الحديثين وفي طليعتهم وطسن فيذهبون الى ابعد من ذلك ويقولون ان كل الفروق العقلية والمزاجية ناشئة عن اختلاف اختبارات الناس والظروف التي مرت بهم ويقيمون للمؤثرات التي مرّت بالطفل قبل الشهر الثامن عشر من عمره وزناً كبيراً في نشأته . وقد بنوا اسسهم التهذيبية على نظرية تأثر الفرد بالمؤثرات الخارجية. فما هي التغيرات العقلية والشخصية والمزاجية التي تتولد من اختبارات المرء الماضية ابان نشأته الاولى ؟ وهل من الممكن احداث عدة تغيرات سلبية من هذه الوجهة

ان ضربة على الرأس تجعل الذكي ابله احياناً . والمرض يضعف القويّ ويساويه بأضعف الناس . والعلل التي تصيب المفرزات الداخلية بسبب كارثة او مرض تحط من همة الفرد وتغيره من حسن الى سيء ومن سيء الى اسوأ . فهل يحدث المحيط تبدلات ايجابية غير متولدة من مرض او عاهة او كارثة ؟ ولسهولة حل هذه المعضلة نفرض وجود جماعة من الناس متشابهين في عواملهم الوراثية مشابهة التوأمين وفي كل فرد منهم نفس العوامل التي في الآخر (ومن الممكن وجود فئة كهذه في الحيوانات السفلى فقط) فما تأثير المحيط في عقليتهم وشخصيتهم وطباعهم الخ ؟ ليس الانسان اداة محدودة بل هو شخصية نامية فيها قابليات وميول وفيها استعداد لملاءمة المحيط والتأثر به فيتأثر قسم من الجماعة التي افترضنا وجودها حالاً تأثراً دائماً وبعضها لا يتأثر فأيهما يتأثر وأيهما لا يتأثر يتوقف على الصدف لان منهم من يتعرض للمحيط فيتكيف وفقاً للتأثر ومنهم من لا يتعرض فيفلت من التأثير . فتختلف الافراد الذين يتعرضون للمحيط بتكيفون بتكيفه فكما ان صيرورة جرو الحرذون حيواناً مائيًّا او ارضيًّا يتوقف على الاحوال كذلك يتوقف تطور الفرد على المحيط الذي يعيش فيه . ويصدق حكم وطسن على جماعة كهذه فيها عوامل متشابهة . وهاك قوله : كِلْ اليَّ تربية اثني عشر طفلاً اصحاء الاجسام حسني التكوين وأوجد لي عالمي الخاص وأنا الكفيل بأن اتعهد ايًّا منهم دون تعمد اختياره واصيِّره اخصائيًّا كما اشاء طبيباً او محامياً او فناناً او تاجراً او زعيماً حتى متسولاً او لصًّا الخ »

ان كل فرد من افراد الجماعة التي تصورناها يصدق عليه قول وطسن لان عواملهم متشابهة

فتتكيف شخصيته بتكيف المؤثرات وتتلخص نظرية وطسن بهذه الجملة ان كل الفروق ناشئة عن اختلاف المحيط لا اختلاف العوامل الوراثية . ان بعض السلوكيين والمربين وعلماء الدين والمصلحين يذهبون هذا المذهب ولكن هناك ما يضعف قيمة نظريتهم. فقد كان من الممكن ان يكون لها شأن لو ان البشر متشابهون في عواملهم الوراثية ولكن اختلاف العوامل يجعل تأثير المحيط مختلفاً كما بيّنا. وقد شرحنا تأثير المحيط في التوائم واثبتنا انهُ لايمكننا الجزم في امور كهذه . فما هي الصفات التي تتأثر بالمحيط وما هو مدى تأثيرها ؟ تلك امور ترجع الى التسليم المبني على الاختبار فاختلاف المحيط يؤثر مثلاً في افراز الغدد الصمّ والافراز يؤثر في طباع المرء وسلوكه. فهل المحيط يولد الولد العاق والبار وينشئ الاعتماد على النفس او روح الاتكال. يقول علماء الوراثة ان العوامل الوراثية هي منشأ هذه الفروق والسلوكيون ينسبونها الى المحيط فهل المحيط هو الذي يخلق الرياضي والموسيقي والاديب والفنان ؟ هذا ما حير العلماء . ومما لا ريب فيه ان في بعض الاشخاص عوامل متنوعة فيها استعداد للرياضيات والموسيقى والادب وغير ذلك فالتي تتعرَّض منها للمحيط الملائم لها يظهر اثرها في الشخص . وهناك فئة خالية من مثل هذه العوامل فتعرُّض افرادها للمحيط لا يجديهم نفعاً فلا يخلق فيهم الرياضي والفنَّان والاديب رغماً عن وجودهم في محيط توافرت فيه هذه الفنون . ونتساءل الآن هل ميزة الملاءمة للمحيط نفسها تحت تأثير المحيط اي هل اختلاف المحيط يجعل افراداً يتأثرون بهِ وآخرين لا يتأثرون او من يتأثر قليلاً او من لا يتأثر على الاطلاق وهل هذا هو السبب في صيرورة الفرد نبيهاً او خاملاً والفرق بين من يتعلم سريعاً تعلماً جيداً ومن يتعلم ببطء تعلماً ناقصاً وهل محصل امور كهذه من اختلاف التهذيب والتدريب والاختبار ؟ وهل قول دوي Dewey «من الممكن للانسان اثناء تعلمه العادات ان يتعلم عادة التعلم » صحيح ؟ لا شك ان البشر يختلفون في مقدرتهم على ملاءمة المحيط والتكيُّف به باختلاف العوامل الكامنة فيهم غير ان ذلك لا ينفي ان في بعضها قابلية التأثر بالمحيط ولا نستطيع ان نصدر حكماً جازماً في هذه القضية فلكل من عوامل الوراثة والمحيط مقدار من التأثير ، فسرعة التعلم وبطؤها ، والفرق بين الذكي والبليد والقابل للتكيُّف وغير القابل له تتوقف على اختلاف القوى الطبيعية الكامنة في المرء

﴿اشتراك العوامل والمحيط﴾ تكلمنا فيما سبق عن اثر المحيط في جماعة عواملهم الوراثية متشابهة ورديئة وغير قابلة للتأثر فمن البديهي ان يكون تأثير المحيط في جماعة كهذه اقل كثيراً منه في جماعة ارقى منها . ان الشعوب البليدة هي التي تتأثر بالمحيط قليلاً فسلطة العوامل في مثل هؤلاء اقوى من سلطة المحيط . ولما كان عدم التأثر بالمحيط خلقة فيهم فتكون نتيجة مساعينا لتقويم اعوجاج فئة كهذه ضئيلة . يقول كارليل « يحاول الآلهة انفسهم عبثاً تحسين البلداء » ويقول سليمان الحكيم « اذا سحنت الاحمق في الهاون بمدقة فلا يمكنك ان تزيل الحماقة منه » ولكن يوجد لبعض انواع البلادة دواء يستطب به فالبله الناشيء مثلاً عن

اعتلال الغدة الدرقية يداوى باستعمال خلاصة هذه الغدة فيصير المصاب صحيحاً ذا موهبة سوية. وليس فعل خلاصة هذه الغدد كفعل العوامل الطبيعية التي ترقع هذا الخرق دون واسطة. فالوسائط الخارجية تؤثر في الفرد مباشرة ولا تؤثر في نسله. ونستطيع ان نقول بوجه عام ان مختلف الكائنات تختلف اختلافاً كبيراً في تأثرها بالمحيط. فعقل الدودة يتكيف تكيفاً محدود وفقاً للظروف التي تحيط به وعقل الخنزير الهندي اكثر تكيفاً منها. ويكيف الكلب والهر نفسيهما لاعقد انواع المحيط. ومما لاشك فيه ان الانسان هو اقدر المخلوقات على هذا التكيف باختلاف انواعه ودرجاته فأكثر الحيوانات فهماً كالقرود والذئاب والثعالب والفيلة لا تجاري الانسان في هذه الموهبة موهبة اخضاع المحيط ولكن تختلف درجات هذا التكيف بين البشر انفسهم باختلاف عواملهم فالبليد من تكون فيه ملكة التكيف ضعيفة والعكس بالعكس. فمن كانت عواملهم ضعيفة يقل فيهم تنوع الصفات والشخصيات بخلاف من كانت عواملهم متفوقة فيكثر تنوع صفاتهم وشخصياتهم. فالمجتمع الموبوء بالعوامل الضعيفة ينشيء مدنية جامدة والعكس بالعكس. ان النوع البشري الحاضر مزيج من هذه العوامل الجيدة الحساسة التي تتأثر سريعاً والرديئة التي تتأثر قليلاً ومن هذه الفروق نشأت اختلافات البشر ومظاهرهم الاجتماعية. وينطبق المثال الذي ذكرناه سابقاً عن تلون النباتات الحمر والخضر وفقاً للمحيط وعن المناعة وعلاقتها بالمحيط، على مثل هؤلاء فلا حاجة الى التكرار. يظهر لاول وهلة ان المعارف المنوّعة والبراعة في الفنون والحرف غير خاضعة لهذا القانون ومع اننا ننظر اليها كامور لا علاقة لها بالعوامل الوراثية والمحيط وانها تتوقف على التعليم والتدريب فان للمحيط والعوامل الوراثية تأثيراً كبيراً فيها. ان سبب الفرق بين شخصين احدهما يتكلم الافرنسية مثلاً والآخر لا يتكلمها وبين فردين الواحد يجيد العزف على البيانو والآخر يجهله ناشيء عن التعليم والتدريب ولكن لو ساوينا بين شخصين في التعليم والتدريب لرأينا فرقاً عظيماً في مقدرتهما. فهذا الفرق ناشيء عن اختلاف عواملهما الوراثية فالعوامل الكامنة في الواحد حركته الى الاستفادة من الاختبارات والتجارب التي مرت به وعوامل الآخر لم تتأثر بهذه المؤثرات. فالفرق يسند حينئذٍ الى العوامل الوراثية. ان كثيراً من الفروق بين البشر الذين يثقفون ثقافة واحدة يعزى الى اختلاف هذه العوامل وهي السبب في وجود مختلف انواع المحيط والاختبارات التي ينشأ منها تنوع الصفات

اما الفرق في المعرفة والبراعة في الاشغال بين الذين يثقفون ثقافة مختلفة او في عصور تاريخية متفاوتة فيتوقف بوجه التقريب توقفاً كلياً على اختلاف المحيط فلا يستطيع احد ان يتكلم اللغة الفرنسية قبل وجودها ولا يستطيع العزف على البيانو قبل اكتشافه. ان الفروق الناشئة عن اختلاف انواع الثقافات العامة التي يتعرض لها البشر كبيرة جداً وقد أغفل علماء التناسل شأنها الخطير. ان الفرق الكلي بين الناس في القرن العشرين بعد المسيح وبين اسلافهم في القرن العشرين قبله غير ناشيء حسبما نرى عن اختلاف عواملهم الارثية

اذ لا دليل ان هذه العوامل تغيرت في النوع البشري فاختلاف مدنيتنا الحاضرة عن مدنية اسلافنا قبل عشرة آلاف سنة سواء أحسناً كان او سيئاً لم ينشأ عن اختلاف العوامل التناسلية بل عن اختلاف المحيط وكل فرق كبير في الثقافة كالفروق الموجودة بين مختلف الشعوب في العصر الحاضر منشؤه المحيط ومن الممكن تغييره دون ان تتغير العوامل الوراثية. ونفس الشيء ينطبق على التغيرات التي نشعر بها في مدنيتنا وانظمتنا الاجتماعية. ان المدنية بما فيها من علم واختراع وتقاليد وليدة العوامل الوراثية والمحيط وقد نشأ في الماضي فروق عظيمة في الثقافة باختلاف هذه العوامل. واختلاف المحيط يولد فروقاً عظيمة في الثقافة وستتغير نظمها في المستقبل ايضاً لانها ليست وليدة العوامل الوراثية فقط بل وليدة الوراثة مع المحيط. فلو اخذنا شعباً معروفاً بتاريخه وبلاده كالولايات المتحدة مثلاً فاننا نجد اختلافاً في درجات طبقات سكانها فهم يختلفون بمواهبهم واذواقهم وميولهم ونزعاتهم. فالعوامل الوراثية في شعب كهذا لا تحسب من النوع العاطل وهي قابلة التكيف بالظروف ونستطيع ان نطبق على شعب كهذا نظرية وطسن بأن ننشيء منه الطبيب والمحامي والفنان والمخترع والزعيم الى غير ذلك ولا يناقض هذا المذهب علم البيولوجيا بل يتفق معه كلَّ الاتفاق. ولكن وطسن لا يستثني من حكمه الذين ليس عندهم قابلية التكيف وعلم البيولوجيا لا يقف هنا موقف الجازم وجل مايقرره اننا اذا تعهدنا الشخص السليم منذ نشأته استطعنا ان نصيره طبيباً او محامياً او سياسيًّا الخ ويختلف الحكم باختلاف الاشخاص فبينا نرى البعض في المؤخرة نرى غيرهم في المقدمة فلو تعمدنا جعل الشخص طبيباً ومواهبه الطبيعية اميل الى التجارة فاننا نعدم التجار الماهرين واذا تعمدنا جعل المحامي طبيباً فقدنا الأطباء الحاذقين فعلينا ان نراعي الأشخاص ونترك لكل فرد ما خلق له.

ولا يجب ان ننسب كل شيء الى الوراثة فان نسبتنا كل الصفات اليها اكثر ضرراً من نسبتها الى المحيط ويحمل الناس على ان يقللوا اهتمامهم بالتربية والعناية بالاشخاص لان الاحتكاك بالمحيط يظهر جوهر من فيهم عوامل جيدة فنسبة الصفات الى المحيط اخف ضرراً واكثر نفعاً لانها مشجعة للكثيرين ومثيرة لعزائمهم وتشجع الوالدين والمعلمين والمربين على التفاءل بالتربية والتهذيب

﴿درجة تأثير العوامل والمحيط﴾ هل اكثر الفروق العقلية والسلوكية ناشئة عن العوامل او المحيط. وهل هي وليدة التهذيب والظروف الاجتماعية من ثقافة وتقاليد وعادات وغيرها. مع اننا لا نستطيع ان نصدر حكماً عامًّا لان الحكم يختلف باختلاف الاحوال فاختلاف عقلية العائلة الواحدة ومزاجها يتوقف على العوامل التناسلية اكثر منهُ على المحيط. وكذلك بين جماعة قليلة من الناس تحيط بها عوامل ثقافية واحدة كطلاَّب الكليات مثلاً. اما في الأمة الواحدة كالامة الاميركية فللعاملين تأثير بيّن عامل الوراثة وعامل المحيط. والعامل الثاني أشد تأثيراً في الشعوب التي تختلف بثقافتها وتقاليدها اما الفروق بين عصر وعصر فالمحيط بما فيه من علم وثقافة وتقاليد واختراعات اعظم فعلاً من العوامل الوراثية ان الصفات العقلية خاضعة لنظام الوراثة فالفرد مزيج من شطر الام وشطر الاب وفي كلا الشطرين

عوامل صالحة وطالحة فاذا اتحدت العوامل الجيدة خرج الفرد سليماً عبقريًّا واذا اتحدت الرديئة نشأ ممتلاً ابله وقد يكون في الجيد بعض الرديء والعكس بالعكس فنشوء الفرد يتوقف على الصدف . وفي كل امرىء صفات غالبة وكامنة فالغالبة هي الجيدة على الأغلب والكامنة هي العاطلة فقد ينبغ رجل من ابوين دون الوسط لان في كل شطر من عوامله الجيد والعاطل ويتفق ان تتحد عوامل الام الجيدة بصنوها من عوامل الاب فينشأ الفرد عبقريًّا . وهذا هو سر نبوغ بعض الشخصيات المنحدرة من عائلات متوسطة كلنكلن وشكسبير وغيرهما وهذه الحقيقة تتفق مع النظام الوراثي فان خروج الخاملين من نوابغ الآباء والنوابغ من الآباء الخاملين يؤيد مذهب الوراثة

والسر في ان الابناء يشابهون آباءهم اكثر من غيرهم والأقارب يشابه بعضهم بعضاً اكثر من الاباعد ناشىء عن الحقيقة الآتية : وهي ان عواملهم الوراثية متقاربة اكثر من الغرباء ولهذا تتشابه صفاتهم العقلية وامزجتهم وغيرها وفضلاً عن ذلك فانهم يعيشون في محيط واحد . فالابناء يشابهون آباءهم غالباً اكثر من البعيدين عنهم لان عواملهم الوراثية المنتقلة اليهم من والديهم متشابهة والاخوة يشابهون اخوانهم اكثر مما يشابهون ابناء اسرة بعيدة عنهم لان عواملهم الوراثية متقاربة فالوراثة تجعل بتمادي الايام شبهاً بين الآباء والابناء والاخوان والاعمام الخ وقد ايدت ابحاث غلتن Galton وبيرسون Pearson وترمن Terman هذه الحقيقة وهي ان الشبه في الصفات العقلية والمزاجية متقارب بين العائلات التي يمتّ بعضها الى بعض بنسب اكثر من العائلات المتباعدة . ويطول بنا المقام اذا اردنا سرد الاحصاءات الكثيرة التي تؤيد هذا الرأي . ومن اراد التوسع في هذا الموضوع فليراجع كتاب غلتون النبوغ الوراثي Hereditary Genius وابحاث تيرمان وودس وبرمهول في الوراثة البشرية Human Heredity ففيها الخبر اليقين وارواء الغليل . ولا يغرب عن بالنا ان العوامل الوراثية متساوية بين العائلات ولكن المحيط يختلف فلكل عائلة تقاليدها وعاداتها وميولها وغير ذلك من العوامل التي تكوّن لها محيطاً خاصًّا . ومما لا ريب فيه ان المحيط عامل فعال في امور كهذه فالمحيط يختلف ولكن العوامل الوراثية تبقى متشابهة وتختفي احياناً بتأثير المحيط والاختبار . ولكن لا بد من ظهورها على مرّ الايام . فيتفق ان يخرج من الآباء المتفوقين بمواهبهم العقلية اولاد منحطون والعكس بالعكس ولكن المتفوقين يتغلبون بتمادي الايام فلو اخذنا مليون من المتفوقين ومثله من المنحطين فالاول يخرج عدداً من المتفوقين اكثر من الثاني ولما كان عدد الآباء المتوسطين بدرجتهم العقلية يفوق عدد العبقريين بمراتب نرى نسبة العبقريين المنحدرين من الدرجة الوسطى اكثر من المنحدرين من الآباء النابغين لان عدد هؤلاء قليل نسبة الى اولئك . اما اذا اخذنا النسبة المئوية فيزيد تفوق الفئة الاولى اي المتولدة من آباء عبقريين فاذا انقطع نسل هذا العدد المتفوق فان نسبة المبرزين تقل ونفس الشيء يصدق على ضعاف العقول فكلما زاد عددهم زاد انتشار صفاتهم وكلما نقص تنقص نسبتهم في الجيل الثاني



مصر فى الادب الالمانى

« الموت الذهبي »



« في مئات من القصص الالمانية ، صورت مصر صوراً كلها ابهام وغموض . يغمر »
« قارئها نوع من الشعور بالرهبة امام لغز غير واضح . تتراءى له مناظر القصة كما يتراءى »
« له حلم من الاحلام . وتتابع وقائعها أمام عينيه متحدة بشعوره . آخذة بعواطفه ، متلاعبة »
« بروحه شتى أنواع التلاعب . فمصر ما زالت عند الالمان مهد السحر . ومنبع الوحي . »
« ومنشأ الخيال — أخذت عليهم منها قصص الف ليلة وليلة كل مأخذ . فهم يحاولون التحدي »
« مع روح هذه القصص . فكل تفكيرهم عن مصر لا يخرج عن مجال الف ليلة وليلة . »
« وكل ما يكتبونه عنها ، لا أعتبره الا تقليداً لهذه القصص . وها أنا أقدم ترجمة أول هذه »
« التآليف . وضعها احد مشاهير كتابهم الفطاحل . ريشارد فوس Richard Voss »
« في كتابه المسمى قصص مصرية Agyptische Geschichten » «المترجم»

١

تحركت القافلة ببطء تخترق الصحراء النوبية على الجانب الشرقي من النيل . وسارت يحوطها منظر الرمال بشكله الذي لا يتبدل منذ زمن طويل استغرق مسير عدة ايام . ذلك المنظر الذي تمتزج فيه رؤية قطع الصوان اللامعة البياض . والجرانيت الحجرية الأرجوانية اللون . مع المحيط الأصفر الزاخر من الرمال الوعرة والبراح الفسيح . تلك التي تتقد وتتوهج حتى حدود البحر الأحمر مكونة جبالاً رأسية الجوانب . وقمماً بنية القباب تحملق في فضاء الكون الرحيب

كان ذلك الفضاء فضاء محيط . ولكنه محيط خلو من أية قطرة من قطرات تلك العناصر الحية التي يحبها الانسان . بل اتخذ الجبال الشاهقة عاملاً على اغراء الأحجار الأبدية اليبوسة من الطموح لرؤية بريق لمعان المياه . ولم يكن أبدى القحول من النبات . بل كانت لديه أعشابه الذكن التي تغمرها عفرة رمال الصحراء تحت تلك السماء العديمة الأمطار اللامعة عند بريق الشمس الحامية الجهنمية

ولم تكن السماء والارض غير لمعان ولهب . لمعان ولهب ثابتان لا يتغيران . وكان من

المستحيل وسط هذا السعير المعنى امكان التفكير في ارتقاء سحابة ظليلة . سحابة شفوقة ترسل ظلاً على هذا الاتون

وكانت تلك الصورة الأبدية الشديدة الضياء هي هي لا تتبدل ولا تتغير . فكأنما ريح الصحراء من هذا العالم اللامع قد جاءت في زي شبح رهيب . أفسح الطريق وأذبل الزرع وأتلف ما قابله وبعث فيه الموت الصموت

ولم تلمح القافلة الصغيرة منذ عدة أيام في اثناء سيرها هذا وسط الصحراء معنى من معاني الحياة أو نسمة من نسماته . ولم تمد بنات آوى مرة اخرى من رحلاتها التي قطعتها فوق ذلك السطح اللامع . بل كانت هنالك آثار دقيقة فقط لخطوط تركتها الافاعي أثناء زحفها فوق فيضان الرمال الساكن كأنها خطوط زخرفية دقيقة . ذلك الفيضان الذي لعبت فيه ريح السموم لتملأ كل حفرة من حفراته بأعاصير اسطوانية عالية سريعة التحرك ، تحجب بلونها الأحمر المصفرّ وجه الشمس

وكانت القافلة مؤلفة من اربعة وعشرين جملاً واثني عشر راحلاً يصحبهم بعض البدو من قبيلة بجا . وكانت تبدو على الجميع « ما عدا واحداً فقط » سيماء الرجال الذين يحاولون تذليل بحر الرمال الرهيب — لو صحّ وصفه كذلك — بسفن الصحراء

ولم يكن من بينهم الاّ هذا الفرد المختلف عنهم . وهو شاب ممتلىء بدماء الطفولة مفرط الجمال ذو قوام جذاب مائل الى الليونة ووجه قريب الملامح الى أوجه النساء . ولو أن على فه ونظراته معنى البؤس والشظف اللذين ذاقهما بكل قسوة ومرارة . .

كان هذا الشاب صقلياً يسمى جيوردانو بالاتينو Giordano Palatino . وهو الابن الوحيد لابويه المدقعي الفقر ، اللذين باعاه في سنته العاشرة لمناجم الكبريت — وفي جوف هذه الحفر العميقة اكتسب الشاب ملامح الشظف والبؤس على فه وانطبعت في نظراته . .
وكان جيوردانو هذا نديماً وصديقاً لقائد هذه القافلة الذي كان في الوقت نفسه عبارة عن رئيس البعثة كلها . . ولم يكن هذا الرئيس رجلاً عادياً بل كان رجلاً متعلماً منقفاً عالماً بالحفريات مخترعاً . بل وكان خيالياً كذلك . . وكان فرنسي المولد يسمى جاستون لاتور Gaston Latour نال حظاً وافراً وصيتاً عريضاً في عالم الآثار والعلوم . وكانت ضالته هي البحث عن مناجم ذهب طمرتها الصحراء منذ آلاف السنين . وأخفت معالمها عن الوجود

ولم تكن رغبته في الحقيقة من وراء هذه البعثة الصحراوية الامل في الاستحواذ على الذهب لنفسه بل كانت رغبته اكتشاف ينبوع الذهب للجنس الانساني لعله يفيض عليه ثانياً من جديد . اي ان كل لذته ما كانت تنحصر الاّ في قيمة الفكرة الاستكشافية ليس الاّ . .

ولقد اضطرّ بطبيعة الحال ان يلتجىء الى غاية مادية بحتة للوصول الى بغيته هذه . حتى

ان جميع من رافقه في هذه الرحلة المحفوفة بالاخطار لم يعقد العزم الاَّ على البحث عن الذهب دون أي عزم آخر يغريه بمرافقته . .

وانفجرت الرغبة في الحصول على الذهب في نفس الشاب الصقليّ واستحوذت عليه. فراح يخفيها بكل الطرق المستطاعة . وكانت مكانته لدى العالم الفرنسي مكانة الابن العزيز . فلقد اتفق ان رأى هذا العالم في احدى رحلاته الى مناجم الكبريت بصقلية ذلك الطفل الناعم في حالته المتناهية البؤس فاشتراه لنفسه ورباه وعلمه وأحبه . الاَّ ان روح هذا الشاب لم تتأثر بذكاء هذا العالم ولا بتعاليمه الجدية . اذ كانت هذه الروح متسممة بهموم الحياة وويلاتها وبالبغض والكره لكل تشبع ؛ وبالطمع في الحصول والاستيلاء على مباهيج الوجود

ولقد رفضت الحكومة بذل أية مساعدة او اعانة لتحقيق فكرة باحث الذهب الخيالية . ولو أنها في الوقت نفسه لم تضع أمامه أية عقبة من العقبات او صعوبة من الصعاب . فاشترى لنفسه بجانب كبير من ماله جمالاً وخيماً وأطعمة وآلات للعمل حتى يتمكن بها من تحقيق غاية بعثته الغريبة . وتزويدها بما تحتاج اليه . وأحضر فوق كل شيء مدخراً كافياً من الماء الذي هو اكسير الحياة في الصحراء . . وقبل البدو أنفسهم مرافقة القافلة في رحلتها . لا في الاماكن المعلومة لديهم فقط بل وفي الاماكن التي يجهلونها كذلك على شريطة استيلائهم على جانب من الذهب المكتشف . .

ولقد ذعر جاستون لاتور عند ما ادرك القوة العظيمة التي توجد في مجرد الفكرة الظاهرة للكنز المطمور

وكذلك سار الاثنا عشر اوروبيًّا من اسوان لا تحت قيادة فتىً من ابناء الصحراء . بل تحت قيادة انسان متمدين وعالم منقف

— ٢ —

لقد أسلم حتى ابناء الصحراء أنفسهم زمام امورهم لقيادة الرجل الغريب بوجوه غاية في الجد . وكان معقود العزم وتكلم زعيمهم بثقة قوية وتعيين ثابت فقال « لسوف تصل الى هدفك . بل ولا بد انك واصل اليهِ . ان هو الاَّجهاد ونضال ما انت معلنه على الصحراء عدوة الانسانية اللدودة . بل وعدوة كل مدنية وحضارة . انما يلزمك الثبات في نضالك . حيث تود ان تستطلع . وتحاول ان تكتشف . وتريد ان تستحوذ على اغلى ما تملكهُ الحياة وأثمن ما تهبهُ . . نعم أثمن ما تهبه وا أسفاه »

وجعل جاستون لاتور يعيّن الاتجاهات والطرق كأنما قد شبَّ وترعرع بين أحضان تلك

الاقطار الوحشية . واستحوذ عليه (لثقته بوصوله الى بغيته) نوع من التصوّف . وجعل يحكم بقوة وارادة خضع لها البدو انفسهم بكل احترام واجلال .. الاَّ روحاً واحدة لم يمتلك بسط قوته وسلطانه عليها . وتلك كانت روح الشاب التي ودَّ لو انهُ اقتطعها له من روحه القوية نفسها . اذ لم يخطر له مرة واحدة ولا جال بخلده أن ذلك الذي نجّاه من انياب البؤس وخلّصهُ من براثن الذل ثم احبه بكل نفسه قد تخلّى عنهُ وحسب نفسه بالنسبة اليهِ غريباً كل الغربة

واهتمَّ العالم المنقب (الذي يكاد يشتعل في سبيل واجبهِ الخيالي اشتعالاً) بكل صغيرة وكبيرة وأخذ يسأل عن كل شيءٍ . ويقرر أماكن الراحة الليلية وزمن البدء في استئناف السير كل صباح مبكر . ويوزع بنفسه الاكل والشرب . ويحرس بكل عناية — وبنوع خاص — توزيع الماء العزيز . الذي جلبوه في صناديق كبيرة من الصفيح المحكم الغلق . ولم يخطر على بال احد بطبيعة الحال فكرة نفاد المخزون لكثرته . . فلسوف يحتفرون الارض للبحث عنهُ . . ويجب ان يأملوا في العثور عليهِ على عمق معين . يصل اليهِ من ماء النيل نفسه او من ماء البحر الاحمر مرشحاً بين طبقات الرمال العديدة . .

وكذلك ساروا فوق الصخور والقفار وعلى لجج الرمال الحمراء الملتهبة وتحت السماء العارية من كل سحابة ، الجاهلة بكل معنى من معاني الرحمة والاشفاق المزرقة بلون القتام والتجهم المخيف . متوغلين في اعماق مجاهل اللانهاية الخالية من الحياة . وتلك هي المأساة المحزنة في رواية الخلق والانشاء . لم يقابلوا منذ أيام وجه عربي من الاعراب المتناثرين فوق بساط الصحراء . انما ظهرت لهم الدنيا كأنها خلو من الحياة . وكأنما الخلق قد أبيد منها ونفد .. ولم تبق الاَّ هي الصحراء القاحلة الجرداء بعد هذا الخراب . منبوذة مجهولة حتى من الموت الذي افنى سكانها الاقدمين

وأخذت القشعريرة بأجساد هؤلاء العزّل المنقطعين وسرت بينهم رعدة رهيبة عند ما بدا لهم فجأة أثر من آثار الانسانية واصطدموا بعلامة من علامات الحياة . . تلك التي ظلت هنا . وفي ذلك المكان ما يزيد على أربعة آلاف من السنين . وكانت عظيمة تبعث على الدهشة . تدل على مكانة الخلق والقوم الذين لم يسمع عنهم خبر من الاخبار منذ آلاف السنين ...

كانت تلك نقوشاً هيروغليفية على صخور من الجرانيت . شامخة الى العلاء فوق هضاب الوعر وبراح الرمال ..

وكانت في مكنة قائد البعثة قراءة هذه الاحرف كأنما يقرأ في كتاب مفتوح . ثم افضى بخلاصتها الى قومهِ . الاَّ انهُ لم يجد فيها ضالتهُ المنشودة من هدي لنواحي الطريق . ودليل على وجود المكان الذي يتحرّق شوقاً اليهِ .. الاَّ انهُ بالرغم من ذلك لم يفقد ثقته في الوصول

اليهِ . ولم يجد قيد أنملة عن الاعتقاد في نجاح تأدية مهمة بعثته .. كذلك كان الآخرون الذين وثقوا بهِ كل الثقة . واثرت فيهم عزيمتهُ القوية كل التأثير. هؤلاء الطبيعيون الذين ما كانوا يعتقدون في الانسانية ولا الالوهية

غير ان جاستون لاتور نطق بكلمة واحدة فعلت فيهم فعل السحر . فقال « الذهب » . . . ولو انهُ قال — ماء الحياة — او الحظ والمسرة — أو دواء كل داء — أو — منبع السعادة — أو — العفو عن كل الخطايا والذنوب — أو — البقاء والابدية — أو — القرب الابديّ لله — لما كان لكل هذه العبارات التي تمثل أعلى رغبة لأمانينا الحيوية ، اقل تأثير يعادل هذه الكلمة الصغيرة . « الذهب » . الذهب . الذهب ...

أن لغات الارض كلها لا تملك كلمة ثانية تساوي هذه الكلمة في القوة والتأثير . ليس الملوك ولا القياصرة هم الذين يتحكمون في الشعوب . ليست الفنون ولا العلوم هي المثيرة لاهتمام الانسانية. ليس الحب ولا الغرام ولا الصداقة ولا التضحية ولا الايثار والخير هي أدق وقعاً في احساس ابن آدم . انما الطمع بالذهب والشراهة للاستحواذ عليه

ألا لو ان الله سيد السموات والارض وعد الناس بجنة من الذهب لكانت الارض اسعد الاكوان جميعاً . ولو أن عيسى عليهِ السلام صاح من فوق صليبه يوم عذّب فقال « ليست آلام موتي هي التي ستنجيكم من الشر وتخلصكم . ولكنني سأفتح لكم السماء يوم ابعث ثانياً واصب على رؤوسكم الذهب والنضار » .. اذاً لتجنب كل آدمي ظل الشر وتنحى عنهُ جهده ...

وكذلك سار العالم المثقف يحمل مثل هذا التعطش نحو الذهب للبحث في الصحراء النوبية عن فردوسهِ المفقود — وكان اشد هؤلاء الجميع شراهةً وطمعاً في طلب عبادة العجل الذهبي هو ذلك الطفل اللدن اللين ذو الوجه الناعم والملامح الرقيقة . ولكنهُ ذو النظرات المخيفة المرعبة الشرسة كذلك .. ذلك الذي اعتقد في طهارة روحه جاستون لاتور اعتقاده في وجود الخير على الارض

— ٣ —

وأصبح محبوب الجميع . الذين لم يبق الضعف في قلوبهم اية محبة حقيقية ولا احساس رقيق . والذين ما كانوا يمتلكون الاَّ فكرة واحدة ليس الاَّ — متى نصل؟ .. اواه لو اننا نصل

غير ان الغلام الذي كانت لهُ دائماً سيماء الطفولة . تمكن من امتلاك هذه القلوب المحترقة بلهب الشوق الى امتلاك الذهب الخياليّ يوماً من الايام .. وحتى البدو أنفسهم اظهروا اهتماماً عظيماً به . كانما هو ابنهم المحبوب . . . وكانما تقع عليهم تبعة حمايتهِ ، فأصبحوا يخفرونهُ ويحافظون عليهِ . وبذا اصبح أكثرهم عناية ورعاية واعظمهم مقاومة وتحمل . فلم يظهر

عليهِ تعب او كلل . ولم يشعر بجوع او عطش ... واذا ما تكاثر القوم في اماكن الراحة وزاحم بعضهم بعضاً عند توزيع الماء يغترفون منهُ كأنما يغترفون من منابع الذهب ، وقف بعيداً عنهم يبدي شيئاً من التقزز . ويطل بريق الاحتقار من نظرات عينيهِ الزرقاوين كزرقة الحديد والصلبتين صلابة الفولاذ . . .

غير انهُ حالما يهتم احد بانتقاء افضل محل من اماكن الراحة الليلية لذلك الغلام الذي تبدو عليهِ سيماء النعومة والليونة . او يقدم له اية مساعدة او عناية . ينفجر بضحكة عالية . ثم يغرق فيها

كانت ضحكاته ضحكات طفولة ساذجة ضحكات قلب غمره السرور وطفح منه . لا تتفق وتلك النظرات الغريبة وكأنما هي صادرة من شخص يغايره كل التغاير . ويخالفه كل الاختلاف . وكأنما كان صوت تلك الضحكات في سكون ذلك القبر كغناء القنبرة او تغريد الطيور . أثرت فيهم جميعاً على الاقل تأثير الفرح الربيعي كلما سمعوها . اذ كانوا يحسون في انفسهم الحاجة الى روح مرحة وشعور مبهج . يستحث فيهم الهمة والنشاط . ويبعد عنهم اليأس والفتور . ففي مثل اقاليم الموت هذه تنقرض الاصوات كلها وتزول

ولقد استمع العالم الى كل ضحكة من ضحكات الغلام . ومرت على وجهه الجامد الجدي سحابة سعادة ونعيم كلما طرقت سمعه فانصت لها بانتباه وهي ترن رنينها المستحب لديه . وتأخذ في الارتفاع والاتساع . ولئن استطاع المرء ملاحظة الرجل في مثل هذه اللحظة . لرأى كيف ان ضحكات هذا الغلام لدى العالم البحاثة الغارق في لجج وحدته والتائه في مسالك تفكيره . كأنما هي صوت الامل والسعادة بل صوت الحياة نفسها والنعيم

ساق جيوردانو بعيره الى جانب بعير صديقه الابوي ثم قال له بصوت مكبوح مبحوح « ان هذا اليوم لهو الثاني عشر . لقد بدأ اليأس يدب في نفوس القوم . وبدأوا يشكون . ها قد تعبت الجمال ايضاً وسينفد الماء عن قريب . ولكنك تظل هكذا هادئاً مطمئناً . او تبدو على الاقل كذلك

— انني لكذلك ! — متى سنصل ؟ — قد يتم ذلك غداً ! !

— قد يتم ؟؟ . وماذا يحدث اذا لم نصل مطلقاً ابداً ؟ — بل سنصل ! !

— الا قل لي ماذا يحدث اذاً ؟ اذاً ! ! ! . .

وهنا تهدج صوت جيوردانو وارتعش ثم صرخ في وجه العالم يقول « انا لا اود الفناء في مثل هذه الارض المخيفة . انني اود الحياة — الحياة — الحياة . واود ان اتمتع بحياتي التي يجب ان تبدأ من الآن

— من الآن فقط ؟

وصدر هذا السؤال من العالم كأنما يحمل نغمة الابهام الضعيف . والابهام الحائر المتردد. الاَّ ان الغلام لم يحترمه ولم يفهمه على الاطلاق . اذ أجابه بعواطف مكبوحة يبدو التعب في كبحها فقال « اي نعم الآن فقط . والآن لا غير . حيث تود الاستيلاء على الثروة . انهُ ليبدو منك جد تبذير .وجد خطإ . بل وجدُّ ... تخيّل واعتباط اذا لم تجعل نفسك غنيًّا . فهل سنصل بالفعل... وسنجد حقًّا ؟... انك مطلق الحق في ذلك.وانهُ لمن الواجب عليك ان تأخذ لنفسك من الذهب اكبر نصيب . وسوف لا يعترضك في ذلك اي معترض . حتى ولا ضباع الذهب أنفسهم

— واجبي ؟ انك تعلم علم اليقين ما قيمة الذهب لديّ

يجب عليك بالرغم من كل ذلك ان تأخذ . فاذا لم يكن حتى من اجلك . فليكن من اجلي

— من اجلك ؟ — نعم . انني اود ان اعيش . ان اعيش . ومن الآن فقط اود ان اعيش... انك لتعلم... علم اليقين ماذا كانت حياتي من قبل ... جوع وفاقة . اي نعم جوع وفاقة . . . لقد تركني ابواي للجوع لعلي اظل صغيراً وحقيراً بقدر المستطاع من لقيمات مناجم الكبريت الضئيلة . انني لأكره هذين الابوين . وانني لألعنهما اشد اللعنات . انني ابغض كل من آلمني صغيراً .ونغص عليَّ طفولتي ليرتزق من حولي . انني لامقت الخلق اجمعين

— حتى انا ؟ — « وحتى انت — انك لتعلم حقًّا عمَّ نتحدث ؟ ولكن يجب ان نصل سريعاً . ويجب ان نجد سريعاً . والاَّ ...» ثم توقف فجأة عن الكلام . — « والاَّ فانك تكرهني » .... ثم ابتسم العالم عند تصوره امكان بغض غلامه المحبوب له وهو الذي يود من اجله اخذ جانب من الذهب يكون كثيراً بقدر المستطاع . اكراماً لهُ فقط. اذ انهُ يود « الحياة — الحياة — الحياة »

— ٤ —

وساروا بعد ذلك وسط الاكوام واعالي الجبال والمنحنيات الملتوية في بحر رمال الصحراء النوبية . وكان غرق السفن التالفة في وسط البحار العالية احسن منهم حالاً . حسناً لايحتاج الى مقابلة . اذ انهم يجدون في ارتفاع الماء اليهم شبح الموت الرحيم . اما راكبو الصحراء فكانوا على الضدّ من ذلك

وكانوا اذ يسيرون الساعات بعد الساعات بين امواج الجبال الحمر . ويقضون الساعات بعد الساعات وسط اثير الضياء الارضي الذي تبعثه ملكة السماء العتية الجبارة على القوم حتى تميل بسعيرها المتلف الى الغروب تاركة مُلْك قدماء المصريين في حلة ارجوانية اللون. فيقفون عن السير متعبين مسغبين ليأخذوا قسطهم بعد ذلك من الراحة . ويخلّصون سفنهم الحية من احمالها الثقيلة . ويضربون خيامهم فوق الارض حيث تبدو فجأة كازهار ناصعة البياض جميلة

نامية على تربة شديدة الاحمرار . اذ يمسي كل هذا العالم الموحش ساعة الغروب غارقاً في لجج من الظلام . مستوراً بستر من السكون . وحيث لا يوجد على وجه الارض كلها رهبة تعادل رهبة الصحراء صاحبة الاسرار والالغاز في فترة الليل وساعة الهجوع. وفي احد الايام وقد اجهد القوم انفسهم بتعب المسير الحثيث تحت شمس تلهب الارض مرسلة لظاها الابيض من سماء مغطاة بغشاء اشهب . وصلت قافلة الباحثين عن الذهب الى ميدان فسيح الارجاء من تلك الميادين المكشوفة الواضحة . حيث شاهدوا فيه عن بعد مرتفعاً من صخر الجرانيت . وكان هذا المرتفع العالي النحيف المدبب القمة كأنهُ من المسلات الطبيعية يتوسط بحر الفضاء كأنهُ مرشد او دليل

واسترعى الفتى الصقلي اول الامر رجال القافلة اليه وخاطب العالِم بوجه كأنه مصبوب من الشمع ترك في نفسهِ اثراً لم يشعر بهِ في حياتهِ من قبل . فقال له منفعلاً اشد الانفعال « ان ذلك الاثر الصخري لدليل من احد اصدقائك المنقبين السابقين تركه ليكون علامة على موضع ينتظر فيهِ منذ زمن طويل . والآن فلسوف نبتّ في امرنا ونحصل على العزيز الحصول » وركب القوم بكل عجلة مستطاعة الى هذا الاثر الواضح . وبقي القائد وحده في النهاية يتبعهم ببطء كأنما يلزمه كسب الوقت لاخماد نار الهياج . ولم تطلب منهُ القافلة اكثر من تركه زمامها تجدّ الخطى حيثما تريد

وكان على هذا الاثر الصخري صورة محفورة لاحد الفراعنة الاقدمين بشكل اكبر من الطبيعة بكثير . وحملت الصورة الجانبية للوجه ملامح الملك الحازم . بوجنة واضحة العرض وعلى ركبته عصا ذات اهداب منسدلة طويلة طولاً غريباً ودقيقة كذلك. وكانت العينان بشكل لوزي تحتهما شفتان مسحوبتان سحباً جميل الصنعة والانسجام . وكان الصدر الرفيع مرسوماً من الامام . الا أن مقاييس الاعضاء كانت تبدي بالعكس موقفاً يظهر فيه منظر الرأس يحمل التاج المزدوج . ولم يكن هنالك غير قميص كثير التجعد والطي على جسم جلالة صاحب ارض النيل العليا والسفلى . .

وكانت هنالك كتابة محفورة على الصخر فوق لوحة طويلة رفيعة بجوار رسم الملك . . .

والتفّ القوم حول تمثال الملك محلقين في الصورة والكتابة متوقعين دلالة عظمى منهما. وصرخوا في القائد بكل قوة يدعونه اليهم . حيث يجب ان يقرأ . ويجب ان يخبرهم . . .

وملك العالم كل شعوره وهو واقف أمام التمثال يتفرس فيه ويطل في عينيه بريق النصر اللامع . ولو انه لم يتململ قيد شعرة ولم يخالط صوته أي تهدج يفضح عليه شعوره الذي خالطه لاعظم حادث في تاريخ حياته . ولم يظهر عليهِ أنه انما يقف أمام اللحظة التي هي فصل الخطاب في حياته المقبلة . . .

— ألا فلتقرأ ! ؟ . . ألا فلتتكلم ! !

وزلزل صوت الغلام وهو ينطق بتلك العبارة التي قالها وهو أبيض اللون . . وقرأ جاستون لاتور . . في عهد الملك مينس Menes الحاكم الاكبر للاقليمين المتحدين ابن آموق المحبوب والاله الطيب . أمكن اكتشاف مناجم الذهب في السنة السابعة من حكم جلالته بصحراء الكوش . ووضعت كنوزها البرّاقة تحت أقدام الآلهة . اعلاء لتاج مينس الابيض في الجنوب . واعلاء لتاج مينس الاحمر في الشمال » . .

عمّ أول الامر سكون رهيب . أعقبته حركة فهياج كهياج الثورة . وأحاط الكل هذا التمثال بوجوه شرسة وصرخات صحراوية . باسطٌ كلٌّ ذراعيه كأنما يحمل الصخر صورة رب مقدس أو اله معبود . العجل الذهبي في الصحراء . . . وكأنما هم يصلون له ويبتهلون . .

وهزّت روح رجل العلم احساساتُ خوف مبرح من جديد . وكأنما كانت تعنفه بقسوة وغلظة وتحاسبه بدقة وتأنيب « ألا ماذا أنت فاعله ؟؟ لقد أردت جلب الخير فما جلبت (كما يبدو) غير الشر فقط . لقد أملت في استخلاص الشفاء — اذ يمكن استخلاصه من الذهب — ولكنك تتعب هذه الأرواح عالا يشفى منه ولا يطاب . . ألا ماذا أنت فاعله ؟ ثم نظر الى الغلام بقوة خارجة عن ارادته . ذلك الذي كان محبباً اليه كل الحب . وذلك الذي وقف الآن فاقد الحركة كأنه شلّ في مكانه او صعق . أبيض الوجه كالأموات . ينظر زائغاً حائراً متردداً لا يستقر على قرار . وكأنما يرى رؤيا غير منظورة أو حلماً من الاحلام . . .

كان عقل جيوردانو قد تزحزح . . ووجدانه قد تزعزع . وشعر هو نفسهُ بنفسهِ . وكأنما أصبح تائه الفكر . يستحم في فيضان جارف من البريق . . وكان ما يطفو على روحه هو الذهب — الذهب — الذهب . . ثم أحسّ بنفسه وقد اندفع الى تياره اللامع المضيء فسقط فيه . وتركه يحيط بكل نواحي جسمه ويغمره . ثم أخذ يعبُّ من ذلك العنصر البراق بريق الشرر . ويجرع منه كما يجرع الخمر الذهبية . . شرب ثم شرب . ونهل بكل شراهة وفظاعة وطمع . . شرب . وشرب . ولكنه لم يرتو ولم يشبع . . انه في حاجة اليه احتياجاً جعله فاقد الرشد كمن به غلّ من شراب أو كأنما حلت به روح من الارواح . .

— جيوردانو . . ! !

كان هذا هو صديقه الذي ناداه بصوت عال كله خوف . فلم يقدره هذا الاخير . إذ أن ما أحسّ به العالم من الشعور المفاجيء الادهى من الاحتقار هو « الاشمئزاز » . . .

وبدا كأنما من يناديه يفيق من حلمه : وسأله بمثل تلك النظرة الجامدة جمود الجرانيت الملقى منذ عدة آلاف من السنين رمزاً حيًّا على حماقة ذهب صاحبه فقال :

— ماذا هنالك ؟؟ . لمَ تناديني ؟؟ — انك لترعبني

— لماذا ؟ — لانه يبدو لي خروجك عن انسانيتك ! — ماذا ؟
— الذهب ! ! — اننا لم نمتلكه بعد . . — لسوف نمتلكه ! !
— والآن ماذا هنالك ؟؟ — تروَّ وحاول ألاَّ تهلك نفسك به . .
— ماذا تعني بذلك ؟؟ — أعني أنك ترى في الذهب ألوهية حقيقية .

ولسوف تلزمني ان ألعن هذه الساعة ألف لعنة

وخاطب جيوردانو صديقه قائلاً « ألوهية ؟؟ » ثم سكت برهة وعاد يقول . . « انه لألوهية.وكان ألوهية منذ البدء . وسوف يظل ألوهية الى النهاية . انه هو الألوهية الوحيدة البحتة . الألوهية الخالقة للأرواح ليس الآ . . كلما عجزت الآلهة أو كلت وملت . . ظل هذا الاله القادر الأبدي الذي لا يحتل عرشه السماء . ولكنهُ يحتكم بالارض .. ألا فاخبرني ماذا تعيبهُ عليّ من معرفتي بتلك القوة أيها الرجل الذي لا يهيم بغير العلوم »

وعاد العالم صموتاً من حيث جاء . .

وسار رجال القافلة من جديد . وكأنما كانت كتل الجرانيت الصخرية من هذه الجبال أشبه بالقوة التي بعثتها حمى الرغبة في نفوس قاطعي البيد من هذه الصحراء . يتبعون دليلهم كجيش حالفه النصر . يستبق الى اقتطاف المجد وكسب الاكاليل . . غير انه بدا على وجه جاستون لانور طابع لا ينم على شيء من الانتصار . . كما انه رأى في هذه الساعة . [التي يسميها هو نفسه بالساعة الكبرى من حياته] شيئاً جديداً لم يكن بالحق وحي ألوهية على الاطلاق

ووصل الجميع في الأيام التالية بعد ان رحمت صخور الصحراء مفتقدي الذهب . بل مفتقدي الاله . .

— ٥ —

كان جبل من الصوان يرتفع عالياً في المكان الذي يحتوي على كنز الصحراء من المعدن الالهي . وفي وسط الغبار الاقتم المتعالي كأنه الهضاب يعلو بريق أصفر كأنه البحر المتحجر بسحر ساحر قدير . وحينما تحطم عاصفة الصحراء صخرة من الجبل لتقذف بها كجلمود تحطه من عل يبرق موضع القطع بريق البرَد الابيض في الشتاء . وتسلط عليه شمس البيداء نار لهيبها فتحميه وتتركه يتقد اتقاد الأتون . . . وساروا بعدئذٍ بانحدار رأسي . وتعددت المنعطفات والالتواءات في طريق الباحثين عن الذهب واختفت الصحراء فجأة من كل ناحية . ولم يبدُ لهم غير منظر القبة السماوية بلونها الفيروزي وامواج الضوء النوراني المرتفع من البلورات البراقة التي تعكسها الشمس من جوانبها المصقولة.حتى لكأنها جبال الماس الخيالية القديمة . . .

الآن العجائب لاحدَّ لها.. فمنذ ثلاثة آلاف واربعمائة سنة قبل المسيح حكم مصر الملك مينو — وفي هذا الوقت اكتشفت مناجم الذهب في « ارض كوش » واستولى عليها . ثم

اختفت عقب ذلك بقليل من ارض مصر ومن افكار الخلق والشعوب كما لو أنها لم تكن قط. ثم هو ذا اليوم — بعد ستة آلاف سنة تقريباً — من يعرف خبرها ويمكنهُ الالمام بقصتها في هذا المكان عاش الانسان من قديم الزمان.وفي هذه النواحي قامت مدنية من المدنيات القديمة . هذا المكان . مكان عالم الموت الرهيب

وأمر جاستون لاتور بضرب الخيام في احدى الامكنة الفسيحة . وارتفعت اكوام الرمال العالية كالعمد الحمر فوق درجات الصخور. المترامية هناك . تظهر بحالها هذه نتيجة مجهود عواصف السنين الالف الاربعة . وكأنما شاءت الطبيعة ان تبدي جسارتها وجهدها في ستر كنزها وطمره . غير انهُ كان هنالك كثير من النواحي العارية في الاماكن المختلفة تحمل آثار التنقيب والتكسير ... وكذلك وصل الجميع في النهاية

وكان اهم واجب عليهم قبل كل شيء . لا البحث عن باب الاله الذهبي المطمور وفتحه بل البحث عن عين من عيون الماء. فلابدَّ انهُ كان هنالك عين يومذاك . ولا بدَّ من ان تكون هنا حتى اليوم . الاَّ أنهم — بالرغم من عدم بقاء غير القليل من مدخر الماء لديهم — احسوا بالعطش القاتل نحو الذهب يلهب أفئدتهم ويحرق ارواحهم . فلم يذهب منهم مع العالم غير نفر قليل من الرجال للبحث عن الماء — وحمل الرجل بنفسه المجرف في يمينه ليكون قدوة لهم وامثولة لديهم . الاَّ ان معظمهم جرى مسرعاً ينبش الارض بغير قائد أو مرشد تلهبهُ حمى الفضول وجنون الرغبة في البحث عن الذهب المقدَّس في جوفها العميق . وكان (من هؤلاء الاخيرين) الغلام ذو الضحكات الواضحة الصبيانية .. فمنذ تلك الساعة التي ابدى فيها لصديقه (الذي انقذه من الذل واسبغ عليه يسره ورخاءه) أفكار اعتقاده الالهي وجحده الشنيع . لم تفارق وجه العالم أمارات الجد والتفكير .. الاَّ ان محبته للغلام المسكين كانت ما تزال تلوح هافية . حنونة . والدية . .

ولقد كان الحظ حليف رجال البعثة — اذ عثر الباحثون عن الماء بسرعة على بئر قديمة وكانت مغطاة بقطع كبيرة من الصخور الحجرية التي دحرجها ولا بدَّ زلزال قديم يحميها من الردم والانطمار (تلك ولا شك اعجوبة) . . واذ ازيحت الصخور وابعدت بدا عمق اسود مستدير يثير العجب من اهل هذا الزمن الذين رمموه وسوَّروه كما سوَّروا معابدهم وقبورهم الابدية

ورضي جاستون لاتور بنفسه ان يربط بحبل ويدلى به الى القاع . . وبعد برهة طويلة رهيبة . زأر من النفَّ حول البئر زئير الاسود في الفلاة وصاحوا معلنين وجود « الماء . . » . . .

واندفع من جوف صميم الارض تهليل مبحوح شق ضوء النهار يحمل معهُ لفظ « الذهب » . . فلقد عثر الآخرون كذلك . وها هم ينادون معلنين الاسم الالهي . ولم يكن تهليلهم صراخاً فقط . بل كان عويلاً ونباحاً . رددت صدى اصواتهم العالية ارجاء الصحراء الصموتة . كأنما

ارادوا بذلك بعثرة الصخور او دك الجبال . او كانما ودّوا قذف صراخهم فوق المنبسط غير المنظور حتى يصل كالرعد الى اللانهاية غير المحدودة .. وكانوا يكررون من حين الى حين قول « الذهب الذهب الذهب » وكانت تمتد عروق هذا المعدن الاصفر المحبوب امتداداً عريضاً وتظهر بوضوح وجلاء منابع بهجة الحياة وسعادتها امام اعين الباحثين عن الذهب الذين كانوا في استطاعتهم الاغتراف منهُ كيفما يشاءون .. — ولقد عثر الآخرون ايضاً على الماء الذي يستطيع الانسان الاستفادة بهِ . وهل يستفيد بهِ الانسان حقاً ؟؟ عند ما يرى فيضان الذهب في صخور الصحراء امام عينيهِ . انهُ يستطيع التفكير في جوع او عطش غير الجوع والعطش نحو الذهب . . . نعم لقد كان هنالك جوع مؤلم ولكنهُ جوع لا يشبع . وكان هنالك عطش ولكنهُ عطش لا يروي على الاطلاق

ومن هذا الجوع والعطش تشكو الانسانية في كل حين

ولم يبق هنالك احترام ولا اعتبار مذ اخذت النشوة عليهم ارواحهم لمجرد رؤية الذهب ولم يبق لديهم عطف أو وحدة . بل تفانى الكل في الانغماس بكل وجدانهِ بين لجج الخيال والذهول — ليس في العالم كله لذة تعادل لذة استخلاص هذا الكنز العزيز من جوف مناجمهِ . وقد ارادوا تحميل جمالهم بقدر ما تستطيع . حتى ولو نفقت تلك الحيوانات القوية . ثم يحملون هم انفسهم بقدر كبير . . وأصبحت قواهم متضاعفة تضاعفاً غريباً . وأصبحوا هم جبابرة عتاة لهم فوق ما لطاقة البشر الآخرين . . وكان كل همهم حمل الذهب ونقله من وسط الصحراء النوبية حتى ولو كلفهم ذلك السير في كل مفاوزها ومخاوفها ومرعباتها . بل في لهيب الشمس وعواصف الرمال . في تهديد الموت ووعيد الهلاك اياماً واسابيع طويلة . . انهم في كفاح مع الموت يدافعونهُ بكل قواهم كأنما يحملون حرزاً او طلسماً ضده . .

وبينما هم يقطعون بحر الرمال بحمية ونشاط عثروا على بقايا عظام انسان بشري . الاّ انهم ألقوا بها جانباً بغير مبالاة . وأخذوا يحتفرون الارض متوغلين في احتفارهم

ألا كيف مات اولئك القوم الذين عاشوا هنا منذ آلاف السنين ؟ وماذا كان سبب موتهم ؟ ان الجميع لا يودون غير الحياة — الحياة — الحياة . كما يتطلبها الغلام الملتهب بحمى الرغبة للحصول عليها . .

ولقد رفع هذا بيده جمجمة احد الموتى الذين مضى عليهم ما يقرب من الستة آلاف من السنين ووجّه اليها خطاباً كله تهكم وسخرية ثم صاح اخيراً يقول

ألا فلتحيا الحياة . . . . . . ألا فلتحيا الحياة

« لها تتمة »

حسن رشيد نور
مدرس
بمدرسة الفنون التطبيقية بالجيزة



قيمة العجز

في المتسولين والضعفاء

سيصدمك هذا العنوان ايها القارىء كائناً ما كان نوع الثقافة التي ثقفتها والمحيط الذي درجت فيه . فان كنت من الواقفين على النظريات الاقتصادية يتبادر الى ذهنك مقدار الخسارة التي تتحملها الامة في قوة الانتاج من جراء وجود هذه الفئة العاطلة التي بدل ان تزيد ثروة الامة تنقصها . وان كنت من رجال الامن تذكر ما لاقيته وما قصه عليك الرفاق من وقائع المتسولين واخبارهم وما يأتونهُ من ضروب الحيل وصروف المكر ليتجنبوا مطارديهم من رجال الامن الذين يجدُّون في تنفيرهم من الشوارع وذودهم عن الامكنة العامة لانهم يعتبرونهم قذًى في عين المدنية يجب الاّ تراه اعين المارّة . وان كنت من قراء الروايات يحضرك عدد من المؤامرات التي يحوك خيوطها في سواد الليل اناس زريُّو الملبس قبيحو المنظر يجولون نهاراً مقوّسي الظهور دامعي الاعين معصوبي الرؤوس يستنشدون الاكف من اجل بلغة من الطعام او نهلة من الشراب . وان كنت ممن يلذ لهم حديث العجائز تتذكر ما كانت تقصه عليك جدتك من احاديث الشطّار من المتسوّلين الذين يفرغون عصيّهم ليودعوها ما جمعوه من القطع الذهبية ، او يضعون الخرق البالية على ظهورهم لتظهر حدباء وبذلك يستدرُّون جود الناس وينالون عطفهم . وان كنت من قراء الصحف فسيتبادر الى ذهنك اسماء كثير من المتسولين الذين كانوا يعيشون عيشة الفاقة والتقتير ولكن حينما ماتوا وُجدت وراءهم بدر الاموال فكأنهم كانوا مصارف للتوفير يحشدون الاموال بكل حرص لتوزع كلها في النهاية على مستحقيها . سوف تذكر هذا وغيره مما علق بذهنك او وقع تحت شهودك من اخبار المتسولين ووقائعهم ، ولكن على فرض ان ذلك صحيح لا شبهة عليهِ ولا ريب فيهِ ألا يبقى للمتسولين والضعفاء ما يشفع لهم ويجعل لوجودهم معنًى في الحياة ؟

***

انت متوسط الحال او غني ايها القارىء ولذا فأنت آمن على مستقبلك ومستقبل بنيك الى حدّ ما . ولكن الم يخطر لك ببال ان تقف يوماً وتسأل الى اي حدّ انت مدين للمتسولين بغناك ورفاهك سؤال غريب ؟ ولكن ما كل غريب من الاسئلة يستحق الاهمال . لا اود ان اناقشك في كيف حصّلت غناك واي المسالك سلكت حتى اثريت ، ولا اود ان اذكرك بان كل

صحفة تزاد على خوانك قد يقابلها نقص في عدد الصحاف على خوان غيرك ، وانك قد تكون صعدت سلّم الثراء ونلت ما نلتهُ من توفيق على اشلاء الكثيرين ممن دستهم في سيرك السريع كالحوت الذي يربي سمنته الفاحشة على التغذي بصغار السمك — لا اود ان اناقشك في هذا فان الله وحده يعلم ذلك وسيكون لهُ معك شأن في اليوم الاخير . انما اود ان اسألك الى اي مدى انت مدين، في الاستمتاع بثروتك الراهنة — لا في جمعها ، الى المعوزين وقارعي عتبات البيوت ؟

***

يعرّف علماء الاقتصاد الثروة بانها مجموعة من المتع واللذائذ . فاذا كان هذا معنى الثروة فهل يزيدها او ينقصها المعوزون والمتسولون ؟

الليل قرٌّ والعواصف تزمجر في الخارج والرياح تعوي كأنها الذئاب تروم طعاماً والمطر يهمي والرعود تقصف وانت جالس بين بنيك امام موقدٍ مشبوب فتحمد الباري ان لك مثل هذا الموقد ومثل ما يظللهُ من مسكن . ولكن يعجزك ان تتخيل حال من يتعرّض لهذه العناصر الهوج كيف يكون الآ انك ، وانت في هذا ، يطرق سمعك عواء الكلب فتطلُّ واذا شبح في الظلام يعالجهُ كلبك من ناحية والريح من ناحية اخرى وكلاهما يود ان يكون لهُ الحظ الاوفر مما ابقته عليه الكلاب والريح والزمن من بقية رداء. تراهُ فاذا هو يقاتل قتال المستميت ليخلّص رداءهُ من ذينك الوحشين ،لانهُ يعلم ان بين تخليصه الرداء منهما اوتسليمه لهما الحياة والموت . ويتخطى عتبة بيتك دون استئذان ، لان شراسة الكلاب وعنف الريح وقساوة البرد لم تدع لهُ ليستأذن. هو داخلٌ عليك شئت ام أبيت

هوذا مقياس صحيح للشقاء ايها الغني يقف امامك لتقيس عليهِ مقدار سعادتك . هذه هي درجة الصفر فانظر الى اية درجة ترتفع انت عنها . هوذا جسمٌ يرتعش ارتعاش الخرق البالية في مهب الريح— جسمٌ عارٍ يكسوه البرد الحمرة كما تكسو النار وجوه بنيك الحمرة،ولكن ثمة فرق بين الحمرتين. هوذا نفس مضطربة مشردة ترنو اليك متوسلة ضارعة فاما ان تعيدها الى قبضة مطارديها او ان ترأف فتدنيها من موقدك فتهدأ اعصابها المرتعشة وتذوق لذة الاطمئنان بعد الابتعاد عن الخطر . انك لا تستطيع ان تتصوّر معنى الدفء تصوراً صحيحاً قويًّا ولا تستطيع ان تتصوَّر معنى الاطمئنان بالابتعاد عن مصادر الهلاك الآ متى تنظر الى مخلوقٍ كهذا تجدُ جميع العناصر في طلابهِ كأن لها ثأراً عنده. او تضن عليهِ بعد هذا بقليل من عطفك وحنانك ؟ انهُ دفع ثمن ذلك من جسمهِ ونفسهِ

ولا يعجزك ايها القارىء— اذا شئت وكنت ممن يعنيهم وقع الحوادث اليومية ان ينظروا

الى غير نفوسهم — ان تحضر لنفسك غير هذه الصورة من صور الشقاء العديدة

وقد تسأل : هل هذا صحيح ؟ هل نحن نعطف — او يجب ان نعطف — على الحرمان والضعف لانهما يضخمان لنا قوتنا النسبية ويبرزان لنا ما نحن متمتعون به من متع ولذات ابرازاً قويًّا ؟ هل نحن نعطف على الجياع لاننا شباع ونعطف على المرضى لاننا أصحاء ونعطف على العارين لاننا كاسين ونعطف على الصغار لاننا كبار ونعطف على الحيوانات عديمة الأذى لاننا نستطيع ان نؤذي ونعطف على مكفوفي البصر لاننا مبصرون ؟؟ هذه أسئلة تدير الرأس حقًّا اذا حاول المرء ان يجيب عنها اجابة ترضي جميع نواحي العقل وتصدُّ كل اعتراض. ولكننا نودُّ ان نسأل القارىء بدورنا بضعة أسئلة وليجب هو نفسه عنها كما يشاء

***

لماذا لا يعطف السقيم على السقيم عطف الصحيح على السقيم ؟ لماذا لا يعطف الاعرج على الاعرج عطف السليم على الأعرج ؟ لماذا نعطف على ابنائنا الصغار ويقلُّ هذا العطف كلما كبروا وازدادوا قوة الى ان يجيء يوم يصبح نظرنا اليهم نظر الند للند ؟ لماذا يلذُّ لنا لذة يخالطها شيءٌ من العطف والأسى ان نرى ذا القوة وذا الأذى مسلوب وسائل القوة والأذى ؟ لماذا تنبسط اكفنا للمتسول الصموت المنكسر النظر أكثر مما تنبسط للسائل الملحاح شديد النبرات ؟

قد تقول ان فلسفتك هذه أيها الكاتب — ان صحَّ ان ندعوها فلسفة — لا تصدق الاَّ على اوساط الناس ممن تربي الانانية فيهم على عواطف الايثار ، فهم حتى في ممارستهم للفضيلة لا ينظرون الاَّ الى نفعهم الخاص سواءٌ شعروا بذلك ام لم يشعروا . ولست احاول ان اردَّ هذا الاعتراض فيكفيني ان تسلم معي ان كلامي ينطبق على اوساط الناس (واوساط الناس هم الاكثرية دائماً) . الاَّ انني اود أن انبهك تنبيهاً يسيراً — وارجو ان لا يزعزع ايمانك — وهو ان تنظر من الآن وصاعداً الى فضائلنا البشرية الراهنة نظراً غير الذي تعوَّدت . لا تنظر الى الاب الذي يحرم نفسه لذة العيش ليرسل ابنه الى المدرسة كأبٍ همُّه الأوحد نفع ابنهُ . ان هذا الاب بالطبع يحب ابنه ولكنهُ يحب الخلود ايضاً . ولا تنظر الى اعمال روكفلر واضرابه كاعمال للبر وخدمة البشرية المتألمة فقط . ان روكفلر — مثلك ومثلي — يحب الذكر الحسن مثل حبّه للبشر . والجندي الذي يستقبل بثغر باسم وصدر رحب رصاص البنادق وأطراف الحراب ليس همُّه الوحيد خدمة الوطن والذب عن حياضه . انه يحب وطنه ولكنه يحب ان يميز نفسهُ أيضاً . لا تقل ان هذا الجندي لا يأمل شيئاً من الشهرة بالاستبسال لان ما يحدثهُ من امواج صغيرة في سير المعركة يتلاشى في موجة النصر العام . ان جندينا يكفيه ان يراهُ

اثنان أو ثلاثة من رفاقه بين فكي الموت في مقدمة الصفوف . لا تنظر الى هذه الامور نظراً مادياً بل فكر بما يكون وراءها من نوازع واميال قد تكون خافية حتى على أصحابها

والآن لست ادري اذا كنت اقنعتك بقيمة الضعفاء العافين والمتسولين — مهما ضؤلت هذه القيمة — من هذه الناحية — ناحية ابرازهم ما نحن عليه من قوة وما نحن متمتعون به من لذة ابرازاً جلياً . انك لا تستطيع ان تتخيل لذة الصحة كما لو مرضت او شاهدت ما يفعله المرض في غيرك ومن يدري كيف تكون لذة التمتع بالراحة — مهما اوتي من سعة الخيال — اذا لم يذق ألم التعب او يشاهد آثاره على غيره ؟ ان الضد يظهر حسنه او قبحه الضد . ومن هنا قال الحكماء لا سعادة بدون شقاء

***

ولا ننسى ما يفعله منظر الشقاء والعازة في الآخرين من الايحاء لنا بالقناعة واحساس الرضى باحوالنا الراهنة . ففي سنوات الجوع يشعر من يحصل على الكفاف بمقدار من السعادة لا يشعر به متوسط الحال في سني الرخاء. وما هذا الاً لأن الناس لا يهمهم في الغالب قيمة ثرواتهم المطلقة بل قيمتها النسبية — أي كم تزيد ثرواتهم عن ثروات غيرهم . وهذا في الغالب يجعل الناس يقتنون أشياء لا حاجة لهم بها . انما يقتنونها ليتميزوا بها عن غيرهم . فالتنافس هو رائد الناس في حشدهم للأموال لا الحاجة . ومن هنا لا يشبع المثرون من جمع الأموال مهما زادت عن الحد الذي ييسر لهم التمتع بكل ما يشتهون

ولكن هل كل قيمة الضعف — ان سلمت معي ان للضعف قيمة — هي في هذه الناحية الضيقة فقط ؟ اليس لوجود الضعفاء القهري بيننا غير هذا النفع المادي الذي اذا احببنا ان نجزيهم عليه جردنا فضيلة الرحمة مما يميزها من حب الخير لاجل الخير ؟

قد تكون ايها القارىء من تلاميذ نيتشه ، ولذا فأنت تعتقد ان العطف على الضعيف جريمة لا تغتفر . فاذا كنت من هذه الفئة فلا شأن لنا معك من الآن ولك ان تطوي الصحيفة حيث انت فلا تفت على نفسك. ولكني على فرض انك من الفئة الاخرى التي لا تزال تقيم وزناً لفضيلة الرأفة نسوق اليك بقية هذا الحديث الذي نرغب ان نظهر فيه ما للضعفاء من فضل في تغذية هذه العاطفة الشريفة

***

اجتمعت بشاب عاد حديثاً من اميركا بعد ان قضى هناك سبعة عشر عاماً . فكان مما حدثنا به موضوع الازمة التجارية وضيق الحال وركود الاعمال مدللاً على ذلك بأن عشرة ملايين او تزيد من العمال بلا عمل في الولايات المتحدة . ولكن ليس هذا المهم في حديثه فان مثل هذا يحدث في كل بلد صناعي ، انما المهم ان هذا الشاب كان يتكلم بصيغة قوية من الجزم

والتوكيد ان المرء قد يجوع في اميركا ويضطر الى طرق الابواب ، ولكن قد يأتي على قائمة طويلة من اسماء القديسين والاولياء ويتوسل بكل الملائكة والانبياء دون ان تناله بلغة من الطعام. واذا اعتاد الحيل لينال ما يسد بهِ الرمق يعمد الى حيلة يعرفها جيداً متشردو الاميركان وهي ان يتشاجر وأحد الناس في الشارع او يضرب بقبضة يده على زجاج احد المحلات فلا يعدم عندها ليلة او ليلتين او اسبوعاً. وان عظم الذنب شهراً ، يقضيها في السجن حيث ينال طعاماً لم يكن ليحصل عليه بغير هذه الطريقة

قصَّ عليَّ هذا الشاب ما قصَّ نخامرني الشك في حديثه . فرحت اسأل غيره ممن عادوا حديثاً من اميركا . فكان مجمل كلامهم مطابقاً لكلامه على العموم . فلم يسعني عندها الاَّ التفكير في منشأ هذه الظاهرة الغريبة . الشعب الاميركي الذي اشتهر بالبذل وعمت عطاياه المشرق والمغرب يضن على ابنائه بما يقصي عنهم آلام الجوع ؟! ما معنى هذا التناقض ، قلت ان الشعب الاميركي شعب عملي يكره ان يضيع اقل جهد على غير الانتاج. ولذا فالمتسولون عندهم طبقة مكروهة لا تثير عطفهم. ولكني ما كدت اظفر بهذا القليل حتى اخذت تتزاحم عليَّ الاعتراضات ، ووجدت اخيراً انهُ تعليل ضعيف وان هناك نواحي اخرى لهذه المسألة لا تخضع له . فحينما يفتتح اكتتاب لاعالة الاطفال الفقراء في روسيا او في الصين لا يحجم الاميركي ان يبسط كفه للمساعدة . فهل يخرج الروس والصينيون عن حد كونهم مسترفدين بالجملة بينما المتسول الاميركي لا يستعطي الاَّ مفرداً ؟

التعليل هو هذا ، وقد يقنعك وقد لا يقنعك

***

في اميركا مستشفيات كثيرة تضم اليها المرضى ودور لايواء العجزة وملاجىء خيرية للاطفال الفقراء . ولذا فهؤلاء الناس الذين تقع عيوننا عليهم في شوارعنا الشرقية — ذلك الذي شُلَّت رجلاه فاضطر الى الزحف على يديه ليدنو منك فينال بعض ما تجود به ، وتلك الأم المنكرة النظرات التي تحمل طفلاً قد عصر آخر نقطة من الحليب في صدرها ، وذلك الشيخ الفاني يحمله بقية رجلين وعصاً اذا استعملها لينوب الكلام بها عن نفسه تحمله رجلاه . فهو لذلك يفضل احياناً ان يدع الكلاب تنال منه من ان يعتمد على رجليه وحدها — هؤلاء وامثالهم تراهم في شوارعنا الشرقية . ولكنهم ليسوا من الكثرة بحيث يصبح منظرهم عاديًّا لدينا فلا نعود نتأثر بمنظر البؤس والشقاء وقد لا تقع عينك على امثال هؤلاء مرة في الاسبوع او في الشهر فيكون منظرهم باعثاً في اذكاء ما كمن فينا من رأفة وحنان . انك لا تستطيع ان تكون رئيفاً اذا لم تجد من ترأف به ولا تعرف معنى البذل اذا لم تجد من تبذل له العطاء . فابناء

البؤس — بما يقدمونه من ميولهم ونفوسهم على مذبح البشرية العام — مدرسة نتعلم فيها معنى الرأفة والعطف

وقد تتهمني ايها القارىء بالعاطفية الشديدة وبأنني احاول ان اصنع من الامر الصغير شيئاً كبيراً

لك ان تفعل ذلك ، ولكن أود منك ان تصوّر لنفسك كيف يكون حال العالم فيما لو انتزعت من صدور الناس الاحساس بالتعاطف والشعور بشقاء الغير . اذا كان خيالك بحيث لا يساعدك على ذلك فما عليك الاّ ان ترجع ببصرك الى سنوات الحرب الكبرى لترى ماذا كان يعني تجرّد الناس من عاطفة الرحمة

ولك ان تعترض اعتراضاً آخر وهو : لماذا يشعر الاميركي بالعطف على الغير حينما يصله صدى صراخه ولا يشعر بصراخ الضعف في بلاده ، ان جانباً من الرد على هذا الاعتراض قد تقدّم وهو ان الضعف والشقاء في اميركا يخفيان بقدر المستطاع عن عيون الناس في المستشفيات والملاجىء ودور العجزة ، فلا يجد الاميركي ما يزخر نفسه بالألم ، وهو ليس له من الوقت ما يستعمل فيه خياله في استحضار صور الشقاء

اما الجانب الآخر من الرد على هذا الاعتراض فهو — في معتقدنا — ان الذين يقومون بجمع الاكتتابات يُختارون في الغالب من النساء والخطباء الملاسن الذين يستطيعون ان يتلاعبوا بسهولة بعواطف الجمهور تدعمهم في ذلك الصحافة العامة . ولذا فالاميركي له ما يجعله يتصور الشقاء في البلدان الاجنبية بوضوح بينما هو لا يجد ما يعينه على مثل ذلك في بلاده. ذلك انهم هناك يعالجون مشا كلهم معالجة محلية ، فلاتقام الحملات الخطابية العامة ولاتتواطأ الصحف على تغذية هذه الحملات الاّ في الحوادث الكبيرة التي تستدعي تضافر الامة جمعاء كما حدث لما فاض المسسبي منذ سنوات

***

هذه سوانح من الافكار املاها منظر الشقاء في الضعفاء والمتسولين وغيرهم ممن خدعهم العالم والطبيعة عن نصيبهم في الحياة

وأخيراً ارجو الاّ يخامرك ايها القارىء انني استحسن وجود الضعف والشقاء لانهما يميزان لنا القوة والسعادة ولانهما يوحيان لنا باحساس الرضى والقناعة ويعلماننا معنى التعاطف والرأفة انني اول من يتمنى ان لا يبقى في العالم شقي واحد . ولكن ما دام ابناء الضعف والشقاء بيننا وما دمنا عاجزين عن مداواة آلامهم فيخلق بنا ان نعرف لهم قدرهم وقيمتهم في الحياة

شرقي الاردن — اديب عباسي

في جزيرة العرب

مناحي العمران الاجتماعية

لفؤاد حمزه بك

وكيل خارجية الحجاز (١)

ليس من شك في ان العادات المحلية تختلف باختلاف البيئات والمواضع فالذي اصطلح عليهِ اهل البادية وتعارفوا على اتباعهِ قد يكون غير مؤتلف مع حالة اهل الحواضر والامصار. وللبداوة عادات بعضها انتقل بالتسلسل من الآباء الى الاحفاد وحوفظ عليهِ كما لو كان شرعة لا يصح الاخلال بها. وبعضها نشأ بحكم الضرورة القاهرة من شظف العيش وضيقه، وقساوة البادية ومرارة المعاش فيها كما ان للحواضر عادات تستوجبها ضرورات الحياة الهادئة المرفهة من تنعم في المأكل والمشرب وتبرج وزينة في الملبس والمظهر، ومن اشادة الآطام والقصور والاكثار من الفرش والخرثي وتنويع أسباب الراحة المادية بكل ما توصل الانسان الى ايجاده. ومع اننا عممنا استعمال لفظة عادات اهل الحاضرة على جميع السكان الحضر فانهُ من الواجب أن لا يند عن البال انهُ توجد اختلافات موضعية واقليمية عديدة بين مختلف الحواضر والبلدان. وكما أن هذا الاختلاف يشاهد على اتمه بين المدن المختلفة فانهُ يشاهد ايضاً في مختلف الطبقات في المدينة الواحدة. خذ لك مثلاً: احدى مدن الاقطار المقدسة الحجازية فانك لا تستطيع ان تجد عادة او عرفاً عامًّا ينطبق على جميع أهل تلك المدينة بسبب اختلاف اطوارهم الناشيء عن اختلاط أجناسهم ولغاتهم وعروقهم وعوائدهم. فمكة المكرمة تتألف من خليط غير متجانس من الشعوب والامم الاسلامية التي وفدت اليها في أزمان وادوار متعددة وجاء كل واحد بعادات بلاده وعنعنات قومه فاكتسب من محيطهِ شيئاً جديداً لم يمحُ ما انغرس في قلبهِ من عادات ألفها ونشأ عليها هو وقومهُ في بلادهم الاصلية

ان اختلاط الوافدين الى الاقطار المقدسة من سائر انحاء العالم الاسلامي قد نشأ عنهُ مزيج لهُ الآن ميزات خاصة لا تشبه المزايا التي كانت للوافدين في بلادهم الاصلية ولا هي تشبه المزايا التي كانت لاهل الحجاز قبل مجيء هؤلاء الناس اليهم. وقلَّ ان يستطيع المرء في مكة المكرمة وجدة ان يجد عائلات قديمة بل جل العائلات فيهما ممن هاجر اليها واستوطنها منذ زمان قد يطول ويقصر واختلط الدم الهندي بالعربي والمغربي بالاعجمي واليماني بالاسود

(١) من فصل في كتابه «قلب جزيرة العرب»

المآكل

يُتناول الطعام في الحواضر على ثلاث دفعات في اليوم الواحد وتسمى واحدتها (وَجْبة) الاولى في الصباح المبكر وتسمى في نجد (الرَّيُوق) وفي الحجاز (فُكوك الرّيق) والثانية في الضحى وتسمى (غداء) والثالثة بين العصر والمغرب أو بعد المغرب وتسمى (عشاء)

أما في البوادي فالعمدة في عدد الوجبات ومواقيتها على الظروف والتقادير ووجود الطعام وحالة الانسان الشخصية. إلاَّ ان الغالب ان يكون العشاء أهم الوجبات وأرقها

ويتألف الريوق في نجد من اللبن الرائب والعسل والتمر والزبدة في الغالب وأما في الحجاز فيختلف عن ذلك وبعضهم يتناولون الطعام المطبوخ في الريوق ايضاً

واما الغداء في نجد فيتألف من الارز المطبوخ باللحم او الجريش وهو نوع من البر المجروش يطهى بالحليب والمرق او من المرقوق وهو نوع من الثريد او من القرصان وهو نوع آخر من الثريد او الشواء من اللحم

ويتألف طعام العشاء من نفس الانواع الاَّ انهُ يعتنى به اكثر من الغداء وقد يزاد على الانواع الواردة في العشاء انواع من الحلوى المعمولة بالنشاء والحليب. وتوجد انواع اخرى من الاطعمة النجدية الاَّ ان ما ذكرنا هو أهمها واكثرها شيوعاً واستعمالاً. ومن الضروري إضافة الحنينة وهي نوع من عصيد التمر والدقيق والسمن المطبوخ معاً الى المآكل النجدية الفاخرة

وقد يتفنن أهل الحواضر النجدية في طهي انواع أخرى من المآكل لا سيما البقول والخضر الاَّ ان الاصناف التي أوردناها هي عمدة المعيشة المرفهة. فالبر والرز واللحم واللبن والتمر والسمن هي المواد الاساسية في المعيشة النجدية سواء منها معيشة الحاضرة أو معيشة البادية. وليس في معيشة الاخيرة ما يستحق أن يذكر لعدم عناية البادية بمآكلها من جهة ولعدم تمكنها من الزيادة عن الكفاف الضئيل من العيش من جهة أخرى

ويختلف طراز المآكل في الحجاز عنه في نجد من حيث تنويعها والعناية بطهيها. ولا يوجد طراز مخصوص يمكن تعميمه بل هنالك أنواع المآكل العربية الاصل أو المستعارة من الطراز التركي او الهندي او الجاوي. ويعتنى في الحجاز بالخضر اكثر مما يعتنى بها في نجد ولهم في طهي الخضر طرق عديدة وصنعة متقنة

ويكثر استعمال الافاويه والابازير في الاطعمة النجدية والحجازية، مثل الهيل والزعفران والعصفر والفلفل الاسود والكمون وغير ذلك من أنواع البهارات. ولكل اكلة خليطة مخصوصة بها تطلب من باعتها جاهزة

وطعام أهل القرى الحجازية والبادية أبسط كثيراً من أطعمة أهل المدن. فقد شاهدت أشخاصاً ذكروا لي انهم قبل وصولهم الى المدن لم يشاهدوا الارز ولم يذوقوه وما كلهم هي

في الاكثر من محصول ديرتهم وعوضاً عن دقيق البر يستعملون دقيق الدُّخْن والذرة ويصنعون من ذلك أرغفة كبيرة تشوى على الحجر أو في الطابون [١] وتوضع بعد نضجها في إناء وتمزج بالعسل والسمن وتؤكل على هذه الكيفية

المشرب

المشروب الوطني في البلاد بأجمعها هو القهوة العربية وتطبخ بعد حمص حبوبها وسحقها في دلال من النحاس ويمزج بها نوع من البهار المعروف بالهيل . وبعضهم يستعمل القهوة بالزعفران أو بالقرنفل . وعلى كل فانها لا تمزج بالسكر بل تستعمل مُرَّة . وفي الجهات الجنوبية من البلاد في المنطقة المجاورة لليمن يستعمل الاهالي قشر القهوة مغلياً وممزوجاً بالسكر كما أنهم يخلطون الزنجبيل بالقهوة

وقد شاع في الازمنة المتأخرة استعمال الشاي شيوعاً عظيماً يكاد ان يكون عامّاً في البادية والحاضرة وان دام الامر على هذا المنوال فقد لا يستغرب ان يحل محلها . ولا توجد أوقات معينة لاستعماله على نحو ما هو متبع في البلدان الاجنبية ، وانما جرت عادة اهل الحجاز ان يستعملوه بعد الطعام . وقد يستعملون النوع الاخضر منه بعد الطعام خاصة وفي الاوقات الاخرى يستعملون الشاي الاحمر المعتاد

ومما يكثر شربهُ في البادية وفي نجد على الاخص الحليب واللبن . وحليب الابل من أهم مواد الغذاء الرئيسية في البادية . فالابل تشرب المياه التي تعافها نفس الانسان وتصفيها في جوفها ثم تدرها للانسان حليباً لذيذ الطعم كثير الغذاء . ولا يستعمل حليب الابل الأ للشرب مع انه قد يوجد بين البوادي من يخرج من دسمه نوعاً من السمن يسمى الودك . واما حليب البقر والماعز والغنم فانه يخمر ويستخرج منه السمن ويشرب الباقي منه باسم مخيض او شنيئه . وجميع السمن يستخرج من اللبن الرائب [٢] ولا يوجد من يستخرجه رأساً من الحليب. وأما الجبن فغير مستعمل في نجد على الضدّ من الحجاز فان اكثر الحليب يترك في الآنية الى ان تتجمع على سطحه طبقة الدسم فتؤخذ ثم يستعمل الحليب لاستخراج الجبن منهُ . ويوجد من يشرب حليب البقر والغنم والماعز قبل تخمره ممزوجاً بالزنجبيل واستعمال هذا يكثر في جهات عسير . هذه هي المواد المستعملة للشرب غير الماء القراح

أما المياه فانها تختلف عذوبة وملوحة وصفاء بالنسبة الى المواقع المختلفة . ومنها ما هو محصول الينابيع والآبار ومنها ما هو من مياه الامطار او الآلات المقطرة . وماء الشرب في ينبع وجدة انما هو من الماء المستقطر من مياه البحر المالح

(١) فرن بسيط معمول من اناء كبير من الخزف يحمى جيداً وتلصق الارغفة على جدرانه ويسمى في بعض البلاد العربية باسم تنور (٢) يسمى اهل نجد اللبن الحامض «رَوْبا»

ويوضع الماء في المدن الحجازية في أواني خزفية يدعونها (أزياراً) لتصفيتها وتبريدها . وأما نجد والبادية فان الماء فيهما يوضع في القُرَب على الغالب

الملبس

مع ان الملابس المستعملة في انحاء البلاد هي الملابس العربية ، فانهُ من الصعب ان نحصر أشكالها في طراز واحد عام

فلباس الرأس في نجد وفي البادية بأجمعها هو الغُترَة [1] والعقال . وفي الحجاز هو العمامة او الغترة فقط وتسمى في الحجاز صِمادة . وتوضع الغترة على الغالب فوق طاقية صغيرة تعمل في نجد من قماش الصوف وتحشى بقليل من القطن وفي الحجاز من قماش القطن الابيض . والعقال على أنواع : فمنه عقال الصوف الأسود او الأبيض ومنه عقال الصوف المقصب او الحرير المقصب . وقد يستعمل البدوي قطعة من الحبل او الجلد المفتول بمثابة العقال. ومشايخ الدين في نجد وكافة الاخوان يضعون الغترة بدون عقال أو يعصبون على الغترة عصابة من قماش الشاش الرقيق . وأما في بادية الحجاز وعسير فان العقال قليل الاستعمال وكذلك الطاقية وتستعمل الغترة كغترة وعصابة في آن واحد . وفي مدن الحجاز تستعمل الغترة بأن تلف فوق كوفية من قماش القطن المنشّى . وأما العمامة الحجازية فانها تتألف من قسم يشبه الطربوش بشكله الاّ انها تعمل اما من الخصف واما من القماش المطرز بألوان زاهية من اخضر واحمر واسود وابيض وتعصب العمامة البيضاء فوق هذه الاسطوانة من أسفلها ويترك اعلاها بارزاً لتظهر الالوان . وتكون الغتر اما من الصوف واما من قماش القطن الملون او المرقط او من قماش الحرير المطرز . ولباس الجسم عموماً يتألف من ثوب من قماش القطن وقد يكون الثوب ذا أردان تنتشر من المرفق او بدون الاردان كما انه قد يكون الثوب طويلاً حتى كاحل الرجل او قصيراً حتى الركبة او دونها بقليل . وقد يستعمل حزام من القماش او الجلد فوق متوسط الثوب كما هي الحالة في بادية الحجاز وعسير او بدون ذلك كما هي الحالة في نجد وبادية شمال الحجاز . واستعمال السراويل تحت الثوب محصور في طبقة مخصوصة بين البادية وحواضر نجد . وفي ما عدا ذلك فالثوب يستعمل من دون السراويل

اما العباءة فانها الشعار العربي البين ، وهي من قماش الصوف الرفيع او المتين توضع على المناكب فوق الأثواب . ومنها انواع عديدة من حيث اللون والقماش والخفّة والثقل . وهي من المصنوعات المحلية لها أنوال ومغازل مختلفة ومنها شيء يجلب من خارج البلاد

ذكرنا ان الثوب هو اللباس العام وليس معنى هذا انه لا يوجد ما يستعمل سواه. وانما خصصناه بالذكر لانه أعم انواع الملابس استعمالاً بل يمكن القول انه هو الاساس والانواع

---

(١) قطعة من القماش مربعة تطوى طيتين على شكل مثلث قاعدته تكون في مقدمة الرأس فوق الجبين

الاخرى هي تبع له . وقد يلبس فوق الثوب نوع آخر من الملابس يسمى زَبون [1] وقد يزاد فوق كل ذلك وتحت العباءة معطف صوفي او حريري او قطني

ويستعمل فوق الثوب في مدن الحجاز والحسا غير الزبون والمعطف نوع آخر هندي الاصل يسمى «شايَة» وهي مثل الزبون الاَّ انها تختلف عنه بأنها أقصر من الزبون ولها ازرار فوق الصدر . ولا يفوتنا انْ نذكر الجُبَّةَ الحجازية أيضاً فانها تلبس فوق الشاية عوضاً عن العباءة . وتعمل الجبب من جميع أنواع الأقمشة الصوفية والقطنية والحريرية الأبيض منها أو الملون . اما لباس الاقدام فهو النعال الوطنية المعمولة من الجلد المدبوغ في البلاد بألوان مختلفة زاهية ولا تدخل المسامير في صنعها بل تخاط بالخيطان او السبوت. واكثر البادية لا يستعمل النعال مطلقاً بل يسير البدوي حافي القدمين . وملابس النساء تختلف بالطبع عن ملابس الرجال بحسب أحوالهنَّ مع ان الأساس في الاثنين واحد

الزينة والتبرج

يطلق الرجال شعر الرأس كالنساء في اكثر انحاء البلاد . ويضفر الشعر غدائر تتدلى على المنكب والاكتاف وتُضَمَّخ بالطيوب المختلفة . واما المتقدمون في السن من الرجال او مشائخ الدين فانهم يقصون شعر الرأس . وفي الحجاز يحلقونه او يقصرونه كثيراً ، واما النساء فن البديهي انهن يحتفظن بشعرهنَّ كما هو ، ولم تدخل بينهنَّ عادة قص الشعر

ويطلق عموم السكان لحاهم ولا يحلقون منها الاَّ ما كان تحت الذقن او ما نبت من الشعر على كراسي الخدود . واما الشاربان فيتركان على حالها وانما يقصران عملاً بالحديث المأثور «حفوا الشاربين واطلقوا اللحى»

ولا يلبس الرجال الحلي الذهبية ولا غيرها . كما انهم لا يلبسون الملابس الحريرية الاَّ فيما ندر في بعض المدن الحجازية . واما النساء فليس عليهنَّ حرج في هذا الباب

وعادة الاكتحال والتضمخ عادة فاشية عموماً بين النساء والرجال في نجد والبادية كلها . واحسن انواع الطيب عود الند وعطر الورد وعطر العود والزباد [2] ولا توجد بين النساء عادة استعمال المساحيق . ويتختم اكثر الرجال في نجد بخاتم فضي فصُّه من العقيق يحفر عليه اسم حامله ويلبس في خنصر اليد اليمنى

ويحمل الرجال بعض انواع الاسلحة كالجَنبيَّات او المسدسات او السيوف وقد شاهدنا ان كثيرين في البادية يحملون عوض الجنبيات مدًى عادية يستعملونها في احتياجاتهم اليومية العديدة . واكثر البدو يحملون علاوة على ذلك منقاشاً وملقطاً شعريًّا وموسى صغيرة لاقتلاع الشوك من الايدي والارجل

(١) يسمى في الخارج قنبازاً (٢) عطر يستخرج من غدد بعض الحيوانات المائية

وعادات الاستياك بمسواك من جذور شجر الاراك عادة عامة تقريباً . وهي مستحبة قبيل الصلاة مباشرة . والنساء يستعملن الحِنّاء لطلاء اليدين والرجلين وتلوينها بها

الأفراح والمآتم

أصبحت العادات المتبعة في الافراح والمآتم خلاف ما كانت عليه قبيل قيام الحكومة الحاضرة التي حملت الناس على عدم الخروج عن حدود الشرع فيما يتعلق بذلك . فقد أبطلت عادة إحياء الموالد وحلقات الذكر المشهورة في الامصار . ولم يعد في الامكان استعمال آلات الطرب التي كان استعمالها مباحاً من قبل . وجل ما يمكن السماح بهِ استعمال النقارة والحداء في حفلات الزفاف لا يتعدى الامر اجتماع الناس للتهنئة واجراء العقد وحضور الوليمة في مدن الحجاز يسير العريس في الليل الى منزل العروس بين المشاعل وسط لفيف من اقرانهِ واصدقائهِ . ولا يكتب عقد الزواج بصك كما هي العادة في سائر الامصار إلاَّ في حالات قليلة جدًّا . وقد ابطلت عادات الندب على الموتى واللطم في الجنائز . وا كرام الميت دفنهُ بعد غسله والصلاة عليهِ فوراً . ومن الحفلات التي كان لها أهمية كبيرة فيما سبق حفلات الختان وحفلات ختم القرآن . وبالنسبة الى أهل مكة فان حفلة السلام على من يعود من زيارة المدينة المنورة من أبهى الحفلات واجلها . وعلى ذكرنا للختان لا نرى بدًّا من ذكر عادة سيئة من اقبح عادات بدو الحجاز وعسير وهي عادة سلخ الشاب المراهق في حفلة تتجلى فيها كافة الوان الفظاعة والوحشية على ملأ من الناس ومشهد من اتراب المسلوخ واقرانهِ . والويل والعار لكل شاب يظهر ألماً او تململاً بينما تعمل موسى السالخ في جلده وقد أبطلت هذه العادة القبيحة بعد ان كانت عامة بين كثير من قبائل الحجاز وعسير مثل هذيل وغامد ورجال ألمع وفهم وغيرهم

تربية الاطفال

وعناية البدو بأطفالهم قليلة جدًّا . فالطفل منذ ولادتهِ رفيق والدته تحمله معها في اعمالها اليومية او تتركه في الخيمة ان كان عملها فيها . وحينما يصبح الولد قادراً على السير تستصحبهُ امهُ او اخوته معهم اثناء العناية بالانعام ورعيها . ولا يعتنى بالطفل من الوجهة الصحية والنظافة كما انهُ لا يعتنى بتعليمه وتدريبه . ومتى اصبح قادراً على رعي الحيوانات بمفرده كلف بها وعهد اليهِ بحراستها والعناية بأمرها . واما في الحواضر فالحالة تختلف بالطبع عما هي عليهِ في البادية . فتربية الاطفال والعناية بهم من الوجهتين الصحية والدينية ثم تعليمهم امر من اوامر الدين التي يراعيها الكثيرون . ولا يوجد حد معين لبقاء الطفل مع امهِ وانما الغالب انهُ بمجرد صيرورتهِ قادراً على تدبير شؤون نفسه يتعلق بأبيهِ او باخوتهِ ، واذا راهق زُوِّج وبعد الزواج قد يبقى مع والديهِ ولكنهُ في الغالب ينفصل عنهما

وسن الزواج ليس لها حدّ معين . وعادة تزويج القاصرين ما تزال جارية الى يومنا هذا

معاملة الابل

لا تقل عناية العرب بالابل عن عنايتهم بالخيول وتزيد حاجتهم اليها عن كل ما عداها، فانها ضرورية في انتقالهم وفي حروبهم وغزواتهم ومن اجل حليبها ولحمها ووبرها . وفي البادية كثيرون لا يملكون من حطام الدنيا الاَّ ناقة تدر عليهم من خيرها فيقتاتون به في حياتهم القاسية

وتملك هذه البلاد اكبر عدد من الجمال كما انها تملك أجود الانواع واحسنها

ولأجواد الابل انساب تحفظ ويعتنى بها مثل ما يعتنى بنسب الخيول الأصيلة وهذه الاجناس يمكن حصرها فيما يلي :

الابل العمانية وهي أسلس الانواع قياداً واكثرها راحة

الابل الحرة وهي اقوى من العمانية واكثر جلداً وصبراً

الابل الباطنية وهي مثل العمانية

الابل الدرعية وهي مثل العمانية من حيث سهولة ركوبها ومثل الحرة من حيث قوتها

الابل الحوارة وهي سهلة الركوب الاَّ أنها دون الاجناس الاخرى

الابل الجرْميّة وهي أدنى اصناف الابل

ويجمل بنا في هذا المقام ان نذكر الاسماء الاصطلاحية التي تطلق على الابل في نجد وهي : —

الجمال : تفيد النوع مطلقاً

الابل : تطلق على الاناث التي لا تركب وهي التي تلد وترضع صغارها ولكنها لا تحلب

الناقة : واحدة من الابل سواء اكانت تحلب ام لا

المسح : الابل التي يستدرُّ حليبها وهي غير التي يرضعها ولدها

الجيش : انثى الجمل التي تستعمل للركوب فقط

الذلول : واحدة من الجيش

الزّمْل : الذكور من الجمال اجمالاً

البعير : لا يستعمل الاَّ للذكور

الهجين : لا تستعمل في نجد ولكنها تعني الذلول

وتسمى الناقة الحبلى اللقحاء والتي تجر وراءها ولدها الخلفة والتي يصحبها ولدها الذي لا يزيد عمره عن عشرة اشهر عشرة

ولصغار الابل أسماء مختلفة بحسب السن التي تبلغها . فيقال للذي عمرهُ أقل من سنة حوار وتمام السنة مفرودة ، وتمام سنتين حقّة ، وتمام ثلاث سنين لقيّة ، وتمام اربع سنين جذعة ، وما فوق ذلك الى خمس سنين ثنيّة ، وما فوق خمسِ سنين رباع

والانثى من جميع هذه تسمى بَكْرَة والذكر قَعُوداً

الفيتامين

للدكتور حسن كمال

يطلق هذا الاسم على عدة مواد مجهولة التركيب توجد عادة ضمن المواد الغذائية في مقادير صغيرة وينشأ عن نقصها عدة حالات مرضية متباينة

وربما كان Lunin لونان اول من اجرى تجارب عديدة باطعام حيوانات اغذية لا فيتامين فيها وذلك عام ١٨٨١ . ثم اتضح بعد ذلك في بلاد الانكليز عام ١٩٠٦ -- ١٩١٢ بواسطة هوبكنز Hopkins ان الحيوانات التي تطعم هذا الغذاء يقل وزنها ثم تموت ولكن اذا اضيف الى هذا الغذاء شيء من اللبن تحسنت صحتها وزاد وزنها . وفي المدة الواقعة بين سنتي ١٩٠٩ و١٩١٢ اثبت الاستاذ ستپ Stepp صحة تجارب كل من لونان وهوبكنس بأن الغذاء الحيواني يلزم له مواد حيوية تعرف بالفيتامين بخلاف مواده الاخرى كالزلالية والسكرية والنشوية

ثم ثبتت صحة هذه المباحث بعد ذلك على وجه قاطع في بلاد الانكليز والولايات المتحدة لكن لم يتوصل الباحثون الى معرفة هذه المواد حتى عام ١٩١٣ لما اثبت كل من مككلم McCallum ودافيس Davis ان بعض الاغذية المعدمة الفيتامين يمكن ان يُسَدَّ عجزها باضافة بعض مواد من البيض والزبدة المذابة في الاثير. لكن هذا العجز لم يتيسر سدُّه في كل غذاء وبقيت عدة اغذية اخرى ناقصة الفيتامين لم يتمكن القوم من معرفة السر في نقصها حتى عام ١٩١٥ لما تمكن كل من الاستاذين الاخيرين من حل هذه العقدة . ففي تلك السنة اثبتا ان هذه المواد تقسم الى نوعين نوع يذوب في الدهن واطلقوا عليه حرف ا ــ A ونوع يذوب في الماء واطلقوا عليه حرف ب ــ B

﴿الامراض الناجمة عن نقص الاغذية﴾ لكن قبل الزمن المذكور اعلاه اعتقد الناس ان هناك امراضاً تنشأ عن انعدام بعض المواد في الاغذية وان هذه الامراض يمكن اتقاؤها باضافة هذه المواد الى الاغذية . فمرض البرى بري Beri—beri مثلاً كان معروفاً انه ناجم عن اكل الارز دون قشره الخارجي . وفي عام ١٨٩٧ اثبت الاستاذ ايكمان Eijkman ان الدجاج الذي يغذى بمثل هذا الارز يصاب بالمرض ايضاً

وكانت نتيجة هذا الاكتشاف ان انتقل ميدان البحث في الفيتامين الى المعامل الكيماوية حيث صادف من النجاح نصيباً كبيراً . واتضح وقتئذ ان هذا المرض المعروف باسم (برى برى) هو نتيجة فصل قشور الارز من الغذاء وان الدجاج او الطير الذي يصاب بهذا المرض يشفى منه

اذا غذّي بهذه القشور او نقوعها . ثم امتدّ البحث العلمي بعد ذلك وتناول انواع الفيتامين الاخرى من حيث كنهها والمقادير اللازمة منها واثر ارتفاع الحرارة فيها وكذلك تأكسدها

واتخذ البحث في كنه مرض الاسقربوط نفس السير الذي اتخذه في مرض البري بري ففي عام ١٩٠٧ اثبت كل من هولست Holst وفروليخ Frohlich ان خنازير الهند اذا غذّيت بالحبوب والماء فقط دون الكرنب الحاوي للمواد الخضراوية اصيبت بداء الاسقربوط . وان هذه الخنازير تشفى من المرض اذا غذيت بالكرنب الاخضر وبعض الفواكه . ثم اتضح بعد ذلك ان القردة تصاب بالمرض . وتمكن الباحثون من معرفة نوع المواد الفيتامينية اللازمة للوقاية من داء الاسقربوط والمقدار اللازم منها

واتى الاستاذ فونك Funk عام ١٩١٢ واطلق اسم (فيتامين) على هذه المواد . وازداد العلماء بحثاً فيها الى ان توصلوا الى معرفة عدة انواع منها اطلقوا عليها الاحرف الابجدية وهي ا ـ A ، ب١ B_1 ، ب٢ B_2 ، ج C ، د D و هـ E فنعمد الآن الى شرح كل نوع على حدة:—

الفيتامين A ـ ا : — يكثر في كبد الحيوانات ذوات الثديين والاسماك وفي بعض الاحيان (كما هو الحال في كبد الحوت) يوجد هذا الفيتامين مصحوباً بالفيتامين د (D) وفي الاخرى لا يوجد الاّ بمفرده (كما هو الحال في كبد الغنم والبقر) . ويوجد الفيتامين ا (A) ايضاً بكثرة في النباتات الخضرة وان مقداره هناك يكثر كلما طال تعرّض هذه النباتات للشمس . وهذه النباتات هي المنبع الذي تستمدّ منه الاسماك والحيوانات ذوات الثدي ما فيها من الفيتامين (A) . وهو قليل في الزبدة والفواكه وبعض الخضروات ولا يتأثر هذا الفيتامين بسرعة اذا تعرض للهواء او ارتفاع الحرارة . وقد اثبت كل من جرين Green وملاني Mellanby ان هذه المادة تمنع الالتهاب وتقي الجسم من الامراض المعدية المصحوبة بالتهاب وتلف الاغشية المخاطية دون ان تزيد في حصانة الجسم العامة . واثبتت التجارب ايضاً ان هذا الفيتامين لا تأثير له في سير الدرن في الجسم او غيره من الامراض المعدية الاّ اذا اعطيت منهُ مقادير كبيرة . لكن ملاني Mellanby وجرين Green بيّنا ان هذا الفيتامين يلطف كثيراً من حدة التسمم النفاسي بل ويقلل من وفياته . واستنتج ملاني بعدئذٍ ان قلة فيتامين ا — A بالجسم تساعد على اصابته بالنزلات الانفية الحلقية والروماتزم الحاد والدرن والنزلات الشعبية والالتهابات الرئوية والتهاب الاذن الوسطى وتقرحات الفم والعين والانف. لكن المباحث التي تلت ذلك اثبتت ان تعاطي فيتامين ا — A لم يحدث حصانة ضد امراض الجهاز التنفسي والنزلات الانفية في الاطفال والاصابة بالامراض المعدية عموماً والتهاب ذات الرئة. ويدعي اليسون Elli-on انهُ تمكن من نقص نسبة الوفيات بالحصبة بوصف فيتامين ا ـ A ود ـ D للمصابين بها. وهو يقول كذلك ان هذا النقص هو نتيجة تحصين الجسم ضد المضاعفات الرئوية القتالة

والثابت ان قلة فيتامين ا — A في الجسم يحدث فيه حالات مرضية مثل جفاف الملتحمة Xerophthalmia والعشى Night—blindness والنزلات الرئوية . وقدثبت ان اقطاراً كثيرة لا يتعاطى سكانها المقدار اللازم من فيتامين ا — A ومن هذه البقاع بلاد الانكليز والولايات المتحدة وهولاندا

واوضح المستر دان W. J. Dann ان الاجنة والاطفال لاتتناول مقداراً كافية من فيتامين ا — A في ارحام امهاتها وفي الالبان التي تشربها . وان الاكثار من تعاطي هذا الفيتامين وقت الفطام من الزم ما يكون للصحة . ويكثر فيتامين ا — A في دهن الحيوان وزيوت الاسماك

﴿ الفيتامين (ب١) او (B١) ﴾ اطلق الاستاذ ايكمان Eijkman هذا الاسم على الفيتامين الذي يقي جسم الانسان من مرض البرى بري ويشفيه منهُ كما يقي الحمام من مرض التهاب الاعصاب العام ويشفيه منهُ وهو قابل للذوبان في الماء ولا يتأثر اذا اُغلي هذا المحلول بضع ساعات لكنهُ ينعدم بسرعة اذا كان هذا الغليان تحت ضغط متزايد ودرجة حرارة ١٢٠ سنتجراد

وقد توصل القوم الى عزل الفيتامين ب١ (B١) هذا وتمكنوا من شفاء الحمام المصاب بالتهاب الاعصاب العام باعطائه مقداراً يتراوح بين ١/ ... مليجرام يومياً

ومرض البرى بري الذي يشفى بهذا الفيتامين يكثر في بلدان مختلفة

﴿ الفيتامين (ب٢) (B2) ﴾ : اذا غذّي فأرٌ بغذاء قليل مقدار الفيتامين ب٢ امتنع جسمه عن النموّ بدون ان ينحف او يقل وزنه وبعد بضعة أسابيع تظهر على جسمه لطخ جلدية النهاية واعراض مرض البلاجرا بشكل واضح . ومن ثمَّ ثبت ان داء (البلاجرا) هو نتيجة قلة تعاطي الفيتامين ب٢ في الغذاء

وفي عام ١٩٢٧ اثبت جولدبرج (Goldberg) ان هذا الفيتامين يكثر في الخميرة (Yeast) واللحم الاعجف (Lean meat) ومقاديرهُ متوسطة في اللبن والبيض والقمح والطماطم

واثبتت التجارب في الولايات المتحدة ان تعاطي مقادير كبيرة من فيتامين ب١ وب٢ يحدث في الاطفال زيادة في النمو والوزن بشكل واضح للغاية

﴿ الفيتامين (ج) (C) ﴾ هذا الفيتامين يقي الجسم من مرض الاسقربوط ويكثر في اوراق النباتات الخضرة وعلى الاخص الكرنب وكذلك عصير الليمون والبرتقال والعنب والطماطم وبعض اللفت . وهو قليل في اللحوم والالبان والبطاطس والخضروات والفواكه

وهذا الفيتامين يفقد فائدته في العلاج بالتأكسد بسرعة وعلى الاخص اذا ارتفعت درجة حرارته . وهذا هو السر في زوال مقادير كبيرة منه في الغذاء المطهي او المجفف

والمعتاد الآن ان كل طفل يغذى غذاء اصطناعياً يعطى عصير الفواكه شراباً وذلك بقصد منعه من الاصابة باسقربوط الاطفال لان لبن البقر قليل مقدار الفيتامين (ج) (C)

ولوحظ في بلاد الانكليز (مانشستر وجلاسجو ونيوكاسل عام ١٩١٧) ان الاسقربوط ظهر بين الاهالي هناك نتيجة عدم وجود مقادير كافية من البطاطس في اغذيتهم . ويفضل بعض الاطباء الاكثار من الخضراوات وانواع السلطة والفواكه . وقال بعضهم ان الانسان يجب ان يأكل خضراوات وفواكه بمقدار ما يأكل من اللحم وان يتناول لبناً بما يعادل نفس القيمة ايضاً (وهذا طبعاً فيما يختص بالاطفال والبالغين دون الرضّع)

واظهر البحث ايضاً ان قلة تناول فيتامين (ج) (C) يمنع نمو الاسنان جيداً وتكوين طبقاتها كالمعتاد ولا يبعد ان تكون قلة هذا الفيتامين سبباً من اسباب نخر الاسنان كما هي الحال ايضاً مع الفيتامين (د — D)

﴿ الفيتامين د — D ﴾ اكتشف الاستاذ هولدشنسكي Holdschinsky عام ١٩١٩ ان تعرّض المصاب بالكساح للاشعة فوق البنفسجية المنبعثة من نور الزئبق يشفيهِ من هذا الداء . ثم اتى بعده كلٌّ من هس Hess وأونجر Unger عام ١٩٢١ واثبتا ان هذه الاشعة بعينها موجودة في ضوء الشمس وان التعرض لاشعة الشمس يسفر عن النتيجة نفسها

ثم اتى ستينبُكْ Steenbock وبلاك Black عام ١٩٢٤ واثبتا ان غذاء الفيران اذا عرّض للاشعة فوق البنفسجية تولّد فيهِ فيتامين د — D وهو الذي يمنع الاصابة بداء الكساح عند هذه الحيوانات ويشفيها منهُ ايضاً . ثم اتضح بعد ذلك ان الزيوت النباتية اذا تعرضت لنفس الاشعة تتولد فيها مقادير كبيرة من هذا الفيتامين ايضاً . وفي عام ١٩٢٤ اثبت الباحثون ان مادة الكولسترول Cholestrol التي في اغلب الزيوت الحيوانية وما عائلها من المواد في الزيوت النباتية اذا تعرضت للاشعة فوق البنفسجية انقلبت الى مادة قوية شافية للكساح

ومضى العلماء بحثاً في الموضوع فاتضح ان المادة التي تتأثر بالاشعة ليست هي الكولسترول وانما هي مادة اخرى في الكولسترول تعرف باسم ارجوسترول ergosterol وهي تكثر في الخميرة Yeast وفي « أرجوت » الجويدار ergot of rye . والظاهر ان تأثير الأشعة فوق البنفسجية في جسم الحيوان انما يتلخص في كثرة تكون فيتامين د — D في الجلد بفعل الاشعة المذكورة في مادة الارجوسترول التي في الجلد . ثم يمتص الدم هذا الفيتامين ويدخل الجسم كما يدخله عن طريق الفم والامعاء

ومن ثمَّ يتضح ان الفيتامين د — D يمكن التداوي به عن طريق الفم او عن تعريض الجسم للاشعة . والكساح الآدمي سرعان ما يشفى بتناول مقدار يتراوح بين ٢ و ٤ ملليجرام من الارجوسترول المعرّض للاشعة

وفيتامين د — D قليل في الاغذية العادية انما يكثر في زيت كبد بعض الاسماك وزيوت الاسماك الاخرى . وهو قليل في اللبن والزبدة ولكن مقداره هناك يختلف بحسب الفصول

أو بعبارة اخرى بمقدار تعرّض الحيوان لأشعة الشمس في تلك الاوقات

وتوصل البعض الى اطعام الابقار زيت كبد الحوت ووجدوا أثر ذلك ان البان هذه الابقار حوت مقادير كبيرة من فيتامين ا و د (A & D)(١)

﴿ الفيتامين (هـ — E) ﴾ اكتشف كل من ايڤانس Evans وسكوت Scott عام ١٩٢٢ ان العقم في ذكور الفيران واناثها انما هو نتيجة قلة تناول الفيتامين هـ الذي يذوب في الايثر ويمكن بهذه الطريقة استخراجه من الخضروات

ويكثر هذا الفيتامين في القمح النابت وأوراق الخس، ولكن مقاديرهُ متوسطة في كل الحبوب وفي الزيوت المستخرجة منها، وفي الاوراق الخضر النباتية جافة كانت او رطبة وكذا في الفواكه . وهو يوجد أيضاً في اللحوم والدهن الحيواني وصفار البيض واللبن . وهو يكاد يكون معدوماً في الخصيتين والكبد والكليتين والمخ وزيت كبد الحوت والخميرة والدقيق والارز المقشور ولا يتأثر هذا الفيتامين بالطهي . وقد تمكن القوم من استحضار هذا الفيتامين بشكل مركز حتى ان تعاطي مقدار يسير منهُ يبعث على الحمل

﴿ الفيتامين والغذاء ﴾ ان تناول انواع الفيتامين في الغذاء امر ضروري لكل شخص وعلى الاخص الاطفال والنساء الحوامل والمرضعات لان قلة تعاطي الفيتامين في الرضاعة والطفولة يحدث تأثيراً سيئاً في دور البلوغ . فالاطفال الذين لا يتناولون المقادير الكافية من الفيتامين يتعرضون للاصابة بالاسقربوط والبريبري والبلاجرا والكساح وجفاف الملتحمة وتلف الاسنان الخ

ولما كان غذاء الجنين والرضيع هو عن طريق امه وجب عليها ان يكون غذاءها حاوياً لكل انواع الفيتامين بمقادير كافية . ولا يبعد مطلقاً ان تكون هناك حالات مرضية اخرى لا نزال نجهلها ناجمة عن قلة تعاطي انواع اخرى من الفيتامين

ويرى الباحث في الجدول التالي بياناً بأهم منابع الفيتامين في الاغذية المعتادة . لكن مقادير هذه الانواع من الفيتامين غير ثابتة . ويتضح من الجدول ايضاً ضرورة تنوع الغذاء وعدم قصره على انواع مخصوصة فان الحالة الاولى تمكن الشخص من تناول انواع الفيتامين المتعددة بينما الحالة الثانية لا تمكنهُ الاَّ من تناول بعض انواع الفيتامين فقط دون الانواع الاخرى

﴿ طريقة تفاعل الفيتامين في الجسم ﴾ لا تزال هذه الطريقة مجهولة. ولكن ضرورة هذه المواد للجسم ونتيجة استعمالها يجعلانها كثيرة الشبه بمفرزات الغدد الصم كالادرنالين . ويظهر ان جسم الانسان والحيوان في حاجة الى بعض العقاقير التي لا يمكنهُ ان يصنعها بواسطة احشائه وان من هذه العقاقير انواع الفيتامين المذكورة . والابحاث المقبلة كفيلة باظهار الحقيقة

(١) راجع مباحث Zilos, Drummond, Golding

منابع الفيتامين في الاغذية المعتادة

الاسم	ا	ب١	ب٢	ج	د	هـ	الاسم	ا	ب١	ب٢	ج	د	هـ
اللحم		+	++			+	الحبوب		+++	+			+
كبد ذوات الثدي	+++	++					بطاطس		+		+		
السمك							لفت		++		+++		
زيت كبد السمك	+++				+++		فواكه غير مطهية				+++		
اللبن	+	+	+	+	+	+	دقيق ابيض		+				
الزبدة	+				+	+	دقيق اسمر	+++	+++	+			+++
الجبن	+				+		بيض	+++	+++	+			+++
المسلي النباتي						+	خميرة		+++	+++			
خضراوات غير مطهية	++	++		+++		+++							
خضراوات مطهية	++	++		+		+++							



رافائيل

لألفونس دي لامرتين



تكاد تكون رواية رافائيل أبلغ ما جادت به قريحة لامرتين المبدعة لانه أودع فيها كل عواطف نفسه وخوالج فؤاده . فقد عشق وتدله . وكان عشقه وتدلهه أشبه بأشعة الوحي التي لا تنير ما حولها فقط بل تخلق جواً يمتد مع الزمن فيستضيء به كل الذين يغمرهم . لان تتيمه كان عفاً . وهيامه طاهراً نقياً . وهذا الضرب من الحب هو قيثة للعواطف السامية . وشعلة تلهب الروح وترفعها كدخان البخور الى السماء التي هبطت منها . وتسمو بها الى الخلود الذي منه مبتداها واليه معادها

ولما كانت هذه الرواية تحت الترجمة رأينا ان ننقل من أوائلها نبذة يصف بها لامرتين حبيبته جوليا التي صادفها في الفندق ولم يكن بعد قد تعرف اليها ولا خاطبها بكلمة . قال :

كانت جالسة وعلى رأسها ركن من الشال ليقيه رطوبة الليل ، وهي متهالكة على نفسها قد أمالت عنقها على كتفها اليسرى ، وأغمضت عينيها . فشحب وجهها وتنكرت أساريرها ، وغاصت في فكرة صامتة ، فبدت كأنها تمثال الموت ، ولكن الموت الذي يجذب ويبعد النفس عن مشاعر الآلام البشرية ، ويحملها الى ربوع الضياء ، تحت أشعة الحياة الحقيقية

وقد احدثت قدماي صوتاً على اوراق الكرم اليابسة ، ففتحت عينيها اللتين كانتا بلون البحر الصافي . وهما لوزيتا الشكل ، ذابلتان من ضعف الجفون . تحيط بهما أهداب حريرية سود طويلة الكحل الطبيعي . الذي تعمد الشرقيات الى تقليده بتكحيل عيونهن ، ليزدنَ في شدة سحرها ، وليمنحن فتورها قوةً وذبولها مضاء

وكانت نظرات هاتين العينين كأنها منبعثة من مكان سحيق ، لم ارَ لها مثيلاً في عين انسانية اخرى ، فتشبه تماماً نيران الكواكب التي تسعى اليك لتمسك في لياليك ، والتي تُقبل من السماء من بعد شاسع لا يُدرك لهُ مَدى

ويتوسط وجهها انف يوناني ، يتصل بخط لا إلتواء فيه بجبهة مرتفعة منكمشة ، كأنها مضغوطة بفكرة قوية ، وكانت شفتاها رقيقتين منخفضتين قليلاً من طرفيهما بثنيٍ ، تحفره عادة يدُ الحزن ، واسنانها من عروق اللؤلؤ لا من العاج ، تماثل اسنان فتيات الشواطىء البحرية الرطبة ووجهها بيضي قد تناولهُ الهُزال حول الصُدغين وتحت الفم ، فهو والحالة هذه ، اشبه بهيئة مجسمة للفكر ، لا مُحَيّاً لمخلوق بشري ، يعبرّ عن ذبول خفيٍ ، يتراوح بين فتور الالم وفتور الهُيام ، فلا يتسنى للنظر ان ينحرف عنهُ ، دون ان يحمل صورته في سوُدائه

وكانت هذه المخلوقة رؤية لداءٍ نفسيٍّ مُضْمَرٍ تحت مظهر ابدع جمال حَلِمَ بهِ انسان رقيق العواطف دقيق الشعور

ألقيتُ عليها السلام باحترام كليّ وسارعت الخطاة في الممرّ الممتدّ امامها ، وكأن هيئتي الزرية وعينيّ المطرقتين تسألها العفو والمغفرة ، لازعاجي اياها عن غير عَمْدٍ

فلما وقع نظرها عليّ ، ورأتني مقترباً منها ، انصبغت وجنتاها الشاحبتان بلون احمر خفيف فدخلت غرفتي وقد اصابتني رعدة لا ادري ماهيتها

وبعد دقائق قليلة نهضت من مكانها ، ودخلت النزل وهي تلقي على نافذتي نظرة لامبالاة فيها ولا اكتراث . وفي الايام التالية كنت اشاهدها في الحديقة وفي الفناء ، وفي السهول والجبال والوديان وعلى صفحات البحيرة . لكن محادثتها لم تخطر لي ببال ، بل لم تدفعني الجرأة الى الافضاء اليها بكلمة سوى السلام ، فكانت تردهُ اليّ بذهول محزن وتعاود سيرها ، كما اداوم انا طريقي ، دون ان يفكّر احدنا بالآخر

ومع ذلك كنت أشعر في مساء اليوم الذي لا اراها فيهِ ، بأني حار النفس حزين القلب ، فكنت انحدر الى الحديقة دون قصْد ولا غاية ، فأمكث فيها على الرغم من المطر وبرد الليل ، وعيناي معلّقتان بنافذتها ، وكان يشقّ عليّ ان اعود الى غرفتي دون ان يكتحل ناظريّ برؤية خيالها يموج بين السُتُر ، او ان تشنّف أذُني نغمة من التي توقعها على البيانو ، او ان اسمع رنة صوتها العذب الممزوج بلحنٍ غريب سابٍ

وكانت الغرفة التي تقضي فيها ساعات المساء ملاصقة لغرفتي ، لايفصلها عنها سوى باب ضخم من خشب البلّوط مقفل بمزلاجين ، فكان يتسنى لي سماع وقع اقدامها وحفيف ثوبها ، وحركة صفحات الكتاب التي تقلبها اناملها ، وكان يخيّل اليّ في بعض الاحيان اني اسمع صوت تنفسها

وقد وضعتُ في بادىء الامر ، الطاولة التي كنت اكتب عليها بلصْق ذلك البـاب ، دون ان يكون لي مأرب من ذلك فشعرت بعدئذٍ بأني اقل وَحْدة من ذي قبل ، لا سيما عند ما طفقتُ أُنصت الى تلك الحركات الخفيفة التي تكتنفني ، فكنت اتصور اني اعيش برفقة عشير ، مع تلك الشخصية التي كانت تملأُ ايامي كلها من غير ان اشعر

وصفوة القول : لقد كان لي كل افكار الحب ومشاغله ، ومبادراته واستدقاقاته ؛ قبل ان يخطر لي ببال اني حبٌّ مستهام ، فلم يكن العشق يبدو لي في اشارة معينة ، او في نظرة خاصة ، او في اقرار بيّنٍ ، او في ظرف خارجي ، ليتسنى لي والحالة هذه التوقي والتحرُّز ؛ بل كان شبيهاً بتلك الابخرة الوبائية غير المنظورة ، المتصاعدة من الآجام ، فتملأ الفضاء الذي يحيط بي ، وتَعمُّ الضياء الذي يكتنفني ، والفصل المحتضر الذي اجتازه ، وتنتشر في وَحْدة حياتي ، وفي التقرُّب الخفيّ بيني وبين تلك الشخصية ، التي تبدو لي وحيدة ايضاً ، وفي تلك التجوالات

الطويلة المدى ، التي لا تبعدني عنها ، الا لكي تجعلني اشعر بشكل اوضح ، بتلك الجاذبية الطائشة التي تقربني منها ، وفي ثوبها الابيض الذي كنت ألمحهُ من بعد بين اشجار الجبال ، وفي شعرها الاسود الذي كان هواء البحيرة ينشرهُ على حافة الزورق ، وفي وقع خطواتها على الدرج ، وفي الضياء المنبعث من نافذتها ، وفي أنين أرضية غرفتها الخشبية الخفيف عند ما تطأها اقدامها ، وفي صرير قلمها على القرطاس عند ما تكتب ، وفي سكون ليالي الخريف الطويلة التي تحييها وحيدة بالقراءة او بالكتابة او بالتأمل ، وهي على قيد خطوات مني ، واخيراً في سحر ذلك الجمال الخيالي ، الذي تأملته طويلاً دون ان اراه ، والذي استبينه عند ما أغمض عينيَّ ، فيظهر لي من وراء الجدران ماثلاً أمامي كأنه شفاف قد خرج من مادته ، ليبدو لبصيرتي وباصرتي في آنٍ واحدٍ . ولم تكن هذه العاطفة التي أشعر بها لتمتزج بعجلة مجازفة ، ولا بفضول يحملني على اختراق ستر تلك العزلة ، وازالة ذلك السد الواهي الذي يحول بيني وبينها ، فقد خاطبت نفسي قائلاً : «ماذا يعنيني من أمر هذه المرأة المريضة القلب او الجسم ، التي جمعتني بها الصدف في جبال بلاد غريبة ؟»

وبعد ذلك اعتقدت على الاقل ، بأني نفضت غبار قدميَّ ، لأني لم اكن اريد ان ارتبط في الحياة بأدنى صلة للروح او للشعور ، لاسيما جنوح القلب واستسلامه ، فكان مقتي للحب شديداً ، لاني لم أعرف تحت هذا الاسم سوى تقلّبه وتلوّنه . وطيشه ونزقه ، ودنسه ورجسه ، ذلك اذا استثنيتُ حبي لانطونين ، الذي لم يكن الاَّ عاطفة أخاذة ، فاتنة ، سريعة الزوال ، وزهرة سقطت من غصنها قبل ان يتضوّع أريجها ويفوح طيبها

ومع ذلك من تكون هذه المرأة ؟ هل هي كأنٍ مثلي ام شهاب من الشهب الحية التي تخترق سماء تصوراتنا ، دون ان تترك اثراً سوى ما تخلّفهُ في العين من انخطاف سريع للبصر ؟ وهل هي من وطني او من وطن ناءٍ ، من احدى جزائر الشرق او خط الاستواء ، حيث لا يمكنني اللحاق بها ؟ فأكون قد عبدتها اياماً لأبكيها دواماً ، وهل قلبها خالٍ ليجيب عن خفقان قلبي ؟ وهل مما يسلّم بهِ العقل ان هذا الجمال قد قطع مراحل الحياة ، ووصل الى هذا النضوج الذي يمسّ الافول ، دون ان يضرم في طريقهِ نار الحب في قلبٍ وقعت عليهِ انظاره ؟ وهل لها ابٌ او امٌ او اخوات او اخوة ؟ وهل هي متزوجة ؟ وهل لا يوجد في العالم رجل قد نأى عنها غاضباً لاسباب غامضة ، لكنهُ يحيا في فؤادها كما تحيا في فؤاده ؟

كنت اردد كل هذه الاسئلة على نفسي ، لأبعد عنها هذا الاستهواء القهري المثبط للعزيمة الذي كنت اجده عذباً لذيذاً ، فأرفع عن الاستنباء عنها لاني كنت اربأ بنفسي عن استطلاع طلع الغير ، فكنت اجد أليق بي ان اترك روحي تهيم في المجهول ، لانها تستشعر من ذلك راحة وهناءة

القاهرة جورج نيقولاوس

التواقت

أجمل نظريات النسبية وأفكهها

Simultaneity

الحادثان الواقعان في وقت واحد بالنسبة اليك
يسبق احدهما الآخر بالنسبة الى غيرك

لنقولا الحداد

يراد بكلمة «التواقت» حدوث حادثين متباعدين في وقت واحد كقولك مات فلان في الهند وولد آخر في الصين في وقت واحد ، اي في نفس الثانية والدقيقة الخ . فيقال ان هذين الحادثين متواقتان . او كقولك ان القمر خسف في الدقيقة الفلانية لان خسوفهُ حادث ووقوف عقرب الساعة عند الدقيقة المذكورة حادث آخر . فهما متواقتان . فهل يمكن ان يعدَّا متواقتين في نظر كل من الناس ام ان التواقت أمر نسبي يختلف باختلاف المراقبين المتباعدين احدهما عن الآخر وعن الحوادث انفسها ؟ لعلك تستهجن القول ان حادثين معينين متباعدين يكونان بالنسبة الى زيد من الناس متواقتين وبالنسبة الى عمرو احدهما حدث قبل الآخر . ولكن التمثيل يجلو لك حقيقة ناصعة لم يكن ليفطن لها احد قبل اكتشاف ناموس النسبية . ولعلَّ قضية التواقت هذه أغرب قضايا النسبية وأعجبها وأفكهها

لقد فهم القارىء من مقالاتي السابقة ان نظرية النسبية لا شأن لها بالمادة المجردة من الحركة بل شأنها خاص بحركة المادة. فأي حركة مادية (غير عقلية) مهما كان نوعها او قدرها او اتجاهها او تأثيرها تعد حادثاً . والنسبية « ناموس الحوادث » في المكان والزمان معاً (لا في أحدهما دون الآخر) بالنسبة الى المراقبين المتباعدين مسافةً . فاذا كان مراقبان في مكان واحد شهدا معاً حادثين متواقتين . ولكن اذا كان احدهما بعيداً عن الآخر ومتحركاً بالنسبة الى الآخر اختلف وقت المشاهدة بينهما لان تباعدهما في المكان يستوجب تباعدهما في الزمان [1]

وهنا وجه الغرابة . ولكن اذا فطن القارىء الى ان خبر الحادث لا يصل الى المراقب الأ

---

(١) من أبسط الشواهد على ان تباعد المكانين يستلزم تباعد الزمانين انه لما كنت في نيويورك قرأت في احدى الصحف الساعة الحادية عشرة قبل الظهر تلغرافاً فحواه ان ملكة اسبانيا ولدت صبياً في الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك النهار . فكأني قرأت خبر الحادث قبل حدوث الحادث نفسه

عن طريق بصره او سمعه بواسطة امواج النور (او الاشعاع المغنطيسي الكهربائي الذي يعد النور من انواعه العديدة — كاللاسلكي) او امواج الصوت الهوائية تمهد له السبيل الى فهم كيف ان تباعد المكانين يستوجب اختلاف الزمانين

ان النور الذي ينقل خبر الحادث المنظور الى بصرك يسير بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية (في الفراغ) ، والصوت الذي ينقل خبر الحادث المسموع الى اذنيك يسير بسرعة ٣٣١ متراً في الثانية . فسرعة النور نحو مليون مرة كسرعة الصوت تقريباً . ولذلك يرى المشاهد ومض البرق قبل ان يسمع رعدهُ . كما انه يشاهد لهبة المدفع قبل ان يسمع دويه. ويسمع رجع الصدى بعد صدور الصوت بوقت طويل او قصير بحسب بعد المكان الذي يرجع الصدى . فنحن اذن نميز بسهولة استغراق الصوت للوقت . ويتعذر علينا ان نميز استغراق النور للوقت ولهذا نبدأ بالتمثيل على قضية التواقت بمثل صوتي لكي نقرب النظرية لفهم القارىء ما امكن. وثم ننتقل الى التمثيل بالنور بالنيابة عما يؤاخيه من انواع الاشعاع التي تنتقل اخبار الحوادث بواسطتها كاللاسلكي والراديو

مرآتان

م ———————— ن —— نَ —— ع —————— مَ

التواقت الصوتي

لو كنت واقفاً امام خط سكة حديدية مستقيم عند ن مثلاً وامامك مرآتان ظهراهما متعامدان وهما مائلتان الى الخط كما ترى في الرسم بحيث ترى فيهما في وقت واحد لمعتين صادرتين من جانبي الخط م ←→ مَ. ثم شاهدت اللمعتين . وبعد هنيهة سمعت طلقتي مدفعين موجودين عند م . و . مَ في وقت واحد معاً . فاذا سألتك : هل انطلق المدفعان في وقتٍ واحد معاً ، فاذا تجيب ؟

قد تقول : لا ريب عندي انهما انطلقا معاً لاني سمعت الطلقين في نفس اللحظة

قد يتراءى هذا القول مقنعاً أو مفحماً . ولكن لنفرض ان شخصاً آخر واقف عن يسارك عند ع مثلاً وسألناه فقال سمعت صوت المدفع مَ قبل صوت المدفع م . ولذلك اعتقد ان ذاك انطلق قبل هذا فهل ترفض حكمه ؟

لعلك تتردد هنا برهة في الجواب ثم تقول . لا يخفى عليك ان انتقال الصوت يستغرق نحو ٣٣١ متراً في الثانية . فاذا كان هو قد سمع مَ قبل م فلأنه اقرب الى ذاك منه الى هذا —حسن. اذاً للمسافة تأثير في الوقت بين السامع ومصدر الصوت لان المسافة تساوي حاصل

السرعة مضروبة بالوقت . فلو فرضنا فرضاً آخر وهو انك قست المسافة بينك وبين كل من المدفعين ووجدت ان موقفك كان اقرب قليلاً الى مَ منه الى م .عند نَ مثلاً .ولكن موقع ع اكثر قرباً منك الى مَ . وهو سمع مَ قبل م وانت سمعت الطلقتين معاً في وقت واحد فهل تحكم ان المدفعين انطلقا معاً ؟

لعلك تجاوب على الفور قائلاً : لا . لا بد ان يكون م قد انطلق قبل مَ بمقدار مسافة الفرق بين مسافتي بعدي عن المدفعين . وهذا الفرق في المسافة يستغرق مدة الفرق بين وقتي الطلقتين تماماً . ولذلك بلغت الطلقتان اليَّ في وقت واحد

— حسن جدًّا . وهنا يترتب عليك ان تحدّد لي ماذا تعنيه « بالتواقت » اي بحدوث الطلقتين في وقت واحدٍ معاً بحيث استطيع ان اطبقه على كل حادث . لانك في الفرض الأول حكمت ان المدفعين انطلقا في وقت واحد لانك سمعت طلقتيهما في وقت واحد . وفي الفرض الثاني حكمت ان م انطلق قبل مَ مع انك سمعت الطلقتين في وقت واحد . فظرف السمع هنا لم يتغير . فلماذا اختلف الحكمان؟

تقول قول المنتصر في المناقشة: ولكن ظرف موقفي بالنسبة الى مسافتي المدفعين عني تغير في الفرض الثاني عنه في الفرض الاول . فلا بدّ اذن من اختلاف الحكمين

— حسن . وحسن .فماذا تعني اذاً بالتواقت ؟ اتعني ان سمعك للمدفعين في وقت واحد بصرف النظر عن وقت انطلاقهما يدعى تواقتاً ! ام ان انطلاقهما في وقت واحد بصرف النظر عن سمعك لهما يدعى تواقتاً . انبهك . هل ميّزت الفرق بين السؤالين ؟

— ميّزتهُ جيداً. الاول صوتان بلغا اليَّ معاً. والثاني صدورهما البعيدان عني حدثا معاً

— حسن . فاي الامرين تعنيه تواقتاً ؟

— اعني تطابق الامرين معاً اي يجب ان يكون المدفعان قد انطلقا في وقت واحد كما اني سمعتهما في وقت واحد فيكون هذا التطابق تواقتاً بكل معنى الكلمة . ولكن اذا سمعتهما في وقت واحد مع ان احدهما انطلق قبل الآخر كما فرضت في الفرض الثاني فلا يسمى هذا «تواقتاً»

— كيف تعرف ان الانطلاق والسمع متطابقان في التواقت ؟ بل كيف تعرف ان المدفعين انطلقا في وقت واحد

وهنا وجمت وبعد قليل قلت :— اذا سمعت الطلقتين في وقت واحد اقيس المسافة بيني وبين كل من المدفعين فان وجدت المسافتين متساويتين اي اني في وسط المسافة بين المدفعين افهم انهُ لابد ان تكون مدتا انتقال الصوتين متساويتين ايضاً وبالتالي لابد ان يكون المدفعان قد انطلقا في وقت واحد .لذلك احدّد لك معنى « التواقت » هكذا : اذا كان السامع في وسط المسافة بين مصدري صوتين فسمع الصوتين في وقت واحد فلا بد ان يكون انطلاق المدفعين

قد حدث في وقت واحد ايضاً . فان لم يكن السامع في وسط المسافة فلا اعتبار لسماعهِ سواء كان متواقتاً او متفاوتاً

-- حسن . فلنرَ : هل هذا التعريف يصح ان يُطلَق على كل حادث ؟ الى هنا فرضنا انك ثابت عند الخط ، وان المدفعين ثابتان ايضاً ، وان الهواء الذي تنتقل بهِ امواج الصوت ثابت ايضاً . كلكم ثابتون بالنسبة الى الارض (ولكنكم لستم ثابتين بالنسبة الى الشمس وسائر الاجرام . وبالاجمال لستم ثابتين بالنسبة الى الفضاء المطلق)

فلنغضَّ الطرف عن تحرُّك الهواء والارض والنظام الشمسي الخ ونقتصر على النظر الى الحركة على خط السكة الحديدية فقط . ولنفرض ان قطاراً يسير على الخط الحديدي بسرعة ٣٣ متراً في الثانية (عُشر سرعة الصوت) من جهة مَ الى جهة م وان ن موجود في القطار . ولنفرض ان ب واقف امام الخط في منتصف المسافة بين م . و . مَ وان عندهُ جهازاً كهربائياً

م ———————— نَ —— ن ———————— مَ
ب

يمتد منهُ سلكان الى المدفعين بحيث انهُ اذا ضغط على زرٍّ ينطلق المدفعان . فبالطبع يلتقي صوتا الطلقتين في اذنيهِ في وقت واحد . ولنفرض انهُ ضغط على الزر حينما مرَّ ن امامه . فما قول القارىء : هل تكون الطلقتان متواقتتين لكل من ب . و . ن لان كلاًّ منهما كان في منتصف المسافة حين ضغط ب على الزر ؟

اذا فكَّر القارىء قليلاً يكتشف ان ب سمع الطلقتين في وقت واحد بلا شك . ولكن ن سمع م قبل ان سمع مَ . لماذا ؟ لانهُ لما وصل صوتا م ومَ الى موقف ب كان ن قد اجتاز مسافة (قل) ٣٣٠ متراً في مدة عشر ثوانٍ (١٠ + ٣٣) فبلغ الى نَ مستقبلاً صوت م قبل ان يدركه صوت مَ فيسمع ذاك قبل هذا في عشر ثوانٍ

فترى مما تقدَّم ان وجود المراقب في وسط المسافة بين مصدري الصوتين لا يضمن التواقت له اذا كان متحركاً بالنسبة الى ب . ففي هذا المثل كان كلٌّ من ب . و . ن في منتصف المسافة بين المدفعين ومع ذلك تواقتت الطلقتان للرقيب ب ولم تتواقتا للرقيب ن . ولو تواقتت الطلقتان للرقيب ن لسبقت احداهما الاخرى في مسمع ب

اذن لا بد من التسليم بنظرية النسبية وهي ان التواقت نسبيٌّ ايضاً . فما كان متواقتاً لزيد لا يكون متواقتاً لعمرو اذا كان الاثنان متباعدين واحدهما متحركاً بالنسبة الى الآخر

ينتج من ذلك ايضاً ان لكل جسمٍ منسوبٍ اليهِ كالخط الحديدي او القطار او من كان مقيماً عندهما وقتهُ الخاص مختلفاً عن وقت جسم آخر او رقيب آخر اذا كان احدهما متحركاً بالنسبة الى الآخر . واذا لم يذكر جسم (او رقيب) منسوبٌ الحادثُ اليهِ فلا معنى للقول

ان الحادث حدث في وقت كذا . فاذا قلنا ان الطلقتين صدرتا في وقت واحد او ان احداها صدرت قبل الاخرى وجب ان نقول بالنسبة لمن كان وقت الحدوث هذا ، لان فلان سمع في الثانية الفلانية وفلاناً آخر سمع في ثانية اخرى

قد تعترض قائلاً ان شرط التواقت كما علمنا آنفاً هو ان يكون المراقب للطلقتين في وسط المسافة بين مصدريهما تماماً. وهذا الشرط لم يتم للشخص الذي في القطار لانهُ لما بلغت الطلقتان اليه لم يكن باقياً في منتصف المسافة المذكورة بل صار اقرب الى م منه الى مَ فلذلك لم يسمع الطلقتين معاً : اذن لا يكفي للتواقت ان يكون الشخص في منتصف المسافة حين صدور الطلقتين كما حددت معنى «التواقت» سابقاً بل يجب ان يبقى في منتصفها حين يصل الصوتان اليه ايضاً. واذا بقي ن عند ب كانا في ظرف واحد فكأنهما شخص واحد وكان التواقت هذا منحصراً في موقف واحد لا يختلف فيه السماع مهما تعدد الرقباء . فلا نسبية هنا . وانما اذا كان ن متحركاً و ب ثابتاً صار التواقت نسبيًّا لكل منهما يختلف للواحد عنهُ للآخر

التواقت النوري

الى هنا قصرنا التمثيل على الحوادث الصوتية اي التي تنتقل اخبارها بواسطة الصوت ، لسبب اننا نستطيع ان نميز الفرق في المدة بين صوت وصوت اذا اختلفت مسافة مصدريهما عنا . فاذا رمنا ان نمثل بالنور بدل الصوت ، اي اذا شئنا ان نراقب لمعتي المدفعين بدل صوتيهما وجب اما ان تكون لنا قوة احساس نظري تميز الفرق بين اللمعتين في جزء من مليون من الثانية — والحس البصري لا يستطيع هذا التمييز — او ان تكون المسافة بين مصدرين للنور ملايين الكيلومترات . وهذا ما يتعذر علينا قياسه كما نقيس المسافة بين المدفعين . وانما تقاس هذه المسافات العظيمة بوسائل اخرى يمارسها علماء الطبيعة والفلك ولا محل لشرحها هنا . ولان هذه الوسائل ينحصر اجراؤنا لها في ارضنا فقط اي على جرم واحد من اجرام الكون فهي تجعل نسبية التواقت امراً محتوماً لا مناص منه ، لاننا نحسب كل حركة من حركات الاجرام بالنسبة الينا فقط . وهي تختلف بالنسبة الى اي جرم آخر

ثم ان الفرق العظيم بين طبيعة النور وطبيعة الصوت تجعل «نسبية التواقت» اشد حتمية كما سترى . الصوت ينتقل امواجاً هوائية والهواء لا يكون على وتيرة واحدة . فتارة يكون ساكناً واخرى متحركاً وتارة كثيفاً واُخرى لطيفاً او بارداً او حارًّا . وكل ذلك يجعل سرعة الصوت مختلفة باختلاف هذه الاعتبارات . اما النور (وكل اشعاع كهربائي مغنطيسي) فله سرعة واحدة في الفضاء لا تتغير . ثم ان الصوت يكتسب مع سرعته سرعة الارض التي

يسير في هوائها . ولهذا تختلف سرعتهُ بالنسبة الى الفضاء . فاذا كانت سرعته على الارض ٣٣١ متراً بالثانية فهي في الفضاء بالنسبة الى الشمس ٣٠ كيلو متراً مع ٣٣٠ متراً في الثانية لان الارض تسير بهاتيك السرعة . واما النور فلا يكتسب سرعة الجسم الذي يصدر منه او الذي يمر عليه . فأينما سار والى اي جهة اتجه تكون سرعته واحدة بالنسبة الى الفضاء. فسرعته في الفضاء تعد «سرعةً مطلقة» تنسب اليها سائر السرعات وتقاس بها . اقول ان سرعته مطلقة بالنسبة الى الفضاء على اعتبار ان الفضاء ساكن ولكن كيف نعلم ان كان الحيز الفضائي الذي تجول فيه الاجرام ساكناً او متحركاً . فلا مناص من النسبية اذاً . ولذلك سيرى القارىء ان نسبية التواقت النوري ابعد غوراً وأعظم شأناً وأكثر تعقداً من نسبية التواقت الصوتي وهي التي تتمشى مع ناموس النسبية

للتمثيل على نسبية التواقت النوري في الابعاد السحيقة اضرب مثلاً ضربه الاستاذ تيرينغ النمساوي في كتابه «النسبية بلغة بسيطة»

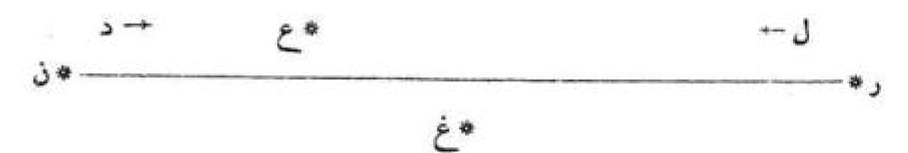
في ٢١ فبراير سنة ١٩٠١ ظهر للفلكيين نجم جديد في كوكبة برساوس Perseus فسماه الفلكيون نوفا برساي Nova Persei اي جديد برساوس . هذا النجم الذي كان قبلاً مظلماً او خفياً لسبب مجهول ضاء بغتة لسبب مجهول ايضاً واصبح منظوراً

ولا يخفى عليك ان سطوع هذا النجم استغرق وقتاً قبل ان ظهر للفلكيين . فتأخر وصوله الى الارض يساوي المدة التي قضاها النور في رحلته من النجم الى الارض. وقد حسب الفلكيون مسافة بعده عنا فاذا هي ثلاثون سنة نورية . اي ان النور يقضي ٣٠ سنة منذ صدوره عنه الى ان يصل الينا . وهذه المسافة تساوي نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٨٠٠ ٨١٦ ٨٣٩ ٢٨ كيلو متر = سرعة النور مضروبة بعدد ثواني الثلاثين سنة

ولذلك تساءل الفلكيون وعلماء النسبية منهم : اي تاريخ في ارضنا يطابق اول سطوع لذلك النجم ؟ بحسب حساب الفلكيين لبعد ذلك النجم (٣٠ سنة) يكون اول سطوعه قد حدث في ٢١ فبراير سنة ١٨٧١ اي ان مولد ذلك النجم واليوم الحادي والعشرين من فبراير سنة ١٨٧١ يعتبران حادثين متواقتين . فهل هذا الاعتبار صحيح في نظر علماء النسبية ؟

بحسب رأي علماء الفلك الطبيعي الرياضي هذا الاعتبار صحيح لان ناموس سرعة النور لا يتغير في زمان ولا في مكان والرصد دقيق ومضبوط والحساب مضبوط ايضاً. ولكنَّ لعلماء النسبية رأياً آخر . لانهم ينظرون الى اعتبارات اخرى تجعل شكاً في هذا الاعتبار . هؤلاء يسلمون بحساب الفلكيين ولكن الفرق بين الفريقين ان الفلكيين اعتبروا النظام الشمسي (الذي ارضنا ضلع منه) وذلك النجم ثابتين كلاً في موقعه ، اوعلى الاقل ان المسافة بينهما ثابتة . وبناء على هذا الاعتبار بنوا حسابهم . ولكن علماء النسبية اذا سلموا بأن المسافة بين

النجم والارض ثابتة لا تتغير فلا يسلمون ان خط هذه المسافة الثابت الطول لايختلف موقعه بالنسبة الى سائر الاجرام



لنفرض ان ر الارض (او النظام الشمسي) و ن النجم نوڤا برساي وع العيوق . ولنفرض ان خط المسافة بين ر ←→ ن ثابت (٣٠ سنة نورية) غير متغير اي ان الارض والنجم يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة بحيث تبقى المسافة بينهما كما هي . ولكن خط المسافة هذا بالنسبة الى ع وغيره من الاجرام العديدة (التي انبأنا العيوق عنها) متحرك او هي متحركة بالنسبة اليه او كلاهما متحركان الواحد بالنسبة الى الآخر حركات مختلفة السرعة والاتجاه. ففي حين من الزمان يصبح النجم ع عند غ مثلاً . فاذن كل من ر. و ن. يتغير موضعه في الحيز الكوني وان لم تقصر المسافة بينهما او تطول. ولكن هذا التغير في وضعهما لا يؤثر شيئاً في مسير النور وسرعته

فمتى صدر النور من النجم ن اصبح حراً في سرعته وانتشاره الى جميع الجهات. ولذلك يصل الى ر بعد ان يتم رحلته بمعدل ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية . فكم استغرقت رحلته ؟ هل استغرقت ٣٠ سنة ؟ فلنقل اذا كان خط المسافة ر ←→ ن يسير في اتجاه السهم د من جهة ن الى ر بسرعة س (قل ١٠ كيلومترات بالثانية) فالنور الصادر من ن يصل قبل ٣٠ سنة بمدة تساوي $\frac{س}{ن}$ × ثواني ٣٠ سنة تقريباً باعتبار ان ن ترمز سرعة النور . وان كان الخط المذكور يسير في اتجاه السهم ل بسرعة س اي بعكس الفرض الاول تأخر وصوله بذلك القدر لان الارض (مع النظام الشمسي) تقرب الى النور القادم اليها فتختصر المسافة والمدة في الفرض الاول وتبتعد عنه في الفرض الثاني فتطول المسافة والمدة

لو كان في الامكان ان نكتشف سرعة ذلك الخط (المسافة بين الارض والنجم) بالنسبة الى الحيز الفضائي لاستطعنا ان نعلم بالضبط المسافة التي قطعها النور بين الجرمين . ولكن من يستطيع ان يكتشف هذا الاكتشاف المستحيل ؟ لانه ليس في الفضاء جرم ثابت تنسب اليه مواقع الاجرام وحركاتها لنعلم كم ميل يبعد ذلك الخط عن الجرم الثابت او يقرب اليه ، فاذا اكتشفنا سرعة هذا الخط بالنسبة الى ع العيوق او غ نبقى جاهلين سرعته الحقيقية بالنسبة الى الفضاء المطلق . لان العيوق نفسه سائر ايضاً بسرعة خاصة .لقد عرف الفلكيون ان النظام

الشمسي يسير بسرعة ٢٠٠ الى ٤٠٠ ميل في الثانية بالنسبة الى مركز المجرة. ولكن المجرة نفسها غير ثابتة بل هي متحركة في الكون مع سائر مجراته المتحركة بسرعات مختلفة . اذاً يستحيل ان نعرف سرعة تحرك الخط بين ر و ر َ ن بالنسبة الى الفضاء . ولذلك يستحيل ان نعرف في كم سنة يقضي النور رحلته بينهما . فاذا قال الفلكيون ان بيننا وبين النجم الذي نحن بصدده ٣٠ سنة نورية فان هذا القول يصدق على المراقب الارضي فقط وفي حين الرصد فقط. فلو امكن ان ينتقلوا بغتة الى ذلك النجم ويرصدوا الارض منه لاختلفت نتيجة حسابهم اختلافاً كبيراً . فتقرير يوم مولد النجم المذكور انما هو نسبي ، اي بالنسبة الى الارض فقط

التواقت المتحرك

ذلك على افتراض ان المسافة بين النجم والارض تبقى واحدة مدة طويلة من الزمان او على الاقل لا تزال كما هي منذ سطع نور النجم الى ان وصل نوره الى الارض . ولكن هناك احتمالات اخرى تقصر مدة رحلة النور او تطيلها

اولاً . يحتمل ان النجم والارض (او بالاحرى النظام الشمسي) يتقاربان ميلاً واحد (او اكثر اذا شئت) كل ثانية . وهذا الاحتمال يتضمن احتمالين آخرين : الاول ان النظام الشمسي يسير بسرعة س (قدّر ما شئت من الارقام) نحو النجم والنجم نفسهُ يسير في نفس الاتجاه ولكن بسرعة (س — ١) . وباختلاف هذا التقدير يختلف طول خط المسافة التي يقطعها النور لكي يبلغ الى الارض اذ يقصر في كل ثانية ميلاً . ولكن رحلة النور تقصر ليس بقدر هذه المسافة بل بقدر نسبة سرعة النظام الشمسي المطلقة في الفضاء الى سرعة النور لانهُ مقبل على النور اي بقيمة $\frac{س}{ن}$ من الاميال كل ثانية . فاذا فرضنا ان سرعة النظام الشمسي في الفضاء ٣٠٠ كيلو متر في الثانية (وهو فرض يستحيل تحقيقهُ او تستحيل معرفة السرعة المطلقة في الفضاء . وانما نفرض فرضاً لعمل الحساب) فتقصر رحلة النور بقيمة $\frac{٣٠٠}{٣٠٠٠٠٠} = \frac{١}{١٠٠٠}$ من الميل كل ثانية . الاحتمال الثاني بالعكس اي ان النجم يسير بسرعة (س — ١) فيتقاربان ويقصر خط المسافة بينهما كل ثانية ميلاً . ولكن رحلة النور تطول بنسبة سرعة النظام الشمسي المطلقة س الى سرعة النور ن كما تقدم حسابها لان النظام الشمسي مبتعد عن النور الوارد اليه من النجم . ولكن من يستطيع ان يكتشف قيمة س

ثانياً يحتمل ايضاً ان النظام الشمسي وذلك النجم يتباعدان (لا يتقاربان كما فرضنا سابقاً) ولنفرض انهما يتباعدان بسرعة ميل (وان شئت فاكثر) . وهذا الاحتمال يتضمن احتمالين

آخرين ايضاً . الاول : قد يكون النجم والنظام الشمسي سائرين في اتجاه واحد معاكس لاتجاه نور النجم كاتجاه السهم د وانما سرعة النجم تزيد على سرعة النظام الشمسي ميلاً (او اكثر) في الثانية وبذلك تطول المسافة ميلاً كل ثانية. ولكن رحلة النور تقصر بقدر سرعة النظام الشمسي س نحوها (قدّرها ما شئت). لانهُ متى تركت لمعة النور النجم لا يبقى لسرعة النجم شأن فيها سواء اكانت بطيئة او سريعة وسواء اكان النجم متجهاً الى هنا او هناك . الثاني قد يكون اتجاه سير النظام الشمسي والنجم كاتجاه السهم ل المسايرِ لاتجاه النور وانما سرعة النظام الشمسي تزيد على سرعة النجم ميلاً (او اكثر) وفي هذه الحالة يتباعدان كل ثانية ميلاً وانما رحلة نور النجم تطول لان النظام الشمسي مبتعد امامها — تطول كنسبة س الى ن (رمز سرعة ن) نسبة اي $\frac{س}{ن}$ من الميل

***

نرى مما تقدّم ان مدة رحلة النور بين النجم والنظام الشمسي لا تتوقف على تطاول خط المسافة بينهما او تقاصره بل على مقدار سرعة النظام الشمسي المطلقة في الفضاء ان كان مقبلاً نحو نور النجم او مدبراً عنهُ . ولكن من يستطيع ان يعلم كم هي سرعة الشمس او اي جرم في الفضاء المطلق ؟ اذا استطعنا ان نكتشف سرعة الشمس بالنسبة الى سرعة النجم او الى مركز المجرة فلا نستطيع ان نتحقق اذ كانت هذه السرعة هي نفس سرعة الشمس المطلقة في الفضاء فقد تكون اكثر او اقل . ولذلك يستحيل ان نعلم ان النور قد قضى ٣٠ سنة في رحلتهِ من النجم الى الارض او اكثر او اقل، لاننا ما دمنا نجهل اين كان موقع النجم حين رحلت اول لمعة منه الينا واين كان موقع الارض حينئذٍ واين صار موقعهُ وموقع ارضنا حين وصلت اللمعة اليها فيستحيل ان نستطيع تقرير المدة لرحلة مسافة النور والمسافة بين الجرمين . فالمدة التي حسبها الفلكيون لرحلة النور بينهما انما هي نسبية بحسب حساب سرعة النور على الارض

***

ولعلَّ النظرية تنجلي للقارىء اكثر اذا ضربنا المثل التالي :— نتصور ان ملاكاً سمويًّا يستطيع الاجتماع بنا ويروي لنا معلوماته. ونتصور انه امتطى لمعة نور حين صدرت من النجم وسارت به بسرعتها المعلومة الى ان وصل الى ارضنا . فنسألهُ : كم قضيت من الوقت في رحلتك بحسب حساب الوقت الارضي على فرض انه كان يحمل ساعة مضبوطة كساعاتنا ! ولنفرض انه اجاب : قضيت ٣٠ سنة بالضبط وبحسابنا لسرعة النور نعلم انه قطع نحو ٢٩ بليون بليون ميل

واذا سألناه : هل تعتقد ان هذه المسافة هي نفس المسافة بيننا وبين النجم ؟ يجيب لا ادري

— لماذا

— لاني لم أعلم اين كان موقع الأرض حين رحلت عن النجم . ولا أدري الآن وقد وصلت الى الارض اين صار موقع النجم . فهما سائران بسرعة اجهلها ويستحيل عليَّ ان اقيسها

لذلك نضطر ان نسلم بان ما ننسبه الى أي جرم من بعد المسافة واتجاه الحركة وسرعتها وصدور اي ظاهرة فيه وبلوغ خبرها الينا انما هو نسبي الى ارضنا فقط او بالاكثر الى نظامنا الشمسي . ولما كان النور الذي ينقل الينا أخبار حركات الاجرام لا يتأثر في اتجاهه وسرعته باي مؤثر . فلا نستطيع ان نقرر مدة حقيقية بين سطوع ومضة من نجم ووصولها الينا.وانما نقرر ما نقرره بحسب ما ينبئنا بهِ النور حال وصولهِ الينا لا حال صدوره من مصدره . وتقرير ما نقرره عن وقت صدوره انما هو بحسب وقتنا وبالنسبة الينا فقط

فالتواقت بين مولد ذلك النجم والتاريخ المطابق له في حسابنا انما هو نسبي لنا يختلف عن التاريخ الذي يراه أهل ذلك النجم لو كانوا في ظروف كظروفنا وظهرت لهم ومضة من نظامنا الشمسي

لا ريب ان الموضوع دقيق يحتاج الى سعة التصور وعمق التبحر . ولا يمكن ان يبسط بابسط مما تقدم . فاذا كان للقارىء شيء من الصبر على التصور والتبحر فلا بدَّ ان ينجلي له الموضوع جيداً

***

وحاصل القول انك لا تستطيع ان تقول ان الحادث الفلاني واقت حادثاً آخراً او تاريخاً معيناً الاَّ اذا قرنت قولك بالقول انهُ حدث بالنسبة الى الموقع الفلاني . واما ان تقول على الاطلاق من غير ان تعين موقعاً تنسبهُ اليهِ فالقول لغوٌ لا معنى لهُ . اجل لا معنى للقول (على الاطلاق) ان حادثين حدثا في وقت واحد الاَّ اذا ذكر في هذا القول من قاله واين هو يقيم لكي ينسب التواقت اليهِ

ليس لاي كائن على الارض او في المريخ او في نوفا برساي او في السديم الاقرب او الابعد ان يقول ان حادثين حدثا معاً في وقت واحد على الاطلاق الاَّ اذا كان هذا الكائن مستقلاً عن الكون الاعظم ومشرفاً على حوادثهِ ويرى كل حادث حين يحدث توّاً بغير واسطة النور. فكائن كهذا يستطيع ان يضبط تواريخ حوادث الكون المتباعدة المتتابعة بالنسبة الى نفسهِ وبنسبة كل حادثة في جرم الى حادثة في جرم آخر . واما اذا كان هذا الكائن لا يشعر بحوادث الكون الاَّ بواسطة النور فيكون قوله بتواقت حوادث الكون نسبيًّا كقولنا

شبرا　　　　نقولا الحداد

حصاد الزمان

لهارولد بلسيفر

هارلد بلسيفر (Harold T. T. Pulsifer) احد شعراء اميركا المشهورين ارسل ديوان شعره الاخير «حصاد الزمان» (Harvest of Time) الى صديقه امين الريحاني بالفريكة لبنان — وقد عارض القصيدة الاولى فيه بقصيدة من نظمه. والقصيدتان نشرتا في الجريدة الاسبوعية النيويوركية The Saturday Review of Literature في العدد الاول من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٣ ونقلتها عدة صحف ومجلات اميركية وقد ترجم الريحاني القصيدتين شعراً منثوراً لمجلة المقتطف

ان الزمان لَيَــذْري الجمالَ بريح السموم ،
فينبذ من بين حيٍّ الحَبِّ اليابسَ الهشيم ،
وسيجيء الغدُ بسنابل للحصد ذهبية ،
فتعود الى الارض البهجة والبهاء ،
وترتفع اصوات وحيدة لها صولاتٌ طائلات ،
وتُسمَع مرة اخرى الكلمات البليغات الخالدات .
غداً — وان كان لا يعرف لفجره آن .
غداً — وان جُهل الزارع ، وجُهل المكان .

وقد تكون الارض الرائدة حتى اليوم دَرِيَّة .
فترفع الى ذروة المجد امة منسيّة ،
وهي تلمس براعم الجمال في قلبها النَّديّ ،
وقد زرعت غصنَه يدٌ خفية .
الجمال ! — كل ملك اثيل يزول ، والجمال يدوم ،
فعجّل بذري الهشيم ، وعجل بكشف الغيوم .

في هذا الشرق

لامين الريحاني

ايه اخا العرب ، ان قولك الذهبي

ليبعث في ارز جبالي المحبور ،

وهو يسمع في الاودية ، حول عشه الصخري ،

صوتاً قديماً يعاد ، صوت تموز ،

ويرى في ظلال الزمان شفاهاً عقيقية ،

تنطق بالبعث ، وتبشر بعود الجمال .

اجل ، ستزرع غداً كما زرعت احسن تلك «اليد الخفية».

ولا تزال التربة في الوادي القديم طيبةً نديّة

لا في جبالي ؟ — في الهند اذن او في الصين ،

في ارض تختلج شوقاً تحت الثلوج ، وتبتلج املاً بين المروج ،

في ما وراء الكنج ، وفي اعالي الدَّدَق —

جَيْرِ ، في هذا الشرق سيهتف كوكب الصباح :

هللوا لليوم السعيد ، حيوا على الفلاح.

لا ينكر ان لا يزال ها هنا شقاقٌ وعداء ،

ولكنَّ ها هنا كذلك مهد الانبياء .

من القاهرة الى انقرة

مشاهدات في تركيا الجديدة

— ١ —

كنت اجهل تركيا الجديدة ، وهي جارتنا ، فرأيت منها في الرحلة الاخيرة لمحات تستوقف البصر . وكنت ارتاب في صحة ما يقال عنها حتى شهدت بعيني

***

كانت الدولة العثمانية في عهدها الاخير ، امبراطورية مفككة الاوصال خاضعة لنفوذ الاجانب ، فيها مرتع لاصحاب المغامرة والوشاية ، فلما خرجت من الحرب الكبرى مغلوبة على امرها ، ونزل قواد الحلفاء على ضفات البوسفور ، قيل ان «مريض اوربا» قد قضى

ولكن شرارة الحياة كانت كامنة في النفوس ، ورغم الرماد الكثيف الذي كان يغطيها — رماد الحرمان والخذلان — كفت نفخة واحدة من روح تقدح الشرر ، وطنية وعزيمة ماضية ، فتطاير الرماد ، وبدت الشرارة ، وما لبثت ان اصبحت جمرة تتأجج

فالانقلاب الخطير الذي انتقل بتلك البلاد من الامبراطورية العثمانية المريضة المشفية ، الى تركيا الجديدة التي تتقد حياة ونزوعاً الى العلى ، لهو من انقلابات التاريخ الخطيرة ، ولولا شدة قربنا اليه ، والقرب يحير البصر ، لبدا لنا في كمال روعته وجلاله

ما بالك بقوم يكسرون بفلول جيش مهزوم ، جيشاً اوربيًا منظماً تؤيده جيوش الحلفاء واساطيلهم ، بل ما بالك بقوم يتحدون الحلفاء ويخترقون مناطق الحياد التي عينها قواد الحلفاء على ضفات الدردنيل ، بل ما بالك بقوم يصمدون لكبار رجال السياسة في لوزان ولا يخرجون من هنالك الا والمشيئة القومية التي اعرب عنها الميثاق القومي قد تحققت ، بل ما بالك بقوم يكسرون كل قيد ، ويدرسون كل حاجز يعيقهم عن التقدم ، فيسيرون ، رؤوسهم مرفوعة ، وعيونهم شاخصة الى العلى

ليس لنا ان نحكم على هذه القيود والحواجز — فهذا شأنهم هم ، ولكن لنا ان نتفهم الروح العنيفة التي انطلقت من شعب منهوك مخذول ، فأتت بالمعجزات

ان الذين يهمهم تحول الاجتماع ، فيدرسونه في الكتب ، عليهم بزيارة تركيا ، فليس في

التاريخ ما هو ابعث على الدهشة والاعجاب من هذا التحول السريع المتسق القائم على اساس . ان ما فعله بطرس الاكبر في روسيا ، وما احدثه زعماء اليابان الحديثة من التحول ، ليس الاّ ظلاً باهتاً من ظلال الانقلاب الذي شمل الامة التركية في كل ناحية من نواحي حياتها العامة والخاصة

بل ان الذين تخلبهم سير الرجال المبدعين امامهم سيرة الغازي يدونونها . انهُ بعد كل الوان الظفر التي اجتمعت له ، عرف اين يقف . وهذا سر التسلط على نوازع النفس واهوائها

في تركيا ، آثار خالدة تعرض لنا مشاهد التاريخ الحافلة ، وعلى ضفات البوسفور خمائل وحدائق وجزائر كأنها قطع من الجنان . وفي جوار استانبول وقلب الاناضول مدن مياه تصلح للاستشفاء . وزيارة هذه الاماكن ، تمهد السبيل لاستئناف الصلة الوثيقة التي كانت تربطنا بتركيا . غير اننا يجب الاّ نكتفي بزيارة المتاحف والخمائل ومدن المياه ، بل علينا ان ندرس منشآت تركيا ، واتجاه روحها ، وان نجتمع بادبائها وكتابها . لان هذه الامور تحكم صلات التفهم والتعاطف بين الشعبين

***

كان موعد سفر الباخرة التركية «ايجه» في الساعة الثالثة بعد ظهر الاثنين (١٤ اغسطس ١٩٣٣) فأممناها في الساعة الثانية والنصف ، فاذا الرفاق كلهم هناك وكلهم طبيب نابغ وصحافي اديب وعلى رأسهم الدكتور علي باشا ابراهيم . وكان اول ما استرعى نظري في الباخرة انها لا تفرق عن السفن الاوربية في شيء ، نظافةً وادارة وحسن ترتيب وتنسيق . ثم خبرنا دقتها المتناهية في حفظ المواعيد في القيام والوصول . رجال السفينة كلهم اتراك ، غاية في الادب واللطف ورعاية المسافرين . والقبطان سعيد بك تركي ، وضابطه الاول تركي كذلك ، والباخرة في ايديهما كانها في ايدي ابرع الملاّحين . رحم الله اياماً كان يقال فيها ان ربان مدمرة تركية لم يستطع الوصول الى بور سعيد ، لانها لم تكن قد كتبت على الخريطة ! اننا اليوم في هذه السفينة ، التي تفضل كثيراً من السفن الاوربية التي تمخر اليمّ بين شواطىء البحر المتوسط ، نحس في كل دقيقة من دقائق السفر ، ان الاكف التي تتولى مسيرها ومصيرها في هذا العباب الخضم ، اكف يصح الاعتماد عليها

بعد مسير نهار وليلتين من الاسكندرية ، وصلنا الى بيريه مرفأ اثينا عاصمة اليونان . وليس في بيريه ما يستحق الذكر ، الاّ ما رأيناه من حقارة مقاهيها ، وكثرة الحفر في الشوارع التي مررنا بها ولا بدع فهي مرفأ صغير ، ومواردها قليلة ، وكل الحكومات تشكو شدة الضائقة ، وحتى مرسيليا نفسها أكبر مرفإ على بحر الروم ، لا تخرج في الحي المحاذي للشاطىء عما تقدم الاّ ان شوارعها اوسع ومبانيها ومستودعاتها اكبر . وأردنا استئجار سيارات تنقلنا الى اثينا وتسير بنا فيها الى حيث نشاء من المتاحف والآثار ثم تعود بنا الى بيريه مساء فطلب

السائق ٦٠٠ دراخمة (وهي نحو جنيه مصري) ولكن الاستاذ رمزي (منظم الرحلة) رفض التسليم بهذا السعر فجدَّ في المساومة بلهجة الاتراك الاسياد، فتمكن بعد ربع ساعة او تزيد ، من استئجار ثلاث سيارات بثمانمائة دراخمة

وركبنا السيارات الثلاث الى اثينا ، فما كدنا نخرج من حي المرفإ ونستدبر بيريه حتى انفسحت امامنا طريق رحبة واسعة مرصوفة أحسن رصف ، تقوم على جانبيها الاشجار الظليلة . فبلغنا العاصمة في اقل من ثلث ساعة

***

هذه اثينا ! ام الحضارة الاوربية ، ومهد فنها ، وأدبها ، وحكمتها ، وفلسفتها . هذه مدينة بركليس وسقراط وصولون وافلاطون وارسطوطاليس وفيدياس واسخيلس وصفوقليس ! اية مدينة في شرق الارض وغربها ، تستطيع ان تباهي بكوكبة ، من العبقريين تضاهي هذه الكوكبة ؟ اية مدينة في قديم التاريخ وحديثه تستطيع ان تطاول اثينا في ما اخرجته للعالم من اصول الفن ، ومبادىء العلوم ، ومذاهب الفلسفة ، وروائع الادب

انك لا تكاد تفيق من التأمل في ما توحيه اليك هذه الاسماء ، ومن الروعة تستولى عليك اذ تحس أن ارواحهم تطل عليك ، حتى تكون السيارة قد توقلت بك الى سفح اكمة الاكروبول

***

الاكروبول ! انك في اثينا تنتقل من أثر خالد الى أثر خالد! هذا هيكل المشتري . وهذه قوس طريانوس. تراهما الى يمينك وانت ذاهب من بيريه الى اثينا . وهذه قمة الاكروبول تطل منها على السهول التي تحيط بسفحها وتشرف على البحر الذي رأى في العصر القديم سفن الفرس تلتحم امام جزيرة سلاميس بسفن اليونان . خفف الوطء ! ان كل قدم مربعة تدوسها أرض يقدسها الفن والعبقرية . أتذكر ما يقصهُ التاريخ كيف قضى اكتينوس ومنسكليس تسع سنوات يشرفان على تشييد هيكل البارثنون ، المتسق في جميع اجزائهِ ، المهندم في كل خط من خطوطهِ . أتذكر كيف قضى فيدياس واعوانه تسع سنوات ينقشون تماثيل الافريز في الرخام ، تماثيل رجال لا يقع عليها نظر انسان الاَّ وتسمو في نظره معاني الرجولة الجسدية. تماثيل آلهة تبدو في جلالها ووقارها آيات فلا يصدق رائيها ان آلهة الاقدمين كانت تقتل وتعذب. لقد ظلَّ هذا الهيكل — البارثنون — يتوّج اكمة الاكروبوليس قروناً عدة ، تلمع ألوانهُ الزاهية في نور الشمس، فلا يسمو اليهِ نظر جيل من الناس الاَّ ويشعرون بان في هذا الهيكل بلغ الرجال أعلى مراتب الابداع ورأوا لمحات من عروش الآلهة

فاذا بلغت القمة ، رأيت بقايا من الرواق المعمد ، كأنها تنتظر زلزلة او مدفعاً ليكمل تدميرها . الف قطعة وقطعة من الحجر معفرة بالتراب تحت قدميك !

أشح بنظرك عن هيكل البارثنون . هذه بقايا تمثال للزهرة . وهذه انقاض هيكل النصر غير المجنح (اشارة الى اثينا التي حبت اليونان نصرهم وكانت ربة من دون اجنحة) . وعند المنحدر الجنوبي الشرقي متحف صغير ، ولكنهُ يضم امثلة جبسية في الغالب من نقش الافريز .. كل اوضاع الجسم الانساني ذكراً وانثى في حالتي الراحة والحركة ، تراها ممثلة أدق تمثيل ،منقوشة أبرع نقش ، في هذه الحجارة الصمّ ، فتكاد ترتعش وتتكلم

اما الاحياء الحديثة في اثينا ففخمة واسعة الشوارع، فيها ميادين رحاب فساح ، ولكنني لحظت في زيارتي الاولى لها ان على القوم الذين يسيرون في الشوارع مسحة من الكآبة ، ولعله وهمٌ وهمتهُ ، لانني ذكرت من دون وعي ، اننا ذاهبون في ضيافة الامة التركية ، التي غلبت اليونان وطردتهم من آسيا الصغرى وتراقية الشرقية ، في ذل وخذلان ، بعدما وعدهم معظم الحلفاء بالتأييد فتخلوا عنهم

والمعيشة في اليونان رخيصة . فالجنيه المصري يعدل نحو ٥٧٠ دراخمة . ذهبنا وكنا في الركب ، اربعة عشر شخصاً ، الى مطعم من اكبر المطاعم في اثينا مشهور بطهيه الممتاز وطبقة القوم التي تؤمه وتناولنا الغداء هناك . وكانت زيارة الآثار والمتاحف قد ارهفت القابلية فاكلنا بشهية اصنافاً مختلفة من الطعام والحلوى والفاكهة وشرب بعضنا الجعة او المياه المعدنية فلما جمع حساب الركب فاذا بهِ ٦٥٠ دراخمة او اكثر من جنيه واحد قليلاً (وكان الجنيه يومها يعدل ٥٩٠ دراخمة). وفي عودتنا زرنا اثينا ثانية وتنازلنا عن ارستقراطية الجنيه المصري — بالمقابلة مع الدراخمة — فركبنا اتوبيساً الى اثينا فكانت اجرة الفرد خمس درخمات او اقل قليلاً من قرش صاغ وتغدينا في المطعم نفســه وعدنا بقطار المترو وهو من انظف ما رأيت من القطارات التي من قبيله بالاجرة نفسها . وقد أيـد المصطافون هناك من المصريين ما تقدم

— ٢ —

البحر رهوٌ والجو معتدل والهواء عليل والسفينة تمخر بنا بحر مرمرة والركب شديد الحماسة لان أصحاب النظارات منه تبينوا عند الافق مآذن ايا صوفيا والسلطان احمد . هوذا ربان الباخرة سعيد بك والنظارة بيده يتجه الى الاستاذ رمزي قائلاً : « غازي اسطنبولده » اي ان الغازي في استانبول

لقد بلغنا استانبول مدينة القياصرة احد عشر قرناً من قسطنطين الكبير الى قسطنطين باليولوغوس وهو الذي قتل في حصارها الأخير . استانبول مدينة السلاطين من ايام محمد الفاتح الى وحيد الدين . مدينة الخلفاء من ايام سليمان القانوني الى عبد المجيد . ها هي ذي تحيينا بقبابها الفخمة ومآذنها اللدنة الذاهبة في الجو كأنها صلوات المؤمنين مرتفعة الى السماء . انروعة موقعها الطبيعي تأخذ البصر فتنة واعجاباً. فبحر مرمرة يغسل قدميها بمياهه اللازوردية

ومضيق البوسفور والقرن الذهبي يمنطقان حقويها بنطاق من الزمرد او الياقوت الأزرق . تراها قائمة على اكمات متتالية فتدرك الحكمة في اطلاق اسم « روما الجديدة » عليها . وتذكر ماكان لها من مكانة في شؤون التاريخ العالمي فتضعها مع اثينا وروما في مقام واحد . كانت مثابة لعلماء اليونان وحلقة بين حضارتهم القديمة وحضارة القرون الوسطى التي نشأت منها المدنية الأوربية الحديثة وبنيت عليها . تذكر كل ذلك فيخفق قلبك لأنك سوف تطأ شوارعها وتزور آثارها واطلالها . ثم يبدر ذهنك انها كانت سيدة العالم ايام عز السلاطين تأتيها الشعوب من الشرق ومن الغرب خاضعة خانعة . هنا الباب العالي وباب السعادة في طوب قبو وسراي يلدز وقصر بيلر باي . انك تتحسر على هذا الماضي المجيد يكون مآله زوال استانبول عن العرش وقيام انقرة مكانها. ولكن استانبول كانت عاصمة الامبراطورية العثمانية وأما انقرة فعاصمة الجمهورية التركية . ولهذا حديث آخر

ثم تنحدر الشمس من كبد السماء ، ويخبو النور المتوهج فتعود لا تتبين من استانبول الأ القباب والمآذن وقد ذهبها الاصيل فتبدو عليها تلك الجلالة الضافية التي لا تبدو عند الغروب الأ على العمارة الدينية. فتحسب ان كل هذه المدينة دوراً وقصوراً (وما أقل قصورها) انما انشئت لتكون لهذه الجوامع ، اماء وجواري

***

السراي القديمة أو « طوب قبو » واقعة على ربوة تشرف على البوسفور وهي في الغالب قصور السلاطين القدماء وفيها كنوزهم وآثارهم وملابسهم المزركشة بالجواهر . ولكنك لست تجد بينها قصراً واحداً يستوقف النظر في فخامة بنائه ، بل انك لتحار كيف رضي السلاطين، وهم أصحاب الحول والطول ، وثروة الامبراطورية العثمانية تحت مطلق تصرفهم ان يعيشوا في تلك القصور ورهن اشارتهم مهندسون شيدوا تلك الجوامع الفخمة . ثم تزداد حيرتك ودهشتك اذ ترى هذه القصور المطلة على البوسفور منكمشة عنه تفصل بينها وبينه اسوار متهدمة وبقعة من الارض نبتت فيها الحشائش والاعشاب وقامت في جوانبها اكواخ متداعية الجوانب ، بدلاً من ان تصلها بذلك الشاطىء الساحر، حدائق غناء تسبغ على جمال الموقع الطبيعي الذي اغدقته راحة المبدع عليها ، جمال الأثر الفني اخرجته يد صَنَعٍ ماهر . وانك لتحس هذا الاحساس في معظم حيي اسطنبول وبيرا . روعة من الجمال اغدقتها الطبيعة على استانبول فامتنعت يد الانسان عن تعهدها بل انها في الغالب امعنت في تشويه الصورة . فاغلب الأحياء المحاذية للبحر في اسطنبول وبيرا — ما عدا المنطقة التي تحيط بقصر ضولمة بغجه وهو مقر الغازي الصيفي في الغالب — حقيرة تبعث في النفس القتام بدلاً من ان تكون قطعة من الجنان تدخل على النفس البهجة والمرح

اما الآثار النفيسة التي تحتوي عليها مباني السراي القديمة فيعجز القلم عن ادائها حقها من الوصف . ففي نواحٍ منها من القاشاني القديم المصنوع في ازهى العصور التي ازدهرت فيها تلك الصناعة ما لا يدرك قيمته الصحيحة الا رجال الفن . وكان الدكتور علي باشا ابراهيم وهو الخبير بشؤونها يقف امامها وقفة الذاهل المأخوذ بجمالها وقيمتها . فكنا نقف معه ثم نسأله رأيه فيها ، فلا نفوز الا بكلمات الاعجاب ، أو بسرد قصير دقيق لمزاياها الفنية والتاريخية فاذا ألحفنا في السؤال عن قيمتها ، ذكر الملايين وانتقل من تحفة الى اختها

وفي ناحية اخرى مجموعة فريدة من الصيني ، كان امبراطرة الصين قد اهدوها في الغالب الى السلطان عبد الحميد فظلت مدفونة في اقبية القصر ، الى ان اتيح لها في هذا العصر ، من عني بها فاستنقذها من مخبآتها وعلقها على الجدران فاكتست بها من الارض الى السقف . وانك لتنظر الى قطعة الخزف وتعلم انها من الصنف الثمين النادر ثم تدير بصرك في نواحي « المتحف الخزفي » فتجد من صنفها خمسمائة قطعة او تزيد

واذا تحولتَ الى «الخزينة» حيث عرضت كنوز آل عثمان بهرك الماس والزمرد والياقوت الاحمر والازرق واللؤلؤ والفيروز وغيرها من الحجارة الكريمة ، عروش وسيوف وخناجر وملابس ، كلها مرصعة بالحجارة الكريمة . فانك لا تكاد تجيل البصر في ما احتوت عليه خزانة او خزانتان منها ، حتى تمر بالماس والزمرد مرورك بالشيء المألوف

واذا قلتُ ان هذه الحجارة الكريمة تحصى بالآلاف فانني وايم الحق لا أبالغ . فلا يكاد الانسان يصدق ما يقال عنها حتى يراها بعينيه

ومن الآثار التي في الخزينة ديوان تركي الصنعة مصفح بالذهب ومرصع بالحجارة الكريمة تتدلى من فوقه زمردة كبيرة . وثمة الزرد الذي ارتداه السلطان مراد الرابع يوم افتتح بغداد سنة ١٦٣٨ ب . م . وثمة كأس ذهب كبيرة مرصعة بنحو الفي حجر من الماس المسطح . وكأس أخرى منزلة بالفضة على الطريقة العربية تحمل اسم قايتباي من سلاطين المماليك (١٤٨٦ — ١٤٩٦) بمصر . ومجموعات نادرة من النقود الرومانية والبزنطية والعربية والتركية . وملابس السلاطين والامراء الرسمية وأدوات زينتهم

وفي ناحية اخري من «السراي القديمة» بناء صغير أنيق يدعى كشك بغداد بناهُ السلطان مراد الرابع فاتح بغداد على مثال كشك في تلك المدينة وجدرانه مغطاة من الداخل والخارج بألواح القاشاني الازرق وهو من اندر أنواع القاشاني واغلاها ثمناً

اما المتحف الوطني فيحتوي على امثلة نادرة من الآثار القديمة . تجول في ردهاته يستوقفك هنا تمثال « الضاحك الباكي » وهو تمثال فتى روماني اذا نظرت اليهِ من اليسار

الفيته كئيباً حزيناً واذ نظرت اليهِ من اليمين رأيت ثغره يفترُّ عن بسمة لطيفة . وهناك قطعة من الحجر تعرف بشاهد بيت المقدس وجدت سنة ١٨٧١ على مقربة من جامع الصخرة وعليها كتابة يونانية . وفي غرفة اخرى اسطوانة عليها كتابة تصف حصار بيت المقدس على يد سنحاريب الملك الاشوري وقد وجدت هذه الاسطوانة في نينوى ، ونقلت الى المتحف البريطاني ثم اهدتها الملكة فكتوريا الى متحف استانبول

وكان مرشدنا داهية ، عالماً باسرار النفس ، فانهُ بعد ما سار بنا من حجرة الى حجرة ، ومن ردهة الى ردهة ، وهو يصف هذا الاثر ويبين لنا محاسن ذلك التمثال ، اذا بهِ هبط بنا الى جناح خاص من الدور الارضي ، وقد بدأنا نملُّ لكثرة ما رأينا ، ودخل بنا غرفة ، وقفنا أمامها فيها مشدوهين . وجلسنا على المقاعد الوثيرة التي وجدناها هناك نحدق في ما أمامنا ولا نشبع تحديقاً

هنا نواويس عثر عليها في صيداءَ ، منقوشة في الرخام الازهر ، وهي سليمة تكاد تحسبها خارجة من يد الصانع بالامس او كما قال شوقي

ونقـوش كأنما نفض الـصانع منها اليدين بالامس نفضا

وأهم هذه النواويس ناووسان : ناووس النادبات في قطعة فردة من الرخام وجدرانه الاربعة مقسمة الى ١٨ لوحة على كل لوحة منها تمثال امرأة في موقف من مواقف الحزن والتفجع ، يختلف عن موقف جارتها وجارة جارتها والتمثال منقوش نقشاً بارزاً وعلى الافريز مشهد صيد وعلى حافة الغطاء مشهد جنازة . والمرجح انهُ صنع لستراتون ملك صيداءَ (نحو ٣٨٠ ق . م)

واجمل منهُ الناووس المنسوب الى اسكندر المكدوني . ويرجح البعض انهُ صنع ليدفن فيهِ ولكن يرسي جاردنر العالم الاثري يرى غير ذلك ، مع ان نقوشه تمثل معارك الاسكندر . فعلى احد جوانب الناووس ترى الى اليسار الاسكندر راكباً طاعناً فارساً فارسيًّا وفي وسطهِ قائد وجنود يونانيون ومكدونيون من المشاة يقاتلون جنود الفرس . وفي يمينهِ تمثال بارمنيو من قواد الاسكندر . وعلى الجانب المقابل صورة الاسكندر مع احد امراء الفرس في صيد الاسد . وعلى جانبي المقدمة والمؤخرة نقوش اخرى من هذا القبيل فنقوش الواحدة تمثل معركة ونقوش الاخرى مشهد قنص وصيد . والواقع ان النقش في هذا الناووس من أنفر وابدع ما رأيت فان نقوشه جمعت بين الحقيقة والخيال والذوق المبدع ، جمعاً لا تفوقها فيه نقوش اخرى على ما اعلم . وصور الاسكندر أدق صور عرفت لهُ حتى الآن . في هذه النقوش من دقة القياس وسهولة التمثيل ومهارة الدلالة ، ما يذهل البصر ويبهج النفس ، بل ان في الوجوه من المعاني التي تساور النفس في ساحات القتال وميادين الصيد ، مما يدل على ان ناقشهِ كان عالماً نفسيًّا علاوة على كونهِ مثَّالاً بارعاً . وانهُ ليسوءنا ان ناقش الناووس لا يزال مجهول الاسم ولكن يرجح ان عهده يرجع الى منتصف القرن الاول قبل الهجرة

— ٣ —

ليس في الاسفار ما هو اوقع في النفس من ان تزور المدن القديمة المتصلة باقدم حوادث التاريخ وامجاده فتشاهد آثارها واطلالها مستعرضاً صفحات من تاريخها المجيد الحافل بذكريات الحرب والفن ، والحضارة ما زالت في مهدها ، ثم تلتفت يمنة ويسرة فترى اهل تلك المدن يستوحون هذه المنشآت لكي تكون امجادها حافزاً لهم في بناء مجد جديد على اطلال المجد القديم

ففي بورسه تجد آثاراً ترتدُّ في التاريخ الى عهد هنيبال . وحمامات تستعيد لك عهد طريانوس واباطرة الرومان . وجوامع تشهد فيها صفحة من امجد الصفحات في تاريخ الفن التركي والعمارة الاسلامية . وفي يالوفا مياه حارة عرف الاقدمون كيف يستفيدون بها يقال ان حماماتها بنيت في حكم قسطنطين الكبير وزهت في ايام يوستنيانوس وزوجه تيودورا . وفي ازمير او على مقربة منها جدول يقال انهُ نهر ميليس الذي ولد هوميروس على ضفاته واسوار ومقابر ترجع بها الى عهد استعمار الاغريقيين في فجر حضارتهم المجيدة

ولكنك الى جنب هذا كله ترى في ازمير مدرسة للصناعات يتعلم فيها فتيان الترك مبادىء الحضارة الميكانيكية وأساليبها . هنا يصنعون اجزاء الادوات الميكانيكية المختلفة في ورشها ويبنون المولدات الكهربائية — نعم هم يبنونها اي انهم يصنعون كل جزء من اجزائها ولا يكتفون باستحضار الاجزاء وتركيبها . وترى فيها داراً للمعلمين فيها ردهة بديعة لالقاء المحاضرات وحُجَر للتدريس حسنة التهوية تكثر فيها الخارطات والصور ووسائل التجربة والامتحان لان الطابع التجريبي العملي هو الطابع الغالب على التعليم في تركيا الجديدة . وفيها كذلك مكتبة ليست بالغنية ولكن فيها مئات من المجلدات التركية المطبوعة بالحروف اللاتينية في مختلف العلوم والفنون تنبيء بالجهد العظيم الذي بذل من سنة ١٩٢٨ الى الآن في وضع المؤلفات بالحروف الجديدة وطبعها . وفيها كذلك تمثال فخم للغازي في اكبر ميادينها تراه ممتطياً جواده ومشيراً بيده الى البحر . وعلى القاعدة نقش بارز في البرونز يمثل مشاهد القتال في حرب الاستقلال وفي مقدمتها فتاة بالسراويلات التركية القديمة يقدح الشرر من عينيها وفي يدها علم يخفق . وعلى هذه القاعدة نقش كذلك الامر الذي اصدره الغازي الى جنوده في ٢٦ اغسطس سنة ١٩٢٢ يوم بدأ الزحف على الجيش اليوناني قال : امامكم البحر المتوسط ! وقد فسر لنا والي ازمير كاظم باشا هذا الامر ، فقال ان المقصود بهِ لا ينحصر في طرد اليونان من آسيا الصغرى الى البحر ، بل يتعداه الى ان لتركيا في البحر المتوسط مكانة يجب ان تحتلها . وفي ازمير كذلك رأينا اول دلائل النهضة النسوية في تركيا ، فقد استقبلنا على الباخرة وفدٌ فيهِ سيدة مهذبة ، ظنناها زوج رئيس البلدية ، الدكتور بهجت صالح ، ولكن لم نلبث اذ عرفنا انها مستشار في البلدية ، ولها شأن في لجنة حزب الأمة التي تتولى شؤون الثقافة العامة . وفي محكمة الجنايات رأينا

سيدة غضة الاهاب ، تتقلد منصب عضو اليسار ، وهي مع حداثة سنها وبهاء طلعتها ترى الكرامة والوقار في كل حركة من حركاتها ، وفي كل كلمة تفوه بها

وأزمير عاصمة ولاية «آيدن» وهي اكبر مدينة في آسيا الصغرى (بلغ سكانها في احصاء ١٩٢٧ نحو مائتي الف) ومن أهم مرافىء البلاد ، تصدر التين والتبغ والعنب الغض والمجفف والسجاد والحرير . وكان الحلفاء قد قطعوا هذه المنطقة لايطاليا ، في اتفاق سري لم يمض لاعتراض روسيا عليه فلما اجتمع مؤتمر الصلح في فرساي ، طلب فنزيلوس ان تمنح أزمير والمنطقة المجاورة لها لليونان . وكان الايطاليون قد خرجوا حردين من مؤتمر فرساي ، فاذن لليونان في احتلال المنطقة فنزل فيها الجيش اليوناني في ١٥ مايو سنة ١٩١٩

فلما وضعت معاهدة سيفر ، نُصَّ فيها على ان تظل مدينة ازمير والمنطقة التي تحيط بها في ادارة اليونان خمس سنوات ، أما باقي الحكاية فاشهر من ان يذكر . ذلك ان مصطفى كمال ، ما زال ينفخ في الشعب التركي من وطنيته وعزمه الصلب حتى طرد اليونان من آسيا الصغرى ، فلقيت ازمير في الحالين اهوال الحريق والعدوان والتدمير . ولكنك اليوم اذ تطلُّ عليها من البحر ، ترى المباني الجديدة تحييك وكأنها تقول لك ، ان الجروح القديمة قد اندملت وها نحن نقيم مدينة جديدة تتجلى فيها الروح التركية الجديدة . والواقع ان روح تركيا الجديدة ، أشد جلاء في ازمير ، منها في اية مدينة اخرى زرناها الا انقره . ولا غرو فواليها كاظم باشا من رفاق الغازي في الجهاد الوطني ، وهو رجل يأخذ بمجامع قلبك اذ ترى فوق وجه يفيض بنضارة الشباب ، تاجَ الشيب الوقور . ويؤيده في أعمال الاصلاح رئيس البلدية الدكتور بهجت صالح ، وهو شاب لا أظنه تخطى الخامسة والثلاثين يتقد نشاطاً وحماسة وقد سمعناه يخطب فسحرنا ، على جهلنا باللغة التركية ، بفصاحته وحسن ادائه

***

اما بورسة فعاصمة ولاية بورسة ، وهي واقعة على سفح سلسلة من الجبال تغطيها حراج السنديان والدلب والصنوبر ، أعلى قممها جبل يعرف باسم جبل أولمبوس الأسيوي وبالتركية « اولو داغ » أي الجبل الكبير وقد بني عند سفحه على ارتفاع ٢٠٥٠ متراً فندق حديث للاصطياف وليكون مثابة للذين يمارسون رياضة الشتاء على الثلج

وبورسة تبعد نحو ساعة عن البحر في سكة الحديد او السيارة ، ومرفأها قرية مودانية التي عقدت فيها الهدنة بين الاتراك والحلفاء بعد ما طرد الاتراك الجيش اليوناني من آسيا الصغرى . ويقال ان فرقة الفرسان التركية كانت قد تقدمت نحو صفوف الجيش البريطاني المرابط هناك للدفاع عن مناطق الحياد التي عينها الحلفاء على شاطىء الدردنيل فسحبت فرنسا وايطاليا جنودهما منها وبقي الجيش الانكليزي واقفاً بالمرصاد . وكان يكفي ان تطلق رصاصة

واحدة من احد الجانبين لكي يشتبك الفريقان . ولكن الجنرال هرنجتن القائد الانكليزي أبدى من الحكمة والحزم والرغبة الاكيدة في الصلح ما مكنهُ من اجتناب الاشتباك مع الاتراك ، فلما تأكد الحلفاء أن نصر الاتراك في آسيا الصغرى قد تمَّ ، دعيت حكومة انقرة الى مؤتمر لعقد الصلح على اساس استرداد تركيا لسيادتها التامة وتعهدها بأن تحافظ في خلال المفاوضات على حرمة مناطق الحياد حول الدردنيل والبوسفور

وقد دلونا على البيت الذي عقدت فيه هدنة مودانية . فاذا به صغير لا يمتاز بشيء خاص من حيث المنظر الخارجي ولكن لا بدَّ ان يبقى علماً تاريخياً، لانه يرمز الى اليوم الذي اعترف فيه الحلفاء لتركيا الجديدة بمطالبها الوطنية ، وقد انتزعتها انتزاعاً بحد السيف

وبورسة مدينة قديمة لها مكانة كبيرة في تاريخ آل عثمان ولولا قربها الى البحر لكان الغازي اختارها عاصمة لتركيا الجديدة في بدء الحركة الوطنية في الغالب . تاريخ تأسيسها مجهول ولكن المؤرخ الروماني بلينيوس يشير الى ان هنيبال ، القائد القرطاجني العظيم أنشأها بعد خذلانه في معركة زاما بافريقية والتجائه الى ملك بروسياس في هذه المنطقة . وقد بلغت المدينة اوج عزها في عهد الامبراطور طريانوس الروماني ، وكان بلينيوس الصغير حاكماً لها وله رسائل بعث بها الى الامبراطور يشير فيها الى انشاء حمامات لان فيها ينابيع مياه حارة تفيد في معالجة بعض الامراض . ثم تقلبت عليها الدول والحكام الى ان حاصرها عثمان بن ارطغرل سنة ١٣٠٧ ب.م وبعد مادام الحصار عشر سنوات دخلها اورخان ابنه وأصبحت عاصمة للعثمانيين . وقد ادخل اليها اورخان صناعة القاشاني ونسج الحرير وبنى فيها مراد الأول قصراً فخماً وأنشأ حولها بايزيد الأول المعروف بيلديرم (الصاعقة) اسواراً لما ارتقى عرش آل عثمان سنة ١٣٨٩ ثم فتحها تيمور لنك بعد ما هزم بايزيد في معركة انقرة ونهب جوامعها ثم اشعل فيها النار . وظلت ككرة الصولجان بين ايدي الفاتحين والغزاة الى ان استقرَّ فيها ملك بني عثمان . وقد لجأ اليها الأمير عبد القادر الجزائري سنة ١٨٥٢ — ١٨٥٥ ثم احتلها ابراهيم باشا نجل عزيز مصر محمد علي باشا سنة ١٨٨٣ . ولكن الاحداث الطبيعية وما منيت به المدينة من نار ونهب محت معالمها القديمة في الغالب

وحول المدينة الآن مزارع توت يربى فيها دود الحرير ، ومصانع حديثة لحلّ الحرير ونسجه وقد زرنا احد هذه المعامل فاذا فيه نحو ٣٠٠ فتاة تحلُّ الحرير وتغزله وتنسجه بالآلات الحديثة قماشاً جيداً . وكان حول المدينة بطائح يزرع فيها الارز ، ولكنها جففت الآن فابيد داء الملاريا الذي كان فاشياً فيها

اما ينابيع المياه المعدنية فيها فغزيرة وهي على نوعين . مياه كبريتية ، ومياه حديدية ، وحرارتها في الغالب عند انبجاسها من الارض نحو ٤٤ درجة بميزان سنتغراد . وقد بني فيها

فندق على احدث طراز ردهاً وغرفاً وحمامات ، وشيد كذلك الى جانبه حمام فخم ، مرصوف من داخله بالرخام وفيه حوض متسع تظلله قبة كبيرة ، وقد قال لنا الذين يعرفون اكس ليبان انه شبيه بحمامها . وينتظر ان تفتح ابواب الفندق والحمام للزوار في السنة القادمة

اما الجامع الاخضر ، فمن ابدع ما تقع عليه عينك من آثار العمارة الاسلامية . بني في عهد محمد الاول (١٤١٣ — ١٤٢٢ ب . م .) ومع ما اصيب به من التلف بفعل الزلازل، لا يزال محرابه وما يحيط بالمحراب من القاشاني الاخضر ، آية من آيات الفن الجميل . ويقال انهُ كانت له منائر ، غشيت كذلك بهذا القاشاني البديع النادر ، ولكن الزلازل هدمتها. ويحيط بجدران الجامع من داخله ، منطقة عرضها نحو قدم ، على علو مترين او مترين ونصف متر ، كلها بالقاشاني وقد رسمت فيها آيات من القرآن الكريم بخط ثلث جميل ، وفي اعلى المنطقة كتابة بالحروف الكوفية ، تصعب قراءتها ، ولم نعلم هل هي نفس الآيات المكتوبة بالخط الثلث او آيات غيرها . وعلى مقربة من الجامع تربة محمد الاول باني الجامع الاخضر ، وتعرف بالتربة الخضراء ، لتغلب القاشاني الاخضر على نقوشها، وقد نزع معظم القاشاني الذي غطيت به الجدران من الخارج، اما القاشاني الذي يغطي الجدران من الداخل فمن النوع الممشّق وهو من اندر انواعها واثمنها . وفي نوافذ التربة بقايا من الزجاج الملون

***

سبقني مكاتب المقطم في استانبول الى وصف يالوفا ، وقد قابلته فيها يستشفي من اصابته بعرق النسا فألفيته يثني ولا يضن ، فأكتفي بأن اقول ان الحمامات التي ازدهرت في ايام قسطنطين ويوستنيانوس ثم طغت عليها الاجمة ، قد وجهت اليها عناية خاصة في هذا العهد (بدئت العناية بها سنة ١٩٢٩) فبنيت النزل والحمامات على احدث طراز مألوف في مدن الحمامات في اوربا ويتعهدها اطباء بارعون من الترك . وحرارة مياهها الكبريتية تبلغ ٦٦ درجة بميزان سنتغراد عند انبثاقها من الارض وللغازي فيها دار يؤمها في فصل الصيف احياناً وفيها كذلك دار لعصمت باشا . وقد حدثنا الدكتور سليمان عزمي عما خبره من فائدتها في سيدة كانت مصابة بالروماتزم ، فوصف لها الذهاب الى داكس بفرنسا ، فذهبت وعادت ولم تصب من العلاج هناك الا فائدة يسيرة . وفي السنة التالية ذهبت الى استانبول ، فحدثتها اصدقاتها اتفاقاً عن مياه يالوفا . فتعالجت بها ، ويشهد الدكتور عزمي — وهو الخبير الذي يزن الكلام بميزان الدرّ — انها اصابت في يالوفا من الفائدة ما لم تصبه في داكس وانها بعد علاج آخر في السنة التالية شفيت مما المّ بها

والمسافة من استانبول الى يالوفا تستغرق نحو ساعتين ونصف ساعة من السفر بحراً ونحو ثلث ساعة بالسيارة . والطريق اليها من الفرضة البحرية ممهّد مرصوف

وهي واقعة في وادٍ يرتفع نحو مائة متر او تزيد عن سطح البحر ، تحيط بها الجبال وقد كستها الحراج كساءً سندسياً يأخذ البصر ، ونسقت في جوانبها الحدائق ، وبنيت السلالم لكي يسهل على نُزّالها الصعود من الوادي الى قمة الاكمة التي بني عليها الفندق الكبير . وكان المنتظر ان نبيت فيها ليلتنا ، ولكن الفندق الكبير والنزل الاخرى كانت مزدحمة بالزوّار . فغادرناها بالسيارة الى بورسة

— ٤ —

شاهدنا في استانبول نصباً قائماً على ربوة تشرف على البوسفور يمثل نضال تركيا لاسترداد حريتها بزعامة رجل لعله في مقدمة زعماء الامم في هذا العصر او هو معهم في المقدمة . فعلى الجهة الواحدة ترى الغازي مرتدياً لباسه العسكري يقود اتباعه الى ساحة القتال . وعلى الجهة المقابلة الغازي كذلك والى يمينه عصمت باشا والى يساره فوزي باشا ومن ورائهم رجال الحركة الوطنية وكلهم بلباس السهرة الاوربي . هنا يلمع في عيني الغازي نور البهجة لان النصر قد تمّ وها هو يقدم لشعبه الحرية التي انتزعها لهم وبهم من براثن الاسد

ثم ان كل صورة تراها للغازي حتى طوابع البريد تراهُ فيها مرتدياً ثياب السهرة الاوربية في الغالب . ولو ان الزائر بقي في استانبول لاحسّ ان كلّ ما قيل وردد عن الانقلاب التركي انما يشير الى تغلب الازياء الاوربية على الازياء الشرقية القديمة ويقتصر عليها . فالرجال يلبسون القبعات والنساء يسرنَ سوافر في الشوارع . أكان من الضروري ان تثار حرب دامية ويقع انقلاب عظيم لتحقيق هذا ؟

والواقع انك اذا شئت ان تلمح طرفاً من تركيا الجديدة يجب ان تزور انقره العاصمة . ان مشهدها ابعث المشاهد على الاعجاب والدهشة . فهي تفسر لك كثيراً مما تراهُ من المتناقضات في حياة تركيا الجديدة . يصرّ الاتراك على ارتداء الملابس الاوربية ولكنهم ينقلون عاصمتهم من اوربا الى آسيا . لقد اخرجوا الارمن واليونان من كل نواحي الجمهورية الاّ استانبول . ومع توجسهم من الاجنبي الناشيء عن رغبتهم في استكمال عناصر استقلالهم التام في بدء الحركة الوطنية ، ترى المهندسين الالمان والنمسويين يشيّدون في انقره آخر طراز من «الفيلات» الاوربية

ولكن انقرة رمز للروح الجديدة . هي على ما قال احدهم في باريس جوّ تتنسمهُ . ففي عيون سكانها شباباً وكهولاً رجالاً ونساءً ترى ذلك الالق المنبيء عن يقظة الروح . وفي حديثهم تتبين ارادة الحياة حاسمة قاطعة كالسيف المصقول . هي رمز لتحرر تركيا من قيود الامتيازات ونفوذ الاجانب وربقة الاستعباد لرؤوس الاموال الاجنبية . هي رمز للجلاد بين الامة التركية المتجددة والطبيعة الجافية حيث اقيمت معالم المدينة الجديدة

تبدأ الرحلة الى انقره باجتياز مدخل البوسفور من جسر غلطة الى حيدر باشا بباخرة

من البواخر الكثيرة التي تنقل الناس بين استانبول وضواحيها الاسيوية في اشقودار وحيدر باشا وجزائر الامراء . وتنزل من السفينة فيستقبلك بناء محطة فخمة تخترقهُ فاذا انت امام ارصفة واسعة نظيفة وعلى الخط الحديدي قطار الحقت بهِ ثلاث مركبات نوم . كانت الساعة السادسة لما قام القطار من حيدر باشا مخترقاً سهول الاناضول الشرقي فاذا هي من اخصب البلدان التي رأيناها. حراج غضة وحدائق غناء تكثر فيها اشجار الاثمار وبيوت لا بأس بها في الغالب . ولكنك لست تجد بينها قصوراً ريفية كالتي تنتظر ان تراهُ في مثل هذا الريف الجميل

وسار بنا القطار يقطع السهول والجبال فتناولنا في عربة الاكل طعام العشاء وطعام الافطار ومررنا باسكي شهر التي كان لها شأن خطير في حرب الاستقلال في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . فلما اصبح الصباح كان القطار يجتاز نجداً علوهُ نحو الف متر عن سطح البحر تدل تربتهُ على انهُ شديد الخصب . ولكنهُ أجرد قاحل في الغالب لقلة اليد العاملة . ولكن الاستاذ رمزي كان يوجه انظارنا من حين الى حين الى الاشجار الكثيرة التي تغرس الآن باسم الغازي. والى المزارع المثالية التي تبنى لتكون بيوتها الصغيرة المهندمة النظيفة التي استوفيت فيها شروط المعيشة الصحية نماذج لفلاحي البلاد ينسجون عليها . فلما مررنا امام مزرعة الغازي وهي على خمسة كيلو مترات من انقره استرعى بصرنا منطقة واسعة من الارض خضراء اللون تغطي أكمة وسفحها والسهل الذي عند اقدامها . فقيل لنا ان هذه المنطقة كانت قفراً يباباً قبل بضع سنوات لا تزيد على العشر ولكنها اليوم تحوي عشرة ملايين شجرة ستة ملايين منها اشجار فاكهة واربعة ملايين اشجار زينة . والغازي شديد العناية بتشجير النجد المحيط بانقرة لان انقره في نظره وفي نظر الشبيبة التركية رمز الفوز في حرب الاستقلال بل هي رمز ايضاً كما قدمنا للفوز في الحرب التي تثيرها الامة التركية الآن على جفاء الطبيعة حول عاصمتها الجديدة

وانقرة منطقتان — القرية القديمة — وهي قائمة على اكمة صخرية ترتفع نحو ٥٠٠ قدم فوق النجد الذي يحيط بها، على الضفة اليسرى من نهر «انكوري سو» وهو احد روافد نهر سقاريا الشهير . وتبعد عن استانبول نحو ٥٧٠ كيلو متراً على خط السكة الحديدية . تتوج الاكمة قلعة قديمة ، ولكن القرية نفسها حقيرة كل الحقارة ، بيوت صغيرة متراكم بعضها فوق بعض مبنية بالطوب المجفف بالشمس ، وطرقات ضيقة مظلمة مرصوفة بالحجارة الكبيرة فيصعب المشي فيها ، بل ان اجتياز السيارات لها من العجائب . وتجد بين البيوت آثاراً قديمة بعضها فخم، لان انقرة تمتُّ الى الحضارات القديمة بصلة متينة. فقد كانت في عهد الرومان عاصمة لاحدى ولايات الامبراطورية الرومانية . وقد فتحها الفرس والعرب . ثم تعاقب عليها الترك السلاجقة فالصليبيون فالعثمانيون ومن أشهر الآثار الباقية فيها انقاض هيكل لاوغسطس

اما المدينة الجديدة فقائمة في النجد الذي تشرف عليهِ الاكمة والقلعة . وهو كالح جاف كان

فيه مستنقعات يكثر فيها بعوض الانوفيليس الناقل للملاريا وكان السكان مصابين بها، فأورثهم الضعف والسقم . ولكن المستنقع جفف ، والبعوض أبيد . وقد اكد لنا رجال الصحة، انك لن ترى بعوضة واحدة في دائرة تبعد عن انقرة عشرين كيلو متراً من كل ناحية. بل ان قطار استانبول لايلبث ان يصل الى محطة انقرة وينزل منه المسافرون حتى يصعد اليه رجال الصحة لتبخيره

ترى المدينة ممتدة أمامك من سفح الاكمة الى رحاب النجد ، كأنها بشوارعها الفسيحة وبيوتها النضرة صفوف جيش يغزو . وليس امامه الا الطبيعة الجافية يغزوها . وليس له الا سلاح الارادة الماضية والايمان بزعامة الغازي سلاح يغزوها به . وأي سلاح أقوى من هذا السلاح

فدورها العامة والخاصة ، مبنية على احدث طراز . حتى قال احد الكتّاب انه رأى في انقرة افضل امثلة على العمارة الاوربية الحديثة . فانك اذا اخذت أنخر احياء هليوبوليس وبسطته فوق متسع من الارض كانت لك صورة لانقرة عاصمة الجمهورية التركية

تخرج من المحطة في سيارات (تاكسي) كأنها لفخامتها ونظافتها سيارات خاصة فتجتاز شارعاً عريضاً ترى على يمينه فندقاً حديثاً فخماً ، هو فندق انقرة بالاس ، وفيه يقيم الغازي بعض الحفلات العامة خلال فصل الشتاء . وامام الفندق الى اليسار بناء مجلس الامة وامامه حديقة عامة غناء وامام الحديقة ميدان فسيح لعرض الجيش . ثم تجتاز الشوارع الأخرى : هنا بنك ايش وهو مبني بالحجر السماقي أسسه الغازي من نحو عشر سنوات وقد احتفل بانقضاء عشر سنوات عليه ونحن في انقرة يوم ٢٦ اغسطس . وهناك وزارة الصحة وهي بناء أنيق ووراءها مستشفى نموذجي وعلى مقربة منها دار الهلال الاحمر وهناك ثكنة الجيش ومقر أركان الحرب ومدرسة التجارة. ثم تصعد في شارع بديع الى الاكمة المناوحة لاكمة انقرة القديمة فتمر بسفارات الدول وبيوت الوزراء ، فاذا وصلت الى القمة فانت امام « تشان كايا » وهو مقر الغازي ومنه ادار حرب الاستقلال. هنا البناء القديم الذي كان يجلس فيها الغازي في الايام السود ، يدخن لفافة من التبغ اثر لفافة ، وانباء السوء في بعض الليالي تأتيه تترى ولكن نور الامل في نفسه لايخبو وإيمانه بقوة الامة التركية لايضعف وحد عزمه الماضي لاتفله الاحداث

لذلك اشار احد شعراء تركيا الشبان الى ذلك ، وقد مثل ظفر الأمة التركية كأنه المطمح الاعلى ، فقال : « ان الطريق الصاعد الى تشان كايا هو الطريق نحو السماء» . وعلى مقربة من البناء القديم اقيم بناء جديد للغازي بالحجر السماقي على طراز حديث يجمع بين البساطة وسلامة الذوق

أما منشآت انقرة الصحية والتهذيبية والاجتماعية فكثيرة، وبها يباهي الاتراك ويفاخرون .

في معهد عصمت وهو بناء فخم ، تجد خمسمائة فتاة تتعلمن فنون تفصيل الملابس وصنع القبعات والعناية بالاطفال ومبادىء التمريض واصول الطبخ وصنع الحلوى . زرناه فقابلتنا وكيلته ، وهي سيدة تركية بهية الطلعة ذكية الفؤاد شديدة الغيرة على عملها . فذهبت بنا من

قسم الى قسم وهي تشرح لنا ونحن نحس في بسمتها ونبرة كلامها معنى المباهاة بما يقوم به هذا المعهد وماله من أثر في تثقيف الفتاة التركية تثقيفاً يعدها للحياة العصرية الحافلة بالتبعات. والتعليم في هذا المعهد من دون لقاء. فلما سألناها كيف تختارين الطالبات قالت اننا لا نختار فكل فتاة تطلب الانضمام اليه تقبل فيه. فقلت واذا ضاق البناء عن الاتساع لهن جميعاً، فاشارت من الشرفة وفي اشارتها بلاغة وفخر، اننا نوسع البناء وها هو جناح جديد نبنيه

وثمة معهد آخر، يدعى معهد الغازي، وهو دار للمعلمين، شيدت على ربوة الى جنوب المدينة كاملة المعدات. غرفها واسعة حسنة التهوية كثيرة الضوء. جدرانها نظيفة وابوابها نظيفة وارضها نظيفة. دخلنا معامل الطبيعة والكيمياء فالفيناها جامعة لكل الادوات الحديثة التي لا بد منها في تعليم هذين العلمين. ولقينا استاذ الادب التركي فيه، فدلنا من شرفة المعهد، على جبل قال ان فيه مدفن امرؤ القيس، ولعله عسيب الذي اشار امرؤ القيس اليه في بيتيه المشهورين

اجارتنا ان الخطوب تنيب وإني مقيم ما أقام عسيب

اجارتنا انا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

وثمة معهد للموسيقى: والغازي شديد العناية بالفنون، لذلك بعث بطائفة من الشبان الى اوربا لدرس اصول الموسيقى حتى يعودوا الى بلادهم وينشئوا فيها بالاساليب الاوربية موسيقى مطبوعة بالطابع التركي. والتعليم بالمعهد مجاني كذلك ولكن الطلاب يجب ان يجوزوا امتحانات معينة لكي ينتخب منهم من فيه استعداد خاص للتفوق في الموسيقى

والمنشآت الصحية كالمستوصفات والمستشفيات وملاجىء الفقراء كثيرة. والعناية بها كبيرة وقد ندب لادارتها والعمل فيها طائفة من خيرة الاتراك رجالاً ونساء. هنا تجد من النساء المعلمة والمديرة والممرضة والطبيبة وطبيبة الاسنان. ولولا ضيق المقام لتوسعت في وصفها ولكنني سوف افرد لها وللتعليم فصلاً خاصاً

والاحساس الذي تخرج به من زيارة هذه المعاهد جميعاً هو ان الشعب التركي يشعر الآن ان له كياناً وان له تنشىء الحكومة ما تنشىء. حالة ان الشعب كان في العصور الساحقة كالمحو ازاء الحاكم الفرد. فتركيا رغم ما يعرف بالدكتاتورية فيها وعدم قيام حزب امام حزب الشعب سائرة في طريق الدمقراطية الصحيحة. ولكن هذا الطريق وعر وطويل ويحتاج الى عهد طويل من المرانة والتثقيف

اما مقام انقرة في حياة الجمهورية التركية فيلخص في قول النائب والكاتب البليغ روشان اشرف حيث يقول «لقد انفطرت نفسي اذ تركت استانبول ولكن الطريق الى انقرة كانت طريق الكرامة»

فؤاد صروف



كلف زحل

ظاهرة فلكية تهم علماء الهيئة

في اليوم الثالث من شهر اغسطس الماضي ظهرت على زحل كلفٌ ، كان للكشف عنها اثر في دوائر العلم . ولعلَّ جانباً كبيراً من العناية بها سببهُ ان ممثلاً هزليًّا مشهوراً — ول هاي — كان اول من كشف عنها . ولكننا اذا تجاوزنا عناية الصحف اليومية بهذه الكلف، الى اهتمام الاندية العلمية ، وجدنا ان ما يعرف عن زحل نزر يسير ، فكلُّ ظاهرة جديدة ، قد تكون سبيلاً الى توسيع معارف العلماء بهذا السيّار الفذّ ، فهي لذلك تستدعي انتباههم واهتمامهم. ولولا ظهور هذه الكلف على سطوح السيّارات ، لظلّت معرفة علماء الفلك بالاحوال الطبيعية عليها ، يسيرة وغامضة . فالكلف في نظر علماء الفلك اشبه شيء بالكلمات المطبوعة التي تحوّل صفحات النظام الشمسي الى كتابٍ مقروءٍ

ويطلق لفظ « كلفة » اطلاقاً عامًّا على ظاهرات طبيعية منوّعة، اذا راقبها الفلكي عرف هل هي صفة دائمة من صفات السيّار ، او هي ظاهرة تبدو ثم تختفي . فالبقع التي تبدو على سطح المريخ صفات دائمة من صفات سطحهِ ، يراها الراصد كلّ يوم في نفس المكان ، وبها يستطيع ان يقيس طول اليوم على سطح المريخ ، قياساً دقيقاً . اما الكلف التي تظهر على وجه الشمس فتلبث حيناً من الزمن ثم تزول وبها يستدلُّ الراصد على ان الشمس جسم غازيٌّ وان سرعة دورانها على محورها اكبر عند محيطها الاستوائي منها عند القطبين. اما المشتري وهو اضخم السيارات فكلفهُ ليست دائمة وتختلف حجماً وشكلاً . والراجح انها ليست على سطح المشتري بل في جوّهِ . وقد دلّت الارصاد الدقيقة ، ان المشتري كالشمس تختلف سرعة دورانه عند محيطهِ الاستوائي عنها عند قطبيهِ وهذا يشير الى ان السيار ليس كتلة جامدة في الغالب. ثم ان الاضطراب في حركة بعض الكلف يدلُّ على حدوث تيارات عنيفة في جوّ الجرم الذي تظهر الكلف عليهِ

ولا يخفى ان الحلقات التي تحيط بالسيار زحل تجعله فذًّا بين السيارات ، بل بين الاجرام التي كشفت عنها المراصد لعين الانسان . ولكنها لغرابتها قد تستدعي عناية الباحث فيصرف نظره بعض الشيء عن جرم السيار نفسهِ. والواقع ان جرم زحل لم ينل من العلماء ما هو جدير بهِ من العناية . فكرة زحل تشبه المشتري شبهاً عامًّا، ولكنها اصغر منهُ فعلاً ، ثم ان بعدها العظيم يجعلها اقلّ وضوحاً في عيون مراصدنا . والكرة كثيرة التسطيح عند قطبيها وهذا يدلُّ على ان دورانها على محورها سريع جدًّا . ثم انك تجد على سطحها . كما تجد على سطح

المشتري : مناطق متتالية قاتمة وباهرة ، موازية لخط استوائه . اما سطح الكرة فعاكس قوي للضوء ، بل ان بعض مناطقه ابيض كالثلج او يكاد يكون كذلك . فهذه الظاهرات اذا اضيفت الى مشهده في التلسكوب ، تحمل العلماء على القول بأن كرة زحل يحيط بها جو قاتم . واذاً فلا يستطيع الباحث ان يتوصل الى كشف كل ما يريد ان يكشفه من حالة سطح زحل ، بالرصد المباشر . لان الجو الغائم يحول بين السطح والراصد ، فيكتفي بالوقوف على ما يقع في سطح الجو من الحوادث . فالمشتري اقرب الينا من زحل . واكبر حجماً . لذلك يستطيع الراصد ان يتبين بالتلسكوب وغيره حركة الرياح والتيارات على سطحه ، ولكن مثل هذه الارصاد على سطح زحل ليس بالامر اليسير

ويحدث في فترات متباعدة ان تظهر بقع او كلف في اماكن متباينة على سطح زحل . فاذا حدث ذلك عني الفلكيون بتعيين الوقت الذي تمرّ فيه الكلفة امام خط معين في التلسكوب . وكل رصد من هذا القبيل معرّض لخطإ بسيط يزال بتعديد الارصاد وأخذ متوسط الوقت الذي تقتضيه البعثة بين مرور ومرور — اي مدة دوران كتلة زحل على محورها . ولو كانت البقع باقية في مكانها ، لكان ضبط دوران زحل ميسوراً . ولكن هذا لا يمكن ان يقع لان البقع على ما قلنا ظاهرات في جو زحل لا غير . والظاهرات في الجو لا تقيم طويلاً . وقد دلت الارصاد التي تمّت في خلال المائة والاربعين السنة الماضية ان سرعة دوران زحل عند خط الاستواء تبلغ عشر ساعات وربع ساعة وان السرعة ابطأ قليلاً عند خط العرض ٣٦ْ اذ تبلغ عشر ساعات و ٤٠ دقيقة . يقابل ذلك على سطح المشتري ٩ ساعات وخمسون دقيقة عند خط الاستواء وعشر ساعات عند خط العرض المقابل لخط ٣٦ على زحل . فالفرق بين السرعتين على زحل ٢٥ دقيقة ولكنه على سطح المشتري عشر دقائق فقط . واذاً فالبواعث على حركات الرياح وتياراتها على زحل اعظم منها على المشتري

***

لم تظهر كلفة على سطح زحل منذ ما ظهرت كلفة عند خط العرض ٣٦ْ سنة ١٩٠٣ اما الكلفة التي كشفها المستر ول هاي في ٣ اغسطس الماضي فواقعة على خط الاستواء . وآخر مرة ظهرت بقعة او علامة ما على خط الاستواء كانت سنة ١٨٧٦ فاستنتج منها ان مدة دوران السيار على محوره تبلغ عند خط الاستواء ١٠ ساعات و ١٤ دقيقة و ٢٤ ثانية . ولسنا نعلم ما السرعة التي يفضي اليها رصد البقعة التي ظهرت حديثاً . ولكن الارصاد التي تمّت حتى الآن تنبيء بأن مدة الدوران عند خط الاستواء قد تكون نحو ١٠ ساعات و ١٥ او ١٦ دقيقة اي انها اطول من المدة التي عينت سنة ١٨٧٦ بنحو دقيقة الى دقيقتين . ومما يؤسف له ان الكلفة لم تحتفظ بشكلها ، فقد استطالت منذ كشفت الى الآن ، وهذا يجعل ضبط الارصاد متعذراً

باب الزراعة والاقتصاد

تجربة اجتماعية خطيرة

تجمع بين النزعتين : الفردية والسيطرة العامة

لانعاش الحياة الاقتصادية الاميركية

يرتاب بعض المفكرين في نجاح المشروع الذي وضعه الرئيس روزفلت واعوانه لانعاش الصناعة الاميركية. ولكن ليس يرتاب احد في انتعاش الروح الاميركية. هذا الانتعاش هو اعظم المآثر التي تذكر بها حكومة روزفلت في الثمن الاول من حياتها . من المتعذر قياس الانتعاش الروحي ، فهو لا يوزن ولا يقاس، لكن لا يسع احداً انكاره. ان الذين يذكرون سمة القنوط واليأس تعلو وجوه الناس في آخر عهد هوفر، وينظر الى الوجوه نفسها الآن مشرقة بنور الامل والثقة بالنفس، يعرف اي انقلاب احدثه روزفلت في الامة الاميركية. في امكان معارضيه ان يأتوا بالاحصاءات التي تثبت ان الخطط التي اتخذها لم تحقق كل ما علق بها من الامال. ولكن ليس في امكان الرياضي ان يقدر الروح الجديدة التي نفخها في الامة الاميركية . انه يتغلب على المصاعب بعزم صلب ، ويفوز بتأييد الجمهور بزعامة قوامها الاقدام والاخلاص والذهن المستنير والبسمة الاخاذة. والشعب الاميركي من ورائه يؤيده في مشروعاته فقد روى لنا صديق قادم حديثاً من اميركا ان الاميركيين لا يريدون ان يسمعوا كلمة الخيبة . ويقال ان اميركاً قال لروزفلت اذا نجحت فأنت اعظم رئيس انجبته هذه البلاد واذ اخفقت فأنت اقلهم شأناً فرد الرئيس عليه «بل اذا أخفقت كنت آخر الرؤساء» وفي ذلك اشارة الى ما قد تصير اليه شؤون تلك البلاد اذا اخفقت مشروعاته العظيمة

كان اليوم (٤ مارس ١٩٣٣) الذي تقلد فيه المستر فرنكلن روزفلت منصب الرآسة الاميركية يوماً جاهماً عصيباً . واجهت فيه البلاد الاميركية ازمة خطيرة في منشآتها المالية . فتذرع الرئيس بالشجاعة والحزم وعالج الحالة الطارئة حتى سكنت العاصفة واطمأنت النفوس قليلاً ، فاقبل على اصل الشر يعالجهُ وفقاً لمبادىء الحزب الذي رشحهُ وايدهُ في الانتخاب ، ومجاراة لآراء مستشاريه من علماء الاقتصاد ورجال السياسة والمال . ولو انهُ سأل اقتصاديي المدرسة الحرّة رأيهم في الامر لقالوا له : — « لننتظر فعل الطبيعة وتحسن الاحوال وانقضاء الازمة وعودة حياة الصناعة والتجارة الى مجاريها » ولكن هذا الرأي ليس رأي روزفلت ، ولا رأي الاساتذة الذين يعاونونهُ . قال احدهم « الانتظار » وهزّ كتفيه . ثم اضاف : « اننا لا نستطيع ان ننتظر . فقد يبلغ عدد العمال العاطلين قبل تحسن الاحوال مبلغاً لا تفلح معهُ اية محاولة ثم انهُ ليس من الثابت انهُ اذا تحسنت الاحوال تمكنت الصناعات من تشغيل كل العمال العاطلين » .

وسواء أأخطأوا ام اصابوا في تفكيرهم هذا فهم يرون انهُ لا بدَّ من العمل . وقد اقدموا عليهِ

وغرضهم تنظيم الصناعة واعانة الفلاّح والشروع في اعمال عامة واسعة النطاق كتشجير الجبال وبناء المباني والطرق وما اشبه ذلك

وقد منح الكنغرس الاميركيّ ، المستر روزفلت في خلال الشهور التي تلت ذلك اليوم التاريخيّ ، سلطة واسعة النطاق ، يقال انهُ قلما منح مثلها رئيس اميركي ، بموجب قوانين خاصة اقرّها رجاله اولها خاصٌ بموازنة الميزانية وخفض اموال معاشات الحرب ، وثانيها بمعالجة الحالة الزراعية ، وثالثها باعباء الديون الاصلية وابتداع الوسائل لتخفيفها عن كواهل الفلاحين وصغار الملاّك وبوجهٍ خاص ملاّك البيوت والدور الصغيرة ورابعها يمنح الرئيس الحق في نقص مقدار الذهب في الريال الاميركي ، اذا رأى ان ذلك لازم لرفع الاسعار بنقص قيمة النقد ، وخامسها وهو قفل العَقْد وواسطة العِقْد ، هو مشروع الانعاش الصناعي ، والغرض منهُ ايجاد عمل للعاطلين من العمال وتنبيه الاعمال والاشغال بوجهٍ عام

كان خروج الولايات المتحدة الاميركية من قاعدة الذهب ، حدثاً ذا شأن في تنبيه الكيان الاقتصادي الاميركي لرفع اسعار العروض في اميركا . فهبوط قيمة الدولار بالمقابلة مع الجنيه مثلاً ، يعني زيادة قيمة الجنيه بالمقابلة مع الدولار . فالجنيه على ذلك اقدر على شراء البضائع الاميركية . وهذا يشجع الانكليز ، ومن يجري مجراهم من ناحية العملة والنقد ، على زيادة ما يطلبونهُ ويبتاعونهُ من العروض والمصنوعات الاميركية. فهذا يدفع باسعار البضائع الاميركية الصادرة منها الى الارتفاع . ثم ان البضائع التي تستوردها اميركا من الخارج تميل الى الارتفاع كذلك ، فالمستورد الاميركي للبضائع الانكليزية مثلاً ، يميل الى رفع اسعارهِ ، لانهُ يعلم انهُ سوف يقبض من زُبنهِ الاميركيين دولارات ناقصة القيمة

فالخروج عن قاعدة الذهب في اميركا ، يميل بالاسعار الى الارتفاع بوجه عام

ولكن القارىء يسأل عما يحدث للبضائع التي تصنع وتباع في اميركا نفسها . ان هذه لا تتأثر بسعر الكمبيو وعلاقة الدولار بالجنيه . والواقع انهُ اذا ظلَّ الكساد سائداً السوق الاميركية أثّر هذا الكساد في ارتفاع اسعار البضائع الصادرة والواردة رغم خفض سعر الدولار كما قدمنا . وتأييداً لذلك نذكر ان انكلترا خرجت عن قاعدة الذهب في سبتمبر سنة ١٩٣١ ، فارتفعت الاسعار نحو ٦ في المائة في بضعة الشهور الاولى التي تلت الخروج عن قاعدة الذهب. ولكن عادت الاسعار فسقطت بمقدار ما ارتفعت ، لان الحالة العامة لم تتحسن حينئذٍ

فكل ما يستطيعهُ خفض سير العملة هو رفع الاسعار في ناحية واحدة من نواحي الحياة الاقتصادية الواسعة النطاق . ولكن الارتفاع العام في اسعار العروض يتوقف على عوامل متعددة. والغرض من مشروعي رفع اسعار المحصولات الزراعية والانعاش الصناعي هو جمع هذه العوامل الباعثة على رفع الاسعار بوجه عام. اما في المشروع الاول — اي الزراعي — فقد توسلت

الحكومة الى رفع اسعار الحاصلات الزراعية بتقييد المساحات المزروعة ، وفرض ضريبة على صناعات الاطعمة وهذه الضريبة ينتظر ان تزيد اسعار الاطعمة للمستهلك ، فترتفع اسعار الحاصلات الزراعية بوجه عام

اما مشروع الانعاش الصناعي Industrial Recovery Act فالغرض منهُ رفع الاسعار بازالة الوسائل التي تتوسل بها البيوتات الصناعية للمنافسة الحادة فيما بينها ، وبزيادة العمال العاملين ، وتوسيع نطاق المقدرة على الشراء في كتلة الشعب. اما زيادة العمال العاملين فينتظر ان تتم (اولاً) بواسطة مشروعات واسعة للاعمال العامة — الطرق والمباني والاسطول — رصد لها مبلغ ٣٣٠٠ مليون ريال و (ثانياً) بحمل أصحاب الصناعات الكبرى على وضع أنظمة للمنافسة العادلة وتنسيق برامج الانتاج فيها ، حتى لا يزيد الانتاج على الطلب

فاذا أزيلت الوسائل التي تتوسل بها الدور الصناعية للمنافسة الحادة في خفض الاسعار وقضاء كل مصنع على مصنع يزاحمه ، تمكنت دور الصناعة والبيوتات التجارية من تحديد أدنى الاسعار التي يمكن أن تباع بها العروض من دون أن تخشى سقوطها الى ما هو دون ذلك الحد . وهذا ينشيء بدوره ثقة أو هو يجددها، ويشجع أصحاب الصناعات على التوسع في أعمالهم

ولكن هذا وحده لا يكفي. لانه اذا اتفق أصحاب الصناعات على دستور للمنافسة العادلة، ووضعوا الحد الادنى لاسعار العروض ، وتجددت الثقة التجارية ، لم يستطيعوا أن يمضوا طويلاً في هذا الميدان إلاَّ إذا رأوا إقبالاً من ناحية الجمهور على شراء ما ينتجون

وهذا الاقبال مرهون بتشغيل العمال العاطلين عن العمل حتى تتداول أيديهم النقود فيبتاعوا ما يحتاجون اليه . فمشروع الاشغال العامة الذي رصد له نحو ٣٣٠٠ مليون ريال ، جزء متمم لمشروع تنظيم الصناعة . والدلائل تدل على ان هذا الانتعاش سائر في طريقه الطبيعي ، فالعمال الذين تحولوا من البطالة الى العمل ، في بضعة الاشهر الاخيرة يزيدون على مليوني عامل ، وأجور العمال آخذة في الارتفاع وكذلك ما تخرجهُ المصانع من البضائع آخذة في الزيادة شهراً إثر شهر

خذ مثلاً صناعة المنسوجات القطنية وما يتصل بها . فقد وضع لها دستور وافق عليهِ اكثر أصحاب هذه الصناعة ومندوبو هيئات العمَّال ، وبمقتضاهُ عين الأجر الأدنى للعامل ١٢ ريالاً في الاسبوع في الولايات الجنوبية و ١٣ ريالاً في الأسبوع في الولايات الشمالية ، وجعلت ساعات العمل ٤٠ ساعة في الاسبوع وحظر تشغيل الاحداث الذين دون السادسة عشرة من العمر

وقد تعاون مندوبو أصحاب الصناعات ومندوبو هيئات العمَّال ، مع الجنرال هيوجنسن مدير مشروع انعاش الصناعة على وضع هذا الدستور . وكان مندوبو العمال قد طلبوا ان يكون الاجر الادنى ١٤ ريالاً في الجنوب و ١٦ ريالاً في الشمال وان تكون ساعات العمل ٣٠ ساعة في الاسبوع ، وان يحظر تشغيل الاحداث الذين دون السادسة عشرة من العمر

فانت ترى ان الدستور الذي تمَّ الاتفاق عليهِ هو نتيجة مساومة . تنازل فيهِ العمال عن بعض مطالبهم لبلوغ الاتفاق المنشود بينهم وبين أصحاب الصناعة وممثلي الحكومة . ولعلَّ أصحاب الصناعات تنازلوا كذلك قليلاً عن مطالبهم بغية الاتفاق لأن المعروف ان اجور عمال المنسوجات كانت ادنى من الاجور التي عيّنت في الدستور الجديد

وقد يقال ان جعل مقدار الاجر الاسبوعي الادنى ١٢ ريالاً أو ١٣ ريالاً ليس بالعمل الذي يبهج قلوب العمال . والواقع انهُ ليس شيئاً يذكر اذا قيس بالاجور التي كان يدفعها فورد حتى بضع سنوات خلت — وكانت ٦ ريالات في اليوم للعامل وهو يدفع الآن نحو ٤ ريالات في اليوم للعامل الواحد — ولكن يجب ان نتذكر ، ان البلاد ما تزال تعاني ازمة عصيبة في صناعتها وزراعتها ومنشآتها المالية ، وان هذا هو الحد الأدنى للأجور ، وان متوسطها لا بدَّ ان يكون فوق هذا المستوى . وان الدستور الجديد اذا تمَّ تنفيذهُ فسح المجال لنحو نصف مليون من العمال العاطلين في هذه الصناعة . وما تمَّ في صناعة المنسوجات القطنية تمَّ في صناعة الحديد والصلب ، وصناعة المنسوجات الصوفية وغيرها

هذا من ناحية الصناعة . اما من ناحية الحكومة فقد رصدت مائة مليون جنيه لتوزعها الحكومة في وشنطن على حكومات الولايات . ثم انهُ وضعت خطة لارسال ٢٧٥ الف شاب الى الحراج وهم منظمون تنظيم الجند ، يتلقى كلٌّ منهم ريالاً في اليوم ويمنح السكن والغذاء مجاناً وعليهِ ان يبعث بثلثي مرتبهِ الى اهله . وغرضهم شق طرق واسعة في الحراج لتمكن رجال مكافحة الحرائق فيها من التغلب عليها لأن خسارة اميركا السنوية من هذه الحرائق جسيمة جداً . ثم ان عليهم ان يغرسوا ملايين من فسائل الاشجار في الوهاد والبطائح والجبال الجرد . ثم عليهم ان يبنوا السدود لمنع حدوث الفيضانات التي تخسر بها اميركا كلَّ سنة خسائر فادحة

وكذلك يلتقي الجهدان ، جهد الصناعة الذي يقصد بهِ رفع الاسعار وتشغيل جانبٍ من العمال العاطلين ، وجهد الحكومة والغرض منهُ زيادة مقدرة الشعب على الشراء والاَّ باءت الصناعات بالخسائر الفادحة

هذا من ناحية النظر الداخلية . فهل انصباب جهد الاميركيين على انعاش الصناعة والتجارة داخل البلاد يتعارض والنزعة الدولية . ان النظرة العجلى تسفر عن القول ان الانعاش الداخلي يتعارض فعلاً مع التعاون الدولي لانهُ اذا افلح المشروع وزادت اجور العمال ونفقات الانتاج وارتفعت اسعار البضائع اضطرت اميركا الى زيادة تعريفتها الجمركية لكي تمنع البضائع الاوربية مثلاً من منافسة البضائع الاميركية في اميركا ، لان الاولى ارخص من الثانية . فاذا رفعت التعريفة الجمركية افضى ذلك من الناحية الاقتصادية الى انكماش تجارة اميركا الخارجية ومن الناحية النفسية الى رد فعلٍ عنيف تتبعهُ رغبة في اخذ الثأر من اميركا فترفع التعريفات

الجمركية الاوربية وزيادة الحوائل التي تعوق التبادل التجاري العالمي ، وكل ذلك قاض على نزعة التعاون الدولي . ولكن إذا دققنا النظر وجدنا ان هذا إذا وقع ، يكون ذا أثر سيء في انتعاش أميركا نفسها . لانه اذا تقلص مقدار التجارة الاميركية الخارجية ، ارتدت البضائع المصنوعة بقصد التصدير ، الى السوق الاميركية فتغرقها ، وتنزع بالاسعار الى الهبوط فهي إذاً تتعارض مع الغرض الذي من أجله أنشيء مشروع الانعاش . وهذا يصح بوجه خاص على صادرات التبغ والقمح والقطن وهي التي تعتمد الى حد بعيد على تجارة الصادر فاذا نقص ما تصدره ، انشلت هي بدورها ، من حيث مقدرتها على الشراء ، وكذلك يسري الداء من ناحية في كيان اميركا الاقتصادي الى ناحية أخرى

فيتحتم على أميركا ، لكي تفلح في تحقيق أغراض المشروع ، ان ترقب بعين حذرة سير الاسعار في البلدان الاخرى وان لا تسمح لاسعار عروضها بالارتفاع ارتفاعاً كبيراً عن مستوى الاسعار في البلدان الاخرى وعند ذلك لا يلزم قط ، أن ترتفع التعريفة الجمركية لصد العروض الاوربية الرخيصة ، ويزول المحذور ، الذي أشرنا اليه قبلاً

بل ان هنالك ما يدل على ان انتعاش اميركا ، يسير كما سار الانهيار فيها من دولة الى دولة حتى يعم العالم . وإحصاءات المرافيء الاميركية في العهد الاخير ، تدل على أن ما استوردته أميركا من البضائع — وهي خام في الغالب — زاد زيادة تذكر في الاسابيع الاخيرة

فاذا مضى مشروع الانعاش الاميركي في سبيله ، متدرجاً في رفع الاسعار رويداً رويداً ، فالراجح أن النزعة القومية الاقتصادية في اميركا لن تتعارض مع التعاون الدولي

والخلاصة التي نخرج بها من هذه التجربة ان الأمة الأميركية تتجه الى نظام اجتماعي جديد ، ليس هو بالفاشستية ولا بالاشتراكية ، وانما هو يستمد من النظامين أهم مبادئهما . فقد كانت اميركا الى عهد قريب تؤمن بمبدإ الفردية الخشنة Rugged Individualism كما دعاه الرئيس هوفر وبفلسفة الاقتصاديين الاحرار القائمة على ترك الامور تسير في اعنتها Laissez-Faire فكان أصحاب الصناعات احراراً في استنباط ثروة البلاد وتثمير مواردها ، والتعاقد مع العمال تعاقداً تغلب عليه صفة السيطرة الرأسمالية ، ويستعملون في منافسة بعضهم بعضاً أساليب تعود على المنافِس والمنافَس والعمال والمجتمع بوجه عام بالخسارة والاضطراب . وقد افلس النظام القائم على هذا الاساس ، لتبدُّل الاحوال ، ونشوء نزعة التماسك بين العمال — ومن ينكر عليهم حقوقهم الانسانية — واتساع نطاق الصناعة وزيادة المنتج المتكدّس ولسوء توزيع الثروة

لذلك اقدم روزفلت ورجالهُ على محاولة تنظيم الجهد الاقتصادي ، حتى يكون تنظيماً لا نشوز فيهِ ولا تنافر . وطريقتهم في ذلك بدعة تحتفظ بمزايا مبدإ الفردية ، ولكنها تحقق نوعاً من السيطرة الحكومية تجعل الكيان الاقتصادي متناسق الاجزاء



تلخيص كتاب المقولات لابن رشد

(المطبعة الكاثوليكية ببيروت)

عوّدنا الاب (بويج) ان يبرز مصنفات فلاسفة العرب ابرازاً لا غبار عليه . وها هو يذيع فينا «تلخيص كتاب المقولات» . وليس هذا الكتاب الاّ شرحاً لمصنف ارسطو الموسوم بكتاب المقولات المنقول الى العربية بقلم اسحق بن حنين . ولقد راج ذلك التلخيص في العصور الوسطى ونقل الى اللاطينية ثم طبع بها غير مرة في القرن الخامس عشر والسادس عشر

على انهُ قد خطر للاب (بويج) ان ينشر في الحاشية كتاب المقولات نفسه ليعارضه القارىء بشرح ابن رشد ، وقد اصاب فيما صنع لان تلخيص ابن رشد ينهض على نصّ ارسطو بل يلازمه

ثم ان الاب (بويج) الف مقدمة للتلخيص عرض فيها لمباحث شتى منها : صحة الكتاب ، فاستدل عليها بالنقد الباطن والظاهر — وتاريخ تأليفه ، فجعله حول شهر رجب سنة ثلاث وستين وخمسمائة استناداً الى ما نعرفه عن سيرة ابن رشد واخبار مصنفاتهِ — وعنوانهُ ، فبيّن كيف اراد ابن رشد الشرح المجمل بلفظ «التلخيص» . بقي ان في تلك المقدمة تعيين المخطوطات التي عوّل عليها الاب (بويج) في ابراز الكتاب : فمخطوطات عربية في (فلورانس) من اعمال ايطاليا وليون والقاهرة ، وأخر عبرية مخزونة في دار الكتب الباريسية ، وأخر لاطينية مطبوعة بعضها في ليون وبعضها في البندقية . غير ان الاب (بويج) لم يحبس همهُ على مخطوطات التلخيص في سبيل تحقيقهِ بل انصرف الى المصنفات التي اشارت اليهِ او نحت نحوه في المنطق

هذا واني استأذن الاب (بويج) في ان آخذه بشيئين . ذلك انهُ اتفق لي حين نقدت «تهافت التهافت» في هذا المكان ان ارغب الى الاب الجليل ألاّ يقصر عناوين الفصول المُدرجة في اعلى كل صفحة على اللغة اللاطينية ثم رغبت اليهِ ان يثبت في جدول الاصطلاحات اللفظ الافرنجي المرادف للفظ العربي . الاّ انهُ لم يصنع شيئاً وها انا ذا اقول في «التلخيص» ما قلتهُ في « تهافت التهافت » . ومما لا يخفى على احد ان تدوين عناوين الفصول باللغة العربية تفيد القارىء الذي يجهل اللاطينية ، ثم ان بنا حاجة اليوم الى تحقيق اصطلاحات العرب الفلسفية ولا كلفة على الاب في اثبات ما يرادفها من اصطلاحات الافرنج ذلك انهُ عالم بفلسفة العرب ومتضلع من فلسفة الغرب

بشر فارس

مكتبة المقتطف

حاضر العالم الاسلامي

تأليف «لوثروب ستودارد الاميركي» ترجمة الاستاذ «عجاج نويهض» وعليه حواشي امير البيان شكيب ارسلان . مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٥٢

اوكس الامم اليوم حظًّا في التعارف والتآلف ، الامة الاسلامية التي ألَّف الله بين قلوبها وألسنتها بالقرآن حين انزله على رسوله وأيده ونصره ، وجمع للمؤمنين من بعده اطراف الارض تجبى اليهم ثمراتها وارزاقها ، وجعلهم ائمة يهدون الى الحق وبه يحكمون . وانت اذا نظرت الى العالم الاسلامي اليوم ورجعت الى تاريخ هذا العالم فيما تصرَّم من ايامه لوجدت تخالفاً عظيماً بيننا وبين اولئك السلف الذين هداهم الله الى اسباب السعادة فاستمسكوا بها واعتصموا بحبلها فجمعهم الله على قلب رجل واحد . فكان الرجل في اقصى الصين تمتد اخوَّته الى اخيه المسلم فيما تطوَّح عنه من بلاد المغرب الاقصى ، فكان الصينيُّ المسلم ينزل اي امة من الامم التي تدين بالاسلام فلا تجد الجنسية تفصل بينه وبين العربي او المصري او الشامي او المغربي بل كانوا جميعاً اخواناً في الله وكانت الدولة في اي امة من امم الاسلام تتلقى هؤلاء الناس وتقوم عليهم وتفسح لهم كما تفسح للذين تربوا في ظلها ونشأوا في ارضها ، فكان المسلم من اهل الشام يتولى في بلاد مثل المغرب التدريسَ والوزارةَ وكثيراً من مرافق الدولة او يقوم عليها . ولا يفرق بينه وبينهم هذه الفتنة السوداء التي ظهرت حديثاً — فتنة الجنسيات. وكانت اخبار كلّ امة من الامم الاسلامية معروفة عند جاراتها وغير جاراتها فيما تقاذف من الارض هذا مع بطء المواصلات في ذلك العصر ، وقلة اسباب الاتصال والتعارف ، اذا قيست بما في هذا العصر من بريد وطباعة وطائرات وبرقيات سلكية ولاسلكية وغير ذلك من اسباب الاتصال التي جعلت العالم كله كأنه امة واحدة . اما اليوم فان الكثير من شباب العالم الاسلامي لا يكاد يعرف عن اقرب جاراته اليه الاَّ نتفاً من الاخبار لا تفي بفائدة، ولا يجتمع من مجموعها ما يمكن ان يسمى علماً او معرفة ، وليس ذلك من شيء الاَّ هذه النزعات الفردية التي مزقت العالم الاسلامي، وهذه الجنسيات البغيضة التي قضت على الحياة السعيدة بين امم الشرق الاسلامي. وإنك لترى كثيراً من شباب الشرق يعرف اخبار فرنسا وانجلترا والمانيا واميركا وغيرها من بلاد لا يربطهُ بها دم ولا لغة ولا دين ، فاذا ذكرتَ الامم التي تربطهُ بها الدم وتجذبهُ اليها اللغة ويميل بهِ اليها الدين والعقيدة وقف من ذكرها موقف الغريب الذي اخذته الدهشة واذهلتهُ الحيرة

والسبب في هذا التدابر العجيب — بعد الاتصال والاخاء — هو ما اشرنا اليه من ظهور فتنة الجنسيات ، ثم انصراف الشباب منا عن تتبع اخبار الامم الشرقية عامة والاسلامية خاصة ، ثم

قلة عناية الصحف بأخبار هذه الامم ، ثم هذا الكسل الذي اعترى اهل الشرق فصرفهم عن التزاور والتعارف ، هذا مع ان الرحلة هي اهم اسباب المحبة بين الناس واحسن طرق المعرفة واجلُّ الاعمال خطراً في بسط النفس والفكر والامتداد بهما الى طلب السعادة والخير والمنفعة التي تعمُّ ولا تقف عند الحدود الضيقة التي نصبتها الشهوات المدنية

***

ظهر كتاب «حاضر العالم الاسلامي» للمرة الاولى سنة ١٣٤٣ من الهجرة ، وكان الشباب يغلي في دمي غليان المرجل ، وكنت احب ان اتسقط اخبار الامم الاسلامية ما استطعت ، وكنت اؤمل آمالاً كثيرة يمدها خيالي وتزينها احلامي ، وكان يقوم على تهذيب نفسي وتشذيب آمالي واحلامي رجل احب ان اعترف بفضله عليَّ ، وهو الاستاذ «محب الدين الخطيب» الذي طبع كتاب «حاضر العالم الاسلامي» بمطبعته للمرة الاولى . فكان هذا الاستاذ الجليل اول من هداني الى قراءة هذا الكتاب ، وما عليهِ من تعليقات شيخ الكتّاب الامير شكيب ارسلان ، واستفدت من تعليقاته عليهِ اكثر مما استفدت من كلّ كتاب قرأتهُ الى هذا اليوم ، فلما ظهرت هذه المطبوعة الثانية ورجعت الى قراءتهِ مرة اخرى انفسح لي مجال الفكر فيهِ اكثر من ذي قبل وكأني ما قرأت منهُ حرفاً قبل هذه المرة وذلك لان الامير شكيب استوفى ابوابه وحشد لها علماً كثيراً لا يقوم بهِ غيره ، ولا غرو ، فان هذا الرجل قد سلخ من عمره خمسين عاماً او تزيد في تتبع الحركات السياسية والدينية والعلمية والادبية والتجارية التي نشأت وترعرعت في العالم الاسلامي وبثَّ فيها قلمه روحاً عظيمة تركت آثاراً في كل بلد اسلامي . وهذا الكتاب الذي بين يدي هو — فيما اعتقد — أجل ما عمل الامير وما ترك من أثر ، ولا نزال في حاجة الى قراءته وتدبره والرجوع اليه إذ هو الكتاب الوحيد في العربية الذي يجمع بين دفتيه اخبار العالم الاسلامي وما ألمَّ به وعمل السياسة في ارهاقهِ وتحطيمه وتمزيقه . وليس احوج الى قراءة هذا الكتاب من شباب العالم الاسلامي الذين انصرفوا عن دراسة شؤون الدول الاسلامية والشرقية ، ولم توافهم الصحف بأخبار وافية صحيحة عن هذا العالم . وانا في كلمتي هذه لا أميز بين مسلم ومسيحي ، فان الاسلام قد أظلَّ النصرانية واليهودية في الشرق بظله الرطب زمناً طويلاً وكانوا جميعاً في امنٍ وعزة لا يلحقهم حيف ولا تمسهم الذلة وكان امن الاسلام امنهم وعزته عزتهم ، ولم يكن هناك استعمار يجعل الاقليات في بلاد الاسلام زناد بندقيته التي يرمي بها الجامعة العربية الاسلامية . ان التاريخ لا ينسى ان الجيوش الاسلامية التي قاتلت الصليبيين من اهل الغرب كانت تجمع تحت لوائها المقاتلة من النصارى واليهود وغيرهم ، وان التاريخ لا يستطيع ان يذكرنا بشكوى كانت لنصارى الشرق

من المسلمين واحكامهم، ألاَ وإنَّ موقف الاقلية المسيحية في سوريا لخير مثل مضروب لذلك العهد المضيء بالعدل والمساواة والحق

ليس للعالم الاسلامي معلمة (دائرة معارف) يوثق بها في هذا العصر الاَّ هذا الكتاب . ولم نأخذ على هذه المطبوعة شيئاً من النقص الاَّ أشياء قليلة ، فالمطبوعة الاولى من الكتاب كان التخالف فيها بين حروف الاصل المترجم وتعليقات الامير واضحاً بيّناً . اما في هذه المطبوعة فالاصل والتعليقات كلها من حرف واحد . وايضاً ، كان في المطبوعة الاولى فهرس دقيق للاعلام والمواضيع خلت منهُ هذه المطبوعة وكان صواب الرأي ان يكون الفهرس في هذه اوفى منهُ في الاولى واوسع ، على ان هذا لا يقلل من قدر هذا الكتاب الذي لا يستغنى عنه شرقي يريد ان يشعر يوماً ما بالعزة والكرامة والعلو في ظلال الحرية والاستقلال

ذكرى الشاعرين

جمها ورتبها « أحمد عبيد » صاحب المكتبة العربية بدمشق — مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٥٢

كان في عصور الحكومة العربية التي اقامها الاسلام في الشرق واظلَّ بها ما تَرامى بين مشرق الشمس ومغربها من أمم ألَّف بين قلوبها وألسنتها وثقافتها وعلمها ، قومٌ قد اتخذوا الورقَ والكتبَ تجارة درَّت عليهم رزقاً مباركاً ، وسمى الناس هؤلاء القوم « الورَّاقين » . فكانت دكاكين هؤلاء الوراقين مجامع تضمُّ صفوةً من العلماء والشعراء والمحدثين والفقهاء والناسخين والادباء لا يزالون يردون عليها ويصدرون منها ما بين طرفي النهار في طلب الكتب أو بيعها أو نسخها . وكانت مجالس هؤلاء المثقفين في هذه الدكاكين لا تخلو من مناظرةٍ أو مطارحةٍ أو جدلٍ ، أو ذكر خبرٍ ، أو رواية حديث ، او إظهار حكمة. فنشأ من بين هؤلاء الورَّاقين رجال من اهل العلم ألَّفوا وقعدوا للدروس وقالوا الشعر الجيد وبذُّوا كثيراً من اهل العلوم التي فرَّغوا قلوبهم لها مع تجارتهم. والاديب «احمد عبيد» هو خلف من اولئك السلف الذين جمعوا الى التجارة بالكتب علم ما في هذه الكتب، وله آثار جيدة وشعر طيب ولا يزال يطالعنا كل عام او عامين بكتاب مما ألَّف أو جمع أو اختار

وآخر كتبه « ذكرى الشاعرين » حافظ وشوقي ، جمع فيه اكثر ما كتب الادباء في مصر والشام والعراق والمغرب عن هذين الشاعرين قبل وفاتهما وبعدها وجمع اكثر المراثي التي قيلت فيهما وأضاف الى بابي الكتاب مختاراً من شعر حافظ وشوقي اكثره لم ينشر. وفي هذا الكتاب ترى كيف اهتزَّ العالم العربي لموت هذين العلمين ، وكيف افاض الكتَّاب والشعراء في ذكر آثارهما ومناقبهما وكيف انطقت الفجيعة كل صامت وأوهت كل بليغ . ولا يشك احد في انهُ لم يكن الوفاء للشاعرين في جمع ما كتب عنهما وحسب ، بل الوفاء في تتبع ما احدثا في

الشعر العربي من جديد، وأقاما من بنيان كان قد تهدَّم في عصور الكنة والنبطية المريضة التي كانت لسان الشعراء في القرون الاربعة قبلهم ، غير ان هذا العالم العربيّ قد ابتلي بالتقصير في تاريخ دوله وآدابه ، وبالنكول عن الاغراض السامية التي كان آباؤهم يتبادرون اليها تبادر الجياد الكريمة في حلبة السباق . ومع هذا فشكرنا للاخ « عبيد » — الذي جمع ما كتب عن هذين الفحلين العظيمين — لا يقدَّر اذا قيس بأسفنا لهذا الصمت الذي عقب وفاتهما . وعمل الاخ « عبيد » قد جعلنا نشعر بان الامة العربية التي مزَّق الاستعمار أوصالها بدسيسة العصبيات من فرعونية واشورية وبربرية وفينيقية قد بقي فيها ذلك الوفاء الذي امتازت به على تطاول العصور . وأملنا ان يكون عمله هذا فاتحة لدراسة هذين الشاعرين دراسةً وافيةً يقوم بها من يجد في نفسه القدرة على تتبع بيانهما وسحرهما وفنهما واظهار ما كان لهما من الفضل على البيان والفكر والفنّ

ماضي الحجاز وحاضره

الجزء الاول : تأليف « حسين بن محمد نصيف » بجدة الحجاز مطبعة خضير

كان غيري احقُّ بالكتابة عن هذا الكتاب ، فان للاخ « حسين » ووالده عندي نعماً مشكورةً ما بقيت ، وانّ الصداقة التي بيني وبينهُ لتجعل بعض اخطائهِ في نفسي بمنزلة من الصواب . وكان كتابهُ هذا تامًّا ايام ان كنت في الحجاز وقد عرضهُ عليَّ وحال بيني وبين تمام قراءتهِ او التثبت عند النظر فيهِ حوائل جمَّة

وهذا الجزء من الكتاب وثيقة تاريخية عظيمة القدر في تاريخ الحجاز من ولاية الحسين بن علي بن محمد بن عون الرفيق في شوال سنة ١٣٢٦ إلى دخول عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل السعود (ملك الحجاز ونجد) جدة في صباح الخميس ٨ جادي الآخرة سنة ١٣٤٤ ، ويزيد قدر هذا الكتاب حين يصل الى تاريخ المعركة التي كانت قائمة بين الاسدين العربيين ، والتي انتهت بانهزام الحسين وخروجه من بلاده الى حيث عاجلته منيته رحمهُ الله وعفى عنهُ . ولولا هذا الكتاب الذي بين ايدينا اليوم لكان من الصعب على احد من اهل البلاد العربية النائية ان يصل الى اخبار صحيحة عن الحرب الحجازية الاخيرة ، أو أن يصل بين تاريخ الحجاز قبل عهد الحسين وتاريخه بعد حكم ابن سعود . وقد اتَّبع صاحب الكتاب طريقة جمع الوثائق التاريخية كلها — الاَّ قليلاً مما لم تصل اليهِ اليد أو ما طوتهُ الضرورة . ولعل الطبعة الثانية لهذا الكتاب ستكون ان شاء الله أوفى واتمّ واوسعَ فان نقص القليل من وثائق التاريخ يلدُ خطأً كثيراً في التاريخ ، وبخاصة في تاريخ الحجاز الذي لم نجد احداً من أهله دوَّن عن عصوره القريبة شيئاً يعتمد عليهِ أو يرجع اليهِ مع انهُ مناط آمال كثير من دعاة الجامعة العربية ، وموئل

من موائل الحرية ، ومشعر من مشاعر الله التي تضم اشتات الامم واخياف الناس فتؤلف بين ابدانهم كما ألّف الله بين قلوبهم بالايمان

ونحن نقدّر جمع الوثائق التاريخية تقديراً اكبر من غيره مما يكتب في التاريخ، وذلك لان تصرُّف المعاصرينَ لعهد من العهود يوجّه التاريخ الى وجوه ملتوية اذ يكون العامل المؤثر فيها هو الهوى والعصبية والميل الى فئة من الفئات ، وهذا عمل غير صالح يضعُ الخلفَ في مضطرب واسع لا يستطيعون فيهِ تحقيق التاريخ على وجه الصواب. ولذلك كان التاريخ العربيّ القديم على كثرة الرواية فيهِ واضطرابها أحفل التواريخ بالمادة التي تهدي الى الحقيقة في تاريخ عصر من عصوره . وليس يعتمد التاريخ على فصاحة المؤرخ وبلاغتهِ وحسن ادائهِ بل العمدة فيهِ المادة التي يحشدها المؤرخ في بيانهِ عن عصر يؤرخهُ ، ثم قدرة هذا المؤرخ على حسن الآداء ، ودقة الوضع التي يؤلف بها بين الروايات بعد تصحيح ما صحّ منها وتزييف ما زُيف

و« ماضي الحجاز وحاضره » سيكون مادة عظيمة للمؤرخ الذي ينزع الهمة يوماً ما لتاريخ الجزيرة العربية في عصر النزاع بين الحسين وابن سعود ، ذلك العصر الذي كان فاصلاً بين شكلين من الحياة والفكر ، لا يزال الناس في شكٍّ من ترجيح احدهما على الآخر

الوحي المحمدي

تأليف الاستاذ الجليل السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار — مطبعة المنار سنة ١٣٥٢

من اجلّ النعم التي انعم الله بها على الانسان نعمة العقل ، واجل ما ينعم بهِ على هذا العقل بساطة التفكير والرجوع فيه الى الحرية والانصاف والاعتدال والسماحة، واسوأ ما يعتري هذا العقل من الادواء التي تزيد في شقاء الانسان، هذا التعقيد الذي يسمونهُ فلسفةً تدليساً على العقل نفسه . والحقيقة التي يجب على كل انسان ان يعتقدها في نفسه وقلبه ان التفكير البسيط الواضح الهادىء الجرىء المتثبّت هو اعلى درجات الفلسفة وأشرف منازل الحكمة. وكانت حكمة الاولين وفلسفتهم تعتمد في مجموعها على هذه البساطة ، وذلك لصفاء القلوب وتفرُّغها لطلب الحقيقة من ناحية، ثم لقلة العلوم وانضمامها من ناحية اخرى . فلما اتسع العالم في الحضارة ونهض العلم واستبحر حتى وصل الى الحالة التي نراها اليوم ، اتسعت الشهوات وغلبت على القلوب وشغلتها عن طلب الحقيقة والتفرُّغ لها والتوت بها في مسالك الضلال والغيّ ، وصعب على عامة الناس الاحاطة بالعلوم كلها . ثم لما ظهرت اشباه المعجزات في العلم الحديث استكبر الانسان واخطأ الرأي في نسبة هذه العجائب الى قدرة العقل وحده دون توفيق الله ومشيئتهِ ، فزاغ كثير من الناس وضلوا واستفتحوا أبواباً من الزندقة والجحود والشبهات قلَّ ان يجدي في اغلاقها جدال او خصومة

واذا نظرت الى الارض وجدت الاضطراب والتقلقل والحيرة مقرونة بالتهتك والفجور والبغي ووجدت سيلاً من الفتن يزأر ويخور في كل مكان ووجدت الناس من ههنا وههنا يجرون ويدبّون ويتلفّتون كأن ليس منهم الاّ لصٌ او مسلوب أو مجنون. ونعوذ بالله، فانَّ هذا بلاء عظيم لا يدرى معهُ كيف المخرج ولا اين المفرّ. ألا وان الايدي موضوعة على مفاتيح العلوم، وكلما أدير مفتاح في بابهِ ثم فتح الباب وبدت العجائب لعيون الناس جدّدت هذه العجائب فينا رغبات وشهوات تمنع القلوب من الاطمئنان والاستقرار. وكيف يطمئنُّ امرؤٌ لا يزال قلبهُ معلقاً في مدرجة الرياح الهوج ولا يزال تتناوحهُ تلك الرياح بالقوة الطاغية التي تعصف بالعالم فما تفتأ تدوي القنابل والرصاص والرعود والبروق في كل زاوية من هذه الارض التي يقولون عنها متمدنة حرة. ان العالم ليغلي بشروره وحسناتهِ على كثرة الشرور وقلة الحسنات. أفينكر هذا حيٌّ على ظهر الارض في ايامنا هذه؟ اينكر احد أننا على حافة ميدان قد حشدت له الامم والعقول من كل مكان؟ او ينكر احد ان هذا الميدان لا يحدُّ بحدود سياسية او حربية؟ ألا وان القتال قد وقع في كل مكان حتى البيوت التي هي موضع الامن في عرف الانسانية، او ينكر احد ان العلم الحديث على جلالة قدره وعظم ما آتى من النعم لم يستطع ان يؤتي قلباً واحداً نعمة الراحة والاطمئنان؟

أخذت الارض زخرفها وازّينت وظن اهلها انهم قادرون عليها فلم يبق بعد الآن الاّ ان يعرف الانسان انهُ — مع قدرته على الارض وتصريف قواها واستخراج كنوزها — غير قادر على ان يستجلب لقلبهِ ساعة من الامن يرضى فيها عن نفسه وترضى نفسهُ عنهُ. ألا وان اهل الارض جميعاً في هذه الحيرة لينظرون الى الغيب نظرة اليائس الذي كان لهُ أمل ثم قطع بهِ، ولماذا قطع بهذا الامل؟ ذلك لان الناس حكّموا في قلوبهم كل شهوة من شهوات المال والنساء والغلبة والفوز ولم يضبطوها بشيءٍ من ضوابط الحياة، فاصبحت الحياة كلها عدوان وتقاتل وتنابذ وشهوة، وليس للحق وحدوده بين الناس قدر تقف كل هذه الشهوات دونه، ثم ها نحن نفقد الامام الذي يقود العالم الى الخير والسعادة والراحة، ولا يستطاع ان يكون في كل عصر امام يقود الناس، فكان العقل ان يكون كل امرىءٍ على نفسه اماماً يهديها الى الخيرات، وليس يوجد هذا في امرىءٍ الا ان يكون عنده كتاب يهديهِ، يستجيب لامره، ويقف مع نواهيه، ويمشي مع اوامره. ويكون هذا الكتاب هو الحق المبين الذي ميز للانسانية خيرها وشرها وصرّفها على قدر من الحكمة والصواب يؤول بها الى المحبة والرضا والحرية والسعادة والاطمئنان

وهنا يختلف الناس بين الكتاب الوضعي الذي لا يعرف أول الرأي فيه من آخره، وذلك هو كتاب العقول الانسانية بفلسفتها وحكمتها وضعفها واختلافها، وبين الكتاب الذي يقول

عنه من يؤمن به انه وحي من رب العالمين يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم . وليس يقع هذا الخلاف الاَّ من غموض أمر هذا الوحي الى بشر من الناس تلقى اليه من ربه كلمات يبلغها الناس حتى يكونوا مؤمنين . ولا يفضُّ هذا الخلاف بين الناس الاَّ ان يستقرَّ في القلوب صدق الوحي وصدق وقوعه لمن اختير من بين البشر ليكون نبيًّا أو رسولاً يهدي الى الحق ويدعو الى صراط مستقيم . ولمثل هذا قام الاستاذ الجليل الشيخ محمد رشيد رضا فأخرج للناس كتابه هذا الذي بين أيدينا عن الوحي ، وعن الوحي الذي نزل على « محمد » رسول الله صلى الله علية وسلم خاصة ليثبت ان الوحي صدق لا يشك فيه وان القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

واحبُّ ان ألقي القلم من يدي لان الاسترسال في نقد هذا الكتاب واظهار حسناته وتعقب بعض كلماته التي سبق بها قلم المؤلف تغري بالافاضة حتى يبلغ ما نكتب عنهُ مثل الكتاب الذي أمامنا ، وانه لمن الخير لكل من يطلب الحقيقة ان يدرس الوحي في هذا الكتاب فلعله يجد الحق فيقنع به ويتعلق بآياته

جبران حيًّا وميتاً

مجموعة تشمل على مختارات من كتابات جبران ورسومه وما قيل فيه
جمعها ونشرها حبيب مسعود — سان باولو برازيل — صفحاته ٥٦٧ وثمنه ٤ دولارات

في العالم الذي تغرب الشمس عن افقنا لتشرق في أفقه البعيد يعيش شعب شرقي مهاجر لم تطغ مادية الحياة على روحانيته ولم تقطع الايام بينه وبين أمجاد ماضيه في الشرق العظيم

وكأنما يحيا للفن ويعيش للأدب فهو رسالة القديم الى الجديد ولكنه فن وأدب يمتازان بطابع العالم الذي يعيش فيه هذا الشعب المهاجر

وكأنما تحمل اليه الشمس في هودجها الذهبيّ كل صباح ما يهفو بخاطره ويعلق بناظره من أرض الميلاد فلء سمعه منها خرير ماء النبع المنحدر على الصخور وأغرودة الشحرور في أعالي السنديانة وزقزقة العصفور بين عرائش الكروم وملء عينه رسوم الحضارات الاولى من خرائب بعلبك ومفاتن الطبيعة بين الماء والسحاب فالثلج المؤتلق على ذؤابة الجبل وظلال الارز الساجية في محاني الوادي تحت غلائل الشفق الوردية .ومن صفحات هذا الكتاب الخالد استمدَّ المعلوف وجبران وأبو ماضي ومخائيل نعيمة والقروي وغيرهم من ادباء المهجر إلهام فنهم ووحي أدبهم . وهي ذكريات كلما هزت نفوسهم اليها تباريح الحنين أمتعنا منها بأجل رسالة وأسمى منال من النثر والشعر والتصوير وكلها ميراث خالد من نتاج القلب والعقل زاد به هؤلاء الأفذاذ أمجاد العربية فدوا من رواقها وسموا من آفاقها وتحدوا منطق الناعين عليها جمودها والمعيريها بعقم العاطفة وسقم التفكير

ولعلي مبادرك – وقد خلصت اليك من هذه الكلمة – بالتحدث عن شاعر (بشري) وكاتبها وفنانها . وبين يدينا كتاب عن (جبران حيًّا وميتاً) يجمع في دفتيه صوراً متعددة من آثار قلمه وريشته وحسب هذه العبقرية ان تجمع بين فنون ثلاثة النثر والشعر والتصوير ثم تصل فيها جميعاً الى شأو بعيد وتفوُّق غير محدود

ولقد قال الفن كلمته في آثار ريشتهِ على لسان المثال الفرنسي الاشهر (اوغست روداں) حيث قال . . . ان العالم لينتظر كثيراً من هذا النابغة اللبناني فهو وليم بلايك القرن العشرين

أما كلمة الفن في نثره وشعره فحسبه أنه شق فيهما طريقاً لم يسبقه اليه أديب عربي قبله ولا يضير جبران ان اخرج بالانجليزية بعض قصصه وكلماته فقد ربحنا من ذلك وقوف الغربيين على صور صادقة من روحانية الشرق وصفحات رائعة من ادبه وفنه لم يشوهها جهل الناقلين

وجبران كاتب وشاعر يترسل نثره في الفلسفة والاجتماع والادب وقصصه تجمع بين الفكرات العالية نتيجة الاطلاع الواسع في ادب الغرب وبين الخيال الشرقي المحلق ولقد مال في آخر ايامه الى القصص الديني فأخرج لنا يسوع بن الانسان والنبي وغيرها . كل ذلك في نثر فني خالص من شوائب الصناعة والتقليد كان له أثره في اللغة العربية في الوقت الذي لم تكن قد زايلتها فيه طريقة المقامات والاسجاع المملولة

أما روحه الثائرة المتمردة على الظلم والفساد الباكية على الشرق ولبنان فتقرأ لها في كلماته (نحن وانتم) (لكم لبنانكم ولي لبناني) وغيرها من الكلمات التي احدثت في حينها دوياً هائلاً في الشرق العربي وكانت مثاراً للحملة عليه حتى قال كلمته المأثورة (أنا اقول كلمتي واسكت تاركاً الناس ليقولوا عني ما يريدون. ان الواجب عليَّ هو ان اقول الحق باخلاص رضي الناس ام غضبوا)

وجبران من شعراء المعاني وشعره مزيج من العاطفة والعقل كما ان له كثيراً من نماذج الشعر الرمزي ولعل اروعها المواكب والبلاد المحجوبة . وقصيدته في (انشودة الليل) مثال راقٍ مما يجب ان يكون عليه الشعر الغنائي في الشرق

ويمتاز شعره بالموسيقى العالية واللفظ الرقيق

والذين يقرأون لجبران يشعرون بتلك الكآبة التي تظلل روحه دائماً شاعراً ومصوراً وناثراً ولعلها نتيجة حزنه واهتمامه بوطنه المعذب كما تقرأ ذلك في كلمته (مات اهلي) او في كلمة (نحن وانتم) التي بدأها بقوله (نحن ابناء الكآبة . . .) ولعلها قبل ذلك ترجع الى طفولته كما ذكر الاستاذ حبيب مسعود في مقدمة الكتاب الذي بين يدينا عنه

وأرى ان هذا الكتاب جدير بأن يقتنى وأن يكون موضع الاهتمام والعناية من الشعراء والكاتبين عامة وخاصة المثقفين من ناشئة الشرق العربي

رحم الله جبراناً والمعلوف وأمد لنا في حياة الباقين من ادباء المهجر علي محمود طه

« نار موسى وقصائد اخرى »

مجموعة من شعر عبد اللطيف النشار مذيلة بالطبعة الثانية من ديوانه «جنة فرعون»
في ١٢٨ صحيفة متوسطة وبه مقدمتان لخليل وصديق شيبوب — طبع المطبعة المصرية بالاسكندرية

مرت على الشعر العربي منذ فجره أدوارٌ مختلفة من الضعف طوراً والقوة طوراً آخر ، من الصحة تارة والسقم تارة اخرى ، من النور مرة والظلمة مرة ، من التعبير حيناً والتقليد حيناً آخر

وكان ان مرَّ عليه دور انحطَّ فيه في مصر وبلغ غاية انحطاطه في عصر الاحتلال الفرنسي فأصبح لا معنى فيه ولا لفظ جميل حتى قيض الله له البارودي فأعاد اليه جزالته وقوة سبكه ، وتأسست من بعده مدرسة تعني باللفظ والموسيقى ، حتى نهض في العصر الحديث نهضته الجديدة واستيقظ على أشعة عهد حيّ . غير ان مقاييس النقد المعكوسة في مصر وفهم الناقدين للشعر فهماً لم يختلف باختلاف نظرة الشعر كانا سببين قويين في ايجاد الحيرة في نفوس بعض الشعراء فوقفوا يرتعشون كالسكارى يريدون ان يستندوا الى ناحية فما يهتدون

وجد هؤلاء الحائرون الشعراء المحافظين تزين رؤوسهم اكاليل الغار يضفرها لهم نقّاد الشعر لأنهم متساوون معهم في النظرة وفي الذي تترامى الى مداه تلك النظرة . وجد هؤلاء الشعراء تلك المظاهر فراحوا يتبعون نظرة المحافظين ليظفروا بما ظفروا به

ثم يلتفتون فيرون المجدِّدين الناهضين تنصت الآفاق لترنيماتهم ، وتعجب الاجيال الجديدة بهم فيأسرهم ذلك الاعجاب فيبتغون حظهم ويخطون وراءهم

وننظر نحن الى آثارهم بين حيرتهم فلا نرى الاّ صوراً عجيبة نحار عندها ونعجب من ان هذه الصور لشاعر واحد ، ونعجب من ذلك الصدى المختلفة المتباينة أنغامه والتي لا تؤلف بينها وحدة ولا تنظمها روح

ولقد قرأت في ديوان الشاعر عبد اللطيف النشار « نار موسى » المذيل بديوانه « جنة فرعون » فوجدت صوراً قديمة في تشبيهاتها ومعانيها مثل :

يا غصن بانٍ تهادى في خمائله ... وروضة أُنفاً في الروضة الأُنفِ
حلفتُ بالله اني في محبتكم ... وافٍ واني أخشى الله في حلفي

وقوله : والضحى والليل ليلاً وضحىً ... أقسم الله تعالى بهما
ما وداعاً كان ما كان قبلَ ... صدق الله النبيّ القسما

ووجدت الى جانب هذه الصور صوراً معبرة عن نفس شاعرة تخفّ عن جسمها المادي فتعلو ثم تتلاشى في أنغام وأصداء ، ونسمع شاعرنا يهتف بنا من حيث حلق في قصيدته «جماح الشباب» :

حرارةَ حبي الماضي أعيدي الى قلبي تباريح التصابي
ولجّ مشاعري المهتاجَ من لي ولو بالموت في هـذا لعبابِ
وجوّ تخيُّلاتي اعصف بنفسي وتقلْها على قلل السحابِ

وفي قصيدته «حرس الجنة» :

يحمي الفراديس رضوانٌ وزمرته من اي مقتحم رضوانُ يحميها ؟
شاكي السلاح على ابواب جنته وليس في غيرها شر ولا فيها
الاّ ضعافاً بدنيا لا اتصال لها بجنة الخلد الاّ في تمنّيها
عمر البسيطة جسر دون موعدها وسكرة الموت من ادنى أمانيها
وفي الحبوس من الاجداث آملها فنيم يخشى على الجنات راجيها

بين الصور الصامتة التي لا تعبر عن شيء والتي ليس فيها نغمة من الشعر وبين هذه الصور الناطقة التي تفوح منها النغمة الشعرية نرى تأثير الحيرة الادبية في شعر اذا خلص من ابهامه العميق ورغبته في ارضاء بعض النقّاد والجماهير كان القشار وترّاً من اوتار القيثارة الجميلة التي يعزف عليها الشعر العربي الحديث اجمل أنغامه ، ولنا في ديوانه المقبل امل ورغبة قوية في ان يكون اكثر حرية واوسع نظرة واصفى ديباجة واوضح معنى حسن كامل الصيرفي

باريس

احمد الصاوي محمد

لا نظن انهُ يوجد شرقي لا يحنّ الى باريس او لا يصبو لزيارتها . فقد كانت ثقافة الشرق منذ بزوغ فجر نهضته الحالية فرنسية . ومن تعلم لغة أحب اهلها . فاذا كان اصحاب هذه اللغة امثال الفرنسيين الذين بلغوا من الرقي والحضارة ما جعلهم في طليعة امم الارض اصبح ذلك الحب مزدوجاً. وهذا ما يعلل الرواج العظيم الذي ناله كتاب باريس لجامعه وطابعه الكاتب الاديب احمد الصاوي محمد. ولا غرو فقد ضمّ نفثات اقلام نخبة رجال الادب الذين زاروا باريس او درسوا فيها . فشاهدوا معالمها ورأوا بهاءها ورواءها وتبينوا ما فيها من سحر وقوة وجمال ، فبرز الكتاب اشبه بباقة من الازهار المختلفة الانواع المتعددة الاشكال وهي منسقة تنسيقاً بديعاً يستهوي القلوب ويأخذ بمجامع الالباب

قرأناه بلذة لان فيه تفكير اعاظم كتابنا الذين اودعوا فيه تأثيراتهم وعواطفهم ونزعات نفوسهم . فبدا قطعة مجلوة من الشعور النفسي والبيان العاطفي. وكنا ننتظر ان يكون الكتاب جامعاً بين الوصف الادبي الخيالي ، والبحث العمراني. ولكنهُ اقتصر على الناحية الاولى في الغالب فجاءت الكتابات التي استدل عليها قطعاً فنية شعرية لا مثيل لها. لكنها تكاد تكون

خالية من وصف ما تحتوي عليه مدينة عظيمة من آثار تاريخية ومشاهد عصرية ورقي اجتماعي واخلاق وعادات واميال ونزعات

فالقارىء لا يفوز بمطالعة الكتاب الاّ بالنزر اليسير من هذا وهو مبعثر هنا وهناك بين طيات المقالات التي يوجد في بعضها ما لا يمتُّ الى باريس بشيء. فأين عظمة عاصمة الفرنسيس الماثلة في قصورها التاريخية وصروحها الاثرية؟ واين اللوفر العظيم ومتحفه الذي يضم من الآثار الفنية ما لا مثيل له في العالم اجمع؟ واين البانثيون مثوى العظماء والشعراء والادباء الذي ترتفع قبته ثمانين متراً في الفضاء. وتحلي جدرانهُ من الداخل رسوم آية في الابداع وتماثيل هي معجزات الفن؟ وأين قصر فرساي — ولو انهُ في ضاحية باريس — وما يحويه من تحف ورسوم وتماثيل هي سلسلة متصلة الحلقات لتاريخ فرنسا المجيد؟ واين المكتبة الاهلية وهي تضم فقط من الكتب العربية والمخطوطات الاسلامية ما ليس له نظير في مكتبتنا الملكية؟ واين؟ وأين؟ سائر الآثار الناطقة بجلائل الاعمال؟ بل اين تراث باريس الذي خلفه السلف؟ اين نظام المجتمع عندها؟ وأين قوى باريس المالية والصناعية والتجارية؟

هذا غيض من فيض مما كنا ننتظر ان يزدان بهِ الكتاب ليصبح تامًّا من جميع الوجوه. لكن نقصه هذا لا يسقط من قيمته التي لها اثرها ولها مكانتها. فهو مؤلف نفيس جم الفائدة عظيم النفع. واثر خالد اشتركت فيه قرائح كل ادبائنا البارزين. ولعلَّ الاستاذ الصاوي يعد جزءًا ثانياً خاصًّا بالناحية العمرانية فيصدق عليه قول الشاعر «لعلَّ له عذراً وانت تلوم»

وقد نهج الصاوي في طبع هذا الكتاب نهجاً جديداً فانهُ ابى ان يعطيه لطابع، لما يصيب المؤلف من اجحاف الطابع. فان هذا يعرض عليهِ بضع مئات من النسخ قد يوزعها على أصحابه هدايا ويفوز من الغنيمة بانه مؤلف الكتاب. فتمرَّد الصاوي على هذا النظام، وجرى على طريقة الاشتراك قبل النشر، فأخرج كتابهُ من حيث الطبع والصور والورق واناقة الغلاف كأجمل ما يمكن ان يخرج كتاب عربي. فبرَّ بوعده لمشتركيه وفاز بربح لا بأس بهِ، وألقى على طابعي الكتب درساً، لعلَّهم يعونهُ

الحياة النسائية في المزاب

La Vie féminine au Mazab, 2 vol. Editions Geuthner, Paris

ان «المزاب» تلك القرية الكائنة في صحراء المغرب مما يحير العقول، ذلك ان اهلها من سلالة الاباضيين وان لهم عادات شاذة. واغرب ما فيهم ما بين عيشة الرجال وعيشة النساء من التباين كأن كلتيهما تجري في عالم منفرد بنفسه. وكان الغربيون قد فطنوا الى غرائب عادات هذه القرية فبحثوا عنها والفوا فيها. الاَّ ان اهل المزاب لا يبرزون نساءهم للرجال فترى ابحاث الغربيين ناقصة من جراء ذلك. ولكن سيدة غربية (Mme Goichon)

تداركت الامر فرحلت الى « المزاب » وأقامت فيها واستمالت النساء هنالك واستقصتهن اخبارهن فوقفت على جلائلها ودقائقها . وانها تسرد لنا كل ما يتعلق بالمرأة فتفحص عن مركزها في الهيئة الاجتماعية وعن واجباتها وعن لزومها قرينها ثم عن حملها ووضعها ورعايتها ابنها وتربيتها له ثم عن زواجها وما يلحق بهِ من المظاهر ثم عن تدبيرها المنزل وعن ملبسها ثم عن احمالها ثم عن حزنها وسرورها وعن تقواها وورعها . ولولا ضيق المقام لسقنا هنا كثيراً من تلك العادات . على اننا نقول ان جلها قائم على العقلية الفطرية تلك العقلية التي تعتمد على السحر وتقيم له وزناً عظيماً

وما اكثر ما تعمد المرأة المزابية الى اساليب الرقية وضرب السحر حتى تقع من زوجها وتتوقى الطلاق وتحافظ على ابنها وتنجو من الموت . واما الدين فانهُ على جانب عظيم من الشأن . والمرأة مضطرة على ان تعيش عيشة ورع وان تكون عفيفة تصلي وتصوم وتتصدق وتحج مقامات الاولياء

على انهُ كان الاولى بصاحبة الكتاب ان تعنى بلهجة المرأة المزابية اكثر مما عنيت بها . فانها تدون الحين بعد الحين الفاظاً تتراوح بين العربية والمزابية . ولكنها لم تحلل اللهجة التحليل الدقيق ولربما اعجزها عن ذلك ما في تلك اللهجة من رطانة البربر . وعلى كلٍ فان صاحبة هذا الكتاب لم تصنف رسالة في اللهجة وانما في العادات والاحوال ولقد اتت من هذه الناحية بشيء حسن

رسالة الغفران

Le Menage du Pardon. Edition, Geuthner, Paris

عند ما برزت رسالة الغفران منذ ثلاثين سنة اقبل المستشرقون عليها في ولع . والسبب في ذلك انهم اصابوا فيها ادباً جديداً عدّوه اقرب الى التأليف الافرنجي منه الى التأليف العربي . وقد زادهم ولعاً بالرسالة انهم فطنوا الى ما وصل منها الى ملحمة « دانتي » المعروفة بالمضحكة الالهية . وبالجملة فان رسالة الغفران رفيعة المكان عند المستشرقين ويقول بعضهم ان محاسن الرسالة لم تبرز بكليتها حتى اليوم وان فيها من فنون البراعة في التأليف والتعبير ما سوف نشير اليه بعد القراءة المتواصلة

هذا وان واحداً ممن يشتغل باللغة العربية في الجزائر M. S. Meiss قد صرف همته الى ترجمة (رسالة الغفران) وقد اغفل الابحاث اللغوية فراراً من التحذلق والتطويل . وقد تصفحنا هذه الترجمة فأوقفنا فيها عدة فصول قابلناها بالأصل العربي فوجدناها صحيحة مع مع شيء من الايجاز الحين بعد الحين . الا ان ترجمة مثل هذه الرسالة تدل على علم واسع

باسرار اللغة العربية وبمقدرة على النقل منها الى اللغة الفرنسية. ومما يذكر ان اشعار الرسالة قد ترجمت في دقة ولربما أضرّ بها هذه الدقة من حيث ان الشعر العربي القديم اذا نقل الى لغة افرنجية اضاع روعته لاختلاف اسلوبه عن أسلوب شعر الفرنجة

الأ اننا لا يسعنا الأ ان نحسن القول في ترجمة هذا الكتاب ولا سيما ان صاحبها اذاع في قرّاء اللغة الفرنسية مصنفاً عربيًّا يدلُّ على ذكاء العنصر العربي ونبوغه

العروبة فى الميزان

لم يثر كتاب في العراق بعد كتاب انيس النصولي في «معاوية» ما اثاره كتاب العروبة في الميزان من ضجيج فانهُ ما كاد ينتشر في الايدي حتى تواردت الاحتجاجات عليهِ فتدخلت الحكومة على الاثر وأحالت مؤلفه الى القضاء فحوكم امام محكمة بغداد وحكم عليه بالحبس لمدة اربعة اشهر وغرامة ٥٠ جنيهاً او حبس ستة اشهر في مقابلها وصدقت المحكمة العليا الحكم لما رفع اليها فصار مبرماً . والقي المؤلف في غياهب السجن

والكتاب في ١١٦ صفحة من القطع المتوسط ومؤلفه شاب عراقي اسمه عبد الرزاق الحصان وموضوعه البحث في تاريخ العراق السياسي وهو مقدم الى « فتى العراق » ومصدَّر بكلمة مأثورة للمثنى بن حارثة الشيباني قالها يوماً وهو يتعهد جيوش العرب « اني لارجو ان لا نواتي العرب اليوم من قبلكُم . والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء الا وهو يسرني لعامتكم » . وقد انتحى المؤلف في كتابه ناحية جديدة بهذا البحث وادارهُ حول انتقاد رجال العهد الحاضر فوصفهم بعدم الوفاء للقومية العربية . انظر ما قاله في الصفحة الخامسة « قامت دولتنا الفتية بعد ان مرَّ على العراق ادوار ودخلنا عصبة الامم لكي نتخلص من دور الانتداب الممقوت ولكي نقيم عهداً جديداً لحمته الاستقلال وسداه العروبة ولكن هل قمنا بواجبنا كما تقضيه الجهود وهل عملنا لقوميتنا كما يتطلبه سعينا الحثيث

«اننا لا نزال نرى تأخراً في الاعمال وانحطاطاً في الاخلاق وخوراً في العزائم وفتوراً في الهمم ويمكن ان نلخص رأينا فيما يأتي :

١ — عدم قيام معظم الموظفين بواجبهم كموظفين يرون السعادة بقضاء الواجب

٢ — تدهور الآداب العامة

٣ — فتور في الروح القومية التي كانت تتأجج في الصدور زمن الاحتلال والانتداب »

ويلوح لنا ان لحملة المؤلف على الاعاجم صلة بالضجة التي ثارت عليهِ فقد جاء في الصفحة الثامنة ما نصه «اصبح العرب عموماً والعراق خصوصاً بسبب تسلط الاعاجم عليه في مامضى وكسبهم النفوذ بالقوة والوراثة في حالة يرثى لها من الافكار السقيمة والانحطاط في الذوق

والذي زاد الطين بلة النقص العظيم في تربية القائمين بالنهضة العربية حتى كأنا فيه غير عرب وكأن غيرنا في العراق وكأنا لم ندخل عصبة الامم»

ولقد كنا نفضل ان ينبري كتاب العراق وفضلاؤه لتفنيد ما فيه من آراء وأقوال يرون انها ضارة ويدحضون الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان بدلاً من الالتجاء الى هذا الاسلوب من مناهضة حرية الرأي ونخاف ان يؤدي الاستمرار فيه الى القضاء على الروح الحرة — لاسيما والعراق في مستهل نهضة علمية قومية — او الى قطع الطريق على الباحثين المفكرين فتحرم البلاد من ثمار قرائحهم

فطريقة محاكمة المؤلفين وسجنهم من بقايا العصور القديمة وقد عدلت عنها الشعوب الحرة وحبذا لو اخذ العراق وغيره بها فلا تشوب نهضته امثال هذه الشوائب

على طريق الهند

كتاب اخرجه للناس الاستاذ جميل عبد الوهاب المحامي في بغداد وطبعهُ في مطبعة الاهالي البغدادية وعدد صفحاته ١٧٦ بالقطع المتوسط وورقهُ جيد ولهُ ملحقان الاول للمصادر التي استمدَّ منها والثاني لاسماء الاعلام الواردة فيهِ ومكانها. ومدار البحث في سياسة انكلترا في العراق وتحليلها وبيان تاريخها ومكانتها

وهو في اربعة ابواب : فالباب الاول خاص بالكلام عن الخليج الفارسي : والباب الثاني يتناول مطامع المانيا الاستعمارية في الشرق الادنى : والثالث يحث مصالح انكلترا الاقتصادية في العراق : والرابع يعالج حالة الشرقين الادنى والاوسط بعد الحرب

والكتاب من الكتب النافعة التي تصح ان تكون مرجعاً للمشتغلين بالشؤون السياسية وما يحتاج اليهِ العرب في نهضتهم الحاضرة . ولوعني مؤلفهُ باتقان لغته ، ونقاه من الاغلاط النحوية والصرفة واللغوية — وهي غير قليلة — كما عنى بتبويبهِ واتقان طبعه وانتقاء ورقه لجاء اتقن واكمل. فمن الضروري ان تراعى اصول اللغة وقواعدها في تأليف الكتب العلمية النافعة لانها باقية ومجال التدقيق متسع لاصحابها فلا يستطيعون ان يعتذروا بضيق الوقت . وانتقادنا هذا لا يجرده من مزاياه الاخرى فهو جم الفوائد غزير المادة طافح بالابحاث التاريخية المفيدة ولعل مؤلفه يستدرك ملاحظاتنا في الطبعة الثانية ان شاء الله فيأتي كتابهُ مستوفياً لجميع الشروط المطلوبة ووافياً بالغرض سواء من جهة الشكل او من جهة الموضوع كما يقول المحامون في تعبيرهم



آثار العراق

عثرت بعثة المعهد الشرقي الاميركي على آثار نفيسة في العراق في مكان يدعى « التل الاحمر » يقع بين نهر دجلة وفرعه الديالا عند سفح الجبال الايرانية . واهم هذه الآثار دور يحسبها المنقبون جديرة بالعناية لأنهم لم يعثروا قبل ذلك على دور خاصة في العراق ، يرتد تاريخها الى نحو ٢٢٠٠ سنة قبل المسيح . بل ليس بالأمر اليسير العثور على مثل هذه الدور . لانها مبنية بالطوب المجفف بالشمس، فتهدمت وتفتت الطوب . وقد تجد احياناً مصرفاً او حماماً كان مبنياً بالطوب المشوي شيئاً كاملاً او بعض شيء فبقيت منه آثار ومعالم

ولكن بعض الدور ما يزال محفوظاً في حالة لا بأس بها ، ففي احداها كانت انقاض الجدران ترتفع الى علو اربع أقدام . يدخلها الانسان من الشارع الى فسحة صغيرة، تفضي من اليسار الى مساكن الخدم . ومن اليمين الى ردهة صغيرة فيها موقد . هنا تجد باباً يفتح الى الغرفة الوسطى . وفي جدار الردهة شباك سليم ، وهو اول شباك عثر عليه في حفريات بابلية . مساحته صغيرة لا تزيد على قدم مربعة ، ويرتفع عن مستوى ارض الغرفة نحو ست اقدام ، ولما كان مستوى ارض الغرفة يعلو نحو قدم عن مستوى الشارع خارج الدار فالشباك يعلو عن مستوى الشارع سبع أقدام. فالذي يريد أن يطل منه الى الداخل لا يستطيع ان يفعل ذلك من دون ان يقف على شيء يعلو قدماً او يزيد . ثم ان ارتفاعه سبع اقدام عن مستوى الشارع يمنع الرجل خارج الدار من ان يسدد الى محدثه من الداخل سهماً او خنجراً او أية اداة حادة

اما الغرفة الوسطى ، فتحتوي على مقعد يواجه الباب . وفي وسطها موقد وجد فيه رماد قديم ، وفي الغرفة الوسطى توجد ثلاثة ابواب مقنطرة، وقناطرها محفوظة سليمة الى الآن ، تفضي الى الغرفة المحيطة بها. اما الباب الذي قرب المقعد ، فيؤدي الى غرفة فيها فرنان لصنع الخبز يشبهان افران اليوم

والقناطر التي في هذه الدار جديرة بالعناية ومن الظاهر للباحث انها بنيت من دون « صقالة » خشبية ، ووجود القناطر في هذا العصر حقيقة جديدة، تضيفها هذه المباحث الى التاريخ ، فاكتشافها واكتشاف الشباك من الامور التي لم يتوقعها المنقبون

ومن أبعث المكتشفات على الدهشة في انقاض هذه البلدة التدبيرات الصحية المتخذة في مساكن النساء بوجه خاص ، وفي البلدة نفسها بوجه عام . فقد عثروا على

مراحيض مبنية بالطوب المشوي، ولها مصارف تتصل كلها بعضها ببعض حتى تصل الى البئر الكبيرة وهي بناء ضخم علوه متر وطوله ٥٠ متراً . اما ماء الحمامات فتتصل كذلك بهذه المصارف ، وفي كل مرحاض تقريباً إناء للماء مبني في أرض المرحاض

اما في غرفة الاستقبال فتجد دكة واطية فيها جرة تستعمل كمصرف او كاناء للماء الذي تغسل به ايدي الضيوف قبل تناول الطعام . وقد عثر تحت ارض الغرفة على خزانة للجواهر فيها قرص قطره خمس بوصات ، مصنوع من الفضة المخرمة، ومجموعة كبيرة من خرز العقيق واللازورد والجزع . ثم هنالك مجموعة من اقراص الفضة والأقراص تشبه في صنعها القرص الكبير ولكنها أصغر منه . وطوق لعنق كلب ، مصنوع من الفضة واللازورد . ومجموعة من التعليقات في أشكال حيوانات صغيرة مصنوعة من اللازورد ورؤوسها من الفضة وقد عثر أحد العمال ، اتفاقاً ، على جرة من الخزف تحتوي ٦٠ اناء من النحاس مختلفة الاشكال ، وزجاجتين ، واربعة مصابيح . واربعة مصافٍ واربعة خناجر ، وانبوباً عجيباً من النحاس ، طوله ٢٨ بوصة وقطره نصف بوصة ، وفيه ثقوب كثيرة في احد طرفيه ، والظاهر انه كان يستعمل لحسو شراب شمري (نسبة الى أهل شمر) يظن المنقبون انه البيرا او ضرب منها ، وتأييداً لذلك وجد على بعض الاختام الاسطوانية الشمرية القديمة صور تمثل الناس يحتسون هذا الشراب بالانابيب المذكورة

تعاون النبات والحيوان

الخصام والوئام ناموسان تخضع لهما الاحياء فتراها تتزاحم وتتخاصم يسلب بعضها بعضاً ويعيش بعضها بقتل البعض الآخر . او قد تتآلف وتتحالف ويعاون بعضها بعضاً على مبدإ الاخذ والعطاء والاشتراك في المنفعة. وقد يظن لاول وهلة انهُ ان كان في الطبيعة هجوم ودفاع واقتناص وافتراس فهو بين طوائف الحيوان . واما النبات فلا يعتدى عليهِ ولا يعتدي على احد ، وليس لهُ معيشة الاّ من عناصر التراب التي لا تشعر بالالم ولا تشكو من مصاب. لكن هذا الحكم لا يؤخذ على اطلاقهِ . فقد بيَّن داروِنْ ان بعض انواع النبات ينصب الشباك للحيوانات ويصطادها ويغتذي بها . وبديهيٌّ انهُ لا يحاول افتراس الوحوش بل الحشرات الصغيرة لكنَّ من النبات انواعاً اصغر من كل صغير، لا تراها العين ، وتعرف بالبكتيريا وهي التي تسبب الطاعون والهواء الاصفر والسلّ وغيرها وتفتك بالالوف من الناس والبهائم كلَّ عام

ثم ان العقل يدهش من رؤية نبات كبير يبسط اوراقهُ كأنها بسط وثيرة موشاة بالديباج حتى اذا لمستها ذبابة مجذوبة اليها بجمال منظرها انطبقت الاوراق عليها وضيقت خناقها الى ان تميتها ثم تمتصُّ دمها وتغتذي بلحمها، او من رؤية زهرة بديعة المنظر تنشر شذاها الطيب او ريحها الخبيث حتى تراها الحشرات وتغرى بمنظرها اوتشمُّ رائحتها وتنخدع بها وتظن فيها ارياً طيباً او لحماً منتناً فتقع عليها ولا تعود

تقوم بل تسكر سكرة الموت ويعمى الاكل اكلاً والمفترس فريسة

وظاهر الامر ان كل النباتات التي تصطاد الحشرات انما تصطادها لمنفعتها لكي تغتذي بها لا لغرض آخر . ولكن من النبات مايفعل ذلك مسخَّراً للحيوان اي انهُ يصطاد الحشرات لا لكي يغتذي بها هو بل لكي يغتذي بها الحيوان . مثال ذلك نبات صغير ينبت في بلاد الرأس في جنوب افريقية وهو يعلو اربع اقدام ولهُ اوراق دقيقة متشعبة مغطاة بهلبٍ عليهِ مادة لزجة اذا وقع الذباب عليها التصق بها فيستعمله الاهالي هناك لمسك الذبّان ولا ترى نباتاً منهُ الاّ والحشرات الصغيرة من البعوض ونحوهِ لاصقة باوراقهِ . وهناك نوع من العناكب ابطل نسيج البيوت واعتاض منها هذا النبات حاسباً انهُ نشأ لاجله . والمادة الدبقة التي تلصق بها الحشرات لا تلصق بها هذه العناكب فتبني لها أعشاشاً صغيرة بين اوراق النبات تبيض فيها وتربي صغارها وتأوي اليها فترصد فراشها كأن اوراق النبات خيوط البيوت التي تنصبها العنكبوت مصائد للذبان حتى اذا ساق ذبابة حتفها الى الوقوع على هذه الاوراق فلصقت بها هجمت العنكبوت عليها وافترستها غنيمة باردة

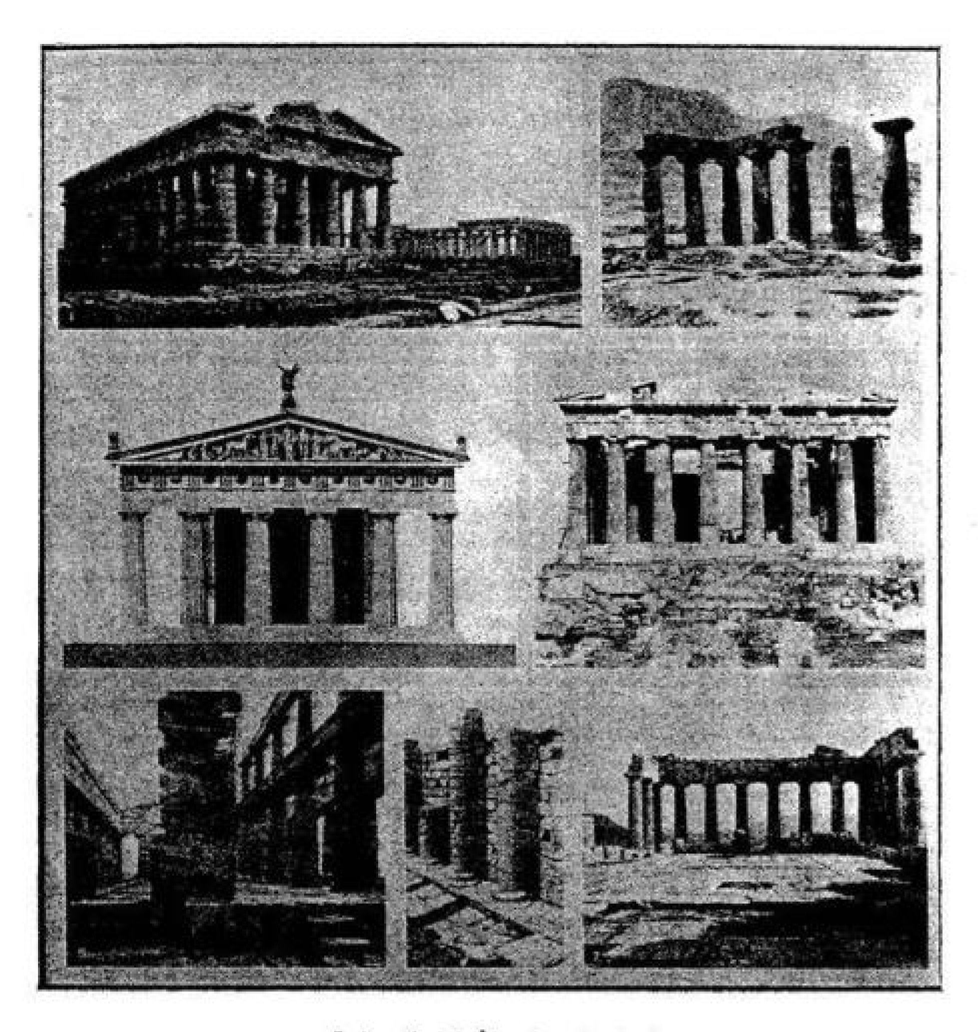
الفيتامين والأنيميا الخبيثة

يؤخذ من المباحث الطبية الحديثة ان فيتامين ب٢ ، قد يكون في المعدة ، ولكن عجزها عن هضمهِ يفضي الى الاصابة بالانيميا الخبيثة . وفيتامين ب٢ يوجد في اللحم والبيض واللبن (الحليب) والكبد وقشر الرز الخارجي والخميرة وسويداء حبة القمح . وقد يفقد الانسان العنصر اللازم لهضم هذا الفيتامين في عصارتهِ المعدية ، من دون ان يحسّ بألم او اي انذار آخر ، فتنشأ عن ذلك الاصابة بالانيميا الخبيثة . وهـذا العنصر الضروري لهضم فيتامين ب٢ ليس من حوامض العصارة المعدية ولا من خمائرها وفقده لا يمكن ان يدرك الاّ بكواشف بيولوجية دقيقة . وقد تفقد العصارة المعدية عناصرها الهاضمة العادية ، ولكن هذا العنصر الخاص يبقى ، فيهضم فيتامين ب٢ ولا يصاب صاحبهُ بالانيميا الخبيثة

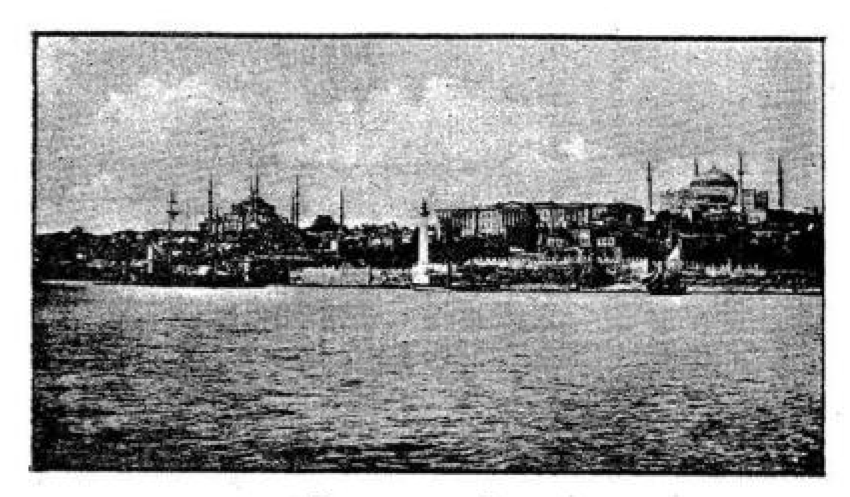
فاذا كان هذا العنصر مفقوداً من العصارة المعدية ، فأ كل الاطعمة الغنية بالفيتامين ب٢ لا يجدي نفعاً في منع الانيميا الخبيثة ، ولكن اذا شرب المصاب اوقيتين او ثلاث اواقٍ من عصارة معدية سوّية ، بعد ما يأ كل الاطعمة الغنية بفيتامين ب٢ يشفى من اصابتهِ

***

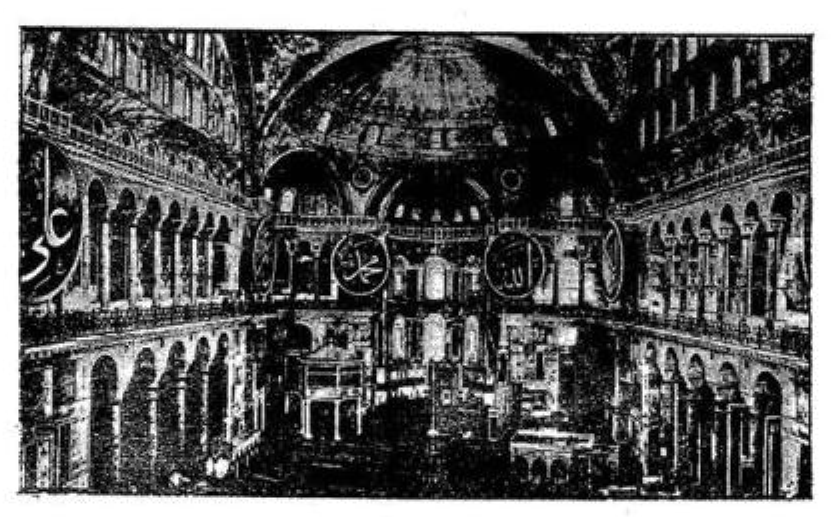
اما المرأة فتفقد هذا العنصر من عصارتها المعدية في الغالب في خـلال الحمل . فتصاب بانيميا الحمل . وتعود العصارة المعدية الى حالتها السوية بعد الولادة فتشفى من اصابتها ثم هنالك نساء يرغبن في الاحتفاظ برشاقة القد خلال الحمل فيمتنعن عن أكل الاطعمة الغنية بفيتامين ب٢ فتصبن بالانيميا ولو كانت العصارة المعدية سوّية



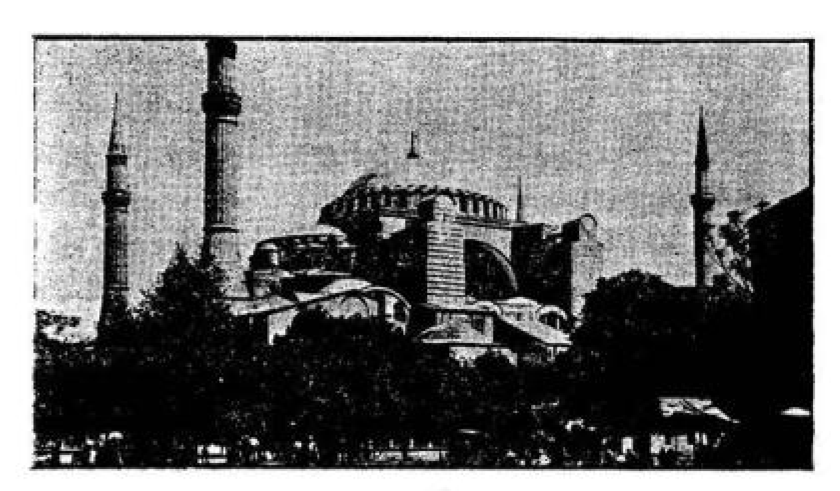
امثلة على عمارة الهياكل اليونانية



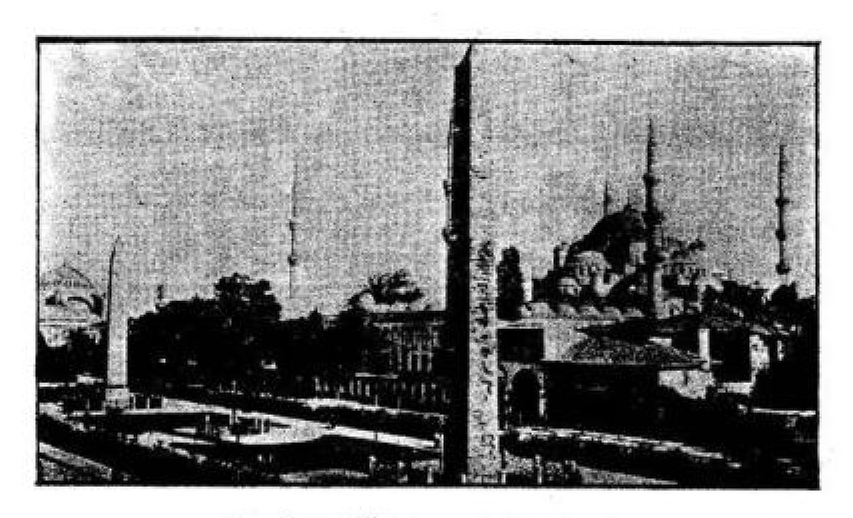
استانبول تحييك بقبابها ومآذنها



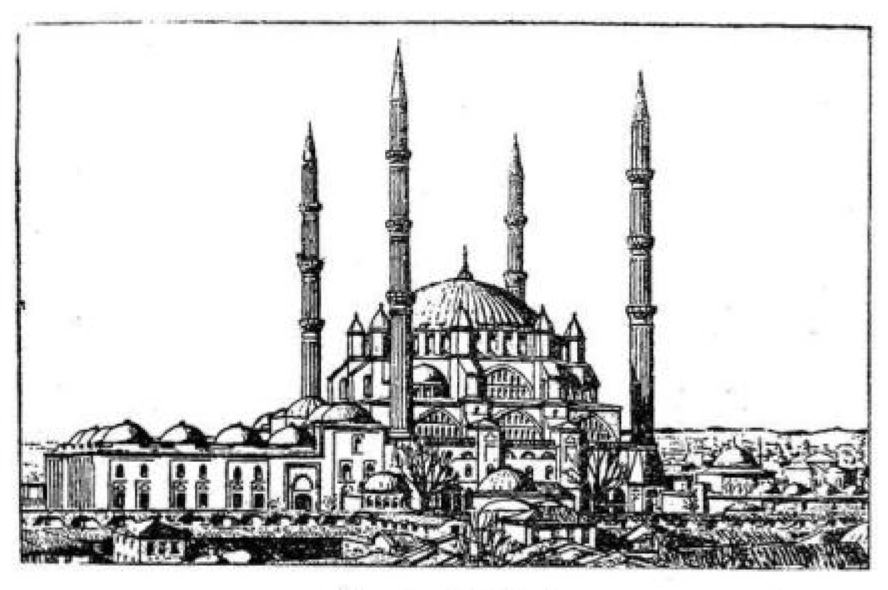
داخل مسجد آيا صوفيا



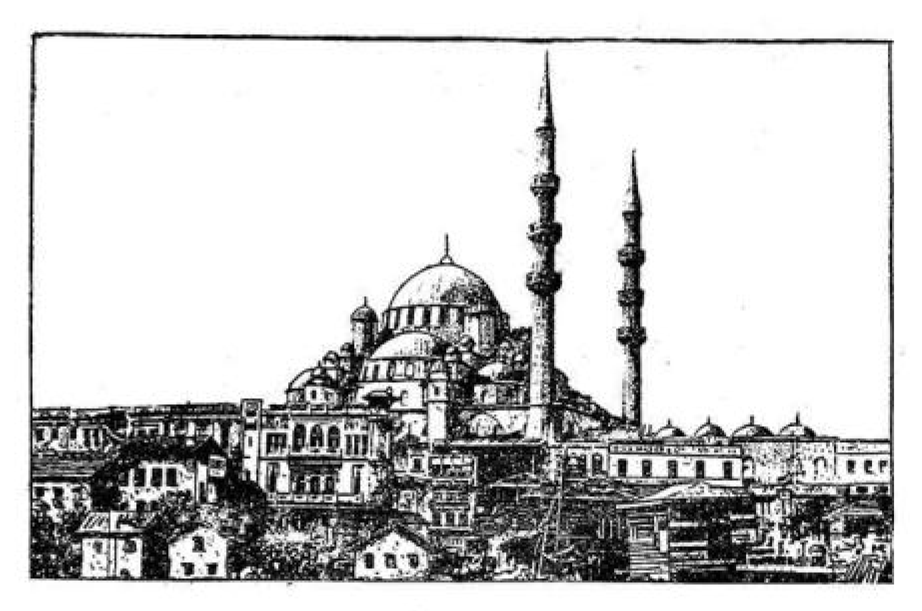
جامع آيا صوفيا



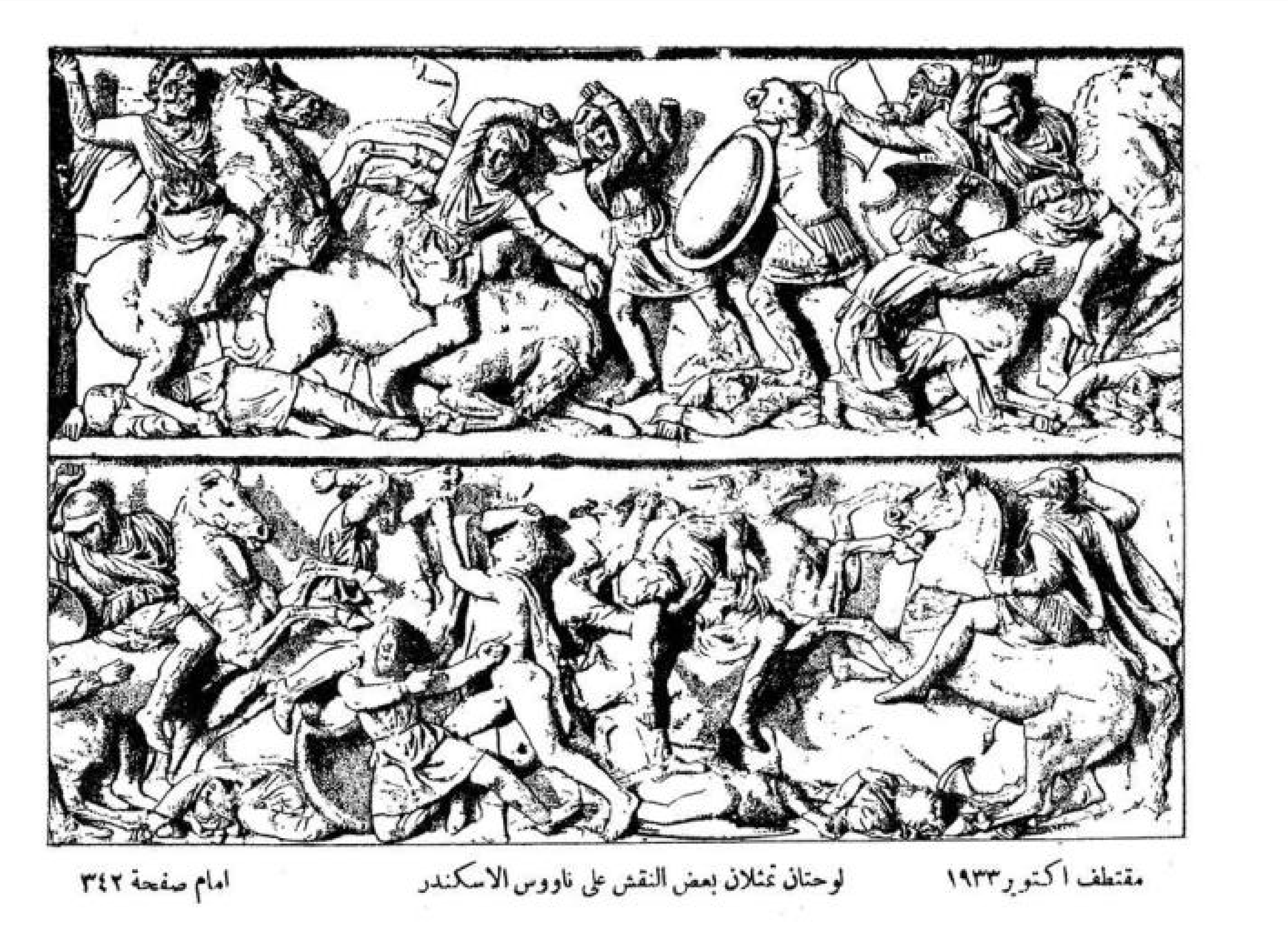
جامع السلطان احمد وامامهُ المسلة المصرية



جامع السلطان سليم بادرنه

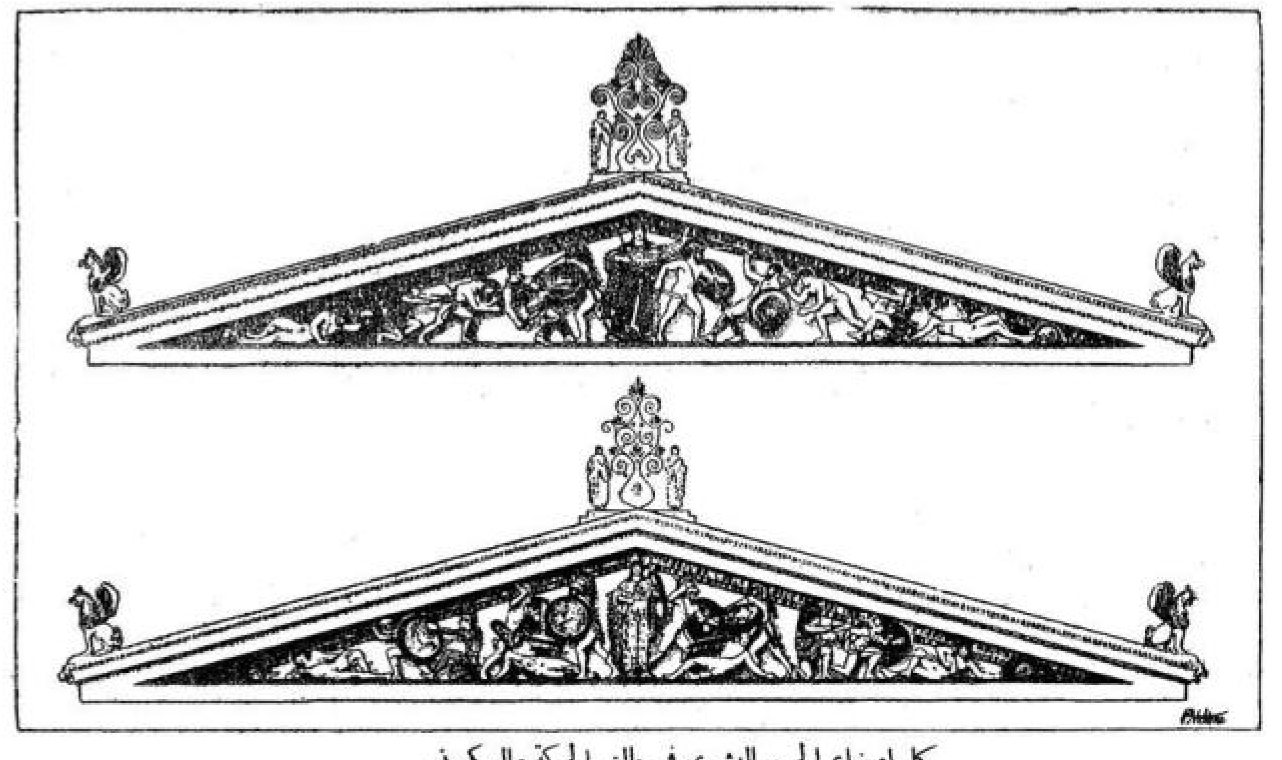


جامع بنی والدی

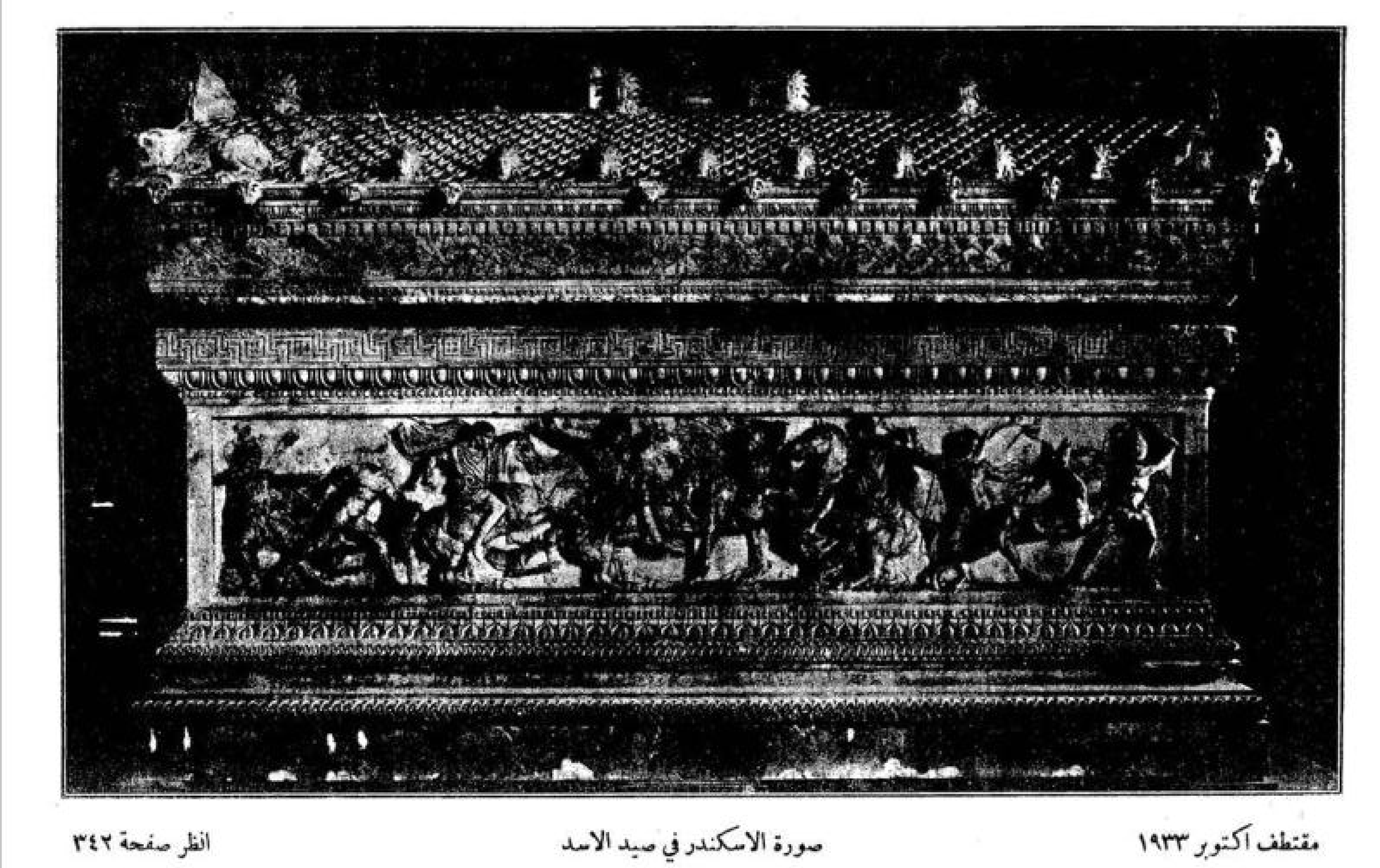


لوحتان تمثلان بعض النقش على ناووس الاسكندر

امام صفحة ٣٤٢

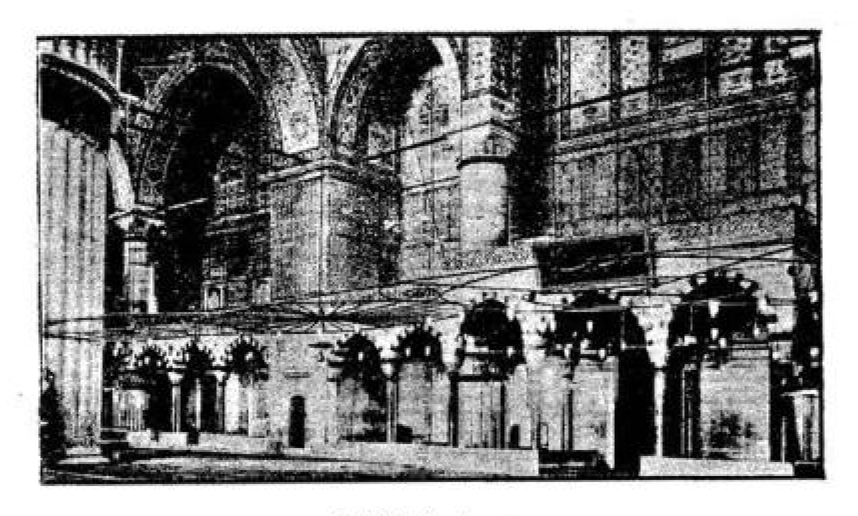


كل اوضاع الجسم البشري في حالتى الحركة والسكون

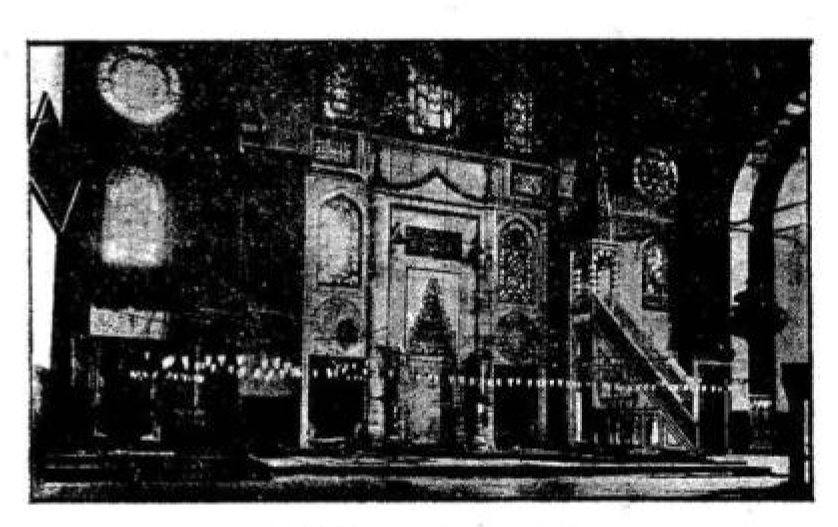


صورة الاسكندر في صيد الاسد

انظر صفحة ٣٤٢

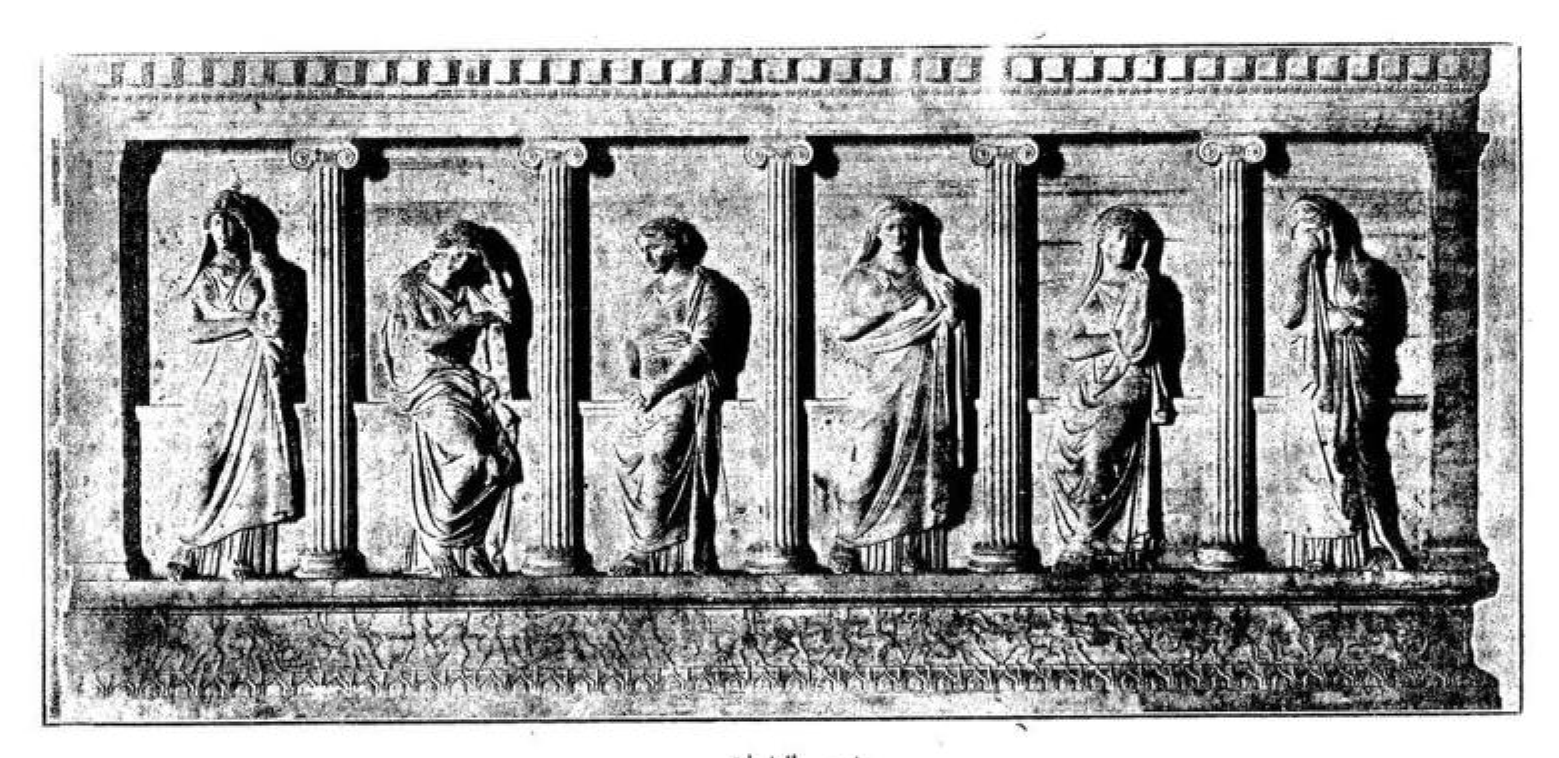


مدخل جامع السلطان احمد



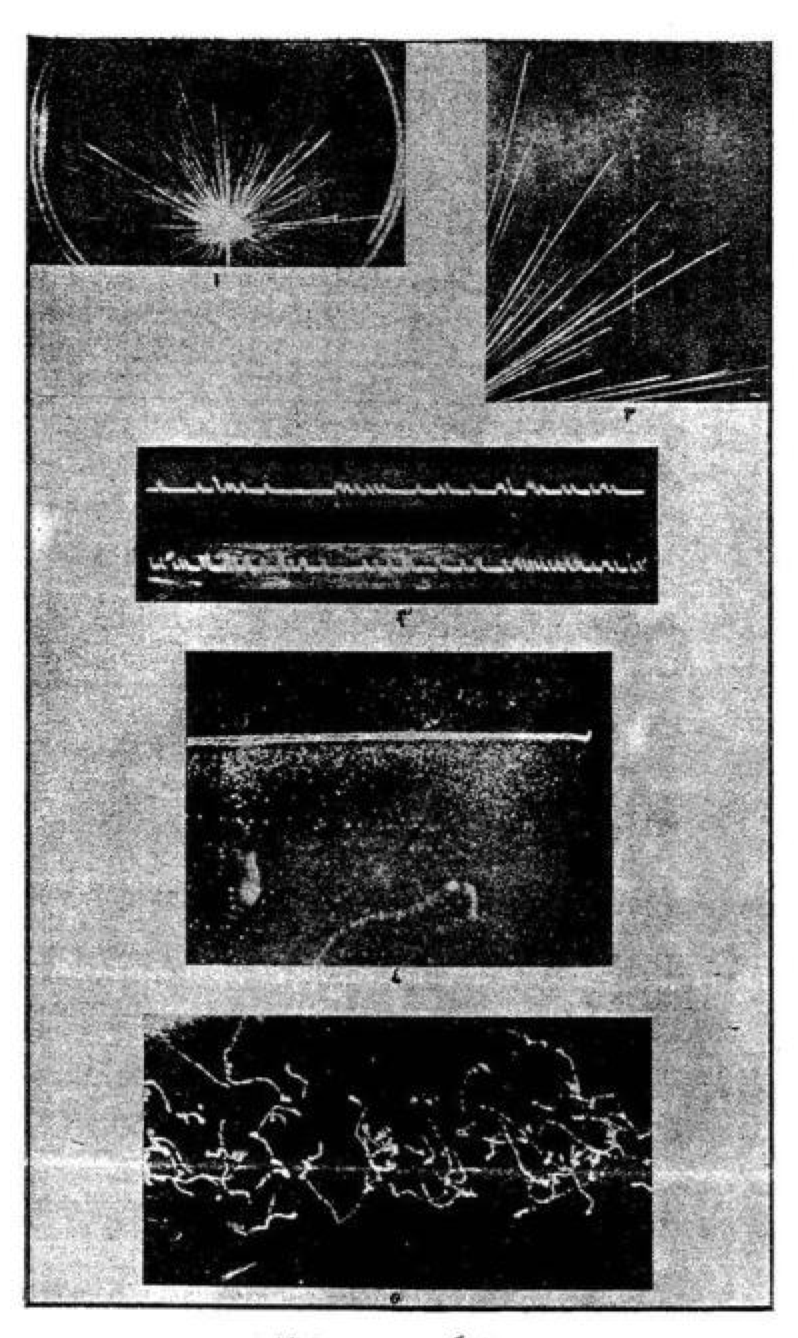
المحراب والقبلة في جامع السليمانية

مقتطف اكتوبر ١٩٣٣



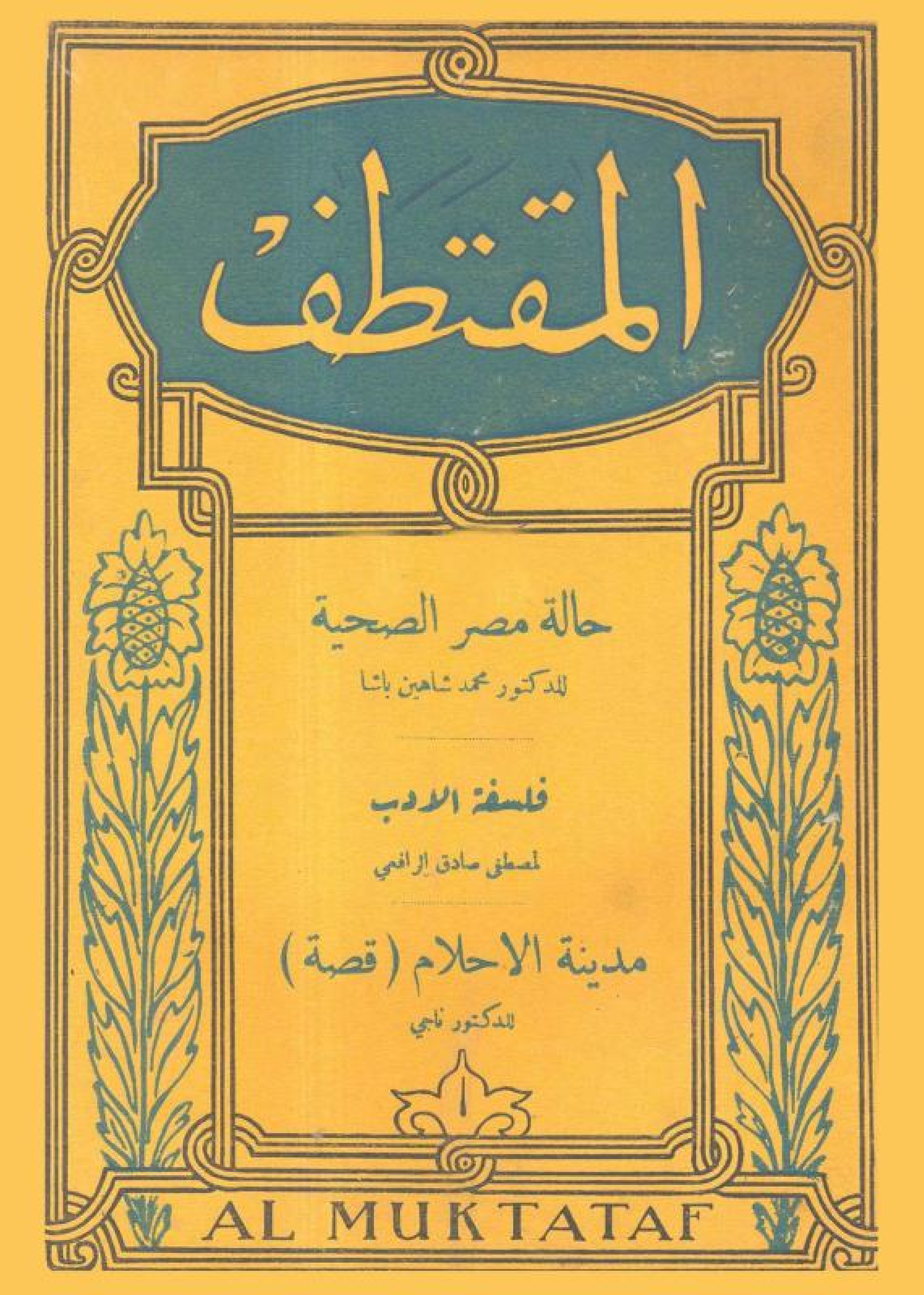
ناووس النادبات

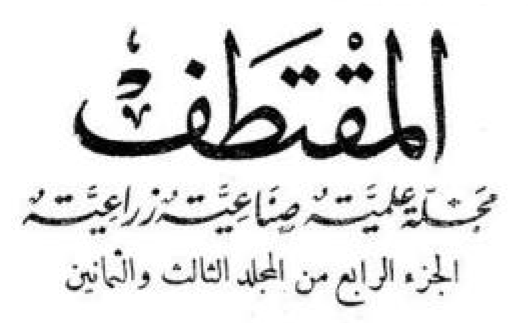
انظر صفحة ٣٤٢



معقل الذرّة — اللوحة الاولى

الجزء الثالث من المجلد الثالث والثمانين


المقتطف
حالة مصر الصحية
للدكتور محمد شاهين باشا
فلسفة الادب
لمصطفى صادق الرافعي
مدينة الاحلام (قصة)
للدكتور ناجي
AL MUKTATAF



المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الرابع من المجلد الثالث والثمانين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٣ — ١٣ رجب سنة ١٣٥٢

معقل الذرَّة

العلم يعدُّ الحملة لفتحهِ عنوةً

ما هي العناصر التي تدخل في بناء الذرة (Atom) ؟ وكيف تنتظم في هذا البناء ؟ وما هي القوى التي تربط بينها ؟ وما هو مقدار الطاقة في الذرَّة وايُّ موقعهُ منها ؟ انها اسئلة خطيرة في نظر من يهمه النفوذ الى اسرار الكون المادي ، وعلماء الطبيعة في انكلترا والمانيا وفرنسا واميركا وغيرها ، مكبّون على البحث يحاولون الاجابة عنها

الذرَّة في نظرهم كالمعقل المنيع ، وهم جنود الجيش المهاجم وقواده ، يبغون ان يفتتحوه عنوةً . حملوا على القلاع الخارجية (الالكترونات) فحطموها وثبتوا اقدامهم في ميدانها . وها هم اليوم يجمعون مدافعهم الضخمة ، وقذائفهم الفتاكة للحملة على قلب الحصن (النواة) حيث تستقرُّ الكنوز التي يبحثون عنها . لقد اطلقوا قذائفهم فأحدثوا ثغرات في الجدار . ولكنهم لا ينون عن الاستنجاد بمدافع جديدة ووسائل مبتكرة للحرب . وليس في امكان احد ان يعيّن اليوم الذي يظفر فيهِ الجيش ، ويدخل الحصن عنوة . ولكن سواء اطالت الحرب عشر سنوات او مائة سنة فلا بدَّ ان يمضي الجيش في حصاره حتى يحرز النصر . فالعلم لا يحسب حساباً للنفقة ، ولا يحجم عن بذل اي ثمن في سبيل الفوز

من نحو ٢٥٠٠ سنة عرض طاليس ، اول عالم حقيقي انجبته بلاد اليونان ، لحل اللغز الذي يدور حول بناء الكون المادي ، وقد مضى عليهِ مائة جيل الآن ، واللغز لا يزال لغزاً ظنَّ ديموقريطس واتباعه انهم وجدوا الحل المطلوب . قالوا ان كل شيء في الكون المادي

مبنيٌّ من جواهر فردة . فقالوا «حقًّا هناك جواهر فردة وفراغ» فالجبال والبحار والاشجار والناس ؛ بل والحياة نفسها ، مبنيةٌ ، في رأيهم من جواهر وفراغ . ولكن سقراط وافلاطون نبذها لهم ولم يسلِّما بجواهرهم . فقالوا ان التسليم بها يجرِّد الانسان من « شخصيته » ويدكُّ الاسس التي يقوم عليها ادب النفس . هناك في اثينا قامت المعركة الاولى بين العلم والدين . فانتصر ابيقوروس ولقريطوس للجوهريين . ولكنَّ افلاطون باء بالنصر . فأسدل ستار النسيان على القول بالجواهر الفردة حتى عهد الاحياء . ومع ان نظرياتنا الذرية الحديثة قائمة على اركان ارسخ من الاركان التي قام عليها مذهب ديموقريطس ومريدوه ، فلا ريب في ان اصول نظرياتنا ترتدُّ اليهِ ، محمولة على اجنحة الرواية والتدوين خلال العصور

طريقة الغرفة الغائمة

اذا ذهبت في نزهة خلوية واقت في مضرب على سفح جبل او سلسلة من الجبال استرعت نظرك ظاهرة طبيعية عجيبة . ذلك ان الهواء الدافىء على السهول يبرد اذ يرتفع ، فيشبع بالرطوبة فيتقلص البخار على دقائق الهباء المنثور في الهواء فتتكوَّن الغيوم

والراجح ان الاستاذ ولسن (C. T. R.) الانكليزي كان يشاهد مثل هذه الظاهرة في بلاده اسكتلندا ، اذ خطر له استنباط وسيلة علمية قائمة على مبدإ تكوُّن الغيم ليستعملها في مباحث الطبيعة الجديدة . فأخذ اسطوانة من الزجاج ليستطيع ان يرى ما يجري داخلها . ووضع فيها هواء ثم ضغطه وتركه مضغوطاً حتى تشبع بالرطوبة من ماء مجاور ثم رفع الضغط فتمدد الهواء فبرد في اثناء تمدُّدهِ . فتكونت غيمة في داخل الاسطوانة

ذلك انهُ في اثناء تكوُّن الغيمة في الطبيعة لا بدَّ للبخار المائي في الهواء من ان يتقلَّص على دقائق الغبار او الهباء في الهواء . فاذا سقط المطر ، سقطت قطيرات الماء مع الدقائق التي تكوَّنت عليها ، رأيت الهواء بعد المطر صافياً كل الصفاء . ولكن متى سقطت دقائق الغبار فعلى ماذا يتقلَّص البخار ? اننا نجد في الهواء دائماً قطعاً من ذرات وجزيئات تعرف بالايونات تحدثها اشعة منطلقة من مواد مشعة او من مصادر اخرى . كذلك اختار المستر ولسن ان يضع في اسطوانته دقيقة من الراديوم في احد طرفي الاسطوانة ليرى اي نوع من الغيوم يتكون فيها . فوجد خطوطاً بيضاً تشعُّ من المكان الذي فيه دقيقة الراديوم . ذلك ان الاشعة المنطلقة من الراديوم تمزق ذرات العناصر الهوائية فتترك في مسارها ايونات يتقلص عليها البخار الذي في الهواء . فكل خط ابيض شاعَّ من دقيقة الراديوم هو في الواقع غيمة

واذاً فلا مشاحة في ان ذريرات ما تنطلق من دقيقة الراديوم فتمزق ذرات العناصر الهوائية ، فما هي هذه الذريرات ?

اذا صوّرنا ما هو حادث داخل الانبوب استطعنا ان نتبيّنه . فالصورة رقم ١ في اللوحة الاولى تمثل جدران الاسطوانة (الخطين المنحنيين) ودقيقة الراديوم تشعُ منها الخطوط البيض ، وهذه الخطوط كما ذكرنا هي غيوم وفي الواقع سلسلة من قطرات الماء المتقلص على الايونات التي تركتها مقذوفات الراديوم في طريقها

فما هي هذه المقذوفات المنطلقة من دقيقة الراديوم ? لندعها دقائق الفا حتى لا يكون الاسم دليلاً على اية صفة من صفاتها لاننا لا نعلم عن صفاتها شيئاً ما . فاذا نظرت ايها القارىء الى الصورة رقم ٢ في اللوحة الاولى وجدت الخطوط البيض نفسها وهي اجلى لنا منها في الصورة السابقة . وكلّ منها يمثل مسار دقيقة من دقائق الفا . وقد كان اللورد رذرفورد (السر ارنست رذرفورد سابقاً) اول من جمع كمية من هذه الدقائق لكي يدرس خواصها. فاخذ «النيتون» وهو غاز مشعّ اقوى من الراديوم نحو مائة الف مرّة . وحفظ مقداراً من هذا الغاز في انبوب زجاجي ، رقيق الجدران ، بحيث تخترقها دقائق الفا . وبعد بضعة ايام ، اخذ الغاز المتجمع خارج الانبوب ، في انبوب آخر يحيط بهِ ، فلما امرَّ فيهِ شرارة كهربائية رأى بآلة الحلّ الطيفي (السبكترسكوب) طيفاً كالطيف الخاص بغاز الهليوم

الهليوم ودقائق الفا

اذاً هذه الدقائق — دقائق الفا — المنطلقة من الراديوم او النيتون هي ذرات الهليوم

وقارىء المقتطف يذكر هذا الغاز وكيف كشف في الشمس قبل كشفهِ على الارض : لاحظهُ اولاً السر نورمن لكيرَ في طيف الشمس ، وظلّ مجهولاً على الارض الى ان دقق راليه ورمزي الانكليزيان في دراسة كثافة النتروجين الهوائي فوجداها تختلف عن كثافة النتروجين المحضر في العمل . فبحثا عن سبب الفرق وقادها بحثهما الى العثور على خمسة غازات في الهواء كانت مجهولة من قبل ، احدها غاز الهليوم . هذه الغازات هي غازات الارغون الذي تملأ بهِ المصابيح الكهربائية لزيد تألقها ، وغاز النيون المستعمل في اعداد الاعلانات الكهربائية الحمرا ، وغاز الهليوم الذي تملأ بهِ اكياس البلونات لخفتهِ وعدم قابليتهِ للالتهاب ، وغازان آخران هما الكربتون والزينون ولهما شأن كبير في التجارب العلمية

وفي امكان الباحث ان يحصي عدد هذه الدقائق. فقد تحصى الخطوط البيض لان كلّ خط انما هو مسار دقيقة منها . وقد تحصى بطريقة كهربائية دقيقة اذ تحمّل كل دقيقة على تدوين أثرها على فلم متحرك . والصورة الثالثة في اللوحة الاولى تبين ذلك . فكل تعريج في الخطين المصورين هناك يمثل دقيقة أو واحدة من دقائق الفا

ولنفترض الآن اننا احصينا كل دقائق الفا التي اخترقت جدار الانبوب المحتوي على غاز

النيتون الذي استعمله رذرفورد . فما هو عددها ؟ اننا اذا اخذنا انبوباً زجاجيّاً بحجم الحمصة وملأناهُ هليوماً (الهليوم ودقائق الفا سواء او هما شيءٌ واحد) كان عدد الذرَّات في الانبوب ١٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ذرة

ولكي ندرك معنى هذا الرقم الضخم دعنا نرسم له صورة اخرى . لفظ يوليوس قيصر نَفَسهُ الاخير منذ نحو الفي سنة . فذرات الهواء وجزيئاتهُ التي زفرها يوليوس قيصر في اخرى زفراتهِ تبدَّدت في الجوّ وانتشرت مع الرياح والاعاصير والزوابع في اربعة اقطار المعمور . والامر الذي نرتاب فيهِ ان منها دقائق في هذه الغرفة التي نكتب فيها هذا المقال . ولكن علماء الاحتمال الرياضي يقولون ، اننا اذ نستنشق الهواء ، نستنشق ما لا يقل عن ست دقائق منها كلَّما تنفَّسنا

ويروى عن لورد كلفن ، العالم الطبيعي المشهور ، انهُ بعد ما القى خطبة في الذرَّات والجزيئات وقف احد تلاميذه وقال « ما رأيك يا استاذ في بناء الذرَّة » فقال كلفن متهكماً : « بناء الذرَّة ؟ الا تعلم ان اللفظ الذرَّة اي « Atom » من اصل يوناني معناه « لا ينقسم » فكيف يكون لها بناء » فيردُّ العالم العصري متهكماً على كلفن « هذا الضلال نتيجة معرفة كلفن للغة اليونانية »

فهل للذرة اقسامٌ ؟

الالكترون

انظر الى الصورة الرابعة من اللوحة الأُولى ، ترى في اسفلها مساراً متمعجاً ضئيلاً من النور ، فيبدو لك ان سبب هذا الخط قد يكون دقيقة اصغر من الدقيقة التي احدثت الخط المستعرض في اعلى الصورة . فاذا دعونا الدقيقة الثانية دقيقة الفا — كما فعلنا — فلندعُ الأُولى دقيقة بيتا ، ولنحاول ان نعرف ما هي

في الصورة الخامسة من اللوحة الاولى يرى القارىء طائفة كبيرة من دقائق بيتا انطلقت من جزيئات الهواء بوقوع الاشعة السينية عليها

اننا نعلم ان كل عنصر لهُ ذرَّات خاصة بهِ . فذرات الحديد تختلف عن ذرات الاكسجين وذرات هذين العنصرين تختلف عن ذرات الكربون او الايدروجين او الزرنيخ او الذهب . ولكن دقائق بيتا التي ترى صورها (في ص ٥ لوحة ١) متماثلة سواءٌ اكانت منطلقة من ذرات الاكسجين او من ذرات الحديد او من ذرات الزئبق . ولو ان الاشعة السينية وجّهت الى بيض مقلوٍ او ساعة من البلاتين لاطارت من ذراتها دقائق بيتا وكانت الدقائق في الحالين متماثلة . واذاً فدقائق بيتا تدخل في بناء كل اصناف المادة . وهي اقرب الى سرّ البناء المادي من الذرَّات

ولكن ما هي دقائق بيتا هذه ؟ انها تحمل شحنة كهربائية . انظر الصورة الأولى في اللوحة الثانية ترَ مساراتها مستديرة ولولبية ، وذلك بفعل مغناطيس قرّب من الآلة التي ولّدت فيها . ولو لم تكن حاملة لشحنة كهربائية لما فعل المغناطيس بها هذا الفعل

وقد قضى الأستاذ ملكن بضع سنوات يحاول ان يقيس الشحنة الكهربائية التي تحملها كل دقيقة من هذه الدقائق (راجع وصف التجربة في مقتطف يناير سنة ١٩٣٢ الصفحة ٦) فوجد ان شحنات كل الدقائق متساوية . وان الشحنة على الدقيقة الواحدة تعدل الشحنة التي يحملها ايون الايدروجين اذ ينحل الماء الى ايدروجين واكسجين بامرار تيار كهربائي فيه . ولما كانت دقيقة بيتا تحمل هذه الشحنة الكهربائية التي لا تتجزأ على ما نعلم دعيت الكتروناً فاشتهرت به ، وقد ترجمهُ المقتطف « كهرباً » ونحن الآن نستعمل اللفظين متبادلين

وقد وزن الالكترون فوجد ان وزنهُ صغير جدًّا ، فاذا قيس بوزن ذرة الايدروجين وهي اخف الذرات المادية المعروفة ، كانت نسبة الواحد الى الآخر كنسبة ١ : ١٨٤٥ واذاً فالحزر الذي حزرناه بان دقيقة بيتا هي اصغر من دقيقة الفا ، مطابق للواقع

والحقيقة ان الالكترون هو احد الاجزاء التي تدخل في بناء الذرّة . بل ان العلماء يستطيعون ان يحصوا عدد الالكترونات التي تحيط بقلب كل ذرّة ، فذرة الايدروجين لها الكترون واحد وذرة « الهليوم » لها الكترونان والليثيوم ثلاثة الكترونات والاكسجين ثمانية والحديد ستة وعشرون والاورانيوم اثقل العناصر وزناً اثنان وتسعون الكتروناً

النواة والبروتون

ولكن قصة الالكترون ليست الاّ نصف قصة الذرة . فالالكترونات انما هي دقائق الكهربائية السالبة . على ان كهربائية الذرّة متعادلة ، فلا هي سالبة ولا هي موجبة بل السالب فيها يعدّل الموجب . واذاً فيجب ان يكون فيها دقائق كهربائية موجبة تعدّل دقائق الكهربائية السالبة — اي الالكترونات . وقد اثبت رذرفورد واستن Aston في جامعة كمبردج ، ودمستر في جامعة شيكاغو وغيرهم ، ان الكهربائية الموجبة مركّزة في نواة صغيرة جدًّا في قلب الذرة . وان النواة مع صغر جرمها فيها كل وزن الذرة تقريباً

ثم ان تجارب استن ودمستر اثبتت ان وزن النواة ، في ذرات عناصر مختلفة ، كعناصر الاكسجين والنتروجين والصوديوم وغيرها ، انما هي اضعاف كاملة من وزن نواة الايدروجين . وهذا حملهم على الاعتقاد بأن الشحنة الكهربائية التي على نواة كل ذرة انما هي مضاعف تام للشحنة التي تحملها نواة ذرة الايدروجين

وقد حاول الباحثون محاولات مختلفة لصنع عنصر ما من عنصر آخر ، اي لتحويل

العناصر بعضها لبعض . والواقع ان هذه المشكلة هي مشكلة الكيماويين الاقدمين الذين حاولوا صنع الذهب من الرصاص . وكان اول من نجح في هذا التحويل رذرفورد ولكنهُ لم يصنع الذهب من الرصاص وانما استخرج الايدروجين من النتروجين ومن الالومنيوم ومن غيرهما من العناصر

وقد استعملت دقائق الفا في اطلاقها على نوى الذرّات من العناصر المختلفة ، فكان يخرج منها دقائق تماثل الالكترونات في تشابهها . وكانت كلها مثل نواة ذرة الايدروجين. فعرف انها من اللبنات الاساسية في بناء المادة . ودعيت بالبروتونات

فمن الالكترونات والبروتونات تبنى العناصر الاثنان والتسعون

بناء الذرة

كان بطليموس يعلم ان في السماء شمساً وقمراً وارضاً وسيارات . ولكنهُ لم يكن يعرف ماهو النظام الشمسي فلما اثبت كوبرنيكوس وغاليليو ان هناك شمساً تدور حولها السيارات في افلاك محدودة ، احسَّ الناس بانهم اصبحوا يعرفون شيئاً عن عالمهم . ونحن كذلك ، قد كشفنا الالكترونات والبروتونات التي منها تبنى الذرات . ولكننا لانعلمُ بحقيقة الذرّة الاّ اذا عرفنا كيف تنتظم الالكترونات والبروتونات في بناء الذرّات . ولعلَّ افعل الوسائل للالمام بأمر هي مشاهدته . فاذا كان كساعة اليد ، كانت المشاهدة ميسورة . وأما اذا كان كخلايا النسيج العضلي وجب ان ننظر اليهِ بالمكرسكوب . ولكن من الاجسام ما لا يرى بالمكرسكوب. فتستعمل طريقة التصوير بالاشعة التي فوق البنفسجي ، وهي اقصر امواجاً من اشعة الضوء. كذلك تظهر الجراثيم المعروفة بباشلس الحمى التيفودية . ولكن الذرات اصغر من كل هؤلاء . فلا المكرسكوب يظهرها ولا التصوير بالاشعة التي فوق البنفسجي

بيد ان الاشعة السينية (اكس) قصيرة الامواج جدًّا . فوجتها اقصر نحو عشرة آلاف مرة من موجة الضوء . فاذا استعملت في مكرسكوب امكن ان نرى الذرات بها [1] ولكننا لا نستطيع ان نصنع عدسات تكسر اشعة اكس لقصرها ، ولا عيوننا حساسة بها . حتى اذا انعكست عن جسم دقيق لم نستطع ان نراهُ بها. وعلى ذلك يبدو لنا كأننا لن نتمكن من رؤية الذرات على الاطلاق

ولكن العلماء كشفوا عن طرق تمكنهم من الحصول على الحقائق التي يبغونها —كأنهم شاهدوا الذرات مشاهدة العين

(١) لرؤية جسم ما يجب ان تنعكس عن سطحه امواج الضوء . فاذا كان اصغر منها لم تنعكس عنه ولم تمكن رؤيته . ولذلك كلما صغر الجسم المراد رؤيته استعملت امواج قصيرة

قال الاستاذ كمطن [1] انهُ كان يقضي عطلة الصيف في شمال ولاية مشيغن ، فلاحظ في ذات ليلة هالة شعثاء حول القمر . وبعد نصف ساعة لاحظ ان الهالة قد صغرت . وبعيد نصف ساعة اخرى سقط المطر . وتعليل ذلك ان اشعة القمر تكسرت على قطيرات الماء التي في الفضاء ، وكانت قد بدأت تتحول الى غيمة . فقطر الهالة يتوقف على اقطار القطيرات. فاذا كانت القطيرات صغيرة كانت الهالة كبيرة . واذا كانت القطيرات كبيرة كانت الهالة صغيرة. لذلك لما بدأت الهالة تصغر ، عرف الاستاذ كمطن ان القطيرات آخذة في الكبر ، وان المطر لا بدّ ساقط بعد قليل . وقد ايد الواقع ظنه

فطريقة العلماء في درس الذرات شبيهة بالطريقة المستعملة لمعرفة حجوم قطيرات الماء في غيمة من الغيوم . فبدل القمر يستعمل انبوب الاشعة السينية . وبدل قطيرات الماء في الغيمة تستعمل ذرات عناصر الهواء او ذرات الهليوم . لان النسبة بين موجة الاشعة السينية وحجم ذرة الهليوم ، كالنسبة بين موجة الضوء وحجم القطيرات في الغيمة . فاذا وقعت الاشعة السينية على ذرة الهليوم فرقتها فتتكون هالة حولها كما تفعل قطيرة الماء بأشعة القمر . فالهالة حول ذرة الهليوم تماثل الهالة حول القمر . فاذا قسنا قطر الهالة ، امكن ان يستنتج قطيرات الماء ، او قطر ذرات الهليوم

في الصورة الثالثة من اللوحة الثانية صورة تمثل شكل الذرة كما ترى اذا شوهدت بمكرسكوب تستعمل فيهِ الاشعة السينية . والصورة مبنية على المعلومات التي جمعها العلماء من درس الذرة الهالة . وهي لا شك مكبرة كثيراً — نحو الف مليون مرة . وعلى هذا القياس تصبح حبة الحمص ككرة الارض

ففي قلب هذه الكرة الشعثاء نواة الذرة ، المحتوية على البروتونات. والجوّ الاشعث حولها سببهُ الكترونات . وذرة الهليوم لها الكترونان . فيقول القارىء عجباً، كيف يمكن ان يولّد الكترونان دقيقان جداً هذا الجوّ الاشعث حول هذه الكرة . والواقع انك اذا اخذت مشعلاً بيدك وادرتهُ رأى الواقف امامك هالة تامة من النور . والالكترونات تدور حول النواة دوراناً سريعاً فنحن لا نستطيع ان نرى الالكترونات بحدّ ذاتها ، او نعيّن مواقعها ، حتى ولو تمكنا من مشاهدة الذرة

وقد ذهب العلماء نحو ٥٧ مذهباً في شكل الذرة وطريقة بنائها . فلورد كلفن حسبها شبيهة بحلقة من الدخان . والسر جوزف طمسن بكرة من الهلام . ورذرفورد بالنظام الشمسي وحدّد بور وسمرفلد بالحساب الرياضي افلاك الالكترونات حول النواة . واعترض لوس ولنغميور

(١) الكتاب السنوي للمعهد السمثصوني سنة ١٩٣١ صفحة ٢٩٣ وهذه المقالة ملخصة بتصرف قليل عن محاضرة له في الكتاب

الاميركيان على ذلك فقالا ان الذرة بناء مكعّب . وقال لند Lande بل انها جسم لهُ اربعة سطوح مثلثة Tetrahedron وقال شرويدنغر انها جوّ اشعث من الكهربائية حول نواة مركزية وقال هيزنبرج بل جوّها الكترونات تسير آناً هنا وآناً هناك من دون ضابط

كل نظرية من هذه النظريات لقيت من التأييد بقدرما عللتهُ من خواص الذرّات الطبيعية والكيمائية والطيفية . وكل نظرية لاحقة كانت تفوق النظرية السابقة ، لانها كانت تعلّل كل ما تعللهُ سابقتها وعلاوة على ذلك تعلّل ظواهر جديدة لم تعلّلها النظرية السابقة. وقد نكون شديدي التفاؤل اذا قلنا ان احدث هذه النظريات — نظرية هيزنبرج — هي النظرية النهائية ولكنها على كل حال تجمع ما نراه بعيون الاشعة السينية كما بسطناه

فهل يعني ماتقدم اننا حللنا مشكلة بناء الذرّة ? كلاَّ . اننا لانعلم الاَّ شيئاً عامًّا عن الجوّ الكهربائي الذي يحيط بنواتها

اما النواة فما هو بناؤها ?

وقد يقول القارىء ولماذا تقيمون وزناً كبيراً للنواة الصغيرة ? والجواب على ذلك ان دقائق الفا تنطلق من نواة ذرّة الراديوم . فهل خطر لك ان طاقة هذه الدقائق عظيمة جدًّا ? ان طاقتها تفوق مليون مرة الطاقة التي تنطلق من انفجار جزيء من المادة المفرقعة المعروفة بـ (T. N. T.) ونحن لا نحس بهذه الطاقة العظيمة ، لأن الدقائق تنطلق من النواة ، واحدة بعد أخرى ، بل ان حرارة النجوم ، والطاقة العظيمة التي تطلقها ، يسندها العلماء الى هذه الطاقة المخزونة في نوى الذرات

فهل يستطيع الانسان ان يطلق الطاقة من مخازن النوى ? ليس الحكم الآن بالأمر الميسور وإنما نعلم ان هناك طاقة عظيمة وان الادلة تشير الى انطلاقها في الشمس والنجوم ، في أحوال خاصة من الحرارة والضغط ، قد لا نستطيع تحقيقها على سطح الارض . وعلى كل حال ان العبء الواقع على كواهل علماء الطبيعة هو ان يكشفوا لنا هل في الامكان استعمال هذه الطاقة ، وكيف يمكن ذلك. فاذا شاء علماء الطبيعة ان يعرفوا الأحوال التي يمكن فيها ، اطلاق الطاقة من نوى الذرات وجب ان يزيدوا علماً ببناء النوى نفسها لان الطاقة مخزونة فيها

***

لقد اسفرت المعارك الاولى حول معقل الذرة عن تحطيم الحصون الخارجية . فالعلماء يعرفون الآن على وجهٍ من الدقة ما تهمهم معرفتهُ من الجوّ الالكتروني الذي يحيط بالذرة ، وبنائهِ وخواصهِ . وقد تمكنوا من معرفة شيءٍ يسير جدًّا عن النواة . ولكن حصنها ما يزال منيعاً واخذه عنوة ، هو غرض الحملة التي ينظمها علماء الطبيعة في انحاء العالم

الهموم

للاستاذ مصطفى صادق الرافعي

[تدفق حياة الانسان بين شاطئين يمتدان من غياهب الماضي الى غيب المستقبل . . . احدهما شاطيء من الانسانية والآخر شاطيء من رحمة الله وبينهما تجري الحياة الى غايتها متغيرة متجددة متدافعة لا تثبت قطرة منها على قطرة . متى قرر الانسان ذلك في قلبه عرف ان ما يلم به من اكدار الحياة انما هو من اسباب الحياة وان هذه الاكدار يحملها النهر عنه فيما يحمل]

ترى النهرَ ينسابُ عن شاطيءٍ ليُجريَه الشاطيء المستقرْ
كذا يتدافعُ بحرُ الحياةِ فإنٍّ له رحمةَ الله بَرْ
لآمنتُ يا ربِّ مثلَ الصغيرِ وراء الوجودِ ابوه الابرْ
نَفِرُّ من الهمِّ في زعمِنا ولكنَّهُ هو منا يَفِرْ
ومنذا رأى في السماء الغيومَ تقيم بها ابداً لا تمرْ ؟

***

وهل في الوجودِ سوى سائرٍ تدافعَ : شيءٌ لشيءٍ يجُرْ ؟
فمن عرف الكونَ عرفانَهُ ففي كل حالٍ له ما يَسرْ
تعيشُ على الارض جُرذانها فكيف تعيش وفي الارض هرْ ؟
لَعَمْرُكَ ما تستقرُّ الهمومُ على مؤمنٍ رُوحُه فيهِ حُرْ
ومنذا رأى في السماء الغيومَ تقيم بها ابداً لا تمرْ ؟

وفي الدهر يسرٌ وفي الدهر عسرٌ وفي العمر حلوٌ وفي العمر مرُّ
ولكنها حركات الحيا ة منها الحياة لنا تستمرُّ
ويأتي الشتا اغبراً كالحاً لأن الربيعَ بهِ مُستسرُّ
فلا دام في نفعهِ نافعٌ ولا دام في ضرّه ما يضرُّ
ومنذا رأى في السماء الغيومَ تقيم بها ابداً لا تمرُّ ؟

***

فكن مرحاً لا تقرُّ الأسى فعادةُ كلِّ امرىءٍ ما يُقرُّ
وما مرَّ حظك إلاَّ لديك بلى فرحُ القلبِ للحظِّ مرُّ
تعودُ الحياة هلاكاً لمن اراد الحياة على ما يُصرُّ
تخذها حصى إن تكن من حصىً ودُرّاً اذا كان في الحظِّ درُّ
ومنذا رأى في السماء الغيومَ تُقيم بها ابداً لا تمرُّ ؟

***

ولا تزدِ الشرَّ في وهمه بوهمكَ ، ذاتكَ شرٌّ وشرُّ
خفافُ السحابِ تطيرُ البروقَ وترمي الصواعقَ إذ تكفهرُّ
وهذي الهمومُ كمثلِ النساء يضاعِفُهنَّ خيالٌ يغرُّ
حَصاةٌ وينقُلُ بالقلب مِنْ توهمها جبَلٌ مُشمخِرُّ
ومَنذا رأى في السماء الغيومَ تقيمُ بها ابداً لا تمرُّ ؟

السلاح والحرب والعمران

بحث ضاف في موضوع نزع السلاح

بعد الحرب الكبرى

وعود وعهود

اشتبكت دول الأرض في الفترة بين سنتي ١٩١٤ و ١٩١٨ في حرب قيل انها سوف تكون القاضية على الحرب . وتعهدت كل أمة لابنائها بانهم اذا ساهموا معها وحاربوا حتى تفوز بالظفر ، كان ظفرها اذا أحرزته، محرراً للعالم من حروب اخرى ، تهددهم في حياتهم وارزاقهم . وقد قطع مثل هذا العهد في الغالب ، في دول الحلفاء على ان ينفذ في حالة انتصارهم على المانيا وحلفائها . ذلك ان دول الحلفاء ادّعت انها ترمي الى عقد صلح خال من أثر المصلحة الخاصة ، وانها لن تدخر وسعاً في اتخاذ كل الوسائل اللازمة لتوطيد أواصر الصداقة والتعاون بين كل الأمم على السواء . فغداة النصر العظيم ، قدّمت جمعية الأمم ، هدية للعالم ، على أنها الوسيلة التي تحقق العهود التي قطعوها . ومن السخرية ان ترى في معاهدات الصلح المحتوية على بنود تنطوي على الاقتصاص من الدول المقهورة وتوقيع الجزاء عليها ، بنوداً اخرى يتعهد فيها الحلفاء بنقص السلاح او الغائه في عالم ، قد انقذ من خطر الحرب ! ! وفي الوقت عينه فرض تخفيض السلاح — في الذخائر والرجال — تخفيضاً كبيراً على الدول المقهورة ، في معاهدات الصلح وسهر على تنفيذه تنفيذاً دقيقاً . على ان الحلفاء المنتصرين تعهدوا بنزع سلاحهم نزعاً سريعاً . وكان من الامور المفهومة والمعترف بها ، ان فرض تخفيض السلاح على المانيا وحلفائها ، يجب ألاّ يضعها في مقام ثانوي دائم ازاء الدول الظافرة في شؤون التسليح بل يجب ان يكون خطوة اولى ، او توطئة لنزع السلاح العام القائم على ضمانات السلام كما هي ممثلة في جمعية الامم

***

وقد ادعى بعضهم ، ان نزع السلاح الذي فرضته معاهدات الصلح على المانيا واحلافها السابقين ، له اساس شرعي . ولكن عهود الامم الظافرة قطعوها من تلقاء ذواتهم لم يرغمهم أحد عليها ، وكانت قائمة على شروط يجب ان تتم قبل ان تنفذ . اي ان عهود الحلفاء ليس لها اساس

شرعي قانوني يوجب تنفيذها واذن فلا يمكن ان تتخذ الوسائل لارغام الحلفاء على تنفيذها. ثم انه يشترط في تنفيذها تحقيق امور اخرى لابد من تحقيقها لضمان السلام . فبحسب رأي هؤلاء ان جمعية الامم ، رغماً عن معاهدات عدم الاعتداء التي عقدت سنة ١٩١٩ الى الآن، لا تكفي لتحقيق الشروط التي لا بد من تحقيقها قبل ان يقدم الحلفاء الظافرون على نزع السلاح بحسب ما تعهدوا في معاهدات الصلح

وهذا سفسطة ومداورة ممن يريد ان يتملص من العهود التي قطعها على نفسه

ذلك ان بنود معاهدات الصلح ودستور جمعية الامم لا تحتمل مثل هذا التأويل . فقد كان المقصود المفهوم عند الرئيس ولسن سنة ١٩١٩ وعند شعوب العالم — وبوجه خاص عند شعوب الدول المركزية ، اي المانيا واحلافها حينئذٍ — ان دول الحلفاء ، بفرض نزع السلاح في الحال على الدول المقهورة ، انما كانت تقطع عهداً خشوعاً ، بانها تقدم على نزع السلاح في بلدانها . وكل تأويل غير هذا التأويل ، يجعل النظام الذي بني او اقترح بناؤه لضمان السلام ، كأنه قائم على رمل السخافة المنهار . لانك اذا جعلت ضمان السلامة أساساً لنزع السلاح ، فقد ناقضت نفسك بنفسك ، لانه ما زالت الامم كلها شاكية السلاح ، فمن يستطيع ان يضمن سلامته ؟ وإذن فمن وجهة الضرورة التاريخية ، كان يجب على دول الحلفاء ان تنزع سلاحها رويداً رويداً حتى تفضي بها الحال في النهاية الى المساواة بالمانيا

ونحن نفهم ان العملين يجب ان يسيرا جنباً الى جنب ، وانه في الوقت الذي تتوسل فيه الامم بكل الوسائل لنقص سلاحها، يجب ان تتوسل كذلك بكل الوسائل لبناء نظام من التعاون وضمان السلامة المتبادلة ، من ناحيتيها الايجابية والسلبية، بالاتفاق على التعاون في حرب ضد دولة معتدية من ناحية ، وبالاتفاق على ازالة كل بواعث التصادم من ناحية اخرى

ولكن القول بوجوب تقديم ضمان السلامة على نزع السلاح ، قول لا يقوم على اساس وتغلّبهُ في النهاية ، كان سبب الحبوط الذي مني بهِ مؤتمر نزع السلاح

ارقام واحصاءات

وقد مضت الآن خمس عشرة سنة على نهاية الحرب الكبرى ، وفي خلال هذه السنين كلها ، كانت الدول تتناقش ، وتدور في مناقشاتها في جمعية الامم والمؤتمرات الدولية ، حول موضوعي السلامة ونزع السلاح، «دوران الحمار حول التوتة» .ففي سنة ١٩٢٠ انشأت جمعية الامم لجنة استشارية دائمة للبحث في موضوع نزع السلاح . واجتمعت دولة السوفييت مع دول البلطيق في مؤتمر خاص بها للبحث في الموضوع سنة ١٩٢٢ ثم عقدت معاهدة وشنطن البحرية في السنة نفسها بين الولايات المتحدة الاميركية والامبراطورية البريطانية وفرنسا

وايطاليا واليابان ، وكان الغرض منها ان تكون الخطوة الاولى في برنامج واسع النطاق لنزع السلاح البحري في العالم قاطبة . ثم عينت اللجنة التمهيدية للبحث في شؤون نزع السلاح توطئة لعقد مؤتمره

***

فما هي حالة الجيوش والأسلحة العالمية الآن ؟ لنبدأ بذكر بعض الحقائق الظاهرة ، المرتبطة بهذا الموضوع

قدرت اللجنة الخاصة في جمعية الامم ان ما انفقته الدول سنة ١٩٢٤ على التسليح ، بلغ نحو ٣٥٠٠ مليون ريال (نحو ٧٠٠ مليون جنيه) وانه بلغ سنة ١٩٣٠ — ٤١٢٨ مليون ريال اي اكثر من ٨٠٠ مليون جنيه . وقد وصلت اللجنة الى هذه الأرقام ، بجمع نفقات التسلح المنصوص عليها في ميزانيات ٦٢ دولة . واللجنة لا تدعي في تقديرها انها بلغت حد الدقة . ولكن التقدير قريب من الواقع قرباً يصور للمطلع عليه ، مدى الاستعداد الحربي في تلك الدول . وهذا يدلك على ان الامم رغماً عن كل المؤتمرات التي عقدت ، والعهود التي قطعت ، والتصريحات التي نشرت ، لم تتقدم كثيراً نحو تحقيق الهدف الذي نصبته امام عيونها في معاهدات الصلح ، اي نحو نزع السلاح العالمي او نقصه . ذلك ان نفقات صنع الاسلحة ، كانت سنة ١٩٣٠ أعلى منها في سنة ١٩١٣ ، ولكنها كانت أقل منها في سنة ١٩٢٥ ، فالزيادة في مجموع ما أنفق على التسلح سنة ١٩٣٠ بالمقابلة مع سنة ١٩٢٥ كانت في الواقع اكبر من الفرق الذي يطالعك به الارقام

وليست المقابلة بين نفقات التسلح في سنة ١٩٣٠ و ١٩١٣ مستطاعة الآن وانما المستطاع المقابلة بينهما فيما يخص بعض الدول الكبرى . فنحن اذا أخذنا سنة ١٩١٣ أساساً للمقابلة ، — وكانت نفقات التسلح عالية جداً ، لاستعداد الدول الكبرى للحرب ، وتوقعهم لها — وجدنا أن ثلاث دول من الدول الكبرى — اي بريطانيا وفرنسا وايطاليا — انفقت في سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ نحو ٩٠٠ مليون ريال في حين أن هذه الدول نفسها ، أنفقت سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ رغم ظفرها التام في الحرب الكبرى نحو ١٢٥٠ مليون ريال ، وهي زيادة تقدر بنحو ٤٠ في المائة

ثم ان الولايات المتحدة الاميركية أنفقت ٢٤٥ مليون ريال على التسلح سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ فزادت هذه النفقات في سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ الى ٧٢٨ مليون ريال والزيادة تبلغ نحو ٢٠٠ في المائة

أما اليابان فزادت نفقاتها من ٩٦ مليون ريال الى ٢٣٢ مليوناً وهي زيادة نحو ١٥٠ في المائة . وزادت دولة السوفييت نفقاتها من ٤٤٨ مليون ريال الى ٥٧٩ مليوناً اي نحو ٣٠ في المائة . يقابل ذلك أن ارتفاع اسعار النقود يجعل الزيادة اقل قليلاً مما تبدو في الارقام

اما المانيا ، التي فرض عليها نزع السلاح ، في معاهدة الصلح فقد نقصت نفقاتها من ٤٦٣ مليون ريال سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ الى ١٧٠ مليون سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ وتلخص المقابلة في الانفاق على التسليح في الجدول التالي :

	نفقات التسليح ١٩١٣ — ١٩١٤	نفقات التسليح ١٩٣٠ — ١٩٣١	النسبة المئوية زيادة او نقصاً
بريطانيا وفرنسا وايطاليا	٩٠٠ مليون ريال	١٢٥٠	٤٠ ./. زيادة
الولايات المتحدة	٢٤٥ » »	٧٢٨	٢٠٠ ./. زيادة
اليابان	٩٦ » »	٢٣٢	١٥٠ ./. زيادة
روسيا	٤٤٨ » »	٥٧٩	٣٠ ./. زيادة
المانيا	٤٦٣ » »	١٧٠	٦٢ ./. نقصاً

او أنظر الى المسألة من ناحية اخرى. كانت المانيا تنفق سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ نحو ٥ في المائة فقط من ميزانيتها على التسليح ، بفضل ما فرض عليها من نزع السلاح في معاهدة الصلح . أما نفقات بريطانيا فكانت في السنة نفسها ١٤ في المائة من ميزانيتها والولايات المتحدة ١٧ في المائة وفرنسا ٢٢ في المائة وايطاليا ٢٤ في المائة . واذا وزعت نفقات التسليح ، على عدد السكان في كل دولة بلغ ما أنفق سنة ١٩٣٠ في فرنسا ١٣ ريالاً لكل نسمة من السكان ، وفي بريطانيا ١١ ريالاً لكل نسمة من السكان ، وفي ايطاليا ٨ ريالات لكل نسمة من السكان ، وفي هولندا ٨ ريالات لكل نسمة من السكان ، وفي الولايات المتحدة الاميركية ٧ ريالات لكل نسمة من السكان ، وفي روسيا ٤ ريالات ، وفي المانيا ٣ ريالات ، وفي النمسا ريالين ، وفي المجر ريالين ، وفي بلغاريا ريالاً واحداً

جيوش واساطيل

وقد تكون مقابلة النفقات باعثاً على الضلال في فهم موضوع نزع السلاح . لانهُ يهمنا ان نعلم نوع الاسلحة ،التي أنفقت هذه الاموال الطائلة عليها . فنفقات التسليح البحري مثلاً أعلى بالمقابلة من نفقات التسليح الحربي ، ومستوى المعيشة والاسعار يجعل المقابلة بين مبالغ المال المنفقة على التسليح منحرفة ولو تساوت المبالغ . فاذا كانت دولتان تنفقان مبلغاً واحداً من المال على تسلحهما ، وكان مستوى المعيشة في احداها اعلى من مستوى المعيشة في الاخرى ، كان مدى تسليح الاولى اقل من مدى تسليح الثانية ، ولو كان المبلغ المنفق واحداً

واذاً يجب ألاَّ نعتمد في المقابلة على الاموال التي تنفقها الدول على التسلح بل يجب ان نقابل بين القوى المسلحة نفسها

نشر الجنرال السر فردريك موريس في ديسمبر سنة ١٩٢٩ مقالاً في مجلة جمعية الامم (هدواي Headway) فيه هذه المقابلة مبنية على الوثائق والنشرات التي أذاعتها جمعية الامم. والاحصاءات التي ذكرها تبين لنا ان الامم في غرب اوربا لم تتقدم نحو نزع السلاح خطوة واحدة، بل اننا اذا استثنينا بريطانيا، وجدنا زيادة او نقصاً قليلاً في قوات معظم الدول. فقبل الحرب كان جيشا السلام في فرنسا وايطاليا يبلغان مليوناً وخمسين الفاً، يقابلهما في سنة ١٩٢٩ أقل من مليون قليلاً، وهذا النقص اليسير لا يحمل على الاقتناع بأن الدول سائرة سيراً جديًّا نحو نقص السلاح، بعد انقضاء عشر سنوات على الحرب التي اثيرت للقضاء على الحرب. واذا اخذنا اوربا جملة واحدة، وجدنا انهُ رغماً عن نزع السلاح في المانيا وأحلافها السابقين لم تنقص جيوش اوربا الا مليوناً واحداً من نحو ٣،٥٧٠،٠٠٠ قبل الحرب (١٩١٣) فقد كان في اوربا سنة ١٩٢٩ نحو ثلاثة ملايين رجل تحت السلاح عدا قوى السلاح البحري وهذه القوى زادت في سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١

واليك جدولاً يبين تفاصيل القوى البرية المسلحة في اوربا سنة ١٩٣١

البلاد	الجيش النظامي	الجندرمة	قوى مسلحة اخرى
فرنسا	٤٩٧٠٠٠ (٦٦٢٠٠٠ اذا اضفنا جنود المستعمرات)	٣٧٠٠٠	١٨٠٠٠
روسيا	٥٦٢٠٠٠	—	؟؟
ايطاليا	٤٩١٠٠٠	٩٠٠٠٠	—
بولونيا	٢٦٦٠٠٠	—	٦٤٠٠٠
رومانيا	٢٥٠٠٠٠	—	٦٣٠٠٠
تشكوسلوفاكيا	١٣٩٠٠٠	—	١٣٠٠٠
بريطانيا	١٣٧٠٠٠	—	١٥٣٠٠٠
المانيا	١٠٠٠٠٠	—	؟؟

أما الاساطيل في يناير سنة ١٩٣٢ فكانت كما يلي

فلبريطانيا ١٥ بارجة و٥٣ طراداً و٧ طرادات في دور البناء و١٣٤ مدمرة وقارب طوربيد و٢٠ مدمرة وقارب طوربيد في دور البناء و٥٢ غواصة وعشر غواصات في دور البناء و١٠٧ قطع أخرى مختلفة و١٣ قطعة مختلفة في دور البناء

يقابل ذلك في أميركا ١٥ بارجة و١٩ طراداً و٧ طرادات في دور البناء و٢٥١ مدمرة

وقارب طوربيد و٥ مدمرات وقوارب طوربيد في دور البناء و٨١ غواصة و٣ غواصات في دور البناء و٦٧ قطعة أخرى

أما اليابان فعندها ١٠ بوارج و٣١ طراداً و٧ طرادات في دور البناء و١١٠ مدمرات وقوارب طوربيد و١٠ مدمرات وقوارب طوربيد في دور البناء و٦٧ غواصة و٥ غواصات في دور البناء و٣١ قطعة أخرى

وأسطول فرنسا مؤلف من ٩ بوارج و٢٢ طراداً وخمس طرادات في دور البناء و٦٥ مدمرة وقارب طوربيد و٦٥ غواصة و٤٥ غواصة في دور البناء و١٤٩ قطعةاخرى مبنية او في دور البناء

واسطول ايطاليا مؤلف من ٤ بوارج و١٧ طراداً و٩ طرادات في دور البناء و٩٩ مدمرة وقارب طوربيد و١١ مدمرة وقارب طوربيد في دور البناء و٤٦ غواصة و٢٩ غواصة في دور البناء و١٤٢ قطعة أخرى

***

والاساطيل البحرية تقتضي نفقات طائلة لا تستطيع بذلها الاَّ الامم الغنية . ولكن كلَّ بلاد كبيرة لها منفذ على البحر ترمي الى انشاء اسطول قويّ . ومع ان المعاهدات البحرية التي عقدت في وشنطن سنة ١٩٢٢ وفي لندن سنة ١٩٣٠ حدَّدت نسبة اساطيل الدول البحرية الكبرى بعضها الى بعض، لا تزال المنافسة بينها شديدة وبوجهٍ خاص في السفن التي لم تشملها المعاهدتان المذكورتان — كالغوَّاصات مثلاً — . فالمعاهدتان المذكورتان عيَّنتا الحدود التي يجب الاَّ تتعداها الدول البحرية الكبرى — بريطانيا واميركا واليابان — في التسلح البحري ولكنها لم تنقص قوى الاساطيل ولا منعت استبدال السفن القديمة فيها بسفن جديدة

ويقال ان اليابان تستعدُّ الآن لطلب المساواة ببريطانيا واميركا في سنة ١٩٣٥ اذ تنقضي مدة معاهدة لندن . يضاف الى ذلك ان المنافسة البحرية بين فرنسا وايطاليا شديدة ، لم يخفت ذكرها الاَّ بعد ما اضطربت الحالة في اوربا الوسطى وتقرَّبت فرنسا قليلاً من ايطاليا، لانهما تقاومان معاً محاولة المانيا بسط نفوذها على النمسا وبلدان الدانيوب . فايطاليا تقول انها ترضى باي مشروع لتحديد الاساطيل البحرية اذا سمح لها بان تبني اسطولاً من قوة اسطول فرنسا او اذا سلَّم لها بهذا المبدإ على الاقل . وعلى صخرة هذا الطلب تحطَّم المؤتمر البحري الذي عقد سنة ١٩٢٧ ولولاهُ لما اقتصرت معاهدة لندن البحرية (١٩٣٠) على بريطانيا واميركا واليابان . والارقام التي ذكرناها عن اساطيل الدول الحالية تبيّن لك ان نزع السلاح البحري لم يتقدَّم في خلال الفترة التي انقضت على معاهدة فرساي تقدماً يذكر

ثم ان الجيوش والاساطيل الحديثة لا تستغني عن الطيارات في الاستكشاف والقاء القنابل

على المراكز الصناعية — كمراكز صنع الاسلحة والمفرقعات — التي تحسب بمثابة الاعضاء الرئيسية في جسم الامة المحاربة . وقد اصبحت اساطيل الدول الجوية كبيرة جداً ، والباعث على العناية بها انها سريعة وفعالة ورخيصة اذا قيست نفقاتها بنفقات الاساطيل البحرية . ثم ان الطيارات التجارية يمكن في ساعة الحاجة اليها ان تحوَّل الى طيارات حربية . ومما لا ريب فيه ان اكثر شركات الطيران التجاري لا تستطيع المضيّ في عملها لولا اعتمادها على المساعدة المالية التي تصيبها من حكوماتها . ولو لم تكن الحكومات تتوقع ان تستعملها في الحرب ، اذا اقتضت الحاجة ، لما كانت في الراجح تمدها بالمال . والى القارىء احصاء تقريبياً لاساطيل الطيارات الحربية في اوربا واميركا واليابان في سنة ١٩٣٢

البلاد	عدد الطيارات	طيارات حربية لا تصلح للحرب الآن
فرنسا	٢٣٧٥	٥٩٩
الولايات المتحدة	١٧٥٢	١٢٧
بريطانيا	١٤٣٤	
اليابان	١٦٣٩	
رومانيا	٧٩٩	٧٥٠
روسيا	٧٥٠	
بولونيا	٧٠٠	٢٦٣
يوجوسلافيا	٦٢٧	١٤١
تشكوسلوفاكيا	٥٤٦	١٨٧
اسبانيا	٤٦٢	
هولندا	٣٢١	
سويسرا	٣٠٠	

اما الدول الباقية فاساطيلها الجوية دون ذلك

مؤتمر نزع السلاح

بعد سنوات من الاستعداد لعقد مؤتمر نزع السلاح، التأم المؤتمر في ٢ فبراير سنة ١٩٣٢

برآسة المستر آرثر هندرسن ، وزير خارجية بريطانيا في وزارة العمال ، وكان المؤتمر قد عرض عليهِ الرآسة بصفتهِ الشخصية ، فلم يضره ، ان وزارة العمال كانت قد سقطت لما آذن المؤتمر بالانعقاد ، وانهُ خاب في الانتخاب البريطاني الذي جرى في سبتمبر سنة ١٩٣١

ولم يطل المطال بعيد افتتاح المؤتمر ، حتى ثبت ان بين آراء الدول اختلافاً بل تنافراً في الموضوع ، رغم المباحث الطويلة والدقيقة التي قامت بها اللجنة التمهيدية لتقريب وجهات النظر بعضها من بعض

ومع ان الدول الصغيرة ، التي كانت تتكلم بلسان الدكتور بنش وزير خارجية تشكوسلوفاكيا ومقرر المؤتمر ، اشتركت في المؤتمر ، وكان لها نصيب كبير في مباحثاته احياناً ، الاَّ ان العناية اتجهت من البدء ، الى التنافر الكائن بين آراء الدول الكبرى — بريطانيا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة الاميركية والمانيا وروسيا — ومحاولة التوفيق بينها . وكان الغالب ان تصرّ كل دولة منها ، على نزع ذلك النوع من السلاح ، الذي يتفوق فيهِ خصمها ، او تحديدهُ . فبريطانيا مثلاً تطلب الغاء الغواصات لان فرنسا متفوقة فيها . وغير بريطانيا يطلب الغاء الدبابات لأن بريطانيا متفوقة فيها . ولكن الاختلاف لم يقتصر على ذلك ، بل تناول النظرة الخاصة الى افضل وسائل النزع او التحديد وعلاقة نزع السلاح بضمان السلامة وما الى ذلك من المسائل الاساسية

روسيا

ففي الناحية الواحدة كانت روسيا التي اقترحت نزع السلاح نزعاً تامًّا شاملاً . وقد قيل ان روسيا اقترحت هذا الاقتراح لانها تعلم انهُ لا توجد دولة ما مستعدة للاخذ به ، وانها بهِ تستطيع ان تستميل دعاة السلام الى تأييدها ، فيكون اقتراحها من قبيل الدعاية ، يمكّنها من توثيق صلاتها بالامم ، بعد ما كانت منبوذة من مجامعها بعيد الحرب الكبرى . ولكن الامر الذي لا يداخله الريب ، ان روسيا ، يهمها ان يستتبّ السلام ، وان يتفرغ رجال الحكم فيها الى انشاء النظام الاشتراكي التام . وهم لا يستطيعون ذلك ، اذا كان شبح الحرب يهددهم . واذن فلا نستطيع أن نرتاب في رغبة روسيا الحقيقية في ان تسير الى اقصى مدًى من نزع السلاح يمكن الاتفاق عليهِ اتفاقاً عامًّا . ثم انها مستعدة لالغاء اصناف معينة من الاسلحة الغاءً تامًّا

يضاف الى ذلك ان روسيا ، كانت زعيمة الدول التي طالبت المؤتمر ، بتحديد جلي دقيق ، لمعنى لفظة الاعتداء « Agression » لانها تعلم انهُ اذا حدد هذا اللفظ ، صار لعهاد Pacts عدم الاعتداء معنى حقيقي في تنظيم السلاح الدولي . ثم انها في صيف ١٩٣٣ عقدت سلسلة من عهاد عدم الاعتداء مع جاراتها دول البلطيق وبولونيا ودول الاتفاق الصغير ، وتركيا وغيرها

الولايات المتحدة الاميركية

فلننظر الآن في موقف الولايات المتحدة الأميركية . وهنا لسنا نجد دليلاً واحداً يبعث في النفس الريبة في صحة عزيمة هذه البلاد على بلوغ مدى بعيد في نزع السلاح، وعدم الاكتفاء بتحديد بسيط يترك الامم المسلحة حيث هي الآن، بل يمكنها متى شاءت ان تزيد أسلحتها الى اي حدّ تريد . لذلك اقترح الرئيس هوفر ان ينقص سلاح الدول بمقدار الثلث في كل اصنافه وفئاته، الاّ في بعض الاحوال حيث السلاح قليل ونقصه الى الثلثين يترك البلاد غير قادرة على القيام باعباء حفظ الامن . فكان هذا الاقتراح ينطوي على خلوص النية من جهة اميركا. وازورار العين له في المؤتمر ، وبوجه خاص من ناحية الوفد البريطاني ، كان من اكبر الضربات التي مني بها المؤتمر . ثم ان الاميركيين كانوا مستعدين ان يتساهلوا في سبيل الاتفاق. فقد كانوا مثلاً ، لا يسلمون على الاطلاق بجعل الطريقة لتحديد السلاح قائمة على تحديد النفقات المرصودة في ميزانيات الدول لان تكاليف صنع الأسلحة في اميركا أعلى منها في البلدان الاخرى . واذن فالتحديد المالي مجحف بحقوقهم من هذا القبيل. ومع ذلك فقد ابدوا رغبتهم بعد بحث ، في قبول مبدأ التحديد في نفقات الميزانية ، جنباً الى جنب مع تحديد الأسلحة وعدد الجيش على منوال ما اقترحهُ الرئيس هوفر . ثم ان الاميركيين كانوا راغبين عن التسليم بمبدإ الرقابة الدولية المستمرة على صناعة الاسلحة ثم سلّموا بهِ وحثّوا بريطانيا على التسليم بهِ كذلك . فلا ريب في انهم كانوا يبذلون وسعهم للوصول بالمؤتمر الى نتيجة تبعث على الرضا

ايطاليا

كانت ايطاليا، بعد روسيا، الدولة التي اقترحت أشد الاقتراحات تطرفاً في مؤتمر نزع السلاح . فقد كانت ايطاليا مستعدة ، بحسب اقوال ممثليها ، ان تذهب في ناحية نزع السلاح ، الى اقصى مدًى تذهبه الدول الاخرى سواء أكان التحديد مقداراً او نوعاً. ولكنها كانت تشترط شرطاً واحداً ، لم تصرح به وانما كان مضمناً في اقوال مندوبيها ، وهذا الشرط هو ان نزع سلاح فرنسا يجب ان يسبق نزع سلاح ايطاليا . وان يكون اسرع منه وبوجهٍ خاص في الغاء الاسلحة التي تتفوق فيها فرنسا على ايطاليا . فمثلاً كانت ايطاليا مستعدة ان تلغي البوارج ، لانه اذا الغت كل من فرنسا وايطاليا بوارجها ، تمكنت ايطاليا بما عندها من السفن الحربية الأخرى ، ان تقترب من مرتبة المساواة البحرية بفرنسا ، التي تنشدها — وعلى صخرتها تحطم مؤتمر نزع السلاح البحري سنة ١٩٢٧ — فاذا صرفنا النظر عن هذه الناحية من الفكر ، كان لا بد لنا ان نعترف برغبة ايطاليا الصحيحة في نزع السلاح او خفضه او تحديده . ذلك ان عبء الاتفاق على التسليح البري والبحري ، كان — ولا يزال — يثقل كاهلها

بريطانيا

كانت بريطانيا ، في الظاهر ، وفي الباطن الى حدٍّ بعيد ، الامة التي تقاوم كل مشروع لخفض السلاح خفضاً كبيراً عامّاً . وحجة ممثلي بريطانيا في ذلك ، ان بريطانيا نفسها قد نزعت سلاحها ، وانها في ناحيتي الجيش البري ، والسلاح الجوي ، لا تملك الاّ مايكفيها — وبعض رجالها يقولون انه لا يكفي على الاطلاق — للمحافظة على سلامة المواصلات الامبراطورية ، وانها مستعدة ان تمضي في سبيل نزع السلاح ، الى حدٍّ معين ، على شريطة ان تنزع الدول الاخرى سلاحها ، وان لا يطلب منها هي ان تنقص سلاحها ، مما تحسبهُ ضروريّاً لما اخذتهُ على نفسها في نواحي الامبراطورية . ثم انها كانت مستعدة كذلك ، لنقص اسطولها في ناحية البوارج ، ولكنها تميل ، بسبب الامبراطورية ايضاً ، الى عدم التساهل في ما يتعلق بالاصناف الاخرى من السفن الحربية . وقد كان هم ممثلي بريطانيا في كل آن ، ان يبرهنوا على ان بريطانيا ليست دولة شاكية السلاح ، وان مطالبها هذه ، يجب ان ينظر اليها نظراً خاصّاً عند بحث اي مشروع شامل كمشروع الرئيس هوفر القاضي بنقص الأسلحة نقصاً عامّاً مقدار ٣٣ في المائة ، لأنه اذا نقص ما عندها من السلاح الآن ، البحري والبري والجوي ، بمقدار الثلث اصبحت لا تملك من الاسلحة ما يكفيها للاغراض المتقدمة

ولكن هذا الموقف لم يكن وحده القاضي بوقوع اختلاف في مباحثات نزع السلاح . بل انها اشتركت كذلك ، مع ايطاليا والمانيا والولايات المتحدة الاميركية بالمطالبة بالغاء الغواصات ولكنها — أي بريطانيا — لم تكن مستعدة ، من ناحيتها ان تسلم بالغاء الطيارات القاذفة للقنابل ، مقابل ذلك اذا هي ارادت ان تحتفظ بحق استعمال هذه الطيارات في البلدان الجبلية النائية في المستعمرات ، ثم ان ايطاليا وروسيا والمانيا والولايات المتحدة الاميركية طالبت بالغاء الدبابات ، فرفضت بريطانيا قبول الاقتراح ، الاّ اذا سمح لها بالاحتفاظ بالدبابات ، حتى حجم معيَّن ولدى البحث تبين ان الحجم المقترح ، يشمل جميع الدبابات التي تملكها . ثم ان ممثلي بريطانيا كانوا يصرون على وجوب حماية الاهلين من وسائل الحرب كالقنابل ، والمواد الكيمائية المهلكة ولذلك قالوا بوجوب حصر السلاح على قدر الامكان في اسلحة الدفاع والغاء الاسلحة التي تستعمل في الغالب للهجوم . فلما جاءت الدول لتحدد معنى الدفاع والهجوم اصبحت كل دولة تحدد السلاح الذي تتفوق فيهِ بانهُ سلاح دفاع ، والسلاح الذي تتفوق فيه جارتها ، او يتفوق فيهِ خصمها سلاح هجوم . فالفرنسيون يحسبون الغواصة سلاح دفاع عن شواطئهم والبريطانيون يحسبونها سلاح هجوم على شواطئهم . وبريطانيا تحسب الدبابة سلاح دفاع وغيرها يحسبها سلاح هجوم . والمبدأ نفسهُ ينطبق على مطالبة بريطانيا بوجوب نقص الاسلحة البرية ، مع ترددها هي في نقص الاسلحة البحرية

موقف المانيا

ان موقف المانيا نحو نزع السلاح كما بسط اولاً في المؤتمر وأخيراً في مذكرتها التي بعثت بها الى ايطاليا وبريطانيا يدور حول مبدأ المساواة في التسلح . فبمقتضى معاهدات الصلح نقصت الاسلحة الالمانية نقصاً كبيراً ومنعت المانيامن استعمال اصناف معينة من السلاح كالدبابات والمدافع الضخمة والطيارات الحربية . وفرضت رقابة شديدة على الطيران المدني فيها وصناعة المواد التي يمكن ان تحول الى اسلحة وذخائر . ونزع منها اسطولها الحربي ، وقيد حقها في بناء سفن حربية جديدة بقيود دقيقة تتعلق بعدد السفن وحجمها وحمولتها وقطر مدافعها

ولكن الالمان يريدون التخلص من وصمة عدم المساواة التي وصمتهم بها هذه القيود فقالوا انهم مستعدون ان يسلموا ببقاء بعض القيود، اذا عمد الحلفاء الى تنفيذ بعض ما تتضمنه معاهدة الصلح من العهود التي قطعوها ، بتقييد تسلحهم ونقصه في بعض النواحي . اي أن الالمان لا يصرون على اعادة التسلح بالاسلحة الممنوعة ، اذا الغيت هذه الاسلحة بمقتضى اتفاق دولي . ولكن اذا كانت الدول الاخرى تنوي ان تمضي في صنع تلك الاسلحة المحرمة على المانيا ، واستعمالها ، فالالمان يدعون ان لهم الحق في ان يفعلوا هم الشيء نفسه — فلما رفض اقرار هذا الحق لهم انسحب الوفد الالماني من مؤتمر نزع السلاح في أحد ادواره (سبتمبر ١٩٣٢)

وظلت هذه الازمة الناشئة عن انسحاب الوفد الالماني مستحكمة ، حتى اتفقت بريطانيا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة الاميركية، مع حكومة المستشار فون شليخر في ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وفي الاتفاق سلمت هذه الدول بمبدأ المساواة ، على ان لا يطبق بحذافيره دفعة واحدة ، بل في مراتب او مراحل ، وقيل حينئذٍ ان القيود التي قيدت بها المانيا في معاهدة الصلح لا تلغى وانما تفرض رويداً على الحلفاء بموجب اتفاق دولي يعقد في مؤتمر نزع السلاح، وبذلك تنجو المانيا من وصمة التقيد بقيود معينة دون غيرها من الدول الكبرى

فلما ظفر الالمان بهذا التسليم ، عادوا الى المؤتمر

ولكن حكومة المستشار فون شليخر لم تلبث طويلاً في منصب الحكم فذهبت، وحلت محلها حكومة النازي برآسة الهر هتلر ، وللحال ظهرت عقبات جديدة في سبيل المؤتمر . وليس امام الحلفاء من يلومونهُ ، على العقبات الجديدة الاَّ انفسهم ، لانهم لو تروّوا قليلاً في التسليم لالمانيا بمبدأ المساواة ، لكان من الجائز ، ان يصدّوا تيار الحركة النازية ، ولكان الاتفاق مع المانيا أسهل منهُ الآن. وليس الغرض من هذه العبارة الاخيرة ان النازي يخترعون المصاعب اختراعاً ويضعون العراقيل امام المؤتمر ، لانهم فعلاً سلموا بالمقترحات التي كانت حكومة فون شليخر قد سلمت بها . ولكن الطابع الحربي الذي تمتاز بهِ حركة النازي ، يجعل

الحلفاء وبوجه خاص ، يجعل فرنسا تتوجس من كل اتفاق ، لا تضمن لها فيه سلامتها على ما تشتهي

خطة فرنسا

تختلف خطة فرنسا ، اختلافاً اساسيًّا عن خطط سائر الدول الكبرى وموقفها نحو مشكلة نزع السلاح . فقد أصرت فرنسا في خلال المناقشات والمباحثات التي دارت حول الموضوع على وجوب ربط نزع السلاح بضمان السلامة ربطاً محكماً . فهي تسلّم بأن تنزع من سلاحها، ما تظن نزعه مسوَّغاً بنشوء وسيلة اخرى ،تضمن لها الدفاع عن بلادها وشعبها. يضاف الى ذلك ان نظرتها الى نزع السلاح لا تقتصر على نقص الاسلحة والذخائر وعدد الرجال المحاربين ، وانما يجب ان تشمل في رأيها ، انشاء قوة مسلحة دولية يلقى زمامها الى جمعية الامم ، فتستعملها اداة فعالة في حفظ سلام العالم. وأنت ترى هذا المبدأ — مبدأ القوة المسلحة الدولية — يظهر في اشكال مختلفة ، في مشروع تارديو وغيره من المشروعات التي اقترحتها فرنسا على مؤتمر نزع السلاح

ويلخص المشروع الذي عرضتهُ فرنسا في اواخر السنة الماضية في ان العهود المقطوعة ضد الحرب ، في عهدة كلوج بريان ودستور جامعة الامم ، يجب ان تعزَّز وتؤيد بضمانات فعالة تستعمل ضد الدولة المعتدية . ويذهب الفرنسيون ، الى ان اي نكث للعهود المقطوعة في عهدة كلوج ، او دستور جمعية الامم، او أية معاهدة اخرى يجب ان يفضي الى قطع الصلات المالية والاقتصادية التي تربط موقعي هذه العهود ، بالدولة المعتدية

وأضافوا الى كل ذلك انه يجب انشاء عهدة بين الدول الاوربية ، ضمن نظام جمعية الامم، تحدَّد فيها الاحوال التي يحق لدولة من الدول ان تنال من بقية موقعين العهدة ، اسباب التأييد الحربي والادبي . وكل الدول التي تنضم الى هذه العهدة الاوربية،تقبل الاتفاق الدولي لنزع السلاح ، والضمانات التي تنص عليها العهدة يجب ان تنفذ بمجرد وقوع الاعتداء على احدى الدول الموقعة

واقترحت فرنسا ، اساساً لهذه الفكرة ، انشاء جيش اوربي ، يكون الميل في تسليحه الى تعزيز قوى الدفاع بدلاً من قوى الهجوم . اما الاسلحة والذخائر المستعملة للهجوم،فقد اقترح الفرنسيون ، وضعها في مخازن في كل بلاد من بلدان العهدة ، ولا تفتح او يستعمل ما فيها الاَّ بأمر من جمعية الامم. ثم هم اقترحوا مبدأ الرقابة الدولية على صناعة الاسلحة،ولكل دولة ان تمرن قوة عسكرية خاصة على استعمال اسلحة الهجوم ، وتكون هذه القوة تحت تصرف جمعية الامم ، لتستعملها ضد المعتدي . واقترحوا كذلك الغاء قذف القنابل من الطيارات

والغاء الطيارات قاذفات القنابل كذلك . ولكن هذا لا ينفَّذ الاَّ اذا انشئت رقابة دولية صارمة على الطيران المدني ، حتى لا تتحول وحداته في الحرب الى طيارات قاذفة للقنابل

اما فيما يتعلق بالتسليح البحري فقد اقترحت فرنسا عقد هدنة بين الدول البحرية الكبيرة في البحر الابيض ، تنقص بمقتضاها الاسلحة البحرية ، مع الاحتفاظ بالنسبة الكائنة الآن بين الدول البحرية في هذا البحر ، ومآل هذا ان فرنسا رفضت طلب ايطاليا ، بأن تساويها في قوتها البحرية . يضاف الى ذلك ان كل الدول البحرية يجب — بمقتضى الخطة الفرنسية — ان تضع جانباً من قوتها البحرية تحت تصرف جمعية الامم لكي تستعملها ضد الدولة المعتدية على نحو ما اقترحت في ما يتعلق باسلحة الهجوم البرية

***

هذه الخطة الفرنسية المعقدة ، التي تربط بين ضمان السلامة ونزع السلاح ، بنيت على اصول تختلف عن الاصول التي بنيت عليها مشروعات الدول الاخرى . فانك لست تجد في مشروعات الدول الاخرى ، ما يدلك على ان احداها فكرت في انشاء قوة دولية مسلحة او خزن انواع معينة من الاسلحة ، او انشاء صفوف خاصة من الجند ، لا تستعمل الاَّ باذن وأمر من جمعية الامم في الدفاع عن امة اعتدي عليها

ولما كانت الدول الأُخرى غير مستعدة للتسليم بهاتين الفكرتين ، فالاتفاق على اساس المشروع الفرنسي كان متعذراً . يقابل ذلك ان الفرنسيين لم يسلموا بخفض السلاح خفضاً كبيراً — مع انهم سلموا بشيء من ذلك في عهد هريو ودالادييه — مالم تتعهد الدول الاخرى بالمحافظة على السلام ، عن طريقة معاهدات ضمانة السلامة تعقد لهذا الغرض وتنطوي على تحتيم استعمال القوة المسلحة ضد أية دولة معتدية

***

واذن ، ترى ان الموقف بين الدول الكبرى ، بلغ مأزقاً لا مخرج منه ، ولكن المحادثات ظلت جارية والمساومات بين فرنسا وبريطانيا ، وبينهما وبين المانيا ، الخ فتمكنوا من اخفاء هذا الاختلاف الكبير بين وجوه النظر الاساسية . وفي آخر سنة ١٩٣٢ ثبت انهُ رغماً عن رجوع الالمان الى حظيرة المؤتمر وزوال الحائل الاساسي دون الاتفاق ، لم يكن الواقفون على بواطن الأمور يتوقعون عقد اتفاق يكون فيه خفض السلاح إلاَّ شبحاً مما كان ينتظره دعاة السلام . وكل ما كان يتوقع حينئذٍ انما كان الاتفاق على تحديد او خفض او الغاء بعض أصناف من الاسلحة ، كالغاء قاذفات القنابل في احوال خاصة ، والغاز الخانق والحرب الكيمائية وتحديد كل ما يتعلق بقذف القنابل من الطيارات

ولكن الامر الذي لا نزال نرتاب فيه ، هو ، هل تحافظ الدول على اتفاق من هذا القبيل ،

يشمل الطيارات والغازات والمواد الكيمائية اذا نشبت حرب ، ورأت ان الكفة لا تميل نحوها الاَّ اذا عمدت الى هذه الاسلحة ؟ وقد ادرك المؤتمر في خلال سنة ١٩٣٣ عجزه عن الوصول الى اتفاق عامّ شامل ، فحصر جهده في خفض السلاح النوعي ، وأقام لذلك لجنة خاصة ، لتسعى لتقريب وجوه النظر المختلفة بعضها من بعض اذ يكون المؤتمر غير ملتئم

***

في خلال جلسات المؤتمر ، كان مندبو الدول الصغيرة ، متبرمين باستئثار الدول الكبرى بالمباحثات الخطيرة ، فقد اجلت جلسات المؤتمر مرة ، ليتمكن مندوبو الدول الكبيرة من التباحث في وجوه الخلاف ، بقصد التوفيق بينها ، ومما زاد الطين بلة ، اهمال ايطاليا ، عند المناقشة في موضوع طلب المانيا لمبدأ المساواة ، اذ انحصر هذا البحث في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة . كانت ايطاليا مستعدة من البدء ان تسلم لالمانيا بمبدأ المساواة ، وفرنسا كانت معارضة ، وبريطانيا محيرة بين الاثنتين لا تريد ان تسير في طريق الاَّ اذا كانت فرنسا معها فيه . فكان من الطبيعي ان تقتصر المباحثات حول هذا الموضوع على فرنسا وبريطانيا أولاً — ولكن اهمال ايطاليا ، كاد يفضي الى توحيد الجبهة بين ايطاليا والمانيا ، لولا زيارة مكدونلد الطائرة الى روما في اوائل هذا العام ، التي نشأت منها العهدة الرباعية المعروفة بعهدة موسوليني — بين ايطاليا والمانيا وفرنسا وبريطانيا . وقد ظلّت المباحثات دائرة في خلال سبتمبر والجانب الاول من اكتوبر فأسفرت عن الاتفاق تقريباً بين الحلفاء على ان تعين اولاً فترة مداها اربع سنوات تراقب فيها المانيا مراقبة دقيقة فاذا ثبت حسن نيتها ، فعندئذٍ يبدأ في تنفيذ المشروع الموضوع لمنحها المساواة تدريجاً . وهذا رفضتهُ المانيا وخرجت من مؤتمر نزع السلاح في ١٤ اكتوبر الماضي وهجرها لجمعية الامم فأصبحت الامم الاخرى في مأزق . فإما ان تشهر عليها حرباً دعاها بعض الفرنسيين بالحرب الواقية فتبطش بها قبل ان يشتد ساعدها ويتم تسلحها . وهذا من شأنهِ تأجيل حلّ المشكلة ، عشرين سنة اخرى ، لانهُ لابدّ لالمانيا من ان تنهض بعد ذلك وهي اشدّ مرارة واظمأ للثأر . وإما ان تتغلب الحكمة على رجال السياسة — وهو المشاهد في خلال الاسبوع الذي انقضى على خروج المانيا — فيضاعفون السعي لايجاد حلّ يرضي ولا يخلّ ، فتتمكن المانيا من العودة الى حظيرة المؤتمر ، وجمعية الامم ، وتستأنف عمل التعاون مع الدول الاخرى . وقد خرجت من قبل أمم من مؤتمرات عالمية وعادت اليها . وهجرت أمم اخرى جمعية الامم ثم عادت فانضوت تحت لوائها . فالحكمة هي ملاذ العالم في هذه الحال الدقيقة



تقسيم الزمن

في عهد الفراعنة

السنة الى الساعة — ادوات التوقيت

للدكتور حسن كمال



يرجع تقسيم الزمن الى اصول فلسفية عديدة منها ان الانسان منذ نشأته في هذا العالم وشعوره بالوجود وتقدمه في السن ووفاته وميراثه بدأ يفكر في الوقت ويتكهن بحقيقة الزمن ويشحذ قريحته في خفايا الكون حوله. فوجه عنايته اولاً الى المكان ومساحة الاراضي وتجزئتها . ثم تعدى ذلك الى الزمن وأجهد قريحته في ايجاد وسيلة لقياس هذا الشيء المعنوي فوجد ان اسهل وسيلة لذلك هي قياسه بحادث منتظم التكرار وعثر على ضالته في الليل والنهار ثم تغيّر اوجه القمر ثم علاقة الشمس بالارض من حيث قربها وبعدها ثم تغير مواضع النجوم وغير ذلك

ويرجع كثير من الفضل في معرفة قياس الزمن الى مجهود قدماء المصريين واهتمامهم بالكائنات وشغفهم بالفلاحة . ففي سنة ٤٢٤١ ق . م . استعمل المصريون السنة الشمسية وحدة في توقيتهم وقسموها الى ٣٦٥ يوماً لكنهم لم يتمكنوا من معرفة ان هذا العدد ينقصهُ ربع يوم او بعبارة اخرى انهُ يجب اضافة يوم لكل سنة رابعة كي تصير ٣٦٦ يوماً وهي المعروفة عندنا بالسنة الكبيسة . وهذا التقصير في الادراك مكن المؤرخين كثيراً من معرفة عدة عصور هامة في العهد الفرعوني كانت معرفتها متعذرة من دونهِ . هذا الخطأ الصغير يصبح بتكرار السنين سنة شمسية كل ١٤٦٠ سنة. من ذلك يتضح انه لو ذكرت عصور توافق فيها شروق نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس امكننا معرفة تاريخ تلك العصور بالرجوع الى الطرق الفلكية بدقة لا يتعدى خطؤها الاربع سنوات . ويحسن بنا ان نذكر القارىء هنا بان يوليوس قيصر هو اول من ادخل التوقيت المصري في الامبراطورية الرومانية

والمظنون ان سكان الوجه البحري الاقدمين هم الذين تنبهوا الى ان السنة الشمسية تتكون من ٣٦٥ يوماً وبدأوا توقيتهم بالسنة المذكورة في الوقت الذي توافق فيهِ ظهور نجم الشعرى اليمانية في الافق مع الشمس . وللشعرى اليمانية شأن خاص عند المصريين عموماً لان ظهورها

عندهم كان يدلّ على قرب فصل الفيضان النيلي وعلى ذلك اعتبرت اساساً للتقويم . ولا بدع في ذلك فالنيل هو مصر ومصر هي النيل . ويقال لنجم الشعرى اليمانية بالمصرية القديمة (سُبْدْت) وباليونانية Sothis ويعرف الآن باسم Sirius ولما كان ظهور هذا النجم يشير الى قرب فيضان النيل وكانت مصر دائماً بلاداً زراعية عمدتها النيل كان لرصد هذا النجم في مرصد (منف) شأن كبير في البلاد كل سنة

***

واهتمام المصريين بالعلم كان لفائدته العملية فقط . ولم تَشْتَقْ انفسهم الى دراسة اصول الطبيعة والكون الاَّ اذا اضطرتهم الضرورة الى ذلك . وهذا أمر طبيعي في من لا يميل الى البحث في الحقائق الغامضة . لذلك لم تتقدم معارفهم الاَّ فيما يتعلق بمعيشتهم واعمالهم المتجدّدة كل يوم . وكانت معلوماتهم الفلكية بالرغم من ذلك كثيرة تمكن اجدادهم بها من توقيت زمنهم بالسنين قبل عهد المملكة القديمة بنحو ١٣٠٠ سنة . وقد رسموا السماء وعرفوا اهم نجومها وابتدعوا آلات تعرّفهم مراكز النجوم . لكنهم لم يهتموا بالتفكير في اصل هذه النجوم لعدم فائدته في نظرهم فلم يكلفوا انفسهم مؤونة الاجتهاد . ومع ذلك فقد قسّموا السماء الى عدة بروج . ويكاد يكون مؤكداً ان رسوم النجوم الموضوعة بشكل مناظر منفردة حلّيت بها سقوف قبري رمسيس السادس (١١٥٧ — ١١٥٢ ق . م .) ورمسيس التاسع (١١٤٢— ١١٢٣ ق . م .) كان المقصود بها الاستدلال على معرفة ساعات الليل . ويجد الباحث هناك مناظر لمواقع النجوم لكل خمسة عشر يوماً على طول السنة الشمسية . وكل منظر يتلخص في رسم شخص جالس وحوله النجوم الهامة مرسومة في مواقعها المناسبة . وهذا الشخص يمثل احد شخصين يجلسان متقابلين على طرفي خط مستقيم متجه شمالاً وجنوباً فوق سطح احد المعابد . واحد هذين الشخصين يقوم بعملية المراقب لحركات النجوم ومواقعها بالنسبة الى وضع الشخص المقابل له . وبالرجوع الى مواضع هذه النجوم المدوّنة في رسوم مشابهة للمرسومة على سقوف القبرين السالفين يمكن المراقب ان يعرف ساعات الليل وينادي بها ساعةً ساعةً وقت حلولها . وهذه الطريقة لقياس ساعات الليل اشبه كثيراً بطريقة قياس ساعات النهار بواسطة المزاول من حيث عدم الدقة . لان الليل والنهار في اختلاف مستمرّ من حيث الزمن على طول السنة . فكأنّ القوم كانوا يستعملون وحدات صغيرة متباينة لتجزئة وحدات كبيرة متغيرة ايضاً . فينجم من ذلك ان تقسيم قدماء المصريين لليل والنهار الى ساعات متساوية كان تقسيماً نسبيًّا . لذلك بقيت معضلة تجزئة الزمن الى ساعات متساوية بلا حلّ على طول العهد الفرعوني . واهم مراصد العهد الفرعوني كان في طيبة (الاقصر) ودندرة ومنف (سقارة) وعين شمس

وبالرجوع الى النصوص والرسوم المصرية القديمة التي وصلت الينا وفحصها من وجوهها التاريخية والعلمية والفنية امكننا ان نجزم ان قدماء المصريين لم يكلفوا انفسهم مؤونة البحث في معرفة كنه النجوم واحجامها ولا اسباب تحركها . ولم يرد فيما خلفه لنا هؤلاء القوم ما يشير الى انهم فهموا أوجه الشبه بين الشمس والقمر . لكنهم كانوا كثيراً ما يشيدون مبانيهم متوافقة مع النقط الاصلية الاربع مستعينين في ذلك بالنجمة القطبية وقتئذ. ويظهر ان ثبات هذا النجم الاخير استرعى نظرهم اليه كما ان مواقع بعض النجوم بالنسبة الى النجم الاخير وعدم افولها استدرج ادراكهم نحوها فسموها « النجوم التي لا تأفل »

ولعل القارىء بعد ذلك يدرك مقدار الصعوبة التي جابهها القوم اذ ارادوا تقسيم اوقاتهم. فالوحدة العظمى للقياس كانت السنة الشمسية يلي ذلك الشهر القمري ثم اليوم . ولو ان السنة الشمسية في عهدهم هي أقصر بربع يوم عن الحقيقة فان نسبة الشهور القمرية للسنة الشمسية وعدم تناسب طول الليل والنهار في فصول السنة سبب لهم مصاعب جمة . ويظهر ان قدماء المصريين كانوا يستعملون السنة القمرية في قياس اوقاتهم في البدء . ثم اتضح لهم ان السنة الشمسية اوفق لهم بالنسبة لمعيشتهم الزراعية والاقتصادية . اما السبب الذي جعلنا نعتقد ان هؤلاء القوم بدأوا توقيتهم بالسنة القمرية فهو كتابتهم «الشهر» برسم القمر وكذلك كثرة اعيادهم الهامة في اوائل الاشهر القمرية وانصافها

ولما رأى القوم ان الاشهر القمرية لا يمكن اتخاذها وحدة لتقسيم السنة الشمسية اتفقوا عرفياً على ان يكون الشهر مكوناً من ثلاثين يوماً وان يضاف آخر كل اثنى عشر شهراً خمسة أيام كي تكمل السنة — ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً . ثم قسموا السنة الى ثلاثة فصول هي في الحقيقة زراعية أكثر منها ميقاتية واطلقوا عليها الاوصاف الآتية « فصل الفيضان » و« فصل البذر» ويوافق فصل الشتاء و « فصل الحصاد » ويوافق فصل الصيف

***

ويستنتج من النصوص الدينية التي في اهرام الاسرة الخامسة والسادسة ان اضافة الايام الخمسة الى آخر الشهر الثاني عشر كانت مستعملة وقتئذ

ولم يستعمل المصريون وحدة لقياس الزمن اكبر من السنة الشمسية . وعلى ذلك فلم يكن في حسبانهم شيء مثل الجيل والقرن كما هي الحال في عصرنا هذا ؛ اما التواريخ فكانت تذكر قياساً الى حادثة مهمة كواقعة حربية او احصاء الاملاك كالبهائم (وهذا الاخير كان اكثر استعمالاً في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة) ثم في العهد التالي لذلك بدأ القوم ينسبون تواريخ حوادثهم الى سنة تولي مليكهم عرش النيل فكانوا يقولون مثلاً «في السنة الخامسة من عهد جلالة الملك . . . » «في السنة الحادية عشرة من حكم جلالة الملك ....»

ولم نهتدِ حتى الآن على اسماء الأشهر في كل الآثار المصرية القديمة . وكل ما وجد هو نسبة الشهر العددية للفصل السنوي مثال ذلك « الشهر الثاني من فصل الفيضان النيلي » وأيضاً «الشهر الأول من فصل الحصاد — اي الصيف» . فلما أتى العهد الفارسي (القرن السادس ق. م.) بدأت تظهر أسماء الشهر منسوبة الى بعض الأعياد التي كانت تقع في ذلك الوقت. ولا يبعد ان يكون القوم قد اطلقوا هذه الاسماء على الاشهر قبل ذلك العصر بزمان لكنهم على اي حال لم يدوّنوا تلك الأسماء الاَّ في العهد المذكور . ولا نزال نجهل الشيء الكثير عن أصل بعض هذه الاسماء بالدقة

اما الاسبوع واستعماله وحدة لقياس الزمن فلم يكن معروفاً البتة في العصور القديمة في العهد الفرعوني . والبراهين التي اوردها بعضهم لاثبات استعمال الاسبوع في العصور الأخيرة غير مقنعة ولا قاطعة

وقسم القوم كلاًّ من الليل والنهار الى اثنتي عشرة ساعة. ولكن لما كان القوم يعتبرون النهار احياناً من شروق الشمس الى غروبها وطوراً من الفجر حتى زوال الشفق كان الليل والنهار في تغيير مستمر طول السنة . وعلى ذلك لا يمكن ان يقال ان قدماء المصريين حدّدوا الساعة الزمنية واستعملوها كوحدة في التوقيت

***

وسنذكر للقارىء فيما يلي بياناً موجزاً للآلات التي كانت تستعمل في التوقيت

﴿ آلات رصد النجوم وطريقة ذلك ﴾ كان القوم يرصدون النجوم بواسطة منظار صغير يقال له (مرخت) وفي متحف برلين الآن منظار يرجع تاريخه الى الاسرة الثامنة والعشرين وهو المرموز اليهِ بشكل رقم ١ هنا والآلة عبارة عن قضيب خشبي من سعف النخل مشقوق في الوسط عند طرفه المستعرض ومنقوش عليه ما معناه « آلة لمعرفة مبدأ العيد وحساب مواعيد اشغال العمال وجعل كلٍّ منهم يقوم بعمله في وقته . . . . » وكان الناظر او الراصد يمسك بهذه الآلة ويضع الشق الصغير نصب عينيه محرراً اياه تجاه خيط مشدود شدًّا رأسيًّا بمثقال ومثبت في نهاية قضيب خشبي آخر محاذياً لخط رأسي فيه أيضاً . وهذه الآلة الاخيرة ذات الخيط والثقل هي المصورة في الشكلين رقم ٢ و ٣ . ويشاهد على قضيبها نص هيرغليفي ترجمته « انا اعلم حركة الشمس والقمر والنجوم كلاًّ بحسب موقعه »

وكان الراصد يجلس (ومعه المنظار) قبالة زميل له (ومعه الآلة الخيطية المذكورة اعلاه) في طرفي خط متجه شمالاً وجنوباً على سطح احد المعابد شكل ٤ ويتعرفان ساعات الليل بتجاوز النجوم للخط الخيطي العمودي او بمركزها قياساً الى القلب والعين اليمنى والعين اليسرى والكتف واجزاء الجسم الباقية في الشخص المقابل للراصد. وتكتب هذه الملاحظات

في شكل مقسم الى مربعات صغيرة مرسوم فيها الشخص المساعد للراصد وحوله النجوم كما يتضح للراصد. خذ مثلاً ما جاء ببعض هذه الرسوم «النجم (سارت) يقع أعلى العين اليسرى اما النجم الذي يلي الشعرى اليمانية فيقع اعلى المرفق الايسر. اما نجوم المساء فمركزها على القلب» (راجع شكل ٥)

وقد عثر على عدة رسوم من هذا القبيل في مقابر ملوك الأسرة العشرينية كما سبق ان ذكرنا وهذه الرسوم تبين مواقع النجوم في اثناء الاثنتي عشرة ساعة الليلية لمدة خمسة عشر يوماً. أما الساعات فكانت تعرف بواسطة الساعات المائية وهذه سيأتي بيانها فيما بعد

﴿آلات الظل: المزاول﴾ اجتهد قدماء المصريين في تقسيم النهار الى ساعات بواسطة الظل فلاحظوا ان طول الظل يختلف باستمرار في اوقات النهار على مدى الفصول. لكن لم يثبت للآن ان المصريين علموا اما لخطوط العرض من الشأن وقت استعمالهم آلات الظل. وأبسط آلة للظل هي الواردة في الشكل رقم ٦ وهي عبارة عن قضيب خشبي ينتهي في احد طرفيه بكتلة خشبية ومدوّن على القضيب خطوط واسماء الساعات. اما طريقة استعمالها فهو وضعها في خط شرقي غربي بحيث تكون الكتلة الخشبية في الشرق صباحاً وفي الغرب مساء وتعرف الساعة بسقوط ظل الكتلة على تقاسيم القضيب

ولما كان ظل الصباح المبكر والمساء المتأخر طويلين كثيراً ابتكر القوم في اواخر العهد الفرعوني طريقة جديدة لذلك فاستعاضوا عن القضيب الطويل الآنف الذكر بآخر سميك مائل السطح نحو الكتلة وقسّموا السطح المائل الى عدة خطوط شهرية ذات تقاسيم متنوعة تتناسب مع تغير الظل في تلك الاوقات. ويشاهد هذا الجزء ذو السطح المائل في الشكلين رقم ٧و٨

وفي المتحف المصري نموذج لساعة ظل (شمسية) طولها ١٥ بوصة يظهر انها مركبة من ثلاثة انواع من الساعات (شكل ٩و١٠و١١). النوع الاول وهو الكتلة الصغيرة التي يسقط ظلها على تقاسيم بالجهتين والنوع الثاني وهو كيفية سقوط الظل على الدرجات والنوع الثالث ويتلخص في سقوط الظل على السطح المائل او المنحني. هذا باختصار هو بيان موجز للادوات التي كانت تستعمل في العهد الفرعوني لقياس ساعات النهار واساس العمل فيها هو تباين طول الظل فقط في اوقات النهار المختلفة

***

وهناك نوع آخر من الساعات الشمسية اساسه تغير اتجاه الظل في اوقات النهار وعلاقته بالزمن. وهذا النوع يشير الى تقدم كبير في الفكر والواسطة. وهذه الساعات اسهل استعمالاً اذا وضعت في الموضع الموافق لها لانها في هذا الموضع يمكن تقسيمها الى تقاسيم متساوية

خلافاً للنوع السابق المختلف واقدم مثال للقسم الثاني عثر عليه في مدينة غزة بفلسطين وهو ساعة مصرية تحمل اسم الفرعون منفتاح ويرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ويلاحظ القارىء في الشكل رقم ١٢ مزولة محفوظة الآن بدار التحف ببرلين يرجع تاريخها الى العهد اليوناني والروماني كانت تثبت على حائط او عمود والثقوب الموجودة بها كان مثبتاً بها تركيب يحوي خيطاً ينتهي بثقل وهذا الخيط هو الذي يسقط ظله على التقاسيم المرسومة . وهذه التقاسيم تمثل ساعات النهار . ومنهُ يتضح ان ظل الخيط يسقط على الخط الاوسط وقت القيلولة وهذا النوع من الساعات عمَّ اوربا الغربية بسرعة

﴿ الساعات المائية ﴾ اقدم ساعة مائية معروفة للآن هي المرسومة في الشكل رقم ١٣ ويرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر .ق. م. مصنوعة من المرمر على شكل زهرة يانعة ارتفاعها حوالي ١٤ بوصة وكان العثور عليها بالكرنك بالاقصر وهي الآن بدار تحف القاهرة. مرسوم عليها من الخارج النجوم والبروج وغير ذلك . ومثل هذا النوع كان يستعمل لمعرفة ساعات الليل حيث ورد على جزءٍ منها العبارة الآتية « كل رسم هو في المحل الموافق لساعته... كي يثبت بذلك ميعاد ساعات الليل ......» وكان الراصدون بمساعدة هذه الرسوم والتقاسيم يعرفون (كما يظنُّ) مواعيد ساعات الليل . وكان هذا الاناء يملأ ماءً الى حافته وبواسطة ثقب صغير في قعرهِ كان الماء يتسرب تدريجيًّا منهُ فينخفض سطحه الى تقاسيم الساعات المنقوشة بالداخل ولما كانت التقاسيم الداخلية متساوية المسافات وكان قعر الاناء اقل كثيراً من فتحته العليا من حيث المساحة كانت مقادير المياه المتسربة في كل ساعة غير متساوية . لان الماء في اول الأمر يتدفق بسرعة لعلو سطحه وحينئذٍ ثم تدريجاً في النهاية لانخفاضه ساعتين . الاَّ انه ثبت بالمقارنة بساعاتنا الحديثة ان هذا التكافؤ غير متناسب وعليه فساعات المصريين الأقدمين المائية لم تكن متساوية في الزمن . وجملة القول ان مدة الساعات الاولى بهذه الآلة اطول من الواقع كما ان الساعات الأخيرة اقصر كثيراً اما ساعات الوسط فكانت قريبة جدًّا من الصواب . وهناك نوع آخر من الساعات المائية عمَّ استعماله في العصور الاخيرة يتلخص في اسطوانة مدرجة من الداخل يقطر فيها الماء من اناء آخر أعلى منها . وكان كلما ارتفع سطح الماء داخلها ووصل الى علامة من العلامات المذكورة دلَّ ذلك على حلول ساعة معينة

***

وقد انتشر استعمال الساعة المائيـة المصرية في قارة اوربا في العصور الأخيرة حتى اطلق عليها اليونانيون وقتئذٍ صفة « اللص المائي » . وكانت تستعمل حينذاك لقياس الزمن ليلاً ونهاراً

استدراك على معجم الحيوان

بقلم الدكتور معلوف باشا

في هذا المقال تحقيق علمي لغوي للدكتور معلوف باشا في صحة اسماء الليام والجري والسلور والسفن والشلق وغيرها من الاسماك

بعد نشر معجم الحيوان في المقتطف سنة ١٩٠٨ وما يليها ثم على حدة في السنة الماضية علمت ان عالماً فرنسيًّا نشر كتاباً في سمك الشام فسألت صديقي الامير مصطفى الشهابي ان يبحث عن الكتاب فتفضل وبعث اليَّ بنسخة منهُ فاذا فيهِ شيء كثير من انواع السمك في مياه الشام العذبة وفي البحر الملح مما يلي ساحله والكتاب لعالم فرنسي معروف هو المسيو غريفل[1] من اساتذة متحف التاريخ الطبيعي بفرنسة فنقلت عنهُ بعض انواع السمك التي وردت فيهِ ونقلت اسماءها الفرنسية والعربية واضفت اليها الاسماء الانكليزية وجعلت ذلك تتمة لما ذكرتهُ قبلاً او استدراكاً عليهِ

ثم ان بحثي في المقتطف لم يكن في شكل معجم ولم يكن الغرض منهُ تأليف معجم حاوٍ لانواع الحيوان بل كانت الغاية تحقيق اسماء بعض الحيوانات مما ورد في كلام العرب او المولدين في مؤلفاتهم او ما وضعهُ المحدثون الذين يؤخذ باقوالهم فلما عرضت المقالة الاولى على استاذنا الدكتور صرُّوف رحمهُ الله أخذ القلم وكتب عنوانها « معجم الحيوان » فلما اعدت نشر المقالات في كتاب على حدة ابقيت اسمهُ كما كان على ما ذكرت في المقدمة

ثم كتبت هذا الاستدراك عن المسيو غريفل وارجو ان يكون فيهِ فائدة للادباء الذين يعنون بمثل هذه الامور وكتاب المسيو غريفل فريد في بابهِ وان الاسماء العلمية التي اوردها لا شبهة في انها آخر ما وصل اليهِ العلم في عصرنا . فمن الاسماك التي ذكرها ما يأتي

الأشلاق Sélaciens ou Élasmobranches. E. Selachii or Elasmobranchii

جمع شِلْق وشَلِق اسماك غضروفية الهيكل منها القِرش اي الكوسج والمنشار وابو

---

(١) Les États de Syrie. Richesse marine et fluviale. Par A. Gruvel, Professeur au Muséum d'Histoire Naturelle. Paris 1931

مطرقة وابو مهماز والملاك واللّياء والشِلْق على ما حققهُ الاب انستاس والجَلكي على ما حققهُ كاتب هذه السطور والشلق افصح لانها واردة في كلام العرب والجلكي اعجمية

اما لفظة اشلاق فلم يذكرها المؤلف بهذا اللفظ العربي وانما ذكرتها نقلاً عن معجم الحيوان ص ٢٢٢ ايضاحاً لما سيرد من انواع الاشلاق في الشام

القروش او الكواسج واحدها قِرش وكَوسج Squales ou Requins. E. Sharks

قال المؤلف : لم تكن القروش الحقيقية معروفة في مياه الشام قبل فتح ترعة السويس وكان المعروف منها الانواع الصغيرة اي كلاب البحر وقد رأينا منها الانواع الآتية

كلب البحر La Roussette. E. Dogfish (Scyllium)

ذكر منهُ نوعين كلب البحر الكبير او كلب البحر المرقّط وكلب البحر الصغير او كلب البحر الملطّخ وقال ان الصيادين يسمونهُ بالعربية كلب البحر

كلب البحر L'Emissole. E. Hound or houndfish

ذكر منهُ نوعين ولم يذكر لهُ اسماً عربيّاً واظنهُ كلب البحر كالذي تقدم

ثم ذكر انواعاً اخرى من الاشلاق منها الانواع الآتية : ابو مهماز وابو مطرقة والملاك او ملاك البحر ولم يذكر لها اسماء عربية معروفة في الشام

ثم ذكر انواعاً من اللّياء الآتي ذكره وقال ان اهل البحر في سواحل الشام يسمونهُ باره Baara ولعلهُ يريد باغه وهي عند العامة جلد السلحفاة ونحوها وربما كانت من اصل تركي فاذا اريد بها جلد السلحفاة ففصيحها الذبل واذا اريد بها جلد اللياء هذا ففصيحها السَفَن كما سيأتي

اللياء Raie. E. Ray or Skate

شِلْق مفلطح يتخذ من جلده السَفَن وهو اجناس وانواع كثيرة

قلت في المقتطف ٣٩ : ٣٤٠ ان اللياء غير هذا اي انهُ نوع من السمك اسمهُ بالانكليزية Porbeagle ولا شبهة اني كنت مخطئاً فهذا النوع من الاشلاق او القروش خاص بالبحار الشمالية فلا يمكن ان يكون من سمك جزيرة تنّيس على ما نقلت عن معجم البلدان وآثار البلاد فاللّياء هو المسمى Ray بالانكليزية وقد ذكرتهُ في ص ٢٠١ من معجم الحيوان وذكرت لهُ اسماء كثيرة ولكنني لم اذكر اللياء وهذا افضلها لانهُ افصحها

وهاك بعض ما جاء عن اللياء في المؤلفات العربية . القاموس : اللّيا ككساء سمكة تتخذ منها التَرسة الجيدة

وفي حياة الحيوان : اللياء سمكة في البحر يتخذ من جلدها التَرسة فلا يحيك فيه شيء

من السلاح ولا يقطع . وفي تاج العروس شيء مثل هذا . وقد ورد ذكر اللياء في وصف جزيرة تنيس كما تقدم

اما جلد اللياء ففصيحهُ السَّفَن قال في تاج العروس : « السَّفَن محرّكة جلد خشن غليظ كجلود التماسيح يجعل على قوائم السيوف كما في الصحاح والتهذيب الى ان قال « وقطعة خشناء من جلد ضب او سمكة يُسحَج بها القِدح حتى تذهب عنه آثار المبراة وقيل هو جلد السمك الذي تحكّ به السياط والقدحان والسهام والصحاف ويكون على قائم السيف » . ثم انشد بيتاً لعدي بن زيد وآخر للاعشى وكلاهما جاهلي الى ان قال « وقيل السفن جلد الاطوم وهي سمكة تسوّى قوائم السيوف من جلدها »

فالسفن لفظ عربي فصيح سمعه فورسكال في سواحل البحر الاحمر فسمى به نوعاً من اللياء كما سيجيء وسمى نوعاً آخر اللِمّا وسمى كلوزنجر النوع الاول السفن اي كما سماه به فورسكال وسمى هذا النوع الثاني السفن واللمّا وعن مؤلف آخر اللمنا وسيأتي ذكر هذين النوعين

ثم ان الانكليز يسمون هذا السمك وجلده بهذا الاسم اي Sephen عن العربية كما في كتب اللغة عندهم كذلك الفرنسيون فانهم يسمون جلد هذا السمك Galuchat باسم الرجل الذي حسّن دباغته كذلك هذا النوع من السمك فانهم يسمونه بهذا الاسم . وفي سواحل الشام يسمونه باغه كما تقدم فالسفن بالعربية يقابل اللفظ الانكليزي واللفظ الفرنسي الذي تقدم ذكرهما ويقابل ايضاً ما تسميه العامة في مصر بالصنفرة والعامة في الشام بورق الزجاج او ورق السنباذج

سَفَن Galuchat. E. Sephen (Trygon (hypolophus) Sephen) Forsk.

قال المؤلف اي المسيو غريفل ان جلده يصنع منه ادوات للزينة مثل اغشية الصناديق واجفان السيوف ونحو ذلك اي ان الانكليز والفرنسيين يطلقون الاسمين اللذين تقدم ذكرهما على هذا النوع من السمك وعلى جلده . قلت وقد ذكرت في المقتطف ان هذا النوع اسمه السفن والسيفن والسيف والصواب السفن فاللفظان الاخيران خطأ

لِمّا ولِمنا . سَفَن Taeniura (Trygon) Lymma. Forsk.

ذكر فورسكال من اسمائه لِمّا وذكر كلوزنجر اللِمّا عن فورسكال ونقل اللمنا عن مؤلف آخر وقال اسمهُ السَّفَن كالذي تقدم وقال جفروى ان اسمهُ الوطواطة في الاسكندرية على ما ذكرت في معجم الحيوان ص ٢٠٢

الورنك عن فورسكال كما ذكرت في المقتطف Trygon uarnak, Forsk.

وفي معجم الحيوان ص ٢٠٢

فيتضح مما تقدم ان اللياء هو المسمى Raia باللاتينية وRaie بالفرنسية وRay بالانكليزية وله اسماء عامية كثيرة في البلاد العربية ولكن اللياء افصحها . فهل هذه اللفظة معرب لميا اليونانية كما ذكر الاب انستاس في مجلة المشرق او انها اصلية بالعربية وانما يقابلها باللاتينية يشبهها كل الشبه فجعلت الراء لاماً بالعربية او جعلت اللام راء باللاتينية فهذا ما لا اعلمه وانما أعلم ان الراء واللام يتبادلان واعلم ان اللياء بالعربية هو هذا السمك وانهُ اصلح اسمائه وربما كان اللفظ قديماً جداً في البحر المتوسط فسماه العرب اللياء وسماه اللاتين رايا اي ان اللفظين من اصل واحد والله اعلم

ثم ان المسيو غريفل ذكر فصيلة اخرى من السمك في مياه الشام وهي ما يأتي وقد ذكرتها في ص ٢٢٨ من معجم الحيوان وهي من الاسماك العظمية وليست غضروفية الهيكل كالاشلاق ولما كان في بعضها شيء من الطول كالشلق التبس امرها على بعضهم وهي فصيلة السلور الآتي ذكره

فصيلة السِلَّور Siluridés ou Poissons-chats E. Siluridae or Catfishes

او السِلَّوريات . فصيلة من سمك المياه العذبة خالية من الفلوس اي الحراشف لكل منها شاربان او اكثر حول فمها ولبعضها شوك نابتٌ في زعنفتها الظهرية او الصدرية . ومن امثلتها السِلَّور والجِرّي والشال والبياض والدُّقهاق والقَرْموط والشلبة والفَتْرة والزِمّير . ذكرت هذه الفصيلة في ص ٢٢٨ من معجم الحيوان وذكر المسيو غريفل من انواعها ما يأتي وذلك في ص ٣٠٧ من كتابه

Genre : Clarias

السِلَّور قال هو كثير في بحيرة انطاكية وسقي العاصي Clarias Orontis, Gunth والاهلون يسمونهُ السَلّور

البَرْبور Clarias macracanthus, Gunth.

قال هو كثير في طبرية والحولة والاهلون يسمونهُ البَرْبور

قلت ذكرت هذا الجنس اي Clarias في ص ٦٥ من معجم الحيوان وذكرت منهُ نوعين القرموط والبربور وفاتني قرموط العاصي اي السِلَّور

ثم ذكر المسيو غريفل النوع الآتي من الفصيلة عينها ،

الجرّي قال هو كثير في الفرات ويسمونهُ الجرّي Silurus glanis, L.

قلت وقد ذكرتهُ في معجم الحيوان وذكرت من اسمائهِ السِلّور والجرّي والصواب الجرّي فقط اي كما اورده المسيو غريفل . فما تقدّم صحة الاسماء العلمية للسِلّور والجرّي والبُربور والقرمُوط ولا يخفى ان هذه الاسماء تتبادل في بعض النواحي ولكنها جميعاً من فصيلة السلور التي تقدم وصفها

***

اما الجرّي في الفرات والدانوب فاسمهُ بالانكليزية Sheatfish وبالفرنسية Silure ولكن هذين الاسمين قد يطلقان على انواع اخرى من هذه الفصيلة

ثم اني قلت في المقتطف ٣٩ : ٦٨ ما يأتي : —

الزِمّير نوع من السمك له شوك ناتىء وسط ظهره وله صخب وقت صيد الصياد اياه وقبضه عليه واكثر ما يصاد في الاوحال واصول الاشجار في المياه العذبة (تاج العروس) . ثم قلت انهذا الوصف يوافق وصف السمك المسمى Gastrosteus or Stickleback عند علماء الحيوان وذكرت في معجم الحيوان ص ٢٣٥ اني قرأت مقالة في لغة العرب للسيد محمد مهدي العلوي قال فيها الزمير محرّم أكله عند الشيعة الامامية الى آخر ما جاء في معجم الحيوان في الصفحة المشار اليها. ثم كتبت الى عالم كبير من علماء الشيعة في جبل عامل فاشار عليّ ان اكتب الى العراق . ثم جاءني كتاب من صديقي مصطفى جواد الاديب العراقي المعروف قال فيه ما يأتي :

« الزمير ويسمى في العراق اليوم ابو الزمير يجرح الاولاد عند ما يسبحون ويضطرب كثيراً عند ما يصاد (كما وصفه صاحب التاج) وله شاربان طويلان وشوك حادٌّ على ظهره » . فقوله له شاربان طويلان دليل قاطع على انه من السلوريات وليس هذا السمك الذي ذكرته في المقتطف لان هذا السمك الذي ذكرته لا شوارب له فالزمير بحسب قول الصديق المحقق وقول الاب انستاس على ما ذكرت في «معجم الحيوان» ص ٢٣٥ وما بعدها نوع من السِلّوريات كما تقدم فهو إما الكرَفش Auchenoglanis او الشال Synodontis او مايشبههما وقد اورد بولنجه في وصف سمك النيل اسمين قال يسمى بهما الكرَفش وهما زَمّر وزَرْمَر فالكرفش والشال يوافق وصفهما ما جاء في تاج العروس تمام الموافقة ولكل منهما شاربان طويلان وشوك حاد على ظهرهما كما ذكر الصديق المحقق في كتابه وانما لا يمكن البتّ في صحة الاسم العلمي للزمير ما لم تعرف الاسماء العلمية لانواع السمك في دجلة والفرات ولكنهُ ليس هذا النوع الذي ذكرته في المقتطف للاسباب التي بيّنتها في ما تقدم



عجائب حياة النبات

نبات يزرع ويورق ويزهر ويثمر بلا تربة

مباحث طريفة

من الأُمور المشهورة بين الباحثين وقرَّاء المجلات العلمية ان النباتات تنمو نمواً طبيعياً اذا اشتمل غذاؤها على العناصر الاساسية . واكثر هذه العناصر توجد في الهواء والماء والاسمدة التي يستعملها الفلاحون والبستانيون وغيرهم من المشتغلين بالزراعة. فكلٌّ من هؤلاء يعرف ان النترات والفصفات والسلفات وغيرها تحتوي على عناصر لابدَّ منها في تغذية النبات وكثيرون يطلعون على أسمائها في الاعلانات التي تنشر عن تركيب الاسمدة الطبيعية والصناعية. يقابل ذلك في اغذية الحيوانات المواد الزلالية كالبيض والنشوية كالسكر والدهنية كالزيوت والادهان والاملاح على اختلافها. ولكن الباحثين في العصر الأَخير كشفوا عن حقيقة جديدة كبيرة الشأن في علم الاغتذاء خلاصتها ان الانسان لا يعيش بالخبز وحده وان غذاء الحيوان الكامل يجب ان يشمل شيئاً آخر عدا الزلاليات والنشويات والادهان والاملاح والماء. وقراء المقتطف يعرفون ان هذه المواد الاضافية هي المواد المعروفة بالفيتامينات . بل قد كشف الباحثون كذلك عن أثر المفرزات التي تفرزها الغدد الصماء في تمثيل الغذاء الذي تأكله اي في استعمالهِ في بناء الاعضاء . فقد كشفوا مثلاً عن وجود عنصر اليود في مفرزات الغدة الدرقية وعرفوا أثره في البناء والنموّ فتلا ذلك صنع مادة تشتمل على هذا الافراز الحاوي لليود يدعى ثيروكسين (وهذا الاسم منسوب الى اسم الغدة الدرقية باللغة الانكليزية Thyroid)

وهذا المثل الأَخير يبين للقارىء أثر مقدار ضئيل جداً من بعض المواد الكيماوية في نموّ الجسم نمواً صحيحاً . وكان من أثر الكشف عنهُ في حياة الحيوان ان علماء النبات تنبَّهوا الى ضرورة البحث بحثاً علمياً مدققاً في مسألة اغتذاء النباتات وهل هو يعتمد فقط على العناصر الاساسية المعروفة او يجب ان يشتمل كذلك على مقادير ضئيلة جداً من بعض المواد الكيماوية لكي يكون نمو النباتات نمواً صحيحاً ؟ وما هي تلك المواد ؟

لقد كشف التحليل الكيماوي عن قائمة طويلة من العناصر تدخل في تركيب اجسام النباتات ولكن وجود هذه العناصر فيها لا يؤخذ دليلاً على ان كلاً منها حتمي في غذائها لا يستغنى عنهُ . فما الطريقة الى التفريق بين العناصر التي يستغنى عنها والعناصر التي لا مندوحة عنها. الطريقــة العلميــة المنطقية لمعرفة ذلك هي زرع نبتة معينة في تربة خالية من هذا العنصر

المعين ومراقبة نموّها . ثم اضافة العنصر الى تربتها ومراقبة نموّها كذلك ثم الموازنة بين نموها اولاً ونموّها ثانياً

على ان التربة كثيراً ما تحتوي على مقادير ضئيلة جدًّا من عناصر ومركبات كيماوية تتعذر ازالتها بل يتعذر الكشف عن بعضها بالكواشف الكيماوية . ولما كان الغرض من هذه التجربة ازالة كل اثر — مهما يكن ضئيلاً — لهذه المواد لكي لا يلتبس اثرها علينا بأثر العنصر الذي تحت البحث فالتربة لا تصلح وسطاً لهذه التجربة

فعمد العلماء عندئذٍ الى زرع النبتة في ماء مقطر اضيفت اليه المواد اللازمة لنموها اي مركبات العناصر الاساسية مثل نترات الصودا وسلفات المغنسيوم وسلفات النشادر وغيرها فيستطيعون كذلك السيطرة على التجربة باضافة العناصر التي يريدونها بالمقادير اللازمة وازالة العناصر التي يريدونها كذلك ويضاف الى كل لتر من السائل سنتمتر مكعب من محلول طرطيرات الحديد قوتهُ نصف في المائة كل يوم ما زالت النبتة صغيرة حتى تبقى خضراء. فتمتص جذورها من المحلول الغذائي العناصر التي فيهِ وتتناول من اكسيد الكربون الثاني في الهواء ومن الماء عناصر الاكسجين والهدروجين والكربون

***

من نحو ثلاثمائة سنة جرّب يوهان باتيستا فون هلمنتْ تجربة عجيبة في بروكسل وصفها بما يلي : « اخذت اصيصاً خزفيًّا ووضعت فيهِ مائتي رطلٍ من التربة المجففة في فرن . ثم بَلَلْتُ التربة بقليل من ماء المطر وغرستُ فيها خرعوباً من الصفصاف وزنهُ خمسة ارطال . وبعد خمس سنوات بلغ وزن الشجرة التي نشأت منهُ ١٦٩ رطلاً وثلاث اوقيات . ولكن الاصيص لم يوضع فيهِ في خلال تلك المدة شيءٌ الاّ ماء المطر ، او ماءٌ مقطر لبلّ التربة اذ يقتضي جفافها ذلك . وظلّ الاصيص ملآناً بالتربة محشوكة فيهِ . وحتى لا يسقط عليهِ غبار من الجوّ غطّي بلوح من الحديد مغشى بالقصدير ، وفيهِ ثقوب كثيرة . ولكنني لم ازن الاوراق التي سقطت في الخريف . واخيراً اخذت التربة وجففتها ووزنتها فاذا وزنها ٢٠٠ رطل ينقصها اوقيتان فقط واذن فالمائة والاربع والستون اوقية من خشب الشجرة ولحاها وجذورها نشأت من الماء لا غير »

التجربة بسيطة كلّ البساطة ، واللغة التي وصفت بها خالية من كل تعقيد. ولكن ذلك لا يمنع ان النتيجة التي وصل اليها فون هلمنت خاطئة. ذلك ان خشب الشجرة ولحاها وجذورها لم تنشأ من الماء وحده . فلو انهُ اخذ الشجرة وجففها ، طارداً بذلك الماء منها ، لنقص وزنها من ٤٠ الى ٥٠ في المائة ولو انهُ بعد ذلك حرق الخشب المجفف ، لما بلغ الرماد ، الباقي من الشجرة الاجزاء يسيراً جدًّا من وزنها الاصلي

ذلك ان نصف وزن النبات الغض ، مردُّهُ الى الماء الذي تحتويهِ الخلايا والنُسُج النباتية . اما النصف الآخر فؤلف في الغالب من مواد عضوية يمكن حرقها فتتحول الى ثاني اكسيد الكربون ، وهو احد غازات الهواء . فاذا كان نحو نصف وزن الشجرة، يرتدُّ الى الهواء ، فمن المعقول ان نحسب ان هذه الغازات امتصتها الشجرة من الهواء في خلال نموّها، واذن فقد ثبت ان فون هلمنت ، اهمل الهواء في النتيجة التي خرج بها من تجربتهِ ، كمصدر كبير من المصادر التي يستمد منها النبات غذاءهُ . وقد كشف العلماء في القرون الثلاثة التي كرَّت على تجربة فون هلمنت ، ان النباتات تمتصُّ ثاني اكسيد الكربون ، فيتحد بالماء فيها، ويتحولان بفعل طاقة الشمس الى سكّر ونشاء. وهذا الفعل الطبيعي يعرف بفعل « التركيب الضوئي » Photosynthesis ومن السكر والنشاء تبني النباتات المواد الاخرى التي تستعملها في نموها وتناسلها

ثم اننا يجب ألاّ نصرف النظر عن الرماد الذي يبقى بعد ما يطرد الماء من النبات بالتجفيف وتتحول المادة العضوية الى غاز يذهب في الهواء . ومع ان مقدار الرماد ، ضئيل جداً ، اذا قيس بأقدار المواد الاخرى ، فانهُ يحتوي على عناصر لا غنى عنها في نموّ النبات ونشاطه . واشهر هذه العناصر ، هي الكلسيوم والفصفور والبوتاسيوم والمغنيزيوم والكبريت. وهذه هي العناصر التي تشتمل عليها اصناف الاسمدة الطبيعية والصناعية. بل قد وجد العلماء اكثر من ثلاثين عنصراً في رماد النبات، ومقادير بعضها ، كالكلور والصوديوم والسلكيون واليود تتباين تبايناً كبيراً في اصناف مختلفة من النبات. بل قد عثر على آثار الخارصيني (الزنك) والقصدير والرصاص والفضة والنحاس ، في الرماد . والعلماء الآن لا يعلمون هل هذه العناصر كلها لازمة لنمو النباتات ، ولكنهم وجدوا ، ان مقادير ضئيلة جداً من بعض العناصر ، كالبور والمنغنيس والخارصيني لازمة للنبات لزوم العناصر التي تحتويها الاسمدة بوجه عام

***

كان الناس يعتقدون حوالي القرن السادس قبل المسيح ، ان النبات يستمد كل غذائهِ من الماء . ولكن النبات اذ يمتص الماء بواسطة جذوره ، يمتص معه المعادن المحلولة فيه . حتى في هذا العصر ترى بعض الناس لا يصدقون ان النبات لا يستطيع ان يتناول دقائق الاسمدة بواسطة جذورها . لان هذا المواد الصلبة يجب ان تنحلَّ في الماء اولاً قبل ان تستطيع ان تخترق الاغشية النباتية في الجذور . واذن نستطيع ان نحيط الجذور بمحلول مائي ، وتستطيع هذه الجذور ان تستمد منهُ كل العناصر اللازمة للنمو . واذن فالتربة ، من الناحية النظرية غير ضرورية لنمو النبات . واننا نجد هذه الحقيقة سهلة الفهم ولكنها لم تكتشف قبل سنة ١٦٩٩ اذ زرعت نباتات في الماء لاول مرة في التاريخ ، على ما نعلم من المدوَّنات ، فقد زرع «ودورد» نوعاً من النعناع ، والبطاطس ، في ماء من قناة وفي ماء نهر وماء نبع وماء مقطر.

وكان غرضه ان يعرف هل الماء يحتوي على مواد محلولة فيه، تكفي غذاء للنبات. وخرج بأن الماء يحمل «المادة الارضية اللازمة» لغذاء النبات

***

وكانت الخطوة التالية، ان يضيف الانسان الى الماء المقطر العناصر المختلفة ـ المواد الارضية ـ حتى يعين العناصر التي يحتاج اليها النبات والعناصر التي يستغني عنها. وتلت ذلك سلسلة من التجارب قام بها علماء النبات وغرضهم تحديد المقادير المختلفة من العناصر التي تفضي الى النموّ على وجهه الاتمّ. وكانت الخبرة الزراعية العملية، قد علمت الانسان انّ النباتات تحتاج الى النترات والفصفات والبوتاسا في التربة. وكانوا قد عرفوا بالاختبار، ان مقادير معيّنة من مواد معيّنة افضل من مقادير اخرى من المواد نفسها. والعلم الآن، يحدد بطريقة علمية اصلح المقادير من العناصر المختلفة للنبات المختلفة، جرياً على طريقة غرس النبات في الماء المقطر واضافة العناصر المختلفة بمقادير مختلفة لمعرفة أثره في نموّ النبات على وجهِ التدقيق

ففي اي شكل من الاشكال نستطيع ان نقدّم هذه العناصر حتى يستطيع النبات ان يغتذي بها؟ او بالحري ما هي المركّبات الكيمائية التي تصلح غذاءً للنباتات

اشهر الاملاح التي من هذا القبيل هي نترات الكلسيوم، وسلفات المغنيزيوم، واول فصفات البوتاسيوم ونترات البوتاسيوم وسلفات (كبريتات) النشادر. اما الحديد فيمكن ان تستعمل طرطيراتهُ او شتراتهُ او فصفاتهُ او سلفاتهُ (كبريتاتهُ). ثم يجب ان يضاف قليل من الحامض البوريك وعنصر المنغنيس ان كانت المواد الاخرى نقية نقاوة كيمائية. ولا ريب في ان بعض النباتات تحتاج الى قدر من بعض العناصر يفوق القدر الذي تحتاج اليهِ من العناصر الاخرى. بل ان النبتة الواحدة تحتاج الى مقادير مختلفة من عنصر واحد وفي ادوار مختلفة من نموّها

كل باحث مبتكر في غذاء النبات، يكاد يكون لهُ محلول خاص بهِ. وهي تختلف بداهة من حيث فائدتها في تغذية النبات والغرض من هذه المحلولات تجهيز النبات بالعناصر التي يحتاج اليها ويتناولها من التراب والماء والهواء في شكل محلول سهل الامتصاص. فالعناصر التي يتناولها من التربة في مقادير كبيرة هي النتروجين والفصفور والبوتاسيوم والكلسيوم والمغنيزيوم. وقد صنعت محلولات مغذية للنبات، فيها مقادير متباينة من هذه العناصر. وكان محلول «ساكس Sachs» المحلول الاول الذي دعي بالمحلول القياسي. ولكن اشهرها واكثرها استعمالاً محلول نوب Knop وهو مؤلف من ٤ اجزاءٍ من نترات الكلسيوم وجزءٍ من نترات البوتاسيوم وجزءٍ من كبريتات المغنيزيوم وجزء من اول فصفات البوتاسيوم او ثاني فصفات البوتاسيوم، وقليل من الحديد. ثم ادخل عليهِ توتنجهام بعض التحسين لاستعمالهِ في تغذية نبات الحنطة.

ثم بسَّطه « شيف » الى محلول يحتوي على فصفات البوتاسيوم ونترات الكلسيوم وكبريتات المغنيزيوم وقليل من فصفات الحديد . واذا استعمل الماء المقطر لحلّ هذه المركبات وجب اضافة مقادير يسيرة من عناصر اخرى

***

ولكن المباحث الحديثة في تغذية النباتات ، تشير الى وجوب استعمال محلولات اكثر تعقيداً من محلول نوب او توتنجهام او شيف وقد وجد المستر جونستن الباحث في المعهد السمثصوني الاميركي — وعنهُ لخصنا هذا المقال — ان المحلول المحتوي على العناصر الآتية يصلح لنمو نبات الطماطم

العنصر	عدد الايونات في مليون جزء من الماء	العنصر	عدد الايونات في مليون جزء من
الكلسيوم	٢٠٠	الفصفات	٧٤
المغنيزيوم	٦٠	المنغنيس	١
البوتاسيوم	٧٨	البور	١
النترات (نترات الصوديوم)	٦٢٠	الحديد	(ما يكفي لحفظ النبات اخضر)
السلفات	٢٩٠		

وكلُّ ايون من هذه الايونات له أثر فعال في تغذية نبات الطماطم ونمائهِ . فاذا فُقِد ظهر على النبات عارض خاص ، حتى لتستطيع ان تعرف العنصر الناقص من المحلول من مجرد رؤية النبات . فاذا كان المحلول ينقصه البوتاسيوم اصفرّت الأوراق ثم تعلوها بقع بنّية اللون . واذا كان الفصفور ناقصاً تم اخضرار الأوراق ، واصبحت سطوحها السفلى قرمزية احياناً ، وضمرت الساق . واذا كان الكلسيوم ناقصاً ، جفّت الاطراف النامية في الساق ثم تذوي وتموت

***

والطريقة العادية لاستنبات النباتات في المحلولات الكيمائية من دون استعمال أية تربة هي ان تؤخذ البزور وتوضع بين ورقتين مبلولتين من الورق النشّاف ، بعد وضعهما في طبق من الزجاج والخزف وتغطيتها للاحتفاظ بالرطوبة . فاذا أفرخت البزور وبلغ طول الجذور نصف بوصة او ثلاثة ارباع البوصة نقل الفرخ الى وعاء فيه ماء من حنفية ماء الشرب او الغسيل ، ويكون فوق الوعاء شبكتان احداهما فوق الأخرى وتعلو عنها قليلاً فيوضع الفرخ بينهما بحيث تغمس جذوره في الماء . فاذا بلغ علو النبتة بوصة او نحوها ينقل الى المحلول المغذي . وطريقة وضعها في المحلول ان يغطى الاصيص الذي يحتوي على المحلول بقطعة من الفلين مغشاة بالشمع ، وفيها ثقوب فاذا وضع ساق الفرخ في الثقب احيط بقليل من القطن لوقايتهِ . واذا كان الاصيص من الزجاج وجب ان يغطى بورق كثيف يحجب ضوء الشمس عن الجذور ، فيمنع تولد الفطريات البحرية

رجال المال والاعمال

للاستاذ عباس محمود العقاد

في جريدة الجهاد

كتب السير والتراجم من أنفع الكتب وأمتعها وأحقها بالتداول والدراسة ، وعناية «المقتطف» بهذا الباب من التأليف قديمة ملحوظة في كتاب «سر النجاح» وكتاب «الرواد» وفي هذا الكتاب الجديد الذي جعله المقتطف هدية العام الى مشتركيه

ومن اسباب العناية بتأليف هذا الكتاب ان التراجم العربية القديمة مقصورة كما يقول محرر المقتطف الفاضل على الفقهاء والشعراء والادباء والامراء والنحاة . وهو يسأل : «اهؤلاء قوام الامة لا بغيرهم وهم عنوان مجدها وغيرهم بهل همل ؟ ان قال بذلك أبناء العصر الذي كان فيه ابن خلكان فهل يقول به أبناء عصرنا هذا ونحن نرى أرباب الزراعة والصناعة والتجارة ملكوا الخافقين ؟ نرى الملوك يقتنون المزارع والمعامل ويشاركون الشركات التجارية في اعمالها ؟ نرى ميازيب الثروة تنهال على ابناء الصناع والتجار . نرى قصورهم وبيوتهم ومتاحفهم وسفائنهم غاصة بكل علق فاخر ثمين ، ونحن نسل الامراء والفقهاء والشعراء والادباء عاكفون على التفاخر بالعظم الرميم وتفسير الآيات والاحاديث ونظم المدائح والمراثي ومن حين يشب اولادنا لا يرون امامهم مثالاً يقتفونهُ ويحيكون على منواله الا ما يقرأونهُ في كتب السير عن فلان الفقيه وفلان الشاعر وفلان المحدّث . . . » . والاستاذ الفاضل محق في ملاحظتهِ مصيب في توجيه العناية الى تراجم رجال الاعمال لانهم في كل عصر — لا في العصر الحاضر وحده — عنصر قوي في حياة الامم ومعرض مزدحم بصنوف الدراسة النفسية والاجتماعية ، ولهم من الحق في التاريخ مثل ما يحق لجميع النابهين من رجال الادب والحرب والسياسة

وقد احسن الاستاذ اختيار الامثلة من عظماء الامم الغربية المختلفة فجمع في كتابه سبعاً وعشرين ترجمة بينها تراجم للانكليز والالمان والامريكيين والروس وغيرهم ، وكلها تقرأ كما تقرأ القصص وتفيد كما تفيد كتب العلوم ، وحبذا لو اضيف الى الكتاب في طبعاته المقبلة طرف من تراجم الشرقيين الذين برزوا في ميدان العمل والمال في البيئات الشرقية المتفرنجة او المحافظة على عاداتنا الموروثة ، فهذه التراجم أنفع لنا واصلح لهدايتنا لانها من جهة اقرب الينا ومن جهة ادل على القدرة والبراعة لما فيها من ابتكار شخصي قد لا يشاهد في الامم التي انتظمت فيها أساليب التجارة والصناعة حتى اصبحت كالقواعد الحربية في عمومها واطرادها ، ولان تراجم الشرقيين من جهة ثالثة نمط مختلف في الموضوع . فهو تكملة صالحة لانماط التراجم الغربية المبثوثة في الكتاب

ومن راجع هذه التراجم السبع والعشرين خرج منها بحقيقة واحدة لا اختلاف فيها مع اختلاف البلدان والازمان والمقاصد ، وهي ان النجاح في الحياة العملية لا يتم بغير « قدرة وحيلة » او بغير مزيج غريب من صفتين متناقضتين في الظاهر متقاربتين في ملكات الناجحين من رجال المال والعمل ، ونعني بهاتين الصفتين القدرة على موافقة البيئة والقدرة على مخالفتها في وقت واحد ، واوضح من هذا ان نسميها القدرة على المسايرة والمجاراة والقدرة على التفرد والابتكار

فكل رجل من رجال العمل والمال خلا من هذا المزيج الغريب لا يفلح ولا يبلغ القمة في سباق الحياة العنيف . والفارق بين عظماء الفكر والروح وعظماء العمل والمال في كفاءة النجاح واستحقاق الغلب ان موافقة البيئة شرط لا بد منهُ في حياة الاخيرين يفوتهم فيفشلون وان غنوا بصفات الكمال الراجحة ، ويتيسر لهم فينجحون وان كان حظهم قليلاً من الصفات الانسانية العالية ومناقب الاريحية والايثار . أما عظماء الفكر والروح فلا بد لهم من السجايا التي تراد لصلاح الانسانية في جميع العصور ولا تراد لصلاح عصر واحد او إنسان واحد

ومن هنا تباينت الطريق وتفرقت المطالب فلو ان الناجحين من عظماء العمل والمال طلبوا النجاح بوسائلهم ومزاياهم في معارض الفكر والروح لفشلوا ولم تغن عنهم تلك الوسائل والمزايا ، ولا مناص من التنبيه الى ذلك لكي لا يقع في بعض الاوهام ان العمليين جمعوا أسباب النجاح كلها وفازوا في ميدانهم لأنهم اقدر من الفكريين والروحيين على الاطلاق ، إذ الحقيقة ان المطالب تختلف فتختلف الوسائل ، ولو استعدَّ العمليون بعدتهم وحدها في صراع العظمة الفكرية أو الروحية لأخفقوا كما اسلفنا أشد اخفاق . كذلك لا مناص من التنبيه الى استدراك آخر على الكتاب تشترك فيه كتب كثيرة من هذا القبيل

فالذي يقرأ هذه التراجم لا يرى أمامه من وسائل النجاح الاَّ كل وسيلة شريفة تقرها الآداب والقوانين ، ولا يحسب ان احداً من رجال العمل والمال عمد الى وسيلة تشينه او يستحي من اعلانها عن نفسه ، وليست هذه هي الحقيقة التي يعرفها كل من مارس الحياة ونفذ الى خفايا الصراع العملي في الحضارة الحديثة وفي الحضارات التاريخية المذكورة

فقد يطلع القارىء على ترجمة رجل من مؤسسي المصانع غلب المزاحمين له في صناعته واضطرهم آخر الامر الى ادماج اعمالهم في عمله ، فيخيل اليه ان هذه الصفقات تتم أبداً بوسائل الجد والصراحة والمزاحمة الشريفة ، وينسى ان بعض هذه الصفقات لا يتمُّ الاَّ بحيل ودسائس تبلغ حد الخيانة في بعض الاحايين

فدير المصنع او الشركة الذي يغلب مزاحميه كثيراً ما يلجأ الى اذاعة الاشاعات الكاذبة عن أسهم المصانع والشركات الاخرى ، أو يعمد الى شراء الضمائر ورشوة المطلعين على اسرار البيع والشراء في مكاتب مزاحميه ليلحق الخسائر بأسهمهم ومشروعاتهم ويضاربهم وهو عالم

منهم بالعيوب والمقاتل، ومن الذين جاءت لهم سيرة في كتاب «المقتطف» من لجأ الى هذه الاساليب واستعان بها على هزيمة المزاحمين فأصاب النجاح

ان تقرير هذه الوقائع واجب على المؤلف لانها حقيقة تعرف وتنفع ، ولانها من الجانب الآخر تكشف عن عيوب الحضارة او عيوب المجتمع في ناحية من نواحيه فتعين على الاصلاح وتدعو الى اجتناب الاضرار . وما دام القصد من سرد التراجم العبرة والقدوة فالسكوت عن ذكر الحقائق كلها يحجب العبر ، ولا يتيح للمقتدي ان يعرف سبيله على هداها ، ولا يعرض لنا الصورة الكاملة لكل ما يجري في الحياة

في كتاب هـ . ج ولز « العمل والثروة والسعادة بين بني الانسان » اجمال لترجمة باسيل زخاروف والفرد كروب المشهورين في عالم المال والصناعة توخى فيه الالمام والايماء دون الافصاح والافاضة فأرانا كيف يستحل الرجل ان يبيع السلاح الواحد لابناء وطنه وخصوم وطنه وكيف تجري الدماء وتشتعل الحروب في سبيل الارباح والصفقات . وقال عن باسيل زخاروف: « ولا ريب ان هذا الرجل قضى شطراً كبيراً من حياته في اعداد المجازر البشرية وتزويدها ، ولكن من الظلم والخطل ان يلام على ذلك ، إذ ليس أسهل ولا أقرب من سخط المسالمين العاطفين عليه ، ولكننا جميعاً منغمسون في تلك الدوامة التي دفعت به الى الثروة وعلينا نصيب من التبعة التي تقع عليه ، فان دواعي ضرورية لاطاقة له بمنعها هي التي عبّدت له سبيل حياته ، وكل ما في الامر انه كان من التواضع بحيث أبى ان ينصب نفسه حكماً على أساليب الدنيا المحيطة به وقنع بأن يلاحظها أميناً في ملاحظتها ذكيًّا في فهمها ، وواضح انه كان يسوّغ أعماله أبداً بما تؤدي اليه من كسب المال وهو — اي كسب المال — مما ينبغي ان يكون دليلاً على الخدمة الاجتماعية ، فان لم تجر الامور على هذا الاساس فالخطأ اولاً انما هو خطأ النظام السياسي والعملي ثم يأتي بعد ذلك خطأ الافراد الذين يجمعون المال

«ان تدبير القتل كان في قرارة أساليبنا الفكرية، فهذا الاغريقي الاناضولي الغارق في ثروته المزدان بأرفع الالقاب المشرفة التي تستطيع فرنسا وبريطانيا العظمى واكسفورد ان تضفيها عليه ، واللاهي في أخريات ايامه بقصر فاخر يديره للمقامرة ، اذا نظرت اليه ووراءه ظهارة من الملايين التي لا تحصى مشوّهين معذّبين مجروحين مجندلين ساغ لك ان تتخذه مثالاً صحيحاً لموروثاتنا السياسية ولم يكن ذلك على وجه من الوجوه ادانة له شخصية ، فان الملايين من ابناء عصره ليودّون ان يصنعوا صنيعه لو فكروا فيه وقدروا عليه، اذ ليس في أشخاصهم ما يحول بينهم وبين هذا الصنيع ، وانما الوزر على المؤثرات التعليمية والاحوال السياسية والاقتصادية والمالية التي حرّضت اولئك الاشخاص ». وما يقال عن زخاروف قد يقال عن كثيرين غيره ، ويجب ان يقال لتنجلي الحقيقة وتتم العبرة وتحسن القدوة

مصابيح علاء الدين العصرية

العين الكهربائية ومعجزاتها العلمية الصناعية

احتشد حديثاً في مصنع باحدى الولايات الامريكية نفرٌ من الناس لمشاهدة مكبس ضخم لسحق الفولاذ تديره الكهربائية ، يبلغ ارتفاعه ٢٥ قدماً وثقله يعادل ثقل اربع قاطرات بخارية،وانيابه الضخمة تسحق ألواح الفولاذ كأنها مصنوعة من الورق

وبينما كان الحشد يرقب دوران ذلك المكبس ، زحزح العامل الفنيُّ المشرف عليه ، يده قيد بضع عقد (بوصات) فجاوزت خط الأمان ودخلت منطقة الخطر ، اي دائرة الأنياب الساحقة ، فما لبث ذلك المكبس الضخم ان وقف معلقاً في الجو ، فاغر الفم ، كأنه مسحور ، فلما رفع العامل كفَّهُ استأنف المكبس دورانه توًّا

ثم كرّر العامل الفنيُّ مداعبة المكبس امام الحضور على الخط السالف الذكر اثنتي عشر مرة فتكررت المعجزة من دون ادنى تغيير . اي انه متى استهدفت كفا العامل الفنيّ للخطر ، بطل دوران المكبس بطلاناً تامًّا حتى ترتفع كف العامل فينفك عقاله

والسرُّ في ذلك ، عين خفية مصنوعة من زجاج مغشّى بطبقة معدنية من المعادن الارضية النادرة، ترقب ذلك العامل الفنيّ وهي بطارية كهربائية حساسة بالضوء يسلط عليها شعاع من النور فتعين خط الخطر ، فان قطع امرؤٌ ذلك الخط بكفه ، اعترض الشعاع ، فحجب الضوء المسلط على البطارية ، فيقف دوران المكبس بسرعة البرق

وهذه معجزة واحدة من ألوف المعجزات العلمية التي تقوم بها العين الكهربائية . ويتراوح حجمها بين حبة الفول السوداني وحجم اليقطينة

***

والبطاريات الكهربائية الحساسة بالنور اي العيون الكهربائية العصرية ، منافع منوّعة جمة . فتقوم بأهون الاعمال وأعسرها كتصنيف اللوبيا ، وفرز الأزرار، واشعال المصابيح الكهربائية ، وفتح الابواب المغلقة ، واستدعاء رجال المطافىء ، وتوقيت المسابقات ، ووقف المصاعد ، وقياس الكواكب الخفية التي تتعذر رؤيتها بالعيون المجردة

وقد استنبط مبدأ العين الكهربائية «وعملها يشبه السحر» عرضاً كألوف من المستنبطات من زهاء اربعين سنة . وذلك ان هينرخ هرتز Heinrich Hertz العالم الالماني الطبيعي، وهو أول من اعلن وجود الامواج الاثيرية رأى مصباحاً كهربائياً قوسياً ينبعث منه نور اقوى من نوره المعتاد حينما يتعرض للأشعة فوق البنفسجية التي تتولد من مصباح كهربائي آخر من نوعه

ثم عقبه عالم الماني آخر وهو الدكتور هلواخس Dr. Hallwachs فشرح الرأي المتقدم بقوله : ان المصباح القوسي الاول حينما يسطع نوره على المصباح الثاني يؤثر فيه فترى قضيباً من قضيبي الفحم في الأخير يشتعل سريعاً فتتناثر منه ذرات كهربائية — فكان ذلك أساس اختراع البطارية الكهربائية الحساسة بالنور التي صارت في السنين العشر الغابرة تأتي بالمعجزات في عالم الصناعة

***

وابسط شكل للبطارية الكهربائية الحساسة بالنور يشبه أنبوباً صغيراً من انابيب الراديو يتراوح ثمنه بين سبعة ريالات ونصف ريال و عشرين ريالاً ، ويتوسط الانبوب حلقة إما من البلاتين وإما من النيكل ، ويحيط بالانبوب إما من خارجه ، وإما من باطنه ، طبقة من معدن يؤثر فيه النور كالبوتاسيوم او السزيوم،فاذا اتصل ذلك الانبوب بدائرة كهربائية اصبحت الحلقة التي في وسطه قطباً كهربائياً موجباً والطبقة المعدنية المبطنة للانبوب قطباً كهربائياً سالباً ، وصار الفراغ الذي بينهما في باطن الانبوب بمثابة عازل يمنع مرور التيار الكهربائي ، فاذا اخترق النور ذلك الأنبوب أخذت الطبقة المعدنية المغشّى بها الانبوب تطلق ذرات من الكهرباء السلبية فتتخلل ذلك الفراغ فينشأ منها معبر من الكهارب يسهّل للتيار الكهربائي اختراق الانبوب بأسره

وقد يختلف حجم ذلك المعبر كما تختلف قوة التيار الذي يجتازه وذلك بنسبة تغير النور الذي يخترق البطارية.وبهذه الوسيلة تقطع العين الكهربائية الدائرة الكهربائية وتصلها بحسب الانوار والظلال التي تستهدف لها

ثم ان التيارات الكهربائية الضئيلة التي في البطاريات الحساسة بالنور تتقوّى بالاجهزة المجددة للتيارات ملايين المرات فتستطيع تأدية بعض الاعمال الشاقة التي تقوم بها العيون الكهربائية الآن في عالم الصناعة. ولذلك يرى المرء في منجم من مناجم الفحم في بنسلڤانيا أبواباً ضخمة تفتح على مصاريعها عند دنو مركبة نقل الفحم ثم تغلق بنفسها عند ارتحالها . والذي يقوم بذلك شعاعة من النور . وفي ولاية من الولايات الواقعة في غرب المسيسيبي يوزن القمح بجهاز

اتوماتيكي بمثابة ميزان ذي ذراع وكفتين ، فاذا اعترض الذراع شعاعة من النور في النقطة المرغوبة وقف جريان القمح

وفي مصنع من مصانع الفولاذ في ولاية اوهيو ترى السبائك المعدنية التي يبلغ ثقلها عشرة اطنان تندفع وتنجذب بحسب مشيئة الصانع على اسطوانات معدنية ضخمة تتحرك بتأثير الظلال التي تلقيها هي نفسها على العين الكهربائية

ومن عهد قريب تحرّج موقف شركة تجارية تدير متجراً كبيراً مواجهاً لصرح (امبيرستيت) في نيويورك اذ طرأت عليها مشكلة لم يسبق لها مثيل . وذلك ان مدخنة مصنع تلك الشركة كانت في غابر الزمن قبل تشييد الصروح الحالية في أرجائها ، تقذف دخانها من علٍ يفوق ارتفاع كل ما جاورها من المباني . اما الآن وقد جاورها الصرح آنف الذكر الذي يناطح السحاب ، وهو أعلى مباني العالم، أصبحت مدخنتها عند اعتدال الريح ، تقذف دخانها مباشرةً على نوافذه. وازاء ذلك لم يسع سكان الصرح السابق الذكر الاّ ان ارسلوا الاحتجاجات تترى الى لجنة مكافحة دخان المصانع ، فقامت هذه اللجنة بانذار ارباب المصنع ، فوقعوا في حيص بيص اذ لا مندوحة لهم عن اثبات حسن نيتهم نحو المتذمرين . وهذا أمر خطير ، والاّ ثبت عليهم سوء النية واستهدفوا للخطر . فآثر كبار موظفي الشركة أن يستشيروا جماعة من المهندسين الكهربائيين رجاء انقاذهم من ذلك المأزق . فتولى اولئك المهندسون دراسة المسألة فأسفرت عن قيامهم بتركيب رقيب صناعي يرقب سير الدخان . ويؤلف ذلك الرقيب الميكانيكي من شعاعة نور تمرُّ في المدخنة حتى تخترق بطارية حساسة بالنور ، ومتى تكاثف الدخان في المدخنة تكاثفاً يعدو الحد الذي يبيحه القانون ، رأيت الشعاعة الواقعة على تلك البطارية قد ضؤلت ، وسمعت ذلك الرقيب الاتوماتيكي يقرع جرساً منبهاً موضوعاً في حجرة المرجل ، وينير مصباحاً كهربائياً في غرفة رئيس مهندسي المصنع ، ويسجل في الوقت نفسه عدد الدقائق التي يقذف فيها الدخان كثيفاً من تلك المدخنة . فأفضى تركيب ذلك الجهاز الذي يقوم بالتحذير العاجل الى تمكين الوقادين من تنظيم أفران الآلات فانقطعت الشكوى

وعلى النمط السالف الذكر توقّى البواخر من الحرائق في البحار اذ توضع البطاريات الحساسة بالنور في عنابر البواخر حيث تعرّض لاشعة النور ، فان شبَّ حريق في اي مكان بالباخرة ونشأ عنه دخان فأخذ يحدث اي تعتيم في أشعة النور المارة بالبطارية، انطلقت صفافير الباخرة منذرة بالخطر . وقد استخدمت آلات منبهة من هذا الطراز في الدور والمتاجر لتنذر القوم توّاً عند شبوب الحريق

وقد اخترع ميزان خاص محتوٍ على عين كهربائية تحدد كثافة الدخان وتبطل الاحتراق وتعين قوة الافران . وأتيح من عهد قريب بجهاز من ذلك النوع لمصلحة الصحة العامة في

الولايات المتحدة تسجيل قوة الأشعة التي فوق البنفسجية التي تتخلل الهواء المشبع بالدخان فوق المدن الكبرى

واذا ما رُكّبَت مرشحات خاصة في البطاريات الحساسة بالنور صارت لا تحس الاَّ بأنواع معينة من أشعة النور . اذن سيصبح من الهنات الهيِّنات تقدير نسبة الاشعة التي تحت الاحمر والاشعة التي فوق البنفسجية التي تتخلل الضوء في أي وقت من الاوقات. وسيضاف عاجلاً نهرٌ جديد الى جداول الارصاد الجوية التي تصدرها يوميًّا مصلحة الطبيعيات في الولايات المتحدة . وقد اخذ العلماء في القيام بتجارب يراد بها تقدير قوة الاضاءة التي تصدر من الشمس على سطح الأرض كل يوم . وكذلك تعيين مقدار نور القمر الذي يسطع كل ليلة وهم على وشك اختراع عين كهربائية خاصة لذلك القصد

***

ومن زمن قريب أثبت احد المخترعين في مدينة نيويورك بتجربة جرَّبها أمام الجمهور ، طريقة استخدام بطارية من الأشخاص الميكانيكية تتحكم فيها العين الكهربائية في القبض على اللص الذي يشرع ليلاً في كسر خزانة حديدية حيث رأى الجمهور (بعيد اعتراض شعاعة خفية من الاشعة التي فوق البنفسجية ومنعها من النفوذ الى واجهة الخزانة) تلك الاشخاص الميكانيكية تتحرك في طرفة عين فيصرخ أحدها مستغيثاً للقبض على اللص ، والثاني يشعل مصباحاً كهربائيًّا صغيراً متألق النور ، والثالث يفتح آلة تصوير فتلقط صورة اللص المعتدي على حين يطلق الشخص الرابع مقداراً من الغاز المسيل للدموع فيصيب الجاني بعمى وقتي يجعله يتسكع في مكانه حتى يوافيه الشرطي فيكبله

ومن فوائد العين الكهربائية الاستعانة بها على كشف خفايا التزوير — ولذلك جعلت احدى مطابع البنكنوت في اميركا تستخدم طائفة من تلك البطاريات الحساسة بالنور لكي تبين ادنى اختلاف في لون الورق المزمع طبعه بنكنوتاً ليكون جميع البنكنوت بعد طبعهِ من لون واحد فيصبح اظهار الورق المقلد اسهل مما كان . والواقع ان كل درجة من درجات الالوان تعكس مقداراً من النور يختلف عن سواها، وهذا هو اساس الاستفادة من العيون الكهربائية في ميادين الصناعات المختلفة

وفي مدينة ديترويت يستخدم ارباب مصانع السيارات البطاريات الكهربائية الحساسة بالنور لتحديد درجات صهر المعادن، فاذا صهر قضيب من الفولاذ الى درجة معينة في الافران الكهربائية أثَّر في عين كهربائية تأثيراً ينشأ عنهُ نقل ذلك القضيب من الكور الى مكان التجفيف

وقد شرعت فئة من علماء الانكليز تستعين بالعيون الكهربائية على البحث عن انواع جديدة من الفولاذ وذلك في جامعة شفيلد لان تلك العيون تسجل درجات الحرارة عند ارتفاعها وانخفاضها في افران التجارب الكهربائية وتبين بالضبط تغيرات المعادن بالالوان

***

ولما كانت القاعدة المتبعة في مصانع السيجار الفاخر، جعل الطبقة العليا في كل علبة محتوية على سيجار من لون واحد، وجب اختيار اوراق التبغ من لون واحد. ويتمُّ ذلك بالبطاريات الكهربائية الحساسة بالنور لانها اسرع من البشر واتقن عملاً

وتقوم العيون الكهربائية ايضاً بعملية توفيق درجات الوان الاقمشة الدقيقة والصبغات بعضها مع بعض. وقد اخترع من عهد قريب مقياس يبين ادنى فرق مما لا يستطيع تبيانه ابرع الخبراء. ومن هذا القبيل ان احد اطباء لندن اخترع آلة بديعة قوامها العين الكهربائية تميز درجات الالوان بعضها من بعض فتفرز الدهان (البوية) او الصبغة بحسب درجات الوانها الاصلية وتبين النسب الصحيحة لكل منها. وعلى هذا الاسلوب يتسنى الحصول على مثيل لايَّةِ درجة من درجات الصبغات او الادهان المجهولة في اي وقت من دون انفاق نفقات كبيرة في التجارب

ثم ان الهيموجلوبين اي المادة الملونة للدم تقدر في المستشفيات بالعين الكهربائية. وفي ادارة احدى الجرائد بمدينة نيويورك جهاز عجيب يخيل لناظره (كأنهُ مخرطة) يقوم بحفر الصور وتلوينها بثلاثة الوان وذلك في $\frac{1}{٢٠}$ من الوقت الذي كانت تستغرقهُ الطريقة القديمة اي الحفر بالاحماض. وقوام ذلك الجهاز البطاريات الكهربائية الحساسة بالنور — ويوفر اصحاب الجريدة كل اسبوع بهذه الوسيلة الف ريال. واجرة حفر البوصة المربعة (بالمخرطة الكهربائية الحساسة بالنور) في الواح الصور التي تطبع في الجرائد — المكونة من نقط بيض وسود — $\frac{٣}{٤}$ سنت

***

وللعيون الكهربائية منافع اخرى في اصدار الجرائد اليومية ففي احدى الولايات الامريكية ترى المطابع مركباً فيها اجهزة اتوماتيكية تقف المطبعة حالاً اذا انفكت لفة ورق الطبع، وذلك ان النور (الموجه من اسفل مستودع الورق الذي تتغذى منهُ المطبعة الى اعلاه) يخترق البطارية الكهربائية الحساسة بالنور اذا انفك شريط الورق فيتوفر بذلك مقدار كبير من الورق والوقت

وفي مدينة نيويورك صحيفة يومية يستخدم اصحابها مقياساً ركبت فيهِ عين كهربائيــة

لتقدير مبلغ شفوف لفات الورق المزمع استعماله لطبع الجريدة ويبلغ ما يفحصهُ ذلك المقياس في اليوم الواحد ٥٠٠ مثال من ورق الطبع لكي ينتقى منها افضلها للنشر اراحة لعيون القراء

ومنذ بضعة اشهر حلّت العين الكهربائية معضلة اخرى من المعضلات الفنية في منابع النفط بولاية تكساس بامريكا وذلك ان البنزين حين تقطيره يجب جعله كلهُ ذا لون واحد لان البنزين الذي يكون لونهُ أقتم من الدرجة القياسية يكون محتوياً على مقدار كبير من الكربون — ولذلك لا بدَّ من تعيين رقباء خصوصيين في مصانع التقطير ليراقبوا عن كثب انابيب الغاز التي يسري فيها البنزين — ولما كانت العيون البشرية عرضة للتعب فانهُ كثيراً ما يحدث التغير في لون البنزين دون شعور الرقيب ولذلك استبدل الرقباء البشريون بالعيون الكهربائية الحسَّاسة بالنور لانها لايعتريها التعب وذلك ان اشعة النور تخترق الانابيب فتصل الى العيون الكهربائية فاذا كان في لون البنزين ادنى تغير احدث تغيراً في مقدار النور المتصل بالبطاريات فتحدث صوتاً منبهاً

وتستخدم العيون الكهربائية في الصور المتحركة الناطقة وفي التلفزة وفي ارسال الصور بالتلغراف وفي الراديو وذلك لان معدن السزيوم المبطن لزجاجة العين الكهربائية يتأثر بالاشعة الحمر التي يغلب وجودها في النور الصادر من المصابيح الكهربائية العادية التي تستعمل في دور السينما الناطقة والتلفزة

***

وفي المصانع التي تصنع فيها العيون الكهربائية ترى الصناع يفجرون حبيبات السزيوم في بواطن الانابيب الزجاجية فتنتشر فيها انتشار الاسمنت على واجهات البيوت المزمع تبييضها من الخارج . ويحدث انفجار تلك الحبيبات السزيومية من الحرارة التي تتولد من امواج لاسلكية تسلط على الانابيب بعد تفريغها من الهواء . ومع ذلك فان جميع المعادن تتأثر بالنور بدرجات مختلفة حتى الحديد . وقد جرَّب المخترعون تبطين انابيب العيون الكهربائية بازنك فتحققوا ان افضل المعادن لتلك الغاية هي المعادن النادرة وهي السزيوم والتاليوم والربيديوم لانها اشد تأثراً بالضياء من غيرها

وحدث في ذات ليلة منذ بضعة اسابيع في مطار اوهيو ان ازمعت طيارة ضخمة النزول في ميدان الطيران اذ كان الظلام حالكاً . وما دنت الطيارة من الارض حتى برز بغتة سهم من نور ابيض انبثق من مصباح صغير كشاف مركب في جؤجؤها فأخذ ذلك الضوء يتفحص ميدان الطيران حتى اخترقت شعاعته بطارية كهربائية حساسة بالنور كانت موضوعة بجوار مستودعات الطيارات فأشعلت البطارية توًّا مصابيح الميدان الكهربائية استعداداً لنزول الطيارة . وقد اخترع جهاز اتوماتيكي يتمكن به ربان الطيارة وهو محلق في الجو من اشعال

مصابيح ميدان الطيران ، فثبت نجاحه . واخترع جهاز آخر شبيه له يتيح للطيار اطفاء مصابيح المطار عند طيرانه وذلك بشعاعة يطلقها من الجو عند رحيله

***

وفي دار الكتب العامة في نيويورك بطارية كهربائية حساسة بالضوء تعدُّ زائري تلك المكتبة ليلاً ونهاراً . وتستعمل عشرون عيناً كهربائية لاحصاء جميع السيارات التي تجتاز قنطرة «السفير» الكائنة بين مدينتي ديترويت على بحيرة متشيغان ومدينة وندزور في كندا . وفي الارضية الخرسانية في نفق هولند الممتد تحت نهر هدسون الموصل بين مدينتي نيويورك وجرسي عيون كهربائية تحصي عدد السيارات التي تجتازه . وعند تقاطع شارع ترنتون بشارع لينكون الملكي في مدينة ويلكنسبرج بولاية بنسلفانيا يرى المرء نوراً اخضر دائماً لارشاد حركة النقل والانتقال ولكن اذا دنت سيارة من زاوية افريز الشارع حيث تقل حركة النقل والانتقال بالنسبة لباقي الشارع ترى ذلك النور قد تغير فصار احمر حتى تمر السيارة فينقلب اخضر كما كان كأنه مسحور ، وذلك متى دنت السيارة من ذلك المكان . ويحدث هذا التغير من بطاريات كهربائية حساسة بالضوء الممتد على قارعة الطريق من تلقاء نفسها

ومن اعمال البطاريات الكهربائية الحساسة بالنور ما يأتي : فتح حنفيات الشرب العامة اذا دنا منها المرء منحنياً ليروي ظمأه . واغلاق ابواب مستودعات السيارات عند الرحيل منها . وقطع القضبان الفولاذية عند خروجها من الكور ساخنة متساوية الاطوال بمعدل ١٥ ميلاً في الساعة . والكشف عن بقع الصدأ والثقوب والمواضع الرقيقة في الواح المعادن وفرز وتصنيف الرقاع في اضابيرها في كثير من دوائر الاعمال بحسب الحروف الابجدية التي تحفر في الورق المقوَّى . وربَّ سائل يسأل وماذا ينتظر ايضاً من معجزات البطاريات الحساسة بالنور؟ فنقول: بقيت معجزة المعجزات ونعني بها تحويل ضوء الشمس تياراً كهربائياً ! كما يعتقد كثيرون من العلماء . ولهذه الغاية يقوم فحول علماء الطبيعة في انحاء شتى من العالم بمباحث في المواد الحساسة بالنور ومنهم الدكتور برونولنج في المانيا الذي يستخدم شطائر كيماوية يتمكن بها من توليد نور كهربائي مستمر أثناء الليل واطراف النهار بتيار مقتبس من الشمس (وقد فَصَّلْتُ هذا المخترع في باب الاخبار العلمية في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣١) ومع ان جميع الاجهزة التي اخترعت حتى اليوم للظفر بهذه الامنية ما زال غير صالحة للاستعمال التجاري بيد ان كثيرين من الخبراء موقنون بأن المباحث التي اثيرت بالاعمال المدهشة التي تؤديها البطاريات الحساسة بالنور ، التي تعد اعجوبة عالم الصناعة العصرية ، لا بد ان تصل يوماً من الايام الى وسيلة ممكنة لاقتباس القوة من نور الشمس

[عن مجلة العلم العام] عوض جندي

الحسناء العمياء

يا ويح كفٍّ للعمى نكراء عبثت بهذي الطلعة السمحاء
مسّتْ ضياء جمالها تخبا وهل تُزهي السماء بغير ضوء ذُكاء ؟
ومحتْ بشاشتها وغشّت بالاسى منها مكانَ البسمةِ الغرّاء
وكست معارفها السهومَ وجللت قسماتِها بغمامةٍ دكناء
قدَرٌ عسير قد دهى الحسناءَ في كبرى مفاتنها بشرِّ قضاء
فأقامها دون الحياة وذادَها عنها بأوهن حائلٍ وغشاء
جوْراً وألزمها على شرخ الصبا صمتَ الشيوخ وسكنة الحكماء
وأحالَ عيشتها دجًى موصولةً يا طُولها من ليلةٍ ليلاء

***

نجمانِ لو مُنيحا الضياء تألّقا عن فرط حسن او غريب ذكاء
طُفِئا فلا مُذكٍ لنورهما الى يوم انطفاء الأنجم الزهراء
هاجا من الاشجان بي ما لم يكن ليهيج لحظ الاعين النجلاء
فاغرورقت لهما الجفونُ بمدمعٍ قد بات في الاحزان طوع ندائي
ليت السّنى من مقلتيّ وإن يكن لم يبق منهُ اليومَ غير ذماء
كانَ الفدى لهما فتسعَدَ روحها من بَعد طول الهمّ والبرحاء
—لو رُدَّ حكمٌ للطبيعة جائرٌ بجزيل بذلٍ او جليلِ فداء—
فترى الحياةَ كما تشاء وما بها من منظر حسَنٍ ومن نعماء

وترفّ حالية لها الدنيا كما رفّت لكل مليحة حسناء

***

يا ربّة الحسن الاسيف أَمسعدٌ لك مِن عزاء ثمّ او تأساء ؟
هل ثمّ من امل يشعُّ شعاعه لك في غياهب هذه الظّلماء ؟
ماذا لقيتِ من القلوب وحالها وبلوت من حب ومن بغضاء ؟
هل ثمّ من خِدنٍ ودود مخلص لك لم يحدْ عن صحبة ووفاء ؟
او ثمّ صبٌّ في هواك متيم يَفديك لو وافيتِ بالحوباء ؟
او سربُ افئدة يزاحم بعضُها بعضاً عليك تزاحُم النُّظراء ؟
امسيتُ انظر لا ارى من يحتفي بك غير رهط الآلِ والأجراء
قد غبتِ عن بال الورى منسيةً فاذا ذُكرتِ دُعيتِ بالعمياء
فارضيْ بذاك فما هنالك غيره هذا نصيبك من هوى وولاء
يكفيكِ من وُدِّ الورى ان تأمني منهم بوادرَ نظرة استهزاء
ما في قلوب العالمين مودّة لذوي الشقاء وشيعة البأساء
لا تبتغي ودًّا لديهم واحذري منهم ظواهيرَ رحمةٍ ورثاء
شرُّ البليةِ ما ارتْ بك حاجة لرثاء هذي الانفس الصماء
والموت اشهى للابيِّ النفس من عطفِ الرُّثاةِ عليه والرحماء

***

يا ربة القلبِ الحزين همومنا لو تعلمين سُوًى وداؤك دائي
قلبي يكابد كلَّ يومٍ ما ارى في سيميائك من اسًى وعَناء
وبمهجتي—قدعشت احبهُ—ضنًى لا يُستطبُّ لمثله بِدَواء

فخري ابو السعود



عناق العلم والفلسفة

على ذكر كتاب « الفلسفة في كل العصور »

لنقولا حداد

الله اعلم في اي دور من ادوار الحياة العقلية شرع الانسان يتفلسف . على ان الراجح انهُ منذ بدأ يلاحظ ظاهرات الطبيعة اخذ يحاول تفسيرها بمقابلة بعضها ببعض في مختلف المكان والزمان وموازنة تأثيراتها . ولذلك يحتمل ان تكون الفلسفة قد نشأت مع العلم ، اذا لم نجرؤ على القول انها نشأت قبله

ولا مشاحة ان الفلسفة نشأت منذ نبضت في العقل الانساني قوى الاستدلال والاستنتاج والتجريد Abs raction . ولا ريب انها بدأت تنضج قبل العلم لأن اساس العلم الاختبار عن طريق الحواس، ثم الامتحان والتجربة . والحواس وان استطاعت نقل التأثيرات الخارجية الى المراكز العقلية في الدماغ فلا تستطيع دائماً ان تنقل كنه حقائق المؤثرات ، اي حقائق الاشياء المادية التي تصدر تلك التأثيرات . فقد يتراءى الشيء بواسطة تأثيراته خلاف حقيقته التي تظهر بعد التحقيق عن كنهه

لذلك يمكننا ان نزعم ان الفلسفة والعلم جريا في فسحات التاريخ صنوين او فرسي رهان . بل يمكننا ان نقول انهما مشيا ممتزجين أمداً طويلاً قبل ان صار متسنياً الفصل بينهما . والغالب انهُ بعد ان تمايزا كانت الفلسفة اضخم من العلم لان آلتها المنطق وهو قائم في العقل نفسه . وآلة العلم الاختبار والامتحان وهما خارجان عن العقل فلم يتيسرا ببحبوحة للفلاسفة والعلماء القدماء كما هما متيسران الآن

وقبل ان نتمادى في مماشاة العلم والفلسفة منذ عهد تمايزهما يجب ان نعرّفهما او ان نذكر الفروق الرئيسية بينهما على الاقل

***

العلم يجمع المعلومات الناتجة عن المشاهدات والاختبارات والامتحانات العملية . والفلسفة تقابل تلك المعلومات بعضها ببعض لتكشف ما بينها من صلات وروابط عسى ان تكشف من ورائها ناموساً طبيعيًّا (او عقليًّا) او مبدأ عامًّا هو وسيلة الارتباط

العلم يبحث في الكون وفي المادة الخ وفي دقائقها وفي تأثيراتها — يبحث لا عن شيء

معين بل عن كل مجهول . فما يجده في اثناء بحثهِ يقول : هذا ما وجدناه. وأما الفلسفة فتضع نصب عينيها غرضاً معيناً تبحث عنه في الصلات والارتباطات التي بين تلك المعلومات التي وجدها العلم

فالعلم شبيه بشخص ينقب في الارض ليستخرج ما فيها وهو لا يدري ما فيها مما له قيمة كذهب او فحم او صدف الخ . فما يجده يعرضه على الخبير لكي يفرز كل صنف لصنفه. والفلسفة شبيه بشخص يبتغي شيئاً معيناً —ذهباً او فضة او اي شيء بعينهِ . وقد استدلَّ على وجوده في الاحافير التي احتفرها ذلك المنقب . فيجعل يغربل تلك الاحافير لكي يستخرج منها الذهب او الشيء الذي يبتغيه . فالعلم يقدم الغذاء للفلسفة

كثيراً ما يقرر العلم معلومات مخالفة للحقيقة وهو يجهل خطأه . ولا يندر ان تكتشف الفلسفة خطأه قبل ان يكتشفه هو بالاختبار والامتحان . مثال ذلك : كان العلماء الاقدمون يعتقدون ان الارض جسم مسطح ثابت فوقه سبع سموات مقبَّبة تتحرك فوقه حركات متفاوتة ومستدلّين على ذلك من تحرُّك السيارات التي لاحظوها. ولكن فيثاغورس وبطلميوس لم يرتاحا لهذه النظرية . وبما لهما من النظر الفلسفي قالا بكروية الارض ووجودها في مركز تجويف الكرات السماوية. وبعد نحو بضعة عشر قرناً قال كوبرنيكوس بمركزية الشمس ودوران الارض كسائر السيارات حولها . لم يقل ذلك عن اختبار وتحقيق عملي بل عن تفلسف نظري. فجاء كبلر ومن بعده وأثبتوا بالاختبار العملي والرياضي صحة هذه الفلسفة

وكان الفلاسفة الاقدمون يتكهنون بأن المادة لا بد ان تكون مؤلفة من ذرات دقيقة جداً لاتقبل الانقسام. فلما نضج علم الكيمياء اكتشف الجوهر الفرد مؤيداً نظرية الفلسفة. ثم نضج علم الكهربائية فنقل نظرية الفلسفة من الجوهر الفرد الى نواته وكهربه . ويحتمل جداً ان تنقض الفلسفة تلك النظرية القائلة بعدم امكان انقسام الذرية القصوى وتقيم بدلها نظرية امكان الانقسام الى ما لا نهاية له ، على اعتبار ان كل جسم ، مهما كان صغيراً ، لا بدّ ان يكون ذا طول وعرض وعمق والاَّ فهو عدم ، وما لهُ هذه الابعاد يحتمل التجزئة الى اجزاء لها هذه الابعاد. وكان العلم في القرنين الاخيرين يقرر نظرية الاتصال اي ان اجزاء المادة ملامسة بعضها بعضاً بحجة ان الحركة لا تنتقل من ذرة الى ذرة الاَّ لانهما متلامستان . ولكن الفلسفة كانت احياناً تقول ان نظرية الاتصال تجعل تفسير بعض الظاهرات مستحيلاً بالضغط او الانضغاط والتحول والتقلص والمرونة الخ ولذلك قالت بالانفصال واخترعت الاثير وسيلة لانتقال الحركة من ذرة الى ذرة بعيدة عنها

***

وكما ان العلم يحتمل ان يخطيء في تقرير معلوماته كحقائق فالفلسفة ايضاً يحتمل ان تخطيء في تقرير نظرياتها . بل هي اكثر عرضة للخطإ من العلم لانها لا تستند الاَّ الى المنطق وهو

محصور في قفص العقل . مثال ذلك كانت فلسفة سبنسر المبنية على ناموس التطور الداروني (التركيبي) وعلى ناموس الجاذبيـة النيوتوني تقول ان الاجرام السماوية تتجمع رويداً بفعل الجاذبيـة الى ان يهبط بعضها على بعض وتتصادم تصادماً عنيفاً جداً وتلتهب ثانية وتتمدد بقوة حرارتها المستجدة الى سدم وتستأنف حياتها ثانية . ولكن اكتشاف قوة الدافعية (الكونية Cosmic expustion من جراء مباحث هبل ودي ستر وأرصادهما اظهر نقيض فلسفة سبنسر اي ان الاجرام تتشتت في الفضاء ولا تتجمع ، وبحسب تقريرات العلم الحديث تذوب تشمعاً

الفلسفة خلقت الاثير لتعليل انتقال الامواج النورية ولكن الاثير لم يثبت امام تحقيقات العلم الحديث بل خلع عن عرشه كحاكم لم يبق له لزوم . وسيبقى مخلوعاً الى ان يصادف العلم عقبة لا يمكن تخطيها الاَّ بواسطة الاثير فيعاد هذا الى عرشه

وبعد اكتشاف داروين تسلسل الاحياء وتنوعها نشأت فلسفة « تنازع البقاء » و« بقاء الانسب » فحاول كثير من المتفلسفين ان يطبقوا هذه النظرية على كل ضرب من ضروب الحياة حتى الحياة الاجتماعية ، فسرت في اواخر القرن التاسع عشر نظرية السوبرمان (الانسان الاعلى او الامثل) ونظرية ان الحرب سنة طبيعية . فكادت تدك هذه النظرية صروح النظم الاجتماعية الى الحضيض . ولكن ما لبث العلماء الاجتماعيون ان تداركوا هذا الخطر المهدد المجتمع الانساني بتفسير اوسع لناموس تنازع البقاء بمعنى ان هذا الناموس ليس حرباً عمياء او بالاحرى ليس تنازعاً للبقاء اعمى يمزق الجماعات ، بل هو غربلة للانواع والجماعات وفرز لمتبايناتها بعضها من بعض توطئة لتجمع المثل مع المثل وتأليف مجتمع من الجماعات اكبر

ومع ان داروين لم يدَّع الفلسفة فقد كان في كثير من مباحثه فيلسوفاً صائب الرأي وفي بعضها كان مخطئاً . فقد تفلسف في مسألة تعليل كيف ان المولود يقتبس من والديه مزاياهما او معظم خواصهما الجسدية فزعم ان جرثومتيهما (الذكر والانثى) تأخذ من كل عضو من اعضائهما ذريرات سماها Gemules وكل ذريرة منها تنشيء في كل عضو من الجنين مثل ملامح العضو الذي اخذت منهُ من الوالدين . ولكن علم البيولوجيا الحديث اثبت فساد هذه النظرية بما اكتشفهُ من بزيرات الكروموسوم في الجرثومة الاولى ومن طبائعها المختلفة التي تحدد للجنين الاتجاه الذي تتجه اليهِ في تكوين الاعضاء مماثلة بالمزايا والصفات لصفات الوالدين

***

اذن ، كلا العلم والفلسفة عرضة للضلال . ولكن العلم القديم كان اضل سبيلاً من الفلسفة لفقرهِ في وسائل الاختبار والامتحان والتدقيق في المشاهدة والمراقبة . فكانت الفلسفة تدرّ به الى الصواب ما استطاعت بقوة المنطق والاستدلال والاستنتاج

اما اليوم فقد اصبح العلم اقل ضلالاً جداً من قبل لانهُ استخدم من الآلات والعدد

ما يضاعف مدى حواسهِ ولاسيما بصره وسمعهُ وشعوره بالحرارة والمقاومة . واستطاع ان يدخل بواسطة تلك الآلات الى اعماق المادة وان يصل الى ابعد ما يمكن من اقاصيها . فاصبح يقود الفلسفة وراءه او يتأبطها لكي يستفتيها حينما تلتبس عليهِ الحقائق او تختلط ويطلمس بعضها بعضاً

وحاصل ما تقدم ان العلم نشأ الى جنب الفلسفة او هي نشأت الى جنبهِ. ثم صار ضلعاً منها في بدء نضوج العقل البشري ثم انفصلا وعاشا عمراً طويلاً نحو ٢٠ قرناً . ثم تضخم العلم جداً وانطوت الفلسفة تحت لوائهِ كمستشار له في الازمات . ولك ان تقول ان الفلسفة اصبحت كعدة من جملة عدد العلم وآلاتهِ . وقد تندغم في المستقبل بالعلم وقد تتلاشى فيهِ بمعنى ان كل عالم سيصبح فيلسوفاً في علمهِ بل يجب ان يكون فيلسوفاً لكي يستطيع الاستمرار في بحوثهِ . وان بقي محلٌ للفيلسوف المستقل عن العلم فهو الفيلسوف الذي يمكنهُ ان يحيط علماً بكل دقائق العلوم والفنون لكي يستخرج منها مبادىء فلسفية عامة. وليس بعسير على عصر العبقريات ان ينجب فلاسفة كهذا يكونون اعظم من الفلاسفة المتقدمين

***

لكل علمٍ وكل فن فلسفته الخاصة . ولكل فيلسوف بل لكل عالم نظريات خاصة في فلسفتهِ او علمهِ . فلاصل الوجود وللمادة فلسفة بل فلسفات وكذلك لكل من الحياة والعقل والآداب والاخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والفنون واللغة الخ . فلا يمكن ان تحصر الفلسفة في بحث عام شامل. بل يتعذر على عبقري واحد اليوم ان يتفلسف في كل شيء من غير ان يضل السبيل في بعض الاشياء او يتغلب وهمه على الحقيقة ويموّه عليها في مقدماته ونتائجهِ . ولذلك تعددت نظريات الفلاسفة كثيراً وتضاربت وتباينت وتصادمت في مواقف كثيرة حتى صار يتعذر على دارس الفلسفة ان يستوعب فلسفة كل فيلسوف ويوازن بين الفلسفات العديدة ويستخرج منها حكماً اقرب الى الصواب . فلذلك تقلص درس الفلسفة اليوم الى ان انحصر في درس تاريخها ، وهو درس تطوُّر الذهن البشري في التفلسف منذ القديم الى اليوم في خلال درس خلاصة الفلسفات المتنوعة والمتعاقبة

وهذا ما اقدم عليهِ صديقي الاستاذ حنا خباز في تلخيصهِ الآراء الفلسفية منذ القديم الى اليوم في كتابهِ « الفلسفة في كل العصور » في ثلاثة مجلدات ظهر منها اولها حديثاً مشتملاً على الفلاسفة منذ القديم حتى القرن التاسع عشر

ولا بدَّ ان يستغرب القارىء اقدام المؤلف بل جرأته على هذا العمل العظيم الذي تهيبه نوابغ العلم والفلسفة في غير الشرق . ولكن لنوابغ الشرق اقداماً يدهش الغربيين كاقدام النابغة بطرس البستاني على انشاء « دائرة المعارف » ثم اقدام العلامة محمد فريد وجدي على انشاء دائرة اخرى بعده، واقدام افراد آخرين على اعمال اخرى لا يقوم بها في الغرب الا جماعات.

ولكن لمؤلف «الفلسفة في كل العصور» جلداً ومثابرة في الدرس والتفكير يجرئانه على الاقدام على هذا العمل الخطير . ومع ذلك فهو حاذر ان يصوغ مواد كتابهِ صوغاً شخصيًّا تفادياً للضلال ، بل انتقى مواد كتابهِ انتقاء دقيقاً من مؤلفات أساطين العلماء الحديثين الذين كتبوا في الفلسفة وتاريخها

***

فاذا درست هذا الكتاب ارتسمت في ذهنك سلسلة طويلة متعدّدة الحلقات ومتنوّعتها عن تدرج الفلسفة منذ نشوئها الى اليوم . ومنها تتكوّن في يقينك كيفية تطوُّر الذهن البشري في تحليل الوجود وظاهراته المختلفة وردّ الفروع الى اصولها . وربما خرج القارىء من مطالعة هذا الكتاب بالخلاصة التالية : يمكن ان تتبوّب الفلسفات هكذا :—

١ً — فلسفة الوجود او الكون — كيف وجد وكيف يتصرف
٢ً — فلسفة المادة الشاغلة الحيز الكوني
٣ً — فلسفة الحياة
٤ً — فلسفة العقل ، والمنطق والرياضيات
٥ً — فلسفة الاجتماع } ويدخل تحتهما فلسفة الشرائع والحكومات
٦ً — فلسفة الاخلاق والآداب } وفلسفة الاقتصاد
٧ً — فلسفة الفنون

هذه الفلسفات تمشت معاً يصاحب بعضها بعضاً في سلم الرقي في العصور الاولى حتى عصر سقراط وافلاطون وارسطو حيث اندفعت الفلسفات الثلاث الاخيرة — الاجتماع والاخلاق والفنون — اندفاعاً عظيماً سابقة اخواتها شوطاً بعيداً ، وفلسفة العقل تجري وراءها بسرعة اقل من سرعتها . واما الفلسفات الاخرى الثلاث الاولى فبقيت تمشي الهوينا حتى القرن الرابع عشر اذ جعلت تسير سيراً حثيثاً . وكانت كلما تقدَّمت اسرعت حتى ادركت في القرن الاخير سابقاتها ثم تجاوزتها جامحة امامها ومحرزة قصب السبق بتفوُّق عظيم

ومعنى هذا الترتيب في السباق ان فلسفة الاجتماع والاخلاق كانت متضخمة جدًّا في الدور الثاني الذي يضم سقراط وافلاطون وارسطو حتى كادت تبلغ المثل الاعلى . وبعد ذلك العصر لم تتقدم كثيراً، على انها لا تزال الى الآن المورد العذب الذي يستقي منه علماء العصر وفلاسفته ، ولا تزال موضوع تمجيدهم ايضاً

واما فلسفة الوجود والمادة والحياة فلا ينتظر ان تكون في اوائل عمرها البطيء الاَّ ضئيلة بل سخيفة ملأى من الاوهام والخرافات والتخرصات التي صار العقل الحديث يستهجن جوازها في العقل القديم . ففي الدور الاول كان طاليس يحسب العنصر الاول الماء مستنداً

الى مشاهدة ما الماء من خطورة الشأن عند الحيوان والنبات والاتصال بين القارات (المعروفة حينئذٍ) وكون الارض عائمة فيه . وهيرقليطس حسب النار العنصر الاول

واغرب ما في سخافات الفلسفة القديمة ان الفيثاغوريين حسبوا الاعداد اصل الأشياء لانها اصل العلوم الطبيعية ولان النغم الموسيقي مرتبط بالنسبة العددية وان بعض الاعداد تتكرر في ظاهرات طبيعية جمة . وان شئت ان تستقصي السبب لحسبانهم الاعداد اصل الاشياء وجدته سخيفاً جداً . فقد حسبوها جوهر المعدودات . وفيلولاوس فسرها بان الاعداد في نظر الفيثاغوريين اشياء ذاتية لا رموز . ولا متسع هنا لشرح التفسير وانما لا غرابة في منحهم الاعداد هذه القيمة بجعلها اصل الاشياء لان الرياضيات كانت لعصرهم ارقى علومهم بل كانت في غاية الرقي حتى بالقياس الى عصرنا الحاضر . واذا لم يكن من ثمارها الاَّ اكتشاف فيثاغوراس قضية المثلث القائم الزاوية (مربع وتره يساوي مجموع مربعي ضلعيه) فكفاهم به فخراً وكفى هذا الاكتشاف ان يعظم شأن الاعداد عندهم . لأن هذه القضية وسعت دائرة الحساب الرياضي والفلكي وصارت اساساً لعلم حساب المثلثات المبني عليها وهي الملجأ في اكثر القضايا الرياضية حتى قضايا نسبية انشطين

كذلك عبروا عن السيكولوجيا بالاعداد . فالعقل عندهم واحد والمعرفة اثنان والرأي ثلاثة والحس اربعة ومجموعها عشرة . وهي منتهى الاعداد الاولية الأصلية

ثم جاءت فلسفة زينون فعلمت بالعناصر الاربعة الاصلية الماء والهواء والنار والتراب وبقيت هذه الفلسفة عدة قرون اساس الاصول

ومن الاوهام غير المعقولة في فلسفة هيرقليطس ان «النار هي اصل الجسد والنفس . فاذا فارقت النفس الجسد صار بارداً عقيماً . النفس هيئة محفوظة في اقدس صورة . وكلما زاد الجسد جفافاً زادت النفس حكمة . فاذا اطفأتها الشهوة تلف العقل . بالنار تتغذَّى وتدخلها النار بالتنفس»

ولا متسع لسرد الأمثلة على نظريات اولئك الفلاسفة في اصل الوجود . فهي كثيرة ومختلفة ومعظمها تذهب هباءً امام علم العصر الحديث وفلسفته . ولا غرو ان تكون كذلك لانه لم يكن لاولئك العباقرة سند غير التفكير العقلي بل كانوا فقراء جداً بالوسائل الاختبارية

مع ذلك نجد في نظرياتهم كثيراً من جراثيم الحقائق التي اثبتها العلم اليوم وهي شواهد ناطقة على سعة مداركهم وعمق تصوُّراتهم وعلى عبقريتهم التي لا تفوقها عبقرية

فن ذلك قولهم بتأليف المادة من ذريرات متماثلة، واختلاف ترتيبها سبب اختلاف صور المادة . فاريسطو يقول : اذا قلنا ان الصورة تغيرت عنينا ان المادة تلبست بصورة اخرى . ومن ذلك قوله : ان التغير في الكون موضعي في علاقة الذرات . ويرى ان المادة ساكنة منفعلة . والفضاء هو الفسحة بين كل جسمين . وكل غير محدود بالجسم فليس بفضاء . وحيث لا أجسام

فلا فضاء (ولا يخفى على المطلع ما في هذا القول من المطابقة لنظريات العلم اليوم) . فالكون محدود وهو غير متحرك . لكن بعض اقسامهِ يتحرك . ويعني بالحركة نوعاً من التغير

ومع تقدم الفلسفة القديمة في التفلسف العقلي فقد كانت تشوبها اوهام كثيرة كقول ارسطو: «مركز الشعور العام القلب حيث تتجمع الشعورات الواردة من الحواس فيحصل ادراك الشيء ونعرف اوصافه كالعدد والحجم والشكل والحركة والسكون . وفيه قوة الذكر وائتلاف الفكر . وتنسب اللذة والالم الى الحواس . . . ولا يخفى ان سبب هذا الوهم جهل القدماء الجهاز العصبي برمتهِ ولو انتبهوا اليهِ وخصوه لعدلوا في التعليل عن القلب الى الدماغ

ومن غريب اقوال الرواقيين خلفاء سقراط وخلفائه قولهم : «ان الاجسام فاعلة ومنفعلة فالمادة والقوة شيء واحد وكلاهما مادي (وهو ما يقوله علماء اليوم من وحدانية المادة والقوة) ثم يقولون ان القوة مادة لطيفة والمادة هيولى لا صورية (صورتها القوة) . فالكون باجمعهِ هيولي بما فيهِ النفس والله، حتى ان الصفات نفسها هيولية مؤلفة من ذرات نارية وهوائية — فانظر ما ينطوي عليهِ هذا السخف من جرائيم الحقائق التي رجحت في هذا العصر

على ان جميع الفلاسفة انتهوا في سلسلة التعليل او تسلسل العلل Causality الى وجوب وجود الله لانهم في منتهى البحث يبلغون الى علة لا علة لها — وهي حرّة تختار احد وجهين بلا سبب، فلابدّ من افتراض ارادة لها. ولكن حقيقة الله تختلف بين فلسفة واخرى اختلافاً بيناً

ولا متسع لايراد الامثلة والشواهد على ما في فلسفات القدماء من جرائيم الحقائق الناصعة المخبوءة في قشور الاوهام والسخافات . على ان كتاب « الفلسفة في كل العصور » مستوفٍ في بسط مجمل كل فلسفة من الفلاسفة القدماء والحديثين وفيهِ نقع لغلة الراغب في مطالعة تاريخ الفلسفة ومذاهب الفلاسفة

ومجمل ما اود ان اقوله هنا ان فلسفة الاقدمين قاصرة جدًّا في تفسير الظواهر المادية واستكناه كنه الوجود والمادة والحياة وارق قليلاً في استكناه قوى العقل ولكنها ناضجة جدًّا في تفسير ظاهرات الاجتماع والاخلاق والآداب والسياسة والفنون الجميلة

اما عن العصر الاخير فلك ان تقول ان ذلك التضخم الذي كان للفلسفات الاجتماعية وما اليها مما ذكرتهُ آنفاً اصبح قزماً بازاء تضخم الفلسفات المادية والحيوية والعقلية ايضاً في هذا العصر. على ان فلسفة الاخلاق والآداب لم تترقَّ كثيراً في العصر الاخير كأن شوطها انتهى في عصر بطاركة الفلسفة الثلاثة — سقراط وافلاطون وارسطو . ولابدع في ذلك لان العالم البشري اصبح في حاجة الى العمليات اكثر منهُ الى النظريات. وفي نظريات الفلسفات الاجتماعية والادبية والاخلاقية ما يكفيهِ الآن لتطبيق العمل عليهِ . فاذا كان العالم يسير بموجب تلك النظريات تتضاعف سعادتهُ اضعافاً

شبرا — مصر

الحيرة

لحسن كامل الصيرفي

يا عالَمي أنا سارٍ في شعابِ دجًى	يلهو بغاية رُوحي لَيلُهُ الضافي
كأنني انا نارٌ ظَلَّ مشتعلاً	بين الوجود وبين المُبْهَمِ الخافي
وكلّما شاهدَتْ عيناي في أُفقي	ذاتاً تحقَّقتُها اطيافَ اطيافِ
كأنني والاماني فيَّ جائشةٌ	أُفقٌ تذوب بهِ اصداءُ هُتّافِ
حُيِّرْتُ في عالَمٍ تطغى عجائبُهُ	على رُؤاهُ ، وغابٍ نُورُهُ الصافي
ما أضيعَ النُّورَ في قومٍ يحيِّرهم	سِرٌّ بهيمٌ وكَونٌ حالِمٌ غافِ !

من القاهرة الى انقرة

مشاهدات في تركيا الجديدة

الزراعة والصناعة — الصحة والتعليم — مصطفى كمال

— ٥ —

تركيا بلاد زراعية غنية اهم حاصلاتها القمح والذرة والشعير والكتان والقطن والقنب والتبغ والقطاني على انواعها والسمسم واليانسون والعنب والتين وزيت الزيتون . وهي كذلك غنية بالمعادن ففيها الذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد والفحم والزئبق والبورق والكروم والزرنيخ والبترول . ومما اشتهرت به قبل الحرب انها كانت تصدر من المعادن ما قيمته نحو مليوني جنيه على ضعف وسائلها الصناعية الحديثة . فقد كانت تصدر نحو ٨ في المائة من فلز الكروم المستهلك في العالم وكانت الاناضول وحدها تصدر نحو ٣ في المائة مما يستهلك في العالم من الزئبق. ثم ان تركيا اشتهرت بصناعات دقيقة كصناعة السجاد والصحون الصينية التي عرفت بها كوتاهية وغزل الحرير في بورسه وما جاورها واستقطار عطر الورد في وادي نهر المريج في تركيا الاوربية . فما هو مقام الصناعة والزراعة في تركيا الجديدة ؟

خذ كتاب الاحصاء الرسمي الذي تصدره الحكومة التركية وقلّب صفحاته تقف على ارقام واحصاءات تدلك على ان البلاد ليست مقصرة في تثمير ثروتها الزراعية والمعدنية على ضعف وسائلها وقلة اليد العاملة واستحكام الازمة العامة

فالمساحة المزروعة فيها حنطة تبلغ نحو ٢٢ مليون دنم (الدنم نحو خمس فدان) وحاصلاتها ١٥١ر٣٣٣ر١ طناً . ويأتي بعدها الشعير والأرز والذرة من الحبوب . ومجموع الارض المزروعة حبوباً تبلغ ٣٩ مليون دنم ومحصولها ٢١٣ر٤٠٠ر٢ طناً . ثم أنهم يعنون بزرع الخضروات فترى مثلاً ان ١١ الف دنم تزرع بازلاً و ٢٧٤ الف دنم تزرع فاصوليا و ١٠٤ آلاف دنم تزرع عدساً وهلمَّ جرّاً، ومجموع الاراضي المزروعة خضراوات ٤٧٠٠٠٠ر١ دنم وحاصلاتها تبلغ ٧٠٠٢٢٤ طناً . ثم ان الماشية سواء أ كانت للحرث او للذبح والاكل تنال نصيباً كبيراً من اهتمام الحكومة والامة . فيقدَّر عدد الثيران فيها بنحو مليونين ونصف مليون ثور والجواميس بنحو ربع مليون جاموس وربع مليون جاموسة والبقر بمليونين وثلث مليون بقرة والضأن بنحو عشرة ملايين ضأن والخيل بين فرس وجواد بنحو نصف مليون.

أما النباتات الصناعية فكثيرة كذلك . فالبنجر الذي يصنع منه السكر في تركيا يزرع في اطيان يبلغ مجموع مساحتها ٨٦ الف دنم ومحصولها ١٦٠ الف طن . والقطن يزرع في نحو ٩٩٠ الف دنم ومحصوله ٣٨ الف طن . والتبغ في ٧٩٠ الف دنم ومحصوله ٤٧٥٠٠ طن

فجموع المساحات المزروعة في تركيا — بنباتات الحبوب او الخضراوات او النباتات الصناعية — يبلغ ٤٣٫٦٣٧٫٧٢٧ دنماً ، ومحصولها جميعاً يزن ٢٫٦٦١٫٤٣١ طناً

يضاف الى ذلك ان الحراج في تركيا تكسو شرق الاناضول ، جبالاً وسهولاً ووهاداً ومنها ما يصلح للبناء ومنها ما يصلح للتفحيم. اما الخشب الذي يصلح للبناء فمنه الدلب وقد كان المقطوع منه سنة ١٩٣٠ نحو ٢١٧ الف متر مكعب والسنديان وكان المقطوع منه في السنة نفسها نحو ٢٣ الف متر مكعب والقطران والمقطوع السنوي منه ٣٩ الف متر مكعب والصنوبر والمقطوع السنوي منه نحو ٥٩ الف متر مكعب والكستناء والمقطوع منه ١٩ الف متر مكعب . اما الخشب الذي يقطع للتفحيم فيبلغ متوسط المقطوع منه سنوياً ما وزنه نحو مليوني قنطار شامي تحول الى نحو ٦٦٠ الف قنطار من فحم الخشب

***

أما الصناعة فاليك شيئاً عنها :

يبلغ عدد المنشآت الصناعية المشتغلة بالاستخلاص والاستقطار كالسكر والكحول والزيت ٥٥٦٠ يشتغل بها ١٩ الف عامل والخاصة بالصناعات الزراعية وتربية الحيوانات والصيد ٢٨٤٣٩ يشتغل بها ١١٠ آلاف عامل والخاصة بالمنسوجات ٩٣٥٣ يشتغل بها ٢٤ الف عامل والخاصة بقطع الخشب واعداده ٧٨٩٦ يشتغل بها ٢٤ الف عامل والخاصة بصنع الورق والورق المقوّى (الكارتون) ٣٤٨ يشتغل بها ٢٧٩٢ عاملاً والخاصة بالتعدين وما يتصل به ١٤٧٠٢ يشتغل بها ٣٤ الف عامل والخاصة بالبناء ٢٨٠٧ يشتغل بها ١٢٣٤٥ عاملاً والصناعات الكيمائية ٦٩٧ يشتغل بها ٣١٠٠ عامل وهناك منشآت صناعية مختلفة فيبلغ مجموع المنشآت الصناعية في تركيا ٦٥ الفاً وعدد المشتغلين بها ٢٥٦ الفاً

وهذا ولا شك عدد قليل في امة يبلغ عددها نحو ١٦ مليوناً ولكن المهم انه يتناول اهم وجوه الحياة الصناعية من تعدين المناجم الى الصناعات الكيمائية الدقيقة

ثم اذا دققنا النظر قليلاً وجدنا نحو ٢٩٠٠ من هذه المنشآت الصناعية تستعمل المحركات على انواعها من محركات تسير بقوة البخار او بقوة غاز الاستصباح او بقوة الكهربائية او بقوة الزيت او البترول ومجموع المحركات كلها نحو ٥٠٠ محرك وتولد قوة ١٦٣ حصان

ويهمنا كذلك ان نعلم من يشرف على هذه المنشآت كلها ومن يعمل فيها من حيث هم اتراك او أجانب. في المنشآت الخاصة بصناعات النسيج ١٦٧٩ مشرفاً منهم ١٥٧٠ مشرفاً من الاتراك

و١٠٩ مشرفين من الاجانب ومجموع المشرفين في كل المنشآت الصناعية ١٠٧٨٦ مشرفاً منهم ١٠١٨٢ من الاتراك و٦٠٤ من الاجانب . وفي بعض المنشآت الصناعية مشرفات يبلغ مجموعهن ١٥٥ مشرفاً منهن ١٣٥ مشرفة تركية و٢٠ مشرفة اجنبية

اما الاجانب بين الموظفين والعمال فاقلية يسيرة جداً لا تكاد تبلغ واحد في المائة . اما الموظفات في المنشآت الصناعية فنحو ١٦٠٠ امرأة والعاملات ٨٠٠٠ فتاة (دون الرابعة عشر من العمر) و٢٩ الفاً فوق الرابعة عشرة من العمر

ولنأخذ صناعة واحدة كصناعة السكر ونذكر شيئاً من التفاصيل الخاصة بها لتكون مثالاً يوضح لنا من اجملناه . فالمستخرج من السكر في مصنعين من مصانعهِ يبلغ ٢٣ الف طن من السكر مستخلص من نحو ١٦٠ الف طن من البنجر (١٩٣١) وتقدر قيمة المباني فيهما بنحو مليوني ليرا تركية (١٩٣١) وقيمة الآلات بنحو ثلاثة ملايين ليرا تركية أي نحو ٧٠٠ الف جنيه مصري وعدد العمال والموظفين فيهما الف وقد يزيدون الى الف وخمسمائة عامل . في أحدها ١٦ خبيراً أجنبياً وتبلغ مساحة الأرض التي تزرع بنجراً لهما ١٣٠ الف دنم . ويخرج منها عدا السكر كحول ودبس وغيرهما

أما المناجم فتخرج في السنة (١٩٣١) ٧٧٧٥ طناً من فحم اللجنيت و٨٤٥ طناً من النحاس (١٩٢٦) و٦٠٠٠ طن في المتوسط من السنباذج (الصنفرة) و٢٧٦٧ طناً من الرصاص و ٤٣ طناً من الانتيمون والف طن من المنغنيس و٢٥٣٨٢ طناً من الكروم (وهو معدن لازم لصناعة اصناف خاصة شديدة القساوة من الصلب) و٢٣٩ طناً من الزئبق و١٢٧٦ من الزنك و ١٠٠٠٠٠ من السمنت

هذه حقائق أولية تبين لك الى اين وصلت الصناعة التركية فيهمنا الآن ان ننظر في خطة الحكومة الاقتصادية التي تحاول بمقتضاها ان تسير بزراعة البلاد وصناعتها الى الغرض الذي يرمقهُ الغازي ورجاله

***

مما لا ريب فيهِ ان الخطة السياسية التي جرى عليها الغازي كان لها حتى الآن أثر سيء في البلاد من حيث الانتعاش الاقتصادي . ولا ريب ان الاقدار لم تكن في جانبهِ في هذا الجهاد كما كانت تواليهِ في ميادين الحرب والسياسة . فالحرب الكبرى وحرب الاستقلال نزفت نشاط البلاد ، وانضبت مواردها ثم جاءت الثورة الكردية ، وتلتها مواسم غلب فيها القحط والامحال على خصب التربة وغنى البلاد الطبيعي . فلما استفحل امر الازمة الاقتصادية العالمية كان لها في تركيا ابلغ الأثر

ان خطة الحكومة تقوم على مبدأين جعل تركيا امة منسجمة ، وتحريرها من السيطرة

الاجنبية . فتحقيقاً لهذين الغرضين طرد اليونان من شرق الاناضول وأُبيد الارمن او كادوا. فكانت النتيجة ان العناصر التي كانت عروق الامة تجري فيها دماء الحياة الاقتصادية زالت منها ، وكان الاتراك في بدء هذا العهد يعتقدون ، كما كان الرومان يعتقدون ، ان التجارة والصيرفة اعمال خليقة بالشعوب المحكومة . فلم يستطيعوا في البدء سد النقص . وسمح للارمن واليونان ان يقيموا في استانبول ويزاولوا الاعمال التي يريدون مزاولتها ، ولكن على شريطة ان يتجنسوا بالجنسية التركية ، ومعنى هذا التخلي عن لغتهم وثقافتهم القومية وهذا قد يكون متعذراً بوجه الاجمال فيما يخص الارمن واليونان . اما اليهود فاكثر مرونة وقد قال احد زعمائهم لعصمت باشا : « اذا لم نصبح اتراكاً بعد عشر سنوات فاطردونا من البلاد »

وقد عنيت الحكومة جهدها بمساعدة الترك على تسلُّم ازمة التجارة في البلاد . ونحن على ما رأينا في فروع بنك ايش في الاسكندرية وازمير وانقره نشهد انهم اصابوا قسطاً كبيراً من النجاح . فقد قضت الحكومة على ان كل المحلات التجارية يجب ان تكون دفاترها باللغة التركية وان تستخدم الترك ، حتى لا يقلوا فيها عن خمسين في المائة من موظفيها

والشركات الاجنبية التي تريد ان تستثمر مورداً من موارد البلاد يجب ان يكون ٥١ في المائة على الاقل من حملة اسهمها اتراكاً . والحكومة توالي الدعاية بالخطب والصحف لكي تحمل اهل البلاد على استعمال مصنوعاتها دون المصنوعات الاجنبية التي فرضت عليها ضرائب جمركية عالية جداً

والسعي الى حفظ تركيا حرة من نفوذ الرأسمالية الاوربية او الاميركية أخَّر حتى الآن ، تجديد حياة تركيا الاقتصادية . لانهُ من المتعذر ان تثمر ثروة البلاد الطبيعية من دون رأس مال وهذا يقتضي ضمانات يحسبها الغازي قيوداً تقيد بها الحرية القومية . فقد منحت بعض الامتيازات لطائفة من الاجانب السويديين لبناء سكك الحديد والبلجيكيين لصناعة عيدان الثقاب والبولونيين لصناعة الكحول ولكن معظم هذه الجماعات لم يلق النجاح المنتظر . ويقال ان سبب ذلك شدة تدخل الحكومة التركية في اعمالهم تدخلاً قائماً على سوء الظن في أصحاب الرأسمالية الدولية

ولكن مصطفى كمال واعوانه تمكنوا من مد السكك الحديدية اللازمة بمال أرصد لها في ميزانية الحكومة . وقد عنيت الحكومة كذلك بعد الطرق لتسهيل سبل المواصلات وتشجيع بعض الصناعات الوطنية

كل هذا أفضى الى قيام طائفة من الاقتصاديين الشبان ، يدعون الى فلسفة اقتصادية جديدة . وقد قضيت مع احدهم « برهان آصف » نحو ساعتين في انقرة بالاس أتحدث معه في هذه الفلسفة وهو شديد الحماسة لها ، ولا يرى للامة التركية مخرجاً الاَّ بها

قال — وكان على مقربة منا على شرفة انقرة بالاس خبراء اميركيون — ان الخبراء ينصحون لنا بأن نبقى امة زراعية ولكن البلاد من دون زراعة لا يمكن ان يطبق فيها العلم ، واذا لم يطبق العلم فلا فائدة منهُ . والعلم نفسهُ يعلم الدقة ، واذاً فالمعاهد العلمية لا تجدي الاَّ اذا فسح المجال في البلاد لتطبيق العلم . واذاً فلا بدَّ من الصناعة

هذا من الجهة الثقافية . ثم ان التركي الآن لا يستطيع ان ينافس الاوربي والاميركي بفعل الرأسمالية الدولية . فالتركي تاجر بسيط لا يستطيع ان ينافس الشركات العظيمة التي تبعث بمصنوعاتها ووكلائها الى قلب الاناضول مثلاً . واذا شئنا ان نمكنه من منافستها وجب ان نحميه بحواجز جمركية عالية . وهذه الطريقة ليست بالطريقة المثلى . بل انها ليست بالطريقة الطبيعية . ولا بد في النهاية من تفوُّق الصناعة القوية رغم كل انواع الحماية

وقد كانت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر تملك صناعة قومية تكفيها منتجاتها المتنوعة فقد كانت تصنع حتى الحديد والصلب والإبَر : وكانت تستبدل منتجاتها بما تحتاج اليه من منتجات البلدان الاخرى وكان التبادل معقولاً قائماً على اسس طبيعية واقتصادية

فلما نشأت الصناعة الآلية ، وشيد عليها بناء الرأسمالية الدولية ، ضعفت الصناعة التركية ، واضطرت بان تسلم بالتبادل غير المعقول الذي فرضتهُ الرأسمالية الدولية على كل البلدان — اي انها كانت تأخذ المواد الخام من البلدان المختلفة ، وتصنعها ثم تعيدها الى البلاد التي اخذت منها فتبيعها هناك . وليس هذا بالأمر الطبيعي . بل الطبيعي ان لا ينفق على المواد الخام اجور النقل ذهاباً واياباً ، ونفقات اخرى ، تضاف الى سعرها النهائي ، وانما المعقول ان تصنع المواد الخام حيث تستهلك توفيراً للانفاق وترخيصاً للثمن . وأمثلة ذلك كثيرة نراها في قطن مصر وصوف طرابزون مثلاً

فلما دخلت اميركا واليابان ميدان الصناعة الدولية فقدت اوربا عملها ، وهو جمع المواد وصنعها وتجهيز العالم بها ، فاوربا بعد اليوم لن تكون « منتج » العالم ، والراجح ان كل بلاد تكتفي بعد الآن ، بالصناعات الكبيرة — اي التي تصنع من مواد البلاد ويكون ما يستهلك منها كثيراً في البلاد نفسها . وقد تختص كل بلاد بعد ذلك بضرب او اكثر من الصناعة الدقيقة يكون فيها مجال التبادل الدولي . فسويسرا تختص مثلاً بالساعات والمانيا بالاصباغ

فالثورة التركية في نظر هؤلاء الشبان ليست الغاء السلطنة والخلافة وانشاء الجمهورية وتحرير المرأة . والثورة التركية لا يمكن ان تكون قد تحققت الاَّ اذا امكن تحديد الاستقلال التركي بمقتضى القوانين الاقتصادية والاجتماعية السائدة في هذا القرن . اذ لا يخفى ان الاستقلال الآن غيره في القرن التاسع عشر

وتركيا لا تستطيع ان تنشىء الصناعات الكبيرة وهي عنصر اساسي من عناصر الاستقلال

في القرن العشرين بمال الاجانب لانهُ بمثابة بيع للبلاد . ولكن الافراد والجماعات التركية لا تملك رؤوس اموال تمكنهم من ذلك ولا هم يستطيعون ان يجمعوا رؤوس اموال من التجارة الخارجية لان كل بلاد تميل في الغالب الى الاكتفاء بمنتجاتها الآن . ثم انهم لا يستطيعون ان يجمعوها من التجارة الداخلية كما هو معلوم . لذلك ترى برهان آصف وصحبه يدعون بجرأة الى ان تدخل الدولة الميدان ، ميدان الصناعات الكبيرة — اي الصناعات التي موادها الخام من البلاد واستهلاكها في البلاد نفسها واسع النطاق — كصناعات النسيج والاطعمة والدباغة وما اشبه . فاذا قلت لهم هذه اشتراكية او شيوعية قالوا لك ليست هذه ولا تلك وانما هي فلسفة اقتصادية لاسبيل لنا الا بها واذا نجحت فتستطيع كل البلدان الشرقية التي كانت خاضعة للرأسمالية الدولية الاخذ بها والسير عليها . والحكومة التركية لم تأخذ حتى الآن الا بجانب من هذه الفلسفة ، فقد أنشأت في قيصرية مصنعاً حكومياً للغزل ، ولعلها تحاول امتحان الفكرة من ناحيتها العملية أولاً قبل الاقدام على تطبيقها بحذافيرها

— ٦ —

صحة الامة في المقام الأول بين مصادر ثروتها الطبيعية والروحية . لأن الأمة التي تملك المناجم الغنية والسهول الخصبة والانهار الجارية لا تستطيع أن تستغلّ هذه المرافق إلاَّ إذا صحّ أبناؤها أجساماً وعقولاً . فاذا كانت الأمة مصابة بأمراض متوطنة في بلادها أو اذا أهملت ابسط اسباب العناية بصحة الجسم استنزف ذلك من نشاط أبنائها وأضعف من مضاء عقولهم فلا هم يستطيعون استنباط الوسائل اللاَّزمة لاستغلال ثروة بلادهم ولا هم يستطيعون الصبر على تطبيق الوسائل اذا نقلوها عن غيرهم من الامم

وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان حضارة روما تقهقرت وبادت لأن جراثيم البرداء (الملاريا) رتعت في دماء أبنائها زماناً طويلاً ولو أنها عرفت أبسط قواعد الصحة العامة — وما كان ذلك ممكناً وقتها — لنزحت المستنقعات التي يتولد فيها البعوض الناقل للبرداء ولنجت من الوهن والاضمحلال

والتعليم هو وسيلة المجتمع لكشف المواهب وتدريب الملكات وتوجيهها . وقد أصبح في هذا العصر لا ندحة عنه للفرد او للامة لأن الصراع في ميدان الاعمال عنيف والأمة كائنة ما كانت ثروتها الطبيعية وصحة أبنائها لا تستطيع ان تحقق ما ترمقه من آمال كبار الاَّ اذا كان غرض التعليم في نظامها الاجتماعي واضحاً لا يشوبه ابهام يوافق حاجتها، ووسائله متسقة وافية

***

ولقد بهرنا ما رأينا في تركيا الجديدة من العناية بهاتين الناحيتين من حياة الشعب . عناية

لا أستطيع ان أصفها بأكثر من قولي ان نفقات الحكومة المركزية عليهما تبلغ نحو ستة ملايين من الجنيهات وهو يكاد يكون ربع الميزانية أو يزيد

***

وجهت حكومة تركيا الجديدة عناية خاصة الى شؤون الصحة العامة . فأنشأت لها وزارة خاصة أقامت عليها وزيراً طبيباً ووكيلاً طبيباً . وقد زرنا وزارة الصحة في أنقرة فاذا نحن في بناء جديد فخم . جدرانه بيض وأبوابه بيض وسلالمه بيض . لاتكاد تلمح أثراً لبقعة على كل هذا البياض الناصع . وزرنا المعامل فأعجب بها أطباؤنا ونحن نسلم بشهادة الاطباء . ودخلنا الغرف الخاصة بالدعاية الصحية فرأينا فيها مئات اللوحات التي تفسر للعامة بالصور الملونة والكلام القليل ما يجب عليهم من الوسائل الصحية لمكافحة الأمراض المختلفة . كالملاريا والتراخوما والزهري والسل وغيرها

وزرنا كذلك في الجزيرة الثانية من جزائر الامراء ، وقد فاتني اسمها الآن مستوصفاً للسل قائماً على ربوة تشرف على بحر مرمرة من جهاتها الثلاث ، وتحيط بها غابة من اشجار الصنوبر ، فرأيناه جامعاً لكل وسائل الراحة والعلاج ، الا معامله البكتريولوجية فانها لا تفي بالحاجة ولكن الحكومة التركية مع ضعف وسائلها المالية استطاعت ان تضيف الى المستوصف بناءين جديدين وقد خصص جانب من أحدهما للعمل البكتريولوجي . ووقف البناء الآخر على طهي الطعام بأحدث الوسائل واوفاها . والخدمة في هذا المستوصف من درجة واحدة لكل المرضى ، الاغنياء والفقراء منهم على السواء

والمستشفيات في انحاء تركيا كثيرة ، في استانبول وارضروم وديار بكر وسيواس والعزيز وانقره وازمير — ومنها ما هو خاص بالامراض العقلية والعصبية (استانبول) والامراض المعدية (حيدر باشا وازمير) والتوليد وامراض الاطفال (انقره وقونيه وارضروم وادنه وقارس وملاتيا وغيرها) وثمة مستشفى خاص بامراض الاطفال في استانبول ومعاهد لمعالجة الكلب في استانبول وسيواس وديار بكر

وقد اصدرت الحكومة قانوناً سنة ١٩٢٢ تلزم به المقبلين على الزواج بالتقدم للكشف الطبي قبل ذلك . وقانوناً آخر يجعل علاج الامراض الزهرية اجبارياً ومن دون مقابل للجميع

***

وقد تجلى نشاط وزارة الصحة التركية في تحسين الصحة العامة في مكافحة الملاريا . فقد جففت من المستنقعات في خلال سبع سنوات (١٩٢٥ — ١٩٣١) ما مساحتهُ نحو ١٧٣ الف دنم او نحو ٣٥ الف فدان في انقره ومرسين وقونيه وبروسا وسمسون وغيرها . ومن الاقنية التي يتولد فيها البعوض الناقل للملاريا ما طوله نحو ٢٠٠ الف متر

وقد بلغت نفقات الحكومة على المنشآت الصحية العامة التابعة لوزارة الصحة من مستشفيات ومستوصفات نحو مائة الف جنيه سنة ١٩٣١ ونحو مليون جنيه في خلال سبع سنوات (١٩٢٥ — ١٩٣١) أما ما انفقتهُ على مكافحة الملاريا سنة ١٩٣٠ فبلغ نحو ١٤٠ الف جنيه وعلى الزهري ٣٥ الف جنيه وعلى التراخوما ١١ الف جنيه ومجموع ما انفقتهُ على مكافحة هذه الامراض الثلاثة في سبع سنوات نحو مليون جنيه . ويبلغ عدد المشتغلين بالصحة العامة التابعين لوزارة الصحة وللحكومات المحلية للبلديات سنة ١٩٣٠ نحو ١٢٠٠ طبيب و١١٣ صيدليًّا و١٢١٤ مفتشاً صحيًّا و٤٣١ قابلة و٢٢١ ممرضة و٥١٥ موظفاً آخر . والقائمون باعمال هذه المنشآت كلها من اطباء وقابلات اتراك تلقوا علومهم في الغالب في تركيا وبعضهم في اوربا أو اميركا . فالطبيبة في ملجأ الاطفال درست في جامعة بوسطن . ومدير المعمل البكتريولوجي في مستوصف السل درس في المانيا . وتبلغ ميزانية وزارة الصحة نحو اربعة ملايين جنيه

والى جانب المنشآت الحكومية على اختلافها تجد جمعية الهلال الاحمر ولها في تركيا نحو ٥٠٠ فرع وجمعية رعاية الاطفال[1] ولها نحو ٤٠٠ فرع . وقد ذكر لنا الدكتور خليل بك عبد الخالق انهُ علم من وزارة الصحة ان القابلات يقمن بعمل التوليد مجاناً في المنازل على حساب البلديات

***

بلغ عدد معاهد التعليم في تركيا في السنة المدرسية التي انتهت في صيف ١٩٣١ نحو سبعة آلاف معهد — وعند التدقيق ٦٧٩٦ معهداً ، منها ٦٦٢٩ للتعليم الاولي و١٤٨ للتعليم الثانوي و١٩ للتعليم العالي

اما عدد المعلمين والمعلمات في المدارس الاولية فبلغ ١١٤٤٣ معلماً و٤٨٩٢ معلمة وفي المدارس الثانوية ١٩٢٧ معلماً و٤٨٤ معلمة وفي المعاهد العالية ٥١٥ معلماً واما عدد الطلاب والطالبات في المدارس الاولية فبلغ نحو نصف مليون . (النسبة بين البنات والبنين ١:٢) وفي المدارس الثانوية نحو ٣٣ الفاً (النسبة بين البنات والبنين نحو ١ : ٣) وفي التعليم العالي ٣٧٠٥ طلاب و٧٢٤ طالبة

ولما كان يهمني ان اعلم الى اي مدى تقبل الفتيات التركيات على التعليم العالي سألت مدير الجامعة الجديد — في مأدبة العشاء التي اقامها لنا والي استانبول في بيرا بالاس — فقال لي ان عددهنَّ في كلية العلوم كان سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ تسعين طالبة ، وفي كلية الطب ١١ طالبة وفي كلية الحقوق ٧٢ طالبة ، وفي كلية الآداب ١٥٥ طالبة وفي مدرسة الصيدلة ٧ طالبات وفي

(١) بلغ عدد الاطفال الذين تلقوا مساعدة من جمعية رعاية الاطفال في فروعها المختلفة في خلال السنوات العشر الاخيرة (١٩٢٣ — ١٩٣٣) ٦٠٠ الف طفل . فقد وزع اللبن مجاناً على ٧٢٤٧٥ طفلا ووزعت الاحذية على ١٧٤١٤٩ طفلا وبذلت المعالجة الطبية لـ ١٤٩١٣٧ طفلا واهديت القبعات لـ ٧٣٨٥ طفلا واشتريت ادوات المدارس لـ ١٤٣٠٣ اطفال الخ

مدرسة طب الاسنان ٢٧ طالبة وفي مدرسة القابلات ١٤٥ طالبة وفي المعهد الخاص باعداد موظفين للحكومة ٢ طالبات وفي معهد الفنون الجميلة ٧٣ طالبة وفي مدرسة المعلمين العليا ٣٩ طالبة وفي مدرسة المعلمين المتوسطة ٨ طالبات . ثم علمتُ ان عددهنّ في مدرسة التجارة العليا بانقره ١٠٤ طالبات — وقد اطلعنا شوكت سوريّا بك مدير المدرسة على الرسائل التي اعدتها الطالبات في موضوعات اقتصادية فرأينا فيها من آثار البحث والتنظيم ما اعجبنا به اشد الاعجاب — وفي مدرسة الحقوق العليا في انقره ٢٢ طالبة وفي معهد الغازي ١٠٠ طالبة

هذا من حيث التعليم العالي ، أما التعليم الصناعي فتجد اقبال الفتيات عليهِ كبيراً . ففي مدرسة الصناعات ٤٢٣ طالبة ازاء ١٢٨٦ طالباً

***

وانتشار التعليم على جلالة شأنه لا يفيد قليلاً ولا كثيراً اذا كانت روح التعليم لا تتفق وحاجة البلاد . فما هي روح التعليم في تركيا

النزعة الوطنية — التاريخ في نظر الغازي مقدس . هو المحكمة العليا التي تقول في آثار الانسان واعمالهِ الكلمة الفاصلة . وقد كانت المدارس الاجنبية في تركيا في ايام السلاطين تعلم التاريخ على هواها ولكن تركيا الكمالية، تبعث بمفتشيها الى هذه المدارس الآن ، فاذا وجد المفتش في المدرسة خريطة قديمة وقد رسمت فيها أزمير على انها يونانية ، والولايات الشرقية على انها ارمنية ، قال المفتش ممتعضاً ان هذه المقاطعات لم تكن قط يونانية ولا ارمنية ولن تكون. ومن عودته يصدُر الأمر باغلاق المدرسة ويجري ما هو من قبيل هذا في كتب التاريخ . فاذا وجد المفتش خطأً واحداً ضد النزعة القومية التركية يجرح الترك في كرامتهم صدر الأمر باغلاق المدرسة التي تدرس ذلك الكتاب . وقد وضعت عبارة يجب على كل طالب ان يرددها كل صباح ، هي بمثابة العقيدة الوطنية التي تغرس فيه وترجمتها : — « أنا تركي امين مجتهد . يقضي عليَّ واجبي بحماية من كان أضعف مني ، واحترام من هم اكبر مني ، ومحبة بلادي باخلاص . مطمحي ان ارقي نفسي وان اداوم السير على طريق التقدم . انني اهب كياني لكيان تركيا »

ولكي تتزن هذه النزعة الوطنية ، وضع برنامج لتعليم التاريخ الدولي وتدريس المبادىء الاقتصادية والاجتماعية السائدة في مختلف البلدان . وفي تدريس تاريخ الحركة الوطنية تذكر الحقيقة مجردة ، فهناك يقرأ الطالب اسباب انحطاط الدولة العثمانية واسباب نهوض تركيا الجديدة ، وانتصارها وما يطلب من ابنائها للسير بها الى مطمحها الأعلى

النزعة العملية — بدأت حركة التعليم الجديدة كما يبدأ كل شيء جديد في تركيا ، بخطة

وأمر من الغازي . فاتخذ الولاة كلمة (التعليم واجب وطني) شعاراً لهم في حث الشعب على طلب العلم ، وقد عني واضعو برامج التعليم — بناء على رغبة الغازي — بأن يكون التعليم ، مما يربي الملكات ، لا مما يحشو العقل . فيؤخذ الطلاب في جولات خلوية ، ويعطى كل منهم شيئاً يعثرون به ، زهرة او حجراً غريباً او قطعة فحم او ورقة نبات . ويطلب منهم ان يبحثوا عن تاريخه وان يصوروه . ثم تختار أكثر الرسوم اتقاناً وتعلق على جدران المدرسة وتمنح جوائز للمتفوقين . وفي كل المدارس تجد مجموعة من الحجارة المختلفة ، وهيا كل الحيوانات والطيور المصبرة ، والازهار المجففة ، حتى يكون التعليم مقروناً بالمشاهدة . وفي المدارس التي زرناها — دار المعلمين في ازمير ، ودار المعلمين في انقرة — شهدنا معامل الطبيعة والكيمياء مجهزة بأحدث الآلات حتى يكون تعليم هذين العلمين مقروناً بالتجربة والامتحان . وفي مدرسة التجارة العليا عرفنا ان التعليم متجه الى الوجهة العلمية العملية ، فيعطى الطالب موضوعاً عليه ان يحقق اموره بنفسه في البلاد . وليس امامه مرجع يرجع اليه او ينقل منه . فقد اطلعنا على رسالة لأحد الطلاب في نظام ادارة السكك الحديدية وعمالها ، واخرى في موضوع القطن التركي زراعة وصناعة وتجارة . وهذه النزعة تفسر لك كثرة المدارس الفنية والصناعية التابعة لوزارة المعارف او للوزارات الاخرى، كمدارس الزراعة التابعة لوزارة الزراعة ومدارس الاشغال العامة ومدارس سكك الحديد ومدارس صناعة الحرير ومدارس مفتشي الصحة

يضاف الى ذلك انك تجد في المعلمين رغبة في كشف مواهب التلميذ وتوجيهه في الوجهة التي تفيده . ولعل ذلك ناشىء من امر اصدره الغازي لخرم به جلد التلاميذ

النزعة العلمانية — روت كاتبة انكليزية انها كانت مسافرة من قونيه الى أدنه فلقيت مفتشاً من مفتشي المعارف فدار بينهما حديث ، سألته في خلاله : ولكن ما هي عقيدتك فقال : اؤمن بالعلم والغازي ومستقبل بلادي وأثق بنفسي . فقالت دهشة ولكن ... ولكن ... الله... فقال من يعلم شيئاً من الله . هناك العلم . وقوتا الخير والشر . أما عن الباقي فلا نعلم شيئاً ما

ولعل هذا المفتش كان يعرب عن ضمير جيله . الجيل الذي يقلب نظره في احوال العالم فلا يرى الفوز الاَّ للصناعة القوية والاسلحة القوية القائمة على العلم . الجيل الذي شهد كيف استعمل الدين لأغراض سياسية . وما عانته تركيا من جراء ذلك من دول تدَّعي انها حامية الدين المسيحي . ألم يقل لهم الغازي في خطاب ألقاه : « علموا الحق وبرهنوا عليه بالعلم . علموا طلابكم الموضوعات التي تفيدهم في الحياة . علموهم النظام والترتيب والملاحظة علموهم الفرق بين الخير والشر ، بين الخطأ والصواب . علموهم ان يعرفوا انفسهم وان يثقوا بأنفسهم وان يعتمدوا على أنفسهم »

انهم يؤمنون بالعمل ، ومن يؤمن بالعمل ، لا يجد متسعاً من الوقت ، في رأيهم ، للصلاة والصيام فهم يبشرون بمبدإ التقدم العلماني [1] . فاذا قلت لهم ان الدين حامي الفرد والمسيطر على مسائل الجنس والشهوة . قالوا لك الدولة هي حامية الفرد ، والمرأة هي المسيطرة على مسائل الجنس والشهوة . والمرأة تعامل بالاحترام الذي يليق بها . حتى في ايام الحريم كنا نحترم المرأة التي تحترم نفسها . وعندنا ان التعليم الادبي ، وغرس مبادىء الفضيلة ، خير من مجرد الاعتقاد وعدم تطبيقه . واذا أشرت الى كثرة حوادث الانتحار ، وحملتها بانحلال العقيدة ، قالوا لك ان لجنة من الاطباء العلماء تناولت البحث في هذا الموضوع ووجدت ان بواعث الانتحار سببها اضطراب الاحوال العامة التي تلت الحرب الكبرى في الغالب

وعندي ان هذا الاتجاه ناشىء عن تطرفهم في احترام القوة والصناعة اللتين لابدّ منهما لامة فتية تحاول ان تدرك ما فاتها من اسباب الرقي المادي . وانهُ اذا استتبّ لها ذلك ارتدت الى دخيلة نفوسها وعندئذ ترى ان الايمان بالعلم لايشبع كل حاجات النفس

يضاف الى ذلك ان الغازي يعلق بالرياضة البدنية شأناً كبيراً ، من الوجهة الخلقية علاوة على الوجهة الصحية فهي تعلم الانصاف والتعاون في العاب الكرة ، وتربي في الكشافة خلق النجدة والنخوة . ولذلك تراه يعززها ما يستطيع الى ذلك سبيلا

— ٧ —

عرف القارىء من الفصول المتقدمة انهُ ليس في وسع الكاتب ان يخطّ سطراً واحداً عن تركيا الجديدة من دون ان يشير الى الغازي مصطفى كمال ، مجدد معالمها ، ومغتصب استقلالها بحد السيف ، ومنظم حكومتها الجمهورية ، ونافخ روح الحياة في شيبها وشبانها ، في نسائها ورجالها على السواء . انك تجد طابعهُ الشخصي ، في كل مجمع وكل مدرسة وكل ملجإ وكل مستشفى تؤمه . بل انك تجده في كل مزرعة حديثة ترى فيها فسائل الاشجار لتحريج النجد القاحل في قلب الاناضول . فأنت لا تستطيع ان تتملى من هذه الصورة العجيبة التي تمثل امام عينك ممتدة من استانبول الى انقرة ، الى ما وراء انقرة ، ومن صمسون وطرابزون الى يالوى وازمير ومرسين ، من دون ان تتوق الى ان تزيد معرفةً بذلك الفنان المبدع الذي وشّاها بألوانها ونفخ فيها من روحه ، نسمة الحياة

(١) الموقف نحو المدارس الاجنبية في تركيا ، صريح لا لبس فيه . فهم يقولون ان تركيا تؤمن بالمبدإ العلماني ، كأساس للارتقاء في هذا العصر . وان كل مدارسهم تجري عليه . وانهم كذلك يرحبون بالمدارس الاجنبية في البلاد ، وانما يشترطون عليها ان تحترمه . فاذا قبلت ذلك فبها ، والا فيجب ان تقفل ابوابها . وقد كتب يونس نادي في جمهوريت فقال : « ان اصحاب المدارس الاجنبية حاولوا ان يسلكوا احد مسلكين اما ان يعلموا الدين او ان يرحلوا . ونحن نطلب اليهم ان يلبثوا في البلاد ، وان يخضعوا لقوانين البلاد وتقاليدها ، وان يمضوا في عملهم . وانا نوجه هذا الطلب خاصة الى كلية روبرت وكلية البنات الاميركية في استانبول »

ومهما يكن المصير ، الذي خبأته له الاقدار ، فلا ريب عندي في انهُ اصبح من رجال التاريخ العظام . وقد زاده ظهوراً بين قومهِ ان ليس بينهم من يدانيه في قواه العقلية او في مقدرتهِ على تسيير سفينة الدولة في بحر السياسة العجاج . كلُّ ممثل لتركيا في مؤتمر دولي ، يجب ان يمثل امام الغازي قبل سفره . يعيد عليه القضية التي يدافع عنها فيناقشه الغازي فيها مناقشة مطلع عارف ببواطن الامور ، فاهم لدقائقها ومغازيها ، ويعرض لجميع وجوه المسألة كما يراها ، حتى لا يفاجأ المندوب في المؤتمر مفاجأة تأخذ عليهِ باب الكلام ، او توهن من موقفه القومي . كذلك فعل مع عصمت باشا لما ذهب الى لوزان . وكذلك فعل مع توفيق رشدي بك لما ندب الى جنيف . ولا يبعد ان يكون قد جرى على الخطة نفسها مع اسعد بك قبلما سافر الى لاهاي للدفاع عن تركيا في قضية اللوتس المشهورة

***

كان لمساوىء الحكم في عهد السلطان عبد الحميد أثر عظيم في نفسه منذ حداثته . فكان وهو صبي يافع يتلهب غيرة على وطنه . ويظهر انهُ ورث الروح العسكرية عن اسلافه فنبغ في علومها، وتفوق في الناحية الرياضية منها ، واقسم من حداثته ليبذلنَّ كل غال في سبيل وطنه. وكان ذلك اهم ما يجيش في صدره وهو فتى غض الاهاب فكان ينشر وهو يافع في المدرسة صحيفة يكتبها بخط يده ويشرح فيها ما يراه من مساوىء الحكومة في ذلك العهد .

ومع ان المقادير قد اوصلته الى اعلى المراتب بين قومه ، الاَّ انهُ بعيد كل البعد عن المطامع الدنيوية . ولو خيِّل اليهِ ان مصلحة الدولة تقتضي بقاء السلطان على عرش آل عثمان لما تأخر عن ذلك . بل انهُ في فترة من فترات الجهاد الوطني ، رجا السلطان رجاء ان يتقدَّم الصفوف ، ويقودها فتلكأ السلطان ، فلم يبق بدٌّ من السير من دونه . فلما عرض الترك على الغازي ان يتقلد منصب السلطان والخليفة معاً ابى ذلك كل الاباء . ولو فعل ذلك لاصبح المنقذ القومي مغامراً سياسيًّا ، لا تهمه مصلحة البلاد بقدر ما تهمه مصلحتهُ الخاصة

لذلك يفضل ان يعرف بأنهُ احد ابناء الجمهورية التركية — لا أكثر ولا أقلّ — وقد قال لمن حاول ان يقابل بينه وبين نبوليون والاسكندر ، اسمي «مصطفى كمال » فاذا شئت ان تكرمني ادعني مصطفى كمال . ولكنه يسمح لقومهِ بأن يلقبوه بالغازي!

***

بعد عشر سنوات من الحكم ، ترى الغازي وحيداً وعلى وحدتهِ مسحة من كآبة العزلة . فكأنهُ على قنة جبل، رغم محبة الشعب له وتعلقه بهِ . انك تجد صورتهُ في كل مكان، في الباخرة التي سافرنا عليها ، وفي النزل الذي اقمنا فيهِ ، وفي المعاهد التي زرناها على اختلافها . بل انك لا تكاد تطلع على صحيفة من الصحف اليومية — واكثرها مصور — الاَّ وتجد صورة للغازي

في موقف من المواقف. المدن تتبارى في اهداء الدور اليه ، ففي ازمير قيل لنا هذا بيت الغازي اهدتهُ اليهِ المدينة ، وفي بروسة بيت الغازي كذلك وفي يالوى بيت الغازي . بل هي تتبارى كذلك في اقامة التماثيل له، حتى انك لترى في انقرة وحدها ثلاثة تماثيل له على الاقل في الميادين العمومية

ولكن الرجل الحديدي ذا الوجه المجعد والعينين الرماديتين الغائرتين تقدحان الشرر ، والجبهة العالية يتوّجها شعر ذهبي ، ينكمش قليلاً قليلاً بعد ما سنّ كل ما يراه لازماً لتركيا من القوانين . وابناء وطنه يشعرون بذلك ويحسون بشيء من الكآبة . انهم يعلمون ان مرض الكليتين الذي عليه يده الثقيلة وأقعده غير مرة . وهم يعلمون انهُ لم يدّخر نفسه في طول حياته فبذلها سخيًّا ، في اللهو وفي الجهاد . هو في انقرة بين قومه يحيط بهِ رفاقه في الجهاد، وابناؤه في النزعة والايمان ، ولكن القوم في استانبول، يلقون الى الشائعات آذانهم. فاذا لم يستطيعوا ان يروه رأي العين، تقوّلت السنتهم الاقاويل ، حتى يبرز لهم الغازي من شرفة تطل على البوسفور فينشر عليهم عندئذ جناحي الخطيب الذي تؤيد افعاله كل كلمة يفوه بها ويقول لهم : — لقد غلبني ماتكبدتموه من المشقة في مجيئكم الى هنا . لا تظنوا انهُ لا ندحة عن التطلع الى وجهي. لافضل في نظري ان تسعوا الى فهم افكاري ومشاركتي فيها . ان عيونكم تنبئكم اني صحيح معافىً . اما المحبة التي تربطني بكم فلن تضعف . وان قوتي لقائمة على تلك المحبة ، وعلى محبتكم لي . ان هذه البلاد ، في ظل هذا النظام ، سوف تصبح اجدر الأمم بالاحترام . وانني لن اموت قبل ان تتحقق كلماتي » !

***

كان السلطان العثماني خليفة للمسلمين . فكانت الدولة العثمانية بين نزعتين ، النزعة القومية التركية ، والنزعة العثمانية الاسلامية . وكانت النزعة العثمانية هي السائدة في الغالب . فحفلت قصور السلاطين في الاستانة بخليط من ممثلي شعوب الدولة. من اسباني ويوناني وارمن وكرد وعرب وتتار وصقالبة. فلما كانت حركة تركيا الفتاة والثورة التي غنموا بها الدستور العثماني من السلطان عبد الحميد. جعلوا الدولة العثمانية بشعوبها المختلفة، المتنافرة في امزجتها ومطامحها، ميداناً لحركتهم ، بدلاً من يوجهوا النظر الى الشطر التركي ، وفيه من التجانس بين السكان ، أصلاً ولغةً وطبائع ، ما يمكنهم من تحقيق الاصلاح الذي ينشدون . وعلى ذلك ترى ان النزعة القومية التي دعا اليها رجال تركيا الفتاة ، وراموا تطبيقها على الدولة العثمانية من البلقان الى ما وراء النهرين ، ومن القوقاس الى المحيط الهندي ، كانت باعثاً على نشوء النزعات القومية بين الاكراد والعرب والارمن وغيرهم من الشعوب التي تتألف من مجموعها الدولة العثمانية

بين الضباط الاتراك الذين حكموا فيما بينهم وبين نفوسهم ، ان النظام القديم بالٍ لا يرجى لهُ اصلاح كان ضابط ، غائر العينين ، نفاذ البصر ،عني بهِ رؤساؤه فعيّنوه في اماكن نائية عن عاصمة البلاد فهو آناً ضابط في حيفا ، واخرى مكافح في طرابلس الغرب، وثالثة ملحق حربي بمفوضية تركيا في صوفيا . وذلك لانهُ كان حرّ الطبع ، لا يصبر على الخسف ، فكان ينتقد ما يراهُ جديراً بالانتقاد — وما اكثره في تلك الايام — بكلام لا يحتمل التأويل . حارب الانكليز في الدردنيل وغاليبولي فعرفوا فيه ضابطاً ممتازاً شجاعاً لا يني ، صبوراً لا يملّ ، يقظاً لا يؤخذ على غرة ، فباء من الدردنيل بتقدير اعدائهِ، ورئيسه الجنرال فون سندرس باشا

فلما احتلّ الحلفاء استانبول [1] بقيادة قائد بريطاني ، واصبح السلطان بوقاً في يد المحتلين بذل ما يستطيعهُ لحمل الاتراك على المقاومة، ولما قنط مصطفى كمال من التوام المشتغلين في السياسة ومواربتهم اخذ يعد المعدات للذهاب الى الاناضول فدعي الى مجلس الوزراء وكان منعقداً لينظر في أمر احتلال اليونان لازمير ، فسئل ما رأيه فقال «المقاومة» فقالوا «وكيف نقاوم هنا» فقال «اذ افرغتم جهدكم هنا الحقوا بي»

وفي ١٩ مايو سنة ١٩١٩ نزل مصطفى كمال الى البرّ في سمسون يرافقهُ رأفت بك

***

ليس هذا مكان التبسط في تنظيم الحركة الوطنية ، وما عاناه فيها مصطفى كمال من ضروب المقاومة ، من الحلفاء ومن ولاة الاناضول ومن الحكومة في استانبول حتى ومن بعض اصدقائهِ الاقربين . وكيف كان يتحتم عليه ان ينظر الى تنظيم الجيش ليكون المرجع الأخير في السيطرة على البلاد ، وانشاء الفروع ، وارسال التعليمات الى رؤسائها . كان الرجل لا يكلّ من العمل . وكان عقلهُ يتسع لكل كبيرة وصغيرة . قيل لي . وهل تظن ان كل هذه الاعمال التي تمت على يده وباسمه هي من ابتكاره [illegible] (نحو ٨٠٠ صفحة) التي القاها بنفسهِ من بضع سنوات في مجلس الامة . باسطاً فيها تاريخ الحركة الوطنية . فقد روى بنفسهِ ، وأيّد روايتهُ بالوثائق الرسمية ، انهُ كان يجلس الى آلة التلغراف يخاطب الزعماء ورجال الحكومة، ويبسط لهم بسطاً مفصلاً ، في كلام مدوّن محفوظ، آراءهُ في الاتجاه الذي يجب ان تتجه اليهِ الحركة الوطنية . وفي هذه الرسائل التي كان يكتبها ، والبديهة في الظاهر تمليها — وانما البديهة في الواقع تستمدّها من عقل قلّبها على مختلف الوجوه

(١) عقدت هدنة مودروس في ٣٠ اكتوبر ١٩١٨ وهي تخول الحلفاء حق احتلال اي منطقة من مناطق البلاد العثمانية ولتنفيذ هذه المعاهدة فتحت ابواب الاستانة في وجوههم ولكن احتلال الحلفاء العسكري للاستانة لم يقع الا في مارس ١٩٢٠

وخزن مبادئها واصولها - تقع على بزور كل الانقلابات التي تمت في تركيا على يديهِ وبمعاونة رجالهِ الاصفياء

هناك في الاناضول انشأ حكومة وطنية وتحدّى العالم !

تحدّى السلطان ورجال حكومتهِ فلم يستطع هؤلاء ان ينالوهُ بسوء . ولكن اليونانيين ، الذين ورثوا من الحلفاء قطعة من الاناضول ، واحتلوا ازمير باسم الحلفاء ، سيّروا جيشهم على انقرة ، العاصمة الجديدة ، وهي قرية قديمة حقيرة كانت منازلها المبنية باللبن المجفف ، مقرًّا لوزراء تركيا الجديدة ولاركان حربها . وسار الجيش اليوناني يكتسح امامهُ كلّ شيء ، حتى بلغ نهر سقاريا . هناك اعدّ لهُ مصطفى كمال العدّة ، بعدما عقد مع فرنسا اتفاقاً اخلى لهُ الوفاً من الجنود الاتراك المرابطين على حدود سوريا ، وعمد الى الحيلة ، فاعلن ان هجومهُ سوف يبدأ في يوم معيّن ، ولكنهُ لم يبدأ . وفي ليلة ليلاء ، اعدّ في تشان كايا مرقصاً فاخراً وامر الناس بالقصف واللهو ، وانسلّ هو الى صفوف الجيش ، واصدر امره التاريخي : « امامكم البحر المتوسط » واطبق على الجيش اليوناني ، وعيون قوّادهِ متجهة الى مرقص انقره ، فتراجع اولاً ثم اصبح التراجع هزيمة لم تنتهِ حتى دخل الغازي مدينة ازمير . وسار حتى اصبح على بضعة اميال من استانبول ، فلجأ السلطان الى بارجة بريطانية

وفي ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٢٣ اعلنت الجمهورية التركية ، وانتخب مصطفى كمال ، الغازي ، رئيس المجلس الوطني الكبير ، رئيساً لها

***

كان الظفر في حرب الاستقلال فاتحة لا نهاية . عند ذلك انقلب الزعيم الحربيُّ والقائد الوطنيُّ منظماً سياسيًّا واداريًّا واجتماعيًّا ، في الطبقة الاولى بين رجال العصر . اليس هو القائل ، « ان القائد الحازم يجب ان يكون مشترعاً حازماً . ولا يصدق الحكم على القائد الحربي الاَّ وقد اثبت ان في وسعه تحويل رجاله من جيش قتال الى جيش سلام ! »

كان غرضه ان ينشيء من تركيا دولة تتمتع باستقلالها السياسي والاقتصادي — بحريتها التي ابتاعتها بأغلى الاثمان . الحرية — ! وما كان مصطفى كمال من الذين يبهرون ، بمعاني تلك الكلمة الرنانة ، فينقادون الى الوهم والضلال . كان يفهم انك لا تستطيع ان تترك الحرية ، كرةً تتقاذفها تيارات السياسة الحزبية ، يخلقها رجالٌ ، تفتنهم العبارات المنمقة ، ثم تبتلعهم تلك التيارات في دردورها . وكان نظره صائباً اذ صرح في خطبة له في بدء الحركة الوطنية « ان المشروعات الكبيرة تقتضي زعيماً »

فبعد الظفر في الحرب بدت له عظمة العمل الذي امامه ، وما ينطوي عليهِ من المهاوي والمخاطر . ولكنه لم يعلّل نفسه بفترة من السلام ، بعد النصر ، يستجمُّ فيها القوى ، ويأخذ

الاهبة ، لمعالجة المشكلات التي تجب معالجتها . ألا يقول العلم الحديث ، بأن الحياة نزاع لا ينتهي ؟ الم يثبت داروين وعلماء الحياة بأن القوي في النزاع يفوز . وان الضعيف يهوي الى الحضيض ؟ لقد اثبت مصطفى كمال ، في ساحات التنظيم القومي ، وفي ميادين القتال ، انهُ ليس من الاوكاس . ايدع السلام يغلبه في ساعة الظفر الحربي ؟

كانت المشكلة الكبرى التي تواجهه ، التوفيق بين الحرية والنظام . وهو الاساس الذي تقوم عليهِ كل حكومة

لو شاء الغازي حينئذٍ ، لسلك الطريق السهل ، واعلن دكتاتورية حربية ، ولما لقي حينئذٍ مقاومة ما ؟ أليس هو الغازي ، طارد الاجانب من البلاد ؟ الا تتفق الدكتاتورية مع تقاليد الاتراك الحربية ؟ ولكن الدكتاتورية الحربية ، كانت مناقضة لفلسفتهِ السياسية ، القائمة على ركنين من «ارادة الامة» و«امتناع الجيش عن التدخل في شؤون الحكم» . ففضَّل ان ينشئ حزباً سياسيًّا ، وبواسطتهِ يبسط سيطرتهُ على مجلس الامة

وكان صريحاً في اعلان رأيهِ . قال ان الظفر الحربي لا يكفي لضمان المستقبل . والمستقبل لا يضمن الاَّ بتنظيم الامة تنظيماً اداريًّا وسياسيًّا . واذن فلا بدَّ من برنامج اصلاح قائم على الاسس العلمية . وحزب الشعب الذي أسسهُ ، ورئسهُ يجمع بين الحزب الفاشستي من حيث تمثيلهِ رغبة الامة ، والحزب الشيوعي في روسيا ، من حيث سيطرتهِ على شؤون الحكومة . وسلطانهُ قائم على تأييد هذا الحزب لهُ . وهو لو شاء لأعلن نفسهُ دكتاتوراً مدى الحياة ، ولكنهُ يفضل في سبيل تثقيف الشعب ، ان يجدَّد انتخابهُ رئيساً للجمهورية ، في كل برلمان جديد ، مرة كل اربع سنوات

وكان خصومهُ في المبدء اشداء ، وحاولوا ان يهاجموه من ناحية معاهدة الصلح ، لأن المناقشة في مؤتمر لوزان طالت ، ولم تفضِ الى نتيجة ، فقالوا ان عصمت مفاوض ضعيف ، مفرّط في حقوق البلاد ، وانهُ لا بدَّ ان يعود بمعاهدة جديدة كمعاهدة سيفر المقوتة . فلما يئس كرزون من حمل عصمت على الاتفاق ، عاد غاضباً الى لندن ، فكان ذلك ايذاناً بانفجار روح البغض للاجانب في مجلس الأمة في انقرة ، فاغتنم الغازي الفرصة ووقف في المجلس ، وعصمتِ الى جنبهِ وقال : « ان تركيا تطلب السلام وانها مستعدَّة لتحكم صلات المودة[1] مع كل الامم . ولكن تركيا مستعدَّة للحرب اذا اقتضت الحال ذلك ، لان الحياة من دون الاستقلال لا تطاق . وانها لابدَّ ان تفوز ما زالت معتمدة على قوتها الحقيقية ، المستمدة من ميثاقها القومي ودستورها الجديد اللذين الغيا سيادة الفرد واعلنا سيادة الامة

(١) يروي المستر غرل وزير اميركا السابق في انقرة انه عند وصوله الى مقر منصبه ابدى لرجال الحكومة رغبته في زيارة ميادين الحرب مع اليونان فثنوه عن عزمه قائلين « اننا نريد ان نجري على خطة صداقة مع اليونان ولا نريد ان نتباهى امام العالم المتمدن بالنصر الذي احرزناه عليهم »

وعاد عصمت الى لوزان ، ففاز بالمعاهدة التي ترضي تركيا

ولولا الظفر الحربي ، لما استطاع مصطفى كمال ان يمضي في الانقلاب التركي الى نهايته . الغى السلطنة والخلافة في تركيا ، لانهُ اراد ان يرفع من شأن النزعة الوطنية الدمقراطية ، ونقل القانون السويسري المدني بحذافيره ، لانه اقرب الى احوال العصر ، وحرر المرأة لانها يجب ان تشترك مع الرجل في بناء الدولة وتهذيب الاجيال المقبلة ، وغير لباس الرجل ليكون التغيير ماحقاً للفروق بين الاتراك والاوربيين ، واستبدل الحروف العربية بحروف لاتينية وجعل الكتابة بها من اليسار الى اليمين ، لان الكتابة العربية لا تصلح في رأيهِ لنشر مُثُل الحضارة العلمية . وقد كان في كل ذلك مقداماً لا يخشى . ولكن اقدامه كان اقدام رجل مهد الطريق ، واختار الفرصة الصالحة . ولما سألت اوربياً كبيراً في استانبول عن اهم ما يتصف بهِ مصطفى كمال قال « الحكمة العملية » ، لانهُ من السهل ان تعدَّ على الورق برنامجاً طويلاً عريضاً للاصلاح ، ولكن السر كل السرّ في اخراجه الى حيّز العمل في الوقت الصالح والفرصة المناسبة . فمصطفى كمال رجل لا يرتجل الاصلاح ارتجالاً

وكذلك اصبحت تركيا ، ذات يوم ، وهي المقهورة في الحرب الكبرى ، فاذا هي أحسن حالاً من كل البلدان المقهورة ، بل من بعض البلدان التي كانت في جانب الحلفاء المنتصرين

***

يجد بعضهم وجهاً في الشبه بين نهضة المانيا الحديثة بزعامة هتلر ، ونهضة تركيا بزعامة مصطفى كمال . ولكن الفرق بين النهضتين يتعدى الظواهر الى الاصول . بدأت النهضة الهتلرية في الداخل فأحيت الروح الالمانية وهي متجهة الى الخارج ، الى تحقيق الحلم بالمانيا الكبرى التي تضمُّ جميع الالمان في اوربا — في النمسا وتشكوسلوفاكيا وغيرها — . واما النهضة الكمالية فبدأت في الخارج ، اذ طردت الاجانب ، وعيّنت حدود البلاد ، ثم اتجهت الى الداخل تحاول ايقاظ الشعب وبعث معنى جديد من معاني الرقي في نفسهِ . فالاولى تتجهُ من فتح روحي الى فتح مادي . والثانية تتجهُ الى الفتح الروحي ، بعد الظفر في الفتح المادي

قد كان في استطاعة مصطفى كمال ، في ساعة الظفر ، ان يرنو بنظره ، الى ما وراء تركيا ، فيمد حدودها ، ويبسط نفوذها ، ولكنهُ اختار هذه الفرصة ليغمد السيف ، ويوقف الحرب ويخلع البدلة العسكرية . انها والله لعظيمة من هذا الرجل الذي ولد عسكرياً ، وذاق حلاوة الظفر العسكري . كان اسهل الامور عليهِ ، ان يمضي ، وهو الثمل بخمرة الظفر ، فاتحاً غازياً ولكنهُ فضّل ان يستدبر حياة الفاتحين ، ليستقبل حياة المصلحين المحفوفة بالمصاعب . وليس هذا بكثير على من يستطيع ان يلقي عليك عفواً فقرات كاملة من كتاب « ولز » في « موجز التاريخ »

فؤاد صرّوف

ابن خلدون وسبنسر

مقابلة بين فلسفتيهما

« طلب الينا احد قراء المقتطف المهتمين بدرس فلسفة ابن خلدون ان نعيد نشر الفصل الذي عقده المرحوم الدكتور صروف في المقابلة بين فلسفة ابن خلدون وفلسفة هربرت سبنسر. فلبينا الطلب بعد ما حذفنا مقدمة الفصل وكانت تحتوي على فذلكتين في تاريخ الرجلين وسيرتيهما »

﴿ المبدأ الاول ﴾ وجوب تمحيص الاخبار قبل اثباتها في كتب التاريخ

قال ابن خلدون ان فن التاريخ محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان بهِ عن المزلات والمغالط. لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وايمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا وسميناً ولم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط . وقدَّم شواهد كثيرة على ذلك وفي جملتها قصة معاقرة الخليفة هرون الرشيد للخمرة التي افضت الى نكبة البرامكة واثبت فسادها بالمأثور من حال الرشيد وتديُّنهِ وما كان عليهِ من صحبة العلماء والاخيار. وذكر قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين احضر لهُ السمك على مائدتهِ وهي حجة قاطعة على ان الرشيد كان يجتنب الخمر وان ذلك كان معروفاً عند بطانتهِ واهل مائدتهِ . ثم بيَّن اسباب تطرُّق الكذب الى الاخبار فقال « ان منها التشيُّعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطتهُ حقهُ من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقهُ من كذبهِ واذا خامرها تشيُّع لرأي او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاءً على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقلهِ . ومن الاسباب المقتضية لذلك ايضاً الثقة في الناقلين والذهول عن المقاصد والجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع »

وهذا المبدأ غاية في الاصابة ولكن ابن خلدون لم يراعهِ دائماً ولا اصاب في تطبيقه كل

الاصابة لان الاخبار التي اثبتها لا يخلو بعضها من مظنة الشك والتي جعلها في مظنة الشك بل قطع بفسادها هي غير فاسدة كما وهم والأدلة التي أقامها على فسادها واهنة وبعضها منقوض . وسبحان من تفرَّد بالكمال

ومهما يكن من عدم اصابته في التطبيق فالمبدأ صحيح ثابت ويجب اتباعه دائماً وقد ذكره هربرت سبنسر في مواضع كثيرة من كتبهِ وبيَّن اسبابهُ . قال في الفصل الأول من كتابهِ في علم السيولوجيا (أي علم العمران) في عرض الكلام على الشواهد التي يستشهد بها رجال السياسة من التواريخ والجرائد والرحلات اثباتاً لصحة نظام يريدون وضعهُ او سنَّة يقصدون سنَّها انهم ينقلون الاخبار على عواهنها غير ملتفتين الى اغراض القائلين بها او ان اهواءهم واغراضهم الشخصية الوطنية والسياسية والدينية واميالهم الطبيعية واسلوب التهذيب الذي هُذّبوا بهِ كل ذلك يتغلب عليهم ويحرفهم عن جادة الحق ومثّل على ذلك بالسمكة التي في الماء فانها لا ترى في المكان الذي هي فيهِ بسبب انكسار النور ويزداد انحرافها عن موقعها الحقيقي بازدياد انحراف الناظر اليها . وقال في الفصل الخامس من هذا الكتاب ان من عوائق فن السيولوجيا فساد الاخبار التي يتناقلها الناس وان الاخبار المدخولة شائعة الآن كما كانت شائعة في الازمنة الغابرة . وذكر امثلة لذلك منها ان بعضهم وصف اهالي زيلندا الجديدة بأنهم اهل نباهة وشجاعة وقساوة . وبعضهم وصفهم بانهم ضعفاء جبناء لطفاء والوصفان على طرفي نقيض وهما في شعب واحد . ثم قال انهُ انتشرت من برهة وجيزة في اسواق مدينة لندن صورة عصفور لهُ رأسان وبدن واحد وقال ان واحداً رأى هذا العصفور واخبرني انهُ مثل صورتهِ تماماً . ثم جاء وصفهُ في جريدة اللانست الطبية فاذا هو عصفوران كاملان لهما بدنان ورأسان ولا اتصال بينهما الاَّ من ظهريهما فكأن محبة الاستغراب تقود الناس عن غير قصد منهم الى تقرير الامور على غير حقيقتها . واطال الكلام في هذا الموضوع وافرد لهُ فصولاً كثيرة بيَّن فيها تأثير التشيع المذهبي والسياسي والتعليمي . والظاهر انهُ هو ايضاً لم يسلم مما نهى غيرهُ عن الوقوع فيهِ فقد ذكر في مقدمة «السنن السياسية» ان بلاد المكسيك كان فيها مدن وسيعة فيها مائة وثمانون الف بيت. وهذا من المبالغة بمكان ولا سيما لانهُ يزيد كثيراً عما قرره كثيرون من المؤرخين فقد قال زوازو الذي زار المكسيك سنة ١٧٢٦ انها ستين الف ساكن وهذا قول واحد من اتباع كورتز ايضاً. ولكن الذي يطالع كتب سبنسر ويرى ما فيها من الشواهد التي تعدُّ بالألوف الكثيرة لا يعجب من وقوع الخطإ القليل فيها ولا سيما لان الشواهد يجمعها لهُ المساعدون من كتب القوم وهو يتولى تنسيقها وتجريد الكليات من جزئياتها

﴿المبدأ الثاني﴾ ان التعاون على المعاش والدفاع هو من اول اسباب الاجتماع الانساني ودعائمهِ قال ابن خلدون في الفصل الاول من الكتاب الاول «ان قدرة الواحد من البشر قاصرة

عن تحصيل حاجتهِ من الغذاء غير موفية لهُ بمادة حياتهِ منهُ فلا بدَّ من اجتماع الكثير من ابناء جنسهِ ليحصل القوت لهُ ولهم بالتعاون قدر الكفاية وكذلك يحتاج كل واحد منهم في الدفاع عن نفسهِ الى الاستعانة بابناء جنسهِ واذا كان التعاون حصل لهُ القوت للغذاء والسلاح للمدافعة فاذاً هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني والاَّ لم يكمل وجودهم » وقال في فصل آخر ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم في المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيلهِ والابتداء بما هو ضروري منهُ ونشيط قبل الحاجي والكمالي

وقال هربرت سبنسر في هذا المعنى ان التعاون لا يتم بغير الاجتماع والاجتماع لا يدوم الاَّ بالتعاون والاَّ انحلَّت عراهُ وتفرق الناس ايدي سبا . وقد يكون الغرض من التعاون تحصيل ما لا يمكن للفرد الواحد تحصيلهُ من المعاش او ما يعسر عليهِ تحصيلهُ اذا انفرد وحده او ما لا يستطيعهُ وحدهُ من مدافعة الاعداء. والغالب ان يكون الغرض منهُ مجموع هذه الاغراض كلها. ثم افاض في شرح تقسيم الاعمال والتعاون عليها وعلى الاعداء وتأثير ذلك الاجتماع الانساني وبيَّن تدرُّج الناس فيهِ من اوطإِ اطوار التوحُّش الى اسمى درجات التمدن وذكر امثلة لكل ذلك من بين اهل هذا العصر لان فيهم كل درجات البداوة والحضارة التي تقلَّب فيها البشر

﴿ المبدأ الثالث ﴾ ان العصبية دعامة اخرى من دعائم الاجتماع الانساني

قال ابن خلدون ان احياء البدو يزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة. وحللهم يذود عنها من خارج حامية الحي من انجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الاَّ اذا كانوا عصبية واهل نسب واحد لانهم بذلك تشتدُّ شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل واحد على نسبه وعصبيتهِ اهم. واما المنفردون في انسابهم فقلَّ ان تصيب احداً منهم نعرة على صاحبهِ. فاذا اظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسهِ خيفة واستيحاشاً من التخاذل. وقال في فصل آخر ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبية لان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر . ثم ان المُلك منصب شريف فيقع فيهِ التنافس غالباً وقلَّ ان يسلّمهُ احدٌ لصاحبهِ الاَّ اذا غُلب عليهِ فتقع المنازعة وتفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشيءٌ منها لا يقع الاَّ بالعصبية . ثم بيَّن بُعَيد ذلك انهُ اذا استقرَّت الدولة وتمهَّدت فقد تستغني عن العصبية كما هو مشاهد في كثير من البلدان

وقال هربرت سبنسر ان الاجتماع يقتضي ائتلاف الطبائع وهذا يستلزم وجود العصبية وهي تقوى بالوراثة وتتمكن في الجنس كلهِ . واستشهد على ذلك بشواهد كثيرة لا محل لاستيفائها هنا وقال ان ذلك كان معروفاً من قديم الزمان فان هيرودوتس ذكر الاسباب الرابطة للشعب اليوناني فقال انها اولاً الدم ثانياً اللغة ثالثاً المذهب رابعاً العادات والاخلاق. ثم بيَّن

ان عدم العصبية هو الذي حل بعض الممالك القديمة وهو الذي آل الى تقوض اركان غيرها من الممالك التي لم تزل قائمة الى يومنا هذا . وتشاءم بانسلاخ سلطنة الهند عن الحكومة الانكليزية يوماً ما لانها غير مرتبطة بها بعرى العصبية

﴿ المبدأ الرابع ﴾ ان البداوة اقرب الى الخير من الحضارة

قال ابن خلدون وسبب ذلك ان النفس اذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر واهل الحضر لكثرة مايعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلونت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه . واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الآ انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل منهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقل بكثير فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها

وقال هربرت سبنسر ان بين المتوحشين اناساً تصح مقابلتهم بأفاضل المتمدنين . وبعض الشعوب الشرقية القديمة التي لم تزل في حال البداوة لا تُعرف فيهم خلة الكذب فهم أصدق من أصدق الاوربيين . وبعد ان ذكر شواهد كثيرة على ان البداوة قد تكون اقرب الى الخير من الحضارة قال ان اهالي دمارا الذين يقال انهم خالون من الشفقة لانهم ضحكوا عند ما رأوا واحداً منهم قد افترسه حيوان مفترس ليسوا باقل شفقة من الرومانيين الذين كانوا يقيمون المشاهد العظيمة ليروا فيها هجوم الأسود على الأسرى ولا من كراكلاً الذي قتل عشرين الفاً من اصدقاء اخيهِ ثم اجبر جنوده المجلس العالي على ان يضعه في مصاف الآلهة . وبعد ان افاض في هذا الموضوع قال ان الخير لا يتبع العمران دائماً بل ان درجات العمران الأولى اقتضت القساوة والبطش لان اشد الناس قساوة وبطشاً هم الذين تغلبوا على غيرهم في اول الامر ووطدوا دعائم الاجتماع الانساني . ثم استنتج ان كل الحروب القديمة وما اظهره البشر من مظاهر القساوة والعتو كان ضرورياً لنمو نوع الانسان وتقويتهِ وانهُ لولا ذلك لكان سكان الأرض يأوون الآن الكهوف والغياض كاضعف المخلوقات . ولله در القائل

حبُّ السلامة يثني همَّ صاحبهِ عن المعالي ويغري المرءَ بالكسلِ
فان جنحتَ اليهِ فاتخذ نفقاً في الارضِ او سلماً في الجوِ واعتزلِ

وقد اتفق رأي ابن خلدون وهربرت سبنسر على ان البداوة اقرب الى الخير من الحضارة ولو كان مراد ابن خلدون من شرور الحضارة غير مراد هربرت سبنسر كما رأيت

﴿ المبدأ الخامس ﴾ ان آفة الملك الترف

قال ابن خلدون ان الدولة تكون في اولها بدوية فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده ويكون خرجها وانفاقها قليلاً فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها. ثم لا تلبث ان تأخذ بدين الحضارة في الترف فيكثر لذلك خرج اهلها ويكثر خرج السلطان كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية فيستحدث صاحب الدولة انواعاً من الجباية يضربها على البياعات . وربما يزيد ذلك في اواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الاسواق بفساد الاموال ولا يزال ذلك يتزايد الى ان تضمحل الدولة . وقال في مكان آخر ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من ان غايتها ومصيرها انتهابها من ايديهم . واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعي في ذلك . وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فاذا كان الاعتداء كثيراً عامًّا في جميع ابواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة فكسدت اسواق العمران وانتقضت الاحوال وابذعرَّ الناس في الآفاق في طلب الرزق فخفَّ ساكن القطر وخلت دياره وخربت امصاره واختلَّ باختلاله حال الدولة والسلطان لما انها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة . واستأنف الكلام في هذا الموضوع مراراً كثيرة وبيَّن فيه ان ترف الدولة يكثر مظالمها ويفسد حال رعيتها ويسرع باضمحلالها وقدَّم على ذلك شواهد كثيرة من الممالك التي خربت في ايامه او قبلها

وقال هربرت سبنسر ان التعاون يفضي الى وجود النظام السياسي ولهذا النظام منافع ومضار وقد تزيد مضاره على منافعه لانهُ يوجب الجباية على الرعية للقيام بنفقات الملك وبطانته وحاميته وقد يزيد جور الحكام وترفهم فيزيدون الجباية زيادة فاحشة حتى تربي مضارهم على منافعهم ومثَّل على ذلك ببلاد مصر في ايام الرومانيين فان دولة رومية وضعت عليها حينئذٍ اثقل الجبايات وابتزَّت خيراتها منها فكانت تقوم بنفقة ولاتها وحاميتها وبنفقات الجنود الرومانية حيث حلَّت . وكانت الاموال التي يتبرَّع بها الشعب المصري لاعانة الدولة الرومانية لا تلبث طويلاً حتى تصير ضرائب تؤخذ منهم جبراً حتى هلك الفلاَّح والاكَّار وصارت الاراضي الخصبة قفاراً قاحلة وعلا صوت السياط الى السماء وملأ صراخ الناس الفضاء فماتوا هم ومواشيهم من شدة الفقر والعناء واجبر الاحياء على دفع الضرائب التي كان يدفعها الاموات والسعيد من ساعدتهُ التقادير على الفرار من بلاده الى بلاد الاعداء . واستشهد ايضاً بمملكة فرنسا التي لم يلبث ملكها ان اخضع الامراء والغى مظالمهم الكثيرة حتى ركب مراكب البذخ والترف وضرب على الرعايا ضرائب ثقيلة فتزايدت الجباية من احد عشر مليوناً الى ثلثمائة واحد عشر مليوناً فعمَّت الفاقة ومات الناس جوعاً او هجروا اوطانهم وهاموا على وجوههم وما زالت الخطوب تتفاقم حتى انجلت عن الثورة الفرنسية بكل اهوالها



الاشعاع والتطور

فاتحة تقدم خطير في علم الحياة

من الناحيتين العلمية والعملية

طماطم جديد

في مستنبتٍ خاص من مستنبتات جامعة ايوى الاميركية ، يقع الزائر المعنيُّ بشؤون النبات على نبتتين من نبات الطماطم ، تسترعيان النظر ، لان مجرَّد وجودها ، اشارة الى انقلاب خطير في علم الزراعة العملية. ولو انهُ اتيح لداروين ان يرجع الى الحياة مدة اربع وعشرين ساعة فقط ، لكان في الراجح يطلب ان يرى هاتين النبتتين قبل ايِّ شيءٍ آخر . لانهما نوعان جديدان من الطماطم لم يشاهدا من قبل بين انواع الطماطم البرية او الاليفة

نعم ، اننا نشاهد الى جنبهما ، النباتات التي نشأتا منها، وهي مثل كل نبات الطماطم جذوراً وسوقاً وورقاً وثمراً . ولكن لو ان باحثاً أتى ، بهاتين النبتتين من مجاهل البرازيل ، ورآهما نباتيٌّ لما تردَّد دقيقة واحدة ، بعد مقابلتهما بانواع الطماطم المعروفة ، في الحكم بانهما نوعان جديدان . وهما يختلفان في علو ساقيهما وفي ورقهما وفي ثمرهما عن نبات الطماطم المعروف . ثم انهما يتناسلان تناسلاً صريحاً ، أي ان النسل يأتي شبيهاً بالاصل في كل ما تقدم ، اي ان هذه الصفات تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل . ومع ان الاستاذ لندستروم Lindstrom انشأهما بوسائله الخاصة من نبات الطماطم المعروف ، الاَّ ان هنالك ما يشير الى ان الطبيعة تجري على الوسائل نفسها في استحداث انواع جديدة من الانواع القديمة

وطريقة لندستروم تلخَّص في تعريض بزور الطماطم او افرخ الطماطم للأشعة المنطلقة من الراديوم او للأشعة السينية (اكس) كما يفعل علماء الطبيعة في درس الذرَّة (راجع المقال الاول في هذا الجزء) . والتجربة الاولى من هذا القبيل جرَّبها الدكتور مُلر (H. J. Muller) الاستاذ في جامعة تكساس سنة ١٩٢٦

***

لنرتدَّ قليلاً الى ايام داروِن . فانهُ اخرج في سنة ١٨٥٩ كتابهُ «اصل الانواع» فأُحدث

انقلاباً خطيراً في علم الحياة . بل وفي التفكير الحديث . في هذا الكتاب اعترف داروين بجهله اذ قال « لقد اشرت حتى الآن الى التغاير كأنه وليد الصدفة . وهذا نظر خاطىء ، ولكنهُ يكفي للاعتراف بجهلنا بكل تغاير خاص . . . . ان جهلنا بنواميس التغاير جهل عميق » . وكان داروين قد سلَّم بالتغاير على انهُ حقيقة لا تحتاج الى برهان ، ولكنها مجهولة الاسباب ثم حاول ان يبيّن أثر قوة طبيعية في هذا الميل الى تغاير النسل عن الاصل وكيف يحدث الانتخاب الطبيعي ، كما ينتخب مربي الحيوان والنبات الاصلح من نتاج الحيوان اوالنبات ، انتخاباً صناعيًّا

من مندل الى ملر

وظلَّ جهلنا بنواميس التغاير ، خلال سبعٍ وستين سنة ، عميقاً كجهل داروين بها . ولكن علماء الحياة اكتشفوا في خلال هذه السنين ما مكَّنهم من رؤية الصورة كاملة واضحة . ففي اثناء المدة التي كان فيها داروين مكبًّا على وضع « اصل الانواع » كان راهب نمسوي يدعى جريجور مندل يتسلَّى بتضريب نبات البسلَّة واحصاء التغايرات الجديدة التي يراها في النسل . فتوصل الى ناموس بسيط كلَّ البساطة ، يبيّن ان الطبيعة لا تجري اعتباطاً في احداث وجوه التغيُّر في النبات والحيوان ، بل على قاعدة رياضية مضبوطة . ولكن احداً لم يُعِر مباحثهُ شأناً ما ، فطويت حتى كشفها احد الباحثين في سنة ١٩٠٠ بعد وفاة مندل

وفي اثناء ذلك كان العالم الهولندي هوغو ده دفريز يراقب طائفة من نبات زهر الربيع في منطقة من الارض في هولندا ، فلاحظ ، انهُ في الفينة بعد الفينة ، تظهر نبتة تختلف عن النباتات الاخرى التي نبتت من طائفة واحدة من البزور . وعند التدقيق في البحث وجد ان هذه النبتة المختلفة عن اخواتها ، هي في الواقع نوع جديد فدعا هذا الفعل بالتحوُّل الفجائي Mutation واثبت ان انواعاً جديدة كانت تظهر ظهوراً منتظماً بفعل التحوُّل الفجائي من الاصل الذي ترجع اليهِ . ثم ثبت ان هذه الانواع الجديدة صريحة التناسل بحسب قواعد مندل اي ان صفاتها الجديدة ، تنتقل بالوراثة الى الخلف الاول فالى الخلف الثاني الخ

فكان هذا الاكتشاف نقضاً لقول داروين بان الاحياء في تطوّرها « لا تقفز قفزاً » وان الانواع الجديدة انما تنشأ من تجمع تغايرات صغيرة متوالية لا تلبث ان تصبح صفة جديدة يختلف بها الخلف عن السلف

وفي سنة ١٩٠٠ كشفت حقيقة ثالثة من مقام الحقيقتين اللتين مرَّ ذكرهما ، كشفها بوفيري Bovery لدى فحصهِ خلايا الاحياء بالمكرسكوب ، اذ وجد ان في نواة كلّ خليةٍ ، اجساماً دقيقة يسهل صبغها — فدعاها بالكروموسومات اي الاجسام التي تتلوَّن — وتتصرَّف تصرُّفاً خاصًّا . فقال في نفسهِ لا بدَّ ان يكون لها شأن في الوراثة والتغاير . ثم اثبت الباحثون

الذين تلوا بوفيري ، ان هذه الاجسام هي المسيطرة على الوراثة المندلية ، ولا بدَّ ان تحتوي على اسرار الوراثة والتغاير بل وخفايا التطوُّر نفسهِ

***

وجاء بعد ذلك توماس هنت مورغن الاميركي ، فاكبَّ هو واعوانه على درس الكروموسومات في ذبان خاص يعرف بذبان الفاكهة Drosophila فأثبتوا بعد بحث قليل ان التحولات الفجائية اكثر مما يظنُّ وانما اكثرها دقيق لا يشاهد بالعين المجردة . فقد وجدوا في ذبان الدروسوفيلا تحوُّلات فجائية كثيرة ، تتناول لون العيون وشكل الاجنحة وغير ذلك ، ووجدوا كذلك ان كل تحوُّل منها يورَّث . وقد تناول بحثهم نحو عشرين مليون ذبابة فوجدوا نحو ٤٠٠ تحوُّل فجائي كلُّها تورَّث توريثاً صريحاً اي تنتقل الى الاجيال التالية . وتمكنوا بعد ذلك من تعيين موقع كل تحوّلٍ في الكروموسوم نفسه فما اقبلت سنة ١٩١٥ حتى كان مورغن قد عين مواقع ثلاثين او اكثر من هذه العوامل — التي تسند اليها التحولات الفجائية — في كروموسوم واحد . فقد عرفوا مثلاً ان في نقطة معيَّنة من كروموسوم معيَّن ، العامل الذي يجعل عيون الذبابة من لون خاص

ولكن البحث في الدروسوفيلا كان بطيئاً ، لانهُ كان مرهوناً بسرعة تناسلها ، وظهور التحوُّلات الفجائية في النسل . وما كان احدٌ يعلم ، لماذا يظهر تحوُّل فجائي جديد ، ولا متى يظهر . فحاولوا ان يستنبطوا طريقة لاسراع حدوث التحوُّلات الفجائية ، فعرَّضوا عوامل الوراثة في الكروموسومات للفواعل الطبيعية من برد وحرارة ، وتجفيف وبلٍّ ، وتغذية وتجويع ، وحرق وسمٍّ ، فباؤا بالاخفاق ، لانهم وجدوا ان هذه الفواعل لا تؤثر مطلقاً في عوامل الوراثة

وفي سنة ١٩٢٦ (راجع مقتطف ابريل ١٩٢٨ صفحة ٣٩٨) خطر للاستاذ ملر ان يستعمل وسيلة جديدة . ذلك انهُ رأى العلماء يستعملون الاشعة السينية والمقذوفات المنطلقة من الراديوم في محاولتهم تحطيم الذرَّة فقال في نفسهِ ولماذا لا نطلق الاشعة السينية على عوامل الوراثة

التحول والاشعة السينية

فاخذ الوفاً من ذبان الدروسوفيلا وعرَّضها للاشعة السينية . واختار الذبان الذي درست عوامله الوراثية ومواقعها من الكروموسومات ، حتى اذا ظهرت صفات تختلف عن الصفات المعهودة فيها ، اسند ذلك الى اثر الاشعة السينية . وقال في نفسهِ ، اذا كان توفيقنا في تجربتنا من نوع توفيق علماء الطبيعة ، صدمت بعض الاشعة السينية عوامل الوراثة ، فتطلِقُ منها ذرَّة او تضيف اليها ذرَّة ، فيتغيَّر بناؤها الكيميائي . فاذا كانت عوامل الوراثة ، هي المسيطرة

على الوراثة فعلاً كما يقال ، وجب عندئذٍ ، ان تتغير الصفات التي تولّدها هذه العوامل بعد تغيُّر بنائها بفعل الاشعة السينية . وكان علماء الوراثة يعلمون ، ما يجب ان يكون عليهِ لون العيون في نسل هذا الذبان وشكل الاجنحة وغيرها من الصفات الوراثية بعد عمل الحساب لحدوث ٤٠٠ تحوُّل فجائي في كل ٢٠ مليون ذبابة

وبعد ما عرّض هذا الذبان للاشعة ، تُرك لكي يتناسل . فكانت النتيجة ان نسلهُ بعد التعرض للاشعة كان اقل منهُ قبل التعرُّض لها . واذاً فلا بدَّ ان تكون الاشعة قد اتلفت في بعض الذبان الجراثيم التناسلية . ثم ظهرت صفات تدلُّ على ان الاشعة قصمت بعض الكروموسومات . ولكن الظاهرة التي استرعت انتباه هذا الباحث، وغيره من بعده، ان عدد التحولات الفجائية زاد من نسبة ٤٠٠ تحوُّل في ٢٠ مليون ذبابة الى ٦٠٠٠٠ تحول في العدد نفسهِ . فكان هذا دليلاً على ان الاشعة اصابت العوامل الوراثية وغيرت في بنائها، فزاد عدد التحولات الفجائية واذاً فعملية التطوُّر يمكن ان يزيد الانسان سرعتها بوسيلة يسيطر عليها

كشف خطير

فهذا الاكتشاف يجب ان يحسب من اخطر المكتشفات في علوم الحياة الحديثة ، لانهُ اثبت في الناحية الواحدة وجود عوامل الوراثة (genes) وعددها في الكروموسومات . ففي ذبان الدروسوفيلا اكثر من ١٤ الف عامل من هذه العوامل ، لا ندحة عنها لحياة الذبابة وصحتها . وازاحة احد هذه العوامل من محله او اتلافهُ يكفي لكي تولد الذبابة بلا فخذٍ او بلا عينٍ او بلا رأس ، او غير قادرة على الحياة مدى حياة الذبابة المعهود . ولما كان حجم الكروموسوم معروفاً، وعدد العوامل الوراثية في الكروموسوم الواحد معروفاً ففي الامكان تقدير حجم العامل الواحد من عوامل الوراثة . فهو نحو ١ × ١ – ١٨ من السنتمتر المكعَّب وكل عامل يحتوي على ١٨ جزيئاً من البروتين، وكل جزيء يحتوي على نحو ٨ آلاف ذرَّة . وعلى ذلك فسر الوراثة ، اصبح شيئاً يكاد يكون ملموساً ، بعد ما تمكن العلماء من تعيين عدد العوامل التي تحدثها ، ومكانها وحجمها

هذا في الناحية الواحدة . ولكن النتيجة في الناحية الأخرى اهم مما تقدَّم . ذلك ان هذا الاكتشاف اثبت ان قوَّة قد كشفت تستطيع ان تؤثر في الاجسام الحية فتحدث فيها تغايرات تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل

الحذر من التهور

ولكن يجب ان نتخذ الحذر رائدنا في الوصول الى النتائج المبنية على هذا الاكتشاف الخطير . فنسأل: هل اطلاق الاشعة يتلف العوامل الوراثية او يضعفها فقط ؟ لانهُ اذا كان هذا

هو الأثر الوحيد فيها ، فالنسل الذي اتلفت بعض عوامله او اضعفت لابد ان ينشأ مريضاً ضعيفاً . واذاً فالاشعاع لا يمكن ان يكون سبب التطور . لان التحولات الفجائية التي يقوم عليها التطوُّر ، انما هي تحولات تمنح النسل صفات جديدة تمكنه من التفوق على غيره في ناحية او اكثر من النواحي . فالتحوُّلات التي يقوم عليها التطور يجب ان تضيف شيئاً الى صفات النسل لا ان تكتفي بسلبه اشياء

ففي ذبان الدروسوفيلا نحو ١٤٠٠٠ عامل من عوامل الوراثة يجب ان تعمل عملاً منسجماً متسقاً لكي تتمكن الذبابة من الحياة حياة سوية . واقل تحوُّل في هذا الاتزان الدقيق يفضي الى الموت . وقد ثبت انهُ اذا اخذنا مائة من التحولات الفجائية في الذبان المعرض للاشعة السينية ، وجدنا ٨٧ تحولاً منها مما يميت . و١٣ تحولاً فقط تمكن النسل ونسله من بعده ، من الحياة حياة سويّة . فهل في هذه التحولات الثلاثة عشر ، ايُّ صفات جديدة تمنح هذا النسل تفوقاً على سلفهِ ؟

من المتعذر الجواب عن هذا الآن

فلنعد قليلاً الى نبات الطماطم من مستنبت الاستاذ لندسترم . فالبحث فيها يرينا ان كل الصفات الجديدة في الانواع الجديدة هي صفات تأخر لا صفات تقدم . فستٌ من النباتات الجديدة نشأت خالية من الكلوروفل (المادة الخضراء) فهي لا تستطيع ان تعيش في الطبيعة . واثنتان ضعيفتان مريضتان ، وليس فيها اي صفات اخرى لتعوضها من هذا الضعف وتاسعة عقيمٌ . وما يصدق على الطماطم يصدق على نبات الشعير ، والتبغ ، وغيرها من النبات والحيوان الذي جربت فيه هذه التجربة . ولكن الحال في ذبان الدروسوفيلا ، يختلف قليلاً عما تقدم . لانه اذا تحولت ذبابة شكل جناحها كالرقم ٨ الى ذبابة شكل جناحها كالرقم ٤ — بعد تعريضها للاشعة — وكان هذا التحول تأخراً ، فالذبابة التي شكل جناحها كالرقم ٤ اذ تتحول الى ذبابة شكل جناحها كالرقم ٨ يكون هذا التحول فيها تقدّماً . وهذا واقع فعلاً . واذن فالراجح ان بعض التحولات التي يحدثها التعرض للاشعة السينية ، يمنح النسل الذي تحدث فيه صفات جديدة من قبيل الصفات التي يقوم بها التطور الى الامام

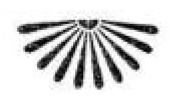
الاشعاع والتغاير الطبيعي

فاذا كان الاشعاع في معمل البحث يحدث تحولات فجائية في الاحياء ، ألا نستطيع ان نبحث عن سرّ التغاير الطبيعي ، في هذه الناحية من نواحي القوى الطبيعية ؟ فالاشعة التي تصيب الارض مختلفة ، وبعضها قوي النفوذ كالاشعة الكونية . افلا نجد في هذه الاشعة الجواب عن السؤال الذي وجّههُ داروِن الى نفسه وتركه من دون جواب ؟ ألا يمكن ان تصيب

الاشعة الكونية وغيرها من الاشعة التي تقع على الاحياء ، عوامل الوراثة فيها فتحدث التغايرات المنوّعة ، ثم تفعل قوى الانتخاب الطبيعي بهذه التغايرات فتنشأ الانواع الجديدة؟

ولكي نستطيع الاجابة عن هذه الاسئلة يجب ان نعرف مقدار الاشعة السينية اللازمة لاحداث عدد معيّن من التحوُّلات في الدروسوفيلا، وقوتهُ وعلى هذا القياس ، يجب ان تكون الاشعة التي تقع على الارض اقوى الف مرة منها الآن ، لتحدث في الاحياء تحولات فجائية من رتبة ما يحدث في الذبان المعرّض للاشعة السينية . ولذلك لا نستطيع ان نسند التغاير الطبيعي الى سبب واحد هو الاشعاع . بل نقول ان الاشعاع احد اسباب التغاير. وقد اثبتت التجارب الحديثة في ايطاليا ان الاشعة الكونية لها اثر فعّال لاجدال فيهِ .وانما يجب ان نبحث عن اسباب اخرى . ثم لا ريب في ان المادة الحية نفسها — البروتوبلازم — مادة مشعة ، لانها تحتوي على البوتاسيوم وهو عنصر مشع الى حدّ ما . والمباحث دائرة الآن لمعرفة هل الاحياء الناجحة في ميدان التطوّر تميل الى خزن هذا العنصر المشع اكثر من غيرها

يرى القارئ ان خطر مباحث ملر ولندستروم من الوجهة النظرية هو انهما كشفا سبب التغيّر ، فاضاءا ناحية من اقتم النواحي في مباحث النشوء والتطور . ولكن ذلك لا يغضُّ لا من قيمة النتائج العملية . لانها تمكن الفلاح والبستاني من استعمال هذه الطريقة لاحداث بعض التحوُّلات المرغوب فيها في عمل الانتخاب الصناعي ، في الحيوان والنبات، بعد مايتقدم البحث العلمي والعملي في هذه الناحية تقدماً كافياً





مصر في الادب الالماني

« الموت الذهبي »

٦

وبدأوا بسرعة يستغلون المنجم . وجعلوا يحتفرون وينبشون ويجرفون بين صبيب العرق المتساقط في اماكن ضيقة ووسط هواء خانق — وما كان في استطاعة العبيد تحت ضربات سياط رؤسائهم ومراقبيهم منذ قديم الزمان ان يأتوا من العمل بمثل ما أتى به هؤلاء القوم . بل لقد كانت اعظم الاعمال تعباً ومشقة أبعثها في نفوسهم على اللذة والمسرة

وفتحوا العرق الوافر المتلىء ثم حفروا مهداً للذهب وتركوه يتدفق . ثم رفعوا ربهم المتلألىء من معبده العميق الى نور شمس الصحراء الافريقية بين التهليل ، والتكبير .. وكانوا كلما استراحوا تكلموا حول موضوع واحد ليس الاً . موضوع لهُ عندهم الشأن كل الشأن . ذلك هو الذهب وكانوا كأنما رؤسهم لا يشغلها موضوع آخر غيره ... وأحاط بعضهم نوع من الكابوس كأنهُ روح شريرة او شيطان من الشياطين . فكلما راح الباحثون عن الذهب في اعماق نومهم منهوكي القوى يهدمهم التعب والعمل المضني ، زحف هذا الكابوس عليهم كأنهُ وحش من وحوش الليل . واخذ يتقلب ويتدحرج فوق قلوبهم . ويحتضنهم بأذرعة كالمشابك . ويخنقهم ويضيق عليهم الانفاس . . ألا انهم كانوا رغم ذلك يصيحون صياح من يصارع الموت هاتفين باسم « الذهب — الذهب — الذهب » .. وأحسوا رغم هذه الاحلام المزعجة بالسعادة والسرور لهذا الغنى المفاجىء ولو انهُ القي بهِ في سعير متقد لما ترددوا لحظة عن الترامي عليهِ والقاء انفسهم بعده في هذا اللهب الذهبي ليجدوا بجواره اسعد الميتات وانعمها

ألا ان هنالك شيئاً لم يستطيعوا بعد ادراك كنههِ او فهم حقيقتهِ . ولم يتوصلوا رغم لهفتهم وبحثهم الى كشف سره . ذلك هو كيف غربت شمس كاشفي المنجم الاولين ، الذين راح خبرهم طي النسيان والفناء . ولم يحاول انسان بعد ذلك البحث عنهم او استقراء اخبارهم . وظهر العرق الذهبي وكأنما هو يتشعب في صميم الصخور ويتفرع مما يدل على عدم امكان افنائه والاتيان على آخره .. ولكنهُ ترك بالرغم من كل ذلك واهمل ونسي

وجعل القائد يكابر نفسه ويخطئها بشكل غريب . ذلك الذي كانت لهُ القيادة عليهم فيما قبل . فلم يصبح لهُ اليوم امر او طاعة . اذ تعصبوا ضده وعصوه كلما طلب منهم طلباً او رغب اليهم في حاجة . مما جعله يحس فجأة بسخافة اكتشافهِ العظيم

وعلى قدر ما ساءت حالة الرجل ، حسنت حال رفاقهِ

وفي اليوم الثالث من أيام وصولهم الى المكان شعروا بشدة الحاجة اليهِ وضرورة الصعود عنده وتقديم رجاء ورغبة . غير ان معظمهم لم يشأ هذا الرجاء في البدء حتى الغلام جيوردانو نفسه . . الاَّ ان الآخرين تمكنوا من اقناع اخوانهم . فتم الاتفاق في النهاية على ارسال الفتى الصقلي كرسول من قبل الجميع . .

— ووجد هذا صديقهُ ملقى بطوله فوق الرمال . ذلك الرجل القوي العزيمة . الجبار الارادة يبدو وقد اخذ فجأة بفعل سحر عجيب . فرقد فاقد القوة تحت نيران الشمس كانما فقد رشده .. وتقدم الغلام اليهِ ثم قال لهُ بلغة قومهِ ووطنهِ (تلك اللغة التي يجعلها تلين في فمهِ كلما شاء وترق رقة الموسيقى الجميلة الجذابة) «انك لرجل غريب.. ها انت ذا ترقد هنا وتضطجع كأنما بك مرض من الامراض. مع انهُ لم يلمَّ بك اقل ضير.. . الاَّ انهُ ليلزمك الاحتفاء والبشر بدل الاكتئاب والانقباض .. لقد وفقت باكتشاف عظيم . وأديت مهمتك التي القيتها انت نفسك على كاهلك أجمل اداء . فلسوف تصبح رجلاً تغمره الشهرة العالمية . وتصبح فوق ذلك من ذوي الملايين .. كن مستريحاً . فانا اعلم علم اليقين ان ذلك كله ما كان من اجلك . بل من اجلي . . غير انك تدعني هكذا تحت الارض احفر وانبش وحدي كأنني ما زلت في مناجم الكبريت التي انقذتني انت منها ونجيتني . . ها انت تسمعني انا الذي لا انسى يدك على الاطلاق » . .

— لكنتُ افضل الف مرة . لو انك ما زلت تكد في مناجم كبريتك وتشتغل . فلا أخلصك منها ولا انجيك . ولا يبقى لك اليوم شيء مما تحاول الآن تنساه

— شكراً لامانيك الاخوية . ان حالي كما هو . وأنهُ بالحق لأحب اليَّ . . ثم ضحك ضحكتهُ الواضحة الصبيانية . وأعقب قائلاً

— تتركني وحيداً كأنما اشتغل واكد واشقى لترقد انت هنا وتحلم احلامك الخيالية غير مهتم بشيءٍ على الاطلاق — لا أهتم بعد لشأن من شؤونك ؟

— أنك ما زلت تحبُّ لي الخير كما كنت على الدوام . ولست في حاجة الى بيان ذلك لي منك ؟

— أفقلت لك ذلك ؟؟ — كتأنيب واتهام

— كلاَّ ما كنت أود ذلك قط — والآن حسناً .. ألا كن طيب القلب وانهض وتعال معي نذهب. ولنكن احباء — الى اين ؟؟ — الى اسفل — نفسي تعاف ذلك

— تعاف الذهب ؟؟ . . — تعاف كل شيءٍ — حسناً . انك خيالي

— ولو اني ما زلت ارجوك ان تتبعني — ماذا يود هؤلاء القوم مني ؟؟

— لقد اكتشفوا منذ برهة كتابة من الكتابات الحفرية — في المنجم ؟؟

— على جوانب احد الجدران . انني اعرف انك ستذهب معي حالما تسمع ذلك. لا ابتغاء

مرضاة حبك لي ولا اكراماً لهؤلاء القوم . بل ابتغاء مرضاة حبك لماءك . . أنني اعرفك . ومن ذا غيري يعرفك او يستطيع معرفتك . ؟ . . ألا تعالى . . تعالى معي . .

***

ماذا اصاب الرجل ؟ لقد تمكن في ضوء المنجم الارضي المضطرب من قراءة الكتابة المحفورة على الجدار ... واستطاع بكل جهد حل ألغازها التي دهشها وتركته عديم الكلام . . لقد تمكن كذلك من قراءة كل حرف ورمز في الصحراء من الكتابات الهيروغليفية التي ترشد الى الطريق . الاّ انهُ وقف امام هذه الاحرف جاحظ العينين لا يعلو وجهه بريق النصر بل الخوف المرعب القتال . . ولم يتمكن كل من رآه في موقفهِ الحرج من طلب القراءة والكلام وانعكس شيءٌ من الخوف والهلع الذي ملأ نظرات جاستون لاتور على القوم الذين احاطوه ومع انهُ لم يلاحظ الباقون شيئاً من ذلك الاّ انهم احسوا بمواجهة مكروه خفي . ثم سمعوا بعد ذلك . . اذ كانت الكتابة لعنة تتلخص في الآتي : —

على كل من يصل الى مكاننا الملعون هذا ان يسرع في الهرب . وكل من يلبث بعد قراءة هذه الاحرف عُدَّ فاقداً . . ان ماء هذا المكان مسموم . فكل من شربه شرب الموت الزؤام . لقد كنا نود نحن عدم التزحزح فشربنا ومتنا . . انصتوا الينا ايها القانون . لا تشربوا . . أنجوا بأنفسكم . . أهربوا

٧

جمع جاستون لاتور القوم في المضرب . وشرح لهم مرة اخرى ما تضمنتهُ تلك الكلمات الماثلة امامهم . وطلب منهم سرعة الرحيل والهرب

أيجب عليهم ترك مناجم ذهب الصحراء فجأة ؟ أيجب ان ينصرفوا عنها وهم يرغبون في استغلالها الى اقصى مدى الاستغلال ؟ أيتحتم عليهم ان ينصرفوا عن جمع الذهب بقدر ما تحمله [illegible] حتى في ذلك اليوم اذا أمكن ؟ وقد وصل بهم ذلك الى حد الهياج . فصرخوا في وجه الرجل الذي يطلب منهم المستحيل . . ونادى أحدهم فجأة . لا تصدقوه ! انه يكذب . يريدنا ان نرحل ليعود وحده فيما بعد . انه يكذب . . وصاح الجميع مرة واحدة . . . انه يكذب . . .

وكذلك سرى الاعتقاد بأنه « يريد العودة فيما بعد مع مخلوقات مستأجرة ليأخذ الذهب لنفسه » . كان الرجل كاذباً . ذلك الذي ائتمنوه وصدقوه . خادعاً أفاكاً . .

وصبَّ الجميع متفرقين . ثم تزاحموا على المنجم ملقين بأنفسهم فيه . هنالك حيث الجدار الحامل للرمز المعقد المقصود بهِ تقرير شيء مرعب مخيف . . ونظر الكل الى هذه الاحرف الهيروغليفية ضائعي الفكر فاقدي الصواب . ثم صرخوا . وهاجوا . وزمجروا . وهدروا . .

وامتلك بعضهم الوسواس فجأة . واستسلموا لليأس والقنوط فهزهم الآخرون . وتقدم الفتى الصقلي للخائفين منهم وخاطبهم .. ودفعهُ انفعاله الوحشي ان يتكلم كالمحموم عن صديقه وصاحب الفضل عليهم فيما بعد . . ولم يقل عنه انه كاذب او منافق . بل طلب من القوم اقناع قائدهم بالبقاء . وذلك لانه الكتابة هي الكاذبة » . .

وأفادت هذه الكلمات في اعادة الهدوء فكانت الحل المنتظر . . « هذا كذب الأموات أنفسهم » وتقدم جاستون لانور في الليل الى مضرب الغلام الذي أصبح منه كيوذا من عيسى عليه السلام.وألقى نجم سماء الجنوب ضوءه الباهت من بين ثنايا جدار الخباء المفتوح على وجه النائم . الذي لا يمكن لطفل ان يهنأ بمثل هدوء نومته وسعادته . . ولكنه كان بقدر هذه السكينة يحس الرعب والفزع لاقتراب اي انسان منه . . فنهض مذعوراً من نومه بعد ان أفلتت آهة عالية من بين أسنانه . وفتح عينيه ثم صرخ قائلاً . . .

— ماذا تريد مني ؟ — أنني لم اوقظك ! — أنك تود اتهامي بالجحود والنكران

— أنني ما طالبت احداً بشكر في يوم من الأيام بعد . . ما طالبت احداً حتى ولا أنت على الاقل . فمن أحبّ شخصاً كانت عقيدته الثقة به . لا الشكر والحمد . فهو سعيد لأمكانه حبه . — انني أعلم انك شريف وطيب . وأوقن انني رديء ومؤذٍ . . ان هي الاّ طبيعتي التي لم يمكنك أنت تغييرها . حتى ولا بكل حبك وتفانيك . .

— ولا بكل حبي ؟ انه ليجب عليّ الآن بكل هذا الحب ان أدافع عنك وأحميك من نفسك . . — أتلزمني بالرحيل من هنا . ؟ . — هذا ما يجب عليك . !!

— وهل يبقى الآخرون . . ؟ — انه لا يمكنني انقاذهم — وأنت . ! .

— سأبقى بجوارهم . وسنعود بصحبة أحد البدو

— انت تبقى . لتفنى مع هؤلاء القوم ؟ وما ذلك الاّ لاعتقادك كذب هذه الاسطر ؟

— أنها الحقيقة المقدسة — ولكنني لا أريد الذهاب

— أتود البقاء نزولاً على رغبة الذهب ؟؟ . — أي نعم . أي نعم . .

ثم قفز واقفاً وصرخ قائلاً . «ألا ان ذلك كله لمنتهى الجنون . وقد أصبحنا جميعاً جد مخبولين . وأنت اشدّنا خبلاً . . . لقد مضى علينا اليوم ثلاثة أيام ونحن نشرب من الماء الذي لا بدّ انه قد سمم بمادة ما من المواد المهلكة منذ آلاف السنين . كما هو مدون هناك . . وربما كان ذلك منذ قديم الزمان . . غير اننا شربنا اليوم من السم ولم يبدُ لهُ اثر . بل ظللنا اصحاء . ألا يدل ذلك على عدم وجود سم بعد فيه ؟ دعنا نبحث عن ماء غيره . اذ لا بدّ من وجود غيره هناك . انك رجل عالم . وانهُ ليلزمك العلم بذلك . ان معنا طبيباً نوبيًّا كذلك . انهُ يعرف هذه البلاد . يعرفها احسن منك كذلك . وقد صرح

ان ذلك محض كذب واختلاق . قال انهُ لمن الغباء والحمق ان نرحل من هنا ونهرب . انني ارجوك بحق حبك لي ان تساعدنا جميعاً . وان لا تستسلم كل الاستسلام الى افكارك أمصرٌ على البقاء ؟ — وهل تود ان احرم من نوال الذهب لتأخذني معك ؟ انني اعرفك — ليس من اجل هذا الذهب الملعون .... انك لتعرفني حقاً — انني سأبقى !

٨

وكان الماء الذي يجب ان يجلب الموت سائلاً ذا لون بني كالطين ككل مياه آبار الصحراء مع انهُ كان ينبع من طبقات كثيفة من الصخور والرمال والحصى وعروق الاحجار المختلفة الانواع التي لم تكتشف بعد في هذه الانحاء . كان هذا الماء رغم التعكير او الثفل المعلق فيهِ افضل نعمة للانسان والحيوان من نعم الصحراء . فهو يهب الحياة ويحميها . اما الموت فكان حيث لا وجود له . واصبح الطبيب العربي كأكبر منقذ في هذه الساحة . فتناول الماء وفحصه. وكان الرجل قد سبق له استصحاب بعض قوافل في الصحراء . فما استطاع احد ان يقول بعد تحليل ماء الآبار انهُ مسمم قط . وكذلك اعتقد الطبيب نفسه صحة هذه «الاكذوبة» التي تحملها الكتابة المقدسة . والتي انتشرت بين القوم منذ زمن قليل

وامكن لهذا الرجل الشافي من جميع حميات الذهب ان يشفي هذه العلة التي كانت لها خطر الحميات الاخرى كذلك . واصبح القوم حذرين — رغم تصريحات الطبيب — فتركوا الجمال تشرب اليسير الواجب وحصروا الاثم في اقل مقدار . كما انهُ امكن لجاستون لانور حض البدو على الحفر للبحث عن ماء آخر . وكان البدو فقط . وهم دون غيرهم ليس الا ، لان الغلام جيوردانو قد هدد واستعطف . وأمر ورجا

وجعل رجال الصحراء من قبيلة بجا يحفرون هنا وهناك . يحفرون حتى آخر عمق مستطاع الا انهم لم يجدوا ماء قط . فتوقفوا عن البحث . ولم يشتك الباحثون عن الذهب بعد من اي داء . واخذا يتبادلون لعنة هذا الخوف الذي انتابهم . ثم اتفقوا على تحريم الخوض في الحديث عن هذا السم الوهمي . واجهدوا انفسهم في نسيان هذه القصة المرعبة حتى امكنهم بالفعل نسيانها . ونما البغض في انفسهم نحو ذلك الرجل الذي ايقظهم بكل غلظة وقسوة من حلمهم الذهبي . ثم ازالوا تلك النقوش الكاذبة الخادعة بالمنقاش وأفنوا معالمها . وتمَّ لهم ذلك بكل اغتياظ وحنق . كأنما هم ينتقمون من عدو دموي ويزهقون روحه الملعونة

ولكنهم ما زالوا حتى اليوم اصحاء اقوياء . رغم استشعار هذا او ذاك تعباً مفاجئاً في الجسم مع الم في الرأس وثقل في الاعضاء والاطراف . فلقد كان ذلك بالحق نتيجة ما يقومون بهِ من جهد وتعب فوق طاقة البشر في مثل هذه الاقاليم الحارة والاماكن الضيقة والاجواء الخانقة . تتنازعهم الانفعالات النفسية في هذا الزمن الاخير . في لهيب شمس الصحراء

لقدكانت بالطبع هي الشمس «الذهبية» . ولكنها كانت في لهيبها الابدي واشعتها الكاوية للجسد والروح «الموت الذهبي» كذلك

«الموت الذهبي» ... كلمة لها رنة الغرابة والعجب

***

وعلم الجميع انهم مصابون بحمى الذهب — وكان ذلك شرًّا متوقع الحدوث . كما كانوا يعلمون دواءه الناجع كذلك

الذهب — الذهب — الذهب

كانوا مصابين بهذا المرض . كما كان في استطاعتهم مداواته بدوائه الذي يمتلكونه بوفرة وكانت وفرته جديرة بأن تشفي المرضى . وان تحيي حتى الاموات كذلك

وكذلك حفروا . ونبشوا . ونسفوا . ونقلوا الكنز المكتسب الى ضوء الشمس . ثم استراحوا فوقه واستصحبوه معهم عند نومهم محتضنينه بحرارة وحمية ورغبة لا يفعلونها حتى مع احب النساء واقربهنَّ الى الروح

ونال كلٌّ نصيبه . فاذا ما كان لاحدهم نصيب اقل من نصيب غيره — حسد هذا الشخص زميلاً له نال نصيباً اوفر من نصيبهِ . واذا ما كانا من قبل صديقين اصبحا عدوين بعد ذلك

لقد كانت هنالك الوهية مخيفة تلك التي يتقربون اليها جهدهم بالروح والقلب حتى اصبحوا يعتقدون ان كل آله لا بد مرعب جبار . وان الحديث القائل بوجود آله عادل رحيم ما هو الاَّ محض خرافة لا ظل للحقيقة فيها

وعثر احدهم فجأة على اكتشاف مخيف . فلقد تمكن هذا الشخص من الوصول الى عمق ابعد من عمق زملائهِ في صميم الجبل الصخري . ثم اصطدم بعدئذ بحجرة حجرية . وجد بين جدرانها مقداراً كبيراً من آلات العمل قديمة العهد جدًّا . وهنالك بجوارها كانت اكوام عظيمة من الذهب المستخلص متراكمة مهملة . كما كانت بجوارها اكوام من الرمم والعظام البشرية ميتة بشكل موميات قديمة تأثرت بعامل جفاف جوّ الصحراء . وكانت تلك الهياكل البشرية ما تزال بملابسها الكتانية وقد تغطت بالذهب كأنما تود التصريح برغبتها في ملاقاة اشد انواع عذاب الموت دون فقدها اياه — وقد تحدَّث الرجل (الذي استطاع الوصول الى الغار المبني منذ آلاف السنين) الى احد البدو فوعده بجانب من هذه الثروة لو انهُ اعانه على الهرب بها

وكذلك انتزع الرجلان تلك الجثث من بين اكداس الذهب وأبعداها عنهُ . ثم القيا بنفسيهما عليهِ وغاصا فيهِ وتمنيا لو انهما استطاعا التقلب والتمرغ والتدحرج فوقهُ . كما يفعل كل انسان يدخل مع الموت حلبة القتال

٩

ضاع الذهب . لقد سرقهُ لص سافل عليهِ لعنة الله والملائكة

سرقهُ البدو . حملوه فوق احسن الجمال التي مازالت محتفظة بقوتها بعد . ثم اختفوا بالذهب سراً في الليل . حتى الرجال الذين كانوا ينامون فوق ذهبهم . استلبوهم اياه وهم يرددون انفاس الحياة . هؤلاء السود الشياطين المناكيد . . أنهم ولا بدَّ دسوا في طعام البيض [الذين يعتبرونهم كفرة ونصارى] أحد ادويتهم السحرية وعقاقيرهم السرية بالليل . اذ انه لا يعقل ارتكاب مثل هذه السرقة الغريبة الاَّ تحت تأثير وطأة المخدّر . الذي يستلب النظر والسمع والاحساس والشعور — غير أنهم لم يمسوا ذهب فرد واحد فقط . ألا وهو الفتى المحبوب لدى القافلة بأجمعها . وبذلك تمكن جيوردانو بلاتينو من الاحتفاظ بذهبهِ . .

أما الكنوز الخفية التي كانت معبأة بخالص الذهب وجثث الاموات في مقبرة الصحراء . فقد فقدت كذلك — سرقت هي الاخرى عن آخرها . .

وحالما اكتشف البعض تلك السرقة أعول وبكى كما يعول الحيوان الوحشي اصابه النار . فاقد الرشد بتأثير الغضب . وأسرع يود تعقب اللصوص السفلة في الصحراء . .

غير انه عاد ثانياً من جديد . . إذ أن الجمال قد فقدت كذلك . ينقصها اكثر من عشرة ولم يسرق منها الاَّ اشدها واقواها . ولم يبق غير تلك التي أصابها الهزال لقلة الماء وتفاهة الطعام . . . — وظهر المرض فجأة على البعض منها

وأعرب جاستون لانور للقوم عن ضرورة عدم اليأس والاستسلام للمقدور . وأعلن رغبته في سرعة اقتلاع المضرب ومحاولة الرجوع بتلك الجمال المريضة والنجاة بها . .

وأمثل الآن منهم الاصغاء الى نصحه . واتباع قوله وطاعته

ولكن أبَعْـد ان يسرق ذهبهم ؟ — حظهم وسعادتهم ؟ — بل حياتهم كلها يمكنهم اتباع قوله . . كلاَّ . . وحتى الآن فانهم لا يطيعونه ! . أنهم يودون الاحتفار من جديد . حتى يمكنهم استرداد كنزهم المسروق . بعد ان فاز به لصوص الصحراء

وأخذوا يهددون الرجل [الذي يجرؤ على مطالبتهم بترك المكان] بالموت اذا ما حاول حتى ولو مرة واحدة اخرى طلب الطاعة منهم . — ولكن ماذا تهمه هو حياته ؟ الا أنهم لا يودون قتله كما يقتلون الكلب الكلب . بل يودون قتل الغلام الصغير الذي يحبه الرجل اكثر من نفسه ذاتها . . — وهذا الغلام ما يزال يحتفظ بعد بكل ذهبه حيث يمكنه الذهاب بهِ . والهرب بكل ما يملك . بقيادة قائدهم الأسبق . . .

والآن فعليه حماية نفسه . حيث لم تصبح الجمال الباقية ملكاً لصديقه . بل ملكاً حلالاً لمن وقعت عليهم السرقة وأصابهم شرها . . .

وكذلك أصبح هؤلاء يحمون الجمال ويحرسونها بكل عناية . وأصبح جاستون لانور كما أصبح الغلام الصقلي أسيرين ذليلين لديهم . . ومن لم يكن دور الحراسة عليه .. وجب ان يذهب ليحتفر في المنجم . .

وجعلوا يشتغلون حتى اثناء الليل كما يشتغل الارقاء والعبيد. ويتبادلون الحراسة . حتى يتمكن كل منهم من الحفر والبحث . .

وما كانوا مرضى . وما كان الماء سبباً لعللهم . . ولكن ماذا كان بهم حتى أحسوا الضعف بأنفسهم . وكان هذا الضعف يزداد ساعة فساعة . بعث فيهم الارتعاد والارتعاش مع أنهم أحوج مايكونون الى قوتهم .ومع ذلك فكانوا يحسون في أطرافهم بثقل الرصاص .ويحسون بآلام الوخز الموجعة المحنقة في رؤوسهم وجماجمهم وبلهيب الحرارة الآكلة في أمعائهم . وكانوا يتساءلون عن سبب إستصحابهم للطبيب . ذلك الذي أجيز له الحفر معهم والبحث عن الذهب مثلهم وألزم ان يكون في هذه الساعة فقط . طبيبهم المداوي . وألزم ان يعالجهم ويداويهم وينقذهم . واعطاهم الاعرابي من مواده وعقاقيره ما امكنهُ اعطاءه لهم . ولكن ذلك لم يسعفهم او يداوهم . .

ربما (وقد اصبح ذلك فجأة ظناً لدى الجميع) . ربما وضع لهم الرجل السم في دوائهِ ليقتلهم ثم يأخذ ذهبهم كلهُ . ذلك الذهب الذي استخلصوهُ ببقايا قواهم الاخيرة .. وهكذا ظنوا السوء بالرجل . واتهموهُ وشكوا فيهِ ... لقد كان اعرابياً وكفى ما نالهم من الاعراب الذين كانوا لديهم شياطين الانس رجال الشعب الخائن ... وازداد بهم المرض يوماً بعد يوم .. قد يرجع ذلك الى تناولهم مقدار وافر من الدواء القاتل الذي يقدمهُ لهم اللعين . . وبذلك اصبحوا مسمومين . وسيمسون أمواتاً بعد ذلك . أمواتاً ! . وقادتهم قرائحهم المريضة الى شرور عدة حتى تمكن أحدهم من اطلاق النار على الطبيب فقتله . . ودفنوا جثتهُ بعد ذلك كيفما اتفق ثم اقتسموا فيما بينهم ذهب المقتول الذي جمعهُ من قبل .. وان كان قليلاً نوعاً ما .. وتمنوا لو انهُ كان في استطاعتهم الاستيلاء على ذهب الصقلي . الذي كان محبوبهم يوماً من الايام . الاَّ انهُ كان مخفوراً منهم . محروساً احسن حراسة . بالرغم من احتفاظهم بهِ وبصديقه حتى لا يستطيعا الهرب منهم مستصحبين الذهب معهم ليكونا بهِ اغنى الجميع . .

١٠

ماذا تريده هذه الطيور المرعبة ? التي لم يرها الانسان من قبل . بل كانت الصحراء عديمة الحياة بقدر ما يستطيعهُ الموت نفسه . . اما الآن . ففجأة — فجأة ظهر اسراب النسور . — وحامت الطيور الكبيرة الضخمة حول المضرب .. ودارت عدة دورات حول المكان. وبسطت اجنحتها العريضة القوية البنية. تلك التي تلمع في ضوء الشمس لمعان « الذهب »

وتعود هذه الكلمة مرة ثانية . . . وتعود دائماً ابداً من جديد في كل مناسبة وحين . . . حقا لقد كانت هنالك النسور . .

وأحاطت بهم في الجو . . وجثمت فوق اعالي الصخور . واقتربت منهم كل الاقتراب . لانهش ولا تفزع ولا تطير . .

واراد الرجال افزاع تلك الطيور السمجة الوقحة . فصرخوا فيها . ورموها بالحجارة . واطلقوا عليها الرصاص دون ان يمكنهم اصابة الهدف بأذرعهم الكليلة التعبة . فلم تفزع الطيور البتة . بل احاطت بهم وقبعت أمامهم . كأنها تخفرهم وتنتظرهم . . ولكن لماذا ؟ ؟ واخيراً استطاعوا علم ذلك . . كانت النسور من اكلة الرم . ولقد دفنوا احد الموتى منذ قليل فهل تود التهامه ! ثم ترحل بعد ذلك ؟ ؟

الا انها احاطت بهم ووقفت امامهم تخفرهم وتنتظرهم . .

وكان يزعجهم بعض الاحيان صوت صراخ مفاجيء . . صراخ مفزع عال . يتجاوب صداه في سكون مقبرة الصحراء الهادئة . . ثم تتردد صدى صرخات تلك النسور كضحك سخرية احد الجن في بهجته

***

المرض والموت . . مرض الانسان وموته . . ومرض الحيوان وموته . وقد كان صراع موت الحيوان أشد ألماً مما يقاسيه الانسان . .

وكفاها جاستون لاتور شر ذلك فأطلق عليها النار . ولو أنه ارغم على توفير طلقاته الرحيمة . فأبقى اثنين منها . . .

وتوقفوا عن متابعة الحفر . وألقوا بأنفسهم فوق الرمال الحمر وتحت اشعة الشمس الذهبية يسرّهم تمريض الفرنسي لهم بقدر امكانه

وكانوا ضعافاً حتى عن البغض . مساكين بؤساء . لايمكنهم الشعور بالحب حتى ولا لالهـهم الذهبي . لو ان في استطاعتهم البقاء احياء . . لانهم يودون الآن الحياة — الحياة — والحياة فقط

وافضى الغلام جيوردانو اليهم بهذه الكلمات . كأنما كانت الحياة لا تزال امامهُ فسيحة ولو ان تحقيق كلماته هذه لا بدَّ لها من المعجزات . فقد كان غلاماً غريراً مرحاً جداً يحب الحياة حباً حاراً . . وكان من المستحيل وجوب موته في ريعانه هذا . . كان يانعاً ، من الخسارة موته . . وشعر هو نفسه بذلك . ورآه رأي العين . . وقتل بعضهم نفسه . . ملقياً بها من فوق الصخور او قاطعاً اوردتهُ بأسنانه وفقد البعض الآخر وعيه وادراكه . فصدم بجبهتهِ الجدران البيض من جبال الصوان في خبل وجنون . . وتخيل غيرهم نفسه فوق جبال الالب ايام الشتاء وفصل

الازلاق تجرى في الصحراء وألقى بنفسه فوق صدر هذه القائلة الملتهب . .
ولم تصبح النسور في حاجة بعد ذلك لئن تحيط بهم . وتقبع أمامهم . ولا لئن تخفرهم وتنتظرهم

١١

ولم تحدث معجزة لاحد الاثنين الباقيين . . ولم تمر قافلة منقذة بمضرب الموت . وكذلك لم يساعدهما أي آله . .

ومدّد جاستون لانور غلامه على فراش الموت . وكلمه كما يتكلم القسيس . . غير ان الميت لم يشأ الانصات اليه . إذ أنه يريد الحياة . . وقال له صديقه التعزية الاخيرة على الأرض من الحكمة القديمة المقدسة « من أحبته الآلهة . أماتته صغير السن » . ولكن الميت أحسّ نفسه مبغوضاً لدى الآلهة . فلعنها ولعن الرجل الذي تبعه ليحصل معه على ذهب الحياة . . وعند ما تمددت وراخت اليد العديمة القوة بطراوة أشبهُ بما في يد الأم . أصبحت جبهة الميت (الرطبة بتأثير الحمى) ناشفة . فقد صدمها الاغفاء

والآن فلم يبق هنالك أمل . . حيث دافع شباب الغلام عبثاً بقوة خارقة عن الفتى المسكين ضد الموت

وعند ما غرق المحموم في لجة نوم عميقة ــ عبأ جاستون لانور مسدسهُ بكلا الطلقين الباقيين . . وكان في يده الخائرة قوة كافية لتحقيق خدمته الحبية الأخيرة

***

وحطّت النسور سفل فأسفل في هول هذا السكون الفسيح الذي لا يزعجهُ أي صوت آدمي . ووجد النهم منها (الذي لايزال يبحث عن فريسة) قتيلاً واحداً فقط . صريع طلق ناري . . وكان ملقى فوق سطح بللوري من جبل صوان صبغهُ بدمه . . وكان بجانب الميت وتحت أقدام القبة المتلألئة فوق رمال الصحراء الحمراء قبرٌ لا يزال جديد التكوين . تحميه من النسور قبة سوداء لامعة تعلو عن سطح الأرض علو التكريم والاعزاز . ولم تكن من صخر الصحراء وحجارتها . بل كانت من قطع الذهب والسبائك المأخوذة من الكنز الفرعوني

وألقت شمس الصيف الغاربة وراء الافق المتقد برداءها الارجواني على قبر الصحراء الذهبي . وعلى هذا الميت الوحيد المهجور الذي كان ينتزع نسرٌ نهم قلبه من صدره

حسن رشيد نور
مدرس بمدرسة الفنون التطبيقية بالجيزة

باب الزراعة والاقتصاد

نهضة اليابان الصناعية

لفؤاد عيتاني

لقد وجدت اليابان في مركز طبيعي مهم في أقصى الشرق ، يمتاز باشرافه على المحيط الكبير الهادي وبامتلاكه ناصية الجزر القريبة . وكما ان انكلترا في الغرب تقف موقفاً مشيراً للدول الأوربية ، مسيطرة على الطرق التجارية باساطيلها ، كذلك اليابان تقف بالمرصاد ، محاصرة بجزرها الكثيرة شواطىء آسيا الشرقية

ان امة كاليابان،او انكلترا مثلاً ، كثيرة السكان قليلة الاراضي لهي في حاجة قصوى الى مستعمرات تمدها بكل ماتحتاج اليه من ضروب المعادن والحبوب والغلال الزراعية . واننا نرى ان الجد والحركة ، والنشاط والاجتهاد ، من طبيعة أهلها . فلما مسحت عيونهم شمس الحضارة ونفخت فيهم المدنية الحديثة روحاً قوية . وتنقفت اذهانهم بالعلوم والمعارف ، وجدوا ان بقربهم امة قوية (الصين) كثيرة السكان ، تعج بالملايين من الناس ، ولكنها ضعيفة بروابطها الاجتماعية ونظمها الاخلاقية . وكان على اليابان قبل كل شيء ، ان تسرع باقتباس نور مدنية الغرب قبل ان تستأثر به جارتها ، فتطغى عليها وتقضي عليهاقضاء مبرماً . وهذا ما دعا اليابان الى التنبه لأمرها ، فتطلعت ، واذا هناك كوريا Korea تلك البلاد الغنية بخيراتها ومواردها الطبيعية ، وكانت الفوضى ضاربة اطنابها في تلك الربوع — تعيش في عهد اقطاعي مظلم — القوي فيها يأكل الضعيف ، والفقير يموت جوعاً تحت رحمة الغني . فمدّت اليابان يدها . فاذا هي تصل اليها بكل سهولة ؛ وترى نفسها قادرة على ضمها اليها ، كما تفعل دول الغرب . فحاربت الصين من اجلهاسنة ١٨٩٤ ،وبعد عشر سنوات حاربت روسية ايضاً من اجل هذا . وكانت اليابان في سنة ١٩١٠ هي المالكة لمقاليد الامور في جميع شؤون كوريا المملكة الحديثة المنضمة الى امها اليابان !

وكان غرض اليابان الحقيقي من هذا الفتح . بل من هذا الضم — كما يقول (هانيهارا)[١]

---

(١) M. Hanihara, in "These Eventful Years" vol. I. p. 661 هو سفير اليابان في الولايات المتحدة ، ونائب وزير الشؤون الخارجية ، والمندوب الياباني في مؤتمر واشنطن

الياباني الصميم ، وسفير دولته في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة ، مبرراً عمل اليابان في ضم كوريا — « لاصلاح كوريا وبث حيوية قوية وروح جديدة في جسم كوريا السياسي لتجعلها سداً بينها وبين جيرانها المغيرين . فلو كانت كوريا امة قوية نشيطة ، ودولة عاملة قادرة على رد غارات الصين والروس لما حاربت اليابان الصين سنة ١٨٩٤ ولا روسية في عام ١٩٠٤ . وقد الحقت كوريا باليابان في اغسطس (آب) سنة ١٩١٠ بصورة سلمية وليس بالقوة » !

ولما دخلت اليابان كوريا مُدَّت الخطوط الحديدية ، وأنشئت المحاكم ، ورفعت الضرائب الاقطاعية التي كانت تؤخذ بالقوة والارهاب ، وحلت محلها ضرائب مشروعة مقبولة . ثم انشئت الطرق الحديثة المعبدة ، والمؤسسات العامة كاحواض المياه ، وانيرت المدن بالكهربائية ومدت الاسلاك التلفونية في المدن الكبيرة ، ونظمت مصلحة البريد ، وشجعت الصناعة والزراعة بحسب الطرق الفنية الحديثة ، واعتني بتحريج الاراضي والجبال ، وتأسست المصارف وبيوت المال [١]

***

ومما لا شك فيه ان من أهم البواعث لليابان على التوسع والاستعمار هو ازدياد السكان ازدياداً مطرداً . فقد جاء في احدى الصحف الفرنسية الاسبوعية[٢] بعنوان (الولادة) ان عدد المواليد في اليابان سنة ١٩٣٠ بلغ (٢٫٠٨٥٫٠٠٠) . وقد اقفلت اميركا واوستراليا أبوابها في وجوه مهاجري اليابان ، فلم يبق امام هؤلاء الا ان يولّوا وجوههم شطر كوريا ومنشوريا . ولهذا استهدفت اليابان لمحاربة دولتين عظيمتين : الصين وروسية . « وما كادت تنتهي الحرب اليابانية الروسية ، حتى ظهرت اليابان بمظهر دولة كبرى من الدرجة الاولى . طامحة الى السيطرة على شرقي آسيا ، منازعة اميركا سيادة المحيط الهادي ، وهذا ما جعل سياسة اميركا الخارجية اكثر تعقيداً فكان الباعث لها على خوض السياسة العالمية [٣] »

فلما صار لليابان موطىء قدم في منشوريا واستولت على سكك الحديد هناك ، رأيناها تمد نظرها الى ابعد من ذلك ، الى منشوريا ، وظلت تعمل بجد وقوة وعنف حتى وصلت الى ابواب (بكين) العاصمة في ربيع هذه السنة ، ولا تزال مخيمة هناك

ان غاية اليابان من هذا التوسع ، هي الحصول على المواد الاولية والمعادن التي تكثر في منشوريا ، وهذا ما يحدثنا عنه المستر (جورج لسلي شو [٤]) الذي قضى اثنين وعشرين عاماً

---

(١) ها نهارا . مجلد ١ ص (٦٦٢) (٢) (الاحد المصور) Dimanche عدد ٣٠ تموز سنة ١٩٣٣
(٣) هو استاذ التاريخ الاميركي في جامعة جون هوبكنز John H. Latané in "These Eventful Years" vol I. p. 525.
(٤) راجع مقال (مستقبل منشوريا) صحيفة (٧٩٣) عدد (دسمبر ١١٢٨) من مجلة (Fortnightly Review) "The Future of Manchuria" by George Leslie Shaw.

في (انتونغ) Antung بمنشوريا واطلع على حقيقة الحالة هناك . وعلى مطامع اليابان في البلاد ، قال : —

« ان اليابان تسير بسياستها الخارجية مدفوعة بحاجتها الشديدة الى المواد ولنقل بصراحة ان اكثر ما تحتاج اليه اليابان ، ليس هو مخرجاً لما عندها من زيادة في السكان ، فان لليابان في بلادها امكنة واسعة . ولكن الحقيقة هي ان اليابان في حاجة شديدة الى المواد الخام ، وحاجتها اليها شديدة في صناعاتها — انهذه المواد هي علة وجود اليابان ! — فيلزمها الفحم الحجري ، والحديد ، والأقوات الحيوية . واليابان تعرف منشوريا وثروتها ، وتعرف مساحتها وهي اكثر من (٣٣٠٫٠٠٠) ميل مربع ، فالى منشوريا يمكنها ان ترسل ما يزيد عندها من السكان . وهناك المحاصيل الزراعية والاقوات الضرورية لسكان البلاد الذين يتكاثرون تكاثراً يبعث على الدهشة . ومنشوريا الغنية بالمعادن تنتظر من اليابان ان تستثمرها لتستقل (اي اليابان) عن كل ما يردها من الخارج »

عند ما ضمت كوريا الى اليابان، كانت منشوريا قليلة السكان جداً ، وخصوصاً في الشمال والغرب . «ولكن ما كادت تنتهي الحرب الروسية اليابانية حتى رأينا اليابان تسيطر على جنوب منشوريا ، واذا هي سيدة (بورت ارثر) والمالكة لجميع الاراضي والاملاك والامتيازات التي ربحتها روسيا ، سواء أبالفتح كان ذلك أو بالمعاهدات، وبكلمة واحدة ان اليابان على اثر انتهاء هذه الحرب ، ربحت ثمار مساعي روسيا واتعابها في خلال ربع قرن » [1]

***

﴿ النهضة الصناعية ﴾ اذا نظرنا الى اليابان في وقتنا الحاضر رأيناها تسعى سعياً حثيثاً لاغراق الاسواق التجارية ببضائعها المختلفة ومزاحمة تجارة الدول الاوربية مزاحمة شديدة . فاينما ذهب الانسان رأى البضائع اليابانية مالئة الاسواق والمخازن . وقد صنعت اليابان في المدة الاخيرة سيارات رخيصة جداً ترسلها الى جميع الانحاء ، فخافت الدول عاقبة هذه المزاحمة الشديدة ، حتى ان انكلترا منعت مؤخراً دخول هذه السيارات الى فلسطين ، وكذلك فعلت فرنسا في سوريا فمنعت هي ايضاً دخول هذه السيارات الرخيصة . ولكن كيف يسهل على اليابان مزاحمة بضائع جميع الدول الكبرى ؟ . . ان ذلك راجع ولا شك الى رخص اجرة العامل ، وهناك سبب ثانٍ وهو ان البضائع اليابانية ليست جيدة كما يرام ، بل هي رخيصة جداً ، وهذا ما يغري الناس بالاقبال عليها خصوصاً في الوقت الحاضر والازمة على اشدها — بصرف النظر عن الجودة والمتانة

(١) «فورتنيتلي رفيو» ص. (٧٩٤)

وقد تقدمت اليابان تقدماً عظيماً ، وان امة شرقية كاليابان تناهض كبرى الامم الصناعية وتزاحمها مزاحمة شديدة . لمما يحير العقول ويثير الاعجاب . كتبت (مجلة اليابان)[١] الصادرة في (توكيو) في عدد يوليو (تموز) سنة ١٩٢٦ فصلاً تناولت فيه تطور اليابان في الخمس عشرة سنة الاخيرة ، وظهورها كأمة صناعية من الدرجة الاولى ، قالت : —

« ارتفع مقياس المعيشة خلال هذه المدة ، كما هو الحال في بقية البلدان ، وزاد السكان بنسبة عشرين في المائة . وهؤلاء يحتاجون الى مخرج في الاعمال الصناعية ، ولهذا السبب زاد عدد المعامل في اثناء هذه الخمس عشرة سنة من (٣٢٫٠٠٠) الى (٨٧٫٠٠٠) معمل وزادت المنتجات الصناعية اضعافاً حتى بلغت قيمتها (٧٠٠) في المائة ! ! . . وهذا التقدم الباهر في الصناعة يرجع الى ما قبل الحرب اليابانية — الروسية ، وقد وضعت أسسه اذ ذاك ، ولكن ذلك البرنامج لم يتحقق ولم يزدهر الاَّ بتأثير الحرب الكبرى »

ومثال صغير يدلنا على نجاح اليابان وتقدمها في الصناعة ، ذلك ان تجارة اليابان الخارجية (الصادرات والواردات) في سنة ١٩٠٠ بلغت (٥٢٣) مليون (ين ٢٥٠) لكنها بلغت في سنة ١٩٢٠ (٤٫٤١٩) مليون ين* ما عدا تجارة كوريا وفورموزا

﴿ المعامل — العمال — ساعات العمل ﴾ لعلَّ اعظم مظاهر رقي الصناعة اليابانية كثرة انشاء المعامل ، حتى ان اليابان تعد الآن في مقدمة الامم الصناعية . «فقد انشأت خلال الحرب العالمية (٢٥٠) معملاً لسبك الحديد Foundries . وفي اليابان (٦٠٠٠) معمل تشتغل بصنع الآلات والادوات الميكانيكية[٢] »

« وجاء في الاحصاء الرسمي لسنة ١٩٢٥ ان عدد المعامل بلغ (٤٩٫١٦١) يعمل فيها (١٫٨٠٨٫٣٨١) عاملاً (٨٥٢٫٥٥٤) من الذكور و (٩٥٥٫٨٢٧) من النساء . وانه ليدهشنا حقاً ان نعلم ان معامل الحياكة والنسيج وحدها ، استخدمت في تلك السنة (٩٧٢٫٦٣١) عاملاً ، اما معامل الماكينات والآلات المعدنية فقد استخدمت (٢٢٤٫١٧٧) عاملاً [٣]

***

ولما كانت اسواق اليابان التجارية هي غالباً في الشرق الاقصى ، وقريبة من اليابان ، والايدي العاملة كثيرة ، واجرة العامل رخيصة ، ومقدرة العمال الصناعية ومهارتهم خصوصاً في المنسوجات والبضائع القطنية كبيرة ، فان هذا ساعد اليابان كثيراً على ان تزاحم البضائع الاوربية مزاحمة شديدة ، فشلت حركتها التجارية . ولكن اجرة العامل ايضاً زادت شيئاً فشيئاً الى ان

---

(١) مجلة اليابان (توكيو) (Japan Magazine) Tokyo July 1926

(٢) راجع المجلد (٦) ص. (٣٦٣٢) من "The World Book Encyclopaedia" (1931)

(٣) راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة مجلد (١٢) ص (٩٠٩)

تضاعفت في المدة الاخيرة بالقياس لما كانت عليه في ابتداء هذا العصر . ففي سنة ١٨٩٠ كان معدل اجرة العامل البسيط في اليوم ستة بنسات ، وفي سنة ١٩٠٠ أربت على الشلن . وفي سنة ١٩٢١ بلغت شلناً وعشر بنسات الى ان وصلت سنة ١٩٢٦ الى ٢٥ شلناً وثلاث بنسات! واكثر العمال وخصوصاً في معامل المصنوعات القطنية من النساء وهؤلاء يتناولن اجرة اقل كثيراً من اجرة العامل [١]

ان تحديد ساعات العمل في اليابان يعود في الحقيقة الى اتخاذ ما قرره مؤتمر واشنطن سنة ١٩١٩ حيث اجيز للعمال ان لا يشتغلوا اكثر من (٥٧) ساعة في الاسبوع ، او ستين ساعة في صناعة مواد الحرير الخام ، وذلك اذا وافقت اليابان على مقررات المؤتمر المذكور ، ولكنها لم تفعل ذلك. ونظراً لساعات العمل فان أهم القوانين التي سنتها الحكومة هو تشريع ٢٩مارس (آذار) سنة ١٩٢٣ الذي تقح بموجبه (قانون العمل) لسنة ١٩١١، وقد حددت ساعات العمل بالنظر لتشريع ١٩٢٣ ، للنساء والاولاد الذين هم دون السادسة عشرة ، باحدى عشرة ساعة عمل في اليوم . وسمح كذلك بزيادة ساعتين في اليوم ، اذا اقتضت الحاجة

ولما كان العمل (١١) ساعة في اليوم متعباً شاقاً وخصوصاً للنساء فقد امكن التوفيق، في بعض الاحيان ، بين اصحاب المعامل والعمال ،فانزلت ساعات العمل في بعض الصناعات. وذكر في التقرير الشهري لغرفة تجارة (اوزاكا) ان ساعات العمل في سنة ١٩٢٧ تراوحت بين(٨) و(١٢) ساعة في (اوزاكا) او بمعدل (١٠) ساعات في اليوم [٢] وبلغ عدد الاعضاء اليابانيين المنتسبين الى (اتحاد العمل للدولية الحمراء) R. I. L. U. ثمانية آلاف عضو ، وذلك في سنة ١٩٢٨ حيث عقد المؤتمر الرابع لاتحاد العمل للدولية الحمراء . وقد حضره(٤٢١) مندوباً عن (٤٩) دولة مختلفة [٣]

﴿ المصنوعات القطنية والحريرية ﴾ تقدمت صناعة القطن في الاربعين سنة الاخيرة تقدماً عظيماً ،وزاحمت التجارة البريطانية مزاحمة قوية . وقد عهدت (رآسة نقابة غزل القطن) في انكلترا الى المستر (ارنو بيرس [٤]) ان يدرس عن كثب تقدم صناعة غزل القطن وحياكة المنسوجات القطنية في الشرق الاقصى ، فزار هاتيك الاقطار وقدم تقريراً بكتاب عنوانهُ

---

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة مجلد (١٢) ص (٩٠٩)

(٢) راجع مقال المستر Warren B. Catlin استاذ العلوم الاقتصادية وعلم الاجتماع في جامعة (بودن) (دائرة المعارف البريطانية : مجلد (١١) ص. (٨٠٦)

(٣) ارثر غرينود Arthur Greenwood وزير الصحة في انكلترا سنة ١٩٢٩ والمحاضر في علم الاقتصاد في جامعة (ليدز) (دائرة المعارف البريطانية) مجلد (٢٢) ص. (٣٨٩)

(٤) "The Cotton Industry of China and Japan" by Arno S. Pearse

« صناعة القطن في الصين واليابان » . وقد كتبت (مجلة جمعية الاحصاء الملوكية [٤]) فصلاً عن هذا الكتاب جاء فيهِ ما يلي : —

« ان الصناعة في اليابان تقدمت في خلال جيل واحد تقدماً عظيماً وان المقدرة الفائقة التي يبديها العامل الوطني وسيره سيراً حثيثاً ملائماً للتطور في الصناعة، مما يدل على تقدم اكثر في سرعة الانتاج ومزاحمة التجارة الانكليزية

***

وقد بين الكاتب المذكور سرعة نمو الصناعة في اليابان بجداول تتناول الخمسين سنة الاخيرة . فقد كان لليابان في سنة ١٨٨١ سبعة معامل و(١٦٢٠٤) مغازل . وزاد عدد المعامل سنة ١٨٩١ الى (٣٦) والمغازل الى (٣٥٣٩٨٠) فكان الانتاج (١٤٤٩٨٠) بالة . واما في سنة ١٩٢٨ فقد بلغ عدد المغازل اكثر من (٦٥٠٠٠٠٠) وزاد الانتاج الى مليونين ونصف مليون بالة

ويعزو المستر (پيرس) تقدم اليابان ومكانتها العالية في الصناعة ، اولاً الى روح الجماعة الكامنة في الشعب الياباني ، هذه الروح التي تضحي بالمصالح الشخصية في سبيل المصلحة الوطنية العامة ، ثانياً بسبب الارباح المتراكمة منذ الحرب الكبرى واستعمالها بالطرق المشروعة المفيدة . وثالثاً تنظيم الصناعة تنظيماً فائقاً لاستثمار المشاريع والاستفادة منها استفادة تامة

« اما المصنوعات القطنية فلها الشأن الاكبر في الصناعة اليابانية . ولذلك تحتاج اليابان سنوياً من القطن الخام الى ما تزيد قيمته على (٣٦٣) مليون دولار . ويأتي في الدرجة الثانية بعد القطن غزل الحرير وحياكتهُ . ولا بد من ذكر مهارة المرأة اليابانية في هذه الصناعة ، فانها تحفظ لليابان شهرتها التي تتمتع بها في عالم الصناعة . واليابان تقدم ٦٠ ./. من الحرير الخام مما يحتاج اليهِ العالم باجمعه ! فان قيمة ما تصدره الى الولايات المتحدة فقط يزيد في السنة على (٣٥٠) مليون دولار [١] » وبلغ انتاج الحرير النباتي سنة ١٩٢٦ ستة ملايين ونصف مليون ليبرة ، والوارد ثلاثة ملايين ونصف ، اي ان المستهلك بلغ عشرة ملايين ليبرة [٢]

« للبحث تتمة »

---

(١) "Journal of the Royal Statistical Society" Part I. 1933

(٢) The World Book Encylopaedia. vo 16. p. 3632 (٣) راجع مقال (الحرير النباتي) في دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة المجلد ٢٠ ص. ٦٦٤ ، لشارل فوكس Charles J. J. Fox من محل Cross & Bevan بلندن المشتغلين في الكيمياء التحليلية ، (٤) وسابقاً استاذ الكيمياء الطبيعية في المعهد الملكي للعلوم في مدينة بومباي



النجوم في مسالكها

The Stars in Their Courses

تأليف السر جايمس جينز وترجمة الدكتور احمد عبد السلام الكرداني

مؤلف الكتاب عالم مشهور من علماء الرياضيات والفلك وكتابه هذا من مؤلفاته التي نالت شهرة كبيرة لسهولة عبارتها وحسن اسلوبها وقد بسط فيه خلاصة ما وصل اليه علم الفلك من وصف القبة الزرقاء والنظام الشمسي وما فيه من السيارات وتوابعها وذوات الاذناب والشهب والنيازك والرجم. ثم تكلم على صور السماء والنجوم وانواعها والمجرة والسدم ومولد النجوم ونشوئها وسعة الكون وعمر العالم الى غير ذلك من المباحث الممتعة المفيدة وجميع ذلك كما تقدم بعبارة سلسة سهلة الفهم خالية من التعقيد لا يمل القارىء تلاوتها

ومن امثلة ما جاء في الكتاب وصف سياحة تخيلها المؤلف في الفضاء قال :

« لا نستطيع بأنفسنا ان نذهب لنكشف عما تتركب منه الشمس والقمر والنجوم لكن مراقبنا الضخمة تقربها الينا على وجه ما وذلك بمثابة ذهابنا اليها وبهذه الوسيلة يكون الفضاء كله مباحاً لنا نفحصه كيف نشاء ولو الى ان تعترضنا مواد حاجبة لاتستطيع المراقب ان تنفذ الى ما وراءها . بل في هذه الحالات ايضاً تستطيع الحسابات الرياضية ان تتولى تكميل القصة السماوية لنا فقد تمت في السنين الحديثة مثلاً اعمال كثيرة تتعلق ببحث بواطن النجوم . فالارصاد المرقبية والنظريات الرياضية يهيئان فيما بينهما ما هو بمثابة صاروخ سحري يحملنا الى اي مكان نشاؤه من الفضاء»

ثم وصف سياحة في هذا الصاروخ في اعماق الفضاء فوصف القمر احسن وصف ثم سار الى الزهرة فعطارد الى ان بلغ الشمس فوصف ظاهرها وباطنها احسن وصف ثم وصف تحطم الذرات وانفلات الكهارب لشدة الحرارة في باطنها . قال في تحطم الذرات :

« قد رأينا ان ما يبلغ حتى الآلاف القليلة من درجات الحرارة يكفي لاحالة كل المواد العادية الى بخار وليس أثر ذلك مقصوراً على صهر الجمد الى الماء او تحويل الماء الى بخار وانما يتعداه الى فك مفاصل جزيئات البخار الصغيرة المنفصلة فتحلل الواحدة منها الى الثلاث المكونة لها . اثنتين من الايدروجين وواحدة من الاكسجين . كل ذلك نعرفه قبل ان نبدأ

سياحتنا لان مبيّنات الاطياف لدينا كانت انبأتنا بأن كل ضوء الشمس والنجوم تقريباً منبعث من جزيئات قد انحلت الى الذرَّات المكونة لها . ولا نجد الاَّ في عدد قليل من ابرد النجوم عدداً قليلاً من جزيئات غير منحلة وتلك الجزيئات من انواع ممتازة بشدة تماسكها» . الى ان قال في وصف الذرة : هذا اذاً هو كل ما تتركب منه الذرة — نواة واحدة وعدة كهارب» الى آخر ما قاله في تحطم الذرات ثم وصف اسرة الشمس وهي مؤلفة من الشمس والسيارات وتوابعها والمذنبات والشهب والنيازك والنجيمات

وبحث في الثوابت والجاذبية ووزن النجوم واقدارها — وهو يريد بالاقدار الحجوم او الاجرام — وانواعها والمجرة والسدم وعدد النجوم ومولدها ونشوئها الى غير ذلك من المباحث التي لها علاقة بعلم الفلك وجميع ذلك بعبارة تستهوي القارىء في طلاوتها

وترجمة الكتاب حسنة جدًّا وانما يؤخذ على المترجم تقييد نفسه في بعض المواضع بترجمة كل لفظة وعندنا انهُ لو تصرف في الترجمة لكان ذلك اسهل له وللقارىء . والكتاب اصلهُ محاضرات بسيطة اذيعت بالراديو فالتصرف فيه بحكمتهِ تصرفاً يسيراً ليس امراً اداًّ . ومما يؤخذ على حضرة المترجم ما يأتي :

Betelgeux منكب الجوزاء صواب أما ابط الجوزاء فنظنها خطأ وهي ليست سوى تصحيف يد الجوزاء فكأنهم قرأوا الياء المثناة التحتية باء موحدة تحتية

Argo السفينة وهي صواب أما اجزاؤها فلا نوافقهُ على ترجمتها وهي ما يأتي : —

Carina عربها بالقرينة ونظن الصواب الجؤجؤ في السفينة والطائر

Malus سماه الخبيث ونظن الصواب الدقل والصاري والصارية والسارية

Puppis سماه مؤخر السفينة ولا بأس بها واصلح من ذلك الكوثل

Vela الشراع ونظنهُ صواباً ويراد منهُ القلاع جمع قلع وانما اللفظة الانكليزية جمع ونرى انهُ يحسن أن يقال في ترجمتهِ [illegible]

Altair قال في ترجمتها الطائر ونظن الصواب النسر الطائر

Apus قال في ترجمتها عصفور الجنة ونظن الصواب طائر الجنة او طائر الفردوس فاللفظة الانكليزية التي ترجمها العصفور صحة ترجمتها الطائر فالعصفور بالعربية طائر صغير بعينهِ وهو الذي يألف البيوت ثم اطلق على جميع الطيور الصغيرة ثم ان عصفور الجنة عند العامة هو السنونو لذلك نرى ان ترجمتهُ بطائر الجنة كما فعل الدكتور فانديك اصلح كثيراً او طائر الفردوس كما سماه ابنهُ

Grus صوابهُ الكركي على ما نظن كما سماه فانديك لا البجعة

Hydra سماه الشجاع وهو صواب ولا نرى رأيهُ في تسميتهِ بالافعى

Hydrus لا بأس بتسمية هذا بالافعى لانهُ اسم لكوكبة مولدة لم يعرفها العرب أما الشجاع فعرفهُ العرب بهذا الاسم ولا نرى من الصواب ابدال اسم قديم

Columba سماه اليمامة ونرى ان الحمامة أو حمامة نوح كما سماها فانديك أصلح كثيراً ولعل حضرة المترجم ظن ان اللفظة الانكليزية لا تترجم بالحمامة فنقول ان حمامة نوح أشهر من ان تذكر

Coma Berenices سماها ذات الشعور وشعر برنيس ونفضل تسميتها بشعر برنيقة أو الهلبة او الذؤابة أو الذوائب أو الحزمة وجميع ما تقدم وارد في كتب الفلك العربية ما عدا شعر برنيقة فهذا تعريب الاسم الانكليزي او بالحري اليوناني

Lacerta سماه الورل ونظن العظاءة اصلح

Sextans, Octans نظن الثمن والسدس كما سماها فانديك أصلح من الاسماء التي ذكرها

Crux سماه الصليب الجنوبي وهو ترجمة اسمهُ الانكليزي ونظن لو سماهُ نعياً مصغراً كان اصلح من ذلك وهو الاسم الذي سمعهُ المستر فلبي من عرب نجد

Magnitude سماه المرتبة ولا نظن انهُ جاء باسباب كافية لجعلهِ يعدل عما قالهُ علماء الفلك من العرب قديماً فقد قالوا القدر والعظم والعظمة كذلك علماء هذه الايام في مصر والشام

Size سماه القدر ونظن الحجم اصلح وحجتهُ في عدم استعمال الحجم انهُ شاع في كتب الطبيعيات لمعنى آخر فليكن اذاً الجرم وهو يؤدي معنى الحجم فاننا لا نرى من الموافق العدول عن الفاظ سبق غيرنا الى استعمالها صواباً

سمى نير قنطورس الفا قنطورس وهو حضار بالعربية ذكره القزويني وغيره ومن اسمائهِ رجل قنطورس

Mira عرّبهُ بالميرة ونفضل تسميته بالاعجوبة او اعجوبة قيطس كما سماه السيد عبد الحميد البكري اي انهُ ترجمهُ بذلك

Toucan عرّبهُ بالتوقان ونفضل تعريب احمد فارس، اي الطوقان وقد تابعه في ذلك فانديك وكثيرون غيره

وبعد فقد كنا نحتاج الى كتاب حديث في العربية يتناول آخر ما بلغهُ علم الفلك من الحقائق والمذاهب وصلته بتقدم الطبيعة ، وطالما اقترحنا على ادارة المقتطف ان تعيد طبع كتاب الدكتور صروف « بسائط علم الفلك » بعد ان تضيف اليهِ المباحث الجديدة فجاءَ كتاب « النجوم في مسالكها » ، بطلاوتهِ وحسن بيانهِ وبسطهِ لمسائل الفلك العويصة ، فسد في الخزانة العربية فراغاً كبيراً . فنحن نشكر لحضرة المترجم الفاضل عنايته بترجمته ، وللجنة الترجمة والتأليف والنشر عنايتها بطبعه في مطبعة دار الكتب طبعاً متقناً ، ونشرهُ على الناس بثمن معقول

« م »

مقابر الكتب

١ — ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم

تأليف امين محمد سعيد مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة سنة ١٣٥٢

« ملوك المسلمين » . . . . ! ! لا اكاد اسمع هذه الكلمة حتى تتطوح بي الذكر الى الايام السوالف من عصور المجد والقوة والحضارة والعلم والادب ، وانتقل بين درجات التاريخ حتى أصل الى عهد السعادة والرحمة والاخوة والعدل بين الناس ، يوم كان المسلمون امة واحدة تسير بها كلمة الحق في كل وجه — ظافرة ظاهرة — الى سبيل الهدى والرشاد ، ثم ارتد على عقبي الى ما آل اليهِ الامر من فرقة في الجماعة وانقسام في الرأي واختلاف في الحق حتى وضعت فينا وحوش الاستعمار انيابها ومخالبها ممزقة ما بقي من جسم قد اكلته العلة وذهب بهِ الداء ونخر في عظمه السوس ، حتى لم يبق من اعضاء هذا الجسم ما يقول ها أنذا سليم فانظروني . . . . دع هذا ، وعد الى ما نحن فيهِ

يغطي المسلمون الآن رقعة رحبةً من الارض بعيدة الاطراف مقسمة في أمم كثيرة ولكل شعب مسلم من هذه الامم ملكٌ او إمام او سلطان او والٍ تعود اليه امورها ، ومما يؤسف له ان اكثر هذه الشعوب يجهل بعضها بعضاً على ان الاصل الذي وضع عليه دينها هو التعارف والمودة والاخوة والنصرة والتعاون ، أجل ، ان بين ملوك هذه الشعوب وولاتها من المعاهدات والصلات ما تثبته الوثائق الاَّ ان هذا لا ينفي ان جهل هذه الشعوب بأحوال جاراتها كائن لا سبيل الى المراء فيه ، فمن من شباب هذه الامم يلم بأخبار ما ترامى من بلاد الاسلام او ما دنا ويتتبع ما يقع فيها من الاحداث العظيمة ويكون على بينةٍ من امرها حافظاً لاخبارها متصلاً بثقافتها في أدبها وعلمها شاعراً بشعورها في آلامها واحزانها . ان الحوادث تثبت لنا كل يوم ان الامم الاسلامية متدابرة متقاطعة الاَّ قليلاً منهم . فمن الاحسان الى انفسنا واوطاننا وتاريخنا ومجدنا ان يقوم بعض اهل الخبرة والمعرفة بتقريب ما تباعد بين هذه الامم بنشر الكتب التي تضع امام قارئها صورة من هذه الامم جميعها ليلم قارئو كل أمة بما عليه احوالها وما هي فيه . وبالامس القريب ظهر كتاب «حاضر العالم الاسلامي» للامير شكيب ارسلان ، فقام بفرض من اعظم الفروض ، واليوم يظهر هذا الكتاب فيتمم كتاب الامير في ناحية من نواحيه . ونحن نشكر للمؤلف ما تفضل بهِ على قراء الامم الاسلامية ، وما بذل من جهد في الترجمة لملوك هذه الامم في هذا العصر وما عانى في جمع المعاهدات والوثائق التي تربط بعضها ببعض والتي تربطها بملوك الاعاجم من دول اوربا وغيرها . وقد سلك المؤلف

مسلكاً حسناً في ترجمة هؤلاء الملوك فهو يقدم لكل امة بلمحة موجزة في موقعها الجغرافي وحكمها السياسي وتعداد سكانها على اختلاف اجناسهم ومللهم ثم يبدؤ في ترجمة الملك من الملوك او الامير من الامراء فيذكر مولده ونشأته وعهده وتاريخ السياسة فيه ونظام حكمه وما عقد من المعاهدات ذاكراً نصوصها ، وكان في عمله هذا سابقاً مشكوراً

هذا ، ولا مندوحة لي من ان أنظر في الكتاب نظرة العربي الذي يحب ان يخدع نفسه وقومه ، ألا وان خداع النفس من أباطيل الحياة وأدوائها التي تنهك البدن وتذهب بالشباب والقوة والحذر . قسم المؤلف كتابه الى قسمين اولها « الدول الاسلامية المستقلة » وذكر مصر والعراق وبلاد العرب واليمن وتركيا وايران وأفغانستان والثاني : « الدول الاسلامية المحمية » وذكر سوريا وشرق الاردن وحيدر آباد واسبانيا والمغرب الاقصى وتونس ولحج وحضرموت ومسقط والكويت والبحرين . وأنا لا أدري لماذا يخدع المرء نفسهُ فيعمد الى بلاد يأكل الاستعمار مالها وابناءها ويقتل أنفسها ويريق دماءها ويفتك فيها بما ملكت يداه من أساليب السياسة فيعدها في جريدة البلاد المستقلة وهي لا تبلغ ان تكون دولة قد رفعت على منازلها اعلام « الحماية » . ان البلاد التي وقعت فريسة للحماية تشعر دائماً انها فريسة فتسعى الى الخلاص جهدها وتوجه كل قوة فيها الى ذلك فاذا خشي الاستعمار تمام يقظتها واستفحال قوتها خدعها عن نفسها بالاستقلال المقيد بقيود ثقيلة من الذهب فيشغلها بقيودها الذهبية عن آمالها وأمانيها . ثم نأتي نحن فنخدع أنفسنا بأن نعدها مستقلة . . . . اللهم ان هذه الامم مخدوعة من ناحيتين من ناحية العدوّ ومن ناحية أنفسها . او كان المؤلف يعدم حيلة للخلاص من هذا ؟ أكان يضيرهُ شيئاً ان يترك الكتاب على نظامه هذا غير مقسم ذاكراً تلك الحقيقة بأي أسلوب شاء ، وان كنا نؤثر التصريح ، ولا نرى غيره رأياً

٢ — ابن عبد ربه وعقده

تأليف : جبرائيل سليمان جبور . احد مدرسي الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية
المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٣٣

كان شيخنا سيد بن علي المرصفي رحمه الله يستجيد كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ويعده في اجل كتب الادب العربي، ولا ادري كيف مضى بي الزمن ولم اسأله عن هذا الكتاب سؤال الطالب الذي يريد ان يوقفه شيخه على عيون الكتب ، ويدله على اسرارها ، الا اني سمعته مرة — وقد ذكر هذا الكتاب — يشكو من كثرة الخطأ والتحريف والخلط الذي وقع فيه من النساخ . ورحلت عن مصر الى الحجاز في اول سنة ١٣٤٧ وعقدت النية على قراءة هذا

الكتاب لتصحيحه وضبطهِ ولم اوفَّق لأَ اقراءته للمرة الثانية دون ان اصححه او اضبطه ولكنني كنت اجد المشقة في قراءته لكثرة الخطإِ الواقع في نصوصه ، واظن ان كل من قرأ هذا الكتاب وجد منه مثل الذي وجدت

فلما ظهر هذا الكتاب «ابن عبد ربه وعقده» عدت الى قراءة ما تيسر منهُ لاكون على بينة مما يكتب المؤلف فوجدت فيهِ كثيراً من الخطأ مما فاتني في القراءة السابقة فتمنيت كما تمنى الاستاذ في كتابه هذا ان تقوم جماعة من الادباء بجمع اصول هذا الكتاب ومقابلة بعضها ببعض لتصحيح العقد الذي يوضع بين ايدي الادباء بعد طبعه طبعاً متقناً جيّد التصحيح

وابن عبدربه لم يعرف الاَّ بعقده هذا حتى اصبح هذا الكتاب مما لا يستغنى عنهُ اديب عربيٌّ لايجازه وحسن ترتيبه وجمال اختياره ، ومع هذا فانك لا تجد لابن عبدربه ترجمة في كتاب من الكتب التي بين ايدينا قد استوفت حياة هذا الرجل حتى ابتدر الاستاذ «جبور» واخذ يجمع تراجم ابن عبدربه من كتب التراجم ما طبع منها وما لم يطبع ، وطفق يتسقط اخباره في سطور من الكتب حتى اجتمعت لديه مادة عظيمة ، ثم ارسل فيها رسلاً من ذكائه حتى ضمَّ اشتاتها وألّف بينها على اسلوب جيد في ترجمة امثال ابن عبدربه فقسّم كتابه الى خمسة اقسام [الاول : في المصادر التي اخذ منها ، والثاني : في ترجمة حياته ، والثالث : وهو اكبرها — : في الكلام عن العقد ، والرابع : في نثره ، والخامس : في شعره] ويدور هذا الكتاب على التعريف بالعقد اكثر مما يدور على ترجمة ابن عبدربه فقد نقل فيهِ طائفة من العقد في اكثر ابوابه مما يعرف القارىء به ويصوره له . وقد بثّ في خلالها آراء جيدة ، واخرى مما يعترى كلّ مؤلف من التطوح او الخطإِ . وكان العهد بيني وبين رئيس التحرير أنْ استوفي هذا الكتاب نقداً وتمحيصاً الاَّ اني رأيت بعد ذلك أنْ انقض هذا العهد لما فيهِ من المشقة وما يستنفد من الجهد وما يتطاول بالكتابة . هذا ولانّ الكتاب في مجموعه جيد متقن ، ولعل مؤلفهُ سوف يستدرك فيهِ بعد ما فاته الآن فقد قال في مقدمته أنهُ لم يستقص « البحث في درس ابن عبدربه كما يريد او كما يجب ان يكون » وقال « وكل ما في درسي هذا أنهُ محاولة، إن لم اكن قد وفقت في كل نتائجها ، فاني ارجو ان اكون قد وفقت في الطريق او المنهج الذي سلكته فيها » وليس ما وقع فيهِ الاستاذ مما يشق على مثله ان يتداركه إذا تبين لهُ وجه الصواب واهم ما يلزمنا ان ننبه اليهِ هو حشده الشواهد التي لاخطر لها فيما يستشهد لهُ مثال ذلك انهُ حين تكلم عن تشيع ابن عبدربه لآل البيت رضوان الله عليهم قال ص ٦١

(ولم تكن هذه النزعة (يعنى التشيع)عند ابن عبد ربه من القوة او الشدة بحيث تظهر لاول وهلة في عقده إذ قد تقرأ الفصول الطوال من العقد دون ان تشعر بها — الى ان قال — غير

انا اذا قرأنا العقد وانعمنا النظر في هذه المواقف التي يذكر فيها عليًّا وأولاده وآله نرى أثر هذه النزعة عنده — وندر ان يذكر عليًّا دون ان يلحق الاسم « برضى الله عنهُ »). وهذا استدلال ضعيف ، فما من مسلم يذكر عليًّا او غير عليٍّ من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم الاَّ قال «رضي الله عنهُ » الاَّ طائفة قليلة ممن خرجوا على اجماع الامة الاسلامية في تقديم الصحابة وخاصة النفر الاربعة من ولاة الحق وهم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم . وبما ان ابن عبدربه ليس من هذه الطائفة فلا وجه للاستدلال على تشيعه بهذه الحجة الواهية. ونرجو ان يرجع الاستاذ الى حجته التي اوردها في هذا الباب فان اكثرها مما لا يصحُّ ان يتخذ مثله حجة على تشيع ابن عبد ربه . والحق في الفصل الذي عقده لتشيع ابن عبدربه وسماه في آخره « التشيع الحسن » ان ابن عبدربه كان كسائر المسلمين الذين يحبون رسولهم صلى الله عليه وسلم ومن تبع سبيل الحق من أهل بيته ويوقرون الخلفاء الأربعة الراشدين ويبجلونهم ويحبونهم ويترضون عنهم

بقي بعد هذا ان نسأل الاستاذ ألا يحمل في نفسه علينا اذا قلنا — مع تقديرنا لكتابه هذا — انه تعجل فلم يعنَ باختيار الالفاظ والتركيب الفصيح العبارة ، ولا نحب ان نوقفه على شيء منها فما نظن ان صواب الرأي فيها بعيد عنه « ومن زينة الحسناء لباسها »

٣ — رحله الى بلاد المجد المفقود

تأليف مصطفى فروخ والصور بريشته . مطبعة الكشاف بيروت سنة ١٣٥٢

الاندلس .... كلمة واحدة توقظ في دم كل عربي تاريخاً من المجد والجمال والعلم والأدب وتوقد فيه نيراناً من الألم والغيظ والغضب والحسرة ، كلمة واحدة تراها ضاحكة باكية في التاريخ ، كلمة واحدة تراها حاملة راية النصر والدماء تسيل على جوانبها وتحت اقدامها ، كلمة واحدة تحمل اسباب الحياة الى العالم فتحمل فيه ألواناً من العذاب والظلم والفتك والاعتداء كلمة واحدة مرَّت على التاريخ كما يمرُّ الحلم اللذيذ الفرح المحفوف بالجمال والشباب وروائع الخيال ثم توقظ التاريخ من حلمه تلك الجلافة البربرية الضارية التي أتت بها دواوين التحقيق في أبشع الصور وأقبح المطالع وأفظع الوجوه ... لك الله أيتها الأرض العزيزة التي ضمت درر التاج العربي ونفائس الارث الاسلامي وروائع الجمال الانساني، لك الله يا أرض الامجاد من بني مروان

هكذا تدول الدول ويتحطم المجد ويخبو الشعاع لتقوم في كل قلب دولة من الذكرى ويُبنى في كل فؤاد بنيان من الحسرة وتشتعل في كل مهجة نار من الألم ، ويرحل الراحلون ليقفوا على بقايا الاطلال ودارسات الرسوم ليبعثوا في القلوب الذكرى ويجددوا في الافئدة بنيان الحسرة ويورثوا المهج نيران الالم

اجلت قراءة « الرحلة الي بلاد المجد المفقود » ظناً مني بأنها كالكتب التي تصدر عن الرحلات في ضعفها وفتورها وجمودها وقلة روائها وذهاب مائها ، فلما قرأتها عدت على نفسي بالملامة ان لم اكن بادرت الى قراءتها من أول يوم فقد اجتمع للاستاذ « فروخ » في هذا الكتاب من دقة الوصف وبراعة البكاء على اطلال المجد العربي وصحة النظر الاجتماعي والاحاطة بكثير من تاريخ البلاد التي رحل اليها — الاندلس — ولطافة الملاحظة ، عدمته كثير من الرحلات التي قرأناها وكانت أشبه بجريدة الاحصاء او سجل الوفيات والمواليد. ولولا مايشوب بعض جملها من ضعف التركيب لكانت من أغلى الدرر في كتب الرحلات التي يراد بها ايقاظ الاحساس النبيل في نفوس اصحاب المجد الغابر وارهاف الشعور السامي في قلوب طلاب المجد ومجددي حضارة العرب من ابناء هذه الامة العربية

بقي ان نلوم الاستاذ «فروخ» على استهانته بتأريخ ما يذكره من الحوادث بالتاريخ العربي الهجري ذلك لاننا اذا تابعنا أصحاب الفتنة على ما يفتنوننا به من زخرف القول في الاقتصار على التاريخ الميلادي في تاريخنا لاختلط على شبابنا التاريخ ، وما ظنك بألف وثلاثمائة سنة كتبت كل كتب التاريخ العربي فيها بالتاريخ الهجري أيسهل ان نقلب التاريخ الهجري في الكتب العربية الى تاريخ ميلادي ؟ على شبابنا ان يعود سمعه وبصره وذاكرته على التاريخ العربي ولا يضعه بمنزلة أدنى مما تنزل الذكر الجميلة من قلبه ، وعلى شبابنا ان يحترم رمزاً المجد العربي يكاد يكون هو الباقي في حياتنا من الحياة العربية . هذا . ولو ان الاستاذ فروخ اتخذ تاريخه التاريخ الميلادي لكان ذلك هيناً ، ولكنه خلط في الكلمة الواحدة بين التاريخ الميلادي والتاريخ الهجري وفي ذلك من وضع العثرات في طريق القارىء ما فيه . اما ما في الكتاب من الخطأ التاريخي الذي تنبه له بعض الكتاب فذلك ما نرجو الاستاذ ان يبرىء كتابه منه في الطبعات التالية

ثم لعل الاستاذ «فروخ» سيواصل رحلاته الى اطلال المجد العربي ويخرج لنا الدرر التي طغى عليها تراب النسيان ، وستر جمالها كيد الكائدين وعنت المعنتين فالامم العربية الآن تحتاج إلى من يذكرها بمجد اسلافها وعز آبائها وحضارة اجدادها لتجد في نفسها مضض الحسرة وفي الحسرة الألم وفي الألم الشعور وفي الشعور الحياة والطموح والشوق الى الفوز والغلبة

٤ — تنبيهات اليازجي على محيط البستاني

جمعها وحل رموزها « الدكتور سليم شمعون » و« جبران النحاس » مطبعة صلاح الدين باسكندرية سنة ١٩٣٣

كان الشيخ ابراهيم اليازجي علماً من اعلام الادب العربي ، ولا تزال آثاره وكتبه من ادق الكتب وأحسنها ترتيباً وتحقيقاً ، ويظهر من كثير من كتبه انهُ كان من اكابر اذكياء عصره وبلغائهم ومحققيهم في اللغة والادب حتى اصبح في مقدمة الذين احيوا الادب العربي وجددوا

روائعه وامدُّوه بأسباب النهضة والحياة . وقد كان جيد الاستدراك على اخطاء معاصريه حتى عدَّ من ثقات نقاد اللغة . الاَّ ان اكثر ما استدركه على كتب اللغة التي ألفت في العصر الاخير لم يظهر منها الاَّ القليل ، ولعل ذلك يرجع الى انهُ لم يقيده بالكتابة كما بين الاستاذ « جبران نحاس » في مقدمة هذا الكتاب قال « ولكنهُ كان اثناء مطالعته اذا استوقف نظره لفظٌ اشار اليهِ بنقطة على الهامش وهو في الغالب يرسم خطاً تحت ذلك اللفظ ، وربما عنَّ له شيءٌ مما فات المصنف (يعني البستاني صاحب محيط المحيط) فاستدركه ، ولكنهُ لم يتكلف مثل هذا الاستدراك الاَّ في ما ندر »

وكنا نودُّ ان نقول رأينا في « محيط المحيط » الذي جمعت تنبيهات اليازجيّ عليهِ في هذا الكتاب ، الاَّ ان هذا المجال يضيق عما نتكلف له . وفي تنبيهات اليازجيّ كفاية للمطلع والمراجع

عمد الاستاذ جبران النحاس والدكتور شمعون في كتابهما الى الاشارات التي وضعها اليازجي على نسخة من « محيط المحيط » فحاولا ان يتبصَّرا . وضع النقد او الاستدراك الذي اراده اليازجيّ وقد وُفقا الى كثير من الصواب لولا الاطالة فيما لا تجدي الاطالة فيهِ وتشتت البحث في بعض المواضع ، ولعلهما سيستدركان ذلك في بقية الاجزاء التي ستصدر تتمة لهذا الجزء — وقد استوفيا فيهِ حرف الالف وحسب . ونرجو ان يصحبهما التوفيق في عمل يجدان في كل خطوة منهُ عقبات يزلُّ لها الجلدُ القوي

محمود محمد شاكر

الاعاصير

مجموعة من الشعر الوطني نظم رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) في ١١١ صحيفة من القطع المتوسط — مجلدة تجليداً متيناً — طبع مطبعة مجلة الشرق بسان باولو (برازيل)

ثمن النسخة دولار اميركي او ١٠٠ قرش برازيلي

اشتهر الاستاذ رشيد سليم الخوري بلقب الشاعر القروي ، وكان جديراً بهذا اللقب ففي شعره بساطة الطبيعة تلك البساطة التي تخفي وراءها ما هو اعمق من العظمة الجوفاء . ولعلَّ قراء المقتطف ما يزالون يذكرون قصيدته « الربيع الاخير » احدى بدائع الادب الحديث ، وفيها نرى القروي صافي الروح ، هادىء النفس ، وديع القلب ، نسمة تبعث اصداء الخلود ... لهذا عجبت عند ما قرأت ديوانه « الاعاصير » الذي قصره على شعره الوطني وحاولت ان المس فيهِ هدوء القروي ووداعته فما وجدت الاَّ ثائراً يجري في عروقه دم الاباء ، ويخفق قلبه خفقة العظيم الذي تضطرم بين جنبيه نار المجد . وعجبت اكثر من ذلك لاني اعرف ان روح الشاعر تحيط العالم دائماً بحبها ، وترى في كل بقعة من الارض وطناً يستحق الحنان والولاء

ولكنني وجدت في هذا الديوان دعوة الى الجهاد والكفاح لتحرير لبنان من ربقة الاستعمار ووجدت الشاعر يدافع في مقدمة ديوانه عن ثورته وخروجه عن حدود عالميته الى قومية ملتهبة فهو يقول : «اما والله لو كنت شاعراً إفرنسيًّا او انكليزيًّا لحبست النفس على التبشير بالسلام ووقفت القلم على الدعوة الى الرأفة والحنان لان الرأفة والحنان زينة الاقوياء . اما وانا سوريٌّ ، ومن لبنان ، فانهُ لا غرض لي في الحياة اشرف من دعوة شعبي الى بغض الشعوب ، ولا مثل عندي اعلى من استنهاض امتي لمحاربة الامم ، وانهُ لبغض اسمى من الحب ، وانها لحرب اقدس من السلم ! فما دمنا عبيداً ضعفاء فدعوتنا العالم الى السلام ليست من الفضيلة في شيء اكثر من فضيلة العفو بغير اقتدار ، حجة الذليل الاثيم . فلنصافح السيوف فاذا تحررنا فلنصافح الاعداء ! نحن نحب اوربا ولذلك يجب ان نبغضها اولاً ! نبغضها لنحاربها، ونحاربها لنتحرر منها، ونتحرر منها لنستطيع خدمتها بأحسن مما تخدم نفسها . . . » لهذا عرفت مقدار اللوعة التي يحملها الشاعر القروي — المتغني بالطبيعة — في قلبه على مجد لبنان الذي تحاول يد الاستعمار ان تهد من شموخه وتقوض من دعائمه ، وادركت ان وراء الهمسات التي نسمعها من رشيد الخوري زأرات وان وراء النسمة العذبة اعاصير ثائرة

ولاخواننا شعراء العربية المهاجرين في ربوع العالم الجديد حرارة في الوطنية والجرأة اكثر اتقاداً منها في قلوبنا جميعاً ذلك انهم يعيشون في اجواء عزيزة تعرف الحرية طليقة نقية لم تدنسها ريح الاستعباد ، فلنستمع الى الشاعر القروي وهو يحيي الاندلس في شخص الشاعر الاسباني الكبير ڤيلا سبسًا فنرى شاعرنا كيف يتأثر باللاهين عن كرامتهم الضائعة فيقول :

خبرينا كيف نقريك السلاما طيب النشر كأنفاس الخزامى ؟ !
والشذى المحيي بسوريا العظاما غادر الشام وبيروت وهاما
في بلادٍ حرة لم نحن هاما وأنوف لم يقبّلنَ الرغاما
خبرينا كيف نقريك السلاما ؟ !

أمِنَ «المياس» حيث العلج رافع راية حمراء تحميها المدافع ؟
امْ منَ الشام، وطرف الشام دامع؟ ام من الارز، وليث الارز خاضع؟
ام من الاردنّ والاردنّ ضارعْ خاشع الرأس ذليلاً يترامى
امِنَ العبدان ترضين سلاما ! !

ثم يحاول ان يصور فداحة العار الذي يشين الاباء الوطني والعزة القومية في الربوع الشرقية فيرينا من خلال استار القرون الماضية عيوناً من قصر الحمراء تنظر شزراً صارخة: «من ربوع الذل لا ارضى سلاما» ولنستمع الى اصداء الدم الحار في نفس ترى حياة الوطن فوق نعيم الحياة فهو يهتف بالموتى المتحركين في قصيدته «قحط الرجال»:

ويا ناعمين بذلّ القيودِ ويا سادةً في هوانِ العبيد
أمن أجل تقبيل رجلِ العميد وبَرْيِ الذقون لفرط السجودِ
غدرتمْ بشعبٍ وبعتمْ وطن ؟
ألا زأرةٌ مثل قصف الرعودِ يضجُّ بها الأرز مهدُ الأسودِ
وتهتزُّ منها عظامُ الجدودِ مرددة من وراء اللحودِ
ليحيَ ، ليحيَ ، ليحيَ الوطن !
ألبنانُ أين أسود الرجالِ ؟! ألا بطلٌ واحدٌ للنزالِ ؟!
ألا «كرمٌ» آخرُ في الشمالِ ؟! إلهي بُلينا بقحط الرجال
أمَا من فتاةٍ لهذا الوطن ؟!

ولقد عرفت الشاعر الحوادث ان الحق لا يطلب بالسلم ، وان الحكمة « أحبوا بعضكم بعضاً » أصبحت لا تنفع الناس فهو يقول في مرارة :

اذا حاولتَ رفعَ الضيم فاضربْ بسيف محمدٍ واهجرْ يسوعا
(أحبوا بعضكم بعضاً) وعظنا بها ذئباً فما نجّتْ قطيعا !
(فيا حملاً وديعاً) لم يخافُ سوانا في الورى حملاً وديعا
غضبتَ لذات طوقٍ حين بيعت ولم تغضب لشعبك حين بيعا !

واني لأرى رشيداً من خلال قصيدته التي قدّم بها الديوان وقد وقف مناجياً ربه وهو ينظر الى لبنانه الشامخ فلا يرى حوله الا رؤوساً مطأطئة فيقول :

إلهي رُدَّ مالكَ من أيادٍ على وطني ، ورُدَّ لهُ الايادا
خلعتَ على رباهُ الحسنَ فذّاً وألبستَ القطينَ به الحدادا
وما شرف الجبال لساكنيها وشمٌ إباؤها خُسِفتْ وهادا

وأراه وهو يتلفت في ربوع وطنه ليبحث عمن يهدي اليه ديوانه فلا يجد من هو أحق بذلك من شهداء الوطنية فيناجيها :

يا رُفاتاً تحت الرمال دفينا مبعداً ، طالَ الرموسِ ، نسيّا
لك أهدي هذا الكتاب لأني لم أجدْ في البلاد غيرك حيّا

على أننا نجد بين هذه الأعاصير التي نحّاها الشاعر في ديوان منفرد لتمصوصف في جوٍّ وحدها ، نجد بين هذه الخواطر الجامحة والافكار الثائرة ألواناً فتانةً وأنغاماً عذبة تجيش بها نفس القروي الوديعة كقوله :

واذا رنّ بها عود النديم مرجفاً بالحب أعصابَ النجومِ
ومثيراً لوعةَ الليل البهيم ومديراً أدمعَ الفجر مداما

وكذلك نجد في قصيدته نكبة الشام التي نحس فيها نفس عنترة العبسي ونلمس فيها اقتراباً من معلقته ، نجد قوله :

فربَّ محسَّناتٍ ما تخطَّى اليها الوهمُ قد عدمت سياجا
حرائر كالقلوب مخبَّآت وكنَّ لها سروراً وابتهاجا
نجوم أصبحت بالكف تجنى وقبل اليوم عزَّت أن تناجى

وبعد هذه الاعاصير احيي الشاعر القروي وأطالبه بديوان آخر يجمع أنفاسه العطرة فان جوَّ الادب الحديث لمشوق الى هذه الاعاصير

حسن كامل الصيرفي

كتاب مدرسي في الفلسفة

Manuel de Philosophie, Editione Felix Alcan, Paris.

ان النظريات الفلسفية ما تنفك تتلاحق فيهدم بعضها بعضاً في زمن قصير ، فييأس طلبة الجامعات ان يقفوا على اغراضها. وان حاولوا ان ينظروا فيها ليقابلوا بينها فيطمئنوا الى واحدة منها حاولوا أمراً يكاد يكون من وراء الطاقة ، لان مسائلها — وبخاصة المستحدثة — منتشرة في عدة تآليف ، ولربما اضطرَّ الطالب الى قراءة عدد متأخر من مجلة فلسفية لكي يهيء مادة من مواد الامتحان. وقد ظهر منذ عهد قريب مؤلف ضخم في علم النفس والمنطق والاخلاقيات وما وراء الطبيعة ، جامع لشتيت الفوائد ، قريب المنال ، انما همّه عرض المسائل من دون تشيع لها ولا طعن فيها خشية ان تضطرب في ذهن الطالب فما يدري بأيها يأخذ

ثم ان هذا المؤلف يضمُّ بين دفتيه « اكتشافات » ونظريات اليوم في المنطق وعلم النفس ذلك ان المنطق في تحول دائم بسبب تطبيق قواعد الجبر على أساليب التفكير . واما علم النفس فهاهو يدخل في طور جديد من حيث ان جانباً عظيماً منه أمسى بين يديْ علم وظائف الاعضاء على حين ان الجانب الآخر جعل يلحق بعلم الجماعة. هذا واما ما وراء الطبيعة والاخلاقيات فهما في هذا الكتاب على ما كانا عليه لعشر سنوات خلت ، الاَّ بعض الشيء والسبب في ذلك ان اصحاب هذين العلمين قد ذهبا الى غاية يكاد لا يكون وراءها مطلب لطالب

غير ان هذا الكتاب موضوع لتلاميذ المدارس الثانوية في اوربا ، وعليه فانه مقصور على برنامج تلك المدارس ، وهيهات ان يكفي طالب جامعة اوربية . ولكنهُ جدير بأن يرسم لهُ خطة العمل ويمهد له السبيل للبحث ، ولربما بسط له مطلباً اشكل عليه او دفع اليه المفتاح الذي به يدخل على مسئلة مقفلة

هذا واني لا يخفى عليَّ ان طالب الفلسفة في الجامعة المصرية لا يكاد يتقدم — في العلم — من يأخذ الفلسفة في المدارس الاوربية . فلعله ينتفع بهذا الكتاب فوق ما ينتفع به طالب الفلسفة في الجامعات الاوربية

بشر فارس
دكتور في الآداب من السوربون

حكايات الاطفال ـ التربية بالقصص

حكايات الاطفال سلسلة من القصص التي ينشئها الاديب كامل كيلاني لتكون في يد الاطفال يتعلمون بها القراءة العربية وقد قال في مقدمته « وليس هذا الكتاب وما يليه الا متمماً للفكرة التي اخذنا انفسنا بتحقيقها . وقد زادتنا الايام اقتناعاً بها وايماناً بخطرها . بعد ان رأينا اكثر رجال التربية يشركوننا في رأينا ان التكرار اصح اسلوب يلائم الطفل ، في اول عهده بالقراءة لانهُ يشجعهُ عليها ويملأ نفسهُ ثقة بقدرته على المطالعة »

وهذه الحكايات مطبوعة طبعاً متقناً جداً ، بالمطبعة العصرية لصاحبها الياس انطون الياس ، وفيها رسوم وصور تغريه بالمطالعة . ثم ان تعديد الوان الحبر تبهج قلبهُ . وكاتب هذه الكلمة يذكر انهُ وهو طفل كان لا يرى شيئاً ابهج من الوصول الى صفحة معيّنة من كتاب انكليزي تحتوي على اشياء ملوّنة فكان يجتهد في درس ما قبلها حتى يتاح لهُ درس تلك الصفحة المعيّنة

اما التربية بالقصص فللمهندس الأديب حامد القصبي . وهي مكتوبة كلها خطًّا جيداً وصنعت منها اكليشيهات طبعت على الورق بحبر أسود ، تتخللها صور ورسوم مطبوعة بالحبر الاحمر . والغرض من هذه القصص البسيطة تعليم الطفل استعمال عقله الغض الناشئ (راجع رسم العلم المصري صفحة ٨ وحبذا الحال لو كانت ارقام النقط اوضح قليلاً مما هي) وطبعه بالطابع الوطني المستنير . والحق يقال ان العناية بالاطفال من هذه الناحية يبشر بنهضة فكرية عظيمة ، لانهُ اذا تعلم الاطفال اصول لغتهم من صغرهم ، انطلقت امام التفكير ميادين الابداع لان التعثر في اللغة قيدٌ يرسف فيهِ الفكر

علم طبقات الارض

تأليف الدكتور محمد محرم — استاذ التاريخ الطبيعي — في معهد الطب بدمشق

الحقائق العلمية التي يحتوي عليها الكتاب لا غبار عليها في الغالب ، الاّ ما ذكره صفحة ٣ من ان نظرية لابلاس هي « النظرية الاخيرة المعتبرة الآن » . ولا يخفى ان نظرية لابلاس في نشوء النظام الشمسي قد نبذت من زمن طويل ، وحلت محلها نظرية قائمة على مباحث تشمبرلين ومولتن وجينز وجفريز (راجع مقال نشوء النظام الشمسي في مقتطف نوفمبر ودسمبر ١٩٣١) وما اشار اليهِ صفحة ٤ بقولهِ : « وليست الحلقة الاولى التي انفصلت عنها الاّ نبتون » وهذا يعني ان نبتون هو ابعد السيارات المعروفة . فاين السيار بلوتو الذي كشف في ١٣ مارس ١٩٣٠

وقد رأينا في صفحات الكتاب الفاظاً عربية علمية معرّبة او مترجمة مع ان قليلاً من التنقيب كان يكفي للاهتداء الى اللفظ العربي الصميم او السائر المتفق عليهِ فقد ذكر حجر الاوبسيديان بلفظه الاعجمي وهو السبَج بحسب وصف التيفاشي لهُ . وذكر جبال روشوز معرّباً لفظ Rocheuses الفرنسي . وكان يجب ان يقال الجبال الصخرية لان « روشوز » ليس علماً لهذه الجبال بل هو مترجم Rocky وهو الاسم الذي تعرف به هذه الجبال في اميركا

فاذا شاء التعريب فليعرّب الاسم الاصلي المعروف في اميركا . وقال صفحة ٣٤ «فالحرارة المنتشرة من الشمس يدخرها الهواء ويكوّن من حول الارض طبقة حامية» ودافئة في هذا المقام اصلح من حامية

مفكرة القس اسعد منصور

رحل القس الورع اسعد منصور وزوجته الى بلاد الانكليز في يونيو سنة ١٩٣٠ وعادا منها في سبتمبر فزارا انكلترا واسكتلندا وقد دوّن القس اسعد في مفكرته اليومية ما شاهداهُ من آثار العمران في تلك البلاد العجيبة وتاريخ المشاهد والاشخاص . فهنا وصف قصر وهنا تاريخ معهد وهناك سيرة رجل وهنالك بيان مظهر من مظاهر الحياة الخاصة او العامة . قال « ذهبنا وباصرتنا مفتوحة كبصرنا وعقلنا مهيأ لاستيعاب ما يمرُّ بنا وما نمرُّ به . كنا ندرس تاريخ المشاهد والاشخاص . كنا نتأمل ونبحث ونقيس ونستنتج ثم ندوّن ما يجدهُ القارىء في هذه المفكرة» . فتحنا المفكرة اتفاقاً عند الصفحة ١٠٣ فرأينا العبارة التالية وفيها اجمال لما اشتهر عن الملك هنري الثامن من تعدُّد زيجاته قال : — بعد ان فعل ذلك استصدر أمراً من البرلمان بالغاء زواجهِ غير الشرعي بكاترين (كاترين الارغونية) وتزوّج حنة بولين وسنة ١٥٣٦ ماتت كاترين واعدمت حنة بولين بتهمة الخيانة الزوجية وتزوج حنة سيمور التي ماتت بعد ان ولدت لهُ ادورد السادس وتزوج حنة كليفس ولم يطل الوقت حتى كرهها ثم طلّقها (فنشأ عن ذلك خلافهُ مع كرانمر رئيس اساقفة كنتربري) وتزوّج كاترين هورد وبعد سنتين الحقها بحنة بولين فاعدمها بتهمة الخيانة الزوجية وتزوّج كاترين بار .... وهي الوحيدة التي عاشت بعدهُ . فزوجاتهُ ستٌّ ثلاث كاترينات وثلاث حنّات» . وقال صفحة ٤ في وصف لندن يوم الاحد : — «اقرأت عن عظم الازدحام وشدَّة الحركة . كل ذلك يقف وقوفاً تامّاً يوم الاحد . ويختلف نظر الناس الى هذا الوقوف بحسب اهوائهم فالعالمي يصف لندن في يوم الاحد بالمقبرة .... اما اهل الدين فيقولون هكذا يجب ان تكون الام المسيحية وبلدانها»

والكتاب في ١٢٩ صفحة من قطع المقتطف وقد طبع بمطبعة دار الايتام بالقدس

الضعف التناسلي

تأليف الدكتور نخري — طبع بالمطبعة العصرية — صفحاته ٢٣٨ قطع المقتطف

قال الدكتور نخري في مقدمته : « دفعني خلوّ اللغة العربية من مؤلف علميّ حديث عن امراض الضعف التناسلي المتعددة لان اقدم لقراء العربية كتابي هذا . ولعلّ الاطباء الذين لا يجدون من وقتهم متسعاً للاطلاع باسهاب على هذه الامراض واجدون بعض الفائدة من تصفح هذه الابحاث . . واملي ان يجد طلاّب الطب في كتابي هذا ما ينير اذهانهم عن مجموعة هذه الامراض» . والضعف التناسلي يتخذ اشكالاً مختلفة في النساء والرجال ولكن الدكتور نخري عمد الى التقسيم العلمي ففصّل ابوابهُ تفصيلاً طبيّاً وصحيّاً وافياً

مطبوعات جديدة

«سلم اللسان في الصرف والنحو والبيان» الدرجة الخامسة — كتاب نفيس الفه العالم اللغوي جرجس شاهين عطية وافرغه في قالب يحبب الى الطالب دراسة هذا العلم ، فقواعده مبسوطة بأسلوب واضح جلي — طبعته مكتبة صادر ببيروت وثمنه ١١ فرنكاً ونصف خالص اجرة البريد

«تهذيب النحو» الجزء الثاني — تأليف الأستاذ مصطفى محمد ابرهيم وضعه للسنة الثالثة الابتدائية ويحتوي على القواعد النحوية وافية مبنية على أمثلة واضحة مضبوطة بالشكل الكامل وفي آخر الكتاب مجموعة طيبة من أسئلة امتحانات المدارس الابتدائية طبع بالمطبعة الحديثة بشارع خيرت وثمنه ٤ قروش

«الموز» تأليف الاستاذ مصطفى الزيادي كتاب يرجع اليه في شؤون زراعة هذه الفاكهة ويشمل كل ما يعترض زراعها من المسائل والعقبات وكيفية معالجتها او تلافيها وهو نتيجة ما اكتسبه المؤلف من دراساته واختباراته لهذه الفاكهة سواء في الهند التي هي اصل موطن الموز او في مصر طبع بمطبعة مصر بشارع نوبار

«جغرافية سوريا» الجزء الاول تأليف الأساتذة كامل نصري وحلدون الكناني وخالد علي — يحتوي على احوال سوريا الطبيعية من موقعها وحدودها وطبقاتها وجوها . . . وعلى الحياة البشرية والمناطق الطبيعية والحياة الاقتصادية والسياسية . طبع بمطبعة الترقي بدمشق

«جنيفاف» رواية تمثيلية اخلاقية بقلم نبيل البستاني وطبعتها مكتبة صادر ببيروت وثمنها ٥ فرنكات

«البخيل» رواية تمثيلية هزلية تأليف الكاتب الفرنسي الشهير موليير نقلها الى العربية الأديب الشاعر الياس أبو شبكة وأخرجتها مكتبة صادر ببيروت

«زفرات القلوب» وضعه بايعاز لجنة التمثال الخوري المؤرخ عيسى اسعد ويحوي ترجمة وافية لحياة المطران اثناسيوس عطا الله متروبوليت حمص وتوابعها للروم الارثوذكس وما قيل في وفاته من منظوم ومنثور وفي حفلة رفع الستار عن تمثاله طبع بمطبعة السلامة بحمص

«القراءة الفريدة» سلسلة كتب للمدارس الابتدائية عني بجمعها وشرحها الأستاذ شريف النشاشيبي مساعد مفتش المعارف في لواء الجنوب بيافا . ظهر منها ثلاثة أجزاء تحوي على الكثير من منثور الكلام والشعر والمواعظ البليغة والأمثال اللطيفة مع قصص قصيرة جامعة . طبع بمطبعة المعارف بشارع الفجالة

«ابنا نورة» تأليف الاديب حسن طنطاوي سليم ويحتوي على شعر قصصي غزلي وحكم وامثال ومراث طبع بمطبعة العلوم وثمنه قرشان



الفضاء بين النجوم

كان المثل العلمي يضرب في الفراغ، بالفضاء بين النجوم، ولكن هذا القول كطائفة كبيرة من الاقوال العلمية، يحتاج الآن الى تنقيح، اذا اخذنا بالمباحث التي قام بها علماء مرصد يركيز الاميركي، التي تدل على ان الفضاء في رحاب المجرّة وبين نجومها ليس فراغاً، بل يملأه ضباب لطيف جدًّا قد يحسب، للطافته، فراغاً تامًّا، اذا قوبل بالفراغ الذي يستطيع علماء الطبيعة ان يحدثوه في الانابيب اذ يفرغوها من الهواء

***

ودليلهم على ان هذه الرحاب ليست فارغة فراغاً تامًّا احمرار النور القادم من النجوم البعيدة، بعد اختراقهِ للفضاء. وقد أثبت الدكتور طرمبلر Trumpler ان النور القادم من النجوم البعيدة اكثر ميلاً الى الاحمرار من النور القادم من النجوم القريبة. وهذا يؤخذ دليلاً على ان ما في الفضاء لهُ اثر في ضوء النجوم، كأثر الغبار في ضوء الشمس اذ تكون عند الافق. فرور أشعة الشمس في الهواء وهي عند الأفق، ينشئ من المادة المنتشرة اللطيفة الشفق القرمزي الذي يتمتع بهِ محبّو الطبيعة عند الغروب

غاز الهليوم في المعادن

من الحجارة الكريمة حجر يدعى الزبرجد Beryl فاذا كان صافياً عدَّ في الجواهر. وهو يحتوي على مقادير من غاز الهليوم تختلف باختلاف الطبقة الصخرية التي اقتطع منها. وغاز الهليوم ينشأ من تحوُّل العناصر البطيء في الصخور فمقداره دليل على عمر الصخر، اي ان غاز الهليوم قد يستعمل احياناً لمعرفة عمر صخر من الصخور، كما يستعمل الراديوم والرصاص الذي ينشأ منهُ بعد نفاد اشعاعهِ

وقد كتب اللورد رالي العالم الطبيعي البريطاني، الى مجلة نايتشر يقول انهُ عني بتحليل مقادير غاز الهليوم الذي في حجارة الزبرجد المختلفة وبعد المقابلة بسرعة انطلاق دقائق الفا (او ذرات الهليوم) من عنصر البريليوم، قدَّر ان مقادير غاز الهليوم في الزبرجد تقتضي مدة تتراوح من خمسين الف مليون سنة الى مائة الف مليون سنة لتجمعها في هذا الحجر

ولا يخفى ان هذه المدة هي اطول كثيراً من المدة التي قدّرت لتجمع الرصاص الناشيء من الراديوم في الصخور، وهي على الاكثر نحو الفي مليون سنة. واذاً فثمة اختلاف كبير بين الحسابين، لا يجلوهُ الاَّ التعمق في البحث

الاشعة اللاسلكية القصيرة

لقد فاز ماركوني ثانية في تحيير العلماء . اذ أثبت ان الاشعة اللاسلكية القصيرة تخترق الجبال وتنحني مع انحناء الارض فتتلقاها محطات الاستقبال التي وراء الافق . فالتاريخ يعيد نفسه . ذلك ان بوانكاره العلامة الرياضي الفرنسي اثبت سنة ١٩٠١ بالحساب الرياضي ان المخاطبات اللاسلكية لا يمكن ان تتعدى محطتين المسافة بينهما اكثر من ١٦٠ ميلاً لان الامواج اللاسلكية لا تنحني بانحناء الأرض بل تنطلق في الفضاء في خطّ مماس لكرتها. ولكن في تلك السنة نفسها تمكن ماركوني من التقاط اشارة لاسلكية مرسلة من انجلترا في جزيرة نيوفوندلند على الساحل الاميركي والمسافة بينها نحو ١٩٠٠ ميل

كذلك في العهد الحديث . قال علماء الطبيعة النظرية ان الاشعة اللاسلكية القصيرة يجب ان تتصرف كاشعة الضوء المنطلقة من مصباح كشاف ، فتسير في خطٍ مستقيم ولا يمكن ان تلتقطها محطة مستقبلة وراء الافق . ولكن ماركوني تمكّن من ارسال امواج لاسلكية قصيرة ، طول الموجة منها قدمان ، مسافة ٩٤ ميلاً وهي ثلاثة اضعاف المسافة التي عيّنها العلماء . ارسل الاشارة من يخته « الترا » في عرض البحر فالتقطتها محطة مستقبلة في داخلية ايطاليا

حتى اذا اقتصر استعمال الأمواج اللاسلكية القصيرة على مسافات لا تتعدى مائة او اكثر قليلاً من الاميال كانت فائدة استعمالها كبيرة . فقصرها يمكن مستعمليها من توجيهها بواسطة عواكس مقعّرة من السلك على نحو ما توجّه اشعة النور بمرايا مقعرة الى ناحية معينة . واذاً فتبادل الرسائل اللاسلكية بهذه الامواج يمكن ان يكون مكتوماً بعض الكتمان اذ لا تستطيع محطة غير قائمة في خط اتجاه الاشعة من التقاط الاشارة اللاسلكية التي تحملها . وحينئذٍ لا بدّ من معرفة طول الموجة حتى تضبط الآلة الملتقطة

الاوزون في الطبقة الطخرورية

اعلنت طائفة من علماء سويسرا وبريطانيا ان مقدار الاوزون في الجوّ على اكبره في الطبقة الطخرورية (الستراتوسفير) على نحو ثمانية اميال فوق سطح البحر . والاوزون نوع من الاكسجين في كل جزيء منهُ ثلاث ذرات من الاكسجين بدلاً من جزيئين كما هي الحالة في الاكسجين العاديّ الذي لابدّ منهُ للحياة . وللاوزون رائحة قوية حادة ويتولّد من مرور الشرر الكهربائي في الهواء . ويقال ان المهندسين الذين يجربون التجارب بالتيارات الكهربائية العالية الضغط يصابون بصداع قوي ، يسند الى كثرة الاوزون في الهواء . ولكن قليلاً منهُ في الهواء مطهّر للدم لان جزيئه غير مستقر فتفلت منهُ ذرّة من الاكسجين ، وهي شديدة الفعل لانها تميل في الحال الى الاتحاد بذرة اخرى لتوليد جزيء اكسجين عادي مستقرّ . وفي ميلها هذا تؤكسد بعض المواد التي في الدم ، بعد تنفسها فتنقيه

عجائب الاشعة التي فوق البنفسجي

لا ريب ان للاشعة التي فوق البنفسجي اثراً فعالاً في توليد فيتامين (د) المقاوم للكساح وقد عمدت بعض المصانع الى اخراج اطعمة قيل انها عرّضت لهذه الاشعة. فبعضها زادت قيمته الغذائية وبعضها نقصت لسوء التعريض. ولكن جاء من الولايات المتحدة الاميركية انهُ ذا عرّض جلد بطن البقرة لهذه الاشعة امتصّها الجلد فتحلب البقرة لبناً غنيًّا بهذا الفيتامين . ثم ان بعض محطات التجارب الزراعية تجرّب ان تمتحن اثر هذه الاشعة في النباتات فتعرّض لها البزور والافرُخ ثم تراقب نتائج هذا التعريض . ومعلوم ان بعض الثمار يجفّف في الشمس لحفظهِ من دون ان يضاف اليهِ سكر او ملح او اية مادة حافظة اخرى. ومن هذا القبيل العنب والتين والرطب (البلح) . ولكن ثبت الآن ان الاشعة التي فوق البنفسجي افعل في حفظ الاثمار على هذا المنوال من نور الشمس . والخبز الذي يعرّض لها بعد لفّهِ بورق شفاف يحفظ سليماً من العفن مدة عشرة ايام على الاقل . ويستعملها كشافو الجرائم في فضح المزوّرين والقتلة وغيرهم

الحامض الايدروسيانيك السامّ

هذا الحامض سمٌّ زعاف . وقد كشف الاستاذ ميراند الفرنسي جنسين من الفطر (عيش الغراب mushroom) يحتويان عليهِ في تاج الفطر ولكن البزيرات التي ينبت منها الفطر وجذوره الخيطية خالية منهُ ، وهذا الجنسان هما مراسيموس (Merasimus) وكليتوسيب (Clytosybe)

رأي جديد في السرطان

نشرت المس مود سلاي Slye الباحثة في معهد سبراج للسرطان في شيكاغو ، نتائج مباحثها خلال ٢٣ سنة في السرطان في المجلة الاميركية للسرطان فقالت انها شرّحت ١١٦ الف فأرة مصابة بالسرطان فثبت لها ان في احد الكروموسومات عاملاً خاصًّا يورث القابلية للاصابة بالسرطان. وان عدم القابلية للاصابة بهِ صفة متغلبة. وان القابلية للاصابة بهِ صفة مغلوبة. ومعنى هذا انهُ اذا تزوج رجل فيهِ عدم القابلية للاصابة بالسرطان بسبب عامل الوراثة الخاص، بامرأة فيها قابلية للاصابة بهِ جاء نسلهما غير قابل للاصابة . واما نسل النسل فيكون ربعهُ قابلاً للاصابة وثلاثة ارباعهِ غير قابل بحسب قواعد مندل في الوراثة

فالوراثة ليست سبب الاصابة بالسرطان في رأيها. ولكن اذا تضافرت عوامل خارجية كالاحتكاك مع عوامل داخلية كنقصٍ خاص في الغدد الصمّ ، في شخص ورث قابلية الاصابة بالسرطان اصيب بهِ . وهذا يذكرنا بقول استاذ للطبيعة في انكلترا. قيل ان احد الطلاّب سألهُ ما هي الجاذبية فقال لا ادري فقال الطالب ولكن كتب الطبيعة تذكر حدّها فقال الاستاذ وذلك الحدُّ غطاء لجهلنا فقط

البكتيريا والاشعة التي فوق البنفسجي

من المقرر بوجه عام ان توجيه الاشعة التي فوق البنفسجي الى مزدرعات البكتيريا يميت البكتيريا فلا تتكاثر في المزدرع، ولكن الدكتور جايتس (Gates) الاستاذ بجامعة هارفرد اثبت ان هذه الاشعة لا تميت كل البكتيريا، وانما تحمل بعضها على النمو نمواً شاذاً. فقد وجه الى مزدرع من باشلس القولون اشعة ثبت انها لا تؤاتي نمو هذه المكروبات. فقتل بعضها في الحال. وظل بعضها حياً ينمو ويتكاثر غير متأثر بالاشعة. وبين الطائفتين كانت طائفة ثالثة تصرفت بعد توجيه الاشعة الى المزدرع تصرفاً شاذاً. فبعضها استطال من دون ان ينقسم حتى اصبح خيوطاً شبيهة «بالمكرونة» على قول الدكتور غايتس. وبعضها نخن حتى اصبح قطره ثلاثة اضعاف قطر الباشلس العادي. والباشلسات التي تصرفت هذا التصرف الشاذ كانت تتحرك كالديدان او الحيات او تخترق لها طريقاً في السائل المحيط بها كأنها منقب (خرامة) حي. فاذا انقضت عليها ثلاث ساعات او اربع حالت degenerated فتتقطع قطعاً وهذه القطع بدورها تحول وتنحل

زجاج عجيب

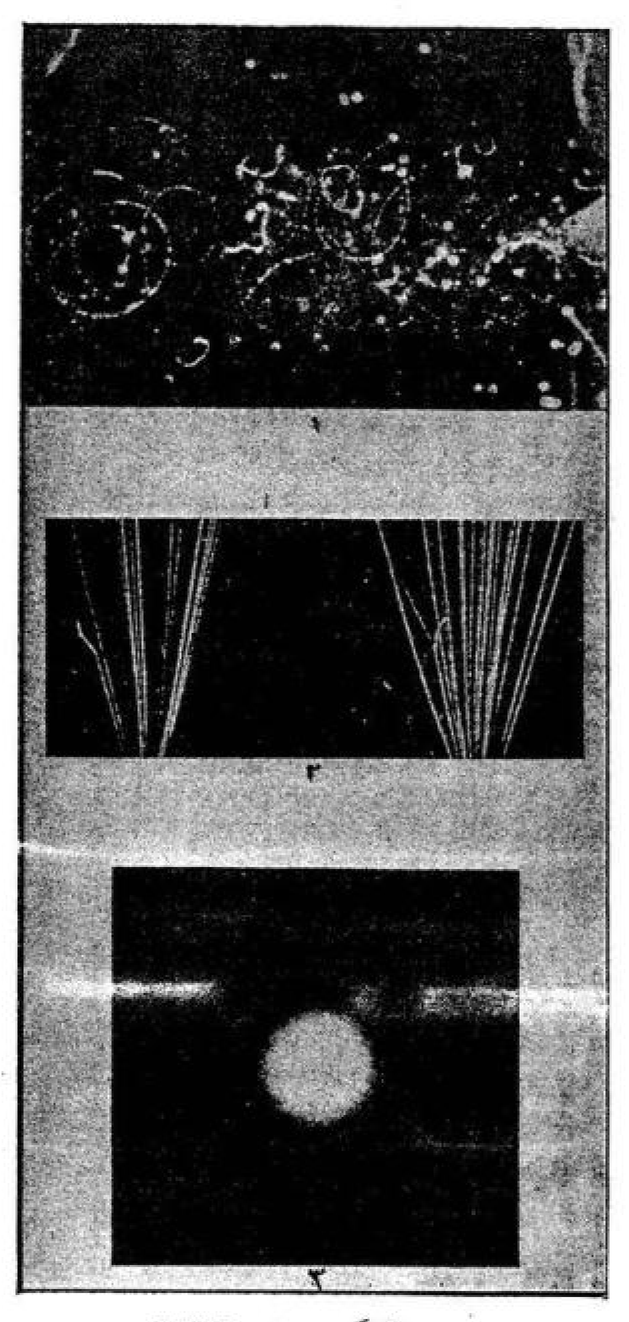
في انباء المانيا ان مصانع هرتزوجنرات Herzogenrat قرب آكن اخرجت زجاجاً مرناً ينحني ولا ينكسر. وقد اخذ لوح منه بحجم لوح الزجاج الذي في مقدم السيارة وثخانته ووضع على مائدتين بينهما خلاء فوقف عليه ثلاثة رجال فانحنى قليلاً تحت وزنهم ولم ينكسر ثم لما زلوا عنه عاد الى شكله المسطح وهو زجاج حقيقي. اي ليس بمادة غروية مقساة ولا بزجاج مؤلف من طبقات رقيقة كالزجاج الذي يصنع للسيارات الحديثة فاذا صدم انكسر ولكن لم يتشظ

لقاح جديد للجدري

جاء في مجلة اللانست الطبية ان الكولونل ستيفنسن والدكتور بطلر (G. G. Butler) الباحثين في معهد اللفا التابع للحكومة البريطانية، اكتشفا طريقة حضرا بها اللقاح ضد الجدري من بيض الدجاج، بدلاً من تحضيره بحقن العجول، كما يحضر عادة. وقد استخرجا من ٢٨ بيضة مادة تكفي لتلقيح سبعة آلاف شخص. وقد علقت اللانست على ذلك بان هذا اللقاح معقم، لا تشوبه البكتيريا، وان طريقة تحضيره سهلة وقليلة النفقة

التلوُّن في السمك

كان علماء الأسماك يعلمون ان بعض اصناف السمك تملك مقدرة الحرباء على تغيير لونها، بقبض الاجسام الملونة في جلدها او تمديدها. ولكن الدكتور فرنسيس شمتز، احد علماء معهد سكربس للاوقيانوغرافية اثبت انهُ اذا طال اتصال بعض اصناف السمك ببيئة جديدة تقتضي لوناً خاصاً ولَّد الاجسام الملوَّنة اللازمة او تخلص من الاجسام التي في جلده غير الموافقة لبيئته الجديدة



معقل الذرّة — اللوحة الثانية

النسر العربي[1]

حلق النسر في الفضاء بعيدا ،

رجع النسر في الفضاء شهيدا ، —

شهيداً يكفنه السحاب ،

شهيداً تشيعه النجوم ،

شهيداً نعته شمس الضحى ،

شهيداً حملته أكف السماء ،

فكان عليًّا ، وكان وحيدا .

***

نسر العروبة مَدرجَةُ البطحاء ، ومشحذ جناحيه جبالُ الرسول .
نسر العروبة حبيبُ الحرَم ، وربيب البوادي .
ان البادية مرضعته ، والخيام مأواه ، والرمال فراشه وملعب صباه .
نسر العروبة في حمى الحريّة —
طليقٌ جريءٌ ، وديعٌ ابيٌّ ، انيسٌ وفيٌّ .
نسر العروبة في ظلالٍ قدسية —
شفيق كريمٌ ، طهيرٌ حليمٌ ، قويٌّ تقي .
تبارك الحمى ، وتباركت المرابع والرمال .
تبارك الارث ، وتباركت السجايا .
فمن جبل النور نورُهُ ، ومن المضارب شعورُهُ .

---

(١) تليت في حفلات الاربعين لفقيد العرب وكبيرهم الملك فيصل التي اقيمت في بغداد ودمشق والقدس

من قم الهدى [١] شمَمُه ، ومن ربيع الطائف زهوره .

***

وقد كتبت له الهجرة ليتمَّ الله خلقه فيه.
فكان من العُرْب، وكان من السراة .
بل كان في الصروح الفخمة مثله في بيوت الوبَر .
وكان في المجالس المهيبة مثله في فسيح العَراء .
فمن بساتين يلدز سوسن مبسمه ،
ومن مياه آسية [٢] حلو شمائله ،
ومن بلوج الفجر على ضفاف البسفور بهاء طلعته.
ومن ذهب الشفق على حواشي مرمرة ذهبُ نطقه .
ومن ظلال السرو في جوار ايوب تلك الوداعة فيه وتلك السكينه .

***

نسر العروبة ربيب العاصمتين ، عاصمة الرسول ، وعاصمة الخلافة.
عاصمة الحق والهدى ، وعاصمة السياسة والدهاء .
فزجت يد الاقدار شرابه ، وفتحت للنبوغ ابوابَه .
ثم همست في اذن النسر تقول :
ان وراءك ثلاثمائة والف سنة من النُبل، وامامك ابدية من الآمال.
ان وراءك امةَ الكهف وقد هجعت ستمائة سنة ، وامامك اعلام اليقظة والجهاد .
سمع النسر ووعى ، وراح يغذي الاماني ، ويستنهض الهمم .
ثم عاد الى وطنه ، ليجاهد في سبيل قومه
فامتشق الحسام باسم الله ، وباسم العرب .
ونادى المنادي : الثورةُ ، الثوره
فهبت في البوادي رياح السموم .
وفزع الى فيصل البدو والحضر ،

(١) جبل الهدى قرب الطائف

(٢) اشارة الى الينابيع التي تدعى مياه آسية الحلوة في بحر مرمره

وهللت للحسين ابيه المدن والواحات .
وكان الجهاد ، وكان النصر ، وكان الفتح الجديد .

***

امة الكهف — ها كها ، بعد ستمائة سنة ، تدهش المستيقظين .
وهاك فيصلها ، وقد كتب لاعلامه الفوز المبين .
ها كه بجيشه الظافر في العاصمة الاموية ،
بل في قلبها ، وقلب ابنائها ، عزيزاً كريما .
هو العيد .
واجمل ما فيه دمشق تغرد الاغاريد .
هوذا المُلْك العربي الجديد ،
وهي ذي ربة التاريخ تنبيء بالبعث والخلود .
ولكن هناك ، على ضفاف التيمس ، شهوداً يذبذبون .
وهناك ، على ضفاف السين ، الخصوم .
راح فيصل يستأنف الجهاد في بلاد المهيمنين على مقدرات الامم .
فوقف في باريس ، في مجلس المستهزئين ، ونطق بالحق المبين .
فكان كالحَمَل بين النمر والاسد[1] .
بل كان ، والحق حليفه ، كالاسد المصفد بين الثعالب والذئاب .
فعاد وحليفه الوحيد يقول : الاستقلال يؤخذ ولا يعطى .
فنشطت الامة ، واخذت حقها .
فكان الاستقلال، وكان التاج ، وكانت ميسلون .
حلق النسر في الفضاء بعيدا .
رجع النسر في الفضاء شهيدا .

***

ليس في حقائق الوجود كلها انصع من حقيقة البعث والخلود .
ليس في مظاهر الكون جمعاء اروع من مظهر الاستمرار والتجدد .
تهمس الطبيعة في قلب السنين فتحيي في فصولها الراحلة املاً ابديًا .

---

(١) أي كليمنصو ولويد جورج

يضع الله في حقيبة الربيع المودّع حفنةً من بذوره الخالدة .
يكفن الله الشتاء الراحلَ بكفن من الثلج المبطن بالازهار الناغة حول القبور .
يمر سرب القطا راحلاً راجعاً بين فصلي القنوط والرجاء .
تغرد القُبَّرة على غصنها الطري وتذهب ، ثم تعود الى التغريد .
رحلة يتبعها أوبة ، وأوبة يتلوها رحيل .
ومثل الربيع ، ومثل القُبّرة ، ومثل عواصف الشتاء ، ما لبث النسر أن عادَ الى الجهاد

***

عاد فيصل ينشد في العراق الامل الاعلى — املَ الامة المنكوبة بالانتدابات وبالجهل (١) — املاً ضاع وما اضمحل .
عاد يشيد على ضفاف الرافدين ملكاً عربيًا جديدا .
عاد يجدد في عاصمة الرشيد والمأمون عصر العلم والهدى ، عصر المدنية والفلاح ، عصر الثقافة والنور .
ولقد شيد ، الملك وجاهد اثنتي عشرة سنة ليوطد اركانه .
وما جاهد هاهنا بسيفه ، بل بما هو امضى وأعزّ واغلى .
جاهد بعقله ، جاهد بقلبه — وجاد بعد ذلك بروحه .
جاهد بكل ما استطاع ان يحشد وينظم من جيش السلم والولاء —
من العلم والحكمة ، من الحلم والكياسة ، من ثبات يمده اليقين ، من دهاء يبرره الحق المغلوب ، ومن حزم تتناوبه الصلابة واللين .
وكانت محجته واحدةً في كل حال من احواله — واحدةً ناصعةً بارزة ، لا تغيرها الاحداث ، ولا تحول دونها قوى المسيطرين .
وحدة العراق وحرية العراق واستقلاله ، تلك هي المحجة العليا .
وكانت الطريق اليها كدرب الصليب الى الجلجلة .
لله انت يافيصل العرب ويارب الوئام ، ياسليل بيت الرسول ويا صفي المسيح .
فقد حملت صليب العراق والانكليز اثنتي عشرة سنة كاملة .
وقد اجتزت المراحل المضنية المخزية كلها ، وانت تبتسم وتكظم وتمشي — تمشي سامد الرأس ، عالي الجبين ، شديد اليقين ، وطيد الامل .

(١) اشارة الى نصف البلاد العربية الشمالي ونصفها الجنوبي

قلت : تمشي ، وما قلت : تطير .
فكم مرة طرت لاغراضك العالية وأمعنت .
كم مرة تحديت ، على نحول جسمك ، العواصف والانواء .
لقد كنت حقاً نسر العروبة بين العاصمتين ، عاصمة الرشيد وعاصمة ابناء العمل الصامت اولي الوجوه المشرقة والقلوب المغلقه .
وقلت إنه حمل الصليب اثنتي عشرة سنة وهو يبسم ويكظم على الدوام .
عفوكِ ايتها الروح الزكيه ، اذا انا قلت الحقيقة كلها .
فقد بكى فيصل ، ايها الناس ، نعم بكى . وما رأت الأمة، عين قلبه الدامعه . وما سمعت جهش قلبه الاليم .

حلق النسر في الفضاء بعيدا .
رجع النسر في الفضاء شهيدا .

***

سيدي فيصل ، قد زرعت بستاناً في العراق ، ورحلت قبل ان تراه مثمرا .
قد زرعت بذوراً في البلاد العربية ، ورحلت قبل ان تراها في ازدهار .
زارعٌ يزرعُ ، وحاصدٌ يحصدُ ، وقدرٌ يسخر ولايستقيم .
ولكنك اليوم وغداً رمز هذه الامة وشعارها ، وقلبها وعقلها ومنارها .
وان في نور هداك ليسلك السالكون والمجاهدون .
وان فرخ النسر لفي مقدمة المجاهدين .
فهو الغازي، وهو للعهد ضمين
ولما كنت عليه الخلف الكريم
فقد كنت في الحرب فيصلاً فاصلا، وفي السلم الوديعَ الجريء الصفي.
كنت في السياسة عينها الباصره ، وميزانها السوي .
كنت في الكياسة طلعتها الساحرة ، ونطقها الذهبي .
كنت في الحذق عنوانه ، وفي الحزم برهانه ، وفي الشدة واللين المثل العليّ .
كنت في الدهاء معاوية ، وفي الصبر والاباء الشريف الرضي.
كنت في الحلم صُنْو الرسول ، وكنت في الوداعة اخا الناصري.
لقد اثرت قلوب المهيمنين هناك على ضفاف التيمس والسين .

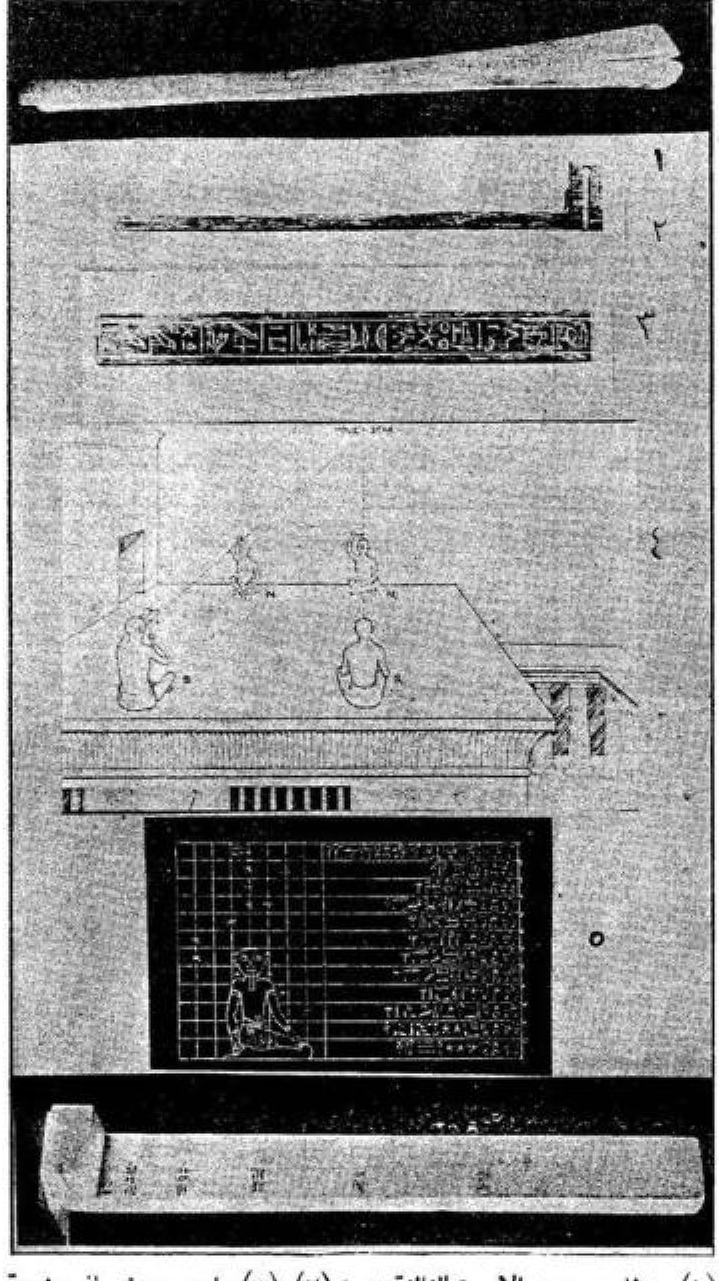
فصاروا يرون ما تراه حقّـاً، ويكبرون جهادك في سبيله .
ولكنهم اعداء انفسهم ، فلا يرعوون ولا يعدلون .
بل هم عبيدٌ للبعل ، وبمشيئته هم مسيّرون .
اننا محبون لاخواننا هناك ، فنريد لهم الخلاص من البعل .
نريد لقوتهم شيئاً من الحق ، ولا يريدون لحقنا شيئاً من القوّة .
وهم مع ذلك يبسمون ويجاملون .
اولو الوجوه المشرقة والقلوب المغلـقة انهم المبلبلون .
او هي الاقدار الباسمة الساخره .
تفرش لفيصل الرمال الذهبية في مدينة الضباب ، [1] وتغدر بامة فيصل يوم تكريمه واجلاله —
تطعنها ، يوم عيده ، في الصميم .
عاد فيصل طائراً مؤاسيا .
ضمد فيصل جروح الامة ، وانعش قلبها .
ثم عاد المؤاسي ينشد في جبال الالب بلسماً لقلبه ، مرهماً لجروحه .
طار مجاهداً — طار مستشفياً — طار مستشهداً — جاد بروحه .

***

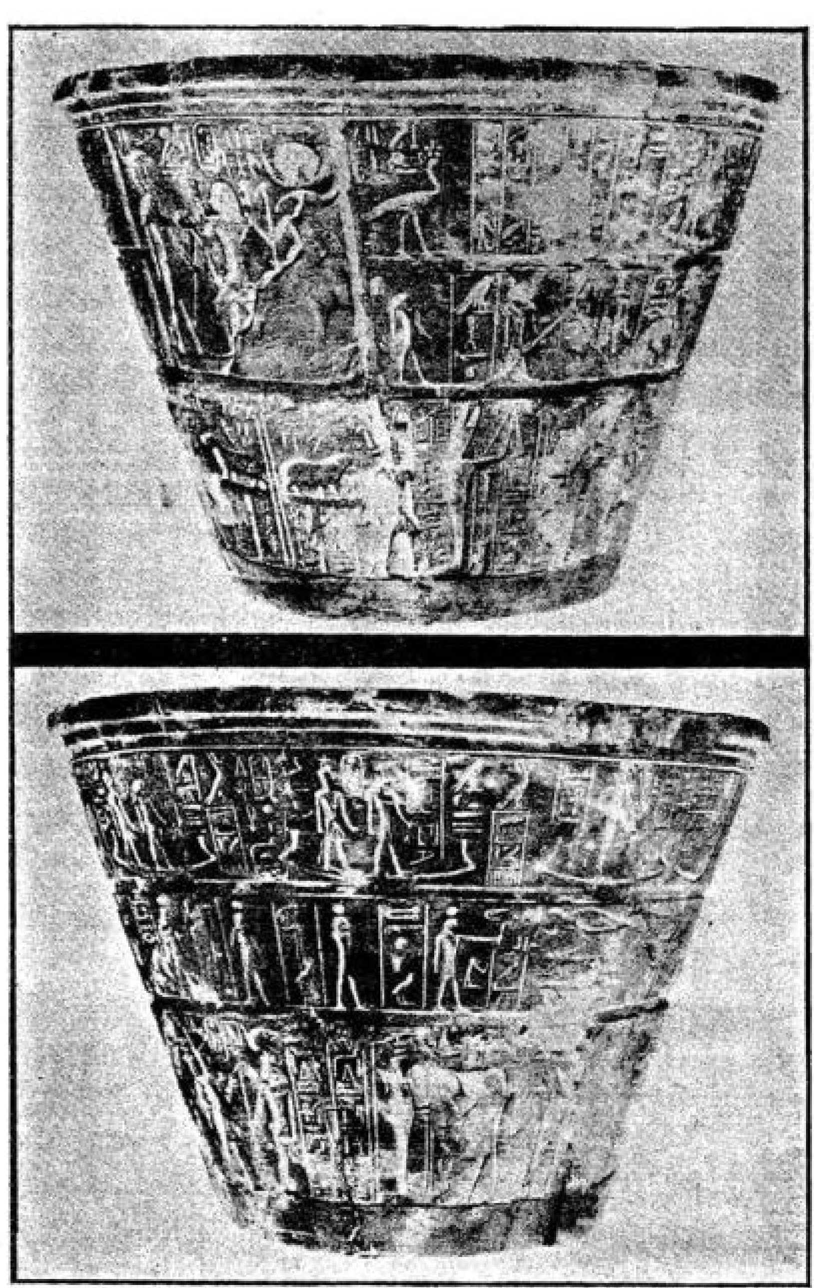
حلق النسر في الفضاء بعيدا
رجع النسر في الفضاء شهيدا —
شهيداً يكفنه السحاب ،
شهيداً تشيعه النجوم
شهيداً نعته شمس الضحى ،
شهيداً حملته اكف السماء ،
فكان عليـّاً، وكان وحيدا .

الفريكة لبنان في ٢٠ (سبتمبر) سنة ١٩٣٣ امين الريحاني

(١) عندما وصل الملك فيصل الى لندن في زيارته الاخيرة ، فرشت له الطريق من المحطة الى القصر بالرمل الاحمر رمزاً للبلاد العربية واكراماً للملك العربي العظيم .

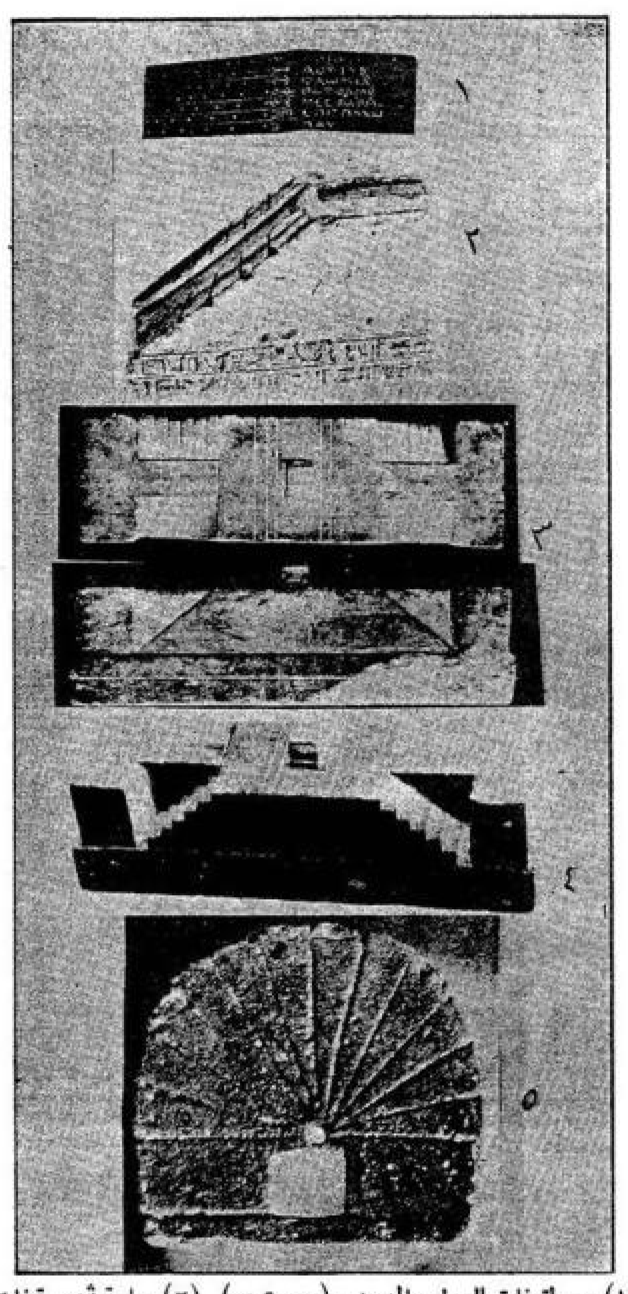


(١) منظار من عهد الاسرة الثالثة عشرة (٢) و(٣) راجع وصفهما في صفحة ٤٩٤ س ٢٠ — ٢٥ (٤) جلوس الراصد على سطح المعبد (٥) رسم لمعرفة مواقع النجوم بالقياس الى اعضاء الراصد الجالس (٦) ساعة شمسية في دار متحف برلين تحت رقم ١٩٧٤٣ . عن مجلة العاديات المصرية

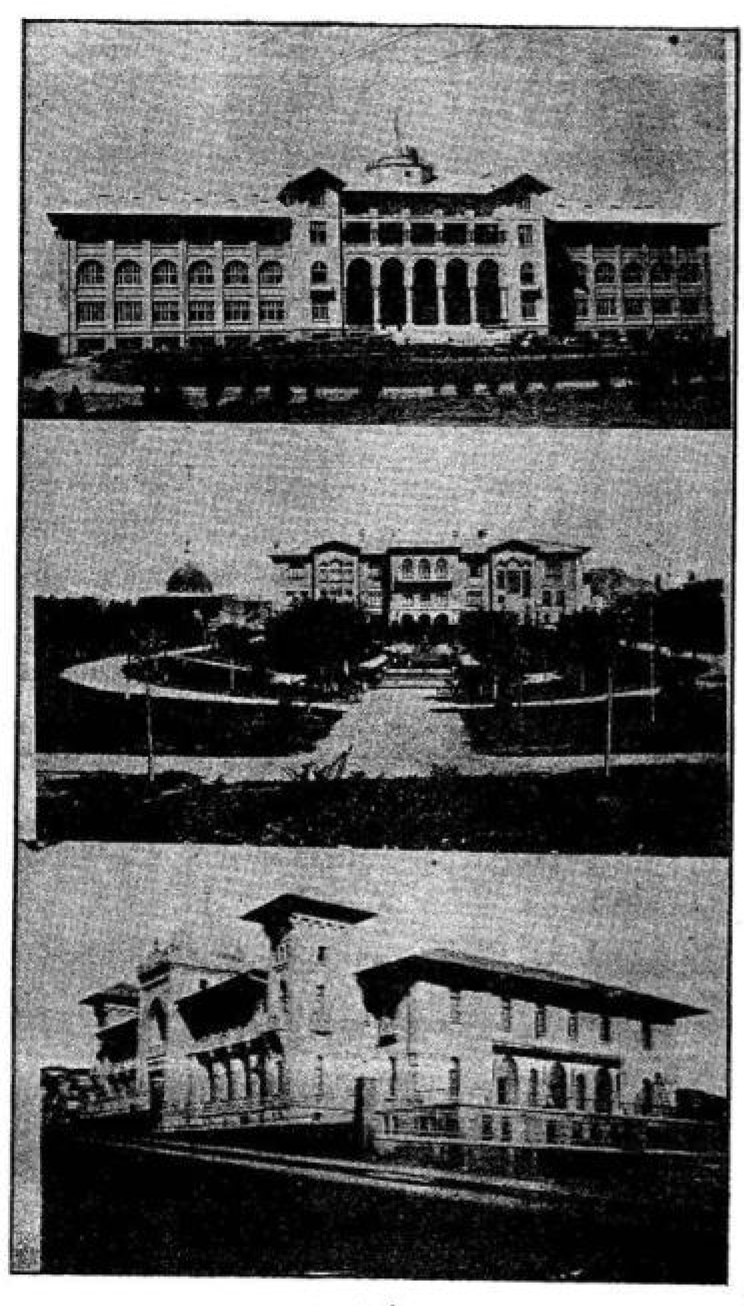


صاعة مائية من الكرنك يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . منقوش عليها من الخارج رسوم فلكية متباينة تمثل النجوم والبروج وغير ذلك

مقتطف نوفمبر ١٩٣٣ — عن مجلة العاديات المصرية — امام ص ٤٠٣



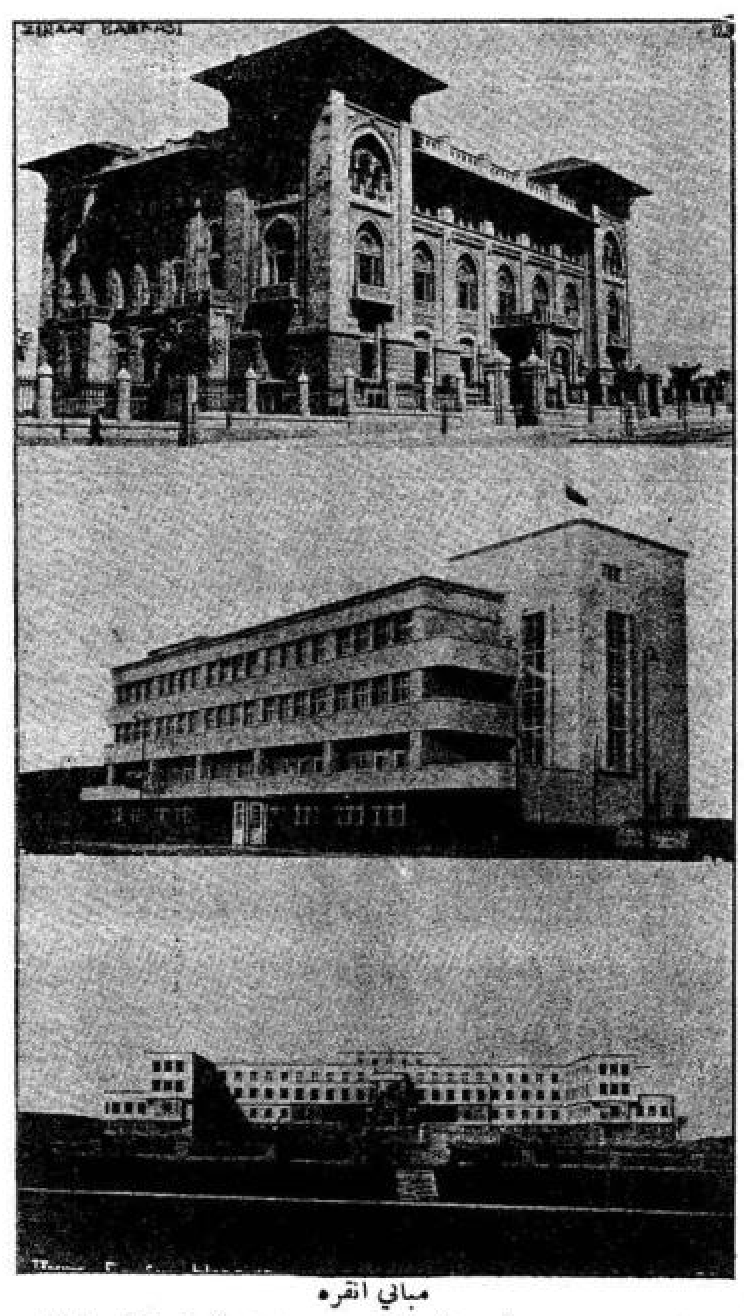
(١) مزولة ذات السطح المنحني (عن بتري) (٢) ساعة شمسية ذات السطح المنحني بجامعة لندن (عن بتري) (٣) ساعتا ظل (مزولتان) محفوظتان بمتحف القاهرة تحت رقم ٣٣٤٠١ (٤) مزولة اخرى في متحف القاهرة (٥) مزولة من الاقصر محفوظة في متحف برلين عن مجلة العاديات المصرية



مباني انقرة

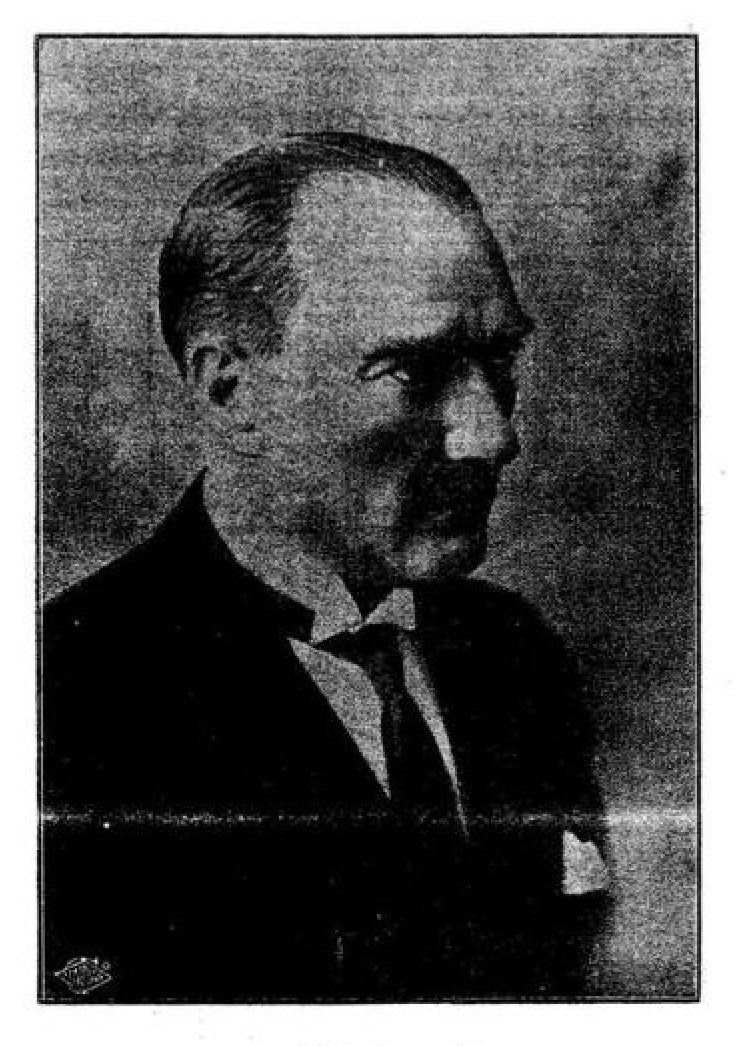
(فوق) معهد الغازي : دار المعلمين (وسط) دار مجلس الامة

(تحت) فندق انقرة بالاس

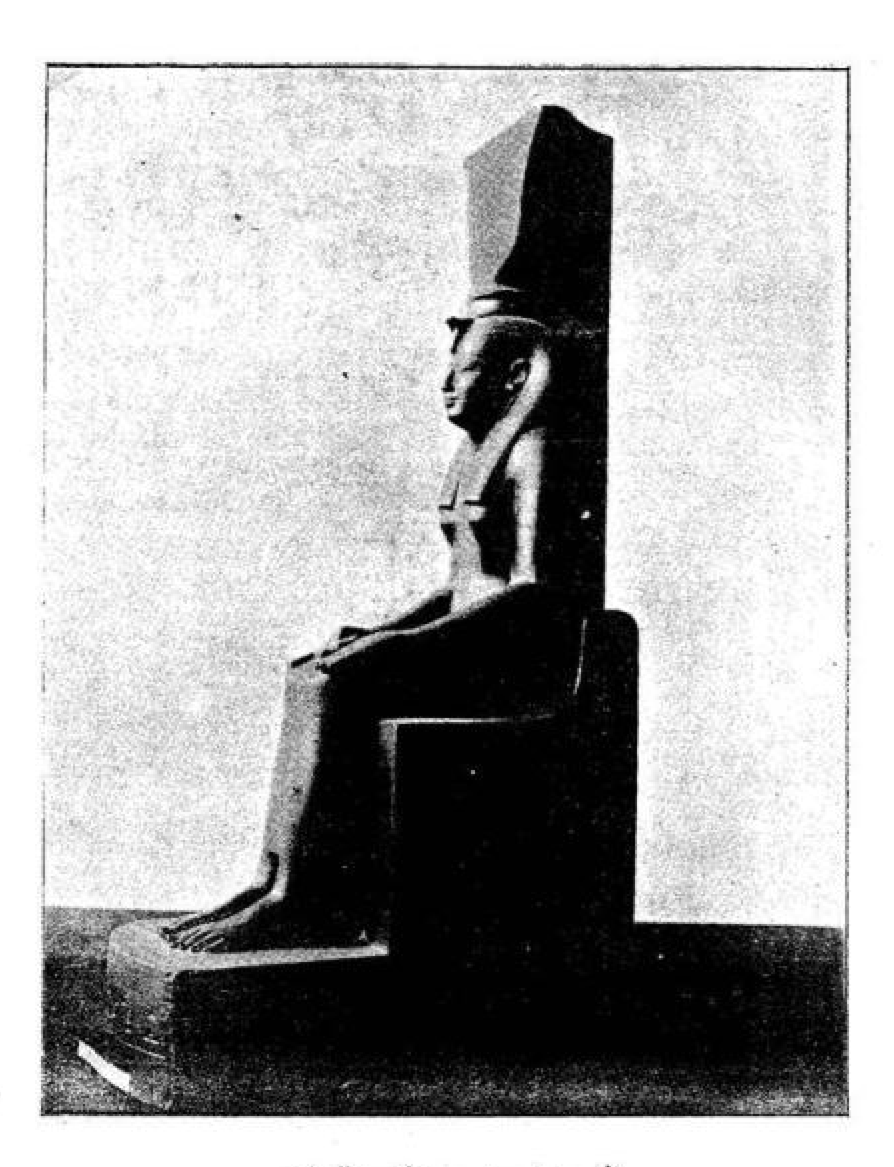


مباني انقره

(فوق) البنك الزراعي (وسط) معهد عصمت لتعليم البنات الاقتصاد العملي
(تحت) مقرّ اركان الحرب



الغازي مصطفى كمال

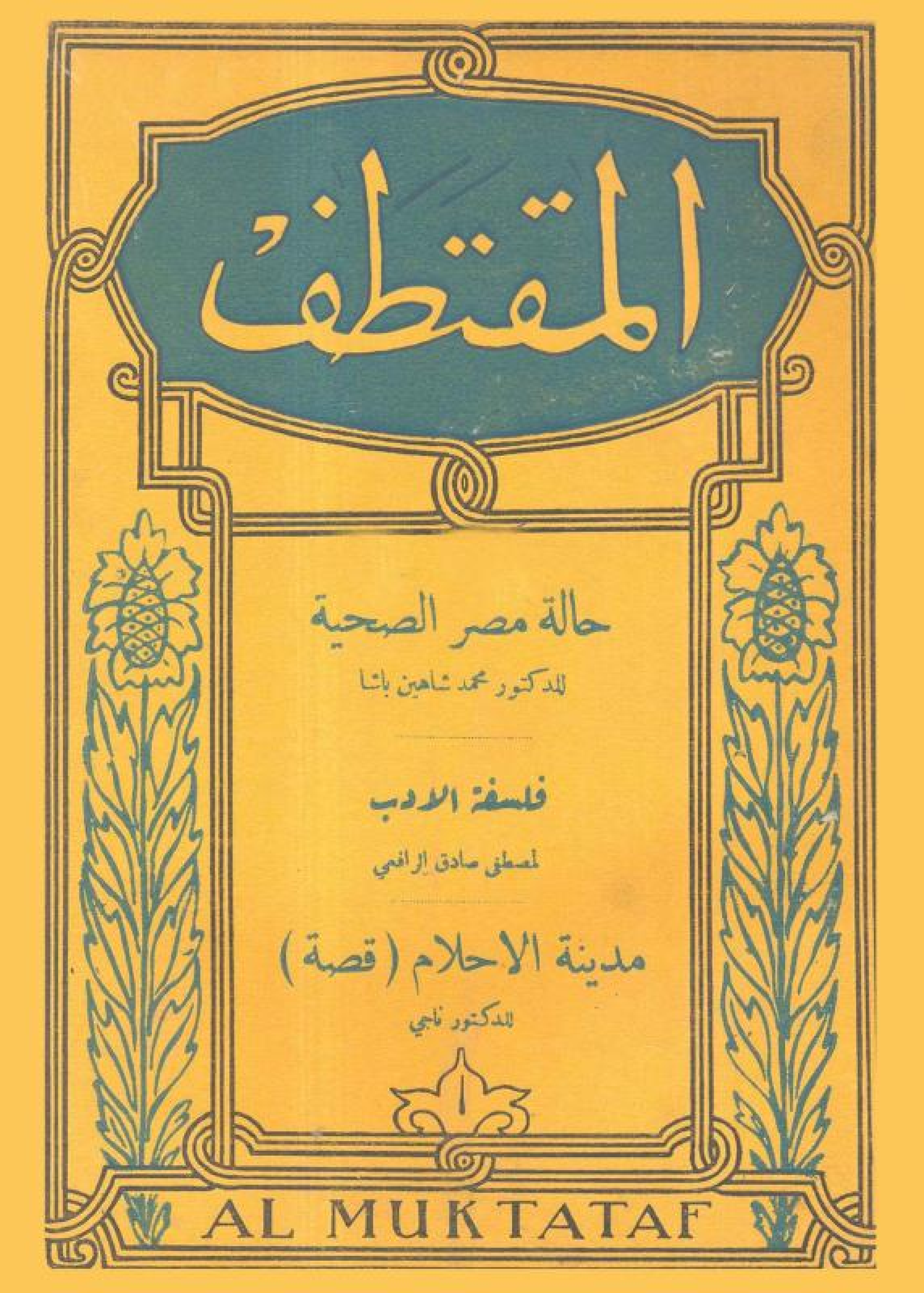


المعبود ازوريس من العهد الصاوي
محفوظ في دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال

انظر مقالة الزراعة المصرية القديمة

الجزء الرابع من المجلد الثالث والثمانين

صفحة


المقتطف
حالة مصر الصحية
للدكتور محمد شاهين باشا
فلسفة الادب
لمصطفى صادق الرافعي
مدينة الاحلام (قصة)
للدكتور ناجي
١
AL MUKTATAF

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الثالث والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ — ١٣ شعبان سنة ١٣٥٢

السر ألفر لدج

Sir Oliver Lodge

مباحثهُ العلمية — الضباب والكهربائية واللاسلكية — فذلكة من ترجمته

عبوره على جسر الاثير من العلم الى الفلسفة والاعتقاد في مخاطبة الارواح

السر ألفر لدج من أعجب الشخصيات التي تشغل مقاماً عالياً في عالم الفكر الحديث . عالِمٌ طبيعي في الطبقة الاولى بين علماء الطبيعة فهو صاحب مباحث طريفة في صلة الكهربائية بالضباب وفي الوقاية من الصواعق، وركن من الاركان التي قامت عليها المباحث والمستنبطات اللاسلكية. انهُ ندُّ هرتز وممهد السبيل لماركوني . ثم هو يجمع بين العلم والفلسفة . لا يكتفي بالتجربة والمشاهدة ، وانما يبني على التجربة والمشاهدة نظرات فلسفية ، تدور حول الاثير ومكانهِ في الكون والحياة . كان من اوائل العلماء الذين رحبّوا بالفتوحات الجديدة في علم الطبيعة بدراسة الالكترون ومنبثقات الراديوم وظواهر الاشعاع . ومع ذلك ما يزال السر ألفر لدج ، من العلماء القلائل ، الذين لم ينبذوا الاثير ، بعد ما اثبت مذهب النسبية ان لا حاجة بالعلم اليهِ. فهو ما يزال يقول ان الاثير ضروري لتفسير بعض الظاهرات الاساسية في الطبيعة والحياة والعقل

هذا الرجل الذي اكتشف واستنبط وعلَّم وألَّف عشرات الكتب ، اتصل من طريق بحثهِ في الاثير ، الى العالم الكائن من وراء الحسّ . فآمن ببقاء الشخصية بعد الموت. وبامكان مخاطبة الارواح . وبالفعل خاطب روح ابنهِ ريموند الذي قُتل في الحرب الكبرى ووضع في ذلك مجلداً ضخماً . وما يزال حتى الساعة مرجعاً للباحثين في مناجاة الارواح ولكنهُ منزَّه عما ينسب الى اكثرهم من خداع ، ان لم ينزَّه عما يرمون بهِ جميعاً من الخداع

— ١ —

نحن في يوم من ايام دسمبر سنة ١٩٠٤ والضباب في مدينة برمنغهام الانكليزية ملبّد لا تكاد ترى يدك اذا مددتها . في صحن الجامعة وقف رجل مديد القامة ، وقور الطلعة ، يفحص اسلاكاً من صنف معيَّن . ثم سمعت لعلعةٌ على مقربة من الرجل ، كانت ايذاناً بقفز شرارة كهربائية من قطب الى قطب . واذا بالضباب الكثيف تقل كثافتهُ . وليس هناك ريح تدفعهُ امامها . واذا بمباني الجامعة تبدو في الضباب اللطيف كالاشباح تنجلي رويداً رويداً ، على لوحة فوتغرافية في حوض التحميض . تحوَّل الضباب الى غيم ، والغيم الى سحاب . واذا الجوُّ في صحن الجامعة صافٍ خالٍ من الشوائب ، يحيط به الضباب من كل جانب . ثم فُصِل السلك الذي احدث الشرر الكهربائي، فبدأ الضباب يرتدُّ الى الصحن، كأنه جيش يعيد الكرة على معقل أُخذ منهُ عنوة ؛ ولكنهُ يبغي ان يحتلَّهُ ثانية

بعيد ذلك بأيام ، اعيدت التجربة نفسها في مدينة لفربول ، فتمكن السر اليفر لدج ، مدير جامعة برمنغهام من ان يبدّد بشرره الكهربائي الضباب الكثيف من بقعةٍ طولها نحو ستين قدماً وعرضها نحو ستين قدماً وعلوّها نحو ستين قدماً

***

كان الضباب ولا يزال من اعدى عداة الانسان في السفر ، برّاً وبحراً وهواءً . فالضباب اذا تكاثف فيمدينة منشستر وضواحيها، شلّت حركة المواصلات، لان القطارات والترامواياث تعجز عن السير خوفاً من الاصطدام . او اذا هي سارت زحفت زحفاً . والبواخر اذا اكتنفها الضباب خففت سرعة سيرها ونفخت بصفاراتها تنبيهاً للبواخر التي لا تستطيع رؤيتها مع قربها منها . وكم ذهبت طيارة وكم راح بلون ضحية الضباب الكثيف، اصطداماً بجبل قريب لم يرَ ، او ببرج عالٍ او بناية شاهقة . لذلك عني العلماء بدرس هذه الظاهرة الجوية والبحث في الاسباب الوافية لمكافحتها والتغلّب عليها . والوسائل العملية تنجب في الغالب من المباحث النظرية . ففي سنة ١٨٧٠ ابان الاستاذ تندل العالم الانكليزي ان الجوَّ الذي يحيط بقضيب حامٍ من الحديد يكون خالياً من الغبار . فظُنَّ اولاً ان حرارة القضيب تحرق دقائق الغبار في الهواء الملاصق لهُ . وقيل كذلك ان تيارات الهواء الساخنة المنطلقة من جوار القضيب تطرد الغبار . ولكن لدج اثبت سنة ١٨٨٣ ان هذه المظاهر لا تفسَّر باحد التفسيرين المتقدمين . بل يمكن تفسيرها بفعل كهربائي . ولاقامة الدليل العملي على صدق نظرهِ قام بالتجربة التي تقدم وصفها، فاثبت انك اذا كهربت ضباباً رسبت الدقائق التي تكوَّنت عليها قطيرات الماء الى الارض وتبدَّد الضباب

كان لدج من ايام الدراسة قد وجَّه عناية خاصة الى الظواهر الجوية ، وبوجهٍ خاص ما كان متصلاً منها بالكهربائية . وكتب سنة ١٨٩٢ كتاباً في الموضوع جعل عنوانه «موصلات

البرق وواقياته» . كان القضيب الواقي من الصواعق، المعروف بقضيب الصاعقة قد اقيم اولاً في اميركا . استنبطهُ بنيامين فرنكلن العالم والسياسي الاميركي، سنة ١٧٥٢. وقضيب الصاعقة يصنع عادةً من حديد او نحاس ، محدَّد الرأس ، ومتصل بلوح معدني بالارض الرطبة . فاذا اقتربت من البناء الذي اقيم عليهِ القضيب، غيمةٌ مشحونة كهربائية استنفد القضيب المحدد كهربائيتها رويداً رويداً. فاذا تعذَّر ذلك وانطلق الشرر الكهربائي من غيمة مشحونة كهربائية موجبة الى غيمة مشحونة كهربائية سالبة ، تلقى القضيب الشرر دون البناء ، واوصله الى الارض فيوقى البناء كذلك ضرر الصاعقة. وذاع استعمال قضيب الصاعقة على ابراج الكنائس ومداخن المعامل وغيرها من المباني العالية . ظناً انهُ يقي هذه المباني وقاية تامة من الصواعق. ولكن الوقاية لم تكن تامة . لان الصواعق انقضَّت على بعض المباني رغم قضبان الصواعق التي اقيمت عليها . فانقلب رأي الناس في فائدة قضيب الصاعقة ، وعندئذٍ بدأ السر اولِڤر لدج يعالج الموضوع . ولما كان الموضوع لا يهمنا كثيراً في هذه البلاد ، رأيت ان اكتفي بالاشارة اليهِ . وقد كان من اثر مباحث لدج ان حسن قضيب الصاعقة حتى يفي بالغرض منهُ وفاءً تامًّا ، وجنت ادارة البريد البريطاني من مباحثهِ هذه وتجاربه ، فائدة كبيرة في وقاية اعمدة التلغراف والتلفون واسلاكهما

— ٢ —

كانت مباحثهُ في البرق والصواعق والوقاية منها ، مما استرعى نظرهُ للبحث في الامواج اللاسلكية . ولعلَّ القول بان السر الڤر لدج من الاركان الذين قامت على مباحثهم المستنبطات اللاسلكية الحديثة ، يثير عن بعض القرَّاء الدهشة . وقد شهد لهُ بذلك هرتز قال :—

بحث الاستاذ الِڤر لدج في لڤربول نظرية موصلات البروق . فقام في هذا الصدد بتجارب في تفريغ مكثفات صغيرة قادتهُ الى مشاهدة اهتزازاتٍ وامواجٍ مترددة . ولما كان لدج يسلم بآراء مكسوِل ويسعى لاثباتها او نفيها ، فليس ثمة اي ريبٍ في اني لو لم اسبقهُ لكان في امكانهِ الحصول على امواج في الهواء وفي اقامة الدليل على انتقال القوة الكهربائية

وقد قال السر الِڤر نفسهُ في هذا الصدد ما يلي . بعد ما اشار الى نظرية مكسوِل الرياضية الخاصة بطبيعة الضوء الكهربائية المغناطيسية وبان امواج الكهربائية تسير بسرعة الضوء : —

هذا الاكتشاف العظيم حرك فينا نحن ، الذين كنا في مستقبل العمر شوقاً شديداً الى البحث والتحري . واتذكر انني تباحثت فيهِ مع من نحترمهُ كلنا الآن جيمس فلمنج وذلك سنة ١٨٧١ و ١٨٧٢ وكنا نتلقى العلم معاً . وبعد سنة او سنتين درست كتاب مكسوِل في هيدلبرج وعزمت من ذلك الوقت على توليد الامواج الكهربائية التي قال عنها مكسول وعلى ايجاد طريقة للشعور بها (وهذا بمثابة الارسال والالتقاط في اللاسلكي الحديث) ... وتكلمت

انا في هذا الموضوع في المجمع البريطاني سنة ١٨٧٩ و ١٨٨٠ وفي جمعية دبلن الملكية سنة ١٨٨٢ .... وكان رأي فتزجرالد (وهو من اعلم اهل زمانه حينئذٍ) «ان توليد الاضطرابات الموجية في الاثير بواسطة القوى الكهربائية غير ممكن» . ثم اصلح فتزجرالد خطأه وحذف كلمة «غير» من عباراته المتقدمة . وبيَّن سنة ١٨٨٣ كيف يمكن ان تولد هذه الامواج ... ولو استطعنا حينئذٍ ان نصنع آلة تلتقط الأمواج الكهربائية لوصلنا الى التلغراف اللاسلكي»

وتفصيل مباحثهِ في هذه الناحية والرسائل التي القاها ونشرها في الموضوع يحتاج الى اسهاب لايتسع لهُ هذا الفصل . وانما لابدَّ من الاشارة الى ان لدج هو الذي اكتشف الرابط Coherer وهو جزء كان لا بدَّ منهُ في آلة الالتقاط اللاسلكية. فقد لاحظ لدج سنة ١٨٨٩ التصاق الدقائق او تجمُّعها بفعل الكهربائية . وانهُ اذا انقطع التيار تفرقت الدقائق . وكان برانلي الفرنسي قد لاحظ هذه الظاهرة وصنع آلة دعيت «رابطاً» او «مجمعاً» Coherer ولكنهُ لم يفطن الى فائدتها ، فاستعملها لدج سنة ١٨٩٤ في تبيّن الامواج اللاسلكية المنطلقة في الفضاء من اثر هذه الامواج في برادة الرابط ، بعد ما حسَّنهُ حتى يصير ادقَّ احساساً مما كان. وبعد ذلك بسنة نجح ماركوني في تجاربهِ اللاسلكية الاولى، وتعاون بعيدها مع لدج في تحسين بعض الاجهزة اللاسلكية . ولما خطب لدج مبيّناً طرفاً من نصيبه في المباحث اللاسلكية الاولى قال : — ودفعاً لكل مظنةٍ اصرّح انهُ لولا همة السنيور ماركوني ومقدرتهُ واجتهاده ما صار التلغراف اللاسلكي وسيلة من الوسائل التجارية ولا كانت محطاتهُ قد انتشرت في كل الكرة الارضية ولا كان لهُ الشأن الذي لهُ الآن . وقال في الخطبة نفسها : — لما تمكن السنيور ماركوني من نقل حرف S بتلغراف مورس من ارلندا الى اميركا ، نصب علماً في تاريخ البشر يصلح ان يجعل مبدأ تاريخيًّا لما فيهِ من الغرابة والابداع »

— ٣ —

ولد لدج في ١٢ يونيو سنة ١٨٥١ فهو اليوم في الثالثة والثمانين من عمر حافلٍ بالمآثر . وقد كتب اكثر من عشرة كتب بعد ما بلغ السبعين من عمره

كان ابوهُ خزّافاً فبعث بهِ الى مدرسة نيوبورت فظلَّ فيها حتى الرابعة عشرة من العمر ثم ضمَّهُ اليهِ في عمل الخزف وكان على وشك ان يصبح خزّافاً لما وقع في يديهِ صدفةً نسخ من مجلة انكليزية تدعى «الميكانيكي القديم» ، ففتحت لهُ باب عالم جديد . فسار في الطريق، غير هيّاب. وظلَّ مع ابيهِ سبع سنوات قبلما ادرك هذا ان ابنهُ نابغة علمٍ . فبعث بهِ الى لندن ليصغي الى محاضرات الاستاذ تندل في كلية لندن الجامعة ويتلقى اصول العلم فيها على اساطينهِ. وكان لايملك الشاب نفقاتهِ فاضطرَّ ان يعطي دروساً خاصة ليتمكن من موالاة الدراسة . وانت تستطيع ان تدرك مبلغ نجاحهِ اذا عرفت انهُ في خلال خمس سنوات بعد الانتظام في ذلك المعهد نال لقب

دكتور في العلوم وتزوج . ولما كان في الثلاثين ، اي تسع سنوات بعد هجره لصناعة الخزف، عيّن استاذاً للطبيعة في جامعة لفربول . ومنح مدالية رمفرد ، لمباحثهِ في الكهربائية ، فلما عيّن مستشاراً لاحدى الشركات الكهربائية ، طبّق مباحثهُ النظرية تطبيقاً جنت منهُ الشركة فائدة كبيرة . ثم عيّن مديراً لجامعة برمنغهام الجديدة سنة ١٩٠٠ فظلّ في منصبهِ حتى سنة ١٩٢٠ وهناك قام بالتجربة التي وصفناها في مطلع هذا الفصل ، ومن منبرها العام اصبح لدج ، قوة فعالة في نشر العلوم الحديثة ، بالدروس التي كان يلقيها والمقالات والكتب التي كان يؤلفها. وفي سنة ١٩٠٢ منحهُ الملك ادورد السابع رتبة فارس ولقب سر وانتخب عضواً في الجمعية الملكية واختير بعد ذلك رئيساً لمجمع تقدُّم العلوم البريطاني (١٩١٣) ، ورئيساً للجمعية الطبيعية ورئيساً لجمعية المباحث النفسية ورئيساً لجمعية رنتجن

— ٤ —

قلنا في صدر الكلام ، ان لدج مفكّر يجمع بين العلم والفلسفة . وقد كان الاثير الجسر الذي عبر عليهِ من العلم الى الفلسفة ، ثم حلق بهِ في عالم الارواح

ماذا يملأ الفضاء . وماذا يربط بين الشموس في رحاب الكون . وبين الذرَّات واجزاء الذرَّات؟ العلوم متجهة الآن الى ان كلَّ شيءٍ مؤلف من اجزاءٍ منفصلة بعضها عن بعض . انظر الى القبة الزرقاء في ليلة صافية الاديم ترَ النجوم منثورة في نواحيها . تفصل بينها رحاب شاسعة . اذا اطلقت صاروخاً في الفضاء كان احتمال اصابتك احد الكواكب بهِ بعيداً جدًّا . وهو مثل احتمال اصابتك طائراً اذا اطلقت بندقيتك عفواً او اعتباطاً في الهواء . فالرحاب التي تفصل بين النجوم والسدم عظيمة جدًّا

ولكن ما قولك في خشب هذه المائدة . وزجاج هذا المصباح . وقماش هذا الطربوش؟ اليس الخشب والزجاج والقماش مواد متصلة الاجزاء؟ كلاً انها ليست متصلة الاجزاء . فهي في تركيبها الاساسي مؤلفة من ذرات العناصر . وذرات العناصر مركبة من كهارب وبروتونات . والكهارب والبروتونات . شحنات كهربائية دقيقة كلَّ الدقة . ونسبة بُعد الكهرب عن نواته قد يقابل بنسبة بعد احد السيارات عن الشمس . فالذرة معظمها فراغ . وفي هذا الفراغ الفسيح نثرة من الكهربائية هنا ونثرة هناك . فالانفصال آية الطبيعة في الاجسام المادية كبيرها وصغيرها على السواء

فلو لم يكن في الكون الاَّ المادة . لما وجد رابط يربط بين هذه الاجزاء المنتشرة . واذاً لكان الكون خواءً (Chaos) تامًّا .

ولكننا نعلم ان النجوم ليست مستقلةً احداها عن الاخرى . فهي تنتظم مجموعات شمسية هنا . ومجموعات ثنائية هناك . وعناقيد نجمية هنالك . فثمة رابط يربط بينها . يدعى

الجاذبية .ولو لم نعلم ما هو هذا الرابط على حقيقته . واذاً فالفضاء بينها لا يمكن ان يكون فراغاً
وما يصحُّ على النجوم ورحاب الفضاء يصح على الاجسام المادية . فالجزيئات والذرات .
والالكترونات والبروتونات تتجمع وتتلاصق . فالجسم الجامد لهُ حجم معيَّن وشكل معيَّن.
فاذا كان بلورة رأينا في تنسيق سطوحها جمالاً ونظاماً . ومهما تبلغ الفسحات بين الجزيئات
والذرات لا بدَّ ان تكون مملوءة بشيءٍ يربط بين دقائق المادة .ويجب ان يكون هذا الشيء متصلاً
قد نختلف في الاسم الذي نطلقهُ عليهِ . فندعوه آناً بالاثير.وآناً بالفضاء المطلق .وآناً ءبالحيز الكوني الزمني المستمر « Space-time Continuum كما يدعى في مذهب اصحاب النسبية.ولكن لا ريب في اننا نحتاج الى شيءٍ يتصف بهذه الصفة الاساسية التي لا نعرف من دونها سبيلا الى فهم الكون الطبيعي فهماً متسقاً

كذلك يقول لدج

وللاثير صفات اخرى اهمها انهُ لا يرى ولا يشمُّ ولا يسمع ولا يلمس . وانما يستطاع تموجهُ ، والانسان يستطيع ان يحسَّ ببعض تموّجاته . فهو ناقل للضوء . لا يعيقه من المرور كما تعيقهُ المادة. فوظيفتهُ الاولى اذاً ان يكون رابطاً بين دقائق المادة . ووظيفتهُ الثانية ان يكون وسطاً لنقل امواج الطاقة على اختلافها من الاشعة الكونية البالغة حدًّا متناهياً من القصر ، الى الاشعة اللاسلكية التي تبلغ موجتها أحياناً عشرين كيلو متراً او تزيد

ثم ان الأثير لا يتحوَّل ، ولا ينحلُّ ، شديد الصلابة ولكن المادة تتحرك فيهِ ولا تجد أقل معارضة من فرك او لزوجة

فالاثير ليس مادة بالذات لكنهُ ماديٌّ

وهو اداة الاتصال الكبرى . وقد يكون أكثر من ذلك . لان بدونهِ لا يكون للعالم المادي وجود . ومهما تكن الحال فلا شبهة في لزومهِ للاتصال لانه يشغل كل المسافات التي بين دقائق المادة ويوصل بينها.واذا كان في الامكان وجود المادة من دونهِ فتكون اجزاءٌ متفرقة. هو الصلة بين العوالم والدقائق . ومع ذلك فقد ينكر الناس وجوده لأنهم لا يشعرون بهِ بحاسة من حواسهم ، إلاَّ بالبصر اذا يتموَّج

— ٥ —

اذا خرجنا من ميدان البحث العلمي البحت،جابهنا السؤال الآتي:هل للاثير صلة بالحياة؟

نحن نعلم ان المادة لها شكلان شكل جامد خالٍ من الحياة ؛ كالجوامد والسوائل والغازات والكهارب والبروتونات . وشكل آخر يعرف بالشكل العضوي وهي فيه جزيئات كبيرة معقدة التركيب تعرف بالبروتوبلازم . والبروتوبلازم هو آلة الحياة . فبعض اشكال المادة حيٌّ والحياة لغز لم ينفذ الى سره بعد . فنحن لا نعلم ما الحياة . وانما نشاهد ما تفعله الحياة . انها

تؤثر في المادة ، وتتخذ اشكالاً مختلفة من المادة وتنتقل من السلف الى الخلف . فالحياة قد تتخذ شجرة البلوط شكلاً تظهر فيهِ.وحياة شجرة البلوط تنتقل الىشجرة اخرى من البلوط. اوقدتتخذ الحياة العصفور شكلاً تظهرفيهِ،او سمكة او دودة واشكال الاحياء كثيرةلا تحصى

ففي مرحلة معينة من مراحل الحياة ينبثق العقل في هذه المادة الحية التي ندعوها البروتوبلازم. واذاً فالعقل والحياةقد اثَّرا في المادة . اننا لانعرف ما هما.وانما ندرس مظاهرهما. انهما يستعملان المادة مدة ثم يختفيان . يقول لدج يختفيان لا يتلاشيان قصداً.انهما يزولان من حيّز معرفتنا نحن . ولكن من يستطيع ان يقول انهما يزولان من الوجود حتماً . وكل ما نستطيع ان نقوله انهما يؤثران في المادة تأثيراً وقتيًّا

ولكن هل تؤثر الحياة ، والعقل في المادة فقط ، دون الاثير الذي يربط بين دقائقها؟ هل تؤثر الحياة في الاثير كما تؤثر في المادة ؟ اننا لا نعلم كيف تؤثر الحياة في المادة . وانما نعلم انها تؤثر . ولكننا لا نستطيع ان نثبت انها تؤثر في الاثير . وانما نحن نوجه هذا السؤال الى الباحثين . ثم هناك سؤال اهم من هذا واكثر اشكالاً . في الانسان صفات العقل والشعور والذاكرة والمحبة . وهي صفات لا نستطيع ان نقول بفقدها في الحيوانات العليا . وانما نعلم انها تتجلى في الانسان؟فهل تحتاج هذه الصفات العليا الى اداة تتجلى فيها في العالم المادي ؟ اننا نتبين هذهالصفات اذ تبدو في المادة : فتفعل بالمـادة ، تنقلها وتغير اشكالها وتبدل من ترتيبها وتنفخ فيها احياناً معنىً من المعاني . انها تتخذ مندقائق المادة مجلى لها . فنحن لا نتبينها الاَّ اذا ظهرت بهذا المظهر المادي، لانحواسنا مادية

ولكن لا بدَّ من سؤال آخر . هل هذه الصفات النفسية ، تفعل بالمادة فعلاً مباشراً او غير مباشر . هذه مسألة يجب ان تخضع للامتحان والتجربة . لا بدَّ في هذا الفعل من الاتصال . اننا نمسك بحجر وننقله من مكان الى آخر . ولكن الذرات لا تتصل قط . بل بينها فراغ . فاذا اقتربت دقيقتان ماديتان ، احداهما من الاخرى ، تولت قوى الدفع الفصلَ بينهما . فالكهرب لا يستطيع ان يلمس الكهرب . لانهما متدافعان . فهل يستطيع الكهرب ان يلمس البروتون ؟ لا نعلم . ولكن اذا لمسهُ ، انطلقت شرارة تدلّ على فناء احدهما في الآخر

والواقع اننا اذ نلمس جسماً من الاجسام انما نلمس الاثير.فهو الشيء الذي يملأ كل المسافات بين الاجسام.ولكن اذا كان لمسنا لا يتعدَّى الاثير،لا نستطيع ان نحدث اثراً يحسُّ بهِ صاحبنا او جارنا او محدثنا . لأن حواس الناس لا تستطيع ان تدرك الأثير الاَّ اذا تموَّج . واذاً فالحياة اذ تفعل بالمادة تفعل بالاثير اولاً فعلاً مباشراً ، وبالمادة ثانية فعلاً غير مباشر

ولذلك يذهب السر اولفر لدج ، الى أن اداة الحياة والعقل ليست المادة ، بل الاثير يقول علماء الحياة انهُ لا بدَّ للحياة والعقل من جسم مادي يحملهما . وهذا مسلَّم بهِ .

ولكن هذا الحامل قد لا يلزم ان يكون مادة في شكل من اشكالها المعروفة . بل قد يكون ابسط من المواد المعروفة . فقد يكون شيئاً المادةُ صورة محسوسة من صوره. والاثير عند السر اولفر لدج جسم متجانس فاذا تنوَّع كانت المادة

فالحياة والعقل قد يكونان متصلان بالاثير اتصالاً لا ندركه بحواسنا . واذاً فلا يحق للعلم ان ينفيه نفياً مطلقاً . فالنفي ليس من شؤون العلم . وانما شأنهُ الاثبات . والنفي القاطع اصعب من الاثبات ، لانهُ يقتضي علماً واسعاً محيطاً بكل شيء شاملاً لكل شيء. ونحن نعلم ان فرعاً من العلم قد يغفل شيئاً . ويعتني بهِ فرع آخر . فالفرع الاول لا يستطيع ان ينفي وجود هــذا الشيء نفياً قاطعاً . فالكيماويون يغفلون الاثير . وعلماء الطبيعة يغفلون الاحياء . وعلماء الحياة يغفلون في بحثهم العقل والقصد . وعلماء المكرسكوب لا يلتفتون الى الكواكب . فهل يصحُّ ان تنكر كل هذه الاشياء لان علماً من العلوم لا يلتفت اليها ؟ وما احسن ما قيل من ان الشك في كل شيء والتصديق بكل شيء محلٌّ يلجأ اليه الذين لا يريدون ان يشغلوا عقولهم

فاذا قام العلماء ونفوا وجود ما يخرجونه من نطاق بحثهم بطبيعة هذا البحث، وجب ان لا نقبل قولهم . ان قوانا محدودة وحواسنا لم تألف الاَّ المادة التي نشعر بها . ولا شيء غيرها نستطيع ادراكه . ان عضلاتنا واعصابنا صالحة لتحريك المادة في الجهة التي نختارها . هذا هو جهازنا لحياتنا الارضية وما تاريخ الانسان الاَّ اخبار ما فعله بهذه القوى الطفيفة التي اعطيها

بالمادة يعرف كلٌّ منا بوجود الآخر وبها نتخاطب مع الذين افكارهم تشبه افكارنا ، إما بحركات تموجية كما بالكلام والغناء او بتوزيع دقائق المادة كما في الكتابة والتصوير . فنتخاطب كذلك ونتفاهم . وقد الفنا هذه الوسائل حتى صرنا نحسبها هي وامثالها الوسائل الطبيعية الوحيدة للتخاطب والتفاهم وان كل وسيلة غيرها يصل بها المراد من عقل الى عقل مباشرة خرق لحرمة العلم

— ٦ —

من هنا ترى الاساس الذي يقوم عليهِ اعتقاد لدج في بقاء الشخصية ومخاطبة الارواح .

فهو يقول ان الحياة والعقل يحتاجان الى أداة . يظهران بها . او يتجليان فيها . ولكن هذه الاداة لا يجب ان تكون مادة . بل قد تكون الاثير نفسهُ . واذاً فبقاؤها بعد انحلال الجسم المادي محتمل . وان كنا لا نستطيع ادراكه بحواسنا . ولكن بعضاً منا ممن ارهفت حواسهم يستطيعون ان يتبينوا أثر الشخصية في الاثير . فيتلقون من الاشخاص الذاهبين ، الذين خرجوا من دائرة الوجود المادي الرسائل والانباء

كل هذا فرض جميل . وكل انسان اذا تخطى عهد الشباب والفتوة يتوق اذا كان ممن يفكر في خفايا الحياة والكون الى ان يعرف ما وراء الموت . ويتوق كذلك الى الايمان ببقاء الشخصية وفي هذا الفرض من الناحية الفلسفية ما يكفي

ولكن موضوع مخاطبة الأرواح الذي عالجهُ السر اولفر لدج معالجة عملية ليس لهُ بالفرض الفلسفي الأصلة ضعيفة . وهو مثار لاختلاف الرأي بين الثقاة . وقد جددت العناية بهِ في العهد الاخير في هذه البلاد بعد ما نشرهُ بعض الكتاب من المقالات في الموضوع

والواقع ان هذه المخاطبة تختلط بكثير من الخداع والانخداع

ويكفي ان استشهد بالحادثة التالية لكي ابيّن ان الجزم في هذه الموضوعات من اصعب الامور . من نحو ثماني سنوات ، عرضت مجلة السينتفك امريكان جائزة مالية كبيرة ، لاي وسيط او وسيطة ، يقوم بظاهرة نفسية ،تثبت على الامتحان امام لجنة مؤلفة من عالمين طبيعيين وعالم نفسي ومشعوذٍ وسكرتير . وقد تقدم الى هذه اللجنة لنيل هذه الجائزة نحو عشرة وسطاء اثبت البحث ان تسعة منهم خادعون، وظهرت طرق خداعهم. واما الوسيط العاشر وكان وسيطة تدعى مارجري ، ففسّرت الظاهرات التي تجلّت في أفعالها تفسيراً ، فيهِ مطٌّ لبعض النظريات النفسية ولا يقنع طالب الحقيقة من هذه الناحية او من تلك . وما زالت الجائزة في خزائن المجلة لم تمنح لأحد

واذن فنحن امام امرين . الاول ان حلقات الوسطاء حافلة بالخادعين فيجب ألاّ نستسلم لاول صوت نسمعهُ فنتخيلهُ صوت من نريد مخاطبته . والثاني ان هناك ظاهرات عجيبة تحير العقل ولا يمكن تعليلها بما نملكهُ الآن من الحقائق والوسائل

فالموقف المعقول يقضي علينا بالتزام الحذر في الحكم . فكثير من الحقائق العلمية انكرت في اول عهدها ثم ثبتت صحتها . وثمة طائفة اخرى من الحقائق العلمية ، لم نستطع كشفها الاّ بعد كشف وسيلة علمية جديدة كالمكرسكوب او التلسكوب او الاشعة السينية . ومن يدري ما يأتي بهِ العلم في غدٍ من الوسائل الجديدة . فالاشعة الكونية مثلاً اقوى نفوذاً من اشعة اكس واشدّ فعلاً وقد تسخَّر غداً او بعد غدٍ فتكشف لنا عن عوالم كانت خافية عنا لاننا لم نملك الوسائل اللازمة لتبيُّنها

ثم ان اساليب البحث الطبيعي ليست كل الاساليب التي يمكن الوصول بها الى الحقائق

فاذا شئت ان تكتفي بما تثبتهُ الوسائل العلمية المعروفة . والامتحانات والتجارب التي قام بها رجال منزَّهون عن الهوى . استطعت ان تقول ان مخاطبة الارواح لم تثبت بعد . ولكن ليس في العلم ما ينفيها . لان العلم لا يستطيع ان ينفي . الاّ اذا أحاط بكل شيءٍ . واستقرأ استقراءً شاملاً

واذا شئت ان تنظر نظراً فلسفيّاً فلك ان تعتقد مع السر الفر لدج انهُ رغم الخداع والانخداع الذي يخالطان اعمال الوسطاء يقتضي اتساق النظرة العلمية الفلسفية التي بسطناها بقاء الشخصية بعد انحلال الجسم المادي ودوام تاثيرها في الاثير المالىء لرحاب الكون

فؤاد صروف



القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

الفاشستية والنازية والكمالية

في وصف «الفاشستية» الايطالية ما يغني القارىء عن ذكر «النازية» الالمانية لان هذه نسخة منقولة عن تلك بشيء من التصرف تقتضيه ذهنية الالمان وتربيتهم والاحوال التي طرأت على بلادهم ، فمن ذلك مثلاً ان (هتلر) زعيم النازي مع كل ما اقدم عليه من الضغط على خصومه والتهجم على حريتهم الشخصية خصوصاً الشيوعيين منهم كان بالاجمال أبعد عن العنف واتخاذ الشدة من زميله (موسوليني) زعيم الفاشستي الأ مع اليهود ، وهذه الشدة معهم ناشئة من اعتقاد الوطنيين الالمان الراسخ بان اليهود كانوا اصل بلائهم في الحرب العالمية ومصدر نكبة المانيا في اوصابها الحاضرة وسبب تفسخ ابنائها من جراء انتشار العقائد اللاوطنية اليهودية بينهم كالماركسية وغيرها وان الاختبار دلّهم في بلادهم وفي غيرها على ان اليهودي يهودي قبل كل شيء مهما تغيرت الاحوال وتبدّلت الاوضاع

ثم هنالك فرق جوهري في التطبيق وهو ان الفاشستية تطبق في بلاد غالبة تتمتع بحريتها التامة، فموسوليني زعيم مطلق التصرف مثل زميله مصطفى كمال ، في حين تحاط النازية بالدول الغالبة التي تهدّدها بالتدخل في شؤونها في كل حين لاعذار مختلفة فتضيف الى عبء خصوم (هتلر) الداخليين عبء العداوة الخارجية الثقيل ، لكن النشاط الذي أبداه (هتلر) في الداخل والحزم الذي تذرّع به في الخارج عادا عليه باجماع كلمة الالمان حوله وتراجع الدول الغالبة عن خططها التهديدية لاذلال المانيا ، فبعد ذلك التفسخ والخضوع والرضى بالمعاهدات الجائرة قامت المانيا النازية تطالب بحقها في الحياة والجلوس على المائدة الدولية على مستوى الدول المعظمة الأخرى

﴿ الفاشستية ﴾ : لقد خرجت ايطاليا من الحرب العالمية مثل سائر الدول المحاربة منهوكة القوى تهددها الثورات وتفت في ساعدها الانقسامات الحزبية واعظم خطر احاق بها خطر الشيوعية

حتى ان الشيوعيين حاولوا في تلك الايام تطبيق المنهاج الشيوعي في (بولونيا) احدى مقاطعاتهم. وفي شهر تموز — يوليو — من سنة ١٩٢٠ حلّ السنيور (جيولتي) محل السنيور (نتي) في رياسة الوزارة فقام بشيء من التجارب الاشتراكية في المملكة ولكن ذلك لم يخفف من حماسة الشيوعيين بل زادهم لهباً فقاموا بثورات عنيفة في سنة ١٩٢١ في انحاء البلاد مما احدث رد فعل شديد في العناصر الوطنية التي نشأت على احترام (غاريبالدي) و (كافور) وغيرهما من مؤسسي ايطاليا الحديثة ووحدتها الوطنية السياسية ، ولا سيما بين الطبقات الرأسمالية التي تحترم قاعدة التملك الخاص وتمدها الباعث على الانتعاش والارتقاء . فتألف من هؤلاء جمعية باسم « الفاشستي » رمزها ارتداء القمصان السود ودينها الوطنية وديدنها مصارعة الاشتراكية فسلكت سبيل العنف والشدة مع الخصوم ورأت خير زعيم لتنفيذ رغائبها السنيور (بنيتو موسوليني) الصحفي الراديكالي سابقاً فولته قيادها فساقها الى الامام بحزم وعزم ومهارة نادرة حتى قضى على الشيوعيين وعلى اعمالهم العنيفة — ولو موقتاً — بسرعة فائقة وقبض على الاحرار المخالفين من زعماء وكتّاب والقاهم في غياهب السجن . وتمكن من انقاذ البلاد من الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها، وزاد في نجاحه ما اظهره الزعماء الاشتراكيون من السخافات الصبيانية والتقلقل المعيب والجبن الذي نهك قواهم، ومن الطرق المستغربة التي سلكها في إسكات المنتقدين ومضايقتهم تبليعهم جرعاً كبيرة من زيت الخروع. وصار القتل والضرب والتعذيب وحرق الاملاك الخاصة كما قال (اتش . جي . ولز) من الوسائل الادارية في ايطاليا لكبح جماح الاحرار والقضاء على مذاهبهم «فزال شبح الشيوعية وحلّ محله حكم السلاّبين النهّابين»[1]

ولما اشتدت شوكة الفاشستيين وتأيد سلطانهم وصار لهم جيش نظامي يعتمد عليه زحفوا في شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٢ على رومية لاحتلالها فتترعت الوزارة (وزارة السنيور فاكتا) لملاقاتهم في الميدان واعلنت الاحكام العرفية وعرضت على الملك الخطط التي تذرعت بها ولكن الملك بدلاً من اقرارها على ذلك دعا اليه (موسوليني) لتولي زمام الأمر فتولاه وقبض بيد من حديد على شؤون الدولة ومرافقها ومصادر قوتها حتى دان له الشعب ، ومما فعله في هذا الباب انه قضى على حرية الصحافة وجعل الانتخاب لمجلس النواب مهزلة تشبه مهزلة المجلس الوطني الكبير في انقرة، وما فتيء يلقي خصومه السياسيين في اعماق السجون ويأخذهم بالشدة ويقابلهم بالهول حتى قضى عليهم قضاء مبرماً واصبح الآمر الناهي في طول البلاد وعرضها . وكلمة « الدتشي » — وهي اللقب الذي يطلق عليه — تعني في معجم السياسة الحاضرة الجبّار القاهر

ومما تحسن الاشارة اليه ان « الدتشي » ما تربع على دست الوزارة حتى احتقر البارلمان وحمل

(١) Outline of History, p. 682

على النظم الديموقراطية ولم يذكر الجمهورية التي كان يتغنى بها بكلمة واحدة . ومما جاء في احدى خطبه يومئذٍ قوله: «ان جميع المشاكل المتعلقة بالحياة الايطالية قد وجد لها الحل على الورق ولكن الحزم اللازم لوضعها موضع التنفيذ كان مفقوداً فعلى الحكومة الفاشستية ان تمثل هذا الحزم وهذه الارادة التي لا مردَّ لها . والواجب ان تكون القواعد الكبرى في سياستنا الداخلية الاقتصاد والعمل والتدريب» (١)

وقد أتى ظهور الفاشستية في ايطاليا والنازية في المانيا (والكمالية في تركيا) برهاناً آخر على صحة مذهب ارسطو من ان الفوضى تؤدي الى الحكم القاهر . فالفوضى التي منيت بها ايطاليا عقب الحرب العالمية خلقت موسوليني وجعلته رجل الساعة خصوصاً لأن زعماء الاشتراكيين الطليان على ذاك العهد كانوا ثرثارين — يكثرون من الكلام ولا يكادون يعملون شيئاً ، وكل حزب يجعل همّه الهدم بمعاول النقد المجرّد من الاعمال الايجابية البنائية يستطيع ان يشل يد الحكومة ولكنهُ عاجز عن الجلوس على منصتها وهذا ما يمهد السبيل الى يد القاهر الحازمة التي تنقذ الموقف . وكان الاشتراكيون في حيص بيص لم يرضوا بالطريقة القديمة من جهة ولكنهم مع عطفهم الشديد على روسيا لم يجرؤوا على اعلان الشيوعية من جهة اخرى ، فأدّى هذا التقلقل في موقفهم الى الاستياء العام والى اخفاق الطريقة البرلمانية وما فيها من اخذ ورد على غير طائل والى رفع الثقة من الاشتراكية ومن انصارها ومن الحزب الكاثوليكي واعوانه مما عبّد الطريق امام (الدتشي) وجيشه اللجب من الرجال الناقمين وفتح ابواب رومية لليد القادرة والادارة الحازمة. ولم يمضِ زمن طويل حتى انضمّ الملك نفسه اليها ودخل تحت لوائها. سنّة في سياسة الامم حكم بها الدهر لليد القادرة منذ فجر التاريخ ولن تجد لهذه السنة تبديلاً

تشترك الفاشستية الايطالية ومعها النازية الالمانية — والكمالية الى مدى بعيد — من جهة والشيوعية الروسية من جهة اخرى في الشؤون الآتية :

(اولاً) اصرارهما كلتيهما على ان الوطنية الصحيحة هي عمل ايجابي لا اهمال سلبي ، فموقف المتفرجين غير المبالين موقف لا يليق بالمجتمع السليم ولا بنظرية الجماعة المسؤولة ، والبيت الذي لا يكترث اهله لترتيبه ونظامه بيت محكوم عليه بالفوضى والانهدام

(ثانياً) الشد بخناق جميع العناصر العدائية والآراء المخالفة والسعي في حرمانها من الاشتراك في ادارة الدولة وسد المنافس دون افصاحها عن آرائها وبث دعايتها

(ثالثاً) رغبتهما كلتيهما في ضمّ جميع المتحدات الاختيارية الحرة وسائر انواع الحياة المشتركة تحت لواء الدولة السامي

(رابعاً) عزمهما على تحويل الاشتراكية الوطنية في ايطاليا والمانيا وتركيا والاشتراكية

(١) These Eventful Years, p. 655

الشيوعية في روسيا اليد العليا في تعيين السياسة الواجبة الاتباع كائناً ما كان اسمها

ولئن تماثلت الشيوعية والفاشستية في الطرائق الموصلة هذا التماثل الشديد فالغايات مختلفة كل الاختلاف ، ذلك لان الاساس الذي يبنى عليهِ العمل في الشيوعية الماركسية هو الطبقة فعلى الطبقة وما فيها من قوة حافزة وما لها من مصلحة ملحّة يجب ان يبنى المجتمع الجديد واما في الفاشستية واضرابها فقطب الدائرة هو الامة ، وان غاية السياسة جعل الامة عظيمة متمتعة بحقوقها رافلة بحلل السعادة ، وايجاد اللسان السياسي او الاداة السياسية التي تعبر عن الحياة الوطنية كاملة ، وهكذا نجد النظريتين الاشتراكية الماركسية والاشتراكية الوطنية على طرفي نقيض ، ويزيد في هذا التباين وما يجر اليهِ من تنازع جوهري ان الوطنية في نظر الفاشستي لم تعد شيئاً يظفر بهِ الوطنيون بالانتصار على عدو اجنبي ظالم بل هي شيء راهن حاصل في اليد شكلاً ولكنهُ يحتاج الى من ينفخ فيهِ روحاً ويكسوه لحماً ويحميهِ من مجازر الاشتراكية وغارات « الدولية »

ولم تكن الفاشستية في اول عهدها نظرية علمية او منهاجاً سياسيًّا بقدر ما كانت دعوة الى العمل وسعياً لانقاذ الوطن من التفتت والانحلال ، ويمكن وضع تعريف لها بسرد ما تضمنتهُ من الكلمات او المصطلحات الدالة على الكراهة والبغض اكثر مما فيها من التعاليم والآراء اللهم الاَّ ما دعت اليهِ من وطنية بحتة وانها رسالة جذَّابة للنشء الحديث وانها التفتت الى العمل واعتدت بهِ واهملت شأن النظر : وقد ابغضت الشيوعية ونفرت من « الدولية » على اشكالها ومن الحروب بين الطبقات وحملت على الطريقة البارلمانية حملة شعواء وحكمت عليها بانها سبب الخيبة وسوء الادارة في ايطاليا — يشاطرها هذا الرأي كل من تتبع سير البرلمانات في جميع البلدان التي لم يستعد اهلها للحكم الديموقراطي ، بل ان هذا الشكل في الحكم يلاقي خصوماً الدّاء حتى في ارقى البلدان

وتقوم الفاشستية من الاساس على فكرة ان الامة هي الوجود الاخلاقي الذي ما بعده وجود ، وان الواجب على الجميع ان يخضعوا لها ويلتحقوا بها ويسعوا الى تحقيق ذاتهم وما تتطلبهُ نفوسهم ضمنها وبواسطتها . وعلى الناس نحو الامة واجبات ولكن ليس على الامة من واجب ، وقد تتصل بالامم الاخرى بمعاملات سلمية حبية او حربية عدائية ولكنها لا تعترف بتفوق احد عليها او بخضوعها للاسرة الدولية التي هي عضو من اعضائها . وتسعى بروح تحاكي روح (فردريخ نيتشه) الفيلسوف الالماني نصير القوة الى التوسع والانبساط والتجلي بحيث لا يكون السلم العالمي العام متوقفاً على شيء يعارض طموحها . فالامة عند القائلين بهذا المذهب هي الوجود الشامل والسياسة هي تحقيق المطالب الوطنية . وقصارى القول اننا في شرح الفاشستية والاشارة الى زميلتيها النازية والكمالية نشعر كأننا نشرح نظرية (هيجل) في

تقديس الدولة وجعل الوطن سر الاسرار ومجلى الانوار

وتمجد هذه الطرائق الثلاث الفضائل العسكرية ، وفي سياستها نغمة حربية مستمرة ، واذا كان هتلر في خطابهِ السياسي الذي سبق المؤتمر الاقتصادي العالمي قد تجنب اضطراراً ذكر الفتوحات والبسطة السياسية ومصطفى كمال حاول الظهور بمظهر المكتفي بتركيا في حدودها الحاضرة فان الفاشستية عند مؤسسها تعني التوسع السياسي في الخارج صراحة ، وقد يعميها هذا الميل الاستعماري عن مصالحها الحقيقية ويحملها على البذل الغالي في المال والسمعة والرجال في سبيل بلاد قاحلة قليلة الانتاج مثل طرابلس الغرب وبرقه ، بل انها لم تتورع هناك ان تسوّد صحيفتها فتقتل شيخاً طاعناً في السن من كبار المجاهدين مثل عمر المختار للارهاب العسكري . على ان نظرة سياسية صادقة فيما لها من المصالح في الشرق تدعوها الى جعل شاطىء الصحراء الليبية الخاوية على عروشها مكاناً تتحبب الى سكانهِ فتمنحهم من العطايا السياسية ما يبث لها دعاية في شمال افريقية تزعزع بها اعظم دولة حربية تهددها وتهدد غيرها من الدول «بالامبراطورية السوداء» التي تحلم بتأسيسها في افريقية . قال السنيور (نيتي) رئيس وزارتهم المشهور «ان ليبيا — يعني طرابلس وبرقة — هي المستعمرة التي كلفت ايطاليا اعظم البذل ، ومع كل هذه الحروب المديدة التي خضنا معاركها هناك والنفقات الباهظة التي انفقناها فالظاهر انها محكوم عليها ان تبقى عبئاً ثقيلاً على ميزانية الدولة وسبباً مستمراً للقلق واشتغال البال[1] »

ان مثل هذه الذهنية الهجومية الدفاعية تحتم على ايطاليا ان تفكر في الحرب وتعدها في حيز الامكان دائماً ، فلا يجوز للايطاليين والحالة هذه ان يستكينوا للسلم او يستسلموا لهُ حتى لو كانوا ينوون الدفاع عنه

وتعني الوطنية عدا ذلك الارتكاز في الداخل فيجب تنظيم حياة المجتمع الايطالي وضمه حول دولة الامة . ولا يسمح لاية اداة من ادوات العمل او الكلام ان تعيش في المجتمع الايطالي ما لم توطد العزم على احناء الرأس امام الفكرة الوطنية وان تقوم بالقسط المتوجب عليها في تحقيقها . ويتناول هذا الموقف ابادة حركة العمال خاصة والقضاء عليها سواء بالشكل الذي اتخذته في ايطاليا ام في غيرها ، لان طبقة العمال كطبقة الرأسماليين تتشابه في الاقطار الصناعية وتتخذ شكلاً واحداً ، وهي من الاساس مشوبة بالفكرة الدولية فالمتحدات التجارية والاحزاب الاشتراكية كلتاهما سواسية فيما لها من التآخي الدولي والخضوع لفكرة التعاضد بين افراد الطبقة الواحدة في الدول المتعددة ، لذلك يتحتم على الفاشستية ان تجتثّ هذه المجموعات من اصولها ، ولكن لا تتوصل الى ذلك ما لم يكن عندها ما يحل محلها ، ذلك لان المجتمع

(١) These Eventful Years, I. p. 636

الحاضر يجب ان يزوّد بهيئات منظمة تفصح عن حاجات العمال ومطالبها العادلة، وما لم يعترف بهذه الحاجات ويسلم بحقها فانها تتخذ شكلاً معادياً لمصالح الذين يريدون القضاء عليها . وفي الحق ان الفاشستية ما كانت لتستطيع الثبات وهي تحارب الاشتراكية هذه المحاربة القاسية لو لم تلتفت الى مصالح العمال الاساسية وتحول دون تدفق تلك الاجور الباهظة او الارباح الغزيرة الى جيوب بعض الطفيليات في المجتمع الايطالي

لاجرم ان الفاشستية بقضائها على طبقة العمال في ايطاليا اخذت في احلال نظام جديد محلها على الشكل الفاشستي ، فبدلاً من المتحدات التجارية الاشتراكية قامت متحدات فاشستية يديرها الانصار المقربون ولا يدخلها احد من اهل الخبث والعند . وخولت هذه المتحدات قوة عظيمة منها الحق في ضرب الاعانات على الاعضاء وغير الاعضاء وان تساوم هي وحدها المخدومين وان تنضم الى جمعياتهم فيتألف من المجموع — الخادمين والمخدومين — نقابة رسمية للاشراف على كل خدمة وكل صناعة برمتها، وان تجعل هذه المتحدات الفاشستية دوائر انتخابية بدلاً من الدوائر الجغرافية القديمة فيستناب منها الاعضاء للمجلس التشريعي الفاشستي الجديد

وقصارى القول ان الفاشستية بنت لكل جمعية حرّة اساساً فاشستيّاً تقوم عليه وجعلتها اداة حكومية وحرصت على ان تكون ادارتها بيد الحزب الفاشستي وانصارها ، وليس من السهل ابداً ان نعرف مقدار استيلائها على طبقة العمال الايطاليين ودرجة استمالتهم الى جانبها ذلك لان الفاشستية وزميلتيها النازية والكمالية هي مثل الشيوعية الحمراء تكم افواه المعارضين ولا تسمح لاحد بالتلفظ بما يخالفها ، لكنها على كل حال لقد صمدت حتى الآن وحالت دون تجدد الاتصال بين العمال الايطاليين وبين حركة العمال المنظمة في الاقطار الاخرى وساعدها على ذلك معالجتها الناجعة لبعض شرور الرأسمالية وتخفيفها وطأة البطالة التي تئن منها الدول الاخرى

ولا تعد الدولة الفاشستية دولة مؤلفة من افراد بقدر ما هي مؤلفة من نقابات متنوعة تختلف باختلاف العمل الذي تقوم به ويتصل الفرد فيها بالدولة بواسطة النقابة التي ينتمي اليها، فالحكومة بهذا المعنى هي الرأس والنقابات — لا الافراد — هي الاعضاء ، ويطلق على هذا الوضع السياسي الحديث اسم «الحكومة النقابية او الدولة المندمجة Corporate » ، ويختلف في الفاشستية عنه في غيرها ان النقابة فيها خاضعة للدولة ومسخرة لاغراضها تسخيراً اعمى ، ذلك لأن الوطن الايطالي هو «العلي الاعلى» في حين تمنح النقابات في المناهج الاشتراكية استقلالاً كما هو الحال في المتحدات التي تدعى (جيلد) و (سنديكا) وغيرها من الانظمة التي تهتم بالحرية اكثر من اهتمامها بالخضوع والانقياد . اما الفاشستية فتسير على مذهب (هيجل) مؤسس الامبراطورية الجرمانية من حيث اهتمامها بالطاعة وتفضيلها النظام والتدريب، وهي تدعو افراد الرعية ان يحققوا حريتهم في حرية الدولة اكثر مما يحققونها في فرديتهم او في مجتمعهم النقابي

عدلي يكن باشا

لخليل ثابت بك

رئيس تحرير المقطم

في موقف جليل كهذا الموقف يحار الكاتب في اختيار ما يستهل به قوله والخواطر تتزاحم والعواطف تتدافع فلا يرى أوجب من أن يبدأ الكلام بتعزية مصر عن خسارتها بفقد قطب كبير وخسارة ابن كريم وانهيار ركن متين فاذا كان الفقيد قد أتم ما قيض له القضاء من عمر في هذه الدنيا وذهب الى لقاء ربه يحمل بيديه سفر اعماله ناطقاً بمحامده فان مصر الثكلى تنوح الراحل وتبكي الفقيد وقد كان من الذين تباهي بهم والذين تعدهم لنجدتها اذا تعقدت الامور وتشعبت المعضلات

وقد يسهل على الذين ألفوا الكتابة عن الاحياء والاموات أن يصيغوا عبارات التأبين من منثور ومنظوم ويصفوا من يؤبنون بما تخطه أقلامهم وما توحيه عواطفهم وشعورهم ولكن في ذكرى عظماء الرجال ما يسمو هذا لما فيه من العبرة النافعة والعظة البالغة واعطاء كل ذي حق حقهُ من عرفان الفضل وتقدير الجميل وتعيين مدى النهوض بالواجب ولا سيما الواجب القومي

فقد عاصر عدلي باشا نهضة مصر الحديثة وكتب في سفر هذه النهضة صفحات مجيدة تخلد اسمهُ وذكراه وتصلح لان تكون مثالاً يحتذى وقدوة يقتدي بها الذين يعجبون بما كان هذا المصري العظيم متصفاً به وما ميزتهُ به العناية

***

عاصر عدلي باشا هذه النهضة وشب معها الى ان ابلغتهُ مواهبهُ ومناقبهُ الى مقام القابض على الدفة فكان شعارهُ واحداً في جميع الحالات ومقصده لايتغير وكان لهُ من اخلاقه وسجاياه ما يساعدهُ وما يعينهُ على سلوك الطريق الذي سلكهُ الى ان صار الرجل الذي يشار اليه بالبنان والوزير الذي يعهد اليه في جلائل الامور ومعالجة الازمات

كان شمم عدلي يكن متجلياً في هيئته ومنظره ومشيته ووقوفه وجلوسه ولكن هذا في الواقع ما كان سوى مظهر للروح التي كانت وراء حنايا الضلوع

وهذه سجية عرف بها الفقيد واشتهرت عنه وكان لها اعظم تأثير في حياته الادارية وحياته السياسية وسعيه لاستقلال بلاده بمثاله وفعاله ثم بمساعيه لما كان في الوزارة الرشدية ومباحثاته ومفاوضاته في لندن في اثناء وزارته ثم في ما عقب ذلك من انقسام ووئام وشقاق ووفاق ونهوض بعبء القضية المصرية في الحين الذي دجا فيه الجوّ السياسي وتلبدت فيه سحب الحيرة

وهذا الشمم تجلى فيه وهو موظف صغير ولازمهُ وهو مدير ومحافظ مقروناً بعنايته بالعمل ورعايته للعاملين ورغبته في العدل وحب الانصاف وقد كان من نتائجه ان اعتزّت فيه النزاهة السياسية والنزاهة الادارية فقضى عمراً طويلاً يتقلب في المناصب حتى بلغ أرفعها ولم يسمع عنهُ الاّ كل ما يزين الفتى ويباهي بهِ الموظف والسياسي وهو مع ذلك يمقت الظهور الاّ بما تقضي به الواجبات ومقتضى اللياقة وربما كان في وقوفه عند هذا الحد وعدم ميله الفطري الى مجاوزته ما حال دون نهوضه بمهمة الزعامة الحزبية وقد تولاها ثم تخلى عنها حتى قيضت له فعاله وصدق خدمته ان تقلد الزعامة الشعبية باجتماع القلوب حوله وشيوع الثقة به حتى عمت جميع الاحزاب فكانت في ساعات الشدة ترنو اليه بابصارها وترى فيه ابن بجدتها

***

وبعد الذي أوردته هنا لا يحتاج الكاتب الى كدّ الذهن ولا يحتاج القارىء الى حصر الفكر في استخراج العبرة التي يحسن استخراجها من حياة طفحت بأعمال عظيمة القدر وفي حقبة من سني هذا العصر الذي طرأ فيه من التحول على العالم ومصر في جملتهِ ما لم يسبق له مثيل في اضعافها من قبل

ولا ابغي في هذا المقام خوض المباحث النفسية لتعليل ما اتصل بسيرة هذا السيد المصري الكريم — وهذا أقرب تعبير لما يريده الانكليز بلفظة جنتلمان — فلست من المولعين بهذه المباحث النفسية ولا أرى من ينظر في سيرة عدلي يكن في حاجة اليها . فقد كانت حياته صفحة جلية اتاحت له العناية ان يخط فيها سطوراً من الاعمال النافعة المجيدة بحروف من نور تشهد لكاتبها بأنهُ عرف معنى الوطنية الحق وانه ألهم إلهاماً صحيحاً وانهُ وفق الى كثير مما أراد في خدمة قومه وتركهم أفراداً وجماعات ذكرى حافلة بما ينفع في مواصلة الجهاد

ولكن اذا كان ما رآه معظم الناس عن فقيد مصر مرتبطاً بالعمل السياسي والخدمة الادارية فقد كان في سيرته وجهان آخران لهما دلالتهما في بيان سجاياه ومزاجه وهما يؤيدان ما تجلى في اعماله العامة

فقد كان عدلي باشا شديد الوفاء لاخوانه وأصدقائه وكبير العطف على مرؤوسيه مع اقتضاء صدق الخدمة منهم والتدقيق في تتبع اعمالهم وسعة الصدر في سماع شكواهم والعناية بانصافهم

***

والذين عاشروه في الاندية والمجتمعات وفي أحوال خاصة يعسر فيها ضبط النفس وحبس العواطف كانوا يعجبون اعجاباً شديداً برزانته ووقاره وكيف انهما ما كانا يفارقانه مهما تنوّعت الظروف . وقد قال لنا غير واحد منهم ان عدلي في جميع تلك المواقف كان كالطود الراسخ . وهذا الوصف يطابق ما كان يبدو في عدلي باشا في أثناء الازمات والشدائد وهذا ما اتصف به لما سعى مع زميله المرحوم رشدي باشا لخدمة مصر سعياً قال رشدي باشا في وصفه انه لوعرفه الانكليز في حينه لشنقوه (اي رشدي باشا) والذين يعرفون تلك الحوادث يعلمون ان مصير عدلي ما كان ليختلف عن مصير رشدي من هذا القبيل لو افتضح الامر قبل اوانه

وربما كان من أبهى صحائف هذا الرجل العظيم ما متعه الله به في آخريات أيامه برؤية ذريته ولدي كريمتهِ المأسوف عليها فقد كان عدلي باشا يجد السرور كله وبهجة الحياة جميعها في ما يقضيه من الوقت مع بنت وصبي لا يزالان في سن الطفولة يلاعبهما كما يلاعب الصغار في هذه السن ويجني من المسرة ما يشرح صدره ويخفق له قلبه حبًّا وحناناً وله في ذلك اقوال مأثورة يتناقلها أصدقاؤه وعشراؤه

***

هذا بعض ما تقوله نحن الذين عاصروه وعرفوه واطلعوا على شيء من مناقبه ومواهبه وسجاياه وفعاله ونحن لا نزال قريبين منه ولم نبتعد عنه ما يكفي للاحاطة بالشيء كله كما يحيط به التاريخ بعد ما ينقضي ما يلزم من الزمان لاذاعة ما لم يذع بحكم الاعتبارات السياسية وينقشع الغبار الذي تثيره الخلافات الحزبية في اجواء البلدان وبعد ما تخمد العواصف ويزول الانفعال فتكون الاحكام اقرب الى الصواب بزيادة المعلومات والبينات وسلامة البحث من مؤثرات تقحم عليهِ وليس لها صلة حقيقية به

سيقول التاريخ كلمتهُ وستجيء مطابقة لما يؤمن بهِ ابناء هذا العصر وهو ان مصر فقدت بعدلي باشا ابناً من اكرم ابنائها خلقاً وأشرفهم طبعاً ومن أصدقهم وطنيةً ومن أكثرهم خدمةً صحيحةً للعرش والامة والوطن

رحمة الله عليه ونفعنا بفضله وخدمته وقدوته



انسان المستقبل

صفاته البيولوجية كما يراها اساطين العلم الحديث

المرجّح ان انسان المستقبل سوف يكون امدّ قامةً ، واذكى عقلاً ، واشدّ مناعة ضدّ الامراض من انسان اليوم . والمحتمل ان يضيف بضع سنواتٍ الى مدى حياتهِ بل قد يتمكن من ان يتحكم في مواليدهِ من بنين وبنات

***

بهذه العبارات البسيطة يلخّص بحث طائفة من اشهر علماء الحياة في هذا العصر، الذين اثبتوا بتجارب تنطوي على براعة وابداع ، ان الشكل واللون والحجم والبناء والطبائع والمزايا الشقية (Sex) في بعض الحيوانات يمكن تغييرها ، بل يمكن ان يقلب اتجاهها قلباً تامّاً . وقد تحكّموا في افعال الحياة الاساسية في عالم الحيوان، حتى اصبحوا قادرين من ناحية سيطرتهم على افعال الوراثة ومزايا البيئة ان يحولوا السمندل Salamander من حيوان مائي الى حيوان برّي ، وان يضاعفوا جرم الفئران والجرذان والسمادل ، وان ينشئوا ضرباً من ذباب الفاكهة لا اجنحة لهُ ، وصنفاً من السمك لا عيون لهُ ، ويعكسوا الشقّ في الطيور والضفادع — اي يحوّلوا الذكر الى انثى والانثى الى ذكر —

فعالم الحياة بكواشفهِ الدقيقة ، ومكرسكوباتهِ ، وجداولهِ ، يملك تحويل المستقبل . ان تجاربهُ قد اسفرت عن حقائق حيوية غريبة عن افعال الحياة الاساسية ، فردّ بها القول بالعداءِ والنزاع بين الوراثة والبيئة ، واثبت ان الكائن الحيّ نتيجة التفاعل بين الاثنتين

***

يعترف بعض البيولوجيين ان طبيعة الانسان ومصيرهُ يتغيران باحداث تحويل في عوامل الوراثة ، او انقلاب كبير في احوال البيئة. ولكن الامل الكبير في امكان السيطرة على خصائص الانسان ، من الناحية البيولوجية ، يقوم بالسيطرة على احوال معينة في خلال تكونهِ ونموّهِ . فالمشكلة التي امامهم، هي الكشف عن العوامل والوسائل التي تمكنهم من تطبيق ما عرفوه عن الحيوان ، على حياة الانسان

فقد ثبت لهم ان المادة الحية شديدة المرونة . وانها تعنو للعوامل التي توجهها اليها اذا عرفنا هذه العوامل وخصائصها معرفة دقيقة. وعليهِ فالتقدم البشري لا يكون بعد الحصول

على هذه المعرفة ، عرضة لتصاريف الاقدار ، بل ان انسان المستقبل، سوف يكون اشبه شيء بمثال بارع ، ينشئ الحياة على المثال الذي يراه بالتحكُّم في اغراض الحياة ومصيرها

***

في هذا العمل الباهر لا بدَّ ان يكون للهرمونات (مفرزات الغدد الصُّم) مقام واي مقام فهي تسيطر على جرم الجسم ، هل نكون اسوياء او اقزاماً او مردة . بل هي تسيطر على طبائعنا ، هل نكون شديدي النشاط او شديدي الكسل ، وهل تحوّل اجسامنا الطعام الذي نأكلهُ اولا تحوّله ، هل نكون من الزعماء في جماعتنا او من الاتباع، وهل تتصف عقولنا بصفات الرجل الاجتماعي الامثل او نكون من المجرمين

وقد استعمل بعض الاطباء خلاصة الغدة الدرقية في حقن اناس ولدوا ونشأوا صغار الجثة قصار القامة فكان من أثر هذه الخلاصة التي حقنوا بها ان اصبحوا مديدي القامة

وقد صرّح الدكتور ردِل رئيس « جمعية درس المفرزات الداخلية » ان هرمون الغدة النخامية قد يستفرد مثل هرمون الغدة الدرقية قريباً. او قد تنقضي سنوات قبل استفراده. ولكنهُ اذا استفرد وعرفنا كلَّ ما يجب ان نعرفه عنهُ امكن استعماله في خلال ادوار الطفولة في المواليد الذين يثبت ان غددهم النخامية ضامرة وينتظر ان ينشأوا اقزاماً فيحول الحقن بخلاصتها دون ذلك

ثم ان التقدُّم في درس المناعة ، ووسائلها ، ينبئ بحلول يوم ، يستطيع فيهِ الاطباء من تحصين الطفل ضدَّ امراض الطفولة ، وتحرير الكبار من قيود الادواء التي تصيب الجسوم والعقول فاذا تمَّ للانسان ذلك تقدَّم الى غزو الطبيعة بقدم ثابتة وعزيمة لا تعرف التردد والخوف

***

ولما سئل الدكتور ردِل عن مستقبل الذكاء الانساني ، قال من المتعذر ان نتنبَّأ بما قد يبلغه الذكاء الانساني من التقدم، بالنظر في الحقائق المسلَّم بها الآن. ولكن عقل الانسان مرتبط ببناء جسمهِ ، ويستحيل علينا ان ننظر الى العقل والجسم ، كأنهما وحدتان منفصلتان. فاذا تمكن الانسان من ان يسيطر على نموّه الجسماني ، فلا يعقل ان يصرف العناية عن محاولة درس الاحوال والبواعث التي تمكنهُ من التأثير في قواه العقلية. والراجح ان يوجه الباحثون في المستقبل عنايتهم الى درس العوامل التي تجعل من الانسان الواحد ، سياسيًّا خطيراً ، او ماليًّا كبيراً ، او عالماً نابغاً ، او عاملاً بسيطاً ، والمحتمل ان يتمكنوا بعد ذلك من السيطرة بعض السيطرة عليها

هذه الاقوال العجيبة مبنية على احتمالات علمية أسفر عنها التقدم العظيم الذي تمَّ في علوم الحياة في خلال نصف القرن الماضي . وتحقيقها متوقف الى مدى على السيطرة التي يستطيع

الانسان ان يعالجها في البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وعلى استعمال الغدد الصمّ ومفرزاتها ، وتطبيق القواعد التي كشفها البحث في الوراثة وارتقاء العلوم الطبيعية على اختلافها

***

ان كروموسومات الخلية اشبهُ شيءٍ بمصيٍّ ، او حبيبات دقيقة منظومة في عقود . والكروموسومات مؤلفة من عوامل الوراثة ، والى هذه العوامل ترتدُّ الصفات الانسانية الاساسية . هل الشخص ذكر او انثى . هل هو ازرق العينين او اشهلهما . هل في تركيب جهازه العصبي حاسةُ الموسيقي المرهفة . ان الفرق بين بيتوفن العظيم ، والرجل الابله ليس الاَّ فرقاً في انتظام عوامل الوراثة في الكروموسومات . فاذا تغيَّر انتظام هذه العوامل في الخلايا ، ظهر في النسل تحوُّل في الصفات الوراثية ، حتى ولو لم تتغيَّر احوال البيئة التي يعيش فيها ذلك الكائن . وقد يكون التحوُّل غير منتظرٍ على الاطلاق ، في شق الكائن (ذكراً او انثى) او لون شعره ، او لون عينيهِ ، او مقدرتهِ العقلية

خذ مثلاً على ذلك ذبابة الفاكهة الاميركية المعروفة بالدروسوفيلا . انلون العين الاحمر في هذه الذبابة يرجع في الغالب الى انتظام خمسين زوجاً من عوامل الوراثة ، انتظاماً معيَّناً .فاذا اتلفتَ عاملاً واحداً من هذه العوامل المائة،كانت النتيجة انعين الخلف لاتكون حمراء بل تكون بلا لون على الاطلاق . وكذلك ترى ان عاملاً وراثيًّا واحداً ، يحوّل صفة معينة ، اذا كان ناقصاً او اذا كان غير سويّ . ولكن امامك خمسون زوجاً من العوامل ، تتجمع كلها لاحداث صفةٍ لاخطر خاص لها في حياة الذبابة ، هو لون العينين . واذاً فالطرق امامك متعددة لاحداث تغييرٍ في لون عينها

وكذلك في النسل الانساني . فعوامل الوراثة عديدة لا تحصى ، واحتمالات انتظامها في اشكال متباينة عديدة كذلك . واذاً فالنسل يختلف عن الابوين ، ويختلف افراده بعضهم عن بعض . وهذا يعلل لنا نجوب ، عبقريٍ عظيم ، كشكسبير ، او لنكن،او بيتوفن ، من والدين لم يمتازا بشيءٍ من دلائل العبقرية . وهو يعلل لك كذلك،ان اولاد نبوليون وجوته لم يكونوا عباقرة مثل والديهما

***

فاذا كنا نستطيع ان نسيطر على تفاعل هذه العوامل الوراثية في انتظامها ، فننظمها نحن كما نشاء ، ولا نترك انتظامها للمصادفة العمياء ، فانَّ الدلائل تدلُّ على اننا نستطيع ان نخلق الانسان الامثل ، بل نستطيع انْنعين الناحية التي يتفوق فيها هذا الانسان ، ايكون عالماً ، ام رياضيًّا ، ام مهندساً،ام زعيماً سياسيًّا ، ام قطباً من اقطاب المال والاعمال

فما هو احتمال بلوغ الانسان هذا المدى من السيطرة على عوامل الوراثة ؟ يقول الاستاذ

هلدين (J. B. S. Haldane) ان امام علماء الحياة طريقين يسلكونهما ، لتغيير عامل واحد من عوامل الوراثة ، في احد الكروموسومات، من دون ان يؤثروا في العوامل الوراثية الاخرى. اما الطريقة الاولى فابتداع او اكتشاف مادة كيمائية تؤثر في عامل واحد دون العوامل الاخرى. واما الطريقة الثانية فاستنباط وسيلة يستطيع بها الباحث ان يوجّه الاشعة التي فوق البنفسجي الى جزءٍ صغير جدًّا من الكروموسوم من دون ان يتلف الخلية نفسها

ويقول الدكتور ردِل انا لا نعلم الآن كيف يجب ان تنتظم عوامل الوراثة البشرية ، حتى يخرج من انتظامها الانسان الامثل . ولكن امامنا طريق علينا ان نسلكه وهو ان ندرس اثر تحوُّل عناصر البيئة في الكائنات الحية نفسها . ولكي نحدث تغييراً في الكائنات الحيّة ، يجب ان نحدث تغييراً في احوال خاصة في مراتب النموّ الاولى . فلننظر الآن ما فعلهُ علماء الحياة في احداث هذا التغيير في الاحوال الخاصة ، وما اثرهُ في السيطرة على اجرام الكائنات، وشقها ، وغيرها من وظائف اعضائها

***

فقد بيّن بعض علماء الالمان ان بيض الضفادع واجنتها ، اذا عرّضت لحرارة اعلى من الحرارة العادية التي تتعرض لها ، تحوّلت الاناث ذكوراً . واثبتت الدكتور كتي بونس استاذة علم الحيوان التجريبي في جامعة جنيف انها تمكنت من تحويل عدد غير يسير من ذكور الضفادع الى اناث ، ثم زوجت هذه الاناث بذكور سويّة ، فحملت وولدت . والظاهر من محاضرة لها انها ازالت اولاً الغدد الجنسية من الذكور البالغين فتبع ذلك نموّ عضو صغير ضامر في الضفدع ، ولدى فحصهِ ، ثبت انهُ يحتوي على بيوض جاهزة للتلقيح . ولم تنفر الذكور من هذه الاناث بل اقبلت عليها . ومما يحير العقل ان نسل الاناث المحوّلة عن ذكور ، كان كلهُ ذكوراً . ثم ان الدكتور دُمّ Domm الاستاذ بجامعة شيكاغو تمكن من تحويل بعض ذكور الطيور اناثاً وبعض الاناث ذكوراً ، فانهُ ازال المبيض الايسر من ١٧٥ من اناث العصافير وهو المبيض الوحيد فيها ، لان المبيض الايمن يضمر ويهزل. فلما ازيل المبيض الايسر اشتدّ المبيض الايمن ولكنهُ تحوّل خصيةً بدلاً من ان يبقى مبيضاً . اي ان هذا المبيض الذي اصله غدة تناسلية انثوية ، تحول بعد ازالة المبيض الايسر الى غدة جنسية ذكرية . وقد افرزت هذه الغدد نطفاً للتلاقح . ومن الامور المشهورة ان انقلاب جنس الحيوان لدى فقد غدته يقع في الطبيعة من دون وساطة الانسان. فالحيوان المعروف بالسمندل الذكر اذا جاع بضعة شهور متوالية، ضمرت غدتهُ الجنسية . فاذا وجد طعاماً بعد ذلك عادت الى النمو ولكنها تنقلب غدة انثوية . والدجاج يقع له ما هو شبيه بذلك اذا اصيب بالتدرّن

ومن غرائب ما يذكر في هذا الصدد ان الصفات التناسلية في فتاة تحوّلت من صفات انثوية الى صفات ذكرية على اثر ظهور خرّاج جعل مفرزات غددها الصمّ اكثر مما هي عادةً . وكان الدكتور آبل العلامة الاميركي واحد اساتذة جامعة جونز هبكنز يعالجها فشهد بأن كل صفاتها الجنسية الثانوية الجسمية والنفسية كانت صفات ذكور . وقد عادت الى انوثتها على اثر عملية استؤصل فيها الخرّاج وارتدت الغدد الى حالتها السويّة

***

من الحيوانات التي تجرب بها هذه التجارب حيوان السمندل وهو في موطنه الاصلي حيوان مائي يتنفس بخياشيم ويتصف في خلال ادوار حياته جميعها بصفات الحيوانات البحرية ولكنهُ اذا نقل الى مواطن اخرى معيّنة، او اذا قضي عليهِ في دور معيّن من نموّهِ ان يعيش في الهواء او اذا غذّي بقطعة من نسيج الغدة الدرقية ، تحول الحيوان المائي الى حيوان برّي . ثم اذا غذي بقطعة من الفص الخلفي في الغدة النخامية ضخمت جثتهُ حتى ليصبح جرمها ضعف جرمها الاصلي اذ يقتصر في غذائهِ على طعامهِ المألوف . وقد وصل الباحثون الى النتيجة نفسها في الجرذان اذ حقنت بخلاصة الغدة النخامية

***

ويستطيع الباحث العلمي ان يربي سمكة ذات عين واحدة مع انها في الطبيعة ذات عينين باضافة احد المخدرات او احد املاح المغنيزيوم الى المـاء الذي يفقس فيهِ بيض السمك

بل يستطيع الانسان ان يتدخل في دور معين من ادوار حياة دودة من الديدان وبتغيير احوال البيئة يقرّر اي طرفٍ من طرفي الدود يكون رأسها واي طرف يكون ذنبها . ولا تقل عجائبهم في تغيير الوان الحيوانات عمّا تقدّم . فالدجاج الابيض الريش يحوّل الى دجاج اسود الريش

***

من المتعذّر الآن تطبيق هذه الحقائق على النوع الانساني وخصوصاً فيما يرتبط بالتناسل لان تجربة التجارب التناسلية بالانسان امر تعافهُ نفوسنا ولكن اذا تقدّم البحث في الوسائل الاخرى القائمة على احداث تغيير في الكائن الحيّ بتغيير احوال بيئتهِ في ادوار معيّنة من نموّهِ وبوجه خاص فيما يتعلق بالغدد الصمّ فلا يبعد ان يصبح علماء الحياة عاملاً من عوامل الطبيعة في انشاء الانسان على أعلى مثال يتصورونهُ

الواحة المنسية

لحسن كامل الصيرفي

في ذِمّةِ الفنِّ ألحان تضيعُ ، وفي / أصدائها قِطَعٌ من قلب فنانِ

تجرّعَ الألَمَ الدامي تحوّلُهُ / الى ترانيم عشاقٍ والحانِ

يُستقى العذابَ ويَسقي الناس اكؤسهم / صفواً من النُّورِ في ظلماء أشجانِ

مدامعُ الأنجم الحيْرَى تشاركهُ / تَسَلْسُلَ الدمعِ في أجفانِ حيرانِ

وظلمةُ الليلِ تستوحي كآبتَهُ / همْسَ السكونِ بإفصاحٍ وتبيانِ

ومطلع الفجر يستوحي ابتسامتَهُ / نورَ الملائكِ في إشراق إنسانِ

أناتُهُ من طِعان الدهر صادرةٌ / وجُرْحُهُ من شظايا العالَمَ الجاني

تضمّدُ الجُرْحَ كفّاهُ ويسترهُ / بواضحٍ من ثنايا الثغرِ فتانِ

فيهِ معاني ابتسامٍ وهي سخريةٌ / بعالَمٍ دائرٍ في كفِّ شيطانِ

يعيش في الأرض مأخوذاً بعالمهِ / ويهجر الارضَ هيماناً بأكوانِ

يبدو خلال ظلام الناس مؤتلقاً / نور الخلود بهذا الكوكب الفاني

كواحة ازهرت في القفر تائهة / عن الحضارة في اكناف نسيانِ

في ذِمّةِ الفنِّ ما ردّدتهُ امداً / فضاع لحني سُدًى في جوِّ نكرانِ

طغى عليه ضجيجُ القوم فانطمستْ / أصداؤهُ وفؤادي طيّ ألحاني

فلسفة التحليل النفسي [١]

النفس لغز والتحليل النفسي مفتاحه

اخرج العلامة فرويد نظرية التحليل النفسي Psycho-analysis وطريقة تطبيقها من نحو ثلاثين سنة . واقترح علاجاً نفسيًّا لطائفة من الامراض العصبية . ولكن هذه النظرية على ما فتحتهُ من ابواب الامل في تمهيد سبلٍ جديدة لكشف خفايا النفس ، خيّبت نظر النقاد الذين يحق لهم ان يحكموا في موضوعها ، وهي اليوم معرضة للاهمال بتهمة انها افتراض نظري ليس لهُ أساس علميّ سليم يستند اليهِ . بل يقولون انها تجربة خطرة كلّ الخطر ، وان الشفاء الذي تمّ بواسطة التحليل النفسي في الامراض العصبية ، لم يحقق من الوجهة الاحصائية ولا من وجهة الدليل السريريّ Clinical على انهُ قد تمّ حقيقة ولا ما هي نسبة ما تمّ منهُ الى ما لم يتمّ

يضاف الى ذلك ان متخرجي مدرسة فرويد في التحليل النفسي الذين احرزوا الشهادة التي تخوّلهم ممارستهُ يعوزهم التعليم الطبي والمرانة ، اللذان يمكنانهم من فهم الاضطرابات العصبية ، دع عنك تشخيصها ومعالجتها . ثم ان السماح لرجال لم يتعلموا التعليم الطبي ، في معالجة الادواء الجسدية والعقلية ، عرضة للمساوىء والمفاسد والتدجيل ، وهو خطر على الصحة العامة . وكثير من الاطباء الذين بحثوا في حسنات التحليل النفسي وامتحنوها يرون ان ما يدعيه رجال هذه المدرسة النفسية ، مغالىً فيهِ شديد المغالاة

ان مفتاح النظرية الفرويدية هو ان الاضطرابات النفسية — من عقلية وعاطفية — والاضطرابات الجسدية كذلك ، تنشأ في كثير الاحوال ، من اسباب نفسية لا من اسباب جسدية . فقد كشف فرويد وهو يبحث ويجرّب التجارب بالتنويم المغناطيسي في عيادة الدكتور شاركو Charcot بباريس ان المرضى المصابين بالهستيريا ، اذا ناموا بفعل التنويم المغناطيسي ، كشفوا احياناً من تلقاء نفوسهم ، عن طبيعة اصابتهم واسبابها . ولما كان فرويد نفسهُ غير بارع في شؤون التنويم المغناطيسي ، شرع يحاول ان يكشف عن طرقٍ ووسائل اخرى ، لينفذ بها الى العقل الباطن . وكان يعتقد انهُ يستطيع ان يشفي مصاباً من هذا القبيل بنقل سبب العلة من العقلِ غير الواعي الى العقل الواعي ، لانهُ اذا ادرك المصاب طبيعة اصابتهِ واسبابها ، زال اولاً خوفهُ وقلقهُ واضطرابهُ ، فيزول النزاع بين الذات الواعية ، والذات غير الواعية وتنتصر الاولى على الثانية فتتم لمصابنا نعمة الشفاء . وقد اطلق على مجموعة الافكار المشتركة التي تسبب الداء او الاضطراب ، بالمركّب او العقدة . وهما لفظان فيهما معنىً من معاني

(١) للدكتور فوكس عن السينتفك اميركان بتصرف قليل

اللفظ الاصلي Complex . وبعد بحث تجريبي في مصابين بالهستيريا، وشديدي توتر الاعصاب، صرح ان المركبات ،الباعثة على هذه الامراض العصبية سببها، رغائب جنسية غير تامة النضوج، مكبوتة لا تبدو في مظهرها الطبيعي ، وان هذه الرغائب انفصلت عن تيار الوعي ، فألفت شخصية او ذاتاً مستقلة عن ذات الانسان العامة، وان هذه الذات المستقلة في حالة ثورة عنيفة على الذات العادية. وفرويد يعلق شأناً خطيراً بمكانة الرغائب الجنسية ويذهب الى ان الرغبة الجنسية التي يدعوها «ليبيدو Libido » هي اساس لكل مطامح الانسان. ثم هو يدعي ان هذه الحالة — اي حالة النزاع بين الذات المستقلة والذات العامة — يمكن ان تشفى ، بربط الذات الثائرة بالذات العامة ، ثم اكفاء الرغائب غير الواعية ، بتحويلها الى ناحية جديدة . ويعرف هذا العمل بالتحويل Transference فاذا قامت عقبة، تحول دون تحويل الرغائب ، الى ناحية جديدة كانت العقبة بمثابة المقاومة في علم الكهربائية ، وكان لا بدَّ من المثابرة والمحاولة والمداورة في محاولة تخطيها او التغلب عليها

يفتح التحليل طريقين الى درس العقل الباطن او النفس غير الواعية، طريق مجموعة الافكار المشتركة اشتراكاً حرًّا ، وطريق تفسير الاحلام

والتنفيس عن الرغائب المكبوتة بطريقة اشتراك الافكار يعرف باسم «كاثارِيس Catharis» اي التطهير او التنظيف من اللفظ اليوناني كاثاروس اي نظف . والمقصود باشتراك الأفكار الحرّ، ما يأتي : ان تداعي الافكار Association of ideas عمل من أعمال الذاكرة. فانت لا تستطيع ان تذكر شيئاً الاَّ وتربطه بشيءٍ آخر او تقابلهُ بهِ . ومعرفة كل انسان هي كل الحقائق التي يستطيع ان يذكرها مضافاً اليها الحقائق التي نسيها او لا يستطيع ان يتذكرها . فاذا حاول الانسان ان يجعل تداعي افكاره ، شعوريًّا اي خاضعاً لارادتهِ ، حاول ان يتذكر حقيقةً مخزونة في الذاكرة ، يربطها بحقيقة اخرى يسهل تذكرها . وفي هذا اللون من التفكير ، يكون توجيه الفكر ، شعوريًّا ومقصوداً ومسيطراً عليهِ

ونحن نعلم ان الأفكار والصور الذهنية واحلام اليقظة ، تطفو احياناً على تيار الوعي او الشعور ، من دون ان يبذل اي جهدٍ خاص في ذلك . فاذا استوقفنا هذه الافكار والصور الشاردة ، لحظة من الزمان ، اكتشفنا ان كل فكر وكل صورة ذهنية، طفت على تيار الوعي من دون قصدٍ منا ، هو في نفسهِ ، او هي في نفسها، مسلك الى مخبأ من مخابىء العقل الباطن، فهي اذاً تلقي ضوءًا كشافاً على النواحي المظلمة من ذهن الانسان ، المنفصلة عن الذاكرة ، او المجهولة من الذات الشاعرة. وهذا هو المقصود، في مدرسة فرويد، باشتراك الافكار اشتراكاً حرًّا Free association ذلك ان غرضهُ استكشاف العقل الباطن بواسطة سلسلة حلقاتها الافكار الطافية على تيار الشعور ، ومعرفة صلتها بخفايا العقل الباطن

وتحليل النفس عمل لا يتعلمهُ الانسان تعلماً ، لانهُ عمل ذهنيّ طبيعي . فيشرع الانسان في استكشاف نفسهِ في مراحل سهلة الاجتياز . فيدوّن الحقائق المتفرقة التي يكشفها ثم يربط بينها ثم ينشئ منها صورة منسجمة الاجزاء ، تبين لهُ نشأة احوالهِ العاطفية وتاريخها . فالافكار الشاردة والصور الذهنية الطافية من دون ارادة او قصد على تيار الوعي ، واحلام اليقظة ، هي كلها كاحلام النوم ، فيض العقل الباطن الذي يعرب عن رغبة كامنة في الباطن او شعور او اضطراب داخلي . وكل صورة منها ، ككل جزء من الاحلام ، انما هي لفظ من اللغة الرمزية التي يتكلم بها العقل الباطن . وهي تختلف عن لغة العقل الواعي . فالشعور بالبرد ، يوقظ في العقل الواعي الوانا من الفكر ، تأتلف وهذا الشعور ، مثل «فصل السنة» و «الملابس» و «الاماكن الباردة» و «الوسائل اللازمة لاتقاء البرد» . اما في الحلم — حلم النوم — فالحلم يجيء اولاً ثم يليهِ الشعور بالبرد . خذ مثلاً على ذلك ، رجلاً يأوي الى سريرهِ في غرفةٍ باردة ، وفراش غير دافئ ، فيحلم انهُ منقطع عن العالم على جبل من جبال الجليد . والشعور بالخطر يوقظ النائم ، فيحملهُ شعورهُ بالبرد ، على البحث عن دثار يتدثر بهِ ليدفأ . ولكل انسان لغتهُ الرمزية الخاصة بهِ . ولا يتشابه اثنان . فمحاولة تفسير احلام الواحد برموز الآخر ، عمل لا بدَّ ان يفضي الى الخطاء . من هنا نرى ان محاولة رجل ان يقوم بتحليل نفسي دقيق لرجل آخر ، عمل متعذر . فالمختصُّ بالتحليل النفسي يستطيع ان يرشد لا ان يعلم . انهُ لا يستطيع ان يهضم اكل غيره ، ولا ان يحلل نفس غيره . وثمة طرائق عديدة لتحليل النفس وكلها تبدأ بترك العقل الباطن يفيض بما يختلج فيهِ من المشاعر والافكار ، ويلي ذلك توجيه محبة الشخص الجنسية الى شخص معيّن . وهذه الناحية من التحليل النفسي ، هي الناحية التي يندّد بها رجال الدين وجماعة المدافعين عن آداب النفس ، لان المحلّلين النفسيين ، يوجهون هذه المحبة في الغالب الى اشخاصهم . والامر الذي لم يفهم بعد على صحتهِ ، هو هل يتمّ الشفاء باستكشاف العقل الباطن ، او باشباع المحبة الجنسية في شخص المحلّل النفسيّ ، او بكليهما ؟ !

واذن يرى القارئ ان هذه الدعاوى ، ليست على جانب من الدقة العلمية ، او الاخلاص ، او الادب . اذا كان التحليل النفسي يشفي ، فكيف يشفي ؟ اننا نعلم ان العواطف المضطربة تحدث اضطراباً وقلقاً في وظائف الجسم والعقل ، وان معظم هذه الاضطرابات ينشأ في العقل غير الواعي . والاعراض غامضة ، معظمها من نوع المخاوف الموهومة ، والنزاع الداخلي ، وكبت الشعور ، وشدّة الاحساس ، والرغبات النابية ، والحب ، والخجل في الصلات الاجتماعية والعجز عن صبّ الفكر وتوجيههِ الى موضوع واحد

والمصاب يكون في الغالب ، كثير الاضطراب والهمّ ، لا يستطيع ان يصمد للصدمات التي تنتابهُ ولا ان يحتمل ما في الحياة من اخذ وردّ ، ومدّ وجزر . فهو كئيبٌ دائماً ، متجه

الى نفسه ، اقل شيء يحيّره ُ ويقلقهُ . فاذا كانت الحادثة حادةً ، اصيب بالارق وضعف الشهية وانخفاض ضغط الدم وخفقان القلب واضطراب الغدد والهستيريا والعجز الجنسي والتوق الى تناول المخدرات وضعف النطق او اضطرابهُ وغيرها من الاعراض التي يسفر عنها اضطراب الجهاز العصبي . واسباب هذه الاضطرابات او مبعثها رغائب مكبوتة او محبوسة في العقل الباطن ، تنشىء نزاعاً او تناحراً بين اجزاء الشخصية الواحدة . اي ان الذات الباطنة تكون في حالة ثورة فتتفكك وحدة الذات العقلية والجسدية ، في آنٍ واحد

والشفاء من هذه الحالة ، الباعثة على التعس والشقاء، مشكلة صعبة شديدة التعقيد. ويجب الاقبال على حلّها في هوادة وحذر . فالغرض من كل علاج من هذا القبيل ، يجب ان يكون القضاء على التناحر الداخلي ، واطلاق العواطف المحبوسة المكبوتة، واستنباط الوسائل لتهدئة الرغبات غير المشبعة او تحويلها او تسكينها . وقد ذكرنا ان « الجرح » النفسي هو في العقل الباطن . واذاً فيجب ان يمدَّ رواق العقل الواعي الى ما وراء حدودهِ العادية ، حتى يضمَّ تلك الاجزاء التي كانت مستقلة في العقل الباطن فيدمجها في وحدته الشاعرة . وهذه الخطوة هي الاولى نحو العلاج ، ويمكن خطوها بواسطة التنويم المغناطيسي ، واشتراك الافكار بالمعنى المقصود في مدرسة التحليل النفسي ، او حلّ رموز اللغة التي تتكلم بها النفس غير الواعية في اليقظة اوفي النوم. فاذا اكتشف المصاب الباعث الاساسي على حالتهِ ، وفهم طبيعة الاضطرابات التي اصيب بها ، روّح ذلك عنهُ ، وحدَّ من الشك الملازم لمخاوفهِ ، فيعود اليهِ جانبٌ من ايمانهِ وثقته بنفسه . ويستيقظ الامل في صدره وما يسير مع الامل من حماسةٍ تمكنهُ من السير نحو الشفاء التام بفضل الاستهواء الذاتي . واذ يشرع المصاب في معالجة نفسهِ ، يجب ان يتمرّن على تحليل النفس ، بتدوين العواطف والمخاوف والرغائب والنواهي والكوابح ، وما يحب وما يكره ، التي تطفو على تيار وعيهِ . ويفضَّل ان يختار غرفة هادئة حيث لا يقلقهُ مقلق، فيدوّن في ورقة امامهُ الاعراض والمخاوف والرغبات . فيأخذ مثلاً رغبة من الرغبات، ويرى ما يتصل بها من الصور الذهنية ، المتسلسلة في نفسه تسلسلاً حرًّا ، فيدوّن كل حلقة من حلقاتها . وقد يلقى تتابع هذه الصور احياناً ما يعيقهُ وما يقطعهُ بلفظة او صورة او فكرة . فليدوّن ذلك وليضع تحتهُ خطًّا احمر، لان ما يقطع تسلسل الصور الذهنية، يشير الى الموانع او الكوابح في الحياة العقلية، اي ما يكبح النفس او يمنعها من الاستسلام الى رغبة من رغائبها

فاذا والى المصاب ذلك ساعة كل يوم مدة ثلاثة اسابيع اجتمعت لديهِ الحقائق الاساسية عن اعماق تلك الذات الباطنة، التي بينها وبين الذات العامة نزاع او تناحر هو منشأ الاضطراب. فاذا اتسعت معرفته بتلك الذات الخفية ، عادت اليهِ ثقتهُ في نفسهِ ، الناشئة عن المعرفة ، والثقة تجر في اثرها القوة والسيطرة على النفس ، وهذه اول مرتبة من مراتب الشفاء

مصطلحات علم النفس

ومشكلة تعريبها

للدكتور محمد مظهر سعيد

استاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

— ٢ —

استعرضت في المقال السابق [١] بعض نماذج هامة لمصطلحات علم النفس الانكليزية تبين للقارىء باجلى وضوح مبلغ ما يجده الاساتذة المصريون من الصعوبة في نقل هذه المصطلحات الى العربية اذا اعتمدوا على الاستعمال العادي وقواميس اللغة وموسوعاتها ، وكيف انهُ اصبح يتعذر وضع الفاظ لها تؤدي المعنى العلمي المقصود وتحدده تحديداً لا لبس فيهِ ولا غموض اذا لم نتتبع المعاني المختلفة التي خلعت على كل مصطلح في مختلف ادواره الفلسفية والسيكولوجية وآراء العلماء الذين وضعوها ان كانت حديثة والمذاهب التي تذهب اليها المدارس السيكولوجية المختلفة في تفسيرها واستخدامها . ولا استطيع ان افعل خيراً من ان اذكر ما قاله احد اساتذة علم النفس الاجلاء عند وضعه اول كتاب علمي في هذا الموضوع . « والله وحده يعلم ما كابدته من المشاق والاتعاب في تأليف هذا الكتاب وتحصيل معانيه . تارةً من اللغة الاجنبية وتارات من الاسفار العربية والتقاط الفاظه كلمة كلمة من كتب شتى . وما بذلتهُ من الجهد في وضع عباراتهِ وسبكها بقدر ما في الامكان على ابسط صورة الخ » (كتاب علم النفس للمرحوم الشيخ محمد شريف سليم سنة ١٩١١ : ص ل مقدمة) وفي ص ١٠ « هذا وقد اعتبرنا في توضيح معاني هذه الكلمات مفاهيمها العامة الجارية على ألسنة العالم » وتواضع الاستاذان علي الجارم ومصطفى امين فقالا في مقدمة كتابهما (علم النفس وآثاره في التربية والتعليم) « وقد حافظنا على ما وضعهُ رجال العربية قبلنا من اصطلاحات العلم واوضاعه . اعترافاً بسبقهم وحبًّا في اتصال عملنا باعمالهم . ولكيلا يضيع الخلاف اللفظي شيئاً من وقت الباحث او يكون سبباً في اختلاط الامر عليهِ » . وعلى الرغم من ضيق دائرة علم النفس الذي يدرّس في مصر واقتصاره على علم النفس التعليمي لطلبة المعلمين والمعلمات وسهولة مصطلحات هذا الفرع وانتشارها فقد شعر الاساتذة الاجلاء المرحوم الشيخ شريف والاستاذ علي الجارم ومصطفى امين وامين مرسي قنديل الذين يرجع اليهم كل الفضل في ادخال علم النفس في مصر ونقله الى العربية وبذل الجهود

---

(١) راجع مقتطف ١ كتوبر ١٩٣٣

الجبارة في سبيل كشف مغلقه ونشره بين الناس ومن فني على اثرهم امثال الاساتذة حسنين عبد رازق وحامد عبد القادر وعطية الابراشي وكاتب هذه السطور في مصر وغيرهم في الشام والعراق كل هؤلاء لا اخالهم الاّ شاعرين بشدة حاجة المشتغلين بهذا العمل الى ضبط مصطلحاته وتعميمها قبل ان يتربى سيل فروع علم النفس الاخرى عن طريق معهد التربية وكلية الحقوق وتتشعب المصطلحات ويتعذر الاتفاق

وسأذكر للقارىء بعض نماذج الترجمات العربية لأهم مصطلحات علم النفس التعليمي واكثرها استعمالاً مختيرتها من الكتب العربية الآتية التي ما زالت تستخدم كمراجع وكتب مدرسية في مدارس المعلمين والمعلمات وكليات الازهر ومعهد التربية

(١) علم النفس للمرحوم الشيخ محمد شريف سليم
(٢) علم النفس وأثره في التربية والتعليم للاستاذين علي الجارم ومصطفى امين
(٣) اصول علم النفس للاستاذ امين مرسي قنديل — جزءان
(٤) في علم النفس — الجزء الاول — للاساتذة حامد عبد القادر وعطية الابراشي ومظهر سعيد
(٥) » » — » الثاني — للاستاذين » » » » » »

وسأتناول علم النفس موضوعاً موضوعاً متدرجاً من الشعور ومظاهره الى الاحساس فالادراك وانواعه فالعمليات العقلية والغرائز

موضوع الشعور

أول مظهر من مظاهر الحياة العقلية وأقوى دليل على وجودها شعور الكائن بذاته ونفسه وما حواليه من اشياء وما يقوم بهِ من افعال او على حد قول فلاسفة المسلمين « شعور الانسان بذاته وما يصدر عن هذه الذات وما هو خارج عنها » وبعبارة اخرى ادراكه لنفسه وما يظهر في ذهنه وما يشعر به في داخله وما يحيط بهِ وافعاله التي يرمي بها الى غرض خاص وغير ذلك مما يحقق قول الفيلسوف ديكارت المأثور (أنا ادرك او افكر فأنا موجود Cogito ergo sum) وقد يتدرج هذا الشعور من مجرد شعور الانسان بشيء يؤثر في حاسة من حواسه شعوراً غامضاً غير محدود يدرك بهِ ان هناك شيئاً ولكن لا يستطيع ان يميزه ، الى شعور كامل بذلك الشيء وادراك لمميزاته وظروفه وأحواله يصل الى ما يسميه الفيلسوف الالماني (كانت) بالمعرفة . واللفظ الذي يتضمن كل هذا المعنى هو بالانكليزية Consciousness ومثله بالفرنسية Conscience . وقد اتفق المؤلفون على ترجمته بالشعور ولم يشذ عن هذا غير الاستاذ الابراشي فقد سماه في بعض الاحوال بالوعي (ص ٣١ . حالة الوعي واليقظة اي الشعور) ولكنهم اختلفوا في تعريفهم له فقد عرَّفه المرحوم الشيخ شريف (ص ٨١) بتعرف النفس على نفسها وهي متلبسة بحال من أحوالها فهو الادراك العام للنفس وهو بذلك اخرج ادراك النفس

لغيرها وما تقوم بهِ من افعال ليست في ذاتها من حالات النفس وقال الاستاذ الجارم (ص ٤١) معرفة الانسان ما يجري في نفسه من الوجدان والفكر والارادة

واتفقوا كذلك على ترجمة Focus (النقطة التي يتجمع او يتركز فيها الشعور) بالبؤرة و Margin (ما يخرج عن المركز ولكنهُ في مجال الشعور على كل حال) بالهامش نقلاً عن علم الضوء والشعور الناقص او الهامش Subconsciousness يشبه الشعور ما عدا الاستاذ عبد الرازق (ص ٢) فقد سماه الشعور الضعيف وهذه الترجمة في الواقع لا غبار عليها لولا انها تختلط بمعنى Anoetic consciousness وهي كلمة جديدة لم ترد بعد في الكتب العربية وضعها العلامة الانكليزي ستاوت للدلالة على الشعور الغامض الضعيف غير المحدود

وترجموا الشعور الباطن (Unconsciousness) الذي هو مظهر الحياة العقلية للعقل الباطن في النوم والسرحان باللاشعور وكنا نرجو ان لا تترجم هذه الكلمة حرفيًّا حتى نصلح عيب الكلمة الاوروبية التي يفهم منها الطلاب والمبتدئون حالة عدم الشعور او فقدانه (non—consciousness) في حالة الموت والتخدير والاغماء. اما الابراشي فقد ترجمها باللاوعي قياساً على ترجمته الشعور بالوعي

وللشعور مظاهر سماها الاقدمون volition, affection, knowing او Wili فترجمها من نقل عنهم بالمعرفة او الفكر والوجدان والارادة (الجارم ٤١)

ورأى المحدثون ما في التسمية من خطأ فظيع اذ ليس كل ادراك معرفة اوفكر وليس كل عمل يقوم بهِ الانسان بأرادة فسموها cognition و affection و conation فترجمها من نقل عنهم الادراك والوجدان والنزوع (ما عدا عبد الرازق فقد احتفظ للادراك بلفظهِ القديم وهو المعرفة وذكرهُ كذلك هكذا ص ٢٨ —مظهر المعرفة Cognition) وترجمها الشيخ شريف تارة معرفة وادراكاً وتارة علماً. ففي ص ٤٢ مثلاً يقول (الغرائز يندفع اليها الطفل بطبيعته من غير علم ولا شعور فهي غير مشعور بها) والعلم فوق الادراك والمعرفة بمراحل

وفي حين ان بعضهم اخذ باللفظة الحديثة Affection الاَّ انهم ادخلوا تحت مظهر الوجدان ما لم يقل بهِ المحدثون فأدخل الجارم (ص ٤٧) الجوع والعطش وهما أمران عضويان فسيولوجيان وعرَّف الاستاذ قنديل «الوجدان» (ص ٥٠) بما تجده في نفسك من لذة وألم. من غير ان يفرق بين اللذة والألم المعنويين وهما آخر مراتب الارتياح وعدم الارتياح واللذة والألم الماديين وهما عضويَّان

موضوع الاحساس

كلمة Sensation الانكليزية والفرنسية بالمعنى السيكولوجي المحدود ومشتقاتها يقصد بها العملية الفيزيقية الفسيولوجية التي تستقبل بها الحواس آثار المؤثرات الخارجية كما هي وترسلها

عن طريق الاعصاب المرسلة او المصدرة الى المناطق الخاصة بالتصرف فيها في مراكز الجهاز العصبي. ولاشيء غير هذا المعنى مطلقاً. وقد اتفقوا على ترجمتها بالاحساس ولكنهم عند تفسير معناها ادخلوا تحتها عمليات عقلية ومظاهر شعورية ليست من الاحساس في شيء حتى انهُ ليصعب على الطالب والقارىء ان يفهم المعنى المحدود والفارق بين الاحساس وبين العمليات العقلية والحالات النفسية الاخرى. فالشيخ شريف يقول (ص ٤٦) الاحساس قوة طبيعية اودعها الله في النفس تجد بها لذة وألماً في اشياء (وهذا هو الوجدان) وفي (ص ٤٩) الاحساسات أثرية تظهر آثارها على وجه الانسان (وهذه ايضاً وجدانات) وفي (ص ٥٠) القوة الحسية هي الاحساس الذي تسبب من حصول ظاهرة من ظواهر القوة الطبيعية كألم الجوع — وفي (ص ٣٣) الظواهر الانفعالية تدخل تحت القوة الاحساسية. والسرور والخوف المعنويتان القوة الوجدانية وهي ارق قوى الاحساس. فكأنهُ فرّق بين الاحساس والوجدان ولكنهُ اعتبرها مراتب للاحساس. وسبب هذا الخلط ما وقع فيهِ علماء الغرب انفسهم في القرن الماضي من الخطإ في الخلط بين كلمتي Feeling و Sensation. اما الاستاذ فنديل فقد ادخل في الاحساس عناصر الادراك الحسي ووضع كلمة الحس (ولا نعرف لها مقابلاً في الافرنجية للدلالة على كتلة مدركاتنا الحسية وخبراتنا السابقة (Apperceiving mass) فيقول فيهِ (ص ٧ الجزء الثاني) الاحساس والادراك الحسي يكوّنان معاً كل خبراتنا الحسية او الحس

ونظرة واحدة الى تقسيم الاستاذ Watt لمظاهر الشعور في كتابه[1] وهو حجة في موضوع الاحساس تبين لنا وجوب فصل الاحساس والمظاهر الادراكية الحسية عن المظاهر الوجدانية

I Sensory— Cognitive System includes all Sensations

II Emotive System includes all non — sensory feelings, pleasure, displeasure & all emotions.

اما في تقسيم الحواس والاحساسات وترجمتها فقد اتبعوا اساساً لا يتفق الى حد ما مع الاساس المعمول بهِ الآن في علم النفس الحديث والذي يجب ان يكون في ذاتهِ دليلاً للترجمة فالاحساسات تنقسم الى اربعة اقسام رئيسية هي

I Exteroceptive (outer)	وتشمل الالم العضوي والحرارة كمؤثر خارجي
II Preperoceptive (inner)	كالنطق والاحساس العضلي
III Interoceptive (inner)	كالاحساس بالجوع والعطش
IV Exteroceptive complex	كالسمع والبصر

المراجع
(1) H. J. Watt "The Sensory Basis or Structure of Knowledge"
(2) Sir Percival "The Psychology of Perception"
(3) Haliburton "A Handbook of Physiology"

(1) The Sensory Basis or Structure of Knowledge

وقد اقتصر معظم المؤلفين على ذكر الحواس الخمس الرئيسية السمع والبصر الخ واضاف الاستاذ حامد عبد القادر (ص ٤٩ الجزء الثاني) المعدة فقال (عدد الحواس عند القدماء خمسة ... واضاف المحدثون المعدة) وذكر (ص ٤٨) الحس الخارجي (للاحساسات الجلدية) والباطني (للالم والسرور) والموضعي والحركي وذكرها الاستاذ قنديل (ص ١٢ الجزء الثاني) كما يأتي

احساسات عضوية كالتنفس والدورة الدموية (ومنها الحشوية كالقلب والرئتين) ثم الحركية فالجلدية فالشمية والسمعية الخ

اما الاشياء المحسوسة ذاتها فقد سميت تارةً بالمحسوسات (شريف ص٢٧) وتارةً بالمحسات (شريف ص ٥٥)وهذه على كل حال ليس لها مقابل بالانكليزية يكمل مجموعة Percept (للمدرك الحسي) و Concept (للمدرك الكلي) ولذلك اقترحنا ان تضاف كلمة Sencept (للمحسوس) اما كلمة Stout الجديدة Sensum التي تدل على مجموع الآثار الحسية التي تحل في العقل محل المؤثر الاصلي فيدركه العقل على مقتضاه ، فلم ترد بعد في المؤلفات العربية

موضوع الادراك الحسي

ذكرنا ان العقل في مرتبة الاحساس يستقبل الآثار الصادرة عن المؤثرات الخارجية ولكن لا يكون لهذه الآثار قيمة عقلية او شأن في الحياة العقلية الاّ اذا اعطاها العقل معنى محدوداً يربط هذا الموقف الحاضر بمواقف سابقة عن طريق التداعي والتذكر والاسترجاع والتعرف وغير ذلك من العمليات التي تساعدنا على ادراك المواقف الخارجية اي انه (كما يقول سانديفورد) يقوم بعملية التعبير عن الاحساسات وترجمتها بطريقة تشعرنا بوجود المحسوسات التي هي مصدر هذه الاحساسات (راجع كتاب علم النفس — النظري والتعليمي لكاتب هذه السطور) . وهذه العملية تعرف في الافرنجية بكلمة Perception وجمهرة الاساتذة تميل الى ترجمة هذا المصطلح بـ « الادراك الحسي » ولكنهم في مواطن كثيرة استخدموا له مرادفات تجعل المعنى غامضاً بعض الغموض . فالشيخ شريف سماه الادراك الذهني (ص ٣) والحسي (ص ٢٥) والانساني (ص ٦٩) وكذلك ذكر له مراتب لا نجد لها مثيلاً في الافرنجية الحديثة الى ادراك اولي (ص ٧٥) وهو ادراك الموجودات الخارجية والتمييز بينها وهذا بدوره ينقسم الى ادراك اولي حسي (ص ٩٣) وهو معرفة الاشياء بمجرد الحس بها وادراك اولي وجداني (ص ٩٣) وهو معرفة الاشياء بمجرد وجدانها (كذا) ثم ادراك اولي عقلي (ص ١١١) وهو معرفة المعاني العامة الضرورية البالغة الغاية في الوضوح ومن ناحية اخرى قسمه (ص ٩٨) الى ادراك طبيعي من طبيعة الحواس نفسها وكسبي بعد تمرين الحواس واشراك بعضها مع بعض. وفي بعض المواضع اعتبر الادراك من عمل الحواس

فقال (ص ٢٥) للنظر ان يدرك كنه الاشياء . واشياء يستحيل ادراكها بالحس . والجارم (ص ٧٩) ذكر ولوع الطفل باحساس الشيء (اي ادراكه ادراكاً حسيًّا)

ولا يتعين في الادراك الحسي ان يعرف الانسان حقيقة ما يحس به ولو أنهُ يدركه ومن باب اولي لا يعلم بهِ علماً تامًّا فكثيراً ما يخطيء الادراك وتخدع الحواس ومع هذا يقول الاستاذ حامد (ص ٧٠ جزء ٢) الادراك الحسي يتضمن العلم بوجود شيء وفي (ص ٧٩) وظيفة الادراك الحسي هي ان تكون على علم تام بما هو واقع فهو العلم بالواقع وفي موضع آخر يشير الى بعض الادراكات الحسية (ص ١٣٦ جزء ٢) بأننا لا نشعر بهذه الاحساسات شعوراً محدوداً واضحاً وفي (ص ١٣٧) ومهما يكن من أمر هذه الاحساسات فانها غامضة يشعر بها عنصر وجداني يتغلب على العنصر الادراكي وهذا مناقض للتعريف الذي ينص على تمام العلم بالواقع عند الادراك الحسي . وأنا أرى ان ترجمة Perception بالادراك الحسي يجعل الحس صفة للادراك في حين ان المقصور هو ادراك العقل لما يحس بهِ فالحس صفة للمدركات وليس للادراك ولذلك ارتاح الى ترجمتها «بادراك المحسوسات» . أما المدركات ذاتها Percepts فأفضل ترجمة لها المدركات الحسية تمييزاً لها عن المحسوسات التي لم تدرك بعد وسماها حامد (ص ١٣٦ — ٢) بالادراكات الحسية ولعله يقصد انواع الادراك من حيث تمدد المدركات ففي (ص ١٠٠ — ٢) يقول تنقسم الادراكات الى عليا ودنيا . فالعليا هي الابصار والسمع الخ والمعنى غامض على كل حال لان السمع والابصار ليسا ادراكات ولا مدركات وانما هما احساس

وبعد ادراك المحسوسات ترتبط هذه المعلومات الجديدة بما يماثلها في كتلة معلوماتنا القديمة حتى تصير منها وتسمى هذه العملية Apperception ولم يشر اليها واحد من المؤلفين الاَّ الاستاذ حامد (ص ١٩٨ — ٢) فقد ترجمها الترابط وترجم Corrolation وهي عملية ادراك العلاقات بين المواقف (على حد رأي العلامة الانكليزي Spearman) بالرابط وهما عمليتان مختلفتان ولكنهُ عاد فترجم Apperceiving mass بالكتل الربطية (يقصد الترابطية) وانا أميل الى ترجمة عملية Apperception بتثبيت المدركات الحسية للاسباب التي ذكرتها في المقال السابق

فاذا ازدادت المدركات الحسية المتشابهة في الذهن عمد العقل الى الاقتصاد في عملياته الادراكية فيجرد هذه المدركات من صفاتها العرضية ومميزاتها الحسية وينتزع الصفات الجوهرية ويضع منها معنىً كليًّا يعممه على كل انواع هذه المدركات المتشابهة او المترابطة وتعرف هذه العملية في علم النفس والمنطق بكلمة Conception والمدرك الكلي Concept وقد ترجموها بادراك الكليات وتارةً المعقوليات والمفهوميات واضاف حامد (ص ٢٥—٢) ادراك الكلي المعنوي وكذلك اضاف الى عمليات الادراك الثلاث السابقة او مستويات الادراك ما سماه (ص ٢٥ — ٢) المستوى الفلسفي



حياة روسيا الفكرية

الكتب والكتّاب والقرّاء

في جمهوريات روسيا

ما تنشرهُ المطابع وما يطالعهُ القرّاء

هل تصدق ايها القارىء الكريم انه طبع في روسيا في سنة ١٩٣١ ترجمة كل مؤلفات العلامة داروين فبيع منها في خلال سنة واحدة عشرة آلاف مجموعة وان خمسة آلاف نسخة من منطق هجل نفدت في خمسة ايام . وان مجموع النسخ التي بيعت في سنة ١٩٣٢ في جمهورية روسيا وحدها من الكتب والرسائل الجديدة بلغ ستمائة مليون نسخة ؟ اقرأ اذن ما يقوله اللورد باسفيلد (سدني وب) وهو من احرص الكتاب على توخي الحقيقة وايرادها

كان لنين يرى ان الكتب والرسائل والمجلات ، ناحية خطيرة الشأن ، من بيئة الانسان الاجتماعية . فيجب ان لا تترك للصدفة تتصرّف فيها ، ولا لشركات المتموّلين يستغلّونها لفائدتهم الخاصة ، ويضللون بما ينشرونهُ من المؤلفات اذهان الشعوب السوفيتية . لذلك جعل الحكومة السوفيتية المشرفة العليا على كل ما يطبع وينشر في روسيا من الكتب والرسائل وجعل دور النشر ملكاً للامة كغيرها من المرافق العامة ، يضاف ما تجنيه من الربح في تجارتها الى ريع الدولة

وقد خطت الحكومة في هذه الناحية خطوات الجبابرة ، في خلال ١٣ سنة من يوم انشئت دار النشر الخاصة بالدولة في موسكو (وتعرف بالاوجيس Ogis) سنة ١٩١٩ الى آخر السنة الماضية . ففي سنة ١٩١٤ كان مجموع النسخ التي تباع في روسيا من الكتب والرسائل الجديدة لا يزيد على ١٣٠ مليون نسخة . وظلّ التقدم بطيئاً خلال السنوات العشر الاولى بعد الانقلاب (١٩١٧ - ١٩٢٨) ولكنه زاد زيادة كبيرة جدًّا في خلال السنوات الاربع الاخيرة ففي سنة ١٩٣٢ بيع من هذه النسخ ثلاثة اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ ويقدر ما ينتظر بيعه هذه السنة بثمانية اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ وقد ذكر اللورد باسفيلد في مقالة له في مجلة التاريخ الجاري (مارس ١٩٣٣ ص ٧٩٧) ان دور الطبع والنشر في جمهورية روسيا (دون غيرها من الجمهوريات السوفيتية كاوكرانيا ، التي يتألف منها اتحاد الجمهوريات السوفيتية) اخرجت وباعت في سنة ١٩٣٢ اكثر من ٦٠٠ مليون نسخة من الكتب والرسائل الجديدة البالغ عددها نحو ٤٠ الفاً وان متوسط عدد الملازم (الملزمة ١٦ صفحة) في كل نسخة منها بلغ خمس ملازم

اي ان مجموع الصفحات التي اشتملت عليها الكتب والرسائل الجديدة بلغ ٤٨٠٠٠٠٠٠٠٠ صفحة . وان مجموع الكتب والرسائل الجديدة التي نشرت في اتحاد الجمهوريات السوفيتية بلغ ٥٠ الفاً وعدد ما بيع منها من النسخ ٩٠٠ مليون . يضاف الى ذلك ان في هذا الاتحاد نحو ستة آلاف جريدة ومجلة مجموع النسخ التي توزع منها (يوميًّا او اسبوعيًّا او شهريًّا) اربعين مليون نسخة . فحركة النشر في اتحاد الجمهوريات السوفيتية تعدل بحسب تقدير اللورد باسفيلد ما يقابلها في الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا والمانيا معاً

والحكومة الروسية تجني من عملها هذا ربحاً جزيلاً . فقد بلغ دخل دار النشر في موسكو (اوجيس) سنة ١٩٣٢ اكثر من ٢٥٠ مليون روبل (٢٥ مليون جنيه ذهب) ولكن هذا المبلغ يشمل ما بيع في فروع الدار من الورق وادوات الكتابة ومطبوعات الدور الاخرى كذلك. وأما ثمن ما بيع من مطبوعات الدار نفسها فنحو نصف ذلك . وبلغ الربح الصافي الذي جنته الحكومة الروسية من هذه الدار في السنة الماضية نحو ثلاثة ملايين جنيه

على ان سعة انتشار الكتب، ووفرة ربح الحكومة، لا يهمّاننا في هذا المقام، بقدر ما تهمّنا معرفة الموضوعات التي تعالجها هذه الكتب، وكيف يعامل كتّابها، ووسائل طبعها ونشرها ومراقبتها

فاذا صرفنا النظر عن الصحف الدورية ، وجدنا ان الكتب والرسائل التي تخرجها مطابع السوفيت تتباين من كرّاس صغير ، لا يزيد على اربع صفحات ، ويحتوي على خطبة للرفيق ستالين (يطبع من كراس كهذا عادة نحو مليوني نسخة) الى ترجمة كاملة لكل مؤلفات داروِن التي طبعت ونشرت سنة ١٩٣١ في ثمانية مجلدات. وقد طبع منها ١٠ آلاف نسخة كاملة فنفدت كلها قبل مايو سنة ١٩٣٢ . ثم اعيد طبعها في عشرة مجلدات وعشرة آلاف نسخة ولا يبعد ان تنفد قريباً. ولا ريب في ان الجانب الاكبر من المطبوعات الجديدة مؤلف من رسائل صغيرة ، ليس لها رونق خاص . ولكنك تجد كذلك مجلدات ضخمة مطبوعة على ورق من اجود اصناف الورق تحتوي على صور ملوّنة لاشهر الآثار المعلقة في دور السوفيت الفنية ، بل ان كثيراً من المطبوعات في المقام الاول من ناحية الفن والصناعة . والكتب تطبع في نحو خمسين لغة مختلفة من اللغات المستعملة في طول الاتحاد الروسي وعرضه من لبلندا على شواطىء المحيط المتجمد الشمالي الى مضيق بيرنغ الفاصل بين آسيا واميركا الشمالية

وتجد الى جنب مؤلفات الكتّاب الروسيين والاوكرانيين ، مؤلفات الالمان والانكليز والفرنسيين والايطاليين والاسبان والسويديين والتشكيين ، ومؤلفات الاجانب في الغالب علمية او صناعية . ولا تخلو من روايات وشعر وتاريخ . اما المطبوعات الموسيقية فكثيرة جدًّا ولا تقتصر على مؤلفات امة دون اخرى

وليس بالامر اليسير معرفة مقام المؤلفات الادبية معرفة مضبوطةً ولكنها اذا قيست بسائر

المطبوعات لا تقلُّ نسبتها الآن عنها في ايام الحكومات القيصرية . فهي ثمانية اضعاف ما كانت عليهِ قبل الثورة . فتجد في قائمة المطبوعات الادبية آثار الروائيين الروس القدماء والمحدثين على السواء محاذية لآثار الروائيين الانكليز والاميركيين والالمان والفرنسيين وقد تُرجمت كلها وطبع منها الوف بل عشرات الالوف من النسخ . وقد أُعلن عن اخراج جميع مؤلفات فلوبير وبلزاك الفرنسيين في سنة ١٩٣٣ فليس من الصواب ان يقال ان الادب الروسي او الادب المطبوع في روسيا كلهُ ادب دعاية للنظام السوفيتي

ولعلَّ الامر الذي يدهش لهُ الزائر عدد النسخ التي تطبع من كل كتاب. فيسترعي نظرهُ اولاً عدد الرسائل الصغيرة التي يطبع منها عشرات الالوف فيحسب ان الرقم ٦٠٠ الف نسخة — وهو عدد النسخ التي بيعت من الكتب والرسائل الجديدة من دار موسكو — رقم مضلّل لان معظم ما يباع انما هو هذه الرسائل القصيرة . ولكن اذا حسبت ان عدد النسخ التي بيعت ٦٠٠ مليون نسخة فيها نحو ٣٠٠٠ مليون ملزمة — وان الرسائل الصغيرة تتراوح بين نصف ملزمة او ربع ملزمة وملزمتين — ادركت ان لا بدَّ ان يكون بين هذه الكتب مجلدات ضخمة. والواقع ان مؤلفات ماركس وجوته وداروِن ولنين ، تطبع وتنشر في مجموعات كل مجموعة منها تختلف من ثمانية مجلدات او عشرة الى عشرين مجلداً . ومتوسط الطبعة الاولى من كل المطبوعات الجديدة في سنة ١٩٢٩ سواء اكانت كتباً او رسائل او مجموعات كتب ، كان ١٠٧٠٠ نسخة فبلغ سنة ١٩٣١ خمسة وعشرين الف نسخة . فاذا فرقنا بين مؤلفات العامة — كالرسائل والموجزات وكتب الاطفال — ومؤلفات الخاصة ، وجدنا ان متوسط الطبعة الاولى من الطائفة الاولى كانت ١٦٥٠٠ نسخة سنة ١٩٢٩ فبلغت ٥٤٠٠٠ نسخة سنة ١٩٣١ اما مؤلفات الخاصة فكان متوسط طبعتها الاولى سنة ١٩٢٩ نحو ٤٠٠٠ نسخة فبلغت ١١٦٠٠ نسخة سنة ١٩٣١ واما كتب الاطفال فليس من النادر ان تكون الطبعة الاولى ٢٠٠ الف نسخة

وكل كتاب ، كتبهُ ماركس او لنين ، قديماً كان او جديداً ، مطبوعاً من قبل او مخطوطاً يطبع منهُ ١٠٠ الف نسخة في البدء. وقد يهم علماء الاقتصاد في مصر ، بل في دول الغرب ، ان يعلموا ان كتاباً في الاقتصاد لعالم اقتصادي روسي غير مشهور في اوربا واميركا ، طبع منهُ في سنة ١٩٣٢ مائة الف نسخة وان رسالة علمية عويصة اخرجت في طبعة من خمسة آلاف نسخة، وان العالم بافلوف لما اخرج كتابهُ الجديد في « الافعال المكسية المحوّلة » طبع منهُ في دار موسكو عشرين الف نسخة وجعل ثمنهُ نحو ٧٠ قرشاً فنفدت الطبعة كلها في الحال

بل هناك ما هو اغرب من ذلك وابعث على الدهشة . ففي سنة ١٩٣٢ اخرج اول جزء من دائرة معارف الفيلسوف هجل ، وهو كتاب عويص في المنطق وكان المطبوع منهُ ٥٠٠٠ نسخة فنفدت في خلال خمسة أيام ، فطبع منهُ ثمانية عشرة آلاف نسخة نفدت في شهر فطبع

منهُ ثالثة ١٥ الف نسخة وبعد ثلاثة اشهر من صدورها جاءت الانباء بأن الطلب عليها ما يزال متوالياً . والراجح انها تنفد قبل نهاية السنة

والظاهر مما تقدَّم ان ما يطبع من هذه الكتب على كثرتهِ لا يكفي لسدّ الطلب فلما قيل لدار «الاوجيس» في ذلك قال مديرها انهُ لا يستطيع الحصول على المقدار الكافي من الورق مع ان المصانع الروسية تخرج مقادير كبيرة منهُ . فلما طلب الى اللجنة التي تدير مشروع السنوات الخمس ان تزيد مقدار الورق المصنوع قالت انها لا تستطيع الآن ان تزيد عدد العمال في مصانع الورق لانها تحتاج اليهم في الأعمال الأُخرى التي لا بدَّ من انتاجها للتصدير تسديداً لثمن واردات لا ندحة لروسيا عنها

اما توزيع هذا العدد الكبير من الكتب والرسائل فقد اصبح عملاً دقيقاً واسع النطاق ودار النشر في موسكو التي تخرج نحو ثلاثة ارباع الكتب التي تنشر وتباع في جمهورية روسيا لها الآن نحو سبعة آلاف فرع في طول البلاد وعرضها ، يديرها رجال ونساء يتناولون مرتباً معيناً مع مبلغ اضافي يختلف باختلاف الكميات التي يبيعونها من الكتب . وتكاد الدار لا تنشر اي اعلان عن كتبها مكتفية بالمراجعات التي تنشرها الصحف . ولكنها تنشر قوائم تحتوي على عناوين المطبوعات وتفصيلات عن حجمها وثمنها وترسلها الى المكتبات والاندية في موسكو وجوارها . ثم ان كتاب « تجارة الكتب السوفيتية » وهو عبارة عن كاتالوج وبيان للمطبوعات الجديدة يصدر مرة كل ١٥ يوماً ويطبع منهُ نحو ١٥ الف نسخة ترسل الى الذين تعرف عنهم رغبتهم في شراء الكتب . وهذا هو النظام الذي تجري عليهِ دور النشر في الجمهوريات السوفيتية الاخرى . ومما يبعث على الدهشة سرعة نفاد الكتب الغالية والعويصة من دون اعلان عنها . وتعليل ذلك اقبال الجماعات المنظمة على شرائها ، كالمكتبات والمعاهد العلمية والاندية والنقابات . فكل من هذه المنشآت تملك مجموعة من الكتب ولا تغفل إضافة المؤلفات الحديثة اليها . فلا يكاد يظهر ذكر كتاب في القائمة التي توزعها دار النشر حتى تنهال الطلبات عليهِ من هذه الجماعات المنظمة . وهذا يعلل لك سرعة نفاد مجموعات الكتب العويصة او الغالية ، كمجموعة مؤلفات دارون ، او مجموعة مؤلفات بلزاك . ويشكو الاساتذة في جامعة كيف انهم اذا تأخروا اياماً في طلب كتاب جديد ، في موضوعهم الخاص ، تعذَّر عليهم اقتناؤه . يضاف الى ذلك نحو ١٠ آلاف استاذ ومحاضر في الجامعات ومعاهد التعليم العالي ؛ ونحو ٥٠٠ الف من المدرسين وملايين من الطلاَّب ، كلهم عطاش ظماء للمطالعة . ومن وراء هؤلاء الصناع والعمال والفلاحون المنتظمون في دروس ليلية يقبلون على الكتب الجديدة التي تصلهم اقبال الظماء على عذب الماء

والاقتصاد في توزيع الكتب يفسر لك كثرة الطلب عليها ورخص ثمنها . يضاف الى ذلك

انفجار الرغبة في المطالعة في نفوس الروسيين. فان الجانب الاكبر من خمسين او ستين مليوناً من السكان، الذين تتباين اعمارهم من ١٠ سنوات الى خمسين سنة قد احسوا فجأة برغبة شديدة في المطالعة ولست تجد في التاريخ ما هو شبيه بذلك

وقد يهم المشتغلين بصناعة القلم، ان يعلموا ان صناعة المؤلف في روسيا، هي اجدى الاعمال من الناحية المالية . ويقال ان مؤلفاً في روسيا يجني من مؤلفاته نحو سبعة آلاف جنيه كل سنة . والغالب ان يتعاقد المؤلف مع دار النشر على مبلغ معين يدفع لقاء طبع عدد معين من النسخ من كتاب له . ويعين هذا المبلغ بالاتفاق مع المؤلف بعد النظر في مقامه وشهرته، ومقدار العمل الذي اقتضاه تأليف الكتاب، وعدد النسخ التي يتفق على طبعها منه . فاذا زيدت النسخ المطبوعة عن العدد المقرر في العقد، او اذا ارادت دار النشر اخراج طبعة جديدة منهُ. زيدت المكافأة التي ينالها المؤلف . فاذا اقتضت الطبعة الجديدة جانباً كبيراً من التعديل والتنقيح، عومل المؤلف كأنهُ يقدم كتاباً جديداً للطبع . واقل ما يدفع لمؤلف، على ما قيل للورد باسفيلد ٣٠ جنيهاً للملزمة الواحدة من رواية او كتاب مدرسي ابتدائي، وسبعة جنيهات الى عشرة جنيهات عن كل ملزمة من كتاب اجنبي ترجمة وتصحيحاً وثلاثين جنيهاً الى ٤٠ جنيهاً عن كل ملزمة من كتاب علمي

اما مؤلفو الروايات التمثيلية فدخلهم اكبر من دخل المؤلفين لانهم يتقاضون نصيبهم من دار النشر ومن المسارح التي تمثل فيها رواياتهم

تُقدَّم الكتب الجديدة على اختلاف موضوعاتها الى دور النشر فيقبل بعضها ويهمل البعض الآخر، فاذا قبل احدها دعي المؤلف الى التعاقد مع الدار . وغالباً ما تختار الدار بعض الكتّاب المجهولين، فتشجعهم على العمل وتعهد اليهم في وضع كتب معينة، وتدفع لهم مقدماً ٢٥ في المائة من الاتعاب، وعند تقديم الكتاب يدفع للمؤلف ٤٠ في المائة من المبلغ المتفق عليه انما يشترط عليه ان يصحح الكتاب وينقحهُ في خلال الطبع وعند نشره يدفع له الباقي

والمطبوعات كلها خاضعة لرقابة الحكومة . فلجنة المراقبة في موسكو (جلاتقي) لها ممثل في دار من دور النشر، هو في الغالب مدير الدار . وعليهِ ان يمنع طبع اي كتاب او رسالة قبل ان تنال الفوز بموافقة لجنة المراقبة. فاذا سألت عن الكتب التي تحظرها لجنة المراقبة قيل لك الكتب الفاسدة، والتي تحتوي على قذف في الناس، او تدعو الى اضطهاد الاقليات الشعبية او الدينية، اوما تشمّ منهُ رائحة المقاومة لنظام السوفييت. فاذا رفض طبع الكتاب مرة كان ذلك في الغالب قاضياً عليهِ، ولكن قد يستطيع المؤلف ان يسترعى العناية لهُ لاعادة النظر فيهِ بواسطة نقابتهِ او بطلب يقدّم الى ولاة الامر . ولا يندر ان تسفر اعادة النظر عن اقرار الكتاب وطبعهِ

تخطيط الفسطاط (1)

بزوغ نجم العمارة الاسلامية بمصر

كان عمرو بن العاص اداريًا حازماً وسياسيًا محنكاً بقدر ما كان قائداً مجرباً . وكانت لهُ بمصر صلة تجارية مكنتهُ من درس احوالها درساً سياسيًا وحربيًا واقتصاديًا قبل قدومهِ اليها بجيشه لغزوها وانتزاعها من ايدي « الاغريق اوالبيزنطيين » الذين يقال لهم « الرومان » خطأ هذا ولا يعرف بالتحقيق اين باحث الامير عمرو بن العاص امير المؤمنين « الفاروق » في امر اعداد حملة على مصر بل ولا تاريخ هذه المفاوضة . غير ان المظنون ان هذه المباحثة حدثت في فترة حصار « قيسارية » حيث كان الامير عمرو مشتركاً في هذا الحصار بينما كان امير المؤمنين « الفاروق » مقيماً في معسكره بالقرب من دمشق وكيفما كانت الحال فقد اسفرت المفاوضة بينهما عن الاتفاق مبدئيًا على فتح مصر بعد ما بسط ذلك الامير الداهية لسيده اسباب الحاجة الى هذا الفتح وضرورة الاستيلاء على مصر اعلاء لشوكة الاسلام ونشراً لرايته

وقد كان من اكبر الاسباب التي حملت عمرو على الاسراع في العمل والزحف على مصر ان « ارطابيون » حاكم اورشليم الاغريقي الذي ترك بيت المقدس قبل ان يضيق المسلمون الحصار عليهِ هرب الى مصر فأخذ يلم شعث جيشها وينظمهُ حتى يستطيع الثبات في وجه الجيش العربي ان حدثتهُ نفسه بالزحف على مصر

***

سار عمرو على رأس جيش مكون من ٤٠٠٠ جندي حتى بلغ رفح وبحيلتهِ المعروفة طاول رسول امير المؤمنين حتى بلغ العريش واجتاز حدود مصر الى ان بلغ « الفرما » ومنها سار الى القنطرة وواصل السير حتى بلغ الصالحية فبلبيس فاحتلها

شخص عمرو ببصره فلاحت له (هليوبوليس) او (عين شمس) بعد مسيرة يوم كامل وسط المزارع والحقول لكنهُ كان يرنو الى نقطة اخرى على النيل هي قرية (ام دنين) التي كانت شمالي مدينة بابليون عاصمة مصر في ذلك العهد والتي يكاد يكون موقعها اليوم على التقريب محصوراً بين شارع كلوت بك شرقاً وجنوباً وبين شارع قنطرة الدكة غرباً وشارع اولاد عنان

---

(1) نص محاضرة القاها الاستاذ محمود احمد مدير قسم الآثار العربية بوزارة الاوقاف في نادي رابطة الادب الجديد بمصر

ونوبار باشا شمالاً . فقد كانت (ام دنين) ميناءً نهريًا هامًا وموقعاً حربيًا حصيناً وخط دفاع قوي عن ذلك الحصن المنيع المعروف بحصن (طريانوس) والذي نسميه اليوم (قصر الشمع) القائمة فوقهُ الآن (الكنيسة المعلقة) الغنية عن الذكر

لذلك كان لا بدَّ للجيش العربي لكي يستولي على عاصمة مصر حينذاك وعلى حصنها — من الاستيلاء اولاً على (ام دنين) وكان لا بدَّ للاروام لكي يحافظوا على العاصمة وحصنها من الاحتفاظ بام دنين وعدم تمكين العرب من الاستيلاء عليها . فدافعوا عنها دفاعاً شديداً اوقف جيش عمرو عن التقدم نحو بابليون فترةً غير قصيرة . وجعل مصير المعركة معلقاً في ميزان القدر لا يعلم ايُّ الفريقين يكون النصر في جانبه يدلُّ على ذلك قول المقريزيّ : —

ان القتال اشتدَّ عند ام دنين حتى تأخر النصر وقول ابي المحاسن حمي وطيس الحرب الى درجة جعلت معرفة اي الفريقين ينتصر مشكوكاً فيها

واخيراً وبخدعة حربية قامت بها القيادة العربية بعد ما وصلتها امداد كافية تحت قيادة الامير الزبير بن العوام ثم بجهل (تيودور) قائد الجيش الرومي بخدعة عمرو الحربية ، انهزم الروم هزيمة تحوّلت الى كارثة حيث ابيد جيشهم عن بكرة ابيه الاَّ ٣٠٠ جندي تقهقروا الى حصن بابليون فوجدوا ابوابه مغلقة استعداداً من حاميته للدفاع عنهُ

لكن الاخبار التي تسرَّبت الى حامية الحصن خاصة بشدة هول النضال وبشدة بأس العرب خلعت قلوب جانب من حماة الحصن فلجأوا الى الفرار بطريق النيل الى مختلف الجهات

وكذلك اذنت نتيجة معركة ام دنين بقرب زوال الحكم البيزنطي ووضع اول حجر في أساس الحكم العربي

***

تحصن الاروام داخل حصن بابليون واحاطوه بخندق عميق نشروا في قاعهِ حسك الحديد (الحديد الشائك) . لكن القدر كان قد بتَّ في مصير هذا الحصن فان انتصار العرب في ام دنين كان لهُ تأثير عظيم ومزايا لا تقدَّر . فان بابليون او (مصر) التي كان يحميها الجيش الرومي المرابط في هذه العاصمة . اصبحت تحت رحمة عمرو الذي ملكها بغير قتال ثم سيطر على شاطىء النيل شمالي الحصن وجنوبيهُ بعد ما نقل معسكره من هليوبوليس وحشد جيشهُ شمالي الحصن في فضاء من الارض ممتد على التقريب اليوم من جامع عمرو جنوباً الى مجرى العيون بفم الخليج شمالاً اطلق عليهِ الاروام اسم (فساطوم) اي (المضرب) وسماه العرب بعد ذلك (الفسطاط) وفيهِ انشأ العرب بعد سقوط حصن بابليون في ايديهم تلك البنايات الساذجة التي كان قوامها الطين واللبن والتي تكوَّن من مجموعها حيٌّ من احياء العاصمة كان على بساطته مقرَّ الحكم

ودار الامارة . اما ما ذكره المؤرخون غير ذلك من اسباب تسمية الفسطاط فلا سند له ولا يصح الركون اليهِ

نمت الفسطاط واتسعت عاماً بعد عام وادمجت فيها بابليون العاصمة القديمة فتنازلت لها هذه عن السيادة الى الآن ورضيت مرغمة بمحو اسم (بابليون) من عالم الوجود الاَّ انها احتفظت باسمها الثاني اسمها الخالد وهو (مصر) فان الفسطاط مع سطوتها لم تستطع محوه بل ولا اخفاءهُ فرضيت بمشاركته وصارت فسطاط عمرو تعرف (بالفسطاط وبفسطاط مصر) و(مصر) فقط فلما انشئت القاهرة ونقل مركز الحكم اليها تغلب اسم (مصر) على الفسطاط فتوارت الفسطاط كثيراً وها نحن اليوم نناديها باسم (مصر العتيقة) وذلك على الرغم من ان هذا الحي الذي نناديه الآن بذلك الاسم كانت ارضه وقت انشاء الفسطاط جزءًا من مجرى النيل مغموراً بمائهِ ولم ينحسر عنها الاَّ في اواخر القرن الرابع الهجري ولم تنشأ فيها ابنية الاَّ بعد ذلك التاريخ

وهنا نرى الفرصة سانحة للجهر بحقيقة يتعين علينا اثباتها خدمة للحق والتاريخ وهي ان الفسطاط دثرت ودرست معالمها من نحو خمسة قرون ودفنت انقاضها وآثارها واسمها تحت تلك الاطلال الممتدة من عين الصيرة جنوباً الى الحي البغالة وابن طولون شمالاً الى ان كانت سنة ١٩١٨ حيث بعث اسمها من مرقده الاثري المؤرخ المرحوم « علي بك بهجت » مدير الآثار العربية الاسبق وبذل جهد الجبابرة حتى رفع التلال عن جزء من موقعها ثم عهد اليَّ في اعادة تخطيطه على اصله واصلاح ما امكن من بيوته ومصانعه التي ابقى الدهر على كثير من معالمها . وقد تفضل بعد ذلك جلالة مليكنا المعظم فشرَّفها بزيارته الكريمة وها هي اليوم يؤمها الفضلاء والعظماء من رجال الآثار ولا تزال تنادي ابناءها المهندسين المصريين ان تعالوا وابحثوا ونقبوا في آثاري من مواد البناء ومونه وطرق تخطيطه ما انتم بحاجة شديدة الى درسه وتفهمه والوقوف على مكنون سره مما يساعدكم على النهوض باعباء أعمالكم الحاضرة وفي بيوتي من النظام والترتيب ما يهديكم الى الطراز الملائم لمناخ بلادكم وعاداتها وما يجعلكم توقنون حقاً ان تلك المدارس الاسلامية المتعامدة انما اختطتها المماليك على مثال ذلك البيت القديم المصري البديع

***

نعود الى حصن بابليون فنراهُ على الرغم من هروب بعض حاميته قويًّا منيعاً يعزُّ على المهاجم اقتحامه خصوصاً بعد ما تعزَّزت حاميته بالنجدات القوية التي جمعها قواد الروم من انحاء الوجه البحري ووضعوها تحت تصرف (سيروس) الذي سماه العرب (المقوقس) حاكم مصر ونائب الامبراطور (هرقل)

كذلك نرى جيش عمرو محدقاً بالحصن من جهتيه البحرية والشرقية فقط بخلاف الجهتين

الغربية والجنوبية فقد كانتا مشرفتين على النيل ثم نرى القتال يستأنف بين الطرفين من آن الى آن بغير جدوى للعرب لوفرة معدات الحرب عند الروم وقلتها عند اعدائهم، ودامت الحال على هذا المنوال نحو ثمانية شهور ساور القلق امير المؤمنين (الفاروق) في خلالها على جيوش المسلمين التي رأى قوّادها ان الحيلة اجدى من القوة فعمدوا اليها ، وكان الامير « الزبير بن العوام » رئيس اركان حرب عمرو هو المنفذ لها . فأنه خدع الحامية وغافلها وتركها في احدى الليالي تنام هادئة مطمئنة الى ان ادبر النصف الأول من الليل ثم أتى بسلم صعد عليه حتى بلغ قمة سور الحصن ولحق به البعض من اتباعه ومن القمة انحدروا الى احد ابواب الحصن [1] فقتلوا حراسه ثم فتحوه فتدفقت منه بقية الجيش وتغلغلت في داخل الحصن واعملت سيوفها في رقاب الحامية التي اخذت على غرة فتسابق رجالها الى الفرار ووطد العرب اقدامهم فلم تكن الأ هنيهةً حتى علا التكبير والتهليل ونادى بشير العرب (نصرٌ من الله وفتحٌ قريب)

لم يكن المقوقس حاضراً تلك المفاجأة التي اعقبتها الهزيمة الساحقة . بل كان قبلها قد نقل مركزه الى جزيرة الروضة هرباً من تلك الكارثة التي كان قد توقع حدوثها فاستعدَّ من قبل لها فركب سفينة اقلته من داخل الحصن الى الجزيرة مجتازة ذلك الباب التاريخي المعروف بالباب الحديد والذي تعلو برجيه الكنيسة المعلقة حالاً [2]

***

ودارت مناظرة ظريفة بين المقوقس وبين رئيس الوفد العربي الذي ارسله عمرو بن العاص الى الاول اجابة لطلبه للمفاوضة في الصلح وذلك قبل سقوط الحصن وقد دلَّ اختيار اعضاء الوفد ورئيسه على علوّ كعب في السياسة من جانب عمرو بقدر ما دلت لهجة « عبادة بن الصامت» رئيس الوفد في مخاطبة المقوقس على مبلغ علوّ النفس والاعتداد بها

ركب عبادة —وكان طوله عشرة اشبار— السفن الى المقوقس ودخل عليه مع اصحابه فهابه المقوقس لسواده فقال « نحّوا عني هذا الأسود وقدّموا غيره يكلمني » فقالوا « ان هذا

---

(۱) عدد (ابن دقاق) و (المقريزي) وغيرهما من المؤرخين على اختلاف اجناسهم ابواب الحصن وقرر بعضهم ان العرب دخلوا الحصن من بابه الجنوبي الذي هرب المقوقس منه والذي تقوم الآن على برجيه الكنيسة المعلقة وذلك رغماً عن ان موقعه من النيل يحول دون الدخول منه والمرجح المعقول جداً ان العرب دخلوا الحصن من باب رئيسي مفتوح في جداره الشرقي كشفت آثاره لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٢٥ م وهذا الباب لم يعده احد من المؤرخين من ابواب الحصن المعروفة مع انهم ذكروا امثاله فهل لنا ان نستنتج من هذا ان ابن دقاق والمقريزي كانا يعتمدان في تدوين مؤلفاتهما على النقل دون المعاينة. هذا ما تدل قرائن الحال عليه لان هذا الباب الشرقي الضخم كان كغيره من ابواب الحصن ظاهراً للعيان في عهد المقريزي

(۲) هذا ما اجمع عليه المؤرخون غير اني ارجح ان خروج المقوقس كان من الباب الغربي للحصن الباقي هيكل برجه الجنوبي الى الآن . اما برجه الشمالي فتعلوه الآن كنيسة مار جرجس]

الاسود افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدَّم علينا نرجع جميعاً الى رأيه وقوله وقد رأسه الامير علينا وامرنا ان لانخالف رأيه وقوله ». فقال المقوقس لعبادة «تقدم يا اسود كلمني برفق» فتقدَّم نحوه عبادة فقال ما ملخصه : —

قد سمعت مقالتك وان فيمن تركت من أصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سواداً مني وافظع منظراً ولو رأيتهم لكنت ارهب لهم منك لي وانا وقد وليت وادبر شبابي ومع ذلك فاني بحمد الله ما اهاب مائة رجل من اعدائي لو استقبلوني جميعاً وكذلك اصحابي وذلك لأن رغبتنا في الجهاد في سبيل الله لا رغبةً في الدنيا وما يبالي احدنا اكان له قنطار من ذهب ام كان لايملك الاَّ درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها لان نعيم الدنيا ليس بنعيم وانما النعيم والرخاء بالآخرة

فلما سمع المقوقس ذلك قال لاصحابه «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لأهيب عندي من منظره» ثم اقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال له

« ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك واخبرك انه قادم الينا لقتالكم جيش من الروم لا يحصى عدد رجاله معروفون بالنجدة والشدة لا يبالي أحدهم من لقي ومن يقاتل وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد اقمتم بين اظهرنا شهوراً وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نعطف عليكم لقلة ما بايديكم وتطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نعطي كل رجل منكم دينارين واميركم مائة دينار وخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم مالا طاقة لكم بهِ »

فقال عبادة بن الصامت : — « يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك. اما ما تخوفنا بهِ من كثرة عدد الروم وشدتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هـذا بالذي تخوّفنا بهِ ولا بالذي يثنينا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون لنا في قتالكم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا أقدمنا عليه فان قتلنا عن آخرنا كان ذلك امكن لنا في رضوانه وجنته ونكون منكم حينئذ على احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، اوغنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا، وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عزَّ وجل قال لنا في كتابه: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) . وما منا رجلٌ الاَّ وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً ان يُرزق الشهادة وان لايردّه الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه اهله وولده وما همنا الاَّ ما امامنا

« وأما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة . ولو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر فيما تريد فليس بيننا وبينك

الاّ خصلة من ثلاث فاختر ايها شئت . ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم من قبل الينا . اما ان اجبتم فالاسلام او الجزية فان ابيتم فليسَ بيننا وبينكم الاّ المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم فانظروا لانفسكم »

وبعد حوار طويل بين عبادة بن الصامت وبين المقوقس من ناحيةٍ ثم بين هذا الاخير وبين اتباعه من ناحية اخرى قطعت المفاوضة واستؤنف القتال الذي انتهى بسقوط الحصن كما اسلفنا . وما حان صفر من سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ يناير سنة ٦٤١م) حتى اعلن الامير عمرو ابن العاص فتح مصر فكان هذا الاعلان ايذاناً بضياع آخر وأثمن درّة في جبين الامبراطورية البيزنطية . واذا كان امبراطورهم عند ما طرده العرب من سوريا قال وهو ينظر اليها من فوق ظهر سفينته السلام عليك يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده فانا لا ندري ماذا قال قواده عند ما فارقوا الحصن نادمين على ملك افرطوا في التفريط فيه

***

كان اول ما عُنِيَ بهِ عمرو لما اصبح امير مصر ان شيد جامعهُ ثم وزع ما حوله من الارض على الجماعات من القبائل المتنوعة التي تألف منها جيشه فاختطت كل قبيلة فيما اختصت بهِ خططاً تألف من مجموعها اول عاصمة اسلامية للديار المصرية وأول نواة للعمارة الاسلامية بها

وفي الجهة البحرية من الجامع بنى عمرو داراً له وأخرى غربيها لابنه عبد الله عرفت «بالدار الصغرى» تمييزاً لها عن دار ابيه التي عرفت بالدار الكبرى . كذلك بنى الزبير بن العوام داراً لهُ بجوار دار عبد الله. وظلّ عمرو حاكماً لمصر الى ان عزل عنها سنة ٢٣ هـ (٦٤٤م) ثم عاد اليها سنة ٣٨ هـ (٦٥٨م) وبقي حاكماً عليها الى ان توفي سنة ٤٣ هـ (٦٦٣م)

***

اتسعت هذه المدينة رويداً رويداً وارتقت على عهد الخلفاء من بني امية وصارت مقرّاً للولاة من قبلهم وفيها ابتنى عبد العزيز بن مروان امير مصر من قبل اخيه الخليفة عبد الملك الاموي (دار الامارة) تعلوها قبة مذهبة شأن الامويين في تفخيم بناياتهم حتى تبزّ البنايات البيزنطية التي خلفها الروم وراءهم في الاقطار التي انتزعها العرب منهم

ولعلّ دار الامارة هذه كانت اول بناية اسلامية كبيرة في مصر وصل الينا نبأ زخرفتها. وفي آخر لحظة من حياة الدولة الاموية قدم مصر مروان آخر خلفائها فارّاً امام جيوش العباسيين التى كانت تتعقبه حتى وصلت مصر فنزل القائدان صالح بن علي وأبو عون بعسكرهما في الشمال

الشرقي من الفسطاط وهناك شيدوا المساكن والدور وتكوّن من مجموعها ضاحية جديدة للفسطاط سميت (العسكر) وفي وسطها بنى صالح بن علي « دار امارة » جديدة صارت مقرًّا للامراء بدلاً من دار عبد العزيز بالفسطاط . ثم بنى الفضل بن صالح جامعاً جديداً بجوارها سمي جامع «العسكر» . وبذلك انتقل مقر الحكم من فسطاط عمرو الى «العسكر» . ولما قدم احمد بن طولون والياً على مصر نزل بدار الامارة والعسكر . ولكن لما ضاقت بعسكره وحاشيته بنى له قصراً خاصًّا في الميدان الذي تحت قلعة الجبل الآن . وانشأ ميداناً بين هذا القصر وبين الجبل القائم عليه حيّ طولون الآن . وحول هذا الميدان بنى قواده وعساكره اخطاطاً كاملة لكل قائد بعساكره خطة خاصة ومن مجموع هذه الاخطاط تكوّنت مدينة ثالثة شمالي العسكر سميت «بالقطائع» وان تكن في الواقع ضاحية ثانية او امتداداً لمدينة الفسطاط . والى هذه المدينة الجديدة انتقل مركز الحكم والامارة

وقد همَّ بنو طولون بالاستقلال بمصر عن دولة العباسيين ببغداد الاَّ ان دولتهم دالت سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) فأمر الخليفة المعتضد بالله العباسي عماله الذين جاءوا بعد الطولونيين بهدم القطائع وقصور بني طولون كراهةً فيهم وانتقاماً منهم . فاكتفى هؤلاء العمال بهدم القصور وتركوا القطائع والجامع على حالهما فبقيت عامرة زاهرة اكثر من قرن بعد زوال حكم مؤسسيها

ولما زال حكم الاخشيديين وامتلك الفاطميون مصر انشأوا القاهرة شمالي الفسطاط . واتخذها خلفاؤهم عاصمة جديدة لملكهم ومقرًّا لهم وحاشيتهم دون سواهم . اما طوائف العسكر والتجار والعمال فكانوا يسكنون الفسطاط . ثم اخذ الناس يفدون على القاهرة آناً بعد آن حتى كسفت الفسطاط . وفي الواقع ان قيام القاهرة اقعد هذه العاصمة القديمة وقضى عليها تدريجاً فكانت القاهرة كلما تقدمت خطوة في سبيل الاتساع والعمران تقهقرت الفسطاط بجانبها خطوة الى الوراء في طريق التدهور والانحطاط حتى قال ابن سعيد (ومنذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط في الاغتباط بها بعض الافراط)

ومما عجّل في خراب الفسطاط امران (اولهما) الشدة العظمى التي كانت في خلافة المستنصر ابتداء من سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) حيث ارتفعت اسعار الحاجيات واشتدّ الغلاء وكثر الوباء بالقاهرة والفسطاط والاقاليم مما سبب الفتنة الكبيرة التي خرب بسببها القطر بأكمله ومهاجرة جانب عظيم من سكان الفسطاط التي تخلى عنها اصحابها . فأخذوا كل ما وصلت اليه ايديهم من مواد البناء ونقلوه الى القاهرة حتى خرب معظم الفسطاط والعسكر والقطائع

والثاني — حريقها في وزارة شاور بن مجير السعدي لسبب التنافس على الوزارة بينه وبين ضرغام ثم تداخل اموري دي لوزينيان منتصراً لشاور سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦م) واعتزامهُ بعد ذلك

بسنتين غزو الفسطاط فصار اليها حتى بلغ بركة الحبش بعد ما استولى على بلبيس

وفي ذلك الوقت كان اكثر العسكر والقطائع خالياً من السكان بخلاف الفسطاط فانها وان لم تكن على عهدها الاول من القوة الاّ ان سكانها كانوا غير قليلين . ولما لم يسع شاور الدفاع عنها امر باخلائها وحرقها . وهنا ندع المقريزي يتكلم فيقول : —

(فنادى شاور بمصر ألاّ يقيم بها احد وازعج الناس في النقل منها فتركوا اموالهم ونجوا بانفسهم واولادهم وقد ماج الناس واضطربوا كأنهم خرجوا من قبورهم الى المحشر لا يعبأ والد بولده. ولا يلتفت اخ الى اخيه. وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر ديناراً. وكراء الجمل الى ثلاثين ديناراً. ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والازقة وعلى الطرقات فصاروا مطروحين بعيالهم واولادهم وقد سلبوا سائر اموالهم . (الى ان قال) وبعث شاور الى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء فصار منظراً مهولاً فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام اربعة وخمسين يوماً . ومن ثمّ تحولت مصر الفسطاط الى تلك الاطلال المعروفة الآن بكيمان مصر

وبعد ان اوقد شاور النار في الفسطاط التجأ الى القاهرة . ولم يتمكن أموري من الاستيلاء على مصر لان صلاح الدين كان قد ظهر في عالم الوجود واضحى سيد مصر واستولى على الشام

***

وفي القرن التاسع الهجري لخص القلقشندي المحن التي نزلت بالفسطاط (الى ان قال) : —

(وبعد حريق شاور تزايد الخراب وكثر الخلو ولم يزل الأمر على ذلك في تقهقر أمره (الفسطاط) الى ان كانت دولة الظاهر بيبرس أحد ملوك الترك بالديار المصرية فصرف الناس همتهم الى هدم ما خلا من اخطاطه والبناء بانقاضه بساحل النيل بالفسطاط والقاهرة وتزايد الهدم فيهِ (الفسطاط) واستمرّ الى الآن حتى لم يبق من عماراتهِ الاّ ما بساحل النيل وماجاوره الى مايلي الجامع العتيق (جامع عمرو) وما دانى ذلك ودثرت أكثر الخطط القديمة وعفى رسمها واضمحلّ ما بقي منها وتغيرت معالمهُ

واليوم ونحن في منتصف القرن الرابع عشر الهجري . لم يبق من الفسطاط الأصلية إلاّ كيمانها القائم فيما بين النيل والمقطم وما نسميهِ اليوم مصر القديمة لايمكن اعتبارهُ من بقاياها فان المنطقة المحصورة بين خط سكة حديد حلوان شرقاً وضفة النيل الشرقية غرباً لم تظهر الى عالم الوجود الاّ في اواخر القرن الرابع الهجري بعد ما تحول النيل من مجراه الأصلي شرقاً الى مجراه الحالي غرباً . وسبحان من لا يتحولّ !!

أدب الصومعة وأدب الحياة

مقدمة الصنّاجة(١)

بين داليّة ابي العلاء (غير مجدٍ) ، و (رباعيات) الزهاوي ، و (مواكب) جبران ، و (صنّاجة) الرياشي نسب وعرق متين . فهي على الجملة قنوط من العيش ، وملل من السعي ، و تضاحك بالناس . فكأن هذا الفرع من الأدب العربي شيء على حدة ، لا صلة بينه و بين الآخرين !

ويتلاقى على الفرع الجديد شعراء من كل صوب فسرب من ضفاف (دجلة) وسرب من مشارف (المهجر) يضاف اليهم شعراء ما برحوا زغب الحواصل . فلم يعتلوا الجو بعد ، ولا تجاوبت الجهات بأصواتهم . بل تسمع لهم بين الفترة والفترة هتفات تجيء بها الريح وتذهب

وإنك لتعجب حين تدري ان ذلك الفرع العربي الذي نبت ـ او كأنهُ نبت ـ على جوانب (اللزوميات) لم يستقم ساقهُ في الماء ، ولا خرج شطؤه على عادة الشجر ، فهو غراس عجيب ، طلع في (المعرة) ، واورق في (نيسابور) . فكأنما نبت في (دهاليز) ابي العلاء ، ومال على (بساط) الخيام بالظل والزهر ! فقل في ذلك الفرع الاعوج : غراس نسقيه الماء عربيًّا ، فيخرج الزهر فارسيًّا . كاحدى الشجرات في حقلك ، على الحد ، همها عليك ، وظلها على جارك . . .

***

وذلك الفرع لم يتبدَّل على الازمنة . فهو منذ ما مدَّ الخيام بساطه الى يومك الحاضر شيمة واحدة . فقت للناس كما رأيت ، وهزؤ بالحياة ، واطلاق النفس على الهوى ، وتباعد عن المعترك حتى لتحسب ان الدنيا خلقت لواحد ! فبينا أنت من يومك حيث تعجُّ الدنيا العريضة بالغادين على العيش ، تزحم المناكب المناكب ، اذ الواحد من الجماعة يناديك من بعيد وهو في مثل كوة الصومعة . فتدهش لذلك المتخلف عن ركب الحياة ، تسائل نفسك ما شأنه ، وما تخلفهُ في آخر الخلائق ، وما يصنع بعمره ، ويُنتفع به ! !

فتجد صاحبنا قعيد الصومعة ، محلول العزيمة . همّه من الدنيا بساط عشب ، وكأس خمر ، وساعة من حبيب — وعلى كل شيء بعد ذلك العفاء !

ولعمرك كيف يتبدَّل (أدب الصومعة) هذا ، ويمد ساقيه على بحبوحة ، ومجاله اضيق من قيد الشبر ! ! فهو أشبه ما يكون بمخيلة (مانه) على قول (زولا) :

— (مانه) عصفور صغير ، على غصن صغير ، في ربيع عمره خمس دقائق . . .

---

(١) الصناجة ديوان شعر للاديب اللبناني قبلان الرياشي والمقدمة للشاعر اللبناني امين نخله

وهكذا (أدب الصومعة) لفّ ودوران على غرض أيسر من ان يحسب في الهموم فلا غوص على النفس، ولا تطلع الى محجّب من وجوه الحياة، ولا كدح في صعيد الفكر وراء الحق والجمال. فاذا جاد حبيب بساعة، وامتلأت كأس براح، واخضرّ مطرح بعشب، قامت الدنيا في نظر الجماعة، واستراحوا حيث تتعب العقول!

ولقد أشرفت الدنيا على آخرها. و (أدب الصومعة) في موضعه لا يتحوّل. فلا مدّ اذناً بعد (الخيام)، ولا اطرح عيناً، ولا سرح اصبعاً، فالقصة ان شاعر الفرس بعد ان جاب فكره الأرض والسموات، وأوفى على الامر، برّح به الكد، فاطلق في وجه الحياة رباعية حرى، عذره بها عذر الغمرة التي تغم النفس بعض الاحايين ثم تنجلي. فتعلق اولئك على الرباعية (السوداء). وحسبوا ان تلك النفثة غاية الرجل من الفلسفة، وجماع رأيه. ومعاذ (ابي الفتح عمر)، وهو نادرة فارس في الحكمة والطبيعيات والفقه والتكليف والتاريخ وعلوم النجوم ان يقصر العيش على هبوط الطبع، وانتكاس الذهن!

فأعجب لأدب مُسمّر عليه بتلك النفثة الفانية. تتحوّل العقائد، وتترامى الأغراض، وتنفسح شقة الفكر البشري، وهو المعلق في مكانه!

***

و (أدب الصومعة) أدب الحب والطبيعة، في زعم أهله. فاذا جئتهم تسأل لساناً واحداً يبحث الحب والطبيعة، كأنْ يذكر لك مثلاً علاقة الطبع بالحساسة، او رابطة النفس بالطبيعة في شيمة من شيم الخلقة فانك تطلب ريشة العنقاء!

فالجماعة كندامى (المجوس) يحتسون الخمر بالنظر، وينشقون الزهر باطراف الاصابع!

***

ان الادب الحق غير ذلك!

هذا (شكسبير) وهو نادرة الازمان، تكاد العيون اليوم تتغامز على اوجه. ويكاد المتشددون يهمون بالقول ان «الشكسبيرية» على شفا. فسقوطها اقرب مما في الحسبان. ذلك ان الادب «المطنّب» الذي لا ينغمس في معمعان الحياة حتى الركبتين، اصبح مزلزل القدم في جيلِ «التبسط» من هذا! . وبوادر «الشعوبية» الادبية الجديدة ما ترى في الادب الفرنسي مثلاً من تنكب عن الدرب، حتى ليستطيع امس كاتب ناشيء «كلودين» ان يضحك على انف «كورنايل» فيقول فيهِ «صنم الفضائل الاكمه»، ولا تقوم القيامة ...

وكما يقال في الادب يقال في الموسيقى، وفي التصوير، وفي التمثيل، وفي مختلف الفنون «فونه» آية الجيل المولي عند الفرنسويين، لا يكاد يذكر بشفة في فجر «الكيبيزم» الطالع. ويكاد «وغنر» يخفت صيته في ضجة «الانطلاق» التي يثيرها «فان دونغن»

و « رينالدوهن » فلقد اعقب نسق الدقائق في الرسم نسق الجملة ، واعقب التبسط في الموسيقى التماسك . وبكلمة اخرى ، فالفنون اليوم تتنزل من رفرف التأله الى مستوى الناس ...

فاذا جاز ان يقال هكذا في « شكسبير » و« كورنايل » واضرابهما من اصحاب الممتمات في فهرس الفكر البشري فكم يجاز – بالله عليك – ان يقال في زمرة « الخيّاميين » المساكين !!

***

قال « بول ڤاليري » يوم رفعت القبة على قبر الجندي المجهول في باريس .

« على اصحابنا – يعني اهل الادب – ان يستيقظوا ! فقبر الجندي المجهول قصيدة تخرجها الحياة على اتم ما يكون ، دون ان تفتقر الينا فتتلاق تحت القبة قلوب الفرنسويين من كل حدب ، ترف على البلاطة ، وتحوّم بملايين الاغراض المتفرّقة ، من الف المشاعر الى يأتها ... فاذا انطلقت الحياة تخرج للناس في غيبة الادب وتقصيره امثال هذه القصائد الوافية ، فما حاجتهم الى الشعراء ! ! »

فعلى الادب ان ينزل الميدان . عليه ان يغشى الحياة ، ويدخل من الابواب ومن النوافذ ومن شقوق الحائط !

ان الادب مرآة الحياة . مجالها مجاله . واطارها اطاره . فكل ادب لا يتراءى فيه وجه الحياة على تمامه ، فهو مرآة ناقصة ، طرحها اخلق من الابقاء عليها . وكما ان الحياة قسوة واعنات وتصعيد وتصويب ، كذلك يجب للادب . فيكون عليه غبار الكد . فمن المحصل ان الضحولة لا تقذف اللؤلؤ ، ولا تشق الاصبع عباب اليم . ومن العبث ان لا يجعل الادب في تقليد الحياة ، حذوك الشيء بالشيء . فعظام « اوسكار ويلد » بليت في ترابه ، وبلي معهُ قوله « الحياة تقلد الادب ، والادب لا يقلد الحياة »

والادب تأدية رسالة . عهد وفي الله : الحق والجمال . ففي العهد ان تؤدي الرسالة وهي تقطر بدم القلب ! كدّ على الحق . حتى يتمشى بياض الصحيفة من البرهان . وهوى للجمال حتى تتفتق قصبة القلم من الوله ! !

هذا هو الادب . وذلك شأنه في الميدان . اما أن يظل المتمشي على الحافة ، في رباعيات (الخيّاميين) وخماسياتهم وسداسياتهم الى آخر الحساب ، ينظر من بعيد ولا يلقي قدماً ، فالحياة برالامنهُ

***

ذلك ، فضلاً عن ان « ادب الصومعة » غريب في عقر داره . فهو يتهالك في التباعد عنا ، تقرّباً الى ذوق الفرس القدماء من جيل الخيّام . تراهم يطبعون اذواقهم على الفارسية العتيقة . يتخذون لها المقاطع مقطّعة من كل وزن ، وبياض الصحيفة صحراوات رحيبة بين البيت

والبيت . حتى لقد كاد باعة الورق يدّعون انهم انصاف ادباء ، محتجّين بذلك علينا . . .

وتراهم يخرجون الدواوين في طائفة من الصور ، تقليداً « لانجيل الخيّاميين » فقد اجمع مترجمو « الرباعيات » على انها وجدت في صور ترمز اليها . وتراهم يزرون بالاوضاع ، ويعبثون بالتقليد الكريم ، شأن الخيّام ، وقد ازرى بالفارسية وعبث بتقاليدها يوم الرباعيات

إن شرط الادب قبل اي شيء ، ان يكون ، في الاول ، من نصيب الامة . تفيء اليهِ بكلفة مرفوعة وسبيل ممهد . وان يغدو صورة صحيحة في تاريخها ومشاعرها وعقائدها

وشرط الصدق في الادب ان يصدر واحدنا عن ذات نفسهِ ، وعن بيئته ، فلا يكون منّا ، ولسانه مثلاً يلعلع علينا من خال (الرباعيات) الاجنبية !

وشرط التلاقي بين الادب والفن على صنيع واحد ، ان تكون الريشة في دورها والقلم في دوره . لا ان تطغى الريشة على القلم . فيقصر الادب ، ويقوم الفن بالدورين . اذ الادب ادب لا يزيده الفن شيئاً على المحك ، ولو تولاه (ليونار ده فنسي) نفسه بالف (جوكوندا) ؟

وشرط الاجادة ان ترضي الاوضاع عن النتاج . فلا يقطع الواحد حبل الابد ، وينطلق على رأسه . ففي الادب سباق هو الحسن على كل جيل . شرط المضمار فيه ان تذهب الجياد في شوط واحد . لا ان يند الجواد عن فوجه ، وينفرط التسابق !

***

هذا من جهة الغرض . واما من جهة الصناعة ، فبيننا وبين الخيّاميين ، خلاف ننادي بهِ على السطوح ! فنقول نحن بالخاطر الشائع ، في الصنيع الفني ، من المستهل الى المقطع . حتى تغدو القصيدة « قطعة » واحدة ملمومة الاطراف . لا افراط بها ولا تفريط . وبالمعنى الذي يسكن المبنى . فينصب الماء في ذوقنا ملء الاناء . معنى واحد في مبنى واحد ، لا الف اناء لقطرة ماء . . .

ونقول بالاداء السريّ . فالديباجة شرط مقدم . اذ ان الصنيع الفني ينهض بجناحين المعنى من جانب ، والمبنى من جانب . والادب بيان . فكيف يصلح الاّ صبيحاً ظاهر البهجة مدفّق الرونق . حتى لقد تشدد نفر من اصحابنا « فاحسّوا » انتفاضة الحياة في اللفظة الواحدة — ونعم التشدّد !

ونقول بالميسم المطبوع . فيكون على الصنيع الفني نفس صاحبه يكاد القارىء يتبيّنهُ من الرائحة . . . فتسلم الاعراض في الادب ، ويصبح لكل بنت من بنات الافكار والد !

ذلك رأينا في الصناعة . واما رأي الخيّاميين ، فتقطيع الاوصال في « الوحدة » الفنية . وكيل الالفاظ في المعنى . والعبث بالمبنى . والتقليد في اللهجة حتى ليقبل واحدهم ، على رشاش من ريق الف قائل . . . وعفا الله عن الباقي !



الزراعة المصرية القديمة

نظرة اجمالية

للدكتور حسن كمال

توطن قدماء المصريين وادي النيل منذ آلاف السنين . ومن ذلك الوقت والبلاد كانت عرضة لغزو الاجانب وفتح الفاتحين. ولما توثقت عرى التعامل مع البلدان المجاورة زاد الاختلاط وكثرت الهجرة بين الاقطار المتاخمة والمملكة المصرية على توالي الاجيال . لكن بالرغم من ذلك حافظ المصري على خصاله وعاداته واخلاقه . ولما كانت مصر « هدية النيل » جاز لنا ان نستنتج ان تأثير هذا النهر العظيم والمعيشة في واديه كانا عنصرين قويين في محافظة سكان تلك البقعة على طباعهم بل وفي صبغ كل من يقطنها بنفس الصبغة من حيث المعيشة والطباع والمعاملة او بعبارة اوجز من حيث «التمصّر» . ولسنا نعرف قطراً في هذا العالم يعتمدُ في معيشته على نهر واحد الاَّ القطر المصري . كذلك لايوجد نهر في العالم له خواص وادوار طبيعية منتظمة مثل النيل . فاذا علمت ذلك ثم زدته فحصاً وتمحيصاً اتضح لك ان سكان القطر المصري لا بدَّ ان يكونوا محافظين على مصريتهم جدَّ المحافظة كما حافظ نيلهم على نظامه وحافظت تربتهم على طبيعتها

لذلك كان هذا الثبات في طباع القوم واخلاقهم ومعاملاتهم ثمرة وادي النيل وتربته . والمعروف ان كل عنصر اجنبي استوطن القطر المصري في الازمنة الغابرة تأثر تدريجاً بالمؤثرات المصرية حتى تمصَّر الى حدٍّ بعيد . وليس هذا الامر بالمستغرب لان المعروف في اقطار العالم ان الطبائع الخاصة بسكان المعمورة هي وليدة الاقليم والتربة . وان مصر تمثل هذه الحقيقة اوضح تمثيل . فهي بعزلتها شمالاً بواسطة البحر الابيض المتوسط وشرقاً وغرباً وجنوباً بالصحارى جاءت برهاناً ساطعاً على صدق هذا الرأي

ومن الطباع المصرية الغريزية ولعُ المصريين بالزراعة وفروعها المتباينة حتى جرى ذلك في نفوسهم جريان الدم في الجسد . فيجد الباحث في تاريخ مصر القديم ان اهلها كانوا مزارعين من اقدم الازمنة وان خبرتهم في الفلاحة ذاعت وصيتهم في طرق الري والمساحة علا وارتفع . فتمكنوا بمرور الزمن من التغلب على العقبات الناتجة من فيضان النيل وطبيعة الارض . وحصر القوم زراعتهم في حاجاتهم الاقتصادية . فابتكروا اولاً طريقة لقياس الزمن وتجزئته عما يتفق مع زراعتهم فأدخلوا السنة الشمسية ذات الثلاثمائة والخمسة والستين يوماً في حسابهم

وكان ذلك عام ٤٢٤١ قبل الميلاد . ثم قسموا السنة الى ثلاثة فصول زراعية هي فصل البذر وفصل الحصاد وفصل الفيضان النيلي . ثم جزأوا كل فصل بعد ذلك الى اربعة اشهر فصارت سنتهم مقسّمة الى اثني عشر شهراً كما هي الحال عندنا الآن . ثم تغلبوا على صعوبة اختلاف ارتفاع الاراضي بان قسّموها الى عدة حياض وذلك باقامة الجسور وحفر الترع . ثم فرضوا الضرائب قياساً الى المساحة المزروعة وذلك بمعرفة الحد الاقصى لفيضان النيل السنوي . لان هذا الاخير يعطيهم فكرة عامة عما يمكن ان يكون عليه مقدار المحصول السنوي وقتئذٍ . وتفننوا في طرق الري فشادوا خزاناً بالفيوم وذلك في عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق.م .) وكان هذا الخزان يحجز مقداراً من الماء يكفي لريّ الدلتا بعد هبوط النيل

ووردت روايات كثيرة من المؤرخين عن مجرى النيل اهمها حكاية هيرودوتس الذي قال ان مينا اول ملك حكم مصر مجتمعة (حوالي عام ٣٢٠٠ ق . م .) حفر مجرى آخر للنيل قبالة منف وحوّل هذا النهر العظيم الى مجراهُ الجديد (وهو الحالي) فربح بذلك منطقة كبيرة شاد عليها مدينة منف عاصمته الجديدة وقتئذٍ

ومنذ ما بدأ اهتمام المصريين بالشؤون الزراعية ينمو ويكبر (وهذا الاهتمام يرجع تاريخه الى اقدم العصور المعروفة) اخذت مصر تتقدم في فروع الزراعة على اختلاف انواعها بنفس الخطوات التي خطتها في مدنيتها وابتكاراتها حتى صارت في النهاية مملكة زراعية صناعية من الطبقة الاولى واشتهرت بضائعها بين الامم فصار للكتان المصري المرتبة الاولى في الاسواق . كذلك مصنوعاتها الخزفية والزجاجية والخشبية

ولا ينحصر السبب في تقدم الزراعة المصرية في خصب التربة وحسب وما احدثهُ ذلك في نفوس الاهالي بل يشتمل ايضاً على أثر هذا الخصب في اخلاق القوم ومعلوماتهم الفنية بشكل لا يقلّ وضوحاً عن الحالة الاولى . كذا خصائص النيل الطبيعية ونتائج فيضانهِ السنوي يرجع اليها كثير من الفضل في معرفة المصريين لعلمي الهندسة والمساحة . فقد نسب كل من هيرودوتوس وافلاطون وديودوروس واسترابون اصل علم الهندسة الى التغيرات الطبيعية التي تقع أثر الفيضان النيلي والى ضرورة ارجاع حدود الاراضي الى نصابها بعد الفيضان كما كانت عليهِ قبله . وهذا كله مما يعزّز القول بان علم الهندسة ولد بالقطر المصري وترعرع فيهِ . وليس هذا الامر بالمستغرب فان زوال الفيضان كان تصحبهُ منازعات ومشاجرات بين اصحاب الاراضي لسببين . اولهما : ان حدود الاراضي لم تكن ثابتة ثبوتاً كافياً في كل الاحوال . وثانيهما : ان جسور النيل كانت عرضة في بعض الاحيان للتلف نتيجة ارتفاع النيل فيتغيّر كثير من معالم الارض الواقعة على شاطئ النيل . لذلك أصبح ضرورياً وضع نظام ثابت لمساحة الاراضي لمنع هذه المشاحنات وايضاً لجمع الاموال الاميرية . ولا نعلم بالضبط تاريخ ظهور

علم المساحة بالقطر المصري والغالب انهُ قديم العهد جداً

بمثل هذه الطرق وسواها تمكنت الحكومة وقتئذٍ من الاشراف على كل زراعة القطر وتقدمها فنجم عن ذلك زيادة عدد السكان . لكن هناك عوامل اخرى ساعدت على تقدم الزراعة في وادي النيل خلاف خصب التربة هي عظم فيضان النيل ونشاط العنصر المصري وعدم تغير الطقس وقلة المطر وعزلة الوادي . هذه الاحوال كلها هيأت مصر لان تكون مزرعة العالم القديم تصدّر حاصلاتها الى سوريا وجنوب اوربا في مقادير كالتي كانت تغذّي بها روما في العصور الاخيرة

والرسوم الزراعية العديدة المنقوشة على الآثار المصرية تظهر بوضوح عظيم اهتمام المصريين بالفلاحة . ويستدل منها ان محاصيل القطر وقتذاك لم تختلف كثيراً عن محاصيله الحالية . اما خبزهم فكان يصنع غالباً من القمح . وقد عثر في المقابر على مقادير كبيرة من القمح الفرعوني كما عثر أيضاً على مقادير لا بأس بها من الخبز ويجد الباحث الآن كثيراً من هذه الاخيرة في جميع متاحف العالم تقريباً. ولا حاجة بنا الى ان نذكر هنا ان القمح المذكور لا يمكن انباته الآن لان جنين الحبّة لا يعيش طويلاً ، وعلى ذلك فكل ما قيل عن امكان انباته لا يدل الاّ على ان بعضاً من القمح الحديث تسرَّب الى القديم وان ما نبت هو الحديث

وصنع القوم الجعة العذبة (البوظة) من الشعير والنبيذ من العنب الذي كان كثير النمو في القطر. واشتهر اقليم مريوط والواحات بالعنب والنبيذ. اما العرقي فكانوا يستمون منهُ مقادير وافرة . واما اشجار النخيل فكانت كثيرة . واهتم القوم بتربية النحل حتى لقبوا مليكهم بالنحلة . وعلى ذلك فكان الشهد كثير الاستعمال . اما قصب السكر فلم يكن معروفاً

اما الحيوانات الداجنة والوحشية فكانت وافرة بالقطر. فمن الفريق الاول الحمير والثيران والغنم والماعز والخنازير والكلاب والهرر والاوز والبط . وكان هناك نوع من الغنم له قرون حلزونية افقية انقرض منذ عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م .) لكنهُ بقي في الديانة القديمة يرمز بهِ الى المعبود (خنوم). اما الكبش ذو القرنين الهلالين فكان يرمز به الى المعبود أمون . واستأنس القوم الكلاب منذ اقدم العصور وتولد منها لديهم عدة اصناف. واما الهرُّ فحيوان مصري قديم اعتبرهُ القوم وقتئذٍ رمزاً للمعبودة (باستت) وادخلت الخيل القطر المصري مع الهيكسوس او ملوك الرعاة الذين حكموا مصر من سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٥٥٥ ق . م . تقريباً وحضرت معها وقتئذٍ المجلات الحربية . اما الدجاج فلم يدخل مصر الاّ في زمن الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م .) ولم يقدس المصريون الخيل ولا الدجاج. وامتازت الخيل المصرية بجودة نوعها حتى ورد ذكرها في التوراة وذلك في الاصحاح العاشر في الملوك الاول آية ٢٨ وهي «وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر» . ولم يمتط

القوم الجواد الا في العهد الصاوي (٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م .) ولم يستعملوا الجمل في فلاحتهم بل بقي استعماله مقتصراً في الصحراء . ولم يرد رسمه على الآثار الا في العصور الاخيرة بالرغم من ان بعضهم يدعي انه وجده منقوشاً على آثار يرجع تاريخها الي ما قبل حكم الاسر المصرية . وكان الفيل معروفاً قبل عهد الفراعنة بالقطر المصري (اي قبل حوالي سنة ٣٢٠٠ ق . م.) . ثم انقرض تدريجاً الى ان اصبح وجوده بمصر ضمن جزية البلاد الاسيوية

وولع القوم بالصيد والقنص في المستنقعات والصحاري والمستعمرات الاسيوية فكانوا يصطادون الثيران الوحشية والوعول والقطاط الكبيرة بالقوس والرمح او بعصاة الصيد الملتوية . وهذه الاخيرة كانت تستعمل بكثرة في صيد الطيور في المستنقعات واستعمل القوم العجلات في صيد الصحاري والشباك في صيد الاسماك

وكان لشدة ولعهم بالزراعة اثر كبير في احوالهم المعاشية . فعبدوا النيل منذ اقدم العصور . وألهوا الثور (إبيس) (شكل ١) والبقرة حاتحور (شكل ٢) والطائر (إبيس) واعتقدوا ان (ازوريس) (شكل ٣) هو الذي علمهم الفلاحة ونقشوا اسمه داخل طغراء ملكية . اما الكهنة فعلموا الاهالي ان (ازوريس) هو رمز الماء وهو ايضاً رمز للحياة التي تفنى لتعود بعد ذلك في شكل أزلي . ومثلوه بالنبات الذي ينمو بعد قطعه . قال (فلوطرخوس) ان الآلهة لما زارت مصر اوجدت المعبودة (ازيس) (شكل ٤) القمح وخلق (ازوريس) ادوات الزراعة وكان اول من ربط الثور الى المحراث وعلم الخلق انواع النبات . ولما اعتلى (ازوريس) العرش انقذ الخلق من الفاقة وعلمهم الفلاحة وسن لهم القوانين

وعبد القوم عدة اشجار مثل اللبخ والجميز والسنط ، كما انهم قدسوا بعض الاسماك مثل سمك (العبيدي Oxyrhynchus) و (ثعبان الماء Phagrus) و(البني Lepidotus) ثم خصصوا للقمح معبوداً سموه (نبرو) ولفيضان النيل في الصعيد معبودة سموها (مرتى قمح) ولفيضان الوجه البحري معبودة سموها (مرتى محت) . وهناك معبودة يقال لها (رننت) رمزوا بها الى الحصاد ومعبود سموه (من) كنوا به عن الخصب . ولم يقتصر الحال على ذلك فتخيلوا ان في الآخرة حقولاً كثيرة القمح وان قمحها يفوق قمح النيل طولاً وسيأتي ذكرها

وتأثرت الصناعات والفنون الجميلة بأحوالهم الزراعية . فصنعوا عمدهم على شكل النخيل وزهر اللوطس (البشنين) وسيقان البردي . وجعلوا ارجل مقاعدهم بهيئة ارجل الحيوانات . حتى ادوات الزينة صنعوها على شكل حيوانات وحشرات كالجراد مثلاً . وأثرت الزراعة ايضاً في معلوماتهم ومعارفهم فكونت عدداً كبيراً من احرف الخط الهيرغليفي يعد بالمئات منها الطيور والحيوانات الوحشية والداجنة والحشرات والنباتات واجزاء النباتات مما هو معلوم عند علماء تلك اللغة

وتأصلت المعيشة الزراعية في حكومة البلاد فسبقوا اسم الملك برسم فرع البردي (وهو رمز الوجه القبلي) وبرسم النحلة (وهو رمز الوجه البحري) اشارة الى ان هذين القطرين قد خضعا له. ويصحب هذه الرسوم غالباً رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز «نخبت» معبودة مدينة الكاب عاصمة الوجه القبلي) والصل (وهو رمز «بوتو» معبودة عاصمة الوجه البحري المسماة بوتو ايضاً). ويشاهد النسر على رؤوس التماثيل الملكية ليحميهم من الاذى كما هو الحال في تمثال الملك (خفرع) المحفوظ بدار تحف القاهرة

كل هذه المعلومات تظهر للقارىء شأن الزراعة المصرية القديمة وكيف تدرجت من اقدم العصور الى زمننا هذا. ولاستقصاء ذلك يجب الرجوع الى ما كتبه المؤرخون مثل هيرودوتوس وبلنيوس والى الرسوم الزراعية الواردة على الآثار والى الاوراق البردية والى النباتات والزهور التي وصلت الينا محفوظة مع ادوات الموتى وموميآتهم والى الحيوانات المحنطة

اما أهم النقوش الزراعية القديمة فهي الواردة في مقابر اكابر القوم. وهذه توجد عادة في مختلف جهات القطر بحسب عصرها. فمقابر المملكة القديمة (٢٩٠٠ — ٢٤٧٥ ق. م.) تكثر في منطقة الاهرام كأبي صير وسقارة وميدوم والجيزة. ونقوش هذه المقابر متقنة الصنع عادة وتحوي مناظر هامة لطرق المعيشة الزراعية وقتئذٍ. وكان رائد الحفار حينذاك اثبات الحقائق فجاءت رسومه قريبة جداً من الحقيقة. ولما دخلت مصر في عهد الاقطاع (٢٤٧٥ — ٢٠٠٠ ق. م.) تفرقت المراجع الزراعية الى عدة جهات بالقطر مثل بني حسن ودير الجبراوي واسيوط ومير. لكن يلاحظ ان الحفار في تلك العصور كان رائده اثبات ما يمكن ان يؤثر في نفوس الزائرين دون توخي الحقيقة بقدر الامكان. اما مقابر اسوان التي يرجع تاريخها الى هذا العهد فتكاد تكون معدومة النقوش اللهمَّ الاَّ القليل منها وذلك حول مدخلها الخارجي. ومقابر عصر المملكة الوسطى (٢٠٠٠—١٧٨٨ق.م.) ليست دائماً حافلة بالنقوش. ولما جاء عهد الامبراطورية (١٥٨٠ — ١٢٠٠ ق.م.) كان همّ القوم اثبات ما كان يهم المملكة القديمة اثباته وذلك بقصد الزخرفة والزينة في معظم الاحوال

ولقد ساعدتنا رسوم المقابر المذكورة على تفهم الشيء الكثير من الحياة الزراعية والريفية بالقطر المصري لان الغرض من اثباتها في المقابر كان يقصد به انقلابها بصورة حقيقية في الدار الآخرة كي يجد الميت في اخراه ما كان يتمناه في دنياه. وكثيراً ما يشاهد منقوشاً على الواح المقابر القديمة دعوات حارة «لاعطاء المتوفي آلافاً من ارغفة الخبز وقوارير الجعة والثيران والاوز واقمشة الكتان وكل الاشياء الجميلة النقية بكميات لا تحصى ...»

وزيادة في اثبات رغبتهم في الحصول على الغذاء في الدار الآخرة اهتم القوم بنقش كل الاجراءات التي تعمل في الدنيا للحصول على الخبز وذلك على جدران مقابرهم. فنقشوا طرق

الحرث والبذر وحفر الاراضي وضم المحاصيل وذرّ الحبوب ودرسها وخزنها في الاهراءات بل وحتى طريقة طحن القمح وعمل الخبز . وكان من أثر الزراعة في اذهانهم انهم تخيلوا ثم رسموا الجنة التي كانوا يمنون انفسهم بالمعيشة فيها بعد المات . واهم هذه المناظر هي الخاصة بالزراعة والنزهة في الحقول والمستنقعات واعتبروا ان قيام الميت بأعمال الزراعة في آخرته من الامور المسلّية المشوّقة

ومن القصص القديمة التي يرجع تاريخها الى عصر رمسيس الثاني ما تناولت امور الفلاحة وهي تعرف بقصّة الاخوين تتلخص في ان اخوين عاشا معاً في كوخ في أحد الحقول وكان اكبرهما متزوجاً وقابضاً على زمام البيت . اما الاصغر فكان عائشاً معه كابن له . فصبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فردّها . عندئذ ارادت ان تكيد له فوشت في حقه عند اخيه الكبير فصمم على الاقتصاص من اخيه واراد قتله خلسة فتحفز له وراء الباب . وفي مساء اليوم عاد الاخ الصغير بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت احدى هذه الحيوانات الامر وأسرّت الى راعيها بما يضمر له اخوه الكبير . فلما علم ذلك فرّ هارباً خوفاً من القتل . ثم حصلت بين الاثنين حوادث خرافية لا تتمشى مع ما جاء اولاً من مطابقتها للواقع . وبالتأمل في هذه الحكاية يجد القارىء في جزئها الاول شبهاً بقصة سيدنا يوسف الغرامية التي رواها لنا بنو اسرائيل وجاء شرحها في الذكر الحكيم

وسنذكر للقارىء هنا بياناً موجزاً للنباتات المصرية القديمة بعضها مصري الاصل والبعض الآخر اجنبي دخل القطر المصري من البلدان المجاورة . وتنقسم هذه النباتات الى قسمين : —

القسم الاول : وهو النباتات الكثيرة الانتشار في القطر قديماً حتى لم يهتم المصريون كثيراً بزراعتها لوفرتها وهذه اما (نباتات خشبية) اي التي استعملوا خشبها في الادوات الماشية مثل النخيل والدوم والجميز واللبخ والسنط او (نباتات ذات فاكهة) مثل التين او (نباتات ليفية) مثل البردي والاعشاب والقنب او (نباتات برية) مثل البشنين الازرق والابيض او (نباتات طبية) مثل الينسون والشبت والنعناع والحصبان وابو النوم والكمون والعرعر

القسم الثاني : ويشمل النباتات التي اعتنى القوم بزراعتها وهذه تتلخص في (الحبوب) مثل القمح والشعير و(الخضراوات) مثل الفول والعدس والبسلة والبامية والملوخية والخيار والبطيخ والثوم والكرفس والخس والكرنب والجرجير والفجل والبصل و(التوابل) مثل السمسم والكزبرة و(النباتات الزاحفة) كالعنب و(النباتات الصناعية) كالكتّان و(نباتات الصباغة) كالقرطم والنيلة والحنا و(النباتات الزيتية) كالزيتون و(نباتات الزينة والعطريات) كالورد والاراولة والنرجس

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر بالايجاز شيئاً عن جغرافية مصر القديمة وطريقة تقسيمها لخطر ذلك من الوجهة الزراعية . والمعروف ان جغرافية الجزء الواقع بين منطقة الشلالات والقاهرة لم تتغير تغيراً يذكر منذ أقدم العصور التاريخية . اما الجزء المعروف

الآن بالدلتا فكان عرضة لكثير من التغير . ففروع النيل بلغ عددها في اكثر الازمنة سبعة وكانت تعرف وتتميز بالاشاتيم وهذه كانت تسمى بالاقاليم التي كانت تمر بها فكان يطلق عليها مثلاً « البلوزي والتنيسي والمنديسي والسمنودي والكانوبي الخ » . اما الآن فلم يبق منها الا فرعا دمياط ورشيد

وكانت مصر مقسمة قدماً الى قسمين الوجه القبلي وابتداؤه من اسوان الى دهشور وتاج ملكه ابيض والوجه البحري ويبتدىء من دهشور الى البحر الابيض المتوسط وتاج ملكه احمر . فلما ضم هذان القسمان لملك واحد نمت هذا الملك بسيد القطرين . ومن مجموع هذين القسمين تكونت مملكة الفراعنة . فتى حكم ملك على مصر قاطبة جاز له ان يجلس على كرسي مرسوم عليه البردى واللوطس حول اشارة دالة على اجتماع الوجه البحري والقبلي معاً

ثم انقسمت مصر بعد ذلك الى ثلاثة أقسام . الاول مصر العليا اي الصعيد الأعلى وهو المحصور بين سلسلتين من الجبال غير مرتفعتين يمتد من اسوان جنوباً الى العرابة المدفونة (قرب البلينا) شمالاً . والثاني مصر الوسطى ويسمى عند اليونان تبابيد يمتد من العرابة المدفونة الى القاهرة . والثالث الوجه البحري ويقال له باليونانية الدلتا لشبهه بهذا الحرف عندهم ويمتد من القاهرة جنوباً الى البحر الابيض المتوسط شمالاً . وكان هذا القسم منذ حوالي سبعة آلاف سنة بحيرة من الماء تمتد الى بحيرة موريس جهة الفيوم فحولها النيل الى ارض خصبة

اما اقسام مصر القديمة (وهي اشبه كثيراً بمديرياتنا) فكان عددها يختلف باختلاف الدول وكانت اسماؤها تارة في الزيادة وتارة في النقص في العهد الفرعوني والبطالسي والروماني والاسلامي حتى انتهى الأمر بتقسيمها الحالي . فالآثار ومؤرخو اليونان أثبتوا انقسامها تارة الى ٣٦ قسماً وتارة الى ٤٠ او الى ٤٤ وطوراً الى خمسين قسماً . والسبب في ذلك ما كان من التنازع بين الأسر والأمراء المالكين للأقسام او من الحروب الاهلية او الزواج او الفتوحات او غيرها مما يستوجب انتقال الملكية من يد الى اخرى وقد نقشت اسماء الاقسام في معبد كلابشة والكرنك ودندرة والعرابة المدفونة ورسمت لها صور على حيطان المعابد بهيئة صور النيل تقدم للملك الحاكم محصولات الأرض . ثم حددت هذه الاقسام (وكان يقال لكل منها حسبت) باحجار مكتوبة وكان كل قسم يحوي قاعدة (وتسمى نويت) وبندر ومركز المدينة ومركز الديانة واراضي الزراعة واراضي المستنقعات التي كانت تستعمل مرعى ولزراعة البردي واللوطس وصيد الطيور ثم الترع الخارجة من النيل لري الأراضي وللملاحة . وكان يعين لكل قسم حاكم من بيت الملك يقال له (حق) وعلى سكان كل قسم ان يدفعوا للملك الاتاوات المقررة عليهم من محصول الارض حسب الايراد كما كان عليهم ان يوردوا رجال العسكرية والسخرة لانجاز الاعمال اللازمة للمنافع العمومية مثل اصلاح معبد او بناء قلعة او جسر او مد طريق او شق ترعة

نافذة

احبُّ ان يكون لي نافذة تطلُّ على البحر
حيث تمخر السفن متجهة الى اقاصي الارض او عائدة منها
حيث الأشرعة المنتفخة ودخان البواخر تشير اليَّ
بأن اترك غرفتي للبحث في تيهِ الاشكال الدائمة التغيُّر
تبدعها الشمس والغيوم والرياح والامواج
وتدعوني الاجواء القصية الى المغامرة في بلدان اجهلها

احبُّ ان يكون لي نافذة تطلُّ على البحر
حيث استطيع ان اقف : فأراقب العاصفة المجتاحة
واشعر برعد الموج مصطدماً باليابسة
واحسُّ في الليلة الهادئة بالمدِّ مرتقماً تحت النجوم
واسمع في همس الماء للرمل ، الصوت الضئيل الهادئ
صوتَ مَن في كفهِ المحيطات

يا ليت لي نافذة تطلُّ منها نفسي على البحر
فتتعرَّف معنى الاشياء التي من وراء البصر الانساني
تلك العجائب التي قد تغريني بالخروج من غرفتي الارضية
للبحث في تيهِ الله الحافل بالاسرار
فأذهب مغامراً في عوالم لا يعرفها انسان

احبُّ ان يكون لي نافذة تطلُّ على البحر

٢ – استدراك على معجم الحيوان

للفريق الدكتور امين باشا المعلوف

اوردت في الجزء الماضي من المقتطف بعض انواع السمك التي ذكرها المسيو غريفل وفي ما يلي انواع غيرها ذكرها في كتابهِ

فصيلة الإِصفرنيّ — Sphyrénidés. E. Shyraenidae

قال ليس منها في سواحل الشام الاَّ النوع الآتي

الإِصْفِرنيّ = Le Spet ou Sphyrène Spet. E. Spet or Barracuda. (Sphyraena Spet, Lacep. S. vulgaris, C. V.)

قال هو كثير في سواحل الشام والاهلون[1] يسمونهُ الاصفرني . قلت ذكرته في ص ٢٩ وص٢٣٣ من معجم الحيوان وانما لم اذكر اسمهُ النوعي وهو على ما اورده المسيو غريفل كما تقدم

فصيلة الصير او المانون — Menidés. Les Menides ou Mendoles ou Picarels. E. Maenidae

سمك صغار دقاق لا تزيد الواحدة منها على ١٥ او ٢٠ سنتيمتراً قال ميّزنا نوعين منها

السمارس المعروف — Picarel vulgaire (Smaris vulgaris, C. V.)

سمارس القيرلّي او صياد السمك — Picarel martin-pecheur (Smaris alcedo, C. V.)

لم يذكر المسيو غريفل اسماً عربيًّا للفصيلة المتقدمة ولا لهذين النوعين وانما ذكرت السمارس في المقتطف ٣٩ : ٣٤٢ وفاتني ذكره في معجم الحيوان . اما المانون فذكره لكلير في المادة ٢٠٧٥ من مفردات ابن البيطار واللفظة لاتينية من اصل يوناني . واما الصير فعن ده ساسي كما ذكرت في المقتطف وفي معجم الحيوان ص ١٠

فصيلة الاسبور او الاسبوريات — Sparidés. E. Sparidae

قال هي كثيرة في سواحل الشام وذكر انواعاً منها ما يأتي

سُرغوس — Sar ou Sargue. E. Sargo (Sargus Rondeletti, C. V.)

قال هو كثير في البحر المتوسط لاسيما في اسواق الاسكندرية وبورت سعيد وبيروت والاهلون يسمونهُ السرغوس . قلت ذكرت هذا النوع من السمك في المقتطف ٣٨ : ٤٥٩ وفي معجم الحيوان ص٨٤وص٢١٢ اما الاسم العلمي الذي اعتمده المسيو غريفل فكما تقدم

السَّرْب — Le Bogue saupe ou Saupe. E. Boce or Bogue or Bogue salpa (Box Salpa, Cuv.)

لم يذكر له المسيو غريفل اسماً عربيًّا وانما ذكرته في المقتطف ٣٨ : ٤٥٩ وفي معجم الحيوان ص ٦٣ وكلاهما باسم علمي غير هذا والصواب ما ذكره المسيو غريفل

---

(١) ترجمت اللفظة التي استعملها المسيو غريفل اي Indigénes باللفظة المتقدمة اي الاهلون ولم أقل « الوطنيون » وكنت اود لو اجتنب المسيو غريفل ما يجرح عواطف السوريين باستعمال هذه اللفظة وعسى انه اذا عاد الى سورية وكتب عنها وعن السوريين يقول « السوريون » كما امتنع الانكليز ان يقولوا عن العراقيين Natives وانما البحث هنا بحث علمي لا بحث سياسي وربما كتبت في ذلك مقالة في جريدة يومية

السرب المعروف Le Bogue Commun. E. Common boce or Bogue (Box vulgaris, C. V. = Box boops, L.)

اما في شركة المصايف فهو سمك موسى ولكن سمك موسى سمك مشهور هو غير هذا ولعلّ السرب الذي ذكره ده ساسي على ما قلت في المقتطف هو هذا والذي قبله فانهُ سمع لفظة شَرْب بالمعجمة عن جفروى وكلاهما ثقة يعوَّل عليه . اما لفظة شرب التى قال جفروى انها اسم هذا السمك في الاسكندرية ولفظة السرب على ما جاء في كتاب الافادة والاعتبار واللفظة اللاتينية المتقدمة من اصل واحد قديم في البحر المتوسط

فَجَاج . نجار . دجاج البحر Le Pagre vulgaire. E. Red porgy, Braize or Becker. (Pagrus vulgaris, Cuv.)

ذكرته في المقتطف ٣٨ : ٤٥٩ وفي معجم الحيوان ص ١٨١ و٢٣٢ وقلت من اسمائه ما تقدم. وذكر المسيو غريفل الفجاج اي ان اهل بيروت يقولون كما يقول اهل دمياط . ثم ان ارسطو ذكر هذا النوع من السمك وقال مترجم كتاب ارسطو في حاشية له انه نقل عن ابستوليدس ان اسمه مرجان في استانبول اي يسمونه باسم الفرّيدي المعروف بالمرجان في الاسكندرية وسيأتي ذكره اي ان المرجان يطلق على هذا النوع من السمك وعلى الفرّيدي

فرّيدي في سواحل الشام Le Pageau ou Pagel Commum. (Pagellus erythrinus, L.)

مرجان في الاسكندرية . فالفريدي عن المسيو غريفل والمرجان مما اعرفه في مصر والاسكندرية

جَربيديّ في سواحل الشام . Le Rousseau (Pagellus centrodontus, Delar)

كحلاء في الاسكندرية . الجربيدي عن المسيو غريفل والكحلاء مما اعرفه في الاسكندرية

حفّار . مُرْمار Le Mormyre (Pagellus mormyrus, L.)

ذكرته في ص ٦٣ من معجم الحيوان باسم عليّ آخر والصواب هو هذا . ولم يذكر المسيو غريفل الحفّار وقد اخذتهُ عن فورسكال وكلونزنجر . واما المرمار فعن جفروى

ثم ان اسم الجنس في هذه الانواع الثلاثة يونانيّ الاصل اي تصغير Pagros وهو اسم الفجاج الذي تقدم ذكره. اما الاسم النوعي للفرّيدي او المرجان فمعناه الاحمر . ثم ان هذا الجنس اي Pagellus متحجر في سواحل لبنان وهو كثير في المعاملتين من اعمال كسروان ولكنني لا اعلم اي نوع منهُ هل هو الفرّيدي اي الاول او الجربيدي اي الثاني او الحفّار اي الثالث وارجح انهُ الثالث اي الحفّار

مَرجان La Daurade vulgaire ou Dorée. E. Gilthead (Chrysophris aurata, C.V.)

او مرجان ذهبي الرأس : لم يذكر له اسماً عربيًّا ولا اعرف له اسماً غير المرجان ولعلّ اصلح اسم له هو المرجان المذهب او المرجان الذهبي الرأس . اما اسمه الجنسي فمعناه الذهبي الحاجب

نفّار . قمر Le Denté (Dentex vulgaris, Cuv.)

لم يذكر له اسماً عربيًّا اما النفّار والقَمَر فعن كلونزنجر فقد ذكر انواعاً كثيرة من هذا الجنس وسماها بهذين الاسمين وهما معروفان في البحر الاحمر

ابن خلدون والنقد الحديث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عن كتابه « ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري »



ابن خلدون كما تصوره ورسمه جبران خليل جبران

يرتفع النقد الغربي بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة . وقد عرف التفكير الغربي قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير منهم الى مكانته ، وعرف قبله كثيراً من المؤرخين المسلمين ، لا لأنهم اجدر بالبحث والتعريف ، ولكن لانهم ظهروا في عصور الاسلام الفتية الزاهرة او لأنهم تناولوا نواحي عني بها التفكير الغربي (١) . ولكن ابن خلدون ظهر في عصر سرى فيه الانحلال الى صولة الاسلام وسيادته ، واضمحل التفكير الاسلامي ، فلم يكن اجدر العصور بالتعريف والبحث . ولبث تراث ابن خلدون مغموراً في

---

(١) عرف الغرب مؤرخين مثل المسعودي وابي الفدا وابن العبري وابن خلكان وابن عربشاه قبل ابن خلدون بعصور طويلة ، وترجمت بعض مؤلفاتهم الى اللاتينية . ونشر تاريخ ابن العبري وتاريخ ابن عربشاه (تاريخ تيمور) في انكلترا بنصهما العربي منذ منتصف القرن السابع عشر

الشرق والغرب مدى قرون ، يكاد الشرق يجهله ، ولا يعرف الغرب شيئاً عنه . وفي سنة ١٦٩٧ م ظهرت عنه في موسوعة « دربلو » الشرقية اول ترجمة غربية . وهي ترجمة موجزة فياضة بالخطأ . ومضى بعد ذلك اكثر من قرن قبل ان يعنى التفكير الغربي بشأنه ، حتى نشر المستشرق الفرنسي سلفستردي سامي سنة ١٨٠٦ ترجمة ابن خلدون مع ترجمة فرنسية لفقرات من المقدمة في قاموسه Chrestomathie Arabe ثم نشر بعد ذلك باعوام ترجمة لمقتطفات اخرى من المقدّمة . وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترجمة اوفى لابن خلدون في قاموس التراجم العام Biographie Universelle مع وصف مسهب لمقدّمة ابن خلدون. وفي نفس الوقت نشر المستشرق النمسوي فون هامار رسالة بالالمانية عن « اضمحلال الاسلام بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة »، تعرّض فيها لبعض نظريات ابن خلدون في انحلال الدول ، ووصفه بأنه « مونتسكيو العرب » . ونشر بعد ذلك ترجمة المانية لبعض مقتطفات من المقدمة ، ثم نشر وصفاً لبعض اجزاء المقدمة في « المجلة الاسيوية[1] » . واستمرّ دي سامي وبعض زملائه المستشرقين على نشر مقتطفات مترجمة من مقدّمة ابن خلدون او تاريخه ، والبحث الغربي فيما بين ذلك يزداد اهتماماً بابن خلدون وتراثه ، وإعجاباً بقوة تفكيره وطرافته ، حتى نشر كاترمير مقدّمة ابن خلدون كاملة بنصها العربي سنة ١٨٥٨ ، ونشر دي سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية كاملة للمقدّمة ، وعندئذٍ ظهر ابن خلدون للتفكير الغربي في روعة ابتكاره ، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذي غمره النسيان مدى عصوره

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربي بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة . كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافاً علميًّا حقـا ، وكان اعجب ما في هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب في تراث المفكر المسلم، بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي لم يطرقها البحث الغربي الا بعد ابن خلدون بعصور طويلة . اجل اكتشف النقد الغربي لدهشته واعجابه في تراث ابن خلدون كثيراً مما ردده مكيافيللي بعده بقرن ، وما ردده فيكو ومونتسكيو ، وآدم سميث ، واوجست كونت[2] بعده بقرون . وكان المعتقد ان البحث الغربي اول من اهتدى الى فلسفة التاريخ ، ومبادىء الاجتماع ، واصول الاقتصاد السياسي ، فاذا بابن خلدون يسبقه بعصور ويغزو في مقدمته هذه الميادين ويعرض كثيرا

---

(١) « المقتطف » — على من شاء معرفة المراجع التي اعتمد عليها المؤلف ان يراجعها في كتابه

(٢) مكيافللي مؤرخ وسياسي ايطالي (١٤٦٩ — ١٥٢٧) . وفيكو مؤرخ وفيلسوف ايطالي (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ومونتسكيو مشترع وفيلسوف واجتماعي فرنسي (١٦٦٩ — ١٧٥٥) وآدم سمث اقتصادي انكليزي (١٧٢٣ — ١٧٩٠) واوجست كونت فيلسوف فرنسي وهو واضع اصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ — ١٨٥٧)

من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة. ومن ثمَّ فانا نرى النقد الغربي ، بعد ان اكتشفهُ ودرسه ، يرتفع بتراثه الى اسمى مكانة ، وينظمه في سلك الفلاسفة ومؤرخي الحضارة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسي ، بل ويعترف له بفضل السبق في هذه الميادين

— ١ —

كانت الناحية التاريخية الفلسفية في تفكير ابن خلدون اول ما عنى النقد الغربي بدرسه ، ولكن الناحية الاجتماعية ما لبثت ان لفتت انظار طائفة من علماء الاجتماع ، واخذت تتفوق على ما عداها من نواحي تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الاجتماعية تشغل فراغاً كبيراً في النقد المعاصر ، ويتناولها حتى يومنا طائفة من النقدة الاجتماعيين بالدرس والتحليل المقارن

وكان في مقدمة من درس تراث ابن خلدون من الناحية التاريخية الفلسفية المستشرق النمسوي الكبير البارون فون كريمر ، فكتب عنه بالالمانية رسالته الشهيرة «ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الاسلامية» وقدمها لاكاديمية العلوم بفينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريمر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker يؤرخ حضارة الشعوب الاسلامية ، لانه من بين المؤرخين المسلمين اول من خصص فصولاً ضافية للتحدث عن النظم السياسية وانواع الحكم ، والخطط العامة كالقضاء والشرطة والادارة وتطورها في الدول الاسلامية ، وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب والمعاش ، ثم عن العلوم والفنون والآداب واصنافها واحوالها وتطورها في العالم الاسلامي وهو اعتبار صادق من بعض الوجوه فقط لان ابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة او لذاتها وانما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذي هو موضوع بحثه ودرسه . ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران

******

ويعتبر دي بوير (الهولندي) ابن خلدون فيلسوفاً ، ويضعهُ في ثبت الفلاسفة المسلمين الى جانب ابن سينا والغزالي وابن رشد وابن الطفيل ، وينوّه بقيمة المنطق في صوغ نظرياته ويصفه بانه مفكر متزن ، فهو ينكر ثمرة الكيمياء والعرافة بحق ، وكثيراً ما يعارض مبادىء الفلسفة العقلية ، بمبادىء الاسلام البسيطة سواء عن اعتقاد شخصي او لاعتبار سياسي . بيد ان الدين لم يؤثر في آرائهِ العلمية بقدر ما اثرت الارسطوطالية الافلاطونية . وقد اثرت في تكوين ذهنيتهِ جمهورية افلاطون وفلسفة فيثاغورس الافلاطونية ، وكذلك المؤلفات التاريخية لاسلافهِ المشارقة ولاسيما المسعودي ، ايما تأثير . وقد حاول ابن خلدون ان يؤسس نظاماً منطقياً جديداً لم يجل بذهن ارسطو ، وان يجعل من التاريخ نظاماً فلسفياً ، وهو يقول لنا

ان هذا النظام انما هو الحياة الاجتماعية ، ومادة المجتمع كلها وثقافته الفكرية . ومهمة التاريخ هي أن يبين كيف يعمل الناس وكيف يحصلون اقواتهم ، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضاً وكيف يجتمعون في جماعات كبيرة في ظل بعض الزعماء ، وكيف يلهمون اخيراً في ظل حياة الحضر رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة ، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الخشنة الى الترف الناعم وتزدهر ، ثم تضمحل وتموت . ثم يقول دي بوير ان ابن خلدون هو بلا ريب اول من حاول ان يشرح بافاضة تطور المجتمع وتقدمه لاسباب وعلل معينة ، وان يعرض ظروف الجنس والاقليم ووسائل الانتاج وما اليها ، وأثرها في تكوين ذهن الانسان وعاطفته وفي تكوين المجتمع . وهو يرى في سير الحضارة تناسقاً داخلياً منظماً . ويختم دي بوير حديثه عن ابن خلدون بما يأتي : « لقد سار امل ابن خلدون في ان يخلفه من يتم بحثه في سبيل التحقيق ، ولكن في غير الاسلام ، فكما انه كان دون سلف ، فكذلك بقي دون خلف »

— ٢ —

بيد ان النقد الغربي كان اكثر اهتماماً بفلسفة ابن خلدون الاجتماعية . ولقد لقي ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الاعجاب والتقدير ، وعني كثير من علماء الاجتماع المعاصرين بتحليل نظرياته الاجتماعية ومقارنتها بنظريات اقطاب المحدثين

ومن هؤلاء النقدة العلامة الاجتماعي لدفيج جمبلوفتش ، فهو يخصص لابن خلدون في مباحثه الاجتماعية فصلاً كبيراً ، ويصفه بأنه اجتماعي او من علماء الاجتماع . ويتناول طائفة من آرائه الاجتماعية بالتحليل والمقارنة ، ويبين انه قد سبق في كثير من هذه الآراء اقطاب الاجتماع المحدثين ، فهو مثلاً قد اهتدى الى نظرية الاجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الاسر وانحلالها قبل ان يعرضها اوتوكار لورنتس في اواخر القرن التاسع عشر . ويقول جمبلوفتش ان ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعي حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعية ، وكيف ان هذه الجماعات نفسها انما هي ثمرة الوسط . وآراؤه في هذا المقام عن الاجناس الغالبة في منتهى الخطر . وفي اقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على انه عرف « قانون التشبه بالوسط » قبل ان يعرفه داروين بخمسة قرون ، وفيما يقوله عن تشبيه الانسان بالحيوان في الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ما يدل على انه عرف مبدأ « وحدة المادة» قبل ان يعرفه هيكيل [1] . ومن المدهش ان نرى كم تتفق الاجراءات التي ينصح ابن خلدون باتخاذها للفاتحين الظافرين لكي يؤيدوا سلطانهم ، مع النظم الحربية التي اثبت البحث التاريخي الحديث ان مؤسسي الدول الاوربية في العصور الوسطى قد اتخذوها ، بل ان فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التي

(١) ارنست هيكيل علامة بيولوجي وطبيعي الماني (١٨٣٤ — ١٩١٩)

أسداها مكيافيلي بعد ذلك بقرن الى الحكام في كتابه « الامير » . وحتى في هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل وفي صبغتها الوقعية الخشنة ، كان من المستطاع ان يكون ابن خلدون نموذجاً للايطالي البارع الذي لم يعرفه بلا ريب. هذا وقد استطاع ابن خلدون ان يقرر منذ خمسة قرون اصل السلطتين الروحية والزمنية، كما يقررها اساتذة القانون السياسي والقانون الكنسي

واخيراً يقول جبلوفتش : « لقد أردنا ان ندلل على انه قبل اوجست كونت ، بل قبل ڤيكو الذي اراد الايطاليون ان يجعلوا منه اول اجتماعي اوربي، جاء مسلم تقي فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم: علم الاجتماع »

وفي نفس الوقت الذي أدلى فيه جبلوفتش بهذه الآراء تناول تفكير ابن خلدون باحث اجتماعي ايطالي هو فريرو فأيد وصف جبلوفتش لابن خلدون بأنه « اجتماعي » ونوه بطرافة ابن خلدون وسبقه في هذا الميدان . ويوافقهما في ذلك الكاتب الاجتماعي الروسي ليڤين فيعتبر ابن خلدون فيلسوفاً « اجتماعياً»

ودرس مسيو مونييه استاذنا السابق بكلية الحقوق، ابن خلدون من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في بحثين قويين ، يتناول في اولهما آراء ابن خلدون الاقتصادية وفي الثاني آراءه الاجتماعية ، ويعتبره فيلسوفاً واقتصادياً واجتماعياً معاً . ويصف مقدمته وتفكيره بما يأتي : « انها مزيج عظيم من القوانين الكونية، وموسوعة لعلوم العصر، وتحتوي على اجزاء متفرقة لبحث كامل في علم الاجتماع. وطريقتها بالاخص بديعة تدلُّ على ذهن علمي حق. واذا كانت آراء ابن خلدون لا تعبر عن مثل وضعي أعلى، فهي مع ذلك تقوم على الملاحظة التحليلية للحوادث، وهي مرآة الواقع. وليست فلسفته سوى شرح وتعليل لتاريخه ، وشروحه تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفنا يسبق بها عصره » ثم يحلل مسيو مونييه نظريات ابن خلدون الاجتماعية ويقسمها الى قسمين هما : القوانين العامة للحياة الاجتماعية ، وقوانين التطور الاجتماعية ؛ ويصفها بقوله : « واذاً فان فلسفة ابن خلدون الاجتماعية يغشاها على ما يظهر استنتاج بالغ التشاؤم . فالمجتمع ليس الا لحظة في مجرى الاشياء الكوني ، وهو يفنى كما يفنى كل شيء. والحياة كالدّوي ، وكل تغيير يقتضي عكسهُ ، وكل ارتفاع يعقبه سقوط . . . ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ، فهو لا يحكم وانما يشاهد . وهو بذلك يدلُّ على ذهنية علمية حقة ، وبذا يجب ان يفسح لهُ مكان في تاريخ الاجتماع الوضعي »

وينوه معظم نقدة ابن خلدون بهذا التشاؤم الذي يطبع فلسفته . ويقول لنا فون كريمر ان ابن خلدون يذهب في تشاؤمه الى حدود بعيدة ، ويقارنهُ في ذلك بأبي العلاء المعري. ويعتقد ان مصدر هذه العاطفة هو انحطاط الدول والحضارة الاسلامية في العصر الذي كتب فيه ابن

خلدون . ولكن فريرو يرجعها الى ظروف الحياة السياسية العاصفة التي تقلب فيها ابن خلدون وما بثّت في نفسه من مرارة وخيبة امل. على ان كثيراً من الناحية الوقعية لفلسفة ابن خلدون يرجع الى هذه العاطفة ؛ ولم يكن تشاؤمه نزعة شخصية كامنة في اخلاقه ، ولكنهُ صفة لتفكيره فقط . ونتيجة للبحث والدرس . اما ابن خلدون نفسه ، فكان كما تدلُّ حوادث حياته اكثر ميلاً الى الثقة والابتهاج والتفاؤل

ويدرس الكاتب الالماني فون فيسندنك نظريات ابن خلدون في نشوء الدول وانحلالها ويرى فيه ذهناً وافر الابتكار ، ومثلاً اعلى في التفكير العربي وآخر نجم سطع في أفق التفكير الاسلامي الحر . ويعتبره مثل فون كريمر مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker ، ويرى فيه بحق إماماً لمدرستي مكياڤيللي وڤيكو ، ويحاول ان يطبق نظرياته في سقوط الدول والاسر على الامبراطورية الالمانية والدول الاوربية فيقول : « وقد يلوح للالماني في الوقت الحاضر ان هذه الآراء الفياضة بالتشاؤم ليست من ابتكار مفكر اجنبي ، فان الامبراطورية الالمانية لم تعمر طويلاً ثم ذوى غصنها غضّا الى عالم الفناء بسرعة خارقة ، فهل يجب ان نبحث لتلك المأساة عن اسباب غير تلك التي اوردها الكاتب العربي عن سقوط المرابطين والموحدين ؟ ان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ؛ يقف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيداً في المشرق ، لم يعقبه خلف ولم ينسج على منواله ناسج ويطبق ما كان يشعر به او يدعو اليه على اوربا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه . وتدوي ميول المفكر والسياسي الافريقي في معترك الحوادث مهما كانت وجهتها دويّا يتردد صداه في عالم افكار عصرنا »

— ٣ —

درس الاستاذ استفانو كلوزيو ابن خلدون من ناحية اخرى هي الناحية الاقتصادية . ويرى كلوزيو بادىء بدء « ان ابن خلدون من حيث الجنس الذي انحدر منه ، والبلد الذي ولد فيه ، والحضارة التي ينتمي اليها ، يمكن ان يوضع في صف عظماء الرجال الذين يتبوأون في التاريخ أسمى مكانة » . وقد اكتشف ابن خلدون آفاقاً جديدة في ميدان العلوم الاجتماعية . ولكنه لا يجاري مكياڤللي كمؤرخ ، لانه لم يعرف او لم يرد ان يطبّق المبادىء التي عرضها في مقدمته ليشرح اسباب الحوادث التي يقصها في تاريخه . ومع ذلك فقد سبق مكياڤللي ومونتسكيو وڤيكو ، الى وضع أصول علم جديد هو الدرس النقدي للتاريخ . وتلك حقيقة نوّه بها أماري المستشرق والمؤرخ الايطالي الكبير قبل كلوزيو فوصف ابن خلدون بأنه أول كاتب في العالم عالج موضوع « فلسفة التاريخ » ثم يحلل كلوزيو نظرية ابن خلدون في « الجبر الاجتماعي » ويرى انها موجودة في تلك العبارة التي يستهل بها ابن خلدون حديثه عن اجيال البدو والحضر وهي : « ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش »

على ان كلوزيو ينوه بالاخص بنظريات ابن خلدون الاقتصادية ، فيقول لنا « ان المؤرخ البربري العظيم استطاع في العصور الوسطى ان يكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيدران وماركس وباكونين» [1] ثم يحلل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والطوائف الاجتماعية ، وعن طرق الملك وانواع الملكية ، وعن مهمة العمل الاجتماعية ، وتقسيم العمل الى حر ومأجور ، وكون العمل الحر مصدراً للرزق (المعاش) ثم عن قانون العرض والطلب . ويرى كلوزيو في ذلك كله ان ابن خلدون كان اقتصاديًّا مبتكراً يعرف مبادىء الاقتصاد السياسي ويطبقها بذكاء وبراعة قبل ان يعرفها البحث الغربي بعصور طويلة ،ويختتم بحثه بما يأتي : « اذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعهُ في مقدمة فلاسفة التاريخ،فان فهمهُ للدور الذي يؤديه العمل والملكية والاجور يضعهُ في مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين

— ٤ —

ومن احدث البحوث النقدية في دراسة ابن خلدون رسالة للاستاذ ناتانيل شميت الاستاذ بجامعة كورنل بأمريكا ،درس فيها ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف واجتماعي . ويرى الاستاذ شميت ان ابن خلدون كمؤرخ يمكن ان يوضع في صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلي، ونقولاوس الدمشقي او تروجوس بومبيوس ممن كتبوا في القرن الاول الميلادي ، او مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جاتيرو وشيلتسر ، وهذا مع كونه يتفوق عليهم سواء في الانتفاع بالمصادر القديمة او في الرواية الاصلية،ولو ان ابن خلدون لم يخلف لنا سوى تاريخه السياسي،لكان أثراً ينبيء عن همة لا تنفد، وغزارة في المصادر،وحكم سديد، ولكان بالنسبة لبعض العصور مصدراً نفيساً للرجوع ، بل لكان في عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعه بكثير عن مستوى رجال مثل البخاري والمسعودي والطبري وابن الاثير . على ان حق ابن خلدون في الشهرة الخالدة لا يرجع الى تاريخه بل يرجع الى ذلك الأثر المدهش الذي كتبهُ مقدمة لتاريخه ، فهنا تبدو عبقريته في روعة بهائها،وهنا ينثر بيدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشري

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الاستاذ شميت ان ابن خلدون هو الذي اكتشف ميدان التاريخ الحقيق وطبيعتهُ ، وهو بلا ريب صادق حين يقول ان احداً من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه ، واذا كانت معرفتنا بعلوم القدماء اعظم وأغزر ، فإنا مع ذلك نستطيع اليوم ان نقول ان ابن خلدون كان بحق اول كاتب استطاع ان يعرّف موضوع التاريخ

---

(١) كونسيدران اشتراكي فرنسي له عدة مؤلفات في الاشتراكية (١٨٠٨ — ١٨٩٣) . وكارل ماركس اقتصادي واشتراكي الماني كبير ومؤسس الاشتراكية المتطرفة،ومؤلف اعظم كتاب في الاشتراكية (رأس المال) ، (١٨١٨ — ١٨٨٣) . وباكونين اجتماعي واقتصادي روسي ومؤسس مبدأ اللاحكومية (١٨١٤ — ١٨٧٦)

بهذه الصورة ، وان ينظر الى التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته . بل لم يقل احد غير ابن خلدون ان التاريخ علم خاص موضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية في حياة الانسان . فاذا كان يجدر بنا ان نتوسع في فهم التاريخ الى هذا الحد ، واذا كان التاريخ علماً ، فان التونسي العظيم الذي ابتكر هذا الرأي ودافع عنهُ ليس له سلف فيما يظهر . ومن حقه ان يعتبر انهُ المكتشف . وهنا بلا ريب أروع ابتكاراته واكثرها طرافة ، وان كان ذهنه النافذ قد شقّ طرقاً جديدة في نواحٍ كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون في دراسة الدول وقيامها وسقوطها ان اسباب هذه التطورات لا ترجع فقط الى البواعث والاطماع ، والى الاغراض والغايات ، والى قوة الارادة ، وقوة الذهن لدى الافراد ، ولاحظ ان تأثير هذه العوامل لايخضع فقط لخواص الجماعات التي تنتمي اليها ، ولكنها تخضع ايضاً للظروف الاجتماعية العامة وقد حمله ذلك على ان يبحث العوامل التي تؤثر في هذه الظروف الاجتماعية وتكيفها ، وانتهى الى انها ترجع الى خواص قومية وجنسية . ولكنه لاحظ ايضاً ان هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالاقليم ، والماء ، والأرض ، والموقع ، والغذاء . واذاً فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسي ، ان ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، ولكي نفهم هذه يجب ان نحسب حساباً للعوامل الطبيعية . ومن ثمّ كان اتساع نطاق التاريخ ، واتساع مهمة المؤرخ إذ يغدو التاريخ علم المجتمع الانساني ، واذاً فهو علم الاجتماع . ثم يقول الاستاذ شميت ان ابن خلدون رغم طابعه الاسلامي انما هو فيلسوف مثل اوجست كونت ، وتوماس بكل ، وهربرت سبنسر . وفلسفته التاريخية ليست كفلسفة هجل [1] تحليلاً للقضاء والقدر . واذا كان يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن ، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن

وأما عن الناحية الاجتماعية ، فان الاستاذ شميت يرى مع معظم النقدة ان ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع ، ويرى بالاخص مع جمبلوفتش ان الاجتماع وجد قبل اوجست كونت بعصور طويلة ، وان ابن خلدون ذهب في تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت ، وانه فيما عالج من خواص العادة والاقليم ، والارض ، والغذاء ، قد سبق مونتسكيو وبكل وسبنسر وغيرهم

وينقل الاستاذ شميت الينا هذه الكلمة عن العلامة الاسباني التاميرا : «كفى انهُ في القرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الاوربية في منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتي يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها ، قد كُتب كتاب كالمقدمة ، درست فيه وعرضت كل المسائل ، التي غدت فيما بعد ، أهم مهام المؤرخين المحدثين »

---

(١) توماس بكل كاتب ومؤرخ اجتماعي انكليزي ، وله مؤلف شهير في تاريخ الحضارة الانكليزية (١٨٢١ — ١٨٦٢) وسبنسر فيلسوف انكليزي ومؤسس فلسفة التطور (١٨٢٠ — ١٩٠٣) . وهجل فيلسوف الماني كبير . درس فلسفة الدين والروحيات والالهيات (١٧٧٠ — ١٨٣١)

المعجم المحرَّر

في حاجة الى المباني والتخريج

حقّق الله الأمل المنشود . فأصدر صاحب الجلالة احمد فؤاد ملك مصر المعظم ايّده الله امره المطاع بتأليف « مجمع اللغة العربية الملكي » ليلي إنشاء معجم صحيح الوضع يأتي على ما في موادّ اللغة من المباني والمعاني معيداً الفروع الى اصولها فلا يأتي بصيغ الجموع ولا مفردَ لها كما ورد في القاموس والمعاجم التي نقلت عنهُ ولا بصيغ المفرد ولا جموع لها او بغير استيفاء صيغ جموعها ويزيل ما في المعاجم من الخلل ويكشف النقاب عن وجوهٍ لا يهتدى اليها لغموضها ويقف موقف الحكم العدل في القضايا التي جاءت نصوص المعاجم فيها متعارضة . فهذا العمل الشاقّ لا غنى له عن الاستعانة بعلم المباني والتخريج. فما المباني . وما التخريج

المباني

يورد التصريف للفعل الثلاثي ستة اوزان عن تحريك عين الفعل بالفتح والضم والكسر ماضياً معلوماً ومضارعاً ثم ينصرف الى الامر فالمصادر فالمشتقات فالمزيدات فمشتقاتها فالاعلال فالادغام فما الى هنالك من نسبة وتصغير ومثنى وجمع

فيأتي المباني وينظر في الاوزان الستة ثم يوزّع كل وزن طوائف وهذه الطوائف منها اصول ومنها ملحقات ولكل طائفة مصادرها ومشتقاتها . فلكل طائفة مبنىً خاصٌّ له معنىً خاص فاذا اختلفت المباني اختلفت المعاني واذا تعدَّدت المعاني تعدَّدت الطوائف . فيكون للمبنى الواحد معانٍ متعددة فيأتي كل معنىً من طائفة وكل طائفة تعود الى وزن

وهذا كلامٌ مجمل لا يخلو من غموض فأوضحه بالتمثيل هكذا اولاً جاء في مادة « ك م ل » في احد المعاجم « كَمَل يَكْمُل وكَمِل يَكمَل وكَمُل يَكمُل كمالاً وكُمُولاً من باب نَصَر وهي أفصح ومن باب علم وهي اردأها ومن باب كرُم او الكمال اسم تمّ »

فضمون هذا القول ان مادة « ك م ل » وردت على ثلاثة اوزان والمفاد واحد والاتفاق واقع على ان المصدر هو الكُمول واما الكمال فمختلف فيه بين انهُ مصدر او اسم مصدر . فلدى هذا النصّ لنا ما يأتي

ا — للأئمة مذهبان في المصدر والفعل الماضي فذهب بأصالة المصدر ومجيء الفعل عنهُ ومذهب بأصالة الفعل ومجيء المصدر عنهُ . فان كان الفعلُ الاصلَ فهنا ثلاثة اوزان لها مصدر على قول او مصدران على قول آخر . فهل كل وزن له المصدْران اولكمِـل مصدر ولكمَل مصدر وان كان المصدرُ الاصلَ فكيف جاءت الافعال الثلاثة لمصدرين او لمصدر واحد . .

ب — ما الدليل على أن كمُولاً اعرق من كمالٍ في المصدرية ولماذا يمتنع ان يكون كمالٌ اعرق من كمُول ولماذا وقع الخلاف في كمال بين انهُ مصدر او اسم مصدر واين الدليل على انهُ اسم او مصدر . ولماذا تعذَّر البتُّ في حقيقة كمال

ت — لم تتعدد الاوزان في « ك م ل » الاَّ عن تعدُّد المعاني في هذه المادة فلكمِـل معنى لا يؤدّيهِ كمَـل ولا كمُـل . وكمَل في معناها الخاص بها هي الفصحى وما سواها ليس فصيحاً فالقول عنها انها « ارداها » ليس لهمستند ولا دليل بل الدليل ينقضهُ

ث — لنميز بين معاني كمَل وكمِل وكمُـل اورد قول الشاعر

فتىً كملت أخلاقُهُ غير انهُ جوادٌ فلا يُبقي على المالِ باقيا

واسأل هكذا ما الفرق بين ضبط كمل بالفتح او بالكسر او بالضمّ وأيٌّ منها يظهر ان الشاعر أرادهُ .ثانياً « حرص على الشيء حرْصاً (بكسر وسكون في المصدر) من بابي علم وضرب بمعنى جشع » فكيف جاء للوزنين مصدر واحدٌ . وكيف نضبط قول الشاعر

إحرصْ على الشِيَم التي كرمت آثارها في الأعصُر الأُوَلِ

وقول الآخر

إحرصْ على نشَب تجمّعُهُ بالجهدِ او ما أورث الولَدُ

أمن وزنٍ واحد هما او من وزنين وأين الضبط بكسر الراء لا بالفتح او بالفتح لا بالكسر فان الصرف ومتن اللغة يوردانِ حرَص وحرِص معاً

ثالثاً — جاءت الآية « ويأبى الله الاَّ ان يتمَّ نورهُ » فا الفرق في المعنى بين ضبط يأبي كيرمي مضارع رمى ويأبى كيرضى مضارع رَضيَ وأي المعنيين اولى بالآية

***

هذه الدقائق لعلم المباني ولا يقتصر عليها فهو يبحث المصادر والمشتقات والجموع. فقد ورد في جمع فاعل فَعْـل وفُعْـل وفِعْـل كصَحْب لصاحب وحُجّ لحاج ووِلْـد لوالِـد فعلام جاء صَحب بالفتح لا بالضم وحُجّ بالضم لا بالكسر ووِلد بالكسر لا بالفتح

وجاء في غازٍ غازونَ وغزوٌ وغازية وغزاة وغُـزيٌّ (بفتح فكسر)وغـزيٌّ (بضم فكسر)

وغُزّى (بضم فشدة فألف مقصورة) فغزّاء (بضم فشدة فألف ممدودة فهمزة) ولم تأتِ هذه الصيغ الا عن تفاوت في معانيها وليس في التصريف ولا متن اللغة جلاء عن هذا التفاوت

وذكرت المعاجم شاب فهو اشيب ج شيبٌ وشُيَّب وشُيُب وروى معجم البلدان في مادة مسكن قتلتُ به من حي فهد بن مالك . ثمانين منهم ناشئون وأشيبُ

فما ضبط اشيب . أبفتح الياء على انهُ مفرد او بالضمّ على انه جمع او هو تحريف عن شُيَّب وما شأن اشيُب لو ثبت انهُ جمع . وما الفرق بين شيب وشُيَّب وشُيُب . وهل من جموع القبيل صيغة فعَّل فتأتي لفاعل ولغيره او لفاعل دون سواه كهُجَّد وزُوَّر وعُوَّد وان خُرَّداً لخاردة لا لخريدة هذه شؤون يبحثها علم المباني فهو من التصريف كالمعاني من النحو وقد اهتدى اليه المرحوم ظاهر خير الله والدي ولم يتسنَّ له نشرهُ فهو مطويٌّ في اوراقه

التخريج

هو من المباني كالاعراب من النحو وكما يصح لك ان تعرب برز زيد فجأة فهو نائب مناب مفعول مطلق تقول في صِحاب انهُ جمع صاحب كقيام جمع قائم او جمع صحيب مثل رِفاق جمع رفيق وكما يرجح في النحو مذهب على مذهب يرجح في المباني ايضاً

فمن التخريج الفرق بين جُدُد بضمتين وجُدَد بضم ففتح في جمع جديد وكيف جاء شِجاع بكسر الاول في جموع شُجاع بضم الاول وسُرّى في جمع سريّ وكيف يحلُّ الخلاف في كمأة أجمعٌ كامٍ هو او جمع كمي وان سراة جمع لسار لا اسم جمع لسَريّ . وقد اوردت في كتابي الرأي الخاسم نقد صِيَغ جمع سِوار بمعنى قُلْب وهي أسورة وأساوِر وأساوِرة وسُوُر وسُؤور فاستغرق النقد ١٠ صفحات . وأبنت ان المعجم أغفل ثلاث صِيَغ جمع واقول ان فِعالاً لا يجمَع على أفاعل بل على فعائل مثل شِمال وشمائل وإفال وأفائل وعِيال وعيائل (وقيل عيايل) وفِعال يجمَع على أفعُل كألسُن وأذرُع وأشهُب في لِسان وذِراع وشِهاب ويجمَع أفعُل على افاعِل كأرهُط (جمع رهط) على أراهط . وأطرُق (جمع طريق) على اطارق اذن سِوار يجمَع على أسوُر (لم ترد في القاموس) وجمع أساوِر فقد اهمل القاموس صيغة جمع فلم يحسِن الضبط وأخلَّ بالقياس

فهذه الكلمة الوجيزة يبدو بها ما للمباني والتخريج من الفائدة في إنشاء المعجم فاذا رأت وزارة المعارف المصرية الجليلة الاستعانة بمن انفق من عمره فسحة في استقرائهما ضمته الى ذلك المجمع الجليل واخذت الدرَّة من حيث وجدت

دمشق : البطريركية الارثوذكسية امين ظاهر خير الله

اصل الحياة

لمصطفى جواد

ما لسرّ الحياة ظلّ مُعَمَّى بين هذي العلوم ذاتِ الضياء؟
أترانا من الطبيعة أمْ ما ذا ترانا مِنْ نسلِ هذا الهباء؟
ما الذي كان للطبيعة أمّا كيف صار الهباءُ ذا إحياء؟

قال لي بلبل على الغصن يشدو في جمال الربيع سرّ الحياة
بسمة الزهر للملاحظ تبدو بنشوء الحياة قبل الممات (١)
إنّ هذا الربيع جاءك يعدو فتمتّعْ فأنتَ مثل النباتِ

بلبلَ الروض ، انتَ سكرانُ من ألـ ـوان زهر أريجُهُ فوّاحُ
انني ما عَنِ الخمائل اسألْ لا ولا شاقني بها القدّاح (٢)
انت ترجو دفع الشتاء ودرأ الـ ـحزنِ منهُ لحسبكَ الافراحُ

قال هلاّ شُغِلتَ عن بحث سرّ بعناء الحياةِ يا انسانُ !
تتعبُ العقلَ بينَ دَرْسٍ وخبرٍ واضطراب يثيرُهُ البرهانُ !
يا بني آدمٍ شُغفتمْ بأمرٍ كلُّ ما فيه انهُ خسرانُ

قلتُ للزهرةِ المفيضةِ حُسناً منْ أسالَ الحياةَ في الاشجار ؟
من كسا هذه الوُريقات لوناً مستمدّاً من ريعك السيار ؟
ولماذا تصوِّحين أحُزناً ام بحكم مِنْ دَهركِ القهّار ؟

قالت الزهرةُ الخجولُ : حياتي ومماتي سرّان مكنونانِ
أتغذّى من الثرى والرفات وبنشق الهواء أقضي زماني

(١) هذه هي الفكرة الفلسفية (٢) القداح نور النبات قبل تفتحه ويطلق في العراق على نور الليمون والنارنج ونحوهما .

أرتوي مثلكم بماء فأتي بجمال محبَّبٍ فتّانِ

قلتُ يا زهرةَ الحديقةِ طيبي ان عمر الزهور جدُّ قصيرِ
وأطلي من فوق غصنٍ رطيبٍ وامنحينا الأريج قبلَ المصيرِ
ان سرَّ الحياةِ جدُّ غريبٍ فاهنئي وارتكي غريبَ الامورِ

***

ضاقت بي الحالُ حتى صرتُ مبتدعا وطالما كنتُ ميقاناً ومتّدعا
هي الحقيقة تحييني فتبعثني من عالم الجهل حتى أهجر الورعا
اريدُ بالنفس خيراً غير انَّ لها شيطانَ جهلٍ اذا ارشدتها امتنعا
يغور فكري ببحر الشك مضطرباً يكابد الهولَ والحيرات والجزعا
قد أعجز العالمُ الاذهانَ فابتدعتْ ما لو يطورُ بهِ ذو غفلةٍ قنِعا
كل الامور على عبثٍ تدلُّ فلا يغرُرْكَ ذو كلمٍ في غيهِ ارتفعا
فالموتُ والفقرُ والافسادُ بارهةٌ انَّ التمدن من وحشيةٍ طلعا
وحاجة الحيّ للاغذاء معربةٌ ان الحياة تُرى إن أمرها اجتمعا
«عند العذول اعتراضات ولائمة»(١) فانْ طلبتَ اليهِ حجةً فزعا
وقد تشعبت الاديانُ واختلفتْ وامرها في جدالات الورى سطعا
كل يقول أنا الماشي على سننٍ يهدي الالهُ اليهِ كلَّ من صنعا

***

وسألتُ المياهَ في الروض تجري كسير الدماء في الاجساد
قلتُ: يا ماء انتِ كاشفُ أمري أنت مأوى الحياة في الآباد
بنشوء الحياة هل أنت تدري هل نشوء الحياة من ذا الجماد؟

قال لي الماء: كلِ حيّ وليدي ووليدُ الهواء في كلِّ حال
نستثير الحياةَ بالتوحيد ونُصير المحالَ غيرَ محال
هل وجدتَ الحياة دون وجودي ام وجدتَ الهواء من تلك خالي؟

مرَّ شيخ مقوَّسٌ ذو أناةٍ تخذ الدهر ظهره قوسَ وعثظرِ

---

(١) هذا الشطر للكامل بن أبي الفتح

قلتُ يا شيخُ مَّ اصلُ الحياةِ فلقد كدتُ في الضلالة أمضي
أنت ذو خبرةٍ قريبُ المهات كيف فكّرْتَ ؟ قال اني لا أقضي

***

قد حيّر الكونُ اذهانَ الورى جُمَعا فان تفكّر ذو عقلٍ بهِ جزعا
مُعتَقدٌ مذ رأى الانسانُ صورتهُ من ذا رأى القمر السيّار اذ طلعا
شمسٌ ونارٌ وسيّارٌ على دأبِهِ النار تحرق والسيارُ قد دُفعا
ما الجذبُ ما الدفع ما الدنيا وخالقها أضحى الجوابُ على الانسانِ ممتنعا
هذا يقول وهذا منكرٌ أبداً حرنا فلسنا نرى الأ امراً فزعا
أما الدليلُ فلا عينٌ ولا اثرٌ وكل حزب بما قد ناله قنعا
إنْ قلت ماذا يُرى الانسانَ منهجهُ من الهدى قيل : ان الدين قد وَزَعا
ما الدينُ يا قومُ ان الدينَ مكتسبٌ وطالما من جدالات الحجى ارتدعا
والعلم والدين في التحليل ما اتفقا والنفس والعقل في المقصود ما اجتمعا
ليسَ الحياةُ سوى سِرٍّ تكتنفهُ مغالقُ الغيبِ لم يُكشفْ ولا سُمِعَا
والدينُ يعجز عن تبيانِ منشئها والعقلُ ساعٍ الى التبيان ما رجعا

***

قلتُ : ياشيخُ قد كفرْتَ فكفِّرْ عن خطاياكَ واتبع الرحمانا
إنما الدينُ عن حياتِك يخبرْ كلُّ حيٍّ من المياهِ استبانا
ذاكَ شيء تعلّموهُ فذكّرْ ان ذكراكَ تنفعُ الأديانا

قالَ ما زلتُ في الضلالِ أهيمُ كيفَ صارهِ «الاميبُ» حيًّا سويًّا ؟
انّ ارضاً قد ظلّ فيها الجحيمُ كيفَ تحيا الحياةُ فيها مليًّا
انّ كونَ الحياة فيها قديمُ وكذا النارُ أنشئتْ كيمويًّا

قلتُ : ياشيخُ ذاكَ فِكري فمن لي بنصيرٍ يذيعُ هذا المقالا
هذه الارضُ حيّة قبلَ كلِّ ذي اشتعال فهل تجيب سؤالا ؟
كيف هذي الحياةُ كانت فقل لي فلقد صار كل أمري ضلالا ؟

القوى الروحية في الصين

من محاضرة لكلود فارير

لا أجد بدّاً من الاعتراف بما أشعر به من التردّد في معالجة مسألة لم يستطع ذكاء الغربيين سبيلاً الى حلّها حلاً أكيداً وهي : ما هي الصين ومن هم الصينيون ؟

لقد درست هذه المسألة طوال ثلاثين سنة ان لم اقل طوال حياتي كلها ، فقد عشت في الصين مدة طويلة ليس في المدن الكبيرة فحسب بل في القرى النائية التي لم يقدر لرجل من البيض ان وطئها قبلي ، فتعرفت الى الصينيين في حياتهم الخاصة ولي بينهم اصدقاء احترمهم وأعجب بهم ولا انسى ان فئة من الطلاّب الصفر سألتني مرة ان اضع رواية عن بلادها ، على اني تردّدت في اجابة الطلب قائلاً : «لن أجيد وضع هذه الرواية فأنتم شيوخ مسنون ، وما انا بالنسبة اليكم سوى ولد صغير »

فاتخذوا هذا الجواب ضرباً من ضروب الأدب واللياقة فالصينيون يرتاحون كثيراً الى من يغرق في مضاعفة أعمارهم وأبلغ عبارة تستطيع ان تمدح بها سيدة صينية هي ان تقول لها انها طاعنة في السن . وبالحقيقة ان قولي للطلاب الصينيين إنهم شيوخ مسنّون إنما هو قول حقّ وصواب . فأعمارنا نحن الفرنسيين لا تتجاوز خمسة عشر قرناً اوعشرين على الأكثر ، فالغاليّون لم يكونوا فرنسيين ، ولم يكن للشعب الفرنسي من أثر قبل القيصر الكبير ، في حين ان الصينيين هم صينيون منذ ثمانين قرناً على الأقل

﴿ اقدم حضارة بشرية ﴾ لم تكن اسيا الوسطى ، قبل عهد البشر ، سوى قاعدة من الارض تمتدّ من بيقال الى بحر الهند ، فطرأ عليها تغضين عظيم نشأت عنهُ جبال حملايا والكونيلون والتيانشان والنانشان والالتائي ، ثم انحنت القاعدة المنتفخة من الغرب الى الشرق واذا بالمياه تتجمع في ذلك الوادي المزدوج المعروف بالهوانغ هو واليانغ تسي ، ثم اخذ هذان النهران يلفظان موادّها واذا بالتربة الصفراء تنشأ رويداً رويداً وهي أخصب تربة أوجدتها الطبيعة قد لا تعدلها تربة اميركا الشمالية ولا تربة روسيا السوداء

وهبطت قبائل رحالة منحدرة من التركستان الى النهر الاصفر فاكتشفت الارض الصفراء واستدرجها الخصب الى استغلالها فاستوطنتها ، ومنذ ذلك الحين نشأ الصينيون

ولا مشاحة في أن السلالة الصينية مردودة الى مستهل التاريخ البشري ، ويكفينا لنستوثق من ذلك أن نرمي نظرة الى الاسطورة الصينية . فقد جاء في ميثولوجيا ابناء السماء أنهُ كان في

البدء « أسرة الجلد السامية » ثم « اسرة الارض السامية» ثم « اسرة الانسانية السامية » وأن هذه الاسر جميعها قد دامت خمسمائة واربعين قرناً . ثم جاء الامراء المنزهون عن التوبيخ وعددهم سبعة وثلاثون اميراً منهم اثنان او ثلاثة اطلق عليهم هذا اللقب : « بدأوا يبنون المشاش » وهذه المشاش كانت قرى مائية اي مبنية على ضفاف البحيرات . ومنهم من اطلق عليهم : « افركوا قطعتين من الحطب لتشتعلا » ولا ريب بان هذا اللقب يرمز الى استعباد النار. وأطلق على احد هؤلاء الامراء لقب « الدائرة والوسط» وهذا اللقب يرمز الى اختراع الدولاب والعجلة . أما المحراث فلم يكن قد اخترع بعد

يتضح لنا مما تقدم أن حضارة قديمة كهذه ينبغي أن تكون كثيرة التوغل في ظلمة الماضي وأن ثمانين قرناً إنما هي عدد ضئيل إذا قيس بعمر هذه الحضارة

﴿ الصينيون يخترعون الكتابة ﴾ جاء في أساطير الصين ان امبراطوراً يدعى «فوهي» كان مالكاً زمام الامبراطورية السماوية في نحو القرن الخامس والاربعين قبل المسيح ، وان هذا الامبراطور كان اول من دجن الماشية وسنّ شريعة الزواج وأعطى شعبهُ المحراث الاصلي وتخيّل أحرف الكتابة ، وهذه الاحرف لم تكن سوى ثماني علامات رمزية

ولكن في نحو القرن السابع والعشرين صعد العرش امبراطور آخر يدعى « هوانغ — تي» ولقبهُ « الاصفر المعظّم » فبعد ان افنى الذباب التي كانت تتكاثر في ذلك الحين ، ورتّب امتيازات السحرة بقوانين ، ونظّم اليومية القمرية ، وأمر برفع القرابين الى كل قوة غير منظورة عمد الى إصلاح الاحرف المكتوبة فكمّلها

إذن فالصينيون قد عرفوا الكتابة ألفي سنة قبلنا وقبل اجدادنا الروحيين اليونان والفينيقيين ، وإذن فذهنهم قد ارتاض قبل ذهننا ببرهة ، وفي هذا ما يدعو الى التأمل والتفكير

على ان هنالك ما هو اعجب من كل ذلك ، فقد قلت إن « الاصفر المعظم » كمّل الاحرف المكتوبة ولم يستنبطها ، فالكتابة الصينية هي كتابة رمزية تصوّر الفكر دون الصوت ، وكلّ كلمة صينية يعبّر عنها على الورق برسم صغير ينقل الى دماغ القارىء التأثير الموافق . اما كتابتنا نحن — وهي كتابة صوتية — فانها تنقل الى دماغ القارىء تأثيراً رنّاناً يستخرج منهُ الدماغ التأثير النهائي المتعلق بالشيء المطلوب وهذا لعمري جهد دماغي يختلف عن الاول اختلافاً بيّناً . ولا شك في أن جنسين من أجناس البشر ينتجان عن هذا الاختلاف البعيد وفي هذا دليل على ان الصينيين لا يشابهوننا في شيء ، وانهم اقدم منا بقرون عديدة . ولهذا السبب لم يكن بين ثقافتنا وثقافتهم أقل علاقة

﴿ الفتيات البشعات بليّة وعالة ﴾ والآن أريدون أن نجوب معاً جيوب التاريخ الصينيّ منذ القرن السابع والعشرين قبل المسيح — وهو عصر الامبراطور هوانغ — تي — الى قرننا هذا ؟

إذن فيستغرق مسيرنا مدة خمسة آلاف سنة لا يصعب علينا ان نختصرها في فترة خمس دقائق

بعد ان توفي الامبراطور هوانغ —تي — تعاقب على العرش ثلاثة من امبراطرة الاساطير هم ياو ، وشون ، ويو ، فالاول نظّم مجاري المياه ، والثاني انشأ قانون الجنايات الاول ونظم يومية شمسية أرضى بها المزارعين ،والثالث حمل شعبه من شواطىء النهر الاصفر الى شواطىء النهر الازرق واستطاع بهذه الطريقة ان يخلق اول دولة حقيقية

على ان هؤلاء الامبراطرة لم يسودوا الأعلى بضع خيم وبضعة قطعان ، فقد كانوا بطارقة بسطاء لا اكثر ولا اقلّ ، فالاسرة الصينية قديمة جداً يرجع تاريخها الى اربعة آلاف سنة او خمسة آلاف سنة قبل المسيح ، وهي اسرة جميلة ، صلبة ، سلسة ، خصبة ،تقبل المضارّة بالطبع وتقبل ايضاً عدا الزوجات الشرعيات زوجات غير شرعيات،ولكن في اشراف القانون. أما الابناء فتجوز ولادتهم بكثرة من غير ان يطوح احداً منهم خارج الحجر العائلي بشرط ان يكونوا غلماناً لان الفتيات الكثيرات بلية وعالة على اهلهنّ لا سيما اذا لم يكنّ مفرطات في الجمال ، والشريعة الصينية لا تجيز البلايا

﴿ الفلاسفة الصينيون الثلاثة ﴾ في العام ٢٢٠٥ قبل المسيح ظهرت السلالة الصينية الوارثة الاولى وهي سلالة « هيا » التي تربعت على العرش ثم عقبتها سلالة شنغ ، فسلالة إنّ ، فسلالة تشيو التي سادت الف سنة ، اي الى عهد هنيبال فالهيا حكموا من العام ٢٢٠٥ الى ١٧٦٧ ، والشنغ والإنّ من العام ١٧٦٦ الى ١١٢٢ ، والتشيو من العام ١١٢٢ الى ٢٥٥ ، وفي عهد هذه السلالة الاخيرة عاش الفلاسفة الصينيون الثلاثة وهم لاوتسو الذي ولد في العام ٦٠٤ قبل المسيح ، وكونغ تسو الذي ولد في العام ٥٥١ ومات في العام ٤٧٩ (؟) ، ومانغ تسو ، تلميذ هذا الاخير (٣٧٢ — ٢٨٩) ولست بحاجة الى القول ان كونغ تسو هو نفسه الفيلسوف المعروف بكونفوشيوس . والآن من هم هؤلاء الفلاسفة الثلاثة ؟

يسهل عليّ التكلم عن كونغ تسو ومانغ تسو ، فهذان الرجلان العظيمان كانا حكيمين اكثر منهما عالمين من علماء النظريات ، فلم يحدث لاحدهما ان عالج القضايا الكبرى المتعلقة بالقضاء البشريّ . وقد قال كونغ تسو : «لا أعرف ما هي الحياة ، فكيف اهتم بمعرفة ما هو الموت ؟ » وكونغ تسو هذا املى حكمة اجتماعية ، منطقية وأساليب حكومية عديدة .وهذه الاساليب الحكومية المجموعة في كتيّب عنوانه « الدرس الكبير » تستحق ان يتأمل فيها جميع زعماء الدول حتى الحاليون منهم

اما لاوتسو فيختلف عن هذين الفيلسوفين ، فهو عالم نظري ، ونظريته في العالم ، تلك النظرية الغامضة تقرب من نظريتي فيثاغوراس وهيراقليطوس. على ان لاوتسو لم يخلق ليعيش في الشرق الاقصى ، فالشرق الاقصى لم يفهمه ، ولم يستطع الصينيون ان يستقوا من تعاليمه

الا مزيجاً من الخرافات الغريبة وهذا المزيج من الخرافات يعرف بالطاو ، وهو مفعم بالسحر ، وعبادة النار والكواكب ، وغير ذلك من الغرائب والمبهمات . الا ان حسن الحظ شاء ان يولد كونغ تسو بعد لاوتسو بنصف قرن فأتيح له ان يضع بعض النظام في تلك الخرافات المشوشة ثم جاء مانغ تسو فضاعف ما اصلحه كونغ تسو حتى اصبحت الخرافات الضعيفة مذهباً وتقاليد واليكم مثالاً من «الليكي» وهو كتاب الرتب الدينية عند الصينيين القدماء :

« في الشهر الاول من الصيف قبل ان يأتي الصيف بثلاثة ايام ، اعلنه المقوم الكبير لابن السماء ، فتطهر ابن السماء بالزهد ، وفي مستهل ايام الصيف خرج لاستقبال هذا الاخير في مركبته الحمراء التي تجرها جياد صهب ذات اذناب سود . لقد خرج بعلمه القرمزي مرتدياً لباسه الاحمر وعلى قبعته وحزامه اليواقيت الحمر ، يتبعه ثلاثة من كبار وزراء الدولة وتسعة من الوزراء الآخرين وجميع كبار الرؤساء، فرحب بالصيف في الجهة القبلية من العاصمة لما قفل راجعاً وزع الحمد والنعم بعدله الكبير» . واليكم هذا المقال الآخر :

«إن ابن السماء يرفع القرابين او التضحيات الى السماء والارض، الى ارواح الخوافق الاربعة، الى ارواح الجبال ومجاري المياه والى الخمسة الانواع من الآلهة الانيسة»

فالمثال الاول هو ولا ريب من كونغ تسو ، والمثال الآخر من لاوتسو، وهذان المثالان هما نموذجان من مزيج يؤلف الديانة الصينية الاولى ، او بالاحرى النظام الاجتماعي في الصين فالصين منذ خمسة وعشرين قرناً كانت ركاماً من العيال يديره امير بطريقي

«امبراطور يحرق الاسفار القديمة» كذلك كانت الصين في عهد التشيو بعد ان جازت عهد الاين والتشنغ والهيا ، ولكن عند ما انهارت سلالة التشيو حدث انقلاب عظيم

قلت عند ما انهارت سلالة التشيو ... ولكن كيف انهارت هذه السلالة وكيف انهارت قبلها سلالات الاين والشنغ والهيا ؟ — لقد انهارت هذه السلالات جميعها كما ستنهار السلالات التي ستعقبها ، فبعد هؤلاء الامراء المؤسسين، الامراء الحكماء الاذكياء المتحمسين حل امراء وارثون يعلقون على العرش اكثر مما يعلقون على الجوهر ، والشعب الصيني كثير الشبه بقطيع الاغنام ، فهو سهل الانقياد على ان لا يطلب منه ما ليس في حسبانه او ما هو صعب عليه . فلقد سقطت سلالة الهيا لان حظية آخر امير من امرائها صور لها ان تضرم النار حين لم يكن من داع لاضرامها ، ولقد شاءت هذه السيدة الفتانة ان ترى مايحدث بعد ذلك ، ولكن الذي حدث هو ان الصينيين قطعوها تقطيعاً واسقطوا عشيقها عن العرش

ولنعد الآن الى الاغنام ، فلما اضمحلت سلالة التشيو وذلك في العام ٢٢٥ قبل المسيح قاست الصين ثلاثاً وثلاثين سنة من الفوضى والاضطرابات ، ثم انبثق رجل عظيم من مقاطعة شانسي وذلك قبل ان يربح شيبيون الافريقي معركة زاما بعشرين سنة ، وهذا الرجل العظيم

هو الأمير تسن المعروف بفانغ تشنغ

قلت ان فانغ تشنغ هذا نجب من مقاطعة شانسي القائمة على كتف النهر الأصفر ، فلما قبض على زمام الصين بأسرها — بعد ان أباد جميع المشاغبين — سمى نفسهُ تسن شوهوانغ — تي اي الامبراطور الاول لسلالة تسن . وأول ما بدأ بهِ هو ان انشأ من الصين امة متحدة

كان هذا الامبراطور يقبل نصيحة أي كان، ولكن عند ما كان يرى النصيحة سيئة كان يحرق الناصح حيًّا او يغليه على النار. وكان الكتّاب يواجهونه دائماً بالشرائع القديمة ليوقفوه عند حده ويمنعوه من العمل على هواه فحرق جميع الاسفار القديمة وأغلى أحياء جميع الذين كانوا يقرأون اي كتاب كان . فغضب الصينيون على تسن شوهوانغ — تي وأخذوا ينظرون اليه نظرتهم الى ملك دجال . على ان تسن شوهوانغ — تي كان قد شيّد أمة حقيقية تدعى الصين ، وهذه الامة لم تضمحلّ الاَّ بموت هذا الامبراطور في العام ٢٠٦ على انها لم تضمحلّ الاَّ لتبعث فيما بعد ، والذين عملوا على بعث هذه الامة هم الهان — السلالة السماوية الحقة — الذين ساروا مدة اربعمائة سنة او اكثر ولم يسودوا طوال هذه المدة الاَّ انهم عرفوا اختيار قوادهم الذين كثيراً ما جدّدوا الوحدة الصينية . ولم تضمحلّ سلالة الهان الاَّ في السنة ١٨٤ للمسيح

﴿الصين في عهد الاستيلاء الاجنبي﴾ كان القرن الخامس للمسيح عهد الغزوات البربرية ان في الصين وان في الغرب الاقصى ، ففي العام ٤١٠ استولى «الاريك» على روما ، وفي ذلك العهد أيضاً احتل ليو تسونغ ، ملك «الهون» Huns ، العواصم الصينية وأسر امبراطورين جعل أحدهما خادماً لهُ . ومنذ ذلك الحين بدأ الغرباء يحكمون الصين ، فبعد ان جلا «الهون» عن الصين خلفهم «التوبا» وقد اهتدوا الى الدين البوذي ، فعالجوا سلطتهم من غير أن يتخذوا لهم لقب امبراطور ، على ان سلالتين من المغول انبعثتا من دمهم هما السوي والتانغ . ولقد بقي الغرباء يحكمون في الصين مدة خمسمائة سنة متتالية فأنشأوا أمة عظيمة أداروها بشراسة ولكن بحذق ونشاط. ولا ريب بأن احتكاك هؤلاء الامبراطرة بالصين — ذلك الاحتكاك الطويل — جعلهم صينيين . على ان الصين ، في عهد الاستيلاء الاجنبي هذا ، تفتحت في أفكار لم تخطر في بال كونفوشيوس نفسه ، فبين القرن السادس والعاشر وقعت في المملكة السماوية أزمتان او ثلاث ازمات دينية ؛ على ان هذه الازمات لم تلبث ان تلاشت ، فلما سقط التانغ في العام ٩٠٧ وعقبت سقوطهم فوضى دامت نحواً من ستين سنة انقسمت الصين الى دويلات مختلفة حتى ظهر فيها قائد ظافر او متشرد أحذق من سواه اذا شئتم فأسس السلالة الوطنية الوحيدة التي عرفتها الصين منذ عهد الهون والتشيو وهي سلالة سونغ

سوى ان هذه السلالة الصينية لم تتصرف تصرفاً حسناً لأن مؤسسها كان جنديًّا حاذقاً اكثر منهُ محارباً، ولقد شبهه الفرنسيون بهنري الرابع. على ان الجدير بالذكر هو ان الصينيين

كانوا سعداء في عهد السونغ الذين انهارت سلالتهم في العام ١٧٢٩ بعد ان انهار كل شيء من حولهم ، ولقد شرح لنا ماركوبولو لماذا كان الصينيون سعداء في عهد السونغ ولماذا استسلموا لاول فاتح هبط عليهم . قال ماركو بولو :

لوكان شعب مازي (اسم ملك) من الشعوب المحاربة لافتتح العالم . ولكن شعب مازي لم يكن شعباً محارباً بل كان تاجراً وصانعاً ولقد صرف همه على النساء . وكان ملكه اميل مايكون الى النساء والى العطف على الفقراء والاحسان اليهم »

ولنستأنف الآن الكلام عن آخر الامبراطرة الصينيين فنقول : ان سلالة « منغ » الصينية خلفت المغول الغرباء وتوارثت الملك الى العام ١٦٤٤ ، ثم عقبتها سلالة « تاتسنغ » فحكمت من العام ١٦٤٤ الى العام ١٩١٢ أي الى عهد الفوضى الحالية التي لم تدم الا احدى وعشرين سنة ، والاحدى والعشرون سنة ليست بالمدة الطويلة متى كان الامر متعلقاً بفوضى صينية

﴿ الصينيون عيال لا أمة ﴾ اظنني جعلتكم تمسون باصبعكم تلك الحقيقة التاريخية وهي ان الذين لم تكن صيناً حقيقية الا تحت سيطرة الفاتحين الغرباء . وهذه الحقيقة التاريخية تجعلنا نذهب الى ان الفوضى الحالية في الصين لن يوضع لها حدٌّ الا اذا تدخل الغرباء في الامر

ولكن فيم لم تر الصينيين الذين هم ولا ريب اكثر تجار الكرة الارضية حذقاً وحكمة وأشد الفلاحين صبراً وصلابة ، والذين عرفوا اكثر مما عرف سواهم ان يقمعوا مزاجهم المدبي في الجهود الشاقة ويصور اليهم انهم اقرب الجنس البشري الى الكمال ، فيم لم نرهم صاروا الى تلك النتيجة البسيطة التي كثيراً ما صارت اليها سلالات هي دونهم بمراحل بعيدة وهي حكم النفس بالنفس ؟ فيم لم تكن الصين صيناً حقيقية الا تحت سيطرة فاتحين غرباء تحت سيطرة كثيراً ما كانت ظالمة شرسة ؟ . ذلك لان الصينيين الذين عرفوا في البدء ان يؤسسوا عيلة صينية متينة اضطرتهم الحاجة في الكثير الغالب الى ان يمزجوا عيالهم بعضها ببعض ويجعلوا منها قبائل لا أمة ؛ فالصينيون يؤمنون بالعيلة ، وبالعيلة دون سواها

﴿ لا يخلق الامة الا الزواج المختلط ﴾ لم تخلق الامم ان في آسيا وان في اوربا الا منذ الوقت الذي اختلط فيه الزواج من عيلة الى عيلة أو من قبيلة الى قبيلة . والامم القوية التي أسرعت بالنشوء كالامة الفرنسية والانكليزية والاسبانية والايطالية ، لم تستمد قوتها الا من امتزاجها بعضها ببعض ، فالامة الفرنسية مثلاً هي مزيج من السلط واللاتين والفرنج والبروغونديين والنورمانديين ، والامة الانكليزية هي مزيج من البريطان والانكلو والسكسون والدانوا والنورمانديين والغائيل !

وخلاصة القول يجب ان يتزاوج الشبوط والارنب ليكون هناك امة حقيقية على ان

الصينيين لم يكونوا الاَّ صينيين، فالصينيون لا يسمحون بالتمازج، والتمازج وحده يخلق الامم

يبلغ عدد سكان الصين اربعمائة وخمسين مليوناً ما يعادل ثلث سكان الكرة الارضية. سوى ان هذا العدد لم يزد منذ اكثر من مئة سنة. واذا استثنينا شعوب كندا واليابان وبولونيا رأينا انهُ ما من سلالة بشرية تتكاثر بسرعة السلالة الصينية

على ان الصينيين، وهم شعب يحتقر احتقاراً شديداً كل ما هو في نطاق الصحة، يموتون بالملايين، وقد لا نستطيع ان نحصي عدد هؤلاء البشريين الذين يموتون كل سنة بالاوبئة المختلفة وقد لانخطىء ايضاً إذا قلنا انهُ منذ اليوم الذي يهتم فيهِ الصينيون بتربية ابنائهم بحسب القوانين الصحية يصبح عددهم تسعمائة مليون بدلاً من اربعمائة وخمسين مليوناً ويصبح الشعب الاصفر وهو يعد بالمليارات لابمئات الملايين. وعندئذٍ لا يبقى لنا — نحن وأنسالنا — إلاَّ أن نحتجب:

﴿ الصين في الوقت الحاضر ﴾ ولكن مالنا ولهذه المسألة المخيفة، فلنبقَ في الحاضر ولنحصر حديثنا في هؤلاء الصينيين المساكين من طراز ١٩٣٣ الذين يقتتلون اليوم مدلجين في الفوضى العمياء التي لا يعرفون الخروج منها...

قد تقولون لي ان رجلاً واحداً يكفي لانقاذ شعب، وقد رأيتم حقيقة ذلك في فرنسا، على أن فرنسا تعدُّ اربعين مليوناً او أقلّ. اما الصين فتعدّ اربعمائة وخمسين مليوناً، وهذا الشعب العظيم يحتاج لانقاذه الى رجل عظيم، والعظماء لا يخلقون كل يوم

وفي الصين، بين بكين وكانتون، عشرون حكومة مختلفة لا تكف عن التناحر بكل مافي الوحشية من المعنى، وهذه الحكومات لا تعبأ بعواقب تناحرها فهي تكتفي بقتل الحياديين اي بقتل الشعب، فالصينيون يقتلون الصينيين بالسهولة التي نراها نحن في قولنا: اسعدت صباحاً

ثم ان هذه الحكومات وعلى رأس كل منها زعيم متشرد او لص، يفاوض بعضها موسكو وبعضها توكيو، والبعض الآخر واشنطون، ولندن أيضاً. ولكن لندع السياسة جانباً! فنحن في الصين ولنبق فيها. نحن في بلاد تعسة، في أشقى البلدان جميعاً. قد تقولون ان شقاء هذه البلاد يرجع الى اخطائها هي. حسناً، ولكن افريقيا، بين السينغال والكنغو، ومراكش بأسرها كانت في الماضي ميادين مصبوغة بالدم، حتى جاء فيدهرب وارشيفار ومانجن وليوتاي فأشفقوا على هذه الشعوب المتناحرة ومنحوها السلام الفرنسي. فمن تراه يشفق على الصين المسكينة فيمنحها السلام أي سلام كان ويجعل منها امة حقيقية ولو أكلت الأرض؟

أني لأتمنى ان يجيء أحد، منشوريًّا كان ام مغوليًّا ام يابانيًّا! فمنقذ الصين لابد له ان يصبح صينيًّا بما ان جميع الذين افتتحوا الصين لم يمر عليهم جيل واحد حتى اصبحوا صينيين. وهذا سرٌّ غريب نضيفهُ الى اسرار آسيا القصوى هذه، الى اسرار تلك الأرض العجيبة التي اخترعت البيان — أثمن المزايا البشرية — والتي تعمل الصينيين بسرعة تدهش العقول

العطور واستخراجها

بين الطبيعة والعلم

ان حاسة الشمّ من الحواس التي لم ترتقِ بارتقاء الانسان ، بل على الضدّ من ذلك ضعفت. فالكلب، يميّز بين الصديق والعدوّ بالشم ويستطيع ان يقفو أثر انسان اذا شمّ رائحة ملابسهِ. وهذا ما يفعلهُ رجال الشرطة في اقتفاء آثار المجرمين احياناً. اما الانسان فقد فقد دقة حاسة الشم او كاد. انهُ يستطيع ان يميز الروائح الطيبة من الروائح الكريهة. ولكن اللغة نفسها اقوى دليل على ضعف هذه الحاسة فيهِ . فليس يحتاج احدٌ الى بلاغة نادرة لكي يصف جسماً من الاجسام وصفاً يمكنك من معرفتهِ اذا رأيتهُ . فالاميُّ يستطيع ان يصف حيواناً غريباً رآهُ بالفاظ تمكنك من معرفة هذا الحيوان اذا رأيتهُ انت، فتقول هذا هو الحيوان الذي وصفهُ فلان . ولكن ذلك متعذر في وصف الروائح الى حدّ بعيد . حاول ان تصف رائحة معيّنة ولتقل انها رائحة الورد من دون ان تستعمل لفظ الورد في وصفها ، بطريقة تمكن صاحبك من معرفة الرائحة التي تقصدها . ان اللغة في الغالب تقصر دون مرادك ولو كنت من البلغاء

والعطور محلولات من زيوت معيّنة او مواد عطرة ، في كحول مخفّف . اما عطور القدماء فكانت المواد العطرة نفسها . غير محلولة في كحول او اية مادة اخرى

والزيوت العطرة تستخرج من مصادر نباتية ، من الازهار والاوراق والسوق والجذور باساليب دقيقة كل الدقة ، وقد عرفت بالزيوت ، لانها في الغالب مواد دهنية او زيتية ، اخف من الماء وتطفو على سطحه من دون ان تمتزج بهِ. وهي تشبه الزيوت الاخرى، كزيت الزيتون وزيت بزر الكتان ، في انها تحدث بقعة دهنية ، اذا وضعت قطرة منها على الورق . ولكنها تختلف عن الزيوت العادية ، في ان هذه البقعة الدهنية على الورق ، تزول بالتبخر بعد ما تمكث قليلاً ، واما بقع الزيوت العادية على الورق فتمكث ولا تزول

فعطر التُّربة والقرنفل والخُزامى والتُّنّوم او رقيب الشمس والسنط والياسمين والنارنج والورد والبنفسج يستخرج من ازهارها. وعطر الخزامى و اكليل الجبل والنعناع والبنفسج يؤخذ من ازهارها واوراقها . وعطر العِتْر والدارصيني يؤخذ من اوراقهما وسوقهما . وعطر الدارصيني والتربة يؤخذ من لحائهما. وعطر العرعار والصندل من خشبهما. وعطر حشيشة الملاك(angelica) والساسفرس من جذورها . وعطر البرجموت والليمون والليم والبرتقال يؤخذ من اثمارها . وعطر اللوز المرّ واليانسون وجوز الطيب يؤخذ من

بزورها . وعطر المرّ وبلسم بيرو والميعة يؤخذ من أصماغها

وثمة طيوب تستخرج من الحيوانات . وهي اغلى العطور واندرها . فالعنبر يستخرج من حيوان بحري ، تقذفهُ الحيتان المريضة وتحملهُ الامواج الى الشاطىء . والمسك يستخرج من احد الايائل ، الذي كاد ينقرض الآن ، لجدّ الناس في صيدهِ . والزباد طيب نادر يستخرج من سنّور الزباد باساليب كادت تقرض هذا الحيوان

اما الاساليب التي تستعمل لاستخراج العطر من الازهار فبعضها قديم كالتقطير والنقع في الأدهان والكحول ، وبعضها حديث كاستعمال بخار البترول . ويندر ان يكتفى الآن بأسلوب واحد في استخراج عطر زهر من الازهار ، بل يعمد الى غير اسلوب واحد حتى يثبت ان كل العطر الذي في الزهر قد استخرج

ففي طريقة التقطير توضع الازهار في انبيق كبير وتغمر بالماء ثم يبدأ عمل التقطير المعروف المستعمل في تقطير ماء الزهر من زهر النارنج وماء الورد من زهر الورد

اما طريقة النقع في المواد الدهنية فيعمد فيها الى وضع الازهار فيها حتى تتهرأ وتصير كالمروّخ ، والغالب ان يوضع عدد معين من الازهار في دهن نقي او زيت زيتوني نقي ثم يوضع الاناء في اناء آخر فيهِ ماء غالٍ ، وبعد وقت معيَّن تخرج الازهار ويوضع غيرها محلها حتى يتشبع الدهن او الزيت من عطرها . ثم تمرث الازهار التي نقعت وتضغط في مكابس مائية حتى يعصر منها كلّ ما تبقّى فيها من العطر . ويؤخذ المروّخ ويغسل مراراً بالكحول فيذيب الكحول العطر الذي فيهِ ويمتصهُ فيصبح بعد التصفية والتبريد خلاصة زهر النارنج اذا كان الزهر من النارنج او البرتقال ، وعطر الورد اذا كان الزهر ورداً

وقد تستخرج المادة العطرية باستعمال بخار البترول النقي وهو احدث الاساليب وافضلها وطريقتهُ ان تمرث الازهار اولاً فتتمزق الغدد الزيتية التي تحتوي على المادة العطرية ، وتتصل هذه المادة ببخار البترول وتبقى الازهار الممروثة على هذه الحال ٤٨ ساعة . ثم يبرد البخار ويستقطر فيبقى منهُ مادة شحمية ذات رائحة عطرة ، ويعاد عمل الاستقطار مراراً فتصبح المادة الشحمية خلاصة العطر الجامدة التي تباع في الاسواق

يسهل استعمال هذه الاساليب للازهار التي تستخرج رائحتها بسهولة اذا مرثت ، ولا تزول رائحتها اذا مضى عليها وقت طويل بعد جنيها ، ولكن ما كان من الازهار كالياسمين والزنبق ، لا يستخرج عطرهُ الاَّ بالحيلة لان مقدار العطر قليل — فقد لا يستخرج من طن من الزهر الاَّ اوقية او اوقيتان من العطر — لا يصلح التقطير لاستخراجهِ ولا يستخرج بالنقع ولا ببخار البترول لئلاَّ تتلف الازهار . ولذلك يستخرج عطرها باستعمال الدهن البارد . وآية ذلك ان الازهار الغضة توضع في اطباق مبطنة بالدهن ، وتقام هذه الاطباق بعضها فوق بعض ،

وتبدل الازهار الذاوية بغيرها مرة كل ٤٨ ساعة بعد ان يمتص الدهن عطرها ويصبح كالمروّخ المذكور آنفاً . ثم يغسل هذا المروّخ بالكحول كما تقدم

وقلما تباع خلاصات العطور الا لصنّاعها . ويختلف سعر الاوقية الواحدة من نحو جنيه الى عشرات الجنيهات . وثمن بعضها يفوق وزنهُ ذهباً . وهؤلاء يمزجونها ثم يحلونها في الكحول ويبيعونها في زجاجات انيقة ، لا يحتوي المحلول الذي فيها على اكثر من ١٠ في المائة عطراً و ٩٠ في المائة كحولاً

وسرّ صناعة العطور هو في مزج الخلاصات الزيتية قبل حلّها ، وهو فنٌّ دقيق ، توارثت سرَّهُ بعض الاسر التي اشتهرت بهذه الصناعة . فماء الكولونيا الالماني ، لا يباح سرُّ صناعتهِ ، حتى للعلماء . وكان الكيماوي الالماني «بيس Piess» قد صنع للعطور سلَّماً شبيهاً بالسلَّم الموسيقي في اسفله العطور الشرقية القوية مثل عطر خشب الصندل وفي أعلاه العطور الطيارة الخفيفة مثل عطر شجرة اليمام Heliotrope . على هذا السلَّم العطري يستطيع الخبير البارع ان يمزج العطور كما يؤلف بين الانغام فيخرج منها عطوراً مركبة منسجمة . فاذا كان غير خبير ، وقع تنافر بين الاجزاء التي يصنع منها العطر المركب كما يقع التنافر في الانغام

فمزج العطور المختلفة لاخراج عطر جديد يستطيبهُ الناس ويقبلون عليهِ ، فنٌّ دقيق يحتاج الى حسٍّ مرهف ، والراجح ان اكتسابهُ ممكن بالاختبار وطول المرانة

فصنع العطور ميدان لبراعة الكيماوي . ولولاه لظلَّت العطور غالية الثمن عزيزة المنال الاَّ على الاثرياء . خذ مثلاً عطر البنفسج . فهو من اندر العطور واغلاها ثمناً . فاذا زرعت فداناً بنبات البنفسج ، لم تستطع ان تستخرج من ازهاره ، الاَّ بضع قطرات من عطر البنفسج الزيتي . ومن اشق الأمور حفظهُ . لانهُ طيّار . فلما حلل الكيماوي هذا العطر وجد ان عنصره الاساسي مادة تدعى ايونون . فاذا استفردت هذه المادة نقية من الشوائب بلغ من قوة رائحتها انها تشل حاسة الشم ، فلا يستطيع الانسان ان يتبين لها رائحة ما . فعمد الكيماوي الى محاولة تركيب هذه المادة تركيباً صناعيًّا في المعمل . وقد افلح في ما حاول . والعطور المحتوية على خلاصة عطر البنفسج اصبحت رخيصة ، حتى ليتعذر عليك في الغالب ان تبتاع عطر البنفسج الطبيعي ، لانهُ لا يستطيع ان ينافس العطر الصناعي ، فلا يصنع لانهُ لا يفي بنفقات استخراجهِ الطائلة . ومن هذا القبيل فوز الكيماوي بصنع المواد الاساسية في العطور والطيوب المختلفة كالمسك وعطر الورد وعطر الليمون وغيرها

ولكن العطور التي يصنعها الكيماوي لا تصلح ، وحدها ، الاَّ لصنع العطور الرخيصة . ولذلك تمزج ببعض العطور الطبيعية في صنع العطور المركبة ، لان اصحاب الحسّ الدقيق يستطيعون ان يميزوا العطر الصناعي البحت

پول پانليفه

Paul Painlevé

كتب العالم البريطاني توماس جرينوود في مجلة نايتشر قال : لما ذهبت الى لقاء المسيو بانليفه قبيل وفاته كان منهمكاً في إعداد الجزء الثاني من محاضراته المشهورة في «ميكانيكية السوائل» التي القاها حديثاً في السوربون ، فرأيت «الرئيس» (كما يدعوه اصدقاؤه) وهو في شفق حياته ، مشغولاً بالمباحث التي شغفته ، قبلما لبّى نداء الوطن وخاض ميادين الخدمة العامة . وكان حينئذٍ ناقهاً من علة اصابته وأقعدته عن العمل والدرس ، وكان يأمل ان يتاح له اعداد خطبته الافتتاحية ليتلوها في « معهد الفنون والصنائع » الذي دعي باسمهِ ، اعترافاً بفضله ونبوغهِ . ولكن القدر لم يمهله ، فوضع نعشهُ في ردهة ذلك المعهد ، قبل حمله الى البانثيون (مقر رفات الفرنسيين العظماء) . ففرنسا خسرت بوفاتهِ ابناً من أكرم ابنائها ، والعالم رياضيًّا وسياسيًّا من اعظم رياضييهِ وساستهِ

***

قلما يتاح لرجل من المشتغلين بالشؤون العامة ان يجمع بين المكانة العلمية والمقام السياسي في أعلى مراتبهما . ولكن المسيو بانليفه كان من هؤلاء

ولد في باريس سنة ١٨٦٣ وتلقى العلم في دار المعلمين العليا (الايكول نورمال سوبيريور) واحرز لقب دكتور في علوم الرياضة ثم اثبت بمباحثهِ انهُ رياضي من الطبقة الاولى ، فعين استاذاً في السوربون وانتخب عضواً في مجمع العلوم

ومنذ ما قامت في فرنسا قضية دريفوس الشهيرة بدأ يوجه عنايتهُ الى السياسة ، ففي سنة ١٩٠٦ انتخب نائباً اشتراكيًّا مستقلاً عن باريس ، ووجه عناية خاصة الى شؤون الجيش والاسطول والسلاح الجوي . ولكنهُ لم يشغل منصباً سياسيًّا كبيراً قبل الحرب الكبرى . وفي سنة ١٩١٥ الف بريان وزارة واختار بانليفه ليكون وزير المعارف فيها . ولكنهُ اختلف مع رئيسه في طريقة مواصلة الحرب ، فلما اعاد بريان تأليف وزارتهِ هذه في ديسمبر سنة ١٩١٦ خرج بانليفه منها

وفي مارس سنة ١٩١٧ الف الوزير ريبو وزارته واختار بانليفه لوزارة الحربية ، فاقدم في الحال على تعيين الجنرال بتان قائداً عامًّا للجيش الفرنسي بدلاً من الجنرال نيفل . فلما استقال

ريبو دعي بانليفه لتأليف الوزارة الجديدة وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٩١٧ . وكان يود أن يشرك الاشتراكيين معهُ في هذه الوزارة ولكنهم تشددوا وغالوا في مطالبهم ، فألف الوزارة من دونهم ، واستبقى لنفسه منصب وزير الحربية علاوة على الرآسة . وفي اكتوبر بعد تأليف الوزارة بشهر واحد ، أحسَّ بعد اقتراعٍ تمَّ في المجلس ، ان الاكثرية الموالية لهُ ليست بكافية للسير بشؤون الدولة فاستقال ، وأعاد تأليف الوزارة فاخرج منها ريبو وضمَّ بارتو وزيراً للشؤون الخارجية . فلما مني الايطاليون بعد ذلك بهزيمتهم الشنيعة في كابورتو اسرع الى رابلّو فاجتمع هناك بلويد جورج رئيس وزراء بريطانيا ، وأورلندو رئيس وزراء ايطاليا ، فاسفرت محادثاتهم عن انشاء مجلس الحلفاء الاعلى في فرساي ، واختير الجنرال فوش ، ليكون الممثل الفرنسي الاول في هذا المجلس . وفي ١٣ نوفمبر رفض مجلس النواب الفرنسي تأجيل البحث في مسألة الدعاية الى وقف الحرب Defeatism (وهي المسألة التي حوكم فيها الوزير السابق جوزف كايو وحكم عليه) فاستقال بانليفه ودعي كلمنصو الى تأليف الوزارة التي حاكمت كايو ، وسارت بفرنسا الى النصر العظيم

***

وقضى بانليفه بعد ذلك بضع سنوات بعيداً عن ميدان السياسة الفعالة ، ولكنه عاد فألف مع هريو كتلة من احزاب اليسار . ففازت هذه الكتلة في انتخاب ١١ مايو سنة ١٩٢٤ فألف هريو الوزارة وانتخب بانليفه رئيساً لمجلس النواب . ولكن الاحزاب المتطرفة اضربت عن تقلد المناصب الوزارية الاَّ اذا ذهب ملِيران — وهو رئيس الجمهورية — من منصة الرآسة فذهب . ويقال ان بانليفه حاول حينئذٍ ان ينتخب مكانه رئيساً للجمهورية فاخفق في سعيه . وانتخب المسيو جاستون دومرج

فلما سقطت وزارة هريو سنة ١٩٢٥ للاختلاف على بعض المسائل المالية ، خلفه بانليفه في الرآسة وأخذ على عاتقه وزارة الحربية ، وأقدم على عمل جريءٍ اذ ضم اليه الوزير السابق المحكوم عليه ، جوزيف كايو ، وزيراً للمالية

في تلك السنة اشتدَّت الحال في مراكش على اثر الحرب التي شنَّها الامير عبد الكريم ، فطار اليها ، للنظر في الحالة ، وعاد فعين المارشال بتان لكي ينظم قوى المقاومة والهجوم على الامير عبد الكريم وجنوده . وفي يوليو من تلك السنة ثبت له انه لا يستطيع ان يستمر في الحكم من غير تأييد بعض فرق المعارضة ، لان الاشتراكيين رفضوا ان يؤيدوا كايو في خطته المالية . وفي ٢١ نوفمبر تحوَّلت اكثريته الى اقلية فاستقال

تخلفهُ بريان في رآسة الوزارة . واشترك هو مع بريان وزيراً للحربية . وكذلك شغل هذا المنصب نفسه في وزارتي بوانكاره اللتين طالتا من يوليو سنة ١٩٢٦ الى نوفمبر سنة ١٩٢٨

وقد انتخب بانليڤه في حياته عضواً في مجامع العلوم في فرنسا وبولونا (ايطاليا) واستوكهلم (السويد) وروما ومن مؤلفاته «دروس في انفرك » ودروس في «تحليل معادلات لاختلاف » وهو فرع من الرياضة العالية

***

كان شغف بانليڤه بالرياضة اساساً لنظرته الفلسفية الى الطبيعة . وفي رسالته « اوليّات الميكانيكا » عرض لبحث مبادىء الميكانيكيات القديمة، وفكرة العلة والمعلول ، واصول النسبية، وانتقال الضوء . وقد كان في البدء حذراً في الايمان بنظرية اينشتين ، بل انهُ وجّه اليها في مجمع العلوم الفرنسي نقداً محكماً . فلما اقيمت مناظرة عامة في السوربون سنة ١٩٢٠ في موضوع النسبية ، اذهل بانليڤه الحضور ، بكثرة الاحتمالات التي عرضها لتحلَّ محل « اوليات اينشتين » . وكان اليوم مطيرا فلما خرج الجمع المحتشد ، مشى الاستاذ لانجفان — وهو مناظر بانليڤه — مع جرينوود فقال لانجفان ، انني واثق بان بانليڤه ، يغير رأيه بعد عشاء شهي". فلما ترجم جرينوود محاضرات ادنغتن في النسبية سنة (١٩٢٤) كتب له بانليڤه مقدمة اعترف بها بالفائدة العلمية الجليلة التي تجنى من «الصورة الكونية الجديدة » المبنية على نظرية النسبية . ومما لا يُرتاب فيه ان نقد بانليڤه لنظرية النسبية ، كان من البواعث الفعالة على استكمال نقائصها ، وتصحيح بعض تفصيلاتها ، وتوضيح مقتضياتها الفلسفية

كان بانليڤه قصير القامة ، طيب القلب ، تحمل اساريره آثار العناء العقلي الذي يكابده في اشغاله العقلية واعماله الادارية . فقد كانت حياتهُ ، حياة بساطة وجهاد . وكان يتشدَّد في انجاز كل اعماله بنفسه. وهذا لا يتاح لانسان الاَّ اذا كان نادراً في قدرته على جمع افكاره وتوجيهها الى الموضوع الذي يريده . وقد ذكر جرينرود انهُ كان في مكتبه يوماً يناقشه في موضوع الانتخابات وإذا جرس التلفون يقرع ، وكان مخاطبهُ زميلاً في السوربون ، يستوضحهُ في مسألة علمية ، فأفاض بانليڤه في بسط علاقتها بالمعادلات الصعبة في حساب التمام والتفاضل فلما انتهى التفت الى زائره معتذراً ، واستأنف البحث في الانتخابات

ومن عجائب العقل الانساني ، ان يشتهر هذا الرجل بشرود الذهن كذلك . فيروى عنهُ انه كان يخرج احياناً من مجلس النواب ، فيستقل سيارة اجرة الى داره ، وسيارتهُ الخاصة تنتظر . ويقال انهُ كان احياناً يذكر رقم تليفونه لسائق سيارة ، اذا سأله عن عنوانه ، بل اغرب من ذلك انهُ خرج من داره يوماً ، وكان ينتظر صديقاً ، فكتب كلمة مؤداها « بانليڤه يعود حالاً » وعلقها بالباب . ثم عاد قبل مجيء صديقه ، فرأى الورقة معلقة ، فوقف بانليڤه ينتظر عودة بانليڤه !



داود بركات

صورة وحياة

رزئت الصحافة العربية بوجه عام ، والمصرية بوجه خاص ، بفقد داود بركات رئيس تحرير الاهرام ، وقد كان براً بزملائه واخوانه ، مخلصاً لوطنيه لبنان ومصر ، فانطوت بموته صفحة من صفحات القلم المجيدة في الشرق . وقد رغبنا الى صديقه الاستاذ بولس غانم في كتابة فصل فيه، فأتحفنا بالصورة القلمية التالية :

---

١ — صورة من حياته

كهل ربعة القامة واضح الجبين مشرقهُ، واسع الحدقتين حادّ البصر نافذه في حياء ، حاضر الابتسامة سريع الجواب . يسير مطرق الرأس بادي التفكير مهمل الشعر واللباس في عصاً لا تحمله بل يحملها هو، ملقاة على عضده ويده الاخرى لا تخرج من جيبه الاّ لتمر على جبينه او لتلقي بغطاء رأسه الى الوراء — تلك صورة لداود بركات وهو ذاهب من منزله بالفجالة الى جريدة الاهرام

يأنف ركوب السيارات ويؤثر عليها العربات إما محافظة على قديمهِ وهو المحافظ على دينه وعاداته . واما لما يأخذه من رأفة على الحوذيين الذين نضبت موارد رزقهم بعد ان الف الناس ركوب السيارات . ذلك ما حدثني بهِ داود وتلك صورة اخرى مصغرة لذلك القلب الفيّاض بالرحمة والحنان

فاذا بلغ منزله الثاني في دار الأهرام — ذلك المنزل الذي فيه فتاته وعروسه وافراحه وآلامه وذكريات شبابه وجني يديه — القى بعصاه وبغطاء رأسه في غير ما عناية ولا اكتراث واحتفى بالكثير من الزوّار الراقبين قدومه وتلطف معهم بالحديث واكرم وفادتهم واخذ في مطالعة اكداس الرسائل الواردة بعناية لا يتوهمها محدثه وهو يسائله عن اموره الخاصة بل ربما اخذ يكتب احدى مقالاته التي لو طالعتها في الغداة لظننته قد كتبها في هدوء الليل وصفاء الذهن والخاطر

فاذا بلغ الليل وهنه وحلّ بهِ التعب خرج محنيّ الظهر متثاقلاً في مشيته الى مقهى اللواء فجلس الى فئةٍ مختارة من اصدقائه وزملائه يباسط هذا ويتبادل النكات مع ذاك حتى اذا

جدَّ الجد وجرّهم الحديث الى امرٍ هام قطّب حاجبيه واستوى على مقعده واخذ يحدثهم باحداث التاريخ وكأنه يقرأ من كتاب او يباحثهم في سياسة اليوم حريصاً في كلامه عفيفاً في انتقاده صادق النظر في حكمه

فاذا طاب لهم طعام اوشراب رأيته وقد أومأ الى الندل فهرول مسرعاً يحضر لهذا كأساً من الشراب ولذلك صنفاً من الطعام فاذا جاء وقت الحساب اعتذر اليك الندل باستيفائه القيمة من داود

تلك هي صورة مصغرة من داود في أهرامه ومن داود بين اصحابهِ ومنه في كرمه وسخائه

فاذا بلغت الساعة الواحدة صباحاً عاد الى مكتبه واخذ يتفقد ثوب عروسه الأهرام محواً واثباتاً حتى اذا كانت الساعة الثانية ركب سيارة مستصحباً صديقاً او محرّراً وذهب الى المطبعة في بولاق فالقى النظرة الاخيرة على صنعة يديه . ثم ينصرف الى منزلهِ مطمئناً فالقى ما عليه من ثياب العمل واخذ يقلب كتب التاريخ والصحف والرسائل الى ان يغلبه سلطان الكرى فلا يستيقظ الاّ حوالي الظهيرة ليتناول القليل من الطعام ثم يعود الى عمله

كذلك صرف داود بركات سنيه الاربع والثلاثين مقبلاً الى الاهرام منصرفاً عن الاهرام

فاما وانا احدثك عن داود رجلاً فلا بدَّ لي ان اكشف لك ناحية من نواحي حياته يجهلها الكثير من الناس حتى اقرب اصدقائه اليه . تلك حياته في منزله بين اهله وذويه

كان داود اذا أوى الى منزله وانصرف عنهُ زائروه ينصرف بجملته الى اخوته واخواته وفيهنّ الأيم ومنهنّ الفتاة ويحنو على ابنائهنّ وبناتهنّ فيباسط هذا ويداعب تلك طفلاً مرحاً ساذجاً لاتظن اذا رأيته بينهم وبينهنّ ذلك الكاتب العبقري النحرير الذي يخشى بأسه العظماء ويتزلف اليهِ ارباب المناصب وكبار الادباء

وربما طاب لداود — وكثيراً ما كان يطيب له — ان يدعو الى منزله رهطاً من اصدقائه واخصائه وليس منهم الاّ كل أديب فيبذل لهم الحديث العذب والمحيّا الباشّ قبل الطعام والشراب ويجمع لهم في منزله دواعي الانس من غناء وطرب واسباب لهوٍ وسمر وكان أحب شيء اليهِ ان يكون المجلس حافلاً بالاحداث والاطفال كأن هذا الكبير بكل شيء كان في سذاجة الاطفال والرضعان في طيبة قلبه وصفاء نفسه ورضي خلقه وقديماً كانت الشعور البيض تحنو على الشعور السود

وقلما كانت تخلو دار داود — ولهف نفسي ان تصبح اليوم وحشاً — من طالبي الحاجات وسائلي الحسنات ، يطرقون بابه ليلاً وفي النهار في ساع الطعام والقيلولة فيستقبلهم هاشاً باشاً يواسيهم ويسليهم ويتوجع لآلامهم وشكاتهم ويعدهم بقضاء حاجاتهم وقد طالما قضى اللبانات واغاث الملهوفين ونصر طلاب العلم والعمل بوجاهته ووساطته وماله على شدة حاجته الى المال

وكان اذا وجد متسعاً من الوقت اسرع الكرة الى الجمعية الخيرية المارونية التي نمت بفضل

عنايته وتشرفت فيما بعد برآسته ليمجدّ رجالها بآرائهِ الصائبة وينظر في حاجة فقرائها

ولم تكن شواغله الكثيرة واخلاصه لوطنه الثاني — مصر التي اظلته سماؤها ورواه نيلها وألهمه جوّها وآخاه ابناؤها واخذ بيده عظماؤها — لم يكن كل ذلك ليُنسيه وطنه الاول لبنان بل ظلّ اميناً على ولائه مخلصاً له في حبّه غاضباً لغضبه عاملاً على اعلاء شأنه وهو الذي كانت له اليد الطولى في تأسيس «جمعية الاتحاد اللبناني» التي أسدت قبل الحرب وفيها وبعدها، اجلّ الخدمات للبنان وساعدته على نيل استقلاله . ولو صدق وعد الواعدين لكان هذا الاستقلال أتم واكمل

وقد كان الوفاء اظهر صفات الفقيد رحمهُ الله . فقد كان وفيًّا كل الوفاء لوالديهِ ولاخوتهِ ولاقربائهِ واصدقائهِ وللاهرام وصاحبها ولوطنيه العزيزين مصر ولبنان

برّ بوالديه فاقام لهما في مسقط رأسهِ بحشوش ضريحاً فخماً وبنى لله كفارة عن نفسيهما معبداً لاقامة الصلاة وبرّ باخوته فربَّاهم التربية الحسنة العالية ومنع نفسه عن الزواج ليتمكن من الانفاق على اخوتهِ واخواته . وبرّ باصدقائه فما ضنّ على واحد منهم بمساعدة او موآزرة او مشاطرة في فرح او حزن او تفريج كربة او بلاء

وبرّ بالاهرام وصاحبها امدّ الله بعمره فاحتضنه صغيراً وبذل له من حياته وأدبه وعلمه وكان كالجندي في ساحة الوغى قضى وقلمه بيده . ووفى لوطنيه حقهما فدأب الدفاع عن مصر ولبنان وقضى حياته يعمل لخير مصر ويناضل عن حقوق مصر ويجاهد في سبيل مصر باخلاص ويقين وسعة اطلاع وحسن عقيدة وروح وثابة وقلم سيّال وهذه وقفاته الى جانب المرحوم مصطفى كامل ومقالاته « مصر والسودان » و « تعالوا الى كلمة سواء فان الحق احق ان يتبع » اصدق شاهد على حسن بلائه وصدق جهاده

وكان يعمل الجهد المستطاع على التأليف بين وطنيه وقد طالما تمنى على الله جمعهما في وطن واحد وهذه مقالاته في تاريخ « ابراهيم باشا والامير بشير الشهابي » و « اني اخاف على السنديانة ان تقطع » اوفى دليل واصدق شاهد على اخلاصه ووفائه

٢ — صورة من ادبه

كان داود بركات رحمهُ الله صحافيًّا واديباً وقلّ ان تجتمع هاتان الصفتان في كاتب

كان فيهِ من الصحافيّ حسن الكياسة وسرعة الخاطر ودقة استخراج النتائج من الحوادث اليومية وبعد النظر في استجلاء النتائج البعيدة للحوادث الواقعة وكان فيهِ ميزة قلّ ان نجدها في صحافيّ غيره وهي تلك المقدرة على الاشارة الى مرام خفية واغراض خاصة مقصودة باسلوب واضح ولكنه غير صريح جليٍّ ولكنهُ مبهم لا يخفى على عين الرقيب وهو مع ذلك لا يعرّض كاتبه لنقمة حاكم او لانتقاد منتقدٍ او غضبة غاضب ولعلنا نوفق في وصف هذا الاسلوب اذا

اصطلحنا على تسميته « بالبيان بالكناية او بالتورية والابهام » فقد كان يقرأ مقالة داود في صدد امر لا يصح التصريح به اكثر من قارىء وكان كل من قرأه هذه المقالة يفهم منها ما يجب ان يفهمه او ما يريد ان يفهم بحيث كان يتمكن داود من الخوض في كل موضوع ولو امتنع الخوض فيه دون ان يقع تحت طائل او ملامة، وكذلك تمكنت الاهرام ولا سيما إبان الحرب العالمية ان تطلع قراءها على كل خفيّ ممنوع نشره دون ان تتعرض الى ايقاف او تعطيل . وكان فيه من الاديب دقة التصور وجميل الخيال وحسن الديباجة وجودة الوصف والشعور بما يكتب للناس مما يثير العواطف او يؤلم الناس

فكان اذا رثى تبيّنته شاعراً لا ناثراً في شعوره واسلوبه ولو قرأت رثاءه لتلك السيدة النبيلة ذات الايادي البيض على داود والاهرام — مدام تقلا باشا — لبدا لك منها عاطفة الشاعر وبيان الشاعر واخلاص الوفي . وكان اذا وصف انتقل بك الى اسمى مدارج الخيال وعرف كيف يكسو موصوفاته اجمل الصور واصدقها بحيث تلمس ما يصفه وتحس به بارزاً في شكل محسوس رائع

وكان داود بركات تاريخاً حيًّا صادقاً لمصر وحوادثها وللوزراء المصريين الذين تولوا الحكم منذ النصف الاخير للقرن التاسع عشر وكان فوق ذلك حافظاً لانساب المصريين واسرهم وحياة رجالاتهم ومذاهبهم السياسية ونزعاتهم الفكرية بحيث كان اذا شاء ان يكتب عن حدث او واقعة تاريخية او معاهدة سياسية او مسألة حزبية لا يرجع الى كتاب ولا الى تاريخ بل يملي كل ذلك عن ذهنه وذاكرته وتلك قوة لم يؤتها الاّ داود رحمه الله

وكان في عقيدته السياسية على مبدإ الحزب الوطني مخلصاً كل الاخلاص لهذه العقيدة فكنت اذا ذكرت على مسمع منهُ اقطاب هذا الحزب وعلى رأسهم المرحوم مصطفى كامل امتلأ صدره حماسة وفاض لسانه في بيان فضل مصطفى على مصر والمصريين بما بثّه في صدور النشء من روح الوطنية والتضحية والاقدام

فاذا اجمعت اليوم كلمة الصحافة في الشرق على اطراء داود بركات والثناء على مقدرته الصحافية وخلقه المتين وادبه العالي وعفة لسانه . وجمال بيانه ووفائه لاهله واهرامه واخوانه فلا تكون فيما نكتبه مبالغة او مغالاة . فقد كان — برد الله ثراه — من ابرع الصحافيين في الشرق واعفهم قلماً واقلهم عنفاً في الخصومة واغزرهم بياناً ومعرفة واحفظهم للحوادث التاريخية واكثرهم الماماً واتباعاً للنهضة المصرية وللحركة الفكرية ولا شك ان وفاته قد محت صورة جميلة تاريخية من صور الصحافة والادب والخلق والوفاء . وان الشرق قد لا يتهيأ له قبل انقضاء نصف جيل من الزمن ان يكون من النشء الجديد صحافيًّا له من المقدرة وطول الباع والكياسة ما كان للمرحوم المغفور له داود بركات

البحيرة

لألفونس دي لامرتين

نظم لامرتين هذه القصيدة بعد وفاة حبيبته جوليا التي خلد ذكراها في روايته المسماة « رافائيل » وهي من درر قصائده . وقد نزلت من قلوب القراء منزلها في قلب ناظمها نفسه . فلحنت مراراً واستدرت الدموع تكراراً عندما ناحت بها اوتار المثاني ، ولا غرو فالحقيقة اشد احساساً واعظم شاعرية من الخيال ، لان الشاعر الاكبر كما يقول لامرتين هي الطبيعة لا الانسان . وهذه ترجمة تكاد تكون حرفية لها

هكذا ، نحن دائماً مدفوعون الى شواطىء جديدة ، يذهب بنا الليل الابدي ، بلا عَوْدٍ ولا رَجْعَة ، فهل لا يتسنى لنا يوماً ما ، ان نُلقي بمرساتنا في بحر الحياة ؟

ايتها البحيرة ! ما كاد العام يلفظ أنفاسَهُ ، حتى عُدْتُ وحيداً اليك ، فانظري ، بالقرب من امواجك المحبوبة ، التي كان يجب ان تراها ثانيةً ، اجلس منفرداً على هذه الصخرة ، التي ابصرتِها تقعُدُ عليها

لقد كنت تهدرين هكذا تحت هذه الصخور العميقة ، وكنت تتكسرين على جُنُوبها الممزقة ، كما تفعلين الآن ، وكان الريحُ تُلقي بزَبَد امواجكِ على قدميها المعبودتين ، كما هي الحال في هذه البرهة

أتتذكرين عشيّةً كنا سائرين على صفحاتك الهادئة ، ونحن سكوت ، ولا يُسمع في الأفق ، على الماء ، وتحت السماء ، سوى حركة المجذّفين ، الذين يضربون بوزن متناسق ، لُججَكِ المُشجية

فارتفعت فجأةً الفاظ ، لا عهد للارض بها ، فردّد الساحل المأخوذ بسحرها ، صداها المطرب ، فأنصتت الامواج ، وأنشأ ذلك الصوت العزيز لديّ يُلقي هذه الكلمات :

« ايها الزمن ، قِف عن طيرانك ، وانتِ ايتها الساعات المؤاتية لهنائنا ، إنقطعي عن سيرك ، ودعينا نتذوّق لذائذ اسعد ايامنا ، السريعة الزوال »

كثير من التاعسين في هذه الحياة ، يفزعون اليك أيها الزمن ، فسر ، سر لاجلهم ، واصرم بانصرام ايامهم ، حبل شقائهم الذي ينهش افئدتهم ، وأنسَ السعداء

ولكني عبثاً ألتمسُ ، فالزمان ضنين بهنيهات وجيزة ، والوقت يفلت مني ويهرب فابتهلتُ الى الليل ان يتّئدَ ، ولكن الفجرَ ما عتّم ان بدّد غياهب الظلام

فلنتحابّ اذن ، لنتحاب سراعاً ، ولننعم على عجل ، بالساعة المولّية ، فليس للانسان في حياته مرفأٌ يرسو فيه ، ولا للوقت ساحل يلجأ اليه ، فالزمن يسري بنا ، ونحن نمرّ مسرعين

ايها الزمن الحسود ، هل في شرعة الانصاف ، ان تمرّ اويقات النشوة ، التي يساقينا فيها الحبُّ كؤوس الهناء مترعة ، بنفس السرعة التي تدبر بها ايام الشقاء ؟

والهف نفسي ! أليس بمقدرتنا ان نبقي حتى على اثرها ؟ فهل ولّت الى الابد ؟ وهل ضاعت كاملةً دون امل ولا رجاء ، وهذا الزمن الذي جاد بها ، هو ذاته الذي القاها في غياهب العدم ، ألا يعيدها الينا ثانيةً ؟

ايتها الازلية ، ايها العدَم ، ايها الماضي ، لأنتم هوّات معتمة ، ماذا تفعلون بالايام التي تبتلعونها ؟ تكلموا : هل تردون الينا ذلك الانشغاف الروحي ، وتلك الافتتانات السابية التي تسلبونا اياها ؟

ايتها البحيرة ! ايتها الصخور الصمّ ! ايتها المغاور ايتها الغابة المظلمة ! انتنَّ اللائي يبقي عليكنّ الزمن ، ويتمنى له اعادة زَهْوَ الصبا اليكنَّ ، احتفظنَ من هذه الليلة ، احتفظي ايتها الطبيعة الجميلة على الاقل بذكراها

أناشدكِ الله ايتها البحيرة الجميلة ، ان تردّدي ، سواء كان بسكون مياهكِ وهدوئها ، او باصطخاب امواجك ونورانها ، او بمنظر سواحلكِ النضرة الضاحكة ، او بأشجار الصنوبر السود التي على حوافيكِ ، او بصخوركِ الموحشة ، المعلّقة فوق مياهك . . .

ردّدي ، سواء كان بنسيمك المضطرب الساري ، او بدَوِيِّ ضِفتَيك المنتقل من شاطىء الى آخر ، او بالكوكب ذي الجبهة اللُّجينية الذي يُنير صفحاتكِ بضيائه الساحرة . . .

رددي ، سواء برياحكِ المنتحبة ، او بزفرات اعشابكِ وورودك ، او بعَبيرك المعطّر فضاءك ، او بكل ما تسمعهُ الأُذُن ، وتراه العين ، ويستنشقهُ الفم ، رددي هذه الكلمة ، التي هي زفرة القلب الدامي ، ونحيب الروح الحائر :

لقد تحابَبا ، لقد تحابَبا

جورج نيقولاوس

اكتشاف أثري عظيم الشأن

في جبل الكرمل قرب حيفا

آثار رجال عاشوا هناك منذ ٣٠ الف سنة

لما اكتشف مدفن توت عنخ امون سنة ١٩٢٣ كانت الصحف المصرية تنقل وصفه عن جريدة التيمس. واليوم ننقل الى قرائنا عن جريدة الدايلي مايل نبأ اكتشاف اثري عظيم الشأن وهو اكتشاف آثار انسان عاش في فلسطين منذ ٣٠ الف سنة اي قبل عصر التاريخ وارسلت آثاره الى لندن. قالت الدايلي مايل : واذا ذهبت الى الطبقة السفلى من كلية الجراحين الملكية في لندن وجدت رجالاً ونساء يعملون في الواح كبيرة من الحجر الكلسي لاستخراج آثار بشر عاشوا منذ ٣٠ الف سنة . فقد وجد تسعة هياكل من امة لم تعرف قبلاً . ومتى حررت من قيودها واخرجت من الصخور الكلسية التي سجنت فيها فسيفحصها السر ارثر كيث العالم الانثروبولوجي المشهور . وينتظر ان يكون هذا الاكتشاف صفحة جديدة في قصة الانسان

وجدت هذه الآثار في كهف على سند من اسناد جبل الكرمل . والذين وجدوها هم رجال بعثة مؤلفة من مدرسة الآثار والعاديات البريطانية في القدس والمدرسة الاميركية لدروس ما قبل التاريخ . وقد سميت وقتياً هذه الامة التي وجدت آثارها «رجل فلسطين»

واجتمعت في احد اقبية البناء بالمستر ثيودور « ماك كاون » الذي اكتشف الهياكل العظيمة فاريانيها فاذا عظامها محفوظة حفظاً غريباً وقال لي : «اسعدنا الحظ بالعثور على مقبرة عمرها ٣٠ الف سنة او نحو ذلك . وموقع هذه المقبرة فيما يسمى اليوم « مغارة الجديان » (صغار المعزى) . وهذه المغارة على علو ٣٠ قدماً في سند جبل قريب من حيفا

وأول ما عثرنا عليه جمجمة طفل ثم سائر الهيكل العظمي . وما زلنا نحفر وننقب بضعة اشهر حتى وجدنا ثمانية هياكل عظمية اخرى في صف واحد . ويظهر من تزاحمها الواحد الى جانب الآخر ان ذلك كان عملاً مقصوداً لتشغل اضيق ما يمكن من المكان . وفي رأينا انها ربطت بربط فنيت في ذلك الزمان الطويل . وفي خلال ذلك تكونت اغلفة كلسية حول الهياكل حفظتها من البلى على مر العصور . ومن هذه الهياكل ما حفظ أتم حفظ

ويكاد يكون من المؤكد ان «رجل فلسطين» قريب من رجل نياندرتال الذي وجد في اوربا ومعاصر له ولكن هناك بعض فروق كبيرة تبين لنا انهما ينتميان الى امتين مستقلتين الواحدة عن الاخرى . وقد اشترك معي في هذا الاكتشاف المس دوروثي جارود من اشهر علماء الآثار عندنا وقد عادت الآن الى فلسطين وفهمت انها اكتشفت اخيراً ثلاثة هياكل اخرى

ويقول السر ارثر كيث ان هذه الهياكل اعظم اكتشاف اكتشف عن الانسان المعروف باسم «رجل العصر المتوسط الحياة»



نهضة اليابان الصناعية

لفؤاد عينتابي

﴿ قوى المياه المستعملة في الاعمال الكهربائية ﴾ ان اليابان تثابر الآن على اتباع خطط الغرب واساليبه في الاعمال الصناعية ولها اجهزة لتوليد القوى الكهربائية تزيد على مليونين كيلوات ونصف المليون . يكلفها ذلك سنويًّا ما لايقل عن ٢١ مليون جنيه استرليني [١]

اما المياه المستعملة لتوليد الكهرباء فقد بلغت منذ سنة ١٩١٦ قوة مليون ومائتي الف حصان ، ويقدر « ارنولد هـ . جبسون [٢] » استاذ الهندسة في جامعة فكتوريا بمنجسر ، ان المياه الطبيعية التي في اليابان يمكنها ان تولد قوى كهربائية قدرها ستة ملايين واربعمائة الف حصان ، ولكن المستعمل منها الآن لايتجاوز قوة (١ر٦٠٠ر٠٠٠) حصان

﴿ المناجم والمعادن ﴾ لما كانت اليابان امة صناعيةفهي بحاجة كبيرة الى المعادن والزيوت والفحم ولكن اليابان تكاد تكون خالية من المعادن ، فتستورده من الخارج ، وما يستخرج فيها من الحديد يسير لايكاد يذكر ، على ان المعدل السنوي للحديد الذي يستخرج من المناجم اليابانية لا يزيد على (٣٧ر٠٠٠) طن ، واليابان تستورد مقادير كبيرة من الحديد والفولاذ من الخارج وذلك لكثرة الاحتياج اليه في المصانع والمعامل ، لصنع السفن وعمل الاسلحة . اما الكبريت فيستخرج من رواسب البراكين ، والبترول يوجد في اكثر الجزر ولكن مقاديره قليلة ، ولذا يؤتى به من الخارج لكثرة الطلب عليه ، والموجود منه في البلاد يتناقص مقداره سنة بعد سنة ، فقد استخرج في سنة ١٩٢٢ اكثر من (٧١) مليون غالون من البترول ، ولكنهُ نقص في سنة ١٩٢٦ الى خمسين مليون غالون

وبلغ عدد المناجم الى نهاية سنة ١٩٢٦ (١ر١٩٥) منجماً ، ثلثاها للفحم والبترول ، وبلغ عدد العمال الذين يشتغلون فيها (٢٩٣ر٥٦٢) وقيمة المعادن المستخرجة (٤٣) مليون جنيه استرليني » [٣] وهناك كثير من المعادن توجد منها مقادير قليلة في اليابان ، كالذهب ، والقصدير ، والرصاص ، والفضة ، والمنغنيس الى غير ذلك . وقد بلغت قيمة المعادن المستخرجة سنة ١٩٠٦

---

(١) R. Garcke مدير الشركة الانكليزية لجر القوة الكهربائية

(٢) Arnold Hartly Gibson

(٣) دائرة المعارف البريطانية المجلد (١٢) ص . (٩٠٨)

(١٢٣ر٧٤٠ر١٠) جنيه . ولكن في سنة ١٩٢٦ زاد المحصول الى (٥٧٦ر١١ر٤ر٨٥) جنيه استرليني

﴿ الاسماك وصيدها ﴾ الياباني مشهور منذ القدم بكونه صياداً ماهراً في صناعته، وذلك لموقع بلاده الطبيعي ، فلا غرابة اذن ، اذا رأينا المشتغلين في اليابان بصيد الاسماك وبيعها وتجارتها يقاربون المليوني نسمة . ومحصول السمك يرسل اكثره الى الصين ، وكذلك زيت السمك فانهُ محصول مهم جداً في اليابان . وترسل اليابان من (السراطين) المحفوظة في العلب Canned crabs الى الولايات المتحدة فقط ، ما تزيد قيمته على خمسة ملايين دولار في السنة . والاسماك كثيرة جداً هناك ، حتى انهم يستعملونها كأسمدة في الزراعة ، وذلك مما يتبقى منها بعد استخراج زيت السمك [١]

﴿ الصادرات ﴾ كانت صادرات اليابان في ابتداء العصر الحاضر ، ما عدا الشاي والاواني الخزفية والحرير ، قليلة جداً ، وكذلك كانت مستورداتها ضئيلة لاتذكر ، وهي عبارة عن الامتعة والمواد المصنوعة ، وفي هذه المدة كانت اكثر صادراتها للولايات المتحدة ، ولكن اليابان تمكنت في اثناء الحرب الكبرى من نشر مصنوعاتها ، وترويج بضائعها في افريقيا وجزائر الارخبيل الجنوبي وقد احتكرت تقريباً تجارة الشرق الاقصى بأجمعها » [٢]

ولم يكن في اليابان شيء يذكر من الشركات في سنة ١٨٧٠ ، فلم يمر على البلاد ربع قرن حتى بلغت الشركات التجارية والصناعية في سنة ١٨٩٦ (٥٩٥ر٤) شركة برأسمال قدره (٤٠) مليون جنيه استرليني . ويوجد الآن في اليابان (٠٠٠ر٣٤) شركة برأسمال (١١٥ر١) مليون جنيه استرليني . واننا لنرى واضحاً جلياً تأثير نمو تجارتها الخارجية وازدهارها ، عند ما نعرف انه لم يكن لديها في سنة ١٨٧٠ ما تصدره للخارج من المصنوعات . وبلغت قيمة البضائع المصدرة الى الخارج سنة ١٩٠١ ثمانية ملايين جنيه ، وزادت قيمة تجارتها في سنة ١٩٢٥ الى (٢٣٠) مليون جنيه ، منها (٤١) ./. بضائع تامة الصنع ، و (٥٠ ./.) بضائع غير تامة الصنع

وقد جربت بعض الدول ان تقلد البضائع اليابانية فخابت في ذلك واخفقت في سعيها ، ولم تتمكن من تقليدها بنجاح تام ؛ وخصوصاً الورق الياباني المصنوع من ورق التوت ، والمستعمل لتغطية الحواجز والجدران ، وزجاج النوافذ ؛ وكذا المناديل المصنوعة من الورق واذا شمع هذا الورق امكن استعماله كشمع ، وألبسة تمنع نفوذ الماء [٣]

وأهم صادرات اليابان ، الحرير والمصنوعات القطنية والمنسوجات والشاي والكافور والارز

---

(١) "The World Book Encyclopaedia" vol. 6. p. 3631

(٢) راجع مقال التجارة العالمية لـ (Julius Klein) في المجلد الثاني من كتاب (These Eventful Years)

(٣) The World Book Encyclopaedia vol. 6. p. 3632

والمحاصيل البحرية وغير ذلك . وفي الجدول الآتي يرى القارىء قيمة البضائع المهمة والمواد المصنوعة المصدرة الى الخارج في سنة ١٩٢٦ [١]

	جنيه استرليني
حاصلات بحرية	٢ر٣١٤ر١٢٤
مسكرات وحلويات ومربيات	٣ر٧٣١ر٩٢٨
مشروبات ومأكولات	٤ر٠٣٣ر٧١٥
ادوية ومواد كيمائية وغيرها	٤ر٧٨٧ر٨٠٠
منسوجات حريرية وغزل وغيرها	٩٠ر٨٣١ر٥٩٤
منسوجات قطنية وغزل وغيرها	٥٠ر٩٩٣ر٩٠٣
اواني خزفية وزجاجية	٤ر٨٤٢ر٩٤٣
ملابس	٦ر٥٣٧ر٣٦٥
المجموع	١٦٨ر٠٧٣ر٣٧٢

وفيما يلي جدول [٢] آخر يبين نسبة صادرات اليابان في سني ١٩٠٧ و١٩١٣ و١٩٢٧ ومقدار ذلك بالعملة اليابانية (ين) Yen (يساوي اليَن شلنين وبنساً ونصفاً)

الصادرات

	١٩٠٧	١٩١٣	١٩٢٧
الاطعمة والمشروبات والتبغ	يَن	يَن	يَن
(ا) خام	١٧ر١١١ر٠٠٠	٢٤ر٦٥٥ر٠٠٠	٥٤ر١٦٥ر٠٠٠
(ب) مصنوعة صنعاً تاماً او جزئياً	٢٧ر٥٨٤ر٠٠٠	٣٧ر٤٨٨ر٠٠٠	٩١ر٣٩٧ر٠٠٠
المواد الاولية «مواد خام»	٤٣ر٦٩٠ر٠٠٠	٥١ر٣٤٠ر٠٠٠	١٣٧ر٣٢٤ر٠٠٠
مواد مصنوعة تستعمل في الصناعات المختلفة	١٩٨ر٩٢٩ر٠٠٠	٣٢٨ر٠٨٤ر٠٠٠	٨٥٢ر١٨٣ر٠٠٠
مواد تامة الصنع	١٤٢ر٢٥٤ر٠٠٠	١٨٤ر٩١٤ر٠٠٠	٨٣١ر٢٢١ر٠٠٠
مصنوعات ومواد مختلفة	٢ر٨٤٥ر٠٠٠	٥ر٩٧٩ر٠٠٠	٢٦ر٠١٢ر٠٠٠
المجموع	٤٣٢ر٤١٣ر٠٠٠	٦٣٢ر٤٦٠ر٠٠٠	١ر٩٩٢ر٣٠٢ر٠٠٠

(١) دائرة المعارف البريطانية مجلد (١٢) ص ٠ (٩٠٩)

(٢) راجع ما كتبه (هربرت كرفت Herbert Craft) من غرفة التجارة بلندن، في دائرة المعارف البريطانية المجلد (٨) ص (٩٩٨)

﴿ الواردات ﴾ كانت اليابان في سنة ١٨٧٠ تستورد الدقيق ، والسكر ، والجلود ، والاصباغ ، والادهنة ، والملابس ، والادوات الحديدية ، فصارت الآن تصدر هذه المواد الى البلاد الاجنبية ، وكانت قبل ثلاثين سنة تستهلك مقادير عظيمة من مصنوعات لنكشير القطنية ، فصارت الآن تزاحم هذه البضائع في البلاد الصينية ، وبمصنوعاتها القطنية اسواق الهند نفسها . ومع ان بضائع اليابان اخف نوعاً وادنى جنساً من بضائع اوربا واميركا ، فانها تجد اسواقاً رائجة وزبُناً كثيرين، وذلك بسبب رخص بضائعها الذي يجلب اليها الزُّبُن الذين يفضلون الرخص على نوع البضاعة وجودتها . ومع ذلك فلا ننسَ ان الازمة الاقتصادية الحاضرة قد أثرت ايضاً في الاسواق اليابانية فنزلت صادراتها بمقدار لا يستهان به . واما اهم وارداتها فالقطن والمنسوجات ، والحديد ، والفولاذ ، والسكر ، والارز ، والبترول

وفيما يلي بعض ما جاء في التقرير الذي اعدتهُ السفارة البريطانية في (توكيو) عن تقدم التجارة اليابانية[1] :

« ان الظروف الحاضرة في اليابان ، واحوالها الخارجية ، وطبيعة شعبها الطموح ، اجبر اليابان على توحيد الجهود لتحقيق ما سعت وتسعى اليهِ من تقدم في الصناعة ، ونهضتها الاقتصادية في عقود قليلة ، بينما صرفت غيرها من الامم اجيالاً برمتها للقيام بهذه المشروعات ، وانها في عملها هذا قد استفادت كثيراً من تجارب غيرها من الدول المزاحمة لها التي قضت سنين طويلة للاستفادة من تجاربها واخطائها »

وفي الجدول الآتي بيان تجارة الدول المختلفة مع اليابان وقيمة الصادرات والواردات في سنة ١٩٢٦ بالجنيه الاسترليني : —

	الصادرات	الواردات
الولايات المتحدة	٨٧ر٨٨٠ر٠٤٠	٦٩ر٤٣٦ر٠٠٠
الصين	٤٣ر٠٦٠ر٠٠٠	٢٤ر٤٤٠ر٠٠٠
الهند	١٥ر٩٢٠ر٠٠٠	٣٩ر٩٢٨ر٠٠٠
الهند الهولاندية	٧ر٦٣٠ر٠٠٠	١٠ر٥٢٢ر٠٠٠
بريطانيا	٦ر٠٧٣ر٠٠٠	١٧ر٣٨٢ر٠٠٠
هونغ كونغ	٥ر٤٠٧ر٠٠٠	١٠٤ر٠٠٠
المانيا	٨٣٠ر٠٠٠	١٤ر٨٢٤ر٠٠٠

(١) دائرة المعارف البريطانية مجلد(١٢) ص (٩١١)
(٢) دائرة المعارف البريطانية ، مجلد(١٢) ص (٩٠٢)

	الصادرات	الواردات
اوستراليا	٥٫٢٦٨٫٠٠٠	١٣٫١٠٧٫٠٠٠
فرنسا	٤٫٣٢٩٫٠٠٠	٢٫٥٩٤٫٠٠٠
مستعمرات المضائق	٤٫٢٣٦٫٠٠٠	٤٫٠٧٠٫٠٠٠
كندا	٢٫٥٢٦٫٠٠٠	٦٫٥٣٢٫٠٠٠
مصر	٢٫٣٥٨٫٠٠٠	٣٫٢٦٢٫٠٠٠
المجموع	١٨٥٫٥١٧٫٠٠٠	٢٠٦٫٢٠١٫٠٠٠

ولمدينة (كوبه) Kobé الآن المقام الاول في التجارة الخارجية، ومدينة(اوزاكا)في المقام الثاني ، و(يوكوهاما) في المقام الثالث . وقد بلغ مجموع تفريغ البواخر التي دخلت المرافئ اليابانية سنة ١٩٢٦ (٤٩٫١٨٦٫٠٢٩) طنًا منها (٣١٫٨٧٣٫٥٢٣) طنًا تفريغ السفن اليابانية ثم تأتي بعدها في الدرجة الثانية انكلترة ، ومحمول بواخرها (٩٫٣٦٣٫٢٤٥) طنًا. والبواخر الاميركية ومحمولها (٣٫٩٦٠٫٣٤٢) طنًا

﴿طرق المواصلات﴾ لم يكن في اليابان سنة ١٨٧٢ سوى خط حديدي طوله (١٤) ميلاً يوصل مدينة توكيو بيوكوهاما، ولكن منذ ذلك التاريخ بدأت اليابان ببناء الخطوط الحديدية لربط اجزاء البلاد بعضها ببعضها . فبنت حتى الآن (١٣٫٠٠٠) ميل من الخطوط الحديدية ، والحكومة تملك وتدير ثلاثة ارباعها ، ومن ذلك الخطوط الحديدية في منشوريا ومنغوليا ومجموعها (٦٩٤) ميلاً . وقد منحت الصين حق بنائها لليابان . وفي المدة الاخيرة بدىء بمشروع عظيم وهو تسيير القُطُر بالكهربائية . اما عرض الخط الحديدي فثلاث اقدام وست بوصات[1]

﴿صناعة بناء السفن﴾ لما كانت اليابان امة صناعية ، تجارية ،فهي تحتاج الى سفن كثيرة لنقل بضائعها واستيراد المواد التي هي بحاجة اليها ، وهي لصيانة حقوقها في البحر تحتاج كذلك الى اسطول حربي قوي يحفظ لها مكانتها بين الدول ، ويصون حقوقها في البحر ، ويؤمن لها سير تجارتها الى البلدان التي تتجر معها . ولذلك نرى لليابان اساطيل قوية سواء تجارية او حربية ، ولا تكاد تنقطع بواخرها عن مرافىء المحيط الهادي (الباسفيك)

وقد كانت اليابان في سنة ١٩٠٠ تملك مائة وخمسين باخرة يزيد محمول الواحدة على الف طن . واما في سنة ١٩٢٠ فبلغت سفنها التجارية (٧٢٧) محمولها جميعاً (٢٫٣٥٦٫٤٧٧) طنًا. وفي ابتداء هذا العصر لم تكن صناعة بناء السفن شيئاً يذكر. ولكن الآن فان الاحواض اليابانية

(١) راجع مادة « اليابان » في The World Book Encyclopaedia المجلد (٦) ص ٣٦٣٤٠

تبني افخم السفن التجارية واعظمها ، واقوى البوارج الحربية واسرعها ، لها وللدول الأجنبية أيضاً

وفي مدة ست سنوات نهايتها (١٩٠٢) اضيفت (٨٣٥) سفينة الى اسطول اليابان التجاري محمولها (٤٥٥،٠٠٠) طن ، وقد كانت خزينة الدولة تدفع سنويًّا مبلغ (٦٠٠،٠٠٠) جنيه استرليني لتشجيع الملاحة وصناعة السفن ، فنمت هذه الصناعة نموًّا عظيماً ، فأحواض بناء السفن بنت سنة ١٨٧٠ باخرتين محمولها معاً (٥٧) طنًّا فقط ، ولكن الأحواض الحديثة بنت سنة ١٩٠٠ (٥٣) باخرة مجموع تفريغها (٥،٣٨٠) طنًّا و(١٩٣) سفينة شراعية تفريغها (١٧،٨٧٣) طنًّا . واما في سنة ١٩٠٧ فقد كان لليابان (٢١٦) ترسانة لبناء السفن Shipyards و ٤٢ حوضاً Docks خاصًّا . وبينما كانت الاحواض التابعة للحكومة منهمكة في بناء افخم البوارج الحربية واقواها ، كانت الاحواض الخاصة (التابعة للافراد او للشركات) تبني بواخر تجارية لا يقل محمول الواحدة عن (٩،٠٠٠) طن

« وقد بنت اليابان في اثناء الحرب الكبرى (٩٣) سفينة للولايات المتحدة وانكلترا والنروج وروسيا وفرنسا وشيلي والدنمارك واسبانيا والصين ، وفي سنة ١٩١٩ فقط ، انهت المعامل اليابانية صنع (١٣٤) باخرة محمول الواحدة اكثر من الف طن ، ومجموع تفريغها (٦١٩،٥٥٨) طنًّا »[١] وربحت تجارة اليابان البحرية ارباحاً طائلة في الحرب الكبرى. وبلغ مجموع تفريغ بواخرها التجارية سنة ١٩٢٧، ما يزيد على الثلاثة ملايين طن وسفنها الشراعية اكثر من مليون طن

« اما بحارة السفن التجارية فقد بلغ عددهم في سنة ١٩٢٥ (٤،٣٧٩،٦١٥) بحاراً من ذلك (٣،٤٩٦،٠٦٦) بحاراً يعملون في البواخر و (٨٨٣،٥٤٩) بحاراً في السفن الشراعية ، وعدد الضباط البحارة في السفن التجارية (٥٦،٨١٣) ضابطاً »[٢]

***

هذا وقد اثبت التاريخ ان الشرقيين لا يقلون ذكاءً وفطنةً ومقدرة على العمل عن اخوانهم في الغرب . ولكن اذا ما زالت هذه الغشاوة عن عيونهم والقوا رداء الخمول والكسل والجهل عن عواتقهم ، فحينئذٍ بشرهم بمستقبل لامع سبقتهم اليهِ امبرطورية الشمس المشرقة ، فتبوأت مركزها اللائق بها واستوت على عرش من القوة والاخلاص والعلم متين !....

(١) M. Hanihara, in "These Eventful Years" vol I. p. 672

(٢) دائرة المعارف البريطانية مجلد (١٢) ص (٩٠٥)



آداب الطب

دفع اليَّ رئيس تحرير المقتطف بهذا الكتاب لأُرى رأيي فيهِ فأوقعني في ورطة لا ادري كيف اتخلص منها لان النقد في الشرق ليس بالامر الهيّن . وسيرى القارىء كيف اخرج من هذا المشكل لا عليَّ ولا لي

والكتاب هو : آداب الطب وحياة الطبيب بقلم الدكتور فؤاد غصن خبير المحاكم واستاذ الطب الشرعي في الجامعة الاميركية في بيروت وصاحب المجلة الطبية العلمية وعضو المعهد الملكي للصحة العامة في لندن . طبع في بيروت

هو كتاب جليل الفائدة جمعه مؤلفه على ماجاء في ديباجته «من معلوماته الخاصة واختباراته العديدة ومن معلومات الاساتذة الغربيين واختباراتهم المفصَّلة في مؤلفاتهم» . اما معلوماته الخاصة واختباراته العديدة فلا شبهة في كثرتها لانه طبيب قديم خبير مارس الطب سنوات عديدة وهو فضلاً عن ذلك يشغل منصب استاذ الطب الشرعي في الجامعة الاميركية في بيروت وينشىء بالعربية مجلة هي من ارقى المجلات الطبية والعلمية فلا عجب اذا جاء كتابه هذا شاملاً لما وضع لهُ ولا اغالي اذا قلت انه فريد في بابه لم ينسج على منوالهِ بالعربية في ما اعلم . ثم ان المؤلف قد احسن في عرض فصول منه على زملائه فنشرها تباعاً في مجلتهِ وبعث بنسخة منه بعد انجازه وقبل نشره الى سعادة الدكتور رضا بك سعيد رئيس الجامعة السورية في دمشق ومدير المعهد الطبي فيها والدكتور رضا بك طبيب مشهور له من سعة الاطلاع والخبرة ما يجعل لرأيهِ شأناً في ما يكتبهُ

قرأت هذا الكتاب من اوله الى آخره ولكنهُ يتعذَّر عليَّ ان أوفيهُ حقه من النقد لان ذلك يقتضي البحث في فصوله فصلاً فصلاً وانما سأشير الى بعض فصوله ومحتوياتها

استهلَّ المؤلف كتابه في فصل سماه الدعوة الى تعلم الطب ثم ذكر الصفات الضرورية ليصير الطالب طبيباً . منها ان الطالب ينبغي ان يكون ذا ثقافة عالية نال فيها قسطاً وافراً من العلوم واللغات الحديثة والقديمة مما له علاقة بعلم الطب . فهذا الفصل وما يليه ينبغي على كل طالب او ولي امره ان يقرأه لكي لا تخرج لنا المدارس اطباء هم دون المستوى الذي نريده

ثم يلي ذلك بحث في الدخول الى المدرسة الطبية وشروط النجاح وحسن التصرف او سوئه والمرضى والزيارات الاول وغير ذلك من الامور المتعلقة بالاطباء

ويليه فصل في كلام الطبيب فما قال فيه : « ليأذن لي زملائي الاطباء ان الفت نظرهم الى امر أراه من الاهمية بمكان وهو ان على الواحد منهم ان يزن كلامه ليل نهار فيزنه بين مرضاه وفي عمله وبين اصحابه وعلى مائدته حتى وفي خلوته الزوجية فلا يبوح بشيء من الاسرار التي يسرّها اليه مرضاه » . ولم ينسَ مضايقة الناس للطبيب المسكين فقال « بينما يكون الواحد منّا في الحفلات او المتنزهات او القطار او غير ذلك ناسياً انه طبيب مستريح البال يرى نفسه مرغماً على ان يتكلم على الطب » . ومن محاسن الاتفاق ان كاتب هذه السطور دخل لايام مضت على حلاّقهِ فلم يكد يجلس على الكرسي حتى بادره صاحبنا بقوله ان فلاناً مصاب بحصاة في مثانتهِ فما رأيك فضحكت واخرجت له كتاب الدكتور غصن من محفظتي وقد كنت اقرأهُ في ذلك اليوم وأريته العبارة المتقدمة ورويت له قصة وقعت بين الطبيب والمفتي في احدى مدن فلسطين وهي ان طبيباً كان كلما رآه المفتي يشكو له شيئاً ، اما رأسه او صدره او ظهره او غير ذلك فلقيه يوماً في السوق وكانت السوق ضيقة ومزدحمة بالناس فقال له عندي بواسير يا حكيم قال له اكشف لاراها قال هنا في السوق قال انت طلبت ذلك في السوق فشفي المفتي بعد ذلك من جميع علله

ومن فصول الكتاب الانيقة فصل في زواج الطبيب قال فيه « ومن أهم ما يجب على زوجة الطبيب الاّ تكون غيوراً والاّ كان الزواج مثل جهنم — وقد رُوي لي ان زوجة احد الاطباء كانت شديدة الغيرة عليه حتى انها لم تضبط نفسها عن المجيء الى غرفة الفحص ودخولها اليها فجأة دون تنبيه عند ما يكون آخذاً بفحص مريضة فتاة » على ان المؤلف لم يخبرنا شيئاً عن هذا الطبيب فهل كان زيراً غيسانيًّا او قشموماً دميماً او من الذين يتظاهرون بالتقوى والورع والمسكنة فالنساء اخبر بأزواجهن فلعلّ لها عذراً ونحن نلومها . فالحادثة تشخيصها صعب والانذار سيء جداً

ثم فصل في طالبات الطب قال فيه ليس من الضروري ان تكون المرأة الطبية شنيعة قلت والعياذ بالله . ثم لو فرضنا انها شابة تارّة رعبوبة وزوجها غيور مثل زوجة الطبيب التي ذكرها في ما تقدم وكان مرضاها من الفراهيد الغيسانيين ألاّ يكون الزواج في هذه الحالة كالزواج السابق

ثم فصل في التشخيص والانذار وغيره في المعالجة وفصول غيرها مما يجب على الاطباء معرفته او مما له علاقة بالاطباء ومرضاهم

ومن خير الفصول في هذا الكتاب فصل في شرف المهنة وبحثه في التدجيل وقد ميّز نوعين منه فقال « كل شخص يتعاطى الطب بغير صفة قانونية يجب ان تقاومهُ الجماعات الطبية باسم جميع الاطباء لانهُ خطر على الشعب » . اما النوع الثاني فقال عنه « ولكن الذي يعرّض جسمنا الطبي للخطر هو التدجيل المدعوم بالشهادة وهو كثير الانواع غير محدودها وهو

لسوء الحظ على درجات مختلفة في جميع الطبقات » اي ان النوع الاول من التدجيل خطر على الجمهور والنوع الثاني خطر على الاطباء وهو في نظري اصعب الشرّين . وقد رأى المؤلف اتقاء لهذا الشر ان تنشأ في البلاد الشرقية نقابات طبية افرد لها بحثاً خاصاً في آخر الكتاب وانما يتعذر ذلك في البلاد الشرقية ما زال فيها احتلال وانتداب ومعاهدات زائفة وامتيازات اجنبية فيحسن بالاطباء الشرقيين ان يعيروا هذا الامر اهتمامهم رفعاً لشأنهم بين الامم

والكتاب كما تقدَّم حسن جدًّا قد سدَّ فراغاً في اللغة العربية وهو مكتوب باسلوب سهل العبارة فصيحها وكله خالٍ من التبجح فاهنىء الزميل لابرازه هذا الكتاب النفيس واشير على طالبي الطب والاطباء وكذلك جمهور الادباء على مطالعته لان لجميع الناس علاقة بالطب والاطباء

ومما قاله ما يأتي : قد قامت في سنة ١٩١٠ كل جمعيات الطب والصيدلة في باريس على نسق التعليم وطلبت العودة الى التعليم القديم اي ينبغي على الاطباء ان يكونوا علماء لا محترفين واني اشير على كل طالب طب او كل والد يريد ان يدخل ابنه في مدرسة طبية ان يقرأ الفصول التي عقدها المؤلف في هذا الباب مثل الدعوة الى تعلم الطب والصفات الضرورية الكافية ليكون الرجل طبيباً والاستعداد للدروس الطبية وادب الطلاب وشروط النجاح وحسن التصرف ونحو ذلك اي ان الطبيب يجب ان يكون عالماً

ولما كان للناقد ان يجد ولو عيباً واحداً في الكتاب فاني كنت اود لو اجتنب المؤلف استعمال الزبون « بمعنى المريض الذي يعهد بنفسه الى عناية الطبيب » ولو قال المريض وحده كما فعل في مواطن كثيرة لما اختلّ المعنى فقولنا الزبون يجعل الطبيب بمنزلة البائع والمريض بمنزلة المشتري . ثم ان للزبون معاني كثيرة قد توقع في مشاكل لسانية احياناً

امين المعلوف

اسماعيل المفترى عليه

Ismail The Maligned Khedive
by Pierre Crabitès Routledge, London 12s. 6d.

كان عصر اسماعيل عصراً حافلاً بالحوادث الخطيرة

ففي سنة ١٨٦٦ فاز من السلطان بحق توريث ابنائه العرش في خطٍّ مستقيم وفي سنة ١٨٦٧ اتخذ لقب خديو وفي سنة ١٨٧٣ اعترفت الاستانة لمصر باستقلالها مع بقاء الجزية . ثم ان اسماعيل وجَّه عنايتهُ الى تنظيم الحكومة والادارة والجمارك وأنشأ مصلحة البريد المصرية (١٨٦٥) واصلح المدارس الحربية وشجع نشر التعليم ومدَّ السكك الحديدية وخطوط التلغراف وبنى المنائر ومرفأ السويس وحاجز الامواج في ميناء الاسكندرية وشقَّ الترع وشيد الكباري وحارب تجارة الرقيق وبعث بحملة الى السودان لاستكشاف قلب القارة

السوداء . وفي عهده احتفل بافتتاح ترعة السويس(١٨٦٩) وانشئت المحاكم المختلطة(١٨٧٦)

ولو ان ملكاً او اميراً ترك نصف هذه المآثر في بلاد اخرى ، لاضيف لقب « العظيم » الى اسمه . ولكن من نكد الدنيا ، ان اسماعيل كان في حاجته الى المال ، للقيام بكل هذه الاعمال العظيمة ، يعامل طائفة من المرابين الدوليين ، لا يعرفون الاّ الجشع مبدأ ومعاداً . وهذه مصر طعمة سائغة لهم ، لان اميرها ، يريد ان يخرجها من الظلمة الى النور فليجوروا عليه ، ما مكّنهم من ذلك سلطان المال ، وليقرضوهُ القروض بفوائد عالية وليعطوه نحو ٢٤مليون جنيه لقاء سندات قدرها اربعون مليوناً او تزيد ، وليستنجدوا بوزارات الخارجية يكبلون عنق مصر بالاغلال السياسية ، ضمانة لاموالهم ، ثم ليعمد رجالهم الى التاريخ يشوهونهُ ، عمداً او جهلاً ، فيرموا هذا الامير العظيم بكل نقيصة تسويغاً لفعلتهم . ألم يقل مركيز زتلند في ترجمته للورد كرومر ان توفيق باشا « اثبت انه بالمقابلة مع سلفهِ الفضوح كان حاكماً لا بأس بهِ فلم يكن سفاكاً ولا مبذراً ولا لصًّا » . وقال لورد ملنر: « ان اسماعيل جمع في نفسه كلَّ صفةٍ طيّبة وسيئة ، لابدَّ منها لجعلهِ مبذّراً امثل . كان مترفاً ، شهوانيًّا ، طمّاحاً ، يحب مظاهر الابهة ، ومجرّداً من المبدإ ، وكان في الوقت نفسه يفيض بالمشروعات العظيمة لتحسين حالة بلاده المادية » . وقال لورد كرومر : « ويقال بوجهٍ عام ان اسماعيل باشا اضاف ما متوسطهُ ٧ ملايين جنيه الى دين مصر كلَّ سنة مدة ثلاث عشرة سنة . وقد بذّر كل المال المقترض الاّ ١٦ مليون جنيه انفقت على ترعة السويس »

فهل يرضى التاريخ بهذا الحكم على اسماعيل ؟

هل كان حقيقة مبذّراً للمال لنقص في ملكة تدبير المال ؟ هل كان حقيقة طالب لذة يقدمها على شؤون الدولة ؟ أليس لهُ من الخصال ومن الآثار ما يردّ عنهُ هذه الوصمات امام محكمة التاريخ العليا ؟

***

أسئلة تنزل في الصميم من تاريخ مصر الحديث . وقد اثبت القاضي كرابيتس في كتابهِ الذي ظهر حديثاً باللغة الانكليزية بعنوان « اسماعيل : الخديو المفترى عليه » ان هذه الاقوال تنطوي على جور وافتراءٍ وتشويه للحقيقة . قال في مقدمة كتابه: « ان هذه الصفحات تحدٍّ لتلفيقٍ تاريخي . انها ترفض ان تنضمَّ الى الجوقة التي يقودها ملنر وكلفن وكرومر ، فلا تتفق معهم على ان اسماعيل باشا كان مبذراً او طالب لذة او لصًّا ... لقد انقضت خمسون سنة منذ نفي اسماعيل المفترى عليهِ . فقد آن الاوان للبحث عن حقيقة ولايتهِ في الوثائق المعاصرة التي لا يطعن في صحتها . ولو كان هذا الكتاب كتابي بالمعنى الضيق ، لكان يثبت رأيي فقط ازاء آراء جيش من المؤرخين الكبار ... ولكن الادلة التي اوردها تحدٍّ لاقوال مؤلفين

ذوي مكانة عالية . انني ارفض ان اقبل اقوالهم واستنتاجاتهم . وانني اقدّم مستندات من الوثائق المعاصرة لردّ ما جاؤا بهِ عن نية حسنة، ولكن من دون ان يتغلغلوا في صميم الموضوع »

والمطلع على كتاب القاضي كرابيتس يلمس في كل صفحة من صفحاتهِ انهُ تغلغل الى صميم الموضوع . فانهُ استخلص التهم الواردة في كتاب ملنر وزتلند وكرومر واضرابهم . ولكنهُ لم يغفل ما يناقض اقوالهم في كتب ادوِن ده ليون الذي كان قنصلاً جنرالاً للولايات المتحدة الاميركية في ذلك العهد وظلّ مقيماً في مصر بعد اعتزالهِ لعملهِ الرسمي . وما كوان، وقد كان صحافيًّا بريطانيًّا وغيرهما . بل انهُ لم يكتف بالكتب المطبوعة والمنشورة ، فعمد باذن خاص من حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، حصل عليهِ بواسطة وزير مصر المفوض في وشنطن، الى سجلات وزارة الخارجية الاميركية للحصول على صور الرسائل التي تلقتها الوزارة في ذلك العهد من قناصلها في مصر . يضاف الى ذلك ان جلالة الملك، اصدر امره الكريم، بان تباح لهُ سجلات مكتبة عابدين الملكية لاستخراج الحقائق من الرسائل المحفوظة فيها

***

وقد خرج القاضي كرابيتس من كل ذلك بصورة منسجمة متسقة النواحي للخديو اسماعيل

كان اسماعيل في الثالثة والثلاثين من عمره لما دعي الى تقلُّد المنصب السامي في هذه البلاد . ورجل في الثالثة والثلاثين ، ليس فتًى يتقلب مع كل ريح . ثم انهُ كان زارعاً بصيراً بشؤون الارض والفلاحين . والزارع محافظ في الغالب . وما اشتهر بهِ من العناية باملاكه وتحسينها ورعاية فلاّحيهِ ، وجَّههُ عند ارتقاء الاريكة الى شؤون البلاد . فقد وصفهُ ده ليون القنصل الاميركي بانه كان نشيطاً في عملهِ الى اقصى حدود النشاط . قال : لما كان من مقتضيات الحكم المطلق ان يطلع الرئيس على كل التفصيلات الدقيقة ، فكان محتوماً (على اسماعيل) ان ينهض باكراً في الصباح، ويقبل على العمل الذي يحبهُ — وهو تسيير اداة الدولة — ويظلّ الى ساعات متأخرة من الليل ... » اما ماكوان الصحافي البريطاني فيؤيد قول القنصل الاميركي . فانهُ يلخص خلق الخديو من هذه الناحية بقوله « الدولة هي الخديو » ثم يعمد الى التفصيلات فيقول بعد الاشارة الى اجتماعات الوزراء . — « فمن المفاوضة في معاهدة او قرض الى الموافقة على عقد لشراء فحم او آلات ، انه يعرف كل تفصيل من تفصيلات الادارة ولا شيء يفوتهُ من الاعمال المصلحية الاّ ما كان عادياً يسير من تلقاء نفسه ... وبكلمة من الاسكندرية الى وادي حلفا . . . لا يكتفي سموّه بالجلوس على الاريكة بل يحكم كذلك »

بل ان القنصل الاميركي قال في تقرير سرّي بعث بهِ الى وزارة الخارجية الاميركية : — ارتقى اسماعيل باشا الاريكة في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ، فاظهر في قيامهِ باعمالهِ فهماً نادراً للرجال والاعمال ، وقدرة ادارية قلما عرفت في امراء الشرق . ومن ساعة ارتقائهِ الاريكة ، وقف

نفسهُ، ونشاطه الذي لا يفتر، على تقدم مصر الداخلي » وتاريخ هذا الكتاب ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٣ اي عشر سنوات بعد تقلُّد اسماعيل لمنصبهِ العالي

فهل يعقل ان يكون هذا الرجل، رجلين، الرجل الذي يقول عنه ملنر وزملاؤه، انهُ كان طالب لذة، مبذراً، يحب الابهة. والرجل الذي يقول عنهُ ده ليون وماكون انهُ كان يبذل نشاطه الذي لا يفتر في سبيل تقدم مصر، وتدبير شؤونها، نحو ١٤ ساعة كل يوم و ٣٠٠ يوم كل سنة ؟

يتهم اسماعيل، بانه زاد دين مصر، نحو ٩٠ مليون جنيه، وان هذا المال — الاَّ ١٦ مليون جنيه منها انفقت على قنال السويس— بذر تبذيراً

هذه هي المشكلة التي يعرض لها القاضي كرابيتس بكل تفصيل، ويخرج منها بان ولاية اسماعيل؛ لها ميزانيتان اما الاولى فمالية. واما الثانية فأدبية

وقد اثبت اولاً تضارب الاقوال في مقدار الدين الذي اضافهُ اسماعيل الى دين مصر. وفضح في ناحية من النواحي افعال المرابين الدوليين الذين كانوا يعقدون له قرضاً بمبلغ معيَّن، وبفائدة عالية، وكيف حتم على الوالي اصدار السندات اللازمة؛ ثم هم لم يدفعوا لهُ، الاَّ جزءا من مبلغ القرض» ففي الصفحة ٢٩٤ من كتاب القاضي كرابيتس بين ان الخديوي اسماعيل اقترض من الماليين بين ١٨٧٠ — ١٨٧٩ مبلغ ٢٣٫٨٠٢٫٠٠٠ جنيه اضطر ان يصدر بها سندات بقيمة ٤٠٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه. ويتهم اسماعيل بانهُ لاسرافهِ اضطرَّ ان يبيع اسهمهُ في شركة ترعة السويس. ولكن ينسى من يتهمهُ بذلك انهُ احتفظ، عن فهمٍ، بحصة مصر في ارباح الشركة وهي ١٥ في المائة، وقد بلغت قيمة هذه الحصة سنة ١٩٣٢ ما يزيد على مليون جنيه وان هذه الحصة بيعت بعد تنازلهِ وخروجهِ من البلاد. ثم ينسى كذلك ان اسماعيل استردَّ ما كان قد منح للشركة من اراضي مصر (نحو ٦٠ الف هكتار) يقدَّر ثمنها باضعاف ذلك المبلغ (١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه) الذي اضطر الى دفعهِ تعويضاً نزولاً على تحكيم نبوليون الثالث

اما الميزانية الادبية فيجب ان نذكر فيما يتعلق بالترعة انهُ الغى السخرة في حفرها، وكان معتمد الشركة عليها بما دسَّ في عقد الامتياز الذي منح لدلسبس. ومنع الشركة من احتلال منطقة من ارض مصر باختيار واليها السابق. ثم انهُ فتح السودان لا حبًّا بالغزو والفتح، ورسائله الى بايكر وغوردن تشهد بذلك، بل رغبة في محاربة تجارة الرقيق، واستكشاف مجاهل القارة السوداء، وتوسيع آفاق العلم. وغنم لمصر لقباً مميزاً لواليها، واستقلالاً تامًّا لها لولا الجزية للباب العالي. ولو انهُ اراد ان يغنم ذلك بحرب لانفق في الحرب اضعاف ما انفق في السلم، اذا صرفنا النظر عن دماء الرجال التي حقنها. وكل هذه اعمال لا نستطيع ان نقدرها بالمال فلا يمكن ان تظهر في موازنة مالية

اما نقد القاضي كرابيتس لتقرير كايف ، وبيان ما فيهِ من الاضطراب ، واقامة الدليل على ان اللجنة التي وضعتهُ لم تفهم حالة البلاد فهماً صحيحاً حينئذٍ فمن ادل فصول الكتاب على ما عاناهُ المؤلف من مشاق البحث

والخلاصة ان كرابيتس لا ينكر ان اسماعيل انفق مالاً ، ولكنهُ ينكر بشدَّة انهُ بذَّره تبذيراً بل يقيم الدليل على ان اسماعيل لشدَّة فطنته كان يرى ابعد مما يرى معاصروهُ

ولكن الامر الذي لا ريب فيهِ، ان اسماعيل باشا انفق مالاً اقترضهُ من المرابين الدوليين وانهُ انفقهُ على ما اثبت المؤلف في سبيل اصلاح البلاد وترقيتها واستقلالها عن الدولة العثمانية. ولكن هذه القروض كانت سبيلاً سلكهُ الطامعون الى تكبيل مصر بالاغلال السياسية التي تحمل اثقالها الآن ف.

صناجة الرياشي

الجزء الاول : اناشيد الارواح، بقلم قبلان الرياشي ،كتب مقدمته الاستاذ امين نخله — ٨٥ صحيفة من القطع الكبير — طبع بمطبعة الكشاف ببيروت على برسوم رمزية من ريشة مصطفى فروخ

نعم بين دالية أبي العلاء ورباعيات الزهاوي ومواكب جبران وصنَّاجة الرياشي — كما يقول الاستاذ أمين نخله — نسبٌ وعِرقٌ متين ، وان كل ذلك غراس عجيب طلع في المعرَّة وأورق في نيسابور فكأنما نبت في دهليز أبي العلاء ومال على بساط الخيَّام بالظل والزهر ... ولكن ما أحسَّهُ ابو العلاء في الحياة ، وما لمسهُ الخيَّام منها ،وما عرفه جبران والزهاوي ،وما شربهُ فوزي المعلوف ، ولمحهُ الرياشي إن هو الاَّ احساسٌ ذاتيٌّ يطغى على النفس فيذيقها المرارة ويجرّعها السمَّ ويكويها بالنار فتضطر الى تبريد نارها بأنفاسها فتهتف من الاعماق تلك الصيحات الانسانية الموجعة ، ولكل صيحة حنجرتها ، ولكل حنجرة اوتارها ، فتصدر الانغام مختلفة وان كانت اللوعة التي تثيرها متشابهة الفصول

على انَّ هناك تشابهاً عظيماً تلمسهُ اول وهلة عند اطلاعك على صنَّاجة الرياشي بينها وبين ملحمة المرحوم فوزي المعلوف « على بساط الريح » . . .نعم هناك تشابهٌ عظيم في كثير من الآراء والافكار والغاية حدا بالشاعر الرياشي الى ان يتمشى في حدود التشابه الى اقصاها حتى بلغ طريقة نظام الطبع والرسوم الرامزة الى فكرة القصيدة

وقبلان الرياشي ،وان كنت لم اقرأ له قبل «الصناجة» شيئاً، ألمحهُ من خلال اناشيده التي يضربها على صناجته شاعراً انسانيًّا يحاول الوصول الى أبعد آفاق الحياة ، بل يريد ان يتجاوز هذه الآفاق الى ما وراءها الاَّ أن اشياء تحول بينه وبين ذلك،واظن انه لو توفر على استكمالها حتى تتوافر لديه لفاز بما يؤمل ، فهو قليل الاهتمام بالصياغة والوزن الشعري ، يحاول الاحتذاء ، وجدير به ان يهتم بوزنه وصياغته وان يترك شاعريتهُ في أفق ليس فيهِ مرايا تعكس على شعره

وجوه آخرين ، ولا يلبس شاعريته اثواباً لشاعريات آخرين

فمن سقطاته في الوزن — وفي الصناجة من ذلك كثير — قوله :

وبعد قليل أتى كاهنٌ يضيء الشموعَ ويذكي البخورا

ويتلو الصلاة على نعشهِ وهو جاثٍ يناجي الإله الغفورا

وقوله : وما كان في لحمه شبعٌ ولا كان قتل الضعيف اضطرارا

وقوله : نظرت ربّات الجمال اليهِ يتغنى بمجدها ويجيدُ

وكان يصحُّ ان تكون كلمة «جثوّاً» بدل «وهو جاثٍ» وكلمة «مشبع» بدلاً من « شبع » و « ربّةُ » عوضاً عن « ربّات » ليستقيم له الوزن ، ولعلّ هذه وما يشابهها أخطاء مطبعية يتداركها الشاعر في طبعة ثانية

ولاحظتُ في الصنّاجة في قصيدة « رمز الأُمومة » تفككاً بين المطلع والقصيدة وان لا رابطة بينهما وكان يجب ان يربط الشاعر بينهما كما فعل في غير هذا الموضع ،ولاحظت تفككاً في خيال الشاعر يجمل الصورة غير متفقة الالوان ، متباعدة الظلال ، جامعة لمرائٍ متنافرة مثل قوله في هذه القصيدة ايضاً :

فما (ابتسمت) أمُّهُ للولاد وألوت عليهِ تهزُّ السريرا

وتوسعهُ قُبَلاً حُلوةً تسيل حناناً وحبّاً طهورا

وتنهلهُ فوق عذب الحليب من (البسمات) شراباً نميرا

فكيف لا تبتسم الأُم وهي تبتسم ! ؟ وقوله في قصيدة « الشاعر والمرأة » :

آدمٌ جاءَ من تراب ولكن جئتِ من لحمٍ أو دمٍ مسفوك

ثم قوله بعد ذلك في نفس القصيدة :

انتِ من طينة الملائك كُوّنتِ ولله كنت عرشاً أثيلا

فانه رغم اختلال الوزن في البيت الاول فان في هذين البيتين تنافراً وإلاّ فكيف لا تكون المرأة مخلوقة من التراب كآدم في البيت الاول وهي مخلوقة في البيت الثاني من طينة الملائكة وكان أجدر بهِ ان يقول : «انت من عنصر الملائك كوّنتِ» أما الشطرة الثانية فان معناها غير لائق !

على اني اعجب في الرياشي بروحه واعجب بخياله ، واعجب اكثر من ذلك برغبته في التحرّر ولكنني ادعوه قبل ان يتوغل في آفاق الحرية الى ان يتزوّد كثيراً حتى لا تدعوه قلةُ الزاد الى السقوط من عرشهِ ! ولعله في الجزء الثاني من صناجته لا يدعونا الى مطاوعة الاستاذ امين نخله في الاكتفاء بما في الصناجة بهذا العطش الميمون حتى اذا طرح ابريق الخيّام دون ريّ عاد الينا بما في الينابيع من عذوبة وبما في اعماقها من اسرار

حسن كامل الصيرفي

الاسلام والقبائل في مستعمرة نيجاريا

L'Islam et les Tribus dans la Colonie du Niger
Editions Geuthner, Paris.

ان الفضل في الاطلاع على جغرافية نيجاريا راجع الى روّاد الافرنج الذين رحلوا اليها منذ بداية القرن التاسع عشر ، لأن ما صنفته العرب عنها بات مجهولاً او كاد

وقد دخل الاسلام تلك البلاد عن طريق السودان على يد الشريف محمد عبد الكريم المادلي او على ايدي تابعيه ومريديه ، وعن طريق المغرب مباشرة بواسطة تجار طرابلس . وبعد ذلك تغلغلت السنوسية الى تلك البقعة في نهاية القرن التاسع عشر

على ان الاسلام لا يعتنقه جميع اهل نيجاريا . ففيهم طائفة كبيرة تدين بالفتيشية . ومنها من يخالط المسلمين ويصاهرهم ومنها من ينقبض عنهم ويقاطعهم . والمسلمون يبلغ عددهم ٠٠٠ ٧١٨ والفتيشيون ٠٠٠ ٢١٢ . واشد المسلمين تحمساً هم الطوارق الملثمون ، ولكن تقواهم اقرب الى التظاهر . ومما يحسن ان ينقل هنا ان الانكليز المحتلين تلك البقعة لا يحاربون الاسلام بل يعززونهُ . ويقال ان كبار الانكليز يشتركون مع المسلمين في بعض عباداتهم ، ومن ذلك ان المندوب السامي في (سوكوتو) يصاحب امام المسلمين الى مقام هنالك يدعى مقام عثمان فوديه حيث تقام الصلاة

والمسيو مارتي Marty صاحب هذا الكتاب يذكر ذلك كله ثم يحدد بلاد النيجاريا ويبحث في كل من اقسامها مع سرد خصائصها وذكر اعيانها وعرض مظاهرها الدينية بين جوامع ومقامات ومدارس ومكاتب

ترجمة حديثة للقرآن

Le Coran. Editions Geuthner, Paris

قام بهذه الترجمة اثنان ممن يُعهد اليهم في الترجمة الرسمية في بلاد المغرب . وقد تصفحت هذه الترجمة فوجدتها غير وافية على نحو غيرها من التراجم الافرنجية وانها ليعوز جانباً منها الطلاوة والامانة في النقل والدقة والبراعة في التعبير

وعلى هذا فلا اظن القرآن ينقله الى اللغات الاعجمية واحد او اثنان . وانما لا يقوى على النهوض بترجمته الاّ فريق من اللغويين والفقهاء والشعراء والكتّاب فلغوي يعنى بالالفاظ والتراكيب ويظهر معناها الصحيح بين حقيقي ومجازي ، وفقيه يؤول اللفظ ويشرح التركيب مستنداً في ذلك الى التفاسير القويمة ، وشاعر يفطن الى ما ينتشر في آيات القرآن من صور جلابة وتشابيه خلابة ،وكاتب يحكم العربية ويحذق اللغة المنقول اليها فيفرغ الآيات في قالب

رائع واسلوب سليم . على انه لا يشك احد انه مهما صنع اولئك القوم فلن يصلوا الى شيء من اعجاز القرآن . ولكنهم يستطيعون ان ينقلوه الى اللغات الاعجمية في شكل مقبول لا اعوجاج فيه من حيث المعنى ولا اختلال من حيث المبنى

ومما لا يخفى على أحد ان مسئلة ترجمة القرآن وقد اثارت ضجة في مصر لبضعة شهور مضت . فقال بعضهم بها وطعن غيرهم فيها فاشتد « النقاش » بين فضيلة الشيخ التفتازاني والاستاذ فريد وجدي . وليس هنا مجال هذا البحث ب . ف .

سيرة حياتي

كتاب الفهُ الاديب توفيق ضعون صاحب مجلة الدليل في سانبولو البرازيل . يتضمن هذا الكتاب اهم ما جرى لمؤلفه من الحوادث في سورية ومصر والسودان وسواها من البلدان في قالب روائي فكاهي ، نشرهُ مؤلفه عند بلوغه الخمسين من العمر (لانه ولد سنة ١٨٨٢ في سورية) قرأت هذا الكتاب على اثر مطالعتي اربعة كتب من نوعه . الاول مذكرات جمال باشا . والثاني مذكرات هندنبرغ . والثالث مذكرات لودندورف. والرابع مذكرات مستر اسكويث . طبعاً ان وقع الكتاب في النفس يتوقف على امرين اولهما خطر حوادثه وثانياً حسن تأليفه . واذا كان هنالك سبب ثالث فهو علاقته بالمؤلف . امتاز كتاب ضعون هذا بالعامل الثالث ، مع ان الثاني لا بأس بهِ . عرفت هذا المؤلف في سانبولو وأؤكد انه لين العريكة ، حسن الطوية ، متواضع ، مخلص . لذلك كانت مطالعتي كتابه مقرونة بشيء من التآخي . فكأنه الى جانبي يحدثني

اما عدا ذلك فالكتاب رشيق العبارة ، وينطوي على قصص ونوادر شائقة ، مقرونة بنكات مستحبّة في بعض الاحيان. وهو عندي خير من رواية مختلقة بعيدة عن الابداع، او من ترجمة رجل عاش في غير عصرنا ومصرنا . وقد تكون مطالعة هذا الكتاب لذيذة بنوع خاص للذين عاشروا توفيق ضعون اكثر مني لانهُ اتى فيه على ذكر حوادث تتعلق بهم ، او انهم عرفوها من قبل . وعلى كل حال فهذا الكتاب يضع امام القارىء

اولاً : صورة شاب عاش في اواخر القرن التاسع عشر واوائل هذا القرن في البلاد العربية والمهجر

ثانيا : صورة للحالة الروحية في سورية ومصر والسودان

ثالثاً : يكشف عن الاخلاق واحوال الهيئة الاجتماعية في ميدان واسع النطاق

رابعاً : يعلن للملاء نفس اديب جميلة فهو سفر نفيس جدير بالمطالعة . ومطبوع طبعاً حسناً في نحو ٤٠٠ صفحة ، متين الغلاف ، حسن الترتيب . فأثني على حضرة المؤلف وأحييه تحية الاخاء

مصر حنا خباز

مكتبة الكتب

١ — أنتم الشعراء

تأليف أمين الريحاني — مكتبة الكشاف ومطبعتها — بيروت سنة ١٩٣٣

يقول الشاعر المجيد بشارة الخوري

الهوى والشبابُ والأملُ المنشود توحي فتبعث الشعرَ حيّا
والهوى والشبابُ والأملُ المنشودُ ضاعت جميعها من يديّا
يشربُ الكأسَ ذو الحجا ويبقّي لِغدٍ في قرارة الكأس شيّا
لم يكنْ لي غدٌ فأفرغتُ كأسي ثم حطّمتُها على شفتيّا
أيها الخافقُ المعذَّبُ يا قلـ ـبي نزحتَ الدموعَ من مقلتيّا
أَحَتمٌ عليَّ إرسال دمعي كلما لاح بارقٌ في محيّا
يا حبيبي لأجل عينيك ما ألـ ـقى وما أوّل الوشاة عليّا
أأنا العاشق الوحيدُ لتُلقى تبعاتُ الهوى على كتفيّا

فتكون هذه الابيات الرقيقة سبباً في إثارة الريحانيّ على الشعراء المعاصرين الذين يحبسون شعرهم على البكاء والنحيب والحسرة والالم وإظهار الضعف عن تحمل الهوى . ويكثر الجدلُ بين الادباء عن هذا الشعر الباكي الضعيف ويتقسمون الرأي بين راض ومستنكر . ويسخر الريحانيّ في كتابه هذا من الشعر الذي يحبسهُ أهله على الضعف والتخنث والبكاء والتقليد ويهيب بالشعراء الى القوة والفتوة والرجولة والتجديد

ونحن من قبلنا لا نحبُّ ان نجادل فيما لا يلذُّ الجدل فيه الاَّ العناد والكبرياء والتعصب للرأي او للهوى ولا نبالي ان يقول الناس أصبنا او أخطأنا الاَّ ان يكون ميزان الصواب والخطأ العدل والحق والاخلاص والقسط الذي لا يرجح بالناقص ولا يشيل بالوافي

الشعراء المخلصون الذين لايطلبون بشعرهم شهرةً ولا صيتاً ولا دعوى مستطيلة هم ناسٌ من البشر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم الاَّ انهم من الامم بمنزلة مقياس الحرارة (الترمومتر) الذى يؤثر فيه تقلّب الجوّ تأثيراً ظاهراً بيّناً يثبته العدد فلا موضع فيه للجدل الاَّ ان يكون هذا المقياس في ذاته مختلاً فاسداً لايدلّ على حقيقة الجوّ الذي يحيط به وبذلك يصبح مقياساً لنفسه لا للناس . والحقيقة لا تعرَف الاَّ من المقياس الصحيح الذي لا خللَ فيه فالناس جميعاً مفتقرون اليه ، اما المقياس الفاسد فلا يرجى له خير الاَّ ان يحطّم او يهمل وما بأحدٍ اليه حاجة . وهذا مثل الشعراء في كل أمة من الامم

ونحن من قبلنا أيضاً لا نستنكر على شاعر ان يرقّ ثم يرقّ حتى يضعف ويبكي ويئن ويتوجع من آلام الهوى وتباريح الصبابة ما كان ذلك الشاعر صادقاً لايتباكى محبّاً لا يتصنع

لان الشاعر — كما سلف — رجل من الناس وبما كان له من اسباب الهوى ما يدنقه ويبكيه ، وهذه الاسباب تكون له جوًّا يحيط بهِ خاصةً فهو يتأثر بهِ على كل حال . الاَّ ان هذا الشاعر نفسه رجل من أمة يكون لها من اسباب القوة والسيطرة والعزة ما يكون لها او رجل من امة بها من الضعف والفتور والذلّ والاستعباد والمهانة ما تضرب به الضربات الشداد بمعاول الظلم والجبرية والعدوان والشر الاستعماري القبيح الدنيء . فلا بدَّ للشاعر من هذه الامة ان يكون لسان الامة الذي يتكلم بأوجاعها وآلامها وان يكون من جهة اخرى قائداً من القوّاد يقف في قلب الجموع المسكينة خطيباً تنفذ كلماته الى القلوب لتحركها وتنعشها وترمي فيها بالحياة والشباب والنشاط وبذل النفس وغلبة الرأي على الشهوات والاهواء . وان لا يكلَّ ساعةً عن الجهاد والدعوة الى الطريق السويّ . فاذا خلا الشاعر قليلاً قليلاً الى نفسه وغلبتهُ الحياة الفردية والاهواء الخاصة فليقل ما شاء بمقدار لا يُبلين منهُ ولا يضعف من قوى جنده، وليستجمَّ لنفسه بما يجعله أقدر على الجهاد حين يعود الى الميدان بين المتألمين والمحطَّمين والباكين مما يصيبهم من وحوش الاستعمار والعدوان التي توسعهم نهشاً وتمزيقاً وافتراساً

هذه سبيل الشعر لأمتنا العربية في أمرنا هذا من أيامنا هذه . أما ان يأخذ احدنا شعر الشاعر العربي فلا يجد فيه الاَّ الضعف والتخنث والبكاء والذلة والضراعة والحبَّ المريض . فذلك امر لا تقبله النفوس العزيزة التي تستشعر العزة والنخوة والمروءة ، واما الفتنة التي فتن بها الناس من قولهم الشعر العالميّ والشعر الانساني والشعر ... اللهم اني اعوذ بك من سوء المنقلب .... فهذا كلام لا معنى لهُ في حياة الامم الضعيفة المظلومة التي لا قائد لها ولا امام .. أيغنّي العصفور الضعيف للثعبان الفاتك ليسحره بألحانه وتغريده . ألا ان لحم العصفور أشهى الى الثعبان من لحنهِ ... وما في ذلك الاَّ سوء التقدير وأفن الرأي وقلة الحيلة

ان الارض العربية تطالب شعراءها وأدباءها وكتَّابها وأصحاب الرأي فيها ان يتخذوا ألفاظهم في شعرهم وأدبهم وكتابتهم وآرائهم من النار والحديد والبراكين والدويّ والرُّعود المجلجلة فعسى ان يهبَّ هؤلاء النوّام من سباتهم وان يرجعوا عن غفلتهم ويعلموا ان الامر جدٌّ وان الحياة صراعٌ وان عدة هذا الصراع هو الايمان والصبر وبذل النفس وكبح الشهوات واطراح الجبن والخور فاذا خرجنا من الميدان بالنصر والظفر فلنطلب نفع الانسانية في كل بقعة من بقاع الارض ولنمحُ آثار المظالم والعدوان والفجور والبغي ولنغن ما وسعتنا الالحان وما واتتنا الأغاريد

وسنعود قريباً الى التوسع في هذا القول حين نبتدئ — بعون الله — كلامنا عن الشعر الوطني في هذه المجلة يوم نجد من شعرائنا اقبالاً على ارسال شعرهم الوطني كما أمَّلنا ذلك في النشرة التي كتبناها في اول مقتطف نوفمبر الماضي والله المستعان

٢ — تاريخ مصر الاسلامية

تأليف الياس الايوبي — مطبعة الرغائب بالقاهرة سنة ١٣٥٢

ظهر هذا الكتاب ، وكثر الحديث عنهُ فثارت الهمة لقراءته والنظر فيه وبخاصة لانهُ تاريخ أغمض العصور التي مرّت بمصر وذلك لضياع اكثر الكتب المؤلفة في هذا التاريخ الواقع ما بين سنة ٢٠ من الهجرة الى سنة ٢٥٤ منها . واخالف ما درجتُ عليه في الكتابة وأقول إني اخذت هذا الكتاب فقرأتهُ أحسبهُ شيئاً فاذا هو ليس بشيء ، واقول هذه الكلمة وانا احمل اوزارها واثقالها وما يشاء القارىء من اوزار واثقال . فانا — يا سيدي القارىء — لم أقرأ هذا الكتاب الاَّ وقد عقدت النية على انهُ تاريخ مصر من ايام الفتح العربيّ إلى اول عهد الدولة الطولونية لا على انهُ اوهام في تاريخ مصر من الفتح العربي الى عهد الدولة الطولونية

وقبل ان نبدأ ينبغي لنا ان نعرف ما هو التاريخ وكيف يكتب؟

يعتمد مؤرخ كل امة من الامم على دعامتين ، فإحدى الدعامتين هي دعامة الرواية والاخرى دعامة العقل . والرواية هي مادة التاريخ الذي لا يمكن ان يسمى تاريخاً الاَّ باجتماعها وحشدها. والعقل هو المصنع الذي تنقى فيهِ هذه المادة وتجلى ويؤلّف بين المتقارب ويفرّق بين المتباين من اجزائها وعناصرها. فاذا اعتمد المؤرخ على الرواية دون العقل كان ما يكتبهُ تاريخاً الاَّ انهُ تاريخ اعرج فاذا اعتمد على العقل دون الرواية لم يكن ما يكتبهُ تاريخاً فان اعتمد على العقل وقليل من الرواية كان ما يكتبهُ نوعاً من الكلام لا يسمى تاريخاً بل يسمى اوهاماً في التاريخ ولا يخرج التاريخ الصحيح الاَّ من مصانع العقل القويّ المشرق الذي اجتمعت له المادة التاريخية المحشودة المصححة . ولا اظن ان مؤرخاً مهما بلغ من قوة العقل واشراقه يستطيع ان يولّد لك من بعض الروايات المنسوبة الى التاريخ تاريخ امة قد ملأت الارض علماً وحضارة وادباً. هذا ... فاذا اعتمد المؤرخ على الهوى دون العقل مع قلة الرواية وضعفها وتهالكها فكيف يكون تاريخه ؟ اذا أردت ان تعرف ذلك فاقرأ هذا الكتاب المسمى « تاريخ مصر الاسلامية » وتأويل ذلك

تقول مقدّمة الكتاب « وكنت كما اتصور تمكّني (كذا) من انجاز فكرتي، واتخيل عملي امامي تامًّا: فاراني اصبحت اول مؤرخ مصري جديد بهذا الاسم (كذا) وأراني قد انشأت، حقيقة ، في احضان قومي روحاً مصريةً بحتة — لا عربية ولا تركية ، لا مسيحية ولا يهودية ولا اسلامية — روحاً مصرية متشبعة بالمبادىء القومية العصرية ، ومثقفة بالثقافة المصرية الحقة التي تستمد منها الحضارة المصرية قوتها وجمالها . . . . . . الخ » وذكر كلاماً رمى فيهِ مؤرخي العرب جميعاً بالجهل والتدليس وغلبة الهوى حين كتبوا سيرة الرسول صلى الله عليهِ وسلم فقال « ... جملوا فيما كتبوه من سير للنبيّ الغلبة للخرافة على الحقيقة ، مقلدين في

ذلك المتقدمين من مؤلفي المصريين والكلدانيين واليونان والرومان (تأمل) الذين رووا حوادث تأسيس الدولة المصرية والكلدانية واليونانية والرومانية . . . . . الخ » واستعتب القارىء في نقل هذه الجملة ايضاً : « واني اذا كنت — على عكس ذلك — رأيت نفسي مضطراً احياناً الى حرق ما قد قدستُهُ زمناً طويلاً فيما مضى ، فذلك لأني انما رميت بكتابي الى احياء الشعور القومي المصري البحت في نفوس قرائي ، كما قدمت . . . لا لأني ارغب في جرح شعور احد او احساس احد او فكر احد » ولعله قد سقط من الاصل « بل اريد ان أجرح شعور التاريخ واحساس التاريخ وفكر التاريخ »

لا يدري القارىء ماذا اقاسي من الالم المبرح في نقد هذا الكتاب وما ذلك الا لأني اذا كتبت عنهُ فانما اكتب عن مؤلفه وقد اصبح من مادة التاريخ فآنف ان انازل من لا يدافع عن نفسه ، ولأن الكتاب في اكثره افسادٌ للتاريخ وتدليس عليه ولأن مواضع النقد فيه كثيرة لا ادري ماذا آخذ منها او أدع في هذه الورقات . ولكني أستعين الله على ما ألاقي من الالم في الكتابة عن هذا المؤلَّف

لم يعتمد كاتبنا في تاريخه الا على كتب قلائل ليست شيئاً في المكتبة العربية الزاخرة بكتب التاريخ ، وهي كتاب المقريزي وابن اياس وابن وصيف شاه وتاريخ التمدن الاسلامي لزيدان والكندي وابن الشحنة في روضة المناظر وقليل غير ذلك من كتب الادب . هذا فلو نظرت الى كتاب (فتح العرب لمصر) الذي ألفه الاعجمي الدكتور (بتلر) الانكليزي لوجدته يعتمد في تاريخ حقبة من الزمن لا تبلغ خمس سنوات على عشرين ومائة كتاب في التاريخ ثلثها من كتب التاريخ العربي والبقية من كتب الامم في التاريخ . فلو ان (بتلر) اراد ان يكتب تاريخ مصر الاسلامية من سنة ٢٠ لسنة ٢٥٤ لاعتمد على اضعاف هذا من كتب التاريخ . وذلك لان التاريخ لا يكون شيئاً الا اذا حشدت له المادة العظيمة ونظرت فيها بالنظر الصائب ورب كلمة شاردة في ذيل ورقة تفتح للمؤرخ باباً من الفهم يجعل الغامض واضحاً بيناً والمتباعد قريباً دانياً وتصل بين حافتي هوة في التاريخ فتمكن المؤرخ من اجتيازها

هذا امر المادة التاريخية نفسها ، فلننظر ماذا فعل المؤرخ بالمادة التاريخية القليلة التي اجتمعت له حين الف كتابه . عمد المؤلف الى هذه المادة القليلة التي لا يستقيم بها تاريخ فقرأها وأراد ان يتفهمها فأخطأ في كثير وأصاب في قليل وقرَّ ذلك في نفسه ، ثم اول بعض هذه المادة تأويلاً لا يقبله عقل ولا تاريخ حتى يستطيع — كما يقول — « ان ينشىء حقيقة في احضان قومه روحاً مصرية بحتة — لا عربية ولا تركية ، لا يهودية ولا مسيحية ولا اسلامية — » فلذلك سخر بالعرب وساق الرواية العربية القوية في اسلوب من السخر بالعرب والازراء عليهم والغض منهم ومن افذاذ رجال الفتح . وأنت اذا قرأت الفصل الذي

سماه «كيف فتح العرب مصر» لم تجد فيه حقيقة غير هذه. فهو حين يذكر «عبادة بن الصامت» رضي الله عنه حين بعثه عمرو على رأس النفر العشرة الى المقوقس فتقدم عبادة وكان عبادة اسود ضخماً من الرجال فهابه المقوقس لسواده «وقال: نحّوا عني هذا الاسود وقدموا غيره يكلمني، فقالوا جميعاً: انهُ افضلنا رأياً وعلماً وخيرنا والمقدَّم علينا وانما نرجع جميعاً الى قوله ورأيه» فيقول المؤلف تعقيباً على هذا

«ولسنا ندري من اين اتى عبادة بن الصامت العلم !!» ... ونحن والله لا ندري ايضاً، ولا نعلم الا ممن شهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له من الرأي ما أجلّه به قومه، بلى وانه رجلٌ من افذاذ الامة التي اشرقت بنورها على الارض فأخرجت الناس من الظلمات الى النور. ولسنا ندري لماذا ينكر صاحبنا العلم على عبادة، وهم لم يقولوا انه اعلم العالمين بل قالوا هو افضلنا رأياً وعلماً وهم ادرى بأنفسهم منا بها وقد كانوا رحمهم الله يقدّرون انفسهم قدرها فيقدّم الرجل الشريف العبدَ الحبشي العالِمَ على نفسه واهله، وما كان فيهم من يتصدر ليقول عن نفسه انهُ اكبر عالِم او اتقى رجل او افضل مخلوق او اوّل مؤرخ لمصر جدير بهذا الاسم. وقد اطلت ليعلم القارىء كيف يطمس الهوى على قلوب الناس اذا حرفوا العلم او التاريخ بأعنته، والهوى كما قال ابن عباس رضي الله عنه — إله معبود... والكتاب كله على هذا النمط من الازراء على العرب والعبث بالاسلام، وما يريد المؤلف من كل هذا الا انشاء روح مصرية لا عربية ولا اسلامية كما يزعم لا تقرير الحقيقة التي يجب على كل انسان ان يطلبها أنّى كانت، والمؤلف نفسه في حيرة من العرب والاسلام وتغلغل كلٍ منهما في مصر فتراه احياناً يدور حول نفسه يريغ المخرج ولا مخرج حتى انهُ لم يستطع ان يمحو ذكر الاسلام — والعرب — فيما سمّى بهِ كتابه فألقى عليه هذا العنوان الذي يتبرأ مما تحته ... «تاريخ مصر الاسلامية»

ولنفتح في الكتاب اي صفحة يكون من نصيبها التمزيق، بسم الله فهذه ص ١٨٠ يقول المؤلف في رأسها ان ابن عباس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم «انما ضلّ من كان قبلكم بالكتابة» وأطال الكلام بعد ذلك على هذا الحديث الذي لاشك في وضعه حتى قال «وأهملوا — يعني العرب — تدوين كل ما جادت به قرائحهم في بابي الشعر والخطابة ذاتها لتفضيلهم الحفظ على التدوين، بل اهملوا تدوين العلم الانساني البحت عينه — على قلته — (كذا وتأمل) وقضوا قرنهم الاول وبعض الثاني (كذا قال المؤلف) وهم يتناقلونه بالتلقين، ولم يدوّنوا القرآن نفسه بعد ان احجم ابو بكر مدة عن ذلك قائلاً «كيف افعل امراً لم يفعله رسول الله، ولم يعهد الينا فيه عهداً» ... الا لما خافوا ان تذهب الحروب والفتوحات بحفّاظه فيضيع» انتهى

ولا ندري هل يعلم المؤلف أن من الصحابة ناساً يسمونه «كتّاب الوحي» كانوا يكتبون

رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ما يوحى من القرآن وان الرسول صلى الله عليهِ وسلم قد فادى أسرى يوم بدر فكان شرط من لامال عنده ان يعلّم عشرة من الغلمان الكتابة قالوا فيومئذٍ تعلّم الكتابة زيد بن ثابت كاتب الوحي وأن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قد أمر عبدالله بن سعيد بن العاص ان يعلّم الناس الكتابة بالمدينة وانهُ قد ورد في الاستيعاب لابن عبد البر والاصابة لابن حجر ان الشفّاء ام سليمان بن أبي حثمة — علت حفصة (وهي زوجه) الكتابة وقال لها « علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة » . وان القرآن كان مكتوباً جميعهُ على عهد الرسول صلى الله عليهِ وسلم كتبه له كتّاب الوحي وكتبه لنفسه من كان يحسن يكتب من الصحابة وهم كثير ، وان قول أبي بكر «أفعل امراً لم يفعله رسول الله» انما هو عن جمعه بين دفتين أعني في كتاب او مجلة كما يقولون وليس ذلك لان ابا بكر كان يعاف الكتابة والتدوين . وتأويل ذلك ان أبا بكر لما عافت نفسه ما قال بهِ من جمع القرآن دعا زيد بن ثابت وقال له (نرويه من حديث زيد بن ثابت) « ان هذا — يعني عمر — قد دعاني الى امر فأبيت عليهِ وأنت كاتب الوحي فان تكن معهُ اتبعتكما وان توافقني لا افعل فاقتصّ ابو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرتُ من ذلك وقلت يفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليهِ وسلم الى ان قال عمر كلمة : وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ فذهبنا ننظر فقلنا لا شيء والله ما علينا في ذلك شيء قال زيد فأمر ابو بكر فكتبته من قطع الآدم وكسر الاكتاف والعُسُب » وهل يعلم المؤلف ان هناك مصاحف تنسب الى اصحابها من الصحابة كابن مسعود ومصحف أبيّ ومصحف زيد كانت مكتوبة على عهد الرسول صلى الله عليهِ وسلم وعرضها اصحابها المرضة الاخيرة عليهِ قبل ان يلحق بالرفيق الأعلى صلى الله عليهِ وسلم

هذه صفحة لم نعمد اليها من الكتاب وها أنت تراها كيف مزّقت شرّ ممزّق وذريت قطعها في الهواء . وهذه المجلة لا تتسع في هذا الباب لأكثر من هذا ولكن ليكن القارىء على يقين من ان كلّ ورقةٍ من هذا الكتاب هي هذه الورقة الممزّقة . ولله الامر من قبل ومن بعد

٣ — آلاء الرحمن في تفسير القرآن

تأليف محمد جواد البلاغي النجفي — الجزء الاول — مطبعة العرفان بصيدا — سنة ١٣٥٢

كان القرآن الكريم ولا يزال مادة البلاغة العربية بل مادة العقل العربي بل مادة الحياة الانسانية العالية بآدابها وعلمها وفقهها واحكامها ودولتها . نزل بهِ الوحي على محمد صلى الله عليهِ وسلم لجمع الامة بعد شقاتها وافتراقها على كلمة واحدةٍ في قلب رجل واحدٍ أينما سارت سجدت لها العروش ودانت لها الملوك وخضعت لها الرقاب واستقبلتها القلوب وانقادت لها النفوس وعلا بها الحقّ واضاء بها الوجود حتى اذا تمت لها المعجزة في اخضاع العالم للحق

واخراجه من ظلمات الباطل الى نهار الحق بدأت طبيعة الحياة تفعل فعلها وتفتن فتنتها فدبّت الشبهات أعناقها ، وظهر الخلاف بين الناس الاّ ان الشبهات كانت لاول عهدها خفية قليلة وكان الخلاف ضعيفاً متقارباً ثم بدأ الجدل والاجاج والعناد الانساني البغيض حتى استحكمت الشبهة وكثر الخلاف واتسع ما بين أصحاب الرأيين وتعصب هذا وتنطع ذاك فخرجت الفرق المتعادية والنحل المتخاصمة وبقي كل فريق يطلب النصر لرأيه لا للحق وبذلك اضطرب الحبل وفسدت الامور واستحلّ القتال وضعفت الدولة . وهذه صورة يتكرر ظهورها في التاريخ . ومن يتتبع أحوال الفرق وأسباب نشأتها واطوار نموّها وضعفها يعلم ان الخلاف او الشبهة التي يبنى عليها المذهب ليست الاّ كبوة عقلٍ واحدٍ في رجل من أصحاب الرأي انساق في آثارها وجرّ وراءه أمة من الناس تعصبوا له ، فانكبُّوا معهُ . ولا بأس ان ننقل هنا كلمة للجاحظ عن ابراهيم النظام رأس الفرقة المشهورة من المعتزلة بالنظامية قال في كتابه الحيوان ج ٢ ص ٨٣ «وكان ابراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب . . . . . وانما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسهِ على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الاصل الذي قاس عليه ، كان امره على الخلاص ، ولكنه كان يظنُّ الظنّ ثم يقيس عليه ، وينسى انه بدء أمره كان ظنّاً ، فاذا اتقن ذاك وايقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ، ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت » اه . وهذه صفة رؤوس الفرق جميعاً في كل ملةٍ وفي كل علم

قدمنا هذه الكلمة بين يدي هذا الكتاب ، لان مؤلفه من علماء الامامية ، وهم فرقة من اهل الاسلام افترقت فيما بعد الى فرق كثيرة واصل عقيدتها امامة عليّ رضي الله عنهُ وبقاؤها في عقبه ، والكلام على الامامية وتفصيل مذهبها ذيول طويلة ليس هذا موضع ذكرها والذي يهمنا ان هذه الفرقة كان لها في الاسلام شأن عظيم وألّف في الردّ على مذاهب اهلها من الكتب شيء كثير . وقد قرأنا عنها مذاهب عجيبة لا يقرها عقل . ولم يصل الى ايدينا من كتبهم الاّ ما قرأناه من النصوص المنقولة عن كتبهم في الردّ عليهم فسرّني كثيراً ان ارى بين يديّ تفسيراً لعالم من علماء هذه الفرقة ، وان اجد هذا التفسير قد قرّب مسافة الخلف بين ما قرأتهُ عن الامامية وبين عقيدتي وعقيدة اكثر المسلمين . وهنا لا نجد بدّاً من الاشارة الى ان اهل الفرق والمذاهب لا يزالون في غفلةٍ عن الحياة . فهم يتقسمون امرهم بينهم والعدوّ من ورائهم وامامهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم يعد العدّة ويتوثب للفريسة الغافلة ولا مخرج للعرب بعد اليوم الاّ ان يرجعوا الى حكم الله اذ يقول « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون . . . . . واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا انّ الله مع الصابرين» . ولا بدّ ايضاً من ان

يرجعوا الى كتابهم وسنة رسولهم مخلصين لايؤولون ولا يحرفون الكلم من بعد مواضعه وان يتركوا وراءهم ظهريًّا اقوال رؤوس الفرق وأئمتها فانهم أصل البلاء ومادة الشر ، ولا حياة لأمة على الامر الذي لا يحوي الخلاف فيه الا الفرقة والخصومة والشنآن والعداوة المتوارثة ونسأل الله ان يجعل آخر امر المسلمين والناس جميعاً كأوله ألفةً وارتباطاً وصفاءً وعملاً خالصاً لله لا للشهوات والاهواء

محمود محمد شاكر

ابن خلدون

سيرتهُ وتراثهُ الفكري

نشرنا في مقالات هذا الجزء الجانب الاكبر من فصل ممتع في « ابن خلدون والنقد الحديث » عن كتاب الاستاذ محمد عبد الله عنان . وقد ضاق هذا الجزء عن بحث جدير بما عاناه المؤلف من مشاق البحث في تأليف هذا السفر النفيس

كتب جديدة في التربية

انظمة التعليم

وضع الاستاذ احمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية واستاذ التربية بها
الجزء الاول — ١٦٠ صحيفة بالقطع الكبير — مطبعة بيت القدس

دراسة نظم التعليم في البلاد الناهضة كاوربا واميركا ليس الغرض منها اثبات نجاحها ، فنظم التعليم كالحياة نفسها سائرة متغيرة ، واذا نجح نظام تعليمي في بلد فليس معناه امكان نجاحه في بلد آخر وهذا ما يؤكده المؤلف في مقدمة كتابه ، فتراه يحذر المدرس العربي بقوله «فاحذر وانت تنقل هذه (الغرسات) الى بلادك واذكر ان ماء الاردن غير ماء التيمس ومناخ برلين غير مناخ فلسطين»

ومباحث الكتاب يمكن تقسيمها الى فصلين (اولاً) نظم التعليم في المانيا وفرنسا وتركيا (ثانياً) نظم التعليم الثانوي في اوربا واميركا . ونحن لا ندري الحكمة في هذا التقسيم ، إذ كان اقرب الى تنظيم العمل ان يخصص الاستاذ الخالدي هذا الجزء من كتابه لدراسة نظم التعليم المختلفة فبدلاً من مقارنة نظم التعليم الثانوي كان عليه ان يتم دراسة نظم التعليم في انكلترا وسويسرا والدنمارك واميركا ويعرج على الشرق ويدرس مصر وغيرها . وعندئذ تتيسر المقابلة بين هذه النظم

وعند دراسة نظام التعليم الالماني اهمل الاستاذ دراسة نظام رياض الاطفال Kindergarten وبيوت صغار الاطفال وهي ما تتميز به التربية الالمانية وقد يستطاع اقتباسه مباشرة في الشرق بلا قيد ولا شرط ، كما كان يجدر بالمؤلف ان يربط دراسة النمسا بالمانيا ويبسط لنا طرفاً عن

نظم تعليم ذوي العاهات والشواذ ، والتعليم العسكري الالماني في هذه المدارس ولو ان الاستاذ وضح كتابه بشيء من الصور التي تمثل الحياة الاجتماعية لكان اكثر تأكيداً لكلامه . كما اننا نأخذ على الاستاذ المؤلف تعريب كثير من المصطلحات اللاتينية كما هي كاستخدام لفظ (اكاديمي البيداغوجيا) بدلاً من «معهد التربية» مع سهولة هذه وتأديتها للغرض

ومع ذلك فالكتاب قد ملأ فراغاً في التأليف العربي ، وجدير بكل مشتغل بشؤون التعليم ان يدرسه بامعان لا ان يقتنيه فقط

محاضرات ومقالات في التربية والتعليم

كتابان مستقلان — ٧٤ ، ١٠٤ صحيفة بالقطع المتوسط — مطبعة الكشاف بيروت

يشتمل الكتاب الاول (محاضرات في التربية والتعليم) على ثلاثة بحوث ، في تدريس اللغة ، وقواعد اللغة ، وتنظيم المدرسة ذات المعلم الواحد . كما يشتمل الكتاب الثاني (مقالات في التربية والتعليم) على بحوث خاصة بتدريس اللغة العربية واخرى مترجمة او مقتبسة

وعناية الاستاذ بارودي احد مفتشي المعارف في لبنان بطرق تدريس اللغة العربية امر مشكور ، لان النقل والاقتباس عن الغرب يقصر عند هذا الحد ، فان كنا نأخذ عن الغرب الطرق العامة في التدريس ، فان طرق تدريس المواد ولا سيما اللغة لا بدَّ وان نعتمد في اختيارها او ابتكارها على انفسنا ، فكل لغة لها مميزاتها وخصائصها . واللغة العربية لا يمكن بحال من الاحوال ان نقارنها باية لغة اوربية . فلو ان الاستاذ قد خصص كتابيه او احدهما على الاقل لدراسة طرق تدريس اللغة العربية بكل فروعها لكان ذلك اكثر فائدة ، ولو انهُ قد اكثر من الأمثلة التي يشاهدها في تفتيشه على المدارس اللبنانية (كالمصاعب التي يلاقيها المعلمون او التلاميذ في دروس اللغة) لكانت بحوثه اقرب نفعاً . والصعوبات التي تعترض تدريس اللغة العربية كثيرة اورد بعضها المؤلف ومثال ذلك «تدريس الهجاء ، تشكيل الحروف ، قواعد اللغة ، التجديد في تدريس الانشاء ، الخط » مما يعرفه المشتغلون بتدريس اللغة العربية

وحبذا لو نهج المشتغلون بالتعليم من مفتشين ونظار ومعلمين نهج الاستاذ واصف بارودي في تدوين ملاحظاتهم وتجاربهم الخاصة بشؤون التعليم ، فانها تكون بذلك المرجع الذي يعتمد عليه المعلمون الناشئون والباحثون في مشاكل التعليم في البلاد العربية   احمد عطية الله

ذكرى الدكتور محمد بن ابي شنب

بقلم الاديب عبد الرحمن الجيالي ويحتوي على نسب صاحب الذكرى ونشأته وعلمه واخلاقه وآثاره ومنشآته — ويطلب من المكتبة الادبية بالجزائر وثمنهُ ١٠ فرنكات

الفلاح الاقتصادي

مجلة زراعية اقتصادية — لمنشئها ثابت ثابت — مطبعة المقطم وتوزع مجاناً

لثابت افندي ثابت ، منشيء هذه المجلة ورئيس تحريرها ، عناية خاصة بالموضوعات الاقتصادية والزراعية تشهد بذلك مقالاته المفيدة في المقطم التي يودعها كل سنة زبدة مشاهداته في بلدان اوربا واحوالها الاقتصادية والعمرانية . وله علاوة على ذلك اهتمام عملي خاص بشؤون مصر الزراعية ، وهو الذي ما برح يخالط الفلاح المصري من عشرين سنة او تزيد ، فدرس احواله ونفذ الى رغائبه وآماله . فرأى ان ينشيء هذه المجلة لتكون مرشداً ومؤازراً للفلاح في هذا البلد «الذي نعيش بخيره ونشارك في سرّائه وضرّائه . والمساهمة في ارشاد خاصته وعامته الى الطرق الحديثة التي تؤول الى تحسين تربته وانماء زراعته وصناعته وزيادة انتاجه بالوسائل التي عمدت اليها شعوب وبلدان اخرى فأصابت بها اوفر قسطٍ من زكاء الربح من الرفاهة والرخاء» . والعجيب في امر هذه المجلة ، ان منشئها قد عمد الى توزيعها من دون لقاء زيادة في نشر الفوائد التي تجنى من مباحثها — وكل بحث ينطوي على فائدة خاصة

وقد جعلت ابوابها خاصة بالزراعة والصناعة، والمال والتجارة ، وفي كل باب منها مباحث غزيرة المادة بليغة الاسلوب جمة الفائدة . ونخالنا لا نكون مبالغين اذا قلنا ان رجال الزراعة والاعمال في القطر يحسنون صنعاً باجتناء فوائدها مطالعة وحفظ اعدادها لتكون لهم مرجعاً ومعاداً

وقد حلي العدد الاول منها بقصيدة للشاعر الكبير خليل مطران نظمها لما « اقتضت حكمة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك أيدهُ الله ان يشتري لحضرة صاحب السموّ الامير فاروق ولي عهدهِ تفتيش المطاعنة بالصعيد من شركة السكر فأصبح سموّه بذلك بعد جلالة والده في طليعة زرّاع القطر» قال الشاعر منها

ليست مشارفة الامير لضيعةٍ	ضَعةً وما الجهد المغلّ بضائع
ان الفلاحة والفلاح تسلسلا	لفظاً ومعنىً من نجارٍ جامع

وقال في وصف جلالة الملك

لحظ الرمال القاحلات فنضّرت	وازينت بمغارسٍ ومزارع
لحظ المدائن والقرى فتجمّلت	وتكملت بمدارسٍ ومصانع
لحظ الثقافة للعقول فأخرجت	ما طاب من ثمر العقول اليانع
لحظ الرياضة للجسوم فهيّأت	نشأً جديد عزائمٍ ونوازع
لحظ العلوم فما ترى من روضةٍ	الاّ ظباء الطير حول مشارع
لحظ الفنون فعاد مؤتنفاً بها	ما كان من فضل قديم بارع



العيون الكهربائية ايضاً

بها العمي يقرأون الكتب مباشرةً

يسوغ لنا لغويًّا ان نطلق على العين الكهربائية لفظ (البصاصة) لانهُ مرادف للعين في معاجم اللغة . ولاسيما ان العامة في القاهرة وغيرها من مدن القطر تسمي البوليس السري « البصَّاص » فنقول ان للبصاصة الكهربائية شأناً عظيماً في ميادين الاعمال ومرافق الحياة عموماً في اوربا واميركا ومن ادلة ذلك ما بيَّناه في المقال الضافي المنشور في مقتطف نوفمبر الماضي . ثم ما حدث عند افتتاح معرض شيكاغو الحالي اذ سخرت البصاصة الكهربائية لالتقاط نور نجم السماك الرامح وتقويته بالكهرباء حتى استطاعوا ان يفتحوا به ابواب ذلك المعرض العالمي، الذي لم يسبق له نظير، بما حواه من مستنبطات علميـة . وما دمنا في معرض منافع البصاصة الكهربائية فلا مندوحة لنا عن اعادة ما نشرناه في جزء مارس سنة ١٩٣٢ من المقتطف في باب الاخبار العلمية : —

السماك الرامح نجم اصفر من القدر الاول في كوكبة العواء وهي من الصور الشمالية . وقد رأى علمـاء الكهربائيـة في الولايات المتحدة تسخير شعاع من نوره لفتح المعرض الاميركي العالمي بمدينة شيكاغو . والمعروف عند علماء الفلك ان السماك الرامح يبعد عنا مسافة تقدر باحدى واربعين سنة نورية .

وقد جرب مرقب مرصد يركز الكامر الذي قطر عدسته اربعون بوصة لرصد ذلك الكوكب فجعلوا في قاعدة المرقب بطارية كهرنورية (بصاصة) حتى اذا مرَّ طيف الكوكب امام عدسة المرقب المنتهي بالبطارية آنفة الذكر التقطت نوره حالاً فيولد فيها تياراً كهربائيًّا يقوَّى ثم ينقل بالاسلاك الارضية الى مدينة شيكاغو حيث يستخدم لفتح باب المعرض واضاءة المصابيح الكهربائية التي فيه

وحديثنا اليوم يدور حول (الفيزاغراف) وهي معجزة جديدة للبصاصة الكهربائية يستفيد بها العميان واليك وصفها

لقد اتيح للعميان لاول مرة في تاريخ الانسان ، قراءة اي كتاب مطبوع ، وذلك بالعيون الكهربائية المثبتة في آلة اخترعت حديثاً تسمى « فيزاغراف » تعوض الاكمه ما حرمتهُ الطبيعة اياه من حاسة الابصار ، فتجعل من الحروف العادية المطبوعة في اي

كتاب حروفاً بارزة ضخمة تسهل قراءتها لمساً بالبنان في هنيهة من الزمان

ومخترع الفيزاغراف هو المستر روبرت نومبرج من ولاية مساشوستس من اعمال الولايات المتحدة الاميركية وقد عرضها حديثاً في مدينة نيويورك . وهي على شاكلة منضدة من مناضد الكتابة التي توضع في مكاتب الاشغال ودوائر الاعمال. فاذا أُدخلت في الآلة كتاباً مطبوعاً وأُدرتها فتحت عينها الكهربائية المستكنة في حامل اسطواني من النحاس الاصفر فاخذت تجول في الصفحة المعروضة من الكتاب المراد قراءته من اليسار الى اليمين حتى تتم تصفحها . وكل ما تراه تلك العين الكهربائية ينسخ في الحال حروفاً بارزة، وذلك على شريط رقيق ملفوف من الاليومنيوم مركب على يمين الآلة

وقد جرب المخترع الفيزاغراف امام الجمهور فجاء بسيدة شابة ضريرة كان قد درَّبها ٣٠ يوماً فقط على استخدام الفيزاغراف والقراءة بها فجعلت تقرأ من فورها امام الحضور الكلمات التي تلمسها بنانها مؤلفة من الحروف البارزة التي تصدر من الفيزاغراف واحداً فواحداً فأعجب بها النظّارة ايما اعجاب

واذا ما فرغ الضرير من قراءة الحروف البارزة مطبوعة على شريط الاليومنيوم، لمساً ببنانه امكنهُ الاحتفاظ بالشريط عينه حتى تمسَّ الحاجة الى قراءته مرة اخرى والاَّ استغنى عنهُ فيطمس معالمه ، وذلك بحصره بين اسطوانتين ، يشبهان عصّارة الملابس المغسولة حيث يضغط فيملس حتى يعود الى اصله فيتسنى استعماله مرة اخرى عند الحاجة

والفيزاغراف مؤلفة من جزئين وهما الناقل والطابع . فالناقل يقرأ الكتابة المطبوعة في الكتاب ثم ينقلها الى الطابع نبضات كهربائية فيقوم الاخير بتدوينها نقطاً وشرطاً على شريط الاليومنيوم

ويتم ذلك الحدث باستخدام ست شعاعات صغيرة مرتبة ترتيباً عمودياً ، على طول الخط المطبوع من ناحية النقل . وكل شعاعة تعتبر أداة حسَّاسة كشَّافة خاصة بقضيب واحد من القضبان الستة المؤلف منها الطابع، والقضيب الاسفل منها يتولى تصفح اذناب الحروف الافرنكية مثل P. و g. فاذا اصابت شعاعة كشَّافة الجزء الاسود من الحرف حركت القضيب الطابع الخاص بهِ فيقوم بطبع النقط والشرط على شريط الاليومنيوم

***

وقد يستطيع الضرير تنظيم وضع الكتاب المزمع قراءته . وكذلك يمكنه نقل الحامل المحتوي على البصاصة الكهربائية من سطر الى آخر — وقد استغرق المخترع في اختراع الفيزاغراف اربع سنين لم يأل فيها جهداً حتى حسَّنها الى الدرجة التي هي عليها الآن وسيجعلها تقرأ المجلات والرسائل التي تكتب بالتيبريتر (الآلة الكاتبة) في القريب العاجل . لانه ذلل العقبة الكأداء التي اعترضته في بدء الامر وهي الوسط الصالح لتدوين الحروف حتى عثر على ضالته في شريط الاليومنيوم

وقد عرض الاستاذ «جون بلاّمي تايلور» المهندس المستشار لدى شركة الكهرباء العامة بأميركا امام اعضاء المجمع العلمي الاميركي الجهاز الذي اخترعه لجعل الصوت منظوراً والضوء مسموعاً. فنصب لهذا الغرض هدفاً زجاجيّاً صغيراً بمثابة مرآة ذات شكل قطع مكافىء وذلك في غرفة الرقص المظلمة في فندق استور بمدينة نيويورك. فثبت ان الضوء المتولد من الجهاز المشار اليه متى مسّ تلك المرآة تولدت منهُ موسيقى. وانهُ اذا اعترض اي شبح الشعاعة المنعكسة عن المرآة، انقطعت الموسيقى. وانهُ اذا بسط امرؤٌ اصابعه تجاه النور تخلل النور الاصابع فتعزف الموسيقى، واذا اطبق اصابعهُ اطباقاً طفيفاً تضاءلت الانغام الموسيقية

***

ويستفاد من هذه التجربة ان الجهاز السابق الذكر يحوّل الصوت الصادر من اسطوانة الفونوغراف نبضات كهربائية فتتحوّل هذه نفسها امواجاً نورية

وبيان ذلك ان في الجهاز المستقبل بصاصة كهربائية تلتقط الضوء فتحوله قوة كهربائية محركة ثم تتحول هذه القوة صوتاً ينتقل من المرآة العاكسة للشعاعة الى الجهاز المستقبل وذلك على امواج الضوء

ويسمي الاستاذ تايلور طريقته العلمية هذه narrowcasting اي الاذاعة المحصورة تمييزاً لها عن الاذاعة الواسعة النطاق المسماة broadcasting

وقد استنبط الدكتور هانس تيرنج الاستاذ في احدى جامعات فيينا بالنمسا جهازاً كثير الشبه بالجهاز آنف الذكر لنقل الصوت بالضوء

بيد ان طريقة العلامة بلاّمي مازالت وليدة في مهد المختبرات العلمية ولما تعلم فوائدها. ومع ذلك يزعم الخبيرون بأنها ستستخدم في نقل الرسائل السرية الى الجهات القريبة في ميادين القتال وذلك بين مراكز طلائع الجيوش وفرقها في الميدان

***

ولما كانت اجهزة الراديو الحساسة جدّاً لا تبين امواج الضوء السريعة التناوب، فاذا استعملت الأشعة التي وراء الاحمر او غيرها من الاشعة التي لا تستطيع العيون البشرية رؤيتها، تمكنت الشعاعة (ذات النور الخفي) من نقل الرسائل دون ان تراها عيون رقباء الاعداء ولا تسمعها آذانهم

واما سبب كون الامواج اللاسلكية تدور حول الكرة الارضية ولا تتبع في سيرها خطّاً مستقيماً فهو بحسب رأي الخبراء وجود طبقة خفية تسمى في عرفهم (السطح اللاسلكي) تحول دون اتخاذ الامواج اللاسلكية مجرى مستقيماً. واما كون اشعة النور تخترق هاتيك الطبقة فيتجلى لنا من حقيقة ان القمر ينعكس نوره على الارض. ويؤخذ مما تقدّم انه اذا تحققت في اي وقت احلام العلماء الذين يعتقدون بامكان التراسل مع سكان الكواكب. كان رسولهم اليها حينئذ امواج النور

عوض جندي

اشعة اكس مكان الراديوم

الراديوم اغلى العناصر المعروفة بل اصبح ان يقال ان اغلى الجواهر ارخص منه بكثير اذا اعتبر الوزن . وقد اكتشف في اواخر القرن الماضي وما زال منذ عهد اكتشافه على ازدياد في استعماله لمعالجة بعض الامراض والسرطان في مقدمتها وذلك لان اشعته اقوى كثيراً من اشعة اكس وانجع في بعض الامراض المذكورة

وقد عرف العلماء منذ زمان طويل انهُ اذا امكن الحصول على اشعة من اشعة اكس تكون «قاسية» وقصيرة الى حد محدود فان فعلها يكون كفعل اشعة الراديوم والظاهر ان هذا ما توصلوا اليهِ الآن في بعض معامل اميركا العلمية التابعة لاحدى الشركات الكهربائية . فقد صنعت انبوبة من اشعة اكس قوتها وامواجها مساوية للاشعة المنطلقة من مقدار هائل من الراديوم

***

وقد قدروا انهُ اذا اريد اعداد جهاز كامل من الراديوم للاستعمال في مستشفى من المستشفيات فان نفقاته لا تقل عن مائة الف جنيه ولكن جهازاً من اشعة اكس لا يكلف اكثر من ٢٠ الف جنيه

وفي العالم الآن ٥٠٠ جرام من الراديوم الصرف وثمن الجرام ١٥ الف جنيه. ومعلوم ان اول من اكتشفهُ مدام كوري « العالمة » الفرنسية ارملة الاستاذ كوري العالم الفرنسي الذي قتل منذ سنين في احد شوارع باريس بصدمة سيارة عمومية . اكتشفتهُ مدام كوري سنة ١٨٩٨ وهو يستخرج من اكسيد الاورانيوم وهذا يوجد في الاكثر في رواسب المعدن المعروف باسم البتشبلند واعظم مناجمه في بوهيميا وهناك مناجم اصغر منها في كندا والبرتوغال ومدغسكر ويكاد يوجد في كل تربة ولكن على قدر صغير وسبب غلائه صعوبة استخراجه

اما انبوبة اشعة اكس المشار اليها فتستعمل الآن للمعالجة في المستشفى التذكاري بمدينة نيويورك وقد عولجت بها جميع الامراض التي تعالج بالراديوم فجاءت بمثل نتائج الراديوم وبلغ عدد الذين عولجوا بها مئات ولكن اعظم امتحان لها هو في معالجة السرطان

ويقال ان الاشعة قوية حتى انها تخترق النحاس الى مدى ثمن بوصة والحديد الى مدى اربع بوصات ثم تصور بها صورة فوتوغرافية

وقد قال احد الخبيرين بالراديوم في انكلترا انه عرف منذ زمان طويل ان بعض اصناف اشعة اكس المعروفة باسم الاشعة «القاسية» تنجع في علاج الامراض مثل الراديوم بنفقة اقل وقد تحل محله في المستقبل

***

وقال احد العلماء المشهورين المشتغلين باشعة اكس في انكلترا انه يولد منها عادة ٤٠٠ الف فولط للاعمال الصناعية التي يراد بها اختراق الفولاذ الصب واجزاء الطائرات لاكتشاف ما قد يوجد فيها من الشقوق الصغيرة

جوائز نوبل العلمية

منحت جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٣ للعالم الاميركي الاستاذ توماس هنت مورغان صاحب مذهب «العوامل الوراثية» Geve Theony في الوراثة (راجع مقالات اسس الوراثة للدكتور شريف عسيران في مقتطف يناير وفبراير سنة ١٩٣٢). ومنحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٢ للعالم الالماني المشهور فرنر هيزنبرج الاستاذ بجامعة ليبزغ، وهو من اساطين علم الطبيعة الحديث القائم على نظرية اينشتين ونظرية الكم Quantum او المقدار وصاحب مبدإ عدم التثبت Principal of Uncertainty . وقسمت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٣ بين الاستاذ ديراك الانكليزي والاستاذ شرويد نغر الالماني، لمباحثهما في نظرية الكم. اما الاول فأستاذ في جامعة كمبردج . واما الثاني فكان استاذاً في جامعة زوريخ ثم في جامعة برلين وهو الآن في كلية مجدلين بجامعة اكسفرد

خسارة معهد باستور

في ٢٩ اكتوبر الماضي توفي الدكتور كالمت معاون مدير معهد باستور وصاحب المباحث المشهورة في السل وكان عمره سبعين سنة . وفي ٣ نوفبر فقد ذلك المعهد مديره الدكتور اميل رو الذي اشتهر بمباحثه البكتيريولوجية، بالاشتراك مع باستور وبهرنغ وهما من اعلام هذا العلم في نشأته. وكان يوم وفاته في الثمانين من العمر

فقيدا الطيران المصري

في الثامن عشر من شهر نوفبر الماضي طار سرب الطيارات المصرية الحربية من مطار «لمبد» بانكلترا «بقيادة القمنانت كولونيل «تايت بك» بعد ما ودعها وزير مصر المفوض في لندن وكثير من كبار الانكليز احسن وداع

وعبر السرب — وهو مؤلف من عشر طيارات — بحر المانش بسلام واجتازوا الحدود الفرنسية فاذا هم يسيرون في ضباب كثيف شطر الطيارات شطرين فضلت ثلاث منها الطريق ولم تستطع اولاها متابعة السير فسقطت بطياريها وعطلت ثم اصلحت واصيب راكباها باصابات خفيفة وسقطت الاخريان فحطمتا ونجا راكبا احداها واحترق راكبا الثالثة وقد كانا مع الأسف مصريين هما المرحومان الملازم الأول فؤاد حجاج قائد الطيارة وشهدي دوس ميكانيكيها

اما الطيارات الباقية فواصلت سيرها حتى وصلت الى مطار «ليبورجيه» سالمة بحمد الله

ونقلت الجثتان الى باريس وصلي على احدهما في مسجد باريس وشيعتا في موكب حافل الى محطة ليون لايصالهما الى مرسيليا ومنها ارسلتا بالباخرة «مريت باشا» الى الاسكندرية فوصلتا يوم الثلثاء ٢٨ نوفبر وشيعتا في اليوم التالي باحتفال عظيم مهيب سار فيه وزير الحربية وجميع وحدات الجيش بملابسهم العسكرية ونقابة المحامين وطلبة الجامعة والمدارس وشتى الطبقات

الجزء الخامس من المجلد الثالث والثمانين

فهرس المجلد الثالث والثمانين

مجلة المجلات

بيان الى قراء المقتطف ومريديه

يرى القارىء في هذا العدد مثالاً للخطة الجديدة التي وضعها قلم تحرير المقتطف لهذه السنة . ونأمل ان نجعل المقتطف رفيقاً لا يستغني عنهُ شرقي مثقف او شرقية مثقفة . وعلاوة على زيادة حجم الصفحة نحو ثلاثة اسطر اضفنا الابواب الآتية :

﴿ مملكة المرأة ﴾ فالعالم العربي تنقصهُ الآن مجلة نسائية تكون للمرأة جليساً أنيساً ومرشداً اميناً ولذلك رأينا ان نخصص جانباً من مقتطف كل شهر لهذه المجلة على ان نتوسع فيها اكثر مما كانت تسمح لنا صفحات باب «شؤون المرأة وتدبير المنزل». في هذا الباب تجد المرأة كل شهر مقالات في الصحة والجمال، في التربية وتنشية الاطفال، سير النساء العاملات، وتقدم الحركة النسوية في العالم، في ترتيب الدار وشؤون المنزل العملية

﴿ سير الزمان ﴾ ثم ان شؤون العالم تسير سراعاً. في الحياة الاقتصادية محاولات لا ندري مدى اثرها في الاجتماع البشري الآن . وفي الحياة السياسية، نظم جديدة ومذاهب جديدة . كالشيوعية والفاشستية وتجربة روزفلت . وفي علاقات الدول والامم بعضها ببعض تحوُّل سريع في ما يتعلق بالسلاح والحرب والديون الدولية والتعاون والنقد والمواصلات. لذلك قررنا ان نفتح في المقتطف باباً ندعوه «سير الزمان» ننشر فيه كل شهر مقالتين او ثلاثاً ، تمكن المطالع من مماشاة التطور الحثيث في شؤون الامم

﴿ حديقة المقتطف ﴾ وللأدب حقٌّ علينا . الادب العربي والادب الغربي. وفي باب « حديقة المقتطف » الجديد يجد القارىء كلَّ شهر قطعة او اكثر من روائع الادب العربي . كما يختارها كبار الأدباء . ومنتخبات مترجمة من الأدب الغربي لتكون بمثابة اللقاح للخيال العربي والبيان العربي

فاذا أضفت هذه الأبواب ، الى ما اشتهر بهِ المقتطف في خلال حياة طويلة حافلة، من عناية بتتبع التقدُّم العلمي والادبي في الشرق والغرب ، عرفت ان المقتطف (في سنة ١٩٣٤) مجلة عربية في روحها واسلوبها، عالمية في اتساع افقها وتعدُّد مناحيها

— فاشترك في المقتطف الجديد —	— المقتطف مجلة لا يستغنى عنها —
— واذكرهُ أمام أصدقائك —	— بيت شرقي يقدر الثقافة حق قدرها —

الى الشعراء

اعلى الشعر وأصدقه ما يتفجّر به الشعور الانساني النبيل ، وأنبل ما يتفجر به الشعور ، ذلك الماء الدافق الذي تتطهر بهِ الاوطان لتخرج الى الحياة نقية ناضرة قوية مشبوبة ، وذلك هو « شعر الوطن »

وقد كان هذا الشعر في العصر الاخير طَهور الحركات الوطنية وغذاءها وحافزها وموجد القوة في عضلاتها التي طال على سكونها الامد ، بيد انّ ما يؤسف له ان اكثر ذلك الشعر الحيّ قد طوي مع تلك الحركات لاسباب كثيرة فصار مضيّعاً بين سائر الشعر ،... وهو الذي غيّر القلوب وبدّل الانفس وبعث في الامم حياة تتنزّى لتثب ، ثم ها هو ملقيّ في زاوية من التاريخ والأدب مع انهُ هو اناشيد الوطن وأغاني الشعب ... وأصدق العواطف التي منحها الشعراء اممهم مهيبين ومنذرين وموقظين ومصلحين . وقد رأينا برأي محرر المقتطف ان ننفث في هذا الشعر روح الحياة لنبعثه ، ثم لنوقظ قلوب الشعراء حتى تمدنا بآيات منه تتلوها الشعوب العربية لتستشعر العزة والكرامة والاباء

وأخيراً رغبت ادارة المقتطف قياماً بما فرض عليها للامم العربية والشعر العربي ان تنتزع الهمة لدراسة هذا الشعر ونقده وتفصيل اغراضه واظهار روائعه للناس ليكون نبراساً في هذه الظلمات التي ارخت سدولها على العالم العربي. ورجاء المقتطف ورجاؤنا ... ان ينتزع شعراؤنا — في مصر والسودان والشام والعراق وجزيرة العرب وبلاد المغرب والمهجر — همتهم في ارسال ما طوي من شعر الوطن والحرية والاستقلال ، وان لا يبخل شاعر بارسال شعره او ديوانه مع ذكر الظرف الذي قيل فيه ، والاشارة الى مواضع هذا الشعر من الديوان ان كان مطبوعاً... واملنا ان لا تكون شعر شاعر او قدرته بما نعته من ان يرسل الينا شعره ، فان الذي حملنا انفسنا على الشمه والاضطلاع به امر عظيم له ما بعده

ان الاوطان العربية المسكينة تنادي شعراءها ليوقظوا فيها روح الحماسة والطموح والحرية والشرف والمجد والاستقلال «فليستجب الشعراء»

نرجو ان تكون المراسلات الخاصة بهذا الموضوع

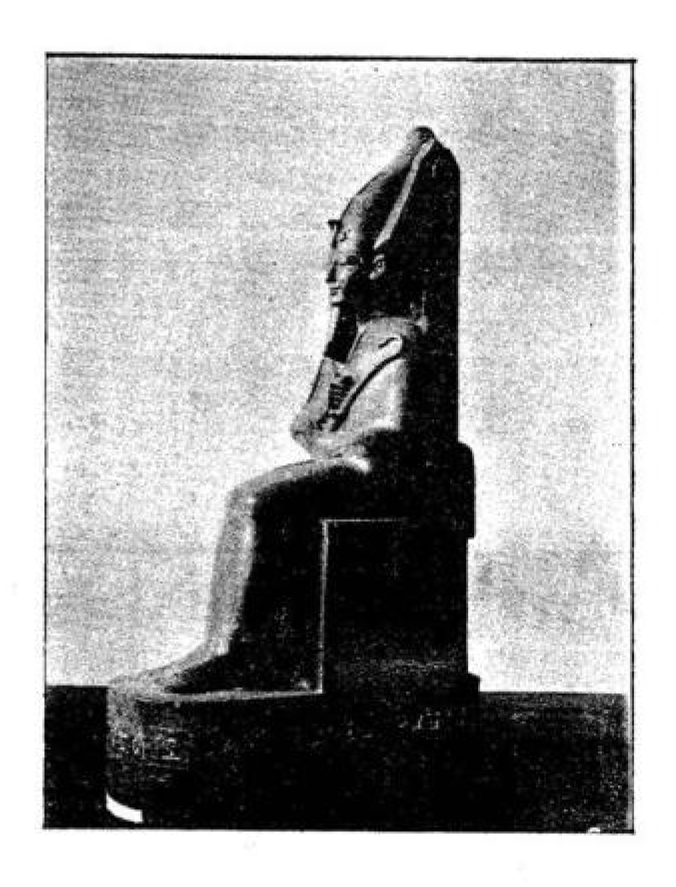
باسم محمود محمد شاكر « ادارة المقتطف بمصر »



عدلي يكن باشا



البقرة المقدسة « حاتحور » من العهد الصاوي
دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال



المعبود ازوريس من العهد الصاوي
دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال

الثور المقدّس أبيس

دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال



داود بركات